تاريخ آداب اللغة العربية

جُرجي زيدان



تاريخ آداب اللغة العربية

تأليف
جُرجي زيدان



تاريخ آداب اللغة العربية

جُرجي زيدان

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: إيهاب سالم

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٠٥٣٤ ٢

صدر هذا الكتاب عام ١٨٩٩.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠١٣.

المحتويات

الجزء الأول

مقدمة المؤلف

(١) تاريخ التأليف في هذا الموضوع

لم يكن تاريخ آداب اللغة معروفًا عند الإفرنج قبل نهضتهم الأخيرة في التمدن الحديث، وما لبثوا حين تنبهوا له أن ألفوا فيه، وأصبحوا وما من لغة من لغاتهم إلا وفيها كتاب أو غير كتاب في تاريخ آدابها … ولما استشرقوا أخذوا في درس اللغة العربية، وكتبوا في تاريخ آدابها غير كتاب سيأتي ذكره …

أمَّا العرب فالمشهور أنهم لم يؤلفوا في تاريخ آداب لسانهم، والحقيقة أنهم أسبق الأمم إلى التأليف في هذا الموضوع مثل سبقهم في غيره من الموضوعات … فإن في تراجم الرجال كثيرًا من هذا التاريخ؛ لأنهم يشفعون الترجمة بما خلفه المترجم من الكتب، ويبينون موضوعاتها، وقد يصفونها، وأوَّل كتاب خصصوه للبحث في المؤلفين والمؤلفات «كتاب الفهرست» لابن النديم (سنة ٣٧٧هـ)، وهو يشتمل على آداب اللغة العربية من أول عهدها إلى ذلك العصر مرتبة حسب الموضوعات، ولم يقتصر ذلك الكتاب على آداب العرب الأصلية، ولكنه تضمن ما أحدثوه من العلوم الإسلامية واللسانية، أو ما نقلوه عن اللغات الأخرى بالتفصيل مع تراجم المؤلفين والمترجمين والشعراء والأدباء … ولولاه لضاع أسماء كثير من الكتب النفيسة، ولأعوزنا تراجم كثيرين من الأدباء والشعراء والعلماء … فهو ذخيرة أدب وعلم، وقد طبع في ليبسك سنة ١٨٧٢، ثم طبع في مصر.

ولم يظهر بعده كتاب يستحق الذكر قبل كتاب «مفتاح السعادة ومصباح السيادة»، ويعرف بموضوعات العلوم لطاشكبرى زاده المتوفى سنة ٩٦٨هـ، رتَّبه حسبَ الموضوعات أيضًا، وذكر فيه ١٥٠ فنًّا، ومنه نسخة خطية في دار الكتب المصرية.

يليه كتاب «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» لملا كاتب جلبي المتوفى سنة ١٠٦٧هـ، وهو معجمٌ مرتبٌ على الأبجدية حسب أسماء الكتب، وبلغ ما حواه منها نحو ١٥٠٠٠ كتاب مع أسماء أصحابها ووفياتهم وتواريخ أهم العلوم، وقد طُبِعَ عِدَّةَ طبعاتٍ، أهمُّها طبعة ليبسك ولندن (سنة ١٨٣٥–١٨٥٨) في سبعة مجلدات، معها ملحق فيه ذيل أحمد منيف زاده، وفهارس مكاتب دمشق وحلب ورودس والمغرب وفهرس السيوطي وابن خليفة الأندلسي وبعض مكاتب الأستانة، وله طبعات أخرى في الأستانة ومصر …

وأخيرًا كتاب «أبجد العلوم» لصديق القنوجي من أهل هذا العصر، وهو كتاب ضخم عول فيه صاحبه على من تقدمه ورتبه على الموضوعات، وقد طبع على الحجر في الهند سنة ١٢٩٦هـ في ثلاثة مجلدات كبيرة.

على أن هذه الكتب وأمثالها تعد من المآخذ الأساسية لدرس آداب اللغة، ولكنها لا يصح أن تسمى تاريخًا لها بالمعنى المراد بالتاريخ اليوم … ولم يتصدَّ أحد للتأليف في تاريخها على النمط الحديث قبل الإفرنج المستشرقين، فهم أول من كتب فيه من أواسط القرن الماضي، لكنهم لم يوفوه حقه إلا في أول هذا القرن، وسنأتي على أسماء مؤلفاتهم فيما يلي.

أما في العربية، فلعلنا أول من فعل ذلك، ونحن أول من سمى هذا العلم بهذا الاسم «تاريخ آداب اللغة العربية» فنشرنا منه فصولًا صدر أولها سنة ١٨٩٤ في عدد الهلال التاسع من السنة الثانية، وآخرها في أواخر السنة الثالثة، وقد انتهينا فيه إلى تاريخ آدابها في عصر الانحطاط، ثم شغلنا عن إتمامه ووعدنا القراء بالعود إلى هذا الموضوع، على أن نفرد له كتابًا خاصًّا مع التوسع والتدقيق … فقضينا بضع عشرة سنة ونحن لا تقع لنا شاردة إلا قيدناها وملاحظة إلا حفظناها وتدبرناها، والقراء يطالبوننا به … فأعلنَّا أخيرًا عزمنا على القيام بوعدنا وها نحن فاعلون.

(٢) الغرض من هذا الكتاب

نعني بتاريخ آداب اللغة العربية تاريخ ما تحويه من العلوم والآداب، وما تقلبت عليه في العصور المختلفة، أو هو تاريخ ثمار عقول أبنائها ونتائج قرائحهم، وهاك أهم أغراضنا منه:

(١) بيان منزلة العرب بين سائر الأمم الراقية من حيث الرقي الاجتماعي والعقلي.

(٢) تاريخ ما تقلبت عليه عقولهم وقرائحهم، وما كان من تأثير الانقلابات السياسية على آدابهم باختلاف الدول والعصور.

(٣) تاريخ كل علم من علومهم على اختلاف أدواره من تكونه ونشوئه إلى نموه ونضجه وتشعبه وانحلاله حسب العصور والأدوار.

(٤) تراجم رجال العلم والأدب مع الإشارة إلى المآخذ التي يمكن الرجوع إليها لمن يريد التوسع في تلك التراجم.

(٥) وصف الكتب التي ظهرت في العربية باعتبار موضوعاتها، وكيف تسلسلت بعضها من بعض، وبيان مميزاتها من حيث حاجة القراء إليها ووجه الاستفادة منها.

(٦) لا نهتم من هذه الكتب إلا بما لا يزال باقيًا منها، ويمكن الحصول عليه ... فإذا كان مطبوعًا ذكرنا محل طبعه وسنته، وإذا كان لم يطبع أشرنا إلى المكاتب التي يوجد فيها — نعني المكاتب الدولية في أوربا أو غيرها — كالمكتبة الملكية في برلين، ومكتبة المتحف البريطاني في لندن، والمكتبة الأهلية في باريس، والمكاتب الدولية في فينا وغوطا وأكسفورد ومنشن وليدن وغيرها، ودار الكتب المصرية في القاهرة، ومكاتب أيا صوفيا وكوبرلي وبايزيد أو غيرها في الأستانة ... حتى إذا أراد أحد الوقوف على شيء من الأصول الخطية، طلبها في فهارس تلك المكاتب.

وبالجملة فإن غرضنا الرئيسي أن يكون لهذا الكتاب فائدة عملية فضلًا عن الفائدة النظرية، بحيث يسهل على طلاب المطالعة معرفة الكتب الموجودة ومحل وجودها وموضوع كل منها وقيمته بالنسبة إلى سواه من نوعه ... فهو أشبه بدائرة معارف تشتمل تاريخ قرائح الأمة العربية وعقولها وتراجم علمائها وأدبائها وشعرائها ومن عاصرهم من كبار الرجال، ووصف المؤلفات العربية على اختلاف موضوعاتها، ومتى تم الكتاب ألحقناه بفهرس أبجدي للأعلام والموضوعات، فيصير معجمًا للعلم والعلماء والأدب والأدباء والشعر والشعراء، ولما جادت به قرائحهم من التصانيف أو المنظومات ووصف كل منها ومحل طبعه أو وجوده ...

(٣) تقسيم الموضوع وأبوابه

ترددنا كثيرًا في الخطة التي نتخذها في تقسيم هذا الكتاب، بين أن نقسمه حسب العلوم أو حسب العصور ... ومعنى قسمته حسب العلوم أن نستوفي الكلام في كل علم على حدة من نشأته إلى الآن، على أن نبدأ بأقدمها فنذكر تاريخ الشعر مثلًا وتراجم الشعراء وما تقلب على الشعر من أول عهده إلى الآن، ونفعل مثل ذلك بالخطابة وغيرها من آداب الجاهلية، وهكذا في العلوم الإسلامية كالفقه والتفسير والنحو واللغة، والتاريخ والجغرافية وغيرها، أما قسمته حسب العصور فيراد بها الكلام من أحوال العلوم معًا في كل عصر على حدة، وهذا الذي اخترناه ... فقسمنا هذا الكتاب إلى تاريخ آداب اللغة العربية قبل الإسلام وتاريخها بعده، وقسمناها في الإسلام إلى عصور حسب الانقلابات السياسية لبيان ما يكون من تأثير تلك الانقلابات فيها ... فبدأنا بعصر صدر الإسلام، فالعصر الأموي، فالعباسي، فالمغولي، فالعثماني، فالعصر الحديث، وقسمنا كلًّا منها إلى أدوار حسب الاقتضاء ... وسيتضمن هذا الكتاب أربعة أجزاء؛ هذا أولها.

(٤) موضوع هذا الجزء

يشتمل هذا الجزء على تاريخ آداب اللغة في العصر الجاهلي، وفي عصر صدر الإسلام، والعصر الأموي ... أي من أول عهدها إلى سنة ١٣٢هـ، فبدأنا بمقدمات تمهيدية في: ما هو المراد بآداب اللغة، ومن هم أسبق الأمم إلى العلم، وما هي مصادر آداب اللغة على الإجمال ... وأتينا بآداب اللغة اليونانية على سبيل المثال ... ثم عمدنا إلى آداب العرب قبل الإسلام، فقسمناها إلى الجاهلية الأولى القديمة، والجاهلية الثانية في القرنين الأخيرين قبل الهجرة، وصدرنا الكلام بفصول في الفرق بين لغة الجاهليتين، ودرجة ارتقاء عقول العرب، والمرأة في الجاهلية، وتقدمنا إلى الآداب الجاهلية فقسمناها إلى:

(١) الآداب العربية، ويدخل فيها اللغة والشعر والخطابة والأمثال والنسب ومجالس الآداب والأخبار ونحوها.

(٢) العلوم الطبيعية، وتحتها الطب والبيطرة والخيل ومهاب الرياح.

(٣) العلوم الرياضية، أردنا بها الفلك والميثولوجيا والتوقيت.

(٤) ما وراء الطبيعة، ويدخل فيها الكهانة والعيافة والقيافة وتعبير الرؤيا والزجر وغير ذلك ...

وأخذنا في الكلام عن كل علم على حدة، فبدأنا باللغة ... فذكرنا تاريخها قبل الإسلام، وما دخلها من الألفاظ الأعجمية، وكيف كانت لما جاء الإسلام، وفروعها ومميزاتها عن سائر اللغات ... ثم الأمثال وأنواعها وما ألف فيها، وانتقلنا إلى الشعر، وهو أهم تلك الآداب ... فأفضنا في درسه، وبحثنا في هل عند العرب شعر تمثيلي، وكيف بدأ العرب ينظمون، وما هو أصل ذلك الشعر عندهم وأسباب نهضة الشعر في الجاهلية، وأهمها استقلال عرب الحجاز من اليمن وحروبهم فيما بينهم، وبينا عدد الشعراء بالنظر إلى القبائل، وبالنظر إلى الأقاليم، وتأثير الإقليم في قرائحهم، ثم عقدنا فصلًا في خصائص الشعر الجاهلي وأحوال شعرائه، وتسهيلًا لدرسهم وتفهمهم، قسمناهم حسب أغراضهم إلى: أصحاب المعلقات، والشعراء الأمراء، والشعراء الفرسان، والشعراء الحكماء، والشعراء العشاق، والصعاليك، واليهود، والنساء الشواعر، والشعراء الهجائين، ووصاف الخيل، والموالي، وسائر الشعراء، وذكرنا مميزات كل طبقة، وأشهر شعرائها، وتراجم وأمثلة من أقوالهم وما صارت إليه دواوينهم، والمآخذ التي يرجع إليها في معرفة أخبارهم ... ثم تقدمنا للكلام على سائر علوم الجاهلية ...

وفي عصر صدر الإسلام، بدأنا بذكر التغيير الذي أحدثه الإسلام في نفوس العرب، وما كان من تأثير ذلك في آدابهم ولا سيما الشعر والخطابة ... ثم كتبنا فصلًا في الشعر والرسول، وآخر في الشعر والخلفاء الراشدين وما حدث من العلوم في هذا العصر مع تاريخ الخط.

وقدمنا الكلام في العصر الأموي بمميزات ذلك العصر، وما اقتضته سياسة بني أمية من التفريق بين القبائل واصطناع الأحزاب وتأثير ذلك في آدابهم ... فبدأنا بالعلوم الشرعية كالقراءة والتفسير والحديث والفقه مع تمهيد في البصرة والكوفة ... ثم العلوم اللسانية: النحو والحركات والإعجام ثم التاريخ والجغرافيا ... ورجعنا إلى ما صارت إليه آداب الجاهلية في ذلك العصر وهي اللغة والشعر والخطابة، وتكلمنا عن أسباب رواج الشعر ومميزاته، وقسمنا هذا العصر إلى ثلاثة أدوار، وقسمنا شعراءه إلى شعراء السياسة وشعراء الغزل والشعراء الخلفاء والسكيرين والشعراء الأدباء، وقدمنا الكلام في فحول ذلك العصر، وقسمنا شعراء السياسة إلى أحزاب؛ أهمها: أنصار بني أمية، وأنصار آل المهلب وأنصار العلويين والخوارج وغيرهم، وأتينا بتراجم الشعراء من كل طبقة وأمثلة من أقوالهم حسب أغراضهم وأدوارهم، مع ذكر دواوينهم ومآخذ أخبارهم، وختمنا الجزء بفصول في قرائح الشعراء وشياطينهم والقراءة فيهم، وأخيرًا تحدثنا في الخطابة والخطباء، والإنشاء، وبه تم العصر الأموي وهو آخر الجزء الأول.

(٥) الكتب التي عوَّلنا عليها

يطول بنا ذكر الكتب التي اطلعنا عليها قبل تأليف هذا الكتاب، وهي على الإجمال كتب التاريخ والأدب واللغة والشعر، وقد ذكرنا جانبًا كبيرًا منها بين مآخذ تاريخ التمدن الإسلامي وتاريخ العرب قبل الإسلام، وأتينا بثبت آخر في خاتمة باب الشعر الجاهلي من هذا الكتاب، فنكتفي هنا بذكر الكتب التي هي من قبيل تاريخ آداب اللغة في العربية وفي الإفرنجية، مما لم يرد ذكره في ذلك الثبت وإليك أهمها:

(٥-١) الكتب العربية

- الفهرست لابن النديم طبع في ليبسك سنة ١٨٧٢.
- مفتاح السعادة لطاشكبري زاده خط في دار الكتب المصرية.
- كشف الظنون ٣ أجزاء لكاتب جلبي طبع في ليبسك سنة ١٨٥٨.
- أبجد العلوم ٣ أجزاء لصديق القلوجي طبع في الهند سنة ١٢٩٦هـ.
- مقدمة ابن خلدون ابن خلدون طبع في بولاق سنة ١٢٨٤هـ.
- طبقات الأدباء للأنباري طبع مصر سنة ١٢٩٤هـ.
- طبقات الأطباء جزآن لابن أبي أصيبعه طبع مصر سنة ١٨٨٢.
- وفيات الأعيان ٣ أجزاء لابن خلكان طبع مصر سنة ١٣١٠هـ.
- فوات الوفيات جزآن لابن شاكر طبع مصر سنة ١٢٨٢هـ.
- المزهر — جزآن لابن شاكر طبع بولاق سنة ١٢٨٢هـ.
- اكتفاء القنوع لادوارد فنديك طبع مصر سنة ١٨٩٧.

(٥-٢) الكتب الفرنسية

- Loliée, Hist. des litératures comparées des origines au XXe siècle. Paris 1900.
- Deltour, Hist. de la littérature grecque. Paris 1896.
- Bouchot, Précis de la littérature ancienne. Paris 1874.

- Prrens, Hist, de la littérature italienne. Paris 1867.
- Baret, Hist. de la littérature espagnole. Paris 1863.
- Jusserand, Hist, abr. de la littérature anglaise. Paris 1896.
- Duval, La littérature syriacque. Paris 1907.
- Seignobos, Hist. de la civilisation, 3 Vol. Paris 1905.
- Sédillot, Hist. gen. des arabes, leur civil, etc. Paris 1877.
- Huart, Littérature arab. Paris 1902.
- Dozy, Recherches sur l'histoire et lit. de l'Espagne 2 Vol. Paris 1881.
- Brunetière, Hist. de la littérature française. Paris 1900.
- Le Bon, La civilisation des arabes. Paris 1884.

(٥-٣) الكتب الإنجليزي

- Browne, A literary hist. of Persia, 2 Vol. London 1900.
- Margoliouth, Mohammed and the rise of Islam. London 1905.
- De Boer, The hist. of philos, in Islam. London 1903.
- Scott. Hist, of Moorish Empire in Europe, 3 Vol. New York 1904.
- Nicholson, A literary hist. of the Arabs. London 1907.
- Frazer, A literary hist, of India. London 1892.

(٥-٤) الكتب الألمانية

- Hammer–Puégstall Litteraturges chichte der Araber bis zum Ende des 12 Johrhundert der Hidschret, 7 Vol. Vienna 1856.
- Wuestenfeld, Geschichtschreiber der Araber und ihre Werke, Gothingen 1882.

- Goldziher, Muhammedanische Studien. Halle 1890.
- Diercks, Die Araber im Mittelalter und ihr Einfluss auf die Cultur Suropa’s. Leipzig 1882.
- Schak, Pœsie und Kunst der Araber in Spanien Stuttgart 1877.
- Brockelmann, Geschichte der Arabischen Lit. 2 Vol. Weimar 1902.

مقدمات تمهيدية

(١) ما هو المراد بآداب اللغة؟

آداب اللغة علومها ... والمراد بتاريخ آداب اللغة تاريخ علومها أو تاريخ ثمار عقول أبنائها ونتائج قرائحهم، فهو تاريخ الأمة من الوجهة الأدبية والعلمية، ولكل أمة تاريخ عام يشمل النظر في كل أحوالها، ويتفرع إلى تاريخ سياسي وآخر اقتصادي وآخر أدبي أو علمي، فالتاريخ السياسي يبحث فيما مر على الأمة من الفتوح والحروب، وما توالى عليها من الدول وأنواع الحكومات ونحو ذلك، والتاريخ الاجتماعي يبين الأدوار التي تقلبت فيها تلك الأمة من حيث عاداتها وأخلاقها، والتاريخ الاقتصادي يتناول النظر في تاريخ مالية تلك الأمة وثروتها وأحوالها الزراعية والصناعية وغيرها، وقس على ذلك سائر ضروب التاريخ، ومنها التاريخ الأدبي أو العلمي، وهو يبحث في تاريخ الأمة من حيث الأدب والعلم ... فيدخل فيه النظر فيما ظهر فيها من الشعراء والأدباء والعلماء والحكماء، وما دونوه من ثمار قرائحهم أو نتاج عقولهم في الكتب، وكيف نشأ كل علم وارتقى وتفرع عملًا بسنة النشوء والارتقاء.

والتاريخ العام إن لم يشمل تاريخ آداب اللغة، كان تاريخ حرب وفتح وسفك وتغلب واستبداد؛ إذ لا يستطاع الوصول إلى فهم حقيقة الأمة أو كنه تمدنها أو سياستها إلا بالاطلاع على تاريخ العلم والأدب فيها ... فهو شارح للتاريخ يعلل الأسباب والحوادث بعللها الحقيقية، فإذا قرأنا تاريخ أمة وعرفنا ما توالى عليها من الأحوال السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية، واستخرجنا أسباب تمدنها ورقيها أو تقهقرها وسقوطها ... مهما علمنا من ذلك كله، فإن الأسباب لا تزال غامضة حتى نعلم تاريخ علوم الأمة، وهو تاريخ عقولها وقرائحها، فتتجلي لنا العوامل الأصلية في أسباب رقيها أو سقوطها، فإن

ما تخلفه من الآثار الأدبية ينمُّ عما كانت عليه من الارتقاء العقلي أو الميل القلبي وسائر أحوالها من الاعتدال أو العفَّة أو التهتك، ومن الهمَّة أو الخمول، إلى غير ذلك من الآداب والأطوار — وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت — على أن تاريخ آداب اللغة لا يكون وافيًا إن لم يوضح بالتاريخ السياسي.

وأهل التمدن الحديث يجعلون البحث في آداب اللغة من أهم الوسائل لتفهم تاريخها السياسي، ويقسمون ذلك التاريخ إلى أطوار على مقتضى ما تقلب عليها من الأحوال الأدبية، ويقيسون ما تبينوه من الأطوار الماضية على ما سيكون … فيتنبئون بمستقبل الأمة متى عرفوا الطور الذي بلغت إليه في أيامهم، وبالقياس على الماضي، يقولون: إن هذه الأمة هي الآن في دور الحماسة الشعرية مثلًا، ولا تلبث أن تنتقل إلى العصر الأدبي، ثم العلمي فالفلسفي … إلخ.

فتاريخ آداب اللغة هو تاريخ عقول أبنائها، وما كان من تأثير ذلك في نفوسهم وفي أخلاقهم، ويدخل فيه تعيين ما بلغت إليه الأمة من الرقي العلمي وامتازت به عن سواها … وبيان تاريخ كل علم وما تقلب عليه من الأحوال ووصف ما خلفوه من الآثار المكتوبة من حيث فوائدها، وكيفية تفرعها أو تخلفها بعضها عن بعض.

(٢) أسبق الأمم إلى العلم

من هو أول من قال شعرًا أو أول من رصد الكواكب، أو اخترع الكتابة أو وضع الأعداد؟ من قسم السنة إلى أشهر، والأشهر إلى أسابيع، وهذه إلى الأيام فالساعات؟ نعرف مثلًا أن أول من رصد الكواكب الكلدانيون، ولكن من هو الرجل الذي بدأ بالرصد؟ إن ذلك ذهب في ثنايا القرون المتباعدة، كما ذهبت أسماء مكتشف الملح ومخترع النار وصانع الإبرة والمغزل ونحوهما من الأدوات القديمة، والسبب في ذهاب تلك الأخبار أن الإنسان عاش أدهارًا قبل اختراع الكتابة ولم يكن يدون أعماله وآثاره، مع أن بعضها عظيم الأهمية بالنظر إلى التاريخ.

وللعلم بهذا الاعتبار تاريخان: أحدهما قبل اختراع الكتابة، والآخر بعدها، ولا دخل لآداب اللغة فيما هو قبل الكتابة؛ لأن معول أصحاب هذا العلم على ما بين أيديهم من مدونات العلوم والآداب … فأي أمة دونت العلم أولًا؟ …

لا خلاف في أن الشرق أسبق إلى تدوين العلم من الغرب … فقد نظم المشارقة الشعر، وعالجوا الأمراض، ووضعوا الشرائع، ورصدوا الكواكب، وعينوا أماكنها وسموها بأسمائها، والغرب في غفلة وظلام دامس … فأي أمم الشرق أسبق إلى العلم؟

يفسر الجواب على ذلك جوابًا قاطعًا؛ لأن أكثر آثار الشرق لا تزال مدفونة تحت الرمال أو الأتربة في مصر والشام وما بين النهرين واليمن والحجاز وآسيا الصغرى وفارس والهند، وفيها آثار الفراعنة والفينيقيين والأشوريين والبابليين والمعينيين والحميريين والحثيين وغيرهم، ولم ينتبه العلماء إلى أهمية هذه الآثار إلا في القرن الماضي، فتألفت الجمعيات وجمعت الأموال للتنقيب واستخراج الأحافير وحل الكتابات، فحلوا الخط الهيروغليفي بمصر، والمسماري فيما بين النهرين، والمسند في اليمن، والنبطي في الحجاز، والفينيقي في فينيقية، وقرأوا ما اكتشفوه من الأحافير، فاطلعوا على كثير من أحوال تلك الأمم، لكن أعمال التنقيب لا تزال في أولها، ولا يزال معظم الآثار مدفونًا وخصوصًا فيما بين النهرين وآسيا الصغرى واليمن وسائر بلاد العرب … أما مصر فإن حظها من التنقيب أكثر من حظ سواها.

(٢-١) وادي النيل

وقد تبين من قراءة الآثار حتى الآن، أن وادي النيل ووادي الفرات أسبق بلاد المشرق إلى الاشتغال بالعلم والأدب، وقد قضيا أدهارًا وهما مزدهران منيران بالعلم، وسائر العالم في ظلام، نبغ العلماء والأطباء والشعراء بمصر في عهد الأسرة الثالثة من الدولة المصرية الأولى قبل بناء أهرام الجيزة أي منذ نحو ستة آلاف سنة، ويفتخر أحد كتاب الدولة في عهد الأسرة السادسة بمصر أنه كان متوليًا إدارة الكتب، فطلب إلى ذويه أن ينقشوا ذلك على قبره، منذ نيف وخمسة آلاف سنة.

ويدل ذلك طبعًا على وجود الكتب من ذلك الحين، وإن لم يصل إلينا شيء منها، ولكننا سمعنا ببعضها، وربما كان أهم ما وصلنا خبره منها «كتاب الموتى» وهو كتاب الطقوس، وفيه شعر وأدب وتاريخ وعقود وعهود وأغان، وبعضها قديم جدًّا، ربما كان قبل عهد الملك مينا أول فراعنة مصر … وهو يشبه كتب الدين عند سائر الأمم القديمة، كالفيدا عند البراهمة، والزاندافستا عند الفرس، والكنغ عند الصينيين، والتلمود عند اليهود، لكنه أقدم منها كلها.

وكان الفراعنة يطلبون العلم ويتفاخرون به، ويقال: إن توسرتسن أحد ملوك هذه الأسرة كان عالمًا بالطب، فوضع فيه كتابًا تداوله الناس إلى القرن الأول للميلاد، ولا ريب

أن الرياضيات في عهد الأسرة الرابعة بناة الأهرام كانت من أرقى العلوم، وقد نبغ الشعراء بمصر من أقدم أزمانها، وكان منهم طائفة كبيرة يجتمعون في مجلس تحتمس الثالث ورمسيس الثاني، كما اجتمع بندار وزملاؤه من شعراء اليونان بعد ألف سنة في مجالس ملوك اليونان، وكما اجتمع شعراء العرب بعد ألف وخمسمائة سنة أخرى في مجالس الرشيد وسيف الدولة والصاحب بن عباد وغيرهم، وكان شعراء الفراعنة ينظمون القصائد في كل نصر أو فتح، يمتدحون ملوكهم ويسمونهم أبناء الشمس وأصحاب التاجين.

(٢-٢) وادي الفرات والسومريون والأكاديون

ويقال نحو ذلك عن أهل بابل وأشور في وادي الفرات ودجلة، فإن العلم عندهم قديم، وقد تعاصر البابليون والمصريون وتبادلوا المعارف، ولكن ظهر من الاكتشافات الأثرية في بابل، أنه كان هناك قبل تمدن البابليين أمتان سبقتا البابليين إلى أسباب المدنية أو العلم: هما الأكاديون والسومريون، جاءوا وادي الفرات من عهد بعيد وعندهم العلم والكتابة وهي الأحرف المسمارية، فاقتبسها البابليون منهم وطبعوا بها أخبارهم على آثارهم، وكان السومريون عند قدومهم الفرات أهل شريعة ودين وصناعة يبنون المدن والقلاع وينسجون الأنسجة، نزل السومريون والأكاديون وادي الفرات نحو القرن الخامس والأربعين قبل الميلاد أي منذ نحو ٦٥٠٠ سنة ومعهم العلم والصناعة، وما زالوا نبراسًا يستضاء بهم إلى أوائل القرن العشرين ق.م، أي نحو ٢٥ قرنًا، وهم يختلفون عن سائر سكان ذلك الوادي لغة وشكلًا، كما يظهر من صورهم المنقوشة على الآثار، وقد اقتبس أهل الشام والعراق عنهم كثيرًا من أسباب العلم واستدل بعض العلماء على آثار ذلك في مزامير داود.

(٢-٣) أقدم مكتبة في العالم

وعاصر هذه الأمةَ في وادي الفرات غيرُ دولة من أصل سامي، وعثر المنقبون في العراق على رقيم (حجر أو لوح) عليه كتابة مسمارية فيها قائمة بأسماء ملوك، حكم بعضهم منذ أكثر من أربعين قرنًا، ويدل ذلك على قدم التمدن في ذلك البلد المبارك، وفي جملة أولئك الملوك ملك اسمه «شرجينا» كان محبًّا للعلم والعلماء راغبًا في العمارة، أنشأ مكتبة في «وركاء» من أعمال العراق سماها مدينة الكتب، وعهد إلى رجال من خاصته في جمع الكتب قديمها وحديثها، وأن يفسروا بعضها بالترجمة أو التعليق، واستعان بالعلماء من

سائر الأقطار لينقلوا علوم الآخرين إلى لسانهم وتدوين علومهم، واشتغل آخرون بالشرح والتعليق ... كما فعل بطليموس فيلاذلفوس بالإسكندرية في القرن الثالث قبل الميلاد، وكسرى أنوشروان في جند يسابور في القرن الخامس للميلاد، وكما فعل الرشيد والمأمون في بغداد في القرنين الثاني والثالث للهجرة، وقد دون شرجينا هذه العلوم بالحرف المسماري نقشًا على الطين وهي الرقم المسمارية المعروفة ...

فكانت مكتبة «وركاء» هذه مملوءة بالكتب اللغوية والفلكية والشرعية والأدبية وغيرها ... ثم نسخت بعد إنشائها بخمسة عشر قرنًا بأمر أمير أشوري، وحفظت في دار خاصة بها كما تحفظ المكاتب اليوم، وعثر المنقبون على بقايا هذه المكتبة بين النهرين ونقلوها إلى المتحف البريطاني في لندن ...

على أن هذه البقايا نتف أكثرها محطم لا ينتفع به، أما أقدم أثر علمي بقي سالمًا كاملًا إلى هذا العهد، فهو شريعة حمورابي ... فإنها دونت في القرن الثامن عشر قبل الميلاد، وقد رجحنا في كتابنا «العرب قبل الإسلام» أن دولة حمورابي عربية، وأنها أقدم دول العرب ... فإذا صح استدلالنا هناك، كان أقدم الآثار العلمية الباقية كاملة عربي الفكر.

ويلي المصريين والبابليين في التمدن القديم الفينيقيون في سوريا والحثيون فيها وفي آسيا الصغرى والفارسيون والهنود والصينيون وغيرهم ...

(٢-٤) اليونان

ظلت الآداب زاهرة في الشرق، وهو وحده مبعث العلم والمعرفة والمدنية، حتى كان تقهقره على مقتضى سنة العمران ... فانتقلت الرياسة منه إلى الغرب، وأسبق الأمم الغربية إلى ذلك اليونان؛ لأنهم أقرب إلى الشرق من سواهم، وعنهم أخذ الرومان وأنشأوا التمدن الروماني، ولكل من هاتين الأمتين كتب خاصة في تاريخ آدابها، والمرجع في ذلك إلى تاريخ آداب اللغة اليونانية فإنها أساس آداب سائر لغات أوربا حتى الحديثة منها إلى اليوم، ولما نشأت الدول الحديثة وتمدنت وظهر فيها العلماء والأدباء واستقلت كل أمة بلغتها وآدابها، صار لكل منها تاريخ خاص لآداب لسانها، وقد ألف في آداب كل لغة منها عدة كتب وهي أشهى ما يقرأ من تواريخ تلك الأمم.

على أن الآداب اليونانية كانت أيضًا أساسًا لآداب أكثر الأمم التي ظهرت بعد اليونان في الشرق ومن جملتهم العرب، فالتمدن الإسلامي مدين لآداب اليونان في أكثر العلوم الطبيعية، وكذلك الفرس في نهضتهم أيام الأكاسرة.

ثم إن الآداب العربية كانت أساسًا لآداب كل أمة ظهرت في أثناء التمدن الإسلامي، أو بعده … حتى في أوربا، فالإفرنج في نهضتهم الأخيرة استعانوا على إنشاء تمدنهم بما خلفه العرب من كتب العلم والفلسفة.

فالعلم نشأ في الشرق وأثمر أولًا في وادي النيل ووادي الفرات، وانتشر منهما في سائر المشرق … ثم انتقل إلى الغرب، فتناوله اليونان واستثمروه وعالجوه حتى صار خاصًّا بهم، ومنهم أخذه الرومان في الغرب والفرس والسريان والعرب في الشرق، وانتقل من الرومان إلى أمم أوربا في الأجيال الوسطى وحفظ في الكنائس والأديار.

أما في الشرق فانتقل علم اليونان أخيرًا إلى المسلمين، فدرسوه وأضافوا إليه ما اقتبسوه من علوم الفرس والهند وتوسعوا في ذلك كله من عند أنفسهم، وقد ملأوا العالم مؤلفاتٍ وعلماءَ وأرصادًا ومدارسَ ومكاتبَ في نحو ألف سنة، فلما نهضت أمم أوربا لإنشاء التمدن الحديث، اقتبسوا كثيرًا من آداب العرب ونقلوا مئات من كتبهم إلى ألسنتهم فكانت أساسًا لتمدنهم الحديث.

(٣) مصادر آداب اللغة بوجه عام

الأمم تتشابه بطبائعها ومداركها من أكثر الوجوه وإن اختلفت في مواطنها، ولذلك جاءت آدابها متشابهة، في موضوعاتها ومصادرها ومناحيها وتأثيرها، مع تباين في كل أمة تمتاز به عن سواها … فآداب اللغة عند كل الأمم قديمًا وحديثًا مؤلفة من الشعر والنثر، والشعر يقسم إلى موضوعات كثيرة من الحماسة والغزل والفخر والرثاء والمدح، والنثر يقسم إلى التاريخ والأدب والفقه والفلسفة والعلم على أنواعه، ولم تخلُ أمة من الشعراء والخطباء والعلماء والفلاسفة على تفاوت في الإجادة واختلاف في الأسلوب … ولو دونت الأمم القديمة آدابها لوجدت التشابه أكثر وضوحًا، ولكنهم لم يفعلوا … فلم يتيسر للمحدثين العثور عند أكثرها على ما يصح جمعه ودرسه، وأقدم الأمم التي دونت تاريخ آدابها وعلومها على نحو ما نحن فاعلون في هذا الكتاب اليونان؛ فقد ألفوا في آداب اللغة اللاتينية، ثم آداب كل لغة من اللغات الأوربية الحية، وجروا على مثل ذلك في تدوين آداب اللغات السامية، فألفوا في آداب لغة الهند والفرس والسريان والعرب.

(٣-١) خصائص الأمم

وإذا طالعت تواريخ آداب هذا اللغات اتضح لك وجه الشبه بينها، لكنك تجد لكل أمة خصائص في مشاعرها ومداركها تمتاز بها عن سواها … فاليونان يظهر من تاريخ آداب لسانهم أنهم يمتازون عن سواهم بسعة التصور وقوة العارضة والجنوح إلى الفلسفة، ويمتاز الرومان في السياسة والنظام والتشريع، ويمتاز العرب بدقة الإحساس في نفوسهم وسرعة الخاطر وسعة الخيال … ويمتاز الهنود باستغراقهم في الخيالات والأوهام، وقس على ذلك.

وقد ترتب على هذا التفاوت في المواهب امتياز كل أمة بآداب أجادت فيها وتناقلتها سائر الأمم عنها، كامتياز اليونان بالفلسفة والشعر القصصي والتمثيل، وعنهم أخذها سائر الأمم، وامتاز الرومان بوضع الشرائع والنظم السياسية والاجتماعية التي هي أساس شرائع أوربا ونظامها الاجتماعي إلى اليوم، وامتاز الهنود بوضع القصص الخرافية على ألسنة الحيوانات مثل كليلة ودمنة وعنهم أخذها سائر الناس، وأما العرب فقد ملئوا الدنيا شعرًا وأدبًا وفقهًا وتاريخًا وهم قدوة الناس في المعاجم العلمية والتاريخية وفلسفة التاريخ.

وهكذا الأمم الأوربية الحديثة … فإن لكل منها مزية في شيء من آداب اللغة، فالفرنسيون أهل فصاحة وطلاقة في الكلام والإنشاء … اشتهروا بذلك من أقدم أزمانهم، قال يوليوس قيصر لما نزل بلادهم قبيل الميلاد: «إن الغاليين أهل ذوق في الحرب والكلام»، وأيد ذلك كثرة من ظهر فيهم من الكتاب والمنشئين والخطباء في الأدب بالقياس إلى سائر أمم أوربا، والألمان يمتازون بأبحاثهم الفلسفية العويصة وتتبع الموضوعات إلى أقصى جزئياتها ونقدها وتوسعهم في قواعد اللغة، أما الإنجليز فيمتازون بجنوحهم إلى الحقيقة المحسوسة في آرائهم فلا يبنون أبحاثهم إلا على الواقع، وترى ذلك ظاهرًا في أعمالهم وأخلاقهم، والإيطاليون معروفون بتبريزهم في الفنون الجميلة، فهم شديدو التأثر بأعمال الطبيعة وظواهرها.

على أن تفوق بعض الأمم في بعض الآداب، لا يمنع تشابه تلك الأمم في سائر الآداب … ويحسن بنا قبل التقدم إلى الكلام عن آداب اللغة العربية، أن نذكر أنموذجًا من آداب اللغات الأخرى، وقد تقدم أن الأمم الشرقية القديمة لم تجمع آدابها، وليس لدينا منها ما يصح اتخاذه مثالًا لنا، والأمم المتمدنة الآن في أوربا وأمريكا ترجع آداب لغاتها إلى اللغة اللاتينية أي لغة الرومان، وهؤلاء اقتبسوا أكثر آدابهم عن اليونان … فآداب اللغة

اليونانية خير مثال لآداب لغات العالم المتمدن؛ لأنها أساسها كلها من حيث الأدب والشعر والفلسفة وسائر العلوم القديمة، وما من أدب أو علم أو فلسفة في اللغة الفرنسية أو الإنجليزية أو الإيطالية أو غيرها إلا وله أصل أو أساس في اللغة اليونانية — وأكثر مؤلفات تلك الأمم ومنظومات شعرائهم في الأجيال الوسطى صور أو ظلال لما كان عند اليونان — وبالمثل أمهن اللاتينية فإن الأنياد في اللغة اللاتينية لفرجيل، إنما هي نسخة من إلياذة هوميروس، وكذلك فردوس ملتُن وجحيم دانتي وتلمساك فنيليون وغيرهم …

فأفضل نموذج لآداب العالم المتمدن آداب اللغة اليونانية وهي أهمها جميعًا، ولها تاريخ طويل يرجع إلى قرون عدة قبل الميلاد وهاك أقسامها:

(٣-٢) آداب اللغة اليونانية

تقسم آداب هذه اللغة إلى سبعة أدوار أو أطوار:

(١) **العصر الخرافي:** ويراد به أقدم أزمان الأمة اليونانية، ولم يبقَ منها إلا القصص الخرافية عن الآلهة ونحوهم، مما يسمى في اصطلاح الإفرنج ميثولوجيا Mythology وهو يبدأ قبل زمن التاريخ وينتهي إلى القرن التاسع قبل الميلاد، وأسماء رجاله وشعرائه خرافية.

(٢) **عصر الأبطال والحروب:** وهو يشمل القرنين التاسع والثامن (سنة ٩٠٠–٧٠٠ق.م) وفيه ظهر أقدم الشعر الوصفي أو القصصي … نعني منظومات هوميروس في الإلياذة والأوديسة، وفيه جرت حروب طيبة وحصار طروادة الذي وصفه هوميروس في إلياذته، ولم يبق من آداب هذا العصر غير الشعر القصصي، ولم يعرف من شعرائه غير هوميروس وهسيود، أما هوميروس فهو أبو الشعراء ورب الشعر القصصي، وقد عاش اسمه بإلياذته التي نقلت إلى سائر لغات العالم وبأوديسته، أما هسيود فإنه جاء بعد هوميروس وخلف شعرًا في نشيدين أحدهما ألف بيت، ذكر فيه أنساب الآلهة والآخر ثمانمائة بيت وصف فيه الطبيعة ويسمى «الأعمال والأيام» ونسبوا إليه نشيدًا ثالثًا مؤلفًا من أربعمائة بيت وصف به درع هركيل.

(٣) **العصر الثالث:** (سنة ٧٠٠–٥٠٠ق.م) … وفيه تحضر اليونان وعمروا المدن ووضعوا الشرائع وأنشأوا المستعمرات حول البحر المتوسط والبحر الأسود واتسعت تجارتهم، وقامت الفتن بينهم في التنازع على السلطان فقام مثل هذا التنازع في آداب

لسانهم ونشأ الشعر التمثيلي واستقر في أثينا، وانتشر الشعر على الإجمال ونبغ الشعراء في بلاد اليونان بأوربا وآسيا وفي الجزائر وصقلية وفي إسبارطة وطيبة، وظهر فيها الشعر الغنائي أو الموسيقي وهو المعبر عن الشعور كالمدح والفخر والحماسة والغزل مثل الشعر العربي، ونبغ في كل قوم أو بلد شاعر أو غير شاعر ينصر قومه أو يعبر عن شعائرهم، وتكاثر الشعراء وأخذوا يتمادحون ويتهاجون ويتفاخرون كما كان العرب في الجاهلية يفعلون، ولذلك سموا هذا العصر عصر الشعر الغنائي Lyric.

فمن شعراء هذا العصر الهجائين أرشيلوك الفاروسي من أهل القرن السابع ق.م، ولم يبقَ من شعره إلا نتف مبعثرة، وسيمونيد الأمارغوسي كان معاصرًا لأرشيلوك، ولم يبق من شعرة إلا ١٨ بيتًا في وصف المرأة، وهيبونكس الأفسسي من أهل أواسط القرن السادس ق.م ... كان ظهوره في آخر التنازع بين الأشراف والعامة ولم يعرف عنه إلا القليل.

ومن شعراء هذا العصر الحماسيين غالينوس الأفسسي وتيرتيه، ومن أصحاب السياسة صولون استخدم الشعر في السياسة وهو مشهور، ومن أهل الهجاء والحكمة ثيوغنيس الميغاري نبغ في سنة ٦٥٠ق.م، وشعره أدبي حكمي ولا يزال باقيًا من منظومه إلى الآن ١٢٠٠ بيت.

وأقدم شعراء الشعر الغنائي عندهمترباندر ويقال: إنه هو الذي اخترع العود ذا السبعة الأوتار واسمه Lyre وإليه ينسب هذا النوع من الشعر؛ لأنهم كانوا يغنونه، وخلفه أريون والسيي وسافو، ونبغ أيضًا شواعر من تلامذته منهن أريني، ومن قبيل الشعر الغنائي الشعر الديني الذي كانوا يغنونه في الصلوات.

وأشهر شعراء اليونان في الشعر الغنائي بندار فهو مثل هوميروس في الشعر القصصي، ولد سنة ٥٢٢ق.م، وله آثار كثيرة لا تزال باقية إلى الآن ومنها قصائد مدح بها الظافرين كما كان يفعل المتنبي في مدح سيف الدولة، والأخطل في مدح عبد الملك.

وفي هذا العصر ظهر فيثاغورس الفيلسوف الرياضي المشهور وزينوفون وبرمنيدس وإمبيدقليس وطاليس وأنا كسميندر وأناكساغورس وغيرهم.

(٤) **العصر الذهبي أو الأثيني:** (سنة ٥٠٠–٣٢٣ق.م)؛ نسبةً إلى أثينا؛ لأن أكثر أدباء هذا العصر نبغوا هناك، وفيه نضج الشعر التمثيلي والفلسفة والخطابة وظهر التاريخ، وأقدم شعراء التمثيل تسبس وفرينيكوس وبراتيناس وأشهرهم إسكيلوس وسفوكلس وبوربيدس للتمثيل المحزن (تراجيدي) وإرستوفانس، وأشهر مؤرخيه

هيكاتس وهيرودوتس أبو التاريخ وتوسيديد، ومن الخطباء بريكليس والسيبياد وكوراكس وتيسياس وبراتاغوراس وأنتيفون وأندوسيد وليكورغوس وهينريد وديناك وديموستين، ومن الفلاسفة سقراط وزينوفون وأفلاطون وأرسطو وثيوفراست.

(٥) **العصر الإسكندري:** (٣٢٣–١٤٦ق.م) وفيه انتقل العلم من أثينا إلى الإسكندرية على عهد البطالسة، فزهت هذه المدينة بالعلماء والفلاسفة، وكانت هي وحدها مسرح العلم ومبعث العلماء، ومن مشاهير هذا العصر في الرياضيات أوقليدس وأرخميدس، وفي التاريخ مانيثون، ومن الجغرافيين ديسيارك وأراتوستن، ومن الشعراء المعلقين كليماك وأبولونيوس الرودسي ويوفوريون، ومن شعراء التمثيل ليكوفرون وتيمون ومنيب وثيوكريت وشهرته ترجع إلى شعره الرعوي، ومن الفلاسفة ليسيوس وإبيكوروس.

(٦) **العصر اليوناني الروماني:** (١٤٦ق.م–٥٥٠ب.م) وكانت بلاد اليونان قد سقطت وذهبت دولتها ودخلت في حوزة الرومان فذهب علمها وخملت قرائح أهلها — والذل يذهب بالقرائح — فضعفت آداب اللغة فيها، ولكن النصرانية أحدثت تغيرًا في تلك الآداب فأدخلت فيها بعض الأساليب الشرقية، ومن مشاهير أدباء هذا العصر في التاريخ والأدب بوليبس ولوسيدونيوس ونيقولاس وسترابو وديونيس وديودورس ويوسيفوس وبلوتارخس وأريان وأبيان وباوسانيس وهدريان، وفي الشعر أرخياس وأبولودورس، ومن الفلاسفة فيلون وأناسيديمس وكريسوستوم وغيرهم …

(٧) **العصر البيزانطي:** (من سنة ٥٥٠–١٤٥٣ب.م) زهت فيه بيزانس (القسطنطينية) وكانت مركز الآداب اليونانية، وما زالت مرجع العالم اليوناني حتى فتحها العثمانيون سنة ١٤٥٣م، فانقضت دولة الروم وتشتت علماؤها في أوربا، وكانوا في جملة من أعانها على نهضتها في إنشاء التمدن الحديث، ومن علماء هذا العصر هيمريوس وتمستس وليبانيوس وجوليان وهليودورس وأشيل تايتوس وتريفيودور وجماعة كبيرة من رجال الكنيسة.

هذه خلاصة تاريخ آداب اللغة اليونانية، فقس عليها تواريخ آداب سائر اللغات الأوربية … فإنها كثيرة الشبه بها من حيث تناسق عصورها بالنظر إلى نشوء العلوم فيها، فإن أقدم آدابها دائمًا الشعر الديني يليه الشعر القصصي والتمثيلي فالغنائي، ثم ينشأ الأدب والخطابة والتاريخ وتضبط اللغة وقواعدها ثم الفلسفة والعلم الطبيعي، ثم تستغرق الأمة في المبالغات والتفاصيل الخارجة عن المعقول ويقل فيها الاستنباط وتبلى جدة الشعر وتضعف القرائح بالذل والتقهقر.

(٣-٣) آداب اللغة العربية وأقسامها

وإذا نظرنا إلى آداب اللغة العربية وأخواتها الساميات، رأيناها تنطبق على ما تقدم بوجه إجمالي، أما عند التفصيل، فإننا نجد بين آداب هذه اللغات وتلك فرقًا كالفرق بين طبائع الأمتين … فالشعر عند الساميين أقدم آدابهم لكن أكثره غنائي، وليس فيه من الشعر القصصي إلا نتف قليلة، أما التمثيل فيظهر لأول وهلة أنه بعيد عن آداب العرب، وسترى أنه موجود فيها … ولا غرو إذا امتازت اللغات الأوربية بالشعر القصصي والتمثيلي، فإن اللغة العربية وأخواتها تمتاز بنوع من الآداب كبير الأهمية ليس منه في لغات الإفرنج إلا نتف نعني «الأمثال» فإنها جزء مهم من آداب اللغات السامية ولا سيما العربية والعبرانية، وتندر في سواهما …

وآداب اللغة العربية — التي هي موضوع هذا الكتاب — أغنى سائر الآداب السامية، بل هي على الإجمال أغنى آداب سائر لغات العالم؛ لأن الذين وضعوا آدابها في أثناء التمدن الإسلامي أخلاط من أمم شتى جمعهم الإسلام أو الدولة الإسلامية، وفيهم العربي والفارسي والتركي والهند والسوري والعراقي والمصري والرومي والأرمني والبربري والزنجي والصقلبي وغيرهم … وكلهم تعربوا ونظموا الشعر العربي وألفوا الكتب العربية في الأدب والنحو والتاريخ والطب والعلم والفلسفة، فاحتوت آداب اللغة العربية بسبب ذلك على أحاسن القرائح وشتات الأخلاق والآداب والطبائع، وأدخلوا فيها كثيرًا من أساليب ألسنتهم الأصلية بدون قصد أو تعمل.

ونريد بتاريخ آداب اللغة العربية بسط ما تقلبت عليه اللغة وآدابها من أقدم أزمانها إلى الآن … فهي بهذا الاعتبار تقسم إلى أطوار لكل منها شأن يمتاز عن سواه، وقد لاحظنا في تقسيم هذا التاريخ ما توالى على الأمة من الانقلابات السياسية أو الأدبية وما كان من تأثير ذلك على المواهب والقرائح …

أقسام تاريخ آداب اللغة العربية

ويمكن تقسيم تاريخ آداب اللغة العربية حسب علومها وآدابها أو حسب الأعصر التي توالت عليها، ونريد بتقسيمها حسب العلوم أن نستوفي الكلام في كل علم على حدة من نشأته إلى الآن، على أن نبدأ بأقدمها ونتدرج إلى أحدثها فنبدأ بآداب الجاهلية، فنذكر تاريخ الشعر مثلًا وتراجم الشعراء من نشأته وما تقلب عليه من الأدوار في الجاهلية والإسلام إلى

اليوم، ونفعل مثل ذلك في الخطابة وغيرها من آداب الجاهلية، وبالفقه والتفسير والأدب والنحو واللغة وغيرها من الآداب الإسلامية ... هكذا نفعل بالعلوم الدخيلة منذ دخولها وما تقلب عليها إلى الآن ...

أما تقسيمها حسب العصور، فيراد به الكلام عن العلوم كلها معًا في كل عصر على حدة، وهذا الذي اخترناه في هذا الكتاب؛ لأنه يصور حالة العصور المختلفة، وما يكون من تأثير السياسة وانقلاباتها في العلم والأدب، ولذلك فقد قسمنا تاريخ آداب اللغة العربية إلى قسمين كبيرين يفصل بينهما أهم انقلاب أصاب العرب من أول عهد تاريخهم إلى الآن ... نعني ظهور الإسلام، فهي بهذا الاعتبار تقسم إلى آداب اللغة قبل الإسلام وآدابها بعده، وقسمنا آدابها قبل الإسلام إلى عصرين: عصر الجاهلية الأولى وعصر الجاهلية الثانية، وقسمنا تاريخها بعد الإسلام إلى أعصر أو أطوار تناسب انقلاباتها السياسية أو الاجتماعية وهي:

(١) عصر صدر الإسلام.
(٢) العصر الأموي.
(٣) العصر العباسي.
(٤) العصر المغولي.
(٥) العصر العثماني.
(٦) العصر الحديث.

وقسمنا العصر العباسي إلى أطوار بحسب التقلبات السياسية كما ستراه في مكانه.

العصر الجاهلي

آداب اللغة قبل الإسلام

(١) العصر القديم أو الجاهلية الأولى
(من قبل التاريخ إلى القرن الخامس للميلاد)

لم يتصدَّ أحد للبحث في آداب اللغة العربية قبل زمن التاريخ؛ لقلة المواد المساعدة على ذلك، ولاعتقادهم أن العرب حتى في الجاهلية الثانية قبل الإسلام كانوا غارقين في الفوضى والجهالة لا عمل لهم إلا الغزو والنهب والحرب في بادية الحجاز والشام وفي نجد وغيرها من بلاد العرب، على أننا إذا نظرنا إلى لغتهم كما كانت في عصر الجاهلية، نستدل على أن هذه الأمة كانت من أعرق الأمم في المدنية؛ لأنها من أرقى لغات العالم في أساليبها ومعانيها وتراكيبها ... واللغة مرآة عقول أصحابها ومستودع آدابهم ... فالمتكلمون باللغة الفصحى كما جاءتنا في القرآن والشعر الجاهلي والأمثال، لا يمكن أن يكون أصحابها دخلوا المدنية أو العلم من قرن إلى قرنين فقط ...؛ إذ لا يتأتى للغة من لغات المتوحشين أن تبلغ مبلغ لغات المتمدنين إلا بتوالي الأدهار، فكيف باللغة العربية الدالة على سمو مدارك أصحابها وسعة تصورهم ودقة نظرهم كما سنبينه في أماكنه.

على أن الاكتشافات الأثرية أيدت هذا الرأي بما أظهرته من بقايا تمدن اليمن قبل الإسلام ببضعة عشر قرنًا، ولم يظهر من تلك الأطلال إلا الطفيف؛ لأن ما عثروا عليه من الأحافير لا يذكر في جانب ما بقي مدفونًا في الرمال، فضلًا عما ظهر من فضل العرب وأعراقهم في المدنية والعلم، مما قرأوه من آثار بابل وآشور، فإذا صح أن دولة حمورابي التي تولت بابل وسائر العراق في القرن العشرين قبل الميلاد عربية كما بينا ذلك في كتابنا «العرب قبل الإسلام»،[١] كان العرب من أسبق الأمم إلى المدنية، فإنهم أقدم من وصلتنا

شرائعهم وقوانينهم، هذه شريعة حمورابي التي عثروا عليها في بلاد السوس منقوشة بالحرف المسماري على مسلة من الحجر الأسود الصلب — سنها حمورابي في القرن الثامن عشر قبل الميلاد، أي قبل شريعة موسى بثلاثة أو أربعة قرون … وهي مؤلفة من ٢٨١ مادة تبحث في طبقات الأمة وحقوق المرأة وواجباتها والزواج والتبني والإرث وغيره …

والحمورابيون أو عمالقة العراق أقدم من أنشأ المدارس لتعليم الصغار على نحو ما هو جار الآن، وقد كشفوا في آثار زيبارا أنقاض مدرسة لتعليم الأطفال، وهذه أول مرة سمعنا بمدرسة مثل هذه في التمدن القديم أي منذ أربعة آلاف سنة، وكان فيها «رقم» أو أحجار منقوشة عليها دروس للأطفال والأحداث في الحساب والهجاء وجداول الضرب والمعجمات ونحوها، واكتشفوا كثيرًا من الكتب والرسائل المنقوشة على الأحجار أو الرقم وأكثرها لحمورابي وفيها الصكوك والعقود والمسائل الرياضية والأرصاد الفلكية والنصوص التاريخية والأدعية الدينية، ومن أكبر أدلة الرقي في ذلك العهد أن المرأة كانت متمتعة بحريتها واستقلالها مثل أرقى نساء هذا التمدن وكن يمارسن المهن القلمية، وانتظم جماعة منهن في خدمة الدواوين والمصالح الأميرية.

فإذا صح أن هذه الدولة عربية، كان العرب أسبق أمم الأرض إلى سن الشرائع وتنشيط العلم، وأنهم بلغوا في نظام الاجتماع ما لم يبلغ إليه معاصروهم، وأدركوا من الرقي الاجتماعي ما لا يزال بعض الأمم المتمدنة في هذا العصر بعيدين عنه.

ونحن في غنى عن التنبيه إلى أن قولنا: إن الدولة الحمورابية عربية ليس مثل قولنا: «دولة الإسلام عربية»، وإذا صحت عربية تلك، فلا يستلزم أن تكون لغتها مثل لغة القرآن ولا أن عاداتها ودياناتها مثل ما لعرب قريش … فإن بين الدولتين نحو ٢٥ قرنًا، والأمم تتغير عاداتها ولغاتها بتغير الأقاليم وتوالي العصور.

ولا يقتصر فضل الحمورابيين أو عمالقة العراق على ما شادوه فيما بين النهرين وما خلفوه هناك من آثار مدنيتهم وعلمهم؛ فقد نشروا آدابهم وديانتهم وشريعتهم في جزيرة العرب وخصوصًا في البقاع العامرة منها ومن جملتها اليمن ومدين والحجاز …

ويوجد تشابه بين شريعة موسى وشريعة حمورابي كما بينا ذلك في الهلال العدد الخامس سنة ١٣؛ إذ أتينا بنصوص متقابلة متشابهة في الشريعتين، وحمورابي قبل موسى بثمانمائة سنة.

سفر أيوب

ومما يعد من قبيل آداب العرب في ذلك العصر سفر أيوب، والمرجح عند أهل التحقيق أن صاحب هذا السفر في التوراة عربي الأصل، نظم ذلك الكتاب شعرًا عربيًّا في نحو القرن العشرين قبل الميلاد على أثر نزوح الحمورابيين من بين النهرين، ثم ترجم إلى العبرانية وعد من الأسفار المقدسة، وضاع أصله العربي كما ضاع أصل كليلة ودمنة الفارسي، فإذا ثبتت عربية سفر أيوب كان العرب أسبق الأمم إلى قرض الشعر؛ لأنه نظم قبل إلياذة هوميروس بألف سنة وقبل مهابهاراتة الهند بعدة قرون.

(٢) الجاهلية الثانية أو العصر الجاهلي قبيل الإسلام (من القرن الخامس للميلاد إلى ظهور الإسلام)

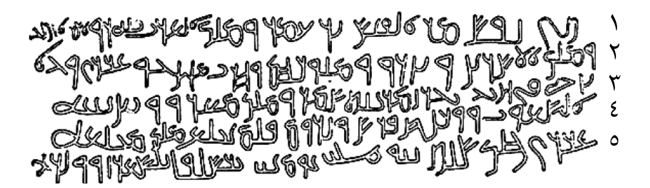
إن الحكم على ما تقدم من أحوال الجاهلية الأولى مبني على الحدس والتخمين لاستغراقه في القدم وضياع أخبار تلك الجزيرة بمرور الأيام، ولعلهم إذ نشطوا للحفر والتنقيب كشفوا الستار عن هذه الظنون.

الفرق بين لغة الجاهلية الأولى والثانية

وعلى كل حال إن عرب ذلك العهد القديم يختلفون عن عرب عصر الجاهلية الثانية قبيل الإسلام لغةً ودينًا وأدبًا وخلقًا … فالحمورابيون كان أكثرهم أهل حضارة وتمدن يتوطنون المنازل والمدن، وأما عرب الجاهلية الثانية، فأكثرهم أهل بادية ونجع … وكانت لغة الحمورابيين أقرب إلى الأشورية منها إلى العربية، فلغة أيوب إذا كانت عربية فهي غير عربية مضر التي وصلت إلينا من عرب قريش وسائر الحجاز، وقد يكون الفرق بينهما كثيرًا جدًّا، أكثر من الفرق بين لغة القرآن ولغة عامة مصر أو الشام الآن …؛ لأن أهل هذين الإقليمين قيدوا أنفسهم بالمحافظة على لغة القرآن وأساليبه، فكلما ساقتهم طبيعة النشوة نحو التغيير أعادهم التقليد إلى الأصل، ولولا ذلك لكان الفرق بين لغة عامتنا واللغة الفصحى أبعد من ذلك كثيرًا.

قِسْ مقدار الفرق بين لغة مضر ولغة عمالقة العراق بالفرق الذي وجدوه بين لغة عرب الشام في أوائل القرن الرابع للميلاد مما قرأوه على قبر امرئ القيس بن عمرو ملك الحيرة وبين لغة مضر عند ظهور الإسلام؛ وذلك أنهم عثروا في أطلال النمارة في جوران

على حجر عليه كتابة عربية بالخط النبطي نقشت في أوائل القرن الرابع للميلاد أي قبل الإسلام بثلاثة قرون، وهذه صورتها:



شكل ١: كتابة عربية بخط نبطي على قبر امرئ القيس بن عمرو سنة ٣٢٨م.

وإليك نصها كما تقرأ كل سطر على حدة:

(١) تي نفس مر القيس بن عمرو ملك العرب كله ذو أسر التاج.
(٢) وملك الأسدين ونزرو وملوكهم وهرب مذحجو عكدي وجاء.
(٣) يزجو (؟) في حبج نجران مدينة شمر وملك معدو ونزل بنيه.
(٤) الشعوب ووكله لفرس ولروم فلم يبلغ ملك مبلغه.
(٥) عكدي هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ بكسلول بلسعد ذو ولده.

هذا لسان عربي تشوبه صبغة آرامية يحتاج تفهمها إلى إيضاح، وهاك تفسير هذه الكتابة باللغة العربية الفصحى؛ وهو:

(١) هذا قبر امرئ القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذي تقلد التاج.
(٢) وأخضع قبيلتي أسد ونزار وملوكهم وهزم مذحج إلى اليوم وقاد.
(٣) الظفر إلى أسوار نجران مدينة شمر وأخضع معدًا واستعمل بنيه.
(٤) على القبائل وأنابهم عنه لدى الفرس والروم فلم يبلغ ملك مبلغه.
(٥) إلى اليوم ... توفي سنة ٢٢٣ في يوم ١٧ أيلول (سبتمبر) وفق بنوه للسعادة.

وكان أهل الشام وحوران وما يليهما يؤرخون في ذلك العهد بالتقويم البصروي؛ نسبةً إلى بصرى عاصمة حوران، وهو يبدأ بدخولها في حوزة الروم سنة ١٠٥ للميلاد، فإذا أضيفت إلى ٢٢٣ كان المجموع ٣٢٨ للميلاد وهي السنة التي توفي فيها هذا الملك.

انظر إلى الفرق بين الأصل وتفسيره، والمدة بين هذين العصرين ثلاثة قرون، فكيف تكون وبينهما بضعة وعشرون قرنًا؟ والتغيير طبيعي في كل لغة؛ عملًا بناموس النشوء … اعتبر ذلك في الفرق بين اللغة اللاتينية الأصلية وما تخلف عنها من الإيطالية والإسبانية وبين اللغة الإنجليزية القديمة والحديثة وغير ذلك.

فآداب العرب في جاهليتهم الثانية يراد بها آدابهم قبيل الإسلام وهم أهل بادية لا يقرأون ولا يكتبون … وإنما جمعت هذه الآداب بعد الإسلام بالأخذ عن الأفواه كما سيأتي:

(٣) درجة ارتقاء عقول العرب

وقد يتبادر إلى الأذهان أن أولئك البدو كانوا أهل جهالة وهمجية؛ لبعدهم عن المدن وانقطاعهم للغزو والحرب … ولكن يظهر مما وصل إلينا من أخبارهم أنهم كانوا كبار العقول أهل ذكاء ونباهة واختبار وحنكة، وأكثر معارفهم من ثمار قرائحهم، وهي تدل على صفاء أذهانهم وصدق نظرهم في الطبيعة وأحوال الإنسان مما لا يقل عن نظر أعظم الفلاسفة، فإن قول زهير بن أبي سلمى في معلقته:

رأيت المنايا خَبْطَ عَشْواء من تصب … تمته ومن تخطئ يعمَّر فيهرم
رأيت سفاه الشيخ لا حلم بعده … وأن الفتى بعد السفاهة يحلم
وأعلم ما في اليوم والأمس قبله … ولكنني عن علم ما في غد عمي
ومن لم يصانع في أمور كثيرة … يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم
ومن يجعل المعروف من دون عرضه … يفره ومن لا يتق الشتم يشتم
ومن يصنع المعروف في غير أهله … يعد حمده ذمًّا عليه ويندم
ومن لا يزل يستحمل الناس نفسه … ولا يعنفها يومًا من الدهر يسأم
ومهما تكن عند امرئ من خليقة … وإن خالها تخفى على الناس تعلم

لا يقل شيئًا عن أحكام أكابر الفلاسفة … وإنك تجد كثيرًا من أمثال ذلك في أشعارهم، كأن الشعر وصلهم ناضجًا بعد أن عولج قرونًا متطاولة ذهبت أخبارها … فهم لذلك يشكون من أن أسلافهم لم يتركوا لهم معنًى لم يطرقوه كقول عنترة:

هل غادر الشعراء من متردم

وقول زهير:

ما أرنا نقول إلا معارًا   أو معادًا من قولنا مكرورًا

ارتقاؤهم في السياسة والعمران

على أنك إذا نظرت في لغتهم تبين لك أن أصحابها من أرقى الأمم سياسيًّا واجتماعيًّا وإن عرفناهم بدوًا رحالة … واللغة دليل أخلاق الأمة ومرآة آدابها وسائر أحوالها … ومن المقرر الثابت أن اللغة لا تتولد فيها كلمة إلا للتعبير عن معنى حدث في أذهان أصحابها … فإذا وجدنا لغة من اللغات اسمًا لنوع من اللباس، نحكم حكمًا قاطعًا بأن أصحابها عرفوه أو لبسوه، أو نوعًا من الأطعمة عرفنا أنهم أكلوه، وبعكس ذلك خلوها من أسماء بعض الأدوات، فإنه يدلنا على جهلهم إياها …

وقس على ذلك الألفاظ المعنوية التي تدل على المعاني المجردة كالعواطف والفضائل، فإن وجودها في اللغة يدل على أن أصحابها عرفوا تلك العواطف والفضائل وعانوها … ولذلك كانت لغات الأمم المتوحشة خالية من هذه الألفاظ وأمثالها …

واللغة العربية من أغنى لغات الأرض بالألفاظ العمرانية والسياسية … إن فيها عشرات من الألفاظ لضروب الجماعات من الناس على اختلاف أغراض اجتماعهم: كالشعب، والجماعة، واللجنة، والزرافة، والسرب، والكوكبة، والقوم، والنفر، والشرذمة، والعصابة، ومثلها لأماكن الاجتماع: كالمحفل، والنادي، والندوة، والمأتم، والمجلس، والموسم، والمدرس، والمصطبة[٢] وعشرة منها للتعبير عن فرق الجند: كالجريدة، والسرية، والكتيبة، وغيرها، وفيها للقلم والورق عشرات من الأسماء والألقاب كالملقاط، واليراع، والأنبوبة، والأسل، والجلفة للقلم، والقرطاس، والطرس، والمهرق، والرق، والطلس، والمجلة، والصحيفة … ولكل منها معنى خاص.

ومن أنواع الكتب: القمطر: كتاب الأعمال، المدرس: الصك، الزبور، الرقيم، والسفر: الكتاب الكبير، والضبار: الكتب بلا واحد، الرهنامج: كتاب الطريق وهو الكتاب الذي يسلك به الربابنة البحر ويهتدون به في معرفة المراسي وغيرها، الوصيرة: الصك للسجلات، وقس على ذلك.

وقد عالجوا ألفاظ لغتهم معالجة الاستثمار فأكثروا فيها من المترادفات التي يدل عشرات أو مئات منها على معنى واحد أو معان متشابهة، وتوسعوا في مدلول اللفظ الواحد

حتى تعددت معانيه ... فعندهم للفظ العين بضعة وعشرون معنى، ومثلها أو أكثر منها للفظ العجوز، وعشرات من المعاني لألفاظ الخال والخمر والدين والركن والغرب والحر وغيرها، وأقل من ذلك لكثير من الألفاظ مما لا مثيل له في أرقى لغات البشر، وهو يدل على تصرف أصحاب هذه اللغة بالمعاني والمباني؛ لخصب عقولهم وسعة مداركهم ...

ارتقاؤهم في التجارة والاقتصاد

ومما يدل على توسعهم في المسائل الاقتصادية كثرة الألفاظ الدالة على المال ... فإن منها بضعة وعشرين اسمًا لكل منها معنى من المعاني الاقتصادية التي ترجع إلى الاستثمار وغيره؛ منها: التلاد: المال الموروث، الركاز: المال المدفون، الضمار: المال لا يرجى، الطارف: المال المستحدث، التالد: المال القديم، ونحو ذلك من أسماء النقود وأنواعها من الذهب والفضة، وعندهم للذهب وحده أكثر من عشرين اسمًا كل منها لنوع منه، وفي اللغة العربية مئات من الألفاظ للدلالة على أنواع الأرض والتربة والطين باختلاف الخصب والجدب ونحو ذلك، ومن الأدلة على توسعهم في التجارة والأسفار كثرة أسماء السفن عندهم، وهي عشرات لكل منها معنى خاص لشكل خاص من السفن، ويلحق بذلك أسماء الرياح وهي تزيد على المائة، ولكل منها معنى يدل على نوع الريح وجهتها كقولهم: «إذا وقعت الريح بين الريحين فهي النكباء، فإذا هبت من جهات مختلفة فهي المتناوحة، فإذا ابتدأت بشدة فهي النافجة، فإذا حركت الأغصان وقلعت الأشجار فهي الزعزاع» ... وقس على ذلك سائر أسمائها، وهي تدل على توسعهم في معرفة الظواهر الجوية، ومن هذا القبيل أسماء الطرق وأنواع البقاع وغيرها مما يطول بنا شرحه، ومن قبيل المواد التجارية الموازين، فإنها كثيرة، واعتبر ذلك في كثرة أسماء أدوات الصناعة وأواني الأطعمة والرياش والأثاث واللباس مما لا يكاد يحصر، وتجد منه أمثلة كثيرة في المخصص وفقه اللغة ولطائف اللغة وغيرها ...

تعقلهم وآراؤهم

ولك في أمثالهم والكنايات في عباراتهم وما نشأ عندهم من الفنون العقلية التي تحتاج إلى تفكير كالأحاجي والألغاز وفتيا العرب أدلة أخرى على ارتقاء أذهانهم وسمو مداركهم، واعتبر ذلك أيضًا في مذاهبهم في الوجود؛ فإنها تدل على تفكيرهم، وقد كان فيهم من ذلك

العهد البعيد من يقول بمذهب اللاأدرية، فكان جندب بن عمرو يقول: «إن للخلق خالقًا لا أعلم ما هو»، وهو قول جماعة من فلاسفة اليونان، وإليه يذهب كثير من المفكرين في هذا العصر.

ولا يبعد أن العرب اقتبسوا ذلك وأمثاله من مخالطة بعض العلماء الوافدين عليهم أو في أثناء وفودهم على الشام أو العراق وفيهما العلماء والفلاسفة، ومن هذا القبيل قول الأعشى — وكان نصرانيًّا:

استأثر الله بالوفاء وبالـ   ـعدل وولَّى الملامةَ الرجلا

وهو مذهب فلسفي يراد به رفع التبعة عن الإنسان، والمظنون أن الأعشى أخذ ذلك من بعض العباديين بالحيرة …

وترى أقوالهم المأثورة لا تخلو من كناية وخيال شعري وصدق نظر في الأمور، كالأقوال المنسوبة إلى أكثم بن صيفي وغيره من حكمائهم، ويؤيد ذلك أن المسلمين لما تمدنوا وأنشأوا العلوم جعلوا أساس علومهم اللسانية والأدبية والاجتماعية آداب العرب الجاهلية، وما زالوا في كثير منها مقصرين عن إدراك الشأو الذي بلغ إليه أولئك البدو عشراء الجمال وسكنة الصخور والرمال، فالشعراء والخطباء والكتاب وأهل الأدب في الإسلام عمدتهم في إتقان صناعتهم الرجوع إلى ما كان منها قبل الإسلام، والآداب الجاهلية أساس الآداب الإسلامية في إبان التمدن الإسلامي، كما كانت الآداب اليونانية والرومانية أساس الآداب العصرية في التمدن الحديث.

وكان للعرب في جاهليتهم ألقاب يلقبون بها النابغين منهم، كما كان لسائر الأمم المتمدنة قديمًا وحديثًا … فإذا نبغ أحدهم في الشعر سمَّوه «الشاعر» ونسبوه إلى قبيلته، فقالوا: «شاعر تميم» أو عامر أو نحو ذلك، فيكون هذا اللقب مميِّزًا له عن سواه وكذلك الخطيب، وإذا امتاز أحدهم بالحكمة والفصل في الخصومة سموه «الحكم» مثل عامر بن الظرب ونحوه، وكان لهم لقب لا يعطى إلا لمن أحرز كل الآداب والفضائل، وهو لفظ «الكامل» فكانوا يلقبون به الرجل إذا كان شاعرًا شجاعًا كاتبًا سابحًا راميًا وهو يشبه لقب «علَّامة» اليوم ولقب «فيلسوف» عند اليونان القدماء وقد لقبوا به أرسطو، ولعل العرب اقتبسوه منهم.

فبناء على ذلك لا ينبغي لنا أن نستخف بآداب العرب قبل الإسلام ونحسبها قاصرة على الشعر والخطابة واللغة بل هي أكثر من ذلك، ولكن أكثرها ضاع؛ لأنها لم تدون،

فذهبت بذهاب الحفاظ بالحروب واشتغال الناس بالإسلام … فنستدل بما بقي على ما كان.

(٤) المرأة في الجاهلية

ومن أكبر الأدلة على رقي العرب في جاهليتهم ارتقاء نسائهم … فقد كان للمرأة عندهم رأي وإرادة، وكانت صاحبة أنفة ورفعة وحزم … فنبغ غير واحدة منهن في السياسة والحرب والأدب والشعر والتجارة والصناعة، ولا سيما في أوائل الإسلام على أثر ما حصل من النهضة في النفوس والعقول، فاشتهرت جماعة منهن بمناقب رفيعة تضرب بها الأمثال وأكثرها في المدينة مقر الخلافة الإسلامية في ذلك العهد.

الشهيرات في الشجاعة

فاللواتي اشتهرن في الجاهلية وشدة البطش أو قوة النفس، منهن سلمى بنت عمرو إحدى نساء بني عدي النجار … فإنها كانت امرأة شريفة لا تتزوج الرجال إلا وأمرها بيدها، إذا رأت من الرجل شيئًا تركته، على أن الغالب في نساء الجاهلية أن يخيرن قبيل الزواج فلا يزوِّج الرجل ابنته إلا بعد أن يشاورها … واشتهرت التيميات من نساء قريش بحظوتهن عند رجالهن وكبريائهن وقسوتهن عليهم، ناهيك بما اشتهرن منهن بالبسالة في أثناء الغزوات، ففي معركة أحد وقع لواء قريش في ساحة القتال، فلم يزل صريعًا حتى أخذته امرأة منهم اسمها عمرة بنت علقمة الحارثية فرفعته لهم فلاذوا بها، وفعلت هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان في تلك المعركة ما لم يفعله الرجال وهي تنشد في تحريض قومها على الثبات، ولما انتهت الواقعة، خرجت مع النسوة تمتار جثث الموتى فوجدت بينها جثة حمزة عم النبي فمثلت بها … ثم علت صخرة وأنشدت أشعارًا تفخر بالفوز على المسلمين …

ونساء الجاهلية كن يصحبن الرجال إلى ساحة القتال، فيداوين الجرحى ويحملن قرب الماء، وممن اشتهرن بالشجاعة أم عمارة بنت كعب الأنصارية، وأم حكيم بنت الحارث، والخنساء الشاعرة أخت صخر وغيرهن …

الشهيرات في الرأي والحزم

ونبغ في الرأي والحزم غير واحدة أشهرهن خديجة بت خويلد، وكانت عاقلة حازمة لبيبة ذات شرف ومال، تنتقي من اشتهر من الرجال بالأمانة والحزم فتستأجرهم بمالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم، ولما سمعت بشهرة الرسول — قبل الدعوة — بالأمانة وكرم الأخلاق بعثت إليه أن يخرج في مالها تاجرًا إلى الشام وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من الرجال، فلما نجح في تجارته، عرضت عليه أن يتزوج بها فأجابها، وهي أول من أسلم، وقد نشطته للقيام بالدعوة فكان لا يسمع شيئًا مما يكرهه من رد عليه أو تكذيب له فيحزنه ويخبرها به إلا ثبتته وخففت عنه وهونت عليه … وما زالت على ذلك حتى ماتت،[٣] وهل أكبر نفسًا من الخنساء عندما حرضت أولادها على الثبات في واقعة القادسية، فلما بلغها أنهم قتلوا في سبيل الجهاد قالت: «الحمد لله الذي شرفني بقتلهم».

الشهيرات في الشعر والأدب

وكان للمرأة في الجاهلية شأن في الشعر والأدب وسائر العلوم، فنبغ منهن عدة شواعر أشهرهن الخنساء وخرنق، ولهما أشعار مطبوعة ومنشورة على حدة … وهناك عشرات من النساء الشواعر ذهبت أشعارهن إلا قليلًا جاءنا عرضًا في بعض الأخبار … منهن كبشة أخت عمرو بن معدي كرب، وجليلة بنت مرة امرأة كليب الفارس المشهور، ولها فيه مراثٍ لم ينظم أحسن منها، وميسة بنت جابر امرأة حارثة بن بدر، وقد رثت زوجها، وأميمة امرأة ابن الدمينة فقد قالت شعرًا في عتابه لم يقل في العتاب أحسن منه، وسيأتي خبر ذلك في ترجمته، وغيرهن مما يطول شرحه، وكان أبو نواس يروي لستين شاعرة من العرب.

وكان عندهم خطيبات، اشتهر منهن هند بنت الخس وهي الزرقاء وجمعة بنت حابس، وكان فيهن طبيبات أشهرهن زينب طبيبة بني أود كانت تعرف الطب وتعالج العين والجراح، غير من كن يرافقن المحاربين ويضمدن الجراح في ساحة الحرب.

وهناك طبقة من النساء شغفن بالشعر وحفظنه للمذاكرة به في المجالس، فإن عائشة أم المؤمنين كانت تحفظ كل شعر لبيد، ومنهن من كان الشعراء يتقاضون إليها لتحكم في أيهما أشعر، كما فعلت جندب زوجة امرئ القيس؛ إذ حكمها زوجها بينه وبين علقمة الفحل، فحكمت حكمًا يدل على ذكاء ومعرفة كما سيجيء في ترجمة علقمة.

وهناك جماعة نبغن في صدر الإسلام وفيهن مناقب الجاهلية … كن يعقدن المجالس للمذاكرة في الشعر وانتقاده، كما كانت تفعل سكينة بنت الحسين فإنها كانت تجمع الشعراء إليها وتحادثهم وتنتقدهم، وأخبارها مشهورة، وكذلك عائشة بنت طلحة، وكانت أديبة عالمة ولها مجالس أدب وشعر، وكان في مكة امرأة جزلة اسمها خرقاء عندها سماطان من الأعراب تحدثهم وتناشدهم بلا ريب ولا سوء ظن، ومثلها عمرة امرأة أبي دهبل الشاعر؛ فقد كانت جزلة يجتمع إليها الرجال للمحادثة وإنشاد الشعر قبل أن يتزوجها، ومن هناك عرفها وتزوجها.

فاجتمع الرجال والنساء للمحادثة والمذاكرة على هذه الصورة بلا ريبة ولا سوء ظن، لم يبلغ إليه الناس إلا في الأمم الراقية وفي أرقى جماعاتهم.

وبالجملة فالأمة التي تكون هذه حال نسائها وينبغ فيها مثل من تقدم ذكرهن في الشجاعة والأدب والشعر والرأي أمة راقية.

(٥) أقسام آداب العرب قبل الإسلام

تقسم آداب العرب قبل الإسلام إلى علوم عربية أصلية اقتضتها اللغة العربية وأساليبها وقرائح أهلها ونسميها العلوم العربية … وعلوم رياضية وأخرى طبيعية ونحوها، وأكثرها دخيل، على هذه الصورة:

العلوم العربية	العلوم الطبيعية	العلوم الرياضية	ما وراء الطبيعة
اللغة	الطب	الفلك	الكهانة
الشعر	البيطرة والخيل	الميثولوجيا	العيافة
الخطابة	مهاب الرياح	التوقيت	القيافة
النسب			تعبير الرؤيا
الأمثال			الزجر
الأخبار			الخط في الرمل
مجالس الأدب			
الأسواق			

فالعلوم العربية الأصلية أهمها كلها ... وهي التي كانت مطمح طلاب الأدب بعد الإسلام ولا تزال، فإن بلاغة الجاهلية وشعر الجاهلية وأمثال الجاهلية لا يزال الأدباء يتحدونها وينسجون على منوالها إلى اليوم، أما العلوم الطبيعية فقد حوروها بما أخذوه عن اليونان والفرس، وكذلك الرياضيات، أما علوم ما وراء الطبيعة فبعضها انقرض كالكهانة والقيافة والزجر، وبعضها تبدل وتقدم كتعبير الرؤيا وخط الرمل، فنقدم الكلام في الأهم منها.

هوامش

(١) العرب قبل الإسلام صفحة ٤٩.
(٢) لطائف اللغة ٦٤ و١٠٨.
(٣) تاريخ التمدن الإسلامي ص٥٦ ج٥.

اللغة العربية

هي إحدى اللغات السامية ... ويريدون باللغات السامية اللغات التي كان يتفاهم بها أبناء سام — وهم في اصطلاحهم أهل ما بين النهرين وجزيرة العرب والشام — أشهرها العربية والسريانية والعبرانية والفينيقية والأشورية والبابلية والحبشية، ولم يبق حيًّا منها إلا العربية والحبشية والعبرانية والسريانية، والعربية أرقاها جميعًا.

واللغات السامية أخوات لا يعرف لهن أم، وظن بعضهم أن اللغة البابلية أو الأشورية القديمة أمهن، كما أن اللغة اللاتينية أم اللغات الإسبانية والإيطالية والبرتغالية ولكن المحققين لا يؤيدون ذلك، والمعول عليه أن هذه اللغات السامية أخوات انقرضت أمهن قبل زمن التاريخ.

(١) تاريخ اللغة العربية

البحث في تاريخ اللغة على العموم يتناول:

أولًا: النظر في نشأتها منذ تكونها مع ما مر عليها من الأحوال قبل زمن التاريخ، كتكون الأفعال والأسماء والحروف وتولد صيغ الاشتقاق وأساليب التعبير ونحو ذلك، والبحث في هذا كله من شأن الفلسفة اللغوية، وقد فصلناه في كتابنا «الفلسفة اللغوية».

ثانيًا: النظر فيما طرأ على اللغة من التأثيرات الخارجية بعد اختلاط أصحابها بالأمم الأخرى، فاكتسبت من لغاتهم ألفاظًا وتعبيراتٍ جديدةً كما يقتبس أهلها من عادات تلك الأمم وأخلاقهم وآدابهم ما يوافق ذلك من تنوع معاني الألفاظ بتنوع الأحوال، مع حدوث صيغ جديدة وألفاظ جديدة.

ثالثًا: النظر في تاريخ ما حوته اللغة من العلوم والآداب باختلاف العصور وهو «تاريخ آداب اللغة».

وهذا التقسيم تقريبي؛ إذ لا تجد حدًّا فاصلًا بين هذه الأقسام.

وإذا تدبرت تاريخ كل ظاهرة من مظاهر الأمة كالآداب أو اللغة أو الشرائع أو غيرها باعتبار ما مر بها من الأحوال في أثناء نموها وارتقائها وتفرعها، رأيتها تسير في نموها سيرًا خفيًّا لا يشعر به إلا بعد انقضاء الزمن الطويل، ويتخلل ذلك السيرَ البطيء وثباتٌ قوية تأتي دفعة واحدة، فتتغير الشؤون تغيرًا ظاهرًا وهو ما يعبرون عنه بالنهضة، وسبب تلك النهضات في الغالب احتكاك الأفكار بالاختلاط بين الأمم على أثر مهاجرة اقتضتها الطبيعة من قحط أو خوف … أو يكون سبب الاختلاط ظهور نبي أو متشرع أو فيلسوف كبير أو نبوغ قائد طماع يحمل الناس على الفتح والغزو أو أمثال ذلك من الانقلابات السياسية أو الاجتماعية، فتتحاك الأفكار وتتمازج الطباع، فتتنوع العادات والأخلاق والأديان والآداب، واللغة تابعة لكل ذلك بل هي الحافظة لآثار ذلك التغيير فتدخرها قرونًا بعد زوال تلك العادات أو الآداب أو الشرائع، وإذا تبدل شيء منها حفظت آثار تبديله.

فاللغة العربية تعرضت لهذه الطوارئ مثل سائر اللغات الحية، وتقلبت على أحوال شتى، فتنوعت ألفاظها بالنحت والإبدال والقلب، ودخلها كثير من الألفاظ الأعجمية في أعصر مختلفة قبل أن تدون وتضبط في أزمنة لم يدركها التاريخ، وإنما نستدل على ذلك من درس ألفاظها ومقابلتها بأخواتها وغيرها.

واللغة العربية التي نحن بصددها هي لغة الحجاز التي وصلت إلينا، وكانت قبل الإسلام لغات عدة تعرف بلغات القبائل، وبينها اختلاف في اللفظ والتركيب كلغات تميم وربيعة ومضر وقيس وهذيل وقضاعة وغيرها كما هو مشهور … وأقرب هذه اللغات شبهًا باللغة السامية الأصلية أبعدها عن الاختلاط، وبعكس ذلك القبائل التي كانت تختلط بالأمم الأخرى كأهل الحجاز مما يلي الشام وخصوصًا أهل مكة من قريش؛ فقد كانوا أهل تجارة وسفر؛ شمالًا إلى الشام والعراق ومصر، وجنوبًا إلى بلاد اليمن، وشرقًا إلى خليج فارس وما وراءه، وغربًا إلى بلاد الحبشة.

فضلًا عما كان يجتمع حول الكعبة من الأمم المختلفة وفيهم الفرس والأنباط واليمنية والأحباش والمصريون، غير الذين كانوا ينزحون إليها من جالية اليهود والنصارى، فدعا ذلك كله إلى ارتقاء اللغة بما تولد فيها أو دخلها من الاشتقاقات والتراكيب مما لا مثيل له في اللغات الأخرى.

وزاد ذلك الاقتباس خصوصًا بالنهضة التي حدثت في القرنين الأول والثاني قبل الإسلام بنزول الحبشة والفرس في اليمن والحجاز على أثر استبداد ذي نواس ملك اليمن، وكان يهوديًّا فاضطهد نصارى اليمن في القرن الخامس للميلاد وخصوصًا أهل نجران ... فطلب إليهم اعتناق اليهودية، فلما أبوا قتلهم حرقًا وذبحًا، فاستنجد بعضهم بالحبشة، فحمل الأحباش على اليمن وفتحوها واستعمروها حينًا، وأذلوا ملوكها أعوامًا، ثم أنف أحد أمرائها «ذو يزن» فاستنجد الفرس على عهد كسرى أنوشروان، فأنجده طمعًا في الفتح، فأخرج الأحباش من اليمن بعد أن ملكوها نحو سبعين سنة وكانوا في أثناء ذلك يترددون على الحجاز، وحاولوا فتحه في أواسط القرن الخامس فجاءوا مكة بأفيالهم ورجالهم ولم يفلحوا، واهتم أهل الحجاز بقدوم الحبشة إلى مكة حتى أرخوا به، وهو عام الفيل، ولما فتح الفرس اليمن أقاموا فيها واختلطوا بأهلها بالمبايعة والمزاوجة وتوطنوا، وكانوا يقدمون إلى الحجاز، وأهل الحجاز يترددون إليهم.

(٢) ما دخلها من الألفاظ الأعجمية

غير ما طرأ عليها من التغيير والتبديل قبل زمن التاريخ فتكاثرت ألفاظها ومشتقاتها ودخلها كثير من الألفاظ الأجنبية، وغير ما اقتبسته من التراكيب الغريبة، ولكن أكثره ضاع فيها وتنوع شكله ولم يعد يتميز أصله، على أننا نستدل على تكاثر الألفاظ الدخيلة في اللغة العربية بخلو أخواتها من أمثال تلك الألفاظ، فإذا رأينا لفظًا في العربية ولم نرَ له شبيهًا في العبرانية أو السريانية أو الحبشية، ترجح عندنا أنه دخيل فيها، وأكثر ما يكون ذلك أسماء العقاقير أو الأدوات أو المصنوعات أو المعادن أو نحوها مما يحمل إلى بلاد العرب من بلاد الفرس أو الروم أو الهند أو غيرها، ولم يكن للعرب معرفة به من قبل، أو في أسماء بعض المصطلحات الدينية أو الأدبية، وأكثر هذا منقول عن العبرانية أو الحبشية؛ لأن اليهود والأحباش من أهل الكتاب.

الألفاظ الفارسية واليونانية

ويقال بالإجمال: إن العرب اقتبسوا من لغة الفرس أكثر مما اقتبسوا من سواها، ولذلك رأينا أئمة اللغة إذا أشكل عليهم أصل بعض الألفاظ الأعجمية عدوها فارسية، ومن أمثلة ما ذكره صاحب المزهر من الألفاظ الفارسية: «الكوز الجرة الإبريق الطشت

الخوان الطبق القصعة السكرجة السمور السنجاب القاقم الفنك الدلق الخز الديباج التاختج السندس الياقوت الفيروزج البلور الكعك الدرمك الجردق السميذ السكباج الزيرباج الإسفيداج الطباهج الفالوذج اللوزينج الجوزينج التفرينج الجلاب السكنجبين الجلنجبين الدارصيني الفلفل الكرويا الزنجبيل الخولنجان القرفة النرجس البنفسج النسرين الخيري السوسن المرزنجوش الياسمين الجلنار المسك العنبر الكافور الصندل القرنفل» وعندنا أن بعض هذه الألفاظ غير فارسي كما سترى.

ومما اقتبسوه من اليونانية واللاتينية الفردوس والقسطاس والبطاقة والقرسطون والقبان والإسطرلاب والقسطل والقنطار والبطريق والترياق والقنطرة وغيرها كثير.

الألفاظ الحبشية والعبرانية

وأما ما نقلوه عن الحبشية فأكثره لا يدل على أصله؛ لتغير شكله؛ ولأن الحبشية والعربية أختان تتشابه الألفاظ فيهما، والمشهور عند علماء العربية من الألفاظ المقتبسة من الحبشية ثلاثة: كفلين والمشكاة والهرج، لكننا لا نشك في أنهم اقتبسوا كثيرًا غيرها وخصوصًا فيما يتعلق بالمصطلحات الدينية.

من ذلك قولهم: «المنبر» وهو عند العرب «مكان مرتفع في الجامع أو الكنيسة يقف فيه الخطيب أو الواعظ» وقد اشتقه صاحب القاموس من «نبر» أي ارتفع، وفي ذلك الاشتقاق تكلف، وعندنا أنه منقول عن «منبر» من الحبشية أي كرسي أو مجلس أو عرش.

ومن هذا القبيل لفظ «النفاق» وهو عند العرب «ستر الكفر في القلب وإظهار الإيمان» وقد اشتقوه من «نفق» راج أو رغب فيه، وليس بين المعنيين تناسب فاضطروا لتعليله إلى استعارة خروج اليربوع من نافقائه فقالوا: «ومنه اشتقاق المنافق في الدين» وهو تكلف نحن في غنى عنه إذا عرفنا أن «نفاق» في الحبشية معناها الهرتقة أو البدعة أو الضلال في الدين، وهي من التعبيرات النصرانية التي شاعت في الحبشة بدخول النصرانية فيها.

وكذلك لفظ «الحواري» اشتقه صاحب القاموس من «حار» بمعنى البياض وقال في معنى الحواري: «إنه سمي بذلك؛ لخلوص نية الحواريين ونقاء سريرتهم أو لأنهم كانوا يلبسون الثياب البيض»، والأظهر عندنا أن هذه اللفظة معرب حواري في الحبشية ومعناها فيها «الرسول» وهو المعنى المراد بها في العربية تمامًا».

وكذلك «برهان» اشتقها صاحب القاموس من «برهن» واشتقها غيره من «بره» بمعنى القطع وأن النون زائدة فيها، وهي في الحبشية «برهان» أي النور أو الإيضاح مشتقة من «بره» أي اتضح أو أنار.

وقس على ذلك كثيرًا من أمثاله كالمصحف، فإنه حبشي من «صحف» أي كتب والمصحف الكتاب … ناهيك بأسماء الحيوانات أو النباتات أو نحوها فإن «عنبسة» من أسماء الأسد عند العرب وهي الأسد بالحبشية.

وقد أخذوا عن العبرانية كثيرًا من الألفاظ الدينية كالحج والكاهن والعاشوراء وغيرها، وأكثرها نقل إلى الصيغ العربية؛ لتقارب اللفظ والمعنى في اللغتين؛ لأنهما شقيقتان، ويضيق هذا المقام عن إيراد الأمثلة.

الألفاظ السنسكريتية

ولا ريب في أن العرب اقتبسوا كثيرًا من الألفاظ السنسكريتية ممن كان يخالطهم من الهنود في أثناء الأسفار للتجارة أو الحج؛ لأن جزيرة العرب كانت واسطة الاتصال بين الشرق والغرب … فكل تجارات الهند المحمولة إلى مصر أو الشام أو المغرب كانت تمر ببلاد العرب، وكان للعرب في حملها أو ترويجها شأن، وقد عثرنا في السنسكريتية على ألفاظ تشبه ألفاظًا عربية تغلب أن تكون سنسكريتية الأصل؛ لخلو أخوات العربية من أمثالها كقولهم: «صبح» و«بهاء» فإنهما في السنسكريتية بهذا اللفظ تمامًا ويدلان على الإشراق أو الإضاءة، ولا يعقل أنهما مأخوذان عن العربية؛ لأن السنسكريتية دونت قبل العربية بزمان مديد، ونظن لفظ «سفينة» سنسكريتي الأصل أيضًا وكذلك «ضياء»، ولعلنا بزيادة درسنا اللغة السنسكريتية ينكشف لنا كثير من أمثال ذلك …

على أننا نرجح أن العرب أخذوا عن الهنود كثيرًا من المصطلحات التجارية وأسماء السفن وأدواتها وأسماء الحجارة الكريمة والعقاقير والأطياب مما يحمل من بلاد الهند، والعرب يعدونها عربية أو يلحقونها بالألفاظ الفارسية تساهلًا، كالمسك مثلًا؛ فقد رأيت صاحب المزهر يعده فارسيًّا، وهكذا يقول صاحب القاموس، وهو في الحقيقة سنسكريتي، ولفظه فيها «مشكاة»، وذكروا «الكافور» بين الألفاظ الفارسية وهو هندي على لغة أهل ملقا ولفظه عندهم «كابور»، وقد ذكروا أيضًا أن القرنفل فارسي، والغالب عندنا أنه سنسكريتي؛ لأن أصله من الهند، وقس عليه.

وفي كتابنا «تاريخ اللغة العربية» فصل ضاف في هذا الموضوع بينا فيه القاعدة في تعيين أصول الألفاظ الأعجمية، وأوردنا كثيرًا من الألفاظ المنقولة للعربية من اللغات

الفارسية والهندية واليونانية واللاتينية والحبشية، وأئمة اللغة يعدونها عربية، وفصل آخر فيما لحق اللغة العربية من التغيير في ألفاظها بمقابلتها بأخواتها.[1]

(٣) كيف كانت اللغة العربية لما جاء الإسلام؟

ليس ما قدمناه وأشرنا إليه من تاريخ تكون اللغة العربية وترقيها إلا فذلكة مثلنا بها ذلك التاريخ، ولا يستطاع تفصيله وتعيين التقلبات التي مرت بها هذه اللغة قبل الإسلام؛ إذ ليس لدينا أمثلة مدونة يرجع إليها أو يقاس عليها، غير ما قدمناه مما وجدوه منقوشًا على قبر امرئ القيس وهو لا يشفي غليلًا، ولو أن أشعار أيوب كانت مدونة كما دونت إلياذة هوميروس مثلًا، لاستخرجنا من المقابلة بين لغتها ولغة الجاهلية الثانية تاريخ تقلب الألفاظ والتعابير … كما فعل اليونان في بيان الفروق بين لغة الإلياذة ولغات ما دون بعدها … وكما فعلنا في تدوين تاريخ اللغة العربية بعد الإسلام، وما تقلبت عليه من تبدل الألفاظ وتفرعها وتنوعها ودخول الألفاظ والتراكيب الأعجمية، وما أخذته من كل لغة حسب الأطوار التي مرت بها[2] وكما يفعل فلاسفة اللغة في رد اللغات الحية الأوربية إلى أصولها اللاتينية، والجرمانية واليونانية.

ومهما يكن من تاريخ اللغة العربية القديم؛ فقد عرفناها عند ظهور الإسلام ناضجة، وقد تفرعت إلى لغات باختلاف الأصقاع والقبائل، فدون المسلمون إحدى تلك اللغات مع أمثلة من سائر اللغات على ما سنبينه.

(٤) البلاد التي كان أهلها يتكلمون العربية قبل الإسلام

إذا نظرت إلى الخريطة اليوم، رأيت الناطقين بالعربية منتشرين في غربي البحر المتوسط وجنوبيه إلى الشام والعراق وما بين النهرين وفي جزيرة العرب وفي مصر وطرابلس الغرب وتونس والجزائر ومراكش وعلى شواطئ البحر الأحمر وفي السودان وغيرها من أواسط إفريقيا وعلى شواطئ إفريقيا الشرقية وغيرها … غير الذين يتعلمون العربية للمعاملات الدينية، وهم المسلمون في أكثر أنحاء المعمورة في فارس وخراسان وأفغانستان وتركستان والهند والصين وجزائر الهند الشرقية وسائر البلاد التي دخلها الإسلام في القارات الخمس.

أما قبل الإسلام؛ فقد كانت اللغة العربية محصورة في جزيرة العرب وما يليها من مشارف الشام والعراق إلى تدمر وفي بادية الجزيرة «بين النهرين» وفي جزيرة سينا وقليل بعدها في صحراء مصر الشرقية.[٣]

ويعسر تقدير إحصاء العرب في ذلك العهد، كما يعسر تقديره اليوم؛ لاعتماد أولئك الأقوام على الرحلة والتنقل في البوادي … ولكننا نحسبهم لا يزيدون على بضعة ملايين، أكثرهم من أهل البادية متفرقون قبائلَ وعشائرَ وأفخاذًا وبطونًا في الحجاز ونجد واليمن وتهامة وحضرموت وعمان والأحساء والبحرين وفي بادية الشام والعراق، يندر فيهم المتحضرون سكان المدن؛ إذ لم يكن يومئذ من المدن العامرة في جزيرة العرب غير مكة والمدينة والطائف بالحجاز، وصنعاء في اليمن وبعض المزارات في أواسط الجزيرة وبعض الثغور على الشواطئ.

فالمعول في إحصاء العرب على أهل البادية، وكانوا ينقسمون حسب قبائلهم، وكانت تلك القبائل مع كونها رحالة تنحصر رحلتها غالبًا في بقعة من بقاع الجزيرة ما لم يطرأ عليها طارئ يبعثها على الانتقال إلى بقعة أخرى، كما أصاب قبائل عدنان في القرون الأولى قبيل الميلاد وبعده …؛ إذ كانت تقيم في تهامة ثم تفرقت فيها وفي الحجاز ونجد، وكانت القبائل القحطانية في اليمن، ثم انتشرت في سائر جزيرة العرب، ولكل انتقال سبب طبيعي أو سياسي أو غير ذلك مما يطول شرحه، وقد فصلناه في كتابنا «العرب قبل الإسلام».

فلما جاء الإسلام كانت قبائل العرب البادية أكثرها في نجد وتهامة والحجاز والأحساء ومشارف الشام والعراق ومعظمها من العدنانية، كما تجد ذلك مبينًا في الخريطة …

وبالقياس على ما نشاهده اليوم من تعدد لغات — أو لهجات — المتكلمين بالعربية في الشام والعراق ومصر والمغرب وما بينها من الاختلاف لفظًا وتركيبًا، مع أن الأصل واحد فيها جميعًا «لغة مضر» نعتقد أن لغات تلك القبائل كانت تختلف بعضها عن بعض ويزداد الفرق بينها بزيادة البعد وباختلاف ما يجاورها من غير العرب، فلغات أواسط جزيرة العرب وإن بعدت الشقة بينها كانت أكثر تقاربًا مما بينها وبين لغات أهل الشواطئ؛ لاختلاط هؤلاء بالأعاجم على شواطئ خليج العجم والبحر الأحمر من جالية الفرس والهند والأحباش وغيرهم، أو عند مشارف الشام؛ لاختلاطهم بأهل المدن من السريان أو الروم أو الأنباط في الشام والعراق، ولما نهض المسلمون في صدر الإسلام لجمع اللغة، لاحظوا هذه الاعتبارات؛ التماسًا لاختيار أحسن اللغات وأبعدها عن العجمة …

(٥) فروع اللغة العربية

وإذا أمعنت النظر في الخريطة، رأيت أكثر سكان أواسط جزيرة العرب من قبائل مضر … وأعظمها يومئذ تميم في شرقي نجد، وغطفان «عبس وذبيان»، وسليم وغيرهما في نجد، وأرقاها قريش في مكة، وكان من القبائل القحطانية هناك طيء في نجد ومذحج في أطراف الحجاز، وأكثر السكان في الشمال الشرقي من ربيعة، ومنهم بكر وتغلب في بادية العراق والجزيرة.

فلغات هذه القبائل كانت تختلف بعضها عن بعض باختلاف أصولها ومساكنها، وكان الاختلاف على معظمه بين لغات اليمن ولغات الحجاز ونجد أي بين جنوب الجزيرة وشمالها، وأحسن مثال للغات الجنوب ما خلفه الحميريون من الآثار بالحرف المسند، وأحسن مثال للغة الحجاز لغة القرآن وشعر الجاهلية، والفرق بين اللغتين كبير، والعرب يسمون لغة قدماء اليمنيين «المسند»، ولمن أقام حول اليمن من العرب لغات لعلها فروع من لغة اليمن، وكان لكل إقليم منها لسان يختلف عن ألسنة سائر الأقاليم وله اسم خاص يعرف به، وهي:

المسند: لغة في اليمن.

الزبور: لغة في حضرموت وبعض اليمن.

الرشق: لغة عدن والجند.

الحويل: لغة مهرة والشحر.

الزقزقة: لغة الأشعريين.

هذا هو تقسيم العرب للغات اليمن، ويرى العلماء اليوم أن بعضها غير عربي ولكن أكثرها ذهب ولا سبيل إلى تحقيق ذلك.

أما لغات أهل الحجاز ونجد وسائر الشمال وهم العدنانيون، فترجع إلى أصل واحد يسمونه «المبين» وهو الباقي إلى الآن ومنه لغة القرآن وقد تغلب على سائر الألسنة وانتشر مع المسلمين في الأرض.

اللسان المبين

فاللسان المبين كان يتكلمه عرب الشمال وهم قبائل كثيرة كما رأيت، وبينها فروق في معاني الألفاظ ونطقها وفي أساليب التركيب، ولكن الإسلام ذهب بها جميعًا إلا لغة قريش «لغة القرآن» وما اختاره علماء اللغة من ألفاظ القبائل الأخرى، ولم يبق من لغات هذه القبائل إلى الآن إلا أمثلة ذكرها علماء اللغة عرضًا من باب العيوب، وأكثرها في قبائل ربيعة … مثال ذلك أنهم كانوا يزيدون بعد ضمير المخاطب المفرد شينًا، فيقولون: عليكش وبكش؛ بدلًا من عليك وبك، وجاء في بعض الكتب أنهم يبدلون الكاف شينًا، فيقولون عليش بدل عليك … وهي في الحالين غير الشين التي يدخلها عامة المصريين على الاستفهام.

ومن بقايا لغات القبائل أن بني تميم كانوا يلفظون الهمزة إذا وقعت في أول الكلمة عينًا، فيقولون في «أسلم» «عسلم» ويسمونها العنعنة، وكان الهذليون وهم قبيلة من مضر يجعلون الحاء عينًا ويسمونها الفحفحة … ومنها العجعجة في قضاعة وهي أن يجعلوا الياء المشددة جيمًا فيقولون في تميمي: تميمج، والاستنطاء في لغة سعد بن بكر وهي أن يقولوا: أنطى بدل أعطى، وعند بعض القبائل حروف لا توجد عند سواها كالحرف بين القاف والكاف في لغة تميم لعله كالكاف الفارسية، وذكر صاحب المزهر أمثلة كثيرة من هذه العيوب.[٤]

ومن اللغات الشاذة التي تفيدنا في الرجوع إلى أصل اللغة العربية، استعمال الذال للموصول بدل «الذي» فإن بعض العرب (قبيلة طي) يقولون: «فلان ذو سمعت به» أي الذي سمعت به، وهو تركيب آرامي أو بابلي من بقايا القرابة بين العرب والحمورابيين، ومن هذا القبيل كسر أول فعل المضارع كما يفعل سريان هذه الأيام، فإنه كان عامًّا في قبائل العرب إلا في قريش وأسد،[٥] ولغات القبائل المشار إليها ظلت بعد الإسلام مدة، ثم أخذت تنقرض بالتدريج وحلت لغة قريش محلها … ليس في جزيرة العرب فقط بل في كل بلد دخله الإسلام …

على أن ما يعده أئمة اللغة عيوبًا في لغات هذه القبائل، إنما يصح تسميته بذلك بالنظر إلى اللغة التي اختاروها لا بالنظر إلى اللغة نفسها … فإن استعمال «ذو» للموصول لم يسموه عيبًا إلا لأنه يخالف المألوف في لغة قريش، ولو ألفوه لفضلوه على «الذي»، وعلى كل حال فإن علماء اللغة لما قاموا لجمع اللغة تخيروا من لغات تلك القبائل أحسن ما فيها بالنظر إلى أذواقهم ومألوفهم، وأكثر ما أخذوه من قيس وتميم وأسد، وسنعود إلى ذلك عند الكلام عن جمع اللغة وتدوينها.

هوامش

(١) راجع تاريخ اللغة العربية من صفحة ١٠–٢١ طبعة ثانية.

(٢) راجع تاريخ اللغة العربية من صفحة ٢٢–٦٣ طبعة ثانية.

(٣) راجع خريطة جزيرة العرب ص١٠٤ من تاريخ العرب قبل الإسلام.

(٤) المزهر: ١٠٩ ج١.

(٥) المزهر: ١٢٤ و٢٥٢ ج١.

مميزات اللغة العربية

للغة العربية كما وصلت إلينا خصائص تميزها من سواها، وتدل على مبلغ عقول أصحابها من الرقي وإن كانوا بادية راحلين، وهذه هي مميزاتها:

(١) الإعراب

نعني بالإعراب تغير أواخر الكلمات بتغير العوامل الداخلة عليها بالرفع والنصب والجر والسكون، واللغات الحية في العالم المتمدن الآن تعد بالعشرات، ليس بينها من اللغات المعربة إلا ثلاث: وهي العربية والحبشية، واللغة الألمانية، والظاهر أن الإعراب من خصائص التمدن القديم؛ لأن لغات ذلك التمدن كان معظمها معربًا، كذلك كانت اللغات البابلية (الأشورية) والعربية واليونانية واللاتينية والسنسكريتية، واللغات التي تخلفت عن تلك الأمهات جاءت خالية من حركات الإعراب، فاللغات التي تخلفت عن اللاتينية في أوربا وعن السنسكريتية في الهند وإيران غير معربة، وكذلك اللغات التي تخلفت عن اللغة البابلية وهي السريانية والكلدانية لم يبق فيها إعراب، ومثلها اللغات التي تخلفت عن اللغة العربية، نعني لغات العامة في الأصقاع العربية اليوم فإنها غير معربة ... كأن الإعراب إذا ترك لمجاري الطبيعة لا يعيش في الرخاء طويلًا، وإنما يعيش في البادية أو نحوها من أحوال الخشونة أو القوة ... إلا إذا أراد أصحابه تقييد لغتهم بالقواعد، كما فعل العرب والألمان، على أن اللغة العربية سارت سيرها الطبيعي على ألسنة العامة، فذهب الإعراب منها.

ومما يحسن قوله: إن اللغات السامية القديمة على كثرتها، اختص منها بالإعراب لغة بابل (الأشورية) واللغة العربية، ولعل في ذلك ما يدل على وحدة أصل العرب والحمورابيين، وأن الأمتين كانتا أمة واحدة تتكلم لسانًا واحدًا معربًا … فتحضر الحمورابيون وظل العرب بادية ومنهم العمالقة، فلما تمدن الحمورابيون وركنوا إلى الرخاء، ذهب الإعراب من لسانهم وبقي في كتاباتهم المنقوشة، كما أصاب العرب بعد قيام دولتهم وتقييد لغتهم، فنشأ من بقايا البابليين أمة لغتها غير معربة هم السريان والكلدان، كما نشأ من العرب أقوام لا يعربون كلامهم، وهم عامة الشام ومصر وغيرهما من بلاد العرب، وكان أجدادهم في البادية يعربونه …

(٢) دقة التعبير

وتمتاز اللغة العربية بدقة التعبير بألفاظها وتراكيبها … أما الألفاظ ففيها لكل معنى لفظ خاص، وحتى أشباه المعاني أو فروعها وجزئياتها، وقد ذكرنا أمثلة من ذلك فيما تقدم، ومن أمثلة دقة التعبير فيها وجود الألفاظ لتأدية فروع المعاني أو جزئياتها، فعندهم لكل ساعة من ساعات النهار اسم خاص به، فالساعة الأولى الذرور، ثم اليزوغ، ثم الضحى، ثم الغزالة، ثم الهاجرة، ثم الزوال، ثم العصر، ثم الأصيل، ثم الصبوب، ثم الحدور، ثم الغروب، ويقال فيها أيضًا: البكور، ثم الشروق، فالإشراق، فالرأد، فالضحى، فالمتوع، فالهاجرة، فالأصيل، فالعصر، فالطفل، فالحدور، فالغروب.

وعندهم اسم لكل ليلة من ليالي القمر … وتجد للمعنى الواحدة عدة ألفاظ، يعبر كل منها عن تنوع من تنوعات ذلك المعنى … فللشعر مثلًا أسماء عدة حسب منبته، كالفروة لشعر معظم الرأس، والناصية لشعر مقدم الرأس، والذؤابة شعر مؤخرة الرأس، والفرع شعر رأس المرأة، والغديرة شعر ذؤابتها، والدبب شعر وجهها إلى غير ذلك … وهو كثير، وقس عليه أسماء المعايب، والغطش، والجهر، ولكل منها معنى خاص مما لا مثيل له في أرقى لغات البشر قديمًا وحديثًا.

واعتبر ذلك تفرع معاني الأفعال، كتفرع فعل النظر إلى: رمق، ولمح، وحدج، وشفن، وتوضح، ورنا، واستكف، واستشف، ومثلها فروع أفعال الجلوس والقيام والمشي والنوم وضروب الأصوات للحيوان والإنسان وغير ذلك، وفي المخصص وفقه اللغة ألوف من هذه الأمثلة، ولا خلاف في أن ذلك من أدلة الارتقاء … ناهيك بالمترادفات في الأوصاف، وهي أكثر من أن تحصى، ولعل العربية أغنى اللغات في الألفاظ المعبرة عن المعاني المجردة

وانفعالات العواطف ... ففيها لأنواع الحب نحو عشرة ألفاظ، ومثلها للبغض، والحسد والطمع وغيرها.

ومن وسائل دقة التعبير في العربية مزيدات الأفعال، فإن صيغ المشاركة تعبر باللفظ الواحد عن معان لا يعبر عنها في اللغات الأخرى إلا بعدة ألفاظ، كقولنا: تقاتلوا وتقاضوا، وهذه الصيغة خاصة بالعربية.

(٣) الإعجاز والإيجاز

لكل قوم إعجاز في لغتهم فيدلون بلفظ قليل على معنى كثير، ولكن العرب أقدر على ذلك من سواهم؛ لأن لغتهم تساعدهم عليه وقد تعودوه وألفوه، ومنه في القرآن والحديث والأمثال وكتب الفقه، والشرع والأدب أمثلة كثيرة، ومن هذا القبيل استعمال المجاز والكناية وسائر أساليب البديع، فإنها في العربية أرقى مما في سواها؛ لأنها لغة شعرية كثيرة الكنايات والإشارات يسهل فيها التعمية والإلغاز، ولذلك رأيت في أخبار أهل البادية أمثلة كثيرة من هذا القبيل تدل على الذكاء وامتلاك ناصية اللغة، كقول جاسوس منهم وقع في أيدي الأعداء فحبسوه وألزموه أن يكتب كتابًا إلى ملكه يحمله فيه على مداهمتهم ويوهمه بقلة عددهم وأسلحتهم غشًّا وتغريرًا، فكتب إلى الملك كتابًا قال فيه:

> أما بعد فقد أحطت علمًا بالقوم وأصبحت مستريحًا من السعي في تعرف أحوالهم، وإني قد استضعفتهم بالنسبة إليكم، وقد كنت أعهد في أخلاق الملك المهلة بالأمور والنظر في العاقبة؛ فقد تحققت أنكم الفئة الغالبة بإذن الله، ولقد رأيت من أحوال القوم ما يطيب به قلب الملك، ونصحت فدع ريبك، ودع مهلك والسلام.

وسلم الكتاب إلى العدو فأرسلوه إلى الملك بعد ما اطلعوا عليه، ففطن الملك لما أراد الكاتب، وقال لحاشيته: إن الجاسوس وقع في الأسر فأصبح مستريحًا من السعي، وأنه رآهم أضعافنا وأننا قليل بالنسبة لهم؛ إذ لمح بآية «كم من فئة قليلة»، ولفتني إلى الأناة؛ إذ جعلها عادة لي، وأراد قلب حروف الجملة الأخيرة، فتكون: «كلهم عدو كبير عد فتحصن».

(٤) المترادفات والأضداد

في كل لغة مترادفات أي عدة ألفاظ للمعنى الواحد، ولكن العرب فاقوا في ذلك سائر أمم الأرض … ففي لغتهم للسنة ٢٤ اسمًا وللنور ٢١ اسمًا وللظلام ٥٢ اسمًا، وللشمس ٢٩ اسمًا وللسحاب ٥٠ وللمطر ٦٤ وللبئر ٨٨ اسمًا، وللماء ١٧٠ اسمًا، وللبن ١٣ اسمًا وللعسل نحو ذلك وللخمر مئة اسم وللأسد ٣٥٠ اسمًا وللحية مئة اسم ومثل ذلك للجمل، أما الناقة فأسماؤها ٢٥٥ اسمًا، وقس على ذلك أسماء الثور والفرس والحمار وغيرها من الحيوانات التي كانت مألوفة عند العرب، وأسماء الأسلحة كالسيف والرمح وغيرهما … ناهيك بمترادف الصفات، فعندهم للطويل ٩١ لفظًا، وللقصير ١٦٠ لفظًا، ونحو ذلك للشجاع والكريم والبخيل مما يضيق المقام عن استيفائه …

وأسباب كثرة المترادفات في العربية متنوعة؛ منها: أن كثيرًا من أسماء الحيوانات أصلها نعوت ثم صارت أسماء، وبعضها مأخوذ عن لغة أخرى، فمن أسماء الأسد مثلًا: الحطام، والخطار، والأصيد، والشديد، والراهب، والمرهوب، والمهوب، والأغلب، والأصهب، والمجرب، والباسل، والمياس، ونحوها، وهي نعوت لطبائع الأسد، وظواهره، ومن أسمائه عنبسة، وهو اسمه بالحبشية، وقد يكون السبب في زيادة المترادفات استعارة أسماء حيوانات أخرى للدلالة على هذا الحيوان يكنون بها عن بعض طبائعه.

ومن خصائص اللغات العربية أسماء الأضداد، فإن فيها مئات من الألفاظ يدل كل منها على معنيين متضادين مثل قولهم: «قعد» للقيام والجلوس، و«نضح» للعطش والري و«ذاب» للسيولة والجمود و«أفد» للإسراع والإبطاء «وأقوى» للافتقار والاستغناء.

(٥) المعاني الكثيرة للفظ الواحد

ومن خصائصها أيضًا دلالة اللفظ الواحد على معان كثيرة، فمن ألفاظها نيف ومئتا لفظ يدل كل منها على ثلاثة معان، ونيف ومئة لفظ يدل الواحد منها على أربعة ومثلها التي تدل على خمسة معان، وقس على ذلك ما يدل على ستة معان فسبعة فثمانية فتسعة إلى خمسة وعشرين معنى كالحميم، ومما تزيد مدلولاته على ذلك «الخال» فإنها تدل على ٢٧ معنى وللفظ «العين» ٣٥ معنى وللفظ «العجوز» ٦٠ معنى.

(٦) السجع وغيره من أسباب سعة اللغة

إن كثرة المترادفات في اللغة العربية وتعداد المعاني للفظ الواحد جعلتها واسعة التعبير وسهلت على أصحابها التسجيع، وكان التسجيع شائعًا في الجاهلية بلغة الكهان على أساليب يستقبحها أهل اللغة؛ لغرابة ألفاظها وركاكة تركيبها.

ومن نتائج سعتها اقتدار أصحابها على كتابة المعنى الواحد بعدة تراكيب بين عاطل ومهمل ومنقط أو مشترك، وقد علمنا أن بعضهم كتب تفسير القرآن بألفاظ ليس فيها حرف منقط، وهناك تراكيب يشترط فيها إذا قرأ الألثغ لا تظهر لثغته؛ لخلوها من الراء، وقد خطب واصل بن عطاء خطبة طويلة لم يرد فيها حرف الراء، وكان إذا قال شعرًا لم يورد فيه حرف الراء على الإطلاق[1] وذلك لا يتيسر في اللغات الإفرنجية، وقد جرب بعضهم كتابة أسطر بالألمانية بدون راء، فلم يستطع ذلك إلا بشق النفس.

(٧) حكاية الأصوات

ومن خصائص اللغة العربية أن لألفاظها وقعًا على الأذن، له تأثير موسيقي يختلف شدة ولطافة باختلاف التراكيب فيؤثر في النفس تأثيرًا خاصًّا سواء كان نثرًا أو نظمًا، ومن أمثلة الوقع الشديد، وصف الأسد لأبي زبيد الطائي بين يدي عثمان بن عفان؛ فقد قال وهو يصف خروج الأسد عليهم في واد: «فضرب بيديه فأرهج وكشر، فأفرج عن أنياب كالمعاول مصقولة غير مفلولة، وفم أشدق كالغار الأخوق، ثم تمطى فأسرع بيديه وحفز وركبه برجليه حتى صار ظله مثليه، ثم أقعى فاقشعر ثم مثل فاكفهر، ثم تجهر فازبأر فلا وذو[2] بيته في السماء ما اتقيناه إلا بأخ لنا من فزارة، كان ضخم الجزارة فوقصه ثم نقضه نقضة فقضقض متنيه فجعل يلغ في دمه، فذمرت أصحابي فبعد لأي ما استقدموا فهجهجنا به فكر مقشعرًّا كأن به شممًا فاختلج رجلًا أعجز ذا حوايا فنقضه نقضة تزايلت منها مفاصله، ثم همهم فقرقر، ثم زفر فبربر، ثم زأر فجرجر، ثم لحظ، فوالله لخلت البرق يتطاير من تحت جفونه من شماله ويمينه، فأرعشت الأيدي واصطكت الأرجل وأطت الأضلاع وارتجت الأسماع وشخصت العيون وتحققت الظنون وانخزلت المتون …».

فصاح به عثمان: «اسكت قطع الله لسانك فقد أرعبت قلوب المسلمين» وحكايات الأصوات موجودة في سائر اللغات.

(٨) الأمثال

الأمثال من آداب العرب المهمة؛ لأنها تجري على ألسنتهم مجرى الشعر، وهي عظات بالغة من ثمار الاختبار الطويل والعقل الراجح، قال أبو عبيد: «الأمثال من حكمة العرب في الجاهلية والإسلام، وبها كانت تعارض كلامها فتبلغ بها ما حاولت من حاجاتها في النطق بكناية بغير تصريح، فيجتمع لها بذلك ثلاث خلال: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه»[٣] والعرب تضمن أشعارها وأقوالها الأمثال والحكم فتزينها كقول أبي ذؤيب من قصيدة:

فلا تك كالثور الذي دُفنت له　　حديدة حَتْفٍ ثم أمسى يثيرها[٤]

وبعضهم نظم القصائد كلها من الأمثال كأرجوزة أبي العتاهية التي سماها ذات الأمثال.[٥]

ولا تخلو أمة من الأمثال المتوارثة في الأعقاب ... لكن العرب يمتازون بأمثالهم المبنية على الحوادث؛ لأن الأمثال عندهم نوعان:

(١) أمثال حكمية كقولهم: الجار قبل الدار، والحرب خدعة، والخطأ زاد العجول، والعتاب قبل العقاب، ونحوها ما تتناقله الناس في الأعقاب وترويها الأمم بعضها عن بعض، وأقدم مجموع لها أمثال سليمان، وأكثر الأمم أخذت عنها ... وهي عند العرب مقتبسة من التوراة وأمثال الهند والفرس والروم، فضلًا عما يروونه عن أسلافهم وحكمائهم كأكثم بن صيفي وغيره، وينسبون أمثالًا كثيرة إلى لقمان، وهو من قدماء الحكماء، يشبه شاعرًا حكيمًا بنحو هذا الاسم عند اليونان Aleman من أهل القرن السابع قبل الميلاد وهو من أقدم من نظم الشعر الغنائي عندهم.

(٢) الأمثال المبنية على الحوادث وهي خاصة بهم؛ لأن الحوادث جرت لهم، كقولهم: وافق شن طبقه، وقطعت جهيزة قول كل خطيب، والصيف ضيعت اللبن، وسبق السيف العذل، وهم يؤثرون تلك الأمثال عن قائليها، وقد يروون عشرات من الأمثال قالها الواحد في حادثة واحدة كما رووا في حادثة الزباء وقصير وجذيمة الأبرش[٦] فذكروا أثناء هذه الحادثة عشرات من الأقوال ذهبت مثلًا؛ منها: قول قصير «رأي فاتر وعدو حاضر» وقوله: «رأيك في الكن لا في الضح» و«ما ضل من تجري به العصا» وقول الزباء: «لأمر

ما جدع قصير أنفه» و«بيدي لا بيد عمرو» ونحو ذلك، وهذه الأمثال وأشباهها كثيرة في أقوال الجاهلية.

كتب الأمثال

وقد عني العرب بجمع الأمثال؛ لأنها من جملة ما احتاجوا إليه في تحقيق ألفاظ اللغة، ذكر ابن النديم أن عبيد بن شربة من أهل اليمن ألف كتابًا في الأمثال في خمسين ورقة بأواخر القرن الأول للهجرة، وهو أول من فعل ذلك، وقد ضاع هذا الكتاب، واشتغل كثيرون من أدباء البصرة والكوفة في إبان التمدن الإسلامي بجمع أمثال العرب منهم صحار العبدي كان معاصرًا لابن شربة[٧] ويونس النحوي المتوفى سنة ١٨٢هـ وأبو عبيدة سنة ٢١١هـ وثعلب سنة ٢٩١هـ وأبو عبيد القاسم بن سلام سنة ٢٢٣هـ والمفضل الضبي وأبو هلال العسكري ومحمد بن زياد الأعرابي ومحمد بن حبيب البغدادي وحمزة الأصفهاني وغيرهم.

وقد شرح هذه الكتب كثيرون وأضافوا إليها من الأمثال الحادثة في الإسلام، وأهم هذه الكتب الباقية إلى الآن كتاب المستقصى للزمخشري (توفي سنة ٥٣٨هـ) ومجمع الأمثال للميداني (توفي سنة ٥١٨هـ)، وفي مجمع الأمثال نخبة ما احتوته كتب المتقدمين، جمعه مؤلفه من نحو خمسين كتابًا في الأمثال ورتبه على حروف المعجم بعد أن أضاف إليه أمثال المولدين، وهو أجمع كتاب في الأمثال العربية وفيه شروح لطيفة، وقد طبع مرارًا بمصر والشام وغيرهما، أما المستقصى للزمخشري، فمنه نسخ خطية في مكتبة ليدن وفيينا والمتحف البريطاني وكوبرلي بالآستانة ودار الكتب المصرية …

أما كتب الأمثال الأصلية التي أخذ عنها الميداني، والزمخشري فالباقي منها قليل أهمها كتاب الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام طبع في غوتنجن سنة ١٨٣٦ وأمثال العرب للضبي طبع في الآستانة سنة ١٣٠٠هـ وجمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري طبعت في الهند سنة ١٣٠٧، وأمثال لقمان طبعت مرارًا في أوربا ومصر منها طبعة في باريس سنة ١٨٤٧ مع ترجمة فرنسية، ونجد كثيرًا من أمثال العرب في كتب الآمالي وكتب اللغة وكتب الأدب ونحوها …

هوامش

(١) البيان والتبيين ١١ ج١.
(٢) «ذو» يعني «الذي» في لغة طيء.
(٣) المزهر ٢٣٤ ج١.
(٤) الأغاني ٦٣ ج٦.
(٥) الأغاني ١٤٣ ج٢.
(٦) ابن الأثير ١٤٩ ج١.
(٧) الفهرست ٩٠.

الشعر في العصر الجاهلي

(١) ما هو الشعر؟

الشعر من الفنون الجميلة التي يسميها العرب الآداب الرفيعة، وهي الحفر والرسم والموسيقى والشعر، ومرجعها إلى تصوير جمال الطبيعة، فالحفر يصورها بارزة، والرسم يصورها مسطحة بالأشكال والخطوط والألوان، والشعر يصورها بالخيال ويعبر عن إعجابنا بها وارتياحنا إليها بالألفاظ … فهو لغة النفس أو هو صور ظاهرة لحقائق غير ظاهرة، والموسيقى كالشعر … هو يعبر عن جمال الطبيعة بالألفاظ والمعاني، وهي تعبر عنه بالأنغام والألحان، وكلاهما في الأصل شيء واحد …

هذا هو تعريف الشعر في حقيقته، ولكن علماء العروض من العرب يريدون بالشعر الكلام المقفى الموزون فيحصرون حدوده بالألفاظ، وهو تعريف للنظم لا للشعر … وبينهما فرق كبير؛ إذ قد يكون الرجل شاعرًا ولا يحسن النظم، وقد يكون ناظمًا وليس في نظمه شعر … وإن كان الوزن والقافية يزيدان الشعر طلاوة ووقعًا في النفس، فالنظم هو القالب الذي يسبك فيه الشعر، ويجوز سبكه في النثر.

وقد تقدم ابن خلدون خطوة أخرى في تعريف الشعر، فقال: «الشعر هو الكلام المبني على الاستعارة والأوصاف، المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده، الجاري على أساليب العرب المخصوصة به»، فهو يجعل التقفية والوزن من شروط الشعر، ويشترط أيضًا استقلال كل بيت منها بغرضه، وهو تقييد لا باعث له؛ إذ قد ترى في الكلام المنثور معاني تؤثر في نفسك تأثير الشعر، وذلك كثير في كلامهم، والحكم فيه للذوق، ومن أصعب الأمور أن نعرف الشعر ونجعل له حدودًا جامعة مانعة، كما نعرف الصرف أو النحو أو الفلك أو غيرها من

العلوم والآداب، ولكنك إذا قرأت قولًا فيه خيال شعري، تعرفت الشاعرية فيه وشعرت بلذة ذلك التعرف وطربت له، وقد يكون ذلك النثر قولًا وإنما أطربك ما فيه من أساليب الكتابة أو الاستعارة ... فإذا سبكته في قالب شعري زاد رونقًا وطلاوة، فإذا غنيته على توقيع الألحان زدت طربًا به، فالوزن يزيد الشعر طلاوة من قبيل التوقيع الموسيقي في الألفاظ والحركات لا من قبيل المعنى.

فإذا قرأنا لبعضهم نثرًا يصف به ذهوله في الحب، فيقول: «إذا جئت دار الحبيب ليلًا لحاجة لي التمسها، فلا أدخل الدار حتى أنسى ما جئت له» فهذا معنى شعري ترتاح إليه النفس، لكن ارتياحها يكون أكثر إذا نظم ذلك المعنى شعرًا كقول المجنون:

فيا ليلَ كم من حاجة لي مهمة إذا جئتكم بالليل لم أدرِ ما هيا

ويكون وقعه في النفس أشد إذا غني على لحن مطرب.

وعلى ذلك فيدخل في الشعر كثير من أقوال العرب التي نعدها من قبيل الأمثال أو الحكم المأثورة المبنية على الكناية كقولهم: المرء بأصغريه لا ببرديه، وعاد الأمر إلى نصابه، وصاحت عصافير بطنه، ونحو ذلك.

فالشعر بالمعنى لا بالوزن والقافية ... وقد رأينا بعض متقدمي العرب يرون هذا الرأي في تعريف الشعر؛ فقد قال بعضهم: «الشعر كلام وأجوده أشعره»[١] ولم يقيده بالوزن ولا القافية، وقال آخر: «الشعر شيء تجيش به صدورنا، فتقذفه على ألسنتنا».[٢]

(٢) أنواع الشعر

العرب يقسمون الشعر إلى الفخر والحماسة والمدح والرثاء والعتاب والغزل والتشبيب وغيرها من الأغراض، وهذه كلها في نظر الشاعر غير العربي نوع من أنواع الشعر يسمونه الشعر الغنائي أو الموسيقي؛ لأن مرجعه إلى التأثير على النفس تأثير الموسيقى.

ويقسم الشعر عند الإفرنج إلى ثلاثة أنواع:

(١) الشعر القصصي Epique.
(٢) الشعر الغنائي Lyrique.
(٣) الشعر التمثيلي Dramatique.

(٢-١) الشعر القصصي

فالشعر القصصي أقدمها، وهو عبارة عن سرد الوقائع أو الحوادث في الشعر (موزونًا أو غير موزون) على سبيل القصة، وأكثرها دينية، وأبطالها الآلهة ومعظم حوادثها عنهم وبهم، وإذا تدبرت الشعر عند سائر الأمم وجدته أقدم آدابها، وأقدمه الديني المتعلق بالآلهة وأعمالهم كما في إلياذة هوميروس عند اليونان ومهابهارتة الهند، ومن هذا القبيل بعض الأشعار العبرانية كسفر داود ونشيد الأناشيد فإنها شعر ديني لكنها ليست من النوع القصصي بل من الموسيقي ...؛ لأن الشعر القصصي نادر في أشعار الساميين على الإجمال إلا السريان، فإن القديس أفرام نظم شيئًا منه ولعله اقتبسه من اليونان.[٣]

أما العرب فيخالفون العبرانيين من حيث الشعر الديني؛ لأنه لم يكن عندهم في الجاهلية كما كان عند العبرانيين، ولا يعقل أنهم خالفوا إخوانهم فيه، ولا بد من أنهم نظموا الأشعار ... خاطبوا بها هبل واللات والعزى وغيرها، واستعطفوها وصلوا لها وتخشعوا أمامها، ولكن منظوماتهم في هذا الموضوع ضاعت في ثنايا الأجيال؛ لعدم تدوينها ولاشتغالهم عنها بالحماسة والفخر بسبب الحروب التي قامت بينهم قبيل الإسلام، فلما جاء الإسلام انصرف الرواة عن حفظها؛ لأنها وثنية والإسلام يمحو ما كان قبله، فاكتفوا بتدوين أشعار الحماسة والفخر، ولكن بقي من الأشعار الدينية أمثلة قليلة جاء ذكرها عرضًا في تراجم بعض الشعراء كأمية بن أبي الصلت وغيره.

(٢-٢) الشعر الغنائي

قضى اليونان بضعة قرون وليس عندهم غير الشعر القصصي، وفيه أخبار آلهتهم وحروبها وعلاقاتها بالبشر، ثم قالوا الشعر الغنائي وقد نضج عندهم نحو القرن السابع قبل الميلاد على أثر الحوادث السياسية والحروب التي قامت بين الأحزاب اليونانية وتغلب فيها الشعب على الأشراف كما تقدم، فهاج الظفر قرائحهم وأعقب ذلك التنازع بين الإسبارطيين والمسينيين وبين يونان آسيا الصغرى وجيرانهم فذاقوا لذة التغلب، فجاش في صدور الشعراء إحساس لم يتعودوه من قبل، كما أصاب العرب الحجازيين على أثر خروجهم من سلطة الحميريين، ثم بما قام بينهم من النزاع والحروب في القرون الأولى قبل الإسلام، فإنها أنطقتهم وحركت نفوسهم كما سيجيء.

فأصبح اليونان في القرن السابع قبل الميلاد أهل دولة وتمدن ورخاء فصاروا في حاجة إلى شعراء يحضونهم على الثبات في الحرب أو يمدحون بسالتهم ويطرون أعمالهم

ويصفون حضارتهم … فظهر الشعر الغنائي أو الموسيقي وفيه المدح والهجاء والحماسة والفخر والرثاء، ووضعوا الأوزان الجديدة له، وطبيعي أن الظفر يبعث على المدح، والموت يولد الرثاء، والحب يستدعي النسيب والغزل، فصار ملوك اليونان وكبراؤهم يقربون الشعراء الغنائيين؛ لسماع المدح كما فعل العرب في إبان دولتهم، فكثر الشعراء الغنائيون عندهم وأستاذهم بندار، وشاع الشعر الغنائي فيهم، فاشتغلوا به عن الشعر القصصي … كأنهم اشتغلوا بإثارة العواطف والحث على الفضائل عن تقرير الحقائق وسرد الحوادث.

(٢-٣) الشعر التمثيلي

ثم رأوا الكلام وحده لا يكفي لتحريك العواطف وتمثيل الفضائل، فعمدوا إلى تمثيلها للعيان بحوادث اخترعوها يؤدي سردها أو تمثيلها إلى مغزى ما يريدون، فبدلًا من أن يمدح شاعرهم الشجاعة مثلًا ويحببها إلى الأبطال ببلاغة البيان الشعري، عمدوا إلى نظم قصة تظهر فضل هذه المنقبة يمثلونها على مشهد من الناس؛ لتكون أوقع في النفس وأثبت في الذهن، وسموا هذا النوع من الشعر «الشعر التمثيلي Drame».

ويراد بالشعر التمثيلي في أصل وضعه تمثيل الوقائع التي ترمي إلى الموعظة أو الحكمة سواء مثلت على المسرح أو لم تمثل،[٤] وفي الشعر القصصي شيء منه؛ لأن إلياذة هوميروس لا تخلو من مشاهد تمثيلية، ولكن الشعراء بدءوا في نظمهم أولًا بالشعر الخيالي التصويري المحض؛ إذ هاج شاعريتهم التخشع للآلهة، وكانوا يغنون لهم ويرقصون في غنائهم على توقيع الألحان، فتصوروا الوزن من حركات الرقص، وذلك أصل النظم عندهم، وكان أول منظوماتهم أقاصيص الآلهة وأعمالهم، ثم تدرجوا إلى وصف الواقع … فبدءوا بالعواطف يعبرون عنها بالشعر الغنائي، ثم عمدوا إلى تمثيل الفضائل والرذائل على المسارح للاستفادة منها وهو الشعر التمثيلي.

هل عند العرب شعر تمثيلي؟

قد رأيت أن الشعر التمثيلي هو الوجهة العملية من الشعر التي يراد بها تمثيل الفضائل أو الرذائل للعين، والعرب مثل سائر الساميين أكثر ميلًا إلى الخيال والتصور، فلم يلتفتوا إلى التمثيل أو على الأقل لم نعثر بين ما وصلنا من آدابهم قبل الإسلام على شيء من الشعر التمثيلي على سبيل المحاورة أو التمثيل، كما هو الحال عند اليونان أو من أخذ عنهم … فهل كان عندهم وفقد؟

إذا أمعنا النظر فيما خلفه العرب من أخبارهم وآدابهم وجدناه لا يخلو من التمثيل بأعم معانيه وإن لم يكن شعرًا مجردًا بل هو مزيج من الشعر والنثر، وقد وصل إلينا في قالب القصص والحقائق التاريخية، لكن أكثرها في نظرنا موضوع أو كان له أصل فوسعوه وطولوه ونمقوه؛ ليكون عبرة أو قدوة في الموقف المطلوب، وأكثر تلك القصص ترمي إلى تمثيل الفضائل البدوية التي يقدسها العرب، كالوفاء والضيافة والشجاعة والجوار والعفة والفروسية ونحوها تمثيلًا يحببها إلى الناس ويرغبهم فيها، وجعلوا أبطالها رجالًا من مشاهيرهم في تلك المناقب.

فقصة حاتم الطائي التي ذبح فيها فرسه لضيفه وأبناؤه جياع أقرب إلى أن تكون موضوعة أو مبالغًا فيها؛ للتحريض على السخاء، وقصة السموأل التي قتل فيها ابنه ولم يسلم الأمانة المودعة عنده موضوعة أو موسع فيها؛ لتمثيل الوفاء، وأخبار العذريين في العفة أكثرها موضوع؛ لترغيب الناس في العفة، وقد أجمع الرواة تقريبًا على أن أخبار مجنون ليلى موضوعة أو يراد بها تمثيل العفة مع الثبات على الحب … وهي تشبه من هذا القبيل رواية روميو وجولييت لشكسبير، وقس على ذلك أكثر ما يروونه من هذا النوع، مثل حكاية حنظلة والنعمان بن المنذر، وهم يروونها عن عبيد بن الأبرص أيضًا، كأن المراد المغزى وهو الترغيب في الوفاء، ونسبة هذه الحوادث إلى أشخاص معروفين في التاريخ لا يطعن في أن المراد بها التمثيل، وهذه قصة عنترة فإن صاحبها شاعر شجاع معروف فوسعوا قصته وأضافوا إليها ما يرغب في الشجاعة والفروسية.

أما السريانيون فالتمثيل غير أصلي في آدابهم، وإنما اتخذوه في جملة آدابهم الدينية من اليونان، وكانت منظوماتهم في أول أمرها بغير قافية، ثم قفوها بعد الإسلام … فلعلهم اقتبسوا ذلك من العرب.

والخلاصة أن الشعر العربي أكثره من الشعر الغنائي، وهو أرقى في العربية منه في سائر اللغات، وليس في الدنيا امة تضاهي العرب في كثرة الشعر والشعراء.

أقدم منظومات العالم

المشهور أن إلياذة هوميروس أقدم ديوان شعري؛ لأنه نظم نحو القرن التاسع قبل الميلاد وهو ١٤٠٠٠ بيت، ولكن هناك كتابين نظما نحو ذلك الزمن أو قبله: أحدهما الفيدا كتاب البراهمة وهو من قبيل الشعر الموسيقي، ويقال: إنه نظم نحو القرن الثاني عشر ق.م، وزبور داود نظم نحو القرن العاشر، ولعله عاصر صاحب الإلياذة، وللمصريين

القدماء منظومات ترتقي إلى عهد رمسيس الثاني نحو القرن الرابع عشر قبل الميلاد، ولكن سفر أيوب أقدم من ذلك ببضعة قرون، فإذا صح أنه عربي الأصل كان أقدم الآثار الشعرية الباقية إلى الآن عربي الأصل.

(٣) كيف بدأ العرب ينظمون الشعر؟

(٣-١) الشعر والغناء

يظهر أن الشعر والغناء من أصل واحد عند جميع الأمم، والشعر وضع أولًا للتغني به وإنشاده للآلهة أو الملوك، ولذلك فاليونان والرومان يقولون: «غنى شعرًا» لا «نظم شعرًا» أو «وضع شعرًا» والعرب يقولون: «أنشد شعرًا» أو أنشد الشعر الفلاني أي غناه، وقضى اليونان أجيالًا لا يقولون الشعر إلا إنشادًا، ولعل العرب كانوا كذلك في أقدم أحوالهم، فنبغ منهم جماعة يغنون شعرهم كما فعل الأعشى قبيل الإسلام؛ فقد كان ينظم الشعر ويغنيه، ولذلك سموه صناجة العرب، وما زال ذلك شأنهم بعد الإسلام، فإن الشاعر إذا جاء الخليفة أو الأمير بقصيدة أنشدها في حضرته وهو قائم، فإذا لم يكن صوته رخيمًا أو مسموعًا اقتنى غلامًا رخيم الصوت ينشد أشعاره، وللإنشاد لحن مطرب، وكان الرشيد يطرب للإنشاد أكثر مما يطرب للغناء، واشتهر بعد الإسلام جماعة من الشعراء المغنين كالدرامي، وسلامة وإسحق الموصلي وغيرهم.

والغالب أنهم بدأوا أولًا بالسجع بلا وزن نحو ما وصل إلينا من سجع الكهان، وربما كان الكهان يغنونه توقيعًا على القافية، ومن أمثلة سجعهم قولهم في الأنواء: «إذا طلع السرطان استوى الزمان وحضرت الأوطان وتهادت الجيران. إذا طلع النجم — يعني الثريا — فالحر في حدم والشعب في حطم. إذا طلع الدبران توقدت الحزان وكرهت النيران ويبست الغدران ورمت بأنفسها حيث شاءت الصبيان. إذا طلعت الهقعة تقوض الناس للقلعة ورجعوا عن النجعة وأردفتها الهنعة، إذا طلعت الجوزاء توقدت المعزاء وكنست الظباء وعرقت العلباء وطاب الخباء، إذا طلعت الذراع حسرت الشمس القناع واشتعلت في الأفق الشعاع وترقرق السراب بكل قاع …» وهي طويلة.

هذا هو السجع بقافية بلا وزن، وكان العرب يتساجعون أي يتذاكرون بالسجع، ولعلهم وضعوا السجع أولًا لتقييد علومهم أو ما يريدون حفظه كما في المثل المتقدم ذكره.

أما النظم أي القياس بالمقاطع وهو الوزن، فأبسطه الرجز وهو أقدم أوزان الشعر ... كل بيت منه ينفرد بقافية خاصة، وهو كالسجع لكنه موزون، والرجز قديم عندهم، يزعم العرب أن أول من قاله مضر بن نزار؛ إذ سقط عن جمل فانكسرت يده فحملوه وهو يقول «وا يداه وا يداه» وكان من أحسن خلق الله صوتا فأصغت الإبل إليه وجدت في السير، فجعلت العرب مثالًا لقوله «هايدا هايدا» يحدون بها الإبل، وقال آخرون: إن الأصل في وضع الشعر الغناء، قالوا «وكان الكلام كله منثورًا، فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها وطيب أعراقها وذكر أيامها الصالحة وأوطانها النازحة وفرسانها الأمجاد وسمحائها الأجواد؛ لتهز نفوسها إلى الكرم، وتدل أبناءها على حسن الشيم، فتوهموا أعاريض جعلوها موازين للكلام، فلما تم لهم وزنه سموه شعرًا؛ لأنهم شعروا به أي فطنوا له».

(٣-٢) أصل وزن الشعر

والغالب في اعتقادنا أن الوزن مأخوذ في الأصل من توقيع سير الجمال في الصحراء، وتقطيعه يوافق وقع خطاها، ويؤيد ذلك أن الرجز أول ما استعمله العرب لسوق الجمال وهو الحداء في اصطلاحهم، وكأنه وضع لهذا الغرض؛ لأن العربي يقضي أكثر أوقاته في معاشرة جمله أو ناقته ... وعندهم ضربان من الرجز: المشطور، والمنهوك، والمشطور هذا وزنه:

دع المطايا تنسم الجنوبا   إن لها لنبأ عجيبا
حنينها وما اشتكت لغوبا   يشهد أن قد فارقت حبيبا
ما حملت إلا فتى كئيبا   يسر مما أعلنت نصيبا
لو ترك الشوق لنا قلوبا   إذا لآثرنا بهن النيبا[٥]
إن الغريب يسعد الغريبا

وهو يشبه بتوقيعه على مقاطعه مشي الجمال الهوينا، ولو ركبت ناقة ومشت بك الهوينا، لرأيت مشيتها يشبه وزن هذا الشعر تمامًا، فكان العرب يحدونها به إذا أرادوا سيرها وئيدًا، وربما كان شاعرهم عاشقًا فيتذكر حبيبته وهو يسوق ناقته، فيحدوها بأبيات على وزن الرجز ... كذلك فعل جميل بثينة وكان في سفر إلى الحج مع مروان بن الحكم ... فطلب إليه مروان أن يسوق الجمال أي يحدوها فقال:

يا بثن حيِّي أو عدينا أو صِلي وهوني الأمر فزوري واعجلي
بثين أيا ما أردت فافعلي إني لآتي ما أبأت مقتلي[٦]

فلم يقبل مروان أن يتغزل بالحدو وإنما يطلب الخلفاء والأمراء إذا ركبوا الإبل أن يحدوها الحادي برجز في مدحهم، خرج عبد الملك يومًا رائحًا على نجيب ومعه حاد يحدوه بقوله:

يا أيها البكر[٧] الذي أراكا عليك سهل الأرض في ممشاكا
ويحك هل تعلم من علاكا إن ابن مروان علا ذراكا
خليفة الله الذي امتطاكا لم يَعْلُ بكرا مثل ما علاكا

أما إذا أراد الحادي أن تسرع الجمال في السير، حدا لها بالرجز المنهوك وهذا وزنه:

أعطيته ما سألا حكَّمته لو عدلا
قلبي به في شغل لا ملَّ ذاك الشغلا
قيده الحب كما قيد راع جملا[٨]

واعتبر ذلك في بحر الخبب من الشعر، فإنه يوافق في توقيعه خبب الفرس أي ركضه وهذا وزنه:

أبكيت على طلل طربا فشجاك وأحزنك الطلل

أوزان الشعر

ثم وضعوا الأوزان والبحور حسب الاقتضاء كل منها لحال من الأحوال … بعضها يوافق الشعر الحماسي والبعض الآخر يوافق الرثاء أو الغزل … فالبحر الطويل يوافق نظم الشعر الحماسي ويوافق الوافر الفخر، والرمل الحزن والفرح، ويلائم السريع العواطف وقس على ذلك:[٩]

فالرجز أقدم أبحر الشعر، وكان الشاعر يقول منه البيتين والثلاثة ونحو ذلك إذا حارب أو فاخر، ثم صاروا يطيلون النظم فيه، ويقال: إن أول من أطاله الأغلب العجلي

على عهد النبي ثم رؤبة بن العجاج، وتفننوا في بحر الرجز فتعددت أوزانه، واخترعوا أبحرًا غيرها، وصاروا ينظمون الأراجيز الطوال ويريدون بها ما زادت أبياتها على عشرة.

أما غير الرجز من أبحر الشعر، فكانوا أولًا ينظمون منه المقاطيع القصيرة عند الحاجة … حتى إذا تحركت نفوس العرب بالحروب بعد استقلالها من اليمن كما سيجيء، وظهر فيها الأبطال والفرسان، احتاجوا إلى الشعر فأطالوا فيه، فظهرت القصائد، وأول من أطالها المهلهل أخو كليب، وأول قصيدة قالها في قتل أخيه المذكور … فهو لم يفعل ذلك إلا بعد أن حركه طلب الثأر، وهو أول شاعر بلغت قصائده ثلاثين بيتًا من الشعر واقتدى به سواه، ثم كان للنظم تاريخ بعد الإسلام.

الألحان

ولما وضعوا الأوزان صار للغناء عندهم ألحان معينة فجعلوا لكل غناء أو لحن وزنًا مخصوصًا فصار عندهم للرثاء وزن وللحماسة آخر، فالنصب غناء الركبان والفتيان ويقال له: الجنابي، اشتقه رجل من كلب يقال له: جناب، وهو يخرج من أصل الطويل في العروض، والسناد هو الغناء ذو الترجيع الكثير النغمات، والهزج هو الغناء الخفيف الذي يرقصون عليه فيطرب، ويستخف الحليم[١٠] وظلوا بعد الإسلام يختصون كل لحن بوزن.[١١]

(٤) شاعرية العرب

ما قدمنا كان بداية النظم عند العرب على ما نظن … وكان ذلك طبعًا في زمن بعيد لا يدرك أوله التاريخ، ومهما يكن من سبب النظم فإن العرب أقوى الأمم شاعرية وأقدرهم على النظم في الشعر الغنائي بلا خوف … يدلك على ذلك عدد شعرائهم وضروب شعرهم في قرن واحد وبعض القرن قبيل الهجرة، ولذلك أسباب طبيعية؛ أهمها:

أولًا: أن العربي بفطرته ذو نفس حساسة وشعور راقٍ وأريحية وأنفة، سريع الطرب، سريع الغضب، فيه بديهة وارتجال، ومن كان هذا شأنه لا يلبث حين يجيش صدره بمعنى أن يلفظه لسانه … ولذلك كان أكثر شعرهم غنائيًّا أو موسيقيًّا، يعبرون به عن إحساسهم ويصورون به شعورهم وهو يصدر عن أحد أربعة فواعل: الرغبة، والرهبة، والطرب، والغلب …

ثانيًا: أن لغتهم شعرية؛ لما فيها من أساليب الكناية والاستعارة ودقة التعبير وكثرة المترادفات مما يسهل وجود القافية … فالعربي من أنطق الأمم ولغته أوسع اللغات ولفظها أدل من سائر الألفاظ وفيها الأمثال والحكم … وللغة شأن كبير في تسهيل النظم حتى على أبناء البلد الواحد والنسب الواحد … فالعرب مع اشتراكهم في الطبائع والحس ودقة الشعور والشاعرية، يلاحظ أن الذين كانوا منهم يتكلمون غير لسان مضر (المبين) لم ينظموا الشعر — فإن هذا اللسان ويقال له لسان معد كان شائعًا في معظم الجزيرة العربية إلا اليمن ومهرة وعمان، وقد انتشرت الشاعرية بين المتكلمين بهذا اللسان في الحجاز ونجد وإن لم يكونوا عربًا، حتى اليهود والعبيد من الزنج والنوبة، واعتبر ذلك بعد الإسلام بانتشار اللغة العربية في الأقطار؛ فقد نبغ فيها شعراء أصلهم من الروم والفرس والترك والبربر وغيرهم، وذلك من تأثير اللسان.

ثالثًا: صفاء جوهم وتفرغهم للتأمل في الطبيعة، فإن أهل الجو الصافي تكون أذهانهم صافية، وخصوصًا إذا كانوا أهل خيال وتصور مثل العرب … فيزيدهم الصفاء شاعرية، ولا سيما إذا كانوا متفرغين للنظر في الوجود ومراقبة أحوال الطبيعة كما كان العرب في بداوتهم، غير ما بعثهم على قول الشعر من المنافسات والحروب في أيامهم وغيرها كما سنفصله فيما يلي.

هوامش

(١) الأغاني ١٢٤ ج١٨، ٦٠ ج٢١.

(٢) البيان والتبيين ١٧٢ ج٢.

(٣) Lit Syr. 20.

(٤) Ence, Brit. XIX. 263, Lit Anc. 56.

(٥) النيب: النوق.

(٦) أبأ: استحل.

(٧) البكر: الفتي من الإبل.

(٨) العقد الفريد ١٦١ ج٣.

(٩) الإلياذة العربية ٩٠.

(١٠) العمدة ٢٤١ ج٢.

(١١) الأغاني ١٠٥ ج١.

نهضة الشعر في الجاهلية

(١) أسباب النهضة

قضى العرب أجيالًا لا يعرف مقدارها إلا الله وهم يقولون الشعر عند الحاجة مما لم يصل إلينا خبره، وإنما وصل إلينا بعض ما نظموه في النهضة الأخيرة قبيل الإسلام … والنهضة في الشعر أو الأدب أو العلم تحدث على أثر انقلاب سياسي من فتح أو حرب أو نصر، أو تغيير اجتماعي على أثر نكبة أو نازلة أو كل ما يثير العواطف، وهي قاعدة تشمل طبائع البشر في كل زمان ومكان … فالهنود القدماء لم ينظموا أناشيدهم السنسكريتية إلا بعد ما لاقوه من الحروب والتنازع في أثناء نزولهم الهند قبل الميلاد بأجيال، واليونان ما زالوا على الشعر القصصي وشعراؤهم قليلون، حتى قامت الفتن بينهم وتحاربوا، ثم حاربوا الفرس وغيرهم فنبغ فيهم الشعراء الغنائيون، وظل الرومان بعد تأسيس دولتهم نحو ٢٤٠ سنة في جمود أدبي لم يظهر فيهم شاعر، حتى كانت الحروب مع القرطاجنيين فتفتقت قرائحهم وظهر فيهم الشعر، وقضت أمم أوربا أجيالًا في القرون الوسطى وقرائحهم خامدة، فلما خرجوا للحرب الصليبية وقاسوا ما قاسوه فيها ظهرت مواهبهم في الشعر ونبغ فيهم شكسبير ودانتي وغيرهما، وترى أشعار الأمة في نهضتها صورة من صور أحوالها على أثر ذلك الانقلاب … فإن كانت هي الظافرة فيه، كثر شعرها الحماسي والفخري، وإذا كانت المغلوبة كان شعرها أكثره في الرثاء كما فعل اليهود بعد أسرهم في بابل بمراثي أرمياء وغيره، والشعر يوجبه الحب والحرب والموت.

(١-١) استقلال عرب الحجاز عن اليمن

والعرب شأنهم في نهضتهم الشعرية قبل الإسلام مثل شئون سائر الأمم ... ونريد بالعرب هنا بدو الحجاز ونجد وما جاورهما، فكانوا قبل هذه النهضة ينظمون قلة ولا نظنهم كانوا يجيدون النظم، وهم تحت سيطرة الحميريين ملوك اليمن يخدمونهم في نقل تجارتهم، وكانت دولة اليمن تستأجرهم في حروبها كما يفعل أهل المدن اليوم بأهل البادية، وكانوا يؤدون لها الإتاوة «الخراج» وقد رسخ في اعتقادهم عظمة تلك الدولة؛ لما فيها من أسباب الحضارة، فأصبحوا بتوالي الأجيال يعدون الإذعان لها فرضًا، فلما رأوا ما أصابها في حروبها مع الحبشة في أواسط القرن الرابع للميلاد؛ إذ فتحها الأحباش بمساعدة قيصر الروم سنة ٣٤٥م[١] تبين لهم عجزها عن حفظ سيادتها وذهبت هيبتها من قلوبهم ... فأخذوا يفكرون في الخروج من سيطرتها والإمساك عن دفع الإتاوة، وأحسوا بالحاجة إلى الاتحاد.

وأول من كسر هذا القيد من قبائل العرب قبيلة ربيعة، على يد فارسها كليب الشجاع المشهور، وكان معاصرًا لزهير بن جناب الذي ولاه صاحب اليمن على بكر وتغلب أكبر قبائل ربيعة، وكان زهير يتقاضى الإتاوة أو الخراج منهم في مقابل النجعة والكلأ والمرعى، وكان يخرج في حاشيته لجمع الإتاوة فأصابهم في أثناء إمارته ضيق وأمحلت أرضهم فتأخروا عن الدفع، فجاءهم زهير وألح في مطالبتهم فشكوا عجزهم وأبانوا عذرهم فلم يصغ لشكواهم، ومنعهم النجعة والمرعى أو يؤدوا ما عليهم، فصبروا حتى كادت مواشيهم تهلك، وكانت هيبة الدولة قد ذهبت من نفوسهم، فلما أصابهم ذلك الظلم شقوا عصا الطاعة ونقموا على زهير ورجاله فدسوا رجلًا منهم اسمه زيابة من بني تيم الله وكان فاتكًا، وأوعزوا إليه أن يقتل زهيرًا غدرًا وطعنه ورجع إلى قومه وأخبرهم أنه قتله، والحقيقة أن السيف مر بجانب البطن ولم يصب من زهير مقتلًا، وعلم هذا أنه سالم، فلم يتحرك لئلا يجهز عليه، فلما انصرف زيابة أوعز زهير لمن معه أن يظهروا موته ويستأذنوا بكرًا وتغلب في دفنه، فلما أذنوا دفنوا ثيابًا ملفوفة وفروا به مجدين إلى قومهم ... وجمع زهير الجموع، وفي ذلك يقول ابن زيابة:

طعنة ما طعنتُ في غَلَس الليـ ـل زهيرًا وقد توالى الخصوم
حين تَحمى له المواسم بَكرٌ أين بكر وأين منها الحلوم

خانني السيف إذ طعنت زهيرًا   وهو سيف مضللٌ مشؤوم

وجمع زهير من قدر عليه من أهل اليمن وغزا بكرًا وتغلبَ وقاتلهم قتالًا شديدًا انهزمت فيه بكر، وقاتلت تغلب بعدها، ثم انهزمت وأسر كليب ومهلهل ابنا ربيعة وأخذت الأموال وكثرت القتلى في بني تغلب، وأسر جماعة من وجوههم وفرسانهم …

فعظم ذلك على قبائل ربيعة وتجمهروا وولوا عليهم ربيعة والد كليب ومهلهل وخرجوا على زهير وأنقذوا الأسيرين منه ودارت الأيام وعاد زهير إلى سطوته فوضع الإتاوة والخراج على بني معد جميعًا.

وفي أواخر القرن الخامس توفي ربيعة أمير تغلب، فخلفه ابنه كليب وفي نفسه على اليمن ضغائن؛ لما قاساه في أسرهم … فجمع معدًا تحت لوائه — أي ربيعة وقضاعة ومضر وإياد ونزار — وحاربوا اليمن في معركة عُرفت بيوم خزاز، فهزموهم واستقلوا عن سيطرتهم، ولم يدفعوا إليهم إتاوة أو خراجًا من ذلك الحين، ونظرت معد إلى كليب نظرها إلى منقذ عظيم، فولوه المُلك عليهم وجعلوا له قسم الملك وتاجه وطاعته، وكان ذلك آخر عهدهم بسلطان اليمن.

(١-٢) حروبهم فيما بينهم

واستقلال عرب الحجاز ونجد من سيطرة اليمن انقلاب سياسي، هاج شاعريتهم وأيقظ ما فطروا عليه من عزة النفس وإباء الضيم … فأخذوا يختلفون فيما بينهم؛ لأن سيطرة اليمن كانت قد جمعتهم قيودها، فلما أطلق سراحهم تنازعوا، فجرت بينهم حروب تُعرف بأيام العرب قد فصلناها في كتابنا «العرب قبل الإسلام» وأكثرها حدة وأطولها مدة الوقائع بين بكر وتغلب، وكلاهما من ربيعة وهي حرب البسوس بين مهلهل وجساس، دام النزاع فيها أربعين سنة مات في أثنائها الشيوخ وشاخ الشبان وشب الولدان، وفي أثنائها نبغ مهلهل أخو كليب وشهد تلك الحروب، وكان شاعرًا مطبوعًا فتوسط في المصالحة بين القبيلتين وله شأن في تاريخ الشعر … ناهيك بالحروب التي جرت بين قبائل مضر، أشهرها أيام داحس والغبراء وغيرها.

(١-٣) نهضة قريش

وقد أنهض قريشًا على الخصوص وأثار شاعريتهم وشحذ قرائحهم حروبهم مع الأحباش في عام الفيل في أواسط القرن الأول قبل الهجرة … فإن الأحباش لما فتحوا اليمن حملوا على مكة للاستيلاء على الكعبة … وكانت سدانتها يومئذ إلى عبد المطلب جد الرسول، فجاء الأحباش بأفيالهم ورجالهم وعدتهم، وأهل مكة لم يتعودوا شيئًا من ذلك؛ لما للكعبة من المنزلة الرفيعة في أنفس القبائل وغيرهم، فلما رأوا الأحباش قادمين شعروا بما يهددهم من الخطر وأحسوا بافتقارهم إلى الاتحاد؛ لدفع الأجانب، فدفعوا الأحباش وقد تنبهت أذهانهم وأخذت مواهبهم في الظهور، ومما يدل على شدة تأثير ذلك الهجوم في نفوسهم إنهم جعلوا يؤرخون به وهو عام الفيل.

وبعد عام الفيل حدثت حرب الفجار بين قريش وكنانة وقيس، وكان لها تأثير كبير في نفوس القرشيين فساعدتهم على تلك النهضة.

فهذه الحروب والفتن أظهرت مواهب الرجال، فتولدت طبقة من الحكماء وأخرى من الأسخياء، وأخرى من الفرسان والشجعان، وأيقظت الشاعرية الحماسية والفخرية … فنبغ منهم الشعراء على اختلاف القبائل والبطون لمدح الظافرين أو وصف بسالتهم أو التفاخر بالقبائل، ورافق ذلك تحاك القبائل وتقاربها أو تباعدها، وتنبهت عاطفة الحب فظهر العشاق من الشعراء … ولذلك كانت منظومات هذه النهضة أكثرها في الفخر والحماسة على أثر واقعة من تلك الوقائع، أو في وصف شوق أو حكمة أو موعظة أو مدح ظافر أو كريم كما ستراه في مكانه.

(٢) أقدم الشعراء

كل ما وصل إلينا من منظومات شعراء الجاهلية نُظم بعد استقلال الحجازيين من سيطرة اليمن، وما وصل إلينا من الشعر قبل ذلك قليل وهو لغير الحجازيين، وأقدم من وصلنا خبرهم من الشعراء أبو دؤاد كان على خيل النعمان، ولقيط شاعر جاهلي قديم، وعلس بن جدن من حمير، وخذيمة بن نهد وزهير بن جناب الكلبي من قضاعة وقد ظهرت قضاعة قبل سائر قبائل عدنان، ويقال أيضًا: إن حزين بن لوزان والربيع بن زياد وذا الإصبع العدواني من أقدم الشعراء[٢] ويقولون: إن أول من قال الشعر في نزار — وهي تشمل مضر وقضاعة — عمرو بن قميئة من ربيعة.[٣]

وللعلماء في أقدم الشعر العربي أقوال لا فائدة من إيرادها؛ لأن أكثرها مبني على الوهم ولا سيما فيما يروونه للآباء الأولين من الشعر … حتى روى بعضهم أشعارًا نسبها إلى آدم! وأرفق منه حالًا من روى للتبابعة، ويطعن في صحتها أن لغة التبابعة حميرية تختلف عن لغتنا كثيرًا، وقد يرد على ذلك بأن الحميري قد يعرف العربية، وينظم فيها، لكن الغالب أنهم لم يفعلوا.

(٣) تنقل الشعر في الأقاليم

من القواعد الثابتة في علم الطبيعة أن للإقليم تأثيرًا في أخلاق الناس وأبدانهم، فيختلفون صحة ونشاطًا وبديهة وذكاءً باختلاف الإقليم، ويقال على الإجمال: إن أهل البادية أصفى ذهنًا من سكان المدن، وأهل البلاد الباردة أسرع حركة ونشاطًا من أهل البلاد الحارة، وفي البلد الواحد يفضل أهل الجبال على أهل السهول نشاطًا وصفاء ذهن.

(٣-١) شعراء نجد

وعلى هذا القياس فإن سكان نجد أقوى بنية وأصفى ذهنًا من سائر سكان جزيرة العرب؛ لأنها بلاد جبلية هواؤها نشيط ونسيمها عليل، وقد تغزل بها العرب فقال قيس بن الملوح:

تمتع من شَميم عرار نَجْدٍ فما بعد العشية من عرار

وقال آخر:

سقى الله نجدًا والسلام على نجد ويا حبذا نجدٌ على القرب والبعد

وفيها الأرض التي حماها كليب وائل، وأفضى ذلك إلى قتله ونشوب حرب البسوس، وفيها جبل عكاد[٤] الذي لم تثبت العربية الفصيحة بعد تمادي الآجال إلا بين أهله، وعندهم أن أفصح العرب أهل السروات، وهي ثلاثة جبال مطلة على تهامة … وأهل نجد أقوى شاعرية من غيرهم من بلاد العرب …

وبناء على اختلاف الأمزجة باختلاف الأقاليم، امتاز أهل كل إقليم من بلاد العرب بباب من أبواب الشعر … فاشتهر أهل الحجاز بالرقة وأكثر شعرهم الغزل،[٥] كما اشتهر

أهل نجد بالبلاغة[6] وقد ذهبوا في الشعر كل مذهب، وإذا أحصيت شعراء الجاهلية الذين بلغنا خبرهم بالنظر إلى المواطن، رأيت نحو خمسيهم من نجد والخمس الثالث من الحجاز والرابع من اليمن والباقي من العراق وفئة قليلة من البحرين واليمامة وتهامة.

(٤) تنقل الشعر في القبائل

ربيعة: أما من حيث القبائل فقد علمت مما تقدم أن ربيعة أول من نهض للاستقلال وهم أول من نبغ في الشعر … وأهم قبائلهم وبطونهم بكر وتغلب وعبد القيس والنمر بن قاسط ويشكر وعجل وضبيعة وشبيان وذهل وسدوس، وكانوا يقيمون قديمًا في اليمن ثم في نجد، ثم نزحت بكر وتغلب وغيرهما نحو العراق … فأقاموا في باديتها وفيما بين النهرين، ونبغ منهم وهم في نجد المهلهل بن ربيعة.

ومن شعراء ربيعة المرقش الأكبر وابن أخيه المرقش الأصغر، والأكبر شاعر قديم يقال: إنه من ربيعة قبل خروجها من اليمن[7] والمرقش الأصغر عم طرفة بن العبد، ومنهم سعد بن مالك وطرفة وعمرو بن قميئة المتقدم أنه أقدم من قال الشعر من نزار، والحارث بن حلزة والمتلمس خال طرفة والأعشى والمسيب بن علس وغيرهم من فحول شعراء الجاهلية، ولما انتقلت ربيعة إلى العراق زادتها مناظر ذلك الوادي سعة في الخيال.

قيس: وتحول الشعر بعد ربيعة إلى قيس عيلان وكلاهما من مضر، وقيس قبيلة كبيرة من بطونها عبس وذبيان وغطفان وعدوان وهوازن وسليم وثقيف وعامر بن صعصعة ونمير وجعدة وقشير وعقيل، وتقيم هذه البطون أو القبائل في نجد وأعالي الحجاز، وقد نبغ منهم جماعة من فحول الشعراء، فمنهم النابغتان وزهير بن أبي سلمى وكعب ابنه ولبيد والحطيئة والشماخ وخداش بن زهير وغيرهم، وعندهم أن أشعر قيس الملقبون من بني عامر والمنسوبون إلى أمهاتهم من غطفان.[8]

تميم: ثم ظهر الشعر في تميم وهي قبيلة كبيرة من مضر أشهر بطونها وقبائلها مازن ومالك وسعد ودارم ويربوع وكعب ومجاشع وزرارة، وكانت تميم قديمًا تقيم في تهامة، ثم نزحت في أواسط القرن الثاني قبل الهجرة نحو العراق واستقرت في باديته وما يليها جنوبًا، ومن شعرائها المشاهير أوس بن حجر شاعر مضر في الجاهلية لم يتقدمه أحد حتى نشأ النابغة وزهير فأخملاه وكلاهما من قيس.

وظهر الشعر بعد ذلك في بطون مدركة من مضر، وهي هذيل وقريش وأسد وكنانة والدئل وغيرهم.

كل هؤلاء من أهل البادية ... أما المدن فإنها قليلة في جزيرة العرب؛ وأهمها مكة والمدينة والطائف، وقلما نبغ منها شعراء فحول، وأشعر أهل المدن في الجاهلية على الإجمال حسان بن ثابت.[٩]

(٤-١) عدد الشعراء بالنظر إلى القبائل

وإذ اعتبرت عدد شعراء الجاهلية بالنظر إلى القبائل، كانت قيس أكثرها شعراء، تليها اليمن فربيعة فمضر فقريش فقضاعة فإياد، وعدد الشعراء في الجاهلية لا يمكن حصره لأسباب سيأتي بيانها، ولكن الذين وصلتنا أخبارهم وأمثلة من أشعارهم يبلغون نحو ١٢٥ شاعرًا، يقسمون على هذه الصورة بالنظر إلى القبائل:

اسم القبيلة	عدد الشعراء
قيس	٣٠
اليمن (القحطانية)	٢٣
ربيعة	٢١
مضر	١٦
تميم	١٢
قريش	١٠
قضاعة	٤
أياد	٢
موال غير عرب	١

ولزيادة الإيضاح نذكر أشهر البطون التي تدخل تحت كل من هذه القبائل؛ لتسهل المراجعة على الباحث:

يدخل في قيس

غطفان – ذبيان – عيس – هوزان – سعد – سليم – ثقيف – عامر – كلاب – جعدة – نمير – عقيل – قشير.

في ربيعة

النمر بن قاسط – عبد القيس – بكن بن وائل – تغلب – يشكر – جشم – حنيفة – عجل – شيبان – سدوس – ذهل – ضبيعة.

في القحطانية

طي – الأشعر – جذام – الأزد – كندة – لخم – مذحج – خزاعة – همدان – غسان – الأوس والخزرج.

في تميم

مازن – سعد – دارم – يربوع – مجاشع – بهدلة – مالك.

في قضاعة

جهينة – ضجعم – تنوخ – كلب.

في مدركة

هذيل – أسد – كنانة – قريش – الدئل.

في قريش

هاشم – أمية – مخزوم – تيم – عدي – سهم – أسد – نوفل – زهرة – جمح.

(٥) كثرة الشعر وتعدد الشعراء

رأيت فيما تقدم استعداد العرب الفطري واقتدارهم على النظم؛ لأن لغتهم شعرية بألفاظها وأساليبها ومعانيها، فلا عجب إذا تعدد شعراؤها وكثرت أشعارهم، وإن عسر علينا تقدير ذلك بالضبط؛ لضياع أكثر ما خلفوه، وذهاب أكثر الشعراء لعدم تدوين ذلك في الجاهلية، واشتغال العرب عنه بالفتوح في صدر الإسلام، على أننا نكتفي بالاستدلال على كثرة ذلك بما وصل إلينا من أخبارهم ويؤخذ منها أن عرب الجاهلية نظموا في نهضتهم الأخيرة قبيل الإسلام ما لم يجتمع عند سواهم في الأمم في عدة قرون، وخصوصًا في العصر الجاهلي ... فإلياذة هوميروس وأوديسته هما معظم شعر جاهلية اليونان، ولا يزيد عدد أبياتهما على ٣٠ ألف بيت، وكذلك مهابهاراتة الهنود ٢٠ ألف بيت، وراماياناتهم ٤٨ ألف بيت، وأما العرب فيؤخذ مما بلغنا من أخبارهم عما نظموه في نهضتهم الأخيرة قبل الإسلام أنه يربو على أضعاف ذلك، وهم يعدون منظوماتهم بالقصائد لا بالأبيات، وقد ذكروا أن أبا تمام صاحب كتاب الحماسة كان يحفظ من أشعار العرب (الجاهلية) ١٤ ألف أرجوزة غير القصائد والمقاطيع[١٠] وكان حماد الراوية يحفظ ٢٧ ألف قصيدة[١١] على كل حرف من حروف الهجاء ألف قصيدة، وكان الأصمعي يحفظ ١٦ ألف أرجوزة[١٢] وكان أبو ضمضم يروي أشعارًا لمائة شاعر كل منهم اسمه عمرو،[١٣] ومع ما يظن في ذلك من المبالغة، فإنه يدل على كثرة ما نظمه العرب من المنظومات، وخصوصًا إذا اعتبرنا أن ما وصل إلى رواة الشعر في الإسلام إنما هو بعض أشعار الجاهلية؛ لأن كثيرين من رواة الشعر الجاهلي قُتلوا في الفتوح الإسلامية ... فضاع ما كان في محفوظهم من الأشعار، قال أبو عمرو بن العلاء: «ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله، ولو جاءكم وافرًا لجاءكم علم وشعر كثير».[١٤]

وزد على ذلك أن العرب نظموا الشعر الكثير وأبدعوا فيه، وهم يكادون يكونون فوضى لا دولة لهم ولا جامعة ولا دين ولا شيء مما حمل اليونان أو الهنود أو غيرهم على النظم، وإنما اندفعوا إليه بفطرتهم، ولولا ذلك لتأخروا في النظم حتى قامت دولتهم، ونضجت قرائحهم، كما حدث للرومانيين ... فإن الشعر لم ينظم بلسانهم إلا بعد تأسيس دولتهم ببضعة قرون، ولم يبلغ الشعر اللاتيني عصره الذهبي إلا في أيام أوغسطس وطيباريوس نحو القرن الثامن من تأسيس رومية (القرن الأول للميلاد) ثم أخذ في التقهقر، ويقال نحو ذلك في دول أوربا الحالية، فإن الشعر لم ينضج عندهم إلا بعد نشوء دولهم وتقدمهم في العلم والأدب.

وإذا تدبرت أولئك الجاهليين، رأيت الشعر داخلًا في كل عمل من أعمالهم موافقًا لكل حركة من حركاتهم، حتى يخيل لك أنهم كانوا لا ينطقون إلا بالشعر وكان كل واحد منهم شاعرًا يقول الشعر ولو قليلًا، حتى الملوك والأمراء والفرسان والرجال والنساء والوجهاء والحكماء والصعاليك والعبيد واللصوص والمجانين من النصارى واليهود والوثنيين. وقد تسلسلت القريحة الشعرية في كثير من بيوتهم بالتوارث عدة أجيال، فالنعمان بن بشير الأنصاري من العريقين في الشعر خلفًا عن سلف، جده شاعر وأبوه وعمه شاعران وهو شاعر وأولاده شعراء،[١٥] وكذلك كعب بن مالك من شعراء الصحابة كان أبوه شاعرًا وعمه قيس شاعرًا وأبناء كعب وأحفاده كلهم شعراء،[١٦] وهكذا الكميت بن معروف وعبد يغوث بن صلاءة، وعندهم من بيوتات الشعر في الجاهلية عدد كبير، منهم بيت أبي سلمى فقد كان أبو سلمى شاعرًا وابنه زهير المشهور شاعر وله خؤولة في الشعر، خاله بشامة بن الغدير شاعر، وكان ابناه كعب بن زهير وبجير شاعرين وجماعة من أبنائهما شعراء، وحسان بن ثابت تسلسل الشعر في أبنائه بضعة أجيال، وقس على ذلك شعراء العرب بعد الإسلام فمن بيوتاتهم بيت جرير، فكان هو وأبوه وجده شعراء، وكذلك بنوه وأحفاده، ومنهم بيت رؤبة بن العجاج وبيت أبي حفصة وبيت أبي عيينة[١٧] وغيرهم.

على أن ما بلغنا من أسماء الشعراء هو القليل؛ إذ لم ينقل الرواة من أخبار شعراء العشائر إلا الأشهر، فضلًا عما ضاع خبره، أما الشعراء المعروفون بالشعر عند عشائرهم وقبائلهم فأكثر من أن يحيط بهم الحصر أو يقف من وراء عددهم واقف، ولو قضى عمره في التنقيب عنهم واستفرغ مجهوده في البحث والسؤال، وحسبك إنه لم يستطع أحد من رواة الشعر أن يستوفي جمع أشعار قبيلة واحدة.[١٨]

ثم إن الشعراء الذين وصلت إلينا أخبارهم على قلتهم، لم يصلنا من أشعارهم إلا بعضها، وضاع سائرها في أثناء الفتوح الإسلامية؛ لاشتغال الناس بالإسلام والحرب عن رواية الشعر وذهاب أكثر الرواة والحُفَّاظ في الجهاد، فلما عادوا بعد الفتوح إلى الاشتغال بالأدب وأخذوا في جمع الشعر لم يجدوا منه إلا القليل، ويؤيد ذلك أنك تسمع بالشاعر الفحل من شعرائهم وما له من الشهرة، ثم لا تجد له من المنظوم ما يلائم تلك الشهرة … فطرفة بن العبد وعبيد بن الأبرص مع ما لهما من الشهرة الواسعة في الشعر، لا نجد فيما رواه الرواة من أشعارهما ما يوازي تلك المنزلة.[١٩]

(٦) طبقات الشعراء في الجاهلية

ومع ما قدمناه من ضياع أكثر أخبار الشعراء الجاهليين ومعظم أشعارهم، فإن الذين عرفناهم يزيدون على مائة شاعر، نبغوا في القرنين الأولين قبل الهجرة أو في الخامس والسادس للميلاد وأكثرهم من أهل القرن السادس ... وبعضهم عاش أعوامًا بعد الإسلام وهم المخضرمون، وقد تقدم إحصاؤهم الإجمالي بالنظر إلى مواطنهم وقبائلهم، وبقي أن ننظر فيهم باعتبار طبقاتهم وباعتبار مناحيهم وأغراضهم وأخلاقهم ومراتبهم.

أما تقسيمهم إلى طبقات فمن أصعب الأمور، وقد حاول ذلك غير واحد من أدباء المسلمين في إبان التمدن الإسلامي وتفاوتوا في تعيين الطبقات ... فاعتبرها بعضهم بالنظر إلى الإجادة فقالوا: الشعراء أربع طبقات ...

(١) شاعر خنذيذ: وهو الذي يجمع إلى جودة شعره رواية الجيد من شعر غيره.
(٢) شاعر مفلق وهو الذي لا رواية له لكنه مجيد كالخنذيذ.
(٣) شاعر «فقط» وهو فوق الرديء بدرجة.
(٤) شعرور وهو لا شيء.

وقسمهم آخرون إلى شاعر مفلق، وشاعر مطبق، وشويعر، وشعرور.
وقال بعضهم:

الشعراء فاعلمَنَّ أربعهْ — فشاعرٌ يَجْري ولا يُجْرَى معه
وشاعرٌ يخوض وَسْط المعمعهْ — وشاعر لا تشتهي أن تسمعه
وشاعر لا تستحي أن تصفعه

ورويت هذه الأبيات هكذا أيضًا:

الشعراءُ فاعلمنَّ أربعهْ — فشاعرٌ لا يرتجي لمنفعه
وشاعر ينشد وَسْط المعمه — وشاعر آخر لا يجرى معه
وشاعر يقال خَمِّرْ في دَعه[٢٠]

وقسمهم آخرون إلى طبقات بما اشتهر من قصائدهم المنتقاة، وانتخبوا سبع طبقات عدد كل منها سبعة شعراء «تقريبًا» وفيهم نفر من شعراء صدر الإسلام ...

أولهم أصحاب المعلقات، يليهم أصحاب المجمهرات، فالمنتقيات، فالمذهبات، فالمراثي، فالمشوبات، فالملحمات، وهذه أسماء الشعراء مُرتبة حسب ذلك مع الإشارة إلى قبيلة الشاعر وبلده، وبعضهم من شعراء العصر الأموي:

اسم الشاعر	قبيلته	بلده
(١) أصحاب المعلقات		
امرؤ القيس	كندة	نجد
زهير بن أبي سلمى	مزينة	نجد
النابغة الذبياني	ذبيان	الحجاز
الأعشى	بكر	اليمامة
لبيد بن ربيعة	عامر	نجد
عمرو بن كلثوم	تغلب	العراق
طرفة بن العبد	بكر	البحرين
عنترة العبسي	عبس	نجد
(٢) أصحاب المجمهرات		
عبيد بن الأبرص	أسد	نجد
عدي بن زيد	عباد	الحيرة
بشر بن أبي حازم	أسد	نجد
أمية بن أبي الصلت	ثقيف	الطائف
خداش بن زهير	عامر	نجد
النمر بن تولب	عكل	نجد
(٣) أصحاب المنتقيات		
المسيب بن علس	بكر	العراق
المرقش الأصغر	ضبيعة	نجد
المتلمس	بكر	البحرين
عروة بن الورد	عبس	نجد

اسم الشاعر	قبيلته	بلده
مهلهل بن ربيعة	تغلب	العراق
دريد بن الصمة	جشم	نجد
المتنخل الهذلي	هذيل	الحجاز
(٤) أصحاب المذهبات		
حسان بن ثابت	الأنصار	يثرب
عبد الله بن رواحة	الأنصار	يثرب
مالك بن العجلان	الأنصار	يثرب
قيس بن الخطيم	الأنصار	يثرب
أحيحة بن الجلاح	الأنصار	يثرب
أبو قيس بن الأسلت	الأنصار	يثرب
عمرو بن امرئ القيس		
(٥) أصحاب المراثي		
أبو ذؤيب الهذلي	هذيل	الحجاز
محمد بن كعب الغنوي	غنى	نجد
أعشى باهلة	باهلة	نجد
علقمة الحميري	حمير	اليمن
أبو زبيد الطائي	طي	نجد
متمم بن نويرة	يربوع	نجد
مالك بن الريب	تميم	العراق
(٦) أصحاب المشوبات		
نابغة جعدة	جعدة	نجد
كعب بن زهير	مزينة	نجد
القطامي	تغلب	العراق
الحطيئة	عبس	نجد

اسم الشاعر	قبيلته	بلده
الشماخ بن ضرار	ذبيان	الحجاز
عمرو بن أحمر	باهلة	نجد
تميم بن مقبل	عامر	نجد
(٧) أصحاب الملحمات		
الفرزدق	تميم	العراق
جرير	تميم	العراق
الأخطل	تغلب	العراق
عبيد الراعي	هوازن	الحجاز
ذو الرمة	عبد مناة	اليمامة
الكميت	أسد	نجد
الطرماح بن حكيم	طي	نجد

جملة هذه القصائد ٤٩ قصيدة هي نخبة قصائد العرب في الجاهلية والإسلام، وقد جمعها على هذا الترتيب أبو زيد القرشي في كتاب جمهرة أشعار العرب، وقد طُبع بمصر مشروحًا، ولمحمد بن سلام كتاب في طبقات الشعراء قد ضاع، ويظهر مما نُقل عنه في الأغاني والمزهر وغيرهما أنه أوفى كتاب في هذا الموضوع، وقد رأينا فيما نُقل عنه ذكر طبقة خامسة وسادسة ولا نعلم عمدته في ذلك التقسيم.

(٧) تقسيمهم من حيث طبقاتهم

أما تقسيم الشعراء إلى طبقات باعتبار الإجادة على الإجمال فأمر غير ميسور؛ لأن نقدة الشعر لم يتفقوا في هذا الموضوع، على أننا وقفنا على تقسيم لشعراء الجاهلية استخرجناه من كتاب طبقات الشعراء لإسكندر أبكاريوس المطبوع في بيروت، ولم يذكر على من كان معوله فيه، وإليك ذلك في جدول، وذكرنا بجانب كل شاعر اسم قبيلته وبلده وسنة وفاته على التقريب.

اسم الشاعر	نسبه	بلده	سنة الوفاة
(أ) شعراء الطبقة الأولى			
امرؤ القيس الكندي	كندى	من أهل نجد	٥٣٩م
أمية بن أبي الصلت	الثقفي	من أهل الطائف	٦٢٢م
بشر بن أبي حازم	الأسدي	من أهل نجد	٥٣٠م
الحارث بن حلزة	اليشكري	من أهل العراق	٥٦٠م
زهير بن أبي سلمى	المزني	من أهل نجد	٦٠٩م
النابغة الذبياني	الذبياني	من أهل الحجاز	٦٠٤م
طرفة بن العبد	البكري	من أهل البحرين	٥٥٢م
عبيد بن الأبرص	الأسدي	من أهل نجد	٥٥٠م
المهلهل عدي بن ربيعة	التغلبي	من أهل العراق	٥٠٠م
عدي بن زيد	العبادي	من أهل الحيرة	٥٩٧م
عمرو بن كلثوم	التغلبي	من أهل الجزيرة	٥٧٠م
عنترة بن شداد	العبسي	من أهل نجد	٦١٥م
لبيد بن ربيعة	العامري	من أهل نجد	٤١هـ
أعشى قيس	الثعلبي	من أهل اليمامة	٦٢٩م
(ب) شعراء الطبقة الثانية			
أحيحة بن الجلاح	الأوسي	من أهل يثرب	٥٦١م
أوس بن حجر	التميمي	من أهل العراق	٦١٠م
الأسود بن يعفر	الدارمي	من أهل العراق	٦٠٠م
البراق بن روحان	التميمي	من أهل العراق	٥٢٥م
تماضر بنت عمرو الخنساء	السلمية	من أهل نجد	٦٤٦م
تميم بن مقبل	العامري	من أهل نجد	أدرك الإسلام
تأبط شرًّا	القهمي	من أهل تهامة	٥٣٠م
الشنفرى	الأزدي	من أهل اليمن	٥١٠م

اسم الشاعر	نسبه	بلده	سنة الوفاة
الحطيئة	العبسي	من أهل نجد	أدرك الإسلام
المتلمس	الضبعي	من أهل البحرين	٥٥٠م
حاتم	الطائي	من أهل نجد	٥٦٩م
الحارث بن عباد	البكري	من أهل العراق	٥٢٠م
حسان بن ثابت	الأنصاري	من يثرب	٥٤هـ
أبو دؤاد	الأبادي	من العراق	٥٢٠م
خداش بن زهير	العامري	من نجد	٥٧٠م
خفاف بن ندبة	السلمي	من نجد	٥٩٥م
خويلد بن خالد	الهذلي	من الحجاز	٢٦هـ
دريد بن الصمة	الجشمي	من نجد	٨هـ
الربيع بن زياد	العبسي	من نجد	٥٩٠م
المرقش الأصغر	الضبعي	من نجد	٥٠٠م
المخبل ربيعة بن مالك	السعدي	من نجد	أدرك الإسلام
ربيعة بن مقروم	الضبي	من نجد	٢٨هـ
السموءل بن غريض	الأوسي	من الحجاز	٥٦٠م
سلامة بن جندل	التميمي	من تميم	٥٢٠م
أبو قيس بن الأسلت	الأوسي	من أهل يثرب	...
عامر بن حليس	الهذلي	من الحجاز	٥٠٠م
عبد الله بن رواحة	الأنصاري	من يثرب	٨هـ
النابغة الجعدي	الجعدي	من نجد	أدرك الإسلام
عروة الصعاليك	العبسي	من نجد	٥٩٦م
علقمة بن عبدة	التميمي	من تميم	٥٦١م
عمرو بن أحمر	الباهلي	من نجد	٤١هـ
عمرو بن الأهتم	التميمي	من نجد	٥٧هـ
عمرو بن قميئة	البكري	من العراق	٥٣٨م
قيس بن الخطيم	الأوسي	من يثرب	٦١٢م

اسم الشاعر	نسبه	بلده	سنة الوفاة
كعب بن زهير	المزني	من نجد	٢٤هـ
متمم بن نويرة	اليربوعي	من تميم	أدرك الإسلام
المتنخل بن عويمر	الهذلي	من الحجاز	٦٠٠م
المثقب العبدي	العبدي	من العراق	٥٢٠م
المسيب بن علس	البكري	من العراق	٥٨٠م
الشماخ بن ضرار	السعدي	من نجد	١٨هـ
معن بن أوس	المزني	من تهامة	٢٩هـ
المنخل بن الحارث	اليشكري	من العراق	…
النمر بن تولب	العكلي	من نجد	٢٥هـ

(ج) شعراء الطبقة الثالثة

اسم الشاعر	نسبه	بلده	سنة الوفاة
أمية الأسكر	البكري	من نجد	أدرك الإسلام
إياس بن قبيصة	الطائي	من العراق	٦١٠م
حاجز بن عوف	الأزدي	من الحجاز	٥٩٠م
الحارث بن ظالم	المري	من نجد	٦٠٠م
سليك بن السلكة	السعدي	من تميم	٦٠٥م
زهير بن جناب	الكلبي	من كلب	٥٦٠م
زيد الخيل	النبهاني	من نجد	…
الممزق العبدي	العبدي	من أهل العراق	٤٨٠م
الفند الزماني	الزماني	من اليمامة	…
عامر بن الطفيل	العامري	من نجد	١١هـ
العباس بن مرداس	السلمي	من نجد	١٦هـ
عبد الله بن العجلان	النهدي	من اليمن	٥٦٦م
عمرو بن معدي كرب	الزبيدي	من اليمن	٢١هـ
قيس بن زهير	العبسي	من نجد	…
لقيط بن زرارة	الدارمي	من تميم	٥٨٢م

اسم الشاعر	نسبه	بلده	سنة الوفاة
مالك بن نويرة	اليربوعي	من تميم	أدرك الإسلام
المستوغر بن ربيعة	السعدي	من تميم	٥٧٠م
بزيد بن ورقاء	اليربوعي	من تميم	١٧هـ

هوامش

(١) العرب قبل الإسلام ١٢٧، وهذا هو الفتح الأول، ثم كان الفتح الثاني سنة ٥٢٤م.
(٢) المزهر ٢٣٧ ج٢ والأغاني ج١٦.
(٣) الأغاني ١٦٣ ج١٦.
(٤) جبل قرب زبيد.
(٥) الأغاني ٤٢ ج٧.
(٦) الأغاني ٧٢ ج١.
(٧) الأغاني ١٩٠ ج٥.
(٨) الأغاني ٩٢ ج٢.
(٩) العمدة ٥٦ ج١.
(١٠) ابن خلكان ١٢١ ج١.
(١١) النجوم الزاهرة ٤٢٠ ج١.
(١٢) ابن خلكان ١٢١ ج١ وطبقات الأدباء ١٥١.
(١٣) الشعر والشعراء ٤.
(١٤) المزهر ٢٣٧ ج٢.
(١٥) الأغاني ١٢٥ ج١٤.
(١٦) الأغاني ٢٧ ج١٥.
(١٧) العمدة ٢٣٥ ج٢.
(١٨) الشعر والشعراء ٣.

(١٩) المزهر ٢٢٧ ج٢.
(٢٠) المزهر: ٢٤٦ ج٢، وخمر: استتر.

خصائص الشعر الجاهلي

(١) تمثيل الطبيعة

فُطِرَ عرب الجاهلية على البساطة والبعد عن التصنع أو التعمل في كل شيء، شأن أهل البادية؛ لبعدهم عن شوائب المدنية ... فهم على الفطرة الطبيعية، وعنوانها الصدق بكل معانيه، ويدخل فيه استقلال الفكر والشجاعة الأدبية والصراحة في القول والعمل، فلا يتكلفون في لباسهم ولا طعامهم ولا شرابهم ولا يتصنعون في كلامهم، وإنما يقولون ما يخطر لهم ويصورونه كما يتمثل لمخيلتهم بلا تنميق أو تأنق، يدلك على ذلك ما ظهر من حريتهم في أقوالهم في صدر الإسلام يوم كان أحدهم يخاطب الخليفة كما يخاطب سائر الناس، وإذا رأى فيه عوجًا انتقده في وجهه والخليفة لا يرى غرابة في انتقاده.

أضف إلى ذلك تعودهم الاستقلال في شؤونهم الشخصية، ونفورهم من التقيد بشيء حتى المكان، فإنهم لا يتوطنون صقعًا بل يجعلون منازلهم على ظهور إبلهم لا يحملون ضيمًا ولا يصبرون على ظلم، فتمكنت الحرية من طباعهم حتى ظهرت في أقوالهم وأفكارهم وفي أشعارهم، فإذا طرأ لهم خيال شعري صوروه كما يتخيل لهم، خلافًا لما تقتضيه الحضارة من التكلف وغيره من ثمار الذل والانكسار؛ مما تراه في أقوال الشعراء بعد أن استبحر عمران الدولة وكثر المتملقون والمتكسبون بالنجعة والزلفى، أما الجاهليون فالقاعدة في النظم عندهم بيت شاعرهم وحكيمهم زهير بن أبي سلمى وهو:

وإن أشعرَ بيتٍ أنت قائله　　　بيتٌ يقال إذا أنشدته صدقا[١]

(٢) وصف الحب

والبدوي إذا تيمه الحب وأراد التعبير عن شوقه وهيامه يصف ما يشعر به تمامًا، فإذا سمعه متيم شعر مثل شعوره … فهو لا يبالغ بضعفه من الوجد حتى يزعم أنه صار خيالًا أو طيفًا كقول المتنبي: «لولا مخاطبتي إياك لم ترني» أو قول ابن الفارض: «ما له مما براه الشوق فيَّ» ولا يبالغ في بكائه وزفيره حتى يزعم أنه غرق في بحر دمعه أو احترق بنار زفيره، ولكنه يقول قول مجنون بني عامر — وهو معدود من شعراء صدر الإسلام ولكنه بدوي في طباعه، وإن لم يصح أن المجنون اسم على مسمى كما سيأتي — فالشعر يعبر عنده عن تصور أهل البادية، ومما ينسب إليه قوله:

تذكرت ليلى والسنين الخواليا   وأيام لا أعْدى[2] على الدهر عاديا
فما أشرف الأيْفاع إلا صبابة   ولا أنشد الأشعار إلا تداويا
وعهدي بليلى وهي ذات موصد[3]   ترد علينا بالعشى المواشيا
فشبَّ بنو ليلى وشب بنو ابنها   وأعلاق ليلى في فؤادي كما هيا
إذا ما جلسنا مجلسًا نستلذه   تواشوا بنا حتى أملَّ مكانيا
خليلي لا والله لا أملك الذي   قضى الله في ليلى ولا ما قضى ليا
قضاها لغيري وابتلاني بحبها   فهلا بشيء غير ليلى ابتلانيا
وخَبَّرتماني أن تَيْماء منزلٌ   لليلى إذا ما الصيف ألقى المراسيا
فهذي شهور الصيف عنا قد انقضت   فما للنوى ترمي بليلى المراميا
فيا رب سوِّ الحبَّ بيني وبينها   يكون كفافًا لا عليَّ ولا ليا
فما سُمِّيَت عندي لها من سَمِيَّةٍ   من الناس إلا بلَّ دمعي ردانيا
ولا هبت الريح الجنوب لأرضها   من الليل إلا بت للريح حانيا
فأشهد عند الله أني أحبها   فهذا لها عندي فما عندها ليا
أعد الليالي ليلة بعد ليلة   وقد عشت دهرًا لا أعدُّ اللياليا
وأخرج من بين البيوت لعلني   أحدِّث عنك النفس بالليل خاليا

ومثل ذلك قول ابن الدمينة:

فديتك أعدائي كثيرٌ وشقَّتي بعيد وأشياعي إليك قليل
وكنت إذا ما جئت جئت بعلَّة فأفنيت علَّاتي فكيف أقول
فما كل يوم لي بأرضك حاجة ولا كل يوم لي إليك وصول

فلا يسمع محب هذه الأبيات وأمثالها إلا رأى الشاعر يعبر عن شعور صحيح.

(٣) في الرثاء

ويقال نحو ذلك في سائر أغراضهم من الشعر، فإذا رثى الجاهلي ميتًا لا يوهم القارئ أن السماء أطبقت على الأرض، وأن الشمس كسفت، والدنيا لبست الحداد، ونحو ذلك … ولكنه يقول قول جليلة زوجة كليب ترثيه، وقد قتله أخوها جساس:

يا قتيلًا قَوَّض الدهر به سَقْفَ بيتيَّ جميعا من عَلِ
ورماني فقده من كَثَبٍ رمية المُصْمِي به المستأصِلِ
هدم البيت الذي استحدثته وسعي في هدم بيتي الأولِ
مَسَّني فقد كليب بلَظًى من ورائي ولظى مستقبلي
ليس من يبكي ليومين كمن إنما يبكي ليومٍ ينجلي
يشتفي المدرك بالثأر وفي دَرَكي ثأريَ ثكْلَ المُثْكِلِ
ليته كان دمًا فاحتلبوا بدلًا منه دمي من أكحَلي

(٤) في الهجو

وإذا أراد أن يهجو، فهجوه معقول بعيد عن البذاء والفحش، وعندهم أشد الهجاء أعفه وأصدقه، وما خرج من ذلك فهو قذف وإفحاش، ومن أشد الهجاء عندهم قول زهير بن أبي سلمى في آل حصن على سبيل التشكك والتجاهل:

وما أدري وسوف إخال أدري أقومٌ آل حِصْنٍ أم نساءُ

فإن تكن النساء مخبآت فحُقَّ لكل محصنةٍ هِداء[٤]

وذكروا أن النابغة سأل قومه بني ذبيان بعد واقعة حسي عما قالوه في عامر بن الطفيل فأنشدوه، فقال أفحشتم على الرجل وهو شريف لا يقال له مثل ذلك ولكنني سأقول، ثم قال:

فإن يكُ عامرٌ قد قال جهلًا فإن مطية الجهل الشبابُ
فكن كأبيك أو كأبي بَراءٍ تصادفك الحكومة والصواب
فلا يذهب بلبُكِّ طائشات من الخيلاء ليس لهنَّ باب
فإنك سوف تحلُم أو َتَناهَى إذا ما شِبْتَ أو شاب العراب
فإن تكن الفوارس يوم حِسي أصابوا من لقائك ما أصابوا
فما إن كان من سبب بعيد ولكن أدركوك وهم غضاب

فلما بلغ عامرًا ما قال النابغة شق عليه، وقال: «ما هجاني أحد حتى هجاني النابغة … جعلني القوم رئيسًا وجعلني النابغة سفيهًا جاهلًا وتهكم بي».

ومن لطيف تجافيهم عن الهجو، ما قاله صخر بن عمرو أخو الخنساء، وقد أراد رثاء أخيه معاوية فقالوا له: أهج قتلته. فتعفف وقال:

وقالوا ألا تهجو فوارس هاشم وما لي وإهداء الخَنَى من شماليا

فعبر عن الهجو بإهداء الخنى وهو تعبير جميل.

وإذا تحمس الجاهلي أو تفاخر فلا يجعل قومه آلهة وسواهم أبالسة، وإنما يقول قول قريط بن أنيف من شعراء بلعنبر:

لو كنت من مازنٍ لم تَسْتَبِحْ إبلي بنو اللقيطة من ذُهْل بن شَيْبَانا
إذًا لقام بنصري معشرٌ خُشُنٌ عند الحفيظة إن ذو لُوثَةٍ لانا
قومٌ إذا الشر أبدى ناجذيه لهم طاروا إليه زَرافات ووُحدانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا
لكنَّ قومي وإن كانوا ذوي عدد ليسوا من الشر في شيء وإن هانا

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرةً ومن إساءة أهل السوء إحسانا
كأن ربك لم يخلق لخشيته سواهم من جميع الناس إنسانا
فليت لي بهمُ قومًا إذا ركبوا شَدُّوا الإغارة فرسانًا وركبانا

(٥) في الوصف

وكانوا إذا وصفوا حادثة مثلوها بلا مغالاة في المجاز والكناية كما يفعل المتأخرون، وهذا وصف أبي ذؤيب لحمر الوحش وصائدها، كيف ترد الحمر وكيف يحتال الصياد في صيدها، قال:

فورَدْن والعيُّوق مقعدَ رابئ الـ ـضُّرباء خلف النجم لا يَتَلَّعُ
فشرعْنَ في حَجَرات عذب بارد حَصِب البِطاح تغيب فيه الأكرُعُ
فشربنَ ثم سمعنَ حِسًّا دونه شرف الحجاب ورَيْب قَرْعٍ يَقْرَعُ
فنكرْنه فنفرن فامترست له هوجاءُ هاديةٌ وهاد جُرْشع
فرمى فأنفذ من نَحوصٍ عائطٍ سهمًا فخرَّ وريشه متصمِّع
فبدا له إقرابُ هادٍ رائغًا عنه فعيَّث في الكنانة يرجع
فرمى فألحق صاعديًا مِطْحَرًا بالكَشْح فاشتملت عليه الأضلع
فأَبَدَّهُنَّ حُتُوفَهُنَّ فهاربٌ بِذَمائِهِ أو باركٌ مُتَجَعْجِع

وإذا وصف أحدهم حيوانًا أو مكانًا أو امرأة تحدى تصوير الطبيعة كما هي ولو اضطر إلى ذكر بعض الأعضاء التي يعد ذكرها من قبيل البذاء، يفعل ذلك لا تهتكًا وإنما يصف الطبيعة كما هي على عادته في سائر الأمور، وأحسن الأمثلة في وصف المرأة على النحو الذي تقدم قصيدة النابغة في المتجردة التي مطلعها:

أمن آل مَيَّةَ رائح أو مغتدي عجلانَ ذا زادٍ وغيرَ مزوَّد

وقصيدته اليتيمة في دعد، ومطلعها:

هل بالطُّلُول لسائل رَدُّ　　أم هل لها بتكلم عَهْدُ°

وهما مثل قصيدة سليمان الحكيم في وصف ملكة سبأ المعروفة بنشيد الإنشاد، وهو مذهب جماعة من شعراء عصرنا وكتَّابه في أوربا يمثلون الطبيعة كما هي، ويُعرفون بأصحاب الحقيقة Realistes ومنهم زولا وتولستوي.

على أن الجاهليين لا تخلو أشعارهم من التشبيه والمجاز أو الكناية، ولكنهم يفعلون ذلك بلباقة كقول عنترة يصف ذباب الروض:

وخلا الذباب بها فليس ببارحٍ　　غَردًا كفعل الشارب المترنِّم
هزجًا يحكُّ ذراعه بذراعه　　قَدْحَ المُكبِّ على الزِّناد الأَجْذم

(٦) البلاغة في التركيب

إن لغة الجاهلية على الإجمال لا تزال مثال البلاغة حتى الآن لبعدها عن مفاسد العجمة، وهي معروفة بخلوها من الحشو وليس فيها من زخارف المدينة كالبديع والجناس ولا المجاز أو الكناية إلا بقدر الملح من الطعام، أما ما نجده في بعض أشعار الجاهلية من التعقيد، فسببه غرابة بعض الألفاظ على أفهامنا وبُعد بعض التراكيب عن مألوفنا، ولا بد لمن يطالع تلك الأشعار من تَفَهُّم الألفاظ والتعود على أساليبها، فإذا فعل ذلك هان عليه فهمها ... فمن يقرأ قول امرئ القيس في قصيدته التي يصف بها الفراق وناقته وفرسه فيصل إلى قوله:

وإنك لم تقطع لُبانة طالبٍ　　بمثل غُدوٍّ أو رَواحٍ مؤوَّبِ
بأدماءَ حُرْجُوجٍ كأن قُتودها　　على أبلَقِ الكَشحين ليس بُمْغِرِب

يجد غرابة في تركيب الألفاظ ولا يُفهم المراد، لكنه متى علم أن الأدماء الناقة أشرب سوادها بياضًا، والحرجوج الطويلة، والقتود خشب الرحل، وأبلق الكشحين حمار الوحش، والمغرب الأبيض الوجه والأشفار وذلك عيب في اصطلاحهم، أدرك مراد الشاعر من البيت الثاني وقس عليه سائر التفسير.

إن البلاغة فطرية في عرب البادية شعرًا ونثرًا ... وكان العرب في صدر الإسلام يتمثلون بأقوال الأعراب المعاصرين لهم لما فيها من البلاغة والإيجاز السهل الممتنع، وقد نقل ابن عبد ربه طائفة حسنة منها في عدة صفحات بباب كلام الأعراب في الجزء الثاني من كتابه «العقد الفريد» فليراجع هناك وفي سائر كتب الأدب، فإذا طالعتها رأيت نفوسًا كبيرة وعقولًا راجحة لما فيها من الحكمة والموعظة وصدق النظر.

على أنك تجد في كلام الأعرابي جفاءً وإغرابًا وخشونة في اللفظ لتعوده مخاطبة الإبل[٦] وليست الخشونة في شعراء الجاهلية على الإجمال ... وإنما هي تكثر في أهل الجبال والبادية الوعرة الذين لم يخالطوا أهل الحضارة مطلقًا، فيكون ذلك من تأثير البيئة ... فإن شعر عدي بن زيد وهو جاهلي أسلس من شعر الفرزدق وجرير وهما إسلاميان؛ لملازمة عدي الحضارة واستيطانه الريف وبُعده عن جلافة البادية وجفاء الأعراب.[٧]

على أن الشعر تختلف رقته، وخشونته باختلاف الغرض منه، فشعر العاشق أرق من شعر الفارس، وشعر الحضارة ألطف من شعر البداوة.

(٧) مذاهبهم وأساليبهم

لا يتقيد الجاهلي في نظمه بمقدمة أو تمهيد كما يفعل غيره من شعراء المدنية بعد الإسلام من استهلال القصائد بالنسيب والغزل ونحوهما، لكنه يُصدر القصائد الطويلة غالبًا بذكر المنازل والأطلال ويبكي على الطلول ... وذلك طبيعي عندهم؛ لأنهم أهل رحلة لا يقيمون في المكان حينًا حتى ينزحوا عنه؛ إما فرارًا من عدو؛ أو التماسًا للمرعى أو الماء أو نحو ذلك، كقول امرئ القيس: «قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل».

وقوله: «ألا عِمْ صباحًا أيها الطللُ البالي».

أما المولدون أو المحدثون فإنهم يصدرون قصائد المدح وغيرها بذكر الحبيب والشوق والوجد والوصل، وليس هناك حبيب ولا وجد كما سنبين ذلك ...

والجاهلي إذا عمد إلى النظم في الفخر بدأ به أو ذكر المنازل وتخلص له، ويندر فيهم من يفعل غير ذلك كقصيدة عنترة الفخرية التي يبدأ فيها بذكر الصبا واللهو والغزل والأعين النجل في بيتين، ثم يتخلص إلى الفخر كقوله:

من لي برَدِّ الصِّبا واللهو والغزل　　هيهات ما فات من أيامك الأوَل

طوى الجديدان ما قد كنت أنشره   وأنكرتني ذواتُ الأعين النُّجُلِ
وما ثنى الدهرُ عزمي عن مهاجمة   وَخَوْض معمعةٍ في السهل والجبل

ولكن هذه القصيدة يغلب أنها موضوعة بعد الإسلام.

وقد يستهل الجاهلي شعره بمخاطبة خليله في بيت أو شطر، ثم يستطرد إلى الموضوع الذي يريده … أو يبدأ بطلب الأخبار بدون أن يذكر الخليل، كقول امرئ القيس قبيل وفاته في سفح جبل عسيب:

ألا أبلغ بني حجر ابن عمرو   وأبلغ ذلك الحيَّ الحديدا
بأني قد هلكت بأرض قوم   سحيقًا من دياركمُ بعيدا[٨]

وقوله بمكان آخر:

ألم يخبرك أن الدهر غول   خَتور العهد يلتهم الرجالا[٩]

وقد يتكلم بالمثنى كأنه يخاطب اثنين كقول عبد يغوث:

ألا لا تلوماني كفى اللوم ما بيا   فما لكما في اللوم نفعٌ ولا ليا
ألم تعلما أن الملامة نَفْعُها   قليل وما لومي أخي من شماليا

ومن مذاهبهم طرد الخيال وهو مذهب كثيرين منهم، ولكن طرفة بن العبد أول من طرقه فقال:

فقل لخيال الحنظلية ينقلب   إليها فإني واصلٌ حَبْل من وصل[١٠]

وفي مقدمة ابن خلدون أمثلة كثيرة من ابتداءات الجاهلية في النظم، مَن أراد التوسع في الأمثلة فليراجعها هناك (صفحة ٥٠١).

ولكن الغالب في نظمهم أن يبدأوا بالغرض المراد رأسًا، فإن كان فخرًا فبالفخر، حماسة فبالحماسة، أو غزلًا فبالغزل، أو رثاءً فبالرثاء.

ومن مراثي المهلهل لأخيه كليب قصيدة مطلعها:

كليب لا خير في الدنيا ومن فيها　　إن أنت خَليَّتها فيمن يخَلِّيها[١١]

ومرثية أخرى مطلعها:

إن تحت الأحجار حزمًا وعزمًا　　وقتيلًا من الأراقم كهلًا[١٢]
قتلته ذُهْلٌ فلست براضٍ　　أو نُبيدُ الحيين قيسًا وذهلًا

وقس عليه غيره من الأغراض ... على أن بعضهم يستهل بالحكم؛ ليتخلص للمدح أو الرثاء، وبعضهم يتغزل أو يشبب وهم قليلون، ولهم أسماء إناث يتغزلون بها يسمونها عرائس الشعر كقطام وهند ودعد وغيرهن.

(٨) أبواب الشعر عندهم

إن أبواب الشعر اليوم تُعد بالعشرات، ولم يكن منها في الجاهلية إلا الفخر والحماسة والتشبيب والمديح والهجاء ... وتفرع من المديح الرثاء وهو مدح الميت، والأصل في المديح والهجاء الدفاع عن القبيلة والطعن في أعدائها ... ذلك كان غرض الجاهليين من المديح والهجاء، فأكثر مدحهم في قبائلهم ورؤسائها وفرسانها ليس على سبيل الاستجداء إلا قليلًا، وكانت قصائدهم في ذلك قصيرة، وقلما رثوا غير إخوتهم وأخواتهم أو أبنائهم أو بعض أهلهم مدفوعين بالشعور الطبيعي، ولذلك كان لرثائهم وقع في النفس كقول تلك الأعرابية في رثاء ابنها:

من شاء بعدك فليمت　　فعليك كنت أحاذر
كنت السواد لناظري　　فعَمِي عليك الناظر
ليت المنازل والديا　　ر حفائرٌ ومقابر
إني وغيري لا محا　　لة حيث صرتَ لصائر

أما المدح فأمدحُ الجاهليين زهير والأعشى، فمن أمثلة مدح زهير بالكرم قوله:

أخي ثقةٍ لا تُهلك الخمر ماله	ولكنه قد يُهلك المالَ نائلُه
تراه إذا ما جئته متهللا	كأنك تعطيه الذي أنت سائله
فمَن مثلُ حصن[١٣] للحروب ومثله	لإنكار ضيمٍ أو لخصمٍ يجادله

وقد يبالغون ولكنهم لا يخرجون عن المعقول كقول زهير في هرم بن سنان:

لو كان يقعد فوق النجم من كرم	قومٌ بأولهم أو مَجْدهم قعدوا
قومٌ سنانٌ أبوهم حين تنسبهم	طابوا وطاب من الأولاد ما ولدوا
إنس إذا أمنوا جِن إذا فزعوا	مرزَّءون بهاليل إذا جهدوا
محسَّدون على ما كان من نعم	لا ينزع الله عنهم ما له حُسدوا

وقس على ذلك سائر الأغراض ...

على أن في منظوماتهم كثيرًا من الشعر الوصفي، وأكثره في وصف حيواناتهم ومنازلهم وأدواتهم، وفي وصف أخلاقهم ومناقبهم ومثالبهم ومفاخرهم ووقائعهم، وفيهم طبقة من الوصافين اشتهروا بوصف الخيل خاصة، وآخرون بوصف الناقة أو حمار الوحش أو القطا أو غيرها، وسنعود إلى تفصيل ذلك في مكانه.

(٩) التمثل بحيواناتهم وعاداتهم

قد صور عرب الجاهلية عاداتهم وحيواناتهم وأدواتهم في أشعارهم، كما صورها المصريون والآشوريون واليونان والرومان على قصورهم ومعابدهم، وكما استخرج علماء الآثار عادات تلك الأمم وأخلاقها من آثارها المنقوشة أو المحفورة، فالباحث في شعر الجاهلية يستخرج منه عادات العرب وآدابهم وأخلاقهم وطبائعهم وسائر أحوالهم، ولذلك قال ابن خلدون: «إن الشعر ديوان علوم العرب وأخبارهم وشاهد صوابهم وخطئهم، وأصل يرجعون إليه في الكثير من علومهم وحكمهم» ونزيد على ذلك «أنه مستودع عاداتهم وأخلاقهم وأدواتهم وصنائعهم» وقد درس هذا الموضوع جرجي يني الطرابلسي صاحب المباحث، ونشر فيه مقالة ضافية في «المقتطف» سنة ١٣ و١٥ بعنوان: «العرب قبل التاريخ» ودرسه أيضًا محمد المويلحي وله مقالة في «رموز العرب

وتخيلاتهم» نُشرت في «المقتطف» سنة ١٩ استخرج فيها عاداتهم ومعتقداتهم من أشعارهم.

والعرب يتغزلون بحيواناتهم ويتمثلون بها، وخصوصًا الناقة والفرس والقطا والحمام، ويغلب فيهم أن يذكروا الحمام في الغزل، والناقة في السفر، والخيل في الحرب.

(١٠) المفاخرة والمعاظمة والمقارعة

كان العرب في جاهليتهم أهل إباء واستقلال وفخر، فقامت المفاخرة بين قبائلهم وأحيائهم، وأصبحوا يتنافسون في كل شيء حتى في المصائب وهي المعاظمة، أشهرها معاظمة الخنساء وهند بنت عتبة، فكانت الخنساء تأتي الموسم وتبكي أباها وأخويها وقد سومت هودجها براية وتقول: «أنا أعظم العرب مصيبة» فأصيبت هند بنت عتبة المذكورة في واقعة بدر، فقُتل أبوها وعمها وأخوها فلما بلغها ما قالته الخنساء قالت: «أنا أعظم العرب مصيبة» وأمرت بهودجها فسُوِّم براية وشهدت الموسم بعكاظ وقالت: «اقرنوا جملي بجمل الخنساء» ففعلوا، فلما تقاربتا تعارفتا وتعاظمتا نظمًا ونثرًا.[١٤]

فإذا كان هذا شأن التنافس بين عامة الناس، فأحرى به أن يكون بين الشعراء، ومن أنواعه المقارعة على الأحساب كالتي جرت بين عامر ولبيد والأعشى من جهة، وعلقمة والحطيئة وفتيان من بني الأحوص من جهة أخرى … وأخذوا يتناشدون في المقارعة في حديث طويل.[١٥]

ومن هذا القبيل المنازعة بين قبيلتين أيهما أشعر، كما جرى بين عمر بن أبي ربيعة والفضل بن العباس اللهبي في المسجد الحرام … فأخذ كل منهما يورد أشعارًا لأبناء قبيلته، ويبرهن على أنها أحسن مما قاله الشعراء من القبيلة الأخرى.[١٦]

ولما جاء الإسلام ذهبت عصبية القبائل وصارت المفاخرة بين المهاجرين والأنصار،[١٧] وعندهم أيضًا المراجزة[١٨] وهي المقارعة بالرجز ومنها المناشدة بالأشعار.

(١١) الأنفة والعفة

كان العربي في الجاهلية صاحب أنفة وشرف يأبى الضيم ويغار على العرض، إذا قال فعل وإذا وعد وفى وإذا اضطر إلى رهن في أمر عظيم رهن قوسه … ولا قيمة للقوس بنفسها، ولكنها عندهم شرف الرجل فهو قائم بما رهنها له مهما كلفه.[١٩]

ولم يكن أشد منهم غيرة على العرض، وفي أخبارهم ما لا يحصى من الدفاع عن المرأة وعرضها، وكثيرًا ما نشبت الحرب في هذا السبيل، وقد كان سبب الحرب التي قُتل فيها زهير بن جذيمة العبسي، أن ابنه شأسًا اغتسل بجانب أبيات لبني غنى بماء لبني عامر فناداه رجل غنوي أن يستتر فلم يحفل به فرماه بسهم فقتله، وجر ذلك إلى حرب قُتِلَ فيها زهير المذكور وغيره.

وكانوا يفتخرون بالعفة خلافًا لما صارت إليه طبائعهم حين امتزجوا بالموالي من الأمم الأجنبية، وتمثيلًا للفرق بين الحالين، قابل ما قاله عنترة بما قاله أبو نواس الفارسي ... قال عنترة:

وأغض طرفي إن بدت لي جارتي حتى يواري جارتي مأواها

وقال أبو نواس:

كان الشباب مطية الجهل ومحسِّن الضحكات والهزل
والباعثي والناسُ قد رقدوا حتى أتيتُ حليلةَ البَعْل

ولذلك قل التهتك في تغزلهم، وبعض القبائل تعد الغزل رذيلة،[٢٠] وتجد ذلك ظاهرًا في أشعارهم ... فالجاهل متعفف بألفاظه وأخلاقه بعيد عن الفحش في القول أو السباب إلا ما يرى به تمثيل الطبيعة كما تقدم.

(١٢) لا يستجدون

الجاهلي لا ينظم التماسًا للعطاء وإنما ينظم لداعٍ يحركه، إما دفاعًا عن عرض، أو تحمسًا لحرب، أو تشكيًا من الفراق، أو بكاءً على فقيد، أو نحو ذلك، وقد يمدح ولكن مدحه يكون على الغالب شكرًا على صنيع لا استدرارًا لجائزة، كما صار إليه الشعراء في الإسلام بالتقرب والتزلف، وكان موضوع مدائح الجاهليين شيوخهم وأمراءهم، كهرم بن سنان، وعامر بن الظرب، والأقرع بن حابس، وربيعة بن مخاشن وغيرهم.

فقد مدح زهير هرمَ بن سنان ومدح غيره لا للاستجداء، على أن بعضهم انتجع بشعره، وأول من فعل ذلك الأعشى ... ونظم بعض الجاهليين في مدح المناذرة أو الغساسنة أو بعض أمرائهم، وأشهر المداحين في الجاهلية الأعشى والربيع بن زياد والنابغة الذبياني

والمنخل اليشكري وأبو زبيد الطائي ومعن بن أوس وزهير بن أبي سلمى والحطيئة، وسنأتي على أخبارهم في أماكنها.

(١٣) منزلة الشاعر في الجاهلية

كان للقبيلة عدة شعراء، تقدم واحدًا منهم تسميه شاعر القبيلة، وهي تهتم بإعداد الشاعر، كما تهتم بإعداد القائد والخطيب … فيقال: إن قائد القبيلة الفلانية فلان وفارسها فلان وشاعرها فلان؛[٢١] لأن الشعراء حماة الأعراض وحفظة الآثار ونقلة الأخبار، وربما فضلوا نبوغ الشاعر فيهم على نبوغ الفارس، ولذلك كانوا إذا نبغ فيهم شاعر من قبيلة … أتت القبائل الأخرى فهنأتها به وصنعت الأطعمة واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعن في الأعراس، وتتباشر الرجال والولدان لاعتقادهم أنه حماية لأعراضهم ودفاع عن أحسابهم وتخليد لمآثرهم وإشادة لذكرهم،[٢٢] وفي الواقع أن ما بقي لنا من أخبار عرب الجاهلية وآدابهم وعلومهم وأخلاقهم، إنما هو منقول عن أشعارهم.

وكانوا يتخذون الشعراء واسطة في الاسترضاء أو الاستعطاف أو يجعلونهم وسيلة لإثارة الحروب، فيكون الشاعر لسان حال القبيلة يعبر عن غرضها وينطق بلسانها شأن الصحف الرسمية اليوم … فإن الصحيفة الرسمية إذا قالت قولًا، علم الناس أن الحكومة تريده … وهذا هو سبب ما كان يظهر من تأثير الشعر في السياسة، ولذلك فالقبيلة مطالبة برعاية شاعرها والقيام بما يحتاج إليه وإكرامه وتقديمه.

ولم يكونوا يقدمون الشاعر لأنه يدافع عنهم فقط، ولكنهم كانوا يجلون الشعر نفسه لما كان له من الوقع في نفوسهم … يدلك على ذلك تعليق المعلقات بأستار الكعبة إجلالًا لها[٢٣] وسنعود إلى ذلك.

(١٤) تأثير الشعر في نفوس العرب

قد علمت مما تقدم أن طبيعة العرب شعرية؛ لأنهم ذوو نفوس حساسة وشعور دقيق تقعدهم الكلمة وتقيمهم، شأن صاحب الفروسية والنجدة المعبر عنهما عند الإفرنج بالشفاليري. وكان العرب على الإجمال أهل حافظة إذا أعجبهم البيت حفظوه وتناقلوه … فيشيع على ألسنتهم كبارًا وصغارًا ويتحدثون به في أنديتهم ومجتمعاتهم، فإذا كان هجوًا سقط المقول فيه، وإذا كان مدحًا اشتهر اسمه، ولكن الهجو كان غالبًا عليهم، وقد

وُفق بعض الشعراء إلى شيوع أشعارهم لخفتها، وكان الأعشى من أسير الناس شعرًا، وكذلك زهير والنابغة وامرؤ القيس.

فالقبيلة إذا هجاها شاعر فحل، حط الهجو منها خصوصًا إذا كان الهجو مطابقًا للواقع، وإلا رد شاعرها عنها فتعود إلى مقامها، وليس في العرب قبيلة إلا هُجيت، فمن القبائل التي لم يؤثر الهجو فيها قبائل تميم وبكر ووائل وأسد وأمثالها، ومن القبائل التي أثر فيها الهجاء مع مقامها في الشجاعة أحياء من قيس منهم غنى وباهلة ومحارب وأحياء من أد بن طابخة منهم تيم وعكل وغيرهما، وهناك قبائل كان حظها من الشعراء المديح، كبني مخزوم من قريش.

وكانت القبيلة إذا مُدحت فاخرت سائر القبائل لا سيما إذا كان مادحها من غير أبنائها. ويحكى أن شعراء تميم كانوا يذكرون قيسًا بالمدح والإعجاب، فافتخرت قيس على تميم، وما زالت تميم منكسة رؤوسها حتى قام لبيد العامري وهو من قيس، فذكر تميمًا في شعره وأطراها، وفعل ذلك شاعر آخر من قيس، فتكلمت عند ذاك تميم وافتخرت.[٢٤]

ومن أمثلة تأثير هجو الشعراء في القبائل شعر حط من قدر الحبطات وهم بطن من تميم، فقال الشاعر فيهم:

رأيت الحُمْرَ من شَرِّ المطايا كما الحبطات شرُّ بني تميم

وهل أهلك ظليم البراجم إلا قول الشاعر:

إن أبـانـا فَـقْـحَـةٌ لـدارم كما الظُّلَيْمُ فقحة[٢٥] البراجمِ

وقد أهلك بني العجلان قول الشاعر:

إذا الـلـه عـادى أهـل لـؤمٍ ودقَّـةٍ فعادى بني العَجلان رهطَ ابن مُقْبلِ
قـبـيـلـتـه لا يـغـدرون بـذمـةٍ ولا يظلمون الناس حبَّة خردل
ولا يَـردون الـمـاء إلا عـشـيـةً إذا صدر الورَّاد عن كل مَنْهلِ[٢٦]

ويشبه ذلك بيت جرير في بني نمير من عامر بن صعصعة في الدولة الأموية، فإنه جعل كل نميري إذا سُئل عن نسبه قال: إنه عامري، وهذا هو البيت:

فغُضَّ الطَّرْفَ إنك من نُمَيرٍ فلا كعبًا بلغتَ ولا كلابا

وبعكس ذلك ما أصاب بني أنف الناقة من الرفعة؛ فقد كان الرجل منهم إذا سُئل عن نسبه قال من بني قريع وهو نسب آخر لهم، حتى قال الحطيئة فيهم:

قوم هم الأنف والأذناب غيرهمُ ومن يُسوِّي بأنف الناقة الذَّنبا

فأصبحوا يفاخرون بقبيلتهم ...

على أن الشعراء لم يكونوا يتعمدون هجاء غير القبائل الظاهرة النابهة، فسلمت القبائل الخاملة من هجومهم، وشأنهم في ذلك مثل شأن الصحف السياسية في البلاد الأجنبية ... فإن الأحزاب يهمها انحياز إحدى الصحف المهمة إلى جانبها، كما كان يهم القبيلة أو الجماعة في الجاهلية أن ينصرها شاعر مشهور فتبذل له ما يريد في سبيل نصرتها، ولذلك فإن الأعشى لما وفد على الرسول ومدحه، فبلغ أبا سفيان ذلك، جمع رجال قريش وقال لهم: «والله لئن أتى محمدًا واتبعه ليضرمن عليكم نيران العرب بشعره فاجمعوا له مائة من الإبل»، ففعلوا فأخذها وانطلق إلى بلده.[٢٧]

وكان لشعر الأعشى تأثير كبير في النفوس، ويحكى من هذا القبيل أن رجلًا من كلاب اسمه المحلق كان له ثلاث بنات لم يزوجهن، وكان معسرًا، وجاء الأعشى يقصد مكة فسمعت امرأة المحلق به، فحثت زوجها أن يدعوه للضيافة قبل سواه ويذبح له لأنه إذا قال شعرًا شاع، فدعاه المحلق ونحر له ناقة، وبالغت المرأة في إكرامه وإكرام رفاقه وكان في عصابة قيسية ... فلما جرى الشراب في عروقه سأل المحلق عن عياله فشكا له حال بناته، ولما وافى سوق عكاظ أنشد قصيدة مطلعها:

أرقتُ وما هذا السهاد المؤرِّق وما بيَ من سُقْمٍ وما بي مَعْشَقُ

ثم تخلص إلى مدح المحلق وإطرائه في السخاء وكرم الأخلاق والناس يسمعون، فلما فرغ من الإنشاد انسل الناس إلى المحلق يهنئونه وهرع الأشراف من كل قبيلة

يتسابقون إليه يخطبون بناته، فلم تمسِ منهن واحدة إلا في عصمة رجل أفضل من أبيها ألف ضعف،[٢٨] وكذلك فعل سكين الدارمي في إنفاق الخمر السود،[٢٩] ومن شدة تأثرهم بالشعر أن الشاعر ربما لُقب بلفظ ورد في بيت من أشعاره كما لُقب المرقش والنابغة والمخرق وأفنون وغيرهم[٣٠] حتى في الغناء، فإن السامع ربما تأثر من معنى الشعر أكثر من نغمه.

(١٥) أشعر شعراء الجاهلية

ما برح العرب منذ صدر الإسلام مختلفين فيمن هو أشعر شعرائهم، ولهم في ذلك أقوال كثيرة ... على أن تقسيم الشعراء إلى طبقات قد يُعد حكمًا إجماليًّا في ذلك، ويستدل منه أن أصحاب المعلقات هم أشعر الشعراء في حكمهم، وأشعر هؤلاء ثلاثة: امرؤ القيس، وزهير بن أبي سلمى، والنابغة. وقد أجمعوا تقريبًا على تفضيلهم، وإنما اختلفوا فيمن هو أشعرهم اختلافًا كثيرًا ... قال أبو عبيدة: «أشعر الناس أهل الوبر خاصة وهم امرؤ القيس، وزهير، والنابغة، فإن قال قائل: إن امرأ القيس ليس من أهل نجد فلعمري إن هذه الديار التي ذكرها في شعره ديار بني أسد بن خزيمة، وفي الطبقة الثانية الأعشى ولبيد وطرفة»، وقيل: إن الفرزدق قال: «امرؤ القيس أشعر الناس»، وقال جرير: «النابغة أشعر الناس»، وقال الأخطل: «الأعشى أشعر الناس»، وقال ابن أحمر: «زهير أشعر الناس»، وقال ذو الرمة: «لبيد أشعر الناس»، وقال ابن مقبل: «طرفة أشعر الناس»، وقال الكميت: «عمرو بن كلثوم أشعر الناس» والقول الراجح ما قال أبو عبيدة: «امرؤ القيس، ثم زهير، والنابغة، والأعشى، ولبيد، وعمرو، وطرفة».

على أننا نرى في الحكم على شاعر أنه أشعر أهل زمانه على الإطلاق حيفًا؛ إذ قد ينفرد كل شاعر بمزية تفضله على سواه ... فيجيد شاعر في الحماسة، وآخر في المديح، أو الغزل، أو غير ذلك من أغراض الشعر، وعلى ذلك قالوا: «أشعر الشعراء أربعة: زهير إذا رغب، والنابغة إذا رهب، والأعشى إذا طرب، وعنترة إذا غضب».

والذي عليه الأكثرون في وصف أصحاب المعلقات، أن امرأ القيس صاحب النصيب الأوفر في الشعر ...؛ لأن الشعر في تعبيرهم كان جملًا فنُحر، فأخذ امرؤ القيس رأسه، وأن زهيرًا يمتاز بأنه لا يعاظل بين كلامين ولا يتبع وحشي الكلام ولا يمدح أحدًا بغير ما فيه، ولشعره ديباجة إن شئت قلت: شهد إن مسسته ذاب،[٣١] وأن النابغة أوضح

الشعراء معنى وأبعدهم غاية وأكثرهم فائدة، وأن الأعشى أمدحهم للملوك وأوصفهم للخمر وأقدرهم شعرًا وأحسنهم قريضًا، وأن لبيدًا أقلهم لغوًا وعمرو بن كلثوم أعزهم نفسًا وأكثرهم امتناعًا وأجودهم واحدة، وطرفة أشعرهم؛ إذ بلغ مع حداثة سنه ما بلغ القوم في طول أعمارهم.

(١٦) رواة الشعر

من عادة العرب في رواية الشعر، أنهم كانوا في أيام الجاهلية إذا نبغ الشاعر صحبه رجل يروي له أشعاره، ويغلب في الراوية أن يكون مرشحًا للشاعرية، كأنه تلميذ يتدرب على يد أستاذ يأخذ عنه، وكان اعتمادهم في الجاهلية على الحفظ؛ لأنهم لم يكونوا يكتبون ... فكان كُثَيِّر عزة راوية جميل بثينة، وجميل راوية هدبة بن خشرم، وهدبة راوية الحطيئة، والحطيئة راوية زهير وابنه،[٣٢] وكان الراوية في الجاهلية وأوائل الإسلام يروي للشاعر الواحد ويصحبه وينشد له، ويعجب به إعجاب التلميذ بأستاذه، ويناضل عنه ويفضله على سواه.

وليست هذه العادة خاصة بالعرب، فإن اليونان القدماء كان عندهم أناس يروون الشعر وغيره ويسمون واحدهم Rhapsodist، أشهرهم في القديم رواة الإلياذة ... على أن بعض الأدباء أهل الذكاء من العرب، كان يروي الشعر بدون التخصص بشاعر دون آخر ... وإنما كان يفعل ذلك رغبة في الأدب والعلم، فقد كان في القديم أربعة من قريش كانوا رواة الناس للأشعار وعلماءهم بالأنساب والأخبار، وهم: مخرمة بن نوفل بن وهيب بن عبد مناف بن زهرة، وأبو الجهم بن حذيفة بن غانم بن عامر بن عبد الله بن عوف، وحويطب بن عبد العزى، وعقيل بن أبي طالب، وكان عقيل أكثرهم ذكرًا لمثالب الناس ... فعادوه لذلك وقالوا فيه وحمقوه حتى ألف بعض الأعداء فيه الأحاديث.

(١٧) شعراء الجاهلية من حيث أغراضهم

تقدم ما للشعر الجاهلي من الخصائص التي يمتاز بها على الإجمال، ولكن هذه الخصائص تختلف باختلاف أغراض الشعراء ... وينقسم الشعراء من هذا الوجه إلى

مجاميع، لكل منها غرض أو أسلوب أو منحى خاص، وسنتوخى في تقسيمهم غير ما نراه في كتب القدماء، فنقسم الشعراء بالنظر إلى أغراضهم في النظم.

وقد علمت أن الشعراء الجاهليين الذين بلغتنا أخبارهم نحو مائة شاعر وبعض المائة من القبائل على اختلاف أصولها … وكلهم عرب إلا واحدًا كان عبدًا لبني الحسحاس وهو أعجمي، فلا عجب إذا خلص الشعر الجاهلي من العُجمة لفظًا وتركيبًا، خلافًا لما آلت إليه حال الشعراء بعد الإسلام؛ إذ نبغ فيهم طبقة من الموالي غير العرب، كما سيجيء … فالشعراء الجاهليون كلهم عرب، وأكثرهم من عدنان كما تقدم … ومعظمهم أهل بادية ورحلة متشابهون في أخلاقهم وأغراضهم، وأهمها في القرنين الأخيرين قبل الإسلام: الحرب فيما بينهم، يوم كان البدوي يبيت وسيفه أو رمحه ضجيعه، كأنه يتحفز للنهوض في الصباح للغزو؛ التماسًا للرزق أو الفخر أو للثأر، فيقضي أيامه في الحرب أو يتأهب للحرب، والشاعر لسان حال قبيلته أو مرآة أخلاقها وآدابها، فلذلك كان أكثر شعراء الجاهلية من أهل الحرب الفرسان الشجعان، وقد اشتهر جماعة منهم في وقائع مشهورة نظموا فيها قصائد الحماسة والفخر، وإذا اعتبرنا عدد شعراء الجاهلية مائة، كان نصفهم من الفرسان وأهل الحرب، وأكثر أشعارهم في الحماسة والفخر … وبينهم طائفة من الملوك والأمراء، أي كانت لهم الرياسة في قبائلهم وهي أكبر المناصب السياسية في ذلك العصر، ومنهم طائفة من الحكماء وأهل التعقل والعلم والحكمة، وطائفة أخرى من العشاق المتيمين الذين هاج العشق شاعريتهم، وآخرون يدخلون في صف الفرسان، لكنهم يختصون بصفة مشتركة هي العدو والغزو، ويسمونهم الصعاليك، ومنهم طائفة تجمعها طبيعة الهجو ففيهم ميل إلى المهاجاة، وآخرون اختصوا بوصف الخيل وغيرهم بالغناء، ومن الشعراء من يجمعهم المذهب، وأخيرًا النساء الشواعر وهناك طائفة لا تدخل في إحدى هذه الطبقات.

فهذا تقسيم الشعر من حيث أغراض الناظمين وطبائعهم ومراتبهم، لكن علماء الشعر تعودوا تقديم أصحاب المعلقات على سواهم وهم مختلفون غرضًا ووجهة؛ متشابهون قوة وشاعرية، فنجعلهم في باب على حدة، وعليه فتكون طبقات الشعراء الجاهلية من حيث أغراضهم ومراتبهم ١٣ طبقة، وهذه هي مع عدد الشعراء من كل طبقة:

عدد الشعراء	
١٠	أصحاب المعلقات
١٤	الشعراء الأمراء
٢٨	الشعراء الفرسان
٤	الشعراء الحكماء
٨	العشاق
٧	الصعاليك
١	المغنون
٤	النساء الشواعر
٤	الهجاءون
٤	الوصافون للخيل
١	الموالي
٣٦	سائر الشعراء
١٢١	المجموع

هؤلاء شعراء الجاهلية وعددهم ١٢١ شاعرًا، وليس هم كل من قال شعرًا في الجاهلية؛ إذ لم يوجد بينهم ذكي لم يقل الشعر؛ لأنه كان سجية في العرب كما تقدم، وإنما وصلنا من أخبار أولئك نخبتهم وأشعرهم، ولم نذكر كل من وصلنا أخبارهم وإنما اخترنا أكثرهم شعرًا وأقواهم شاعرية، وإلا ففي ديوان الحماسة وجمهرة أشعار العرب والمفضليات وأشعار الهذليين والأغاني وسائر كتب الأدب واللغة أسماء مئات من الشعراء لم يصلنا من أقوالهم إلا بيت أو بضعة أبيات.

ومن الذين اخترنا ذكرهم نفر أدرك الإسلام وعاش في أيام الراشدين، وقد عددناه جاهليًّا؛ لأنه نشأ على طبائع الجاهلية وأما المؤرخون فيسمونهم مخضرمين.

لكل طبقة مزية

ولكل طائفة من هؤلاء الشعراء صبغة في أشعارهم حسب غرضها … فالشعراء الأمراء أو الملوك تمتاز أشعارهم بأنفة المُلك وعِزِّه، فيفتخرون بالسيادة أكثر من السيف والرمح والقبيلة … فمن أقوال أحدهم وهو الأفوه الأودي:

معاشر ما بنوا مجدًا لقومهم وإن بَنَى غيرهم ما أفسدوا عادوا

ويعد هذا البيت من حكمة العرب، وإذا مدحوا لا نجد في مدحهم تزلفًا أو استجداءً، وإنما يكون للشكر على خدمة سلفت كقول امرئ القيس يمدح بني ثعل:

فأبلغ معدًّا والعباد وطيِّئًا وكندة أني شاكر لبني ثُعَلْ

وترى في تشابيههم عند الوصف ذكر آنية الترف الذي يألفها الملوك والأمراء، فامرؤ القيس لما أراد وصف عين فرسه شبهها بالمرآة وهي من آنية الترف عندهم، وقال:

وعين كمرآة الصَّناع تديرها لمحجرها من النصيف المنقَّب

ووصف بعض حمر الوحش، فشبه ألوانها بأنواع الوشي الجميلة، ولما وصف قروحه شبهها بنقش الخواتم.

ولا يخلو شعر الأمراء من ذكر المجد السالف، ويشيرون إلى مواليهم وأعوانهم وغير ذلك مما ستراه في مكانه.

ويقال نحو ذلك في شعراء سائر الطبقات، فإن كلًّا منها تختص بأسلوب أو بشيء يميزها عن الطبقات الأخرى … فشعر العشاق المتيمين أكثره في التشبيب وشكوى الغرام والهجران، وشعر الحكماء أكثره حكم وعظات وعِبَر، ولا يمنع ذلك أن يشترك الشاعر في غير غرض من هذه الأغراض، أي أن يكون متحمسًا وحكيمًا وعاشقًا وغير ذلك، فإن كثيرين من الفرسان عشقوا وهاموا، وإنما جعلناهم من طبقة الفرسان؛ لغلبة ذلك عليهم.

وقد آن لنا أن نصف أشهر هؤلاء الشعراء وأشعرهم وفيهم المكثر من الشعر والمقل، وبعضهم نظموا كثيرًا، ولم يصلنا من أشعارهم إلا القليل، ولا فائدة لطالب تاريخ آداب

اللغة من إيراد تراجم هؤلاء ... وإنما نختص بالوصفِ الشعراءَ الذين كانوا قدوة لسواهم أو خلَّفوا آثارًا يمكن الحصول عليها ومطالعتها، ونكتفي في الآخرين بذكر المآخذ التي يمكن الرجوع إليها في مطالعة أخبارهم لمن أراد.

هوامش

(١) العقد الفريد ٩٣ ج٣.
(٢) أعدى: أعين.
(٣) الموصد: الخدر.
(٤) العمدة ١٣٩ ج٢ والهداء: زفاف العروس.
(٥) نُشرت هذه القصيدة في السنة ١٤ من الهلال ص١٧٤ مع سبب نظمها.
(٦) يتيمة الدهر ٢٤١ ج٣.
(٧) البيان والتبيين ٥٢ ج٢.
(٨) شعراء النصرانية ٣٤.
(٩) شعراء النصرانية ١ت والختور: الخائن.
(١٠) العمدة ١٠١ ج٢.
(١١) شعراء النصرانية ١٦٦.
(١٢) الأراقم: حي من تغلب.
(١٣) حصن: من سادة بني فزارة.
(١٤) الأغاني: ٣٥ ج٤.
(١٥) الأغاني: ٥٥ ج١٥.
(١٦) الأغاني: ٨ ج١٥.
(١٧) الأغاني: ١١٣ ج١٥.
(١٨) الأغاني: ١٠٠ ج٧.
(١٩) العقد الفريد ٥٢ ج٣.
(٢٠) الأغاني: ١١١ ج٧.
(٢١) الأغاني: ١٤٦ ج٤.
(٢٢) المزهر ٢٣٦ ج٣.
(٢٣) العقد الفريد: ٩٣ ج٣.

(٢٤) العمدة: ١٤٩ ج٢.

(٢٥) الفقحة: السوأة.

(٢٦) البيان والتبيين: ١٦٩ ج٢.

(٢٧) الأغاني: ٨٦ ج٨.

(٢٨) العمدة: ٢٥ ج١.

(٢٩) تاريخ التمدن الإسلامي ٢٩ ج٣.

(٣٠) لطائف المعارف ١٧.

(٣١) جمهرة أشعار العرب ٢٥.

(٣٢) الأغاني: ٧٨ ج٧.

أشهر شعراء الجاهلية

(١) أصحاب المعلقات

اختلف الرواة في عدد المعلقات وأصحابها، فأبو زيد القرشي صاحب جمهرة أشعار العرب يجعلهم ثمانية كما رأيت ... وهم امرؤ القيس، وزهير والنابغة، والأعشى، ولبيد، وعمرو بن كلثوم، وطرفة، وعنترة، ولكن الزوزني جعل المعلقات سبعًا، ليس بين أصحابها النابغة ولا الأعشى، وأضاف الحارث بن حلزة، وأضاف أبو زكريا التبريزي فوق ذلك قصيدة عبيد بن الأبرص، فصارت المعلقات وملحقاتها عشرًا ... هذه أسماء أصحابها:

امرؤ القيس – النابغة – زهير – طرفة بن العبد – لبيد – عنترة – عمرو بن كلثوم – الحارث بن حلزة – الأعشى – عبيد بن الأبرص.

وذكر أبو جعفر النحاس المتوفى سنة ٣٣٨هـ، وهو شارح المعلقات، أنها سبع وأن بعضهم أضاف إليها قصيدتيْ النابغة والأعشى وإن لم يعدهما من المعلقات، وذكر ابن خلدون سبعة من أصحاب المعلقات فيهم علقمة بن عبدة[١] لكنه لم يعين معلقته، وسنأتي هنا على ترجمة كل من نُسبت إليه معلقة معينة ... فإن الشاعرية تجمعهم جميعًا.

(١-١) هل عُلقت المعلقات بالكعبة؟

اختلف أصحاب الأخبار في شأن هذه المعلقات في الجاهلية، فقال بعضهم: إن العرب بلغ من تعظيمهم إياها أن علقوها بأستار الكعبة. وأنكر بعضهم ذلك وأكبروه، وأقدم المنكرين أبو جعفر النحاس النحوي المتقدم ذكره، فقد قال في شرحه المعلقات بالنسخة الخطية الموجودة منه في مكتبة برلين ما نصه: «واختلفوا في جمع هذه القصائد السبع، وقيل: إن العرب كان أكثرهم يجتمع بعكاظ ويتناشدون الأشعار ... فإذا استحسن الملك

قصيدة قال: علقوها وأثبتوها في خزائني. فأما قول من قال إنها علقت في الكعبة فلا يعرفه أحد من الرواة، وأصلح ما قيل في هذا «إن حمادًا الراوية لما رأى زهد الناس في الشعر جمع هذه السبع وحضهم عليها، وقال لهم هذه هي المشهورات … فسميت القصائد المشهورة»، ونقل ذلك ابن الأنباري فقال: «وهو (حماد) الذي جمع السبع الطوال، هكذا ذكره أبو جعفر أحمد بن محمد النحاس، ولم يثبت ما ذكره الناس من أنها كانت معلقة على الكعبة» فهو يستغرب مخالفة النحاس لما ذكره الناس.

والأكثرون يذهبون إلى أنها عُلقت في الكعبة، وهذا ابن عبد ربه كان معاصرًا للنحاس المذكور وتوفي قبله (سنة ٣٢٨هـ) قال: «وقد بلغ من كلف العرب به (بالشعر) وتفضيلها له أن عمدت إلى سبع قصائد ميزتها من الشعر القديم، فكتبتها بماء الذهب في القباطي المدرجة وعلقتها في أستار الكعبة، فمنه يقال: مذهبة امرؤ القيس، ومذهبة زهير، والمذهبات سبع، وقد يقال لها: المعلقات»،[٢] وأيد ذلك كثيرون في عصور مختلفة، منهم ابن رشيق صاحب كتاب العمدة وهو من أكبر نقدة الشعر، قال: «وكانت المعلقات تُسمى المذهبات؛ وذلك لأنها اختيرت من سائر الشعر فكتبت في القباطي بماء الذهب وعُلقت على الكعبة، فلذلك يقال: مذهبة فلان إذا كانت أجود شعره، ذكر ذلك غير واحد من العلماء، وقيل: بل كان الملك إذا استجيدت قصيدة الشاعر يقول: علقوا لنا هذه. لتكون في خزائنه»،[٣] فترى أن ابن رشيق أميل إلى القول بتعليقها؛ لأنه ينسب القول بذلك إلى «غير واحد من العلماء» ويضعف الرأي الآخر بقوله: «وقيل».

أما ابن خلدون فإنه يقطع بتعليقها ولا يذكر سواه، وهذا قوله: «حتى انتهوا (أي العرب) إلى المناغاة في تعليق أشعارهم بأركان البيت الحرام موضع حجهم وبيت إبراهيم كما فعل امرؤ القيس بن حجر، والنابغة الذبياني، وزهير بن أبي سلمى، وعنترة بن شداد، وطرفة بن العبد، وعلقمة بن عبدة، والأعشى وغيرهم من أصحاب المعلقات السبع».[٤]

وقد وافقهم أكثر العلماء والباحثين في هذا الموضوع، وإنما استأنف إنكار ذلك بعض المستشرقين من الإفرنج ووافقهم بعض كُتَّابنا؛ رغبة في الجديد من كل شيء.

وأي غرابة في تعليقها وتعظيمها بعدما علمنا من تأثير الشعر في نفوس العرب وتعظيمهم لأصحابه؟! أما الحجة التي أراد النحاس أن يضعف بها القول بتعليقها فهي غير وجيهة؛ لأنه قال: «إن حمادًا رأى زهد الناس بالشعر إلخ» والحقيقة أن الناس لم يكونوا راغبين في الشعر مثل رغبتهم في أيامه، ألم يكن الخلفاء يستقدمون حمادًا هذا

من العراق إلى الشام ليسألوه عن بيت: مَن قاله، أو فيمَ قيل؟ … وإليك تراجم أصحاب المعلقات ومن يلحق بهم.

(١-٢) امرؤ القيس بن حجر (توفي نحو سنة ٥٤٠م)

هو أشهر شعراء الجاهلية وأشرفهم أصلًا وأرفعهم منزلة، يتصل نسبه بملوك كندة، وهم في قول العرب بطن من كهلان، وكانوا يقيمون في البحرين والمشقر، ثم أجلوا عنهما إلى منازل كندة في حضرموت، وإليها ينسبون، أقاموا هناك دهرًا يتولون بعض مناصب الدولة على عهد التبابعة الحميريين، وقد ضاع أكثر أخبارهم، وأقدم من عرفت أخباره منهم حجر بن عمرو آكل المرار جد جد امرئ القيس الشاعر، ونزح حجر إلى نجد ونزل بطن عاقل في أوائل القرن الخامس للميلاد، وكان اللخميون (المناذرة) قد ملكوا كثيرًا من تلك البلاد ولا سيما بلاد بكر بن وائل، وهم يومئذ بنجد … فنهض البكريون معه لمحاربة اللخميين واستقلوا عن سلطانهم، فاجتمعت كلمتهم على تعظيمه وملكوه عليهم حتى توفي بأواسط القرن الخامس للميلاد فخلفه ابنه عمرو بن حجر، فلما مات خلفه ابنه الحارث بن عمرو، وفي أيامه فتح الأحباش اليمن فضعف شأن دولته، فوجه مطامعه نحو اللخميين في الحيرة، وكان يحسدهم؛ لتقربهم من الأكاسرة … واغتنم تغير كسرى قباذ على المنذر بن ماء السماء بسبب المزدكية وتقرب إليه، فوافقه وولاه الحيرة مكان المنذر، فعظم الحارث في نظر القبائل وجعلوا يتقربون إليه بالطاعة وسألوه أن يولي عليهم من أراد، وكان له أربعة أولاد أقام كلًّا منهم حاكمًا على بعض القبائل، ومنهم حجر بن الحارث والد امرئ القيس تولى على بني أسد وغطفان.

ثم انقلب الأمر على الحارث بعد موت قباذ؛ لأن أنوشروان ابنه وافق المنذر وعزل الحارث ففر، وطمع فيه المنذر فطار حتى قتله، وجعل يفسد بين أولاده بالتحاسد حتى تحاربوا فقتل اثنان منهم وبقي اثنان: هما حجر والد امرئ القيس ومعد يكرب أمير قيس، ورأى بنو أسد تضعضع دولة كندة، فاجتمعوا على خلاف ملكهم حجر وأمسكوا عن أداء الإتاوة فحاربهم فقتلوه.

وكان امرؤ القيس عند مقتل أبيه غائبًا فلما علم بقتله رجع وهو يعتقد عجزه عن الأخذ بثأره؛ لأن عدوه قوي، وعلم أيضًا أن ذلك العدو إذا عرف مقره قبض عليه، فقضى برهة من الدهر وهو يتجول متنكرًا في اليمن ونجد والحجاز يستجير القبائل، فلم يجره أحد حتى أتى السموءل صاحب حصن الأبلق فاستجاره فأجاره، فاستودعه

أدرعه، وأمتعته وهو لا يرى من يستنصره على أعدائه إلا قيصر الروم …؛ لأن ملوك الحيرة عمال الفرس نصروا أعداءه على جاري عادة العرب في ذلك العهد، إذا تظلموا من إحدى هاتين الدولتين استنصروا الأخرى، ولم يكن لامرئ القيس سبيل إلى القيصر فوسط الحارث بن أبي شمر الغساني صاحب النفوذ عند قيصر الروم يومئذ وطلب منه أن يوصله إليه ففعل، فسار امرؤ القيس إلى القيصر، ويقول العرب: إن القيصر بعد أن أجاب دعوته وسمع مدائحه وشى به أحد بني أسد أعدائه، وقال للقيصر: «إن امرأ القيس شتمك» فصدق الوشاية، وألبس الشاعر حلة مسمومة قتلته، ولا نعرف سمًّا يفعل هذا الفعل، وعلى كل حال إن امرأ القيس قتل ولم ينل إربًا.

وجاء في شعراء النصرانية بعد ذكر موت امرئ القيس بالجدري ما نصه: «وذكر في كتاب قديم مخطوط أن ملك قسطنطينية لما بلغه وفاة امرئ القيس أمر بأن ينحت له تمثال وينصب على ضريحه … ففعلوا، وكان تمثال امرئ القيس هناك إلى أيام المأمون، وقد شاهده هذا الخليفة عند مروره هناك لما دخل بلاد الروم؛ ليغزو الصائفة».

شعر امرئ القيس

وكان امرؤ القيس قوي الشاعرية ولولا ذلك لم يقل الشعر؛ لأن الملوك كانوا قبله يأنفون من قوله، ولكنه كان مطبوعًا عليه يقوله وأبوه حي، وكثيرًا ما زجره وهو يعصاه حتى اضطر أبوه أن يبعده عنه … فلم يبالِ بل جعل يجول في الأحياء مع بعض الأخلاط من شذاذ العرب من طيء وكلب وبكر بن وائل، فإذا صادف غديرًا أو روضة أو موضع صيد أقام فذبح لمن معه في كل يوم، وخرج إلى الصيد فتصيد ثم عاد فأكل وأكلوا معه وشرب الخمر وسقاهم وغنته قيانه، ولا يزال كذلك حتى ينفد ماء ذلك الغدير ثم ينتقل عنه إلى غيره.

فلما أتاه نعي أبيه كان بدمون من أرض اليمن، فغضب غضبًا شديدًا، وغضبه أهاج شاعريته، وأسفاره في البلاد زادت اختباره، ولعله جاء بلاد الروم قبل سفرته الأخيرة، والأسفار توسع الخيال الشعري، وإذا عاشر الناس وخالطهم اطلع على آدابهم واستفاد معاني جديدة أو تتفتق فريحته فتستنبط صورًا جديدة، وذلك من الأسباب التي جعلت امرأ القيس يسبق إلى أشياء في الشعر لم تكن معروفة قبله وتبعه الشعراء فيها.

وإذا أمعنت النظر فيما استنبطه من المعاني والأساليب، رأيتها من ثمار الأسفار وسعة الاطلاع … فمنها استيقاف الصحب في الديار كقوله: «قفا نبك إلخ» فإنه طبيعي

فيمن قضى معظم حياته في توديع ديار واستقبال ديار، وقد كان الوفا، إذا أقام في المكان ألفه وإذا عاشر الرجل كلف به.

ومنها دقة وصفه وإجادته على الخصوص في وصف الفرس والناقة، وهذا طبعًا من ثمار الأسفار لأنه كان يقضي الساعات والأيام على فرسه لا شيء يشغله عنه مع تعلقه به لأنه أكبر مساعد له على النجاة في فراره من أعدائه، ولذلك لا تكاد تقرأ له قصيدة إلا وجدت فيها أبياتًا يصف بها فرسه أو ناقته. وقد فتقت الأسفار والمعاشرة قريحته لاستنباط المعاني أو اقتباسها، فمن ذلك قوله في قصيدته البائية التي يصف بها الفراق وناقته وفرسه مطلعها:

تبصَّر خليلي هل ترى من ظَعائن سَلَكْنَ ضُحيًّا بينَ حزْميْ شَعَبْعَب

ولكن القارئ لا يستأنس بالمعنى إلا بعد أن يتعرف الألفاظ الغريبة، وعند ذلك يرى وصفًا بديعًا لم يأتِ الشعراء بأحسن منه كقوله في وصف الفرس:

وقد أغتدي قبل الشروق بسابح أَقَبَّ كيَعْفور الفلاة مُحَنَّبِ
بمنجردٍ قَيْد الأوابد لاحَهُ طِرادَ الهوادي كلَّ شأوٍ مُغَرِّبِ
له أيْطَلا ظَبْيٍ وساقا نعامةٍ وصهْوةُ عَيْرٍ قائم فوق مَرْقَبِ
ويخطو على صُمٍّ صِلاب كأنها حجارة غِيلٍ وارساتٌ بطُحْلَبِ
له كَفَلٌ كالدِّعص لَبَّدهُ النَّدى إلى حاركٍ مثل الغَبِيط المُذَأَب
وعينٌ كمرآة الصناع تديرها لمحجرها من النصيف المنقَّبِ
له أذنان تعرفُ العِتْقَ فيهما كسامعتي مذعورةٍ وَسْطَ رَبْرَبِ

ووصف الفرس كثير في شعره، فليراجع في ديوانه، وقد أجاد في سائر ضروب الوصف، وله قصيدة في وصف المطر وأخرى في الوصف على الإجمال مطلعها:

ألا انعم صباحًا أيها الرَّبْع فانلطقِ وحدِّث حديثَ الركب إن شئت واصدق

ومع ما في شعره وسائر أشعار الجاهلية من اللفظ الغريب؛ فقد امتاز امرؤ القيس برقة الألفاظ ولطف التشبيه كقوله:

كأن قلوب الطير رَطبًا ويابسًا لدى وكرها العُنَّابُ والحَشَفُ البالي

وقوله:

كأن عيونَ الوحش حول قبابنا وأرْحُلنا الجَزْع الذي لم يثَّقبِ

وقوله:

كأني غداة البين لما تحمَّلوا لدى سَمُرَاتِ الحي ناقفُ حنظلِ

وقد أجاد في وصفه الفرس بقوله:

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مقبلٍ مدبرٍ معًا كجلمود صَخْرٍ حطه السيلُ من عَلِ

وله أبيات كثيرة جرَت مجرى الأمثال على ألسنة الناس، واتخذ الشعراء بعضها قواعد لنظمهم، وهو أول من رقق المعاني، ومما بلغ حد النهاية في الرقة واللطف قوله:

وما ذرقت عيناك إلا لتضربي بسهْمَيك في أعشار قلبٍ مُقَتَّلِ

وهو أول من وصف النساء بالظباء والمها، وشبه الخيل بالعقبان، والعصى، وفرق بين النسيب وسواه في القصيدة، وقرب مآخذ الكلام فقيد الأوابد وأجاد الاستعارة والتشبيه[5] ومن تشبيهه وهو مما يتغنى به:

وثغرٍ أغرَّ شتيت الثنايا لذيذ المقبَّل والمبتسمْ
وما ذقته غير ظَنٍّ به وبالظن يَقضي عليك الحكَمْ

ويقال: إن امرأ القيس أول ما شبب بالنساء، شبب بأبيات مطلعها:

عـهـدتـنـي نـاشـئًـا ذا غِـرَة خَجِلَ الجُمَّة ذا بطنٍ اقبَّ[٦]

وله محاورة شعرية في أوابد العرب مع عبيد بن الأبرص، أولها قول عبيد:

ما حيَّةٌ مَيْتَة قامت بميتتها درداءُ ما أنبتتْ سنًّا وأخراسًا

فأجابه امرؤ القيس:

تلك الشعيرة تُسقَى في سنابلها فأخرجت بعد طول المكث أكداسًا

وهي طويلة.

معلقته وسبب نظمها

أما معلقته فقد نظمها في وصف واقعة جرت له مع حبيبته وابنة عمه عنيزة بنت شرحبيل إذ حظر عليه لقاؤها، ولعلهم منعوه منها لما كان من رغبته في الشعر، أما هو فكان ينتهز الفرص لملاقاتها … فاغتنم فرصة ظعن الحي، وكانوا إذا ظعنوا مشى الرجال أولًا ثم النساء، فتخلف امرؤ القيس عن الرجال وتربص حتى ظعنت النساء، وكان في طريق الظاعنين غدير يسمى دارة جلجل في منازل كندة بنجد، فسبقهن امرؤ القيس إلى الغدير وفيهن عنيزة، فنزعن ثيابهن ونزلن في الماء فبرز هو من مخبئه وجمع الثياب وجلس عليها وحلف: لا يعطي الواحدة منهن ثيابها إلا إذا خرجت إليه عارية، فخرجن وبقيت عنيزة وأقسمت عليه أن يعدل عن شرطه، فأبى وألح عليها أن تخرج فخرجت، ثم دفع إليها ثيابها فلبستها واجتمع النسوة عليه، وأخذن يعنفنه وقلن له: «إنك أخرتنا عن الحي وجوعتنا»، فقال: «سأعقر لَكُنَّ راحلتي تأكلن منها» فعقرها وأتين بالحطب، وجعلن يشوين اللحم حتى شبعن، وكان معه ركوة فيها خمر فسقاهن منها … فلما ارتحلن حملن أمتعته على رواحلهن وبقي هو لا مركب له، فقال لعنيزة: «لا بد لك من أن تحمليني» وساعده صواحبها على طلبه فحملته على مقدم هودجها، فجعل يدخل رأسه في الهودج يقبلها ويحادثها ثم نظم معلقته ومطلعها:

قِفَا نَبْكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزل بِسِقْطِ اللِّوَى بين الدَّخول فحومَلِ

وصف بها ما تقدم أحسن وصف، وهي مدرجة مع سائر المعلقات في كتاب، شرح عدة شروح.

أما سائر أشعاره فإنها جُمعت في ديوان منه نسخة خطية في دار الكتب المصرية، وقد طُبع في باريس سنة ١٨٣٧ وفي غيرها وقد شرحه البطليوسي النحوي المتوفى سنة ٤٩٤هـ وطُبع الشرح بمصر سنة ١٢٨٢هـ وللنحاس شرح للمعلقة طبع في هال سنة ١٨٧٦.

وقد تُرجمت معلقته إلى اللغة الروسية وطُبعت مع الأصل العربي في بطرسبورج سنة ١٨٨٥ بعناية موركوس.

وتجد كثيرًا من أشعار امرئ القيس وأخباره في كتاب الأغاني ٦٢ ج٨ و١٩ ج٢، والشعر والشعراء لابن قتيبة ص٣٧، وفي شرح المعلقات، وفي كتاب الشعراء الستة الجاهليين طبع لندن سنة ١٨٧٠، وخزانة الأدب ٥٣٢ ج٣، وفي شعراء النصرانية صفحة ٦ وفي جمهرة أشعار العرب ٣٩ وفي أكثر كتب الأدب والتاريخ.

(١-٣) زهير بن أبي سلمى (توفي نحو سنة ٦١٥م)

هو أحد الثلاثة المقدمين على سائر الشعراء، وهم: امرؤ القيس وزهير والنابغة، وإنما اختلفوا في تقديم أحد الثلاثة على صاحبيه، وكما امتاز امرؤ القيس باستنباط الأفكار والأساليب وتلطيف المعاني؛ فقد امتاز زهير بما في نظمه من الحكمة البالغة وكثرة الأمثال مع القدرة على المدح، وهو لا يعاظل في الكلام ويتجنب وحشيه ولا يمدح أحدًا إلا بما فيه، وكثيرون يفضلونه على صاحبيه، ويقولون: إنه أحسنهم شعرًا وأبعدهم عن سخف، وأجمعهم لكثير من المعاني في قليل من الألفاظ.

وهو من مزينة إحدى قبائل مضر، وكان يقيم هو وأبوه وولده في منازل بني عبد الله بن غطفان بالحاجز من نجد، وأول من نزل هناك منهم أبوه أبو سلمى لأنه تزوج امرأة من بني قهر بن مرة من ذبيان بن غطفان فولدت له زهيرًا، وتزوج زهير امرأة من سحيم بن مرة، ولذلك كان زهير يذكر في شعره بني مرة وغطفان ويمدحهما، وكان لزهير أخلاق عالية ونفس كبيرة مع سعة صدر وحلم … فرفع القوم منزلته وجعلوه سيدًا، وكثر ماله واتسعت ثروته، وكان مع ذلك عريقًا في الشاعرية فكان أبوه

شاعرًا وكذلك خاله وأختاه وابناه، وكان لشعره تأثير كبير في نفوس العرب وكان مقربًا من أمراء ذبيان وخصوصًا هرم بن سنان والحارث بن عوف، وأول قصيدة نظمها في مدحهما معلقته المشهورة التي مطلعها:

أَمِنْ أمِّ أوْفى دِمْنَةٌ لم تكلَّم بحَوْمانة الدَّرَّاج فالمتثلَّمِ

قالها على أثر مكرمة أتياها بحقن الدماء بين عبس وذبيان.[٧]

ثم مدح هرمًا بقصائد كثيرة حتى حلف هرم ألا يمدحه زهير إلا أعطاه، ولا يسأله إلا أعطاه، ولا سلم عليه إلا أعطاه عبدًا أو وليدة أو فرسًا، فاستحيا زهير من كثرة ما كان يقبل منه فأصبح إذا رآه في ملأ من الناس قال: «عموا صباحًا غير هرم … وخيركم استثنيت» وقال عمر بن الخطاب لبعض ولد هرم: «أنشدني بعض مدح زهير أباك» فأنشده، فقال عمر: «إنه كان ليحسن فيكم القول» فقال: «ونحن والله كنا نحسن له العطاء»، فقال عمر: «قد ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم» ومدح زهير أيضًا سنان بن أبي حارثة المري وحصن بن حذيفة بن بدر وغيرهما.

ومما قاله في مدح هرم، ولم يسبقه إليه أحد قوله:

قد جعل المبتغون الخيرَ في هرمٍ والسائلون إلى أبوابه طُرُقَا
من يلقَ يومًا على علَّاته هرمًا يَلق السماحةَ منه والنَّدى خلقا
يطلب شَأوَ امرأين قدما حسبًا بَذَّا الملوك وبَذا هذه السُّوقا
هو الجواد فإن يلحق بِشَأوهما على تكاليفه فمثلُه لحقا
أو يسبقاه على ما كان من مهلٍ فمثلُ ما قدَّما من صالح سبقا

ومن بليغ مدحه قوله في مدح حصن بن حذيفة بعد أن استهل بوصف الصيد ثم تخلص إلى المدح في قصيدة طويلة جئنا بمثال منها في فصل سابق من هذا الكتاب، وتجد أمثلة من نظمه في أماكنَ أخرى منه.

ويؤخذ من بعض أقواله أنه كان مؤمنًا بالبعث، كقوله:

يؤخَّرْ فيودَعْ في كتاب فيدَّخَرْ ليوم الحساب أو يعجَّل فيُنْتَقَمِ

ومما يدل على تعقله وحنكته وسعة صدره حِكَمه في معلقته التي نقلنا بعضها في الصفحات الأولى من هذا الكتاب، وقد جمع خلاصة التقاضي في بيت واحد هو:

وإن الحق مقطعُه ثلاثٌ يَمينٌ أو نِفارٌ أو جِلاءٌ

فزهير يمتاز بمدحياته وحكمياته وبلاغته، وقد جُمعت أشعاره في ديوان شرحه ثعلب المتوفى سنة ٢٩١هـ ومنه نسخة خطية في دار الكتب المصرية، وقد طُبع سنة ١٣٢٣هـ وشرحه الشنتمري المعروف بالأعلم المتوفى سنة ٤٧٦هـ، وقد طُبع هذا الشرح في ليدن سنة ١٣٠٦هـ، وله شروح أخرى ضاعت أو لم نقف عليها، وكتب ديروف Dyroff الألماني كتابًا بالألمانية في زهير وأشعاره، وما لم يُنشر منها طُبع في منشن سنة ١٨٩٢.

وقد جُمعت أخباره وأقواله في كتاب الأغاني ٤٨ و١٤٦ ج٩ وفي ديوان الشعراء الستة الجاهليين، وخزانة الأدب ٣٧٥ ج١ والشعر والشعراء ٥٧ وجُمعت معلقته مع سائر المعلقات وفي الجمهرة ص٤٧، وقد شرحها كثيرون منهم النحاس المتقدم ذكره وهو أهم شروحها، وقد نشره الدكتور هوسهير الألماني سنة ١٩٠٥ في برلين مع مقدمة ألمانية مفيدة.

(١-٤) النابغة الذبياني (توفي سنة ٦٠٤م)

هو أحد الثلاثة المقدمين على سائر الشعراء واسمه زياد بن معاوية من ذبيان من قيس، وهو من الأشراف الذين غض الشعر منهم كما غض من امرئ القيس، وكان يفد على النعمان صاحب الحيرة فيمدحه، فوقعت العداوة بينه وبين المنخل الشاعر، فوشى به إلى النعمان ... فهرب النابغة إلى بني غسان ونزل بعمرو بن الحارث الأصغر ملك الغساسنة فمدحه، وما زال مقيمًا عنده حتى مات عمرو وخلفه النعمان أخوه، فمكث معه حتى اصطلح مع النعمان صاحب الحيرة فعاد إليه.

وكان يفد على صاحب الحيرة أيضًا حسان بن ثابت الأنصاري، ولكن النابغة كان مقدمًا على الجميع، فجمع من عطايا النعمان صاحب الحيرة ثروة طائلة وصار يأكل ويشرب في آنية الفضة والذهب، وله منزلة كبرى عند شعراء عصره، فإذا جاء سوق عكاظ ضربوا له قبة من جلد وجاء الشعراء ينشدون أشعارهم، وأول من أنشده ذات مرة الأعشى ثم حسان ثم الخنساء، وهذا شرف لم ينله أحد من الشعراء سواه.

ويمتاز النابغة عن صاحبيه بأنه أحسنهم ديباجة شعر وأكثرهم رونق كلام وأجزلهم بيتًا، فكان شعره كلام ليس فيه تكلف، وذلك ظاهر في كل أقواله حتى جرى كثير منها مجرى الأمثال، واقتبس الشعراء كثيرًا من أقواله؛ منها:

نُبِّئْتُ أن أبا قابوس أوعدني ولا قرارَ على زأرٍ من الأسد

تمثل به الحجاج بن يوسف حين سخط عليه عبد الملك بن مروان، وقوله:

فلو كَفِّي اليمين بَغْتَكَ خوْنًا لأفردتْ اليمين من الشِّمالِ

أخذه المثقب العبدي فقال:

ولو أني تخالفني شمالي بنصرٍ لم تصاحبها يميني

وقوله:

فحمَّلتني ذنب امرئ وتركته كذي العُرِّ يُكْوي غيره وهو راتِعُ

أخذه الكميت فقال:

ولا أكوي الصحاحَ براتعاتٍ بهن العرُّ قبلي ماكُوِينا

وقوله:

واستبق وُدَّك للصديق ولا تكن قَتَبًا يعضُّ بغاربٍ ملحاحًا

أخذه ابن ميادة فقال:

ما إن ألح على الإخوان أسألهم كما يلحُّ بِعَضِّ الغارب القَتَبُ

ومما يتمثل به من شعره قوله:

لو أنها عرضت لأشمطَ راهبٍ　　عَبَدَ الإله صَرورةَ المتعبِّدِ
لرنا لبهجتها وحُسن حديثها　　ولخالَهُ رَشَدًا وإن لم يَرْشُدِ

أخذه ربيعة بن مقروم الضبي فقال:

لو أنها عرضتْ لأشمط راهبٍ　　في رأس مُشْرِفةِ الذُّرَى يَتَبَتَّلُ
لرَنا لبهجتها وحسن حديثها　　ولهمَّ من ناموسه يتنزَّلُ

ومما يتمثل به أيضًا من شعره:

ومن عصاك فعاقبه معاقبة　　تَنْهَى الظَّلومَ ولا تقعد على ضَمَدِ

وقال في العفة وهو أحسن ما قيل فيها:

رقاق النعال طَيِّبٌ حُجُزاتهم　　يحيَّوْن بالريحان يوم السَّباسبِ

أخذه عدي بن زيد فقال:

أجْلَ إن الله قد فضلكم　　فوق من أحكى بصلب وإزارِ

فالصلب: الحسب، والإزار: العفاف، وفي أمثالهم: أصدق من قطاة — قال النابغة:

تدعو قَطًا وبها تُدْعى إذا نُسِبَتْ　　يا حُسنها حين تدعوها فتنتسب

وذلك لأنها تلفظ باسمها، أخذه أبو نواس فقال: «أصدق من قول قطاة قطا».

وقد مدح النابغة النعمان وعمرو بن هند من أصحاب الحيرة، وعمرو بن الحارث الغساني وأخاه النعمان ووائل بن الحلاج الكلبي وهجا ابن زرعة ورثى واعتذر وفاخر، ولكن الشعر الوصفي قليل في منظومه إلا القصيدة التي نظمها في وصف المتجردة زوجة النعمان صاحب الحيرة وقد تقدم مطلعها، ومن قوله في وصفها:

نظرتْ بمُقلةِ شادن متربِّبٍ أحْوَى أحَمَّ المقلتين مقلَّدِ
والنظم في سلكٍ يزيِّن نحْرها ذهبٌ توقَّد كالشهاب الموقَدِ
صفراءُ كالسِّيرَاء أكمِلَ خلقها كالغصن في غُلَوائه المتأوِّدِ
قامت تراءى بين سِجْفَي كِلَّةٍ كالشمس يوم طلوعها بالأسْعَدِ
أو دُرَّةٍ صَدَفيَّةَ غَوَّاصها بَهِجٌ متى يرها يهِلَّ ويسجدَ
أو دميةٍ من مرمر مرفوعة بنيتْ بآجُرٍ يُشاد وقَرمَد
سقط النَّصِيفُ ولم تُرد إسقاطه فتناولتْه واتقتنا باليَدِ
بمخضَّبٍ رَخْصٍ كأن بنانه عَنَمٌ يكاد من اللطافة يُعقَدِ

وهي طويلة وفيها أبيات لا يليق نشرها، ولكنه وصف فيها الطبيعة كما هي عادة الجاهليين في تمثيل الواقع، وكما فعل سليمان الحكيم في نشيد الإنشاد، ومن أحسن شعره معلقته التي مطلعها:

عوجوا فحيُّوا لنُعْمٍ دِمْنَةَ الدار ماذا تحيُّون من نُؤْيٍ وأحجار

وهي ستون بيتًا ذكرها صاحب جمهرة أشعار العرب.

وللنابغة ديوان مطبوع غير مرة، وشُرح منه نسخة خطية في دار الكتب المصرية، وقد ترجمه إلى الفرنسية وطبعه مع الأصل العربي المسيو ديرنبرج في المجلة الأسيوية الفرنسية سنة ١٨٦٨، وصدر كتاب اسمه التوضيح والبيان لأشعار نابغة ذبيان طُبع بمصر.

وأخباره متفرقة في الأغاني ١٦٢ ج٩ والشعر والشعراء ٧٠ و١٢٦ والجمهرة ٥٢ وفي دواوين الشعراء الستة الجاهليين وفي شرح المعلقات وسائر كتب الأدب.

(١-٥) أعشى قيس (توفي سنة ٦٢٩م)

اسمه ميمون بن قيس بن جندل بن بكر بن وائل من ربيعة، وهو أحد الأعلام من شعراء الجاهلية وفحولهم، والبعض يقدمونه على سائرهم إذا طرب، كما يتقدم امرؤ القيس إذا غضب، والنابغة إذا رهب، وزهير إذا رغب[٨] ويحتج الذين يقدمونه بكثرة طواله الجياد وتصرفه في المديح والهجاء وسائر فنون الشعر مما ليس لسواه، ويقال: إنه أول من

سأل بشعره وانتجع به أقاصي البلاد، وكان يغني به فسموه صناجة العرب، وقد تقدم أنه قدري المذهب لقوله:

استأثر الله بالوفاء وبالــ ـعدل وولَّى الملامةَ الرجلا

ويظن أنه أحد ذلك من نصارى الحيرة، وهو الذي زوج بنات المحلق بأبيات قالها فيه، ولم يكن يمدح قومًا إلا رفعهم، ولم يهجُ قومًا إلا وضعهم؛ لأنه من أسير الناس شعرًا وأعظمهم فيه حظًّا[٩] وله منافرة مع علقمة الفحل، ويمتاز الأعشى عن معظم شعراء الجاهلية بوصف الخمر؛ إذ قل فيهم من ذكره وأما هو فقد وصفها بقوله:

وأدكن عاتقٍ جَحْلٍ ربَحْلٍ صَبَحْتُ براحةِ شَرْ باكِراما
من اللائي حُملن على المطايا كريح المسك تستلُّ الزُّكاما

وقوله:

من خَمْرِ عانَة قد أتى لختامها حوْلٌ تسلُّ غُمامة المزكوم

وقد أدرك الرسول ووفد عليه فمدحه بقصيدة مطلعها:

ألم تغتمضْ عيناك ليلة أرْمَدا وعادك ما عاد السليمَ المسهَّدا
وما ذاك من عشق النساء وإنما تناسيت قبل اليوم خُلةَ مَهْددا[١٠]

وفيها يقول لناقته:

فآليت لا أرثى لها من كلالةٍ ولا من حَفًا حتى تزور محمدا
نبي يرى ما لا ترون وذكره أغار لعمري في البلاد وأنجدا
متى ما تُناخي عند باب ابن هاشم تُراحي وتَلْقَي من فواضله يَدا

فلما علم أبو سفيان بذلك حرض قومه على إرضائه بالرجوع خوفًا من أن يسلم فينصر الرسول بشعره على قريش، فجعلوا له مائة من الإبل فأخذها ورجع، وله معلقة مطلعها:

ما بكاء الكبير في الأطلال وسؤالي وما ترد سؤالي[١١]

وللأعشى ديوان خط في دار الكتب المصرية، وله قصيدتان تُرجمتا إلى الألمانية ترجمهما المستشرق الألماني «جاير» "Geyer" الأولى المعلقة المتقدم ذكرها، والثانية أولها: «ودع هريرة إن الركب مرتحل» وقد عني بشرحهما مطولًا حتى بلغت صفحات شرح الأولى وحدها ٢٢٣ صفحة، وللمستشرق المذكور ولع خاص بشعر الأعشى وهو يطبع ديوانه عن النسخة الوحيدة الكاملة الموجودة في الإسكوريال.

وتجد أخبار الأعشى وأشعاره في الأغاني ٥٢ ج١٥ و١٦٠ ج١٦ و٧٧ ج٨ و١٤٣ ج١٠ والشعر والشعراء ١٣٥ والجمهرة ٥٦ وغيرها وفي سيرة الرسول ومعجم البلدان وفي سائر كتب الأدب.

(١-٦) لبيد بن ربيعة (توفي سنة ٦٦٢م)

هو لبيد بن ربيعة العامري (من قيس) وكان من أشراف الشعراء المجيدين والفرسان المعمرين، يقال: إنه عَمَّرَ ١٤٥ سنة عاش معظمها في الجاهلية، وقد أدرك الإسلام وأسلم وهاجر وحسن إسلامه ونزل الكوفة أيام عمر بن الخطاب، فأقام بها حتى مات في أوائل خلافة معاوية، فكان عمره ١٤٥ سنة منها ٩٠ في الجاهلية، وكانت الشاعرية ظاهرة في عينيه منذ صباه … ذكروا أن النابغة رآه وهو غلام جاء مع أعمامه إلى النعمان بن المنذر فتوسم فيه الشاعرية، فسأل عنه فنسبوه، فقال له: «يا غلام إن عينيك لعينا شاعر، أفتقرض من الشعر شيئًا؟» قال: «نعم يا عم» قال: «فأنشدني» فأنشده قوله: «ألم ترجع على الدمن الخوالي إلخ» فقال له: «يا غلام أنت أشعر بني عامر زدني» فأنشده قوله: «طلل لخولة في الرسيس قديم»، فضرب بيده على جبينه، وقال: «اذهب فأنت أشعر قيس كلها».

وأكثر شعره في الجاهلية؛ لأن الخلفاء الراشدين شغلوا الناس عن الشعر بالقرآن، ذكروا أن عمر بن الخطاب بعث إلى المغيرة بن شعبة وهو على الكوفة يقول له: «استنشد من قبلك من شعراء مصرك ما قالوا في الإسلام»، فأرسل إلى الأغلب الراجز العجلي، فقال له أنشدني، فقال:

أرجزًا تريد أم قصيدًا   لقد طلبتَ هينًا موجودًا

ثم أرسل إلى لبيد، فقال: «أنشدني ما قلته في الإسلام، فكتب سورة البقرة في صحيفة، ثم أتى بها وقال: أبدلني الله هذا في الإسلام مكان الشعر» فكتب المغيرة بذلك إلى عمر، فنقص من عطاء الأغلب خمسمائة وجعلها في عطاء لبيد.[١٢]

فمعظم ما يروونه من شعره قيل في الجاهلية، وكان من أجود العرب، ويقال: إنه آلى على نفسه في الجاهلية أن لا تهب صبًا إلا أطعم، وكان له جفنتان يغدو بهما ويروح في كل يوم على مسجد قومه فيطعمهم، فهبت الصبا يومًا والوليد بن عقبة في الكوفة، فصعد الوليد المنبر فخطب الناس، ثم قال: «إن أخاكم لبيد بن ربيعة قد نذر في الجاهلية أن لا تهب صبًا إلا أطعم، وهذا يوم من أيامه قد هبت صبًا فأعينوه، وأنا أول من فعل»، ثم نزل عن المنبر فأرسل إليه بمائة بكرة، وكتب إليه بأبيات قالها:

أرى الجزارَ يشحَذُ شفرتيه   إذا هبت رياحُ أبي عقيل
أشم الأنف أصْيدُ عامري   طويل الباع كالسيف الصقيل
وَفَى ابن الجعفريِّ بحَلْفَتَيْهِ   على العِلاتِ والمالِ القليل
بنَحر الكُوم إذ سحبت عليه   ذيولُ صَبًا تجاذب بالأصيل[١٣]

فلما بلغت أبياته لبيدًا قال لابنته: «أجيبيه فلعمري لقد عشت برهة وما أعيا بجواب شاعر» فقالت ابنته:

إذا هبت رياح أبي عقيل   دعونا عند هَبَّتها الوليدا
أشمَّ الأنف أروعَ عَبْشِمِيًّا   أعان على مروءته لبيدا
بأمثال الهضاب كأن ركبًا   عليها من بني حام قعودا
أبا وهب جزاك الله خيرًا   نحرناها فأطعمنا الثريدا

فعُد إن الكريم له مَعادٌ وظني لا أبا لك أن تعودا

فقال لها لبيد: «قد أحسنت لولا أنك استطعمتِه»، فقالت: «إن الملوك لا يستحي من مسألتهم»، فقال: «وأنت يا بنية في هذه أشعر».

ومما يستجاد من قوله قصيدة مطلعها:

ألا كلُّ شيء ما خلا الله باطلٌ وكلُّ نعيم لا محالةَ زائلٌ

ويقال: إنه لم يقل في الإسلام إلا بيتا واحدًا، وهو:

الحمد لله أن لم يأتني أجلي حتى لبستُ من الإسلام سربالا

أما معلقته فمطلعها:

عَفَتِ الديارُ محلها فمقامها بِمنى تأبَّدَ غَوْلُها فرِجامها

وقد جُمعت أشعاره في ديوان طُبع في فينا للمرة الأولى سنة ١٨٨٠ بعناية يوسف ضياء الدين الخالدي، ثم تُرجمت هذه الطبعة إلى الألمانية مع تعليقات بالمقابلة على نسخ خطية في ستراسبورج وليدن مع ترجمة حياة الشاعر بعناية «هوبر Huber»، وطُبع في ليدن سنة ١٨٩١، وله سيرة بالألمانية بقلم المستشرق هوبر المذكور طبعت في ليدن سنة ١٨٨٧ وأخرى «لكريمر Kremer» طُبعت في فينا سنة ١٨٨١، وأخباره في الأغاني ٩٣ ج١٤ و١٣٧ ج١٥ والشعر والشعراء ١٤٨ والمستطرف ٤٣ ج٢ والجمهرة ٦٣، وغيرها من كتب الأدب.

(١-٧) عمرو بن كلثوم (توفي سنة ٦٠٠م)

هو من قبيلة تغلب، وأمه ليلى بنت المهلهل أخي كليب المشهور، فهو حفيد المهلهل، واشتهرت أمه ليلى بالأنفة وعظم النفس تفاخرًا بأبيها، وساد عمرو بن كلثوم قومه تغلب وهو في الخامسة عشرة، وقد عمِّر طويلًا وكان أعز الناس نفسًا وأكثرهم امتناعًا وأنفة، وكان شاعرًا مطبوعًا اشتهر بمعلقته التي مطلعها:

ألا هبي بصحنك فاصبحينا ولا تُبقي خمور الأندرينا

وهي حماسية فخرية يقال: إنها كانت تزيد على ألف بيت وإنما وصل إلينا بعضها، وقد نظمها غضبًا لأمه وقبيلته من عمرو بن هند صاحب الحيرة، وكان عمرو هذا معجبًا بنفسه، فقال يومًا للندماء: «هل تعلمون أحدًا من العرب تأنف أمه من خدمة أمي؟» فقالوا: «نعم … أم عمرو بن كلثوم» قال: «ولِمَ؟» قالوا: «لأن أباها المهلهل بن ربيعة، وعمها كليب بن وائل أعز العرب، وبعلها كلثوم بن مالك أفرس العرب، وابنها عمرو وهو سيد قومه».

فأرسل عمرو بن هند صاحب الحيرة إلى عمرو بن كلثوم يستزيره، ويسأله أن يزير أمَّه أمَّه، فأقبل ابن كلثوم من الجزيرة إلى الحيرة في جماعة من بني تغلب، وأقبلت ليلى بنت مهلهل في ظعن من بني تغلب، وأمر عمرو بن هند برواقه، فضربه فيما بين الحيرة والفرات، وأرسل إلى وجوه أهل مملكته فحضروا في وجوه بني تغلب، فدخل عمرو بن كلثوم على عمرو بن هند في رواقه، ودخلت ليلى وهند في قبة من جانب الرواق، وقد كان عمرو بن هند أمر أمه أن تنحي الخدم إذا دعا بالطرف وتستخدم ليلى، فدعا عمرو بمائدة، ثم دعا بالطرف، فقالت هند: «ناوليني يا ليلى ذلك الطبق» فقالت ليلى: «لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها» فأعادت عليها وألحت، فصاحت ليلى: «وا ذلاه يا لتغلب» فسمعها عمرو بن كلثوم، فثار الدم في وجهه، ونظر إليه عمرو بن هند فعرف الشر في عينيه، فوثب عمرو بن كلثوم إلى سيف لعمرو بن هند معلق بالرواق ليس هناك سيف غيره، فضرب به رأس عمرو بن هند ونادى في بني تغلب فانتهبوا ما في الرواق وساقوا نجائبه وساروا نحو الجزيرة.

فجاشت نفس ابن كلثوم وحمى غضبه وأخذته الأنفة والنخوة، فنظم معلقته أو لعله نظم بعضها في ذلك الحين، ثم أتمها في حادثة أخرى جرت له مع عمرو بن هند المذكور على أثر خلاف جرى بين قومه التغلبيين وإخوانهم البكريين وتقاضوا إلى عمرو هذا، وكان قد أصلح بينهما بعد حرب البسوس وشرط عليهما شروطًا إذا اختصما، فلما جاءوه للمقاضاة كان ابن كلثوم سيد تغلب والنعمان بن هرم سيد بكر، وجرى بين الأميرين جدال بين يدي صاحب الحيرة، وكان هذا يؤثر تغلبًا على بكر فطرد ابن هرم، فنهض ابن كلثوم وأنشد معلقته، وكان حاضرًا هناك الحارث بن حلزة من بكر وائل فأنشد معلقته كما سيجيء، فالغالب أن ابن كلثوم نظم معلقته على مرتين في حادثة

أمه وهذه الحادثة، ولذلك رأيت فيها إشارة إلى كليهما وقد وقف عمرو بن كلثوم بهذه في سوق عكاظ فأنشدها في موسم مكة، وكان بنو تغلب يعظمونها ويرويها صغارهم وكبارهم؛ لما حوته من الفخر والحماسة مع جزالتها وسهولة حفظها؛ فقد استهلها بذكر الخمر ووصف شاربها وتأثيرها، وهذا قيل في شعر الجاهلية كما تقدم، ثم وصف ليلى نحو وصفِ النابغةِ المتجردةَ، ثم خاطب عمرو بن هند وافتخر بنفسه وأهله، وأشار إلى ما أراده ابن هند من احتقار والدته، وذكر واقعة لهم في ذي أراط فازوا بها وأبدعوا، ثم تخلص إلى الفخر في أبيات هذا بعضها:

وقد علم القبائل غير فخرٍ	إذا قُبَبٌ بأَبْطَحها بُنينا
بأنا العاصمون إذا أطعنا	وأنا العارمون إذا عصينا
وأنا المنعمون إذا قدرنا	وأنا المهلكون إذا أتينا
وأنا الحاكمون بما أردنا	وأنا النازلون بحيث شينا
وأنا التاركون لما سخطنا	وأنا الآخذون لما هوينا
وأنا الطالبون إذا نقمنا	وأنا الضاربون إذا ابتلينا
وأنا النازلون بكل ثَغْر	يخاف النازلون به المَنُونا
ونشرب إن وردنا الماء صفوًا	ويشرب غيرنا كدرًا وطينا

وليس لعمرو بن كلثوم ديوان معروف، ولكن أشعاره متفرقة في الأغاني ١٨١ ج٩ وفي الشعر والشعراء ١١٧ والجمهرة ٧٤ وشعراء النصرانية ١٩٧ وشرح القصائد العشر ١٠٨ وفي معجم البلدان وديوان الحماسة وغيرها.

(١-٨) الحارث بن حلزة اليشكري (توفي سنة ٥٨٠م)

هو من بكر وائل، وقد اشتهر بين أهل العراق، وكان به وضح أي بَرَص، وهو قليل النظم وإنما اشتهر بمعلقته وهي قصيدة واحدة كما اشتهر بمثلها عمرو بن كلثوم وطرفة بن العبد الآتي ذكره، وقد تقدم أن الحارث كان في وفد البكريين الذين أتوا عمرو بن هند وخطيبهم النعمان بن هرم، فلما غضب ابن هند عليه وأوشك أن يقضي لبني تغلب، قال الحارث بن حلزة لقومه: «إني قد قلت خطبة فمن قام بها ظفر بحجته وفلج على خصمه ... فرواها أناسًا منهم، فلما قاموا بين يدي الملك لم يرضه إنشادهم»، فقال: «إني

لا أرى أحدًا يقوم بها مقامي لكني أكره أن أكلم الملك من وراء سبعة ستور، وينضح أثري بالماء إذا انصرفت عنه»، وكانوا يفعلون ذلك بمن فيه بَرَص، وقيل: بل كان ابن هند يفعل ذلك؛ لعظم سلطانه ولا ينظر إلى أحد به سوء، ثم خاف ابن حلزة على قومه وقال: «أنا محتمل ذلك وأقرب من الملك» فقيل لعمرو بن هند: «إن به وضحًا» فأمر أن تمد بينه وبين الحارث سبعة ستور، فجعلت، فلما نظر عمرو بن كلثوم قال للملك: «أهذا يناطقني وهو لا يطيق صدر راحلته» فأجابه الملك حتى أفحمه، وأنشد الحارث قصيدته التي مطلعها:

آذنتْنا بِبَيْنِها أسماءُ   ربَّ ثاوٍ يُمَلُّ منه الثَّواء

وكانت هند أم عمرو صاحب الحيرة تسمع، فقالت: «تالله ما رأيت كاليوم قط رجلًا يقول مثل هذا القول يكلم من وراء سبعة ستور» فقال الملك: «ارفعوا سترًا وأدنوا الحارث» حتى إذا أزيلت الستور السبعة أقعده الملك قريبًا منه وبالغ في إكرامه، وضُرب بالحارث المثل بالفخر، فقيل: «أفخر من الحارث بن حلزة» وخصوصًا؛ لأنهم يزعمون أنه قالها ارتجالًا، وذلك بعيد؛ لأنه ذكر فيها عدة من أيام العرب عير ببعضها بني تغلب تصريحًا وعرَّض ببعضها بعمرو بن هند، فهي من قبيل الملاحم في وصف الوقائع.

وللحارث غير معلقته أبيات قليلة منشورة مع أخباره في الأغاني ١٧٧ ج٩ وشرح القصائد العشر ١٢٥ والشعر والشعراء ٩٦ وشعراء النصرانية ٤١٦ وفي سائر كتب الأدب.

(٩-١) طرفة بن العبد (توفي سنة ٥٠٠م)

هو أبو عمرو طرفة بن العبد من بكر وائل من ربيعة ابن أخت جرير بن عبد المسيح المعروف بالمتلمس، وقد نبغ في الشعر منذ حداثته حتى صار يعد من الطبقة الأولى وتوفي صغير السن، ومع كونه من المقلين فإن أشعاره كانت معول أصحاب اللغة في الاستشهاد، وكان في صباه عاكفًا على الملاهي يعاقر الخمر وينفق ماله عليها، ولكن مكانه في قومه جعله جريئًا على الهجاء، ومات أبوه وهو صغير فأبى أعمامه أن يقسموا ماله وظلموه حقًّا لأمه وردة، فنظم في هجائهم قصيدة أبدع فيها مطلعها:

ما تنظرون بحق وردة فيكم   صَغُرَ البنون ورهطُ وردة غيبُ

واشتهر في الأكثر بمعلقته … ويقال في سبب نظمها: إن أخاه معبدًا كانت له إبل ضلت فذهب أخوه طرفة إلى ابن عمه مالك ليعينه في طلبها فلامه وانتهره، وقال: «فرطت فيها ثم أقبلت تتعب في طلبها» فهاجت قريحة طرفة، فقال معلقته التي مطلعها:

لـخـولـة أطـلالٌ بِـبُـرْقَـةِ ثَـهْـمَـدِ   تلوحُ كباقي الوَشْم في ظاهر اليدِ

وفيها يشبه حدوج حبيبته بالسفن السابحة في الماء، ثم يصف ناقته وصفًا جميلًا يوهمك لأول وهلة أنه يصف حبيبته، ولكنك لا تلبث أن ترى وصفه الدقيق لكل عضو من أعضائها حتى ذيلها، ثم ينتقل إلى الحكم والموعظة ثم العتاب يعاتب ابن عمه على تعنيفه، ويأسف لأنه لا يقدر أن يرد تعنيفه لمقامه عنده.

ولطرفة حديث مع عمرو بن هند صاحب الحيرة والمتلمس الشاعر كان سببًا في قتله، وذلك أن طرفة كان في صباه معجبًا بنفسه يتخلج في مشيته، فمشى تلك المشية مرة بين يدي عمرو بن هند فنظر إليه نظرة كادت تبتلعه من مجلسه، وكان المتلمس حاضرًا، فلما قاما قال له المتلمس: «يا طرفة إني أخاف عليك من نظرته إليك» فقال طرفة: «كلا» ثم إنه كتب لهما كتابين إلى المكعبر، وكان عامله على البحرين وعمان، فخرجا من عنده وسارا حتى إذا هبطا بأرض قريبة من الحيرة رأيا فيها شيخًا دار بينهما وبينه كلام نبه المتلمس إلى ما قد يكون في الكتاب الذي يحمله من الأذى، ولم يكن يعرف القراءة فإذا هو بغلام من أهل الحيرة يسقي غنمًا له من نهر الحيرة، فقال له المتلمس: «يا غلام أتقرأ؟» قال: «نعم» قال: «اقرأ هذه» فإذا فيها: «باسمك اللهم من عمرو بن هند إلى المكعبر إذا أتاك كتابي هذا من المتلمس فاقطع يديه ورجليه وادفنه حيًّا» فألقى المتلمس الصحيفة في النهر، وقال: «يا طرفة معك والله مثلها» فقال: «كلا ما كان ليكتب لي مثل ذلك» ثم أتى طرفة إلى المكعبر، فقطع يديه ورجليه ودفنه حيًّا، فضرب المثل بصحيفة المتلمس لمن يسعى في حتفه بنفسه.

وقد جُمعت أشعار طرفة في ديوان طبع بشالون بفرنسا سنة ١٩٠٠ مع ترجمة فرنسية بعناية «سلكسن»، وتجد أخبار طرفة مع بعض أقواله متفرقة في الأغاني وفي شرح المعلقات وأمثال الميداني وحياة الحيوان للدميري ٢٠٩ ج٢ والجمهرة ٨٣ وفي ديوان الشعراء الستة الجاهليين وخزانة الأدب ٤١٤ ج١ والشعر والشعراء ٨٨ وفي

شرح القصائد العشر ٣٠ وفي الحماسة وغيرها، وفي المجلة الآسيوية الفرنسية Journal Asiatique لسنة ١٨٤١ مقالة عنه وعن المتلمس.

(١-١٠) عنترة بن شداد العبسي (توفي سنة ٦١٥م)

هو عنترة بن شداد من قبيلة عبس من قيس، وهو من الشعراء الفرسان الشجعان، وعَشَقَ فهاجت شاعريته واتسع خياله، وأخباره مدونة في قصته المشهورة، لكن أكثرها موضوع من قبيل القصص الروائية، أما عنترة فلا شك في وجوده، وله حروب وأشعار، والصحيح من خبره أن أمه زبيبة كانت حبشية فلما أنجبت ابنها وظهرت مواهبه اعترف به أبوه وألحقه بنسبه على اصطلاحهم في ذلك العصر.

وهو أحد أغربة العرب، ممن أمهاتهم إماء وهم ثلاثة: عنترة وخفاف بن عمير والسليك بن السلكة، وشهد عنترة حرب داحس والغبراء وهو شاب ووقعت ملاحاة بينه وبين بني عبس في إبل أخذها من حليف لهم اقتتلوا عليها، وحدثت حروب بين جديلة وثعل، وكان عنترة مع جديلة فنصرهم فانتصروا فشكته ثعل إلى غطفان، ووقائعه كثيرة يشتبه فيها الصحيح بالموضوع وهم في اختلاف في سببه قتله، وأحب عبلة بنت عمه وهو يذكرها في أكثر أشعاره.

ولعنترة أشعار كثيرة تدخل في ديوان كبير، والرواة مختلفون فيما هو له وما هو موضوع، ومما هو ثابت له المعلقة التي مطلعها:

هل غادر الشعراء من متردَّم   أم هل عرفت الدار بعد توهُّم

ويقال في سبب نظمها إنه جلس يومًا في مجلس بعدما كان قد أبلى واعترف به أبوه وأعتقه، فسبه رجل من بني عبس ذكر سواده وأمه وإخوته، فسبه عنترة وفخر عليه، وقال فيما قال له: «إني لأحضر البأس وأوفى المغنم وأعف عند المسألة وأجود بما ملكت يدي وأفصل الخطة الصماء» قال له الرجل: «أنا أشعر منك» قال: «ستعلم ذلك» فقال عنترة يذكر قتل معاوية بن نزال وهي أول كلمة قالها.

فبدأ بذكر الديار ديار عبلة وخاطبها يشكو البُعد والغرام، ثم استأنف الفخر والحماسة، وأكثر الرواة ينكرون أن يكون مطلع المعلقة له ومنهم الأصمعي وابن الأعرابي، وكلهم يقولون: إن أول المعلقة الحقيقي:

يا دار عبلةَ بالجواءِ تكلَّمي   وعمي صباحًا دار عبلة واسلمي

ومن غرر القصائد المنسوبة إليه قصيدة يذكر فيها واقعة يوم الفروق مطلعها:

ألا قاتل الله الطلول البواليا   وقاتل ذكراك السنين الخواليا

وصف فيها الواقعة وافتخر ... وله قصيدة فخمة يتوعد بها النعمان ويفتخر بقومه كلها حكم وحماسة مطلعها:

لا يحمل الحقد من تعلو به الرتب   ولا ينال العلى من طبعه الغضب

وفي هذا البيت من الحكمة البالغة ما ليس بعده غاية. ومن أقواله قصيدة يهدد بها عمارة والربيع ابني زياد العبسي معرضًا بذكر قومهما، مطلعها:

لغير العلا مني القِلا والتجنب   ولولا العلا ما كنت في العيش أرغب

وغير هذه شيء كثير يراجع في ديوانه وفيه معانٍ لم يسبق إليها، منها قوله:

وخلا الذبابُ بها فليس ببارح   غَرِدًا كفعل الشارب المترنم
هَزِجًا يحكُّ ذراعه بذراعه   فعل المكبِّ على الزناد الأجذمِ

وقوله:

وإذا شربت فإنني مستهلك   مالي وعرضي وافرٌ لم يُكْلَمِ
وإذا صحوت فما أقصِّر عن ندى   وكما علمتِ شمائلي وتكرمي

ومن ذلك قوله:

إني امرؤ من خير عبس مَنصبًا شَطري وأحمي سائري بالمُنْصَل
وإذا الكتيبةُ أحجمت وتلاحظت أُلفيتُ خيرًا من مُعِمٍّ مخول

يقول: النصف من نسبي شريف في خير عبس، وأحمي النصف الآخر وهو نسبه في السودان بالسيف فأشرفه أيضًا، ومن أحسن شعره قوله:

بكرتْ تخوِّفني الحتوف كأنني أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل
فأجبتها إن المنية منهلٌ لا بد أن أُسقَى بذاك المنهل
فاقْنِي حياءَكِ لا أبا لك واعلمي أني امرؤ سأموت إن لم أقتل
إن المنية لو تمثَّل مُثِّلت مثلي إذا نزلوا بضَنْك المنزل

ومن إفراطه قوله:

وأنا المنية في المواطن كلها والطعن مني سابق الآجالِ

وفي هذه يفخر بأخواله من السودان؛ إذ يقول:

إني لتُعْرَف في الحروب مواطني في آل عبسٍ مشهدي وفعالي
منهم أبي حقًّا فهم ليَ والد والأم من حامٍ فهم أخوالي

وأشعار عنترة كلها واردة في قصته وقد أفردها بعضهم في ديوان على حدة، وطُبع في بيروت بغير تحقيق فيما هو له وما ليس له، وقد وردت أخباره في الأغاني ١٤٨ ج٧ والشعر والشعراء ١٣٠ وشعراء النصرانية ٧٩٤ والجمهرة ٩٢ وخزانة الأدب ٦٢ ج١ والعقد الفريد ٣٤ ج١ وشرح القصائد العشر ٩٠ وترجمنا له في السنة الخامسة من الهلال، وللمستشرق الألماني توربكي Thorbecke كتاب بشأنه طُبع في هيدلبرج سنة ١٨٦٨.

قصة عنترة

أما قصته فقد اختلفوا في وضعها، ويظهر أنها وُضعت بالتدريج ومعنى ذلك أنهم توسعوا فيها وأضافوا إليها زيادات على مر التاريخ حتى بلغت ما هي عليه الآن، وكان من عادة المسلمين في صدر الإسلام أن يستنهضوا همم الجند للحرب بتلاوة أخبار الشجعان وفرسانهم الجاهليين، وقد رأيناهم يفعلون ذلك في القرن الأول للهجرة في زمن الحجاج بن يوسف سنة ٧٧ في الواقعة التي قُتل فيها شبيب عتاب بن ورقاء. ذكر ابن الأثير أن عتابًا سار في أصحابه قبل المعركة يحرضهم على القتال ويقص عليهم، ثم قال: «أين القصاص؟» فلم يجبه أحد، فقال: «أين من يروي شعر عنترة؟» فلم يجبه أحد إلخ.

فكانوا أولًا يروون أشعار عنترة للحماسة، ثم صاروا يجمعون أخباره وأحاديثه ويتناقلونها رواية عن الأصمعي وهي تتسع حتى جُمعت بمصر في أواخر القرن الرابع للهجرة في زمن الخليفة العزيز بالله الفاطمي، وقد جاء في سبب جمعها وتدوينها أن رجلًا اسمه الشيخ يوسف بن إسماعيل كان يتصل بالعزيز بالله … فاتفق أن حدثت ريبة في دار العزيز، لهجت الناس بها في المنازل والأسواق فساء العزيز ذلك، وأشار على الشيخ يوسف المذكور أن يطرف الناس بما عساه أن يشغلهم عن هذا الحديث.

وكان الشيخ يوسف هذا واسع الرواية في أخبار العرب كثير النوادر والأحاديث، وكان قد أخذ روايات شتى عن أبي عبيدة وابن هشام وجهينة الأخبار والأصمعي وغيرهم من الرواة، فأخذ يكتب قصة عنترة ويوزعها في الناس فأعجبوا بها واشتغلوا عن سواها. ومن تلطفه في الحيلة أنه قسمها إلى ٧٢ كتابًا والتزم في آخر كل كتاب أن يقطع الكلام في حادث مهم يشتاق القارئ والسامع إلى الوقوف على تمامه … فلا يفتر عن طلب الكتاب الذي يليه، فإذا وقف عليه انتهى به مثل ما انتهى في الأول وهكذا إلى نهاية القصة، وقد أثبت في هذه الكتب ما ورد من أشعار العرب المذكورين فيها، ولكن تداول النساخين الجهلاء للقصة أفسد روايتها … والقصة مشهورة ومطبوعة مرارًا.

(١-١١) عبيد بن الأبرص الأسدي (توفي سنة ٥٥٥م)

هو من بني أسد من مضر من شعراء الطبقة الأولى قديم الذكر عظيم الشهرة، لكن الباقي من شعره أقل من شهرته، وكان عبيد لا يقول الشعر في صباه. وذكروا في سبب ما بعثه على النظم أنه كان ضيق الرزق قليل المال، فأقبل ذات يوم بغنم له ومعه أخته

ماوية ليوردا غنمهما، فمنعه رجل من مالك وجبهه … فانطلق حزينًا مهمومًا ثم ابتهل إلى الله: إن كان فلان ظلمني ورماني بالبهتان فأدلني منه وانصرني عليه، ووضع رأسه فنام، فرأى في المنام أن رجلًا أتاه بكبة من شعر ألقاها في فِيهِ ثم قال: قم، فقام وهو يرتجز، واستمر بعد ذلك ينظم الشعر حتى صار شاعر بني أسد غير مدافع، فنظم قصيدته البائية وهي التي تُعد من المعلقات، مطلعها:

أَقْفَرَ من أهله مَلْحوبُ فالقُطَبِيَّاتُ فالذَّنُوبُ

وهي ٤٨ بيتًا نشرها التبريزي ملحقة بالمعلقات السبع مع قصيدتي الأعشى والنابغة في شرح القصائد العشر، وهو معدود من أصحاب المجمهرات عند صاحب جمهرة أشعار العرب، وجمهرته عنده هي نفس هذه المعلقة مع بعض التغيير.[١٤]

وفي أيامه كان حجر بن الحارث الكندي والد امرئ القيس ملكًا على بني أسد كما تقدم، وكان عبيد ينادمه فنظم فيه قصائد من جملتها قصيدة يغني بها، مطلعها:

طاف الخيال علينا ليلةَ الوادي من أمِّ عمرو ولم يُلمم بميعاد

وأبى بنو أسد مرة أن يدفعوا الإتاوة لحجر وقتلوا رسله، فغضب وحاربهم واستباح أموالهم وأخرجهم إلى تهامة وحبس بعض سادتهم وفيهم عبيد بن الأبرص … فذهب منهم وفد إليه، وجاء عبيد فوقف وأنشد قصيدة جاء فيها:

ومَنَعَتْهُمْ نجدًا فقد حَلُّوا على وَجَلٍ تِهَامَهْ
بَرِمَتْ بنو أسد كما بَرِمَتْ ببيضتها الحمامه
جعلت لها عودين من نَشَمٍ وآخرَ من ثُمامه[١٥]
مهما تركت تركت عفوًا أو قتلت فلا مَلامه
أنت المليكُ عليهم وهمُ العبيد إلى القيامه
ذلُّوا لسوطك مثل ما ذل الأَشَيْقِرُ ذو الخِزامه[١٦]

فأطلق حجر سبيلهم، ثم ثارت أسد ثانية عليه وقتلوه كما ذكرنا في ترجمة امرئ القيس، وغضب امرؤ القيس ولم يقبل منهم دية أبيه وتوعدهم فقال عبيد قصيدة مطلعها:

ياذا المخوِّفنا بقَتـْ ـــل أبيه إذلالًا وحَيْنا
وزعمت أنك قد قتلـ ـــت سَرَاتنا كذبًا ومَيْنا

وعمِّر عبيد طويلًا حتى قتله المنذر بن ماء السماء في حديث، خلاصته أن المنذر قتل نديمين له من بني أسد وهو غضبان، فلما أصبح ندم فبنى على قبريهما ضريحين سماهما الغريين وجعل لنفسه يومين في السنة يجلس فيهما هناك؛ أحدهما يوم نعيم، والآخر يوم بؤس، فأول من يطلع عليه في يوم النعيم يعطيه مائة من الإبل وأول من يطلع عليه في يوم البؤس يقتله ويطلي بدمه الغريين، فاتفق لعبيد أن أتاه في يوم بؤسه فقتله، وهذا الحديث يشبه ما ذكروه عن حنظلة والنعمان، لكن حادثة حنظلة تمثل الوفاء أحسنَ تمثيلٍ؛ إذ يطلق النعمان حنظلة بضمانة على أن يغيب سنة ثم يعود ليقتل، فلما حان الوقت جاء وسأله النعمان عما حمله على المجيء بعد أن نجا بنفسه، فقال: «الوفاء».

فلعل الأصل فيها قصة عبيد فزاد عليها العرب وعد حنظلة ووفاءه؛ ليمثلوا بها الوفاء على نحو ما كما يفعل اليونان في الروايات التمثيلية، وقد أشرنا إلى ذلك قبلًا.

ومن أحاسن شعر عبيد، قصيدته الدالية التي مطلعها:

لمن دِمْنَةٌ أقوتْ بحَرَّة صرغد تلوح كعنوان الكتاب المجدَّد

ولعبيد ديوان تحت الطبع على يد لجنة تذكار جيب بإنجلترا مع ديوان عامر بن الطفيل بتصحيح المستشرق لايل Lyall.

وتجد أخبار عبيد في الأغاني ٨٤ ج١٩ والشعر والشعراء ١٤٣ وشعراء النصرانية ٥٩٦ والجمهرة ١٠٠ وفي مجمع الأمثال للميداني ومعجم البلدان والعمدة ومعجم البكري وغيرها.

(١-١٢) المعلقات والمستشرقون

وقد عني غير واحد بشرح المعلقات وإن اختلفوا في عددها كما تقدم، وعني جماعة من علماء أوربا المستشرقين بترجمتها، وأشهر من فعل ذلك منهم وليم جونس W. Jones الإنجليزي فقد نشرها مع ترجمة وشرح في لندن سنة ١٧٨٣، وابل Abel النمساوي ترجمها إلى النمساوية ونشرها مع الأصل العربي في برلين سنة ١٨٩١، ثم جنسن Johnson الإنجليزي ترجمها إلى الإنجليزية ونشرها في لندن سنة ١٨٩٤، مع مقدمة للشيخ فيض الإبهي، وقد كتب عنها وعن غيرها من شعر الجاهلية لايل Lyall المذكور كتابًا طُبع في لندن سنة ١٨٨٥ ونولدكي Noeldeke الألماني وغيرهما.

(٢) الشعراء الأمراء

الشعراء من الملوك والأمراء بضعة عشر شاعرًا، منهم اثنان من أصحاب المعلقات هما امرؤ القيس وعمرو بن كلثوم وقد ترجمنا لهما، وإليك من بقي:

(٢-١) الأفوه الأودي (توفي سنة ٥٧٠م)

هو صلاءة بن عمرو من أود، وينتهي نسبه إلى مذحج من قبائل اليمن، وكان سيد قومه وقائدهم، وكانوا يصدرون عن رأيه، والعرب تعده من حكمائها، وله قصيدة دالية تدل على حكمة وصدق نظر؛ منها قوله:

إن النجاة إذا ما كنت ذا بَصرٍ ... من أجَّة الغَي إبعادٌ فإبعاد
والخير تزداد منه ما لقيت به ... والشر يكفيك منه قَلَّما زاد
والبيت لا يُبْتَنَى إلا له عَمدٌ ... ولا عمادَ إذا لم تُرْسَ أوتاد
فإن تجمَّع أوتادٌ وأعمدةٌ ... وساكنٌ بلغوا الأمر الذي كادوا
لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ... ولا سراةَ إذا جُهَّالهم سادوا
تُلفى الأمور بأهل الرأي ما صلحت ... فإن تولوا فبالأشرار تنقاد
إذا تولى سراة الناس أمرهم ... نمى على ذاك أمر القوم فازدادوا

ومن حماسياته قوله:

نقاتل أقواما فنَسْبِي نساءهم	ولم يرَ ذو عِزٍّ لنسوتنا حَجْلا
نقود ونأبى أن نُقَاد ولا ترى	لقوم علينا في مكارمهم فضلا
وإنَّا بطاء المشي عند نسائنا	كما قَيَّدت بالصيف نجديَّةٌ بزْلا

وقد جمعت أقواله في الأغاني ٤٤ ج١١ وشعراء النصراينة ٧٠ والشعر والشعراء ١١٠ وله أبيات متفرقة في كتب الأدب ونحوها وليس له ديوان مجموع.

(٢-٢) المهلهل بن ربيعة (توفي نحو سنة ٥٣١م)

هو عدي بن ربيعة التغلبي أخو كليب من نجد من الطبقة الأولى، وهو خال امرئ القيس الشاعر الملك، وكان المهلهل فصيحًا شديد البأس في الحروب، وقد شهد حرب يوم السلان مع أخيه كليب، وأبلى بلاءً حسنًا، وكان المهلهل في أول أمره صاحب لهو، كثير المحادثة للنساء، فسماه أخوه كليب «زير النساء» أي جليسهن، ولم يكن يرجو منه خيرًا، فلما قُتل كليب في أمر البسوس المشهور،[١٧] كان المهلهل يعاقر الخمر، فهاجه مقتل أخيه وذهب إلى قومه واستحثهم على الأخذ بالثأر، وجز شعره وقصر ثوبه، وهجر النساء وترك الغزل، وحرم القمار والشراب، ونهض للحرب، وما أشبه عمله هذا بعمل ابن أخته امرئ القيس، ولعل هذا ورث الشاعرية عن خاله؛ لأن كليهما وصَّاف ومستنبط، وطالت الحروب بين بكر وتغلب نحو أربعين سنة كان النصر فيها سجالًا ثم تصافوا واصطلحوا.

وكان المهلهل في أثناء ذلك يقول الشعر على مقتضيات الأحوال بين فخر وحماسة وغيرهما … فمن ذلك قوله يوم علم بمقتل أخيه وجاء إلى قومه فرأى النساء يبكين، فقال: «استبقين للبكاء عيونًا إلى آخر الأبد» وقال وهو أول شعره:

كنا نغار على العواتق أن ترى	بالأمس خارجةً عن الأوطان
فخرجن حين ثوى كليبٌ حُسرًا	مستيقناتٍ بعده بهوان
فترى الكواعب كالظباء عواطلًا	إذ حان مصرعه من الأكفان
يخمُشن من أدَمِ الوجوه حواسرًا	من بعده ويَعِدْنَ بالأزمان
متسلبات نُكدهن وقد وَرى	أجوافَهن بحرقة ووراني

ثم تخلص إلى الرثاء والوعيد بالثأر، ومن مراثيه في أخيه قوله من قصيدة:

كليبُ لا خير في الدنيا ومن فيها　　إن أنت خلَّيتها فيمن يخلِّيها
كليب أي فتى عزٍّ ومكرمة　　تحت السقائف إذ يعلوك سافيها
نعى النعاةُ كليبًا لي فقلت لهم　　مادت بنا الأرض أم مادت رواسيها
ليت السماء على من تحتها وقعت　　وانشقَّت الأرض فانجابت بمن فيها

ومن أقواله قصيدته المعدودة من المنتقيات ومطلعها:

حَلَّتْ ركاب البغي من وائلٍ　　في رهط جَسَّاسٍ ثقال الوسوق

والعرب تسميها الداهية، وقد وضع القصاصون قصة حماسية بطلها المهلهل تُعرف بقصة الزير، كما وضعوا قصة عنترة ولكنها متأخرة وعبارتها أقرب إلى العامية، وللمهلهل ذكر في تاريخ الشعر العربي فإنه أول من طول قصائده كما تقدم.

وقد جُمعت أشعاره في ديوان، وهو أقدم شاعر جُمع له ديوان ولم يصل إلينا هذا الديوان، ولكن بعض المعاصرين جمع له ديوانًا أخذه من أقواله في كتب الأدب وغيرها ولم نقف عليه، ولكنك تجد معظم أشعاره في الأغاني ١٤٨ ج٤ وخزانة الأدب ٣٠٠ ج١ والشعر والشعراء ١٦٤ والجمهرة ١٦٥ وفي تاريخ ابن الأثير ومعجم ياقوت ومعجم البكري وشعراء النصرانية ١٦٠ وفي ديوان الحماسة وغيرها.

(٣-٢) عبد يغوث (توفي سنة ٥٨٠م)

هو عبد يغوث بن صلاءة من بني الحارث بن كعب من كهلان، كان فارسًا سيدًا لقومه، وكان قائدهم في يوم الكلاب الثاني إلى بني تميم وقد أُسر يومئذ وقُتل، وهو عريق في الشاعرية ونبغ من أهله غير شاعر وكلهم فحول، وأحسن شعره قصيدة قالها وهو يتأهب للموت، وكان قد أُسر وشُدَّ لسانه بنسعة، وخيروه في الطريقة التي يريد أن يُقتل بها فقال: «اسقوني الخمر ودعوني أنح على نفسي» فسقوه وقطعوا له عرق الأكحل وتركوه ودمه ينزف ومعه ابناه، فجعلا يلومانه على ما أركبهما من المشاق فنظم هذه القصيدة ومطلعها:

ألا لا تلوماني كفى اللوم ما بيا فما لكما في اللوم نفعٌ ولا ليا

ومنها قوله:

أقول وقد شدوا لساني بنِسْعَةٍ أمعشرَ تَيْمٍ أطلقوا عن لسانيا
أمعشر تيم قد ملكتم فأسْجِحوا فإن أخاكم لم يكن من بَوانيا
فإن تقتلوني تقتلوا بي سيدًا وإن تطلقوني تحربوني بماليا
أحقًّا عباد الله أن لست سامعًا نشيد الرِّعاء المُعْزِ بين المتاليا
وقد كنت نحَّار الجَزور ومُعمل الـ ـمَطِيِّ وأمضي حيث لا حيَّ ماضيا
وأنحرُ للشَّرْب الكرام مطيتي وأصدع بين القَيْنَتَيْنِ ردائيا
وعاديةٍ سَوْمَ الجراد وزعْتُها بكفي وقد أنحوا إليَّ العَواليا
كأني لم أركب جوادًا ولم أقل لخيليَ كُرِّي نفِّسي عن رجاليا
ولم أسبأ الزِّقَّ الرَّويَّ ولم أقل لأيسار صدقٍ: أعظموا ضوءَ ناريا

وأخباره في الأغاني ٧٣ ج١٥ وخزانة الأدب ٣١٧ ج١ وشعراء النصرانية ٧٥ والكامل لابن الأثير ومعجم البلدان وغيرها.

(٢-٤) زهير بن جناب (توفي سنة ٥٠٠م)

هو زهير بن جناب الكلبي من قضاعة، وهو من مشاهير أمراء العرب في الجاهلية، وُلد في آخر القرن الرابع للميلاد وعمِّر طويلًا ربما بلغ عمره ١٥٠ سنة، وله حروب كثيرة مع قبائل العرب وتولى الإمارة على بكر وتغلب لصاحب اليمن، وما زال عليهم حتى حاولوا الاستقلال من اليمن كما تقدم.

ولما كبر زهير وشاخ ثقلت همته وكُف بصره، وظل مع ذلك مقدمًا عند ملوك اليمن والشام، وكان الغساسنة يستشيرونه حتى توفي نحو سنة ٥٠٠ وهو من أقدم الشعراء وأجودهم ولم يصلنا من شعره إلا القليل، هذه أمثلة منه في الحماسة:

أبَى قومنا أن يقبلوا الحق فانتهوا إليه وأنياب من الحرب تُحرَق

فجاءوا إلى رَجْراجةٍ مستميزة يكاد المُرنِّي نحوها الطرف يصعقُ
دروعٌ وأرماح بأيدي أعزةٍ وموضونة مما أفاد مخرِّق
وخيلٌ جعلناها دخيلَ كرامةً عَقَارًا ليوم الحرب تُحفى وتغبق
فما برحوا حتى تركنا رئيسهم يُعفِّر فيه المضرحيُّ المذلِّق

ويقال: إنه صاحب البيت المشهور:

إذا قالتَ حذام فصدقوها فإن القول ما قالتْ حذام

وجاءت أخباره في الأغاني ١٧ ج٣ والشعر والشعراء ٢٢٣ وشعراء النصرانية ٢٠٥ وأمثال الميداني وغيرها.

(٢-٥) عامر بن الطفيل العامري (توفي سنة ٦٣٣م)

هو ابن عم لبيد الشاعر، وكان فارس قيس وسيدهم، وكان عقيمًا لا يولد له، ومن جيد شعره في الحماسة قوله:

وما الأرض إلا قيسُ عَيْلان أهلُها لهم ساحتاها سهلها وحُزومها
وقد نال آفاقَ السموات مجدنا لنا الصحوُ من آفاقها وغيومها

ومن قوله في الفخر:

فإني وإن كنت ابنَ فارس عامرٍ وسيدَها المشهورَ في كل موكب
فما سودتني عامرٌ من وراثةٍ أبى الله أن أسمو بأم ولا أب
ولكنني أحمي حماها وأتقي أذاها وأرمي من رماها بمنكب

ولعامر المذكور ديوان أخذت في نشره لجنة تذكار جيب الإنجليزية مع ديوان عبيد بن الأبرص بعناية المستشرق لايل Lyall وله أخبار في الشعر والشعراء ١٩١ والأغاني ٤٦ ج١٠ وخزانة الأدب ٤٩٢ ج٣.

(٢-٦) أبو قيس بن الأسلت

هو عامر بن جشم من الأوس وهو سيدهم أسندوا إليه حروبهم وجعلوه رئيسًا عليهم في حرب يوم بعاث، فقام فيها خير قيام، ومن شعره قوله في امرأة خفرة:

ويُكرمها جاراتُها فيزرنها وتعتل عن إتيانهن فتُعْذَرُ
وليس لها أن تستهين بجارةٍ ولكنها منهن تحيا وتَخْفَرُ

وهو من أصحاب المذهبات ومطلع مذهبته:

قالت ولم تقصد لقول الخَنَى مهلًا فقد أبلغتَ أسماعي

وأخباره في الأغاني ١٦٠ ج١٥ والجمهرة ١٢٦.

(٢-٧) الحصين بن الحمام (توفي سنة ٦٢١م)

هو الحصين بن الحمام بن ربيعة سيد بني سهم بن مرة من قيس، وكان يُعرف بمانع الضيم، وأحسن ما وصل إلينا من أقواله قصيدة حماسية فخرية قالها على أثر نصر في موضع يقال له دارة موضوع، مطلعها:

جَزَى اللهُ أفناءَ العشيرة كلها بدارة موضوعٍ عقوقًا ومأثما

وهي من جملة المفضليات التي اختارها المفضل الضبي، أخباره في الأغاني ١٢٣ ج١٢ والشعر والشعراء ٤١٠ وشعراء النصرانية ٧٣٣ والسيرة النبوية لابن هشام والحماسة والعمدة.

(٢-٨) قيس بن عاصم

من تميم ويكنَّى أبا علي، وهو شاعر فارس شجاع حكيم كثير الغارات مظفر في غزواته، أدرك الجاهلية والإسلام وساد فيهما، وهو أحد من وأد بناته في الجاهلية، وله حديث عن إحدى بناته يؤثر في النفس[١٨] وكان مشهورًا بالكرم لا يستطيع الأكل وحده، ومن نظمه في ذلك قوله وقد جاءته امرأته بالطعام:

أيا ابنة عبد الله وابنة مالكٍ	ويا ابنة ذي البُرْدين والفرس الورد
إذا ما صنعتِ الزاد فالتمسي له	أكيلًا فإني لست آكله وحدي
أخًا طارقًا أو جارَ بيتٍ فإنني	أخاف ملاماتِ الأحاديث من بعدي
وإني لعبد الضَّيف من غير ذلة	وما بيَ إلا تلك من شِيَمِ العبد

وعنه يروون وصية أوصى بها أولاده، ضرب لهم فيها مَثل الاتحاد بالرماح إذا ضُمت معًا يعسر كسرها وإذا تفرقت كُسرت.

وأخبار قيس في الأغاني ١٤٩ ج١٢ وخزانة الأدب ٤٢٨ ج٣ والمستطرف ٩٧ ج١ والعقد الفريد ١٦٤ ج١.

ومن الشعراء الأمراء أيضًا:

(١) ورقاء بن زهير الغطفاني سيد بني عبس. ترجمته في الأغاني ٨ ج١١.

(٢) حجر بن عمرو والد امرئ القيس. ترجمته في شعراء النصرانية ص١.

(٣) أمية بن الأسكر التيمي (مضر) ترجمته في الأغاني ١٥٦ ج١٨.

(٤) منظور بن زبان سيد فزارة وقائدهم، ترجمته في الأغاني ٥٥ ج١١.

(٥) الأخشن بن شهاب من سادات تغلب. ترجمته في شعراء النصرانية ١٨٤.

(٦) دريد بن الصمة (توفي سنة ٦٣٠) من هوازن سيد جشم، وهو من أصحاب المنتقيات، ترجمته في الأغاني ٢ ج٩، والشعر والشعراء ٤٧٠، وشعراء النصرانية ٧٥٢، والجمهرة ١١٧.

وقد ذكرنا بجانب كل واحد من هؤلاء المأخذ الذي يمكن الرجوع إليه في مطالعة خبره أو أمثلة من شعره، ولهم أخبار وأشعار أيضًا في سائر كتب الأدب ... وخصوصًا الشعر والشعراء والحماسة.

(٣) الشعراء الفرسان

هم أكثر شعراء الجاهلية؛ لأن الفروسية والحرب من طبائع أهل البادية، وقَل من الشعراء من لم يركب أو يغزُ، ولكننا اختصصنا في هذا الفصل من غلبت عليهم الفروسية، وفيهم الفرسان المشهورون وغير المشهورين، وهم نحو ٤٠ فارسًا، لو أردنا إيراد تراجمهم لاستغرق ذلك مكانًا كبيرًا مع قلة الحاجة إلى التفصيل في هذا المقام، فنكتفي بذكر

الأشهر منهم أو من كان له ديوان محفوظ يمكن الرجوع إليه، ونكتفي فيمن بقي منهم بذكر المآخذ التي يمكن الرجوع إليها في مطالعة أخبارهم، وهاك تراجم الأشهر:

(٣-١) أبو محجن الثقفي (توفي سنة ٦٥٠م)

هو فارس شجاع يُنسب إلى ثقيف، وكان مولعًا بالشراب، وقد أدرك الإسلام فهو مخضرم، وحبسه سعد بن أبي وقاص لشرب الخمر، واتفق بعد قليل أن المسلمين أصابهم جهد في القادسية، وكان عند أم ولد لسعد المذكور، فهاجت حماسته ونظم هذه الأبيات:

كفَى حزنًا أن تُطْعَنَ الخيلُ بالقنا ... وأترَكَ مشدودًا عليَّ وثاقيا
إذا قمت عَنَّاني الحديد وغُلِّقت ... مغاليقُ من دوني تصم المناديا
وقد كنت ذا أهلٍ كثير وإخوة ... فقد تركوني واحدًا لا أخا لِيا
هلم سلاحي لا أبا لك إنني ... أرى الحرب لا تزداد إلا تماديا

ثم احتالت أم ولد سعد المذكور في اطلاق سراحه، ومن قوله في حب الخمر:

إذا مت فادفني إلى جَنْبِ كَرمةٍ ... تروِّي عظامي بعد موتي عروقُها
ولا تدفنني بالفلاة فإنني ... أخاف إذا ما مت أن لا أذوقها

ولأبي محجن ديوان شعر مطبوع في لندن سنة ١٨٨٧، ومنه نسخة خطية في دار الكتب المصرية، وأخباره متفرقة في الشعر والشعراء ٢٥١، وخزانة الأدب ٥٥٣ ج٣، وفي الأغاني وغيره.

(٣-٢) الأغلب العجلي (توفي سنة ٦٤٣م)

هو الأغلب بن عمرو من جشم من بني عجل من ربيعة، وهو أحد المعمرين في الجاهلية، وأدرك الإسلام وأسلم، وكان في جملة من توجه إلى الكوفة مع سعد بن أبي وقاص، ومات في واقعة لها وُلد سنة ٢١هـ، وهو أول من رجز الأراجيز الطوال … فقد كان العرب ينشدون الرجز في الحرب والحداء والمفاخرة فيأتون منه بأبيات يسيرة، ثم جاء الأغلب فكان أول من قصد الرجز وأطاله ثم سلك الناس طريقته، والإسلام لم يمنعه من النظم

كما منع لبيدًا، وقد تقدم خبر ذلك في ترجمة لبيد، ولم نقف له على شعر أو خبر غير ما في الأغاني ١٦٤ ج١٨، والشعر والشعراء ٣٨٩، وخزانة الأدب ٣٣٣ ج١.

(٣-٣) حاتم الطائي (توفي سنة ٥٠٦م)

هو حاتم بن عبد الله من قبيلة طي ويكنى أبا سفانة، وهو من أجواد العرب وله أخبار في السخاء مشهورة حتى جرى ذكره مجرى الأمثال، فيقال: «أجود من حاتم طيء» وكانت والدته من أسخى الناس حتى اضطر إخوتها أن يحجروا على أموالها خوفًا من تبذيرها، وكانت ابنته سفانة سخية أيضًا، فكان أبوها يعطيها القطعة بعد القطعة من إبله فتهبها للناس، وكان حاتم مع ذلك شاعرًا وشجاعًا، ويشبه جوده شعره، وإذا قاتل غلب، وإذا غنم أنهب، وإذا سابق سبق، وكان إذا أهل الشهر الأصم الذي كانت مضر تعظمه في الجاهلية وتنحر له، ينحر في كل يوم عشرة من الإبل فيطعم الناس، وكانت الشعراء تفد عليه كالحطيئة وبشر بن أبي حازم، ويروون عن سخاء حاتم وقائع يغلب أن تكون موضوعة أو مبالغًا فيها؛ لتمثيل فضيلة السخاء وتحبيبها إلى الناس من قبيل الشعر التمثيلي وقد أشرنا إلى ذلك في كلامنا عن أقسام الشعر عند اليونان، ومن أقواله في السخاء:

أماويَّ قد طال التجنب والهجر — وقد غَدَرتني في طلابكم الغدر
أماويَّ إن المال غاد ورائح — ويبقى من المال الأحاديث والذِّكْر
أماويَّ إني لا أقول لسائل — إذا جاء يومًا حلَّ في مالنا النذر
أماويَّ إما مانع فمُبَينٌ — وإما عطاءٌ لا ينهنهه الزجر
أماويَّ ما يغني الثراءُ عن الفتى — إذا حشرجت نفس وضاق بها الصدر

وقوله:

إذا كان بعض المال ربًّا لأهله — فإني بحمد الله مالي معبَّد

أخذه ابن يعفر فقال:

ذريني أكن للمال ربًّا ولا يكن — ليَ المال ربًّا تحمدى غِبَّه غدا

أريني جوادًا مات هَزْلًا لعلني　　　أرى ما تَرَيْنَ أو بخيلًا مخلَّدا

ويستحسن له قوله:

ألا أبلغا وَهْمَ بن عمرو رسالةً　　　فإنك أنت المرء بالخير أجدرُ
رأيتك أدنى من أناسٍ قرابةً　　　وغيرُك منهم كنت أحبو وأنصر
إذا ما أتى يومٌ يفرق بيننا　　　بموتٍ فكن أنت الذي يتأخر

ولحاتم ديوان مطبوع في لندن سنة ١٨٧٢ بعناية المرحوم رزق الله حسون، وطُبع أيضًا في بيروت، وأخباره منثورة في الأغاني ٩٦ ج١٦، والشعر والشعراء ١٢٣، وخزانة الأدب ٤٩٤ ج١، والمستطرف ١٣٧ ج١، والعقد الفريد ٨١ ج١، وشعراء النصرانية ٩٨.

(٣-٤) زيد الخيل

هو زيد بن مهلهل من طي، وكان رجلًا جسيمًا طويلًا جميلًا فارسًا مغوارًا مظفرًا شجاعًا بعيد الصيت في الجاهلية، وأدرك الإسلام وَوَفَد على النبي … فسُرَّ به ولَقَبَهُ وقرظه وسماه زيد الخير، وهو شاعر مقل لأنه إنما كان يقول الشعر في مفاخراته ومغازيه وأياديه عند من مر عليه وأحسن في قراه إليه، وقد سمي زيد الخيل لكثرة خيله يوم لم يكن لسواه من العرب إلا الفرس والفرسان، فكانت له خيل كثيرة … منها المسماة المعروفة التي ذكرها في شعره وهي ستة: الهطال، والكميت، والورد، وكامل، ودوول، ولاحق، وله في كل منها شعر وكان له ثلاثة بنين كلهم شاعر، وأكثر أشعاره في الحماسة والفخر وذكر المواقع والطعن والضرب كقوله:

إنا لنكثر في قيسٍ وقائعنا　　　وفي تميمٍ وهذا الحيِّ من أسَد
وعامرُ بن طفيل قد نحوت له　　　صَدْر القناة بماضي الحدِّ مطَّرد
لما أحسَّ بأن الوَرْدَ مدركه　　　وصارمًا وربيط الجأش ذا لِبَدِ
نادى إليَّ بسِلْمٍ بعد ما أخذت　　　منه المنية بالحَيْزوم واللُّغُدِ
ولو تصبَّر لي حتى أخالطه　　　أسْعرته طعنةً كالنار بالزنَدِ

وجرت بينه وبين بعض القبائل معركة أُسر فيها الحطيئة الشاعر فحبسه وضيق عليه، وقال في ذلك:

أقول لعبدي جرولٍ إذ أسرته	أَثِبْني ولا يغررك أنك شاعرُ
أنا الفارس الحامي الحقيقة والذي	له المكرمات واللُّهي والمآثر
وقومي رءوس الناس والرأس قائد	إذا الحرب شَبَّتها الأكفُّ المساعر
فلست إذا ما الموت حوذر وِرْده	وأتْرِع حَوْضاه وحمِّجَ ناظر
بوقَّافةٍ يخشى الحتوف تهيبا	يباعدني عنها من القبِّ ضامر
ولكنني أغْشَى الحتوف بصعْدتي	مجاهرة إن الكريم يجاهر
وأروي سناني من دماء عزيزةٍ	على أهلها إذ لا تُرَجَّى الأياصر

ولا نعرف لزيد الخيل ديوانًا مجموعًا ولكن أخباره منثورة في الأغاني ٤٧ ج١٦، والشعر والشعراء ١٥٦، والدميري ٢٠١ ج١، وخزانة الأدب ٤٨٨ ج٢.

(٣-٥) سلامة بن جندل التميمي (توفي سنة ٦٠٨م)

هو شاعر جليل من قدماء الشعراء، وكان من فرسان تميم المعدودين وأخوه أحمر مثله، شعره سلس يستشهد به أهل اللغة؛ لمتانته، وكان معاصرًا لعمرو بن هند صاحب الحيرة والنعمان أبي قابوس وله فيهما أشعار، ومن أحسن شعره قصيدته التي مطلعها:

يا دار أسماء بالعلياء من أضمٍ	بين الدَّكادك من قوٍّ فمَعصوبِ
كانت لنا مرة دارًا فغيَّرها	مَر الرياح بساقي التُّربِ مجلوب

وترى أمثلة من شعره في كتاب الشعر والشعراء ١٤٧، وشعراء النصرانية ٤٨٦، وخزانة الأدب ٨٦ ج٢، ومعجم البلدان.

(٣-٦) علقمة الفحل

هو علقمة بن عبدة من تميم، وكان معاصرًا لامرئ القيس وينازعه الشعر، وتحاكما إلى أم جندب زوجة امرئ القيس، فقالت لهما أنظما قصيدتين من وزن واحد وقافية واحدة تصفان بها الخيل، فنظم امرؤ القيس قصيدته التي مطلعها:

خليليَّ مُرَّا بي على أم جُنْدَبِ   لنقضي لُبانات الفؤاد المعذَّب

ونظم علقمة قصيدة مطلعها:

ذهبتَ من الهجران في كلِّ مذهب   ولم يك حقًّا كل هذا التجنُّبِ

وأنشداها القصيدتين فحكمت لعلقمة لأن امرأ القيس قال في وصف سرعة الفرس:

فللسوط ألهوب وللساق دِرَّة   وللزَّجر منه وقع أهوج مَنِعْبِ[١٩]

وقال علقمة:

فأدركهنَّ ثانيًا من عِنانه   يمرُّ كمر الرائح المتحلِّبِ

ومرجع حكمها إلى أن امرأ القيس أجهد فرسه بسوطه وساقه، أما علقمة فإن فرسه أدرك طريدته وهو ثان عنانه … فغضب امرؤ القيس وطلق امرأته فتزوجها علقمة!

ومن جيد شعره قوله:

فإن تسألوني بالنساء فإنني   بَصيرٌ بأدواء النساء طبيبُ
إذا شاب رأسُ المرء أو قلَّ ماله   فليس له في ودِّهن نصيب
يُرِدْنَ ثراء المال حيث عَلِمْنَه   وشَرْخُ الشباب عندهن عجيب

ولعلقمة ديوان مطبوع في ليبسك سنة ١٨٦٧ مع تعاليق بعناية ألبرت سوسين Socin وطُبع في بيروت في بضع عشرة صفحة، وله أخبار متفرقة في خزانة الأدب ٥٦٥ ج١، والأغاني ١٢٨ ج٧، وشعراء النصرانية ٤٩٨، والشعر والشعراء ١٠٧، والعمدة وسائر كتب الأدب.

(٣-٧) عمرو بن معدي كرب (توفي سنة ٦٤٣م)

هو من زبيد من مذحج (كهلان) فارس من فرسان اليمن أو هو فارس اليمن ويقدمونه على زيد الخيل في البأس، وقد أدرك الإسلام وأسلم وجاهد حتى مات في آخر خلافة عمر بن الخطاب، وهو ممن يصدق عن نفسه في شعره فلا يفاخر بالمحال، ومن ذلك قوله:

ولقد أجمع رجلِّي بها   حذَر الموت وإني لفَرورُ
ولقد أعطفها كاوهة   حين للنفس من الموت هَرِيرُ
كل ما ذلك مني خلق   وبكلٍّ أنا في الروع جدير

ومن أشعاره الذاهبة مذهب الأمثال قوله:

إذا لم تستطع شيئًا فدعه   وجاوزه إلى ما تستطيع
وصله بالزَّماعِ فكلُّ أمر   سما لك أو سموتَ له ولوع

وأخباره في الأغاني ٢٥ ج١٤، والشعر والشعراء ٢١٩، وخزانة الأدب ٤٢٥ ج١، والمستطرف ١٧٩ ج١.

(٣-٨) قيس بن الخطيم (توفي سنة ٦١٢م)

هو شاعر فارس من الأوس، اعتدى رجل من الخزرج على أبيه وهو غلام فقتله، وعلم أن جده قتله رجل من عبد القيس ... فلما عرف موضع ثأره لم يزل يلتمس غرة من قاتل أبيه وجده في المواسم، فظفر بقاتل أبيه في يثرب فقتله وظفر بقاتل جده في ذي المجاز، ولكنه رآه في ركب عظيم فاستنجد خداش بن زهير فنهض معه ببني عامر حتى أتوا القاتل، فطعنه قيس بحربة قتلته وفرَّ، فأراد رهط الرجل أن يتبعوه فمنعهم بنو عامر، وفي ذلك يقول قيس:

ثأرت عَدِيًّا والخَطيم فلم أضِعْ   ولايةَ أشياخٍ جُعلت إزاءها
ضربت بذي الزُّجَّين ربقةَ مالك   فأبْت بنفسٍ قد أصبتُ شفاءها
وسامحني فيها ابن عمرو بن عامر   خِدَاشٌ فأدَّى نعمةً وأفادَها

طعنتُ ابن عبدِ القيس طعنة ثائرٍ لـهـا نَـفَـذٌ لـولا الـشـعـاع أضـاءهـا
مـلـكتُ بـهـا كـفـي فـأنْـهـرْت فَـتْـقَـهَـا يـرى قـائـمٌ مـن دونـهـا مـا وراءهـا

وهو معدود من أصحاب المذهبات، ومطلع مذهبته:

أتعرف رسمًا كاطِّراد المذاهب لعمرة وَحْشًا غير موقف راكب
تبدَّت لنا كالشمس تحت غمامةٍ بدا حاجبٌ منها وَضنَّتْ بحاجب

ومن أقواله في الفخر:

ونحن الفوارس يوم الربيـ ـعِ قد علموا كيف فرسانها

ولقيس بن الخطيم ديوان منه نسخة خطية في دار الكتب المصرية، وله أخبار متفرقة في كتب الأدب وخصوصًا الأغاني ١٥٩ ج٢ والجمهرة ١٢٣.

(٣-٩) سائر الشعراء الفرسان

ومن الشعراء الفرسان أيضًا طائفة، أخبارهم قليلة أو ليس لهم دواوين محفوظة، فنكتفي بذكر المصادر التي يمكن الرجوع إليها في تراجمهم وأخبارهم:

اسم الشاعر	أسماء المصادر
أحيحة بن الجلاح (توفي سنة ٥٦١م) من الأوس ومن أصحاب المذهبات	الأغاني ١١٩ ج١٣.
جحدر بن ضبيعة من بكر وائل (٥٣٠)	شعراء النصرانية ٢٦٨
أفنون هو ضريم بن معشر من تغلب	شعراء النصرانية ١٩٢ والشعر والشعراء ٢٤٨
بسطام بن قيس الشيباني من بكر	شعراء النصرانية ٢٥٦
جابر بن حني التغلبي (٥٦٤)	شعراء النصرانية ١٨٨
الحارث بن الطفيل وفد على كسرى	الأغاني ٥٣ ج١٢
خفاف بن ندبة السلمي من قيس	الأغاني ١٣٩ ج١٦ وخزانة الأدب ٨١ ج٢

اسم الشاعر	أسماء المصادر
ذو الإصبع العدواني (٦٠٢)	الأغاني ٢ ج٣ وخزانة الأدب ٤٠٨ ج٢ وشعراء النصرانية ٦٢٥
الربيع بن زياد العبسي (٥٩٠)	الأغاني ٢٠ ج١٦ وشعراء النصرانية ٧٨٧
زهير التميمي من أشراف مازن	الأغاني ١٥٦ ج١٩
الحارث بن عباد من بكر بن وائل	شعراء النصرانية ٢٧٠
صخر بن عبد الله من هذيل	الأغاني ٢٠ ج٢٠
العباس بن مرداس وأخوه سراقة	الشعر والشعراء ١٦٦ج و٤٦٧ والأغاني ٦٤ ج١٣ وخزانة الأدب ٧٣ ج١
عبدة بن الطبيب تميم	الأغاني ١٦٣ ج١٨ والشعر والشعراء ٤٥٦
سويد بن أبي كاهل يشكر	الأغاني ١٧١ ج١١ وشعراء النصرانية ٤٢٥ والشعر والشعراء ٢٥٠
عمرو بن العجلان هذيل	الأغاني ٢٢ ج٢٠
الفند الزماني (٥٣٠) بكر	الأغاني ١٤٣ ج٢٠ وخزانة الأدب ٥٨ ج٢ وشعراء النصرانية ٢٤١
متمم بن نويرة من أصحاب المراثي	الأغاني ٦٦ ج١٤ وابن خلكان ١٧٢ ج٢ والشعر والشعراء ١٩٢ وخزانة الأدب ٢٣٦ ج١ والجمهرة ١٤١
نبيه بن الحجاج قريش	خزانة الأدب ١٠١ ج٣
كعب بن سعد الغنوي قيس	الخزانة ٦٢١ ج٣ وشعراء النصرانية ٧٤٦

(٤) الشعراء الحكماء

نريد بالحكماء من الشعراء الذين كان لهم علم غير الشعر وكانت له حكمة، وقد دخل بعضهم في طبقة الشعراء والأمراء وفي أصحاب المعلقات كالأفوه الأودي وزهير بن أبي سلمى، ونحن ذاكرون فيما يلي من غلبت فيه الحكمة على سواها مع الشاعرية.

(٤-١) أمية بن أبي الصلت (توفي سنة ٦٢٤م)

يتصل نسبه بثقيف، وكان عالمًا بغير العربية على ما يظهر … فاطلع على كتب القدماء وخصوصًا التوراة وقد أورد في شعره ألفاظًا غريبة لم تكن العرب تعرفها، وكان يسمي الله في بعض أشعاره «السلطيط» وفي بعضها «التغرور» فربما اقتبسهما من الحبشة أو صاغهما على صيغ تلك اللغة، فالأحباش يسمون الله في اللغة الأمهرية «أغزا بهر» فلعلها كانت قبلًا أقرب إلى لفظ التغرور، والسلطيط نظنها صيغة من تلك اللغة صاغ عليها اسمًا من السلطة.[٢٠]

وكان أمية مفطورًا على التدين، فلقي في تجارته إلى الشام بعض أهل الدين، فزهد في الدنيا ولبس المسوح وتعبد، وقد ذكر إبراهيم وإسماعيل والحنيفية ووصف الجنة والنار في شعره وحرم الخمر وشك في الأوثان وطمع في النبوة، وكان العرب ينتظرون نبيًّا يهديهم، فكان يرجو أن يكون هو، فلما ظهر النبي أسقط في يده، وقال: «إنما كنت أرجو أن أكونه» ولكنه ما انفك يختلف إلى الأديرة والكنائس يجالس الرهبان والقسوس حتى غلب على ظن البعض أنه مسيحي، ومن قوله وفيه فلسفة:

الحمد لله مُمسانا ومُصبَحَنا	بالخير صبَّحنا ربي ومسَّانا
ربُّ الحنيفة لم تَنْفَدْ خزائنها	مملوءةً طَبَّق الآفاقَ سلطانا
ألا نبيٌّ لنا منَّا فيخبرَنا	ما بعد غايتنا من رَأسِ مَحيانا
بينا يُرَبِّبُنَا آباؤنا هلكوا	وبينما نقتني الأولاد أفْنانا
وقد علمنا لو أنَّ العلم ينقصنا	أنْ سوف يَلحق أخرانا بأولانا

وله قصيدة يصف بها الله وملائكته مطلعها:

لك الحمد والنعماء والملك ربَّنا	فلا شيءَ أعلى منك مجدًا وأمْجَدَ

وبعد أن يصف العزة الإلهية ومجلسها يصف الملائكة بقوله:

ملائكةٌ أقدامهم تحت عرشه	بكفيَّه لولا الله كَلُّوا وأبلدوا
قيام على الأقدام عانين تحته	فرائصهم من شدة الخوف تُرْعَدُ

وسِبْطُ صفوف ينظرون قضاءه يُصيخون بالأسماع للوحي رُكَّد
أمينٌ لوحي القدس جبريل فيهمُ وميكالُ ذو الروح القوي المسدَّدُ
وحرَّاس أبواب السماوات دونهم قيامٌ عليها بالمقاليد رُصَّدُ

وله عدة قصائد في حوادث التوراة كخراب سدود وقصة إسحق وإبراهيم، وله قصيدة معدودة في المجمهرات مطلعها:

عرفت الدار قد أقْوَتْ سنينا لزينب إذ تحلُّ بها قَطينا

وفي أشعاره معان وأساليب لم تكن العرب تعرفها أخذها من كتب غيره وأدخلها في شعره.[٢١]

وأخباره في الأغاني ١٨٦ ج٣ و٣ ج٨ و٧١ ج١٦ والدميري ١٥٤ ج٢ وخزانة الأدب ١١٩ ج١ وشعراء النصرانية ٢١٩ والعمدة وغيرها.

(٤-٢) ورقة بن نوفل (توفي سنة ٥٩٢م)

هو ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى من قريش، وهو أحد من اعتزل الأوثان في الجاهلية وقرأ الكتب وامتنع عن أكل ذبائح الأوثان، وكان يكتب اللغة العربية بالحرف العبراني وقد شاخ وكُفَّ بصره، وله ذكر في السيرة النبوية عندما سمع الرسول جبريل يكلمه وجاء خديجة امرأته خائفًا، فسألت ورقة وهو ابن عمها[٢٢] عما رآه الرسول فقال:

إنه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى وإنه لنبي هذه الأمة.

وله أشعار كان يغني بها المغنون في صدر الإسلام منها قوله:

ولقد غزوت الحيَّ يُخشى أهله بعد الهُدُوِّ وبعد ما سقَط النَّدَى
فلتلك لذاتُ الشباب قضيتها عني فسائلْ بعضَهم ماذا قضى

ومن شعره في التوحيد والدين قصيدة مطلعها:

لقد نصحت لأقوامٍ وقلت لهم أنا النذير فلا يغرركمُ أحدُ

وقصيدة أخرى مطلعها:

رشدتَ وأنعمت ابنَ عمرو وإنما تجنبت تَنُّورًا من النار حاميا

وتجد شيئًا من أخباره في السيرة النبوية لابن هشام ٧٦ و٨٠ ج١، والأغاني ١٣ ج٣، وشعراء النصرانية ٦١٦، والسيرة الحلبية ٢٥٦ ج١، ومعجم البلدان.

(٣-٤) زيد بن عمرو (توفي سنة ٦٢٠م)

هو أيضًا من عبد العزى من قريش، وقد اعتزل الأوثان مثل ورقة، وكان يقول: «يا معشر قريش أيرسل الله قطر السماء وينبت بقل الأرض ويخلق السائمة فترعى فيه وتذبحوها لغير الله؟» فأخرجه القرشيون من مكة، ومنعوه أن يدخلها، وكان أشدهم عليه الخطاب بن نفيل والد عمر، وكان قد تخلف عن عبادة الأوثان أربعة من قريش هم: ورقة وزيد المذكوران، وعبيد الله بن جحش، وعثمان بن الحويرث، فاجتمع هؤلاء وتواطأوا على رفض الوثنية، وعلى أن يضربوا في البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم، فلما أجمع زيد على الخروج منعه الخطاب عمه وعاتبه على فراق دين آبائه، ثم خرج سائحًا ويقال: إنه قُتل في الشام، وله أشعار في التدين منها:

وأسلمتُ وجهي لمن أسلمتْ له الأرض تحمل صَخرًا ثِقالا
دَحاها فلما رآها استوت على الماء أرسى عليها الجبالا
وأسلمتُ وجهي لمن أسلمت له المُزْنُ تحمل عَذبًا زلالا
إذا هي سيقت إلى بلدة أطاعت فصبَّت عليها سجالا

وتجد أخباره في الأغاني ١٥ ج٣، والسيرة النبوية لابن هشام ٧٦ ج١، وشعراء النصرانية ٦١٩، وخزانة الأدب ٩٩ ج٣.

(٤-٤) قس بن ساعدة (توفي سنة ٦٠٠م)

هو من إياد يعدونه من الخطباء، ولكنه كان خطيب العرب وشاعرها وحكيمها في عصره، وهو أسقف من نجران، والمشهور أنه أول من علا على شرف وخطب عليه، وأول من قال: «أما بعد»، وينسبون إليه قوله: «البينة على من ادعى واليمين على من أنكر»، وقد أدركه الرسول ورآه في عكاظ فكان يروي عنه كلامًا سمعه منه، وكان فصيحًا يضرب المثل بفصاحته، وكان يفد على قيصر زائرًا فيكرمه ويعظمه، ولكنه كان زاهدًا في الدنيا ينظر إليها نظر الفلاسفة فلا يرغب في البقاء فيها كما يؤخذ من خطبته التي قالها في عكاظ ورواها أبو بكر الصديق وهي مشهورة، ختمها بقوله:

في الذاهبين الأوَّلـ	ـين من القرون لنا بصائرْ
لما رأيت مواردًا	للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها	يَمضي الأصاغر والأكابرْ
لا يرجع الماضي ولا	يبقى من الباقين غابر
أيقنت أني لا محا	لة حيث صار القوم صائر

ولعل الذي زهده في الدنيا وكرهها إليه المصيبة التي انتابته بفقد أخوين كانا يعبدان الله معه، فماتا ودفنهما معًا وشق عليه مصابه بهما فكان يتردد على قبريهما ويندبهما، ومن قوله في قصيدة:

خليليَّ هُبَّا طالما قد رقدتما	أجِدَّكما لا تقضيان كراكما
ألم تعلما أني بسَمْعان مفردٌ	وما لي فيها من خليل سواكما
أقيم على قبريكما لست بارحًا	طوال الليالي أو يجيب صَداكما
جرى الموت مجرى اللحم والعظم منكما	كأن الذي يسقي العُقار سقاكما

وله أشعار كثيرة ضاع معظمها وله أقوال جرت مجرى الأمثال وجمعت في كتاب شعراء النصرانية ٢١١ وفي الأغاني ٤١ ج١٤ وخزانة الأدب ٢٦٧ ج١ وغيرها من كتب الأدب والتاريخ والبيان.

(٥) الشعراء العشاق

قل من الشعراء من لم يحرك قلبه الحب، وإذا لم يحركه كان شعره جافًّا قاسيًا، ولذلك فالعشاق من الشعراء كثيرون، ومنهم في الجاهلية طائفة كبيرة: فعنترة عشق عبلة، والمخبل السعدي عشق الميلاء، وحاتم الطائي عشق ماوية، والمرقش الأكبر عشق أسماء، والنمر بن تولب عشق جمرة، وسحيم عبد بني الحسحاس عشق عميرة،[٢٣] غير الذين اشتهروا في صدر الإسلام من آل عذرة وغيرهم، وسيأتي ذكرهم عند كلامنا عن الشعر والشعراء في أيام الأمويين.

والحب يحرك الشاعرية ويشحذ القريحة — وخصوصًا مع الغيرة — ليس للشعر فقط، بل في كل ما يفتقر إلى خيال، وبين الشعراء الفرسان الذين ترجمنا لهم غير واحد من المحبين، وكذلك في سائر الطبقات، لكننا خصصنا هذا الباب فيمن لم يكن له باعث على النظم غير العشق، وكان أكثر شعره أو كله في معشوقته، وهذه الطبقة كانت قليلة قبل الإسلام؛ لاشتغال القوم بالحرب عن سواها، ولأن بعض القبائل كانت تحرم الغزل على الإطلاق.

ثم تكاثر الشعراء العشاق بعد الإسلام لانتشار التسري وركون القوم إلى الرخاء، حتى إذا نضج التمدن الإسلامي ودخلت العناصر الأجنبية تحول ذلك إلى التهتك والتخنث كما سيجيء، أما في الجاهلية، فالشعراء المتيمون يُعدون على الأصابع، أشهرهم:

(٥-١) المرقش الأكبر (توفي سنة ٥٥٢م)

اسمه عوف بن سعد بن مالك من بكر وائل، وهو من الشعراء المقدمين، ويمتاز عن أكثر شعراء الجاهلية بأنه كان يعرف الكتابة لأن أباه دفعه وأخاه حرملة إلى نصراني من أهل الحيرة علمهما الخط، ويندر في أهل الجاهلية من فعل ذلك خصوصًا الشعراء، فإن معولهم في حفظ أشعارهم على الرواة، ويختلف عن أكثر شعراء الجاهلية بأنه مات متيمًا، وسبب موته أنه كان يهوى ابنة عم له اسمها أسماء عشقها وهو غلام، فقال له عمه: «لا أزوجك حتى تُعرف بالبأس» فسافر المرقش في طلب العلا، وأُصيب عمه في أثناء غيابه بضيق فأتاه رجل من بني مراد أطمعه بالمال فزوجه أسماء على مائة من الإبل، فلما عاد المرقش أخفوا خبر الزواج عنه، ثم اكتشف خبره، فركب في طلب ذلك المرادي مع صديق له من غفيلة، فمرض في الطريق فنزلا كهفًا في أسفل نجران، وهي

أرض مراد ومعه صديقه الغفيلي وامرأته، وسمعهما يتآمران على تركه يأسًا من شفائه ... فاختلس فرصة كَتب فيها على مؤخر الرحل هذه الأبيات:

يا صاحبيَّ تلبَّثا لا تعجلا إن الرَّواح رهينُ أن لا تعذلا
يا راكبًا إما عرضت فبلِّغنْ أنسَ بن سعد أن لقيتَ وحَرْمَلا
لله دَرُّكما ودر أبيكما إن أفلت العبدان حتى يُقْتَلا
من مبلغُ الأقوام أن مرقشًا أضحى على الأصحاب عِبئًا مُثْقَلا
وكأنما ترد السباع بشِلوِهِ، إذ غابَ جمعُ بني ضُبَيْعَة، منهلا

ورأينا بعض الأبيات يُنسب إلى المهلهل أيضًا، وانطلق الغفيلي حتى أتى أهله وأخبرهم أن المرقش مات، ولكن أخاه حرملة قرأ ما على الرحل، فشك في صدق الرجل واستنطقه فاعترف له بالحقيقة فركب في طلبه ... فلما بلغ الكهف أخبر أن المرقش علم وهو هناك بوجود أسماء وزوجها، فاحتال حتى حمل إليهما في حديث طويل ولم يطل مكثه فمات عندهما، وقال في موته شعرًا مطلعه:

سرى ليلًا خيالٌ من سُليمى فأرَّقني وأصحابي هجود

وهو من أصحاب المنتقيات ... وله أقوال في الحماسة يصف بها بعض المعارك وأخرى في الفخر ... ومن أحسن شعره في الحماسة قصيدته التي استهلها بذكر حبيبته:

أمن آل أسماءَ الطلول الدوارس تخطِّط فيها الطير، قَفْرٌ بَسابس

ثم تخلص إلى وصف خروجه وسفره، وقصيدة أخرى في وصف الطلول ونجائب الإبل وغيرها، واتصل المرقش الأكبر بالحارث بن أبي شمر الغساني، ونادمه سنة ٥٢٤ ومدحه.

وترى أشعاره وأخباره في الأغاني ١٨٩ ج٥، والشعر والشعراء ١٠٢، وشعراء النصرانية ٢٨٢، وخزانة الأدب ٥١٤ ج٣، والجمهرة ١١٢، وغيرها من كتب الأدب.

(٥-٢) عبد الله بن عجلان (توفي سنة ٥٦٦م)

هو من نهد من قضاعة شاعر متيم قتله الحب، وكان له زوجة يقال لها هند طلقها؛ لأنها لم تلد له، فتزوجها غيره، ثم ندم على ذلك ومات أسفًا عليها، وكان سيدًا في قومه وابن سيد من سادتهم، وكان أبوه أكثر بني نهد مالًا، وكان يجدر بنا إدخاله في جملة الشعراء الأمراء لولا تغلب العشق عليه، ومن أقواله فيها:

فارقت هندًا طائعًا	فندمت عند فراقها
فالعين تذري دمعة	كالدر من آماقها
مُتحلِّبًا فوق الردا	ء يجول من رقراقها
خَوْدٌ رَداح طَفْلةٌ	ما الفحش من أخلاقها
ولقد ألذ حديثها	وأُسَرُّ عند عناقها

وله أخبار وأشعار جُمعت في الأغاني ١٠٢ ج١٩، والشعر والشعراء ٤٤٩.

(٥-٣) عروة بن حزام العذري (توفي سنة ٣٠هـ)[٢٤]

هو من الشعراء المتيمين الذين أدركوا الإسلام، وقد قتلهم الهوى، لا يُعرف له شعر إلا في عفراء بنت عمه، وتشبيبه بها وكان قد خطبها من أبيها فوعده ثم زوجها لغيره … فأثر ذلك في مزاجه فضعف واضطرب حتى ظنوا فيه الخبل وأصابه هزال، فرآه ابن مكحول عراف اليمامة فجالسه وسأله عما به وهل هو خبل أو جنون؟ فقال له عروة: «هل لك علم بالأوجاع؟» قال: «نعم» فأنشأ يقول:

وما بيَ من خَبْلٍ ولا بيَ جِنَّةٌ	ولكنَّ عمي يا أُخَيَّ كذوب
أقول لعرَّاف اليمامة داوني	فإنك إن داويتني لطبيبُ
فو اكبدا أمست رُفاتًا كأنما	يلذِّعها بالموقدات طبيبُ
عشيَّةَ لا عفراء منك بعيدةٌ	فتسلو ولا عفراءُ منك قريبُ
فوالله لا أنساك ما هبت الصبا	وما عَقَّبتها في الرياح جَنوبُ
وإني لتغشاني لذكراك هزةٌ	لها بين جلدي والعظام دبيبُ

وقال يخاطب صديقين له رافقاه:

متى تكشفا عني القميص تَبَيَّنَا	بيَ الضرَّ من عفراء يا فَتَيانِ
إذًا تريا لحمًا قليلًا وأعظمًا	رقاقًا وقلبًا دائم الخفقان
جعلت لعرَّاف اليمامة حكمه	وعراف حِجْرٍ إن هما شفياني
فما تركا من حيلةٍ يعرفانها	ولا شربةٍ إلا وقد سقياني
ورشا على وجهي من الماء ساعةً	وقاما مع العوَّاد يبتدراني
وقالا شفاك الله والله ما لنا	بما ضَمِنَتْ منك الضلوع يدان

وتجد أخباره في الأغاني ١٥٢ ج٢٠، وفوات الوفيات ٣٣ ج٢، والشعر والشعراء ٣٩٤، وخزانة الأدب ٥٣٤ ج١.

(٤-٥) مالك بن الصمصامة

هو من جعدة كان يهوى جنوب بنت محصن الجعدي فمنعه أخوها منها، وكان مالك شاعرًا فارسًا شجاعًا جميلًا فبلغه أن أخاها أقسم إذا تعرض مالك لأخته أسره وجز ناصيته فقال:

وما الحلَقُ بعد الأسر شَرٌ بقيةً	من الصد والهجران وهي قريبُ
ألا أيها الساقي الذي بلَّ دلْوه	بقُرْيان يَسقي هل عليك رقيبُ
أحقًّا عبادَ الله أن لستُ خارجًا	ولا والجًا إلا عليَّ رقيبُ
ولا زائرًا وحدي ولا في جماعةٍ	من الناس إلا قيل أنت مريبُ
وهل ريبةٌ في أن تَحِنَّ نَجيبَةٌ	إلى إلْفِها أو أن يَحِنَّ نجيبُ

وله أشعار أخرى في الأغاني ٨٣ ج١٩.

(٥-٥) مسافر بن أبي عمرو

هو من قريش، كان سيدًا جوادًا أَحب هندًا بنت عتبة التي تزوجها أبو سفيان بعد ذلك، وهي أم معاوية وإخوته، فخطبها مسافر وهو ذو ثروة فلم تقبله، فلما بلغه زواجها بأبي سفيان اعتلَّ ومات وله فيها أشعار، وأخباره في الأغاني ٤٨ ج٨.

ومن الشعراء الجاهليين المتيمين:

- منظور بن زبان من فزارة كان عاشقًا، وهو من الأمراء أيضًا وقد تقدم ذكره.
- مسعود بن خراشة من تميم، وهو من المخضرمين.
- عنترة العبسي، وقد تقدمت ترجمته.

(٦) الشعراء الصعاليك

هم طائفة من الشعراء اشتهروا بالعدو والإغارة على القبائل للنهب، أشهرهم:

(٦-١) الشنفرى (توفي سنة ٥١٠م)

هو من الأواس بن الحجر من الأزد شاعر من أهل اليمن معدود في العدائين الذين لا تلحقهم الخيل، منهم هذا، وسليك بن السلكة، وعمرو بن براقة، وأُسيد بن جابر، وتأبط شرًّا، ويقال: إن الشنفرى حَلَفَ ليقتلن مائة رجل من بني سلامان فقتل تسعة وتسعين، فاحتالوا عليه فأمسكه رجل منهم عدَّاء هو أسيد بن جابر ثم قتله، فمر به رجل منهم فركل جمجمته … فدخلت شظية منها في رجله فمات، فتمت القتلى مائة، وللشنفرى أشعار في الفخر والحماسة أشهرها لاميته المعروفة بلامية العرب ومطلعها:

أقيموا بني أمي صدورَ مطيكم فإني إلى قوم سواكم لأميَل

وقصيدة اختارها صاحب المفضليات مطلعها:

ألا أمُّ عمرو أجمعتْ فاستقلَّتِ وما ودَّعت جيرانها إذ تولَّتِ

وقد عني الأستاذ المستشرق ردهوس Redhouse بترتيب لامية العرب وترجمتها إلى الإنجليزية، وقد طُبعت في المجلة الأسيوية الإنجليزية سنة ١٨٨١ وترجمها إلى الألمانية ريس Reuss في المجلة الألمانية الشرقية سنة ١٨٥٣.

وأخبار الشنفرى مفرقة في الأغاني ٨٧ ج٢١، والشعر والشعراء ١٨، وخزانة الأدب ١٦ ج٢، والمفضليات وغيرها.

(٦-٢) تأبط شرًّا (توفي سنة ٥٣٠م)

هو ثابت بن جابر من فَهم من قيس كان أسمع العرب وأبصرهم وأكيدهم، كان أعدى رجل، ينظر إلى الظباء فينتقي على نظره أسمنها، ثم يعدو خلفه فلا يفوته، وله أخبار كثيرة يضيق عنها هذا المكان، ومن شعره في وصف الغول:

ألا من مبلغٌ فتيان فَهْمٍ　　بما لا قيت عند رَحَى بِطانِ
بأني قد لقيت الغول تهوي　　بسهْبٍ كالصحيفةَ صحصحان
فقلت لها كلانا نِضْوُ أيْنٍ　　أخو سفرٍ فخلِّي لي مكاني
فشدَّت شدَّةً نحوي فأهوى　　لها كفِّي بمصقول يماني
فأضربها بلا دَهَشٍ فخرَّت　　صريعًا لليدين وللجران
فقالتْ ثَنِّ قلت لها رويدًا　　مكانك إنني ثبت الجَنان
فلم أنفك متكئًا عليها　　لأنظر مُصبحًا ماذا أتاني
إذا عينان في رأس قبيح　　كرأس الهرِّ مشقوق اللسان
وساقا مُخدَجٍ وشواة كلب　　وثوب من عَباءٍ أو شِنان

وأخباره في الأغاني ٢٠٩ ج١٨، والشعر والشعراء ١٧٤، وخزانة الأدب ٦٦ ج١، وكتب عنه بور Baur بالألمانية مقالة في سيرة حياته وشعره في المجلة الشرقية الألمانية سنة ١٨٥٦.

(٦-٣) السليك بن السلكة (توفي سنة ٦٥٠م)

هو من تميم، أمه أمة سوداء، وكان من عاداته إذا كان الشتاء استودع بيض النعام ماء السماء ثم دفنه ... فإذا كان الصيف وانقطعت إغارة الخيل أغار، وكان أدل من قطاة يجيء حتى يقف على البيضة، وكان لا يغير على مضر وإنما يغير على اليمن، فإذا لم يمكنه ذلك أغار على ربيعة، ويعده المفضل الضبي من أشد رجال العرب وأنكرهم وأشعرهم، وكان أدل الناس بالأرض وأعلمهم بمسالكها، وله أخبار كثيرة مدهشة، ومن شعره على أثر غزوة رابحة:

بكى صُرَدٌ لما رأى الحيَّ أعرضت	مهامهُ رملٍ دونهم وسهوبُ
فقلت له لا تَبْكِ عينُك إنها	قضيةُ ما يقضي لها، فتئوبُ
سيكفيك فقد الحي لحم مقدَّد	وماء قدورٍ في الجفان مشوبُ
ألم تر أن الدهر لونان لونه	وطوران بشرٌ مرة وكذوب
فما ذرَّ قرن الشمس حتى أريته	مصاد المنايا والغبار يثوب

وأخباره في الأغاني ١٣٣ ج١٨ والشعر والشعراء ٢١٣.

(٦-٤) عروة بن الورد (توفي سنة ٥٩٦م)

هو من عبس، وكان شاعرًا فارسًا وصعلوكًا مقدمًا، وكان يلقب عروة الصعاليك؛ لأنه كان كالرئيس عليهم يجمعهم ويقوم بأمرهم إذا أخفقوا في غزواتهم، ويعولهم إذا لم يكن عندهم معاش، وكان لشعره تأثير في نفوس قبيلته. سئل الحطيئة كيف كنتم في حربكم؟ قال: «كنا ألف حازم»، فقيل، وكيف ذلك؟ قال: «كان فينا قيس بن زهير وكان حازمًا وكنا لا نعصيه وكنا نقدم إقدام عنترة ونأتم بشعر عروة بن الورد وننقاد لأمر الربيع بن زياد»، ومن شعر عروة قوله:

وإني امرؤٌ عافي إنائي شركةٌ	وأنت امرؤ عافي إنائك واحدُ
أتهزأ مني أن سمنتَ وأن ترى	بجسمي شحوبَ الحقِّ، والحقُّ جاهد
أفرِّق جسمي في جسومٍ كثيرة	وأحسو قَراحَ الماءِ، والماءُ بارد

ومن قوله في الإقدام:

دَعيني للغنى أسعى فإني رأيت الناسَ شرُّهم الفقير

ومن ذلك قوله:

لعلَّ ارتيادي في البلاد وبُغيتي وشدِّي حيازيم المطية بالرَّحل
سيدفعني يومًا إلى رب هَجْمةٍ يدافع عنها بالعقوق وبالبخل

والهجمة من الإبل ما زاد على الأربعين، وله قصيدة تعد من المنتقيات مطلعها:

أقلي عليَّ اللوم يا ابنة منذر ونامي فإن لم تشتهي النوم فاسهري
ذريني أطوَّفْ في البلاد لعلني أخليك أو أغنيك عن سوء محضري

فترى الهمة والنشاط والإقدام ظاهرة في كل أقواله.

ولعروة ديوان طُبع في غوتنجن سنة ١٨٦٤ مع ترجمة ألمانية وشروح لنولدكي وطُبع أيضًا في بيروت، وله أشعار متفرقة في الأغاني ١٩٠ ج٢، والشعر والشعراء ٤٢٥ وشعراء النصرانية ٨٨٣ والجمهرة ١١٤، وكتب بوشر Boucher الفرنسي مقالة عنه وعن ذي الإصبع العدواني في المجلة الأسيوية الفرنسية سنة ١٨٦٧.

ومن الشعراء الصعاليك:

(١) حاجز الأزدي (٥٧٠) كان يسبق الخيل. ترجمته في الأغاني ٤٩ ج١٢.

(٢) قيس بن الحدادية الأزدي. ترجمته في الأغاني ٢ ج١٣.

(٣) أبو الطمحان القيني من قضاعة، مخضرم. ترجمته في الأغاني ١٣٠ ج١١ والشعر والشعراء ٩٢٩ وخزانة الأدب ٤٢٨ ج٣.

(٦-٥) شعراء اليهود

لا يتجاوز شعراء اليهود في الجاهلية عدد أصابع اليد الواحدة أشهرهم:

(١) السموأل بن غريض بن عاديا (توفي سنة ٥٦٠م).

ويلحقون نسبه بالكاهن هرون أخي موسى، وهو صاحب حصن الأبلق بتيماء، ويُضرب المثل بوفائه، وحديثه مع امرئ القيس الشاعر ودروعه أشهر من أن يذكر حتى يتبادر إلى الذهن أن العرب وضعوا ذلك الحديث أو بالغوا فيه على سبيل التمثيل؛ ترغيبًا في الوفاء فإن الطبيعة تأبى على الرحل أن يضحي بابنه في سبيل الوفاء، ولا نقول: إن ذلك مستحيل لكنه بعيد الحدوث وقد أشرنا إلى ذلك قبلًا، وكانت العرب تنزل بالسموأل فيضيفها، واشتهر بقصيدته الفخرية التي مطلعها:

إذا المرء لم يَدْنَس من اللؤم عرضُه فكلُّ رداءٍ يرتديه جميل

وقد خمسها غير واحد أشهرهم صفي الدين الحلي.

وللسموأل ديوان شعر طُبع في بيروت سنة ١٩٠٩ وله أخبار في الأغاني ٩٨ ج١٩ و١٢ ج٣ و٨٧ ج٦ و٣٧ ج٩ والمستطرف ١٦٢ ج١ والشعر والشعراء ٤٥ والمشرق مجلد ٩ و١٠ و١٢.

ومن الشعراء اليهود أيضًا:

(٢) أوس بن دني من قريظة ترجمته في الأغاني ٩٤ ج١٩.
(٣) الربيع بن أبي الحقيق من رؤساء قريظة ترجمته في الأغاني ٦١ ج٢١.
(٤) كعب بن الأشرف من النضير له مناقضات. ترجمته في الأغاني ١٠٦ ج١٩.

(٧) النساء الشواعر

قد ذكرنا ما كان من رُقي المرأة في الجاهلية وعزة نفسها وذكائها، والشعر لا ينمو ويزهر إلا في ظل العز والارتقاء، ويندر نبوغ الشعراء البلغاء في أمة ذليلة ... فظهر في الجاهلية عدة شواعر جاء ذِكر عشرات منهن في الحماسة وغيرها، وذكرنا أسماء بعضهن فيما تقدم، وهاك تراجم أشهرهن:

(٧-١) الخنساء (توفيت سنة ٦٤٦م)

هي تماضر بنت عمرو بن الشريد من سراة سليم (قيس) من أهل نجد، وقد أجمع رواة الشعر على أنه لم تقم امرأة في العرب قبلها ولا بعدها أشعر منها، وقد أنشدت شعرها النابغة في عكاظ، فأعجب به وقال لها: «لولا أن هذا الأعمى أنشدني قبلك (يعني الأعشى) لفضلتك على شعراء هذا الموسم» على أن أكثر قولها في رثاء أخيها صخر، وكان قد قُتل في واقعة يوم الكلاب من أيام العرب ودُفن في أرض سليم … فأخذت تنظم فيه المراثي كأن الحزن أثار شاعريتها، وقد أدركت الخنساء الإسلام وهي عجوز ولها أربعة أولاد، فشهدت حرب القادسية وحرضت أولادها على الثبات في القتال، فلما حمي الوطيس تقدموا واحدًا واحدًا ينشدون الرجز يذكرون فيه وصية والدتهم حتى قُتلوا عن آخرهم، فلما بلغها الخبر، قالت: «الحمد لله الذي شرفني بقتلهم».

ومن أشعارها في رثاء صخر أخيها قولها:

ألا ما لعينيك أم ما لها   لقد أخْضَل الدمعُ سربالها
أبعد ابن عمرو منَ آل الشَّريـ   ـد حَلَّتْ به الأرض أثقالها
فإن تك مُرَّة أودت به   فقد كان يكثر تَقْتالها
سأحمل نفسي على خطَّة   فإما عليها وإما لها
فإن تصبر النفسُ تَلْقَ السرورَ   وإن تجزع النفس أشقى لها

وللخنساء ديوان شعر كبير طُبع في بيروت مشروحًا سنة ١٨٨٨، وفيه مراثٍ لستين شاعرة، وتُرجم إلى الفرنسية وطُبع سنة ١٨٨٩، ولها أخبار كثيرة متفرقة بالأغاني ٦٤ و١٣٦ ج١٣ و٣٤ ج٤، وخزانة الأدب ٢٠٨ ج١، والشعر والشعراء ١٩٧.

(٧-٢) خرنق بنت بدر بن هفان (توفيت سنة ٥٧٠م)

هي أخت طرفة بن العبد لأمه، ولها أشعار كثيرة في أخيها وزوجها لم يصلنا منها إلا بضعة وخمسون بيتًا جُمعت في ديوان، منه نسخة خطية في دار الكتب المصرية، وقد طُبعت أخبارها وأشعارها في شعراء النصرانية ٣٢١، وأفردت في ديوان على حدة طُبع في بيروت، ولها أخبار في خزانة الأدب ٣٠٦ ج٢.

(٧-٣) ليلى العفيفة (توفيت سنة ٤٨٣م)

هي بنت لكيز من ربيعة من أقدم الشعراء، وكانت تامة الحُسن كثيرة الأدب، ولها شعر حسن نُشر بعضه في كتاب شعراء النصرانية ١٤٨.

(٧-٤) جليلة بنت مرة (توفيت سنة ٥٣٨م)

هي أخت جساس الشيباني قاتل كليب بن ربيعة، وهي أيضًا زوجة كليب المقتول، فلما قُتل زوجها رحلت من بيته وشمتت بها أخت كليب فأجابتها بشعر مطلعه:

يا ابنةَ الأقوام إن لمتِ فلا تعجلي باللوم حتى تسألي

وتجد أخبارها في شعراء النصرانية ٢٥٢، والأغاني ١٥١ ج٤.

(٨) الشعراء الهجاءون

لا تكاد تجد في شعراء الجاهلية شاعرًا يتوخى الهجو فيفرد له قولًا، وإنما كان هجوهم يأتي في أثناء مفاخراتهم وحماسياتهم، ولكن ظهرت طبقة من الهجائين في أواخر عصر الجاهلية، وأكثرهم من المخضرمين الذين أدركوا الإسلام ... منهم الحطيئة العبسي، وحسان بن ثابت وابنه عبد الرحمن، وعبد الرحمن بن الحكم، وعبد الله بن الزبعري السهمي، فأفردنا لهم هذا الفصل.

(٨-١) الحطيئة

هو جرول بن أوس من بني عبس من فحول الشعراء ومقدميهم وفصحائهم، متين الشعر شرود القافية متصرف في جميع الفنون من المديح والهجاء والفخر والنسب، مجيد في ذلك كله، ولكنه كان ذا شر وسفه، دنيء النفس لا رأي له، وإنما يساق إلى ما يرجو منه مصلحة فينتمي إلى كل واحدة من القبائل إذا غضب من غيرها، فإذا غضب من بني عبس، قال: إنه من بني ذهل والعكس بالعكس، لكنه كان شديد الهجاء يخاف العرب لسانه ويسترضونه بالمال خوفًا من شره، وكان يتعمد تخويف الناس بالهجو؛

استدرارًا لأموالهم بما يعبر عنه الإفرنج اليوم بقولهم chantage وذلك نادر في طباع أهل الجاهلية.

وكان إذا نزل مدينة أو نجعًا دب الخوف في أهله، وأرصدوا له العطايا؛ خوفًا من لسانه، وهو يبالغ في الطمع كثيرًا … ذكروا أنه نزل المدينة مرة فمشى أشرافها بعضهم إلى بعض فقالوا: «قد قدم علينا هذا الرجل وهو شاعر والشاعر يظن فيحقق، وهو يأتي الرجل من أشرافكم يسأله فإن أعطاه جهد نفسه بهرها (فوق ما تستطيع) وإن حرمه هجاه» فأجمع رأيهم على أن يجعلوا له شيئًا معدًا يجمعونه بينهم … فكان أهل البيت من قريش والأنصار يجمعون له العشرة والعشرين والثلاثين من الدنانير حتى جمعوا له أربعمائة دينار وظنوا أنهم قد أغنوه فأتوه، فقالوا له: «هذه صلة آل فلان، وهذه صلة آل فلان، وهذه صلة آل فلان» فأخذها فظنوا أنهم قد كفوه عن المسألة، فإذا هو يوم الجمعة قد استقبل الإمام ماثلًا ينادي: «مَن يحملني على بغلين» … هكذا كان يفعل مع كل قوم ينزل فيهم وإلا سلقهم بهجوه.

وأكثر هجوه الذي وصل إلينا في الزبرقان وبغيض، وكان الزبرقان من عمال عمر بن الخطاب، وقد عرف شدة وطأة الحطيئة فأحب أن يقربه فدعاه إليه وأنزله في قومه، وضمن له مؤونة عياله على أن يستصفي له مدحه. وكان بغيض بن عامر من بني أنف الناقة وإخوته وأهله ينازعون الزبرقان الشرف، فاغتنموا استهانة أم شذرة أم الزبرقان مرة بالحطيئة ودعوه إليهم، وفي مقدمتهم بغيض هذا وعلقمة بن هوذة، فسار معهم وضربوا له قبة بكل طنب من أطنابها جلة (وعاء تمر) هجرية وأراحوا عليه إبلهم وأكثروا من التمر واللبن وبالغوا في إكرامه، فمدحهم بالبيت المشهور الذي رفع رءوسهم وهو:

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم ومن يسوِّي بأنف الناقة الذَّنَبا

ثم جاء الزبرقان يطلب الحطيئة منهم؛ لأنه جاره فأبوا وتنازعوا، ثم اتفقوا على أن يخيروه في الذهاب إلى أحد الحيين فاختار بغيضًا، فرجع الزبرقان مغضبًا فحرض بغيض الحطيئة على هجوه ففعل. ومن قوله يهجو الزبرقان ويناضل عن بغيض:

والله ما معشر لاموا امرأً جنبًا في آل لأي بنِ شمَّاس بأكياسِ

ما كان ذنْبُ بغيض لا أبا لكم   في بائسٍ جاء يحدو آخرَ الناس
وقد مدحتكم عمدًا لأرشدكم   كيما يكون لكم مَتْحي وأمراسي
لما بدا لي منكم عيبُ أنفسكم   ولم يكن لجراحي فيكم آسي
أزمعتُ يأسًا مبينًا من نوالُكم   ولن يرى طاردًا للحُرِّ كالياس
جارٌ لقوم أطالوا هُونَ منزله   وغادروه مقيمًا بين أرْماس
مَلُّوا قِراه وهَرَّته كلابهم   وجَرَّحوه بأنيابٍ وأضراس
دَعِ المكارم لا ترحلْ لبُغْيتها   واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي
من يفعل الخير لا يعدم جَوازَيه   لا يذهب العُرْفُ بين الله والناس

وشكاه الناس لعمر بن الخطاب فسجنه، فكتب إليه من السجن أبياتًا يشكو إليه حال أهله بسبب سجنه منها:

ماذا تقول لأفراخٍ بذي مَرَخٍ   حُمر الحَواصل لا ماءٌ ولا شجر
ألقيت كاسِبَهم في قَعْر مظلمةٍ   فاغفر عليك سلام الله يا عمر

ثم أخرجه من السجن وهدده بقطع لسانه وأذنيه فتوسط له بعض الصحابة، فأطلقه وأوصاه أن يكف لسانه عن الهجو، وبلغ من شغف الحطيئة بالهجو أنه هجا أمه وأباه وهجا نفسه ... فمما هجا به أمه قوله:

أَغِرْ بالًا إذا استودعتِ سِرًّا   وكانونًا على المتحدِّثينا
جزاك الله شرًّا من عجوز   ولقَّاك العقوق من البنينا

وقال لأبيه:

لحَاكَ الله ثم لحاك حقًّا   أبا ولحاك من عَمٍّ وخالٍ
فنعم الشيخُ أنت لدى المخازي   وبئس الشيخ أنت لدى المعالي
جمعتَ اللؤم لا حيَّاك ربي   وأبوابَ السفاهة والضلالِ

وقال لنفسه:

أبتْ شفتايَ اليومَ إلا تكلُّما   بسوءٍ فما أدري لمن أنا قائلُه
أرى لِي وجهًا شوَّه الله خَلْقه   فقُبِّح من وجهٍ وقُبح حامله

وهو من أصحاب المشوبات ومطلع مشوبته:

نَـأتـك أمـامـةُ إلا سـؤالا   وأبصرْتَ منها بعينٍ خيالا

وللحطيئة أشعار كثيرة جُمعت في ديوان طُبع في ليبسك سنة ١٨٩٣، وفي مصر وبيروت مع شروح. وله شرح خطي في دار الكتب المصرية، وأخباره في الشعر والشعراء ١٨٠، وفي الأغاني ٤٣ ج٢ و٣٩ ج١٦، وفي العقد الفريد ٨٠ ج١، و١١١ ج٣، وفي المستطرف ١٣٩ ج١، وخزانة الأدب ٤٠٩ ج١، والجمهرة ١٥٣.

(٨-٢) حسان بن ثابت (توفي سنة ٥٤هـ)

هو من الخزرج من أهل المدينة، وقد عاصر الجاهلية والإسلام … فهو من المخضرمين، واشتهر في الجاهلية بمدح ملوك غسان وملوك الحيرة، وله مع النابغة الذبياني أحاديث، واختُص بعد الإسلام بمدح النبي والدفاع عنه، وهو يعد أشعر أهل المدن في ذلك العصر، وكان شديد الهجاء حتى قيل: لو مزج البحر بشعره لمزجه. قال أبو عبيدة: «فضل حسان الشعراء بثلاثة: كان شاعر الأنصار في الجاهلية، وشاعر النبي ﷺ في النبوة، وشاعر اليمن كلها في الإسلام»، ومن شعره في الجاهلية قوله يمدح جبلة بن الأيهم الغساني:

أولاد جَفْنَةَ عند قبر أبيهمُ   قبر ابنِ ماريَةَ الكريمِ المُفضِلِ
يَسْقون مَن وَردَ البَريصَ عليهم   بَرَدَى يصفَّق بالرَّحيق السَّلْسَل
يُغشَوْن حتى ما تهرُّ كلابهم   لا يَسألون عن السواد المقبل
بيضُ الوجوه كريمةٌ أحسابهم   شمُّ الأنوف من الطِّراز الأول

أما في الإسلام، فكان حسان في جملة من أسلم وأخذ يناصر الرسول، ولم يكن رجل حرب فنصره بلسانه، وكان الرسول ﷺ يُسر به ويستنشده الأشعار في الدفاع عن المسلمين إذا هجاهم هاج من المشركين أو غيرهم، وقد حمله الرسول ﷺ على ذلك؛ ليرد عنه هجو الهاجين ... فقد كان يهجو الرسول ﷺ والمسلمين ثلاثة من قريش هم: عبد الله بن الزبعري، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وعمرو بن العاص، فقال قائل لعلي بن أبي طالب: «اهج عنا القوم الذين قد هجونا» فقال علي: «إن أذن لي رسول الله ﷺ فعلت» فقال رجل: «يا رسول الله ﷺ ائذن لعليٍّ كي يهجو عنا هؤلاء القوم الذين قد هجونا» قال: «ليس هناك أو ليس عنده ذلك»، ثم قال: «ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله ﷺ بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم؟» فقال حسان بن ثابت: «أنا لها» وأخذ يطرف لسانه وقال: «والله ما يسرني به مقول بين بصرى وصنعاء» قال: «كيف تهجوهم وأنا منهم» فقال: «إني أسلُّك منهم كما تُسل الشعرة من العجين» فكان يهجوهم ثلاثة من الأنصار: حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، فكان حسان وكعب يعارضانهم بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر ويعيرانهم بالمثالب، وكان عبد الله بن رواحة يعيرهم بالكفر ... فكان في ذلك الزمان أشد القول عليهم قول حسان وكعب، وأهون القول عليهم قول ابن رواحة ... فلما أسلموا وفقهوا الإسلام، كان أشد القول عليهم قول ابن رواحة، ومن أمثلة دفاعه عن الرسول ﷺ أن وفدًا من تميم جاءوا الرسول ﷺ وهم سبعون أو ثمانون رجلًا فيهم خيرة الشعراء من تميم ... وفيهم الزبرقان بن بدر، فأنشد الزبرقان قصيدة فخر فأمر الرسول حسانًا أن يجيبهم فقال:

إن الذوائب من فِهر وإخوتهم ... قد بَيَّنُوا سُنَّةً للناس تُتَّبَعُ
يرضى بها كلُّ من كانت سريرته ... تَقْوَى الإله وبالأمر الذي شرعوا
قومٌ إذا حاربوا ضَرُّوا عدوهم ... أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا
سجيَّة تلك منهم غيرُ مُحْدَثة ... إن الخلائق فاعلمْ شرُّها البِدَعُ
لا يَرقعُ الناس ما أوهت أكفُّهمُ ... عند الرقاع ولا يوهون ما رقعوا
إن كان في الناس سَبَّاقون بعدهم ... فكل سبق لأدنى سبقهم تَبَعُ
أعفَّةٌ ذكرتْ في الوحي عفَّتُهم ... لا يطمعون ولا يُزرِي بهم طمع
يَسْمُون للحرب تبدو وهي كالحة ... إذا الزعانف من أظفارها خشعوا
لا يفرحون إذا نالوا عدوهمُ ... وإن أصيبوا فلا خُورٌ ولا جُزُعُ

إلى أن قال:

أكرمْ بقومٍ رسولُ الله قائدهم إذا تفرقتِ الأهواء والشِّيَعُ
وإنهم أفضلُ الأحياء كلهمِ إن جَدَّ بالناسِ جدُّ القول أو شَمعوا

وهو من أصحاب المذهبات ومطلع مذهبته:

لعمر أبيك الخيرِ حقًّا لما نَبَا علىَّ لساني في الخطوب ولا يدي

وقد جُمعت أشعاره في ديوان وطُبع في الهند وتونس، ثم طبعته لجنة تذكار جيب في إنجلترا سنة ١٩١٠، وضبطته على النسخ الخطية الموجودة في مكاتب لندن وبرلين وباريس وبطرسبورج بعد الاطلاع على النسخ المطبوعة المتقدم ذكرها.

وتجد أخباره في الشعر والشعراء ١٧٠، والأغاني ٢ ج٤، و١٦٩ ج٨، و١٦٩ ج١٠، و١٥٠ ج١٣، و٢ ج١٤، وخزانة الأدب ١١١ ج١، والجمهرة ١٢١، وفي السنة السادسة من الهلال ٤٨٢.

(٨-٣) عبد الرحمن بن الحكم

هو أخو مروان بن الحكم الذي تولى الخلافة في الدولة الأموية، وأفضت بعده إلى أولاده وأحفاده، وكان عبد الرحمن هذا يهاجي عبد الرحمن بن حسان بن ثابت، الأول يدافع عن قريش وبني أمية، والثاني عن الأنصار، وقد هجا ابن الحكم أخاه الحارث لأنه ذهب في غزوة ولم يفلح، فقال فيه أبياتًا منها:

كفاك الغزوَ إذا أحجمتَ عنه حديثُ السنِّ مقتبلُ الشباب
فليتك حَبْضةٌ ذهبتْ ضلالًا وليتك عند منقطع السحابِ

وهجا أخاه مروان، فضلًا عن هجوه الأنصار وغيرهم.

وتجد أخباره في ذلك مدونة في الأغاني ٧٢ ج١٢، و١٥٠ ج١٣.

ومن الشعراء الهجائين أيضًا:

(٨-٤) عبد الله بن الزبعري

هو أحد شعراء قريش المعدودين لكنه كان هجَّاءً فأكثر من هجو المسلمين وحرض عليهم كفار قريش، ثم أسلم فقُبل إسلامه، وتجد أخباره في الأغاني ١١ ج١٤.

(٩) الشعراء الوصافون للخيل

قد رأيت وصفًا كثيرًا في أشعار من تقدم ذكرهم، وخصوصًا أصحاب المعلقات ولا سيما امرأ القيس، ولكننا نريد أن نضمن هذا الباب الشعراء الذين اشتهروا بوصف الخيل دون سواها، وهم ثلاثة، نضيف إليهم شاعرًا اشتهر بوصف الحمير وهم:

(٩-١) أبو دؤاد الأيادي

هو من أقدم شعراء الجاهلية، وأكثر أشعاره في وصف الخيل وله أشعار في المدح والفخر ومن قوله في وصف الفرس:

ولقد اغتدى يدافع رُكني — أحوذيٌّ ذو مَيْعةٍ أضرِيجُ
مِخْلَطٌ مِزْيَلٌ مِكَرٌ مفرٌ — مِنْفَحٌ مِطْرَحٌ سبوحٌ خروج
سَلْهَبٌ سَرْحَبٌ كأن رماحًا — حملتْه وفي السَّراة دُموج

وليس له ديوان معروف، ولكن أخباره في الأغاني ٩٥ ج١٥ و٤٧ ج٢، والشعر والشعراء ١٢٠.

(٩-٢) طفيل الغنوي

هو طفيل بن عوف، شاعر جاهلي من الفحول المعدودين، ومن أشعر شعراء قيس، ومن أوصف العرب للخيل حتى سموه طفيل الخيل لكثرة وصفه إياها، وهو يدخل وصفها في كل باب من شعره، ومن قوله:

بخيل إذا قيل اركبوا لم يَقُل لهم — عواويرُ يخشون الرَّدَى أين نركبُ
ولكن يجاب المستغيث وخيلهم — عليها حماةٌ بالمنية تضرب

ومن قوله في وصف بيته:

وأطنابه أرسانُ جُرْدٍ كأنها صدور القَنا من بادئ ومعقِّبِ
نصَبْتُ على قوم تُدِرُّ رماحهم عروقَ الأعادي من غريرٍ وأشيب

ولطفيل الغنوي ديوان تحت الطبع بنفقة لجنة تذكار جيب الإنجليزية مع ديوان الطرماح بن حكيم بعناية المستشرق كرنكو Krenkow وأخباره في الأغاني ٨٨ ج١٤، والشعر والشعراء ٢٧٥.

(٣-٩) النابغة الجعدي

هو غير النابغة الذبياني، وهو من جعدة (قيس) مخضرم، قال الشعر في الجاهلية، وسكت دهرًا ثم نبغ في الإسلام. ويقال مع ذلك: إنه كان أسن من الذبياني. وهو ممن فكر في الجاهلية فأنكر الخمر والمسكر وهجر الأزلام والأوثان، وكان مغلبًا إذا هوجي غلب، وله مهاجاة مع ليلى الأخيلية وغيرها، ويقول علماء الشعر في وصف شعره: «خمار بواف ومطرف بآلاف» يريدون أن بين أشعاره تفاوتًا كبيرًا، ومن قوله في وصف الفرس:

كأن مقطَّ شراسيفه إلى طرف القَتْب فالمَنْقبِ[٢٥]
لُطِمْنَ بتُرْس شديد الصِّقا ل من خَشب الجوز لم يُثْقَب

وله قصيدة جمعها أبو زيد مع المشوبات في جمهرة أشعار العرب، يصف بها حاله منذ كان عند المنذر، وكيف سار إلى الرسول وأسلم، ووصف ناقته وفرسه وبعض المواقع وغير ذلك مطلعها:

خليليَّ عوجا ساعةً وتهجَّرا ولوما على ما أحدث الدهر أو ذَرَا

وللنابغة الجعدي أخبار متفرقة في الأغاني ١٢٨ ج٤، والشعر والشعراء ١٥٨، وجمهرة أشعار العرب ١٤٥، وفي خزانة الأدب ٥١٢ ج١

(٩-٤) الشماخ بن ضرار

ويدخل في هذا الباب الشماخ بن ضرار الذبياني، فإنه وصاف للحمير وهو مخضرم، ويقولون: إن الحطيئة كتب في وصيته: «أبلغوا الشماخ أنه أشعر غطفان كلها» وقد أجمع علماء الشعر على أنه أوصف الشعراء للحمير، وأوصفهم للقوس، وأرجزهم على البديهة، وكان فيه ميل إلى الهجاء حتى إنه يهجو أهله وضيفه، وقد يصح عده من الشعراء الهجائين، ولكن الوصف غالب عليه، ومن وصفه القوس، قوله:

وذاق فأعطتنه من اللَّين جانبا كفَى ولهًا أن يُغرق السهمَ حاجزُ
إذا أنبضَ الرامون عنها ترنمت ترنُّم ثكلى أوجعتها الجنائز

وهذان البيتان من قصيدة عدها أبو زيد من المشوبات ومطلعها:

عَفَا بَطنُ قوٍّ من سليمى فعالز فذات الصَّفا فالمشرفات النَّواشِز

وقد جمعت أشعار الشماخ في ديوان منه نسخة خطية في دار الكتب المصرية، وله أخبار متفرقة في الأغاني ١٠١ ج٨، والشعر والشعراء ١٧٧، وخزانة الأدب ٥٢٦ ج١، والجمهرة ١٥٤.

ومن وصاف الخيل أيضًا سلامة بن جندل وقد ترجمنا له مع الشعراء الفرسان، وفاتنا أن نذكر هناك أن له ديوانًا طُبع في بيروت.

(٩-٥) الشعراء الموالي

عبد بني الحسحاس

ليس فيمن وصلنا خبرهم من الجاهليين شاعر من الموالي أو العبيد إلا عبد بني الحسحاس، وهو حبشي واسمه سحيم، كان مطبوعًا على الشعر، اشتراه بنو الحسحاس وهم بطن من أسد، ومن نظمه قوله:

أشعار عبد بني الحَسحاس قُمن له عند الفخار مقام الأصل والورِقِ

إن كنت عبدًا فنفسي حُرَّةٌ كرمًا أو أسودَ اللون إني أبيضُ الخلق

وذكروا أن صاحبه كان اسمه مالكًا جاء به ليبيعه لعثمان بن عفان، فقال: «لا حاجة لي به؛ إذ الشاعر لا حريم له، إن شبع تشبب بنساء أهله، وإن جاع هجاهم» فاشتراه غيره فلما رحل قال في طريقه:

أشوقًا ولما تمضِ لي غيرُ ليلةٍ فكيف إذا سار المطيُّ بنا شهرا
وما كنت أخشى مالكًا أن يبيعني بشيءٍ ولو أمستْ أنامله صفِرا
أخوكم ومولى مالكم وحليفكم ومن قد ثَوَى فيكم وعاشركم دهرا

فلما بلغهم شعره هذا رثوا له فاستردوه، فكان يشبب بنسائهم، ويفحش غاية الفحش، فقتلوه، وأخباره في الأغاني ٢ ج٢٠، والشعر والشعراء ٢٤١.

(١٠) سائر الشعراء الجاهليين

بقيت طائفة من شعراء الجاهلية لا يدخلون في باب من الأبواب التي تقدمت، وإن كانت تلك الأبواب كثيرًا ما تختلط أغراضها …؛ إذ لا يتفق أن يستقل شاعر أو بضعة شعراء بالحكم أو الفخر أو الوصف أو الهجاء دون سواه، ولكننا جمعنا المتقاربين في بعض تلك الأغراض ليسهل تعليقهم بالذاكرة، وبقي جماعة منهم لا يجتمعون في باب … وهم كثيرون نكتفي بذكر أشهرهم وخصوصًا الذين لهم آثار باقية يمكن الحصول عليها وهم:

(١٠-١) ابن الدمينة

هو عبد الله بن عبيد الله أحد بني عامر من خثعم وأمه الدمينة من سلول — اشتهر بحديث امرأته حمادة — وذلك أنه بلغه أن بعض أخواله من سلول يأتيها خلسة، فرصده حتى أتاه فقتله وقتلها، على أنه قبل أن يقتل الرجل منعه عن المجيء إليها فغضب وأراد أن ينتقم منه، فنظم قصيدة يصف بها المرأة وصفَ من تفحص بدنها … فذهب ابن الدمينة إلى امرأته وسألها: «كيف عرف ذلك فيك؟» قالت: «وصفته له النساء» فغضب وقال: «والله إن لم تمكنيني منه لأقتلنك» فبعثت إليه وواعدته، وكان زوجها كامنًا له …

فقام وقتله ضغطًا على كبده حتى يخفي جريمته، لكن أهله تحققوا فعلته، وعشق في أثناء ذلك امرأة من قومه اسمها أميمة وهام بها، فلما وصلته تجنى عليها وجعل ينقطع عنها ثم زارها فقالت هذه الأبيات:

وأنت الذي أخلفتني ما وعدتني وأشمتَّ بي من كان فيك يلومُ
وأبرزتني للناس ثم تركتني لهم غرضًا أُرْمَى وأنت سَليمُ
فلو أن قولًا يَكْلِمُ الجسمَ قد بدا بجسميَ من قول الوشاة كلومُ

فأجابها بمثل عتابها وهو ألطف أساليب العتاب:

وأنتِ التي قطَّعتِ قلبي حَزَازَةً وقَرَّحْتُ قرحَ القلب فهو كليمُ
وأنتِ التي كلَّفتني دَلَجَ السُّرى وجُونُ القَطا بالجَلْهَتيْنِ جثومُ
وأنت التي أحفظتِ قومي فكلهم بعيدُ الرضا داني الصُّدود كظيمُ

ثم تزوجها بعد ذلك وقُتل وهي عنده، وهذه الأبيات تغنى بها المسلمون أجيالًا، وإليه تُنسب الأبيات المشهورة:

ولي كبدٌ مقروحةٌ مَن يبيعني بها كبدًا ليستْ بذات قُروحِ

ولابن الدمينة ديوان شعر منه نسخة خطية في دار الكتب المصرية، وله أخبار في الأغاني ١٥١ ج١٥ والشعر والشعراء ٤٥٨.

(١٠-٢) أوس بن حجر

هو من نمير أحد بطون تميم من فحول الشعراء الجاهليين، يقرنه بعضهم بالحطيئة وبالنابغة. قالوا: كان أوس شاعر مضر كلها حتى حل مكانه النابغة وزهير، فأصبح شاعر تميم في الجاهلية غير مدافع، وكان غزلًا مغرمًا بالنساء فخرج في سفر، وبينما هو في أرض بني أسد يسير على ناقته ليلًا صرعته فاندقت فخذه، فظل في مكانه لا يستطيع انتقالًا حتى خرجت بنات الحي يجتنين الكماة … فبصرن بالناقة ورأين أوسًا ملقى ففزعن، فنادى إحداهن وسألها عمن هي، فقالت: «حليمة بنت فضالة» وكان يعرف

أباها، فدفع إليها حجرًا وقال: «أعطي هذا إلى أبيك، وقولي له: ابن هذا يقرؤك السلام» فمضت وبلَّغت ما قاله فأتى فضالة فاحتمله إلى بيته وعالجه، فنظم فيه أوس مدائحَ كثيرةً وأحب ابنته ونظم فيها، ثم توفي فضالة فرثاه أحسن الرثاء، منه قوله:

أيتها النفس أجْملي جزعًا　　　إن الذي تحذرين قد وقعا
إن الذي جمع السماحة والنـ　　　ـجدة والحزم والقُوى جُمِعا
المُخلف المتلف المرزأ لم　　　يُمتع بضعفٍ ولم يمت طَبِعا
أوْدَى وهل تنفع الإشاحة من　　　شيءٍ لمن قد يحاول النزعا

ولأوس بن حجر ديوان طُبع في فينا مع ترجمة ألمانية سنة ١٨٩٢ بعناية المستشرق جاير Geyer وعليه تعليقات، وأخباره في الأغاني ٦ ج١٠، والشعر والشعراء ٩٩، وخزانة الأدب ٢٣٥ ج٢.

(١٠-٣) المتلمس (توفي سنة ٥٨٠م)

هو جرير بن عبد المسيح من ضبيعة (ربيعة) وهو خال طرفة بن العبد، وإليه تنسب صحيفة المتلمس كما مر في حديثه مع طرفة وعمرو بن هند صاحب الحيرة، ولهذه الحكاية مثال في تاريخ قدماء اليونان تعزى إلى بيلروفنت[٢٦] فلما علم المتلمس بفحوى الصحيفة كما تقدم في ترجمة طرفة رماها في النهر قرب الحيرة وهرب إلى الشام ولحق بملوك آل غسان، ونظم في ذلك قصيدة ذكر فيها نجاته، وكان قد استحث طرفه على رمي ورقته بقوله:

ألقِ الصحيفةَ لا أبا لك إنه　　　يُخشى عليك من الحِباء النِّقرِسُ

فلما بلغه أنه قُتل بها قال:

عصاني فما لاقى الرشاد وإنما　　　تَتَبَّين من أمر الغويِّ عواقبه
فأصبح محمولًا على آلة الرَّدَى　　　تمجُّ نجيعَ الجوف منه تَرائبه

ونظم في هجو عمرو بن هند قصيدة طويلة هي من خيرة شعره مطلعها:

يـا آل بـكـرٍ ألا لـلـه أمـكـمُ   طال الثواءُ وثوبُ العجز ملبوسُ

وأقام المتلمس في حوران عند الغساسنة إلى وفاته، ومن قوله وفيه إفراط في الفخر من قصيدة عاتب بها خاله الحارث اليشكري:

أحارثُ إنا لو تُساط دماؤنا   تزايَلنَ حتى لا يمسَّ دمٌ دما

يريد أن دماءهم تمتاز عن دماء غيرهم أو تأبى الامتزاج بها، ومنها:

وكـنـا إذا الـجـبـار صَـعَّـر خـدَّه   أقـمـنـا لـه مـن مَـيْـلـه فـتـقـوَّمـا
لذي الحلم قبل اليوم ما تُقرعُ العصا   ومـا عُـلِّـم الإنـسـان إلا لـيـعـلـمـا
ولو غير أخوالي أرادوا نقيصتي   جعلتُ لهم فوق العَرانين مِيسما

ومما يتمثل به من شعره قوله:

وأعلمُ علم حقٍّ غير ظنٍّ   وتقوى الله من خير العَتاد
لحفظُ المال أيسرُ من بُغاه   وضَرب في البلاد بغير زادِ
وإصلاحُ القليل يزيد فيه   ولا يبقى الكثيرُ على الفساد

وهو من أصحاب المنتقيات ومطلع قصيدته:

كم دون مَيَّة من مستعمَلٍ قَذِفٍ   ومن فلاةٍ بها تُستودَع العِيسُ

وقد جمع شعر المتلمس في ديوان منه نسختان خطيتان في دار الكتب المصرية وأخباره في الأغاني ١٢٠ ج٢١، والشعر والشعراء ٨٥، وحياة الحيوان للدميري ٢٠٩ ج٢، وابن خلكان ١٩٩ ج٢، والجمهرة ١١٣، وشعراء النصرانية ٣٣٠، والحماسة وشرحها، ومعجم البلدان، ولسان العرب، وغيرها.

(١٠-٤) المثقب العبدي (توفي سنة ٥٨٧م)

هو عائذ بن محصن بن ثعلبة من ربيعة، وكان في جملة الذين كانوا يترددون على عمرو بن هند ويمدحونه وله فيه قصائد، وله في وصف راحلته قصيدة مطلعها:

هل عند عانٍ لفؤاد َصدِ   من نهلةٍ في اليوم أو في غد

وله قصيدة يمدح بها عمرًا المذكور مطلعها:

أفاطمَ قبل بينِك ودِّعيني   ومَنْعُكِ ما سألتُ كأن تبيني

ومما سبق إليه وأخذ عنه قوله من هذه القصيدة في وصف ناقته:

كأن مواقعَ الثَّفِنات منها   معرَّسُ باكرات الوِرْدِ جُون

الباكرات القطا، فأخذ هذا المعنى عنه ذو الرمة والطرماح.
وله قصيدة منها البيت المشهور:

حسنٌ قولُ نَعَمْ من بعد لا   وقبيحٌ قول لا بعد نعم

وللمثقب ديوان حوى شعره مع شروح منه نسخة خطية في دار الكتب المصرية وأخباره في الشعر والشعراء ٢٣٣، وخزانة الأدب ج٤، وشعراء النصرانية ٤٠٠.

(١٠-٥) المنخل اليشكري (توفي سنة ٥٩٧م)

هو المنخل بن عبيد من يشكر من بكر وائل (ربيعة) شاعر مقل، كان ينادم النعمان مع النابغة الذبياني، ولكن النعمان كان يُؤْثِر شعر النابغة على شعره، فسعى المنخل بالنابغة وأوغر صدر النعمان عليه حتى هم بقتله فهرب النابغة وخلا المنخل بمجالسته، ثم اتهمه النعمان بامرأته وأمر بقتله فقُتل، ويقال: إنه دُفن حيًّا، والعرب تضرب المثل به كما تضربه بمن هلك منهم ولم يعلم خبره، ومن مشهور شعره أبيات من قصيدة له في الفخر مطلعها:

إن كنت عاذلتي فسِيري   نحو العراق ولا تَحُوري

إلى أن يقول:

ولقد شربت من المُدا   مة بالصغير وبالكبير
فإذا انتَشيت فإنني   ربُّ الخَوَرْنَقِ والسَّديرِ
وإذا صحوت فإنني   رب الشُّوَيْهَةِ والبعير

وأخبار المنخل في الأغاني ١٥٢ ج١٨، و١٦٦ ج٩، والشعر والشعراء ٢٣٨، وشعراء النصرانية ٤٢١.

(١٠-٦) كعب بن زهير (توفي سنة ٢٤هـ)

هو كعب بن زهير بن أبي سلمى، ولكعب ذكر خاص عند ظهور الإسلام؛ لأنه من المخضرمين، وكان هجا الرسول ثم جاءه وأسلم، ومدحه بقصيدته المشهورة التي مطلعها:

بانت سعاد فقلبي اليوم مَتبُول   مُتَيَّمٌ عندها لم يُجْزَ مَكْبُولُ

وهي من المشوبات ... ولما أقبل على النبي وطلب الأمان أنشده إياها والمجلس حافل بالصحابة من قريش وغيرهم، فلما وصل إلى قوله:

إن الرسول لنور يستضاء به   مُهَنَّدٌ من سيوف الله مَسْلُولُ
في فتيةٍ من قريش قال قائلهم   بِبَطْنِ مكة لما أسلموا زولوا
زالوا فما زال أنكاسٌ ولا كشف   عند اللقاء ولا خُورٌ معازيلُ

أشار الرسول إلى الناس أن يسمعوا شعر ابن زهير، ولما فرغ من الإنشاد خلع الرسول عليه بردته وهي التي تداول الخلفاء لبسها.[٢٧]

وقد طُبعت هذه القصيدة مرارًا بمصر وأوربا، وشرحها كثيرون منهم ابن دريد والتبريزي وغيرهما في العصور المختلفة إلى الآن، ومن الأصل والشروح نسخ كثيرة في مكاتب برلين ولندن والإسكوريال ومصر وغيرها، وشطرها غير واحد مما يطول شرحه، وأخبار كعب في الأغاني ١٤٧ ج١٥، والشعر والشعراء ٥٨، و٦٧، والجمهرة ١٤٨ والحماسة وغيرها.

(١٠-٧) معن بن أوس (توفي سنة ٢٩هـ)

هو معن بن أوس بن نصر من مزينة (مضر) شاعر مجيد فحل من المخضرمين وله مدائح في جماعة من الصحابة، ووفد على عمر بن الخطاب مستعينًا به على أمره وخاطبه بقصيدته التي أولها:

تأوَّبه طيْفٌ بذات الجراثمِ فنام رفيقاه وليس بنائمِ

ويقال: إنه لقي معاوية أيضًا، وكان معاوية يفضل مزينة في الشعر ويقول: «كان أشعر أهل الجاهلية منهم وهو زهير» وأشعر أهل الإسلام منهم، وهما ابنه كعب ومعن بن أوس، وكان معن مئنانًا، يحسن صحبة بناته وتربيتهن، ومن شعره قوله:

وذي رحمٍ قلمتُ أظفار ضِغنِه بحلمي عنه وهو ليس له حِلْمُ
إذا سُمتُه وَصْل القرابة سامني قطيعتَها تلك السفاهةُ والظلم
فأسعى لكي أبني ويهدم صالحي وليس الذي يبني كمن شأنه الهدم
يحاول رَغمي لا يحاول غيره وكالموت عندي أن يحلَّ به رغمُ
فما زلت في لينٍ له وتعطُّفٍ عليه كما تحنو على الولد الأمُّ
لأستلَّ منه الضِّغن حتى سللته وإن كان ذا ضغنٍ يضيق به الحلمُ

وله ديوان مطبوع في ليبسك سنة ١٩٠٣، وأخباره في الأغاني ١٦٤ ج١٠، وخزانة الأدب ٢٥٨ ج٣.

(١٠-٨) الباقي من هذه الطبقة

وفي هذه الطبقة من الجاهليين والمخضرمين جماعة ضاق المقام عن تراجمهم، وفيهم بضعة من الفحول، ولكن أكثرهم مقلون، فنكتفي بأسمائهم مرتبة حسب الحروف الأبجدية مع الإشارة إلى المآخذ التي يمكن الرجوع إليها في معرفة أخبارهم:

اسم الشاعر	المصادر
كثير بن الغريرة من تميم شاعر مخضرم	الأغاني ٩٧ ج١٠
أبو خراش الهذلي من هذيل	الأغاني ٣٨ ج٢١
أبو ذؤايب الهذلي من أصحاب المراثي	الأغاني ٥٨ ج٦ والشعر والشعراء ٤١٣
أبو زبيد الطائي كان يزور عثمان	الأغاني ٢٤ ج١١ والشعر والشعراء ١٦٧
أبو العيال من هذيل شاعر فصيح أدرك معاوية	الأغاني ١٦٧ ج٢٠
الأسود بن يعفر من تميم شاعر فصيح	الشعر والشعراء ١٣٤ والأغاني ١٣٤ ج١١ والخزانة ٩٥ ج١ وشعراء النصرانية ٤٧٥
جران العود*	الشعر والشعراء ٤٥٠
الحادرة المازني† شاعر مقل	الأغاني ٨٢ ج٣
حنظلة الطائي صاحب الوفاء	شعراء النصرانية ٨٩ والمستطرف ١٦١ ج١
خزيمة بن نهد من قضاعة شاعر قديم	الأغاني ١٥٩ ج١١
ربيعة بن مقروم من ضبة	الأغاني ٩٠ ج١٩ والشعر والشعراء ١٨٠ وخزانة الأدب ٥٦٦ ج٣
سويد بن أبي كاهل من يشكر	الأغاني ١٧١ ج١١ والشعر والشعراء ٢٥٠

اسم الشاعر	المصادر
عدي بن زيد العبادي من تميم من أصحاب المجمهرات شاعر، كاتب كسرى	الأغاني ١٨ ج٢ والشعر والشعراء ١١١ والجمهرة ١٠٢
عدي بن نوفل من قريش شاعر مقل	الأغاني ١٣٥ ج١٣
عمرو بن شأس من أسد	الأغاني ٦٣ ج١٠ والشعر والشعراء ٢٥٤
عمرو بن سعيد من قريش	الأغاني ٨٧ ج٨
عمرو بن براقة شاعر قديم	الأغاني ١٣٠ ج٢١
عمرو بن قميئة من ربيعة	الأغاني ١٦٣ ج١٦ والخزانة ٢٤٩ ج٢ والشعر والشعراء ٢٢٢
عيينة بن مرداس شاعر مقل	الأغاني ١٤٣ ج١٩
غيلان الثقفي من أهل الطائف	الأغاني ٤٥ ج١٢
فضالة بن شريك من مضر وفد على ابن الزبير	الأغاني ١٧١ ج١٠
كعب بن مالك من الخزرج مخضرم	الأغاني ٢٦ ج١٥ والخزانة ٢٠٠ ج١
لقيط بن يعمر الأبادي شاعر جاهلي قديم‡	الأغاني ٢٣ ج٢٠ والشعر والشعراء ٩٧
المتنخل من هذيل شاعر فحل	الأغاني ١٤٥ ج٢٠ وخزانة الأدب ١٣٧ ج٢
المخبل السعدي من تميم مات أيام عمر	الأغاني ٤٠ ج١٢ والشعر والشعراء ٢٥٠ وخزانة الأدب ٥٣٥ ج٢
الممزق العبدي (٤٨٠م) شاعر قديم	الشعر والشعراء ٢٣٥
النمر بن تولب من عكل من أصحاب المجمهرات	الأغاني ١٥٧ ج١٩ والشعر والشعراء ١٧٣ والجمهرة ١٠٩

اسم الشاعر	المصادر
هدبة بن الخشرم§ من بادية الحجاز كان راوية الحطيئة	الأغاني ١٦٩ ج٢١ والشعر والشعراء ٤٣٤ وخزانة الأدب ٨٤ ج٤
يزيد بن عبد المدان	شعراء النصرانية ٨٠

* له ديوان مطبوع.

† له ديوان خطي في دار الكتب المصرية وفي المتحف البريطاني وطُبع شيء منه في ليدن ١٨٥٨ «وقد طُبع في مصر».

‡ له ديوان في مكتبة أيا صوفيا.

§ عنه مقالة بالفرنسية لدوجات في المجلة الأسيوية الفرنسية سنة ١٨٥٥.

هؤلاء شعراء الجاهلية والمخضرمون ممن وقفنا لهم على تراجم مستقلة مع بيان أغراضهم ومراتبهم. وهناك طائفة كبيرة عُرفوا بأبيات أو قصائد ومنهم كثيرون في كتب الأدب والحماسة والمجمهرات والمفضليات وغيرها.

(١٠-٩) مآخذ الشعراء الجاهليين

يحسن بنا أن نأتي على ذكر الكتب التي يمكن لطلاب الشعر التوسع بها في معرفة الشعراء الجاهليين أو المخضرمين، غير الدواوين التي تقدم ذكرها وغير المعاجم اللغوية، وهذه أهمها مما طُبع ويقرب تناوله، ونذكر هنا الطبعات التي عولنا عليها في المصادر التي بين أيدينا مُرتبة حسب الحروف الأبجدية؛ لتسهل المراجعة على المطالع:

اسم الكتاب	سنة الطبع ومكانه
(١) أشعار الهذليين رواية السكري	لندن سنة ١٨٥٤
(٢) الأصمعيات	ليبسك سنة١٩٠٢
(٣) الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني ٢١ جزءًا	بولاق سنة ١٢٨٥
(٤) أمالي القالي	مصر سنة ١٣٢٦
(٥) أمثال العرب للضبي	الأستانة سنة ١٣٠٠

اسم الكتاب	سنة الطبع ومكانه
(٦) البيان والتبيين للجاحظ جزآن	مصر سنة ١٣١٣
(٧) جمهرة أشعار العرب لأبي زيد بن أبي الخطاب	بولاق سنة ١٣٠٨
(٨) جمهرة الأمثال لأبي الحسن العسكري	بمباي سنة ١٣٠٧
(٩) الحماسة لأبي تمام وشرحها للتبريزي ٤ أجزاء	بولاق سنة ١٢٩٦
(١٠) الحماسة للبحتري	بيروت سنة ١٩٠٩
(١١) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ٤ أجزاء	بولاق سنة ١٢٩٩
(١٢) سيرة الرسول لابن هشام ٣ أجزاء	بولاق سنة ١٢٩٥
(١٣) شرح القصائد العشر للتبريزي	كلكته سنة ١٨٩٤
(١٤) شرح المقامات الحريرية للشريشي	بولاق سنة ١٢٨٤
(١٥) الشعر والشعراء لابن قتيبة	ليدن سنة ١٩٠٢
(١٦) شعراء النصرانية للأب شيخو ٦ أجزاء	بيروت سنة ١٨٩٠
(١٧) طبقات الشعراء لإسكندر أبكاريوس	بيروت سنة ١٨٥٨
(١٨) العقد الثمين في الشعراء الستة الجاهليين	لندن سنة ١٨٧٠
(١٩) العقد الفريد لابن عبد ربه ٣ أجزاء	مصر سنة ١٣٠٥
(٢٠) العمدة لابن رشيق جزءان	مصر سنة ١٣٢٥
(٢١) قواعد الشعر لثعلب	ليدن سنة١٨٩٠
(٢٢) الكامل لابن الأثير ١٢ جزءًا	مصر سنة ١٣٠٢
(٢٣) الكامل للمبرد	مصر سنة ١٢٨٦
(٢٤) الكشكول وعلى هامشه أدب الدنيا والدين	مصر سنة ١٣٠٥
(٢٥) مجمع الأمثال للميداني مشروح	بيروت سنة ١٣١٢
(٢٦) مصارع العشاق للسراج	الأستانة سنة ١٣٠٨
(٢٧) معجم البلدان لياقوت الحموي ٦ أجزاء	ليبسك سنة ١٨٧٠
(٢٨) معجم ما استعجم للبكري جزءان	غوتنجن سنة ١٨٧٧
(٢٩) المعلقات وشروحها	مصر سنة ١٣١٩
(٣٠) المفضليات للمفضل الضبي	ليبسك سنة ١٨٨٥
(٣١) نقد الشعر لقدامة بن جعفر	الأستانة سنة ١٣٠٢

ولا يخفى أن للمستشرقين عناية كبرى بالشعر العربي، ولهم فيه أبحاث وانتقادات، وإليك أشهر ما كتبوه بهذا الشأن لعل القارئ يحب الاطلاع عليها نذكرها باللغات التي كُتبت بها مع مكان طبعها وسنته:

- Ahlwardt, Ueber Poesie Poeetik der Araber, Gotha 1856.
- Clouston. Arabian Poetry for English readers, Glasgow 1881.
- Guyard, Théorie nouvelle de la métrique arabe précédée de Con-sidération gén, sur le rythme natural du langue J.A. 1876.
- Muir. Ancient Arabic Poetry; its genuinness & its Authenticity. J.R.A.S.1879.
- Noeldeke, Beitroege Zur Kenntness der Poesie der alten Araber, Hanover 1864.
- Slane, Le diwan d'Amrou 'L' Kais précédé de la vie de ce poéte, Paris 1837.
- Lyall, Translation of Ancient Arabic poetry, London 1887.

وهناك شرح للمعلقات بالعربية والفارسية والهندية اسمه رياض الفيض طُبع في لاهور (الهند) سنة ١٢٩٩.

(١١) الخطابة في الجاهلية

الخطابة تحتاج إلى خيال وبلاغة، ولذلك عددناها من قبيل الشعر أو هي شعر منثور، وهو شعر منظوم، لكل منهما موقفه ... فالخطابة تحتاج إلى الحماسة، ويغلب تأثيرها في أبناء عصر الفروسية وأصحاب النفوس الأبية طلاب الاستقلال والحرية مما لا يشترط في الشعر، ولذلك تشابهت جاهلية العرب وجاهلية اليونان من هذا الوجه لأن كليهما أهل شعر وخطابة وأهل إباء واستقلال، ولذلك أيضًا كانت الخطابة رائجة عند الرومان مع تأخر الشعر عندهم، ولنفس هذا السبب قصر العبرانيون في الخطابة مع تقدمهم في الشعر لغلبة الذل والضعف على طباعهم، فتحول خيالهم الشعري إلى الشكوى والتضرع وانصرفت قرائحهم إلى نظم المراثي والحكم.

أما العرب فقد قضى عليهم الإقليم بالحرية والحماسة وهم ذوو نفوس حساسة مثل سائر أهل الخيال الشعري، فأصبح للبلاغة وقع شديد في نفوسهم … فالعبارة البليغة تقعدهم أو تقيمهم بما تثيره في خواطرهم من النخوة، واقتضت المنازعات بينهم أن يتفاخروا ويتنافروا، فاحتاجوا إلى الخطابة في الإقناع وتأليف الأحزاب، وإن غلب في موضوعات خطبهم المفاخرة بالأحساب والآداب في المجالس والأندية العمومية والخصوصية. وكانوا يخطبون وعليهم العمائم، وهم وقوف في أيديهم المخاصر، ويعتمدون على الأرض بالقسي ويشيرون بالعصي والقنا، وقد يخطبون وهم جلوس على رواحلهم،[٢٨] ومما يدل على تشابه الشعر والخطابة أن الغالب في الشعراء أن يخطبوا والخطباء أن ينظموا، فيكون الواحد شاعرًا وخطيبًا … فإذا غلب عليه الشعر سموه شاعرًا أو الخطابة سموه خطيبًا، والقبائل التي كثر خطباؤها هي غالبًا التي كثر شعراؤها. ومن أقوالهم في تاريخ الشعر والخطابة، إن عبد القيس بعد محاربة إياد تفرقوا فرقتين، ففرقة وقعت بعمان وشق عمان وفيهم خطباء العرب، وفرقة وقعت إلى البحرين وشق البحرين وهم من أشعر القبائل، ولم يكونوا كذلك حين كانوا في سرة البادية وفي معدن الفصاحة[٢٩] ويدل ذلك على نتائج احتكاك الأفكار عند الاختلاط بالأعاجم، ولهذا السبب كثر الخطباء أيضًا في اليمن؛ لاختلاطهم بالفرس، وكان الفرس أهل خطابة مثل العرب.

(١١-١) موضوعات الخطب

وكان العرب يخطبون بعبارة بليغة فصيحة وهم أميون لا يقرأون ولا يكتبون، وإنما كانت الخطابة فيهم قريحة مثل الشعر، وكانوا يدربون فتياتهم عليها من حداثتهم؛[٣٠] لاحتياجهم إلى الخطباء في إيفاد الوفود مثل حاجتهم إلى الشعراء في حفظ الأنساب والدفاع عن الأعراض، ولكنهم كانوا يقدمون الشاعر على الخطيب في الجاهلية، ولما جاء الإسلام صار الخطيب مقدمًا لحاجتهم إليه في الإقناع وجمع كلمة الأحزاب، ولكن نظرًا لحاجة العرب إلى الخطباء في الوفود، فقد كان خطيب القبيلة عندهم عميدها وزعيمها، وهو واحد يعدل قبيلة ولسان يعرب عن السنة.

أما إيفاد الوفود فقد كان شائعًا في تلك العصور، فكانت دول الروم والهند والصين والفرس يتبادلون الوفود لمبادلة العلاقات أو للمفاخرة، ولم يكن للعرب دول تستوفد من قبلها، ولكن المنادرة ملوك العرب في العراق كانوا يذكرون فصاحة العرب بين

يدي الأكاسرة وخصوصًا كسرى أنوشروان فكان يميل إلى مشاهدتهم … فاتفق مرة أن النعمان خاطبه في ذلك، فطلب إليه أن يريه واحدًا منهم فاستقدم جماعة من خطباء العرب اختار من كل قبيلة اثنين أو ثلاثة هم بالحقيقة حكماؤها ووجهاؤها، ومنهم أكثم بن صيفي، وحاجب بن زرارة من قبيلة تميم، والحارث بن ظالم، وقيس بن مسعود من قبيلة بكر، وخالد بن جعفر، وعلقمة بن علاثة، وعامر بن الطفيل من بني عامر، وغيرهم فقدموا علىي كسرى، وخطب كل منهم بين يديه خطابًا ذكره ابن عبد ربه مفصلًا في الجزء الثالث من العقد الفريد.

على أن عرب اليمن وشرقي جزيرة العرب كانوا يقدمون على كسرى للشكوى من عماله هناك، وكان غيرهم من العرب يفدون عليه بالهدايا من الخيل ونحوها على سبيل الاستجداء كما فعل أبو سفيان والد معاوية.

وكانوا يفدون على الأمراء من العرب وغيرهم كوفود حسان بن ثابت على النعمان بن المنذر بالحيرة وعلى آل جفنة في البلقاء، ووفود وجهاء قريش على سيف بن ذي يزن في اليمن بعد انتصاره على الحبشة … وفدوا عليه للتهنئة بالنصر، وكان في جملة خطباء ذلك الوفد عبد المطلب جد النبي، ومن هذا القبيل وفود القبائل على النبي بعد أن استتب له الأمر؛ فقد جاءه من كل قبيلة وجهاؤها وخيرة بلغائها للدخول في الإسلام أو للاستفهام أو غير ذلك، ومن هذا القبيل أيضًا وفود العرب على الخلفاء للتسليم والتهنئة … كوفود جبلة بن الأيهم، وعمرو بن معدي كرب على عمر بن الخطاب، ووفود أهل اليمامة على أبي بكر وغيرهم مما يطول شرحه.

(١١-٢) الخطباء

وجملة القول إن الخطباء كانوا كثيرين في النهضة الجاهلية كالشعراء، والغالب فيهم أن يكونوا أمراء القبائل أو وجهاءها أو حكماءها، وكان لكل قبيلة خطيب أو أكثر كما كان لها شاعر أو أكثر، وأشهر خطباء الجاهلية قس بن ساعدة من بني إياد وقد أدركه الرسول ﷺ فرآه في سوق عكاظ على جمل أحمر، وهو يقول في خطابه: «أيها الناس اجتمعوا فاسمعوا وعوا، من عاش مات ومن مات فات، وكل ما هو آتٍ آت»،[٣١] وقد تقدم ذكره بين الشعراء.

ومنهم سحبان وائل الباهلي الذي يُضرب المثل بفصاحته، فيقال: «هو أخطب من سحبان وائل» وكان إذا خطب يسيل عرقًا ولا يعيد كلمة ولا يتوقف ولا يقعد حتى

يفرغ. ومنهم جماعة كبيرة من حِمير كدويد بن زيد، وزهير بن جناب، ومرثد الخير، وغيرهم من سائر القبائل كالحارث بن كعب المذحجي، وقيس بن زهير العبسي، وذي الإصبع العدواني، وأكثم بن صيفي التميمي، وعمرو بن كلثوم، وغيرهم.

وكانوا يتخيرون في خطبهم الألفاظ الرقيقة والمعاني المألوفة. وكانت خطبهم على ضربين: الطوال، والقصار، والقصار أكثر عددًا لأنهم كانوا يفضلونها؛ لسهولة حفظها، وكانوا لشدة عنايتهم بالخطب يتوارثونها ويتناقلونها في الأعقاب ويسمونها بأسماء خاصة كالعجوز خطبة لآل رقية، والعذراء خطبة قيس بن خارجة، والشوهاء خطبة سحبان.[٣٢]

وتجد أمثلة من خطب الجاهلية أو في أثناء الفتوح في كتب الأدب، ولا سيما العقد الفريد لابن عبد ربه، والبيان والتبيين للجاحظ، والأغاني ونهج البلاغة (خطب علي) وفي كتب المغازي والفتوح كفتوح الشام لأبي إسماعيل البصري، وفتوح الشام للواقدي، وفتوح البلدان للبلاذري، والسيرة النبوية لابن هشام، وتاريخ الطبري، وابن الأثير، وغيرها.

(١٢) الأنساب في الجاهلية

للأنساب في عصور الجاهلية عند الأمم القديمة شأن كبير؛ إذ يكون للناس عناية عظمى في حفظ أنسابهم للتناصر على الأعداء، أو للتفاخر بالآباء، وقد بالغ اليونان في ذلك حتى حفظوا أنساب آلهتهم وكيفية تسلسلها بعضها من بعض، ثم نسبوا أنفسهم إليها فلم يكن في جاهلية اليونان أسرة كبيرة من الأشراف ورجال السلطان إلا وحبل نسبها يتصل ببعض تلك الآلهة، وقد نظم بعضهم الأشعار للتفاخر بذلك قبل المسيح ببضعة قرون، وكذلك كان الرومان في أقدم أجيالهم … فالطبقة التي تُعرف عندهم بالبطارقة، كانوا يدعون الانتساب إلى آباء أعلى طبقة من البشر.

(١٢-١) نسب العرب

العرب العدنانيون من حيث أنسابهم يرجعون في أصل آبائهم الأولين إلى إسماعيل بن إبراهيم، والقحطانيون ينتسبون إلى يقطان بن عابر، وقد زادت عناية العرب بالأنساب؛ رغبة في التناصر على الغرباء، وقد رُتبت أنساب العرب في ست مراتب أو طبقات، أولها:

الشعب، ثم القبيلة، فالعمارة، فالبطن، فالفخذ، فالفصيلة، فالشعب هو النسب الأبعد مثل عدنان وقحطان، ثم القبيلة وهي ما انقسمت فيها أنساب الشعب مثل ربيعة ومضر، ثم العمارة وهي ما انقسمت فيها أنساب القبائل مثل قريش وكنانة، ثم البطن وهو ما انقسمت فيه أنساب العمارة مثل بني عبد مناف، وبني مخزوم، ثم الفخذ وهو ما انقسمت إليه أنساب البطن مثل بني هاشم، وبني أمية، ثم الفصيلة مثل بني أبي طالب، وبني العباس.[٣٣]

وبالغ العرب في الرجوع إلى الأجداد حتى رجعوا بأسماء المدن إلى أسماء بعض أجدادهم، والغالب أن ينتهي النسب بأحد آباء التوراة ... فإذا سُئل أحدهم مثلًا عن الأندلس من بناها، قال: «بناها أندلس بن يافث بن نوح»[٣٤] وكان النسابون يحفظون أسماء القبائل وما يتفرع منها حفظًا دقيقًا، فإذا عرض لهم رجل فقال: أنا من بني تميم مثلًا انسبني، فإنه يبدأ من قبيلة تميم وما تفرع منها من العمائر والبطون والأفخاذ حتى ينتهي إلى الفصيلة، ومنها إلى والد السائل أو إليه هو نفسه.

وكثر النسابون في الجاهلية، ولم تخلُ قبيلة أو عمارة أو بطن من نسابة، ومن أشهرهم دغفل السدوسي من بني شيبان، وعميرة أبو ضمضم، وابن لسان الحمرة من بني تيم اللات، وزيد بن الكيس النمري، والنخار بن أوس القضاعي، وصعصعة بن صوحان، وعبد الله بن عبد الحجر بن عبد المدان وغيرهم،[٣٥] وظل النسب محفوظًا في صدر الإسلام، واشتهر كثير من النسابين، فلما آلت الدولة إلى الموالي والمصطنعين صار الناس ينتسبون إلى مواليهم، ومصطنعيهم.

(١٣) الأخبار أو التاريخ في الجاهلية

لم يكن عند عرب الجاهلية تاريخ من قبيل ما نفهمه من هذه الكلمة اليوم، ولكنهم كانوا يتناقلون أخبارًا متفرقة بعضها حدث في بلادهم والبعض الآخر نقله إليهم الذين عاشروهم من الأمم الأخرى، فمن أمثال أخبارهم حروب القبائل المعروفة بأيام العرب، وقصة سد مأرب واستيلاء أبي كرب تبان أسعد على اليمن وبعض من خلفه، وملك ذي نواس، وقصة أصحاب الأخدود وفتح الحبشة لليمن، وقصة أصحاب الفيل وقدومهم إلى الكعبة وحرب ذي يزن الحميري إلى آخر ما انتهى إليه أمر الفرس في اليمن، وقصة عمرو بن لحي وأصنام العرب وحكاية جرهم ودفن التماثيل في زمزم، وتاريخ الكعبة إلى أيام قصي بن كلاب، وولاية الحج وأمر عامر بن الظرب، ثم ما كان من تغلب قصي على أمر

مكة، وقصة حلف المطيبين وحلف الفضول وحفر بئر زمزم وحرب الفِجار وحديث بنيان الكعبة ... غير أخبار عاد وثمود وغيرهما من العرب البائدة، وحكاية بلقيس وسليمان ونحوهما من أخبار التوراة وغير ذلك من الأخبار التي كان العرب يتناقلونها عند ظهور الإسلام.

(١٤) الأسواق ومجالس الأدب في الجاهلية

(١٤-١) أسواق العرب

السوق مكان يجتمع فيه أهل البلاد أو القرى في أوقات معينة، يتبايعون ويتداولون ويتقايضون، ولا تزال أمثال هذه الأسواق تُقام إلى اليوم في القرى أو في البلاد البعيدة عن التمدن الحديث، على أن في بعض المدن الكبرى كالقاهرة مثلًا أسواقًا تنعقد في بعض أيام الأسبوع وتعرف بها، كسوق السبت أو السبتية وسوق الثلاثاء أو الأربعاء ... فيجتمع إليها الناس من الضواحي للبيع والشراء.

ومن هذه الأسواق ما ينعقد كل أسبوع، ومنها ما لا ينعقد إلا مرة في الشهر أو في السنة، ومنها ما ينعقد مرة في بضع سنين، فإن للهنود سوقًا يقيمونها في هردوار على ضفاف الكنج كل سنة، ويبلغ عدد المجتمعين هناك في الموسم ٣٠٠٠٠٠ نفس، ويقيمون في ذلك المكان حجًّا مرة كل ١٢ سنة، يبلغ عدد الحاجين إليه نحو مليون نفس، وهو أكبر أسواق العالم، وأمثال هذه الأسواق كثيرة في روسيا وتركيا وألمانيا وفرنسا وإنجلترا وأمريكا، ففي روسيا سوق تقام في مدينة نوفكرود مرتين في السنة، يبلغ عدد الذين يؤمونها ١٢٠٠٠ نفس يجتمعون هناك من سائر بلاد روسيا ومن شرقي أوربا، ويقدرون قيمة ما يُباع من البضائع في أسواق روسيا بنحو ١٢٠٠٠٠٠٠ روبل في العام، وقس على ذلك سائر الأسواق الكبرى.

وقد كان كثير من أمثال هذه الأسواق في العالم القديم، ولكن الأقوام لا تتزاحم فيها إلا إذا كان الغرض من الاجتماع حجًّا دينيًّا، فإذا اجتمع الناس في مكان الحج وتكاثروا، احتاجوا إلى من يبيعهم الأطعمة والأشربة وغيرها فتقام الأسواق لهذه الغاية، كذلك كان شأن العرب في سوق عكاظ وغيرها من أسواق الجاهلية.

وكان للعرب في الجاهلية أسواق يقيمونها في أشهر السنة، وينتقلون من إحداها إلى الأخرى ... يحضرها العرب من قرب منهم ومن بعد، فإذا فرغوا من سوق انتقلوا إلى

سواها، فكانوا ينزلون دومة الجندل في أعالي نجد أول يوم من شهر ربيع الأول، فيقيمون فيها الأسواق للبيع والشراء والأخذ والعطاء ثم ينتقلون إلى سوق هجر … فيقيمون هناك شهرًا ويرتحلون منها إلى عمان حيث يقيمون سوقًا ثم يرتحلون إلى حضرموت فعدن، وبعضهم ينزل صنعاء فيقيمون بعض أسواقهم ثم يرتحلون إلى عكاظ في الأشهر الحرام، وكانت لهم أسواق أخرى في صحار والشحر والمجنة وحباشة والمشقر وغيرها.[٣٦]

وأشهر أسواق عرب الجاهلية سوق عكاظ، وهي مكان بين الطائف ونخلة، صحراء مستوية لا علم فيها ولا جبل إلا ما كان من الأنصاب التي كانت لأهل الجاهلية، وبها من دماء البُدن، كالأرحاء العظام[٣٧] … فكانت العرب إذا قصدت الحج أقامت بهذه السوق من أول ذي القعدة، يبيعون ويشترون، إلى عشرين منه، ثم يتوجهون إلى مكة فيقضون مناسك الحج ثم يعودون إلى أوطانهم، وكان كل شريف إنما يحضر سوق بلده إلا سوق عكاظ، فإنهم كانوا يتوافدون إليها من كل ناحية، ومن كان له أسير سعى في فدائه هناك، ومن كانت له حكومة ارتفع إلى الذي يقوم بأمر الحكومة في أيام الموسم وهم أناس من تميم، ومن كان له ثأر على أحد ولم يعرف مكانه، طلبه في المواسم … وإذا أراد أحد أن يعمل عملًا تعرفه العرب أو يشهدها فيه، عمله في عكاظ،[٣٨] وإذا أراد أن يفاخر أحدًا على مشهد من الناس فاخره هناك، وكانوا يتفاخرون حتى في المصائب، كما تقدم عن معاظمة الخنساء وهند بنت عتبة.

ويهمنا في هذا المقام أن العرب كانوا يغتنمون وقت المواسم واجتماع القبائل ويقيمون مجالس للبحث في كل موضوع كالمناشدة والمفاخرة، فينشد الشعراء ويخطب الخطباء … فيختارون كبيرًا من وجهائهم يجعلونه حكمًا فيما يختلفون فيه، وكان النابغة الذبياني إذا أتى سوق عكاظ في الموسم ضربوا له قبة حمراء من أدم، وتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها[٣٩] ليحكم فيها، ويقال: إنهم كانوا إذا أعجبتهم قصيدة علقوها في الكعبة، ومنها المعلقات السبع.

وشأن العرب في ذلك شأن اليونان القدماء في الجمناسيوم، وهي أبنية كانوا يجتمعون فيها للألعاب البدنية وفيهم الفلاسفة والعلماء … فكانوا يغتنمون فرصة وجودهم هناك ويتباحثون ويتناظرون ويتنافرون كما كان يفعل العرب في عكاظ،[٤٠] ولا يخفى ما في ذلك من تمحيص الحقائق واستحثاث القرائح، فضلًا عما كان يترتب على ذلك الاجتماع من تنقيح اللغة ونموها … فإن قريشًا كانوا يسمعون لغات القبائل في أثناء تلك الاجتماعات، فما استحسنوه من لغاتهم تكلموا به، فصاروا أفصح العرب،

وخلت لغتهم من مستبشع اللغات ومستقبح الألفاظ كالكشكشة والكسكسة والعنعنة والفحفحة والوكم والوهم والعجعجة والاستنطاء وغير ذلك من العيوب في لغات الأمم الأخرى.[٤١]

(٢-١٤) مجالس الأدب

وكان للعرب مجالس يجتمعون فيها لمناشدة الأشعار ومبادلة الأخبار والبحث في بعض شؤونهم العامة، وكانوا يسمون تلك المجالس الأندية، ومنها نادي قريش ودار الندوة بجوار الكعبة، وكان لكل بيت فناء بين يديه للاجتماع،[٤٢] ولكل قوم مجتمع عام في المضارب،[٤٣] على أنهم كانوا حيثما اجتمعوا تناشدوا وتفاخروا.

وتجد أخبار أسواق العرب وأماكنها في جملة التاريخ الجاهلي، وفي كتب الأقاليم والمعاجم الجغرافية، وخصوصًا معجم البلدان لياقوت الحموي، ومعجم ما استعجم للبكري، وصفة جزيرة العرب للهمذاني، وكلها مطبوعة، فضلًا عما جاء من أخبارها في الأغاني ٩ ج١، و٦١ ج٢، و٢٢ و١١٠ و١٣٦ ج٤، و٩٢ ج٦، و٤٦ ج٧، و١٠ ج٩ و١٢ و٢٩ و١٤٨ ج١٠، و٥٤ ج١٢، و١٤١ ج١٣، و٤١ ج١٤، و٧٣ ج١٩ وفي السير النبوية وغيرها.

هوامش

(١) ابن خلدون ٥٠٩ ج١.
(٢) العقد الفريد ٩٣ ج٣.
(٣) العمدة ٦١ ج١.
(٤) ابن خلدون ٥٠٩ ج١.
(٥) المزهر: ٢٣٩ ج٢.
(٦) الأغاني ٦٧ ج٣.
(٧) الأغاني ١٤٩ ج٩.
(٨) الأغاني ٧٧ ج٨.
(٩) العمدة ١٤٦ ج٢.
(١٠) مهدد: صاحبة الأعشى.

(١١) جمهرة أشعار العرب ٥٦.

(١٢) الأغاني ٩٧ ج١٤.

(١٣) الكوم: القطعة من الإبل.

(١٤) الجمهرة: ١٠٠.

(١٥) النشم: شجر، والثمامة: نبت.

(١٦) الأشيقر: الأحمر من الإبل، والخزامة: حلقة من شعر تجعل في أنف البعير.

(١٧) اقرأ تفصيله في كتابنا «العرب قبل الإسلام» صفحة ٢٣٢.

(١٨) اقرأه في الأغاني ١٥٠ ج١٢.

(١٩) الألهوب: شدة جري الفرس ومثله الدرة. والأهوج: الأحمق، والمنعب: الذي يمد عنقه في الجري.

(٢٠) راجع ترجمة أمية بن أبي الصلت مطولة في «الهلال» السنة التاسعة.

(٢١) الأغاني ١٨٧ ج٣.

(٢٢) ابن هشام ٨١ ج١.

(٢٣) الموشى ٤٣.

(٢٤) فوات الوفيات ٣٣ ج١.

(٢٥) الشراسيف: أطراف الأضلاع، المنقب: وسط البطن، والقتب: الرحل.

(٢٦) شعراء النصرانية ٣٣٠.

(٢٧) راجع تاريخ البردة النبوية في تاريخ التمدن الإسلامي ١١٥ ج١ «طبعة ثالثة».

(٢٨) البيان والتبيين ٢٠ ج٢ و١٣٩ ج١.

(٢٩) البيان ٤٢ ج١.

(٣٠) البيان والتبيين ٥٨ و٩٨ ج١.

(٣١) البيان والتبيين ١١٩ ج١.

(٣٢) البيان والتبيين ١٣٣ ج١.

(٣٣) الماوردي: الأحكام السلطانية ١٩٤.

(٣٤) ابن خلكان ١٤ ج١.

(٣٥) بلوغ الأرب ١٩٦ ج٣ والبيان ١١٨ ج١.

(٣٦) نهاية الأرب.

(٣٧) معجم البكري ٦٦٠.
(٣٨) الأغاني ٢ ج١٣.
(٣٩) الشعر والشعراء ١٩٧.
(٤٠) Lit. Gr. 132.
(٤١) المزهر ١٠٩ ج١.
(٤٢) الأغاني ٥٢ ج٢.
(٤٣) ١٢٩ ج١١.

العلوم الطبيعية

(١) الطب

الطب من جملة العلوم التي اشتهر بها الكلدان كهنة بابل، ويقال: إنهم أول من بحث في علاج الأمراض … فكانوا يضعون مرضاهم في الأزقة ومعابر الطرق حتى إذا مر بهم أحد أصيب بذلك الداء أخبرهم بسبب شفائه، فيكتبون ذلك على ألواح يعلقونها في الهياكل، ولذلك كان التطبيب عندهم من جملة أعمال الكهان. وعن الكلدان أخذت سائر الأمم القديمة، وفي جملتها العرب، وهو متشابه عند الأمم؛ في مصر وفينيقية وأشور. وكان لمصر شأن خاص فيه، ثم تناوله اليونان فأتقنوه ورتبوا أبوابه، وعنهم أخذ الرومان والفرس، ونظرًا لمعاصرة العرب لهذه الدول فقد اقتبسوا شيئًا من طبها أضافوه إلى ما جاءهم به الكلدان، وإلى ما استنبطوه من عند أنفسهم بالاختبار، فتألف من ذلك ما عبرنا عنه بالطب في الجاهلية، ولا يزال كثير منه إلى اليوم في قبائل البادية، وكان للتطبيب عندهم طريقتان: الأولى طريقة الكهان والعرافين، والثانية طريقة العلاج الحقيقية، فالكهان كانوا يعالجون بالرقى والسحر أو بذبح الذبائح في الكعبة والدعاء فيها أو بالتعزيم أو نحو ذلك.

وكان التطبيب بالرقى شائعًا في الأمم القديمة كلها، وقد وجدوا في الآثار المصرية كثيرًا من العزائم التي كانوا يصفونها لمعالجة المرضى، وجاء في أخبارهم أن كاهنهم كان إذا سار لمعالجة مريض صحبه خادمان أحدهما يحمل كتاب العزائم، والثاني يحمل صندوق العقاقير الطبية وهم يعالجون بالاثنين معًا، وكانوا يوجهون كلامهم في العزيمة أو الرقية إلى أحد آلهتهم وخصوصًا إيزيس وأوزيريس ورع، ولهم عبارات يقولونها عند وضع الأدوية وعند مناولتها للمريض، فمن أمثلة العزائم التي كانوا يتلونها عند تناول

الدواء: «هذا هو كتاب الشفاء لكل مريض، فهل لإيزيس أن تشفيني كما شفت حوريس من كل ألم أصابه من ست حينما قتل أباه أوزيريس؟ فيا إيزيس أنت الساحرة الكبيرة اشفيني وخلصيني من كل شيء مكدر رديء شيطاني ومن أمراض اللبسة والأمراض القاتلة والخبيثة بأنواعها التي تعتريني كما خلصت ابنك حوريس …»،[1] وكان عندهم عزائم لإخراج الأرواح الشريرة التي تسبب الأمراض في زعمهم.

فعلى هذه الكيفية كان العرب يتلون العزائم لأصنامهم ويرقون لإخراج الجان أو الشياطين. وكان اعتقادهم من هذا القبيل أنهم إذا خافوا وباء نهقوا نهيق الحمير، يزعمون أن ذلك يمنعهم من الوباء وأن شرب دماء الملوك يشفي من الخبل.

وأما معالجتهم بالعقاقير فشبيهة بما كان عند المصريين وغيرهم من الأمم القديمة؛ فقد كانوا يعالجون بالعقاقير البسيطة أو الأشربة وخصوصًا العسل … فإنه كان قاعدة العلاج في أمراض البطن، على أن اعتمادهم في معالجة الأمراض كان معظمه عائدًا إلى الجراحة كالحجامة والكي، ومن أقوالهم: «كل داء يحسم بالكي آخر الأمر … وآخر الطب الكي»، وكثيرًا ما كانوا يعالجون بالقطع أو البتر، والغالب أن يكون ذلك بالنار … فإن النار عندهم كانت تقوم مقام مضادات الفساد عندنا، فإذا أرادوا فصل عضو حموا شفرة بالنار وقطعوه بها كما فعلوا بصخر بن عمرو أخي الخنساء لما نتأت قطعة من جوفه مثل الكبد على أثر طعنة، فأحموا له شفرة وقطعوها.[2]

وكانوا يعالجون الحَوَل في البصر بإدامة النظر إلى حجر الرحى في دورانه، ويزعمون أن العين تستقيم به، ومن معالجتهم التي نعدها اليوم خرافة أن المجروح إذا شرب الماء مات[3] وإذا خافت المرأة حتى برد قلبها سقوها ماءً حارًّا.[4]

(٢) الأطباء

وأما الأطباء فقد كانوا في أول الأمر من الكهنة، ثم تعاطى الطب جماعة العرب ممن خالطوا الروم والفرس، وأخذوا الطب عنهم، فاشتهروا بهذه الصناعة وأكثرهم من أهل النهضة الأخيرة قبل الإسلام حوالي القرن السادس للميلاد … على أن بعضهم أقدم من ذلك كثيرًا، وأقدم أطبائهم لقمان وهو حكيمهم وفيلسوفهم، وفي أصله وزمن وجوده اختلاف، يليه رجل من تيم الرباب يقال له ابن حزيم ويضربون به المثل بالحذق في الطب، فيقولون لمن أرادوا وصفه بذلك: «أَطَبُّ من ابن حزيم» وفيه يقول أوس بن حجر:

فهل لكم فيها إلي فإنني بصير بما أَعْيَا النطاسيَّ حزيمًا

ومن أحدث أطباء الجاهلية الحارث بن كلدة، توفي سنة ١٣ للهجرة … وهو من بني ثقيف من أهل الطائف، رحل إلى أرض فارس وأخذ الطب من جنديسابور وتعاطى صناعة الطب هناك واكتسب مالًا ثم عاد إلى بلاده وأقام في الطائف، ونال شهرة واسعة وقد أدرك الإسلام، وكان الرسول يأمر من كان به علة أن يأتيه فيستوصفه، ومنهم ابن أبي رومية التميمي والنضر بن الحارث بن كلدة.

وأكثر هؤلاء الأطباء ثقفوا الطب من بلاد الفرس أو الروم، وبعضهم أخذه عن الكهان أو الأحبار من الأديار ونحوها، وربما أخذوا عنهم شيئًا من الفلسفة القديمة كما فعل النضر المذكور، والظاهر أن بعضهم كان يخصص نفسه للأعمال الجراحية فيغلب عليه لقب الجراح، وأشهر جراحي الجاهلية ابن أبي رومية التميمي المتقدم ذكره؛ فقد كان جراحًا مزاولًا لأعمال اليد.

ويؤخذ مما حوته اللغة العربية قبل الإسلام من أسماء العلل والأمراض والعقاقير، أن العرب عرفوا كثيرًا من الأمراض ومعالجتها، وناهيك بما عرفوه وتوسعوا فيه من أحوال الأعضاء وأوصافها وهو من قبيل علم التشريح، وهم يعبرون عنه بخلق الإنسان. وقد ألف أدباء المسلمين كتبًا كثيرة في هذا الموضوع نقلًا عن العرب، سيأتي ذكرها بين مؤلفات أهل اللغة، والمتأمل فيما حوته من أسماء الأعضاء وأوصافها يتبين له أن أولئك الجاهليين كانوا على معرفة بتشريح الأعضاء؛ لأن عندهم لكل عضو اسمًا ووصفًا من الرأس وما يتركب منه وما له من الصفات، إلى الشعر وأقسامه وألوانه … فالأذن وما تركبت منه وأقسامها … فالوجه وما تركب منه … فالحاجب وأنواعه وما يحمد منه وما يذم … والعين وأصنافها وطبقاتها ومجاري دمعها، وغير ذلك مما اشتملت عليه، والأنف وما تركب منه وبيان أقسامه، والفم وما تركب منه، والأسنان وعددها وأسماء أصنافها وأجزائها ومنابتها، واللسان وما اشتمل عليه من الأجزاء والعظام التي في أسفله، والحلق وبيان ما فيه من اللغاديد والحنجرة والغلصمة والبلعوم والحلقوم، واللحيين، وبيان محلهما وأسماء ما تركبا منه، واللحية وأسماء أجزائها وأقسامها وألوانها وسائر أوصافها، والعنق وما تركب منه، والمنكب والكتف وما اشتملا عليه، واليد وما تركبت

منه من العظام والأعصاب والعضلات والعروق، وما وضع لذلك من الأسماء، والأصابع وأسماؤها وأجزاؤها، والظفر وأقسامه وأسماؤه، والصدر وما تركب منه، والجنبان وعدد أضلاعهما، وأسمائها، وما يلحق ذلك، والبطن وما حوى، وكذلك سائر الأعضاء، وقد توسعوا في بعضها حتى وضعوا لكل عضو عدة أسماء، وتجد نتفًا من الطب الجاهلي في العقد الفريد والأغاني والكشكول وحياة الحيوان وسواها من كتب الأدب وغيرها، ويُستخرج شيء كثير من أشعارهم.

(٣) البيطرة والخيل وعلوم طبيعية أخرى

وكان للعرب معرفة حسنة في شئون الخيل وأحوالها لم يسبقهم إليها سواهم؛ لعنايتهم بأفراسهم ويعبرون عنها بالبيطرة، ونبغ فيهم غير واحد من أطباء الحيوان، منهم العاص بن وائل. وظلت هذه المعرفة تتناقل في أفراد منهم إلى اليوم، وهم يجولون في البادية يعالجون الخيل معالجة الحاذقين، وروى عنهم الرواة في صدر الدولة العباسية، ووضعوا الكتب فيما جمعوه من هذا العلم. وخصص الألوسي صاحب بلوغ الأرب فصلًا في هذا الموضوع بالجزء الثالث من كتابه، ذكر فيه كثيرًا من عيوب الخيل وما يُستحب منها نقلًا عن كتاب الخيل لأبي عبد الله الإسكافي.

وقد ألف الأدباء كثيرًا من الكتب في الخيل، وهي ترمي إلى نحو هذا الغرض وتعد من كتب اللغة سيأتي ذكرها.

ومن المعارف الطبيعية التي توصلوا إليها:

أولًا: استنباط الماء ويسمونه الريافة، فإنهم كانوا يعرفون وجود الماء في مكان بشم التراب أو برائحة بعض النباتات أو نحو ذلك.

ثانيًا: الاهتداء في البراري بأمارات يعرفونها بالأتربة أو بالنجوم.

ثالثًا: نزول الغيث وهو من قبيل الظواهر الجوية.

رابعًا: الملاحة وقد اضطروا إلى معرفتها لأسفارهم إلى الهند والحبشة للاتجار من عهد دول اليمن، ونجد أمثلة من معارفهم هذه في الجزء الثالث من كتاب بلوغ الأرب في أحوال العرب للألوسي، وهو المطبوع في بغداد سنة ١٣١٤.

(٤) الأنواء ومهاب الرياح

ويراد بالأنواء عندهم ما يقابل علم الظواهر الجوية عندنا مما يتعلق بالمطر والرياح، ولكنهم كانوا ينسبون الظواهر المذكورة إلى طلوع الكواكب أو غروبها، ولذلك كان علم الأنواء فرعًا من علم النجوم، وكانوا يسمون طلوع المنزلة نوءها أي نهوضها وسموا تأثير الطلوع بارحًا وتأثير السقوط نوءًا. ومن طلوع كل واحدة منها إلى طلوع التي تليها ثلاثة عشر يومًا سوى الجبهة، فإن بين طلوعها وطلوع التي تليها ١٤ يومًا، ومن أقوالهم في ذلك:

والدهر فاعلم كله أرباع لكل ربع واحد أسباع
وكل سبع لطلوع كوكبِ ونَوءٍ نجم ساقطٍ في المغربِ
ومن طلوع كل نجمٍ يطلع إلى طلوع ما يليه أربعُ
من الليالي ثم تسعٌ تتبع

ثم اختلفوا فيها، فزعم بعضهم أن كل تأثير يكون بعد طلوع منزلة إلى طلوع التي تليها فهو منسوب إليها، وزعم آخرون أن لطلوع كل واحدة وسقوطها مقدارًا من الزمن يُنسب إليها ما يكون فيه، فإذا انقضت تلك المدة لم يُنسب إليها ما يكون بعدها، وكانوا إذا تحقق التأثير فلم يظهر منه شيء في تلك الأزمنة قالوا: خوي النجم أو خوت المنزلة يعنون بذلك أنه مضت مدة نوء ولم يكن فيه مطر أو حر أو برد أو ريح[٥] ومن أمثالهم: «أخطأ نوؤك» يُضرب لمن طلب حاجة فلم يقدر عليها.[٦]

وكانوا إذا أمطرت السماء نسبوا المطر إلى تأثير النجم المتسلط في ذلك الوقت، فيقولون مثلًا: مطرنا بنوء المجرة أو هذا نوء الخريف ومطرنا بالشعرى، وقالوا: إن النوء سقوط نجم ينزل في المغرب مع الفجر وطلوع رقيبه في الشرق من أنجم المنازل، ولذلك كانت الأنواء ٢٨ نوءًا أو نجمًا، كانوا يعتقدون أنها هي علة الأمطار والرياح والحر والبرد، وفي أشعارهم أمثلة كثيرة تدل على علاقة أحوال الجو أو فصول السنة باقترانات الكواكب أو طلوعها، وقد نظموها شعرًا ليسهل حفظها على الناس؛ لقلة الكتابة عندهم، ومن ذلك قولهم:

إذا ما قارن القمر الثريا لثالثةٍ فقد ذهب الشتاء

وقول الآخر:

إذا ما البدر تَمَّ مع الثريا أتاك البرد أولُه الشتاء

وقول الآخر:

إذا ما قارن الدبران يومًا لأربع عشرةً قمرَ التَّمامِ
فقد حَفَّ الشتاء بكل أرض فوارسُ مؤذناتٌ باحتدامِ
وحَلَّق في السماء البدر حتى يقلِّص ظل أعمدة الخيامِ
وذلك في انتصاف الليل شطرًا ويصفو الجو من كدر الغمامِ

وقول الآخر:

إذا ما هلال الشهر أول ليلة بدا لعيون الناس بين النعائم[٧]
أتتك رياح القرِّ من كل وجهةً وطاب قبيل الصبح كَوْر العمائم

وقول الآخر:

وقد برد الليل التمام بأهله وأصبحت العوَّاءُ للشمس منزلا[٨]

وكان عندهم لمطلع كل كوكب أو منزل وصف يدل على تأثير ذلك في الطقس على اعتقادهم، ومن هذا القبيل اعتقادهم تأثير النجوم في أعمال البشر على ما كان عند الكلدان،[٩] على أنهم كثيرًا ما كانوا يستدلون على المطر أيضًا بألوان الغيوم وأشكالها فأقل الغيوم مطرًا عندهم البيضاء ثم الحمراء ثم السوداء، ومن أقوالهم: «السحابة البيضاء جفل والحمراء عارض والسواد هطلة».[١٠]

وكان العرب في حاجة إلى معرفة مهاب الرياح للاهتداء في أسفارهم، ولذلك فقد وضعوا لها الأسماء … ولكنهم اختلفوا في عدد جهاتها فحسبها بعضهم ستة والبعض الآخر أربعة، فهي عند أصحاب القول الثاني:

(١) مهب الصبا من الشمال.
(٢) مهب الشمال من الغرب.

(٣) مهب الدبور من الجنوب.
(٤) مهب الجنوب من المشرق.

ويزيد عليها أصحاب القول الأول النكباء بجانب الشمال والمحوة بجانب الجنوب، وإليك قول ذي الرمة في ذلك:

أهاضيب أنواءٍ وهيفان جرَّتا   على الدار أعرافَ الحِبال الأعافرِ
وثالثة تهوي من الشام حَرْجَفٌ   لها سنَنٌ فوق الحصى بالأعاصر
ورابعة من مطلع الشمس أجفلتْ   عليها بدَقْعاء المِعا فقُراقر
فحنَّت بها النُّكْبُ السوافي فأكثرت   حنينَ اللقاحِ القاربات العواشر[١١]

وتجد أمثلة من هذا الموضوع فيما يأتي ذكره من الكتب التي تبحث في الفلك.

هوامش

(١) بغية الطالبين ٢٥٨.
(٢) الأغاني ١٣٧ ج١٣.
(٣) الأغاني ١٣١ ج١٤.
(٤) الأغاني ٣٢ ج١٠.
(٥) الآثار الباقية للبيروني ٣٣٩.
(٦) مجمع الأمثال للميداني ٢٠٢ ج١.
(٧) النعائم: من منازل القمر.
(٨) البيروني ٣٣٧، والعواء: من منازل الشمس والقمر.
(٩) Rawlinsons Ancient Monarchies 111. 425.
(١٠) الميداني ١٠٩ ج٧.
(١١) البيروني: ٣٤٠.

العلوم الرياضية

(١) الفلك والنجوم

معظم هذه العلوم دخيل على العرب، اقتبسوه من الأمم الأخرى ممن هاجر إليهم وقام بين ظهرانيهم أو التقوا بهم في أسفارهم، وأكثر أخذِهم عن الكلدان. فقد أخذوا عنهم علم النجوم وتعلموا منهم مواقع الأبراج، ومناطقها ومنازل القمر والشمس، وربما كان لهم علم بشيء من أحكامها من عند أنفسهم أو مما وصل إليهم من طريق الهند أو غيرها، ولكن يقال بالإجمال: إن العرب مدينون بعلم النجوم للكلدان، وهم يسمونهم الصابئة، والصابئة إن لم يكونوا الكلدان أنفسهم، فهم خلفاؤهم أو تلاميذهم،[١] وكان الصابئة كثيرين في بلاد العرب، ولهم مثل منزلة النصارى، فأخذ العرب عنهم علم النجوم باصطلاحاته وأسمائه، وإن كان معظم أسماء السيارات لا يُرد إلى أصله الكلداني … فربما كان له أسباب عارضة ضاعت أخبارها.

على أن بعضها لا يزال أصله الكلداني ظاهرًا فيه كالمريخ مثلًا، فإنه يقابل «مرداخ» الكلدانية لفظًا ومعنى، ولكن معظم تلك الأسماء قد ضاعت المشابهة اللفظية بينها، وبقيت المشابهة المعنوية، فإن «زحل» معناه في العربية الارتفاع والعلو، وهي نفس دلالة «كاون» اسم هذا السيار في الكلدانية، وأما الأبراج ومنازل القمر فلا تزال كما كانت عند الكلدان لفظًا ومعنى، وإليك أسماء الأبراج عند كليهما:

أسماؤها العربية	أسماؤها الكلدانية
الحمل أو الكبش	امرا
الثور	ثورا
الجوزاء أو التوأمين	نامي
السرطان	سرطان
الأسد	أريا
السنبلة	شبلتا
الميزان	ماساثا
العقرب	عقربا
القوس أو الرامي	قشتا
الجدي	كديا
الدلو	دولا
الحوت أو السمكة	نونا

وأما منازل القمر والشمس؛ فقد تبدل بعض أسمائها على نحو ما أصاب السيارت، ولكن العبرة بالأكثر في قواعد هذا العلم ومصطلحاته، فإنها عند العرب كما كانت عند الكلدان تمامًا حتى لفظ «منازل القمر» و«منازل الشمس»، فإن هذا التعبير هو نفس ما كان يعبر به الكلدان، عن هذه المنازل، وقد أبدلته الأمم الأخرى التي أخذت هذا العلم عن الكلدان بتعبير آخر إلا العرب والعبرانيين.

ومعرفة العرب بالنجوم مشهورة؛ فقد رأيت أنهم عرفوا السيارات والأبراج، وعرفوا عددًا كبيرًا من الثوابت، ولهم في ذلك مذهب يختلف عن مذاهب المنجمين في الأمم الأخرى،[٢] وفي قدم أسماء تلك النجوم في العربية دليل على قدم معرفة العرب بها وبمواقعها مثل: بنات نعش الكبرى والصغرى، والسها، والظباء، والربع، والرابض، والعوائذ، والذئبين، والنثرة، والفرقد، والقدر، والراعي، وكلب الراعي، والأغنام، والرامح، والسماك، وعصا الضياع، وأولاد الضياع، والسماك الرامح، وحارس السماء، والأظفار، والفوارس، والكف المخضب، والخباء، والعيوق، والعنز، والجديين، وغيرها.

أما منازل القمر؛ فقد قسموها إلى ثمانية وعشرين قسمًا خلافًا لما كان عند الهنود فإنها ٢٧ قسمًا عندهم، وأراد العرب منها غير ما أراده أولئك؛ إذ كان مرادهم منها

معرفة أحوال الهواء في الأزمنة وحوادث الجو في فصول السنة؛ لأنهم كانوا أميين فلم تمكنهم معرفتها إلا بشيء يعاين فأشاروا إليها بالكواكب كما رأيت في الكلام على الأنواء، وإليك أسماء منازل القمر في العربية وهي ٢٨:

الثريا	الجبهة	الإكليل	سعد السعود
الدبران	الدبرة	القلب	سعد الأخبية
الهقعة	الصرفة	الشولة	الفرغ المقدم
الهنعة	العواء	النعائم	الفرغ المؤخر
الذراع	السماك	البلدة	بطن الحوت
النثرة	الغفر	سعد الذابح	الشرطان
الطرف	الزبانيان	سعد بلع	البطين

وكان العرب إذا عدوا المنازل بدأوا بالشرطين لأسباب تتعلق بإقليمهم، وقد بالغ المتعصبون للعرب في صدر الدولة العباسية في براعة العرب في علم النجوم، ومن جملة المتعصبين ابن قتيبة؛ فقد قال في كتابه «تفضيل العرب على العجم»: إن العرب أعلم الأمم بالكواكب ومطالعها ومساقطها،[٣] ومع اعترافنا بما في ذلك من المبالغة، فإننا نستدل منه على توسع العرب في هذا العلم.

ولا غرابة في إتقانهم معرفة النجوم ومواقعها، فإنها كانت دليلهم في أسفارهم وأكثر أحوالهم … فكانوا إذا سألهم سائل عن الطريق المؤدي إلى البلد الفلاني، قالوا: «عليك بنجم كذا وكذا» فيسير في جهته حتى يجد المكان، وربما استعانوا على ذلك أيضًا بذكر مهاب الرياح يعبرون بها عن الجهات، ومن أمثلة ذلك أن سليك بن سعد سأل قيس بن مكشوح المرادي أن يصف له منازل قومه ثم يصف هو له منازل قومه، فتوافقا وتعاهدا ألا يتكاذبا، فقال قيس بن مكشوح: «خذ بين مهب الجنوب والصبا ثم سر حتى لا تدري أين ظل الشجرة، فإذا انقطعت المياه فسر أربعًا حتى تبدو لك رملة وقف بينها الطريق … فإنك ترد على قومي مراد وخثعم»، فقال السليك: «خذ مطلع سهيل ويد الجوزاء اليسرى العاقد لها من أفق السماء، فثم منازل قومي بني سعد بن زيد مناة»

واشتهر في جاهلية العرب في إتقان علم النجوم جماعة منهم: بنو مارية بن كلب، وبنو مرة بن همام الشيباني.[٤]

وقد ألف الأدباء في صدر الإسلام كتبًا في الأنواء ضاعت، وتجد أشياء متفرقة في كتاب الآثار الباقية للبيروني، والأمثال للميداني، وعجائب المخلوقات للقزويني، وحياة الحيوان للدميري، وكلها مطبوع ومتداول.

(٢) الميثولوجيا

ومما يلحق بعلم النجوم أيضًا ما يعبر عنه الإفرنج بالميثولوجيا، وهي عبارة عما كانوا يزعمون وقوعه بين الكواكب، وهي الآلهة عندهم، من الحروب أو الزواج أو نحو ذلك، من حوادث البشر على نحو ما ذكروه عن آلهة اليونان … فالعرب ألهوا الأجرام وعبدوها، وقد ضاع خبر ذلك؛ لعدم تدوينه، على أننا نستدل عليه من بعض ما وصل إلينا من أسماء أصنامهم وعبادة بعض رجالهم، فاللات اسم للزهرة، وقد اشتهر كثيرون بعبادتها وعبادة الشمس والقمر والشعرى، وكانوا يتناظرون في أفضلية بعضها على بعض، قالوا: «وأبو كبشة أول من عبد الشعرى، وكان يقول الشعرى تقطع السماء عرضًا، ولا أرى في السماء شمسًا ولا قمرًا ولا نجمًا يقطع السماء عرضًا غيرها».[٥]

أما تشخيص تلك الأجرام وإنزالها منزلة البشر؛ فقد كان معروفًا عند العرب، ومن الأقاصيص الميثولوجية التي كانوا يتناقلونها أن الدبران خطب الثريا وأراد القمر أن يزوجه بها، فأبت عليه وولت عنه وقالت للقمر: «ما أصنع بهذا السبروت الذي لا مال له؟» فجمع الدبران قلاصة يتمول بها فهو يتبعها حيث توجهت يسوق صداقها قدامه يعنون القلاص.

وأن الجدي قتل نعشًا فبناته تدور به تريده، وأن سهيلًا ركض الجوزاء فركضته برجلها فطرحته حيث هو وضربها هو بالسيف فقطع وسطها. وأن الشعرى اليمانية كانت مع الشعرى الشامية ففارقتها وعبرت المجرة فسميت الشعرى العبور، فلما رأت الشعرى اليمانية فراقها إياها بكت عليها حتى غمصت عينها فسُميت الشعرى الغميصاء.[٦]

ومن هذا القبيل تأليههم بعض المشاهير من الملوك أو القواد أو الأسلاف واعتبار البعض الآخر من نتاج الملائكة أو الجان … فعندهم مثلًا أن بلقيس كانت أمها جنية وأن جرهمًا كان من نتاج الملائكة وبنات آدم، وكذلك كان ذو القرنين عندهم أمه آدمية

وأبوه من الملائكة،[٧] وأما أصل هذه الاعتقادات فإما هندي أو يوناني أو مصري … أما الكلدان فقلما كانت لهم عناية بأمثال ذلك.

(٣) التوقيت

كان العرب يؤرخون بكل عام فيه أمر مشهور، وأشهر الحوادث التي وصلت إلينا أخبارها مما أرخوا بها عام الفيل، أي هجوم الأحباش على مكة، وكان ذلك سنة ٣٨ من ملك كسرى أنوشروان، وأرخت قريش بموت هشام بن المغيرة المخزومي، وكان عندهم تاريخ يسمى «زمن الفطحل» وهو أقدم أزمنتهم، وفيه أقوال لا محل لها هنا.[٨]

وكانت سنتها قمرية وأشهرها ١٢ شهرًا كما هي الآن، وكانوا يكبسون أي يزيدون أيامًا كل سنة حتى تبقى النسبة محفوظة بين شهورهم وتوالي الفصول، ولهم في الكبس طريقة ذكرها البيروني قال:

> وكذلك كانت العرب تفعل في جاهليتها فينظرون إلى فضل ما بين سنتهم وسنة الشمس وهو عشرة أيام وإحدى وعشرون ساعة وخمس ساعة بالجليل من الحساب، فيلحقون بها شهرًا كلما تم منها ما يستوفي أيام شهر. ولكنهم كانوا يعملون على أنه عشرة أيام وعشرون ساعة، وتتولى ذلك النسأة من كنانة المعروفون بالقلامس، وأحدهم قلمس وهو البحر الغزير، وهم أبو ثمامة جنادة بن عوف بن أمية بن قلع بن عباد بن قلع بن حذيفة، وكانوا كلهم نسأة، وأول من فعل ذلك منهم كان حذيفة، وهو ابن عبد فقيم بن عدي بن عامر بن ثعلبة بن مالك بن كنانة وآخر من فعله أبو ثمامة.
>
> وكان أخذ ذلك من اليهود قبل ظهور الإسلام بقريب من مائتي سنة، غير أنهم كانوا يكبسون كل أربع وعشرين سنة قمرية بتسعة أشهر … فكانت شهورهم ثابتة مع الأزمنة جارية على سنن واحد لا تتأخر عن أوقاتها ولا تتقدم، إلى أن حج النبي — عليه الصلاة والسلام — حجة الوداع وأنزل عليه: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا﴾ فخطب — عليه الصلاة والسلام — وقال: (إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض) وتلا عليهم الآية في تحريم النسيء وهو الكبس، فأهملوه حينئذ وزادت شهورهم عما كانت عليه وصارت أسماؤها غير مؤدية لمعانيه ا.هـ.

وكان لعرب الجاهلية أشهر تُعرف بأسماء غيرها اليوم، فيقولون: إنه كان لهم أشهر هذه أسماؤها: المؤتمر، ناجر، إخوان، صوان، حنتم، زباء، الأصم، العادل، النافق، الواغل، الهواع، البرك، وكان لأيام الأسبوع أسماء غير المعروفة الآن وهي: أول، أهون، جبار، دبار، مؤنس، عروبة، شبار، وعندهم لكل ساعة من ساعات النهار اسم، وكذلك لأيام الشهر وغيره.

وتجد أخبار ذلك مفرقة في كتاب الآثار الباقية للبيروني، وفي الأغاني، والعقد الفريد، والكشكول، وأمثال الميداني، وغيرها من كتب الأدب، وفي مروج الذهب للمسعودي، وابن خلدون، وأبي الفداء، وغيرها في عرض الكلام عن العرب الجاهلية.

هوامش

(١) مختصر الدول ٢٢٦.
(٢) القزويني على هامش الدميري ٥٠ ج١.
(٣) البيروني ٢٣٨.
(٤) البيروني ٢٤١.
(٥) الخميس ٦٥ ج١.
(٦) الميداني ٣١٢ جزء ٢.
(٧) الدميري ١٨ ج٢.
(٨) بلوغ الأرب في أحوال العرب ٢١٩ جزء ٣.

ما وراء الطبيعة

(١) الكهانة والعرافة

هما لفظان لمعنى واحد، وفرق بعضهم بينهما فقال: الكهانة مختصة بالأمور المستقبلة، والعرافة بالأمور الماضية. وعلى كل حال فالمراد بهما التنبؤ واستطلاع الغيب ... على أن العرب كانوا يعتقدون في الكاهن القدرة على كل شيء، فكانوا يستشيرونه في حوائجهم، ويتقاضون إليه في خصوماتهم، ويستطبونه في أمراضهم ويستفتونه فيما أشكل عليهم، ويستفسرون منه عن رؤاهم، ويستنبئونه عن مستقبلهم، وبالجملة فالكهان عندهم هم أهل العلم والفلسفة والطب والقضاء والدين، شأن تلك الطبقة من البشر عند سائر الأمم القديمة في بابل وفينيقية ومصر وغيرها.

والكهانة من العلوم الدخيلة على العرب، جاءتهم من بعض الأمم المجاورة لهم، والغالب في اعتقادنا أن الكلدان حملوها إليهم مع علم النجوم. ويؤيد ذلك أن الكاهن يسمى في العربية أيضًا «حازي» أو «حزاء» وهو لفظ كلداني معناه الاشتقاقي الناظر أو الرائي أو البصير، وهو يدل عندهم على الحكيم والنبي، وأما لفظ «الكاهن» فقد اقتبسه العرب بعدئذ من اليهود الذين نزحوا إليهم على أثر ما أصابهم من النكبات في أورشليم وخصوصًا بعد خرابها على يد طيطس سنة ٧٠ للميلاد، وقد أخذ عنهم العرب كثيرًا من الآداب والعادات مما لا يدخل في بحثنا.

وأما الكهانة فأصلها من عند الكلدان، ولعل الذين حملوا علم النجوم إلى العرب هم الكهنة الكلدانيون أنفسهم، فكانت الكهانة في جملة ما حملوه إليهم. ويؤيد ذلك أن العرب كانوا يطلقون لفظ الحزاء على الكاهن والمنجم،[١] على أن أهل بابل ما زالوا يتواردون على بلاد العرب إلى ما بعد الإسلام، والعرب يجلونهم لعلمهم وتعقلهم.

فالعرب كانوا يعتقدون في الكهنة العلم بكل شيء، وأن ذلك يأتيهم بواسطة الأرواح ... فمن كان منهم يعتقد التوحيد نَسب ذلك إلى استطلاع الغيب عن أفواه الملائكة، وإذا كان من عبدة الأصنام اعتقد حلول الأرواح في الأصنام وإباحتها أسرار الطبيعة للكهان والسدنة، فيقول العرب: إن الأصنام تدخلها الجن (أي الأرواح) وتخاطب الكهان، وأن الكاهن يأتيه الجني بخبر السماء وربما عبروا عنه بالهاتف، ومن أقوالهم: «الأحبار في اليهود، والرهبان في النصارى، والكهان في العرب».

فكل ما كان يصنعه الكاهن إنما مصدره الغيب، فإذ استطبه مريض من ألم أو صداع عالجه بالرقى، وإذا استشاره في معضلة خط له في الرمل أو نفث في العقد، وإذا حكمه متخاصمان رمى لهما بالقداح، وإذا استطلعه شخص أخذ قمقمًا جعله بين يديه ونفث فيه ونحو ذلك من الحركات الوهمية، وإذا استفسره عن رؤيا تمتم وتظاهر باستطلاع الغيب.

قلنا: إن الكهانة أتت العرب من بين النهرين، فالكهان القدماء كانوا في الغالب كلدانيين (أو صائبة في قولهم) وكان العلم عندهم، ثم ما لبث العرب أنفسهم أن أخذوا ذلك عنهم فنشأ الكهان منهم، على أن بعض العرب اقتصروا فيما تناولوه على علم دون آخر، فكان بعضهم يتعاطى الطب فقط وبعضهم تعبير الرؤيا أو القيافة أو القضاء.

الكهان

واشتهر في بلاد العرب جماعة كبيرة من الكهان والكواهن، أقدمهم شق وسطيح وحكاياتهما أشبه بالخرافات منها بالحقائق، فعندهم أن الأول كان شق إنسان (أي نصفه) بيد واحدة ورجل واحدة وعين واحدة، وأن سطيحًا كان لحمًا يُطوى كما يُطوى الثوب لا عظم فيه غير الجمجمة ووجهه في صدره، ويزعمون أن هذين الكاهنين عاشا بضعة قرون، إلى غير ذلك من الأوهام، ومن الكهان الذين نبغوا في النهضة العربية قبل الإسلام: خنافر بن التوأم الحميري، وسواد بن قارب الدوسي، وفيهم من يعرفون بما ينسبون إليه من البلاد أو القبائل ... كقولهم: كاهن قريش، وكاهن اليمن، وكاهن حضرموت، وغيرهم.

ويقال نحو ذلك في العرافين، وأكثرهم ينسبون إلى بلدانهم وقبائلهم كعراف هذيل، وعراف نجد، وأشهرهم عراف اليمامة شهره عروة بن حزام ببيت قاله فيه — وكذلك الشعراء يشهرون ممدوحيهم — وهو قوله:

أقول لعرَّاف اليمامة داوني فإنك إن داويتني لطبيب

وأما الكواهن من النساء فإنهن كثيرات منهن طريفة كاهنة اليمن، وهي أقدمهن. وإليها ينسبون الإنذار بخراب سد مأرب وإتيان سيل العرم، وزبراء بين الشحر وحضرموت، وسلمى الهمدانية الحميرية، وعفيراء الحميرية، وفاطمة الخثعمية بمكة، وزرقاء اليمامة وغيرهن، وينسبن إلى القبيلة أو المدينة ككاهنة بني سعد، يزعمون أنها أقدم عهدًا من شق وسطيح وأنها استخلفتهما،[٢] وما زالت الكهانة في العرب حتى جاء الحديث بإبطالها وهو: «لا كهانة بعد النبوة».[٣]

وكان للكهان عند العرب لغة خاصة تمتاز بتسجيع خصوصي يُعرف بسجع الكهان مع تعقيد وغموض، ولعلهم كانوا ينوخون ذلك للتمويه على الناس بعبارات تحتمل غير وجه كما يفعل بعض مشايخ التنجيم في هذه الأيام، حتى إذا لم يصدق تكهنهم جعلوا السبب قصور الناس في فهم الكاهن. ومن أمثلة سجع الكهان ما يروونه عن طريفة كاهنة اليمن حين خاف أهل مأرب سيل العرم وعليهم مزيقياء عمرو بن عامر، فإنها قالت لهم: «لا تؤموا مكة حتى أقول وما علمني ما أقول إلا الحكم المحكم رب جميع الأمم من عرب وعجم» قالوا لها: «ما شأنك يا طريفة؟» قالت: «خذوا البعير الشذقم فخضبوه بالدم تكن لكم أرض جرهم جيران بيته المحرم».[٤]

(٢) القافية وغيرها

ومن قبيل الكهانة أيضًا القيافة، لكنها تختص بتتبع الآثار والاستدلال منها على الأعيان، وهي قسمان: قيافة الأثر، وقيافة البشر، والأولى تختص بتتبع آثار الأقدام أو الحوافر أو الأخفاف والاستدلال من آثارها في الرمال أو التراب على أصحابها، والفائدة من ذلك الاهتداء إلى الفارِّ من الناس أو الضال من الحيوان، وقد أتقن العرب ذلك حتى فرق بعضهم بين أثر قدم الشاب والشيخ، وقدم الرجل والمرأة، والبكر والثيب، وأما قيافة البشر فهي الاستدلال بهيئات أعضاء الشخصين على المشاركة والاتحاد بينهما في النسب والولادة وسائر أحوالهما، وهي من قبيل الفراسة.

وكانت القيافة شائعة في العرب ثم اختصت بعض القبائل بها دون البعض الآخر، وأشهر العرب بقيافة الأثر بنو مدلج وبنو لهب، ولا تزال هذه القيافة شائعة إلى اليوم في بعض قبائل نجد، مثل بني مرة وهم أعلم الناس بها حتى لقد يعرف أحدهم الإنسان من أثره، وربما نظر إلى أثر بعير فقال: هذا بعير فلان! وكثيرون منهم يميزون بين العراقي والشامي والمصري والمدني!

والفراسة كانت شائعة عند العرب، وكانت لهم فيها براعة يستدلون بهيئة الإنسان وأشكاله وأقواله على أخلاقه ومناقبه، وهي من قبيل الذكاء وسرعة الخاطر، وسجية طبيعية.

ومن قبيل الكهانة تعبير الرؤيا، وكان معروفًا عند العرب، وكانوا يفزعون إلى الكهان في تفسير الأحلام على أن كثيرين من غير الكهان كانوا يتعاطونها[٥] ومن هذا القبيل زجر الطير وخط الرمل، وقد أغضينا عنهما لضيق المقام.

وتجد أخبار كهانهم في كتب التاريخ وكتب الأدب وخصوصًا الأغاني والعقد الفريد وفي السيرة النبوية وكتب التفسير وفي الجزء الأول من مروج الذهب للمسعودي والأول من أبي الفداء وفي معجم البلدان لياقوت الحموي ومعجم ما استعجم للبكري وحياة الحيوان للدميري وفي كتب الأدب وغيرها ...

هوامش

(١) السيرة الحلبية ٤٨ ج١.
(٢) السيرة الحلبية ٣٦ ج١.
(٣) كشف الظنون ٣٣٩ ج٢.
(٤) الأغاني ١١٠ ج١٣.
(٥) السيرة الحليبة ٢٩١ ج١.

عصر صدر الإسلام

من ظهور الإسلام إلى سنة ٤١هـ

ظهر الإسلام في جزيرة العرب فشغل أهلها في أثناء حياة الرسول ومعظم أيام الراشدين بالفتوح والجهاد والأسفار، وجاء الإسلام بالقرآن والحديث فأخذا بمجامع قلوبهم واستقرا في المكان الأول من أذهانهم، وغيَّرا من عاداتهم وأخلاقهم وسائر أحوالهم، فظهر أثر ذلك في علومهم وآدابهم.

التغيير الذي أحدثه الإسلام في العرب

(١) اجتماع كلمة القبائل

كان العرب في الجاهلية يتفاضلون بالعصبية ويتفاخرون بالأنساب، فلما جاء الإسلام كان في جملة ما بدله من أحوالهم أنه جمع كلمتهم وصاروا يدًا واحدة على اختلاف أنسابهم ومواطنهم، وبعد أن كان اليمني يفاخر الحجازي، والمضري يفاخر الحميري، ونحو ذلك من مفاخرات القبائل والبطون والأفخاذ، جاء الإسلام فجمعهم تحت راية واحدة باسم واحد هو «الإسلام» فقال الرسول: «المسلمون إخوة» وقال من خطبة ألقاها يوم فتح مكة: «يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم وآدم من تراب»،[١] وقال من خطبة في حجة الوداع: «أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب وأكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى».[٢]

واقتدى بالرسول خلفاؤه الأولون لا سيما عمر بن الخطاب، فإن جبلة بن الأيهم ملك غسان بعد أن أسلم اتفق وهو يطوف في الكعبة أن فزاريًّا وطئ إزاره فانحل، فرفع جبلة يده وهشم أنف الفزاري فشكاه إلى عمر، فأراد عمر أن يهشم أنف جبلة فقال: «وكيف ذلك يا أمير المؤمنين وهو سوقة وأنا ملك؟!» فأجابه عمر: «إن الإسلام جمعك وإياه، فلست تفضله بشيء إلا بالتُّقى والعافية» فلم يحتمل جبلة ذلك فعمد إلى الفرار.

انتشار العرب في الأرض

كان العرب محصورين في جزيرتهم القاحلة، وهم أهل بادية وخشونة وشظف من العيش يسمعون بالرومي أو الفارسي، فيعظمون قدره ويتمثلون بسطوة قيصر وكسرى، ولم يتجاوزوا جزيرة العرب إلا قليلًا، فلما ظهر الإسلام واجتمعت كلمة العرب، نهضوا للفتح وأوغلوا في البلاد وفتحوا الأمصار، ولم يستطع شيء أن يقف تيارهم، فانساحوا في الأرض حتى نصبوا أعلامهم على ضفاف الكنج شرقًا، وشواطئ المحيط الأطلسي غربًا، وضفاف نهر لورا شمالًا، وأواسط إفريقيا جنوبًا، وملأوا الأرض فتحًا ونصرًا واحتلوا مدائن كسرى وقيصر، وأقاموا في المدن وركنوا إلى الحضارة وتعودوا الترف واختلطت أنسابهم بتوالي الأجيال. والقبائل التي قامت بنصرة الإسلام ونشره قبائل مضر وأنصارها من العدنانية والقحطانية.

ولم ينتشر العرب بالفتح فقط، ولكنهم هاجروا أيضًا بأهلهم وخيامهم وأنعامهم؛ التماسًا لسعة العيش في البلاد العامرة من مملكتهم الجديدة. فقد جلت بطون من خزاعة إلى مصر والشام في صدر الإسلام؛ لأن أرضهم أجدبت فمشوا يطلبون الغيث والمراعي، وكذلك كانت تفعل العرب كلما أصابها جدب حتى كانت لهم أعوام خاصة يجلون فيها إلى مصر والشام يسمونها أعوام الجلاء، وكانوا يفعلون ذلك قبل الإسلام؛ إذا أجدبت أرضهم يمموا العراق وفارس فيعطيهم الفرس التمر والشعير ... ولكنهم كانوا لا يقيمون هناك بل يرجعون إلى بلادهم؛ خوفًا من الذل في سلطان دولة أعجمية، أما بعد الإسلام، فكان المقام يطيب لهم في بلاد فتحها آباؤهم وأعمامهم وأخوالهم وغرسوا فيها أعلامهم وجعلوها فيئًا لهم.

ولا يخفى ما يترتب على مثل هذا الاختلاط من الانقلاب في اللغة والآداب، لكنه لم ينضج ويظهر إلا في عصر الأمويين فما بعده.

انتشار القرآن الكريم

بعد أن كان هَم عربِ الجاهلية إذا اجتمعوا في نادٍ أو سوق إنشاد الأشعار والتفاخر أو التفاضل، أصبح همهم القرآن وحفظه وتلاوته صباح مساء، وإذا بعث الخليفة عاملًا إلى بلدة أمره أن يحكم بالعدل وأن يعلم المسلمين القرآن وكانوا يعلمونهم الحديث أيضًا.

(٢) تأثير ذلك التغيير في آداب اللغة

إن ظهور الإسلام انقلاب ديني سياسي اجتماعي، ولا بد لكل انقلاب من آثار يخلفها في نفوس أصحابه وعقولهم، فيحدث تغييرًا في آدابهم وعلومهم، والتغيير الذي أحدثه الإسلام في آداب الجاهلية يرجع إلى ثلاثة أوجه:

أولًا: أنه أبطل بعض تلك الآداب.

ثانيًا: أنه نوَّع البعض الآخر.

ثالثًا: أنه أحدث آدابًا جديدة لم تكن من قبل ...

فالآداب التي أبطلها الإسلام الكهانة وفروعها؛ إذ جاء الحديث بتحريمها،[٣] والآداب التي أحدثها، بعضها اقتضاه الإسلام كالعلوم الشرعية واللسانية، وبعضها نُقل عن الأمم الأخرى كالفلسفة والطبيعيات والطب، وسيأتي الكلام عنها في حينه.

أما النوع الذي أحدثه الإسلام في آداب الجاهلية، فأكثره في الشعر والخطابة وهما من الآداب الجاهلية التي زادها الإسلام رونقًا، لكن الخطابة سبقت الشعر في الرقي؛ لحاجة المسلمين إليها في الفتوح والغزوات، والعرب لا يزالون على بداوتهم تتأثر نفوسهم من التصورات الشعرية سواء سُبكت في قالب الخطابة أو الشعر، والخطابة أقرب تناولًا؛ إذ لم يرد في القرآن ما يُنفر الناس منها كما ورد في الشعر والشعراء ... فكما كان الشاعر في الجاهلية يقدم على الخطيب لفرط حاجتهم إلى الشعر في تقييد مآثرهم وتفخيم شأنهم والتهويل على عدوهم والتهيب من فرسانهم، أصبح الخطيب في الإسلام مقدمًا على الشاعر؛ لفرط حاجتهم إلى الخطابة في استنهاض الهمم وجمع الأحزاب وإرهاب الأعداء.[٤]

هوامش

(١) ابن هشام ٢١٩ ج٢.
(٢) البيان والتبيين ١٦٤ ج١.
(٣) مشكاة المصابيح ٣٩٢.
(٤) البيان والتبيين ٩٨ ج١.

الخطابة في عصر صدر الإسلام

والفرق بين الخطابة في الجاهلية وفي الإسلام أن الإسلام زادها بلاغة وحكمة بما كان يتوخاه الخطباء من تقليد أسلوب القرآن واقتباس الآيات القرآنية، وقد كان للقرآن نحو هذا التأثير في الشعر أيضًا، ولكن الخطابة أوسع مجالًا للاقتباس، فأخذ الخطباء يرصعون خطبهم بالآيات القرآنية تمثلًا أو إشارة أو تهديدًا حتى لقد يجعلون الخطبة برمتها مجموع آيات، كما فعل مصعب بن الزبير لما قدم العراق وأراد أن يحرض أهله على الطاعة لأخيه عبد الله، فصعد المنبر وقال: «بسم الله الرحمن الرحيم ﴿طسم ۞ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۞ نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۞ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (وأشار بيده نحو الشام) ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾، (وأشار بيده نحو الحجاز) ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾، (وأشار بيده نحو العراق)».[1]

وزادت الخطابة بعد الإسلام قوة ووقعًا في النفوس بنهضة العرب للحروب وانتصارهم في أكثر مواقعها، فازدادوا أنفة وسمت نفوسهم فسما بها ذوقهم في البلاغة وشحذت قرائحهم بما شاهدوه في البلاد الجديدة والأمم الجديدة والألسنة الجديدة، فبلغت الخطابة عندهم مبلغًا قلما سبقهم فيه أحد من الأمم التي تقدمتهم بلاغة وإيقاعًا وتأثيرًا ... حتى اليونان والرومان، ولا ننكر ما كان من تفوق هاتين الأمتين في الخطابة وما نبغ بين رجالهما من الخطباء الذين لا يشق لهم غبار: كديموستنيس، وبروتاجوراس، وبريكليس، من خطباء اليونان، وشيشرون، ويوليوس قيصر، من خطباء

الرومان، ولكن العرب لم يأتوا بأقل مما أتى به أولئك بلاغة ووقعًا، وربما كان الخطباء في الإسلام أكثر عددًا، وخطبهم أوفر وأبلغ مع اعتبار الفرق بين الأمتين لغةً وخلقًا وأدبًا.

فقد ذكروا لديموستنيس أخطب خطباء اليونان ٦١ خطبة نصفها منسوب إليه خطأ، وهذه خطب الإمام علي تُعد بالمئات، وأما في كثرة الخطباء فالعرب كانوا في صدر الإسلام من أكثر الأمم خطباء؛ لأن خلفاءهم وأمراءهم وقوادهم كان معظمهم من الخطباء حتى النساك والزهاد.[٢]

ولا غرابة في ذلك لأن العرب أهل خيال وذوو نفوس حساسة، وللبلاغة تأثير شديد في عواطفهم تقعدهم وتقيمهم، وقد كان ذلك من جملة ما ساعد على نشر الإسلام بينهم، وكثيرًا ما توقف فتح البلد أو الحصن على خطاب يتلوه القائد على رجاله فتثور فيهم النخوة وتسري في عروقهم الحماسة، فيستميتون في الدفاع أو الهجوم، وفي أخبار الفتوح أدلة كثيرة لا يساعد المقام على إيرادها، وكثيرون من القواد إنما ساعدهم على النصر قوة عارضتهم وتأثير خطبهم في نفوس رجالهم.

وإذا رجعت إلى حوادث الفتح أو جمع الأحزاب أو إخماد الثورات، رأيت عجبًا، وأول ثورة كادت تهب في الإسلام ثورة أهل المدينة لما بلغهم موت الرسول، فهاجوا حتى خاف الصحابة سوء العاقبة، فقام أبو بكر خطيبًا فقال: «أيها الناس إن يكن محمد قد مات فإن الله حي لم يمت … وتلا الآية الكريمة: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾[٣] فهذه الكلمات القليلة كانت كافية لإخماد تلك الثورة، وقس على ذلك خطب السقيفة وخطب من تولى بعده من الخلفاء الراشدين.

وأعظم الخطباء في عصر صدر الإسلام الرسول والخلفاء والقواد، وترى أمثلة من أقوالهم متفرقة في السيرة النبوية وكتب الغزوات والفتوح والتاريخ، وفي العقد الفريد وغيره من كتب الأدب، وكلها مطبوعة مشهورة، وأشهر خطباء ذلك العصر الإمام علي بن أبي طالب؛ فقد جمعت خطبه في كتاب «نهج البلاغة» جمعها الشريف المرتضى المتوفى سنة ٤٣٦هـ، ولا نظن كل ما حواه من الخطب له، وقد شرح نهج البلاغة غير واحد، وطبع مرارًا في الشام ومصر، ومنها شرح مطول لعبد الحميد بن أبي الحديد المعتزلي طبع في طهران في عشرين جزءًا، وفيه فوائد جمة عن تاريخ الإسلام وتمدنه.

هوامش

(١) البيان ٢٩ ج٢.

(٢) البيان ١٣٥ ج١.

(٣) البيان ١٢٢ ج١ والشهرستاني ٩ ج٢.

الشعر في عصر صدر الإسلام

(١) الرسول والشعر

علمت مما تقدم أن أكثر شعراء الجاهلية من الفرسان والأمراء وأهل الحرب، وأكثر أشعارهم في الفخر والحماسة بما بين قبائلهم من التنازع، ومرجع ذلك كله إلى العصبية … كل قبيلة تطلب الفضل لنفسها على سواها، فلما جاء الإسلام وجمع كلمة العرب وذهبت العصبية الجاهلية لم تبقَ حاجة إلى الشعر أو الشعراء … ناهيك باشتغال أهل المواهب والقرائح بالحروب في الجهاد لنشر الإسلام وبالأسفار، وقد أدهشتهم أساليب القرآن وبهرتهم النبوة وانصرفت قرائحهم الشعرية إلى الخطابة، لحاجتهم إليها في استنهاض الهمم وتحريك الخواطر للجهاد، وهي شعر منثور، وقد جاء الطعن على الشعراء في الآية الكريمة: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾.

وزد على ذلك أن الرسول لم يكن راغبًا في الشعر؛ لأنه من عوامل التفريق، وهو يدعو العرب إلى الاجتماع، وكان إذا روى شعرًا لا يلتفت إلى وزنه،[١] ومن أقواله: «لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحًا حتى يريه خير من أن يمتلئ شعرًا»،[٢] ولم يكن مع ذلك يبخس الشعر حقه. أما الآية الكريمة التي نزلت في الشعراء إنما يراد بها شعراء قريش الذين تناولوه بالهجاء والأذى، وقد قبح الشعر في الذين غلب الشعر على قلوبهم حتى شغلهم عن الدين وفروضه، وليس الشعر على إطلاقه، ولذلك فقد أبدى إعجابه به بقوله: «إن من الشعر لحكمة» يشير إلى الأشعار التي فيها تدين أو دفاع عن الحق، ومن أقواله: «أصدق كلمة قالها شاعر قول لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل» وكثيرًا ما كان يحب أن يسمع شعر أمية بن أبي الصلت؛ لما فيه من ذكر الله والبعث.[٣]

أما سائر أغراض الشعر فكان يُعرض عنها ويرد عليها بكلام القرآن. يروى من هذا القبيل أن الطفيل بن عمرو الدوسي أتى الرسول، فعرض عليه الإسلام فقال له: «إني رجل شاعر فاسمع ما أقول» فقال: «هات» فأنشد:

لا وإله الناس نألم حَرْبهم	ولو حاربتنا منهبٌ وبنو فهم
ولما يكن يومٌ تزول نجومه	تطير به الركبان ذو نبأ ضخم
أسلِما على خسْفٍ ولست بخالد	وما لي من واقٍ إذا جاءني حَتْمى
فلا سلم حتى تخفر الناس خيفةٌ	وتصبح طير كانسات[٤] على لحم

فأجابه النبي «وأنا أقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَد * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾» وقرأ المعوذتين، فأسلم الرجل[٥] وكان النبي مع ذلك يقرب الشعراء المسلمين ويشجعهم على قول الشعر؛ لتأثيرهم في الأذهان.[٦]

وعرضت قتيلة بنت النضر بن الحارث للنبي وهو يطوف، وكان قد قتل أباها فاستوقفته وجذبت رداءه حتى انكشف منكبه وأنشدته أبياتًا مطلعها:

يا راكبًا إن الأثيلَ مَظِنَّةٌ	من صُبْحِ خامسةٍ وأنت موفَّق

إلى أن قالت:

أمحمدٌ ها أنت نَجْلُ نجيبةٍ	من قومها والفحلُ فحلٌ مُعرِق
ما كان ضَرَّك لو مَنَنت وربما	مَنَّ الفتى وهو المَغيظ المخنق
والنضْرُ أقربُ من قتلتَ وسيلةً	وأحقهم إن كان عِتْقٌ يعتق

فقال النبي: «لو كنت سمعت شعرها هذا ما قتلته»،[٧] ولذلك لم يكن يرى بأسًا من انتصار الشعراء له يدفعون عنه أقوال شعراء قريش، الذين جاءت الآية بالطعن عليهم، وتوعدهم الرسول ففر بعضهم من وجهه ومات البعض الآخر،[٨] وقد تقدم في ترجمة حسان بن ثابت أن أشهر من هجا المسلمين ثلاثة: عبد الله بن الزبعري، وأبو سفيان، وعمرو بن العاص، وأن النبي قال للأنصار: «ما يمنع الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم»، فانتصب للدفاع عنه ثلاثة هم: حسان بن ثابت، وكعب بن مالك،

وعبد الله بن رواحة، وكان يرى لأشعارهم تأثيرًا في أعدائه، ومن أقواله: «هؤلاء النفر (الشعراء) أشد على قريش من نضح النبل» وقال لحسان مرة: «اهجهم (يعني قريشًا) فوالله لهجاؤك عليهم أشد من وقع السهام في غلس الظلام، اهجهم ومعك جبريل روح القدس والق أبا بكر يعلمك تلك الهنات».[٩]

(٢) الشعر والخلفاء الراشدون

وسار الخلفاء الراشدون على خطة الرسول في تحريض الناس على حفظ القرآن … ذكروا أن غالبًا أبا الفرزدق الشاعر جاء بابنه وهو غلام إلى علي بالبصرة بعد واقعة الجمل وقال له: «إن ابني هذا من شعراء مضر فاسمع له» فأجابه علي: «علمه القرآن».

وكانوا ينشطون من يعدل عن الشعر إلى القرآن كما فعل عمر بن الخطاب باستنشاد الشعراء على يد المغيرة بن شعبة ففضل من عدل إلى القرآن، وقد تقدم حديث ذلك في ترجمة لبيد، على أنهم اقتدوا بالنبي في التمييز بين شعر وشعر وشاعر وشاعر، وحرض عمر المسلمين على حفظ الشعر فقال: «رووا أولادكم ما سار من المثل وحسن من الشعر»،[١٠] وقد أراد أحسنه، ويؤيد ذلك قوله: «أرووا من الشعر أعفه».[١١]

وقد ازدادوا حاجة إلى الشعر لما عمدوا إلى تفسير القرآن فقال ابن عباس: «إذا قرأتم شيئًا في كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه في أشعار العرب»،[١٢] وفي مقدمة جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القريشي أمثلة كثيرة من هذا القبيل.[١٣]

ولم يكن الراشدون يرون بأسًا من أن يقولوا الشعر هم أنفسهم؛ فقد رووا لأبي بكر قصيدة حماسية قالها في بعض الغزوات، ورووا لعمر أبياتًا في الحكم ونحوها وكذلك لعثمان. أما علي، فالمروي من شعره كثير بعضه قاله في صفين،[١٤] وليس بين الصحابة من لم يقل الشعر أو يتمثل به.[١٥]

على أنهم كانوا يمنعون الشعراء من هجو الإسلام والمسلمين وأشدهم وطأة في ذلك عمر؛ فقد أخذ عهدًا على الحطيئة ألا يهجو رجلًا مسلمًا.[١٦]

ويقال بالإجمال: إن الشعر في عصر الراشدين توقف لاشتغال المسلمين عنه بالفتوح إلا ما كان منه من قبيل الجهاد كأقوال حسان وأصحابه في الدفاع عن النبي والإسلام.

وأما سائر الشعراء المخضرمين فقد ترجمنا لهم مع شعراء الجاهلية؛ لأنهم نشأوا فيها وتطبعوا بطبائع أهلها.

هوامش

(١) الأغاني ٦٧ ج١٣.

(٢) العمدة ١٢ ج١، ويريه: يفسده.

(٣) مشكاة المصابيح ٤٠٩.

(٤) كانسات: عاكفات.

(٥) الأغاني: ٥٣ ج١٢.

(٦) الأغاني: ٦٧ ج١٣.

(٧) العمدة ٣٠ ج١.

(٨) العمدة ٧ ج١.

(٩) العمدة ١٢ ج١.

(١٠) البيان والتبيين ٢١٣ ج١.

(١١) الجمهرة: ١٥.

(١٢) العمدة: ١١ ج١.

(١٣) الجمهرة: ٥.

(١٤) العمدة: ١٢ ج١.

(١٥) الجمهرة: ١٦.

(١٦) العقد الفريد: ١١١ ج٣.

اللغة والإنشاء في عصر صدر الإسلام

وكان لظهور الإسلام تأثير كبير في اللغة العربية وأساليبها وألفاظها لتشرب قرائح المسلمين روح القرآن، وحفظهم كلامه وإعجابهم به، وطبيعي أن الكاتب تتكيف ملكة اللغة فيه على مقتضى محفوظه من أشعارها وأمثالها وأساليبها، فلا غرو إذا ظهرت أساليب القرآن وألفاظه في لغة المسلمين: شعرًا ونثرًا، كتابة وخطابة، ويرجع ذلك التغيير إلى قسمين: تغيير في الأسلوب، وتغيير في الألفاظ.

(١) التغيير في الأسلوب

أما الأسلوب الإنشائي فلا يمكننا تعيين مقدار التغيير الذي أصابه إلا بالرجوع إلى ما وصلنا من إنشاء الجاهليين، والفرق بينه وبين أسلوب القرآن كالفرق بين الثريا والثرى … أين قول طريفة كاهنة اليمن حين خاف أهل مأرب سيل العرم وعليهم مزيقياء عمرو بن عامر، فإنها قالت لهم: «لا تؤموا مكة حتى أقول وما علمني ما أقول إلا الحكم المحكم رب جميع الأمم من عرب وعجم إلخ» من أساليب القرآن؟

وتولد في صدر الإسلام ضرب من الإنشاء من أبلغ ما يكون، وأحسن الأمثلة عليه مخاطبات الخلفاء والقواد، وكلها من السهل الممتنع … ككتاب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص لما بعث به إلى فتح مصر، ثم تخوف فكتب إليه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من الخليفة عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص عليه سلام الله تعالى وبركاته، أما بعد فإن أدركك كتابي هذا وأنت لم تدخل مصر فارجع عنها، وأما إذا أدركك وقد دخلتها أو شيئًا من أرضها … فامض واعلم أني ممدك».

وكتب ابن الخطاب إلى ابن العاص يستنجده في مجاعة بقوله: «من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى العاصي ابن العاص سلام، أما بعد فلعمري يا عمرو ما تبالي إذا شبعت أنت ومن معك أن أهلك أنا ومن معي فيا غوثاه ثم يا غوثاه» فكتب إليه عمرو: «إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من عمرو بن العاص، أما بعد فيا لبيك ثم يا لبيك، قد بعثت إليك بِعيرٍ أولها عندك وآخرها عندي والسلام».

ذلك أسلوبهم فيما يكتبونه أو يقولونه من المخابرات السياسية أو الخطب الحماسية أو العهود أو العقود … حتى إنك إذا قرأت لهم رسالة تبينت أسلوب صدر الإسلام فيها، فيهون عليك التفريق بين الصحيح والموضوع منها …

وتجد أمثلة من المخابرات السياسية والخطب ونحوها على أسلوب صدر الإسلام في كتب الفتوح والغزوات، كفتوح الشام للواقدي، وفتوح البلدان للبلاذري، ومنها جانب كبير في خطط المقريزي عن فتوح مصر، وتجد معظمها مجموعًا في كتاب فتوح الشام للشيخ أبي إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي البصري من أهل أواسط القرن الثاني للهجرة طُبع في كلكته سنة ١٨٥٤، وقد شاهدنا فيه ما لم نشاهده في غيره مما وصل إلينا من كتب الفتح … فإنه عبارة عن مجموع المخابرات السياسية أو الأوامر الرسمية التي جرت بين الخلفاء الراشدين وقوادهم أو ما تكاتب به القواد أو ما كتبوه إلى كبراء الروم وغيرهم، أو ما عقدوه من العهود في أثناء حروبهم في الشام إلى فتحها وفتح أجنادها … كأنها الأصول التي أخذت أخبار الفتح عنها.

(٢) التأثير في الألفاظ

أما تأثير القرآن الكريم في ألفاظ اللغة فضلًا عن الأسلوب، فظاهر فيما دخلها من الألفاظ الإسلامية مما اقتضاه الإصلاح الديني أو الشرعي، وأكثر هذه الألفاظ كانت موجودة في اللغة قبل الإسلام، لكنها كانت تدل على معانٍ أخرى فتحولت للدلالة على ما يقاربها من المعاني الجديدة، فلفظ «مؤمن» مثلًا كان معروفًا في الجاهلية، ولكنه كان يدل عندهم على الأمان أو الإيمان وهو التصديق … فأصبح بعد الإسلام يدل على المؤمن وهو غير الكافر، وله في الشريعة شروط معينة لم تكن من قبل، وكذلك المسلم والكافر والفاسق ونحوها، ومما حدث من المصطلحات الشرعية الصلاة وأصلها في العربية الدعاء، وكذلك الركوع والسجود والحج والزكاة … فقد كان لهذه الألفاظ وأشباهها معانٍ تبدلت بالإسلام وتنوعت.

وقس على ذلك المصطلحات الفقهية، كالإيلاء والظهار والعدة والحضانة والنفقة والإعتاق والاستيلاد والتعزير واللقيط والآبق والوديعة والعارية والشفعة والفرائض والقسامة وغيرها.

ويروون ألفاظًا وتراكيبَ نطق بها الرسول ولم تُسمع من العرب قبله كقوله: «مات حتف أنفه» و«حمي الوطيس» و«لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين».[١]

وفي كتابنا «تاريخ اللغة العربية» بحث ضاف فيما دخل اللغة من الألفاظ والأساليب قبل الإسلام وبعده.

هوامش

(١) المزهر: ١٠٣ ج١.

العلوم التي حدثت في عصر صدر الإسلام

(١) جمع القرآن وتدوينه

لم يحدث في عصر صدر الإسلام علم، ولكن فيه وضعت جرثومة العلوم الشرعية بجمع القرآن وحفظ الحديث، والقرآن لم ينزل مرة واحدة، وإنما نزل تدريجيًّا في أثناء عشرين سنة على مقتضى الأحوال من أول ظهور الدعوة إلى وفاة النبي، بعضه في مكة وبعضه في المدينة، فكان كلما قال آية أو سورة كتبوها على صحف الكتابة في تلك الأيام، وهي الرقاع من الجلود والعريض من العظام كالأكتاف والأضلاع وعلى العسب وهي قحوف جريد النخل واللخاف وهي الحجارة العريضة البيضاء، فتوفي النبي سنة ١١هـ والقرآن إما مدون على أمثال هذه الصحف أو محفوظ في صدور الرجال، وكانوا يسمون حفظته «القراء».

وكان أكثر الناس عناية بتدوينه على عهد النبي علي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، وأبو الدرداء، ومعاذ بن جبل، وثابت بن زيد، وأبيٌّ بن كعب، وغيرهم،[١] فلما قام أبو بكر بالأمر وارتد أهل جزيرة العرب عن الإسلام، بعث جندًا لمحاربتهم فقتل من الصحابة في تلك الحروب جماعة كبيرة، وخصوصًا في غزوة اليمامة قُتل فيها وحدها ١٢٠٠ من المسلمين فيهم ٧٠٠ من القراء، فلما بلغ ذلك أهل المدينة فزعوا فزعًا شديدًا وخصوصًا عمر بن الخطاب رجل الإسلام والمسلمين، فأشار على أبي بكر بجمع القرآن؛ لئلا يذهب منه شيء بموت أهله، فتوقف أبو بكر وقال: «كيف أفعل أمرًا لم يفعله رسول الله ولم يعهد إلينا فيه عهدًا» فما زال به عمر حتى أقنعه بجمعه، فأحضر أبو بكر زيد بن ثابت لأنه كان من كتبة الوحي، فجمع ما كان مدونًا عند الصحابة، وربما وجد السورة مكتوبة عند اثنين أو ثلاثة أو أكثر، وقد لا يوجد من الآيات إلا نسخة واحدة

كآخر سورة التوبة، فإنه لم يوجد منها إلا نسخة واحدة عند أبي خزيمة الأنصاري،[٢] فجمعه من تلك المحفوظات ومن صدور الرجال وسلمه إلى أبي بكر … فظلت الصحف عنده حتى توفي سنة ١٣هـ، فلما تولى عمر تسلمها وظلت عنده حتى توفي سنة ٢٣هـ، فانتقلت إلى ابنته حفصة من أزواج الرسول الكريم.

وفي أيام عثمان اتسعت الفتوح وتفرق المسلمون في مصر والشام والعراق وفارس وإفريقية وفيهم القراء، وعند بعضهم نسخ من القرآن، وقد رتبها كل منهم ترتيبًا خاصًّا، فعول أهل كل مصر على من قام بينهم من القراء، فأهل دمشق وحمص مثلًا أخذوا عن المقداد بن الأسود، وأهل الكوفة أخذوا عن ابن مسعود، وأهل البصرة عن أبي موسى الأشعري،[٣] ومع شدة عناية القراء بحفظ القرآن وضبطه، لم ينجوا من الاختلاف في قراءة بعض آياته.

واتفق في أثناء ذلك أن حذيفة بن اليمان كان في جملة من حضر غزوة أرمينيا وأذربيجان، فرأى في أثناء سفره اختلافًا بين المسلمين في قراءة بعض الآيات، وسمع بعضهم يقول لبعض: «قراءتي خير من قراءتك» فلما رجع إلى المدينة أنبأ عثمان بذلك وأنذره بسوء العقبى إن لم يتلافَ الأمرَ إلى أن قال: «أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى» فبعث عثمان إلى حفصة أن «أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك» فأرسلتها، فدعا عثمان زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وأمرهم أن ينسخوا القرآن ويستعينوا على القراءة بما حفظه القراء، وقال لهم: «إذا اختلفتم وزيد بن ثابت في شيء فاكتبوه بلسان قريش فإنما أُنزل بلسانهم، ففعلوا[٤] سنة ٣٠ هجرية وكتبوا أربعة مصاحف بعثها عثمان إلى الأمصار الأربعة: مكة، والبصرة، والكوفة، والشام،[٥] واثنين أبقاهما في المدينة واحد لأهلها وواحد لنفسه وهو الذي يسمونه «الإمام» ثم أمر بجمع ما كان قبل ذلك من المصاحف والصحف[٦] وأمر بإحراقه».

فأصبح المعول في المصاحف على ما كتبه عثمان، واشتغل المسلمون في الأمصار باستنساخ تلك المصاحف … فنسخوا منها شيئًا كثيرًا في مدة قليلة، ذكر المسعودي في عرض كلامه عن واقعة صفين بين علي ومعاوية وما كان من ظهور علي وما أشار به عمرو بن العاص من رفع المصاحف: «ورُفِعَ من عسكر معاوية نحو من خمسمائة مصحف»،[٧] وليست هذه كل مصاحف المسلمين، فاعتبر هذا العدد وبين كتابة مصحف عثمان وواقعة صفين سبع سنين.

ومع تشديد الصحابة في التعويل على مصحف عثمان دون سواه، فقد ظل عند بعض المسلمين نسخ من مصاحف أخرى أشهرها مصحف علي. ويعتقد الشيعة أن عليًّا أول من خط المصاحف عند وفاة النبي، وتنوقل مصحفه في شيعته وبقي عند أهل جعفر، وقد ذكر ابن النديم في كتاب الفهرست أنه رأى عند أبي يعلى حمزة الحسني مصحفًا بخط علي يتوارثه بنو حسن[٨] ومنها مصحف عبد الله بن مسعود وأبيٍّ بن كعب، ولكل منها ترتيب خاص في سورة.[٩]

(٢) الخط العربي وتاريخه

بمناسبة كلامنا على جمع القرآن في زمن الخلفاء الراشدين، نأتي بتاريخ الخط، وإن تجاوزنا في تاريخه ما بعد هذا العصر؛ استيفاء للكلام في موضوع واحد، فنقول:

ليس في آثار العرب بالحجاز ما يدل على أنهم كانوا يعرفون الكتابة إلا قبيل الإسلام، مع أنهم كانوا محاطين شمالًا وجنوبًا بأمم من العرب خلفوا نقوشًا كتابية كثيرة، وأشهر تلك الأمم حمير في اليمن، كتبوا بالحرف المسند، والأنباط في الشمال كتبوا بالحرف النبطي، وآثارهم باقية إلى هذه الغاية في ضواحي حوران والبلقاء، وقد عثر المنقبون على آثار كتابية في الحجاز لكنها بالخط المسند، والسبب في ذلك أن الحجازيين أو عرب مضر كانت البداوة غالبة على طباعهم، والكتابة من الفنون الحضرية.

على أن بعض الذين رحلوا منهم إلى العراق أو الشام قبل الإسلام تخلقوا بأخلاق الحضر واقتبسوا الكتابة منهم على سبيل الاستعارة، فعادوا وبعضهم يكتب العربية بالحرف النبطي أو العبراني أو السرياني، ولكن النبطي والسرياني ظلا عندهم إلى ما بعد الفتوح الإسلامية، فتخلف عن الأول الخط النسخي (الدارج) وعن الثاني الخط الكوفي؛ نسبة إلى مدينة الكوفة … وكان الخط الكوفي يسمى قبل الإسلام الحيري نسبة إلى الحيرة … وهي مدينة عرب العراق قبل الإسلام، وابتنى المسلمون الكوفة بجوارها …

ومعنى ذلك أن السريان في العراق كانوا يكتبون ببضعة أقلام عن الخط السرياني في جملتها قلم يسمونه «السطرنجيلي» كانوا يكتبون به أسفار الكتاب المقدس[١٠] فاقتبسه العرب في القرن الأول قبل الإسلام، وكان من أسباب تلك النهضة عندهم، وعنه تخلف الخط الكوفي وهما متشابهان حتى الآن …

واختلفوا فيمن نقله إلى بلاد العرب، والأشهر أن أهل الأنبار نقلوه … وذلك أن رجلًا منهم اسمه بشر بن عبد الملك الكندي أخو أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل

تعلم هذا الخط من الأنبار وخرج إلى مكة فتزوج الصهباء بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان، فعلم جماعة من أهل مكة، فكثر من يكتبه من قريش[١١] عند ظهور الإسلام، أما الخط النبطي فكتبوا به اللغة العربية قبل ذلك ببضعة قرون.

والخلاصة على كل حال أن العرب تعلموا الخط النبطي من حوران في أثناء تجارتهم إلى الشام، وتعلموا الخط الكوفي من العراق قبيل الإسلام بقليل، وظل الخطان معروفين عندهم بعد الإسلام، والأرجح أنهم كانوا يستخدمون القلمين معًا: الكوفي لكتابة القرآن ونحوه من النصوص الدينية، كما كان سلفه السطرنجيلي يُستخدم عند السريان لكتابة الأسفار المقدسة النصرانية، والنبطي لكتابة المراسلات والمكاتبات الاعتيادية. ومما يدل على تخلف القلم الكوفي عن السطرنجيلي، فضلًا عن شكله، أن الألف إذا جاءت حرف مد في وسط الكلمة تُحذف، وتلك قاعدة مطردة في الكتابة السريانية، وكان ذلك شائعًا في أوائل الإسلام وخصوصًا في القرآن … فيكتبون «الكتب» بدل «الكتاب» و«الظلمين» بدل «الظالمين».

فجاء الإسلام والكتابة معروفة في الحجاز ولكنها غير شائعة، فلم يكن يعرف الكتابة في مكة إلا بضعة عشر إنسانًا أكثرهم من كبار الصحابة وهم: علي بن أبي طالب، وعمر بن الخطاب، وطلحة بن عبيد الله، وعثمان وأبان ابنا سعيد بن خالد بن حذيفة، ويزيد بن أبي سفيان، وحاطب بن عمرو بن عبد شمس، والعلاء بن الحضرمي، وأبو سلمة بن عبد الأشهل، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح، وحويطب بن عبد العزى، وأبو سفيان بن حرب وولده معاوية، وجهيم بن الصلت بن مخرمة، ثم تعلم غيرهم من الصحابة، ومنهم خرج كتاب الدواوين للخلفاء الراشدين وكتاب الرسائل وكتاب القرآن، فكتبوا القرآن بالكوفي أيام الراشدين وأيام بني أمية، وفي أيامهم تفرع الخط المذكور إلى أربعة أقلام اشتقها بعضها من بعض كاتب اسمه قطبة كان أكتَب أهل زمانه، وكان يكتب لبني أمية المصاحف، ثم اشتهر بعده الضحاك بن عجلان في أوائل الدولة العباسية، فزاد على قطبة، ثم زاد إسحاق بن حماد وغيره، فبلغت الأقلام العربية إلى أوائل الدولة العباسية ١٢ قلمًا، وهي: قلم الجليل، قلم السجلات، قلم الديباج، قلم أسطورمار الكبير، قلم الثلاثين، قلم الزنبور، قلم المفتح، قلم الحرم، قلم المدامرات، قلم العهود، قلم القصص، قلم الحرفاج، وفي أيام المأمون تنافس الكتاب في تجويد الخط، فحدث القلم المرصع وقلم النسخ، وقلم الرئاسي — نسبة إلى مخترعه ذي الرئاستين الفضل بن سهل — وقلم الرقاع وقلم غبار الحلبة.[١٢]

فزادت الخطوط على عشرين شكلًا، وكلها تُعد من الكوفي، وأما الخط النسخي أو النبطي؛ فقد كان شائعًا بين الناس لغير المخطوطات الرسمية حتى إذا نبغ ابن مقلة المتوفى سنة ٣٢٨هـ، فأدخل في الخط المذكور تحسينًا، جعله على ما هو عليه الآن وأدخله في كتابة الدواوين، والمشهور عند المؤرخين أن ابن مقلة نقل الخط من صورة القلم الكوفي إلى صورة القلم النسخي، والغالب في اعتقادنا أن الخطين كانا شائعين معًا من أول الإسلام، الكوفي للمصاحف ونحوها، والنسخي (أو النبطي) للرسائل ونحوها كما تقدم، وأن ابن مقلة إنما جعل الخط النسخي على قاعدة جميلة حتى يصلح لكتابة المصاحف. وقد شاهدنا في معرض الخطوط العربية القديمة في دار الكتب المصرية رقوقًا وقطعًا من البردي عليها كتابات بالخط النسخي بعضها من أواخر القرن الأول للهجرة، ورأينا عقد نكاح مكتوبًا في أواسط القرن الثالث للهجرة سنة ٢٦٤هـ على ورق مستطيل في أعلاه صورة العقد بالقلم الكوفي المنتظم وتحتها خطوط الشهود بالقلم النسخي بغاية الاختلال ... فابن مقلة حسَّن هذا الخط تحسينًا وأدخله في كتابة المصاحف.

ثم تفرع الخط النسخي المذكور بتوالي الأعوام إلى فروع كثيرة، وأصبحت الأقلام الرئيسية في اللغة العربية اثنين: الكوفي والنسخي، ولكل منهما فروع كثيرة اشتهر منها بعد القرن السابع للهجرة ستة أقلام هي: الثلث، والنسخي، والتعليقي، والريحاني، والمحقق، والرقاع، واشتهر من الخطاطين جماعة كبيرة ألفوا فيه الكتب والرسائل، بعضها في أدوات الخط كالأقلام وطرق بريها وأحوال الشق والقط والدواة والمداد والكاغد وغير ذلك، وما زال الخط يتفرع إلى اليوم ولن يزال إلى ما شاء الله؛ عملًا بسنة النشوء والارتقاء.

وفي آخر الجزء الأول من كتاب صبح الأعشى للقلقشندي (طبع دار الكتب المصرية) باب خاص في الكتابة وأدواتها، وتوابعها يدخل في ٣٠ صفحة كبيرة (من صفحة ٥٤٦–٥٧٦) وتجد أقوالًا تتعلق بالخط العربي في كشف الظنون ٤٤٦ ج١، وابن خلكان ٣٤٦ ج١، والعقد الفريد ١٦٢ ج٢، وابن خلدون ٢٠٥، و٣٤٨ ج١، والأغاني ١٩ ج٢، ١٠٦ ج٤، و٥٠ ج٧، وفي المزهر ١٧٧ ج٢.

أما ما يلحق الخط من الحركات والإعجام ونحوهما من العلامات، فسيأتي الكلام عليها في العصر الأموي.

هوامش

(١) الفهرست: ٢٧.

(٢) الفهرست: ٢٤.

(٣) أبو الفدا: ١٧٦ ج١.

(٤) الفهرست: ٢٤.

(٥) نفح الطيب: ٢٨٨ ج١.

(٦) أبو الفدا: ١٧٦ ج١.

(٧) المسعودي: ٢٠ ج٢.

(٨) الفهرست: ٢٨.

(٩) الفهرست: ٢٦.

(١٠) اللمعة الشهية في نحو اللغة السريانية ١٧.

(١١) المزهر: ١٧٧ ج٢.

(١٢) كشف الظنون: ٤٤٦ ج١.

العصر الأموي

مميزات العصر الأموي

نريد بالعصر الأموي العصر الذي كانت الدولة الإسلامية فيه في حوزة الأمويين بالشام، منذ بويع معاوية بالخلافة سنة ٤١هـ إلى أن قهرهم عليها العباسيون سنة ١٣٢هـ، ويختلف العصر الأموي عن عصر صدر الإسلام اختلافًا كبيرًا من أوجه كثيرة؛ إذ يعد انتقال الدولة الإسلامية إلى بني أمية انقلابًا عظيمًا في تاريخ الإسلام؛ لأنها كانت في زمن الراشدين خلافة دينية فصارت في أيامهم ملكًا عضودًا، وكانت شورية فصارت إرثية، وقام معاوية يطلبها وينازع أعمام النبي وأبناء عمه عليها، والمسلمون يعتقدون حق هؤلاء فيها وأن معاوية طليق لا تحل له الخلافة ولكنه تمكن بدهائه وسعة صدره من التغلب عليهم جميعًا فأسس الدولة الأموية، وقد فصلنا الأسباب التي ساعدته على ذلك في الجزء الرابع من كتاب تاريخ التمدن الإسلامي.

وإنما يهمنا في هذا المقام ما نجم عن مساعي بني أمية في تأييد سلطانهم من التفريق بين القبائل والرجوع إلى عصبية الجاهلية، كما كان العرب قبل الإسلام يفعلون وما كان من تأثير ذلك في الآداب.

(١) التفريق بين القبائل وإحياء العصبيات

قد علمت أن العصبية العربية كانت في الجاهلية بين القبائل بسبب الأنساب، فلما جاء الإسلام تنوسيت تلك العصبية واجتمع العرب كافة باسم الإسلام أو الجامعة الإسلامية، وما زالت الجامعة الإسلامية تشمل العرب على اختلاف قبائلهم وبطونهم طول أيام الخلفاء الراشدين، حتى إذا طمع بنو أمية في الملك وقبضوا على أزمة الخلافة استبدوا وتعصبوا للعرب وحافظوا على مقتضيات البداوة وتمسكوا بعاداتها، فظلت خشونة

البادية غالبة على حكومتهم وظاهرة في سياستهم مع ذهاب أكثر مناقب البدو الأخرى، وإنما حفظوا من مناقب جاهليتهم تعصبهم لقبيلتهم قريش وإيثار أهلهم على سواهم …

فجاشت عوامل الحسد في نفوس القبائل التي كان لها شأن في الجاهلية وضاع فضلها في الإسلام، وخصوصًا أهل البصرة والكوفة لأن أكثر العرب الذين نزلوا هذين المصرين جفاة لم يستكثروا من صحبة النبي ولا هذبتهم سيرته ولا ارتاضوا بخلقه، مع ما كان فيهم من جفاء الجاهلية وعصبيتها، فلما استفحلت الدولة إذا هم في قبضة المهاجرين من قريش وكنانة وثقيف وهذيل، وأهل الحجاز ويثرب، فاستنكفوا من ذلك وغصوا به لما يرون لأنفسهم من التقدم بأنسابهم وكثرتهم ومصادمة فارس والروم، مثل قبائل بكر بن وائل، وعبد القيس من ربيعة، وكندة والأزد من اليمن، وتميم وقيس من مضر، فصاروا إلى الغض من قريش والأنفة عليهم، فعادت العصبية إلى نحو ما كانت عليه في الجاهلية.

أسباب التفريق

كان التفريق أولًا بين قريش وسائر العرب، فتعصب العرب كافة على قريش؛ حسدًا لاستبدادهم بالسلطان دون سائر الصحابة أو التابعين، إلا الذين تألفهم معاوية من القبائل اليمنية والعدنانية، بدأ هذا الخلاف من أيام عثمان على يد سعيد بن العاص،[١] وتزايدت الوحشة بين قريش وسائر القبائل من ذلك الحين وخصوصًا بينهم وبين اليمنية وفيهم الأنصار، وثبت الأنصار في نصرة أهل البيت ضد أهلهم من قريش مثلما فعلوا في أول الإسلام، إذ جاءهم الرسول مهاجرًا فرارًا من أهله، ولما جرت وقعة صفين سنة ٣٧هـ بين علي ومعاوية عدوها بين اليمنية الأنصار وقريش، فلما احتدم القتال في تلك الوقعة، قال رجل يمني من أنصار علي: «أيها الناس هل من رائح إلى الله تحت العوالي، والذي نفسي بيده لنقاتلنكم على تأويله (القرآن) كما قاتلناكم على تنزيله».

وامتد النزاع على هذا النحو حتى صار أكثر اليمنية شيعة علي وأنصاره … فعمد معاوية إلى اجتذاب قلوبهم لعلمه أن اكتفاءه بقريش ونحوهم لا يجديه نفعًا، فقرب منه قبيلة كلب وتزوج منها بحدل أم يزيد ابنه واستنصرهم على قتلة عثمان لأن امرأة عثمان كانت كلبية واستغواهم بالمال فحاربوا معه، ولما انتصر في حروبه ورسخت قدمه في الخلافة، تقربت منه قبائل كثيرة من مضر واليمن وظلت كلب على نصرة يزيد ابنه بعده لأنهم أخواله.

فلما مات يزيد وكان ابن الزبير في مكة يطالب بالخلافة، واختلف بنو أمية على اختيار خالد بن يزيد أو مروان بن الحكم (وكلاهما من أمية) وقع الخصام بين دعاة ابن الزبير ودعاة بني أمية، وكان أنصار ابن الزبير من قيس (مضرية) يدعون لابن الزبير، وأنصار بني أمية من كلب (يمنية) يدعون لخالد بن يزيد لأنه ابن أختهم، ونهض أناس من بني أمية فاعترضوا على خالد لصغر سنه، وأجمعوا على بيعة مروان لشيخوخته على أن تكون الخلافة بعده لخالد، ثم جرت واقعة مرج راهط بين أصحاب مروان وأصحاب ابن الزبير، أي بين كلب وقيس، وفاز مروان وثبتت قدمه في الخلافة، ثم توفي مروان ولم يفِ لخالد، فخلفه ابنه عبد الملك بن مروان الشديد الوطأة، وظلت كلب معه وقيس مضطغنة عليه، وانقسم العرب في سائر أنحاء المملكة الإسلامية بين هذين الحزبين: قيسية وكلبية، أو مضرية ويمنية، أو نزارية وقحطانية، وقامت المنازعات بينهما في الشام والعراق ومصر وفارس وخراسان وإفريقيا والأندلس، ففي كل بلد من هذه البلاد وغيرها حزبان: مضري ويمني، تختلف قوة أحدهما باختلاف الخلفاء أو الأمراء أو العمال، فالعامل المضري يقدم المضرية، والعامل اليمني يقدم اليمنية، ويختلف ذلك باختلاف الأحوال، وله تأثير في كل شيء من تصاريف أحوالهم حتى في تولية الخلفاء والأمراء وعزلهم، وكثيرًا ما كانت الولاية والعزل موقوفين على نصرة أحد هذين الحزبين.

غير الانقسام الذي وقع بين بطون قريش وأهم أحزابهم: أمية وبنو هاشم، فكان الناس يتعصبون لأحدهما على الآخر، وناهيك بالتخاصم بين العرب وغير العرب، وكما كان القرشيون مقدمين في العصر الأموي على سائر العرب، فالعرب على الإجمال كانوا مقدمين على سائر الأمم التي دانت للمسلمين. ولم يكن هؤلاء يستنكفون من ذلك، بل كانوا يعتقدون فضل العرب في إقامة هذا الدين وأنهم مادته وأصله، ولا كانوا يأنفون من أن يسموا العرب أسيادهم ويعدوا أنفسهم من مواليهم بل كانوا يعدون طاعتهم وحبهم فرضًا واجبًا عليهم.

فكان العرب في أثناء هذه الدولة يترفعون عن سائر الأمم من الموالي وأهل الذمة، وكان العربي يعد نفسه سيدًا على سواه ويعتقد أنه خُلق للسيادة وذاك للخدمة … فاقتصر العرب على الاشتغال بالسياسة، ولم يكونوا يعنون بشيء من العلم غير الشعر والتاريخ؛ لأنه لازم للسياسة، وأما الحساب والكتابة؛ فقد كانا من صنائع الموالي … حتى الشعر فإن الموالي نالوا منه حظًّا في أثناء العصر الأموي.

وبالجملة إن انتقال الدولة إلى الأمويين انقلاب سياسي عظيم، وهو طبيعي في نواميس العمران لأن القواعد التي وضعها الإمام عمر للدولة تنافي سياسة الملك ولم يكن

يرجى بقاؤها، لأن من شروطها ألا تخزن الأموال في بيت المال وأن لا يشتغل المسلمون بالزرع ولا يقتنوا الأرضين ونحو ذلك مما يلائم الدين والتقوى، ويخالف السياسة والملك ... فانتقالها إلى الملك في أيام بني أمية وانتقال كرسي الخلافة إلى الشام أوجب احتكاكها بالدول الأخرى، فأقيمت على دعائم سياسية واقتبس أهلها تمدن الأمم المجاورة وعلومهم، وأنشأوا تمدنًا من عند أنفسهم ووضعوا العلوم والآداب التي اقتضاها ذلك التمدن كما سيجيء.

هوامش

(١) راجع تفصيله في تاريخ التمدن الإسلامي ٥٧ ج٤ «الطبعة الثالثة».

حال الشرق عند الفتح الإسلامي

نعني بالشرق البلاد التي فتحها المسلمون حول بحر الروم وخليج العجم، وهي تشمل مصر والشام والعراق وفارس ... فلما فتحوها كان بعضها تحت سيطرة الفرس وهي العراق وفارس، والبعض الآخر تحت سيطرة الروم وهي الشام ومصر، أما من حيث الآداب والعلوم، فمصر والشام كانتا ملحقتين بمملكة الروم، بآدابهم وعلومهما، والغالب في دينهما النصرانية، والعراق وفارس كانت آدابهما فارسية وأكثر أهلهما من المجوس، وكان التنازع قائمًا بين النصرانية والمجوسية، ونشبت الحرب بين الروم والفرس لهذه الغاية، فجاء العرب وغلبوا الأمتين جميعًا، فقام الإسلام في ذينك البلدين مقام ذينك الدينين.

(١) آداب الروم في مصر والشام

كانت آداب الروم في مصر والشام يومئذ عبارة عن الآداب اليونانية في عصرها الإسكندري الروماني، لأن آداب اليونان القدماء هي القاعدة الأساسية لآداب الرومان ومن تشعبت إليه دولتهم من الأمم ... وللآداب اليونانية أطوار فصلناها في الجزء الثالث من تاريخ التمدن الإسلامي آخرها العصر الإسكندري، وفيه انتقلت علوم اليونان وآدابهم من أثينا وغيرها من بلادهم إلى الإسكندرية على عهد البطالسة بمن انتقل إليها من جالية اليونان على أثر فتوح الإسكندر في الشرق في القرن الرابع قبل الميلاد، وحملوا معهم كتب العلم والفلسفة والطب والشعر والأدب واللغة والتاريخ غير ما جمعه البطالسة من الكتب الأخرى، فزهت الإسكندرية بهم وبعلومهم.

ويقسم العصر الإسكندري المذكور إلى قسمين: الأول كانت مصر فيه تحت سيادة البطالسة وهو العصر الإسكندري اليوناني، والثاني بعد دخولها في سيطرة الروم قبل الميلاد، وهو العصر الإسكندري الروماني وينتهي بظهور الإسلام …

فلما فتح المسلمون مصر والشام، كانت هذه البلاد في عصرها الإسكندري الثاني أو الروماني الذي يبدأ قبل الفتح الروماني بنصف قرن، أي يوم دخول أثينا في حوزة الرومان في القرن الأول قبل الميلاد؛ لأن قائدهم سولا لما فتح أثينا حمل منها أحمالًا من كتب العلم والفلسفة إلى رومية … فانتقل العلم من أثينا إلى رومية وضعف شأن الإسكندرية قبل دخولها في حوزة الروم، فلما صارت رومانية قبيل الميلاد زادت ضعفًا، وكانت علومها قد تغيرت وجهتها وانحصرت في الفلسفة، لأن الإسكندرية ما برحت منذ تأسيسها وفيها جماعة من العبرانيين نزحوا إليها كعادتهم في الرحيل للارتزاق أو فرارًا من الاضطهاد، فآنسوا في الإسكندرية ترحيبًا وراحة فتكاثروا، فترتب على اختلاطهم باليونان وتمازج الأذواق والأبحاث تغير مهم في الفلسفة والدين لأن العبرانيين أهل توحيد ووحي وتقليد، واليونان أهل فلسفة ومنطق وأساطير دينية … فأدى التمازج إلى التقارب وزاد ذلك بظهور النصرانية، ولما تأيدت النصرانية واعتنقها اليونان، أخذوا في تطبيق فلسفتهم على الدين … فتولد من ذلك ما يسمونه الفلسفة الأفلاطونية الجديدة Neo-platonic والفلسفة الفيثاغورية الجديدة Neo-pytlagoric وجملة القول إن العصر الإسكندري الثاني قلما أفاد العلم لأن أبحاثه كانت غايتها دينية.

هذه هي الفلسفة التي كانت شائعة في المملكة الرومانية الشرقية عند الفتح الإسلامي، وكانت مدرسة الإسكندرية أم المدارس الشرقية يُعلَّم فيها الطب والهندسة والفلك وسائر العلوم الطبيعية والرياضية، ويتفاخر العلماء بالتخرج فيها كما يتفاخر متخرجو جامعات أكسفورد وكمبريدج وباريس وبرلين اليوم، وعاصرتها مدارس حسنة في برغاموس وطرسوس ورودس وأنطاكية وبيروت، وكان في بيروت مدرسة للحقوق ذاعت شهرتها في الآفاق.[١]

فلما جاء الإسلام، كان العلم قد انحط في هذه المدارس كلها وأهملت كتب الفلسفة القديمة بمقاومة رجال الدين لها لأنها في نظرهم عثرة في سبيل الدين …

(٢) آداب مملكة الفرس

كان للفرس آداب قديمة قد أضافوا إليها كثيرًا من علوم الهند والصين وآشور وغيرها من أمم الشرق القديم ... فلما فتح الإسكندر بلادهم نقل ما كان في عاصمتهم من كتب العلم إلى بلاده فذهب تمدنهم وتضعضعت شؤونهم وتقاعدوا عن العلم إلى أيام سابور بن أزدشير في الدولة الساسانية بأواسط القرن الثالث للميلاد، فحارب الروم ونقل جماعة من أسراهم إلى الأهواز وأنشأ لهم مدينة سماها جندي سابور، وأكرم وفادتهم فحببوا إليه العلم ... فعمد إلى استرجاع علوم الفرس من اليونان أو الاستعاضة بمثلها ... فبعث إلى بلاد اليونان من استجلب كتب الفلسفة وأمر بنقلها إلى الفارسية[٢] واختزنها في مدينته، وأخذ الناس في نسخها وتدارسها.

فلما تولى كسرى أنوشروان العادل (٥٣١م–٥٧٨م) فُتح للفرس مورد جديد للعلم والفلسفة بما كان من اضطهاد يوستنيان قيصر الروم للفلاسفة الوثنيين على أثر إقفاله الهياكل والمدارس الوثنية، وكانت الفلسفة الأفلاطونية الجديدة قد نضجت، ففر بعض أصحابها من وجه الاضطهاد وتفرقوا في العالم، وجاء منهم سبعة إلى أنوشروان فأكرم وفادتهم وأمرهم بتأليف كتب الفلسفة ونقلها إلى الفارسية، فنقلوا المنطق والطب[٣] وألفوا فيهما الكتب فطالعها هو ورغب الناس فيها، وعقد المجالس للبحث والمناظرة كما فعل المأمون بعده بقرنين وبعض القرن حتى خُيل لليونان الذين جالسوا أنوشروان أنه من تلامذة أفلاطون.

وأنشأ أنوشروان في جندي سابور مدرسة للطب والفلسفة، اشتهرت في بلاد الفرس كما اشتهرت مدرسة الإسكندرية في مصر ومدرسة بيروت في سوريا.

فنرى أن آداب الفرس عند ظهور الإسلام كانت قائمة على آداب اليونان، والعالم المتمدن في ذلك العهد مدين لليونان بأكثر آدابه كما صارت الأمم الإسلامية بعد ذلك مدينة بآدابها وعلومها لآداب اللغة العربية التي نضجت في أيام العباسيين.

ومما يحسن قوله: إن آداب اليونان نُقلت إلى الأمم الشرقية على أيدي السوريانيين، نقلوها أولًا إلى الفارسية ثم نقلوها إلى لسانهم السرياني، ونقلوها بعد ذلك إلى اللسان العربي في التمدن الإسلامي ... لكن ذلك لم يتم إلا في الدولة العباسية.

(٣) الدولة الأموية واللغة العربية

أما الدولة الأموية فالهمة كانت متجهة فيها على الخصوص إلى الآداب العربية الجاهلية لأن الأمويين كانوا شديدي الحرص على منزلة العرب كثيري العناية بحفظ الأنساب، وهم الذين جعلوا الإسلام دولة فأيدوها ونشروا اللغة العربية في المملكة الإسلامية بنقل الدواوين من الرومية والفارسية إلى اللغة العربية وبعد أن كانت مصر والشام رومية والعراق كلدانية أو نبطية، أصبحت هذه البلاد بتوالي الأجيال عربية النزعة وتنوسيت لغاتها الأصلية، وهي تعد الآن من البلاد العربية، وإذا نزلها التركي أو الإفرنجي أو غيرهما من أي أمة كانت وتوالد فيها عد نسله عربيًّا.

وظل العرب في أيام بني أمية على بداوتهم وجفائهم، وكان خلفاؤهم يرسلون أولادهم إلى البادية لإتقان اللغة واكتساب أساليب البدو وآدابهم، وظل كثير من عادات الجاهلية شائعًا في أيامهم كالمفاخرة والمباهلة ومناشدة الأشعار في الأندية العمومية، فكان أشراف أهل الكوفة يخرجون إلى ظاهرها يتناشدون الأشعار ويتحادثون ويتذاكرون أيام الناس، وأهل البصرة يخرجون إلى المربد لهذه الغاية كما سيجيء … كأنهم رجعوا بعصبيتهم إلى ما كانوا عليه قبل الإسلام، ولم يبلغ العرب من العز والسؤدد ما بلغوا إليه في أيام هذه الدولة، وقد تكاثروا على عهدها وانتشروا في ممالك الأرض.

هوامش

(١) راجع الهلال ص٢٢ سنة ١٩.
(٢) أبو الفداء ٥٠ ج١.
(٣) E. Broune, Literary Hist. of Persia, I. 167.

أقسام آداب اللغة العربية

(١) في العصر الأموي

تقسم آداب اللغة في هذا العصر إلى قسمين:

أولًا: الآداب الحادثة ويدخل تحتها:

(١) ما حدث من العلوم أو الآداب مما اقتضاه الإسلام كعلوم القرآن والحديث والفقه والعلوم اللسانية والتاريخ والجغرافيا ونسميها العلوم الإسلامية.
(٢) ما اقتضاه التمدن الإسلامي من العلوم التي نُقلت عن اليونان والفرس وغيرهم ونسميها الآداب الدخيلة.

ثانيًا: الآداب القديمة وهي ما كان منها موجودًا في عصر الراشدين، كاللغة والشعر والخطابة والأمثال من الآداب الجاهلية.

ويقال بالإجمال: إنه في العصر الأموي نضجت الآداب الجاهلية، وولدت الآداب الإسلامية، وبدأ النقل من اللغات الأجنبية، فلننظر في كل منها على حدة.
ونبدأ بالعلوم الحادثة في الإسلام ثم نعود إلى الآداب التي كانت في الجاهلية لينجلي لنا تأثير تلك فيها.

(٢) أعمار العلوم

لكل علم من العلوم على اختلاف موضوعاتها أدوار يمر بها كما يمر الحي بأدوار الحياة لأن العلوم من توابع الأحياء فتخضع لنواميس النشوء مثل خضوعهم، والأدوار التي تمر بها العلوم هي:

(١) دور التكوين «الولادة».
(٢) دور النمو أو النشوء «الصبا».
(٣) دور البلوغ «الشباب».
(٤) دور النضج «الكهولة».
(٥) دور التفرع أو التشعب أو الانحلال «الشيخوخة».

وسترى أن بعض العلوم يتكون في عصر، وينمو في آخر، ويبلغ في آخر، وينضج في آخر، وقد يتخطى دورين أو ثلاثة في عصر واحد.

والعصر الأموي فاتحة عصور التمدن الإسلامي أو الدولة الإسلامية لأن الإسلام قبله كان دينًا لا دولة، وفي هذا العصر بدأ تكوُّن أكثر علوم هذا التمدن ونمت ونضجت فيما يليه، وقد تقدم أن العلوم الحادثة في الإسلام قسمان كبيران: العلوم الإسلامية، والعلوم الدخيلة.

والعلوم الإسلامية هي العلوم التي اقتضاها الإسلام، وتُقسم إلى ثلاثة أقسام:

(١) العلوم الشرعية وهي العلوم الدينية الإسلامية.
(٢) العلوم اللسانية وهي التي اقتضاها الإسلام ضمنًا، فاحتاجوا إليها في ضبط قراءة القرآن أو تفسيره أو تفهمه وتفهم الحديث.
(٣) التاريخ والجغرافيا.

العلوم الشرعية

ونريد بالعلوم الشرعية العلوم المستخرجة من القرآن والحديث، وأهمها علوم القرآن والحديث والفقه، ولكل منها فروع تولدت بتوالي الأجيال، وكانت في العصر الأموي في دور تكوينها، وهي يومئذ القراءة «قراءة القرآن» والحديث «ضبط الحديث» والفقه، وقبل التقدم إليها نمهد بالكلام في البصرة والكوفة.

(١) البصرة والكوفة

هما من المدن الإسلامية التي اختطها العرب لأنفسهم. وكانوا قبل الإسلام أهل ماشية وخيام وخيل يكرهون الإقامة داخل الأسوار، وينفرون من الانحصار في المدن، فلما تأيد الإسلام واجتمع العرب على فتح الأمصار في العراق والشام ومصر، كانوا في بادئ الرأي إذا ساروا إلى غزو أو فتح اصطحبوا نساءهم وعيالهم … فإذا فتحوا بلدًا أقاموا في ضواحيه بخيامهم وأخبيتهم وهو معسكرهم. وكان عمر بن الخطاب يشترط على جنده المقيمين في الأمصار ألا يقيموا في مكان يحول الماء فيه بينهم وبينه، حتى إذا أراد أن يركب راحلته إليهم ركب، كذلك فعل عمرو بن العاص في الفسطاط، وسعد بن أبي وقاص في الكوفة والبصرة، وكانت كلها مضارب لجند العرب الفاتحين يعبرون عنها بالرباط أو المعسكر، فإذا طال بهم المقام اختطوا الأسواق وبنوا المنازل والقصور، ذلك كان شأنهم في صدر الإسلام، فبنوا البصرة والكوفة على هذه الصورة.

على أنهم ظلوا نازعين إلى البداوة بعد تخطيط البصرة لأول عهدها، فبنوا مسجدها ودار إمارتها بالقصب، وكانوا إذا غزوا نزعوا ذلك القصب وحزموه، وحفظوه حتى يعودوا من الغزو فيعيدوا بناءه كما كان، واعتبر ذلك في الكوفة أيضًا … التماسًا لسعة

العيش في البلاد العامرة من مملكتهم الجديدة، وهم يختارون أقربها إلى البادية بلدهم القديم … فالبصرة والكوفة أوفق البلاد لهم لأنهما على الحدود بين جزيرتهم والعراق …

فأول من عمر البصرة والكوفة الفاتحون وأهلهم، ثم اتسعت الفتوح الإسلامية شرقًا وغربًا، ورسخت دولة المسلمين حتى نزح العرب بأهلهم وخيلهم …

المربد أو عكاظ الإسلام

انتقل العرب إلى هذين البلدين ونقلوا معهم عاداتهم الجاهلية وأخلاقهم العربية، فانقسموا فيها قبائلَ وبطونًا: عرب اليمن في أحد طرفي البلد، وعرب الحجاز في الطرف الآخر، وانقسمت المنازل في كل جانب حسب البطون والأفخاذ، وأقاموا فيها أسواقًا أدبية مثل أسواقهم في الجاهلية للمفاخرة والمناضلة والمناشدة: أشهرها «المربد» في البصرة وكان سوقًا من أسواقها يُعرف بسوق الإبل، ثم صار محلة عظيمة سكنها الناس وأقاموا بها مفاخرات الشعراء ومجالس الخطباء، ويدلك على سعته وسعة البصرة أن المربد كان في زمن ياقوت بالقرن السادس للهجرة بعد انحطاط دولة العرب، كالبلد المنفرد، وبينه وبين البصرة ثلاثة أميال، وكان ما بين ذلك عامرًا، فتأمل …

وكان المربد في الدولة الأموية عكاظ الإسلام، وتألفت فيه حلقات المناشدة والمفاخرة[١] ومجالس العلم والآداب[٢] … فكان الشعراء يؤمونه ومعهم رواتهم للمناضلة أو المناشدة أو المحاكمة، وكان لفحولهم حلقات خاصة أشهرها حلقة الفرزدق وراعي الإبل.[٣]

وكان الأشراف يخرجون أيضًا إلى المربد للمذاكرة أو المناشدة، وكذلك كان يفعل أشراف الكوفة يخرجون إلى ضواحيها لمثل هذا الغرض … لكن المربد غلب على سائر الأسواق كما غلبت عكاظ في الجاهلية.

مدينة السياسة ومدينة العلم

وفي عصر صدر الإسلام كانت المدينة عاصمة المسلمين ومقر علمائهم، وهم يومئذ القراء والحفاظ من الصحابة، ثم أفضت الدولة إلى بني أمية، وانتقلت عاصمة الإسلام إلى دمشق واختلفت الأحزاب وتحصن ابن الزبير في مكة وأخرج بني أمية وأنصارهم من المدينة وسائر الحجاز، وقد علمت رغبة الأمويين في استيفاء الطبائع العربية البدوية، فنشطوا الآداب الجاهلية ولا سيما الشعر لأسباب سيأتي تفصيلها، فوجدوا في البصرة

والكوفة ما ينوب عن مكة والمدينة من هذا القبيل، وإن ظلوا مضطرين إلى الحجاز لأن فيه الكعبة وقبر الرسول وسائر مناسك الحج ...

وكان في المدينة على عهد معاوية طائفة من أبناء الصحابة يخشى قيامهم للمطالبة بالخلافة، كما فعل عبد الله بن الزبير فأعماهم معاوية بالعطايا وقيدهم بالإحسان ووسعهم بالحلم، فركنوا إلى التمتع بالدنيا من طعام وشراب وسماع ... ينفقون في ذلك الأموال وهي تتدفق عليهم من خزائن الشام، فلما تولى عبد الملك بن مروان «سنة ٦٥هـ» كانت المدينة قد أصبحت مسرحًا للهو والغناء، ونبغ فيها طائفة من المغنين وتكاثر فيها المخنثون وأهل القصف إلا مَن كان فيها من الحفاظ والقراء، فعلم عبد الملك أن أعداءه هناك لا يخشى بأسهم لاشتغالهم بأنفسهم وملاذهم، فجعل همه صرف أذهان أهل الأدب والعلم عن بلاد العرب إلى البصرة ... فجعلها ملجأ الشعراء والأدباء وغيرهم، وكانت في أيامهم لا تزال كالبادية يقيم العرب حولها في المضارب قبائلَ وبطونًا ... فأصبحت الشام في أيامه دار الملك والبصرة دار العلم، ولم ينبغ شاعر أو خطيب في بلاد العرب كلها إلا جاء البصرة والكوفة فازدحمت الأقدام فيهما، وبعد زمن يسير خلت جزيرة العرب من أهل الأدب إلا اليمامة وبعض الحجاز ...

سكان البصرة والكوفة

وتقاطر إلى البصرة والكوفة أيضًا أهل المدن المجاورة في العراق والشام وفارس من طلاب الرزق للاستفادة من تلك النهضة السياسية بالتجارة أو الصناعة أو غيرهما، فاجتمع في تلك البقعة لفيف من أمم شتى مصيرهم إلى التعريب ...؛ لأن العربية كانت قد أصبحت لغة الدولة والدين، ولا بد منها لمن أقام في تلك الديار من المسلمين وغيرهم بعد أن تحولت دواوينها إلى العربية كما تقدم، فاشتدت الحاجة إلى ضبطها وجمع ألفاظها، غير ما بعث إلى ذلك من الأسباب الأخرى، ونظرًا لرغبة الأمويين في الاحتفاظ بالبداوة شجعوا آداب الجاهلية على الخصوص، فاشتغل الناس بتدوينها ونبغ الرواة والأدباء وغيرهم.

فأصبحت البصرة والكوفة في العصر الأموي وبعده، بؤرة العلم والأدب وملتقى العلماء والأدباء والشعراء يزدحمون في المسجد أو المربد أو غيرهما للمفاخرة أو المناظرة أو المناشدة، وأهل البصرة أعرق في اللغة والأدب ... يأخذ الكوفيون عنهم وهم لا يأخذون عن أهل الكوفة، أما الشعر فكان في الكوفة أكثر منه في البصرة ... ووقف المختار في

أثناء حروبه بالعراق على أشعار مدفونة في القصر الأبيض بالكوفة مما يدل على عناية الكوفيين بالشعر،[٤] لكن أكثره مصنوع ومنسوب إلى من لم يقله.[٥]

وبعد أن مهدنا للكلام بوصف البصرة والكوفة، نتقدم إلى العلوم الشرعية الإسلامية وأساسها القرآن، وقد ذكرنا كيفية جمعه وتدوينه في عصر صدر الإسلام …

(٢) قراءة القرآن الكريم (في العصر الأموي)

هي أقدم العلوم الشرعية الإسلامية، وكان للقراء شأن في صدر الإسلام عظيم يومئذ فسموا الذين كانوا يحفظون القرآن «قراء»؛ تمييزًا لهم عن سائر المسلمين لأنهم كانوا أميين، وقد تقدم أن السبب الذي حمل عثمان على جمع القرآن وكتابته ما بلغه من اختلاف الصحابة في قراءته، على أنه لم يمضِ على إرسال مصاحفه إلى الأمصار زمن قصير، حتى أصبح لأهل كل مصر قراءة خاصة يتبعون فيها قارئًا يثقون بصحة قراءته وتنوقل ذلك واشتهر، ثم استقر منها سبع قراءات تواتر نقلها بأدائها، واختصت بالانتساب إلى من اشتهر بروايتها فصارت هذه القراءات السبع أصولًا للقراءة، ويعدها بعضهم عشرًا.

وأصحاب هذه القراءات معظمهم من الموالي وبعضهم تجاوز العصر الأموي وهم:

(١) عبد الله بن كثير توفي سنة ١٢٠هـ في مكة، وهو من الموالي أصله من أبناء فارس الذين بعثهم كسرى بالسفن إلى اليمن حيث طرد الحبشة عنها، وكان شيخًا كبيرًا أبيض الرأس واللحية طويلًا جسيمًا أسمر أشهل العينين، يغبر شيبته بالحناء.[٦]

(٢) عاصم بن أبي النجود توفي سنة ١٢٧هـ في الكوفة، وهو مولى بني جذيمة أخذ القراءة عن أبي عبد الرحمن السلمي وزر بن حبيش.[٧]

(٣) عبد الله بن عامر اليحصبي من الطبقة الأولى من التابعين، توفي بدمشق سنة ١١٨هـ.

(٤) علي بن حمزة أبو الحسن الكسائي الذي انتهت إليه رياسة الإقراء بالكوفة، توفي سنة ١٨٩هـ.

(٥) حمزة بن حبيب الزيات، توفي بحلوان العراق سنة ١٥٦هـ، وهو مولى آل عكرمة.

(٦) أبو عمرو بن العلاء من تميم، توفي سنة ١٥٥هـ بالكوفة، وهو العلم المشهور في علم القراءة واللغة العربية، وسيأتي ذكره مرارًا في تاريخ آداب اللغة …

(٧) نافع بن أبي نعيم، توفي سنة ١٦٩هـ بالمدينة، وهو مولى، وكان أسود شديد السواد وأصله من أصبهان، ويظهر من تأخر وفاته عن زمن انتقال الدولة إلى العباسيين أنه كان في العصر الأموي صغيرًا.[٨]

القراءات الشاذة

واشتهر غير هؤلاء كثيرون في أقطار العالم الإسلامي، وفيهم من يقرأ قراءات غريبة، وقد سماهم ابن النديم قراء الشواذ ... ذكر في فهرسته «صفحة ٣٠» جماعة منهم في المدينة وآخرين في مكة والبصرة والكوفة والشام واليمن وغيرها، وتكاثر قراء الشواذ على الخصوص بعد أن ظهرت الفرق الإسلامية وتشعبت الآراء في التفسير والفقه، والخلفاء يشددون في مقاصة أولئك الشاذين خوف التفرقة كما كان يفعل رؤساء النصرانية في القرون الأولى للميلاد، ولكن الإسلام كان أقرب إلى إطلاق حرية الفكر والقول، وخصوصًا في أوائله، فلم يكن المسلم يستنكف من إبداء ما يخطر له ولو كان مخالفًا لرأي الخليفة، ولذلك كثرت الفرق الإسلامية يومئذ وتعددت مذاهب أصحابها في القراءة والتفسير والفقه وفي كل شيء، وظل بعضهم يقرءون القراءات الغريبة إلى أواسط الدولة العباسية وفي جملتهم يعقوب العطار المتوفى سنة ٣٥٤هـ، فاستحضره الخليفة واستتابه بحضرة القراء والفقهاء وكتب محضر توبته وأشهد عليه من حضر.[٩]

وأشهر من قرأ القراءات الشاذة ابن شنبوذ البغدادي المتوفى سنة ٣٢٨هـ، فإنه تفرد بقراءات من الشواذ كان يقرأ بها في المحراب ... ذكرها ابن النديم وابن خلكان، فعلم به ابن مقلة الوزير سنة ٣٢٣هـ، فقبض عليه واعتقله أيامًا فلم يكن ذلك ليرجعه عن قراءته، فأمر بجلده واستتابه فتاب، وقال: إنه قد رجع عما يقرأه وإنه لا يقرأ إلا بمصحف عثمان بن عفان بالقراءة المتعارفة التي يقرأ بها الناس وكتب محضرًا بذلك.[١٠]

والقراءات السبع التي ذكرنا أصحابها كلها جائزة عند المسلمين، وعند الأئمة أن الجميع على صواب؛ فقد يختار الإقليم الواحد قراءة واحدة أو قراءتين أو أكثر، وقد تُقرأ كل القراءات في إقليم واحد،[١١] وكانوا يرجعون في إثبات صحة القراءة إلى الإسناد المتسلسل كقولهم: قرأ يعقوب بن إسحق على سلام، وقرأ سلام على عاصم، وقرأ عاصم على أبي عبد الرحمن، وقرأ أبو عبد الرحمن على علي بن أبي طالب، وقرأ علي على الرسول.[١٢]

كتب القراءة

ولم يدون هؤلاء القراء قراءاتهم في الكتب، لكنها تنوقلت بالإسناد ... فألف فيها كثيرون بعد نضج التمدن الإسلامي في بغداد وقرطبة وغيرهما من مدائن ذلك التمدن، ونحن موردون خلاصة تاريخ ذلك، وأشهر ما وصلنا من كتبهم في هذا الفن:

(١) كتاب الإيضاح في الوقف والابتداء لمحمد بن قاسم الأنباري المتوفى سنة ٣٢٨، منه مجلد ناقص في دار الكتب المصرية بخط قديم يشبه أن يكون من خطوط القرن الرابع للهجرة، ومنه نسخة في المتحف البريطاني وفي مكتبة كوبريلي بالأستانة.

(٢) كتاب التيسير في القراءات السبع لابن الصيرفي من أهل دانية بالأندلس، توفي سنة ٤٤٤هـ، ومنه نسخة خطية في دار الكتب المصرية.

(٣) جامع البيان في القراءات السبع لابن الصيرفي المذكور.

(٤) مفردات القراءات السبع لابن الصيرفي المذكور، أتى فيه على الاختلاف بين أصحاب نافع الأربعة الذين أخذوا عنه القراءات وبين غيرهم من أصحاب الأئمة السبعة، ومنه نسخة خطية في دار الكتب المصرية.

(٥) حرز الأماني ووجه التهاني في القراءات السبع، وهو منظومة لمحمد ابن فيره الشاطبي المتوفى سنة ٥٩٠هـ، وتعرف بمتن الشاطبية، وقد طُبعت في الهند وغيرها ومنها عدة نسخ خطية في دار الكتب المصرية.

(٦) المقدمة الجزرية في علم التجويد منظومة لابن الجزري المتوفى سنة ٨٣٣هـ، منها عدة نسخ في دار الكتب المصرية، وقد طُبعت مرارًا.

(٣) التفسير

كان العرب عند ظهور الدعوة كلما تُليت عليهم سورة أو آية فهموها وأدركوا معانيها بمفرداتها وتراكيبها لأنها بلسانهم وعلى أساليب بلاغتهم، ولأن أكثرها قيلت في أحوال كانت كالقرائن تسهل فهمها ... وإذا أشكل عليهم شيء منها سألوا الرسول ﷺ فكان يبين لهم المجمل ويميز الناسخ من المنسوخ، فحفظ أصحابه عنه ذلك وتناقلوه فيما بينهم، وعنهم أخذ من جاء بعدهم من التابعين وتابعي التابعين.

ولما صار الإسلام دولة واحتاجوا إلى الأحكام والقوانين كان القرآن مصدر استنباطها، فزادت العناية بتفسيره وأصبح القراء والمفسرون مرجع المسلمين في استخراج تلك الأحكام وهم الفقهاء لأول عهد الإسلام، وكانوا يتناقلون التفسير شفاهًا إلى أواخر القرن الأول.

والمشهور أن أول من دون مجاهد المتوفى سنة ١٠٤هـ، ولكننا وجدنا في دار الكتب المصرية بضع نسخ من تفسير يُنسب إلى ابن عباس الصحابي المشهور المتوفى سنة ٦٨هـ وهو ابن عم الرسول ﷺ، والمتواتر أنه أول من فسر القرآن، ولم نكن نظن أن له تفسيرًا مدونًا … ولكن يؤخذ مما ذُكر في مقدمة هذا التفسير أنه نُقل بالرواية والإسناد، ولم يدون في أيام صاحبه، وللشيعة تفسير قديم ينسبونه إلى محمد الباقر بن علي بن الحسين، أما تفسير مجاهد المذكور فغير موجود، ولعله تفسير ابن عباس رواه مجاهد،[١٣] ولم ينضج التفسير إلا في العهد العباسي كما سيأتي.

(٤) الحديث

لما اشتغل المسلمون بتفهم معاني القرآن، كان في جملة ما افتقروا إليه في تفهمها أقوال الرسول، وهو ما عبروا عنه بالأحاديث النبوية، وأقدم من سمعها وحفظها الصحابة، فكانوا إذا أشكل عليهم فهم آية واختلفوا في تفسيرها أو حكم من أحكامها استعانوا بتلك الأحاديث على استيضاحها، فلما كانت الفتوح تفرق الصحابة في الأرض وعند كل منهم بعض الأحاديث، وقد ينفرد بعضهم بأحاديث لم يسمعها سواه، فأصبح طالب الحديث إذا كان من أهل دمشق مثلًا لا يستوفيه إلا إذا رحل في طلبه إلى مكة والمدينة والبصرة والكوفة والري وغيرها، وكذلك المقيم في أحد هذه البلاد، فإنه لا يستطيع استيفاء الحديث ما لم يطلبه من البلاد الأخرى … وهذا ما يعبرون عنه بالرحلة في طلب العلم … على أن الارتحال في طلب العلم لم يكن من مستحدثات الإسلام، ولكنه كان شائعًا من قديم الزمان بالنظر إلى قلة وسائل المواصلات وأسباب النشر في تلك العصور، فكان المؤلف والجغرافي مثلًا يرحل في طلب التاريخ أو الجغرافيا إلى أقاصي البلاد … كما فعل هيرودوتس وإسترابون وغيرهما، وكان المسلمون يرحلون في طلب العلوم غير الحديث أيضًا، وكان النصارى في العصر الإسلامي يرحلون إلى بلاد الروم لإتقان ديانتهم.[١٤]

وضع الأحاديث

نشأت الفتنة بعد مقتل الخليفة عثمان واختلف المسلمون في الخلافة وادعاها غير واحد، فانصرفت عناية كل حزب من أحزابهم إلى استنباط الأدلة واستخراج الأحاديث المؤيدة لدعواهم … فكان بعضهم إذا أعوزهم حديث يؤيدون به قولًا أو يقيمون به حجة اختلقوا حديثًا من عند أنفسهم، وتكاثر ذلك في أثناء تلك الفوضى، فكان المهلب بن أبي صفرة مثلًا يضع الأحاديث ليشد بها أمر المسلمين ويضعف أمر الخوارج[١٥] وهو مع ذلك معدود من النبلاء مع علمهم بما كان يضعه من الأحاديث لأنهم كانوا يعدون ذلك خدعة في الحرب، وأمثال المهلب كثيرون كانوا يضعون الحديث لأغراض مختلفة …

فلما هدأت الفتنة وعمد المسلمون إلى التحقيق كانت تلك الموضوعات قد تكاثرت، فاشتغلوا في التفريق بينها وبين الصحيح … فألفوا كتبًا كثيرة في الحديث وميزوا صحيحه من فاسده وجعلوه مراتبَ، ولهم في ذلك ألفاظ اصطلحوا عليها لهذه المراتب، كقولهم: الصحيح، والحسن، والضعيف، والمرسل، والمنقطع، والمعضل، والشاذ، والغريب، وغير ذلك من ألقابه المتداولة بينهم، وبينوا كيف يأخذ الرواة بعضهم عن بعض بقراءة أو كتابة أو مناولة أو إجازة مع تفاوت رتبها[١٦] وأشهر المحدثين في زمن بني أمية — وبعضهم تجاوزه:

(١) **ابن أبي مليكة:** هو عبد الله بن أبي مليكة التيمي المكي، من كبار تلامذة ابن عباس توفي سنة ١١٩هـ.

(٢) **الأوزاعي عبد الرحمن بن عمرو:** محدث الشام وفقيهها، أخذ عنه كثيرون، منهم عبد الله بن المبارك وابن زياد وأبو العباس الوليد بن مسلم، توفي سنة ١٥٩هـ.

(٣) **الحسن البصري:** واعظ البصرة المشهور، وفقيهها، ومحدثها، ومِن أقدم من تكلموا في مسائل القدر توفي سنة ١١٠هـ.

(٤) **الشعبي:** هو أبو عمرو عامر بن شرحبيل توفي بالكوفة سنة ١٠٤هـ.

وأكثر المحدثين نبغوا في العصر العباسي الأول، وهم كثيرون ذكرهم ابن قتيبة في كتاب المعارف (صفحة ١٧٢–١٧٩).

وليس بين هؤلاء من دوَّن كتابًا. وأقدم من دوَّن الأحاديث مالك بن أنس الإمام المشهور في كتاب الموطأ، رتبه على أبواب الفقه وهو مطبوع ومشروح، وسيذكر في باب الفقه، وذكر بعضهم أن ابن جريج دوَّن الحديث، لكن لم يصلنا منه شيء.

وفي العصر العباسي نضج علم الحديث وضُبطت كتبه على أيدي الأئمة المحدثين.

(٥) الفقه

لما صار الإسلام دولة احتاج أمراؤه إلى ما يقضون به بين رعاياهم في أحوالهم الشخصية ومعاملاتهم المدنية فرجعوا إلى القرآن والحديث، فاستخرجوا منهما شريعة نظموا بها حكومتهم وحكموا بها بين رعاياهم … وذلك طبيعي في الدول الكبرى، فاليونان قلما عنوا بوضع الشرائع والأحكام الدولية أو القضائية لأنهم لم يكونوا أهم دولة كبيرة إلا زمنًا قصيرًا فانصرفت قرائحهم إلى الفلسفة وفروعها، وأما الرومان فقد اتسعت مملكتهم كما اتسعت مملكة العرب وامتد سلطانهم وقويت شوكتهم، فلم يكن لهم بد من وضع الشرائع، لكنه لم يتم نضجها إلا بعد تأسيس دولتهم ببضعة عشر قرنًا على يد يوستنيان صاحب القانون المشهور سنة ٥٣٣م، وهي عبارة عن عادات واعتبارات واعتقادات تجمعت بتوالي الأحقاب من الشعب اللاتيني والصابني وغيرهما ممن دانوا لرومية بالتدريج حتى صارت شريعة كاملة على عهد يوستنيان المذكور.

وأما المسلمون فإنهم استخرجوا أحكامهم من القرآن والحديث. ولم يمضِ عليهم قرنان والثالث حتى نضجت شريعتهم وتكون فقههم، وهو من أفضل شرائع العالم، وقد أسرعوا في ذلك مثل سرعتهم في تأسيس دولتهم ونشر دينهم …

قلنا: إن القرآن أساس الفقه الإسلامي، وكان المسلمون في عهد النبي يتلقون الأحكام منه وهو يبينها لهم شفاهًا … فلم يكن ذلك يحتاج إلى نظر أو قياس، فلما توفي رجع الصحابة إلى القرآن والسنة، فأصبح القراء أول فقهاء المسلمين أو حاملي شريعتهم، وكانوا يرجعون إليهم في الفتيا والأحكام لقلة الذين يقرأون في الصدر الأول، فلما عظمت أمصار الإسلام وذهبت الأمية من العرب وكمل الفقه وأصبح صناعة بدلوا باسم الفقهاء والعلماء …

الفقهاء

وأول الفقهاء المسلمين الصحابة الأولون، وأولهم الخلفاء الراشدون، ثم عبد الرحمن بن عوف، وأبي بن كعب، وعبد الله بن مسعود، ومعاذ بن جبل، وعمار بن ياسر، وحذيفة، وزيد بن ثابت، وسلمان، وأبو الدرداء، وأبو موسى الأشعري،[١٧] ثم انتقلت الفتوى والفقه إلى التابعين، واشتهر منهم سبعة: سعيد بن المسيب، وأبو بكر بن عبد الرحمن، وقاسم، وعبيد الله، وعروة، وسليمان، وخارجة، وقد جمعهم بعض العلماء في هذين البيتين:

ألا كل من لا يقتدي بأئمةٍ   فقسمة ضيزي، عن الحق خارجه
فخذهم عبيد الله عروة قاسم   سعيد سليمان أبو بكر خارجه[١٨]

وبعض المؤرخين يحسبهم عشرة مع تبديل بعض الأسماء،[١٩] وعنهم انتقل الفقه والفتيا في العالم الإسلامي، وفي أوائل الإسلام كان الفقه والقراءة والتفسير والحديث علمًا واحدًا … ثم أخذت هذه العلوم تستقل بعضها عن بعض؛ عملًا بناموس الارتقاء، فلما استقل الفقه سموا أصحابه الفقهاء كما تقدم وكان لهم تأثير كبير في الدولة لما يترتب على الفتيا من الأمور الهامة كالعزل والتنصيب والقتل والعفو، ففي أيام بني أمية كان المرجع في الفقه والفتيا إلى أهل المدينة، وكان الخلفاء لا يقطعون أمرًا دونهم، ولم يخلف فقهاء العصر الأموي آثارًا مكتوبة لأن الفقه نضج وتكيف بعد نبوغ الأئمة الأربعة في العصر العباسي.

هوامش

(١) الأغاني ١٨٢ ج٢.
(٢) الأغاني ٥١ ج٣.
(٣) الأغاني ١٦٩ ج٢٠.
(٤) الخصائص لابن جني.
(٥) المزهر ٢٠٦–٢٠٨ ج٢.
(٦) ابن خلكان ٢٥٠ ج١.
(٧) الفهرست ٢٩.
(٨) ابن خلكان ١٥١ ج٢.

(٩) طبقات الأدباء ٣٦١.
(١٠) ابن خلكان ٤٩٠ ج١.
(١١) المقدسي ٣٩ وفتح الطيب ١٠٤ ج١.
(١٢) ابن خلكان ٢٠٨ ج٢.
(١٣) الفهرست ٢٣.
(١٤) طبقات الأطباء ١٧٥ ج٢.
(١٥) ابن خلكان ١٤٦ ج٢.
(١٦) ابن خلدون ٢٦٨ ج١.
(١٧) الدموي ٥١ ج١.
(١٨) ابن خلكان ٩٢-١.
(١٩) أبو الفداء ٢٠٩ ج١.

العلوم اللسانية

ونريد بها العلوم التي ترجع إلى ضبط اللغة العربية كالنحو والصرف والأدب ونحوها، وهذه بدأت بالتكون في العصر الأموي، ولم يتكون منها في هذا العصر غير النحو ويلحقه الحركات والإعجام، وسنتكلم عن كل منها:

(١) النحو

النحو بمعناه الحقيقي طبيعي على لسان كل متكلم يتلقنه من مرضعه؛ لأن الإنسان يتعلم النحو وهو يتعلم النطق …؛ إذ بدونه لا يحسن التعبير عن أفكاره، أما إذا أراد أن يتعلم لسانًا غير لسانه، فدرس قواعد النحو فإنه يسهل عليه تناوله، ولذلك فالأمة قد تقضي قرونًا عدة وهي تتكلم وتخطب وتنظم الشعر قبل أن تدون قواعد النحو وتجعله علمًا … فاليونان لم يبدأوا بضبط قواعد لسانهم إلا في القرن الخامس قبل الميلاد، وأول من بدأ بذلك منهم بروتغوراس المتوفى سنة ٤١١ق.م، فتكلم في المذكر والمؤنث وبعض الأسماء، ثم بروديكوس وقد عاصره وتكلم في المترادفات، ثم جاء أرسطو وغيره وأتموا علم النحو اليوناني وله تاريخ يشبه تاريخ النحو العربي، وكذلك فعل الرومان في نحو اللغة اللاتينية، فإنهم لم يدونوا قواعده إلا في القرن الأول قبل الميلاد في زمن بومبيوس … وقد دونه عالِم اسمه ديونيسيوس تراكس اقتداء باليونان.

فاليونان نبغ فيهم الشعراء والخطباء والأدباء والفلاسفة قبل تدوين قواعد النحو في لسانهم … فنظم هوميروس إلياذته وأوديسته وهو لم يتعلم قواعد النحو، فلم يضره ذلك شيئًا؛ لأن اللغة كانت ملكة فيه، وألف إسخيلوس الروايات التمثيلية وسحر اليونان ببيانه، ونبغ الفلاسفة أمثال أناكسيمندر وطاليس، وكتب هيرودوتس الرحالة تاريخه

المشهور قبل وضع النحو، وكذلك الرومان، فقد نبغ فيهم جماعة من الشعراء والخطباء والأدباء قبل تدوين النحو.

وضع النحو العربي وواضعه

وهكذا العرب، فقد نظموا الشعر وألقوا الخطب وتناشدوا وتراسلوا قبل تدوين النحو؛ لأن ملكة اللغة كانت طبيعية فيهم ... على أنهم اضطروا إلى ضبط تلك القواعد وتدوينها بأسرع مما اضطر إليه اليونان والرومان؛ التماسًا للدقة في ضبط معاني القرآن ... فلم يمضِ على دولتهم نصف قرن حتى شعروا بالحاجة إلى النحو ... ويغلب على ظننا أنهم نسجوا في تبويبه على منوال السريان؛ لأن السريان دونوا نحوهم وألفوا فيه الكتب في أواسط القرن الخامس للميلاد، وأول من باشر ذلك منهم الأسقف يعقوب الرهاوي الملقب بمفسر الكتب المتوفى سنة ٤٦٠م،[١] فالظاهر أن العرب لما خالطوا السريان في العراق اطلعوا على آدابهم وفي جملتها النحو، فأعجبهم ... فلما اضطروا إلى تدوين نحوهم نسجوا على منواله لأن اللغتين شقيقتان، ويؤيد ذلك أن العرب بدأوا بوضع النحو وهم في العراق بين السريان والكلدان، وأقسام الكلام في العربية هي نفس أقسامه في السريانية.

أما استعجال العرب في تدوين النحو فإنه تابع لاستعجالهم في الفتح ونشر الدين، لأن الفتوح دعت إلى الاختلاط بالأعاجم، والاختلاط دعا إلى فساد اللغة ... فأصبح الناس يهملون الإعراب، وكان العرب عند ظهور الإسلام يعربون كلامهم على نحو ما في القرآن، إلا من خالطهم من الموالي والمتعربين، فإن هؤلاء كانوا حتى في أيام الرسول يخطئون في الإعراب ... وقد ذكروا رجلًا لحن بحضرة الرسول ﷺ فقال: «أرشدوا أخاكم فقد ضل» وقال أبو بكر: «لأن أقرأ فأسقط أحب إلي من أن أقرأ فألحن»،[٢] ولكن اللحن لم يكثر إلا بعد الفتوح وانتشار العرب في الآفاق، فتذمر العمال مما كانوا يسمعونه من اللحن وخصوصًا في قراءة القرآن، وأحسوا بحاجة شديدة إلى ضبط قواعد اللغة.

أما واضع علم النحو أو مدونه فهو بالإجماع أبو الأسود الدؤلي المتوفى سنة ٦٩هـ، وكان من سادات التابعين صحب علي بن أبي طالب وشهد معه واقعة صفين ثم أقام في البصرة، وكأنه تعلم لغة السريان أو اطلع على نحوها فرغب في النسج على منواله، فعرض ذلك على والي العراقين يومئذ زياد ابن أبيه فأبى[٣] … حتى إذا جاءه رجل يشكو إليه أمرًا فسمعه يقول: «أصلح الله الأمير توفي أبانا وترك بنون» فاستنكف زياد من سماع ذلك اللحن، فبعث إلى أبي الأسود أن يصنع ما كان قد نهاه عنه.

واختلف الرواة فيما بعث أبا الأسود على وضع النحو، لكنهم مجمعون على أنه واضعه كما قدمنا، وهو يقول: إنه تلقى ذلك عن علي بن أبي طالب، فوضع علم النحو أو الشروع فيه على الأقل ثابت لأبي الأسود، ويؤيد ذلك ما ذكره ابن النديم صاحب الفهرست مما شاهده بعينه في عرض كلامه عن خزانة كتب أطلعه عليها أحد جامعي الكتب … فكان في جملة ما فيها قمطر كبير فيه نحو ٣٠٠ رطل جلود فلحاف وصكاك وقرطاس مصري وورق صيني وورق تهامي وجلود أدم وورق خراساني، وبينها أربع أوراق، قال: «أحسبها من ورق الصين ترجمتها هذه فيها كلام في الفاعل والمفعول من أبي الأسود — رحمة الله عليه — بخط يحيى بن يعمر، وتحت هذا الخط بخط عتيق: هذا خط علان النحوي، وتحته: هذا خط النضر بن شميل، ثم لما مات هذا الرجل فقدنا القمطر».[٤]

على أن ما وضعه أبو الأسود من القواعد لم يكن ليسد الحاجة المستعجلة لضبط القراءة، فعمد إلى ضبطها بعلامات يتميز بها المنصوب من المرفوع أو الاسم من الفعل، فوضع علامات كانت عند السريان يدلون بها على الرفع والنصب والجر أو يميزون بها الفعل من الاسم كما سيجيء.

فالعرب كانوا يعرفون الإعراب قبل علم النحو كما كانوا يحسنون النظم قبل علم العروض، وكان ذلك ملكة طبيعية فيهم حتى اختلطوا بالأعاجم وأسلم هؤلاء وليس فيهم ملكة اللغة ليفهموا القرآن … فاضطروا إلى ضبطها وكانوا أكثر المسلمين اشتغالًا بذلك، بدأ بعلم النحو أبو الأسود وأتمه من جاء بعده من أهل البصرة والكوفة، ولم ينضج إلا في العصر العباسي وسيأتي الكلام عليه هناك.

(٢) الحركات

ونعني بها علامات الضم والفتح والكسر ونحوها، اضطروا إلى وضعها في أوائل الإسلام لضبط الإعراب في قراءة القرآن، وكان القرآن في أول الإسلام محفوظًا في صدور القراء، لا خوف من الاختلاف في قراءته؛ لكثرة عنايتهم في تناقله وضبط ألفاظه حتى دونوه وكثر أهل الإسلام … فمضى نصف القرن الأول للهجرة والناس يقرأون بلا حركات ولا إعجام، وأول ما افتقروا إليه الحركات، وأول من رسمها أبو الأسود الدؤلي المتقدم ذكره … فإنه وضع نقطًا تمتاز بها الكلمات أو تُعرف بها الحركات، ولذلك توهم بعضهم أنه وضع نقط الإعجام، والحقيقة أنه وضع نقطًا لتمييز الاسم من الفعل والحرف، وليس لتمييز الباء من التاء أو الجيم من الحاء، والأرجح أنه اقتبس ذلك من الكلدان أو السريان جيرانه في العراق، وكان عندهم نقط كبيرة توضع فوق الحرف أو تحته لتعيين لفظه أو تعيين الكلمة الواقع هو فيها: اسم هي، أم فعل، أم حرف … مثل قولهم: «كتب» فيمكن أن تكون اسمًا جمع كتاب أو فعلًا ماضيًا معلومًا أو مجهولًا، وكان عندهم أيضًا نقط هي حركات، وصفها يعقوب الرهاوي قبيل ذلك الزمن،[٥] وهي عبارة عن نقط، كانت تُرسم في حشو الحروف ثم تحولت إلى نقط مزدوجة تنوب عن الحركات الثلاث، وما زالت عندهم إلى اليوم فالظاهر أن أبا الأسود اقتبس هذه الحركات، ويؤيد ذلك أنه لما أراد التنقيط أتوه بكاتب، فقال له أبو الأسود: «إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحروف فانقط نقطة فوقه على أعلاه، وإن ضممت فانقط نقطة بين يدي الحرف، وإن كسرت فاجعل النقطة من تحت الحرف»،[٦] فكان العرب بعد ذلك يستعملون هذه النقط، والغالب أن يكتبوها بلون غير لون الخط، وقد شاهدنا في دار الكتب المصرية مصحفًا كوفيًّا منقطًا على هذه الكيفية وجدوه في جامع عمرو بجوار القاهرة، وهو من أقدم مصاحف العالم مكتوب على رقوق كبيرة بمداد أسود وفيه نقط حمراء اللون، فالنقطة فوق الحرف فتحة، وتحته كسرة، وبين يدي الحرف ضمة، كما وصفها أبو الأسود.

صور الحركات

أما صور الحركات التي وصلت إلينا … نعني الضمة والفتحة والكسرة فلا نعلم واضعها أو واضعيها ولا الزمن الذي وُضعت فيه، ولكن الغالب أنها وُضعت في القرون الأولى للإسلام كما وُضعت نقط الإعجام اقتداء بالسريان لأن هؤلاء وضعوا الحركات لحروفهم

في القرن الثامن للميلاد نقطًا كما فعل العبرانيون. والحركات عند العبرانيين ١١ وعند السريان الشرقيين ٧ وعند السريان الغربيين ٥، أما في العربية فهي ثلاث فقط.

ظل الساميون يكتبون ألسنتهم بلا حركات من أقدم أزمنة التاريخ في أشور وبابل وفينيقية واليمن والحجاز، ولم يفطنوا لوضع الحركات إلا بعد الميلاد المسيحي، وأقدم وسيلة اتخذوها لدفع الالتباس في القراءة النقطة الكبيرة التي استخدمها السريان كما تقدم، والغالب أنها وُضعت نحو القرن الرابع للميلاد، ثم تقدموا خطوة أخرى فاتخذوا لكل خطوة علامة خاصة توضع فوق الحرف أو تحته، وهي عند العبران والسريان الشرقيين نقط تُوضع مفردة أو مزدوجة فوق الحرف أو تحته فتدل على الضم أو الفتح أو الكسر أو ما بينهما، كالإمالة والإشمام ونحوهما.

أما السريان الغربيون، فاقتبسوا الحركات من الأبجدية اليونانية، وأخذوا منها خمسة أحرف صوتية هي Y.E.H.O.A. عبروا بها عن الحركات، كل حرف يجانس الحركة التي يدل عليها في اليونانية، وقد تم ذلك في المائة الثامنة للميلاد ...؛ إذ نهض السريان لتحرير ألفاظ الكتاب المقدس وسائر كتب الدين وضبطوا قراءتها، وكانت اليونانية شائعة بين رجال العلم منهم، فاقتبسوا حروفها الصوتية لهذه الغاية.

أما العرب فقد اهتموا بضبط لسانهم مثل السريان، فاقتدوا بهم أولًا بالنقط الكبيرة والصغيرة ثم وضعوا الحركات المستقلة كما وصلت إلينا ... لكنهم لم يقتبسوها من أحرف الألسنة الأخرى كما فعل السريان، بل أخذوها من الأبجدية العربية فاستخدموا حروفها الصوتية؛ لتدل على الحركات، والحركات العربية لا تقل عددًا عن الحركات السريانية وربما زادت عليها، ولكن الأحرف الصوتية في العربية ثلاث فقط (الواو والألف والياء) فاستعاروها للدلالة على الضم والفتح والكسر وهي الحركات الرئيسية، وتركوا سائر الحركات المختلسة كالإشمام والروم والإمالة لفطنة القارئ، وإذا تأملت صورة الحركات المذكورة رأيت الضمة كالواو تمامًا والفتحة تشبه الألف مائلة، وأما الكسرة فإنها الآن بعيدة الشبه بالياء، فإما أنها كانت عند أول استخدامها أقرب إلى شكل الياء ثم تنوعت بالاستعمال، أو أنهم قلدوا بها حركة الكسر عند السريان الشرقيين، وهي نقطتان أسفل الحرف فرسمهما العرب معًا فجاءتا كالكسرة، أو لعلهم اقتبسوا الياء السريانية فإن صورتها كالكسرة العربية وهي ـ وقد قال الإمام الرازي: «الحركات أبعاض المصوتات».

المدة والشدة والوصلة والهمزة

وفي الكتابة العربية علامات أخرى لضبط التلفظ بالمد أو الوصل أو الإدغام، وهي أحدث في استنباطها من الحركات التي تقدم ذكرها، ولكنها وُضعت قبل القرن الخامس للهجرة وأشهرها المدة ˜ والشدة ّ والوصلة ُ وكلها مقتطعة من ألفاظ تؤدي المعنى المراد من وضعها، فالمدة مقطوعة من «مد» والشدة من «شد» والوصلة من «صل» ... وذلك أن الكاتب كان إذا أراد ضبط ما يكتبه كتب فوق الحرف الذي يريد مده قوله «مد» بصيغة الأمر، وفوق الحرف المدغم لفظ «سد» والشين بلا نقط، وفوق الألف المراد وصلها كلمة «صل»، وكانوا يرسمون هذه الألفاظ صغيرة كما يفعلون حتى اليوم في علامات ضبط قراءة القرآن، فيكتبون فوق الكلمة «قف» أو «ج» أو «ص» أو «ط» وكل منها مقتطعة من لفظ يراد به تعيين درجة الوقف أو الوصل.

وظلوا دهرًا يكتبون علامات المد والشد والوصل بصورها الأصلية ثم اختصروها، فكانوا يعبرون عن حركة المد أولًا بكتابة لفظ «مد» وعن التشديد بلفظ «شد» وعن الوصل بلفظ «صل» ثم اختصروا صورها بالاستعمال فصارت المدة «مد» والشدة «سد» والوصلة «صل» ثم اختُصرت في الكتابة إلى ما هي عليه الآن، وقد اطلعنا في معرض دار الكتب المصرية على كتاب مخطوط في أوائل القرن الخامس للهجرة، وفيه هذه العلامات قريبة جدًّا من ألفاظها الأصلية، وهذه صورتها في ذلك الكتاب «مد» للمدة و«سد» للشدة و«صـ» للوصلة.

أما همزة القطع فإنها بصورة العين مصغرة «ع»، ولعلهم يرمزون عنها بالعين لتقارب لفظيهما، وكثيرًا ما تتبادلان، أو أنهم رسموا العين مقطعة من لفظ «قطع»، كما بقيت الصاد من صل والشين من شد.

ومن العلامات الكتابية الشائعة علامة توضع في آخر الرسالة أو الكتاب، ويُراد بها الدلالة على نهاية القول وهي «،» أو نحوها، والغالب في اعتقادنا أنها بقية لفظ «صح» التي كانوا ولا يزالون يختمون رسائلهم بها.

(٣) الإعجام

كان الخط لما اقتبسه العرب من السريان والأنباط خاليًا من النقط، ولا تزال الخطوط السريانية بلا نقط إلى اليوم، فالإعجام حادث في العربية وهو قديم فيها، والظاهر أن المسلمين بعد أن استخدموا الحركات المذكورة رأوا التصحيف قد تكاثر، والتبست القراءة عليهم لتكاثر الأعاجم من القراء، والعربية ليست لغتهم ... فصعب عليهم التمييز بين الأحرف المتشابهة في شكلها كالجيم والحاء والسين والشين والباء والتاء والثاء، فانتبه لذلك الحجاج أمير العراق في أيام عبد الملك بن مروان، قال ابن خلكان: «ففزع الحجاج إلى كتابه وسألهم أن يضعوا لهذه الأحرف المختلفة علامات تميزها بعضها من بعض، فيقال: إن نصر بن عاصم قام بذلك فوضع النقط أفرادًا وأزواجًا وخالف بين أماكنها، فعبر الناس بذلك زمانًا لا يكتبون إلا منقوطًا فكان مع استعمال النقط أيضًا يقع التصحيف، فأحدثوا الإعجام فكانوا يتبعون النقط بالإعجام»،[٧] وفي عبارة ابن خلكان هذه التباس فلا يُفهم المراد بها ولا ما الفرق بين التنقيط والإعجام وهما واحد. ولا يعقل أن يكون المراد بالنقط الحركات لأنهم إنما عمدوا إليها لكثرة التصحيف؛ أي اختلاف القراءة باختلاف النقط، فالظاهر أن النقط المذكورة هي من قبيل الإعجام لتمييز الحروف المتشابهة، ولكن نصرًا هذا لم ينقط إلا بضعة حروف مما يكثر وروده ويخشى الالتباس فيه، ثم رأوا القراءة لا تُضبط إلا بتنقيط كل الحروف كما هي الآن، وهذا ما عبروا عنه بالإعجام.

وقد شاهدنا في معرض الخطوط في دار الكتب المصرية كتابة عربية على صحيفة من البردي «البابيروس» مؤرخة سنة ٩١هـ، وفيها إعجام لكنه قاصر على الصور المتشابهة للباء للتمييز بين الباء والياء والتاء وصورة حرف الشين؛ لتمييزه من السين بثلاث نقط موضوعة على استواء واحد، وشاهدنا أجزاء من مصاحف أخرى مكتوبة على رقوق صغيرة وعليها نقط حمراء للحركات ونقط سوداء للإعجام، وقد تجد خطوطًا قديمة منقطة ومحركة وخطوطًا حديثة بلا تنقيط ولا تحريك.

ولم تُعجم الحروف كلها في وقت واحد، ولكنهم تدرجوا في ذلك حسب الحاجة في أزمنة مختلفة، ويتضح ذلك لمن يتأمل في المخطوطات العربية القديمة، فإنك تجد الإعجام لم يبلغ ما هو عليه الآن إلا بتوالي الأجيال، وآخر حرف أُعجم الياء لتمييز الياء من الألف المقصورة، وأول من فعل ذلك المرسلون الأمريكيون في بيروت في أوائل القرن الماضي.

(٤) التاريخ والجغرافية (في زمن بني أمية)

لم يكن عند عرب الجاهلية من التاريخ إلا أخبار متفرقة ليست من التاريخ في شيء، فلما ظهر الإسلام واشتغل المسلمون بالفتح والحرب حتى استتب لهم الأمر ونزعوا إلى الجهاد ... تدرجوا في وضع التاريخ مثل تدرجهم في سائر العلوم الإسلامية، وهو قسمان:

(١) تاريخ المسلمين وأعمالهم وتراجم رجالهم وهذه قد استخرجها العرب من أعمالهم.

(٢) تاريخ الأمم الأخرى ... وهذه بدأوا بتعريفها ونقلها من زمن بني أمية لأن الدهاة من الخلفاء الأمويين كانوا من أرغب الناس في معرفة أخبار مشاهير الأمم الأخرى.

فمعاوية بن أبي سفيان كان يجلس لأصحاب الأخبار في كل ليلة بعد العشاء إلى ثلث الليل، فيقصون عليه من أخبار العرب وأيامها والعجم وملوكها وسياستها في رعيتها وسائر ملوك الأمم وحروبها ومكائدها، ثم ينام ثلث الليل ويقوم، فيأتيه غلمان مرتبون وعندهم كتب قد وكلوا بحفظها وقراءتها، فيقرأون عليه ما في تلك الكتب من سِيَر الملوك وأخبار الحروب ومكايدها وأنواع السياسة،[٨] والغالب في اعتقادنا أن تلك الكتب كانت باللغتين اليونانية واللاتينية، وفيها أخبار أبطال اليونان والرومان كالإسكندر ويوليوس قيصر وهنيبال، وأن الغلمان كانوا يفسرونها له بالعربية.

وسماع أخبار العظماء يستنهض الهمم إلى الاقتداء بهم ولذلك كان أكثر القواد العظام الراغبين في العلا من العرب وغير العرب يستتلون أخبار من سبقهم من مشاهير القواد والساسة للعبرة.

أما تدوين التاريخ في اللغة العربية، فبدأ في زمن بني أمية مع رغبة المسلمين عن التدوين في ذلك العصر لأسباب بيناها في الجزء الثالث من تاريخ التمدن الإسلامي، ولكنهم اختصوا عدم التدوين بالفقه والتفسير، فلم يدونا إلا في القرن الثاني، وأما ما تقدم ذكره عن تفسير ابن عباس، فإنه مرويٌّ عنه سماعًا.

ويظهر أنهم بدأوا بتدوين التاريخ الأجنبي قبل تدوين حروبهم وفتوحهم؛ إذ لم يكن المراد بالتدوين خدمة التاريخ ... إنما فعلوه لحاجة الخلفاء إلى الاطلاع على أحوال الأمم الأخرى، وأول من فعل ذلك عبيد بن شرية، أَلَّف كتاب الملوك وأخبار الماضين لمعاوية بن أبي سفيان، ذكره صاحب الفهرست ولا وجود له الآن، وكان الأمويون يسمون أبحاث هذا العلم «علم أخبار الماضين»، وذكر ابن النديم كتبًا في موضوعات مختلفة أَلَّفها أبو مخنف

الأزدي من أصحاب علي، فيها تراجم المشاهير ونحوهم، وكتابًا ألفه عوانة بن الحكم الكلبي في التاريخ، وآخر في سيرة معاوية وبني أمية في القرن الثاني للهجرة، ولم يصل إلينا شيء من هذه الكتب ولا غيرها من كتب الأدب والتاريخ مما كُتب في زمن بني أمية.

ومن العلوم التاريخية التي وُلدت في العصر الأموي علم الأنساب، وقد علمت أن الأنساب من العلوم الجاهلية فاحتاج إليها المسلمون في صدر الإسلام لإثبات أنسابهم، وعليها يتوقف مقدار العطاء أو منزلة الشخص من الدولة أو المنصب فجعلوها علمًا، وأول من احتاج إلى ذلك زياد بن أبيه الداهية المشهور الذي استلحقه معاوية بنسبه؛ ليستعين به على أعدائه، فعمل في نسبه كتابًا دفعه إلى ابنه. ذكر ذلك ابن النديم أيضًا، ولم نقف عليه ولا على خبره، وذكر أيضًا من أقدم النسابين في الإسلام دغفل والحجر بن الحارث والبكري ولسان الحمرة ولم يذكر لهم كتبًا.

وبالإجمال إن التاريخ ولد في زمن بني أمية، ولم ينضج إلا في العصر العباسي، وعلى كل حال فإن العرب من أسبق الأمم إلى تدوين التاريخ بعد أن تمدنوا؛ لأن الرومان لم يؤلفوا فيه إلا بعد تأسيس دولتهم بسبعة قرون، وأول مؤرخيهم يوليوس قيصر[٩] أي بعد استقرار الدولة، واليونان بدأ التاريخ عندهم بموضوعات خاصة، ولم يدونوا التاريخ العام إلا في زمن هيرودوتس أي بعد إنشاء دولتهم ببضعة قرون.

أما الجغرافية فلفظها يدل على أنها دخيلة، لكن العرب بدأوا بشيء منها قبل النقل كما سيجيء.

(٥) العلوم الدخيلة

نريد بالعلوم الدخلية التي نقلها المسلمون إلى اللغة العربية من الألسنة الأولى، ويدخل فيها علوم اليونان والفرس والهند والسريان وغيرهم، وهذه نُقلت في العصر العباسي كما هو مشهور، لكن العرب بدأوا بنقلها منذ أيام بني أمية وإن لم يبقَ من نقلهم شيء إلى الآن.

خالد بن يزيد

وأول من فعل ذلك خالد بن يزيد بن معاوية المتوفى سنة ٨٥هـ حفيد معاوية الأكبر ويسمونه الحكيم، وكان طامعًا في الخلافة بعد وفاة أخيه معاوية الثاني، فغلبه على ذلك مروان بن الحكم وانتقلت الخلافة من بيت أبي سفيان إلى بيت مروان، فلما يئس خالد من الخلافة وهو ذو مطامع وذكاء، انصرف ذهنه إلى اكتساب العلا بالعلم، وكانت صناعة الكيمياء رائجة يومئذ في مدرسة الإسكندرية، فاستقدم جماعة، منهم راهب رومي اسمه مريانوس طلب إليه أن يعلِّمه صناعة الكيمياء … فلما تعلمها أمر بنقلها إلى العربية فنقلها له رجل اسمه أسطفان القديم،[١٠] وهذا أول نقل في الإسلام من لغة إلى لغة.

وكان خالد راغبًا في علم النجوم أيضًا، وأنفق الأموال في طلبه واستحضار آلاته، ولعلهم ترجموا له شيئًا منه لم يصلنا خبره.

ولم يصلنا شيء من منقولات خالد المذكورة، ولكنه كان شديد الولع بالعلوم الطبيعية وخصوصًا الكيمياء والفلك، وقد ذكر ابن القفطي في ترجمة ابن السنبدي أنه شاهد في خزائن الكتب بالقاهرة كرة نحاس، كُتب عليها «حملت هذه الكرة من الأمير خالد بن يزيد بن معاوية».[١١]

واشتغل بنقل العلم في هذا العصر بعض أهل الشام، نقلوا بعض كتب الطب، وممن وصلنا خبرهم من النقَلَة طبيب كان معاصرًا لمروان بن الحكم اسمه ماسرجويه، سرياني الجنس يهودي المذهب كان يُقيم في البصرة، وظهر في أيامه كتاب في الطب هو كناش (حاوي) من أفضل الكنانيش، ألَّفه القس أهرون بن أعين في اللغة السريانية فنقله ماسرجويه إلى العربية، فلما تولى عمر بن عبد العزيز وجد هذا الكتاب في خزائن الكتب في الشام … فحرضه بعضهم على إخراجه إلى المسلمين للانتفاع به، فاستخار الله في ذلك أربعين يومًا ثم أخرجه إلى الناس وبثه في أيديهم، ويدلك ذلك على التردد الذي استولى على الخليفة في إخراج هذا الكتاب، مع أنه من كتب الطب لا الفلسفة.

وذكر ابن النديم أن سالمًا كاتب هشام بن عبد الملك نقل رسائل أرسطو إلى الإسكندرية، وعلى كل حال لم يبقَ شيء من منقولات هذا العصر.

هوامش

(١) شعراء السريان للقرداحي ١٨.
(٢) المزهر ١٩٩ ج٢.
(٣) ابن خلكان ٢٤٠ ج١.
(٤) الفهرست: ٤٠.
(٥) اللمعة الشهية ٢٠.
(٦) الفهرست ٤٠.
(٧) ابن خلكان ١٢٥ ج١.
(٨) المسعودي ٥٢ ج٢.
(٩) Lit. Ane. 359, 232.
(١٠) الفهرست ٢٤٢ و٢٤٤.
(١١) أخبار الحكماء لابن القفطي ٤٤٠.

الآداب الجاهلية

نريد بالآداب الجاهلية الآداب العربية التي كانت عند العرب قبل الإسلام وقد تطورت عندهم، وأهمها اللغة والشعر والخطابة والإنشاء، وننظر في كل منها على حدة.

(١) اللغة

اللغة مرآة عقول أهلها ومعرض آدابهم وأخلاقهم وسائر أحوالهم، تتبعهم فيما يطرأ عليهم من التغيير وتحفظ آثار ذلك التغيير. وقد تتبدل أحوال الأمة ويذهب كثير من عاداتها أو آدابها وتبقى آثار ذلك في ألفاظها وتراكيبها، وقد رأيت ما حدث في اللغة من الآداب الشرعية واللسانية، فاقتضى ذلك طبعًا أن يحدث فيها ألفاظ جديدة أو تتنوع بعض ألفاظها للتعبير عن المعاني الجديدة …

فمن المصطلحات اللغوية التي اقتضتها العلوم اللسانية قولهم: النحو والعروض والشعر والإعراب والإدغام والإعلال والحقيقة والمجاز والنقض والمنع والقلب والرفع والنصب والخفض والمديد والطويل وغيرها من أسماء البحور وضروب الإعراب والتصريف، وهي كثيرة جدًّا ولها فروع واشتقاقات … حتى لقد أصبح للفظ الواحد معنى فقهي وآخر لغوي وآخر عروضي وآخر ديني مما لا يمكن حصره، أما المصطلحات الشرعية فقد ذكرنا بعضها في الكلام على اللغة في عصر صدر الإسلام، فليقس عليها.

ودخل اللغة في هذا العصر كثير من المصطلحات الإدارية كالخلافة والوزارة والحجابة والإمامة وغيرها من مصطلحات الجند: كالمسترزقة والمتطوعة والعلوفة والعسكر، وضروب الحرب وأبواب الهجوم: كالزحف والكر والفر والبيات والكفاح والغرة، وصنوف الأسلحة: كالدبابة والكبش، والعرادة وغيرها … ناهيك بمصطلحات

الدواوين على إجمالها كقولهم: الثغور والعواصم والإقليم والقصبة والعمل والولاية والضياع والحكومة والسكة والتوقيع والوظيفة والخراج والجزية والعشور والمرافق والصوافي والجوالي والجباية والوقف والمصادرة والمستغلات والصدقة والمكوس والمراصد ودار الضرب والضمان والدفاتر والجرائد والخرائط والإيغار والراتب والجاري والعطاء والبيعة والدعوى والختم والخطط والمطالعة والمؤامرة وغير ذلك كثير جدًّا.

وأكثر هذه الألفاظ كانت موجودة في اللغة، لكن مدلولاتها تغيرت بتغير أحوال العرب بعد إنشاء دولتهم لحدوث معانٍ جديدة اقتضاها ذلك التغيير.[١]

(٢) الشعر في العصر الأموي

لم يكن للشعر العربي تأثير في النفوس ومنزلة في الدولة في عصر من عصور العرب مثل ما كان له في العصر الأموي ولا غرابة في ذلك بعد ما علمته من خصائص ذلك العصر السياسية وطبائع الأمويين، ولا بأس من ذكر الأسباب التي بعثت على ازدهار الشعر في هذا العصر ومنزلته في الدولة وتأثيره في النفوس بإيجاز، ثم نأتي على مميزاته.

أسباب رواجه

(١) انقسام القبائل بالعصبية: اقتضت سياسة بني أمية استعداء القبائل بعضها على بعض بالرجوع إلى عصبية الجاهلية، وأول من فعل ذلك معاوية في الخلاف بينه وبين علي وأبنائه، ثم كان انقسام القبائل عند انتقال الخلافة من آل معاوية إلى آل مروان وكلاهما من بني أمية، ونشبت الحرب في مرج راهط، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك. وأخيرًا قام طلاب الخلافة من غير العلويين في زمن يزيد بن معاوية وعبد الملك بن مروان وهم الحسين بن علي وآل الزبير والأزارقة وسعيد بن الأشدق وغيرهم كما تقدم، ولكل خارج قبيلة أو بضع قبائل تنصره، والأمويون يستعينون بالشعراء على اختلاف قبائلهم وبطونهم ... يتألفونهم بالعطاء؛ لعلمهم بما لقول الشاعر من التأثير في نفوس عشيرته لأنه لسان حالها، فازداد الشعراء بذلك نفوذًا وتقربًا من الخلفاء أو الأمراء، وكان الخليفة يعد مدح الشاعر له دليلًا على رضا قبيلته عن سياسته لأنه لسان حالها، والقبيلة تعد إكرام الخليفة لشاعرها إكرامًا لها.

(٢) سخاء بني أمية بالأموال: واقتضت سياستهم تألف الشعراء بالمال فضلًا عن اضطرار الشعراء وغيرهم إلى استرضائهم خوفًا من قطع العطاء عنهم، والعطاء يومئذ رواتب الجند وسائر المسلمين، وكان المسلمون في صدر الإسلام كلهم جندًا، ولكل منهم راتب يتناوله من بيت المال على شروط مذكورة في الديوان[٢] فمن قبض على بيت المال قبض على رقاب الرعية، ويجدر بهم أن يتقربوا منه ويتزلفوا إليه، فإذا كان القابض عليه حكيمًا يعرف كيف يعطي ولمن يعطي، أغناه ذلك عن سائر الأسباب فيزيد العطاء أو ينقصه أو يقطعه على حسب الاقتضاء.

كذلك كان يفعل الدهاة من بني أمية، وقدوتهم معاوية بن أبي سفيان أكبر دهاة العرب ... فقد جعل تصرفه في العطاء وسيلة لاكتساب قلوب المسلمين حتى أشياع العلويين وغيرهم من أبناء الصحابة الذين كان يخاف قيامهم للمطالبة بالملك، فأحر به أن يفعل ذلك بالشعراء ولهم رواتب في بيت المال مثل سائر المسلمين، فلم يكن الشعراء يرون بدًّا من استرضاء بني أمية؛ خوفًا من قطع أعطيتهم فضلًا عما يرجونه من الجوائز إذا أحسنوا إرضاءهم ...

(٣) رغبة بني أمية في الشعر: كان لبني أمية رغبة شديدة في إحياء لسان العرب وآدابه كما قدمنا، وكان الخلفاء أنفسهم من أهل الأدب، نفوسهم شاعرية حساسة، حدث معاوية عن نفسه: قال: «اجعلوا الشعر أكبر همكم وأكثر دأبكم، فلقد رأيتني ليلة الهرير بصفين وقد أتيت بفرس أغر محجل بعيد البطن من الأرض وأنا أريد الهرب لشدة البلوى، فما حملني على الإقامة إلا أبيات عمرو بن الأطنابة»:

أبتْ لي همتي وأبى بلائي ... وأخْذي الحمد بالثمن الرَّبيحِ
وإقحامي على المكروه نفسي ... وضربي هامةَ البطل المُشيحِ
وقولي كلما جشَأت وجاشت ... مكانَك تحْمَدِي أو تَستريحي
لأدفع عن مآثر صالحاتٍ ... وأحمي بعدُ عن غَرَضٍ صحيح[٣]

ويزيد بن عبد الملك رد الأحوص الشاعر من منفاه ببيت شعر له غنته فيه جميلة المغنية وهو قوله:

كريمُ قريشٍ حين يُنسب والذي ... أقرتْ له بالملك كَهلًا وأمْردا

فطرب يزيد وقال: «ويحك، من كريم قريش هذا؟» قالت: «أنت وقد قاله الأحوص وهو منفي»، فكتب برده، وأنفذ له حللًا سنية وأدناه وقربه، وقال له يومًا: «لو لم تمت إلينا بحق ولا صهر ولا رحم إلا بقولك:

وإني لأستحييكم إذ يقودني إلى غيركم من سائر الناس مطمع

لكفاك ذلك عندنا».[٤]

وقد راسل عبد الملك بن مروان عدوه ابن الزبير بالشعر وأجابه ذاك بمثله[٥] وكان عمال الأمويين أصحاب شعر وخيال وحس مثلهم، فالحجاج وهو أشدهم وطأة، جيء بالأسرى بين يديه بعد حرب الأشعث فأخذ في قتلهم بقية ذلك اليوم حتى صاح به رجل: «والله يا حجاج لئن كنا قد أسأنا بالذنب فما أحسنت بالعفو، ولقد خالفت الله فينا وما أطعته» فقال له: «وكيف ... ويلك؟» قال: «لأن الله — تعالى — يقول: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ وقد قتلت فأثخنت حتى تجاوزت الحد فأسر ولا تقتل»، ثم قال: «أو أمنن» فقال الحجاج: «ويل لك ألا كان هذا الكلام منك قبل هذا الوقت» ثم نادى برفع السيف، وأمن الناس.

وكان بنو أمية يحفظون الشعر ويباحثون الشعراء وينتقدونهم، وكثيرًا ما كانوا يجمعون طائفة منهم في مجلس ويقترحون عليهم أن يصفوا شيئًا ويجيزون المجيد كما فعل هشام بن عبد الملك[٦] أو يجمعونهم ليتفاخروا بين أيديهم كما فعل سليمان بن عبد الملك؛ إذ جمع الفرزدق وجريرًا وكثيرًا وابن الرقاع، وقال لهم: «أنشدونا من فخركم شيئًا حسنًا ... ففعلوا في حديث طويل».[٧]

وقد يخطر لأحدهم شعر لا يعرف قائله أو يحتاج إلى تفسير، فيكتب إلى الشاعر أو الراوية فيستقدمه من العراق إلى الشام على البريد كما فعل هشام المذكور ... إذ بعث برسالة عاجلة من دمشق إلى عامله بالبصرة أن يشخص إليه حمادًا الراوية على البريد، فقضى حماد اثنتي عشرة ليلة في الطريق وهو خائف من تلك الدعوة العاجلة فإذا هو يقول له: «بعثت إليك لبيت خطر ببالي لم أدرِ من قائله»:

فهدأ روعه وقال: «وما هو؟» فقال:

فدَعوا بالصَّبوح يومًا فجاءتْ قينة في يمينها إبريق

فقال حماد: «هذا يقوله عدي بن زيد من قصيدة» وأنشده إياها.

وكذلك كان يفعل عمالهم إذا علموا بوجود شاعر أو أديب بارع بعثوا في استقدامه مما يطول بنا ذكره.[8]

وكان من الخلفاء شعراء، كالوليد بن يزيد؛ فقد كان شاعرًا بليغًا، وسيأتي خبر ذلك، وينسبون إلى يزيد بن معاوية القصيدة المشهورة التي مطلعها:

نالتْ على يدها ما لم تنله يدي نَقشًا على مِعصمٍ أوهتْ به جَلدي

وربما كانت لغيره، لكنه كان من أصحاب الشاعرية.

وكان لبعض خلفائهم الدهاة شغف بالأدب على الإجمال، ونخص منهم ثلاثة: معاوية، وعبد الملك، وهشامًا. حكم كل منهم أكثر من عشرين سنة، وكانت لهم عناية بالأدباء وخصوصًا عبد الملك، والأدب لا ينمو ويورق ويثمر إلا في ظل محبيه من الملوك أو الأمراء، وإذا تدبرت النهضات التي مر بها الأدب في أثناء التمدن الإسلامي رأيت لكل نهضة أميرًا أو ملكًا أخذ يناصرها وأحيا الأدب بتقديم أهله أو تنشيطهم، وسترى أدلة كثيرة من ذلك فيما يأتي من هذا الكتاب.

فلا عجب إذا كان أكثر أحاديث الناس في مجتمعاتهم ومنتدياتهم في الشعر ومن هو أشعر شعراء الجاهلية أو الإسلام، وكان الرائج من شعراء الجاهلية في عصرهم امرأ القيس وزهيرًا أو النابغة يفضلونهم على سواهم، ويفضلون جريرًا والفرزدق والأخطل على سائر الشعراء المسلمين في أيامهم. لكنهم كانوا يتناقشون في أي هؤلاء أشعر وكثيرًا ما كانوا يتخاصمون وترتفع أصواتهم، وربما اهتم الخليفة أو الأمير فبعث إلى بعض العلماء يسأله عن رأيه في أشعر الشعراء كما فعل الحجاج؛ إذ بعت إلى ابن قتيبة يسأله عن ذلك،[9] وقد يبعثون من الشام إلى العراق لمثل هذا السؤال.

(٤) الحركة الأدبية في البصرة والكوفة: قد علمت ما كان من حال هذين البلدين في العصر الأموي، وفيهما احتك العرب بغيرهم من الأمم المتمدنة، وفيهما اشتغل المسلمون بجمع أخبار العرب وأشعارهم وأمثالهم، وفيهما ولد النحو وغيره من الآداب اللسانية، فتكاثرت الأندية الأدبية هناك ولا سيما المربد عكاظ الإسلام كما تقدم، فكان ذلك من جملة البواعث على ازدهار الشعر في العصر الأموي.

على أن الشرق كله كان يومئذ في نهضة أدبية حتى الهند والصين واليابان فقد نبغ فيها الشعراء والأدباء في القرن الثامن للميلاد[١٠] على أثر ظهور الإسلام واتساع فتوحه فاهتزت أعصاب الشرق إلى أقصاه، فحدثت فيه تلك النهضة.

(٣) مميزات الشعر في العصر الأموي

الإنسان صنيعة الإقليم، فتتغير أطواره وأحواله بتغير البيئة المحيطة به، ويظهر أثر ذلك في نتاج قريحته أو فكرته، وقد رأيت أن العرب اختلفت أحوالهم في العصر الأموي عما كانت عليه في زمن الجاهلية أو في زمن صدر الإسلام فظهر أثر ذلك في ثمار قرائحهم وخصوصًا الشعر، وإليك أهم مميزاته في ذلك العصر:

(١) خلوه من وحشي الكلام: إن قرب العصر الأموي من الجاهلية ورغبة الأمويين في البداوة وتقليدهم عرب الجاهلية في آدابهم وأشعارهم، كل ذلك أبقى للشعر الأموي بلاغة الجاهلية وسلامتها من العجمة والركاكة، لكن الإسلام أكسبه أسلوب القرآن والحديث، فتخلص من التركيب الغريب والكلام الوحشي، فهو من حيث البلاغة أحسن في هذا العصر مما في سائر العصور وإن كان لكل عصر مميزات.

(٢) كثرة التشبيب: كان الشاعر الجاهلي يقول الأبيات تغزلًا في حبيبته، يعبر بذلك عن حبه أو ما تكنه جوارحه من الغرام أو الشوق، ولا يشبب في غير حبيبته أو خطيبته، وقد يسميها بغير اسمها، والغالب أن يكني عنها بإحدى عرائس الشعر؛ لئلا يعلم أهله بتشبيبه فيمنعوه من التزوج بها؛ لأنهم كانوا شديدي الغيرة على النساء حتى إن أحدهم إذا سطا عليه عدو وخاف على حياته منه عمد إلى امرأته أو حبيبته فيقتلها غيرة عليها من أن يمسها سواه بعد موته،[١١] ويندر في الجاهليين أن يشبب شاعرهم بغير حبيبته، وإذا فعل فلداع فوق العادة، كما فعل دريد بن الصمة إذ رثى أخاه بقصيدة صدَّرها

بأبيات غزلية،[١٢] وقد رأيت الشعراء العشاق في الجاهلية يُعدون على الأصابع، فأصبحوا في العصر الأموي أضعاف ذلك، وأكثروا من وصف الحب وأعراضه وأحواله …

وذلك طبيعي في الأمة بانتقالها من البداوة إلى الحضارة، وخصوصًا إذا كان ذلك على أثر الفتوح وفيها الغنائم من السبايا … فيصيب الرجل منهم جارية أو بضع جوارٍ في كل معركة من المعارك، وكانت السبايا في صدر الإسلام كثيرات، وأكثرهن من الروم والفرس، والفاتحون يبيعونهن أو يستخدمونهن في حاجات المنزل، ويستبقون الجميلات منهن للتسري، فتحركت القلوب وتنبهت القرائح للموضوعات الغزلية، وصار الشعراء يشببون بالنساء الجميلات، وكان الخلفاء الراشدون يعدون ذلك خروجًا على حرمة الأدب، فجعلوا التشبيب ذنبًا يستوجب القصاص، وكان عمر بن الخطاب لا يسمع بشاعر يشبب بامرأة إلا جلده.[١٣]

فلما أفضت الدولة إلى بني أمية — وقد انتقلت عاصمتها من المدينة إلى دمشق، وكثر الاختلاط بالأعاجم، وأخذ العرب بأسباب الحضارة، وذهبت هيبة العفة من نفوسهم، وانقضت شدة الخلفاء الراشدين في المحافظة عليها — هان عليهم التشبيب، فأكثروا منه ولا سيما في المدينة لأن أهلها أغرقهم معاوية بالعطايا والرواتب ليشغلهم باللهو عن طلب الملك، فكانوا ينفقون الأموال على المغنين ونحوهم، فكثر اللهو في المدينة وسبقت سائر المدائن الإسلامية إلى الغناء وشاع القصف بين أهلها وتجرأ الشعراء على التشبيب بغير أحبائهم.

إمام أهل النسيب

على أن إمام أهل النسيب والغزل في الإسلام جميل بن معمر الشاعر العاشق كان معاصرًا لعبد الملك بن مروان، وهو الذي وطأ النسيب للشعراء، فأكثر منه وتفنن فيه … لكنه كان يشبب بحبيبته بثينة وهو في عرف أهل الأدب «إمام المحبين»،[١٤] فاستحسن الناس تشبيبه لأنه طبيعي صادر عن شعور صادق، فأخذوا يقلدونه فيه … فينظم الشاعر أبيات الغزل أو النسيب لمحبوب وهمي، واستعار بعضهم أسماء حبيبات الشعراء العاشقين كليلى ودعد وهند وشببوا بهن تقليدًا، وبعد أن كانت بثينة مثلًا معشوقة جميل بن معمر، صارت عروسًا للشعر يباح التغزل بها لمن أراد، وقد يعنون بالاسم المستعار امرأة جميلة معروفة.

فجميل كان يشبب بحبيبته ولا حرج عليه، وأراد الشعراء تحديه والتغزل بجميلات النساء وهن في الغالب بحوزة الأمراء أو الخلفاء … فخافوا غضب بعولتهن أو آبائهن، فلم يكن يجرؤ على المجاهرة بذلك من الشعراء إلا من كان ذا عصبية تنصره أو منزلة تشفع له، ولذلك كان أسبق الشعراء إلى التشبيب من قريش، نظرًا لما كان للقرشي من المنزلة الرفيعة والهيبة في العصر الأموي. ولأن القرشيين أقرب إلى الحضارة لنزولهم في مكة، وإليها يحج الناس من أقطار العالم ومعهم أجمل النساء.

شعراء قريش والتشبيب

وأول من تجرأ على التشبيب منهم ابن أبي عتيق، وهو ابن حفيد أبي بكر الصديق. ويقولون: إنه كان طاهرًا عفيفًا يشبب عن غير ريبة، ثم عمر بن أبي ربيعة من قريش، والعرجي وهو من قريش أيضًا، وغيرهم، وكلهم من شعراء العصر الأموي، فتجرأ الشعراء من غير قريش على الاقتداء بهم حتى شاع التشبيب، وصاروا يعتقدون أن الشعر لا يحسن إلا به لما فيه من عطف القلوب، فيبدأ الشاعر الحضري بذكر الحبيب والصدود والهجران، كما يبدأ البدوي بذكر الرحيل والانتقال ووصف الطلول.

ولم يأتِ آخر عصر بني أمية حتى صار الشاعر لا ينظم مديحًا أو فخرًا إلا صدره بأبيات في الغزل قد تكون أكثر من أبيات المديح. ذكروا شاعرًا أتى نصر بن سيار عامل بني أمية على خراسان بأرجوزة فيها مائة بيت نسيبًا وعشرة أبيات مديحًا، فقال له نصر: «والله ما أبقيت كلمة عذبة ولا معنى لطيفًا إلا وقد شغلته عن مديحي بنسيبك»،[١٥] ولم يكن الاستهلال بالغزل خاصًّا بالشعر العربي، فإن في شعر اليونان شيئًا من ذلك.[١٦]

على أن شعراء العرب كثيرًا ما كانوا يشببون بالمرأة ليفضحوا ابنها أو زوجها[١٧] وقد يكون التشبيب بالبنات وسيلة لزواجهن كما فعل نصيب مولى عبد العزيز بن مروان، وقد استسقى فتاة ماء فسقته لبنًا وطلبت إليه أن يشبب بها، فقال: «ما اسمك؟» قالت: «هند» قال: «وما اسم هذا الجبل؟» قالت: «قنا»[١٨] فأنشأ يقول:

أحب قَنًا من حُبِّ هندٍ ولم أكن	أبالي أَقُربًا زاده الله أم بعدا
ألا إن بالقيعان من بَطْن ذي قنًا	لنا حاجةً مالت إليه بنا عمدا
أروني قنًا أنظرْ إليه فإنني	أحبُّ قنًا إني رأيت به هندا

وشاعت هذه الأبيات وخُطبت هذه الجارية من أجلها.[١٩]

الخلفاء والتشبيب

وكان الأمراء والكبراء يغضبون لنسائهم إذا شبب بهن أحد لغلبة طبائع البدو عليهم، وينقمون على المشبب ويعيبونه حتى عدوا شعر ابن أبي ربيعة عصيانًا لله.[٢٠]

وقد يكبر على الخليفة أن يظهر غضبه على الشاعر إذا شبب ببعض أهله فينتقم منه بالإهمال، كذلك كان يفعل معاوية[٢١] وهو أوسع الناس صدرًا، واقتدى به عبد الملك بن مروان[٢٢] أما ابنه الوليد بن عبد الملك فلم يسَع صدره ذلك الكظم، فأخذ يتوعد الشعراء إذا شببوا، وبلغه أن وضاح اليمن شبب بامرأته فقتله فيما يقال[٢٣] وكذلك فعل عمر بن عبد العزيز فمنع ابن أبي ربيعة عن التشبيب، وكان العمال يقتدون بالخلفاء أو يعملون بأوامرهم في ذلك، فإن عامل المدينة نفى الأحوص الشاعر لأنه شبب ببعض نسائها.[٢٤]

ولكن المرأة كان يسرها أن يشبب بها شاعر مشهور وإن كانت لا ترجو التزوج به، ولكن يسرها ما في التشبيب من الإعجاب بجمالها (والغواني يغرهن الثناء) سواء في ذلك الأميرة والحقيرة، ذكروا أن زوجة الوليد بن عبد الملك هي التي اقترحت على وضاح اليمن أن يشبب بها ... واقترحت أم محمد بنت مروان بن الحكم أخت عبد الملك على عمر بن أبي ربيعة أن يشهرها بشعره، وبعثت إليه ألف دينار ... فأبى أن يؤجر على التشبيب، فابتاع بالجائزة حللًا وطيبًا وأهداه إليها فردته، فقال فيها أبياتًا مطلعها:

أيها الراكب المُجِدُّ ابتكارا قد قضى من تِهامةَ الأوْطارا[٢٥]

وبالجملة فإن التشبيب على نحو ما هو عليه الآن نشأ في العصر الأموي.

(٣) المهاجاة بين الشعراء: كان الجاهليون يتنافسون ويتفاخرون فيذكر أحدهم ما في قبيلته من الشجاعة والنجدة وما أوتوه من النصر أو الغلبة أو ما هم عليه من هذه الفضائل، ويندر فيهم من يتخطى ذلك إلى الهجو، وأكثر من تخطاه منهم المخضرمون كما تقدم، وقد كثر الهجو واتسعت دائرته في العصر الأموي وأجاد الشعراء فيه، ولبعضهم مهاجاة ونقائض تدخل في كتاب ضخم.

الهجاء السياسي

وقد راج الهجاء في العصر الأموي لاحتياج ولاة الأمر إليه بسبب الانقسام الذي قام بين الأحزاب المختلفة، وهو الهجاء السياسي، وكان أكثر الشعراء يأخذون بناصر الأمويين لأنهم أهل السيادة، وكان خلفاؤهم يبذلون الأموال للشعراء ليستعينوا بألسنتهم على أعدائهم؛ لتأثير الهجاء في نفوس العرب لشدة إحساسها ونخوة أهلها.

وقد بدأت المهاجاة في الإسلام بين شعراء النبي وأعدائه القرشيين، ثم صارت بين قريش واليمن، وكان لكل من الجانبين شعراء يردون عنهم الهجاء بأشد منه، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك. وكان المسلمون يحفظون ما يقوله هؤلاء من المهاجاة وينشدونه، كل طائفة تنتصر لأصحابها، ولما بلغ ذلك عمر بن الخطاب فنهى عنه، وقال: «في ذلك شتم الحي بالميت وتجديد للضغائن».[٢٦]

فلما أفضى الأمر إلى معاوية، اقتضت سياسته ومصلحته أن يجدد تلك الضغائن … فجعل يغري الشعراء على الطعن في الأنصار لأنهم أصحاب علي بن أبي طالب خصمه، وكان يفعل ذلك تحت طي الخفاء، ومن الذين أغراهم على ذلك الطعن الأخطل، الشاعر التغلبي المشهور … فعظم ذلك على الأنصار خصوصًا لأنه نصراني، واستعان به معاوية على المسلمين، فغضب متكلم الأنصار وشاعرهم، وهو يومئذ النعمان بن بشير، ودخل على معاوية وأنشده قصيدة في الدفاع عن الأنصار مطلعها:

معاويَ إلا تُعطنا الحقَّ تعترفْ　　لِحيَ الأزد مشدودًا عليها العمائم
أيشتمنا عَبدُ الأراقم خلة　　وماذا الذي تجري عليك الأراقم
فما ليَ ثأرٌ دون قطع لسانه　　فدونك من يرضيه منك الدراهم

ثم تخلص إلى الفخر بأعمال الأنصار وأنسابهم، وختم القصيدة بالطعن على خلافة معاوية إلى أن قال:[٢٧]

وإني لأغضي عن أمور كثيرة　　سترقى بها يومًا إليك السلالم
أصانع فيها عبد شمسٍ وإنني　　لتلك التي في النفس مني أكاتم
فما أنت والأمر الذي لست أهله　　ولكنْ ولي الحق والأمرِ هاشمُ

فلما سمع معاوية تهديده أظهره أن الأخطل فعل ذلك من عند نفسه، وأمر أن يدفع إليه ليقطع لسانه، وأوشك أن يفعل، لو لم يستجر الأخطل بيزيد بن معاوية فأجاره وأرضى النعمان، وعرف الأمويون هذا الفضل للأخطل، فجعله عبد الملك بن مروان شاعر الدولة، وسنعود إلى ذلك.

وتحولت المهاجاة بين الأنصار وقريش إلى المشاتمة بين بني هاشم وبني أمية، وانتشر ذلك في أطراف المملكة الإسلامية، وكان سديف الشاعر يخرج في جماعة من موالي بني هاشم في مكة، وشبيب يخرج في جماعة من موالي بني أمية، فيفتخرون ثم يتشاتمون ثم يتجالدون بالسيوف، وكان يقال لهم السديفية والشبيبية، وكان أهل مكة منقسمين بينهما في العصبية.

الهجاء الأدبي

على أن التهاجي السياسي جر إلى التهاجي بين الشعراء بقطع النظر عن الأحزاب السياسية من قبيل المفاخرة، ويختلف سبب هذه المهاجاة باختلاف الأحوال، وقد يكون الغرض منها المقارعة لبيان المقدرة على الهجاء، ثم يتنافر المتهاجيان إلى من يحكم بينهما … كما تهاجى جميل الشاعر المتيم وجواس بن قطبة العذري وتنافسا في أيهما أفضل أبًا وحسبًا.[٢٨]

وأشهر ضروب المهاجاة في العصر الأموي المهاجاة بن جرير والفرزدق، وبين جرير والأخطل، وغيره من الشعراء المعاصرين. والبادئ في ذلك كله هو جرير، وكان لمهاجاته مع الفرزدق والأخطل شهرة كبيرة حتى أصبح حديث القوم في مجالسهم وموضوع مناقشاتهم في أي الشاعرين أفضل، وانقسم الناس في ذلك حزبين: نسب أحدهما إلى جرير فسمى جريريًّا، والآخر إلى الفرزدق فسمي فرزدقيًّا، وكثيرًا ما احتدم الجدال بين الأدباء في المجالس حتى آل إلى الخصام، وسيأتي تفصيل ذلك في الكلام عن شعراء بني أمية، وقد يكون الباعث على الهجاء تخويف المهجو ليسترضي الهاجي بالمال أو غيره، كما تفعل بعض الصحف اليوم.

واتصلت المهاجاة بين الشعراء إلى العصر العباسي، فاشتهرت مهاجاة بشار بن برد وحماد،[٢٩] ومهاجاة أبي العتاهية ووالبة،[٣٠] على أن اشتغال الناس بالمناقشة في الشعراء

وتفاضلهم طبيعي في كل عصر، وليس هو خاصًّا بالعرب … فقد كان اليونان أيضًا يفعلون ذلك.[٣١]

(٤) نبوغ الموالي في الشعر: قد رأيت أنه لم يقل الشعر في الجاهلية من الموالي إلا عبد بني الحسحاس، وأما في الإسلام فانتظم في عداد الشعراء طائفة من الموالي وهم المسلمون غير العرب،[٣٢] وفيهم الفرس والروم وممن دخل في حوزة العرب في أثناء الفتح ثم أسلموا، وأكثرهم من موالي بني أسد وقريش … وفيهم جماعة من نوابغ الشعراء، ولولا تقيد القوم بأساليب الجاهلية لأدخلوا كثيرًا من المعاني الشعرية نقلًا عن لغاتهم الأصلية.

(٥) الشعر السياسي أو المديح للاستجداء: قد علمت مما تقدم أن الشعراء الجاهليين نظموا المديح، لكنهم قلما كانوا يستجدون بمدحهم … وإنما كانوا يمدحون شكرًا لصنيع، وأما في العصر الأموي، فأصبح الغرض الأول من المدح التماس العطاء، وقد جرهم إلى ذلك استدرار الخلفاء للمدح ببذل الأموال للأسباب التي قدمناها.

فأصبح الاستجداء عادة مألوفة، ونبغت طائفة كبيرة من المداحين، وكانوا يتذبذبون في مدحهم تبعًا لما يرجونه من العطاء أو يخافونه من النقمة، ولذلك كان أكثر مديحهم في الأمويين أصحاب السيادة وبيت المال، وربما مدح أحدهم بني هاشم أو آل الزبير أو غيرهم من أعداء الأمويين، ثم رغب عنهم إلى هؤلاء التماسًا لعطائهم أو خوفًا من غضبهم لأن الأمويين كانوا يغضبون على الشعراء إذا مدحوا سواهم ويتطرقون إلى الانتقام منهم بكل وسيلة، فلا غرو إذا رأينا شعراء الشيعة ينظمون المدائح في الأمويين، ومن الشعراء من مدح بني هاشم وبني أمية أو ابن الزبير وبني أمية.

(٦) وصف الخمر: لم يتقن الشعراء وصف الخمر إلا في العصر العباسي، لكنهم بدأوا بذلك في العصر الأموي على أثر انغماس الأمويين في القصف واللهو في أواخر الدولة، وأول من وصفها من المسلمين الوليد بن يزيد الخليفة الخليع السكير، وقد ذكر الخمر في الجاهلية عدي بن زيد والأعشى، ثم ذكرها الأخطل ووصف الزجاجة بقوله:

وتظل تتحفنا بها تَرْوِيَّةٌ   إبريقها برقاعِهِ مَلثُومُ
فإذا تعاورتِ الأكفُّ زجاجها   نَفحتْ فشَمَّ رياحَها المزكوم[٣٣]

ثم أجاد في وصفها الوليد بن يزيد بقصيدة قال منها:

من قهوةٍ زانها تقادمُها	فهي عجوزٌ تعلو على الحِقَبِ
أشهَى إلى الشَّرْب يوم جَلوتها	من الفتاة الكريمة النسب
فقد تجلتْ ورقَّ جوهرها	حتى تبدَّتْ في منظر عَجبِ
فهي بغير المزاج من شَررٍ	وهي لدى المزج سائلُ الذهب
كأنها في زجاجها قَبَسٌ	تذكو ضِياء في عَيْن مُرتقب

وله في وصف الخمر أشعار أخذها الشعراء في أشعارهم سلخوا معانيها ولا سيما أبو نواس، فإنه سلخ معاني الوليد كلها وجعلها في شعره،[٣٤] وأخذ أبو نواس أيضًا من الحسين بن الضحاك،[٣٥] وكان معاصرًا له، وأخذ من والبة وكان أستاذه.

هوامش

(١) راجع تفصيل ذلك في كتابنا تاريخ اللغة العربية «الطبعة الثانية» صفحة ٢٤ وما بعدها.

(٢) تاريخ التمدن الإسلامي «الطبعة الثانية» صفحة ١٥٤ ج١.

(٣) العمدة ١٠ ج١، والمشيح: الجاد في الأمر، وكلما جشأت وجاشت أي كلما اضطربت نفسي من خوف أو جزع.

(٤) الأغاني ٥٧ ج٨.

(٥) الأغاني ٦٨ ج١٣.

(٦) الأغاني ٨٠ ج٩.

(٧) الأغاني ٢٢ ج١٩.

(٨) الأغاني ٤٣ ج٧.

(٩) المزهر ٢٤٠ ج٢.

(١٠) Lit. Comp. 107.

(١١) الأغاني ١٤٥ ج١٢.

(١٢) العمدة ١٢٢ ج١.

(١٣) الأغاني ٩٨ ج٤.

(١٤) الأغاني ٨٠ ج٧.
(١٥) العمدة ٩٩ ج٢.
(١٦) جويدي في المشرق ٤٢٧ سنة ١٠.
(١٧) الأغاني ١٥٤ ج١.
(١٨) قنا: جبل لبني فزارة.
(١٩) الأغاني ١٤٨ ج١٣.
(٢٠) الأغاني ٣٦ ج٦.
(٢١) الأغاني ١٤٨ ج١٣.
(٢٢) الأغاني ٢٦ ج٦.
(٢٣) الأغاني ٣٦ ج٦.
(٢٤) الأغاني ٤٨ ج٤.
(٢٥) الأغاني ٦٦ ج١.
(٢٦) الأغاني ٥ ج٤.
(٢٧) الأغاني ١٢٦ ج١٤.
(٢٨) الأغاني ١١٢ ج١٩.
(٢٩) الأغاني ٧٤–٨٦ ج١٣.
(٣٠) الأغاني ١٥٠ ج١٦.
(٣١) نكلسن ٢٠٤.
(٣٢) راجع تاريخ التمدن الإسلامي ٢٢ و٩١ ج٤ الطبعة الثالثة.
(٣٣) الأغاني ٨٤ ج٨.
(٣٤) الأغاني ١١٠ ج٦.
(٣٥) الأغاني ١٧٠ ج٦.

شعراء العصر الأموي

تكاثر الشعراء في العصر الأموي للأسباب التي قدمناها، فزاد عددهم في أثنائه — وهي تسعون سنة — على شعراء الجاهلية الذين نبغوا في أثناء قرنين وبعض القرن، فقد رأيت عدد الشعراء الجاهليين نحو ١٢٠ شاعرًا على اختلاف القبائل والبطون، وزاد عدد شعراء العصر الأموي على ذلك ... نعني الذين اشتهروا بالشعر ووصلنا أخبارهم ... وهناك مئات غيرهم لم يبقَ من آثارهم إلا أبيات أو قصائد ذُكرت في كتب الحماسة والجمهرات وغيرها من كتب الأدب، أو ضاعت أخبارهم كما ضاعت أخبار أكثر الجاهليين ...

(١) شعراء العصر الأموي بالنظر إلى قبائلهم

إذا نظرنا إلى شعراء العصر الأموي من حيث قبائلهم وأنسابهم، رأينا أكثر شعراء العرب من قيس، ثم قريش، فاليمن، فتميم، فربيعة، فمضر، فقضاعة، وهم يختلفون عن حال شعراء الجاهلية من هذه الناحية اختلافًا كبيرًا، وإن اتفقوا معهم في أن الأكثرية من قيس ... فشعراء قريش كانوا في الجاهلية عشرة، فصاروا في العصر الأموي ٢٣، وسبب ذلك بديهي لأن القرشيين ظهروا بعد الإسلام لقيام الإسلام بهم، وبعكس ذلك شعراء ربيعة فقد كانوا في الجاهلية ٢٠ فصاروا في العصر الأموي ١١، والسبب طبيعي أيضًا لأن ربيعة كان لها الشأن الأكبر في الجاهلية؛ إذ قامت باستقلال الحجازيين من سلطان اليمن، وكثرت حروبهم وأيامهم.

واعتبر ذلك في القحطانية أو شعراء اليمن، فقد كانوا في الجاهلية ٢٢ فصاروا في العصر الأموي ١٦؛ لانتقال عز السيادة بعد الإسلام إلى سواهم، وأما تميم فعدد شعرائها في العصرين واحد لأن حالها لم تختلف فيهما، أما إياد فلم ينبغ منهم في ذلك العصر شاعر لذهاب عصبيتهم قبل الإسلام، وكذلك اليهود لم ينبغ منهم في هذا العصر الأموي شاعر وكانوا في الجاهلية ٤ على أن طبقة من الشعراء كبيرة ظهرت في هذا العصر، لم يكن منها في الجاهلية إلا واحد نعني الموالي أو العبيد، فقد بلغ عدد الشعراء منهم ٢١ شاعرًا. وهذا جدول في المقابلة بين شعراء الجاهلية وشعراء بني أمية من حيث أنسابهم على وجه التقريب:

اسم القبيلة	شعراؤها في الجاهلية	شعراؤها في العصر الأموي
قيس	٢٧	٢٦
ربيعة	٢٠	١١
تميم	١٢	١٣
مضر (غير قيس وقريش وتميم)	١٦	٩
قريش	١٠	٢٣
القحطانية (اليمن)	٢٢	١٦
قضاعة	٤	٨
إياد	٢	٠٠
اليهود	٤	٠٠
الموالي	١	٢١

(٢) شعراء العصر الأموي بالنظر إلى أغراضهم

وإذا اعتبرنا شعراء هذا العصر بالنظر إلى أغراضهم، رأيناها تختلف عن أغراض الشعراء الجاهليين اختلافًا كبيرًا … فقد كانت الأكثرية في ذلك العصر للأمراء والفرسان المحاربين،

وكان عددهم بضعة وأربعين شاعرًا، فصاروا في العصر الأموي قليلين لاشتغال الفرسان والكبراء بأعمال الدولة، ولذهاب بعض الأريحية البدوية من نفوسهم بالحضارة، وقد ظهرت آثار الحضارة في الشعر الأموي بكثرة العشاق وأهل الغزل، وكانوا في الجاهلية ٦ فصاروا ٢١ ونشأت طائفة من الشعراء السكيرين وأهل الخلاعة عددهم ٦، ولم يكن منهم في الجاهلية إلا القليل.

على أن الأكثرية في العصر الأموي لطبقة من الشعراء سميناهم «شعراء السياسة» لاشتغالهم بالدفاع عن الأحزاب التي قام النزاع بينها على السيادة في ذلك العصر، وأكثرهم طبعًا بجانب الأمويين لأنهم أقوى الأحزاب ... ويليهم الخوارج، والعلويين، وغيرهم.

ويقسم العصر الأموي بالنظر إلى أغراض شعرائه إلى ثلاثة أدوار:

الدور الأول: منذ بدء الدولة الأموية (سنة ٤١هـ) إلى ذهاب آل معاوية بخلافة مروان بن الحكم سنة ٦٤هـ، ومعظمه في زمن معاوية، ويجوز أن نسميه «دور معاوية»، وشعراء هذا الدور لا يتجاوز عددهم عدد أصابع اليدين، وكانت الدولة الأموية في أيامهم لم ترسخ قدمها بعد ... فكان نحو نصفهم يخالفون سياسة معاوية وخلفائه ويطعنون فيه، وبعضهم يجاهرون بعدوانه انتصارًا للأنصار أو العلويين.

الدور الثاني: من خلافة مروان بن الحكم (سنة ٦٤هـ) إلى خلافة يزيد بن عبد الملك (سنة ١٠١هـ) وخلفاء هذا الدور: مروان وابنه عبد الملك، فالوليد، فسليمان، فعمر بن عبد العزيز، ولكن معظمه في زمن عبد الملك بن مروان، بحيث يصح أن يُنسب إليه ... فيقال «دور عبد الملك»، وفي أيامه اختلفت الأحزاب، وتعدد طلاب الخلافة، ونشبت الحروب، وراجت سوق الشعر لجمع الأحزاب أو تفريقها، وأكثر شعراء العصر الأموي نبغوا في هذا الدور وبلغ عددهم فيه نحو المائة، وفيهم شعراء السياسة وشعراء الغزل والأدب غيرهم.

الدور الثالث: من ولاية يزيد بن عبد الملك (سنة ١٠١هـ) إلى انقضاء الدولة الأموية (سنة ١٣٢هـ)، وفيه تضخمت الدولة وركن أهلها إلى الترف والقصف، ومن خلفائها يزيد بن عبد الملك العاشق المتيم صاحب حبابة وابنه الوليد بن يزيد الخليع المفتون، والناس على دين ملوكهم، وعدد الشعراء الذين نبغوا في هذا العصر نحو عدد شعراء الدور الأول، وأكثرهم من شعراء السوء وأهل الرخاء والترف.

(٣) الدور الأول من الشعر في العصر الأموي (من سنة ٤١–٦٤هـ)

هو أقرب سائر الأدوار إلى الجاهلية، وقد نشأ شعراؤه في عصر الراشدين، وتعودوا الصدق واستقلال الفكر والعدل، وكانوا لا يرون حقًّا لمعاوية في الخلافة، بل يعتقدون أنه أخذها بالدهاء ولا يتوقعون انتقالها إلى أهله، بل كانوا يرجون رجوعها بعده إلى آل علي أو غيرهم من أبناء الصحابة بالانتخاب، ولذلك كانت لهم جرأة عليه. وأهم الأحزاب السياسية يومئذ الأنصار والمهاجرون، والأنصار هم أهل المدينة شيعة علي، والمهاجرون هم قريش من أهل مكة شيعة معاوية. فكان معاوية يقرب الشعراء الذين يطعنون في الأنصار، ويندر أن يجرؤ أحد منهم على ذلك؛ احترامًا للإمام علي … فكان أكثر الشعراء في هذا الدور إما على الحياد خوفًا من معاوية، أو ينصرون العلويين عليه، وبعضهم كان يتزلف إليه بالمديح. أكثر شعراء هذا الدور من شعراء السياسة، إما مع الأمويين أو عليهم أو على الحياد، وأهم الذين كانوا مع الأمويين ابن أرطأة المحاربي كان سيد قومه، والحارث بن بدر من يربوع، والمتوكل الليثي من كنانة، والوليد بن عقبة من قريش.

والذين كانوا ضد الأمويين، أشهرهم النعمان بن بشير الأنصاري، وابن مفرغ من حمير، وأبو الأسود الدؤلي واضع علم النحو. وممن كان على الحياد القتال الكلابي، وسيأتي ذكرهم.

ولا نعني بقسمة العصر الأموي إلى أدوار، أن شعراء الدور الأول لم يدركوا الدور الثاني وأن شعراء الثاني لم يدركوا الأول … فإن أكثرهم عاصروا الدولة الأموية في معظم سنينها وعرفوا معظم خلفائها … ولكننا نعني بشعراء دور معين، الذين نبغوا في هذا الدور ونظموا فيه.

(٣-١) أنصار علي

النعمان بن بشير الأنصاري (توفي سنة ٦٥هـ)

هو من الخزرج من أهل يثرب، لكنه ساير معاوية فكان معه في موقعة صفين … ولم يكن مع معاوية في تلك الموقعة من الأنصار سواه، وقد اجتذبه بدهائه وسخائه، وكان يراعي جانبه، وكثيرًا ما قبل توسطه للأنصار عنده، وعاش النعمان المذكور إلى خلافة

مروان بن الحكم، وكان يتولى «حمص»، فلما أفضت الخلافة إلى مروان دعا لابن الزبير وخالف مروان بعد قتل الضحاك … فلم يجبه أهل حمص إلى ذلك، فهرب منهم فتبعوه وأدركوه وقتلوه، ومع مسايرته بني أمية، فإنه كان شديد التعصب للأنصار، ولذلك لما علم بقصيدة الأخطل في الطعن عليهم، رد عليه كما تقدم. والنعمان بن بشير من العريقين في الشعر خلفًا عن سلف، فإن جده وأباه وعمه وأولاده وأحفاده كلهم شعراء.[1]

ومن أحفاده شبيب بن زيد بن النعمان، كان يرى فساد أمر بني أمية على أيام الوليد بن يزيد، فقال من قصيدة يعاتبهم:

يا أيها الراكب المُزجي مطيته	لقيتَ حيث توجهتَ الثَّنَا الحسنا
أبلغْ أميةَ أعلاها وأسفلها	قولًا ينفر عن نُوَّامها الوسنَا
إن الخلافة أمرٌ كان يُعْظمه	خِيارُ أولكم قدْمًا وأولنا
فقد بَقَرْتم بأيديكم بطونكمُ	وقد وُعظتم فما أحسنتم الأذنا
لما سفكتم بأيديكم دماءَكُم	بغيًا وغَشَّيتمُ أبوابكم درَنا

وترى أخبار النعمان بن بشير في الأغاني ١١٩ ج١٤، والعقد الفريد ١١٢ ج٣، وفي سيرة ابن هشام، وابن خلكان، وابن الأثير، وغيرها.

ابن مفرغ الحميري (توفي سنة ٦٩هـ)

هو يزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميري، وكان شاعرًا غزلًا محسنًا، وكان قلبه مع علي، لكنهساير الأمويين لأنه من حلفائهم، وكان مقربًا من آل زياد بن أبيه، صحب عباد بن زياد والي سجستان، فلم يحسن صحبته فهجاه سرًّا وكان يهزأ بلحيته — وكانت كبيرة — فقال فيها:

ألا ليت اللِّحى كانت حشيشًا	فنَعْلفها خُيولَ المسلمينا

فوشى به بعضهم إلى عباد فجفاه وحبسه، فهرب إلى العراق وأخذ يطعن في آل زياد ويهجوهم لأن أباهم زياد بن أبيه مجهول النسب، وإنما استلحقه معاوية بنسبه

ليستفيد من دهائه كما هو مشهور في تاريخ الإسلام[2] فعلم عبيد الله بن زياد وهو أمير البصرة، فقبض على ابن مفرغ واستأذن معاوية في قتله، فنهاه عن ذلك لأنه خليفة، ولكنه أذن بتعذيبه فعذبه تعذيبًا شديدًا.[3]

ومن قول ابن مفرغ في زياد وابنه، وفيه إشارة إلى ضعف أنسابهم:

ألا أبلغْ معاويةَ بن صَخْرٍ ... مُغلغلةً عن الرجل اليماني
أتغضب أن يقال أبوك عَفٌّ ... وترضى أن يقال أبوك زاني
فأشهد أن رِحْمك من زيادٍ ... كرِحْم الفيل من ولد الأتان
وأشهد أنها ولدت زيادًا ... وصَخْرٌ من سُمَيَّة غير دان

وكان ابن مفرغ من شعراء الحماسة وله غزل لطيف.

ونجد أشعاره وأخباره متفرقة في الأغاني ٥١ ج١٧، والشعر والشعراء ٢٠٩، وابن خلكان ٢٨٩، وسيرة ابن هشام، وفي تاريخ ابن الأثير.

أبو الأسود الدؤلي (توفي سنة ٦٩هـ)

اسمه ظالم بن سفيان، وهو من الدئل بطن من كنانة، معدود في التابعين والفقهاء والشعراء والمحدثين والأشراف والفرسان والأمراء والدهاة والنحويين، وهو واضع علم النحو، وكان من أكثر الناس تعلقًا بعلي، وعنه أخذ علم النحو كما تقدم، أما من حيث الشعر؛ فقد كان من نصراء الشيعة لكنه لم يكن يجسر على هجو معاوية كما فعل أكثر أمثاله، وكان معاوية لا يتعمد أذاه ولكنه كان يضايقه، ولم يُرْوَ له طعن في بني أمية، وأكثر شعره في الحكم والأدب، ومن حكمه والفخر قوله:

إذا كنت مظلومًا فلا تُلْفَ راضيًا ... عن القوم حتى تأخذ النصْف واغضب
وقاربْ بذي جهلٍ وباعد بعالم ... جلوبٍ عليك الحق من كل مَجْلب
فإن حَدِبوا فاقعسْ وإن هم تقاعسوا ... ليستمكنوا مما وراءك فاحدِبِ
ولا تَدْعُنِي للجور واصبر على التي ... بها كنت أقضي للبعيد على أبي
فإني امرؤٌ أخشى إلهي وأتَّقي ... مَعاري وقد جَرَّبت ما لم تجرِّب

ومن قوله:

وأحبب إذا أحببت حُبًّا مقاربًا فإنك لا تدري متى أنت نازعٌ
وأبغض إذا أبغضت بغضًا مقاربًا فإنك لا تدري متى أنت راجع
وكن معدنًا للحلم واصفح عن الخَنا فإنك راءٍ ما عملتَ وسامع

وعاش أبو الأسود فقيرًا، وكان متهمًا بالبخل، وكان يقيم بجوار البصرة، وتجد ترجمته في الأغاني ١٠٥ ج١١، وفي ابن خلكان ٢٤٠ ج١، والشعر والشعراء ٤٥٧، والمستطرف ١٣٩ ج١، والعقد الفريد ٢٥٧ ج٣، والدميري ٣١٧ ج١، وطبقات الأدباء ٤، وفي المجلة الشرقية الألمانية مقالة عن شعره وشعر علي سنة ١٨٦٤.

(٣-٢) أنصار معاوية

مسكين الدارمي (توفي سنة ٩٠هـ)

هو ربيعة بن عامر من دارم بطن من تميم، وكان شاعرًا شريفًا من سادات قومه، وعمر إلى أواخر الدور الثاني من العصر الأموي، لكننا وضعناه هنا لغلبة شعره في معاوية على سواه، وله معه شأن في تاريخ العطاء أيام معاوية، وكان معاوية لا يفرض العطاء (الرواتب) إلا لليمن ليحاربوا معه وينحرفوا عن علي … فجاء مسكين وطلب من معاوية أن يفرض له العطاء فأبى، فقال أبياتًا يذكره فيها بقرب النسب بين تميم ومضر وهي:

أخاك أخاك إن من لا أخا له كساعٍ إلى الهَيْجَا بغير سلاح
وإن ابن عَمِّ المرء فاعلمْ جناحَه وهل ينهض البازي بغير جناح

فلم يجبه معاوية يومئذ، لكن سنحت له فرصة رأى فيها اليمنيين قد أخذهم الغرور وزادت دالتهم على الدولة، فعمد معاوية إلى استرضاء القيسيين ففرض لأربعة آلاف من قيس سوى من فرض لهم من تميم، وغيرهم من مضر. وصار يغزي اليمنيين في البحر والقيسيين في البر، وفرض طبعًا لمسكين وقربه حتى استعان بشعره في مبايعة ابنه يزيد.

وذلك أن معاوية كان يخاف إذا بايع لابنه بولاية العهد أن يغضب المسلمون لأن توارث الملك لم يكن معروفًا في الإسلام، فأحب أن يجس نبض الرأي العام قبل إعلان فكره، كما يفعل بعض دهاة السياسة في هذه الأيام، إذ يوعزون إلى الصحف التي تدافع عن آرائهم أن تذكر عزمهم على العمل الفلاني، وينظرون إلى ما يكون من وقعه عند الناس، ويكون لهم مندوحة للرجوع عنه إذا توسموا فيه خطرًا، فأوعز معاوية إلى مسكين أن يقول أبياتًا في معنى المبايعة ليزيد، وينشدها إياه في مجلسه وهو حافل بالوجوه والأشراف … ففعل وأنشأ قصيدة قال فيها:

ألا ليت شعري ما يقول ابنُ عامرٍ ومروان أم ماذا يقول سعيدُ
بني خلفاء الله مهلًا فإنماً يُبَوِّئها الرحمن حيث يريد
إذا المنبر الغربيُّ خلاه ربُّه فإن أمير المؤمنين يزيد

ومعنى القصيدة أنه يقترح عليه أن يولي يزيد العهد، فلما فرغ من إنشاده، قال له معاوية: «ننظر فيما قلت يا مسكين ونستخير الله» ولم يتكلم أحد من الحاضرين إلا بالموافقة، فأغدق عليهم معاوية العطاء، ولما مات زياد بن أبيه، رثاه مسكين بقوله:

رأيت زيادة الإسلام ولَّت جهازًا حين وَدَّعْنا زياد

وكان الفرزدق منحرفًا عن زياد فعارضه فأجابه مسكين ثم تكافأ، وترى أخبار مسكين في الأغاني ٦٨ ج١٨، والشعر والشعراء ٣٤٧، وخزانة ٤٦٧ ج١.

(٣-٣) سائر شعراء الدور الأول

أما سائر شعراء هذا الدور، فنكتفي بالإشارة إلى أماكن تراجمهم ليطالعها من شاء:

(١) ابن ارطأة. ترجمته في الأغاني ٧٩ ج٢.
(٢) المتوكل الليني (توفي سنة ٦٠). ترجمته في الأغاني ٣٩ ج١١.

(٣) الوليد بن عقبة (توفي سنة ٧٠). ترجمته في الأغاني ١٧٥ ج٤.

(٤) القتال الكلابي (توفي سنة ٦٤). ترجمته في الأغاني ١٥٨ ج٢، والشعر والشعراء ٤٤٣.

(٤) الدور الثاني من الشعر في العصر الأموي (من سنة ٦٤–١٠١هـ)

في هذا الدور نبغ معظم شعراء بني أمية وأبلغهم، وعددهم يناهز مائة شاعر، وهم فئات قسمناها حسب أغراضهم، وأول تلك الفئات شعراء السياسة، وعددهم نحو ٤٠ شاعرًا، وأهمهم وأكثرهم عددًا أنصار بني أمية وهم نحو العشرين، وثمانية من أنصار آل المهلب، والباقون من أنصار سائر الأحزاب، على أن شعراء السياسة أكثر من ذلك؛ إذ قلما نبغ شاعر لم يتعرض لأحد الأحزاب التي كانت شائعة يومئذ … لكن جماعة منهم دخلوا في الطبقات الأخرى لتغلب بعض تلك الأغراض على خواطرهم، وأهم هذه الطبقات شعراء الغزل وعددهم بضعة وعشرون شاعرًا، والباقون من شعراء الأدب الذين لا يُعرف لهم غرض خاص، غير الشعراء السكيرين والمغنين.

ويقدم النقاد ستة من شعراء العصر الأموي، يعدونهم في مقدمة الشعراء الأمويين من سائر الطبقات، وهم: الأخطل، وجرير، والفرزدق، والراعي، وأبو النجم العجلي، والأحوص … يسمونهم الفحول، وأكثرهم من شعراء السياسة، ويقدمون الثلاثة الأول على سائرهم، فهم أشعر شعراء بني أمية على الإطلاق، نعني: جريرًا، والفرزدق، والأخطل، واختلف الناس فيمن هو أشعرهم، فالذين يقدمون جريرًا يقولون: إنه أكثرهم فنون شعر وأسهلهم ألفاظًا وأقلهم تكلفًا وأرقهم نسيبًا، والذين يقدمون الأخطل يقولون: إنه أكثرهم قصائد طوالًا جيادًا، ليس فيها سقط، ولا فحش، وأكثرهم تهذيبًا لشعره، وقد تقدمهم الأخطل في الزمن، ثم نبغ جرير والفرزدق، فدخل الأخطل بينهما وهو شيخ طاعن في السن، وكان أبو عمرو بن العلاء يشبِّه جريرًا بالأعشى، والفرزدق بزهير، والأخطل بالنابغة، ولم يجتمع أديبان من أدباء ذلك العصر إلا جرى بينهما البحث في أي الشاعرين أشعر: جرير أو الفرزدق، فيحتدم الجدال وينفض المجلس، وأهله حزبان يعرفان بالفرزدقيين والجريريين.

(٥) فحول الشعراء

(٥-١) الأخطل (توفي سنة ٩٥هـ)

يكنى أبا مالك واسمه غياث بن غوث بن الصلت من قبيلة تغلب، وهو نصراني مثل أكثر تلك القبيلة، والأخطل لقب غلب عليه لسبب اختلفوا فيه، وظهرت الشاعرية في الأخطل منذ حداثته، وكان يقيم في الحيرة، فدارت مهاجاة بينه وبين كعب بن جعيل شاعر تغلب قبله، فغلبه الأخطل وأفحمه فصار هو المقدم في شعرائها، وكان ينتخب شعره فينظم تسعين بيتًا ويختار منها ثلاثين، وسُئل حماد عن الأخطل، فقال: «وما تسألونني عن رجل حبب شعره إلى النصرانية» وكان الأخطل يشرب الخمر ولا يجيد النظم إلا إذا شرب، ولكنه لم ينظم شعرًا تستحي العذراء من سماعه.

وكان السبب في تقربه إلى بني أمية أن معاوية أراد أن يهجو الأنصار لأسباب تقدم بيانها، فاقترح ابنه يزيد على كعب بن جعيل المشار إليه أن يهجوهم وكان مسلمًا فأبى، وقال: «أدلك على غلام منا نصراني لا يبالي أن يهجوهم كأن لسانه لسان ثور؟» قال: «من هو؟» قال: «الأخطل» فدعاه معاوية وأمره بهجائهم، فقال: «على أن تمنعني» قال: «نعم» فقال قصيدة جاء فيها من الهجو بالأنصار قوله:

وإذا نسبت ابن الفُرَيْعة خِلْتَهُ ... كالجحش بين حمارة وحمار
لعن الإلهُ من اليهود عِصابةً ... بالجِزْع بين صُلَيْصِلٍ وصرار
قومٌ إذا هدر العصيرُ رأيتهم ... حمرًا عيونهمو من المُسْطار
خَلُّوا المكارم لستمُ من أهلها ... وخُذوا مساحيَكم بني النجار
إن الفوارس يعلمون ظهوركم ... أولادُ كل مقبَّحٍ أكَّارِ
ذهبتْ قريشٌ بالمكارم والعُلا ... واللؤمُ تحت عمائم الأنصار

فبلغ ذلك النعمان بن بشير فرد عليه بقصيدة تقدم ذكرها في كلامنا عن مميزات شعر العصر الأموي.

ثم أفضت الخلافة إلى عبد الملك بن مروان، وكان ناقمًا على قبائل قيس لأنهم نصروا أعداءه كما تقدم، فعمد إلى تقديم شعراء القبائل الأخرى ليكتسب أحزابهم. وعلم أن الأخطل شاعر تغلب له يد في نصرة الأمويين على الأنصار فقربه وأكرمه، وكان عبد الملك بصيرًا بالشعر يعجبه شعر الأخطل فيطرب لما يقوله حتى سماه «شاعر بني أمية»

وبعث بمولى ينادي على رءوس الملأ «هذا شاعر أمير المؤمنين، هذا شاعر العرب» وكان الأخطل مغرمًا بالخمر، وحملته الدالة على عبد الملك أن يطلب منه أن يسقيه خمرًا،[٤] فغضب عليه وقال: «لولا حرمتك لفعلت بك وفعلت» فخرج حتى لقي خمَّارًا شرب عنده وعاد فجادت قريحته، فدخل على عبد الملك ومدحه بقصيدة مطلعها:

خفَّ القَطِين فراحوا منك وابتكروا   وأزعجتهم نَوًى في صَرْفها غِيَرُ

وقال له عبد الملك: «ألا تسلم فنفرض لك في الفيء ونعطيك عشرة آلاف» فقال: «وكيف الخمر؟» قال: «وما تصنع بها وإن أولها لمر وإن آخرها لسكر» فقال: «أما إذا قلت ذلك فإن فيما بين هاتين لمنزلة ما ملكك فيها إلا كلعقة ماء من الفرات بالإصبع» فضحك وتركه على نصرانيته وسهل عليه الدخول والخروج حتى كان يجيء وعليه جبة خز، وفي عنقه سلسلة ذهب فيها صليب تنفض لحيته خمرًا، حتى يدخل على عبد الملك بغير إذن.

وكان لشعره تأثير في نفس عبد الملك يقيمه ويقعده، ومن الأدلة على ذلك أن عبد الملك لما أنزل زفر بن الحارث الكلابي عن قرقيسيا، استقدمه إليه وأقعده على سريره فعاتبه بعضهم على تقدير رجل كان في الأمس من ألد أعدائه وسيفه يقطر من دماء قومه فلم ينفع العتاب … فبلغ ذلك الأخطل وهو يشرب، فمضى حتى دخل على عبد الملك وأنشد:

وكأسٍ مثل عَيْن الدِّيك صِرْفٍ   تُنسِّي الشاربين لها العقولا
إذا شرب الفتى منها ثلاثًا   بغير الماء حاول أن يَطُولا
مشى قرشيةً[٥] لا شك فيها   وأرخى من مآزرِهِ الفضولا

فقال له عبد الملك: «ما أخرج هذا منك يا أبا مالك إلا خطة في رأسك»، قال: «أجل والله يا أمير المؤمنين حين تجلس عدو الله هذا معك على السرير وهو القائل بالأمس:

وقد يَنْبُتُ المَرْعى على دِمَنِ الثرى   وتَبقى حزازاتْ النفوس كما هيا

فقبض عبد الملك رجله ثم ضرب بها صدر زفر فقلبه عن السرير، وقال: «أذهب الله حزازات تلك الصدور».

ومن قوله في النسيب:

من الخَفِرات البِيض أما وشاحُها فيَجري وأما القَلْب[٦] منها فلا يجري
تموت وتحيا بالضجيع وتلتوي بمطَّرد المَتْنَيْنِ مُنْبَتِر الخصرِ

ومن قوله في المديح:

نفسي فداءُ أمير المؤمنين إذا أبدى النواجذَ يومًا عارمٌ ذكَر
الخائض الغمرَ والميمون طائره خليفةُ الله يُسْتَسْقَى به المطرُ

ومن قوله في الهجاء:

وكنت إذا لقيتَ عبيد تيْمٍ وتيمًا قلت أيهمُ العبيدُ
لئيم العالمين يسود تيمًا وسَيِّدهم وإن كرهوا مَسودُ

أما دخوله في الهجاء بين جرير والفرزدق فسببه أنه كان مرة عند بشر بن مروان أخي الخليفة وعنده جرير والفرزدق، وكان بشر يرى من السياسة أن يغري بين الشعراء، فقال للأخطل: «احكم بين الفرزدق وجرير» فقال: «أعفني أيها الأمير»، قال: «احكم بينهما» فقال: «الفرزدق ينحت من صخر، وجرير يغرف من بحر» وبلغ ذلك جريرًا فلم يعجبه، وهجاه بقوله:

يا ذا الغباوة إن بشرًا قد قضى أن لا تجوز حكومةُ النَّشْوان

فرد عليه الأخطل ثم رد عليه جرير مما يطول ذكره،[٧] وكان الأخطل أشهب اللحية له ضفيرتان، ومن أحاسن شعره قوله في وصف السكران:

صريعُ مُدام يرفع الشَّرْبُ رأسه ليحيا وقد ماتتْ عظامٌ ومفصلُ
نهاديه أحيانًا وحينًا نجره وما كاد إلا بالحشاشة يعقل
إذا رفعوا صدرًا تَحَامل صدره وآخرُ مما نال منها مُخبَّلُ

وهو من أصحاب الملحمات وله ملحمة مطلعها:

تغير الرسم من سلمى بأحفار وأقفرتْ من سليمى دِمْنَةُ الدارِ

وتفنن الأخطل في النظم من حيث الوزن تفننًا قلدوه فيه بعد أجيال، وذلك قوله:

ولقد علمت إذا الرياحُ تناوحتْ هوج الرئِّال تكبُّهن شمالا
أنا نعجِّل بالعبيط لضيفنا قبل العيال ونَضْرب الأبطالا

ولو قال:

ولقد علمت إذا الريا ح تناوحت هوج الرئال

لكان شعرًا، وإذا زدت فيه «تكبهن شمالًا» كان أيضًا شعرًا من روي آخر.

وللأخطل ديوان مطبوع في بيروت للمرة الأولى بعناية الأب صالحاني عن نسخة بطرسبورج مع شروح سنة ١٨٩١ في نيف وخمسمائة صفحة، وللأب المذكور طبعة فوتوغرافية عن نسخة وجدوها في بغداد، وللدكتور غريفيني طبعة بالحجر عن نسخة وُجدت في اليمن، وعثروا في مكتبة بيازيد بالأستانة على نسخة خطية من كتاب نقائض جرير والأخطل.[٨]

وله أخبار متفرقة في الأغاني ١٦٩ ج٧ و٤٦ ج٩ و٢ ج١٠ و١٤٨ و١٥٤ ج١٣ والجمهرة ١٧٠ وفي الشعر والشعراء ٣٠١ والعقد الفريد ١٣٣ ج٣ وخزانة الأدب ٢٢٠ ج١، وللمستشرق دي برسفال مقالة عنه وعن جرير والفرزدق في المجلة الآسيوية الفرنسية سنة ١٨٩٤، وكتب عنه الأب لامنس مقالة في المجلة الآسيوية المذكورة سنة ١٨٩٤.

(٥-٢) جرير (توفي سنة ١١١هـ)

هو جرير بن عطية بن الخطفي من كليب بن يربوع (تميم) نشأ في البادية أيام معاوية، وهو واسع الخيال قوي الشاعرية مع ميل إلى الهجاء، وكان يفد إلى الشام مع من يفد على الخلفاء للاستجداء بالمديح، فعرفه أحدهم إلى يزيد بن معاوية وهو أمير وجعل

يختلف إليه وهو شاب، فاستلطف يزيد نظمه، واتفق أن يزيد أراد أن يعاتب أباه بشعر فاقتبس أبياتًا من قصيدة لجرير فرفعها إلى أبيه عن لسانه، وفيها قوله:

بأيِّ سنانٍ تطعن القوم بعد ما نَزَعتَ سِنانًا من قَناتك ماضيا

فاعتقد معاوية أن الأبيات لابنه، فلما صارت الخلافة إلى يزيد وفد عليه جرير، فاستؤذن له مع الشعراء فجاء الجواب: «أن أمير المؤمنين يقول: لا يصل إلينا شاعر لا نعرفه ولا نسمع بشيء من شعره» فقال جرير: «قولوا له أنا القائل (وذكر الأبيات)»، فأمر بإدخاله، فلما أنشده القصيدة قال يزيد: «لقد فارق أبي الدنيا وما يحسب إلا أني قائلها» وأمر له بجائزة.

ولما صارت الخلافة إلى عبد الملك بن مروان لم يتجرأ جرير على الوفود عليه لعلمه بغضب عبد الملك على شعراء مضر لأنهم كانوا يمدحون آل الزبير أعداءه (وتميم من مضر) فاحتال حتى قدم على الحجاج وهو أمير العراق على يد بعض عماله، فأعجب الحجاج ببلاغته وشاعريته، فأحب أن يقدمه إلى الخليفة وعلم أن عبد الملك سينكر ذلك، فأنفذ معه ابنه محمدًا فاستقبله عبد الملك بعد الجهد ثم أقبل يعاتبه قائلًا: «ماذا عسى أن تقول فينا بعد قولك في الحجاج عاملنا:

من سَدَّ مطَّلَعَ النفاق عليكمُ أم مَن يصولُ كصوْلة الحجَّاج

إن الله لم ينصرنا بالحجاج وإنما نصر دينه وخليفته»، وظهر الغضب في وجه عبد الملك، فتوسط محمد بن الحجاج في الرضا، واستأذن جرير في الإنشاد، وأنشد القصيدة التي يقول منها:

ألستم خيرَ من ركب المطايا وأنْدَى العالمين بُطونَ راحِ

فتبسم عبد الملك وقال: «كذلك نحن وما زلنا كذلك» وأمر له بمائة لقحة وثمانية من الرعاء[٩] … وصار يفد على عبد الملك من ذلك الحين ويأخذ الجوائز، وكانت جائزته أربعة آلاف درهم وتوابعها من الحملان والكسوة.

ولما تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز وهو لا يرى للشعراء حقًّا في العطاء وفد عليه بقصيدة عامرة فاعتذر له ولم يعطِه، وتوفي جرير سنة ١١٠ بعد الفرزدق ببضعة أشهر، ودُفن في اليمامة حيث قبر الأعشى[١٠] وكان يغن في لفظه فيخرج الكلام من أنفه أو كأن فيه نونًا.

مهاجاة جرير والفرزدق

واشتهر جرير على الخصوص بمهاجاته الفرزدق وغيره من معاصريه، وكان الناس يخافون لسانه، والسبب في اشتهاره بالهجاء أن رجلًا اسمه غسان بن ذهيل من عشيرة سليط هجاه بأبيات منها:

لعمري لئن كانت بَجيلة زانها　　جَرِيرٌ لقد أَخْزَى كُلَيْبًا جريرُها

يريد أن جريرًا أخزى كليبًا وهو البطن الذي هو منه ... فأجابه جرير بقصيدة وقعت على رأس الرجل وقوع السهام، منها قوله:

ألا ليت شعري عن سَليطٍ ألم تجد　　سَليطٌ سوى غَسَّانَ جارًا يجيرها
فقد ضمَّنوا الأحساب صاحب سوْأةٍ　　يناجي بها نفسًا خبيثًا ضميرها

فاستنصر غسان رجلًا اسمه البعيث، فنصره وهجا جريرًا وقال فيه:

كليبٌ لئامُ الناس قد تعلمونه　　وأنت إذا عُدَّتْ كليبٌ لتيمُها

فأجابه جرير على الوزن والقافية، وبلغ ذلك الفرزدق وكان يحسد جريرًا فانتصر للبعيث، فاحتدم الهجاء بينهما ... وانقسم الأدباء في الانتصار لهما إلى حزبين كما تقدم، وبلغ من أحد المشغوفين بالفرزدق أنه عقد جائزة قيمتها ٤٠٠٠ درهم وفرس لمن يفضل الفرزدق على جرير[١١] وقد جمعت مناقضاتهما في كتاب يُعرف بنقائض جرير والفرزدق طُبع في ليدن في جزأين سنة ١٩٠٥.

وانتشبت المهاجاة بين جرير والأخطل لسبب ذكرناه في ترجمة الأخطل، وهاجاه أيضًا عمر بن لجأ التيمي وسراقة بن مرداس ثم المستنير بن سبرة العنبري لأنه أعان عليه ابن لجأ، ثم هاجى راعي الإبل وهو من الفحول لأنه فضل الفرزدق عليه وله في هجائه حديث طويل، والراعي من بني نميز فهجا جريرًا بأبيات منها:

رأيت الجَحْشَ جَحْشَ بني كُلَيْبٍ تَيَمَّمَ حَوْضَ دِجْلَةَ ثم هابا

فذهب جرير إليه ليستكفه أو يعاتبه فلقيه في المربد — نادى الأدباء والشعراء بالبصرة — على بغلة، وبجانبه ابنه جندل على مهر، فاقترب منه جرير وحياه وقال: «يا أبا جندل إن قولك يستمع وإنك تفضل الفرزدق علي تفضيلًا قبيحًا، وأنا أمدح قومك وهو يهجوهم، وهو ابن عمي، ويكفيك من ذاك إذا ذكرنا أن تقول: كلاهما شاعر كريم، ولا تحمل مني ولا منه لائمة»، فلم يجبه الراعي، ولكنه لحق ابنه ورفع الابن عصاه فضرب عجز بغلته وخاطب أباه قائلًا: «لا أراك واقفًا على هذا الكلب من بني كليب كأنك تخشى منه شرًّا أو ترجو خيرًا».

فرفست البغلة جريرًا، فوقعت قلنسوته عن رأسه، فانصرف مغضبًا حتى إذا صلى العشاء بمنزله في علية (غرفة) له قال: «ارفعوا إلي باطية من نبيذ وأسرجوا لي» فأسرجوا له وأتوه بباطية من نبيذ وجعل يشرب ويستحث قريحته وينظم حتى كان السحر، وقد نظم ٨٠ بيتًا ختمها بقوله:

فغُضَّ الطَّرفِ إنك من نمير فلا كعبًا بلغت ولا كلابا

ثم جاء المربد وأنشد هذه القصيدة في مجلس الأدباء وفيهم الفرزدق والراعي، فكان لها وقع شديد ولا سيما البيت الأخير.

وقد لا يفقه القارئ قوة الهجاء إذا لم يعلم أن كعبًا وكلابًا ونميرًا ثلاثة أبطن من عامر بن صعصعة من قيس … فجرير فضل كعبًا وكلابًا على نمير مع أنهما أخواه … ولم يسمع ذلك البيت أحد من العرب يومئذ إلا قال: «لا يفلح النميري بعد ذلك أبدًا» ومن هذه القصيدة أبيات من أبلغ ما يكون، كقوله:

إذا غَضَبَتْ عليك بنو تميمٍ حسبت الناس كلَّهمُ غِضابا

وهو أحسن بيت في الفخر، وبسببه بدأت المهاجاة بين جرير والعباس بن يزيد الكندي، وقد ساءه تفاخر جرير بتميم فعارضه بقوله:

ألا رغمتْ أنوفُ بني تميم	قُساة التمر إن كانوا غضابا
لقد غضبتْ عليك بنو تميمٍ	فما نكَأتْ بغضبتِها ذُبابا
لو اطلَّع الغرابُ على تميم	وما فيها من السَّوءات شابا

فاغتنم جرير سقطة من العباس وهجاه بأبيات على نفس الوزن والقافية أولها:

إذا جهل الشقيُّ ولم يقدِّر	لبعض الأمر أوشك أن يُصابا

وممن هاجاهم جرير أيضًا جفنة الهزاني، والمرار بن منقذ، وحكيم بن معية، والأشهب بن رميلة، وغيرهم، وربما تهاجى الرجلان قبل أن يتعارفا كما يتناقش الصحافيان أو الكاتبان اليوم وبينهما ألوف من الأميال وتجد أخبار هذه المهاجاة في الأغاني ج٧، وفي كتاب نقائض جرير والفرزدق، وفي الشعر والشعراء:

وأحسن أقوال جرير في النسيب قوله:

إن العيون التي في طرفها حَوَرٌ	قَتَلنْنَا ثم لا يُحْيِين قتلانا

ومن أحسن شعره قوله يرثي ابنه:

قالوا نصيبَك من أجرٍ فقلت لهم	كيف العزاءُ وقد فارقت أشبْالي
فارقتَني حين كفَّ الدهرُ من بصري	وحين صرتُ كعظم الرِّمَّةِ البَالي

ومن قوله يرثي امرأته:

لولا الحياء لعادني استعبارُ	ولزرتُ قبركِ والحبيبُ يُزَارُ
ولَّهتِ قلبي إذ عَلَتْنِي كَبرة	وذوو التَّمائم من بنيكِ صغار
لا يلبث الأحباب أن يتفرقوا	ليلٌ يَكُرُّ عليهمُ ونهار
صلَّى الملائكة الذين تُخُيِّروا	والطيبون عليك والأبرار

وهو من أصحاب الملحمات ومطلع ملحمته:

حَيَّ الغداة برامة الأطلالا　　رَسمًا تقادم عَهْدُه فأحالا

وقد ذكرنا أمثلة من هجائه، ومنها أيضًا قوله في هجاء تيم:

مِنَ الأصلاب ينزل لؤمُ تَيْمٍ　　وفي الأرحام يُخْلَقُ والمَشِيمِ

وكان جرير على الإجمال من الشعراء طلاب العطاء من الخلفاء والأمراء، وكان يقيم هو والفرزدق بجوار البصرة، ونظرًا لاشتغال الناس بهما أهمل ذكر من عاصرهما من الشعراء.

ولجرير ديوان منه نسخة خطية في دار الكتب المصرية، وقد طُبع في القاهرة سنة ١٨٩٥ وفي غيرها، وترى أخباره في الأغاني ٣٨ و١٧٢ ج٧ و٢ ج١٠ و٤٦ ج٩، والجمهرة ١٦٨، والشعر والشعراء ٢٨٣، وخزانة الأدب ٣٩٧ ج٣، وابن خلكان ١٠٢ ج١، والمستطرف ٥٣ ج١، والعقد الفريد ١١٤ ج١.

(٥-٣) الفرزدق (توفي سنة ١١٠هـ)

هو من دارم من تميم واسمه همام بن غالب بن صعصعة، وكان جده صعصعة وجيهًا يُعرف بمحيي الموءودات، وأبوه غالب كان رئيسًا في قومه وله مناقبُ مشهورة. وُلد الفرزدق في البصرة وأقام في باديتها مع أبيه، وظهرت فيه ملكة الشعر وهو غلام … فجاء به أبوه إلى علي بن أبي طالب بعد وقعة الجمل، وأخبره أنه شاعر فقال: «علمه القرآن» كما تقدم، فلم ينظم شعرًا حتى حفظ القرآن، ولم يكد ينبغ حتى قامت المهاجاة بينه وبين جرير، ولا شك أنها نفعتهما؛ لأن الانتقاد يشحذ القريحة، والضغط والمقاومة يظهران القوى الكامنة، وإنما نأتي بمثال من ذلك … نظم الفرزدق قصيدة وهو في المدينة قال فيها:

هما دَلَّياني من ثمانينَ قامةً　　كما انقضَّ بازٍ أَقْتَمُ الرِّيش كاسِرُه
فلما استوت رجلاي في الأرض قالتا　　أحيٌّ فيُرجَى أم قتيل نُحاذره

فقلت ارفعا الأمراس لا يشعروا بنا وأقبلتُ في أعجازِ ليلٍ أبادره
أحاذر بوابين قد وكلا بنا وأسْوَدَ من ساجٍ تصر مسامره

فلما بلغت هذه الأبيات جريرًا نظم من جملة قصيدة طويلة:

لقد ولدت أمُّ الفرزدق فاجرًا فجاءت بوَزْوَازٍ قصير القوادم
يوصِّل حَبْلَيه إذا جَنَّ ليله ليرقى إلى جاراته بالسلالم
تدلَّيْتَ تزني من ثمانين قامة وقَصَّرْت عن باع العُلا والمكارم
هو الرِّجس يا أهل المدينة فاحذروا مُداخلَ رجْسٍ بالخبيثات عالم
لقد كان إخراج الفرزدق عنكمُ طَهورًا لما بين المصلَّى وواقم

فلما وقف الفرزدق على هذه القصيدة جاوبه بقصيدة طويلة يقول في جملتها:

وإن حرامًا أن أسبَّ مقاعسًا بآبائي الشُّمِّ الكرام الخَضارمِ
ولكن نَصْفًا لو سببتُ وسَبَّني بنو عبد شمس من مناف وهاشم
أولئك آبائي فجئني بمثلهم وأعْند أن أهجو كليبًا بدارم

وغضب أهل المدينة لذلك وشكوه إلى مروان بن الحكم — وهو يومئذ والي المدينة — وطلبوا إليه أن يحده، فأمر بنفيه فغضب الفرزدق، وهدده بالهجاء فخاف مروان واسترضاه بالجائزة.

وكان الفرزدق يتشيع لعلي وأهله. والتقى في أواخر أيامه بهشام بن عبد الملك في الحج، ورأى هشام هناك علي بن الحسين في غمار الناس فقال: «من هذا الشاب الذي تبرق أسرة وجهه كأنه مرآة صينية تتراءى فيها عذارى الحي وجوهها؟» فقالوا: «هذا علي بن الحسين» فنظم الفرزدق قصيدة في مدح علي المذكور مطلعها:

هذا الذي تَعرفُ البطحاء وطأتَه والبيت يعرفه والحِلُّ والحَرم

وبلغ هشامًا خبر القصيدة وهو بين مكة والمدينة، فغضب وحبسه هناك فقال:

أتحبسني بين المدينة والتي إليها قلوبُ الناس يهوى مُنيبها

يقلِّب رأسًا لم يكن رأسَ سيدٍ وعينًا له حولاء باد عيوبُها

فلما بلغ ذلك هشامًا أمر بإطلاقه.

ولم يكن الفرزدق من مداح بني أمية لأنه كان يتشيع لعلي كما رأيت وقد هجا بعضهم، ولكنه مدح بعض عمالهم وخصوصًا آل المهلب والحجاج؛ خوفًا منهم.

ويعتقد علماء اللغة أن شعر الفرزدق فيه كثير من أساليب العرب وألفاظهم حتى قالوا: لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث لغة العرب، وكان له على الحجاج دالة، وكان من أقرب شعراء ذلك العصر إلى الثبات في الرأي؛ فقد طلب يزيد بن عبد الملك بعد قتل يزيد بن المهلب من الشعراء هجاء يزيد المذكور فأبى الفرزدق وقال: «امتدحت بني المهلب بمدائح ما امتدحت بمثلها أحدًا، وإنما يقبح بمثلي أن يكذب نفسه على كبر السن فليعفني أمير المؤمنين» فأعفاه.[١٢]

ومن أقوال الفرزدق التي تجزي مجرى الأمثال قوله:

فيا عجبا حتى كليبٌ تسبني كأن أباها نَهْشَلٌ ومجاشع[١٣]

* * *

وكنا إذا الجَّبار صَعَّر خدَّه ضربناه حتى تستقيم الأخادع

* * *

وكنتَ كذئب السوء لما رأى دمًا بصاحبه يومًا أحالَ على الدم

* * *

أحلامنا تزنُ الجبال رزانةً وتخالنا جِنًّا إذا ما نجهل

* * *

فإن تَنْجُ مني تنجُ من ذي عظيمة وإلا فإني لا إخالك ناجيا

* * *

ترى الناس ما سرنا يسيرون خلفنا وإن نحن أومأنا إلى الناس وقَّفوا

وهو من أصحاب الملحمات، ومطلع ملحمته:

عزفت بأعشاشٍ وما كدت تعزف وأنكرتَ من حَدْراء ما كنت تعرف

وللفرزدق ديوان مطبوع في جملة الدواوين الخمسة (النابغة، وعروة، وحاتم، وعلقمة، والفرزدق) بمصر سنة ١٢٩٣، وطُبع على حدة في باريس سنة ١٨٧٠ وما بعدها مع ترجمة فرنسية للمسيو بوشر عن نسخة خطية صورت من مكتبة أيا صوفيا في الأستانة، وطبعت تتمتها في ميونخ سنة ١٩٠١، وفي دار الكتب المصرية نسخة خطية إملاء محمد بن حبيب مشروحة، ومنه نسخ خطية أيضًا في أكسفورد وليدن وغوطا وبرلين ولندن، وله طبعات أخرى.

وترى أخباره في الأغاني ٢ ج١٩، و١٨٦ ج٨، و٦٥ ج١، و٦ ج٩، و١٧ ج٧، و٤٦ ج٩، وفي الشعر والشعراء ٤٨ و٢٨٩ و٣٠٦ و٣١٤، وابن خلكان ١٩٦ ج٢، و١٠٣ و١٨٥ ج١، والمستطرف ٥٣ ج١، و١٤٢ ج٢، والعقد الفريد ١٤٦ ج١، والجمهرة ١٦٣ وخزانة الأدب ١٠٥ ج١ والدميري ٩ ج١.

(٤-٥) الراعي (توفي سنة ٩٠هـ)

هو عبيد بن حصين النميري من قبيلة نمير التي هجاها جرير في بيته المشهور، وقد تقدم سبب نظمه. وسمي الراعي لكثرة وصفه الإبل وجودة نعته إياها، وهو شاعر فحل، وكان مقدمًا مفضلًا على سائر الشعراء حتى اعترض بين جرير والفرزدق … فاستكفه جرير، فأبى أن يكف، فهجاه بالقصيدة المتقدم ذكرها ففضحه، ولذلك كان الراعي يقضي للفرزدق على جرير، وهو السبب في هجاء جرير له، ومما سبق إليه من المعاني وقد أخذت عنه:

كأن العيونَ المُرسِلات عَشيَّةً شآبيبَ دمعٍ لم تجد متردَّدا
مَزايد خَرْقاء اليدين مسيفةٍ أخبَّ بهن المخلفان وأحْفدا

ومن شعره في النساء قوله:

تحدِّثهن المضمراتُ وفوقنا ظلال خدورٍ والمطيُّ جوانح
يناجيننا بالطَّرف دون حديثنا ويقضين حاجاتٍ وهنَّ موازح

وقوله:

طاف الخيال بأصحابي فقلت لهم أأمُّ شَذْرةَ زارتنا أم الغولُ
لا مرحبًا بابنة الأقيان إذ طرقتْ كأن محجرها بالقار مكحول
سودٌ معاصمُها جَعْدٌ معاقصُها قد مَسَّهَا من عَقيد القار تفصيل

وهو معدود من أصحاب الملحمات، ومطلع ملحمته:

ما بالُ دفِّك بالفراش مذيلا أقذًى بعينك أم أردتَ رحيلا

وتجد أخباره في الأغاني ١٦٨ ج٢٠، والشعر والشعراء، وخزانة الأدب ٥٠٤ ج١، والجمهرة ١٧٢.

(٥-٥) أبو النجم الراجز (توفي سنة ١٢٠هـ)

هو الفضل بن قدامة من بني عجل من بكر وائل، من رجاز الإسلام الفحول المقدمين، وفي الطبقة الأولى منهم، وكان أبلغ من العجاج في النعت، ولم يكن الشعراء يعتدون بالرجاز حتى نبغ العجاج ورؤبة وأبو النجم هذا، وقد عاصر العجاج وجرت بينهما مراجزة؛ وذلك أن العجاج خرج محتفلًا وعليه جبة خز وعمامة خز على ناقة له قد أجاد رحلها حتى وقف بالمريد والناس مجتمعون فأنشدهم قوله: «قد جبر الدين الإله فجبر» وذكر فيها ربيعة وهجاهم، فجاء رجل من بكر بن وائل إلى أبي النجم وهو في بيته، فقال له: «أنت جالس وهذا العجاج يهجونا بالمربد وقد اجتمع عليه الناس» قال: «صف لي حاله وزيه الذي هو فيه» فوصفه له فقال: «أبغني جملًا طحانًا قد أكثر عليه من الهناء» فجاء بالجمل إليه فأخذ سراويل له فجعل إحدى رجليه فيها واتزر بالأخرى، وركب الجمل ودفع خطامه إلى من يقوده فانطلق حتى أتى المربد، فلما دنا من العجاج قال: «اخلع خطامه» فخلعه فأنشد: «تذكر القلب وجهلًا ما ذكر».

فجعل الجمل يدنو من الناقة يتشممها ويتباعد عنه العجاج لئلا يفسد ثيابه ورحله بالقطران حتى إذا بلغ إلى قوله: «شيطانه أنثى وشيطاني ذكر» تعلق الناس بهذا البيت وهرب العجاج.

وكان أبو النجم يحضر مجلس عبد الملك فيأمره بالمفاخرة مع الفرزدق أو غيره من الشعراء المعاصرين، وكذلك كان يفعل هشام بن عبد الملك، وسأل الشعراء مرة أن يصفوا إبلًا ترد وتصدر، فقال أبو النجم أرجوزته التي مطلعها: «الحمد لله الوهوب المجزل» وهي من أفخر نظمه حتى أتى إلى شطر يصف به الشمس، فقال: «فهي في الأفق كعين ...» وأراد أن يقول: «الأحول» فتذكر أن هشامًا أحول، فلم يتم البيت وأتم الأرجوزة، فغضب عليه هشام وأمر بوجأ عنقه ونفيه، فتوسط له وجوه القوم فعفا عنه، ولكنه عاش مرذولًا يأكل فضلات الناس حتى إذا أصاب هشامًا أرقٌ، طلب أعرابيًّا يحدثه واشترط أن يكون أهوج ويروي الشعر، فخرج الخادم فلقي أبا النجم في المسجد بلباس رث، فأخذه إلى هشام فلما عرفه سأله عن حاله فقال: «إني أتغذى عند هذا وأتعشى عند هذا» فقال: «وما عندك من الولد؟» قال: «ثلاث بنات زوجت منهن اثنتين» فسأله عما أوصاهما عند الزفاف فقال: «قلت للأولى واسمها برة:

أوصيتُ من برة قلبًا حُرَّا　　　بالكلب خيرًا والحماة شرَّا
لا تسأمي ضربًا لها وجرَّا　　　حتى تَرَيْ حُلو الحياة مرَّا
وإن كستك ذهبًا ودرَّا　　　والحي عُمِّيهم بشرٍ طُرا»

فضحك هشام وقال: «فما قلت للأخرى؟» قال: «قلت:

سُبيِّ الحماةَ وابهَتِي عليها　　　وإن دنتْ فازدلفي إليها
وأوجعي بالفِهر[14] ركبتيها　　　ومرفقيها واضربي جنبيها
وظاهرة النُّذرَ لها عليها　　　لا تخبري الدهر به ابنتيها»

فضحك هشام وأجازه، وكان قوي البديهة، ومن شعره أرجوزة وصف بها فهود عبد الملك، ومنها:

فهي ضَوَارٍ من مُضَرَّياتِ　　　تريك آماقًا مخطَّطاتِ

سوادًا على الأشداق ساتلات تَلْوي بأذنابٍ موقَّفات

وترى أمثلة من الرجز في كتاب أراجيز العرب طُبع في مصر سنة ١٣١٢هـ، وديوان العجاج منه نسخة خطية في دار الكتب المصرية وطُبع في فينا سنة ١٨٩٦، وديوان رؤبة بن العجاج منه نسخة خطية في دار الكتب المصرية وسنعود إليه.

وأخبار أبي النجم في الأغاني ٧٧ جزء ٩، والشعر والشعراء ٣٨١ وخزانة الأدب ٤٩ جزء ١.

(٥-٦) الأحوص

وهو من الفحول، لكننا نظرًا لغلبة التشبيب عليه سنترجمه مع المشببين.

(٦) شعراء السياسة (في الدور الثاني من العصر الأموي)

كان الشعراء في صدر الدولة الأموية لا يزالون على أنفة البداوة والبُعد عن الزلفى كما رأيت، فلما صارت الدولة إلى آل مروان وقام بها عبد الملك (سنة ٦٥هـ) وغلب على سائر الأحزاب وكان هو أديبًا، كثر الشعراء في أيامه وتقرَّبوا إليه بمدحه والطعن على أعدائه من آل الزبير أو الخوارج أو العلويين أو غيرهم، وظل بعضهم على ولاء هؤلاء وكانوا من أنصارهم ... على أن أكثر شعراء السياسة من أنصار بني أمية، وقد تقدم ذكر بعضهم مع الفحول، وأشهر من بقي منهم بضعة عشر شاعرًا أكثرهم ممن انتصر للأمويين على ابن الزبير لأنه كان بخيلًا على الشعراء وهم يطلبون الجوائز، وإليك تراجمهم، وقد جمعنا أنصار كل دولة أو حزب على حدة.

(٦-١) أنصار بني أمية

أبو العباس الأعمى

اسمه السائب بن فروخ مولى بني الدئل، فهو عربي بالولاء وليس بالنسب وأصله من أذربيجان فهو من جملة الشعراء الموالي الذين تكاثروا في الإسلام بمن أسلم من غير العرب، وهو من شعراء بني أمية المعدودين المقدمين في مدحهم والتشيع لهم وانصباب

الهوى إليهم، وكان يقيم في مكة، وله أشعار كثيرة في مدح بني أمية وهجاء ابن الزبير، ومن قوله يحرضهم على حربه:

أبنـي أمـيـة لا أرى لـكـم … شبهًا إذا ما التفَّت الشِّيَعُ
سعـةً وأحلامًا إذا نـزعتْ … أهل الحلوم فضرَّها النَّزع
أبـنـي أمـيـة غـيـر أنـكـم … والناس فيما أطمعوا طمعوا
أطمعتم فيكم عدوكم … فسما بهم في ذاكم الطمع
فلو أنكم كنتم كقومكمو … مثل الذي كانوا لكم رجعوا
عمـا كـرهـتـم أو لـردَّهـم … حذرُ العقوبة، إنها تَزَعُ

وكان بنو أمية يحسنون جزاءه، فيرسلون إليه عطاءه من الشام إلى مكة وكانت قريش كلها تبره؛ للسانه وتقربًا إلى بني أمية ولما قُتل مصعب بن الزبير سنة ٧١هـ، رثاه بأبيات لأنه كان صديقه فغضب عبد الملك لذلك، فلما جاء مكة حاجًّا في بعض السنين، دخل عليه الأعيان على مراتبهم وقام الشعراء والخطباء فتكلموا، ودخل أبو العباس الأعمى فسأله عبد الملك عن مدحه مصعبًا! فاستعفاه وقال: «إنما رثيته لأنه كان صديقي وقد علمت أن هواي أموي» قال: «صدقت ولكن أنشدني قولك فيه» فأنشده:

رحم الله مصعبًا فلقد ما … ت كريمًا ورام أمرًا جَسيما

فقال عبد الملك: «أجل لقد مات كريمًا:

ولكنه رامَ التي لا يرومها … من الناس إلا كلُّ حرٍّ معمَّمِ»

وكان ابن الزبير لما غلب على الحجاز جعل يتتبع شيعة بني أمية فينفيهم عن المدينة ومكة، فبلغه أن أبا العباس الأعمى يكاتب الأمويين ويتجسس لهم ويمدحهم فدعا به ثم كلموه بشأنه وأنه ضرير فعفا عنه، ونفاه إلى الطائف، فهجاه وهجا سائر بني أسد (عشيرة آل الزبير) بأبيات منها قوله:

بني أسد لا تذكروا الفخر إنكم … متى تذكروه تكذبوا وتحمَّقوا

متى تُسألوا فضلًا تضنوا وتبخلوا ونيرانكم في الشرِّ فيها تحرق
إذا استبقتْ يومًا قريشٌ خرجتمُ بني أسد سَكًّا وذو المجد يسبق
تجيئون خلف القوم سودًا وجوهكم إذا ما قريش للأضاميم أصفقوا
وما ذاك إلا أنَّ للؤم طابعًا يلوح عليكم وَسْمهُ ليس يَخْلق

وهاجى عمر بن أبي ربيعة، ثم بلغه أن عمر يرامي جارية له ببنادق الغالية فقال لقائده: «أوقفني على باب بني مخزوم فإذا مر ابن أبي ربيعة ضع يدي عليه» ففعل، فقبض على حجزته وقال:

ألا من يشترى جارًا تؤوما بجارٍ لا ينام ولا يُنيم
ويلبس بالنهار ثيابَ ناس وشطرَ الليل شيطانٌ رجيمُ

وأخباره في الأغاني ٥٩ ج١٥، والشعر والشعراء ٣٦٦.

أعشي ربيعة (توفي سنة ٨٥هـ)

اسمه عبد الله بن خارجة من شيبان (ربيعة) كان يقيم في الكوفة وهو مرواني المذهب يتعصب لبني أمية تعصبًا شديدًا، ومن قوله في آل مروان قصيدة أنشدها لعبد الملك بن مروان منها:

وما أنا في أمري ولا في خصومتي بمهتضَم حقِّي ولا قارع سِنيِّ
ولا مُسلم مولاي عند جنايةٍ ولا خائف مولاي من شَر ما أجني
وإن فؤادًا بين جنبيَّ عالم بما أبصرتْ عيني وما سمعتْ أذني
وفضَّلني في الشعر واللُّب أنني أقول على علمٍ وأعرف من أعْني
فأصبحت إذ فضَّلتُ مروانَ وابنه على الناس قد فضلت خير أبٍ وابن

فقال عبد الملك: «من يلومني على هذا؟» وأمر له بعشرة آلاف درهم وعشرة تخوت ثياب وعشر فرائض من الإبل وأقطعه ألف جريب، وقال له: «امض إلى زيد الكاتب يكتب لك بها» وأجرى له.

ودخل مرة على عبد الملك وهو يتردد في الخروج لمحاربة ابن الزبير، فقال له: «يا أمير المؤمنين ما لي أراك متلومًا ينهضك الحزم ويقعدك العزم وتهم بالإقدام وتجنح إلى الإحجام، انفذ لنصرتك وامض رأيك وتوجه إلى عدوك … فجدك مقبل وجده مدبر، وأصحابه له ماقتون ونحن لك محبون، وكلمتهم مفترقة وكلمتنا عليك مجتمعة، والله ما تؤتى من ضعف جنان ولا قلة أعوان، ولا يثبطك عنه ناصح ولا يحرضك عليه غاش، وقد قلت في ذلك أبياتًا» فقال: «هاتها فإنك تنطق بلسان ودود وقلب ناصح» فقال:

آل الزبير من الخلافة كالتي ... عَجِلَ النِّتاج بحملها فأحالها
أو كالضِّعاف من الحمولة حُمِّلَتْ ... ما لا تُطيق فضيَّعت أحمالها
قوموا إليهم لا تناموا عنهم ... كم للغواة أطلتمو إمهالها
إن الخلافة فيكمو لا فيهمُ ... ما زلتمُ أركانها وثِمالها
أمسوا على الخيرات قُفْلًا مُغْلقًا ... فانهض بيُمْنك فافتتح أقفالها

فضحك عبد الملك وقال: «صدقت يا أبا عبد الله إن أبا خبيب لقفل دون كل خير ولا نتأخر عن مناجزته إن شاء الله ونستعين الله عليه وهو حسبنا ونعم الوكيل»، وأمر له بصلة سنية، وأخباره في الأغاني ١٦٠ ج١٦.

نابغة بني شيبان

هو أيضًا من ربيعة كالأعشى واسمه عبد الله بن المخارق، وكان بدويًّا يقيم في البادية، ويفد على خلفاء بني أمية في الشام فيمدحهم ويجزلون عطاءه، وكان نصرانيًّا، وفي شعره كثير من ذكر الإنجيل والرهبان ونحوهما، وقد مدح عبد الملك، ودخل عليه يومًا، وقد عزم على عزل أخيه عبد العزيز عن ولاية العهد والمبايعة بها لابنه الوليد، وكان المجلس حافلًا بالناس على إثر فشل ابن الزبير وذهاب دولته، فدخل النابغة وأنشده قصيدة لعل عبد الملك أوعز إليه أن يفعل ليجس الرأي العام كما فعل معاوية قبله، ومنها قوله بشأن الخلع:

آليت جهدًا وصادقٌ قسمي ... بربِّ عبدٍ تُجِنُّه الكُرُح
يظل يتلو الإنجيل يدرسه ... من خشية الله قلبه طَفِحُ

لابْـنُـكَ أولـى بـمـلْـك والـدهِ ونجمُ مَنْ قد عصاك مُطرَّحُ
داود عَدْلٌ فاحكم بسيرته ثم ابنُ حَرْب فإنهم نصَحوا
وهم خيارٌ فاعمل بسنَّتهم واحيَ بخير واكْدَح كما كَدحوا

فتبسم عبد الملك ولم يتكلم في ذلك بإقرار ولا دفع، فعلم الناس أن رأيه خلع عبد العزيز، وأدرك النابغةُ الوليدَ بن يزيد ومدحه ونال جوائزه، وله قصيدة طويلة يصف بها الخمر وتخلص منها إلى الفخر ببني شيبان، وأخباره في الأغاني ١٥١ ج٦، وله ديوان خطي في دار الكتب المصرية.

عدي بن الرقاع

هو عدي بن زيد من عاملة، حي من قضاعة، كان شاعرًا مقدمًا عند بني أمية مداحًا خاصًّا بالوليد بن عبد الملك، وله بنت شاعرة يقال لها سلمى، وكان منزله في دمشق، فهو من حاضرة الشعراء لا من باديتهم، وقد تعرض لجرير وناقضه في مجلس الوليد المذكور، ولم يجسر جرير على هجائه خوفًا من الوليد لأنه هدده بالأذى إذا فعل، ومن شعره في وصف ظبية قوله:

كالظبية البكر الفريدة تَرْتعي من أرضها قُفَّاتها وعِهادها
خضبت لها عُقدُ البراق جَبِينها من عَرْكها عَلَجانها وعَرادها
كالزَّيْن في وجه العَروس تبدلت بعد الحياء فلاعبتْ أرآدها
نزجي أغَن كأنَّ إبرة رَوْقه قلمٌ أصاب من الدواة مِدادها

وفي هذه القصيدة يذكر شعره وعلمه وحنكته:

ولقد أصبت من المعيشة لذةً ولقيت من شَظف الخطوب شدادها
وعلمت حتى لست أسأل عالمًا عن علم واحدةٍ لكي أزدادها
صَلَّي المليك على امرئ ودَّعْتُه وأتمَّ نعمته عليه وزادها

ومن قوله في مدح عمر بن الوليد وفيه حكم:

وإذا نظرت إلى أميري زادني ضنًّا به نظري إلى الأمراء
تسمو العيون إليه حين يرونه كالبدر فرَّج دُهْمَةَ الظلماء
والأصل ينبت فرْعُه متأثِّلًا والكفُّ ليس بنانُها بسواء

وأخباره في الأغاني ١٧٩ ج٨، والشعر والشعراء ٣٩١.

أبو صخر الهذلي

واسمه عبد الله بن سلم من هذيل، وكان متعصبًا لآل مروان، مدح عبد الملك وأخاه عبد العزيز وهجا ابن الزبير فحبسه ابن الزبير حتى مات، وله نسيب في امرأة من قضاعة أحبها وتزوجها سواه، وتجد أخباره في الأغاني ٩٤ ج٢١، وخزانة الأدب ٥٥٥ ج١.

وهناك طائفة من أنصار بني أمية اضطروا إلى مدح آل الزبير؛ لقيامهم بين أظهرهم، ولأن أكثرهم كانوا يمدحون بعض أمراء بني أمية لا خلفاءهم، ولو كانوا من شعراء الخلفاء، ربما كانوا أثبت منهم في مدحهم.

عبد الله بن الزبير الأسدي

هو غير ابن الزبير القائم بالدعوة في الحجاز، وهو شاعر هجاء يرهب شره، نشأ في الكوفة وأقام فيها وكان متشيعًا لبني أمية ومن ذوي الهوى فيهم والتعصب والنصرة على عدوهم، وما زال كذلك حتى غلب مصعب بن الزبير على الكوفة فأتى به سرًّا، فمنَّ عليه ووصله وأحسن إليه فمدحه وأكثر، وانقطع إليه فلم يزل معه حتى قُتل مصعب سنة ٧١، ثم عمي عبد الله بن الزبير بعد ذلك ومات في خلافة عبد الملك، وأكثر مدائحه في بشر بن مروان الأموي، ومن قوله يمدحه:

كأن بني أمية حول بشرٍ نجوم وسطها قمر منيرُ
هو الفرع المقدَّم من قريش إذا أخذت مآخذها الأمور
لقد عمَّت نوافله فأضحى غنيًّا من نوافله الفقير

جَبَرت مهيضنا وعدلت فينا فعاش البائس الكَلُّ[١٥] الفقير
فأنت الغيثُ قد علمت قريشُ لنا والواكف الجَوْن المطير

ومن مديحه في أسماء بن خارجة قوله:

تراه إذا ما جئته متهللًا كأنك تعطيه الذي أنت نائله
ولو لم يكن في كفه غير روحه لجاد بها فليتق الله سائله

ومن هجائه قصيدة يهاجي بها عبد الرحمن بن أم الحكم مطلعها:

أبى الليل بالمرَّان أن يتصرما كأني أسوم العين نومًا محرَّما

وأخباره في الأغاني ٣٧ جزء ١٣.

أبو قطيفة

هو عمرو بن الوليد بن عقبة، من بني أمية، وكان يقيم في المدينة وهواه مع بني أمية، فلما تمكن ابن الزبير من الحجاز، نفاه مع من نفاه من بني أمية إلى الشام، فلما طال مقامه فيها قال:

ألا ليت شعري هل تغيَّر بعدنا قباء وهل زال العقيقُ وحاضرُهُ
وهل برحتْ بطحاء فبرِ محمد أراهط غرٌّ من قريش تُباكره
لهم منتهى حُبِّي وصَفو مودتي ومحض الهوى مني وللناس سائره

وأكثر من ذكر المدينة والحجاز في شعره وشوقه إلى الوطن، فلم يعجب ذلك عبد الملك وتنقصه لرغبته في الحجاز عن الشام، وبلغ ذلك أبا قطيفة فقال:

وأنبِئت أن ابن العملَّس عابني ومن ذا من الناس البريءُ المسلَّم
مَن أنتم من أنتم خبِّرونا من أنتم فقد جعلت أشياء تبدو وتُكتم

فبلغ ذلك عبد الملك فقال: «ما ظننت أنا نجهل، والله لولا رعايتي لحرمته لألحقته بما يعلم ولقطعت جلده بالسياط».

وبلغ ابن الزبير ما يقاسيه أبو قطيفة في سبيل حبه المدينة، فبعث إليه أن يعود إلى بلده وهو آمن، فانكفأ إلى المدينة فلم يصل إليها حتى مات، وتجد أخباره في الأغاني ٧ جزء ١.

سائر أنصار بني أمية

وهناك طائفة من أنصار بني أمية، وفيهم من مدح الأمراء دون الخلفاء أو مدح الاثنين، وربما اضطر بعضهم لمدح آل الزبير للأسباب التي تقدمت ولو رأينا ذكر تراجمهم لطال بنا القول، فنكتفي بالإشارة إلى المصادر التي يمكن الرجوع إليها لمن أراد الاطلاع على أخبارهم، وليس لأحد منهم ديوان معروف وهم:

أمية بن أبي عائذ الهذلي: مدح عبد الملك وعبد العزيز ابني مروان. ترجمته في الأغاني ١١٥ جزء ٢٠، وخزانة الأدب ٤٢١ جزء ١.

جبهاء الأشجعي: شاعر بدوي ليس ممن انتجع الخلفاء بشعره ومدحهم. ترجمته في الأغاني ١٤٦ جزء ١٦.

الحكم بن عبدل الأسدي: كان أعرج أحدب شاعرًا هجَّاء خبيث اللسان مدح بعض آل مروان. ترجمته في الأغاني ١٤٩ جزء ٢ وفوات الوفيات ١٤٥ جزء ١.

شبيب بن البرصاء: من ذبيان كان بدويًّا لم يحضر إلا وافدًا أو منتجعًا. ترجمته في الأغاني ٩٣ ج١١.

عبد الله بن حجش: من الصعاليك كان يعجب ببني أمية. الأغاني ١١٨ ج١٧.

العجير السلولي: هو شاعر مقل عاصر عبد الملك وسليمان وهشامًا. ترجمته في الأغاني ١٥٢ ج١١، وخزانة الأدب ٣٩٩ ج٢.

عويف القوافي: من قيس كان يقيم في الكوفة وبيته من البيوتات الفاخرة في العرب. ترجمته في الأغاني ١٠٥ ج١٧، وخزانة الأدب ٨٧ ج٣.

الفضل بن العباس: من قريش عاصر الوليد بن عبد الملك. ترجمته في الأغاني ٢ ج١٥.

موسى شهوات: مولى قريش وأصله من أذربيجان. ترجمته في الأغاني ١١٨ ج٣، والشعر والشعراء ٣٦٦.

(٦-٢) أنصار آل المهلب

آل المهلب بيت من بيوتات الإسلام من الأزد، اشتهروا بالكرم في أيام بني أمية مثل اشتهار آل برمك في الدولة العباسية، ونكبوا بمثل نكبتهم، وهم ينتسبون إلى كبيرهم المهلب بن أبي صفرة، عمل المهلب لبني أمية وحارب عنهم الأزارقة، وآخر ما تولى من الأعمال بلاد خراسان، تولاها من جهة الحجاج يوم كان له العراقان، وما زال عليها حتى توفي سنة ٨٣هـ، وهو من كبار رجال الإسلام في تلك الدولة، وكان كريمًا؛ التماسًا لحسن الأحدوثة، ومن أقواله: «الحياة خير من الموت، والثناء الحسن خير من الحياة، ولو أعطيت ما لم يعطه أحد لأحببت أن تكون لي أذن أسمع بها ما يقال فيَّ غدًا إذا مت» فهو من طلاب الشهرة بالسخاء، وسار أبناؤه على خطواته فكثر الشعراء الذين مدحوهم، وأشهر أولاده: يزيد بن المهلب، والمغيرة بن المهلب، قاتل الخوارج وكانت له معهم وقائع مأثورة، ومنهم مخلد بن يزيد بن الملهب من الأسخياء الممدوحين توفي سنة ١٠٠هـ، وحبيب بن المهلب وغيرهم. أما الشعراء الذين مدحوهم فهاك أشهرهم:

زياد الأعجم (توفي سنة ١٠٠هـ)

هو من موالي عبد القيس من بني عامر بن الحارث، وكان ينزل إصطخر فغلبت العجمة على لسانه فسموه الأعجم، وكان شاعرًا جزل الشعر فصيح الألفاظ على لكنة لسانه مثل سائر الأعاجم لا يستطيع لفظ العين، وقد مدح بخاصة المغيرة بن المهلب، وله فيه قصيدة يرثيه بها تزيد على خمسين بيتًا مطلعها:

قُل للقوافل والغزاة إذا غزوا	والباكرين وللمُجِدِّ الرائحِ
إن المروءة والسماحة ضُمَّتا	قبرًا بمَرو على الطريق الواضح
فإذا مررت بقبره فاعقِر به	كُوم الهجان وكلَّ طرف سابحِ

ومن لطيف أخباره مع حبيب بن المهلب، أنه جاء مرة إلى المهلب في أصبهان ومدحه فأمر له بجائزة فأقام عنده أيامًا، وبينما هو جالس في عشية مع حبيب المذكور في دار له وفيها حمامة تسجع، قال زياد يخاطب الحمامة:

تغنَّيْ أنتِ في ذممي وعهدي ... وذمة والدي أن لم تطاري
وبَيْتك فاصلحيه ولا تخافي ... على صُفْرٍ مزغَّبةٍ صغار
فإنك كلما غنيت صوتًا ... ذكرت أحبتي وذكرت داري
فإما يقتلوك طلبت ثأرًا ... له نَبَأ لأنك في جِواري

فقال حبيب: «يا غلام هات القوس» فقال له زياد: «وما تصنع بها؟» قال: «أرمي جارتك هذه» قال: «والله لئن رميتها لاستعدين عليك الأمير» فأتى بالقوس فنزع لها سهمًا فقتلها، فوثب زياد فدخل على المهلب فحدثه بالحديث وأنشده الشعر فقال المهلب: «علي بأبي بسطام» فأتي بحبيب فقال له: «أعطِ أبا أمامة دية جارته ألف دينار» فقال: «أطال الله بقاء الأمير إنما كنت ألعب» قال: «أعطه كما آمرك»، فأعطاه.

وهمَّ الفرزدق أن يهاجي عبد القيس موالي زياد، فبعث إليه زياد: «لا تعجل حتى أهدي إليك هدية» فانتظر الفرزدق فبعث إليه يقول:

وما ترك الهاجون لي إن هجوته ... مُصِحًّا أراه في أديم الفرزدق
ولا تركوا عظمًا يُرَى تحت لحمه ... لكاسره أبقوه للمتعرِّق
سأكسر ما أبقوه لي من عظامه ... وأنكت مُخَّ الساق منه وأنتقي
وإنا وما تهدي لنا إن هجوتنا ... لكالبحر مهما يُلْقَ في البحر يغرق

فلما بلغه الشعر قال: «ليس لي إلى هجاء هؤلاء من سبيل ما عاش هذا العبد» ومع شاعريته كان كثير اللحن في نظمه، ومن قوله يخاطب يزيد بن المهلب:

وهل لك في حاجتي حاجةٌ ... أم أنت لها تارك طارحُ
أمتها لك الخير أم أحيِها ... كما يفعل الرجل الصالح
إذا قلت قد أقبلتْ أدبرت ... كمن ليس غاد ولا رائحُ

ومن خبيث هجائه قوله يهجو الأشاقر:

قُبَيِّلَةٌ خيرها شرها وأصدقها الكاذب الآثمُ
وضيفهمُ وسط أبياتهم وإن لم يكن صائمًا صائمُ

ومن مأثور حكمه قوله:

وكائن ترى من صامتٍ لك معجَبٍ زيادته أو نَقْصه في التكلُّم
لسانُ الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤاده فلم تَبْقَ إلا صورةُ اللحم والدم

وتجد أخباره في الأغاني ١٠٢ ج١٤، و٥٨ ج١٣، والشعر والشعراء ٢٥٧، وخزانة الأدب ١٩٣ ج٤، وفوات الوفيات ١٦٤ ج١.

ثابت قطنة

هو مولى بني أسد بن الحارث، واسمه ثابت بن كعب شاعر فارس شجاع، كان في صحابة يزيد بن المهلب، وكان يوليه أعمالًا من أعمال الثغور فيحمد فيها مكانه لكتابته وشجاعته، فضلًا عن شاعريته، ومن لطيف خبره أن يزيد ولاه عملًا في خراسان، فلما صعد المنبر يوم الجمعة رام الكلام فتعذر عليه وحصر فقال: «سيجعل الله بعد عسر يسرًا أو بعد عي بيانًا، وأنتم إلى أمير فعال منكم إلى أمير قوال:

وإن لم أكن فيكم خطيبًا فإنني بسيفي إذا جَدَّ الوَغَي لخطيب»

وجالس ثابت قومًا من الشراة وقومًا من المرجئة، وكانوا يجتمعون فيتجادلون في خراسان فمال إلى قول المرجئة، ونظم هذا المذهب قصيدة وصفه فيها، من جملتها قوله:

يا هند فاستمعي لي إن سيرتنا أن نعبد الله لم نشركْ به أحدا
نُرجي الأمور إذا كانت مشبَّهة ونصدق القول فيمن جارَ أو عندا
المسلمون على الإسلام كلهم والمشركون استووا في دينهم قِددا
ولا أرى أن ذنبًا بالغ أحدًا مِ الناس شِرْكًا إذا ما وحدوا الصمدا

لا نسفِك الدَّم إلا أن يراد بنا سفكُ الدماء طريقًا واحدًا جدَدا

ومن نظمه قصيدة يحرض بها يزيد بن المهلب على الحرب،[١٦] ولما قتل يزيد قال ثابت يرثيه:

كل القبائل تابعوك على الذي تدعو إليه وبايعوك وساروا
حتى إذا حَمِيَ الوغَى وجعلتهم نُصْبَ الأسنة أسلموك وطاروا
إن يقتلوك فإن قتلك لم يكن عارًا عليك وبعضُ قتلٍ عارُ

ومن فخرياته قوله:

تعففتُ عن شتم العشيرة إنني وجدت أبي قد كفَّ عن شتمها قبلي
حليمًا إذا ما الحلم كان مروءةً وأجهل أحيانًا إن التمسوا جهلي

وأخباره في الأغاني ٤٩ ج١٣، والشعر والشعراء ٤٠٠، وخزانة الأدب ١٨٥ ج٤.

حمزة بن بيض (توفي سنة ١١٦هـ)

هو حنفي من بكر وائل (ربيعة) من أهل الكوفة، خليع ماجن من فحول طبقته. وكان منقطعًا لآل المهلب وولده ثم آلى أبان بن الوليد وبلال بن أبي بردة، واكتسب بالسفر إلى هؤلاء مالًا كثيرًا، ذكروا أنه اكتسب نحو مليون درهم، فهو كان ينصرهم لمجرد الاستجداء بخلاف من تقدم، ومن قوله يخاطب مخلد بن يزيد بن المهلب وعنده الكميت:

أتيناك في حاجة فاقضها وقُلْ مرحبًا، يجب المَرْحَبْ
ولا تتكلْنَا إلى معشرٍ متى يعدوا عِدَّةً يكذبوا
فإنك في الفرع من أسرةٍ لهم خضعَ الشرقُ والمغرب
وفي أدبٍ منهمُ ما نشأت ونعم لعمرك ما أدَّبوا

فأمر له بمائة ألف درهم، ولما سُجن يزيد بن المهلب، دخل عليه حمزة وأنشده أبياتًا مطلعها:

أغْلق دون السماح والجود والنـَّ ـــجْدة بابٌ حديدُه أشِبُ[١٧]

فدفع إليه يزيد فص ياقوت باعها بثلاثين ألف درهم.

ولحمزة أخبار طويلة حسنة أكثرها مع يزيد المذكور وابنه مخلد، وله في عبد الملك وابنه سليمان أقوال وأخبار تجدها في الأغاني ١٥ ج١٥، وفوات الوفيات ١٤٧ ج١.

كعب الأشقري

هو كعب بن معدان من الأشاقر قبيلة من الأزد، شاعر فارس خطيب معدود في الشجعان من أصحاب المهلب، وله ذكر في حروبه للأزارقة، وكان الفرزدق شديد الإعجاب به، يعده رابع الثلاثة الفحول (الفرزدق وجرير والأخطل) وأوفده المهلب إلى الحجاج ليخبره عن واقعة جرت له مع الأزارقة، فأنشده قصيدة مطلعها:

يا حفص إني عداني عنكمُ السفر وقد سهرت فآذى عينيَ السهر

ثم وصف المعركة إلى أن قال:

عَبُّوا كمينهمُ بالسَّفْحِ إذ نزلوا بكازرونَ فما عَزُّوا ولا نُصِروا
باتت كتائبنا تُردي مسوَّمةً حول المهلب حتى نَوَّرَ القمر
هناك ولَّوا جراحًا بعدما هربوا وحال دونهم الأنهار والجدر
تأبى علينا حزازاتُ النفوس كما نبقي عليهم ولا يُبقون إن قدروا

وهجاه زياد الأعجم وقد علمت أنه ينتمي لعبد القيس، فقال كعب يهجو عبد القيس:

إني وإن كنت فَرْعَ الأزد قد علموا أخْزَى إذا قيل عبد القيس أخوالي
فيهم أبو مالكٍ بالمجد شَرَّفني ودَنَّس العبدُ عبدُ القيس سربالي

فرد عليه زياد يهجو الأشاقر اللجاج فشكاه إلى المهلب، فاستقدم زيادًا وعاتبه وصالحهما … وأخبار كعب كثيرة تراها في الأغاني ٥٦ ج١٣.

بيهس الجرمي

هو بيهس بن صهيب، من جرم (قضاعة) شاعر فارس شجاع، كان يبدو بنواحي الشام مع قبائل جرم وكلب وعذرة، ويحضر معهم في أجناد الشام، وقد صحب المهلب بن أبي صفرة في حربه للأزارقة، وكانت له مواقف مشهورة، أول ما هاج شاعريته أنه هوى امرأة من قومه اسمها صفراء، وكان يتحدث إليها ويكتم وجده لها ولا يخطبها لأبيها لأنه كان صعلوكًا لا مال له وكان ينتظر أن يثرى، وكان من أحسن الشبان وجهًا وبشرة وحديثًا وشعرًا … فرأته صفراء يتحدث مع بعض نساء الحي مرة فهجرته. وعرض له سفر فخرج إليه وقد زوجها أبوها رجلًا من بني أسد فذكرها في قصيدة، ثم ماتت قبل أن يعرفها زوجها، فقال يرثيها بقصيدة عبر بها عن شعوره بما ينطبق على الواقع على طريقة الجاهليين، من ذلك قوله:

هل بالديار التي بالقاع من أحد	باقٍ فيسمع صوتَ المُدلج الساري
تلك المنازل من صفراءَ ليس بها	نارٌ تضيء ولا أصوات سُمَّار
عَفَّت معارفها هوجًا مغبَرة	يَسفي عليها تراب الأبطح الهاري
حتى تنكَّرْتُ منها كل معرفة	إلا الرماد نخيلًا بين أحجار
طال الوقوف بها والعين يسبقني	فوق الرداء بَوادي دمعها الجاري
أن أصبح اليوم لا أهل ذوو لطف	ألهو لديهم ولا صفراءُ في الدار

وله قصيدة في مدح محمد بن مروان لأنه أجاره من تهمة كانت عليه، منها:

وإن محمدًا سيعود يومًا	ويرجع عن مراجعة العتاب
فيجبر صِبْيتي ويحوط جاري	ويؤمن بعدها أبدًا صحابي
هو الفرع الذي بُنِيتْ عليه	بيوتُ الأطيبين ذوي الحجاب

وتجد أخباره في الأغاني ١٦١ ج١٠ و١٠٧ ج١٩.

وممن صحب آل المهلب ونصرهم بشعره:

- العديل بن الفرخ من ربيعة: ترجمته في الأغاني ١١ ج٢٠ وفي الشعر والشعراء ٢٤٤ وخزانة الأدب ٣٦٧ ج٢.
- المغيرة بن حبناء من تميم: ترجمته في الأغاني ١٦٢ ج١١ وخزانة الأدب ٦٠١ ج٣.
- يزيد بن الحكم من ثقيف: ترجمته في الأغاني ١٠٠ ج١١.

(٦-٣) أنصار العلويين أو الهاشميين

كان أنصار العلويين من الشعراء كثيرين، لكنهم لم يكونوا يجسرون على الظهور خوفًا من الأمويين وهم أهل السيادة، وربما مدحهم أحدهم سرًّا ثم يعدل إلى مدح الأمويين كما فعل الكميت بن زيد وغيره، وهاك أشهر أنصار العلويين:

الكميت بن زيد (المتوفى سنة ١٢٦هـ)

هو الكميت بن زيد الأسدي شاعر مقدم عالم بلغات العرب خبير بأيامها، من شعراء مضر وألسنتها، المتعصبين على القحطانية القارعين لشعرائهم، العلماء بالمثالب والأيام المفاخرين بها، وكان مشهورًا بالتشيع لبني هاشم، وقصائده فيهم تسمى الهاشميات، وهي من جيد شعره وكانت أول منظوماته، وجاء الفرزدقَ وعرض عليه شعره فسمع له وهو يستخف به حتى بلغ إلى قوله:

بني هاشمٍ رهطُ النبيِّ فإنني	بهم ولهم أرضى مِرارًا وأغضب
خفضتُ لهم مني جَناحيْ مودةٍ	إلى كَنفٍ عِطْفاه أَهْلٌ ومرْحبُ
وكنت لهم من هؤلاء وهؤلاء	مِجَنًّا على أني أذم وأغضب
وَأرمي وأرمِي بالعداوة أهلها	وإني لأوذي فيهم وأونَّب

فقال له الفرزدق: «يا ابن أخي أذع ثم أذع فأنت والله أشعر من مضى وأشعر من بقي».

ويقال في سبب توسعه بعلم لغة العرب وأخبارهم إنه كان له جدتان أدركتا الجاهلية، فكانتا تصفان له البادية وأمورها وتخبرانه بأخبار الناس في الجاهلية ... فإذا شك في شعر أو خبر عرضه عليهما فتخبرانه عنه فمن هناك كان علمه، وهو من أصحاب الملحمات ومطلع ملحمته:

ألا لا أرى الأيام يُقْضَى عجيبُها بطول ولا الأحداث تَفْنَى خطوبها

وله مناقضات ومهاجاة لشعراء اليمن، وأراد خالد القسري أن يشي به إلى بني أمية، فروى قصائده الهاشميات لجارية حسناء وأعدها ليهديها إلى هشام بن عبد الملك، وكتب إليه بأخبار الكميت وأنفذ قصيدته التي يقول فيها:

فيا ربِّ هل إلا بك النصر يُبتغى ويا ربِّ هل إلا عليك المعوَّل

وهي طويلة يرثي بها زيد بن علي (الهاشمي) ويمدح بني هاشم فأكبرها هشام، فكتب إلى خالد عامله أن يقطع لسانه ويده ... فنبهه إلى ذلك بعض أصدقائه، ففر وقضى زمانًا مختفيًا ثم توسطوا له بالعفو وجاء إلى هشام ومدحه بقصيدة أنشده إياها مطلعها:

ماذا عليك من الوقو ف بها وإنك غيرُ صاغر

إلى أن قال:

فالآن صرت إلى أميـ ـةَ والأمور إلى مصائر
يا ابن العقائل للعقا ئل والجحاجحة الأخاير
من عبد شمسٍ والأكا بر من أمية فالأكابر
إن الخلافة والإلا فَ برغم ذي حَسدٍ وَوَاغِرْ
دَلَفَا من الشرف التليـ ـد إليك بالرِّفد الموافر

وأنشده غيرها وغيرها فأجاره، ومن جيد شعره قوله:

ألا لا أرى الأيام يُقْضَى عجيبُها لطول ولا الأحداثُ تفنى خطوبها
ولا عبرة الأيام يعرف بعضَها ببعض من الأقوام إلا لبيبُها
ولم أرَ قولَ المرء إلا كنُبله له وبه محرومها ومصيبها

وتوفي سنة ١٢٦ وله ستون سنة، وكان يبلغ شعره لما مات ٥٢٨٩ بيتًا، والهاشميات مطبوعة بمصر وفي ليدن سنة ١٩٠٤، ولها شرح منه نسخة خطية في دار الكتب المصرية، وللكميت ترجمة مطولة في الأغاني ١١٣ ج١٥، والشعر والشعراء ٣٦٨، وخزانة الأدب ٦٩ جزء ١، والجمهرة ١٨٧.

أيمن بن خريم الأسدي

هو من بني أسد، كان شديد التشيع لعلي وقد مدح بني هاشم ومن قوله فيهم:

نهاركم مكابدةٌ وصومٌ وليلكم صلاةٌ واقتراء
أأجعلكم وأقوامًا سواء وبينكم وبينهمُ الهواءُ
وهم أرضٌ لأرجلكم وأنتم لرؤوسهم وأعينهم سماءُ

على أنه اضطر إلى مسايرة بني أمية ومدح عبد الملك، وله في وصف النساء قصيدة بديعة تجدها مع سائر أخباره في الأغاني ٥ جزء ٢١، والشعر والشعراء ٣٤٥.

(٤-٦) أنصار الخوارج وآل الزبير وغيرهم

ويقال نحو ذلك في أنصار سائر الأحزاب الذين كانوا على الأمويين كالخوارج الشراة والأزارقة وآل الزبير، فإن شعراءهم لم يكونوا يستطيعون الظهور ويندر ظهور أحدهم، وهاك أشهرهم:

الطرماح بن حكيم (توفي سنة ١٠٠هـ)

هو من طي، من فحول الشعراء الإسلاميين وفصحائهم، نشأ في الشام وانتقل إلى الكوفة بعد ذلك مع من وردها من جيوش أهل الشام، واعتقد مذهب الشراة والأزارقة وكان معاصرًا للكميت المتقدم ذكره وكانا صديقين، وسئل الكميت مرة: «لا شيء أعجب من صفاء ما بينك وبين الطرماح على تباعد ما يجمعكما من النسب والمذهب والبلاد فهو شامي قحطاني وأنت كوفي نزاري شيعي، فكيف اتفقتما مع تباين المذهب وشدة العصبية؟» فقال: «اتفقنا على بُغض العامة».

وكان للطرماح والكميت رغبة في الغريب يدخلانه في أشعارهما، ومن قول الطرماح يمدح نفسه:

إذا قُبضت نفسُ الطرماح أخلَقت عُرى المجد واسترخى عنانُ القصائد

ومن قوله في الفخر:

وما أنا بالراضي بما غَيْرُهُ الرِّضَا ولا المظهر الشكوى ببعض الأماكنِ
ولا أعرف النُّعمَى علَّي ولم تكن وأعرف فَضْل المنطق المتغابن

وله قصائد كثيرة في هجاء بني تميم، ومن لطيف ما قاله فيهم:

تميمٌ بطُرق اللؤم أهدى من القطا ولو سلكتْ سُبْل المكارم ضَلَّت
ولو أن برغوثا على ظهر قَمْلةٍ يَكُرُّ على صَفَّيْ تميمٍ لولَّت
ولو أن حُرقوصًا يزقَّق مسْكُه إذا نَهلَتْ منه تميمٌ وعلَّت
ولو جمعتْ يومًا تميمٌ جموعها على ذَرَّة معقولة لاستقلَّت
ولو أن أمَّ العنكبوت بَنَتْ لها مَظَلَّتها يوم النَّدَى لأكنَّتِ

وهو من أصحاب الملحمات، ومطلع ملحمته:

قَلَّ في شَطِّ نهروان اغتماضي ودعاني هَوَى العيون المِراض

ومن قوله ويدل على مذهبه في الشراة:

لقد شقيت شقاءً لا انقطاع له إن لم أفُزْ فوزةً تُنجي من النار
والنارُ لم ينجُ من روعاتها أحدٌ إلا المنيبَ بقلب المخلص الشَّاري
أو الذي سبقتْ من قبل مولده له السعادة من خَلَّاقها الباري

وكان الأصمعي يستجيد قوله في صفة الثور:

يبدو وتُضمره البلاد كأنه سيفٌ على شرفٍ يسلُّ ويغمدُ

وللطرماح ديوان طُبع في إنجلترا بإشراف لجنة تذكار جيب مع ديوان الطفيل بن عوف بعناية المستشرق كرنكو Krenkaw، وأخباره في الأغاني ١٥٦ جزء ١٠، والشعر والشعراء ٣٧١، وخزانة الأدب ٤١٨ جزء ٣، والجمهرة ١٩٠.

عمران بن حطان (توفي سنة ٨٩هـ)

هو من سدوس من بكر وائل، شاعر فصيح من شعراء الشراة ودعاتهم المقدمين في مذاهبهم، وكان من القعدة لأن عمره طال فضعف عن الحرب وحضورها، فاقتصر على الدعوة والتحريض بلسانه وهو مغالٍ في التعصب على علي، يؤيد ذلك قوله في مدح ابن ملجم قاتل علي:

لله دَرُّ المراديِّ الذي سفكتْ كفاه مهجةَ شرِّ الخلق إنسانا
أمسى عشية غشَّاه بضربته مما جناه من الآثام عريانا

وأخذ هذا المذهب عن امرأته لأنها خارجية تزوجها ليردها عن مذهبها فذهبت به إلى رأيهم، وكان الحجاج يلح في طلب عمران بن حطان، وبلغه أن غزالة الحرورية دخلت على الحجاج فتحصن منها وأغلق عليه قصره، فكتب إليه عمران:

أسدٌ علَّى وفي الحروب نعامة رَبداءُ تجفل من صفير الصافر
هلا برزت إلى غزالة في الوغى بل كان قلبك في جناحيْ طائر

صدعتْ غزالةُ قلبه بفوارسٍ   تركتْ مدابره كأمس الدابرِ

ثم لحق بالشام ونزل على روح بن زنباع، واشتهر شعر ابن حطان في عصره حتى كان لا يقول أحد من الشعراء شعرًا إلا نُسب إليه لشهرته، ومر بالفرزدق وهو ينشد وكان يتهمه أنه يقول للاستجداء فيكذب فقال فيه:

أيها المادحُ العبادَ ليُعْطَى   إن لله ما بأيدي العبادِ
فاسأل الله ما طلبت إليهم   وارْجُ فضل المقَسِّم العوَّاد
لا تقلْ في الجواد ما ليس فيه   وتسمِّ البخيل باسم الجواد

وكان عمران يفتخر بأنه لم يكذب في شعره، ومن ذلك قوله يخاطب امرأته جمرة:

يا جمر إني على ما كان من خُلقي   مُثْنٍ بخَلات صدقٍ كلُّها فيكِ
الله يعلم أني لم أقل كذبًا   فيما علمت وأني لا أزكِّيكِ

وأخباره في الأغاني ١٥٢ ج١٦ وخزانة الأدب ٤٣٦ ج٢.

عبد الله بن الحجاج الذبياني (توفي سنة ٩٥هـ)

هو عبد الله بن الحجاج بن محصن من ذبيان ويكنى أبا الأقرع، شاعر فاتك شجاع من معدودي فرسان مضر ذوي البأس والنجدة فيهم، وكان ممن خرج مع عمرو بن سعيد على عبد الملك بن مروان، فلما تغلب عبد الملك على عمرو خرج عبد الله مع نجدة بن عامر الحنفي ثم هرب، فلحق بعبد الله بن الزبير فكان معه إلى أن قتل، ثم جاء إلى عبد الملك متنكرًا واحتال عليه حتى أمنه في حديث طويل، وعاش إلى زمن الوليد بن عبد الملك ووشي به فحبسه، فقال وهو في الحبس قصيدة من جملتها:

فإن يُعْرِضْ أبو العباس عني   ويركب بي عروضًا عن عروض
ويجعل عُرْفَه يومًا لغيري   ويُبغِضْنِي فإني من بغيض
فإني ذو غنى وكريم قومٍ   وفي الأكفاء ذو وجه عريضِ

وأخباره في الأغاني ٢٥ ج١٢.

إسماعيل بن يسار النسائي (توفي سنة ١١٠هـ)

هو مولى بني تيم (من قريش) انقطع لآل الزبير، ولما استتب الأمر لعبد الملك بن مروان وفد إليه ومدح الخلفاء من ولده كما فعل غيره، ولكنهم كانوا يضمرون الكره لهم، ويمثل ذلك ما جرى لإسماعيل هذا وقد وفد على الغمر بن يزيد بن عبد الملك يومًا، فحجبه ساعة ثم أذن له فدخل يبكي فقال له الغمر: «ما لك يا أبا فائد تبكي؟» فقال: «وكيف لا أبكي وأنا على مروانيتي ومروانية أبي أحجب عنك» فجعل الغمر يعتذر إليه وهو يبكي، فما سكت حتى وصله الغمر بجملة لها قدر، وخرج من عنده فلحقه رجل فقال له: «أخبرني ويلك يا إسماعيل أي مروانية كانت لك أو لأبيك» قال: «بغضنا إياهم، امرأته طالق إن لم تكن أمه تلعن مروان وآله كل يوم مكان التسبيح، وإن لم يكن أبوه حضره الموت فقيل له: قل: لا إله إلا الله، فقال: لعن الله مروان؛ تقربًا بذلك إلى الله — تعالى».

وعاش إسماعيل عمرًا طويلًا وكان شعوبيًّا يفخر على العرب بالعجم، ومن قوله:

إنما سُمِّيَ الفوارس بالفُر ... س مضاهاةَ رفعة الأنسابِ
فاتركي الفخر يا أمامَ علينا ... واتركي الجَوْرَ وانطقي بالصواب
واسألي إن جهلت عنا وعنكم ... كيف كنا في سالف الأحقاب
إذ نربي بناتنا وتدسُّو ... ن سفاهًا بناتكم في التراب

ومن أقواله في الغزل من قصيدة:

حتى دخلتُ البيت فاستذرفت ... من شَفَق عيناكِ لي تسْجُمُ
ثم انجلى الحزن ورَوْعاتُه ... وغُيِّبَ الكاشح والمُبرِمُ
فبتُّ فيما شئت من نعمةٍ ... يَمْنَحُنيها نحْرُها والفم
حتى إذا الصبح بدا ضوءه ... وغارت الجوزاءُ والمِرزم
خرجت والوطء خفيٌّ كما ... ينساب من مكمنه الأَرْقَمْ

وأخباره في الأغاني ١١٩ ج٤.

(٦-٥) سائر أنصار أعداء بني أمية

ومن أنصار أعداء بني أمية غير من تقدم جماعة نكتفي بذكر مصادر تراجمهم وهم:

- أبو وجزة السعدي من هوازن توفي سنة ١٣٠ مدح آل الزبير، أخباره في الأغاني ٧٩ ج١١ والشعر والشعراء ٤٤٢.
- أبو حزابة من أنصار ابن الأشعث. أخباره في الأغاني ١٥٢ ج١٩.
- أبو كلدة اليشكري، من بكر، من أنصار ابن الأشعث سكن الكوفة وقتله الحجاج. أخباره في الأغاني ١١٠ ج١٠.

(٧) شعراء الغزل في العصر الأموي

قلنا في كلامنا عن التشبيب: إن إمام التشبيب في هذا العصر جميل بن معمر إمام المحبين، وكان يشبب بحبيبته عن شعور حقيقي بالحب ... فقلده الشعراء في ذلك وإن لم يكونوا محبين، على أن أكثرهم ابتلوا بالعشق ولا سيما آل عذرة، وبلغ عدد المشببين بضعة وعشرين شاعرًا منهم خمسة من قريش هم: عمر بن أبي ربيعة، والعرجي، والحارث بن خالد، وأبو دهبل، وابن قيس الرقيات، وعروة بن أذينة، وإمامهم عمر بن أبي ربيعة، وهو أول من تجرأ على التشبيب بالنساء وصارت له فيه طريقة تحداها الشعراء بعده من قريش وغيرهم كما سيجيء، فنبدأ بجميل ثم نذكر الشعراء القرشيين وغيرهم.

(٧-١) جميل بن معمر (توفي سنة ٨٢هـ)

هو جميل بن عبد الله بن معمر، من عذرة، وكان شاعرًا فصيحًا مقدمًا جامعًا للشعر والرواية اشتهر بحبه بثينة ابنة عمه، ولذلك عُرف بجميل بثينة، وكانا يقيمان في وادي القرى وكان أول عهده بها وهي صغيرة، ومن أوائل نظمه فيها قوله:

وأول ما قاد المودةَ بيننا بوادي بَغيضٍ يا بُثينُ سِبابُ
وقلت لها قولًا فجاءت بمثله لكل كلام يا بثينُ جواب

ولم يكن يراها حتى صارت شابة، فأخذ ينظم القصائد فيها حتى اشتهر أمره، واتفق مرة أن توبة بن الحمير صاحب ليلى مر ببني عذرة، فرأته بثينة فجعلت تنظر

إليه وجميل حاضر … فثارت الغيرة في قلب جميل، فقال لتوبة: «من أنت؟» قال: «أنا توبة بن الحمير» قال: «هل لك في الصراع؟» قال: «ذلك إليك»، فأعطته بثينة ملاءة حمراء فأتزر بها ثم صارعه، فصرعه جميل، ثم قال: «هل لك في النضال؟» قال: «نعم» فناضله فنضله جميل، ثم قال: «هل لك في السباق؟» قال: «نعم» فسابقه فسبقه جميل، فقال توبة: «يا هذا إنما تفعل ذلك بريح هذه الجالسة، ولكن اهبط بنا الوادي» فهبط فصرعه توبة ونضله وسبقه.

وكان عند بثينة مثل ما عند جميل، ولما رأت مناضلته عنها زادت شغفًا به، ولكنهما لم يكونا يجتمعان إلا خلسة على موعد، ولم يكن جميل يخلو من الرقباء، لكنهم لم يستطيعوا رميه، وأخباره معها كثيرة لا يسعها هذا المقام، وما زال يجتمع بها سرًّا عن أهلها فألحوا بالشكوى منه إلى العامل، ففر إلى اليمن حتى عزل العامل … وانتجع أهل بثينة الشام فرحل جميل إليهم، فترصدوه وشكوه إلى عشيرته، فعنفه أهله وهددوه، فانقطع عنها، وأخيرًا لجأ إلى مصر، وعاملها عبد العزيز بن مروان، فأحسن وفادته ومرض هناك ومات، وكان طويل القامة عريض ما بين المنكبين جميل الخلقة حسن البشرة، ومن قوله فيها:

وإني لأرضى من بثينة بالذي	لوَ أبْصره الواشي لقرت بلابله
بلا وبأن لا أستطع وبالمنى	وبالأمل المرجوِّ قد خاب آمله
وبالنظرة العَجْلَى وبالحول تنقضي	أواخره لا نلتقي وأوائله

ومن قوله أبيات ينسبونها إلى مجنون ليلى:

وما زلتم يا بَثْنَ حتى لوَ أنني	من الشوق أستبكي الحمام بكى ليا
إذا خَدِرتْ رجلي وقيل شفاؤها	دعاء حبيبٍ كنت أنتِ دعائيا
وما زادني النأي المفرِّق بعدكم	سُلُوًّا ولا طول التلاقي تقاليا
ولا زادني الواشون إلا صبابة	ولا كثرة الناهين إلا تماديا
لقد خفت أن ألقى المنية بغتةً	وفي النفس حاجاتٌ إليك كما هيا

ومن بديع قوله في النسيب:

لها في سواد القلب بالحب مَيْعَةٌ هي الموت أو كادت على الموت تُشرفُ
وما ذكرتك النفسُ يا بثن مرةً من الدهر إلا كادت النفس تتلف
وما استطرفت نفسي حديثًا لخلةٍ أُسرُّ به إلا حديثُك أطرف

وأكثر شعره فيها وله أبيات في الفخر بليغة منها:

يُحِبُّ الغواني البيضُ ظلَّ لوائنا إذا ما أتانا الصارخُ المتلهِّفُ
نسير أمام الناس والناسُ خلفنا فإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا
وكنا إذا ما معشرٌ نصبوا لنا ومرت جواري طَيْرهم وتعيَّفوا
وضعنا لهم صاع القصاص رهينة بما سوف نوفيها إذا الناس طَفَّفوا

ولجميل ديوان شعر كبير كان مشهورًا في أيام ابن خلكان، ولم نقف على خبره، ولكن منه أشعارًا مجموعة في كتاب منه نسخة خطية في مكتبة برلين.

ونرى ترجمة جميل في الأغاني ٧٧ ج٧ و٨٠ ج١٠، و١٣٤ و١٤٢ ج٢، وابن خلكان ١١٥ ج١، وخزانة الأدب ١٩١ ج١، والشعر والشعراء ٢٦٠، وفي الهلال ٢٤٢ سنة ٦.

(٧-٢) شعراء قريش الغزليين

عمر بن أبي ربيعة (توفي سنة ٩٣هـ)

هو عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة، من مخزوم بطن من قريش، وكانت العرب تقر لقريش بالتقدم عليها في كل شيء إلا الشعر، حتى ظهر عمر بن أبي ربيعة فأقرت لها به.

وقصر عمر المذكور شعره على وصف النساء ولم يصف سواهن، وكان الإسلام لا يزال في أوائله، والمسلمون يستنكفون من التعرض للنساء والتشبيب بهن، ولم يجرؤ ابن أبي ربيعة على ذلك إلا لمنزلته في قريش، ومع ذلك فقد عدوا شعره ضررًا على الآداب، فقد قال ابن جريح: «ما دخل العواتق في حجالهن شيء أضر عليهن من شعر ابن أبي ربيعة» وقال هشام بن عروة: «لا ترووا فتيانكم شعر عمر بن أبي ربيعة لئلا يتورطوا في الزنا تورطًا»[18] وكان أخوه الحارث يمنعه من شعره ويدفع إليه المال ليكف عنه فلا يقدر.

وقد اقتبس عمر من جميل وقلده. وكان جميل يشبب بحبيبته، أما عمر فكان يشبب بكل جميلة ولو لم يكن بينه وبينها مودة، وصار له في التشبيب طريقة عُرفت باسمه حاكاها الشعراء، ولما سمع الفرزدق تشبيبه قال: «هذا الذي كانت الشعراء تطلبه فأخطأته وبكت الديار ووقع هذا عليه»، وكانوا لذلك يعدونه أنسب الناس وأوصف الشعراء لربات الجمال، وكان يقيم بمكة، فإذا آن الحج اعتمر في ذي القعدة، ولبس الحلل الفاخرة، وركب النجائب المخضوبة بالحناء، عليها القطوع والديباج، وأسبل لمته، ولقي العراقيات فيما بينه وبين ذات عرق محرمات، ويتلقى المدنيات إلى مر، ويتلقى الشاميات إلى الكديد، ويتعرض للحجاج فيشبب بشهيرات النساء اللواتي يقدمن إلى مكة وهن في مشاعر الحج، أو ينظر إليهن وهن في الطواف فيرى منهن ما لا يراه في الخارج فيصفهن ... فتعرض لأشهر نساء العرب وأجملهن، وفيهن جماعة من كبريات القوم، وفي جملتهن فاطمة بنت عبد الملك بن مروان الخليفة، ولكن لم يكن يذكر اسمها؛ خوفًا من أبيها ومن الحجاج، وكان أبوها قد بعث إليه يتوعده إذا ذكرها فلما عادت من الحج قال فيها:

كِدْتُ يومَ الرحيل أَقْضِي حياتي	ليتني متُّ قبل يوم الرحيل
لا أطيق الكلام من شدة الخو	ف ودمعي يسيلُ كلَّ مَسيل
ذرَفتْ عينُها وفاضت عيوني	وكلانا يُلفَى بلبٍّ أصيل

وممن شبب بهن عائشة بنت طلحة الشهيرة بالجمال والتعقل، وكان قد رآها تطوف فعلمت أنه لا يبرح أن يشبب فيها، فبعثت إليه مع جاريتها تقول: «اتق الله ولا تقل هجرًا» فأجابها: «اقرئيها السلام وقولي لها: ابن عمك لا يقول إلا حسنًا» وقال أبياتًا منها:

لعائشةَ ابنة التيمي عندي	حِمى في القلب، لا يُرْعَى حماها
يذكرني ابنةَ التيميِّ ظبيٌ	يرودُ بروضةٍ سهلٍ رباها
فقلت له وكاد يُرَاعُ قلبي	فلم أرَ قطُّ كاليوم اشتباها
سوى حَمشٍ بساقك مستبينٍ	وأنَّ شَواك لم يشبه شواها
وأنك عاطلٌ عار وليست	بعارية ولا عُطْلٍ يداها

وشبب أيضًا بلبابة بنت عبد الله بن عباس بأبيات مطلعها:

ودِّع لُبابة قبل أن نترحَّلا		واسأل فإن قُلَالَهٌ أن تسألا

وشبب بسكينة بنت الحسين من قصيدة قال فيها:

أسُكَيْنُ ما ماءُ الفراتِ وطيبُه		مني على ظمأٍ وحبِّ شراب
بألذَّ منك وإن نأيتِ وقلما		ترعى النساءُ أمانة الغيَّاب

وشبب بالثريا بنت علي بن عبد الله بن الحارث، وكان قد تزوجها رجل اسمه سهيل وفي ذلك يقول عمر:

أيها المنكحُ الثريَّا سُهَيْلًا		عَمْرَك الله كيف يجتمعان
هي شاميَّةٌ إذا ما استقلَّتْ		وسهيلٌ إذا استقل يماني

وشبب أيضًا برملة بنت عبد الله بن خلف أخت طلحة الطلحات وغيرها، وشعره كثير ومنه طائفة حسنة يغنونها، ومما يستحسن من شعره قوله في نحول البدن:

رأت رجلًا أما إذا الشمس عارضتْ		فيَضحَى وأما بالعشيِّ فيخْصر
قليلًا على ظهر المطية شخصه		حلا ما نَبَى عنه الرداء المحبَّرُ

وأخباره كثيرة ذكرها صاحب الأغاني مطولة من ٣٠ ج١، والشعر والشعراء ٣٤٨، وابن خلكان ٣٧٨ ج١، والدميري ٣٢٦ ج١، والعقد الفريد ١٣٢ ج٣.

وله ديوان مطبوع في ليبسك سنة ١٨٩٣، وفي مصر سنة ١٣١١، ومنه نسختان خطيتان في دار الكتب المصرية.

العرجي

هو عبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان الخليفة، كان من شعراء قريش وقد اشتهر بالغزل وتشبه بعمر بن أبي ربيعة، وكان مشغوفًا باللهو والصيد قليل المحاشاة لأحد فيها، ولم يكن له نباهة في أهله، وكان أشقر أزرق العينين جميل الوجه، وقد

شبب بجيداء أم محمد بن هشام المخزومي ليفضح ابنها، لا لمحبة بينهما، فأخذه محمد وضربه وحبسه حتى مات في السجن.

وكان يشبب أيضًا بالنساء الشهيرات بالجمال نحو ما كان يفعل ابن أبي ربيعة، لكنه كان ملقدًا فلم يبلغ مبلغه، وكان يقلده في البذخ فيستسقي على إبله في شملتين، ثم يغتسل ويلبس حلتين بخمسمائة دينار. ومما قاله في حبسه:

أضاعوني وأيَّ فتًى أضاعوا ليوم كريهة وسَداد ثَغرِ
وصبرٍ عند مُعترَك المنايا وقد شُرِعت أسنَّتُها بنَحرِي
أجَرَّرُ في الجوامع كلَّ يوم فيا لله مَظْلمتي وصَبْرِي
كأني لم أكن فيهم وسيطًا ولم تك نِسْبتي في آل عمرو

وأخباره كثيرة منشورة في الأغاني ١٥٣ ج١، و٩٠ ج٦، و١٤٥ ج٧، والشعر والشعراء ٣٦٥.

الحارث بن خالد المخزومي

هو أيضًا من مخزوم مثل عمر بن أبي ربيعة، وقد اتبع مذهبه في الغزل لا يتجاوزه إلى المديح أو الهجاء، وكان يهوى عائشة بنت طلحة ويشبب بها، وكان ذا قدر وخطر ومنظر في قريش، وأخوه عكرمة بن خالد محدث جليل. وكان بنو مخزوم جميعًا من حزب ابن الزبير إلا الحارث، فكان منحازًا لعبد الملك بن مروان فولاه مكة، وكان يراقب الحج كما يفعل ابن أبي ربيعة، ويشبب بمن يستحسنهن من النساء وهن في الطواف.

ومن قوله في عائشة بنت طلحة لما تزوجها مصعب بن الزبير ورحل بها إلى العراق:

ظعن الأمير بأحسن الخلقِ وغدا بلُبِّك مطلع الشرق
في البيت ذي الحسب الرفيع ومِن أهل التقى والبرِّ والصدق
فظَللت كالمقهور مُهجته هذا الجنون وليس بالعشق
أتْرُجَّةٌ عَبِقَ العبيرُ بها عَبَقَ الِّدهان بجانب الحُق
ما صبَّحتْ أحدًا برؤيتها إلا غدا بكواكب الطَّلقِ

وله أقوال كثيرة ذكرها صاحب الأغاني ١٠٠ ج٣، وخزانة الأدب ٢١٧ ج١.

أبو دهبل الجمحي

اسمه وهب بن زمعة من أشراف بني جمح من قريش، وكان رجلًا جميلًا له جمة شعر يرسلها فتضرب منكبيه، وكان عفيفًا قال الشعر في آخر خلافة علي بن أبي طالب، ومدح معاوية وعبد الله بن الزبير، وكان ابن الزبير ولاه بعض أعمال اليمن ولكنه شُغل عن ذلك بالغزل لأنه هوى امرأة من قومه اسمها عمرة، وكانت جزلة يجتمع إليها الرجال للمحادثة وإنشاد الشعر والأخبار ... فكان أبو دهبل لا يفارق مجلسها، وكانت هي أيضًا تحبه، فغارت امرأة منها، فبعثت إليها عجوزًا داهية وشت به حتى احتجبت عنه، فقال:

وبتُّ كئيبًا ما أنا كأنما ... خِلالَ ضلوعي جمرةٌ تتوهَّجُ
فطورًا أمنِّي النفسَ من عَمرةَ المنى ... وطورًا إذا ما لَجَّ بي الحزن أنشِجُ
لقد قطع الواشون ما كان بيننا ... ونحن إلى أن يوصل الحبلُ أحوجُ

وقد شبب في غيرها من شهيرات النساء منهن عاتكة بنت معاوية بن أبي سفيان ... وقد جاءت للحج فنزلت بذي طوى من مكة، وقد اشتد الحر فأمرت جواريها فرفعن الستر فمر أبو دهبل فرآها وهي لا تعلم، فلما رأته ينظر إليها غضبت وشتمته وأمرت بإرخاء الستر، فقال أبو دهبل في ذلك:

إني دعاني الحيْن فاقتادني ... حتى رأيت الظبيَ بالباب
يا حُسنه إذ سبَّني مدبرًا ... مستترًا عني بجلباب
سبحان من وقَّفها حسرةً ... صُبَّت على القلب بأوصاب
يذود عنها أن تطلبتها ... أبٌ لها ليس بوهَّاب
أحلَّها قصرًا منيع الذُّرا ... يحمَى بأبوابٍ وحُجَّابِ

وأنشد أبو دهبل هذه الأبيات بعض إخوانه فشاعت وغنى بها المغنون، فبلغت عاتكة فبعثت إليه بكسوة وجرت الرسل بينهما، فلما صدرت عن مكة خرج معها إلى الشام، فلما دخلت دمشق (جيرون) انقطعت عن لقائه في دمشق، فنظم في ذلك قصيدة مطلعها:

طال ليلي وبت كالمحزون ... ومللتُ الثواء في جَيرون

وبلغ معاوية تشبيبه بابنته، فأحب أن يمنعه بأسلوب من أساليبه الناعمة ... فدعاه إليه وأخبره أنه اطلع على ما قاله، فأراد أبو دهبل أن يتنصل ويزعم أنها قيلت عن لسانه، فأكد له معاوية أنها له، ولكنه قال: «لا خوف عليك من جهتي ولكنني أخاف عليك من يزيد، فإن له سورة الشباب وأنفة الملوك» فخاف أبو دهبل وخرج إلى مكة هاربًا، لكنه عاد إلى مكاتبة عاتكة، وبلغ ذلك معاوية فحج، ولما انقضت أيام الحج دعا أبا دهبل في جملة الشعراء والأشراف وأجازه، وسأله عن أحب بنات عمه إليه، فقال: فلانة، فقال: «قد زوجتك إياها وأصدقتها ألفي دينار، وأمرت لك بألف دينار، فلما قبضها طلب العفو عما مضى ولم يتزوج الفتاة، فسر معاوية من ذلك، وأكثر شعره غير الغزل في عبد الله بن عبد الرحمن الأزرق والي اليمن».

ولأبي دهبل أخبار طويلة ذكرها صاحب الأغاني ١٥٤ ج٦، وله أشعار في الشعر والشعراء ٣٨٩.

ابن قيس الرقيات (توفي سنة ٧٥هـ)

اسمه عبيد الله بن قيس، من قريش، وكان ممن انحاز إلى ابن الزبير، وخرج مع مصعب بن الزبير على عبد الملك بن مروان ومدحه وطعن في بني أمية، ثم انحاز إلى عبد الملك بعد قتل مصعب وعبد الله فأمنه، فقال يمدحه من قصيدة:

إن الأغرَّ الذي أبوه أبو الـ ـعاصي عليه الوقار والحُجُبُ
يَعْتَدل التاجَ فوق مَفْرَقِهِ على جبينٍ كأنه الذهبُ

فقال له عبد الملك: «يا ابن قيس تمدحني بالتاج كأني من العجم، وتقول في مصعب:

إنما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء
ملكُه ملكُ عِزَّةٍ ليس فيه جَبَروتٌ منه ولا كبرياء

أما الأمان فقد سبق، ولكن والله لا تأخذ مع المسلمين عطاءً أبدًا».

أما تغزله فقد كان في امرأة كوفية كان ينزل عندها اسمها كثيرة، وله في أخرى اسمها رقية غزل كثير، على أن غزله أقل من غزل سائر من تقدم من الشعراء القرشيين، ولكن طائفة من شعره يغنونها ومن شعره في رقية ويغنى به:

رُقَيَّ بعيشكم لا تهجرينا وَمنِّينا المُنى ثم امْطُلينا
عِدينا في غد ما شئتِ إنا نحبُّ وإن مَطَلْتِ الواعدينا
فإما تنجزي عِدتي وإما نعيش بما نؤمل منك حينا

وله فيها أيضًا:

وترى في البيت صورتَها مثلَ ما في البيعة السُّرجُ
خبِّروني هل على رجلٍ عاشقٍ في قبلةٍ حَرَجُ

وترى أخباره في الأغاني ١٥٥ ج٤، وفي الشعر والشعراء ٣٤٣، وخزانة الأدب ٢٦٧ ج٣ وله ديوان طُبع في فينا سنة ١٩٠٢ مع ترجمة ألمانية، وقد شرحه السكري المتوفى سنة ٢٧٥هـ، وفي دار الكتب المصرية نسخة خطية من الشرح المذكور.

(٧-٣) سائر الشعراء الغزليين

لا يكاد يخلو شاعر من أبيات غزلية قالها عن حب أو تشبيب، ولكن المراد بشعراء الغزل الذين أكثروا من قولهم فيه وقد تقدم ذكر بعضهم وإليك الباقين:

مجنون ليلى

هو قيس بن الملوح، ويقال: ابن معاذ بن مزاحم من عامر بن صعصعة، ويُعرف بمجنون ليلى؛ نسبة إلى ليلى التي كان يتعشقها وهو مشهور، ولكن بعض أهل النقد من علماء الشعر يرون أن قصته موضوعة، وضعها رجل من بني أمية كان يحب ابنة عم له يكره أن يُظهر ما بينه وبينها … فوضع حديث المجنون وقال الأشعار التي يظنها الناس للمجنون. وقد زاد الناس فيه بعدئذ. ويؤيد ذلك أن كثيرًا مما يُنسب إليه من الأشعار رُوي لغيره … فقصته إذًا من قبيل الشعر التمثيلي الذي يراد به تمثيل بعض الفضائل،

وهي تمثل العشق مع التعفف، أو لعل لها أصلًا قليلًا وزاد فيه الرواة كما فعلوا بقصة عنترة التي تمثل الشجاعة والعشق.

وعلى كل حال، فإن بين الأشعار المنسوبة إلى المجنون طائفة تمثل أشعار المحبين كما هي على طبيعتها، وديوان مجنون ليلى شائع ومتداول، ومما ينسب إليه قوله:

وإني لينسيني لقاؤك كلما ... لقيتُك يومًا أن أبثَّك ما بيا
وقالوا به داءٌ عياءٌ أصابه ... وقد علمتْ نفسي مكانَ دوائيا

وقوله:

فوالله ثم الله إني لدائبٌ ... أفكِّر ما ذنبي إليها وأعجب
ووالله ما أدري علام قتلتني ... وأيَّ أموري فيك يا ليْلِ أركب
أأقطع حبلَ الوصل، والموتُ دونه ... أمَ اشربُ رنْقًا منكمْ ليس يشربُ
أمَ اهربُ حتى لا أرى لي مجاورًا ... أمَ اصنع ماذا أم أبوح فأغْلَب
فأيهما يا ليل ما ترتضينه ... فإني لمظلومٌ وإني لمعتب

وأخبار المجنون في الأغاني ١٦٧ ج١، والشعر والشعراء ٣٥٥، وخزانة الأدب ١٧٠ ج٢ وله ديوان مطبوع في القاهرة ١٣٠٠هـ وفي بيروت سنة ١٨٨٢م، ثم طُبع مرارًا، ومنه نسخة خطية في دار الكتب المصرية، وفي مكاتب: تونس، وبرلين، وباريس، وأيا صوفيا، وغيرها.

كثير عزة (توفي سنة ١٠٥هـ)

هو كثير بن عبد الرحمن، من خزاعة ويُعرف بكثير عزة نسبة إلى عشيقته التي كان يشبب بها، وكان يدخل على عبد الملك وينشده، وكان شيعيًّا شديد التعصب لآل أبي طالب. وكان عبد الملك يعرف ذلك فيه فلا ينكره، فإذا أراد أن يصدقه في شيء حلَّفه بعلي، وكان له صديق اسمه خندف الأسدي شديد التشيع مثله، وبلغ من جرأة خندف هذا أنه وقف مرة في الموسم والناس مزدحمون وقال: «أيها الناس إنكم على غير حق، وقد تركتم بيت نبيكم والحق لهم وهم الأئمة» فوثب عليه الناس فضربوه ورموه حتى قتلوه، ودُفن خندف بقنونا فقال إذ ذاك كُثير يرثيه:

أصـادرةٌ حُـجَّـاج كـعـبٍ ومـالـك	على كل عَجلي ضامر البطن محنقِ
بـمـرثـيـةٍ فـيـهـا ثـنـاءُ مـحـبـرٍ	لأزهـرَ مـن أولاد مُـرَّة مُـعْـرق

والقصيدة طويلة … أما معشوقته عزة فهي بنت جميل بن وقاص من ضمرة، وكانت من أجمل النساء وآدبهن وأعقلهن، ويقال: إنه لم يرَ لها وجهًا إلا أنه استهام بها قلبه لما ذُكر له عنها، وعاتبه بعض أهلها فقالوا: «قد شهرت نفسك وشهرت صاحبتنا فاكفف نفسك» فقال: «إني لا أذكرها بما تكرهون».

واتفق خروجهم إلى مصر في عام الجلاء … فتبعهم على راحلته فزجروه، فأبى إلا أن يلحقهم، فتربص له بعضهم في الطريق وقبضوا عليه وجعلوه في جيفة حمار وربطوها عليه، فمر به صديقه خندف فأطلقه وألحقه ببلاده، وكان كثير دميمًا قليلًا أحمر أقيشر عظيم الهامة قبيحًا، وأكثر أشعاره في عزة هذه، ومن ذلك قوله لما أخرجت إلى مصر:

وقال خليلي ما لها إذ لقيتها	غداة السَّنا فيها عليك وجومُ
فـقـلـتُ لـه إن الـمـودةَ بـيـنـنـا	على غير فحشٍ والصفاءُ قديم
وإني وإن أعرضتُ عنها تجلدًا	على العهد فيما بيننا لمقيم
وإن زمانًا فرَّقَ الدهر بيننا	وبينكُم في صَرْفه لمَشُوم

وقوله وبه يغني:

وكنت إذا ما جئت أجْلَلْنَ مجلسي	وأظهرن مني هيبةً لا تجهُّما
يحاذرْنَ مني غَيرةً قد عرفتها	قديمًا فما يضحكن إلا تبسما

ومن أحاسن شعره قوله:

أغاضِرَ لو شهدتِ غداة بِنْتُمْ	حُنوَّ العائدات على وسادي
أويتِ لوامقٍ لم تَشْكُميهِ	نـوافـذهُ تـلـذَّعُ بـالـزِّنـادِ

ومن قوله في الحكم:

ومن لا يغمِّضْ عينه عن صديقه وعن بعض ما فيه يمتْ وهو عاتبُ
ومن يتتبَّع جاهدًا كل عَثرةً يجدها فلا يسلم له الدهرَ صاحبُ

ويختار من قوله:

وأجمعُ هِجْرانًا لأسماء إن دنتْ بها الدار لا من زَهدةٍ في وصالها
فإن شحطتْ يومًا بكيتُ وإن دنت تذللت واستكثرتها باعتزالها

ومن منتخبات قوله في عزة قصيدة طويلة مطلعها:

خليليَّ هذا ربْعُ عزة فاعقِلا قلوصيكما ثم ابكيا حيث حلَّتِ

وقوله وفيه إفراط:

ومشى إليَّ بعيب عزةَ نسوةٌ جعل الإله خدودهنَّ نعالها
ولوَ أنَّ عزة خاصمتْ شمس الضحى في الحسن عند موفَّقٍ لقضى لها

وأخباره كثيرة تجدها في الأغاني ٤٦ ج١١، و٢٧ ج٨، و٧٨ ج٧، والشعر والشعراء ٣١٦، وابن خلكان ٤٣٣ ج١، والعقد الفريد ١١٥ و٢٠٣ ج١، وخزانة الأدب ٣٨١ ج٢ وله ديوان شرحه أبو عبد الله الرشيدي منه نسخة خطية في الإسكوريال.

ابن ميادة

هو الرماح بن يزيد بن ثوبان، من ذبيان، وكان أحمرَ سبطًا عظيم الخلق طويلًا طويل اللحية، وكان لباسه عطرًا، وذكروا أنه أشعر غطفان في الجاهلية والإسلام، وكان خيرًا لقومه من النابغة … لم يمدح غير قريش وقيس، وكان النابغة يمدح اليمن (القحطانية) ومما يؤثر من قوله في الشعر وقد قيل له مرة: «لو أصلحت شعرك لذُكرت به لأنه فيه كثير من السقط» فقال: «إنما الشعر كنبل في جفيرك ترمي به الغرض فطالع وواقع وعاصد وقاصد».

وعاصر ابن ميادة الوليد بن يزيد ومدحه، وأدرك أول الدولة العباسية فمدح المنصور وجعفر بن سليمان ... فهو من أهل الدور الثالث، وإنما ذكرناه هنا لأنه من الشعراء الغزليين، وأحب امرأة من بني مرة اسمها أم جحدر، وكان يختلف إليها فعلم أبوها وغضب وأقسم أن لا يزوجها رجلًا من قومه، فزوجها رجلًا من الشام، فقال ابن ميادة من شدة الوجد:

خليليَّ من أبناء عُذْرَةَ بلِّغا	رسائل منا لا تزيدكما وِقْرَا
أَلِمَّا على تَيْمَاءَ نسألْ يهودها	فإن لدى تيماءَ من ركبها خُبرا
وبالغمر قد جازت وجاز مَطِيُّها	عليه فسَلْ من ذلك نيَّان فالغمرا
ويا ليت شعري هل يحلنَّ أهلُها	وأهلُك روضاتٍ ببطن اللوَى خضرا

ولابن ميادة مواقفات مع الحكم القضري، وأراجيز طوال ومفاخرات مع عقال بن هاشم، ذكر صاحب الأغاني بعضها وهي منتقيات، وله في مدح الوليد قصيدة مطلعها:

يا أطيب الناس ريقًا بعد هَجْعتها	وأملحَ الناس عيْنًا حين تَنْتَقِب

ولما مات الوليد رثاه، فلما قامت الدولة العباسية مدح المنصور، وأخبار ابن ميادة كثيرة في الأغاني ٨٨ ج٢، والشعر والشعراء ٤٨٤.

الأحوص (توفي سنة ١٠٥هـ)

هو عبد الله بن محمد بن عبد الله من الأوس من أهل المدينة، وكان مثل سائر شبان يثرب في تلك الأيام ميالًا إلى اللهو، وكان قليل المروءة والدين مع ميل إلى هجاء الناس، وقد جعله ابن سلام في طبقة ابن قيس الرقيات ونصيب وجميل، ولكن أهل الحجاز يفضلونه عليهم، وهو أسمح طبعًا وأسهل كلامًا وأصح معنى منهم، ولشعره رونق وديباجة صافية وحلاوة وعذوبة، وبه ألفاظ ليست لواحد منهم، وكان متهتكًا فبلغ سليمانَ بن عبد الملك عنه أقوال فنفاه، ويقال في سبب ذلك: إن سكينة بنت الحسين فخرت يومًا بالرسول، ففاخرها الأحوص بقصيدته التي يقول فيها: «ليس جهل أتيته ببديع»، فبلغ ذلك سليمان فناه ثم رده.

واشتهر الأحوص بتشبيبه بأم جعفر وهي امرأة من الأنصار، وتوعده أخوها وهدده فلم يكف عن التشبيب … فاستعدى عليه والي المدينة وهو يومئذٍ عمر بن عبد العزيز، فربط الأحوص وأخاها بحبل ودفع إليهما سوطين وقال: «تجالدا» فغلب أخوها، ومن شعره فيها:

أزور البيوتَ اللاصقاتِ ببيتها وقلبي إلى البيت الذي لا أزور
وما كنت زوارًا ولكنَّ ذا الهوى إذا لم يَزُرْ لا بد أن سيزور
أزور على أن لست أنفكُّ كلما أتيت عدوًّا بالبنان يشير

ومن شعره الجيد قوله:

ألا لا تلمه اليوم أن يتبلَّدا فقد غلب المحزون أن يتجلدا
وما العيش إلا ما تلذ وتشتهي وإن لام فيه ذو الشنان وفَنَّدا
بكيت الصبا جهدا فمن شاء لامني ومن شاء واسى في البكاء وأسعدا
وإني وإن عيرت في طلب الصبا لأعلم أني لست في الحب أوحدا

وكان الخليفة يزيد بن الوليد مشتغلًا عن الخلافة بجاريته حبابة، فلامه عمه مسلمة ونهاه عنها فتركها وانقطع عن زيارتها … فأرادت أن تسترجعه فلاقته وهو خارج إلى المسجد بعودها وغنته بيت الأحوص: «وما العيش إلا ما تلذ وتشتهي» إلخ، فضرب يزيد بخيزرانته الأرض، وقال: صدقت. وعاد إلى حالته معها.

ومن غزله قوله:

فما هو إلا أن أراها فجاءةً فأبهَت حتى ما أكاد أجيبُ

وقوله:

ستبقى لها في مُضمرِ القلب والحَشا سريرةُ حبٍّ يوم تَبلى السرائر

وترى ترجمة الأحوص وأقواله في الأغاني ٤٥ ج٤ و٥٣ ج٦ و١١٧ ج١، وفي الشعر والشعراء ٣٢٩، والعقد الفريد ١١٥ ج١، وخزانة الأدب ٢٣٢ ج١، وفي سائر كتب الأدب، وله قصيدة محفوظة في مكتبة برلين.

قيس بن ذريح

هو قيس بن ذريح من كنانة، وكان رضيع الحسين بن علي لأن أم قيس أرضعت الحسين، كان منزل قومه في ظاهر المدينة، وكان هو وأبوه من حاضرة المدينة، واشتهر قيس بحبه لبنى بنت الحباب الكعبية، وهي التي جعلته ينظم الشعر فإنه رآها مرة واستسقاها فسقته، وكانت امرأة مديدة القامة شهلاء حلوة المنظر والكلام ... فلما رآها وقعت في نفسه فعشقها وجعل ينطق بالشعر، وشكا إليها غرامه فشكت إليه مثله، فطلب إلى أبيه أن يخطبها له فأبى لأنه كان غنيًّا فأراد له إحدى بنات عمه، فشكا إلى أمه فلم تسعفه، فأتى الحسين بن علي فتوسط له فزوجوه لأن إشارته لا تُرد ... فأقامت زوجته عنده مدة لا ينكر أحد من صاحبه شيئًا.

ثم دخلت الحماة بين الابن وزوجته، وذلك أن قيسًا كان أبر الناس بأمه، فألهته لبنى عنها فغضبت وأخذت تتحين الفرص للانتقام ... فلما مضى على الزواج زمن ولم تلد لبنى لقيس ولدًا، خاطبت أمه أباه بذلك وقالت: «أنت ذو مال فيصير المال إلى الكلالة، فزوجه بغيرها لعل الله أن يرزقه ولدًا» وألحت عليه فاستمهلها، وسأل ابنه في ذلك فأبى أن يتزوج غيرها، فعرض عليه أن يتسرى فأبى، فقال: «طلقها»، فلم يرضَ، فألح عليه وحلف لا يكنه سقف بيت أبدًا حتى يُطلق لبنى، فكان يخرج فيقف في حر الشمس ويجيء أبوه فيقف إلى جانبه فيظله بردائه، ويصلي هو بحرِّ الشمس حتى يفيء الفيء فينصرف، ويدخل قيس إلى لبنى فيعانقها وتعانقه ويبكي وتبكي معه وتقول له: «يا قيس لا تطع أباك فتهلك وتهلكني» فيقول: «ما كنت لأطيع أحدًا فيك أبدًا»، فيقال: إنه مكث كذلك سنة. وقيل: عشر سنين. ثم طلقها، ولم يلبث أن استطير عقله ولحقه مثل الجنون وصار يبكي كالطفل ... ثم أتى أبوها ليحملها إلى أهله، فلما رأى قيس هودجها وعلم أنها مسافرة بعد ليلة سقط مغشيًّا عليه وهو يقول:

وإني لمُفْنٍ دمعَ عيني بالبكا	حِذار الذي قد كان أو هو كائن
وقالوا غدًا أو بعد ذاك بليلةٍ	فراقُ حبيب لم يَبِنْ وهو بائن
وما كنت أخشى أن تكون منيتي	بكفيك إلا أن ما حانَ حائن

ولم غاب هودجها أكب على أثر خف بعيرها يقبله، ورجع يقبل موقع مجلسها وأثر قدميها فلاموه على ذلك فقال:

وما أحببتُ أرضكم ولكن	أقبِّل إثْرَ من وَطِئ الترابا
لقد لاقيت من كَلَفي بلُبنى	بلاءً ما أسيغ به الشرابا
إذا نادى المنادي باسم لبنى	عَييت فما أطيقُ له جوابا

ثم زوجوها رجلًا من غطفان، وعاود قيس زيارتها، فشكوه إلى معاوية فأهدر دمه، فقال في ذلك:

فإن يحجبوها أو يَحُلْ دون وَصْلها	مقالةُ واشٍ أو وعيدُ أمير
فلن يمنعوا عينيَّ من دائم البكا	ولن يُذهبوا ما قد أَجَنُّ ضميري

وأخبار قيس بن ذريح كثيرة في الأغاني ١١٢ ج٨، وفي الشعر والشعراء ٣٩٩، وله ديوان مشروح ومنه نسخة خطية في مكتبة الإسكوريال وغيرها في برلين.

المخبل القيسي

اسمه كعب وهو صاحب ميلاء ابنة عمه، وقد رآها مرة فعشقها، ولقيها فشكا إليها حبه فوعدته، فعلم إخوتها وهم سبعة فهددوه، وكان منزله في الحجاز فخرج إلى الشام ونظم فيها الأشعار، ومن ذلك قصيدة مطلعها:

خليليَّ فد قستُ الأمور ورمتها	بنفسي وبالفتيان كلَّ زمان
فلم أخْفِ سوءًا للصديق ولم أجد	خليًّا ولا ذا البثِّ يستويان

إلى أن قال يصف غرامه:

بُلينا بهجرانٍ ولم أرَ مثلنا	مِن الناس إنسانين يهتجران
أشدَّ مصافاةً وأبعد من قِلًى	وأعْصَى لواشٍ حين يكتفيان
فوالله ما أدري أكلُّ ذوي الهوى	على ما بنا أم نحن مبتليان

وهي طويلة، ومنها:

أحقًّا عباد الله أن لست ماشيًا　　　بمْرحابَ حتى يُحشرَ الثقلان

وتجد أخباره في الأغاني ٢٠٩ ج٢١، وهو غير المخبل السعدي الذي تقدم ذكره مع الجاهليين.

وهناك بضعة من الشعراء العشاق يعدون من الدور الثالث لأنهم توفوا بعد انقضاء الدور الثاني، وقد أتينا على تراجمهم هنا كما أتينا على آخرين قد يعدون من الدور الأول لاستيفاء هذا الموضوع في مكان واحد.

ذو الرمة (توفي سنة ١١٧هـ)

هو غيلان بن عقبة بن نهيس، من مضر، ويعد من الشعراء المتيمين وصاحبته مية بنت مقاتل المنقري، وكانت جميلة وكان هو دميمًا أسود وسمعت تشبيبه بها ولم تره ثم رأته، فقالت: «وا سوأتاه» فغضب، وقال يهجوها:

على وجه مَيٍّ مسحةٌ من ملاحةٍ　　　وتحت الثياب العارُ لو كان باديا
ألم ترَ أن الماء يخبث طعمُه　　　وإن كان لون الماء أبيض صافيا
فوا ضيعة الشعر الذي لَّج فانقضى　　　بميٍّ ولم أملك ضلال فؤاديا

وكان يشبب بخرقاء أيضًا، وهي من عامر بن صعصعة، ومن قوله فيها وهو مما يتغنى به:

لقد أرسلت خَرْقاء نحو جِديها　　　لتجعلني خرقاءُ فيمن أضلت
وخرقاء لا تزداد إلا ملاحة　　　ولو عُمِّرتْ تعمير نوحٍ وجَلَّت

وكان ذو الرمة كثير الأخذ من غيره، وقد ذكر ابن قتيبة في الشعر والشعراء أمثلة كثيرة من ذلك، وكان ذو الرمة كثير المديح لبلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري، وكان له ثلاثة إخوة كلهم شعراء، وكان مستدير الوجه حسن الشعر جعده أقنى أنزع خفيف العارضين أكحل حسن الضحك مفوهًا، إذا كلمك كلمك أبلغ الناس، يضع لسانه حيث يشاء، وهو من أصحاب الملحمات ومطلع ملحمته:

ما بالُ عينك منها الماء ينسكب كأنه من كُلى مفريَّةٍ سَرِب

ويمتاز في شعره أنه أحسن شعراء عصره تشبيهًا، كما كان امرؤ القيس أحسن شعراء الجاهلية في ذلك، ودخل بين جرير والفرزدق لما تهاجيا، فكان مع الفرزدق على جرير، وأخباره كثيرة في الأغاني ١١٠ ج١٦، والشعر والشعراء ٣٣٣، وابن خلكان ٤٠٤ ج١، ومصارع العشاق ٧٨، والجمهرة ١٧٧، وخزانة الأدب ٥١ ج١، وله ديوان خطي في دار الكتب المصرية ومثله في مكاتب لندن وليدن.

يزيد بن الطثرية (توفي سنة ١٢٦هـ)

اسمه يزيد بن الصمة، من قشير، من عامر ويكنى أبا مكشوح، وكان حسن الوجه والشعر حلو الحديث غزلًا آخذًا بقلوب النساء، وكان الغزل في القشيريين نادرًا، ولهم في ذلك حادثة مع جرم ذكرها صاحب الأغاني، لا بأس من مطالعتها (١١١ ج٧) انتهت بتعلق يزيد بامرأة من جرم يقال لها: وحشية، واشتد وجده بها حتى أشرف على الموت ونظم فيها الشعر، ومن قوله فيها:

بنفسيَ من لو مرَّ برْدُ بَنانه على كبدي كانت شفاءً أناملُه
ومن هابني في كل أمر وهِبْتُهُ فلا هو يعطيني ولا أنا سائله

وكتب إليها هذين البيتين:

أحبكِ أطرافَ النهار بشاشةً وبالليل يدعوني الهوى فأجيب
لئن أصبَحتْ ريحُ المودة بيننا شَمالًا لقدْ ما كنتِ وهْي جَنَوبُ

فأجابته بقولها:

أحبك حبَّ اليأس إن نفع الحيَا وإن لم يكن لي من هواك طبيب

وقد قاسى في حبها كما قاسى غيره من العشاق والمتيمين ونظم فيها كثيرًا، ومن قوله:

هبيني امرءًا إما بريئًا ظلمته ... وإما مسيئًا تاب منه وأعتبا
وكنت كذي داء تبغَّى لدائه ... طبيبًا فلما لم يجده تطبَّبا

ولابن الطثرية أخبار كثيرة في الأغاني ١١٠ ج٧، وفي ابن خلكان ٢٢٩ ج٢، وفي الشعر والشعراء ٢٥٥.

(٧-٤) سائر الشعراء العشاق

ومن الشعراء العشاق طائفة حسنة يضيق المكان عن تراجمهم، فنكتفي بالإشارة إلى المصادر وهم:

الأبيرد الرياحي: من تميم، كان يهوى امرأة ولم يفد على الخلفاء. أخباره في الأغاني ١٠ ج١٢.

ابن رهيمة: شاعر مشبب أيام عبد الملك. أخباره في الأغاني ١١٨ ج٤.

توبة بن الحمير: من عامر بن صعصعة وصاحب ليلى الأخيلية. أخباره في الأغاني ٦٧ ج١٠، وفوات الوفيات ٩٥ ج١، والشعر والشعراء ٢٦٩، وسيأتي ذكره مع ليلى الأخيلية.

مرة بن عبد الله النهدي: من قضاعة شاعر بدوي. أخباره في الأغاني ٦١ ج٢٠.

مزاحم العقيلي: من هوازن شاعر بدوي صاحب قصيدة ورجز، عاصر الفرزدق، أحب امرأة تزوجها غيره فتفتقت قريحته. أخباره في الأغاني ١٥٠ ج١٧ وخزانة الأدب ٤٥ ج٣.

مسعدة بن البختري: من أقرباء المهلب بالعراق. أخباره في الأغاني ٧٧ ج١٢.

النميري: من ثقيف.[١٩] أخباره في الأغاني ٢٤ ج٦.

وضاح اليمن: شبب بامرأة الوليد فقتله: أخباره في الأغاني ٣٢ ج٦، وفوات الوفيات ٢٥٣ ج١.

عبد الله بن علقمة: من زرارة أخباره في مصارع العشاق.

حميد بن ثور الهلالي: أخباره في الأغاني ٩٨ ج٤، والشعر والشعراء ٢٣٠.

(٨) الشعراء الخلعاء والسكيرون

قد رأيت الخلاعة والسكر في بعض من تقدم ذكرهم من الشعراء، وإنما نعني بهذه الطبقة الشعراء الذين غلب عليهم السكر والتهتك والمجون، أشهرهم:

(٨-١) الأقيشر الأسدي

هو المغيرة بن عبد الله، من بني أسد، من مضر، وكان أحمر الوجه أقشر، فسمي الأقيشر ويكنى أبا معرض، كان كوفيًّا خليعًا ماجنًا مدمنًا شرب الخمر ومن شعره:

فإن أبا مُعْرض إذ حَسَا من الراحِ كأسًا على المنبرِ
خطيبٌ لبيبٌ أبو معرض فإن لِيمَ في الخمر لم يصبر
أحلَّ الحرام أبو معرض فصار خليعًا على المَكْبَرِ

وكان شديد الهجو قبيحه، ومن لطائفه أنه شرب مرة في الحيرة في بيت فيه خياط مقعد ورجل أعمى وعندهم رجل مغن مطرب … فطرب الأقيشر فسقاهم من شرابه، فلما انتشوا وثب الأعمى يسعى في حوائجهم وقفز الخياط المقعد يرقص على ظلعه ويجهد في ذلك كل جهده، فقال الأقيشر:

ومُقْعدِ قوم قد مشى من شرابنا وأعمى سقيناه ثلاثًا فأبصرا
شرابًا كريح العنبر الوردِ ريحه ومسحوقِ هنديٍّ من المسك أذفرا

وترى أخباره في الأغاني ٨٤ ج١٠، وفي الشعر والشعراء ٣٥٢.

(٨-٢) الحزين الكناني

هو عمرو بن عبيد بن وهيب من كنانة، وقيل: إنه مولى، وهو حجازي مطبوع ليس من فحول طبقته، وكان هجاء خبيث اللسان ساقطًا، يرضيه اليسير ويتكسب بالشعر وهجاء الناس، ذرب اللسان لم يخدم الخلفاء ولا انتجع بمدح، وكان أشعر ذا بطين عظيم الأنف، على أنه مدح بعض آل مروان غير الخلفاء، ومن ذلك قصيدة رنانة قالها في عبد العزيز بن مروان، منها:

قالوا دمشقُ ينبِّيك الخبير بها	ثم ائت مصر فثَمَّ النائل العَممُ
لما وقفت عليها في الجموع ضحى	وقد تعرَّضتِ الحجَّاب والخدم
حييته بسلام وهو مرتفقٌ	وضجة القوم عند الباب تزدحمُ
في كفه خيزرانٌ ريحها عبَقٌ	من كف أروع في عِرْنينه شَممُ
يُغْضِي حياءً ويُغْضِي من مهابته	فما يكلَّم إلا حين يبتسم

وترى أخباره في الأغاني ٧٦ ج١٤، و٥٢ ج١١.

ومن الشعراء الخلعاء جماعة نكتفي بذكر مصادر تراجمهم:

بكر بن خارجة: مولى بني أسد سكير ماجن سكن الحيرة. أخباره في الأغاني ٨٧ ج٢٠.

الشمردل بن شريك: من يربوع كان مغرمًا بالشراب واللهو كثير الهجو. أخباره في الأغاني ١١٧ ج١٢، والشعر والشعراء ٤٤٣.

الوليد بن يزيد الخليفة: أول من وصف الخمر. أخباره في الأغاني ١٠١ ج٦ و٩٨ ج٣، والعقد الفريد ٢٦٨ ج٣، وخزانة الأدب ٣٢٨ ج١.

(٨-٣) الشعراء المغنون

لم يكن بين شعراء الجاهلية من المغنين إلا الأعشى وعلس، ولكن اقتراب الأمويين من الحضارة ونمو العلاقات بين الحجاز والشام والعراق ولدت الموسيقى، ونبغ كثيرون من المغنين أكثرهم في المدينة، أشهرهم:

حنين الحيري: شاعر نصراني، كان يغني أيام هشام. أخباره في الأغاني ١٢٠ ج٢.

سعيد الدرامي: (تميم) شاعر ظريف من أهل مكة أيام عمر بن عبد العزيز. أخباره في الأغاني ١٧٨ ج٢.

عبادل: مولى قريش في الحجاز لم يفارقها، كان نبيلًا وكان يغني. أخباره في الأغاني ١٧٥ ج٥.

محمد بن الأشعث: من قريش كان كاتبًا من فتيان أهل الكوفة ينظم ويغني، أحب سلامة الزرقاء ونظم فيها وأخباره في الأغاني ١٢٧ ج١٣.

نصيب: مولى عبد العزيز بن مروان شاعر اشتهر بالغناء. أخباره في الأغاني ١٢٩ ج١، والشعر والشعراء ٢٤٢.

ابن عائشة: من موالي آل المطلب السهمي، كان يغني للوليد بن يزيد. أخباره في الأغاني ٦٢ ج٢.

(٩) الشعراء الأدباء

نريد بهذه الطبقة من الشعراء من لم نستطع إدخالهم في إحدى الطبقات المتقدم ذكرها … فهم ليسوا من شعراء السياسة، ولا العشق، ولا السكر، ولا الغناء، وهم بضعة وعشرون شاعرًا، يطول بنا ذكر تراجمهم وخصوصًا بعد أن طال بنا الكلام في شعراء هذا العصر … فنكتفي بترجمة اثنين منهم مع الإشارة إلى المصادر التي يرجع إليها من أراد التوسع في الباقين.

(٩-١) القطامي

هو عمير بن شييم من بني تغلب، وكان نصرانيًّا، عاصر الأخطل، وله شعر من الطبقة الأولى في التشبيب والحماسة والفخر، أما في التشبيب فقوله:

وفي الخدور غماماتٌ بَرَقْنَ لنا ... حتى تصيَّدْننا من كل مُصْطَادِ
يقتلننا بحديثٍ ليس يعلمه ... من يَتَّقين ولا مكنونه بادي
فهنَّ يَنْبِذن من قول يُصِبْنَ به ... مواقعَ الماء من ذي الغُلة الصادي

وكان يمدح زفر بن الحارث الكلابي وأسماء بن خارجة الفزاري، وكان زفر قد أسره ثم أطلقه ووهب له مائة ناقة، فقال — وفيه من كبر النفس ما فيه:

من مبلغٌ زَفَر القيسيُّ مِدحته | عن القطاميِّ قولًا غير إفنادِ
إني وإن كان قومي ليس بينهمُ | وبين قومك إلا ضربةُ الهادي
مثنٍ عليك بما أوليت من حسنٍ | وقد تعرَّض مني مَقتَلٌ بادِ
فإن قدرتُ على يوم جزيتُ به | والله يجعل أقوامًا بمرصاد

وله هجاء شديد نحا فيه نحوًا خاصًّا يدل على تفننه، كقوله يريد هجاء قيس بالبخل من قصيدة استهلها بأنه كان مسافرًا ونزل ضيفًا على امرأة من قيس وأنها ارتاعت لما علمت أنه ضيف سينزل عليها … ووصف ما جرى بينهما في أسلوب جميل، وهو القائل:

والناسُ من يَلْقَ خيرًا قائلون له | ما يشتهي ولأمِّ المخطئ الهبل
قد يدرك المتأني بعضَ حاجتِهِ | وقد يكون مع المستعجل الزَّللُ

ومن قوله في الفخر يصف حربًا مع قبيلة كلب:

وكلب تركنا جمعهم بين هاربٍ | حذار المنايا أو قتيل مجدَّلِ
وأفْلَتْنَا لما التقينا بعاقدٍ | على سابحٍ عند الجِراء ابنُ بجْدل
وأقسم لو لاقيته لعلوته | بأبيض قطاع الضريبة مفصل

وهو من أصحاب المشوبات، ومطلع مشوبته:

إنا محيوك فاسلمْ أيها الطلل | وإن بَليت وإن طالت بك الطِّيَل[٢٠]

ونجد أخبار القطامي في الأغاني ١١٨ ج٢٠، والشعر والشعراء ٤٥٣، والجمهرة ١٥١ وله ديوان طبع في ليدن سنة ١٩٠٢ ومنه نسخة خطية في دار الكتب المصرية وفي مكتبة برلين.

(٩-٢) ليلى الأخيلية وتوبة بن الحمير (توفيت ليلى سنة ٨٠هـ)

هي ليلى بنت عبد الله بن الرحال من بني الأخيل من عامر، وهي من النساء المتقدمات في الشعر، وكان توبة بن الحمير يهواها وهو من بني عقيل من عامر أيضًا، فعشقها وقال فيها الشعر … فخطبها إلى أبيها فأبى أن يزوجه إياها وزوجها في بني الأدلع، فجاء يومًا كما كان يجيء لزيارتها فإذا هي سافرة ولم يرَ منها إلا بشاشة، فعلم أن ذلك لأمر ما كان، فرجع إلى راحلته فركبها ومضى، وبلغ بني الأدلع أنه أتاها فتبعوه ففاتهم، فقال توبة في ذلك:

نأتك بليلى دارها لا تزورها وشَطَّت نواها واستمرَّ مرِيرها[٢١]

وهي طويلة يقول فيها:

وكنت إذا ما جئت ليلى تَبَرْقعت فقد رابني منها الغداةَ سفورها

ويحكى أن توبة رحل إلى الشام فمر ببني عذرة … فرأته بثينة، فجعلت تنظر إليه، فشق ذلك على جميل فطلبه للمصارعة كما يفعل الغربيون اليوم في طلب المبارزة في مثل هذه الحال، فتصارعا وبثينة حاضرة فغلبه جميل، فقال توبة: «إنما صرعتني بريح هذه، انزل بنا الوادي» فنزلا فغلبه توبة، ومن لطيف شعره في ليلى قوله:

ولو أن ليلى الأخيليَّة سلمتْ علـيَّ ودونـي تُـربَـةٌ وصـفـائـح
لسلمتُ تسليم البشاشة أو زقا إليها صَدًى من جانب القبر صائح
ولو أن ليلى في السماء لأصعدتْ بطرفي إلى ليلى العيونُ اللوامح

وكان توبة كثير الغارات فقُتل في إحدى غاراته، كما ورد في حديث طويل ذكره صاحب الأغاني، وكانت ليلى تفد على الحجاج فتمدحه وتنال جوائزه، وأراد الحجاج أن يداعبها فقال لها: «إن شبابك قد ذهب واضمحل أمرك وأمر توبة، فأقسم عليك إلا صدقتني: هل كانت بينكما ريبة قط أو خاطبك في ذلك؟» فقالت: «لا والله أيها الأمير إلا أنه قال لي ليلة وقد خلونا كلمة ظننت أنه قد خضع فيها لبعض الأمر فقلت له:

وذي حاجة قلنا له لا تَبُحْ بها فليس إليها ما حييتَ سبيل
لنا صاحبٌ لا ينبغي أن نخونه وأنت لأخرى صاحبٌ وخليل

فلا والله ما سمعت منه ريبة بعدها حتى فرق بيننا»، قال لها الحجاج: «فما كان منه بعد ذلك؟» قالت: «وجه صاحبًا له إلى حاضرنا»، فقال: «إذا أتيت الحاضر من بني عبادة بن عقيل فاعلُ شرفًا»، ثم اهتف بهذا البيت:

عفا الله عنها هل أبيتن ليلة من الدهر لا يَسْري إليَّ خيالُها

فلما فعل الرجل ذلك عرفت المعنى فقالت له:

وعنه عفا ربي وأحسنَ حِفْظه عزيزٌ علينا حاجةٌ لا ينالها»

ومن شعرها قولها في مدح الحجاج:

أحجَّاج لا يُفللْ سلاحك إنما الـ ـمنايا بكفِّ الله حيث تراها
إذا هبطَ الحجاجُ أرضًا مريضة تتَّبع أقصى دائها فشفاها
شفاها من الداء العضال الذي بها غلامٌ إذا هزَّ القناة سقاها

وأخبار ليلى وتوبة في الأغاني ٦٧ ج١٠، و١٣٢ ج٤، ١٦١ ج٧، والشعر والشعراء ٢٧١، وفوات الوفيات ١٤١ ج٢، والمستطرف ٣٤ ج١.

(٩-٣) سائر شعراء الدور الثاني

وهاك أسماء من بقي من شعراء الدور الثاني:

أرطأة بن سهية: من ذبيان شاعر فصيح شريف صادق جواد. أخباره في الأغاني ١٣٩ ج١١، والشعر والشعراء ٣٣٢.

أعشى تغلب: نصراني يسكن الشام إذا حضر وينزل بلاد قومه بنواحي الموصل إذا بدا. أخباره في الأغاني ٩٨ ج١٠.

الجحاف السلمي: من سليم وُلد بالبصرة وحضر معركة فيها ابن الأخطل، فهرب الجحاف إلى بلاد الروم ثم عاد وعفا عنه عبد الملك. أخباره في الأغاني ٥٧ ج١١.

جعفر بن الزبير: شاعر مقل. أخباره في الأغاني ١٠٤ ج١٣.

حجية بن المضرب: (كندة) شاعر أموي. أخباره في الأغاني ٩ ج٢١.

سراقة بن مرداس البارقي: أخباره في الأغاني ٤٤ ج٦٧ ج٧، و٣١ ج٨.[٢٢]

سويد بن كراع: من عكل شاعر فارس. أخباره في الأغاني ١٢٧ ج١١.

عبد الله بن أبي معقل: من الخزرج حجازي أخباره في الأغاني ١١٦ ج٢٠.

عبد الله بن الحشرج الجعدي: سيد من سادات قيس ولي الولايات ومدحه زياد الأعجم. ترجمته في الأغاني ١٥١ ج١٠.

العجاج الراجز: أخباره في الشعر والشعراء ٣٧٤، والأغاني ١٢٤ ج١٨.[٢٣]

عروة بن أذينة: من كنانة. أخباره في الأغاني ١٠٥ ج٢١، وابن خلكان ٢١٢ ج١، والشعر والشعراء ٣٦٧.

عقيل بن علفة: من ذبيان شاعر مقل جاف شديد الهوج والعجرفة والبذخ من بيت شرف في قومه. أخباره في الأغاني ٨٥ ج١١ و٩٩ ج٢.

ليلى بنت طريف الشيباني: رأس الخوارج. أخبارها في الأغاني ٩ ج١١.

مالك بن أسماء بن خارجة: من فزارة تولى أصبهان تحت إمرة الحجاج. أخباره في الأغاني ٤١ ج١٦ والشعر والشعراء ٤٩٢.

مالك بن الريب: من مازن نشأ في بادية البصرة، وهو من أصحاب المراثي. أخباره في الأغاني ١٦٣ ج١٩، والشعر والشعراء ٢٠٥.

محمد بن بشير الخارجي: من قيس شاعر حجازي من أهل المدينة، كان منقطعًا إلى أبي عبيدة بن عبد الله بن ربيعة القرشي، قدم البصرة وخطب امرأة اشترطت عليه الإقامة بها. أخباره في الأغاني ١٤٨ ج١٤.

مرة بن محكان السعدي: من تميم عاصر الفرزدق وجريرًا وأخملا ذكره، كان شريفًا جوادًا. أخباره في الأغاني ٩ ج٢٠، والشعر والشعراء ٤٣١.

المقنع الكندي: شاعر جميل الخلقة شريف. أخباره في الأغاني ١٥٧ ج١٥.

المهاجر بن خالد بن الوليد المخزومي: أخباره في الأغاني ١١ ج١٥.

يعلى الأحول: من القحطانية، لص كان يقطع السابلة. أخباره في الأغاني ١١١ ج١٩.

(١٠) الدور الثالث من الشعر (في العصر الأموي ١٠١–١٣٢هـ)

ويدخل فيه الشعراء الذين قضوا معظم حياتهم في أواخر الدولة الأموية، وهو دور انحطاطها وفسادها بعد أن تولاها يزيد بن الوليد وابنه الوليد بن يزيد، والناس على دين ملوكهم، فأكثر شعراء هذا الدور أميل إلى التملق والخلاعة والتهتك والقصف … أشهرهم يزيد بن الطثرية، وابن ميادة، وقد ذكرناهما بين الشعراء العشاق.

وهاك سائر شعراء الدور الثالث من العصر الأموي:

أبو حية النميري: من عامر مدح الخلفاء في الدولتين، وكان ساكنًا في البصرة. أخباره في الأغاني ٦٤ ج١٥، والشعر والشعراء ٤٨٦.

أبو عطاء السندي: عاصر الدولتين، أخباره في الأغاني ٨١ ج١٦، والشعر والشعراء ٤٨٢.

أبو نخيلة الراجز الحماني: (تميم) نفاه أبوه فخرج إلى الشام ثم اتصل بالعباسيين. أخباره في الأغاني ١٣٩ ج١٨، والشعر والشعراء ٣٨١.

جعفر بن علبة الحارثي: (كهلان) شاعر غزل وفارس. أخباره في الأغاني ١٤٦ ج١١، وخزانة الأدب ٣٢٢ ج٤.

حريث بن عناب: من طيء، بدوي مقل لم يتصد بالشعر للناس في مدح ولا هجاء. أخباره في الأغاني ١٠٢ ج١٣.

الحسين بن مطير: مولى بني أسد شاعر فصيح مدح الدولتين أخباره في الأغاني ١١٤ ج١٤، وخزانة الأدب ٤٨٥ ج٢.

رؤبة بن العجاج الراجز: أخباره في الأغاني ٥٠ ج٢١، والشعر والشعراء ٣٧٦.[٢٤]

سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت: مدح الوليد بن يزيد. أخباره في الأغاني ١٦٤ ج٧.

يزيد بن ضبة: مولى ثقيف كان يقيم في الطائف، مدح الوليد بن يزيد. أخباره في الأغاني ١٤٦ ج٦.

هوامش

(١) الأغاني ١٢٥ ج١٤.
(٢) راجع تاريخ التمدن الإسلامي ١٨ ج٤ (الطبعة الثالثة).
(٣) ابن خلكان ٢٩٢ ج٢.
(٤) الأغاني ١٧٥ ج٧.
(٥) مشى قرشية: مشية فيها خيلاء القرشيين.
(٦) القليب: السوار.
(٧) الأغاني ١٨٦ ج٧.
(٨) راجع وصفها في المشرق ٦٧ مجلد ٨.
(٩) الرعاء: الرعاة، واللقحة: الناقة الحلوب.
(١٠) الأغاني ٤٦ ج١٩.
(١١) الأغاني ٦٧ ج٧.
(١٢) الأغاني ٤٣ ج٤.
(١٣) نهشل ومجاشع من آباء الفرزدق. وكليب: عشيرة جرير.
(١٤) الفهر: الحجر.
(١٥) الكل: العالة.
(١٦) الأغاني ٥٤ ج١٣.
(١٧) أشب: مشتبك.
(١٨) الأغاني ٣٥ ج١.
(١٩) له ديوان منه نسخة خطية في مكتبة أيا صوفيا بالأستانة.
(٢٠) الطيل: الدهور.
(٢١) استمر مريرها: قويت عزيمتها.
(٢٢) له ديوان منه نسخة في دار الكتب المصرية «طُبع هذا الديوان».
(٢٣) له ديوان مشروح في دار الكتب المصرية وفيها كتاب خطي اسمه رجز العجاج (وقد طُبع هذا الديوان في مجموعة أشعار العرب بعناية المستشرق Ahlwardt).
(٢٤) له ديوان مطبوع في ليبسك سنة ١٩٠٣.

الخاتمة

أما وقد فرغنا من الكلام في الشعر والشعراء في العصر الأموي؛ فقد رأينا أن نختم الكتاب ببضعة فصول تتعلق بالشعر والشعراء؛ إتمامًا للفائدة.

(١) كيف كان الشعراء يستحثون قرائحهم؟

مهما بلغ المرء من سمو المدارك وصفاء الذهن وسرعة البديهة فإنه لا يستغني أحيانًا عن شحذ قريحته وذهنه أو استحثاث خاطره وخصوصًا في الشعر؛ إذ كثيرًا ما تمر على الشعراء فترات لا يجدون فيها قدرة على النظم، قال الفرزدق: «قد تمر علي الساعة وقلع ضرس من أضراسي أهون علي من نظم بيت من الشعر»، ويرى آخرون أن الشعر مثل عين الماء إن تركتها اندفنت وإن استهتنتها هتنت، يريدون أنه لا بد للشاعر من استحثاث قريحته من وقت إلى آخر.

وللشعراء طرق شتى في استحثاث قرائحهم تختلف باختلاف أمزجتهم وعاداتهم وطبائعهم. سُئل ذو الرمة: «كيف تفعل إذا انقفل دونك الشعر؟» فقال: «كيف ينقفل دوني وعندي مفاتيحه!» قيل له: «وعنها سألناك ما هي؟» قال: «الخلوة بذكر الأحباب» فهذا لأنه عاشق، وسُئل كُثير عزة: «كيف تصنع إذا عسر عليك الشعر؟» قال: «أطوف في الرباع المحيلة والرياض المعشبة فيسهل علي أرصنه ويسرع إلي أحسنه».

وكان الأخطل يستحث قريحته بشرب الخمر، وكذلك كان يفعل كثيرون ممن كانوا يشربونها، وكانت طائفة من الشعراء تستحث شياطينها، كما فعل الفرزدق، وقد أُفحم عند سماع قصيدة حسان التي يقول فيها:

لنا الجفنات الغرُّ يلمعن في الضحى   وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

وقد أمهله قائلها ثلاثة أيام حتى يجيب عليها، وكانت ساعة جمود على قريحته … فاضطر إلى استحثاثها، قال: «أتيت منزلي فأقبلت أصعد وأصوب في كل فن من الشعر فكأني مفحم أو لم أقل شعرًا قط، حتى نادى المنادي بالفجر فرحلت ناقتي ثم أخذت بزمامها فقدتها حتى أتيت ريانا — وهو جبل بالمدينة — ثم ناديت بأعلى صوتي: أخاكم أخاكم أبا لبنى — يعني شيطانه — فجاش صدري كما يجيش المرجل … ثم عقلت ناقتي وتوسدت ذراعها، فما قمت حتى قلت مائة وثلاثة عشر بيتًا» على أنه كان إذا خانته قريحته وصعب عليه الشعر ركب ناقته وطاف خاليًا منفردًا وحده في شعاب الجبال وبطون الأودية والأماكن الخربة الخالية فيعطيه الكلام قياده …

وكان الأبيرد الرياحي إذا خانته القريحة أخذ عصاه وانحدر في الوادي، وجعل يقبل فيه ويدبر ويهمهم بالشعر فتأتيه المعاني، وكان جرير يستحث قريحته بشرب النبيذ ويتمرغ بالرمل أو على الفراش ويهمهم ويحبو على الفراش عريانًا حتى يخاله الناظر إليه أصيب بجنة، وسُئل نصيب مرة: «أتطلب القريض أحيانًا فيعسر عليك؟» فقال: «إي والله ربما فعلت فآمر براحلتي فيشد بها رحلي، ثم أسير في الشعاب الخالية وأقف في الرباع المقوية فيطربني ذلك ويفتح لي الشعر».

ويقال نحو ذلك في أحوال الشعر في سائر العصور، وكان أبو تمام إذا أعيته القريحة غطس في صهريج ماء عنده يمكث فيه ساعة.

على أن لاستحثاث القريحة قواعد عامة يجري عليها الكثيرون منها الجلوس بجانب الماء الجاري أو الإشراف من الأماكن العالية والنزوح إلى الأماكن الخالية أو التجول في الرياض، وبعضهم يستنهض قواه العاقلة أو قريحته بالاستلقاء على الظهر، وهم مجمعون في الأكثر على مباكرة العمل بالأسحار عند الهبوب من النوم.

(٢) شياطين الشعراء

كان العرب يعتقدون أن لكل شاعر شيطانًا يوحي إليه المعاني، حتى لقد يتوهم الشاعر منهم أنه رأى شيطانه وخاطبه، وأوحى إليه، وألهم في ذلك أخبار طويلة ذكر بعضها في جمهرة أشعار العرب (صفحة ١٨) وذلك مبني على اعتقادهم بوجود الجن على طوائف، وينسبون إليها أشعارًا وأقوالًا لا فائدة من ذكرها.

ومن غريب اعتقادهم في شياطين الشعراء أن للشعر شيطانين يدعى أحدهما الهوبر والآخر الهوجل، فمن انفرد به الهوبر جاد شعره وصح كلامه، ومن انفرد به الهوجل فسد شعره،[١] وزاد ادعاؤهم ذلك حتى سموا شيطان كل شاعر باسم خاص به فكان شيطان الأعشى يسمى «مسحل».[٢]

وفي كتب الأدب أخبار كثيرة تدل على ما يعتقدونه من الجن وشياطين الشعر، من ذلك أن رسولًا من عند بشر بن مروان جاء جريرًا فدفع إليه كتابًا وقال له: «إنه قد أمرني أن أوصله إليك ولا أبرح حتى تجيب عن الشعر في يومك إن لقيتك نهارًا أو ليلتك إن لقيتك ليلًا»، وأخرج إليه كتاب بشر وقد نسخ له القصيدة وأمره أن يجيب عنها، فأخذها ومكث ليلته يجتهد أن يقول شيئًا فلا يمكنه (قالوا): فهتف به صاحبه من الجن من زاوية البيت، فقال له: «أزعمت أنك تقول الشعر ما هو إلا أن غبت عنك ليلة حتى لم تحسن أن تقول شيئًا فهلا قلت:

يا بشرُ حقَّ لوجهك التبشيرُ   هلا قضبتَ لنا وأنت أميرُ»

فقال له جرير: «حسبك، كفيتك» وما زال حتى أتم القصيدة.

وذكروا عن كثير عزة أنه قال: «ما قلت الشعر حتى قولته» قيل له: «وكيف ذلك؟» قال: «بينما أنا يومًا نصف النهار أسير على بعير لي بالغميم أو بقاع حمدان إذا راكب قد دنا مني حتى صار إلى جنبي فتأملته فإذا هو من صفر وهو يجر نفسه في الأرض جرًّا، فقال لي: «قل الشعر» وألقاه علي، قلت: «من أنت؟» قال: «أنا قرينك من الجن» فقلت الشعر ...»

(٣) الشعراء والقراءة

وكانت القراءة في صدر الإسلام خاصة بطبقة من الناس أهمهم حفظة القرآن ومن توخى المدنية فسكن المدن وغلبت عليه الحضارة، أما أهل البادية فيظهر أنهم ظلوا يعولون على الذاكرة، وخصوصًا الشعراء، فقد كانت طائفة من فحولهم لا يقرأون وخصوصًا في الجاهلية، فأكثرهم كانوا أميين، أما في الإسلام بعد انتشار القراءة والكتابة فظل كثيرون من الشعراء لا يقرأون وخصوصًا أهل البادية، فلعلهم كانوا يعولون على الرواية، أو على الحفظ، ومن شعراء العصر الأموي الذين كانوا لا يقرأون الفرزدقُ، وقد وقفنا حينًا عندما تبين لنا أنه لا يقرأ لعلمنا بمنزلته من الشاعرية وتقدمه بين رجال الدولة، وقد تبين لنا ذلك عرضًا في سياق واقعة جرت له مع مروان بن الحكم … وذلك أنه قال شعرًا أساء مروان بن الحكم وهو والي المدينة، فدعاه إليه وتوعده وأجله ثلاثًا وقال: «اخرج عني» فأنشد الفرزدق:

دعانا ثم أَجَّلَنَا ثلاثًا كما وُعِدَت لمهلكها ثمود

قال مروان: قولوا له عني أني أجبته، فقلت:

قل للفرزدق والسفاهة كاسمها إن كنتَ تارك ما أمرتك فاجلس
ودع المدينة إنها محظورة والْحَقْ بمكة أو ببيت المقدس

فعزم على الشخوص إلى مكة فكتب له مروان إلى بعض عماله ما بين مكة والمدينة بمائتي دينار، فارتاب (الفرزدق) في كتاب مروان فجاء به إليه وقال:

مروانُ إن مطيتي معقولةٌ ترجو الحِباء وربَّها لم ييأس
آتيتني بصحيفةٍ مختومةٍ يُخْشى عليَّ بها حِباء النقْرس
الق الصحيفة يا فرزدق لا تكن نكدًا كمثل صحيفة المتلمس

ورمى بها إلى مروان فضحك، وقال: «ويحك إنك أميٌّ لا تقرأ فاذهب بها إلى من يقرأها، ثم ردها حتى أختمها» فذهب بها فلما قرئت إذا بها جائزة فردها إلى مروان فختمها، وأمر له الحسين بن علي بمائتي دينار.[٣]

فتبين لنا من ذلك أنه لا يقرأ، فإذا صح ذلك عن الفرزدق فكيف بسواه، ويقال: إن ذا الرمة أيضًا كان لا يقرأ.

(٤) الخطابة والخطباء في العصر الأموي

ظلت الخطابة محتفظة بمكانتها في العصر الأموي؛ لحاجة القوم إلى استنهاض الهمم في جمع الأحزاب أو تفريقها والتحريض على النهوض للحرب ونحوها، فكان أكثر القواد خطباء وفيهم جماعة من أبلغ رجال الخطابة … فالحجاج بن يوسف كان خطيبًا بليغًا زادته الخطابة عظمة وسطوة، وكان العراق متمردًا على عبد الملك، فلما أعجزه أمره ولى الحجاج عليه فدخل الحجاج الكوفة وصعد المنبر متلثمًا متنكبًا قوسه واضعًا إبهامه على فمه، واحتقره الناس وكادوا يرمونه بالحصى فوقف وأزاح لثامه عن وجهه وألقى خطبته التي قال في مطلعها:

أنا ابنُ جلا وطلَّاع الثنايا　　متى أضع العمامة تعرفوني

إلى أن قال:

> أما والله إني لأحمل الشر بثقله وأحذوه بنعله وأجزيه بمثله. أما والله إني لأرى رءوسًا قد أينعت وحان قطافها، وكأني أرى الدماء بين العمائم واللحى:
>
> هذا أوان الشدِّ فاشتدي زيَمْ　　قد لَفَّها الليل بسوَّاقٍ حُطَمْ
>
> ألا وإن أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان نثر كنانته فعجم عيدانها، فوجدني أصلبهًا عودًا فوجهني إليكم، فإنكم أهل بغي وشقاق، وخلاف ونفاق، طالما سعيتم في الضلالة وسننتم سنن البغي، أما والله لألحونكم لحو العصا ولأعصبنكم عصب السلمة ولأقرعنكم قرع المروة ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل، والله ما أخلق إلا فريت ولا أعد إلا وفيت … إلخ.

فما فرغ من خطبته حتى هابوه وأذعنوا له، وكان شديدًا عليهم وأمره مشهور، ومع ذلك فقد كان إذا رقى المنبر وذكر إحسانه إلى أهل العراق وصفحه عنهم وإساءتهم إليه،

يخيل للسامع أنه صادق وأن أهل العراق ظلموه،[٤] ولذلك كان الأمراء والخلفاء يخافون الخطباء كما يخافون الشعراء؛ لما في أقوالهم من التأثير في تلك النفوس الحساسة.

وكان أكثر الخلفاء يخطبون لكنهم يتفاوتون في البلاغة وقوة العارضة، على أن تلك القوة أخذت تضعف فيهم بعد الفراغ من الفتوح والانغماس في أسباب الترف والسكون إلى الرخاء والبذخ، وتحولت من الحماسة إلى المواعظ ثم إلى الشكاية، وتداعى فن الخطابة بتداعي دولة العرب في الشرق، فلما قامت دولتهم في الأندلس بعثوه وقربوا الخطباء كما قربوا الشعراء، لكنهم قلما كانوا يستخدمونهم لإنهاض الهمم أو إخماد الفتن؛ لذهاب الحاجة إلى ذلك بذهاب البداوة والفراغ من الفتح، على أنهم كانوا إذا احتفلوا بتنصيب خليفة أو بالنصر على عدو أو باستقبال قادم كبير، تقدمت الخطباء للترحيب به وإعظام شأنه ووصف ما تهيأ له من توطيد الخلافة.[٥]

وأما الأمراء والقواد فكانوا يخطبون في الجند قبل الإغارة على العدو، فيحرضونهم على الثبات، وكثيرًا ما كانت الخطبة سببًا للنصر كخطبة خالد بن الوليد في موقعة اليرموك، وخطبة المغيرة في موقعة القادسية، وخطبة طارق بن زياد في فتح الأندلس، ونحو ذلك مما لا تسعه المجلدات.

ناهيك بشيوع الخطابة في القبائل على اختلاف أصقاعها كما كانت في الجاهلية، وكانت ترد الوفود إلى المدينة أو دمشق أو بغداد أو غيرها من عواصم المسلمين لتهنئة الخليفة أو استنفاره أو استنجاده أو استجدائه، وكان شباب الكتَّاب إذا قدم الوفد حضروا لاستماع بلاغة خطبائهم لشيوع حب الخطابة فيهم،[٦] ولاقتباس أساليب البلاغة منهم.

(٥) الإنشاء في العصر الأموي

كان الإنشاء في عصر الراشدين جامعًا مانعًا، وفيه بلاغة وإيجاز كما تقدم، وقد علمت أن الدولة الأموية عززت اللغة العربية وآدابها فكانت بلاغة القول في جملة ذلك، وكان الخلفاء والأمراء ينشطون أهل الأدب، وأكثر إنشائهم في المراسلات بين الخليفة وعماله يقلدون بها مكاتبات عصر الراشدين، وقد ذكرنا أمثلة من ذلك في مكانها.

على أن اقتراب الدولة الأموية من الحضارة أثر في الإنشاء ونوعه وأطاله، ونشأت طائفة من الكتَّاب (أي كتَّاب الرسائل) في الدولة فأصبحت الكتابة مهنة. وبعد أن كان الكاتب في زمن الراشدين يتولى ضبط حساب الديوان وكتابة المراسلات، أصبحت الكتابة

في الدولة الأموية خمسة أصناف لكل منها كاتب خاص ... ومنهم كاتب الرسائل المقصود من كلامنا هنا، وقد يسمى كاتب السر وهو يد الخليفة وكاتبه ومستودع أسراره. فكان الخلفاء يتخيرون لهذا المنصب أبلغ المنشئين. وكان للبلاغة تأثير في سياستهم كما كان للشعر لأن القوم يومئذ لا يزالون في عهد الفروسية والأريحية، تقيمهم البلاغة وتقعدهم.

ومن أشهر كتابهم سالم كاتب هشام بن عبد الملك، وقد نقل شيئًا من رسائل أرسطو إلى الإسكندر. وله رسائل في مائة ورقة (فهرست ١١٧)، وكان للأمراء كتَّاب ينشئون لهم الرسائل لم يصلنا من أخبارهم إلا القليل، وكان الإنشاء في أثناء ذلك يتنوع ويرتقي حسب الأحوال وعملًا بناموس الارتقاء، فلم تنقضِ الدولة الأموية حتى صار للإنشاء فيها صفة معينة وطريقة مخصوصة وضعها أو أتمها عبد الحميد بن يحيى كاتب مروان بن محمد، وصار له أسلوب خاص نسب إليه وقلده الكتَّاب فيه.

(٥-١) عبد الحميد الكاتب

هو عبد الحميد بن يحيى ... مولى من أهل الشام، أي أهل البلاد الأصليين الذين دخلوا في الإسلام، فهو ليس عربيًّا. وكان المثل يُضرب ببلاغة إنشائه في الرسائل، فيقال: فُتحت الرسائل بعبد الحميد وخُتمت بابن العميد. وكان في أول أمره معلم صبية يتنقل في البلدان، ثم ارتقى حتى صار كاتب مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين ومات معه سنة ١٣٢هـ، ويمتاز عبد الحميد بأنه أول من أطال الرسائل واستعمل التحميدات في فصول الكتب، فاستعمل الناس ذلك بعده وقلدوه فيه، وله رسائل بليغة ذكر ابن النديم أنها تجتمع في ألف ورقة لم يصل إلينا منها إلا القليل.

وفي دار الكتب رسالة خطية تُنسب لعبد الحميد المذكور.

(٦) الخلاصة

والخلاصة أن الأمويين نشطوا الآداب الجاهلية ولا سيما الشعر والخطابة، فارتقت في أيامهم وراجت سوق الأدب بالبصرة والكوفة، وكثر الشعراء ونظموا في كل باب ولم يصلنا كل ما نظموه.

وفي هذا العصر بدأ تكوُّن الفقه والتفسير والنحو وضبط الخط وبدأوا بالإعجام والحركات، وفيه رسخت اللغة العربية في المملكة الإسلامية بنقل الدواوين إليها، وفيه بدأوا بنقل العلوم الطبيعية.

وأهم ما بين أيدينا من المؤلفات الشرعية أو اللسانية أو الأدبية أو في التاريخ والجغرافيا أو في أي علم من العلوم إنما هو من ثمار العصر العباسي الآتي ذكره. أما التفسير الذي ينسبونه إلى عبد الله بن عباس؛ فقد تقدمت الإشارة إليه …

حتى الشعر الأموي فإنه لم يصلنا إلا على أيدي الرواة من أهل العصر العباسي …

هوامش

(١) جمهرة أشعار العرب ٢٤.

(٢) رسائل أبي العلاء ١٠٧.

(٣) الأغاني ٤٣ ج١٩.

(٤) البيان ٢٠ ج١.

(٥) نفح الطيب ١٧٥.

(٦) العقد الفريد ٢٦٧ ج٢.

الجزء الثاني

المقدمة

(١) تمهيد في شروط التأليف

من تصدى للكتابة أو التأليف، فقد جعل نفسه خادمًا للمصلحة العامة، إلا من يحصر كتابته في شئون خصوصية، أو يعالج علمًا يلذُّ له، ولا يهمه سواه، أو يتعاطى الكتابة لأغراض معينة. أو يكون مرماه من التأليف بيان قدرته على الإنشاء والغوص على المعاني العويصة، والألفاظ الغريبة، بتقليد الأساليب القديمة التماسًا لإعجاب العلماء مما يشقُّ على جمهور القراء — فهؤلاء وأمثالهم يكتبون لأنفسهم أو لطبقة خاصة لغرض خاص، ولهم منزلة وفضل، ولكن في غير الخدمة العامة، وإذا لم يصادفوا إقبالًا من الجمهور اتهموه بالجهل، وهددوه بالإعراض والتقاعد عن الكتابة — مع أنه لم يشعر بوجودهم لأنهم لم يخاطبوه بلسانه.

وأما الكاتب العمومي، فإنه خادم الأمة ووليُّ إرشادها، وعليه أن يبذل الجهد في سبيل مصلحتها. ولا بد له في تأليفه من ثلاثة شروط: الأول اختيار الموضوع الذي يرى الأمة في حاجة إليه، والثاني أن يسبكه في قالب يسهل تناوله، والثالث أن يتوخَّى صدق اللهجة والصراحة بلا انحياز إلى طائفة أو حزب. والكُتَّاب يتفاوتون قدرة على القيام بأحد هذه الشروط أو كلها، بتفاوت أحكامهم على النافع أو الضار من المواضيع، وتباين قدرتهم على إيضاح أفكارهم، ويصعب ذلك على الخصوص في المواضيع الأدبية كالتاريخ، والاجتماع، والأخلاق، ونحوها — بخلاف المواضيع الطبيعية، فإنها مقيدة بمصطلحات تسهل الإجادة فيها.

الأسلوب العصري

أما الأبحاث الأدبية، فإنها تفتقر في تأديتها إلى إعمال الفكرة من حيث ترتيبها وسبكها في عبارة سهلة سالمة من الركاكة والتعقيد، وهذا في نظرنا هو الأسلوب العصري الذي يجب على كل كاتب أن يتحداه — وهو شائع اليوم على أقلام الكُتَّاب لا يشذ عنه إلا المتفانون في المحافظة على القديم، الذين يحسبون اللغة وقفًا لا يحل بيعه أو التصرف فيه، وفاتهم أنها من قبل الأحياء الخاضعة لناموس الارتقاء، تتغير بتغير أحوال الاجتماع من البداوة أو الحضارة؛ فتنمو بتولد الألفاظ الجديدة للمعاني الجديدة والتراكيب العصرية للأفكار العصرية، وتذهب الألفاظ القديمة بذهاب معانيها، كالأعضاء المهملة في الجسم الحي، تقضي الطبيعة بانقراضها ليقوم سواها مقامها، أو هي كالحويصلات التي تندثر بالعمل الحيوي، فتخلِّفها الحويصلات الجديدة النامية. فالتغيير الذي يصيب الألفاظ والأساليب باختلاف الأعصر دليل على حياة اللغة. ومن حاول الوقوف في سبيل هذا التغيير، فقد عارض الطبيعة — كما يفعل الصينيون بحبس أقدام بناتهم في قوالب الحديد لتبقى صغيرة، فهم لا يوقفون النمو لكنهم يشوِّشون عمله فتنمو الأقدام مشوهة، وهكذا الوقوف في سبيل اللغة فإنه لا يوقف نموها لكنه يشوش عمله.

صدق اللهجة

أما صدق اللهجة، والصراحة في القول، والخلو من الغرض فهي من أهم واجبات الكاتب، لكنها من أصعب الشروط عليه؛ إذ لا يسهل على الإنسان أن يجرِّد نفسه من الروابط الدينية أو الاجتماعية التي تتجاذبه، وقد رضعها من اللبن وتمكَّنت من خاطره بتوالي الأعوام. وإنما يقوى على مغالبتها قويُّ الإرادة عالي التربية. وقد يتطرف المتعصِّب لأمته أو طائفته، حتى لا يرى الحسنات إلا فيها، ولا يرى في سواها غير السيئات؛ ولذلك فهو لا يفيد في الخدمة العامة، وقد يضر.

أما المواضيع، ففيها النافع والضار وما بينهما، والموضوع الواحد يختلف نفعه أو ضره باختلاف حال الأمة، وباختلاف نسق الكاتب في تبويبه وأسلوبه في تأديته، وفي مقدار ما يضمِّن كتابه من الحقائق أو المواد؛ لأن من الكتاب من يصرف همه إلى رشاقة العبارة وتزويقها وتنميقها، ولو جرَّ ذلك إلى تبديد المعنى أو غموضه، ومنهم من يوجه اهتمامه إلى الحقائق التي يستطيع جمعها في كتابه بلا تكلف أو تأنُّق، ويحافظ

على سلامة المعنى قبل كل شيء — هذه هي الخطة التي نبذل جهدنا في تحديها في ما نكتبه؛ لأننا نرى الأمة في حاجة إلى الحقائق أكثر مما إلى الألفاظ، وهذا ما توخيناه على الخصوص في هذا الكتاب؛ لاتساعه وتشعُّب مواضيعه وتعدد جزئياته؛ ولأننا نعلق أهمية كبرى بالنظر إلى حاجة الناشئة العربية إليه.

(٢) ما هو تاريخ آداب اللغة؟

واختلف الكُتَّاب في مباحث تاريخ آداب اللغة؛ فبعضهم يقتصر منها على تاريخ الأدب بمعناه الخاص دون سائر العلوم، أو بمعناه العام لكنه لا يتجاوز النظر في تاريخه مع اعتبار مجرى التاريخ العام عليه، أو بقطع النظر عن ذلك، وقد يكتفي بعضهم من تاريخ آداب اللغة بتراجم العلماء والشعراء، وأمثلة من أقوالهم بدون التعرض لكتبهم، أو يجعل همه وصف الكتب التي ظهرت في كل علم دون التراجم وأطوار العلم، ومنهم من يكتفي بإطراء أصحاب هذه اللغة، وما بلغوا إليه من الرقي في معالجة المواضيع الهامة بالقياس على الأمم الأخرى. أما نحن فقد أردنا أن نجمع بين ذلك كله على ما يبلغ إليه الإمكان.

(٣) نسق هذا الكتاب

فقسمنا كتابنا إلى أعصر، بيَّنَّا فيها ما تقلبت عليه آداب اللغة في كل عصر، وذكرنا الأسباب السياسية والاجتماعية التي أثرت في ذلك، وما قد يقابلها عند الأمم الأخرى، ومزية العرب فيها، وأرَّخنا كل علم في كل عصر، وترجمنا النابغين فيه، وذكرنا ما خلفوه من الكتب، واقتصرنا من ذلك على ما يمكن الحصول عليه، ووصفنا أهم تلك الكتب ومنزلتها من سواها، وأشرنا إلى المطبوع منها مع سنة الطبع ومكانه، وما لم يطبع ذكرنا مكان وجوده في أشهر المكاتب الكبرى بمصر أو الآستانة أو أوروبا أو غيرها من المكاتب العمومية أو الخصوصية. وربما فاتنا ذكر كتب لا توجد إلا في بعض المكاتب الخصوصية التي لم يصلنا خبرها، فنرجو ممن يقف على شيء من ذلك أن ينبهنا إليه لننشره خدمة لآداب هذا اللسان، وذيَّلنا كل ترجمة أو باب بأشهر المآخذ التي يمكن الرجوع إليها في تفصيل تلك الترجمة أو التوسع في ذلك الباب.

فمن أحب الاطلاع على تاريخ علم من العلوم مثلًا طلبه في كل عصر، وتتبَّع تاريخه إلى آخره، ومن شاء الاطلاع على تأثير التقلُّبات السياسية في الآداب والعلوم هان عليه ذلك

بمطالعة ما صدرنا به كل عصر من تاريخ تلك التقلبات، وإذا أراد الاطلاع على ترجمة عالم أو شاعر أو أديب أو نحوي أو لغوي أو مؤرخ أو جغرافي، أو أي رجل من رجال العلم أو الأدب، طلب ترجمته في باب العلم الذي غلب عليه حسب الأعصر، فيجد هناك خلاصة ترجمته، وحقيقة منزلته، وما خلَّفه من الكتب مما وصل إلينا خبره ووصف كل كتاب وأين يوجد، وإذا شاء التوسع في ترجمة ذلك الرجل رجع إلى ما ذكرناه من المآخذ في ذيل ترجمته. وهكذا إذا كان غرضه البحث عن موضوع يريد التوسع فيه، فإنه يجد الكتب التي تبحث فيه، فيختار ما يريده منها.

(٤) الغرض من هذا الكتاب

وقد ألفنا هذا الكتاب للناشئة العربية، أو طلاب هذا اللسان الذين يريدون الوقوف على العلوم العربية وأماكنها للمطالعة أو التأليف، أو يعوزهم درس موضوع أو الكتابة فيه ولا يعرفون مظانَّه، وقد عرفنا حاجة الناشئة إلى ذلك من الأسئلة الكثيرة التي تتوالى علينا من هذا القبيل، فربما رغب أحدهم في درس تاريخ أمة أو دولة أو موضوع من المواضيع الاجتماعية أو الأخلاقية أو اللغوية، وأحب الاطلاع على ما قاله العرب فيه، ولا يدري مَنْ ألف فيه منهم، وهل ما ألفوه لا يزال باقيًا، وما هي قيمته بالنظر إلى سواه في موضوعه، وهل طبع، وأين، وإذا لم يطبع فأين يوجد؟ إلخ. فهذا الكتاب يرشده إلى كل ما يريده من هذا القبيل، ويسهل استخدامه لهذه الغاية بعد وضع الفهارس في آخره.

وقد توخينا الإفاضة في ما يهمُّ طلاب الأدب أو الشعر أو التاريخ، وسواها من العلوم الأدبية والاجتماعية والأخلاقية ونحوها، واختصرنا في كتب الفقه وسائر العلوم الشرعية؛ لكثرتها وتنوُّعها واستقلالها بموضوعها، وفعلنا ذلك أيضًا في كتب الطب والفلسفة والمنطق ونحوها من العلوم القديمة لذهاب دولتها أو تغير قواعدها.

(٥) موقع الجزء الأول

وقد تحقق ظننا في حاجة الناشئة إلى مثل هذا الكتاب بما آنسناه من إقبالهم على الجزء الأول من قلة مواده، واقتصاره على تاريخ آداب اللغة في العصور الأولى قبل تكوُّن العلوم، فاقتنته نظارة المعارف العمومية، وقررت بعض المدارس الكبرى تدريسه، وطلب إلينا البعض الآخر أن نستخرج منه نسخة مختصرة للتدريس، وسنفعل ذلك بعد الفراغ من تأليف الكتاب ونشره.

وكان للجزء الأول المذكور وقع لدى الأدباء والكتَّاب فتناولوه بالتقريظ والانتقاد. أما المقرِّظون فنشكر لهم حسن ظنهم، وأما المنتقدون فقد اهتمُّوا بانتقاده بلهجة تتفاوت شدةً وأسلوبًا بتفاوت فهمهم من المراد بالانتقاد وشروطه، وتدلُّ على حرج مركز الكاتب الشرقي بين قرائه، وليس في الدنيا جمهور استحكم فيه اختلاف المشارب والأهواء والأغراض مثل قراء العربية، فهم مختلفون موطنًا ومشربًا ومذهبًا وتربيةً، فلا يتأتَّى لكاتب إرضاؤهم جميعًا ولو أُوتي علم الأولين والآخرين.

ومما تحسن الإشارة إليه من الانتقادات المعقولة أن بعضهم انتقد على المؤلف تقليله من الأمثلة الشعرية أو النثرية، ولكن ذلك ما أردناه، ولو أكثرنا من الأمثلة لخرجنا عن الغرض المقصود من هذا الكتاب، ومن أراد التوسع فليطلب ذلك في المآخذ الأصلية المذكورة في ذيل التراجم، أو يطالعه في كتب الأدب لأدباء هذا العصر، ومنها طائفة حسنة جمت نخبة الأشعار والأقوال أشهرها «أدبيات اللغة العربية» لمحمد عاطف بك والشيخين محمد نصار وأحمد إبراهيم وعبد الجواد أفندي عبد المتعال من رجال نظارة المعارف العمومية، وكتاب «أدب لغة العرب» للشيخ محمد حسن نائل المرصفي مدرس اللغة العربية بكلية الفرير في مجلدين، و«مجاني الأدب» وشرحه للآباء اليسوعيين في عدة مجلدات، وجواهر الأدب للشيخ أحمد الهاشمي مراقب مدارس فيكتوريا ونحوها. ومن الكتب الهامة في تاريخ آداب اللغة «تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب» لروحي بك الخالدي، وهو فريد في بابه.

وإنما نختص من المنتقدين بالذكر الأب لويس شيخو اليسوعي؛ لأنه عقد في مجلة المشرق (سنة ١٤ ج٨) فصلًا طويلًا في نقد الجزء الأول من هذا الكتاب نقدًا نمَّ عن أدبه وفضله، ودلَّ على تمكُّنه من الموضوع. فبعد أن وصف الكتاب ومنزله بالنسبة إلى ما ظهر من الكتب في موضوعه بالعربية وغيرها ذكر ملاحظاته وانتقاداته بتعقُّل وإخلاص، فنشكر له حسن ظنه واهتمامه في البحث والتنقيب، وسننظر في ملاحظاته بعين الاهتمام وإن كان أكثرها في غير مكانه أو قبل أوانه، فإن بعضها يكاد يكون تحقيقه مستحيلًا كطلبه بيان اللغات التي كان يتكلم بها العرب في جاهليتهم الأولى، والبعض الآخر ليس مكانه في ذلك الجزء كالمفضليات والحماسات ونحوها، فقد ذكر أكثرها في هذا الجزء؛ لأن أصحابها من أدباء العصر العباسي، واتهمنا بالتقصير في أبحاث سبق لنا البحث فيها مطولًا في كتبنا الأخرى، كبيان نسبة اللغة العربية إلى أخواتها السامية، فقد فصَّلنا ذلك في كتابنا «الفلسفة اللغوية» وفي «تاريخ العرب قبل الإسلام»، واقترح علينا أمورًا لو أردنا

العمل بها لاستغرق هذا الكتاب أضعاف حجمه، فإنه تقدم إلينا أن نستخرج عادات العرب وتاريخهم من أمثالهم وأشعارهم، وهو خارج عن موضوع الكتاب، ومثل ذلك اقتراحه أن نطيل في درس كل شاعر وشعره، وهذا يفتقر إلى كتاب خاص لكل شاعر، وإنما اكتفينا بخلاصة الترجمة وزبدة ما يقال في الموضوع مع مراعاة المكان، وأشرنا إلى المآخذ لمن أراد التعمُّق، وانتقد علينا أيضًا مبالغتنا في بيان مآثر العرب والتنويه بفضلهم! ويرى أيضًا أننا أخطأنا في تعيين وفيات بعض شعراء الجاهلية، وغير ذلك من الملاحظات التي يريد من ورائها خدمة آداب اللغة، وهي ضالتنا التي ننشدها؛ ولذلك فإننا سنتدبَّر ملاحظاته وننظر فيها بإخلاص وامتنان، وفي كل حال فإننا استفدنا من انتقاده — جزاه الله خيرًا وجعله قدوة للمنتقدين.

(٦) موضوع هذا الجزء

كان المراد عند الفراغ من الجزء الأول أن نجعل هذا الجزء خاصًّا بتاريخ آداب اللغة في العصر العباسي من ظهور الدولة العباسية سنة ١٣٢هـ إلى سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ، فقسمنا هذا العصر أو الدولة إلى أربعة أعصر لكل منها صفة مشتركة في السياسة والاجتماع والأدب يمتاز بها عن سواه سيأتي ذكرها، وإنما نريد هنا بيان الحكمة في ذلك التقسيم:

فالعصر الأول: (سنة ١٣٢–٢٣٢هـ) هو عصر الإسلام الذهبي من حيث السياسة والدولة، أو هو عصر الرشيد والمأمون والبرامكة، وقد بلغت الدولة الإسلامية إبَّان مجدها، وفيه نشأت أكثر العلوم الإسلامية، ونقلت أهم العلوم الدخيلة.

والثاني: (سنة ٢٣٢–٣٣٤هـ) هو فترة بين العصرين الأول والثالث، اشتغل فيها رجال الدولة بأنفسهم عن نصرة رجال العلم والأدب.

والثالث: (سنة ٣٣٤–٤٤٧هـ) هو عصر الإسلام الذهبي من حيث نضج العلم والأدب، ولا سيما اللغة وعلومها والتاريخ والجغرافية، وفيه تعاصرت عدة دول تعاون ملوكها وأمراؤها ووزراؤها على الاشتغال بالعلم والأخذ بناصر العلماء.

والرابع: (سنة ٤٤٧–٦٥٦هـ) فيه ظهرت ثمار العلوم، ونضجت الموسوعات والمعاجم التاريخية والجغرافية وغيرها.

فلما أخذنا بالكتابة اتسع بنا المقال، فاكتفينا بالأعصر الثلاثة الأولى في هذا الجزء؛ أي: من تكون العلوم إلى نضجها، وأجَّلنا الكلام في العصر العباسي الرابع وما يليه من العصور إلى الجزء الثالث من هذا الكتاب إن شاء الله.

(٧) الخلاصة

هذا وقد بذلنا الجهد في تنسيق هذا الكتاب وتبويبه وضبط حقائقه وبسط عبارته بإخلاص وصراحة، مما نعتقد فيه النفع للناشئة العربية، فإن أحسنَّا فذلك ما أردناه وهو فرض أدَّيناه، وإلا فقد أعذرنا ببذل الجهد وصدق النية، ولنا الأمل أن ينشط من أدبائنا من يوفي الموضوع حقه بأحسن مما فعلنا، وبالله التوفيق.

العصر العباسي أو الدولة العباسية

من سنة ١٣٢–٦٥٦هـ

تختلف الدولة العباسية عن الأموية اختلافًا بيِّنًا: كانت الدولة الأموية عربية بدوية، واصطبغت الدولة العباسية صبغة فارسية — إلا من حيث آداب اللغة فظلت عربية، وفي أيامها نضجت آداب العرب وعلومهم، ونقلت علوم القدماء إلى لغتهم ونبغ الشعراء والأدباء والنحاة والمؤرخون واللغويون والمنشئون والفقهاء والمفسرون والمحدثون والفلاسفة والأطباء وغيرهم.

ومدة العصر العباسي أو الدولة العباسية في بغداد خمسة قرون وبعض القرن — من تأسيس الدولة العباسية سنة ١٣٢هـ إلى سقوط بغداد على يد هولاكو سنة ٦٥٦هـ.

وقد تقلبت آداب اللغة العربية في أثنائها بتقلب الدول، وتغلُّب الأمم على ما اقتضته الانقلابات السياسية أو الاجتماعية. وقد تدبَّرنا ذلك باعتبار القرون أو العصور، فوجدنا لكل قرن تقريبًا من القرون الثلاثة الأولى خصائص تختلف عما لسواه باختلاف أحوال الاجتماع أو السياسة أو باختلاف الدول التي أفضت الأمور إليها، أما القرنان الأخيران فيشتركان في أحوالهما، فقسمنا العصر العباسي إلى أربعة أدوار أو أعصر وهي:

(١) **الدور أو العصر الأول:** من ظهور الدولة العباسية سنة ١٣٢هـ إلى أول خلافة المتوكل سنة ٢٣٢هـ، ونسميه العصر العباسي الأول.

(٢) **العصر العباسي الثاني:** من خلافة المتوكل سنة ٢٣٢هـ إلى استقرار الدولة البويهية في بغداد سنة ٣٣٤هـ.

(٣) **العصر العباسي الثالث:** من استقرار الدولة البويهية سنة ٣٣٤هـ إلى دخول السلاجقة بغداد سنة ٤٤٧هـ.

(٤) **العصر العباسي الرابع:** من دخول السلاجقة بغداد إلى سقوطها في أيدي التتر سنة ٦٥٦هـ.

وسنصدر الكلام عن كل عصر بما حدث فيه من الانقلاب السياسي أو الاجتماعي الذي بعث على تغيير آداب اللغة فيه. ويقال بالإجمال: إن في زمن العباسيين بلغت آداب اللغة العربية أرقى أحوالها، ونضجت فيها أكثر الآداب العربية، ونمهِّد الكلام في ما كان من تأثير القرآن في نشوئها، وقد أشرنا إلى شيء من ذلك متفرقًا في الجزء الأول فأحببنا جمعه والتوسع فيه هنا فنقول.

القرآن وآداب اللغة العربية

تكاثرت العلوم والآداب في إبان التمدن الإسلامي حتى تجاوز عددها ثلاثمائة علم في الشرع واللغة والتاريخ والأدب والشعر وغيرها، وأكثرها نشأ من القرآن أو تولَّد خدمة له، ولا يكاد يخلو علم من تأثير القرآن عليه رأسًا أو ضمنًا، فلا غرو إذا أفردنا فصلًا خاصًّا لبيان ذلك.

(١) العلوم التي تفرعت من القرآن أو نشأت لخدمته

حمل العرب على العالم في صدر الإسلام وما في أيديهم من الكتب غير القرآن يقرءونه ويتَّعظون به، ويتحاكمون إليه، وقد أعجبوا بأسلوبه ودهشوا ببلاغته؛ لأنه ليس من قبيل ما كانوا يعرفونه من نثر الكهان المسجع ولا نظم الشعراء المقفى الموزون، وقد خالف كليهما وهو منثور مقفى على مخارج الأشعار والأسجاع، فلا هو شعر ولا نثر ولا سجع، وفيه من البلاغة وأساليب التعبير ما لم يكن له شبيه في لسانهم، فسحروا بأسلوبه، وبما حواه من الشرائع والأحكام والأخبار، فأصبح همهم تلاوته وتفهم أحكامه؛ لأنه قاعدة الدين والدنيا وبه تتأيد السلطة والخلافة، وهو أول كتاب أخذوا في قراءته وحفظه.

القراءة وعلومها: واختلفوا في قراءة بعض آياته فتولدت القراءات السبع نسبة إلى سبعة من القراء مرَّ ذكرهم، وأخذ كل منهم يثبت صحة قراءته فتولد من ذلك علم القراءة وشواذها، وتفرع بتوالي الأعصر إلى سبعة علوم هي: علم الشواذ، وعلم مخارج الحروف، ومخارج الألفاظ، والوقوف، وعلل القرآن، وكتابة القرآن، وآداب كتابة المصحف، وفي كل من هذه العلوم قواعد وكتب.

النحو: وأول شيء احتاجوا إليه في ضبط القراءة «النحو»، وقد بعثهم على التعجيل في وضعه وضبط قواعده ما شاهدوه من لحن الناس في قراءة القرآن بعد الفتوح وانتشار العرب في الآفاق، فسمع أبو الأسود الدؤلي رجلًا يقرأ ﴿أَنَّ الله بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ بخفض رسولِه، فصنف باب العطف والنعت، وهو من أسس علم النحو. ثم وضع الإعجام لضبط القراءة، فكان القرآن من أهم البواعث على وضع النحو أو الإسراع في وضعه، فتمت قواعده ولم يتم القرن الثاني للهجرة؛ أي إنه نضج في قرن وبعض القرن، واليونان لم يتم علم النحو عندهم إلا بعد إنشاء دولتهم بعدة قرون، ولم يضع الرومان نحو اللغة اللاتينية إلا بعد قيام دولتهم بستة قرون، وقد فصَّلنا ذلك في الجزء الأول من هذا الكتاب.

الأدب وعلومه: ويفتقر علم النحو في تأييد قواعده إلى معرفة كلام العرب وأساليبهم. ولما أخذ المسلمون في تفسير القرآن احتاجوا أيضًا إلى ضبط معاني ألفاظه وتفهم أساليب عبارته، فجرَّهم ذلك إلى البحث في أساليب العرب وأقوالهم وأشعارهم وأمثالهم وهو «علم الأدب»، وقد بعث إلى وضعه بالأكثر تفسير القرآن — قال ابن عباس: «إذا قرأتم شيئًا من كتاب الله ولم تعرفوه فاطلبوه في أشعار؛ لأن الشعر ديوان العرب.»

فكانوا إذا عمدوا إلى تفسير آية، أو أرادوا إثبات معنى لفظٍ التبس عليهم فهمه، أو تفهم أسلوب لم يألفوه، أتوا بشعر جاهلي وردت فيه تلك اللفظة بهذا المعنى أو ذاك الأسلوب، وخصوصًا في التفاسير التي يراد بها المعنى اللغوي بالأكثر كالكشاف للزمخشري، فإن الشواهد الشعرية التي جاءت فيه استغرقت مجلدًا ضخمًا أفرد بعضهم كتابًا لشرحها والإشارة إلى سبب ورودها، وصاروا يؤلفون كتب الأدب والتاريخ لخدمة القرآن — قال ابن قتيبة في مقدمة كتابه الشعر والشعراء: «وكان أكثر قصدي للمشهورين من الشعراء الذين يعرفهم جلُّ أهل الأدب والذين يقع الاحتجاج بأشعارهم في الغريب وفي النحو وفي كتاب الله — عز وجل — وحديث رسول الله ﷺ.»

وناهيك بما تفرَّع إليه علم الأدب من الفنون الأدبية والعلوم المتعلِّقة بالألفاظ، وهي تزيد على عشرين علمًا كالنحو، والصرف، والاشتقاق، والمعاني، والبيان، والبديع، والعروض، وغيرها، والفضل في تعجيل ظهورها للقرآن.

الحديث: واحتاجوا في تفسير القرآن أيضًا إلى تفهم الحديث؛ لأنهم كانوا إذا أشكل عليهم فهم آية واختلفوا في تفسيرها أو حكم من أحكامها، استعانوا بأقوال النبي على استيضاحها، فلما تفرق الصحابة في الأرض بعد الفتوح، تفرَّقت الأحاديث معهم،

فاشتغل جماعة من أهل القرائح في جمعها وتدوينها، وتولَّد من ذلك بتوالي الأزمان العلوم المتعلِّقة بالحديث كشرح الحديث وناسخه وتأويله ورموزه وغرائب لغاته وتلفيقه وأحوال الرواة ونحو ذلك، وفي كل علم من هذه العلوم مؤلفات وأبحاث وعلماء.

التفسير: والتفسير نفسه لما نضج تفرع إلى علوم عديدة ذكرها صاحب مفتاح السعادة، وهي تزيد على سبعين علمًا، ولكل منها علماء ومؤلفات وأبحاث ومناظرات، وكان للعلوم اللغوية ارتباط بالعلوم الشرعية لا يستطيع الطالب إتقان الواحدة إن لم يتقن الأخرى، حتى قال حماد بن سلمة: «إن الذي يكتب الحديث ولا يعرف النحو مثل الحمار عليه مخلاة لا شعير فيها.»

الفقه: ولما صار الإسلام دولة احتاج أمراؤه إلى ما يقضون به بين رعاياهم في أحوالهم الشخصية ومعاملاتهم المدنية، فكان معولهم على القرآن والحديث، فاستنبطوا منه الشريعة وأحكامها، وهو «الفقه» بفروعه المشهورة، كعلم النظر والمناظرة والجدل، والفرائض والشروط والقضاء والتشريع والفتاوي ونحوها.

التاريخ: ولما اشتغل المسلمون في تفسير القرآن وجمع الأحاديث احتاجوا إلى تحقيق الأماكن والأحوال التي كتبت بها الآيات أو قيلت فيها الأحاديث، فعمدوا إلى جمع السيرة النبوية ودوَّنوها، واضطروا لتحقيق مسائل الحديث والفقه والنحو والأدب إلى البحث في أسانيدها، والتفريق بين ضعيفها ومتينها، فجرَّهم ذلك إلى النظر في الرواة وتراجمهم وسائر أحوالهم، وقسَّموا رواة كل فن إلى طبقات، فتألف من ذلك تراجم العلماء والأدباء والفقهاء والنحاة وغيرهم مما يعبرون عنه بالطبقات كطبقات الشعراء وطبقات المفسرين أو النحاة أو الفقهاء أو الحُفَّاظ أو النسَّابين أو غيرهم، وكان ذلك من أهم أسس علم التاريخ، واتسع تأليفهم في هذا السبيل حتى كثيرًا ما كانوا يؤلِّفون الكتب التاريخية، خاصة لتراجم الأعلام الواردة في كتاب ككتاب تراجم الرجال الذين روى ابن إسحاق سيرة النبي عنهم، وكتاب تهذيب الأسماء، فإن من أهم البواعث على تأليفه ترجمة الأعلام الواردة في كتب مختصر المزني والمهذب والتنبيه والوسيط والوجيز والروضة.

وزد على ذلك أن المسلمين يجدون في القرآن آيات تستحثهم على الاشتغال في التاريخ والأخبار للعبرة والموعظة كقوله: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾،

وقوله: ﴿وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾، وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾.

الجغرافية: ويقال نحو ذلك في الأسباب المساعدة على وضع علم الجغرافيا أو تقويم البلدان أو الإسراع في نضجه ونموه، كالأسفار في طلب الحديث من حمَلَته، والحج إلى مكة، والرغبة في تطبيق القواعد الفقهية كالخراج والجزية، ويفتقر ذلك إلى معرفة حال البلاد وكيفية فتحها صلحًا أو عنوة، فجرَّهم ذلك إلى تعرف البلاد ومواضعها وعلة فتوحها، ووجدوا في القرآن نصوصًا تحض على طلب هذا العلم، كقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾، وقوله: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾، وغير ذلك.

(٢) تأثير القرآن في آداب الجاهلية

هذا ما كان من تأثير القرآن في تولد العلوم وتفرعها بعد الإسلام، وهناك تأثير لا يقل عن ذلك أحدثه القرآن في الآداب التي كانت شائعة قبل الإسلام فغيَّر أسلوبها ورقاها وهاك أهمها:

الخطابة: الخطابة والشعر من الفنون الأدبية الجاهلية التي زادها الإسلام رونقًا وبلاغة، والخطابة سبقت الشعر في ذلك لحاجة المسلمين إليها في الفتوح والغزوات، فمارسوها، وقد أشربت نفوسهم بأسلوب القرآن لما علمت من إقبالهم على حفظه وتدارسه، فارتقى ذوقهم الخطابي بتحدي أسلوبه واقتباس آياته، فأخذ الخطباء يرصِّعون خطبهم بالآيات تمثُّلًا وتهديدًا حتى لقد يجعلون الخطبة بجملتها مجموع آيات كما فعل مصعب بن الزبير لما قدم العراق وحرض أهله على طاعة أخيه عبد الله، وقد نشرنا خطبته في الجزء الأول من هذا الكتاب، وصار المسلمون يسمُّون الخطبة التي لم تزيَّن بشيء من القرآن «الشوهاء».

الشعر: وقس على ذلك تأثيره في الشعر، فإنه زاده طلاوة ورونقًا، واكتسب تعابير وأساليب لم تكن له من قبل، وترى أمثلة منها في أثناء هذا الكتاب.

الإنشاء: لم يصلنا من أساليب الإنشاء الجاهلي غير سجع الكهان، أتينا بمثال منه في كلامنا عن الكهانة في الجاهلية في الجزء الأول، وأقوال شق وسطيح الكاهنين

الجاهليين مشهورة، وكلها باردة ركيكة يمجُّها الذوق — ذلك ما وصل إلينا على ألسنة الرواة، على أنهم نقلوا إلينا من أساليب الخطابة في الجاهلية ما يخالف ذلك كخطبة قس بن ساعدة في عكاظ — والخطابة والإنشاء يتقاربان بأسلوبهما في كل زمان، ومهما يكن من الأمر فإن الإنشاء في الإسلام تبدَّل وارتقى كما ارتقت الخطابة، ودخل في طور جديد من البلاغة والفصاحة في عبارته على اختلاف طرق تأديتها، وأخذ الكتَّاب يتحدون القرآن في الإيجاز والإعجاز، ويتوخون الاختصار على قدر الإمكان عملًا بالحديث القائل: «أوتيت جوامع الكلم، واختُصِر لي الكلام اختصارًا.» فكانوا يجمعون المعنى الكبير في اللفظ القليل حتى تكاد ترى المعنى مجردًا من اللفظ، وكان لتلك الرسائل تأثير الخطب في الفتح فاستعاضوا بعد زمن الفتح ببلغاء الكتَّاب عن بلغاء الخطباء — كأن الرسالة البليغة خطاب يتلوه المرسل إليه، وقد أتينا بأمثلة من ذلك في الجزء الأول.

وكانوا إذا أرادوا البلاغة والتأنق في الإنشاء ضمنوا عباراتهم آيات يقتضيها المقام، فهي كالترصيع أو التطريز، ولا يزالون يفعلون ذلك إلى اليوم، ويكفي مثالًا على ارتقاء ذوق الإنشاء بالقرآن ما ظهر من بلاغة علي بن أبي طالب في خطبه ورسائله. ثم كان للإنشاء تاريخ سنأتي عليه في حينه.

اللغة: دخل اللغة كثير من الألفاظ الإسلامية، واكتسبت كثيرًا من المعاني الإسلامية لم تكن فيها من قبل كالصلاة والزكاة والمؤمن والكافر والمسلم، وغير ذلك من الألفاظ التي اقتضاها الإسلام، وقد فصلنا ذلك في مكان آخر.

وبالجملة، فإن معظم العلوم العربية اقتضاها القرآن أو الإسلام حتى عدها بعضهم من قبيل الدين، قال أبو عمرو بن العلاء: «علم العربية هو الدين بعينه.»

وقد رأيت أن العلوم اللسانية استعجلوا في وضعها لقراءة القرآن وتفسيره، لكنها ما لبثت أن صارت عالة عليه، ترجع في تحقيق قواعدها إلى آياته، يستشهدون بها في النحو والأدب وسائر العلوم اللسانية، حتى اجتمع في كتاب سيبويه في النحو ثلاثمائة شاهد من القرآن.

واعتبر ذلك في سائر فنون الأدب أو علوم اللغة، ومنها ما تأيَّد أكثره بأساليب القرآن كالمعاني والبيان والبديع ونحوها. ويرى المسلم في القرآن أماكن يتنسَّم منها الحض على طلب العلم ورفع قدر العلماء كقوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

(٣) تأثيره من الوجهة الاجتماعية

وهناك تأثير عظيم الأهمية لم يوفق لغير القرآن من الكتب الدينية في الأمم الأخرى — ذلك أنه أطال بقاء اللغة العربية الفصحى، وجعل ملايين من الناس يقرءونها ويفهمونها، وهو الذي حفظ الجامعة العربية واستبقى العنصر العربي؛ لأن الإسلام يفرض على كل مسلم أن يحفظه ويطالعه. لولا القرآن لكانت لغة العالم العربي لغات متفرقة يصعب التفاهم بين أصحابها، كما صارت إليه اللغة اللاتينية بعد ذهاب دولة الرومان فتفرق أصحابها أُممًا وطوائف، وامَّحت الدولة الرومانية والأمة الرومانية كما امَّحت سواها من الأمم التي ذهبت جنسيتها بذهاب لغتها كالسريان والأنباط في الشام والقبط في مصر — وهؤلاء إنما حفظت جامعتهم بالدين لا باللغة.

أما اللغة العربية فقد حفظها القرآن، وحفظ بها التفاهم بين الأمم الإسلامية في الشام ومصر والعراق والحجاز والمغرب وزنجبار والسودان وغيرها، ولولاه لكانت كل أمة من هؤلاء تتكلم لغة لا تفهمها صاحبتها. ومع ذهاب التمدن الإسلامي وتقهقر الدولة الإسلامية كان يخشى ضياع تلك الأمم وفناؤها، أو اندماجها في الأمم التي تسلطت عليها كما أصاب الأمم التي اندمجت بالعرب بعد الإسلام، لكنها الآن تجتمع وتتكاتف لأنها تتفاهم بلغة واحدة لغة القرآن وتعد نفسها أمة واحدة.

ناهيك بمن يقرأ العربية من غير العرب بسبب حفظ القرآن، ولو كانوا في أقصى الشرق كالهند والصين أو بأواسط آسيا تركستان وخراسان وفارس، فإن عدد قراء العربية يزيد على مائتي مليون، وقراء التوراة بلغتها الأصلية شرذمة من اليهود المتعلمين وجمهورهم يقرؤها بلغة بلاده. وقراء الأناجيل بلغتها الأصلية فئة قليلة، وأكثر أمم النصرانية يقرءونها في اللغات المترجمة إليها، أما القرآن فالمسلمون يقرءونه في اللغة العربية.

ويعدُّ من قبيل تأثيره في آداب اللغة أيضًا تأثيره في أخلاق أصحابه. ولكل كتاب من كتب الدين الرئيسية تأثير عام على أتباع ذلك الدين يظهر فيهم ولو تباعدت مواطنهم — وذلك طبيعي لما نعلمه من تأثير العادات في الأخلاق والأبدان، ولكل دين تعاليم وتقاليد وآداب تظهر آثارها في أخلاق أصحابه، فالمسيحيون يشتركون في كثير من الآداب والعادات والأخلاق يمتازون بها عن سواهم، وكذلك اليهود وغيرهم.

واعتبر ذلك في القرآن، بل هو أشد تأثيرًا في أصحابه من سواه؛ لأنهم مكلفون بحفظه قبل كل علم وهم أطفال، وهو داخل في كل شيء من أمورهم الدينية والدنيوية

وأساس شرائعهم القضائية وقاعدة معاملاتهم اليومية وأحوالهم العائلية حتى الطعام واللباس والشراب والنوم والنسل، وكل شيء يمكن استنباطه منه ويوجد له مثال فيه، وهذا لا تراه في الأناجيل مثلًا؛ فإنها كتب تعليمية لمصلحة الآخرة فقط، ولا تجد فيها شرعًا أو حكومة أو أحوالًا شخصية أو نحو ذلك إلا ما يأتي عرضًا ويفتقر إلى تأويل.

ولكل كتاب من هذه الكتب شأن خاص أيضًا من حيث أخلاق القوم الذين كتب الكتاب لهم، أو بلسانهم بما يلائم أخلاقهم وعاداتهم وآدابهم، ويختلف القرآن عن سائر تلك الكتب من هذا القبيل، كما تختلف أخلاق العرب الجاهلية الذين جاء القرآن بلسانهم عن أخلاق العبرانيين الذين كتبت التوراة لهم، والأقوام الذين كتبت الأناجيل بألسنتهم.

وتأثير القرآن في أخلاق أهله ومعاملاتهم اليومية والبيتية لا يخلو من التأثير على عقولهم وقرائحهم وآرائهم، ولو بعدت عن الدين وعلومه، فالصبغة الدينية القرآنية أو الإسلامية تظهر في مؤلفات المسلمين ولو ألفوا في الفلسفة أو الطب أو الفلك أو الحساب أو غيرها من العلوم الرياضية أو الطبيعية، فضلًا عن العلوم الإسلامية الشرعية واللسانية والتاريخ والأدب.

وبالجملة فإن للقرآن تأثيرًا في آداب اللغة العربية ليس لكتاب ديني مثله في اللغات الأخرى.

العصر العباسي الأول

أو المائة الأولى من سيادة العباسيين في بغداد
من سنة ١٣٢–٢٣٢هـ

هو عصر الإسلام الذهبي، بلغت فيه دولة المسلمين قمة مجدها بالثروة والحضارة والسيادة، وفيه نشأت أكثر العلوم الإسلامية، ونقلت أهم العلوم الدخيلة إلى العربية، وكانت دور الخلفاء آهلة بالأدباء والشعراء والعلماء مثل بلاط لويس الرابع عشر ملك فرنسا في إبان مجده. وكانت الدولة العباسية في أكثره صاحبة السيادة على العالم الإسلامي، وأوروبا في أكثف غياهب الجهالة.

وكان الشرق يومئذ في نهضة فكرية كأن الإسلام هز أركانه ونبه أهله، فنهض الفرس والترك والتتار والهنود — حتى أهل الصين واليابان؛ فإنهم هبوا هبة إصلاحية أدبية في أثناء العصر العباسي الأول أو على أثره، فنبغ في الصين نحو القرن العاشر للميلاد طائفة كبيرة من فحول الشعراء على عهد دولة طانغ، وكانوا كالعباسيين في دورهم الأول يحبون العلم ويقدمون العلماء. واشتغل اليابانيون في ذلك العصر أيضًا بإصلاح لسانهم، وتهذيب آدابهم الاجتماعية، ونبغ فيهم الشعراء والكتاب والمصورون والحفَّارون وغيرهم.

وتمهيدًا للكلام في آداب اللغة العربية في ذلك العصر نذكر الانقلاب السياسي الذي تقدمه بانتقال الدولة من الأمويين إلى العباسيين؛ ليهون علينا تفهم ما حدث من التغيير في الآداب والعلوم.

الانقلاب السياسي في العصر العباسي الأول

كانت عاصمة الدولة الأموية في دمشق على حدود بادية العرب، وكان خلفاء تلك الدولة عربًا، وجندها وقوادها وعمالها من العرب، وكذلك كُتَّابها وقُضاتها وسائر رجال حكومتها. أما الدولة العباسية فقد نصرها الفرس، فجعلت قصبتها (بغداد) على حدود بلادهم، واتخذت وزراءها وأكثر أمرائها وقوادها منهم. ولما عمرت بغداد تقاطر إليها الناس للارتزاق بالتجارة أو الصناعة أو الأدب أو الشعر أو بأسباب الملاهي، فالتقى فيها العربي والفارسي والرومي والنبطي والتركي والصقلي والهندي والبربري والزنجي، وفيهم المسلم والنصراني واليهودي والصابي والسامري والمجوسي والبوذي وغيرهم.

واعتبر ذلك في البصرة والكوفة من مدائن العراق الإسلامية، فقد كانتا آهلتين بالناس على اختلاف نحلهم وأجناسهم وعناصرهم، وتختلفان عن بغداد بمن أقام في ضواحيهما من جالية العرب أهل البادية من القبائل التي نزحت إلى هناك بعد الإسلام كما تقدم، وما زالت البصرة والكوفة مجتمع أهل الأدب والعلم والشعر حتى عمرت بغداد، فأصبحت بما استبحر من عمرانها هي وحدها أم المدائن الإسلامية وبؤرة العلم ومجتمع العلماء، ثم شاركتها في ذلك القاهرة وقرطبة ودمشق والقيروان وغيرها.

وناهيك بثروة بغداد وحضارتها وتبسُّط أهلها في العيش وإركانهم إلى الرخاء وتدفق الأموال من بيت المال على أهل الدولة، ومن يلتف حولهم من الأعوان أو أهل المهن أو الأدب أو الطرب.

الخلفاء والعلم والأدب

ويمتاز العصر العباسي الأول بمن تولى فيه عرش بغداد من الخلفاء العلماء لرغبتهم في العلم وإجلال العلماء والأدباء، فسهَّلوا نزوحهم إليهم، وأجروا الأرزاق عليهم، وبالغوا في إكرامهم، وقربوهم وجالسوهم وآكلوهم وحادثوهم وعوَّلوا على آرائهم، فلم يبقَ ذو قريحة أو علم أو أدب إلا يمَّم دار السلام ونال جائزة أو هدية أو راتبًا.

ولا يزهو العلم إلا في ظل أمير يتعهَّده ويأخذ بأيدي أهله — والناس كما يكون ملوكهم — وخلفاء العصر العباسي الأول من أكثر الملوك رغبة في العلم: يروى أن المنصور لما مات ابنه جعفر وانصرف إلى قصره بعد دفنه قال للربيع وزيره: «انظر من في أهلي ينشدني (أمن المنون وريبها تتوجع) حتى أتسلى بها عن مصيبتي.» فطلب الربيع

ذلك من بني هاشم فلم يجد من يستطيعه، فقال المنصور: «والله لمصيبتي بأهل بيتي ألا يكون فيهم واحد يحفظ هذا لقلة رغبتهم في الأدب أعظم وأشد عليَّ من مصيبتي بابني.»[١]

وكان للمنصور دفاتر علم هو شديد الحرص عليها حتى أوصى ابنه المهدي بها عند وفاته،[٢] وكان المنصور من أحسن رواة الحديث، وله ذوق في الشعر ينتقد الشعراء ويعرف المنحول والمسروق،[٣] وكذلك ابنه المهدي، فقد كان ينتقد الشعراء لكثرة تشبيبهم قبل المدح، وكان يكره الغزل.[٤] أما الرشيد فكان أكثرهم رغبة في العلم والعلماء، حافظًا للشعر، نقَّادًا للشعراء، وكان يحفظ شعر ذي الرمة حفظ الصبا،[٥] وهو مشهور بتقديم الشعراء والأدباء، وابنه المأمون أشهر من أن يذكر بعلمه وفضله، وذكروا له مؤلفات حسنة قد ضاعت.

وناهيك بأبناء الخلفاء والأمراء، فقد اشتغل كثيرون منهم بالأدب كإبراهيم المهدي. إنه أول نابغ من بني العباس في الترسل والشعر والموسيقى، وله كتاب في الأدب اسمه «أدب إبراهيم»، وكتاب الطبخ والطب، وكتاب الغناء ضاعت كلها، واعتبر ذلك أيضًا في الأمراء والوزراء كأبي دلف العجلي سيد قومه، فقد كان أديبًا وألَّف في سياسة الملوك والسلاح والصيد، والفتح بن خاقان وزير المتوكل كانت له خزانة علم لم ير أعظم منها كثرة وحسنًا، وكان يحضر داره فصحاء الأعراب وعلماء الكوفة والبصرة، واشتغل بالأدب لنفسه فألَّف كتاب اختلاف الملوك وكتاب الصيد والجارح وكتاب الروضة والزهر، وكان عبد الله بن طاهر شاعرًا مترسلًا بليغًا وكذلك ابنه طاهر ولكل منهما مجموع رسائل.

فالدولة التي يكون ملوكها وأمراؤها على هذه الصورة يجدر بها أن تزهو بالعلم والعلماء، واعتبر هذه القاعدة بسائر عصور آداب اللغة من أول الإسلام، فإنك لا تجد نهضة إلا كان للملك أو الأمير أو الرئيس تأثير كبير فيها — ذلك شأن الأمم في الحكم المطلق وإرادة الملك شريعة المملكة.

حرية الدين

ومن مميزات هذا العصر إطلاق الفكر من قيود التقليد إلا ما يمس الدولة أو الخلافة؛ ولذلك فقد تعددت البدع الدينية في أيامهم من المجوس وغيرهم، غير الفرق الإسلامية وتعدادها، وكان أكثر الخلفاء تسامحًا في الدين المأمون، فكان هو نفسه شيعيًّا، وكان وزيره يحيى بن أكثم سنيًّا ووزيره أحمد بن أبي داود معتزليًّا، يكفيك من تسامحه في الدين انتصاره للمعتزلة في القول بخلق القرآن.

فكانت الأفكار من حيث الدين مطلقة الحرية في ذلك العصر لا يكره الرجل على معتقده أو مذهبه، فربما اجتمع عدة إخوة في بيت واحد وكل منهم على مذهب، فأولاد أبي الجعد ستة منهم اثنان يتشيعان، واثنان مرجئان، واثنان خارجيان.

الوزراء الفرس والموالي

وكان للوزراء الفرس تأثير كبير في تلك النهضة، والفرس أهل مدنية قديمة، وكانوا يومئذ في نهضة علمية بدأت من زمن كسرى أنوشروان، وكان البرامكة على الخصوص يحبون العلم والعلماء، ويبذلون المال في تقريبهم واستحثاث قرائحهم، فوقف الأدباء والشعراء على أبوابهم كما وقفوا بباب الرشيد، وكانت لهم أيادٍ بيضاء في ترجمة العلم القديم إلى العربية.

ومن ثمار ذلك الانقلاب أن الموالي (المسلمين غير العرب) الذين كان الأمويون يحتقرونهم قربهم العباسيون، وفيهم الخراسانيون الذين نصروهم في تأييد دولتهم، وقدموا سائر الموالي واستخدموهم في أمور الدولة، فارتفع شأن الموالي من ذلك الحين وأكثرهم من الفرس، أشهرهم في العصر العباسي الأول آل برمك وآل الفضل. وكان الخلفاء العباسيون يتواصون بالموالي وحسن معاملتهم والإحسان إليهم، فنبغ فيهم طائفة كبيرة من العلماء والأدباء والشعراء ورجال العلم والعمل.

ومن ثمار الحضارة في ذلك العصر تكاثر الجواري مما لم يسمع به قبله حتى كان منهن في بعض المنازل عشرات، وفي البعض الآخر مئات، وبلغ عددهن عند الرشيد ٢٠٠٠ جارية، وصاروا يتهادونهن كما يتهادون الحلي والجواهر.[٦] وتكاثر الغلمان فيه وتفننوا في تزيينهم واستخدامهم، وشاع تسريهم كما يتسرون الجواري ويتهادونهم كما يتهادونهن، وصاروا يحجبونهم كما يحجبون النساء.[٧]

فالانقلاب السياسي والاجتماعي المشار إليه أحدث انقلابًا في الأفكار والعقول، وظهر أثر ذلك طبعًا في آداب اللغة كما سيجيء.

هوامش

(١) الأغاني ٦١ ج٦.

(٢) ابن الأثير ٧ ج٦.

(٣) البيان ١٥٦ ج٢.

(٤) الأغاني ٥٥ ج٣.

(٥) الأغاني ٣٩ ج٥.

(٦) ترى تفصيل ذلك في تاريخ التمدن الإسلامي ج٥.

(٧) الأغاني ٢٠٨ ج٦.

أقسام آداب اللغة العربية

والعلوم أو الآداب التي سننظر في تاريخها تدخل في أربعة أبواب:

الأول: العلوم العربية الأصلية التي كانت قبل الإسلام، وأهمها اللغة والشعر والخطابة.

الثاني: العلوم الإسلامية وهي قسمان:

(١) العلوم الشرعية الإسلامية التي اقتضاها الشرع الإسلامي.
(٢) العلوم اللسانية، نعني علوم اللغة التي اقتضتها العلوم الإسلامية، وبعثت على ظهورها.

الثالث: العلوم الدخيلة التي نقلت عن الأمم الأخرى.

ولنبدأ بالعلوم الدخيلة ليظهر تأثيرها في سائر العلوم.

(١) العلوم الدخيلة

لو أردنا بسط الكلام في هذه العلوم وأصولها ومواضيعها، وما نقل منها إلى لساننا لضاق بنا المقام وبعدنا عن المراد من هذا الكتاب — نعني الكلام في ما يمكن الرجوع إليه والانتفاع به من الكتب. والعلوم الدخيلة التي نقلت يومئذ أصبح معظمها في زوايا الإهمال بظهور العلم الطبيعي الحديث، وقد فصلنا خبرها في الجزء الثالث من تاريخ التمدن الإسلامي فنكتفي هنا بفذلكة إجمالية.

(١-١) امتياز العرب على سواهم من الفاتحين

ومما يحسن إيراده لبيان امتياز أصحاب التمدن الإسلامي على سواهم من الأمم الفاتحة من هذا القبيل أن القوط أو قبائل الجرمان سطوا على مملكة الروم من الشمال كما سطا عليها العرب من الجنوب، وكلاهما أهل بادية وحرب، امتلك القوط إيطاليا في القرن الخامس، فتركوا أهلها الروم على ما كانوا عليه من آدابهم وعلومهم وظلوا هم على بداوتهم وحبهم الحرب، واستخدموا الوطنيين في تدبير حكومتهم — كما فعل العرب في أوائل دولتهم — لكن القوط لما تحضروا حملوا علماء الرومان على التأليف، فألفوا لهم الكتب باللاتينية وليس بالقوطية، فذهبت هذه اللغة وبقيت لغة الروم بما صارت إليه من الفروع، أما العرب فإنهم حالما استتبت لهم السيادة جعلوا الدواوين في العربية، وحملوا رعاياهم على مكاتبتهم بالعربية. ولما أرادوا نشر العلم كلفوا رعاياهم نقل تلك العلوم إلى العربية، فذهبت لغات الأمم التي كانت تحت سلطانهم وبقيت العربية.

(١-٢) ما هي العلوم الدخيلة؟

نريد بها العلوم القديمة التي كانت شائعة عند ظهور الإسلام في الممالك التي عرفها المسلمون، وهي عبارة عن خلاصة أبحاث رجال العلم والفلسفة والأدب في ممالك التمدن القديم على اختلاف الأمم والدول والأماكن والأطوار في القرون المتوالية من أقدم أزمنة التاريخ إلى أيامهم، وفيها زبدة علوم الأشوريين والبابليين والفينيقيين والمصريين والهنود والفرس واليونان والرومان — ولا يراد بذلك أن العرب أخذوا علم كل أمة عن أهله رأسًا، ولكنهم جاءوا والعلوم قد تحلَّبت بتوالي الأدهار وتفاعل العناصر واجتمع معظمها لليونان فبوَّبوها ورقوها وظهرت النصرانية فأثرت فيها، وبقي بعضها في بقايا الدول القديمة كالفرس والكلدان والهنود وغيرهم ممن دانوا للمسلمين وانتظموا في خدمتهم، فأخذوا من هؤلاء جميعًا؛ ولذلك كان من جملة أفضال التمدن الإسلامي على العلم أنه جمع شتات تلك العلوم من اليونانية والفارسية والهندية والكلدانية إلى العربية وزاد فيها ورقاها.

فلنبحث أولًا في حال العلم والأدب في البلاد التي عرفها المسلمون، وهو يتناول النظر في آداب اليونان والفرس والهنود والكلدان على ما يأذن به المقام، ثم نتقدم إلى الكلام في ما نقله العرب من ذلك.

(١-٣) آداب اللغة اليونانية

الفلسفة والفلاسفة

بيَّنَّا في الجزء الأول من هذا الكتاب أقسام الآداب اليونانية، وعصورها إلى عصر الفلسفة، فنكتفي بخلاصة تاريخية عنها:

أخذ اليونان بأهداب الفلسفة والعلم على أثر الحروب المورية فإنها توالت ٢٧ سنة، وفي نهايتها دخلت أثينا في حوزة اللقديمونيين، وأصبح الأثينيون بعد العز أذلاء فساقتهم العبرة والمذلة إلى النظر في الوجود، فنهضوا نهضة فلسفية زعيمها وواضع أساسها سقراط، والحروب يغلب أن يعقبها نهضة أدبية أو علمية أو سياسية على ما قررناه في غير هذا المكان — وإن كانوا قد تنبهوا إلى شيء من ذلك قبلًا.

فلما أصيبت أثينا بالذل بعد تلك العظمة أصاب أهلها اضطراب وانكسار — والإنسان إذا أصيب بنكبة لا حيلة له في دفعها اشتغل عنها بالتعليلات الفلسفية عن الوجود وأصله؛ ليخفف وطأة تلك المصيبة عليه، وخصوصًا في مثل ما أصيبت به أثينا بعد عزها ورفعة شأنها، وأصبح أهلها بعد سقوطها يتلفتون إلى الوراء آسفين، وينظرون إلى الأمام خائفين وقد ذهبت أسباب مفاخرتهم القديمة، ولم تنتظم حكومتهم الجديدة، فتنبَّهت أذهانهم وانصرفت قرائحهم إلى النظر في شئون الإنسان على الجملة وشئونهم على الخصوص، فكانت وجهة تلك النهضة الأدب والفلسفة، فدخل القرن الرابع قبل الميلاد والناس يتناقلون آراء بعض المتقدمين من العلماء على ما يوافق أحوالهم، ونفوسهم تشتاق إلى الزيادة.

سقراط: وكان الناس في ذلك إذ نبغ سقراط الحكيم، ورأى النظر في الفلسفة الطبيعية لا يجدي نفعًا في تلك الأحوال، فانصرفت عنايته إلى الفلسفة الأدبية فدرسها جيدًا، وخلَّصها مما كان يعتورها من الرموز والغوامض وطبَّقها على حاجات الأثينيين يومئذ، وقسم شرائعه إلى ما يتعلق بالإنسان من حيث هو إنسان، وإلى ما يتعلق به من حيث هو أب ومدبر، وإلى ما يتعلق به من حيث هو أحد الجماعة. وذهب إلى خلود النفس، ويعتبره اليونانيون واضع الفلسفة الأدبية العملية أو هو محول الفلسفة القديمة من الخيال إلى العمل — قال شيشرون: «إن سقراط أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض.»



شكل ١: سقراط.

ويندر أن ينجو النوابغ وأصحاب الآراء الجديدة من حساد يتمنون أذيتهم أو يسعون فيها، وقد كان في تعاليم سقراط ما يخالف اعتقاد الأثينيين يومئذ فقاموا عليه وقتلوه.

أفلاطون: مات سقراط ولم يدوِّن شيئًا من تعاليمه فدوَّنها تلامذته من بعده، ولكنهم اختلفوا في تفسير أقواله، فانقسموا إلى ثلاث فرق تعرف بالكرينية والكلبية والأشرافية، وهذه الأخيرة أشهرها، وتسمى أيضًا الأفلاطونية نسبة إلى صاحبها أفلاطون المولود سنة ٤٢٨ قبل الميلاد، ومذهبه مقتبس من ثلاثة مذاهب قديمة فإنه تبع هيرقليطس في الطبيعيات وفيثاغورث في ما وراء الطبيعة والنقليات، وتبع سقراط في الفلسفة الأدبية والأخلاق، وقال بثلاثة أصول: الإله، والمادة، والإدراك، والآلهة عنده ثلاث طبقات: عليون، ومتوسطون، وسفليون، وعلَّم بتناسخ الأرواح، وكتب أفلاطون على أسلوب المحاورات.

أرسطو: وانقسم تلامذة أفلاطون أيضًا إلى فرق، أهمها فرقة المشائين وصاحبها أرسطو أو أرسطوطالس الذي أجمع العلماء على أنه أقدر الفلاسفة القدماء، ويسميه العرب المعلم الأول، ولد سنة ٣٨٤ وتوفي سنة ٣٢٢ق.م، وعنه نقل العرب أكثر كتب الفلسفة



شكل ٢: أفلاطون.

والمنطق. جمع أرسطو في كتبه زبدة ما بلغ إليه العلماء في عصره ببلاد اليونان من الفلسفة والعلم. أما الفلسفة فأخذها عن أستاذه أفلاطون، ويدخل فيها الأبحاث المنطقية والعقلية والنفسية والسياسية. وأما العلم — ويراد به الحقائق المبنية على المشاهدة والاختبار كالرياضيات والطبيعيات ونحوها — فقد كانت من جملة ما طالعه من علوم القدماء وما اختبره بنفسه، وكان غرض أرسطو إيضاح الفلسفة بالعلم وإخضاع كل بحث عقلي أو نظري إلى النواميس الطبيعية، ولم يكن يهمه تزويق العبارة أو برقشة الألفاظ إنما كان يهمه الغرض الأصلي من الموضوع، فكان يبذل جهده في تجريد عبارته من الخيالات الشعرية التي مازجت فلسفة أفلاطون.

والكتب التي ثبتت نسبتها إلى أرسطو ١٩ كتابًا نقل معظمها إلى اللغة العربية، وقد ذكرناها مع كتب أفلاطون في الصفحة ١٥١، وما بعدها من تاريخ التمدن الإسلامي ج٣.

الطب والنجوم

والطب أيضًا من ثمار تلك النهضة على أثر الحرب المورية، وكان اليونان قبل ذلك يعالجون مرضاهم بالكهانة، وينسبون الأمراض إلى أعمال الشياطين، والعلاجات إلى



شكل ٣: أرسطو.

أعمال الآلهة، وكان الفلاسفة يتكلَّمون في الطب باعتبار أنه فرع من الطب الطبيعي، ولم يستقلَّ أحد منهم بالبحث فيه، وأول من رتب الطب وبوَّبه وبناه على أسس صحيحة أبقراط المتوفى سنة ٣٥٧ق.م؛ ولذلك سموه أبا الطب، وهو من نتاج الحرب المورية، نشأ في أثنائها، ونبغ بعد انقضائها، وسافر إلى سوريا، ولعله اطلع على طب البابليين والمصريين فأضافهما إلى طب اليونان، وألف فيه الكتب، وأساس معالجته الاعتماد على الطبيعة، وكان يفصد ويحجم ويكوي ويحقن ويشخص الأمراض بالسماعة، ويصف المسهلات النباتية والمعدنية. وله كتب في الطب كثيرة ذكروا منها ٨٧ كتابًا ولم يثبت له منها إلا نحو العشرين، ونقلت في جملة ما نقله المسلمون من كتب الطب إلى العربية، وما زالت كتب أبقراط معول الأطباء إلى العصر الجديد، وفيهم مَنْ شَرَحَها أو فسرها أو ترجمها أو علق عليها.



شكل ٤: أبقراط.

وممن اشتغل من اليونانيين في ترقية العلوم الطبية بعد أبقراط أرسطو وغيره من الفلاسفة العظام، فلما أنشئت مدرسة الإسكندرية على عهد البطالسة كان للطب شأن كبير فيها.

والنجوم أو علم الفلك قديم عند سائر الأمم كما قد رأيت في كلامنا عن علوم العرب قبل الإسلام، أخذ اليونان مبادئ هذا العلم عمن سبقهم من أمم التمدن القديم على يد الفينيقيين، وتوسعوا فيه من عند أنفسهم، وكان النظر فيه من جملة أبحاث الفلاسفة وأقدمهم طاليس، وقلَّ من جاء بعده من فلاسفة اليونان ولم يتعرض لهذا الفن، وأشهرهم فيه أنكسيندر وأنكسيمينس وأنكساغوراس، وكان للقسم الإيطالي من بلاد اليونان عناية كبرى في النجوم ومقدام فلاسفتهم فيه فيثاغورس الشهير المتوفى سنة ٥٠٠ق.م، أخذ بعض هذا العلم من مصر وتوسع فيه وتبعه في ذلك كثيرون، ويكاد لا يخلو فيلسوف يوناني من النظر في النجوم وأحكامها مما يطول شرحه، على أن هذا العلم بلغ قمة مجده في مدرسة الإسكندرية.



شكل ٥: أوقليدس.

ويقال نحو ذلك في سائر العلوم الرياضية كالحساب والهندسة، فقد اشتغل فيها الفلاسفة لكنها لم تنضج إلا في مدرسة الإسكندرية على يد أوقليدس.

وقد عقدنا فصلًا عن تاريخ مكتبة الإسكندرية وهل أحرقها العرب في الجزء الثالث من تاريخ التمدن الإسلامي صفحة ٤٠ و١٢٣، وفصلًا في الهلال الأول من السنة العشرين، وقد زهت الإسكندرية بالرياضيات والطب والفلسفة، ونبغ فيها الرياضيون ومنهم أوقليدس وأرخميدس وأبولونيوس من أهل القرن الثالث قبل الميلاد، وهيبارخس من أهل القرن الثاني، وفيها ظهر بطليموس القلوذي الجغرافي والرياضي في أواسط القرن الثاني بعد الميلاد، فوضع كتاب المجسطي، وكان عليه المعول في مدارس العالم إلى عهد غير بعيد، وألَّف أيضًا كتاب الجغرافية الشهير، واشتغل علماء الإسكندرية خصوصًا برصد الأفلاك واستخراج الأزياج، وظل مرصدهم وحيدًا في العالم إلى أيام الإسلام.

أما الطب فكان يعلم في مدرسة برغامس، فلما زهت مدرسة الإسكندرية توجهت الأنظار إليها، وعمدة التدريس فيها على مؤلفات أبقراط، لكنهم اشتغلوا أيضًا في التشريح وفاقوا به سواهم.



شكل ٦: أرخميدس.

وانقسم أطباء الإسكندرية في الطب إلى حزبين حتى ظهر جالينوس في أواخر القرن الثاني للميلاد، فانتهى الطب إليه، وأصبحت كتبه معوَّل الناس فيه، وللطب والفلسفة في مدرسة الإسكندرية تاريخ طويل لخَّصناه في الجزء الثالث من تاريخ التمدن الإسلامي.

(٤-١) آداب اللغة الفارسية

الفرس من الشعوب الآرية إخوان الهنود واليونان، وهم أمة قديمة حاربت اليونان قبل المسيح ببضعة قرون، فجردت على بلادهم جيشًا قد يمتنع على أعظم دول الأرض اليوم حشده ونقله بمهماته ومئونته من أوسط آسيا إلى البحر الأبيض، فكيف منذ بضعة وعشرين قرنًا، فالدولة التي هي مبلغ قوتها لا تخلو من أدب وعلم، والفرس أهل ذكاء وتعقل، وفيهم استعداد فطري لأسباب التمدن، فلا بد من إجادتهم من نظم الشعر على نحو ما فعل إخوانهم الهنود في المهابهاراتة ونحوها، وإن كان ما وصل منه إلينا قليلًا، ناهيك بالعلوم القديمة التي هي من قبيل الطبيعيات والرياضيات كالنجوم والأنواء، فقد أحرزا شيئًا منها؛ وخصوصًا لأنهم ورثوا البابليين والأشوريين، واحتكُّوا باليونان وهم في



شكل ٧: جالينوس.

إبَّان تمدُّنهم، واختلطوا بجيرانهم الهنود، وكانوا يعرفون الكتابة وينقشونها على الأحجار باللغة الفهلوية، ويؤيد ذلك ما جاء في كتب الأخبار عن فتوح الإسكندر بلاد فارس وما عثر عليه في عاصمتهم إصطخر من خزائن الكتب، وفيها ما كان قد جمعه الفرس من علوم الهند والصين إلى تلك الإيام.

والمشهور أن علوم الفرس لم تأخذ في الظهور إلا في أيام سابور بن أزدشير، فبعث إلى بلاد اليونان استجلَبَ كتب الفلسفة وأمر بنقلها إلى الفارسية،[١] واختزنها في مدينته وأخذ الناس في نسخها وتدارسها.

فلما تولى كسرى أنوشروان العادل (من سنة ٥٣١–٥٧٨م) فُتح للفرس مورد جديد للعلم والفلسفة بما كان من اضطهاد يوستنيان قيصر الروم للفلاسفة الوثنيين على أثر إقفاله الهياكل والمدارس الوثنية. وكانت الفلسفة الأفلاطونية الجديدة قد نضجت ففرَّ بعض أصحابها من وجه الاضطهاد، وتفرَّقوا في العالم، وجاء منهم سبعة إلى أنوشروان فأكرم وفادتهم، وأمرهم بتأليف كتب الفلسفة أو نقلها إلى الفارسية فنقلوا المنطق والطب،[٢] وألفوا فيهما الكتب فطالعها هو ورغب الناس فيها، وعقد المجالس للبحث والمناظرة كما فعل المأمون بعده بقرنين وبعض القرن، حتى خيل لليونان الذين جالسوا

أنوشروان أنه من تلامذة أفلاطون، والمظنون أن تلك الفلسفة كانت أساسًا لتعاليم الصوفية التي نشأت بعد ذلك.

ولم يقتصر أنوشروان على نقل علوم اليونان إلى لسانه، ولكنه نقل علوم الهنود أيضًا من السنسكريتية إلى الفارسية،[٣] وأنشأ في جند بسابور مارستانًا (مستشفى) لمعالجة المرضى وتعليم صناعة الطب استقدم إليه الأطباء من الهند وبلاد اليونان، وكانوا يعلمون فيه الطبين الهندي والأبقراطي فجمع بين الحسنين.

(١-٥) آداب اللغة السريانية

كان للسريان تمدن قديم، وإنما يهمنا في هذا المقام ما كان عندهم من علوم الفلسفة التي اشتغلوا بنقلها، وهم في ذلك تلامذة اليونان؛ لأنهم تعلموا فلسفتهم وطبهم وسائر علومهم كما تعلمها الرومان قبلهم واقتبسها الفرس معهم، وكما تعلمها المسلمون بعدهم. والسريان أهل ذكاء ونشاط، فكانوا كلما اطمأنت خواطرهم من مظالم الحكام وتشويش الفاتحين انصرفوا إلى الاشتغال في العلم؛ فأنشئوا المدارس للاهوت والفلسفة واللغة، ونقلوا علوم اليونان إلى لسانهم، وشرحوا بعضها ولخصوا بعضها. ومنهم خرج أكثر الذين ترجموا العلم للعباسيين وأكثرهم من النساطرة، ونقتصر هنا على ذكر اشتغالهم في العلم لأنفسهم.

كان للسريان في ما بين النهرين نحو خمسين مدرسة تعلَّم فيها العلوم بالسريانية واليونانية أشهرها مدرسة الرها، وفيها ابتدأ السريان يشتغلون بفلسفة أرسطو في القرن الخامس للميلاد، وبعد أن تعلموها أخذوا في نقلها إلى لسانهم، فنقلوا المنطق في أواسط القرن المذكور، ثم أتم دراسة المنطق سرجيس الراس عيني الطبيب المشهور، وفي المتحف البريطاني بلندرا نسخ خطية من ترجمته الإيساغوجي إلى السريانية، وكذلك مقولات أرسطو لفرفوريوس وكتاب النفس وغيرها، وقد نشر بعضها من عهد قريب.

في أوائل القرن السابع للميلاد اشتهرت مدرسة قنسرين على الفرات بتعليم فلسفة اليونان باللغة اليونانية، وتخرَّج فيها جماعة كبيرة من السريان وفي جملتهم الأسقف سويرس، فقد انقطع فيها لدرس الفلسفة والرياضيات واللاهوت، ولما تمكَّن من تلك العلوم نقل بعضها إلى السريانية، ولا تزال بعض ترجماته في الفلسفة محفوظة في المتحف البريطاني، وقد أتمها بعده تلميذه يعقوب الرهاوي واضع علم النحو السرياني وأثناسيوس بلد، ومن تلامذته أثناسيوس جورجيوس المعروف بأسقف العرب (٦٨٦م)،

فقد ترجم بعض كتب أرسطو، واشتغل جماعة آخرون في ترجمة كتب أفلاطون وفيثاغورس وغيرهما مما يطول شرحه، واشتهرت هناك مدارس أخرى كمدرسة نصيبين التي كان عدد تلامذتها نحو ثمانمائة، وكانت تعلِّم كل العلوم العقلية والنقلية.

أما الطب فقد كان لهم فيه حظ وافر على أثر إنشاء مارستان جنديسابور، واشتهر فيهم من أهل هذه الصناعة كثيرون منهم سرجيس الراس عيني المتقدم ذكره، وأتانوس الآمدي، وسمعان الطيبوتي، والأسقف غريغوريوس، والبطريرك ثيودوسيوس، وغيرهم من الأطباء الذين أدركوا الدولة العباسية وخدموها.

وقد نقل أطباء السريان كثيرًا من كتب الطب من اليوناني إلى السرياني حتى في أثناء اشتغالهم بنقلها إلى العربية؛ لأنهم كانوا كثيرًا ما ينقلونها إلى السرياني فقط أو إلى السريانية والعربية معًا.

(١-٦) آداب اللغة الهندية

الهنود أمة قديمة والطبقة العليا منهم إخوان الفرس واليونان، وقد نظموا الملاحم ودونوا الأخبار شعرًا من قديم الزمان، ولهم آداب خاصة وتواريخ خاصة تولدت عندهم بتوالي القرون كما يستدل من مراجعة تواريخهم ودرس أحوالهم، حتى كثيرًا ما كان ملوك الفرس يستغيثون بأطبائهم كما فعل أنو شروان في مارستان جنديسابور، وكما وقع للخلفاء العباسيين في أوائل نهضتهم، فإنهم كانوا يستقدمون الأطباء من الهند، ويستشيرونهم في أمراضهم بعد أن تفرغ حيل أطباء الفرس والسريان في معالجتهم؛ لأن للطب الهندي طرقًا غير ما للطب اليوناني أو الفارسي، وقد اشتهر منهم عدة أطباء ألفوا في الهندية، ونقل المسلمون بعض كتبهم إلى العربية ومنهم منكه وصنجهل وشاناق وغيرهم.

وكانت لهم معرفة حسنة بالنجوم ومواقعها وأبراجها، ولها أسماء خاصة بلسانهم، وكان لهم فيها ثلاثة مذاهب: مذهب الأرجهير، ومذهب الأركند، ومذهب ثالث يقال له بالسنسكريتية: سدهنتا Siddhânta، هو عبارة عن زيج ذكروا فيه آراءهم في حركات الكواكب، وهو الذي وصل إلى العرب ونقلوه إلى لسانهم وسموه السند هند، والهنود هم الذين اخترعوا الأرقام وعنهم أخذها العرب، ولهم طرق خاصة في الحساب اكتسبها العرب عنهم، وكان لهم معرفة بفن الموسيقى ولهم فيها كتب ترجم المسلمون بعضها إلى العربية.

(١-٧) نقل الكتب ونقلتها

تلك حال العلوم والآداب عند الأمم المتمدنة لما أخذ المترجمون في نقلها إلى اللغة العربية في العصر العباسي الأول، أما الخلفاء الذين اهتموا بذلك النقل فهم المنصور كان أكثر اهتمامه بالنجوم والطب، والمهدي قلما اشتغل بذلك، وكذلك الرشيد لم ينقل في أيامه إلا كتاب المجسطي، ثم المأمون وهو الذي اهتم بنقل كتب الفلسفة والمنطق على الخصوص وسائر العلوم على العموم.[٤]

أما نقلة العلم في العصر العباسي فهم من أهل العراق والشام وفارس والهند، رغبهم الخلفاء في ذلك بالبذل الكثير وجعلوا لبعضهم رواتب وجواري وبالغوا في إكرامهم ومحاسنتهم، وأكثرهم من السريان النساطرة؛ لأنهم أقدر على الترجمة من اليونانية وأكثر اطلاعًا على كتب الفلسفة والعلم اليوناني، أشهرهم: آل بختيشوع سلالة جورجيس بن بختيشوع السرياني النسطوري طبيب المنصور، وآل حنين سلالة بن إسحاق العيادي شيخ المترجمين أحد نصارى الحيرة وله تاريخ طويل، وحبيش الأعسم الدمشقي ابن أخت حنين، وقسطا بن لوقا البعلبكي من نصارى الشام، وآل ماسرجويه اليهودي السرياني وآل الكرخي، وآل ثابت الحراني من الصابئة، والحجاج بن مطر، وابن ناعمة الحمصي، ويوحنا بن ماسويه، وإسطفان بن باسيل، وموسى بن خالد، وسرجيس الراسي، ويوحنا بن بختيشوع من غير آل بختيشوع المتقدم ذكرهم، والبطريق، ويحيى بن البطريق، وأبو عثمان الدمشقي، وأبو بشر متَّى بن يونس، ويحيى بن عدي، هؤلاء أشهر نقلة العلم من اليوناني أو السرياني إلى العربي، وبعضهم تجاوز العصر العباسي الأول.

وأما النقلة من الألسنة الأخرى، فمنهم من نقل من الفارسية إلى العربية كابن المقفع، وآل نوبخت كبيرهم نوبخت، ولابنه الفضل بن نوبخت نقل من الفارسي إلى العربي في النجوم وغيرها، ومنهم موسى ويوسف ابنا خالد، وكانا يخدمان داود بن عبد الله بن حميد بن قحطبة، وينقلان له من الفارسية إلى العربية، وعلي بن زياد التميمي، ويكنى أبا الحسن نقل من الفارسي إلى العربي كتاب زيج الشهريار، والحسن بن سهل وكان من المنجمين، والبلاذري أحمد بن يحيى، وجبلة بن سالم كاتب هشام، وإسحاق بن يزيد نقل سيرة الفرس المعروفة باختيار نامه، ومنهم محمد بن الجهم البرمكي، وهشام بن القاسم، وموسى بن عيسى الكردي، وعمر بن الفرخان وغيرهم.



شكل ٨: يوحنا بن ماسويه.

ومن الذين نقلوا عن اللغة السنسكريتية (الهندية) منكه الهندي، كان في جملة إسحاق بن سليمان بن علي الهاشمي ينقل من اللغة الهندية إلى العربية، وابن دهن الهندي، وكان إليه مارستان البرامكة نقل من الهندي إلى العربي.[٥]

ومن الذين نقلوا عن اللغة النبطية (الكلدانية) إلى العربية ابن وحشية نقل كتبًا كثيرة أهمها كتاب الفلاحة النبطية.

وهناك طبقة من النقلة اشتغلوا بنقل العلم من عند أنفسهم أشهرهم بنو شاكر أو بنو موسى؛ لأنهم أولاد موسى بن شاكر، وهم محمد وأحمد والحسن، وعرف أولادهم بعدهم ببني المنجم. كان موسى يصحب المأمون والمأمون يرعى حقه في أولاده هؤلاء، واشتغلوا في الهندسة والنجوم والطبيعيات والميكانيكيات وغيرها، وأتعبوا أنفسهم في جمع الكتب القديمة من بلاد الروم، وأحضروا النقلة بالبذل لنقلها. وممن بذلوا في نقل العلم غير الخلفاء محمد بن عبد الملك الزيات، وعلي بن يحيى المعروف بابن المنجم، ومحمد بن موسى بن عبد الملك، وإبراهيم بن محمد بن موسى الكاتب، وغيرهم.

الكتب التي نقلت

أما الكتب التي نقلت في ذلك العصر، فعددها بضع مئات أكثرها من اليونانية منها ٨ في الفلسفة والأدب لأفلاطون، و١٩ كتابًا في الفلسفة والمنطق والأدب لأرسطو، و١٠ في الطب لأبقراط، و٤٨ في الطب لجالينوس، وبضعة وعشرون كتابًا في الرياضيات والنجوم لأوقليدس وأرخميدس وأبلونيوس ومنالاوس وبطليموس وأبرخس وذيوفنطس وغيرهم.

وأما منقولات اللغات الأخرى فمنها نحو عشرين كتابًا نقلت عن الفارسية في التاريخ والأدب، ونحو ٣٠ كتابًا من اللغة السنسكريتية، وأكثرها في الرياضيات والطب والنجوم والأدب، ونحو عشرين كتابًا عن اللغة السريانية أو النبطية أكثرها في السحر والطلسمات إلا كتاب الفلاحة النبطية في الزراعة، وهناك بضعة كتب نقلت عن اللاتينية والعبرانية.

(٢) الخلاصة

وجملة القول: إن المسلمين نقلوا إلى لسانهم معظم ما كان معروفًا من العلم والفلسفة والطب والنجوم والرياضيات والأدبيات عند سائر الأمم المتمدنة في ذلك العهد، ولم يغادروا لسانًا من ألسن الأمم المعروفة إذ ذاك لم ينقلوا منه شيئًا، وإن كان أكثر نقلهم عن اليونانية والفارسية والهندية، فأخذوا من كل أمة أحسن ما عندها، فكان اعتمادهم في الفلسفة والطب والهندسة والموسيقى والمنطق والنجوم على اليونان، وفي النجوم والسير والآداب والحكم والتاريخ والموسيقى على الفرس، وفي الطب (الهندي) والعقاقير والحساب والنجوم والموسيقى والأقاصيص على الهنود، وفي الفلاحة والزراعة والتنجيم والسحر والطلاسم على الأنباط أو الكلدان، وفي الكيمياء والتشريح على المصريين، فكأنهم ورثوا أهم علوم الأشوريين والبابليين والمصريين والفرس والهنود واليونان، وقد مزجوا ذلك كله وعجنوه واستخرجوا منه علوم التمدن الإسلامي (الدخيلة).

ومما نلاحظه من أمر ذلك النقل أن العرب مع كثرة ما نقلوه عن اليونان لم يتعرضوا لشيء من كتبهم التاريخية أو الأدبية أو الشعر، مع أنهم نقلوا ما يقابلها عند الفرس والهنود، فقد نقلوا جملة صالحة من تواريخ الفرس وأخبار ملوكهم، وترجموا الشاهنامة، ولكنهم لم ينقلوا تاريخ هيرودوتس ولا جغرافية استرابون ولا إلياذة هوميروس ولا أوديسته، والسبب في ذلك أن أكثر ما بعث المسلمين على النقل رغبتهم في الفلسفة والطب والنجوم والمنطق. وأما التواريخ والآداب فقد كان التراجمة

ينقلونها غالبًا من عند أنفسهم حبًّا في إظهار مآثر أسلافهم أو جيرانهم، فالمترجمون الفرس نقلوا شيئًا من تواريخ الفرس وآدابهم، وكذلك فعل التراجمة السريان بآداب أجدادهم، وكذلك التراجمة الهنود، فلو كان في أولئك المترجمين واحد أو غير واحد من اليونان لنقلوا كثيرًا من تواريخ أمتهم وأشعارها، ولا ريب أن من جملة ما منعهم من نقل الإلياذة إلى العربية ذكر الآلهة والأصنام فيها، ولكنَّ في الشاهنامة أيضًا كثيرًا من ذلك فلم يمنعهم من نقلها، لكن الترجمة ضاعت.

ويلاحظ أيضًا أن العرب نقلوا من علوم تلك الأمم في قرن وبعض القرن ما لم يستطع الرومان بعضه في عدة قرون، وذلك شأن المسلمين في أكثر أسباب تمدُّنهم العجيب.

ولا يستخف بما اقتضاه ذلك النقل عن أشهر أمم الأرض في ذلك العصر من التأثير في الآداب الاجتماعية والآراء العمومية، وخصوصًا مما نقل عن الفارسية؛ لأن معظمه في الأدب والتاريخ، كما أثر في آدابنا الاجتماعية ما نقلناه في نهضتنا هذه عن الإفرنج، فضلًا عن دخول الفرس في كل باب من أبواب الدولة، فدخل الآداب العربية والأفكار العربية كثيرٌ من آداب الفرس الساسانيين وأفكارهم اقتبسها العرب من الكتب التي نقلت عنهم، ولم يبقَ منها إلا ألف ليلة وليلة وكليلة ودمنة ونتف متفرقة في بعض الكتب، وقد درس هذا الموضوع المستشرق أينوسترانسيف الروسي، ووضع فيه كتابًا طبع في بطرسبرج سنة ١٩٠٩.[٦]

وعلى هذه المنقولات بنى المسلمون ما ألَّفوه في هذه العلوم في أثناء تمدنهم غير ما اختبروه وأضافوه إليها من عند أنفسهم، وأكثر منقولاتهم ومؤلفاتهم ضاعت ولم يبقَ منها إلا بعضها، وعلى هذا البعض كان معول الأوروبيين في نهضتهم الأخيرة لإنشاء تمدنهم الحديث بما نقلوه منها إلى ألسنتهم كما سنبيِّنه في مكانه.

(٢-١) الباقي من المنقولات إلى الآن

أما الباقي من الترجمات المتقدم ذكرها إلى الآن، فلا يتجاوز بضع عشرات مشتتة في مكاتب أوروبا — إليك بعضها على سبيل المثال:

كتاب المجسطي لبطليموس ترجمة الحجاج بن يوسف بن مطر، منه نسخة خطية في مكتبة ليدن.

كتاب السياسة في تدبير الرياسة ترجمة يوحنا بن البطريق، منه نسخ في مكاتب برلين ومنشن وغيرهما.

ولقسطا بن لوقا البعلبكي عدة آثار من نقله وتأليفه، منها رسائل في الطب والأخبار ذكرها بروكلمن في كتابه آداب اللغة العربية، وأشار إلى أماكن وجودها (صفحة ٢٠٤ ج١).

ولحنين بن إسحاق بقايا حسنة من منقولاته، أشهرها المدخل في الطب في مكتبة الأسكوريال ومسائل في الطب للمتعلمين في مكتبة برلين، واجتماعات الفلاسفة في بيوت الحكماء في مكتبة منشن، وكتاب النواميس وغيرها.

ولابنه إسحاق بن حنين كتاب في منطق أرسطو.

وليعقوب بن إسحاق الكندي — فيلسوف العرب — بقايا من مؤلفاته سيأتي ذكرها في ترجمته في الدور العباسي الثاني.

وسنأتي على مشاهير النابغين في العلوم الدخيلة فيما يلي من هذا الكتاب، ولا سيما الذين اشتغلوا بغيرها، وإنما أجملنا الكلام هنا وتجاوزنا في إجماله العصر العباسي الأول رغبةً في الاختصار؛ للسبب الذي قدَّمْناه من صرف العناية فيما نرجو نفعه للقراء فعلًا، ولنعد إلى الكلام في العلوم العربية الأصلية.

(٣) العلوم العربية الأصلية

(٣-١) اللغة

أصاب اللغة في هذا الدور تغيير كثير في ألفاظها بما نقل إليها من العلوم الدخيلة، وما اقتضاه التمدن من الألفاظ الإدارية، وما استلزمه التوسع في العلوم الإسلامية وغيرها من الأوضاع والمصطلحات العلمية والفلسفية والإدارية؛ لتأدية ما حدث من المعاني الجديدة مما لم يكن له مثيل في لسان العرب، كما هو شأننا اليوم في نقل العلم الحديث إلى لساننا، وكانوا يومئذ أحوج إلى اقتباس الألفاظ الأعجمية وتنويع المعاني العربية، ولم تقتصر تلك النهضة على اقتباس الألفاظ الأعجمية وتبديلها، ولكنها أحدثت تنويعًا في معاني الألفاظ العربية، وإليك أمثلة من ذلك:

الألفاظ العلمية العربية

أهمها الألفاظ الطبية، ولم يكن منها في الجاهلية إلا مفردات كالحجامة والكي ونحوها، فحدث منها ما يدل على فنون الطب كالكحالة والصيدلة والتشريح والجراحة والتوليد،

ومنها ما يختص باصطلاحات كل فن كأسماء الرطوبات والأمزجة والأخلاط من الحار والبارد والجافّ واليابس والسوداء والصفراء والبلغم والنبض والتخمة والإنذار والهضم والبحران والمشاركات.

وأسماء الأدوية كالمسخنات والمبردات والمرطبات والمجففات والمسهلات والنطولات والمخدرات والاستفراغات والسعوطات والأدهان والمراهم والأطلية.

وأفعال تلك الأدوية مثل ملطف ومحلل ومنضج ومخشن وهاضم وكاسر الرياح ومخمر ومحكك، ومقرح وأكَّال ولاذع ومفتت ومعفن وكاوٍ ومبرد ومقوٍّ ومخدر ومرطب وعاصر وقابض ومسهل، ومدرٍّ ومعرق ومزلق ومملس وترياقي وغير ذلك.

ومن الألفاظ الجراحية الفسخ والهتك والوتي والرض والخلع والفتق، وتفرق الاتصال ومفارقة الوضع والجبار وغيره.

ناهيك بأسماء الأمراض أو أعراضها كالصداع والكابوس والصرع والتشنج واللقوة والرعشة والاختلاج والسرطان والسلاق والشترة والشرناق والحانوق والذبحة والربو وذات الجنب وذات الرئة، والجهر والضمور والخفقان والغشيان واليرقان والاستسقاء، والدبيلة والإسهال والزحير والسحج والسدد والهيضة والبواسير، ونحو ذلك مما لا يمكن حصره.

ومن أوصاف الأمراض أنواع الحميات كالمزمنة والحادة والمختلطة والغب والمطبقة والربع والدق وغيرها، غير الألفاظ التشريحية كأسماء الأوعية الدموية ورطوبات العين وسائر الأعضاء الباطنية التي لم يكن العرب يعرفونها.

ويليها الألفاظ الفلسفية ونحوها من مصطلحات الفلسفة والمنطق، وما تفرَّع منها كعلم الكلام والتصوف والفقه ونحوه، وهي كثيرة تفوق الحصر كقولهم: الكون والظهور والقدم والحدوث والإثبات والنفي والحركة والسكون والمماسة والمباينة والوجود والعدم والطفرة والأجسام والأعراض والتعديل والتحرير، والمصاف من اصطلاحات علم الكلام، والهاجس والمريد والسالك والمسافر والسطح والقطب والهيبة والأنس والبقاء والعناء والشاهد والفترة والمجاهدة من اصطلاحات التصوف.

وقد تكاثرت الاصطلاحات الكلامية والصوفية والفقهية والأصولية، حتى صارت تعد بالألوف؛ فاضطروا إلى وضع المعجمات الخصوصية لتفسيرها وشرح ما اكتسبته من المعاني المختلفة باختلاف تلك العلوم، ومن أشهر تلك المعجمات كتاب «التعريفات» للجرجاني في نيف ومائة صفحة، و«كشاف اصطلاحات الفنون» للتهانوي في نحو ألفي

صفحة كبيرة، و«كليات أبي البقاء» في أربعمائة صفحة، و«اصطلاحات الصوفية» الواردة في الفتوحات المكية وغيرها، فإذا ذكروا لفظًا أوردوا معناه اللغوي ثم معناه الاصطلاحي في الفقه أو الكلام أو التصوف أو الأصول مع ما يناسب ذلك من المعاني الرياضية أو الطبيعية أو النحوية، وقد يغفلون المعنى اللغوي على الإطلاق.

الألفاظ العلمية الأعجمية

ونريد بها ما اضطر المترجمون إلى نقله من لغته بلفظه ومعناه، وأكثر ما يكون ذلك في أسماء العقاقير والأمراض والأدوات والمصنوعات، مما لم يكن له نظير في بلادهم كالأفسنتين والبقدونس والزيزفون والسقمونيا والقنطاريون والمصطكي من اللغة اليونانية، والبابونج والبورق والبنج وخيار شمبر والزاتينج والررجون والزرنيخ والزاج والسرقين والأسفيداج والشاهترج والشيرج والمرداسنج من اللغة الفارسية.

ومن أسماء الأمراض ونحوها من الاستعمالات الطبية القولنج والترياق والكيموس والكيلوس وقيفال ولومان وملنخوليا من اليونانية، وسرسام ومارستان من الفارسية.

ومن المصنوعات والأدوات الإصطرلاب والقيراط والأنبيق والصابون من اليونانية، والبركار والبوتقة والجنزار والدسكرة والأسطوانة من الفارسية.

ومن الاصطلاحات الفلسفية ونحوها الهيولي والأسطقس والفلسفة والطلسم والمغنطيس والإقليم والقاموس والقانون من اليونانية — غير ما اقتبسوه من اللغة الهندية، وأكثره من أسماء العقاقير ونحوها.

فترى مما تقدم أن أهل تلك النهضة لم يكونوا يستنكفون من اقتباس الألفاظ الأعجمية، ولم يتعبوا أنفسهم في وضع ألفاظ عربية لتأدية المعاني التي نقلوها عن الأعاجم، بل كانوا كثيرًا ما يستخدمون للمعنى الواحد لفظين من لغتين أعجميتين، فالسرسام مثلًا اسم فارسي لورم حجاب الدماغ استعمله العرب للدلالة على هذا المرض، ولما ترجموا الطب من لغة اليونان استخدموا اسمه اليوناني، وهو «قرانيطس»، ولو استنكفوا من استخدام الألفاظ الأعجمية لاستغنوا عن اللفظين جميعًا.

التراكيب الأعجمية في اللغة العربية

قياسًا على ما نشاهده من تطرق العجمة إلى أسلوب كتبة أهل هذا العصر فيما ينقلونه من الأفكار الأعجمية، نعتقد أن أسلافنا في النهضة العباسية دخل أسلوبَهم شيء من

ذلك، وإن كنا لا نستطيع تتبُّعه إلى أصوله تمامًا لتباعد عهده واختلاطه. على أننا إذا فحصنا لغة ذلك العصر وقابلنا بين عبارة كتب الطب والفلسفة وعبارة كتب الأدب، رأينا الفرق بينهما واضحًا، وإذا دقَّقْنا النظر في سبب ذلك رأينا عبارة أصحاب الفلسفة تمتاز بأمور هي سبب ضعفها وركاكتها أهمها:

(١) استخدام فعل الكون بكثرة على نحو ما يستعمله أهل اللغات الإفرنجية.
(٢) كثرة الجمل المعترضة الشائعة عندهم.
(٣) الإكثار من استعمال الفعل المجهول.
(٤) استعمال ضمير الغائب «هو» بين المبتدأ والخبر حيث يمكن الاستغناء عنه.
(٥) إدخال الألف والنون قبل ياء المتكلم في بعض الصفات كقولهم: روحاني ونفساني وباقلاني، ونحو ذلك مما هو مألوف في اللغات الآرية ولا يستحسن في اللسان العربي.

ومن التعبيرات التي اقتبسها العرب من اللغة اليونانية ما لم يكن لهم مندوحة عنها ولا بأس منها:

(١) تركيب الألفاظ مع لا النافية، وإدخال أل التعريف عليها كقولهم: اللانهائية واللاأدرية واللاضرورة.
(٢) صوغ الاسم من الحروف أو الضمير مثل قولهم: اللمية والكيفية والكمية والهوية والماهية.
(٣) نقل الألفاظ الوصفية إلى الاسمية كقولهم: المائية والمنضجة والخاصة.

ومن هذا القبيل اقتباسهم بعض التعبيرات الفارسية الإدارية مثل قولهم: «صاحب الشرطة»، و«صاحب الستار» وهو تعبير فارسي، غير ما أصاب اللغة من التغيير في ألفاظها على الإجمال على أثر نموها، وبما طرأ على الآداب الاجتماعية من التغيير فضلًا عن التجارة والصناعة، وما اقتضاه ذلك من تنوع الألفاظ العربية أو اقتباس الألفاظ الأعجمية غير العادات والأخلاق ونحوها، وغير ما اقتضاه ناموس الارتقاء من النمو والتجدد والتنوع والتفرع. وقد عقدنا فصلًا إضافيًّا في هذا الباب في كتابنا تاريخ اللغة العربية تجاوزنا فيه هذا الدور إلى ما يليه من الأدوار العباسية، وفصلًا في الألفاظ النصرانية واليهودية والتراكيب السريانية والعبرانية، التي دخلت هذه اللغة في أثناء التمدن الإسلامي فلتراجَع هناك.

مآخذ لهذا الموضوع

ومن الكتب التي يمكن الرجوع إليها في هذا الموضوع غير كتاب تاريخ اللغة العربية المتقدم ذكره: «كتاب التعريفات» للجرجاني المتوفى سنة ٨١٦هـ، ويشتمل على المصطلحات الفقهية والنحوية وغيرها مرتَّبة على حروف المعجم، وهو مطبوع في باريس سنة ١٨٤٥ وفي مصر، و«درة الغواص» للحريري طبع في مصر وغيرها، و«شفاء العليل فيما في كلام العرب من الدخيل» لشهاب الدين الخفاجي المتوفى سنة ١٠٦٩هـ، طبع بمصر سنة ١٢٨٢، و«كشاف اصطلاحات الفنون» للتهانوي سنة ١١٥٨هـ طبع في كلكتة سنة ١٨٦١، و«المعرب من الكلام الأعجمي» لأبي منصور الجواليقي المتوفى سنة ٥٣٩هـ طبع في ليبسك سنة ١٨٦٧، وكتاب «المعرب والدخيل» لأحد أبناء القرن الحادي عشر للهجرة، منه نسخة خطية في المكتبة الخديوية، و«المغرب في ترتيب المعرب» لأبي الفتح المطرزي منه نسخة خطية في المكتبة الخديوية، غير المعاجم اللغوية وكتب اللغة.

هوامش

(١) أبو الفداء ٥٠ ج١.
(٢) الفهرست ٢٤٢.
(٣) E. Browne's Lit, Hist. of Persia, 167.
(٤) تاريخ التمدن الإسلامي ١٤٠ ج٣.
(٥) الفهرست ٢٤٥.
(٦) المشرق ٣٩٢ سنة ١٣.

الشعر

(١) الانتقال الاجتماعي

انتقل الشعر في الدولة العباسية انتقالًا كبيرًا مثل انتقال الأمة العربية من البداوة إلى الحضارة، ومن شظف العيش إلى الرخاء ومن الملابس الخشنة إلى الناعمة، فتحضر كثيرون من الشعراء، وشاركوا أهل الحضارة بأخلاقهم وشعورهم، وبعد أن كانوا يقيمون في المضارب لا تقع عين أحدهم إلا على صحراء قاحلة تسفي الرياح رمالها يبيت فيها حذرًا خائفًا من غارات الأعداء ودبابات الصحراء، لا عشير له إلا جواده أو ناقته — أصبح وقد أركن إلى الرخاء يقيم في القصور تكتنفها الحدائق فيها من كل فاكهة زوجان، تجري فيها المياه مدبرة في الأحواض، والأقنية تحف بها الأزهار بأزهى الألوان، وتسرح في أكنافها الأطيار الداجنة من جميل الريش ورخيم الصوت. وبعد أن كان يرتدي العباءة من شعر الجمل وينتعل الحفاء أو يحتذي النعال من الخوص أو الحبال لبس الحرير والوشي، وانتعل الخف والجورب، وتخفف بالغلائل والملايات، واستبدل المضارب وفرشها الرمال بقاعات فرشها البسط والسجاد، وعلى جدرانها الستائر من الخز والديباج بمسامير الفضة عليها طراز الذهب، وقد ضعفت أنفة البداوة وحل عقال الحشمة وترك الناس وشأنهم ينغمسون بما يشاءون، وقد تدفَّقت عليهم الأموال بلا حساب، وتكاثر الذهب بين أيديهم، فانتشر التهتك وذهبت الغيرة بشيوع التسرِّي وانتشار المسكر، وللشعراء الحظ الأوفر من ذلك لترددهم على مجالس الغناء، واختلافهم إلى الخلفاء والوزراء والأمراء من أهل البذخ والترف والرخاء، فانطبعت في مخيلاتهم صور لم تألفها أهل البادية.

فلا غرو إذا اختلف الشعر في هذا العصر عما كان عليه في الدولة الأموية لرغبة الأمويين بالبداوة، والأخذ بناصر العرب وتحقير سواهم، فكان أكثر شعرائهم من أهل البادية يفدون عليهم من البصرة والكوفة أو الحجاز أو نجد، ويندر فيهم المتحضرون، أما الدولة العباسية فأصحابها كانوا يرمون إلى غرض يخالف ذلك — كان العباسيون يرون تقديم غير العرب، ويودون التخلص من العرب والاستغناء عن جزيرة العرب، حتى حبب بعضهم إلى المنصور أن يستبدل الكعبة بما يقوم مقامها في العراق، وتكون حجًّا للناس،[١] وفعل ولم يفلح.

فاختلاف طبائع الناس في الدولة العباسية عما كانوا عليه في العصر الأموي طبيعي، وفي جملتهم الشعراء وخيالهم — وإليك أهم مميزات الشعر والشعراء في العصر العباسي الأول.

(٢) مميزات الشعر

يختلف الشعر العربي في هذا العصر عنه في العصر الأموي، مثل اختلاف العصرين بالأحوال السياسية والاجتماعية والأدبية؛ لأن الشعر مرآة أخلاق الأمة وآدابها وسائر أحوالها. فخصائص الشعر في هذا العصر ترجع إلى ما يأتي:

(٢-١) طريقة النظم

يشتمل الشعر على الخيال الشعري وهو المعنى، وعلى القالب الذي يسبك فيه ذلك المعنى وهو الكلام المقفى الموزون أو النظم. وأهم ما يلاحظ في النظم ثلاثة أمور:

(١) طريقته وهي الخطة التي يجري عليها الشعراء في تنسيق المعاني.
(٢) الأسلوب وهو العبارة التي يختارونها للتعبير.
(٣) اللفظ.

ومن القواعد الأساسية في تاريخ الشعر أن يتبع في أسلوبه ولفظه وطريقته حال الأمة التي تقوله، فيتنوَّع شعرها بتنوع نظام اجتماعها وسائر أحوالها، ولكن العرب ظلوا إلى عهد غير بعيد يتحدَّوْنَ طريقة الجاهليين فيما ينظمونه، فيستهلُّون قصائدهم بذكر الرحيل والأطلال والإبل وغيرها من خصائص الجاهلية، حتى الألفاظ فإنهم كثيرًا ما يقلدونهم بها، وفيها الوحشي الذي لا يلائم المدنية؛ لأن وحشي الكلام لوحشي الناس.

والسبب في تمسُّكهم بالقديم رسوخ الاعتقاد بأفضلية آداب الجاهلية وشعراء الجاهلية؛ إذ كان إليها مرجعهم في صدر الإسلام لتحقيق الألفاظ والتراكيب، ثم عظَّم الأمويون مناقب الجاهلية وطباع البداوة لرغبتهم في تأييد العرب ودولة العرب، فرسخ في أذهان الناس أن مناقب الجاهلية أفضل ما يتبع. فلما تغلب العباسيون بأنصارهم الفرس، وغُلِب العرب على أمرهم، وعلت كلمة الفرس، أخذ ذلك الاعتقاد بالزوال.

أما من حيث الأسلوب فإن الشعر الجاهلي عريق في البلاغة مع سلامته من الركاكة والعجمة، وأما الخيال الشعري فيرى بعض العلماء أن العقل البشري سائر نحو الارتقاء في كل سبيل إلا من حيث الخيال الشعري، فإنه لا يزال في مكانه — هذا هوميروس لا يزال نابغة الشعراء وقد مر عليه نحو ٣٠٠٠ سنة، والناس يتقدمون في كل شيء.

وانظر إلى امرئ القيس والنابغة وزهير وغيرهم من الجاهليين، فإنهم لا يزالون يعدون من نوابغ الشعراء إلى الآن، على أن للشعر العربي شأنًا خاصًّا من حيث الأسلوب، فإن كلام الإسلاميين يعدُّ على العموم أعلى طبقة من كلام الجاهليين في منثورهم ومنظومهم، نعني الشعراء والخطباء والمترسِّلين في صدر الإسلام إلى أوائل الدولة العباسية،[٢] فضلًا عن تأثير الأحوال الاجتماعية على الخيال الشعري، ولا سيما في الانتقال من البداوة إلى الحضارة — ومجاري الطبيعة كالقضاء المبرم لا يدفعها دافع، لكن تعظيم الأمويين للعرب جعل الجاهليين مثالًا يقتدى بهم في الشعر، فكان الأدباء يتحاشون نقد ذلك الاعتقاد في الدولة الأموية، ومع ارتقاء الأسلوب واتساع الخيال ظلوا يتحدون طريقة الجاهليين في النظم.

فلما انتقل الأمر إلى بني العباس هان عليهم الانتقاد، وأخذوا يفكِّرون في تقبيح تلك الطريقة، وأول من تجرَّأ على نقدها من الأدباء ابن قتيبة في أواسط القرن الثالث للهجرة في كتابه الشعر والشعراء،[٣] وسنعود إلى ذلك في تاريخ نقد الشعر.

على أن الشعراء تنبَّهوا إلى هذا الأمر في صدر الدولة العباسية، فأخذوا في انتقاد طريقة الجاهليين، ولم يجدوا من يأخذ بناصرهم لغلبة التقليد على طباعهم، لكنهم حاولوا الخروج من تلك القيود على الأقل من العصر العباسي الأول؛ عصر حرية القول، وأصبح حديث الشعراء في مجلسهم انتقاد تلك الطريقة، وأقدم ما بلغنا من هذا القبيل اجتماع مطيع بن أياس بفتى من أهل الكوفة، ففاوضه بشأن ذلك فقال:

لأحسن من بيدٍ يحار بها القطا ومن جبلي طيٍّ ووصفكما سلعا
تلاحظ عيني عاشقين كلاهما له مقلة في وجه صاحبه ترعى[٤]

وكان ذلك لسان حال أكثر الشعراء وإن لم ينظموه، وممن جاهر به منهم أبو نواس، ومن أقواله التي يستدل بها على إنكاره طريقة القدماء قوله:

لا تبك ليلى ولا تطرب إلى هندٍ   واشرب على الورد من حمراء كالوردِ

ومن هذا القبيل قوله:

صفة الطلول بلاغة القِدْمِ   فاجعل صفاتك لابنة الكرمِ

ولما سجنه الخليفة على اشتهاره بالخمر وأخذ عليه ألا يذكرها في شعره، وكأنه كلفه الرجوع عنها إلى النظم على طريقة الجاهليين فقال:

أعر شعرك الأطلال والمنزل القفرا   فقد طالما أزرى به نعتك الخمرا
دعاني إلى نعت الطلول مسلطٌ   تضيق ذراعي أن أردَّ له أمرا
فسمعًا أميرَ المؤمنين وطاعةً   وإن كنت قد جشَّمتني مركبًا وعرا

فجاهر بأن وصفه الأطلال والقفر إنما هو من خشية الإمام، وإلا فهو عنده فراغ وجهل، واقتدى به أبو العتاهية ومن جاء بعده، ولكن بين الشعراء من يتحدى الجاهليين حتى الآن.

وأثر في أسلوب الشعر ومعناه في هذا العصر ما نقل إلى العربية، أو حفظ فيها من آداب الفرس وأخبارهم، فاكتسب الشعر العربي خيالًا لطيفًا، وزادت فيه معانٍ جديدة نحو ما كان من تأثير آداب اليونان القدماء في أخلاق الرومان، ويشبه ذلك تأثير التمدن الحديث في آدابنا ومجاري أفكارنا.

(٢-٢) المعاني الجديدة باتساع الخيال

كان الاعتقاد في شعراء الجاهلية أنهم لم يتركوا معنى من معاني الشعر لم يطرقوه، وفي الواقع أنهم طرقوا أكثر المعاني التي تخطر لابن البادية، ولكن الحضارة لها معانٍ خاصة، أو هي توسع الخيال وتفتق القرائح لانتشار الناس في الأرض، فإذا تأملت ما في أشعار الصدر الأول الإسلاميين من الزيادات على معاني القدماء والمخضرمين، ثم ما في

طبقة جرير والفرزدق وأصحابهما من التوليدات والإبداعات العجيبة التي لا يقع مثلها للقدماء إلا نادرًا، ثم تأتي بشار بن برد وأبا نواس وأصحابه فترى ما زادوه من المعاني وما زاده الذين جاءوا بعدهم — علمت أن الشعر سار على سُنَّة الارتقاء مثل سائر أحوال الحياة، ومن أمثلة المعاني التي حدثت في العصر العباسي الأول قول بشار بن برد الأعمى:

يا قوم أُذْنِي لبعض الحي عاشقةٌ والأذن تعشق قبل العين أحيانَا[٦]
قالوا بمن لا ترى تهذي فقلت لهم الأذن كالعين توفي القلب ما كانا

وقول أبي نواس:

فكأني وما أزين منها قعديٌّ يزين التحكيما
كَلَّ عن حمله السلاح إلى الحرْ بِ فأوصى المطيق ألا يقيما

والقعدة فرقة من الخوارج ترى الخروج وتأمر به وتقعد عنه، وقوله أيضًا:

بنيت على كسرى سماء مدامة مكللة حافاتها بنجومِ
فلو ردَّ في كسرى بن ساسان روحه إذًا لاصطفاني دون كل نديمِ

وقال أيضًا في صفة النساء الخمارات، ويروى لابن المعتز:

وتحت زنانير شددن عقودها زنانير أعكان معاقدها السررْ

فهذا تشبيه لم يسبق إليه وقال أيضًا:

لست أدري أطال ليليَ أم لا كيف يدري بذاك من يتقلَّى
لو تفرغت لاستطالة ليلي ولرعي النجوم كنت مخلَّا

ومما زاد من المعاني في هذا العصر قول أبي تمام:

وإذا أراد الله نشر فضيلةٍ طويت أتاح لها لسان حسودِ
لولا اشتغال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عَرف العودِ

وقوله:

بني مالك قد نبهت خامل الثرى قبور لكم مستشرفات المعالمِ
غوامض قيد الكف من متناولٍ وفيها علا لا يرتقى بالسلالمِ

غير ما أخذوه من المعاني القديمة أو توسعوا فيه، ولا سيما النسيب والغزل.

(٢-٣) المعاني الجديدة بالاقتباس

تلك معانٍ شعرية اقتضاها توسع الخيال بالحضارة، وهناك معانٍ حدثت بدخول العلوم القديمة إلى اللغة العربية، فاستعار الخطباء والكتاب والشعراء تعابير فلسفية فيها ألفاظ علمية قد تقدم ذكر أمثلة منها، كالتناهي والتوليد والتجزؤ والمعاد، ومنها قول أبي نواس:

وذات خد مورَّدْ قوهية المتجردْ
تأمل العين منها محاسنًا ليس تنفدْ
فبعضها قد تناهى وبعضها يتولدْ
والحسن في كل عضوٍ منها معاد مرددْ

وقوله:

يا عاقد القلب مني هلا تذكرت حِلَّا
تركت قلبي قليلًا من القليل أقلَّا
يكاد لا يتجزى أقل في اللفظ من لا[7]

واستعار آخرون معاني من أخبار اليونان كاقتباس أبي العتاهية ما قاله بعض حكماء اليونان في تأبين الإسكندر، ونظمه في رثاء ابن له وهو:

كفى حزنًا بدفنك ثم إني نفضت تراب قبرك من يديَّا
وكانت في حياتك لي عظاتٌ فأنت اليوم أوعظ منك حيَّا

ومن المعاني التي دخلت الشعر في هذا العصر أقوال بعض الأئمة ورجال الأفكار، اقتبسها الشعراء ونظموها كما نظم بشار الحكمة القائلة: «انظر إلى ما ينفعك ودع كلام الناس إذ لا سبيل إلى النجاة من كلام الناس.» فقال بشار:

من راقب الناس لم يظفر بحاجتِهِ   وفاز بالطيبات الفاتك اللهجُ

وحضارة العباسيين أكثر عمالها من الفرس، فدخل اللغة طائفة من المعاني الفارسية فضلًا عن الألفاظ، حتى لقد يقتبس الشعراء جملًا فارسية يدخلونها في أشعارهم كقول العماني من قصيدة مدح بها الرشيد:

من يلقه من بطل مسرندي   في دغفة محكمة بالسردِ
يجول بين رأسه والكردِ

يعني العنق، وقوله:

لما هوى بين غياض الأسدْ   وصار في كف الهزبر الوردْ
آلى يذوق الدهر آب سردْ

واقتبسوا أيضًا ألفاظًا سريانية من لغة نبط السواد كقول إبراهيم الموصلي المغني في وصف خمار نبطي — وكأنه ينقل كلامه بلفظه إذ يقول:

فقال: «أزل بشينا» حين ودَّعني   وقد لعمرك زلنا عنه بالشينِ[8]

ومن المعاني الجديدة وصف ما استحدث من ثمار تلك المدنية من أسماء الآنية والأبنية والقصور والرياش، وسائر أسباب الحضارة، ولا سيما الغلمان والخمر كما سيجيء.

(٤-٢) المبالغة في المدح

لم يخل الشعر من المدح في عصر من العصور، لكنه كان في الجاهلية أقرب إلى الواقع وأبعد عن المبالغة، ثم أخذ يزداد مبالغة بازدياد الحضارة والإركان إلى الرخاء، واضطرار الشعراء إلى التزلف والتملق، ولا سيما بعد الاختلاط بالفرس، فبعد أن كان زهير بن أبي سلمى يقول في مدح كريم حازم:

تراه إذا ما جئته متهللًا　　كأنك تعطيه الذي أنت سائلهْ

صار منصور النمري يقول في الرشيد:

إن المكارم والمعروف أوديةٌ　　أحلك الله منها حيث تجتمعُ
إذا رفعت امرأً فالله رافعه　　ومن وضعت من الأقوام متضعُ
من لم يكن بأمين الله معتصمًا　　فليس بالصلوات الخمس ينتفعُ
إن أخلف الغيث لم تخلف أنامله　　أو ضاق أمر ذكرناه فيتسعُ

وقول رجل من ولد زهير بن أبي سلمى في مدحه:

فكأنه بعد الرسول رسولُ

وقول العكوك في مدح أبي دلف:

أنت الذي تنزل الأيام منزلها　　وتنقل الدهر من حال إلى حالِ
وما مددت مدى طرف إلى أحدٍ　　إلا قضيت بأرزاق وآجالِ

على أن المبالغة زادت بعد هذا العصر من كل وجه بزيادة أسباب الزلفى والانغماس في الرخاء كما ستراه.

(٢-٥) وصف الخمر والغلمان

ذكرنا من مميزات الشعر في العصر الأموي أن الشعراء بدءوا بوصف الخمر على أثر انغماسهم في المسكر والقصف، ولكن وصفها لم ينضج إلا في العصر العباسي الأول الذي نحن في صدده. وأشهر من نظم في وصفها من شعرائه أبو نواس، فإن له في ذلك بضعة آلاف بيت في مئات من القصائد والمقاطيع تجدها في ديوانه؛ ولذلك عدُّوا أبا نواس إمام الوصَّافين للخمر.

أما الغلمان فقد تقدمت الإشارة إلى تعشُّقهم في هذا العصر، ولم يبقَ شاعر من شعرائه المقيمين في بغداد لم يشتهر بغلام يعشقه ويتغزَّل به، وأقدم من فعل ذلك منهم حماد عجرد ثم حسين بن الضحَّاك، واقتدى به أبو نواس، وكان معاصرًا له كما اقتدى به في وصف الخمر، لكنه فاقه في كليهما، وقد زادهما تمكنًا من هذه الرذيلة تقربهما من محمد الأمين، وهو كثير الاقتناء للغلمان فكانوا فتنة له ولشعرائه. ولحسين المذكور أقوال كثيرة في وصف الغلمان نشرها صاحب الأغاني في ترجمته (١٧٠ ج٦).

أما أبو نواس ففي ديوانه باب خاص بوصف الغلمان يسمونه «غزل المذكر» فيه نحو ألف بيت اكتفينا بالإشارة إليها تنزيهًا للقارئ عن مطالعتها. وقد أغضينا لذلك عن حوادث كثيرة تتعلق بغزل المذكر تدل على ما بلغ إليه القوم من التهتُّك، ولم يعصمهم علمهم ولا أدبهم ولا مقامهم في الدولة عن ارتكابه. وسيد هذه الرذائل المسكر، وعلة انتشاره بعض الفقهاء بتحليل شرب النبيذ؛ لأنه غير الخمر الوارد النهي عنها، لكنه قد يسكر أو يتحول إذا طال مكثه إلى خمر مسكرة، كما يحللون بعض الألعاب اليوم؛ لأنها غير مبنية على المصادفة فقط فلا تعد من ألعاب القمار، ولكنهم قد يقامرون بها أو هي تجرهم إلى المقامرة الفاحشة. وأصبح التغزل بالغلمان بعد هذا العصر بابًا من أبواب الشعر.

(٢-٦) الشعر المجوني

إن استبحار عمران الدولة بعث كبراءها على الاستكثار من أسباب اللهو، ولا سيما الخمور والجواري والغلمان، مع ميلهم إلى سماع الأدب والشعر، فتولَّدت طبقة من الشعراء أكثروا من المجون في منظومهم، وعرفوا بالشعراء المُجَّان، وإمامهم أبو نواس. وقد تهتَّكوا في مجونهم، وتفننوا فيه وهم يمثلون الآداب الاجتماعية في تلك الطبقة من الناس في ذلك العصر — والشعراء عنوان آداب الأمة أو مثال يدل عليها.

(٢-٧) وصف الرياض والأزهار

توسعوا في هذا العصر بوصف الرياض والأزهار، ومن وصَّافها فيه أبو نواس، كقوله:

يوم تقاصر واستبث نعيمُهُ في ظل ملتفِّ الحدائق أخضرا
وإذا الرياح تنسَّمت في روضةٍ نثرت به مسكًا عليك وعنبرا

ولم يخل الشعر الجاهلي والأموي من وصفها، ولا سيما في أقوال الشعراء الذين خالطوا الحضارة، ورأوا بساتين الحيرة أو غوطة الشام أو غيرهما من مدن العراق أو الشام كأعشى بكر القائل:

ما روضة من رياض الحسن معشبةٌ خضراء جاد عليها مسبل هطلُ
يضاحك الشمس فيها كوكب شرقٌ مؤزر بعميم النبت مكتهلُ
يومًا بأطيب منها نشر رائحةٍ ولا بأحسن منها إذ دنا الأصلُ

على أن أهل هذا العصر فاقوهم فيه كأبي نواس وأبي تمام، وفاقهما فيه أهل العصور التالية.

(٣) الشعراء

(٣-١) الفرق بينهم وبين من تقدمهم

قد رأيت في الكلام على شعراء الجاهلية أنهم كانوا ينظمون لقبائلهم أو لأنفسهم فخرًا أو حماسة، وقلَّ فيهم المتكسِّبون بالشعر، ثم تبيَّن لك أن شعراء بني أمية كان القصد الرئيسي من تقديمهم عند الخلفاء الاستنصار بألسنتهم على أعدائهم لتعويل تلك الدولة على العصبيات بين القبائل، ثم قامت الدولة العباسية ونصراؤها خراسانيون، فكانت في غنًى عن تلك السياسة، فلما استقرت أصولها أصبح تقريب الشعراء أكثره للتلذُّذ بالأدب أو سماع المدح والإطراء، ويندر للخليفة أو الأمير أن يقدم شاعرًا لعصبية أو يستنصره على عدو، فأصبح الشاعر بتوالي الأعوام كالنديم يجالس الخليفة أو الأمير في مجالس الأنس أو الأدب تبعًا لحال ذلك الخليفة أو الأمير من حب العلم أو الخلاعة أو غيرها.

الاستجداء

وأصبح الشعراء في هذا العصر يَفِدون على بغداد كرسي العباسيين من الحجاز ونجد واليمامة، ومن البصرة والكوفة والشام وغيرها في أوقات معينة أو غير معينة، كما كانوا يفدون على دمشق كرسي الأمويين وأكثرهم من أهل البادية، وكان الأمويون يفضِّلون بقاءهم على البداوة، فلا يرغبونهم في الإقامة عندهم، أما العباسيون فكانوا إذا وفد الشاعر على أحدهم، وأعجبه شعره استبقاه في حاشيته، فأصبح أكثر الشعراء يقيمون في بغداد، وظل بعضهم يقيمون في بلادهم، وإنما يفدون في المواسم أو غيرها فينالون الجوائز وينصرفون، فكثر الشعراء المتحضرون وصار لهم مذهب في الشعر يختلف عن مذهب أهل البادية،[٩] وهم ينقطعون لمنادمة الخلفاء أو الأمير أو الوزير أو الوجيه يمدحونه أو ينادمونه، وأكثرهم يختصون بمنادمة الخليفة أو الوزراء، ولا سيما البرامكة. وفيهم من انقطع لمنادمة الأمراء من بني هاشم كإبراهيم بن المهدي ومحمد بن سليمان، أو بعض رجال الدولة كأبي دلف وابن طاهر.

فلم يكن ينبغ شاعر من قبيلة أو بلد إلا وفد على الخلفاء أو غيرهم بقصيدة مدح يلتمس العطاء، ويندر فيهم من ينظم الشعر ولا يلتمس به جائزة أو كسبًا، فإذا تحضَّر صار نديمًا أو كالنديم، فقلَّ الشعراء الفرسان وأصحاب السيادة، وكانوا كثارًا في العصر الجاهلي، ولم يبقَ منهم في العصر الأموي إلا القليلون وهم في هذا العصر أقل كثيرًا.

التهتك والخلاعة

ومع رغبة الخلفاء والأمراء والوزراء في الأدب والعلم، فإنهم جروا مع تيار الحضارة، فكانوا يعقدون مجالس الأنس والشراب يحضرها الشعراء والمغنون؛ فكثر في شعرائهم أهل الخلاعة والمجون والتهتك، ولم يكن من هؤلاء في العصر الأموي إلا القليل وأقل منهم في العصر الجاهلي. ومن أقبح أسباب التهتك في ذلك العصر تسرِّي الغلمان كما تقدم؛ ونظرًا لكثرة تردد الشعراء على مجالس الأنس والطرب أصبحت تلك العادة أكثر شيوعًا فيهم مما بسائر الطبقات، فلم يخلُ من هذه الفاحشة منهم غير الذين ظلوا على بداوتهم بعيدين عن مفاسد المدنية.

أما المتهتكون فبلغ من تهتكهم أن يشترك بضعة رجال منهم في عشق غلام،[١٠] وقد يتوسط الشاعر في المصالحة بين عاشقين لإصلاح ذات البين، ويفعلون أقبح من ذلك مما

يخجل القلم من ذكره[١١] غير مجالسهم في أماكن اللهو على موائد الشرب التي يخالطها تهتك وخلاعة كما كانوا يفعلون في منزل إسماعيل القراطيسي الكوفي، وكان يجتمع عنده أبو نواس، وأبو العتاهية، ومسلم بن الوليد، وحسين الخليع، يذاكرون الشعر وينظمون.

وإذا أعملت الفكرة فيما لحق بعض الخلفاء والأمراء من الفساد، رأيت أصله في الأكثر راجعًا إلى من يتولى تربيتهم أو من يعاشرهم من الخاصة أو الشعراء، فجعفر بن المنصور أفسده مطيع بن أياس،[١٢] ومحمد الأمين ساعد على إفساده حسين بن الضحاك وأبو نواس.

الشعراء الموالي

وكان الشعر العربي في الجاهلية منحصرًا في العرب، لم يكن فيهم من غير العرب إلا عبد بني الحسحاس، ثم تكاثر الشعراء الموالي في العصر الأموي، لكنهم لم يزيدوا على عشرين في المائة. أما في العصر العباسي فزادوا على ستين في المائة، وبعد أن كان أكثر وفودهم من البادية صاروا يفدون أيضًا من البصرة والكوفة وغيرهما من المدائن. وأكثر فحول الشعراء في هذا العصر من الموالي كأبي نواس، وأبي العتاهية، وبشار بن برد، وسلم الخاسر ومروان بن أبي حفصة؛ فامتاز أولئك الموالي الأعاجم على أسيادهم العرب، كما امتاز هوراس وفرجيل من كبراء شعراء الرومان — وأولهما ابن مولى والآخر ابن حطاب،[١٣] ولم يكن للشاعر العربي بد من رحلة إلى بلاد العرب لاقتباس أساليبهم.

الشكوك في الدين والزندقة

قد ذكرنا ما كان من الحركة الفكرية في هذا العصر على أثر الانقلاب السياسي، وتجمع الحقائق العلمية والفلسفية والطبية واللاهوتية والرياضية والفلكية والأدبية وتزاحمها في أذهان الناس، والفلسفة لم تدخل ديار قوم أهل دين إلا شوشت اعتقادهم وتركتهم حيارى مذبذبين، ريثما يرسخون في العلم فيستقر رأيهم على شيء يدينون به، كما حدث في مثل هذه الحال لهذا العهد.

على أن الشكوك في الدين شاعت في الأدباء والشعراء قبل نقل الفلسفة إلى العربية، فلعلها تطرقت إلى أذهانهم من معاشرة الأمم المختلفة في بغداد والكوفة والبصرة ممن دخل منهم في الإسلام، ومن تقريب الموالي أهل تلك البلاد وفيهم من اطلع على الفلسفة

فبثوها في سائرهم؛ فأتيح لطائفة المعتزلة أن تنشر تعاليمها وانتقاداتها، وانتحل بعضهم دينًا آخر وقامت المجادلات والمباحثات والمناظرات.

وظهرت طائفة من الأحرار جاهروا بانتقاد الدين أو الذهاب إلى إنكاره، وكلهم متَّهمون بدينهم، وفيهم جماعة كبيرة من الأدباء والشعراء أشهرهم: حماد عجرد، وحفص بن أبي وردة، وابن المقفع، ويونس بن أبي فروة، وعلي بن الخليل، وحماد الراوية، وابن الزبرقان، وبشار بن برد، وصالح بن عبد القدوس، وأبان اللاحقي، وعمارة بن حمزة، ويزيد بن الفيض، وجميل بن محفوظ. وكانوا يجتمعون على الشراب يتنادمون ويقولون الشعر ولا يكادون يفترقون ويهجو بعضهم بعضًا هزلًا وجِدًّا،[١٤] وكثيرًا ما كانوا يشتركون في أموالهم وأحوالهم كما يفعل الاشتراكيون اليوم، فكان مطيع بن أياس ويحيى بن زياد الحارثي وابن المقفع ووالبة بن الحباب يتنادمون ولا يفترقون، ولا يستأثر أحدهم على صاحبه بمال ولا ملك، وكانوا جميعًا يُرمَون بالزندقة.

وكان أولئك المتفلسفون ينظرون إلى الدنيا من وجهها الأسود، فلا يرون فيها حسنًا، ولا يعترفون لأحد بفضيلة نحو من يعبر عنهم الإفرنج بالبسيمست (Pessimistes). ذكروا أن مطيع بن أياس مر بيحيى بن زياد وحماد الراوية وهما يتحادثان، فقال لهما: «فيم أنتما؟» قالا: «في قذف المحصنات.» قال: «أَوَفِي الأرض محصنة تقذفانها؟» ويدل هذا من جهة أخرى على رأيهم في المرأة.

إطلاق حرية الأقلام والألسنة

والفضل في إطلاق الأقلام والألسنة في أواخر ذلك العصر للمأمون الخليفة العالم الفيلسوف، فكانت حرية القول في أيامه أشبه بحرية الصحافة في البلاد المتمدِّنة اليوم، ومن أشهر الأدلة على ذلك خبره مع دعبل الشاعر، وكان متشيعًا للعلويين كثير الهجو لبني العباس، وله فيهم قصائد هجوها شديد وأعداؤه يحرِّضون المأمون على قتله، ومن جملتهم أبو سعد المخزومي؛ فقد كان يستعلي دعبل في أول أمره، وكان يدخل على المأمون فينشده هجاء دعبل له وللخلفاء ويحرضه عليه، فلم يجد عند المأمون ما أراده فيه، وكان المأمون يقول: «الحق في يدك والباطل في يد غيرك، والقول لك ممكن، فقل ما يكذبه، فأما القتل فإني لست أستعمله إلا فيمن عظم ذنبه.»

ودخل أبو سعد مرة على المأمون وأنشده قول دعبل:

ويسومني المأمون خطة عاجزٍ أوما رأى بالأمس رأس محمدِ؟

وأردفها بقصيدة رد بها على دعبل ثم قال: «أتأذن لي يا أمير المؤمنين أن أجيئك برأسه؟» قال: «لا، هذا رجل فخر علينا فافخر أنت عليه فأما قتله بلا حجة فلا.» وهل يقول أعدل من ذلك وزير من أرقى وزراء الأمم الدستورية المتمدنة اليوم في صحافي طعن على أمير أو ملك؟ فلا غرو إذا أطلقت حرية الدين في عهده.

ومن هذا القبيل إطلاق حرية القول في انتقاد العنصر العربي، وكان العرب في العصر الأموي مقدَّمين على سائر العناصر كأنهم من طينة غير طينة البشر، ولم يكن هؤلاء يستنكفون من تفضيلهم، بل كانوا يعتقدون فضلهم في إقامة الدين وأنهم مادته وأصله، ولا كانوا يأنفون من أن يسموا العرب أسيادهم ويعترفوا بفضلهم عليهم في العقل والحزم، على أن أكثرهم كانوا يفعلون ذلك خوفًا من الأمويين وإرضاءً للعنصر العربي، فلما أطلقت الألسنة والأقلام في أيام المأمون تظاهر أعداء العرب بالطعن، وظهرت طائفة الشعوبية القائلة: بالمساواة بين بني الإنسان، ولذلك سموهم «أهل التسوية»، وقامت المناظرة بينهم وبين المتعصِّبين للعرب، وظهرت الكتب في الطعن على العرب وفي الدفاع عنهم، وممن طعن على العرب سهل بن هارون قيِّم بيت الحكمة وأبو عبيدة الراوية وعلان الشعوبي، ولم يكن يجد المأمون بأسًا في هؤلاء الطاعنين وقد جعلهم من بطانته، وممن دافع عن العرب ابن قتيبة فألف كتابًا في «تفضيل العرب».[١٥]

ومما لا يحسن الإغضاء عنه في هذا المقام أن شعراء العصر العباسي مثل شعراء العصر الأموي وشعراء معظم عصور التمدن الإسلامي الأولى أكثرهم من عرب الشام والعراق، وعرب الشام أشعر من عرب العراق وما يجاورها في الجاهلية والإسلام، وقد علَّل ذلك أبو منصور الثعالبي بقربهم من خطوط العرب — ولا سيما أهل الحجاز — وبُعدهم عن بلاد العجم، وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق بمجاورة الفرس والنبط ومداخلتهم إياهم.

واتفق أنهم كانوا يمنون برؤساء من أهل الأدب ومحبيه كعبد الملك في زمن بني أمية والرشيد والمأمون في هذا العصر وغيرهم في غيره كما سيجيء.

منزلة الشعراء عند الخلفاء والأمراء

إن الخلفاء والأمراء كانوا يقربون الشعراء في كل عصر. أما الأمويون فكانوا يقربونهم في أول الأمر لأغراض سياسية، ثم فعلوا ذلك تلذذًا بالشعر وآدابه، وربما استقدموا الراوية من العراق إلى الشام ليسألوه عن معنى بيت أو من قاله، كما فعل هشام بن عبد الملك باستقدام حماد الراوية.[١٦]

أما في العصر العباسي فكان الغرض الغالب من تقريب الشعراء رغبة الخلفاء والأمراء في الأدب، وكثيرًا ما كانت تعقد مجالس الشعراء لغرض أدبي كوصف منظر أو أداة كما فعل الهادي؛ إذ استقدم الشعراء إليه، واقترح عليهم أن يصفوا سيفًا أهداه إليه المهدي، وهو سيف عمرو بن معدي كرب، فوضع السيف بين يديه وقال للشعراء: صفوه؛ فنال الجائزة ابن يامين المصري.[١٧]

وكان الرشيد من أكثر الخلفاء بحثًا في الشعر وقائليه؛ فقد سأل أهل مجلسه مرة عن صدر هذا البيت:

ومن يسأل الصعلوك أين مذاهبه

فلم يعرفه أحد، وكان الأصمعي مريضًا لا يقدر على المجيء، فأرسل إليه إسحاق الموصلي وبعث معه ألف دينار لنفقته، فجاء الجواب أن البيت من قصيدة لأبي النشناش النهشلي، وهذا صدره:

وسائلة أين الرحيل وسائلٌ ... ومن يسأل الصعلوك أين مذاهبه[١٨]

وكثيرًا ما كان الرشيد يعقد المجالس للبحث في معنى بيت، وقد سأل أهل مجلسه يومًا معنى هذا البيت:

قتلوا ابن عفان الخليفة محرمًا ... ورعًا فلم أر مثله مخذولا

وكان في المجلس الكسائي والأصمعي فطال الجدال بينهما والخليفة يسمع،[١٩] وأعطى الرشيد الفضل خاتمًا قيمته ١٦٠٠ دينار مكافأة على أحسن بيت قالته العرب في الذئب،[٢٠] والمأمون ولى ابن الجهم البرمكي ولاية من أجل بيت طلبه منه، واشترط عليه ذلك.[٢١]

نفوذ الشعراء وثروتهم

وكان الخلفاء إذا قدموا الشعراء بذلوا لهم الأموال الطائلة حتى وقع الشك في صحة بعض ما ذكروه من الجوائز الكبرى، وقد بيَّنَّا في تاريخ التمدن الإسلامي أنها صحيحة، وأن النقود لم يكن لها قيمة لكثرتها، وفي كل حال فإن ما خلفه بعض الشعراء من الثروة ولا تكسب لهم من غير الشعر يدل على كثرة ما كان يصل إلى أيديهم من المال.

ذكروا أن سلم الخاسر المتوفى سنة ١٨٦هـ خلف ثروة مقدارها ٥٠٠٠٠ دينار و١٥٠٠٠٠٠ درهم غير الضياع،[٢٢] ومثله مروان بن أبي حفصة خلَّف ثروة طائلة، وكانت جوائزه تبلغ ١٠٠٠٠٠ دينار مرارًا،[٢٣] وكان أبو نواس يكتسب أكثر من ذلك لكنه كان متلافًا سمحًا، وكان يتساجل في الإنفاق هو وعباس بن الأحنف وصريع الغواني (مسلم بن الوليد)، وكان البحتري — وهو من العصر العباسي الثاني — قد فاض كسبه، وكان يركب في موكب من عبيده، وأما أبو تمام فأنفق ماله في تجواله الأرض.

وقد تبسَّط شعراء ذلك العصر في العيش وتوسَّعوا في مظاهر الأبهة، فكان لأبي تمام والبحتري قهارمة وكتاب،[٢٤] وبلغ من دالة أبي نواس على الرشيد أنه كان يمر به بنو هاشم والقواد والكتاب يسلمون عليه وهو متكئ ممدود الأرجل فلا يتحرك لأحد منهم.[٢٥]

وكثيرًا ما كان رجال الدولة يعوِّلون على الشعراء في تبليغ بعض ما يخافون غضب الخليفة منه، كما فعلوا بتبليغ الرشيد خبر نقفور ملك الروم؛ إذ غدر وهمَّ أن يغزو بلاد الإسلام، ولم يجترئ يحيى بن خالد على إبلاغ الرشيد ذلك، فأطمع بعض الشعراء بالمال حتى نظم الخبر في شعر قاله في حضرته.[٢٦]

وكم من شعر وضع السيف في الرقاب كما فعل شعر سديف بالسفاح، فحمله على قتل بني أمية، وكم من شعر رفع السيف عن الرقاب كما فعل مالك بن طوق وقد حكم عليه بالإعدام فقال للرشيد شعرًا فعفا عنه،[٢٧] وقد رفع الرشيد السيف عن ربيعة وأحسن إليهم بعد سماعه أبياتًا قالها منصور النمري استعطفه بها، فأمر بكفِّ السيف عن ربيعة لأجله.

تأثير الشعر في الهيئة الاجتماعية

قد تقدم في صدر هذا الكتاب أن فطرة العرب شعرية ونفوسهم حساسة، ولغتهم شعرية؛ ولذلك كانوا أكثر الناس شعرًا وشعراء فمن لم ينظم الشعر حفظه وتناقله أو تناشده أو تذاكر فيه. وكانوا يعقدون المجالس للمناشدة من زمن الجاهلية في عكاظ

وأمثالها، ثم عقدوها في زمن الأمويين بالمربد في البصرة، وأما في العصر العباسي فلولا اشتغال الناس بالعلوم القديمة ونقلها وتفهمها لأصبح كل منزل من منازل أهل الأدب ناديًا للمذاكرة والمناشدة، ومع ذلك فإن الشعر كان عندهم فكاهة المجالس ومضرب الأمثال وديوان العبر ومخزن الحكمة، حتى كانوا لكثرة محفوظهم منه يرمزون باسم الشاعر إلى بيت من أبياته مشهور بمعنى، ويريدون ذلك المعنى كما اتفق للرجل الجالس على جسر بغداد والمرأة التي مرت به قادمة من الرصافة، فاستقبلها بقوله: «رحم الله علي بن الجهم.» فقالت له المرأة: «رحم الله أبا العلاء المعري.» وما وقفا، بل سارا مشرقًا ومغربًا — قال الراوي: «فتبعت المرأة وقلت لها: والله إن لم تقولي لي ما أراد وما أردت لأفضحنَّك، قالت: أراد بعلي بن الجهم قوله:

عيون المها بين الرصافة والجسرِ جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

وأردت بأبي العلاء قوله:

فيا دارها بالخيف إن مزارها قريب ولكن دون ذلك أهوالُ[٢٨]

والحادثة المذكورة جرت بعد العصر الأول الذي نحن في صدده، لكنها يصح أن تكون مثالًا عنه؛ لأن أهل هذا العصر بلغ من شغفهم بالشعر أنهم نقشوه على جدران منازلهم وأنديتهم وعلى فصوص خواتمهم، وكتبوه في صدور مجالسهم وعلى القباب والمستنظرات والأبواب، وطرزوه على الستائر والطنافس والكلل والأسرة والوسائد والمرافق والمقاعد، وعلى القناني والأقداح والكاسات والأرطال والجامات، وسائر آنية الفضة والذهب والصيني، ونقشوه على العيدان والمضارب والسرنايات والطبول والمعازف والدفوف، وزيَّنوا به الثياب فطرزوه على ذيول الأقمصة والأعلام وطراز الأردية والأكمام، وعلى العصائب ومشادِّ الطرر والزنانير والتكك والمناديل والمذاب والمراوح حتى النعال والخفاف، وزيَّنوا به مظاهر أبدانهم فكتبوه بالحنَّاء على الجبين والخد والأقدام والراح، ونقشوا به التفاح والأترج وغيرهما، فكنت حيثما توجهت رأيت الشعر منقوشًا أو مطرزًا أو مكتوبًا أو منسوجًا، وتجد أمثلة من ذلك في كتاب الموشى الآتي ذكره.

(٤) طبقات الشعراء

إن عدد الشعراء في هذا العصر أضعاف شعراء العصر الأموي؛ لأن مدة العصر العباسي أطول، وقد اتسعت مساحة البلاد التي يقيم فيها العرب، وكثر الشعراء من غير العرب، وكانوا في زمن الأمويين يفدون من جزيرة العرب وبعض ضواحيها، فصاروا يأتون في زمن العباسيين من أكثر المدائن الإسلامية، وبعد أن كان الشعر منحصرًا تقريبًا في العرب، شاركهم فيه الموالي وغيرهم رغم اشتغال القرائح بترجمة الكتب وانصراف طبقة من الناس إليها. ولو شئنا تعداد شعراء هذا العصر لضاق المقام بهم؛ لأنهم كثيرون يزيدون على بضع مئات أورد ابن النديم أسماءهم في الفهرست، وذكر عدد ما خلفه كل منهم من الأبيات،[٢٩] وأكثر ذلك ضاع الآن، ومن العبث أن نأتي بأخبار كل هؤلاء الشعراء، وفيهم من لا أهمية له وليس بين أيدينا شيء من نظمه.

ويقال بالإجمال: إن أكثر هؤلاء الشعراء من طلاب الرزق انقطع أكثرهم إلى الخلفاء، وتحضَّروا في بغداد أو البصرة وبعضهم انقطعوا إلى البرامكة، وآخرون انحازوا للشيعة العلوية، ومنهم من اختص ببعض الأمراء والوزراء، وهناك جماعة منهم لم يتحضروا بل كانوا يقيمون في البادية، وإنما يفدون على بغداد في المواسم ينشدون ما ينظمونه في مدح الخليفة أو غيره ويعودون إلى مضاربهم، ومنهم طائفة لم يفدوا على أحد فكانوا ينظمون الشعر لأنفسهم وهم قليلون أو إن أكثرهم ظل في ثنايا الإهمال لبعدهم عن الدولة.

(٤-١) الشعراء المتحضِّرون

وهذه أسماء أشهر شعراء ذلك العصر الذين نزلوا المدن وتحضروا، وأكثرهم من الموالي غير العرب أقام معظمهم في بغداد تحت ظل الخلفاء أو وزرائهم باعتبار أغراضهم أو غرض من ينتمون إليه أو يعيشون في ظله، وفيهم من توفي بعد سنة ٢٣٢هـ، ولكننا عددناه من شعراء هذا العصر؛ لأنه نبغ فيه:

شعراء الخلفاء

- أبو دلامة.
- حماد عجرد.
- بشار بن برد.
- مروان بن أبي حفصة.
- سلم الخاسر.
- أبو نواس.
- منصور النمري.
- أبو العتاهية.
- أبو تمام.
- علي بن الجهم.
- حسين بن الضحاك.

شعراء البرامكة

- أبان بن عبد الحميد.
- ابن مناذر.
- الرقاشي.
- مسلم بن الوليد.
- أشجع السلمي.

شعراء سائر الأمراء

- إبراهيم بن سيابة مدح إبراهيم الموصلي.
- محمد بن أمية وأخوه مدح إبراهيم بن المهدي.
- العكوك مدح أبا دلف.
- محمد بن صالح مدح ابن المدبر.
- مطيع بن أياس مدح جعفر بن المنصور.

- أبو الشيص مدح عقبة بن جعفر.

شعراء الشيعة

- السيد الحميري.
- دعبل.
- ديك الجن.

وهناك طائفة لم يتكسب أصحابها بالشعر أشهرهم:

- صالح بن عبد القدوس.
- العباس بن الأحنف من عدي.
- محمد بن بشير مولى بني إياس (ويدخل في هؤلاء أيضًا السيد الحميري وديك الجن، وقد ذكرا بين شعراء الخلفاء وشعراء الشيعة).

(٤-٢) شعراء لم يتحضروا

أما الشعراء الذين ظلوا على بداوتهم، فكانوا يفدون على الخليفة أو الأمير فينالون الجوائز ثم يعودون إلى بلدهم، فكلهم من العرب، وهاك أشهرهم:

- ربيعة الرقي من الرقة.
- كلثوم بن عمرو العتابي.
- عمارة بن عقيل من هوازن.
- ناهض بن ثومة الكلابي من عامر.

ونبغت طائفة من الشعراء في ذلك العصر عرفت بطبقة المترفين وأبناء النعم، منهم عبد الله بن عباس الربيعي من نسل الفضل بن الربيع، وقد يشترك بعض شعراء إحدى هذه الطبقات بخصائص طبقة أخرى، وإنما أردنا بهذا التقسيم سهولة التعليق بالذهن.

هؤلاء هم أشهر الشعراء في العصر العباسي الأول، وبهم قام ذلك الانقلاب الشعري فامتاز به شعر هذا العصر على سواه كما تقدم، وأكثرهم تأثيرًا في ذلك الانقلاب أكثرهم

تقربًا من الخلفاء لتقدمهم في الشاعرية ولرفعة مقامهم قلدهم الناس في أساليبهم أو استنباطاتهم، وفي مقدمتهم سبعة هم عمدة هذا الانقلاب هذه أسماؤهم مع سني وفاتهم:

- بشار بن برد توفي سنة ١٦٧هـ.
- السيد الحميري توفي سنة ١٧٣.
- أبو نواس توفي سنة ١٩٨.
- مسلم بن الوليد توفي سنة ٢٠٨.
- أبو العتاهية توفي سنة ٢١١.
- أبو تمام توفي سنة ٢٣١.
- دعبل توفي سنة ٢٤٦.

وإليك تراجمهم على هذا الترتيب بما يقتضيه المقام من الإيجاز، وإلا فإن كلًّا منهم يحتاج في بسط ترجمته، ودرس شعره ونقده إلى مجلد قائم بنفسه، فنترك ذلك إلى من تفرغ للدرس والنقد من الأدباء.

(٥) عمدة الشعراء

(٥-١) بشار بن برد (توفي سنة ١٦٧هـ)

هو فارسي أصل آبائه من طخارستان، أُخِذ أبوه برد في سبي وقع في يدي المهلب بن أبي صفرة، فكان من فيء القشيرية امرأة المهلب، فأقامته في ضيعة لها بالبصرة مع عبيدها ثم زوَّجته، وأهدته إلى امرأة عقيلية كانت صديقة لها فوُلد له بشار، وأعتقته العقيلية فصار مولى، ونشأ في البصرة ثم قدِم بغداد بعد أن بناها المنصور.

ولد بشار أعمى جاحظ الحدقتين يغشاهما لحم أحمر، وكان ضخمًا طويلًا عظيم الخلق والوجه مجدرًا، وكان أطبع شعراء ذلك العصر على الشعر، وقد قوَّى العمى شاعريته لانصراف المخيلة إلى التصور — ولذلك رأيت أكثر العميان من الشعراء يفوقون معاصريهم في سعة الخيال مثل هوميروس اليوناني وملتن الإنكليزي، وبشار وأبي العلاء وغيرهما عند العرب.

جاء بشار في أوائل العصر العباسي الأول، فكان في مقدمة الذين نبغوا فيه فهو مقدم عليهم بإجماع الرواة،[٣٠] ورئيسهم بلا خلاف، قال الجاحظ: «المطبوعون على الشعر بشار

والسيد الحميري وأبو العتاهية وابن أبي عيينة، ولكن بشارًا أطبعهم.»[٣١] وقد عاصر أواخر الدولة الأموية وأوائل العباسية، وقال الشعر وهو ابن عشر سنين، وأدرك جريرًا والفرزدق، وهجا جريرًا فأعرض جرير عنه استخفافًا — قال بشار: «ولو هاجاني لكنت أشعر الناس.» فظل نحو ثمانين سنة وهو ينظم الشعر، فمدح وهجا ونال الجوائز، وبلغ ما نظمه نحو ١٢٠٠٠ قصيدة؛ ولذلك جاهر بين يدي أهل الأدب أن له ١٢٠٠٠ بيت جيد، فقالوا له: «هذا القدر لا يجتمع لكل الشعراء.» فقال: «لي ١٢٠٠٠ قصيدة ألا يكون لي بيت جيد من كل قصيدة؟» ولم يبق من هذه القصائد إلى أيام ابن النديم صاحب الفهرست إلا ٤٠٠٠٠ بيت، وليس منها الآن إلا نتف متفرقة في كتب الأدب، وليس لبشار ديوان شعر مجموع، ويقال: إن أكثر الناس شعرًا في الجاهلية والإسلام ثلاثة: بشار وأبو العتاهية والسيد الحميري.[٣٢]

ويمتاز بشار بأنه تصرَّف وتفنن في معاني الشعر شيئًا كثيرًا، وراج شعره في أيامه بالبصرة حتى لم يبق غزل ولا غزلة إلا ويروي من شعر بشار، ولا نائحة ولا مغنية إلا تتكسب به، ولا ذو شرف إلا وهو يهابه ويخاف معرة لسانه، وبشار مثل امرئ القيس فهو عندهم إمام الشعراء المحدثين، وقد قالوا ذلك أيضًا في أبي نواس، ولكن بشارًا أسبق، وكان عند قيام الدولة العباسية منحازًا للعلويين، وكان إبراهيم بن عبد الله بن الحسن ناهضًا على المنصور، فنظم بشار قصيدة حرض بها إبراهيم على الفتك بالمنصور مطلعها:

أبا جعفر ما طول عيش بدائمِ ولا سالمٌ عما قليل بسالمِ

ثم علم بفوز المنصور وقتله إبراهيم المذكور، فقلب الكنية وأظهر أنه قال القصيدة في أبي مسلم الخراساني فقال:

أبا مسلم ما طول عيش بدائمِ ولا سالمٌ عما قليل بسالمِ

وفي هذه القصيدة أبيات حكمية في غاية البلاغة منها:

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن برأي نصيح أو نصيحة حازمِ
ولا تجعل الشورى عليك غضاضةً فإن الخوافي قوة للقوادمِ
وما خير كف أمسك الغلُّ أختها وما خير سيف لم يؤيد بقائمِ

وخل الهوينا للضعيف ولا تكن نَئُومًا فإن الحزم ليس بنائمِ
وحارب إذا لم تعط إلا ظلامةً شبا الحرب خير من قبول المظالمِ

ثم انتقل إلى بغداد ومدح العباسيين وعاصر المهدي، ومدح خالد بن برمك جد البرامكة، وكان كلما وفد عليه أعطاه خمسة آلاف درهم، ثم زادها له، ومن قوله بيتان أمر خالد أن يكتبا في صدر مجلسه، وهما:

أخالد إن الحمد يبقى لأهله جمالًا ولا تبقى الكنوز على الكدِّ
فاطعم وكل من عارة مستردَّةٍ ولا تبقها إن العواري للردِّ

وأخبار بشار كثيرة بسطها صاحب الأغاني في ٦٠ صفحة من الجزء الثالث من كتابه، ولم يدع بشار بابًا من أبواب الشعر إلا طرقه وأجاد فيه، ومن قوله في الغزل:

لم يطل ليلي ولكن لم أَنَمْ ونفى عني الكرى طيف ألمْ
وإذا قلت لها: جودي لنا خرجت بالصمت عن لا ونعمْ
نفِّسي يا عبدُ عني واعلمي أنني يا عبد من لحم ودمْ
إن في برديَّ جسمًا ناحلًا لو توكأتِ عليه لانْهَدَمْ
ختم الحب لها في عنقي موضع الخاتم من أهل الذممْ

ومن قوله:

إذا كنت في كل الأمور معاتبًا صديقك لم تلقَ الذي لا تعاتبهْ
فعش واحدًا أو صِلْ أخاك فإنه مقارف ذنب مرةً ومُجانبهْ
إذا أنت لم تشرب مرارًا على القذى ظمئت وأي الناس تصفو مشاربُهْ

ومن الغزل قوله:

يزهدني في حب عبدة معشرٌ قلوبهمُ فيها مخالفة قلبي
فقلت: دعوا قلبي وما اختار وارتضى فبالقلب لا بالعين يبصر ذو الحبِّ

فما تبصر العينان في موضع الهوى ولا تسمع الأذْنانِ إلا من القلبِ

وكان بشار من أصحاب الفلسفة المتحيرين في الدين، ويعتقدون أن الإنسان مسوق لا مخير؛ يدل على ذلك قوله:

طبعتُ على ما فيَّ غير مخيَّرٍ هواي ولو خيرت كنت المهذبا
أريد فلا أعطى وأعطى فلم أرد وقصر علمي أن أنال المغيبا
فأصرف عن قصدي وعلمي مقصرٌ وأمسي وما أعقبت إلا التعجبا

وقد تقدم خبر انحرافه عن بني العباس، ولم يغنه تغيير مطلع تلك القصيدة شيئًا، فإن المنصور سكت عنه وما زال يعتقد انحرافه عنهم قلبيًّا؛ ولذلك ظل في خاطره شيء عليه، وكان المهدي بعده يظهر له فتورًا؛ فغضب بشار ومدح وزيره يعقوب بن داود فلم ينفعه، فهجاه ببيتين كانا سبب موته، وهما:

بني أمية هبوا طال نومكمُ إن الخليفة يعقوب بن داودِ
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة الله بين الزق والعودِ

فبعث المهدي إليه صاحب الزنادقة، فضربه حتى مات، ولم يخرج في دفنه أحد؛ لأنه مات وخصمه الخليفة — وربما كان هذا هو السبب أيضًا في خمول اسمه مع تبرزه في الشعر.

وتجد ترجمته في الأغاني ١٩ ج٣ و٤٧ ج٦، وابن خلكان ٨٨ ج١، والشعر والشعراء ٤٧٦، والفهرست ١٥٩.

(٥-٢) السيد الحميري (توفي سنة ١٧٣هـ)

اسمه يدل على أنه من حمير، نزل البصرة وكان شاعرًا متقدمًا مطبوعًا، وقد تقدم أنه هو وبشار وأبو العتاهية أكثر الناس شعرًا في الجاهلية والإسلام، وبلغ منظومه ٢٣٠٠ قصيدة، ولم يصلنا منها ما يستحق الذكر. وقد خمل ذكره لأنه كان يسب الصحابة بتشيُّعه لعلي فتُحُومي شعره وتخوَّف الناس منه. أما من حيث الشاعرية فله طراز ومذهب قلما يلحق فيه، وكان أسمر اللون تام القامة أشنب ذا وفرة حسن الألفاظ

جميل الخطاب، إذا تحدث في مجلس قوم أعطى كل رجل من المجلس نصيبه من حديثه، ويعده بعضهم من طبقة بشار وأنهما أشعر المحدثين، ويمتاز عن سائرهم أنه كان يكره الاستجداء بالشعر، وقد نظم في ذلك أبياتًا وهي:

أيها المادح العباد ليُعْطَى ... إن لله ما بأيدي العبادِ
فاسأل الله ما طلبت إليهم ... وارج نفع المنزِّل العوادِ
لا تقل في الجواد ما ليس فيه ... وتسمي البخيل باسم الجوادِ

فلما سمع بشار قوله قال: «لولا أن هذا الرجل شغل عنا بمدح بني هاشم لشغلنا ولو شاركنا في مذهبنا لتعبنا.»[٣٣] ومن شعره في مدح بني هاشم لما استقرَّ الأمر لأبي العباس السفاح قوله:

دونكموها يا بني هاشمٍ ... فجددوا من عهدها الدارسا
دونكموها فالبسوا تاجها ... لا تعدموا منكم له لابسَا
لو خير المنبر فرسانه ... ما اختار إلا منكمُ فارسَا
قد ساسها قبلكم ساسةٌ ... لم يتركوا رطبًا ولا يابسَا
ولست من أن تملكوها إلى ... مهبط عيسى فيكمُ آيسَا

ومن قوله في ذم الصحابة:

قل لابن عباس سميِّ محمدٍ ... لا تعطينَّ بني عدي درهمَا
احرم بني تيم بن مرة إنهم ... شر البرية آخرًا ومقدمَا
إن تعطهم لا يشكروا لك نعمةً ... ويكافئوك بأن تذم وتشتما
وإن ائتمنتهمُ أو استعملتهم ... خانوك واتخذوا خراجك مغنمَا
ولئن منعتهمُ لقد بدءوكمُ ... بالمنع إذ ملكوا وكانوا أظلما
منعوا تراث محمد أعمامَهُ ... وبنيه وابنته عديلة مريما

وله في مدح العلويين ما يدل على حرية في القول، ومن أدلة ترفعه عن الجوائز أن الرشيد أعطاه جائزة ففرقها، وتجد ترجمته وأخباره في الأغاني ٢ ج٧ وفوات الوفيات ١٩ ج١.

(٥-٣) أبو نواس (توفي سنة ١٩٨هـ)

هو الحسن بن هانئ، ولد في الأهواز سنة ١٤٥هـ في خلافة أبي جعفر المنصور، وكانت أمه أهوازية اسمها جلبان، وكان أبوه دمشقيًّا من جند مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية، أنفذه مروان إلى الأهواز فلقي جلبان فأحبها وتزوَّجها فولدت له أولادًا منهم أبو نواس وأبو معاذ، وقبل أن يتجاوز أبو نواس السنة الثانية من عمره انتقل والداه إلى البصرة فنشأ فيها، ولم يكن والده في سعة، أو لعل والده مات وترك أولاده في كفالة أمهم، فأسلمت أبا نواس إلى عطار يتخرَّج عنده في مهنة العطارة، ولكن نفسه كانت تميل إلى غير هذه الصناعة، وكان إذا قرأ شعرًا ارتاحت نفسه إلى معانيه وقامت فيه رغبة في النظم، فإذا اجتمع بأديب أو راوية أو شاعر أو حضر مجلس أدب وسمع شعرًا أحبَّ ناظمه وتمنى أن يراه، وكان في جملة من سمع أشعارهم وأحب الاجتماع بهم، والبة بن الحباب، وكان ظريفًا غزلًا وصَّافًا للشراب، واتفق أن والبة قدم الأهواز ليمدح أبا بجير الأسدي عامل المنصور عليها فمر بذلك العطار، فلقي أبا نواس وكان جميل الصورة ذكيًّا، فتوسم فيه النباهة فجالسه وخاطبه فآنس فيه قريحة وقَّادة، فقال له: «إن فيك مخايل أرى أن لا تضيعها وستقول الشعر فهل تصحبني أخرِّجك؟» ولم يكن أبو نواس يعرف مخاطبه فقال: ومن أنت؟ قال: «أنا أبو أسامة والبة بن الحباب.» فقال: «نعم، أنا والله في طلبك، ولقد أردت الخروج إلى الكوفة بسببك لآخذ عنك وأسمع منك.» فسار أبو نواس معه إلى الكوفة ثم قدما بغداد.

وكان والبة وبعض شعراء تلك الأيام وندماؤه يجتمعون كل ليلة على الشراب وقول الشعر، لا يكادون يفترقون، فيهجون بعضهم بعضًا هزلًا وجدًّا، ويصفون الخمر وغيرها، وكان أبو نواس يحضرهم فيسمع ويعي ويزداد كل يوم علمًا ودربة، وكان يختلف إلى أبي زيد الأنصاري فتعلَّم منه غريب الألفاظ، وتردَّد على أبي عبيدة معمر بن المثنى فتعلم منه أيام الناس، ونظر في نحو سيبويه حتى أصبح في الطبقة الأولى من المولَّدين وشعره عشرة أنواع أجاد فيها كلها، وأحسن علم اللغة وفروعها حتى قال فيه الجاحظ: «ما رأيت رجلًا أعلم باللغة من أبي نواس ولا أفصح لهجة مع مجانبة الاستكراه.» وقال معمر بن المثنى: «كان أبو نواس للمحدثين كامرئ القيس للمتقدمين.» وقد تقدم أن ذلك أولى أن يقال ببشار؛ لأنه أسبق.

ويروى عن أبي نواس أنه قال: «ما قلت الشعر حتى رويت لستين امرأة من العرب منهن الخنساء وليلى فما ظنك بالرجال؟!» وقال ابن السكيت: «إذا رويت من أشعار

الجاهليين فلامرئ القيس والأعشى، ومن الإسلاميين فلجرير والفرزدق، ومن المحدثين فلأبي نواس فحسبك.» وهو يُعد أيضًا من الشعراء المُجَّان.

وقد قدمنا في كلامنا عن مزايا الشعر في العصر العباسي الأول ما كان لأبي نواس من الفضل في تغيير طريقته والتوسع في معانيه، فهم يعدونه إمام هذه الطريقة؛ ولذلك فهو يمتاز بتصرفه في الشعر عن طريقة القدماء — كان عندهم للشعر ألفاظ محدودة وأساليب معيَّنة، فتجاوزها كما تجاوزها الأعشى قبله،[٣٤] ولكنَّ تقرُّب أبي نواس من الخلفاء ونفوذه عندهم ساعد على نشر طريقته، فصار الشعراء يتحدونه فيها شأنهم في تحدي كل وجيه نافذ الكلمة؛ ولذلك قالوا: الناس على دين ملوكهم، وإذا تدبرت تاريخ الاجتماع رأيت ذلك قاعدة في سائر أحوال الحياة.

ووصف شعر أبي نواس لا يفي به صفحة أو بضع صفحات، وهو أول من توسع في وصف الخمر والتغزل بالغلمان، وفي ديوانه المطبوع بمصر صفحات عديدة من نظمه في هذين البابين فضلًا عن تغزُّله بجارية أحبها اسمها جنان. وقد أشرنا إلى تهتُّكه في جملة متهتكي ذلك العصر، ولعله أكثرهم انغماسًا في اللهو على أنواعه طمعًا منه بعفو الله على حد قوله:

تكثَّر ما استطعت من الخطايا	فإنك بالغ ربًّا غفورا
ستبصر إن وردت عليه عفوًا	وتلقى سيدًا ملكًا كبيرا
تعضُّ ندامة كفيك مما	تركت مخافة النار السرورا

ومن لطيف نظمه في مدح محمد الأمين قوله يمدح ناقته:

وتجشمتْ بي هول كل تنوفةٍ	هوجاء فيها جرأةٌ إقدامُ
تذر المطي وراءها فكأنها	صفٌّ تقدمهن وهي إمامُ
وإذا المطي بنا بلغن محمدًا	فظهورهن على الرجال حرامُ

وعابوا عليه المبالغة في مدح الرشيد لقوله:

وأخفْتَ أهل الشرك حتى إنه	لتخافك النطف التي لم تخلقِ

ومن قوله في وصف الخمر:

ونـدمـان سـقيت الـراح صـرفًا وستر الليل منسدل السجوفِ
صفت وصفت زجاجتها عليها كمعنًى دقَّ في ذهن لطيفِ

وقوله:

مُدامٌ تبدت من مقام مشرفٍ تلوح لنا أنوارها ثم تختفي
ولما شربناها ودب دبيبها إلى موضع الأسرار قلت لها: قفي
مخافة أن يسطو عليَّ شعاعها فيطلع جلَّاسي على سري الخفي

وقوله:

معتقة صاغ المزاج لرأسها أكاليل در ما لناظمها سلكُ
جرت حركات الدهر فوق سكونها فذابت كذَوْب التبر أخلصه السبكُ
وقد خفيت من لطفها فكأنها بقايا يقين كاد يذهبها الشكُّ

وهي كثيرة ويناسبك ذلك وصفه للأقداح وما عليها من النقوش كقوله:

تدور علينا الراح في عسجديةٍ حبتها بألوان التصاوير فارسُ
قرارتها كسرى وفي جنباتها مهًا تدَّريها بالقسي الفوارسُ
فللخمر ما زرَّت عليه جيوبها وللماء ما حازت عليه القلانسُ

ويظهر أنه كان مطَّلعًا على أقوال الأوائل المنقولة إلى العربية، ولا سيما علم النجوم والطبيعيات بدليل قوله وفيه إلمام بالفلك:

ألم ترَ الشمس حلت الحملا وقام وزن الزمان فاعتدلا
وغنت الطير بعد عجمتها واستوفت الخمر حولها كملا

ومما يدل على معرفته علم الطبائع قوله:

قل لزهير إذا حدا وشدا	أقلل أَوَ اكْثر فأنت مهذارُ
سخنت من شدة البرودة حتـْ	ـتَى صرت عندي كأنك النارُ
لا يعجب السامعون من صفتي	كذلك الثلج بارد حارُّ

وفي ذلك إشارة إلى نظر أهل الهند في الطبائع، فهم يزعمون أن الشيء إذا زاد في البرد عاد حارًّا، ومن أقوالهم: «إن الصندل الأبيض إذا أفرط في حكه عاد حارًّا مؤذيًا.»
ومما يدل على إلمامه بخرافات اليونان والفرس قوله من قصيدة يمدح بها يحيى بن خالد:

صورة المشتري لدى بيت الـ	ـليل والشمس أنت عند انتصابِ
ليس زاويش[٣٥] حين سار أمام الـ	ـحوت والبدر إذ هوى لانصبابِ
منك أسخى بما تشحُّ به الأنـ	ـفس عند انتقاص در الحلابِ
لا وبهرام تستقلُّ به العقـ	ـرب بالليل رائدًا في الحسابِ
منك أمضى لدى الحروب ولا أهـْ	ـول في العين عند ضرب الرقابِ

واختلفوا في سنة وفاته، والأرجح أنها سنة ١٩٨هـ، ولو أردنا الإتيان بأمثلة من نظمه لضاق المقام مع شيوع ديوانه، وقد جمعه غير واحد،[٣٦] وهو مطبوع غيرة مرة في فينا ومصر وبيروت. وفي صدر طبعة مصر سنة ١٨٩٨ فصل لجامع الديوان حمزة بن الحسن الأصبهاني في شعر أبي نواس ونقده، والديوان نحو ٤٥٠ صفحة، ويتضمن نحو ١٣٠٠٠ بيت مرتبة على ١٢ بابًا: (١) نقائضه مع الشعراء. (٢) المديح. (٣) المراثي. (٤) العتاب. (٥) الهجاء. (٦) الزهد. (٧) الطرد. (٨) الخمريات. (٩) الخمريات والمجون. (١٠) غزل المؤنث. (١١) غزل المذكر. (١٢) المجون. وقد أهمل الناشر باب المجون لتهتكه الزائد.

وتجد أخباره في الأغاني ٢ ج١٨ و١١٠ و١٧٠ و١٨٦ ج٦ و١٤٨ ج٦، وابن خلكان ١٣٥ ج١، وطبقات الأدباء ٩٦، والشعر والشعراء ٥٠١، والفهرست ٦٠، والعقد الفريد ٣٣٧ ج٣.

(٤-٥) مسلم بن الوليد (توفي سنة ٢٠٨هـ)

ويعرف بصريع الغواني، وهو من أبناء الأنصار، كان مداحًا محسنًا، وجل مدائحه في يزيد بن مزيد وداود بن يزيد المهلبي والبرامكة ومحمد بن منصور بن زياد كاتبهم، وولاه المأمون بريد جرجان فلم يزل بها حتى مات، وهو أول من ألطف في المعاني ورقق في القول، وعليه يعول أبو تمام في ذلك وعلى أبي نواس، ومن قوله في الوداع:

وأنـي وإسـمـاعـيـل يـوم وداعـه　　لكالغمد يوم الروع زايله النصلُ
فـإن أغش قـومًا بـعـده أو أزرهـمُ　　فكالوحش يدنيها من الأنس المحلُ

ومن بديعه الذي امتثله أبو تمام وغيره:

إذا ما نكحنا الحرب بالبيض والقنا　　جعلنـا المنـايا عند ذاك طلاقـها

ومن مدحه قوله في الفضل بن يحيى:

تساقط يمناه الندى وشماله الـ　　ـردى وعيون القول منطقه الفصلُ
عجول إلى أن يودع الحمد ماله　　يعدُّ الندى غنمًا إذا اغتنم البخلُ
له هضبة تأوي إلى ظل برمكٍ　　منوط بها الآمال أطنابها السبلُ

ومن قوله في وصف سفينة:

أطـلـت بـمـجـدافـيـن يـعـتـورانـهـا　　يـقـوِّمـهـا كـبـح الـلـجـام مـن الـدبـرِ
كأن الصبا تحكي بها حين واجهت　　نسيم الصبا مَشْيَ العروس إلى الخدرِ

ومن لطيف غزله:

إذا التقينا منعنا النوم أعيننا　　ولا نلائم يومًا حين نفترقُ
أقر بالذنب مني لست أعرفه　　كيما أقول كما قالت فنتفقُ

وله ديوان مطبوع في ليدن سنة ١٨٧٥، ونجد أخباره في الشعر والشعراء ٥٢٨، وفي الأغاني ٩ ج١٣، والعقد الفريد ١٤٢ ج١، وفي طبعة الديوان المذكورة.

(٥-٥) أبو العتاهية (توفي سنة ٢١١هـ)

هو مولى واسمه إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان، ولد بعين التمر سنة ١٣٠هـ، ونشأ في الكوفة، وكان في أول أمره يتخنَّث فيحمل زاملة المخنثين، ثم اشتغل بصناعة أبيه فجعل يصطنع الجرار ويحملها في قفص على ظهره، ويدور في الكوفة ويبيع منه، ولكنه أحسَّ من حداثته باقتداره على النظم، وكان الشعر يومئذ ديوان الناس وموضوع أحاديثهم، وحيثما اجتمعوا تناشدوه وتذاكروا فيه.

فاتفق يومًا وهو يدور بقفص الجرار أنه مر بفتيان جلوس يتذاكرون الشعر ويتناشدونه فسلم ووضع القفص عن ظهره ثم قال: «يا فتيان، أراكم تتذاكرون الشعر فأقول شيئًا منه فتجيزونه؟ فإن فعلتم فلكم عشرة دراهم.» فهزءوا منه وسخروا به، لكنهم قالوا: «نعم.» قال: «لا بد أن يشترى بأحد القمرين رطب يؤكل فإنه قمر حاصل.» وجعل رهنه تحت أيديهم وقال أجيزوا:

ساكني الأجداث أنتم

وجعل بينه وبينهم وقتًا في ذلك الموضع وعيَّن نقطة إذا بلغتها الشمس ولم يجيزوا البيت غرموا الخطر، فلما أعياهم ذلك جعل يهزأ بهم وتمَّمه:

ساكني الأجداث أنتم مثلما بالأمس كنتم
ليت شعري ما صنعتم أربحتم أم خسرتم؟

وهي قصيدة من شعره طويلة، فخجل الفتيان وأذاعوا خبره في الكوفة، فجعل أدباؤها وطلاب الشعر من فتيانها يأتونه إلى معمله يستنشدونه فينشدهم أشعاره، فيأخذون ما تكسر من الخزف فيكتبونها فيه.

ثم وفد على بغداد في أول خلافة المهدي وأنشده قصيدة مطلعها:

ألا ما لسيدتي ما لها أدلت فأحمل أدلالها

وكان بشار بن برد حاضرًا فاستخف بها، حتى إذا وصل إلى قوله:

أتته الخلافة منقادة	إليه تجرر أذيالها
فلم تك تصلح إلا له	ولا يك يصلح إلا لها
ولو رامها أحد غيره	لزلزلت الأرض زلزالها
ولم لم تطعه بنات القلو	ب لما قبل الله أعمالها

قال بشار لجار له: «انظر ويحك هل طار الخليفة عن فرشه؟» وصار أبو العتاهية من المقربين، وكان المهدي يراعي خاطره، ويكرمه، فأحرز نفوذًا عظيمًا عنده، حتى كثيرًا ما كان يتوسط بالعفو لديه، ولما توفي المهدي خلفه الهادي، وكان واجدًا عليه؛ لأنه كان يلازم أخاه الرشيد؛ فهنأه أبو العتاهية بقصيدة يتقرب بها إليه مطلعها:

ألا شافع عند الخليفة يشفعُ	فيدفع عنا شر ما يتوقعُ

فأذن بإدخاله. ولم تطل مدة الهادي فخلفة الرشيد، وكان أبو العتاهية قد عاهد نفسه أن لا يقول شعرًا، فألزمه الرشيد على القول فأطاعه فحظي عنده حظوة كبيرة حتى كان لا يفارقه في حضر، ولا سفر، وعيَّن له راتبًا مقداره ٥٠٠٠٠ درهم سوى الجوائز منه ومن أمرائه ووزرائه، وكان بعض هؤلاء يجرون عليه الرواتب الشهرية أو السنوية.

وكان أبو العتاهية سوداويَّ المزاج كثيرَ التردد في أمر الدين، فتقلب على أطوار شتى — شأن الذين يحلون أنفسهم من قيود الدين وينظرون فيه نظر الناقد — فاستقر رأي أبي العتاهية أخيرًا على التمسك بالإسلام والزهد عن الدنيا، فأمره الرشيد أن يقول الشعر، فأبى فحبسه وضربه ثم أطلقه شفقة عليه، وله غزل كثير في عتبة جارية المهدي.

وهو من مؤسسي الانقلاب الشعري في هذا العصر، وقد أطلق نفسه من التقليد بالمعاني والألفاظ فأتى بمعانٍ جديدة، ونظم على أوزان لا تدخل في العروض ولم يتقدمه فيها أحد،[٣٧] ولم يتهيب مما يتهيب له كثيرون من شعرائنا خوفًا من الرجوع عن التقليد، قعد يومًا عند قصار فسمع صوت المدقة فحكى ذلك في أبيات شعره فقال:

للمنون دائرا	ت يدرن صرفها
هن ينتقيننا	واحدًا فواحدًا

ومن مخترعاته في المعاني قوله:

الناس في غفلاتهم ورحى المنية تطحنُ

وقوله لأحمد بن يوسف:

ألم تر أن الفقر يرجى له الغنى وأن الغنى يخشى عليه من الفقرِ

وقوله في موسى الهادي:

ولما استقلوا بأثقالهم وقد أزمعوا للذي أزمعوا
قرنت التفاتي بآثارهم وأتبعتهم مقلة تدمعُ

وقوله:

هب الدنيا تصير إليك عفوًا أليس مصير ذاك إلى زوالِ

ومن لطيف معانيه قوله:

إذا المرء لم يعتق من المال نفسه تملكه المال الذي هو مالكُهْ
ألا إنما مالي الذي أنا منفقٌ وليس لي المال الذي أنا تاركه

وذكروا له أرجوزة حكمية في بضعة آلاف بيت منها:

حسبك مما تبتغيه القوتُ ما أكثر القوت لمن يموتُ
الفقر فيما جاوز الكفافا من اتقى الله رجا وخافا

ومع ذلك فالأصمعي يقول: «شعر أبي العتاهية كساحة الملوك؛ يقع فيها الجوهر والذهب والتراب والخزف والنوى.»

وكان أبو العتاهية أبيض اللون أسود الشعر نظيف الثياب له وفرة جعدة وهيئة حسنة ولباقة وحصافة، وكان سيال القريحة سريع الخاطر لطيف المعاني سهل الألفاظ،

فقد سأله بعضهم: «كيف تقول الشعر؟» قال: «ما أردته قط إلا مثلًا لي فأقول ما أريد وأترك ما لا أريد.»

وقد نظم في كل أبواب الشعر وامتاز منها بالزهد. ويؤخذ من سيرة حياته أنه كان مترددًا متقلبًا، ويغلب ذلك في طباع الشعراء؛ لأنهم أهل خيال وأوهام وخصوصًا الذين يستجدون بشعرهم؛ فإنهم يتقلبون مع الأهواء، ويسعون وراء النفع حيثما كان، على أن تمنع أبي العتاهية عن قول الغزل بعد أن أمره به الرشيد يخالف هذه القاعدة، ولكن لعل له سببًا حمله على ذلك.

وأما تقلبه فظاهر من تذبذبه في الدين كما تقدم، وأنه كان إذا اختص ببعض الأمراء ادعى ولاء قبيلته؛ فقد كان طول حياة يزيد بن منصور يدعي أنه مولى لليمن وينتفي من عنزة، فلما مات يزيد رجع إلى ولائه، وعاتبه بعضهم في ذلك وقال له: «ألم تكن تزعم أن ولاءك لليمن؟» قال: «ذلك شيء احتجنا إليه في ذلك الزمن، وما في واحد انتميت إليه خير ولكن الحق أحق أن يتبع.» وكان مع ما جمعه من الأموال بخيلًا، وله حوادث كثيرة تدل على شدة بخله ذكرها صاحب الأغاني.

وله ديوان مطبوع في بيروت سنة ١٨٨٧، وتجد أخباره في الأغاني ١٢٦ ج٣ و١٨٦ ج٦ و٢٤ ج٨، وابن خلكان ٧١ ج١، وطبقات الشعراء ٤٩٧، والفهرست ١٦٠، وفي الهلال ١٣٣ سنة ١٣.

(٥-٦) أبو تمَّام (توفي سنة ٢٣١هـ)

هو عربي من طي، واسمه حبيب بن أوس الطائي، ولد في منبج في بلاد الشام، وجاء مصر صغيرًا، وكان يسقي الماء في الجامع ثم جالس الأدباء وأخذ عنهم وتعلم، وكان فطنًا فهمًا يحب الشعر، فلم يزل يعانيه حتى أجاده، وسار شعره وشاع ذكره في بغداد بؤرة الأدب في ذلك الحين وخليفتها المعتصم، وقد التفَّت حوله حلقة من الشعراء، فبعث في طلب أبي تمام فنظم فيه القصائد فأجازه وقدمه على شعراء وقته، فلم يعد يقدر أحد منهم أن يأخذ درهمًا بالشعر في حياته، فلما مات اقتسم الشعراء ما كان يأخذه، وقد امتاز بمذهب في المطابق سبق به الشعراء وإن كانوا قد فتحوه قبله وقالوا القليل منه، فإن له فضل الإكثار فيه والسلوك في جميع طرقه.[٣٨]

وهو من المتقدمين بحسن الديباجة ورقة العبارة وفي إجادة الرثاء،[٣٩] ومطلع قصيدته التي رثى بها محمد بن حميد الطوسي لا يزال الراثون والمؤبنون يتمثلون به إلى اليوم وهو:

ألا فليجل الخطب وليفدح الأمرُ وليس لعين لم يفض ماؤها عذرُ

وذكر صاحب الأغاني أن كثيرًا من أبيات هذه القصيدة مسروق من قصيدة مكنف أبي سلمى من ولد زهير بن أبي سلمى، هجا فيها ذفافة العبسي وذكر أبياتًا منها.[٤٠]
ومن مراثيه قوله يرثي ابنين صغيرين لعبد الله بن طاهر ماتا معًا:

لهفي على تلك المخايل منهما لو أمهلت حتى تكون شمائلا
لغدا سكونهما حجى وصباهما حلمًا وتلك الأريحية نائلا
إن الهلال إذا رأيت نموَّه أيقنت أن سيكون بدرًا كاملا

ومن مدائحه قوله:

سود اللباس كأنما نسجت لهم أيدي السموم مدارعًا من قارِ
بكروا وأسروا في متون ضوامرٍ قِيدت لهم من مربط النجارِ
لا يبرحون ومن رآهم خالهم أبدًا على سفر من الأسفارِ

ولأبي تمام وصية في كيفية النظم أوصى بها أبا عبادة البحتري بيَّن فيها أحسن الوسائل لإجادة النظم. قال: «تخيَّر الأوقات وأنت قليل الهموم صفر من الغموم، واعلم أن العادة في الأوقات أن يقصد الإنسان لتأليف شيء أو حفظه في وقت السحر، وذلك أن النفس قد أخذت حظها من الراحة وقسطها من النوم، فإن أردت النسيب فاجعل اللفظ رقيقًا، والمعنى رشيقًا، وأكثر فيه من بيان الصبابة وتوجُّع الكآبة وقلق الأشواق ولوعة الفراق، وإذا أخذت في مدح سيد ذي أياد فأشهر مناقبه، وأظهر مناسبه، وأَبِنْ معالمه وشرف مقامه، وتقاض المعاني واحذر المجهول منها، وإياك أن تشين شعرك بالألفاظ الزرية، وكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجسام، وإذا عارضك الضجر فأرح نفسك ولا تعمل إلا وأنت فارغ القلب، واجعل شهوتك لقول الشعر الذريعة إلى حسن

نظمه؛ فإن الشهوة نعم المعين، وجملة الحال أن تعتبر شعرك بما سلف من شعر الماضين، فما استحسنته العلماء فاقصده وما تركوه فاجتنبه ترشد إن شاء الله تعالى.»

ديوان الحماسة

وله فضل على معاصريه من الشعراء أنه لم يكتف بما نظمه من ضروب الشعر، لكنه جمع مختارات من أشعار العرب الجاهلية وغيرهم في كتاب سماه «الحماسة»، وتعرف بحماسة أبي تمام تمييزًا لها عن حماسة البحتري، حمله على جمعها أنه نزل عند صاحب له في همدان اسمه «ابن سلمة» فأكرمه، فأصبح ذات يوم وقد وقع ثلج كثير قطع السابلة، فغم أبو تمام وفرح «ابن سلمة»، وقال: «وطِّن نفسك على البقاء إن الثلج لا ينحسر إلا بعد زمان.» وأحضر له خزانة كتب فطالعها واشتغل بها، وصنف خمسة كتب في الشعر، منها كتاب الحماسة، والوحشيات وهي قصائد طوال، فبقي كتاب الحماسة في خزائن آل سلمة يضنون به ولا يكادون يبرزونه لأحد حتى تغيرت أحوالهم، وورد من همدان رجل من أهل دينور يعرف بأبي العواذل فظفر به وحمله إلى أصبهان، فأقبل أدباؤها عليه، ورفضوا ما عداه من الكتب المصنفة في معناه، فشهر فيهم، وقد شرحه كثيرون.

ومن أحسن الشروح شرح الخطيب التبريزي المتوفى سنة ٥٠٢هـ، وقد طبع بمصر سنة ١٢٩٦ في أربعة أجزاء كبار بيَّن فيها اشتقاق أسامي شعراء الحماسة وغيرهم، وتفسير كل بيت وما فيه من الغريب والإعراب، وإيراد الأخبار في أماكنها، وطبعت الحماسة بلا شرح في الهند سنة ١٨٥٦، ولها شرح للمرزوقي، وآخر لأبي العلاء المعري، وآخر لابن جني، منها نسخ خطية في المكتبة الخديوية وفي غيرها.

وقد عني في طبع الحماسة مع شرح التبريزي أيضًا «فريتاغ» في مجلدين مع ترجمة وشروح لاتينية، ظهر المجلد الأول سنة ١٨٢٨، والثاني ١٨٥١ في بون، وقد ترجمها إلى الألمانية فريدريك روكرت، وطبعت مع الأصل في مجلدين في ستتغارت سنة ١٨٤٦، ولأبي تمام حماسة أخرى هي كتاب الوحشيات منها نسخة في جملة كتب خطية نادرة، استنسخها زكي باشا سكرتير مجلس النظار من مكاتب أوروبا لتطبع بمصر.

وكان أبو تمام أسمر طويلًا فصيحًا حلو الكلام فيه تمتمة يسيرة، وله ديوان شرحه كثيرون شروحًا حسنة، منها شرح للصولي المتوفى سنة ٣٣٥هـ منه نسخة خطية في المكتبة الخديوية، وقد طبع الديوان في مصر وفي بيروت سنة ١٣٢٣.

وتجد أخبار أبي تمام في الأغاني ٩٩ ج١٥، وابن خلكان ١٢١ ج١، وطبقات الأدباء ٢١٣، والفهرست ١٦٥.

(٥-٧) دِعبِل الخزاعي (توفي سنة ٢٤٦هـ)

هو عربي من اليمن، شديد التعصب للقحطانية على النزارية، لا يخشى بذلك لومًا ولا يخاف تهديدًا، اسمه دعبل بن علي بن رزين من خزاعة، أصله من الكوفة، وجاء بغداد بطلب من الرشيد، وهو شاعر مطبوع هجَّاء خبيث اللسان لم يسلم منه أحد من الخلفاء ولا وزرائهم ولا أولادهم ولا ذو نباهة أحسن إليه أو لم يحسن، ولا أفلت منه كبير ولا صغير، فكان الناس يخافونه ويتَّقونه حتى المأمون فإنه هجاه هجاءً شديدًا واحتمل ذلك منه، ومن شديد هجائه الذي يحتاج إلى جرأة قوله للمأمون:

إني من القوم الذين سيوفهم　　قتلت أخاك وشرفتك بمقعدِ
شادوا بذكرك بعد طول خموله　　واستنقذوك من الحضيض الأوهدِ

يشير إلى طاهر بن الحسين الخزاعي وقتله الأمين حتى تولى المأمون. ومن قوله في هجاء المعتصم:

ملوك بني العباس في الكتب سبعةٌ　　ولم تأتنا عن ثامن لهمُ كتبُ
كذلك أهل الكهف في الكهف سبعة　　خيار إذا عدوا وثامنهم كلبُ
وإني لأعلي كلبهم عنك رفعةً　　لأنك ذو ذنب وليس له ذنبُ
لقد ضاع ملك الناس إذ ساس ملكهم　　وصيف وأشناس وقد عظم الكربُ

وهجا أيضًا إبراهيم بن المهدي وغيره حتى آل طاهر مع أنه كان ميالًا إليهم. وكان مسلم بن الوليد المتقدم ذكره شاخ ودعبل شباب وهو يعترف بأستاذيته فجفاه مسلم، فهجاه دعبل بقصيدة فيها عتاب شديد[٤١] ختمه بقوله:

فهبك يميني استأكلت فقطعتها　　وصبَّرت قلبي بعدها فتشجعا

وجرى له مع المطلب بن عبد الله أحد أمراء مصر حديث غاظ دعبلًا فهجا المطلب بقصيدة قال فيها:

تعلق مصر بك المخزيات　　وتبصق في وجهك الموصلُ

وعاديت قومًا فما ضرهم وشرفت قومًا فلم ينبلوا
شعارك عند الحروب النجا وصاحبك الأخور الأفشلُ
فأنت إذا ما التقوا آخرٌ وأنت إذا انهزموا أولُ

وله في مقابل ذلك مدائح بغاية البلاغة، وأكثر مدائحه في أهل البيت؛ لأنه كان شديد التعصب لعلي وأهله، على أنه كثيرًا ما كان يتَّخذ هجوه للإرهاب فيضطر الناس إلى استرضائه ليكف عن هجائهم أو ليمدحهم. ومن قوله في مدح المطلب المذكور:

أبعد مصر وبعد مطلبٍ ترجو الغنى إن ذا من العجبِ
إن كاثرونا جئنا بأسرته أو واحدونا جئنا بمطلبِ

ومن أشهر قصائده قوله يمدح أهل البيت ويهجو الرشيد بعد موته:

وليس حي من الأحياء نعلمه من ذي يمان ومن بكر ومن مضرِ
إلا وهم شركاء في دمائهمُ كما تشارك أيسار على جزرِ
قتل وأسر وتحريق ومنهبةٌ فعل الغزاة بأرض الروم والخزرِ
أرى أمية معذورين إن قتلوا ولا أرى لبني العباس من عذرِ
اربع بطوس على القبر الزكي إذا ما كنت تربع من دير إلى وطرِ
قبران في طوس خير الناس كلهمُ وقبر شرهم هذا من العبرِ
ما ينفع الرجس من قرب الزكي ولا على الزكي بقرب الرجس من ضررِ
هيهات كل امرئ رهن بما كسبت له يداه فخذ ما شئت أو فذرِ

ومن أدلة اقتداره على انتقاء الألفاظ قوله في رثاء محمد بن يزيد الخزاعي:

كانت خزاعة ملء الأرض ما اتسعت فقص مر الليالي من حواشيها
هذا أبو القاسم الثاوي ببلقعة تسفي الرياح عليه من سوافيها
هبت وقد علمت أن لا هبوب به وقد تكون حسيرًا إذ يباريها
أضحى قرى للمنايا إذ نزلن به وكان في سالف الأيام يقريها

ومن شعره في الغزل قوله:

لا تعجبي يا سلم من رجلٍ ضحك المشيب برأسه فبكى
لا تأخذوا بظلامتي أحدًا قلبي وطرفي في دمي اشتركا

فأنت ترى شاعرية هذا الرجل لكن ذكره خمل بسبب هجوه الخلفاء — والناس على دين ملوكهم — فلم يصل إلينا من أشعاره إلا شذرات مبعثرة مع أخباره في الأغاني ٢٩ ج١٨، وابن خلكان ١٧٨ ج١، والشعر والشعراء ٥٣٩، والفهرست ١٦١.

(٦) سائر الشعراء

(٦-١) شعراء الخلفاء

نريد بشعراء الخلفاء الذين انقطعوا للخلفاء أو كان أكثر منظومهم فيهم أو أنهم لم يختصوا بسواهم، ولا يدخلون في طبقة من الطبقات الأخرى، وقد ترجمنا بعضهم فيما تقدم من فحول هذا العصر، ونأتي الآن على خلاصة أخبار الباقين مراعاة للمقام، ونرتبهم حسب سني وفاتهم.

أبو دلامة (توفي سنة ١٦١هـ)

هو زند بن الجون، وسمي أبا دلامة نسبة إلى ابنه دلامة، وهو كوفي المنشأ أسود اللون مولى لبني أسد، وكان أبوه عبدًا لرجل منهم فأعتقه، أدرك أبو دلامة أواخر الدولة الأموية، ولكنه نبغ في الدولة العباسية وانقطع إلى أبي العباس السفاح والمنصور والمهدي، وكانوا يقدمونه ويصلونه ويستطيبون محاسنه ونوادره، وفيه دعابة وظرف لا يخلو حديثه من نكتة أو ملحة، وكان مع ذلك معدودًا في جملة المتهمين بالزندقة وفساد الدين، وكان يشرب الخمر ولا يحضر صلاة ولا فروضًا، وله قصائد عديدة في مدح الخلفاء المذكورين، منها قصيدة في قتل أبي مسلم الخراساني مطلعها:

أبا مسلم خوفتني القتل فانتحى عليك بما خوفتني الأسد الوردُ

أنشدها المنصور في محفل من الناس فقال له: «احتكم.» فطلب عشرة آلاف درهم فقبضها، وله فيه مدائح كثيرة، وكلما زاده عطاءً زاده مدحًا حتى قال فيه:

لو كان يقعد فوق الشمس من كرمٍ	قوم لقيل: اقعدوا يا آل عباسِ
ثم ارتقوا في شعاع الشمس كلكمُ	إلى السماء فأنتم أطهر الناسِ
وقدموا القائم المنصور رأسكمُ	فالعين والأنف والأذنان في الراسِ

ومن مداعباته ومجونه أن أبا العباس السفاح قال له: «سلني حاجتك.» فقال أبو دلامة: «كلب أتصيد به.» فاستغرب طلبه لكنه أمر بإعطائه فقال أبو دلامة: «وأعطني دابة أتصيد عليها.» قال: «أعطوه.» قال: «وغلام يصيد بالكلب ويقوده.» قال: «أعطوه غلامًا.» قال: «وجارية تصلح لنا الصيد وتطعمنا منه.» قال: «أعطوه جارية.» قال: «هؤلاء يا أمير المؤمنين عبيدك فلا بد لهم من دار يسكنونها.» قال: «أعطوه دارًا تجمعهم.» قال: «فإن لم تكن لهم ضيعة فمن أين يعيشون؟» قال: «قد أعطيتك مائة جريب عامرة ومائة جريب غامرة.» قال: «وما الغامرة؟» قال: «التي لا نبات فيها.» فقال: «قد أقطعتك أنا يا أمير المؤمنين خمسمائة ألف جريب غامرة من فيافي بني أسد.» فضحك وقال: «اجعلوها كلها غامرة.»

ومن مجونه أن المنصور ألزمه بالصلاة في مسجده، ووكل به من يلاحظه فغاظه ذلك، فكتب إلى المنصور رقعة قال فيها:

ألم تعلموا أن الخليفة لزَّنِي	بمسجده والقصر ما لي وللقصرِ
أصلي به الأولى مع العصر دائمًا	فويلي من الأولى وويلي من العصرِ
ووالله ما لي نية في صلاتهم	ولا البر والإحسان والخير من أمري
وما ضره والله يصلح أمره	لَوَ انَّ ذنوب العالمين على ظهري

فضحك المنصور وأعفاه، وأخباره في الأغاني ١٢٠ ج٩، وابن خلكان ١٩٠ ج١، والشعر والشعراء ٤٨٧، والدميري ١٣٢ ج١، والمستطرف ٤٣ ج٢.

حماد عجرد (توفي سنة ١٦١هـ)

هو مولى أيضًا، نشأ في الكوفة ثم واسط وعاصر الدولتين، لكنه نبغ في الدولة العباسية بعد أن نادم الوليد بن يزيد الأموي، وجاء بغداد أيام المهدي ومعه مطيع بن أياس ويحيى بن زياد، وكلهم من المتهمين في دينهم، وحماد من الشعراء المجيدين، وكان ماجنًا ظريفًا خليعًا، وأدرك بشار بن برد، وله معه أهاجٍ فاحشة لولا فحشها لذكرنا أمثلة منها، ولم يكن يهاب كبيرًا ولا صغيرًا ولا عالمًا كان أو خليفة، وقد عاصر الإمام أبا حنيفة وكانت بينهما مودة، ثم قاطعه أبو حنيفة، وبلغ حمادًا أنه يتنقصه فكتب إليه:

إن كان نسكك لا يتم بغير شتمي وانتقاصي
فاقعد وقم بي كيف شئت مع الأداني والأقاصي
فلطالما زكيتني وأنا المقيم على المعاصي
أيام نأخذها ونعطي في أباريق الرصاصِ

واهتم أدباء ذلك العصر بالمهاجاة بين بشار وحمَّاد، كما اهتموا في العصر الأموي بالمهاجاة بين جرير والفرزدق. وقد أجمع علماء البصرة أنه ليس في هجاء حماد لبشار شيء جيد إلا ٤٠ بيتًا معدودة. أما بشار فله من الهجاء أكثر من ألف بيت جيد، وكل منهما هتك صاحبه بالزندقة، وكانا يجتمعان عليها فسقط عجرد وتهتك بفضل بلاغة بشار وجودة معانيه، وبقي بشار على حاله لم يسقط.

ومن ظريف أخباره أنه هجا حفص بن أبي بردة، وكان صديقه وزنديقًا مثله، وحفص أعمش أفطس أعضب مقبح الوجه، فاجتمعوا يومًا على شراب، وجعلوا يتحدثون ويتناشدون، فأخذ حفص بن أبي بردة يطعن على مرقش ويعيب شعره ويلحنه، فقال له حماد:

لقد كان في عينيك يا حفص شاغلٌ وأنف كثيل العود عما تتبعُ
تتبع لحنًا في كلام مرقشٍ ووجهك مبني على اللحن أجمعُ
فأُذْناك أقواء وأنفك مكفأ وعيناك إيطاء فأنت المرقعُ

وقد سبق أبا نواس بالتغزل في الغلمان، من ذلك قوله في غلام كان يهواه اسمه أبو بشر:

أخـي إن دائـي لـيس عـنـدي دواؤه ولـكـن دوائـي عـنـد قـلـب أبـي بـشـرِ
دوائـي ودائـي عـنـد مـن لـو رأيـتـه يـقـلـب عـيـنـيـه لأقـصـرت عـن زجـري
فـأقـسـم لـو أصـبـحـت فـي لـوعـة الـهـوى لأقصرت عن لومي وأطنبت في عذري
ولـكـن بـلائـي مـنـك أنـك نـاصـحٌ وأنـك لا تـدري بـأنـك لا تـدري

وكان السبب في وفاة حماد عجرد أنه شبب بزينب أخت محمد بن سليمان بن علي، وبلغه غضب محمد فهرب إلى الأهواز فبعث محمد بطلبه ففر إلى غيرها ومرض في تنقله حتى مات في شيراز ودفن فيها.

وتجد ترجمته في الأغاني ٧٣ ج١٣، وابن خلكان ١٦٥ ج١، والشعر والشعراء ٤٩٠، والفهرست ٩١.

مروان بن أبي حفصة (توفي سنة ١٨١هـ)

هو من الشعراء الموالي، أصل جده من سبي إصطخر، وكان غلامًا اشتراه عثمان بن عفان ووهبه لمروان بن الحكم، وأقام بعدئذ باليمامة، وولد له غلام سماه مروان، وقد اختلفوا في حقيقة نسبه، شبَّ مروان على كره الشيعة؛ لأنه من موالي بني أمية وقد حارب معهم، وكان شجاعًا مجربًا، فلما نبغ في الشعر قدم بغداد ومدح المهدي ثم الرشيد، وكان يتقرب إليه بهجاء العلويين، وهو من الفحول المقدمين أول من شهره ونوه به معن بن زائدة الجواد المشهور بقصيدة نونية مدحه بها مطلعها:

معن بن زائدة الذي زيدت به شرفًا على شرف بنو شيبانِ

ولكنه اشتهر على الخصوص بقصيدة لاميَّة مدح بها معنًا مطلعها:

بـنـو مـطـر يـوم الـلـقـاء كـأنـهـم أسود لهم في بطن خفان أشبلُ

فأجازه عليها بمال كثير، فكان كلما زاده معن عطاءً زاده مروان مدحًا حتى غار منه المهدي وعنفه مرة، وقد دخل عليه في جملة الشعراء وأنشده قصيدة في مدحه فقال له المهدي: «من أنت؟» قال: «شاعرك يا أمير المؤمنين وعبدك مروان بن أبي حفصة.» فقال له المهدي: «ألست أنت القائل:

أقمنا باليمامة بعد معنٍ	مقامًا لا نريد به زوالا
وقلنا: أين نرحل بعد معنٍ	وقد ذهب النوال ولا نوالا

قد ذهب النوال كما زعمت فلم جئت تطلب نوالنا؟ لا شيء لك عندنا ... جروا برجله»، فجروه برجله حتى أخرج، فلما كان من العام المقبل تلطف حتى دخل مع الشعراء — وكانت الشعراء تدخل على الخلفاء في كل عام مرة — فمثل بين يديه وأنشد قصيدة في مدحه حتى بلغ إلى قوله:

هل تطمسون من السماء نجومها	بأكفكم أو تسترون هلالها
أو تجحدون مقالة عن ربكم	جبريل بلغها النبي فقالها
شهدت من الأنفال آخر آية	بتراثهم فأردتمُ إبطالها

فطرب المهدي وسأل عن القصيدة كم بيت، فقيل: مائة بيت، فأمر له عن كل بيت بألف درهم فنال ١٠٠٠٠٠ درهم، وهي أول مرة نال شاعر هذه العطية.[٤٢]

ولما تولى الرشيد جاءه مع الشعراء فأصابه معه كما أصابه مع المهدي، ثم مدحه بقصيدة بائية أعجبته فأعطاه عن كل بيت ألف درهم، ولم ينل أحد من شعراء ذلك العصر ما ناله مروان بشعره، فجمع مالًا كثيرًا لكنه كان مطبوعًا على البخل، وظهر ذلك على الخصوص بالمقابلة مع سلم الخاسر الآتي ذكره؛ لأن هذا كان يتمتع بماله فيأتي باب المهدي على البرذون قيمته ١٠٠٠٠ درهم، ويلبس الخز والوشي ويتطيَّب ويتنعم بالأكل عكس مروان.[٤٣]

وتجد أخبار مروان في الأغاني ٣٦ ج٩، وابن خلكان ٨٩ ج٢ و١٠٩ ج٢، والشعر والشعراء ٤٨١، وخزانة الأدب ٤٤٧ ج١، والفهرست ١٦٠.

سَلْم الخاسر (توفي سنة ١٨٦هـ)

هو سلم (ويقال: سالم) بن عمرو، أحد موالي أبي بكر الصديق، نشأ في البصرة، وكان شاعرًا مطبوعًا متصرفًا في فنون الشعر، وكان متظاهرًا بالخلاعة والفسوق والمجون، وزاد شاعرية وتمرحًا بالشعر على يد بشار؛ لأنه كان راويته وتلميذه، أخذ عنه واغترف من بحره ونسج على منواله، وكثيرًا ما كان يأخذ أقواله فيسلخها ويمسخها كما مسخ هذا البيت:

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتك اللهجُ

فجعله:

من راقب الناس مات غمًّا وفاز باللذة الجسورُ

فبلغ بيته بشارًا فغضب وأقسم ألا يدخل عليه ولا يفيده ما دام حيًّا، فاستشفع إليه بكل صديق حتى رضي ووبخه وقنعه بمخصرة كانت بيده، وكان صديقًا لإبراهيم الموصلي المغني المشهور ولأبي العتاهية، وكان يمدح البرامكة وخصوصًا الفضل بن يحيى، وكان أول اشتهاره أنه حمل قصيدة بشار إلى عمر بن العلاء فلما أنشده إياها أمر لبشار بمائة درهم، فقال سلم: «إن خادمك (يعني نفسه) قد نال في طريقه فيك قصيدة.» قال: ما هي؟ فأنشده إياها ومطلعها:

قد عزني الداء فما لي دواءٌ مما ألاقي من حسان النساءِ

حتى تخلص إلى المدح بقوله:

كم كربة قد مسني ضرها ناديت فيها عمر بن العلاءِ

فأمر له بعشرة آلاف درهم، وهي أول عطية سنية نالها، ثم توالت عليه الجوائز من الخلفاء والوزراء والأمراء، وكان يتبسط في المعيشة ويلبس أحسن الملابس كما تقدم، وظل إلى آخر أيامه يعترف أنه جزء من محاسن بشار.

وتجد ترجمته في الأغاني ١١٠ ج٢١، وابن خلكان ١٩٨ ج١.

منصور النمري

هو عربي من النمر بن قاسط، نشأ في الجزيرة بين النهرين، وهو تلميذ كلثوم بن عمرو العتَّابي الآتي ذكره بين الشعراء الذين لم يتحضَّروا وراويته، وعنه أخذ ومن بحره استقى، وقدَّمه العتابي إلى البرامكة فوصفه للفضل بن يحيى وقرظه عنده حتى استقدمه من الجزيرة واستصحبه، ثم وصله بالرشيد، وجرت بعد ذلك بينه وبين العتابي وحشة حتى تهاجرا وتناقضا وسعى كل منهما في هلاك صاحبه.

وكان مسكن النمري في الشام فطلب إلى البرامكة أن يذكروه للرشيد فذكروه ووصفوه فاستحضره، وكان ذا حيلة سياسية فأدرك أن الرشيد يسره أن يمدح بنفي الإمامة عن علي والطعن عليه لما كان يراه من تقديم مروان بن أبي حفصة بسبب ذلك، فسلك مذهبه ونحا نحوه — والشعراء يومئذ إنما يطلبون الكسب — لكنه لم يصرح بالهجاء والسب كما فعل مروان، ومن قوله فيه قصيدة مطلعها:

أمير المؤمنين إليك خضنا ... غمار الهول من بلد شطيرِ
تخوَّض كالأهلة خافقات ... تلين على السرى وعلى الهجيرِ
حملن إليك أحمالًا ثقالًا ... ومثل الصخرة الدر المثيرِ
فقد وقف المديح بمنتهاه ... وغايته وصار إلى المصيرِ

ومما قاله في تفضيله على أبناء علي بالإرث قوله:

فإن شكروا فقد أنعمت فيهم ... وإلا فالندامة للكفورِ
وإن قالوا: بنو بنت فحقٌّ ... وردوا ما يناسب للذكورِ
وما لبني بنات من تراثٍ ... مع الأعمام في ورق الزبورِ

وكان الرشيد يفضل مروان عليه بالعطاء ولو قليلًا، وقد ذكرنا الأبيات التي قالها في مدح الرشيد من المبالغة[٤٤] وناهيك بالقصيدة التي رفعت السيف عن ربيعة.[٤٥]

وقد مدح أيضًا يزيد بن مزيد بقصيدة مطلعها:

لو لم يكن لبني شيبان من حسبٍ ... سوى يزيدٍ لفاقوا الناس بالحسبِ

وتجد أخبار المنصور النمري في الأغاني ١٦ ج١٢ و٣٢ و١٤١ ج١٧.

علي بن الجهم (توفي سنة ٢٤٩هـ)

هو عربي قرشي، شاعر فصيح مطبوع، وقد خص بالمتوكل حتى صار من جلسائه؛ ثم أبغضه لأنه كان كثير السعاية إليه بندمائه وإذا خلا به عرفه أنهم يعيبونه ويثلبونه فيكشف الخليفة عن ذلك، فلا يجد له حقيقة؛ فنفاه إلى خراسان بعد أن حبسه مدة، وكان مذهبه في الشعر مذهب مروان بن أبي حفصة في هجاء آل أبي طالب وذمهم والإغراء بهم وهجاء الشيعة، كقوله:

ورافضة تقول بشعب رضوى إمام، خاب ذلك من إمامِ
إمام من له عشرون ألفًا من الأتراك مشرعة السهامِ

وهجا الخليفة المتوكل مرة فنفاه إلى خراسان، وكتب الخليفة إلى طاهر بن عبد الله صاحب خراسان أن يصلبه فقبض عليه وصلبه في الشاذياخ يومًا إلى الليل مجردًا، فلما نزل قال في ذلك قصيدة فخرية مطلعها:

لم ينصبوا بالشاذياخ عشية الـ إثنين مسبوقًا ولا مجهولا
نصبوا بحمد الله ملء قلوبهم شرفًا وملء صدورهم تبجيلا

ومما قاله بعد حبسه بعد الخروج منه وفيه أحسن ما قيل في مدح السجن:

قالوا: حبستَ فقلت ليس بضائري حبسي وأي مهند لا يغمدُ
أوما رأيت الليث يألف غيله كبرًا وأوباش السباع ترددُ
والشمس لولا أنها محجوبةٌ عن ناظريك لما أضاء الفرقدُ
والبدر يدركه السرار فتنجلي أيامه وكأنه متجددُ
والغيث يحصره الغمام فما يرى إلا وريِّقه يراع ويرعدُ
والزاعبية لا يقوم كعوبها إلا الثقاف وجذوة تتوقدُ
والنار في أحجارها مخبوءةٌ لا تصطلي إن لم تثرها الأزندُ

وله أقوال في الغزل والعتاب وفي الوصف، ومن أجمل ذلك قوله في وصف حفلة بعد صيد فرشوها، وأقاموا يشربون على الزعفران:

وطئنا رياض الزعفران وأمسكت   علينا البزاة البيض حمر التدارجِ
ولم تحمها الأدغال منا وإنما   أبحنا حماها بالكلاب البوارجِ
بمستروحات سابحات بطونها   على الأرض أمثال السهام الزوالجِ
ومستشرفات بالهوادي كأنها   وما عققت منها رءوس الصوالجِ
ومن دالعات ألسنًا فكأنها   لحي من رجال خاضعين كواسجِ
فلينا بها الغيطان فليًا كأنها   أنامل إحدى الغانيات الحوالجِ

وتجد أخباره في الأغاني ١٠٤ ج٩، وابن خلكان ٣٤٩ ج١.

حُسين بن الضحَّاك (توفي سنة ٢٥٠هـ)

هو مولى باهلة، ولد في البصرة ونشأ فيها ونادم الخلفاء من بني العباس، وكان خليعًا فاسدًا، وكان مع ذلك حسن التصرف في النظم، لشعره قبول ورونق، فهو من المتفننين، وله معان جديدة في الخمر كان أبو نواس يأخذها عنه، ومع أن أبا نواس مات سنة ١٩٨ والضحاك مات سنة ٢٥٠، فقد تعاصرا؛ لأن مولدهما متقارب، لكن ابن الضحاك عمر كثيرًا.

وهو أول من نادم الأمين، وله فيه مدائح كثيرًا، فلما رجع المأمون من خراسان بعد مقتل أخيه واستتب الأمر له طلب قومًا من أهل الأدب يجالسونه، فذكروا له جماعة فيهم حسين بن الضحاك، فقال: «أليس هو القائل في محمد (الأمين):

هلا بقيت لسد فاقتنا   أبدًا وكان لغيرك التلفُ
فلقد خلفت خلائفًا سلفوا   ولسوف يعوز بعدك الخلفُ

لا حاجة لي فيه والله لا يراني أبدًا إلا في الطريق.» ولم يعاقبه على ما كان من هجائه له وتعريضه به، وانحدر الحسين إلى البصرة فأقام بها طول أيام المأمون.

وله في الأمين مراثٍ جيدة، فلما تولى المعتصم سأل عن حسين بن الضحاك فقيل له: إنه في البصرة، فاستقدمه فقدم وأنشده قصيدة فيها من المديح قوله:

خير الوفود مبشر بخلافةٍ	خصت ببهجتها أبا إسحاقِ
وافته في الشهر الحرام سليمة	من كل مشكلة وكل شقاقِ
أعطته صفقتها الضمائر طاعةً	قبل الأكف بأوكد الميثاقِ
سكن الأنام إلى إمام سلامةٍ	عف الضمير مهذب الأخلاقِ
فحمى رعيته ودافع دونها	وأجار مملقها من الإملاقِ

وله أبيات في التغزل بالغلمان اقتبس بعضها أبو نواس.[٤٦]

وتجد أخباره في الأغاني ١٧٠ ج٦، وابن خلكان ١٥٤ ج١.

(٦-٢) شعراء البرامكة

نريد بهم الشعراء الذين كان أكثر انقطاعهم للبرامكة أو اختصوا بهم دون سواهم أو كان لهم معهم شأن خاص، وهاك أشهرهم:

أبان بن عبد الحميد

هو من الشعراء الموالي، وأكثر شعره مزدوج ومسمط. نقل كتبًا من الفارسية إلى العربية، وله ذكر خاص في آداب اللغة العربية؛ لأنه نظم كتاب كليلة ودمنة شعرًا بإشارة البرامكة، كما نظمه الفرس قبلًا ليسهل حفظه على الأذهان، وقد نقله ابن المقفع نثرًا، وهاك مطلع الترجمة الشعرية:

هـذا كـتـاب أدب ومـحـنـهْ وهو الذي يدعى كليلة دمنهْ
فـيـه احـتـيـالات وفـيـه رشـدُ وَهْوَ كتاب وضعته الهندُ

فأعطاه يحيى بن خالد عشرة آلاف دينار وأعطاه الفضل خمسة آلاف دينار، ولم يعطه جعفر شيئًا وقال: «ألا يكفيك أن أحفظه فأكون راويتك؟»

وهذا النقل من جملة أفضال البرامكة على اللغة العربية، لكن المنظومة ضاعت ولم يبق منها إلا هذان البيتان، ونقله شعرًا أيضًا آخرون سنذكرهم عند ذكر هذا الكتاب.

وارتقى أبان في أيام البرامكة حتى جعل يحيى بن خالد امتحان الشعراء وترتيبهم في الجوائز إليه، فامتحنهم ورتبهم وفي جملتهم أبو نواس، فلم يرض أبو نواس المرتبة التي جعله فيها وهجاه بقصيدة اتهمه فيها بالزندقة، وأكثر أعدائه كانوا يتهمونه بذلك، وفيهم المعذل بن غيلان فإنه قال فيه:

رأيت أبـانًـا يوم فـطـر مـصـلـيًـا فقسم فكري واستفزنيَ الطربْ
وكيف يصلي مظلم القلب دينه على دين مانٍ إن ذاك من العجبْ

واغتنم أبان تقربه من البرامكة ووسطهم بإيصاله إلى الرشيد أو إيصال مديحه، لعله يحظى كما حظي مروان بن أبي حفصة فلم يفعلوا، ولما عاتبهم قالوا: «إن مروان يتقرب إليهم بهجو آل أبي طالب فهل تفعل؟» فقال: لا، فقالوا: «فماذا نصنع؟ لا تأتي الدنيا إلا بما لا يحل.» ثم غلب عليه التماس الرزق فقال:

نشدت بـحـق الـلـه من كـان مـسـلـمًـا أعمم بما قد قلته العجم والعربْ
أعـم رسـول الـلـه أقـرب زلـفـةً لديه أم ابن العم في رتبة النسبْ

وأيــهــمــا أولــى بــه وبــعــهــده ... ومن ذا لـه حـق الـتـراث بـمـا وجـبْ
فـإن كـان عـبـاس أحـق بـتـلـكـمُ ... وكـان عـلـي بـعـد ذاك عـلـى سـبـبْ
فـأبـنـاء عـبـاس هـمُ يـرثـونـه ... كما العم لابن العم في الإرث قد حجبْ

وهي طويلة فقدموها إلى الرشيد، فأجازه عليها واتصل به من ذلك الحين.
وتجد أخباره في الأغاني ٧٣ ج٢٠، والفهرست ١٦٣.

ابن مُنَاذر (توفي سنة ١٩٨هـ)

هو مولى، ويكنى أبا جعفر، واسمه محمد بن مناذر، شاعر فصيح مقدم في العلم باللغة وإمام فيها حتى أخذ عنه أكابر أهلها، وكان في أول أمره يتعبَّد ثم عدل عن ذلك فهجا الناس وتهتك وخلع، وقذف أعراض أهل البصرة حتى نفي عنها إلى الحجاز فمات هناك.

وكان ينحو نحو عدي بن زيد في شعره ويميل إليه ويقدمه، وقد مدح آل برمك وغيرهم، ولما نكب البرامكة وآلت الوزارة إلى عدوهم الفضل بن الربيع أصبح شعراء البرامكة في خطر، فأراد ابن مناذر أن يتقرب إلى الرشيد طلبًا للرزق فاغتنم ذهابه إلى الحج، وتقدم إليه يوم التروية بقصيدة فَلَاح البشر في وجه الرشيد، فقال الفضل بن الربيع للرشيد: «هذا شاعر البرامكة.» فعبس الرشيد، فقال الفضل: «مره أن ينشدك قوله فيهم.» فأمره فاعتذر فألح عليه، فأنشد القصيدة التي مطلعها:

أتـانـا بـنـو الأمـلاك مـن آل بـرمـكٍ ... فيا طيب أخبار ويا حسن منظرِ[٤٧]

وكلها إطراء في البرامكة، ولما فرغ منها استدرك بقوله: «كانوا أولياءك يا أمير المؤمنين لما مدحتهم.» فأمر الرشيد أن يلطم فلطموه، وأمر فحبسوه، وخرج لا يلوي على شيء، فلقيه أبو نواس فدفع إليه صرة فيها ٣٠٠ دينار وقال له: «استعن بهذه واعذرني.» ولم يعد ابن مناذر يرى خيرًا بعد البرامكة.

وتجد أخباره في الأغاني ٩ ج١٧، والشعر والشعراء ٥٥٣.

الرُّقاشي (توفي سنة ٢٠٠هـ)

هو مولى، واسمه الفضل بن عبد الصمد الرقاشي من أهل البصرة، كان سهل الشعر مطبوعًا، وكان منقطعًا إلى آل برمك مستغنيًا بهم عن سواهم، وكانوا يصولون به على الشعراء ويروُّون أولادهم أشعاره ويدوِّنونها القليل والكثير منها تعصبًا له وحفظًا لخدمته، وتنويهًا باسمه وتحريكًا لنشاطه فحفظ ذلك لهم، فلما نكبوا صار إليهم في حبسهم فأقام معهم مدة أيامهم ينشدهم ويسامرهم حتى ماتوا، ثم رثاهم فأكثر من رثائهم، من ذلك قوله لما صلب الفضل بن يحيى واجتاز به الرقاشي وهو مصلوب على الجذع فوقف يبكي ثم قال:

أما والله لولا خوف واشٍ   وعين للخليفة لا تنامُ
لطفنا حول جذعك واستلمنا   كما للناس بالحجر استلامُ
فما أبصرت قبلك يا ابن يحيى   حسامًا حتفه السيف الحسامُ
على اللذات والدنيا جميعًا   ودولة آل برمكٍ السلامُ

وتجد ترجمته في الأغاني ٣٥ ج١٥، وفوات الوفيات ١٢٥ ج٢، والشعر والشعراء ٥١٥.

أشجع السُّلَمي

هو أشجع بن عمرو السلمي، من قيس. ولد باليمامة ومات أبوه فجاءت به أمه البصرة فماتت هناك، ونشأ أشجع بالبصرة وقال الشعر وأجاد، وعد من الفحول، وكان الشعر يومئذ في ربيعة واليمن، ولم يكن لقيس شاعر معدود، فلما نجم أشجع افتخرت به قيس، ثم اتصل بالبرامكة، واختص بجعفر وأصفاه مدحه، فأعجب به وأوصله إلى الرشيد فأعجب به فأثرى، ومن بليغ شعره قوله في إبراهيم بن عثمان بن نهيك صاحب شرطة الرشيد وكان جبارًا عبوسًا:

في سيف إبراهيم خوفٌ واقعٌ   بذوي النفاق وفيه أمن المسلمِ
ويبيت يكلأ والعيون هواجعٌ   مالَ المضيع ومهجةَ المستسلمِ

جعل الخطام بأنف كل مخالفٍ حتى استقام له الذي لم يخطمِ
لا يصلح السلطان إلا شدةً تغشى البريَّ بفضل ذنب المجرمِ
ومن الولاة مقحم لا يتقى والسيف تقطر شفرتاه من الدمِ
منعت مهابتك النفوس حديثها بالأمر تكرهه وإن لم تعلمِ

وتجد أشعاره وأخباره في الأغاني ٣٠ ج١٧، والشعر والشعراء ٥٦٢.

وأكثر الشعراء مدحوا البرامكة وانتفعوا بهم، وإنما أتينا على أشهرهم في ذلك، وبعضهم يدخل في الأبواب الأخرى.

(٦-٣) شعراء الشيعة

نريد بشعراء الشيعة الذين كانوا يتشيعون لآل علي، ويتعصبون لهم ولو مدحوا غيرهم، وقد ترجمنا اثنين منهم هما السيد الحميري ودعبل في جملة عمدة شعراء هذا العصر، وإليك ترجمة ثالثهم ديك الجن:

ديك الجن (توفي سنة ٢٣٥هـ)

اسمه عبد السلام بن رغبان وأصله من أهل مؤتة (وقيل: سلمية)، وقد أسلم جده في أول الإسلام، ولد في حمص وديك الجن لقب له، وكان شديد التشعب والعصبية على العرب يرد على الذين يحتقرون غير العرب بقوله: «ما للعرب علينا فضل جمعتنا وإياهم ولادة إبراهيم وأسلمنا كما أسلموا»، وهو شاعر مجيد يذهب مذهب أبي تمام والشاميين في شعره، وكان مقيمًا في حمص ولم يبرح نواحي الشام ولا وفد إلى العراق ولا إلى غيره منتجعًا بشعره ولا متصديًا لأحد، وهذا نادر في شعراء ذلك العصر، وكان يتشيع لآل البيت وله مراثٍ كثيرة في الحسين بن علي كان بعضها مشهورًا عند الخاص والعام يناح به، وكان مع ذلك خليعًا ماجنًا منعكفًا على القصف واللهو متلافًا لما ورث عن آبائه، وما اكتسبه بشعره من أحمد وجعفر بني علي الهاشميين، ومن أقواله في الخلاعة والغزل قصيدة مطلعها:

مولانا يا غلام مبتكرةْ فباكر الكأس لي بلا نظرةْ

وعشق جارية نصرانية من أهل حمص اسمها وردة حملها على الإسلام وتزوجها، وله فيها تشبيب منه قوله:

انظر إلى شمس القصور وبدرها وإلى خزاماها وبهجة زهرها
لم تبك عينك أبيضًا في أسودٍ جمع الجمال كوجهها في شعرها
وردية الوجنات يختبر اسمها من ريقها من لا يحيط بخبرها
وتمايلت فضحكت من أردافها عجبًا ولكني بكيت لخصرها
تسقيك كأس مدامة من كفها وردية ومدامة من ثغرها

ودخل بعض أقربائه بينه وبينها واتهمها بحب رجل آخر، واحتال حتى صدق ديك الجن التهمة وهي افتراء، وقتلها على غضب، ثم عرف أنها بريئة فنظم في رثائها:

يا طلعة طلع الحمام عليها وجنى لها ثمر الردى بيديها
روَّيتُ من دمها الثرى ولطالما روَّى الهوى شفتيَّ من شفتيها
قد بات سيفي في مجال وشاحها ومدامعي تجري على خدَّيْها
فوحق نعليها وما وطئ الحصى شيء أعز عليَّ من نعليها
ما كان قتليها؛ لأني لم أكن أبكي إذا سقط الذباب عليها
لكن ضننت على العيون بحسنها وأنفت من نظر الحسود إليها

وبعضهم ينسب هذه الأبيات لغير ديك الجن، وأحسن نظمه بعد ذلك فيها وكله جيد، على أنه كان مجيدًا في الرثاء حتى فضلوه فيه على أبي تمام.[٤٨] وتجد أخباره في الأغاني ١٤١ ج١٢، وابن خلكان ٢٩٣ ج١ والدميري ٣١٦ ج١.

(٦-٤) شعراء سائر الأمراء

وهناك طبقة من شعراء العصر العباسي الأول انقطع كل منهم إلى أمير أو وزير أو كبير، أشهرهم علي بن جبلة المعروف بالعكوك انقطع لأبي دلف، ومطيع بن أياس انقطع لجعفر بن المنصور، وأبو الشيص لعقبة بن جعفر بن الأشعث، وهذه تراجمهم:

مُطيع بن أَياس

هو عربي الأصل يرجع نسبه إلى كنانة، وقد عاصر الدولتين الأموية والعباسية، وكان ماجنًا خليعًا ظريفًا مليح النادرة متهمًا بالزندقة. ولد ونشأ في الكوفة، وانقطع لجعفر بن أبي جعفر المنصور، ومدح قليلين غيره، وهو من طبقة كانت في صدر الدولة العباسية قبل أبي نواس وأبي العتاهية، أدركوا المنصور وهو لا يقبل الشعراء وكانوا ثلاثة: مطيع وحماد عجرد ويحيى بن زياد، فكانوا يتذاكرون أيام بني أمية وكثرة الخير فيها، وما هم فيه ببغداد من القحط أيام المنصور، وقد نظم مطيع في ذلك شعرًا منه قوله:

حبذا عيشنا الذي زال عنا	حـبـذا ذاك لا حـبـذا ذا
أين هذا من ذاك سقيًا لذا	ك ولسنا نقول: سقيًا لهذا
زاد هذا الزمان عسرًا وشرًّا	عـنـدنـا إذ أحـلَّـنـا بـغـذاذا
بلدة تمطر التراب على النا	س كما تمطر السماء الرذاذا
خربت عاجلًا وأخرب ذو العر	ش بـأعـمـال أهـلـهـا كـلـواذا

وكانوا يتهتكون في تعشق الغلمان، ولعلهم أقدم من فعل ذلك من الشعراء، وفي الأغاني حديث عنهم نخجل من ذكره يدل على مقدار تهتكهم في ذلك العصر، ولمطيع قصيدة عامرة يمدح بها معن بن زائدة مطلعها:

أهـلًا وسـهـلًا بـسيد الـعـربِ	ذي الغرر الواضحات والنجبِ
فتى نزار وكهلها وأخي الـ	ـجود حوى عانيه من كثبِ

وترى أخباره في الأغاني ٧٨ ج١٢ و٨٥ ج١٣ و٨٦ ج٢١.

أبو الشَّيص (توفي سنة ١٩٦هـ)

هو أبو جعفر محمد بن رزين من اليمنية، وهو عم دعبل الشاعر المشهور، وقد تقدمت ترجمته. وكان أبو الشيص من شعراء عصره متوسط المحل فيهم غير نبيه الذكر؛ لوقوعه بين مسلم بن الوليد وأشجع وأبي نواس، فخمل وانقطع إلى عقبة بن جعفر بن الأشعث الخزاعي، وكان أميرًا على الرقة؛ فمدحه بأكثر شعره وقلما يروى له في غيره. وكان عقبة

جوادًا فأغناه عن غيره؛ لأنه كان يعطيه عن كل بيت ألف درهم، وكان من وصَّاف الخمر وله مقدرة على الغزل، وأصيب آخر عمره بالعمى فنظم الشعر في بكاء عينيه، فمن ذلك قوله:

يا نفس أبكي بأدمع هتنٍ   وواكف كالجمان في سننِ
على دليلي وقائدي ويدي   ونور وجهي وسايس البدنِ
أبكي عليها بها مخافة أن   يقرنني والظلام في قرنِ

ومن أقواله في الغزل:

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي   متأخر عنه ولا متقدمُ
أجد الملامة في هواك لذيذةً   حبًّا بذكرك فليلمني اللوَّمُ
أشبهت أعدائي فصرتُ أحبهم   إذ كان حظي منك حظي منهمُ
وأهنتني فأهنت نفسي صاغرًا   ما من يهون عليك ممن يكرمُ

وهو مما يتغنى به، وقد سرق أبو نواس معنى البيت الأول فنظمه في قوله:

فما جازه جود ولا حل دونه   ولكن يسير الجود حيث يسيرُ

وسرق آخرون معنى البيت الثاني فقال بعض المغاربة:

هددت بالسلطان فيك وإنما   أخشى صدودك لا من السلطانِ
أجد اللذاذة في الملام فلو درى   أخذ الرشا مني الذي يلحاني

وتجد أخباره في الأغاني ١٠٨ ج١٥، وفوات الوفيات ٢٢٥ ج٢، والشعر والشعراء ٥٣٥، والفهرست ١٦١.

العَكَوَّك (توفي سنة ٢١٣هـ)

اسمه علي بن جبلة الأنباري والعَكَوَّك لقبه، وهو من الموالي أبناء الشيعة الخراسانية من أهل بغداد، ولد في الحربية منها ونشأ فيها، وكان ضريرًا منذ ولادته مثل بشار بن برد، وهو شاعر مطبوع عذب اللفظ جزله، لطيف المعاني، مداح، حسن التصرف، وقد استنفد شعره في مدح أبي دلف العجلي وأبي غانم حميد بن عبد الحميد الطوسي، وزاد في تفضيلهما وتفضيل أبي دلف خاصة حتى فضَّل ربيعة على مضر، فاستاء المأمون من ذلك وبلغه أبيات قالها العكوك في أبي دلف منها:

كل من في الأرض من عربٍ　　بين باديه إلى حضرهْ
مستعير منك مكرمةً　　يكتسيها يوم مفتخرهْ

فغضب المأمون وطلبه وسل لسانه من قفاه، ويقال: بل هرب ولم يزل متواريًا حتى مات، وسبب معرفة العَكَوَّك بأبي دلف طلب الرزق؛ فقد بلغه أن الناس يقصدونه لجوده؛ فقصده بقصيدة مدحه بها، وهي أربعون بيتًا في جملتها البيتان المتقدمان، وهو أبرص أسود، وله في الغزل قوله:

بأبي من زارني مكتتمًا　　خائفًا من كل شيء جزِعا
زائرًا نَمَّ عليه حسنه　　كيف يخفي الليل بدرًا طلعا
رصد الغفلة حتى أمكنت　　ورعى السامر حتى هجعا
ركب الأهوال في زورته　　ثم ما سلَّم حتى ودعا

وأخبار العكوك كثيرة، وقد ذكرنا مدحه أبا دلف من أمثلة المبالغة.

وتجد أكثر أخباره في الأغاني ١٠٠ ج١٨، وابن خلكان ٣٤٨ ج١، والشعر والشعراء ٥٥٠.

وهاك أهم الذين انقطعوا لمدح الأمراء غير من تقدم ذكرهم، وبجانب اسم كل منهم المأخذ الذي يرجع إليه في مطالعة أخباره:

- إبراهيم بن سيابة مدح إبراهيم الموصلي المغني أخباره بالأغاني ٦ ج١١.

- محمد بن أمية وأخوه علي مدح إبراهيم بن المهدي أخباره ٣٢ ج١١ و٦٣ ج٢٠.
- محمد بن صالح مدح ابن المدبر أخباره ٨٨ ج١٥ و٢٢٠ فوات٢.

(٦-٥) شعراء لم يتكسبوا بالشعر

كل من تقدم ذكرهم إنما كانوا يرتزقون بالشعر مدحًا أو هجاءً أو نحو ذلك مثل سائر شعراء ذلك العصر وغيره، وقليل فيهم من لم يتكسَّب بالشعر؛ أي يجعله بابًا للرزق، ومن هذا القليل في العصر العباسي الأول: صالح بن عبد القدوس، والعباس بن الأحنف، ومحمد بن بشير الرياشي.

صالح بن عبد القُدُّوس (توفي سنة ١٦٧هـ)

هو صالح بن عبد القدوس بن عبد الله بن عبد القدوس من حكماء الشعراء متهم بالزندقة، قوي الحجة له منزلة كبرى عند أهل مذهبه. نشأ في البصرة وكان يقصُّ على الناس ويعظهم، وبلغ إلى المهدي خبر زندقته فبعث إليه يستقدمه من دمشق وكان قد رحل إليها وهو شيخ طاعن في السن، فلما جاء بغداد ومثل بين يدي المهدي قال له المهدي: ألست القائل:

والشيخ لا يترك أخلاقَهُ حتى يوارى في ثرى رمسِهِ

قال: «بلى يا أمير المؤمنين.» قال: «وأنت لا تترك أخلاقك حتى تموت.» فأمر به فقتل وصلب على جسر بغداد سنة ١٦٧هـ، وأكثر أشعاره في الحكم الفلسفية. ومن أحاسن أقواله القصيدة التي منها ذلك البيت، وهو يقول فيها:

لا يبلغ الأعداء من جاهلٍ ما يبلغ الجاهل من نفسِهِ
والشيخ لا يترك أخلاقَهُ حتى يوارى في ثرى رمسِهِ
إذا ارعوى عاد إلى جهله كذي الضنى عاد إلى نكسِهِ
وإن من أدبته في الصبا كالعود يسقى الماء في غرسِهِ
حتى تراه مورقًا ناضرًا بعد الذي أبصرت من يبسِهِ

وقوله:

لا يعجبنك من يصون ثيابَهُ　　حذر الغبار وعرضه مبذولُ
ولربما افتقر الفتى فرأيته　　دنس الثياب وعرضه مغسولُ

وكان فيه ميل إلى العزلة والانقطاع عن الناس شأن الفلاسفة، ومن قوله:

أنست بوحدتي ولزمت بيتي　　فتم العز لي ونما السرورُ
وأدَّبني الزمان فليت أني　　هجرت فلا أزار ولا أزورُ
ولست بقائل ما دمت حيًّا　　أقام الجند أم نزل الأميرُ

وهو القائل:

إذا لم تستطع شيئًا فدعه　　وجاوزه إلى ما تستطيعُ

وله قصيدة حكمية أخلاقية بديعة مطلعها:

المرء يجمع والزمان يفرِّقُ　　ويظل يرقع والخطوب تمزقُ

وترى أكثر أخباره في فوات الوفيات ١٩١ ج١، والدميري ٢٦ ج١.

العَبَّاس بن الأَحْنَف (توفي سنة ١٩٢هـ)

هو عربي شريف النسب، لم يتكسَّب بالشعر، وإنما كان ينظم ما يجيش في خاطره، وأكثره في الغزل، ولم يتجاوزه إلى مديح أو هجاء، وله مذهب حسن، ولديباجة شعره رونق، ولمعانيه عذوبة ولطف، ولولا حذقه وسعة خياله لم يقدر أن يكثر من النظم في مذهب واحد لا يتجاوزه، ويندر ذلك في الشعراء قديمًا وحديثًا، وله ديوان طبع مع ديوان ابن مطروح بالآستانة سنة ١٢٩٨هـ، ولشعره الغزلي وقع في النفس فإنهم كانوا يغنون كثيرًا منه كقوله:

لا جزى الله دمع عينيَ خيرًا   وجزى الله كل خير لساني
نَمَّ دمعي فليس يكتم شيئًا   ورأيت اللسان ذا كتمانِ
كنت مثل الكتاب أخفاه طي   فاستدلوا عليه بالعنوانِ

وقوله:

لو كنت عاتبة لسكن روعتي   أملي رضاك وزرت غير مراقبِ
لكن مللت فلم تكن لي حيلةٌ   صدُّ الملول خلاف صد العاتبِ

وقوله:

أتأذنون لصب في زيارتكم   فعندكم شهوات السمع والبصرِ
لا يضمر السوء إن طال الجلوس به   عف الضمير ولكن فاسق النظرِ

وتجد أخباره وأشعاره في الأغاني ١٥ ج٨، وابن خلكان ٢٤٥ ج١، والشعر والشعراء ٥٢٥.

محمد بن بَشير الرياشي

هو من الشعراء الموالي غير محمد بن بشير الخارجي، أما الرياشي فإنه شاعر ظريف من أهل البصرة لم يفارقها، ولا وفد على خليفة ولا شريف منتجعًا ولا تجاوز بلده، وكان ماجنًا هجَّاء خبيثًا، وله في الهجاء قصيدة وصفية هجا بها شاة دخلت بستانه وفيه بقل من غرسه فأكلته، ثم دخلت داره فلم تجد فيها غير القراطيس وفيها شعره، فأكلتها وخرجت، فنظم في ذلك قصيدة طويلة[٤٩] مطلعها:

لي بستان أنيق زاهرٌ   ناضر الخضرة ريان ترف

وأحسن في وصف الشاة وحركاتها، ويتخلل ذلك مجون لطيف، وأكثر قصائده على هذا الأسلوب منها قصيدة وصف بها فراخًا،[٥٠] مطلعها:

يا رب رب الرائحين عشيةً بالقوم بين منى وبين ثبيرِ

وهي طويلة وفيها مجون، وأكثر نظمه من هذا النوع.
وتجد أخباره في الأغاني ١٢٩ ج١٢.

(٦-٦) شعراء لم يتحضروا

أما الشعراء الذين ظلوا على بداوتهم أو لم يقيموا في بغداد، بل كانوا يفدون على الخلفاء أو الأمراء ثم يرجعون إلى البادية، فهم أقل كثيرًا من الذين تحضَّروا أشهرهم:

كُلْثُوم بن عمرو العتَّابي (توفي سنة ٢٢٠هـ)

أصله من قنسرين، مدح البرامكة وطاهر بن الحسين، وكان حسن الاعتذار في شعره ورسائله، وله مصنفات في المنطق والأدب واللغة، وكان يقيم في رأس عين بعيدًا عن دور الخلفاء والأمراء. وبلغ الرشيدَ قصيدةٌ قالها فأعجب بها فطلب إشخاصه إليه فجاء وعليه قميص غليظ وفروة وخف، وعلى كتفه ملحفة جافية بغير سراويل، فلما رفع الخبر بقدومه إلى الرشيد أمر بأن تفرش له حجرة وتقام له وظيفة ففعلوا، فكانت المائدة إذا قدمت إليه أخذ منها رقاقة وملحًا وخلط الملح بالتراب فأكله بها، فإذا كان وقت النوم نام على الأرض والخدم يتفقدونه ويتعجَّبون من فعله، وسأل الرشيد عنه فأخبروه بأمره فأمر بطرده فخرج حتى أتى يحيى بن سعيد العقيلي وهو في منزله، فسلَّم عليه وانتسب له فرحب به وقال له: «ارتفع.» فقال: «لم آتك للجلوس.» قال: «فما حاجتك؟» قال: «دابة أبلغ عليها إلى رأس عين.» فقال: «يا غلام أعطه الفرس الفلاني.» فقال: «لا حاجة لي في ذلك، ولكن تأمر أن تُشْتَرَى لي دابة أتبلغ عليها.» فقال لغلامه: «امض معه فابتع له ما يريد.» فمضى معه فعدل به العتابي إلى سوق الحمير، فقال الغلام: «إنما أمرني أن أبتاع لك دابة.» فقال له: «إنه أرسلك معي ولم يرسلني معك، فإن عملت ما أريد وإلا انصرف.» فمضى معه فاشترى حمارًا بمائة وخمسين درهمًا وقال: «ادفع إليه ثمنه.» فدفع إليه فركب الحمار عريًا بمرشحة عليه وبرذعة وساقاه مكشوفتان، فقال له يحيى بن سعيد: «فضحتني، أمثلي يحمل مثلك على هذا؟» فضحك وقال: «ما رأيت قدرك يستوجب أكثر من ذلك.» ومضى إلى رأس عين، وكانت امرأته من باهلة فلامته

وقالت: «هذا منصور النمري (تلميذك وراويتك) قد أخذ الأموال فحلَّى نساءه وبنى داره واشترى ضياعًا وأنت ههنا كما ترى.» فأنشد يقول:

تلوم على ترك الغنى بأهليةٌ ذوى الفقر عنها كل طرف وتالدِ
رأت حولها النسوان يرفلن في الثرى مقلدة أعناقها بالقلائدِ
أسرك أني نلت ما نال جعفرٌ من العيش أو ما نال يحيى بن خالدِ
وإن أمير المؤمنين أغصني بغصهما بالمشرفات النواردِ؟
دعيني تجيني منيتي مطمئنةً ولم أتجشم هول تلك المواردِ

ويرى صاحب الأغاني اضطرابًا في هذا الخبر، على أنه كان يفد على الخلفاء والأمراء وينال جوائزهم، وهو أستاذ المنصور النمري.

أخباره في الأغاني ٢ ج١٢، وفوات الوفيات ١٣٩ ج٢.

ربيعة الرقي

هو ربيعة بن ثابت الأنصاري، ولد في الرقة ونشأ بها، وكان شاعرًا مطبوعًا، وهو ضرير مثل بشار، وكان منقطعًا عن الحضارة بعيدًا عن مجالسة الخلفاء فأخمل ذكره بسبب ذلك، لكنهم كانوا يستقدمونه إليهم، وأول من فعل ذلك المهدي؛ فمدحه ونال جوائزه، وكان ابن المعتز يرى ربيعة أشعر غزلًا من أبي نواس؛ لأن في غزل أبي نواس بردًا كثيرًا وغزل هذا سليم عذب سهل؛ ولذلك فإن شهرته بلغت إلى بلاط الخليفة، وكان يمدح غير الخلفاء وينال جوائزهم ويعود إلى بلده، وإن قصر أحد في عطائه هجاه، وله في ذلك حديث مع العباس بن محمد بن علي من أمراء بني العباس — وذلك أن الرقي مدحه بقصيدة مطلعها:

لو قيل للعباس يا ابن محمدٍ قل «لا» وأنت مخلد ما قالها
ما إن أعد من المكارم خصلةً إلا وجدتك عمها أو خالها
وإذا الملوك تسايروا في بلدةٍ كانوا كواكبها وكنتَ هلالها
إن المكارم لم تزل معقولةً حتى حللت براحتيك عقالها

فبعث إليه العباس دينارين وهو يتوقع أن يعيطه ألفي دينار، فأعطى الدينارين إلى الرسول على أن يوصل إليه رقعة كتب فيها:

مدحتك مدحة السيف المحلى لتجري في الكرام كما جريتُ
فهبها مدحة ذهبت ضياعًا كذبت عليك فيها وافتريتُ
فأنت المرء ليس له وفاءٌ كأني إن مدحتك قد زنيتُ

فغضب العباس وشكاه إلى الرشيد، فأحضره الرشيد وهمَّ بقصاصه فقص عليه الحديث، فلما اطَّلع الرشيد على الحقيقة احتقر العباس وكان ينوي أن يزوجه ابنته، فتغير عليه وأمر للرقي بثلاثين ألف درهم وبغلة، وأوصاه أن لا يذكر العباس تعريضًا ولا تصريحًا، واتفق للرقي أيضًا مثل ذلك مع معن بن زائدة، وقد لقيه في بعض قدماته إلى العراق فمدحه فلم يهشَّ له فهجاه بقصيدة مطلعها:

معن يا معن يا ابن زائدة الكلـ ـب الذي في الذراع لا في البنانِ
لا تفاخر إذا فخرت بآبا ئك وافخر بعمك الحوفزانِ

ومن غزله أبيات يغني بها، وهي:

وتزعم أني قد تبدلت خلةً سواها وهذا الباطل المتقوَّلُ
لحى الله من باع الصديق بغيره فقالت نعم حاشاك إن تك تفعلُ
ستصرم إنسانًا إذا ما صرمتني يحبك فانظر بعده من تبدلُ

وتجد أخباره في الأغاني ٣٨ ج١٥، وخزانة الأدب ٥٥ ج٣.

عمارة بن عقيل

هو من الشعراء البدو في هذا العصر حفيد جرير الشاعر المشهور، وهو شاعر مقدم فصيح كان يسكن بادية البصرة، ويزور الخلفاء العباسيين فيجزلون صلته ويمدح قوادهم فيحظى بكل فائدة، وكان النحويون بالبصرة يأخذون عنه، وتجد أخباره في الأغاني ١٣٨ ج٢٠، وطبقات الأدباء ٢٣٣.

ناهض بن ثومة

هو من عامر شاعر بدوي فارس فصيح كان يقدم البصرة، فيكتب عنه شعره وتؤخذ عنه اللغة، وأخباره في الأغاني ١٣٣ ج١٢.

وهناك شعراء كثيرون لم تبلغ أخبارهم إلينا؛ لأنهم قضوا حياتهم في البادية ولم يفدوا على أحد، ناهيك بمن نظم الشعر من غير الشعراء وفيهم طائفة من اللغويين والنحاة والفقهاء والمحدثين، حتى الوزراء والخلفاء والولاة والخدم والنساء وغيرهم ممن جمعت أشعارهم في ذلك العصر، وبقي كثير منها إلى أواسط القرن الرابع، فقد ذكر ابن النديم في الفهرست مئات من أولئك الشعراء، فيهم من الشعراء الكتاب بضع مئات وعدة عائلات تسلسل الشعر في أعقابها كآل أبي أمية وآل اللاحقي وآل أبي عيينة المهلبي وآل المعدل وآل أبي العتاهية، وطائفة من النساء الشواعر.

وذكر ابن النديم لبعض الشعراء مقدار ما خلفوه من الشعر بعدد الورق بتقدير الورقة صفحتين في كل منهما عشرون سطرًا، فذكر نحو مائة شاعر منهم بشار له ألف ورقة، وأبو نواس ٨٠٠ ورقة، وابن هرمة ٥٠٠ ورقة، وغيرهم ٣٠٠ وأقل إلى ٥٠ أو ٢٠ ورقة، على ما كان معروفًا في عصره بأواسط القرن الرابع، ولم يبق من ذلك إلى اليوم إلا القليل، فمن أراد مراجعة قائمة ابن النديم فهي تبدأ بصفحة ١٥٩ من الفهرست.

هوامش

(١) تاريخ التمدن الإسلامي ٣٠ ج٢.
(٢) ابن خلدون ٥٠٨ ج١.
(٣) الشعر والشعراء ٥.
(٤) الأغاني ١٠٣ ج١٢.
(٥) العمدة ١٥٥ ج١.
(٦) العمدة ١٨٨ ج٢.
(٧) البيان والتبيين ٦١ ج١.
(٨) الأغاني ١٢ ج٥.
(٩) الأغاني ٣٥ ج٢٠.
(١٠) الأغاني ١٠٥ ج١٢.

(١١) الأغاني ١٩٨ ج٦.
(١٢) الأغاني ٨٥ ج١١.
(١٣) Litt. Anc. 184.
(١٤) الأغاني ١٤٩ ج١٦ و٨١ و١٠٠ ج١٢، وولكسن ٣٧٤.
(١٥) اقرأ تفصيل ذلك في تاريخ التمدن الإسلامي ٥٨ و١٣٥ ج٣.
(١٦) تاريخ التمدن الإسلامي ١٢ ج٣.
(١٧) المسعودي ١٨٧ ج٢.
(١٨) المزهر ٨٣ ج١.
(١٩) المزهر ٢٧٨ ج١.
(٢٠) النجوم الزاهرة ٤٦٢ ج١.
(٢١) الأغاني ١٦ ج١٣.
(٢٢) الأغاني ٨١ ج٢١.
(٢٣) العمدة ١٥٠ ج٢.
(٢٤) العمدة ٧ ج١.
(٢٥) الأغاني ١٦١ ج٣.
(٢٦) الأغاني ٤٥ ج١٧.
(٢٧) فوات الوفيات ١٤٣ ج٢.
(٢٨) حلبة الكميت ٩٥.
(٢٩) الفهرست ١٥٧ وما بعدها.
(٣٠) الأغاني ٢٠ ج٣.
(٣١) البيان والتبيين ٢٥ ج١.
(٣٢) الأغاني ٣ ج٧.
(٣٣) الأغاني ٦ ج٧.
(٣٤) العمدة ٨٣ ج١.
(٣٥) يراد بزاويش (زفس) أحد آلهة اليونان.
(٣٦) فهرست ١٣٩.
(٣٧) الأغاني ١٢٦ ج٣، والشعر والشعراء ٤٩٧.
(٣٨) الأغاني ١٠٠ ج١٥.

(٣٩) العمدة ١١٩ ج٢.
(٤٠) الأغاني ١٠٧ ج١٥.
(٤١) الأغاني ٤٨ ج١٨.
(٤٢) الأغاني ٤٤ ج٩.
(٤٣) الأغاني ٣٩ ج٩.
(٤٤) الأغاني ٢٠ ج١٢، والعمدة ١١٠ ج٢.
(٤٥) الأغاني ٢٣ ج١٢.
(٤٦) الأغاني ١٧٥ ج٦.
(٤٧) الأغاني ٢٥ ج١٧.
(٤٨) العمدة ١١٩ ج٢.
(٤٩) الأغاني ١٣٠ ج١٢.
(٥٠) الأغاني ١٣٥ ج١٢.

العلوم اللسانية

(١) الأدب والأدباء وعلم الأدب

اختلف العلماء في تعريف الأدب وتحديده، أما علم الأدب فيشتمل في اصطلاحهم على أكثر علوم العربية كالنحو واللغة والتصريف والعروض والقوافي وصنعة الشعر وأخبار العرب وأنسابهم، وصاحب هذه العلوم أو أحدها كانوا يسمونه «أديب»،[١] وقالوا: الفرق بين الأديب والعالم أن الأديب يأخذ من كل شيء أحسنه فيألفه والعالم من يقصد لفن من العلم فيتقنه.[٢] ولكن التعريف الأول أقرب إلى المراد؛ ولذلك جعلوا الغاية من علم الأدب الإجادة في فني المنثور والمنظوم — وقد شاعت هذه التسمية قبل أن تتميز هذه العلوم ويستقل بعضها عن بعض، وكانت في أول أمرها مختلطة متشابهة، ثم استقلت بالتدريج وتفرعت وصار كل منها علمًا له أحكام مستقلة جريًا على سنة النشوء والارتقاء.

فكان المراد بالأدب في أول الإسلام جمع أقوال العرب وأشعارهم وأخبارهم وأمثالهم؛ للاستعانة بها على تفسير القرآن وضبط ألفاظه وتفهُّم أساليبه — أخذوا بذلك من القرن الأول للهجرة — وكان ابن عباس يقول: «إذا قرأتم شيئًا من كتاب الله لم تعرفوه فاطلبوه في أشعار العرب؛ لأن الشعر ديوان العرب.»[٣]

ثم وضع أبو الأسود الدؤلي النحو لضبط المعاني كما تقدم، فزادت الحاجة إلى جمع أقوال العرب وأشعارهم للاستشهاد بها في الإعراب والتصريف، واهتمت الدولة الأموية في إحياء لغة العرب وآدابها، وأخذ خلفاؤها في حفظ الآداب الجاهلية، فجعلوا يقربون الذين يحفظونها أو ينقلونها أو يروونها ويبذلون لهم الأعطية.

(١-١) الأدباء في الدولة العباسية

وظلت الرغبة في اللغة وأدبها متصلة بالدولة العباسية، ولا سيما في عصرها الأول؛ لرغبة خلفائها الأولين ووزرائها البرامكة في العلم والأدب والشعر، ولم تكن رغبتهم قاصرة على الشعر، ولكنهم نشطوا الأدب على الإجمال واستقدموا الأدباء من الكوفة والبصرة للسماع منهم أو لتعليم أبنائهم اللغة والنحو والشعر. فالمنصور استقدم شرقيَّ القطامي ليعلم ابنه المهدي الأدب والنسب،[٤] فشبَّ المهدي على حب الأدب والأدباء، فألف له المفضل الضبي المفضليات، وكثيرًا ما كان يعقد المجالس للمناظرة بين الأدباء في النحو أو اللغة، يحضرها الكسائي واليزيدي وغيرهما،[٥] ثم عهد إلى الكسائي بتعليم ابنه هارون (الرشيد) في حديث لطيف يدل على عناية المهدي في اللغة.[٦]

فلما صارت الخلافة إلى الرشيد نشأ على احترام أستاذه حتى كان يجلسه على كرسي في حضرته، ويأمره أن لا ينزعج لنهضته،[٧] وعهد إليه بتعليم ابنه الأمين، وكان الرشيد شديد الرغبة في سماع مناظرات الأدباء، فكان يعقد المجالس للمناظرة بين الأصمعي وأبي عبيدة،[٨] أو يدعو أحد الرواة إذا أرق أو ضجر ليقص عليه أخبار العرب، فإذا سرَّه حديثه أجزل عطاءه إلى مائة ألف درهم أو حواليها، فضلًا عن الهدايا وغيرها،[٩] وقد يجادله أو ينتقده مما يشف عن علم ومعرفة.[١٠] وكان الرشيد يحب أن يكون محاطًا بالأدباء والشعراء حتى في دار النساء، فكان يؤثر الجواري المتعلمات ويعرضهن على الأصمعي أو غيره ليمتحنهن ويعلم درجة معارفهن،[١١] واعتبر ذلك أيضًا في الوزراء والأمراء، فالبرامكة تنشيطهم للأدب أشهر من أن يذكر، والفضل بن الربيع فاضل بين الأصمعي وأبي عبيدة،[١٢] أما الأمراء فكانوا يقتدون بالخلفاء في تقريب أهل الأدب.

(١-٢) رواة الأدب من غير العرب

وكان العرب في الصدر الأول مشتغلين عن الأدب بالسياسة أو الشعر أو الخطابة، وهم في غنى عن الاستشهاد في ضبط كلامهم أو قراءتهم لاستغنائهم بملكتهم الفطرية عن تعلم القواعد وحفظ الألفاظ، وكان الأعاجم الذين دخلوا الإسلام من أهل فارس والعراق وخراسان بالولاء أو بالخدمة يفتقرون في تعلم العربية إلى قواعد وشواهد؛ لأنها ليست لغتهم، وأكثرهم مع ذلك أهل فاقة يلتمسون الرزق، فتوافدوا للاشتغال بالأدب إلى البصرة والكوفة؛ لأنهما على حدود البادية أو هما واسطة الاتصال بين الحضارة والبداوة، وزاد

توافدهم في الدولة العباسية؛ لأنها جعلت قصبتها في العراق على مقربة من هذين البلدين وفيهما جماعة كبيرة من قبائل العرب نزلوهما في صدر الإسلام، وأنزلوا مواليهم معهم، فنبغ من هؤلاء الموالي طائفة من الأدباء كان لهم فضل كبير على آداب اللغة وأكثرهم من موالي بني أسد النازلين بجوار الكوفة وغيرهم بجوار البصرة.

فمن أولئك الأدباء جماعة اشتغلوا بجمع الأشعار والأخبار والأمثال ونحوها وسموا بالرواة؛ لأنهم يروون ما سمعوه، وكانوا يأخذون ذلك عن عرب البادية الذين لم يخالط لسانهم العجمة ممن كانت قريش تتخير ألفاظهم وأساليبهم، وأكثر ما نقلوه عن قبائل قيس وتميم وأسد وعمدة الثقات من الرواة، ثم قبيلة هذيل وبعض كنانة وبعض طي، ولم يأخذوا شيئًا عن الحضر ولا من البدو المجاورين؛ فلم يأخذوا من لخم وجذام لمجاورتهما أهل مصر، ولا من قضاعة وغسان وإياد لمجاورتهم أهل الشام وأكثرهم نصارى يقرءون العبرانية والسريانية، ولا من بكر لمجاورتهم النبط والفرس، ولا من عبد القيس والأزد وعمان؛ لأنهم كانوا بالبحرين يخالطون الهند والفرس، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم الهند والحبشة، ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة، ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن، ولا من حاضرة الحجاز؛ لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدءوا ينقلون لغة العرب، وقد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم.

فأهل البصرة والكوفة هم رواة اللغة وواضعو أساس آدابها وعلومها، وكانوا يركبون في طلب ذلك إلى البادية يحادثون العرب ويستطلعون أخبارهم وأشعارهم ويعودون بها إلى البصرة، وكان أولئك العرب في أول الأمر لا يرون بأسًا من إملاء ما يعرفونه ولا يطلبون عن ذلك أجرًا، ثم علموا أن الرواة يرتزقون بما يأخذونه عنهم فصاروا يطلبون به مالًا، ثم صار الفصحاء من العرب يتوافدون هم أنفسهم إلى البصرة يقيمون فيها أو في ضواحيها تخفيفًا لمشاق الرحلة على الرواة وتسابقًا إلى التكسب من إملاء ما يعرفونه من اللغة أو الشعر، وربما كان الراوي لا يكتفي بالأخذ عن الوافدين فيرحل إلى البادية ليأخذ عن أهلها — بدءوا بذلك في أواخر العصر الأموي، وتكاثر الرواة والوافدون في الدولة العباسية إلى البصرة وبغداد، وكان أكثر وفودهم في العصر العباسي الأول أولًا إلى البصرة، فأصبحت غاصَّةً بالأدباء والرواة والشعراء والفصحاء وغيرهم.

(١-٣) الفصحاء الذين نقل الرواة عنهم

فمن الفصحاء الذين أخذ عنهم الرواة في ذلك العصر أو حواليه:

(١) أبو البيداء الرباحي: أعرابي نزل البصرة وكان يعلِّم الصبيان بأجرة، وأقام بها عمره يؤخذ عنه العلم.

(٢) أبو مالك عمرو بن كركرة: أعرابي كان يعلِّم في البادية ويورق في الحضر، وكان يحفظ اللغة كلها على مذهب أهل البصرة.

(٣) أبو عرار: أعرابي من بني عجل فصيح يقرب من أبي مالك في معرفة اللغة.

(٤) أبو زياد الكلابي: أعرابي بدوي قدم بغداد أيام المهدي.

(٥) أبو سوَّار الغنوي: كان فصيحًا وأخذ عنه أبو عبيدة.

(٦) أبو الجاموس ثور بن يزيد: أعرابي كان يفد على آل سليمان بن علي وعنه أخذ ابن المقفع الفصاحة.

(٧) أبو الشمخ: أعرابي بدوي نزل الحيرة.

(٨) شبيل بن عرعرة الضبعي: من خطباء الخوارج وعلمائهم، مات بالبصرة.

(٩) أبو عدنان: وهو أبو عبد الرحمن عبد الأعلى، كان راوية أبي البيداء الرباحي.

(١٠) أبو ثوابة الأسدي: أعرابي روى عنه الأموي.

(١١) أبو خيرة نهشل بن زيد: أعرابي بدوي من بني عدي نزل الحيرة.

(١٢) أبو شبل العقيلي: أعرابي فصيح، وفد على الرشيد واتصل بالبرامكة.

(١٣) نصر بن مضر: من بني أسد.

(١٤) أبو محلم الشيباني: أعرابي من أعلم الناس بالشعر واللغة، كان يغلظ طبعه ويفخم كلامه ويعرب منطقه.

(١٥) أبو مهدية: أعرابي صاحب غريب، يروي عنه البصريون.

(١٦) أبو مسحل: أعرابي حضر بغداد وافدًا على الحسن بن سهل.

(١٧) الوحشي العكلي: أعرابي فصيح كان يعلِّم في البادية.

(١٨) أبو ضمضم الكلابي: وفد على الحسن بن سهل.

(١٩) البهدلي: كان راجزًا فصيحًا راوية وعنه أخذ الأصمعي.

(٢٠) جهم بن خلف المازني: عاصر خلف والأصمعي.

(٢١) الحرمازي: أعرابي بدوي قدم البصرة.

(٢٢) أبو العميثل: أعرابي كان يؤدب ولد عبد الله بن طاهر في خراسان.
(٢٣) الفقعسي: راوية بني أسد وصاحب مآثرها وأخبارها، أدرك المنصور ومن بعده، وعنه أخذ العلماء مآثر بني أسد.
(٢٤) ابن أبي صبح: أعرابي بدوي نزل بغداد وبها مات، أخذ عنه العلماء.
(٢٥) ربيعة البصري: بدوي تحضَّر، وكان راوية.

وقد ذكر صاحب الفهرست عشرات من الفصحاء لا فائدة من إيراد أسمائهم،[١٣] ولبعض من تحضر من هؤلاء الأعرابيين كتب ألفوها في اللغة أكثرها في النوادر والغريب والفروق، وكتب الخيل والإبل والحشرات وخلق الإنسان لم يصلنا منها شيء.

(١-٤) الرواة الذين نقلوا عنهم

أما الرواة الذين أخذوا عن أولئك الفصحاء بالبصرة، أو رحلوا في طلب اللغة إلى البادية فأكثرهم من الموالي منهم:

(١) اللحياني غلام الكسائي: لقي العلماء الفصحاء من الأعراب، وعنه أخذ أبو عبيد القاسم بن سلَّام.
(٢) الأموي: هو عبد الله بن سعيد، ليس من الأعراب، لقي العلماء ودخل البادية، وأخذ عن الفصحاء من الأعراب.
(٣) أبو المنهال: أحد الرواة.
(٤) خلف الأحمر: مولى أبي موسى الأشعري، وسنعود إليه.
(٥) اليزيديون: هم أسرة تنسب إلى كبير منها سمي اليزيدي؛ لأنه صحب يزيد بن منصور خال المهدي، ولهم مؤلفات كثيرة في اللغة والشعر لم يصل إلينا منها شيء، ولكن استفاد منها الرواة الذين وصلتنا كتبهم أو أخبارهم، ولم يصلنا إلا أخبار الرواة المقربين من الخلفاء أو الوزراء في بغداد؛ كالأصمعي وأبي عبيدة وغيرهما، وربما كان بين الذين ضاعت أخبارهم جماعة أولى بالبقاء.

(١-٥) عمدة الرواة أو مرجع الناس في علوم العرب

قد رأيت كثرة المشتغلين في علوم العرب وأخبارها بين قادم من البادية، ونازل من العراق وفارس وخراسان يلتقون في البصرة أو الكوفة أو الحيرة فيتبادلون أخبار العرب وآدابهم وأشعارهم على غير نظام، وقد انتهى ذلك في العصر العباسي الأول إلى ثلاثة هم عمدة الرواة وأئمة الناس في تلك العلوم، وعنهم روى الرواة وأخذ الآخذون، وهم: أبو زيد الأنصاري، وأبو عبيدة، والأصمعي، وكلهم أخذوا عن أبي عمرو بن العلاء أحد القراء السبعة اللغة والنحو والشعر، ورووا عنه القراءة، واشتهر بصدق الرواية قبل هؤلاء قتادة السدوسي، وجاء بعدهم القاسم بن سلام — وإليك تراجمهم حسب سني الوفاة:

قَتَادة بن دِعامة (توفي سنة ١١٧هـ)

قتادة بن دعامة السدوسي الأكمه من أهل البصرة، كان عالمًا كبيرًا مقصدًا للطلاب والباحثين، لم يكن يمر يوم لا تأتيه راحلة من بني أمية تنيخ ببابه لسؤال عن خبر أو نسب أو شعر، وكان يدور البصرة أعلاها وأسفلها بغير قائد، وبلغ من اشتهاره بالعلم وصحة الرواية حتى قالوا: لم يأتنا من علم العرب أصح من شيء أتانا من قتادة،[١٤] لكنه لم يخلف أثرًا، وهو من أهل العصر الأموي، لكننا وضعناه هنا لمواصلة سياق الموضوع، وترجمته في ابن خلكان ٤٢٧ ج١.

ابو عَمرو بن العَلَاء (توفي سنة ١٥٤هـ)

هو زبان بن العلاء بن عمار بن عبد الله بن الحصين التميمي المازني، أحد القراء السبعة، وكان من أشراف العرب ووجوهها، مدحه الفرزدق وغيره، وكان أعلم الناس بالقراءات والعربية وأيام العرب، وكانت دفاتره إلى السقف، ثم تنسَّك فأحرقها.[١٥] وكان له شغف بالرواية وجمع علوم العرب وأشعارهم، وعامة أخباره عن أعراب أدركوا الجاهلية، ومع ذلك فقد قال: «ما انتهى إليكم مما قاله العرب إلا أقله.»[١٦] وعنه أخذ أكثر نحاة ذلك العصر فضلًا عن رواته وأدبائه، لكنه لم يخلِّف أثرًا مكتوبًا، وتجد أخباره في ابن خلكان ٣٨٦ ج١، وطبقات الأدباء ٣١، وفوات الوفيات ١٦٤ ج١، والفهرست ٢٨.

أبو عُبَيدة مَعْمَر بن المُثَنَّى (توفي سنة ٢٠٩هـ)

هو معمر بن المثني التيمي مولى بني تيم من قريش، ولد سنة ١١٠، وهو أجمع سائر الرواة لعلوم العرب وأخبارهم وأنسابهم، كان في البصرة ويفد على الخلفاء في بغداد، وله حكايات في مجلس الرشيد مع الأصمعي للمناظرة والمناقشة. ثم انتقل إلى بغداد سنة ١٨٨، استقدمه إليها الفضل بين الربيع في خلافة الأمين، وأخذ عنه جماعة من علمائها أشهرهم أبو عبيد القاسم بن سلَّام، وأبو عثمان المازني، وأبو حاتم السجستاني. وكان أبو عبيدة يقول: ما التقى فرسان في جاهلية أو إسلام إلا عرفتهما وعرفت فارسيهما،[١٧] وهو الذي روى أخبار أيام العرب التي يتناقلها المؤرخون إلى الآن،[١٨] وروى أشعار كثيرين من الشعراء، وكان ابنه عبد الله يتكسب بإملاء الأشعار على الطلاب، فكان يملي شعر كثير بثلاثين دينارًا،[١٩] وكان أبو عبيدة شعوبيًّا؛ أي متعصبًا على العرب، ويرى رأي الخوارج. ومع سعة معرفته في اللغة كان إذا أنشد بيتًا لم يُقِم إعرابه، وكان شديد الطعن حاد اللسان فلم يسلم شريف من طعنه وألف كتابًا في المثالب، وكان غليظ الشفة وسخًا مدخول الدين والنسب، ولكنه كان كثير الاشتغال بالتأليف، فذكر له صاحب الفهرست مائة وخمسة مؤلفات في مواضيع شتى في القرآن واللغة والأمثال والفتوح والأنساب والمثالب، وبيوتات العرب وأيامهم والتراجم وغيرها لم يصلنا منها إلا:

كتاب نقائض جرير والفرزدق: منها نسخة خطية في المكتبة الخديوية، وقد طبعت النقائض في ليدن سنة ١٩٠٥ رواية أبي عبد الله اليزيدي، المتوفى سنة ٣١٠هـ عن السكري عن محمد بن حبيب عن أبي عبيدة،[٢٠] ولم يذكره صاحب الفهرست بين كتبه.

كتاب طبقات الشعراء: منه نسخة خطية في مكتبة الآباء اليسوعيين في بيروت، ويسميه الفهرست الشعر والشعراء.

وتجد أخباره في ابن خلكان ١٠٥ ج٢، وطبقات الأدباء ١٣٧، والفهرست ٥٣.

الأَصْمعي (توفي سنة ٢١٤هـ)

هو عبد الملك بن قريب، من قيس، وقد اشتهر بكنيته «الأصمعي»، ولكثرة ما يروى عنه أصبحت هذه الكنية مرادفة للفظ «الراوي». وكان أتقن القوم وأعلمهم بالشعر وأحضرهم حفظًا، تعلم نقد الشعر من خلف الأحمر، وقد روى عنه كثيرون. وهو من أهل البصرة، وقدم بغداد في أيام الرشيد مع أبي عبيدة، فقيل لأبي نواس ذلك فقال: «أما

أبو عبيدة فإذا أمكنوه قرأ عليهم أخبار الأوَّلين والآخرين، وأما الأصمعي فبلبل يطربهم بنغماته.» وكان الأصمعي شديد الحفظ يحفظ ١٢٠٠٠ أرجوزة، وإذا انتقل حمل كتبه في ١٨ صندوقًا.[٢١] ولما تولى المأمون كان الأصمعي قد عاد إلى البصرة فاستقدمه فاعتذر بضعفه وشيخوخته، فكان يجمع المشكل من المسائل ويسيرها إليه فيجيب عنها، وأخباره كثيرة.

أما مؤلفاته فقد ذكر منها ابن النديم نيفًا وأربعين كتابًا في مواضيع مختلفة، ذهب معظمها، على أن حظه من البقاء خير من حظ أسلافه من الرواة، أما كتبه الباقية مما بلغ خبره إلينا فبعضها شعرية والبعض الآخر كتب لغوية لدلالات الألفاظ، أكثرها موضوع في مجاميع كل كتاب في باب خاص من الأسماء بعضها لأسماء الوحوش والآخر للإبل وغيرها، وهي:

(١) الأصمعيات: هي مجموع مختارات الأصمعي للشعراء طبعت في ليبسك سنة ١٩٠٢.
(٢) رجز العجاج: رواية الأصمعي منه نسخة خطية في المكتبة الخديوية.
(٣) كتاب أسماء الوحوش طبع سنة ١٨٨٨.
(٤) كتاب الإبل طبع في بيروت سنة ١٣٢٢.
(٥) كتاب خلق الإنسان طبع في بيروت سنة ١٣٢٢.[٢٢]
(٦) كتاب الخيل طبع في فينا سنة ١٨٩٥ مع ترجمة نمساوية.
(٧) كتاب الشاء طبع سنة ١٨٩٦.
(٨) كتاب الدارات طبع في بيروت.
(٩) كتاب الفرق طبع في فينا.
(١٠) كتاب النبات والشجر طبع في بيروت.
(١١) كتاب النخل والكرم طبع في بيروت سنة ١٩٠٢.
(١٢) كتاب الغريب منه نسخة خطية في مكتبة الإسكوريال.

وتجد ترجمة الأصمعي في ابن خلكان ٢٨٨ ج١، وطبقات الأدباء ١٥٠، والفهرست ٥٥، والدميري ٣١٠ ج٢.

أبو زيد الأَنْصاري (توفي سنة ٢١٥هـ)

هو أبو زيد سعيد بن أوس الأنصاري من أهل البصرة، أخذ عن أبي عمرو بن العلاء، وكان عالمًا ثقة بالنحو واللغة، وكان سيبويه إذا قال: «سمعت الثقة.» فإنه يريد أبا زيد الأنصاري، وعنه أخذ كثيرون من علماء البصرة، وكان لفرط رغبته في استيعاب العلم يأخذ عن أهل الكوفة أيضًا، ولم يرو من البصريين عن أهل الكوفة إلا أبو زيد،[٢٣] فقد روى عن المفضل الضبي أكثر كتابه «النوادر في اللغة» على أن أكثر رواياته عن العرب البحت،[٢٤] وقد غلب عليه اللغة والنوادر والغريب، وكان يمتاز عن رفيقيه أبي عبيدة والأصمعي بالثقة، فإنه كان أوثقهم كما كان الأصمعي أحفظهم وأبو عبيدة أجمعهم،[٢٥] وجاء أبو زيد بغداد حين قيام المهدي.[٢٦]

وقد ألف كتبًا كثيرة في علوم الأدب لم يصلنا منها إلا:

(١) كتاب النوادر في اللغة: طبع في بيروت سنة ١٨٩٤.
(٢) كتاب المطر: منه نسخة خطية في المكتبة الأهلية بباريس، وطبع في بيروت.
(٣) كتاب اللبن: منه نسخة خطية في المكتبة الخديوية.

وتجد أخباره في ابن خلكان ٢٠٧ ج١، وطبقات الأدباء ١٧٣، والفهرست ٥٤.

أبو عُبَيد القاسم بن سلَّام (توفي سنة ٢٢٣هـ)

كان أبوه عبدًا روميًّا لرجل من أهل هراة، اشتغل أبو عبيد بالحديث والأدب والفقه، وكان دَيِّنًا ورعًا متفنِّنًا في أصناف علوم الإسلام والقراءات والفقه والعربية والأخبار، حسن الرواية صحيح النقل لم يطعن أحد في شيء من دينه، وهو يصح أن يعد من رجال الحديث لولا أن كتبه كان لها شأن لغوي، تولى القضاء في طرسوس ١٨ سنة، وروى عن أبي زيد، والأصمعي، وأبي عبيدة، وابن الأعرابي، والكسائي، والفراء، وغيرهم، وألَّف بضعة وعشرين كتابًا في القرآن والحديث وغريبه والفقه، وهو أول من ألف غريب الحديث، وانقطع إلى عبد الله بن طاهر، وكان كلما ألف كتابًا أهداه إليه فيحمل له مالًا كثيرًا، فلما عمل كتاب غريب الحديث استحسنه ابن طاهر وقال: «إن عقلًا بعث صاحبه على عمل مثل هذا الكتاب لحقيق أن لا يخرج عنا إلى طلب المعاش.» فأجرى له عشرة آلاف درهم في كل شهر، وذكر له صاحب الفهرست بضعة وعشرين كتابًا في غريب

الحديث، ومعاني القرآن، وفي الأدب والشعر واللغة والنحو ونحوها، لم يصلنا منها إلا ما يأتي:

(١) كتاب غريب الحديث: منه نسخة خطية في مكتبة كوبرلي بالآستانة.

(٢) غريب المصنف: تكلم به على نعوت الإنسان، والطعام، والشراب، والأبنية، والمراكب، والسلاح، والطير، والحشرات، والنار، والشمس، والقمر، وغير ذلك. اشتغل في تأليفه ٤٠ سنة، وفيه ألف فصل و١٢٠٠٠ شاهد، منه نسخة خطية في مكتبة أيا صوفيا بالآستانة وفي المكتبة الخديوية.

(٣) كتاب الأمثال: منه نسخة خطية في مكتبة باريس، وكوبرلي بالآستانة، وطبع مع ترجمة لاتينية في غوتنجن سنة ١٨٣٦، وقد شرحه البكري.

(٤) كتاب فضائل القرآن وأدبه: في مكتبة برلين.

(٥) كتاب المواعظ: منه نسخة خطية في مكتبة ليبسك.

وتجد أخباره في ابن خلكان ٤١٨ ج١، وطبقات الأدباء ١٨٨، والفهرست ٧١.

(١-٦) رواة الشعر

وهناك طبقة من الرواة غلبت عليهم رواية الشعر على سواه من علوم العربية، فاستغلوا بجمع شعر عرب الجاهلية وغيرهم ودوَّنوه أو حفظوه — وهم غير الذين يختص كل راوٍ منهم بشاعر فيكون راويته — وقد علمت من كلامنا عن شعراء الجاهلية أنهم كانوا كثارًا، عددنا منهم مائة وبعض المائة، وهم أكثر من ذلك لضياع أخبار الباقين منهم في أثناء ظهور الإسلام؛ لكثرة من قتل منهم ومن رواتهم في الحرب والغزو على عهد النبي والراشدين.

فلما احتاج المسلمون في صدر الإسلام إلى معرفة معاني الألفاظ في التفسير والقراءة، عمدوا إلى جمع أشعار العرب وأمثالهم وأقوالهم بلا تخصيص، ثم غلب على بعضهم جمع الشعر، وعلى البعض الآخر شواهد النحو، وعلى غيرهم الأمثال، وغيرهم اللغة، فأخذوا يطلبونها في أماكنها وينقلونها عن أصحابها أو من سمع عنهم. والمشهور أن أخبار الجاهلية لم يدون منها شيء قبل الإسلام، ثم ظهر أن بعض ذلك كان مدونًا في صحف عند عباد الحيرة من أيام المناذرة.

وأول من اشتغل بجمع الشعر بعد الإسلام ممن بلغ إلينا خبره حماد الراوية المتوفى سنة ١٥٦هـ، وقد عاصر الدولتين الأموية والعباسية، وعاصر أبا عمرو بن العلاء المتقدم ذكره، ثم ظهر خلف الأحمر والمفضل الضبي وغيرهما، وهذه تراجمهم:

حَمَّاد الرَّاوية (توفي سنة ١٥٦هـ)

هو حماد بن ميسرة، أصله ديلمي من موالي بني بكر بن وائل، نشأ في الكوفة، وكان في أول أمره يتشطر ويصحب الصعاليك واللصوص، فنقب ليلة على رجل فأخذ ماله، وكان فيه جزء من شعر الأنصار، فقرأه حماد؛ فاستحلاه وحفظه، ثم طلب الأدب والشعر وأيام الناس ولغات العرب بعد ذلك، وترك ما كان عليه؛ فبلغ في العلم ما بلغ حتى عرف بحماد الراوية تمييزًا له عن بضعة آخرين بهذا الاسم.

وكان قوي الحافظة بما يفوق المألوف، ومن أعلم الناس بأيام العرب وأشعارها وأخبارها، لكنه اختص بجمع الشعر، وكان ضعيفًا بالعربية يلحن بكلامه، وكان بنو أمية يقدِّمونه ويستزيرونه على البريد وينال منهم الجوائز، ويسألونه عن أيام العرب وأشعارها وعلومها. وسأله الوليد بن يزيد يومًا: «بمَ استحققت أن تدعى الراوية؟» فقال: «بأني أروي لكل شاعر تعرفه يا أمير المؤمنين أو سمعت به، ثم أروي لأكثر منهم ممن تعترف أنك لا تعرفه ولا سمعت به، ثم لا ينشدني أحد شعرًا قديمًا ولا محدثًا إلا ميزت القديم من المحدث.» فقال له: «فكم مقدار ما تحفظ من الشعر؟» قال: «كثير، ولكنني أنشدك على كل حرف من حروف المعجم مائة قصيدة كبيرة سوى المقطعات من شعر الجاهلية دون شعر الإسلام.» قال: «سأمتحنك في هذا.» ثم أمره بالإنشاد؛ فأنشده حتى ضجر الوليد، فوكل به من استحلفه أن يصدقه عنه ويستوفي عليه، فأنشده ألفين وتسعمائة قصيدة للجاهلية وأخبر الوليد بذلك؛ فأمر له بمائة ألف درهم.

وكان حماد هذا، وحماد عجرد الشاعر المتقدم ذكره، وحماد بن الزبرقان، يتنادمون على الشراب في الكوفة، وكانوا متهمين بالزندقة جميعًا، فلما آل الأمر إلى بني العباس كان حماد هذا قد اشتهر بالرواية فسمع به المنصور وكان حزينًا على موت أخيه أبي العباس، وأراد أن يرثيه بأبيات كان يعلم أن هفان بن همام قالها في رثاء أبيه، وقد ذهبت عن خاطر المنصور، فبعث في طلب حماد ليرويها له، فجاءه وأنشده إياها؛ فبكى وقال: «هكذا كان أخي رضي الله عنه.»[٢٧] وظل حماد حيًّا إلى أيام المهدي، وكان يستدعيه إليه ويستنشده، كما يستنشد المفضل الضبي، وكان يؤثر المفضل عليه؛ لأنه أصدق منه

فيما يرويه. وكان حماد يزيد في أشعار الناس ما ليس منها وينسبه إليهم، وسيأتي خبر ذلك.

وهو الذي جمع المعلقات التي بين أيدينا، وجمع أشعار أكثر القبائل وأكثر شعراء بني أمية، وجعل شعر كل قبيلة أو شاعر في كتاب — فكان عنده كتاب لشعر قريش وآخر لشعر ثقيف وآخر لغيرهم،[٢٨] لكنها ضاعت كلها ولم يذكر منها صاحب الفهرست شيئًا، وإنما روى الناس عنه، وصنفت الكتب بعده.

وتجد أخباره في الأغاني ١٦٤ ج٥، وابن خلكان ١٦٤ ج١، وطبقات الأدباء ٤٣.

المفضَّل الضبي (توفي سنة ١٦٨هـ)

هو المفضل بن محمد الضبي، كان ثقة من أكابر الكوفيين، أخذ عنه أبو زيد الأنصاري من البصريين لثقته، وقد أدرك المهدي العباسي فقرَّبه وأدناه، فجمع له الأشعار المختارة التي سماها المفضليات كما جمع أبو تمام ديوان الحماسة، لكن هذا جمع الحماسة من كتب مدونة، وأما المفضل فأخذ أكثرها عن الألسنة — وهو غير المفضل بن سلمة اللغوي الآتي ذكره، وهذه مؤلفاته الباقية:

(١) المفضليات وتسمى الاختيارات: وهي عبارة عن مائة وعشرين قصيدة، وقد تزيد أو تنقص حسب الروايات، طبعت في ليبسك سنة ١٨٨٥ وفي مصر، ولها شرح خطي في المكتبة الخديوية لأبي بكر بن الأنباري.

(٢) كتاب الأمثال: طبع في الآستانة سنة ١٨٨٢.

وتجد أخباره في طبقات الأدباء ٦٧، والفهرست ٦٨، والعقد الفريد ١٣١ ج٣.

خلَف الأَحْمر (توفي سنة ١٨٠هـ)

هو خلف بن حيان، كان مولى أبي بردة، وأصله من فرغانة، لكنه حفَّظه كلام عرب الجاهلية وأشعارهم، حتى صار يقول الشعر فيجيده وينحله الشعراء المتقدمين فلا يتميز من شعرهم؛ لمشاكلة كلامه كلامهم. وكان من أهل البصرة، وقد أخذ الأصمعي وسائر أهل البصرة عنه، وله قوة عجيبة على تمييز الأشعار وتعيين أصحابها، وهو أول من أحدث السماع بالبصرة، وذلك أنه جاء إلى حماد الراوية فسمع منه.[٢٩] وكان ضنينًا

بأدبه، وهو معدود أيضًا بين الشعراء، وذكر له صاحب الفهرست كتابًا واحدًا عن العرب وما قيل فيها من الشعر.

وتجد أخباره في طبقات الأدباء ٦٩، والفهرست ٥٠، والشعر والشعراء ٤٩٦، والعقد الفريد ١٠٧ ج٣.

أبو عمرو الشيباني (توفي سنة ٢٠٦هـ)

هو من الموالي، واسمه إسحاق بن مرار، كان يؤدب في أحياء بني شيبان بالكوفة فنسب إليهم، وكان راوية واسع العلم باللغة ثقة بالحديث كثير السماع، وقد جمع دواوين أشعار القبائل وعنه أخذت، وكان له بنون وبنو بنين يروون عنه كتبه، وذكر أحد أولاده أن أباه جمع أشعار نيف وثمانين قبيلة، وكان كلما جمع أشعار قبيلة وأخرجها للناس كتب مصحفًا وجعله في مسجد الكوفة، وعاش أكثر من مائة سنة، وكان يكتب بيده إلى أن مات، وخلف بضعة مؤلفات في الخيل والحديث والنوادر وخلق الإنسان والحروف، ذكرها صاحب الفهرست ولم يصلنا منها إلا: كتاب الجيم في اللغة منه نسخة خطية في مكتبة الإسكوريال في عشرة أجزاء.

وتجد أخباره في ابن خلكان ٦٥ ج١، ومعجم الأدباء ٢٣٣ ج٢، والفهرست ٦٨.

هؤلاء هم عمدة رواة الأشعار في ذلك العصر — وإن لم يقتصروا عليها. وعنهم أخذ من ألف في طبقات الشعراء أو دوَّن أشعار الأفراد أو القبائل، فضلًا عن أبي عبيدة والأصمعي وأبي عمرو بن العلاء المتقدم ذكرهم، وغير من اشتغل برواية الشعر بعدهم من النحاة واللغويين، كمحمد بن حبيب وخالد بن كلثوم وابن الأعرابي وغيرهم، وقد يجمع أشعار الشاعر أو القبيلة غير واحد ويختلفون في الرواية أو الأشعار أو الأخبار، فيأتي من يجمع بين الروايات وينقح ويضبط، كما حدث في شعر امرئ القيس؛ فقد رواه أبو عمرو بن العلاء والأصمعي وخالد بن كلثوم ومحمد بن حبيب، ثم صنعه من جميع هذه الروايات أبو سعيد السكري، وصنعه أيضًا أبو العباس الأحول وابن السكيت.

فظهر بعد هذه الطبقة من الرواة طبقة من الجامعين الذين ينظرون في الروايات ويجمعون بينها ويعدلونها، نخص منهم بالذكر اثنين من أهل العصر العباسي الأول هما: محمد بن سلام، وابن أبي الخطاب القرشي.

محمد بن سلَّام (توفي سنة ٢٣٢هـ)

هو أبو عبد الله محمد بن سلَّام الجمحي البصري. كان عالمًا بالشعر والأخبار، فألف كتابًا في طبقات الشعراء الجاهليين وطبقات الشعراء الإسلاميين هو أقدم ما وصل إلينا من كتب الطبقات، وظل مرجع طلاب الشعر إلى عهد غير بعيد، وقد ذكره صاحب الفهرست فجعله كتابين أحدهما في الشعراء الجاهليين والآخر في الإسلاميين، وذكره صاحب الأغاني مرارًا كثيرة، واستشهد بأقواله ورجع إليه في تعيين طبقات كثيرين من الشعراء، وكذلك فعل القالي والزجَّاج فقد ذكراه في أماليهما مرارًا، وعوَّل عليه السيوطي في كتابه «المزهر»، ونقل عنه أقوالًا تدخل في بضع صفحات، وذكره صاحب كشف الظنون في مقدمة الذين ألفوا في طبقات الشعراء، وهو أول من فعل ذلك ثم قلده غيره، وقد ذكرنا في الجزء الأول من هذا الكتاب أنه ضاع؛ لأننا لم نجده في مكاتب أوروبا ولا الآستانة ولا المكتبة الخديوية ولا غيرها من المكاتب الكبرى التي تيسَّر لنا الوقوف على فهارسها، ثم علمنا بوجود نسخة خطية منه بين كتب وقفها المرحوم الشيخ الشنقيطي للمكتبة الخديوية ولها فهرس خاص،[٣٠] وتصفحناها فإذا هي منقولة بخط جميل عن نسخة في مكتبة شيخ الإسلام في المدينة وتدخل في ٢١٠ صفحات، تبدأ بنقد الشعر ثم في أول من وضع النحو في البصرة وتاريخ ذلك، ثم قسم المؤلف الشعراء إلى الجاهليين والإسلاميين، وقسم كل طائفة منهما إلى عشر طبقات في كل طبقة أربعة من الفحول يشتركون في بعض الأحوال، وقدم الكلام في الشعر وتاريخه، وأشار إلى ما أدخله الرواة من الشعر المصنوع، ثم ذكر طبقات الشعراء الجاهليين، وهي:

الطبقة الأولى: امرؤ القيس والنابغة الذبياني وزهير والأعشى.

الثانية: سقط بعضها في النسخ، ولعل من شعرائها كعب بن زهير والحطيئة.

الثالثة: نابغة بني جعدة وأبو ذؤيب الهذلي والشماخ بن ضرار ولبيد بن ربيعة.

الرابعة: طرفة بن العبد وعبيد بن الأبرص وعلقمة بن عبدة وعدي بن زيد.

الخامسة: خداش بن زهير والأسود بن يعفر وأبو زيد المخبل وتميم بن مقبل.

السادسة: عمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة وسويد بن أبي كاهل (وسقط الرابع).

السابعة: سلامة بن جندل وحصين بن الحمام والمتلمس والمسيب بن علس.

الثامنة: عمرو بن قميئة والنمر بن تولب وأوس بن … وعوف بن عطية.

التاسعة: ضابئ بن الحارث وسويد بن كراع والخويدرة الذبياني، وسحيم عبد بني الحسحاس.

العاشرة: أمية بن حرثان وحريث بن محفص والكميت بن معروف وعمرو بن شاس.

وأضاف إلى ذلك أصحاب المراثي، وجعلهم طبقة حادية عشرة، وهم متمم بن نويرة والخنساء وأعشى باهلة وكعب بن سهل، ثم تكلَّم عن شعراء القرى، وهي المدينة ومكة والطائف واليمامة والبحرين، وذكر فحول كل قرية.

وتقدم إلى الشعراء الإسلاميين في عشر طبقات:

الأولى: جرير والفرزدق والراعي والأخطل وغيرهم.

الثانية: البعيث والقطامي وكثير وذو الرمة.

الثالثة: كعب بن جعيل وعمر بن أحمد وسحيم بن وثيل وأوس بن مغراء.

الرابعة: نهشل وحميد بن ثور والأشهب وعمرو بن لجاء.

الخامسة: أبو زبيد الطائي والعجير السلولي وعبد الله بن همام ونفيع بن لقيط.

السادسة: ابن قيس الرقيات والأحوص وجميل ونصيب.

السابعة: المتوكل الليثي ويزيد بن ربيعة وزياد الأعجم وعدي بن الرقاع.

الثامنة: عقيل بن علفة المري وبشامة بن العذير وشبيب بن البرصاء وقراد بن حنش.

التاسعة: كلهم رجاز وهم الأغلب العجلي وأبو النجم والعجاج ورؤبة ابنه.

العاشرة: مزاحم بن الحارث ويزيد بن الطثرية وأبو داود الرواسي، والقحيف، وقد قابل في كل طبقة بين شعرائها وفاضل بينهم.

وذكر صاحب الفهرست لابن سلام كتابًا في بيوتات العرب وآخر في ملح الأشعار، وتجد أخباره في طبقات الأدباء ٢١٦، والفهرست ١١٣.

ابن أبي الخطَّاب صاحب جمهرة أشعار العرب

اسمه أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي، لم نقف على ترجمته، ولكن يظهر أنه نبغ في أواسط القرن الثالث للهجرة، وإنما عمدنا إلى ذكره؛ لأنه جمع خيرة أشعار الجاهلية وصدر الإسلام في كتاب سماه «جمهرة أشعار العرب» في سبعة مجاميع، فصلناها في

كلامنا عن طبقات الشعراء في الجزء الأول، والكتاب مطبوع بمصر سنة ١٣٠٨، وفي صدره مقدمة انتقادية في الشعر واللغة والمقابلة بين لغة القرآن وأقوال الشعراء وفي الشعر والشعراء وأقدمهم وغير ذلك في ٣٩ صفحة كبيرة.

(١-٧) ما هو مبلغ صدق الرواة واصطناع الأشعار؟

إن ما بين أيدينا من أخبار العرب وأشعارهم في الجاهلية، إنما وصل إلينا على أيدي الرواة الذين ذكرناهم، فهم رووا تلك الأشعار والأخبار وروتها الناس عنهم — فهل نقلوها عن ثقة؟ وهل هم صادقون في روايتها؟

والجواب على ذلك أن رواياتهم على إجمالها صادقة وإن كان ما وصل إلينا من أشعار الجاهلية لا يخلو من المنسوب لغير أصحابه؛ ولذلك سببان يتصل أحدهما بالعرب الذين تلوا الأشعار على الرواة، والثاني يتصل بالرواة أنفسهم، فالعرب لما قام الإسلام شغلوا به عن مفاخراتهم ومناشداتهم، فلما انقضت دولة الراشدين وقام الأمويون، واقتضت سياستهم إحياء عصبية الجاهلية عادت القبائل إلى مفاخراتهم كل قبيلة تفاخر سواها بمن نبغ فيها من الشعراء وما قالوه، وكان قد ذهب معظمه، فأخذ أبناء الشعراء أو بعض أهلهم يزيدون في الأشعار التي قيلت، ولم يكن يخفى ذلك على أهل العلم، كما اتفق لابن داود بن متمم بن نويرة وقد قدم البصرة لما يقدم له البدوي من الجلب والميرة، فأتاه بعض الرواة وسألوه عن شعر أبيه فلم يرو بعضه حتى أدركوا المصنوع منه.[٣١]

لكن كثيرًا من الأشعار تنسب لغير أصحابها اعتباطًا لتشابه القافية والوزن والمعنى، فكثير من أشعار كُثَيِّر تنسب لمجنون ليلى، وكذلك سائر العشاق تتشابه أشعارهم لتشابه معانيها، فإذا اتحدت قوافيها وأوزانها اختلطت وصعب تفريقها كقصيدة ابن الحدادية اليائية التي مطلعها:

سقى الله أطلالًا بنعم ترادفت   بهنَّ النوى حتى حللنا المطاليا

فإن بعضهم يدخل أبياتًا منها في قصيدة مجنون ليلى[٣٢] التي مطلعها:

تذكرت ليلى والسنين الخواليا   وأيام لا أعدي على الدهر عاديا

وقس على ذلك أمثاله وهو كثير، وقد ينسبون القصيدة إلى غير واحد، وبعض القصائد تنسب إلى عشرين شاعرًا أو أربعين.

(١-٨) تعمد التزوير

والرواة يتفاوتون ثقة؛ فمنهم الثقة المحقق، ومنهم من يتعجل في التصديق، وبعضهم يتقلب في رواياته مع الأهواء فينظم الأبيات على لسان بعض الجاهليين وينسبها إليهم لمطمع مالي أو غرض آخر. وأشهر من فعل ذلك حماد وخلف المتقدم ذكرهما، وهما مرجع رواة الأشعار كما رأيت، فكان حماد كثيرًا ما يصنع الأبيات أو القصيدة ينسبها إلى شاعر من قوم يريد أن يتزلف إلى رجل منهم صاحب نفوذ أو سيادة في عصره، كما فعل في ولاية خالد بن عبد الله القسري، وكان خالد شديد العصبية لقومه اليمنية على القيسية، فنظم حماد أبياتًا نسبها إلى ابن الحدادية يمدح بها أسد بن كرز من بجيلة قبيلة خالد القسري المذكور، وأسد بن كرز أبو جده، فأورد حماد حكاية جرت لابن الحدادية مع ناس من قومه أصابوا دمًا في قوم من خزاعة، فهربوا حتى نزلوا في بجيلة على أسد بن كرز فآواهم وأحسن إليهم، وأن ابن الحدادية نظم فيه قصيدة يمدحه بها — إلى آخر الحديث،[٣٣] ولكن الرواة المحققين يقولون: إنها من نظم حماد للغرض الذي تقدم، وكذلك كانوا يفعلون في وضع الأنساب طمعًا بالمال — قال ابن الكلبي: «أول كذبة كذبتها في النسب أن خالد بن عبد الله سألني عن جدته أم كريز وكانت أمة بغيًّا لبني أسد يقال لها: زينب، فقلت له: هي زينب بنت عرعرة بن خذيمة بن نصر بن قعين فسُرَّ بذلك ووصلني.»[٣٤]

وقد شهد المفضل الضبي وهو معاصر لحماد أيضًا قال: «قد سلط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده فلا يصلح أبدًا.» فقيل له: «وكيف ذلك؟ أيخطئ في روايته أم يلحن؟» قال: «ليته كان كذلك؛ فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب، ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل، ويدخله في شعره ويحمل ذلك عنه في الآفاق فتختلط أشعار القدماء، ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد، وأين ذلك؟»

وقد بلغ قول الضبي إلى الخليفة المهدي فأكده له بالامتحان بين يديه، فاعترف حماد بأبيات زادها في أشعار زهير بن أبي سلمى، فأمر المهدي بإبطال روايته؛ لأنه يُدخل بأشعار الناس ما ليس منها، ووصل المفضل لصدقه وصحة روايته.[٣٥]

وخلف الأحمر كان يفعل فعلَ حماد، وقد قال عن نفسه: إنه كان ينظم الأشعار وينحلها لغير أصحابها، وإنه كان يأخذ من حماد الصحيح من أشعار العرب، ويعطيه المنحول فيقبله. وكان خلف شاعرًا مجيدًا فينظم القصائد الغر ويدخلها في دواوين الشعراء. ويقال: إن القصيدة المنسوبة للشنفرى التي أولها:

أقيموا بني أمي صدور مطيكم فإني إلى أهل سواكم لأميلُ

هي له. وقال أبو حاتم: كان خلف الأحمر شاعرًا، وقد وضع على عبد القيس شعرًا مصنوعًا عبثًا منه، وأدخل أيضًا على غيرهم من القبائل أبياتًا وقصائد، وكان أهل البصرة والكوفة يأخذون ذلك عنه؛ لأنه كان لتمكُّنه من الشعر والشعراء إذا نظم على ألسنة الناس أشبه كل شعر يقوله بشعر الذي يضعه له. وتنسَّك في أواخر أيامه وندم على ذلك وكف عن النظم، ثم خرج يومًا إلى أهل الكوفة واعترف لهم بما كان يعمله وعرَّفهم الأشعار التي قد أدخلها في أشعار الناس، فقالوا: «أنت كنت عندنا في ذلك الوقت أوثق منك الساعة.» ولم يستطيعوا إخراج ذلك من دواوينهم.[٣٦]

وممن كان يفعل فعل حماد وخلف ابن دأب والشرقي بن القطامي. سئل القطامي: «ما كانت العرب تقول في صلاتها على موتاها؟» فقال: «لا أدري!» فقيل له: «اكذب!» فقال: «كانوا يقولون: رويدك حتى تبعث الخلق باعثة.» فشاع ذلك وتحدثوا به.[٣٧] حتى الرواة الثقات كالأصمعي وأبي عبيدة وأبي زيد فقد كانوا يتطاعنون ويضعف كل منهم رواية الآخرين، ولكن المحققين ينزهون هؤلاء عن الكذب. وقد قال محمد بن سلام الجمحي: «في الشعر موضوع مفتعل مصنوع لا خير فيه ولا حجة بإعرابه.»[٣٨]

على أن المحققين في العصر العباسي الثاني كأبي الفرج الأصبهاني وابن قتيبة وابن عبد ربه وغيرهم ممن عانى الأدب وانتقد الشعر بيَّنوا أماكن الضعف في كثير من المواضع وجعلوا للرواية شروطًا[٣٩] في الإسناد والأخذ والتحقيق لا محل لها هنا. وانتقد محمد بن سلَّام شيئًا من ذلك في مقدمة طبقاته.

ولأبي القاسم عمر بن حمزة البصري المتوفى سنة (٣٧٥هـ) كتاب في انتقاد الرواة سماه «التنبيهات على أغاليط الرواة»، ضمَّنه التنبيه على الأغاليط التي وقعت في نوادر أبي زياد الكلابي، ونوادر أبي عمرو الشيباني، وكتاب النبات لأبي حنيفة الدينوري، والكامل للمبرد، والفصيح لثعلب، والغريب للقاسم بن سلام، وإصلاح المنطق لابن السكيت، وغيرهم. وفي المكتبة الخديوية نسخة خطية من هذا الكتاب.

وإذ فرغنا من الكلام على الرواية بأنواعها وهي أصل علم الأدب، فلنأت إلى ما يتفرع إليه الأدب من العلوم، وأهمها النحو واللغة؛ فإن أصحابهما كانوا في الأصل من جملة الرواة، ثم اختص بعضهم بهذا العلم والبعض الآخر بذاك.

(٢) النحو

(٢-١) البصريون والكوفيون

النحو باعتبار ما تقدم فرع من الأدب، لكنه ولد قبله لاحتياج المسلمين إلى ضبط القراءة، فوضعه أبو الأسود الدؤلي كما تقدم في العصر الأموي، وقد نضج وصار علمًا في أيام العباسيين على أيدي أدباء البصرة والكوفة، وأهل البصرة أسبق إلى ذلك، وهم الذين ضبطوا النحو وألفوا فيه، ومنهم أبو الأسود واضعه، وابن أبي إسحاق الحضرمي أول من علله، وعيسى بن عمر الثقفي أول من ألَّف فيه، وهارون بن موسى أول من ضبطه، وسيبويه أول من أجاد في تأليفه، ثم قلدهم الكوفيون وخالفوهم ببعض قوانينه، وقامت المناظرة بين البلدين، وصار لكل منهم مذهب في النحو كما هو مشهور، وأهل البصرة أرسخ قدمًا وأوسع علمًا وأولى بالثقة، ولكن السياسة اقتضت ظهور الكوفيين بعد قيام الدولة العباسية فقدمهم خلفاؤها؛ لأنهم كانوا من أنصارهم. فكانوا يقربونهم دون نحويي البصرة ويختارون منهم أساتذة لأولادهم — فالكسائي والفراء والمفضل الضبي والشرقي بن القطامي كلهم من أهل الكوفة، وقد علموا أبناء الخلفاء، ولولا الغرض السياسي لم يكن لهم ذكر، وتحامل الأمين على سيبويه في المناظرة التي عقدها بينه وبين الكسائي بشأن النحلة والزنبور، وهي أشهر من أن تذكر.[٤٠]

(٢-٢) أول من علله

فالبصريون أصحاب الفضل في وضع النحو وترقيته وتنسيقه، بدأ بذلك أبو الأسود فوضع بعض قواعده وأخذ يلقيها ويعلمها لمن شاء من الأدباء أو القراء، فكان أبرع تلامذته عنبسة بن معدان المهري فتكاتف الناس يطلبون النحو على يده فتفقه عليه جماعة كان أبرعهم ميمون الأقرن،[٤١] فجعل الناس يأخذون النحو عنه تلقينًا بلا تعليل ولا ضبط، ويقال: إن أول من علله — أي ذكر أسباب إعرابه — عبد الله بن أبي إسحاق

الحضرمي المتوفى سنة ١١٧هـ، والغالب في اعتقادنا أن تعليل الإعراب لم ينضج إلا بعد نقل كتب الفلسفة اليونانية إلى العربية في العصر العباسي الذي نحن في صدده.

(٢-٣) أول من ضبط قواعده وألف فيه

أما ضبط قواعده فأول من أقدم عليه هارون بن موسى، وهو يهودي من أهل البصرة، أسلم واشتغل بالأدب وضبط النحو، لكنه لم يؤلف فيه، وأول من ألف فيه عيسى بن عمر الثقفي المتوفى سنة ١٤٩هـ، وكان فصيحًا يتقعَّر في كلامه فيقال: إنه ألَّف كتابين أحدهما الجامع والآخر الإكمال ذكرهما الخليل في شعره ولم يرهما أحد.[٤٢]

وقد عانى النحو وقواعده كل من ظهر في البصرة من الأدباء في ذلك العصر؛ لأنه من علم الأدب، إلا أن بعضهم كان يميل إلى النحو أكثر من سواه وربما دخل في جملة ما يكتبه في الأدب أو اللغة كما فعل الخليل بن أحمد واضع علم العروض، فقد أتى على أشياء من قبيل النحو في كتاب العين الآتي ذكره، وهكذا يقال في أمثاله الذين اشتغلوا بفنون الأدب كأبي عمرو بن العلاء، ومنهم من اختص بالنحو ونصب نفسه للإفادة وإن لم يؤلف فيه كيونس بن حبيب المتوفى سنة ١٨٣، وكان معاصرًا لهؤلاء جميعًا، وأخذ عن أبي عمرو بن العلاء، وتمكَّن من النحو حتى صار له فيه مذاهب وأقيسة تفرد بها، وعقد لنفسه حلقة في البصرة يلقي فيها هذا العلم، وكان يقصده طلبة العربية وفصحاء الأعراب، فكان يعلم النحو واللغة وهما لم يفترقا بعد، ولم يستقل النحو بنفسه استقلالًا تامًّا حتى ألف فيه سيبويه كتابه المشهور — وهاك أشهر نحاة هذا العصر حسب سني الوفاة:

(٢-٤) علماء النحو

سيبويهِ (توفي سنة ١٨٣هـ)

هو من الموالي، واسمه أبو بشر عمرو بن عثمان مولى بني الحارث بن كعب، ولقب سيبويه بالفارسية، ومعناها رائحة التفاح، نشأ في البصرة وطلب الآثار والفقه، ثم طلب النحو وأخذه عن الخليل ويونس وعيسى بن عمر حتى برع فيه، وألف كتابه الذي لم يسبقه أحد إلى مثله، ونسب فيه إلى كل من أساتذته أقواله، واعتمد على أبي زيد الأنصاري، وكان يسميه الثقة؛ فكان لذلك وقع جميل عند أهل البصرة، وصار كتابه

تحفة يتسابق الفضلاء إلى مهاداتها. واشتهر حتى أصبح قائلهم إذا قال: «قرأ فلان الكتاب.» علم أنه يعني كتاب سيبويه، وكان أبو العباس المبرد إذا أراد أحد أن يقرأ عليه كتاب سيبويه يقول له: «هل ركبت البحر؟» تعظيمًا للكتاب واستصعابًا لما فيه، وقال أبو عثمان المازني: «من أراد أن يعمل كتابًا كبيرًا في النحو بعد كتاب سيبويه فليستحِ.» وأخذ العلم عنه جماعة من المشاهير أشهرهم أبو الحسن الأخفش — وكان أكبر سنًّا منه — وقطرب، وكانت له معهما ومع سواهما مناظرات.

وكان أهل الكوفة في أثناء ذلك قد هموا بالنحو، فأخذوه عن أهل البصرة واشتغلوا فيه، فنبغ معاذ الهراء المتوفى سنة ١٨٧، وأبو جعفر الرواسي ابن أخي معاذ، فوضع كتابًا في النحو، وهو أول من فعل ذلك من الكوفيين، والكتاب ضاع.

كتاب سيبويه

أما كتاب سيبويه فإنه باقٍ ومنه عدة نسخ خطية في المكتبة الخديوية وغيرها، وقد طبع في باريس سنة ١٨٨٣–١٨٨٩ بعناية المستشرق ديرنبورج في مجلدين كبيرين في ١٠٠٠ صفحة كبيرة عليها تعاليق مفيدة ومقدمة باللغة الفرنسوية عن مسودات هذا الكتاب ومظانها وما قيل فيها، وطبع بمصر سنة ١٨٩٦، وفي كلكته ١٨٨٧، وقد نقله إلى الألمانية الدكتور ياهن، وطبع في برلين سنة ١٨٩٤–١٨٩٨، وفي الكتاب ٧٢٠ فصلًا، يحتوي الجزء الأول منه على الكلم وأقسامه، والفاعل والمفعول، فالفعل وما يعمل عمله، وأحكام المصدر، والحال، والظرف، والجر، والبدل، والمعرفة والنكرة، والصفة، والمبتدأ والخبر، والأسماء التي بمنزلة الفعل، والأحرف المشبهة به، والنداء والترخيم، والنفي بلا والاستثناء، وباب لكل من أحرف الجر، وفي الجزء الثاني ما ينصرف وما لا ينصرف، والنسبة والإضافة، والتثنية، والتصغير، والمقصور، والممدود، والجمع، وفعلت وأفعلت وما يليها من المزيدات، وفي الوقف وشروطه وما يكون عليه الكلم، وما أبدل من الفارسية، وغير ذلك مما يطول شرحه، على غير الترتيب المألوف عندنا، لكنه جامع كل ما يحتاج إليه طالب النحو، وفيه ٣٠٠ مثال للأبنية، حتى قالوا: أصل الكتب المؤلفة في النحو كتاب سيبويه وكتاب العين للخليل؛ ولذلك تعرض جماعة لانتقاد كتاب سيبويه منهم المبرد.[٤٣] وقد ألف أبو بكر الزبيدي كتابًا سماه كتاب الاستدراك على كتاب سيبويه، انتقد فيه مواد هامة طبع في رومية سنة ١٨٩٠ بعناية الأستاذ جويدي المستشرق الإيطالي. وقد

شرح الكتاب سعيد بن المرزبان، ومن هذا الشرح بضع نسخ في المكتبة الخديوية إحداها بخط عبد اللطيف البغدادي الرحالة الشهير.

وأخبار سيبويه في ابن خلكان ٣٨٥ ج١، وطبقات الأدباء ٧١، والفهرست ٥١، والدميري ١٢٤ ج٢.

معاذ الهرَّاء (توفي سنة ١٨٧هـ)

هو أبو مسلم عم أبي جعفر الرواسي من أساتذة الكسائي الآتي ذكره، ولم يخلف مؤلفًا، وإنما ذكرناه لأنه أول من وضع التصريف.[٤٤]

وترجمته في ابن خلكان ٩٩ ج٢، وطبقات الأدباء ٦٤، والفهرست ٦٥.

الكسائي (توفي سنة ١٨٩هـ)

هو أشهر نحاة الكوفة، واسمه علي بن حمزة مولى بني أسد، وأصله من فارس. أخذ النحو عن أبي جعفر الرواسي ومعاذ الهرَّاء المتقدم ذكرهما، وخرج إلى البصرة ولقي الخليل بن أحمد، فأخذ عنه وعشق النحو، وهو من القراء السبعة، واستقدمه الخلفاء العباسيون إلى بغداد ليعلم أبناءهم، وقدمه البرامكة فارتفعت منزلته، وأخذ يعرِّض بسيبويه وكتابه حتى كانت مسألة الزنبور والنحلة، فتعصَّب الخليفة الأمين لمعلِّمه الكسائي، وجمع الرجلين فتناظرا في حضرته، وشهد بدويٌّ بصحة رأي سيبويه، لكن الأمين تعصَّب لمعلمه حتى اضطر سيبويه إلى الفرار في حديث طويل. وألف الكسائي عدة كتب في النحو والقراءات والأدب والنوادر وغيرها لم يصلنا منها إلا رسالة في لحن العامة منها نسخة خطية في مكتبة برلين، وقد طبعت في برسلاو.

وأخباره في ابن خلكان ٣٣٠ ج١، وطبقات الأدباء ٨١، والفهرست ٢٩ و٦٥.

واشتهر من النحاة في العصر العباسي الأول آل اليزيدي، وهم كثار وأبو الحسن الأخفش وأبو عمر الجرمي وغيرهم من أهل البصرة، وجماعة كبيرة من أهل الكوفة نبغوا بعد فوز الكسائي؛ لأن انتصاره كان انتصارًا لبلده، واشتهر جماعة منهم في بغداد، كالفراء وابن الأعرابي، وهشام بن معاوية الضرير، وابن السكيت، وهاك أشهرهم.

الفرَّاء (المتوفى سنة ٢٠٧هـ)

هو أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء الديلمي من موالي بني أسد في الكوفة، وأخذ عن الكسائي، وكان إمامًا ثقة له شأن عظيم في اللغة ومذهب وأتباع ومريدون. قال أبو العباس ثعلب: «لولا الفراء لما كانت اللغة؛ لأنه حصَّلها وضبطها، ولولا الفراء لسقطت العربية؛ لأنها كانت تتنازع ويدَّعيها كل من أراد، ويتكلم الناس على مقادير عقولهم وقرائحهم فتذهب.» وقال أبو بكر بن الأنباري: «لو لم يكن لأهل بغداد والكوفة من علماء العربية إلا الكسائي والفراء لكان لهم بهما الافتخار على جميع الناس.»

ومما رفع قدره وجمع الأدباء حوله حظوته عند المأمون الخليفة، فإنه كان يقدمه وعهد إليه تعليم ابنيه النحو، واقترح عليه أن يؤلف ما يجمع به أصول النحو وما سمع من العربية، وأمر أن تفرد له حجرة من الدار ووكل بها جواري وخدمًا للقيام بما يحتاج إليه، وصير إليه الورَّاقين يكتبون ما يمليه حتى صنف كتاب «الحدود» في سنتين، ثم خرج للناس وأملى كتاب «المعاني»، فخزنه الوراقون عن الناس ليتكسبوا بنسخه كل خمس أوراق بدرهم، فشكاهم الناس إليه، فلما أبوا إخراج كتابه أخذ يملي كتابًا آخر في المعاني أطول وأوسع، فخاف الوراقون فرضوا أن ينسخوا كل عشر أوراق بدرهم.

وعظم قدر الفراء في الدولة حتى تسابق تلميذاه ابنا المأمون إلى تقديم نعله إليه لما نهض للخروج، ثم اصطلحا على أن يقدم كل منهما فردة، وبلغ المأمون ذلك فاستدعاه وقال له بذلك، فقال: «لقد أردت منعهما، ولكن خشيت أن أدفعهما عن مكرمة سبقا إليها أو أكسر نفوسهما عن شريفة حرصا عليها.»[٤٥] ففرح المأمون وقال: «لو منعتهما عن ذلك لأوجعتك لومًا.»

ولم يكن الفراء مقتصرًا في معرفته على النحو، فإنه كان ماهرًا في النجوم والطب وأيام العرب وأخبارها، وله مؤلفات كثيرة تدخل في ثلاثة آلاف ورقة — أي ٦٠٠٠ صفحة — كان يمليها على تلامذته بدون كتاب؛ لأنه كان قوي الحافظة، وكأن أكثر مقامه في بغداد يجمع طوال دهره، فإذا كان آخر السنة خرج إلى الكوفة أقام بها ٤٠ يومًا يفرق ما جمعه حتى توفي سنة ٢٠٧هـ، وذكر له صاحب الفهرست عدة مؤلفات في النحو واللغة لم يصلنا منها إلا:

(١) كتاب معاني القرآن، منه نسخة في كتب الشنقيطي بالمكتبة الخديوية.
(٢) بلغنا أن في المكتبة الأحمدية بحلب نسخة من كتاب المذكر والمؤنث تنسب إليه.

وكان له أصحاب ومريدون أشهرهم أبو جعفر محمد بن قادم معلم المعتز، وسلمة بن عاصم أحد علماء الكوفة الثقات وغيرهما. وأكثرهم ألفوا في النحو وضاعت كتبهم.

وتجد أخبار الفراء في ابن خلكان ٢٢٨ ج٢، وطبقات الأدباء ١٢٦، والفهرست ٦٦.

ابن السِّكِّيت (توفي سنة ٢٤٤هـ)

هو أبو يوسف يعقوب بن إسحاق السكيت، آخر نحاة الكوفة في هذا العصر، أصله من الأهواز، وكان يؤدب ولد جعفر المتوكل. أخذ النحو عن أبي عمرو الشيباني والفراء وابن الأعرابي الآتي ذكره بين اللغويين، ولقي الأعراب وأخذ عنهم، وعلم عبد الله بن طاهر وغيره، وغضب عليه المتوكل في آخر أيامه لجرأته في الدفاع عن علي بن أبي طالب وآله، وذلك أن المتوكل سأله يومًا وهو يعلم ابنيه: «يا يعقوب، أيهما أحب إليك: ابناي هذان أم الحسن والحسين؟» فأجابه: «إن قنبرًا خادم علي خير منك ومن ابنيك.» فأمر المتوكل فسلوا لسانه من قفاه فمات، وقد خلَّف بضعة وعشرين مؤلفًا في النحو واللغة والمنطق والشعر، ذكرها صاحب الفهرست، وهاك ما بلغنا خبره منها:

(١) كتاب إصلاح المنطق: منه نسخ خطية في أكثر مكاتب أوروبا والآستانة، وفي المكتبة الخديوية، وقد طبع في بيروت سنة ١٨٩٨ بعناية الأب شيخو اليسوعي، وفي مصر سنة ١٩٠٧.

(٢) كتاب الألفاظ أو تهذيب الألفاظ: في اللغة وليس في النحو يبحث في أحوال الألفاظ ومعانيها، منه نسخة خطية في مكتبتي باريس وليدن. وقد طبع في بيروت بعناية الأب شيخو عن تينك النسختين سنة ١٨٩٦ مع شروح للتبريزي، وطبعوا منه طبعة مختصرة سنة ١٨٩٧ سموها مختصر تهذيب الألفاظ.

وتجد أخباره في ابن خلكان ٣٠٩ ج٢، وطبقات الأدباء ٢٣٨، والفهرست ٧٢.

فالنحو نضج في هذا العصر، ووضعت فيه الكتب الوافية بخلاف الأدب، فإنه كان لا يزال مشتتًا مضطربًا، وسينضج في الأعصر الآتية، وكذلك علم اللغة كما سنبيِّنه في مكانه.

(٣) علم اللغة

نريد بعلم اللغة الاشتغال بألفاظ اللغة من حيث معانيها وأصولها واشتقاقها، وهو ينتهي بتأليف المعاجم اللغوية، ولم يتم نضجها إلا في العصر العباسي الثالث كما سيجيء، لكن السبيل تمهَّدت لها في هذا العصر وما يليه بما ألفه الأدباء من الكتب في ألفاظ المواضيع الخاصة، وقد جاء ذكر بعضها في مؤلفات الأصمعي وغيرها من كتب الأدب، ككتاب الخيل، وأسماء الوحوش، وكتب الشاء، وخلق الإنسان. وقد يتبادر إلى الأذهان من قراءة أسمائها أنها كتب في علم الحيوان أو التشريح، ولكنها كتب لغوية يحوي كل منها أسماء الحيوانات وأعضائها، ومن الإنسان أسماء أعضائه وأحواله، وكانت للعرب همة عالية في استقصاء ذلك في صدر دولتهم يتبارون في التنقيب عنه من أماكنه، إما بالسفر إلى البادية أو بالسؤال ممن يفد على البصرة والكوفة من فصحاء العرب كما تقدم.

وكان الأمويون يستحثون الأدباء على ذلك بمناقشات يثيرونها بين أيديهم في هذه المواضيع، كما فعل عبد الملك في مجلس من مجالسه ضم جماعة من خواصه ومسامريه، فقال: «أيكم يأتيني بحروف المعجم في بدنه وله عليَّ ما يتمناه؟» فقام إليه سويد بن غفلة فقال: «أنا لها يا أمير المؤمنين.» فقال: «ما عندك؟» قال: «أنف، بطن، ترقوة، ثغر، جمجمة، حلق، خد، دماغ، ذكر، رقبة، زند، ساق، شفة، صدر، ضلع، طحال، ظهر، عين، غببة، فم، قفا، كتف، لسان، منخر، نغنغ، هامة، وجه، يد، فهذه آخر حروف المعجم، والسلام على أمير المؤمنين.»

فقام بعض أصحاب عبد الملك وقال: «يا أمير المؤمنين أنا أقولها في جسد الإنسان مرتين، فضحك عبد الملك وقال لسويد: «أما سمعت ما قال؟» قال: «نعم أنا أقولها ثلاثًا.» فقال له: «لك ما تتمنى.» فقال: «أنف، أسنان، أذن، بطن، بصر، بز، ترقوة، تمرة تينة، ثغر، ثنايا، ثدي، جمجمة، جنب، جبهة، حلق، حنك، حاجب، خد، خصر، خاصرة، دبر، دماغ، دردر، ذكر، ذقن، ذراع، رقبة، رأس، ركبة، زند، زردمة، زغب، ساق، سرة، سبابة، شفة، شعر، شارب، صدر، صدغ، صلعة، ضلع، ضفيرة، ضرس، طحال، طرة، طرف، ظهر، ظفر، ظلم، عين، عنق عاتق، غببة، غلصمة، غنة، فم، فك، فؤاد، قلب، قدم، قفا، كف، كتف، كعب، لسان، لحية، لوح، مرفق، منكب، منخر، نغنوغ، ناب، نن، هامة، هيف، هيئة، وجه، وجنة، ورك، يمين، يسار، يافوخ، ثم نهض مسرعًا وقبَّل الأرض بين يدي عبد الملك، فقال: «والله ما نزيد عليها أعطوه ما تمنى.» ثم أجازه وأنعم عليه وبالغ في الإحسان إليه.

(٣-١) أوليات كتب اللغة

فهذا وأمثاله بعث الناس على العناية بحفظ ألفاظ اللغة، وحمل الآخرين على التأليف فيها بشكل مجاميع كل مجموع في موضوع، فكتاب النخل والكرم مثلًا لا يبحث في طبائع النخل والكرم ومعالجتهما أو زراعتهما، وإنما هو يبحث في أسماء أنواعهما وأغصانهما وما يتعلق بها من اسم أو فعل، وهاك قطعة من أول هذا الكتاب على سبيل المثال:

> من صغار النخل الخبيث وهو أول ما يطلع من أمه، وهو الودي والهراء والفسيل، وإذا كانت الفسيلة في الجذع ولم تكن مستأرضة فيه فهو من خسيس النخل والعرب تسميها الراكب، فإذا قلعت الودية من أمها بكربها قيل: ودية منعلة، فإذا غرسها حفر لها بئرًا فغرسها ثم كبس حولها بترنوق المسيل والدمن، فتلك البئر هي الفقير. يقال: فقَّرنا للودية تفقيرًا، والأشأ من صغار النخل.
>
> ومن نعوت سعفها وكونها وقلبها يقال للفسيلة إذا أخرجت قلبها: قد أنسغت، ويقال للسعفات اللواتي يلين القلبة: «العواهن» في لغة أهل الحجاز. أما أهل نجد فيسمونها «الخوافي»، وأصول السعف الغلاظ الكرانيف؛ الواحدة كرنافة، والعريضة التي تيبس فتصير مثل الكتف هي الكربة وشحمة النخلة هي الجمار، فإذا صار للفسيلة جذع قيل: قد قعدت وفي أرض بني فلان من القاعد كذا وكذا، والسعف هو الجريد عند أهل الحجاز؛ واحدته جريدة، وهو الخرص وجمعه خرصان، والخلب الليف؛ واحدته خلبة …[٤٦]

وقس على ذلك كتب خلق الإنسان والإبل وغيرها، فكل منها يشتمل على أسماء وأفعال تجمعها صفة مشتركة بينها في المعنى، فهي من قبيل المعاجم المعنوية التي تجمع مفردات اللغة فيها حسب معانيها تمييزًا لها عن المعجمات اللفظية التي تجتمع بها الألفاظ بحسب هجائها على ترتيب الأبجدية، وأشهر المعجمات المعنوية فقه اللغة للثعالبي والمخصص لابن سيده، وهي أتم مما فعله الأصمعي وأترابه، ولكنها تشبهها من حيث المراد بها، وسيأتي ذكرها في مكانه، وعلى كتب الخيل والشاء والإبل والشجر والكرم وخلق الإنسان وأشباهها من كتب النوادر والأمثال والأضداد واللغات والفروق وغريب القرآن والحديث، وكتب المياه والجبال ونحوها عوَّل واضعو المعجمات في ضبط الألفاظ ومعانيها فضلًا عن تحريم المفردات عن فصحاء الأعراب.

(٣-٢) علماء اللغة

الخليل بن أحمد (توفي سنة ١٨٠هـ)

هو أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد البصري الفراهيدي الأزدي سيد أهل الأدب في تصحيح القياس، واستخراج مسائل النحو وتعليله، وكان من تلامذة أبي عمرو بن العلاء، وعنه أخذ سيبويه، وعامة الحكاية في كتاب سيبويه عن الخليل، وكلما قال سيبويه: «سألته.» أو «قال.» من غير أن يذكر قائله فهو يعني الخليل. وأخذ عنه أيضًا النضر بن شميل ومؤرج السدوسي وعلي بن نصر وغيرهم.

وقد علمت أنه أول من ضبط اللغة، وهو أيضًا أول من استخرج علم العروض إلى الوجود، وحصر أقسامه في خمس دوائر يستخرج منها ١٥ بحرًا، ثم زاد فيه الأخفش بحرًا سماه الخبب، وقد ضبط أوزان الشعر ووقعها على المقاطع والحركات، واستغرق في درس ذلك حتى كان يقضي الساعات في حجرته، وهو يوقع بأصابعه ويحركها — رووا أن ابنه دخل عليه مرة وهو في هذه الحال، فظنه جن، فقال له الخليل:

لو كنت تعلم ما أقول عذرتني ... أو كنت تعلم ما تقول عذلتكا
لكن جهلت مقالتي فعذلتني ... وعلمت أنك جاهل فعذرتكا

وكان الخليل في فاقة وزهد لا يبالي بالدنيا، وذكروا أن سليمان بن علي وجَّه إليه من الأهواز لتأديب ولده، فأخرج الخليل إلى رسول سليمان خبزًا يابسًا وقال: «كُلْ فما عندي غيره، وما دمت أجده فلا حاجة لي إلى سليمان.» فقال الرسول: «فما أبلغه؟» فقال:

أبلغ سليمان أني عنه في سعةٍ ... وفي غنًى غير أني لست ذا مالِ
شحًّا بنفسي أني لا أرى أحدًا ... يموت هزلًا ولا يبقى على حالِ
والفقر في النفس لا في المال تعرفه ... ومثل ذاك الغنى في النفس لا المالِ
فالرزق عن قدر لا العجز ينقصه ... ولا يزيدك فيه حول محتالِ

وأهم مؤلفاته كتاب العين.

كتاب العين

الخليل أسبق العرب إلى تدوين اللغة وترتيب ألفاظها على حروف المعجم قبل الأصمعي وسيبويه وسواهما من الأدباء والنحاة في كتاب سماه كتاب العين، جمع فيه ما كان معروفًا في أيامه من ألفاظ اللغة وأحكامها وقواعدها وشروطها، ورتب ذلك على أحرف الهجاء، لكنه رتب الحروف حسب مخارجها من الحلق، فاللسان، فالأسنان، فالشفتين، وبدأ بحرف العين، وجعل حروف العلة في الآخر، وهاك ترتيبه: ع ح هـ خ غ ق ك ج ش ص ض س ر ط د ت ظ ذ ث ز ل ن ف ب م و ا ي، فكأن الخليل حذا بذلك حذو الهنود في ترتيب حروف لغتهم السنسكريتية، فإنهم يبدءون بأحرف الحلق وينتهون بالأحرف الشفوية.[٤٧]

وكان من عادة العرب أن يسموا الكتاب بأول لفظ من ألفاظه ككتاب الجيم للهروي وهو كتاب رتبه على حروف المعجم بدأ به بحرف الجيم،[٤٨] وكتاب الجيم لأبي عمرو الشيباني، ومثلهما كتاب الغين وكتاب الميم، ويستفاد من ترتيب الحروف في كتاب العين أن الجيم كانت تلفظ كالكاف الفارسية.

ومن أبحاث كتاب العين إحصاء ألفاظ اللغة في أيامه، فقد نقل عنه السيوطي أنه أحصى فيه عدد أبنية كلام العرب المستعمل والمهمل فبلغ ١٢٣٠٥٤١٢ كلمة، ولعله أراد ما يمكن تكوينه بتركيب أحرف الهجاء على كل شكل من الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي، ولم يذكر عدد الكلام المستعمل منها، على أن أبا بكر الزبيدي الذي اختصر كتاب العين وجَّه نظره إلى هذه المسألة ودرسها، فكانت نتيجة درسه أن عدد الألفاظ العربية ٦٦٩٩٤٠٠ لفظ لا يستعمل منها إلا ٥٦٢٠ لفظًا، والباقي — وهو ٦٦٥٣٧٨٠ لفظًا — مهمل، وقد قسمها من حيث عدد أحرفها على هذه الصورة:

عدد الألفاظ	المستعمل منها	المهمل
٧٥٠ الثنائي	٤٨٩	١٦١
١٩٦٥٠ الثلاثي	٤٢٦٩	١٥٣٨١
٣٣٤٠٠ الرباعي	٨٢٠	٣٠٢٥٨٠
٦٣٧٥٦٠٠ الخماسي	٤٢	٦٣٧٥٥٥٨
٦٦٩٩٤٠٠	٥٦٢٠	٦٦٩٣٧٨٠

ومن النظر إلى هذا الجدول، يتبيَّن لك أن الزبيدي عنى بعدد ألفاظ اللغة ما عناه الخليل، وإن كان قد جعل عددها نصف ما قاله ذاك فإنك تجد أكثرها مهملًا، فهو يريد بالمهمل الألفاظ التي يمكن أن تتركب من الأحرف الهجائية كما تقدم لا التي تركت واستخدمها الناس زمانًا ثم أهملت لسبب من الأسباب.

ولم يصل إلينا من كتاب العين إلا ما نقل عنه في كتب اللغة كالمزهر للسيوطي وكتاب النحو لسيبويه، ولم ينبغ نحوي ولا لغوي ولا أديب في عصر الخليل وما يليه إلا استفاد من كتابه، ولكن الثقات الباحثين مختلفون في حقيقة نسبته إليه، وفي صحة ما جاء فيه من الروايات والأقوال، من ذلك ما رواه ابن النديم في الفهرست عن ابن دريد قال: «وقع في البصرة كتاب العين سنة ثمانٍ وأربعين (ومائتين)، قدم به وراق من خراسان، وكان في ثمانية وأربعين جزءًا، فباعه بخمسين دينارًا، وكان قد سمع بهذا الكتاب أنه في خراسان بخزائن الطاهرية حتى قدم به هذا الوراق، وقيل: إن الخليل عمل كتاب العين وحج وخلف الكتاب بخراسان فوجه به إلى العراق من خزائن الطاهرية، ولم يرو هذا الكتاب عن الخليل ولا روي في شيء من الأخبار أنه عمل هذا البتة، وقيل: إن الليث من ولد نصر بن سيار صحب الخليل مدة يسيرة، وإن الخليل عمله له وأخذ طريقته، وعاجلت المنية الخليل فتممه الليث.»[٤٩]

وذكر السيوطي آراء القوم في أصله وحجج القادحين، فلتراجع في المزهر (٣٩ ج١ وما بعدها)، ولكن الغالب في سبب تلك الحملة على الخليل أنهم حسدوه لما أتاه من السبق إلى ذلك العمل الجليل — وكل سبَّاق محسود — فلا خلاف في فضله على الإطلاق، وهب أنه لم يتم الكتاب في حياته فله الفضل في تبويبه والشروع فيه.

وقد جاء في ذلك الكتاب على قواعد النحو وأكثرها على مذهب الكوفيين، مع أنه بصري، فخالف ما جاء في كتاب سيبويه مما رواه سيبويه عنه، وقد جعلوا هذا حجة للطعن في الكتاب، وإنه ليس للخليل، ويرى الأكثرون أنه له، وذلك لم يمنع انتقاده والاستدراك عليه، فألَّف في انتقاده جماعة منهم المفضل بن سلمة، وعبد الله بن محمد الكرماني، وابن دريد، وغيرهم، وقد اختصره أبو بكر الزبيدي المتوفى سنة ٣٧٩هـ اختصارًا لطيفًا وشاع مختصره، وأقبل عليه الناس وتحدثوا به فاستعملوه وفضلوه على الكتاب نفسه لكونه حذف ما أورده المؤلف من الشواهد المختلفة والحروف المصحفة والأبنية المختلة، وفضَّلوه أيضًا على سائر ما ألف على حروف المعجم من كتب اللغة يومئذ لأجل صغر حجمه، وألحق به بعضهم ما زاده أبو علي القالي في البارع على كتاب العين فكثرت الفائدة، على أن بعضهم انتقد على الزبيدي حذفه الشواهد.

وبالجملة فإن كتاب العين تحفة من تحف الأدب، وللخليل فضل كبير في وضعه، وللأسف أنه ضاع، وقد كان موجودًا إلى القرن الرابع عشر للميلاد، ولا يبعد أن يعثر الباحثون على نسخة منه في بعض المكاتب الخصوصية.

أما مختصره للزبيدي فمنه نسخة خطية في مكتبة برلين، وأخرى في الإسكوريال بإسبانيا، وكذلك في مدريد، وفي مكتبة كوبرلي بالآستانة.

وذكر له ابن النديم من المؤلفات أيضًا كتاب النغم، وكتاب العروض، وكتاب الشواهد، وكتاب النقط، والشكل وكتاب الإيقاع، وفي المكاتب الكبرى في أوروبا مما ينسب إلى الخليل:

(٢) كتاب في معنى الحروف في مكتبة ليدن ومكتبة برلين.

(٣) شرح حرف الخليل في مكتبة برلين قطعة منه.

(٤) جملة آلات العرب في مكتبة أيا صوفيا بالآستانة.

(٥) قطعة من كلام على أصل الفعل في مكتبة أكسفورد (بودليان).

وتجد ترجمته في ابن خلكان ١٧٢ ج١، وطبقات الأدباء ٥٤، والفهرست ٤٢، وابن خلدون ٤٨٢ ج١.

مُورَّج السَّدُوسي (توفي سنة ١٩٥هـ)

هو أبو فيد مؤرج بن عمرو السدوسي، كان من أكابر أهل اللغة، وأخذ عن أبي زيد الأنصاري، وصحب الخليل بن أحمد، وكان من كبار أصحابه، أصله من البادية قدم البصرة ولا معرفة له بالقياس في العربية، وأول ما تعلم ذلك في حلقة أبي زيد، وكان يحفظ ثلثي اللغة وكان شاعرًا، وصحب المأمون من العراق إلى خراسان، وسكن مرو مدة ثم قدم إلى نيسابور وأقام فيها وكتب عنه مشائخها.

وله من المؤلفات كتاب الأنواء، وكتاب غريب القرآن، وكتاب جماهير القبائل، وكتاب المعاني، وغيرها لم يصلنا منها شيء.

وتجد أخباره في ابن خلكان ١٣٠ ج٢، طبقات الأدباء ١٧٩.

النَّضْر بن شميل (توفي سنة ٢٠٣هـ)

هو أبو الحسن النضر بن شميل التميمي البصري، من تلامذة الخليل، أخذ عنه وعن فصحاء العرب كأبي خيرة الأعرابي، وأبي الدقيش، وأقام في البادية أربعين سنة في هذا

السبيل، وعنه أخذ أبو عبيد القاسم بن سلام الآتي ذكره، وبعد أن أقام في البصرة مدة ضاق به الرزق فنزح عنها إلى خراسان، فأصاب بها مالًا عظيمًا، وكانت إقامته في مرور وله مع المأمون في أثناء إقامته هناك حكايات ونوادر؛ لأنه كان يجالسه، وله عدة كتب ذهب خبرها إلا كتاب غريب الحديث أخذ الثعالبي عنه.

وأخباره في ابن خلكان ١٦١ ج٢، وطبقات الأدباء ١١٠، وفهرست ٥٢.

قُطْرب (توفي سنة ٢٠٦هـ)

هو أبو علي محمد بن المستنير البصري من الموالي، كان من كبار علماء اللغة، أخذ عن سيبويه وجماعة من أهل البصرة، وكان يذهب مذهب المعتزلة، وله عدة مؤلفات منها:

(١) كتاب الأضداد: مرتب على الأبجدية، منه نسخة خطية في مكتبة برلين.
(٢) ما خالف فيه الإنسان البهيمية: منه نسخة في مكتبة فينا.
(٣) كتاب الأزمنة: في المتحف البريطاني.
(٤) مثلث قطرب: هو منظومة في بضعة وستين بيتًا تحتوي على الألفاظ التي يختلف معناها باختلاف حركاتها — مثل: سِهام وسَهام وسهام — ولكل منها معنى، وهو أول من فعل ذلك، ومنه نسخ في مكاتب ليدن وباريس والإسكوريال والمكتبة الخديوية، وقد طبع في مابرج سنة ١٨٥٧ مع ترجمة لاتينية، وله شروح منها شرح إبراهيم اللخمي وغيره، ومن هذه الشروح نسخ في أكثر مكاتب أوروبا الكبرى.

ابن الأعرابي (المتوفى سنة ٢٣١هـ)

هو أبو عبد الله محمد بن زياد من موالي بني هاشم، وكان من أكابر أئمة اللغة بالكوفة، ولم يكن في الكوفيين أشبه برواية البصريين من روايته، وكان ربيبًا للمفضل الضبي وسمع منه الدواوين وصحَّحها، وكان أحفظ الناس للغات والأنساب، وطريقته طريقة الفقهاء والعلماء، وله من الكتب الباقية إلى الآن:

(١) كتاب أسماء البئر وصفاتها: منه نسخة في المكتبة الخديوية، وقد نشرته مجلة المقتبس (مجلد ٦ ج١) في سبع صفحات بتصحيح السيد محمود شكري الألوسي.
(٢) كتاب أسماء الخيل وأنسابها: منه نسخة خطية بين كتب الشنقيطي بالمكتبة الخديوية.

وأخباره في ابن خلكان ٤٩٢ ج١، وطبقات الأدباء ٢٠٧، والفهرست ٦٩.

(٤) الإنشاء والمنشئون

(٤-١) الإنشاء

الإنشاء من فنون الأدب، وقد تقدم تاريخه في الجاهلية وعصر الراشدين والأمويين، ورأيت أنه اختلف في هذه العصور باختلاف أحوالها من المدنية أو الجاهلية ومن الحضارة أو البداوة، وللعرب اقتدار عليه مثل اقتدارهم على الشعر، واللغة أكبر مساعد على ذلك.

كان الإنشاء في صدر الإسلام مقصورًا على مكاتبة الخلفاء وأمرائهم وقوَّادهم أو مع سواهم في طلب حرب أو صلح أو حث أو تحريض، فلما صار الإسلام دولة تفرعت الكتابة إلى أقسام اقتضاها تعدد مصالح الدولة، وتفرُّع احتياجاتها، فصارت الكتابة خمسة أنواع ذكرناها في الجزء الأول من تاريخ التمدن الإسلامي — وأهمها بالنظر إلى الإنشاء والبلاغة كتابة الرسائل، وصاحبها يسمى كاتب السر، وهو يد الخليفة ومستودع أسراره. وقد نبغت طائفة من كتاب الرسائل في الدولة الأموية آخرهم وأبلغهم عبد الحميد كما تقدم.[٥٠]

فلما صارت الدولة إلى العباسيين على أثر ذلك الانقلاب الذي تبدلت فيه رجال الدولة، وانتقل كرسي الخلافة وتنوعت أغراض الخلفاء — كما بيَّنَّا ذلك في مكانه — أصاب الإنشاء تغيير يلائم ذلك الانقلاب، وأهم ظواهره الاستبحار في المدنية والإغراق في الحضارة بالنظر إلى الدولة الأموية، وظهر أثر ذلك على أقلام المنشئين كما ظهر في قرائح الشعراء.

(٤-٢) أول ثمار الرخاء

فالإنشاء في صدر الدولة العباسية أخذ في النزوع إلى ثمار الرخاء والترف، وأهمها التطويل والإطراء، وزادهم الاختلاط بالفرس وما ترجم من آدابهم تأنقًا في العبارة نزوعًا عن أسلوب البلغاء في صدر الإسلام وفي العصر الأموي من تحدي الإيجاز والإعجاز، وأخذوا يضمِّنون رسائلهم الأشعار والأمثال، وخالط ذلك في العصر العباسي الأول شيء من الإطراء والتفخيم، وخصوصًا في ما كانوا يكتبونه إلى الأمراء يستعطفونهم أو يستعطونهم، كما فعل إبراهيم بن سيابة في رسالة كتبها إلى يحيى بن خالد بن برمك توخى فيها التسجيع فضلًا عن الإطراء، فقال في مطلعها:

> للأصيد الجواد، الواري الزناد، الماجد الأجداد، الوزير الفاضل، الأشم الباذل، اللباب الحلاحل من المستكين المستجير اليائس الضرير، فإني أحمد الله ذا العزة القدير إليك وإلى الصغير والكبير بالرحمة العامة والبركة التامة. أما بعد، فاغنم واسلم، واعلم إن كنت تعلم أنه من يرحم يُرحم ومن يَجِرْم يُحرم، ومن يحسن يغنم، ومن يصنع المعروف لا يعدم، وقد سبق إليَّ تغضبك عليَّ، واطِّراحك لي وغفلتك عني، بما لا أقوم له ولا أقعد، ولا أنتبه ولا أرقد، فلست بحي صحيح ولا بميت مستريح، فررت بعد الله منك إليك، وتحملت بك عليك …

إلى آخر الرسالة.

وهي كما ترى أشبه بما صار إليه الإنشاء في أواسط الدولة العباسية، ولولا ثقتنا بصدق راويها وهو الجاحظ،[٥١] مع قرب عهده من ذلك العصر، لشككنا في صحتها، فالظاهر أن ابن شيابة بالغ في تنميق عبارته حتى خرج عن الأسلوب المألوف في عصره، فأعظم الناس اقتداره، وعملوا على حفظ أقواله. وذكر الجاحظ أن البغداديين حتى عامتهم كانوا يحفظون هذه الرسالة في تلك الأيام، ولا يصح أن تعد مثالًا لأسلوب ذلك العصر، وإنما إمام الإنشاء فيه ابن المقفع وأسلوبه مشهور، وسنعود إلى ذلك.

وتنوعت أساليب الإنشاء ومذاهب المنشئين في الدولة العباسية بتنوع العلوم، فأصبح للفقه أسلوب وألفاظ وتراكيب، ومثل ذلك للجندي أو المحدث أو الفيلسوف أو الطبيب لتعود كل منهم مصطلحات علمه وفنه كما هو شأننا لهذا العهد، فإن للصحافي أسلوبًا خاصًّا، ومثله للمؤلف والروائي والطبيعي والمحامي وغيرهم، تظهر فيه صبغة مهنته. ولكن هذه الأساليب كانت — ولا تزال — تتشابه وتتقارب لاضطرار أصحابها إلى تحدي أساليب القرآن وألفاظ العرب العرباء.

(٤-٣) التوقيعات

وظل الميل إلى الإيجاز والإعجاز متغلبًا في نفوس الأدباء، ولا سيما في التوقيع، ويراد به ما يعلقه الخليفة على القصص أو الرقاع (العرضحالات)، وكان الخلفاء في صدر الإسلام هم الذين يوقعون بأنفسهم أو يأمرون كتابهم بتدوينه، والغالب في توقيعهم أن يكون اقتباسًا من آية أو حديثًا أو حكمة مشهورة أو من الشعر الحكمي، ومن أمثلة ذلك أن سعد بن أبي وقاص عامل العراق كتب إلى عمر بن الخطاب كتابًا يستأذنه فيه ببناء دار،

فوقع عمر في أسفل الكتاب: «ابنِ ما يكنُّك من الهواجر وأذى المطر.» ووقع أيضًا لعمرو بن العاص عامله على مصر جوابًا على كتاب كتبه إليه: «كن لرعيتك كما تحب أن يكون لك أميرك.» وتشكى قوم لعثمان بن عفان من مروان بن الحكم، وذكروا أنه أمر بوجء أعناقهم فوقع في ذلك الكتاب: «فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون.» وأرسله إليه.

وقس على ذلك توقيعات بني العباس؛ فقد وقع السفَّاح إلى قوم من أهل الأنبار شكوا إليه أن منازلهم أُخذت منهم، وأدخلت في بناء أمر به ولم يعطوا أثمانها فوقع: «هذا بناء أسس على غير تقوى.» وأمر بإعطائهم الأثمان، وشكا أهل الكوفة إلى أبي جعفر المنصور سوء معاملة عاملهم، فوقع على كتابهم: «كما تكونون يؤمَّر عليكم.» ووقع على قصة رجل شكا عيلة: «سل الله من رزقه.» وجاء من عامله على حمص كتاب فيه خطأ فوقع في أسفله: «استبدل بكتابك وإلا استبدل بك.» وكتب صاحب أرمينيا إلى المهدي يشكو سوء طاعة رعاياه فوقع في الكتاب: «خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين.» وشكا بعضهم إليه إهمال عامله على خراسان فوقع على شكواهم: «أنا ساهر وأنت نائم.» وأرسله إليه، ومن توقيعات هارون الرشيد إلى عامله في خراسان: «داو جرحك لا يتسع.» وإلى عامله على مصر: «احذر أن تخرب خزانتي وخزانة أخي يوسف، فيأتيك منه ما لا قبل لك به ومن الله أكثر منه.» وكتب ابن هشام إلى المأمون يتظلم من أمر فوقع على كتابه: «من علامة الشريف أن يظلم من فوقه ويظلمه من دونه، فأي الرجلين أنت؟»

ولم تكن التوقيعات خاصة بالخلفاء، فمن توقيعات الأمراء والوزراء توقيع جعفر البريكي لمحبوس: «ولكل أجل كتاب.» ووقع في كتاب جاءه في شكوى بعض عماله: «لقد كثر شاكوك وقل شاكروك فإما اعتدلت وإما اعتزلت.»

(٤-٤) الإنشاء المرسل أو أسلوب المؤلفين

هذا كله من إنشاء الرسائل في المخاطبات والمكاتبات، ولكن هناك ضربًا من الإنشاء نضج في العصر العباسي الأول، نعني الإنشاء المرسل في تأليف الكتب، أو كتابة المقالات الطويلة في الوصف أو الموعظة أو الفلسفة — وهو غير أسلوب المراسلات، فإن هذا أقرب إلى الخطابة أو الشعر منه إلى الأسلوب المتناسق الذي يقتضيه الاسترسال في وصف موضوع طويل متسلسل.

ولم ينضج الأسلوب المرسل إلا في العصر العباسي الأول؛ لاضطرار الناس إلى التأليف من عند أنفسهم بأن يدوِّنوا أفكارهم، أو ينقلوا أفكار سواهم من اللغات الأخرى، وأشهر من فعل ذلك في العصر المذكور عبد الله بن المقفع في نقل كتاب كليلة ودمنة وغيره من الفارسية القديمة (الفهلوية) إلى العربية.

وكان ابن المقفع عريقًا في الفارسية عالمًا بآدابها متمكِّنًا من أساليبها؛ لأنها لغته ولغة آبائه، وكان يعرف اللغة اليونانية جيِّدًا، وقد نشأ في البصرة في النصف الأول من القرن الثاني للهجرة، وهي حافلة بالأدباء والشعراء؛ فبرع في اللغة العربية وآدابها، وكان سليم الذوق ذا قريحة إنشائية. ولما نقل كتاب كليلة ودمنة من الفارسية إلى العربية جاءت عبارته شاملة للبلاغة والسهولة، وقد تحدَّاها من جاء بعده؛ لأنه أقدم من حُفِظ إنشاؤه في المواضيع الأدبية باللغة العربية.

وكتاب كليلة ودمنة أقدم ما وصل إلينا من الإنشاء المرسل من قلم رجل واحد هو من علماء الفرس، وقد نقل الكتاب عن لغة الفرس. ونظرًا لما يمتاز به الكتاب المذكور من السهولة والرشاقة عن سائر ما كتب في عصره أو ما بعده من كتب الأدب يغلب على ظننا أنه اكتسب ذلك من تأثير أساليب اللغات الأخرى، التي كان يعرفها ابن المقفع مع اقتدار خاص فيه على مثل ذلك الأسلوب، وقد قلَّ من جاء بمثله بعده، ولم يأت أحد بأحسن منه في بابه مع ما بلغ إليه العلم من الرقي في العصر العباسي، وما نبغ فيه من علية الكتَّاب المشاهير؛ مما يدلك على أن الإنشاء قريحة خاصة مثل قريحة الشعر.

ويقسم المنشئون في العصر العباسي الأول إلى طبقتين: الأولى منشئو الرسائل، والثانية مؤلفو الكتب.

منشئو الرسائل

والمنشئون للرسائل كثيرون مثل كثرة الشعراء للأسباب التي قدمناها، ومنهم طائفة حسنة من كبار الرجال حتى الخلفاء والأمراء والوزراء والشعراء، واشتهر بإنشاء الرسائل في هذا العصر من الأمراء والوزراء ونحوهم إبراهيم بن المهدي أخو الرشيد، وله رسائل وشعر جيد، ومنهم أبو دلف والفتح بن خاقان وآل طاهر، وخصوصًا طاهر بن الحسين.

طاهر بن الحسين

وهو رئيس هذه الأسرة، توفي سنة ٢٠٧هـ، وكان من نوابغ المنشئين، وله مجموع مراسلات، ضاع خبرها إلا رسالة بليغة كتبها لابنه عبد الله، لما ولاه المأمون الرقة ومصر وما بينهما، أوصاه فيها بجميع ما يحتاج إليه في دولته وسلطانه من الآداب الدينية والخلقية والسياسية ومكارم الأخلاق. وهي منشورة في مقدمة ابن خلدون بباب: «أن العمران لا بد له من سياسة ينتظم بها أمره» تدخل في ثماني صفحات.

وتجد ترجمة طاهر في ابن خلكان ٢٣٥ ج١.

عمرو بن مسعدة

ومنهم عمرو بن مسعدة بن سعد بن صول، المتوفى سنة ٢١٧هـ، وزير المأمون. كان كاتبًا بليغًا جزل العبارة وجيزها، سديد المقاصد والمعاني. وكان يوقع بين يدي جعفر بن يحيى البرمكي في أيام الرشيد. وقد أثرى في خدمة المأمون حتى قيل إنه خلف بعد موته ٨٠٠٠٠٠٠٠ درهم، فقيل ذلك للمأمون، فقال: «هذا قليل لمن اتصل بنا وطالت خدمته لنا، فبارك الله لولده فيما خلف، وأحسن لهم النظر فيما ترك.»

وتجد مثالًا من إنشائه في ترجمته في ابن خلكان ٣٩٠ ج١.

ومنهم ابن الليث كاتب يحيى بن خالد. وذكر ابن النديم أسماء جماعة خلفوا رسائل مجموعة في كتاب منهم: غيلان جمعت رسائله في ألف ورقة، وخالد بن ربيعة الأفريقي نشأ في الدواوين ورسائله ٢٠٠ ورقة. وغيرهم كثيرون لا فائدة من ذكرهم؛ لأن آثارهم ضاعت، ثم إن كتاب ديوان الرسائل أكثرهم في صدر الدولة العباسية من المنشئين البلغاء، كابن عبد الملك الزيات الوزير، وأبي علي البصير، وأحمد بن يوسف كاتب المأمون، وحميد بن مهران كاتب البرامكة، وابن يزداد وزير المأمون، وموسى بن عبد الملك، وميمون بن إبراهيم، وغيرهم.

الكتاب المؤلفون

عبد الله بن المقفع (توفي سنة ١٤٣هـ)

هو إمام هذه الطبقة، وقد تقدم ذكره، وكان في بدء الأمر مجوسيًّا؛ فأسلم على يد عيسى بن علي عم السفاح، ثم اختص بالمنصور، وكتب له حتى قتل وهو في مقتبل العمر لم يتجاوز ٣٦ سنة، لكنه خلف آثارًا حفظت ذكره قرونًا ولا تزال … أهمها:

كتاب كليلة ودمنة

هو كتاب في إصلاح الأخلاق وتهذيب النفوس، وضعه فيلسوف هندي اسمه بيدبا منذ نيف وعشرين قرنًا لملك من ملوك الهند اسمه دبشليم، ذكروا أنه تولى الهند بعد فتح الإسكندرية وطغى وبغى؛ فأراد بيدبا إصلاحه وتدريبه، فألف هذا الكتاب، وجعل النصح فيه على ألسنة البهائم والطيور على عادة الهنود البراهمة في عصورهم القديمة … فإنهم كانوا يروون الحكمة على ألسنة الحيوانات لاعتقادهم بتناسخ الأرواح. والمظنون أن معظم ما يتناقله الناس من أمثال هذه الأقاصيص أصله من الهند. وقد صنف في هذا الموضوع وعلى هذه الكيفية غير واحد من الحكماء. ويقال إن بيدبا أول فاتح لهذا الباب، وكل من صنف بعده في نوادر الحكايات مقتبس من ضيائه.

وترجع موضوعات النصح في هذا الكتاب إلى ما يحتاج الناس إليه في معاملاتهم، كوجوب الابتعاد عن سماع كلام الساعي والنمام ووخامة عاقبة الأشرار ومنافع الأصحاب، وعدم جواز الأمن من كيد العدو، ومضار الإهمال والغفلة، وآفة التعجيل، وفائدة الحزم وعدم الاعتماد على أرباب الحقد، ونحو ذلك مما يهذب النفوس ويرقي العواطف في حكايات، يتفرع بعضها عن بعض.

وقد كتب أولًا باللغة الهندية السنسكريتية في ١٢ بابًا، ونقل إلى لغة التيبت، فاللغة السريانية، ثم إلى الفهلوية؛ أي الفارسية القديمة، وعنها نقل ابن المقفع الترجمة العربية وصدرها بمقدمة سماها «عرض الكتاب»، وصف بها الكتاب، وأفاض في التحريض على مطالعته. فلما اطلع العرب على فوائده أعجبوا به، وأخذوا يتدارسونه ويتناقلونه، وكأن علماء اللغة وأدباءها حسدوا ابن المقفع على سبقه في ترجمته؛ فأقدم بعضهم على نقله ثانية، واشتغل غيره بنظمه شعرًا تسهيلًا لحفظه، وتصدى آخرون لمعارضته كما سيجيء.

على أن الترجمات ذهبت كلها إلا ترجمة ابن المقفع التي هي بين أيدينا، وقد تعدلت بتوالي الأزمان بين تنقيح وتصدير وتذييل، فبلغت أبوابها ٢١ بابًا بعضها هندي الأصل والآخر فارسي والآخر عربي.

فالأبواب الهندية ١٢، وهي: باب الأسد والثور، الحمامة المطوقة، البوم والغربان، القرد والغيلم، الناسك وابن عرس، الجرذ والسنور، الملك والطائر فنزة، الأسد وابن آوى، اللبؤة وبلاذ وأبرخت، السائح والصائغ، ابن الملك وأصحابه.

والفارسية ثلاثة: مقدمة بروزيه، وباب بعثة بروزيه، وباب ملك الجرذان. وهناك ستة أبواب لم تكن معروفة قبل الترجمة العربية نعني مقدمة الكتاب على لسان بهنود بن سحوان المعروف بعلي بن الشاه الفارسي، وباب عرض الكتاب لابن المقفع، وباب الفحص عن أمر دمنة، وباب الناسك والضيف، وباب مالك الحزين والبطة، وباب الحمامة والثعلب ومالك الحزين. وبعض هذه الفصول لا يوجد الآن في النسخ المطبوعة من الترجمة العربية.

ثم فقد الأصل الهندي والترجمة الفهلوية ولم يبقَ غير العربية، وعنها أخذت الأمم هذا الكتاب ونقلته إلى ألسنتها، فنقل إلى اللغة السريانية مرة ثانية وإلى اليونانية والإيطالية والفارسية الحديثة والتركية والعبرانية واللاتينية والإسبانية والملقية والإنكليزية والروسية، ونقل عن بعض هذه التراجم إلى لغات أخرى، وقد عقدنا لتاريخ هذا الكتاب فصلًا ضافيًا في الهلال سنة ١٤ ج٧.

طبع كتاب كليلة ودمنة في العربية مرارًا من أواخر القرن الثامن عشر إلى الآن، وبعض طبعاته مزدانة بالرسوم، وقد ضبطه بالشكل الكامل المرحوم الشيخ خليل اليازجي، وهو لا يزال إلى الآن من خيرة الكتب في الإنشاء، وقد شغف العرب بمعانيه فنقلوها إلى الشعر.

نظم كليلة ودمنة

أقدم من نظم هذا الكتاب في العربية أبو سهل الفضل بن نوبخت الفارسي من خدم المنصور العباسي وابنه المهدي في صدر الدولة العباسية. وكان له الفضل في خزانة الحكمة بأيام الرشيد، وله عدة كتب نقلها من الفارسية إلى العربية ذكرها صاحب الفهرست (صفحة ٢٧٤) ليس بينها نظم كليلة ودمنة، ولكن كشف الظنون ذكر ذلك في عرض كلامه عن هذا الكتاب فقال: «نقله أيضًا عبد الله بن هلال الأهوازي ليحي بن

خالد البرمكي في خلافة المهدي سنة ١٦٥هـ، ونظمه أبو سهل بن نوبخت الحكيم ليحيى بن خالد وزير المهدي والرشيد، فلما وقف عليه أجازه بألف دينار.» وقد ذكرنا في ترجمة أبان اللاحقي الشاعر أنه نظم كليلة ودمنة شعرًا لم يبق منه إلا بيتان ذكرناهما سابقًا.

ثم نظمه علي بن داود كاتب زبيدة بنت جعفر زوج الرشيد، ونظم بعضه بشر بن المعتمد، وكل هذه المنظومات ضاعت.

ثم نظمه ابن الهبارية المتوفى سنة ٥٠٤هـ في كتاب سماه «كتاب نتائج الفطنة في نظلم كليلة ودمنة، كان منه نسخ مشتتة في الآستانة ولندن والهند، فنشرت نسخة الهند في بمباي سنة ١٣٠٤هـ على الحجر، ثم طبع الكتاب طبعة أخرى عن نسخة أخرى في بعبدا (لبنان) سنة ١٩٠١ بعناية الخوري نعمة الله الأسمر، وقد نقَّحها ونظم منها قطعًا لم ينظمها ابن الهبارية، منها باب الحمامة والثعلب ومالك الحزين.[٥٢]

ثم نظمه ابن مماتي المصري المتوفى سنة ٦٠٦هـ وضاع نظمه، وجاء بعده عبد المؤمن بن الحسن من أهل القرن السابع للهجرة فنظمه أو شيئًا منه أو كتابًا على مثاله سماه «درر الحكم في أمثال الهنود والعجم، منها نسخ خطية في فينا ومونيخ، ثم نظمه جلال الدين النقاش من أهل القرن التاسع، ومن نظمه نسخة في مكتبة الآباء اليسوعيين في بيروت وأخرى في المتحف البريطاني.

وعارض كليلة ودمنة سهل بن هارون الكاتب الآتي ذكره، فنظم كتابًا على مثاله سماه «كتاب ثعلة وعفرة»، وقد ضاع،[٥٣] ومن مؤلفات ابن المقفع المنقولة عن الفارسية أيضًا:

سائر مؤلفاته

كتاب الأدب الصغير: في الأخلاق والمواعظ والفلسفة والاجتماع، طبعته جمعية العروة الوثقى في الإسكندرية سنة ١٩١١ مضبوطًا بالشكل الكامل بتحقيق أحمد زكي باشا كاتب أسرار مجلس النظار، وقد صدره بمقدمة انتقادية في أسلوب الكتاب ونسبته إلى كليلة ودمنة.

كتاب الدرة اليتيمة: ويسمى أيضًا كتاب الأدب الكبير: هي رسائل في النصح والإرشاد. قال ابن المقفع في الغرض منها يخاطب القارئ: «وأنا واعظك في أشياء من الأخلاق اللطيفة والأمور الغامضة التي لو حنكتك سن كنت خليقًا أن تعلمها وإن لم تخبر عنها، ولكن أحببت أن أقدم إليك فيها قولًا لتروض نفسك على محاسنها قبل أن تجري

على عادة مساويها؛ فإن الإنسان قد تبتدر إليه شبيبته المساوي، وقد يغلب عليه ما يبدر إليه منها.»

وقد طبعت الدرة اليتيمة مرارًا في نحو ٥٠ صفحة منها طبعة بيروت سنة ١٨٩٧ مع مقدمة وشروح للأمير شكيب أسلان، وهي تحت الطبع الآن مضبوطة بالشكل الكامل باسم «الأدب الكبير» بتحقيق زكي باشا، ولها تتمة لابن العربي سماها: «عظة الألباب وذخيرة الاكتساب» منها نسخة في مكتبة باريس.

رسالة في الأخلاق: منها نسخة خطية في مكتبة نور عثمانية بالآستانة.

وله كتب أخرى أدبية وأخلاقية نقلها عن الفارسية، منها كتاب التاج في سيرة أنوشروان، وكتاب سير ملوك العجم لم نقف عليها. لكن منها نتفًا نقلها ابن قتيبة في كتاب عيون الأخبار، وتجد أخبار ابن المقفع في ابن خلكان ١٤٩ ج١، وتراجم الحكماء لابن القفطي ١٤٨، والفهرست ١١٨.

سهل بن هارون

هو سهل بن هارون بن رامنوي الدستميساني، فارسي الأصل، انتقل إلى البصرة ثم أقام في بغداد، وكان متحققًا في خدمة المأمون وصاحب خزانة الحكمة له، وكان حكيمًا فصيحًا شاعرًا شعوبي المذهب شديد العصبية على العرب، وله في ذلك كتب كثيرة ورسائل في البخل. وكان الجاحظ يفضله ويصف براعته وفصاحته ويحكي عنه، وله من الكتب ديوان الرسائل، وكتاب ثعلة وعفرة المتقدم ذكره، وكتاب الهذلية المخزومي، وكتاب النمر والثعلب، وغيرها كثير لم نقف عليها، وأخباره في الفهرست ١٢٠، والدميري ٣١٣ ج١.

ومنهم علي بن عبيد الريحاني له اختصاص بالمأمون، وكان يُرْمَى بالزندقة، وذكر له صاحب الفهرست (صفحة ١١٩) نحو خمسين مؤلفًا ضاعت كلها، وللمستشرق الروسي أينوسترانسيف كلام عن مؤلفاته في كتابه عن تأثير آداب الفرس في اللغة العربية طبع في بطرسبرج سنة ١٩٠٩.

(٤-٥) الموسيقى أو الغناء

الموسيقى من الفنون الجميلة مثل الشعر، وفي العرب استعداد لها فطري لحساسة نفوسهم وشدة تأثرهم، وكان لهم في جاهليتهم ألحان توافق خشونتهم، فلما ظهر الإسلام واختلطوا بالروم والفرس اقتبسوا الموسيقى عن تلك الأمم قبل سائر العلوم الدخيلة؛ لأن اقتباسها لا يحتاج إلى نقل أو ترجمة، وأول من فعل ذلك عبد مكي اسمه سعيد بن مسجح كان حسن الصوت مغرمًا بالموسيقى، وكان في مكة عند حصار الأمويين لها على عهد عبد الله بن الزبير في الثلث الأخير من القرن الأول للهجرة، واستخدم ابن الزبير رجالًا من الفرس في ترميم الكعبة، فسمع ابن مسجح بعضهم يغني بالفارسية، فطرب والتقط النغم منه، ثم رحل إلى الشام وفارس، وأخذ الألحان الرومية والفارسية، وألقى منها ما استقبحه من النبرات والنغم مما لا يألفه الذوق العربي، وغنى على هذا المذهب، وهو أول من فعل ذلك، وأخذ عنه من جاء بعده من مغني المسلمين فنبغ منهم جماعة كبيرة، وكان الغناء يزداد إتقانًا ويزداد نبوغ المغنين كلما قربت الدولة من الترف والقصف؛ ولذلك كثروا في أواخر الدولة الأموية وأواسط الدولة العباسية، ومن أشهر المغنين ابن سريج والغريض ومعبد وحكم الوادي وفليح بن أبي العوراء وسياط ونشيط وعمر الوادي وإبراهيم الموصلي وابنه إسحاق وغيرهم، ومن المغنيات جميلة وحبابه وسلامة وعقيلة وغيرهن.

ولما اشتغل المسلمون في نقل العلوم الدخيلة كان من جملتها كتب الموسيقى لليونان والهند، فتناولها المسلمون ودرسوها، وأصبحت الموسيقى عندهم علمًا بأصولٍ، وقد جمعوا بين ألحان اليونان والهنود والفرس والعرب، فألفوا من ذلك علمًا خاصًّا بالتمدن الإسلامي بلغ درجة حسنة من الإتقان، فألفوا فيه المؤلفات المسهبة فضلًا عما استنبطوه من الألحان أو اخترعوه من الآلات.

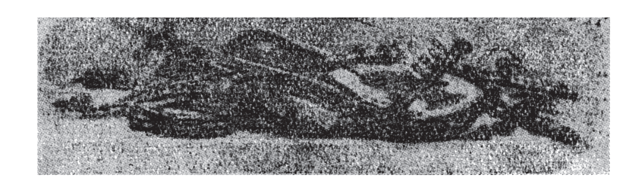
ففي العصر العباسي الأول صار للعرب مذاهب في الغناء خاصة بهم، وأصبح الغناء علمًا قائمًا بنفسه؛ فعمدوا إلى تدوينه، وأول من دوَّنه يونس بن سليمان الكاتب أصله فارسي، وصار مولى لعمرو بن الزبير، نشأ في المدينة، وكان أبوه فقيهًا أسلمه إلى الديوان فكان من كتابه، وأخذ الغناء عن معبد، ولم يكن في أصحاب معبد أحذق ولا أقوم منه، وله غناء حسن، فوضع كتابًا في الأغاني، وهو أول من فعل ذلك،[٥٤] وقد ضاع كتابه، وللخليل بن أحمد كتاب في الموسيقى زَمَّ فيه أصناف النغم وحصر به أنواع اللحون وحدد ذلك كله ولخصه، وذكر مبالغ أقسامه ونهايات أعداده وقد ضاع هذا أيضًا.

وممن اشتغل بفن الموسيقى يحيى بن أبي منصور الموصلي؛ فألف كتابًا في الأغاني على الحروف وآخر في العود والملاهي لم نقف على خبرهما، ووضع المغنون كتبًا ضبط كل منهم في الألحان التي حدثت فضلًا عن الأصوات القديمة؛ لأن المغني كان إذا برع واشتهر استنبط ألحانًا من عند نفسه حتى انتهى ذلك إلى إسحاق بن إبراهيم الموصلي، فأصبح هو إمام المغنين وينسبون إليه كتابًا في الأغاني كبيرًا يشك الناقدون في نسبته إليه، وألف يحيى بن مرزوق المكي كتابًا فيه ١٢٠٠٠ صوت أهداه إلى محمد بن عبد الله بن طاهر؛ فوصله بثلاثين ألف درهم، وشاع هذا الكتاب، لكن إسحاق الموصلي صححه.

الغناء القديم والغناء الحديث

ولما زها العصر العباسي الأول في زمن الرشيد والمأمون، وأطلقت الألسنة والأفكار، أخذ المغنون يفكِّرون في تعديل الألحان واستنباط أسلوب جديد. وأول من تجرَّأ على ذلك إبراهيم المهدي أخو الرشيد — وكان من الطامعين في الخلافة، فلما استتب الأمر لابن أخيه المأمون انصرف هو إلى الغناء كما انصرف خالد بن يزيد الأموي إلى الكيمياء لما يئس من الخلافة. وكان إبراهيم من أعلم الناس بالنغم والوتر والإيقاعات، وأطبعهم في الغناء وأحسنهم صوتًا، وهو يعد من الطبقة الأولى في عصره، لكنه كان مقصِّرًا عن أداء الغناء القديم على طريقة الموصلي، فكان يحذف نغم الأغاني الكثيرة العمل حذفًا شديدًا أو يخففها على قدر طاقته، وإنما تجرأ على ذلك بما ناله من المنزلة عند الناس، فكان إذا عوتب قال: «أنا ملك أغني كما أشتهي.»، وصارت له طريقة يسمونها الغناء الحديث، وسموا طريقة إسحاق الطريقة القديمة، وانقسم المغنون في ذلك إلى قسمين، وأصحاب فن الغناء يعدون عمل إبراهيم بن المهدي إفسادًا في هذه الصناعة؛ لأنهم يفضلون القديم فأخذوا في الرجوع إليه.

على أن ذلك بعثهم على إعمال الفكرة والتعمق بهذا الفن، وانتهى ذلك إلى عبيد الله بن عبد الله بن طاهر من أهل العصر العباسي الثاني، وكان من كبار العلماء المفكرين، ولا سيما في علوم الأوائل والموسيقى والهندسة، فوضع كتابًا في النغم وعلل الأغاني سماه «الآداب الرفيعة» نال شهرة واسعة، ونأسف لضياعه مثل ضياع أكثر ما وضعه العرب في الموسيقى أو الغناء قبل كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني، وسيأتي ذكره.[٥٥]



شكل ١: الآلات الموسيقية العربية.

هوامش

(١) طبقات الأدباء ١١٧.
(٢) معجم الأدباء ١٧ ج١.
(٣) العمدة ١١ ج١.
(٤) طبقات الأدباء ٤٢.
(٥) الأغاني ٧٦ ج١٨.
(٦) طبقات الأدباء ٨٧.
(٧) المزهر ٢١١ ج٢.
(٨) طبقات الأدباء ١٤٥.
(٩) طبقات الأدباء ١٦٢.
(١٠) ابن خلدون ٥٠٩ ج١.
(١١) طبقات الأدباء ١٥٧.
(١٢) طبقات الأدباء ١٦٦.
(١٣) الفهرست ٤٧.
(١٤) ابن خلكان ٤٢٧ ج١، والمزهر ١٧١ ج٢.
(١٥) فوات الوفيات ١٦٤ ج١.
(١٦) طبقات الأدباء ٣٣.
(١٧) المزهر ٢٠٣ ج٢.
(١٨) العقد الفريد ٤٧–٩٣ ج٣.
(١٩) الأغاني ٢٨ ج٨.

(٢٠) المشرق ٦٣٨ سنة ١٠.

(٢١) الأغاني ٦٨ ج٥.

(٢٢) هذان الكتابان طُبِعَا معًا باسم الكنز اللغوي.

(٢٣) طبقات الأدباء ١٧٥.

(٢٤) المزهر ٧٥ ج١.

(٢٥) ابن خلكان ٢٠٨ ج١.

(٢٦) الفهرست ٥٤.

(٢٧) الأغاني ١٦٩ ج٥.

(٢٨) الأغاني ١٧٤ ج٥.

(٢٩) طبقات الأدباء ٧٠.

(٣٠) نبهنا إلى وجودها هناك مصطفى أفندي الرافعي الشاعر، فأشكره على صدق رغبته في خدمة آداب اللغة.

(٣١) المزهر ٨٧ ج١.

(٣٢) الأغاني ٨ ج١٣.

(٣٣) الأغاني ٥ ج١٣.

(٣٤) الأغاني ٥٨ ج١٩.

(٣٥) الأغاني ١٧٢ ج٥.

(٣٦) المزهر ٢٠٣ ج٢.

(٣٧) المزهر ٢١٠ ج٢.

(٣٨) المزهر ٨٥ ج١.

(٣٩) المزهر ٧١ ج١.

(٤٠) تاريخ التمدن الإسلامي ٧٩ ج٣.

(٤١) طبقات الأدباء ١٦.

(٤٢) طبقات الأدباء ٢٨.

(٤٣) المزهر ٥٨ ج١.

(٤٤) المزهر ٢٠٢ ج٢.

(٤٥) طبقات الأدباء ١٣١، وابن خلكان ٢٢٨ ج٢.

(٤٦) كتاب النخل والكرم طبعة الأب شيخو.

(٤٧) William's Sanskrit Grammar 15.

(٤٨) طبقات الأدباء ٢٦٠.

(٤٩) الفهرست ٤٢.

(٥٠) الجزء الأول ٣١٤.

(٥١) البيان والتبيين ١١٤ ج٢.

(٥٢) المشرق ٩٨١ سنة ٤.

(٥٣) الفهرست ١٢٠ والبيان ٢٤ ج١

(٥٤) الأغاني ١١٤ ج٤.

(٥٥) راجع تاريخ الغناء في الجاهلية والإسلام في تاريخ التمدن الإسلامي ١٩٧ ج٣ و٣٢ ج٥.

العلوم الإسلامية الشرعية

(١) الفقه

في هذا العصر ضبط الفقه ودونت أحكامه بعد أن أفضت الخلافة إلى بني العباس. وكان أئمة الفقه في المدينة فأراد المنصور تصغير أمر العرب وإعظام الفرس؛ لأنهم أنصارهم وأهل دولتهم، فكان من جملة مساعيه في ذلك تحويل أنظار المسلمين عن الحرمين فبنى بناءً سمَّاه القبة الخضراء حجًّا للناس وقطع الميرة عن المدينة،[١] وفقيه المدينة يومئذ الإمام مالك الشهير، فاستفتاه أهلها في أمر المنصور فأفتى بخلع بيعته؛ فخلعوها وبايعوا محمد بن عبد الله من آل علي، وعظم أمر محمد هذا وحاربه المنصور ولم يتغلَّب عليه إلا بعد العناء الشديد، فرجع أهل المدينة إلى بيعة المنصور قهرًا، وظل مالك مع ذلك ينكر حق البيعة لبني العباس، فعلم أمير المدينة يومئذ وهو جعفر بن سليمان عم المنصور بذلك فغضب، ودعا بمالك وجرده من ثيابه، وضربه بالسياط، وخلع كتفه.[٢]

(١-١) الرأي والقياس

وكانت علوم القرآن قد انتشرت في العراق وفارس، ونبغ من أبنائها من درس الفقه والفتيا، ولكنهم ما زالوا عيالًا فيهما على أهل المدينة؛ لأنهم أوثق الناس بحفظ الحديث وقراءة القرآن. وكان الحديث قليلًا في العراق على الخصوص، والمسلمون غير العرب هناك أكثرهم من الفرس وهم أهل تمدن وعلم، فعمدوا إلى استخدام القياس العقلي في استخراج أحكام الفقه من القرآن والحديث، فخالفوا بذلك أهل المدينة؛ لأنهم كانوا شديدي التمسك بالتقليد، فكان من جملة مساعي المنصور في تصغير أمر المدينة وفقهائها — وخصوصًا مالك بعد أن أفتى بخلع بيعته — أنه نصر فقهاء العراق القائلين بالقياس، وكان كبيرهم

يومئذ أبو حنيفة النعمان في الكوفة، فاستقدمه إلى بغداد، وأكرمه وعزز مذهبه، وكان أبو حنيفة لا يحب العرب ولا العربية، حتى إنه لم يكن يحسب الإعراب ولا يبالي به؛[٣] ولذلك كان الربيع حاجب المنصور يقاومه؛ لأن الربيع ينتسب إلى العرب، وكان يكره الفرس، وابنه الفضل هو الذي سعى في قتل البرامكة.

فلما نصر المنصور أبا حنيفة وأصحابه — وهم المعروفون بأهل الرأي أو القياس — ازداد مالك تمسكًا برأيه، وتبعه فقهاء الحجاز وهم أهل الحديث، وانقسم الفقهاء كافة إلى قسمين أهل الحديث وأهل الرأي، وزعيم الأول مالك وأنصاره من أهل الحجاز وأصحاب الشافعي وأصحاب سفيان الثوري وأصحاب أحمد بن حنبل وغيرهم من أهل التقليد، وعرفوا بأصحاب الحديث؛ لأن عنايتهم مبذولة في تحصيل الأحاديث ونقل الأخبار وبناء الأحكام على النصوص، ولا يرجعون إلى القياس الجلي أو الخفي ما وجدوا خبرًا أو أثرًا، ويدلك على شدة تمسكهم بذلك قول الشافعي: «إذا وجدتم لي مذهبًا ووجدتم خبرًا على خلاف مذهبي، فاعلموا أن مذهبي ذلك الخبر.»

وزعيم أصحاب الرأي أبو حنيفة، وأصحابه فقهاء العراق، ومنهم محمد بن الحسن الشيباني، وأبو يوسف القاضي، وزفر بن الهذيل المتوفى سنة ١٥٨، واللؤلؤي، وابن سماعة المتوفى سنة ٢٣٣هـ، وأبو مطيع البلخي، وعافية القاضي وغيرهم، وقد سموا أهل الرأي؛ لأن عنايتهم بتحصيل وجه من القياس والمعنى المستنبط من الأحكام وبناء الحوادث عليها، وربما يقدمون القياس الجلي على آحاد الأخبار.[٤]

وجاء بعد مالك من أصحاب مذهبه محمد بن إدريس المطلبي الشافعي، فرحل إلى العراق، وخالط أصحاب أبي حنيفة، وأخذ عنهم، ومزج طريقة أهل الحجاز بطريقة أهل العراق، واختص بمذهب خالف فيه مالكًا في كثير من مذهبه، ثم جاء بعده أحمد بن حنبل، وكان من علية المحدثين، وقرأ أصحابه على أصحاب الإمام أبي حنيفة مع وفور بضاعتهم من الحديث، فاختصوا بمذهب آخر. ووقف التقليد في الأمصار عند هؤلاء الأربعة، وتولدت منهم مذاهب الإسلام الأربعة: الحنفي، والمالكي، والشافعي، والحنبلي.

وإليك خلاصة تراجمهم حسب سني وفاتهم مع ما خلَّفوه من الكتب.

(١-٢) الأئمة الأربعة

أبو حَنيفة النُّعمان (توفي سنة ١٥٠هـ)

هو النعمان بن ثابت مولى بني تيم من أهل الكوفة، ولد سنة ٨٠هـ، وكان خزَّازًا يبيع الخز، وكان عالمًا عاملًا زاهدًا عابدًا كثير الخشوع دائم التضرع، فاتصل خبره بالخليفة أبي جعفر المنصور؛ فبعث إليه، فلما جاءه أراد أن يوليه القضاء فحلف أنه لا يفعل، وقال: «لن أصلح إلى قضاء.» وكان حسن الوجه شديد الكرم حسن المواساة لإخوانه، وكان ربعة في الرجال، وقيل: كان طويلًا تعلوه سمرة، ومن أحسن الناس منطقًا، وأحلاهم نغمة، وكان قوي الحجة حتى قال عنه الإمام مالك: «إنه رجل لو كلمته في هذه السارية أن يجعلها ذهبًا لقام بحجته.» وكان طلق اللسان جهوري الصوت، إذا سألته عن الفقه تفجر وسال كالوداي وسمعت له دويًّا وجهارةً.

وهو الذي بوَّب الفقه وفرع له فروعًا وعمدته فيما قاله القياس، وكان بعيدًا عن الغيبة لا يذكر أحدًا بسوء ولو كان عدوًّا له. وكان واسع العلم في كل العلوم الإسلامية إلى ذلك العهد، إلا أنهم عابوه بالعربية، وكان مذهبه في النحو كوفيًّا؛ لأنه من أهل الكوفة، وتوفي في السجن. وذكر المسعودي أنه مات وهو ساجد في صلاته، ومن مؤلفاته الباقية:

(١) الفقه الأكبر: منه نسخ خطية في أكثر مكاتب أوروبا، وفي المكتبة الخديوية، وقد طبع في لكناو الهند مع ترجمة هندستانية، وهو من قبيل أصول الدين، وفيه دفاع ضد المرجئة، وله شروح ومختصرات في المكتبة الخديوية وغيرها. طبع بمصر وعليه شرح ملا علي القاري.

(٢) مسند أبي حنيفة: جمعه تلامذته، ومنه نسخ خطية عديدة بالمكتبة الخديوية.

(٣) وصيته لأصحابه: في الأصول، منها نسخ خطية في غوطا وباريس، وعليها شروح في مكاتب غوطا وأيا صوفيا ونور عثمانية والمكتبة الخديوية والإسكوريال.

(٤) وصيته لابنه: منها نسخة في باريس.

(٥) المخارج في الحيل: في الفقه. رواها تلميذه أبو يوسف، منها نسخة خطية في المكتبة الخديوية.

تجد أخباره في ابن خلكان ١٦٣ ج٢، والفهرست ٢٠١ وغيرهما.

مالك بن أنس (توفي سنة ١٧٩هـ)

هو أبو عبد الله مالك بن أنس الأصبحي إمام دار الهجرة وصاحب المذهب المالكي، ولد سنة ٩٥هـ، أخذ الفقه عن ربيعة الرأي فقيه أهل المدينة المتوفى سنة ١٣٦هـ بالهاشمية، وكان مالك بن أنس ورعًا تقيًّا إذا أراد أن يحدث توضَّأ وجلس على صدر فراشه وسرح لحيته، وتمكن في جلوسه بوقار وهيبة ثم حدث، وكان يأتي المسجد ويشهد الصلوات والجمعة والجنائز ويعود المرضى ويقضي الحقوق، وهناك يجتمع إليه أصحابه، ويأخذون عنه الفقه والفتوى، وهم الذين نشروا مذهبه وكتبوا فيه، وعنه أخذ الإمام الشافعي. وكان مالك بن أنس شديد البياض مع ميل إلى الشقرة طويلًا عظيم الهامة أصلع يلبس الثياب العدنية الجياد، ويكره حلق الشارب ويعيبه. وله من الكتب:

(١) كتاب الموطأ: أساس المذهب المالكي، وهو كالحديث رواه عنه أبو محمد الليثي، ومنه نسخ خطية في أكثر مكاتب أوروبا، وقد طبع في دلهي بالهند سنة ١٢١٦هـ، وفي لاهون بالهند سنة ١٨٨٩، وله شروح للبطليوسي ولابن العربي والقرطبي والزرقاني، وقد طبع هذا الأخير بمصر سنة ١٢٨٠هـ وغيرها في ٤ مجلدات، وقد رواه الشيباني المتوفى سنة ١٨٩هـ، وردَّ فيه على ما يخالف مذهب مالك، وطبع في لكناو الهند سنة ١٢٩٧، وفي لودهيانا الهند سنة ١٨٩٢، وله شروح أخرى لا فائدة من ذكرها.

(٢) رسالة في الوعظ: بشأن الرشيد ويحيى البرمكي، منها نسخة في الإسكوريال، وطبعت في بولاق سنة ١٣١١.

(٣) كتاب المسائل عن لسان تلميذه ابن عبد الحكم، منها نسخة في غوطا، وترجمته في ابن خلكان ٤٣٩ ج١، والفهرست ١٩٨.

الإمام الشافعي (توفي سنة ٢٠٤هـ)

هو الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، وينتهي نسبه إلى هاشم بن عبد المطلب بن عبد مناف القرشي. ولد بغزة من بلاد الشام سنة ١٥٠هـ، وتوفي في مصر سنة ٢٠٤هـ في زمن المأمون بن الرشيد، ودفن في القرافة في مصر، ومقامه مشهور، وبجواره الآن مدفن العائلة الخديوية، وقدم بغداد سنة ١٨٥، وبعد سنتين خرج إلى مكة ثم عاد إلى بغداد بعد سنة فأقام بها شهرًا، ثم قدم مصر فأقام فيها وما زال إلى أن توفاه الله. وكان الإمام الشافعي كثير المناقب جم المفاخر، حاز من العلوم الإسلامية أقصاها وأدناها من

العلم في الكتاب والسنة وكلام الصحابة وآثارهم، واختلاف أقاويل العلماء وغير ذلك من معرفة كلام العرب واللغة والشعر، حتى أقر له بالسبق الأصمعي الراوي الشهير وأحمد بن حنبل الإمام، وقال أبو عبيد: «ما رأيت رجلًا قط أكمل من الشافعي.» وسأل عبد الله بن أحمد بن حنبل والده عنه فقال: «يا بني، كان الشافعي كالشمس للدنيا والعافية للبدن.» وهو أول من تكلم بأصول الفقه وهو الذي استنبطه، وقد ذكر له الفهرست نيفًا ومائة مؤلف لم يصل إلينا منها إلا:

(١) كتاب الأم، رواه عنه الربيع بن سليمان، فإنه يبدأ هكذا: «أخبرنا أبو علي الحسين بن حبيب بن عبد الملك في دمشق سنة ٣٣٧ قال: أخبرنا الربيع بن سليمان قال: أخبرنا محمد بن إدريس إلخ.» وهو كتاب ضخم، منه نسخة خطية في المكتبة الخديوية، وطبع بمصر في ٧ مجلدات.

(٢) السنن المأثورة، في مكتبة كوبرلي بالآستانة.

(٣) أصول الفقه، هي رسالة في الأصول طبعت بمصر.

(٤) مسند الشافعي بالحديث، منه نسخة خطية في يني جامع وكوبرلي، وقد رواه النيسابوري وشرحه ابن الأثير.

(٥) قصيدة تنسب إليه: في ليدن. وترجمته في ابن خلكان ٤٤٧ ج١، والدميري ٢٥ ج١، وسير الملوك ١٥٠، والفهرست ٢٠٩.

الإمام أحمد بن حنبل (توفي سنة ٢٤١هـ)

هو الإمام أبو عبد الله أحمد بن حنبل، يتصل بنسبه بشيبان من ربيعة. ولد في بغداد سنة ١٦٤هـ، وكان من أصحاب الإمام الشافعي، وشهد الشافعي عند خروجه إلى مصر بقوله: «خرجت من بغداد وما خلَّفت بها أتقى ولا أفقه من ابن حنبل.» وظهر في أيامه القائلون بخلق القرآن، فدعي للقول بقولهم فلم يجب؛ فضرب وحبس وهو مصرٌّ على الامتناع. وكان حسن الوجه ربعة يخضب بالحناء خضبًا ليس بالقاني، في لحيته شعيرات سود. ودفن في بغداد بمقبرة باب حرب، وهو صاحب المذهب الحنبلي. وأهم مؤلفاته الباقية:

(١) المسند في الحديث: رواه ابنه عبد الله، وهو موجود خطًّا في أكثر مكاتب أوروبا والآستانة والمكتبة الخديوية، وقد طبع بمصر، وهو مرتب حسب الرواة، فيقسم إلى مسانيد أولها مسند أبي بكر فعمر فعثمان إلى غيرهم من الصحابة.

(٢) كتاب السنة موصل المعتقد إلى الجنة: في مكتبة برلين.
(٣) الزهد: في برلين.

وترجمته في ابن خلكان ١٧ ج١، والفهرست ٢٢٩.

(١-٣) أصحاب الأئمة

ونبغ طائفة من تلامذة أولئك الأئمة وأصحابهم، وقد ذكرنا بعضهم، وليس منهم في هذا العصر من خلَّف آثارًا تستحق الذكر إلا ثلاثة: اثنان من أصحاب أبي حنيفة، والثالث من أصحاب مالك، وهم:

القاضي أبو يوسف (توفي سنة ١٨٢هـ)

هو القاضي أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري، ولد سنة ١١٣هـ، وهو من أهل الكوفة، وكان صاحبًا للإمام أبي حنيفة، وقد أخذ عنه الفقه وما يتعلق به. وكان فقيهًا عالمًا أخذ عن كثيرين من الفقهاء، ولكن غلب عليه مذهب أبي حنيفة، وإن يكن خالفه في بعض المواضع، وذاع صيته حتى تولى القضاء في بغداد على عهد ثلاثة من خلفاء بني العباس: المهدي والهادي والرشيد. وهو أول من دُعِيَ بقاضي القضاة، وميَّز العلماء بلباس خاص، وكانوا لا يميزهم شيء من ذلك عن سائر العامة. وقد ذكر أبو أحمد الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد أن أبا يوسف تكلَّم عن نفسه قائلًا:

> كنت أطلب الحديث والفقه وأنا مقل رث الحال، فجاءني أبي يومًا وأنا عند أبي حنيفة فانصرفت معه، فقال: «يا بني، لا تمد رجلك مع أبي حنيفة؛ فإن أبا حنيفة خبزه مشوي، وأنت تحتاج إلى المعاش.» فقصرت عن كثير من الطلب وآثرت طاعة أبي، فتفقدني أبو حنيفة وسأل عني، فجعلت أتعهد مجلسه، فلما كان أول يوم أتيته بعد تأخري عنه قال لي: «ما شغلك عنا؟» قلت: «الشغل بالمعاش وطاعة والدي.» فجلست، فلما انصرف الناس دفع إلي صرة وقال: «استمتع بها.» فنظرت فإذا فيها مائة درهم، وقال لي: «الزم الحلقة، وإذا فرغت هذه فأعلمني.» فلزمت الحلقة، فلما مضت مدة يسيرة دفع إليَّ مائة أخرى، ثم كان يتعهدني، وما أعلمته بخلة قط، ولا أخبرته بنفاد شيء، وكأنه كان يخبر بنفادها حتى استغنيت وتمولت. ا.هـ.

والباقي من مؤلفاته:

كتاب الخراج، فيه مقدمة يخاطب بها الرشيد، رواه تلميذه الشيباني، منه نسخ خطية في برلين وباريس وأياصوفيا ونور عثمانية وكوبرلي، وطبع بمصر سنة ١٣٠٢هـ.

وترجمته في ابن خلكان ٣٠٣ ج٢، والدميري ١٢٩ ج١.

محمد بن الحسن الشيباني (توفي سنة ١٨٩هـ)

هو أبو عبد الله محمد بن الحسن بن فرقد الشيباني بالولاء، الفقيه الحنفي. ولد سنة ١٣٥هـ، وهو ابن خالة الفراء النحوي الشهير، وكان مولده في واسط بالعراق، وأصله من قرية عند باب دمشق في وسط غوطتها، ونشأ بالكوفة، وحضر مجلس أبي حنيفة، وتفقه على أبي يوسف المتقدم ذكره، وألف كتبًا كثيرة في الفقه وغيره، وهو الذي نشر مذهب أبي حنيفة، وكان فصيح اللسان حتى قالوا: إنه «إذا تكلم خيل إلى سامعه أن القرآن نزل بلغته»، وقد عاصر الإمام الشافعي صاحب المذهب الشافعي، وجرت بينهما أحاديث ومجالس بحضرة الخليفة هارون الرشيد. وقال الإمام الشافعي: «ما رأيت أحدًا يُسأل عن مسألة فيها نظر إلا تبينت الكراهة في وجهه إلا محمد بن الحسن.» وخلف مؤلفات جمة أشهرها:

(١) كتاب المبسوط: وهو كتاب الأصل في الفروع منه نسخ خطية في أياصوفيا ونور عثمانية والمكتبة الخديوية، وهو غير المبسوط للسرخسي.

(٢) كتاب الزيادات: منه نسخة في المكتبة الخديوية ونسخة مشروحة.

(٣) الجامع الكبير: في الفروع. منه نسخة في المكتبة الخديوية ويني جامع، ولها شروح وتلخيص متفرقة في مكاتب أوروبا والآستانة والخديوية.

(٤) الجامع الصغير: مطبوع بمصر على هامش كتاب الخراج المتقدم ذكره.

(٥) كتاب الآثار: في المكتبة الخديوية.

(٦) كتاب السير الكبير: وفيه أحكام الحرب، ومنه نسخ خطية في أكثر مكاتب أوروبا وفي المكتبة الخديوية. وترجمة الشيباني في ابن خلكان ٤٥٣ ج١.

عبد الرحمن بن القاسم (توفي سنة ١٩١هـ)

هو أبو عبد الله عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جنادة مولى زبيد بن الحارث العتقي. تفقه بالإمام مالك، فصحبه عشرين سنة، وانتفع به أصحاب مالك بعد موته، وقد اشتهر على الخصوص بالمدونة الكبرى في مذهبهم، وهي كتاب ضخم على سبيل السؤال والجواب، ولها شأن كبير لدى المالكيين، طبعت بمصر، ولها شروح منها شرح على موادها المشكلة، منها نسخة في المكتبة الخديوية وغيرها. وتجد ترجمته في ابن خلكان ٢٧٦ ج١.

ومن الفقهاء في هذا العصر فقهاء الشيعة، لم ينبغ منهم من يستحق الذكر، ومنهم من لا ينسب إلى إمام، أشهرهم يحيى بن آدم بن سليمان المتوفى سنة ٢٠٣هـ، له كتاب الخراج طبعه جونبول في ليدن سنة ١٨٩٦.

فترى مما تقدم أن المسلمين دوَّنوا فقههم وأقروه واستنبطوا الأحكام والشرائع قبل انقضاء القرن الثاني من تأسيس دولتهم، ولم يتَّفق ذلك لدولة من الدول قبلهم، فإن الشريعة الرومانية لم يستقرَّ أمرها وتضبط إلا في زمن يوستنيان، وذلك بعد تأسيس الدولة الرومانية بأكثر من عشرة قرون.

(٢) الحديث

لم ينضج علم الحديث ويتم تكوُّنه إلا في آخر هذا العصر، وفي العصر العباسي الثاني، وكان في العصر الأول مختلطًا بالفقه، وقد اشتغل الأئمة الأربعة المتقدم ذكرهم بالحديث في جملة اشتغالهم بالفقه، واختلفوا في عدد الصحيح منه، فالإمام أبو حنيفة — زعيم أصحاب الرأي — لم يصح عنده إلا ١٧ حديثًا، ومالك صح عنده ٣٠٠ حديث، وروى ابن حنبل ٥٠٠٠٠٠ حديث أو أكثر، وقد دوَّنوا ذلك في كتبهم، فأبو حنيفة ألف كتابًا في الحديث خاصة. وأما مالك بن أنس فقد دوَّن الأحاديث في الموطأ، وقد تقدم ذكره، وكذلك الشافعي قد ذكرنا له السنن، وكان الإمام ابن حنبل يحفظ نحو مليون حديث، لكنه دوَّن منها في مسنده نحو نصفها، ومسنده المذكور يعرف باسمه، وقد ذكرناه.

واشتغل بالحديث في هذا العصر جماعة كبيرة في أنحاء المملكة الإسلامية أكثرهم في المدينة ومصر وبغداد والكوفة والبصرة، هاك أشهرهم حسب سني الوفاة ومكانها:

ابن جريج من الموالي	سنة	١٤٩	ببغداد
الأوزاعي عربي	سنة	١٥٧	ببيروت
سفيان الثوري عربي	سنة	١٦١	البصرة
زياد البكائي عربي	سنة	١٨٣	الكوفة
ابن عياش عربي	سنة	١٩٣	الكوفة
سفيان بن عيينة مولى	سنة	١٩٨	مكة
السمان فارسي	سنة	٢٠٣	البصرة
الواقدي مولى	سنة	٢٠٧	بغداد
ابن نافع الصنعاني مولى	سنة	٢١١	اليمن
عبد الله بن عبد الحكم	سنة	٢١٤	مصر
عبد الله بن مسلمة عربي	سنة	٢٢١	البصرة
كاتب الواقدي	سنة	٢٣٠	بغداد
يحيى بن معين الحافظ	سنة	٢٣٣	المدينة

وبعض هؤلاء سيأتي ذكرهم في الأبواب الأخرى، ويذكر ما لهم في الحديث في جملة مؤلفاتهم الأخرى، وإنما نذكر هنا الأوزاعي؛ فإن له كتابًا في الحديث منه نسخة خطية في جملة كتب الشنقيطي في المكتبة الخديوية، ويلي هؤلاء الأئمة في الحديث أصحاب الكتب الستة عمدة المحدثين، وسيأتي الكلام عليها في العصر الآتي.

(٣) التفسير والقراءة

قلما اشتغل القوم بالتفسير في هذا العصر، ولم يدوِّنوا ما يستحق الذكر منه، وقد ذكرنا تفسير ابن عباس في الجزء الأول، وهو يبدأ هكذا: «أخبرنا عبد الله الثقة بن المأمون الهروي قال: أخبرنا أبي قال: أخبرنا أبو عبد الله قال: أخبرنا أبو عبد الله محمود بن محمد الرازي قال: أخبرنا عمار بن عبد المجيد الهروي قال: أخبرنا علي بن إسحاق السمرقندي عن محمد بن مروان عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال …»

وسيأتي ذكر بعض كتب التفسير في أثناء الكلام عن المواضيع الأخرى لاشتغال الأدباء والمؤرخين والنسَّابين به، والتفسير لم ينضج وتظهر فيه المؤلفات الوافية إلا في العصر الآتي، ولم يحدث في القراءة ما يستحق الذكر في هذا العصر.

(٤) التاريخ

بدأ التاريخ يتكوَّن في العصر الأموي كما تقدم، لكنهم لم يشتغلوا إلا فيما دعتهم إليه دولتهم، وأغراضها من الإطراء بمشاهيرهم أو تحقيق الأنساب لأجل العطاء ونحوه. ولم يصل إلينا منه شيء لذهاب ذلك في أثناء الفتن، أو لتعمد العباسيين محو آثار عدوتهم اللدود، أو لإهمال الناس تلك الكتب مراعاة لرأي العباسيين.

على أن التاريخ بمعناه الحقيقي لم يتم تكوُّنه ولا في العصر العباسي الأول الذي نحن في صدده، وإنما تمهد فيه السبيل لتأليف التواريخ العامة أو الخاصة، ثم ظهر التاريخ في العصر الذي يليه بعد نقل العلم والأدب عن غير العرب واستقرار الأحوال السياسية والاجتماعية، فأهل المائة الأولى من العصر العباسي كان اشتغالهم على سبيل التمهيد مثل اشتغالهم في الأدب والتفسير والحديث، وفي كتب الأدب كثير من مواد التاريخ عن العرب وبلادهم.

على أنهم لما أخذوا في جمع القرآن وتفسيره وجمع الأحاديث احتاجوا إلى تحقيق الأماكن التي كتبت بها الآيات أو قيلت فيها الأحاديث، فعمدوا إلى جمع السيرة النبوية؛ لأنها شاملة لكل ذلك، ولما اشتغل المسلمون بضرب الخراج اختلفوا في البلاد هل فتحت عنوة أو صلحًا أو أمانًا، فاضطروا إلى تحقيق ذلك وتدوين أخبار الفتوح.

(٤-١) مؤرخو الفتوح

الشيخ أبو إسماعيل

أقدم كتب الفتوح التي وصلت إلينا كتاب فتوح الشام للشيخ أبي إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي البصري من أهل أواسط القرن الثاني للهجرة، طبع في كلكتة الهند سنة ١٨٥٤، وهو عظيم الأهمية، وقد ذكرناه مفصلًا في باب الإنشاء من عصر الراشدين، والكتاب نحو ٢٦٠ صفحة غير الفهارس والمقدمات مع خلاصة ترجمته بالإنكليزية.

الواقدي (توفي سنة ٢٠٧هـ)

يليه الواقدي وهو مولى من موالي بني هاشم في المدينة، واسمه أبو عبد الله محمد بن عمرو بن واقد كاتب جليل القدر، كان عالمًا بالحديث والمغازي والفتوح، وقد قربه المأمون وولاه القضاء بشرقي بغداد في عسكر المهدي، وتوفي هناك. وكان المأمون يراعي جانبه ويبالغ في إكرامه، لكن المحققين يستضعفون حديثه، وله مؤلفات عديدة ذكر منها ابن النديم ٢٨ كتابًا هاك ما وصلنا منها:

(١) كتاب المغازي: يشتمل على غزوات النبي، طبعه كرامر في كلكتة سنة ١٧٥٦ في ٤٠٠ صفحة، وله خلاصة إنكليزية طبعها ولها وزن في برلين سنة ١٨٨٢.

(٢) كتاب فتوح الشام: وهو أشبه بالقصص منه بالتاريخ؛ لما حواه من التفاصيل والمبالغات، لكنه مؤسَّس على الحقيقة، وفيه حقائق لا توجد في سواه من كتب الفتوح، وقد طبع مرارًا إحداها في الهند سنة ١٨٥٤–١٨٦٠ في ثلاثة مجلدات مع ملاحظات وتعاليق بقلم المستشرق نساو، وطبع أيضًا في مصر سنة ١٨٨٢هـ وغيرها.

(٣) فتح أفريقيا: طبع في تونس سنة ١٣١٥ في مجلدين.

(٤) فتح العجم: طبع في الهند سنة ١٢٨٧.

(٥) فتح مصر والإسكندرية: طبع في ليدن سنة ١٨٢٥.

(٦) تفسير القرآن: منه نسخة خطية في المتحف البريطاني.

(٧) عدة كتب في الفتوح تنسب إليه كفتح منف والجزيرة والبهنسا طبعت بمصر وغيرها. وكان له كتاب يسمى فتوح الأمصار لم نقف عليه، ولكن المؤرخين نقلوا عنه، وأكثر كتبه محشوة بالمبالغات لا يعول عليها. وفي مجلة المشرق البيروتية مقالة انتقادية في الواقدي ومؤلفاته (صفحة ٩٣٦ سنة ١٠) جزيلة الفائدة.

وترجمة الواقدي في ابن خلكان ٥٠٦ ج١، والفهرست ٩٨.

ومن كتب الفتح كتاب فتوح مصر وأعمالها على عهد عمر بن الخطاب، لابن إسحاق الأموي، طبع على الحجر بمصر سنة ١٢٧٥هـ، وهو كالقصة داخل في كتاب فتوح الشام للواقدي، وسنذكر سائر كتب الفتوح في أماكنها حسب العصور.

(٤-٢) كتب الطبقات

قد رأيت فيما تقدم من كلامنا عن القرآن والحديث والنحو والأدب أن العلماء اضطروا لتحقيق مسائل هذه العلوم إلى البحث في أسانيدها، والتفريق بين ضعيفها ومتينها؛ فجرَّهم ذلك إلى النظر في رواة تلك الأسانيد وتراجمهم وسائر أحوالهم؛ حتى أصبح من شروط الاجتهاد في الفقه معرفة الأخبار بمتونها وأسانيدها والإحاطة بأحوال النقلة والرواة عدولها وثقاتها ومطعونها ومردودها، والإحاطة بالوقائع الخاصة بها، فقسموا رواة كل فن إلى طبقات؛ فتألَّف من ذلك تراجم العلماء والأدباء والفقهاء والنحاة وغيرهم مما يعبرون عنه بالطبقات، ومنها طبقات الشعراء، وطبقات الأدباء، وطبقات النحاة، وطبقات الفقهاء، وطبقات الصحابة، والتابعين، وطبقات الفرسان، والمحدثين، واللغويين، والمفسرين، والحفاظ، والمتكلمين، والنسابين، والأطباء، حتى الندماء والمغنين وغيرهم، وألفوا في كل باب غير كتاب؛ ولذلك كان المسلمون أكثر أمم الأرض كتبًا في التراجم لأفراد الرجال.

وأقدم كتب الطبقات التي وصلت إلينا غير طبقات الشعراء لابن سلَّام الذي تقدم ذكره كتاب طبقات الصحابة لابن سعد المعروف بكاتب الواقدي.

ابن سعد صاحب الطبقات (توفي سنة ٢٣٠هـ)

هو أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الزهري. كان من الفضلاء النبلاء، كثير العلم، صادقًا، ثقة. صحب الواقدي وكتب له فعرف به، ولم يذكر له صاحب الفهرست إلا كتاب أخبار النبي لم يصل إلينا، ولكننا عرفنا كتابًا ينسب إليه اسمه طبقات الصحابة والتابعين أو كتاب الطبقات الكبير يدخل في بضعة عشر مجلدًا، طبع في ليدن ١٣٢٠–١٣٢٥هـ، وهو كتاب نفيس جزيل الفائدة اشترك في الوقوف على طبعه وتصحيحه المستشرقون سخاو وهو روفتش وليبرت وسترستين وبروكلمن، ويقسم إلى عدة أقسام في ثمانية أجزاء: الجزء الأول في السيرة النبوية (١٦١ صفحة)، والثاني في المغازي (١٣٧ صفحة)، والثالث في تراجم البدريين من الصحابة (٤٥٦ صفحة)، والرابع في تراجم الأنصار والمهاجرين ممن لم يشهد بدرًا وأسلموا قبل فتح مكة (٢٨٤ صفحة)، والخامس تراجم أهل المدينة من التابعين ومن كان منهم ومن الصحابة في مكة والطائف واليمن واليمامة والبحرين (٤١٢ صفحة)، والسادس تراجم الصحابة من الكوفيين (٢٩١

صفحة)، والسابع عن الصحابة البصريين (لم يطبع بعد)، والثامن تراجم الصحابة من النساء (٣٦٥ صفحة)، فصفحات الكتاب كله نيف وألفا صفحة كبيرة غير التعاليق والفهارس ونحوها، وهي نحو ألف صفحة أخرى، والطبقات تحتوي على سيرة النبي ومغازيه وتراجم نحو ٣٠٠٠ من الصحابة والتابعين، وروايتها في صدرها متسلسلة من ابن سعد إلى عدة رواة آخرهم شرف الدين بن محمد عبد المؤمن بن خلف بن أبي الحسين الدمياطي. وأسانيد ابن سعد في كل ترجمة على حدة، وأكثر روايته عن محمد بن عمر بن واقد (الواقدي)، ومحمد بن إسحاق، وهشام الكلبي، وعبد الملك بن هشام. وفي الكتاب فوائد كثيرة عن تاريخ الجاهلية وآدابها، ومنه نسخ خطية في مكاتب لندن وغوطا وبرلين والآستانة وغيرها.

وترجمة ابن سعد في ابن خلكان ٥٠٧ ج١، والفهرست ٩٩.

(٣-٤) الأنساب وكتابها

ونعد الأنساب من قبيل التاريخ دعا إلى وضعها حاجة الناس إلى العطاء على الأنساب حسب ديوان عمر. وقد ذكرنا في الجزء الأول ما كان منها في الجاهلية، وفي العصر الأموي، وقد نبغ من علماء النسب في العصر العباسي الأول الذي نحن في صدده جماعة أشهرهم:

(١) **هشام الكلبي (المتوفى سنة ٢٠٦هـ):** هو أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب بن بشر الكلبي. نشأ في الكوفة، وكان نسَّابة عالمًا بأخبار العرب وأيامها ومثالبها ووقائعها. أخذ عن أبيه محمد بن السائب، وكان محمد هذا من علماء الكوفة بالتفسير والأخبار وأيام الناس، معدودًا بين المفسرين والنسَّابين. توفي بالكوفة سنة ١٤٦هـ، ولم يخلف إلا كتابًا في تفسير القرآن. أما هشام فخلف نحو مائة كتاب ذكرها صاحب الفهرست مفصلًا صفحة (٩٦–٩٨)، وقسمها إلى أبواب بعضها في الأحلاف والبعض الآخر في المآثر والبيوتات والمنافرات والموءودات، وبعضها في أخبار الأوائل، وبعضها فيما قارب الإسلام من أمر الجاهلية، وغيرها في أخبار الإسلام، وأخبار البلدان، وأخبار الشعر، وأيام العرب، وفي الأخبار، والأسمار، والأنساب. وأهم كتبه في الأنساب كتاب النسب الكبير، ويحتوي على أنساب أهم قبائل العرب من العدنانية والقحطانية، فضلًا عن الأنساب المفردة لأشهر القبائل على حدة مما يضيق المقام عن وصفه، ولا فائدة منه؛

لأن هذه الكتب ضاعت منذ أزمان، ولم يبق منها إلا الروايات المنقولة في كتب النسب ونحوها منسوبة إليه، وقطع محفوظة في بعض المكاتب منها:

(أ) جزء من كتاب النسب الكبير أو جمهرة الأنساب منه نسخ خطية في مكاتب باريس والإسكوريال وأكسفورد ولندن وغيرها.

(ب) نسب فحول الخيل في الجاهلية والإسلام: منه نسخ في غوطا والإسكوريال وفينا.

(ج) كتاب الأصنام: أو كتاب تنكيس الأصنام، نقل معظمه ياقوت في معجم البلدان، وهو يشير هناك إلى مأخذه، ومنه نسخة في جملة كتب زكي باشا في ٢٩ ورقة.

وتجد ترجمة هشام الكلبي في ابن خلكان ١٩٥ ج٢، وطبقات الأدباء ١١٦، والفهرست ٩٥.

ومن النسابين في هذا العصر:

(٢) **الهيثم بن عدي الكوفي:** المتوفى سنة ٢٠٧هـ، ذكر له صاحب الفهرست عشرات من الكتب.

(٣) **المدائني:** المتوفى سنة ٢٢٥، ذكر له أيضًا كثيرًا من المؤلفات تزيد على ما ذكره لهشام الكلبي.

(٤) **ابن عبدة.**

(٥) **علان الشعوبي.**

وغيرهم. ولو جمعت كتبهم في النسب وغيره لزادت على بضع مئات لم يصلنا منها غير ما يرد ذكره عرضًا منقولًا عنهم في كتب الأدب أو التاريخ أو الفتوح، كالطبري والبلاذري وياقوت وأبي الفرج صاحب الأغاني وغيرهم.

(٤-٤) السيرة النبوية

وقد يسمونها «المغازي»، وذكروا أسماء كثيرين اشتغلوا بجمعها في أواخر القرن الأول وفي النصف الأول من القرن الثاني للهجرة، لم يصح منها إلا كتاب المغازي لابن مسلم الزهري المتوفى سنة ١٢٤، وقد ضاع، وكتاب المغازي لموسى بن عقبة المتوفى سنة ١٤١هـ، وفي مكتبة برلين نسخة بهذا الاسم جمعها يوسف بن محمد بن عمر تشتمل على الغزوات النبوية، ومنها قطع منتخبة طبعت في أوروبا سنة ١٩٠٤.

سيرة ابن هشام

وأما سيرة النبي كاملة فأقدم ما وصل إلينا منها سيرة محمد بن إسحاق رواية عبد الملك بن هشام، وقد اتفقوا على صحتها، وفيها أيضًا نسب النبي وكثير من أخبار الجاهلية وأنسابهم وعاداتهم وأديانهم ونحوها. ويرى الناقد فيها كثيرًا من القصائد يغلب على الظن أنها دخيلة، وذكر صاحب الفهرست أنهم كانوا يعملون الأشعار، ويأتون بها إلى ابن إسحاق ويسألونه أن يدخلها في كتابه في السيرة فيفعل. أما السيرة أو المغازي فهي أقدم المصادر التي بين أيدينا وأوثقها.

عبد الملك بن هشام (توفي سنة ٢١٣هـ)

وقد قدمنا أن السيرة المذكورة هي رواية ابن هشام، وهو أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، كان مشهورًا بعلم النسب والنحو. أصله من البصرة، وأقام في مصر، وألف كتبًا في الأنساب ضاعت، وتوفي بمصر سنة ٢١٣، وهو الذي روى سيرة النبي من المغازي والسير لابن إسحاق، وهذَّبها ولخَّصها، وهي الموجود في أيدي الناس. وترجمته في ابن خلكان ٢٩٠ ج١.

محمد بن إسحاق (توفي سنة ١٥١هـ)

أما ابن إسحاق صاحب السيرة الأصلي، فهو أبو بكر محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي بالولاء المدني بالمقام، كان جده يسار مولى قيس بن مخرمة بن المطلب بن عبد مناف، سباه خالد بن الوليد في عين النمر. وكان ابن إسحاق ثبتًا في الحديث والمغازي، فسمع عن أكثر العلماء. أتى إلى المنصور وهو في الحيرة فكتب له المغازي، فسمع منه أهل الكوفة بذلك السبب، وتوفي ببغداد سنة ١٥١هـ. ومن كتبه في المغازي أخذ عبد الملك بن هشام السيرة التي نحن في صددها. وترجمته في ابن خلكان ٤٨٣ ج١.

وقد طبعت السيرة مرارًا أضبطها طبعة غوتنجن سنة ١٨٦٠ بعناية ووستنفيلد المستشرق الألماني في مجلدين مضبوطة بالشكل اللازم، وألحقها بجزء ثالث فيه تعاليق وملاحظات وفهارس. وفي صدره ترجمة ابن إسحاق نقلًا عن ابن قتيبة وابن خلكان وابن النجار. ونقل عن كتاب عيون الأثر لابن سيد الناس اليعفري من أهل القرن الثامن للهجرة ما قيل في ابن إسحاق ومناقبه، وما قيل من الطعن فيه والرد على الطعن، وغير

ذلك من الفوائد الكثيرة. وقد طبعت السيرة أيضًا في بولاق في ثلاثة أجزاء سنة ١٢٩٥. ومنها نسخ خطية في أكثر مكاتب أوروبا. وترجمها وايل المستشرق إلى الألمانية، ونشرت الترجمة في ستتجارت سنة ١٨٦٤.

وأما النسخة الأصلية رواية ابن إسحاق، فالمظنون أن منها نسخة في مكتبة كوبرلي بالآستانة. ووقفنا على كتاب خاص بتراجم الرجال الذين روى محمد بن إسحاق عنهم طبع في ليدن سنة ١٨٩٠.

(٤-٥) الخلاصة

وبالجملة لم يبق أديب من أدباء ذلك العصر إلا وأتى في كتبه على شيء من التاريخ كما فعل الأصمعي وأصحابه، وكذلك المترجمون فإنهم كتبوا كثيرًا من الحوادث وذهبت كتبهم. ولبيان ذلك راجع مقدمة مروج الذهب للمسعودي، فتجد أسماء عشرات من خيرة المؤلفين الذين استعان بهم المسعودي في تأليف كتابه، وأكثر مؤلفيها من أبناء العصر العباسي الأول لم يبق من مؤلفاتهم شيء إلى اليوم، ولعلنا نقف على شيء منها بالبحث كما اتفق للدكتور كيلر الألماني منذ عامين؛ فإنه عثر على الجزء السادس من كتاب تاريخ بغداد لأحمد بن أبي طاهر المعروف بطيفور المتوفى سنة ٢٨٠هـ، وسنعود إليه ... وكما وقفنا على طبقات ابن سلام الجمحي، بعد أن ظل المستشرقون دهرًا يأسفون لضياعها وألفوا في ذلك الكتب والرسائل.

(٥) نظرة عامة

انقضى العصر العباسي الأول، وهو فاتحة العصور العباسية، وفيه نضج النحو، ووضع علم العروض، وظهر أئمة الفقه ووضعوا أساس المذاهب الأربعة الباقية إلى الآن، وتكاثر الأدباء والشعراء، وتميز الشعر بالحضارة، وتبدلت طريقته وتلطف أسلوبه، وتولدت فيه أبواب جديدة.

وفيه دخل اللغة العربية طائفةٌ من العلوم القديمة؛ نعني علوم اليونان والفرس والهند وغيرهم، وظهرت المؤلفات فيها فضلًا عن الترجمات.

وكان أكثر اشتغال أدباء البصرة والكوفة في اللغة العربية، وجمع ألفاظها وأخبار أصحابها وأمثالهم وأشعارهم وأنسابهم. وفيه وضعت السيرة النبوية وكتب المغازي والفتوح، وأكثر المشتغلين في هذه النهضة الموالي وأهل الذمة وبعض العرب.

وهناك علوم أخرى ستولد أو تنشأ في الأعصر الآتية، وبعض العلوم التي ولدت في هذا العصر ستنضج فيما يلي، وسيأتي الكلام على كل شيء في مكانه.

ومما يستلفت الانتباه من أخبار هذا العصر كثرة ما وضع فيه من كتب الأدب واللغة والنحو والنسب ومجاميع الأشعار والأخبار والأمثال، مما يعد بالمئات أو الألوف ولم يبقَ منها إلا بضع عشرات، وقد تقرأ لأحدهم مئات من أسماء الكتب التي ألفها ثم لا تجد منها إلا كتابًا أو بضعة كتب كما رأيت في أخبار المدائني وهشام الكلبي وأبي عبيدة والأصمعي وغيرهم، وبعضهم لم يبق من آثارهم شيء.

على أن هذا العصر أحسن حظًّا من العصر الأموي الذي سبقه، وستكون الأعصر الآتية أحسن حظًّا منه.

هوامش

(١) تاريخ التمدن الإسلامي ٣٠ ج٢.
(٢) ابن خلكان ٤٣٩ ج١.
(٣) ابن خلكان ١٦٥ ج٢.
(٤) الشهرستاني ١٢٢ ج١.

العصر العباسي الثاني

أو المائة الثانية من العصر العباسي الثاني
من سنة ٢٣٢–٣٣٤هـ

(١) تاريخه

يبدأ هذا العصر بخلافة المتوكل على الله العباسي سنة ٢٣٢هـ، وينتهي بظهور الدولة البويهية سنة ٣٣٤هـ، وقد يسمَّى العصر التركي لتسلط الأتراك فيه على أمور الدولة؛ تمييزًا له عن العصر الماضي وهو فارسي لتغلُّب العنصر الفارسي فيه. وأما الأتراك فأول من استكثر منهم وقدمهم في الدولة المعتصم،[١] وبدأ استبدادهم في أيام المتوكل على الله؛ لأنه كان يكره الشيعة العلوية، وهم من الفرس، فاستبد فيهم وزاد في رعاية الأتراك لينصروه عليهم، فزاد طمعهم في الدولة، ثم أغراهم ابنه المنتصر (أو هم أغروه) على قتله فقتلوه، وكان ذلك أول جرأتهم على الخلفاء، وولوا المنتصر بعده، ولم تطل مدة حكمه أكثر من بضعة أشهر فمات وضميره يخزه. وتولى بعده المستعين بالله سنة ٢٤٨هـ، ثم المعتز بالله سنة ٢٥١هـ، وقد استفحل أمر الأتراك استفحالًا عظيمًا، ومما يحكى عن استبدادهم في الخلفاء أنه لما تولى المعتز قعد خواصه وأحضروا المنجمين وقالوا لهم: «انظروا كم يعيش الخليفة وكم يبقى في الخلافة.» وكان في المجلس بعض الظرفاء فقال: «أنا أعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته.» فقالوا له: «فكم تقول إنه يعيش وكم يملك؟» قال: «مهما أراد الأتراك.» فلم يبق في المجلس إلا من ضحك.[٢]

وقد قتلوا المعتز هذا شر قتلة؛ فإنهم جروه برجله إلى باب الحجرة، وضربوه بالدبابيس، وخرقوا قميصه، وأقاموه في الشمس بالدار، فكان يرفع رجلًا ويضع أخرى لشدة الحر، وبعضهم يلطمه بيده،[٣] والمستكفي سملوا عينيه ثم حبسوه حتى مات في الحبس.[٤] وبلغ من فقر القاهر بالله أنهم حبسوه وهو ملتف بقطن جبة وفي رجله قبقاب خشب — فلا غرو إذا أصبح الخلفاء آلة في أيدي الأتراك، وإذا تنازع هؤلاء على السلطة كان الخليفة مع الغالب، وبعد أن كان القواد يحلفون للخليفة بالطاعة صار الخليفة يحلف لهم.

(٢) نفوذ الخدم في هذا العصر

وفي هذا العصر عظم نفوذ الخدم في الدولة العباسية ولم يكن لهم شأن قبله؛ وسبب ذلك أن الأتراك لما استبدوا وصاروا يولُّون الخلفاء ويعزلونهم كان في جملة ما استعانوا به على الاستبداد بهم أن يحجروا عليهم قبل الخلافة ويحبسوهم في القصور ليزيدوهم ضعفًا، وكان الخلفاء من الجهة الأخرى يميلون إلى حبس أولادهم وأقاربهم خوفًا من تواطئهم مع بعض الأتراك على خلعهم أو قتلهم، ولا عشير لهم في أثناء الحجر إلا الخدم والخصيان فألفوا أخلاقهم، وتحققوا بالاختبار أن حياتهم تتوقف بالأكثر على أمانة أولئك الخدم؛ لما آنسوه من غيرتهم عليهم، وخصوصًا الخصيان؛ إذ لا عصبية فيهم تمنعهم من التفاني في خدمة أسيادهم، ولا مطمع لهم بالملك لأولادهم وأهلهم، فأصبح ولاة العهد إذا أفضت الخلافة إليهم بالغوا في تقريب الخدم بالعطايا والإكرام؛ التماسًا لحمايتهم إذا أراد الأتراك الفتك بهم، فعمدوا إلى الاستكثار من الخدم، وكانوا يقدمونهم ويكرمونهم ويستشيرونهم في أمورهم.

واستكثروا منهم حتى ألَّفوا منهم الفرق، وأول من استكثر منهم ورفع منزلتهم المقتدر بالله؛ فقد تولى سنة ٢٩٥هـ، وعنده من الخدم والخصيان ١١٠٠٠ خادم من الروم والسودان وكثير من المال والجوهر، فتمكن من الحكم ٢٥ سنة، وكان يقدم الخدم ويستعين بهم، وقد ولاهم قيادة الجند وغيرها، وفي أيامه نبغ مؤنس الخادم فقدمه وكان يستشيره في أموره، فتصرَّف مؤنس في مصالح الدولة كما يشاء، وتولى رئاسة الجيش وإمارة الأمراء وبيوت الأموال، واستبد في كل شيء، لكنه على الإجمال خدم الخليفة المقتدر خدمًا ذات بال، ثم كانت بينهما وحشة تكررت حتى أدت إلى حروب انتهت بقتل المقتدر.

فتكاثر الفساد بسبب ذلك، وعمَّت الرشوة والمصادرة والفتك؛ فأصبح الناس يخافون على أموالهم وأرواحهم؛ لأنها طوع إرادة الخليفة أو الوزير أو القائد، أو تابعة لهواهم ومطامعهم. وكانت المصادرة متبادلة بين الخليفة ووزرائه وقواده،[٥] ناهيك بالجاسوسية وسوء الأحكام؛ فآل ذلك إلى طمع العمال والولاة بأعمالهم؛ فأخذوا يستقلون؛ فتشعبت المملكة العباسية إلى إمارات وممالك، وانقضى العصر الذي نحن في صدده بدخول الديلم بغداد في أيام المستكفي سنة ٣٣٤هـ، وأنشئوا هناك دولة عرفت بدول آل بويه، وبها يبدأ العصر العباسي الثالث.

فالفساد الذي تقدم ذكره أثَّر في آداب اللغة، ولا سيما في الآداب التي هي من آثار النفس أو أعمالها كالشعر والخطابة والإنشاء، وقل النابغون فيها كما سترى، وفيه قيدت الأفكار بمطاردة المتوكل للمعتزلة والشيعة فضعفت الحرية، وعمد الناس إلى التستر بأفكارهم خوفًا على حياتهم، خلافًا لما كانوا عليه في أواخر العصر الماضي.

(٣) مميزات هذا العصر

ويمتاز العصر العباسي الثاني بالنظر إلى آداب اللغة بأمور تمت فيه، وهي:

(١) أنه فيه استقر الخط العربي على القاعدة التي وصلت إلينا، وقد وضعها أو ضبطها ابن مقلة المتوفى سنة ٣٢٨هـ.

(٢) فيه ظهر أثر الانقلاب الأدبي في ألفاظ اللغة العربية، فتنوعت معاني بعضها حتى خرجت عما وضعت له في المعاجم، وشق ذلك على أدباء اللغة، فوضعوا المقالات أو الكتب في انتقاد ذلك وإصلاحه؛ ولكنه قلما أفاد؛ لأن ذلك التنوع حدث بطبيعة العمران، وممن انتقده ابن قتيبة في كتابه أدب الكاتب، وسنبين ذلك في مكانه — وراجع كتابنا تاريخ اللغة العربية صفحة ٣٧.

(٣) وفي هذا العصر ترجمت التوراة إلى اللغة العربية ترجمة لا تزال باقية إلى الآن، ويغلب على الظن أنها ترجمت كلها أو بعضها إلى اللغة العربية قبل الإسلام، وشاعت بين أدباء العرب وضاعت في صدر الإسلام، ثم ترجمت ترجمة أخرى في زمن المأمون على يد أحمد بن عبد الله بن سلام،[٦] ورأينا بعض أدباء ذلك العصر ينقلون عنها فصولًا من أخبار الخليقة،[٧] وربما ترجمها سواه أيضًا، ولم يبق من تلك الترجمات شيء إلى الآن، وأقدم ما وصل إلينا من ذلك ترجمة سعيد بن يعقوب الفيومي، ويقال له: سعديا.

سعيد الفيومي وترجمة التوراة

ولد سعيد هذا في الفيوم نحو سنة ٢٨٢هـ في ولاية خمارويه بن أحمد بن طولون على مصر، وكان إسرائيليًّا من الطائفة الربانية، وكان بين هذه الطائفة وطائفة القرائين مناظرة وجدال، وكان سعيد من كبار رجال الدين والعلم فيهم، فكتب كتبًا كثيرة جدلية في العبرانية، وأخيرًا ترجم كتب موسى الخمسة وسفري أشعيا وأيوب من الأصل العبراني للتوراة إلى العربية؛ توسيعًا لدائرة أحزابه الربانيين. وقد طبعت الأسفار الخمسة من ترجمته في الآستانة بالأحرف العبرانية سنة ١٥٤٦ مع ترجمات أخرى، وعرفت هذه الطبعة باسم «تتراغلوت»، ثم ظهرت في طبعة البوليغلوت بباريس بعد قرن، وطبعت ترجمته لأشعيا في جينا سنة ١٧٩١، وأما سفر أيوب فمنه نسخة خطية في مكتبة أكسفورد، وقد طبعت على حدة مع ترجمة فرنسوية بعناية ديرنبورج بباريس سنة ١٨٩٣.

هوامش

(١) راجع تفصيل ذلك في تاريخ التمدن الإسلامي صفحة ١٥٥ ج٤.
(٢) الفخري ٢٢٠.
(٣) ابن الأثير ٧٧ ج٧.
(٤) ابن الأثير ١٧٧ ج٨.
(٥) تاريخ التمدن الإسلامي ١٦٧ ج٤.
(٦) الفهرست ٢٢.
(٧) كتاب المعارف ٤.

الشعر والشعراء

(١) مميزات الشعر في هذا العصر

(١) ظهرت فيه شكوى الشعراء من ذهاب دولة الشعر وانقضاء العصر الذي كان الشعر يثير فيه النفوس ويستنهض الهمم، بذهاب الخلفاء والأمراء الذين كانوا يعرفون قدر الشعر ويقدمون أصحابه بالسخاء، وقد عبر ابن الرومي عن ذلك (وهو من أهل هذا العصر) بقوله:

ذهب الذين تهزُّهم مداحهم   هزَّ الكماة عوالي المرانِ
كانوا إذا امتدحوا رأوا ما فيهمُ   ما الأريحية منهمُ بمكانِ[١]

(٢) كثر فيه ذكر المعاني الفلسفية وتعابيرها لتفشي علوم الأقدمين بين المسلمين على أثر ترجمة الكتب في العصر الماضي وفي هذا، وظهر جماعة من الشعراء عدوا بين الفلاسفة لتغلب العلوم الطبيعية على نفوسهم، على أن الآراء الفلسفية ظهرت ناضجة في شعراء العصر العباسي الآتي ذكره.

(٣) ظهر فيه البديع، ولم يكن منه قبلًا إلا نزر يسير، على أن البديع قديم في العربية حتى في النثر فضلًا عن الشعر؛ لأن هذه اللغة تمتاز بقبولها للاستعارات والكنايات.[٢] ولكن المشهور أن أول من فتق البديع بشار بن برد وابن هرمة، ثم اتبعهما مقتديًا بهما كلثوم بن عمرو العتابي، ومنصور النمري، ومسلم بن الوليد، وأبو نواس، واتبع هؤلاء أبو تمام والبحتري ... ثم ابن المعتز، فانتهى البديع إليه وختم به،[٣] فإنه ألطف أصحابه شعرًا وأكثرهم بديعًا، وهو من شعراء العصر العباسي الثاني.

(٤) نبغت طبقة من الكتاب انتقدوا الشعر وروايته، وكانوا ينقلونه في العصر السابق بلا تمحيص، فصاروا في هذا العصر ينظرون فيه ويتدبرون معانيه وأساليبه بعين النقد، ولا سيما بعد اطِّلاعهم على ترجمة كتاب أرسطو في نقد الشعر الذي نقله أبو بشر من السريانية إلى العربية، وأكثر الذين اشتغلوا في ذلك من الأدباء، وسيأتي ذكرهم في باب الأدب. أما النقد التاريخي فلم يجرءوا عليه في هذا العصر؛ لاضطرار المؤرخين إلى مصانعة رجال الدولة إلا ما كان من الطعن في أعداء الخلفاء والأمراء.

(٥) وفيه تقدم الشعراء خطوة أخرى في الزهريات والتغزل بها، كقول ابن المعتز يصف قضيبًا من الريحان:

قضيب من الريحان شابه لونه	إذا ما بدا للعين لون الزمردِ
وشبهته لما تأملت حسنه	عذارًا تدلى في عوارض أمردِ

وقول البحتري:

ورق تغني على خضر مهدلة	تسمو بها وتمس الأرض أحيانا
تخال طائرها نشوان من طربٍ	والغصن من هزه عطفيه نشوانا

(٢) أشهر شعراء هذا العصر

قد رأيت كثرة الشعراء في عصر بني أمية للأغراض السياسية التي اقتضاها مسلك الأمويين في السياسة بين العصبيات والأحزاب، مع تغلب البداوة على نفوسهم، ورأيت كثرة الشعراء في العصر العباسي الأول بانتقال الدولة من البداوة إلى الحضارة مع رغبة الخلفاء ورجال الدولة في الشعر وسائر فنون الأدب — وهو الباعث الأقوى على ظهور قرائح الشعراء في كل عصر.

أما في العصر العباسي الثاني الذي نحن في صدده، فقد ضعفت تلك الأسباب، واشتغل الخلفاء بأنفسهم ورجالهم، فلم ينبغ من فحول الشعراء فيه إلا الذين قويت شاعريتهم، وهم نفر لا يتجاوزون عدد أصابع اليدين، ولشعرهم صبغة تلائم ذلك العصر، وهم:

(٢-١) ابن الرومي (توفي سنة ٢٨٣هـ)

هو أبو الحسن علي بن العباس بن جريج أوجورجيس، ويعرف بابن الرومي نسبةً إلى أصله، وهو من موالي بني العباس، اشتهر بالتوليد في الشعر؛ لأنه أتى بكثير من المعاني لم يسبق إليها، ومن مميزاته أنه لا يترك المعنى حتى يستوفيه ويمثله للقارئ تمثيلًا. ولد في بغداد سنة ٢٢١هـ، وتوفي سنة ٢٨٣هـ، وكان شديد الهجاء جريئًا فيه حتى مات بسببه؛ لأنه هجا القاسم بن عبيد الله — وزير المعتضد — فدس إليه ابن فراش فأطعمه خشكنانجة مسمومة، وهو في مجلسه؛ فلما أحس بالسم نهض، فقال له الوزير: «إلى أين؟» فقال: «إلى الموضع الذي بعثتني إليه.» فقال له: «سلم على والدي.» فقال: «ما طريقي على النار.» وأتى منزله أقام فيه أيامًا ومات. ومن بديع شعره في المديح قوله:

المنعمون وما منُّوا على أحدٍ ... يوم العطاء ولو منوا لما مانوا
كم ضن بالمال أقوام وعندهمُ ... وفر وأعطى العطايا وهو يدَّانُ

وله أيضًا وقال: ما سبقني أحد إلى هذا المعنى:

آراؤكم ووجوهكم وسيوفكم ... في الحادثات إذا بَدَوْنَ نجومُ
منها معالم للهدى ومصابحٌ ... تجلو الدجى والأخريات رجومُ

ومن معانيه البديعة قوله:

وإذا امرؤ مدح امرءًا لنواله ... وأطال فيه فقد أراد هجاءَهُ
لو لم يقدر فيه بعد المستقى ... عند الورود لما أطال رشاءَهُ

وكذلك قوله في ذم الخضاب، وهو مما لم يسبق إليه:

إذا دام للمرء السواد وأخلقت ... شبيبته ظن السواد خضابا
فكيف يظن الشيخ أن خضابه ... يظن سوادًا أو يخال شبابا

وله في بعض الرؤساء وقد سأله حاجة فقضاها له وكان لا يتوقع منه خيرًا:

سألتك في أمر فجدت ببذله	على أنني ما خلت أنك تفعلُ
وألزمتني بالبذل شكرًا وإنه	عليَّ من الحرمان أدهى وأعضلُ
لئن سرني ما نلت منك فإنه	لقد ساءني إذ أنت ممن يؤملُ

ومن نظمه في الحكم:

أرى فضل مال المرء داءً لعرضه	كما أن فضل الزاد داء لجسمِهِ
فليس لداء العرض شيء كبذله	وليس لداء الجسم شيء كحسمِهِ

ومن بديع معانيه:

دهر علا قدر الوضيع به	وترى الشريف يحطه شرفه
كالبحر يرسب فيه لؤلؤُهُ	سفلًا وتعلو فوقه جيفُهْ

ويمتاز ابن الرومي بتفضيله المعنى على اللفظ كالمتنبي، فيطلب صحة المعنى ولا يبالي حيث وقع من هجنة اللفظ وقبحه وخشونته،[٤] ومع ذلك فإنك تجد في نظمه سهولة ومتانة.

وكان شعره غير مرتب رواه عنه المتنبي، ثم جمعه أبو بكر الصولي، ورتبه على الحروف، وجمعه أبو الطيب وراق ابن عبدوس، وزاد في جميع النسخ نحو ألف بيت، منه نسخة خطية في المكتبة الخديوية في نحو ٤٠٠٠ ورقة صفحاتها مزدوجة كبيرة بخط قديم كتبت فيها الأبيات في نهرين كل نهر في شطرين، وأكثر شعره في علي بن يحيى بن أبي منصور، والحسن بن عبيد الله بن سليمان، وأبي القاسم التوزي الشطرنجي، والمعتضد، والقاسم بن عبيد الله، وابن المدبر، وغيرهم ممن عاصروه. وله أهاجٍ شديدة ومدائح بليغة، وقد أبدع في وصف الأخلاق والعواطف وفي العتاب، وله مراثٍ مؤثرة بعضها في ابنه وأمه، وله قصائد طويلة بعضها يزيد على ٣٠٠ بيت أكثرها في المدح، ومن هذا الديوان نسخة في مكتبة الإسكوريال وأخرى في مكتبة طوب قبو وفي نور عثمانية بالآستانة، ومن الغريب أن هذا الديوان النفيس لم ينشر بعد.

وأخبار ابن الرومي في ابن خلكان ٣٥٠ ج١، والفهرست ١٦٥.

(٢-٢) البحتري (توفي سنة ٢٨٤هـ)

هو أبو عبادة الوليد بن عبيد الطائي. ولد بمنبج من أعمال الشام وتخرج بها، ثم خرج إلى العراق ومدح جماعة من الخلفاء، أولهم المتوكل على الله، وخلقًا كثيرًا من الأكابر والرؤساء، وأقام في بغداد دهرًا طويلًا ثم عاد إلى الشام، وله أشعار كثيرة يذكر فيها حلب، وكان يتغزل بها، وقد أدرك أبا تمام بحمص وعرض عليه شعره في جملة من كان يأتيه لهذا الغرض، فلما سمع أبو تمام قوله أقبل عليه وترك سائر الناس، فلما تفرقوا قال له: «أنت أشعر من أنشدني.» وأوصى به أهل معرة النعمان، فصار إليهم فأكرموه ووظفوا له ٤٠٠٠ درهم، واشتهر بعد ذلك حتى صار من الطبقة الأولى. ويشبهون شعره بسلاسل الذهب لتناسبه، وصار بعضهم يفضله على أبي تمام. وسئل هو مرة: «من أشعر أنت أم أبو تمام؟» فقال: «جيده خير من جيدي ورديئي خير من رديئه.» وسئل أبو العلاء المعري: «أي الثلاثة أشعر: أبو تمام أم البحتري أم المتنبي؟» فقال: «المتنبي وأبو تمام حكيمان، وإنما الشاعر البحتري.» على أنه امتاز بقوة التصور، فإنه كان يصور أخلاق الممدوح تصويرًا لم يسبقه أحد إلى مثله، ومن أحاسن شعره في المتوكل قصيدة مطلعها:

أخفي هوًى لك في الضلوع وأظهرُ ... وألام في كمد عليك وأعذرُ

ويقول منها:

بالبر صمت وأنت أفضل صائمٍ ... وبسنة الله الرضية تفطرُ
فانعم بيوم الفطر عينًا إنه ... يوم أغر من الزمان مشهرُ
أظهرت عز الملك فيه بجحفلٍ ... لجب يحاط الدين فيه وينصرُ
خلنا الجبال تسير فيه وقد غدت ... عددًا يسير بها العديد الأكثرُ
فالخيل تصهل والفوارس تدعي ... والبيض تلمع والأسنة تزهرُ
والأرض خاشعة تميد بثقلها ... والجو معتكر الجوانب أغبرُ
والشمس طالعة توقَّد في الضحى ... طورًا ويطفيها العجاج الأكدرُ
حتى طلعت بنور وجهك فانجلى ... ذاك الدجى وانجاب ذاك العثيرُ
فافتن فيك الناظرون فأصبعٌ ... يومي إليك بها وعين تنظرُ

يجدون رؤيتك التي فازوا بها من أنعم الله التي لا تكفرُ
ذكروا بطلعتك النبي فهللوا لما طلعت من الصفوف وكبَّرُوا
حتى انتهيت إلى المصلى لابسًا نور الهدى يبدو عليك ويظهرُ
ومشيت مشية خاشع متواضع لله لا يزهى ولا يتكبرُ
فلَوَ انَّ مشتاقًا تكلف فوق ما في وسعه لمشى إليك المنبرُ

ظل البحتري في العراق في خدمة المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان وله الحرمة التامة حتى قتلا، فرجع إلى منبج وقد تحدى أبا تمام في البديع ويعده إمامًا له ويقدمه على نفسه كما رأيت، ثم صارت له طريقة في الجزالة والعذوبة والفصاحة والسلاسة خاصة به تحداها معاصروه ومن جاء بعدهم من الشعراء، وعرفت بطريقة أهل الشام، وكان الصاحب بن عباد يعجب بها ويحرِّض على حفظ أشعار أصحابها، ويستملي الطارئين عليه من تلك البلاد ما يحفظونه منها حتى كتب دفترًا ضخم الحجم عليها كان لا يفارق مجلسه ولا يملأ أحد منه عينه غيره، وصار ما جمعه فيه على طرف لسانه وفي سن قلمه، فطورًا يحاضر به في مخاطباته ومحاوراته، وتارة يحله أو يورده في مراسلاته كما هو.

وكان البحتري بخيلًا وسخ الثوب ومن أبغض الناس إنشادًا يتشادق ويتزاور في مشيه مرة جانبًا ومرة القهقرى، يهزُّ رأسه مرة وكتفه أخرى ويشير بكمه، ويقف عند كل بيت ويقول: «أحسنت والله ما لكم لا تقولون: أحسنت؟» فضجر المتوكل منه.

وما زال شعر البحتري غير مرتب حتى جمعه أبو بكر الصولي ورتبه على الحروف، وجمعه أيضًا علي بن حمزة الأصبهاني ورتبه على الأنواع، وقد طبع في الآستانة سنة ١٣٠٠ وفي بيروت سنة ١٩١١، مضبوطًا بالشكل الكامل في جزءين كبيرين، أكثره في مدح المتوكل والمعتز والمستعين والمعتمد ورجال دولتهم، ولا تكاد تخلو قصيدة من استهلال بالغزل.

حماسة البحتري

وللبحتري حماسة مثل حماسة أبي تمام طبعت في بيروت سنة ١٩١٠ بعناية الأب شيخو وقد ذيلها بالفهارس، وهي تمتاز على حماسة أبي تمام من أوجه كثيرة: منها كثرة الأبواب؛ لأن حماسة أبي تمام مؤلفة من عشرة أبواب وحماسة البحتري من ١٧٤ بابًا

تتضمن معظم المعاني الشعرية، وقد رواها عن نحو ٦٠٠ شاعر أكثرهم من الجاهليين والمخضرمين، وتمتاز على الخصوص بخلوها مما تنبو عنه الأسماع من الألفاظ البذيئة حتى الغزل والنسيب فقد تحاشاهما، كأن البحتري جمعها لشبيبة هذه الأيام، وأطلعنا في المكتبة الخديوية على نسخة من الحماسة المذكورة منقولة بالفوتوغراف في ٤٠٠ صفحة عن نسخة خطية محفوظة في مكتبة ليدن.

وللبحتري أيضًا كتاب معاني الشعر، وألف الحسن بن بشر الآمدي المتوفى سنة ٣٧١ كتابًا انتقاديًّا في الموازنة بين أبي تمام والبحتري تعصَّب فيه على أبي تمام وجدَّ في طمس محاسنه وتزيين مرذول البحتري، طبع في الآستانة سنة ١٢٨٧هـ.

وأخبار البحتري في ابن خلكان ١٧٥ ج٢، والأغاني ١٦٧ ج١٨، والفهرست ١٦٥.

(٢-٣) ابن المُعْتز (توفي سنة ٢٩٦هـ)

هو أبو العباس عبد الله بن المعتز بن المتوكل من أبناء الخلفاء العباسيين. تحزب له جماعة من الجند الأتراك على العادة الجارية في ذلك العهد، وخلعوا المقتدر سنة ٢٩٦، وبايعوا لابن المعتز وسموه المرتضي بالله، أقام يومًا وليلة، ثم تحزب أصحاب المقتدر وتراجعوا وحاربوا أعوان ابن المعتز وشتتوهم وأعادوا المقتدر إلى دسته، واختفى ابن المعتز في بيت ابن الجصاص التاجر الجوهري الشهير يومئذ، فأخذه المقتدر وسلَّمه إلى مؤنس الخادم؛ فقتله ودفعه إلى أهله ملفوفًا في كساء، وكان ابن المعتز منحرفًا على العلويين، وله فيهم قصيدة بائية يطعن عليهم فيها، ويجعل للعباسيين الفضل عليهم بالخلافة مطلعها:

ألا من لعينٍ وتسكابها تشكي القذاة وتنكا بها

إلى أن يقول:

ونحن ورثنا ثياب النبي فلم تجذبون بأهدابها
لكم رحمٌ يا بني بنته ولكن أرى العم أولى بها
به نصر الله أهل الحجازِ وأبرأها بعد أوصابها

وعارضه صفي الدين الحلي بقصيدة من وزنها وقافيتها مطلعها:

ألا قل لشرِّ عباد الإله وطاغي قريش وكذابها

ومن شعره قصيدة تاريخية من نوع الشعر القصصي مدح بها الخليفة المعتضد، ومزيته على الخصوص بما في شعره من أنواع البديع كقوله في وصف مليح:

وجاءني في قميص الليل مستترًا يستعجل الخطو من خوف ومن حذرِ
فقمت أفرش خدي في الطريق لَهُ ذلًّا وأسحب أذيالي على الأثرِ
ولاح ضوء هلالٍ كاد يفضحنا مثل القلامة قد قدت من الظفرِ

ومن قوله وقد ذكره ابن خلكان:

ومقرطق يسعى إلى الندماءِ بعقيقة في درة بيضاءِ
والبدر في أفق السماء كدرهمٍ ملقى على ديباجة زرقاءِ
كم ليلة قد سرني بمبيته عندي بلا خوف من الرقباءِ

ومن تشابهه قوله:

خليليَّ قد طاب الشراب الموردُ وقد عدت بعد النسك والعود أحمدُ
فهاتا عقارًا في قميص زجاجةٍ كياقوتة في درة تتوقدُ
يصوغ عليها الماء شباك فضةٍ له حلق بيض تحلُّ وتعقدُ
وقتني من نار الجحيم بنفسها وذلك من إحسانها ليس يجحدُ

وكان ابن المعتز شاعرًا مطبوعًا، مقتدرًا على الشعر، قريب المأخذ، سهل اللفظ، جيد القريحة، ومن مزاياه الإبداع للمعاني، وكان أيضًا من الأدباء والعلماء، تثقف على المبرد وثعلب وغيرهما، واشتغل بالعلم والأدب فألّف فيهما بضعة عشر مؤلفًا وصلنا منها:

(١) كتاب الأدب: منه نسخة خطية في المتحف البريطاني.
(٢) كتاب مختصر طبقات الشعراء: في مكتبة الإسكوريال.

(٣) كتاب البديع: وهو أهم كتبه بالنظر إلى اختصاصه في هذا الفن، منه نسخة خطية في مكتبة الإسكوريال.

(٤) كتاب أشعار الملوك: منه نسخة خطية في مكتبة المستشرق أهلوارت.

وباسمه في مكتبة باريس «كتاب الشراب» شعر ونثر، وفي مكتبة برلين كتاب فصول التماثيل في تباشير السرور، ولم يذكره له مؤرخوه. وعني لانغ الألماني بترجمة بعض شعره وتاريخه إلى الألمانية وطبعه في المجلة الألمانية الشرقية سنة ١٨٨٦، وفعل ذلك أيضًا لوث، وطبعه في ليبسك سنة ١٨٨٢.

وقد جمعت أشعاره في ديوان مرتب على الأنواع كالفخر والغزل وغيرهما، وكل منها مرتب على الأبجدية، منه نسخ خطية في مكاتب باريس والقاهرة وغيرها، وطبع بمصر سنة ١٨٩١، وله قصائد متفرقة في مكاتب برلين وغوطا.

وتجد أخباره في ابن خلكان ٢٥٨ ج١، وطبقات الأدباء ٢٩٩، وفوات الوفيات ٢٤١ ج١، والأغاني ١٤٠ ج٩، والفهرست ١١٦.

(٤-٢) البسَّامي البغدادي (توفي سنة ٣٠٢هـ)

هو أبو الحسن علي بن محمد بن نصر بن منصور، ويعرف باسم بسام أيضًا، وهو غير ابن بسام الشانتمريني المتوفى سنة ٥٤٢هـ، وأما البسامي فأمه بنت حمدون النديم، وكان شاعرًا هجَّاء لم يسلم من لسانه أمير ولا وزير ولا صغير ولا كبير، وقد هجا أباه وإخوته وسائر أهل بيته، فمن ذلك قوله في أبيه:

هبك عمرت عمر عشرين نسرًا ... أترى أنني أموت وتبقى
فلئن عشت بعد موتك يومًا ... لأشقنَّ جيب مالك شقَّا

وقال في هدم المتوكل قبر الحسين:

تالله إن كانت أمية قد أتت ... قتل ابن بنت نبيها مظلوما
فلقد أتاه بنو أبيه بمثله ... هذا لعمرك قبره مهدوما

أسفوا على أن لا يكونوا شاركوا   فـي قـتـلـه فـتـتـبـعـوه رمـيـمـا

وليس له ديوان معروف، وله مؤلفات في مناقضات الشعراء وأخبار الأحوص وعمر بن أبي ربيعة لم يصلنا خبرها.

وأخباره في ابن خلكان ٣٥٢ ج١، والفهرست ١٥٠، وفوات الوفيات ٨٣ ج٢.

(٢-٥) الخبز أرزِّي (توفي سنة ٣١٧هـ)

هو أبو القاسم نصر بن أحمد من أهل البصرة، وكان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب، وكان يخبز الأرز بمربد البصرة ومنه اسمه، لكنه كان مطبوعًا على الشعر، وكان ينشد أشعاره المقصورة على الغزل والناس يزدحمون عليه لسماع شعره ويعجبون من حاله، ثم ذاع خبره وتناقل الناس أشعاره، فمن غزله قوله:

خليليَّ هل أبصرتما أو سمعتما   بأكرم من مولى تمشى إلى عبدِ
أتى زائرًا من غير وعد وقال لي: أجلك عن تعليق قلبك بالوجدِ
فما زال نجم الوصل بيني وبينه   يدور بأفلاك السعادة والسعدِ
فطورًا على تقبيل نرجس ناظرٍ   وطورًا على تعضيض تفاحة الخدِّ

وله أيضًا:

رأيت الهلال ووجه الحبيبِ   فكانا هلالين عند النظرْ
فلم أدر من حيرتي فيهما   هلال الدجى من هلال البشرْ
ولولا التورد في الوجنتينِ   وما راعني من سواد الشعرْ
لكنت أظن الهلال الحبيبَ   وكنت أظن الحبيب القمرْ

وذكر له ابن خلكان كثيرًا من الأخبار وأمثلة من الشعر في ترجمته ١٥٣ ج٢، وفي يتيمة الدهر ١٣٢ ج٢.

(٢-٦) ابن العلاف (توفي سنة ٣١٨هـ)

اسمه أبو بكر الحسن بن علي، كان ضريرًا من أهل النهروان، جيد الشعر، واشتهر بقصيدة رثى بها هرًّا، والمقصود بالرثاء غلامٌ كان له قتله علي بن الحسين. والقصيدة من أحسن شعره مطلعها:

يا هرُّ فارقتنا ولم تعدِ	وكنت عندي بمنزل الولدِ
فكيف تنفك عن هواك وقد	كنت لنا عدة من العددِ
تطرد عنا الأذى وتحرسنا	بالغيب من حية ومن جردِ
وتخرج الفأر من مكامنها	ما بين مفتوحها إلى السددِ
يلقاك في البيت منهمُ مددٌ	وأنت تلقاهمُ بلا مددِ

وهي طويلة نشر ابن خلكان أكثرها في صفحة ١٣٨ج١، والدميري ٣٣٧ ج٢.

ومن نوابغ شعراء هذا العصر فضل — جارية المتوكل العباسي المتوفاة سنة ٢٦٠هـ — وكانت تهاجي الشعراء ويجتمع عندها الأدباء، ولها في الخلفاء والملوك مدائح، وكانت في أول أمرها، تتشيع وتتعصب لأهل مذهبها وتقضي حوائجهم بجاهها عند الملوك. وعشقت سعيد بن حميد — وكان منحرفًا عن أهل البيت — فانتقلت إلى مذهبه، ولها أشعار نفيسة منها أمثلة في فوات الوفيات ١٢٦ ج٢، والأغاني ١١٤ ج٢١.

هوامش

(١) يتيمة الدهر ٩ ج١.
(٢) البيان ١٧٥ ج١.
(٣) العمدة ٨٥ ج١.
(٤) العمدة ٨٢ ج١.

الأدب والأدباء

خطا الأدب في هذا العصر خطوة أخرى نحو النشوء والتفرع، فبدأت علومه بالاستقلال بعضها عن بعض، وكانت في العصر الماضي مختلطة يدرس الأديب النحو واللغة والأخبار والأمثال معًا، وقلَّ من تفرغ لواحد منها — إلا النحو فإنه استقل في ذلك العصر كما رأيت. وظلت سائر علوم الأدب مختلطة، ففي هذا العصر أخذ علم اللغة بالاستقلال، وظهر علماء اشتغلوا بتعريف الألفاظ واشتقاقها ومعانيها وترتيبها على الأبجدية تمهيدًا لوضع المعاجم التي لم تظهر ناضجة إلا في العصر العباسي الثالث.

فالأدب هنا يقسم إلى ثلاثة أقسام:

(١) الأدب كما هو، ويدخل فيه الأخبار والأمثال والأشعار وغيرها.
(٢) النحو.
(٣) اللغة فنتكلم عن كل منها على حدة.

وقبل التقدم إلى ذلك لا بد لنا من التنبيه إلى أمرين مهمَّين في تاريخ آداب اللغة: الأول أن الأغراض السياسية التي ذكرناها في صدر العصر العباسي الأول من تفضيل أهل الكوفة على أهل البصرة وإثارة المنافسة بين البلدين ضعفت في هذا العصر، وفرغ البصريون والكوفيون من الغرض الذي أحيا ذينك البلدين لقربهما من البادية وسطًا بين الحضارة والبداوة، واستبحر عمران بغداد وغلبت الحضارة على نفوس المسلمين، فأخذ الأدباء وطلاب العلم في الانتقال إلى بغداد، وخصوصًا بعد أن سطا صاحب الزنج على البصرة وأخربها، والأمر الثاني أن نقل العلوم إلى اللغة العربية أكسبها ميلًا إلى تأليف الكتب وغيرها، على مثال ما شاهدوه هناك من الكتب الجامعة لمواضيع مختلفة والتوسع في الموضوع الواحد، فالكتب التي جاء ذكرها لأصحاب العصر الأول أوفاها ما

كتب في الفقه والسيرة النبوية والطبقات والفتوح والنحو، أما في هذا العصر فعمدوا إلى التأليف في سائر المواضيع العلمية والأدبية والفلسفية والتاريخية وغيرها، وإن لم ينضج التأليف على الإجمال إلا في العصر الآتي.

(١) مميزات الأدب

يمتاز الأدب في هذا العصر بأشياء أهمها:

(١) أنه كان في العصر الماضي مقصورًا على النقل بلا تصرف، وإنما كان هم الأديب أن يروي ما سمعه بالإسناد إلى الراوي أو سرد ما عاينه كما كان يفعل حماد والأصمعي وأبو عبيدة، فأصبح يتدبر تلك المرويات ويبني عليها أو يستنتج منها حكمة أو عظة كما فعل الجاحظ وابن قتيبة وغيرهما، والسبب في ذلك اتساع اختبارهم وتعودهم النظر والتدبر بما اطلعوا عليه من كتب الأدب التي نقلت إلى العربية من الفارسية والهندية، وكتب المنطق وتحليل القياس ونحوهما عن اليونانية.[١]

(٢) أن ما ألم بالأمة من تغير الحال لفساد الحكومة وتوالي النكبات على الخلفاء حوَّل همَّ المفكرين إلى نشر الحكم وأخبار الزهد والزهاد وأقوال الحكماء، وسير رجال العدل والحزم التي يترتب عليها العظة والاعتبار مع الحث على الاقتداء بهم لرد الناس عن غيهم وتعزية المصابين والمظلومين، فأخذوا يجمعون ذلك في كتب الأدب.

(٣) أخذوا يجمعون شتات أخبار العرب على اختلاف مواضيعها ومآخذها في كتاب واحد أو بضعة كتب، وترتيبها في أبواب مبنية على الحكمة المستفادة منها للأسباب التي قدَّمناها، كما في الموشى والعقد الفريد.

(٤) تغيرت وجهة الأدب في نظر الأدباء؛ فقد كان الغرض منه بالأكثر طلب الرزق في دور الخلفاء بما كان لهؤلاء من الرغبة في الاطلاع على أخبار العرب وأشعارها وأمثالها، فأصبح في هذا العصر صناعة علمية في الإنشاء والتأليف، وقل المقتصرون عليها منهم، وانصرفت القرائح بالأكثر إلى الاشتغال في النحو واللغة، ولم ينقطع للاشتغال بالأدب بالمعنى الذي قدمناه إلا قليلون، وقد اخترنا بضعة منهم غلب عليهم الاشتغال بالأدب مع اشتغالهم بفنون أخرى من التاريخ أو السياسة أو الشعر، وهذه تراجمهم حسب سني الوفاة.

(٢) أدباء العصر العباسي الثاني

(٢-١) الجَاحظ (توفي سنة ٢٥٥هـ)

هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي بالولاء، من أهل البصرة، ويعرف بالجاحظ لجحوظ عينيه، واشتهر بقبح خلقته، وكان جده أسود اللون جمالًا لعمرو بن قلع الكناني. وبلغ الجاحظ من الذكاء وجودة القريحة وقوة العارضة والتفكير ما جعله من كبار أئمة الأدب، نشأ في البصرة وهي آهلة بالأدباء والنحاة وأصحاب اللغة، ونبغ في كل ذلك، وبلغ خبره إلى المتوكل وكان عازمًا على اختيار من يؤدب ولده فاستقدمه إليه في سُرَّ من رأى، فلما رآه استبشع منظره فأمر له بعشرة آلاف درهم وصرفه، وله أخبار كثيرة تتعلق بقبح منظره، وأصيب في أواخر أيامه بالفالج النصفي؛ فكان يطلي نصفه الأيمن بالصندل والكافور لشدة حرارته والنصف الآخر لو قرض بالمقاريض ما أحس به من شدة برده في اصطلاحهم، وكان قد اشتهر وذاع صيته في العالم الإسلامي؛ فتقاطر الناس لمشاهدته والسماع منه، فلا يمر أديب أو عالم بالبصرة إلا طلب أن يرى الجاحظ ويكلمه، وكان إذا طلب أحد أن يراه أن يراه يقول: «وما تصنع بشق مائل ولعاب سائل ولون حائل؟!» وتوفي بالبصرة سنة ٢٥٥.

وهو إمام الأدباء في العصر العباسي الثاني، وله أساليب ومذاهب وآراء في الأدب واللغة خاصة به، واشتهر بطريقة في الإنشاء تنسب إليه تحداه بها الناس وعرفت باسمه. فهو قدوة المنشئين وإمامهم في هذا العصر كما كان ابن المقفع إمامهم في العصر الأول — وسنعود إلى ذلك.

الجاحظية

وكان الجاحظ من فضلاء المعتزلة جماعة المفكرين في ذلك العهد، تلقى العلم على أبي إسحاق إبراهيم بن سيار البلخي المعروف بالنظام المتكلم المشهور، وكان علم الكلام قد نشأ على أثر نقل الفلسفة والتبحر فيها، وطالع الجاحظ كثيرًا من كتب الفلاسفة، وانفرد عن سائر المعتزلة بمسائل تابعه بها جماعة عرفوا بالجاحظية، ومن مذهبه أن المعارف كلها ضرورية وليس فيها شيء من أفعال العباد، وإنما هي طبيعية، وليس للعباد كسب سوى الإرادة، وأن العباد لا يخلدون في النار بل يعبرون من طبيعتها، وأن الله لا يدخل أحدًا النار وإنما النار تجذب أهلها بنفسها وطبيعتها، وأن القرآن المنزل من

قبيل الأجساد، ويمكن أن يصير مرة رجلًا ومرة حيوانًا، وأن الله لا يريد المعاصي وأنه لا يرى، وأن الله لا يريد بمعنى أنه لا يغلط ولا يصح في حقه السهو فقط، وأنه يستحيل العدم على الجواهر من الأجسام وإنما الأعراض تتبدل والجوهر باقٍ، ونحو ذلك.[٢]

مؤلفاته

خلف الجاحظ مؤلفات عديدة طبع كثير منها ونشر، هاك أهمها:

(أ) كتاب البيان والتبيين: (ويقال: التبين والتبيان) في الأدب والإنشاء والخطابة وأبحاث في البيان والخطابة والخطباء والسجع والشعر والشعراء والنساك والزهاد، وأمثلة من خطب النبي والخلفاء، وفي اللحن واللحانين وأحاديث ونوادر وغير ذلك، وهو أصدق مثال للإنشاء في أواسط القرن الثالث للهجرة، وقد طبع بمصر سنة ١٣١٣ وغيرها في مجلدين.

(ب) كتاب الحيوان: هو أقدم كتاب في علم الحيوان بالعربية، ويختلف عن كتب الحيوان المعروفة بأنه يشتمل على وصف طبائع الحيوانات من حيث علاقتها بالناس، ويتخلل ذلك فوائد أدبية واجتماعية وتاريخية، وقد طبع بمصر سنة ١٩٠٦ في ٤ مجلدات.

(ج) كتاب المحاسن والأضداد والعجائب والغرائب: في اللغة طبعه المستشرق فان فلوتن في ليدن سنة ١٨٩٧ في ٤٠٠ صفحة، ثم طبع بمصر سنة ١٩٠٦.

(د) كتاب أخلاق الملوك: في الأدب، منه نسخة خطية بمكتبة أيا صوفيا.

(هـ) كتاب تنبيه الملوك والمكائد: منه نسخة خطية بمكتبة كوبرلي.

(و) كتاب البخلاء: في الأدب، طبع غير مرة في أوروبا ومصر.

(ز) كتاب سحر البيان: في كوبرلي.

(ح) كتاب فضائل الأتراك: في أيا صوفيا، وطبع بمصر مضبوطًا بالشكل سنة ١٨٩٨.

(ط) كتاب سلوة الحريف في المناظرة بين الربيع والخريف: طبع بالآستانة سنة ١٣٠٢ وفي مصر ٤٤ صفحة.

(ي) كتاب العرافة والزجر والفراسة: على مذاهب الفرس خط في مكتبة ليدن.

(ك) المختار من كلام الجاحظ: وحكم علي: بمكتبة برلين.

(ل) رسالة في بني أمية: في المكتبة الخديوية.

(م) ثلاث رسائل طبعت في ليدن، و١١ رسالة طبعت بمصر.
(ن) كتاب طبقات المغنين: ذكرته مجلة المنتقد (مجلد ٢ ج٨).
(س) كتاب التاج: في جملة كتب زكي باشا تحت الطبع بمصر.

وترجمة الجاحظ في ابن خلكان ٣٨٨ ج١، وطبقات الأدباء ٢٥٤.

(٢-٢) السُّكَّري (توفي سنة ٢٧٥هـ)

هو أبو سعيد الحسن بن الحسين بن عبيد الله بن عبد الرحمن بن العلاء السكري النحوي، وقد ذكرناه بين الرواة والأدباء؛ لاشتغاله بجمع الأشعار، وكان راوية البصريين، وهو الذي جمع أهم ما بين أيدينا من أشعار الجاهليين وصدر الإسلام إلى أيامه من القبائل والأفراد، فمن الأفراد الذين عمل السكري أشعارهم؛ أي جمعها في دواوين: امرؤ القيس، وزهير، والنابغة، والحطيئة، ولبيد، ودريد بن الصمة، وعمرو بن معديكرب، والأعشى، والمهلهل، ومتمم بن نويرة، وأعشى باهلة، وبشر بن أبي حازم، والمتلمس، والمسيب، وحميد بن ثور، وحميد الأرقط، وعدي بن زيد، وعدي بن الرقاع، وغيرهم مما يطول بنا بسطه. وقد ذكرهم ابن النديم في الفهرست مطولًا (صفحة ١٥٧)، وذكر بجانب كل شاعر من عمل شعره غير السكري أيضًا، ومن القبائل التي جمع السكري أشعارها: بنو ذهل، وبنو شيبان، وبنو أبي ربيعة، وبنو يربوع، وغيرها كثير.

فدواوين الشعراء الأفراد لا يزال بين أيدينا منها جانب ذكرناه في مواضعه، وإن لم يذكر في صدور الدواوين من جمعها، ومما ينسب إلى السكري (١) شرح ديوان امرئ القيس. وقد جاء ذكر بعض دواوين الأفراد التي جمعها السكري في كتب الأدب عرضًا. أما أشعار القبائل فلم يبق منها إلا ديوان الهذليين، وقد وصل إلينا مقتضبًا مع شرح قليل، ومنه نسخة خطية في مكتبتي باريس وليدن، وقد طبع القسم الأول منه في لندن سنة ١٨٥٤ في نحو ٣٠٠ صفحة كبيرة تحتوي على أشعار نحو ثلاثين شاعرًا من الهذليين وأخبارهم، وعنوان هذا الجزء «كتاب شرح أشعار الهذليين صنعه أبو سعيد الحسن بن الحسين السكري رواية أبي الحسن علي بن عيسى بن علي النحوي عن أبي بكر أحمد بن محمد الحلواني عنه.» وفي صدر هذه الطبعة مقدمة إنكليزية عن تاريخ هذا الكتاب والمفضليات والحماسة، وهناك كتاب لما بقى من أشعار الهذليين غير ما جمعه السكري، طبع في برلين سنة ١٨٨٤.

وللسكري (٢) كتاب أخبار اللصوص: فيه أخبار بعض لصوص الأعراب نشرت قطعة منه في ليدن سنة ١٨٥٩، وله (٣) شرح ديوان جران العود النميري منه نسخة خطية بالمكتبة الخديوية، وله (٤) كتاب النبات ضاع. وترجمة السكري في طبقات الأدباء ٢٧٤، ومعجم الأدباء ٦٢ ج٣، والفهرست ٧٨ و١٥٧ و١٥٩.

(٢-٣) ابن قُتَيبة (توفي سنة ٢٧٦هـ)

هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، ولد في الكوفة سنة ٢١٣، وتثقَّف على أهلها، وسكن بغداد، وتولى قضاء الدينور فنسب إليها، وكان عالمًا في اللغة والنحو والشرع، متفننًا بالعلوم، صادقًا فيما يرويه، مستقل الفكر، جريئًا في قول الحق، وهو أول من تجرأ على النقد الأدبي، فألَّف في أكثر فنون الأدب المعروفة، والباقي من مؤلفاته إلى اليوم حسن وشائع، وبعضها من أمهات كتب التاريخ والأدب، وهاك ما وصل إلينا خبره منها:

(أ) عيون الأخبار: في عشرة كتب: (١) كتاب السلطان. (٢) كتاب الحرب. (٣) كتاب السؤدد. (٤) كتاب الطبائع والأخلاق. (٥) كتاب العلم بأخبار العلم والعلماء. (٦) كتاب الزهد. (٧) كتاب الإخوان. (٨) كتاب الحوائج. (٩) كتاب الطعام. (١٠) كتاب النساء. طبع في ويمار سنة ١٨٩٨ بعناية بروكلمن، وفي مصر سنة ١٩٠٧ في مجلدين كل مجلد يدخل في مائة صفحة، ومنه نسخ خطية في مكاتب بطرسبرج والآستانة، وهو أول كتاب في نوعه من أمهات كتاب الأدب.

(ب) كتاب المعارف: هو من قبيل كتب التاريخ العام ومن أقدمها، فيه خلاصة تاريخ الخلق والأنبياء، وأنساب العرب، وسيرة النبي ومغازيه، وأخبار الصحابة والتابعين والقراء ورواة الشعر، وصناعات الأشراف، وأهل العاهات، ونوادر الحوادث، والأديان، وأخبار ملوك العرب والعجم، وقد طبع في غوتنجن بعناية ووستنفيلد سنة ١٨٥٠، وفي مصر سنة ١٣٠٠.

(ج) كتاب الشعر والشعراء: ويسميه بعضهم طبقات الشعراء أو كتاب الشعراء أو أخبار الشعراء، وكلها واحد، وهو يحتوي على تراجم «المشهورين من الشعراء الذين يعرفهم جل أهل الأدب والذين يقع الاحتجاج بأشعارهم في الغريب وفي النحو وفي كتاب الله»، ويدخل في ذلك أخبار أشهر شعراء الجاهلية وصدر الإسلام إلى أيام المؤلف، وأمثلة

من أشعارهم، وفيه نظر وانتقاد، وقد طبع في ليدن بعناية دي غويه سنة ١٩٠٤، وفي مصر سنة ١٩٠٥.

(د) أدب الكاتب: يبحث فيما يحتاج إليه الأديب في صناعة الكتابة من الآداب والعلوم، وإصلاح ما كان يقع فيه الكتاب بأيامه من الخطأ أو الوهم في معاني الألفاظ أو الاشتقاقات والتراكيب مما نحن في حاجة إليه حتى اليوم، وقد قسم ذلك إلى أبواب في إقامة الهجاء وتقويم اللسان والأبنية، وقد لخص هذا الكتاب وشرح غير مرة، ومنه نسخ خطية في المتحف البريطاني ومكاتب فينا وبطرسبرج، وقد طبع في ليبسك سنة ١٨٧٧ مع خلاصة إنكليزية لسيرول، وطبع أيضًا في مصر مرارًا. وله شروح عديدة أشهرها شرح البطليوسي المتوفى سنة ٥٣٩هـ، طبع في بيروت سنة ١٩٠١، ويعرف بالاقتضاب.

(هـ) الإمامة والسياسة: هو تاريخ الخلافة وشروطها بالنظر إلى طلابها من وفاة النبي إلى عهد الأمين والمأمون، طبع بمصر سنة ١٩٠٠، ومنه نسخ خطية في مكاتب باريس ولندن ومصر.

(و) كتاب الشراب أو الأشربة: في اختلاف العلماء فيما يحل من الأشربة أو يحرم، منه نسخة خطية في لندن وفي المكتبة الخديوية، وطبع بمصر سنة ١٩٠٧.

(ز) كتاب التسوية بين العرب والعجم وتفضيل العرب: هو ضد الشعوبية نقل منه صاحب العقد الفريد فصلًا في صفحة ٧١ ج٢، ونشرت له مجلة المقتبس رسالة في الرد على الشعوبية (مجلد ٤).

(ح) تأويل مختلف الحديث: منه نسخ خطية في مكتبتي برلين وليدن.

(ط) كتاب مشكل القرآن: منه نسخ خطية في مكتبتي ليدن وكوبرلي.

(ي) المشتبه من الحديث والقرآن: منه نسخة خطية في المكتبة الخديوية.

(ك) كتاب المسائل والجوابات: أكثره في الحديث، منه نسخة في مكتبة غوطا.

وقد ذكر صاحب الفهرست كتبًا أخرى لابن قتيبة أهمها كتاب «معاني الشعر الكبير» في ١٢ كتابًا، وفي مكتبة أيا صوفيا بالآستانة نسخة من كتاب اسمه «الشعر الكبير» لابن قتيبة لعله هو أو بعضه، وكتاب «عيون الشعر» في عشرة كتب، وغير ذلك من كتب النحو والأدب والحديث واللغة، ووقف الأب شيخو على كتاب ينسب إلى ابن قتيبة لم يذكره صاحب الفهرست ولا غيره، نعني كتاب «الرجل والمنزل» وجده في مكتبة الظاهر بدمشق ونشره في السنة ١١ من المشرق، وهو من قبيل مفردات اللغة التي

ذكرناها للأصمعي وأبي عبيدة. وفي كتب الشنقيطي بالمكتبة الخديوية نسخة من كتاب خطي اسمه «كتاب العرب وعلومها» لابن قتيبة.

وترجمة ابن قتيبة في ابن خلكان ٢٥١ ج١، وطبقات الأدباء ٢٧٢، والفهرست ٧٧.

(٢-٤) ابن أبي الدنيا (توفي سنة ٢٨١هـ)

هو أبو بكر عبيد الله بن محمد بن عبيد مولى قريش، كان يؤدب المكتفي بالله، وله علم بالأخبار، وذكر له الفهرست مؤلفات كثيرة في الأدب والأخبار لم يصلنا منها إلا:

(أ) الفرج بعد الشدة: مجموع أخبار اتفقت لأناس أصابهم فيها بعد الشدة فرج، منه نسخ في برلين وليدن، وطبع بمصر سنة ١٩٠٦. نحا فيه منحى المدائني المتوفى سنة ٢٢٥ أول من ألَّف في هذا الموضوع، ثم تحداهما سواهما حتى انتهى ذلك إلى القاضي التنوخي المتوفى سنة ٣٨٤هـ، فألف كتابه الفرج بعد الشدة طبع بمصر سنة ١٩٠٤ في مجلدين، وفي مقدمته تاريخ التأليف في هذا الموضوع.

(ب) مكارم الأخلاق.

(جـ) وذم الملاهي: منهما نسختان خطيتان في برلين.

(د) فضائل عشر ذي الحجة: في ليدن.

(هـ) كتاب من عاش بعد الموت: في منشن.

(و) اليقين: في كوبرلي بالآستانة.

(ز) الشكر: في نور عثمانية.

(حـ) قرى الضيف: في مكتبة لاندبرج.

وترجمة ابن أبي الدنيا في فوات الوفيات ٢٣٦ ج١، والفهرست ١٨٥.

(٢-٥) قُدَامة بن جعفر (المتوفى سنة ٣١٠هـ)

هو قدامة بن جعفر بن قدامة الكاتب البغدادي. كان أبوه نصرانيًّا، وأسلم في أيام المكتفي (سنة ٢٨٩–٢٩٥)، وتولى منصبًا كبيرًا في الدولة العباسية، وكان أديبًا شاعرًا ألَّف كتبًا كثيرة ذكرها صاحب الفهرست (صفحة ١٣٠) لم يصلنا منها إلا:

(أ) كتاب نقد الشعر: وهو أول كتاب مستقل في هذا الموضوع، وسنعود إليه، طبع في الآستانة سنة ١٣٠١.

(ب) كتاب نقد النثر: ويعرف بكتاب البيان، منه نسخة خطية في الإسكوريال.

(جـ) كتاب الخراج: سيأتي ذكره في الكلام على الجغرافية.

(٢-٦) الوشَّاء (في القرن الثالث)

هو أبو الطيب محمد بن أحمد بن إسحاق الأعرابي الوشاء، أحد الأدباء الظرفاء في أواخر القرن الثالث للهجرة، غلب عليه تصنيف كتب الأشعار والأخبار. ذكر له صاحب الفهرست نحو ٢٠ كتابًا في النحو والأدب لم يصلنا منها إلا كتابان:

(أ) كتاب الموشى: وهو فريد في بابه يمثل آداب ذلك العصر، ويتخلله كثير من المواعظ والحث على المصادقة والإخلاص والتعفف، وفيه وصف الأزياء التي كانت شائعة يومئذ على اختلاف الطبقات، وما اختير من الألفاظ للمكاتبات، وفيه فصول ضافية فيما كانوا يكتبونه من الأشعار على الثياب والأعلام والعصائب والزنانير والمناديل والستور والوسائد حتى النعال، وعلى المجالس وآنية الشراب والعيدان، فهو فريد ببابه، ومنه نسخة خطية في ليدن، وقد طبع فيها سنة ١٨٨٧، وفي مصر سنة ١٣٢٤، وسموه كتاب الظرف والظرفاء.

(ب) كتاب تفريج المهج وسبب الوصول إلى الفرج: منه نسخة خطية مختصرة في مكتبة برلين، وتجد أخبار الوشاء في الفهرست ٨٥، وطبقات الأدباء ٣٧٤.

(٢-٧) ابن عبد ربِّه (توفي سنة ٣٢٨هـ)

هو أبو عمر أحمد بن محمد عبد ربه القرطبي صاحب العقد الفريد، أصله من موالي بني أمية في الأندلس، توفي سنة ٣٢٨ (وقيل: ٣٤٨)، وكان من العلماء المكثرين من المحفوظات والاطلاع على أخبار الناس، وكان شاعرًا مطبوعًا، وإنما اشتهر بكتابه العقد الفريد. وفي شعره ميل إلى الشعر القصصي؛ أي سرد القصة شعرًا، وهو قليل في العربية، له فيه أرجوزة قصَّ فيها تاريخ عبد الرحمن الناصر صاحب الأندلس حسب السنين، وكان معاصرًا له، وهي منشورة في الجزء الثاني من العقد الفريد.

العقد الفريد، أما العقد الفريد فإنه من أَجَلِّ كتب الأدب وأحواها، أو هو كالخزانة حوت خلاصة علوم ذلك العصر، حتى الطب والموسيقى، فضلًا عن الأخبار والأنساب واللغة والأمثال والشعر والعروض وقواعده، في ثلاثة مجلدات تزيد صفحاتها على ألف صفحة كبيرة، وهو مقسوم حسب المواضيع، وقد تأنَّق صاحبه في تقسيمه وتسمية أبوابه؛ فسماها بأسماء الحجارة الكريمة تطبيقًا لاسم الكتاب «العقد الفريد»، ويشتمل الجزء الأول على السلطان والحروب والأجواد والأصفاد والوفود والعلم والأدب والأمثال والمواعظ، والثاني في التعازي والمراثي والنسب وفضائل العرب وكلام الأعراب والأجوبة والخطب والتوقيعات وأخبار الكتبة، والثالث في أخبار زياد والحجاج والطالبيين والبرامكة وأيام العرب ووقائعها وفضائل الشعر وعلم الألحان والنساء والمتنبئين والممردين والبخلاء، وطبائع الإنسان، وفي الطعام والشراب.

وفي بعض هذه الأبواب فصول تاريخية لا تجد مثلها في كتب التاريخ، فأخبار زياد والحجاج والطالبيين فيها حقائق يعز العثور عليها في كتاب آخر، وناهيك بأيام العرب وأعاريض الشعر وما هناك من أخبار الخوارج والأزارقة؛ فضلًا عن كثير من الأقوال المأثورة عن عظماء الملوك، نقلًا عن كتب ضاعت أصولها، فالعقد الفريد خزانة فوائد، وهو من أمهات كتب الأدب الثقة، ويؤخذ من مطالعته أنه حوى خلاصة ما في الكتب السالفة يومئذ للأصمعي وأبي عبيدة والجاحظ وابن قتيبة وابن الكلبي وغيرهم، غير القرآن والحديث والتوراة والإنجيل، ولم يقتصر فيما جمعه على ما عرفه العرب، بل نقل عن الكتب التي ترجمت إلى العربية في ذلك الزمن عن اليونانية والهندية والفارسية، وهو يشير إلى ذلك في كلامه، وقد طبع العقد الفريد مرارًا في ثلاثة مجلدات وهو شائع، ومنه نسخ خطية في أكثر مكاتب أوروبا، وليس له سواه.

وترجمة ابن عبد ربه في ابن خلكان ٣٢ ج١، ومعجم الأدباء ٦٧ ج٢، ويتيمة الدهر ٣٦٠ و٤١٢ ج١.

(٢-٨) أبو بكر الصولي (المتوفى سنة ٣٣٥هـ)

هو محمد بن يحيى الصولي، ويعرف بالشطرنجي، ويتصل نسبه بملوك جرجان. كان عالمًا بفنون الأدب، حسن المعرفة بآداب الملوك، حاذقًا بتصنيف الكتب، وألعب أهل زمانه في الشطرنج، وكان نديمًا لجماعة من الخلفاء، وجمع أشعار كثيرين كما فعل السكري بأشعار القدماء، وقد أشرنا إلى شيء من ذلك في أماكنه كديوان ابن المعتز، وديوان أبي تمام

وأبي نواس والبحتري، وألف في أخبار الخلفاء وأشعارهم كتابًا سماه «الأوراق في أخبار آل العباس وأشعارهم» قال ابن النديم: «إنه لم يتمَّه، والذي خرج منه أخبار الخلفاء وأشعار أولاد الخلفاء من السفاح إلى أيام المعتز.» ولكن في المكتبة الخديوية نسخة بهذا الاسم للصولي هي من قبيل أخبار الشعراء رتب أسماءهم على أحرف الهجاء، وأكثره في أخبار أبان اللاحقي شاعر البرامكة وأبنائه الشعراء، كمحمد بن أبان وأبان بن حمدان بن أبان وغيرهما، وأخبار أشجع بن عمرو السلمي وأشعاره مرتبة في أبواب، وأحمد بن يوسف وزير المأمون وآله، وابن صبيح كاتب دولة بني العباسي، وتوقيعات أحمد المذكور وكلامه فضلًا عن أشعاره، وجاء في آخر الكتاب أنه شرع بترجمة إسحاق بن إبراهيم الموصلي، وتوفي قبل أن يتمها، وذلك يختلف عما ذكره ابن النديم.

وله كتب أخرى هامة ذكرها كشف الظنون ولم نقف عليها، وأخباره في طبقات الأدباء ٣٤٣، والفهرست ١٥٠ و١٥٦.

(٣) أدباء آخرون

ومن الأدباء والرواة في هذا العصر أيضًا أبو العيناء المتوفى سنة ٢٨٢هـ، وجحظة البرمكي (٣٢٦هـ)، وأبو بكر بن مروان الدينوري المالكي المتوفى سنة ٣١٠، له كتاب المجالسة، وفيه أخبار وآداب منه نسخة في باريس، وإبراهيم بن أبي عون الكاتب، توفي سنة ٣٢٢، وله كتاب لب اللباب في جوابات ذوي الألباب، منه نسخة في برلين، وأبو الأزهر بن مزيد النحوي (٣٢٥)، له أخبار عقلاء المجانين في الإسكوريال، (ولأبي القاسم النيسابوري المتوفى سنة ٤٠٦ كتاب بهذا الاسم في مكتبة برلين)، وأبو بكر الخرائطي السامري المتوفى سنة ٣٢٧ له كتاب اعتلال القلوب في المكتبة الخديوية ومكارم الأخلاق في ليدن.

(٤) الإنشاء

رأيت ما كان من أسلوب الإنشاء في صدر الإسلام من البلاغة والإيجاز، حتى انتهى في العصر الأموي إلى عبد الحميد الكاتب، فأطال الرسائل وأدخل التحميدات في فصول الكتب. فلما كان العصر العباسي الأول نبغ ابن المقفع، وهو إمام المنشئين في ذلك العصر كما يظهر في ترجمة كليلة ودمنة، وهو إنشاء مرسل بلا تسجيع ولا تقطيع.

(٤-١) أسلوب ابن المقفع

لكنه كان إذا أراد التأنق في الإنشاء في معرض الخطابة أو التهديد أو التنبيه عمد إلى السجع، ونوَّع عبارته تنويعًا خاصًّا كما فعل في كتبه الأخرى، ولا سيما اليتيمة والأدب الصغير، فمن ذلك قوله في اليتيمة:

> إذا كان سلطانك عند جدة دولة، فرأيت أمرًا استقام بغير رأي، وأعوانًا جزوا بغير نبل، وعملًا أنجح بغير حزم، فلا يغرنك ذلك ولا تستنم إليه فإن الأمر الجديد مما تكون له مهابة في أنفس أقوام وحلاوة في أنفس آخرين.

وقد يتفنن في تقطيعه كقوله: «وجدنا الناس قبلنا كانوا أعظم أجسادًا، وأوفر مع أجسادهم أحلامًا، وأشد قوة وأحسن بقوتهم للأمور إتقانًا، وأطول أعمارًا وأفضل بأعمارهم للأشياء اختبارًا.»

وفي كل حال لا بد من التمييز بين إنشاء الكتب وإنشاء الرسائل أو المقالات الأدبية ونحوها، فإنشاء الكتب لا يزال مرسلًا بلا سجع أو تقطيع مثل كتاب كليلة ودمنة، وأما الرسائل أو المقالات الأدبية أو الفصول التي يصدرون بها الكتب فهي من قبيل الخطب، فالكاتب يتأنَّق بها ويبذل جهده في تنميقها كما فعل ابن المقفع في كتابه الدرة اليتيمة التي أتينا بالمثالين المذكورين منها — فالتنويع الذي يصيب الإنشاء بتوالي الأعصر إنما يقع على هذا الإنشاء في الغالب، وما يصدق عليه يصدق على الخطب.

(٤-٢) أسلوب الجاحظ

فلما دخل العصر العباسي الثاني نبغت طبقة من الكتاب المنشئين لا يشَقُّ لهم غبار إمامهم الجاحظ وضع أسلوبًا في الإنشاء تحدوه فيه؛ وذلك أنه جعل الجملة قطعًا صغيرة كالشعر لكن بدون وزن ولا قافية، أو هو سجع لا تشترط فيه القافية كقوله: «جنبك الله الشبهة، وعصمك من الحيرة، وجعل بينك وبين المعرفة سببًا وبين الصدق نسبًا، وحبب إليك التثبت، وزين في عينك الإنصاف، وأذاقك حلاوة التقوى، وأشعر قلبك عز الحق، وأودع صدرك برد اليقين، وطرد عنك ذل اليأس … إلخ.»

وقد أدخل الدعاء حشوًا معترضًا يوجه إلى المخاطب بصيغة المفرد كقوله:

> وليس حفظك الله مضرة سلاطة اللسان عند المنازعة، وسقطات الخطل يوم إطالة الخطبة، بأعظم مما يحدث عن العي من اختلال الحجة، وعن الحصر من فوات درك الحاجة، والناس لا يعيرون الخرس، ولا يلومون من استولى على بيانه العجز، وهم يذمون الحصر ويؤنبون العي ... إلخ.

وهذا الأسلوب في الإنشاء ينسب إلى الجاحظ، وقد توخاه معاصروه، فنسجوا على منواله كابن قتيبة والمبرد وابن ثوابة وغيرهم، ومن أمثلة ذلك قول حمزة الأصفهاني جامع ديوان أبي نواس، فإنه من أهل العصر الثاني، وأسلوبه كأسلوب الجاحظ — قال في مقدمة الديوان المذكور:

> سألتني أبقاك الله وأعلى قدرك وبلغك أقصى أملك، وزادك من أفضل ما خولك، وأحسن ما منحك، ولا أعدمك جميل ما عودك، أن أصرف لك عنايتي إلى عمل مجموع من شعر أبي نواس، يشتمل على كل أشعاره، وجل أخباره، وقد أسعفتك أيدك الله بطلبتك وأجبتك إلى ملتمسك ... إلخ.

وهم يرون النزوع إلى هذا التكرار أكثر إبلاغًا للمعنى، وأشد تأثيرًا في النفس حتى رأيناهم ينتقدون ما كان شائعًا من الإيجاز في صدر الإسلام، كقول يزيد لما كتب إلى مروان حين بلغه تلكؤه في بيعته: «أما بعد، فإني أراك تقدم رجلًا وتؤخر أخرى، فاعتمد على أيهما شئت.» قال ابن قتيبة في أدب الكاتب: «إن هذا لو قيل الآن لم يأت بالتأثير المطلوب، والصواب أن يطيل ويكرر ويعيد ويبدئ ويحذر وينذر ...»

ولا يؤخذ من ذلك أن تكون أساليب الكتاب في ذلك العصر واحدة من كل وجه، فإن ذلك غير طبيعي، والطبيعي أن يكون لكل كاتب أسلوب يعرف به، ولكن أبناء العصر الواحد تتشابه أساليبهم، ويغلب أن يكون أحدهم مقدامًا يسيرون على خطواته فيقلدونه في أسلوبه كل منهم جهد طاقته، والجاحظ في هذا العصر إمام أهل الأدب وقدوة المنشئين.

(٥) كساد البضاعة وفساد العقيدة

وأصاب صناعة الأدب في هذا العصر كساد كما أصاب الشعر للأسباب التي قدمناها من فساد الدولة، واشتغال الملوك والأمراء عن التنشيط، وانصراف الناس إلى الفلسفة والطبيعيات والمنطق من العلوم الحادثة عندهم، وشيوع الشعوبية واحتقار العرب

والطعن على كفاءتهم وعلومهم، فأصبح الأدباء يشكون كساد بضاعة الأدب وفساد عقيدة الناس بالفلسفة وتقاعد الأدباء عن إتقان صناعة الإنشاء.

قال ابن قتيبة في أدب الكاتب: «رأيت كثيرًا من كتاب زماننا كسائر أهله، قد استطابوا الدعة، واستوطئوا مركب العجز، وأعفوا أنفسهم من كد النظر وقلوبهم من تعب الفكر، حين نالوا الدرك بغير سبب، وبلغوا البغية بغير آلة، ولعمري كان ذاك، فأين همة النفس وأين الأنفة من مجانسة البهائم، وأي موقف أخزى لصاحبه من موقف رجل من الكتاب اصطفاه بعض الخلفاء لنفسه، وارتضاه لسره فقرأ عليه يومًا كتابًا — وفي الكتاب «ومطرنا مطرًا أكثر عنه الكلأ.» فقال له الخليفة ممتحنًا: «وما الكلأ؟» فتردد في الجواب وتعثر لسانه ثم قال: «لا أدري.» فقال له: «سل عنه.» ومن مقام آخر في مثل حاله قرأ على بعض الخلفاء كتابًا ذكر فيه «حاضر طي»، فصحَّفه تصحيفًا أضحك منه الحاضرين.»

ذلك ما بعث ابن قتيبة على وضع كتابه المشار إليه، وذكر الشروط اللازمة لطالب هذه الصناعة، ولا سيما سعة الاطلاع في العلوم الإسلامية والأدبية؛ فضلًا عن اللغوية كإقامة الهجاء وتقويم اللسان وضبط الأبنية.

ومن انتقاده فساد عقيدة الأدباء في عصره قوله:

> رأيت أكثر أهل زماننا هذا عن سبيل الأدب ناكبين، ومن اسمه متطيرين ولأهله كارهين، أما الناشئ منهم فراغب عن التعليم، والشادي تارك للازدياد، والمتأدب في عنفوان الشباب ناسٍ أو متناسٍ ليدخل في جملة المجدودين ويخرج عن جملة المحدودين، فالعلماء مغمورون وبكثرة الجهل مقموعون، حين خوى نجم الخير وكسدت سوق البر، وبارت بضائع أهله، وصار العلم عارًا على صاحبه، والفضل نقصًا، وأموال الملوك وقفًا على النفوس، والجاه الذي هو زكاة الشرف، يباع بيع الخلق، وآضت المروءات في زخارف النجد وتشييد البنيان، ولذات النفوس في اصطفاق المزاهر، ومعاطاة الندمان، ونبذت الصنائع وجهل قدر المعروف، وماتت الخواطر، وسقطت همم النفوس، وزهد في لسان الصدق وعقد الملكوت، فأبعد غايات كاتبنا في كتابته، أن يكون حسن الخط، قويم الحروف، وأعلى منازل أديبنا أن يقول من الشعر أبياتًا في مدح قينة أو وصف كأس، وأرفع درجات لطيفنا، أن يطالع شيئًا من تقويم الكواكب، وينظر في

> شيء من القضاء وحدِّ المنطق، ثم يعترض على كتاب الله بالطعن وهو لا يعرف معناه، وعلى حديث رسول الله ﷺ بالتكذيب وهو لا يدري من نقله ... إلخ.

وتكاثر دعاة الإنشاء في ذلك العصر عن غير معرفة، وتوهَّموا أنه يحلو بالإكثار من اللفظ الغريب فأنحى عليهم ابن قتيبة باللائمة، وأتى مثلًا على ذلك بقول يحيى بن يعمر لرجل خاصمته امرأته فقال له: «إن سألتك ثمن شكرها وشبرك أنشأت تطلها وتضهلها.» وكقول عيسى بن عمر ويوسف بن عمر بن هبيرة يضربه بالسياط: «والله إن كانت إلا أثيابًا في أسيفاط قبضها عشاروك.» قال ابن قتيبة: «فهذا وأشباهه كان يستثقل والأدب غض، والزمان زمان، وأهله يتحلون فيه بالفصاحة، ويتنافسون في العلم، ويرونه تلو المقدار في درك ما يطلبون وبلوغ ما يؤمِّلون، فكيف به اليوم مع انقلاب الحال؟»

والمشهور أن عمدة كتب الأدب والإنشاء أدب الكاتب لابن قتيبة والكامل للمبرد والبيان والتبيين للجاحظ والنوادر لأبي علي القالي، ونزيد عليها العقد الفريد لابن عبد ربه والأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، وإذا أريد الإنشاء خاصة فكليلة ودمنة وسائر كتب ابن المقفع، وكلها مطبوع.

ذلك كان شأن الإنشاء في العصر العباسي الثاني وأكثر أدبائه من المنشئين، وسيخطو خطوة أخرى في العصر الآتي.

هوامش

(١) راجع تاريخ التمدن الإسلامي ١٥٢ ج٣ وبعدها.
(٢) الشهرستاني ٤٠ ج١.

النحو والنحاة

قد تقدم أن أدباء هذا العصر يجوز عدُّهم من النحاة؛ لأنهم اشتغلوا في النحو، وإنما جعلنا أكثرهم من الأدباء واللغويين؛ لأنهم اكتفوا من النحو بكتاب سيبويه ولم يتصدوا لتأليف كتاب يقوم مقامه، فانصرفت قرائحهم إلى ما دعت إليه المدنية من الاشتغال في الأدب واللغة، وأصبح تأليفهم في النحو من قبيل الكماليات، وإن كان قد ألف بعضهم فيه بين مختصر فيه أو في بعض أبوابه أو تعليقًا على كتاب سيبويه — فإن أصحاب هذه المختصرات أو التعليقات وغيرهم من الأدباء صرفوا عنايتهم إلى الأدب واللغة.

على أن بعضهم غلب عليه الاشتغال في النحو، فنتكلم عنهم في هذا الباب ونذكر ما وصل إلينا من مؤلفاتهم، وهم:

(١) أشهر النحاة في هذا العصر

(١-١) أبو عثمان المازني (توفي سنة ٢٤٩هـ)

هو أبو عثمان بكر بن محمد بن بقية المازني من أهل البصرة، أخذ عن أبي عبيدة والأصمعي، وإليه انتهى النحو في عصره، فكان هو شيخ أهله، وله مؤلفات كثيرة في النحو والعروض لم يصلنا منها شيء، وهو الذي امتنع عن تعليم الذمي كتاب سيبويه مع ما بذله له من المال؛ لئلا يمكنه مما حواه من الآيات، وقد عاصر الواثق بالله والمتوكل على الله وجالسهما، ونال جوائزهما، ومن جملتها جائزة على إعراب:

أظلوم إن مصابكم رجلًا　　　أهدى السلام تحية ظلمُ

في حديث طويل. وكان المازني معاصرًا لأبي عمر الجرمي المتوفى سنة ٢٢٥هـ، وهما عمدة النحو في البصرة يومئذ، والمازني أول من دوَّن علم التصريف، وكان قبل ذلك مندرجًا في علم النحو.

وترجمته في ابن خلكان ٩٢ ج١، ومعجم الأدباء ٣٨٠ ج٢، وطبقات الأدباء ٢٤٢.

(١-٢) أبو العباس ثعلب (توفي سنة ٢٩١هـ)

هو أبو العباس أحمد بن زيد بن سيار النحوي مولى بني شيبان، ويعرف بثعلب. ولد سنة ٢٠٠هـ، وتلقى العلم على ابن الأعرابي، وكان حجة مشهورًا بالحفظ وصدق اللهجة والمعرفة بالعربية ورواية الشعر القديم، فضلًا عن النحو واللغة، وكان إمام الكوفيين والبصريين في زمانه. أقام في بغداد، وتوفي فيها سنة ٢٩١هـ، وألف في أكثر فنون الأدب نحو ٢٢ كتابًا ذهب معظمها، وإليك ما وصل إلينا خبره منها:

(١) كتاب الفصيح: ويعرف بفصيح ثعلب. اختار فيه الفصيح من كلام العرب مما يجري في كلام الناس، طبع ليبسك سنة ١٨٧٦ في نحو ٧٠ صفحة، وقد ألف انتقادًا عليه أبو القاسم علي بن حمزة البصري، سماه كتاب التنبيه على ما في الفصيح من الغلط، منه نسخة خطية في الإسكوريال، وللشيخ أبي سهل الهروي شرح على الفصيح سماه التلويح في شرح الفصيح، طبع بمصر سنة ١٢٨٩، ومعه ذيل على الفصيح لموفق الدين البغدادي المتوفى سنة ٦٢٩، وشرحه أيضًا أبو العباس الترمذي شرحًا سماه شرح غريب الفصيح، منه نسخة خطية في مكتبة نور عثمانية بالآستانة، وقد كتب الزجاج نقدًا عليه، منه نسخة في كتب الشنقيطي بالمكتبة الخديوية.

(٢) كتاب قواعد الشعر: جاء في أوله أن قواعد الشعر أربع: أمر ونهي وخبر واستخبار، وأتى بأمثلة عليها من أقوال الشعراء الفحول، منه نسخة خطية في الفاتيكان، وقد طبع في ليدن سنة ١٨٩٠ في ٤٢ صفحة.

(٣) شرح ديوان زهير: منه نسخة خطية في مكتبة الإسكوريال.

(٤) شرح ديوان الأعشى: في تلك المكتبة أيضًا.

(٥) كتاب الأمالي: ذكره صاحب المزهر وخزانة الأدب، منه نسخة خطية في مكتبة برلين، وفي المكتبة الخديوية نسخة منه باسم مجالس ثعلب في ١٣٢ ورقة.

أخباره في ابن خلكان ٣٠ ج١، وطبقات الأدباء ٢٩٣، ومعجم الأدباء ١٣٣ ج٢، والفهرست ٧٤.

(١-٣) أبو إسحاق الزجاج (توفي سنة ٣١١هـ)

هو أبو إسحاق إبراهيم بن السري بن سهل الزجاج؛ سمي بذلك لأنه كان يخرط الزجاج، تلقى العلم على المبرد، وكان يدفع له الأجرة بمشقة لقلة ذات يده، ثم طلب بعضهم معلمًا من المبرد فدلهم عليه وصار مؤدبًا للقاسم بن عبيد الله بن سليمان، فكان ذلك سبب غناه، وله مؤلفات كثيرة هاك ما بقي منها:

(١) كتاب سر النحو: منه نسخة خطية في المكتبة الخديوية بخط قديم جدًّا تشتمل على باب ما ينصرف وما لا ينصرف، وفي آخره ما نصه: «قرأه علي أبو جعفر أحمد بن محمد مسمار في صفر سنة ٣٥١ إلخ ...» ولم يرد ذكر هذا الكتاب بين مؤلفات الزجاج في الفهرست.

(٢) كتاب الإبانة والتفهيم عن معنى بسم الله الرحمن الرحيم: منه نسخة في غوطا.

(٣) كتاب خلق الإنسان في اللغة: وفيه أسماء أعضاء الإنسان، ومنه نسخ خطية في المتحف البريطاني وفي المكتبة الخديوية.

(٤) كتاب معاني القرآن: منه نسخ في نور عثمانية بالآستانة وفي المكتبة الخديوية.

وتجد أخبار الزجاج في ابن خلكان ١١ ج١، ومعجم الأدباء ٤٧ ج١، وطبقات الأدباء ٣٠٨، والفهرست ٦٠.

(١-٤) ابن الأنباري (توفي سنة ٣٢٨هـ)

هو أبو بكر محمد بن القاسم بن محمد بن بشار الأنباري من أهل الأنبار، وهو غير كمال الدين الأنباري المتوفى سنة ٥٧٧هـ، كان أبوه أبو محمد الأنباري من أهل الأخبار والنحو فتلقى ابنه العلم عنه وعن ثعلب، وكان يضرب به المثل بسرعة الخاطر وحضور البديهة، وكان قوي الذاكرة يملي علمه مما حفظه في ناحية وأبوه في ناحية أخرى من المسجد في بغداد، وكان ابن الأنباري يحفظ ٣٠٠٠٠٠ بيت شعر وشاهد في القرآن، وقيل: كان يحفظ ١٢٠ تفسيرًا للقرآن بأسانيدها، وذلك من غرائب الحفظ، وألَّف في النحو واللغة

والأدب والقرآن والحديث، وكان يطيل التأليف فمن كتبه كتاب غريب الحديث قالوا: إنه ٤٥٠٠٠ ورقة، وشرح الكافي ١٠٠٠ ورقة، وقس عليهما، وإليك ما وصلنا من كتبه:

(١) كتاب الأضداد في النحو: طبع في ليدن سنة ١٨٨١، وفي مصر سنة ١٩٠٧.
(٢) كتاب الزاهر: في معاني كلمات الناس، منه نسخة خطية في مكتبة كوبرلي بالآستانة، وسيأتي ذكره في كلامنا عن الزاهر للزجاجي.
(٣) شرح المفضليات: منه نسخ خطية في أيا صوفيا ويني جامع والمكتبة الخديوية.
(٤) كتاب الإيضاح في الوقف والابتداء: منه نسخة في المتحف البريطاني وكوبرلي.
(٥) كتاب الهاءات في كتاب الله: منه نسخة في باريس.

وترجمته في ابن خلكان ٥٠٣ ج١، والفهرست ٧٥.

(١-٥) ابن ولاد (توفي سنة ٣٣٢هـ)

هو من تلاميذ الزجَّاج واسمه أبو العباس أحمد بن محمد بن ولَّاد، من أهل مصر، وقد توفي فيها، وخلف كتابًا في النحو اسمه المقصور والممدود، منه نسخ خطية في برلين وباريس، وقد طبع بمصر سنة ١٩٠٨، وهو جزيل الفائدة مرتب على حروف الهجاء.

(١-٦) أبو جعفر النحاس (توفي سنة ٣٣٨هـ)

هو أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس، من تلاميذ الزجاج، وقد يسمى الصفار، وهو غير ابن النحاس النحوي المتوفى سنة ٦٩٨هـ، أصله من مصر، ورحل إلى بغداد فأخذ عن المبرد والأخفش والزجاج وغيرهم، ثم عاد إلى مصر فأقام بها حتى مات، وكان صاحب فضل كثير وعلم واسع، وخلف مؤلفات كثيرة في اللغة والأدب والقرآن لم يصلنا منها إلا:

(١) شرح المعلقات السبع: منها نسخة خطية في المكتبة الخديوية.
(٢) كتاب إعراب القرآن: منه نسخة خطية في المكتبة الخديوية بخط جميل في ٢٧٧ ورقة كبيرة الحجم.
(٣) كتاب معاني القرآن: منه الجزء الأول فيها أيضًا.
(٤) ناسخ القرآن ومنسوخه: في المتحف البريطاني.

وتجد ترجمة النحاس في معجم الأدباء ٧٢ ج٢، وابن خلكان ٢٩ ج١، وطبقات الأدباء ٣٦٣.

(١-٧) أبو القاسم الزجاجي (توفي سنة ٣٣٩هـ)

هو عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي، من أفاضل النحاة من أهل نهاوند، أخذ عن الزجاج فنسب إليه، وتولى التعليم في دمشق وطبرية، ومات فيها، ولم يذكر له الفهرست إلا كتابًا في القوافي لم نقف عليه، وقد وصل إلينا مما ينسب إليه:

(١) كتاب الجمل في النحو: هو أهم مؤلفاته منه نسخ خطية في أكثر مكاتب أوروبا، وله شروح منها شرح ابن العريف منه نسخة في المكتبة الخديوية، وقد شرحه البطليوسي وانتقده هو وغيره، ومنها شرح لابن الضائع منه نسخة في المكتبة الخديوية قديمة الخط.
(٢) الزاهر: جمع فيه ألفاظ الزاهر للأنباري المتقدم ذكره والفاخر للمفضل بن سلمة الآتي ذكره مع تنقيح وتهذيب، منه نسخة خطية بالمكتبة الخديوية في ١٧٩ ورقة.
(٣) الأمالي في اللغة: طبع بمصر سنة ١٣٢٤.

وترجمته في ابن خلكان ٢٧٨ ج١، وطبقات الأدباء ٣٧٩، والفهرست ٨٠.
وهناك طائفة من النحاة نبغوا في هذا العصر أغضينا عن تراجمهم؛ لأنهم لم يصلنا من كتبهم ما يستحق الذكر، كابن الحائل وأبي عمرو الزاهد والحامض واليزيدي وابن السراج ونفطويه والمنذري والأخفش الأصغر وابن المرزبان وعمر الجرمي وغيرهم.

(٢) مذاهب البصريين والكوفيين في النحو

وفي هذا العصر وما بعده احتدم الجدال بين البصريين والكوفيين في قواعد النحو، واختلفوا في كثير من أحكامه وشروطه، وقد ألف في ذلك الاختلاف كثيرون أشهرهم كمال الدين الأنباري المتوفى سنة ٥٧٧هـ، ألف كتابًا في «الإنصاف في مسائل الخلاف»، وأبو البقاء العكبري ألف كتاب «التبيين في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين»، وقد لخص جلال الدين السيوطي ذلك عن هذين الكتابين في الجزء الثاني من كتابه الأشباه والنظائر، وهو مطبوع في حيدر أباد الهند سنة ١٣١٧هـ في أربعة مجلدات، وبلغ ما جمعه من مسائل الخلاف فيه مائة مسألة ومسألتين — هذه أمثلة منها:

عند البصريين	عند الكوفيين
الاسم مشتق من السمو	الاسم مشتق من الوسم
الأسماء الستة معربة في مكان واحد	معربة في مكانين
الفعل مشتق من المصدر	المصدر مشتق من الفعل
الاسم المنتهي بتاء التأنيث كطلحة لا يجمع بالواو والنون	يجمع
فعل الأمر مبني	معرب
المبتدأ مرتفع بالابتداء	المبتدأ يرفعه الخبر
الخبر إذا كان اسمًا مختصًّا لا يتضمن ضميرًا	يتضمن
يجوز تقديم الخبر على المبتدأ	لا يجوز
لا يقام مقام الفاعل الظرف والمجرور مع وجود المفعول	يقام
نعم وبئس فعلان مبنيان	اسمان
لا يبنى فعل التعجب من الألوان	يبنى من السواد والبياض
يجوز تقديم خبر ليس عليها	لا يجوز
لا يجوز دخول نون التوكيد على خبر لكن	يجوز
لا يجوز تقديم الاستثناء في أول الكلام	يجوز
يقال: قبضت الخمسة عشر درهمًا، ولا يقال: الخمسة العشر درهمًا	يجوز

اللغة واللغويون

وقد يعدُّ لغويو هذا العصر أيضًا من النحاة أو الأدباء، لكننا أفردناهم لاشتغالهم على الأكثر في اللغة. نعني الألفاظ من قبيل المعاجم أو ما هو في سبيلها، ويقال بالإجمال: إن المعاجم اللغوية لم تنضج إلا في العصر الآتي، على أن علماء هذا العصر مهدوا السبيل لذلك أكثر ممن تقدمهم من أهل العصور السابقة، فألَّف بعضهم كتبًا تشبه المعاجم كما سترى في تراجمهم وآثارهم، وهم:

(١) أبو عمر الهروي (توفي سنة ٢٥٥هـ)

هو أبو عمرو شمر بن حمدويه الهروي، كان ثقةً عالمًا، حافظًا للغريب، راوية للأشعار والأخبار، ولم يصلنا من كتبه شيء، وإنما ذكرناه لأنه ألَّف معجمًا في اللغة بدأ فيه بحرف الجيم على ترتيب الخليل لم يسبقه أحد إلى مثله، ولكنه ضاع ولم يبق إلا خبره، وقد ذكره صاحب طبقات الأدباء (صفحة ٢٦٠) في ترجمة المؤلف.

(٢) أبو حاتم السجستاني (توفي سنة ٢٥٥هـ)

هو أبو حاتم سهل بن محمد السجستاني. كان عالمًا باللغة والشعر، أخذ عن أبي زيد وأبي عبيدة والأصمعي، ولم يكن حاذقًا في النحو لكنه كثير التأليف للكتب. ذكر له صاحب الفهرست ٣٢ مؤلفًا أكثرها في اللغة من باب المعاني المجتمعة في أصل مشترك تدخل في باب واحد، ككتاب الحشرات، وكتاب خلق الإنسان، وكتب الوحوش والسيوف والإبل والجراد والكرم ونحوها، وليست هي من قبيل وصف هذه الموجودات الطبيعي أو

الطبي أو الزراعي، وإنما يراد بها الوجهة اللغوية لتمييز المسميات بأسمائها — وإليك ما وصل إلينا من كتبه:

(١) كتاب المعمرين: هو من كتب التاريخ، فيه تراجم الذين عمروا من الرجال في الجاهلية مع طرف مما قالوه في منتهى أعمارهم، وبلغ عددهم مائة وعشرة رجال في جملتهم طائفة من الشعراء كعبيد بن الأبرص ولبيد وعمرو بن قميئة وجماعة من السادة والفرسان، كأكثم بن صيفي وعامر بن الظرب ودريد بن الصمة وزهير بن جناب وغيرهم، والكتاب رواية أبي روق الهمداني. لم يذكره صاحب الفهرست بين مؤلفات السجستاني، طبع ليدن سنة ١٨٩٩ بعناية المستشرق غولتزير في ٢٨١ صفحة منها ١٠٣ صفحات للأصل والباقي للمقدمة والتعاليق. وطبع أيضًا بمصر سنة ١٩٠٥.

(٢) كتاب النخلة: طبع في بالرمو بإيطاليا سنة ١٨٣٧، وفي رومية سنة ١٨٩١، ومنه نسخة خطية في المكتبة الخديوية.

وتجد ترجمة أبي حاتم السجستاني في طبقات الأدباء ٢٥١، والفهرست ٥٨، وابن خلكان ٢١٨ ج١.

(٣) أبو العباس المبرد (توفي سنة ٢٨٥هـ)

هو أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي نسبة إلى ثمالة قبيلة من الأزد، ويعرف بالمبرد. ولد سنة ٢١٠هـ في البصرة، وانتقل إلى بغداد، وكان شيخ أهل النحو والعربية، وإليه انتهى علمهما بعد طبقة عمر الجرمي وأبي عثمان المازني، وأخذ النحو عنهما وعن غيرهما.

وكان قوي الذاكرة كثير الحفظ معاصرًا لثعلب المتقدم ذكره، وجرت بينهما منازعات ومعارضات، وبهما ختم تاريخ الأدباء،[1] وكان المبرد يحب الاجتماع بثعلب وهذا يكره ذلك؛ لأن المبرد كان حسن العبارة فصيح اللسان وثعلب مذهبه مذهب المعلمين، فإذا اجتمعا في محفل حكم للمبرَّد. وكان المبرد كثير الأمالي يملي علمه على الطلبة أو على من يدوِّنه — ومنها سميت الأمالي، وقد ذكر له صاحب الفهرست ٤٤ مؤلفًا في الأدب واللغة والنحو والعروض والبلاغة والقرآن وغير ذلك، وهاك ما وصلنا منها:

(١) الكامل: هو كتاب في الأدب وصفه المبرد بقوله: «هذا كتاب ألَّفناه، يجمع ضروبًا من الآداب بين منثور ومنظوم، وشعر ومثل سائر، وموعظة بالغة، واختيار خطبة شريفة

ورسالة بليغة، والنية أن يفسر كل ما يقع فيه من كلام غريب أو معنى مغلق.» فهو يعدُّ من كتب اللغة الممهدة للمعاجم، وفيه كثير من الفوائد التاريخية، أهمها فصل في الخوارج يحوي حقائق هامة من تاريخ بني أمية، وقد طبع الكامل في ليبسك سنة ١٨٦٤، وفي الآستانة سنة ١٢٨٦هـ، وفي مصر سنة ١٣٠٨.

(٢) كتاب المقتضب: عليه شرح لسعد الله الفارقي المتوفى سنة ٣٩١هـ، منه نسخة خطية في مكتبة الإسكوريال.

(٣) كتاب التعازي والمراثي: منه نسخة خطية في الإسكوريال.

(٤) رسالة في الجواب على سؤال وجهه إليه الواثق بشأن الشعر والنثر، منه نسخة خطية في مكتبة مونيخ وأخرى في برلين.

وترجمته في ابن خلكان ٤٩٥ ج١، وطبقات الأدباء ٢٧٩، الفهرست ٥٩.

(٤) المفضل بن سلمة (في أواخر القرن الثالث)

هو أبو طالب المفضل بن سلمة بن عاصم اللغوي، وكثيرًا ما يقع الالتباس بينه وبين المفضل بن محمد الضبي الأديب المتقدم ذكره، ولعل السبب في ذلك ما يجدونه في ترجمة ابنه محمد في ابن خلكان؛ إذ زاد في نسبه هناك لفظ «الضبي»، ونظن ذلك سهوًا من ابن خلكان أو من النساخ؛ لأن نسبه في الفهرست، وفي طبقات الأدباء ليس فيه لفظ «الضبي»، ويؤيد ذلك أن ابن خلكان لم يترجم المفضل الضبي الأديب، ووقع في ما نقله ابن خلكان من ترجمة المفضل بن سلمة تشويش في أسماء مؤلفاته، فجاء اسم كتاب الفاخر «المفاخر» وكتاب البارع «التاريخ»، وهو خطأ في النسخ أو الطبع، والمفضل بن سلمة من لغويي العصر العباسي الثاني على مذهب أهل الكوفة، وقد استدرك على الخليل وخطَّأه في كتابه، وذكر له صاحب الفهرست نحو عشرين مؤلفًا لم يصلنا منها إلا:

(١) كتاب الفاخر: في اللغة، وموضوعه معاني ما يجري على ألسنة العامة في أمثالهم ومحاوراتهم من كلام العرب وهم لا يدرون معناه، فيأتي بالمثل ويشرحه نحو ما في كتاب مجمع الأمثال للميداني، منه نسخة في كتب الشنقيطي بالمكتبة الخديوية في ١٤٦ صفحة كبيرة، نسخة أخرى من جملة كتب زكي باشا في ١٣٥ ورقة.

(٢) كتاب العود والملاهي: في آلات الطرب، وهل تعاطيها يخالف التقوى، وهو يرى أنه جائز، وأتى بالأدلة على ذلك، منها نسخة في جملة كتب زكي باشا.

وترجمة المفضل في الفهرست ٧٣، وطبقات الأدباء ٢٦٥، وابن خلكان ٤٦٠ ج١.

(٥) ابن دريد (توفي سنة ٣٢١هـ)

هو أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي. ولد في البصرة سنة ٢٢٣، ونشأ وتعلَّم فيها، وأخذ النحو عن السجستاني والرياشي وابن أخي الأصمعي، وانتقل عند ظهور الزنج إلى عمان أقام فيها ١٢ سنة وعاد إلى البصرة، ثم رحل إلى نواحي فارس، وصحب ابني ميكال وهما يومئذ على عمالة فارس، وألف لهما كتاب الجمهرة الآتي ذكره، فقلداه الديوان، وكانت تصدر كتب فارس عن رأيه، ولا يُنَفَّذُ أمر إلا بعد توقيعه، ثم انتقل إلى بغداد سنة ٣٠٨هـ بعد عزل ابني ميكال عن فارس، فأجرى عليه الخليفة المقتدر خمسين دينارًا في الشهر إلى وفاته سنة ٣٢١.

وقد نبغ ابن دريد في اللغة، وكان من أكابرها مقدمًا بها وبالأنساب والأشعار، وكان شاعرًا كثير الشعر، وله المقصورة المشهورة التي مدح بها الشاه ابن ميكال وولديه، مطلعها:

أما ترى رأسي حاكى لونه طرة صبح تحت أذيال الدجى
واشتعل المبيضُّ في مسوده مثل اشتعال النار في جزل الغضى

عدد أبياتها ٢٢٩ بيتًا، وفيها كثير من آداب العرب وأخبارهم وحكمهم وأمثالهم.

وعارضه بها جماعة من الشعراء وشرحها كثيرون، وله قصائد أخرى، وإنما اخترنا وضعه بين علماء اللغة؛ لأن أكثر كتبه فيها حتى قالوا: إنه قام مقام الخليل بن أحمد فيها، وأورد أشياء منها لم توجد في كتب المتقدِّمين، وقد ذكر له صاحب الفهرست ١٩ مؤلفًا هاك ما بلغنا خبره منها:

(١) المقصورة: أو كتاب المقصور والممدود قد تقدم ذكرها. طبعت مع ترجمة وشرح باللاتينية في فرانكيري سنة ١٧٧٣، وفي هردوفيكي سنة ١٧٨٦، وفي غيرهما. ومنها نسخ خطية وشروح في معظم مكاتب أوروبا أهمها شرح ابن خالويه المتوفى سنة ٣٧٠هـ، وابن هشام اللخمي السبتي، وفي المكتبة الخديوية شرح المقصورة خطأ للسيد عبد القادر بن مكرم المتوفى سنة ١٠٣٣هـ، واسمها الآيات المقصورات، وفي مكاتب أوروبا وغيرها نسخ خطية من أشعاره الأخرى.

(٢) الجمهرة في اللغة: وهي أهم مؤلفاته بالنظر إلى اللغة؛ لأنها معجم مرتب على أحرف الهجاء اتبع في ترتيبه ترتيب كتاب العين للخليل، فبدأ بالثنائي ثم الثلاثي فالرباعي فملحق الرباعي فالخماسي والسداسي وملحقاتهما، وجمع الألفاظ النادرة في باب مفرد، ورتب كل طائفة من تلك الألفاظ على أبجدية الخليل، وطريقة التفتيش فيه غير مألوفة عندنا، فإنه يأتي في باب الثلاثي مثلًا في فصل العين بالأحرف الثلاثة التي أولها عين مثل «ع ل ن»، ويأتي بمعانيها على اختلاف وضع أحرفها، فيقول: «علن الأمر يعلنه علنًا ... واللعن أصله الإبعاد ... والنعل معروف ... ونعل الفرس ما أصاب الأرض من حافره إلخ.» وقد سماه الجمهرة؛ لأنه اختار فيه الجمهور من كلام العرب، ومنها نسخ خطية في مكاتب لندن، وباريس، وكوبرلي، ويني جامع، ونور عثمانية، وأيا صوفيا بالآستانة، ونسخة ناقصة في المكتبة الخديوية.

(٣) كتاب الاشتقاق: في أسماء القبائل والعمائر وأفخاذها وبطونها وساداتها وشعرائها وفرسانها على شكل المعاجم، وفيه فوائد لغوية، طبع في غوتنجن سنة ١٨٥٤.

(٤) كتاب صفة السرج واللجام: طبع في ليدن سنة ١٨٥٩.
(٥) كتاب الملاحن: طبع في هيدلبرج سنة ١٨٨٢، وفي مصر قريبًا.
(٦) كتاب المجتبى: فيه أقوال النبي. موجود في المتحف البريطاني وأكسفورد.
(٧) كتاب السحاب والغيث وأخبار الرواد: طبع في ليدن مع كتاب السرج واللجام.

وأخباره في ابن خلكان ٤٩٧ ج١، وطبقات الأدباء ٣٢٢، والفهرست ٦١.

(٦) عبد الرحمن الهمذاني (توفي سنة ٣٢٧هـ)

هو عبد الرحمن بن عيسى بن حماد الهمذاني. كان إمامًا في اللغة والنحو، وكاتبًا لبكر بن عبد العزيز بن أبي دلف العجلي، له مؤلفات جزيلة الفائدة لم يصلنا منها إلا:

كتاب الألفاظ الكتابية: وهو مما يستعان به في تنميق العبارة وضبط معناها؛ لاحتوائه على مترادفات من الجمل الفصيحة كل منها مجموع في باب خاص من قبيل فقه اللغة، ولكنه سابق له. وقد طبع الكتاب في بيروت سنة ١٨٨٥ وفي غيرها.

ومن كتب اللغة في هذا العصر كتاب المنجد لأبي الحسن الهنائي المعروف بكراع في أوائل القرن الرابع للهجرة، رتَّبه على ستة أبواب في أعضاء البدن وأصناف الحيوان

والطيور والسلاح والأرض، منه نسخة خطية في المكتبة الخديوية، وكتاب المنضد له أيضًا مرتب على الهجاء في المتحف البريطاني.

هوامش

(١) ابن خلكان ٥٩٥ ج١.

التاريخ والمؤرخون

قد رأيت في كلامنا عن التاريخ في العصر الماضي أن الحاجة دعت يومئذ إلى وضع السيرة النبوية والأنساب وأخبار الفتوح والطبقات، وذكرنا أشهر من ألف فيها، ويمتاز هذا العصر بكتابة التاريخ العام الشامل لأخبار القدماء والمحدثين مما لم يتعرض له أهل العصر الماضي، وإنما عمد أهل هذا العصر إلى التأليف فيه بعد أن اطلعوا على ما نقل من نوعه إلى العربية من كتب الفرس،[1] وبعد اتساع معارف القوم على أثر ترجمة كتب العلم القديمة عن أهم الأمم، وقد تقررت أحكام الشرع فلم تبقَ حاجة إلى الخوض في الفتوح وأسبابها، فاقتصروا على تلخيص أخبارها وتبويبها وتحقيقها وضبطها، وضعفت العصبية العربية لتسلط الأتراك وغيرهم واستقرت الأنساب، فلم تبق حاجة إلى الخوض في النسب وعلومه، وشاعت عصبية الوطن بعد ذهاب عصبية النسب على أثر المنافسات بين البصرة والكوفة وبغداد والشام، فاتجهت الأفكار إلى تأليف الكتب الخاصة في أحوال المدن وأحوال الأمم.

وهناك ضرب من التاريخ تخلَّف عن علم الأدب أو تفرَّع عنه، نعني أخبار العرب وأيامهم وأشعارهم وسائر أحوالهم، فهذه كانت داخلة في علم الأدب لعلاقتها باللغة والشعر، فلما اتسعت معارف الناس وتولدت العلوم اللسانية بالتفرع عن الأدب كما تقدم كان من جملة فروعه ما تخلف عن الأخبار التي كانوا يأتون بها لإثبات معنى كلمة أو تعبير أو شعر أو نحو ذلك، وتوسعوا فيه فصار تاريخًا لكنه مقصور على أخبار العرب وبلادهم. وكُتَّاب هذا التاريخ يجوز إدخالهم في جملة علماء الأدب كالأصمعي وأبي عبيدة، وإنما جعلناهم في جملة المؤرِّخين لبيان عمل ناموس الارتقاء في التفرع والتنوع.

فالمؤرخون في هذا العصر ينقسمون إلى أربعة أقسام:

(١) مؤرخو الفتوح،
(٢) أخبار العرب وأحوالهم وشعرائهم والأنساب والطبقات وغيرها،
(٣) تاريخ البلدان والأمم؛ أي تاريخ كل بلد أو أمة على حدة — أو التاريخ الخاص،
(٤) التاريخ العام.

وإليك أشهر من ألَّف في كل قسم من هذه الأقسام على هذا الترتيب حسب سنة الوفاة:

(١) أولًا: مؤرخو الفتوح

في هذا العصر ختم تاريخ الفتح الإسلامي لذهاب الحاجة إليه بالفراغ من الفتوح إلا ما كتبوه في فتح بعض المدن أو الممالك بعد فتح بيت المقدس أو نحوه أو نقل ما مضى، وهاك أشهر مؤرخي الفتوح:

(١-١) ابن عبد الحكم (توفي سنة ٢٥٧هـ)

هو آخر من دوَّن الفتوح الإسلامية الخاصة في صدر الإسلام، واسمه عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم من أهل مصر. كان أبوه المتوفى سنة ٢١٤ فقيهًا من أصحاب مالك، وأفضت إليه رئاسة المالكية، وكان غنيًّا وجيهًا، وفي أيامه أتى الإمام الشافعي إلى مصر فدفع إليه ألف دينار، وأخذ له من ابن عسامة التاجر ألف دينار، ومن رجلين آخرين ألف دينار. وكان لعبد الله هذا ولدان: محمد صحب الإمام الشافعي، والآخر عبد الرحمن الذي نحن في صدده، وله مؤلف واحد كبير اسمه «فتوح مصر والمغرب والأندلس» منه نسخة خطية في مكتبة باريس، وقد نشرت منه قطعة عن فتح أفريقية طبعت في غوتنجن سنة ١٩٥٦، وقطعة أخرى عن فتح الأندلس طبعت في لندن سنة ١٨٥٨ مع ترجمة إنكليزية، وهو تحت الطبع كله الآن بإدارة لجنة تذكار جيب الإنكليزية في لندن، وأخباره في ابن خلكان ٢٤٨ ج١.

(١-٢) البلاذري (توفي سنة ٢٧٩هـ)

اسمه أبو جعفر أحمد بني يحيى بن جابر البلاذري، وهو خاتمة مؤرخي الفتح. ولد في أواخر القرن الثاني للهجرة، ونشأ في بغداد، وتقرب من المتوكل والمستعين والمعتز، وعهد إليه هذا بتثقيف ابنه عبد الله الشاعر المشهور، وكان شاعرًا وكاتبًا ومترجمًا ينقل من الفارسية إلى العربية، ومن شعره بيتان مدح بهما المستعين هما:

ولو أن برد المصطفى إذ حويته — يظن لظن البرد أنك صاحبه
وقال وقد أعطيته فلبسته — نعم هذه أعطافه ومناكبه

وذكر صاحب الفهرست أنه وسوس في آخر أيامه فأخذ إلى البيمارستان؛ لأنه شرب تمر البلاذر على غير معرفة، ومنه اسمه. ومات على الأغلب سنة ٢٧٩ أول أيام المعتضد، وله مؤلفات أهمها:

(١) فتوح البلدان: هو أشهر كتبه، ويظهر أنه مختصر من كتاب أطول منه كان قد أخذ في تأليفه وسماه «كتاب البلدان الكبير» لم يتمَّه فاكتفى بهذا المختصر، وهو يدخل في ٥٠ صفحة ذكر فيها أخبار الفتوح الإسلامية من أيام النبي إلى آخرها بلدًا بلدًا لم يفرط في شيء منها مع التحقيق اللازم واعتدال الخطة، وضمنه — فضلًا عن الفتوح — أبحاثًا عمرانية أو سياسية يندر العثور عليها في كتب التاريخ كأحكام الخراج أو العطاء وأمر الخاتم والنقود والخط ونحو ذلك. وقد طبع الكتاب في ليدن سنة ١٨٧٠ بعناية المستشرق ذي غويه، ونشرته في مصر شركة طبع الكتب العربية سنة ١٩٠١، وهو أجمع كتب الفتوح وأصحُّها.

(٢) أنساب الأشراف: ويسمى أيضًا الأخبار والأنساب، وهو مطول في ٢٠ مجلدًا لم يتم. وكان ضائعًا فعثر المستشرق الألماني أهلوارت في مكتبة شيفر المستشرق على الجزء الحادي عشر من كتاب في التاريخ ليس عليه اسم، فرجح أنه من أجزاء كتاب البلاذري الذي نحن في صدده، فطبعه في غريزوالد سنة ١٨٨٣ على الحجر بخطه في ٤٥٠ صفحة. وفيه كثير من أخبار بني أمية في زمن عبد الملك والوليد، ويدخل في ذلك تفاصيل وقائع مصعب بن الزبير وأخيه عبد الله وأخبار الخوارج.

وترجمة البلاذري في الفهرست ١١٣، وفي صدر طبعة فتوح البلدان.

(٢) ثانيًا: مؤرخو جزيرة العرب

يدخل في هذا الباب من انصرف من الرواة والأدباء إلى التاريخ فكتب فيه، والغالب في هؤلاء أن يكون ما يكتبونه مقصورًا على أخبار العرب وأيامهم وقبائلهم وسائر أحوالهم، ويدخل في ذلك أيضًا أنساب العرب؛ لأن الأنساب بعد ذهاب دولة العرب وتغير وجه العطاء على القبائل لم يبقَ لها شأن سياسي حيوي، وبعد أن كان ثبوت نسب الرجل في قبيلة يدرُّ عليه المال أصبح مقصورًا على التفاخر بالأجداد، فصارت الكتابة فيه من قبيل العلم، ولم ينقطع له كاتب كما حدث في أوائل الدولة، فأصبح من جملة أخبار العرب. ويدخل في هذا الباب أيضًا أخبار القبائل وحروبها وأيامها وتراجم المشاهير من الشعراء والنحاة، أو ما يتألف من ذلك كالطبقات ونحوها، وهاك أشهرهم:

(٢-١) محمد بن حبيب (توفي سنة ٢٤٥هـ)

هو أبو جعفر محمد بن حبيب بن أمية مولى بني العباس. كان من علماء بغداد بالأنساب والأخبار واللغة والشعر والقبائل. روى عن ابن الأعرابي وقطرب وأبي عبيدة، وكان مؤدِّبًا، وقد ألَّف كتبًا كثيرة ذكر منها ابن النديم ٣٣ كتابًا في الأمثال والقبائل والأنساب والتاريخ واللغة، وهاك ما بلغنا خبره منها:

(١) كتاب القبائل والأيام الكبير: هو أهم كتبه، ألفه للفتح بن خاقان، وقد رآه ابن النديم صاحب الفهرست، وقال في وصفه: «رأيت النسخة بعينها عند أبي القاسم بن أبي الخطاب بن الفرات في طلحي نيف وعشرين جزءًا، وكانت تدل على أنها نحو من أربعين جزءًا في كل جزء ٢٠٠ ورقة وأكثر، ولهذه النسخة فهرست لما تحتوي عليه من القبائل والأيام بخط التستري بن علي الوراق في طلحي نحو ١٥ ورقة.» لكن هذا الكتاب فقد، وإنما ذكرناه لأهميته لعل أحدًا يعرف وجود شيء منه في بعض المكاتب.

(٢) مختلف القبائل ومؤتلفها: أو المؤتلف والمختلف في النسب. الغرض منه بيان أسماء القبائل المتشابهة لفظًا المختلفة نسبًا، وضبط لفظها جيدًا، وهو جزيل الفائدة مع صغره، طبعه وروستنفيلد في غوتنجن سنة ١٨٥٠.

(٣) كتاب من نسب إلى أمه من الشعراء: لم يذكره صاحب الفهرست بهذا الاسم، منه نسخة خطية في المكتبة الخديوية رواية عثمان بن جني.

(٤) كتاب المخبر: وهو يشتمل على خلاصات تاريخية عن النبي والصحابة والخلفاء. منه نسخة خطية في المتحف البريطاني.

(٥) كتاب المغتالين: منه نسخة خطية في جملة كتب زكي باشا، ويسمى أيضًا كتاب من قتل غيلة. وترجمة محمد بن حبيب في الفهرست ١٠٦.

(٢-٢) الزبير بن بكار (توفي سنة ٢٥٦هـ)

هو أبو عبد الله الزبير بن بكار، ويتَّصل نسبه بعبد الله بن الزبير بن العوام. كان من أعيان العلماء في المدينة، ولد سنة ١٧٢هـ، وتولى القضاء في مكة، ودخل بغداد مرارًا آخرها سنة ٢٥٣هـ، وتوفي في مكة وهو قاضٍ عليها سنة ٢٥٦هـ، وكان شاعرًا أديبًا جليل القدر، بعث المتوكل في طلبه لتأديب ولده، وأمر له بعشرة آلاف درهم وعشرة تخوت وعشرة أبغل يحمل عليها رحله إلى سُرَّ مَنْ رأى.

ذكر له صاحب الفهرست ٣٣ مؤلفًا في النسب والوفود والنوادر وأخبار الشعراء ونحو ذلك — وإليك ما وصل إلينا منها:

(١) كتاب نسب قريش وأخبارهم: منه نسخة خطية في مكتبة أكسفورد (بودليان) وفي كوبرلي بالآستانة.

(٢) الموفقيات: هي قطع تاريخية ألفها لتلميذه الموفق بن المتوكل في ١٩ جزءًا لم تصلنا منها إلا أربعة أجزاء من ١٦–١٩، طبعها ووستنفيلد في غوتنجن سنة ١٨٧٨.

وترجمة ابن بكار في ابن خلكان ١٨٩ ج١، والفهرست ١١٠.

(٢-٣) عمر بن شبة (توفي سنة ٢٦٢هـ)

هو أبو زيد عمر بن شبة ويقال له: ابن ربطة النميري؛ لأنه كان مولى لبني نمير. ولد سنة ١٧٣هـ، ونشأ في البصرة شاعرًا إخباريًّا راوية صادق اللهجة، وتوفي في سر من رأى سنة ٢٦٢هـ. وقد ألف كتبًا كثيرة ذكر منها صاحب الفهرست ٢٢ كتابًا في وصف البصرة والكوفة ومكة وأمرائها وغير ذلك، ضاعت كلها إلا كتابًا وقفنا عليه في المكتبة الخديوية خطأً اسمه «الجمهرة» ينسب إليه ولم يذكر في مؤلفاته بهذا الاسم، وهو يشتمل على أخبار العرب العرباء وشيء من أيامهم وأشعارهم وحروبهم قبل الإسلام مع

الفرس والروم واليمن، وأكثر روايته عن ابن نافع وابن إسحاق، وهو من قبيل القصص التاريخية، وسنفرد فصلًا خاصًّا بهذا الموضوع فيما يلي من هذا الكتاب.

وترجمة ابن شبة في ابن خلكان ٢٧٨ ج١، والفهرست ١١٢.

ويدخل في هذا النوع من التاريخ كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة، وسائر تراجم الشعراء لابن السكري، وكتاب المعمرين للسجستاني، وقد ذكرت في أماكنها.

(٣) ثالثًا: التواريخ الخاصة

ونريد بها تواريخ البلدان والأمم والقبائل والطوائف كل منها على حدة، كتاريخ دمشق وتاريخ بغداد أو قريش أو القبط أو الروم أو نحو ذلك، والتأليف فيها قديم عند العرب حتى قبل الإسلام، فقد ذكر المسعودي أن عدي بن زيد العبادي أَلَّف في تاريخ الروم واقتبس المسعودي منه، وقد أَلَّف بعضهم في أيام بني أمية وألف غيرهم في هذا العصر، لكن أكثر ما ألفوه ضاع، كتاريخ مرو لابن سيار، وتاريخ البصرة والكوفة لابن شبة، وتاريخ واسط لأسلم بن سهل، وتاريخ أصفهان ليحيى بن منده وغيرها.

وهاك أشهر من وصل إلينا من شيء من تواريخهم الخاصة إلى آخر هذا العصر:

(٣-١) الأزرقي

اسمه أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقي: له كتاب أخبار أيام مكة، عني بطبعه ووستنفيلد في ليبسك سنة ١٨٥٨ في جملة مجموعة مؤلفة من أربعة أجزاء سماها أخبار مكة، استغرق طبعها ٣ سنوات (١٨٥٨–١٨٦١) أهم ما فيها كتاب الأزرقي المذكور، ومقتبسات من تاريخ مكة لمحمد الفاكهي. ومن شفاء الغرام لتقي الدين الفاسي، ومن كتاب الإعلام بأعلام بيت الله الحرام للنهرواني وغيرهم، وهي أحسن مجموعة في أخبار مكة إلى القرن السادس للهجرة.

وترجمة الأزرقي في الفهرست ١١٢.

(٣-٢) ابن طيفور (توفي سنة ٢٨٠هـ)

هو أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر، واسم أبي طاهر طيفور أصله من أبناء خراسان من أولاد الدولة. ولد في بغداد، وكان مؤدب كتاب عاميًّا، ثم اشتغل بالتأليف، واشتهر به ونبغ نبوغًا عظيمًا. ذكر له صاحب الفهرست خمسين كتابًا لم يبق منها إلا النزر اليسير أهمها:

(١) تاريخ بغداد، هو أقدم ما وقفنا عليه من تاريخها، ولكن لم يصلنا منه إلا الجزء السادس، استخرجه الدكتور كيلر الألماني من مخطوطات لندن، وطبعه على الحجر في ليبسك سنة ١٩٠٨، وعلق عليه الملاحظات مع ترجمة ألمانية، ويحتوي على تاريخ المأمون من شخوصه إلى بغداد سنة ٢٠٤هـ إلى وفاته.

(٢) كتاب المنثور والمنظوم: هو اختيارات من أحسن ما نظم أو نثر في العربية إلى عصره في بضعة عشر جزءًا، رأينا منها ثلاثة أجزاء في المكتبة الخديوية (١١ و١٢ و١٣) كل منها نحو ألف صفحة كبيرة، ومنها بضعة أجزاء في لندن.

(٣) بلاغات النساء: طبع في مصر ١٩٠٧.

وتجد ترجمة ابن طيفور في معجم الأدباء ١٥٢ ج١، والفهرست ١٤٦.

أما الكتب الخاصة بتواريخ الأمم، فإن أبا الحسن المدائني المتوفى سنة ٢٢٥ ألَّف كتبًا جمة ذكر ابن النديم عشرات منها، وقد ضاعت كما ضاع سواها من أمثالها.

وكذلك سير الأفراد مثل سيرة ابن طولون وابنه خمارويه ليوسف بن الداية المتوفى سنة ٣٣٤هـ، منه شذرات اقتبسها من أرَّخ مصر بعده كابن سعيد وغيره.

(٤) رابعًا: التاريخ العام

يمتاز هذا العصر عما تقدمه من العصور بظهور التاريخ العام ناضجًا فيه، وكانت التواريخ قبله في مواضيع متفرقة لأغراض مختلفة، فلما اطلع المسلمون على تواريخ الأمم الأخرى أحبوا أن ينسجوا على منوالها، وزادت في أثناء ذلك علائق المسلمين بسواهم، فأصبح همهم النظر في التاريخ على الإجمال، فأخذوا يؤلِّفون التواريخ العامة التي تبدأ بالخليقة وتفرق الأمم ثم تواريخ تلك الأمم، وأهم ما وصلنا منها في هذا العصر خمسة كتب لخمسة من المؤرخين — إليك تراجمهم حسب سني وفاتهم مع وصف كتبهم:

(٤-١) اليعقوبي (توفي سنة ٢٧٨هـ)

هو أحمد بن أبي يعقوب بن واضح المعروف باليعقوبي، وجده من موالي المنصور، وكان رحالة يحب الأسفار، ساحَ في بلاد الإسلام شرقًا وغربًا، فكان سنة ٢٦٠هـ في أرمينية، ورحل إلى الهند وعاد إلى مصر وبلاد المغرب، وألَّف في سياحته هذه كتابًا سماه كتاب البلدان، وهو أقدم كتاب عربي وصل إلينا في الموضوع، لم تذكر السنة التي توفي فيها اليعقوبي، ولكن يؤخذ من سياق كتبه أنه توفي بعد سنة ٢٧٨.

وله في التاريخ كتاب يعرف بتاريخ اليعقوبي نشره المستشرق هوسما في ليدن سنة ١٨٨٣ في مجلدين: الأول في التاريخ القديم على العموم من آدم فما بعده إلى ظهور الإسلام، وتدخل فيه أخبار الإسرائيليين والسريان والهنود واليونان والرومان والفرس والنوبة والبجة والزنج والحميريين والغساسنة والمناذرة، والثاني في تاريخ الإسلام، وينتهي في زمن المعتمد على الله سنة ٢٥٩هـ، وقد رتبه حسب الخلفاء، ومن مزاياه فضلًا عن قدمه أن مؤلفه شيعيٌّ فيأتي بأشياء عن العباسيين يتحاشى سواه ذكرها، وللمستشرقين أبحاث انتقادية في هذا الكتاب.

وسنأتي على ذكر كتاب البلدان في باب الجغرافية.

(٤-٢) أبو حنيفة الدينوري (توفي سنة ٢٨٢هـ)

هو أحمد بن داود من أهل الدينور، أخذ علمه عن البصريين والكوفيين، وأكثر أخذه عن ابن السكيت، وكان متفننًا في علوم كثيرة منها النحو واللغة والهندسة والحساب وعلوم الهند، فهو يعد من النحاة أو اللغويين أيضًا، ولكننا جعلناه من المؤرخين؛ لأن أهم ما وصلنا من كتبه كتاب «الأخبار الطوال» في التاريخ العام يشتمل على نحو ما اشتمل عليه كتاب اليعقوبي، لكنه اختصر في التاريخ القديم، ويمتاز بتوسُّعه في تاريخ بني أمية، وخصوصًا أخبار علي ومعاوية والخوارج والأزارقة، وينتهي التاريخ المذكور بوفاة المعتصم سنة ٢٢٧هـ، وقد طبع في لندن سنة ١٨٨٨ في ٤٠٠ صفحة بعناية المستشرق جرجيس.

وله مؤلفات عديدة ضاعت، وفي جملتها كتاب في النبات من حيث اللغة لم نقف عليه، ولكن منه قطعًا في كتاب التنبيهات على أغلاط النحاة، ونقل عنه المخصص.

وترجمة أبي حنيفة الدينوري في معجم الأدباء ١٢٣ ج١، والفهرست ٧٨.

(٤-٣) ابن جرير الطبري (توفي سنة ٣١٠هـ)

هو أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، علَّامة وقته وإمام عصره، ولد في آمل بطبرستان سنة ٢٢٤هـ، ورحل في طلب العلم، فجاء بغداد، ثم شخص إلى مصر والشام والعراق حتى استوعب العلوم، ثم استقر في بغداد يقرئ الحديث والفقه حتى مات سنة ٣١٠هـ، ودفن هناك.كان على مذهب الإمام الشافعي، ثم اختار لنفسه مذهبًا في الفقه تبعه فيه جماعة من العلماء وضعوا فيه الكتب، منهم علي بن عبد العزيز الدولابي، ومحمد بن أحمد بن أبي الثلج، وابن العراد، وأبو الحسن أحمد بن يحيى المنجم، وأبو بكر بن كامل، وغيرهم. وكل منهم ألف كتبًا في بسط مذهب ابن جرير الطبري ودافع عنه ورد على مخالفيه.

واشتهر الطبري بقوة عارضته وفصاحة لهجته وبصبره على العمل، حتى قالوا: إنه قضي أربعين سنة يكتب كل يوم ٤٠ صفحة، ولا يخلو ذلك من مبالغة، لكنه يشير إلى كثرة عمله؛ فإن كتابيه اللذين اشتهر بهما — نعني التاريخ والتفسير — ذكروا أن كلًّا منهما كان في أول الأمر ٣٠٠٠٠ ورقة؛ أي ٦٠٠٠٠ صفحة، ثم أشار عليه تلامذته باختصارهما؛ فصارا إلى ما هما عليه، وقد ألف التفسير قبل التاريخ، وكل منهما مرجع الكتاب في موضوعه؛ لأنه استوفى الكلام فيهما، وكان ثقة يحكم بقوله ويرجع إلى رأيه؛ لسعة علمه في القرآن وعلومه وبأخبار الناس وأيامهم، وكان حرَّ الفكر صريح القول؛ إذا اعتقد أمرًا جاهر به لا يخشى في الحق لومة لائم، فكثر أخصامه من العامة ومن يتزلَّفون إليهم أو يرتزقون بمرضاتهم ولا سيما الحنابلة؛ لأنه ألف كتابًا ذكر فيه اختلاف الفقهاء ولم يذكر فيه ابن حنبل، فقيل له في ذلك فقال: «لم يكن فقيهًا وإنما كان محدِّثًا.» فعظم ذلك على الحنابلة، وكانوا لا يحصون عدًّا في بغداد؛ فنقموا عليه واتهموه بالإلحاد، وشاركهم أكثر العامة — ولو سئلوا عن معنى الإلحاد ما عرفوه — وهو لا يهمه ذلك لزهده وقناعته بما كان يرد عليه من قرية خلفها أبوه في طبرستان، فلما توفي في شوال سنة ٣١٠هـ دفن في داره؛ لأن العامة اجتمعت ومنعت دفنه نهارًا، وألَّف كتبًا ذكر منها صاحب الفهرست بضعة عشر مؤلفًا هذا ما بقي منها:

(١) كتاب أخبار الرسل والملوك: ويعرف بتاريخ الطبري. وهو تاريخ عام يبدأ بالخليقة وينتهي سنة ٣٠٢هـ يدخل في عدة مجلدات صفحاتها نحو ٧٥٠٠ صفحة، وقد طبع في ليدن بعناية المستشرق دي غويه، استغرق طبعه بضع عشرة سنة من

١٨٧٩–١٨٩٢ في ٢٣ جزءًا، وطبع بمصر سنة ١٩٠٦ في ١٣ مجلدًا، وقد اتبع في أخباره الإسناد إلى رواتها بالتسلسل لزيادة التحقيق على عادتهم في ذلك العهد. وهو عمدة المؤرخين ومرجعهم في التحقيق حتى الآن، وتغالى القوم في اقتناء هذا الكتاب حتى كان منه في خزانة العزيز الفاطمي صاحب مصر ٢٠ نسخة منها واحدة بخط المؤلف. وكان في دار العلم بمصر ١٢٠ نسخة منه، ولم يكن يتأتى اقتناؤه إلا للملوك وأهل الثروة. ولما أظلم الشرق في الأجيال الوسطى، وخيَّم الجهل أُحرقت المكاتب فضاعت نسخه، فلما أرادوا طبعه في لندن لم يجدوا منه نسخة كاملة في مكان واحد، فاضطروا إلى جمعها من عدة أماكن. وقد ترجم هذا الكتاب إلى الفارسية البلعمي، وترجمه عن ترجمة البلعمي زوتنبرج إلى الفرنساوية، وطبعت الترجمة في سنة ١٨٧٤ في ٤ مجلدات، وترجم أيضًا بعضه إلى اللغة اللاتينية، وطبع في غريزوالد سنة ١٨٦٣، وترجم إلى التركية، وطبع في الآستانة سنة ١٢٦٠هـ.

وقد عني غير واحد بكتابة ذيل للتاريخ المذكور، منهم عريب بن سعد الكاتب القرطبي، ألَّف ذيلًا على الطبري ينتهي إلى سنة ٣٦٥هـ طبع مع تاريخ الطبري في ليدن، ومحمد بن عبد الملك الهمذاني المتوفى سنة ٥٢١هـ تمَّم حوادث التاريخ إلى سنة ٤٨٧، سماه تكملة تاريخ الطبري، ومنه نسخة خطية في مكتبة باريس.

(٢) التفسير الكبير: سيأتي ذكره في باب التفسير.

(٣) تهذيب الآثار في الحديث: لم يتمه، ويوجد بعضه في مكتبة كوبرلي.

(٤) اختلاف الفقهاء: يبحث فيما اختلف فيه الفقهاء الأربعة في بعض الأحكام كالبيع والإعتاق والإيجار والزرع والكفالة، وما يتفرع عن ذلك طبع بمصر سنة ١٣٢٠.

وترجمة الطبري في ابن خلكان ٤٥٦ ج١، وابن الأثير ٤٩ ج٨، والفهرست ٢٣٤.

(٤-٤) أبو زيد البلخي (توفي سنة ٣٢٢هـ)

هو أحمد بن سهل. ولد في بلخ ونشأ في العراق، وأدرك الكندي الفيلسوف وأخذ عنه، ثم عاد إلى بلاده فخدم أمراءها، وكان مطَّلِعًا على العلوم القديمة؛ ولذلك اتخذ في مؤلفاته طريقة الفلاسفة من النقد والنظر، وكان ذلك سببًا في غضب الوجهاء عليه، وبعد أن كانوا يدرُّون عليه الأعطية قطعوها عنه، ونسبوه إلى الإلحاد شأنهم في كل من يتظاهر بحرية الفكر والقول، ولأبي زيد عشرات من المؤلفات في مواضيع مختلفة ذكرها صاحب

الفهرست (صفحة ١٣٨) ضاعت كلها، وقد وصلنا ما لم يذكره الفهرست بل رواه صاحب كشف الظنون أو غيره، وهو:

(١) كتاب البدء والتاريخ: يمتاز عما تقدمه من كتب التاريخ العام بأنه أوسعها جميعًا في أخبار الخليفة، وقصص الأنبياء وأخبار الأمم القديمة. وفيه تواريخ الخلفاء إلى أيامه. وقد عني بترجمته إلى الفرنساوية الأستاذ هيوار المستشرق الفرنساوي، وطبع الأصل والترجمة في شالون سنة ١٩١٠.

(٢) صور الأقاليم: هو من قبيل الجغرافية، وسنذكره بين جغرافيي العصر العباسي الثالث؛ لأنه قدوتهم في رسم الخرائط.

وترجمة أبي زيد البلخي في معجم الأدباء ١٤١ ج١، والفهرست ١٣٨.

(٤-٥) ابن البطريق (المتوفى سنة ٣٢٨هـ)

هو أفتيخوس سعيد بن البطريق. ولد سنة ٢٦٣ في الفسطاط، واشتهر بالطب كما اشتهر بالتاريخ، وخلف من الآثار عدة مؤلفات وصلنا منها كتاب «نظم الجوهر» في التاريخ، ألَّفه لأخيه عيسى في معرفة التواريخ من عهد آدم إلى سني الهجرة، وينتهي إلى سنة ٣٢١هـ من الدولة العباسية، وهي السنة التي صار فيها المؤلف بطريركًا على مدينة الإسكندرية على مذهب الملكية. وقد طبع كتابه هذا في أكسفورد سنة ١٦٥٩ مع ترجمة لاتينية لإدوارد بوكوك المستشرق في مجلدين صفحاتهما نحو ١١٠٠ صفحة، وطبعت قطع منه في بطرسبرج سنة ١٨٨٣. وفيه كثير من أخبار النصارى وأعيادهم وذكر البطاركة وأحوالهم ومدة حياتهم وما جرى لهم، وقد ذيل هذا الكتاب يحيى بن سعيد بن يحيى الأنطاكي بكتاب سماه «تاريخ الذيل»، طبعه روزن المستشرق الروسي في بطرسبرج سنة ١٨٨٣ مع ترجمة وتعاليق في اللغة الروسية أضعاف الأصل العربي؛ فجاء الكتاب المطبوع في نيف وخمسمائة صفحة منها ٧٠ فقط للأصل العربي.

وترجمة سعيد بن البطريق في طبقات الأطباء ٨٦ ج٢.

وليست هذه كل كتب التاريخ الهامة التي أُلِّفت في هذا العصر، فإن مئات منها ضاعت، وأكثرها في أخبار الخلفاء والوزراء والنسب وأخبار المدن والدول والملوك وغير ذلك؛ ففي مقدمة مروج الذهب أسماء نحو مائة منها استعان بها المسعودي في تأليف ذلك الكتاب، وهو لم يذكر إلا الكتب التي اشتهر مؤلفوها، وقد ضاع معظمها، وفيما

ضاع منها كتب هامة ككتاب التاريخ وأخبار الأمويين ومناقبهم وذكر فضائلهم وغيره من تواريخ الأمويين، فإن أخبار هذه الدولة ضاعت في أيام بني العباس تزلفًا من الكتاب لأهل الدولة، وبعض الكتب التي ذكرها المسعودي فاتت صاحب الفهرست، وقليل منها لا يزال باقيًا إلى الآن كتاريخ اليعقوبي والطبري.

هوامش

(١) تاريخ التمدن الإسلامي ١٥٦ ج٣.

الجغرافية والجغرافيون

(١) أسباب وضع الجغرافية عند العرب

نشأ علم الجغرافية في هذا العصر بعد نقل علوم القدماء إلى العربية، وفي جملتها كتاب بطليموس وعليه معولهم في تقويم البلدان. على أن المسلمين بدءوا بوضع الجغرافية قبل اطِّلاعهم على ذلك الكتاب لأسباب غير التي دعت اليونان إلى وضعها، وهي:

أولًا: الحج لأن المسلمين على اختلاف بلادهم يحجون إلى مكة، والحج فريضة على كل مسلم، والقدوم إلى مكة يفتقر إلى معرفة الطرق والمنازل.

ثانيًا: كان المسلمون يرحلون في طلب العلم إلى سائر الأمصار الإسلامية، والرحلة تستلزم معرفة الأماكن والمناطق.

ثالثًا: أبحاثهم في تحقيق أسباب الفتح لضرب الخراج والجزية واجتناء المقاطعات، وهذه أيضًا تفتقر إلى تعرف البلاد وطرقها؛ فاضطر العرب إلى التأليف في البلدان قبل هذا العصر، وأول من فعل ذلك رواة الأدب وأصحاب الأخبار.

فلما ترجمت الجغرافية إلى العربية واطلع العرب عليها، أخذوا في تأليف الكتب على مثالها، وتوسعوا في ذلك وزادوا عليه ما عرفوه من قبل، ولم يكتفوا بالنقل والسماع، ولكنهم ركبوا البحار وجابوا الأقطار شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا، وكتبوا ما شاهدوه أو تحققوه، وصححوا كثيرًا من مغالط بطليموس، على أن علم الجغرافية عند العرب لم ينضج إلا في القرن الرابع للهجرة، فتهافت الناس على التأليف فيه.

ولكن علماء القرن الثالث (أو العصر العباسي الثاني) الذي نحن في صدده، مهدوا السبيل للتأليف فيه من عند أنفسهم؛ لكثرة أسفارهم في سبيل الرحلة، أو لاشتغالهم في إحصاء خراج المملكة، وفي تعيين طرق البريد مما يقتضي معرفة الأماكن وأبعادها وجهاتها، ويعد ذلك من قبيل الجغرافية.

وبين ما ألَّفوه في هذا الموضوع ما هو عام شامل للمملكة الإسلامية وغيرها، ونسمِّيه «الجغرافية العامة»، ومنه ما يختص ببقعة من الأرض، وندعوه «الجغرافية الخاصة»، وإليك أقدم من ألَّف في كليهما:

(٢) مؤلفو الجغرافية العامة

(٢-١) ابن خرداذبه (في أواسط القرن الثالث للهجرة)

هو أبو القاسم عبيد الله بن أحمد بن خرداذبه. كان خرداذبه مجوسيًّا، وأسلم على يد البرامكة، وتولى حفيده أبو القاسم البريد والخبر بنواحي الجبل بفارس، ونادم المعتمد وخصَّ به، وألف كتبًا في أدب السماع واللهو والملاهي والشراب وجمهرة أنساب الفرس والطبيخ وغيرها، ولم يصلنا إلا:

كتاب المسالك والممالك: ضمَّنه إحصاء جباية المملكة العباسية في أواسط القرن الثالث، وقد ونشرنا ذلك الإحصاء في تاريخ التمدن الإسلامي (ص٦٢ ج٢)، وهو إحصاء رسمي عن الجباية والطرق والمسافات، وطبع الكتاب في ليدن سنة ١٣٠٦هـ بعناية المستشرق دي غويه مع ترجمة فرنساوية، وفيه فوائد كثيرة تاريخية؛ فضلًا عن تقاسيم المملكة وطول المسافات بين البلاد.

وترجمته في الفهرست١٤٩.

(٢-٢) قدامة بن جعفر

وقد تقدم ذكره بين الأدباء. له كتاب الخراج وصنعة الكتابة لم يصلنا منه إلا نحو مائة صفحة في ديوان البريد والسكك والطرق إلى نواحي المشرق والمغرب، والمسافات بين البلاد فضلًا عن مقادير الجباية لسنة ٢٢٥هـ، طبعت في ليدن مع ترجمة فرنساوية، وقد نشرناها أيضًا في تاريخ التمدن الإسلامي (ص٥٧ ج٢).

(٢-٣) كتاب البلدان لليعقوبي

قد تقدم ذكر اليعقوبي بين المؤرخين. أما كتاب البلدان فقد جمع فيه ما عرفه بنفسه من أحوال البلدان في عصره؛ لأنه عانى الأسفار من صغره، وكان كلما رأى رجلًا من تلك البلدان بالمشرق والمغرب سأله عن وطنه ومصره وأحوال أهله وأجناسهم، وأكلهم وشربهم ولباسهم، والأبعاد بين البلاد، ومبالغ الخراج وأخبار الفتح، ويدون ما وصل إليه، حتى أَلَّف كتاب البلدان، فهو من أمهات الكتب؛ لأنه غير منقول عن كتاب آخر. وقد أفاض المؤلف على الخصوص في وصف بغداد كما كانت في أيامه، ووصف سامرا وتاريخها، ثم ذكر بلاد المشرق، وهي في اصطلاحهم بلاد فارس شرقي العراق إلى تركستان، وانتقل إلى بلاد العرب فالشام فالمغرب إلى الأندلس. والكتاب طبع في ليدن سنة ١٨٦١هـ بعناية المستشرق جونبول، وطبع أيضًا في جملة «المكتبة الجغرافية»، والمكتبة المذكورة تشتمل على ما صدر من كتب الجغرافية العربية إلى أواخر القرن الرابع في ثمانية مجلدات، وهي:

(١) المسالك والممالك لابن خرداذبه وكتاب الخراج لقدامة.
(٢) كتاب البلدان لابن الفقيه.
(٣) كتاب الأعلاق النفيسة لابن رسته وكتاب البلدان لليعقوبي.
(٤) مسالك الممالك للإصطخري.
(٥) المسالك والممالك لابن حوقل.
(٦) أحسن التقاسيم للمقدسي.
(٧) كتاب التنبيه والإشراف للمسعودي.
(٨) فهرس أبجدي عمومي.

طبعت كلها في ليدن بعناية المستشرق دي غويه، وقد ذكرنا بعضها ويأتي ذكر الباقي في أماكنه.

(٢-٤) ابن الفقيه

هو أبو عبد الله أحمد بن محمد بن إسحاق بن إبراهيم الهمذاني، ويعرف بابن الفقيه أحد أهل الأدب في أواخر القرن الثالث للهجرة، ولا يعرف من أمره أكثر من ذلك. ذكروا له عدة كتب وصلنا منها «كتاب البلدان»، أَلَّفه بعد موت المعتضد (سنة ٢٧٩هـ)، وصف

به الأرض والبحار في الصين والهند وبلاد العرب ومصر وبلاد المغرب والبربر والشام وفلسطين، وما بين النهرين وبلاد الروم، وأفاض في وصف البصرة والكوفة، أما بغداد فلم يرد ذكرها فيه إلا عرضًا، ويقول ابن النديم: «إنه أخذه من كتب الناس وسلخ كتاب الجيهاني.» والجيهاني هذا وزير صاحب خراسان كان له كتاب المسالك والممالك ضاع، وقام كتاب البلدان لابن الفقيه مقامه، وقد طبع هذا الكتاب سنة ١٨٨٥ في جملة المكتبة الجغرافية.

وتجد ترجمة ابن الفقيه في الفهرست ١٥٤، ومعجم الأدباء ٦٣ ج٢.

(٢-٥) ابن رسته

هو أبو علي أحمد بن عمر بن رسته. له كتاب اسمه الأعلاق النفيسة، كتبه سنة ٢٩٠هـ في أصبهان، وهو كالموسوعة، منها سبعة مجلدات في تقويم البلدان عثروا على نسخة خطية منها في المتحف البريطاني، وقد طبع مجلد منها في جملة «المكتبة الجغرافية»، وهو يبحث في عجائب السموات ومركز الأرض منها وحجم الأرض، ثم يصفها فيبدأ بمكة والمدينة، ويصف البحار والأنهار والأقاليم السبعة، وخصوصًا إيران وما يليها، وفيه فصل في الأوائل الذين أحدثوا الأشياء واقتدى بهم سواهم، وآخر في المتشابهين في أحوال شتى والمشتركين في كنية واحدة والمشهورين من ذوي العاهات. ولهذا الكتاب ترجمة ألمانية طبعت سنة ١٩٠٥.

(٣) مؤلفو الجغرافية الخاصة

(٣-١) ابن الحائك (توفي سنة ٣٣٤هـ)

هو أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف بن داود الهمداني من قبيلة همدان باليمن المعروف بابن الحائك، المتوفى سنة ٣٣٤ بسجن صنعاء. وخلف عدة مؤلفات في الفلك والطبيعيات والجغرافية وغيرها وصلنا منها:

(١) صفة جزيرة العرب خاصة: فيها فوائد هامة عن وصف جزيرة العرب وجبالها ومساكنها ومدنها ولغاتها وزراعتها ومعادنها وآثارها؛ مما يعز العثور عليه في سواها. وقد نشر هذا الكتاب المستشرق هنري مولر في ليدن سنة ١٨٨٤ مع ملحق للشروح والتعاليق.

(٢) كتاب الإكليل: ولابن الحائك هذا كتاب جزيل الفائدة في وصف اليمن وآثارها اسمه «الإكليل» في أنساب حمير وملوكها، يدخل في عدة أجزاء يشتمل على عشرة فنون في جملتها أبحاث في القرانات وعلم الطبيعة وأحكام النجوم وآراء الأوائل وغير ذلك، لم يقف الباحثون إلا على جزء نشره المستشرق مولر المذكور مع ترجمة ألمانية وتعاليق. وقد اقتبسنا كثيرًا منه في كتابنا «العرب قبل الإسلام»؛ لأنه يصف قصور اليمن ومحافدها في صنعاء ومأرب مما شاهده بنفسه في مكان السد وكيفية توزُّع المياه.

وترجمة ابن الحائك في أخبار الحكماء لابن القفطي ١١٣، ومعجم الأدباء ٩ ج٣.

(٣-٢) ابن فضلان

هو أحمد بن فضلان مولى محمد بن سليمان، أنفذه المقتدر العباسي سنة ٣٠٩هـ إلى ملك الصقالبة بمهمة، فكتب رحلة عرفت باسمه ذكر فيها ما شاهده منذ انفصل عن بغداد إلى أن عاد إليها، وفيها وصف البلغار وعاداتهم وغير ذلك، وهي مطبوعة في بطرسبرج سنة ١٨٢٣ مع ترجمة روسية، ونشرها ياقوت في معجم البلدان في مادة بلغار.

(٣-٣) سلسلة تواريخ

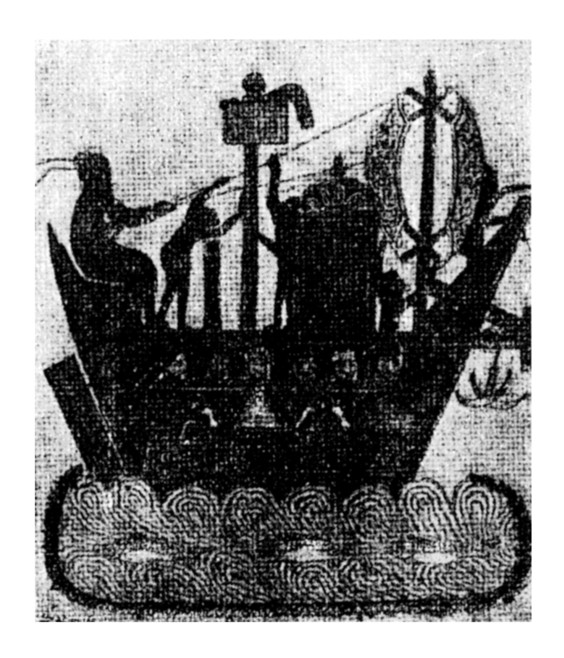
هو كتاب جزيل الفائدة. ليس هو تاريخًا كما يؤخذ من اسمه، وإنما هو رحلة أو رحلات في الهند والصين وأقصى الشرق لغير واحد من تجار العرب في القرن الثالث للهجرة، أحدهم يدعى سليمان، سافر بنفسه إلى الهند والصين، ووصف ما شاهده وعلمه من أحوال التجارة وبعض أصنافها، والآخر أبو زيد حسن من أهل سيراف، أكثر ما ذكره منقول عن تجار آخرين من العرب ارتادوا الشرق الأقصى حتى بلغوا الصين. وقد التقى أبو زيد هذا بالمسعودي المؤرخ، وتبادلا الأخبار كما يظهر مما ذكره في مروج الذهب عن بحر الهند وعجائبه بالمقابلة على ما في هذه الرحلة.

وبالجملة إن هذا الكتاب يبيِّن ما بلغ إليه العرب في تجاراتهم وأسفارهم في القرن الثالث للهجرة، وهو مطبوع في باريس سنة ١٨٤٥ مع ترجمة فرنساوية ومقدمة انتقادية لرينو المستشرق الفرنساوي.

(٣-٤) بزرك بن شهريار (صاحب عجائب الهند)

هذا أيضًا كتاب هام؛ لأنه يشتمل على ما كان يعرفه العرب في القرن الثالث للهجرة، وأوائل الرابع من بلاد الشرق الأقصى بين شواطئ بلاد العرب والهند والزنج إلى الصين، ومؤلفه بزرك بن شهريار فارسي، لكنه كتب تلك العجائب بالعربية — لغة الأدب والسياسة والدين عندهم — في أوائل القرن الرابع للهجرة، نقلًا عما سمعه من جُوَّاب البحار، وأكثرهم من السيرافيين الذين كانوا ينقلون التجارة بين شواطئ البحر المحيط، وقد نسب كل قول إلى قائله وسماه باسمه، وعين السنة التي حدثه بها أو روى وقوع الخبر فيها، ويتخلل رواياته مبالغات بعيدة الحدوث في نظر أهل هذا الزمان، لكنه يروي ما سمعه على علاته، وفي جملة ذلك أسماك وطيور هائلة الحجم تخالف ما عرفناه من أحكام التاريخ الطبيعي، ولا يطعن ذلك بما يحويه الكتاب من الحقائق؛ لأن أهل ذلك العصر معذورون في تصديق ما يسمعونه من المبالغات. ولم يكن ذلك خاصًّا بالعرب أو الشرقيين، بل هو يتناول سائر الأمم، وعند الإفرنج من أخبار أجيالهم الوسطى ما لا يقل غرابة عن خرافات ألف ليلة وليلة، وسنعود إلى ذلك في مكان آخر.

أما كتاب عجائب الهند الذي نحن في صدده، فمنه نسخة خطية في مكتبة أيا صوفيا قديمة جدًّا، وعنها نقلت نسخة طبعت في ليدن سنة ١٨٨٦ بعناية المستشرق فان درليت، مع ترجمة فرنساوية لمارسل دفيك. وفي هذه الطبعة أربع صور ملوَّنة منقولة عن مسوَّدات مقامات الحريري في مكتبة المستشرق شيفر تمثل أسفار العرب في البحار لذلك العهد. وهذه صورة سفينة منها.



شكل ١: سفينة عربية جلس ربانها على دكة إلى اليسار ليدير الشراع بالأهراس وفي وسطها مقعد مرتفع يجلس عليه الديدبان.

العلوم الإسلامية الشرعية

قد رأيت أن الفقه توطدت قواعده في العصر الماضي والعلوم الدخيلة لا تزال في أول نقلها، ولم تتمكن من نفوس الناس. أما في هذا العصر فكانت قد انتشرت الفلسفة والطبيعيات والمنطق، فغيَّرت كثيرًا من الآراء، وتولدت مذاهب في الفقه لم تكن من قبل، وتفرع مذهب الاعتزال، ونشأ علم الكلام أو التوحيد، وإليك تاريخ ذلك.

(١) علم الكلام أو التوحيد

هو حادث بعد الفقه، وسبب وضعه أنه ورد في القرآن وصف الإله بالتنزيه المطلق الظاهر الدلالة من غير تأويل، وقد فسَّرها صاحب الشريعة الإسلامية والصحابة والتابعون على ظاهرها، وورد في القرآن أيضًا آيات أخرى تُوهِم التشبيه مرة في الذات ومرة في الصفات، ورأى الأولون ذلك الخلاف؛ فغلب في معتقَدهم تفضيل التنزيه لكثرة أدلته ووضوح دلالتها وتابعهم الأكثرون. غير أن جماعة اتبعوا ما تشابه من الآيات، وتوغَّلوا في التشبيه في الذات، فاعتقدوا في الله صفات الآدميين كاليد والقدم والوجه؛ عملًا بظواهر وردت في بعض الآيات؛ فوقعوا في التجسيم الصريح، وخالفوا التنزيه المطلق، وأخذوا يكتبون ويقولون أقوالًا كثيرة مخالفة لرأي الجمهور؛ فنهض أهل السنة — وهم التابعون لأقوال الصحابة — وجاءوا بالأدلة العقلية على هذه العقائد؛ دفعًا لتلك البدع، وهو علم الكلام أو التوحيد. وفي أثناء ذلك نُقلت كتب اليونان إلى العربية، فأحبها المسلمون، وعكفوا على مطالعتها؛ فانتشرت فلسفة اليونان في الإسلام، وأقبلت المعتزلة والقرامطة والجهمية وغيرهم عليها، وأكثروا من النظر فيها؛ فتوسعوا فيما أرادوه منها من تقوية الحجة والجدال فيما كانوا فيه؛ فازداد كل منهم تمسكًا بمذهبه، وعظمت الفتنة بسبب ذلك،

وانتشرت تلك المذاهب بين المسلمين انتشارًا عظيمًا، وهي إلى ذلك العهد: مذاهب القدرية، والجهمية، والمعتزلة، والكرامية، والخوارج، والرافضة، والقرامطة، والباطنية.

وما زالت الحال كذلك إلى أن ظهر أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، فسلك طريقًا وسطًا بين النفي الذي هو مذهب الاعتزال وبين الإثبات الذي هو مذهب أهل التجسيم، فمال إليه جماعة وعوَّلوا على رأيه لما فيه من التسوية بين سائر الآراء، ووافقه جماعة كبيرة من نخبة علماء تلك الأعصر — وهم الأشعرية — مما يطول بنا الكلام فيه.

(١-١) علماء الكلام

(١) **الإمام أبو حنيفة:** أقدم من أَلَّف في علم الكلام، فإن كتابه الفقه الأكبر يعد من هذا القبيل، وقد تقدم ذكره في كلامنا عن مؤلفاته في الفقه.

(٢) **أبو حذيفة واصل بن عطاء الغزال:** المتوفى سنة ١٨١هـ، وكان من الأئمة البلغاء المتكلمين، وكان يلثغ بالراء، لكنه كان لبراعته واقتداره يخلِّص كلامه من الراء، فلا يفطن لذلك أحد. ترجمته في ابن خلكان ١٢٧ ج٢.

(٣) **أبو الهذيل محمد بن الهذيل العلاف:** المتوفى سنة ٢٣٥هـ، وكان شيخ البصريين في الاعتزال، وكان حسن الجدال قوي الحجة كثير الاستعمال للأدلة. ومما يروى عنه من هذا القبيل أنه لقي صالح بن عبد القدوس وقد مات له ولد وهو شديد الجزع عليه، فقال له أبو الهذيل: «لا أعرف لجزعك عليه وجهًا إذا كان الإنسان عندك كالزرع.» قال صالح: «يا أبا الهذيل، إنما أجزع عليه لأنه لم يقرأ كتاب الشكوك.» فقال له: «كتاب الشكوك ما هو يا صالح؟» قال: «هو كتاب قد وضعته من قرأه يشك فيما كان حتى يتوهَّم أنه لم يكن، ويشك فيما لم يكن حتى يتوهم أنه قد كان.» فقال أبو الهذيل: «فشك أنت في موت ابنك، واعمل على أنه لم يمت وإن كان قد مات، وشك أيضًا في قراءته كتاب الشكوك وإن كان لم يقرأه.» ترجمته في ابن خلكان ٤٨٠ ج١.

(٤) **أبو علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي:** توفي سنة ٣٠٣هـ، وكان إمام المتكلمين في عصره. أخذ علم الكلام عن أبي يوسف يعقوب بن عبد الله الشحام البصري رئيس المعتزلة بالبصرة، وله مقالات في مذاهب العلماء، ترجمته في ابن خلكان ٤٨٠ ج١.

(٥) **أبو الحسن الأشعري:** توفي ببغداد سنة ٣٣٣هـ. سمع زكريا الساجي، وأبا خليفة الجمحي، وسهل بن نوح، ومحمد بن يعقوب المقري، وعبد الرحمن بن خلف

الضبي المصري. وروى عنهم في تفسيره كثيرًا، وتلمذ لزوج أمه أبي علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي، واقتدى برأيه في الاعتزال عدة سنين حتى صار من أئمة المعتزلة، ثم رجع عن القول بخلق القرآن وغيره من آراء المعتزلة، وصعد يوم الجمعة بجامع البصرة كرسيًّا ونادى بأعلى صوته: «من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني أعرِّفه بنفسي. أنا فلان بن فلان، كنت أقول بخلق القرآن، وأن الله لا يُرى بالأبصار، وأن أفعال الشر أنا أفعلها، وأنا تائب مقلع معتقد الرد على المعتزلة مبين لفضائحهم ومعايبهم.» وأخذ من حينئذ في الرد عليهم، وسلك بعض طريق أبي محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن كلاب القطان، وبنى على قواعده، وصنَّف خمسة وخمسين تصنيفًا منها كتاب اللمع، وكتاب الموجز، وكتاب إيضاح البرهان، وكتاب التبيين على أصول الدين، وكتاب الشرح والتفصيل، وكتاب الإبانة، وكتاب تفسير القرآن، يقال إنه في سبعين مجلدًا، وغيرها، وأكثرها ضاع. وكانت غلته من ضيعة وقفها بلال بن أبي بردة على عقبه، وكانت نفقته في السنة سبعة عشر درهمًا، وكانت فيه دعابة ومزح كثير. قال مسعود بن شيبة في كتاب التعليم: كان حنفي المذهب معتزليَّ الكلام؛ لأنه كان ربيب أبي علي الجبائي، وهو الذي رباه وعلمه الكلام، وذكر الخطيب أنه كان يجلس أيام الجمعات في حلقة أبي إسحاق المروزي الفقيه في جامع المنصور. وقال أبو بكر بن الصيرفي: «كان المعتزلة قد رفعوا رءوسهم حتى أظهر الله تعالى الأشعري؛ فحجزهم في أقماع السماسم.»

العقيدة الأشعرية

وجملة عقيدته «أن الله تعالى عالم بعلم، قادر بقدرة، حي بحياة، مريد بإرادة، متكلم بكلام، سميع بسمع، بصير ببصر، وأن صفاته أزلية قائمة بذاته تعالى لا يقال هي هو ولا هي غيره ولا لا هي هو ولا غيره، وعلمه واحد يتعلق بجميع المعلومات، وقدرته واحدة تتعلق بجميع ما يصح وجوده، وإرادته واحدة تتعلق بجميع ما يقبل الاختصاص، وكلامه واحد هو أمر ونهي وخبر واستخبار ووعد ووعيد، وهذه الوجوه راجعة إلى اعتبارات في كلامه لا إلى نفس الكلام، والألفاظ المنزلة على لسان الملائكة إلى الأنبياء دلالات على الكلام الأزلي، فالمدلول — وهو القرآن المقروء — قديم أزلي، والدلالة — وهي العبارات وهي القراءة — مخلوقة محدثة».

وترجمته في ابن خلكان ٣٢٦ ج١، والمقريزي ٣٥٩ ج٢.

وهناك طائفة من المتكلمين أغضينا عن ذكرهم على أن بعضهم سيأتي ذكره في الأبواب الأخرى.

(٢) الحديث

(٢-١) أصحاب الكتب الستة

في هذا العصر نضج علم الحديث، ووضعت فيه الكتب الستة المشهورة، وهي عمدة المحدثين، وأصحابها ثقة حتى الآن، وهاك تراجمهم حسب سني الوفاة:

البخاري (توفي سنة ٢٦٥هـ)

هو أبو عبد الله محمد بن أبي الحسن إسماعيل البخاري. ولد في بخارا سنة ١٩٤هـ، وتوفي سنة ٢٥٦هـ. كان مغرمًا في طلب الحديث؛ فرحل لسماعه إلى كثير من الأمصار والمدن، وشهده له معاصروه بعلم الرواية والدراية، وهو صاحب كتاب «جامع الصحيح» المشهور بصحيح البخاري أول الكتب الستة في الحديث، وأفضلها على المذهب المختار، وفي شهرته غنى عن وصفه. طبع على الحجر بمصر سنة ١٢٧٩هـ، وطبع بالحروف بمصر مرارًا، وله شروح كثيرة بعضها مطبوع، منها شرح العيني طبع بمصر في ١١ مجلدًا، وفي المكتبة الخديوية نسخ كثيرة منه مكتوبة بخطوط مختلفة في أزمنة مختلفة.

وللبخاري كتاب خلق أفعال العباد مطبوع في دلهي بالهند سنة ١٣٠٦ مع كتاب العلم للذهبي، وله كتاب الأدب خط في كتب الشنقيطي.

وترجمة البخاري في ابن خلكان ٤٥٥ ج١، والفهرست ٢٣٠.

مسلم القشيري (توفي سنة ٢٦١هـ)

هو الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري. توفي سنة ٢٦١هـ في نيسابور، وكان من الأئمة الحفاظ وأعلام المحدِّثين. رحل إلى الحجاز والشام ومصر لاستماع الحديث، وألَّف فيه كتابًا سماه «الجامع الصحيح» منه نسخ عديدة خطية في المكتبة الخديوية، وقد طبع في الهند سنة ١٢٦٥، وفي مصر في تسعة أجزاء.

وترجمة القشيري في ابن خلكان ٩١ج٢، والفهرست ٢٣١.

ابن ماجه (توفي سنة ٢٧٣هـ)

هو محمد بن يزيد بن ماجه القزويني المتوفى سنة ٢٧٣هـ. كان إمامًا في الحديث عارفًا بعلومه، ارتحل في طلبه إلى البصرة والكوفة وبغداد ومكة والشام ومصر، وألَّف فيه كتاب «السنن» منه في المكتبة الخديوية بضع نسخ كتبت في أزمنة مختلفة، وطبع في دلهي على الحجر سنة ١٢٨٢، وبمصر سنة ١٣١٣، ويعرف بسنن ابن ماجه.

وترجمته في ابن خلكان ٤٨٤ ج١.

أبو داود (توفي سنة ٢٧٥هـ)

هو أبو داود سليمان الأشعث الأزدي السجستاني المتوفى في البصرة سنة ٢٧٥هـ، وكان أحد حفاظ الحديث. ألَّف كتابًا في الحديث سماه «السنن»، وتعرف بسنن الإمام أبي داود. طبع في مصر سنة ١٢٨٠هـ، وفي لكناو الهند سنة ١٨٨٨ مع فهرس أبجدي، وفي غيرهما، وترجمته في ابن خلكان ٢١٤ ج١.

الترمذي (توفي سنة ٢٧٩هـ)

هو الحافظ أبو عيسى محمد بن عيسى الضحَّاك الترمذي الضرير، له كتاب «الجامع الصحيح»، منه نسخة خطية في المكتبة الخديوية. وقد طبع بمصر سنة ١٢٩٢هـ، وله شروح كثيرة، وترجمة الترمذي في ابن خلكان ٤٨٤ ج١.

النسائي (توفي سنة ٣٠٣هـ)

هو أبو عبد الرحمن أحمد بن علي النسائي. توفي بمكة سنة ٣٠٣هـ. وهو صاحب كتاب السنن المعروف باسمه، طبع بمصر في مجلدين سنة ١٣١٢ وغيرها.

وترجمته في ابن خلكان ٢١ ج١.

وهناك كتب حديث ظهرت نحو ذلك الزمن لا بأس بها، منها سنن الدارمي عبد الله بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٢٥٥هـ، طبع في كنبور الهند سنة ١٢٩٣.

(٣) التفسير

التفسير الكبير للطبري

ونضج في هذا العصر أيضًا علم التفسير، فظهر فيه التفسير الكبير لأبي جعفر بن جرير الطبري، ويسمى جامع البيان في تفسير القرآن، جمع فيه أقوال الصحابة والتابعين. ويمتاز بأن صاحبه يبيِّن فيه ترجيح بعض الأقوال على البعض، طبع بمصر سنة ١٩٠٤ في ٣١ جزءًا، وهو من أجل التفسير، وله قيمة خصوصية لسبقه سواه، وفيه كثير من الفوائد التاريخية والأدبية واللغوية، فضلًا عن التفسير، وقد ترجمنا الطبري في باب التاريخ.

العلوم الدخيلة

(١) أولًا: الفلسفة والرياضيات

قد رأيت أن المشتغلين في نقل العلم بالعصر العباسي الأول كان أكثرهم من غير المسلمين، فلما صارت تلك العلوم في العربية اشتغل بها المسلمون، ونبغ منهم الفلاسفة والأطباء والرياضيون وغيرهم، وأقدم من اشتهر من الفلاسفة المسلمين في هذا العصر وأكبرهم وأسبقهم يعقوب بن إسحاق الكندي يليه الفارابي:

(١-١) يعقوب الكندي (في أواسط القرن الثالث)

هو أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي، ويتصل نسبه بملوك كندة، فهو عربي بحت؛ ولذلك سموه فيلسوف العرب، وكان معاصرًا للمأمون والمعتصم إلى المتوكل، وله عندهم منزلة سامية. وقد برع في الطب والفلسفة والحساب والمنطق والألحان والهندسة وطبائع الأعداد وعلم النجوم. نبغ وليس في المسلمين فيلسوف غيره، وحذا في تآليفه حذو أرسطو، وله ترجمات عديدة نقلها لنفسه، وكان يعد من حُذَّاق التراجمة، ولم يذكر بينهم؛ لأنه لم يرتزق بالترجمة، وقد ألَّف الكندي في معظم العلوم الدخيلة كتبًا كثيرة ذكرها صاحب الفهرست، وإليك عددها باعتبار العلوم:

في الفلسفة	٢٢ كتابًا
في الحساب	١١ كتابًا
في النجوم	١٩ كتابًا

في الهندسة	٢٣ كتابًا
في الفلكيات	١٦ كتابًا
في الطب	٢٢ كتابًا
في الجدل	١٧ كتابًا
في السياسة	١٢ كتابًا
في الأحداث	١٤ كتابًا
في الطبيعيات إلخ	٣٣ كتابًا
في الكريات	٨ كتب
في المنطق	٩ كتب
في الموسيقى	٧ كتب
في الأحكام	١٠ كتب
في النفس	٥ كتب
في الأبعاد	٨ كتب
في تقدمة المعرفة	٥ كتب
المجموع كله	٢٣١ كتابًا

ويؤخذ من مراجعة أسماء هذه الكتب أن الرجل كان كثير التضلُّع في العلوم حتى انتقد أصحابها، وأكثر هذه الكتب ضاع ولم يبقَ منها إلا: (١) كتاب في إلهيات أرسطو، (٢) رسالة في الموسيقى. وكلاهما موجودان في مكتبة برلين، (٣) رسالة في معرفة قوى الأدوية المركبة في مكتبة منشن، ولها ترجمة لاتينية مطبوعة، (٤) في المد والجزر، (٥) علة اللون اللازوردي الذي يرى في الجو في جهة السماء، وكلاهما في أكسفورد، (٦) ذات الشعبتين آلة فلكية في ليدن، (٧) اختيارات الأيام في ليدن، (٨) مقالة تحاويل السنين في الإسكوريال، وغيرها.

وترجمة الكندي في الفهرست ٢٥٥، وأخبار الحكماء لابن القفطي ٢٤٠، وطبقات الأطباء ٢٠٦ ج١.

(١-٢) أبو النصر الفارابي (توفي سنة ٣٣٩هـ)

ويلي الكندي أبو النصر الفارابي، واسمه محمد بن طرخان، أصله من فاراب، لكنه فارسي المنتسب، نشأ في الشام واشتغل فيها، وكان فيلسوفًا كاملًا، درس كل ما درسه الكندي من العلوم، وفاقه في كثير منها، وخصوصًا في المنطق، وتعمَّق في الفلسفة والتحليل وأنحاء التعاليم، وأفاد وجوه الانتفاع بها، وألف كتبًا في مواضيع لم يسبقه أحد إليها ككتابه في إحصاء العلوم الآتي ذكره وكتاب «السياسة المدنية»، وهو من قبيل الاقتصاد السياسي الذي يزعم أهل التمدن الحديث أنه من مخترعاتهم، وقد كتب فيه الفارابي منذ ألف سنة، ثم كتب فيه غيرهما كما ستراه مفصلًا في ما يلي. وبرع الفارابي خصوصًا في فن الموسيقى حتى أصبح لا يضاهيه فيه أحد، واخترع القانون كما سيأتي في باب الموسيقى، وأصلح ما بقي من الترجمات غير مصلح ولخصها، أوعز إليه بذلك منصور بن نوح الساماني، فأجاب وسمى كتابه «التعليم الثاني»؛ ولذلك سموه «المعلم الثاني».[١]

ومن مؤلفاته الباقية إلى الآن نحو ١٢ كتابًا في المنطق متفرقة في مكاتب أوروبا بعضها منقول إلى اللاتينية أو العبرانية، أكثرها في الإسكوريال. وبعض الترجمات اللاتينية مطبوع في البندقية وغيرها، وثمانية مؤلفات في السياسة والأدب، منها:

(١) كتاب مبادئ آراء أهل المدينة الفاضلة، طبعها ديتريشي في ليدن سنة ١٨٩٥.

(٢) كتاب إحصاء العلوم والتعريف بأغراضها، المتقدم ذكره، وهو من قبيل موسوعات العلم؛ لأنه يشتمل على عدة علوم، منه نسخة خطية في الإسكوريال، وله ترجمة عبرانية وأخرى لاتينية، وبهذا الكتاب عُدَّ الفارابي من مؤسِّسي الموسوعات العربية، وسنعود إلى ذلك. وكتاب السياسة المدنية نشره الأب شيخو في بيروت سنة ١٩٠٢.

وله ٩ كتب في الرياضيات والنجوم والكيمياء والموسيقى متفرقة في مكاتب أوروبا والآستانة مع ترجماتها العبرانية أو اللاتينية.

و٩ كتب أخرى في مواضيع مختلفة، ومثلها على أرسطو في أبحاث مفيدة. وقد وصف هذه البقايا وذكر أماكن وجودها بروكلمن في كتابه،[٢] فليراجعها من شاء. وترجمته في ابن خلكان ٧٦ ج٢، وطبقات الأطباء ١٣٤ ج٢، وأخبار الحكماء ١٨٢.

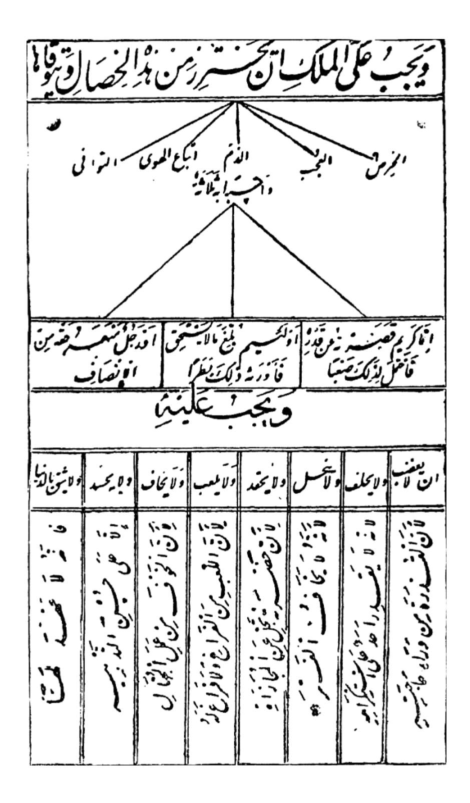
(١-٣) ابن أبي الربيع وسلوك المالك

واطلعنا على كتاب في السياسة اسمه سلوك المالك في تدبير الممالك، تأليف «شهاب الدين أحمد بن محمد بن أبي الربيع»، وقد جاء في أوله أنه أُلِّف للخليفة المعتصم بالله العباسي المتوفى (سنة ٢٢٧)، فإذا صحَّ ذلك كان مؤلف هذا الكتاب أقدم من الكندي والفارابي، ولكن موضوع الكتاب وأسلوبه يدلان على أنه وضع بعد ذلك التاريخ؛ لأنه مرتب على شكل المشجر في أسلوب يدل على وضوح الأفكار في ذهن مؤلفه مما لا يتأتَّى إلا بعد نضج العلم نضجًا تامًّا. وزد على ذلك أن اسم شهاب الدين من الأسماء التي لم تكن معروفة في زمن المعتصم، وإنما هو مما طرأ على الإسلام بعد رسوخ الأتراك في الدولة، وفي كتاب الفهرست مئات من أسماء المؤلِّفين ليس فيهم واحد اسمه شهاب الدين، والفهرست كتب سنة ٣٧٧؛ أي بعد وفاة المعتصم بقرن ونصف، وهذا تاريخ ابن الأثير لم يرد فيه اسم شهاب الدين قبل انقضاء القرن الخامس للهجرة، فلا يُعقل أن ينفرد رجل بهذا الاسم في أول القرن الثالث، ولكل عصر أسماء وألقاب تابعة لأحوال اجتماعية خاصة به. ولعل الخطأ وقع في تحريف اسم الخليفة الذي وضع الكتاب له، فكان «المستعصم»، توفي (سنة ٦٥٦هـ)، فقرئ «المعتصم»، وكثيرًا ما يتفق ذلك في قراءة الخطوط. ثم إن الفهرست لم يذكر هذا الكتاب ولا مؤلفه، وإنما ذكره كشف الظنون بدون اسم المؤلف.

أما الكتاب فإنه جزيل الفائدة؛ يبحث في السياسة والاجتماع والفلسفة والطبيعيات والرياضيات والموسيقى، وهو مقسوم إلى أربعة فصول: (١) مقدمة الكتاب، (٢) أحكام الأخلاق وأقسامها، (٣) أصناف السيرة العقلية وانتظامها، (٤) أقسام السياسات وأحكامها. وكل من هذه الفصول مقسوم إلى أبواب ترتبت فيها الأفكار أو الأحكام بشكل جداول أو مشجرات بغاية الدقة. وقد طبع هذا الكتاب في القاهرة سنة ١٢٨٦ على الحجر في ١٥٢ صفحة كبيرة ليمكن تصوير تلك المشجرات. وهذا مثال منه.

(٢) ثانيًا: الطب والأطباء

ونبغ في هذا العصر أيضًا طائفة من الأطباء المسلمين وغيرهم، هاك أشهرهم حسب سني الوفاة:



شكل ١: صفحة من كتاب سلوك المالك.

(٢-١) ابن ماسويه (توفي سنة ٢٤٣هـ)

هو أبو زكريا يوحنا بن ماسويه. كان أبوه صيدليًّا في مارستان جندي سابور. وتثقَّف في بغداد بعناية جبرائيل بن بختيشوع، وترقى في زمن المأمون والواثق. وله مترجمات حسنة ومؤلفات لم يبق منها إلا: (١) كتاب نوادر الطب في ليدن والإسكوريال وغوطا، وله ترجمة لاتينية وشروح، (٢) جواهر الطب، (٣) كتاب ماء الشعير في مكتبة جزائر الغرب، (٤) الأدوية السهلة في أكسفورد وغيرها. وقد نشرنا رسمه مع المترجمين.

وترجمة ابن ماسويه في أخبار الحكماء ٢٤٨، والفهرست ٢٩٥، وطبقات الأطباء ١٧٥ ج١.

(٢-٢) ابن سهل

هو سابور بن سهل صاحب مارستان جندي سابور. توفي سنة ٢٥٥هـ، وله كتاب الأقراباذين الكبير، كان معول الصيادلة في أثناء التمدن الإسلامي، منه نسخة خطية في منشن.

وترجمته في طبقات الأطباء ١٦١ ج١، وتراجم الحكماء ١٤١.

(٢-٣) أبو بكر الرازي (توفي سنة ٣٢٠هـ)

هو أشهر من نبغ من الأطباء في هذا العصر على الإطلاق، واسمه أبو بكر محمد بن زكريا الرازي، ويسميه الإفرنج Razès، كان في صغره يضرب على العود، وتلقى العلم على كبر، وأفلح واشتهر حتى تولى رئاسة أطباء مارستان بغداد. وظهرت مواهبه بما كان يعقده من مجالس العلم أو يؤلِّفه من الكتب، وجمع في مؤلفاته كل ما كان معروفًا من العلوم الطبية في عصره، ومن أمثالهم: «إن الطب كان معدومًا فأحياه جالينوس، وكان متفرقًا فجمعه الرازي، وكان ناقصًا فكمَّله ابن سينا.»

وكان الرازي يجلس في مجلسه ودونه التلاميذ دونهم تلاميذهم ودونهم تلاميذ آخرون، فكان يجيء الرجل فيصف ما يجد لأول من يلقاه، فإن كان عندهم علم وإلا تعدَّاهم إلى غيرهم، فإن أصابوا وإلا تكلم الرازي، وكان كبير الرأس مسفطه جليل الطلعة يتهيب الناسُ مجلسه لولا رطوبة كانت في عينيه، وكان كريمًا متفضلًا رءوفًا بالمرضى دقيق الملاحظة صحيح النظر، ويروون عن ذكائه وإصابته نوادر كثيرة لا محل لها هنا.

وكان أكثر مقام الرازي في الري وغيرها من بلاد العجم، وخدم بصناعته الأكابر ملوكها وأمراءها، وصنَّف بعض كتبه لهم ككتاب المنصوري أَلَّفه للأمير منصور من آل سامان، وكتاب الملوكي لعلي ابن صاحب طبرستان، وسنعود إليها.

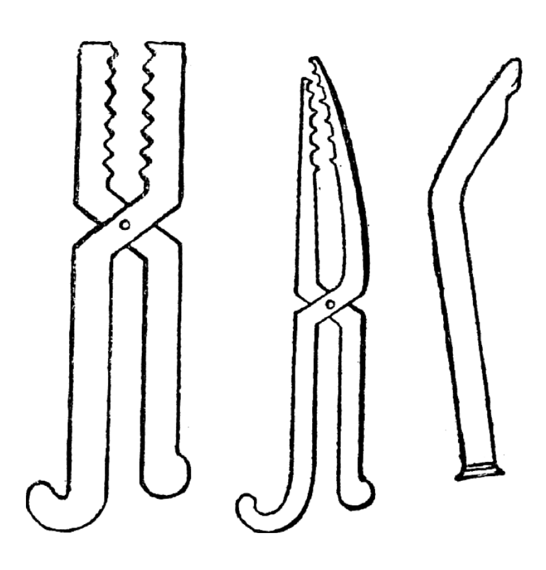
وكان الرازي مولعًا بالعلوم الحكمية، وله فيها مصنَّفات نفيسة، وخصوصًا علم الكيمياء وما يتعلق بها، وله اكتشافات كيماوية أهمها زيت الزاج (الحامض الكبريتيك) والكحول، استحضر الأول باستقطار كبريتات الحديد، واسمها في العربية الزاج الأخضر،



شكل ٢: أبو بكر الرازي في معمله يشتغل بالكيمياء.

فلما استقطرها خرج منها سائل سماه زيت الزاج، ولا تزال طريقة الرازي من طرق استحضار هذا الحامض إلى اليوم. أما الكحول فاستحضره باستقطار مواد نشوية وسكرية مختمرة، وألَّف الرازي في الكيمياء كتبًا كثيرة، ولم يكن يعتقد ما يعتقده أهل زمانه من إمكان تحويل المعادن إلى ذهب، وإنما كان يؤلِّف في هذا الفن على اعتقاد أهله التماسًا للمال، لكن ذلك ألحق به الأذى؛ لأن منصور الساماني المذكور طالبه باستخراج الذهب على الصفة التي ذكرها في كتابه فلم يستطع؛ فغضب عليه وأمر أن يضرب بالكتاب على رأسه حتى يتقطَّع، ثم جهزه وسيَّره إلى بغداد، فكان ذلك الضرب سببًا في نزول الماء على عينيه. وجاءه قداح يقدحهما، وهي عملية الكتركتا الآن، فسأله الرازي: «كم طبقة للعين؟» فقال: «لا أعلم!» فقال: «لا يقدح عينيَّ من لا يعلم ذلك.» ثم قال: «قد نظرت الدنيا حتى مللت منها فلا حاجة بي إلى عينين.»

توفي سنة ٣٢٠، وقيل: ٣١٠، وقيل: ٣٦٤هـ.



شكل ٣: آلات خلع الأسنان في ذلك العصر.

وخلَّف الرازي أكثر من مائتي مؤلَّف لا يزال باقيًا منها إلى الآن بضعة وعشرون مؤلفًا يطول بنا وصفها، وإنما نذكر أهمها وهي:

(١) كتاب الحاوي: وهو أجلُّ كتبه وأعظمها في صناعة الطب، جمع فيه ما وجده متفرِّقًا من ذكر الأمراض ومداواتها في كتب الطب للمتقدمين ومن أتى بعدهم إلى زمانه، ونسب كل قول إلى قائله، ومن هذا الكتاب نسخة خطية في المتحف البريطاني، وأخرى في مكتبة مونيخ، وفي مكاتب أكسفورد والإسكوريال، وقد نقل إلى اللاتينية، نقله فراغوت، وطبع مرتين، وقد اختصره غير واحد.

(٢) كتاب الطب المنصوري: وقد ذكرنا سبب تأليفه، ومنه نسخة في المكتبة الأهلية بباريس وفي مكاتب أكسفورد ودرسدن وإسكوريال وغيرها، وقد نقله إلى اللغة اللاتينية الكريموني، وطبع فيها.

(٣) كتاب الجدري والحصبة: وهو أول من وصف هذين الداءين حق الوصف، وقد ترجم كتابه إلى اللاتينية وغيرها، ونشر فيها كلها.

(٤) كتاب الفصول في الطب: ويقال له المرشد، نقل إلى العبرانية، ويوجد في ليدن، ونقل إلى اللاتينية، وطبع فيها، وقد وصفه المشرق صفحة ٥٤٢ سنة ٤.

(٥) كتاب الكافي: ترجم إلى العبرانية، وهو موجود في مكتبة أكسفورد.

(٦) كتاب برء الساعة: يوجد في برلين وغيرها، ونشره الدكتور كيك في مجلة المشرق صفحة ٣٩٥ سنة ٦.

(٧) كتاب الطب الملوكي: يوجد خطًّا في مكتبة ليدن.

وقد ترجمنا الرازي ووصفنا كتبه الباقية في الهلال ٣٩٧ سنة ١٨، وتجد ترجمته أيضًا في ابن خلكان ٧٨ ج٢، وطبقات الأطباء ٣٠٩ ج١، والفهرست ٢٩٩، وأخبار الحكماء لابن القفطي ١٧٨.

(٣) ثالثًا: الزراعة

ومن العلوم التي نضجت في هذا العصر وبقيت كتبها إلى اليوم، واستفاد منها أهل الأجيال المتأخرة: علم الزراعة أو الفلاحة. وهو في الأصل منقول عن الكلدانية، نقله أحمد بن علي بن قيس الكلداني المعروف بابن وحشية سنة ٢٩١هـ في كتاب سمَّاه «الفلاحة النبطية»، أملاه سنة ٣١٨هـ على علي بن محمد بن الزيات، وجعله في خمسة أجزاء، منها نسخ خطية في برلين وليدن وأكسفورد والمتحف البريطاني وباريس والجزائر والمكتبة الخديوية، ومنه مختصر الفلاحة للزيتوني، وطبعت في بطرسبورج سنة ١٨٥٩، وله كتب في النجامة منها نسخ في مكاتب أوروبا لا فائدة من ذكرها.

ولقسطا بن لوقا الطبيب النصراني البعلبكي المتوفى سنة ٣١١هـ كتاب الفلاحة اليونانية، نقله عن السريانية، وقد طبع في مصر سنة ١٢٩٣.

هوامش

(١) كشف الظنون ٤٤٨ ج١.

(٢) Gesch. des Ar. Lit. I. 211.

العصر العباسي الثالث

أو المائة الثالثة من الدولة العباسية
من سنة ٣٣٤هـ إلى سنة ٤٤٧هـ

يبدأ هذا العصر باستقرار الدولة البويهية سنة ٣٣٤هـ، وينتهي بدخول السلاجقة بغداد سنة ٤٤٧، وقد قلنا في كلامنا عن العصر العباسي الأول: إنه عصر الإسلام الذهبي، ونعني أنه عصرها الذهبي من حيث مَنَعَة الدولة واتساع السلطان، وفيه نقلت العلوم القديمة إلى العربية، وأما عصر الإسلام الذهبي للعلم خاصة فهو العصر الذي نحن في صدده أو المائة الثالثة للدولة العباسية؛ لأنه فيه نضجت العلوم على اختلاف مواضيعها، وتم نموها، وظهرت الكتب الوافية في أكثرها، ولا سيما في اللغة وعلومها وفي التاريخ والجغرافية والأدب والطب والفلسفة، ولذلك أسباب اجتماعية طبيعية سيأتي بيانها، وتقدم الكلام في مدائن العلم الإسلامية.

تنقل العلم في المدائن الإسلامية

رأيت فيما تقدم أن العلوم الإسلامية نشأ معظمها في البصرة والكوفة، ثم تحولت إلى بغداد بعد استبحار عمرانها في العصر العباسي الثاني، فأصبحت بغداد في ذلك العصر كعبة العلم وحجَّ العلماء كما كانت رومية في إبان التمدن الروماني، حتى إذا تولى المعتصم واستكثر من الأتراك وظهرت منهم الإساءة لأهل بغداد نفر الناس وتباعدت القلوب، ولكن المعتصم كان على مذهب أخيه المأمون في الاعتزال وإكرام الشيعة، فظلت بغداد على نحو ما كانت عليه في أيام المأمون، وكان الواثق يتشبه بالمأمون في حركاته وسكناته، وكان يعقد المجالس مثله للمباحثة بين الفقهاء والمتكلمين في أنواع العلوم العقلية والسمعية في جميع الفروع.

فلما توفي الواثق سنة ٢٣٣هـ خلفه أخوه جعفر المتوكل، وكان شديد الانحراف عن الشيعة والمعتزلة، حتى أمر بهدم قبر الحسين بن علي وما حوله من المنازل ومنع الناس من إتيانه، وكان كثير الاستهزاء بعلي يجالس من اشتهر ببغضه، وخالف ما كان عليه المأمون والمعتصم والواثق من الاعتقاد، فأبطل القول بخلق القرآن، ونهى عن الجدل والمناظرة في الآراء وعاقب عليه، وأمر بالرجوع إلى التقليد ونصر السنة والجماعة، وأمر الشيوخ والمحدثين بالتحديث، فانحطَّ علم الكلام بعد أن بلغ رونقه في أيام الرشيد وخلفائه، فأخذ في التقهقر في أيام المتوكل؛ لأنه كان شديد الوطأة على أصحاب الرأي وأصحاب الفلسفة وسائر العلوم الدخيلة، وأخذ منذ تولي الخلافة في مناوأتهم؛ فأهلك جماعة من العلماء وحطَّ مراتبهم، وعادى العلم وأهله. ولاقى أهل الذمة منه الشدائد بتغيير زيهم وتذليلهم وإهانتهم. ومن أشهر حوادث نقمته على خدمة العلم أنه غضب على بختيشوع الطبيب وقبض ماله ونفاه إلى البحرين، وقتل ابن السكيت النحوي كما

تقدم، وسخط على عمر بن مصرح الراجحي، وكان من عِلْيَة الكُتَّاب، وأخذ منه مالًا وجواهر، وأمر أن يصفع في كل يوم.

ومات المتوكل مقتولًا سنة ٢٤٧هـ، قتله رجاله؛ فاضطربت أحوال الخلافة، واستفحل شأن الأتراك، فنفرت قلوب طلبة العلم وأكثرهم من الفرس والعرب، فتفرَّقوا من بغداد رويدًا رويدًا إلى أنحاء المملكة الإسلامية شرقًا وغربًا؛ ولذلك كان أكثر من ظهر من العلماء بعد نضج العلم في القرن الرابع للهجرة فما بعده نبغوا خارج بغداد، وفيهم الأطباء والفلاسفة والمنجِّمون والمهندسون والمتكلِّمون وأصحاب المنطق والفقهاء واللغويون والمحدِّثون والمؤرخون وغيرهم.

فكان مركز الطب والطبيعيات والفلسفة عند ظهور الإسلام في الإسكندرية، ثم انتقل في أيام عمر بن عبد العزيز في آخر القرن الأول للهجرة إلى أنطاكية، والعلوم الإسلامية انتقلت من البصرة والكوفة إلى بغداد، وانضمت إليها العلوم الدخيلة، فأصبحت بغداد أم المدائن في العلم والأدب والفلسفة والطب وسائر العلوم العقلية والنقلية، فلما اضطربت أحوال الخلافة في أيام المتوكل ثم نشأت الدول الجديدة في أنحاء المملكة الإسلامية بالتفرع والتشعب على مقتضى ناموس الارتقاء، تفرَّق العلماء، وأصبح للعلم مراكز كثيرة قد يتفاضل بعضها على بعض، وتدرَّج الانتقال من بغداد شرقًا إلى العراق العجمي فخراسان فما وراء النهر، وغربًا إلى الشام ومصر فالمغرب فالأندلس.

فأقبل العصر العباسي الثالث وقد نبغ المفكرون والمشتغلون في العلم والأدب من الشعراء والأدباء والمنشئين والمؤرِّخين والجغرافيين واللغويين والفلاسفة في مدائن كثيرة من المملكة الإسلامية من أقصى تركستان في الشرق إلى أقصى الأندلس في الغرب، ويدخل في ذلك ما وراء النهر وأفغانستان وطبرستان وخوارزم وفارس وما بين النهرين والمغرب والأندلس ومصر والشام وغيرها.

وزاد انتساب العلماء إلى مواطنهم، فكثرت أسماء البخاري والنيسابوري والرازي والبغدادي والأندلسي، بعد أن كان أكثر انتسابهم إلى أصولهم كالحميري والمازني والقرشي والفارسي ونحوها، أو إلى صنائعهم كالنحَّاس والزجاج.

أسباب النهضة في هذا العصر

حدث في العصر العباسي الأول نهضة علمية عقبها في العصر العباسي الثاني فتور على أثر البحران السياسي الذي أخذ من نفوس رجال الدولة، حتى اشتغلوا بأنفسهم عن تنشيط العلم، فكانت المائة الثانية من الدولة العباسية فترة تَمَّ فيها تكوُّن أغراس العلم، فأقبلت المائة الثالثة وقد ظهرت ثماره ناضجة، وهي النهضة الثانية في الدولة العباسية، والفاعل الرئيسي في هذه النهضة ناموس النشوء الطبيعي ونصرة رجال الدولة.

(١) ناموس النشوء والارتقاء

يقضي ناموس النشوء والارتقاء على الأحياء وما يتعلق بهم بالنمو والتفرع في آجال معينة — فالعلوم الإسلامية ولد أكثرها في البصرة والكوفة ونمت في بغداد، فلما تم نموها وأدركت رشدها كانت الدولة قد بلغت دور التفرع، فظهرت ثمار ذلك النمو في فروع تلك الدولة أو من تغلَّب عليها من الدول الخارجية، وتعددت الدول التي اقتسمت السلطة على المملكة العباسية مع بقاء الخلفاء العباسيين في العراق، وقد فصلنا ذلك في الجزء الرابع من تاريخ التمدن الإسلامي، فنكتفي هنا بالدول التي تعاونت على النهضة العلمية في ذلك العصر، وهي:

اسم الدولة	مقرها	مدة حكمها	جنس مؤسسها
المروانية	الأندلس	من سنة ١٣٨–٤٢٢	عربي
السامانية	وراء النهر	من سنة ٢٦١–٣٨٩	فارسي
الزيارية	جرجان	من سنة ٣١٦–٤٣٤	فارسي
الحمدانية	بين النهرين وحلب	من سنة ٣١٧–٣٩٤	عربي
البويهية	العراق وفارس وغيرهما	من سنة ٣٢٠–٤٤٧	فارسي
الغزنوية	أفغانستان والهند	من سنة ٣٥١–٥٨٢	تركي
الفاطمية	مصر	من سنة ٣٥٧–٥٦٧	عربي

(٢) رغبة الأمراء في العلم

فهذه الدول تعاصرت في العصر العباسي الثالث، وكان لها تأثير عظيم في إحياء العلوم بمن نبغ بين ملوكها أو أمرائها أو وزرائها من محبي العلم الآخذين بناصر العلماء — والناس على دين ملوكهم — وإذا أراد الله بالناس خيرًا جعل العلم في ملوكهم والملك في علمائهم؛ لأن العلم لا يورق ولا يثمر إلا في ظل ملك أو أمير يتعهَّده ويأخذ بأيدي أصحابه.

لذلك زها الأدب في زمن عبد الملك بالعصر الأموي، وفي زمن الرشيد والمأمون في العصر العباسي الأول، ولمثل هذا السبب ظهرت ثماره ناضجة في العصر الذي نحن في شأنه، وهو في هذا العصر أكثر ثمرًا وأصح إنتاجًا؛ لأن العاملين على تعهُّده تكاثروا. وبعد أن كان نصيره الخليفة أو وزيره أو بعض عماله في بلد واحد أصبح نصراؤه في هذا العصر عدة ملوك وأمراء ووزراء في أشهر مدائن العالم الإسلامي. وقد تعاونت على استثماره قرائح العرب والفرس والترك والديلم والروم وغيرهم ممن تعرب أو انخرط في الإسلام من أمم الشرق والغرب. وأخذ الناس يتسابقون في خدمة العلم كما يتسابق ملوكهم في نصرة العلماء. وهاك أشهر أنصار العلم في ذلك العصر من الملوك أو الأمراء أو الوزراء في الدول التي تقدَّم ذكرها:

(٣) الدول التي ساعدت على هذه النهضة

(٣-١) الدولة البويهية في العراق وفارس

رجال هذه الدولة وأنصارها الديلم من الجيلان وراء خراسان، ولكن ملوكها آل بويه من الفرس، ويرتفع نسبهم إلى ملوك الفرس القدماء؛ وإنما سُمُّوا ديلم لأنهم سكنوا بلاد الديلم، وهم من الشيعة العلوية، وكان العلويون يسعون في نشر دعوتهم هناك من أيام الرشيد، وآخر من نجح في ذلك الحسن بن علي الأطروش من نسل الحسين، فدعا الديلم إلى مذهبه في أواخر القرن الثالث؛ فأجابوه.

وجدُّ آلِ بويه الأقرب الذي أسس هذه الدولة — اسمه بويه ولقبه أبو شجاع — كان له ثلاثة أولاد هم: علي ويلقب عماد الدولة، وحسن ويلقب ركن الدولة، وأحمد ويلقب معز الدولة. وكان بويه رقيق الحال؛ فانتظم أولاده بالجندية؛ لأنها كانت يومئذ بابًا من أبواب الرزق الواسعة، وكان عماد الدولة في خدمة مرداويج مؤسس الدولة الزيارية، فارتقى عنده حتى ولَّاه الكرج، ثم اتسعت أحواله فكتب إلى الخليفة العباسي — وهو يومئذ الراضي بالله المتوفى سنة ٣٢٩هـ — أن يقاطعه على أعمال فارس بمال يحمله إلى دار الخلافة على جاري عادتهم مع الدولة العباسية في ذلك العهد، فأجابه الراضي وبعث إليه بالخلعة. وأخوه حسن ركن الدولة تملَّك خوارزم، وجاء الأخوان واتَّحدا مع أخيهما الثالث معز الدولة في شيراز وساروا غربًا حتى أتوا بغداد في أيام المستكفي سنة ٣٣٤هـ، فرحب بهم وخلع عليهم ولقَّبهم الألقاب المذكورة، وجعل معز الدولة أمير الأمراء، فاستبدُّوا في المملكة، واستولوا على الخلافة وعزلوا الخلفاء وولَّوْهم؛ فرفعوا منار الشيعة، وأحيوا معالمها، وأضعفوا نفوذ الأتراك والخلافة العباسية لا تزال في بغداد. ولما أفضت إمارة الأمراء إلى عضد الدولة لُقِّب بالملك، وهو أول من خوطب بهذا اللقب في الإسلام.

وامتدت سلطة البويهيين على العراق وفارس وخراسان إلى سنة ٤٤٧هـ، وكانوا يحبون العلم والأدب ولا يستوزرون أو يستكتبون إلا العلماء والشعراء والكتاب، فكان أشهر أدباء ذلك العصر من وزرائهم أو عمَّالهم أو قضاتهم أو كتابهم كابن العميد والصاحب بن عباد وسابور بن أردشير المهلبي، فضلًا عن الأدباء من العمال والقضاة وكتَّاب الدولة.

على أن ملوك آل بويه أنفسهم اشتهر منهم غير واحد في الأدب والشعر أشهرهم في ذلك عضد الدولة المتوفى سنة ٣٧٢هـ، كان أوسعهم سلطانًا وأقواهم سطوة، وكان مشاركًا في عدة فنون من الأدب، فقرب إليه العلماء والكتاب وأحسن وفادتهم، واستحثَّهم على الاشتغال بالعلم وتأليف الكتب، فألف له أبو إسحاق الصابي كتابًا في أخبار آل بويه سمَّاه الناجي، وألَّف له أبو علي الفارسي كتاب الإيضاح والتكملة في النحو، وقصده فحول الشعراء في عصره كالمتنبي والسلامي وغيرهما، وكان مجلسه لا يخلو من الأدباء والعلماء يباسطهم ويباحثهم. ومن شغفه بالشعر تمنَّى أن يكون المصلوب بدل ابن بقية الوزير لتقال فيه قصيدة محمد بن عمران الأنباري التي مطلعها:

عُلُوٌّ في الحياة وفي الممات لعمرك تلك إحدى المعجزات[١]

وكان هو نفسه ينظم الشعر الحسن، وقد ذكر صاحب يتيمة الدهر (ج٢) أمثلة من نظمه، ومن نكاته الأدبية أن أفتكين التركي صاحب دمشق كتب إليه: «إن الشام قد صفا وصار في يدي وزال عنه حكم صاحب مصر، وإن قوَّيْتني بالأموال والعدد حاربت القوم في مستقرهم.» فكتب عضد الدولة جوابه كلمات متشابهة في الخط لا تقرأ إلا بعد الشكل والنقط والضبط، وهي: «غرَّك عزُّك فصار قصار ذلك ذلك فاخش فاحش فعلك فعلَّك بهذا تهدا.» والبيمارستان في بغداد ينسب إليه.

وكان عز الدولة أبو منصور بختيار بن معز الدولة شاعرًا (سنة ٣٥٦–٣٦٧)، وكذلك تاج الدولة بن عضد الدولة، وهو آدب آل بويه وأشعرهم وأكرمهم، وكان يلي الأهواز فأدركته حرفة الأدب فأدت إلى نكبته، وكذلك أبو العباس خسرو بن فيروز بن ركن الدولة، وتجد أمثلة من أشعارهم في الجزء الثاني من يتيمة الدهر للثعالبي مؤرخ أدباء ذلك العصر.

على أن تأثيرهم في هذه النهضة يتوقَّف بالأكثر على أخذهم بناصر الأدباء والعلماء، وكانوا شديدي الرغبة في ذلك، فركن الدولة بن بويه في الري وهمذان وأصبهان (سنة ٣٢٠–٣٦٦) استوزر ابن العميد الكاتب العالم المشهور، وكان ابن العميد مقصدًا للشعراء والأدباء وأهل العلم كما سترى، وبهاء الدولة بن عضد الدولة في العراق والأهواز (سنة ٣٧٩–٤٠٣) استوزر سابور بن أردشير، فأنشأ هذا الوزير في كرخ بغداد خزانة كتب وقفها على إفادة الناس. قال ياقوت: «لم يكن في الدنيا أحسن كتب منها، كانت كلها بخطوط الأئمة المعتبرة وأصولهم المحررة.» وكان سابور أيضًا شاعرًا.

ومعز الدولة بن بويه (سنة ٣٢٠–٣٥٦) استوزر الحسن المهلبي المتوفى سنة ٣٥٢هـ، وكان المهلبي شاعرًا أديبًا، وهو صاحب الأبيات المشهورة التي أولها:

ألا موت يباع فأشتريه فهذا العيش ما لا خير فيه

قاله وهو في أشد الضيق قبل الوزارة.

وأكثر وزراء هذه الدولة تأثيرًا في هذه النهضة الصاحب بن عباد وزير مؤيد الدولة بن ركن الدولة، ثم وزر لفخر الدولة أخيه، وكان شاعرًا عالمًا كاتبًا، وسنترجمه على حدة، وكان يجتمع عنده من الشعراء ما لم يجتمع عند غيره، وكان عظيم المنزلة عند فخر الدولة لا يرد له طلب — فكم يكون تأثيره في إحياء معالم الأدب؟ وكان له عشرات من أهل العلم والأدب يقيمون عنده وعشرات يفدون عليه، وبالجملة فإن البويهيين كانوا يختارون وزراءهم وعمَّالهم حتى كتابهم من الأدباء، ويتعاونون على نصرة الأدب.

(٣-٢) الدولة السامانية في تركستان

رأس هذه الدولة سامان من أشراف بلخ، أنشأ أعقابُه دولةً عظيمة في خراسان وتركستان، وزهت في أيامهم بخارا فكانت مجتمع الأدباء والعلماء والشعراء، واشتهرت نيسابور، وفيها أنشئت أقدم المدارس الإسلامية،[٢] وتوالى في الدولة السامانية عشرة ملوك من سنة ٢٦١–٣٨٩ اشتهر غير واحد منهم بنصرة العلم، فمنهم منصور بن نوح (سنة ٣٥٠–٣٦٦)، كان محبًّا للعلم والعلماء، فاستوزر البلعمي العالم الفارسي، فترجم له تاريخ الطبري إلى اللغة الفارسية كما تقدم في ترجمة الطبري.

وخلفه ابنه نوح بن منصور (سنة ٣٦٦–٣٨٧) من محبي العلم وأهله، كان مجلسه مجتمع الشعراء، وهو أول من اقترح نظم الشاهنامة (إلياذة الفرس) في الفارسية، اقترح ذلك على شاعره الدقيقي، فنظم له بعضها ثم قتل؛ فأتمها الفردوسي بعده بإشارة السلطان محمود الغزنوي كما سيجيء، وكان نوح رغابًا في استخدام رجال العلم، فلما سمع بشهرة الصاحب بن عباد وزير البويهيين، كتب إليه سرًّا يستدعيه إلى بخارا ليفوض إليه وزارته وتدبير أمر مملكته، فاعتذر الصاحب عن ذلك بأنه يحتاج لنقل كتبه إلى ٤٠٠ جمل — ولعل له عذرًا آخر كتمه، وكان نوح هذا شديد الحرص على الكتب راغبًا في اقتنائها، فجمع مكتبة كبيرة حوت أهم المؤلفات في كل علم من الأدب والشعر

والتاريخ والطب والفلسفة، ذكرها ابن سينا في حديثه عن صبوته، وقال: إنه استفاد منها، وإن منها كتبًا نادرة الوجود.

ومن أبناء الدولة السامانية منصور الساماني لم يحكم لكنه كان يحب العلماء، فألَّف له أبو بكر الرازي كتاب المنصوري في الطب كما تقدم، وبالجملة كانت بخارا مثابة المجد وكعبة الملك ومجتمع أفراد الزمان من الأدباء والعلماء والفضلاء.

(٣-٣) الدولة الزيارية في طبرستان

كان مقر هذه الدولة في جرجان بطبرستان أول ملوكها مرداويح بن زيار. تولى الملك سنة ٣١٦هـ، وأشهرهم بنصرة العلماء شمس المعالي قابوس بن وشمكير (سنة ٣٦٦–٤٠٣)، وكان شاعرًا أديبًا كاتبًا من أبلغ كتاب العربية، وله معرفة بالفلسفة والنجوم والنجامة، وقد ألَّف في العربية رسالة في الأسطرلاب أطنب أبو إسحاق الصابي في مدحها. ومن شعره الأبيات المشهورة التي مطلعها:

قل للذي بصروف الدهر عيَّرَنا:	هل حارب الدهر إلا من له خطرُ
أما ترى البحر تعلو فوقه جيفٌ	وتستقر بأقصى قعره الدررُ
وفي السماء نجوم ما لها عددٌ	وليس يكسف إلا الشمس والقمرُ

وذكر له صاحب يتيمة الدهر أمثلة من الإنشاء البليغ، وكان يراسل الصاحب بن عباد، ووزيره أبو العباس الغانمي يراسل أبا نصر العتبي مؤرخ السلطان محمود الغزنوي.

(٣-٤) الدولة الغزنوية بأفغانستان والهند

مقرها غزنة وملوكها من الأتراك، أولهم ألبتجين تولى سنة ٣٥١هـ، لكن أشهرهم وأعظمهم السلطان محمود (سنة ٣٨٨–٤٢١) صاحب الفتوح العظيمة في الهند، وناشر الإسلام فيها، وكان يلقب بيمين الدولة، فتح بخارا وخلف الدولة السامانية فيها سنة ٣٨٩هـ وغلب على الزياريين وغيرهم، وامتدت سلطته على أفغانستان وتركستان وخراسان وطبرستان وسجستان وكشمير وشمالي الهند، وورث ما كان هنالك من أسباب الأدب والعلم، وأصبح مجلسه آهلًا بالشعراء كما كانت العادة عند ملوك ذلك العصر، فاقترح



شكل ١: السلطان محمود الغزنوي.

عليهم إتمام الشاهنامة التي بدأ بنظمها الدقيقي كما تقدَّم، فأتمَّها الفردوسي وقد نظم معظمها — ولذلك فهي تنسب إليه.

وكان محمود لا يسمع بعالم أو شاعر إلا استقدمه إليه، فعلم أن في مجلس مأمون بن مأمون أمير خوارزم جماعة من رجال العلم الفلاسفة في جملتهم ابن سينا الطبيب، والبيروني الرياضي المؤرخ، وأبو سهل المسيحي الفيلسوف، وأبو الحسن الخمار الطبيب، وأبو نصر العراق الرياضي وغيرهم. فتاقت نفسه إلى إحرازهم في مجلسه، فكتب إلى مأمون كتابًا أرسله مع بعض خاصته: «علمت أن في مجلسك جماعة من العلماء المبرِّزين مثل فلان وفلان، فأرسلهم إليَّ ليتشرفوا بمجلسي ونستفيد من علمهم.» فلم يكن للأمير أن يرد الطلب، لكنه كان حريصًا على أولئك الأعلام، فجمعهم وتلا عليهم الكتاب واعتذر بأنه لا يقوى على رد طلبه، فقبل البيروني والخمار والعراق بالذهاب طمعًا بسخاء السلطان، وفرَّ ابن سينا والمسيحي في حديث طويل لا محل له هنا،[٣] وإنما أردنا بيان رغبة السلطان محمود بتقريب العلماء، وإن لم تكن رغبته لمجرد حب العلم، فإن استدناء أهل العلم والأدب وإكرامهم كان في نظر أهل ذلك العصر من أسباب الأبهة وأدلة الحضارة.

(٣-٥) الدولة الحمدانية في حلب والموصل

هي دولة عربية من قبيلة تغلب بجوار الموصل، جدها حمدان كان له شأن كبير بأخبار تلك الديار، واستولى ابنه محمد بن حمدان على ماردين فأخرجه منها الخليفة المعتضد، وتولى أخوه أبو الهيجاء بن حمدان أميرًا على الموصل وما يليها سنة ٢٩٢هـ، واشتد ساعده، وزادت قوة الحمدانيين في ذلك الحين وصاروا دولة حكم منها أربعة أمراء في الموصل وخمسة في حلب حتى خرجت الموصل منهم إلى البويهيين سنة ٣٨٠، واستولى الفاطميون على حلب سنة ٣٩٤.

أشهرهم في نصرة العلم والأدب سيف الدولة أبو الحسن علي صاحب حلب (من سنة ٣٣٣–٣٥٦) ممدوح المتنبي — وكان سيف الدولة أديبًا شاعرًا نقَّادًا للشعر يحب جيده ويطرب لسماعه، وفي شعره صبغة التشبيهات الملوكية كقوله:

وساق صبيح للصبوح دعوته	فقام وفي أجفانه سِنَة الغَمْضِ
يطوف بكاسات العقار كأنجُمٍ	فمن بين منقضٍّ علينا ومنفضِّ
وقد نشرت أيدي الجنوب محارقًا	على الجود كنًّا والحواشي على الأرضِ
يطرزها قوس السحاب بأصفرٍ	على أحمر في أخضر تحت مبيضِّ
كأذيال خود أقبلت في غلائلٍ	مصبغة والبعض أقصر من بعضِ

وفي يتيمة الدهر طائفة حسنة من شعره وأخباره (٨ ج١)، وكان يقرب الشعراء وأهل الأدب حتى قيل: إنه لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر، وكان يجالس الشعراء وينتقد أشعارهم نقدًا يدل على شاعرية وعلم، ويبذل لهم الجوائز السنية. وأخباره مع المتنبي مشهورة، وكذلك مع السري الرفاء والنامي والببغاء والواواء وتلك الطبقة.

واشتهر من آل حمدان غير واحد من الشعراء أشعرهم أبو فراس الحمداني الشهير، وسيأتي ذكره، ومنهم أبو زهير وأبو وائل وغيرهما، كما اشتهر منصور وأحمد ابنا كيغلغ من أمراء الشام.

(٣-٦) الدولة المروانية بالأندلس

وكانت الأندلس في هذا العصر في إبان مجدها في ظل عبد الرحمن الناصر (سنة ٣٠٠–٣٥٠) وابنه الحكم (٣٥٠–٣٦٦)، وهما أشهر من أن نبين حبهما العلم والعلماء، وفي غصن الأندلس الرطيب عشرات من الشعراء كانوا يحضرون مجالسهما فضلًا عن علماء الفقه والأدب.

وكان الحكم بن الناصر مولعًا باقتناء الكتب، فجمع منها ما لم يجمعه أحد من الملوك قبله، وأنشأ في قرطبة مكتبة جمع إليها الكتب من أنحاء العالم. كان يبعث في شرائها رجالًا من التجَّار ومعهم الأموال، ويحرِّضهم على البذل في سبيلها لينافس بني العباس في اقتناء الكتب وتقريب الكتاب، وكان أبو الفرج الأصفهاني صاحب الأغاني معاصرًا له، وهو أموي مثله، فبذل له ألف دينار ذهبًا على أن يرسل إليه كتاب الأغاني قبل إخراجه إلى بني العباس، وفعل نحو ذلك مع القاضي أبي بكر الأبهري المالكي في شرحه لمختصر ابن عبد الحكم وغيره، فاجتمع له من الكتب ما لم يسبق له مثيل في الإسلام، فجعلوها في قاعات خاصة من قصر قرطبة أقاموا عليها خازنًا ومشرفًا، ووضعوا لها الفهارس لكل موضوع على حدة. وذكروا أن فهارس الدواوين وحدها ٤٤ فهرسًا في كل فهرس عشرون ورقة،[٤] فإذا قدَّرْنَا للصفحة ٢٥ اسمًا فقط كان مجموع عدد الدواوين ٤٤٠٠٠ كتاب، فكيف بسائر الكتب؟ ولا نظننا نبالغ إذا سلمنا مع ابن خلدون والمقري أن مجموع ما حوته تلك المكتبة ٤٠٠٠٠٠ مجلد، ونبغ غير واحد من المروانية في الشعر.

ونبغ من ملوك الطوائف بعدهم جماعة أحبوا الأدب، ونصروا أهله، منهم إسماعيل بن ذي النون المتوفى سنة ٤٣٥هـ، وكان عالمًا بالأدب.

(٣-٧) الدولة الفاطمية بمصر

استولى الفاطميون على مصر سنة ٣٥٧هـ في أواسط العصر الذي نحن في صدده، ونبغ منهم خليفتان نشطا العلم وأهله هما العزيز بالله (سنة ٣٦٥–٣٨٦) والحاكم بأمر الله (سنة ٣٨٦–٤١١)، فأنشآ خزائن الكتب فيها مئات الألوف من المجلدات في العلوم على اختلاف مواضيعها — أنفقوا في ذلك الأموال الطائلة. وقد وصفنا خزانة العزيز بالله وما فيها من أنواع الكتب وعنايته بتعهُّدها والإنفاق عليها في تاريخ التمدن الإسلامي ج٣،

ووصفنا أيضًا مكتبة الحاكم التي سمَّاها دار الحكمة أو دار العلم، وما أباحه من المناظرة بين المترددين إليها، ومقدار ما فيها من كتب، والتسهيل على الناس للمطالعة والنسخ. ولم يكن اشتغالهم قاصرًا على خدمة علوم الأدب والفقه، ولكنهم خدموا علم النجوم بالمراصد التي أنشئوها كالرصد الحاكمي (المرصد) الذي بناه الحاكم على جبل المقطم ما زال عمدة الراصدين حتى بنى نصير الدين الطوسي مرصده في مراغة بتركستان سنة ٦٥٧هـ، ونبغ من الأسرة الفاطمية غير واحد من الشعراء.

(٤) الوجهاء والعلم

فرغبة السلاطين والملوك في العلم حبَّبه إلى سائر الوجهاء وأهل الدولة، فاشتهرت غير أسرة من بيوتات الشرف بالانتماء إلى العلم منهم آل الميكالي في خراسان وأصلهم من فارس، لكنهم تعرَّبوا وأغرموا بآداب العرب؛ فنبغ منهم الشعراء والأدباء كأبي الفضل الميكالي وأبي محمد الميكالي وغيرهما، وآل المأموني من نسل الخليفة المأمون، وآل الواثقي من نسل الواثق وكلاهما في بخارا. وبالجملة فقد كانت العلوم رائجة وأصحابها في عز وثروة يؤلِّفون الكتب للملوك أو الأمراء أو الوزراء، وينالون عليها الجوائز السنية، وربما ألف الواحد منهم كتابًا للملك البويهي وكتابًا للساماني وآخر للغزنوي، كما فعل أبو منصور الثعالبي؛ فإنه ألَّف كتابه لطائف المعارف للصاحب بن عباد، والمبهج والتمثُّل والمحاضرة لشمس المعالي قابوس بن وشمكير، وسحر البلاغة وفقه اللغة لأبي الفضل الميكالي، والنهاية في الكناية ونثر النظم واللطائف والظرائف للمأمون صاحب خوارزم وقس على ذلك. فلا عجب إذا كثر المؤلفون، وتعددت المؤلفات، وحدث تغيير في أكثر أبواب العلم كما ستراه في مكانه.

وقد رأيت مما تقدم أن أكثر الدول المعاصرة من غير العرب كالسامانية والزيارية والغزنوية والبويهية وأكثرها فارسية الأصل، وكان الفرس قد أخذوا في إعادة مجدهم قبل الإسلام بعد أن دانوا للعرب نحو ثلاثة قرون، فأنشئوا الدول وهم فرس في بلاد فارسية، وأخذوا في إحياء آداب أسلافهم؛ فنبغ فيهم الشعراء ونَظَمُوا الشاهنامة وغيرها — ومع ذلك لم يروا بدًّا من التعويل على اللغة العربية وجعلها لغة العلم والسياسة والأدب والدين.

هوامش

(١) ابن خلكان ٦٣ ج٢.
(٢) تاريخ التمدن الإسلامي ٢٠٠ ج٣.
(٣) Browne; Lit. Hist of Persia ll.96.
(٤) ابن خلدون ١٤٦ ج٤.

مزايا هذا العصر

(١) نضج العلوم وكثرة المكاتب

يمتاز هذا العصر بنضج العلم على الإجمال، وفيه تكوَّنت المعاجم اللغوية، واستقر الإنشاء على أسلوب أصبح قاعدة يتحدَّاها أهل العصور التالية بما يعبِّر عنه الإفرنج بقولهم: (كلاسيك.) ونضجت الفلسفة، وتألفت جمعية إخوان الصفا، واستقرت قواعد الطبيعيات والطب، كما ظهرت في رسائل إخوان الصفا وفي جملتها آراؤهم في أصل الموجودات وتدرجها في الخلق من البسائط إلى المركبات نحو ما يقول اليوم أصحاب النشوء والارتقاء. واتَّسَع خيال الشعراء وظهر الشعر الفلسفي المبني على المشاهد والاختبار والتفكير في الحكمة بالوجود، وتم تكوين الانتقاد الشعري أو الأدبي، واستقرت أبواب الشعر على حال، وظهرت الروايات والقصص الحماسية الخيالية، ونما فن التاريخ والجغرافيا، وتفرع منها علم معرفة الأوائل، وظهر كتاب الفهرست لابن النديم، وهو أهم مصادر تاريخ آداب اللغة إلى ذلك العهد.

وامتاز هذا العصر بكثرة المكاتب الكبرى في مصر والعراق والأندلس وغيرها تشتمل المكتبة منها على مئات الألوف من المجلدات، وفتحت أبوابها لطلاب العلم والمطالعين كمكتبة العزيز الفاطمي التي تقدَّم ذكرها كانت تحتوي على نحو مليون من كتب الفقه والنحو واللغة والحديث والتاريخ والنجامة والروحانيات وسائر العلوم القديمة، ودار الحكمة أو دار العلم للحاكم بأمر الله، وكانت أبوابها مفتوحة للطلاب كالمدرسة الكبرى للمطالعة والنسخ — نحو ما يراد بدار الكتب الخديوية الآن، ومكتبة الحكم بن الناصر في قرطبة، وقس على ذلك مكتبة سابور بن أردشير في بغداد ومكاتب فارس وما وراء النهر وغيرها.

(٢) ظهور الموسوعات

وفيه أخذت الموسوعات (دوائر المعارف) في الظهور بعد أن وضع أساسها الفارابي كما تقدم. على أن من كتب الأدب ما يعدُّ من قبيل الموسوعات لتعدد مواضيعه ككتاب العقد الفريد الذي ذكرناه، وأقرب منه إلى هذا النوع من المؤلفات كتاب «مفاتيح العلوم» لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمي، المتوفى سنة ٣٨٧هـ، ألفه لأبي الحسن عبيد الله بن أحمد العتبي، وقسمه إلى مقالتين:

الأولى تشتمل على ٥٢ فصلًا تجتمع في ستة أبواب وهي: (١) الفقه، (٢) الكلام، (٣) النحو، (٤) الكتابة، (٥) الشعر والعروض، (٦) الأخبار. والمقالة الثانية ٤١ فصلًا في تسعة أبواب: (١) الفلسفة، (٢) المنطق، (٣) الطب، (٤) علم العدد، (٥) الهندسة، (٦) النجوم، (٧) الموسيقى، (٨) الخيال، (٩) الكيمياء. وقد طبع هذا الكتاب في ليدن سنة ١٨٩٥ بعناية المستشرق فان فلونن في نيف وثلاثمائة صفحة، وهو عبارة عن مدخل للعلوم والفنون جامع لأوائلها فيحتوي على الموضوعات والمصطلحات العلمية، فهو أشبه بكتاب حدود العلوم وتعريفها؛ ولذلك سماه مفاتيحها، لكنه جزيل الفائدة. وقد ألف العرب كثيرًا من الموسوعات بعد هذا العصر سيأتي الكلام عليها في مكانه.

(٣) تعدد العلوم

وتعددت فروع العلم حتى زادت على ثلاثمائة علم قسمها صاحب مفتاح السعادة إلى ستة أبواب: (١) العلوم الخطية تسعة علوم، (٢) العلوم المتعلقة بالألفاظ أو العلوم اللسانية والتاريخ وغيرها ٤٤ علمًا، (٣) العلوم الباحثة عما في الأذهان من المنقولات خمسة، (٤) العلوم المتعلقة بالأعيان ويدخل فيها الطبيعيات والرياضيات والطب والتاريخ الطبيعي والفراسة، وهي ١٢٢ علمًا، (٥) العلوم الحكمية العلمية ثمانية علوم، (٦) العلوم الشرعية كعلوم القراءة والتفسير والحديث وأصول الدين، ويزيد عددها جميعًا على نيف ومائة علم، ولولا ضيق المقام لأتينا بأسمائها، وفي كل علم من هذه العلوم مؤلِّفون ومؤلفات تعدُّ بالمئات والألوف شاع أكثرها، وعلينا أن نذكر ما بقي منها.

(٤) التدبير المنزلي

وبين هذه العلوم فروع لم يتصل إلى مثلها أهل التمدن الحديث إلا بعد أن نضج تمدنهم في القرن الماضي، وقد عرفها العرب وألَّفوا فيها منذ ألف سنة أو نحوها، كعلم «تدبير المنزل»، وهو عندهم فرع من الحكمة العملية وحده «معرفة اعتدال الأحوال المشتركة بين الإنسان وزوجته وأولاده وخدامه، وطريق علاج الأمور الخارجة عن الاعتدال»، وموضوعه «أحوال الأشخاص المذكورة من حيث الانتظام»، وحاصله «انتظام أحوال الإنسان في منزله ليتمكن من رعاية الحقوق الواجبة بينه وبينهم»، ومن المؤلفات في هذا الموضوع كتاب تدبير المنزل لبروسن، ذكره صاحب الفهرست وقد ضاع، ومن الكتب المنزلية التي تدخل في راحة العائلة، وقد ظهر كثير منها في العصر العباسي الأول والثاني فضلًا عن الثالث: كتب الطبخ، منها «كتاب الطبخ» لإبراهيم بن المهدي، وغيره لابن ماسويه، ولإبراهيم بن العباس الصولي، ولعلي بن يحيى، ولأحمد بن الطبيب، ولجحظة، والرازي وغيرهم، قد ضاعت. ويظهر من أسماء مؤلفيها أنها كانت مبنية على العلم، ومنها كتب العطريات وأشباهها، وهي كثيرة، وتدخل في باب تدبير المنزل.

(٥) كتب السياسة

وألفوا أيضًا في السياسة، وهي من فروع الحكمة العملية، تحدوا بها ما نقلوه عن أرسطو. والسياسة عندهم ضروب منها السياسة الشرعية والمدنية. وقد ألَّف في السياسة على إجمالها أبو زيد البلخي — المؤرخ الجغرافي المتقدم ذكره — كتابين الكبير والصغير، وألف في السياسة المدنية أبو نصر الفارابي الفيلسوف كما تقدم. ومن هذا القبيل كتاب سياسة الملك للماوردي المتوفى سنة ٤٥٠هـ، ومن الكتب الهامة في هذا الموضوع كتاب «سياسة المالك في تدبير الممالك» لابن أبي الربيع، جاء في مقدمته أنه ألَّفه للمعتصم العباسي (المتوفى سنة ٢٢٧هـ)، وقد ذكرنا في محل آخر من هذا الكتاب أنه متأخر عن ذلك التاريخ لأسباب بيَّنَّاها هناك ووصفنا الكتاب، وهو جليل جدًّا لم يغادر بحثًا من أبحاث العمران والسياسة والأخلاق إلا طرقه ورتَّبه، وأوضح مسائله بشكل المشجرات حتى الطب والفلسفة. ومن هذا القبيل كتاب «سراج الملوك» للطرطوشي و«نهج السلوك في سياسة الملوك» للشيخ عبد الرحمن بن عبد الله، قدمه لصلاح الدين الأيوبي، وقد طبع بمصر سنة ١٣٢٦.

(٦) الاقتصاد السياسي

واشتغلوا أيضًا في علم الاقتصاد السياسي، وهو من العلوم التي يعدها أهل زماننا من محدثات هذا التمدن، لكنه قديم في آداب لغتنا لا يتجاوز تاريخه العصر الذي نحن في صدده، بل هو أقدم من ذلك، فإن جماعة أَلَّفوا في المواضيع التجارية الاقتصادية في العصر العباسي الثاني، لكن مواضيعهم كانت خاصة في صنف أو بضعة أصناف، ككتاب «الجواهر وأصنافها» لمحمد بن شاذان الجوهري، أَلَّفه للمعتضد المتوفى سنة ٢٧٩هـ، وكتاب «أجناس الرقيق» لرجل من أهل مصر، وكتاب «مزاجات الجواهر وعمل الفولاذ» ونحوها مما يتوسَّم فيه فن الاقتصاد السياسي، وإن لم نقف على شيء من تلك الكتب لأنها ضاعت، لكننا عثرنا على كتاب شامل في هذا الموضوع، نعني به كتاب «الإشارة إلى محاسن التجارة» للشيخ أبي الفضل جعفر بن علي الدمشقي، لا يُعرف زمن وفاته، لكن يعرف من بعض القرائن أن تأليفه لا يتجاوز العصر العباسي الثالث، والكتاب نفيس يبحث في معرفة جيد الأعراض ورديئها وغشوش المدلسين، وفصول في حقيقة المال وأنواعه واستثماره والكشف عن رديئه وفاسده من الأحجار الكريمة والأفاويه والأنسجة والأبسطة والمحصولات الموسمية والأقوات كالزيت والدقيق، وفي الدواب كالخيل والبغال والماشية، وفي الكتاب فصول في حصول الأموال واكتسابها بالمغالبة أو الاحتيال، ووصايا نافعة للتجار على اختلاف طبقاتهم، والكتاب مطبوع بمصر سنة ١٣١٨.

(٧) علم العمران وغيره

ومن أبحاثهم أيضًا علم العمران، والمشهور أنه من ثمار التمدن الحديث، ولكنه ولد في زمن العباسيين ونضج بعدهم، وإن لم تظهر فيه مؤلفات مستقلة قبل مقدمة ابن خلدون، فإن في كتاب سياسة المالك المتقدم ذكره فصولًا كثيرة من قبيل العمران غير ما في كتب الأدب والسياسة من هذا القبيل، وفي كل حال فإن الفضل فيه للعرب بما كتبه ابن خلدون، وهو أستاذ العالم في هذا العلم، وسيأتي الكلام على ذلك في مكانه.

وناهيك بعلوم الحرب وضروبها، فإنهم أَلَّفوا فيها من أوائل دولتهم، وذكر صاحب الفهرست كتابًا للهرثمي الشعراني أَلَّفه للمأمون سمَّاه كتاب «الحيل»، جعله مقالتين: الأولى ٣ أجزاء، والثانية ٣٦ فصلًا، كلها في الحروب وآلاتها، وذكر كتابًا قبله لعبد الجبار بن عدي أَلَّفه للمنصور في آداب الحروب وصورة العسكر وغيرها كثير، لكن أكثرها ضاع، وسنأتي على تفاصيل أخرى عند الكلام على كل علم في بابه.

الشعر والشعراء

إن ما قَدَّمْنَاه عن أحوال الدول والأمم في هذا العصر ظهر تأثيره في الشعر أكثر مما في سائر الآداب؛ لأن الشعر مرآة أحوال الأمة كما تبيَّن لك مما بسطناه عن أحواله في العصور التي تقدَّم ذكرها، كان الشعر في الجاهلية ديوان العرب ومعرض آدابهم وأخلاقهم يمثِّلون الشجاعة والفروسية والضيافة والوفاء والأَنَفَة، لا يتكلمون ولا يبالغون، فصاروا في أيام بني أمية وأكثر نظمهم في السياسة، وظهر التشبيب بكثرة الجواري والسراري، وكثر الهجو لاختلاف الأحزاب، مع المحافظة على صبغته البدوية، فلما استبحر عمران العباسيين وأوى الناس إلى القصور، وسرحوا في الحدائق، وشربوا الخمر، واقتنوا الغلمان، ظهر أثر ذلك في أشعارهم، ثم زادوا على ذلك شكوى الزمان في العصر العباسي الثاني لاشتغال الخلفاء والوزراء عن الشعر والشعراء، ونحن الآن في عصر تسابق فيه ولاة الأمر إلى تقديم أهل الأدب، فلا غرو إذا تعدَّد الشعراء، وكثرت مدائحهم، وطالت قصائدهم، وتفرَّعت أساليبهم.

(١) مزايا الشعر في هذا العصر

(١-١) حل القيود القديمة

إن اطلاع أهل الأدب على الكتب الفلسفية والطبيعية والمنطقية بعد ترجمتها عوَّدت عقولهم على النظر الصحيح والتقرب من الحقيقة، فخطوا خطوة أخرى في تبديل مذهب الشعر وطرقه، وإماما هذه الطريقة المتنبي والمعري. وقد رأيت أن شعراء العصر العباسي الأول انتقدوا طرق الجاهليين، لكنهم ظلوا يتحدونهم في كثير منها وهم يرسفون بالقيود التي وضعوها للنظم من حيث اللفظ والمعنى، فتملَّص المتنبي والمعري من تلك القيود

وقالا الشعر كما توحيه القريحة، فنَظَمَا في فلسفة الوجود والحكمة في الخلق من عند أنفسهم، ولا سيما المعري، والشعر الحقيقي هو التعبير عن الشعور بتلك الحكمة، أو تصوير الجمال الطبيعي بأعم معانيه، وهو ما يعنيه الإفرنج بالشعر، ولكنَّ لأدباء العرب نظرًا آخر فيه من حيث الديباجة واللفظ والكتابة والمجاز، وسنعود إلى ذلك.

(١-٢) مقتبسات الفلسفة والتاريخ والطب والفقه

على أن العرب في هذا العصر زاد اقتباسهم للأفكار الفلسفية، واطَّلَعُوا على تاريخ اليونان، فصاروا يتمثَّلون بأبطالهم، كقول المتنبِّي:

مَنْ مبلغ الأعراب أني بعدهم — شاهدت رسطاليس والإسكندرا
وسمعت بطليموس دارس كُتْبِه — متملكًا متبدِّيًا متحضِّرًا
ولقيت كل الفاضلين كأنما — رد الإله نفوسهم والأعصرا

وقول الفتح البستي من المعاني الطبية:

وقد يلبس المرء خز الثيا — بِ ومن دونها حالة مضنيهْ
كمن يكتسي خده حمرةً — وعِلَّتُه ورم في الريهْ

وقوله:

إن الجهول تضرني أخلاقه — ضرر السعال بمن به استسقاءُ

وقوله وفيه شيء من علم النجوم:

قد غض من أملي أني أرى عملي — أقوى من المشتري في أول الحملِ
وأنني زاحلٌ عما أحاوله — كأنني أستدرُّ الحظ من زُحَلِ

ودخل الشعرَ العربيَّ كثيرٌ من حكم القدماء وأمثالهم في اليونانية، إما اقتباسًا كما في أشعار المتنبي أو نقلًا وتعريبًا، وأكثر ذلك منقولٌ عن الفرس، وهذه أمثلة مما نقله أبو الفضل السكري:

من مثل الفرس ذوي الأبصارْ	الثوب رهن في يد القصارْ
إن البعير يبغض الخشاشا	لكنه في أنفه ما عاشا
نال الحمار بالسقوط في الوحلْ	ما كان يهوى ونجا من العملْ
نحن على الشرط القديم المشترطْ	لا الزق منشق ولا العير سقطْ

وتكاثرت فيه المعاني الفقهية والصوفية لظهور التصوف وشيوعه، واشتغال كثيرين من أصحابه في الشعر كقول بعضهم:

من سره أن يرى الفردوس عاجلةً	فلينظر اليوم في بنيان إيواني
أو سره أن يرى رضوان عن كثبٍ	بملء عينيه فلينظر إلى الباني

(١-٣) أبواب عديدة

وتولدت فيه أبواب جديدة اقتضاها التبسُّط في الحضارة والتوسُّع في أسباب الرخاء، فبعد أن كان الشعر الجاهلي أكثره في الحماسة والفخر والرثاء والمدح، زاد عليه الأمويون التشبيب والهجو، وزاد العباسيون في العصر الأول الخمريات والتغزل بالغلمان، وزادوا في هذا العصر (الثالث) أبوابًا تلائم أحوال الاجتماع والمدنية، أهمها الإخوانيات، والعتاب، وشكوى الدهر، والزهد، والمداعبات، والسلطانيات، والمجاوبات، والمقارضات. وصار النظم في الزهر بابًا قائمًا بنفسه، وبعض هذه الأبواب كان منه أمثلة في الأعصر الماضية، لكنها أصبحت في هذا العصر أبوابًا مستقلة، وهي تدل على تلطف أخلاق الأمة وتوسع علاقاتها وارتقاء أذواقها.

فيراد بالإخوانيات مثلًا ما يُنْظَم في الإخوان أو الأصدقاء من أسباب التقارب، كقول بعضهم:

وأخٍ إذا ما شط عني رحله   أدنى إليَّ على النوى معروفَهْ
كالكَرْم لم يمنعه بُعد عريشه   من أن يقرِّب للجُنَاة قطوفهْ

والمداعبات كقوله:

أبا جعفر هل فضضت الصدفْ   وهل إذ رميت أصبت الهدفْ
وهل جئت ليلًا بلا حشمةٍ   لهول السرى سدفًا في سدفْ

والدهر أو شكوى الدهر كقوله:

يا دهر ما أقساك يا دهرُ   لم يحظ فيك بطائل حُرُّ
أما اللئام فأنت صاحبهم   ولهم لديك العطف والنصرُ
يبقى اللئيم مدى الحياة فلا   يرتاع منه لحادثٍ صدرُ

وقس على ذلك. وترى أمثلة كثيرة من هذه الأبواب في يتيمة الدهر للثعالبي.

(١-٤) المبالغة

غالى أهل هذا العصر في المبالغة الشعرية إلى ما لم يسبقهم إليه أهل الأعصر الماضية، حتى خرجوا عن الممكنات إلى المستحيلات كقول المتنبي:

وضاقت الأرض حتى صار هاربهم   إذا رأى غير شيء ظنه رجلًا
فبعده وإلى ذا اليوم لو ركضت   بالخيل في لهوات الطفل ما سعلا

ومثله قوله في وصف الضعف:

كفى بجسمي نحولًا أنني رجلٌ   لولا مخاطبتي إياك لم ترني

وناهيك بالمبالغة في المدح؛ فإنهم تجاوزوا فيه المعقول والمشروع، وإماما المدَّاحين في هذا العصر المتنبيان أبو الطيب وابن هاني. ومن مبالغات أبي الطيب في المدح قصيدته السينية التي مطلعها:

هذي برزت لنا فهجت رسيسا ثم انثنيت وما شفيت نسيسا

إلى أن يقول:

لو كان ذو القرنين أعمل رأيَهُ لمَّا أتى الظلمات صرت شُمُوسا
أو كان صادف رأس عازر سيفه في يوم معركة لأعيا عيسى
أو كان لج البحر مثل يمنه ما انشق حتى جاز فيه موسى
أو كان للنيران ضوء جبينه عبدت فصار العالمون مجوسا
لما سمعت به سمعت بواحدٍ ورأيته فرأيت منه خميسا
ولحظت أنمله فسلن مواهبًا ولمست منصله فسال نفوسا
يا من نلوذ من الزمان بظله حقًّا ونطرد باسمه إبليسا

ونحو ذلك قوله:

وأعجب منك كيف قدرت تنشا وقد أعطيت في المهد الكمالا
وأقسم لو صلحت يمين شيء لما صلح العباد له شمالا

وقوله:

بمن أضرب الأمثال أم من أقيسه إليك وأهل الدهر دونك والدهرُ

أما ابن هاني متنبي الغرب فيكتفي مثالًا لمبالغته القصيدة التي مدح بها المعز لدين الله الفاطمي، ومنها قوله:

ما شئت لا ما شاءت الأقدارُ فاحكم فأنت الواحد القهارُ
وكأنما أنت النبي محمدٌ وكأنما أنصارك الأنصارُ

أنت الذي كانت تبشِّرنا به في كُتْبها الأحبار والأخيارُ

(١-٥) طول القصائد

وطالت القصائد في هذا العصر عما كانت عليه قبلًا حتى كثرت فيها ذوات المئات من الأبيات، كقصيدة ابن عبد ربه وقصائد الواساني، ومع ذلك فإن العرب لم يدركوا شأو الأمم الأخرى في الإطالة، كما فعل اليونان بالإلياذة والأوديسة، والفرس في الشاهنامه، وهو الشعر المعروف بالأيبوبة، وتعد أبيات الواحدة بعشرات الألوف. على أنهم ذكروا لأبي الرجا محمد بن أحمد بن الربيع الأسواني المتوفى سنة ٣٣٥هـ قصيدة أبياتها تعد بالألوف، ضمنها أخبار العالم وقصص الأنبياء ومختصر المزني. ويعد من هذا القبيل نظم كليلة ودمنة ونحوها مما ضاع، ولكن ذلك منقول ليس فيه تفكير؛ أي لم ينظمه الشاعر من بنات أفكاره، ولا يكون ذلك إلا في نظم القصص الخيالية أو نحوها.

(١-٦) الوصف الشعري

وأجاد أهل هذا العصر في الوصف الشعري وتوسعوا فيه، والوصف قديم في الشعر العربي، لكنه اتَّسع وطال بزيادة العمارة وصار له في هذا العصر باب خاص، وأول من أجاده منهم شعراء الأندلس لمخالطتهم الإفرنج، والشعر الوصفي عند هؤلاء باب من أبواب الشعر الكبرى، فصار شعراء العرب يصفون المناظر الطبيعية والأبنية الجميلة وسائر ظواهر المدنية حتى الأدوات كالأسطرلاب ونحوه.

على أن تاريخ الوصف الشعري يتصل بالجاهلية، فكان العرب في الجاهلية وصدر الإسلام يصفون الخيل والمعارك ونحوها، وأحسن قصائد الوصف عندهم قصيدة بشر بن عوانة التي وصف بها مقتل الأسد ومطلعها:

أفاطم لو شهدت ببطن خبت وقد لاقى الهزبر أخاك بشرا

إلى آخرها. وهي بديعة ومنشورة في جملة مقامات بديع الزمان الهمذاني.

وتقدم الشعر الوصفي بعد الإسلام رويدًا رويدًا مع تقدم المدنية واتساع الخيال وتكاثر المعاني بتكاثر فروع العلم، والاختلاط بالأمم الأخرى في العصر العباسي الأول فالثاني حتى بلغ أحسنه في العصر الثالث هذا. وأبرع وصَّافي العصر الثاني البحتري، وأحسن قصائده في الوصف قصيدة يصف بها بركة بناها المتوكل على الله مطلعها:

يا من رأى البركة الحسناءَ رؤيتُها والآنسات إذا لاحت مغانيها

حتى يقول:

تنصبُّ فيها وفود الماء معجلةً كالخيل خارجةً من حبل مجريها
كأنما الفضة البيضاء سائلة من السبائك تجري في مجاريها
إذا علتها الصبا أبدت لها حبكًا مثل الجواشن مصقولًا حواشيها
فحاجب الشمس أحيانًا يضاحكها وريق الغيث أحيانًا يباكيها
إذا النجوم تراءت في جوانبها ليلًا حسبت سماءً رُكِّبَت فيها

وقصيدة وصف بها القصر الكامل للمعتز بالله قال فيها:

وكأن حيطان الزجاج بجوه لجج يَمُجْن على جنوب سواحلِ
وكأن تفويف الرخام إذا التقى تأليفه بالمنظر المتقابلِ
حُبُك الغمام رُصِفْنَ بين منمَّرٍ ومُسَيَّر ومقارب ومشاكلِ

لكن شعراء العصر الثالث زادوا توسعًا في الوصف ودقة في التعبير، وممن أجاد فيه المتنبي وابن هاني والمأموني، ولهذا الأخير قصيدة في وصف قصر بناه الصاحب بن عباد قال فيها:

فهنيئًا منها بدار حوت منـ ـك جبالًا من الحلوم رجاحا
ذات صدر كرحب صدرك قد زا د على ظن آمليك انفساحا

ثم أتى على وصف الدار وصفًا يطابق ما يتخيل للداخل إليها، فيتدرج من الفِناء فالبهو فالصحن ... إلخ.

دع عنك وصف المتنبي لمواقع الحروب أو ما يحتاج إلى فخامة اللفظ والمعنى، كقصيدته التي يصف بها وقعة حرب لسيف الدولة مع البطريق. ومن أحسن شعره الوصفي قوله يصف مشية الأسد:

يطأ الثرى مترفقًا من تيهه	فكأنه آسٍ يجسُّ عليلا
ويرد غفرته إلى يافوخه	حتى تصير لرأسه إكليلا
وتظنه مما تزمجر نفسه	عنها بشدة غيظه مشغولا
قصرت مخافته الخطى فكأنما	ركب الكمي جواده مشكولا

لكن شعراء العرب قلما اشتغلوا بوصف الحوادث الطويلة أو التواريخ، كما فعل اليونان والفرس قديمًا أو كما يفعل أدباء الإفرنج الآن في تأليف الروايات الوصفية للأخلاق والعادات، وسنفرد فصلًا خاصًّا بهذا الموضوع.

(١-٧) زيادة أبحره وأوزانه

تولدت في الشعر أبحر جديدة لم تكن فيه من قبل أهمها الموشَّحات ينظمونها أسماطًا أسماطًا وأغصانًا أغصانًا يكثرون منها ومن أعاريضها المختلفة، ويسمون المتعدد منها بيتًا واحدًا، ويلتزمون قوافي تلك الأغصان وأوزانها متتالية فيما بعد إلى آخر القطعة، وأكثر ما تنتهي عندهم إلى سبعة أبيات، ويشتمل كل بيت على أغصان عددها بحسب الأغراض والمذاهب، وينسبون فيها ويمدحون كما يفعل في القصائد.

وهي من مخترعات الأندلسيين، وأول من نظمها منهم مقدم بن معافر الفريري من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المرواني في أواخر القرن الثالث للهجرة، وأخذ عنه ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد. ولم تقع هذه البدعة موقعًا حسنًا عند المحافظين على القديم، فكسدت حينًا حتى نبغ عبادة القزاز شاعر المعتصم بن صمادح صاحب المرية (توفي سنة ٤٤٣هـ)[١] فأجاد، وجاء بعده ابن أرفع رأس شاعر المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة (توفي سنة ٤٦٧هـ). وذكر صاحب فوات الوفيات «أن أول من نظم عقود الموشحات وأقام عمادها عبادة بن عبد الله بن ماء السماء الشاعر الأندلسي المتوفى سنة ٤٢٢هـ، رأس الشعراء في الدولة العامرية، وكانت صناعة التوشيح قد ظهرت، وأخذ الشعراء ينتهجونها، فقام عبادة وقوَّم ميلها وسنادها، فكأنها لم تسمع بالأندلس إلا منه

ولا أخذت إلا عنه، واشتهر بها اشتهارًا غلب على ذاته وذهب بكثير من حسناته، وأول من صنع أوزان هذه الموشحات محمد بن محمود المقبري الضرير، وقيل: إن ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد أول من سبق إلى هذا النوع من الموشحات، ثم نشأ يوسف بن هارون الرمادي، ثم نشأ عبادة هذا، فأحدث التصفير؛ وذلك أنه اعتمد على مواضع الوقف في المراكز».

وفي كل حال، فإن الموشحات نضجت في العصر الثالث الذي نحن في صدده.

وناهيك بما أدخله الجوهري صاحب الصحاح على عروض الشعر في هذا العصر.

وفيه أيضًا نضج نقد الشعر بظهور كتاب العمدة لابن رشيق، ولنقد الشعر تاريخ يستحسن إيراده هنا:

(٢) تاريخ نقد الشعر العربي

يقسم النقد الأدبي أو انتقاد المؤلفات إلى أقسام أهمها ثلاثة: (١) نقد الشعر، (٢) نقد الإنشاء، (٣) نقد التاريخ. والمشهور أن العرب من أقل الأمم نقدًا وتمحيصًا، ويصح ذلك من حيث التاريخ والتراجم أو أعمال الناس وأحوال الاجتماع لأسباب سنبيِّنها في ما يلي من هذا الكتاب، وأما ما خلا ذلك فهم من أكثر الأمم ميلًا إلى النقد أو التمحيص، وإنما يظهر منهم ذلك عند الحاجة إليه أو إذا تيسَّر لهم الخوض فيه، أما من حيث فنون الأدب فبدءوا بنقد الشعر ثم الإنشاء، وأخيرًا التاريخ، وسنفرد لكل منها فصلًا خاصًّا في المكان الملائم، وهذا مكان الكلام عن نقد الشعر، وينقسم النظر في الشعر إلى أقسام من حيث عروضه ووزنه وقوافيه ولغته ومعانيه وأسلوبه، والمقصود النظر فيه من حيث معناه (الخيال الشعري)، وطريقته أو مذهب صاحبه في النظم.

ونقد الشعر من حيث معناه قديم في تاريخ الأدب يتَّصل بصدر الإسلام، فقد رأيت ما كان يجري من المشاحنات والمناظرات في العصر الأموي بشأن من هو أشعر الشعراء، حتى كثيرًا ما كان الجدال يُفضي إلى الخصام، وقد فصَّلنا ذلك في الجزء الأول من هذا الكتاب، وهم طبعًا كانوا ينظرون في قول كل شاعر نَظَرَ الناقد ليبيِّنوا فضله على سواه، ولم يقتصر التصدي للنقد على الأدباء أو الشعراء، بل كان يتناول كل ذي إلمام بالشعر، وحيثما اجتمع الأدباء تذاكروا الشعر وانتقدوه، وكانت مجالس سكينة بنت الحسين في المدينة أشبه شيء بمجالس الانتقاد الأدبي في أرقى الأمم المتمدِّنة اليوم. ثم ظهرت طبقة

أخرى من نقاد الشعر لمَّا أخذ الرواة في جمعه في العصر العباسي الأول، فكانت مجالسهم وأنديتهم للمفاكهة أو المذاكرة لا تخلو من النقد.

أما الطريقة أو المذهب — ونعني الخطة التي كانوا يتوخَّوْنها في النظم، مثل تحديهم شعراء الجاهلية، من حيث ذكر الأطلال والبكاء عليها والتغزل بحيوانات البادية وأحوالها كما كان يفعل الجاهليون — فأول من انتقدها شعراء العصر العباسي الأول، وقد أشرنا إلى ذلك في موضع سابق من هذا الكتاب، وإنما هي أبيات قالوها عرضًا.

أما التأليف في نقد الشعر من هذا الوجه وغيره، فأول من أقدم عليه مما وصلنا خبره محمد بن سلام الجمحي، المتوفى سنة ٢٣٢ في كتابه طبقات الشعراء، وقد وصفناه في هذا الجزء، فإنه صدَّر ذلك الكتاب بمقدمة فيها نقد جميل قال في جملته: «إن محمد بن إسحاق أفسد الشعر بما نسبه من الإشعار إلى بعض الصحابة في السيرة النبوية.» وبحث في شيء من هذا القبيل ابن أبي الخطاب القرشي في مقدمة جمهرة أشعار العرب، ونجد شيئًا من ذلك أيضًا في كتاب قواعد الشعر لثعلب المتقدم ذكره. أما أدباء العصر العباسي الثاني كابن قتيبة والجاحظ وابن عبد ربه وأمثالهم فقد توسعوا فيه؛ لأن ما ألَّفوه من كتب الأدب لا يخلو من النقد الشعري.

على أن أكثرهم نقدًا وتمحيصًا ابن قتيبة (المتوفى سنة ٢٧٦هـ) في كتابه الشعر والشعراء، وقد صرَّح بذلك في مقدمة الكتاب المذكور بقوله:

> ولم أسلك في ما ذكرته من شعر كل شاعر مختارًا له سبيل من قلد أو استحسن باستحسان غيره، ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه وإلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره، بل نظرت بعين العدل إلى الفريقين، وأعطيت كلًّا حظه ووفَّرت عليه حقه، فإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله، ويضعه في متخيره ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده إلى أنه قيل في زمانه أو أنه رأى قائله، ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ولا خصَّ به قومًا دون قوم، بل جعل ذلك مشتركًا مقسومًا بين عباده في كل دهر، وجعل كل قديم حديثًا في عصره وكل شرف خارجية (كذا) في أوله، فقد كان جرير والفرزدق والأخطل وأمثالهم يعدون محدثين، وكان أبو عمر بن العلاء يقول: (لقد كثر هذا المحدث وحسن حتى لقد هممت بروايته.) ثم صار هؤلاء قدماء عندنا ببعد العهد منهم، كذلك يكون من بعدهم لمن بعدنا، كالخزيمي والعتابي والحسن بن هانئ وأشباههم،

فكل من أتى بحسن قول أو فعل ذكرناه له وأتينا به عليه، ولم يضعه عندنا تأخر قائله أو فاعله ولا حداثة سنه، كما أن الرديء إذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه شرف صاحبه ولا تقدمه.

وقد انتقد ابن قتيبة الإنشاء في صدر كتابه أدب الكاتب كما تقدم.

ثم جاء قدامة بن جعفر المتوفى سنة ٣١٠هـ، فأفرد لذلك كتابًا خاصًّا سماه: «نقد الشعر» تقدم ذكره، وهو أول من فعل ذلك، فبيَّن حد الشعر وشروط نظمه من حيث اللفظ والمعنى وائتلافهما في أبواب النظم المعروفة في عصره، وشروط المجاز والتشبيه وغيره، لكنه اختصر في ذلك ولم يوف الموضوع حقه شأن كل من يبدأ بعمل جديد، فترك إتمامه لأدباء العصر العباسي الثالث الذي نحن في صدده.

فجاء بعده حسين بن بشر الأمدي المتوفى سنة ٣٧١هـ (ترجمته في معجم الأدباء ٥٤ ج٣)، فوضع كتابه في الموازنة بين أبي تمام والبحتري، وقد ذكرناه في ترجمة البحتري، وهو من قبيل النقد الخاص؛ لأنه محصور بين شاعرين معينين، لكنه يشتمل على قواعد عامة.

وكذلك فعل علي بن عبد العزيز الجرجاني الشاعر الكاتب، المتوفى سنة ٣٩٢هـ في كتابه الوساطة بين المتنبي وخصومه ردًّا على كتاب ألفه الصاحب بن عباد في مساوئ المتنبي، فكتاب الوساطة مع كونه خصوصيًّا بين المتنبي وخصومه، لكنه يتضمن أبحاثًا في الشعر على العموم والشعراء على اختلاف الأعصر إلى أيامه.[٢] وفي كتاب مفاتيح العلوم لأبي عبد الله الخوارزمي المتقدم ذكره باب في الشعر والعروض لا يخلو من النقد، ومثله كتاب ذم الخطأ في الشعر لابن فارس اللغوي الآتي ذكره.

ويعد من قبيل النقد الشعري أيضًا كتاب يتيمة الدهر للثعالبي، فإنه ذكر فيه محاسن الشعراء وأمثلة من أقوالهم مع الملاحظة والانتقاد في أربعة مجلدات كبيرة، وسنذكره في ترجمة الثعالبي.

ونشأ في أثناء ذلك علم خاصٌّ يبحث في أحوال الكلمات الشعرية سموه علم قرض الشعر لا من حيث الوزن والقافية، بل من حيث حسن الألفاظ وقبحها للشعر والجواز والامتناع ومعائب التركيب كما عاب الصاحب أبا تمام بقوله:

كريم إذا أمدحه أمدحه والورى ... معي وإذا ما لمته لمته وحدي

حيث قابل المدح باللوم والتكرار في لفظ أمدحه ولمته، ويعدُّ من قبل النقد الشعري أيضًا رسالة الغفران لأبي العلاء المعرِّي؛ لأن المتكلم فيها زعم أنه جال في الجنة وقابل الشعراء وانتقدهم، وسيأتي ذكرها في ترجمة أبي العلاء.

(٢-١) كتاب العمدة

على أن ذلك كله من قبيل المقدمات التمهيدية في سبيل نقد الشعر، ولم يختم العصر العباسي الثالث حتى ظهر كتاب العمدة لابن رشيق جمع فيه أحسن ما قاله الذين سبقوه في النقد وغيره؛ ليكون العمدة في محاسن الشعر وآدابه. وقد استخرج النتائج الانتقادية على ما رآه قال: «وعوَّلت في أكثره على قريحة نفسي ونتيجة خاطري خوف التكرار إلا ما تعلق بالخبر وضبط الرواية.» وسنذكره في ترجمة ابن رشيق.

ونظرًا لعظم وقع الكتاب في النفوس تصدَّى معاصروه لنقده ومعارضته، وقد وصلنا من ذلك: «رسائل الانتقاد» لأبي عبد الله محمد بي أبي سعيد بن أحمد شرف الجذامي القيرواني الشاعر الأديب، المتوفى سنة ٤٦٠هـ، عارض بها كتاب العمدة، وهو معاصر لابن رشيق وزميله، وقد تأنَّق في رسائله فسجعها وزيَّنها بالتشابيه والكنايات يقلِّد بها المقامات في الخطاب والجواب، وضمَّنها انتقادًا على الشعراء الجاهليين فما بعدهم، وشتان بينه وبين ابن رشيق، وقد نشرت رسائله المشار إليها في مجلة المقتبس (سنة ٦).

وذكر صاحب كشف الظنون كتبًا في نقد الشعر لأبي عبد الله محمد بن يوسف الكفرطابي المتوفى سنة ٥٠٣هـ ولغيره لم نقف عليها.

(٣) الشعراء

كان الفرزدق وجرير والأخطل وغيرهم من شعراء بني أمية يعدُّون في ذلك العصر محدثين، فأصبحوا يعدون في العصر العباسي الأول قدماء، وصار أبو نواس والعتَّابي وأشباههم محدَثين ثم صار هؤلاء قدماء أو مولَّدين في العصر الذي نحن في صدده، وصار أهل هذا العصر محدثين، ونحن اليوم نعدُّ هؤلاء جميعًا قدماء.

(٣-١) مميزات هذا العصر

ويمتاز الشعراء في هذا العصر عما في سواه قبله بأمور أهمها:

(١) أنهم ظهروا وتكاثروا في أطراف المملكة الإسلامية أيضًا بعد أن تفرَّق الأدباء من بغداد كما تقدم، فبعد أن كان أكثرهم في الشام والعراق نبغت طائفة منهم في خراسان وتركستان وطبرستان والأهواز ومصر والمغرب والأندلس وسائر الأنحاء، وإن ظلت الأفضلية لشعراء الشام والعراق لأسباب ذكرناها في غير هذا المكان.

(٢) ظهرت فيهم طبقة من الوزراء والقضاة والأمراء وسائر وجوه الدولة وأصحاب الثروة والوجاهة.

(٣) تعاطى الشعرَ كثيرون من الفقهاء والعلماء والمنشئين والفلاسفة والأطباء.

(٤) زاد عدد الشعراء فيه على عددهم في كل عصر قبله لشيوع العلم واتِّساع دائرة المملكة الإسلامية، ولا يتسع المقام لتراجمهم فنأتي بأشهرهم حسب سني الوفاة:

(٣-٢) أشهر شعراء هذا العصر

أبو الطيب المتنبي (توفي سنة ٣٥٤هـ)

هو أبو الطيب أحمد بن الحسين بن عبد الصمد الجعفي الكندي، وبنو جعفي بطن من سعد العشيرة من القحطانية، فهو عريق بالعروبة. ولد في الكوفة سنة ٣٠٣ في محلة تسمى كندة فنسب إليها وليس هو من كندة القبيلة المعروفة، وكان أبوه من العامة يسقي الناس ويسمُّونه «عبدان السقَّاء»، لكن أبا الطيب نشأ على طلب العلم والأدب، وكان قويَّ الحافظة مطبوعًا على الشعر. فلما ترعرع حمله أبوه إلى الشام يتنقل به من باديتها إلى حاضرتها، وأخذ العلم من أصحابه، فمر أولًا باللغة فحفظ غريبها وحوشيها وأشعار الجاهلية وغيرهم، واشتهر بالفصاحة والبلاغة. وكان مفطورًا على كبر النفس وبُعد الهمة فلم يقنع بما يتمنَّاه سواه من الشهرة بالشعر أو الأدب، فطلب السيادة بالفتح فدعا إلى بيعته قومًا من مريديه من أبناء سنِّه فبايعوه، وحين كاد يتم أمر دعوته وصل خبره إلى والي البلدة فقبض عليه وحبسه، وفي هذا الحبس نظم قصيدة استعطف بها الوالي على إطلاقه مطلعها:

أيا خدَّدَ الله ورد الخدودِ وقدَّ قدود الحسان القدودْ

إلى أن قال:

دعوتك لما براني البلى وأوهن رجلي ثقل الحديدْ
وقد كان مشيهما في النعالِ فقد صار مشيهما في القيودْ
وكنت من الناس في محفلٍ فها أنا في محفل من قرودْ
تعجل فيَّ وجوب الحدودِ وحدِّي قبل وجوب السجودْ

أي إنما تجب الحدود على البالغ وأنا صبيٌّ لم تجب عليَّ الصلوات بعد فأطلقه.

ولما فرغت يده من الفتح طلب ما هو أبعد منه، فزعم أنه نبي اعتمادًا على بلاغة أسلوبه، فخرج إلى بني كلب أقام فيهم، وادعى أنه علوي، ثم ادعى النبوة. وقال إنه أظهر دعوته هذه أولًا في بادية سماوة ونواحيها، وأخذ يتلو عليهم كلامًا زعم أنه قرآن أنزل عليه، فكانوا يحكون له سورًا كثيرة أورد أبو علي بن حامد جزءًا من سورة قال إنها ضاعت وبقي أولها في حفظه وهو: «والنجم السيار والفلك الدوار والليل والنهار إن الكافر لفي أخطار امض على سننك واقفُ أثر من قبلك من المرسلين، فإن الله قامع بك زيغ من ألحد في دينه وضل عن سبيله.» فلما شاع أمره بين الناس خرج عليه لؤلؤ أمير حمص من قبل الإخشيدية، فقاتله وأسر من كان معه من بني كلب وكلاب وغيرهم من قبائل العرب، وحبسه في السجن دهرًا طويلًا حتى كاد يتلف فسئل في أمره فاستتابه وكتب عليه وثيقة، وأشهد عليه فيها ببطلان ما ادعاه ورجوعه إلى الإسلام وأطلقه، فكان المتنبي كلما ذكر له قرآنه بعد ذلك أنكره وحاول التنصل من تبعته.

فقنع بعد فشله هذا بالشهرة الأدبية، فنال منها ما لم ينله سواه فراجت سوق شعره بما أصابه من رغبة الملوك والأمراء فيه، فنظم القصائد في أغراض مختلفة وفاق معاصريه على الإطلاق، فتسابق الملوك إلى استدنائه بالجوائز ففعل، وبدأ بسيف الدولة ابن حمدان فقدم عليه سنة ٣٣٧هـ ومجلسه حافل بفحول الشعراء، فأحرز المتنبي قصب السبق بقصائد سار بذكرها الركبان، وكان في جملة من يحضر مجلس سيف الدولة ابن خالويه النحوي، فوقع بينه وبين المتنبي كلام أدى إلى نفور فوثب ابن خالويه على المتنبي فضربه بمفتاح كان معه فشجه، ولم ير المتنبي من سيف الدولة دفاعًا عنه فغضب

وخرج إلى مصر، وأراد الانتقام لنفسه فتقرب من كافور الإخشيدي سنة ٣٤٦هـ لما يعلم من عداوته لبني حمدان وامتدحه وامتدح أنوجور بن الإخشيد فأكرماه حتى صار يقف بين يدي كافور وفي رجليه خفان وفي وسطه سيف ومنطقة، ويركب بحاجبين من مماليكه وهما بالسيوف والمناطق، فلما رأى كافور سموه بنفسه وتعاليه بشعره خافه وقال: «يا قوم، من ادعى النبوة بعد محمد ﷺ ألا يدَّعي الملك مع كافور؟! فحسبكم.» فأغضبه فخرج أبو الطيب من مصر فأتى بغداد، ثم ذهب قاصدًا بلاد فارس وامتدح عضد الدولة بن بويه الديلمي فأجزل عطاءه.

ثم رجع من فارس قاصدًا بغداد ومعه ابنه محمد وغلامه مفلح حتى إذا كان بالقرب من النعمانية في موضع يقال له: الصافية في الجانب الغربي من سواد بغداد عند دير العاقول، بينهما مسافة ميلين، عَرَضَ له فاتك بن أبي الجهل الأسدي في عدة من أصحابه فاقتتلا، فأحسَّ المتنبي بالضعف فعمد إلى الفرار فقال له غلامه مفلح: لا يتحدث الناس عنك بالفرار وأنت القائل:

فالخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فكر راجعًا حتى قتل سنة ٣٥٤هـ.

أما شعره ففي الدرجة الأولى من المتانة والبلاغة، وهو مشهور بضخامة المعاني ومتانة المباني، ولم يَدَعْ بابًا من أبواب الشعر إلا طرقه وأجاد فيه، وخصوصًا الحكم والحماسة والمديح والفخر والعتاب، وحوى شعره من الفلسفة والحكمة ما جرى على ألسنة الناس مجرى الأمثال، واقتبس كثيرون من المنشئين معانيه وحلوا شعرها إلى نثر أدخلوه في نثرهم كما فعل الصاحب بن عباد[٣] أو نظموه لأنفسهم كما فعل أبو بكر الخوارزمي وغيره، ولم نأت بأمثلة من نظمه لكثرته ولاشتهار ديوانه وشيوعه.

مضى على شعره نحو ألف سنة ولا يزال موضوع مناقشات أهل الأدب، وكثيرًا ما اشتغلوا في تفسير أشعاره، وحل مشكلها وعويصها، وألفت الكتب في ذكر جيده ورديئه وتكلم الأفاضل في الوساطة بينه وبين خصومه والإفصاح عن أبكار كلامه، وتفرقوا فرقًا في مدحه والقدح فيه والتعصب له أو عليه، وذلك دليل على وفور فضله وتقدمه على أقرانه، والكامل من عدت سقطاته والسعيد من حُسِبَت هفواته.

وممن درس شعر المتنبي وبيَّن حسنه وقبيحه ونقده أبو منصور الثعالبي في الجزء الأول من يتيمة الدهر، فإنه بيَّن حسناته وسيئاته مفصلًا مع سائر أخباره في نحو مائة

صفحة، ولم يبق شاعر أو أديب جاء بعد المتنبي إلا انتقده، ويرى ابن رشيق أن أبا الطيب كان يأتي بالمستغرب ليبيِّن معرفته، وأنه كان في طبعه غلظ وفي عتابه شدة وأنه كثير التحامل ظاهر الكبرياء والأنفة.

وقال أبو العلاء المعري: «أبو تمام والمتنبي حكيمان، وإنما الشاعر البحتري.» وكان شيوخ الشعر في أيام ابن خلدون لا يرون المتنبي والمعري من الشعراء؛ لأنهما لم يجريا على أساليب العرب، وأبو سعيد محمد بن أحمد العبيدي ألَّف كتابًا سماه «الإبانة عن سرقات المتنبي لفظًا ومعنى» ذكر فيه نحو ٢٥٠ بيتًا من أشعار المتنبي، وأورد ما يقابلها من نظم المتقدمين كالبحتري وأبي تمام وابن الرومي وديك الجن وغيرهم من فحول الشعراء، وزعم أن المتنبي سرقها وغيَّر فيها وأعادها لنفسه والكتاب مطبوع بمصر في ٨٨ صفحة، وأبو علي محمد بن حسن الحاتمي بيَّن ما توارد من المعاني بين أبي الطيب وأرسطو ولم يتهم المتنبي بالسرقة، بل قال: «لما رأيت أبا الطيب قد أتى في شعره على أغراض فلسفية ومعان منطقية أردت الموافقة بين ما توارد به في شعره مع أرسطو في حكمه؛ لأنه إن كان ذلك عن فحص ونظر فقد أغرق في درس العلوم، وإن يكن ذلك منه على سبيل الاتفاق فقد زاد على الفلاسفة في ذلك، وهو في الحالين على غاية الفضل.» ثم أورد بعض أقوال أرسطو وما يقابلها من أشعار المتنبي في نحو عشرين صفحة، اطلعنا عليها في كتاب اسمه راشد سوريا مطبوع في بيروت سنة ١٨٦٨، وانتقد المتنبي جماعة من المستشرقين أيضًا أشهرهم رايسكي ودي ساسي وبولين وبروكلمن وهمر ونيكلسن وغيرهم، وفي المقتطف صفحة ٣٦١ سنة ١٧ مقالة في المتنبي للسيد توفيق البكري.

وقد جمع ديوان المتنبي ورتب على الحروف الأبجدية، وشرحه كثيرون، وطبع في الهند ومصر والشام وغيرها، ومن شروحه التي بقيت شرح ابن جني المتوفى سنة ٣٩٢ في ثلاثة مجلدات، ذكره كشف الظنون، ومنه نسخة خطية في مكتبة بطرسبورج وأخرى في الإسكوريال. وعلَّق عليه ابن فورغا سنة ٤٣٧ كتابًا سماه التجني على ابن جني في الإسكوريال. وشرحه إبراهيم الإقليلي المتوفى سنة ٤٤١هـ، ومنه نسخة في مكتبة برلين، وشرحه أبو العلاء المعري المتوفى سنة ٤٩٩، ومن شرحه نسخة في مكتبة منشن وأخرى في المتحف البريطاني وفي بطرسبورج، وشرحه الواحدي المتوفى سنة ٤٦٨، وقد طبع في بمباي سنة ١٢٨١، وفي أوروبا سنة ١٨٦١، وشرحه التبريزي سنة (٥٠٢)، ومنه نسخة في مكتبة باريس، وشرحه العكبري (٦١٦) طبع في بولاق سنة ١٨٦٠، وفي مصر سنة ١٢٨٧ وبعدها، وفي مكاتب أوروبا نسخ خطية من هذا الديوان ليس عليها أسماء

شُرَّاحها، وأحدث شروحه العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب للشيخ اليازجي، طبع في بيروت غير مرة. وهناك مختارات من ديوان المتنبي يطول بنا ذكرها، منها كتاب الأمثال السائرة في شعر المتنبي، موجود في المكتبة الخديوية، والمنصف للسارق والمسروق، وهو بحث في حقيقة المتنبي بالنظر إلى ذلك منه نسخة خطية في برلين، والصبح المنبي عن حيثية المتنبي ليوسف البديعي المتوفى سنة ١٠٧٣ منه نسخ في أكثر مكاتب أوروبا وفي المكتبة الخديوية وغيرها كثير، وقد عُنِيَ الموسيو غرانجريه بنقل بعض أشعار المتنبي إلى الفرنسية، وطبعت في المجلة الآسيوية (سنة ١٨٢٤)، وكتب عنه أكثر المستشرقين مقالات انتقادية، ولا سيما ديتريشي وهامر وجونبول، وقد عني هذا بترجمة بعض أشعاره إلى اللاتينية، وطبعت سنة ١٨٤٠.

وترجمة المتنبي في ابن خلكان ٣٦ ج١، ويتيمة الدهر ٧٨ ج١، وطبقات الأدباء ٣٦٦.

أبو فراس الحمداني (توفي سنة ٣٥٧هـ)

هو أبو فراس الحارث بن أبي العلاء سعيد بن حمدان الحمداني ابن عم سيف الدولة. فهو شاعر أمير، وكان فارسًا مغوارًا وشاعرًا بليغًا، وشعره سائر بين الحسن والجودة والسهولة والجزالة والعذوبة والفخامة والحلاوة مع رواء الطبع وسمة الظرف وعزة الملك، ولم تجتمع هذه الخلال قبله إلا في شعر عبد الله بن المعتز. وأبو فراس يعد أشعر منه عند أهل الصنعة ونَقَدَة الكلام، وكان الصاحب بن عباد يقول: «بدئ الشعر بملك وانتهى بملك.» يعني امرأ القيس وأبا فراس. وكان المتنبي يشهد له بالتقدم والتبريز، ويتحامى جانبه فلا ينبري لمباراته ولا يجترئ على مجاراته، لكنه لم يمدحه ومدح من دونه من آل حمدان تهيبًا له وإجلالًا لا إغفالًا وإخلالًا. وكان سيف الدولة يعجب جدًّا بمحاسن أبي فراس ويميزه بالإكرام على سائر قومه، ويستصحبه في غزواته ويستخلفه في أعماله.

واشتهر أبو فراس في عدة معارك مع سيف الدولة حارب بها الروم، فأسر في إحداها وهو جريح في فخذه، فحمل إلى القسطنطينية وسجن فيها أربع سنين، ونظم وهو في السجن قصائد امتازت بالرقة والحنين إلى الوطن وغير ذلك، وعرفت بالقصائد الروميات، ثم أطلق سراحه وعاد إلى وطنه. ولما مات سيف الدولة طمع هو بحمص فاعترضه أبو

المعالي ابن سيف الدولة وجرت بينهما حرب انتهت بقتل أبي فراس سنة ٣٥٧ وهو في مقتبل العمر لم يتجاوز السابعة والثلاثين.

وقد جمع شعره في ديوان طبع في بيروت سنة ١٨٧٣ وسنة ١٩٠٠، وأفرد صاحب يتيمة الدهر فصلًا كبيرًا لترجمة أبي فراس وأشعاره (ج١)، وقد عني الموسيو دوفوراك في ترجمة بعض أشعاره إلى الألمانية طبعت في ليدن سنة ١٨٩٥.

ومن أمثلة شعره قوله في الفخر:

ألم ترنا أعز الناس جارًا ... وأمنعهم وأمرعهم جنابا
لنا الجبل المطل على نزارٍ ... حللنا المجد منه والهضابا
يفضِّلنا الأنام ولا نحاشي ... ونوصف بالجميل ولا نحابى
وقد علمت ربيعة بل مزارٌ ... بأنا الرأس والناس الذنابى
ولما أن طغت سفهاء كعبٍ ... فتحنا بيننا للحرب بابا
منحناها الحَرَائب غير أنا ... إذا جارت منحناها الحِرابا
ولما ثار سيف الدين ثرنا ... كما هَيَّجتَ آسادًا غضابا
أَسِنَّتُه إذا لاقا طعانًا ... صوارمه إذا لاقا ضرابا
دعانا والأسنة مشروعاتٌ ... فكنا عند دعوته الجوابا
صنائعُ فاق صانعها ففاقت ... وغرسٌ طاب غارسه فطابا
وكنا كالسهام إذا أصابت ... مراميها فراميها أصابا

وقوله في العتاب:

قد كنتَ عُدَّتيَ التي أسطو بها ... ويدي إذا اشتد الزمان وساعدي
فرُميت منك بغير ما أملته ... والمرء يشرق بالزلال البارِدِ
فصبرت كالولد التقي لبره ... أغضى على ألم لضرب الوالدِ

ومن إخوانياته قوله:

لم أؤاخذك بالجفاء لأني ... واثق منك بالوداد الصريحِ
فجميل العدو غير جميلٍ ... وقبيح الصديق غير قبيحِ

ومن باب الشكوى والعتاب قوله:

أيا قومنا لا تنشبوا الحرب بيننا أيا قومنا لا تقطعوا اليد باليدِ
فيا ليت داني الرحم منا ومنكمُ إذا لم يقرِّب بيننا لم يبعدِ
عداوة ذي القربى أشد مضاضةً على المرء من وقع الحسام المهنَّدِ

وقوله:

إذا كان فضلي لا أسوِّغ نفعه فأفضل منه أن أُرَى غير فاضلِ
ومن أضيع الأشياء مهجة عاقلٍ يجوز على حوبائها حكم جاهلِ

ومن النسيب قوله:

تبسَّمَ إذ تَبَسَّم عن أقاحِ وأسفر حين أسفر عن صباحِ
وأتحفني براحٍ من رضابٍ وراح من جنى خد وراحِ
فمن لألاء غرته صباحي ومن صهباء ريقته اصطباحي

ومن التشبيهات قوله:

مددنا علينا الليل والليل راضعٌ إلى أن تردَّى رأسه بمشيبِ
بحال ترد الحاسدين بغيظهم وتطرف عنا عين كل رقيبِ
إلى أن بدا ضوء الصباح كأنه مبادي نصول في عذار خضيبِ

ومن رومياته وقد شقت فخذه من نصل السهم قوله:

فلا تصفنَّ الحرب عندي فإنها طعاميَ مذ بعت الصبا وشرابي
وقد عرفت وقع المسامير مهجتي وشقق عن زرق النصول إهابي

وترجمته في ابن خلكان ١٢٧ ج١، ويتيمة الدهر ٢٢ ج١.

كشاجم (المتوفى نحو سنة ٣٦٠هـ)

هو أبو الفتح محمود بن الحسين بن شاهق هندي الأصل ويعرف بالسندي. أقام في الرملة فلقب بالرملي، وله ديوان رتب على حروف المعجم طبع في بيروت سنة ١٣١٣، ومن مؤلفاته «كتاب أدب النديم»، وهو صغير يبحث في واجبات النديم وفضائله وأخلاقه وما عليه عند التداعي للمنادمة والسماع والمحادثة، ويتخلَّل ذلك أخبار وأشعار، طبع في مصر سنة ١٢٩٨، وينسب إليه كتاب البيزرة في علم الصيد، منه نسخة خطية في مكتبة غوطا، وأخباره في الفهرست ١٣٩.

السري الرفاء (توفي سنة ٣٦٢هـ)

هو أبو الحسن السري بن أحمد بن السري الكندي الرفاء. ولد في الموصل ونشأ فيها، وكان يرفو ويطرز في دكان وهو ينظم الشعر حتى جاد شعره، فقصد سيف الدولة ومدحه وأقام عنده مدة. وانتقل بعد وفاته إلى بغداد ومدح الوزير المهلبي وجماعة من رؤسائها، وكان بينه وبين الخالديين الشاعرين الموصليين معاداة، فادعى عليهما سرقة شعره وشعر غيره، فكان ينسخ ديوان كشاجم المتقدم ذكره، ويدخل فيه أحسن أبيات الخالديين ليقول الناس: إنهما سرقاه منه، وسيأتي ذكرهما.

وكان السري شاعرًا مطبوعًا يمتاز شعره بعذوبة ألفاظه وكثرة الافتتان بالتشبيهات والأوصاف، ولم يكن يحسن من العلوم غير الشعر، وفي يتيمة الدهر طائفة حسنة من أشعاره وما أدخله في شعره من معاني الشعراء كالمتنبي وابن أبي حفصة وأبي تمام وغيرهم، وهو فصل طويل.

ومن تشبيهاته في وصف الثلج قوله:

يا من أنامله كالعارض الساري	وفعله أبدًا عارٍ من العارِ
أما ترى الثلج قد خاطت أنامله	ثوبًا يزرُّ على الدنيا بأزرارِ
نارٌ ولكنها ليست بمبديةٍ	نورًا وماءً ولكن ليس بالجاري
والراح قد أعوزتنا في صبيحتنا	بيعًا ولو وزن دينار بدينارِ
فامنن بما شئت من راح يكون لنا	نارًا فإنا بلا راح ولا نارِ

ومن قوله يذكر صناعته:

وكانت الإبرة فيما مضى　　صائنة وجهي وأشعاري
فأصبح الرزق بها ضيقًا　　كأنه من ثقبها جاري

ومن محاسن شعره في المديح من جملة قصيدة:

يلقى الندى برقيق وجه مسفرٍ　　فإذا التقى الجمعان عاد صفيقا
رحب المنازل ما أقام فإن سرى　　في جحفل ترك الفضاء مضيقا

ومن عذوبة لفظه قوله:

ويا ديرها الشرقي لا زال رائحٌ　　يحل عقود المزن فيك ومغتدي
عليلة أنفاس الرياح كأنما　　يعل بماء الورد نرجسها الندي
يشق جيوب الورد في شجراتها　　نسيم متى ينظر إلى الماء يبردِ

وللسري الرفاء ديوان منه نسخة خطية في المكتبة الخديوية في نحو ٤٠٠ صفحة نقلت من المدينة المنورة، أكثرها في مدح سيف الدولة والوزير المهلبي وبعض بني حمدان، وفيه أهاجٍ في الخالديين وغيرهما وقصائد وصفية يصف بها صيد السمك وشبكته والنار وكلاب الصيد وبعض الأبنية وغيرها. وفي وصفه رقة وسهولة، ومنه نسخ أيضًا في مكاتب باريس وبرلين.

وله كتاب المحب والمحبوب والمشموم والمشروب، وهو أربعة أقسام في المحبين وأشعارهم والأطياب والأزهار وأسماء الخمر، منه نسخة خطية في فينا وأخرى في ليدن.

وترجمته في يتيمة الدهر ٤٥٠ ج١، وابن خلكان ٢٠١ ج١، والفهرست ١٦٩.

ابن هاني الأندلسي (توفي سنة ٣٦٣هـ)

هو أبو القاسم محمد بن هاني الأزدي الأندلسي، ويرجعون بنسبه إلى آل المهلب بن أبي صفرة. كان أبوه هاني شاعرًا في بعض قرى المهدية بأفريقيا فانتقل إلى الأندلس فوُلد له محمد سنة ٣٢٦هـ في إشبيلية، ونشأ بها، وكان شاعرًا مطبوعًا. تقرب من صاحب

إشبيلية وحظي عنده، وكان معاصرًا لعبد الرحمن الناصر وابنه الحكم والأندلس في إبان زهوها وحضارتها، لكنهم كانوا يطاردون طلاب الفلسفة ويتهمونهم بالكفر، وكان ابن هاني من طلابها، فلما اشتهر أمره بها نقم عليه الناس وساءت المقالة بحق صاحب إشبيلية بسببه واتهم بمذهبه، فأشار عليه بالغيبة عن البلدة ريثما يُنسى أمره، فبرحها وعمره ٢٧ سنة إلى بلاد المغرب والدولة الفاطمية في أثناء رغبتها في فتح مصر، فلقي القائد جوهر ومدحه، حتى انتهى خبره إلى المعز لدين الله الفاطمي فاستقدمه إليه، ثم انتقل المعز إلى مصر بعد فتحها فأخذ ابن هاني يستعد للِّحاق به فتجهز ولحق به فوصل برقة فأضافه شخص من أهلها أقام عنده أيامًا في مجلس أنس. ويقال: إنه خرج من تلك الدار وهو سكران فنام في الطريق فوجد ميتًا وهو في السادسة والثلاثين من عمره؛ فأسف المعز لوفاته وقال: «هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق.»

ويمتاز شعر ابن هاني بالمبالغة الكثيرة في المديح والإفراط إلى حد الكفر. وفي ألفاظه قعقعة وأنين؛ ونظرًا لما تقدم من اشتهاره بالكفر لم ينصفه المؤرخون ولا الشعراء. وكان أبو العلاء المعري إذا سمع شعر ابن هاني قال: «لا أشبهه إلا برحى تطحن قرونًا.» لأجل القعقعة التي في ألفاظه، ويزعم أنه لا طائل تحت تلك الألفاظ، وإنما فعل المعري ذلك تعصبًا للمتنبي.

وفي كل حال فإنه أشعر أهل الأندلس على الإطلاق، وهو عندهم كالمتنبي في المشرق، وكان معاصرًا له، وأكثر شعره في مدح المعز لدين الله الفاطمي قد تقدم مثال منه عند كلامنا عن المبالغة الشعرية، ومن قوله في وصف الخيل من قصيدة مدح بها المعز:

وصواهلٍ لا الهضب يوم مغارها	هضب ولا البيد الحزون حزونُ
عرفت بساعة سبقها لا أنها	علقت بها يوم الرهان عيونُ
وأجلُّ علم البرق فيها أنها	مرَّت بجانحتيه وَهْيَ ظنونُ
في الغيث شبه من نداك كأنما	مسحت على الأنواء منك يمينُ

ولابن هاني ديوان مرتب على الأبجدية، منه نسخ خطية في أكثر مكاتب أوروبا، وطبع في بولاق سنة ١٢٧٤، وفي بيروت سنة ١٨٨٤، وترجمته في ابن خلكان ٤ ج٢.

الوأواء الدمشقي (توفي سنة ٣٩٠هـ)

هو أبو الفرج محمد بن أحمد الغسَّاني الدمشقي الملقب بالوأواء. كان في بدء أمره مناديًا في دار البطيخ بدمشق ينادي على الفواكه، وما زال يشعر حتى أجاد واشتهر، وكان شعره حسن التشبيه منسجم اللفظ عذب العبارة حسن الإشارة؛ ولذلك شاع كثير من أشعاره على ألسنة الناس من ذلك قوله:

بالله ربكما عوجا على سكني وعاتباه لعل العتب يعطفه
وعرضا بي وقولا في حديثكما: ما بالُ عبدك بالهجران تتلفه؟
فإن تبسَّم قولا عن ملاطفةٍ: ما ضرَّ لو بوصالٍ منك تسعفه
وإن بدا لكما من سيدي غضبٌ فغالطاه وقولا: ليس نعرفه

وذكر له الثعالبي بعض القصيدة التي اشتهرت لابن زريق الآتي ذكره ومطلعها:

لا تعذليه فإن العذل يولعه قد قلتِ حقًّا ولكن ليس يسمعه

وله من التشبيهات الأبيات المشهورة:

قالت وقد فتكت فينا لواحظها: لِمَ ذا؟ أما لقتيل الحب من قودِ؟
وأسبلت لؤلؤًا من نرجس وسقت وردًا وعضَّت على العناب بالبَرَدِ
إنسانة لو بدت للشمس ما طلعت من بعد رؤيتها يومًا على أحدِ
كأنما بين غايات الجفون لها أسد الحمام على طرق الهوى رصدي

وله ديوان منه نسخة خطية في المكتبة الخديوية في نحو ٦٥ صفحة نقل من المدينة المنورة، أكثره مقاطيع في الخمر والغزل.

وترجمته في فوات الوفيات ١٤٦ ج٢، ويتيمة الدهر ٢٠٥ ج١.

السلامي (توفي سنة ٣٩٣هـ)

هو أبو الحسن محمد بن عبد الله من ولد الوليد بن الوليد بن المغيرة المخزومي أخي خالد بن الوليد، وسمي السلامي نسبة إلى دار السلام، ولد في كرخ بغداد سنة ٣٣٦هـ، ورحل منها إلى الموصل وهو صبي ينظم الشعر، فلقي جماعة من مشائخ الشعراء منهم أبو عثمان الخالدي أحد الخالديين وأبو الفرج الببغاء وغيرهما، فأعجبوا ببراعته مع حداثته فاتهموه بأن الشعر ليس له، ثم خبروه بتجربة — وذلك أن الخالدي كان في يده نارنجة ألقاها على برد تساقط في تلك الساعة وطلبوا إليه أن يصف ذلك المنظر فقال مرتجلًا:

لـــلـــه در الـــخـــالـــدي	الأوحد الندب الخطيرِ
أهدى لماء المزن عنـــ	ـــد جموده نار السعيرِ
حتى إذا صدر العتا	ب إليه عن حنق الصدورِ
بعثت إليه بعذره	عن خاطري أيدي السرورِ
لا تعذلوه فإنه	أهدى الخدود إلى الثغورِ

فاقتنعوا باقتداره، وهو من أشعر أهل العراق، ومدح آل حمدان. ونزل على الصاحب بن عباد بأصفهان ردحًا من الزمن، ثم قصد عضد الدولة في شيراز، فحمله الصاحب معززًا مكرمًا فأكرمه عضد الدولة وكان يقول: «إذا رأيت السلامي في مجلس ظننت أن عطارد قد نزل من الفلك إليَّ ووقف بين يدي.»

ومن جملة مدحه إياه قوله:

إليك طوى عرض البسيطة جاعلٌ	قصارى المطايا أن يلوح لها القصرُ
فكنت وعزمي في الظلام وصارمي	ثلاثة أشباه كما اجتمع النسرُ
وبشرت آمالي بملك هو الورى	ودار هي الدنيا ويوم هو الدهرُ

ومن بديع شعره في مدح الصاحب:

تبسطنا على الآثام لما	رأينا العفو من ثمر الذنوبِ

وفي يتيمة الدهر الجزء الثاني طائفة من أحسن أشعاره، وتجد أخباره أيضًا في ابن خلكان ٥٢٤ ج١.

البَبَّغاء (توفي سنة ٣٩٨هـ)

هو أبو الفرج عبد الواحد بن نصر المخزومي، أصله من نصيبين بالعراق، وهو ممن جمع بين الشعر والإنشاء، ولكن الشعر غلب عليه. وقد ذكر الثعالبي رسائل دارت بينه وبين أبي إسحاق الصابي وأشياء يطول شرحها، ولقب بالببغاء للثغة في لسانه، واتصل في ريعان شبابه بسيف الدولة في حلب، ثم تنقَّل بعد وفاته إلى الموصل وبغداد، ومن شعره ما يتغنى به أكثره في الغزل والخمر وفي الزهر، فضلًا عن قصائد المديح، وفي اليتيمة أمثلة من شعره يضيق عنها هذا المقام، ومن تشبيهه قوله:

وكأنما نقشت حوافر خيله ... للناظرين أهلةً في الجلمدِ
وكأن طرف الشمس مطروف وقد ... جعل الغبار له مكان الإثمدِ

وأكثر شعره جيد ومقاصده فيه جميلة.

وأخباره في ابن خلكان ٢٩٨ ج١، ويتيمة ١٧٣ ج١.

النامي (توفي سنة ٣٩٩هـ)

هو أبو العباس أحمد بن محمد الدارمي المصيصي المعروف بالنامي، من خواص مُدَّاح سيف الدولة، يأتي بالرتبة عنده بعد المتنبي.

وكان أديبًا عارفًا باللغة، وقد اشتغل فيها بحلب، وله وقائع مع المتنبي ومعارضات في الأناشيد، وقد عاش بعده دهرًا حتى أربى على التسعين سنة من العمر، ومن لطيف شعره قوله:

أتاني في قميص اللاذ يسعى ... عدو لي يلقَّب بالحبيبِ
وقد عبث الشراب بمقلتيْهِ ... فصيَّر خده كسنا اللهيبِ
فقلت له: بما استحسنتَ هذا ... لقد أقبلت في زِيٍّ عجيبِ؟
أحمرة وجنتيك كَسَتْكَ هذا ... أَمَ انتَ صبغتَه بدم القلوبِ
فقال: الراح أهدت لي قميصًا ... كلون الشمس في شفق المغيبِ
فثوبي والمدام ولون خدي ... قريب من قريب من قريبِ

وأخباره في ابن خلكان ٣٨ ج١.

ابن نباتة السعدي (توفي سنة ٤٠٥هـ)

هو أبو نصر عبد العزيز بن عمر، من سعد من تميم. نشأ في بغداد، وطاف البلاد، ومدح الملوك والرؤساء، من جملتهم سيف الدولة وابن العميد، وجرت بينه وبين هذا مفاوضة سيأتي ذكرها في ترجمة ابن العميد، ومدح عضد الدولة والوزير المهلبي وغيرهما. ويمتاز شعره بحسن السبك وجودة المعنى، ومن قوله في سيف الدولة، وقد أعطاه فرسًا أحمر محجلًا قصيدة قال منها في وصف الفرس:

فكأنما لطم الصباح جبينه	فاقتص منه فخاض في أحشائه
متمهلًا والبرق من أسمائه	متبرقعًا والحسن من أكفائه
ما كانت النيران يكمن حرُّها	لو كان للنيران بعض ذكائه
لا تعلق الألحاظ في أعطافه	إلا إذا كفكفت من غلوائه
لا يكمل الطرف المحاسن كلها	حتى يكون الطرف من أسرائه

وهو غير ابن نباتة المصري المتوفى سنة ٧٦٨هـ صاحب الديوان المشهور، وسيأتي ذكره. وغير ابن نباتة الفارقي الخطيب المتوفى سنة ٣٨٤هـ صاحب ديوان الخطب، وقد طبعت خطبه بمصر مرارًا، وفي بيروت سنة ١٣١١، ولها شروح عديدة منها نسخ خطية في مكاتب أوروبا، وترجمته في ابن خلكان ٢٨٣ ج١.

وأما ابن نباتة السعدي فترجمته في ابن خلكان ٢٩٥ ج١، ويتيمة الدهر ١٤٣ ج١.

الشريف الرضي (توفي سنة ٤٠٦هـ)

هو أبو الحسن محمد بن الطاهر، وينتهي نسبه إلى موسى الكاظم، ومنه إلى الحسين بن علي؛ ولذلك لقب بالشريف الرضي الموسوي. ولد في بغداد سنة ٣٥٩، وبدأ يقول الشعر وعمره بضع عشرة سنة، وكان أبوه نقيب الأشراف الطالبيين، فصارت النقابة إليه سنة ٣٨٨ وأبوه حي، وكان عالمًا بعلوم القرآن واللغة والنحو، وله فيها المؤلفات النافعة، وكان يقيم في سر من رأى (سامرًّا). وقد أجمع الأكثرون على أن الشريف الرضي أشعر قريش؛ لأن شعراء قريش كان فيهم من يجيد القول إلا أن شعره قليل، فإما مجيد مكثر فليس إلا الشريف الرضي. وتوفي في بغداد سنة ٤٠٦هـ، ودفن في الكرخ ورثاه الشعراء. وكان رفيع المنزلة لشرف نسبه ومنصبه وعلوِّ كعبه في الشعر والأدب، ومن أجمل نظمه

الدال على عظم نفسه وشاعريته قصيدة قالها في الخليفة القادر بالله العباسي في جلسة جلسها، فأوصل إليها الحجيج وغيرهم سنة ٣٨٢ مطلعها:

لمن الحدوج تهزهن الأنيقُ والركب يطفو في السراب ويغرقُ

وتخلص إلى مدح الخليفة والافتخار بنسبه فقال:

وبرزت في برد النبي وللهدى نور على أسرار وجهك مشرقُ
وكأن دارك جنة حصباؤها الجا دي أو أنماطها الاستبرق
في موقف تغضي العيون جلالةً فيه ويعثر بالكلام المنطقُ
والناس إما شاخص متعجبٌ مما يرى أو ناظر متشوقُ
مالوا إليك محبة فتجمَّعوا ورأوا عليك مهابة فتفرَّقوا
عطفًا أمير المؤمنين فإننا في دوحة العلياء لا نتفرقُ
ما بيننا يوم الفخار تفاوُتٌ أبدًا كلانا في المعالي معرقُ
إلا الخلافة ميَّزَتْكَ فإنني أنا عاطل منها وأنت مطوقُ

ويمتاز الشريف الرضي ببراعته في الرثاء، وله عدة مراثٍ، أشهرها رثاؤه لأبي إسحاق الصابي بقصيدة مطلعها:

أرأيت من حملوا على الأعوادِ أرأيت كيف خبا ضياء النادي

وقد أكبر الناس قوله في هذه القصيدة؛ لأن المرثيَّ كان صابئيًّا.
ومن قوله في الحكم:

كن في الأنام بلا عين ولا أذنٍ أو لا فعش أبد الأيام مصدورا
والناس أسد تحامي عن فرائسها إما عقرت وإما كنت معقورا

وللشريف المذكور ديوان كبير رواية أبي حكيم الخيري مرتب على أبواب: (١) المديح، (٢) الافتخار وشكوى الزمان، (٣) المراثي، (٤) النسيب والمشيب ووصف طيف الحبيب، (٥) الفنون المختلفة. وكل باب مرتب على الأبجدية ويليها زيادات. منه

نسخ خطية في المكتبة الخديوية ومكاتب برلين ولندن والإسكوريال. وقد طبع في الهند في مجلد واحد كبير مرتب على المعجم سنة ١٣٠٦هـ، وله مؤلفات في معاني القرآن لم تصلنا. وله كتاب انشراح الصدر في مختارات من الشعر منه نسخة خطية في المكتبة الخديوية. وفي مكتبة الإسكوريال مما ينسب إلى الشريف الرضي مجموعة أشعار عنوانها طيف الخيال.

وتجد ترجمته في ابن خلكان ٢ ج٢، ويتيمة الدهر ٨٧ و٢٩٨ جزء ٢.

صريع الدلاء (توفي سنة ٤١٢هـ)

هو أبو الحسن علي بن عبد الواحد، ويعرف بصريع الدلاء وقتيل الغواني. اشتهر بقصيدة مجونية مقصورة عارض بها مقصورة ابن دريد منها قوله:

من لم يرد أن تنتقب نعاله	يحملها في كفه إذا مشى
ومن أراد أن يصون رجله	فلبسه خير له من الحفا
من دخلت في عينه مسلةٌ	فاسأله من ساعته عن العمى
من أكل الفحم تسود فمه	وراح صحن خده مثل الدجا
من صفع الناس ولم يدعهم	أن يصفعوه فعليهمُ اعتدى
من ناطح الكبش يفجر رأسه	وسال من مفرقه شبه الدما
من طبخ الديك ولا يذبحه	طار من القدر إلى حيث يشا

وترجمته في فوات الوفيات ٢٣٧ ج٢.

مهيار الديلمي (توفي سنة ٤٢٨هـ)

هو أبو الحسن مهيار بن مرزويه الكاتب الفارسي الديلمي، كان مجوسيًّا وأسلم على يد الشريف الرضي، وتخرَّج في الشعر على يده، وقد وازن كثيرًا من قصائده، ويمتاز في شعره بجزالة القول ورقة الحاشية وطول النَّفَس، وقد طرق أكثر أبواب الشعر، فمن قوله في القناعة:

يلحى على البخل الشحيح بماله	أفلا تكون بماء وجهك أبخلا
أكرم يديك عن السؤال فإنما	قدر الحياة أقلُّ من أن تسألا
ولقد أضم إليَّ فضل قناعتي	وأبيت مشتملًا بها متزملا
وأري العدو على الخصاصة شارة	تصف الغنى فيخالني متمولا
وإذا امرؤ أفنى الليالي حسرةً	وأمانيًا أفنيتهنَّ توكُّلا

ومن بديع مدائحه قوله من جملة قصيدة:

وإذا رأوك تفرقت أرواحهم	فكأنما عرفتك قبل الأعينِ
وإذا أردت بأن تفل كتيبةً	لاقيتها فتسمَّ فيها واكتنِ

وله من جملة قصيدة أبيات تتضمن العتب وهي:

إذا صور الإشفاق لي كيف أنتمُ	وكيف إذا ما عَنَّ ذكري صبرتُمُ
تنفست عن عتب فؤادي مفصحٌ	به ولساني للحفاظ يحمحمُ
وفي فيَّ ماء من بقايا ودادكم	كثيرًا به من ماء وجهي أرقتمُ
أرقت فما ضنًّا عليه وبينه	وبين انسكابٍ ريثما أتكلمُ

وقد جمع شعره في ديوان يدخل في أربعة مجلدات، كان مشهورًا في أيام ابن خلكان وذكر أمثلة منه ولم نقف عليه، وترجمته في ابن خلكان ١٤٩ ج٢.

أبو العلاء المعري (توفي سنة ٤٤٩هـ)

هو خاتمة شعراء العصر العباسي الثالث كما كان شبيهه أبو الطيب المتنبي فاتحته — ونعم الفاتحة والخاتمة — وهو الشاعر الحكيم الفيلسوف أحمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد التنوخي. ولد في المعرة سنة ٣٦٣هـ، وكان أبوه من أهل الأدب، وتولى جده القضاء فيها، وكانت أمه أيضًا من أسرة وجيهة يُعرَفون بآل سبيكة اشتهر منهم غير واحد بالوجاهة والأدب، وكانت المعرة تحت سيطرة الدولة الحمدانية بحلب وأميرها يومئذ سعد الدولة أبو المعالي.

ولم يتم أبو العلاء الثالثة من عمره حتى أصابه الجدري، فذهب بيسرى عينيه وغشي يمناها بياض، فكف بصره وهو طفل، وكان يقول: «لا أعرف من الألوان إلا الأحمر؛ لأني ألبست في الجدري ثوبًا مصبوغًا بالعصفر.» لقَّنَه أبوه النحو واللغة في حداثته، ثم قرأ على جماعة من أهل بلده. ولما أدرك العشرين من عمره عمد إلى سائر علوم اللغة وآدابها فاكتسبها بالمطالعة والاجتهاد، وكان يقيم أناسًا يقرءون له كتبها وأشعار العرب وأخبارهم، وهو قوي الحافظة إلى ما يفوق التصديق.

وكان مطبوعًا على الشعر؛ نظمه قبل أن يتم الحادية عشرة من عمره، ولم يمنعه العمى من مباراة أرباب القرائح في ما اشتغلوا به حتى في ألعابهم، فقد كان يلعب الشطرنج والنرد ويجيد لعبهما لا يرى في العمى نقصًا، بل هو كان يقول: «أحمد الله على العمى كما يحمده غيري على البصر.» وكان يرتزق من وقف يحصل له منه ثلاثون دينارًا في العام ينفق نصفها على من يخدمه.

ورحل في طلب العلم على عاداتهم في ذلك العهد؛ فأتى طرابلس واللاذقية وسواهما من بلاد الشام، وأخذ فلسفة اليونان عن الرهبان، ثم رحل إلى بغداد سنة ٣٩٨ وشهرته قد سبقته إليها فاستقبله علماؤها بالحفاوة، واطَّلع في أثناء إقامته هناك على فلسفة الهنود والفرس فضلًا عن سائر العلوم، حتى إذا نضج عقله وأمعن النظر في الوجود رأى الدنيا كما هي؛ فزهد فيها وعزم على الاعتزال ليتسنَّى له التأمل والتفكير، فغادر بغداد سنة ٤٠٠هـ، وأتى المعرَّة ولزم بيته وسمى نفسه «رهين المحبسين»، وأخذ بالتأليف والنظم وتدوين أفكاره وآرائه ومحفوظه في الكتب، وانقطع عن أكل اللحم من ذلك الحين، واقتصر على النبات كما يفعل النباتيون اليوم؛ اقتبس ذلك من آراء البراهمة الهنود فذهب مذهبهم فيه رفقًا بالحيوان وتجافيًا عن إيلامه، ولزم الصوم الدائم.

قضى أبو العلاء في هذه العزلة بضعًا وأربعين سنة، وأكله العدس، وحلاوته التين، وهو يؤلف وينظم والناس يتوافدون إليه ليسمعوا أقواله وأخباره، أو يكاتبوه في استفهام واستفتاء ويأخذوا عنه العلم مجانًا حتى توفاه الله سنة ٤٤٩.

وكان معدودًا من أقطاب العلم والأدب والشعر، ويمتاز بأنه لم يتكسَّب بشعره.

مؤلفاته

خلَّف مؤلفات في الشعر وفي الأدب، أما أشعاره فأشهرها:

(١) اللزوميات: وهو ديوان كبير طبع في بمباي سنة ١٣٠٣هـ، ثم في مصر سنة ١٨٩٥ في نحو ٩٠٠ صفحة، في صدرها مقدمة في الشعر وشروطه وقوافيه على أسلوبٍ انتقادي يدل على رسوخ قدمه في اللغة والشعر. وذكر ما التزمه في نظم هذا الديوان من الشروط أهمها التزام حرفين في القافية، وقد نظمه في أثناء عزلته وضمَّنه كثيرًا من آرائه في الوجود والخليقة والنفس والدين، فكان له وقع عند أصحاب الفلسفة، فقالوا: «إن أبا العلاء أتى قبل عصره بأجيال.» وتمتاز أشعاره في عزلته بصبغة سوداوية تشفُّ عن سوء ظنه في الحياة ويأسه من أسباب السعادة — لعل سببها اختلال عمل الهضم بتوالي الصوم والاقتصار على نوع أو نوعين من الأطعمة، على أن أكثر أشعاره في الفلسفة والزهد والحكم والوصف، ويندر فيها المدح أو التشبيب، وقد نقل أمين أفندي ريحاني بعض رباعياته إلى الإنكليزية نشرت في أميركا منذ بضع سنين، وترجم بعض شعره أيضًا جورج سلمون إلى اللغة الفرنساوية ونشرها في باريس سنة ١٩٠٤.

(٢) سقط الزند: وهو ديوان آخر نظمه قبل العزلة، طبع مرارًا.

(٣) ضوء السقط: يقتصر على ما نظمه في الدرع، طبع في بيروت سنة ١٨٩٤.

أما الأدب فله فيه مؤلفات عديدة ربما زادت على خمسين كتابًا أكثرها في اللغة والقوافي والنقد والفلسفة والمراسلات، ضاع معظمها، وإليك ما بلغ إلينا خبره منها:

(٤) رسائل أبي العلاء: هي كثيرة لو جمعت كلها لبلغت ثمانمائة كراس، وقد توخى فيها التسجيع والعبارة العالية والكلام الغريب نحو ما يفعلون في إنشاء المقامات فلا تفهم بلا تفسير، وهي من قبيل الشعر المنثور في وصف الخلائق كالنمل والجراد والنسر والفيل والنحل والضفدع والفرس والضبع والحية ونحوها من الحيوانات، غير وصف الأماكن والمواقف والثياب والمآكل وغيرها مما يحسن تحديه لولا ما فيه من اللفظ الغريب، ولكن معظمها ضاع وقد جمع أكثر ما بقي منها في كتاب طبع في بيروت سنة ١٨٩٤ مضبوطًا بالحركات، وطبع أيضًا في أكسفورد سنة ١٨٩٨ بعناية الأستاذ مرجليوث المستشرق الإنكليزي مع ترجمة إنكليزية وتعاليق وشروح تاريخية وأدبية مفيدة، وقد صدَّرها بمقدمة في ترجمة المؤلف بالإنكليزية، وذيَّلها بما ذكره الذهبي من ترجمته وختمها بفهرس للأعلام.

(٥) رسالة الغفران: هي من جملة رسائله، ولكننا أفردناها بالكلام لأنها طبعت على حدة، ولها شأن خاص من حيث موضوعها، وهي فلسفية خيالية كتبها في عزلته وضمَّنها انتقاد شعراء الجاهلية والإسلام وأدبائهم والرواة والنحاة على أسلوب روائي خيالي لم يسبقه إليه أحد، فتخيَّل رجلًا صعد إلى السماء ووصف ما شاهده هناك، كما فعل دانتي شاعر الإيطاليان في «الرواية الإلهية» وما فعل ملتن الإنكليزي في «ضياع الفردوس»، لكن أبا العلاء سبقهما ببضعة قرون؛ لأن دانتي توفي نحو سنة ٧٢٠هـ وملتن نحو سنة ١٠٨٤هـ، وتوفي أبو العلاء سنة ٤٤٩هـ، فلا بدع إذا قلنا باقتباس هذا الفكر عنه، وأقدمهما (دانتي) لم يظهر إلا بعد احتكاك الإفرنج بالمسلمين، والإيطاليان أسبق الإفرنج إلى ذلك. وتقسم مواضيع رسالة الغفران إلى قسمين أدبي لغوي ونوادر خيالية عن بعض الزنادقة ومستقلي الأفكار والمتنبِّئين ونحوهم ممن توالى ظهورهم في أثناء التمدن الإسلامي، ويتخلل ذلك محاورات مع الشعراء الجاهليين يسألون فيها عما غفر لهم به، فيذكر كل منهم شعرًا قاله أو عملًا عمله فغفر له به، ومنها تسمية هذه الرسالة برسالة الغفران، كأنه يعرض بما يرجوه من المغفرة لنفسه عما فرط منه أحيانًا من الأبيات التي يعدها الناس كفرية. وقد طبعت هذه الرسالة بمصر سنة ١٩٠٦، ولخَّصناها في السنة ١٥ من الهلال من صفحة ٢٧٩.

(٦) ملقى السبيل: هي رسالة فلسفية نشرتها مجلة المقتبس سنة ٧ ج١ عن أصل خطي قديم وجد في الإسكوريال بعناية ح. ح. عبد الوهاب التونسي، وهي على نسق رسائله الأخرى، لكن أكثرها منظوم. وقد قابل الناشر بين آراء المعري فيها وآراء شوبنهور الفيلسوف الألماني من حيث الحياة ومصيرها. وطبعها على حدة سنة ١٩١٢.

(٧) كتاب الأيك والغصون، ويعرف باسم الهمزة والردف: يبحث في الأدب وأخبار العرب، يقارب مائة جزء ضاع منذ بضعة قرون، وإنما ذكرناه لعل أحدًا يعثر على شيء منه؛ إذ يظهر أنه عظيم الأهمية؛ فقد قال فيه الذهبي: «حكى من وقف على المجلد الأول بعد المائة من كتاب الهمزة والردف فقال: لا أعلم ما كان يعوزه بعد هذا المجلد.»

وعني أبو العلاء بشرح كتب هامة أو اختصارها مرَّ ذكر بعضها، منها شرح الحماسة، منه نسخة خطية في المكتبة الخديوية في ٤٤٢ صفحة، وهو شرح لغوي.

وكان مشاركًا في كثير من علوم الأقدمين كالفلسفة والكيمياء والنجوم والمنطق، ويظهر أثر ذلك في أشعاره وأقواله، ولو أردنا الإتيان بأمثلة منها لضاق بنا المقام، ودواوينه شائعة فميَّزناه بخلو ترجمته من الأمثلة الشعرية كما ميَّزنا المتنبي قبله، وقد

تقدم ذكر شيء من شعره في كلامنا عن مزايا الشعر في هذا العصر وغيره، وسنأتي بأمثلة أخرى في أمكنة أخرى.

مناقبه ومنزلته

ويقال بالإجمال: إن الشعر العربي دخل بعد المعري في طور جديد من حيث النظر في الطبيعة والتفكير في الخلق والحكمة الاجتماعية، فانتقل الشعر على يده من الخيال إلى الحقيقة، واختلف الناس في مناقب أبي العلاء وأخلاقه واعتقاده، وله فلسفة خاصة في الدين والطبيعة والخليقة، وهو أقرب من هذا القبيل إلى مذهب اللا أدريين، ويعتقد التقمص وخلود المادة وأن الفضاء لا نهاية له، وكان يقبح الزواج ويعدُّ تخليف الأولاد جناية. وكان يرى المرأة لا ينبغي لها أن تتعلم غير الغزل والنسج وخدمة المنزل، وكان من القائلين بالرفق بالحيوان؛ فقضى النصف الأخير من عمره لم يذق لحمًا، وله أقوال في هذا الموضوع سبق بها أصحاب الرفق بالحيوان اليوم عدة قرون، وعثر له الأستاذ مرجليوث على رسالة في هذا الموضوع جزيلة الفائدة، نشرها في المجلة الآسيوية الإنكليزية ولخَّصْناها في الهلال سنة ١٥ ج٤.

وقد اتَّهَمَه بعضهم بالكفر، وكانوا يتَّهِمون به كل حر الضمير مستقل الفكر في تلك الأيام، مع أن اعترافه بالخالق ووحدانيته ظاهر في كثير من أشعاره، لكنه لم يكن يرى الاعتقاد بالتسليم بل التفكير، وكانت حقيقة الدين عنده أن يعمل الإنسان خيرًا لا أن يكثر من الصلاة والصوم؛ ولذلك كان شديد الوطأة على الفقهاء الذين يتظاهرون بالدين للارتزاق، وقد فصَّلنا ذلك وأيَّدْناه بالأمثلة من أشعاره وأقواله في السنة الخامسة عشرة من الهلال من صفحة ١٩٥.

وتجد ترجمته في السنة المذكورة من الهلال وفي ابن خلكان ٣٣ ج١، وطبقات الأدباء ٤٢٥، ومعجم الأدباء ١٦٢ ج١، وفي ذيل رسائله المطبوعة بأكسفورد.

سائر الشعراء

وهناك طائفة كبيرة من الشعراء يضيق المقام عن ذكرهم لكثرتهم، فمن أحب الاطلاع على تراجمهم وأخبارهم فعليه بكتاب يتيمة الدهر للثعالبي ودمية القصر للباخرزي

ومعجم الأدباء لياقوت الحموي وتاريخ ابن خلكان وسائر كتب التراجم، وإنما نشير هنا إلى بضعة شعراء امتاز كل منهم بضرب من الشعر وهم:

- أبو الرقعمق كان مداحًا: ترجمته في يتيمة الدهر ٢٣٨ ج١، وابن خلكان ٤٠ ج١.
- الواساني كان هجَّاءً: ترجمته في اليتيمة ٢٦١ ج١.
- أبو عبد الله الحسن بن حجاج كان مجَّانًا: اليتيمة ٢١١ ج٢.
- ابن سكرة الهاشمي من ولد علي بن المهدي بن المنصور الخليفة العباسي، جال في ميدان المجون والسخف ما أراد، وكانوا يشبهونه مع ابن الحجاج بجرير والفرزدق، ويربو ديوان ابن سكرة على ٥٠٠٠٠ بيت منها ١٠٠٠٠ بيت في جارية سوداء اسمها خمرة، وكانت عرضة نوادره وملحه كطيلسان ابن حرب ولم نقف على ديوانه، ترجمته في اليتيمة ١٨٨ ج٢، وابن خلكان ٥٢٦ ج١.
- ابن زريق: ولا يصح الإغضاء عن أبي الحسن علي بن زريق الكاتب البغدادي صاحب القصيدة التي قالها في حال غمه وبأسه، بعد أن قصد صاحب الأندلس ومدحه فلم يعطه إلا عطاءً قليلًا فاعتلَّ غمًّا ومات، وذكروا أن صاحب الأندلس إنما أراد أن يختبره فلما كان بعد أيام سأل عنه، فتفقدوه في الخان الذي كان فيه فوجدوه ميتًا وعند رأسه رقعة فيها القصيدة المشار إليها ومطلعها:

لا تعذليه فإن العذل يولعه   قد قلتِ حقًّا ولكن ليس يسمعُهُ

وهي منشورة في الكشكول وغيره من كتب الأدب، ولها شروح وتخاميس، وقد تقدم أن الثعالبي ذكر بعضها للوأواء الدمشقي، وقد شرحها علي بن عبد الله العلوي، وخمَّسها علي بن ناصر الباعوني، ومن الشرح والتخميس نسخة في برلين.

هوامش

(١) ابن خلدون ٥١٩ ج١.
(٢) تجد ترجمة علي بن عبد العزيز في يتيمة الدهر ٢٣٨ ج٣.
(٣) يتيمة الدهر ٨٧ ج١.

الإنشاء والترسل

تمكَّنت الحضارة من أسلوب الترسل في هذا العصر — ونعني بالترسل إنشاء المراسلات على الخصوص. «ويريدون به معرفة أحوال الكاتب والمكتوب إليه من حيث الأدب والمصطلحات الخاصة الملائمة لكل طائفة.» وهو الذي يتغيَّر مع الأعصر كما بيَّنَّا ذلك في كلامنا عن الإنشاء في العصر الماضي، ويشتمل على المراسلات والخطب ومقدمات الكتب؛ لأن أساليبها متشابهة، أما إنشاء الكتب، أي عبارة المؤلفات التاريخية والعلمية التي يراد بها تقرير الحقائق بغير إرهاب أو تهديد أو تنبيه أو تحريض فهذه قلَّمَا يعتورِهُا تغيير؛ لأن تقرير الحقائق العلمية أو التاريخية قلَّمَا تؤثِّر فيه الانفعالات النفسية؛ فهو أقل مجاراة للأحوال الاجتماعية؛ ولذلك رأيت عبارة البلغاء من المؤلِّفين متشابهة يندر الاختلاف فيها — إلا في ما يختص بنفس الكاتب وأسلوب تفكيره وموضوع كتابه؛ إذ إن لكل كاتب طريقة يعبرون عنها بالذوق، ولكل فن مصطلحات خاصة تجعل للكتابة فيه نسقًا خاصًّا. فعبارة الفقيه تختلف عن عبارة المؤرخ، وهذه تختلف عن عبارة الحكيم أو الرياضي، وقد يختلف أسلوب المؤلف الواحد باختلاف الموضوع الذي يكتب فيه، ولكنها ترجع كلها إلى أسلوب خاص يختلف عن أسلوب الترسل.

والكاتب في المواضيع العلمية لا يزال على أسلوب المؤلفين المتناسق المرسل، حتى يقتضي الموضوع مخاطبة القارئ فينتقل إلى أسلوب الترسل بالتسجيع أو نحوه حسب العصور، فإذا فرغ من الخطاب عاد إلى الإنشاء المرسل البسيط — إلا طائفة من المؤلفين أرادوا زيادة التأنُّق في مؤلفاتهم، فجعلوا عباراتها كلها مسجعة، وذلك نادر، وسنعود إلى الكلام فيه.

(١) أسلوب الترسل

لما كان المراد بالمراسلات والخطب التعبير عن العواطف والأميال وسائر الأحوال، وهذه تختلف في الناس باختلاف آدابهم الاجتماعية وأحوالهم الأدبية، وهي تتغير بتغيُّر الأحوال. كان الترسل أكثر تعرضًا للتغيير في أسلوبه وعبارته، وهو ما نريد بيانه هنا.

يغلب أن يكون لكل عصر إمام في إنشاء المراسلات يتحدَّاه معاصروه، كذلك كان عبد الحميد وابن المقفع في العصر العباسي الأول، والجاحظ في العصر الثاني، وأما إمام الإنشاء في هذا العصر، فهو ابن العميد لأسباب سنبيِّنها في ترجمة حاله. وقد رأيت ما أصاب هذا الإنشاء في العصر الماضي على يد الجاحظ وأصحابه من تقطيع العبارة، وإدخال الدعاء فيها بصيغة المخاطب بغير اشتراط السجع أو التقفية، وعلمت ما يمتاز به هذا العصر من التوسُّع بأسباب الحضارة والترف، نعني ما صار إليه الأدباء والمنشئون من التبسُّط في العيش عن سعة ورخاء، لا يخافون مزاحمةً أو فقرًا لتعدد مصادر الارتزاق في دور الأمراء والوزراء والخلفاء، فإذا خافوا سبقًا في بلاط نزحوا إلى سواه، والرخاء يدعو إلى التأنُّق، فتطرَّق ذلك إلى إنشائهم، فصاروا يتأنَّقون فيه كما يتأنَّقون بلباسهم وطعامهم وأثاثهم، فأطالوا العبارة وتوسعوا في التنميق، ونبغ جماعة من أصحاب القرائح تساعدوا على ذلك حتى صار للإنشاء في هذا العصر طريقة اتخذها أهل العصور التالية نموذجًا نسجوا على منواله، وهي الطريقة المدرسية في اصطلاح الإفرنج (كلاسيك)، وبعبارة أخرى إن الطريقة المدرسية للترسل العربي نضجت في هذا العصر كما نضج الإنشاء الروماني في عصر شيشرون ثم أخذ في التقهقر، وهكذا أصاب الإنشاء العربي بعد هذا العصر كما ستراه في مكانه. وللطريقة المدرسية في الإنشاء العربي شروط هاك أهمها:

(١-١) شروط الطريقة المدرسية في الإنشاء العربي

(١) السجع: أصبح التسجيع شرطًا من شروط الترسل، وهو من ثمار التأنُّق لما يقتضيه من العناية في إتقانه، فالرسالة المسجعة يظهر التأنق فيها أكثر من غير المسجَّعة، وتدل من جهة أخرى على تفرُّع صاحبها للتنميق، ولا يكون ذلك إلا في الرخاء. والسجع إذا أُتقنت صياغته أكسب المعنى قوة، وقد أتقنه بلغاء العصر الثالث فرغب الناس فيه وتسابقوا إليه، لكن بعض معاصريهم من أدعياء هذا الفن كلفوا به عن غير مقدرة عليه فجاء باردًا، ومما يروى من هذا القبيل وفيه فكاهة أن الخاقاني الوزير كان

يحب السجع حتى استخدمه في التوقيع على كتب العمال، فوقَّع مرة: «الزم — وفقك الله — المنهاج، واحذر عواقب الاعوجاج، واحمل ما أمكن من الدجاج إن شاء الله.» فحمل العامل دجاجًا كثيرًا على سبيل الهدية، فقال: «هذا دجاج وفرته بركة السجع.» وأمر أن يباع ويورد ثمنه في الحساب فأورد منسوبًا إلى ثمن دجاج السجع.

(٢) الجناس والبديع: وأكثروا من الجناس وهو من قبيل الترصيع للآنية أو الوشي للثوب. لا يزيد الوشي الثوب نفعًا للابسه من حيث الغرض المراد منه كالدفء والستر، ولكنه يزيده جمالًا، والجناس أو البديع لا يزيد العبارة معنًى لكنه يكسبها رونقًا، ولا سيما مع السجع، فقول أبي بكر الخوارزمي في كتابه إلى نائب الوزير ابن عباد: «كتبت إلى الأستاذ معاتبًا مرة، ومستعتبًا كرة، فما وجدت للعتاب أعتابًا، ولا قرأت من الكتاب جوابًا، وليت شعري ما الذي منعه عن صلة لا تضره وتنفعني، وعن تواضع لا يضعه ويرفعني؟» لو جعله مرسلًا بسيطًا لم يكن له ذلك الوقع في النفس.

(٣) كثر فيه الخيال الشعري حتى أصبح سجعهم كالشعر المنثور، لكنه مقفًّى فلا يعوزه غير الوزن ليصير شعرًا.

(٤) كثر تضمين مراسلاتهم الأمثال أو النكت الأدبية أو العبارات التاريخية أو العلمية التي تحتاج إلى شرح، كقول ابن العميد في رسالة إلى أبي العلاء السروي:

> وأحمد الله على كل حال، وأساله أن يعرِّفني فضل بركته، ويلقيني الخير في باقي أيامه وخاتمته، وأرغب إليه في أن يقرب على القمر دوره ويقصر سيره، ويخفف حركته، ويعجل نهضته، وينقص مسافة فلكه ودائرته، ويزيل بركة الطول من ساعاته، ويرد عليَّ غرة شوال فهي أسرُّ الغرر عندي وأقرُّها لعيني، ويسمعني النعرة في قفا شهر رمضان، ويعرض عليَّ هلاله أخفى من السر، وأظلم من الكفر، وأنحف من مجنون بني عامر، وأضنى من قيس بن ذريح، وأبلى من أسير الهجر، ويسلط عليه الحور بعد الكور، ويرسل علي رقاقته التي يغشى العيون ضوءُها، ويحط من الأجسام نوءُها كلفًا يغمرها وكسوفًا يسترها ... إلخ.

(٥) أكثروا فيه من الاستشهاد بالأشعار في أثناء مراسلاتهم، وهو ترصيع جميل يزيد المعنى طلاوة ووضوحًا، ويكسبه قوة على إبداء ما في خاطر الكاتب. وقد بالغ بعضهم في ذلك الترصيع حتى أصبح الشعر فيه أكثر من النثر، كقول الصاحب بن عباد يصف فصلًا من كتب ابن العميد قال: «فصل رأيته فصيح الإشارة لطيف العبارة:

إذا اختصر المعنى فشربة حائمٍ وإن رام إسهابًا أتى الفيض بالمد

فصل قد نظرته فرأيته جسمًا معتدلًا وفهمًا مشتعلًا:

ونفسًا تفيض كفيض الغمامِ وظرفًا يناسب صفو المدامِ

فصل قد عمهم بنعمه وغمرهم بشيمه:

وغزاهمُ بسوابغٍ من فضله جعلت جماجمهم بطائن نعله.» إلخ.

وتفنن آخرون بجعل الترصيع شطرًا كقول الهمذاني من رسالة إلى الخوارزمي:

أنا لقرب دار الأستاذ كما طرب النشوان مالت به الخمر
ومن الارتياح للقائه كما انتفض العصفور بلله القطرُ
ومن الامتزاج بولائه كما التقت الصهباء والبارد العذبُ
ومن الابتهاج بمزاره كما اهتز البارح الغصن الرطبُ

(٦) صار للرسائل نمط خاص تراه ممثلًا في رسائل أبي بكر الخوارزمي وأبي منصور الثعالبي وأمثالهما من كُتَّاب ذلك العصر، فالرسالة تبدأ غالبًا بمخاطبة المرسل إليه بلقبه أو نعته بعد الإشارة إلى كتابه، ويتلو ذلك مخاطبته بصيغة الغائب كقولهم: «ورد كتاب الأمير يأمرني فيه بكذا وكذا … إلخ.» وقولهم: «قد حملت إلى حضرة الشيخ أبياتًا عاتبته بها.» وهو يريد الشيخ المخاطب. وقد يأتي اللقب مشفوعًا بالدعاء بصيغة الغائب أيضًا كقول أبي بكر الخوارزمي في كتاب إلى محمد بن إبراهيم صاحب الجيش، وكان محبوسًا وخرج من الحبس: «كتبت أيد الله صاحب الجيش، وقد خرجت من تلك

الأهوال خروج المشرفي من الصقال ... إلخ.» وقد يجعلون الخطاب بصيغة المخاطب في بعض الأحوال.

(٧) تفرع الترسل إلى أبواب عملًا بسنة النشوء كما تفرَّع الشعر، فصارت الرسائل تقسم إلى رسائل التهنئة والتعزية والمديح والرثاء وإلى الإخوانيات والسلطانيات ونحو ذلك.

(٨) تمتاز مقدمات الكتب أو خطبها بتقديم الحمدلة والصلاة على النبي، وتختم بآية يحسن الختام بها كقولهم: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، أو بالحسبلة ونحوها.

(٩) اختصاص كل طبقة من الوجهاء ورجال الدولة بنعوت خاصة بها، فإن تفاوت رجال الدولة بالمنزلة والنفوذ اقتضى أن تتفاوت أساليب مخاطباتهم، واستقر ذلك على وجه معين في العصر العباسي الثالث، فأصبح عندهم لكل طبقة من رجال الدولة نعوت تفتتح بها مخاطباتهم وعبارات تعنون بها كتبهم وأدعية يدعون بها لهم، كقولهم في مخاطبة أولاد الخليفة في زمن المقتدر بالله: «أطال الله بقاء الأمير.» ولمؤنس المظفر: «أطال الله بقاءك وأعزك وأكرمك وأتمَّ نعمته وإحسانه إليك.» والعنوان «لأبي الحسن أطال الله بقاءه.» ولصاحب اليمن ونحوه: «أكرمك الله ومدَّ في عمرك وأتم نعمته عليك وأدامها لك.» وقس عليه.

(١٠) صار الإنشاء فنًّا له ألفاظ خاصة سموها الألفاظ الكتابية لا يتجاوزونها إلى سواها، وتولَّدت فيه مصطلحات خاصة لأساليبه وعباراته كالتسجيع والترصيع والتضريس والتبديل والمكافأة والاستعارة والتتميم والتقسيم والإرداف والتمثيل والمعاظلة والتكرير وغيرها، ولكل منها غرض في الإنشاء.

هذه أهم شروط الإنشاء في العصر العباسي الثالث، وقد سميناها الطريقة المدرسية؛ لأنها صارت مثالًا توخَّاه الكتاب في سائر العصور الإسلامية، وقد طرأ عليها تغيير اقتضاه حال الاجتماع سنذكره في مكانه.

ومما لا بد من التنبيه إليه أن ما يجري عليه الكتاب من تحدي القدماء في مذاهبهم وتقليد أساليبهم لاعتقادهم أن ملكة الإنشاء إنما ترسخ بمطالعة كتب القدماء وأشعارهم بعث على تعدد الأساليب في العصر الواحد، فينبغ في العصر الثالث مثلًا كتاب يتحدون أسلوب الجاحظ، وآخرون يقلِّدون أسلوب المقفع أو عبد الحميد أو أسلوب صدر الإسلام، ويصدق ذلك على سائر العصور، ولكن يغلب في أهل العصر الواحد أن يخضعوا لما تقتضيه المجاري الاجتماعية؛ فيكون لإنشائهم صبغة خاصة به.

(٢) المنشئون أو المترسلون

تكاثر المنشئون في هذا العصر مثل تكاثُر الشعراء، واشتهر بعضهم بالصناعتين جميعًا حتى لقد تتولَّاك الحيرة في جعل أحدهم من الكُتَّاب أو من الشعراء، واشتهر من المترسِّلين في العصر طائفة من الوزراء والكبراء ورجال الدولة شرفت بهم الصناعة، وارتفعت قيمتها؛ لأنهم كانوا عمدتها ووجوه كُتَّابها، بل هم أقوى أركان تلك النهضة في النظم والنثر وسائر أسباب العلم والأدب، وإليك أشهرهم حسب سني الوفاة:

(٢-١) ابن العميد (توفي سنة ٣٦٠هـ)

هو أبو الفضل محمد بن العميد، والعميد لقب والده على عادة أهل خراسان في إجرائه مجرى التعظيم. وكان ابن العميد وزير ركن الدولة الحسن بن بويه والد عضد الدولة. تولى الوزارة سنة ٣٢٨هـ، وكان متوسعًا في الفلسفة والنجوم فضلًا عن الأدب والترسل حتى سموه «الأستاذ»، وكان يلقب لبراعته في الترسل بالجاحظ الثاني. وقيل: بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد. وكان الصاحب بن عباد من بعض أتباعه كما سيجيء. وعاد الصاحب مرة من بغداد فسأله ابن العميد عنها فقال: «بغداد في البلاد كالأستاذ في العباد.» يشير إلى تفرده في العلم، وهو أسبق المنشئين إلى أسلوب ذلك العصر، وقد أجاد فيه فقلدوه ونسجوا على منواله، وساعد على شيوع طريقته رفعة منزلته وعلو كعبه في العلم. وكثيرًا ما رأينا الوجاهة من جملة أسباب الشهرة العلمية، فهي لا تجعل الجاهل مشهورًا بالعلم لكنها تجعل قليل العلم أن يشتهر بكثرته، وأخذ الصاحب بن عباد عن ابن العميد، وكان الصاحب مركزًا يدور حوله أدباء ذلك العصر فساعد ذلك على نشر تلك الطريقة.

ويدل على مناقب ابن العميد ويمثل منزلة الأدباء في ذلك العصر حادثة جرت له من ابن نباتة السعدي، وقد مدحه بقصيدة فتأخَّرت صلته فشفَّعها بأخرى وأتبعها برقعة فلم يزده ابن العميد على الإهمال مع رقة حاله التي ورد عليها إلى بابه، فتوصل إلى أن دخل عليه يومًا وهو في مجلس حفل بأعيان الدولة ومقدمي أرباب الديوان، فوقف بين يديه وأشار إليه بيده وقال: «أيها الرئيس، إني لزمتك لزوم الظل، وذللت لك ذل النعل، وأكلت النوى المحرق انتظارًا لصلتك، والله ما بي من الحرمان ولكن شماتة الأعداء وهم قوم نصحوني فأغششتهم، وصدقوني فاتهمتهم، فبأي وجه ألقاهم وبأي حجة أقاومهم،

ولم أحصل من مديح بعد مديح ومن نثر بعد نظم إلا على ندم مؤلم وبأس مسقم، فإن كان للنجاح علامة فأين هي؟ وما هي إلا أن الذين نحسدهم على ما مدحوا به كانوا من طينتك وأن الذين هجوا كانوا مثلك، فزاحم بمنكبك أعظمهم شأنًا وأنورهم شعاعًا وأمدهم باعًا وأشرفهم بقاعًا.»

فحار رشد ابن العميد ولم يدر ما يقول، فأطرق ساعة ثم رفع رأسه وقال: «هذا وقت يضيق عن الإطالة منك في الاستزادة وعن الإطالة مني في المعذرة، وإذا تواهبنا ما دفعنا إليه استأنفنا ما نتحامد عليه.» فقال ابن نباتة: «أيها الرئيس هذه نفثة مصدور منذ زمان وفضلة لسان قد خرص منذ دهر، والغني إذا مطل لئيم.»

فاستشاط ابن العميد غضبًا وقال: «والله ما استوجب هذا العتب من أحد من خلق الله تعالى، ولست ولي نعمتي فأحتملك ولا صنيعتي فأغضي عليك، وإن بعض ما قررته في مسامعي ينغص مرة الحلم ويبدد شمل الصبر، هذا وما استقدمتك بكتاب ولا استدعيتك برسول ولا سألتك مدحي ولا كلَّفتك تقريضي.» فقال ابن نباتة: «صدقت أيها الرئيس ما استقدمتني بكتاب ولا استدعيتني برسول، ولا سألتني مدحك ولا كلفتني تقريضك، ولكن جلست في صدر ديوانك بأبهتك وقلت: لا يخاطبني أحد إلا بالرئاسة ولا ينازعني خلق في أحكام السياسة، فإني كاتب ركن الدولة وزعيم الأولياء والحضرة والقيِّم بمصالح المملكة، فكأنك دعوتني بلسان الحال ولم تدعني بلسان المقال.»

فثار ابن العميد مغضبًا وأسرع في صحن داره إلى أن دخل حجرته، وتقوض المجلس وماج الناس وسمع ابن نباتة وهو في صحن الدار مارًّا يقول: «والله إن سف التراب والمشي على الجمر أهون من هذا، فلعن الله الأدب إذا كان بائعه مهينًا ومشتريه مماكسًا فيه.»

فلما سكن غيظ ابن العميد وثاب إليه حلمه التمسه من الغد ليعتذر إليه ويزيل آثار ما كان منه، فكأنما غاض في سمع الأرض وبصرها ولم يقف على مكانه، فكانت حسرة في قلب ابن العميد إلى أن مات، ونسب بعضهم هذه الحادثة إلى شاعر آخر غير ابن نباتة.

وكان ابن العميد يقرب أهل الأدب والشعر، فحام حوله طائفة منهم امتدحوه كالمتنبي وابن نباتة والصاحب بن عباد وغيرهم، كانوا يجتمعون في مجلسه فيقترح عليهم النظم والمقارضة؛ وهي أن يقول أحدهم شعرًا أو بيتًا في وصف شيء أو حادثة فيتمه الآخر فالآخر.

وكان ابن العميد شاعرًا رقيقًا من أحسن شعره قصيدة قالها منها:

قد ذبت غير حشاشة ودماءِ ما بين حر هوى وحر هواءِ

إلى أن قال وفيه مبالغة:

لا تغتنم إغضاءتي فلعلها كالعين تغضيها على الأقذاءِ
واستبق بعض حشاشتي فلعلني يومًا أقيك بها من الأسواءِ
فلوَ انَّ ما أبقيت من جسمي قذًى في العين لم يمنع من الإغفاءِ

ومن قوله في الغزل:

ظلت تظللني من الشمسِ نفس أعز علي من نفسي
فأقول: وا عجبًا ومن عجبٍ شمس تظللني من الشمسِ

ترى أمثلة من ترسله ونظمه في يتيمة الدهر الجزء الثالث، ولم يصلنا منه رسائل مجموعة ولا شعر على حدة.

واشتهر ابنه أبو الفتح ذو الكفايتين بعده بمثل شهرته.

وتجد أخبار ابن العميد في ابن خلكان ٥٧ ج٢، ويتيمة الدهر ٢ ج٣.

(٢-٢) أبو بكر الخوارزمي (توفي سنة ٣٨٣هـ)

هو أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي الكاتب الشاعر، ويقال له أيضًا: الطبرخزي؛ لأن أباه من خوارزم وأمه من طبرستان، وهو ابن أخت محمد بن جرير الطبري صاحب التاريخ. وكان الخوارزمي إمامًا في اللغة والنسب، أقام بالشام مدة وسكن نواحي حلب، وكان يشار إليه في عصره، وقصد الصاحب بن عباد وهو في أرجان وجالسه وباسطه، واشتهر بكثرة حفظه للأشعار، ويحكى أنه لما جاء إلى الصاحب استأذن عليه بدون أن يذكر اسمه، فدخل عليه الحاجب وأعلمه فقال الصاحب: «قل له: قد ألزمت نفسي أن لا يدخل علي من الأدباء إلا من يحفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب.» فخرج إليه الحاجب وأعلمه بذلك، فقال له أبو بكر: «ارجع وقل له: هذا القدر من شعر الرجال أم

من شعر النساء؟» فدخل الحاجب فأعاد عليه، فقال: «هذا يكون أبا بكر الخوارزمي» فأذن له في الدخول.

لم يصل إلينا من آثار أبي بكر الخوارزمي إلا مجموعة رسائل تعرف باسمه، وهي مطبوعة في مصر وفي الآستانة سنة ١٢٩٧، وفي بومباي سنة ١٣٠١ وغيرها، ومنها نسخ خطية في برلين وفينا وليدن وكوبرلي، وفي الجزء الرابع من يتيمة الدهر أمثلة كثيرة من نثره ونظمه، وفيه طائفة حسنة من المدائح والمراثي والأهاجي وطرق مختلفة، وهو غير محمد بن موسى الخوارزمي الفلكي الرياضي المعاصر للمأمون (ترجمته في ابن القفطي ١٨٧، والفهرست ٢٧٤)، وغير أبي عبد الله محمد بن أحمد الخوارزمي صاحب مفاتيح العلوم المتقدم ذكره.

أما أبو بكر هذا فترجمته في ابن خلكان ٥٢٣ ج١، ويتيمة الدهر ١١٤ ج٤.

(٢-٣) أبو إسحاق الصابي (توفي سنة ٣٤٨هـ)

هو أبو إسحاق إبراهيم بن هلال بن زهرون بن حبون الحزاني الصابي جد أبي الحسن هلال الصابي صاحب التاريخ، كان أبو إسحاق كاتب الإنشاء في بغداد عن الخليفة، وعن عز الدولة بختيار بن معز الدولة بن بويه، وتقلَّد ديوان الرسائل سنة ٣٤٩، وكانت تصدر عنه مكاتبات إلى عضد الدولة بن بويه بما يؤلمه فحقد عليه، فلما قتل عز الدولة وملك عضد الدولة بغداد اعتقله سنة ٣٦٧هـ، وعزم على إلقائه تحت أيدي الفيلة فشفعوا فيه، ثم أطلقه سنة ٣٧١، وكان قد أمره أن يصنف كتابًا في أخبار الدولة الديلمية، فعمل كتاب «التاجي» فقيل لعضد الدولة: إن صديقًا للصابي دخل عليه فرآه في شغل شاغل من التعليق والتسويد والتبييض فسأله عما يعمل فقال: «أباطيل أنمقها وأكاذيب ألفِّقها.» فهاج حقده عليه ولم يزل الصابي مبعدًا في أيامه.

وكان أبو إسحاق على مذهب الصابئة، ويدل على ذلك اسمه. وكان عزُّ الدولة يحرضه على الإسلام فلم يفعل، لكنه كان يصوم رمضان مع المسلمين، ويحفظ القرآن، ويقتبس منه. وكانت له صداقة مع الشريف الرضي المتقدم ذكره، فلما توفي أبو إسحاق رثاه بالقصيدة التي ذكرنا مطلعها وخبرها في ترجمة الشريف، وكان الصابي عالمًا بالهندسة، لكن غلبت عليه صناعة الإنشاء، ومما بلغنا من إنشائه:

(١) منشآت الصابي: في المكاتبة الخديوية نسخة خطية بهذا الاسم تدخل في ٤٥٤ صفحة تشتمل على مراسلات كتبها الصابي على لسان ولاة الأمر في عصره من ملوك آل

بويه والخلفاء وغيرهم، وهي كالمخابرات الرسمية في وصف الوقائع الحربية أو غيرها، منها رسالة كتبها إلى ركن الدولة سنة ٣٦٤هـ، شرح فيها فتح بغداد وانهزام الأتراك منها ووصف الخلاف، ورسالة على لسان عز الدولة إلى عضد الدولة، جواب كتاب بفتح جبال القفص (بين فارس وكرمان)، وقهر البلوص (جيل من الأكراد)، ورسائل أخرى عن حروب بين البويهيين والحمدانيين وغيرهم، وكلها تشتمل على حقائق تاريخية رسمية تفسر بعض ما التبس من تاريخ ذلك العصر، وفيها صور عهود أو تقليدات رسمية للولاة أو العمال أو القضاة صادرة من الخليفة، كالعهد الذي قلَّده الطائع لله العباسي أبا الحسن علي بن ركن الدولة على الصلاة وأعمال الحرب يدخل في بضع عشرة صفحة، وفيه أمور هامة عن أحوال السياسة والإدارة والاجتماع مما لا يتيسَّر الوقوف عليه في كتب التاريخ، ونسخة عهد إلى قاضي القضاة، وغيرها إلى القواد أو الفقهاء أو أمراء الحج، ومنشورات بعثت إلى الأهلين أو العمال أو القرامطة، فضلًا عن رسائل خصوصية كتبها الصابي إلى أصدقائه. وبالجملة إن هذه المنشآت خزانة أدب وتاريخ وسياسة، وعبارتها بليغة متينة، بل هي من أبلغ ما كتب في ذلك العصر.

(٢) رسائل الصابي: تقسم إلى أبواب في المراسلات والشفاعات والمعاتبات، وما أنفذ إلى العمال والمنصرفين والنواحي، وهي غير منشآته المتقدم ذكرها وإن كانت تشبهها في أكثر موادها، فإن فيها كثيرًا من الرسائل الودية، فضلًا عن المخابرات السياسية والتقاليد الرسمية والمناشير ونحوها، وفيها فوائد تاريخية واجتماعية هامة، منها نسخة خطية في ليدن وفي المكتبة الخديوية وجزء في باريس، وطبع بعضها في بيروت.

أما التاجي فلم يصلنا منه شيء.

وتجد ترجمته في ابن خلكان ١٢ ج١، ويتيمة الدهر ٢٣ ج٢، ومعجم الأدباء ٣٢٤ ج١، والفهرست ١٣٤.

(٢-٤) الصاحب بن عباد (توفي سنة ٣٨٥هـ)

هو أبو القاسم إسماعيل بن عباد بن العباس الطالقاني. وقد تقدمت الإشارة إلى منزلته من الوجاهة وتأثيره في تلك الحركة الأدبية، وكان أديبًا منشئًا وعالمًا في اللغة وغيرها. أخذ عن أحمد بن فارس اللغوي الآتي ذكره وعن ابن العميد، وهو أول من لقب بالصاحب من الوزراء؛ لأنه كان يصحب ابن العميد، فقيل له: صاحب ابن العميد، ثم أطلق عليه

هذا اللقب لما تولى الوزارة وبقي علمًا عليه، وسمي به كل من ولي الوزارة بعده، وقد وزر أولًا لمؤيد الدولة بن ركن الدولة بن بويه بعد ابن العميد، فلما توفي مؤيد الدولة تولى مكانه أخوه فخر الدولة، فأقَرَّ الصاحب على وزارته، وكان مبجلًا عنده نافذ الأمر. وكان مجلسه بؤرة الأدباء والشعراء يمدحونه أو يتناقشون أو يتقارضون بين يديه. وذاعت شهرته في ذلك العصر حتى أصبح موضوع إعجاب القوم يتسابقون إلى إطرائه، ونظمت القصائد في مدحه. وكتب إليه نوح بن منصور الساماني يستقدمه إليه فاعتذر، وقد بلغ من رفعة القدر حتى إنه لما توفي سنة ٣٨٥هـ أغلقت له مدينة الري أبوابها، واجتمع الناس على باب قصره ينتظرون جنازته، وحضر مخدومه فخر الدولة المذكور أولًا وسائر القواد وقد غيروا لباسهم، فلما خرج نعشه من الباب صاح الناس بأجمعهم صيحة واحدة وقبلوا الأرض، ومشى فخر الدولة أمام الجنازة مع الناس وقعد للعزاء أيامًا، ورثاه أبو سعيد الرستمي بقوله:

أبعد ابن عباد يهش إلى السرى ... أخو أمل أو يستماح جوادُ
أبى الله إلا أن يموتا بموته ... فما لهما حتى المعاد معادُ

وكان شاعرًا مترسلًا مع ولع شديد بالسجع حتى في الكلام فضلًا عن الكتابة. وقيل فيه: «إنه لو رأى سجعة تنحلُّ بموقعها عروة الملك، ويضطرب بها حبل الدولة لما هان عليه التخلي عنها.» وكان يتثنى ويتلوى ويتهادى. وفي يتيمة الدهر أمثلة من نظمه ونثره فضلًا عن معرفته اللغة؛ فإنه ألَّف معجمًا سماه المحيط سيأتي ذكره مع المعاجم، وألَّف له ابن فارس كتاب الصاحبي الآتي ذكره، وساعده منصبه السياسي على الشهرة العلمية، وله في الرسائل كتاب الكافي منه منتخبات خطية في مكتبة باريس، وقصيدتان من شعره في برلين، وله ديوان في مكتبة أيا صوفيا بالآستانة.

وترجمته في ابن خلكان ٧٥ ج١، وطبقات الأدباء ٣٩٧، ويتيمة الدهر ٣١ ج٣، ومعجم الأدباء ٢٧٣ ج٢، والفهرست ١٣٥، ويتيمة الدهر ١٥٧ ج٤.

(٢-٥) بديع الزمان الهمذاني (توفي سنة ٣٩٨هـ)

هو أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد الهمذاني الحافظ، المعروف ببديع الزمان. كان يقيم في هراة بأفغانستان، وكان شاعرًا وكاتبًا ولغويًّا، واشتهر على الخصوص بقوة الحافظة. كان يسمع القصيدة التي لم يسمعها قط وهي أكثر من خمسين بيتًا فيحفظها كلها ويؤديها من أولها إلى آخرها لا يخرم حرفًا ولا يخل معنى، وينظر في الأربعة والخمسة الأوراق من كتاب لم يعرفه نظرة واحدة خفيفة، ثم يتلوها عن ظهر قلبه.

وكان سريع الخاطر قويَّ البديهة يقترح عليه نظم القصيدة أو إنشاء الرسالة، فيفرغ منها في الوقت والساعة، وربما يكتب الكتاب المقترح عليه فيبتدئ بآخر سطر منه وهلم جرًّا إلى الأول، وله من المؤلفات:

(١) رسائل مجموعة في كتاب يعرف برسائل بديع الزمان، طبعت في الآستانة سنة ١٢٩٨، وفي بيروت سنة ١٨٩٠.

(٢) ديوان شعر: منه نسخة خطية في مكتبة باريس، وقد طبع بمصر سنة ١٣٢١هـ.

(٣) مقامات تعرف باسمه، وهي أقدم كتاب وصل إلينا في هذا الفن عن فنون اللغة، وهو أول من وفَّاه حقه وجعله علمًا، وقد اقتبس نسقه من أستاذه ابن فارس اللغوي الآتي ذكره، وعنه أخذ الحريري نسق مقاماته. والمقامات حكايات قصيرة موضوعة على لسان رجل خيالي تنتهي بعبرة أو موعظة أو نكتة، والمراد بها في الأكثر التفنن بالإنشاء وتضمينه الأمثال والحكم، ولم يكن هذا كل المراد منها في زمن الهمذاني. وقد شبَّهها بعضهم بالدرام في اللغات الإفرنجية. ومقامات الهمذاني تُرْوَى على لسان رجل اسمه عيسى بن هشام. طبعت هذه المقامات في الآستانة سنة ١٢٩٨، ثم في بيروت مشروحة شرحًا مختصرًا للشيخ محمد عبده سنة ١٨٨٩، وهو غير عبد الرحمن الهمذاني صاحب الألفاظ الكتابية المتقدم ذكره.

وترجمة بديع الزمان في ابن خلكان ٣٩ ج١، ومعجم الأدباء ٩٤ ج١، ويتيمة الدهر ١٦٧ ج٤.

(٢-٦) أبو منصور الثعالبي (توفي سنة ٤٢٩هـ)

هو أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل النيسابوري الثعالبي — قيل له ذلك؛ لأنه كان فرَّاءً بجلد الثعالب، وهو خاتمة مترسلي هذا العصر وأهم أدبائه، ونعم الخاتمة؛ لأنه أكثرهم آثارًا وأوسعهم مادة، وهو الذي ترجمهم وذكر أخبارهم وأقوالهم، وكان في العصر المشار إليه راعي تلعات العلم، وجامع أشتات النثر والنظم، ورأس المؤلفين، وإمام المصنِّفين. وهو مع ذلك شاعر مطبوع، ومن نظمه في وصف الفرس قوله:

يا واهب الطرف الجواد كأنما ... قد أنعلوه بالرياح الأربعِ
لا شيء أسرع منه إلا خاطري ... في وصف نائلك اللطيف الموقعِ
ولو أنني أنصفت في إكرامه ... لجلال مهديه الكريم الألمعي
أقضمته حب الفؤاد لحبه ... وجعلت مربطه سواد المدمعِ
وخلعت ثم قطعت غير مضيعٍ ... برد الشباب لجله والبرقعِ

وله مؤلفات كثيرة أكثرها من قبيل الأدب، فنؤجل ذكرها إلى ذلك الباب، ونكتفي هنا بذكر كتابه في الإنشاء، نعني كتاب رسائل الثعالبي، طبع في الآستانة سنة ١٣٠١، وهو أربع رسائل منتخبة من كتب التمثُّل والمحاضرة والمبهج وسحر البلاغة والنهاية الآتي ذكرها بين كتبه الأخرى.

(٢-٧) منشئون آخرون

وهناك جماعة من المنشئين وبلغاء المترسِّلين لم يخلِّفوا آثارًا غير ما ذكره الثعالبي في اليتيمة أو غيره ممن ترجموهم، وهذه أسماؤهم وبجانبها مكان وجود الأمثلة من إنشاء كل منهم وترجمة حاله:

(٧) أبو الفتح البستي في يتيمة الدهر ٢٠٤ ج٤.
(٨) أبو الفضل الميكالي في يتيمة الدهر ٢٤٧ ج٤.
(٩) الحاتمي في يتيمة الدهر ٢٧٣ ج٢.
(١٠) الشابشتي ابن خلكان ٣٣٨ ج١.
(١١) التهامي الشاعر ابن خلكان ٣٥٧ ج١.

(١٢) القسطلي في اليتيمة ٤٣٨ ج١.

(٣) الأدب والإنشاء عند الإفرنج

ومما يحسن استطراده في هذا المقام أن علم الأدب الذي يعنيه الإفرنج بقولهم ليتراتور (Littérature) يفضي إلى الإجادة في فني المنثور والمنظوم مثل علم الأدب عند العرب، لكنه يشتمل أيضًا على روح انتقادية هي المراد الأصلي من علم الأدب عندهم لا العبارة أو الأسلوب، وإنما يريدون تلك الروح التي ينتقد بها الكاتب أو الشاعر ما يقع عليه نظره من الحوادث الطبيعية أو ينتبه له من أماكن النقص في الأمة أو رجالها أو ملوكها، فينتقده أو يصفه بأسلوب انتقادي شعري يحرك العواطف ويقع من النفس موقعًا مؤثِّرًا، وكتابهم إنما يتفاضلون في أسلوب ذلك الانتقاد، وهو يشبه ما ورثوه من الروايات التمثيلية (الدرام) عن أسلافهم؛ لأن المراد الأصلي منها تمثيل الفضائل للترغيب فيها وتمثيل الرذائل للتنفير منها، فالكاتب أو الشاعر عندهم يكتب أو ينظم أو يمثل أو يخطب، والغرض الرئيسي عنده الانتقاد بما توحيه إليه قريحته من النظر في الوجود أو المجتمع الإنساني أو أحوال الناس من حيث الأدب أو السياسة أو الأخلاق، بقطع النظر عما يرجوه من الكسب أو الاسترضاء، وهذا نادر في أدباء العرب لانصراف قرائحهم في صدر دولتهم إلى إرضاء الخلفاء أو الأمراء من مدح أو هجاء على ما كانت تقتضيه الأحزاب السياسية، أو يشببون بما يطرب الخليفة أو الأمير؛ لأن على رضاه يتوقف رزقهم.

كان الغرض الأول من الأدب العربي في الدولة الأموية وصدر الدولة العباسية خدمة مصلحة ولاة الأمر في تأييد سيادتهم، ونفوذهم أو تسليتهم وتفريحهم، وكان أكثر الشعراء والأدباء من الموالي طلاب الرزق، فلم تتوجه قرائحهم إلى النقد الاجتماعي أو السياسي أو الفلسفي مما يقتضيه النظر في الخليقة أو نظام الاجتماع أو الدولة؛ لأن ذلك لا يلائم أغراض أصحاب السيادة، ولا سيما بعد أن صار هؤلاء يطاردون الأحرار باسم الزندقة أو الاعتزال أو الفلسفة بعد عصر المأمون، فقامت تلك المطاردة سدًّا في سبيل حرية القول واستقلال الفكر، فأصبح الأدباء لا يفكرون إلا كما يشاء أمراؤهم، وإذا فكروا في غيره فلا يجسرون على قوله، وإذا قالوه بادروا إلى إخفائه فرارًا من الأذى أو سوء الأحدوثة أو الاتهام بالمروق من الدين؛ ولذلك لم يصلنا من أقوال أدباء ذلك العصر الحرة الانتقادية إلا النزر اليسير.

ولعل أول من كسر قيود التقليد في هذا الشأن أبو العلاء المعري الشاعر الفيلسوف، فنشر آراءه في انتقاد الهيأة الاجتماعية والتقاليد الدينية والاعتقادات الشائعة نظمًا ونثرًا، فوجَّه سهامه نحو رجال الدين لاحترافهم التقوى في سبيل الاستجداء أو الاستئثار، ونظم في فلسفة الوجود وفلسفة الاجتماع، فنقم عليه كثيرون واتهموه بالكفر ولم يعدوا قوله شعرًا فسموه الحكيم وأنكروا عليه الشاعرية. والحقيقة أن تلك هي الشاعرية بعينها، فسرت روحه في جسم المجتمع، وأخذ الأدباء من العرب وغيرهم يتحدونه كما فعل عمر الخيام برباعياته.

على أن أكثر أدباء العرب اقتصروا في انتقاداتهم الاجتماعية أو الأخلاقية على نظم القصائد الحكمية، يضمِّنونها الحِكَم والمواعظ ومحاسن الأخلاق، وأكثر الكتب المؤلفة في السياسة ونحوها تتضمَّن النصائح للملوك وما ينبغي أن يكونوا عليه من الكمالات. وقد يؤلفون الكتاب باسم ملك ينصحونه به كما فعل الشيخ عبد الرحمن في كتاب السياسة، الذي قدمه لصلاح الدين الأيوبي.

ولكن ذلك غير ما يريده أدباء الإفرنج في عصرنا من النقد الأدبي أو الأدب الانتقادي، فهم يريدون ما فعله شكسبير ودانتي وهوكو وروسو وفولتير وغيرهم ممن ألف القصص للمطالعة أو التمثيل أو القصائد أو المقالات في تصوير الحقائق وانتقادها، واستخراج العبرة منها بأسلوب شعري يؤثِّر في النفس. وقد يؤلف أحدهم الرواية الكبيرة ينتقد بها عادة شائعة أو نكتة توسمها في نظام الاجتماع أو قوانين الحكومة، والعرب قلما فعلوا ذلك في النظم أو في النثر، إلا نحو ما يؤخذ من كتاب كليلة ودمنة وأمثاله، وهو تلميحي وليس هو عربي الأصل، وقد ألفوا قصة عنتر مثلًا صوروا بها حالة الاجتماع في الجاهلية، وصوَّروا في ألف ليلة وليلة حال الاجتماع في عصر الرخاء والحضارة، لكنهم لم يضعوا ذلك في شكل انتقادي، ولا نبَّهوا إلى مكان العبرة فيه، وإن كان القارئ يتأثَّر من المطالعة فيساق من نفسه إلى استحسان بعض ما صور هناك من المناقب فيتحداها، إلا أنه غير مقصود في التأليف.

وهذا النقص ليس خاصًّا بالعرب، بل هو يشمل أكثر الشرقيين، ولعل السبب فيه شدة احترامهم لرؤسائهم مع تأصُّل الحكم الاستبدادي في نفوسهم بتوالي الأجيال واضطرارهم للارتزاق من الرؤساء، وهم أصحاب قرائح انتقادية فحصروها في المناظرات اللغوية والنحوية كما فعل البصريون والكوفيون، أو في المجادلات الدينية، ويراد بها غالبًا خدمة مصلحة ولاة الأمر فيما يرجع إلى تأييد سيادة بعض الرؤساء دون سواه أو

تحقير أعدائهم من دعاة الخلافة أو القائمين على الدولة، أو في المهاجاة لنصرة الأحزاب بين السنة والشيعة أو نحوها، أما انتقاد المبادئ الاجتماعية أو السياسية، فإنه قليل في ثمار قرائحهم.

ولكن ليس من الإنصاف أن نقيس حال أدبائنا في تلك الأعصر بحال أدباء الإفرنج في هذا العصر، فإن هؤلاء لم تظهر فيهم القرائح الحرة إلا بعد حل قيود التقليد وقلب النظام الاجتماعي، وتبديل الحال السياسي حتى صار للعامة شأن، وقد سفكت الدماء في سبيل الحرية الشخصية والحقوق الفردية، فنشأت القرائح على حرية الفكر والقول.

على أن تقاعد العرب عن ذلك النقد ليس من عجز في فطرتهم، فإنهم من أصفى الناس أذهانًا وأدقهم نظرًا وأآباهم للضيم، فلما حدث مثل ذلك الانقلاب فيهم عند ظهور الإسلام أظهروا شجاعة أدبية لا مثيل لها حتى كان الراعي يخاطب الخليفة بلا كلفة وينتقده، بلا خوف، ولا يرى الخليفة غرابة في انتقاده.

حتى في إبَّان التمدن الإسلامي، إذا أتيح للشاعر أن يقول فكره عن جرأة في الرأي مع استغنائه عن أموال ولاة الأمور لم يقصر عن مجاراة أَكْتَب الإفرنج اليوم في روح النقد والعبرة والفلسفة. فقول أبي العلاء المَعَرِّي في انتقاد الحكومة ورجالها:

يكفيك حزنًا ذهاب الصالحين معًا	ونحن بعدهمُ في الأرض قطانُ
إن العراق وإن الشام مذ زمن	صفران ما بهما للملك سلطانُ
ساس الأنام شياطين مسلطةٌ	في كل مَصر من الوالين شيطانُ
من ليس يحفل خمص الناس كلهمُ	أن باب يشرب خمرًا وهو مبطانُ
تشابه النجر فالرومي منطقه	كمنطق العرب والطائي مرطانُ
أما كلاب فأغنى من ثعالبهم	كأن أرماحهم في الحرب أشطانُ
متى يقوم إمام يستقيد لنا	فتعرف العدل أجبالٌ وغيطانُ؟!

لا يقل قوة عما قاله فيكتور هوكو من قصيدة «الملوك»، وهي من أشد قصائده وطأة، قال منها يخاطب الملوك: «أتظنون أننا نحبكم! نحن الذين نشتغل في هذه الأرض ونستخرج ثروتها ونكد ونجد في حر الشمس وبرد الشتاء، ولا ننال من أتعابنا غير الجوع والعطش، وأنتم على سرر مرفوعة من العز والنعيم، وعلى جانب من التبذير والإسراف والفحش، نحن الخدم وأنتم الملوك، نحن الغنم وأنتم الذئاب، نحن الفريسة وأنتم المفترسون، تبنون القصور من أموالنا وأتعابنا وترتعون فيها وتلعبون ونحن

نقاسي نزاع الموت على لقمة. لا شغل لكم إلا الأكل والنوم والسكر والفحش والقتل والظلم.»[١]

وقد تصور أبو العلاء الحكم الدستوري أو الجمهوري منذ تسعمائة سنة، فوصف الأمة الذليلة بقوله:

مل المقام فكم أعاشر أمةً | أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها | فعدوا مصالحها وهم أُجَرَاؤها

وقد ظهر بعد المعري غير واحد من النقَّادين سيأتي ذكرهم في أماكنهم.

هوامش

(١) تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب ٢٣١.

الأدب والأدباء

نضج الأدب في هذا العصر وزاد استقلالًا عن سائر العلوم، ومال بالأكثر إلى النظر في الشعر والشعراء من شرح أو تلخيص أو انتقاد، ويمتاز على الخصوص بنقد الشعر بعد أن نضج وتعددت أبوابه ومواضيعه، فتعوَّد الأدباء بعد شيوع المنطق والفلسفة وعلم الكلام النظر في الأدب نظر الناقد الممحِّص بالمقابلة والموازنة — وإن نكروا الفلسفة على أصحابها واتَّهَموهم بالكفر، فإن روح النقد والنظر الفلسفي دبَّت في عروقهم وهم لا يعلمون، فنبغ منهم نُقَّاد الشعر كقدامة بن جعفر وابن رشيق، وفيهم من انتقد الرواية والأخبار كأبي الفرج الأصبهاني صاحب الأغاني وعمر بن حمزة. ونظروا إلى فحول الشعراء فشرحوا أقوالهم في الجاهلية والإسلام كشروح الحماسة والمعلقات، وجمعوا أقوال الشعراء ومحَّصوها وجمعوا بينها كما فعل الثعالبي إمام المؤلفين في ذلك العصر، وانتقدوا آداب المجالسة، ووضعوا للندماء شروطًا، وغير ذلك كما سيظهر في تراجم الأدباء. وهاك أشهرهم حسب سني الوفاة:

(١) أبو الفرج الأصبهاني (توفي سنة ٣٥٦هـ)

قد يفهم من لقبه أنه فارسي الأصل، وهو عربي أموي يتَّصل نسبه بمروان بن الحكم من بني أمية، وهو مع ذلك شيعي، ويندر التشيع في بني أمية، واسمه علي بن الحسين، وكنيته أبو الفرج، وإنما لقب الأصبهاني لأنه ولد في أصبهان، لكنه نشأ في بغداد، وكان من أعيان أدبائها وأفراد مصنفيها، وقد رَوَى عن كثيرين، وطالع كثيرًا من الكتب، وكان قوي الحافظة؛ فوعى في ذاكرته ألوفًا من الأشعار والأغاني والأخبار والآثار والأحاديث والأنساب بأسانيدها وأسماء قائليها ورُواتها، فضلًا عن توسُّعه في اللغة والنحو والسير

والمغازي وعلوم الجوارح والبيطرة والطب والنجوم والأشربة وغير ذلك، وكان انقطاعه بالأكثر إلى الوزير المهلبي المتقدم ذكره، وكان يلقى سواه من ملوك ذلك العصر وأمرائه فيعرفون فضله ويجيزونه.

ولم يقتصر من العلم على الحفظ والاختزان كما يفعل كثيرون، لكنه تدبَّر تلك المعارف، وأخرج منها كتبًا نافعة أشهرها كتاب الأغاني وبه اشتهر، وألَّف أيضًا كتاب القيان، وكتاب الإماء الشواعر، وكتاب الديارات، وكتاب دعوة الأطباء، وكتاب مجرد الأغاني، وكتاب أخبار جحظة البرمكي، ومقاتل الطالبيين، وكتاب الحانات وآداب الغرباء، وحصل له ببلاد الأندلس كتب صنفها لبني أمية ملوك الأندلس يوم ذاك وسيَّرها إليهم سرًّا، وجاءه الإنعام منهم سرًّا، فمن ذلك كتاب نسب بني عبد شمس، وكتاب أيام العرب ألف وسبعمائة يوم، وكتاب التعديل والانتصاف في مآثر العرب ومثالبها، وكتاب جمهرة النسب، وكتاب جمهرة بني شيبان، وكتاب نسب المهالبة، وكتاب نسب بني تغلب، ونسب بني كلاب، وكتاب الغلمان المغنين وغيرها، وهي كثيرة لكن أكثرها ضاع بتوالي الإحن فنأتي على ذكر ما وصلنا خبره منها:

(١) كتاب الأغاني: هو أشهر من أن يُعرَّف، وقد وقع الاتفاق على أنه لم يعمل مثله في بابه. ويقال: إنه اشتغل في جمعه وتأليفه نحو خمسين سنة، وبلغ خبره إلى الحكم بن الناصر صاحب قرطبة وهو أموي مثله، فسأله أن يرسل الكتاب إليه قبل إخراجه لبني العباس وبذل له على ذلك ألف دينار، ولما تم تأليفه حمله إلى سيف الدولة بن حمدان، فأعطاه ألف دينار واعتذر له، ولم يبق أحد من أمراء ذلك العصر إلا اقتناه ليستغني به عن سواه، وقد علمت أن الصاحب بن عباد كان إذا سافر حمل كتبه على عشرات من الجمال، فلما اقتنى كتاب الأغاني استغنى به عنها.

وهو أجزاء كثيرة وصل إلينا منها ٢١ جزءًا في نحو ٤٠٠٠ صفحة، واسم الكتاب يدل على المراد بوضعه في الأصل، نعني «الأغاني»، فصدَّره بمائة صوت كان الرشيد أمر إبراهيم الموصلي مغنيه وغيره أن يختاروها له، ثم وقعت للواثق بعده فأمر إسحاق بن إبراهيم فاختار له منها ما رأى أنه أفضل وأضاف إليها أشياء أخرى، فسار أبو الفرج على هذه الخطة معوِّلًا على ما اختاره غير هؤلاء أيضًا من أهل العلم بصناعة الغناء، وقد يعترض على وضع هذا الكتاب بين كتب الأدب؛ إذ يجدر به أن يكون بين كتب الموسيقى، لكن أهميته قائمة بما فيه من الأخبار والأشعار؛ لأن المؤلف إذا ذكر أبياتًا على لحن وعين نغمها ومن غنَّاها استطرد إلى ذكر ناظمها وترجمته والأحوال التي

قيلت فيها من حرب أو حب في الجاهلية أو الإسلام، ومن غنَّاها ومن شهد ذلك وأسبابه وأحواله، فيُورِد تفاصيل ذلك بالدقة والإسناد، فاحتوى الكتاب على أخبار مئات من الشعراء والأدباء والمغنِّين والعُشَّاق والخلفاء والقُوَّاد، وأكثر أيام العرب وأخبار قبائلهم وأنسابهم ووقائعهم وغزواتهم ومياههم. وفيه خيرة أشعار الجاهلية والإسلام، ولا سيما ما كانوا يغنون به، وآداب القوم في طعامهم وشرابهم، واجتماعهم، وحروبهم، وزواجهم وطلاقهم، وسائر أحوالهم.

فأهمية هذا الكتاب متوقِّفة على ما حواه من تلك التراجم والأخبار، ويكاد يكون منفردًا بها، ولولاه لضاع كثير من أخبار الجاهلية وصدر الإسلام وأيام بني أمية. وهو ثقة لتدقيقه وتمحيصه؛ لأنه لا يكتفي بالإسناد إلى الرواة، بل هو ينتقدهم ويبيِّن أوجه الخطأ أو المناقضة بين رواياتهم ثم يرجع إلى رأيه، وكان أشد وطأة في النقد على ابن خرداذبه وابن الكلبي مما على سواهما، وفي مرويَّاته كثير من الأخبار والحوادث تلقَّنها عن أناس عاصروه، فحدثوه بما علموه فدوَّنه وهو منفرد بتدوينه، وأخذ عن كتب ضاعت.

وقد طبع الأغاني بمصر في ٢٠ جزءًا سنة ١٢٨٥هـ، ثم عثروا على جزء في بعض خزائن الكتب بأوروبا فطبعوه في برونو سنة ١٨٨٨، فصارت ٢١ جزءًا، ووضع لها الأستاذ جويدي المستشرق الإيطالي فهرسًا أبجديًّا مطولًا سنة ١٨٩٥، وأعيد طبع الأغاني كاملًا بمصر في ٢١ جزءًا سنة ١٣٢٢ مع فهرس أبجدي مبني على فهرس جويدي. وقد لخص الأغاني جمال الدين الحموي المتوفى سنة ٦٩٧هـ في كتاب منه نسخة خطية في المتحف البريطاني، وجرده الأب أنطون صالحاني اليسوعي من الأسانيد والأغاني، وأبقى الروايات على حدة في كتاب سماه «روايات الأغاني»، وهو جزآن الأول في الروايات الأدبية، والثاني في الروايات التاريخية طبع بيروت سنة ١٨٨٨ و١٩٠٨.

(٢) كتاب الديارات: وصف فيه الأديار في العراق ومصر وغيرهما، وفيه كثير من أخبار الشعراء وأشعارهم في مجالس العباسيين، وخصوصًا الرشيد، إلى المعتضد. منه نسخة في مكتبة برلين. وبعضهم يشك في نسبة هذا الكتاب إليه ويرى أنه للشابشتي.

وترجمته في ابن خلكان ٣٣٤ ج١، واليتيمة ٢٧٨ ج٢.

(٢) أبو علي التنوخي (توفي سنة ٣٨٤هـ)

هو أبو علي المحسن بن علي التنوخي. ولد في البصرة، وكان أبوه قاضيًا وشاعرًا وأديبًا (ترجمه الثعالبي في اليتيمة ١٠٥ ج٢)، وانتقل المحسن إلى بغداد وتلقَّى العلم عن الصولي وغيره، ثم تعيَّن قاضيًا على قصر بابل وما يليه، وتنقَّل في مناصب أخرى، وأهم آثاره:

(١) كتاب الفرج بعد الشدة: قد تقدَّم ذكره في كلامنا عن ابن أبي الدنيا، وهو من كتب الأدب المفيدة لما حواه من الحقائق التاريخية والاجتماعية.
(٢) كتاب المستجاد من أفعال الأجواد: فيه حكايات وأخلاق أكثرها عن الخلفاء العباسيين. في مكاتب غوطا وأكسفورد والإسكوريال وبطرسبورج وأياصوفيا.
(٣) كتاب نشوان المحاضرة وأخبار المذاكرة: مجموع أخبار تاريخية. في باريس.

وترجمة التنوخي في ابن خلكان ٤٤٥ ج١، ويتيمة الدهر ١١٥ ج٢.

(٣) أبو هلال العسكري (توفي سنة ٣٩٥هـ)

هو أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري. تلقَّى العلم في بغداد والبصرة وأصبهان، وهو غير أبي أحمد العسكري اللغوي الآتي ذكره، وكلاهما اسمه الحسن بن عبد الله، فكثيرًا ما يقع الالتباس بينهما وكانا متعاصرين. وأبو هلال تلميذ أبي أحمد، وتوفي هذا سنة ٣٨٢هـ. أما أبو هلال فقد خلَّف كثيرًا من الكتب هاك أهم ما بلغنا خبره منها:

(١) كتاب جمهرة الأمثال: طبع في بومباي سنة ١٣٠٦، وفي مصر على هامش أمثال الميداني سنة ١٣١٠.
(٢) كتاب الصناعتين النظم والنثر: منه نسخة في باريس وكوبرلي، وطبع في الآستانة سنة ١٣٢٠، وهو مفيد جدًّا في بابه.
(٣) ديوان المعاني: هو معجم لمعاني الشعر مرتب حسب المواضيع. قال مؤلفه في مقدمته: إنه جعله ١٢ بابًا في ٥٠٠ ورقة، ثم رأى ذلك يكبر حجمه؛ فجعل كل باب منها في كتاب. منه نسخة في المتحف البريطاني، وفي كتب الشنقيطي في المكتبة الخديوية كتاب خطي بهذا الاسم مؤلف من ١٧١ ورقة (٣٤٢ صفحة)، يشتمل على الباب السابع، وفيه وصف السحاب والمطر والبرق والرعد والمياه والرياض والنبات والنسيم وغيرها، والثامن

في وصف الحرب والسلاح، والتاسع في وصف الدواة والبلاغة، والعاشر في صفات الخيل والإبل والفلوات والوحوش والطيور، والحادي عشر في الخضاب والعلل والموت والزهد، والباقي معانٍ متفرقة. وهو جزيل الفائدة لطلَّاب المعاني الشعرية.

(٤) كتاب المصون في الأدب: في الإسكوريال.

(٥) روى ديوان أبي محجن: في أيا صوفيا.

(٦) كتاب الأوائل: اختصره السيوطي في كتاب الوسائل، وهو أول من ألَّف فيه.

(٧) التفضيل بين بلاغتي العرب والعجم: طبع بالآستانة.

وأخباره في معجم الأدباء ١٣٥ ج٣.

(٤) أبو منصور الثعالبي (توفي سنة ٤٢٩هـ)

قد تقدم ذكره بين المنشئين، وأجَّلنا الكلام عن كتبه في غير الإنشاء إلى هنا، والثعالبي المذكور مدوِّن أخبار العصر الذي نحن في صدده، وخصوصًا الشعر والشعراء والأدب والأدباء، وله كتب كثيرة في مواضيع مختلفة هاك ما وصلنا منها:

(١) يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر: تشتمل على أخبار شعراء المائة الرابعة للهجرة، وهو العصر العباسي الثالث في أربعة مجلدات، قسم الكلام فيها إلى أبواب باعتبار البلاد؛ فأفرد بابًا لشعراء الشام وما كان من أحوال سيف الدولة ومحاسن الشعراء، ولا سيما المتنبي وأبو فراس استغرق الكلام عنهما ٢٠٠ صفحة، وبابًا لشعراء مصر والمغرب، وآخر لشعراء الموصل، وآخر عن آل بوية وشعرائهم وكتابهم، وآخر عن شعراء البصرة فالعراق فبغداد فابن العميد والصاحب بن عباد مفصلًا، ثم شعراء أصبهان والطارئين على الصاحب، وشعراء الجبل وفارس والأهواز وجرجان، ثم محاسن الدولة السامانية ومن فيها من الشعراء، ففضلاء خوارزم وفصول لكل من أبي بكر الخوارزمي والهمذاني والبستي والميكالي، وشعراء خراسان والطارئين على نيسابور وغير ذلك. والكتاب مطبوع في دمشق سنة ١٣٠٤ في ٤ مجلدات تحتوي على نحو ١٥٠٠ صفحة، ومنه نسخ خطية في أكثر مكاتب أوروبا، وينتقد على مؤلفه أنه جعل عبارته مسجعة وهي لا تليق بكتب التاريخ والأخبار، وأنه أغفل الوفيات فيندر أن يذكر سنة الوفاة أو الولادة، وإنما هو قاصر على الأمثلة من الأشعار أو الإنشاء وإطرائها مع بعض

الأخبار. وألف أبو الحسن الباخرزي المتوفى سنة ٤٦٧ ذيلًا لليتيمة سماه دمية القصر وعصرة أهل العصر سيأتي ذكره.

(٢) لطائف المعارف: هو جزيل الفائدة في موضوعه؛ لأنه يشتمل على فوائد لا يتصل إليها إلا بمطالعة الكتب الكثيرة: (١) باب الأوائل من كل شيء، وفيه فوائد تاريخية هامة، كقوله: «أول من جلس على سرير من ملوك العرب جذيمة، وأول من كسا الكعبة الحرير نتيله … إلخ.» (٢) ألقاب الشعراء الذين لقبوا بأشعارهم كالمرقش والممزق وأسباب ذلك، (٣) الألقاب الإسلامية للوجوه والأعيان، (٤) كتاب المتقدمين، (٥) في المتناسقين بأحوال مختلفة، (٦) في الغايات من طبقات الناس. (٧) الاتفاق في الألقاب والكنى، (٨) فنون شتى من المعارف النبوية والقرشية وصنائع الأشراف والملوك، (٩) غرائب الأحوال وعجائب الأوقات، وأخيرًا نموذج من خصائص البلدان، وهو مطبوع في ليدن في نحو ٢٠٠ صفحة سنة ١٨٦٧ بعناية المستشرق دي يونغ، وقد سبقه ابن قتيبة إلى بعض هذه المواضيع في كتابه «المعارف».

(٣) فقه اللغة: هو معجم معنوي جمعت فيه المعاني المتقاربة أو المترابطة في باب واحد، مع بيان الفرق بينها أو تدرجها أو تفرُّعها مما يفتقر إلى درس طويل. وذكر في المقدمة أسماء اللغويين والرواة والنحاة الذين عوَّل عليهم. وقد طبع في بيروت سنة ١٨٨٥ وفي مصر.

(٤) الإعجاز والإيجاز: يشتمل على أبلغ ما قيل مع الإيجاز. طبع في بيروت سنة ١٨٩٧، وفي الآستانة في جملة رسائل أخرى.

(٥) خاص الخاص: وفيه خلاصة الخلاصة في الأدب. طبع بمصر.

(٦) نثر النظم أو حل العقد: هو عبارة عن تحويل الشعر المنظوم إلى شعر منثور. طبع بمصر سنة ١٣١٧.

(٧) مكارم الأخلاق: فيه فصول في العقل والعلم والزهد وغيرها. طبع في بيروت.

(٨) غرر أخبار ملوك الفرس: في التاريخ. طبع في باريس.

(٩) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب: في الأدب، وفيه فوائد تاريخية على أسلوب خاص به؛ لأنه مقسوم إلى فصول باعتبار أشياء مضافة إلى أشياء أخرى يتمثل بها ويكثر استعمالها في النظم والنثر على ألسنة العامة والخاصة، كقولهم: غراب نوح وذئب يوسف وعصا موسى وخاتم سليمان وبردة النبي ونحو ذلك وشرح كل منها، وهو كبير الحجم. منه نسخة خطية في المكتبة الخديوية، وطبع بمصر سنة ١٣٢٦ في نحو ٦٠٠ صفحة.

(١٠) شمس الأدب في استعمال العرب: جزآن؛ الأول في أسرار اللغة، والثاني في مجاري ألفاظها ورسومها وما يتعلق بالنحو والإعراب منها، وقد يسمى سر الأدب في مجاري لسان العرب، منه نسخة خطية في كل من مكتبتي برلين وليدن.

(١١) الكناية والتعريض: في البلاغة، ويشتمل على ما يرد من الأوصاف بالكناية عن النساء والغلمان والطعام والمقابح والعاهات وغيرها، ومنه نسخ خطية في برلين وفينا والإسكوريال وفي المكتبة الخديوية.

(١٢) أجناس التجنيس: في الجناس، بمكتبة الإسكوريال.

(١٣) سحر البلاغة: في مكتبة برلين وفينا وباريس وكوبرلي وغيرها، وقد طبعت بالآستانة منتخبات منه في جملة رسائل أخرى.

(١٤) غرر البلاغة وطرف البراعة: في مكتبة برلين.

(١٥) اللطف واللطائف: مؤلف من ١٦ بابًا. في الإسكوريال وفينا، وفي المكتبة الخديوية من كتب الشنقيطي.

(١٦) من غاب عنه المطرب: وهو يشتمل على منتخبات من الشعر والحكم في الخط والبلاغة والربيع وأوصاف الليالي والأيام والغزل والخمريات والإخوانيات. منه نسخ خطية في برلين وباريس والمتحف البريطاني والإسكوريال، وطبع في مجموعة التحفة البهية بالآستانة.

(١٧) برد الأكباد في الأعداد: هي مجموعة أخبار وملح عن النبي والصحابة وغيرهم مرتَّبة حسب الأعداد مما جاء فيه لفظ اثنين فثلاثة إلى العشرة. ففي باب العدد ثلاثة مثلًا يقول: «ثلاثة لم يسلم منهن أحد: الظن، والطيرة، والحسد.» وقس عليه. طبع في الآستانة في جملة رسائل أخرى، ومنه نسخة خطية في المكتبة الخديوية.

(١٨) التوفيق للتلفيق: في برلين.

(١٩) النهاية في الكناية: في المتحف البريطاني والإسكوريال والمكتبة الخديوية، وقد طبعت منتخبات منه في الآستانة.

(٢٠) مرآة المروءات وأعمال الحسنات: في برلين.

(٢١) التمثل والمحاضرة: يحتوي على ما يحتاج إليه الأديب مما يتمثَّل به في الكتابة من أقوال الشعراء والمنشئين. موجود في المكتبة الخديوية وفي ليدن. وطبع منه منتخبات بالآستانة.

(٢٢) كتاب الغلمان: في برلين والإسكوريال.

(٢٣) تحفة الوزراء: في مكتبة غوطا.

(٢٤) كنز الكتاب: فيه أمثلة من أقوال ٢٥٠ شاعرًا لاستعمال الكتاب. منه نسخ خطية في المكتبة الخديوية وفي فينا والآستانة.

(٢٥) أحاسن المحاسن: في مكتبة باريس والمكتبة الخديوية.

(٢٦) أحسن ما سمع: في كوبرلي بالآستانة، وفي المكتبة الخديوية.

(٢٧) المبهج: فيه أخلاق ومواعظ وآداب وبلاغة في ٧٠ بابًا. منه نسخة خطية في برلين وباريس وكوبرلي والمكتبة الخديوية. وقد طبعت في الآستانة منتخبات منه.

(٢٨) اللطائف والظرائف: في مدح أشياء وأضدادها. موجود في برلين والإسكوريال وليدن. وقد جمعه أبو النصر المقدسي مع المحاسن والأضداد للثعالبي هذا في كتاب سماه الظرائف واللطائف طبع على الحجر في مصر سنة ١٢٧٥.

(٢٩) يواقيت المواقيت: في مدح الشيء وذمِّه، في برلين وليدن.

(٣٠) لطائف الصحابة والتابعين: في مكتبة ليدن، وطبع منه قطع في ليدن للتعليم.

(٣١) أحاسن كلام النبي والصحابة والتابعين وملوك الجاهلية والإسلام والوزراء والكُتَّاب والبلغاء والحكماء. موجود في ليدن وباريس، وطبع بعضه في ليدن سنة ١٨٤٤.

(٣٢) كتاب الشكوى والعتاب.

(٣٣) المقصور والممدود.

(٣٤) المتشابه: منها نسخ خطية في المكتبة الخديوية.

(٣٥) المنتحل: يحوي جيد الشعر للجاهليين والمخضرمين والمولَّدين إلى أيامه. وهو منتخب من أحاسن الأشعار لأحسن الشعراء. طبع بمصر سنة ١٣٢١ مع تراجم الشعراء الواردة أسماؤهم فيه للشيخ أبي علي الأزهري. وبعضهم ينسب المنتحل لأبي الفضل الميكالي معاصر الثعالبي.

(٣٦) الجواهر الحسان في تفسير القرآن: في كتب الشنقيطي بالمكتبة الخديوية، وترجمة الثعالبي في ابن خلكان ٢٩٠ ج١، وطبقات الأدباء ٤٣٦.

(٥) الشريف المرتضى (توفي سنة ٤٣٦هـ)

هو من سلالة موسى الكاظم من أشراف العلويين، وكان نقيب الطالبيين في بغداد، واسمه علي بن الطاهر، وكان إمامًا في علم الكلام والأدب والشعر، وهو أخو الشريف الرضي الشاعر الذي تقدم ذكره، وله تصانيف فقهية على مذهب الشيعة وديوان شعر كبير لم يصل إلينا. ومن تصانيفه:

(١) كتاب نهج البلاغة: وهو يشتمل على خطب وأقوال تنسب إلى الإمام علي، والمشهور أن الشريف المرتضى جمع خطب علي وأقواله ودوَّنها في ذلك الكتاب، وهو من أهم كتب الأدب بالنظر إلى ما حواه من بلاغة الأسلوب والدقة في التعبير والحكم في الأقوال، وإن كنا نرى كثيرًا من تلك الخطب لست لعلي، بدليل اختلاف الأسلوب ومخالفة ما فيها من المعاني لعصره وغير ذلك مما لا محل لتفصيله. أما خطبه في المواقف التاريخية، وكتبه إلى قواده ورجاله فهي له. وقد طبع نهج البلاغة في بيروت، وعليه شرح قليل للشيخ محمد عبده سنة ١٨٨٥، وطبع أيضًا بمصر. ولابن أبي الحديد شرح مطول في ٢٠ جزءًا طبع في طهران سنة ١٢٧١ في مجلدين كبيرين على الحجر، وفي آخره إضافات لم يذكرها جامعه، وقد تقدم الكلام عن نهج البلاغة في باب الخطابة بالجزء الأول من هذا الكتاب.

(٢) كتاب الدرر والغرر في المحاضرات: منه نسخة خطية في المكتبة الخديوية وأخرى في برلين.

(٣) كتاب الشهاب: طبع في الآستانة.

وترجمة المرتضى في ابن خلكان ٣٣٦ ج١.

(٦) ابن رشيق القيرواني (توفي سنة ٤٥٦هـ)

هو أبو العباس الحسن بن رشيق، من أهل القيروان. أبوه مملوك رومي من موالي الأزد، كان صائغًا في بلده المحمدية، فعلمه أبوه صناعته، ثم قرأ الأدب وقال الشعر، وتاقت نفسه إلى التزيد منه، فرحل إلى القيروان، واشتهر بها وامتدح صاحبها واتصل بخدمته ولم يزل بها حتى هجم عليها العرب وقتلوا أهلها وأخربوها، فانتقل إلى صقلية وأقام بمازر إلى أن مات، وله مؤلفات كثيرة أشهرها وأهمها:

(١) كتاب العمدة: وبه اشتهر. يبحث في صناعة الشعر ونقده وعيوبه، وهو أجلُّ كتاب في هذا الموضوع، يقسم إلى أبواب في فضل الشعر وأشعار الخلفاء والقضاة والفقهاء، ومن رفعه الشعر ووضعه، ومن قضى له وقضى عليه، واحتماء القبائل بشعرائها، والتكسب بالشعر، ومنافع الشعر ومضاره، والمقلين من الشعراء، وحدود الشعر وأوزانه وبحوره، والبلاغة والإيجاز والاستعارة إلخ ... وسائر أوجه البلاغة، وأنواع الفصاحة، والجوازات والأوزان، وفي آخره فصول في النسب، وأيام العرب، وملوك العرب، والخيول، والزجر، والقيافة، والوصف وغير ذلك. وفي خلاله طائفة من أحسن الأشعار، وبحث تحليلي في الشعر ومعانيه على طريق الانتقاد. قال ابن خلدون: «إن كتاب العمدة هو الكتاب الذي انفرد بهذه الصناعة وأعطاها حقها، ولم يكتب فيها أحد قبله ولا بعده مثله.» طبع في القاهرة في جزءين سنة ١٩٠٠ وفي غيرها. وقد ألَّف زميله ومعاصره أبو عبد الله بن شرف رسائل سماها «رسائل الانتقاد» تقدم ذكرها.

(٢) كتاب قراضة الذهب في نقد أشعار العرب: منه نسخة خطية في باريس. وقد ضاعت سائر كتبه.

وترجمته في ابن خلكان ١٣٣ ج١، ومعجم الأدباء ١٢٧ ج١.

(٧) كتب أخرى في الأدب

وهناك طائفة من كتب الأدب نكتفي بذكر أصحابها بدون تراجمهم:

(١) الجليس الصالح الكافي: في مائة مجلس لابن طرار الجريري المتوفى سنة ٣٩٠ منه أجزاء في المكتبة الخديوية وبرلين وباريس وكمبريدج.

وترجمة ابن طرار في ابن خلكان ١٠٠ ج٢.

(٢) زهر الآداب: للحصري القيرواني المتوفى سنة ٤١٣. منه نسخة خطية في المكتبة الخديوية في ٥٠٠ صفحة. وفيه أخبار وقطع تاريخية ومقامات وأشعار.

وترجمة الحصري في ابن خلكان ١٣ ج١، ومعجم الأدباء ٣٥٨ ج١.

(٣) شرح الحماسة: للمرزوقي المتوفى سنة ٤٢١. منه نسخة في المكتبة الخديوية.

(٤) الموازنة بين الطائيين: لابن بشر الآمدي. توفي سنة ٣٧٠هـ، منه نسخة خطية في المكتبة الخديوية في ٤٤٠ صفحة كبيرة، وطبع في الآستانة.

وترجمة الآمدي في معجم الأدباء ٥٤ ج٣، والفهرست ١٥٥.

(٥) الأشباه والنظائر أو حماسة الخالديَّيْن: هي مجموعة مختارات من أشعار المتقدمين الجاهليين والمخضرمين وغيرهم، ومنها كثير لم يرد في حماسة أبي تمام. وهي تنسب إلى الخالديين من أدباء العصر الثالث، وهما أبو بكر محمد وأبو عثمان سعيد ابنا هاشم الخالديان، كانا يشتركان في نظم الشعر ولا يكادان يفترقان. ولهما أشعار نشرها الثعالبي في يتيمة الدهر (٥٠٧ ج١)، ولهما أيضًا هذه الحماسة، منها نسخة خطية في المكتبة الخديوية في ٣٠٠ صفحة.

(٦) قطب السرور في وصف الخمور: لأبي إسحاق الكاتب القيرواني المتوفى سنة ٣٨٣، منه نسخة خطية في برلين والإسكوريال وفينا وغيرها.

(٧) مجموعة المعاني: لمؤلف مجهول، لكنها نفيسة، وتشتمل على مائة معنى من جيد النظم. وقد أضاف المؤلف إلى كل معنى ما يناسبه أو يضاده، طبعت في الآستانة في ٢٢٠ صفحة.

(٨) المحاضرات

هي علم من علوم الأدب تحصل به الملكة على إيراد كلام الغير بما يناسب المقام، وفائدته الاحتراز من الخطأ في تطبيق الكلام المنقول عن الغير على المقام حسب اقتضاء المخاطبة من جهة معانيه الأصلية، وهو من الفنون الأجنبية، يقال: إن مخترعه رجل من اليونان قبل القرن الثالث للميلاد، وقد أخذه العرب في جملة ما أخذوه عن الأعجام في خلافة أبي جعفر المنصور على يد عبد الله بن المقفع عندما ترجم كليلة ودمنة من الفارسية إلى العربية، فكانت ترجمته هذه أساسًا لهذا الفن، لكنه لم يتضح إلا في العصر الثالث الذي نحن في صدده، وأشهر من ألَّف فيه ابن حيَّان التوحيدي المتوفى سنة ٤٠٠هـ ألَّف كتابًا سماه كتاب المحاضرات والمناظرات، وقد تقدَّم ذكر كتاب الشريف المرتضى في هذا الموضوع. وأشهر ما بين أيدينا من كتب المحاضرات كتاب «محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء» لأبي القاسم الراغب الأصبهاني، وسيأتي ذكره.

الروايات أو القصص

(١) تمهيد

نريد بالروايات ما يسميه الإفرنج بلسانهم «رومان»، واحدها رواية، وهي القصة عندنا. وإنما اخترنا لفظ الرواية مجاراة لمفهوم القراء منها؛ لأنها عندهم أدل من القصة على ما نحن فيه، والروايات فنٌّ له شأن عظيم في آداب اللغات الإفرنجية يكاد يكون أهمها. وأما في العربية فإنه من أضعف فروع الأدب، ويراد به تمثيل الأخلاق والعادات والآداب في سياق قصة موضوعة، وقد تكون بشكل تمثيلي فتسمى في اصطلاحهم «درام»، وقد ذكرنا طرفًا من ذلك في الجزء الأول من هذا الكتاب، اقتصرنا فيه على ما في آداب الجاهلية مما يقابل الدرام عند اليونان، ونحن ذاكرون هنا فن الروايات على الإجمال في التمدن الإسلامي.

يظهر أن العرب قلما اهتمُّوا لهذا الفن في صدر دولتهم ولا التفتوا إلى ما كان منه عند اليونان لَمَّا نقلوا علومهم، فلم ينقلوا الإلياذة ولا الأنياد ولا غيرهما من الروايات عند اليونان والرومان، لكنهم نقلوا شيئًا من هذا القبيل عن الفرس والهنود على يد عبد الله بن المقفع وجَبَلَة بن سالم وغيرهما، فمما نقل عن الفارسية كليلة ودمنة، وكتاب رستم وأسفنديار، وكتاب الآداب الكبير، وهزار أفسانة، وشهريزاد مع أبرويز، والكارنامج في سيرة أنوشروان، ودارا والصنم الذهب، وبهرام ونرسي.

ومما نقل عن الهندية كتاب سندباد الكبير والصغير، وكتاب بوداسف وكتاب أدب الهند وغيرها، وقد ضاع أكثر هذه الترجمات، وتغيَّر ما بقي منها وتبدل حتى صار إلى غير ما كان عليه كما سترى.

على أننا نرى ما بين أيدينا قصصًا وروايات مطبوعة يتداولها الناس، ويقرءونها، أشهرها قصة عنتر، وألف ليلة وليلة، وأبي زيد الهلالي، والزير، والملك سيف، والملك الظاهر، وعلي الزيبق، وفيروز شاه، ونحوها، فهذه القصص أكثرها وضع بعد العصر الثالث، وإنما يهمنا هنا القصص والروايات التي دُوِّنَتْ في ذلك العصر أو قبله، وهي تقسم إلى قسمين: الأول ما وضعه العرب من عند أنفسهم، والثاني ما نقلوه عن غيرهم وتوسَّعوا فيه. وإليك تفصيل ذلك:

(٢) القصص التي وضعوها من عند أنفسهم

أما ما وضعوه فيرجع في الغالب إلى تصوير مناقب الجاهلية وحال الاجتماع فيها، كالحماسة والوفاء والجوار والشجاعة والعصبية والثأر، وتجد هذه المناقب ممثلة في أخبارهم وأيامهم المشهورة قبل الإسلام، وهي حقائق تاريخية تناقلوها بعد الإسلام، وكانوا يتلون تلك القصص في صدر دولتهم على جندهم لتحميسهم واستحثاث بسالتهم إذا قاموا لفتح أو حرب، كذلك كانوا يفعلون بتلاوة أشعار عنترة وغيرها على أيدي القصاص قبيل المعارك لهذا الغرض.

فلما تحضروا وأنشئوا الدول عمدوا إلى بعض تلك الأخبار، فوسعوها في شكل روائي يشوق إلى المطالعة، ولم يكن ذلك مقصودًا في بادئ الرأي، وإنما كانت القصة تكبر وتتسع تدريجًا بالتناقل الشفاهي قبل تدوينها، وبما أن المراد منها التحميس لا تقرير الحقيقة، فكان الراوي يبالغ في القصة ويزيد فيها ما يثير الحماسة على ما تقتضيه الأحوال، والقصة تنمو وتتشعب حتى يقضي بهم الأمر إلى تدوينها بشكل الروايات الحماسية، فيدونوها كما صارت إليه. هكذا فعلوا في أكثر قصصهم، ورغبة في تصويرها بشكل الحقيقة أسندوا أخبارها إلى بعض الرواة المشهورين كالأصمعي وأبي عبيدة وأمثالهما، وتنوسي مؤلفوها الحقيقيون بتباعد العهد بهم كما تنوسيت أسماء مؤلفي أكثر القصص القديمة عند الإفرنج.

وقد نضج هذا الفن عن العرب في العصر العباسي الثالث فدونت تلك الروايات أو القصص قبل انقضائه، وهي تتفاوت بعدًا عن الحقيقة وقربًا منها وصار بعضها يتلى في المنازل والأندية لمجرد التسلية ولم يصلنا منها كاملًا ناضجًا إلا قصة عنتر.

(٢-١) قصة عنتر

هي أكبر القصص الحماسية العربية أو هي عدة قصص متداخلة متسلسلة لا تحتاج في تعريفها إلى تفصيل لاشتهارها وشيوعها، وإنما نقول بالإجمال: إنها قصة حماسية غرامية تمثل آداب الجاهلية وأخلاق أهلها وحروبهم وعاداتهم، وأكثر الأسماء الواردة فيها لها مسميات تاريخية حقيقية، لكنها مسبوكة في سياق قصة والمبالغة ظاهرة فيها والمشهور أنها وضعت في أواخر القرن الرابع للهجرة، وضعها رجل اسمه يوسف بن إسماعيل في زمن الخليفة العزيز بالله الفاطمي بمصر لسبب ذكرناه في الجزء الأول من هذا الكتاب، وبينا هناك أن هذا الرجل ليس هو واضعها دفعة واحدة بل تكونت بالتدريج، وهي أحسن القصص العربية وأفيدها، وقد عني الإفرنج بنقلها إلى ألسنتهم كاملة وملخصة، وطبعت في العربية مرارًا عديدة في بضعة آلاف صفحة.

(٢-٢) قصة البراق

وهناك طائفة من الروايات الحماسية العربية وقف نموها في أوائل تكونها؛ لأنهم أسرعوا في تدوينها ولا تزال عليها صبغة الأخبار التاريخية، وتعد من قبيل التاريخ أو أيام العرب الجاهلية.

منها مجموعة لعمر بن شبة المتوفى سنة ٢٦٢هـ سماها الجمهرة (تقدم ذكرها)، يشتمل على حوادث عديدة أكثرها وقع بين ربيعة وغيرهم، كما أن قصة عنتر بين عبس وسواهم، لكن المطالع يتبين من مواقف كثيرة أن هذه الأخبار متوسطة بين التاريخ والقصة، بطلها الأشهر اسمه البراق، وهو شاعر قديم من ربيعة من أقرباء المهلهل وكليب، وله تاريخ مختصر فيه حماسة مثل تاريخ عنترة، وله خبر مع ابنة عمه ليلى بنت لكيز وأشعار حماسية وفخرية، وقد توسع خبره هذا بتوالي الأيام كما توسعت قصة عنتر لكنه ما زال أصغر حجمًا وأقرب إلى الحقيقة منها، وقصته هذه لا تعرف باسمه وإنما هي مجموع أخبار عن وقائع حربية، ضمنها ابن شبة كتاب الجمهرة في خمس قصص متسلسلة:

القصة الأولى مبنية على قتل الحارث بن عباد من ضبيعة (بطن من ربيعة) للفضيل بن عمران من سدوس (بطن من طي)، بسبب قنص اختصما عليه فانتشبت الحرب بين القبليتين ثم بين ربيعة وطي وقضاعة، ودخل فيها البراق وهو من رؤساء ربيعة وابن

أخت زعيم الطائيين شبيب بن لهيب، فاجتمعت قبائل ربيعة تحت راية البراق وكليب وجرت بين الطائفتين ثماني وقائع قد تكون في أصلها تاريخية لكن سياقها يدل على توسع فيها على سبيل الرواية، واستغرقت هذه القصة ٣٦ صفحة، وإسناد الحديث فيها إلى ذؤيب بن نافع.

يليها قصة قطيعة مضر وربيعة، ثم خروج لكيز، وهما صغيرتان، ثم قصة سبي ليلى بنت لكيز من وائل إلى بلاد العجم، وما جرى بسبب ذلك من الحروب بين العرب والعجم والروم، وبطل الرواية البراق المذكور، واستعانوا بمضر وزعيمها نوفل بن عمرو، وأخبار البراق في هذا القسم أقرب إلى الرواية؛ لأنها تشبه ما يروى عن عنترة ويتخلل ذلك أشعار حماسية.

ويليها حروب بين وائل واليمنيين سببها أن أسيرًا كان عند كليب فقتله كليب. ودخل في هذه القصة كليب ومهلهل. وأخيرًا حرب البسوس، وهي قصة قائمة بنفسها استغرقت مائة صفحة كبيرة يتخللها حوادث عنترية وحماسات ومبارزات ومناشدات وغير ذلك حتى يخيل للقارئ أنه يطالع قصة عنتر، لكنها أصح لغة وأقرب إلى أسلوب صدر الإسلام وأقل مبالغة، ولعلها لو تداولتها الأيدي وتناقلها القصاص شفاهًا إلى العصر الذي دونت فيه قصة عنتر لصارت مثلها، ولكنها دونت قبلها بقرن وبعض القرن، والجمهرة موجودة خطًّا في المكتبة الخديوية.

(٢-٣) قصة بكر وتغلب

ومن هذا القبيل كتاب بكر وتغلب ابني وائل وفيه خبر كليب وجساس، والقصة فيه أقرب إلى التاريخ منها إلى الرواية تشتمل على وقائع لها ذكر في التاريخ. وقد زاد فيها المؤلف قصائد وتفاصيل نظنها خيالية أراد بها بيان حماسة العرب وقوة ربيعة على الخصوص، وهي منسوبة في روايتها إلى محمد بن إسحاق، أو لعل الكاتب أخذ شيئًا من رواية ابن إسحاق، وأتمَّها من عند نفسه، والكتاب مطبوع في بمباي سنة ١٣٠٥ يدخل في ١٢٠ صفحة كبيرة.

(٢-٤) قصة شيبان مع كسرى أنوشروان

هي قصة تاريخية تدخل في سبعين صفحة مطبوعة في بمباي مع تلك لكنها أقرب منها إلى الرواية الخيالية، مبنية على حادثة تاريخية في أصلها، وتوسع المؤلف بها فجعل سبب الحروب بين شيبان وكسرى أنو شروان أن كسرى طلب من النعمان ابنته الحرقة بنت المتجردة، فقامت الحرب بسبب ذلك، ويتخلل تلك الحوادث قصائد تنم عن حداثة نظمها فضلًا عن قصائد حقيقية نظمها أبطال تلك الرواية، ومجمل الحديث فيها مروي عن بشر بن مروان الأسدي عن ابن نافع التميمي.

والتوسع في الوقائع التاريخية حتى تصير بشكل الرواية ليس من مبتدعات العرب، بل هو عام في الأمم القديمة قبل التدوين؛ لأن القصص تنمو بالتناقل بسليقة في فطرة الإنسان من الميل إلى المبالغة فيما يقصه استلفاتًا لإعجاب السامع، وفي بعض الناس ميل إلى تزويق العبارة وتطويلها والتوسع فيها، وبتوالي الأجيال تنمو الحادثة وتصير قصة وأكثر روايات الأمم القديمة من هذا القبيل، وأكثرها شيوعًا بيننا إلياذة هوميروس فإن لها أصلًا تاريخيًّا هو حصار طروادة اتسع بتوالي الأجيال حتى انتهى إلى هوميروس فدونه أو أتمه، فنسبت روايته إليه كما تنسب رواية قصة بني شيبان وكسرى إلى ابن نافع، ولم يبلغ العرب ما بلغ إليه اليونان من المبالغة، فإن هؤلاء أنزلوا الآلهة إلى ساحة الحرب.

(٢-٥) الروايات الغرامية

ومما وضعه العرب من عند أنفسهم أيضًا قصص العشاق العذريين ونحوهم، وفيها تمثيل العفة أو التفاني في سبيل الحب، بنوها على ما جاء في أخبار عشاق صدر الإسلام ككثير لبنى وجميل بثينة. فألفوا قصصًا غرامية نضجت قبل انقضاء العصر الثالث الذي نحن في صدده، منها كتاب عمر بن أبي ربيعة الشاعر المشهور بالنسيب، وكتاب مليكة ونعم وابن الوزير، وأحمد وداحة، وقصة أبي العتاهية وعتب، وأحمد بن قتيبة وبانوحة، ووضعوا قصصًا غرامية على غير المشهورين من عشاق العرب كقصة علي بن أديم ومنهلة وقصة عمرو بن صالح وقصاف، وقصصًا في الحبائب المتطرفات من النساء كقصة ريحانة وقرنفل، ورقية وخديجة، وسكينة والرباب، وهند وابنة النعمان، وسلمى وسعادة، وغيرها، وقد ذكر صاحب الفهرست عشرات منها ومن قصص بين الإنس والجن وغير ذلك، وأكثرها ضاع وما بقي منها أدخلوه في قصة ألف ليلة وليلة.

(٣) القصص المنقولة

أما ما نقله العرب من القصص عن اللغات الأخرى، فهو يمثل على الغالب آداب الأمة التي نقلت القصة عنها، وأكثرها نقل عن الفرس والهند، فهي لذلك تمثل آداب تينك الأمتين، وقد ذكرنا أسماء بعضها، وذكر الفهرست عشرات منها وقصصًا وأسمارًا يونانية ضاعت كلها ولم يصلنا منها إلا ما في رواية ألف ليلة وليلة من تلك الأقاصيص.

(٣-١) ألف ليلة وليلة

هي مجموع قصص متسلسلة تدخل في بضعة آلاف صفحة، وهي مشهورة ومتداولة ولها طبعات عديدة، واختلف الباحثون في أصلها وتاريخها، وعندنا أنها مؤلفة من قصص تجمعت بتوالي الأجيال مما ترجموه أو وضعوه، ولها أصل نقل عن الفارسية قبل القرن الرابع للهجرة نعني كتاب «هزار أفسانه».

روى ذلك المسعودي المتوفى سنة ٣٤٦هـ قال: «وقد ذكر كثير من الناس أن هذه أخبار موضوعة من خرافات مصنوعة، نظمها من تقرب للملوك برواياتها وأن سبيلها سبيل الكتب المنقولة إلينا والمترجمة لنا من الفارسية والهندية والرومية مثل كتاب أفسان، وتفسير ذلك في الفارسة (خرافة)، ويقال له: أفسانه، والناس يسمون هذا الكتاب ألف ليلة وليلة، وهو خبر الملك والوزير وابنته وجاريتها شهر زاد ودينار زاد.»

وجاء بعده ابن النديم البغدادي صاحب الفهرست الآتي ذكره، فقال في أصل وضع كتاب هزار أفسانه هذا في الفارسية: «إن ملكًا من ملوكهم كان إذا تزوج امرأة وبات معها ليلة قتلها من الغد، فتزوج بجارية من أولاد الملوك لها عقل ودراية يقال لها: شهر زاد، فلما حصلت معه ابتدأت تخرفه وتصل الحديث عند انقضاء الليل بما يحمل الملك على استبقائها، ويسألها في الليلة الثانية عن تمام الحديث إلى أن أتى عليها ألف ليلة، وهو مع ذلك يطؤها إلى أن رزقت منه ولدًا أظهرته، وأوقفت الملك على حيلتها عليه فاستعقلها ومال إليها واستبقاها، وكان للملك قهرمانة يقال لها: دينار زاد فكانت موافقة لها على ذلك وقد قيل: إن هذا الكتاب تأليف لحماني (الصحيح اهما) ابنة بهمن»، وهذا الوصف ينطبق على ألف ليلة وليلة تمام الانطباق.

وذكر ابن النديم في مكان آخر أنه شاهد هذا الكتاب وأنه غث بارد، ولا ندري الآن أي جزء من ألف ليلة وليلة هو.

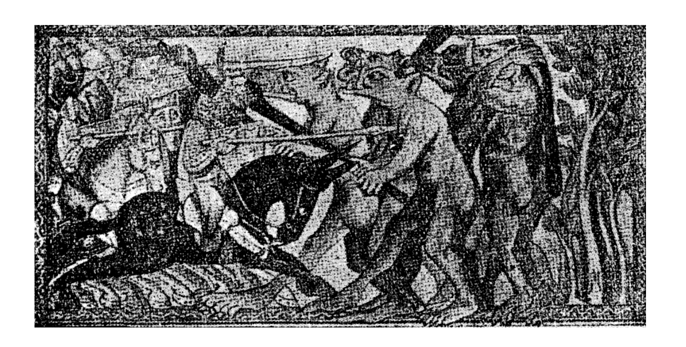
فالعرب نقلوا هذا الكتاب من الفارسية قبل القرن الرابع للهجرة، ثم أضافوا إليه ووسعوه وغيَّروا وبدلوا فيه حتى صار كما وصل إلينا، ومن يطلع عليه يجد فيه قصصًا يدل أسلوبها وألفاظها وبعض ما حوته من العادات أنها كتبت بعد ذلك بقرون عديدة كشرب القهوة، وذكر بعض الحكام المتأخرين من المماليك أو رجالهم كأبي طبق ونحوه، ولا يعلل ذلك إلا بما تقدم من توسيع القصة الأصلية المنقولة عن الفارسية بإضافة قصص وأسمار كانت شائعة بين الناس مما وضعوه هم أو نقلوه عن سواهم.

والأرجح أن تأليفها على الصورة التي وصلت بها إلينا تم بعد القرن العاشر للهجرة، وأكثر تلك الزيادات حدثت في مصر، ولعلنا لو أتيح لنا الوقوف على الترجمة الأصلية لهزار أفسانه لوجدنا الفرق بينها وبين قصة ألف ليلة وليلة كالفرق بين أوذيسة هوميروس وأنيادة فرجيل، فإن هذه أكثرها منقول عن الأوذيسة ومع ذلك فهي تنسب إلى فرجيل؛ ولهذا السبب يصح أن يقال عن ألف ليلة وليلة إنها من مؤلفات العرب، وإن كان بعضها لا يزال على أصله الفارسي.

وهي كما وصلت إلينا تمثل الآداب الاجتماعية في القرون الإسلامية الوسطى، ويدخل في ذلك الانهماك في الملذات والتهتك، وقد وصفت المرأة فيها وصفًا يدل على ضعفها وسوء ظن الرجل فيها وفي آدابها، وفي الكتاب كثير من قصص العفاريت وعجائب الخلق وغرائب الحوادث مما يصوره الوهم والخيال، وسواء كان ذلك مما نقل عن الفرس أو مما وضعه العرب، فإنه من طبيعة تلك العصور، وقد تولد بالنمو التدريجي قبل تدوينه لميل الإنسان من فطرته إلى المبالغة كما تقدم، فأخبار السندباد البحري وغرائب ما شاهده في أسفاره في الأسماك الكبيرة الحجم التي يبلغ طولها مئات من الأذرع، ومنها ما هو بصفة البقر أو الحمير والوادي الذي حجارته من الألماس ويعج بالأفاعي عجيجًا، وجبل القرود والثعابين التي تأكل الآدميين، وطير الرخ الذي يشبع من فرخه الصغير عشرات من الناس، وإذا كبر سطا على السفن وكسرها بصخور يلقيها عليها، ونحو ذلك مما يخالف المألوف عندنا الآن فإنه لم يوضع دفعة واحدة وإنما نما بالتناقل وأصله مبالغة قليلة رواها أهل الرحلة، كما فعل بزرك بن شهريار في أخبار الهند مما فصَّلناه في هذا الكتاب، فمبالغاته وسط بين الحقيقة والخرافة لو تنوقلت شفاهًا لصارت كالخرافات تمامًا وقس عليه سائر المبالغات.

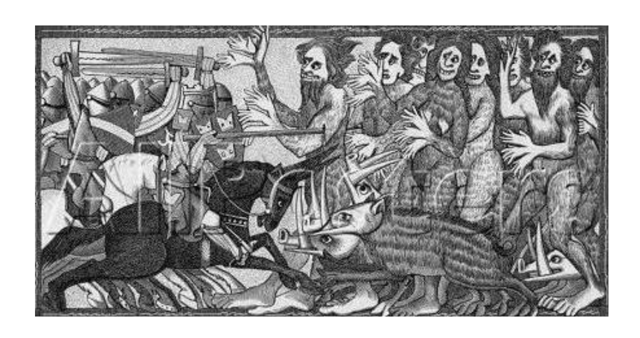
(٣-٢) خرافات الإفرنج

على أن ذلك ليس خاصًّا بالشرقيين كما يتهمنا بعض العلماء من الإفرنج، بل هو يتناول سائر الأمم في تلك العصور من الميل إلى المبالغة في رواية الغرائب، ولا سيما فيما تلذ المبالغة فيه من أخبار الأبطال والفاتحين، والإفرنج أكثر مبالغة في ذلك من العرب، فإن هؤلاء نسبوا إلى عنترة مقابلة المائة والمائتين أو أكثر من الرجال وحده، وذلك مع بعده لا يخالف نواميس الطبيعة، وأما الإفرنج في قرونهم الوسطى فإنهم نسبوا إلى الإسكندر المكدوني خرافات تخالف النواميس الطبيعية.



شكل ١: الإسكندر المكدوني يحارب أقوامًا رءوسهم وحشية. «نقلًا عن أصول خطية من القرن الثالث عشر للميلاد.»

فقالوا: إنه لقي في أثناء فتوحه أقوامًا نصف أجسادهم السفلى آدمي والنصف العلوي وحشي (شكل ١)، وأقوامًا وحشيين لكل منهم ست أيد (شكل ٢)، وأنه حارب جنودًا من السلاحف وأخرى من التنين، وأنه بارز مرة حيوانًا هائلًا بثلاثة قرون، وبارز مرة أخرى أسودًا وغيرها، وقد صوروا ذلك في كتبهم ونشروه بين عامتهم، وفي (شكل ١ و٢) أمثلة من ذلك.



شكل ٢: الإسكندر يحارب أقوامًا متوحشين لكل منهم ست أيدٍ. «نقلًا عن أصول خطية من القرن الثالث عشر للميلاد محفوظة في مكتبة بروكسل.»

(٣-٣) عود إلى ألف ليلة وليلة

ويتخلل حكايات ألف ليلة وليلة قصص قصيرة أبطالها من مشاهير العرب بالجود والحلم أو الوفاء أو غير ذلك، كقصة حاتم الطائي بعد موته وقصص معن بن زائدة ويحيى البرمكي وابنيه جعفر والفضل وإبراهيم بن المهدي وإسحاق الموصلي وعكرمة وخذيمة والرشيد والمأمون وغيرهم، وفيها قصص مغزاها حسن تمثل الصبر والتعقل والحكمة والتبصر في العواقب، ومعظمها كانت قصصًا مستقلة فأدخلت عليها بتوالي الأزمان، وبعضها يقرب من الواقع ويطابق سياق التاريخ، وفيها من الجهة الأخرى خرافات على ألسنة البهائم كقصة الدجاجة والبطة والأسد ونحوها.

وبالجملة إنها مجموع قصص مختلفة المواضيع والأساليب والأغراض، عبارتها على الإجمال سهلة تختلف قوة وصحة باختلاف القصص وأعصرها، على أنها لم تبق كما وضعت؛ لأن النسَّاخ والطباعين نقحوها وهذَّبوا عبارتها، وقد طبعت مرارًا ونقلت إلى أكثر لغات أوروبا نقولًا تختلف قربًا من الأصل وبعدًا عنه بين اختصار وتهذيب، وبعضهم بالغ في الاختصار والتبديل حتى صارت الترجمة ليس عليها من قصة ألف ليلة وليلة إلا اسمها، وفي بعض المواضع من هذه القصة عبارات يخجل الأديب من تلاوتها حذفت من بعض طبعاتها في بيروت ومصر.

(٣-٤) قصص أخرى من أمثالها

لما شاعت الترجمات الفارسية المتقدم ذكرها في العالم العربي، أخذ الأدباء في القرنين الثالث والرابع ينسجون على منوالها أو يجمعون مما بين أيديهم ما يشبهها، وقد ذكر ابن النديم كتابًا شاهده بنفسه تأليف الجهشياري قال في وصفه: «وابتدأ أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري صاحب كتاب الوزراء بتأليف كتاب اختار فيه ألف سمر من سمار العرب والعجم والروم وغيرهم كل جزء قائم بذاته لا يعلق بغيره، وأحضر المسامرين فأخذ عنهم أحسن ما يعرفون ويحسنون، واختار من الكتب المصنفة في الأسمار والخرافات ما يحلى بنفسه، وكان فاضلًا فاجتمع له من ذلك أربعمائة ليلة وثمانون ليلة كل ليلة سمر تام يحتوي على خمسين ورقة، ورأيت من ذلك عدة أجزاء بخط أبي الطيب أخي الشافعي، وكان قبل ذلك من يعمل الأسمار والخرافات على ألسنة الناس والطير والبهائم جماعة منهم عبد الله بن المقفع وسهل بن هارون وعلي بن داود كاتب زبيدة وغيرهم.» ولم يصلنا من هذه الكتب وأمثالها غير ألف ليلة وليلة.

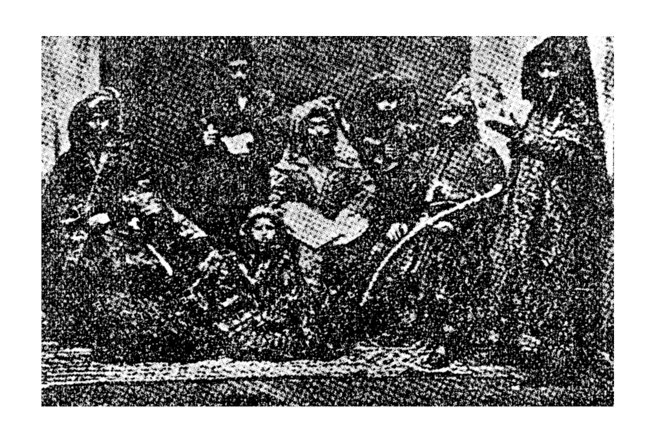
وهناك طائفة من القصص الخرافية والنكت المجونية، ظهرت قبل انقضاء العصر الذي نحن في صدده ككتاب حوشب الأسدي وكتاب جحا، ونوادر أبي ضمضم ونوادر ابن الموصلي لم يبق منها إلا القليل، أما سائر القصص الكبرى المتداولة بين أيدينا الآن كقصة الزير والزيبق وبني هلال وغيرها فسيأتي ذكرها في مكانه.

(٣-٥) الدرام

ونريد به الروايات التمثيلية وهو عظيم الأهمية عند الإفرنج؛ لأنه يمثل الأخلاق والآداب والعادات على المراسح ليشاهدها الناس ويعتبروا بها، لكن العرب لم يعانوا التمثيل على المراسح ولا ألفوا فيه، وقد عد بعض المستشرقين المقامات كمقامات الهمذاني أو الحريري من قبيل الدرام، ولا نرى مسوغًا لهذا القول والمقامات إنما يراد بها الفائدة اللغوية لما يتوخونه فيها من البلاغة والألفاظ الغريبة وإيراد الأمثال والحكم، وليس المراد مغزاها كما يريد الإفرنج من التمثيل، ونجل كتابنا عن أن يكون غرضهم من تأليفها العبرة أو الموعظة، وهي في الغالب مبنية على المجون وانتحال أسباب الكسب بالحيل ونحوها.

ولعل السبب في تقاعد العرب عن فن التمثيل أنه يحتاج إلى ظهور المرأة على المراسح، وهم يتجافون عنه بسبب الحجاب، أو هو تابع لتباعدهم عن وضع القصص الشعرية

أو الشعر القصصي (أيبوبه) الذي يحتاج إلى توسيع الموضوع وتشعيبه وتفريعه، على أن أبا العلاء المعري نابغة الشعراء في العصر الثالث وضع شيئًا كالدرام؛ نعني رسالة الغفران، فإنها تشبه أن تكون من نوع الكوميديا وإن لم يقصد تمثيلها.



شكل ٣: تشخيص عاشوراء في إيران.

ويظهر أن الشيعة في بلاد فارس لم يبالوا بهذه الموانع في تمثيل مقتل الحسين في كربلاء، فإنهم يمثلون تلك الواقعة على المراسح في عاشوراء، وتبتدئ هذه الرواية بيوم خروج الحسين من مكة وتنتهي بقتله، أو هو الفصل الأخير منها ويسمونه «روز قتل» أي: يوم القتل، فهذا الفصل يمثلونه يوم عاشوراء بحضور الشاه ورجال دولته في ساحة كبيرة فيشخصون الحسين وشمر والعباس وجعفر وزينب وسكينة وكلثوم وأم ليلى وعمر بن سعد وغيرهم وكيفية الواقعة من أول النهار إلى آخره ومقتل الحسين وأصحابه؛ يفعلون ذلك في ساحة ينصبون فيها الخيام عليها شارات الحداد، فيقوم شيخ يقرأ على الناس حكاية مقتل الحسين بنغم محزن ولا يكاد يبدأ بالقراءة حتى تهيج عواطف السامعين، فيبكون ويندبون وينوحون فيطوف عليهم شيخ بقطنة يلتقط بها دموعهم ثم يعصرها في قارورة تحفظ بها للاستشفاء، وقد وصف ذلك الاحتفال الرحالة موريه في رحلته الثانية إلى فارس سنة ١٨١١م، ونقلنا ذلك في الهلال صفحة ٤٦٦ سنة ١٨.

النحو والنحاة

كان النحاة كثيرين في هذا العصر، ولكنهم لم يأتوا شيئًا كثيرًا في النحو وقلَّ الذين ألفوا فيه من عند أنفسهم، وأكثر ما دونوه شروح على سيبويه أو إعراب أو نحو ذلك وأكثرها ضاع، وهاك أشهر من خلف مؤلفات في النحو من أهل هذا العصر وبقي منها ما يستحق الذكر، نرتبهم حسب الوفاة ونذكر مؤلفاتهم في المواضيع الأخرى:

(١) ابن خالويه (توفي سنة ٣٧٠هـ)

هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن خالويه أصله من همذان، ودخل بغداد وأدرك حلبة العلماء فيها ورحل إلى الشام ثم أقام في حلب وتقرب من آل حمدان وقدمه سيف الدولة، وله معه محاضرات حسنة، ومن آثاره الباقية:

(١) رسالة في إعراب ثلاثين سورة: منها نسخة خطية في المتحف البريطاني وفي أيا صوفيا.
(٢) كتاب الشجر: في برلين.
(٣) كتاب ليس: في الشواذ العربية طبع في أوروبا عن نسخة خطية وجدت في المتحف البريطاني بعناية ديرنبرج، وطبعت في مصر في جملة كتاب الطرف الأدبية.

وترجمته في ابن خلكان ١٥٧ ج١ وطبقات الأدباء ٣٨٣، ويتيمة الدهر ٧٦ ج١، والفهرست ٨٤.

(٢) أبو بكر الزبيدي (توفي سنة ٣٧٩هـ)

هو أبو بكر محمد بن الحسن بن عبد الله بن مذحج الزبيدي الإشبيلي، نزيل قرطبة من تلاميذ أبي عليٍّ القالي اللغوي، وكان أوحد عصره في النحو وحفظ اللغة وأخبر أهل زمانه بالإعراب والمعاني والنوادر والسير، ولم يكن بالأندلس في فنه مثله، وقد اختاره الحكم المستنصر بالله صاحب قرطبة ليعلم أبناءه، فعلَّم هشام المؤيد ولي عهده الحساب والعربية، وكانت له منزلة رفيعة عنده ونال منه دنيا عريضة حتى تولى قضاء إشبيلية وخطة الشرطة، وحصل له نعمة توارثها بنوه بعده، وكان شاعرًا، وقد ألف كتبًا كثيرة منها طبقات اللغويين والنحاة في المشرق والأندلس من زمن أبي الأسود إلى قرب زمنه، وظل هذا الكتاب موجودًا إلى آخر القرن التاسع للهجرة، وأخذ السيوطي عنه في المزهر ولا نعلم خبره، وله كتب أخرى في لحن العامة وآخر في الأبنية، ومختصر كتاب العين ذكره السيوطي، ولم يبلغنا من مؤلفاته إلا:

(١) كتاب الواضح في النحو والعربية: وهو جزيل الفائدة منه نسخة خطية في الأسكوريال.

(٢) كتاب الاستدراك على سيبويه: استدرك فيه أشياء فاتت سيبويه، طبع في رومية سنة ١٨٩٠ بعناية جودي المستشرق الإيطالي.

وترجمته في ابن خلكان ٥١٤ ج١، يتيمة الدهر ٤٠٩ ج١.

(٣) ابن جني (توفي سنة ٣٩٢هـ)

هو أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي، قرأ على أبي علي الفارسي، وكان أبوه مملوكًا روميًّا، ولعل اسمه «جني» معرب عن لفظ يوناني مثل «جنايس»، توفي ابن جني ببغداد، وهو أعظم نحويي هذا العصر وأكثرهم آثارًا، وكان شاعرًا مطبوعًا وله منظومات حسنة لكن النحو غلب عليه، وله فيه مؤلفات هامة فيها فلسفة ونقد، هاك أشهر ما بقي منها:

(١) الخصائص في اللغة: كتاب كبير عظيم الفائدة يبحث في أصول النحو على مذهب أصول الكلام والفقه، وهو بحث فلسفي في اللغة وأصولها واشتقاقها وأحكامها ومآخذها وما يجوز القياس فيه، والكتاب عدة أجزاء ضخمة منها الجزآن الأول والثاني في المكتبة

الخديوية تزيد صفحاتهما على ٧٠٠ صفحة، والجزآن ٣ و٤ في مكتبة غوطا، وأجزاء أخرى في مكتبتي راغب ونور عثمانية في الآستانة.

(٢) سر الصناعة في النحو: هو كتاب ضخم في نحو ٦٠٠ صفحة يشتمل على أحكام حروف المعجم وأحوال كل حرف منها من حيث موقعه، وفيه أبحاث في الصوت ومخارج الحروف ولفظها والحركات، وما هي وأجناس الحروف وفروعها وما يناسب تقاربه منها في اللفظ ونحو ذلك من الأبحاث الدقيقة، فبدأ بالهمزة فالباء وما بعدها إلى آخر الأبجدية، ونظر في كل حرف وأين يكثر أو يقل من حيث موقعه من الألفاظ، وأحكام ما يصيبه من القلب والإبدال وغير ذلك من المواضيع، التي تهمُّ طالب تحليل الألفاظ وفلسفة اللغة، منه نسخ خطية في برلين وليدن وباريس وراغب وكوبرلي، وفي المكتبة الخديوية ومكتبة الظاهر في دمشق.

(٣) شرح تصريف المازني: في مكتبتي راغب باشا وكوبرلي بالآستانة.

(٤) كتاب العروض: هو مختصر لطيف في برلين وفينا وليدن.

(٥) مختصر القوافي: في الأسكوريال.

(٦) اللمع في النحو: في برلين وأيا صوفيا وعليها شروح عديدة.

(٧) المحتسب في إعراب الشواذ: في مكتبة راغب.

(٨) شرح المتنبي: في المكتبة الخديوية.

(٩) المبهج: هو شرح أسماء شعراء الحماسة شرحًا لغويًّا لا تاريخيًّا، منه نسخة في المكتبة الخديوية في ٧٢ صفحة.

(١٠) مختصر التعريف الملوكي، أو جمل أصول التصريف: مطبوع في ليبسك مع ترجمة لاتينية سنة ١٨٨٥.

(١١) علل التثنية: منه نسخة خطية في ليدن.

(١٢) التنبيه في شرح الحماسة: هو كتاب ضخم في نيف و٤٠٠ صفحة فيها شرح لغوي نحوي موجود في ليدن وفي المكتبة الخديوية.

وترجمة ابن جني في ابن خلكان ٣١٣ ج١، ويتيمة الدهر ٧٧ ج١، وطبقات الأدباء ٤٠٦.

(٤) نحاة آخرون

واشتهر في العصر نحاة يرجع إليهم في التحقيق، وإن لم يخلفوا كتبًا؛ فإن في الناس من يحسن التعليم دون التأليف، ومن مشاهير النحاة الذين لم يصلنا من مؤلفاتهم ما يستحق الذكر:

- ابن درستويه المتوفى سنة ٣٤٧ من تلاميذ المبرد، وهو فارسي الأصل ألف عدة كتب لم يبق منها إلا «الألفاظ للكتاب» منه نسخة خطية في مكتبة أكسفورد. وترجمته في ابن خلكان ٢٥١ ج١.
- أبو سعيد السيرافي ويعرف بالقاضي، توفي سنة ٣٦٨، وكان واسع العلم عريض الجاه، تولى قضاء بغداد وشرح كتاب سيبويه، وألف كتاب ألفات الوصل والقطع، وكتاب أخبار النحويين البصريين وغيرها لم يصلنا منها شيء، وكان الرجل ثقة يشتغل عليه الطلاب عدة فنون في القرآن واللغة والرياضيات والشعر وغيرها. وترجمته في معجم الأدباء ٨٤ ج٣، وابن خلكان ١٣٠ ج١، وطبقات الأدباء ٣٧٩.
- أبو علي الفارسي المتوفى سنة ٣٧٧، وكانت له منزلة عند سيف الدولة وعضد الدولة. ومن مؤلفاته كتاب الإيضاح والتكملة شرحه كثيرون ومنه شروح خطية في المكتبة الخديوية أحدها للعكبري. وترجمته في ابن خلكان ١٣١ ج١، ومعجم الأدباء ٩ ج٣، وطبقات الأدباء ٣٨٧.
- أبو حسن الرماني المتوفى سنة ٣٨٤، له عدة مؤلفات وشروح، وابن بقية المتوفى سنة ٤٠٦، والربعي سنة ٤٢٠، والأفليلي سنة ٤٤١، والثمانيني سنة ٤٤٢، وغيرهم مما يطول شرحه وقد ترجمهم ابن خلكان.

اللغة واللغويون

يمتاز هذا العصر عما تقدمه بأنه فيه نضجت علوم اللغة، وتم نشوء المعاجم اللغوية فنبغ من علماء اللغة طائفة حسنة أهمهم الذين اشتغلوا في ضبط الألفاظ وتدوينها وتعريف معانيها وترتيبها على حروف المعجم أو على المعاني، وهم أصحاب المعاجم سنفرد لهم فصلًا خاصًّا بعد الكلام عن علماء اللغة على العموم، وهم:

(١) المطرز البارودي (توفي سنة ٣٤٥هـ)

هو أبو عمر محمد بن عبد الواحد بن أبي هاشم المعروف بالمطرِّز البارودي الزاهد غلام ثعلب، وكان من أكابر أئمة اللغة المكثرين، أخذ عن ثعلب المتقدم ذكره، وكان واسع الرواية غزير المادة لكن أدباء عصره يخطئونه في أكثر نقله ويقولون: لو طار طائر لقال أبو عمر: «حدثنا ثعلب عن ابن الأعرابي كذا.» ويقال: إنه أملى من حفظه أكثر من ٣٠٠٠٠ ورقة في اللغة. توفي ببغداد ودفن فيها، وألف كتبًا كثيرة ذكرها صاحب الفهرست لم يصلنا منها إلا:

(١) كتاب العشرات: هي عبارة عن جمع عشرة ألفاظ في معنى واحد، منه نسخة خطية في مكتبة برلين.

(٢) كتاب أخبار العرب: في الأسكوريال ولم يذكره الفهرست بهذا الاسم وترجمته في ابن خلكان ٥٠٠ ج١ والفهرست ٧٦، وطبقات الأدباء ٣٤٥.

(٢) أبو علي القالي (توفي سنة ٣٥٦هـ)

هو أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي اللغوي، جده من موالي عبد الملك بن مروان، وكان أحفظ أهل زمانه للغة والشعر ونحو البصريين، تتلمذ لابن دريد ونفطويه وابن درستويه وغيرهم، وطاف البلاد فسافر إلى بغداد أقام بها ٢٥ سنة، وأقام في الموصل زمنًا وسافر إلى الأندلس فدخل قرطبة على زمن عبد الرحمن الناصر، وتوفي فيها سنة ٣٥٦، وله عدة مؤلفات أكثرها في اللغة هاك ما وصلنا منها:

(١) كتاب الأمالي: هو من نوع كتاب الكامل للمبرد، أملاه في جامع الزهراء بقرطبة، ومنه نسخ خطية في برلين وباريس والأسكوريال، وقد طبع بمصر سنة ١٩٠٧ في مجلدين لهما ذيل.

(٢) كتاب البارع في اللغة: بناه على حروف المعجم في نحو ٥٠٠ ورقة؛ أي ألف صفحة، فهو من قبيل المعاجم، ولم يبق منه إلا نتف في مكتبة باريس.

(٣) كتاب النوادر: منه نسخة خطية في المكتبة الخديوية.

وترجمته في ابن خلكان ٧٤ ج١، ومعجم الأدباء ٣٥١ ج٢.

(٣) أبو أحمد العسكري (توفي سنة ٣٨٢هـ)

هو أبو أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكري اللغوي نسبة إلى عسكر مكرم في الأهواز، وهو غير أبي هلال العسكري المتقدم ذكره بين الأدباء، وكان أبو أحمد صاحب أخبار ونوادر، وكان الصاحب بن عباد يود الاجتماع به ولا يجد إليه سبيلًا:

فاحتال في السفر إليه ولقيه وأطراه، وخلف أبو أحمد عدة مؤلفات وصل إلينا منها:

(١) كتاب التصحيف والتحريف: جمع فيه المصحف والمحرف من الكلمات التي وردت عن البلغاء، مما يعد من أنواع البديع ومن فروع المحاضرات، وشرح الكلمات المشتبهة، وهو مفيد طبع في مصر ١٣٢٧.

(٢) كتاب الزواجر والمواعظ: في مكتبة كوبرلي بالآستانة.

(٣) الحكم والأمثال: مكتبة زكي باشا بمصر.

وترجمة أبي أحمد في ابن خلكان ١٣٢ ج١، ومعجم الأدباء ١٢٦ ج٣.

ومن علماء اللغة في هذا العصر أيضًا غير أصحاب المعاجم الآتي ذكرهم: جنادة المتوفى سنة ٣٩٩، والسمسماني توفي ببغداد سنة ٤١٥، وصاعد اللغوي توفي سنة ٤١٧، وابن السيد القيسي توفي سنة ٤٢٧هـ، وقد ترجمهم ابن خلكان.

(٤) المعاجم اللغوية وأصحابها

ولدت المعاجم اللغوية في العصر العباسي الأول في كتاب العين للخليل المتوفى سنة ١٨٠، لكنها لم تتضح ويتم نموها إلا في العصر الثالث الذي نحن في صدده فيحسن بنا أن نشبع الكلام فيها.

(٤-١) المعاجم على العموم

أسبق الأمم إلى المعاجم اللغوية الصينيون، فإنهم وضعوا معجمًا فيه ٤٠٠٠٠ كلمة في القرن الحادي عشر قبل الميلاد، مؤلفه اسمه باوتشي، وأقدم معجم لغوي في اللغة اللاتينية اسمه (Lingua Latina) ألفه «وارو» المتوفى سنة ٢٨ قبل الميلاد، ونحو ذلك الزمن أو بعيده ظهر أقدم معجم للغة هوميروس ألفه أبولونيوس الغراماطيقي الإسكندري في زمن أوغسطس، ثم ظهر معجم اللغة اليونانية كاملًا سنة ١٧٧ للميلاد تأليف يوليوس بولكس، ثم يأتي العرب وهم أسبق الأمم الحديثة إلى المعاجم اللغوية؛ وهاك تاريخها.

(٤-٢) مآخذ المعاجم العربية

نريد بالمعاجم كتب اللغة التي تترتب فيها الألفاظ على حروف المعجم أو على المعاني المتشابهة أو المتقاربة، وهي مأخوذة في الأصل عن السماع من أفواه العرب في أدوار مختلفة، وقد علمت مما تقدم أنهم بدءوا بأخذ اللغة وآدابها الجاهلية من صدر الإسلام بالبصرة والكوفة من فصحاء ذكرنا بعضهم عند الكلام عن علم الأدب.

فكان الرواة كحماد والأصمعي وأبي عبيدة وغيرهم يروون ما يسمعونه أو يأخذونه عمن سمعه ويدونونه أو ينقلونه. ويدخل في ذلك أشعار العرب وأخبارهم وأمثالهم وألفاظهم وعلومهم وآدابهم، ودونوا ذلك أولًا في كتب مستقلة كل موضوع على حدة ككتب الإبل وأسماء الوحوش وخلق الإنسان والخيل والشاه والنبات والشجر والنخيل وغيرها للأصمعي، وكتب اللبن والمطر لأبي زيد الأنصاري ونحوها.

ويلحق ذلك ما ألفوه من كتب النوادر في اللغة، وهي تشتمل على النادر استعماله من الألفاظ ودلالاتها ككتب النوادر للكسائي وأبي زيد والشيباني والقالي، وكتب الغريب في اللغة كغريب أبي عبيد والشيباني وابن الأعرابي، وشروح الشعر فإن فيها كثيرًا من الألفاظ المشروحة مع بيان أحوالها اللغوية، وسائر الكتب التي تبحث في اللغة واشتقاقها وألفاظها، وكذلك كتب الأضداد والأشباه والنظائر، ومن هذا القبيل كتاب الألفاظ الكتابية لعبد الرحمن بن عيسى الهمذاني المتوفى سنة ٣٢٧ﻫ تقدم ذكره، وكتاب البارع للقالي، وأبنية الأفعال لابن القوطية الآتي ذكره.

ومنها كتاب «ديوان الأدب» لإسحاق بن إبراهيم الفارابي المتوفى سنة ٣٥٠، خال الجوهري صاحب تاج اللغة الآتي ذكره، جعله على ستة كتب أولها في السالم والثاني في المضاعف (٣) المثال. (٤) ذوات الثلاثة. (٥) ذوات الأربعة. (٦) كتاب الهمزة. وجعل كل كتاب من هذه الكتب شطرين: أسماء وأفعال، وقدم الأسماء على الأفعال، واستشهد بالأشعار، ومن هذا الكتاب نسخ خطية في ليدن وأكسفورد وفي المكتبة الخديوية في ٣٠٠ صفحة خط قديم.

فهذه الكتب وأمثالها كانت عونًا كبيرًا في تأليف المعاجم، على أن الذين ألفوا المعاجم رجعوا أيضًا في التحقيق إلى سماع الألفاظ من العرب العاربة أو ممن سمعها عنهم، وقد ذكرنا أسماء القبائل التي أخذت اللغة عنها، وإليك تاريخ المعاجم:

(٤-٣) تاريخ المعاجم العربية

أول من رتب ألفاظ اللغة على الأبجدية الخليل بن أحمد في كتاب العين، وقد تقدم ذكره في الكلام عن اللغة في العصر العباسي الأول، تليه جمهرة ابن دريد المتوفى سنة ٣٢١، وقد ذكرناها بين كتب اللغة في العصر العباسي الثاني، وعليها كان معول طلاب اللغة في ذلك العصر والذي يليه، وقد انتقدها ابن جني ونفطويه، فأقدم المعاجم كتاب العين فالجمهرة لابن دريد فالبارع للقالي، وقد تقدم ذكرها.

وهاك المعاجم التي ظهرت بعد ذلك مع تراجم أصحابها مرتَّبة حسب تاريخ الوفاة:

التهذيب للأزهري (المتوفى سنة ٣٧٠ﻫ)

هو أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهر طلحة بن نوح بن أزهر الأزهري الهروي اللغوي، كان فقيهًا وغلبت عليه اللغة فاشتهر بها، قرأ على ثعلب وابن دريد ونفطويه،

ورحل فطاف أرض العرب في طلب اللغة، ووفق إلى ذلك بوقوعه في أسر قوم نشئوا في البادية يتتبعون مساقط الغيث أيام النجع، ويرجعون إلى إعداد المياه في محاضرهم زمان القيظ ويرعون النعم، ويعيشون بألبانها ويتكلَّمون بطباعهم البدوية، ولا يكاد يوجد في منطقهم لحن أو خطأ فاحش.

فبقي في أَسْرهم دهرًا طويلًا يشتي في الدهناء ويربع في الصمان ويقيظ بالستارين، فاستفاد من محاوراتهم ومخاطباتهم ألفاظًا جمة، فلما ألف كتابه «التهذيب» أدخل ذلك كله فيه، وجرى في ترتيبه على ترتيب كتاب العين؛ أي حسب مخارج الحروف. وقد صدره بمقدمة أورد فيها أسماء الرواة حسب طبقاتهم مع خلاصة تراجمهم وأسماء الذين ساءوا التأليف في اللغة، وعقد فصلًا في ألقاب الحروف ومدارجها مع نصوص كثيرة من كتاب العين، وهي مقدمة مفيدة.

ومن كتاب التهذيب نسخ خطية في مكاتب أيا صوفيا ونور عثمانية وكوبرلي في الآستانة، ونسخة في المكتبة الأحمدية بحلب، وفي المكتبة الخديوية جزءان كبيران صفحاتهما نحو ٢٠٠٠ صفحة، ينتهي الثاني بمادة ذرا والخط جميل والصفحات كبيرة جدًّا.

كتاب غريب الألفاظ التي استعملها الفقهاء: منها نسخ في برلين وكوبرلي.

وترجمة الأزهري في ابن خلكان ٥٠١ ج١.

المحيط للصاحب بن عباد (المتوفى سنة ٣٨٥هـ)

قد تقدمت ترجمته بين المنشئين، وكتابه «المحيط» مرتب على حروف الأبجدية كما هي اليوم في سبعة مجلدات أكثر فيه الألفاظ وقلل الشواهد، ومنه الجزء الثالث في المكتبة الخديوية.

المجمل لابن فارس (المتوفى سنة ٣٩٠هـ)

هو أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد بن حبيب الرازي، كان إمامًا في علوم شتى وخصوصًا اللغة، وله فضل التقدم في وضع المقامات؛ لأنه كتب رسائل اقتبس العلماء منها نسقه، وعليه اشتغل بديع الزمان الهمذاني كما تقدم، وتفقه عليه الصاحب بن عباد، وكان أستاذ عصره وقد خلف مؤلفات ذات شأن هاك أشهرها:

(١) كتاب المجمل في اللغة: اقتصر فيه على الألفاظ الهامة المستعملة، أخذ أكثرها عن السماع وأخذ عمن تقدمه واختصر الشواهد، ورتبه على الأبجدية المعروفة اليوم، وأجمل الكلام فيه ومنه اسمه، منه نسخ خطية في برلين وغوطا وليدن وباريس والمتحف البريطاني وأكسفورد ويني جامع وكوبرلي، وفي كتب الشنقيطي بالمكتبة الخديوية نسخة في مجلدين كبيرين صفحاتهما نحو ١٣٠٠ صفحة حسنة الخط.

(٢) كتاب الثلاثة: يشتمل على ألفاظ ذات ثلاثة معان مثل مثلثات قطرب، منه نسخة في الأسكوريال.

(٣) كتاب ذم الخطأ في الشعر: في برلين.

(٤) كتاب نقد الشعر: ذكره السيوطي بالمزهر ولم نقف على خبره.

(٥) كتاب الصاحبي: في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها؛ تسمى بذلك لأنه ألفه للصاحب بن عباد وجيه ذلك العصر، وفيه أبحاث في أصل اللغة العربية وخصائصها واختلاف لغاتها بحسب القبائل والمواطن، وتعريف أقسام الكلام والأسماء العربية وأسبابها والحروف الهجائية وتركيبها على الهجاء وغير ذلك من المواضيع اللغوية، وهو كتاب نفيس طبع بمصر سنة ١٩١٠، وفي صدره فصل في ترجمة حياة المؤلف.

(٦) كتاب الاتباع والمزاوجة: جمع فيه ما ورد من كلام العرب مزدوجًا كقولهم: ساغب لاغب، ومايق دايق، والسيف والليف، منه نسخة بين كتب الشنقيطي بالمكتبة الخديوية في ٤٤ صفحة ولم يذكر بين مؤلفاته.

وترجمة ابن فارس في ابن خلكان ٣٥ ج١، ومعجم الأدباء ٦ ج٢.

الصحاح للجوهري (توفي سنة ٣٩٨هـ)

هو أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، أصله من فاراب ببلاد الترك؛ ولذلك سموه الفارابي أيضًا، وهو غير أبي نصر الفارابي الفيلسوف المتقدم ذكره، فإن اسمه محمد بن طرخان، وغير إسحاق بن إبراهيم الفارابي صاحب ديوان الأدب، فإنه خال إسماعيل بن حماد الذي نحن في صدده.

وكان إسماعيل هذا واسع العلم في اللغة، أخذ عن خاله المذكور وغيره، وسافر في البدو والحضر فدخل ديار ربيعة ومضر، وطاف الحجاز في طلب الأدب وإتقان اللغة ورجع إلى خراسان، فأقام في نيسابور للتدريس والتأليف وتعليم الخط؛ لأن خطه كان

جميلًا، ثم وضع كتاب الصحاح وسماه «تاج اللغة وصحاح العربية»، فانتقى من ألفاظ اللغة ما صح عنده فجاء أوعى من مجمل ابن فارس وتهذيب الأزهري وجمهرة ابن دريد، ورتَّبه على أسلوب لم يسبقه إليه أحد، فجعل القاعدة في ترتيب الألفاظ على أواخر الكلم، فيضع «قلب» مثلًا قبل كلمة «بيت» وهكذا؛ ولهذا الترتيب فائدة عند الشعراء في طلب القوافي، ويمتاز الصحاح على سواه أنه استوعب الألفاظ المستعملة في ديار مضر، وحققها بالسماع من عرب البادية هناك؛ لأنه عاشرهم، وفي الكتاب خطأ في ضبط بعض الألفاظ ذكر سببه ياقوت في معجم الأدباء قال: «إن الجوهري صنف كتاب الصحاح للأستاذ أبي منصور عبد الرحيم بن محمد البيشكي وسمعه منه إلا باب الضاد المعجمة، واعترى الجوهري وسوسة فانتقل إلى الجامع القديم بنيسابور، فصعد إلى سطحه وقال: أيها الناس إني عملت في الدنيا شيئًا لم أسبق إليه فسأعمل للآخرة أمرًا لم أسبق إليه، وضم إلى جنبيه مصراعي باب وتأبطهما بحبل وصعد مكانًا عاليًا من الجامع، وزعم أنه يطير فوقع فمات، وظلت بقية الكتاب مسودة غير منقحة ولا مبيضة فبيضه أبو إسحاق بن صالح الوراق تلميذ الجوهري بعد موته، فغلط فيه في عدة مواضع غلطًا فاحشًا.»

وقد طبع الصحاح في تبريز سنة ١٢٧٠ على الحجر، وفي مصر سنة ١٢٨٢، وفي طبعة مصر مقدمات لأبي الوفاء الهوريني في تاريخ المعاجم، وكيفية استخدام الكتاب وما هي الفصول الساقطة منه، وقد لخصه كثيرون وترجم إلى الفارسية في كتاب سمي «الصراح» ترجمه أبو الفضل جمال الدين القرشي سنة ٩٧٦هـ، ومن هذه الترجمة نسخ خطية في برلين والمتحف البريطاني وغيرهما، وطبعت في كلكتة سنة ١٨١٢.

ولخصه محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي من أهل القرن الثامن للهجرة في كتاب سماه «مختار الصحاح»، اقتصر فيه على ما لا بد منه في الاستعمال وضم إليه كثيرًا من تهذيب الأزهري وغيره، وكل ما أهمله الجوهري من الأوزان ذكره بالنص على حركاته، وهو شائع ومطبوع مرارًا بمصر وغيرها، ومنه نسخ خطية في مكاتب أوروبا، وألف كثيرون في نقد الصحاح للأسباب التي قدمناها كتبًا ورسائل لا محل لذكرها، ودافع عنه كثيرون، راجع كشف الظنون ٧٤ ج٢.

وللجوهري هذا فضل في تتميم علم العروض والزيادة في أوزانه،[١] وقد تقدم خبر ذلك، وترجمته في معجم الأدباء ٢٦٦ ج٢، ويتيمة الدهر ٢٨٩ ج٤.

الجامع للقزاز (المتوفى سنة ٤١٢هـ)

هو أبو عبد الله محمد بن جعفر التميمي النحوي القزاز القيرواني، كان في خدمة العزيز الفاطمي صاحب مصر، وكان مقدمًا وجيهًا وصنف له كتبًا من جملتها كتاب «الجامع» في اللغة وكلها ضاعت، وترجمته في ابن خلكان ٥١٤ ج١.

الموعب للتياني (المتوفى سنة ٤٣٦هـ)

وهو أبو غالب تمام بن غالب بن عمر اللغوي من أهل قرطبة، ألف الموعب وجمع فيه الصحيح من محتويات كتاب العين والجمهرة ولم يختصر الشواهد، لكن الكتاب ضاع، وترجمته في ابن خلكان ٩٧ ج١.

المحكم والمخصص لابن سيده (المتوفى سنة ٤٥٨هـ)

وهو آخر أصحاب المعاجم التي ظهرت في ذلك العصر وأعظمهم، وهو الحافظ أبو الحسن علي بن إسماعيل المعروف بابن سيده المرصي الأندلسي، كان ضريرًا وأبوه ضرير، وكان أبوه عالمًا في اللغة فأخذها عنه وعن غيره، وكان حافظًا أقام في مرسية، وتوفي في دانية من أعمال الأندلس، وقد أَلَّف غير كتاب في اللغة والأدب، هاك ما وصلنا منها:

(١) المحكم في اللغة: واسمه المحكم والمحيط الأعظم، وهو كبير جامع، يشتمل على أنواع اللغة، رتب ألفاظه على ترتيب كتاب العين، وقد نظم بعضهم ثلاثة أبيات يؤخذ ترتيب حروف المحكم من أوائل ألفاظها وهي:

علقت حبيبًا هنت خيفة غدره   قليل كرى جفني شكا ضر صده
سبا زهوه طفلًا ديانة تائب   ظلامته ذنب ثوى ربع لحده
نواظره فتاكة بعميده   ملاحته أجرت ينابيع وجده

ويمتاز المحكم بالضبط والدقة وصدق النظر وقد انتقى شواهده من أوثق المصادر الشعرية وغيرها، وعليه كان معول صاحب القاموس في تأليف كتابه كما سيأتي في مكانه، والمحكم موجود في المتحف البريطاني، وفي المكتبة الخديوية منه أجزاء كثيرة لا يتم منها نسخة كاملة، وأكبر مجموعة من تلك الأجزاء تبلغ ١٨ جزءًا تزيد صفحاتها

على خمسة آلاف صفحة خطها قديم مغربي، وللمحكم خلاصة لمحمد الأنسي المتوفى سنة ٦٨٠، منها نسخة في المتحف البريطاني.

(٢) المخصص: وهو معجم معنوي؛ أي إن مواده مرتبة على معانيها وليس على حروفها، فهو مثل فقه اللغة للثعالبي ولكنه أوسع منه كثيرًا، وقد طبع في مصر سنة ١٣١٦ في ١٧ مجلدًا عن نسخة خطية مخرومة كانت في المكتبة الخديوية، ومنه أجزاء خطية متفرقة في مكتبتي أكسفورد والأسكوريال، وهو أوفى كتاب في بابه قد اجتمعت فيه الألفاظ المتشابهة والمتقاربة في معانيها أو المتفرعة بعضها عن بعض في باب واحد، وفي ذيله فهرس أبجدي يسهل البحث عن مواده.

(٣) كتاب شرح مشكل المتنبي: منه نسخة خطية في المكتبة الخديوية.

وترجمه ابن سيده في ابن خلكان ٣٤٢ ج١.

هوامش

(١) العمدة ٨٨ ج١.

التاريخ والمؤرخون

اتخذ التاريخ في هذا العصر وجهًا آخر فتكاثرت فيه التواريخ الخاصة للمدن الإسلامية أو الأمم أو الأشخاص، وذلك طبيعي بعد استبحار العمران وظهور الدول المتنافسة في الشهرة والسيادة وفي ترقية المملكة الإسلامية، وأكثرهم يقربون الكتاب ويغرونهم على تدوين محامدهم، كما فعل عضد الدولة بأبي إسحاق الصابي المتقدم ذكره وكما فعل محمود الغزنوي بالعتبي الآتي ذكره.

وقد دعا إلى تدوين تواريخ الدول المستقلة ما انتهى في ذلك العصر من الانقلابات السياسية، وتاريخ الأمة أو الدولة يدون غالبًا في أواخر أيامها أو بعد انقضائها، وأما تراجم الأفراد فيغلب تدوينها في حياة أصحابها بإيعاز منهم؛ ونظرًا لتوالي التقلبات على مصر في القرنين الثالث والرابع بتنقلها من العباسيين إلى الطولونيين فالإخشيديين فالفاطميين ظهر فيها عدة كتب في التواريخ الخاصة ضاع أكثرها وسنذكر ما بقي منها.

وفي هذا العصر تولَّد ضرب من التاريخ سموه «علم الأوائل»، ومنه يعرف أوائل الوقائع والحوادث بحسب الموطن، وأول من ألَّف فيه تأليفًا مستقلًّا أبو هلال العسكري، وقد تقدم ذكره.

أما التاريخ العام فقد خالط بعضه في هذا العصر صبغة الرحلة لكثرة ما كان من توالي الرحلات فيه كما سيجيء مع وصف الأماكن الجغرافية، فالمؤرخ يصف ما سمعه ورآه من الغرائب، وأكثرهم إفاضة في ذلك المسعودي، وكان هو نفسه من أهل الأسفار وكذلك أبو زيد البلخي، وقد ألَّف في التاريخ والجغرافيا، وذكرناه بين المؤرخين في العصر الماضي، غير أصحاب الجغرافية الآتي ذكرهم.

ويقال على الإجمال: إن النقد التاريخي لم ينضج في تواريخ هذا العصر؛ لأن أكثرها كتب ولا سيما التواريخ الخاصة تحت سيطرة الملوك والأمراء لإرضائهم، وقد يمتنعون

عن الانتقاد تحاشيًا من التعرض للأحزاب الدينية إلا ما كان بين السنة والشيعة وهم مع ذلك يتحاشونه، ولعل التلاعب بعد ذلك في النسخ أفسد ما دونوه.

ونبدأ بذكر التواريخ العامة ثم الخاصة ونرتب التراجم في كليهما على سني الوفاة:

(١) أصحاب التواريخ العامة

(١-١) المسعودي (توفي سنة ٣٤٦هـ)

هو علي بن الحسين بن علي ذرية عبد الله بن مسعود؛ ولذلك قيل له: المسعودي، نشأ في بغداد وجاء مصر ورحل في طلب العلم إلى أقصى البلاد، فطاف فارس وكرمان سنة ٣٠٩ حتى استقر في إصطخر، وفي السنة التالية قصد الهند إلى ملتان والمنصورة، ثم عطف إلى كنباية فصيمور فسرنديب (سيلان) ومن هناك ركب البحر إلى بلاد الصين وطاف البحر الهندي إلى مداغسكر وعاد إلى عمان، ورحل رحلة أخرى سنة ٣١٤ إلى ما وراء أذربيجان وجرجان ثم إلى الشام وفلسطين، وفي سنة ٣٣٢ جاء أنطاكية والثغور الشامية إلى دمشق، واستقر أخيرًا بمصر ونزل الفسطاط سنة ٣٤٥، وتوفي في السنة التالية، ولم يفتر في أثناء أسفاره عن الاستقصاء والبحث واكتساب العلوم على اختلاف مواضيعها، فجمع من الحقائق التاريخية والجغرافية ما لم يسبقه إليه أحد، وألف كثيرًا من الكتب المفيدة في مواضيع شتى أهمها في التاريخ وهاك أشهر مؤلفاته الباقية:

(أ) مروج الذهب ومعادن الجوهر: هو أشهر من أن يعرَّف لشيوعه، وقد طبع مرارًا في جزئين، وصف في الأول منهما الخليقة وقصص الأنبياء مختصرًا، ثم وصف البحار والأرضين وما فيهما من العجائب، ويدخل في ذلك تواريخ الأمم القديمة من الفرس والسريان واليونان والرومان والإفرنج والعرب القدماء وأديانهم وعاداتهم ومذاهبهم وأوابدهم، وأطوال الشهور والتقاويم القديمة والبيوت المعظمة وغيرها، ثم عطف على تاريخ الرسالة الإسلامية من ظهور النبي إلى مقتل عثمان، وذكر في المجلد الثاني تاريخ الإسلام من خلافة علي إلى أيام المطيع لله العباسي (توفي سنة ٣٦٣).

ويظهر مما جاء في مقدمته أنه نقل هذا الكتاب عن عشرات من الكتب التاريخية وغيرها كانت موجودة في أيامه لم يصلنا منها إلا بضعة قليلة كتاريخ الطبري وفتوح البلدان للبلاذري، وأما الباقي فقد ضاع وفيه عشرات من كتب التاريخ والسياسة والاجتماع، وفي خلال هذا الكتاب فوائد كثيرة لا تجدها في سواه؛ ولذلك فقد عني

المستشرق باربيه دي مينار بنقله إلى اللغة الفرنساوية، وطبع في باريس سنة ١٨٧٢ في ٩ مجلدات، وقد انتقد هذه الترجمة عبد الله المراش في مجلة الضياء (سنة ٢)، ونقله إلى الإنكليزية الأستاذ سبرنجر وطبع الجزء الأول من ترجمته في لندن سنة ١٨٤١.

(ب) كتاب أخبار الزمان ومن أباده الحدثان من الأمم الماضية والأجيال والممالك الداثرة، وهو كبير طويل مثل اسمه يدخل في ٣٠ مجلدًا، وقد أكثر المسعودي من الإشارة إليه في مروج الذهب، إذا اختصر الكلام في باب قال: «وقد فصلنا ذلك في كتابنا أخبار الزمان.» لكن هذا الكتاب ضائع الآن، وليس منه إلا الجزء الأول في مكتبة فينا.

(ج) كتاب الأسط: هو وسط بين الكتابين المتقدمين وقد ضاع أيضًا، ولكن في مكتبة أكسفورد نسخة يظنون أنها هو، ويظن بعض الباحثين أنه وقف على شيء منه في بعض مكاتب دمشق.[١]

(د) كتاب التنبيه والإشراف: أودعه لمعًا من ذكر الأفلاك وهيئاتها، والنجوم وتأثيراتها، والعناصر وتركيبها، وأقسام الأزمنة وفصول السنة ومنازلها، والرياح ومهابها، والأرض وشكلها ومساحتها، والنواحي والآفاق وتأثيرها على السكان، وحدود الأقاليم السبعة، والعروض، والأطوال، ومصاب الأنهار، وذكر الأمم السبع القديمة ولغاتها ومساكنها، ثم ملوك الفرس على طبقاتهم والروم وأخبارهم، وجوامع تواريخ العالم والأنبياء، ومعرفة السنين القمرية والشمسية، وسيرة النبي وظهور الإسلام، وسير الخلفاء وأعمالهم ومناقبهم إلى سنة ٣٤٥، وفيه أشياء كثيرة لا توجد في غيره من كتب التاريخ، وقد طبع في ليدن سنة ١٨٩٤ في جملة المكتبة الجغرافية في ٥٠٠ صفحة.

وترجمة المسعودي في فوات الوفيات ٤٥ ج٢، والفهرست ١٥٤.

(١-٢) حمزة الأصفهاني (توفي نحو سنة ٣٥٠هـ)

هو حمزة بن حسن الأصفهاني كان مقيمًا في بغداد بأوائل القرن الرابع، وأصله من أصفهان كان يتعصَّب لغير العرب، وعوَّل في ما كتبه على المصادر الفارسية، وأشهر كتبه:

(أ) كتاب تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء: رتَّبَهُ في عشرة أبواب ذكر فيها شيئًا من أنساب حمير وسائر دول العرب من غسان ولخم وكندة، فضلًا عن ملوك الفرس والروم وغيرهم، ويوجه همه بالأكثر إلى تحقيق سنة الولادة والوفاة، طبع في ليبسك مع

ترجمة لاتينية سنة ١٨٤٤، وفي مقدمة الكتاب أسماء الكتب الفارسية التي استعان بها في تأليفه.

(ب) كتاب الأمثال: منه نسخة في مكتبة منشن.

(جـ) كتاب الخصائص والموازنة بين العربية والفارسية: منه نسخة خطية في المكتبة الخديوية في ١٠٠ صفحة مكتوب على ظهرها أنها تأليف حمزة الأصفهاني.

وترجمته في الفهرست ١٣٩.

(١-٣) ابن النديم (توفي نحو سنة ٣٨٥هـ)

هو أبو الفرج محمد بن إسحاق بن يعقوب النديم الوراق البغدادي صاحب الفضل الأكبر على تاريخ آداب اللغة؛ لأنه أول من دوَّنها منذ نحو ألف سنة في «الفهرست»، ولولا هذا الكتاب لضاع أخبار كثير من آداب هذا اللسان، فهو أول من ألف في آداب اللغة، وإليك وصف كتابه: كتاب الفهرست: بدأ فيه صاحبه بوصف لغات الأمم من العرب والعجم وخطوطها، وصوَّر أمثلة منها، ثم ذكر كتب الشرائع المنزلة على مذاهب المسلمين والقرآن وعلومه، ثم انتقل إلى العلوم فذكر النحويين واللغويين وتاريخ النحو وأصحابه في البصرة والكوفة وأسماء كتبهم، فأصحاب الأخبار والآداب والسير وكتبهم، فالشعر والشعراء، فالكلام والمتكلمين، فالفقه والفقهاء، والحديث والمحدثين، فالفلسفة والعلوم القديمة وأصحابها، فالأسمار والخرافات والعزائم والسحر والشعوذة، فالمذاهب والاعتقادات، وأخيرًا الكيمياء وأصحابها، وفي كل باب تفاصيل في تاريخ كل مؤلف وأسماء كتبه.

وقد عني بطبع هذا الأثر النفيس المستشرق فلوجل سنة ١٨٧١ في ليدن في مجلد صفحاته ٢٦٠ صفحة كبيرة، غير الفهارس والشروح في اللغة الألمانية، وهي نحو ذلك العدد، وبعد طبع الفهرست عثروا على قطعة منه ساقطة من أول المقالة الخامسة (صفحة ١٧٢) تشتمل على تراجم طائفة من علماء الكلام، وهم واصل بن عطاء، والعلاف، والنظام، وتمامه، والجاحظ، وابن أبي داود، وابن الروندي، والناشي، والجبائي، والرماني، وهشام بن الحكم، وشيطان الطاق وغيرهم، وقد نشرت هذه القطعة في المجلة الألمانية Die Kunde des Morgenlandes سنة ١٨٨٩.

والفهرست ذخيرة أدب لا تثمن؛ لأنه حوى من أحوال آداب اللغة العربية في القرون الأولى ما لم يتعرض له غيره ولا غنى عنه في درس هذا التاريخ.

(١-٤) المرعشي (توفي سنة ٤٢١هـ)

هو أبو منصور الحسين بن محمد المرعشي كان في جملة من تقرب من السلطان محمود الغزنوي، وقد خلف: كتاب الغرر في سير الملوك وأخبارهم: في ٤ مجلدات الأول في تاريخ الفرس إلى يزدجرد بن بهرام والحروب بين أبنائه، والثاني إلى سقوط يزدجرد بن شهريار وتاريخ ملوك اليهود والأنبياء وملوك اليمن وأمراء الشام والعراق والروم وظهور الإسلام، الثالث والرابع في تواريخ الخلفاء الأمويين والعباسيين والدول الصغرى التي تفرعت من الدول العباسية كالطاهرية والسامانية والحمدانية والبويهية والغزنوية، وقد ألفه بأمر أبي المظفر نصر أخي السلطان محمود الغزنوي، ومنه الجزآن الأول والثاني في مكتبة باريس.

(١-٥) مسكويه (توفي سنة ٤٢١هـ)

هو أبو علي الخازن أحمد بن محمد بن يعقوب الملقب مسكويه. كان مجوسيًّا وأسلم، وهو من نوابغ المفكرين العاملين الذين يندر ظهورهم في الأمم، وكانت له معرفة تامة بعلوم الأقدمين وقد ألف فيها غير كتاب، وصحب ابن العميد وكان يخدمه في مكتبته، لكنه كان يشتغل بالفلسفة والكيمياء والمنطق فضلًا عن الأدب والفقه والتاريخ، وكان له ولع خاص بالكيمياء، فأنفق ماله في طلب الذهب بالطبخ، ثم ندم على ذلك وتنقلت به حاله إلى خدمة بني بويه، وعظم شأنه حتى ترفع عن خدمة الصاحب بن عباد ولم ير نفسه دونه، وكان شاعرًا مدح ابن العميد وعميد الملك، وله رسائل أنيقة على أسلوب ذلك العصر، وألف كتبًا كثيرة في الفلسفة والتاريخ، ذكرها صاحب معجم الأدباء (صفحة ٩١ ج٢) لم يبلغنا منها إلا ما يأتي:

(أ) كتاب تجارب الأمم: هو تاريخ عام يبدأ بالخليقة وينتهي سنة ٣٦٩هـ، ويدخل في ذلك تاريخ الفرس القدماء، وما يتعلق به من أخبار الروم والترك، والكتاب كبير يمتاز عما كتبه معاصروه أنه لم يجعل همه فيه جمع الحوادث بلا تدبر أو نظر. وقد استغرق هذا المؤلف ستة مجلدات كبيرة، وظلت ضائعة لم يوفق الباحثون إلى الوقوف على نسخ كاملة منها حتى عني الأستاذ كايتاني المستشرق الإيطالي في أمرها، فكلف سنة ١٩٠٦ الدكتور هوروفيتس للبحث عنها في مكاتب الآستانة، فعثر على نسخة منها في أيا صوفيا، وهي النسخة الوحيدة الكاملة فاستنسخها بالفوتوغراف، وتشتمل على ذلك

التاريخ في ستة أجزاء عنيت لجنة تذكار جيب الإنكليزية في نشرها مطبوعة على الأصل؛ أي بأن يصور الأصل الخطي كما هو ويطبع كما تطبع الصور، وقد صدر الجزء الأول على هذه الصورة في ٦٠٠ صفحة غير الفهارس والمقدمة، وينتهي الكلام فيه إلى حوادث سنة ٣٧هـ، وستظهر سائر الأجزاء بالتدريج.

وقد ألف الوزير أبو شجاع من وزراء الدولة العباسية، المتوفى سنة ٤٨٨ ذيلًا لهذا الكتاب منه نسخة في جملة كتب زكي باشا.

(ب) كتاب آداب العرب والفرس: نظر فيه نظر الفيلسوف الأديب وهو في ستة مجلدات أيضًا تكلم فيها عن الأخلاق والآداب عند العرب والفرس والهند واليونان، منه نسخ خطية في ليدن وأكسفورد وباريس.

(جـ) كتاب تهذيب الأخلاق: هو كتاب نفيس بسط فيه آراءه في النفس وقواها وماهيتها وأفعالها، وقسَّم ذلك وبوَّبه على أسلوب واضح، وبحث في الخلق وتقويمه ومراتب الناس في قبوله مستندًا في ذلك على كتب الفلاسفة الأقدمين في أسلوب تهذيبي فلسفي ترتاح النفس إليه، ويقتنع العقل بأكثر مواده، ويتخلل ذلك أبحاث في طبقات المخلوقات نحو بحث أصحاب النشوء والارتقاء اليوم، وقد أجاد في تعليل السعادة وأسبابها وبحث في العدالة وأقسامها وفي الاتحاد والمحبة وضروبها ومراتبها، وآداب الصداقة وأمراض النفس وأسبابها وعلاجها إلى غير ذلك مما يدل على صدق النظر وسداد الرأي، وقد طبع الكتاب مرارًا في مصر وغيرها.

(د) الفوز الأصغر: في الفلسفة وما يتعلق بها، وفي جملة ذلك رأيه في المخلوقات ونسبتها بعضها إلى بعض باختلاف طبقاتها من الجماد والنبات والحيوان ونحو ما ذهب إليه أهل النشوء. وقد طبع بمصر مرارًا، ومنه نسخ خطية في مكاتب أوروبا.

وترجمة مسكويه في معجم الأدباء ٨٨ ج٢، وفي تراجم الحكماء ٢١٧، وطبقات الأطباء ٢٤٥ ج١.

(٦-١) صاعد الأندلسي (توفي سنة ٤٦٢هـ)

هو أبو القاسم صاعد بن أحمد بن صاعد الأندلسي قاضي طليطلة، ولد في المرية سنة ٤٢٠، واشتهر بكتابه «طبقات الأمم»، وهو من الكتب النادرة في العربية التي تتعرض لوصف العلوم عند الأمم بعد كتاب الفهرست، وقد كان مرجع مؤرخي القرن الخامس

وما بعده في ما نقلوه عن تواريخ الأمم بالنظر إلى أحوال تمدنها وحال العلم فيها، وخصوصًا ابن أبي أصيبعة صاحب طبقات الأطباء، وأبا الفرج الملطي صاحب مختصر الدول، والحاج خليفة صاحب كشف الظنون، وكان المظنون أنه لا يوجد من هذا الكتاب إلا نسختان في مكتبة لندن ونتف في غيرها، وقد عثر الأب شيخو اليسوعي على نسخة عند أحد الوراقين في دمشق فطبعها في المشرق سنة ١٤ وعلق عليها، ولعله ينشرها على حدة أيضًا.

وهو غير صاعد بن هبة الله الطبيب النصراني، وغير صاعد بن الحسن اللغوي البغدادي المتوفى سنة ٤١٧هـ، وقد يسمى ابن صاعد، ولكنه غير ابن صاعد المحدث المتوفى سنة ٣١٨هـ.

(٢) أصحاب التواريخ الخاصة

(٢-١) أبو عمر الكندي (توفي نحو سنة ٣٥٥هـ)

هو أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب الكندي التجيبي، كان يقيم بمصر إلى أوائل النصف الثاني من القرن الرابع، وهو غير يعقوب الكندي الفليسوف المتقدم ذكره، وله من المؤلفات:

(أ) فضائل مصر: ألفه لكافور الإخشيدي، يشتمل على ما جاء عن مصر في القرآن والحديث مع تاريخها القديم وجغرافيتها وتاريخها الحديث إلى زمن كافور الإخشيدي باختصار، منه نسخة خطية في المكتبة الخديوية منقولة في الأصل عن مكتبة كافور في ٤٤ صفحة.

(ب) أخبار القضاة المصريين: هو تاريخ أولئك القضاة إلى سنة ٢٤٦هـ، منه نسخة في المتحف البريطاني، وهي الآن تحت الطبع بعناية كونيغ في نيويورك.

(ج) كتاب تسمية ولاة مصر: طبعه كونيغ المذكور، وقد صدر الجزء الأول منه سنة ١٩٠٨ مع ملاحظات.

(د) تاريخ مصر: هو عظيم الأهمية، منه نسخة خطية في المتحف البريطاني، وقد أخذت لجنة تذكار حبيب بطبعه في لندن عن تلك النسخة.

(٢-٢) أبو عبد الله الخشني (توفي نحو سنة ٣٥٨هـ)

نسبة إلى خشينة من قضاعة في قرطبة، له كتاب أخبار الفقهاء والحفاظ الأندلسيين إلى سنة ٣٥٨، منه نسخة خطية في أكسفورد.

(٢-٣) أبو الحسن الإسكندراني

كتب نحو سنة ٣٦٥ في أيام المعز لدين الله الفاطمي كتابًا كاليومية سماه «ما كفى من أخبار الأيام»، منه نسخة في الأسكوريال.

(٢-٤) ابن القوطية (توفي سنة ٣٦٧هـ)

هو أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز المعروف بابن القوطية الأندلسي الإشبيلي الأصل القرطبي المولد والدار، تثقف في إشبيلية وقرطبة، وكان من أعلم أهل زمانه باللغة والعربية مع حفظ الحديث والفقه والأخبار والنوادر، وكان أروى الناس للأشعار وأدركهم للآثار لا يلحق شأوه ولا يشق غباره، وكان مضطلعًا بأخبار الأندلس مليًّا برواية سير أمرائها وأحوال فقهائها وشعرائها يملي ذلك عن ظهر قلبه، وكانت كتب اللغة أكثر ما تقرأ عليه وتؤخذ عنه، توفي في قرطبة سنة ٣٦٧ وقد ألف كتبًا مفيدة في اللغة ويقال: إنه أول من فتح باب تصاريف الأفعال، وجاء بعده ابن القطاع واتبعه، وله كتب أخرى أهمها:

(أ) تاريخ الأندلس: يشتمل على فتح الأندلس إلى سنة ٢٨٠هـ، ومنه نسخة خطية في مكتبة باريس، وقد ترجمه إلى الفرنساوية شاربونو، وطبع بباريس سنة ١٨٥٦، وعول عليه طلاب تاريخ الأندلس من الإفرنج، وطبعوه مع ترجمة فرنساوية في باريس سنة ١٨٨٩ في ٢١٩ صفحة.

(ب) كتاب الأفعال: نشره الأستاذ جويدي في ليدن سنة ١٨٩٤.

وترجمته في ابن خلكان ٥١٢ ج١.

(٢-٥) ابن زولاق (توفي سنة ٣٨٧هـ)

هو أبو محمد الحسن بن إبراهيم بن زولاق الليثي، كان من فضلاء المؤرخين المصريين، له من المؤلفات:

(أ) كتاب مختصر تاريخ مصر إلى سنة ٤٩ للهجرة: منه نسخة في غوطا.
(ب) تاريخ مصر وفضائلها: منه نسخة في باريس، ولها مختصر في غوطا وباريس.
(ج) أخبار سيبويه المصري: وهي محمد بن موسى بن عبد العزيز الكندي الصيرفي، المتوفى سنة ٣٥٨، منه نسخة في المكتبة الخديوية في نحو ١٠٠ صفحة.
(د) تتمة كتاب الكندي في أخبار قضاة مصر: إلى سنة ٣٨٦ يبتدئ بذكر القاضي بكار وينتهي بمحمد بن النعمان، لم نقف عليه.

وترجمته في ابن خلكان ١٣٤ ج١، ومعجم الأدباء ٧ ج٣.

(٢-٦) ابن الفرضي (توفي سنة ٤٠٣هـ)

هو أبو الوليد عبد الله بن محمد الأزدي الفرضي، ولد في قرطبة سنة ٣٥١، ورحل في طلب العلم إلى القيروان ومصر، وتعين قاضيًا لبلنسية، وانتقل إلى قرطبة حتى سطا عليها البربر سنة ٤٠٣ فمات في تلك السنة، ومن آثاره الباقية «كتاب تاريخ علماء الأندلس» في عدة مجلدات نشر كوديرا الجزئين ٧ و٨، منها في مدريد سنة ١٨٩٢.

(٢-٧) عز الملك المسبحي (توفي سنة ٤٢٠هـ)

هو الأمير المختار عز الملك محمد بن عبيد الله المعروف بالمسبحي الكاتب الحراني، ولد في مصر ونشأ على زي الأجناد، وخدم الحاكم بأمر الله الفاطمي، وتقلد الأعمال والولايات وترتيب الديوان، وله مع الحاكم بأمر الله مجالس ومحاضرات، وقد ألف كتبًا كثيرة في مواضيع مختلفة أكثرها في التاريخ والأدب والنجامة وعلم النجوم وغير ذلك، لم يصلنا منها إلا القيل، وهاك ما وصلنا خبره منها:

كتاب أخبار مصر: ذكر فيه من نزل مصر من الولاة والأمراء والأئمة والخلفاء وما فيها من العجائب والأبنية، واختلاف أصناف الأطعمة، وذكر نيلها وأحوال أهلها إلى الوقت الذي كتب فيه ذلك الكتاب، ويتخلل ذلك أشعار الشعراء وأخبار المغنين ومجالس

القضاة والحكام والمعدلين والأدباء والمتغزلين وغيرهم، وهو ثلاثة عشر ألف ورقة أو ٢٦٠٠٠ صفحة، فهو أطول كتاب في تاريخ مصر ينتهي بحوادث سنة ٤١٤هـ يوجد بعضه في مكتبة الأسكوريال.

وقد ألف له محمد بن ميسر ذيلًا ينتهي إلى حوادث سنة ٥٥٣ منه نسخة في باريس.

وترجمة المسبحي في ابن خلكان ٥١٥ ج١.

(٢-٨) أبو إسحاق الثعلبي (توفي سنة ٤٢٧هـ)

هو أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري من علماء التفسير، وقد ألف فيه، وله في التاريخ «كتاب عرائس المجالس» في قصص الأنبياء، طبع بمصر مرارًا.

(٢-٩) أبو النصر العتبي (توفي سنة ٤٢٧هـ)

هو أبو النصر محمد بن عبد الجبار العتبي، وأصله من الري، وجاء خراسان إلى خال له كان من الوجهاء هناك فنشأ عنده، وكان بليغ الإنشاء فتولى الكتابة للأمير أبي علي ثم لأبي منصور سبكتكين مع أبي الفتح البستي، ثم صار نائبًا في خراسان لشمس المعالي، واستوطن نيسابور، وأقبل على خدمة الآداب والعلوم، واشتهر على الخصوص بكتاب ألفه في تاريخ يمين الدولة السلطان محمود الغزنوي سماه «اليميني» نسبة إليه.

اليميني: هو الكتاب الذي اشتهر أبو النصر العتبي بتأليفه، بسط فيه ترجمة حياة السلطان محمود وترجمة أبيه سبكتكين وسبب طمعه في الملك وما جرى من الحروب مع الخوارزمية حتى تولى، ثم تاريخ يمين الدولة إلى آخر أيامه، ويدخل في ذلك لطائف كثيرة وحقائق هامة، وقد كتبه مسجعًا على أسلوب الترسل في ذلك العصر كما فعل الثعالبي بيتيمة الدهر لكنه أبلغ منه، ولا يدانيه بالبلاغة إلا إبراهيم الصابي المتقدم ذكره، وكان يجب عده من المنشئين لولا أهمية كتابه هذا في التاريخ.

وقد اعتنى بضبط ألفاظه وشرح مشكلاته جماعة منهم الشيخ مجد الدين الكرماني، وقاسم بن حسين الخوارزمي، وتاج الدين بن محفوظ، وحميد الدين النجاتي وغيرهم، ومنه نسخ خطية في مكاتب برلين ومنشن وفينا وليدن والمتحف البريطاني وباريس وبطرسبرج ويني جامع.

وفي المكتبة الخديوية نسخة من كتاب اليميني بخط فارسي جميل جدًّا مذهبة الحواشي تدخل في ٣٧٢ صفحة، على حواشيها شروح بخطوط فارسية جميلة، وقد طبع على الحجر في دلهي سنة ١٨٤٧، وفي لاهور سنة ١٨٨٣.

ومن شروحه كتاب الفتح الوهبي على تاريخ أبي النصر العتبي للمنيني الدمشقي، منه نسخة في فينا وبطرسبرج، وطبعته جمعية المعارف سنة ١٢٨٦ بمصر في مجلدين كبيرين مصدَّرًا بترجمة العتبي، وبساتين الفضلاء للنجاتي في يني جامع، وقد ترجمه إلى الفارسية الجربادكاني، ومن هذه الترجمة نسخة في فينا والمتحف البريطاني وبرلين، وقد ترجمه من النسخة الفارسية إلى الإنكليزية رينولد، وطبع في لندن سنة ١٨٥٨.

وترجمة العتبي في يتيمة الدهر ٢٨١ ج٤، وفي مقدمة الفتح الوهبي.

(٢-١٠) هلال الصابي (توفي سنة ٤٤٨هـ)

هو أبو الحسن هلال بن المحسن بن إبراهيم بن هلال حفيد إبراهيم الصابي المنشئ صاحب الرسائل الذي تقدم ذكره، ولد سنة ٣٥٩، وكان أبوه صابئيًّا أما هو فأسلم متأخرًا وتولى الكتابة لفخر الملك بن غالب محمد بن خلف، وله تصانيف كثيرة في التاريخ والرسائل والسياسة لم يبقَ منها إلا:

تاريخ الوزراء: وهو كتاب جليل القدر؛ لأنه مسهب في وصف المدة التي تكلم عنها قاصر على ما حدث من أخبار العباسيين من سنة ٣٦٠ إلى ٤٤٧هـ، والطبري قد وفى التاريخ حقه من البسط إلى سنة ٣١٠، وألف غيره للمدة التي بعده لكن أكثرها ضاع، حتى تاريخ الوزراء هذا كادت تذهب به يد الزمان لو لم يتدارك ذلك المستشرق أمدروز الإنكليزي فطبعه سنة ١٩٠٤ في بيروت عن نسخة خطية كانت في مكتبة غوطا مع شروح وملاحظات، وليس هي كل تاريخ الوزراء، بل قطعة فيها نقص من أماكن كثيرة تنتهي بسنة ٣٩٣ في نحو ٥٠٠ صفحة كبيرة فيها فوائد يندر العثور عليها في الكتب الأخرى عن أحوال الدولة السياسية والمالية والحالة الاجتماعية وإدارة الحكومة، ودخائل قصور الخلفاء وثروتهم وعاداتهم وملاهيهم إلى غير ذلك مما يفهم من تضاعيف الكلام، ويسمى هذا الكتاب أيضًا كتاب الأعيان والأماثل.

وترجمته في ابن خلكان ٢٠٢ ج٢، ويتيمة الدهر ١٨٧ ج١، وفي مقدمة طبعة تاريخ الوزراء.

(٢-١١) القضاعي (توفي سنة ٤٥٤هـ)

هو أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر القاضي الشافعي، تولى القضاء بمصر وقد أنابه المصريون عنهم في رسالة إلى بلاد الروم، وله عدة تصانيف أهمها كتاب خطط مصر، واسمه المختار في ذكر الخطط والأخبار، أخذ عنه المقريزي في خططه وبه عددناه من أصحاب التواريخ الخاصة، لكنه ضاع وهاك ما وصل إلينا من مؤلفاته الأخرى:

(أ) كتاب الشهاب في المواعظ والآداب: جمع فيه ١٢٠٠ حديث في الحكم والوصايا والآداب بدون الأسانيد في نحو مائة صفحة، وهو مختصر مفيد، منه نسخ في برلين وباريس وليدن وفي المكتبة الخديوية.
(ب) الإنباء بأنباء الأنبياء وتواريخ الخلفاء: وفيه تاريخ العالم من الخليقة إلى سنة ٤١٧، منه نسخة في برلين وأكسفورد.
(ج) كتاب عيون المعارف وفنون أخبار الخلائف: يشتمل على تاريخ البطاركة والأنبياء وبني أمية والعباسيين والفاطميين، وله ذيل إلى سنة ٩٢٦هـ، وكلاهما في باريس.
(د) نزهة الألباب جامع التواريخ: وهو ذيل للتاريخ، في المتحف البريطاني.
(هـ) مسند الشهاب: وهو يتضمن أسانيد الشهاب المتقدم ذكره ويسمى أيضًا إسناد الشهاب موجود في المكتبة الخديوية في نيف و٥٠٠ صفحة.

وترجمة القضاعي في ابن خلكان ٤٦٢ ج١، وحسن المحاضرة ٢٢٧ ج١.

(٢-١٢) أبو بكر الخطيب البغدادي (توفي سنة ٤٦٣هـ)

هو الحافظ أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت البغدادي المعروف بالخطيب، خاتمة مؤرخي هذا العصر، وكان من الأئمة المشهورين والحفَّاظ المبرَّزين ختم به ديوان المحدثين، سمع في بغداد شيوخ وقته ورحل إلى البصرة والدينور والكوفة ونيسابور وجاء صور فأقام بها مدة، وكان يتردد إلى بيت المقدس، وخرج من صور سنة ٤٦٢هـ إلى طرابلس وحلب وعاد إلى بغداد أقام بها سنة، وتوفي فيها سنة ٤٦٣، وله مؤلفات تزيد على ٥٥ كتابًا في التاريخ والحديث والأدب والنحو والفقه واللغة وغيرها أكثرها ضاع، وهاك ما بلغنا خبره منها:

(أ) تاريخ بغداد: ويشتمل على تراجم علمائها على الخصوص في ١٤ مجلدًا، وبه اشتهر، لكنه تبعثر فلا نعرف له نسخة كاملة في مكان، والموجود منه على ما نعلم أجزاء متفرقة في برلين والمتحف البريطاني وباريس وكوبرلي والجزائر والمكتبة الخديوية، وقد نشر المستشرق سلمون مقدمة هذا التاريخ بباريس سنة ١٩٠٤ كتابًا على حدة في ثلاثمائة صفحة تحتوي على أصل بغداد واسمها وتاريخ بنائها وأقسامها ودورها وقصورها ومدائنها، كما كانت في أيامه وغير ذلك من الفوائد، وذيلها الناشر بحواشٍ وفهارس، فجاءت كالكتاب المستقل بوصف عمارة بغداد وخططها، والكتاب على إجماله مروي بالإسناد على طريقة المحدثين.

(ب) الكفاية: في معرفة أصول علم الرواية، يبحث في شروط الرواية وأحكام قبولها، منه نسخ في برلين وليدن، وفي المكتبة الخديوية نسخة في ٣٤٠ صفحة بخط قديم.

(جـ) تقييد العلم.

(د) شرف أصحاب الحديث.

(هـ) المؤتنف تكملة المؤتلف والمختلف: وكلها في برلين.

(و) تلخيص المتشابه في الرسم وحماية ما أشكل منه عن نوادر التصحيف والوهم: هو كتاب كبير الحجم فيما أشكل من أسماء الرواة، مما يتفق في الهجاء ويختلف في الحركات وما يشتبه في الخط ويختلف في هجاء بعض حروفه، أو بتقديم بعض الحروف على بعض أو غير ذلك، وفيما يتفق من أسماء المحدثين وأنسابهم، فهو جزيل الفائدة من حيث تحقيق أسماء الرواة وأنسابهم وأخبارهم، منه نسخة في المكتبة الخديوية في ٧٠٠ صفحة وفي آخرها نقص.

(ز) كتاب البخلاء: في المتحف البريطاني.

وترجمة الخطيب في ابن خلكان ٢٧ ج١، ومعجم الأدباء ٢٤٦ ج١.

هوامش

(١) مجلة النعمة سنة ١ ج٢.

الجغرافية والجغرافيون

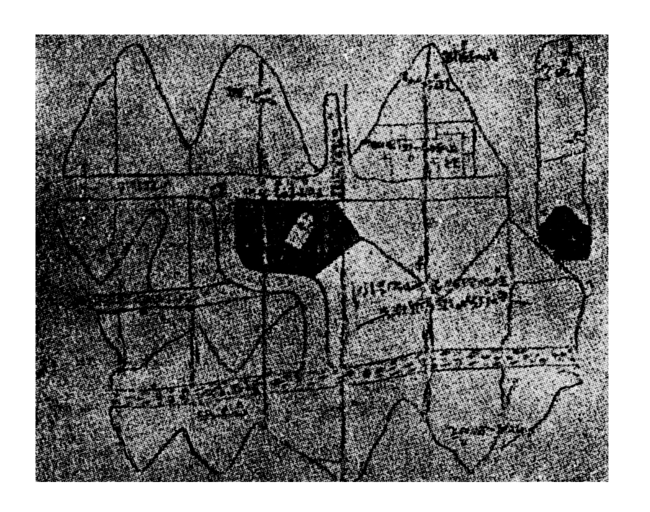
ما زال الجغرافيون في هذا العصر يبنون كتبهم في الجغرافية على الرحلات ولم ينضج علم الجغرافيا فيه نضجًا تامًّا، ومع ذلك فإنه أبان فضل العرب في اكتشاف أماكن دخلوها وبلاد ومسالك لم يسبقهم أحد إلى وصفها على أثر الفتوح أو الأسفار التجارية في أواسط آسيا وأفريقيا وفي البحر الهندي وبحر فارس وغيرها، فاكتشفوا كثيرًا من جزائر المحيط وجزائر الأتلانتيك، وعرفوا أصقاع الأرض أكثر من سائر الأمم التي تقدمتهم، وتقسم الجغرافية في هذا العصر كما يقسم التاريخ إلى الجغرافية العامة والجغرافية الخاصة، وقبل التقدم إلى ذكر أخبار الجغرافيين من العرب نذكر اشتغالهم برسم الخرائط.

(١) الخرائط عند العرب

رسم الخرائط من الفنون القديمة، وجدوا أمثلة منها في أنقاض بابل وآشور ومصر، وهذا مثال من خريطة مصرية من زمن الفراعنة.

أما العرب فبدءوا برسم الخرائط في صدر الدولة العباسية بعد ترجمة كتب الفلك والجغرافية، وكانوا يجعلون أساس رسومهم قياس العرض والطول، وأول من رسم منهم خريطة الأرض على هذا الأساس محمد بن موسى المعروف بالخوارزمي في زمن المأمون، فإنه عين مواقع المدن والبحور بالدرجات الجغرافية المبنية على علم الفلك كما فعل بطليموس القلوذي، فلما أخذوا في الرحلة أغضوا عن تلك المقاييس وصاروا يرسمون الخرائط بلا قياس كما فعل أبو زيد البلخي في أوائل القرن الرابع للهجرة وابن حوقل والإصطخري والمقدسي في أواسطه، فإنهم كانوا يرون مشقة في تعيين الأماكن بالأقيسة فاكتفوا بتعيين مواقع البلاد بالنظر إلى الجهات الأربع (الشرق والغرب

والشمال والجنوب) بلا تقدير الأبعاد بينها، ولم تكن عندهم قاعدة لتعيين الجهات المذكورة في الخارطة، كما يفعلون اليوم؛ فإن الخرائط عندنا مقيدة في تعيين جهاتها أن يكون دائمًا أعلاها شمالًا وأسفلها جنوبًا ويمينها شرقًا وشمالها غربًا، أما هم فالغالب عندهم أن يجعلوا الجهات في زوايا الخارطة فالزاوية بين الأعلى واليمين مثلًا قد تكون شمالًا والزاوية المقابلة لها من أعلى غربًا كما ترى في خريطة بين النهرين المنقولة عن الإصطخري (شكل ٢)، أو أن تكون الزاوية بين الأعلى واليمين غربًا وتكون المقابلة لها في الأعلى جنوبًا كما في خريطة الشام المنقولة عنه (شكل ٣) أو غير ذلك.



شكل ١: خريطة قديمة من زمن رعمسيس الثاني.

على أن العرب أخذوا بعد ذلك العصر في تعيين الأبعاد بين الأماكن، وأقدم من عينها منهم الشريف الإدريسي في الخريطة التي رسمها للملك روجر الثاني صاحب صقلية، وسيأتي ذكره. وهاك تراجم أصحاب الجغرافية العامة:

(٢) أصحاب الجغرافية العامة

(٢-١) أبو زيد البلخي

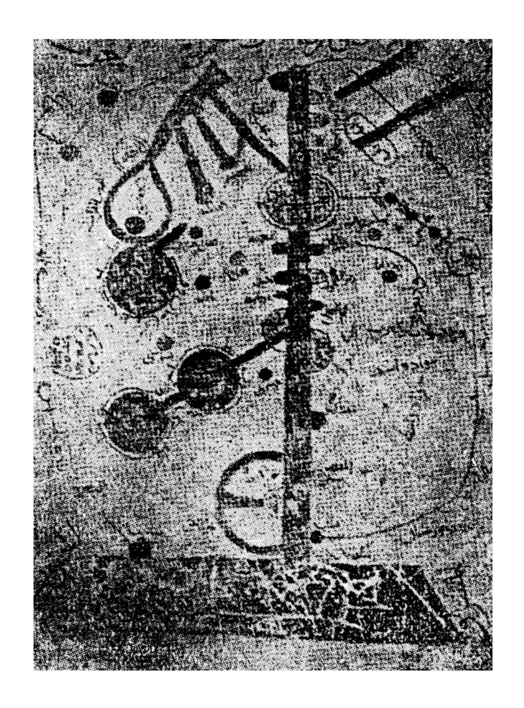
قد تقدَّمَ ذكره بين المؤرخين، وله في الجغرافية كتاب: صور الأقاليم: وهو أقدم كتاب جغرافي عربي موضح بالخرائط، أو هو خرائط موضحة ببعض الشروح؛ لأن المؤلف أراد تصوير الأقاليم فألَّف هذا الكتاب وسماه «صور الأقاليم الإسلامية»، فرسم الأرض وأشكالها والأقاليم الإسلامية بالخرائط الملونة على ما بلغ إليه جهد العرب في ذلك العصر، ومنه نسخة خطية كاملة بخرائطها الملونة في مكتبة برلين، وهي كثيرة الشبه بأقاليم الإصطخري الآتي ذكره؛ لأن هذا نقل عنه لكنه توسع في شرح أحوال البلاد، فنكتفي بشرح جغرافية الإصطخري.

(٢-٢) الإصطخري (في أواسط القرن الرابع للهجرة)

هو أبو إسحاق الفارسي من أهل أصطخر ويعرف أيضًا بالكرخي له كتابان:

(أ) كتاب الأقاليم: يشتمل على حدود الممالك وصور أقاليم الأرض ومدنها وبحارها وأنهارها والمسافات بينها مفصلًا، فيبدأ ببلاد العرب فبحر فارس وديار المغرب والأندلس ومسافاتها ومصر وأقسامها وبلادها وأرض الشام وبيت المقدس والمسافات بينها، وصفة بحر الروم وأرض الجزيرة والعراق ومسافاتها وأنهارها وخوزستان وبلاد فارس ومسافاتها وبلاد كرمان والسند وأرمينية وأذربيجان والجبال وطبرستان أو الديلم وبحر الخزر وخراسان وسجستان وأفغانستان وما وراء النهر ومسافاتها، وقد وضح ذلك كله بالخرائط، ويسميها «الصور»، وجملتها ١٩ صورة كبيرة، وقد طبع هذا الكتاب على الحجر في غوطا سنة ١٨٣٩ بعناية الدكتور مولر الألماني ومعه الخرائط المشار إليها ملونة مثل الأصل تمامًا، وفي شكل ٢ صورة تمثل العراق وشكل ٣ يمثل الشام.

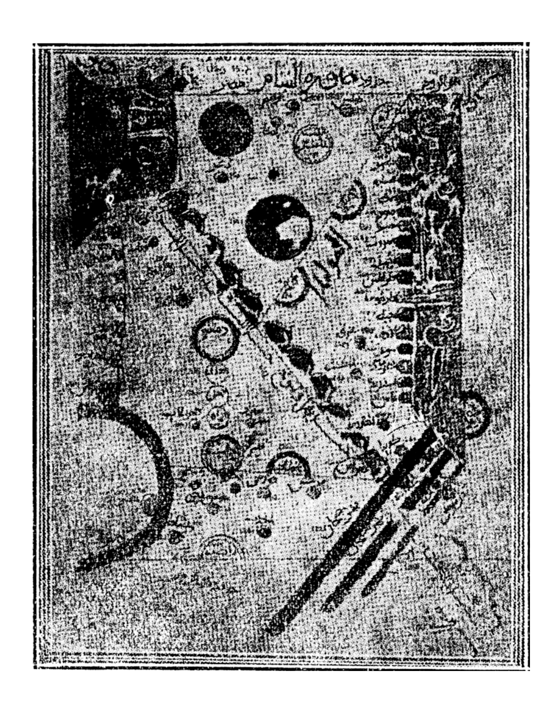
(ب) كتاب مسالك الممالك: هو كثير الشبه بكتاب الأقاليم، لكنه خالٍ من الخرائط وفي صدره مقدمة في تأليف الكتاب وتقسيمه في بضع صفحات، ويكاد يكون باقيه نفس كتاب الأقاليم، طبع في ليدن سنة ١٨٧٠ في جملة المكتبة الجغرافية بعناية دي غويه، وقد قال المؤلف في صدره: إنه عوَّل فيه على كتاب صور الأقاليم لأبي زيد البلخي.



شكل ٢: خريطة العراق عن كتاب الأقاليم للإصطخري.

(٢-٣) ابن حوقل (في أواسط القرن الرابع)

هو أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادي له: «كتاب المسالك والممالك»، وهو مثل مسالك الممالك للإصطخري مع زيادات قليلة، وقد طبع أيضًا في جملة المكتبة الجغرافية، وترجم إلى الإنكليزية، وطبع في لندن سنة ١٨٠٠، وترجم بعضه المختص بأفريقيا، وطبع بباريس سنة ١٨٤٢، وقسم آخر يختص ببالرم طبع في باريس سنة ١٨٤٥.



شكل ٣: خريطة بلاد الشام عن كتاب الأقاليم للإصطخري.

(٢-٤) المقدسي (توفي بعد سنة ٣٧٥هـ)

هو أبو عبد الله محمد بن البشاري المعروف بالمقدسي، ولد في بيت المقدس، وساح في أكثر بلاد الإسلام شرقًا وغربًا إلى السند والهند والأندلس، وقد عول في كثير مما كتبه على اختباره الشخصي مما شاهده بعينه، وذكر عادات الأقوام الذين وصفهم وأخلاقهم وأحوال بلادهم كما شاهدها، واستفاد أيضًا من سابقيه فألَّف سنة ٣٧٥هـ كتابًا سماه:

أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم: وهو أفضل الجغرافيات العامة في ذلك العصر، صدره بمقدمة في تاريخ علم الجغرافية عند العرب إلى أيامه بانتقاد، ثم ذكر مزية كتابه وما قاساه في سبيل تأليفه وجمع حقائقه فقال: «وما تم لي جمعه إلا بعد جولاتي في البلدان، ودخولي أقاليم الإسلام، ولقائي العلماء، وخدمتي الملوك، ومجالستي القضاة، ودرسي على الفقهاء، واختلافي إلى الأدباء والقراء وكتبة الحديث، ومخالطة

الزهاد والمتصوفين، وحضور مجالس القصاص والمذكرين، مع لزوم التجارة في كل بلد والمعاشرة مع كل أحد والتفطن في هذه الأسباب بفهم قوي حتى عرفتها، ومساحة الأقاليم بالفراسخ حتى أتقنتها، ودوراني على التخوم حتى حررتها، وتنقلي إلى الأجناد حتى عرفتها، وتفتيشي عن المذاهب حتى علمتها، وتفطني في الألسن والألوان حتى رتبتها، وتدبري في الكور حتى فصلتها، وبحثي عن الأخرجة حتى أحصيتها.» إلخ.

وقد أوضح كتابه بالخرائط الملونة بدليل قوله بعد ذكر تقسيم الكتاب إلى أقاليم: «ورسمنا حدودها وخططها وحررنا طرقها المعروفة بالحمرة، وجعلنا رمالها الذهبية بالصفرة وبحارها بالخضرة وأنهارها المعروفة بالزرقة وجبالها المشهورة بالغبرة ليقرب الوصف إلى الأفهام، ويقف عليه الخاص والعام.» لكن هذه الخرائط لا توجد في الطبعة التي بين أيدينا، وقد طبع مرتين في جملة المكتبة الجغرافية بعناية دي غويه: الأولى سنة ١٨٧٧، والثانية ١٩٠٦ مع شروح وملاحظات.

(٢-٥) هيئة أشكال الأرض

ومن كتب الجغرافية العامة في ذلك العصر كتاب اسمه: «هيئة أشكال الأرض ومقدارها في الطول والعرض»، منه نسخة في مكتبة طوب قبوسراي في الآستانة لم يذكر فيه مؤلفه، لكن في المقدمة ذكر سيف الدولة بن حمدان كأنه كتب له، وفيه عشرات من الخرائط الملونة، ومنه نسخة في جملة كتب زكي باشا منقولة عن تلك بالفوتوغراف.

(٣) الجغرافية الخاصة

لم يظهر في الجغرافيات الخاصة في هذا العصر ما يستحق الذكر إلا:

(٣-١) جغرافية بغداد لابن سرابيون

وهي جغرافية ما بين النهرين، وصف بها تلك البلاد ومسافاتها وطرقها في أوائل أيام البويهيين، ولا نعرف شيئًا عن مؤلفها، أما الكتاب فقد نقله إلى الإنكليزية المستشرق سترانج الإنكليزي، ونشره سنة ١٨٩٥ مع خرائط استخرجها من وصف المؤلف لجغرافية بغداد وضواحيها، وأضاف إليها تعاليق وشروحًا جزيلة الفائدة.

وفي مجلة المقتطف مقالة عن جغرافيي العرب لسليم شحادة من صفحة ٥٩٣ سنة ٧.

العلوم الإسلامية

تفرعت العلوم الإسلامية في أوائل الإسلام إلى القراءة والتفسير والحديث، ثم ظهر الفقه، وأخذت هذه العلوم تنمو بنمو التمدن، وقد علمت مما تقدم أن الفقه نضح ورسخت قواعده في العصر العباسي الأول والحديث في العصر الثاني، ونشأت في أثناء ذلك فروع أخرى من علوم القرآن أو العلوم الإسلامية الدينية على أثر انتشار الفلسفة وغيرها من علوم الأقدمين والعلوم الدخيلة، ونشأت فروع أخرى في الأعصر الآتية سيرد بيانها.

ومن يتدبر اشتغال المسلمين في العلوم الإسلامية يعجب لما استخدموه فيها من إعمال الفكرة ولا سيما الفقه، فإنه من ثمار عقولهم واجتهادهم لا دخل فيه لأمة أخرى؛ إذ لا علاقة له بالعلوم القديمة، ومن ينظر في قضاياه وأحكامه يعلم ما اقتضاه ذلك من دقة النظر وقوة العقل مما لم يسبق له مثيل، أما الفلسفة أو المنطق مما نقلوه عن اليونان فقد ساعد في إنشاء بعض فروعه والتوسع في البعض الآخر كعلم الكلام، فقد كان للفلسفة والمنطق تأثير كبير في نموه، وقد تقدم خبره في العصر الثاني.

(١) علم الكلام

ونبغ في هذا العصر غير واحد من علماء الكلام لبعضهم مؤلفات في مواضيع أخرى، جاء ذكرهم في أبوابها كالشريف المرتضى بين الأدباء، والبعض الآخر لم يخلفوا ما يستحق الذكر، وإنما نذكر منهم في هذا الباب أشهر أنصار الأشعري، وهو:

(١-١) أبو بكر الباقلاني

هو القاضي أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد الباقلاني، المتوفى سنة ٤٠٣هـ صاحب «إعجاز القرآن»، وهو مشهور بين طلاب الأدب والبلاغة، ومدار البحث فيه على إثبات إعجاز القرآن وأنه معجزة نبوة النبي، وفيه فصول في نفي الشعر من القرآن وكيفية الوقوف على عجز القرآن، وطائفة حسنة من خطب النبي وكتبه ومن كلام الراشدين وغيرهم من بلغاء الصحابة والتابعين وغير ذلك، وقد طبع في مصر سنة ١٣١٥ وغيرها، وترجمة الباقلاني في ابن خلكان ٤٨١ ج١.

(٢) التصوف

هو من العلوم التي نشأت ونضجت في هذا العصر، وخلاصة تاريخه «أنه من العلوم الشرعية الحادثة، وأصله العكوف على العبادة، والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيها من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة».

وقد اختلف علماء الإسلام في أصل كلمة التصوف أو الصوفية، فقال جماعة باشتقاقها من الصفاء أو الصفة، وقال آخرون غير ذلك، ويرى ابن خلدون أن اشتقاقها من الصوف أقرب إلى الصواب لاختصاص أصحابه بلبس الصوف، وعندنا أنها مشتقة من لفظة يونانية الأصل هي Σοφια (صوفيا) ومعناها الحكمة، ويتركب منها ومن φιλοσ (فيلوس) محب φιλοσοφια (فيلوصوفيا)؛ أي محب الحكمة، وهي بالعربية: «الفلسفة»، فيكون الصوفية قد لقبوا به نسبة إلى الحكمة؛ لأنهم كانوا يبحثون فيما يقولونه أو يكتبونه بحثًا فلسفيًّا، ويؤيد ذلك أنهم لم يظهروا بعلمهم هذا ولا عرفوا بهذه الصفة إلا بعد ترجمة كتب اليونان إلى العربية ودخول لفظ الفلسفة فيها.

ومدار طريقتهم كلها: «محاسبة النفس على الأفعال والتروك وآداب خاصة بهم واصطلاحات في ألفاظ تدور بينهم، يدلون بها على ما يريدونه من أساليب المجاهدة ومحاسبة النفس عليها والكلام في الأذواق والمواجد العارضة في طريقها، وكيفية الترقي من ذوق إلى ذوق وشرح الاصطلاحات التي تدور بينهم»، فلما دونت العلوم في الإسلام كتب الصوفية في طريقتهم على ذلك المنهج فمنهم من كتب في الورع ومحاسبة النفس على الاقتداء في الأخذ والترك، ومنهم أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري المتوفى

سنة ٤٦٥هـ، وكان عالمًا في الفقه والتفسير والحديث والأصول والأدب والشعر والكتابة فضلًا عن التصوف، وقد ألف فيه كتابه المعروف بالرسالة القشيرية، وهي مطبوعة بمصر سنة ١٢٨٤هـ وسنة ١٣٠٤، وبهامشها تقريرات من شرح شيخ الإسلام زكريا الأنصاري عليها، وأبو حفص عمر بن محمد الملقب شهاب الدين السهروردي المتوفى سنة ٦٣٢هـ ببغداد ألف في ذلك عوارف المعارف، وقد جمع حجة الإسلام الغزالي بين الأمرين في كتاب الأحياء فدون فيه أحكام الورع والاقتداء، ثم بيَّن آداب القوم وسننهم، وشرح اصطلاحاتهم في عباراتهم، وسنأتي على ترجمة حاله ومؤلفاته، وصار علم التصوف علمًا مدونًا بعد أن كانت الطريقة عبادة فقط.

(٣) الفقه

لم يزد الفقهاء بعد رسوخ قواعد الفقه على أيدي الأئمة الأربعة شيئًا غير التلخيص والشرح أو التعليق، وقد ظهر في أثناء هذا العصر جماعة من كبار الفقهاء، ولكن أكثرهم اشتغلوا بعلوم أخرى، فدخلت ترجماتهم في أبواب تلك العلوم، ولو أردنا ترجمة كل من ظهر من الفقهاء في هذا العصر لخرجنا عن الاختصار الذي أردناه في هذا الباب، وإنما نترجم الفقهاء الذين خلَّفوا كتبًا تدخل في بعض الأبواب الأخرى من آداب اللغة جريًا على الغرض المراد من هذا الكتاب، وأشهرهم في هذا العصر:

(٣-١) أبو الحسن الماوردي (توفي سنة ٤٥٠هـ)

هو أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي الفقيه الشافعي تعلم في البصرة وبغداد وتقدم في مناصب القضاء، وكان مفكرًا حسن التأليف كما يظهر من كتبه التي وصلت إلينا وهاك أهمها:

(أ) كتاب الأحكام السلطانية: يبحث في الإمامة وشروطها والخلافة وأحكامها والوزارة وأقسامها وشروطها وإمارة الجهاد وأقسامها والقضاء، والشروط التي يصح التقليد بها والنقابة حسب الأنساب، وفصول في الولاية على الحج وولاية الصدقات وأحكام الفيء والغنيمة وأقسامها والجزية والخراج حسب الأرضين وأحكام الإقطاع وترتيب الدواوين وأنواعها، وما اختص ببيت المال وأحكام الحسبة وغير ذلك من القواعد الشرعية، مما يتعب الباحث عنه في غير هذا الكتاب، وهو مطبوع في مصر سنة ١٢٩٨ وغيرها.

(ب) أدب الدنيا والدين: يبحث في الأخلاق والآداب، ويشتمل على فصول في فضل العقل وذم الهوى والحث على العلم وأخلاق العلماء والآداب الدينية والدنيوية ويدخل تحتها ما يصلح به حال الإنسان من المؤاخاة بالمودة وأدب النفس وما يتعلق به كحسن الخلق والحياء والحلم والصدق وأضدادها وآداب المواضعة، وفيه أبحاث في الكلام والصمت والصبر والجزع والمشورة وكتمان السر والمزاح والضحك، طبع في الآستانة سنة ١٢٩٩ وفي مصر مرارًا، وهو من كتب الأدب المعول عليها في كثير من المدارس.

(ج) نصيحة الملوك: في باريس.

(د) تسهيل النظر وتعجيل الظفر: في السياسة والحكومة، في غوطا.

(هـ) كتاب الحاوي الكبير في الفروع: هو مطول في الفقه الشافعي يدخل في ٢٣ مجلدًا، منها نسخة في المكتبة الخديوية تنقص الجزء الثامن، وربما زادت صفحات الكتاب كله على ٧٠٠٠ صفحة كبيرة.

(و) أعلام النبوة: يبحث في إثبات النبوات وشروطها وما تضمنه القرآن من الإعجاز وما في أقوال النبي من ذلك، منه نسخ في برلين والمكتبة الخديوية في ٣٠٠ صفحة.

(ز) كتاب الأمثال والحكم: يشتمل على ٣٠٠ حكمة و٣٠٠ حديث و٣٠٠ شعر، موجود في ليدن.

(ح) معرفة الفضائل: في الأسكوريال.

وترجمة الماوردي في ابن خلكان ٣٢٦ ج١.

(٣-٢) الفرائض

وتفرع من الفقه علم الفرائض وهو معرفة حقوق الوراثة وأشكالها ومختلفاتها وضروب مواقعها وما يحتاج إليه ذلك من الحساب، فأفرد له العلماء بابًا مخصوصًا وكتب فيه الفقهاء منهم كأبي حنيفة وغيره، ولكن بعضهم انقطع له بنوع خاص ومن هؤلاء في أوائل الدولة العباسية ابن شبرمة وابن أبي ليلى ويحيى بن أكثم ثم أبو المعالي، ثم ألَّف فيه كثيرون يضيق المقام عن ذكرهم.

(٤) التفسير والحديث

أما التفسير فما زال للعقل مجال فيه، فظهر جماعة كبيرة من المفسرين بعد الطبري المتقدم ذكره في العصر الماضي، ومنهم في هذا العصر النقاش الموصلي المتوفى سنة ٣٥٨ صاحب كتاب «شفاء الصدور» ومنه قطعة في المكتبة الخديوية، والحوفي المصري المتوفى سنة ٤٣٠هـ صاحب كتاب: «البرهان في تفسير القرآن» منه نسخة خطية في المكتبة الخديوية، وابن أبي طالب القيسي المتوفى سنة ٤٣٧ في قرطبة، له مؤلفات كثيرة ضاعت وغيرهم.

وأما الحديث فاستقرت قواعده في الكتب الستة المتقدم ذكرها، لكن العلماء ظلوا يشتغلون فيه بين أخذ ورد، وأشهر من نبغ من المؤلفين فيه بهذا العصر الطهماني الحاكم النيسابوري المتوفى سنة ٤٠٥، وأبو الفتح سليم بن أيوب الرازي المتوفى سنة ٤٤٧، والأجري المتوفى سنة ٣٦٠، والبيهقي المتوفى سنة ٤٥٨ وغيرهم. ولم يصلنا من آثارهم ما يستحق الذكر.

العلوم الدخيلة

علمت من كلامنا عن هذه العلوم في العصر العباسي الأول أنها تتألف من فروع كثيرة ترجع إلى أربعة: الطب والفلسفة والنجوم والرياضيات. وكان المشتغلون في نقلها أكثرهم من غير المسلمين، ثم اشتغل بها المسلمون في العصر العباسي الثاني، وذكرنا من نبغ فيها، وزاد اشتغالهم بها في هذا العصر، ونبغ فيها علماء لا يشق لهم غبار، فنذكر أصحاب كل فرع على حدة وإن كان أكثرهم اشتغلوا بعلمين فأكثر من تلك العلوم، فنضع كلًّا منهم في العلم الذي غلب عليه.

(١) الطب

يدخل في الطب فروعه الطبيعية كالكيمياء والصيدلة والنبات، لكننا سنفرد لها فصلًا خاصًّا، أما الطب فقد اشتغل المسلمون فيه وخدموه وتكاثر الأطباء على الخصوص في هذا العصر وإمامهم ابن سينا، ويستدل من بعض القرائن أنهم كانوا كثيرين، فقد أحصوا أطباء بغداد وحدها في زمن المقتدر بالله في أول القرن الرابع للهجرة فبلغ عددهم ٨٦٠ طبيبًا امتحنوا لنيل الإذن في التطبيب سوى من استغنى عن الامتحان لشهرته، وسوى من كان في خدمة الخليفة، فلا يمكن أن يكون مجموع ذلك كله أقل من ألف طبيب متعاصرين في مدينة واحدة، وبلغ عدد أطباء النصارى فقط في خدمة المتوكل بأواسط القرن الثالث للهجرة ٥٦ طبيبًا، وكان سيف الدولة إذا جلس على المائدة حضر معه ٢٤ طبيبًا، منهم من يأخذ رزقين لتعاطيه علمين، ومن يأخذ ثلاثة أرزاق لتعاطيه ثلاثة علوم.

وكان للأطباء عندهم نظام وعليهم رئيس يمتحنهم ويجيز من يرى فيه الكفاءة للتطبيب، وأشهر هؤلاء الرؤساء سنان بن ثابت في بغداد ومهذب الدين الدخوار في مصر، وفعلوا نحو ذلك في الصيادلة وكانوا كثارًا، وتفشَّى الغش في الأدوية حتى اضطر ولي الأمر إلى امتحانهم وإعطاء الإجازات أو المنشورات إلى الذين يحسنون الصناعة ونفي الآخرين، وأول من فعل ذلك الأفشين في بغداد، ووكل زكريا بن الطيفوري به في حديث يطول ذكره، وكان من الأطباء أو الصيادلة من هو خاص بالجند يرافقه في أسفاره ومنهم من هو خاص بالخلفاء والأمراء، ولهؤلاء رواتب خاصة ويعرفون بالمرتزقين، ومنهم من يطببون العامة وهم غير مرتزقين، وأشهر أطباء هذا العصر ابن سينا.

(١-١) ابن سينا (توفي سنة ٤٢٨هـ)

هو الشيخ الفيلسوف الطبيب أرسطو الإسلام وأبقراطه، واسمه أبو علي الحسين بن عبد الله، ويلقب بالشيخ الرئيس، ويسميه الإفرنج (Avicenna)، كان أبوه من بلخ في شمالي أفغانستان، وسكن مملكة بخارا في زمن نوح بن منصور من الدولة السامانية، وتولى التصرف بقرية من قراها اسمها خرميثن، وفيها ولد له ابنه الحسين سنة ٣٧٠هـ، وكان من صغره نادرة عصره في الذكاء والفطنة، ثم انتقل والده به إلى مدينة بخارا وهي يومئذ حافلة بالعلماء، وحفظ القرآن وأخذ يقرأ الفقه قبل أن يتجاوز العاشرة، ولم يدرك السادسة عشرة حتى تعلَّم المنطق والهندسة والطبيعة والفلسفة والطب، ثم تفرغ للتوسع بهذه العلوم، وكان يحيي الليل في الدرس والبحث.

واتفق أن نوحًا المذكور مرض فذكر له ابن سينا، فاستقدمه فبرئ على يده؛ فقربه إليه، وكان عند نوح مكتبة نادرة المثال فاستأذنه في دخولها، فأذن له فدرسها درسًا ثم احترقت بعد أن وعى زبدتها، وأخذ في التأليف وهو في الحادية والعشرين من عمره، وارتفعت منزلته وتولَّى بعض مناصب الدولة، وتنقَّل في بلاد خراسان وهو موضع الإعجاب ومصدر الاستفادة بالتطبيب والتأليف، ولم يتمكَّن من اللغة العربية كما ينبغي إلا بعد حين، ومرت به طوارئ مختلفة، وقاسى ما يقاسيه طالب العلى من العذاب والملوك مناظروه أو مريدوه، وكان قوي القوى كلها جسدًا وعقلًا، لكن شهواته البدنية كانت غالبة عليه، فأثرت في مزاجه حتى أماتته بهمذان سنة ٤٢٨هـ وهو في الثامنة والخمسين من عمره.



شكل ١: الشيخ الرئيس ابن سينا.

وكان من المتفردين بسعة العلم وقوة العقل، وقد ألف في كل فن من العلم والأدب، وتزيد مؤلفاته على مائة، وكان لها تأثير كبير في نهضة أوروبا الأخيرة؛ لأنهم نقلوا أهمها إلى لغة العلم عندهم يومئذ (اللاتينية).

أما في الأصل العربي فكثير من مؤلفاته لا يزال باقيًا، ومنها جانب كبير في المكتبة الخديوية يمكن الاطلاع عليها لمن أراد؛ فمن كتبه الطبية الموجودة هناك:

(١) القانون: في ١٤ جزءًا مطبوع في رومية ومصر وهو من أهم كتبه، حوى أهم ما عرف من علوم الطب وخصائص العقاقير والتشريح وغيرها، وعليه وعلى كتاب الحاوي لأبي بكر الرازي كان أكثر معول العالم الطبي في التمدن الإسلامي، وفي نهضة أوروبا قبيل التمدن الحديث.

(٢) الشفاء: وهو ١٨ جزءًا بعضها في الطب والبعض الآخر في العلوم الأخرى، منه جزآن مطبوعان على الحجر ببلاد فارس، والكتاب موجود برمته في المكتبة الخديوية.

(٣) الألفية في الطب.
(٤) منظومة في الطب.

ومن كتبه الفلسفية: (١) الإشارات: ولها شرح للطوسي مطبوع في الآستانة، وعلى هامشه شرح للفخر الرازي. (٢) النجاة: ثلاث مجلدات مطبوع. (٣) رسائل في الإنصاف والمسائل العشرين والمباحثات والجوهر الذي لا يتحرك وتقسيم العلوم الفلسفية وحد الجسم، وشرح كتاب النفس لأرسطو وما بعد الطبيعة، وكلها توجد خطًّا في المكتبة الخديوية.

ومن كتبه في الفقه والتوحيد: (١) القصيدة العينية في النفس. (٢) كتاب المبدأ والمعاد. (٣) الإلهيات، (٤) الجمانة الإلهية.

وفي المنطق: (١) كتاب الإشارة. (٢) كتاب الشرقيين. (٣) رسالة العروس، غير ثمانية مؤلفات في المنطق يوجد بعضها في مكاتب أوروبا.

وفي العلوم الطبيعية والرياضية خمسة عشر مؤلفًا لا يوجد منها في المكتبة الخديوية شيء، ولكن أكثرها موجود في مكاتب أوروبا ولا محل هنا لتفصيل ذلك، وله مؤلفات في الآداب السياسية والموسيقى وفي اللغة العربية وعلومها ضاع معظمها.

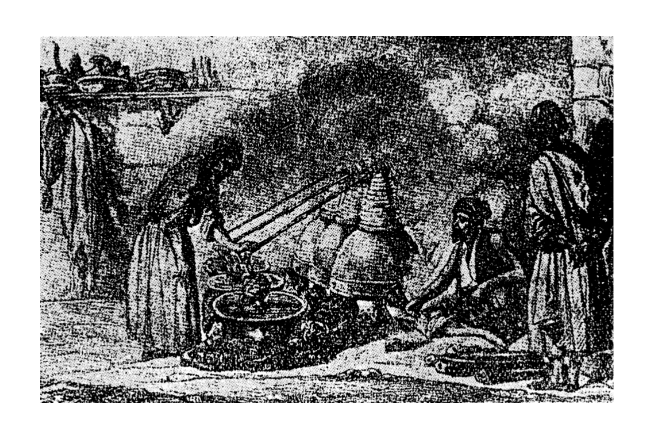
ولابن سينا آراء خصوصية في العلم الطبيعي، وقد أوضح كثيرًا من غوامضه، وكذلك الإلهيات مما يستغرق شرحه صفحات عديدة.

وترجمة ابن سينا في ابن خلكان ١٥٢ ج١، وطبقات الأطباء ٢ ج٢، وتراجم الحكماء ٢٦٨، وفي سنة ١٨ من الهلال، وللإفرنج مقالات عديدة في ابن سينا وفلسفته وكتبه في الفرنساوية والإنكليزية والألمانية وغيرها.

(٢) الصيدلة والكيمياء والنبات

وللمسلمين فضل كبير على الصيدلة والكيمياء والنبات وهي من فروع الطب، بدءوا بذلك في صدر الدولة العباسية، وسنلخص تاريخها عندهم وإن تجاوزنا هذا العصر لجمع الموضوع في باب واحد، وقد عني الإفرنج بعد نهضتهم الأخيرة في درس تاريخ فن الصيدلة، فتحققوا أن العرب هم واضعو أسس هذا الفن، وهم أول من اشتغل في تحضير الأدوية أو العقاقير فضلًا عما استنبطوه من الأدوية الجديدة، وأنهم أول من ألف الأقرباذين على الصورة التي وصلت إلينا، وظل العرب في النهضة العباسية يعتمدون

في المارستان ودكاكين الصيادلة على أقرباذين ألفه سابور بن سهل المتوفى سنة ٢٥٥هـ، حتى ظهر أقرباذين أمين الدولة ابن التلميذ المتوفى في بغداد سنة ٥٦٠هـ. وهم أول من أنشأ حوانيت الصيادلة على هذه الصورة، ومن أقرب الشواهد على ذلك أسماء العقاقير التي أخذها الإفرنج عن العرب، ولا تزال عندهم بأسمائها العربية أو الفارسية أو الهندية كما أخذوها عن العربية.



شكل ٢: العرب يستقطرون العقاقير.

على أن تقدمهم في الصيدلة تابع لتقدمهم في الكيمياء والنبات، ولا خلاف في أن العرب هم الذين أسسوا الكيمياء الحديثة بتجاربهم ومستحضراتهم — وأول من اشتغل في نقلها إلى العربية خالد بن يزيد نقلها عن مدرسة الإسكندرية، وعنه أخذ جعفر الصادق المتوفى سنة ١٤٠هـ، وبعده جابر بن حيان، ثم الكندي، فأبو بكر الرازي وغيرهم، فاكتشفوا كثيرًا من المركبات الكيمياوية التي بنيت عليها الكيمياء الحديثة، وقد ذكر محققو الإفرنج أن العرب هم الذين استحضروا ماء الفضة (الحامض النتريك)، وزيت الزاج (الحامض الكبريتيك)، وماء الذهب (الحامض النيتروهيدرو كلوريك)، واكتشفوا البوتاسا، وروح النشادر وملحه وحجر جهنم (نترات الفضة) والسليماني (كلوريد الزئبق)، والراسب الأحمر (أكسيد الزئبق)، وملح الطرطير وملح البارود (نترات البوتاسا)، والزاج الأخضر (كبريتات الحديد)، والكحول والقلي والزرنيخ والبورق، وغير

ذلك من المركبات والمكتشفات التي لم يصل إلينا خبرها، على أننا نستدل على وجود بعض المركبات الكيماوية في أيامهم مما لم نسمع له بمثيل في تاريخ الكيمياء قبل أواخر القرن الماضي؛ فقد أشار ابن الأثير إلى أدوية استخدمها العرب في واقعة الزنج سنة ٢٦٩هـ إذا طُلي بها الخشب امتنع احتراقه ولم يذكر ما هي، ومما يعد من قبيل الكيمياء أيضًا البارود؛ فقد ترجح لنا بالبحث أنهم هم الذين ركبوه، وهم أول من وصف التقطير والترشيح والتصعيد والتبلور والتذويب. وقد ألفوا في إبطال الكيمياء القديمة. أول من ألف ذلك منهم حكيمهم وفيلسوفهم يعقوب الكندي في أواسط القرن الثالث للهجرة.

وأما النبات فللعرب القدح المعلى في درسه والتأليف فيه، وقد أخذوا هذا العلم في النهضة العباسية عن مؤلفات ديسقوريدس وجالينوس ومن كتب الهند. ونقل كتاب ديسقوريدس في أيام المتوكل، نقله اصطفان بن باسيل من اليونانية إلى العربية. والعقاقير التي لم يعرف لها أسماء في العربية تركها على لفظها اليوناني، اتكالًا على أن يبعث الله بعده من يعرف ذلك ويفسره. وحمل هذا الكتاب إلى الأندلس على هذه الصورة، فانتفع به الناس إلى أيام الناصر صاحب الأندلس في أوائل القرن الرابع للهجرة. إذ كاتبه ملك قسطنطينية سنة ٣٣٧هـ، وهاداه بكتب من جملتها كتاب ديسقوريدس باليونانية مصور الحشائش بالتصوير الرومي العجيب، ولم يكن في الأندلس من يحسن اليونانية، فبعث الناصر إلى الملك يطلب إليه رجلًا يعرف اليونانية واللاتينية لينقله إلى اللاتينية وعارفو هذه اللغة في الأندلس كثيرون، فبعث إليه راهبًا اسمه نقولا وصل قرطبة سنة ٣٤٠هـ، فتعاونوا على استخراج ما فات ديسقوريدس ذكره من أسماء العقاقير والأدوية وجعله ذيلًا على ذلك الكتاب.

(٢-١) ابن البيطار

حتى نبغ ابن البيطار المالقي النباتي في أواسط القرن السابع للهجرة، فتناول الكتاب المذكور فدرسه وتفهَّمه ثم سافر إلى بلاد اليونان وإلى أقصى بلاد الروم، ولقي جماعة يعانون هذا الفن وأخذ عنهم معرفة نبات كثير عاينه في مواضعه، واجتمع أيضًا في المغرب وغيره بكثير من علماء النبات وعاين منابته بنفسه. وذهب إلى الشام ودرس نباتها وجاء الديار المصرية في خدمة الملك الكامل الأيوبي، وكان يعتمد عليه في الأدوية المفردة والحشائش حتى جعله رئيسًا على العشَّابين وأصحاب البسطات. وبعد طول ذلك

الاختبار ألَّف كتابًا في النبات هو فريد في بابه، وكان عليه معول أهل أوروبا في نهضتهم الأخيرة في علم النباتات. ومؤلفاته الباقية:

(١) كتاب المغني في الأدوية المفردة: ألفه للملك الصالح الأيوبي. منه نسخ خطية في غوطا وليدن والمتحف البريطاني وأكسفورد وباريس.
(٢) جامع مفردات الأدوية والأغذية: طبع بمصر سنة ١٢٩١، وترجم إلى الألمانية في مجلدين، وطبع في ستتجارت سنة ١٧٨٠، وترجم بعضه إلى الفرنسية بقلم لاكلارك وغيره.
(٣) ميزان الطبيب: في أوبسالا.

وترجمة ابن البيطار في طبقات الأطباء ١٣٣ ج٢، وفوات الوفيات ٢٠٤ ج١.

(٢-٢) رشيد الدين ابن الصوري

ومن المبرزين في علم النبات رشيد الدين بن الصوري المتوفى سنة ٦٣٩هـ صاحب كتاب الأدوية المفردة، وكان كثير البحث والتدقيق يخرج لدرس الحشائش في منابتها ويستصحب مصورًا معه الأصباغ والليق على اختلافها وتنوعها، ويتوجه إلى المواضع التي بها النبات في لبنان وسوريا فيشاهد النبات ويحققه ويريه للمصور فيعتبر لونه ومقدار ورقه وأعضائه وأصوله ويصور بحسبها بالدقة. وذلك غاية ما يفعله الباحثون في هذا العلم اليوم. وفي مجلة المقتطف مقالة عن كيمائيي العرب صفحة ٢٢ سنة ٧.

(٣) الفلسفة

كان للفلسفة شأن آخر في هذا العصر، واشتغل فيها أكثر الذين عنوا بعلوم القدماء ولا سيما الأطباء … وفي مقدمتهم ابن سينا الشيخ الرئيس وقد ذكرناه. وكان بعض الفلاسفة في هذا العصر يتهمون بالكفر، وكان الانتساب إلى الفلسفة مرادفًا عند بعض المتشددين للانتساب إلى التعطيل. وشاعت النقمة على المأمون لأنه كان السبب في نقل الفلسفة إلى اللغة العربية حتى قال ابن تيمية بعد ذلك: «ما أظن الله يغفل عن المأمون، ولا بد أن يعاقبه بما أدخله على هذه الأمة.»

فاضطر أصحابها إلى التستر فألفوا الجمعيات السرية لهذا الغرض وأشهرها جمعية «إخوان الصفا» تألفت في بغداد في أواسط القرن الرابع للهجرة. وذكروا من أعضائها

خمسة هم: أبو سليمان محمد بن معشر البستي ويعرف بالمقدسي، وأبو الحسن علي بن هارون الزنجابي، وأبو أحمد المهرجاني، والعوفي، وزيد بن رفاعة. وكانوا يجتمعون سرًّا ويتباحثون في الفلسفة على أنواعها حتى صار لهم فيها مذهب خاص هو خلاصة أبحاث الفلاسفة المسلمين بعد اطلاعهم على آراء اليونان والفرس والهند وتعديلها على ما يقتضيه الإسلام. وأساس مذهبهم أن الشريعة الإسلامية تدنست بالجهالات واختلطت بالضلالات، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة؛ لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية، وأنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال.

(٣-١) رسائل إخوان الصفا

وقد دونوا فلسفتهم هذه في خمسين رسالة سموها رسائل إخوان الصفا وكتموا أسماءهم، وهي تمثل الفلسفة الإسلامية على ما كانت عليه في إبان نضجها، وتشمل النظر في مبادئ الموجودات وأصول الكائنات إلى نضد العالم فالهيولي والصورة، وماهية الطبيعة والأرض والسماء ووجه الأرض وتغيراته والكون والفساد والآثار العلوية والسماء والعالم وعلم النجوم، وتكوين المعادن وعلم النبات وأوصاف الحيوانات ومسقط النطفة وكيفية رباط الناس بها، وتركيب الجسد والحاس والمحسوس والعقل والمعقول والصنائع العلمية والعملية والعدد وخواصه والهندسة والموسيقى والمنطق وفروعه واختلاف الأخلاق وطبيعة العدد، وأن العالم إنسان كبير والإنسان عالم صغير والأكوار والأدوار وماهية العشق والبعث والنشور وأجناس الحركات والعلل والمعلولات والحدود والرسوم، وبالجملة فقد ضمنوها كل علم طبيعي أو رياضي أو فلسفي أو إلهي أو عقلي.

ويظهر من إمعان النظر فيها أن أصحابها كتبوها بعد البحث الدقيق والنظر الطويل، وفي جملة ذلك آراء لم يتصل أهل هذا الزمان إلى أحسن منها، وفيها بحث من قبيل النشوء والارتقاء، وفي ذيل الكتاب فصل في كيفية عشرة إخوان الصفا، وتعاونهم بصدق المودة والشفقة وأن الغرض منها التعاضد في الدين، وذكروا شروط قبول الإخوان فيها وغير ذلك.

وكان المعتزلة ومن جرى مجراهم يتناقلون هذه الرسائل ويتدارسونها ويحملونها معهم سرًّا إلى بلاد الإسلام، ولم تمضِ مائة سنة على كتابتها حتى دخلت الأندلس على يد أبي الحكم عمرو بن عبد الرحمن الكرماني، وهو من أهل قرطبة رحل إلى المشرق للتبحر

في العلم على جاري عادة الأندلسيين، فلما عاد إلى بلاده حمل معه الرسائل المذكورة، وهو أول من أدخلها الأندلس فما لبثت أن انتشرت هناك حتى تناولها أصحاب العقول الباحثة وأخذوا في درسها وتدبرها.

وقد طبعت رسائل إخوان الصفا غير مرة، أتقنها طبعة ديتريشي في ليبسك سنة ١٨٨٣، وطبعت في بومباي سنة ١٣٠٣، وفي مصر سنة ١٣٠٦، ومنها نسخة خطية في المكتبة الخديوية، وقد ترجمت إلى اللغة الهندستانية وطبعت في لندن سنة ١٨٦١.

وهي غير رسائل إخوان الصفا للحكيم المجريطي المتوفى سنة ٣٩٥، ومنها نسخة خطية في المكتبة الخديوية في ١٨٠ صفحة، وهي تشبه تلك لكن صاحب هذه يريد أن يفسر الفلسفة بالدين.

(٣-٢) مآخذ لطلاب فلسفة الإسلام

ومن الكتب الإفرنجية التي يستعان بها في درس تاريخ الفلسفة والفلاسفة في الإسلام:

(1) Boer, The history of philosophy in Islam, London, 1903.

(2) Dietrici, Die Philosophie der Araber in X Jahrhundert n, chr, Leipzig, 1897.

(3) Dugat, Histoire de philosophes et des théologiens musulmans, Paris, 1878.

(4) Leclerc, Histoire de la médecine arabe 2 vol, Paris 1876.

(5) Wuestenfeld, Geschichte der arabischen Aerzte und Naturforscher, Gottengen, 1840.

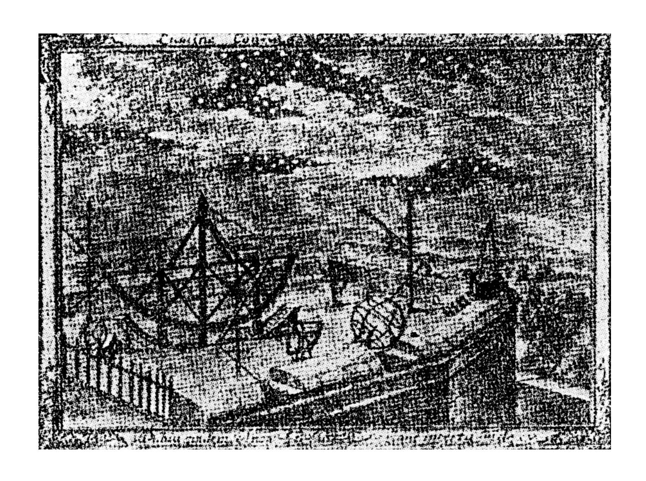
غير مقالات عديدة في المجلات الآسيوية والشرقية والفرنساوية والإنكليزية والألمانية، وفي دائرة المعارف البريطانية مادة Arabian Philosophy، ومثلها في دوائر اللغات الأخرى، وفي المقتطف مقالة في الفلسفة الإسلامية، وابن رشد صفحة ٤٦٩ سنة ١٠، ومقالة أخرى في فلسفة العرب لحسين بيهم صفحة ١٣ سنة ٧.

ومن الكتب العربية التي يستعان بها في درس تراجم الفلاسفة والأطباء وسائر علماء الطبيعة والرياضيين «طبقات الأطباء» لابن أبي أصيبعة، و«تراجم الحكماء» لابن القفطي، وكلاهما مطبوعان.

ولم تظهر ثمار الطب والفلسفة وفروعهما في الأندلس إلا في العصر الآتي، فنبغ الزهراوي وابن جزلة وابن رشد وغيرهم كما سيجيء.

(٤) النجوم

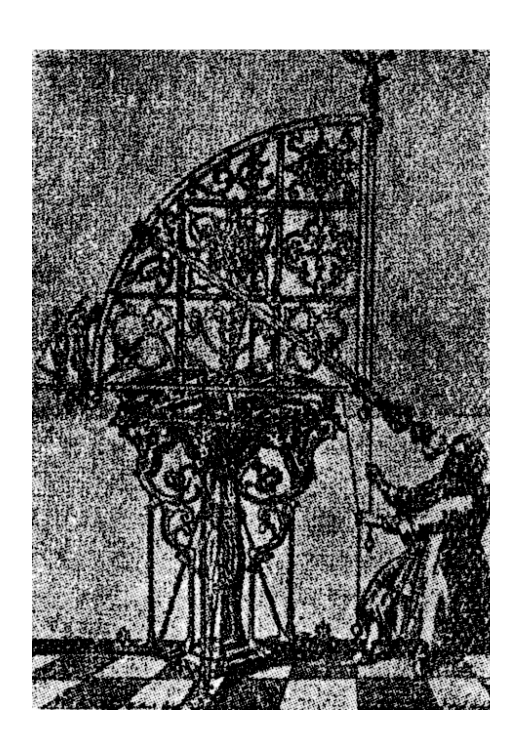
كان للمسلمين حظٌّ وافرٌ من علم النجوم وفضل كبير عليه يكفيك أنهم جمعوا فيه مذاهب اليونان والهند والفرس والكلدان والعرب الجاهلية، شأنهم في أكثر العلوم الدخيلة، وقد أتينا على تفصيل ذلك في الجزء الثالث من تاريخ التمدن الإسلامي من صفحة ١٨٩، وقد اشتهر في العصرين الماضيين جماعة لم يخلِّفوا آثارًا وصلت إلينا وإن كان لهم فضل كبير على هذا العلم أشهرهم بنو شاكر، وأبو معشر البلخي المتوفى سنة ٢٧٢، وحنين بن إسحاق سنة ٢٨٨، وأحمد بن كثير الفرغاني، وسهل بن بشر، ومحمد بن عيسى الماهاني، ومحمد بن جابر الحراني المعروف بالبتاني المتوفى سنة ٣١٧، وكان أوحد عصره في فنه، وقد استعان الإفرنج بكتبه في نهضتهم الأخيرة، أما في العصر الثالث الذي نحن في صدده، فأكثر فلكيي المسلمين آثارًا البيروني، وقد بقي منها شيء كثير، وسنأتي على ترجمته وأعماله.



شكل ٣: مرصد فلكي وفيه آلات الرصد في الأجيال الوسطى.

وأول ما يستلفت انتباهنا من هذا القبيل أن العرب (أو المسلمين) قالوا بإبطال صناعة التنجيم المبنية على الوهم، ولعلهم أول من فعل ذلك وإن كانوا لم يستطيعوا إبطالها، ولكنهم مالوا بعلم النجوم نحو الحقائق المبنية على المشاهدة والاختبار كما

فعلوا بعلم الكيمياء، وكانوا كثيري العناية بعلم الفلك يرصدون الأفلاك، ويؤلفون الأزياج ويقيسون العروض ويراقبون السيارات ويرتحلون في طلب ذلك العلم إلى الهند وفارس، ويتبحَّرون في كتب الأوائل، ويتممون ما نقص منها أو يجمعون بين مذاهبها.



شكل ٤: ذات السموت من آلات الرصد العربية.

ولعلم النجوم تاريخ طويل عند العرب لا محل له هنا، وقد ذكرنا تاريخ المراصد وآلاتها، وما أدخله العرب من الإصلاح في هذا العلم في تاريخ التمدن الإسلامي ج٣ صفحة ١٩١، وإليك ترجمة نابغة علم النجوم في هذا العصر:

(٤-١) أبو الريحان البيروني (المتوفى سنة ٤٣٠هـ)

هو أشهر علماء النجوم والرياضيات من المسلمين في العصر الثالث، واسمه محمد بن أحمد البيروني نسبة إلى بيرون بلد في السند، سافر في بلاد الهند أربعين سنة اطلع فيها على علوم الهنود، فضلًا عن مطالعة الكتب العلمية المنقولة أو المؤلفة في هذه الفنون وأقام مدة في خوارزم، وأكثر اشتغاله في النجوم والرياضيات والتاريخ، وخلَّف مؤلفات نفيسة إليك ما بقي منها مما وصل خبره إلينا:

(١) الآثار الباقية عن القرون الخالية: ألفه للأمير شمس المعالي، وهو يبحث في التواريخ التي كانت تستعملها الأمم في زمانه والاختلاف الواقع في الأصول التي هي مبادئها، والفروع التي هي شهورها وسنوها، والأسباب الداعية لذلك، وفي الأعياد المشهورة والأيام المذكورة للأوقات والأعمال وغيرها مما يعمل به بعض الأمم دون البعض الآخر، فهو من قبيل التوقيت أو ما يسميه الإفرنج علم الكرونولوجيا، ويدخل فيه النظر في ما هو اليوم والشهر والسنة على اختلاف الاصطلاح عند الأمم القديمة وتاريخ ذلك عند الآشوريين واليونانيين إلى الإسلام وما بعده إلى أيامه، وما أصاب التقاويم في أثناء ذلك الزمن من التعديل والتبديل، وجداول للأشهر الفارسية القديمة على اختلاف الأعصر والبلاد، ومثل ذلك عند العبرانيين وعند العرب في الجاهلية والإسلام، وعند الروم والهند والترك بالتفصيل والمقابلة، وفي استخراج التواريخ بعضها من بعض وتواريخ الملوك، ومدد حكمهم على اختلاف الأقاويل من آدم فما بعده من رجال التوراة، ويحلق ذلك جداول عن ملوك آشور وبابل والكلدان والقبط واليونان والرومان قبل النصرانية وبعدها وملوك الفرس قبل الإسلام على اختلاف طبقاتها، وبإزاء كل ملك مدة حكمه إلى يزدجرد الذي توفي بعد الإسلام، وفضول في مواليد السنين وكيفياتها وكبائسها عند اليهود وغيرهم وتواريخ المتنبئين وأممهم من أهل الأوثان أو أهل البدع في الإسلام وأعياد الفرس، ومذاهب أهل خوارزم وحساب قبط مصر في السنين والكبس والأعياد عندهم وعند الملكية، وأعياد النصارى وأحوالهم على اختلاف الطوائف، ومثل ذلك عن المجوس والصابئة وما كانت العرب تستعمله من هذا القبيل في أيام الجاهلية، وما فعله الإسلام فيها، وغير ذلك مما تقف عليه في كتاب آخر؛ ولذلك فقد عني المستشرق سخاو الألماني بترجمته إلى الإنكليزية، وقد طبع الأصل في ليبسك سنة ١٨٧٨، والترجمة في لندن سنة ١٨٧٩.

(٢) تاريخ الهند: وهو من الكتب النادرة في هذا الموضوع بالعربية، ترجمه سخاو أيضًا إلى الإنكليزية، وطبع الأصل في لندن سنة ١٨٨٧، والترجمة فيها ١٨٨٨.

(٣) التفهيم لأوائل صناعة التنجيم: هو مختصر في الهندسة والفلك والنجامة، منه نسخ في برلين وأكسفورد والمتحف البريطاني وفي كتب زكي باشا بمصر.

(٤) القانون المسعودي: في الهيئة والنجوم قدمه للسلطان مسعود بن محمود الغزنوي ومنه اسمه، موجود في برلين والمتحف البريطاني وأكسفورد.

(٥) رسالة في الأسطرلاب، في برلين وباريس.

(٦) استيعاب الوجوه الممكنة في صنعة الأسطرلاب، في برلين وليدن وباريس.

(٧) استخراج الأوتاد في الدائرة بخواص الخط المنحني فيها، هي مسائل هندسية وله فيها طرق خصوصية، موجودة في ليدن.

(٨) رسالة في راسيكات الهند: في التناسب، منه نسخة في المكتب الهندي بلندن.

(٩) مبحث في مبادئ العلوم ألفه بالفارسية، وتوجد ترجمته العربية في باريس.

(١٠) رسالة في سير سهمي السعادة والغيب: في أكسفورد.

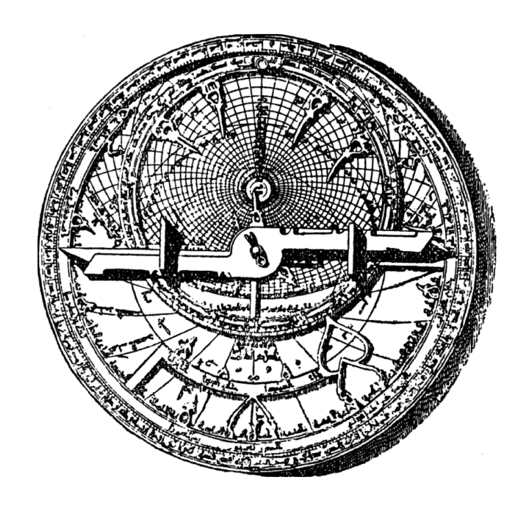
(١١) كتاب الجماهر في معرفة الجواهر: ألَّفه للملك المعظم أبي الفتح مودود، موجود في الأسكوريال وفي كتب زكي باشا.

وترجمة البيروني في طبقات الأطباء ٢٠ ج٢، وفي مقدمة الطبعة العربية للآثار الباقية.

ونبغ غير واحد من علماء الفلك في هذا العصر كالبوزجاني المتوفى سنة ٣٨١، وابن رستم الكوهي، والمنجم القمي، وأبي الحسين الصوفي، وابن اللبان الجبلي، وعبد الأعلى الصدفي وغيرهم يضيق المقام عن ذكرهم، وقد أردنا الاختصار في هذا الباب؛ لأن التطويل فيه لا يفيد المطالعين بعد تغيير تلك العلوم وانقلابها في هذا العصر، فمن أراد التوسع في هذا الشأن فليطالع تراجم أولئك العلماء في أماكنها.

(٥) الرياضيات

نريد بالرياضيات هنا الحساب والجبر والهندسة، وكان للعرب فيها شأن عظيم، ومن أكبر مآثرهم فيها نقلهم الحساب الهندي والأرقام الهندية من الهند وسائر أقطار العالم، فالعرب يسمونها أرقامًا هندية؛ لأنهم نقلوها عن الهنود، والإفرنج يسمونها عربية؛ لأنهم



شكل ٥: الأسطرلاب.

أخذوها عن العرب، وأول من تناول تلك الأرقام من الهنود أبو جعفر محمد موسى الخوارزمي.

وأما الجبر فللعرب فضل كبير في وضعه أو تأليفه، ولما أخذ العرب في نقل العلوم اليونانية نقلوا كتابين في الجبر أحدهما لذيوفانتوس والآخر لأبرخس، وقد وجد الباحثون بعد نهضة التمدن الحديث أن ما كتبه هذان ليس من الجبر في شيء، أو هي أصول ضعيفة لا يعتد بها، وهم يعتقدون أن الجبر من موضوعات العرب، والحقيقة على ما نرى أن العرب بعد أن اطلعوا على حساب الهنود أضافوه إلى ما نقلوه عن اليونان، وبنوا على ذلك علم الجبر، ومن أشهر كتب المسلمين في الجبر كتاب الجبر والمقابلة للخوارزمي المذكور، فالظاهر أن الخوارزمي جمع بين ما عثر عليه من الأصول الجبرية عند اليونان والهنود والفرس فاستخرج منه الجبر العربي، كما جمع في زيجه بين آراء الهند والفرس واليونان، وقد عني العرب بشرح كتاب الخوارزمي مرارًا. وألف أيضًا في الجبر أبو كامل شجاع بن أسلم، وأبو الوفاء البوزجاني وأكثر مؤلفاته في الحساب، وأبو حنيفة الدينوري المتوفى سنة ٢٨١هـ، وأبو العباس السرخسي المتوفى سنة ٢٨٦هـ وغيرهم، ولما نهض الإفرنج في تمدنهم الحديث أخذوا الجبر عن العرب.

ومما أحدثه المسلمون في الهندسة أنهم طبقوها على المنطق، وقد فعل ذلك ابن الهيثم المصري في أوائل القرن الخامس للهجرة، فإنه ألف كتابًا جمع فيه الأصول الهندسية والعددية من إقليدس وأبلنيوس ونوَّع فيها الأصول وقسمها وبرهن عليها ببراهين نظمها من الأمور التعليمية والحسية والمنطقية حتى انتظم ذلك مع انتقاص توالي إقليدس وأبلونيوس، وأدخل في الجبر والحساب أساليب جديدة في استخراج المسائل الحسابية من جهتي التحليل الهندسي والتقدير العددي، وعدل في أوضاع الجبريين وألفاظهم.

وبنو موسى بن شاكر اشتغلوا في استخراج مسائل هندسية لم يستخرجها أحد من الأولين كقسمة الزاوية إلى ثلاثة أقسام متساوية.

واشتغل العرب في أعوص المسائل المشكلة في الهندسة كقسمة الدائرة إلى سبعة أقسام، ووضعوا فيها الرسائل والكتب.

(٦) الفنون الجميلة

ذكرنا تاريخ نشوء الموسيقى العربية في هذا الكتاب، وقد ارتقت بعد ذلك ونبغ فيها كثيرون وإن لم يخلفوا كتبًا مستقلة في هذا الفن، ولكن ورد كثير من قواعده في كتاب الأغاني وأمثاله، وكان لهم شأن في اختراع الآلات الموسيقية وتحسين الآلات التي أخذوها عن سواهم.

ومن مخترعاتهم الموسيقية القانون، والمشهور أنه من اختراع الفارابي الفيلسوف المتقدم ذكره، فقد ذكروا أنه اصطنع آلة مؤلفة من عيدان يركبها ويضرب عليها وتختلف أنغامها باختلاف تركيبها ولكنها في كل حال غريبة في بابها.

ذكروا أن الفارابي حضر مجلس غناء لسيف الدولة ولم يكن أحد من الحضور يعرفه، فعاب المغنين، فسأله سيف الدولة هل يحسن الغناء؛ ففتح خريطة كانت معه واستخرج تلك الآلة وركبها ثم لعب بها، فضحك منها كل من كان في المجلس، ثم فكها وركبها تركيبًا آخر وضرب عليها فبكى من كان في المجلس، ثم فكها وغير تركيبها وضرب ضربًا آخر فنام كل من كان في المجلس حتى البواب؛ فتركهم نيامًا وخرج.

(٦-١) زرياب وابن فرناس

وزاد المسلمون في العود وترًا خامسًا زاده زرياب بالأندلس. كان للعود أربعة أوتار على الصنعة القديمة التي قوبلت بها الطبائع الأربع، فزاد عليها وترًا خامسًا أحمر متوسطًا، ولون الأوتار وطبقها على الطبائع، وهو الذي اخترع مضراب العود من قوادم النسر، وكانوا قبله يضربون بالخشب.

وعباس بن فرناس في الأندلس اصطنع الآلة المعروفة بالمثقال، يعرف بها الأوقات على غير رسم ومثال.

(٧) نظرة

انقضى العصر العباسي الثالث، وبانقضائه تم الجزء الثاني من هذا الكتاب، وقد رأيت أن العصر العباسي الثالث المذكور من أهم عصور آداب اللغة، والباقي لنا من ثمار قرائح أصحابه أكثر من بقايا سائر العصور التي تقدمته، وفيها نخبة من الكتب الهامة المعول عليها في اللغة والأدب والشعر والتاريخ والجغرافية وغيرها، لكنها مع ذلك أقل من بقايا العصر الرابع الآتي ذكره في الجزء الثالث من هذا الكتاب، فإن أكثر ما يتداوله القراء من كتب الموسوعات التاريخية والجغرافية والكتب المطولة في الأدب واللغة، إنما هي من بقايا العصر الرابع المذكور والذي يليه، كما ستراه مفصلًا في الجزء الثالث إن شاء الله.

الجزء الثالث

مقدمة

(١) مميزات هذا الجزء

يمتاز هذا الجزء عن سائر أجزاء الكتاب بكثرة ما حواه من الكتب وبأهميتها بالنظر إلى الناشئة العربية، فإن في أثنائه أثمرت آداب اللغة وظهرت الكتب الهامة في كل موضوع، وأكثر ما بين أيدينا من المعاجم التاريخية والجغرافية واللغوية والتواريخ العامة وسائر كتب المراجعة والمطالعة إنما هو من ثمار العصر العباسي الرابع والعصرين المغولي والعثماني كما ستراه مفصلًا في مكانه. وقد بذلنا عناية خصوصية في تصفح ما أمكننا الوصول إليه من تلك الكتب وقدرنا قيمة كل منها بالنظر إلى سواه من موضوعه، وبالنظر إلى حاجة الناشئة العربية من طلاب التاريخ والأدب والعلم.

وقد أتيح لنا الاطلاع على فهارس جديدة والوقوف على مكاتب لم نكن وقفنا عليها، فنقلنا للقراء وصف نخبة ما فيها من نوادر الكتب، ونذكر منها على الخصوص الخزانة التيمورية لصاحبها أحمد بك تيمور الأديب المشهور، فإنه مكننا من الاطلاع على مكتبته، وهي من أغنى خزائن الكتب الشرقية، وسنصفها في الجزء الرابع عند كلامنا عن خزائن الكتب الحديثة في النهضة الأخيرة. وإنما نشير هنا إلى عنايته الخصوصية في اطلاعنا على كل ما فيه نفع للناشئة العربية، ودفع إلينا قائمة كتب انتقاها من مكاتب الأستانة، وأطلعنا على مجموعة للأستاذ الشيخ طاهر الجزائري فيها أسماء نوادر الكتب العربية في مكاتب الأستانة وغيرها؛ فاستفدنا من ذلك كله فوائد حسنة. وأما معولنا الرئيسي في تحقيق مواضيع الكتب فهو على المكتبة الخديوية، وقد لقينا منها تسهيلًا للبحث والتنقيب تستحق عليه الشكر الجزيل. وفيها اطلعنا على فهارس مكاتب أوربا الكبرى ومكاتب الأستانة وغيرها لتحقيق أماكن وجود بعض الكتب ومواضيعها.

أما الكتب التي لا توجد إلا في تلك المكاتب فقد اطلعنا على بعضها في أثناء رحلتنا في السنة الماضية، وعولنا في تعريف البعض الآخر على «تاريخ آداب اللغة العربية» للأستاذ بروكلمن الألماني، فإنه خزانة واقية في هذا الشأن، على أن الفوائد التي ينطوي عليها كتابنا هذا لا يسهل تناولها إلا بعد ظهور الجزء الرابع منه في السنة القادمة إن شاء الله، وفيه الفهارس الأبجدية لأسماء الكتب وأسماء المؤلفين والمواضيع المختلفة، فضلًا عن تاريخ النهضة الأخيرة في القرن التاسع عشر، فيصير هذا الكتاب موسوعة كبرى لآداب اللغة العربية يجد فيها الناشئ كل ما يخطر له منها.

(٢) وقع الجزء الثاني

وقع الجزء الثاني من هذا الكتاب موقع الاهتمام لدى الأدباء أكثر من الجزء الأول؛ لأنه أوسع منه مادة كما أن الجزء الثالث هذا أوسع من كليهما، ونعني بالاهتمام أن الأدباء تناولوه بالتقريظ أو الانتقاد، وليس في إمكاننا أداء حق الشكر للمقرظين الذين نشطونا بحسن ظنهم بين استحسان أو دفاع أو إطراء جزاهم الله عنا خيرًا. وأما المنتقدون فكانوا على الإجمال أكثر اعتدالًا وإنصافًا من منتقدي الجزء الأول، ولا بأس من كلمة نقولها في منتقدينا نرسم بها صورة من صور آداب اللغة في القرن العشرين.

الانتقاد والمنتقدون

لا جدال في أن الانتقاد أكثر فائدة من التقريظ، وقد يتبادر إلى الأذهان أن انتقاد الكتب يحط من قدرها أو يذهب بفضل أصحابها وهو خلاف الواقع، وإذا رأينا له مثل هذا التأثير أحيانًا فلأن الكتاب المنتقَد لم يكن يستحق عناية المنتقدين، ولو تُرك بلا انتقاد لكان أسرع إلى السقوط. أما الكتب الهامة فإنها تزداد بالانتقاد شيوعًا ورواجًا ويزداد أصحابها رسوخًا في عالم الشهرة، وفي أثناء هذا الكتاب أدلة عديدة على صحة هذه القضية، فإنك لا تكاد تجد كتابًا هامًّا لم يتناوله الأدباء بالانتقاد، من كتاب «العين» للخليل إلى كتاب «النحو» لسيبويه، فشعر المتنبي وأبي تمام وغيرهما من فحول الشعراء وفطاحل الأدباء في العصر العباسي. وقد زادت رغبة الأدباء في النقد بالعصور التالية فلم ينجُ أحد من كبار المؤرخين واللغويين من انتقاد أو تقريع كما أصاب ابن الأثير وابن خلكان والفيروزبادي وابن خلدون والمقريزي والزبيدي وغيرهم.

فالانتقاد مفيد للكتاب وصاحبه وقارئه؛ ولذلك رأيت كبار المؤلفين في أوربا إذا ظهر لأحدهم كتاب لم ينتقده الأدباء عدوا ذلك إهانة لهم؛ لأن المنتقد في نظرهم لا يتصدى لانتقاد كتاب إلا لاهتمامه به رغبة في خدمة العلم. أما عندنا فليس الحال كذلك دائمًا، ومن الأسف أن بين منتقدينا من ينتقد للتشفي أو التشهير لمنافسة أو نحوها مما يضعف عزائم المؤلفين، ونعرف عشرات من الكتاب الناشئين لولا خوفهم من الانتقاد الجارح لثابروا على الكتابة فاستفادوا وأفادوا. وكثيرًا ما يفتخر المنتقد بما يستخرجه من الخطأ، ولو تدبر نسبة ذلك إلى قيمة الكتاب المنتقد، لما رأى ما يبعث على الإعجاب؛ لأن الكتاب الذي يعرض للانتقاد تحتوي كل صفحة منه على عشرات من الحقائق، فقولنا مثلًا: «ولد أحمد في دمشق سنة ٩٥٠ ورحل إلى مصر سنة ٩٧٠ ولقي فيها إبراهيم» مؤلف من عدة حقائق كل منها يحتمل وقوع الخطأ فيه. إذ يمكن أن يكون اسم هذا الرجل «محمد» وليس «أحمد»، وأن يكون مولده في حلب أو بغداد بدلًا من دمشق، وأن تكون سنة ولادته غير ٩٥٠، وأن تكون رحلته إلى غير مصر وأن يلقى غير إبراهيم ونحو ذلك. ولا بد من تحقيق كل هذه الأمور قبل نشرها، فهذا سطر واحد يشتمل على سبع حقائق، فالصفحة المؤلفة من ٢٥ سطرًا تشتمل على نحو ١٧٠ حقيقة، والكتاب المؤلف من ٣٠٠ صفحة يحتوي على نحو ٥٠٠٠٠ حقيقة غير ما يمكن فرضه من الحقائق الإجمالية الناتجة عن ترابط الجمل أو الفصول أو غير ذلك، فإذا استطاع المنتقد كشف ٥٠ غلطة مثلًا — وكان مصيبًا فيها كلها — كانت نسبة ذلك واحد إلى الألف، فلا موجب للإعجاب، فضلًا عن سهولة الانتقاد بالنسبة إلى التأليف.

نحن والمنتقدون

لا نظن كاتبًا من كتاب العصر لاقى ما لاقيناه من الانتقاد في أثناء اشتغالنا بهذه الصناعة منذ بضع وعشرين سنة، وكنا في أول أمرنا نعني بالانتقادات ونرد عليها ونبين التحامل فيها كما فعلنا في «رد رنان على نبش الهذيان» وردودنا في المؤيد على انتقاد الجزء الأول من «تاريخ التمدن الإسلامي»، ولم يكن يصح من الأغلاط التي يحاسبوننا عليها واحد في العشرة أو العشرين، ثم تكاثرت واجباتنا وضاق وقتنا؛ فعزمنا على السكوت والاقتصار على النظر في الانتقاد فإذا وجدنا فيه إصلاحًا حقيقيًّا أدخلناه وأغضينا عن سواه بلا مناقشة؛ لأن الأخذ والرد في هذه الحال لا يأتي بثمرة لتمسُّك المنتقد برأيه والدفاع عنه

بكل جوارحه. فالأولى من قضاء الوقت في الجدال نقضيه في التأليف المفيد، فجعلنا جوابنا على الانتقاد المثابرة على العمل في خدمة تاريخ الإسلام وآداب اللغة العربية.

أخذنا في هذه الخدمة منذ ربع قرن وتاريخ الإسلام مشتت في كتب القدماء، فرأينا أن نأخذ على عاتقنا استخراجه من مظانه بالبحث والتحقيق، ويشهد الله والمنصفون من القراء أننا أخلصنا النية وبذلنا الجهد في بيان حقيقته، واعترضتنا عقبات مهدناها بالصبر والإغضاء والجد والعمل، تصدينا للكتابة في تاريخ الإسلام والقراء لم يتعودوه والمسلمون معجبون بتاريخهم وغير المسلمين لا يعرفون عن الإسلام إلا ما وصلهم من مطاعن الأجيال المظلمة، فكان حظنا من المؤاخذة مضاعفًا، غضب بعض المسيحيين؛ لأننا على زعمهم بالغنا في ذكر فضائل الإسلام حتى اتهمنا بعضهم بالمروق من النصرانية، وقال بعض المسلمين: إننا قصرنا في ذكر فضائل الإسلام.

ولم يزدنا ذلك إلا ثباتًا ونشاطًا لاعتقادنا أننا على هدى وأن القراء في حاجة إلى هذه المواضيع، فألفنا فيها على أساليب أحرزت إقبال العامة ورضا الخاصة، فطبعت مؤلفاتنا مثنى وثلاث ورباع ونقلت إلى معظم اللغات الشرقية، وأهم اللغات الإفرنجية، فترجم بعضها أو كلها إلى الفارسية والهندستانية والتركية العثمانية والتركية الأذربايجانية ولغة التاميل في سنغابور واللغات الفرنساوية والإنكليزية والبورتغالية غير الترجمات التي لم تنشر بعد في الروسية والألمانية وغيرهما. لا نقول ذلك للتفاخر فإننا من أبعد الناس عن التنويه بأعمالنا وإنما نقوله رغم إرادتنا تقريرًا للحقيقة.

انتقاد تاريخ آداب اللغة

لا يخفى على المطالع المنصف كثرة جزئيات هذا الموضوع وتعدد حقائقه وتزاحمها بين تراجم أصحاب القرائح، ووصف ثمار قرائحهم وأماكن وجودها وسني طبعها، وتسلسل أحوال العلوم والآداب وغير ذلك، وقد عزمنا منذ أخذنا في تأليف هذا الكتاب أن نجمع ما يحدث في أثناء طبعه من الفوائد أو ما نستدركه من السهو وننشره في ذيل الكتاب كما فعل الأستاذ بروكلمن في ذيل كتابه المتقدم ذكره، مع ما ينبهنا إليه الأدباء في انتقاداتهم وموعدنا بذلك آخر الجزء الرابع.

لكننا أحببنا أن نقول كلمة بشأن ما ظهر من الانتقادات بعد صدور الجزء الثاني من هذا الكتاب، ونختص من المنتقدين أربعة من أفاضل العلماء أسهبوا في الانتقاد وأتعبوا أنفسهم في التنقيب، ونشكرهم على ما بذلوه من العناية في ذلك، وهم:

(١) الأب لويس شيخو: نشر انتقاده في المشرق سنة ١٥ ج٨ وهو يشف عن غيرته على آداب اللغة وإنصافه في الحكم. وفيه فوائد كثيرة سندرجها في ذيل الجزء الآتي.

(٢) مجلة العرفان لمنشئها أحمد عارف الزين في صيدا، ظهر في المجلد الرابع منها انتقاد بتوقيع شيعي نحيفي من آل كاشف الغطاء في نيف وخمسين صفحة، عاتبنا فيها على إهمال بعض علماء الشيعة الأمامية وأكثرهم لم يخلفوا آثارًا تفيد المطالعين، وقد أخذنا على نفسنا أن لا نذكر غير ما يمكن الرجوع إليه من الآثار. وشغل قسمًا كبيرًا من انتقاده في بحث استوفيناه في كتابنا الفلسفة اللغوية، وذكر إصلاحات لغوية ومطبعية نوافقه على بعضها، وأورد مسائل كثيرة نحن ننظر فيها من وجوه لم ينظر فيها حضرته. وانتقاده على الإجمال لا يخلو من فائدة وسننقل منه ما نراه مفيدًا.

(٣) مجلة لغة العرب: لصاحبها الأب انستاس الكرملي في بغداد انتقد الجزء الأول من هذا الكتاب في السنة الماضية، وصدر الانتقاد بحسن ظنه بالمؤلف، ثم سرد ما وقف عليه من الخطأ سرد عالم مخلص، ودقق في النقد حتى الأغلاط المطبعية، وسنقطف من انتقاده ما يصح عندنا وننشره.

(٤) الشيخ أحمد عمر الإسكندري أستاذ تاريخ آداب اللغة العربية في مدرسة المعلمين بالقاهرة نشر انتقاده في مجلة المنار لسنتيها ١٥ و١٦ وصدَّره بمقدمة بيَّن فيها أنه لم يقدم على الانتقاد إلا إجابة لإلحاح المستفيدين مع أنه كان يختار العافية وحفظ المعرفة بينه وبين المؤلف فنشكره على ذلك، ثم وصف الكتاب وذكر محاسنه وأورد ما يؤخذ عليه وقسم الكلام إلى ١٤ بابًا لو أردنا مناقشته فيها لاستغرق ذلك صفحات عديدة، وإنما نقول: إن انتقاده يشتمل على أمور حرية بالالتفات وإصلاحات سننظر فيها، لكننا نستأذنه في ملاحظات نرجو أن يستفيد منها كما استفدنا نحن من انتقاده وهي:

(أ) إنه جعل لهجته في الانتقاد لهجة أستاذ يلقي درسًا على تلميذه، لكننا نظنه بعد أن عانى التأليف في هذا الموضوع يختار لهجة أخرى.

(ب) إنه كثير الازدراء بالمستشرقين، وهم أصحاب الفضل الأول على آداب اللغة العربية في هذه النهضة؛ لأنهم أول من وجه الأنظار إلى الاهتمام بها وقد حفظوا آثارها

في خزائنهم أو نشروها في مطابعهم، قبل أن تظهر المطابع في الشرق كما سنبين ذلك في الجزء الرابع، وهم قدوتنا في البحث والتنقيب، وهذا لا يمنع أنهم يخطئون مثل سائر البشر، ومن زعم أنه لا يخطئ فقد أخطأ.

(ج) إذا خالفه أحد في رأي أو قول حكم بتخطئته وقد يكون لمخالفه وجه آخر أو أنه نظر في المسألة من جهة أخرى كما فعل في كثير من المواضع في انتقاد كتابنا، فقد أفرد بابًا خاصًّا سماه «تهافت المؤلف على تطبيق قانون النشوء والارتقاء» واستشهد على تهافتنا بقولنا: «إن اضطراب الخلافة الإسلامية وانحلالها إلى إمارات وممالك إنما هو من دواعي هذا الناموس مع أن هذا في نظره ليس من الارتقاء بل هو من الانقراض والفناء!» وقال إننا ناقضنا قولنا بقولنا في محل آخر، إذ نسبنا النهضة العلمية في العصر العباسي إلى هذا الناموس أيضًا، وعنده أن هذا تناقض لأننا جعلنا ناموس الارتقاء سببًا للصعود والهبوط. فهو ينظر في هذه اللفظة من حيث معناها اللغوي فقط؛ لأن الارتقاء في القاموس «الصعود» مع أن الجرائد والمجلات لم تقصر في تعريف هذا اللفظ في العلم الطبيعي، ولم يبقَ مُطالع لا يعرف أن ناموس النشوء والارتقاء يشمل انحلال الأمم وتفرعها كما يشمل ارتقاءها ونهوضها، وفي انتقاد حضرته عدة إصلاحات خالفنا فيها؛ لأنه نظر فيها من وجه ونظرنا من وجوه أخرى.»

(د) أنه شديد التمسك بأقوال القدماء، ولا يرى للمحدثين حقًّا في مخالفتهم، عرفنا ذلك فيه منذ انتقد كتابنا «تاريخ العرب قبل الإسلام» إذ أكبر علينا أن نرتاب في كون الغساسنة من حمير لأسباب ذكرناها هناك، وعد ذلك جسارة منا. ومن هذا القبيل انتقاده وصفنا ابن الرومي؛ لأن عبارتنا خالفت بمدلولها عبارة ابن خلكان عنه، ولم يخطر له أنه قد يكون لنا رأي يخالف رأي ابن خلكان في هذا الشاعر، على أنه انتقد علينا تعويلنا على ابن خلكان في حكاية سيبويه والكسائي ومسألة الزنبور.

(هـ) إنه يتسرع في حكمه على الخطأ، فإذا وقع على غلطة نشرها بلا تحقيق وعظم أمرها، وقد تكون سهوًا بسيطًا فيجعلها خطأ في الحكم، ومن أمثلة ذلك أنه أصلح لنا خطأ في نسبة كتاب «الجواهر الحسان في تفسير القرآن» إلى أبي منصور الثعالبي (صفحة ٢٨٧) وعده خطأ في الحكم! وقال: «إن هذا التفسير للثعلبي أبي إسحق» ثم علل السبب الذي أوقعنا في هذا الخطأ بقوله: «إن كلا الرجلين نيسابوري الموطن وإنهما كانا متعاصرين وأن وفاتهما متقاربة» (في أوائل القرن الخامس للهجرة)، فالأستاذ نبهنا إلى أن الجواهر الحسان ليست للثعالبي أبي منصور وهو مصيب في ذلك، لكنه اخطأ

بقوله: إنه للثعلبي أبي إسحق المعاصر لأبي منصور، والحقيقة أنه للثعالبي أبي زيد المتوفى سنة ٨٧٥هـ أي: بعد إسحق بأربعة قرون ونصف (راجع كشف الظنون مادة الجواهر الحسان وفهرس المكتبة الخديوية ١٦٣ ج١) أما الثعلبي أبو إسحق فتفسيره اسمه الكشف والبيان وليس الجواهر الحسان.

ومن هذا القبيل تخطئته إيانا في اسم سلم الخاسر؛ لأننا قلنا: «ويقال: سالم» بعد أن ذكرنا اسمه «سلم» بلا ألف وشدد علينا النكير، ونحن إنما قلنا: «ويقال: سالم» احترامًا لرواية ابن خلكان؛ لأنه سماه سالمًا وهو عمدة المحققين للأسماء، وليس ذلك خطأ وقع في النسخة المطبوعة فقط كما قال، فإن في المكتبة الخديوية نسخًا خطية جاء فيها بالألف. ويؤيد ذلك موقع هذا الاسم في ترتيب الأعلام الهجائي في ذلك الكتاب، فإنه موضوع بين الأسماء التي أولها «سا» ولو أراد أنه «سلم» لوضعه بعد سعيد وسفيان وسكينة وهو لم يفعل ذلك، بل وضعه قبلها كلها، فاحترامًا لهذا المؤرخ المحقق قلنا: «ويقال: سالم» وفي كل حال لا يحق لحضرة المنتقد أن يعد ذلك خطأً يحاسبنا عليه.

نكتفي الآن بما تقدم ونشرع في الجزء الثالث من هذا الكتاب وهو مؤلف من ثلاثة أعصر: العصر العباسي الرابع والعصر المغولي والعصر العثماني، فنقول.

العصر العباسي الرابع

أو القرنان الأخيران من الدولة العباسية
من سنة ٤٤٧–٦٥٦هـ

هو آخر الأعصر العباسية يبدأ بدخول السلاجقة بغداد سنة ٤٤٧هـ وينتهي بدخول بغداد في حوزة المغول سنة ٦٥٦هـ على يد هولاكو، وانتقال الخلافة العباسية إلى مصر، وقد جرت فيه انقلابات سياسية كان لها تأثير كبير في المملكة الإسلامية والأمم الإسلامية.

(١) الانقلابات السياسية

الدولة السلجوقية

أهم تلك الانقلابات ظهور دولة السلاجقة وهي تختلف عما تقدمها من الدول التركية بأنها لم تنشأ فرعًا للدولة العباسية، وإنما قامت بها أمة ذات بطش وسلطان حملت على المملكة الإسلامية وفتحتها بالسيف، كما تمتاز الدولة البويهية عن سائر الدول الفارسية الصغرى، جدها سلجوق بن بكباك أمير تركي في خدمة بعض خانات تركستان، ظهرت والمملكة العباسية قد تضعضعت بالانقسامات المتوالية وضعف شأن البويهيين الفرس في العراق وفارس والفاطميين العرب بمصر، وهما دولتان شيعيتان كانتا قد تغلبتا على أهل السنة وأكثرهم من الأتراك والأكراد والعرب، فطمع سلجوق باكتساح تلك المملكة،

وعلم أنه لا يستطيع ذلك إلا إذا أسلم فأسلم هو ورجاله ونهض بهم من تركستان غربًا فقطعوا نهر جيحون وهم يفتحون ويكتسحون حتى امتد سلطانهم من أفغانستان إلى البحر الأبيض، وتفرعوا إلى دول يمتاز بعضها عن بعض بأماكن حكمها ومدتها. فالسلاجقة العظام حكموا من سنة ٤٢٩–٥٥٢هـ وسلاجقة كرمان من ٤٣٣–٥٨٣هـ وسلاجقة الشام من ٤٨٧–٥١١هـ وسلاجقة العراق وكردستان من ٥١١–٥٩٠ وسلاجقة بلاد الروم من ٤٧٠–٧٠٠هـ فمدة الدولة السلجوقية على الإجمال نحو ثلاثة قرون، وبلغ اتساع مملكتها من حدود الصين إلى آخر حدود الشام، ودخلوا بغداد سنة ٤٤٧هـ وهي في السنة التي اخترناها فاتحة للعصر العباسي الرابع.

الصليبيون

وفي أثناء هذه المدة حمل الإفرنج على سوريا وفلسطين تحت راية الصليب ففتحوهما وتسلطوا عليهما من سنة ٤٩٢–٥٨٢هـ واختلطوا بالأهلين، ولا سيما المسيحيين بالزواج وغيره، والإفرنج يختلفون بأصولهم ولغاتهم وآدابهم وعاداتهم عن العرب أكثر من اختلاف الأتراك والفرس عنهم، فاختلاطهم بأهل الشام وفلسطين تسعين سنة خلف في نفوس أهليهما آثارًا اجتماعية وأخلاقية كان لها تأثير في آداب اللغة.

المغول

وفي أواخر هذا العصر ظهر جنكيزخان القائد المغولي، وحمل على المملكة الإسلامية في أول القرن السابع[١] فاكتسحها وخرب مدنها وأحرق مكاتبها وقتل أهلها مما لم يسبق له مثيل، ومن نسله ظهر هولاكو وفتح بغداد وخربها، وقتل خليفتها المستعصم سنة ٦٥٦هـ، وفر من نجا من العباسيين إلى مصر فانتقلت الخلافة العباسية إلى هناك، ولهؤلاء المغول تأثير في تاريخ آداب اللغة لكثرة ما أحرقوه من الكتب، وقد ظهرت نتائج ذلك في العصور التالية.



شكل ١: هولاكو.

الأندلس

وفي هذا العصر أيضًا انحلت دولة الأندلس وذهبت وحدتها وانقسمت إلى إمارات كما انقسمت الدولة العباسية قبلها، وكما تولى أمراء الفرس والأتراك والأكراد والعرب على فروع المملكة العباسية ففروع مملكة الأمويين في الأندلس آلت السيادة فيها بعد بني مروان إلى أمراء أكثرهم من البربر والموالي، تغلب كل منهم على ما في يده من أوائل القرن الخامس للهجرة، فصاروا دولًا صغيرة عُرفت بملوك الطوائف.

وتوالى الانقسام بين تلك الدول والإفرنج يغتنمون ضعفهم، ويسترجعون بلادهم إمارة إمارة وبلدًا بلدًا، حتى أخرجوا المسلمين كافة من إسبانيا، وآخر مدينة فتحها الإفرنج غرناطة كانت في حوزة آل نصر وفر ملكها أبو عبد الله بن علي سنة ٨٩٧هـ وهو آخر أمراء المسلمين في الأندلس.

فالانقلابات السياسية المشار إليها أثرت في الأحوال الاجتماعية لاشتغال الناس بالفتن والحروب وفساد الأحكام، لكن تأثيرها في آداب اللغة لم تظهر ثماره إلا في العصر المغولي

وما بعده كما سيجيء. أما العصر العباسي الرابع الذي نحن في صدده فظهرت فيه ثمار آداب اللغة الطبيعية التي نمت وأورقت وأزهرت في العصر العباسي الثالث إذ تسابق الناس إلى الاشتغال بالعلم والأدب للأسباب التي قدمناها في كلامنا عن ذلك العصر في الجزء الماضي.

وتكاثر الأمراء المسلمون في هذا العصر واختلفت لغاتهم وعناصرهم، لكنهم كانوا يتنافسون في تنشيط اللغة العربية؛ لأنها لغة الدين والعلم والسياسة، فازدهت وكثرت فيها المؤلفات الكبرى على أسلوب يخالف أساليب الأعصر الماضية، وساعد على ذلك رغبة السلاطين الأيوبيين في العلم وأهله، فإن دولتهم انقسمت إلى فروع حكمت مصر ودمشق وحلب وما بين النهرين وحماه وحمص واليمن وهي أهم الأصقاع العربية.

الأيوبيون والفاطميون

وكان الأيوبيون يقربون الأدباء ويخلعون عليهم، والأيوبيون أكراد لكنهم تعربوا وأحبوا لغة العرب وآدابها، ونبغ منهم جماعة من أهل الأدب والشعر والعلم، أشهرهم أبو الفداء المؤرخ الشهير، وبهرام شاه بن فرخشاه صاحب بعلبك المتوفى سنة ٦٢٨ كان شاعرًا أديبًا، والملك الناصر بن الملك المعظم عيسى المتوفى سنة ٦٥٦هـ كان مشتغلًا بتحصيل الكتب النفيسة ويجيز الأدباء، والملك المؤيد صاحب اليمن المتوفى سنة ٧٢١ كان من أهل العلم اشتملت خزانته على مئة ألف مجلد، والملك المعظم عيسى بن الملك العادل صاحب دمشق المتوفى سنة ٦٢٤ كان رغابًا في الأدب وأهله حتى شرط لكل من يحفظ المفصل للزمخشري مائة دينار وخلعة.

غير ما كان للفاطميين قبلهم من العناية باللغة العربية وآدابها، وقد وجهوا التفاتًا خاصًّا إلى لغة الدواوين؛ فعينوا عالمًا بالنحو يراقب لغة الإنشاء فيصلح ما قد يقع من الخطأ النحوي أو اللغوي، تولى هذا المنصب عندهم طاهر بن بابشاذ المتوفى سنة ٤٦٩هـ وابن البري المتوفى سنة ٥٨٢ وسيأتي ذكرهما بين علماء اللغة.

وزد على ذلك أن اتساع دائرة الحروب والفتوح في هذا العصر بعث على اختلاط الأمم من الأتراك والمغول والإفرنج والجركس والكرج وتعددت الدول الإسلامية المستقلة حتى صارت تعد بالعشرات، واختلاط الأمم يفتق القرائح والتزاوج بين الأباعد يقوي الأبدان والعقول.

(٢) مميزات هذا العصر

المدارس

يمتاز هذا العصر عما تقدمه بانتشار المدارس في العالم الإسلامي وتغيير طرق التدريس عما كانت عليه قبلًا؛ لأن العلم نضج في الدول الإسلامية ونبغ العلماء والفقهاء والأدباء في القرون الأولى للهجرة وليس في الإسلام مدرسة مثل مدارس هذه الأيام إلى القرن الخامس للهجرة، وأول من بناها الأعاجم لأسباب سياسية ذكرناها في تاريخ التمدن الإسلامي (ج٣)، واشتهر بإنشاء المدارس في الإسلام نظام الملك الفارسي وزير ملك شاه السلجوقي التركي، وأشهر مدارس ذلك العصر المدرسة النظامية في بغداد نسبة إليه، كان لها شأن كبير في العالم الإسلامي، ونبغ منها طائفة كبيرة من العلماء وغيرهم، وبالجملة فالعناية كانت متجهة في هذا العصر إلى إنشاء المدارس كما كانت متجهة في العصر الماضي إلى إنشاء المكاتب.

المعاجم التاريخية

رأى الأدباء والعلماء ما توالى على المملكة الإسلامية من الفتوح وما لحقها من التخريب وشاهدوا أو سمعوا بضياع الكتب بمصر والشام وخراسان والأندلس بالفتن ونحوها فعمدوا إلى الاحتفاظ بتلك الآثار واكتنازها بالتلخيص والجمع مع حذف الأسانيد بحيث تجمع الحقائق الكثيرة في الحجم الصغير، ويكون الكتاب الواحد زبدة عشرات من الكتب، كما فعل ياقوت بمعجمه، وابن خلكان بوفياته، وابن أبي أصيبعة بطبقاته، فاكتفوا تقريبًا بجمع ما لديهم وتبويبه وتسهيل الانتفاع به بترتيبه على السنين أو على حروف المعجم، فجاءت مؤلفاتهم ضخمة وافية بينها طائفة من المعاجم التاريخية والجغرافية، بحيث يصح أن يسمى هذا العصر عصر المعاجم، وهي من أهم ما بين أيدينا من كتب العلم العربية، وبينها أهم مآخذنا في التاريخ والجغرافية، وإن كان بعضها صدر بعد انقضاء هذا العصر بسنين قليلة لكنه يعد من ثماره. ولذلك رأيت في بعض كتابه إعجابًا بأنفسهم لما استطاعوا جمعه من الحقائق، يظهر ذلك في مقدمات كتبهم كما فعل ياقوت في مقدمة معجم الأدباء وابن الأثير الأديب في مقدمة المثل السائر.

الصناعة اللفظية

ورغبتهم في إتقان التأليف بعثتهم على إتقان الصناعة اللفظية والتفنن في البديع والجناس، فوضعوا علم البيان أو دونوه وضبطوه حتى صار علمًا قائمًا بنفسه، وأتقنوا المقامات أيضًا وهي من قبيل الصنائع اللفظية. ويقال على الإجمال: إن الإنشاء أو الترسل مال في هذا العصر إلى التأنق في اللفظ فوق ما كان في العصر السابق. وأصبح عندهم لكل فن من فنون الأدب أساليب معينة يختص به عند أهله كالنسيب المختص بالشعر والحمد المختص بالخطب والدعاء المختص بالمراسلات، وقد كان شيء من ذلك قبلًا لكنه أصبح في هذا العصر فنًّا بقواعد، وهذا التقييد في الإنشاء هو ما يسميه الإفرنج بالطريقة المدرسية، وقد علمت أنها نشأت في العصر الماضي لكنهم وسعوها في هذا العصر وما بعده حتى أوشكت أن تخرج إلى عكس المراد بها كما ستراه.

ويمتاز هذا العصر بقلة ما ضاع من مؤلفاته بالنسبة إلى الأعصر الماضية، فقد رأيت في كلامنا عن العصر العباسي الأول وبعده أن بعضهم قد يخلف مئة كتاب أو بضع مئات، فلا يبقى منها إلا بضعة كتب أو لا يبقى منها شيء، أما مؤلفات هذا العصر فبقي كثير منها.

هوامش

(١) راجع تفصيل ذلك في «تاريخ التمدن الإسلامي» ١٠٤ ج٤.

الشعر

تغيرت حال الشعر في هذا العصر عما كانت عليه قبله بعد ذهاب سيف الدولة والصاحب بن عباد وغيرهما من الآخذين بناصر الأدباء والشعراء، وصارت أمور الدولة أكثرها إلى الأعاجم وانصرفت القرائح إلى الفقه والتصوف وغيرهما من العلوم الدينية، فأصبح الشاعر لا ينظم رغبة في الجائزة أو تنافسًا في التقدم لدى ولاة الأمر، وإنما ينظم في الأكثر إرضاءً لقريحته، فتغيرت أغراض الشعراء من النظم وقل النابغون منهم، ومع اتساع المملكة الإسلامية وطول مدة هذا العصر لم ينبغ فيه من الشعراء البلغاء نصف ما نبغ في سواه قبله.

ونظرًا لما توالى على المملكة الإسلامية من الإحن والفتن كسدت سوق الشعر، وأصبح المنتجع من الشعراء لا يستنكف من شكوى الفقر وطلب الرفد بصراحة كقول ابن التعاويذي يخاطب عضد الدين بن رئيس الرؤساء:

فيا مولاي هل حدثت عني	بأني من ملائكة السماء
وأن وظائف التسبيح قوتي	وما أحيا عليه من الدعاء
وإني قد غنيت عن الطعام الـ	ـذي هو من ضرورات البقاء
وهل في الناس لو أنصفت خلق	يعيش كما أعيش من الهواء
فلا في جملة الأحرار أُدعى	ولا بين العبيد ولا الإماء

واتجهت القرائح إلى الأدعية ومدح النبي والراشدين بقصائد ظهر بعضها في أوائل العصر التالي هي أبلغ ما وصل إلينا من مدحهم، وكثرت المعاني الصوفية لشيوع التصوف فيه، ولا يرجى مع ذلك أن يكون الفرق بين شعر هذا العصر والذي سبقه كبيرًا لرغبة القوم في تحدي أسلافهم والنسج على منوالهم.

على أن ما انتاب الشعر من أطوار المدينة والانقلابات الاجتماعية أحدث تغييرًا في قواعده وأساليبه، وقد تقدم أن صناعته نضجت في العصر الماضي كما نضجت سائر آداب اللغة، وانتهى إلى ابن رشيق فوضع فيه كتاب العمدة في صناعة الشعر ونقده، وهو في الشعر العربي أشبه ببوالو في الشعر الفرنساوي؛ لأنه قيد شوارده وعين أساليبه، وتمكن ذلك منه في هذا العصر فأصبحت أبوابه ومناحيه معينة يراد بها الصناعة الشعرية لا التعبير عن الشعور، فصار الفخر — مثلًا — بابًا من تلك الأبواب يتسابق الشعراء إلى الإجادة فيه بالمبالغة بلا تحمس لمفاخرة في حرب أو للتفاخر بالأنساب أو نحو ذلك، وإنما يريدون به مجرد الصناعة الشعرية، وممن أجاد في ذلك ابن سناء الملك الشاعر المصري المشهور بمبالغته وسيأتي ذكره، وقس على ذلك سائر الأبواب.

وفي هذا العصر نضجت الموشحات في الأندلس وتوسع أهلها بوصف المناظر الطبيعية، ووضعوا فنًّا آخر سموه الزجل، شهره وقام عماده أبو بكر بن قزمان الأندلسي القرطبي المتوفى سنة ٥٥٥، ويعرف بإمام الزجالين وسيأتي ذكره، واستحدث أهل الأمصار في المغرب فنًّا آخر من الشعر في أعاريض مزدوجة نظموه بلغتهم الحضرية وسموه «عروض البلد» استنبطه ابن عمير الأندلسي، وشاع هذا الفن بفاس فنوعوه أصنافًا سموه المزدوج والكاري والملعبة والغزل وغيرها، كما شاعت الآن أنواع الزجل المصري في مصر والقريض والمعنى في الشام، وفي أواخر مقدمة ابن خلدون فصل طويل في هذا الموضوع وأمثلة يحسن الاطلاع عليها.

وفي هذا العصر انتقل التوشيح من الأندلس إلى الشرق وشاع فيه، وأول من استكثر منه وأجاد فيه ابن سناء الملك المذكور، ويمتاز هذا العصر بإتقان الصناعة اللفظية على الإجمال كما تقدم ولحق الشعر منه حظ كبير، فأصبح الشاعر يصرف همه إلى اللفظ ولو سخر له المعنى أحيانًا حتى يغلق فهم المراد منه، وقد أجاد بعضهم في ذلك إلى حد الإعجاز وأشهر الأمثلة عليه ديوان ابن الفارض.

(١) الشعراء

أما شعراء هذا العصر فقد تكاثروا في أطراف المملكة الإسلامية لكنهم في مصر أكثر منهم في كل عصر قبله، وفيهم جماعة من فطاحل الشعراء، وإليك خلاصة تراجم الشعراء حسب مواطنهم مع اعتبار سني الولادة، ونبدأ بمصر.

أولًا: شعراء مصر

السبب في تكاثر الشعراء بمصر في هذا العصر اعتزاز وادي النيل بالخلافة الفاطمية (٣٥٨–٥٧٦) ثم سلطة الأيوبيين (٥٧٦–٦٥٠هـ)، وكانت قبل ذلك إمارة تابعة للمدينة أو دمشق أو بغداد وإن استقلت بإدارتها في بعض الأحوال، وكان للفاطميين عناية عظيمة باللغة العربية كما تقدم والبلاد إنما تجود قرائح أهلها بالعز، وأكثر الشعراء المصريين نبغوا في أواخر الدولة الفاطمية، وهاك أشهرهم حسب سني الوفاة:

(١) **ابن قلاقس (المتوفى سنة ٥٦٧هـ):** هو أبو الفتوح نصر الله بن عبد الله بن قلاقس الأزهري الإسكندري الملقب بالقاضي الأعز كان شاعرًا مجيدًا صحب الشيخ الحافظ أبا طاهر السلفي الآتي ذكره وله فيه مدائح، ودخل في آخر وقته اليمن وامتدح بعض رجالها وحكامها فأثرى فركب البحر فانكسر المركب، وغرق ما كان معه عند جزيرة الناموس بالقرب من دهلك، فعاد إلى اليمن صفر اليدين ثم انتقل إلى صقلية وعاد منها وتوفي في عيذاب سنة ٥٦٧هـ.

له ديوان مرتب على الأبجدية فيه كثير من مدائحه في السلفي، طُبع بمصر سنة ١٣٢٣هـ، وله قصائد متفرقة في أماكن أخرى، ومن أمثلة شعره قصيدة قالها بعد الغرق يستغيث ببعض ممدوحيه وقد أجازه فقال:

وغلطت في تشبيهه   بالبحر فاللهم غفرا
أوليس نلت بذا غنى   جمًّا ونلت بذاك فقرا
وعهدت هذا لم يزل   مدًّا وذاك يعود جزرا

(ترجمته في ابن خلكان ١٥٦ ج٢).

(٢) **ابن سناء الملك (توفي سنة ٦٠٨هـ):** هو القاضي السعيد هبة الله بن القاضي الرشيد جعفر بن المعتمد سناء الملك المصري، كان من الرؤساء النبلاء وكان كثير التخصص والتنعم وافر السعادة، وكان في أيامه مجالس للشعراء في مصر يجري لهم فيها مفاكهات ومحاورات يروق سماعها هو واسطة عقدها، وكان منشئًا حسن الإنشاء على طريقتهم وهو أول من استكثر من الموشحات وأجاد فيها من المشارقة، ومن آثاره:

(أ) دار الطراز: ديوان موجود في ليدن، وفي الخزانة التيمورية بالقاهرة نسخة منه قديمة في ٢٠٠ صفحة، ومن شعره قصيدته الفخرية الشهيرة التي مطلعها:

سواي يهاب الموت أو يرهب الرَّدى وغيري يهوى أن يعيش مخلدًا

(ب) كتاب فصوص الفصول وعقود العقول مجموع شعر ونثر ومراسلات أكثرها من القاضي الفاضل أستاذ المنشئين في ذلك العصر يمدحه ويمدح إباه وجده، وقد صدرها ابن سناء الملك بمقدمة من قلمه يفتخر بذلك المدح، ومن هذا الكتاب نسخة في الأسكوريال وباريس والمكتبة الخديوية. (ترجمته في ابن خلكان ١٨٨ ج٢).

(٣) **كمال الدين بن النبيه (توفي سنة ٦١٩هـ):** هو علي بن محمد بن الحسين كمال الدين بن النبيه المصري مدح بني أيوب، واتصل بالملك الأشرف موسى، وكتب له الإنشاء وأقام في نصيبين وتوفي فيها. وله ديوان أكثره في مدح الأيوبيين منه نسخة خطية في أكثر مكاتب أوربا، وطُبع في بيروت سنة ١٢٩٩هـ وفي مصر سنة ١٨٩٥، وله قصيدة ترجمها كارليل إلى الإنكليزية ونشرها في كتاب «أمثلة من الشعر العربي» في لندن سنة ١٨١٠. (ترجمته في فوات الوفيات ٧١ ج٢).

(٤) **ابن شمس الخلافة (توفي سنة ٦٣٢هـ):** هو أبو الفضل جعفر بن شمس الخلافة الأفضلي نسبة إلى الأفضل أمير الجيوش بمصر ويلقب مجد الملك، كان جميل الخط وكتب كثيرًا، وله مؤلفات من جملتها ديوان لا نعلم مكانه، وكتاب في الأدب منه نسخة في ليدن، ومن شعره في الحكم قوله:

هي شدة يأتي الرخاء عقيبها وأسى يبشر بالسرور العاجل
وإذا نظرت فإن بؤسًا زائلًا للمرء خير من نعيم زائل

(ترجمته في ابن خلكان ١١٣ ج١).

(٥) **عمر بن الفارض (توفي سنة ٦٣٢هـ):** هو أبو حفص عمر بن أبي الحسن علي بن المرشد علي الحموي الأصل المصري المولد والدار والوفاة ويُنعت بالشرف، وهو أشهر من أن يعرَّف لاشتهار ديوانه وكثرة شراحه، كان ينحو في شعره منحى الصوفية ورعًا، إذا مشى في المدينة ازدحم الناس عليه يلتمسون منه البركة والدعاء. وكان وقورًا إذا حضر مجلسًا استولى السكون على أهله. وإذا أراد النظم أصابته غيبوبة، قيل: إن بعضها كان

يستغرق عشرة أيام لا يأكل ولا يشرب ولا يتحرك فإذا أفاق أملى من الشعر أبياتًا. جاور بمكة زمنًا، وتوفي في القاهرة ودفن في سفح المقطم وقبره معروف هناك.

ويمتاز شعره بكثرة الجناس والبديع مع الإجادة فيهما مما كان مستملحًا في عصره وما زال محل إعجاب الأدباء إلى عصرنا هذا ثم جنح الناس إلى الحقائق واستنكفوا من كثرة التأنق في الصناعة اللفظية. وكان ديوان الفارض إلى عهد غير بعيد يعلَّم في المدارس فيحفظه الأحداث غيبًا، وإن لم يفهموه، لكنهم يرون في ذلك فائدة للقريحة الشعرية. وفي أغراض ابن الفارض اختلاف بين الشارحين، أشهر شراحه الشيخ حسن البوريني (١٠٢٤هـ) والشيخ عبد الغني النابلسي (١١٤٣هـ)، شرحه البوريني على ظاهر المراد منه أي: بحسب المعنى الظاهر، وشرحه النابلسي شرحًا صوفيًّا، وقد جمع رشيد بن غالب بين الشرحين في كتاب طُبع في مصر سنة ١٢٨٩، وفي مرسيليا سنة ١٨٥٣. وترجمت قصيدته التائية إلى الألمانية وطُبعت سنة ١٨٥٤، وتُرجم غيرها إلى الفرنساوية طُبعت بباريس سنة ١٨٨٦ (ترجمته في ابن خلكان ٣٨٣ ج١).

(٦) **جمال الدين بن مطروح (توفي سنة ٦٤٩هـ):** هو أبو الحسن يحيى بن عيسى الملقب جمال الدين من أهل صعيد مصر نشأ هناك وأقام في قوص، وتنقلت به الأحوال في الخدم والولايات حتى اتصل بخدمة السلطان الملك الصالح الأيوبي، وهو نائب عن أبيه الكامل بمصر، فلما اتسعت مملكة الكامل سير ابنه الصالح نائبًا عنه في ما بين النهرين، فسار ابن مطروح في خدمته حتى إذا رجع الملك الصالح إلى مصر سنة ٦٣٩هـ وتولاها جعل ابن مطروح ناظرًا في الخزانة، ثم عينه وزيرًا لنائب دمشق وحسنت حاله وارتفعت منزلته، واضطر الملك الصالح لمحاربة صاحب حمص فسير ابن مطروح في حملة إلى هناك، ثم أمره بالرجوع فعاد إلى مصر، ومات فيها ودفن في سفح المقطم، وكانت بينه وبين ابن خلكان المؤرخ مطارحات ومكاتبات ذكر ابن خلكان بعضها في كتابه وفيات الأعيان (٢٥٧ ج٢) مع أمثلة كثيرة من شعره.

له ديوان منه نسخ خطية في برلين والمتحف البريطاني وكوبرلي، وقد طبع بالأستانة سنة ١٢٩٨ مع ديوان عباس بن الأحنف.

(٧) **سيف الدين الياروقي (توفي سنة ٦٥٦هـ):** هو الأمير علي بن عمر بن قزل بن جلدك سيف الدين التركماني الياروقي. ولد بمصر سنة ٦٠٢ وتوفي بدمشق ودفن في سفح قاسيون وتقلب في بعض المناصب الديوانية، ومنها: أنه تعين مشد الدواوين للناصر يوسف عبد العزيز وكان ظريفًا طيب العشرة، له ديوان منه نسخ في الأسكوريال والمتحف البريطاني، وتجد أمثلة من نظمه في فوات الوفيات (٦٣ ج٢).

(٨) **بهاء الدين زهير (توفي سنة ٦٥٦هـ):** هو أبو الفضل زهير بن محمد بن علي المهلبي العتكي الكاتب، كان من فضلاء عصره وأحسنهم نظمًا ونثرًا وخطًّا ومن أكبرهم مروءة، اتصل بخدمة السلطان الملك الصالح المتقدم ذكره وتوجه في خدمته إلى البلاد الشرقية، وحافظ على ولائه في أثناء نكبته فحفظ له ذلك فلما عاد الصالح إلى الملك قربه، وكانت بينه وبين ابن مطروح مودة ومحاضرات وعرفه ابن خلكان واجتمع به وأثنى عليه، ويمتاز شعره بالرقة والظرف وخفة الروح، لا تكاد تسمع منه أبياتًا حتى تتبين روح البهاء زهير فيها فتنمُّ عليه، وكثير من أشعاره شائع يتمثل به الناس وفي بعضه مجون لطيف، ولولا شيوع ديوانه وكثرة طبعاته لأتينا بأمثلة منه، فقد طُبع بمصر مرارًا ومنه نسخ خطية في أكثر المكاتب الكبرى، وترجمه المستشرق الإنكليزي بالمر نظمًا إلى اللغة الإنكليزية وطبعه في كمبريدج سنة ١٨٧٦ في مجلدين وعلق عليه الحواشي والشروح (ترجمته في ابن خلكان ١٩٤ ج١).

ومن شعراء مصر في هذا العصر أيضًا:

(٩) **ابن زقاق البلقيني (توفي سنة ٥٢٨هـ):** له ديوان مرتب على الهجاء في برلين.

(١٠) **ظافر بن القاسم الحداد الإسكندراني (توفي بالقاهرة سنة ٥٢٩هـ):** له ديوان في برلين.

ثانيًا: شعراء الشام

(١) **ابن سنان الخفاجي (توفي سنة ٤٦٦هـ):** هو أبو محمد عبد الله محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي كان يرى رأي الشيعة، وعصي بقلعة عزاز من أعمال حلب وجرت معه وهو هناك النكتة المشهورة بوضع الشدة على النون، وذلك أنه كان بينه وبين أبي نصر محمد بن الحسن النحاس وزير محمود بن صالح مودة مؤكدة، وكان محمود يريد القبض على الخفاجي فأمر أبا نصر بن النحاس أن يكتب إليه كتابًا يستعطفه ويؤنسه وقال: «لا يأمن إلا إليك ولا يثق إلا بك»، فكتب إليه كتابًا فلما فرغ منه وكتب «إن شاء الله تعالى» شدد النون من إن، فقرأه الخفاجي وخرج من عزاز قاصدًا حلب، فلما كان في الطريق أعاد النظر في الكتاب فرأى التشديد على النون، فأمسك رأس فرسه وفكر في نفسه وأن ابن النحاس لم يضع الشدة على النون عبثًا، فلاح له أنه أراد: «إن الملأ يأتمرون

بك ليقتلوك» فعاد إلى عزاز وكتب الجواب: «إنا الخادم المعترف بإنعام إلخ» وكسر الألف من إنا وشدة النون وفتحها (إنا) فلما وقف أبو نصر على ذلك سر وعلم أنه قصد به: «إنا لن ندخلها أبدًا ما داموا فيها» وكتب إليه الجواب يستصوب رأيه، وللخفاجي:

(أ) ديوان منه نسخة في المكتبة الخديوية وطبع في بيروت سنة ١٣١٦.
(ب) سرُّ الفصاحة منه نسخة في برلين (ترجمته في فوات الوفيات ٢٣٣ ج١).

(٢) **ابن حيوس (توفي سنة ٤٧٣هـ):** هو أبو الفتيان محمد بن سلطان بن محمد بن حيوس الغنوي الملقب صفي الدولة، وكان يدعى بالأمير لأن أباه كان من أمراء المغرب. وهو أحد الشعراء الشاميين المحسنين ومن فحولهم المجيدين، لقي جماعة من الملوك ومدحهم وأخذ جوائزهم وكان منقطعًا إلى بني مرداس أصحاب حلب ونال جوائزهم، وله ديوان شعر منه نسخة في المكتبة الخديوية مرتب على الأبجدية في ٣٥٠ صفحة. (ترجمته في ابن خلكان ١٠ ج٢).

(٣) **ابن منير الطرابلسي (توفي سنة ٥٤٨هـ):** هو أبو الحسين أحمد بن منير بن مفلح بن أحمد الطرابلسي مهذب الدين، كان أبوه ينشد الأشعار ويغني في الأسواق بطرابلس الشام، ونشأ مهذب الدين وتعلم اللغة والأدب وقال الشعر وقدم دمشق وسكنها وكان رافضيًّا كثير الهجاء خبيث اللسان وكان السيد المرتضى الموسوي نقيبًا للأشراف في العراق والشام، فلما كثر منه ذلك سجنه بوري بن أتابك طغتكين صاحب دمشق ثم شفعوا فيه فأطلقه، وجرت بينه وبين ابن القيسراني محمد بن نصر الشاعر مكاتبات وأجوبة. وهو غير ابن القيسراني المحدث الآتي ذكره[1] وكان ابن القيسراني الشاعر وابن منير مقيمين في حلب يتنافسان في صناعتهما، ولابن منير قصيدة حكمية قال فيها:

وإذا الكريم رأى الخمول نزيله   في منزل فالحزم أن يترحلا
كالبدر لما أن تضاءل جد في   طلب الكمال فحازه متنقلا

وذكر له صاحب تزيين الأسواق قصيدة رائية طويلة تعرف بالتترية، قالها في مملوك له اسمه تتر مطلعها:

عذبت طرفي بالسهر   وأذبت قلبي بالفكر

ولهما حكاية مع الشريف المرتضى ذكرها صاحب تزيين الأسواق، ولم نقف له على ديوان ولكن في ابن خلكان (٤٩ ج١) طائفة من أشعاره.

(٤) **ابن الساعاتي (توفي سنة ٦٠٤هـ):** هو أبو الحسن بن رستم بن هردوز الملقب بهاء الدين ويعرف بابن الساعاتي، ولد في دمشق وتوفي بالقاهرة ودفن في سفح المقطم، وله ديوان شعر في مجلدين منه نسخة في أيا صوفيا، وهو غير ابن الساعاتي الفقيه الآتي ذكره. (ابن خلكان ٣٦٢ ج١).

(٥) **بهرام شاه بن فرخشاه (توفي سنة ٦٢٨هـ):** هو الملك الأمجد أبو المظفر صاحب بعلبك من بني أيوب له ديوان في الغزل والنسيب والحماسة في باريس، وهو صاحب البيتين:

دعوت بماء في إناء فجاءني غلام بها صرفًا فأوسعته زجرا
فقال: هو الماء القراح وإنما تجلى بها خدي فأوهمك الخمرا

(فوات الوفيات ٨١ ج١.)

(٦) **الشواء الحلبي (توفي سنة ٦٣٥هـ):** هو أبو المحاسن يوسف بن إسماعيل بن علي الملقب شهاب الدين ويعرف بالشواء الحلبي، أصله من الكوفة وولد في الموصل، كان متقنًا لعلم العروض والقوافي، وقد عاصر ابن خلكان وبينهما مودة، وأنشده الشواء كثيرًا من شعره ذكره في ترجمته (٤١١ ج٢)، وذكر له ديوانًا كبيرًا في أربعة مجلدات منه منتخبات في برلين.

(٧) **أمين الدين الحلبي (توفي سنة ٦٤٣هـ):** هو عبد المحسن بن حمود التنوخي أمين الدين الحلبي، كان كاتبًا ووزيرًا لعز الدين أيبك صاحب صرخد وجمع كتابًا في الأخبار والنوادر في عشرين مجلدًا — لم نقف عليه — وإنما وصلنا ديوانه المسمى مفتاح الأفراح في امتداح الراح على نسق أبي نواس وفيه مجون منه نسخ خطية في برلين وفينا، ومنه أمثلة في ترجمة عبد المحسن في فوات الوفيات (١٠ ج٢).

(٨) **صدر الدين ابن حمويه (المتوفى سنة ٦٥٣هـ):** هو محمد بن عمر بن علي بن حمويه الدمشقي من الأدباء، له عدة مؤلفات ألفها للملك الكامل محمد، قدم مصر وولي مشيخة الشيوخ ورحل إلى القدس والمغرب ودخل مراكش، واتصل بخدمة أميرها الملك المنصور بن عبد المؤمن له كتاب تقويم النديم وعقبى النعيم المقيم مجموع أشعار وأخبار في الأدب والغزل واللذات، منه نسخة خطية بالمكتبة الخديوية في ١٣٢ صفحة.

(٩) **نور الدين الأسعردي (توفي سنة ٦٥٦هـ):** هو محمد بن محمد بن عبد العزيز بن عبد الصمد بن رستم كان من شعراء الملك الناصر له به اختصاص، وله قصائد سماها الناصريات منها نسخة في الأسكوريال وأمثلة في فوات الوفيات (١٦١ ج٢)، وفي شعره ميل إلى الخلاعة والمجون، جمع أشعاره المجونية في كتاب سماه سلافة الزرجون، لم نقف عليه.

(١٠) **صدر الدين البصري (توفي سنة ٦٥٩):** هو علي بن أبي الفرج بن الحسن البصري صاحب الحماسة البصرية، ألفها لصلاح الدين بن الملك العزيز بن الملك الظاهر سنة ٦٤٧، ورتبها في ١٢ بابًا على فنون الشعر: الحماسة والشدة والمديح والتقريظ والتأبين والرثاء والأدب والنسيب والغزل والأضياف والهجاء ومذمة النساء والصفات والنعوت والسِّيَر والنعاس والأكاذيب والخرافات والإنابة والزهو، اختارها من أقوال شعراء الجاهلية وفحول شعراء المسلمين، تجنب فيها ما جاء في المجاميع الشعرية الأخرى، منه نسخة خطية في المكتبة الخديوية في ٥٢٦ صفحة كبيرة.

ثالثًا: شعراء العراق والجزيرة

(١) **الطغرائي (توفي سنة ٥١٣هـ):** هو العميد فخر الكتاب أبو إسماعيل الحسين بن علي المنشئ الملقب مؤيد الدين ويُعرف بالطغرائي نسبة إلى مهنته في أوائل حياته، فإنه كان طغرائيًّا أي: يكتب الطغرى أو الطرة في أعلى الكتب فوق البسملة بالقلم الغليظ ومضمونها نعوت الملك الذي صدر الكتاب عنه، ثم ما زال يرتقي حتى وزر للسلطان مسعود السلجوقي بالموصل وصار يُنعت بالأستاذ ويُلقب بالمنشئ، وبهذا اللقب عرفه السمعاني في كتاب الأنساب، وكان نابغة عصره في النظم والنثر له ديوان شعر كبير أكثره في مدح السلطان سعيد بن ملك شاه ونظام الملك وغيرهما، منه نسخة خطية في المكتبة الخديوية وبرلين والمتحف البريطاني وبطرسبورج وطبع في الأستانة سنة ١٣٠٠، واشتهر الطغرائي بقصيدته المعروفة بلامية العجم التي مطلعها:

أصالة الرأي صانتني عن الخطل   وحيلة الفضل زانتني لدى العطل

وهي مشهورة وقد طُبعت مرارًا وشرحها وشطرها كثيرون، وترجمها بوكوك المستشرق إلى اللاتينية وطبعها مع تعليقات في أكسونيا سنة ١٦٦١، وترجمها إلى

اللاتينية أيضًا جولي وطبعت سنة ١٧٠٧، وللطغرائي عدة مؤلفات في الكيمياء القديمة منها نسخ في مكاتب أوربا، لا فائدة من ذكرها (ابن خلكان ١٥٩ ج١).

(٢) **دلال الكتب (توفي سنة ٥٦٨هـ):** هو أبو المعالي سعد بن علي الخزرجي الوراق الحظيري المعروف بدلال الكتب، كان يبيع الكتب في بغداد وكان شاعرًا وله رغبة في جمع الشعر فجمع منه كثيرًا في كتب أهمها:

(أ) لمح الملح، رتبه على الأبجدية منه نسخ في أكسفورد والأسكوريال.

(ب) الإعجاز في الأحاجي والألغاز، ألفه برسم الأمير مجاهد الدين قايماز المتوفى سنة ٥٩٥، صدره بمقدمة في فنون الألغاز وأقسامها جاء بالألغاز مرتبة على الأبجدية حسب حروف الروي، ويذكر بعد كل لغز تفسيره وما ألغز به، منه مجلد في المكتبة الخديوية في ٦٢٤ صفحة، ويحتوي على نحو ألف لغز.

(جـ) زينة الدهر وعصرة أهل العصر، وذكر ألطاف شعر العصر ذيله على دمية القصر للباخرزي الآتي ذكره، وفيه أخبار شعراء عصره ومن تقدمهم، لم نقف على مكانه (ابن خلكان ٢٠٣ ج١).

(٣) **ابن التعاويذي (توفي سنة ٥٣٨هـ):** هو أبو الفتح محمد بن عبد الله، ويُعرف أيضًا بسبط التعاويذي؛ لأنه سبط تعاويذي آخر من أجداده اسمه المبارك بن المبارك نُسب إليه؛ لأنه كفله صغيرًا فنشأ في حجره، وكان شاعر وقته، ويعتقد ابن خلكان أنه لم يكن قبله بمئتي سنة من يضاهيه، عمي في آخر عمره وله في عماه أشعار يرثي بها عينيه ويندب شبابه. جمع ديوانه بنفسه قبل العمى وصدَّره بخطبة، ورتبه على أربعة فصول، وكل ما جد بعد ذلك سماه الزيادات، طبع هذا الديوان بمصر سنة ١٩٠٣ مضبوطًا بالشكل الكامل بعناية الأستاذ مرجليوث، وقد ذيله بفهرس أبجدي مفيد وصدره بأسماء الكتب التي جاء فيها شيء من شعر ابن التعاويذي، وهو كثير الشكوى في أشعاره (ابن خلكان ١٩ ج٢).

(٤) **نجم الدين الهرثي (توفي سنة ٥٩٢هـ):** هو أبو الغنائم محمد بن علي ويعرف بابن المعلم الواسطي، ويلقب نجم الدين الهرثي. يكاد شعره يذوب من رقته، وهو لطيف الطبع أكثر قوله في الغزل والمدح وفنون المقاصد مع سلاسة اللفظ وصحة المعنى، ويغلب في شعره وصف الشوق والحب والصبابة والغرام، فشاع واستحلاه الناس ومن أشهر شعره قوله:

أجيراننا إن الدموع التي جرت رخاصًا على أيدي النوى لغوالي
أقيموا على الوادي ولو عمر ساعة كلوث إزار أو كحلِّ عقال
فكم ثمَّ لي من وقفة لو شربتها بنفسي لم أغبن فكيف بمالي

له ديوان منه نسخة في الأسكوريال (ابن خلكان ٢٢ ج٢).

(٥) **حسام الدين الحاجري (توفي سنة ٦٣٢هـ):** هو حسام الدين بن يحيى عيسى بن سنجر بن بهرام الإربلي، كان جنديًّا من أبناء الأجناد له معانٍ جيدة وله ديوان تغلب فيه الرقة جمع فيه الشعر والدوبيت والمواليا، ويندر من يجيد في هذه كلها كما أجاد هو، وأكثر تغزله بصيغة المذكر ومن لطيف شعره قوله:

ما زال يحلف لي بكل ألية أن لا يزال مدى الزمان مصاحبي
لما جفا نزل العذار بخده فتعجبوا لسواد وجه الكاذب

وقوله:

لك خالٌ من فوق عر ش شقيق قد استوى
بعث الصدغ مرسلًا يأمر الناس بالهوى

وقد جمع ديوانه عمر الحسيني في دمشق ورتبه على سبعة أبواب طبع بمصر سنة ١٣٠٥، وله أيضًا مسارح الغزلان الحاجرية في المكتب الهندي بلندن (ابن خلكان ٣٩٨ ج١).

(٦) **ابن الحلاوي (توفي سنة ٦٥٦هـ):** هو أبو الطيب أحمد بن محمد بن أبي الوفاء شرف الدين الموصلي بن الحلاوي، ولد سنة ٦٠٣هـ كان في خدمة بدر الدين لولو صاحب الموصل، وفيه لطف وأدب وظرف ودعابة، مدح الملوك والخلفاء وله قصائد رنانة شاعت أبياتها شيوع الأمثال منها قصيدته التي مطلعها:

حكاه من الغصن الرطيب وريقه وما الخمر إلا وجنتاه وريقه

ومن نظمه قوله من أبيات كتبت على مشط للملك العزيز محمد صاحب حلب:

حللت من الملك العزيز براحة   غدا لثمها عندي أجل الفرائض
وأصبحت مفترَّ الثنايا؛ لأنني   حللت بكف بحرها غير غائض
وقبلت سامي كفه بعد خده   فلم أخلُ في الحالين من لثم عارض

وفي فوات الوفيات (٦٩ ج١) أمثلة كثيرة من نظمه، ولا نعرف له ديوانًا.

(٧) **الصرصري (توفي سنة ٦٥٦هـ):** هو أبو زكريا يحيى بن يوسف الأنصاري البغدادي الصرصري نسبة إلى صرصر قرب بغداد، له ديوان منه نسخة في المكتبة الخديوية وغيرها، وقصائد متفرقة بالتصوف ومدائح الرسول ومقاصد أخرى في الأسكوريال وغوطا وبرلين.

(٨) **محيي الدين الوتري البغدادي (توفي سنة ٦٦٢هـ):** له ديوان في مدح النبي اسمه القصائد الوترية أو بستان العارفين في معرفة الدنيا والدين، طبع بمصر سنة ١٣١١ وله القصيدة الذهبية في الحجة المكية مع تخميسها في برلين.

(٩) **فخر الترك:** هو الأمير علم الدين أيدمير المحيوي من أدباء القرن السابع له ديوان في المكتبة الخديوية بخط قديم.

رابعًا: شعراء فارس

(١) **صردر (توفي سنة ٤٦٥هـ):** هو الرئيس أبو منصور علي بن الحسن الكاتب المعروف بصردر، جمع شعره بين جودة السبك وحسن المعنى وفيه طلاوة وبهجة، ومن ذلك قوله في جارية سوداء:

علقتها سوداء مصقولة   سواد قلبي صفة فيها
ما انكسف البدر على تمهِ   ونوره إلا ليحكيها
لأجلها الأزمان أوقاتها   مؤرَّخات بلياليها

له ديوان منه نسخة خطية في برلين ولندن وبطرسبورج والمكتبة الخديوية رواية أبي حكيم عبد الرحمن الحيري (ترجمته في ابن خلكان ٣٥٩ ج١).

(٢) **الباخرزي (توفي سنة ٤٦٧هـ):** هو أبو الحسن علي بن الحسن من باخرز بين نيسابور وهرات. كان في شبابه مشتغلًا بالفقه الشافعي، ثم اشتغل بالكتابة واختلف إلى ديوان الرسائل وتقلب في المناصب وسافر واغترب وغلب أدبه على فقهه، فنظم الشعر وله كثير من المعاني الجديدة ومن غريب معانيه قوله:

وإني لأشكو لسع أصداغك التي عقاربها في وجنتيك تحوم
وأبكي لدر الثغر منك ولي أبٌ فكيف يديم الضحك وهو يتيم

وله كتاب في تراجم شعراء عصره سماه دمية القصر وعصرة أهل العصر، هو تكملة أو ذيل ليتيمة الدهر للثعالبي، منه نسخ خطية في برلين وفينا وغوطا وباريس ولندن وليدن، وفي المكتبة المارونية بحلب ومكتبة الأزهر في القاهرة، ومنه نسخة في الخزانة التيمورية عليها تصحيحات بخط الشنقيطي المتوفى سنة ١٣٢٢هـ (ابن خلكان ٣٦٠ ج١).

(٣) **الطنطراني (توفي سنة ٤٨٥هـ):** هو أحمد بن عبد الرزاق معين الدين كان ينظم لنظام الملك وزير السلاجقة، وله القصيدة الترجيعية المشهورة التي مطلعها:

يا خلي البال قد بلبلت بالبلبال بال بالنوى زلزلتني والعقل بالزلزال زال

منها نسخ خطية في أكثر مكاتب أوربا وفي المكتبة الخديوية، وقد نشرت في بعض كتب الأدب.

(٤) **ابن الهبارية (توفي سنة ٥٠٤هـ):** هو الشريف أبو يعلي محمد بن محمد بن صالح البغدادي الملقب نظام الدين، كان شاعرًا حسن المقاصد لكنه خبيث اللسان كثير الهجو والوقوع في الناس والهزل والمجون والخلاعة، والنظيف من شعره في غاية الحسن ومن مجونه قوله:

يقول أبو سعيد إذ رآني عفيفًا منذ عام ما شربت
على يد أي شيخ تبت قل لي فقلت: على يد الإفلاس تبت

وذكر له ابن خلكان ديوانًا ضخمًا في أربعة مجلدات لا نعلم مكانه.

ومن نظمه أيضًا الصادح والباغم على أسلوب كليلة ودمنة، وهو أراجيز في نحو ٢٠٠٠ بيت نظمها في عشر سنين وقدمه إلى المزيدي أمير الحلة، طبع في باريس سنة ١٨٨٦، وفي مصر سنة ١٢٩٢ وفي بيروت سنة ١٨٨٦.

وله قصائد متفرقة في مكاتب أوربا وغيرها، منها أرجوزة في الشطرنج في برلين، ومن شعره أمثلة في ترجمته (ابن خلكان ١٥ ج٢).

(٥) **ابن الخياط الدمشقي (توفي سنة ٥١٧هـ):** هو أبو عبد الله أحمد بن محمد التغلبي المعروف بابن الخياط الشاعر الدمشقي من الشعراء المجيدين، طاف البلاد وامتدح الناس ودخل بلاد فارس واجتمع بابن حيوس الشاعر المتقدم ذكره بحلب، وعرض عليه شعره، وكتب إليه مرة يستمنحه شيئًا من بره بهذين البيتين:

لم يبقَ عندي ما يباع بحبة　　　وكفاك علمًا منظري عن مخبري
إلا بقية ماء وجه صنتها　　　عن أن تباع وأين أين المشتري

فلما وقف عليهما ابن حيوس قال: لو قال: «وأنت نعم المشتري لكان أحسن.» ومن قصائده التي سارت بذكرها الركبان؛ البائية التي مطلعها:

خذا من صبا نجد أمانًا لقلبه　　　فقد كاد رياها يطير بلبه

وله ديوان منه نسخة في الأسكوريال والمتحف البريطاني، وفي المكتبة الخديوية (ترجمته في ابن خلكان ٤٥ ج١).

(٦) **أبو إسحق الغزي (توفي سنة ٥٢٤هـ):** هو أبو إسحق إبراهيم بن عثمان بن محمد الكلبي الأشهبي الغزي، توفي في خراسان، كان يُضرب المثل بجودة شعره، ومن لطيف نظمه قوله:

قالوا: تركت الشعر قلت: ضرورة　　　باب الدواعي والبواعث مغلق
لم يبقَ في الدنيا كريم يرتجى　　　منه النوال ولا مليح يعشق
ومن العجائب أنه لا يشترى　　　ويخان فيه مع الكساد ويسرق

وله ديوان في نحو ٥٠٠٠ بيت، منه نسخة خطية في المكتبة الخديوية في ٢٤٢ صفحة أكثره في مدح أبي عبد الله مكرم، وشاهنشاه البويهي، وغياث الدولة، وظهير

الدين وغيرهم من أعيان عصره في فارس والعراق على أثر وقائع أو عطايا، وفيها مبالغات ومفاخر، فضلًا عن الوصف، غير مرتب على الهجاء. (ترجمته في طبقات الأدباء ٤٦٢).

(٧) **ناصح الدين الأرجاني (توفي سنة ٥٤٤هـ):** هو أبو بكر أحمد بن محمد بن الحسين الأرجاني الملقب ناصح الدين، كان قاضي تستر وعسكر مكرم، وكان في شبابه بالمدرسة النظامية بأصبهان، وله شعر في غاية الحسن، وهو كثير لم يُجمع منه إلا عشره في ديوان، أكثره قصائد جمعه ابنه، ومنه نسخ في مكاتب أوربا وطبع في بيروت (ترجمته في ابن خلكان ٤٧ ج١).

(٨) **صلاح الدين الأبيوردي (توفي سنة ٥٥٧هـ):** هو أبو المظفر محمد بن أبي العباس أحمد الأبيوردي، يتصل نسبه بأبي سفيان من بني أمية. كان من الأدباء المشهورين راوية نسابة شاعرًا ظريفًا، قسم أشعاره إلى أقسام سماها العراقيات والنجديات والوجديات وغيرها، وللنجديات شرح اسمه جهد المقل وجهد المستدل لعمر بن القوام المعروف بالنظام من أهل القرن الثاني عشر، شرح منها ما استعجم من ألفاظها وأعربها، وفسر أبياتها منه نسخة في المكتبة الخديوية في ٣٥٦ صفحة كبيرة. والعراقيات أكثرها في مدح المقتدر، والمستظهر ووزرائهما منها نسخة في باريس وأيا صوفيا. والوجديات في برلين ومنشن وأكسفورد، وطبع ديوان الأبيوردي في لبنان سنة ١٣٠٧.

وله أيضًا زاد الرفاق في المحاضرات، وتشبه محاضرات الأصبهاني، وفيها مناظرات مع أصحاب النجوم ونقض حججهم، منه نسخة في المكتبة الخديوية في ٧٣٠ صفحة بخط جميل، وله مؤلفات في الطبقات والأنساب لم نقف عليها (ابن خلكان ١٢ ج٢).

خامسًا: شعراء الأندلس

كانت الأندلس في أكثر هذا العصر في أثناء تمزقها إلى ممالك الطوائف، وشعراء الأندلس كثيرون ترى أخبارهم وأمثلة من أشعارهم في نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، مما يضيق المقام عنه هنا، وإنما نأتي بأشهرهم ممن خلفوا آثارًا يمكن الرجوع إليها:

(١) **ابن عبدون (توفي سنة ٥٢٠هـ):** هو عبد المجيد بن عبدون أبو محمد الفهري وزير بني الأفطس من ملوك الأندلس، كان أديبًا شاعرًا كاتبًا مترسلًا عالمًا بالخبر والأثر، أخذ الناس عنه. أشهر شعره القصيدة الرائية التي رثى بها ملوك بني الأفطس، وذكر فيها من أباده الحدثان من ملوك كل زمان مطلعها:

الدهر يفجع بعد العين بالأثر فما البكاء على الأشباح والصور

وهي من قبيل القصائد التاريخية، تدخل في خمسين بيتًا، وقد شرحها كثيرون، منهم ابن بدرون — الآتي ذكره بين المؤرخين — طبع شرحه في ليدن سنة ١٨٤٦، وشرحها عماد الدين إسماعيل بن الأثير المتوفى سنة ٦٩٩هـ، سمي شرحه عبرة أولي الأخيار من ملوك الأمصار، اقتبس كثيرًا من ابن بدرون منه نسخة في باريس والمتحف البريطاني (فوات الوفيات ٨ ج٢).

(٢) **ابن خفاجة (توفي سنة ٥٣٣هـ):** هو أبو إسحق إبراهيم بن أبي الفتح بن عبد الله بن خفاجة الأندلسي، كان مقيمًا في شرق الأندلس ولم يتعرض لاستماحة ملوك الطوائف مع تهافتهم على أهل الأدب، وله ديوان أكثره في مدح أبي إسحق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين، منه نسخ في أكثر مكاتب أوربا والمكتبة الخديوية، وطبع بمصر سنة ١٢٨٦ (ابن خلكان ١٤ ج١).

(٣) **ابن قزمان (توفي سنة ٥٥٥هـ):** هو أبو بكر محمد بن عبد الملك تقدم ذكره في مقدمة باب الشعر من هذا العصر (انظر فصل الشعر)، وله ديوان جمع ضروبًا من الشعر ولا سيما الزجل صدره بمقدمة في هذا الفن من الشعر فذكر ما بذل من الجهد والعناية في ضبطه والتبحر فيه، منه نسخة في مكتبة بطرسبورج اشتغل دافيد غونزبرج في نشرها مع ترجمة فرنساوية وتعاليق وشروح لغوية واجتماعية وتاريخية مع ترجمة الناظم، وبيان اللغة العربية التي كان يتكلمها الأندلسيون في القرن السادس للهجرة ومقابلتها باللغات التي يتكلمها العرب في البلاد الأخرى، صدر منه مجلد طبع في برلين سنة ١٨٩٦ بالفوتوغراف في ١٤٦ صفحة مع مقدمة فرنساوية.

(٤) **ابن سهل الإسرائيلي (توفي سنة ٦٤٩هـ):** هو إبراهيم بن سهل الإسرائيلي، كان من الأدباء الأذكياء أسلم وتولى الكتابة عند ابن خلاص صاحب سبتة، ومات غريقًا معه وهو في الأربعين من عمره، وله منظومات حسنة مشهورة بالرقة، منها قصيدة في مدح النبي قافيتها العين منها:

وركب دعتهم نحو طيبة فتنة فما وجدت إلا مطيعًا وسامعًا

ومن لطيف شعره القصيدة المشهورة في الغناء مطلعها:

سل في ظلام الليل أخاك البدر عن سهري
تدري النجوم كما يدري الورى خبري

وكذلك التي مطلعها:

ردوا على طرفي النوم الذي سلب وخبروني بقلبي أيَّةً ذهب

وله ديوان مطبوع في مصر وفي بيروت (فوات الوفيات ٢٣ ج١).

ومن مشاهير الأندلسيين في الشعر:

(٥) **أبو الحسن المايورقي:** من جزيرة مايورقة، توفي ببغداد سنة ٤٧٧هـ، وله قصيدة في الأسكوريال.

(٦) **الخليفة العبادي المعتمد صاحب إشبيلة (سنة ٤٨٤):** له قصيدة في غوطا.

(٧) **أبو العباس الطوتيلي الأعمى من طليطلة (٥٢٠):** له ديوان في مدح علي بن يوسف بن تاشفين منه نسخة في المكتبة الخديوية.

(٨) **عبيد الله بن المظفر:** توفي سنة ٥٤٩ في دمشق، له أرجوزة اسمها معرة البيت في برلين.

(٩) **أبو بحر صفوان التجيبي المرسي توفي سنة ٥٩٨:** له كتاب زاد المسافر في تراجم الشعراء ذيل لقلائد العقبان لابن خاقان، منه نسخة في الأسكوريال مع تخاميس.

(١٠) **أبو زيد عبد الرحمن بن يخلفتن الفزاري المتوفى سنة ٦٢٧:** تولى الكتابة لبعض ولاة الأندلس وصاحب أبا إسحق بن المنصور، ثم خرج من الأندلس منفيًّا وجاء مراكش، وتوفي فيها وله مجموعة من الشعر والنثر جمعها بعض تلاميذه في الزهد والرسائل الإخوانيات ومخاطبات وقصائد كل منها ٢٠ بيتًا في المدائح النبوية موجودة في الأسكوريال، وله ٢٩ قصيدة في مدح النبي في برلين.

(١١) **أبو الحسن الششتري النميري الفاسي:** أصله من ششتر وتوفي بدمياط سنة ٦٦٨هـ، له ديوان أكثره موشحات في التصوف منه نسخة في برلين ومنشن وليدن، وهناك كتاب اسمه رد المفتري عن الطعن في الششتري شرح على بعض قصائده في برلين.

سادسًا: شعراء المغرب

أشهر شعراء المغرب في هذا العصر هم:

(١) **أبو إسحق إبراهيم بن علي بن تميم الحصري القيرواني:** المتوفى سنة ٤٥٣ (أو ٤١٣) أقام في القيروان له:

(أ) كتاب زهر الآداب وثمر الألباب، جمع فيه كل غريبة في ٣ أجزاء، طُبع بمصر سنة ١٣٠٢.

(ب) كتاب المصون في سر الهوى المكنون، فيه ملح وآداب، في ليدن.

(جـ) نور الطرف ونور الظرف، قصائد قصيرة في غوطا والأسكوريال (ترجمته في ابن خلكان ١٣ ج١).

(٢) **المعز بن باديس بن المنصور بن بلكين بن زيري الصنهاجي:** صاحب إفريقية الزيرية، توفي سنة ٤٥٤هـ، له قصيدة اسمها النفحات القدسية ذكر فيها استقلاله عن الفاطميين منها نسخة في الأسكوريال (ترجمته ابن خلكان ١٠٤ ج٢).

(٣) **أبو الفضل يوسف بن محمد النحوي النوزري توفي سنة ٥١٣هـ:** له عدة مؤلفات أهمها: (١) الوصية في برلين. (٢) قصيدة الفرج بعد الشدة في غوطا وغيرها، ولها شروح في أكثر مكاتب أوربا وتسمى أيضًا القصيدة المنفرجة.

(٤) **أبو محمد عبد الجبار بن أبي بكر بن حمديس الصقلي:** توفي سنة ٥٢٧ في جزيرة مايورقة، وهو ماهر في التعبير عن معانيه بألفاظ فخمة، وينصرف في التشبيه ويغوص على المعاني الغريبة، ومن أقواله البديعة في وصف نهر:

ومطرد الأجزاء يصقل متنه ... صبا أعلنت للعين ما في ضميره
جريح بأطراف الحصى كلما جرى ... عليها شكا أوجاعه بخريره

كأن جبانًا ريع تحت حبابه فأقبل يلقي نفسه في غديره

وله ديوان مطبوع في بالرم سنة ١٨٨٣، وفي رومية سنة ١٨٩٧ (ترجمته في ابن خلكان ٣٠٢ ج١).

(٥) **أبو الحسن حازم بن محمد الأنصاري القرطاجني:** توفي بتونس سنة ٦٨٤هـ، له القصيدة الألفية المقصورة في مدح المستنصر الحفصي منها نسخة في الأسكوريال.

سابعًا: شعراء جزيرة العرب

(١) **البرعي اليماني:** له ديوان أكثره في التصوف، طُبع بمصر غير مرة.

(٢) **أبو الحسن بن خمارتاش الصوفي:** توفي سنة ٥٥٤ في زبيد، وله قصيدة صوفية تسمى الخمارتاشية منها نسخة مشروحة في ليدن.

(٣) **أمين الدولة الشيزري (٦٢٦):** في اليمن له قصيدة اسمها جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام في ليدن.

(٤) **جمال الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن المقرب بن منصور الإبراهيمي:** توفي ببغداد سنة ٦٢٩، له ديوان في مدح بدر الدين لولو صاحب الموصل والخليفة الناصر لدين الله، مرتب على الهجاء، طُبع بمكة سنة ١٣٠٧ وفي الهند ١٣١٠.

وقد أغفلنا ذكر كثيرين من الشعراء لم نقف على أخبار شيء من آثارهم يستحق الذكر، ولكننا نذكر كتابًا من كتب الأدب فريدًا في بابه فيه فوائد لا توجد في سواه، نعني كتاب «المحاسن والمساوئ» لإبراهيم بن محمد البيهقي، لا يعرف زمنه تمامًا، وإنما يظن إنه من أهل العصر العباسي الرابع أو قبله قليلًا، والكتاب طُبع في ليبسك سنة ١٣١٦، وفي مصر سنة ١٣٢٥ في مجلدين كبيرين، أكثر ما فيه عن الآداب والأخلاق، فإذا ذكر خلقًا أو عادة ذكر محاسنها ومساويها وأتى بالنوادر والأمثال المؤيدة لذلك حتى الدين والصدق وكثير من الفضائل ذكر محاسنها ومساويها.

هوامش

(١) الأنساب للسمعاني ٤٦٨.

الإنشاء

قد رأيت في كلامنا عن الإنشاء في العصر العباسي الثالث أنه نضج في ذلك العصر وتعينت له قواعد تحداها من جاء في العصر الرابع وما بعده، ونبغ في هذا العصر جماعة من المنشئين قَلَّ من تفرغ منهم للإنشاء كما فعل أدباء العصر الثالث، فاشتغل بعضهم في التاريخ أو غيره، فيأتي ذكر كل منهم في مكانه حسب الموضوع الذي اشتهر به، وإنما نقول كلمة في الإنشاء على الإجمال، ونريد إنشاء الرسائل أو الترسل والخطب ومقدمات الكتب.

لما تمكنت السيادة للأعاجم أصبح العرب وغيرهم من أهل الأدب في حاجة إلى التملق، فجرهم ذلك إلى تنميق العبارة والمبالغة في الإطراء والتأنق في الإنشاء مع ما تقتضيه طبيعة العمران من التبسط في الحضارة والاسترسال في تزويق العبارة بأنواع البديع والجناس، شأن المتحضرين في سائر أحوالهم فإنهم يجنحون إلى أسباب الرخاء والتأنق في كل شيء، فتجاوزوا في الإنشاء ما وضعه أدباء العصر الثالث من القواعد التي سميناها مدرسية.

كان التنميق في العصر العباسي الثالث يزيد الإنشاء رونقًا للاكتفاء بالقدر اللازم على ما يقتضيه الذوق السليم من سجع أو جناس أو كناية، فاستحسن أهل العصر الرابع ذلك فاسترسلوا فيه وتجاوزوا حده، فآل إلى عكس المراد، كالثوب أرادوا به في أصل صنعه اتقاء البرد أو ستر العورة ثم رأوا أنهم إذا تفننوا بشكله من إطالة الذيل أو توسيع الأكمام أو زركشة الأطراف ببعض الألوان يزداد رونقًا وجمالًا، ففعلوا، لكن بعضهم يكثر من تلك الزينة ويبالغ في التأنق حتى يتجاوز الحد وينقلب إلى الضد بحيث يصير الثوب كأنه وُضع للزينة فقط وقد يعود بالضرر، ذلك ما أصاب الإنشاء (أو الترسل) لما أراد أصحابه الإكثار من تزيينه، ولم يكتفوا بالقدر اللازم، فأصبح كأن

المراد به الزينة دون الفائدة، وانصرفت العناية إلى اللفظ دون المعنى، وتنافس الكتَّاب في ذلك بين جناس وبديع وسجع وإغراب في اللفظ حتى أصبح الترسل مغلقًا على غير المتبحرين. كما فعل عماد الدين الأصفهاني عمدة المنشئين في ذلك العصر، فإنه بالغ في التأنق حتى استخدمه في كتابه التاريخ، فضلًا عن الرسائل والخطب. وتراه ظاهرًا في كتابه الفتح القسي الذي أرخ فيه فتح صلاح الدين بيت المقدس، فإن في عبارته ما لا يحل إلا بالتأمل أو مراجعة المعاجم وهذا مثال منها: «ثم رحل من عسقلان للقدس طالبًا وبالعزم غالبًا، وللنصر مصاحبًا ولذيل العز ساحبًا، قد أصحب ريض مناه، وأخصب روض غناه، وأصبح رائج الرجاء، أرج الإرجاء، سيب العزف، طيب العرف، ظاهر اليد، قاهر الأيد، سنى عسكره قد فاض بالفضاء فضاء، وملأ الملأ فأفاض الآلاء، وقد بسط عثير فيلقه ملاءته على الفلق، وكأنما أعاد العجاج رأد الضحى جنح الغسق، فالأرض شاكية من إجحاف الجحافل، والسماء حاظية بأقساط القساطل ... إلخ.» وسيأتي ذكره بين المؤرخين، وقس عليه من عاصره أو نسج على منواله من المتأنقين في الإنشاء، لكن ذلك بحمد الله لم يتناول كتب العلم والتاريخ والأدب في هذا العصر إلا قليلًا.

القاضي الفاضل (توفي سنة ٥٩٦هـ)

ومن أئمة الإنشاء في هذا العصر القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي وزير السلطان صلاح الدين، كان سريع الخاطر حاضر البديهة حتى قيل: إن رسائله زادت على مائة مجلد لم يبقَ منها إلا نتف مشتتة في مكاتب أوربا الكبرى، وقد عاصر عماد الدين الأصفهاني وبينهما مراسلات كثيرة نحو ما تقدم مثاله من التسجيع والتنميق، وقد عرفت طريقة القاضي الفاضل في الإنشاء بالطريقة الفاضلية تحداها من جاء بعده من المنشئين، وفي المكتبة الخديوية كتاب خط قديم عنوانه رسائل إنشاء القاضي الفاضل كاتب الرسائل والإنشاء، فيها مراسلات للأصدقاء أو الأمراء في ١٨٨ صفحة، وفي كتب زكي باشا بالمكتبة المذكورة كتاب اسمه الدر النظيم في ترسل عبد الرحيم القاضي الفاضل، وقس على ذلك أكثر المنشئين يومئذ، على أن ذلك بعث أهل الأدب على انتقاد الإنشاء وأساليبه، ولنقد الإنشاء تاريخ يحسن إيراد ملخصه في هذا المقام.

نقد الإنشاء أو النقد البياني

أقدم من تصدى لهذا الموضوع ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٦٧هـ في كتابه أدب الكاتب كما تقدم في كلامنا عن الإنشاء في العصر العباسي الثاني من هذا الكتاب (ج٢)، واقتدى به كثيرون ممن جاء بعده من الأدباء والبلغاء كالخوارزمي والثعالبي والعسكري والآمدي والماوردي، لكنهم انتقدوا الإنشاء عرضًا أو في فصل أو مقالة. وربما أفرد بعضهم كتابًا في انتقاد الألفاظ الشائعة على أقلام الكتاب أو ما يشوب إنشاءهم من الركاكة أو الأغلاط، وقد يأتون ذلك في عرض كلامهم عن بلاغة القرآن كما فعل القاضي أبو بكر الباقلاني المتوفى سنة ٤٠٣ في كتابه إعجاز القرآن، فإنه أتى في أثنائه بفوائد انتقادية هامة عن الإنشاء والبلاغة، وكان مشهورًا بجودة الاستنباط وهو من كبار علماء الكلام.[١]

أما نقد الإنشاء من حيث هو فن ذو قواعد فتصدى له الجرجاني الآتي ذكره في كتابه أسرار البلاغة في علم البيان، وهو واضع أساس هذا العلم في العربية على قواعد راسخة، قال في سبب ما بعثه على ذلك: إنه رأى فساد ملكة الإنشاء.

وانصراف الكتَّاب عن المعاني إلى الألفاظ فوضع كتابه المشار إليه في البلاغة، وتوسع فيه من جاء بعده من أئمة اللغة وأرباب البلاغة حتى صار الإنشاء علمًا يبحث فيه عن المنثور من حيث إنه بليغ وفصيح، ويشتمل على الآداب المعتبرة من العبارات المستحسنة واللائقة بالمقام، وموضوع علم البيان كما عرفه أصحابه «إيراد المعنى الواحد بتراكيب مختلفة في وضوح الدلالة على المقصود بأن تكون دلالة بعضها أجلى من بعض.»

ويدخل في ذلك أيضًا انتقاد اللغة من حيث صيغ الألفاظ ومعانيها واستعمالها في أماكنها، وهو قديم أدركه أدباء العصر العباسي الأول فألقوا في لحن العامة والخاصة، أشهرهم أبو عبيدة والسجستاني والمفضل بن سلمة والزبيدي والعسكري وغيرهم. ومن هذا القبيل درة الغواص في أوهام الخواص للحريري الآتي ذكره، والانتقادات اللغوية كثيرة منذ اشتغل العرب في تدوين لغتهم، وانتشب الجدال بين البصريين والكوفيين، وتصدى جماعة من العلماء لانتقاد المعاجم وغيرها من كتب اللغة مما يطول شرحه وسيأتي ذكره في مكانه.

وإنما نحصر الكلام الآن في البلاغة أو البيان، فالجرجاني واضع أسس هذا العلم ثم جاء السكاكي وغيره فتوسعوا فيه واستحسنه المنشئون وبالغوا في التنميق حتى صاروا إلى التكلف والتأنق، وتوسعوا في شرح قواعده وزادوا عليه حتى بلغ إلى ما نعرفه من أمره، ومن الكتب الوافية في علم البيان «المثل السائر» لضياء الدين بن الأثير الجزري

الآتي ذكره، وقد توسع في أبواب البلاغة وشروطها وانتقادها من حيث الصناعة اللفظية والصناعة المعنوية، ثم ألف كثيرون في الإنشاء وانتقاده في سبيل علم البيان أو البلاغة أو في سبل أخرى، ولابن خلدون في مقدمته فصول في هذه المواضيع جزيلة الفائدة، وكلهم انتقدوا التسجيع إلا بشروط عينوها فوضعوا للبلاغة قواعد ترجع في الحقيقة إلى الذوق.

هوامش

(١) ترجمته في ابن خلكان ٤٨١ ج١.

علوم اللغة

نريد بعلوم اللغة النحو والصرف والمعاني والبيان والعروض وعلم اللغة والمحاضرات والإنشاء، جمعناها معًا في هذا الباب؛ لأن الأدباء في هذا العصر قلما اقتصر أحدهم على واحد منها، ونضج من هذه العلوم ما لم ينضج في الأعصر الماضية وتولدت علوم جديدة، وفي هذا العصر وضعت أهم كتب النحو والصرف والبيان التي كان عليها معول العلماء في نشر هذه العلوم، وأساس ما ألفه علماء اللغة في تلك العلوم في سائر العصور الإسلامية إلى عهد غير بعيد، نعني كافيَّة ابن الحاجب وألفية ابن مالك في النحو ومفتاح العلوم للسكاكي في البلاغة وشافية ابن الحاجب وتصريف العزي للزنجاني في الصرف، وفيه نضج علم المقامات بمقامات الحريري وتم نضج علم اللغة بالقواميس التي ظهرت فيه كأساس البلاغة للزمخشري وغيره، وسنعود إلى أكثر ما تقدم فيما يلي.

وإليك أشهر علماء هذا العصر في علوم اللغة مرتبة باعتبار المواطن والوفيات؛ ونبدأ بالعراق لأنها كانت لا تزال بؤرة هذه العلوم إلى ذلك الحين.

(١) علماء اللغة

في العراق والجزيرة

(١) **أبو زكريا التبريزي (توفي سنة ٥٠٢هـ):** هو يحيى بن علي بن محمد بن الحسن بن بسطام الشيباني التبريزي المعروف بالخطيب كانت له معرفة تامة بالنحو واللغة، قرأ على أبي العلاء المعري وغيره وتخرج عليه جماعة كبيرة من العلماء، وكان ثقة في

اللغة ودرس الأدب في المدرسة النظامية ببغداد، نشأ في تبريز ودخل مصر في عنفوان الشباب وعاد إلى بغداد حتى مات فيها فجأة وكانت له قريحة شعرية، وأهم مؤلفاته:

(أ) الوافي في العروض والقوافي: منه نسخة في المكتبة الخديوية ومعه في مجلد واحد كتاب العروض لابن الحاجب، ومنه نسخة في برلين باسم الكافي وهو اسمه الحقيقي.

(ب) الملخص في إعراب القرآن في باريس.

(ج) شرح المعلقات: وتُعرف بالقصائد العشر طبع كلكتة سنة ١٨٩١.

(د) شرح الحماسة، طُبع في يونيو سنة ١٨٢٨–١٨٤٧ في مجلدين وفي كلكتة سنة ١٨٥٦.

(هـ) شرح ديوان أبي تمام: في ليدن.

(و) شرح سقط الزند: منه نسخ في أكثر مكاتب أوربا.

(ز) تهذيب إصلاح المنطق: أصله إصلاح المنطق لابن السكيت، فهذبه التبريزي بحذف المكرر وتفسير الغامض وإصلاح الخطأ، والمراد به ضبط لفظ الكلمات التي تختلف معانيها باختلاف حركاتها أو تتشابه معانيها مع اختلاف حركاتها حسب أوزان الفعل الأصلية، وما تغلط به العامة فتجعل واوه ياء أو تفتح مكسوره أو بالعكس، أو ما ينطقون به على صيغة الثلاثي وهو رباعي مزيد ونحو ذلك، منه نسخة في المكتبة الخديوية في ١٣٥٢ صفحة (٦٧٦ ورقة) خط قديم.

(ترجمته في ابن خلكان ٢٣٣ ج ٢ وطبقات الأدباء ٤٤٣).

(٢) **الحريري (توفي سنة ٥١٦هـ):** هو أبو محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريري البصري صاحب المقامات. كان أحد أئمة عصره في علوم اللغة، ولد في البصرة سنة ٤٤٦هـ من أسرة أصلها من مشان، واشتهر بمقاماته المعروفة وهي تشتمل على كثير من كلام العرب ولغاتها وأمثالها تدل على فضل هذا الرجل. وذكر ابنه السبب الذي بعث أباه على نظمها، رواه ابن خلكان في ترجمة الحريري في حديث طويل، وهاك أشهر ما وصلنا خبره من مؤلفات الحريري:

(أ) المقامات: ألفها لشرف الدين وزير الإمام المسترشد بالله، فأجاد ووفى الموضوع حقه مما لم يسبقه أحد إلى مثله، وهي مشهورة لا حاجة إلى وصفها، وكان لها وقع عظيم عند طلاب الأدب حتى عند الإفرنج أهل هذه المدينة، فلما نهضوا لدرس اللغة العربية اهتموا بنشرها وترجمتها وشرحها والتعليق عليها، نشر الأصل العربي دي ساسي

في باريس سنة ١٨٢٢ ورينو وديرنبورج سنة ١٨٤٧ كل منهما في مجلدين مع شروح فرنساوية، ونشرها ستاينجاس في لندن سنة ١٨٩٦ مع شروح إنكليزية، وطبعت في القاهرة مرارًا وفي بيروت وتبريز وكلكتة.

ومن هذه المقامات نسخ خطية في أكثر مكاتب أوربا الكبرى منها نسخة في المتحف البريطاني مزينة بالرسوم مؤرخة سنة ٦٥٤هـ فيها نحو ٨١ صورة ملونة، تجد في الشكل الثاني صورة أبي زيد السروجي وابنه بين يدي قاضي معرة النعمان، ويريدون بالرجل الآخر إلى اليسار الحارث بن همام.

وقد ترجم هذه المقامات ثيودور بريستن إلى الإنكليزية في نيف وستمائة صفحة طبعت في لندن سنة ١٨٥٠، وترجمها إلى هذه اللغة أيضًا تشنري وستاينجاس وطبعاها مع مقدمة وشروح في مجلدين نحو ألف صفحة في لندن سنة ١٨٩٨، وترجمت أيضًا إلى اللاتينية وطبعت في هبسبرغ سنة ١٨٣٢ في ثلاثة مجلدات، وترجمت إلى الفارسية بقلم محمد شمس الدين وطبعت الترجمة في لكناو الهند سنة ١٢٦٣ وإلى التركية وطبعت في الأستانة، ونقل بعضها إلى العبرانية ونشر في المجلة الأسيوية.



شكل ١: منظر في المقامة الثامنة من مقامات الحريري.

ولهذه المقامات شروح كثيرة أشهرها شرح الشريشي المتوفى سنة ٦١٩ وهو مطبوع في بومباي سنة ١٣٠٠ وفي مصر غير مرة، وشرح المطرزي المتوفى ٥٩٠ والعكبري (٦١٦) والطرائفي (٦١٧) والزبيدي والطبلي والناصري والباجي وغيرهم، وأكثر هذه الشروح يوجد خطًّا في مكاتب أوربا وسيأتي ذكر بعضها في مكانه.

(ب) درة الغواص في أوهام الخواص: بيَّن فيها أغلاط الكتَّاب فيما يستعملونه من الألفاظ بغير معناه أو في غير موضعه، طبعت في ليبسك سنة ١٨٧١ وبمصر سنة ١٢٧٣ وغيرها، وعليها شرح للخفاجي مطبوع في الأستانة سنة ١٢٩٩.

(ج) ملحة الإعراب في النحو: هي أرجوزة مطلعها:

أقول من بعد افتتاح القول   بحمد ذي الطول شديد الحول

طبعت بمصر مرارًا، شرحها محمد بن محمد الحضرمي، وطبعت بمصر سنة ١٣٠٦ وشروح أخرى خطية، وقد نقلها إلى الفرنساوية الموسيو بنتو وطبعت في باريس سنة ١٨٨٥ مع منتخبات شعرية.

(د) الرسالة السينية: التزم فيها أن يكون أول كل كلمة سينًا، ورسالة أخرى في الفرق بين الضاد والظاء مرتبة على الهجاء، منهما نسخ في برلين. (ترجمته في ابن خلكان ٤١٩ ج١ وطبقات الأدباء ٤٥٣ وفوات الوفيات ٤٢ ج٢).

(٣) **الجواليقي (توفي سنة ٥٣٩هـ):** هو أبو منصور موهوب بن أبي طاهر أحمد بن الخضر الجواليقي البغدادي، كان إمامًا في فنون الأدب، وهو من مفاخر بغداد، قرأ على التبريزي، أكثر مؤلفاته مهمة في اللغة أهمها:

(أ) المعرب فيما تكلمت به العرب من الكلام الأعجمي: مرتب على حروف المعجم طبعه زخاو في ليبسك سنة ١٨٦٧ وهو مفيد في تعريب المصطلحات العلمية اليوم.

(ب) التكملة فيما يلحن فيه العامة: وهو كالذيل لدرة الغواص المتقدم ذكرها للحريري، طبعت في ليبسك سنة ١٨٧٥.

(ج) أسماء خيل العرب وفرسانها: منها نسخة في الأسكوريال.

(د) شرح أدب الكاتب: منه نسخة بخط ابنه إسماعيل بتاريخ سنة ٥٥٣هـ في مكتبة نور عثمانية. (ترجمته في ابن خلكان ١٤٢ ج٢ وطبقات الأدباء ٤٧٣).

(٤) **ابن الشجري (توفي سنة ٥٤٢هـ):** هو الشريف أبو السعادات هبة الله بن علي بن محمد الحسيني البغدادي المعروف بابن الشجري، كان إمامًا في النحو واللغة وأشعار العرب، وكان نقيب الطالبين في الكرخ له مؤلفات عديدة أكبرها كتاب الأمالي لم نقف عليه. وله ديوان مختارات الشعراء طبع على الحجر بمصر سنة ١٣٠٦هـ (ترجمته في ابن خلكان ١٨٣ ج٢).

(٥) **ابن الدهان (توفي سنة ٥٦٩هـ):** هو أبو محمد سعيد بن المبارك يتصل نسبه بكعب الأنصاري ويعرف بابن الدهان كان إمامًا في النحو من درجة الجواليقي، وابن الشجري ولد في بغداد وانتقل منها إلى الموصل قاصدًا الوزير جمال الدين الأصفهاني فتلقاه بالإقبال، فأقام عنده مدة وكانت كتبه قد خلفها في بغداد، فغرقت داره وما فيها فحملوا إليه كتبه وقد تلفت فأشاروا عليه أن يصلحها بالبخور اللاذن، ففعل وأكثر من إحراقه فوقع على عينيه فأعماه. وذكر له ابن خلكان (٢٠٩ ج١) مؤلفات كثيرة لم يصلنا منها إلا كتاب الفصول في القوافي أو المختصر في القوافي منه نسخة في غوطا.

(٦) **كمال الدين الأنباري (توفي سنة ٥٧٧هـ):** هو أبو البركات عبد الرحمن بن أبي الوفاء محمد بن عبيد الله بن أبي سعيد الأنصاري، ويلقب كمال الدين، سكن بغداد من صباه إلى أن مات، تفقه في المدرسة النظامية وأقرأ النحو فيها، وقرأ النحو على الجواليقي وصحب ابن الشجري وله مؤلفات نافعة أشهرها:

(أ) نزهة الألباء في طبقات الأدباء: فيه تراجم أهل الأدب والنحو واللغة من صدر الإسلام إلى عصره مرتبة حسب سني الوفاة، والغالب في كتب التراجم أن ترتب الأعلام فيها على الأبجدية، طبع على الحجر بمصر سنة ١٢٩٤ وهو في جملة ما عولنا عليه في تراجم النحاة والأدباء من هذا الكتاب.

(ب) أسرار العربية: في النحو ذكر فيه مذاهب النحويين، طبع في ليدن سنة ١٨٨٦.

(جـ) كتاب الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين منه نسخ في مكاتب ليدن والأسكوريال ويني جامع والمكتبة الخديوية، وطبع بعضه في فينا سنة ١٨٧٨ وطبع كله في باريس سنة ١٩١٣ مع شروح وتعاليق.

(د) لمعة الأدلة: في أصول النحو مرتبة على ثلاثين فصلًا، في ليدن.

(هـ) الإغراب في جدل الإعراب: في باريس ذكر كشف الظنون هذا الكتاب وذكر وفاة صاحبه سنة ٣٢٨، وهي سنة وفاة ابن الأنباري [راجع الجزء الثاني من هذا الكتاب].

(و) عمدة الأدباء: في معرفة ما يكتب فيه بالألف والياء، في ليدن.

(ز) ألفاظ الأشباه والنظائر: هو من قبيل فقه اللغة ويشبه كتاب الألفاظ الكتابية للهمذاني، طبع في الأستانة سنة ١٣٠٢ في ١٣٢ صفحة، ومن أمثلة طريقته قوله في مادة جرَّب: «جربت الرجل بلوته أبلوه وخبرته واختبرته وعجمته وسبرته وامتحنته وذقته ورزته وفتشته واستبرأته وزاولته وبلوت حالبيه وحلبت أشطريه وذقت طعميه ... إلخ»، فهو جزيل الفائدة للكتاب والمنشئين (ابن خلكان ٢٧٩ ج١).

(٧) **أبو البقاء العكبري (توفي سنة ٦١٦هـ):** هو عبد الله بن الحسين بن عبد الله النحوي الضرير ويلقب محب الدين، تعلم في بغداد ومات فيها، وكان في آخر عمره أشهر علمائها في عصره وكان متضلعًا بعلوم كثيرة وإنما غلب عليه النحو، وخلف مؤلفات كثيرة لم نعرف منها إلا:

(أ) التبيان: هو شرح على المتنبي منه نسخة في المكتبة الخديوية وفي أيا صوفيا، قال في المقدمة: إنه لما رأى كثرة شراح المتنبي واختلاف أحكامهم فيه ألف هذا الشرح وعول فيه على أبي الفتح عثمان والتبريزي وابن العلاء، فبدأ بغرائب إعرابه ثم غرائب لغاته ومعانيه، طبع بمصر سنة ١٢٨٧ في مجلدين كبيرين صفحاتهما ١٠٥٠ صفحة كبيرة.

(ب) الموجز في إيضاح الشعر الملغز: في برلين.

(جـ) اللباب في علل البناء والإعراب: في المكتبة الخديوية.

(د) التلقين: في النحو عن أربع مسائل، في ليدن.

(هـ) شرح مقامات الحريري: في المكتبة الخديوية.

(و) الإيضاح وتكملته: في النحو منه نسخة في المكتبة الخديوية في مجلدين بخط قديم سنة ٦٢٢

(ز) التبيان في إعراب القرآن: في المكتبة الخديوية ٤٤٠ صفحة.

(ح) المحصل في شرح المفصل: منه نسخة في المكتبة الخديوية في ٣١٦ صفحة خط قديم (ترجمته في ابن خلكان ٢٦٦ ج١).

(٨) **ابن أبي الحديد (توفي سنة ٦٥٥هـ):** هو عبد الحميد بن هبة الله المدائني الفقيه الشاعر الملقب عز الدين، ولد في المدائن قرب بغداد وتوفي ببغداد واشتهر باللغة والنحو والشعر، وأشهر مؤلفاته:

(أ) شرح نهج البلاغة: المنسوب للإمام علي، وجمعه الشريف المرتضى، فقد شرحه ابن أبي الحديد في ٢٠ مجلدًا منه نسخة خطية في عشرة أجزاء في المكتبة الخديوية، وطبع في بلاد العجم في مجلدين كبيرين على الحجر وعلى هامشه تقييدات، وطبع بمصر في أربعة مجلدات تدخل في ٢٠٠٠ صفحة، وفي هذا الشرح فوائد تاريخية ودينية وشرعية كثيرة.

(ب) الفلك الدائر على المثل السائر: آخذ فيه مؤلفه ضياء الدين بن الأثير الآتي ذكره وعنفه، منه نسخة في ليدن.

(جـ) نظم كتاب الفصيح لثعلب: في الأسكوريال.

(د) السبع العلويات وهي قصيدة ٦٩ بيتًا يذكر فيها فتح خيبر مطلعها:

ألا إن نجد المجد أبيض ملحوب ... ولكنه جم المهالك مرهوب

منها نسخ في برلين وليدن، وكان أخوه موفق الدين بن أبي الحديد شاعرًا ذكر صاحب فوات الوفيات أمثلة من أشعاره (ص٦ ج١).

(٩) **الزنجاني (توفي سنة ٦٥٥هـ):** هو عز الدين أبو الفضائل عبد الوهاب بن إبراهيم بن أبي المعالي الخزرجي أشهر مؤلفاته:

(أ) تصريف العزي: في الصرف، تقدم ذكره ويقال له أيضًا: تصريف الزنجاني، طبع مع ترجمة لاتينية في رومية سنة ١٦١٠، وفي الأستانة سنة ١٢٣٣ وفي القاهرة سنة ١٣٠٧ وغيرها. وله شروح كثيرة أحدها شرح السعد التفتازاني سنة ٧٩٣ شرحه ناصر الدين اللقاني سنة ٩٥٨ وشرحَ شرحُ اللقاني أحمد بن قاسم العبادي، وكل هذه الشروح موجودة في المكتبة الخديوية، وشرحها غير هؤلاء.

(ب) الهادي في النحو والصرف: له شرح كبير سماه الكافي يدخل في مجلدين منه نسخة في بطرسبرج، وهو غير الهادي للميداني الآتي ذكره.

(جـ) معيار النظار في علوم الأشعار: وهي عنده ١٢ علمًا اقتصر في هذا الكتاب على علم العروض ويشتمل على تاريخ اتساع أبحر الشعر، منه نسخة خطية في المكتبة الخديوية في ٢٠٨ صفحات لقب فيها المؤلف بأبي المعالي.

علماء اللغة في فارس

(١) **الجرجاني (توفي سنة ٤٧١هـ):** هو أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني النحوي من كبار أئمة النحو واللغة، وهو مؤسس علم البيان كما تقدم، وله مؤلفات كثيرة وإليك ما بلغنا خبره منها:

(أ) أسرار البلاغة والبيان: طبع بمصر سنة ١٣٢٠.

(ب) دلائل الإعجاز: في علم المعاني، طبع في القاهرة بتصحيح الشيخ محمد عبده سنة ١٣٢٠، وفيه أبحاث في الشعر والنحو والفصاحة والبلاغة وفروعها وعلومها وهو من الكتب الهامة في هذا الفن.

(ج) العوامل المئة: أو مئة عامل، منه نسخ في أهم مكاتب أوربا وطبع في ليدن سنة ١٦١٧ وفي كلكتة سنة ١٨٠٣ وسنة ١٨١٤ وغيرها، وله شروح عديدة منها نسخ في تلك المكاتب وقد ترجمت إلى التركية.

(د) كتاب الجمل: هو مختصر في النحو يقال له: الجرجانية أيضًا منه نسخ خطية وشروح في مكاتب أوربا.

(هـ) كتاب التتمة: في النحو بالمتحف البريطاني ترجمته في فوات الوفيات (٢٩٧ ج١).

(٢) **الزوزني (توفي سنة ٤٨٦هـ):** هو أبو عبد الله الحسين بن علي بن أحمدله:

(أ) كتاب المصادر: مرتب على الأبجدية كالمعجم منه نسخ خطية في أكثر مكاتب أوربا في كوبرلي بالأستانة.

(ب) ترجمان القرآن: بالعربية والفارسية في غوطا.

(ج) شروح المعلقات: طبع بمصر سنة ١٣٠٤ وغيرها.

(٣) **الراغب الأصفهاني (توفي سنة ٥٠٢هـ):** هو أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل الأصفهاني كان فقيهًا عالمًا في اللغة والأدب، وله علم واسع ساعده في تأليف الكتب النافعة أهمها:

(أ) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء: هو خزانة أدب وشعر وحكم وأمثال، ويحث في كل موضوع أخلاقي اجتماعي في العلم والجهل والإنصاف والظلم،

وفي الأخلاق والصفات والأبوة والبنوة وفي الصناعات والمكاسب والبخل والكرم وغير ذلك، وقد طبع بمصر مرارًا.

(ب) مفردات ألفاظ القرآن: أو المفردات في غريب القرآن هو معجم مرتب على الحروف مع أمثلة من الحديث والقرآن جزيل الفائدة؛ لأنه كالمعجم للآيات والأحاديث منه نسخ خطية في مكاتب أوربا والأستانة، وطبع بمصر سنة ١٣٢٤ في مجلد ضخم.

(ج) تفسير القرآن: في أيا صوفيا.

(د) حل متشابهات القرآن: في مكتبة راغب باشا بالأستانة.

(ه) تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين: المكتبة الخديوية.

(و) الذريعة إلى مكارم الشريعة: طبع بمصر سنة ١٢٩٩ وله ترجمة فارسية في المتحف البريطاني.

(ز) كتاب الأخلاق في برلين.

(٤) **الميداني (توفي سنة ٥١٨هـ):** هو أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد النيسابوري الميداني توفي بنيسابور، كان عالمًا باللغة وأمثال العرب، امتاز بذلك فألف فيها ما لم يبلغ فيه أحد مبلغه نعني:

(أ) مجمع الأمثال: أو كتاب الأمثال وبه اشتهر الميداني، فقد حوى من أمثال العرب ما لم يحوِه كتاب قبله وهو مرجع طلاب الأمثال العربية إلى الآن، طبع مرارًا في مصر وفي بيروت سنة ١٣١٢، وطبعة بيروت أتقنها؛ لأنها عبارة عن نظم الأمثال في أرجوزة عليها شروح للشيخ إبراهيم الأحدب المتوفى في بيروت سنة ١٣٠٨، وقد سماه «فرائد اللآل في مجمع الأمثال» صدر في مجلدين ضخمين يليهما فهارس أبجدية في مئة صفحة وصفحة مما يجعل فوائده مضاعفة، وله مختصرات غير شائعة.

(ب) السامي في الأسامي: قدمه إلى أبي البركات علي بن مسعود بن إسماعيل ثقة الملك وأطراه كثيرًا، قسمه إلى أربعة أقسام: (١) في الشرعيات: ويدخل فيه أسماء النبي والكتب المنزَّلة وشرائع الإسلام وسائر الأديان. (٢) في الحيوانات: وما يضاف إليها ويتفرع عنها من أنواع الأطعمة. (٣) في العلويات: ويدخل فيه الظواهر الجوية والفلك. (٤) في السفليات: كالجغرافية الطبيعية وغيرها مما على الأرض، ويشتمل كل قسم على أبواب. وطريقة الكتاب أن يذكر الاسم ويترجمه بالفارسية أو يذكر ما يقابله عند العامة أو ما يراد منه في اللغة أو ما يناقضه، وفيه فوائد لغوية ومجموعات من الألفاظ المترادفة

يفيد المشتغلين في المصطلحات العلمية العربية، منه نسخة في المكتبة الخديوية في ٩٢ صفحة بخط دقيق. وقد طبع في بلاد العجم على الحجر، ولخصه ابنه عبيد في كتاب سماه الأسمى في الأسماء.

(ج) كتاب الهادي للشادي: في النحو مع تعليقات فارسية وشروح منها نسخة في ليدن وأيا صوفيا، وقد ترجم كاترمير المستشرق الفرنساوي جانبًا منه إلى الفرنساوية طبع في باريز سنة ١٨٣٧.

(د) نزهة الطرف في علم الصرف: رتبه على عشرة أبواب طبع بالأستانة سنة ١٣٠٢ (ترجمته في ابن خلكان ٤٦ ج١).

(٥) **جار الله الزمخشري (توفي سنة ٥٣٨هـ):** هو أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الزمخشري، إمام عصره في اللغة والنحو والبيان والتفسير والحديث.كانت تُشد إليه الرحال في كل فن منها، وسموه جار الله لأنه جاور مكة زمنًا، ولد في زمخشر من بلاد خوارزم سنة ٤٦٧ وانتقل إلى بغداد وسافر كثيرًا، وذكر ابن خلكان أنه أصيب في بعض أسفاره ببرد شديد أثر في إحدى رجليه حتى قطعت وأبدلها برجل من خشب، وكان معتزلي الاعتقاد يتظاهر به ويقول بخلق القرآن، والمعتزلة في تلك الأعصر يشبهون أحرار هذه الأيام يقولون ما يعتقدون بصراحة، وتوفي بجرجانية خوارزم، وقد خلف الزمخشري مؤلفات عديدة في مواضيع هامة لها منزلة كبرى في آداب اللغة على اختلاف مواضيعها، وهاك ما عرفناه منها:

(أ) الكشاف عن حقيقة التنزيل: وهو تفسير للقرآن له منزلة خاصة بين سائر التفاسير لما علمت من منزلة صاحبه من الاعتزال، وقد عني الأئمة به بين شارح ومحشٍ ومادِح وناقِد ومختصِر وملخِّص، وفي كشف الظنون خمس صفحات كبيرة في بيان ذلك مع أسماء الشارحين والملخصِّين والناقدين، فمن أراد الاطلاع عليها فليطلبها في كشف الظنون مادة «الكشاف»، أما الكتاب نفسه فقد طبع مرارًا في الهند ومصر في مجلدين كبيرين ومع بعض الطبعات جزء ثالث في تفسير شواهده.

(ب) المفصل في النحو: جعله أربعة أقسام في الأسماء والأفعال والحروف والمشترك من أحوالها ثم اختصره وسماه الأنموذج، وقد اهتم به أئمة هذا الفن كما اهتم المفسرون بالكشاف فشرحوه وعلقوا عليه، وذكر كشف الظنون تفصيل ذلك في مادة «المفصل»، وبلغ من تعظيم قدر هذا الكتاب حتى شرط الملك المعظم عيسى الأيوبي لمن يحفظه مئة

دينار وخلعة، وقد تقدم ذكر ذلك، طبع المتن في كريستيانا سنة ١٨٧٩ وطبع بعض شروحه منها شرح أبي البقاء بن يعيش طبع في ليبسك سنة ١٨٨٢، وقد ترجم المفصل إلى الألمانية وطبع سنة ١٨٧٣، أما «الأنموذج» فقد طبع في الأستانة سنة ١٢٩٨ ومصر سنة ١٢٨٩ وللمفصل نسخ خطية في معظم المكاتب الكبرى.

(ج) أساس البلاغة: هو معجم في اللغة العربية لا مثيل له في طريقته؛ لأنه يبحث على الخصوص في استعمال الألفاظ ومواضعها من الجمل بقطع النظر عن معانيها المستقلة أو اشتقاقها، فإذا أراد شرح مادة أتاك بجملة فيها تلك المادة في موضعها من الاستعمال، وهو جزيل الفائدة للكتاب، طبع بمصر سنة ١٢٩٩ في مجلدين.

(د) مقدمة الأدب: ألفها لأبي المظفر اتسز بن خوارزم شاه وطبعت في ليبسك سنة ١٨٤٣–١٨٥٠ في مجلدين صفحاتهما ٥٧٠ صفحة، وهي تقسم إلى خمسة أقسام في الأسماء والأفعال والحروف وتصريف الأسماء وتصريف الأفعال، منه نسخة خطية في المكتبة الخديوية بين سطورها ترجمة فارسية وفي الكتاب فوائد لغوية هامة يسهل تناولها من طبعة ليبسك بواسطة الفهارس والشروح، وترجمت إلى التركية منها نسخ في مكاتب الأستانة.

(هـ) المحاجاة في الأحاجي والأغلوطات: في المكتبة الخديوية.

(و) القسطاس في العروض: في برلين وليدن.

(ز) كتاب الفائق: في غريب الحديث منه نسخ في أيا صوفيا وكوبرلي ويني جامع ومكتبة دمشق.

(ح) كتاب الأمكنة والجبال والمياه: هو كالمعجم الجغرافي، طبع في ليدن سنة ١٨٥٦ مع ترجمة لاتينية.

(ط) أطواق الذهب: كالمقامات، ترجم إلى الألمانية وطبع مع الأصل في فينا سنة ١٨٣٥، وفي ستتجارت سنة ١٨٦٣، وترجم إلى الفرنساوية وطبع في باريس سنة ١٨٧٦ وطبع العربي وحده بمصر مرارًا، وقد عارضه شرف الدين عبد المؤمن الأصفهاني بكتاب سماه أطباق الذهب طبع في مصر سنة ١٢٨٠، وفي بيروت سنة ١٣٠٩ مع شروح وهو عبارة عن حكم وأمثال ألفه بإيعاز أحمد بن محمود علي الخوي.

(ي) المستقصى في الأمثال: وهو معجم للأمثال العربية مرتب على الهجاء حسب أوائل الأمثال منه نسخة في المكتبة الخديوية في ١٧٨ صفحة وفي مكاتب أوربا.

(ك) نوابغ الكلم: في اللغة، طبع بمصر سنة ١٢٨٧، وله شروح عديدة وطبع أيضًا في باريس مع ترجمة فرنساوية سنة ١٨٧٦.

(ل) رسالة في كلمة الشهادة وأخرى في نص العشرة في برلين.

(م) ربيع الأبرار ونصوص الأخيار: في المحاضرات، قال في مقدمته: «هذا الكتاب قصدت به إحمام خواطر الناظرين في الاكتشاف عن حقائق التنزيل إلخ»، منه نسخ في ليدن وبرلين وله مختصرات كثيرة.

(ن) ديوان شعره: مرتب على الأبجدية منه نسخة في المكتبة الخديوية.

(س) مقامات الزمخشري: طبعت سنة ١٣١٢.

(ع) كتاب نصائح الصغار: في برلين والمتحف البريطاني.

(ف) نزهة المتأنس: في أيا صوفيا.

(ص) القصيدة البعوضية: وأخرى في مسائل الغزالي، في برلين.

(ق) أعجب العجب في شرح لامية العرب: طبعت في مصر سنة ١٣٢٤ ومعها مقصورة ابن دريد (ترجمته في ابن خلكان ٨١ ج٢، وطبقات الأدباء ٤٦٩).

(٦) **ناصر المطرزي (توفي سنة ٦١٠هـ):** هو أبو الفتح ناصر بن أبي المكارم عبد السيد بن علي المطرزي النحوي الخوارزمي كانت له معرفة تامة بالنحو واللغة والشعر والأدب، وكان من أئمة المعتزلة، ولد سنة وفاة الزمخشري؛ ولذلك سموه خليفته، وهاك أهم مؤلفاته:

(أ) كتاب المصباح: في النحو، يشتمل على خمسة أبواب وهو موجود في أعظم مكاتب أوربا وطبع في لكناو، وهو من خيرة كتب النحو، شرحه كثيرون وسموا الشروح بأسماء مختلفة ذكرها صاحب كشف الظنون، وأكثرها موجود في مكاتب أوربا وفي المكتبة الخديوية.

(ب) المغرب في ترتيب المعرب: في الألفاظ التي يستعملها الفقهاء من الغريب رتب على الأبجدية كالمعاجم، منه نسخ في برلين وليدن والمتحف البريطاني وفي المكتبة الخديوية.

(ج) الإقناع لما حوي تحت القناع: مفردات لغوية مرتبة على الأجناس، منه نسخ في باريس وبرلين والأسكوريال.

(د) الإيضاح: في شرح مقامات الحريري، منه نسخة في المكتبة الخديوية وهو من أحسن الشروح، صدره بفصول في المعاني والبيان، ثم شرح المقامات في ٦١٦ صفحة (ترجمته في ابن خلكان ١٥١ ج٢).

(٧) **السكاكي (توفي سنة ٦٢٦هـ):** هو سراج الدين أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي، ولد في خوارزم وتوفي فيها واشتهر بكتابه:

مفتاح العلوم: ذكر في المقدمة أسماء علوم الأدب، وضمن كتابه منها علم الصرف بتمامه وعلم الاشتقاق ثم علم النحو والمعاني والبيان والعروض وقسمه إلى ثلاثة أقسام بهذا الاعتبار، وقسم كل قسم إلى فصول، منه نسخة في المكتبة الخديوية في مجلد ضخم صفحاته ٤٧٢ صفحة كبيرة، وقد عنى العلماء فيه بالشرح والتلخيص وتلخيص الشرح وشرح التلخيص (راجع كشف الظنون) وأشهر شروحه مفتاح المفتاح للشيرازي، وتلخيص المفتاح للقزويني خطيب دمشق، وإيضاح الإيضاح ومفتاح تلخيص المفتاح وشرح تلخيص المفتاح للتفتازاني مطبوع في كلكتة سنة ١٢٢٨، وقس على ذلك كثيرًا من الشروح والاختصارات، وللسكاكي رسالة في علم المناظرة منها نسخة في منشن.

(٨) **الصغاني (توفي سنة ٦٥٠هـ):** هو رضي الدين الحسن بن محمد بن الحسن بن حيدر بن علي العدوي العمري الصغاني اللغوي المحدث والفقيه، ويقال أيضًا: الصاغاني أهم ما وصل إلينا من مؤلفاته:

(أ) العباب الزاخر واللباب الفاخر: معجم في عشرين جزءًا يقول: إنه جمعه من كتب اللغة المشهورة ورتب ألفاظه حسب أواخرها كما فعل الفيروزآبادي، ويستشهد على صحتها من القرآن والحديث، ألفه لابن العلقمي وزير المستعصم، وضمنه تراجم أهم أصحاب المعاجم إلى أيامه، قال صاحب كشف الظنون: إنه لم يكمله فبلغ فيه إلى حرف الميم فوقف عند مادة «بكم»، منه الجزء الأول في المكتبة الخديوية مضبوط بالشكل، ومنه أربعة أجزاء في مكتبة أيا صوفيا.

(ب) التكملة والذيل والصلة: في اللغة جمع فيها ما فات الجوهري وذيل عليها قال: إنه أخذ ذلك من نحو ألف كتاب من غريب الحديث واللغة والنحو وأخبار العرب وغيرها، منها نسخة خطية في المكتبة الخديوية في ستة مجلدات مضبوطة بالحركات، كُتبت سنة ٦٤٢، وفي ذيلها أسماء الكتب التي عول المؤلف عليها.

(ج) در السحابة في بيان مواضع وفيات الصحابة: منه نسخة في المكتبة الخديوية مرتب على أحرف الهجاء وهو صغير الحجم في ٦٤ صفحة.

(د) مجمع البحرين في اللغة: ألفه في ١٢ مجلدًا ذكر في المقدمة أنه جمع فيه بين كتاب تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري وبين كتاب التكملة والذيل والصلة من تأليفه، وعين مأخذ كل مادة بحرف «ص» إذا كانت من الصحاح و«ت» إذا كانت من التكملة منه نسخة في المكتبة الخديوية في مجلدين صفحاتها ٢٥٠٠ صفحة.

(هـ) كتاب الأضداد: في برلين.

(و) مشارق الأنوار النبوية من صحاح الأخبار المصطفوية: ألفه للمستنصر بن الظاهر العباسي جمع فيه الأحاديث الصحاح من كتب أئمة الحديث ورمز أمام كل حديث عن مصدره، فالخاء للبخاري والميم لمسلم والقاف لما اتفقا عليه. ورتبه ترتيبًا حسنًا منه نسخ في المكتبة الخديوية وباريس ويني جامع وغيرها وله شروح ومختصرات عديدة، وله كتب أخرى في الحديث أغضينا عنها. (ترجمته في تاج التراجم طبعة ليبسك صفحة ١٧).

علماء اللغة في الشام

(١) **ضياء الدين بن الأثير (توفي سنة ٦٣٧هـ):** هو أبو الفتح نصر الله بن أبي الكرم محمد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري نسبة إلى جزيرة ابن عمرو لأنه ولد فيها. وهو شقيق عز الدين بن الأثير المؤرخ، وأبناء الأثير ثلاثة كل منهم اشتهر بفن من الفنون:

- مجد الدين المحدث توفي سنة ٦٠٦.
- عز الدين المؤرخ توفي سنة ٦٣٠.
- ضياء الدين اللغوي الأديب هذا، وسيأتي ذكر الآخرين، وهناك ابن أثير رابع اسمه عماد الدين توفي سنة ٦٩٩ جاء ذكره بين شراح قصيدة ابن زيدون.

تفقه ضياء الدين في الموصل ودخل في خدمة صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٧هـ على يد القاضي الفاضل ثم وزر لابنه الملك الأفضل. ولما ذهبت دمشق من حوزته وذهب إلى صرخد فر ضياء الدين إلى مصر، ثم سار في خدمة الملك الظاهر غازي إلى حلب وسافر إلى الموصل فإربل فسنجار وعاد إلى الموصل، وتعين سنة ٦١٨ منشئًا في خدمة ناصر الدين محمود صاحب الموصل، وتوفي ببغداد سنة ٦٣٧، ومع ما عاناه في حياته من المشاغل فقد خلف آثارًا أدبية ذات شأن؛ لأنه كان شديد الرغبة في الأدب وغيره، وللأستاذ مرجليوث رسالة في ضياء الدين هذا قدمها لمؤتمر المستشرقين العاشر، وقد أفاض ابن خلكان في ترجمته وأتى بأمثلة من نظمه ونثره وقابل بينه وبين ابن التعاويذي وهذه أهم مؤلفاته:

(أ) كتاب المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: قسمه إلى مقدمة في علم البيان وإلى مقالتين:

الأولى: في الصناعة اللفظية وما ينطوي تحتها من النظر في الألفاظ المفردة والمركبة والتسجيع والتجنيس والترصيع والموازنة والمعاظلة وغيرها.

والثانية: في الصناعة المعنوية وما تحتها من الاستعارة والتشبيه والتجريد والعطف والإبهام والنفي والإثبات والتقديم والتأخير والاستدراج والإيجاز والإطناب والتكرير والتعريض وغيرها من ضروب المعاني، لم يترك شيئًا يتعلق بالكتابة إلا ذكره، ويقول علماء البيان: «إن المثل السائر للنظم والنثر بمنزلة أصول الفقه لاستنباط أدلة الأحكام»، فأتى فيه بما لم يسبقه أحد إليه؛ ولذلك رأيته معجبًا بنفسه كما يتضح لمن يطالع مقدمة كتابه المذكور، وقد تصدى لانتقاده ابن أبي الحديد المتقدم ذكره وانتصر له كثيرون،[١] وطبع المثل السائر بمصر سنة ١٢٨٢ وبعدها مرارًا.

(ب) كتاب الوشي المرقوم في حل المنظوم: هو من خيرة كتب الأدب، رتبه على مقدمة وثلاثة فصول، الأول في حل الشعر والثاني في حل آيات القرآن والثالث في حل الأخبار النبوية، طبع في بيروت سنة ١٢٨٩.

(ج) الجامع الكبير: في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور أو علم البيان، منه نسخة في المكتبة الخديوية، ونسبه صاحب كشف الظنون إلى ابن الأثير صاحب الكامل أخي ضياء الدين خطأ.

(د) البرهان في علم البيان: في برلين.

(هـ) رسالة في الأزهار: في باريس. (ترجمته في ابن خلكان ١٥٨ ج٢).

علماء اللغة بمصر

(١) **طاهر بن بابشاذ (توفي سنة ٤٦٩هـ):** هو أبو الحسن بن أحمد بن بابشاذ النحوي أصله من الديلم، ونشأ بمصر وكان فيها إمام عصره في النحو، تولى منصبًا رفيعًا في ديوان الإنشاء للفاطميين، وكان لا يخرج منه كتاب حتى يُعرض عليه ويتأمله ويصححه في جهة النحو واللغة، وله على ذلك راتب يتقاضاه مما يدل على رغبة القوم يومئذ في ضبط اللغة وسعي ولاة الأمر في ذلك، أما مؤلفاته فوصل إلينا منها: كتاب

المقدمة في النحو: منها نسخ في أهم مكاتب أوربا لها عدة شروح منها شرح للمؤلف نفسه منه نسخة في المكتبة الخديوية، اسمها المقدمة المحسنية. (ترجمته في ابن خلكان ٢٣٥ ج١).

(٢) **ابن برِّي (توفي سنة ٥٨٢هـ):** هو أبو محمد عبد الله بن أبي الوحش بري بن عبد الجبار بن بري المقدسي المصري، انتهى إليه علم العربية بمصر في زمانه، تولى في الدولة الفاطمية نحو ما تولاه ابن بابشاذ في ديوان الإنشاء ومن مؤلفاته:

(أ) غلط الضعفاء من أهل الفقه: في باريس.
(ب) قصيدة خالية: في برلين. (ابن خلكان ٢٦٨ ج١).

(٣) **أبو الفتح البلطي (توفي سنة ٥٩٩هـ):** هو عثمان بن عيسى بن هيجون البلطي الأديب النحوي، كان طويلًا ضخمًا كبير اللحية يعتم بعمامة كبيرة وثياب كثيرة في الحر، أصله من بلط قرب الموصل. أتى مصر في زمن صلاح الدين فرتب له جاريًا على جامع مصر يقرئ به النحو والقرآن وكان يحب الخلوة والانفراد، ألف عدة كتب في العروض منها كتاب العروض الكبير في ثلثمائة ورقة، وكتب في الأدب والخط وغيره. وصلنا جزء من كتابه في العروض: في أكسفورد (فوات ٣١ ج٢).

(٤) **ابن عبد المعطي الزواوي (توفي سنة ٦٢٨هـ):** هو يحيى بن عبد المعطي الزواوي الملقب زين الدين، كان أحد أئمة عصره في النحو بدمشق، ورغبه الملك الكامل الأيوبي في مصر فانتقل إليها، وتصدر في الجامع العتيق لتعليم الأدب براتب معين، وما زال حتى توفي. ومؤلفاته:

(أ) الدرة الألفية: قصيدة في النحو في برلين ولها شرح لابن الخباز الموصلي في الأسكوريال.
(ب) فصول الخمسين في النحو: في برلين (ابن خلكان ٢٣٥ ج٢).

(٥) **ابن الحاجب (توفي سنة ٦٤٨هـ):** هو أبو عمرو عثمان بن أبي بكر بن يونس الفقيه المالكي، كان والده حاجبًا للأمير عز الدين موسك الصلاحي بمصر وكان كرديًّا، ولد ابنه هذا في القاهرة، وتفقه وتعلم على مذهب مالك وانتقل إلى دمشق وعلم في جامعها،

وأكب الخلق على الاستفادة منه، والأغلب عليه علم العربية، ثم انتقل إلى الإسكندرية فمات فيها. ومؤلفاته:

(أ) الكافية في النحو: مشهورة لا تكاد تخلو مكتبة منها، طبعت مرارًا عديدة أقدمها في رومية سنة ١٥٩١، وطبعت في قازان سنة ١٨٨٩ وفي تشقند سنة ١٣١١، وفي دهلي سنة ١٣١٠، ولها شروح يضيق المقام عن ذكرها، وقد فصلها كشف الظنون ومنها نسخ خطية في مكاتب أوربا بعضها مطبوع.

(ب) الشافية: هي مختصر في النحو طبعت مرارًا في كلكتة والأستانة ومصر وغيرها ولها شروح عديدة بعضها مطبوع.

(ج) المقصد الجليل في علم الخليل: قصيدة في العروض في ليدن وبرلين وأكسفورد لها شروح عديدة.

(د) الأمالي النحوية: أملاها في دمشق على مواضع من المفصل ومواضع من الكافية، منها نسخة في المكتبة الخديوية في ٦٦٦ صفحة، وفي باريس.

(هـ) القصيدة الموشحة بالأسماء المؤنثة: في المكتبة الخديوية.

(و) منتهى السؤل والأمل في علمي الأصول والجدل: على مذهب مالك ألفه مطولًا ثم اختصره وسماه مختصر المنتهى، ويعرف بمختصر ابن الحاجب، منه نسخة في المكتبة الخديوية.

(ز) جامع الأمهات في الفقه: منه نسخة في المكتبة الخديوية في ٢٦٠ صفحة. (ترجمته في ابن خلكان ٣١٤ ج١، وطبقات الأدباء ٤٢١).

علماء اللغة في المغرب وصقلية

(١) **ابن القطاع السعدي (توفي سنة ٥١٥هـ):** ولد في صقلية وتعلم فيها ولما تملكها الإفرنج رحل إلى مصر وعاش فيها إلى وفاته، ويرجع بنسبه إلى الأغالبة ملوك إفريقية، له:

(أ) كتاب أبنية الأفعال: له تهذيب منه نسخة في المكتبة الخديوية بين كتب الشنقيطي.

(ب) العروض البارع في علم العروض في ١٠٤ صفحات.

(ج) الشافي في القوافي: كلاهما في المكتبة الخديوية (ابن خلكان ٣٣٩ ج١، ومعجم الأدباء ١٠٧ ج٥).

(٢) **أبو عبد الله اللخمي السبتي الصدفي:** توفي سنة ٥٧٠، مؤلفاته:

(أ) المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان.
(ب) السيرة النبوية. وكلاهما في الأسكوريال.

(٣) **أبو إسحق بن الأجدابي الطرابلسي المغربي:** توفي نحو سنة ٦٠٠، له: كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ في اللغة العربية، طبع بمصر سنة ١٢٨٧ وغيرها.
(٤) **عيسى الجزولي (٦٠٧):** صاحب المقدمة الجزولية في النحو بالأسكوريال.

علماء اللغة في إسبانيا

(١) **ابن زيدون (توفي سنة ٤٦٣هـ):** هو أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون المخزومي الأندلسي القرطبي خاتمة شعراء بني مخزوم، كان في قرطبة وانتقل إلى إشبيلية في زمن صاحبها المعتضد بالله فجعله من خواصه يجالسه في خلواته كالوزير. وهو حسن النظم. أشهر قصائده القصيدة النونية التي كتب بها إلى ولادة بنت المستكفي مطلعها:

أضحى التنائي بديلًا من تدانينا ... وناب عن طيب لقيانا تجافينا

وكان يصح أن نعده من الشعراء لولا اشتهاره بالإنشاء والأدب، له رسالة تنسب إليه اسمها رسالة ابن زيدون كتبها إلى الوزير أبي عامر بن جهور بن عبدوس يتهكم به فيها على لسان ولادة بنت المستكفي، طبعت في ليبسك في العربية واللاتينية سنة ١٧٥٥ وغيرها، وقد شرحها جمال الدين بن نباتة المصري — الآتي ذكره — شرحًا سماه سرح العيون، طبع بمصر سنة ١٢٧٨ وغيرها، وترجمت إلى التركية وطبعت في الأستانة سنة ١٢٥٧.

وله قصيدة تعرف بالأندلسية في ٦٠ بيتًا طعنًا في الإفرنج منها نسخة في غوطا.
وله ديوان أكثره في ابن جهور وفيه وصف بعض المواقع والأحوال، منه نسخة خط في المكتبة الخديوية ناقصة صفحاتها نحو ٢٦٠ صفحة. (ترجمته في ابن خلكان ٤٣ ج١).

(٢) **أبو الحجاج الشنتمري:** ويعرف بالأعلم، توفي سنة ٤٧٦هـ، ولد في شنتمرية ورحل إلى قرطبة ومات في إشبيلية. له:

(أ) شرح الشعراء الستة، طبع سنة ١٨٩٢ في منشن.
(ب) شرح ديوان زهير، طبع سنة ١٣٠٦ في ليدن.
(ج) شرح شواهد سيبويه في أكسفورد (ابن خلكان ٣٥٣ ج٢).

(٣) **أبو جعفر البتي توفي سنة ٤٨٨هـ:** كان في بلنسية له تذكرة الألباب بأصول الأنساب في المكتبة الخديوية في ١٦ صفحة.

(٤) **عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي توفي سنة ٥٢١:** كان عالمًا بالأدب واللغات سكن بلنسية وتوفي فيها، وكان الناس يجتمعون إليه ويقرأون عليه، وكان ثقة في اللغة ألف كتاب المثلث في مجلدين لم نقف عليه، ولا على شرحه لسقط الزند، وإنما وصلنا من كتبه:

(أ) الاقتضاب في شرح أدب الكاتب لابن قتيبة وهو مطبوع ومشهور.
(ب) الحدائق في الأصول الدينية في برلين.
(ج) الإنصاف في الأسباب التي أوجبت الاختلاف بين المسلمين في آرائهم، ويسمى أيضًا التنبيه على الأسباب الموجبة للخلاف بين المسلمين، طبع بمصر سنة ١٣١٩ في ١٣٦ صفحة، عدَّد فيها الأسباب التي أدت إلى الاختلاف بين المسلمين حتى صار فيهم المالكي والشافعي والأوزاعي والجبري والقدري وغيرهم (ابن خلكان ٢٦٥ ج١).

وهو غير البطليوسي (عاصم بن أيوب) شارح ديوان امرئ القيس المذكور صفحة ١٠٤ من الجزء الأول لهذا الكتاب.

(٥) **أبو طاهر محمد بن يوسف بن عبد الله التميمي السرقسطي الاشتركوني:** توفي سنة ٥٣٨ في قرطبة، له كتاب «المسلسل» وهو غريب في ترتيبه قسمه، إلى قسمين في ٥٠ فصلًا استهل كل فصل بشعر، وعمد إلى تفسير كل لفظ جاء في ذلك الشعر بلفظ له معنى آخر فيذكر المعنى الأول ويعقبه بالثاني، ويفسر هذا بلفظ آخر له هذا المعنى ومعنى آخر وهكذا بالتسلسل كقوله في لفظ: «دليص» وقد جاء في شعر أنشده الشيباني لامرئ القيس فقال: «الدليص الذهب والذهب النضير والنضير الناعم والناعم الخافض والخافض الواضع والواضع الساير الجاد والجاد القاطع والقاطع الجازع

والجازع الخائف إلخ» وكله على هذا النمط. منه نسخة خطية في المكتبة الخديوية في ٢٢٠ صفحة، وقد انتقده الشيخ عبد الله أبو المكارم القادري المغربي من المعاصرين بكتاب سماه البرهان المسلسل في كذب المسلسل منه نسخة في المكتبة الخديوية.

(٦) **ابن السراج الشنتريني:** برح إسبانيا سنة ٥١٥ إلى مصر واليمن، ثم استقر بالقاهرة لتعليم القرآن ومات فيها بعد سنة ٥٤٥ وله من المؤلفات:

(أ) تنبيه الألباب في فضائل الإعراب في برلين.

(ب) تلقيح الألباب في عوامل الإعراب في برلين.

(جـ) جواهر الآداب وذخائر شعراء الكتاب هو ملخص كتاب العمدة لابن رشيق في الأسكوريال.

(٧) **يوسف بن محمد البلوي:** عاش في القرن السادس وأوائل السابع للهجرة، اشتهر بكتاب له سماه «ألف با» طبع في مصر سنة ١٢٨٧ في مجلدين لم ينسج على منواله في المحاضرات، رتَّبه ترتيبًا غريبًا وذلك أنه ضمنه ٢٩ بيتًا على عدد حروف الهجاء وشرح كل كلمة منها مع مقلوبها ومعكوسها، وأورد في أول الشعر ثمانية أبواب وفي آخرها أربع كلمات مزدوجات متشابهات في الحروف، فهو غريب في ترتيبه لكن فيه كثيرًا من الفوائد الأدبية والتاريخية عن العرب الجاهلية وغيرها من أخبار العلماء والأدباء، فضلًا عن اللغوية.

(٨) **أبو الجيش الأندلسي الأنصاري القسطي توفي سنة ٦٢٦:** له كتاب العروض الأندلسي، وهو من الكتب التي عنى العلماء بشرحها وتلخيصها، وقد طبع في الأستانة سنة ١٢٦٢.

(٩) **ضياء الدين أبو الجيش الخزرجي:** في أوائل القرن السابع، أهم مؤلفاته: الرامزة الشافية في علم العروض والقافية، وتعرف بالقصيدة الخزرجية، طبعت في رومية سنة ١٦٤٢ مع تعاليق ولها شروح عديدة.

(١٠) **ذو النسبين الكلبي توفي سنة ٦٣٤هـ:** هو أبو الخطاب عمر بن الحسن بن علي، ويرجع بنسبه إلى دحية الكلبي — أحد الصحابة — لذلك عُرف أيضًا بابن دحية، ويعرف بذي النسبين الأندلسي البلنسي كان من أعيان الحفاظ العلماء عارفًا النحو واللغة وأيام العرب وأشعارهم، وطلب الحديث في أكثر بلاد الأندلس ولقي علماءها، ثم رحل إلى إفريقية فدخل مراكش فإفريقية ومنها إلى مصر فالشام فالعراق فالعجم فخراسان

ومازندران في طلب الحديث والاجتماع بأئمته، وعاد إلى القاهرة فمات فيها ودفن في سفح المقطم ووصلنا من مؤلفاته:

(أ) تنبيه البصائر في أسماء أم الكبائر (الخمر)، وفيه بحث في اشتقاقها اللغوي في ليدن.
(ب) المطرب من أشعار أهل المغرب في المتحف البريطاني.
(جـ) الآيات البينات في الجزائر.
(د) الخصائص في المناقب النبوية في برلين.
(هـ) قصيدة في مدح النبي بباريس (ابن خلكان ٣٨١ ج١).

(١١) **شرف الدين المرسي (٦٥٥):** صاحب الضوابط النحوية في علم العربية في برلين.
(١٢) **أبو المطرف المخزومي (٦٥٨هـ):** صاحب التنبيه على المغالطة وإقامة المال من طريقة الاعتدال، ويشتمل على أشعار امرئ القيس والنابغة في الأسكوريال.
(١٣) **العنسي العمادي الأندلسي (٦٧٣هـ) له:**

(أ) جامع المرقصات المطربات في الشعر منه قطع بالمتحف البريطاني.
(ب) شذور الذهب، مجموع أشعار تتعلق بالكيمياء في باريس.
(جـ) الغرة الطالعة في شعراء المائة السابعة، في مكتبة أهلوارت.

(١٤) **ابن أبي الربيع القرشي توفي سنة ٦٨٨هـ:** بإشبيلية له الملخص في النحو في الأسكوريال.

علماء اللغة في اليمن

(١) **نشوان بن سعيد (توفي سنة ٥٧٣هـ):** وظهر في جنوبي بلاد العرب في هذا العصر نشوان بن سعيد بن نشوان الحميري، وكان شاعرًا أديبًا عالمًا باللغة والحديث، وصلنا من مؤلفاته:

(أ) شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، وصحيح التأليف والأمان من التحريف: هو من كتب اللغة الهامة، ألفه في ١٨ جزءًا، رتبه على حروف المعجم، وقسمه

إلى أبواب لكل حرف من الهجاء باب وقسم كل باب إلى شطرين أحدهما للأسماء والآخر للأفعال، وجعل لكل كلمة من الأسماء أو الأفعال بابًا يشرحها فيه، فهو معجم لغوي لكنه يمتاز عن سواه من المعاجم اللغوية أنه يتضمن شروحًا علمية وطبيعية، فإذا عرضت كلمة من اسم حيوان أو نبات أو معدن ذكر خصائصها، كقوله في لفظ: «دجاج» قال: «هو جمع دجاجة من الطير لحمها معتدل في الحرارة والرطوبة.» وقال في الذهب بعد وصفه اللغوي: «والذهب أعدل الأجسام في طبعه لا يبليه الثرى ولا تأكله النار ولا يتغير ريحه على المكث، وإذا برد وخلط في الأدوية نفع في ضعف القلب إلخ.» وكذلك إذا عرض اسم رجل من القدماء ذكر شيئًا عنه كالزباء مثلًا، فإنه ذكر من هي من حيث التاريخ، وكثيرًا ما يأتي بالأحكام الشرعية، فالكتاب معجم لغة وعلم نحو دوائر المعارف في هذه الأيام، ومنه في المكتبة الخديوية ثلاثة مجلدات في نحو ١٥٠٠ صفحة كبيرة، ومنه نسخ في مكاتب أوربا، وقد اختصره ابنه في كتاب سماه ضياء العلوم، منه نسخة في أيا صوفيا.

(ب) كتاب القوافي: في ليدن.

(ج) كتاب الحور العين وتنبيه السامعين: نثر مسجع وفيه بحث في النساء، في برلين.

(د) القصيدة الحميرية: نشرنا بعضها في تاريخ العرب قبل الإسلام صفحة ١٣١ ج١.

كتب أخرى في اللغة والأدب

وهناك طائفة من أدباء هذا العصر خلفوا آثارًا أدبية مفيدة نكتفي بذكرها ملخصًا وهي:

(أ) قانون الرسائل لتاج الرئاسة أبي القاسم علي بن منجب بن سليمان الشهير بابن الصيرفي من رؤساء كتاب الدولة الفاطمية بأواخر القرن الخامس، ويشتمل على قوانين المراسلات الرسمية في الدولة الفاطمية، عني بطبعه والتعليق عليه علي بك بهجت بمصر سنة ١٩٠٥ مع مقدمة مفيدة.

(ب) دستور اللغة في التصريف والحروف في ٢٨ كتابًا بعدد الحروف المناسبة لمنازل القمر، ولكل كتاب ١٢ بابًا بعدد أشهر السنة لبديع الزمان النطنزي المتوفى سنة ٤٩٩، منه نسخ في ليدن وباريس وفي الخزانة التيمورية.

(ج) نزهة الأنفس في روضة المجلس لمحمد بن علي العراقي (٥٦١هـ)، ذكر فيه ما استعمله العوام من كلام العرب ولم يعرفوا حقيقته، وما يجوز معرفته من المثل ووجه تصحيف العوام له والقصة التي ورد فيها المثل مرتب على الأبجدية، منه نسخة في غوطا.

(د) كتاب التذكرة لابن حمدون المتوفى سنة ٥٦٢هـ، وهو أبو المعالي كافي الكفاة بهاء الدين البغدادي من بيت مشهور بالرئاسة، وكتابه من خيرة المجاميع في التاريخ والأدب والنوادر والأشعار في بضعة عشر مجلدًا، لم يجمع أحد في عصره على مثاله، منه نسخ خطية في أكثر مكاتب أوربا، وفي المكتبة الخديوية الجزء الحادي عشر منه في ٣٨٤ صفحة أوله الباب ٢٧ في أنواع السير والأخبار وعجائبها وفنون الأشعار وغرائبها، ويدخل في ذلك نوادر الأدباء والشعراء والمخنثين ونوادر ذوي العاهات والخلعاء والأغبياء والجهلاء، فهو من أهم كتب الأدب والتاريخ (ترجمته في ابن خلكان ١٥٦ ج١).

(هـ) اتفاق المباني وافتراق المعاني: للدقيقي المتوفى سنة ٦١٤هـ وهو سليمان بن بنين النحوي الدقيقي، ألف كتابه هذا برسم الخزانة الأشرفية للأشرف الأمين بهاء الدين أبي العباس أحمد بن القاضي أبي علي عبد الرحيم، أتى فيه على تاريخ التأليف في هذا الفن ثم بحث في الموضوع فذكر الألفاظ المتفقة في اللفظ والمختلفة في المعنى، منه نسخة في المكتبة الخديوية في ١٧٠ صفحة كبيرة.

(و) العقد الفريد للملك السعيد: لأبي سالم محمد طلحة القرشي النصيبي الوزير المتوفى سنة ٦٥٢هـ في الأدب والأخلاق والسلطة وأحكامها والشرائع والديات والجباية ونحوها، وهو من قبيل كتب السياسة، طبع بمصر سنة ١٢٨٣.

(ز) تحرير التحبير في علم البديع: لابن أبي إصبع العدواني المصري المتوفى سنة ٦٥٤هـ، منه نسخة في المكتبة الخديوية في ٢٨٠ صفحة في صدره تاريخ التأليف في علم البديع من ابن المعتز فمن بعده وكيف تسلسل ذلك إلى التيفاشي وقسمه إلى ٦٠ بابًا.

(ح) الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية: مجموع رسائل للملك الناصر صلاح الدين داود الأيوبي، جمعها ابنه مجد الدين أبو محمد وصدرها بنسب الملك الناصر وأخباره، ثم أتى بالرسائل وأكثرها في وصف بعض الأحوال وفيها أشعار لأغراض مختلفة، منها نسخة في كتب زكي باشا بالمكتبة الخديوية في ٢٨٨ صفحة.

هوامش

(١) كشف الظنون ٣٧٥ ج٢.

التاريخ والمؤرخون

تمهيد

تفرعت المملكة الإسلامية في هذا العصر وتعدد ملوكها وخلفاؤها وسلاطينها وأمراؤها، ولكل منهم ديوان وأعوان وفتوح، فهو يتطلب تاريخًا لنفسه أو لدولته أو مملكته أو أسرته، فلا عجب إذا تعدد المؤرخون في هذا العصر وقد استقر التاريخ ونضجت مواده ورسخت أصوله وتبارى العظماء في التفاخر بما يدون من أعمالهم فقربوا رجال التاريخ وأوعزوا إليهم أن يدونوا مآثرهم؛ ولذلك كثرت التراجم الأفرادية، وتكاثر عمران المدن الإسلامية، وخيف عليها فعنى جماعة آخرون بتدوين تاريخها وخططها، واشتغل آخرون بجمع شتات التراجم في معاجم تاريخية لزيادة الحرص عليها، غير تواريخ الدول والتواريخ العامة، فكُتب التاريخ تُقسَّم في هذا العصر باعتبار ما تقدم إلى السير وتواريخ الدول وتراجم المشاهير وتواريخ المدن والبلاد والتواريخ العامة، فنذكر كل طائفة من هذه المؤلفات على حدة مع تراجم أصحابها حسب سني الوفاة.

(١) أصحاب السير

(١) **القاضي أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي المالكي:** توفي سنة ٥٤٤، له كتاب الشفاء في تعريف حقوق المصطفى في السيرة النبوية، طبع بمصر سنة ١٢٧٦ وغيرها، وله كتب أخرى في الحديث وغيره موجودة في المكتبة الخديوية، بعضها مطبوع.

(٢) **أبو الكرم عبد السلام الأندرسفاني الفردوسي:** من محدثي القرن السادس، له كتاب المستقصى في السيرة النبوية، استخرجها من مسند مسلم والبخاري والموطأ، ويتضمن أخبار الفتوح في زمن الراشدين، كتبه المؤلف بالفارسية، وترجمه كمال الدين الخوارزمي إلى العربية، منه نسخة في المتحف البريطاني.

(٣) **الموفق بن أحمد المتوفى سنة ٥٦٧:** له مناقب أبي حنيفة، طُبع في الهند سنة ١٣٢١ في مجلدين.

(٤) **أسامة بن منقذ (توفي سنة ٥٨٤هـ):** هو أبو المظفر أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصير بن منقذ، وينتهي نسبه إلى حمير ويلقب مجد الدين مؤيد الدولة، ويمتاز عن سواه من المؤرخين أنه أرخ نفسه ووصف سيرة حياته ورحلاته وذكر كثيرًا من حوادث تلك الأيام وعادات أهلها وآدابهم، ولد في شيراز وهي لبعض أهله وهم أمراء، وشاهد في أسفاره أمورًا هامة وصفها وفي جملتها وقائع مع الصليبين، وهاك مؤلفاته:

(أ) كتاب الاعتبار: هو رحلته المشار إليها، نشرت في باريس سنة ١٨٨٦، واستخرج المستشرقون منها فوائد اجتماعية عن ذلك العصر.

(ب) البديع: رتبه على ٩٥ بابًا أولها التجنيس وآخرها التهذيب، منه نسخة في المكتبة الخديوية.

(جـ) كتاب العصا: في ليدن (ترجمته في معجم الأدباء ١٧٣ ج٢).

(٥) **أبو علي الجواني المصري (توفي سنة ٥٨٨هـ):** له شجرة رسول الله في النسب النبوي مع ملاحظات تاريخية، منها نسخة في برلين.

(٦) **عماد الدين الأصبهاني (توفي سنة ٥٩٧هـ):** أبو عبد الله محمد بن صفي الدين الملقب عماد الدين الأصبهاني، ويعرف بابن أخي العزيز نسبة إلى عمه عزيز الدين صاحب تكريت، نشأ في أصبهان، وأتى بغداد في حداثته ودخل المدرسة النظامية وتعلق بالوزير عون الدين يحيى بن هبيرة ببغداد فولاه النظر في البصرة فواسط، ثم انتقل إلى دمشق سنة ٥٦٢ وسلطانها الملك العادل نور الدين، وتعرف هناك إلى نجم الدين أيوب والد صلاح الدين الأيوبي، فقربه ونوَّه بذكره عند السلطان نور الدين فولاه ديوان الإنشاء في العربية والفارسية، وحصل بينه وبين صلاح الدين مودة وما زال في رفه حتى توفي نور الدين، ولما علم بمجيء صلاح الدين للاستيلاء على الشام تقرب إليه ولزمه، وصار يقيم لقيامه ويرحل لرحيله، فقربه وصار من الصدور المعدودين كالوزراء العظام، وما زال في نعمة

حتى توفي بدمشق ودفن في مدافن الصوفية، وكان واسع العلم في الأدب والشعر والتاريخ والفقه، واشتهر بالإنشاء المسجع على عادة كتَّاب ذلك العصر كما تقدم، وأما مؤلفاته فهي:

(أ) الفتح القدسي في الفتح القدسي: ويقال له أيضًا: القدح القدسي أو الفتح القسي في الفتح القدسي، وأشار عليه القاضي الفاضل أن يسميه الفيح القسي في الفتح القدسي، وصف فيه فتح صلاح الدين بيت المقدس وهو مسجع العبارة يكاد يكون مغلقًا على قراء هذا العصر لغرابة أسلوبه وألفاظه، طبع في ليدن سنة ١٨٨٨ ثم طبع بمصر.

(ب) البرق الشامي: صدره بذكره نفسه وشيء من الفتوح الشامية، وشبه أوقاته بالبرق الخاطف لطيبها وسرعة انقضائها، ثم بسط أخبار صلاح الدين وفتوحه وحوادث الشام في أيامه في سبعة مجلدات، منه نسخة في أكسفورد.

(ج) نصرة الفطرة وعصرة القطرة: وهو تاريخ السلاجقة ووزرائهم، أخذ بعضه من تاريخ فارسي لشرف الدين أنو شروان وذيل عليه بما عاينه في عصره من حديث الأعيان، منه نسخة خطية في أكسفورد وفي باريس، اختصره صدر الدين بن السيد الشهيد الحسيني كاتب الخليفة الناصر لدين الله في كتاب سماه «زبدة التواريخ» إلى وفاة أرطغرل سنة ٥٩٠، وأضاف إليه تاريخ الأتابكة إلى سنة ٦٢٠ منه نسخة في المتحف البريطاني، واختصره أيضًا الفتح بن علي بن محمد البنداري الأصفهاني في كتاب سماه «زبدة النصرة»، طبع في ليدن سنة ١٨٨٩ مع ترجمات فارسية في ثلاثة مجلدات، وطبع العربي وحده بمصر سنة ١٩٠٠ في مجلد واحد باسم «تاريخ دولة آل سلجوق»، جاء في مقدمته أنه لما فرغ من انتخاب الكتاب الموسوم بالبرق الشامي من إنشاء عماد الدين طالع كتابه الموسوم بنصرة العترة وعصرة الفترة[١] في أخبار الوزراء السلجوقية، فوجده قد أكثر فيه من الأسجاع وأطلق فيه العنان لبيانه، فاختصره في هذا الكتاب خدمة للسلطان الملك المعظم أبي الفتح عيسى بن السلطان الملك العادل أبي بكر بن أيوب، بدأ بذلك سنة ٦٢٣، فالكتاب تنتهي حوادثه في هذه السنة، وهو يبدأ ببداية حال السلاجقة إلى دخول السلطان طغرل بك بغداد سنة ٤٤٧ وما جرى من الحوادث بعد ذلك وما توالى من ملوك السلاجقة ووزرائهم إلى وفاة السلطان أرسلان والوزراء بعده، وعبارة الكتاب مسجعة يراها المطالع من أهل هذا العصر مملة، فكيف كانت قبل اختصارها؟

(د) خريدة القصر وجريدة أهل العصر: في تراجم أدباء القرن السادس للهجرة من معاصريه جعله ذيلًا على زينة دمية الدهر للوراق الخطيري، وهذه ذيل على دمية القصر للباخرزي وهذه ذيل ليتيمة الدهر للثعالبي، منه نسخ في باريس والمتحف البريطاني وليدن ونور عثمانية.

(٧) **عبد الكريم بن محمد الرافعي المتوفى سنة ٦٢٣هـ:** له كتاب سواد العينين في مناقب الغوث أبي العلمين أي: السيد أحمد الرفاعي بمصر سنة ١٣٠١ في ٣٠ صفحة.

(٨) **الملك المعظم عيسى بن الملك سيف الدين الأيوبي:** توفي سنة ٦٢٤هـ، له كتاب السهم المصيب في الرد على أبي بكر الخطيب فيما ذكره عن أبي حنيفة، وهو دفاع عن أبي حنيفة النعمان منه نسخة خطية في المكتبة الخديوية كتبت سنة ٦٢٣هـ في ٢٨٤ صفحة.

(٩) **بهاء الدين بن شداد (توفي سنة ٦٣٢هـ):** هو أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم بن عتبة بن محمد قاضي حلب، ولد في الموصل سنة ٥٣٩ فلما أتم علمه رحل إلى بغداد وتعين معيدًا في المدرسة النظامية، ثم صار أستاذًا في مدرسة الموصل الكبرى، وعاد من حجه سنة ٥٨٤ إلى دمشق فولاه صلاح الدين قضاء العسكر وقضاء بيت المقدس، ولما توفي صلاح الدين رحل إلى حلب وصار قاضيًا فيها، ثم اعتزل الأعمال حتى مات، وله أخبار كثيرة أطال ابن خلكان في ذكرها، وأشهر مؤلفاته:

(أ) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية: هي سيرة صلاح الدين الأيوبي طبعت في ليدن سنة ١٧٣٢ مع منتخبات عن صلاح الدين من تواريخ أبي الفداء وعماد الدين وغيرها مع ترجمة ذلك كله باللغة اللاتينية، وقد ترجمت أيضًا إلى الفرنساوية وطبعت في باريس سنة ١٨٨٤، وطبعت في لندن سنة ١٨٩٧ مع تعليقات بالإنكليزية، وطبعت أخيرًا بمصر سنة ١٣١٧.

(ب) تاريخ حلب: منه نسخة في بطرسبورج.

(ج) دلائل الأحكام في الفقه: في باريس.

(د) ملجأ الحكام عند التباس الأحكام: في المكتبة الخديوية. (ترجمته في ابن خلكان ٣٥٤ ج٢.)

(١٠) **النسوي (توفي سنة ٦٣٩هـ):** هو محمد بن أحمد بن علي بن أحمد النسوي، ولد في خرندز قرب نسا بفارس، ودخل خدمة السلطان جلال الدين منكبرتي خوارزم شاه بن السلطان محمد بن تكش، وألف كتابًا في: سيرة السلطان منكبرتي، نُشر مع ترجمة فرنساوية في باريس سنة ١٨٩١ في مجلدين، يبدأ بمقدمة في التتار ومبدأ أمرهم من جنكيزخان، وما كان من فتوحه وأعماله وأمراء خوارزم إلى السلطان جلال الدين وتفصيل الوقائع في أيامه، وفيه تفاصيل عن ذلك العصر لا توجد في سواه، ويتخلل ذلك فوائد اجتماعية وسياسية.

(١١) **أبو علي الجواني (في أواسط القرن السابع):** هو نقيب النقباء بمصر أبو علي محمد بن القاضي الكامل أسعد بن علي الحسيني الجواني النسابة، كتب سنة ٦٤٥هـ: الشجرة النبوية والنسبة الهاشمية في أنساب آل هاشم بشكل الشجرة في جداول دقيقة، وفيها الشروح مرتبة على أشكال هندسية وفروع بخطوط جميلة، وفيها نسب النبي وأعمامه وسائر آل هاشم، وهو كتاب جميل لا يصح طبعه إلا بالتصوير الشمسي أو الزنكوغراف منه نسخة في جملة كتب زكي باشا في عشرين ورقة كبيرة.
(١٢) **شهاب الدين أبو شامة (توفي سنة ٦٦٥هـ):** هو عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الأصل، نشأ في دمشق وتعلم فيها وفي الإسكندرية ثم رجع إلى بلده واشتغل بالتدريس والفتوى والتأليف، وخلف مؤلفات كثير، هاك ما وصلنا خبره مما يهم قراء هذا الكتاب:

(أ) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين الصلاحية والنورية: فيه تفاصيل حسنة عن الحروب الصليبية، ولعلها أوسع المصادر العربية لهذه الحروب، منه نسخ خطية في مكاتب أوربا، وقد طُبع بمصر سنة ١٢٨٧ وسنة ١٨٩٢ في مجلدين، وتُرجم إلى الفرنساوية وطُبع في باريس سنة ١٨٩٨.
(ب) ذيل الروضتين من سنة ٥٩١–٦٦٥ منه نسخة في برلين والمتحف البريطاني.
(ج) له شروح على البردة والشاطبية وغيرها مفرقة بمكاتب أوربا.
(فوات الوفيات ٢٥٢ ج١.)

(٢) تواريخ الدول

(١) **ابن ظافر الأزدي (توفي سنة ٦٢٣هـ):** هو الوزير جمال الدين علي بن ظافر الأزدي المصري، كان بارعًا في الأدب والتاريخ وأخبار الملوك، درس في المدرسة المالكية بمصر وتولى وكالة بيت المال، وصلنا من مؤلفاته:

(أ) الدول المنقطعة: في ٤ مجلدات يدخل فيه تاريخ الدول الحمدانية والساجية والطولونية والإخشيدية والفاطمية والعباسية إلى سنة ٦٢٢هـ، منه نسخة في غوطا والمتحف البريطاني، وقد نشر تاريخ الساجية منها في بون سنة ١٨٢٣.

(ب) كتاب بدائع البداية: في الأدب جعلها خمسة أبواب، قبلها فصلان: الأول في اشتقاق البديهة والارتجال والثاني في الفرق بينهما. طبع بمصر سنة ١٢٧٨ وغيرها.
(جـ) ذيل المناقب النورية قدمها لصلاح الدين: في الأسكوريال (فوات ٥١ ج٢).

(٢) **عبد الواحد المراكشي (توفي بعيد سنة ٦٢١هـ):** هو أبو محمد عبد الواحد بن علي محيي الدين التميمي المراكشي، ولد في مراكش ودرس في فاس والأندلس ثم رحل إلى مصر سنة ٦١٣ ومنها إلى مكة.

له كتاب المعجب في تلخيص تاريخ المغرب: ألفه سنة ٦٢١ وهو تاريخ الموحدين والمرابطين مع تمهيد في تاريخ الأندلس من فتحها إلى زمن يوسف بن تاشفين، طبع في ليدن سنة ١٨٤٧ مع مقدمة إنكليزية لدوزي في ترجمة المؤلف وفذلكة في تاريخ الأندلس، وطبع في ليدن أيضًا سنة ١٨٨١ وفي مصر سنة ١٩٠٦، ونشر بعضه بالفرنساوية في المجلة الإفريقية سنة ١٨٩٣.

(٣) **أبو الفتح البنداري (توفي بعيد سنة ٦٢٣هـ):** لم نعلم عن ترجمة حياته ما يستحق الذكر، له من الآثار:

(أ) زبدة النصرة ونخبة العصرة: مختصر كتاب عماد الدين وقد تقدم ذكرهما (ص٦٢).
(ب) ترجمة الشاهنامة من الفارسية وهي إلياذة الفرس ترجمها إلى العربية للملك المعظم عيسى بن العادل، المتوفى سنة ٦٢٤ منها نسخ في برلين والأسكوريال وأكسفورد وغيرها.

(٣) تراجم الجماعات

نعني بتراجم الجماعات مجاميع التراجم أو المعاجم التاريخية، وقد ظهر كثير منها في هذا العصر، وبين أصحابها جماعة من المحدثين أدخلناهم في هذا الباب رغبة في جمع التراجم في باب واحد، وهذه تراجمهم وآثارهم حسب سني الوفاة:

(١) **ابن عبد البر النمري (توفي سنة ٤٦٣هـ):** هو أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي، ولد سنة ٣٦٨ وتعلم في قرطبة وكان

أكبر محدثيها في عصره وله علم واسع في التاريخ، وألف كتبًا كثيرة أكثرها هام إليك ما يهمنا ذكره وبلغنا خبره منها:

(أ) كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب: هو معجم تاريخي للصحابة أو رواة الحديث صدره بسيرة النبي، ثم رتب الصحابة فيه على الحروف ترتيب أهل المغرب، طبع في حيدرآباد سنة ١٣١٩ في مجلدين نحو ٨٠٠ صفحة، وفيه نحو ٣٥٠٠ ترجمة، وقد لخصه الخليلي في كتاب «إعلام الإصابة» منه نسخة في المكتبة الخديوية.

(ب) الدرر في اختصار المغازي والسير: هو مختصر السيرة النبوية لابن هشام منه نسخة في المكتبة الخديوية في ٣١٠ صفحات.

(ج) بهجة المجالس وأنس المجالس: في المحاضرات مرتب على ١٢٤ بابًا منه نسخة في المكتبة الخديوية.

(د) الانتقاء في فضائل الثلاثة الفقهاء: مالك وأبي حنيفة والشافعي، في الأسكوريال.

(هـ) مختصر جامع بيان العلم وفضله: في الأدب والعلم والتاريخ يشتمل في تضاعيفه على ٢٨٨ ترجمة للشعراء والأدباء والفقهاء والأمراء، طبع في مصر سنة ١٣٢٠ اختصار أحمد بن عمر المحمصاني البيروتي.

وله مؤلفات في الحديث أغضينا عنها (ابن خلكان ٣٤٨ ج٢.)

(٢) **ابن ماكولا (توفي نحو سنة ٤٨٦هـ):** هو الأمير سعد الملك أبو نصر علي بن هبة الله بن علي، ويتصل نسبه بأبي دلف العجلي، أصله من جرباذقان في نواحي أصبهان، وكان أبوه وزيرًا للقائم بأمر الله، وعمه كان قاضيًا في بغداد، ولد ابن ماكولا سنة ٤٢١هـ وكان من كبار الحفاظ والمحدثين، لكنه ألف في التاريخ واللغة ولذلك وضعناه بين المؤرخين، وهاك أهم مؤلفاته: الإكمال: في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والألقاب: هو معجم تاريخي قال في مقدمته: إنه اطلع على كتاب المؤتلف والمختلف لأبي بكر الخطيب وكتاب الدارقطني وغيرهما في هذه المواضيع، فأراد أن يضع فيها كتابًا جامعًا ما في كتبهم وما شذ عنها ففعل ورتبه على حروف المعجم، وطريقته أن يأتي بالاسم المشتبه لفظه وقراءته ويبين الفرق بين صوره المختلفة ومن هو المراد بكل منها، مثال ذلك (أجمد بالجيم) وأحمد وأحمر وهي تتشابه في الخط فذكرها وبين المراد بكل منها فقال مثلًا: «أجمد بالجيم هو أجمد بن جيعان إلخ ... وأما أحمد فهو كثير ... وأما أحمر فهو أحمر بن جزي السدوسي إلخ»، فهو معجم رجال الحديث مع

ضبط أسمائهم، منه نسخة في المكتبة الخديوية في ٦٠٠ صفحة يوجد في برلين والمتحف البريطاني. وله ذيل اسمه «تكملة الإكمال» منه نسخة متفرقة في المكاتب الكبرى، وعليه ذيل لوجيه الدين محتسب الإسكندرية المتوفى سنة ٦٧٣ في المكتبة الخديوية. (ابن خلكان ٣٣٣ ج١، وفوات الوفيات ٣٩ ج٢، ومعجم الأدباء ٤٣٥ ج٥.)

(٣) **الجياني (توفي سنة ٤٩٨هـ):** هو أبو علي الحسين بن محمد بن أحمد الغساني الجياني الأندلسي المحدث، كان إمامًا في الحديث وله في التراجم كتاب جزيل الفائدة سماه: تقييد المهمل وتمييز المشكل: ضبط فيه كل لفظ يقع اللبس فيه من أسماء رجال الصحيحين وهو في جزءين، منه نسخة في برلين (ابن خلكان ١٥٨ ج١).

(٤) **ابن القيسراني (توفي سنة ٥٠٧هـ):** هو أبو الفضل محمد بن طاهر بن علي بن أحمد المقدسي الحافظ المعروف بابن القيسراني. كان من الرحالين في طلب العلم والحديث، فرحل إلى الحجاز والشام ومصر والثغور والجزيرة والعراق والجبال وفارس وخوزستان وخراسان، واستوطن همذان، وكان مشهورًا بالحفظ والمعرفة بعلوم الحديث، وله فيه وفي التصوف والتاريخ مؤلفات جمَّة. هاك ما يهمنا ذكره مما وصلنا خبره:

(أ) كتاب الأنساب المتفقة في الخط المتماثلة في النقط والضبط: هو معجم ترتبت فيه الأسماء المتشابهة في الصورة المختلفة في المعنى، ويراد بالأنساب فيه الانتساب إلى الأماكن أو الأجداد نحو كتاب الأنساب للسمعاني الآتي ذكره، طبع في ليدن سنة ١٨٥٨.

(ب) الجمع بين رجال الصحيحين البخاري ومسلم: جمع فيه بين كتابي أبي نصر الكلاباذي وأبي بكر الأصفهاني، وهو معجم تاريخي للرواة والمحدِّثين، طبع في حيدرآباد سنة ١٣٢٣ في مجلدين فيهما ٢٥٠٠ ترجمة (ابن خلكان ٤٨٦ ج١).

(٥) **السمعاني (توفي سنة ٥٦٢هـ):** هو تاج الإسلام أبو سعد عبد الكريم بن أبي بكر محمد التميمي السمعاني المروزي الحافظ، ولد سنة ٥٠٦ وكان لبيت السمعاني مقام وهو وجيههم وإليه انتهت رئاستهم، رحل في طلب العلم والحديث إلى شرق الأرض ومغربها وشمالها وجنوبها؛ فبلغ إلى ما وراء النهر وطاف خراسان وقومس والري وأصبهان وسائر المشرق والجزيرة والشام وغيرها، ولقي العلماء وأخذ عنهم حتى زاد شيوخه على ٤٠٠٠ شيخ وتوفي بمرو، هذه أهم مؤلفاته:

(أ) كتاب الأنساب: ويعرف بأنساب السمعاني أَلَّفَهُ في ثمانية مجلدات، وهو معجم للتراجم ذكره صاحب كشف الظنون، وقال: إنه قليل الوجود، لكن البحاثين من

المستشرقين وجدوا منه نسخًا في كوبرلي ويني جامع وأيا صوفيا وفي المتحف البريطاني. وقد عنيت لجنة تذكار جيب الإنكليزية بطبع نسخة المتحف البريطاني بالزنكوغراف حسب الأصل تمامًا، فصدرت سنة ١٩١٢ بمجلد ضخم في ٦٠٨ ورقات أو ١٢١٦ صفحة كبيرة بخط دقيق، لو طبعت بحرف الهلال وقطعه لزادت على ٢٢٠٠ صفحة، وفي صدره مقدمة إنكليزية للأستاذ مرجليوث عن المؤلف وكتابه، وهو ليس في الأنساب بمعنى تسلسُل الآباء وإنما يراد به الانتساب إلى بلد أو قبيلة أو أب أو صناعة أو تجارة، كقولنا: «الأبَّار» نسبة إلى صناعة الإبر، والبزَّاز إلى تجارة البَز، والبخاري إلى بخارا، والمدائني إلى المدائن وهكذا، وقد رتبه على حروف المعجم، فيذكر المادة ويضبط حروفها وحركاتها لفظًا، ثم يذكر أصل تلك النسبة فإذا كانت إلى بلد ذكر مكانه أو إلى رجل أو قبيلة عرفها كما يفعل ابن خلكان في آخر كل ترجمة في وفياته، ولعله اقتبس ذلك من السمعاني، ومتى فرغ السمعاني من هذا التعريف ذكر ترجمة صاحب ذلك الاسم، فهو معجم تراجم مرتبة مواده على الألقاب أو الانساب، وقد يشترك باللقب الواحد ثلاثة أو أربعة فيفرق بينهم ويترجم كلًّا منهم فيذكر ولادته ووفاته، وربما زاد عدد المترجمين فيه على ٤٠٠٠ ترجمة، وأكثر عنايته في رواة الحديث والمحدثين ومن يلحق بهم، ويظهر أنه كان أطول من ذلك؛ لأننا رأينا ابن خلكان ينقل عنه أشياء لم نجدها في هذه الطبعة.[٢] وقد لخص هذا الكتاب ابن الأثير المؤرخ في كتاب سماه «اللباب» في ثلاثة مجلدات منه نسخة ناقصة في المكتبة الخديوية في ثلاثة مجلدات وقطع في مكاتب أوربا، وقد طبع بعضه في غوتنجن سنة ١٨٣٥، واختصره السيوطي في كتاب سماه «لب اللباب» طبع في ليدن سنة ١٨٣٢.

(ب) ذيل تاريخ بغداد لأبي بكر الخطيب في خمسة عشر مجلدًا، له مختصر في ليدن وكمبريدج (ابن خلكان ٣٠١ ج١).

(٦) **الجماعيلي (توفي سنة ٦٠٠هـ):** هو أبو محمد تقي الدين عبد الغني بن عبد الواحد بن سرور الجماعيلي المقدسي، ولد في جماعيل قرب نابلس سنة ٥٤١ ومات في القاهرة سنة ٦٠٠، وله من المؤلفات:

(أ) الكمال في معرفة أسماء الرجال، هو معجم مطول لأسماء رجال الحديث ذكر فيه ما اشتملت عليه كتب الحديث الستة من أسماء الرجال ورتبها على الهجاء، منه نسخة في المكتبة الخديوية في مجلدين صفحاتهما ١٢١٦ صفحة كبيرة.

(ب) الدرة المضية في السيرة النبوية، في باريس.

(٧) **محب الدين بن النجار (توفي سنة ٦٤٣هـ):** هو أبو عبد الله محمد بن محمود بن الحسن بن هبة الله بن النجار محب الدين البغدادي، ولد سنة ٥٧٨ وتفقه بابن الجوزي وغيره ورحل في طلب العلم وتولى التدريس وتوفي في بغداد، ومؤلفاته كثيرة أهمها:

(أ) الكمال في معرفة الرجال: هو معجم المحدثين والرواة، عليه شرح ومختصرات سيأتي ذكرها في ترجمة شمس الدين الذهبي.

(ب) الدرة الثمينة في أخبار المدينة: في الخزانة التيمورية.

(جـ) ذيل تاريخ بغداد، هو ذيل على تاريخ بغداد استدرك فيه على أبي بكر الخطيب فجاء في ٣٠ مجلدًا، اختصره ابن أيبك الحسامي المعروف بابن الدمياطي في كتاب سماه «المستفاد من ذيل تاريخ بغداد»، منه نسخة في المكتبة الخديوية في ١٧٨ صفحة بخط المؤلف، يبدأ بتراجم المحمدين ثم غيرهم على أحرف الهجاء باختصار (فوات الوفيات ٢٦٤ ج٢).

(٨) **جمال الدين القفطي (توفي سنة ٦٤٦هـ):** هو الوزير أبو الحسن علي بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الواحد وزير حلب جمال الدين القفطي نسبة إلى قفط في صعيد مصر؛ لأنه ولد فيها، وبعد أن تفقه بالعلم أقام في بيت المقدس ثم جاء حلب وتولى القضاء فيها في زمن الملك الظاهر وسماه القاضي الأكرم أو الوزير الأكرم، وكان صدرًا محتشمًا جمع من الكتب ما لا يوصف، وكانوا يحملونها إليه من الآفاق، وكانت مكتبته تساوي خمسين ألف دينار، ولم يكن يحب من الدنيا سواها وله حكايات غريبة عن غرامه بالكتب، ولم يخلف، ولدًا فأوصى بمكتبته للناصر صاحب حلب، وله مؤلفات عديدة في التاريخ والنحو واللغة، وهاك ما وصلنا خبره منها:

(أ) أخبار العلماء بأخبار الحكماء: أو روضة العلماء، منها نسخة في يني جامع، ولخصه محمد بن علي بن محمد الزوزني في كتاب طبع في ليبسك سنة ١٩٠٥ بهذا العنوان «تاريخ الحكماء» وهو مختصر الزوزني المسمى «المنتخبات الملتقطات من كتاب أخبار العلماء بأخبار الحكماء»، وطُبع في مصر سنة ١٣٢٦ بعنوان «أخبار العلماء بأخبار الحكماء» وهو معجم تاريخي للفلاسفة والأطباء والعلماء الطبيعيين وأصحاب

الرياضيات واللغة من العرب وغيرهم مرتب على الأبجدية، قل من نسج على منواله، ومنه نسخ خطية في أكثر مكاتب أوربا والمكتبة الخديوية.

(ب) أخبار المحمدين من الشعراء وأشعارهم: يريد الشعراء الذين اسمهم محمد مرتب على الأبجدية حسب أسماء آبائهم، منه نسخة في باريس.

(ج) أنباء الرواة على أنباء النحاة: هو تاريخ النحاة منه نسخة في جملة كتب زكي باشا في المكتبة الخديوية وله مختصر للذهبي في ليدن.

(د) أخبار مصر: من ابتدائها إلى أيام صلاح الدين، في ستة مجلدات لا نعرف مكانه (ترجمته في فوات الوفيات ٩٦ ج٢، ومعجم الأدباء ٤٧٧ ج٥).

(٣-١) تراجم أخرى

ومن أصحاب التراجم في هذا العصر أيضًا:

(٩) **أبو إسحق إبراهيم بن يوسف الفيروزآبادي:** المتوفى سنة ٤٧٦هـ له: طبقات الفقهاء يوجد في ينى جامع والمكتبة الخديوية.

(١٠) **قوام الدين إسماعيل بن الفضل التيمي الحافظ الأصبهاني (٥٣٥):** له كتاب سير السلف في تراجم الصحابة والتابعين وغيرهم، في باريس.

(١١) **أبو عبد الله بن أبي الخصال الغافقي (سنة ٥٤٠):** له مناقب الأصحاب العشرة، في الأسكوريال.

(١٢) **ظهير الدين البيهقي أبو الحسن (نحو سنة ٥٧٠) له:**

(أ) تاريخ حكماء الإسلام هو ذيل صوان الحكمة، منه نسخة في برلين.

(ب) تاريخ بيهق بالفارسية أتمه سنة ٥٦٣هـ، منه نسخ في برلين وفي المتحف البريطاني.

(١٣) **أبو علي البغدادي:** من أهل القرن السادس له: ذيل الذيل في تراجم الشعراء في الأسكوريال.

(١٤) **أبو طاهر السلفي المتوفى سنة ٥٧٦:** له معجم شيوخ بغداد في نحو مائة كراس، في الأسكوريال.

(١٥) **أبو المعالي الملك المنصور محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب:**، توفي سنة ٦١٧هـ كان أميرًا في الشام وكان يحب العلماء مات في حماة، له:

(أ) طبقات الشعراء في ليدن.
(ب) دور الآداب ومحاسن ذوي الألباب، في مكتبة فلايشر.

(١٦) **نور الدين جحدم الهمذاني:** كتب بمكة في أواسط القرن السابع كتاب «بهجة الأسرار ومعدن الأنوار» في تراجم الفقهاء ورجال الدين، في باريس.
(١٧) **أبو محمد عبد العظيم المنذري المتوفى سنة ٦٥٦:** له كتاب التكملة لوفيات النقلة في تراجم علماء الحديث من سنة ٦٢٥–٦٤٢، في المتحف البريطاني.

(٤) تواريخ البلاد والمدن

(٤-١) في مصر والشام

(١) **ابن القلانسي (توفي سنة ٥٥٥هـ):** هو حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي الدمشقي العميد بن القلانشي الكاتب المحدث، تولى رئاسة دمشق مرتين، عرفناه بتاريخ ألفه عن دمشق سماه: ذيل تاريخ دمشق: وقد يتبادر إلى الذهن أنه ذيل لتاريخ ابن عساكر الآتي ذكره، لكنه سابق له وقد تعاصرا في بلد واحد، وإنما هو ذيل لتاريخ هلال الصابي صاحب تاريخ الوزراء الذي وصفناه في الجزء الثاني من هذا الكتاب (صفحة ٣٢٣)، ولهلال الصابي تاريخ آخر ذيَّل به تاريخًا لابن قرة، كان ابن قرة قد وصف فيه حوادث زمانه من سنة ٢٩٥–٣٦٣، فجعل هلال تاريخه تتمة لهذا من ٣٢٣ إلى أواخر ٤٤٧ ولم يخصه بتاريخ دمشق بل توسع في أخبار الدول الإسلامية، وقد ضاع هذا التاريخ إلا قطعة عثر عليها امدروز المستشرق الإنكليزي ناشر تاريخ الوزراء فأضافها إلى ما نشره من هذا التاريخ، فابن القلانسي أخذ من تاريخ هلال الصابي ما يختص بدمشق، وزاد عليه ذيلًا سماه ذيل تاريخ دمشق، ضمنه تاريخ دمشق وغيرها من سنة وفاة هلال الصابي ٤٤٨ إلى وفاة المؤلف سنة ٥٥٥هـ، وكان من هذا الذيل نسخة قديمة في مكتبة أكسفورد فنشرها امدروز المشار إليه في بيروت سنة ١٩٠٨، وصدرها بمقدمة تاريخية علق عليها الشروح والفهارس، وهو مرتب على الهجاء (ترجمته في المشرق ٦١٨ مجلد ١١).

(٢) **أبو صالح الأرمني (في أواسط القرن السادس):** كان مقيمًا بمصر ينسب إليه كتاب عن مصر ونواحيها يشتمل على وصف الكنائس والأديار بمصر وما يجاورها من البلاد في أواسط القرن السادس، بدأ بتأليفه سنة ٥٦٤هـ، طبع الجزء الأول منه في أكسفورد سنة ١٨٩٥ مع ترجمة إنكليزية وفهارس في ١٤٢ صفحة للأصل العربي و٣٨٢ للترجمة والشروح.

(٣) **ابن عساكر الدمشقي (توفي سنة ٥٧١هـ):** هو الحافظ أبو القاسم علي بن أبي محمد الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر الدمشقي الملقب ثقة الدين، كان محدث الشام في وقته ومن أعيان الفقهاء الشافعية، اشتهر بالحديث ورحل في طلب العلم ولقي مشائخه ورافق السمعاني في بعض رحلته، وكان حسن الكلام فلما عاد إلى بلده تعين أستاذًا في المدرسة النورية بدمشق، وما زال في هذا المنصب حتى توفي، وأشتهر من بني عساكر غير واحد من العلماء والفقهاء هذا أشهرهم، خلف مؤلفات كثيرة ذكر منها ياقوت في معجم الأدباء عشرات لم يصلنا منها إلا:

(أ) تاريخ دمشق، وبه اشتهر، ألفه على نسق تاريخ بغداد لأبي بكر الخطيب في ثمانين مجلدًا، فأدهش العلماء بتأليفه لكبره واتساعه، وقد أورد فيه تراجم الأعيان والرواة والمحدثين والحفاظ وسائر أهل السياسة والعلم من صدر الإسلام إلى أيامه، ممن سكن دمشق أو نزلها. توخى فيه الإسناد على طريقة المحدثين، منه أجزاء متفرقة في مكاتب أوربا، وشاهدنا نسخة منه في دمشق منقولة عن نسخة محفوظة في مكتبة الملك الظاهر هناك يظن أنها كاملة لكنها تحتاج إلى مراجعة وتحقيق، ومنه نسخة في مكتبة الأزهر في القاهرة ناقصة في بعض المواضع، وعلمنا أن مطبعة روضة الشام بدمشق أخذت بطبعه بعد حذف الأسانيد، وضم المكرر وتفسير بعض الألفاظ، وجاء وصفه مطولًا في مجلة الآثار التي تصدر في زحلة سنة ١ ج١١.

ولهذا التاريخ عدة ذيول أهمها ذيل القاسم ولد المصنف، وذيل صدر الدين البكري وذيل عمر بن الحاجب، وله مختصرات أحدها لابن شامة المتقدم ذكره، واختصره جمال الدين بن منظور صاحب لسان العرب الآتي ذكره، ولإسماعيل العجلوني الجراح مختصر منه نسخة في مكتبة توبنجن سماه العقد المنظوم الفاخر بتلخيص تاريخ ابن عساكر، واختصره أيضًا الشيخ أبو الفتح الخطيب المتوفى بدمشق سنة ١٣١٥، أنجز منه خمسة أجزاء إلى حرف الصاد رأيناها في الخزانة التيمورية بخط الملخص.

(ب) المستقصى في فضائل المسجد الأقصى، يشتمل على ما جاء في الحديث عن بيت المقدس منه الجزء ١٢–١٥ في الخزانة التيمورية، لم يذكره مؤرخوه بين مؤلفاته ولا

جاء ذكره في كشف الظنون، لكننا قرأنا اسم المؤلف على النسخة المذكورة «أبو محمد القاسم بن الشيخ الإمام الحافظ أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله» وهو ابن صاحب تاريخ دمشق.

(ج) تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى أبي الحسن الأشعري: منه نسخ في ليدن وأكسفورد والأسكوريال وله مختصرات، وقد طبع بأوربا سنة ١٨٧٨ وهو من الكتب الهامة في موضوعه حتى قالوا: «إن كل سني لا يكون عنده ذلك الكتاب فليس من نفسه على بصيرة.»

(د) الإشراف على معرفة الأطراف في الحديث: جمع فيه سنن أبي داود وجامع الترمذي والنسائي وأسانيدها وغيرها، ورتبه على حروف المعجم يوجد في أيا صوفيا والمكتبة الخديوية في مجلدين كبيرين.

(هـ) كتاب الأربعين حديثًا، في برلين.

(و) تبيين الامتنان بالأمر بالاختتان، في المكتبة الخديوية.

(ترجمته في ابن خلكان ٣٣٥ ج١، ومعجم الأدباء ١٣٩ ج٥).

(٤-٢) في الحجاز واليمن

(١) **أبو العباس الرازي (توفي سنة ٤٦٠هـ):** هو أبو العباس أحمد بن عبد الله بن محمد الرازي أصله من صنعاء، له: تاريخ الرازي: في وصف صنعاء وضواحيها وأخبارها ومن أقام فيها من الصحابة والأعيان، منه الجزء الثالث في باريس والمتحف البريطاني.

(٢) **عمارة اليمني (توفي سنة ٥٦٩هـ):** هو أبو محمد عمارة بن أبي الحسن علي بن زيدان الحكمي اليمني الملقب نجم الدين، ولد في مرطان من وادي وساع باليمن، ورحل إلى زبيد سنة ٣٥١هـ وأقام بها واشتغل بالفقه في بعض مدارسها، وسيره قاسم بن هاشم صاحب مكة رسولًا إلى الديار المصرية سنة ٥٥٠ في خلافة الفائز بن الظافر الفاطمي والوزير الصالح بن رزيك، وعاد إلى مكة ثم إلى زبيد، ثم كلفه قاسم المذكور برسالة أخرى إلى مصر فاستوطنها ولم يفارقها بعد ذلك، وكان شافعي المذهب شديد التعصب للسنة، أديبًا شاعرًا، فأحسن الصالح إليه كل الإحسان وصحبه مع اختلاف العقيدة، وضعفت شوكة الدولة الفاطمية وهو في البلاد، ولما صارت الأمور إلى صلاح الدين مدحه، ثم أطلع صلاح الدين على دسيسة دبرها عمارة مع جماعة من المتعصبين

للفاطميين لإعادة دولتهم فقبض عليهم وشنقهم بالقاهرة سنة ٥٦٩ وله عدة مؤلفات أهمها:

(أ) تاريخ اليمن: ألفه للقاضي الفاضل، طبع مع ترجمة إنكليزية في لندن سنة ١٨٩٢، وفي هذه الطبعة قطعة من تاريخ ابن خلدون عن اليمن وأخرى من تاريخ الجندي عن القرامطة مع ترجمتها الإنكليزية. واهتم الأوروبيون بعمارة وكتبوا عنه وعن مؤلفه هذا كثيرًا.

(ب) النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية: يتكلم فيه عن نفسه وعن الوزراء الصالح وشاور والكامل وابنه وأشعارهم، طبع في شالون سنة ١٨٩٧.

(ج) ديوانه: منه نسخة في بطرسبورج، وله قصائد متفرقة.

(ترجمته في ابن خلكان ٣٧٦ ج١.)

(٣-٤) في الأندلس والمغرب

(١) **ابن حيان المتوفى سنة ٤٦٩:** هو أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان، ولد في قرطبة وهو من خيرة مؤرخي الأندلس له:

(أ) كتاب المبين في تاريخ إسبانيا في ستين جزءًا، يظن أنه يوجد في مسجد تونس.

(ب) المقتبس في تاريخ الأندلس، عشرة مجلدات وفيه تراجم العلماء منه نسخة في مسجد تونس وأجزاء في أكسفورد.

(ج) معرفة الصحابة، معجم أبجدي منه الجزء الثالث في الأسكوريال، وهو غير أبي حيان التوحيدي الآتي ذكره (ترجمته في ابن خلكان ١٦٨ ج١).

(٢) **أبو زكريا يحيى الورجلاني المتوفى سنة ٤٧١:** له كتاب سير الأئمة وأخبارهم وهو تاريخ الأئمة العبادية في الجزائر، طبع في باريس سنة ١٨٧٨.

(٣) **ابن أبي نصر الحميدي المتوفى سنة ٤٨٨هـ:** ولد في الرصافة في قرطبة، وتفقه على ابن حزم الظاهري الآتي ذكره ثم رحل إلى بغداد ومات فيها، له: كتاب جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس وأسماء الرواة والفقهاء والأدباء والشعراء مرتب على الأبجدية منه نسخة في أكسفورد، وهي وحيدة فيما هو معروف من المكاتب رأيناها في مجلدين صفحاتهما نحو ٣٥٠ صفحة (ترجمته في ابن خلكان ٤٨٥ ج١).

(٤) **الفتح بن خاقان الإشبيلي المتوفى سنة ٥٣٥هـ:** هو الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان القيسي الإشبيلي، كان كثير الأسفار سريع التنقلات اشتهر بكتابيه:

(أ) قلائد العقيان في تاريخ الأمراء والوزراء والقضاة والعلماء والشعراء في الأندلس من معاصريه، قدمه للأمير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين، طبع مرارًا في باريس وبيروت ومصر وهو مسجع العبارة، نقله إلى الفرنساوية بورجاد وطبع بباريس سنة ١٨٦٥، وقد شرحه محمد بن قاسم بن محمد بن عبد الواحد بن زاكور شرحًا سماه «تزيين قلائد العقيان بفرائد التبيان» منه نسخة في ٣٥٠ صفحة كبيرة بالخزانة التيمورية.

(ب) مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، قسمه إلى ثلاثة أقسام الأول في الكتاب والثاني في العلماء والقضاة والفقهاء والثالث في الأدباء، طبع في الأستانة سنة ١٣٠٢ (ابن خلكان ٤٠٧ ج١).

(٥) **ابن بسام الشنتمري المتوفى سنة ٥٤٢هـ:** اشتهر بكتاب «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» (الأندلس)، وهو تاريخ الأندلس وآدابها في القرن الخامس للهجرة وقد استعان به ابن خلكان وغيره، منه نسخة خطية في مكتبة الجزائر وجزء في أكسفورد وآخر في غوطا، والمشهور أن الذخيرة هذه لابن بسام الشاعر الذي يعرف بالبسامي المتوفى سنة ٣٠٢، وقد ذكرناه بين الشعراء صفحة ١٦٣ من الجزء الثاني من هذا الكتاب وقلنا: إنه غير صاحب الذخيرة، ولكن صاحب كشف الظنون نسب الذخيرة إليه وهذا وهم منه:

أولًا: لأن مؤرخي ابن بسام الشاعر لم يذكروا هذا الكتاب بين مؤلفاته.

وثانيًا: أن ابن خلكان نقل عنه أخبار أناس توفوا في أواخر القرن الخامس، فكيف يكون مؤلفه مات في أوائل القرن الرابع؟ ولكن وهم صاحب كشف الظنون جرَّ إلى شيوع هذا الخطأ، ورأينا في مجلة المشرق (سنة ١٠ صفحة ٩٦١) ذكر كتاب اسمه «نهاية الرتبة في طلب الحسبة» لمحمد بن أحمد بن بسام، غير البسامي الشاعر، فلعله لهذا.

(٦) **عبد الله الباجي المتوفى نحو سنة ٥٧٠هـ:** له كتاب «المن بالإمامة على المستضعفين» في عدة أجزاء، منه الجزء الثاني في أكسفورد من سنة ٥٥٤–٥٦٩هـ.

(٧) **ابن بدرون الإشبيلي:** هو أبو مروان عبد الملك في أواخر القرن السادس له شرح قصيدة ابن عبدون التاريخية، طبعت في ليدن سنة ١٨٤٦، وقد تقدم ذكره بين الشعراء صفحة ٣٠.

(٨) **ابن بشكوال المتوفى سنة ٥٧٨هـ:** وهو أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود بن بشكوال الخزرجي الأنصاري القرطبي، من أوثق مؤرخي الأندلس وأكبر علمائها، له:

(أ) كتاب الصلة: جعله ذيلًا على تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي [انظر العصر العباسي الثالث: التاريخ والمؤرخون – أصحاب التواريخ الخاصة] جمع فيه أخبار أئمة الأندلس وعلمائها وأعيانها إلى أيامه، طبع في مدريد سنة ١٨٨٣ في مجلدين، وهو مرتب على الهجاء فيه ١٤٤٠ ترجمة، وله ذيل اسمه الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي في باريس.

(ب) كتاب غنية الأسماء المبهمة الواقعة في متون الأحاديث المسندة، وتسمى أيضًا الغوامض والمبهمات حقق فيه أسماء رواة الحديث، منه نسخة في برلين (ترجمته في ابن خلكان ١٧٢ ج١).

(٩) **أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد الخثعمي المالقي السهيلي:** توفي بمراكش سنة ٥٨١، له كتاب «الرَّوْضُ الأُنُف والمشرَع الرِّوى» في تفسير ما اشتمل عليه حديث السيرة وتذليل ما استصعب في ذلك من غوامض الأنساب والأعراب، وهو تتمة السيرة النبوية منه نسخة في المكتبة الخديوية في ٥٢٤ صفحة.

(١٠) **ابن عميرة الضبى القرطبي:** له كتاب «بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس» مع مقدمة في الفتوح، طبع في مدريد سنة ١٨٨٤ عن نسخة خطية قديمة مشوهة.

(١١) **ابن الأبار القضاعي (توفي سنة ٦٥٨هـ):** هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي المشهور بابن الأبار، ولد في بلنسية، وتولى الكتابة عند محمد بن حفص صاحبها وابنه وقد ألف ذيلًا للصلة سماه:

(أ) تكملة الصلة، طبع في مدريد سنة ١٨٨٦–١٨٨٧ في مجلدين فيهما ٢١٥٢ ترجمة لأعيان الأندلس وعلمائها وشعرائها.

(ب) المعجم، في أصحاب القاضي أبي علي الصدفي وفيه ٣١٥ ترجمة لطائفة من الأئمة والعلماء الأندلسيين مرتب على الهجاء، طبع في مدريد سنة ١٨٨٥.

(ج) الحلة السيارة، في أخبار المغرب من المئة الأولى للهجرة إلى السابعة، تبدأ المئة الأولى بموسى بن نصير، والثانية تبدأ بعبد الرحمن بن معاوية وهكذا إلى المئة السابعة، طبع في ليدن مع الجزء الأول من كتاب «البيان المغرب» سنة ١٨٤٧ في ٢٦٠ صفحة.

(د) أعتاب الكتاب، جمع فيه تراجم الكتاب المنشئين في الدواوين ونوادرهم وأخبارهم منه نسخة خطية في الخزانة التيمورية في مائة صفحة (فوات ٢٢٦ ج١).

(١٢) **ابن العذاري المراكشي:** كتب في أواخر القرن السابع كتاب «البيان المغرب في أخبار المغرب» طبع في ليدن سنة ١٨٤٨–١٨٥١ مع مقدمة فرنساوية وافية بقلم المستشرق دوزي، ثم نشر سنة ١٨٨٣ كتابًا تصحيحًا للطبعة المشار إليها، قال في المقدمة: «واختلطت به قطع من نظم الجمان لابن القطان»، وقال في صدر الجزء الثاني: «واختلطت به قطع من تاريخ عريب» يبدأ الجزء الأول بفتح إفريقية وتاريخ ما توالى عليها بعد ذلك في زمن بني أمية فالعباسيين، فولاية آل الأغلب مفصلًا، فدولة الشيعة العلوية من ظهور عبد الله الشيعي، وما كان من توالي الدولة العبيدية فالصنهاجية فالزيرية وزناتة والمرابطين إلى آخر الدولة العبيدية، والجزء الثاني في أخبار الأندلس من فتحها وتاريخها في زمن بني أمية، وأخبار عبد الرحمن الناصر مفصلًا إلى ملوك الطوائف وآخرهم المنصور.

مجموعات تاريخية

عني بعض المستشرقين في نشر مجموعات تاريخية تتعلق بالأندلس أو غيرها في أثناء هذا العصر ولا بأس من ذكر أشهرها وهي:

(١) **المكتبة الأندلسية:** هي عشرة مجلدات في تاريخ الأندلس ورجالها من أهل العصر العباسي الرابع تقدم ذكر أكثرها، وهي:

- المجلد ١ و٢ كتاب الصلة لابن بشكوال طبع في مدريد سنة ١٨٨٢–١٨٨٣.
- المجلد ٣ كتاب بغية الملتمس لابن عميرة الضبي طبع في مدريد سنة ١٨٨٤.
- المجلد ٤ المعجم لابن الأبار، طبع في مدريد سنة ١٨٨٥.
- المجلد ٥ و٦ التكملة لابن الأبار، طبع في مدريد سنة ١٨٨٦–١٨٨٧.
- المجلد ٧ و٨ تاريخ الأندلس لابن الفرضي طبع في مدريد سنة ١٨٩١.

- المجلد ٩ ما رواه ابن خليفة الأموي الإشبيلي عن شيوخه في الدواوين والعلوم وهو أسماء كتب، طبع في سرقسطة سنة ١٨٩٣.
- المجلد ١٠ فهرس أبجدي عام طبع في سرقسطة سنة ١٨٩٥.

(٢) **المكتبة الصقلية:** هي مجموعة في تاريخ جزيرة صقلية انتخبها المستشرق اماري الإيطالي من ٨٥ كتابًا عربيًّا من زمن المسعودي صاحب مروج الذهب في أوائل القرن الرابع إلى زمن حاجي خليفة في أواسط القرن الحادي عشر، طبعت في ليبسك سنة ١٨٥٧ في نحو ٨٠٠ صفحة مع فهرس الأعلام وقائمة بأسماء الكتب التي أخذ عنها ومقدمة باللغة الإيطالية، ولها ذيلان صغيران طُبعا في ليبسك أحدهما سنة ١٨٧٥، والآخر سنة ١٨٨٧.

(٣) **المكتبة الصليبية:** هي خمسة مجلدات تختص بالحروب الصليبية طبعت متسلسلة لإيضاح هذه الفترة من التاريخ، مأخوذة عن ثقات المؤرخين بعضها مطبوع بالعربية والبعض الآخر مع ترجمة فرنساوية. المجلد الأول: منقول من أبي الفداء طبع سنة ١٨٧٢. والثاني: تاريخ الدولة الأتابكية لابن الأثير طبع سنة ١٨٧٦ سيأتي ذكره. والثالث: مختصر في سيرة صلاح الدين الأيوبي من عدة كتب. والرابع: من كتاب الروضتين من الترجمة الفرنساوية طبع سنة ١٨٩٨. والخامس: من أبي شامة أيضًا طبع سنة ١٩٠٦ في قطع كبير.

(٥) التواريخ العامة

(١) **ابن سعيد القرطبي:** قاضي طليطلة المتوفى سنة ٤٦٢هـ، له كتاب «التعريف بطبقات الأمم» منه نسخة في المتحف البريطاني، وله خلاصة في ليدن.

(٢) **أبو شجاع شيرويه بن شهر دار بن فناخسرو الهمذاني الديلمي:** توفي سنة ٥٠٩، وله:

(أ) كتاب رياض الأنس لعقلاء الأنس، هو تاريخ النبي والخلفاء باختصار، منه نسخة في المكتبة الخديوية في ١٧٢ صفحة انتهى فيها إلى المستظهر بالله العباسي.

(ب) فردوس الأخبار بمأثور الخطاب المخرج على كتاب الشهاب، جمع فيه ١٠٠٠٠ حديث مع رواتها مرتبة على الأبجدية بلا إسناد، منه نسخة في المكتبة الخديوية وله عدة مختصرات بعضها مطبوع.

(ج) نزهة الأحداق في مكارم الأخلاق، مختصر في الحديث في مكتبة الجزائر.
(د) مختصر تذكرة الشعراني طبع بمصر سنة ١٣٢٠.

(٣) **ابن حبيش الأنصاري المتوفى سنة ٥٨٤هـ:** ولد في الميرة بالأندلس وتولى القضاء في مرسية ومات فيها، له «كتاب الغزوات الضامنة الكافلة والفتوح الجامعة الحافلة» في المغازي، يشتمل على تاريخ الخلفاء الثلاثة الأولين الذين نشر الإسلام في أيامهم، أكثره مأخوذ عن الواقدي والطبري، منه نسخ في برلين وليدن.

(٤) **عز الدين بن الأثير (المتوفى سنة ٦٣٠هـ):** هو المؤرخ الشهير صاحب «الكامل» واسمه أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري ويلقب عز الدين، ولد في الجزيرة ونشأ بها مع أخويه ضياء الدين اللغوي المتقدم ذكره ومجد الدين المحدث الآتي ذكره، ثم انتقل والدهم بهم إلى الموصل فسكن عز الدين الموصل وأخذ بها العلم عن جلة العلماء وزار بغداد مرارًا حاجًّا ورسولًا من صاحب الموصل لبعض المهام وأخذ عن علمائها، ثم رحل إلى الشام والقدس ثم عاد إلى الموصل ولزم بيته وانقطع إلى العلم والتأليف، وكان بيته مجمع الفضلاء من أهل الموصل والواردين عليها، وكان إمامًا في الحديث والتاريخ خبيرًا بأنساب العرب وأيامهم ووقائعهم، وأشهر مؤلفاته:

(أ) الكامل في التاريخ: ويعرف بتاريخ ابن الأثير وهو أشهر كتب التاريخ المتداولة بين أيدينا، ومن أوثق المصادر التاريخية الإسلامية وأوضحها وأوعاها، بدأ فيه بالخليقة، وانتهى إلى آخر سنة ٦٢٨هـ، جعله ١٢ جزءًا كبيرًا؛ الأول: في التاريخ القديم من الخليقة إلى ظهور الإسلام، وفيه فذلكة حسنة عن تواريخ الفرس والروم ولا سيما العرب الجاهلية، فإنه أتى على وقائعهم وأيامهم يومًا يومًا أو واقعة واقعة وهو من أوعى الكتب لهذه الحقبة من تاريخ الجاهلية. والجزء الثاني: يبدأ بتاريخ الإسلام من نسب النبي فظهور الإسلام فالخلفاء الراشدين ومن بعدهم، ويتسلسل هذا التاريخ حسب السنين إلى آخر الجزء الثاني عشر، وفي هذا الجزء تفصيل ما عاصر المؤلف من اكتساح جنكيزخان بلاد الإسلام، والكتاب كله مرتب على السنين، تاريخ كل سنة على حدة مع التفريق فيها بين الحوادث حسب الأماكن، وقد جمع فيه خلاصة الكتب التاريخية التي تقدمته، واقتبس تاريخ الطبري كله تقريبًا بعد حذف الأسانيد وتحداه في ترتيبه. ويكفي أن تتصفح هذا التاريخ؛ لتتبين سعة اطلاع ابن الأثير وتحريه الحقيقة على أنه تجنب النظر

والانتقاد فسار على خطوات معظم المؤرخين المسلمين، طبع الكامل سنة ١٨٥٠–١٨٧٤ في ليدن وأوبسالا في ١٢ مجلدًا بعناية المستشرق تورنبرج وذيَّله بمجلد ضخم فيه الفهارس الأبجدية والتعاليق، وهي طبعة جزيلة الفائدة، ثم طبع بمصر مرارًا بلا فهرس أبجدي، وقد نقل المستشرق فنيان ما يتعلق منه بالمغرب وإسبانيا إلى الفرنساوية وطبع في الجزائر سنة ١٩١٠ في ٦٦٤ صفحة.

(ب) أسد الغابة في معرفة الصحابة، وهو معجم أبجدي في تراجم الصحابة طبع في القاهرة في خمسة مجلدات كبيرة سنة ١٢٨٠، وفيه نحو ٧٥٠٠ ترجمة بالأسانيد.

(ج) اللباب في مختصر الأنساب للسمعاني، منه ثلاث قطع في المكتبة الخديوية خط قديم، وقد تقدم ذكره (صفحة ٦٩).

(د) تحفة العجائب وطرفة الغرائب، في المكتبة العثمانية بحلب.

(هـ) تاريخ الدولة الأتابكية في الموصل، طبع في باريس سنة ١٨٧٦ في ٤٠٠ صفحة مع ترجمة فرنساوية بقطع كبير، نصف الصفحة عربي والنصف الآخر فرنساوي في جملة المكتبة الصليبية المتقدم ذكرها.

(ترجمته في ابن خلكان ٣٤٧ ج١).

(٥) **ابن أبي الدم (توفي سنة ٦٤٢هـ):** هو إبراهيم بن عبد الله بن عبد المؤمن شهاب الدين بن أبي الدم الهمداني الحموي، ولد في حماه سنة ٥٨٣ وتولى القضاء فيها، وكان له شأن في أحوال الدولة هناك ومات في حماه، وهاك أشهر مؤلفاته:

(أ) كتاب التاريخ ويعرف بتاريخ ابن أبي الدم: يشتمل على تاريخ الإسلام إلى سنة ٦٢٨ منه نسخة في أكسفورد.

(ب) التاريخ المظفري: في ستة مجلدات باسم المظفر أمير ميافرقين، وقد ترجم الإيطاليان القسم المختص منه بصقلية وطبعوه في بالرم سنة ١٦٥٠.

(ج) كتاب تدقيق العناية في تحقيق الرواية، في الجزائر.

(د) آداب القاضي على المذهب الشافعي، في باريس (أبو الفداء ١٨٢ ج٣).

(٦) **أبو الحجاج البياسي (توفي سنة ٦٥٣هـ):** هو يوسف بن محمد بن إبراهيم الأنصاري البياسي من بياسة في الأندلس توفي في تونس وله:

(أ) كتاب الإعلام بالحروب الواقعة في صدر الإسلام: يشتمل على أخبار الفتوح الإسلامية، ثم الفتنة بين المسلمين بعد مقتل عثمان وما جرى بين معاوية وعلي وأبنائه

وشيعته إلى زمن عمر بن عبد العزيز وبعده، وختمه بخروج الوليد بن طريف الشاري على الرشيد، فهو عبارة عن تاريخ مطول لعصر بني أمية في مجلدين منه بالمكتبة الخديوية نسخة ناقصة بخط قديم، وهو من نوادر الكتب من حيث إسهابه في تاريخ الأمويين في صدر دولتهم.

(ب) كتاب الحماسة: جمع فيه منتخبات من أشعار الجاهليين والإسلاميين والمولدين، رتبه مثل ترتيب حماسة أبي تمام في مجلدين له مختصر في غوطا.

(ترجمته في ابن خلكان ٤١٣ ج٢).

(٧) **سبط بن الجوزي (توفي سنة ٦٥٤هـ):** هو شمس الدين يوسف بن قزاوغلي حفيد أبي الفرج بن الجوزي المحدث الآتي ذكره، وذلك أن أباه كان مملوكًا تركيًّا عند الوزير ابن هبيرة فأعتقه فتزوج بنت أبي الفرج المذكور، ولما ولد يوسف ماتت أمه وعنى جده بأمره ورغب لذلك في علم التاريخ، وأتم دروسه في بغداد ثم استقر في دمشق أستاذًا للحنفية وواعظًا حتى توفي، وأهم مؤلفاته:

(أ) مرآة الزمان في تاريخ الأعيان: هو تاريخ عام من الخليقة إلى سنة ٦٥٤هـ في أربعين مجلدًا، طعن الذهبي فيه بقوله: «نراه يأتي بمناكير الحكايات وما أظنه ثقة فيما ينقله بل يبخس ويجاوز ويترفض»، وهو مرتب على السنين يذكر دخول السنة وخلاصة ما جرى فيها يومًا يومًا، ثم يترجم من توفي فيها ويرتبهم على أحرف الهجاء نحو ما فعل جده ابن الجوزي المحدث في كتاب المنتظم الآتي ذكره، لا نعرف منه الآن إلا أجزاء متفرقة في المكاتب الكبرى، منها الأول في المتحف البريطاني والثاني في ليدن والسادس في أكسفورد والحادي عشر في غوطا والتاسع والثالث عشر في الأسكوريال، والأجزاء ٢ و٤ و٩ و١١ في مكتبة كوبرلي والخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر في المكتبة الخديوية، ومنها ثلاثة أجزاء في أيا صوفيا، وقس على ذلك بحيث يعسر الحصول على نسخة كاملة في مكان وقد طبع مجلد منه في الهند على الحجر سنة ١٩٧٠، اطلعنا على الجزء السابع عشر منه في المكتبة الخديوية وصفحاته ٥٥٦ صفحة كبيرة تحتوي على حوادث ١٤ سنة من سنة ٦٧٢–٦٨٦هـ، وله مختصرات خطية في المكاتب المشار إليها، وله ذيل في أربعة مجلدات لقطب الدين البعلبكي المتوفى سنة ٧٢٦، منه نسخة في المدرسة الأحمدية في حلب وفي أيا صوفيا، وله مختصرات في المكتبة الخديوية وأكسفورد.

(ب) تذكرة خواص الأمة بذكر خصائص الأئمة، وهو تاريخ الإمام علي والأئمة الاثني عشر، طبع في فارس سنة ١٢٨٨.

(ج) الجليس الصالح والأنيس الناصح، كتبه لموسى بن أبي بكر بن أيوب صاحب دمشق المتوفى سنة ٦٣٥ بعضه في مدحه والبعض الآخر في أخباره ومناقبه في غوطا.

(د) كنز الملوك في كيفية السلوك، مجموع حكايات وعظات مرتبة في خمسة أبواب التفويض والتأسي والصبر والرضا والزهد، في باريس (تاج التراجم ٦١).

(هـ) ومن كتب التاريخ العام في هذا العصر «كتاب بلغة الظرفاء في ذكرى تاريخ الخلفاء» للفقيه أبي الحسن علي بن أبي عبد الله محمد أبي السرور عبد الرحمن الدومي (أو الرومي أو الدوحي) كتبه في أيام المستعصم العباسي، طبع بمصر سنة ١٣٢٧.

(٥-١) كتب أدبية من قبيل التاريخ

(١) **أبو محمد جعفر بن أحمد السراج القاري البغدادي:** توفي سنة ٥٠٠، له «مصارع العشاق» في أخبار العشاق وأشعارهم، طبع في الأستانة سنة ١٣٠٢، وله خلاصة اسمها أسواق الأشواق من مصارع العشاق للبقاعي، المتوفى سنة ٨٨٥ منها نسخة في باريس والأسكوريال. وخلاصة أخرى اسمها: «تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق» لداود الأنطاكي الطبيب، سيأتي ذكره (ترجمته في معجم الأدباء ٤٠١ ج٢ وابن خلكان ١١٢ ج١).

(٢) **ابن ظفر الصقلي حجة الدين المتوفى سنة ٥٦٥، له:**

(أ) سلوان المطاع، في الأدب والتاريخ، ألفه لبعض القواد في صقلية سنة ٥٥٤ في قوانين الحكمة ونوادر أخبار السلاطين على لسان الطيور والوحوش، طبع بمصر سنة ١٢٧٨، وفي تونس وبيروت وفي فلورنسا سنة ١٨٥١ وفي لندن، وقد ترجم إلى التركية والفارسية.

(ب) أنباء نجباء الأبناء في أخبار مشاهير الأولاد النجباء، منه نسخة في باريس وله مختصر في برلين وغوطا، وطبع بمصر.

(ج) خير البشر بخير البشر، في علامات النبوة منه نسخة في المكتبة الخديوية وطبع بمصر سنة ١٨٦٣ على الحجر.

(د) ينبوع الحياة في التفسير في مجلدين، في باريس والمكتبة الخديوية (ابن خلكان ٥٢٢ ج١).

هوامش

(١) في تهجئة هذا الاسم اختلاف كثير.

(٢) راجع ابن خلكان ترجمة الطغرائي صفحة ١٥٩ ج١، وأنساب السمعاني مادة المنشئ ورقة ٥٤٣.

الجغرافية والرحلات

(١) **أبو عبيد البكري (توفي سنة ٤٨٧هـ):** هو عبد الله بن عبد العزيز البكري، أصله من مرسية، وسكن قرطبة وكان من أهل اللغة والفقه والعلوم المختلفة والأنساب والأخبار، أشهر مؤلفاته:

(أ) معجم ما استعجم: هو معجم جغرافي للبلاد التي جاء ذكرها في أشعار العرب، وفي صدره مقدمة مفيدة عن قبائل العرب، طبع في غوتنجن سنة ١٨٧٦، ويظهر أنه اقتبس شيئًا من رحلة تاجر إسرائيلي اسمه إبراهيم بن يعقوب من أهل إسبانيا، وكان لإبراهيم هذا تجارة متصلة إلى بلاد الروس، طبعت رحلته في بطرسبورج سنة ١٨٧٨ مع ترجمة روسية.

(ب) المسالك والممالك: منه نسخة في باريس والأسكوريال والجزائر منها ترجمة فرنساوية لدي سلان في وصف إفريقية وخصوصًا الجزائر، طبعت مع الأصل العربي في الجزائر سنة ١٨٥٧.

وله شروح على أمالي القالي وأمثال ابن سلام (طبقات الأطباء ٥٢ ج٢).

(٢) **الشريف الإدريسي (توفي سنة ٥٤٨هـ):** هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس الصقلي من سلالة العلويين، ولد في سبتة سنة ٤٩٣هـ وتثقف في قرطبة وطاف البلاد ونزل على روجر الثاني صاحب صقلية فأَجلَّه وقربه لسعة علمه، فألف له كتابًا في الجغرافية سماه: «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» ويسمى أيضًا كتاب روجر، وقد جاء في مقدمته عن سبب تأليفه ما نصه ببعض اختصار قال:

إن الملك المعظم رجار المعتز بالله المقتدر بقدرته ملك صقلية وإيطاليه وانكرده وقلورية … (وبعد أن ذكر عدله وهمته وتوسعه في العلوم الرياضية وغيرها وقوته على الاستنباط قال) فلما اتسع سلطانه أراد أن يعرف كيفية بلاده، ويعلم أشكالها وحدودها ومساكنها برًّا وبحرًا إلخ … فطلب الكتب التي ألفت بالجغرافية والأقاليم (وعدد أسماء الكتب التي تقدمت ثم قال)، فلم يجد ذلك مشروحًا فيها مفصلًا، فأحضر لديه العارفين بهذا الشأن فباحثهم فلم يجد عندهم أكثر مما في الكتب، فبعث إلى سائر بلاده فأحضر العارفين فيها فسألهم عنها وباحثهم فيها فما اتفق عليه فيه رأيهم وصح عنده نقلهم أبقاه، وما اختلفوا فيه أرجاه أقام في ذلك ١٥ سنة، فلما تم كل شيء أمر أن يفرغ له من الفضة الخالصة دائرة عظيمة الجرم ضخمة الجسم في وزن ٤٠٠ رطل بالرومي في كل رطل منها مئة درهم و١٢ درهمًا، ثم أمر الفعلة أن ينقشوا عليها صورة الأقاليم السبعة ببلادها وأطوالها وأقطارها وسبلها وريفها وخلجانها وبحارها ومجاريها، ونوابع أنهارها وغامرها وعامرها وما بين كل بلد وغيره من الطرقات المطروقة والأميال المحدودة والمسافات والمراسي المعروفة ولا يغادروا فيه شيئًا، ثم أمر أن يؤلفوا كتابًا مطابقًا لما في أشكالها وصورها، ويزيد عليها في وصف أحوال البلاد والأرضين في خلقها وبنائها وأماكنها وبحارها وجبالها ومسافاتها وعملها وأجناس نباتها، والاستعمالات التي تستعمل بها والصناعات التي تتقن بها، والتجارات التي تجلب منها والعجائب التي تذكر عنها، مع ذكر أحوال أهلها وهيئاتهم ومللهم ومذاهبهم وزيهم وملابسهم ولغاتهم، وأن يسمى بنزهة المشتاق في اختراق الآفاق، وكان ذلك في العشر الأول من شهر دسمبر الموافق شوال من سنة خمسماية وثمان وأربعين، فامتثل (الشريف الإدريسي) فيه الأوامر ورسم الرسم، فبدأ بصورة الأرض المسماة جغرافيا … إلخ.

ثم أخذ في وصف أشكال الأرض وطبيعتها واستدارتها وأطوالها وغير ذلك مجملًا ثم فصله تفصيلًا في كتابه المشار إليه، وكانت جغرافية الإدريسي هذه معول أهل أوربا في تقويم البلدان أجيالًا ولا سيما عن بلاد الشرق، وقد رسموا خرائطها وتناقلوها وترجموها إلى ألسنتهم، ويؤخذ من خريطة محفوظة في متحف سان مرتين بفرنسا أن الإدريسي كان على بينة من حقيقة منابع النيل فصورها بحيرات عند خط الاستواء، كالتي اكتشفها

أهل هذا التمدن في القرن الماضي، نعني فكتوريا نيانزا والبرت نيانزا رسمها الإدريسي قبلهم بمئات من السنين.

لم تطبع هذه الجغرافية طبعة كاملة مع رغبة الأوروبيين فيها وحاجتهم إليها. ذكر الأب شيخو أن جبرائيل الصهيوني وحنا الحصروني سعيا في طبع خلاصتها العربية في رومية سنة ١٥٩٢، ثم طبع منها أقسام على أيدي بعض المستشرقين، فطبع دوزي القسم المختص منها بالمغرب والسودان ومصر والأندلس سنة ١٨٦٤ في ليدن، وطبع روزن ملر وصف الشام وفلسطين في ليبسك سنة ١٨٢٨ وطبع اماري وغيره القسم المختص بإيطاليا سنة ١٨٨٥ في رومية، وفي كل طبعة شروح وتعاليق، واشتغل غيرهم في ترجمة أقسام منها إلى ألسنتهم وطبعت الترجمات وحدها أو مع الأصل العربي، منها ترجمة كوندي لوصف الأندلس إلى الإسبانية طبع مع الأصل في مدريد سنة ١٧٩٩ مع تعاليق، وترجمها جوبير إلى الفرنساوية وطبعت سنة ١٨٤٠.

ومن هذا الكتاب نسخ خطية في باريس وأكسفورد، وفي الأستانة وعنها نقل زكي باشا نسخة كاملة بالفوتوغراف في جملة الكتب النادرة التي قررت نظارة المعارف طبعها لإحياء آداب اللغة وفيها الخرائط والرسوم.

(٣) **أبو عبد الله المازني (توفي سنة ٥٦٥هـ):** هو أبو عبد الله محمد بن عبد الرحيم المازني القيسي الغرناطي، ولد في غرناطة ورحل إلى مصر فبغداد وخرسان وحلب ثم جاء دمشق ومات فيها، وله:

(أ) كتاب تحفة الألباب ونخبة الإعجاب: مجموعة رتبها على مقدمة وأربعة أبواب منها نسخة في برلين.

(ب) نخبة الأذهان في عجائب البلدان، ألفها لمكتبة المظفر يحيى بن هبيرة يصف فيها رحلته في إسبانيا وإفريقية والإسكندرية والقاهرة وعسقلان إلى بلاد الخزر، منها نسخة في غوطا.

(ج) عجائب المخلوقات، في أكسفورد.

(٤) **ابن جبير (في أواخر القرن السادس):** هو أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير بن سعيد الكناني الأندلسي البلنسي، كان من أهل المنزلة العالية في الغرب بالعلم والأدب والشعر، رحل في أواخر القرن السادس للهجرة ثلاث رحلات: الأولى تبدأ بشوال سنة ٥٧٨ يوم خرج من غرناطة وتنتهي بالمحرم سنة ٥٨١ إذ عاد إليها، وقد زار في هذه الرحلة



شكل ١: خريطة الإدريسي نقلًا عن نسخة خطية في سان مرتين رسمت سنة ١١٦٠م.

مصر والشام والحجاز والعراق وصقلية وتفقد آثارها ومساجدها ودواوينها ودرس أحوالها وذكر ما شاهده أو كابده في أسفاره، ووصف حال مصر في زمن السلطان صلاح الدين الأيوبي والمسجد الأقصى والجامع الأموي والساعة العجيبة التي كانت فيه وانتقد كثيرًا من الأحوال، والثانية رحلها بعد فتح بيت المقدس على يد صلاح الدين تبدأ سنة ٥٨٥، وتنتهي سنة ٥٨٧، والثالثة من سبتة إلى مكة وبيت المقدس، ثم تحول إلى مصر والإسكندرية، فأقام يحدث إلى أن لحق بربه في أواخر القرن السادس، طبعت رحلته الأولى للمرة الأولى في ليدن سنة ١٨٥٢ مع مقدمة إنكليزية للمستشرق رايت وأعيد، وأعيد طبعها في ليدن سنة ١٩٠٧ بنفقة لجنة تذكار جيب، وفي صدرها ترجمة المؤلف نقلًا عن الإحاطة بأخبار غرناطة ونفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وقد ترجمت إلى الإيطالية وطبعت سنة ١٨٩٦ وترجم منها القسم المختص بصقلية إلى الفرنساوية وطبع بباريس سنة ١٨٤٦. (الإحاطة في أخبار غرناطة ١٦٨ ج٢).

(٥) **السائح الهروي (توفي سنة ٦١١هـ):** هو أبو الحسن علي بن أبي بكر بن علي الهروي الأصل، ولد في الموصل ونزل حلب فطاف البلاد وأكثر من الزيارات، لم يترك برًّا ولا بحرًا أو سهلًا أو جبلًا يزار إلا قصده ولم يصل موضعًا إلا كتب خطه في حائطه، وذكر ابن خلكان في ترجمته أنه شاهد ذلك في البلاد التي رآها حتى صار مضربًا للأمثال قال الشاعر:

أوراق كديته في بيت كل فتى ... على اتفاق معان واختلاف روي
قد طبق الأرض من سهل ومن جبل ... كأنه خط ذاك السائح الهروي

وكان يتعاطى السيمياء، وتقدم عند الملك الظاهر بن صلاح الدين صاحب حلب وبنى له مدرسة دفن فيها، وله مؤلفات وصلنا منها:

(أ) الإشارات إلى معرفة الزيارات، وصف فيها رحلته في حلب والشام وشواطئ سوريا وفلسطين ومصر وديار بكر والعراق ومكة والمدينة واليمن وفارس باختصار، منه نسخة في المكتبة الخديوية واسمها هناك رحلة أبي الحسن.

(ب) الخطب الهروية، عظات دينية، في برلين.

(ج) التذكرة الهروية في الحيل الحربية، هو من كتب السياسة والحرب، ضمنه ما يحتاج إليه الملوك في سياسة الرعية وما يعتمدون عليه في الحروب وما يدخرونه لدفع المشكلات مما يأول إلى بقاء دولتهم وحفظ بلادهم في ٢٤ بابًا في واجبات السلطان والوزراء والحجاب والولاة والقضاة وأرباب الديوان والجلساء والرسل والحيلة في إرسالهم والجواسيس وأصحاب الأخبار وجمع المال والذخائر وآلة الحرب وبناء الحصون وغير ذلك، منه نسخة في المكتبة الخديوية في جملة كتب زكي باشا ١٥٦ صفحة (ابن خلكان ٣٤٦ ج١).

(٦) **ابن عبد العزيز (توفي سنة ٦٢٣هـ):** هو أبو جعفر بن عبد العزيز الإدريسي، كان كاتبًا للسلطان الملك الكامل بمصر، وصف الأهرام وما يجاورها في كتاب سماه «أنوار علو الإعلام في الكشف عن أسرار الأهرام» ألفه للملك الكامل، وقد هذبه وصححه عبد القادر البغدادي المتوفى سنة ١٠٩٤ يوجد في منشن وباريس.

(٧) **ياقوت الحموي (توفي سنة ٦٢٦هـ):** هو أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله، الرومي الجنس، الحموي المولد، البغدادي الدار، ويلقب شهاب الدين، وهو أشهر جغرافي العرب

وأوعاهم مادة وأبقاهم أثرًا وأوسعهم فضلًا وأوسعهم نفعًا، أصله من بلاد الروم، أُسِر صغيرًا وحمل من بلاده فابتاعه تاجر في بغداد اسمه عسكر الحموي وجعله في الكتاب لينتفع به في ضبط تجارته، ولم يكن عسكر يحسن الخط، ولما كبر ياقوت قرأ شيئًا من النحو واللغة وشغله مولاه بالأسفار في متاجره ثم أعتقه وأبعده عنه سنة ٥٩٦هـ فاشتغل بالنسخ بالأجرة فاستفاد بالمطالعة وعاد إلى مولاه فعطف عليه وسفره في متاجره، ولما عاد وجد سيده قد مات فأخذ من التركة ما كفاه للاتجار، وكان متعصبًا على علي بن أبي طالب وتوجه إلى دمشق سنة ٦١٣، وناظر بعض المتعصبين لعلي فثار عليه الناس ففر فطلبه الوالي فلم يظفر به فوصل حلب خائفًا يترقب، ثم انتقل إلى أربل فخراسان وأقام بها يتنقل في بلادها وتوطن مرو ثم نسا فخوارزم، فاتفق وهو هناك خروج التتر سنة ٦١٦ بقيادة جنكيزخان، فانهزم بنفسه ليس معه شيء حتى أتى الموصل، وقد تقطعت به الأسباب وأعوزه الطعام واللباس، ثم انتقل إلى سنجار فحلب وأقام بظاهرها حتى مات، ولياقوت هذا ملكة في التأليف يندر وجودها فهو يتوخى جمع الحقائق وتنسيقها وتبويبها بحيث تسهل الاستفادة منها كما يظهر من مؤلفاته الآتي ذكرها وهي:

(أ) معجم البلدان: هو معجم جغرافي كبير بأسماء البلاد، بل هو خزانة علم وأدب وتاريخ وجغرافية؛ لأنه إذا ذكر بلدًا أورد شيئًا من تاريخه ومن اشتهر فيه أو نسب إليه من الأدباء أو الشعراء أو الفقهاء أو غيرهم من أهل العلم، في صدره مقدمة في الجغرافية على الإجمال موضحة بالرسوم وفصل في تفسير الألفاظ الاصطلاحية التي وردت في ذلك الكتاب ثم أسماء البلدان مرتبة على الهجاء، طبع للمرة الأولى في ليبسك سنة ١٨٦٦–١٨٧٠ في أربعة مجلدات ضخمة ومجلدين للفهارس والحواشي، ثم طبع بمصر سنة ١٩٠٩، وتمتاز طبعة ليبسك، فضلًا عن الفهارس والتعاليق، بأن الناشر ووستنفيلد أشار في ذيول صفحات الفهرس إلى أماكن وجود تراجم أهم الأعلام الوارد ذكرها في ذلك الكتاب وهي تعد بالمئات، وقد لخص هذا المعجم صفي الدين بن عبد الحق المتوفى سنة ٧٣٩ فاقتصر منه على الجغرافية وسماه «مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع» طبع في ليدن سنة ١٨٥٠ في أربعة مجلدات.

(ب) المشترك وضعًا والمفترق صقعًا، ذكر فيه البلاد المتشابهة بالأسماء المختلفة بالمواقع، طبعه ووستنفيلد في غوتنجن سنة ١٨٤٦ مع الفهارس في نيف وخمسمائة صفحة.

(جـ) معجم الأدباء: أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب: هو معجم تاريخي يشبه معجمه الجغرافي لكنه أكبر منه وأوسع، ترجم فيه النحويين واللغويين والنسابين والشعراء والإخباريين والمؤرخين والوراقين والكتاب وأصحاب الرسائل وأرباب الخطوط وكل من ألف في الأدب. يدخل في مجلدات عديدة متفرقة في مكاتب أوربا والأستانة لا يطمع بالحصول على نسخة كاملة منها، فنشط الأستاذ مرجليوث للاشتغال بجمع شتات هذا الكتاب والوقوف على طبعه، واهتمت لجنة تذكار جيب بنشر ما يمكن العثور عليه من أجزائه، فوفقا حتى الآن إلى نشر خمسة أجزاء منه وهي: الأول والثاني ونصف الثالث من مكتبة أكسفورد، والخامس من مكتبة كوبرلي بالأستانة، والسادس تحت الطبع، ينقص القسم الأخير منه، والسعي متواصل في البحث عن مظان سائر الأجزاء. وأخبرنا الأستاذ المشار إليه في الصيف الماضي أنه ساعٍ في البحث عن أجزاء أخرى يتوقع وجودها في لكناو الهند، ثم جاءنا كتابه ونحن نصحح هذه المسودة أنه لم يوفق إلى وجود شيء هناك ولا في مكان آخر، لكن ذلك لا يمنع أن يكون منه شيء في بعض المكاتب الخصوصية التي لم يصله خبرها، فمن وفق إلى ذلك وأنبأ الأستاذ بوجودها فإنه يخدم آداب هذه اللغة خدمة حسنة؛ لأن في هذا الكتاب كثيرًا من التراجم التي لا وجود لها في سواه، فضلًا عن توسعه وتحقيقه.

(د) المقتضب من كتاب جمهرة النسب: في نسب العرب، في المكتبة الخديوية (ترجمته في ابن خلكان ٢١٠ ج٢).

(٨) **عبد اللطيف البغدادي (توفي سنة ٦٢٩هـ):** هو موفق الدين عبد اللطيف بن يوسف بن محمد البغدادي، ويعرف بابن اللباد، كان عالمًا بالنحو واللغة والكلام والطب والفلسفة، ولد ببغداد سنة ٥٥٥ وتوفي فيها سنة ٦٢٩، وكان كثير التنقل في البلاد وقد زار مصر واشتهر بكتابه في وصف آثارها، وكان دميم الخلقة دقيق الوجه متجعده حتى سماه بعضهم بالجدي الملتحي، وهاك أهم مؤلفاته:

(أ) الإفادة والاعتبار بما في مصر من الآثار، هو رحلته إلى مصر في آخر القرن السادس للهجرة، وصف فيها آثارها وسائر أحوالها الاجتماعية، وهو على اختصاره يحوي فوائد تاريخية هامة، طبع في أوربا ومصر غير مرة، ويسميه الإفرنج مختصر أخبار مصر، ترجمه هوايت إلى اللاتينية وطبع مع الأصل في أوكسونا سنة ١٨٠٠ وترجمه دي ساسي إلى الفرنساوية وطبع في باريس سنة ١٨١٠.

(ب) التجريد، من ألفاظ رسول الله والصحابة والتابعين، في أوكسفورد.
(ج) ملخص كتاب مقالات التاج في صفة النبي، في المكتبة الخديوية.

وله مؤلفات عديدة في الطب والطبيعة والرياضيات أغضينا عنها، وقد ترجمه مطولًا ابن أبي أصيبعة في طبقات الأطباء صفحة ٢٠١ ج٢ وفوات الوفيات ٧ ج٢.

(٩) **أبو بكر الزهري الغرناطي (توفي سنة ٥٣٢):** له كتاب الجغرافية يوجد في باريس وتونس.

(١٠) ومن كتب الجغرافية أو الرحلة في هذا العصر كتاب «الاستبصار في عجائب الأمصار» لأحد أبناء القرن السادس ألفه سنة ٥٨٧ يتكلم عن البلاد ومسافاتها وطبائعها وعادات أهلها يبدأ بطرابلس الغرب ففاس والقيروان وتاريخها وما يليها من البلاد مثل: صبرة ورقادة وسائر مدائن المغرب وهو جزيل الفائدة، ولكن لغته أقرب إلى العامية طبع في فينا سنة ١٨٥٦ وترجم إلى الفرنساوية وطبع سنة ١٩١٠.

الموسوعات

بدأت الموسوعات بالظهور في العصر الماضي كما قلنا صفحة ٢٣٢ من الجزء الثاني لهذا الكتاب، وفاتنا أن نذكر هناك كتاب «المقابسات» لأبي حيان التوحيدي (المتوفى سنة ٤٠٠م)، وهو من الموسوعات في مائة مقابسة وثلاثة في مباحث العلوم، منه نسخة في مكتبة ليدن، لكن الموسوعات لم تنضج إلا في هذا العصر وما يليه، ويدخل في هذا الباب العلماء الذين لم يتخصصوا لفن من الفنون بل كتبوا في أكثر المواضيع، وهم كثيرون في العصرين الآتيين، ومنهم في هذا العصر طائفة حسنة أشهرهم اثنان ابن الجوزي وفخر الدين الرازي.

(١) **أبو الفرج بن الجوزي (توفي سنة ٥٩٧هـ):** هو أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد البكري الحنبلي الملقب جمال الدين جد سبط ابن الجوزي لأمه، ويتصل نسبه بأبي بكر الصديق، كان إمام وقته في الحديث والوعظ لكنه ألف في فنون شتى، ولد في واسط وتلقى العلم عن ٨٧ شيخًا، وكان إمام عصره قضى نحو خمسين سنة في الوعظ ومجلسه يغص بالسامعين المستفيدين وهم يعدون بالألوف، وبينهم الملوك والأمراء والوزراء، وخلف مؤلفات يزيد عددها على مائة كتاب في القرآن والفقه والحديث والطب والتاريخ والسير والتراجم والجغرافية والوعظ والتصوف واللغة هاك أهمها:

(أ) المنتظم في تاريخ الأمم، هو تاريخ عام يبدأ بالخليقة إلى ظهور الإسلام، ومنه إلى أيام المستضيء بالله العباسي، المتوفى سنة ٥٧٥هـ مرتب على السنين، يذكر دخول السنة وخلاصة حوادثها، ثم يذكر من مات فيها ويرتب أسماءهم على أحرف الهجاء مع خلاصة أخبارهم منه أجزاء متفرقة في برلين وغوطا وأكسفورد وليدن والمتحف البريطاني يختلف عددها، ولكن منه نسخة في أيا صوفيا في سبعة أجزاء،

ومنه الأجزاء ١ و٢ و٣ و٥ في كوبرلي و١ و٢ و٣ و٤ في مكتبة عاشر أفندي في الأستانة، وجزء في المكتبة الخديوية في ٥١٠ صفحات كبيرة يبدأ سنة ٢٢٨، وينتهي سنة ٢٨٧ أي: تاريخ أقل من ستين سنة فاعتبر كم يكون حجم الكتاب كاملًا فهو من كتب التاريخ الهامة، وله مختصرات أحدها «مختصر المنتظم وملتقط المنتظم» اختصره المؤلف لتسهيل تناوله، منه نسخة في المكتبة الخديوية في ٣٠٤ صفحات واختصره آخرون.

(ب) الذهب المسبوك في سير الملوك، منه نسخة في برلين، وله مختصر اسمه «خلاصة الذهب المسبوك» للإربلي عبد الرحمن سنبظ قنيتو، طبع في بيروت سنة ١٨٨٥ مرتب على السنين يبدأ بترجمة الوليد بن عبد الملك الأموي، وينتهي بالمستعصم العباسي آخر الخلفاء العباسيين سنة ٦٥٦، وهو من أحسن التواريخ عن الدولة العباسية حسن التبويب.

(ج) شذور العقود في تاريخ العهود، منه جزء في ليدن وفي كوبرلي.

(د) عجائب البدائع: فيه حكايات وحوادث تاريخية في باريس.

(هـ) تلقيح فهوم أهل الآثار في مختصر السير والأخبار، طبع في ليدن سنة ١٨٩٣.

(و) صفوة الصفوة: مختصر حلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني المتوفى سنة ٤٣٠ في طبقات الشافعية، صحح رواياتها لأسباب ذكرها في المقدمة، واقتصر على ذكر العاملين الزاهدين في الدنيا. بدأ بذكر النبي فالمشتهرين من الصحابة بالعلم المقرون بالزهد حسب طبقاتهم، ثم المصطفيات من الصحابيات فالتابعين ومن بعدهم على طبقاتهم في بلدانهم، قال: «وقد طُفْت الأرض بفكري شرقًا وغربًا واستخرجت كل من يصلح ذكره في هذا الكتاب من جميع البقاع»، ورتب البلاد حسب أهميتها في نظره، فبدأ بالمدينة فمكة فبغداد فواسط فالكوفة فالبصرة، وهكذا إلى آخر المشرق ثم انتقل إلى الشام والعواصم والثغور ومصر فالمغرب فالسواحل والفلوات. وكلما ذكر بلدًا ذكر طبقات رجاله من العلماء والزهاد وربما زاد عدد الذين ترجمهم على ٨٠٠ من الرجال و٢٠٠ من النساء، والكتاب يدخل في ستة أجزاء كبيرة، صفحات كل جزء نحو ٤٠٠ صفحة منه أربعة أجزاء متتابعة في المكتبة الخديوية والجزء السادس من نسخة أخرى، ومنه خمسة أجزاء في كوبرلي.

(ز) أخبار الأذكياء، طبع بمصر وغيرها مرارًا.

(ح) كتاب الحمقى والمغفلين، في باريس وبرلين.

(ط) قصص المذكورين، في ليدن.

(ي) الوفا في فضائل المصطفى، في ليدن وفي الخزانة التيمورية.

(ك) مناقب عمر بن الخطاب: توخى فيه البسط والإسناد فذكر أخبار عمر ذكرًا وافيًا وأفاض في مناقبه وإدارة المملكة، وكيف دون الدواوين وما كان يجري من المكاتبات والمعاملات مع أمرائه وقضاته ورعيته وسائر أعماله في ٨٠ بابًا منها نسخة في المكتبة الخديوية ناقصة من أولها صفحاتها ٢٥٠ صفحة.

(ل) مناقب عمر بن عبد العزيز، طبع في برلين سنة ١٩٠٠ فيه فوائد هامة نحو ما في ترجمة عمر بن الخطاب. وخلافة ابن عبد العزيز انتقال فجائي في تاريخ بني أمية ففي ترجمته فوائد هامة.

(م) مناقب أحمد بن حنبل: هو مطول في ترجمة هذا الإمام في مائة باب اشتملت على تاريخه ومناقبه وأعماله، وما كان من محنته وأخبار مريديه وأصحابه ومن صلى معه أو حمل بجنازته، التزم بذلك طريقة الإسناد ويتخلله فوائد اجتماعية وتاريخية، منه نسخة في المكتبة الخديوية في ٣٧٨ صفحة كبيرة.

(ن) المختار من أخبار المختار، في الخزانة التيمورية.

(س) تاريخ الخميس: المسمى مثير عظم الساكن إلى أشرف الأماكن في الجغرافية، في برلين وأكسفورد.

(ع) فضائل القدس، برلين.

(ف) تبصرة الأخيار في نيل مصر وأخواته من الأنهار، في مكتبة الجزائر.

(ص) تقويم اللسان: فيما تلحن به العامة مرتب على الأبجدية، في أكسفورد وفي مكتبة لاله لي بالأستانة.

(ق) المدهش: هو موسوعة في القراءة والحديث واللغة والتاريخ والمواعظ في سبيل المحاضرات، في أكسفورد والمكتبة الخديوية.

(ر) جامع المسانيد والألقاب: مطول في الحديث، وهو مثل سائر مؤلفاته يدل على طول نفس المؤلف في التأليف جمع فيه أشهر المسانيد ورتبها على حروف المعجم لأسماء أصحابها. فمسند أبي كعب يأتي قبل مسند أحمد، وبعد مسانيد الرجال ذكر مسانيد النساء على هذا الترتيب، ويأخذ من كل مسند الأحاديث التي ثبتت صحتها عنده، منه نسخة خطية في المكتبة الخديوية في خمسة مجلدات ضخمة.

(ش) شرح مشكل الغريبين، في المكتبة الخديوية.

(ت) المنطق المفهوم: في الحديث له مختصر، طبع مصر.

(ث) الموضوعات: في الحديث بالمكتبة الخديوية.

(خ) زاد المسير في علم التفسير، منها نسخة في المكتبة الخديوية في خمسة مجلدات.

(ذ) منهاج القاصدين: شرح على إحياء علوم الدين للغزالي الآتي ذكره، يوجد في باريس والمكتبة الخديوية.

ولابن الجوزي كتب أخرى في المواضيع الدينية منها نحو ٣٠ كتابًا في الوعظ والخطب منها نسخ خطية في مكاتب أوربا وغيرها، وكتب لا محل لها هنا (ترجمته في ابن خلكان ٢٧٩ ج١).

(٢) **فخر الدين الرازي (توفي سنة ٦٠٦هـ):** هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين ويعرف بابن الخطيب الفقيه الشافعي، كان فريد عصره في علم الكلام والمعقولات وعلم الأوائل وغيرها، وقد ألف في فنون عديدة وفي جملتها التفسير والفقه والكلام والطب واللغة، وكان واعظًا بليغًا يعظ في العربية والفارسية يحضر مجلسه في هرات أرباب المذاهب والمقالات ويسألونه وهو يجيب كل سائل، وله طريقة في تآليفه لم يسبقه إليها أحد، وتوفي في هرات ودفن فيها، وأشهر مؤلفاته:

(أ) مناقب الإمام الشافعي، في المكتبة الخديوية.

(ب) تاريخ الدول، في مجلدين الأول في سياسة الدولة وتدبير المملكة والثاني في تاريخ الراشدين والبويهيين والسلاجقة والفاطمية، منه نسخة في باريس وقد طبع منه جزء بأوربا.

(ج) المحصول: في أحوال الفقه، في المكتبة الخديوية وله مختصرات.

(د) مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، طبع بمصر سنة ١٢٨٩، وفي الأستانة سنة ١٣٠٧ في ثمانية مجلدات ضخمة.

وله عشرات من المؤلفات في أصول الدين والعقائد وثمانية في الفلسفة والمنطق وبضعة مؤلفات في التنجيم وغيره منها نسخ خطية في مكاتب أوربا والمكتبة الخديوية، ذكرها بروكلمن في كتابه صفحة ٥٠٦ ج١. (ابن خلكان ٤٧٤ ج١ وطبقات الأطباء ٢٣ ج٢).

موسوعات أخرى

ومن الموسوعات في هذا العصر:

(١) كتاب مفيد العلوم ومبيد الهموم، طبع بمصر سنة ١٣٢٧ يقسم إلى أبواب في العلوم الدينية على اختلاف مواضيعها، وفي الحقوق والأدب والتاريخ والسياسة وعجائب البلدان والخواص والمناظرات والحروب والجهاد وغير ذلك، ولم يمكنا تحقيق مؤلف هذا الكتاب فقد قيل في صدر طبعته بمصر: إنه لجمال الدين أبي بكر الخوارزمي وفي كشف الظنون إنه لأحد المغاربة المتأخرين، وقال بروكلمن: إنه لجمال الدين أبي عبد الله القزويني وأنه ألفه سنة ٥٢٧هـ.

(٢) أنموذج العلوم لأبي بكر بن خير البلوي المتوفى سنة ٥٥٩ يشتمل على ٢٤ علمًا، منه نسخة في فينا.

(٣) الفهرست لابن خليفة الإشبيلي، فيما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة في ضروب العلم وأنواع المعارف، وفيه أسماء ١٤٠٠ كتاب في كل علم مع أسانيدها، طبع في كازيروكوستا سنة ١٨٩٤ في مجلة إسبانية على يد فرنسيس كوديرا.

(٤) جامع الفنون وقامع الظنون: للوادياش البرار المتوفى سنة ٥٩٦ منه الجزء التاسع في النجوم ببرلين.

(٥) ينابيع العلوم أو أقاليم التعاليم في الفنون السبعة: التفسير والحديث والفقه والأدب والطب والهندسة والحساب، منها نسخ في ليدن وباريس وفينا.

العلوم الإسلامية

أخذنا على نفسنا أن نجعل همنا التوسع في علوم الأدب والتاريخ والجغرافية واللغة وغيرها مما تتداوله الأيدي من المواضيع المختلفة، ونختصر في كتب الفقه والحديث وغيرهما من العلوم الدينية أو الشرعية لطولها وكثرتها، فإن الإفاضة فيها تستغرق كتابًا مستقلًّا. وأن نختصر أيضًا في العلوم الطبيعية القديمة لذهاب دولتها، لكن علماء الفقه والحديث وغيرهما من علوم الدين بينهم فطاحل كتبوا في أكثر المواضيع الهامة أو كان لهم شأن خاص في العلوم الإسلامية أو تأثير ممتاز في الآداب على الإجمال، فلا يصح إغفالهم، فنأتي أولًا على تراجم أهمهم من كبار الأئمة ثم نختصر فيما بقي، وهاك مشاهير الأئمة في الفقه والتصوف والشرع وغيرها في هذا العصر:

(١) **ابن حزم الظاهري (توفي سنة ٤٥٦هـ):** هو أبو محمد علي بن أحمد يتصل نسبه بيزيد الفارسي من موالي بني أمية ويعرف بابن حزم، نشأ في قرطبة بالأندلس وكان من علمائها في الحديث والفقه يستنبط الأحكام من الكتاب والسنة، وكان في أول أمره شافعيًّا ثم مال إلى مذهب أهل الظاهر، وكان مشاركًا في علوم كثيرة وبلغ من تفكيره أنه رغب عن زخارف الدنيا، وبعد أن أدرك الوزارة تخلى عنها واشتغل بالتأليف في الفقه والمنطق والتاريخ واللغة والأدب، وكان له علم في كل فن حتى قيل: إن مؤلفاته تشتمل على ٤٠٠ مجلد في نحو ٨٠٠٠٠ ورقة لا يزال كثير منها باقيًا، وهاك أهمها:

(أ) كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل: هو عبارة عن تاريخ انتقادي للمذاهب البشرية، وفيه أبحاث فلسفية في أصل العالم على رأي الطبيعيين ومذاهب النصارى المعروفة في أيامه واليهود والصابئة والسامريين، ونظر في التوراة والإنجيل وتحريفهما وأفاض في ذلك وفي الحواريين، وذكر فِرَق الإسلام ومذاهبها وآراءها وبحث في القرآن

وإعجازه وفي القدر والتعديل، وفصول في الأنبياء من آدم، وفي القيامة، واختص شيعة الخوارج والمعتزلة والمرجئة بفصول ضافية، وبحث في أشياء أخرى من قبيل فلسفة الوجود والطبيعيات في ذلك العهد، وقد طبع الكتاب بمصر سنة ١٣١٧ في خمسة مجلدات.

(ب) جمهرة النسب في معرفة قبائل العرب أو جمهرة الأنساب، منه نسخة في المكتبة الخديوية بين كتب الشنقيطي.

(ج) أبطال القياس والراي واستحسان التقليد والتعليل، منه نسخة في غوطا.

(د) الناسخ والمنسوخ، طبع بمصر على هامش تفسير الجلالين.

(هـ) الأحكام لأصول الأحكام في أصول الدين، منه نسخة في المكتبة الخديوية في ٤٤٦ صفحة.

(و) طوق الحمامة في الأدب، في ليدن.

(ترجمته في معجم الأدباء ٨٦ ج٥ وأخبار الحكماء ١٥٦).

(٢) **أبو حامد الغزالي (توفي سنة ٥٠٥هـ):** هو محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي، فقيه شافعي ولد في طوس ونشأ فيها وتكاثر الفلاسفة في عصره، وناهضوا رجال الدين فتصدى أبو حامد لردهم، وكان بصيرًا عاقلًا مع ميل إلى التدين، فاطلع على أقوال الفلاسفة وأمعن فيما يخالف ظاهره منها قواعد الدين، فوقع في حيرة وتردد وعمد إلى التحقيق بنفسه، قضى في ذلك أعوامًا وهو يطالع ويفكر ويلقي دروسه في المدرسة النظامية، ثم انقطع عن التدريس سنة ٤٨٨ وسلك طريق الزهد، وقضى عشرة أعوام في الأسفار بين الحجاز والشام وبيت المقدس على طريقة الصوفية، وهو يطالع ويبحث ويناظر، فتبين له أن الفلاسفة على ضلال وثبت عنده الدفاع عن الدين، فحمل عليهم حملة صادقة بالمناظرة والتأليف، وكان يجادلهم ببراهينهم؛ فسمي لذلك حجة الإسلام. وخلف ما يزيد على سبعين مؤلفًا أكثرها في الجدل والمناظرة، ذكرنا أهمها مع ترجمة وافية لأبي حامد هذا في الهلال سنة ١٥ صفحة ٣٢٣ يهمنا منها هنا ما يأتي:

(أ) كتاب البسيط: في الفروع على نهاية المطلب لإمام الحرمين، منه نسخة خطية في الأسكوريال وفي المكتبة الخديوية.

(ب) الوسيط المحيط بأقطار البسيط: في الفقه الشافعي، ومنه نسخ خطية في منشن وأكسفورد والمكتبة الخديوية، وقد عني العلماء بشرح الوسيط واختصاره، ومن هذه الشروح والمختصرات نسخ متفرقة في مكاتب أوربا ومصر.

(ج) الوجيز: في الفروع، منه نسخة خطية في مكتبة باريس وأخرى في المكتبة الخديوية وله شروح عديدة لم تطبع.

(د) تهافت الفلاسفة، طبع في مصر غير مرة وفي بمباي الهند سنة ١٣٠٤، رد فيه على الفلاسفة الطبيعيين وقد ترجم إلى العبرانية.

(هـ) مقاصد الفلاسفة: عرَّف فيه مذاهبهم ومقاصدهم، طبع في ليدن سنة ١٨٨٨ مع شروح، وله ترجمة لاتينية طبعت في البندقية سنة ١٥٠٦.

(و) كتاب المنقذ من الضلال: ألفه في نيسابور، وهو مختصر في غاية العلوم وأسرارها والمذاهب وأغوارها، منه نسخ خطية في مكاتب برلين وليدن وباريس والأسكوريال والمكتبة الخديوية، وتكلم عنه مطولًا شمولدرس في كتابه عن فلسفة العرب المطبوع في باريس سنة ١٨٤٢ بالفرنساوية.

(ز) المضنون به على غير أهله، طبع في مصر سنة ١٣٠٩ في مجموعة، ومنه نسخ خطية في المكتبة الخديوية ومكاتب برلين وباريس وليدن وبطرسبورج، وبعضهم ينكر كونه له لمخالفته المعروف من صحة عقيدته.

(ح) إحياء علوم الدين: في المواعظ، طبع في مصر سنة ١٢٨٩ و١٣٠٦، ومنه نسخ خطية في مكاتب فينا وبرلين وليدن والمتحف البريطاني وأكسفورد، وعليه شروح عديدة، منها إتحاف السادة المتقين، طبع في فاس سنة ١٣٠٢هـ في ١٣ مجلدًا، وفي القاهرة سنة ١٣١١ في عشرة مجلدات، ومنها منهاج القاصدين لابن الجوزي تقدم ذكره، وروح الإحياء لابن يونس، منه نسخة في مكتبة أكسفورد وغير ذلك مما يطول شرحه.

(ط) كتاب بداية الهداية: في المواعظ، طبع في القاهرة عدة مرات ومنه نسخ خطية في برلين وغوطا ومنشن وباريس وأكسفورد والجزائر وبطرسبورج.

(ي) سر العالمين وكشف ما في الدارين: يبحث في نظام الحكومات، منه نسخة خطية في المكتبة الخديوية ونسخة في مكتبة برلين.

(ك) جواهر القرآن: يشتمل على زبدة القرآن، منه نسخ خطية في ليدن والمتحف البريطاني وبطرسبورج وفي المكتبة الخديوية.

(ل) فضائح الباطنية: يشتمل على تعاليم القرامطة والإسماعيلية وغيرهم من الطوائف الباطنية والبدع في الإسلام، وقع للمتحف البريطاني نسخة منه فاحتفظ بها ولعلها الوحيدة في العالم، والكتاب جزيل الفائدة في موضوعه.

(م) غرائب الأول في عجائب الدول: يخاطب بها السلطان محمد بن ملك شاه بنصائح، منها نسخة في الخزانة التيمورية.

(ن) تنزيه القرآن عن المطاعن، طبع بمصر سنة ١٣٢٩.

وله مؤلفات أخرى ذكرناها في ترجمته بالهلال سنة ١٥ وترجمه ابن خلكان ٤٦٣ ج١ واشتغل في هذه العلوم أخوه أحمد الغزالي، المتوفى سنة ٥٢٠ (ابن خلكان ٢٨ ج١).

(٣) **ابن تومرت (توفي سنة ٥٢٤هـ):** هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن تومرت المنعوت بالمهدي الهرعي صاحب دعوة عبد المؤمن بن علي بالمغرب، أصله من جبل السوس في أقصى بلاد المغرب، ونشأ هناك ثم رحل إلى المشرق في شبابه طالبًا للعلم، فانتهى إلى العراق فاجتمع هناك بأبي حامد الغزالي — المتقدم ذكره — وغيره وتوسع في علوم الدين، وكان ورعًا مخشوشنًا مخلولقًا متقشفًا كثير الإطراق شديد التمسك بقواعد الدين، وله تاريخ طويل، وليس هنا محل الإفاضة فيه، أما مؤلفاته فيهمنا منها:

(أ) كنز العلوم: في الطبيعة والشريعة، منها نسخة في الخزانة التيمورية.

(ب) كتاب أعز ما يطلب: يشتمل على تعاليق لابن تومرت أملاها أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي، وهي تعاليم ابن تومرت، طبع في الجزائر سنة ١٩٠٣ مع مقدمات في ترجمة ابن تومرت وملاحظات باللغة الفرنساوية للمستشرق غولتزير. (ابن خلكان ٣٧ ج٢).

(٤) **الشهرستاني (توفي سنة ٥٤٨هـ):** هو أبو الفتح محمد بن أبي القاسم عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني المتكلم على مذهب الأشعري، كان إمامًا فقيهًا متكلمًا له مؤلفات عديدة مفيدة وصلنا منها:

(أ) كتاب الملل والنحل: يبحث في المذاهب الدينية والفلسفية وتاريخها وخلاصة كل منها، ويدخل في ذلك الشيع الإسلامية وغير الإسلامية، وهو جزيل الفائدة، طبع في لندن سنة ١٨٤٦ في مجلدين، وفي مصر سنة ١٢٦١ وعلى هامش طبعة الفصل لابن حزم المتقدم ذكرها، وقد نقله إلى الألمانية هاربروكر، وطبع في هال سنة ١٨٥١ ونقله إلى التركية نوح بن مصطفى المتوفى سنة ١٠٧٠. ومن هذه الترجمة نسخة في غوطا وبرلين، وترجمه إلى الفارسية أفضل الدين الأصفهاني، وفي المكتب الهندي، وله عدة شروح.

(ب) كتاب تاريخ الحكماء، منه نسخة في مكتبة خصوصية للمستشرق بلاند، وله ترجمة فارسية في مكتبة فرازر ابتاعها من أحد أمراء الهند.

(ج) نهاية الإقدام في علم الكلام، في أكسفورد ويني جامع.

(د) مصارعات الفلاسفة، في غوطا (ابن خلكان ٤٨٢ ج١).

(٥) **ابن العربي (توفي سنة ٦٣٨هـ):** هو الشيخ محيي الدين أبو بكر محمد بن علي الطائي الحاتمي الأندلسي صاحب التصانيف المشهورة بالتصوف، ولد بمرسية سنة ٥٦٠ ونزح في طلب العلم إلى بغداد ومكة ودمشق وبلاد الروم، وكتب كثيرًا، وإنما ينتقدون عليه شطحه في الكلام وكثرة ألغازه، حتى قال بعض مترجميه: «كان محيي الدين رجلًا صالحًا عظيمًا والذي نفهمه من كلامه حسن والمشكل علينا نكل أمره إلى الله تعالى ولا كلفنا اتباعه ولا العمل بما قاله» بلغت مؤلفاته نحو ٢٠٠ كتاب ذكر منها بروكلمن ١٥٦، وذكر أماكن وجودها وأكثرها في التصوف وبعضها في الجفر وأسرار الحروف فنكتفي بأشهرها وأهمها للقارئ:

(أ) الفتوحات المكية في معرفة الأسرار الملكية، في عدة مجلدات، منه نسخة في غوطا، وطبع بمصر سنة ١٣٢٩ في أربعة مجلدات كبيرة عن نسخة كانت في قونية.
(ب) فصوص الحكم في خصوص الكلم، منه نسخ خطية في أشهر مكاتب أوربا.
(ج) مفاتيح الغيب، طبع بمصر.
(د) تاج التراجم: ورقات قليلة في التصوف منه نسخة في المكتبة الخديوية.
(هـ) الاصطلاحات الصوفية، في ليدن والمكتبة الخديوية.
(و) محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار، هو خزانة علم وأدب، طبع بمصر سنة ١٣٠٥.
(ز) ديوان طبع بمصر سنة ١٢٧١ (فوات الوفيات ٢٤١ ج٢).
وهو غير محمد بن عبد الله بن العربي المحدث المتوفى سنة ٥٤٣ (ابن خلكان ٤٨٩ ج١).

بعض مشاهير المحدثين

ومن مشاهير المحدثين في هذا العصر:

(١) **الفراء البغوي المتوفى سنة ٥١٠:** «مصابيح السنة» في الحديث، طبع بمصر سنة ١٢٩٤ له مختصرات وشروح عديدة، وله كتب كثيرة في الحديث وفروعه.
(٢) **أبو العباس التوجيبي الإقليشي الأندلسي المتوفى سنة ٥٥٠، له:**

(أ) الكوكب الدري المستخرج من كلام النبي.

(ب) الدر المنظوم فيما يزيل الهموم والغموم، كلاهما في المكتبة الخديوية.

(٣) **أبو السعادات المبارك مجد الدين بن الأثير الجزري، المتوفى سنة ٦٠٦:** شقيق عز الدين المؤرخ وضياء الدين اللغوي المتقدم ذكرهما، وله مؤلفات مفيدة أهمها:

(أ) جامع الأصول في أحاديث الرسول، رتب فيه الأحاديث على الأبجدية حسب مواضيعها، ورتب المواضيع على أحرف الهجاء لسهولة البحث، فوضع باب الصوم مثلًا قبل الطلاق. منه نسخة في المكتبة الخديوية في عشرة أجزاء.

(ب) النهاية في غريب الحديث والأثر، طبع في طهران سنة ١٢٦٩ وبمصر سنة ١٣١١ في أربعة مجلدات مرتب على الأبجدية.

(ج) المرصع في الآباء والأمهات والبنات هو كتاب في الكنى، مرتب على حروف المعجم، ويراد بالكنى ما يضاف إلى الأسماء من أب وابن وذو ونحوها، فأتى بالأسماء التي لها كنى تنوب عنها وفسرها، فقال مثلًا: «أبو الأبرد اسم للنسر وأبو الأبطال الأسد وأبو الأشجع البغل وأبو الأشعث البازي وأبو الأضياف صاحب المنزل»، ومن الأبناء كقولهم: ابن أبيه زياد المعروف. وقس على ذلك الأمهات والبنات والذوين، وفيه فوائد لغوية وتاريخية، طبع في ويمار سنة ١٨٩٦ مع فهرس يسهل البحث فيه.

(د) تحفة الرسائل بإنشائه، منها نسخة خطية في المكتبة الخديوية في ٣٥٢ صفحة، فيها فوائد اجتماعية تاريخية (ابن خلكان ٤٤١ ج١).

مشاهير الفقهاء وغيرهم

(١) **ضياء الدين الجويني إمام الحرمين (٤٧٨):** له «غياث الأمم في التياث الظلم» في الإمامة وما يتعلق بها. يوجد في المكتبة الخديوية في ٢٨٠ صفحة ومنه نسخة خطية قديمة في الخزانة التيمورية.

(٢) **السرخسي، المتوفى سنة ٤٨٣:** له كتاب «المبسوط» في الفقه الحنفي، طبع بمصر في ١٢ مجلدًا.

(٣) **برهان الدين أبو الحسن الفرغاني المرغياني المتوفى سنة ٥٩٣:** له كتاب «الهداية شرح البداية» طبع في الهند في مجلدين، وهو من أمهات كتب الفقه الحنفي، له شروح عديدة أكثرها موجود في المكتبة الخديوية، وله كتب أخرى في الفقه الحنفي.

(٤) **سراج الدين أبو طاهر بن عبد الرشيد السجوندي:** من أهل القرن السادس، له «الفرائض السراجية»، طبعت في لندن سنة ١٧٩٩، وكلكتة سنة ١٢٦٠، وترجمت إلى الفارسية، وطبعت هناك سنة ١٨١١، وإلى التركية عليها شروح لطورسون زاده منها نسخ خطية في مكاتب أوربا ولها طبعات أخرى.

ونبغت طائفة من الفقهاء في هذا العصر لا نرى حاجة إلى ذكر مؤلفاتهم، وإن كانوا من كبار الأئمة كالصدر الشهيد وإمام زاده وأبي إسحق الشيرازي وأبي بكر الشاشي وابن الدهان وسيف الدين الآمدي ومجد الدين بن تيمية جد ابن تيمية تقي الدين.

ومن القراء مثل أبي القاسم الرعيني الشاطبي وعلم الدين السخاوي. ومن الصوفية أشهر عشرات من خيرة الأئمة وخلفوا مئات من الكتب لا يهمنا ذكرها، ولكننا نذكر أسماء بعض أولئك القهارمة منهم عبد الكريم القشيري وعبد الله الأنصاري الهروي وتاج الإسلام الكعبي وعدي بن منصور الجيلي وعبد القادر السهروردي وأبو محجن الأنصاري وعبد المؤمن الجيلاني وأبو الحسن الشاذلي وصدر الدين القونوي وغيرهم ومن مؤلفاتهم التي يهمنا ذكرها:

(أ) الرسالة القشيرية في التصوف، للقشيري، طبعت مرارًا.
(ب) تراجم الصوفية للهروي، طبعت في كلكتة سنة ١٨٥٩.
(ج) منابر الأبرار للكعبي، منها نسخة في المكتبة الخديوية.

ونبغ في هذا العصر طائفة من علماء الزيدية من الشيعة، أولهم الناطق بالحق المتوفى سنة ٤٢٤، وزيد بن أحمد الأنسي المتوفى سنة ٦٠٠، وابنه عبد الله، وله عدة مؤلفات على مذهب الزيدية. وكذلك أبو الحسن الرصاص والإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة بن سليمان المتوفى سنة ٦١٤ في كوكبان، وكان شاعرًا خلف ديوانًا، منه نسخة في ليدن، فضلًا عن مؤلفاته في المذهب.

ونبغ غير واحد من الإمامية من الشيعة أيضًا منهم أبو جعفر الطوسي المتوفى سنة ٤٥٩ ببغداد، وخلف كتبًا في أصول مذهب الإمامية منها «كتاب الاستبصار»، طبع بفارس في ثلاثة مجلدات. ورضي الدين الطبرسي سنة ٥٤٨ له «مجمع البيان لعلوم القرآن» طبع بفارس سنة ١٣٠٤ في مجلدين.

العلوم الدخيلة

نضجت العلوم الدخيلة في العصر العباسي الثالث وظهرت ثمارها في الشطر الشرقي من المملكة الإسلامية، فظهر ابن سينا وغيره وانتقلت هذه العلوم إلى الأندلس، ومنها رسائل إخوان الصفا كما تقدم، فاهتم أهل الأندلس فيها واشتغلوا في علومها على اختلاف مواضيعها، فلم يتوسط العصر العباسي الرابع حتى نبغ فيها طائفة كبيرة من الفلاسفة والأطباء ملأت شهرتهم الخافقين، هاك أهم آثارهم:

الفلسفة في الأندلس

دخلت الفلسفة الأندلس في القرن الثالث وأخذ الأندلسيون بشيء منها وأحبوها، واستغرقوا في درسها وقاسوا في سبيلها اضطهاد أصحاب السلطة مسايرة للعامة في اضطهادهم الفلاسفة، فما من ملك إلا نقم على أصحاب الفلسفة واتهمهم بالكفر. ومن أشهر الحوادث من هذا القبيل نقمة المنصور بن أبي عامر صاحب الأندلس في أواخر القرن السادس للهجرة عليهم، فإنه اضطهد الفلاسفة ونفاهم من بلاده ومن جملتهم ابن رشد والذهبي، وعزم أن لا يترك شيئًا من كتب المنطق والحكمة في بلاده وشدد النكير على المشتغلين بها حتى أطلقوا على المشتغل بالفلسفة لقب «زنديق»، وقيدت عليه أنفاسه فإن زل في شبهة رجم بالحجارة، وهاك أشهر فلاسفة الأندلس في هذا العصر حسب الوفاة:

(١) **ابن باجة (توفي سنة ٥٣٣هـ):** هو أبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ، ويسميه الإفرنج Avenpace ويعرف بابن باجه كان مشهورًا بالأدب والعربية، فضلًا عن الفلسفة والطب والموسيقى، وكان جيد اللعب على العود، ألف كتبًا عديدة في الفلسفة فأصابه ما أصاب غيره من الفلاسفة؛ حتى كان لا يبيت إلا وهو في خطر على حياته. وقد توفي شابًّا في مدينة فاس، وقرأ عليه كثيرون، من جملتهم ابن رشد الآتي ذكره، له مؤلفات عديدة، هاك ما وصلنا خبره منها:

(أ) مجموعة في الفلسفة والطب والطبيعيات، منه نسخة في برلين وأكسفورد.
(ب) رسالة الوداع مترجمة إلى العبرانية وغيرها (طبقات الأطباء ٦٢ ج٢).

(٢) **ابن الطفيل (توفي سنة ٥٨١هـ):** هو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن الطفيل من تلاميذ ابن باجة المتقدم ذكره، كان متمكنًا من الحكمة حريصًا على الجمع بين الشريعة والفلسفة، له مؤلفات عديدة وصلنا منها:

(أ) كتاب أسرار الحكمة المشرقية، منه نسخة في الأسكوريال وطبع بمصر سنة ١٨٨٢.

(ب) رسالة حي بن يقظان: شبه رواية فلسفية، وهي مشهورة، وقد طبعت مرارًا في مصر وغيرها، وترجمت إلى اللاتينية والإنكليزية وغيرهما (ابن خلكان ٣٧٤ ج٢).

(٣) **ابن رشد (توفي سنة ٥٩٥هـ):** هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد، ويسميه الإفرنج Averroes، ولد سنة ٥٢٠ في قرطبة وأخذ عن ابن باجة وغيره، وتفقه بالعلوم الإسلامية، فضلًا عن الفلسفة والطب، وله فيهما مؤلفات عديدة أشهرها كتاب «الكليات في الطب» لكن أكثر شهرته في الفلسفة. وأكثر مؤلفاته فيها تُرجمت إلى اللاتينية لما نهض الإفرنج في القرون الأخيرة واشتغلوا بالفلسفة، فنسبوها إليه وشرحوها ولخصوها وانتقدوها وقرظوها، وهاك ما وصلنا خبره منها:

(أ) فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال، منه نسخة في الأسكوريال وفي المكتبة الخديوية، وقد ترجم إلى اللاتينية وطبع في منشن سنة ١٨٥٩، وترجم أيضًا إلى العبرانية. ومن الترجمة نسخة في الأسكوريال، وغرضه منها التوفيق بين الفلسفة والدين.

(ب) الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة، وتعريف ما وقع منها بحسب التأويل من الشبه والبدع المضلة، طبع بأوربا.

(ج) المسائل في المنطق، في الأسكوريال.

(د) تهافت التهافت، رد على الغزالي، طبع مرارًا.

(هـ) الكليات في الطب والترابيوتيا، ترجم إلى اللاتينية والعبرانية وطبع.

(و) فلسفة أرسطو وغيرها من مؤلفات ابن رشد ترجمت إلى اللاتينية وطبعت في بيزا بإيطاليا سنة ١٨٧٢ وفي فلورنسا سنة ١٨٥٧، ومنها ترجمات أخرى إلى العبرانية وغيرها يطول بنا ذكرها.

(ز) وقفنا له على كتاب في العربية اسمه «تلخيص كتب أرسطو الأربعة» في المكتبة الخديوية.

(ح) المقدمات الممهدات في بيان ما اقتضته المدونة، طبع بمصر سنة ١٣٢٥.

(ط) بداية المجتهد ونهاية المقتصد، طبع بمصر سنة ١٣٢٩ في مجلدين (طبقات الأطباء ٧٥ ج٢).

(٤) **أثير الدين الأبهري (توفي سنة ٦٦٣هـ):** هو أثير الدين المفضل بن عمر الأبهري، له:

(أ) كتاب هداية الحكمة في المنطق والطبيعيات والإلهيات، منه نسخ مخطوطة في غوطا وباريس وأكسفورد وفي المكتبة الخديوية ولها شروح عديدة.

(ب) الايساغوجي، منها نسخ في أكثر مكاتب أوربا.

(ج) مختصر في علم الهيئة، في باريس وليدن.

(د) رسالة في الأسطرلاب، في باريس.

في الطب والأطباء

اشتهر من أطباء هذا العصر طائفة حسنة في الأندلس وغيرها، هاك أشهرهم:

(١) **ابن رضوان (توفي سنة ٤٥٣هـ وقيل ٤٦٠هـ):** هو أبو الحسن علي بن رضوان ولد في الجيزة قرب مصر ونشأ في القاهرة. وكان في أول أمره منجمًا يقعد على الطريق ثم مال إلى الطب حتى اشتهر وألف، وكان مقامه في دار بقصر الشمع عرفت باسمه.

وسنذكر مناظرته مع ابن بطلان في ترجمة هذا. وله نظر في الطب مبني على التجربة، وقد وصلنا من مؤلفاته:

(أ) كفاية الطبيب فيما صح لديه من التجاريب، منه نسخة في غوطا.
(ب) كتاب الأصول في الطب، لم يبقَ إلا الترجمة العبرانية.
(جـ) دفع مضار الأبدان بأرض مصر، في المكتبة الخديوية، وله رسائل وكتب كثيرة في مكاتب أوربا. (طبقات الأطباء ٩٩ ج٢، وأخبار الحكماء ٢٨٨).

(٢) **ابن بطلان (توفي سنة ٤٥٥هـ وقيل ٤٤٤):** هو أبو الحسن المختار طبيب نصراني من أهل بغداد، كانت بينه وبين معاصره ابن رضوان المصري المتقدم ذكره مراسلات ومكاتبات ومناظرات حادة، لا يؤلف أحدهما كتابًا إلا حمل الآخر عليه وانتقده وسَفَّه رأيه. فسافر ابن بطلان إلى مصر لمشاهدة مناظره فوصل الفسطاط سنة ٤٤١ في زمن المستنصر بالله الفاطمي، فأقام ثلاث سنين جرى في أثنائها بينهما وقائع ومناظرات ونوادر ضمنها كتابًا ألفه عند خروجه من مصر. ويرى ابن أبي أصيبعة في التفاضل بينهما أن ابن بطلان كان أعذب ألفاظًا وأكثر ظرفًا وأمير في الأدب وما يتعلق به، وأن ابن رضوان كان أثبت قدمًا في الطب والعلم والفلسفة وما يتبعها، وسافر ابن بطلان من مصر إلى الإسكندرية ومنها إلى أنطاكية ومات فيها، وهاك أشهر مؤلفاته:

(أ) كتاب تقويم الصحة، منه نسخ في مكاتب أوربا، وقد ترجم إلى اللاتينية وطبع في أوربا سنة ١٥٣١، وإلى الألمانية وطبع في استراسبورج سنة ١٥٢٣.
(ب) دعوة الأطباء، منها نسخة في برلين وغوطا، وطبعت بمصر.
(جـ) الأمراض العارضة، في غوطا وبرلين. (طبقات الأطباء ٢٤١ ج١، وأخبار الحكماء ١٩٢).

(٣) **ابن زهر الإشبيلي (توفي سنة ٥٥٧هـ):** بنو زهر كثيرون توارثوا الطبابة وهذا منهم. وهو أبو مروان عبد الملك بن أبي العلاء بن زهر، كان أبوه أبو العلاء طبيبًا وتفرغ هو للطب واشتهر بكتابه:

(أ) التيسير في المداوة والتدبير»، منه نسخة في أكسفورد وباريس وله ترجمة عبرانية.
(ب) «كتاب الجامع في الأشربة والمعجونات في أكسفورد.
(جـ) كتاب الأغذية في باريس وغيرها. (طبقات الأطباء ٦٦ ج٢).

ومن مشاهير أطباء هذا العصر: ابن ميمون القرطبي توفي سنة ٦٠١، وابن هبل سنة ٦١٠، ونجيب الدين السمرقندي سنة ٦١٩ وغيرهم.

في الطبيعيات

ويهمنا من علماء الطبيعيات في هذا المقام:

(١) **أبو زكريا يحيى بن محمد بن العوام:** من أهل القرن السادس صاحب كتاب «الفلاحة»، نقله عن اليونانية، منه نسخ في ليدن وباريس والمتحف البريطاني والأسكوريال، وترجم إلى الإسبانية وطبع في مدريد سنة ١٨٠٢ في مجلدين مع الأصل العربي، وترجم إلى الفرنساوية وطبع في باريس سنة ١٨٦٦ في مجلدين. وقد ذكرنا كتب الفلاحة الأخرى في الجزء الثاني [انظر العصر العباسي الثاني: العلوم الدخيلة – الزراعة].

(٢) ومن قبيل الطبيعيات كتاب «أزهار الأفكار في جواهر الأحجار» لشرف الدين أحمد بن يوسف التيفاشي المتوفى سنة ٦٥١، منه نسخة في غوطا وليدن وباريس والمتحف البريطاني، وفي المكتبة الخديوية في جملة كتب زكي باشا.

(٣) كتاب في المعادن اسمه مطالع البدور، في باريس.

(٤) فصل الخطاب في مدارك الحواس الخمس لأولي الألباب، في ٢٤ مجلدًا لم نقف عليه لكننا وقفنا على تهذيبه لجمال الدين محمد بن مكرم صاحب لسان العرب، وسيأتي ذكره.

في الرياضيات والنجوم

وزهت العلوم الرياضية ولا سيما الهندسة في هذا العصر. وقد فاتنا أن نذكر في العصر الماضي ابن الهيثم المتوفى سنة ٤٣٠، وله عشرات من الكتب في هذه الفنون منها طائفة حسنة ذكرها بروكلمن وذكر أماكنها، ومن الرياضيين: أبو الفتح عمر الخيامي أو ابن الخيام الشاعر الفارسي الفيلسوف المتوفى سنة ٥١٥ خلف آثارًا عربية منها:

(١) مقالة في الجبر والمقابلة، في ليدن وباريس، وقد نقلها المستشرق ويبكي إلى الفرنساوية وطبعت سنة ١٨٥١ في باريس.

(٢) رسالة في شرح ما يشكل من مصادرات إقليدس في ليدن.

(٣) رسالة في الاحتيال لمعرفة مقداري الذهب والفضة في جسم مركب منهما، في غوطا.

وللخيامي رباعيات في الفارسية مشهورة نقلت إلى الإنكليزية وطبعت مرارًا، وقد نقلها إلى العربية وديع أفندي البستاني، وطبعت بمصر سنة ١٩١٢.

السحر والطلسمات

وظهر في هذا العصر علم السحر وأسرار الحروف ونبغ فيهما غير واحد أشهرهم: الطبسي المتوفى سنة ٤٨٢هـ، وابن أرفع رأس سنة ٥٩٣، وابن علي البوني سنة ٦٢٢ لا يهمنا ذكرهم، لكننا نذكر كتابًا في كشف أسرار المشعوذين والسحرة اسمه «المختار في كشف الأسرار وهتك الأستار»: لزين الدين عبد الرحمن بن عمر الجوبري الدمشقي في أوائل القرن السابع يشتمل على كشف أمور كثيرة من أسرار المشعوذين والنصابين الذين يرتزقون بخداع الناس كأصحاب الكيمياء القديمة، وما كان يأتيه دعاة النبوة أو الكرامة من الحيل في اكتساب القلوب، وهو نادر في بابه، منه نسخ خطية في مكاتب أوربا وفي مكتبة الآباء اليسوعيين في بيروت، ونشرت خلاصته في مجلة المشرق سنة ١٢.

في السياسة والإدارة

وظهر في أثناء العصر العباسي الرابع جماعة من رجال الأقلام وجهوا عنايتهم إلى الأبحاث السياسية أو الإدارية مما يتعلق بواجبات ولاة الأمور أو تنظيم مصالح الحكومة، تقدم ذكر بعضهم في جملة المواضيع الأخرى لاشتهارهم بها، وذكرنا مؤلفاتهم في السياسة أو الإدارة في أثناء ذلك، ككتاب الخراج لقدامة، والمسالك لابن خردادبه والتذكرة الهروية للسائح الهروي والعقد الفريد للملك السعيد وغيرها، فنأتي هنا بتراجم الذين تغلبت عليهم هذه الأبحاث أو كانت أهم مؤلفاتهم فيها وهم:

(١) **أبو بكر الطرطوشي (توفي سنة ٥٢٠هـ):** هو محمد بن الوليد بن محمد بن خلف القرشي الفهري الأندلسي ويعرف بابن أبي رندقة، تفقه على ابن حزم في إشبيلية ورحل إلى المشرق ودخل بغداد وأخذ عن أئمتها وسكن الشام مدة ودرس بها، وكان زاهدًا ورعًا خلف آثارًا حسنة، أهمها:

(أ) سراج الملوك: في السياسة والإدارة، قدمه للوزير المأمون بالفسطاط، يقسم إلى أبواب في مواعظ الملوك وما جاء في الولاة والقضاء، ونسبة السلطان إلى الرعية وشروط السيادة ونظام الدولة وصفات الوزراء والجلساء ونصائح للسلطان وما يصح به الأمير والرئيس والمرؤوس، وما يشترط في صحبة السلطان وعلاقته ببيت المال والجباية وتدوين الدواوين وأحكام أهل الذمة، وغير ذلك مما يدخل في باب السياسة، وقد ذكره ابن خلدون في مقدمته وأثنى عليه، طبع بمصر مرارًا.

(ب) تحريم الاستماع، منه نسخة في برلين (ابن خلكان ٤٧٩ ج١).

(٢) **عبد الرحمن بن عبد الله (من أهل القرن السادس):** هو الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله كان معاصرًا للسلطان صلاح الدين الأيوبي، ألف له كتابًا سماه «المنهج المسلوك في سياسة الملوك»، ويقال أيضًا: «نهج السلوك» ويشتمل على طرائف من الحكمة والأدب وأصول السياسة وتدبير الرعية ومعرفة المملكة وقواعد التدبير وقسمة الفيء وتنظيم الجيش. جعله عشرين بابًا وفاتحة، منه نسخة في المكتبة الخديوية خط قديم في ٤٤٤ صفحة، وطبع بمصر سنة ١٣٢٦.

(٣) **ابن مماتي (توفي سنة ٦٠٦هـ):** هو القاضي الأسعد أبو المكارم أسعد بن الخطير بن أبي مليح مماتي المصري، كان نصرانيًّا وأسلم هو وجماعته في ابتداء الدولة الصلاحية، وتولى نظارة الدواوين المصرية ثم خاف على نفسه من الوزير صفي الدين بن شكر فهرب من مصر إلى حلب لائذًا بالسلطان الملك الظاهر، وتوفي هناك وله من الكتب:

(أ) قوانين الدواوين: في نظام حكومة مصر وقوانينها في الدولة الأيوبية. طبع بمصر سنة ١٢٩٩ وهو من الكتب الإدارية الهامة.

(ب) الفاشوش في أحكام قراقوش: في أخبار بهاء الدين قراقوش وزير صلاح الدين، منه خلاصة في المكتبة الخديوية.

(جـ) ذكر ابن خلكان أنه نظم كليلة ودمنة لم نقف على خبرها. (ترجمته في ابن خلكان ٦٨ ج١، ومعجم الأدباء ٢٤٤ ج٢).

(٤) **عثمان بن إبراهيم (في أواسط القرن السابع):** هو الأمير عثمان بن إبراهيم النابلسي كان متوليًا النظر في الدواوين المصرية سنة ٦٣٢ فدرس أحوالها، وألف: كتاب لمع القوانين المضية في دواوين الديار المصرية: للخزانة الشريفة السلطانية في أيام نجم الدين بن السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد بن السلطان الملك العادل سيف الدين

أبي بكر بن نجم الدين أيوب، وأشار في المقدمة إلى كتاب الخراج لابن قدامة، وأنه ذكر فيه دواوين أمحت آثارها فاقتصر على ما كان في أيامه، وجعله مقدمة وخمسة أبواب فالمقدمة تمهيد، والباب الأول في ما يجب حفظه في بيت المال، والثاني في ذكر الولايات وأقسامها، والثالث في ترتيب الدواوين، والرابع في ما أهمله نظار الدواوين، والخامس لمع من جنايات المستخدمين، وهو صغير الحجم كثير الفوائد، يوجد في المكتبة الخديوية في ٤٨ صفحة.

العصر المغولي

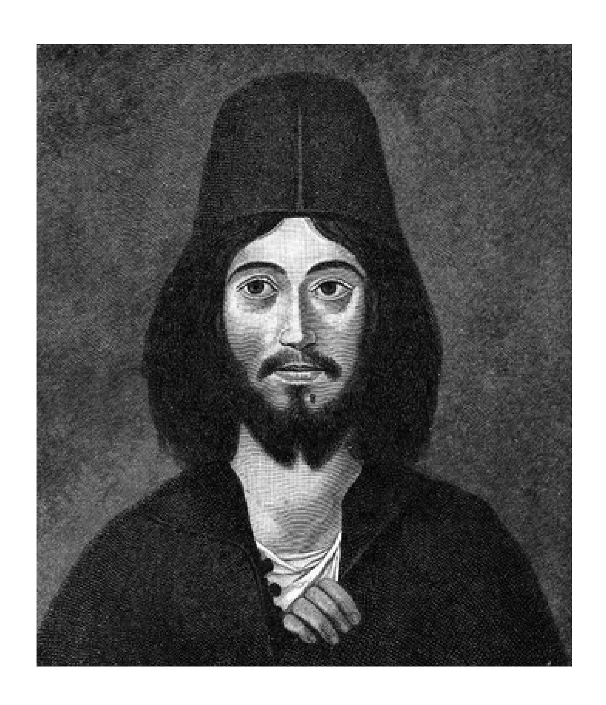
(من سنة ٦٥٦–٩٢٣هـ)

فذلكة تاريخية

يبدأ هذا العصر بسقوط بغداد في قبضة المغول على يد هولاكو سنة ٦٥٦هـ، وينتهي بدخول العثمانيين مصر على يد السلطان سليم الفاتح سنة ٩٢٣هـ، وكان العالم الإسلامي في أثنائه أكثره في سيادة المغول سلالة جنكيزخان، أو هو انقسم إلى ثلاثة أقسام بين المغول والأتراك والعرب: امتدت سلطة المغول فيه من حدود الهند شرقًا إلى حدود سوريا غربًا تتخللها سيادة الفرس والترك فترة قصيرة في فارس والعراق، وحكم الترك من حدود سوريا شرقًا إلى آخر حدود مصر غربًا، وساد العرب أو البربر في ما وراء ذلك غربًا إلى شواطئ الأتلانتيكي وفي اليمن.

كانت مصر والشام في حوزة السلاطين المماليك من سنة ٦٤٨ إلى ٩٢٣هـ وهم أتراك وشراكسة، وكانت آسيا الصغرى في حوزة السلاجقة ثم أخذها العثمانيون، وكلاهما من الترك، وكانت العراق وفارس في سلطة الدولة الالخانية وهي مغولية، ثم صارت فارس إلى الدولة التيمورية وهي مغولية أيضًا، وإنما تخلل ذلك فترات صارت الأمور فيها إلى دولتين فارسيتين (الجلايرية والمظفرية)، وأخريين تركيتين (القراقيونلية والأقاقيونلية)، وكانت تركستان وأفغانستان في قبضة الشغطائية ثم صارتا إلى التيمورية وكلتاهما مغولية.

تلك هي معظم الممالك الإسلامية في ذلك العصر ليس فيها دولة عربية، وإنما انحصرت سيادة العرب في اليمن والمغرب، أما اليمن فكانت إمارات صغيرة في زبيد وصنعاء وعدن، وأما المغرب فتولته دول صغرى في تونس والجزائر ومراكش وغرناطة بعضها عرب وبعضها بربر، وأما الهند فلم يفتحها المغول إلا بعد ذهاب هذا العصر، وفي أواخر هذا العصر خرج المسلمون من إسبانيا بفرار أبي عبد الله محمد بن علي صاحب غرناطة سنة ٨٩٧هـ آخر ملوك المسلمين في الأندلس.



شكل ١: أبو عبد الله آخر ملوك المسلمين في الأندلس كما صوره الإسبان.

فاكتساح المغول للمملكة الإسلامية ذهب ببقية العنصر العربي، وهدد آداب اللغة العربية بما أتاه أولئك الأقوام في أثناء حروبهم من التخريب والتحريق؛ لأنهم كانوا إذا فتحوا بلدًا قتلوا أهله ونهبوا ما فيه وأحرقوا ما لا يستطيعون حمله وهدموا المنازل، فكم

أحرقوا من المكاتب وقتلوا من العلماء، كما فعلوا في بخارا على عهد جنكيزخان وبغداد على يد هولاكو. وقِس عليه سائر فتوحهم على يد تيمورلنك وغيره.

ويقال بالإجمال: إن العالم الإسلامي مرت عليه ثلاثة قرون ليس فيه دولة عربية تستحق الذكر ولم يحكم العرب منه عشر معشاره، فلو ذهبت اللغة العربية في أثنائها وأمحت آدابها لم يكن ذلك غريبًا، لكنها ظلت حية ونبغ فيها الشعراء والأدباء والمؤلفون في كل فن، والسبب في ذلك أنها كانت لغة السياسة في معظم تلك الدول، ولغة الدين والعلم فيها كلها تقريبًا، حتى المغول الذين قاموا للإجهاز على العرب فإن سعيهم في سبيل العلم كان أكثره عربيًّا وأكثر ما ألفه علماؤهم ألفوه في اللغة العربية.

على أن الفضل الأكبر في بقاء آداب اللغة العربية في ذلك العصر يرجع إلى مصر والشام، وهما في حوزة السلاطين المماليك ومن بقي من الملوك الأيوبيين، فقد كانتا الملجأ الوحيد لأبناء هذا اللسان في فرارهم من وجه المغول عند اكتساحهم خراسان وفارس والعراق، وكانتا مملكة واحدة عاصمتها مصر القاهرة ولغة حكومتها عربية، فنبغ فيهما معظم شعراء العصر المغولي وأدبائه وأطبائه وسائر رجال العلم فيه كما ستراه في مكانه.

مميزات هذا العصر

أولًا: «مراكز العلم» انتقلت مراكز العلم والأدب فيه من بغداد وبخارا ونيسابور والري وقرطبة وإشبيلية وغيرها من مدائن العلم في العصور العباسية إلى القاهرة والإسكندرية وأسيوط والفيوم ودمشق وحمص وحلب وحماه وغيرها من مدائن مصر والشام، واشتهرت مدن أخرى بمن نبغ فيها من الأدباء في الهند بظل سلاطين دهلي، وفي آسيا الصغرى في عهد السلاجقة والعثمانيين، وفي إفريقية تحت سيادة البربر، فكثر في أسماء الشعراء والأدباء والعلماء في هذا العصر ألقاب الدمشقي والحلبي والقاهري والفيومي والإسكندري والمقدسي والحموي والسيوطي والحمصي والتونسي والغبريني واللواتي والكليكوتي والباكوي والبروسوي وغيرهم، على أن القاهرة كانت ملجأ أدباء اللغة العربية وعلمائها يفدون عليها من الشرق والغرب، كانت عاصمة العالم العربي ولا تزال.

ثانيًا : «نصراء الأدب» ذهب عشاق الأدب والشعر من الأمراء والوزراء والخلفاء وغيرهم من رجال السلطة الذين كانوا يطلبون العلم، ويشتغلون به ويلتذون بسماع الشعر وينظمونه، وأصبح الملك إنما يراد به القهر والتغلب، وبعد أن كان الشاعر أو الأديب

تعلو منزلته عند الأمير أو الخليفة أو السلطان بالبيت الواحد أو الحكاية الواحدة انصرف هَمُّ الملوك المغول إلى تدوين حسابات المملكة، وضبط الخرج والدخل وتدريب الجند، وإنما اهتموا من العلوم بالطب لحفظ الأبدان والأمزجة والنجوم لاختيار الأوقات، أما السلاطين الأتراك بمصر فمع رغبتهم في تلك العلوم اشتهر غير واحد منهم بحب العلم وتنشيط أهله، فألفوا لهم الكتب في التاريخ والأدب، وسترى في مؤلفات هذا العصر طائفة من أهم الكتب التاريخية والموسوعات الكبرى، ألفت لبعض أولئك السلاطين أو وزرائهم أو أمرائهم أو أولادهم أو بتنشيطهم. وهذا كان شأن الملوك الأيوبيين في الشام وما بين النهرين.

ثالثًا: «علوم جديدة وألقاب التفخيم» نضج علم العمران وفلسفة التاريخ بمقدمة ابن خلدون وهي أول كتاب في هذا الموضوع، وقد صرح ابن خلدون في آخر مقدمته أنه مستنبط هذا البحث وسماه «طبيعة العمران وما يعرض فيه»، وهذا قوله: «وقد كدنا نخرج عن الغرض وعزمنا أن نقبض العنان عن القول في هذا الكتاب الأول الذي هو طبيعة العمران وما يعرض فيه، وقد استوفينا من مسائله ما حسبناه كفاية، ولعل ما يأتي بعدنا ممن يؤيده الله بفكر صحيح وعلم مبين يغوص من مسائله على أكثر مما كتبنا فليس على مستنبط الفن إحصاء مسائله، وإنما عليه تعيين موضع العلم وتنويع فصوله وما يتكلم فيه. والمتأخرون يلحقون المسائل من بعده شيئًا فشيئًا إلى أن يكمل والله يعلم وأنتم لا تعلمون» وسنعود إلى ذلك.

رابعًا: أتقنت في هذا العصر العلوم السياسية والإدارية والحربية ووضعت فيها الكتب وضبطت قوانينها ونظاماتها تحت سلطة المماليك.

خامسًا: ظهر الانتقاد التاريخي وسنفرد له فصلًا خاصًّا.

سادسًا: كثرت ألقاب التفخيم في المخاطبات وفي تراجم العلماء والوجهاء وزاد التسجيع والتطويل في الترسل والتنميق في العبارة، وشاع التسجيع في أسماء المؤلفات، وكان قد ظهر شيء من ذلك في العصر الماضي فتكاثر الآن، وزاد في العصر الآتي.

سابعًا: «المكاتب والكتب» قلت المكاتب الكبرى لذهاب أكثرها حرقًا وغرقًا في أثناء الفتن أو في الفتوح على أيدي المغول في الشرق والإسبان في الغرب، وكان إحراق الكتب قد بدأ في المملكة الإسلامية قبل ذلك بسبب التنازع بين الفرق الإسلامية، فكل فرقة تحاول إحراق كتب الأخرى، كإحراق السلطان محمود الغزنوي لكتب المعتزلة، وناهيك بما

أحرق من كتب العلماء المتهمين بالزندقة والفلسفة وهي كثيرة، ولعل بينها ما ليس مثله بين ما بقي. أما التتر فبالغوا في الإحراق والتخريب فأحرق جنكيزخان من المكاتب في بخارا ونيسابور وغيرها من مدائن العلم في فارس ما لا يدرك إحصاؤه ولم يرد ذكره مفصلًا؛ لأنه جاء تابعًا لما أتاه ذلك الطاغية من الهدم والتخريب، أما هولاكو فقد ذكر التاريخ إتلافه كتب العلم في بغداد وإن لم يعين مقدارها تمامًا.

وكذلك في الأندلس فإن الإسبانيين كانوا كلما فتحوا بلدًا أخرجوا العرب منه وأحرقوا كتبهم على جاري عادة رجال الفتح في تلك الأيام، وآخر مكتبة أحرقها الإفرنج من كتب العرب مكتبة غرناطة على يد الكردينال زيمنس في آخر القرن التاسع للهجرة كان فيها ٨٠٠٠٠ مجلد على أقل تقدير؛ فأمر بإحراقها لأنها تحتوي على كتب تخالف الأناجيل. وطافوا في المدينة فأخذوا ما كان في أيدي المسلمين من الكتب وأحرقوها، وأصدروا أمرًا بتحريم اللغة العربية على غير الكهنة، فلم يبقَ من كتبها إلا القليل. أما الكتب العربية في مكتبة الأسكوريال فأصلها أن سفينتين إسبانيتين غزتا في البحر المتوسط ثلاث سفن تحمل كتبًا عربية لمولاي زيدان صاحب مراكش في أوائل القرن الحادي عشر للهجرة، فقبضوا عليها وغنموا ما فيها وحملوا تلك الكتب إلى إسبانيا ووضعوها في الأسكوريال وذهب جانب منها بحريق أصاب تلك المكتبة.

وقد شعر علماء العصر المغولي بنقص الكتب في أيامهم، فقال السيوطي — بعد ذكر حكاية الصاحب بن عباد لما دعي للذهاب إلى بعض الملوك فاعتذر بمشقة الانتقال؛ لأنه يحتاج إلى ستين جملًا ينقل عليها كتب اللغة التي كانت عنده —: «وقد ذهب جل الكتب في الفتن الكائنة بين التتر وغيرهم، بحيث إن الكتب الموجودة الآن في اللغة من تصانيف المتقدمين والمتأخرين لا تجيء حمل جمل واحد»[1] — وهذا غلو من السيوطي — لكنه يدل على مقدار شعور العلماء بضياع الكتب بالفتن.

على أن لضياع الكتب أسبابًا غير الفتن والحروب؛ إذ تبلى أوراقها من نفسها أو يمحى حبرها، ويعجز صاحبها عن استنساخها لغلاء النفقة. وتحولت العناية في جمع الكتب إلى الأفراد من العلماء أو عشاق الكتب، مثل ناصر الدين العسقلاني صاحب الإنشاء بمصر توفي سنة ٧٣٣، فإنه خلف ثماني عشرة خزانة مملوءة كتبًا نفيسة، ومكتبة القفطي التي تقدم ذكرها، وصارت المكاتب أكثرها في المساجد والمدارس.



شكل ٢: الأسكوريال.

ثامنًا: «المدارس والموسوعات» تكاثرت المدارس في مصر والشام على الخصوص حتى صارت تعد بالمئات وأهمها في القاهرة ودمشق، وأول من أنشأ المدارس في الشام السلطان نور الدين زنكي، واقتدى به من جاء بعده من الملوك والسلاطين، واختلفت المدارس عندهم حسب مذاهبها وأغراضها للتفسير أو الحديث أو الفقه للشافعية أو الحنفية أو المالكية أو الحنبلية أو الطب أو الفلسفة أو الرياضيات، وتخرج في هذه المدارس طائفة كبيرة من العلماء وقس على ذلك مدارس حلب وحمص والقدس وغيرها. أما مصر فتعددت فيها المدارس على اختلاف أغراضها كما فصل ذلك المقريزي والسيوطي، وأشهرها بل أشهر المدارس الإسلامية في العالم كله مدرسة الأزهر بالقاهرة، وهي أقدمها يرجع تاريخها إلى أواسط القرن الرابع للهجرة.

تاسعًا: تكاثرت في هذا العصر الموسوعات والمجاميع، وتعدد المكثرون من درس المواضيع المختلفة، واستكثروا من المعاجم في أكثر مؤلفاتهم حتى يصح أن يسمى عصر الموسوعات أو المجاميع.

عاشرًا: «تحويل العلوم» انصرف أصحاب القرائح عن الاشتغال في الفلسفة والفلك والرياضيات إلى الأبحاث الدينية، ولعل السبب في ذلك كثرة ما تولى الناس من الإحن

فالتجأوا إلى الدين أعظم تعزية لهم وأسهلها، فحولوا أكثر تلك العلوم إما إلى خدمة الدين أو إلى الخرافات. فعلم الفلك صار إلى التوقيت في المساجد، واستغرق أصحاب الكيمياء في تحويل المعادن إلى ذهب، وصار علم النجوم إلى النجامة وضرب الرمل وأمثاله من الشعوذات وكثرت المؤلفات في هذه المواضيع.

على أن الهمم انصرفت إلى حل العويص من المسائل الرياضية، مما يفتقر إلى استغراق في التفكير كقسمة الدائرة إلى سبعة أقسام أو رسم المسبع في دائرة، وقد تكاثر هذا على الخصوص في العصر الثالث.

فلنبحث في علوم هذا العصر كما فعلنا في علوم الأعصر الماضية فنقول:

هوامش

(١) المزهر: ٤٩ ج١.

الشعر

إن استيلاء المغول على رقاب الناس قيد ألسنتهم وشغل عقولهم، فزادت قرائحهم جمودًا عما كانت عليه في العصر السابق ولم ينبغ من الشعراء من يستحق الذكر إلا خارج مملكة المغول، ولا سيما في مصر والشام، ولا تخلو البلاد الأخرى من شعراء مجيدين لكن يقال بالإجمال: إن الشعر أصبح صناعة لفظية بعد أن كان قريحة فطرية. واختلط الشعر بالأدب وقلما نبغ شاعر لم يشتغل بغير الشعر فإن أكثرهم ألفوا الكتب في الأدب وجمع الشعر والنكات والمواعظ والحكم ونحو ذلك. وابتذلت الصناعة الشعرية وتعاطاها الناس لقضاء ساعات الفراغ فقط. وكثر الناظمون من الباعة وأرباب الحرف كالخياطين والنجارين والدهانين ونحوهم. وليس ذلك خاصًّا بهذا العصر إذ كثيرًا ما ظهرت القرائح الشعرية في طبقات العامة، لكنهم كانوا إذا نبغوا استغنوا عن صنائعهم بتقربهم من بعض الأمراء أو الخلفاء، فتشحذ قرائحهم ويأتون بالمعجزات كما اتفق لكثيرين من شعراء العصر الأموي والعباسي. أما في العصر المغولي فنظرًا لكساد بضاعة الأدب لا يجد صاحب القريحة الشعرية وسيلة للارتزاق بها فيبقى في مهنته ويتعاطى الشعر للتسلية، وكان السلاطين المماليك يقربون الأدباء في الغالب؛ ليؤلفوا لهم التاريخ أو كتب الحرب أو الأدب أو العلوم الدخيلة أو الإسلامية.

(١) البدوي والحوراني

وفي هذا العصر تولد ضرب من الشعر اقتضاه فساد اللغة الفصحى بتوالي الاختلاط بالأعاجم، فتولدت طبقة من الشعراء عرفها ابن خلدون بالمستعجمة عن لغة مضر كانوا ينظمون في أغراض الشعر المعروفة النسيب والمدح والرثاء والهجاء مثل من تقدمهم، لكن شعرهم يمتاز بخلوه من الإعراب وباحتوائه على كثير من الألفاظ العامية، ويبتدئ شاعرهم قصيدته بذكر اسمه ثم يستطرق إلى النسيب فالموضوع المراد النظم فيه. واشتهر من هؤلاء الشعراء طائفة كبيرة من أهل المغرب بتونس والجزائر ومراكش، وكانوا يسمون قصائدهم «الأصمعيات» ويسميها أهل مصر والشام «البدوي» وكانوا يغنونه ويسمون الغناء به «الحوراني» نسبة إلى حوران منازل العرب البادية. وذكر ابن خلدون أمثلة من هذا الشعر في مقدمته، من ذلك قول شاعرهم الشريف ابن هاشم يبكي الجازية بنت سرحان في قصيدة مطلعها:

قال الشريف بن هاشم علي   ترى كبدي حرًّا شكت من زفيرها[١]

ومن هذا القبيل مطلع لشاعر آخر:

تقول فتاة الحي سعدي وهاضها   لها في ظعون الباكيين عويل
أيا سائلي عن قبر الزناتي خليفه   خذ النعت مني لا تكون هبيل

وفي مقدمة ابن خلدون أمثلة كثيرة من هذا الشعر.

(٢) عروض البلد المواليا وغيرهما

وتوَلَّد فيه أيضًا المربع والمخمس الذي يلتزمون فيه القافية الرابعة من كل بيت، وهو ما أحدثه المولدون في القرن الثامن للهجرة. ذكر ابن خلدون فنًّا من الشعر في أعاريض مزدوجة كالموشح نظمه أهل الأمصار للغتهم الحضرية، وسموه «عروض البلد» كان أول من استحدثه فيهم رجل من أهل الأندلس نزل بفاس، يعرف بابن عمير فنظم قطعة على طريقة الموشح ولم يخرج فيها عن مذاهب الأعراب مطلعها:

أبكاني بشاطى النهر نوح الحمام   على الغصن في البستان قرب الصباح
وكف السحر يمحو مداد الظلام   وماء الندى يجري بثغر الأقاح

فاستحسنه أهل فارس ونظموا على طريقته مع إغفال الأعراب، ثم نوعوه أصنافًا منها المزدوج والكاري والملعبة والغزل، واختلفت أسماؤها باختلاف ازدواجها كقول ابن شجاع وهو من فحولهم:

المال زينة الدنيا وعز النفوس   يبهي وجوهًا ليس هي باهيا
فها كل من هو كتير الفلوس   ولوه الكلام والرتبة العاليا

ويشبه ذلك نظم العامة في سوريا ما يسمونه «القصيد» أو «القريض»، وهذا الأخير ينظمونه على أوزان بعضها سرياني الأصل.

ونضج في هذا العصر ضرب من الشعر العامي يقال له: «المواليا» كان في بغداد وتحته فنون كثيرة منها «القوما» و«كان وكان» منه فرد ودوبيت، وانتقل إلى القاهرة وشاع فيها من ذلك العهد وأجاد فيه المصريون كثيرًا من ذلك قولهم:

طرقت باب الخبا قالت: من الطارق؟   فقلت: مفتون لا ناهب ولا سارق
تبسمت لاح لي من ثغرها بارق   رجعت حيران في بحر أدمعي غارق

ونظرًا لطول إقامة الإفرنج في سوريا قبيل هذا العصر في أثناء الحروب الصليبية، يغلب على الظن أن وجودهم ترك أثرًا في نفوس الأدباء قد يظهر في أشعارهم.

(٣) التاريخ الشعري

وفي أواخر هذا العصر ظهر التاريخ الشعري، والمراد به ضبط تاريخ واقعة بأحرف تتألف منها كلمة أو جملة أو شطر يكون مجموع جملها يساوي التاريخ الذي جرت فيه تلك الواقعة يأتي بها الشاعر بعد لفظ تاريخ أو ما يشتق منها، وهو شائع اليوم لكنه من محدثات العصور الأخيرة. لم نقف على شيء منه أقدم من أوائل القرن العاشر للهجرة على أثر فتح العثمانيين مصر، ويظهر أنه أقدم من ذلك عند العثمانيين، كان أهل الحساب في صدر الإسلام يستخدمون له حروف الهجاء كما نستخدم الأرقام الهندية.

وكذلك كان يفعل السريان والعبران، فلما عرف العرب الأرقام الهندية اتخذوها لسهولتها وظلوا يستخدمون الحروف أيضًا ردحًا من الزمن. ولهم في ترتيبها طرق تؤدي العدد المطلوب بلا التفات إلى معنى الكلمة التي يتألف منها، وكثيرًا ما كان يتألف منها ألفاظ ذات معنى فخطر لبعضهم — على ما يظهر — أن يتعمد ذلك، بحيث يكون للجملة أو الكلمة التي يتألف منها التاريخ معنى يوافق الحادثة المؤرخة، ولا ندري من تنبه لذلك أولًا ولا متى.

على أن هذه الطريقة كانت معروفة عند أصحاب الجفر وأسرار الحروف. ثم استخدمها الأدباء نثرًا لتدوين الحوادث التاريخية، فيجمعون أحرفًا مجموع جملها يساوي تاريخ الحادثة وله معنى يلائمها، ومن أقدم ما وقفنا عليه من ذلك تاريخ فتح القسطنطينية سنة ٨٥٧هـ، فقد أرخه العثمانيون بقولهم: «بلدة طيبة»، وأرخ رجل آخر بناء سبيل سنة ٩٦٦ بقوله: «رحم الله من دنا وشرب»، واستخدموا ذلك نظمًا قبل هذا التاريخ كقول بعضهم يؤرخ وفاة ابن المؤيد الأماسي سنة ٩٢٢ بقوله:

قل للذي يبتغي تاريخ رحلة «نجل المؤيد مرحوم ومبروك»

ولم يحسبوا إلا الشطر الثاني من البيت.

وأرخ شاعر آخر وفاة محمد باشا المقتول والي مصر سنة ٩٧٥ بقوله:

قـتـلـه بـالـنـار نـور وهو في التاريخ «ظلمه»

ثم توسع الشعراء في فن التاريخ الشعري بعد ذلك حتى صاروا ينظمون القصيدة وكل شطر منها تاريخ، ويجتمع من أحرف أوائل الأبيات ألفاظ يتركب منها أبيات كل شطر منها تاريخ أو تاريخان،كما فعل النحلاوي بقصيدة مدح بها الشيخ عبد الغني النابلسي سنة ١١٣٦، وعارضها الشيخ ناصيف اليازجي بقصيدة مدح بها إبراهيم باشا سنة ١٨٤٨، وتفنن آخرون بأن يتألف من مهمل كل بيت تاريخ ومن معجمه تاريخ وغير ذلك.

(٤) الشعراء

نقسم الشعراء في هذا العصر حسب مواطنهم ونختص منهم شعراء مصر والشام بفصل مشترك، ونجعل لسائر الشعراء فصلًا آخر ونأتي على أشهرهم ممن خلفوا آثارًا يمكن الوصول إليها، ونرتبهم حسب سني الوفاة:

(٤-١) شعراء مصر والشام

(١) **التلعفري (توفي سنة ٦٧٥هـ):** هو شهاب الدين محمد بن يوسف بن مسعود بن بركة الشيباني التلعفري، ولد بالموصل سنة ٥٩٣ واشتغل بالأدب ومدح الملوك والأعيان ومنهم الملك الأشرف موسى الأيوبي. وكان خليعًا امتحن بالقمار وكلما أعطاه الملك الأشرف شيئًا قامر به، فطرده إلى حلب، فمدح العزيز غياث الدين فأحسن إليه فسلك معه ذلك المسلك، فنودي في حلب من قامر مع الشهاب التعلفري قطعت يده. فضاقت عليه الأرض فجاء دمشق ولم يزل يستجدي ويقامر حتى بقي في أتون حمام. وأخيرًا نادم صاحب حماه إلى أن توفي. وله ديوان طبع في بيروت سنة ١٣١٠ وفي فوات الوفيات (٢٧٧ ج٢) أمثلة كثيرة من أشعاره.

(٢) **الشاب الظريف (توفي سنة ٦٨٨هـ):** هو ابن عفيف الدين التلمساني — الآتي ذكره — لكنه توفي قبله، واسمه محمد بن سليمان ولد بمصر سنة ٦٦١ ومات في عنفوان الشباب، واشتهر شعره بالرقة، ولد ديوان مطبوع مرارًا بمصر وغيرها، وله كتب أدبية أخرى أهمها المقامات منها نسخ في باريس وبرلين (فوات الوفيات ٢١١ ج٢).

(٣) **عفيف الدين التلمساني (توفي سنة ٦٩٠هـ):** هو سليمان بن علي بن عبد الله والد الشاب الظريف — المتقدم ذكره — وهو كوفي الأصل كان يدعي العرفان ويتكلم على إصلاح القوم. وكان بعضهم ينسبه إلى رقة الدين والميل إلى مذهب النصيرية، وكان حسن العشرة كريم الأخلاق له حرمة ووجاهة، خدم في عدة بلاد، وكان مباشرًا استيفاء الخزانة بدمشق وله مقام عند سلطانها، وكان متصوفًا بنى في بلاد الروم أربعين خلوة، وكان على الإجمال متقلب الأطوار، وتوفي بدمشق سنة ٦٩٠، وله ديوان مرتب على الأبجدية منه نسخ في برلين ولندن والأسكوريال، وكتاب في العروض ببرلين (فوات الوفيات ١٧٨ ج١).

(٤) **البوصيري (توفي سنة ٦٩٥هـ):** هو الإمام محمد بن سعيد الصنهاجي البوصيري صاحب البردة، كان أحد أبويه من بوصير بمصر والآخر من دلاص فسماه بعضهم الدلاصيري أيضًا، وكان يتعاطى الكتابة والتصرف وتوظف بالشرقية ببلبيس، واشتهر بقصيدة البردة التي مدح بها النبي ومطلعها:

أمن تذكر جيران بذي سلم   مزجت دمعًا جرى من مقلة بدم

وتعرف بالكواكب الدرية في مدح خير البرية، وهي ١٦٢ بيتًا عشرة منها في المطلع و١٦ في النفس وهواها و٣٠ في مدح النبي و١٩ في مولده و١٠ في دعائه و١٠ في مدح القرآن و٣ في المعراج و٢٢ في جهاده و١٤ في الاستغفار وبقيتها في المناجاة، وقد شرحها كثيرون، وطبعت مرارًا مما لا محل لذكره، وله قصائد أخرى منها قصيدة نونية يطعن فيها على مستخدمي الشرقية بمصر مطلعها:

نقدت طوائف المستخدمينا   فلم أرَ بينهم رجلًا أمينا

نشر بعضها في ترجمته بفوات الوفيات (٢٠٦ ج٢)، وله قصيدة همزية في ذكر المعاد على وزن بانت سعاد.

(٥) **سراج الدين الوراق (توفي سنة ٦٩٥هـ):** هو عمر بن محمد حسن الوراق، كان كاتبًا للأمير يوسف سيف الدين بن سباسلار والي مصر، وكان شاعرًا كثير النظم صحيح المعاني عذب التركيب قاعد التورية عارفًا بالبديع. قال صاحب فوات الوفيات: «ملكت ديوان شعره وهو في سبعة أجزاء كبار ضخمة بخطه إلى الغاية وهذا الذي اختاره لنفسه وأثبته، فلعل الأصل كان من حساب خمسة عشر مجلدًا وكل مجلد يكون مجلدين فهذا الرجل أقل ما يكون ديوانه لو ترك جيده ورديئه في ثلاثين مجلدًا، وخطه في غاية الحسن والقوة والأصالة.»

ومن هذا الديوان اختار صلاح الدين الصفدي منتخبات رتبها على الأبجدية سماها «لمع السراج» منها نسخة في برلين (فوات الوفيات ١٠٧ ج٢).

(٦) **شهاب الدين العزازي (توفي سنة ٧١٠هـ):** هو أحمد بن عبد الملك العزازي، كان بزازًا في قيسارية جركس في القاهرة، ويتعاطى النظم للفكاهة والمذاكرة، وكان كيسًا ظريفًا جيد النظم وقد أجاد في الموشح على الخصوص، وله ميل إلى الألغاز وأجاد

بها، وله ديوان قسمه إلى خمسة أبواب في مدائح الرسول ومدائح الأمراء والوزراء والولاة والكتاب ونكت وملح وألغاز وأهاجٍ، وفي ما وقع بين أدباء عصره وشعراء زمانه، وغرائب الأوزان من المخمسات والموشحات التي اخترعها الأندلسيون. منه نسخة ناقصة في المكتبة الخديوية في ١٦٠ صفحة، وفي ترجمته بفوات الوفيات (٤٨ ج٢) أمثلة من نظمه، وترجمته في الدرر الكامنة الجزء الثالث (خط).

(٧) **ابن دانيال الموصلي (توفي سنة ٧١٠هـ):** هو شمس الدين محمد بن دانيال بن يوسف الموصلي الطبيب الرمدي بالقاهرة. كان شاعرًا راجزًا حلو النظم عذب النثر له الطباع الرقيقة والنكت الغريبة والنوادر العجيبة سماه صلاح الدين الصفدي ابن حجاج عصره وابن سكرة مصره، وفي فوات الوفيات (١٩٠ ج٢) أمثلة كثيرة من شعره لكنه كثير الأحماض، وقد ذكر هناك أنه توفي سنة ٦٠٨هـ؛ وهذا خطأ لأنه نقل في أثناء ترجمته أن فتح الدين بن سيد الناس رآه، وهذا ولد سنة ٦٦١ وتوفي ٧٣٤هـ فلا يعقل أن ابن دانيال توفي سنة ٦٠٨، وفي كشف الظنون أنه توفي سنة ٧١٠ وهو الأصح.

ولابن دانيال هذا كتاب سماه «طيف الخيال» في معرفة خيال الظل، فريد في بابه وصف فيه لعبة خيال الظل المعروفة، ويسميها السوريون «كراكوز» منه نسخة في الخزانة التيمورية في ١٢٠ صفحة، وهي كالرواية الهزلية فيها كثير من المجون والخلاعة والألفاظ البذيئة، ولولا ذلك لكانت من قبيل الروايات التمثيلية التي يندر مثالها بالعربية في ذلك العهد.

(٨) **ابن نباتة المصري (توفي سنة ٧٦٨هـ):** هو جمال الدين أبو بكر محمد بن محمد بن محمد بن الحسن الجذامي المصري، ولد في مصر سنة ٦٨٦، وتوفي فيها سنة ٧٦٨، وهو مشهور بالنظم والنثر تحدى في نثره القاضي الفاضل المتقدم ذكره، ونسج على منواله، وله:

(أ) ديوان كبير مرتب على الهجاء منه نسخ خطية بالمكتبة الخديوية في ٣٥٦ صفحة. وقد طبع بعضه في الإسكندرية بدون تاريخ وطبع جزء آخر بمصر سنة ١٢٨٨ وفي غيرها، وطبع كله بمصر سنة ١٣٢٣.

(ب) القطر النباتي: اقتصر فيه على مقاطع شعره، في باريس.

(ج) تعليق الديوان: مجموع رسائل ونحوها، في برلين.

(د) مطلع الفوائد ومجمع الفرائد: هو كتاب حافل في الأدب، منه نسخة في باريس.

(هـ) سجع المطوق: يشتمل على تقاريظ «مطلع الفوائد» — المذكور — وتراجم أصحابها في دمشق وعلى ما دار بينه وبينهم من المكاتبات. منه نسخة في المكتبة الخديوية في ١٢٦ صفحة.

(و) سرح العيون في شرح رسالة زيدون: فيه فوائد تاريخية هامة؛ لأن الرسالة المذكورة ذكر فيها أهم شعراء الجاهلية وصدر الإسلام، فجاء الشارح على تراجمهم وأخبارهم، منه نسخة خطية في أكسفورد، وقد طبع بمصر في مجلد ضخم.

(ز) ديوان الخطب: فيه مجموع خطب ابن نباتة، وقد طبع في مصر سنة ١٣٠٢ وفي بيروت ١٣١١.

(ح) سلوك دول الملوك: هو من قبيل السياسة وآداب الدولة، في الملوك وواجباتهم نحو أنفسهم ونحو أهلهم ورعاياهم منه نسخة في أكاديمية فينا، وله أرجوزة في هذا الموضوع اسمها فرائد السلوك، في برلين.

(ط) سوق الرقيق: قصيدة غزلية، في برلين وباريس.

(ي) تلطيف المزاج في شعر الحجاج، في أكسفورد، وله قصائد وخطب متفرقة في مكاتب أوربا يدخل أكثرها في ما تقدم من كتبه (ترجمته في الدرر الكامنة ج٣).

(٩) **ابن أبي حجلة (توفي سنة ٧٧٦هـ):** هو أبو العباس شهاب الدين أحمد بن يحيى التلمساني نزيل القاهرة، كان ماهرًا في الأدب والنظم والإنشاء، وألف المقامات والمجاميع الكثيرة، هاك أهمها:

(أ) ديوان الصبابة: هو مجموع شعر وأدب في صدره ترجمة المؤلف منقولة عن كتابه مغناطيس الدر النفيس، والديوان يشتمل على أخبار من قتله الهوى وهم العشاق على اختلاف طبقاتهم وسائر أحوالهم، قال في مقدمته: إنه اقتصر على النوادر القصار، وقسمه إلى أبواب في الحسن والجمال ومن عشق على السماع أو على شكل آخر من ضروب العشق وغير ذلك، طبع بمصر سنة ١٢٧٩ وغيرها.

(ب) سكردان السلطان: ألفه للسلطان الملك الناصر، ويشتمل على أنواع مختلفة من جد وهزل ونصائح وآداب وسير ونوادر في أسلوب لطيف يبدأ بالعدد سبعة، وقد قسم الكتاب لذلك إلى مقدمة وسبعة أبواب: المقدمة في إقليم مصر، والباب الأول في خواص الأقاليم السبعة، والثاني علاقة السلطان بذلك العدد، والثالث في مناسبة الأقاليم، والرابع في كون ذلك السلطان السابع من السلاطين التركية، والخامس في سيرته، والسادس في

الاتفاقات الغريبة، والسابع في تفسير بعض ألفاظ الكتاب. ويحتوي على فوائد تاريخية هامة، منها سيرة الحاكم بأمر الله وما يتعلق به وما كان من أعماله الغريبة مما لم نقف عليه في مكان آخر، طبع بمصر سنة ١٢٨٨ وعلى هامش المخلاة سنة ١٣١٧.

(ج) الطارئ على السكردان: ألفه في مدح السلطان الملك الناصر في خمسة أبواب، منه نسخة في باريس وغوطا.

(د) سلوة الحزين في موت البنين.

(هـ) منطق الطير.

(و) قصائد أخرى في حرب الإسكندرية سنة ٧٧١ كلها في برلين.

(ز) جوار الأخيار في دار القرار: في أخبار عقبة وتربته وحسن جواره وغير ذلك مما يتعلق بأمور أهل القبور، منه نسخة في المكتبة الخديوية في ٣٤٠ صفحة.

(ح) الطب المسنون في دفع الطاعون، في المكتبة الخديوية.

(١٠) **شمس الدين الهواري (توفي سنة ٧٨٠هـ):** هو أبو عبد الله شمس الدين محمد بن جابر الهواري الأندلسي الضرير، ولد في إسبانيا ورحل إلى مصر وانضم إلى أبي جعفر الغرناطي، ورحل إلى دمشق واستقر أخيرًا على الفرات ومات هناك، وخلف آثارًا منها:

(أ) بديعية العميان، أو حلة السرى في مدح خير الورى في برلين، وله شرح عليها سماه طراز الحلة وشفاء العلة، في الأسكوريال والمكتبة الخديوية.

(ب) كتاب الغين في مدح سيد الكونين: مجموع مدائح مرتبة على الهجاء في برلين.

(ج) قصيدة نحوية يراد بها التفريق بين المقصور والممدود، وأخرى للتفريق بين الضاد والظاء في اللفظ، كلتاهما في باريس.

(د) نظم فصيح ثعلب: لتسهيل حفظه، منه نسخة في باريس.

(هـ) وسيلة الآبق: هي أرجوزة جمع فيها أسماء الصحابة والتابعين على ما رواه أبو نعيم، منه نسخة في مكتبة الجزائر.

(و) قصائد في مدح النبي ومواضيع أخرى، في باريس (الدرر الكامنة ج٣).

(١١) **القيراطي (توفي سنة ٧٨١هـ):** هو برهان الدين أبو إسحق إبراهيم بن عبد الله بن محمد بن عسكر بن نجم بن شادي بن هلال القيراطي الطائي، لازم علماء عصره بالقاهرة ودرس في عدة أماكن، ومات في مكة سنة ٧٨١ وله:

(أ) مطلع النيرين: ديوان يشتمل على النظم والنثر، طبع بمصر سنة ١٢٩٦، وفيه مراسلات نثرية وشعرية دارت بينه وبين جمال الدين بن نباتة وغيره.
(ب) الوشاح المفصل في خلق الشباب المحصل: هو مجموع آخر في الأدب منه نسخة في غوطا، وله قصائد متفرقة في برلين وبطرسبورج (الدرر الكامنة ج١).

(١٢) **ابن مكانس (توفي سنة ٧٩٤هـ):** هو الوزير فخر الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن عبد الرازق القبطي، وزير دمشق وناظر الدولة بمصر، كان من فحول الشعراء، له:

(أ) ديوان إنشاء: جمعه ابنه فضل الله مجد الدين، منه نسخ في برلين ومنشن وباريس والمتحف البريطاني والمكتبة الخديوية وغيرها.
(ب) بهجة النفوس الأوانس بمختصر ديوان المجد بن مكانس: اختصره عبد الله الإدكاوي سنة ١١٨٢، منه نسخة في غوطا، وله أرجوزتان في ليدن، وقصيدة في برلين وأخرى في المتحف البريطاني.

(١٣) **ابن حجة الحموي (توفي سنة ٨٣٧هـ):** أبو المحاسن تقي الدين أبو بكر بن علي بن عبد الله بن حجة الحموي القادري، ولد في حماة سنة ٧٦٧ وعرف بالأزراري، ورحل في طلب العلم إلى الموصل ودمشق والقاهرة وعاد إلى بلده، وكان رئيس أدباء عصره، ثم يمم القاهرة في زمن المؤيد الشيخ، وارتقى في مناصب الحكومة ومات في حماة، وهذه آثاره:

(أ) خزانة الأدب وغاية الأرب: أو تقديم أبي بكر، هي بديعية نظمها بمدح النبي على طرز البردة وقافيتها ووزنها مطلعها:

لي في ابتدا مدحكم يا عرب ذي سلم   براعة تستهل الدمع في العلم

وهي تشتمل على كل أنواع البديع، وقد شرحها في هذا الكتاب شرحًا وافيًا، طبع الكتاب بمصر مرارًا منها سنة ١٢٧٣ و١٢٩١ و١٣٠٤ ومنها نسخة خطية في المكتبة الخديوية في ٦٥٦ صفحة كبيرة.

(ب) ثمرات الأوراق: كتاب في المحاضرات غزير المادة، فيه فوائد تاريخية وأدبية مما يحتاج إليه في المجالس والمحافل، وفي ذيله رحلة المؤلف من الديار المصرية إلى دمشق وصف بها هذين البلدين، طبعت بمصر مرارًا منها سنة ١٣٠٠.

(ج) تأهيل الغريب: في الأدب، وهو ذيل ثمرات الأوراق في مثل ترتيبه حسب المواضيع، طبع بمصر سنة ١٣٠٠ مع ثمرات الأوراق.

(د) كشف اللثام في التورية والاستخدام: من أبواب البديع، طبع في بيروت سنة ١٣١٢.

(ﻫ) قهوة الإنشاء: مجموع مراسلات ومكاتبات رسمية وغير رسمية من معاصري المؤلف، وهو صورة حية لحال الإنشاء والأدب في ذلك العصر لنوابغ المصريين وفيهم القضاة والرؤساء وغيرهم، منه نسخة في المكتبة الخديوية وفي الأسكوريال.

(و) الثمرات الشهية في الفواكه الحموية، مجموع من أشعاره في برلين والمكتبة الخديوية والأسكوريال.

(ز) ثبوت الحجة على الموصلي والحلي لابن حجة: بحث انتقادي على بديعيتي صفي الدين الحلي وعز الدين الموصلي، في برلين.

(ح) مجرى السوابق: هي قصائد في الخيل والسبق بعضها له والبعض الآخر لابن نباتة، منها نسخة في غوطا.

(ط) تغريد الصادح، في برلين، وله قصائد أخرى متفرقة في المكاتب الكبرى.

(١٤) **شهاب الدين الحجازي (توفي سنة ٨٧٤ﻫ):** هو أبو الطيب أحمد بن محمد الأنصاري الخزرجي القضاعي، درس على كثيرين حتى صار من أعيان الأدباء، له مجاميع أدبية منها:

(أ) روض الآداب: رتبه على أبواب في المطولات والموشحات والأزجال والمقاطيع والنثريات والحكايات، ورتب كل باب على الأبجدية باعتبار القافية، منه نسخ في أشهر مكاتب أوربا وفي المكتبة الخديوية في ٦٨٦ صفحة، وطبع في بمباي سنة ١٨٩٨.

(ب) اللمع الشهابة من البروج الحجازية، هو ديوان شعره في الأسكوريال.

(ج) نيل الرائد في النيل الزائد، جداول لزيادات النيل حسب الأزمان، فهو كتاب علمي منه نسخ في باريس والمتحف البريطاني.

(د) الكناس الحواري في الحسان من الجواري.

(هـ) وجنة الولدان في الحسان من الغلمان، كلاهما في هفنيا.
(و) كتاب العروض في برلين وغوطا (حسن المحاضرة ٣٣٠ ج١).

(١٥) **ابن سودون (توفي سنة ٨٧٨هـ وقيل: ٨٦٩):** هو نور الدين أبو الحسن علي بن سودون البشغاوي، ولد في القاهرة سنة ٨١٠ وتفقه فيها ورحل إلى الشام، وتوفي بدمشق سنة ٨٧٨ (وقيل: ٨٦٨ و٨٦٩) مؤلفاته:

(أ) نزهة النفوس ومضحك العبوس: مجموع أشعار ونكات جعله قسمين الأول في المدح والجديات، والثاني في الهزليات، منه نسخ في مكاتب أوربا وغيرها وطبع على الحجر بمصر سنة ١٢٨٠.
(ب) قرة الناظر ونزهة الخاطر: مجموع آخر انتخبه من نزهة النفوس منه نسخة في المكتبة الخديوية، وله مقامتان في برلين.

(١٦) **تاج الدين بن عربشاه (توفي سنة ٩٠١هـ):** هو تاج الدين عبد الوهاب بن أحمد بن محمد بن عربشاه بن أبي بكر القرشي العثماني، وهو ابن مؤرخ تيمور — الآتي ذكره — ولد في طرخان من قبجاق وأتى مع أبيه إلى دمشق ثم القاهرة ومات فيها، وله قصائد عديدة متفرقة في مكاتب أوربا منها:

(أ) شفاء الكليم بمدح النبي الكريم: هي بديعية لها مقدمة وخاتمة في غوطا.
(ب) مرشد الناسك لأداء المناسك: قصيدة في ١٢٠٠ بيت توجد في غوطا، وله قصائد كثيرة في برلين.

(١٧) **قنصو الغوري (توفي سنة ٩٢٢هـ):** هو أحد السلاطين المماليك قتل في مرج دابق في حربه مع السلطان سليم العثماني، وكان شاعرًا خلف ديوانًا منه نسخة في هفنيا، وكتاب المنقح الظريف على الموشح الشريف في غوطا، وذكر كشف الظنون كتابًا بهذا الاسم للسيوطي.

شعراء آخرون

واشتهر بمصر والشام شعراء غير هؤلاء أغضينا عن ذكرهم لقلة ما خلفوه من الآثار، وإنما نشير إلى:

(١٨) **برهان الدين الجعبري توفي سنة ٧٣٢هـ:** له ديوان طبع بمصر سنة ١٨٢٤.
(١٩) **شمس الدين الخياط الضفدع المتوفى سنة ٧٥٦:** له ديوان في الأسكوريال.
(٢٠) **ابن سعيد الخفاجي:** ويعرف بابن سنان الحلبي، له:

(أ) ديوان في الأسكوريال.
(ب) سر الفصاحة في المكتبة الخديوية في جملة كتب زكي باشا.

(٢١) **إسماعيل الغرناطي أبو الوليد المتوفى سنة ٧٧١:** له كتاب البديع في وصف الربيع، فيه منتخبات أشعار الأندلسيين، في الأسكوريال.
(٢٢) **ابن العطار الدنيسري (٧٩٤):** صاحب الموشحات النبوية في غوطا.
(٢٣) **جلال الدين بن خطيب داريا (٨١٠):** له قصيدة في برلين.
(٢٤) **عز الدين بن أبي الفرات القاهري (٨٥١):** له ديوان في برلين.
(٢٥) **تاج الدين بن أبي الوفاء المقدسي (٨٥٧):** له ديوان على الأبجدية، في برلين.
(٢٦) **ابن عيسى المقدسي كتب سنة ٨٧٣:** «الجوهر المكنون في السبعة الفنون» فنون الشعر، منه نسخة في الأسكوريال.
(٢٧) **شهاب الدين ابن الهائم:** له ديوان مرتب على الهجاء، في فينا وباريس والأسكوريال.
(٢٨) **ابن الجيعان القبطي نحو سنة ٩٠٠:** به كتاب «مسايل الدموع على ما تفرق من الجموع» في المتحف البريطاني.
(٢٩) **شهاب الدين أحمد العزازي توفي سنة ٩١٢:** له ديوان في أكسفورد.
(٣٠) **ابن مليك الحموي (٩١٧):** له ديوان طبع في بيروت سنة ١٣١٢.
(٣١) **محمد رشيد الحلبي (٢٩٠):** له مجموع أشعار معاصريه في برلين.

(٤-٢) الشعراء خارج مصر والشام

في العراق والجزيرة

(١) **صفي الدين الحلِّي (توفي سنة ٧٥٠هـ):** هو أشهر شعراء العصر المغولي خارج مصر والشام، واسمه عبد العزيز بن سرايا بن علي بن أبي القاسم، ويعرف بصفي الدين الطائي السنبسي الحلي نسبة إلى الحلة في العراق، ولد سنة ٦٧٧هـ، وكان شاعر الدولة الأرتقية في ماردين ورحل إلى القاهرة في زمن السلطان الملك الناصر سنة ٧٢٦، ومدحه بقصيدة وازى بها قصيدة المتنبي التي مطلعها «بابي الشموس الجانحات غواربا»، فقال في مطلعها:

اسبلن من فوق النهود ذوائبا فتركن حبات القلوب ذوائبا

ثم عاد إلى ماردين، وتوفي في بغداد سنة ٧٥٠، وقد أجاد في القصائد الطوال والمقاطيع، واشتهر بسهولة اللفظ وحسن السبك، وله:

(أ) ديوان شعره: جمعه بنفسه ورتبه على ١١ بابًا حسب أبواب الشعر من الفخر والمدح والوصف والإخوانيات والغزل والرثاء وغيرها، وقد طبع في دمشق سنة ١٣٠٠ وفي بيروت سنة ١٨٩٢ في ٥٢٨ صفحة مذيلة بأمثلة من نثره وتفننه في المهمل والمتشابه وحل المنظوم والأرتقيات الآتي ذكرها، ومنه نسخ خطية في أكثر مكاتب أوربا وفي المكتبة الخديوية، وقد انتقد أهل زماننا ما فيه من المجون والأحماض. وأما شاعريته فلا خلاف في أنه أشعر أهل زمانه، وله مخترعات في النظم منها الموشح المضمن، كقوله من موشح ضمنه قصيدة أبي نواس البائية:

وحق الهوى ما حلت يومًا عن الهوى ولكن نجمي في المحبة قد هوى
ومن كنت أرجو وصله قتلي نوى وأضنى فؤادي بالقطيعة والنوى
ليس في الهوى عجب إن أصابني النصب
حامل الهوى تعب يستفزه الطرب

(ب) درر النحو في مدائح الملك المنصور، وهي «القصائد الأرتقيات» ٢٩ قصيدة على أحرف الهجاء، التزم في كل قصيدة حرفًا في أول البيت وفي آخره، وهي في مدح

الملك المنصور أبي الفتح بن أرتق الغازي صاحب ماردين، منه نسخ في ليدن وباريس والأسكوريال والمكتبة الخديوية، وطبع بالقاهرة سنة ١٢٨٣، ومع ديوانه في بيروت سنة ١٨٩٢.

(ج) العاطل الحالي والمرخص الغالي: في الزجل والموالي وكان وكان والقوما تابع لديوانه منه نسخة في منشن.

(د) الكافية البديعية: في مدح النبي، في المكتبة الخديوية وغيرها، وطبعت مع ديوانه سنة ١٨٩٢.

(هـ) قصيدة في مدح الصالح الأرتقي، ترجمت إلى اللاتينية وطبعت في ليبسك سنة ١٨١٦.

(و) وصف الصيد بالبندق، يصف هذا الضرب من الصيد، وبما أنه بطل الآن ففي وصفه فائدة وقد سماه «الخدمة الجليلة»، منها نسخة في برلين.

(ز) ديوان صفوة الشعراء وخلاصة البلغاء، في الأسكوريال.

(ح) الأغلاطي، معجم للأغلاط اللغوية، في الأسكوريال (فوات ١٧٩ ج١).

(٢) **الأمير خليل بن أحمد بن سليمان سيف الدين الأيوبي المتوفى سنة ٨٤٦:** من الأسرة الأيوبية صاحب حصن كيفا، له كتاب «الدر المنضد» مجموع أشعار في عشرة أبواب والعاشر بالتركية، منه نسخة في برلين، وكان جده سليمان شاعرًا أيضًا.

(٣) **علاء الدين الماريديني:** شاعر الأمير خليل المذكور له منظومات فيه، وفي غيره منها نسخ في المتحف البريطاني وليدن وبطرسبورج.

في اليمن

(١) شرف الدين جار الله الآثاري القرشي المتوفى سنة ٨٢٨، له:

(أ) ديوان مفتاح باب الفرج: في مدح النبي، قصد فيه تنويع البدائع، ورتبه على مقدمة وعشرة أبواب وخاتمة وضمنه تخميس بانت سعاد وتخميس البردة، منه نسخة في باريس.

(ب) العقد البديع، في الأسكوريال وباريس.

(ج) البديعيات في برلين.

(د) الحلاوة السكرية: وهي أرجوزة في نحو ١٠٠ بيت عليها شرح اسمه القلادة الجوهرية، منه نسخة في المكتبة الخديوية.

(هـ) العروض في المكتبة المذكورة.

(٢) **المتوكل على الله المطهر بن محمد الإمام الزيدي المتوفى سنة ٨٧٩:** له ديوان جمعه ابنه يحيى، منه نسخة في المتحف البريطاني.

(٣) **أبو بكر بن عبد الله العيدروس اليمني المتوفى سنة ٩٠٩:** له ديوان في برلين.

في فارس وما وراءها

(١) **القاضي نظام الدين الأصفهاني المتوفى سنة ٦٧٨:** له ديوان اسمه ديوان المنشئات في المتحف البريطاني.

(٢) **أحمد بن محمد بن المعظم الرازي كتب سنة ٧٣٠:** «المقامات الاثني عشرية»، نشرها سليمان الحريري في باريس سنة ١٢٨٢.

(٣) **فضل الله بن عبد الحميد:** الزوزوني الأصل الصيني المولد، نظم سنة ٧٤٠:

(أ) الصينيات في الحكم مثل الذيل لنجديات الأبيوردي (صفحة ٢٩).

(ب) كفاية الكافية، شرح على كافية ابن الحاجب، وكلتاهما في المكتبة الخديوية.

(٤) **هندو شاه بن سنجر الصاحبي الغيراني:** من أهل القرن الثامن، له «موارد الأدب في المتحف البريطاني».

(٥) **جنيد بن محمود:** كتب لمظفر الدين شاه يحيى سلطان كرمان سنة ٧٩٠ كتاب «حدائق الأنوار وبدائع الأشعار» منه نسخة في باريس.

(٦) **اختيار الدين بن غياث الدين الحسيني قاضي هرات (٩٢٨)، له:**

(أ) كتاب أساس الاقتباس، وهو مجموع آيات وأحاديث وحكم وأمثال ونحوها قسمه إلى أبواب وفصول سماها «كلمات» و«أسطر» و«أحرف» حسب المواقف، واختلاف الأحوال مما يقال للسلاطين والملوك والخلفاء أو ما يستحسن من المواعظ والحكم، يستعان به في الإنشاء وتنميق الرسائل، طبع سنة ١٢٩٨ في الأستانة.

(ب) مقامات الحسيني في نور عثمانية.

في المغرب

(١) **برهان الدين بن زقاعة (سنة ٨١٦):** له ديوان أشعار دينية وغيرها، في بطرسبورج وبرلين.

(٢) **شهاب الدين أحمد بن محمد بن الخلوف التونسي (٨٩٩):** شاعر السلطان عثمان الحفصي، له:

(أ) ديوان مرتب على الهجاء في برلين وليدن وباريس وبطرسبورج، وطبع في بيروت سنة ١٨٧٣.

(ب) موشح، في برلين.

(٣) **شهاب الدين القسنطيني (٨٩٨):** له ديوان في هفنيا.

في الأندلس

(١) **ابن مقاتل المالفي في الأندلس سنة ٧٣٩:** له أزجال في برلين.

(٢) **ابن خاتمة الأنصاري من أهل المرية بالأندلس سنة (٧٧٠) له:**

(أ) ديوان في الأسكوريال.

(ب) رائق التحلية في فائق التورية: مجموع أشعار في الأسكوريال.

(جـ) تحصيل غرض القاصد في تفصيل مرض الواصل في برلين.

(٣) **أبو عبيد الله بن زمرك:** تلميذ لسان الدين بن الخطيب في غرناطة، وخلفه في الوزارة (٧٩٥)، له قصيدة في برلين.

(٤) **أبو الحسن سلام الإشبيلي الباهلي (٨٣٩):** له كتاب الذخائر والأعلاق في آداب النفوس ومكارم الأخلاق طبع بمصر سنة ١٢٩٨.

(٤-٣) أدباء لم يشتغلوا بالنظم

نعني طائفة من الكتاب اشتغلوا بما لا يدخل في باب من أبواب علوم اللغة كالنحو واللغة وغيرهما ولا هم شعراء، وإنما ألفوا في الأدبيات ونحوها في مواضيع هامة أو اشتغلوا بجمع الأشعار والأمثال، هاك أشهرهم حسب سني الوفاة:

(١) **ياقوت المستعصمي (توفي سنة ٦٩٨هـ):** هو غير ياقوت الرومي صاحب المعجمين، واسمه أبو الدر جمال الدين ياقوت المستعصمي البغدادي، اشتهر بجودة الخط وله مؤلفات:

(أ) أخبار وأشعار وملح وحكم ووصايا منتخبة، طبع في الأستانة سنة ١٣٠٢.
(ب) أسرار الحكماء، طبع في الأستانة سنة ١٣٠٠.

(٢) **جمال الدين الوطواط (توفي سنة ٧١٨هـ):** هو محمد بن إبراهيم بن يحيى بن علي الأنصاري جمال الدين الكتبي الوراق، ولد سنة ٦٣٢ وهو من خيرة العلماء في كثير من الفنون الأدبية وغيرها، هاك أهم مؤلفاته:

(أ) غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائص الفاضحة، مجموع لطيف في الأخلاق وضروبها يحتوي على نثر ونظم في المحامد والمذام المختلفة عن نفوس الخواص والعلوم قسمه إلى ١٦ بابًا قدم منها أبواب المحامد. وفيه كثير من الفوائد التاريخية لا توجد في سواه من المظان، وفيه فصل في سبب وضع الشطرنج، وأخبار كثيرة عن الشعراء والملوك وغيرهم، طبع بمصر سنة ١٢٨٤ وغيرها، ومنه نسخ خطية في مكاتب أوربا والمكتبة الخديوية وتونس. وله مختصرات منها «محاسن الغرر ومساوئ العرر» اختصره ابن جاني بك للسلطان قايت باي، منه نسخة في غوطا و«خصائص الغرر ونقائص العرر» في فينا.

(ب) مباهج الفكر ومناهج العبر، هو موسوعة في أربعة أجزاء:

الأول: في السماء أو الفلك وتوابعه، من قبيل علم الهيئة.

والثاني: في الأرض وما عليها في الجغرافية.

والثالث: في الحيوان.

والرابع: في النبات.

منه الجزءان الأول والثاني في الخزانة التيمورية.

والجزء الرابع في المكتبة الخديوية في ٢٠٠ صفحة، قسمها إلى تسعة أبواب في النبات وما يوافقه من الأرضين وفلاحة الحبوب والقطاني وأصناف البقول وسائر أنواع النبات. ومنه أجزاء متفرقة في برلين ونسخة في المكتبة المارونية بحلب، والكتاب علمي يخالطه وصف أدبي، وله مختصر في تونس وكوبرلي.

(جـ) رسائل الوطواط، طبعت بمصر سنة ١٣١٥ (الدرر الكامنة ج٣).

(٣) **ابن فهد (توفي سنة ٧٢٥هـ):** هو أبو الثناء شهاب الدين محمود بن سليمان بن فهد الحلبي الحنبلي صاحب ديوان الإنشاء عند السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقداري، وله:

(أ) منازل الأحباب ومنازه الألباب، في الهوى العذري، منه نسخ في برلين وليدن والمتحف البريطاني، وله مختصر في غوطا.

(ب) حسن التوسل إلى صناعة الترسل: في الإنشاء، منه نسخ في باريس وكوبرلي ونور عثمانية، وطبع بمصر سنة ١٢٩٨ وغيرها.

(جـ) أهنى المفاتح بأسنى المدائح: في مدح النبي، في كوبرلي.

(د) ذيل على الكامل لابن الأثير، في برلين.

(٤) **علاء الدين البهائي (توفي سنة ٨١٥هـ):** هو علاء الدين علي بن عبد الله البهائي الغزولي الدمشقي، أصله من البربر، له: مطالع البدور في منازل السرور، خزانة شعر وأدب وحكم وأخبار ترجع إلى تحسين المجالس والمنازل وآلاتها وأسبابها وما قيل فيها من المعنى البليغ، مرتبة على خمسين بابًا في انتقاء المكان المتخذ للبنيان وأحكام وضعه وأخبار الجار والصبر على أذاه، وفيها باب خاص في ذم الحُجَّاب، وآخر في الخدم والدهليز وسائر أقسام البيت، ثم ما يحيط به من النسيم ولطفه والفرش والمساند والأرائك والمروحة والطيور والشطرنج والفانوس والصاحب والنديم والشعراء والستارة والمائدة والمطبخ والأكل والشرب، وفي الهدايا والتحف والحساب والوزراء وخزائن السلاح والخيل والدواب وغيرها، فإذا ذكر أحد هذه الأبواب أورد ما جاء فيه من شعر أو نكتة أو قصة، فهو يشتمل على فوائد تاريخية واجتماعية هامة، طبع بمصر سنة ١٣٠٠ في مجلدين.

(٥) **القلقشندي (توفي سنة ٨٢١هـ):** هو شهاب الدين أحمد بن علي بن أحمد القلقشندي المصري نزيل القاهرة — هكذا سماه صاحب شذرات الذهب — ورأينا اسمه في صدر كتابه قلائد الجمان في التعريف بقبائل العربان الآتي ذكره هكذا «شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عبد الله بن أحمد بن عبد الله بن سليمان بن إسماعيل القلقشندي المصري الشافعي الشهير بابن أبي غدة»، ويختلف بعض الاختلاف في أماكن أخرى، ولكن الاتفاق واقع على أنه أبو العباس شهاب الدين أحمد. سمي القلقشندي نسبة إلى قرية بجوار قليوب، تفقه بالأدب وكان قوي الحافظة، وعى في ذاكرته أهم علوم الأدب في عصره، وتولى كتابة الإنشاء سنة ٧٩١ في دولة المماليك بمصر وعانى هذه الصناعة ودرسها، ونبغ غير واحد من هذه الأسرة هذا أشهرهم وألف كتبًا جزيلة الفائدة عرفنا منها:

(أ) صبح الأعشى في صناعة الإنشا، هو أهم كتاب في بابه، وقد سبقه غير واحد إلى الكتابة في هذا الموضوع، أشهرهم ابن فضل الله العمري — الآتي ذكره — نعني كتابه، «التعريف بالمصطلح الشريف»، ومنهم ابن ناظر الجيش ألف تتمة لكتاب العمري سماها «تثقيف التعريف» وأضاف إليه زيادات هامة. وتجد أمثلة من صناعة الإنشاء أيضًا في كتاب ابن الصيرفي المتقدم ذكره وغيره. وقد اطلع القلقشندي على التعريف والتثقيف وذكرهما وانتقد نقصهما. أما صبح الأعشى فيمتاز بإحرازه كل ما يتعلق بالإنشاء وأدواته وشروطه، وهو مؤلف من سبعة مجلدات كبيرة كأنها موسوعة في الأدب، منها نسخة كاملة في المكتبة الخديوية وأخرى في مكتبة زكي باشا.

وقد نشرت المكتبة الخديوية الجزء الأول منه سنة ١٩٠٣ في ٥٧٣ صفحة وهو يبحث في فضل الكتابة ومدلولها، وفي الكُتاب وآدابهم وصفاتهم والتعريف بحقيقة ديوان الإنشاء وقوانينه وترتيبه ووظائف أصحابه، وما يحتاج إليه الكاتب من المعارف والعلوم الأدبية والتاريخية والاجتماعية والشرعية والطبيعية، استغرق وصفها ٤٠٠ صفحة من هذا الجزء، وأخيرًا معرفة الأزمان والأوقات ثم الأدوات التي تستخدم في الكتابة كالدواة والأقلام وأنواعها. والكتاب كله مؤلف من مقدمة وعشر مقالات، فاستغرق الجزء الأول المطبوع المقدمة والمقالة الأولى فقط.

وتشتمل الأجزاء الباقية على مقالة في المسالك والممالك وهو علم تقويم البلدان مفصلًا بما ينطوي عليه من وصف الممالك سياسيًّا وجغرافيًّا بمصر والشام وفارس وغيرها، ومقالة في شروط المكاتبات باعتبار المراتب والولايات من الألقاب والكنى وقطع

الورق وأشكالها وما تفتح به المكاتبات وتختم به، وأمثلة عديدة يطول ذكرها، ومقالة في المكاتبات ومقدماتها ومصطلحاتها الدائرة بين كتاب الإسلام من الصدر الأول إلى زمن المؤلف، ومقالة في الولايات وطبقاتها وما بلغ من التفاوت بينها في الرتب، والبيعات ومعناها وأنواعها ومعنى العهد وغير ذلك، ومقالة في الوصايا الدينية والمسامحات والاصطلاحات وتحويل السنين والتذاكر، وأخرى في الإيمان وما يتعلق منها بالخلفاء والملوك، ومقالة في عقد الصلح والنصوص الواردة على ذلك وأخرى في فنون من الكتابة يتداولها الكتاب ويتنافسون فيها، والخاتمة في أمور تتعلق بديوان الإنشاء غير الكتابة كالبريد وتاريخه في الجاهلية والإسلام وحمام الرسائل وأبراجه والمناور والحراقات، وبالجملة فإن صبح الأعشى خزانة علم وأدب لا مثيل لها، وترجم وستنفيلد قطعة منه تتعلق بجغرافية مصر إلى الألمانية، طبعت في غوتنجن سنة ١٨٧٩، وقد قررت نظارة المعارف طبع الكتاب كله.

(ب) ضوء الصبح المسفر وجني الدوح المثمر: هو مختصر صبح الأعشى المتقدم ذكره اختصره المؤلف لنفسه، منه نسخة في المكتبة الخديوية في ٤٨٤ صفحة.

(ج) نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب: معجم في الإنسان رتب فيه أسماء القبائل والبطون على أحرف الهجاء، منه نسخة في المكتبة الخديوية وفي برلين والمتحف البريطاني، وجاء في صدر نسخة المكتبة الخديوية أنها تأليف «محمد بن عبد الله القلقشندي»، ولكنها لشهاب الدين أحمد الذي نحن في صدده، كما سترى في الكلام عن كتابه الآخر «قلائد الجمان». وعنه أخذ أبو الفوز السويدي البغدادي في كتابه سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب المطبوع على الحجر في بغداد سنة ١٢٨٠.

(د) قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان: يقول في المقدمة: إنه صاحب كتاب نهاية الأرب المتقدم ذكره، وأن نهاية الأرب هذا «يحتوي على ذكر القبائل على الجم الغفير ولكن من القبائل المذكورة ما فني وضاع خبرها فلا يعرف لها مقر، وأن القبائل التي لا يستغني كاتب الإنشاء عن معرفتها والأخذ بتفصيلها إنما هي ما يحتويه نطاق الديار المصرية من عربان الزمان، إذ قد تدعو حال السلاطين إلى مكاتبتها»، وتعمد إلى تدوين أنسابها وأخبارها، وقد حمله على ذلك وجود نظام الملك نجي السلطنة لسان المملكة إلخ، أبو المعالي محمد الجهني البارزي الشافعي المؤيدي صاحب دواوين الإنشاء، وأن المؤلف مغمور بفضله فألف له هذا الكتاب ذكر فيه قبائل العرب الموجودة في عصره مع مقدمة في أنساب الأمم، ووصل كل أمة بعمود النسب والتاريخ ورجال الحديث.

ويختلف عن نهاية الأرب المتقدم ذكره أنه مرتب حسب تفرع القبائل وذاك على الأبجدية، منه نسخة خطية في المكتبة الخديوية في نحو ٢٢٠ صفحة.

وفي كشف الظنون أن قلائد الجمان هذا تأليف والد صاحب نهاية الأرب، وهو خطأ بدليل ما جاء في ضوء الصبح بالورقة ١٣٥ من النسخة الموجودة في المكتبة الخديوية في أثناء كلامه عن طبقات أمراء العربان قال: «الطبقة الرابعة أمراء العربان بنواحي الديار المصرية قد ذكرنا في الأصل أصول أنساب العرب وقبائلهم، واقتصرنا في قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، المؤلف للمعز الأشرف الناصري البارزي والد المعز الكمالي المؤلف له هذا الكتاب، على ذكر الموجودين منهم الآن إلخ.» فيستفاد من هذه العبارة:

أولًا: أن مؤلف ضوء الصبح هذا هو صاحب صبح الأعشى بدليل قوله: «وقد ذكرنا في الأصل أصول أنساب العرب إلخ».

وثانيًا: إنه صاحب قلائد الجمان كما رأيت قوله صريحًا، وهو يقول في مقدمة قلائد الجمان: إنه صاحب كتاب نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب، فلم يبق ريب أن صبح الأعشى وضوء الصبح ونهاية الأرب في معرفة قبائل العرب وقلائد الجمان كلها لمؤلف واحد هو أبو العباس شهاب الدين أحمد القلقشندي.

(هـ) في المتحف البريطاني كتاب اسمه «قلائد الجمان في مصطلح مكاتبات أهل الزمان» باسم محمد القلقشندي، لعله ابن أحمد المذكور جعله ذيلًا لكتاب أبيه.

(و) حلية الفضل وتربية الكرم في المفاخرة بين السيف والقلم في الإنشاء والأدب منه نسخة في المكتبة الخديوية.

(ز) في مكتبة باريس كتاب اسمه «نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب» ذكر في صدره أنه لنجم الدين محمد بن صاحب صبح الأعشى كتبه بخط يده سنة ٨٤٦هـ لزين الدين أبي الجود بقر بن راشد كبير أمراء العرب في الشرقية والغربية، ورتبه على حروف المعجم، ويقول صاحب كشف الظنون: إنه «لأبي العباس أحمد بن عبد الله القلقشندي المتوفى سنة ٨٢١»، وهي السنة التي توفي فيها صاحب صبح الأعشى واسمه هنا مثل اسمه على قلائد الجمان كما رأيت، ولكن صاحب كشف الظنون يقول أيضًا: إنه ابن صاحب قلائد الجمان، فلعل نهاية الأرب هذا هو نفس نهاية الأرب الموجود في المكتبة الخديوية، وإنما تمتاز نسخة باريس بأنها كتبت بخط ابن المؤلف لزين الدين أبي الجود مع بعض التغيير، وفي كل حال يظهر مما تقدم وقوع الالتباس في أسماء القلقشنديين

ومؤلفاتهم، ولكن شهاب الدين أحمد صاحب صبح الأعشى أعظمهم (ترجمته في شذرات الذهب بين وفيات سنة ٨٢١).

(٦) **الأبشيهي (في النصف الأول من القرن التاسع):** هو محمد بن أحمد الخطيب الأبشيهي، اشتهر بكتابه «المستطرف في كل فن مستظرف» وهو من الموسوعات الأدبية، طبع بمصر وغيرها مرارًا في مجلدين كبيرين، يشتمل على ٤٨ بابًا في مباني الإسلام والعقل والذكاء والحمق والقرآن وفضله والعلم والأدب والآداب والحكم والأمثال السائرة والبيان والبلاغة والبلغاء والفصحاء والأجوبة المسكتة ونحو ذلك من الآداب والأخلاق، غير ما يتعلق بالسياسة، كأقواله في الملك والسلطان وطاعة ولي الأمر وما يجب على السلطان وغيره من رجال الدولة جميعًا، وفي العدل والإحسان والمعاشرة والمودة والفخر والشرف والجود والبخل والشجاعة والجبن، وفي العمل والكسب وأخبار العرب وأوابدهم، وفي الدواب والحشرات والوحوش مرتبة على أحرف الهجاء، وفي البحار وعجائبها والأنهار والجبال وعجائب المخلوقات والقيان والأغاني وغير ذلك، وفيه فوائد كثيرة تاريخية واجتماعية وأدبية وسياسية وغيرها؛ ولذلك نقله الإفرنج إلى الفرنساوية وطبعت الترجمة في باريس سنة ١٨٩٩ وترجم إلى التركية وطبعت هذه الترجمة في الأستانة سنة ١٢٦٣.

(٧) **شمس الدين النواجي (توفي سنة ٨٥٩هـ وقيل ٨٤٩):** هو محمد بن حسن بن علي بن عثمان النواجي القاهري شمس الدين، سمي النواجي نسبة إلى نواج قرية في مديرية الغربية، ولد في القاهرة بعد سنة ٧٨٥ وكان صديقًا لابن حجة الحموي، وتعاطى التعليم ونظم الشعر وحج، ومؤلفاته عديدة في مواضيع مختلفة أهمها:

(أ) حلبة الكميت: في الخمر وما قيل فيها وفي الندماء وآدابهم وأوصاف الخمر، والنديم والساقي والمجلس وآدابه والأغاني والملاهي والخلاعة والأزهار والفواكه، وختمه بفصل في التوبة وذم الخمر. وفيه كثير من الفوائد التاريخية والاجتماعية، وقد حسده عليه معاصروه ووشوا به وكادوا يؤذونه بسببه، قال صاحب كشف الظنون: «إنه كتاب مفيد ولا عبرة بذمه فإنه من الحسد والتعصب» طبع بمصر مرارًا.

(ب) مراتع الغزلان في الحسان من الغلمان: اسمه يدل على موضوعه، وهو مجموع مقاطيع في وصف الغلمان في خمسة أبواب، منه نسخة خطية في برلين وباريس وغوطا والأسكوريال وفي المكتبة الخديوية في ١٠٤ صفحات.

(ج) خلع العذار في وصف العذار: مجموع أشعار، منه نسخة في فينا والأسكوريال وباريس وفي الخزانة التيمورية، وذكر كشف الظنون كتابًا بهذا الاسم للصفدي.

(د) صحائف الحسنات: في وصف الخال، في باريس وبرلين والأسكوريال.

(هـ) كتاب الصبوح: في مجالس الشراب عند الصباح، فيه أشعار ونوادر جرت في العصر العباسي، في برلين.

(و) التذكرة: في الأدب، في برلين.

(ز) نزهة الألباب في أخبار ذوي الألباب: في الكرماء وغيرهم، في برلين.

(ح) تحفة الأديب: أشعار جرت مجرى الأمثال مرتبة على الأبجدية حسب قوافيها، منها نسخة في برلين بخط المؤلف.

(ط) تأهيل الغريب (ويقال: تأهيل الأديب): مجموع أشعار غزلية مرتبة على الأبجدية حسب قوافيها، في باريس.

(ي) عقود اللآل في موشحات الأزجال، في الأسكوريال.

(ك) قصيدة في مدح النبي وقصائد أخرى، في برلين.

(ل) مقدمة في صناعة النظم والنثر، في باريس.

(م) الشفاء في بديع الاكتفاء، في البلاغة، في غوطا والأسكوريال.

(ن) روضة المجالسة وغيضة المجانسة، في الأسكوريال. (حسن المحاضرة ٣٣٠ ج١ والخطط التوفيقية ١٣ ج١٧).

سائر الأدباء في هذا العصر

(١) **الغزي الخزنداري:** في أوائل القرن الثامن، له كتاب مجموع النوادر مما جرى للأوائل والأواخر، في برلين.

(٢) **ابن شرف الزرعي (٧٤٤):** له كتاب جواهر الكلام، في باريس.

(٣) **محمد البلبيسي (٧٤٦):** له الملح والطرف من منادمات أرباب الحرف، طبع بمصر سنة ١٨٦٦.

(٤) **ابن محمود الكاتب الدمشقي (٧٥٣):** له كتاب الدر الملتقط من كل بحر وسقط: في الأدب، في المتحف البريطاني.

(٥) **ابن عاصم المالكي الغرناطي (٨٢٩):** له حدائق الأزهار في مستحسن الأجوبة المضحكة والحكم والأمثال والحكايات والنوادر، طبع في فاس بدون تاريخ الطبع في ٣١٩ صفحة.

(٦) **أويس الحموي (٩٠١):** له كتاب سكردان العشاق ومنازه الأسماع والأرفاق: فيه فوائد تاريخية واجتماعية، منه نسخة في باريس.

ومن كتب الأدب الهامة

(١) **مجموعة المعاني:** طبعت في الأستانة سنة ١٣٠١ لم يذكر عليها اسم مؤلفها، وهي مرتبة على أبواب حسب المعاني مما يحتاج إليه الكاتب في مراسلاته من الاستشهاد أو التنميق، وفي كل باب أحسن ما قيل فيه وجملة الأبواب مئة باب، اجتمع في كل باب منها نوع من الأفكار تشترك فيه كالشجاعة والهمة والبخل والكرم وغير ذلك.

(٢) **كتاب مجموع الأغاني والألحان من كلام أهل الأندلس:** جمعه السيد ناطان يدمون يافيل وطبعه في الجزائر، وقد صدره بمقدمة لغتها عامية يفهم منها أن ألحان الأندلس وأنغامه أخذت في الزوال بسبب وفاة أصحابها، لأن المغني إذا مات مات معه علمه؛ لأنه لا يحب أن يعلم سواه في حياته، فخوفًا من ضياع هذه الصناعة بتوالي الأزمان اهتم المؤلف بجمع هذه الألحان في كتاب يسهل الحصول عليها، وهي أغاني عديدة لكل منها لحن، وقد جمع الألحان المتشابهة وسمَّاها «نوبة» فبلغ عدد النوب خمس عشرة نوبة هذه أسماؤها: الديل والمجنبة والحسين والعراق والرمل الماية والرمل والغريب والزيدان والرصد والمزموم والصيكة ونوبة الماية وجاركه، ولكل منها فروع وتحت كل باب أغاني مختلفة الأوزان. والكتاب يدخل في ٤٣٠ صفحة، وهو فريد في بابه.

(٣) **الروض العاطر في نزهة الخاطر:** للنفراوي من أهل المغرب في القرن الثامن للهجرة، هو من قبيل رجوع الشيخ إلى صباه، ذكر المؤلف في مقدمته أنه كان قد ألف كتاب أسرار الجماع، فلما اطَّلَع عليه وزير مملكة تونس في زمن السلطان عبد العزيز صاحب تونس استقدم المؤلِّف إليه وكلفه أن يؤلف كتابًا أوسع من هذا ويزيد عليه أبوابًا في المعالجات، طبع في فاس سنة ١٣١٠ ويخجل الأديب من مطالعته.

(٤) **كتاب آداب النكاح لأحمد بن عرضون الزجلي:** يتعلق بمعاشرة الأزواج ورياضة الولدان، لا يخلو من بعض ما في رجوع الشيخ إلى صباه، طبع بالمغرب سنة ١٣١٩ على الحجر.

(٥) **نفائس المجالس السلطانية في حقائق الأسرار القرآنية:** ألفه بعضهم في مجالس عقدت في زمن السلطان أبي النصر قنصوه الغوري، وجرت فيها مذاكرات ومباحثات أدبية وتاريخية في ٢٧٢ صفحة من جملة كتب زكي باشا في المكتبة الخديوية.

(٦) **الكوكب الدري في مسائل الغوري:** عددها ألف مسألة في الحديث والقرآن والفقه واللغة، طرحت على قنصوه الغوري، فأجاب عليها كالفتوى، كل سؤال وأمامه جوابه، منه نسخة في جملة كتب زكي باشا بالمكتبة الخديوية في ٣٣٨ صفحة.

هوامش

(١) ابن خلدون ٥١١ ج١.

اللغة وعلومها

تكاثر الاشتغال في اللغة وعلومها في هذا العصر، وإن كان أكثر اشتغال علمائها في الشروح ولكن مؤلفاتهم لا تزال شائعة وعليها المعول حتى الآن، ولا سيما المعاجم فإن في هذا العصر نبغ صاحب لسان العرب وصاحب القاموس وصاحب الألفية وغيرهم، ولما كان أكثر علماء اللغة نبغوا في مصر والشام فنختصهما بباب مشترك كما فعلنا بباب الشعر مع اعتبار سنة الوفاة.

علماء اللغة في مصر والشام

(١) **ابن مالك الطائي (توفي سنة ٦٧٢هـ):** هو محمد بن عبد الله بن مالك جمال الدين الطائي الجياني النحوي، ولد سنة ٦٠٠ وتعلم في دمشق وتصدر لتعليم العربية في حلب، وصرف همه لإتقان لغة العرب، فأتقنها وأتقن القراءة حتى صار إمامًا في العادلية، إذا صلى شَيَّعه قاضي القضاة ابن خلكان إلى منزله تعظيمًا له، واشتهر على الخصوص بالألفية التي نظمها في النحو وتعرف باسمه:

(أ) ألفية ابن مالك: اشتهرت في الأصقاع العربية اشتهار الحاجبية وغيرها، جمع فيها مقاصد العربية وسماها الخلاصة وإنما اشتهرت بالألفية؛ لأنها ألف بيت، مطلعها:

قال محمد هو ابن مالك　　　أحمد ربي الله خير مالك

وقد نشرها كثيرون وترجمها المستشرق بنتو إلى الفرنساوية وطبعت مع الأصل العربي في الأستانة سنة ١٨٨٧، وأشهر شروحها شرح قاضي القضاة بهاء الدين بن عقيل المتوفى سنة ٧٦٩، طبع مرارًا في مصر والشام وغيرها، وقد ترجم هذا الشرح إلى الألمانية وطبع في برلين سنة ١٨٥٢ وطبعت الألفية نفسها مرارًا وحدها ومع شروحها، ومنها ومن شروحها نسخ خطية في معظم مكاتب أوربا، ومن أراد معرفة أسماء الشارحين وشروحهم فليطالع مادة ألفية في كشف الظنون.

(ب) تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد: هو مختصر كتاب له اسمه «كتاب الفوائد» في النحو ضاع، ومن هذا المختصر نسخ في برلين وليدن وباريس والأسكوريال، وله شروح في المكتبة الخديوية أحدها لابن أم قاسم المتوفى سنة ٧٤٩ وقد شرحها ابن عقيل أيضًا وغيره.

(ج) لامية الأفعال: أو كتاب المفتاح في أبنية الأفعال، ويقال لها: «لامية ابن مالك» منها نسخ في غوطا ومنشن وباريس والأسكوريال، ولها شروح منها شرح لابنه بدر الدين في برلين وباريس، وطبع في بطرسبورج سنة ١٨٦٤ وفي ليبسك سنة ١٨٦٦ وغيرهما وهناك شروح أخرى بعضها في المكتبة الخديوية.

(د) الكافية الشافية: أرجوزة في النحو في ٢٧٥٧ بيتًا ومنها لخص ألفيته المتقدم ذكرها، ومن الكافية نسخة في مكتبة الأكاديمية في فينا.

(هـ) عدة الحافظ وعمدة اللافظ: في النحو أيضًا، في برلين.

(و) سبك المنظوم وفك المختوم: في النحو، في برلين.

(ز) إيجاز التعريف في علم التصريف، الأسكوريال.

(ح) شواهد التوضيح وتصحيح مشكلات جامع الصحيح، في الأسكوريال.

(ط) كتاب العروض، في الأسكوريال.

(ي) تحفة المودود في المقصور والممدود: قصيدة همزية فيها الألفاظ التي آخرها ألف تشتبه أن تكون مقصورة أو ممدودة، منها نسخة في المكتبة الخديوية مع لامية العجم.

(ك) الألفاظ المختلفة: مجموع مترادفات، في برلين.

(ل) الاعتقاد في الفرق بين الصاد والضاد: قصيدة مشروحة، في برلين.

(م) الأعلام بمثلث الكلام: أرجوزة في نحو ٣٠٠٠ بيت ذكر فيها الألفاظ التي لكل منها ثلاثة معان باختلاف حركاتها، ورتب تلك الألفاظ على الأبجدية، فهي كالمعجم للمثلثات منها نسخة في المكتبة الخديوية في ١٤٥ صفحة، (فوات الوفيات ٢٢٧ ج٢).

(٢) **جمال الدين بن مكرم (توفي سنة ٧١١هـ):** هو أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي الإفريقي المصري جمال الدين، ويعرف بابن منظور، ولد سنة ٦٣٠، واشتغل باللغة وعلومها وتاريخها وخلف مئات من المجلدات من تأليفه، وتوفي بالقاهرة سنة ٧١١، أشهر مؤلفاته:

(أ) لسان العرب: معجم مطول مرتب على أواخر الكلم مثل صحاح الجوهري، وهو من أوثق المعاجم العربية، جمع فيه بين تهذيب الأزهري ومحكم ابن سيده والصحاح وجمهرة ابن دريد ونهاية ابن الأثير، وقد شرح ما أتى به في الشواهد من آيات وأحاديث وأشعار، طبع في مصر سنة ١٣٠٠ في عشرين مجلدًا.

(ب) انتثار الأزهار في الليل والنهار وطيب أوقات الأصائل والأسحار وسائر ما يشتمل عليه من كواكبه الفلك الدوار: هو كتاب في الأدب فيه نخبة الأشعار والأقوال في عشرة أبواب كأوصاف الليل والاصطباح والهلال على اختلاف مظاهره ونحو ذلك، وإذا ذكر شيئًا عرفه وأورد طبائعه فهو جامع بين الفكاهة والعلم، طبع في الأستانة سنة ١٢٩٨.

(ج) سرور النفس بمدارك الحواس الخمس: يشتمل على النظر في المحسوسات كلها، وهو في الأصل تأليف شرف الدين التيفاشي المتقدم ذكره بين علماء الطبيعة (صفحة ١٠٩)، ثم وقف عليه ابن مكرم هذا وهذبه وذكر في المقدمة: إنه كان وهو طفل يرى أباه يعجب بهذا الكتاب فلما توفي أبوه سنة ٦٤٥ طلب الكتاب حتى وقف على نسخة منه بعد الجهد، فرآها فاسدة مختلة فهذبها وسماها «سرور النفس بمدارك الحواس الخمس»، وهو جزءان كل منهما عشرة أبواب، الجزء الأول في الليل والنهار وأوصافهما وفي الاصطباح ومدحه والهلال وظهوره وكماله، واشتقاق الفجر ورقة النسيم في السَّحَر وتغريد الطيور في الشجر وصفات الشمس عند طلوعها والضحى والارتفاع إلى المغيب والكسوف، وفي الكواكب وآراء المنجمين فيها والفلك وما يشتمل عليه. والجزء الثاني في الفصول الأربعة ودلائل المطر والصحو والبرق وحنين العرب إلى أوطانهم وهالة القمر وقوس قزح على مذاهب العرب والفلاسفة، وفي السحاب والأنواء والرياح والإعصار والزوبعة إلخ. وقد وصف هذا كله حسب العلم الطبيعي المعروف في أيامهم والوصف الأدبي، منه نسخة في المكتبة الخديوية في جملة كتب زكي باشا في ٤٦٠ صفحة منقولة عن مكتبة طوبقبو بالأستانة.

(د) لطائف الذخيرة: مختصر ذخيرة ابن بسام، منه نسخة في مكتبة ولي الدين بمسجد بيازيد.

(هـ) مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، منه نسخة في كوبرلي في عدة مجلدات ومنه الجزء ١١ في غوطا.

(و) مختصر تاريخ بغداد للسمعاني، في ليدن وكمبريدج (تقدم ذكره صفحة ٦٩).

(ز) مختصر مفردات ابن البيطار، في الخزانة التيمورية بخط المؤلف (حسن المحاضرة ٣٠٧ ج١).

(٣) **ابن هشام (توفي سنة ٧٦١هـ):** هو جمال الدين عبد الله بن يوسف بن عبد الله المصري الإمام المشهور، كان من كبار علماء اللغة العربية وتخرج عليه خلق كثير، واشتهر بالتحقيق وسعة الاطلاع والاقتدار على التصرف في الكلام وذاع صيته في العالم الإسلامي، وذكره ابن خلدون وأثنى عليه، وأشهر مؤلفاته:

(أ) قطر الندى وبل الصدى: من أهم كتب النحو، عليه شرح المؤلف، طبع بمصر وتونس مرارًا، واهتم الإفرنج به فنقله كوجيار إلى الفرنساوية، وطبع في ليدن سنة ١٨٨٧ وعليه شروح كثيرة بعضها مطبوع وبعضها في المكاتب الكبرى يطول بنا ذكرها.

(ب) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: في النحو، منه نسخ في أكثر مكاتب أوربا والمكتبة الخديوية، وطبع في طهران سنة ١٢٧٤ وفي مصر مرارًا، وله شروح عديدة للدماميني والأشموني والدسوقي أكثرها مطبوع ومشهور وذكرها صاحب كشف الظنون مفصلًا.

(جـ) الإعراب عن قواعد الإعراب: في النحو، منه نسخ خطية في برلين وغوطا وله شروح للكافياجي وخالد الأزهري والمقدسي وغيرهم بعضها مطبوع بمصر، وبعضها مخطوط في مكاتب أوربا وله مختصرات.

(د) شذور الذهب: في النحو، طبع مرارًا وله شروح أكثرها مطبوع.

(هـ) موقد الأذهان وموقظ الوسنان: في أعوص مسائل النحو، منه نسخ خطية في برلين وباريس والمكتبة الخديوية.

(و) ألغاز نحوية، طبع بمصر.

(ز) الروضة الأدبية في شواهد علوم العربية: عوَّل فيها على ابن جني، في برلين.

(حـ) الجامع الصغير: في النحو بباريس وعليه شروح، وله رسائل وكتب أخرى في النحو والإعراب وشروح على ألفية ابن مالك وغيرها متفرقة في مكاتب أوربا (حسن المحاضرة ٣٠٩ ج١ والدرر الكامنة (خط) ج٢).

(٤) **الدماميني (توفي سنة ٨٢٧هـ):** هو بدر الدين محمد بن أبي بكر بن عمر الإسكندري، ولد في الإسكندرية سنة ٧٦٣ وتمكن من الآداب وفاق في النحو والنظم والنثر وشارك في الفقه وغيره، وتصدر في الأزهر لإقراء، النحو وأشهر مؤلفاته:

(أ) كتاب القوافي: عليه شرح لابن عمر البلخي في ليدن والمكتب الهندي.
(ب) جواهر البحور: في العروض، عليها شرح لابن لولو الزركشي، في الجزائر.
(جـ) نزول الغيث: هو اعتراضات ومناقشات مع الصفدي في شرحه للامية العجم، منها نسخة في المكتبة الخديوية.
(د) شرح مغني اللبيب، في ليدن والأسكوريال.
(هـ) الفتح الرباني في الرد على البنباني: جدال على منهاج البنباني، في ليدن.
(و) شمس المغرب في المرقص والمطرب: بالأدب، في برلين. (حسن المحاضرة ٣١١ ج١).

(٥) **أمين الدين المحلي سنة ٦٧٣ له:**

(أ) كتاب مفتاح الإعراب في مكتبة الجزائر.
(ب) شفاء العليل في علم الخليل بالعروض في ليدن وكوبرلي.
(جـ) العنوان في معرفة الأوزان في المكتبة الخديوية.

(٦) **أحمد بن علي بن مسعود:** صاحب مراح الأرواح، طبع مرارًا.
(٧) **البركوميني:** صاحب لب اللباب في علم الإعراب، في المكتب الهندي بلندن.
(٨) **ابن خطيب دمشق جمال الدين أبو المعالي محمد بن عبد الرحمن:** ولد في الأناضول وتعلم الفقه وتولى القضاء وانتقل إلى دمشق وتولى الخطابة في مسجدها ثم تولى القضاء بمصر، وتمكن نفوذه فيها أيام الملك الناصر واكتسب مالًا طائلًا، ثم عاد إلى دمشق وتوفي فيها، واشتهر من مؤلفاته كتاب تلخيص المفتاح والإفصاح في المعاني والبيان، وهما مشهوران.
(٩) **ابن شعيب القنائي الحواص توفي سنة ٨٥٨:** له كتاب الكافي في علمي العروض والقوافي، طبع بمصر مرارًا وله شروح بعضها مطبوع.
(١٠) **خالد الأزهري الجرجاوي:** سنة ٩٠٥ صاحب المقدمة الأزهرية في علم العربية، طبعت بمصر سنة ١٢٥٢ وغيرها وله شروح وتفاسير، وله الألغاز النحوية، منه نسخة في المكتبة الخديوية وغيرها.

(١١) **ابن أم قاسم المتوفى سنة ٧٤٩:** صاحب كتاب غناء الداني في حروف المعاني، في غوطا، وله جمل الإعراب، في ليدن، وشرح ألفية ابن مالك تقدم ذكرها.
(١٢) **البشبيشي سنة ٨٢٠هـ:** صاحب كتاب التذييل والتكميل لما استعمل من اللفظ الدخيل، في مكتبة لندبرج.

ومن نحاة مصر والشام الفيومي المتوفى سنة ٧٧٠، والبلدي ٧٧٤، وابن الصائغ ٧٧٦، والمكودي ٨٠١ وغيرهم.

علماء اللغة خارج مصر والشام

(١) **ابن آجروم (توفي سنة ٧٢٣هـ):** هو أبو عبد الله محمد بن داود الصنهاجي بن آجروم صاحب الآجرومية في النحو وهي أشهر من أن تعرَّف، واسمها «المقدمة الآجرومية» مختصر في النحو، تعول عليها المدارس في التعليم حتى الآن، وقد طبعت لأول مرة في رومية سنة ١٦٣١ ثم في ليدن سنة ١٦٧٧، ثم طبعت في باريس ومصر والشام والأستانة وغيرها، ولها شروح عديدة يضيق المقام على ذكرها نكتفي بشهرتها.
(٢) **الفيروزآبادي (توفي سنة ٨١٧هـ):** هو أشهر علماء اللغة في هذا العصر خارج مصر والشام، واسمه أبو طاهر مجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم الشيرازي الفيروزآبادي صاحب القاموس، وينتسب إلى الشيخ أبي إسحق الشيرازي صاحب التنبيه، وربما رُفع نسبه إلى أبي بكر، ولد في كارزين قرب شيراز سنة ٧٢٩، ودخل بلاد الروم واتصل بخدمة السلطان بيازيد العثماني ونال مرتبة رفيعة، واكتسب مالًا طائلًا ونال من تيمورلنك ٥٠٠٠ دينار، ثم طاف البلاد شرقًا وغربًا وأخذ عن علمائها حتى برع في العلوم كلها، وكان سريع الحفظ فساعده ذلك على التمكن من اللغة والحديث والتفسير على الخصوص، وله تصانيف تنيف على أربعين مصنفًا، وتوفي وهو قاضٍ في زبيد سنة ٨١٧، وهذه أهم مؤلفاته:

(أ) القاموس: هو مختصر كتاب ألفه في اللغة سماه «اللامع المعلم العجاب الجامع بين المحكم والعباب» ضاع. أما القاموس فإنه من أكثر المعاجم تداولًا بين أيدي الكتاب وهو مرتب حسب أواخر الكلم، واسمه «القاموس المحيط والقابوس الوسيط الجامع لما ذهب من كلام العرب شماطيط»، وقد طبع في كلكتة سنة ١٨١٧ في مجلد، وبمصر سنة

١٢٧٤ في ٤ مجلدات وطبع بمصر مرارًا أخرى، وفي لكناو سنة ١٨٠٥، وفي بمباي سنة ١٢٧٢ وسنة ١٨٨٤، وفي الأستانة سنة ١٢٥٠ وسنة ١٣٠٤، ونقله إلى اللغة التركية أحمد عاصم، وطبع بمصر سنة ١٢٥٠ وسماه «الأوقيانوس البسيط في ترجمة القاموس المحيط»، ونقل إلى الفارسية وسمي «القاموس» لحبيب الله، منه نسخة خطية في المتحف البريطاني، وعليه شروح منها «القول المأنوس بتحرير ما في القاموس» لبدر الدين القرافي (١٠٠٨) منها نسخة في المكتبة الخديوية بخط المؤلف، وللقرافي في المكتبة المذكورة أيضًا كتاب آخر اسمه «القول المأنوس في مغلق القاموس»، وشرح الخطبة للمناوي في غوطا، وأشهر شروحه «تاج العرس» للسيد مرتضى الزبيدي الآتي ذكره.

وقد انتقده جماعة فذكر بعضهم ما فاته في مجلدات منها «ابتهاج النفوس بذكر ما فات القاموس» لبعض العلماء في ١٣٦ صفحة جمع فيها الألفاظ التي فاتت صاحب القاموس، وقد رتبها على ترتيبه، منها نسخة في المكتبة الخديوية، وألف آخرون في تخطئته كتبًا مستقلة منها «الدر اللقيط في أغلاط القاموس المحيط» لمحمد بن مصطفى الشهير بداود زاده المتوفى سنة ١٠١٧، منه نسخة في أيا صوفيا و«الجاسوس على القاموس» للشيخ أحمد فارس الشدياق المتوفى سنة ١٨٨٦ طبع في الأستانة سنة ١٢٩٩، و«إضاعة الأدموس ورياضة الشموس من اصطلاح صاحب القاموس» لعبد العزيز الحلي منه نسخة في مكتبة الجزائر، وانتقده غير هؤلاء مما يدل على أهمية هذا الكتاب في نظر العلماء ومنزلة مؤلفه من خواطرهم.

(ب) الجليس الأنيس في أسماء الخندريس (الخمر): ألفه لخزانة السلطان الملك الأشرف شعبان المتوفى سنة ٧٧٨ ذكر فيه أسماء الخمر وما جاء في تحريمها أو منعها في القرآن والحديث وأقوال الأئمة، منه نسخة في المكتبة الخديوية في ٢٤٢ صفحة.

(جـ) سفر السعادة: في الحديث ويعد من قبيل السيرة النبوية منه نسخة في المكتبة الخديوية في ٢٠٠ صفحة بخط جميل، في آخرها عهدة يقال: إنها كانت تعطى لأهل الذمة في صدر الإسلام يخالف نصها نص العهدة النبوية المشهورة، وتشبه من جهة أخرى صورة عهدة عمر التي يقال: إنه أعطاها لأهل الشام، ونشرناها في الجزء الرابع من تاريخ التمدن الإسلامي صفحة ٩٥.

(د) تحبير الموشين في ما يقال بالسين والشين: لتمييز الألفاظ المشتبهة بين هذين الحرفين، منه نسخة في المتحف البريطاني.

(هـ) البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة في برلين.

(و) المثلث المتفق المعنى، في الخزانة التيمورية.
(ز) الإشارات إلى ما في كتب الفقه من الأسماء والأماكن واللغات، في مكتبة فلايشر.
(ح) تحفة الأبيه فيمن نسب إلى غير أبيه، في مكتبة الجزائر.
(ط) رسالة في حكم القناديل النبوية، في مكتبة الجزائر.
(ي) مجمع السؤالات من صحاح الجوهري، في كوبرلي (ترجمته في الشقائق النعمانية على هامش ابن خلكان ٣٢ ج١).

(٣) **تاج الدين الإسفرائيني المتوفى سنة ٦٨٤:** صاحب كتاب «لباب الإعراب»، منه نسخة خطية في ليدن وفينا وأيا صوفيا والمكتبة الخديوية، وعليه شروح عديدة في مكاتب أوربا وللإسفرائيني، شرح المصباح للمطرزي اسمه ضوء المصباح، في برلين.

(٤) **أبو بكر الفراني القلاوشي:** من أهل الأندلس سنة ٧٠٧ صاحب كتاب «الختام المفضوض عن خلاصة العروض»، في الأسكوريال.

(٥) **الجاربردي فخر الدين المتوفى سنة ٧٤٦:** صاحب كتاب «المغني» في علم النحو، منه نسخة في برلين، وله شرح الشافية وشرح الكشاف في أكسفورد.

(٦) **فرج بن قاسم الشاطبي سنة ٧٨٢:** صاحب قصيدة لامية في النحو عليها شرح في المكتبة الخديوية.

(٧) **شمس الدين الزوالي:** من دولة آباد (٨٠٠) له شرح الكافية في بطرسبورج.

(٨) **أبو القاسم السمرقندي:** نحو سنة ٨٨٨ صاحب «فرائد الفوائد لتحقيق معاني الاستعارة»، وتعرف بالرسالة السمرقندية، منها نسخ في برلين وغوطا وعليها شروح عديدة منها شرح ابن عربشاه طبع في الأستانة سنة ١٨٣٧، وشروح أخرى للميموني والشوبري والكوراني والصبان والباجوري وغيرهم بعضها مطبوع ومشهور.

(٩) **ابن معروف من أهل القرن التاسع:** صاحب «كنز اللغة» في العربية والفارسية طبع على الحجر في فارس سنة ١٢٨٣، ومنه نسخة خطية في ليدن.

(١٠) **الشابستري النقشبندي:** (٩٢٠) صاحب «نهاية البهجة» أو التائية في النحو، عليها شرح في باريس.

التاريخ

إن التاريخ من أدل آداب اللغة على حالة الأمة؛ لأنه يدون أعمالها ويتكيف على ما تقتضيه أحوالها، فإذا كان تشتت المملكة الإسلامية وكثرة أصحاب السيادة فيها من الملوك والأمراء بعث على الإكثار من تدوين السير الإفرادية لأولئك العظماء، فاكتساح تلك المملكة ودخول كثير منها في حوزة المغول وذهاب الدول التي كانت تأخذ بناصر العلم والعلماء بعث على جمع تلك السير وأمثالها في كتب عامة للتراجم من كل الطبقات مرتبة على أحرف الهجاء، وهي المعاجم التاريخية مع إعمال الفكرة والترجيح بين الروايات، وزادت الرغبة في تدوين التاريخ العام للاعتبار بأحوال الدول بالنسبة بعضها إلى بعض، فنبغ في هذا العصر طائفة من المؤرخين لا يشق لهم غبار لا تزال كتبهم بين أيدينا وعليها معولنا في تحقيق الحوادث؛ ونظرًا لذهاب معظم الأصول التي نقلوا عنها أصبحت هي المرجع الوحيد في التاريخ.

ففي هذا العصر ظهر ابن خلكان صاحب وفيات الأعيان، وابن أبي أصيبعة صاحب طبقات الأطباء، وصلاح الدين الصفدي صاحب الوافي في الوفيات، وأبو الفداء صاحب التاريخ المشهور، وشمس الدين الذهبي صاحب تاريخ الإسلام، وابن شاكر الكتبي صاحب فوات الوفيات، وابن الطقطقي صاحب الآداب السلطانية، وابن خلدون والعسقلاني والمقريزي السيوطي وغيرهم من أساطين التاريخ، ونظرًا لذهاب الدالة والوساطة بذهاب الدولة المسيطرة على الآداب العربية واحتكاك الأفكار بتوالي الإحن مع كثرة الاختلاط دخل التاريخ شيء من الانتقاد والفلسفة ظهر ناضجًا في مقدمة ابن خلدون الآتي ذكرها.

(١) النقد التاريخي

نعني بالنقد التاريخي النظر في التاريخ بعين النقد، وبيان ما قد يعتوره من المغالط أو الأوهام، وهو آخر ما التفت إليه أدباء العرب من ضروب النقد، فإنهم بدأوا بنقد الشعر ثم الإنشاء واللغة وقد تقدم الكلام عنها، ونحن الآن في صدد الكلام على النقد التاريخي.

كان العرب في صدر دولتهم من أبعد الناس عن نقد التاريخ، وإنما كان همهم تحقيق الحوادث بالإسناد أو الرواية، فإذا جاءتهم الرواية مسندة إلى الثقات قبلوها ولم يكلفوا أنفسهم النظر فيها وتدبرها وانتقادها؛ ولذلك أسباب أهمها:

(١-١) الإسناد

إن الاشتغال بالتاريخ عند المسلمين كان الغرض منه أولًا خدمة الحديث والتفسير؛ لأنهم لما اشتغلوا في تفسير القرآن وجمع الأحاديث احتاجوا إلى تحقيق الأماكن والأحوال التي كتبت بها الآيات أو قيلت فيها الأحاديث فعمدوا إلى جمع السيرة النبوية ودونوها، واضطروا لتحقيق مسائل الحديث والفقه والنحو والأدب إلى البحث في أسانيدها والتفريق بين ضعيفها ومتينها، فجَرَّهم ذلك إلى النظر في الرواة وتراجمهم وسائر أحوالهم، وقسموا رواة كل فن إلى طبقات. فتألف من ذلك تراجم العلماء والأدباء والفقهاء والنحاة وغيرهم مما يعبرون عنه بالطبقات كطبقات الشعراء وطبقات المفسرين أو النحاة أو الفقهاء أو الحفاظ أو النسابين أو غيرهم، وكان ذلك من أهم أسس علم التاريخ، واضطروا لنحو هذا السبب في صدر الإسلام أن يبحثوا في البلاد المفتوحة لتحقيق أسباب الفتح عنوة أو صلحًا فجرهم ذلك إلى تعرُّف البلاد وعلة فتحها.[1]

واتخذوا في تحقيق ذلك كله نفس الطريقة التي توخوها في تحقيق الأحاديث، نعني الإسناد من راوٍ إلى راوٍ؛ ولذلك رأيت تواريخ القرون الإسلامية الأولى لا تخلو من الإسناد، والحادث الذي لا يزيد نصه على سطر واحد قد يستغرق إسناده بضعة أسطر، وقد يقتضي تحقيقه إيراد عدة روايات لكل منها أسانيد متعددة، فربما استغرق تحقيق الحادث المشار إليه صفحتين أو أكثر، وهم على الغالب يوردون الروايات بأسانيدها ولو كانت متناقضة ولا يبدون فيها رأيًا، وإنما يكتفون بإيرادها للقارئ على اختلاف رواياتها.

تلك هي طريقة الطبري في تاريخه، والبلاذري في فتوحه، والأغاني في رواياته، وأكثر الذين دونوا الحوادث التاريخية في القرون الإسلامية الأولى، ثم أخذوا يجردونها من الأسانيد شيئًا فشيئًا، لكنهم لم يتعرضوا لنقدها إلا بعد حين.

(١-٢) مجاراة المؤرخ لولاة الأمر

نعني اضطرار المؤرخ إلى مجاراة صاحب الأمر بما يريده؛ لأنه إنما يكتب لإرضائه ولا رزق له بدونه، وأكثر المؤرخين كتبوا بإيعاز من الخليفة أو السلطان أو الأمير وليس لهم يومئذ ما لكتاب هذا الزمان من وسائل الطبع والنشر والتعويل في الرزق على القراء من الجمهور، فالمؤرخ في تلك الأعصر لا مندوحة له عن مسايرة أميره وكتابة ما يوافق أغراضه وأمياله والإغضاء عما لا يرضيه، وقد يجاري أغراضه فيصور الحقائق على خلاف ما هي، فالمؤرخ في دولة العباسيين لا يمكنه الثناء على بني أمية وذكر محامدهم وآثارهم، وإذا كان الأمير من أهل السنة مثلًا وكان متعصبًا على سواها لا يسع مؤرخه انتقاد أئمتها والثناء على العلويين، ولا يسع السنيين ولا الشيعيين ذكر محامد المعتزلة أو الزنادقة؛ ولذلك ضاع كثير من أخبار هاتين الطائفتين ولم يصلنا من تراجم رجالهما إلا النزر اليسير؛ ولهذا السبب أيضًا ضاع كثير من أخبار بني أمية؛ لأن التاريخ لم يتم نضجه في أيامهم، فما كان مدونًا تحت عنايتهم محاه مؤرخو العباسيين أو شوهوه أو بدلوه.

ولذلك لا تجد في التواريخ التي كتبت تحت رعاية هذه الدولة ما يحفل به من محامد الأمويين أو الشيعة أو المعتزلة ولا عيوب العباسيين، وإنما تجد ذلك متفرقًا عرضًا في كتب الأدب أو الرحلة أو غيرها مما لم تصل إليه نقمة ولاة الأمر، أو في كتب الفِرَق الأخرى المخالفة لهم، كل فرقة تذكر عيوب سواها وتخفي عيوب نفسها، فإذا عرضت لك حقيقة تاريخية عن إحدى هذه الفرق وأشكل عليك تعليلها ابحث عنها في كتب الفِرق الأخرى، فإنك في الغالب تجدها مطولة واضحة، وكثيرًا ما وقف ذلك عقبة في أبحاثنا التاريخية فتوخينا المقابلة بين الأقوال المختلفة فانكشفت لنا الحقيقة؛ لأنك لا تجد عيوب الخلفاء العباسيين إلا في كتب الشيعة أو في بعض كتب الأدب إذا كان كتَّابها بعيدين عن بغداد أو هم في غنى عن خلفائها كصاحب الأغاني والمسعودي أو من كتب بعد ذهاب دولتهم وهو على غير رأيهم كالفخري.

وكثيرًا ما يغضي المؤرخ عن عيوب وجيه أو وزير له عليه يد فلا يذكره بغير الثناء عليه أو هو يعدد فضائله ويغضي عن سيئاته، وتبقى هذه السيئات متناقلة على الألسنة حتى يدونها من يأتي بعد ذهاب دولة ذلك الوزير أو بعد تقلب الأحوال وهو حي كترجمة الصاحب بن عباد في يتيمة الدهر وفي معجم الأدباء، ولولا ضيق المقام لأتينا بالأمثلة الكثيرة، وربما فعلنا ذلك في مكان آخر.

(١-٣) تنزيه بعض العظماء عن الخطأ

ومما يزيد التاريخ تشويشًا من هذا القبيل رغبة بعض الكتاب في تنزيه الخلفاء ونحوهم عن الخطأ، فإذا وقع لهم كتاب فيه طعن بأحدهم أنكروه وتواصلوا بإزالته، وقد لا يكون من ذلك الكتاب إلا نسخ قليلة يسهل عليهم إعدامها، وإذا لم يستطيعوا ذلك اكتفوا بنزع المطاعن من النسخ التي بين أيديهم وزعموا أن ما يوجد في سواها دخل عليها من وضع الوراقين أو النساخين. وكثيرًا ما اتهم النساخون بذلك، وقد تكون التهمة في محلها كما تكون في غير محلها، ولكنهم يتذرعون بها إلى نزع ما يطعن في نزاهة من يريدون تنزيهه من كبرائهم وذويهم، وقد فعلوا ذلك في بعض ما نشر من الكتب بالطبع في القرن الماضي، فحذفوا منها قطعًا تراءى للناشر أنها تسيء بعض الأقوام، ولا تزال هذه القطع موجودة في نسخ خطية أخرى، وقد يطبع الكتاب الطبعة الأولى كاملًا فيحذفون منه شيئًا في الطبعة الثانية لاعتبار ديني أو سياسي.

وقد جرى ذلك في نشر كتاب تاريخ مختصر الدول لأبي الفرج الملطي بين طبعتيه في أوكسونبا وبيروت، فإذا تيسر وقوع التبديل اليوم في كتاب طبع ونشر، فكيف قبل ظهور الطباعة والأمير صاحب الأمر يفعل ما يشاء؟ أما إذا لم يتيسر لهم نزع المطاعن فإنهم يسيئون الظن بالمؤرخ ويتهمونه بالكذب أو الخيانة أو العصبية.

(١-٤) الوصف والتصوير

وزد على ذلك أن أولئك المؤرخين كان أكثر معولهم في تعريف أبطال التاريخ على الأوصاف المجردة من إطراء أو إعجاب، ويندر أن يشيروا إلى وصف المظاهر الطبيعية أو الصناعية أو الأبنية أو غيرها من المرئيات ولا كانوا يصورون المواقع ولا الرجال لأسباب ذكرناها في كلامنا عن التصوير في الإسلام من هذا الكتاب، فترتب على ذلك نقص هام في التاريخ

العربي لخلو كتبه من الخرائط والرسوم أو الصور المنقولة عن الطبيعة ولا سيما في إبان التمدن الإسلامي، إلا ما وضعه بعض أصحاب التقاويم أو الجغرافية من الخرائط وأكثرها ضاع، ولكنك تجد كتب المتأخرين في العصر المغولي وما بعده تشتمل على بعض الرسوم الموضحة للفنون الحربية كما ستراه في مكانه، فهذا النقص وأمثاله من بواعث الإبهام والغموض والمناقضة تبعث على إعمال الفكرة لاستخراج الأسباب وتحقيق الوقائع، لكن كتَّاب العرب لم يتعرضوا لشيء من ذلك إلا بعد زوال الدول المسيطرة ونضج المبادئ الانتقادية في نفوسهم، ولا يبعد أن يكون بعض الكتاب المتقدمين في العصر العباسي كتب انتقادًا لم يصلنا، لكن المشهور أن القوم صرفوا قرائحهم الانتقادية إلى الأبحاث الكلامية أو الفقهية أو الشعرية مما لا يسيء الخليفة ولا الأمير، بخلاف الانتقاد التاريخي فإنه لا يخلو من إساءة.

(١-٥) مقدمة الفخري

ومن أقدم الذين تصدوا للنظر في التاريخ نظر الانتقاد والتدبر أو نشروا شيئًا يسيء صاحب الأمر أبو الفرج الأصبهاني في كتاب الأغاني، وابن مسكويه في كتاب تجارب الأمم، والمسعودي في مروج الذهب، ولا نجد في هذه الكتب شيئًا كثيرًا مجموعًا في باب ولكنك تراه يتجلى في بعض المواضع، وهو أكثر وضوحًا في الآداب السلطانية للفخري المتوفى سنة ٧٠١. والرجل كتب بعد ذهاب الدولة العباسية وكان شيعيًّا وهو عاقل نقاد، فصدر كتابه بمقدمة انتقادية استرسل فيها بتقرير الحقائق التاريخية بلا ملاحظة ولا مراعاة لا يبالي أن ينحي بالطعن عند الحاجة. وجاء ذكر الرشيد في عرض كلامه وأورد البيت الذي قاله فيه أبو نواس وهو:

قد كنت خفتك ثم أمنني   من أن أخافك خوفك الله

فعقب على ذلك بقوله: «لم يكن الرشيد يخاف الله وأفعاله بأعيان علي عليه السلام وهم أولاد بنت نبيه لغير جرم تدل على عدم خوفه من الله تعالى، لكن أبا نواس جرى في ذلك على عادة الشعراء»، فمثل هذا التصريح لم يجرأ عليه مؤرخ تحت رعاية العباسيين. وفي مقدمة الفخري هذه انتقادات على مصنفي الكتب لتوخيهم الفصاحة والبلاغة حبًّا بالظهور والمباهاة لا حبًّا بإفادة القراء، وأتى بالأمثلة على ذلك، وقبح عادة القوم يومئذ

في تحريض الشبان على حفظ المقامات لما تحويه من حوادث الحيل التي تصغر الهمم؛ لأنها مبنية على السؤال والاستجداء والتحيل القبيح، فإن نفعت من جانب اللغة أضرت من جانب الأخلاق، وهي انتقادات راقية جديرة بالاعتبار حتى في هذا العصر.

(١-٦) مقدمة ابن خلدون

فمقدمة الفخري هذه من قبيل الانتقاد التاريخي، لكن ابن خلدون خطا في مقدمته خطوة أخرى، فصدرها بفصل طويل في التاريخ وتحقيق مذاهبه مع ما يعرض للمؤرخين من المغالط والأوهام وأسبابهما، يدخل في نيف وعشرين صفحة كبيرة جزيل الفائدة، لكنه لم يسلم من آثار الرغبة في تنزيه العباسيين عن العيوب، فأنحى باللائمة على من زعم أن الرشيد أسرف أو أترف في الملابس والزينة وأنكر قول بعض المؤرخين أن العباسيين كانوا في صدر دولتهم يقتنون الحلي من الذهب أو غيره في لباسهم أو ركوبهم؛ لأن أول من أحدث الركوب بحلية الذهب المعتز بن المتوكل ثامن الخلفاء بعد الرشيد، وأن هذا كان حالهم أيضًا بملابسهم، لكنه عاد فغالط نفسه في نفس تلك المقدمة في باب انتقال الدولة من البداوة إلى الحضارة، وأشار إلى ما أنفقه المأمون في عرسه فذكر أنه أعطى عروسه في مهرها ليلة زفافها ألف حصاة من الياقوت وأوقد شموع العنبر وبسط لها فرشًا كان الحصير منها منسوجًا بالذهب مكللًا بالدر والياقوت. والمأمون ثاني الخلفاء العباسيين بعد الرشيد لا ثامنهم، واعتبر ذلك أيضًا في مواقف أخرى كدفاعه عن نسب عبيد الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية وغيره.

لكن هذا لا يقلل فضل ابن خلدون في فتحه باب الانتقاد التاريخي، وقد اقتدى به غيره بعده، وإن لم يتناول انتقادهم تراجم المعاصرين أو تدوين الحوادث الجارية في زمن المؤلف إلا قليلًا. للسبب الذي قدمناه من افتقار المؤرخين إلى الارتزاق من الذين يؤرخونهم؛ لأن المؤرخ كان يؤلف تاريخه غالبًا لصاحب الأمر في عصره تزلفًا إليه والتماسًا لعطائه، وإذا لم يكن يرجو عطاء وقال الحقيقة فلا يأمن غضبه. ولذلك ظل الناقدون من المؤرخين في اللغة العربية قليلين إلى عهد غير بعيد.

(١-٧) فلسفة التاريخ

ويدخل في الانتقاد التاريخي تدبر الحوادث التاريخية واستخراج الأحكام العامة منها وهي فلسفة التاريخ، وهذه قليلة عند مؤرخي العرب قد تجد نتفًا منها في خلال كتب السياسة أو الحكمة أو نحوها عرضًا في سبيل النصح أو العبرة أو نحو ذلك، وأول من أطال في هذا الباب أبو بكر الطرطوشي المتوفى سنة ٥٢٠ في كتابه «سراج الملوك»، فإنه وضع للسياسة قواعد وللحكومة شروطًا مبنية على تدبر الحوادث التاريخية لكنه لم يجعل ذلك علمًا ولا بناه على الأدلة المعقولة، ولا توسع به حتى يصح أن ينسب إليه، وهكذا يقال في سائر من نحا نحوه من أصحاب كتب السياسة أو كتب الأخلاق والآداب أو في مقدمات كتب التاريخ كما فعل الفخري وغيره.

وإنما يرجع الفضل في استنباط هذا العلم إلى ابن خلدون، فإنه وضع في فلسفة التاريخ علمًا سماه «طبيعة العمران في الخليقة» فصَّله في مقدمة تاريخه تفصيلًا لم يسبقه أحد إلى مثله، وقد ذكرنا قوله إنه مستنبط هذا العلم، وإليك تصريحه بذلك أيضًا في صدر مقدمته، قال: «ونحن ألهمنا الله إلى ذلك إلهامًا، وأعثرنا على علم جعلنا بين بكره وجهينة خبره، فإن كنت قد استوفيت مسائله وميزت عن سائر الصنائع أنظاره وإنحاءه فتوفيق من الله وهداية، وإن فاتني شيء في إحصائه واشتبهت بغيره مسائله فللناظر المحقق إصلاحه، ولي الفضل لأني نهجت له السبيل وأوضحت له الطريق والله يهدي بنوره من يشاء»، وسنأتي على تفصيل ذلك عند كلامنا عن هذه المقدمة.

(٢) المؤرخون

ونقسم المؤرخين في هذا العصر نحو ما قسمناهم في العصر الماضي حسب المواطن، فهم بهذا الاعتبار قسمان كبيران:

(١) مؤرخو مصر والشام.
(٢) مؤرخو سائر البلاد.

ويقسم مؤرخو مصر والشام إلى أقسام باعتبار مواضيع كتبهم إلى مؤرخي السِّير والأفراد وأصحاب التراجم ومؤرخي البلاد والدول وأصحاب التاريخ العام، فلنبسط الكلام في كل باب على حدة حسب سني الوفاة:

(٢-١) مؤرخو مصر والشام

أولًا: أصحاب السير

(١) **ابن عبد الظاهر (توفي سنة ٦٩٣هـ):** هو عبد الله بن عبد الظاهر بن نشوان بن عبد الظاهر بن نجدة الجذامي المصري القاضي محيي الدين، ولد سنة ٦٢٠ وكان كاتبًا وشاعرًا تحدى القاضي الفاضل في أسلوبه، وله رسائل ذكر أمثلة منها صاحب فوات الوفيات في ترجمته (٢١٢ ج١) وجاء بأمثلة من نظمه، وإنما اشتهر بتاريخه «الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة»، ومنها استقى المقريزي في تأليف خططه. وقد ذكرها كشف الظنون ولا نعلم محل وجودها أو لعلها ضاعت، وإنما وصلنا من مؤلفات ابن عبد الظاهر:

(أ) سيرة السلطان الملك الظاهر بيبرس، المتوفى سنة ٦٧٦هـ منظومة شعرًا منها نسخة في المتحف البريطاني، وأخرى في مكتبة محمد الفاتح بالأستانة، وقد وضعها نثرًا شافع العسقلاني المتوفى سنة ٧٣٠ في كتاب سماه «المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية» في ليدن.

(ب) الألطاف الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الأشرفية: وهو تاريخ مصر في زمن السلطان الملك الأشرف خليل بن قلاوون (٦٨٩–٦٩٣) ألفها في أيامه ورتبها على السنين، منها الجزء الثالث في منشن بخط المؤلف يبدأ بحوادث الشهر الثالث من السنة ٦٩٠ إلى ٢٧ محرم سنة ٦٩١ وقد طبعت في أوربا.

(ج) مقامة في مصر والنيل، في برلين (فوات الوفيات ٢١٢ ج٢).

(٢) **ابن سيد الناس (توفي سنة ٧٣٤هـ):** هو فتح الدين اليعمري الأندلسي من كبار المحدثين أصله من إشبيلية، وولد في القاهرة سنة ٦٦١ وأقام في دمشق ثم عاد إلى القاهرة ودرس في المدرسة الظاهرية، وكان من بيت رئاسة وعلم وأدب وشعر، يهمنا من مؤلفاته:

(أ) عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير: في غزوات سيد ربيعة ومضر وفي شمائله إذ هي أشرف شمائل البشر، هو من مطولات السيرة النبوية استخرجه مما كُتب من هذه السيرة قبله، منها نسخ في برلين وغوطا وباريس وأيا صوفيا وكوبرلي

والمتحف البريطاني، وفي المكتبة الخديوية نسخة في مجلدين صفحاتهما ١١٢٠ صفحة كبيرة وفيها فوائد هامة لا توجد في سواها، وقد اختصرها هو بكتاب سماه «نور العيون في تلخيص سيرة الأمين والمأمون» منه نسخة في المكتبة الخديوية في جزء صغير، ولها مختصرات أخرى، وعليها شرح اسمه «نور النبراس على سيرة ابن سيد الناس» لسبط بن العجمي في برلين وباريس، وفي المكتبة الخديوية منه جزءان.

(ب) بشرى اللبيب في ذكرى الحبيب: هي قصيدة في مدح النبي طبعت في ستراليسوندي سنة ١٨١٥ وغيرها.

(فوات الوفيات ١٦٩ ج٢ والدرر الكامنة ج٣ وطبقات الحفاظ ٧٠).

(٣) **ابن عربشاه (توفي سنة ٨٥٤هـ):** هو أحمد بن محمد بن عبد الله شهاب الدين بن شمس الدين الدمشقي الرومي، ويعرف بابن عربشاه وبالعجمي، ولد سنة ٧٩١ بدمشق ونشأ فيها وهرب مع أمه وأخوته إلى بلاد الروم ومنها إلى سمرقند وبلاد الخطا، وأقام في تركستان وتلقى العلم على شيوخ تلك البلدان وغيرهم، ثم نزح إلى المملكة العثمانية في آسيا الصغرى وخدم سلطانها محمد الأول (تولى سنة ٨٠٥–٨٢٤) فنقل له بعض الكتب من الفارسية إلى التركية، وتولى ديوان الإنشاء وكتب عنه إلى ملوك الأطراف عربيها وفارسيها وتركيها، فلما مات السلطان المذكور عاد ابن عربشاه إلى الشام، فأقام في حلب وقد تزايدت معارفه وانقطع للمطالعة في الفقه والبيان، ونزح إلى القاهرة في زمن الملك الظاهر جقمق (تولى سنة ٨٤٢–٨٥٧) حتى مات سنة ٨٥٤ في الخانقاه بالصالحية، وكان بارعًا في النظم والنثر وسائر العلوم يكتب في اللغات الثلاث العربية والفارسية والتركية وأتقن الخط، وهذه أشهر مؤلفاته التي وصلت إلينا:

(أ) عجائب المقدور في نوائب تيمور: هو تاريخ تيمورلنك الفاتح المغولي بسط فيه حال ذلك الطاغية وما ارتكبه في أثناء حروبه من الفظائع وقد عاصره وسمع به، وهو مسجع العبارة، طبع بمصر مرارًا، ونقل إلى اللاتينية وطبع غير مرة في مجلدين في ليدن وباريس وأوكسفورد.

(ب) التأليف الطاهر في شيم الملك الظاهر (جقمق): في جزءين منه نسخة في المتحف البريطاني، بعضه في سيرة هذا السلطان والبعض الآخر في التاريخ العام من سنة ٨٤١–٨٤٣، ومنه نسخة في المكتبة الخديوية بين كتب زكي باشا.

(ج) فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء: في الأدب على ألسنة الحيوانات نحو كتاب كليلة ودمنة منقولة عن مرزبان نامة نثرًا مسجعًا، منها نسخ في أهم مكاتب أوربا والمكتبة الخديوية، وقد طبعت في الموصل سنة ١٨٦٩ وفي مصر مرارًا وفي بونا سنة ١٨٣٢.
(د) مرزبان نامة، تشبه المتقدم ذكرها، طبعت في مصر على الحجر سنة ١٢٧٨.
(هـ) جلوة الأمداح الجمالية في حلتي العروض العربية، قصيدة في ١٨٣ بيتًا في برلين.

(٤) **القسطلاني (توفي سنة ٩٢٣هـ):** هو الإمام شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد القسطلاني القتيبي المصري من المحدثين المشاهير، ولد في القاهرة وحج إلى مكة مرتين، وقد ذكرناه هنا؛ لأنه ألف في السيرة النبوية كتابًا نفيسًا، وهاك ما يهمنا ذكره من مؤلفاته:

(أ) المواهب اللدنية في المنح المحمدية: هو كتاب جليل القدر ليس له نظير في بابه، رتبه على عشرة مقاصد في نسب النبي وولادته ورضاعه ومغازيه وسراياه مرتب على السنين إلى وفاته، وفيه فصول في أسمائه وأولاده وأزواجه وأعمامه وخدمه ومعجزاته وخصائصه، فرغ من تبييضه سنة ٨٩٩، وطبع في القاهرة سنة ١٢٨١ وغيرها، وعليه عدة شروح منها شرح الزرقاني (١١٢٢) طبع بمصر سنة ١٢٧٨ في ثمانية مجلدات، وقد ترجمت المواهب اللدنية إلى التركية وطبعت بالأستانة سنة ١٢٦١.
(ب) إرشاد الساري إلى شرح البخاري: طبع بمصر سنة ١٣٠٦ في عشرة مجلدات وله مؤلفات في الحديث أغضينا عنها (الخطط التوفيقية ١١ ج٦).

سير أخرى

(٥) **سبك النضار وكسب المفاخر ونثر الدرر ونظم الجواهر:** في سيرة المعز الأشرف السيفي أقباي، لعبد الله بن محمد بن عبد الله التركي الغزي، هو أقرب إلى كتاب مدائح منه إلى سيرة أو ترجمة، منه نسخة من جملة كتب زكي باشا في المكتبة الخديوية.
(٦) **تاريخ السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون وبنيه:** لشمس الدين الشجاعي، منه جزءان في برلين من سنة ٧٣٧–٧٤٥.
(٧) **الدر النضيد في مناقب الملك الظاهر أبي سعيد:** لمحمد بن عقيل في برلين.

(٨) **الدرة المضية في الدولة الظاهرية:** هي سيرة السلطان برقوق لمحمد بن صرصراء، ألفها نحو سنة ٨٠٠ منها نسخة في أكسفورد.

(٩) **الدر الثمن في سيرة نور الدين (زنكي):** لبدر الدين محمد بن الشهيد الدمشقي (غير الآتي ذكره) كتبها سنة ٨٧٤ منها نسخة في أكسفورد.

(١٠) **تاريخ الملك الأشرف قايتباي:** في أكسفورد، ليس عليه اسم المؤلف.

(١١) **إيضاح الظلم وبيان العدوان:** في تاريخ النابلسي الخارج الخوان للحسن بن أحمد بن عربشاه وهو ابن شهاب الدين المتقدم ذكره فيها دفاع عن سكان دمشق ضد إبراهيم النابلسي الذي استبد فيها في القرن التاسع للهجرة.

ثانيًا: المعاجم التاريخية في مصر والشام

(١) **ابن أبي أصيبعة (توفي سنة ٦٦٨هـ):** هو موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن أبي أصيبعة السعدي الخزرجي، ولد في دمشق سنة ٦٠٠ وكان أبوه طبيبًا يعالج الرمد فيها فتلقى الطب عنه ثم أتم العلم في المارستان الناصري في القاهرة، وانتظم في خدمة الدولة الأيوبية، ونال المناصب في دولتهم ودعاه عز الدين أيدمر إلى صرخد فرحل إليه، وتوفي هناك سنة ٦٦٨ واشتهر بكتابه في التراجم المسمى: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ألفه لأمين الدولة وزير الملك الصالح وهو من خيرة كتب التراجم، لا يشبهه منها إلا كتاب أخبار الحكماء للقفطي المتقدم ذكره، لكنه أوسع منه وأوفر مادة، ويختلف عنه أن التراجم فيه غير مرتبة على الأبجدية كما في ذاك بل هي مرتبة حسب البلاد وأطباء كل بلد حسب الوفاة من أقدم أزمنة التاريخ إلى أيامه. طبع في كونكسبرج سنة ١٨٨٤ بعناية المستشرق مولر الألماني نقلًا عن نسختين في إحداهما زيادات لبعض تلامذته، وطبع في مصر ١٢٩٩ في مجلدين كبيرين.

يشتمل الأول منهما على تراجم أطباء اليونان إلى ظهور الإسلام، وتراجم أطباء العرب في صدر الإسلام وأطباء السريان في الدولة العباسية ونقلة العلم من اليوناني والسرياني إلى العربي، والأطباء الذين ظهروا ببلاد العجم من مسلمين وغيرهم، وفي الجزء الثاني تراجم من بقي من أطباء العجم وأطباء الهند وبلاد المغرب ومصر والشام، وربما زادت التراجم فيه على ٤٠٠ ترجمة لأشهر الأطباء والحكماء والفلاسفة ونحوهم مما لا يستغنى عنه في تاريخ آداب اللغة العربية، فضلًا عما يشتمل عليه من الفوائد

الاجتماعية والأدبية والاقتصادية، وقد عول المستشرق لاكلارك عليه وعلى أخبار الحكماء في تأليف كتابه «تاريخ الطب العربي» في اللغة الفرنساوية، طبع في باريس سنة ١٨٧٦.

وترجمه ابن أبي أصيبعة في الجزء الثاني من كتاب لاكلارك المذكور صفحة ١٨٧.

(٢) **ابن خلكان (توفي سنة ٦٨١هـ):** هو قاضي القضاة شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان الأربلي أحد الصدور العظام من بيت كبير في العراق ينتسب إلى البرامكة، ولد سنة ٦٠٨ في إربل وخرج منها سنة ٦٢٦، ودخل حلب أقام فيها سنتين وتنقل في غيرها حتى استقر في دمشق سنة ٦٣٣، وتولى قضاء الشام ودرس في عدة مدارس ورحل إلى الإسكندرية ومصر وأقام فيها سنة ٦٣٧ ثم عاد إلى الشام يدرس في المدرسة الأمينية بدمشق، وتوفي وهو ابن ٧٣ سنة، وكان له نظم حسن ومحاضرات في غاية الجودة وإنما اشتهر بكتابه: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان مما ثبت بالنقل أو السماع أو أثبته العيان: هو معجم تاريخي قال في مقدمته: إنه كان مولعًا بالاطلاع على أخبار المتقدمين فجمع منها شيئًا كثيرًا وتعب في تحقيق وفياتهم ومواليدهم، فنقل عمن سبقه وأخذ من أفواه الأئمة المعاصرين، قضى في ذلك عدة سنين فاجتمع عنده تراجم كثيرة فرتبها على الأبجدية لتسهل مراجعتها، ولم يذكر من الصحابة ولا التابعين إلا جماعة قليلة دعت الحاجة إلى ذكرهم، وكذلك الخلفاء لم يذكر أحدًا منهم اكتفاء بالمصنفات الكثيرة في هذا الباب، وترجم ما خلا ذلك من العلماء والملوك والأمراء والوزراء والشعراء وكل من له شهرة بين الناس يقع السؤال عنه، وقد بذل العناية في تحقيق نسب كل واحد وسنة ولادته وسنة وفاته، وهذا من مميزات كتابه، ويمتاز أيضًا بتقييده الأعلام بالحركات وتعريف الأمكنة والأشخاص مما يفتقر إليه طالب التاريخ، وفرغ من تأليفه سنة ٦٧٢. لم يخلف ابن خلكان غير هذا الكتاب لكنه يساوي مئات من الكتب وهو ذخيرة علم وأدب وتاريخ ولغة، جمع فيه زبدة ما ألفه العلماء قبله في تراجم الرجال وأضاف إليه ما عرفه هو من معاصريه وحقق ودقق، وتجد في خلاله كثيرًا من دلائل العناية في الضبط والروية، تزيد عدد التراجم فيه على ثمانمائة ترجمة، وإنما ينتقد عليه أنه رتب الأعلام على أسماء أصحابها وإن لم يشتهروا بها كما فعل أكثر أصحاب المعاجم التاريخية في ذلك العصر، فهم يترجمون ابن سينا مثلًا بباب الحاء لأن اسمه الحسين، وصلاح الدين الأيوبي بباب الياء؛ لأنه اسمه يوسف، على أن هذا يمكن استدراكه بوضع فهرس أبجدي بعد الطبع. طبع هذا الكتاب في باريس سنة ١٨٣٨–١٨٤٢ وفي غوتنجن سنة ١٨٣٥–١٨٤٣ وفي مصر مرارًا، وهو شائع متداول وعليه معولنا في تحقيق كثير من التراجم.

والظاهر أن المخطوطات التي نشرت هذه الطبعات عنها كان ينقصها بعض التراجم؛ لأن صاحب كشف الظنون ذكر أن عدد التراجم فيه ٨٤٦ ترجمة وليس في النسخ المطبوعة أكثر من ٨٢٥ ترجمة، ويؤيد ذلك أنهم عثروا في مكتبة أمستردام على ١٣ ترجمة جديدة طبعوها في أمستردام مع ترجمة لاتينية سنة ١٨٤٥ وهي تراجم أبي العباس القسطلاني وحاتم الأصم وابن مسكين والحسن بن علي وشبيب بن شيبة وشعبة بن الحجاج وشعيب بن حرب وأبي وائل الأسدي وصالح بن عبد القدوس وصالح بن بشر وأم المؤمنين عائشة وعافية بن زيد وعبد الله بن عباس، ولا يبعد أن يظفروا بتراجم أخرى، ويا حبذا لو أضيفت هذه الزيادات إلى الطبعات الأولى.

ونظرًا لأهمية هذا الكتاب فقد اهتمت الأمم بنقله إلى ألسنتها، فنقله إلى الفارسية يوسف بن عثمان سنة ٨٩٥ في المتحف البريطاني، وابن أويس اللطيفي في أكسفورد، وترجمه إلى الإنكليزية دي سلان ونشر في لندن سنة ١٨٤٢–١٨٧١ في أربعة مجلدات ضخمة، ونشر بعضه مع ترجمة لاتينية في ليدن سنة ١٩٠٨، واشتغل كثير من الأدباء في اختصاره والتذييل عليه أو انتقاده، وقد فصل ذلك صاحب كشف الظنون في أماكن كثيرة، فمن مختصراته مختصر لابنه موسى في المكتب الهندي بلندن، وآخر للبارزي في باريس وآخر لابن حبيب الحلبي في برلين، وأما ذيوله فأشهرها «تالي وفيات الأعيان» للموفق فضل الله بن فخر الصقاعي في تراجم من توفي بمصر والشام من سنة ٦٦٠–٧٢٥ منه نسخة في باريس، و«فوات الوفيات» لمحمد بن شاكر الكتبي الآتي ذكره، و«التجريد» في مختصر تاريخ ابن خلكان لوحدي بن إبراهيم المتوفى سنة ١١٢٦ منه نسخة في المكتبة الخديوية في ١١٢ صفحة بخط المؤلف، وممن انتقده تاج الدين المخزومي المتوفى سنة ٧٤٣، فإنه ذيل عليه ٣٠ ترجمة وزيف كلامه وفضل ابن الأثير عليه، وقد شنع عليه بعض المؤرخين من جهة اختصاره تراجم كبار العلماء وتطويله في تراجم الشعراء والأدباء، لكن ذلك لم يقلل شيئًا من قدر هذا الكتاب النفيس (ترجمته في فوات الوفيات ١٥٥ وابن خلكان ٤٢٢ ج٢).

ابن خلكان آخر: وفي مكتبة أكسفورد كتاب اسمه «التاريخ الأكبر في طبقات العلماء وأخبارهم» ينسب إلى بهاء الدين محمد بن محمد بن خلكان المتوفى سنة ٦٨٣، فلعله أخوه.

(٣) **الادفوي (توفي سنة ٧٤٨هـ):** هو كمال الدين جعفر بن ثعلب الأدفوي، كان فقيهًا ولغويًّا ولد سنة ٦٨٥ وعاش في قرية بجوار القاهرة حتى توفي سنة ٧٤٨ أهم مؤلفاته:

(أ) الطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد، يشتمل على تراجم مشاهير عصره في الصعيد، رتبه على حروف المعجم، وصدره بمقدمة في هذا الإقليم مع ذكر محاسنه ثم ترجم نجباءه. فرغ من تأليفه سنة ٧٣٨ بالقاهرة. منه نسخة في المكتبة الخديوية في نحو ٦٨٠ صفحة، ومنه أيضًا نسخ في أكسفورد وباريس، وقد استعان في تأليفه بكتاب المقال المخصوص في مدح مدينة قوص لمحمد بن أفضل الدين القدسي المخزومي القوصي منه نسخة في غوطا.

(ب) البدر السافر وتحفة المسافر، في تراجم مشاهير القرن السابع للهجرة في فينا.

(ج) الإمتاع بأحكام السماع، بحث في ضروب الغناء من حيث جوازه أو تحريمه وفيه فوائد موسيقية عن آلات العزف والضرب، في المكتبة الخديوية ٣٣٢ صفحة.

(د) فرائد الفوائد ومقاصد القواعد في الفروض، في غوطا (الدرر الكامنة ج١).

(٤) **صلاح الدين الصفدي (توفي سنة ٧٦٤هـ):** هو صلاح الدين أبو الصفاء خليل بن أيبك الصفدي، ولد في صفد سنة ٦٩٦هـ وتلقى العلم في دمشق عن ابن نباتة الشاعر المتقدم ذكره وعن أبي حيان اللغوي وابن جماعة والمزي الفقيهين، وتولى ديوان الإنشاء في صفد والقاهرة ثم في حلب، وتولى وكالة بيت المال في دمشق ومات هناك سنة ٧٦٤، وهو من أعظم كُتاب العصر المغولي ومن أوسعهم علمًا وأكثرهم عملًا، ألف في مواضيع شتى وعلى أساليب حسنة وغلبت عليه التراجم التاريخية نذكر ما وقفنا على خبره منها:

(أ) الوافي في الوفيات، هو معجم للتراجم لعله أكبرأن هذا الكتاب النفيس لا يوجد كاملًا المعاجم التاريخية المعروفة من نوعه، يدخل في نحو خمسين مجلدًا جمع فيه تراجم الأعيان ونجباء الزمان ممن وقع عليه اختياره، فلم يغادر أحدًا من أعيان الصحابة والتابعين والملوك والأمراء والقضاة والقراء والمحدثين والفقهاء والمشايخ والصلحاء والأولياء والنحاة والأدباء والشعراء والأطباء والحكماء وأصحاب النحل والبدع والآراء وأعيان كل فن ممن اشتهر أو أتقن إلا ذكره، وذكر كل من فتح فتحًا يسره أو خبرًا قرره أو جودًا أرسله أو رأيًا أعمله أو حسنة أسداها أو سيئة أبداها أو بدعة سنها وزخرفها أو كتابًا وضعه أو تأليفًا جمعه أو شعرًا نظمه أو نثرًا حكمه، رتبه على أحرف الهجاء

لكنه بدأ بالمحمدين، وأتم بعدهم حرف الميم ثم عاد إلى الألف فما بعدها، ويأتي في آخر ترجمة كل اسم بأسماء الذين اشتهروا بذلك الاسم ولهم أسماء أخرى، فيشير إلى أماكن تراجمهم من الكتاب وبأي اسم ترجمهم فيه.

ومن موجبات الأسف أن هذا الكتاب النفيس لا يوجد كاملًا في مكان واحد، وربما لا يتيسر جمع نسخة كاملة من الأجزاء المتفرقة في المكاتب التي بلغنا خبرها، فمنه قطعة بخط المؤلف في غوطا وتسعة أجزاء غير متناسقة في مكتبة تونس، والجزء الأول في فينا والأجزاء ٣ و٩ و٢٤ و٢٥ في المتحف البريطاني، و٥ و٦ و١١ و١٣ و١٤ و١٥ و١٦ و٢٠ و٢١ و٢٤ و٢٦ في أكسفورد، والثامن والخامس عشر في باريس، ومنه ٤ أجزاء في مكتبة حلب وسبعة أجزاء في نور عثمانية، ووقفنا في الخزانة التيمورية على ستة أجزاء منه وهي: الأول ينقص من أوله والثالث يبدأ بترجمة محمد بن عبد وينتهي بترجمة المنذر بن سعيد، والخامس من ترجمة إبراهيم إلى أحمد والسادس من أحمد بن سلام إلى أحمد بن محمد، والأجزاء ١٢ و١٣ و١٤ تبدأ بحيدر بن مسرور وتنتهي بعباد بن محمد، وصفحات الأجزاء الستة المذكورة ١٧٣٠ صفحة كبيرة بخط مغربي، وفي هذه الخزانة أيضًا نسخة أخرى من الجزء الأول منقولة عن مكتبة حلب في ١٥١٦ صفحة، فاعتبر كم يكون مجموع صفحاته كلها، فلا غرو إذا قلنا: إنه أكبر كتب التراجم، وقد طبعت مقدمة هذا التاريخ في المجلة الآسيوية الفرنساوية سنة (١٩١١–١٩١٢)، ونشرت في كتاب على حدة مع ترجمة فرنساوية لإميل أمار، ولا يبعد أن توجد من هذا المعجم نسخة كاملة في بعض المكاتب الخصوصية البعيدة، فمن علم بذلك وأعلنه لأصحاب الشأن فإنه يخدم آداب اللغة العربية خدمة حسنة.

(ب) التذكرة الصلاحية: هي مطول في الأدب والشعر في ٣٠ مجلدًا مرتب نحو ترتيب كتاب المستطرف حسب المواضع، وفيه كثير من الفوائد التاريخية والاجتماعية، ويقسم إلى أبواب في أنواع الفضائل والرذائل، وفيه كثير من تراجم الشعراء والأدباء، لا يوجد منه نسخة كاملة في مكان نعرفه ولكن منه أجزاء متفرقة في غوطا وأكسفورد والمتحف البريطاني، وفي المكتبة الخديوية أربعة أجزاء غير متتالية تدخل في نحو ألف صفحة بخطوط مختلفة، ويظهر من اسمها وترتيبها أنه ألفها كالمذكرة للكاتب يرجع إليها إذا أراد اقتباس الأقوال أو الأشعار في موضوع يريد الكتابة فيه.

(ج) نصرة الثائر على المثل السائر: هو انتقاد على المثل السائر لابن الأثير استدرك عليه فيه أشياء فاتته، وانتقد عليه إعجابه بنفسه وإطراءه عمله، والحق يقال: إن ابن

الأثير صاحب المثل السائر من أكثر الناس إعجابًا بنفسه، وقد بالغ في ذلك كما يظهر من مقدمة كتابه المذكور فآخذه عز الدين بن أبي الحديد في كتابه «الفلك الدائر»، فلم يجد صلاح الدين الصفدي ذلك وافيًا بما يريده فألف نصرة الثائر هذه، منها نسخة في المكتبة الخديوية في ٢٠٠ صفحة.

(د) تشنيف السمع في انسكاب الدمع: جمع فيه ما قاله الشعراء في الدمع ووصفه، جعل ذلك في مراتب، فبدأ بالبكاء في شعر الجاهلية كقول امرئ القيس: «قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل» وقول قيس بن ذريح: «هل الحب إلا عبرة ثم زفرة»، وتدرج إلى زعمهم إن الدمع فاضح سرهم، إلى أن خرج عن دائر الأمر المعهود فصار كالمطر المنهمل وجرى كالأنهار أو البحور مع بحث انتقادي منه نسخة في المكتبة الخديوية في ١٧٧ صفحة.

(ﻫ) أعيان العصر وأعوان النصر: مجموع تراجم مشاهير القرن الثامن للهجرة إلى أيامه من النساء والرجال، منه نسخة في الأسكوريال وأيا صوفيا في تسعة أجزاء كاملة، ومنه أجزاء متفرقة في مكتبة عاشر أفندي بالأستانة.

(و) نكت الهميان ونكت العميان: أخبار مشاهير العميان منه نسخ في برلين وبطرسبورج وفي كتب زكي باشا بالمكتبة الخديوية، وطبع بمصر سنة ١٩١٠.

(ز) ألحان السواجع بين البوادي والمراجع أو الغادي والراجع، وهي مكاتباته مع معاصريه مرتبة على الهجاء باعتبار أسمائهم، منها نسخ في أكثر مكاتب أوربا والأستانة.

(ح) الشعور بالعور: نحو نكت الهميان في العميان في برلين.

(ط) الشعور بالعور: نحو نكت الهميان في العميان في برلين.

(ي) تحفة ذوي الألباب: أرجوزة نظم بها كتابًا لابن عساكر في أمراء مصر منه نسخة في بطرسبورج.

(ك) منشآت الصفدي: مجموع مقالات أو رسائل على لسانه أو لسان الأشراف أو غيره وتواقيع وتقارير رسمية ومناشير ونحو ذلك، ويشتمل على كثير من الفوائد الاجتماعية والعادات السياسية والتاريخية. منه نسخة في المكتبة الخديوية في ١٤٠ صفحة.

(ل) تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون: صدرها بترجمة ابن زيدون مطولًا ومراسلاته مع انتقادات شعرية ونوادر تاريخية على الملوك والقواد يليه الشرح، منه نسخة خطية في المكتبة الخديوية في ٢٤٠ صفحة.

(م) الغيث المنسجم في شرح لامية العجم: هو شرح قصيدة الطغرائي الشهيرة مطولًا في ٥٥٠ صفحة، طبعت في الإسكندرية سنة ١٢٩٠ وفي مصر ١٣٠٥ في مجلدين وفيها فوائد تاريخية هامة.

(ن) دمعة الباكي ولوعة الشاكي: يشتمل على أخبار أهل الغرام وفيه كثير من أقوالهم، ويسمى أيضًا «المقدمة السنية والجوهرة البهية» منه نسخ في غوطا وباريس وطبع بمصر سنة ١٣٠٧ وفي الأستانة.

(س) ديوان الفصحاء وترجمان البلغاء: مجموع قطع بليغة نظمًا ونثرًا جمعها للسلطان الملك الأشرف، منها نسخة في فينا بخط المؤلف.

(ع) الحسن الصريح في مائة مليح: مجموع أشعار في الغلمان منها نسخ في المتحف البريطاني وأيا صوفيا.

(ف) كشف الحال في وصف الخال: أكثر فيه من الجناس المصحف، وفيه خلاعة. منه نسخة في هفينا.

(ص) جنان الجناس: في البديع، طبع في الأستانة سنة ١٣٠٠.

(ق) فض الختام في التورية والاستخدام: من أبواب البيان، منه نسخة في المكتبة الخديوية في ٢٠٠ صفحة وفي كوبرلي.

(ر) الروض الناسم والثغر الباسم، في الأدب في الأسكوريال.

(ش) الكشف والتنبيه على الوصف والتشبيه: مجموع أمثلة في باريس.

(ت) رشف الزلال في وصف الهلال: أشعار في وصفه في برلين.

(ث) رشف الرحيق في وصف الحريق: مقامة، في الأسكوريال.

(خ) اختراع الخراع: في علوم اللغة والعروض، في ليدن.

(ذ) صرف العين عن حرف العين: بالأدب، في المكتبة العمومية بالأستانة.

(ض) نفوذ السهم فيما وقع فيه الجوهري من الوهم: انتقاد على الصحاح وإصلاح ما فيه، منه عشر كراريس في المكتبة العمومية بالأستانة.

(ظ) له عدة قصائد وموشحات متفرقة في المكاتب (ترجمته في الدرر الكامنة ج١).

(٥) **ابن شاكر الكتبي (توفي سنة ٧٦٤هـ):** هو محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن صلاح الدين (أو فخر الدين) الحلبي الداراني الدمشقي الكتبي، تعلم في حلب ودمشق وكان فقيرًا فاتجر ببيع الكتب فاكتسب بذلك ثروة، وله:

(أ) فوات الوفيات: اشتهر به، وقد جعله ذيلًا لوفيات الأعيان لابن خلكان، ذكر فيه ما فات ابن خلكان، ذكره من التراجم، فبلغ ذلك نحو ٥٥٠ ترجمة مرتبة على الهجاء، منها تراجم قليلة أوردها ابن خلكان، طبع بمصر سنة ١٢٨٣ عن نسخة كانت في مكة منقولة عن خط المؤلف، وطبع أيضًا بمصر سنة ١٢٩٩ في مجلدين.

(ب) عيون التواريخ: هو مجموع للتراجم مرتب على السنين، انتهى فيه إلى سنة ٧٦٠ في ستة مجلدات، منه نسخة في المكتبة الظاهرية بدمشق، ومجلد في غوطا فيه التراجم من سنة ٢٩٧–٣٣٧ ومجلد في باريس وآخر في المتحف البريطاني وفي الفاتيكان برومية (ترجمته في الدرر الكامنة ج٣).

(٦) **ابن حجر العسقلاني (توفي سنة ٨٥٢هـ):** شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن محمد المعروف بابن حجر العسقلاني الكناني، هو معدود من المحدثين لكننا وضعناه بين أصحاب التراجم لكثرة مؤلفاته في هذا الباب، أصله من عسقلان وولد في مصر العتيقة سنة ٧٧٣ توفي والداه وهو صغير فاحتضنه أحد أقاربه، وحج وهو غلام ثم جاء مصر وتعاطى التجارة وأحب الشعر، ثم عكف على العلم فتلقاه عن شيوخ مصر، وسافر إلى الصعيد وفلسطين ثم اليمن وتعرف في زبيد إلى الفيروزآبادي صاحب القاموس، وحج ثانية وعاد إلى القاهرة، ورحل سنة ٨٠٢ إلى دمشق وله رحلات أخرى عديدة إلى اليمن وغيرها، ووجه عنايته إلى الحديث والفقه وتولى الإفتاء والتدريس وكثر تلاميذه، وعينه الملك الأشرف برسباي قاضي قضاة مصر كلها سنة ٨٢٧، وكانوا يعولون عليه في الإفتاء لسعة علمه وقوة حجته، وكان خطيبًا بليغًا واشتغل في التأليف فزادت مؤلفاته على مائة كتاب انتشرت في حياته وتهاداها الملوك واستنسخها الأكابر، وكان لطيف المجلس ظريف النادرة. وقد ترجمه شمس الدين السخاوي الآتي ذكره بمجلد خاص ذكر فيه مناقبه وأعماله سماه «الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر» منه نسخة في باريس، وكذلك فعل القضاعي في كتابه «فهرست مصنفات

شيخ الإسلام ابن حجر» منه نسخة في ليدن، وتوفي في القاهرة سنة ٨٥٢ وهاك ما يهمنا ذكره من مؤلفاته:

(أ) الإصابة في تمييز الصحابة: هو مطول في التراجم مرتب على حروف المعجم جمع فيه ما في الاستيعاب وذيله وأسد الغابة واستدرك عليها كثيرًا، وطبع في كلكتة سنة ١٨٥٦ وفي مصر سنة ١٣٢٣ في ثمانية مجدات ضخمة، تتضمن تراجم الصحابة والتابعين قسمها إلى أربع طبقات؛ الأولى من وردت صحبته بطريق الرواية عنه أو عن غيره، والثانية في ذكر الصحابة الذين ولدوا في زمن النبي، والثالثة في ذكر المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام ولم يرد أنهم اجتمعوا بالنبي، والرابعة فيمن ذكر على سبيل الوهم والغلط، واختص الجزء السابع من الكتاب بالصحابة المعروفين بالكنى، والثامن لأسماء النساء، وكل قسم من هذه الأقسام مرتب على حروف المعجم وهو من أهم الكتب لتراجم رجال صدر الإسلام.

(ب) المعجم المفهرس: في الحديث، ألفه بناء على طلب بعض الإخوان رتب فيه الأحاديث على حروف المعجم بعد تجريدها من الأسانيد ليسهل تناولها على الناس، منه نسخة في المكتبة الخديوية في ٣٧٠ صفحة.

(ج) المجمع المؤسس للمعجم المفهرس: ذكر فيه أسماء شيوخه وأساتذته ورتبها على الهجاء في قسمين: الأول من أخذ عنه بطريق الرواية والثاني من أخذ عنه بطريق الدراية، ألفه سنة ٨٣٢ منه نسخة في المكتبة الخديوية في ٤٦٦ صفحة كبيرة.

(د) الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة: معجم وافٍ لتراجم مشاهير القرن الثامن للهجرة، ترجم فيه الذين توفوا بين أول سنة ٧٠١ وآخر سنة ٨٠٠هـ من العلماء والملوك والأمراء والكتاب والوزراء والأدباء والشعراء والرواة، ممن عرفهم أو سمع عنهم ولا سيما في مصر والشام، واقتبس شيئًا من كتاب أعيان العصر لصلاح الدين الصفدي المتقدم ذكره ومجالي الغرر لأبي حيان ودمية القصر، وأخذ عن الذهبي والعمري والمقريزي وغيرهم، ورتب التراجم على حروف الهجاء، هو أهم كتاب في بابه منه نسخة في المكتبة الخديوية في مجلدين نحو ألف صفحة كبيرة، ويوجد أيضًا في باريس وفينا والمتحف البريطاني، وله ذيل وصل به إلى سنة ٨٣٢ منه نسخة في الخزانة التيمورية بخط المؤلف.

(هـ) رفع الأصر عن قضاة مصر: ذكر فيه قضاة مصر من أول فتحها إلى آخر المائة الثامنة، ورتبه طبقات على السنين معتمدًا في تأليفه على أخبار القضاة للكندي وعلى ذيله لابن زولاق وغيرهما. منه نسخة في المكتبة الخديوية في ٥٧٢ صفحة، وقد طبع قسم

منه في ذيل كتاب نشرته لجنة تذكار جيب سنة ١٩٠٨ مؤلف من كتابين: الأول أخبار ولاة مصر لأبي عمر الكندي المتوفى سنة ٣٥٥[٢] يشتمل على أخبار أمراء مصر من عمرو بن العاص إلى الفتح الفاطمي في نحو ٣٠٠ صفحة، وفي صدره ترجمة الكندي وبحث في سنة وفاته وأنها ينبغي أن تكون بعد ٣٥٥هـ، والثاني في أخبار قضاة مصر للكندي المذكور رواية أبي محمد البزاز في نيف و٢٠٠ صفحة مرتبة على السنين، وفي ذيل هذه الطبعة ملحق لاستيفاء أخبار القضاة الذين تولوا مصر بين سنة ٢٣٧ و٤١٩ يشتمل على تراجم جمعت من كتاب رفع الأصر عن قضاة مصر ومن كتاب النجوم الزاهرة بتلخيص أخبار قضاة مصر والقاهرة لجمال الدين سبط ابن حجر المذكور، ومن تاريخ الإسلام للذهبي، والملحق المذكور في ١١٥ صفحة، ومع هذا الكتاب فهارس أبجدية ومقدمة بالإنكليزية لروفون كيست، ولشمس الدين السخاوي ذيل على رفع الإصر، سيأتي ذكره، وقد اختصره وأئمة جمال الدين ابن شاهين في كتاب سماه «النجوم الزاهرة بتلخيص أخبار قضاة مصر والقاهرة» في برلين.

(و) أنباء الغمر بأبناء العمر: هو تاريخ مصر والشام سياسيًّا وأدبيًّا منذ ولادته إلى سنة ٨٥٠ مما أدركه أو سمعه، وقد رتبه على السنين فيذكر حوادث السنة ثم تراجم الوفيات فيها، ويصح أن يكون من حيث الحوادث العامة ذيلًا لكتاب ابن كثير «البداية والنهاية» منه نسخ في برلين وغوطا وباريس ويني جامع وأيا صوفيا وفي مكتبة الظاهر في دمشق ونور عثمانية، وعليه مختصر للدميري في باريس.

(ز) الإعلام فيمن ولى مصر في الإسلام أو تاريخ مصر: أطلعنا الأستاذ مرجليوث على نسخة خطية منه في مكتبة أكسفورد بالصيف الماضي في ثلاثة مجلدات.

(ح) نزهة الألباب في الألقاب: أي ألقاب المحدثين مرتبة على الأبجدية، منه نسخة في المتحف البريطاني والخزانة التيمورية وفي المكتبة الخديوية في ١٠٣ صفحات.

(ط) تهذيب الكمال، أو مختصر تهذيب الكمال في معرفة الرجال أي: تراجم المحدثين لابن النجار، طبع في دهلي سنة ١٨٩١.

(ي) الديباجة: في الحديث، طبع في لكناو الهند سنة ١٢٥٣ وفي لاهور سنة ١٨٨٨ في ١٢ مجلدًا.

(ك) ترجمة السيد أحمد البدوي: في برلين.

(ل) نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر: متن متين في علوم الحديث، له شرح طبع في الهند سنة ١٨٦٢ وفي مصر سنة ١٣٠١.

(م) مختصر أساس البلاغة للزمخشري: في المتحف البريطاني.

(ن) محاسن المساعي في مناقب الأوزاعي: فيه ترجمة الأوزاعي المحدث، منه نسخة في المكتبة الخديوية في ٦٤ صفحة.

(س) تقريب التهذيب: في رجال الكتب الستة في الخزانة التيمورية بخط المؤلف، وطبع في دهلي سنة ١٣٠٨ في ٤٠٠ صفحة.

(ع) فتح الباري في شرح صحيح البخاري: مطول في الحديث طبع بمصر سنة ١٣٠١ وغيرها في ١٤ مجلدًا.

(ف) تعجيل المنفعة برواية رجال الأئمة الأربعة: طبع في حيدرآباد سنة ١٣٢٤.

(ص) الرحمة الغيثية في الرحمة الليثية: طبعت بمصر سنة ١٣٠١ مع خلاصة تذهيب التهذيب للخزرجي، وسيأتي ذكرها.

(ق) توالي التأنيس بمقال ابن إدريس: طبع مع الكتاب المذكور (الرحمة).

(ر) غبطة الناظر في ترجمة الشيخ عبد القادر (الجيلاني): طبع في كلكتة سنة ١٩٠٣، وله كتب أخرى في الحديث وغيره أغضينا عنها (ترجمته في الخطط التوفيقية ٣٧ ج٦ وحسن المحاضرة ٢٠٦ ج١).

(٧) **ابن قطلوبغا (توفي سنة ٨٧٩هـ):** هو أبو الفضل زين الملة والدين القاسم بن عبد الله بن قطلوبغا تلميذ ابن حجر المتقدم ذكره وهو من الفقهاء الحنفية له في التراجم كتاب: تاج التراجم في طبقات الحنفية، مرتب على الأبجدية طبع في ليبسك سنة ١٨٦٢ مع شروح وملاحظات للمستشرق فلوغل، وله كتب كثيرة في الفقه أغفلنا ذكرها.

(٨) **البقاعي (توفي سنة ٨٨٥هـ):** هو برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي، ولد في البقاع في سوريا سنة ٨٠٩ وتوفي بدمشق سنة ٨٨٥ وله كتب في القرآن والتفسير والأحكام والأدب والمنطق والمساحة والتاريخ يهمنا منها ما يأتي:

(أ) عنوان الزمان في تراجم الشيوخ والأقران: جمع فيه تراجم شيوخه وأساتذته ومعاصريه وتلاميذه على حروف المعجم مع تحقيق أسمائهم وأنسابهم ووفياتهم منه نسخة في كوبرلي، وقد انتقده السخاوي الآتي ذكره لكنه فعل ذلك لمنافسة كانت بينهما وهما شريكان في الدرس.

(ب) عنوان العنوان: هو مختصر الكتاب المتقدم ذكره، منه نسخة في أكسفورد.

(ج) مختصر سيرة النبي وثلاثة من الخلفاء الراشدين: منه نسخة في برلين.

(د) أسواق الأشواق في مصارع العشاق: هو مختصر مصارع العشاق للسراج القاري مع زيادات، منه نسخة في باريس والأسكوريال.

(ﻫ) الباحة في علمي الحساب والمساحة، أرجوزة مشروحة منها نسخة في المكتبة الخديوية في نحو ٢٠٠ صفحة.

(و) أخبار الجلاد في فتح البلاد، في مكتبة لا له لي بالأستانة.

(٩) **شمس الدين السخاوي (توفي سنة ٩٠٢ﻫ):** في هذا الكتاب ثلاثة يلقب كل منهم بالسخاوي: أحدهم علم الدين من القراء تقدم ذكره صفحة ١٠٢، والثاني محمد بن أبي بكر الأديب توفي نحو سنة ٩٠٠، له كتاب بهجة الناظر في الحكايات والنوادر في برلين، والثالث شمس الدين الذي نحن في صدده، وهو أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد السخاوي تلميذ ابن حجر — المتقدم ذكره — سمي سخاويًّا نسبة إلى سخا بلد في مصر، وقد حج سنة ٨٩٧، وتوفي في القاهرة سنة ٩٠٢، وخلف آثارًا تشهد بسعة اطلاعه وعلو همته أهمها:

(أ) الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع: هو معجم تراجم مشاهير ذلك القرن، في خمسة مجلدات، منه نسختان في مكتبة الجامع الأموي والمكتبة الظاهرية بدمشق ونسخة في مكتبة السجادة الوفائية في القاهرة ينقصها الجزء الأول، وفي ليدن قطع منه تشتمل على حروف الألف والعين والغين والفاء والقاف وبعض الميم، وقد تصدى معاصروه لانتقاده والتشنيع عليه، منهم السيوطي، ألَّف في انتقاده كتابًا سماه «الكاوي في تاريخ السخاوي»، ولا عبرة في ذلك، فإن الكتاب نادر المثال في بابه، وقد اختصره ابن عبد السلام المتوفى سنة ٩٣١ في كتاب سماه «البدر الطالع من الضوء اللامع» منه نسخ في فينا وبرلين. واختصره أيضًا زين الدين الشماع الحلبي المتوفى سنة ٩٣٦ في كتاب سماه «القبس الحاوي لغرر ضوء السخاوي» في أكسفورد.

(ب) التبر المسبوك في ذيل السلوك: هو تاريخ يومي مرتب على السنين كاليومية مثل طريقة تاريخ الجبرتي، دوَّن فيه السخاوي ما حدث في أيامه يومًا يومًا، فإذا فرغت السنة ذكر تراجم من توفي فيها، جعله ذيلًا لكتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي الآتي ذكره، طبع التبر المسبوك بمصر سنة ١٨٩٦.

(ج) الكوكب المضيء: ترجم فيه العلماء من معاصريه، له مختصر في برلين.

(د) وجيز الكلام في ذيل تاريخ دول الإسلام: للذهبي الآتي ذكره من سنة ٧٤٥–٨٩٨ منه نسخ في برلين وفينا وأكسفورد والمتحف البريطاني وكوبرلي.

(هـ) ذيل رفع الإصر عن قضاة مصر: لابن حجر العسقلاني — المتقدم ذكره — منه نسخ في باريس وليدن.

(و) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التواريخ: فيه تعريف التاريخ وموضوع هذا العلم عند الأمم، وما أُلِّف فيه، وأسماء المؤرخين على حروف الهجاء، وفيه نقد على بعض المؤرخين ولا سيما ابن خلدون، منه نسخة في الخزانة التيمورية في ٢٢٦ صفحة، وقد وصفها تيمور بك صاحب الخزانة المذكورة في مجلة الآثار التي تصدر في زحلة بالسنة الثانية الجزء الأول.

(ز) الجواهر المجموعة والنوادر المسموعة في الأدب، بالأسكوريال.

(ح) المقاصد الحسنة في تمييز الأحاديث المشهورة على الألسنة: هو كتاب مفيد رتبه على حروف أوائل الأحاديث، بعثه على تأليفه تسارع الناس إلى نقل ما لم يعلم، منه نسخ في المكتبة الخديوية ونور عثمانية ويني جامع.

(ط) الجواهر والدرر في ترجمة ابن حجر (العسقلاني): منه نسخة في باريس.

(ي) إرشاد الغاوي بل إسعاد الطالب والراوي: في مكتبة أيا صوفيا، وله مؤلفات أخرى لا يهمنا ذكرها.

ومن كتب المعاجم أو الطبقات الهامة

طبقات الشافعية: للإسنوي المتوفى سنة ٧٧٢ في المتحف البريطاني والخزانة التيمورية.

ثالثًا: مؤرخو البلاد أو الدول في مصر والشام

(١) **الكمال بن العدي (توفي سنة ٦٦٠هـ وقيل ٦٦٦):** هو أبو حفص عمر بن عبد العزيز بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة كمال الدين العقيلي الحلبي المعروف بابن العديم، ولد سنة ٥٨٦، وسمع من أبيه وعمه وجماعة بدمشق وحلب والقدس والحجاز والعراق، وكان محدثًا فاضلًا حافظًا ومؤرخًا وفقيهًا وكاتبًا، صنف وكتب وترسل عن الملوك، وكان جميل الخط ولا سيما النسخ، ولي قضاء حلب خمسة من آبائه متتالية

وتولاه هو حتى إذا جاء التَّتر حلب سنة ٦٥٨ فر إلى الملك الناصر بمصر ومات فيها، وقد ألف كثيرًا من الكتب وصلنا منها:

(أ) بغية الطلب في تاريخ حلب: أدركته المنية قبل إكمال تبييضه، وهو عبارة عن تاريخ علمائها، رتبه على الأبجدية في عشرة أجزاء منها جزء في باريس وآخر في المتحف البريطاني، وله مختصر اسمه «الدر المنتخب من تاريخ مملكة حلب» لابن خطيب الناصرية المتوفى سنة ٨٤٣، منه المجلد الثالث في المتحف البريطاني وغوطا.

(ب) زبدة الحلب في تاريخ حلب، اختصره من بغية الطلب — المتقدم ذكرها — ورتبه على السنين إلى سنة ٦٤١ منه نسخ في بطرسبورج وباريس، وطبع منه المستشرق فرايتاغ نتفًا سنة ١٨١٩ في باريس وسنة ١٨٢٠ في بن، ونشرت منه ترجمة فرنساوية في المجلة الشرقية تباعًا سنة ١٨٩٦–١٨٩٨.

(ج) الدراري في ذكر الذراري، كتبه سنة ٦١٠ للملك الظاهر غازي عند ولادة ابنه الملك العزيز، منه نسخة في نور عثمانية.

(د) الوسيلة إلى الحبيب في وصف الطيبات والطيب، في برلين.

(هـ) قصيدة في مدح عائشة، في بطرسبورج (فوات الوفيات ١٠١ ج٢ وأبو الفداء ٢٢٤ ج٣).

(٢) **جمال الدين بن الجزار (توفي سنة ٦٧٩هـ):** هو جمال الدين أبو الحسن يحيى بن عبد العظيم بن الجزار الأنصاري ولد سنة ٦٠١ له: العقود الدرية في الأمراء المصرية، قصيدة تاريخية ذكر فيها حكام مصر إلى الملك الظاهر بيبرس المتوفى سنة ٦٧٦، وأضاف إليها بعضهم ذيلًا إلى الملك الظاهر جقمق المتوفى سنة ٨٥٧، منه نسخ في ليدن والأسكوريال وبرلين.

(٣) **ابن وصيف شاه (في أواخر القرن السابع):** هو إبراهيم بن وصيف شاه المصري له كتاب: جواهر البحور ووقائع الأمور وعجائب الدهور في أخبار الديار المصرية أو تاريخ مصر من أقدم أزمانها الخرافية إلى سنة ٦٨٨ مختصرًا، وقد أخذ عنه المقريزي في خططه، وله مختصر مع زيادات إلى السلطان الغوري المتوفى سنة ٩٢٣ وبعده، منه نسخ في غوطا وبطرسبورج وفي الخزانة التيمورية ونشر منه وستنفيلد قطعًا في مجلة الشرق والغرب الألمانية سنة ١٨٦١.

(٤) **جمال الدين بن واصل (توفي سنة ٦٩٧هـ):** هو محمد بن سالم بن واصل، كان عالمًا بالفقه الشافعي والفلسفة والرياضيات والهيئة والتاريخ في حماه، ثم رحل إلى

القاهرة سنة ٦٥٩ فأرسله السلطان الملك الظاهر بيبرس سفيرًا إلى منفرد بن فريدريك الثاني صاحب صقلية في مهمة، فلقي منه رعاية وإكرامًا ووصف ما شاهده من تقريب منفرد للمسلمين، فلما عاد جعله الملك الظاهر قاضي القضاة وشيخ الشيوخ في حماه، وما زال في ذلك المنصب حتى مات سنة ٦٩٧ اشتهر بمؤلفه:

(أ) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تاريخ الدولة الأيوبية في ثلاثة مجلدات منها قطعة في باريس وله ذيل إلى سنة ٦٩٥ لعلي بن عبد الرحمن، اختصره المستشرق الفرنساوي رينو بالفرنساوية باسم «خلاصة تاريخ عربي» طبع في باريس سنة ١٨٢٢، ومنه قطع متفرقة في غوطا وغيرها.

(ب) تجريد الأغاني في ذكر المثالث والمثاني، اختصار كتاب الأغاني في أيا صوفيا (أبو الفداء ٣٩ ج٤).

(٥) **علم الدين البرزالي (توفي سنة ٧٣٩هـ):** هو القاسم محمد بن يوسف البرزالي الإشبيلي الدمشقي علم الدين الحافظ المحدث المؤرخ، ولد سنة ٦٦٥ في إشبيلية، تلقى العلوم الشرعية على أشهر علمائها في عصره ورحل إلى بعلبك وحلب ومصر، وكانت له معرفة جيدة بمعاصريه وتوفي سنة ٧٣٩ في خليص بين مكة والمدينة، وهاك ما وصلنا خبره من مؤلفاته:

(أ) تاريخ مصر ودمشق، أو كتاب الوفيات، ذيل لتاريخ دمشق، تأليف أبي شامة. وصل به إلى سنة ٧٣٨ منه نسخة في كوبرلي وله مختصر في برلين، وقد ذيله تلميذه تقي الدين بن رافع السلامي المتوفى سنة ٧٧٤ في كتاب سماه «الوفيات» من سنة ٧٣٧–٧٧٤، منه نسخة في المكتبة الخديوية.

(ب) مختصر المائة السابعة، فيها أخبار أعيان هذه المائة من سنة ٦٠١–٧٣٦ باختصار، مرتبة على الوفيات، منه نسخة في برلين (طبقات الحفاظ ٧٢ وفوات الوفيات ١٣٠ ج٢).

(٦) **ابن حبيب الحلبي الدمشقي (توفي سنة ٧٧٩هـ):** هو بدر الدين (أو شهاب الدين) أبو محمد الحسن بن عمر بن حبيب الدمشقي الحلبي، ولد في دمشق سنة ٧١٠ وتعين أبوه محتسبًا في حلب فانتقل إليها، ثم توفي أبوه وأتم هو دروسه وحج ورحل إلى مصر سنة ٧٣٦ فأقام في الإسكندرية مدة، ثم سافر إلى القدس والخليل، فمكة، ثم رجع إلى بلده فطرابلس الشام عند الأمير سيف الدين منجك، ولما صار هذا أميرًا على دمشق رافقه ثم عاد إلى حلب وتوفي فيها سنة ٧٧٩ وله من المؤلفات:

(أ) درة الأسلاك في ملك الأتراك: تاريخ السلاطين المماليك المصرية مرتب على السنين من سنة ٦٤٨–٧٧٧هـ، ومن مات في أثناء ذلك من العلماء والأعيان، وأتمه بعده ابنه عز الدين طاهر إلى سنة ٨٠٢ منه نسخ في برلين ويني جامع وباريس، وأطلعنا الأستاذ مرجليوث على نسختين من هذا الكتاب في أكسفورد إحداهما مسجعة والأخرى مرسلة، وقد لقب في إحداهما بدر الدين وفي الأخرى شهاب الدين. وفي مكتبة ديفريمري جزء من درة الأسلاك بخط المؤلف.

(ب) المسجع في التاريخ: له مختصر اسمه «جهينة الأخبار في ملوك الأمصار» يشتمل على نتف تاريخية مرتبة في طبقات حسب الأعصر والدول من الأنبياء فاليهود فالفرس فالقبط فالعرب فالمسلمين إلى المغول باختصار، منه نسخة في المكتبة الخديوية في ٩٢ صفحة وفي كوبرلي.

(ج) تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه: أخبار السلطان قلاوون وبنيه، منه نسخة في برلين والمتحف البريطاني.

(د) النجم الثاقب في أشرف المناقب (النبوية): رتبه على ثلاثين فصلًا، في برلين.

(هـ) المقتفى في ذكر فضائل المصطفى: مختصر السيرة النبوية منه نسخة في المكتبة الخديوية في ١٢٦ صفحة.

(و) نسيم الصبا: مجموع منتخبات شعرية مرتبة حسب المواقف وفيه أنواع من البديع على عادة مؤلفه، طبع في الإسكندرية سنة ١٢٨٩، وفي مصر سنة ١٣٠٧ ومنه نسخة خطية في المكتبة الخديوية (الدرر الكامنة خط ج١).

(٧) **ابن دقماق المصري (توفي سنة ٨٠٩هـ):** هو صارم الدين (أو غرس الدين) إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي الشهير بابن دقماق، مؤرخ الديار المصرية، له من المؤلفات:

(أ) نزهة الأنام في تاريخ الإسلام: أكثره عن مصر مرتب على السنين إلى سنة ٧٧٩ في ١٢ مجلدًا منه قطعة من سنة ٤٣٦–٥٥٢ في غوطا بخط المؤلف، وقطعة أخرى من سنة ٦٢٨–٦٥٩ في باريس، ومن ٧١٠–٧٤٢ ومن ٧٦٨–٧٧٩ في غوطا وفي المكتبة الخديوية قطعة في ٨٠ صفحة تبدأ بالملك المنصور علي من سنة ٧٧٨–٨٠٤هـ.

(ب) الانتصار بواسطة عقد الأمصار: هو تاريخ كبير في عشرة مجلدات، كان منه الجزءان الرابع والخامس في المكتبة الخديوية بخط المؤلف، طُبعا بمصر سنة ١٣٠٩ و١٣١٠ مع فهارس مطولة للإعلام، فيهما وصف مطول للفسطاط وأسواقها وجوامعها ومدارسها وسائر أبنيتها وشوارعها، وكذلك الإسكندرية وضواحيها وجانب كبير من قرى مصر وبلادها، ويتخلل ذلك مقادير خراجها أو عبرتها ومساحتها وغير ذلك.

(ج) الدرة المضيئة في فضل مصر والإسكندرية، هو مقتطف من كتاب الانتصار ويظن أنه أحد الجزءين اللذين تقدم ذكرهما.

(د) الجوهر الثمين في سير الخلفاء والسلاطين: هو تاريخ مصر إلى سقوط السلطان برقوق، منه نسخ في برلين وأكسفورد والمتحف البريطاني وفي أيا صوفيا.

(هـ) نظم الجمان في طبقات أصحاب إمامنا النعمان: في ثلاثة مجلدات، الأول في مناقب أبي حنيفة، والثاني والثالث في أصحابه، منه نسخ في برلين ومنشن وباريس (حسن المحاضرة ٣٢٠ ج١).

(٨) **ابن عنبة (توفي سنة ٨٢٨هـ أو ٨٢٥):** هو أحمد بن علي بن الحسين بن علي بن مهنا بن عنبة الداودي، يتصل نسبه بأبي طالب، له:

(أ) كتاب عمدة الطالب في نسب آل أبي طالب: يشتمل على نسب العلويين وتراجمهم، فرغ من تأليفه سنة ٨١٤، وقدمه لتيمورلنك منه نسخة في الخزانة التيمورية في ٣٥٣

صفحة، وقد طبع في بمباي سنة ١٣١٨ وذكر اسمه هناك ابن عتبة (بالتاء)، ومنه نسخة في المكتبة الخديوية واسم المؤلف عليها «كمال الدين الحسيني المعروف بابن عنبسة المتوفى سنة ٨٢٧.»

(ب) بحر الأنساب: يشتمل على نسب بني هاشم، رتبه على مقدمة وخمسة فصول، منه نسخة في المكتبة الخديوية في ٢٧٦ صفحة في آخرها كتابة بخط السيد مرتضى الزبيدي صاحب تاج العروس تفيد أنه اطلع عليها، وهو غير بحر الأنساب للنجفي النسابة وغير بحر الأنساب المنسوب للباز الأشهب الآتي ذكرهما.

(٩) **تقي الدين المقريزي (توفي سنة ٨٤٥هـ):** هو أبو العباس تقي الدين بن علاء الدين بن محيي الدين الحسيني العبيدي، أصله من بعلبك ويعرف بالمقريزي نسبة إلى حارة كانت تعرف بحارة المقارزة، وكان جده من كبار المحدثين في بعلبك وتحول والده إلى القاهرة وولد له تقي الدين فيها سنة ٧٦٦ وسمع الحديث على جده لأمه شمس الدين بن الصائغ والبرهان الآمدي وغيرهما، وحج وسمع في مكة من كثيرين، وكان حنفيًّا على مذهب جده لأمه، فلما بلغ العشرين من عمره صار شافعيًّا وكان متهمًا بمذهب ابن حزم (الظاهري)، ونظر في عدة فنون، وكتب بخطه كثيرًا عن الكتب، ونظم ونثر وتعلم وعلَّم وتولى النيابة في الحكم، وكتابة التوقيع والحسبة في القاهرة، والخطابة بجامع عمرو والسلطان حسن، والإمامة بجامع الحاكم، وقراءة الحديث بالمؤيدية. واتصل بالظاهر برقوق ودخل دمشق مع ولده الملك الناصر سنة ٨١٦، وعاد معه، وصحب يشبك الدوادار، وأصاب منه ثروة، وتنقل في مناصب كثيرة في دمشق أيضًا، ثم استقر في القاهرة وانقطع للعلم واشتغل بالتاريخ وألَّف فيه مؤلفات هامة هي مرجع الناس في حالة مصر السياسية والاجتماعية، فضلًا عن التاريخ. هاك أهم ما وصلنا منها:

(أ) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار: ويعرف بخطط المقريزي، وعليه كان معولنا في كثير مما كتبناه عن مصر وأحوالها، والمراد به في أصل وضعه جمع ما تفرق من أخبار الديار المصرية وأحوال سكانها، بحيث يلتئم من مجموعها معرفة مجمل أقاليم مصر، فإذا حصل ذلك في ذهن القارئ عرف ما كان فيها من الآثار الباقية والبائدة. وأراد أن يجعل ترتيبه على السنين أو على أسماء الناس فلم يتيسر له ذلك، ولا وجده وافيًا بالغرض، فاختار أن يجمع تلك الحقائق التاريخية في أبواب تجمعها الخطط والآثار، فإذا وصف أثرًا أو بناءً أو شارعًا أو بلدًا أو جامعًا أو سورًا أفاض في تاريخه

وتاريخ مؤسسه وما توالى عليه من الأحوال التاريخية أو تخلله من النكات الاجتماعية أو تعلق به من الأحوال الأخرى. فلما ذكر الفسطاط مثلًا بدأ بما كان في موضعها وما بعث على إنشائها، فتطرق إلى ذكر فتح مصر في زمن عمرو بن العاص ومن توالى بعده على الفسطاط من الأمراء. ولما ذكر القاهرة ذكر أصل وضعها وما تقلبت عليه فاقتضى ذلك ذكر تاريخ الدولة الفاطمية والدول التي خلفتها إلى أيامه، وقس على ذلك سائر ما اقتضاه سياق الكلام من ذكر الحقائق التاريخية أو الاجتماعية، وفيه كثير من التراجم والتواريخ التي لا تجدها في سواه؛ فهو خزانة علم وتاريخ وجغرافية ومدنية وفلسفة واجتماع حتى الشرع، فإنك تجد منه أشياء هامة بينها فصل في الفرق الإسلامية وتاريخ تفرقها جزيل الفائدة، لكن تلك الحقائق مشتتة فيه لا يتصل إليها إلا بالمطالعة والتنقيب.

ويظن السخاوي المتقدم ذكره أن السبب في إحرازه هذه الفوائد الكثيرة أن صاحبه ظفر بمسودات كتاب للأوحدي في هذا الموضوع، فأخذها وزاد عليها، مع أن المقريزي لم يقصر في ذكر المصادر التي نقل عنها بل هو يسند كل فقرة إلى صاحبها، فلو أخذ عن الأوحدي لم يهمه أن يذكره، ولكن السخاوي كان معاصرًا للمقريزي، ويندر أن يخلو المعاصرون من التحاسد. وقد طبعت خطط المقريزي في مصر سنة ١٢٧٠ في مجلدين كبيرين وأعيد طبعه بالأمس في مصر. ومنه نسخ خطية في برلين وغوطا وباريس والمكتبة الخديوية ويني جامع وغيرها. وقد ترجم إلى اللاتينية وطبعت الترجمة سنة ١٧٢٤، ونقل منه شيء إلى الفرنساوية، وطبع بباريس سنة ١٨٩٥ و١٩٠١، واستخرج منه كازانوفا المستشرق وصف قلعة القاهرة وتاريخها بالفرنساوية وأوضحهما بالخرائط والرسوم، وطبع ذلك سنة ١٨٩٤–١٨٩٧ في مجلدين، وفعل نحو ذلك رافيس في خطط القاهرة وأوضحها بالخرائط، وطبع سنة ١٨٨٨ و١٨٩٠ في قسمين. وترجم وستنفيلد القسم المختص بتاريخ القبط إلى الألمانية، وطبعه مع الأصل العربي في غوتنجن سنة ١٨٤٥، وترجم أيضًا ما يتعلق بوصف المارستانات في القاهرة نقلًا عن مسودات غوطا وفينا ونشرها في مجلة خلاصة العلوم.

وللأصل العربي مختصرات كثيرة منها «الروضة البهية» لأحمد الحنفي في غوطا و«قطف الأزهار» لأبي السرور البكري في ليدن وباريس. وقد قلده في هذا الشكل من التأليف علي باشا مبارك، فألف الخطط التوفيقية في عشرين مجلدًا سيأتي ذكرها في كلامنا عن النهضة الأخيرة من هذا الكتاب.

(ب) السلوك لمعرفة دول الملوك: هو تاريخ مصر من سنة ٥٧٧–٨٤٤ ذكر فيه أنه لما أكمل كتاب «عقد جواهر الأسفاط» وكتاب «اتعاظ الحنفاء» الآتي ذكرهما: وهما

يشتملان على من ملك من مصر من الأمراء والخلفاء وما كان في أيامهم من الحوادث منذ فتحت إلى أن زالت دولة الفاطميين، أراد أن يصل ذلك بذكر من ملك مصر بعدهم من الأكراد والأتراك والجراكسة غير مقيد فيه بالتراجم والوفيات، فألف هذا الكتاب رتبه على السنين، يذكر حوادث السنة ثم يترجم من مات فيها من الأعيان ترجمة مختصرة، وإنما يطيل في الحوادث، منه نسخ خطية في غوطا وباريس والمتحف البريطاني وأيا صوفيا وكوبرلي ويني جامع، ونسخة في مكتبة محمد الفاتح في ١١ جزءًا، وأطلعنا الأستاذ مرجليوث على نسخة منه بأكسفورد اسمها «واسطة السلوك في دول الملوك» في أربعة مجلدات، وكتاب آخر عنوانه «تاريخ الجراكسة للمقريزي» لعله مقتطف من واسطة السلوك، وقد عني بترجمة كتاب السلوك إلى الفرنساوية كاترمير المستشرق الفرنساوي، وطبع في باريس سنة ١٨٣٧–١٨٤٥ في مجلدين وسماه «تاريخ السلاطين المماليك»، وألف السخاوي ذيلًا عليه سماه التبر المسبوك في ذيل السلوك، تقدم ذكره.

(ج) كتاب المقفى: وصف فيه عيشة الأمراء والمشاهير الذين أقاموا بمصر، رتبه على الأبجدية، وقدر أنه يستغرق ثمانين مجلدًا لم يظهر منه إلا ١٦ مجلدًا، منها ثلاثة مجلدات في ليدن ومجلد في باريس، كلها بخط المؤلف.

(د) درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة: هو معجم لتراجم الأعيان من معاصريه في ثلاثة مجلدات، منه قطعة في حرف الألف وأخرى في حرف العين بخط المؤلف في غوطا.

(ه) اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الخلفاء: تاريخ الدولة الفاطمية، منه نسخة في غوطا بخط المؤلف، عني المستشرق بونز بنشرها سنة ١٩١١ في توبنجن.

(و) الدرر المضيئة في تاريخ الدولة الإسلامية: من مقتل عثمان إلى المستعصم آخر الخلفاء العباسيين، في كمبريدج.

(ز) إمتاع الأسماع في ما للنبي من الحفدة والأتباع: في أقرباء النبي وأصحابه في ستة مجلدات حدث به في مكة والمدينة، منه نسخ في غوطا وكوبرلي.

(ح) نبذة العقود في أمور النقود، يشتمل على تاريخ النقود العربية، ألفها بأمر مطاع فتكلم أولًا في النقود القديمة عند الفرس والروم وأجزائها ثم النقود الإسلامية وتاريخها من الجاهلية وما كان يُنقش عليها، ثم تكلم عن نقود مصر في أيامه، منها نسخ في برلين وليدن والأسكوريال، ونُقلت إلى الإيطالية وطبعت في روستوكي سنة ١٧٩٧، وترجمها دي ساسي إلى الفرنساوية ونشرت في باريس ١٧٩٧ وقد طبعت في مصر سنة ١٢٩٨.

(ط) المكاييل والموازين الشرعية: هي رسالة تبحث في المكاييل والأوزان العربية بالنظر إلى الشرع، منها نسخة في ليدن وأخرى في المكتبة الخديوية في ١٨ صفحة وقد ترجمت إلى الإيطالية وطبعت في روستوكي سنة ١٨٠٠.

(ي) مقالة لطيفة وتحفة سنية شريفة: في حرص النفوس الفاضلة على بقاء الذكر، رسالة في المتحف البريطاني.

(ك) ضوء الساري في معرفة خبر تميم الداري: في المتحف البريطاني.

(ل) النمل وما فيه من غرائب الحكمة: في كمبريدج.

(م) الطرفة الغريبة في أخبار حضرموت العجيبة: رسالة في إرشاد الحاج بطريق مكة، في كمبريدج، وقد طبعت في يونيو مصورة ومشروحة سنة ١٨٦٦.

(ن) البيان والإعراب عما في أرض مصر من الأعراب: منها نسخة في فينا وباريس والمكتبة الخديوية، وقد ترجمها وستنفيلد إلى الألمانية ونشرها في غوتنجن سنة ١٨٤٧.

(س) الإلمام بمن في أرض الحبشة من ملوك الإسلام: كتاب صغير طبع في بتافيا مع ترجمة فرنساوية سنة ١٧٩٠ وفي مصر ١٨٩٥.

(ع) معرفة ما يجب لآل البيت الشريف من الحق على من عداهم، في فينا.

(ف) الذهب المسبوك في ذكر من حَج من الملوك: ذكر فيه ٢٦ نفرًا أولهم النبي فالخلفاء الراشدون ومن بعدهم إلى أيامه في خمسة أجزاء، منه نسخة في كمبريدج.

(ص) النزاع والتخاصم بين بني أمية وهاشم: كتاب صغير منه نسخة في فينا، وقد ترجم إلى الألمانية وطبع في ليدن سنة ١٨٨٨.

(ق) الإشارة والأسماء إلى حل لغز الماء، في المكتبة الخديوية.

(ر) إزالة التعب والعناء في معرفة حال الغناء، في باريس.

(ش) ذكر ما ورد في بني أمية وبني العباس من الأقوال، منه نسخة في فينا.

(ت) كتاب الخبر عن البشر: هو كبير في ستة أجزاء، ذكر فيه القبائل وأنساب النبي، منه نسخ في أيا صوفيا وفي خزانة الفاتح وفي ستراسبورج، ونقلت عنه مجلة المشرق فصلًا في تاريخ الكتابة العربية في الإسلام (سنة ١٠ صفحة ٤٧٨).

(ث) جني الأزهار من الروض المعطار: منه نسخة في المكتبة الخديوية في ١١٦ صفحة، ذكر فيها أنه خلاصة «الروض المعطار في عجائب الأقطار»، وفيه وصف أهم الأقاليم ومساحاتها، وفي صدر هذه النسخة سمي المؤلف شهاب الدين المقريزي فإذا صحت التسمية كان المؤلف أحد أعقاب تقي الدين المقريزي؛ لأن الروض المعطار الذي

لخصه تأليف أبي عبد الله الحميري المتوفى سنة ٩٠٠ أي: بعد تقي الدين المقريزي بنصف قرن.

(خ) إغاثة الأمة بكشف الغمة، في المكتبة الخديوية.

(ذ) البيان المفيد في الفرق بين التوحيد والتلحيد، في المكتبة الخديوية.

(ض) تراجم ملوك الغرب، فيه أخبار أبو حمو ومن خلفه على تلمسان، منها نسخة في ليدن وفينا في جملة مجموعة فيها بضعة عشر مؤلفًا من مؤلفات المقريزي التي تقدم ذكرها.

(ظ) عقد جواهر الأسفاط في أخبار الفسطاط: لم نقف على خبره (ترجمته في التبر المسبوك ٢١ وحسن المحاضرة ٢٣١ ج١).

(١٠) **صالح بن يحيى (في أواسط القرن التاسع):** هو من أمراء الغرب في سوريا بأواسط القرن التاسع للهجرة، وكان عالمًا بالنجوم ومؤرخًا له كتاب في «تاريخ بيروت وأخبار الأمراء البحتريين من بني الغرب» من القرن السادس إلى التاسع، طبع في بيروت بعناية الأب شيخو سنة ١٩٠٢ في ٣٢٠ صفحة وفيها الملحقات والفهارس والخرائط.

(١١) **شمس الدين الباعوني (توفي سنة ٨٧١هـ):** هو شمس الدين أبو الفضل (أو أبو عبد الله) محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد الباعوني الشافعي، ولد سنة ٧٧٦ وفي اسمه اختلاف كثير، وصلنا من مؤلفاته:

(أ) تحفة الظرفاء في تاريخ الخلفاء: أرجوزة تتضمن أسماء الأمراء والخلفاء والسلاطين الذين تولوا مصر من أول الإسلام إلى الأشرف برسباي مطلعها «يقول راجي ربه محمد»، وذيلها ابن أخيه بهاء الدين الآتي ذكره إلى زمن قايتباي، وسماها «الإشارة الوفية»، منها نسخ في غوطا وليبسك والمتحف البريطاني، وتسمى أيضًا «فرائد السلوك في تاريخ الخلفاء والملوك».

(ب) منحة اللبيب في سيرة الحبيب: رجز عن سيرة النبي في غوطا.

(ج) ملخص تضمين الملحة: نظم ملحة الإعراب للجريدي، في هفنيا.

(د) الليث العابس في صدمات المجالس: في أيا صوفيا، وله أشعار أخرى.

(١٢) **أبو المحاسن تغري بردي (توفي سنة ٨٧٤هـ):** هو أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي عبد الله الظاهري الجويني، ولد سنة ٨١٣ في القاهرة وأبوه مملوك تركي للسلطان الملك الظاهر برقوق كان أميرًا على حلب ودمشق، توفي سنة ٨١٥

وابنه جمال الدين هذا طفل يتيم من أبويه، وتلقى العلم في القاهرة على المقريزي وغيره، وحج سنة ٨٦٣، وقد خلف مؤلفات هامة اقتفى آثار أستاذه فيها أهمها:

(أ) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: هو تاريخ مصر من الفتح الإسلامي إلى الدول الأشرفية سنة ٨٥٧ في عدة مجلدات مع استطرادات كثيرة لأخبار البلاد المجاورة، مرتب على السنين، وفي آخر كل سنة تراجم من مات فيها وزيادة النيل ونقصانه. ولما فتح السلطان سليم العثماني مصر، واطلع على هذا الكتاب أمر بنقله إلى التركية فنقله شمس الدين أحمد بن سليمان قاضي العسكر في الأناضول يومئذ، ومن الأصل العربي نسخ في برلين وغوطا وأبسالا وبطرسبورج وباريس والمتحف البريطاني وكوبرلي، وفي نسخة غوطا ذيل إلى سنة ٨٦٥ واهتم المستشرق جونيل الهولندي في نشره فطبع الجزءين الأول والثاني في ليدن سنة ١٨٥١–١٨٦١ وينتهيان إلى أوائل الدولة الفاطمية، لكنه توفي وظل العمل متروكًا إلى الأمس، فتصدى وليم بوبر أحد أدباء أميركا لإتمامه فنشر قسمًا منه سنة ١٩٠٩ يحتوي على أخبار الخليفتين الفاطميين العزيز بالله والحاكم بأمر الله في ١٢٣ صفحة (من سنة ٣٦٥–٤١١) فعسى أن يوفق إلى نشر الباقي، وقد لخص المؤلف كتابه هذا وسماه «الكواكب الباهرة من النجوم الزاهرة» لا نعرف مكانه.

(ب) مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة: اقتصر فيه على ذكر الخلفاء والسلاطين بغير مزيد، واستفتح بذكر النبي فالخلفاء الراشدين إلى الخليفة القائم بأمر الله، ثم ذكر العبيديين ومن خلفهم على مصر إلى أيامه، منه نسخة في مكتبة محمد الفاتح ومكتبة بشير آغا في الأستانة، وفي غوطا مع ذيل إلى سنة ٩٠٦ وفي باريس وأكسفورد وكمبريدج وتونس، وطبع في كمبريدج سنة ١٧٩٢ وله ذيول منها «منهل الظرافة لذيل مورد اللطافة» بأسماء أمراء مصر إلى سنة ٨٨٤ في برلين.

(ج) منشأ اللطافة في ذكر من ولي الخلافة: وهو تاريخ مصر من أقدم أزمانها إلى سنة ٧١٩ في باريس.

(د) المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي: هو معجم لمشاهير الرجال العظام من سنة ٦٥٠ إلى آخر أيام المؤلف، أراد به أن يكون ذيلًا للوافي تأليف الصفدي المتقدم ذكره، منه نسخة في المكتبة الخديوية في ثلاثة مجلدات كبيرة صفحاتها نحو ٣٠٠٠ صفحة منقولة عن مكتبة عارف بك بالمدينة، ترجم فيها مئات من الأعيان والعلماء وأسند كل رواية إلى صاحبها.

ومن لطيف ما جاء في مقدمته، وقد خالف به أكثر مؤلفي عصره قوله: «كنت قد اطلعت على نبأ من سيرهم وأخبارهم (يعني رجال التاريخ) ووقفت في كتب التاريخ على الكثير من آثارهم فحملني ذلك على سلوك هذه المسالك وإثبات شيء من أخبار أمم الممالك غير مستدعي إلى ذلك من أحد من أعيان الزمان، ولا مطالب به من الأصدقاء والخلان، ولا مكلف لتأليفه وترصيفه من أمير ولا سلطان، بل اصطفيته لنفسي وجعلت حديقته مختصة بباسقات غرسي؛ ليكون في الوحدة لي جليسًا وبين الجلساء مسامرًا وأنيسًا … إلخ» وهذا يخالف طريقة سائر المؤلفين في ذلك العهد، وقد اختصره في كتاب سماه «الدليل الشافي على المنهل الصافي» منه نسخة في مكتبة بشير آغا بالأستانة.

(هـ) نزهة الرأي في التاريخ: هو تاريخ مفصل على السنين والشهور والأيام في عدة مجلدات، منها الجزء التاسع في أكسفورد لحوادث سنة ٦٧٨–٧٤٧.

(و) حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور: جعله ذيلًا على كتاب السلوك للمقريزي بدأ به حيث انتهى ذاك إلى سنة ٨٥٦ لكنه خالف المقريزي في طريقته فأطال في التراجم إلا ما جاء ذكره منها في المنهل الصافي، منه نسخ في برلين والمتحف البريطاني وأيا صوفيا.

(ز) البحر الزاخر في علم الأوائل والأواخر: مطول في التاريخ على السنين منه جزء صغير في باريس من سنة ٣٢–٧١هـ (ترجمته في دائرة المعارف ٣٣٤ ج٢).

(١٣) **شهاب الدين الأشرفي (توفي سنة ٨٨٠هـ):** هو توغان المحمدي الأشرفي الحنفي شهاب الدين، نبغ في أواخر القرن التاسع للهجرة، وهاك ما بلغنا خبره من مؤلفاته:

(أ) كتاب البرهان في فضل السلطان: هو مختصر ألفه للظاهر خوشقدم بمكة المكرمة، ويشتمل على كثير من الفوائد الشرعية والسياسية، منه نسخة في أيا صوفيا.

(ب) المقدمة السلطانية في السياسة الشرعية، ألفها للسلطان الملك الأشرف قايتباي، رتبها على تسعة أبواب بيَّن فيها الخلاف بين الأئمة في أهم الأحكام الشرعية، وفي آخرها باب واسع في ذكر من ولي مصر من عمرو بن العاص إلى قايتباي، وهو مفيد، منه نسخة في المكتبة الخديوية في ٣٣٦ صفحة، وفي برلين.

(ج) منهاج السلوك في سير الملوك، ألفه سنة ٨٧٥، منه نسخة في أيا صوفيا.

(١٤) **النجفي النسابة:** هو محمد بن أحمد بن عميد الدين علي الحسيني النجفي النسابة، لم نقف على وفاته ولا على عصره تمامًا، وإنما استلفت انتباهنا كتاب له في الأنساب وقفنا عليه في المكتبة الخديوية عظيم الأهمية سماه:

بحر الأنساب أو المشجر الكشاف لأصول السادة والأشراف: وهو غير بحر الأنساب لابن عنبة — المتقدم ذكره — وغير بحر الأنساب المنسوب للباز الأشهب الآتي ذكره، قسمه إلى ١٥ بابًا لتسهيل البحث وهي: بحر الأنساب أو المشجر الكشاف لأصول السادة والأشراف: وهو غير بحر الأنساب لابن عنبة المتقدم ذكره وغير بحر الأنساب المنسوب للباز الأشهب الآتي ذكره، قسمه إلى ١٥ بابًا لتسهيل البحث وهي:

(أ) نسب النبي.
(ب) ذرية محمد الباقر.
(ج) ذرية زيد الشهيد.
(د) عبد الله الباهر.
(هـ) عمر الأشرف.
(و) الحسين الأصغر.
(ز) ذرية على الأصغر.
(ح) جعفر الخطيب.
(ط) عبد الله المحض.
(ي) إبراهيم الغمر.
(ك) داود بن الحسن.
(ل) الحسن المثلث.
(م) الحسن بن زيد.
(ن) علي بن أبي طالب.

(س) ذرية العباس وأبي طالب. وقد أوضح كل طبقة أو سلسلة أو ذرية من هؤلاء بشكل المشجر المتفرع، وفيه أيضًا شجر أنساب بعض السلاطين من المغول ولا سيما جنكيزخان وهولاكو والسلاطين الأيوبيين وغيرهم، منه نسخة خطية في المكتبة الخديوية في ٤٨٠ صفحة كبيرة أكثرها جداول ملونة بالأحمر والأسود يحتاج تفهمها إلى أعمال الفكرة.

(١٥) **أبو البقاء بن الجيعان (نحو سنة ٩٠٠هـ):** في هذا الكتاب ثلاثة أسماء كل منها «ابن الجيعان»:

الأول: اسمه علم الدين شاكر بن عبد اللطيف بن الجيعان القبطي الأصل، توفي سنة ٩٠١ تقدم ذكره بين الشعراء.

والثاني: شرف الدين يحيى بن المعمر بن الجيعان الجغرافي من أهل أواخر القرن الثامن سيأتي ذكره بين الجغرافيين.

والثالث: القاضي أبو البقاء بن يحيى المؤرخ من أهل القرن التاسع الذي نحن في صدده، وهو ابن شرف الدين يحيى المذكور، ويظهر من تقارب الوقت بينه وبين علم الدين شاكر أنهما واحد أوهما إخوان، ولأبي البقاء مؤلفان` هما:

(أ) القول المستظرف في سفر الملك الأشرف: ذكر فيه ما جرى في سفر الملك الأشرف قايتباي سنة ٨٨٢ منه نسخة في المكتبة الخديوية مذهبة الحواشي، وقد طبع في تورينو وسمي «تاريخ قايتباي»، وفيه فوائد اجتماعية من عادات تلك الأيام وأحوال أهلها.

(ب) طوالع البدور في تحويل السنين والشهور: في علم الميقات، منه نسخة في المكتبة الخديوية.

(١٦) **العليمي (توفي سنة ٩٢٧هـ):** هو أبو اليمن عبد الرحمن بن محمد مجير الدين العليمي الفخري الحنبلي قاضي قضاة بيت المقدس له:

(أ) الأنيس الجليل في تاريخ القدس والخليل: منه نسخ في أكثر مكاتب أوربا وفي المكتبة الخديوية في ٤٤٠ صفحة وقد طبع بمصر سنة ١٢٨٣ وغيرها، وهو في وصف القدس والخليل وما جاء في أخبارهما وآثارهما والوقائع الحربية المتعلقة بهما.

(ب) المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد (ابن حنبل): منه نسخة في الخزانة التيمورية في مجلدين صفحاتهما ٥٢٣ صفحة، وهو مرتب على سني الوفاة.

كتب أخرى من تواريخ البلاد والدول بمصر والشام

(١) **الأعلاق الخطرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة:** في التاريخ والجغرافية لأبي عبد الله عز الدين بن شداد المتوفى سنة ٦٨٤ منه نسخة في المتحف البريطاني.

(٢) **تاريخ الفيوم وبلاده:** لأبي عثمان النابلسي الصفدي ألفه للملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل بن العادل، وفيه وصف هذا البلد على الإجمال وأحوال سكانه وإقليمه وما تقلب عليه من الأحوال السياسية، طبع بمصر سنة ١٨٩٨.

(٣) **مرشد الزوار إلى قبور الأبرار:** لموفق الدين بن عثمان الفقيه الإمام في أواخر القرن الثامن، في زيارة القبور بسفح المقطم، منه نسخة في المتحف البريطاني وغوطا والمكتبة الخديوية، كتبه بعد سنة ٧٧١هـ.

(٤) **الإعلام في وفيات الأعلام:** لإسماعيل الذهبي (٧٨٠) في أيا صوفيا.

(٥) **الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب:** لعلاء الدين بن خطيب الناصرية، توفي سنة ٨٤٣، تقدم ذكره في ترجمة ابن العديم.

(٦) **العقود الدرية في الأمراء المصرية:** لمحمد بن الحسن البنبي (٨٢٦) مرتب على السنين إلى أيام برسباي، منه نسخة في المتحف البريطاني.

(٧) **الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب:** لمحب الدين ابن الشحنة هو ابن الحافظ قاضي حلب ابن الشحنة الآتي ذكره، توفي سنة ٨٩٠، منه نسخ في ليدن وبرلين وفينا وغوطا وبطرسبورج ونور عثمانية، وطبع في بيروت سنة ١٩٠٩ وفيه وصف آثارها ومدارسها، فضلًا عن التاريخ.

(٨) **الدر الثمين المنظوم في ما ورد عن مصر وأعمالها:** بالخصوص والعموم، للخطيب الجوهري ابن داود (٨٩٠)، في باريس.

(٩) **شفاء القلوب في مناقب بني أيوب:** قدمه مؤلفه إلى الملك الأشرف أحمد صاحب حصن كيفا في أوائل القرن التاسع للهجرة، منه نسخة في المتحف البريطاني.

(١٠) **تاريخ مدينة فاس:** مطبوع في بالرم سنة ١٨٧٨ في ٧٥ صفحة بدون اسم المؤلف، يشتمل على أخبار مدينة فاس إلى سنة ٨٠٣.

(١١) **التاريخ لما تقدم عن الآباء:** لأبي الفتح بن أبي الحسن السامري في أواسط القرن الثامن، وفيه تاريخ هذه الطائفة، طبع في غوطا سنة ١٨٦٥.

رابعًا: أصحاب التواريخ العامة في مصر والشام

(١) **المكين بن العميد (توفي سنة ٦٧٢هـ):** هو جرجيس (أو عبد الله) بن أبي ياسر بن أبي المكارم المكين بن العميد، ولد في القاهرة سنة ٦٠٢ وكان أبوه مسيحيًّا من كتَّاب الجيش في الشام تحت إمارة علاء الدين طيبرس، وتولى ابنه نحو هذا المنصب وهو شاب. ثم غضب السلطان على طيبرس فقبض عليه وعلى كتَّابه وفيهم جرجيس وأبوه وساقهم إلى مصر وسجنوا فيها، وتوفي الأب سنة ٦٣٦ وأطلق سراح الابن وعاد إلى منصبه في الشام، وبلي بالمناظرين مرة أخرى فحبس ثانية ثم أُطلق فعاد إلى الشام، وعاش معتزلًا حتى مات سنة ٦٧٢ وقد اشتهر بتاريخه: المجموع المبارك في التاريخ العام جعله في جزءين: الأول من الخليقة إلى ظهور الإسلام، منه نسخة في غوطا. والثاني من ظهور الإسلام إلى سنة ٦٥٨ في برلين وأكسفورد، وقد عني الإفرنج بأمره في نهضتهم فنقلوه إلى اللاتينية وطبعوه في ليدن سنة ١٦٢٥ مع الأصل العربي، وترجم إلى الإنكليزية وطبع في لندن ١٦٢٦ وإلى الفرنساوية وطبع في باريس سنة ١٦٥٧ ويعرف بتاريخ ابن العميد.

وله ذيل اسمه «النهج السديد والدر الفريد في ما بعد تاريخ ابن العميد» للمفضل بن أبي الفضائل القبطي المصري، وفيه تراجم السلاطين المماليك من الملك الظاهر بيبرس ٦٥٨ إلى الملك الناصر بن قلاوون سنة ٧٤١، وفيه تاريخ البطاركة اليعاقبة والمسلمين في اليمن والهند والتتر، منه نسخة في باريس.

(٢) **ابن الراهب القبطي (توفي سنة ٦٨١هـ):** هو أبو شكر بطرس بن الراهب أبو كرم بن المهذب، رسم شماسًا قبطيًّا في دير المعلقة بالفسطاط سنة ٦٦٩، وما زال هناك حتى تولى سنة ٦٨١، وقد خلف كتابًا في التاريخ العام يبدأ بآدم ومن بعده من الآباء إلى قضاة بني إسرائيل، فملوك الروم إلى مجيء المسيح، ثم سير البطاركة من مرقص إلى أثناسيوس بطريرك الإسكندرية وما جرى في أيامهم، ثم تاريخ الخلفاء الراشدين ومن بعدهم إلى أيامه، وهو مرتب بالأكثر في جداول مقسومة إلى حقول: الحقل الأول: لاسم الشخص المترجم وأصله ونسبه وولادته وخلاصة أعماله وصفاته الشخصية. والثاني: لعدد سني حياته ومدة حكمه أو رئاسته. والثالث: لجملة ما تقدم من السنين.

وفي أخبار المسلمين حقل رابع للتاريخين الهجري والإفرنجي.

وقد اهتم به الإفرنج وترجموه إلى اللغات اللاتينية، ونشرت هذه الترجمة في باريس سنة ١٦٥١ بهمة إبراهيم الحاقلاني الماروني، ثم أعاد طبعها يوسف شمعون السمعاني

وألحقها بترجمة ثانية من قلمه في البندقية سنة ١٧٢٩، وأما الأصل العربي فلم ينشر حتى عني الأب شيخو باستنساخه عن نسخة في الفاتيكان وتولى طبعه لأول مرة مع الترجمة اللاتينية بالتنقيح والتعليق سنة ١٩٠٣ في جزءين صفحاتهما نحو ٣٥١ صفحة مع الفهارس.

(٣) **بيبرس المنصوري (توفي سنة ٧٢٥هـ):** هو الأمير ركن الدين بيبرس المنصوري الدوادار من مماليك السلطان المنصور قلاوون، تولى إمارة الكرك ثم صار وزيرًا في زمن الأشرف وتولى مناصب أخرى حتى صار نائبًا للسلطنة ثم سجن وأطلق، وتقلبت عليه أحوال شتى على طرز تلك الأيام، وأخيرًا حج ومات وله ثمانون سنة وهاك مؤلفاته:

(أ) زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة: هو تاريخ عام للدولة الإسلامية من أولها إلى سنة ٧٢٤ في أحد عشر مجلدًا رتبه على السنين، وقد أعانه في جمعه وتأليفه كاتبه شمس الرئاسة بن بكر المسيحي، لا نعرف منه نسخة كاملة في مكان ولكن منه الجزء الرابع في أبسالا وفيه تاريخ الدولة العباسية إلى سنة ٢٥٢ والخامس إلى سنة ٣٢٢ في باريس، والسادس إلى السنة ٤٠٠ في أكسفورد، والتاسع من ٥٩٩–٧٤٤ في أكسفورد أيضًا، والعاشر في المتحف البريطاني، ومنه قطعة في المكتبة الخديوية مع مجلد من الكامل لابن الأثير.

(ب) التحفة الملوكية في الدولة التركية: هو تاريخ السلاطين المماليك من سنة ٤٦٧–٧٢١ في فينا (حسن المحاضرة ٣٢٠ ج١).

(٤) **أبو الفداء (توفي سنة ٧٣٢هـ):** هو السلطان الملك المؤيد صاحب حماه إسماعيل بن علي بن محمود بن المنصور محمد بن المظفر تقي الدين عمر بن نور الدين شاهنشاه بن نجم الدين أيوب، كان أميرًا على دمشق وخدم الملك الناصر وهو في الكرك وبالغ في ذلك فوعده بحماه ووفى له بوعده وجعله سلطانًا عليها يفعل فيها ما يشاء بلا مراقبة من مصر ولا غيرها، ولما زاره أبو الفداء في القاهرة أركبه بشعار الملك وأبهة السلطنة ومشى الأمراء والناس في خدمته وبالغ في إكرامه، وكان أبو الفداء يتوجه كل سنة إلى مصر بهدايا من الخيل والرقيق والجواهر، والناصر يبالغ في رفع قدره ويأمر أمراءه أن يكاتبوه بأجل الألقاب على اصطلاح تلك الأيام، وكان محبًّا للعلم وقد تمكن من

الفقه والطب والفلسفة، وكان يقرب أهل العلم ويرتب لهم الجواري والأرزاق، وألف كتبًا نفيسة هي من أفضل مراجع التاريخ والجغرافية حتى الآن وهي:

(أ) المختصر في أخبار البشر: تاريخ عام في قسمين، الأول في الجاهلية، والثاني في الإسلام إلى سنة ٧٢٩ وكلاهما في أربعة أجزاء، يبدأ الجزء الأول بمقدمات مفيدة في مقابلة التواريخ (الرزنامة)، المعروفة في عصره، قابل فيها بين ما في التوراة العبرانية والسامرية واليونانية، ووضع لذلك جدولًا لطيفًا، ثم أتى على تواريخ الأنبياء والفرس القدماء والعرب الجاهلية والأمم الأخرى القديمة، وأفاض في العرب الجاهلية وأحيائهم وقبائلهم البائدة والباقية وملوكهم ودولهم، وكلامه في ذلك من أفضل ما كتب في هذا الموضوع. يلي ذلك ظهور الإسلام فالخلفاء الراشدون فالأمويون والعباسيون إلى خلافة المنصور، والجزء الثاني في تاريخ دولة الأمويين في الأندلس وما عاصرها من الدول الإسلامية إلى سنة ٥٢٣، والثالث ينتهي سنة ٦٦٣، والرابع سنة ٧٢٩. وقد جمعه من نيف وعشرين كتابًا أهمها الكامل لابن الأثير، وقد تحداه في ترتيبه على السنين، ويمتاز عنه بما تضمنه من الأخبار الأدبية والعلمية والاجتماعية مما لم يتصد له ذاك إلا قليلًا.

ولهذا الكتاب منزلة رفيعة عند علماء أوربا وهو من أقدم كتب التاريخ الإسلامي التي اهتموا بنشرها وترجمتها، فطبعوه بالعربية أولًا في أوكسونيا سنة ١٧٣٢ ثم نقلوه إلى اللاتينية بقلم ريسكي وادلر ونشروه مع الأصل العربي في هفنيا في خمسة مجلدات كبيرة من سنة ١٧٨٩–١٧٩٤ تبدأ هذه الطبعة بمولد النبي وفيها الفهارس والجداول.

أما القسم الأول المختص بالجاهلية فنقلوه على حدة وطبع سنة ١٨٣١، ونشرت قطعة أخرى منه عن ديار مصر مع ترجمة لاتينية وشروح في غوتنجن سنة ١٧٧٦ ونقلوا بعضه إلى الفرنساوية وغيرها، اطلعنا منها على ترجمة سيرة النبي مقتطفة من ذلك التاريخ نشرت في باريس سنة ١٨٣٧ مع ترجمة فرنساوية لديفرجه، وقد طبع كله في الأستانة سنة ١٢٨٦ في أربعة مجلدات نقلًا عن طبعة أوربا، وطبع بمصر أيضًا، وقد لخصه ابن الوردي وأضاف إليه وسماه «تتمة المختصر» إلى سنة ٧٤٩ سيأتي ذكره، وفعل نحو ذلك محمد بن إبراهيم بن أبي الرضى في كتاب سماه «لب لباب المختصر في أخبار البشر» منه نسخة في بطرسبورج، وكذلك فعل ابن الشحنة وسيأتي خبره.

(ب) تقويم البلدان: هو جغرافية عامة ذكر في أوله إنه طالع الكتب المؤلفة في هذا الموضوع في العربية من ابن حوقل إلى الإدريسي وياقوت وغيرهم، فوجد في كتبهم ما يحتاج إلى تصحيح ولا سيما الأسماء والأنساب فطالع ما كتبه العرب في تصحيح الأنساب

والأسماء كالأنساب للسمعاني والمشترك لياقوت. وقرأ كتبًا أخرى عن الأطوال والعروض وغيرها وجمع ما تفرق فيها كلها في هذا الكتاب، وأضاف إليها أشياء لم يصل علمها لأحد قبله وبذل جهده في التحقيق، وجعله في شكل الجداول مثل تقويم الأبدان لابن جزلة، وقدم ما يجب معرفته من ذكر الأرض والأقاليم ثم ذكر البلاد، وعددها ٦٢٣ بلدًا، مرتبة على الأقاليم، وقد اهتم به الإفرنج قبل اهتمامهم بالتاريخ فنقلوا قطعًا منه إلى اللاتينية عن خوارزم وما وراء النهر وطبعوها مع الأصل العربي في لندن سنة ١٦٥٠، ونشروا قطعًا أخرى عن سوريا في ليبسك سنة ١٧٧٦ وعن إفريقية في غوتنجن سنة ١٧٩١ ونشرت كلها في اللاتينية سنة ١٨٣٥، ونشرها دي سلان في العربية سنة ١٨٤٠ في ٥٣٩ صفحة صدرها بمقدمة فرنساوية في وصف الكتاب وأحواله مع الفهارس والجداول والشروح، وترجمها رينو وجويار إلى الفرنساوية وطبعاها في ثلاثة مجلدات سنة ١٨٤٨–١٨٨٣ المجلد الأول منها مقدمة طويلة في تاريخ الجغرافية عند الشرقيين جزيلة الفائدة مع ثلاث خرائط، والمجلد الثاني ترجمة النصف الأول من الأصل العربي والمجلد الثالث فيه بقية الكتاب مع الفهارس، ويسمون هذا الكتاب في الفرنساوية «جغرافية أبي الفداء».

واهتم غير الإفرنج أيضًا في هذا التقويم، فعني محمد بن علي الشهير بسباهي زاده المتوفى سنة ٩٩٧ بترتيب مواده على الحروف المعجمة، وأضاف إليه ما التقطه من المصنفات ليسهل تناوله، وسماه «أوضح المسالك إلى معرفة البلدان والممالك» وأهداه إلى السلطان مراد خان الثالث، ثم نقله إلى التركية وأهداه إلى الوزير محمد باشا، أما أوضح المسالك العربية فمنها نسخة في المكتبة الخديوية في ٥٤٤ صفحة بخط جميل، وتوجد أيضًا في المتحف البريطاني وفي جامع أيا صوفيا ونور عثمانية.

(ج) الكناش في النحو والصرف، ألفه سنة ٧٢٧ منه نسخة في المكتبة الخديوية عليها خط صاحب كشف الظنون (فوات الوفيات ١٦ ج١ وفي صدر تاريخه وفي آخره).

(٥) **شمس الدين الذهبي (توفي سنة ٧٤٨هـ):** هو محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز أبو عبد الله شمس الدين الذهبي التركماني الفارقي الإمام الحافظ، وله سنة ٦٧٣ في دمشق وطلب الحديث من صغره ورحل في طلبه حتى رسخت قدمه فيه، ثم انتقل إلى مصر وقرأ فيها العلوم الشرعية وغيرها، ولما رجع إلى دمشق تعين أستاذًا للحديث في

مسجد أم صالح ثم في المدرسة الأشرفية وغيرها، وكان معدودًا من المحدثين والمؤرخين، وكان إمام وقته وله مؤلفات عديدة أكثرها كبير هام هاك ما وصلنا خبره منها:

(أ) تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير الأعلام: هو تاريخ كبير في نحو ١٢ مجلدًا رتبه على السنين، جمع فيه بين الحوادث والوفيات، يمتد من أول الإسلام إلى سنة ٧٠٠ للهجرة، وقد قسم هذه المدة إلى سبعين بابًا كل باب لعشر سنين. ورتب تراجم كل باب على المعجم. وقد استخرج منه مختصرات يعرف كل منها باسم خاص سيأتي ذكرها، ولم نقف على نسخة كاملة من هذا التاريخ في مكتبة من المكاتب الكبرى، فالجزء الأول في باريس يشتمل على حوادث السنين ١–٤٠هـ والثاني في أكسفورد من ٤١–١٣٠ والثالث في غوطا من ١٣١–١٩٠ وفي المكتبة الخديوية جزء من سنة ١٨١–٢٠٠ والرابع في أكسفورد من سنة ١٩١–٢٤٠ وهو ناقص، وفي باريس جزء آخر فيه أخبار سنة ٣٠١–٣٧٠ والسابع في غوطا والمتحف البريطاني من ٣٥١–٤٠٠ والثامن من ٤٠١–٤٥٠ في المتحف البريطاني، وقس على ذلك سائر الأجزاء بحيث يصعب جمع نسخة كاملة منها كلها، لكن في مكتبة أيا صوفيا نسخة في ١٢ جزءًا لعلها تكون كاملة، وقد اختصره محمد بن إسحق الأيوبي وذيله قاضي شهبة وغيره، وله ترجمة تركية في برلين.

(ب) الدول الإسلامية أو دول الإسلام: تاريخ عام للدول الإسلامية مختصر مرتب على أحرف الهجاء من الهجرة إلى سنة ٧٤٠، منه نسخة في مكتبة كوبرلي في الأستانة، وفي المكتبة الخديوية الجزء الأول منه ينتهي إلى خلافة المستظهر بالله سنة ٤٨٧ وهو ٣٦٠ صفحة.

(ج) تذهيب تهذيب الكمال: الكمال معجم لأسماء رجال الحديث تأليف أبي محمد عبد الغني بن عبد الواحد علي المقدسي الجماعيلي في ثلاثة مجلدات، منه نسخة في مجلدين بالمكتبة الخديوية في ١٢١٦ صفحة، والكمال أيضًا لمحب الدين بن النجار المتقدم ذكره، وقد هذب الكمال وزاد عليه جمال الدين أبو الحجاج يوسف بن عبد الرحمن المزي المتوفى سنة ٧٤٢ في كتاب سماه «تهذيب الكمال» يشتمل على أسماء رواة العلم وحملة الآثار وأئمة الدين وأهل الفتوى والزهد والمشهورين من كل طائفة من طوائف أهل العلم مرتبة على الهجاء رجالًا ونساء، فهو من أكبر المعاجم التاريخية يحتوي على ١٧٠٠ ترجمة، منه نسخة في المكتبة الخديوية ١٢ مجلدًا في نحو عشرة آلاف صفحة، والذهبي أخذ تهذيب الكمال هذا ولخصه وأحسن ترتيبه وزاد عليه وسماه «تذهيب تهذيب الكمال» في خمسة مجلدات صفحاتها نحو ٢٢٠٠ صفحة، منه نسخة في المكتبة الخديوية ينقصها

الجزء الرابع، ثم صفي الدين أحمد بن عبد الله الخزرجي لخص هذا التهذيب في كتاب سماه «خلاصة تذهيب تهذيب الكمال» في جزء كبير طبع بمصر سنة ١٣٠١ في نحو ٥٠٠ صفحة عليها شروح.

(د) مختصر تاريخ بغداد لابن الدبيثي: ويسمى «المختصر المحتاج إليه من تاريخ بغداد» لأبي عبد الله محمد بن سعيد بن محمد الدبيثي انتقاه الذهبي مع زيادات. وتاريخ الدبيثي هذا هو ذيل على تاريخ بغداد لابن الخطيب، ومن المختصر المحتاج جزء في المكتبة الخديوية مكتوب عليه «الجزء الثاني من مختصر الحافظ أبي عبد الله الدبيثي للحافظ أبي عبد الله الذهبي»، وهو مرتب على الأبجدية يبدأ باسم محمد ثم بالألف وما بعدها في ٢٦٤ صفحة.

(هـ) التجريد في أسماء الصحابة: تاريخي، طبع في حيدرآباد سنة ١٣١٥ في مجلدين صفحاتهما ٨٣٠ صفحة.

(و) تذكرة الحفاظ: كبير، طبع في الهند في أربعة مجلدات.

(ز) المشتبه في الأسماء والأنساب: وفيه تراجم الأسماء المتشابهة في الصورة أو اللفظ، جمع فيه ما اشتبه من الرجال والنساء في الأسماء أو الأنساب أو الكنى أو الألقاب التي اتفق وضعها، واختلف نطقها مما يأتي في أسانيد الحديث وغيره، ورتبها على الأبجدية طبع في ليدن ١٨٦٣ في نحو ٦٠٠ صفحة ويسمى أيضًا «مشتبه النسبة».

(ح) ميزان الاعتدال في نقد الرجال: يعني رجال الحديث، رتبه على حروف المعجم، وهو كتاب جليل جمع فيه أسماء الرواة من الكتب الستة وزاد عليهم، طبع في لكناو الهند سنة ١٨٨٤ وفي مصر سنة ١٣٢٥ في ثلاثة مجلدات وله مختصرات عديدة.

(ط) الكاشف: في معرفة أسماء الرجال (رجال الحديث) منه نسخة في المكتبة الخديوية وفي الأسكوريال.

(ي) العبر في أخبار البشر ممن عبر: هو تاريخ عام في مجلدين اقتطفه من تاريخه الكبير (تاريخ الإسلام)، رتبه على السنين ذكر فيه أشهر الحوادث والوفيات من أول الهجرة إلى سنة ٧٤٠ منه نسخ في فينا وباريس والمتحف البريطاني وأيا صوفيا وكوبرلي، وقد ذيله واختصره كثيرون وصلنا من ذيوله تذييل ابن الشماع المتوفى سنة ٩٣٦ منه نسخة في المتحف البريطاني بخط المؤلف.

(ك) طبقات الحفاظ: اقتطفه من تاريخه الكبير أيضًا ورتب فيه التراجم حسب طبقاتهم، وقد اختصره السيوطي وأتمه في كتاب منه نسخة في غوطا وكوبرلي ويني جامع، وطبعه وستنفيلد في غوتنجن سنة ١٨٣٣ في ثلاثة أجزاء مع فهرس أبجدي.

(ل) طبقات القراء: اختصره من تاريخه الكبير ورتبه نحو ترتيب طبقات الحفاظ منه نسخة في باريس وكوبرلي، وقد ذيله كثيرون.

(م) تاريخ النبلاء: استخرجه من تاريخه الكبير أيضًا لا نعرف مكانه، لكن له ذيلًا اسمه «تعريف ذوي العلاء بمن لم يذكره الذهبي من النبلاء» في برلين.

(ن) مختصر أخبار النحويين لابن القفطي: في ليدن.

(س) المسترجل في الكنى: في مكتبة لي Lee الإنكليزي.

(ع) المقتنى في سرد الكنى: رتبه على الأبجدية له خلاصة في برلين.

(ف) معجم أشياخه: دون فيه تراجم شيوخه وهم نحو ١٣٠٠ شيخ ورتبه على الهجاء، منه نسخة في المكتبة الخديوية في ٤٠٠ صفحة.

(ص) طب النبي: طبع على الحجر في مصر وترجم إلى الفرنساوية وطبع في الجزائر سنة ١٨٦٠.

(ق) الكبائر وبيان المحارم: ذكر فيه ٧٦ كبيرة ونهى عنها، منه نسخة في المكتبة الخديوية في ٩٦ صفحة، وله كتب أخرى في الحديث وأحكامه لا فائدة من ذكرها (ترجمته في فوات الوفيات ١٨٣ ج٢ وطبقات الحفاظ ٦٨ ج٣).

(٦) **عمر بن الوردي (توفي سنة ٧٤٩هـ):** هو زين الدين عمر بن المظفر بن عمر بن الوردي المعري البكري، ويعرف بابن أبي الفوارس. ولد في المعرة سنة ٦٨٩ ومات في حلب سنة ٧٤٩. كان شاعرًا وأديبًا ونحويًّا وفقيهًا ومؤرخًا، فنظم الشعر وألف في النحو والتاريخ وغيره، وأشهر شعره لاميته المعروفة باسمه نظمها لابنه في ٧٧ بيتًا مطلعها:

اعتزل ذكر الأغاني والغزل　　وقل الفصل وجانب من هزل

وهي مشهورة وتعرف بنصيحة الأخوان، ولها عدة شروح وتخاميس منشورة، وله ديوان طبع في الأستانة سنة ١٣٥٠، وله مقامات وأشعار أخرى منها «المناظرات» في الأسكوريال والمتحف البريطاني و«شفو الرحيق في وصف الحريق» في برلين.

وله في التاريخ كتاب «تتمة المختصر في أخبار البشر» لأبي الفداء فيه تذييل على تاريخ أبي الفداء إلى سنة ٧٤٩، طبع بمصر سنة ١٢٨٥ وفي الأستانة سنة ١٢٨٦، وله كتب في الفقه والتصوف لا يهمنا ذكرها (فوات الوفيات ١١٦ ج٢).

(٧) **ابن أيبك (في أواسط القرن الثامن):** هو أبو بكر بن عبد الله بن أيبك صاحب صرخد، كان والده يعرف بالدواداري انتسابًا لخدمة الأمير سيف الدين بلباي الرومي الدوادار الظاهري، له:

(أ) كتاب كنز الدرر وجامع الغرر: ألفه للسلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون بدأ بتأليفه سنة ٧٠٩، يبدأ بخلق الدنيا وينتهي سنة ٧٤٥ في تسعة أجزاء: الجزء الأول في بدء الخلق. (٢) في الأمم القديمة. (٣) سيرة النبي والراشدين. (٤) الدولة الأموية. (٥) الدولة العباسية. (٦) الفاطمية. (٧) الأيوبية. (٨) التركية. (٩) سيرة الملك الناصر الذي ألف الكتاب له رتب فيه الحوادث حسب الأعوام.

منه نسخة في المكتبة الخديوية في نحو ٣٢٠٠ صفحة نقلها زكي باشا بالفوتوغراف من مكاتب الأستانة في جملة الكتب التي ابتاعتها نظارة المعارف، وأخذت في طبعها لأحياء آداب اللغة العربية.

(ب) درر التيجان وغرر تواريخ الأزمان: ألفه للخزانة العالية المولوية بدأ به سنة ٧٠٩ وأتم تسويده سنة ٧٣٢، جاء فيه على ذكر الخليقة وما كان قبل الإسلام من أخبار الجاهلية وشعرائها فالسيرة النبوية فالخلفاء ومن بعدهم، رتبه على السنين، وفيه أيضًا زيادات النيل إلى سنة ٧١٠ منه نسخة بين كتب زكي باشا بالمكتبة الخديوية في ٤٧٦ صفحة.

(٨) **مغلطاي (توفي سنة ٧٦٢هـ):** هو أبو عبد الله مغلطاي بن قليج بن عبد الله علاء الدين البكجري، هو تركي الأصل ولد سنة ٦٨٩ وتولى مشيخة الحديث في المظفرية والصرغتمشية والناصرية وغيرها، وتوفي سنة ٧٦٢ وله مؤلفات:

(أ) الزهر الباسم في سيرة أبي القاسم: وهي السيرة النبوية، ثم لخصه عاريًا من الشواهد وألحق به تاريخ الخلفاء وسماه «الإشارة إلى سيرة النبي المصطفى وآثار من بعده من الخلفاء» يشتمل على السيرة النبوية والخلفاء بعده إلى الدولة العباسية في بغداد وفتح هولاكو باختصار كلي، منه نسخة في المكتبة الخديوية في ١٦٠ صفحة وفي برلين ومنشن والمتحف البريطاني.

(ب) شرح سنن ابن ماجة: منه نسخة في المكتبة الخديوية (ترجمته في تاج التراجم ٥٧ وطبقات الحفاظ ٧٩ ج٣)

(٩) **ابن كثير (توفي سنة ٧٧٤هـ):** هو أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير عماد الدين بن الخطيب القرشي البصروي، ولد في دمشق سنة ٧٠٠ وتخرج بيوسف المزي ولزمه، وتعين سنة ٧٤٨ أستاذًا للحديث في مسجد أم صالح ثم في الأشرفية، وهاك ما وصلنا من مؤلفاته:

(أ) البداية والنهاية: مطول في التاريخ العام في عشرة مجلدات اعتمد في تأليفه على النص من الكتاب والسنة وميز بين الصحيح والسقيم من الخبر الإسرائيلي، ورتب ما بعد الهجرة على السنوات إلى آخر عصره، وهو مما جمع بين الحوادث والوفيات، وأجود ما فيه السيرة النبوية عول في كثير منه على تاريخ البرزالي، وقد لخصه كثيرون وذيلوه، منه نسخة في فينا في ثمانية مجلدات تنقص الجزء الثالث من زواج النبي إلى السنة السابعة للهجرة، والجزء السادس من سنة ٢٩٨–٦١٤ والثامن ٧٤٧ إلى النهاية، والجزء الأول منه في برلين وغوطا وأكسفورد والمتحف البريطاني وفي المكتبة الخديوية، والثاني في أكسفورد من المسيح إلى المعراج وأجزاء في أيا صوفيا وكوبرلي وبيازيد وغيرها، وقد ترجم بعضه إلى التركية ومن الترجمة نسخ في ليبسك وباريس، وفي مكتبة إبراهيم باشا بالأستانة، ولشهاب الدين بن حجي المتوفى سنة ٨١٦ ذيل عليه من سنة ٧٤١–٧٦٩ منه نسخة في برلين، وللطبراني المتوفى سنة ٨٣٥ ذيل في برلين.

(ب) تفسير القرآن: في أكثر من عشرة أجزاء منه نسخة في المكتبة الخديوية، اختصره الكازروني في كتاب سماه «البدر المنير» في نور عثمانية.

(ج) جامع المسانيد والسنن الهادي لأقدم السنن: في رواة الحديث، وكان قد ألف كتابًا في معرفة الثقات والضعفاء وسماه «التكميل» في عشرات من المجلدات أراد به تحقيق أصحاب الرواية في الحديث وما هي درجة ثقتهم، ثم جمع بهذا المعنى كتاب جامع المسانيد هذا نقلًا عن الكتب الستة ترجم فيه كل صحابي له رواية ورتبة على المعجم منه نسخة في المكتبة الخديوية في ثمانية مجلدات وفي كوبرلي.

(د) الاجتهاد في طلب الجهاد: ألفه إجابة لاقتراح الأمير منجك ليرسله إلى ما جاور البحر من البلاد ليأخذوا بحظهم من الجهاد، فأملاه وذكر فيه هجمات الإفرنج على الإسكندرية وانتقال عصائبهم إلى طرابلس وما فعلوه فيها وجرأتهم على سواها، وذكر طائفة من أخبار الفتح الإسلامي في زمن صلاح الدين تستحث النخوة، وهو المراد من تأليف هذا الكتاب، منه نسخة في المكتبة الخديوية في ٨٠ صفحة وفي كوبرلي (طبقات الحفاظ ٧٦ ج٣ والدرر الكامنة ج١).

(١٠) **زين الدين ابن الشحنة (توفي سنة ٨١٥هـ):** هو أبو الوليد محمد بن محمد بن محمود بن الشحنة زين الدين الحلبي، ولد سنة ٧٤٩ وكان قاضين الحنفية في حلب، كتب في عدة فنون وله عدة أراجيز في اللغة والدين والتصوف والأحكام والفرائض والمنطق متفرقة في برلين وباريس والمكتبة الخديوية، منها أرجوزة في البيان شرحها كثيرون وشروحها متفرقة في مكاتب أوربا، وإنما يهمنا من مؤلفاته هنا:

(أ) روض المناظر في علم الأوائل والأواخر: هو مطول في التاريخ ألفه بناء على إشارة عماد الدين محمد بن موسى النائب بمدينة حلب، وقسمه إلى مفتاح ومصراعين وخاتمة، أما المفتاح ففي بدء خلق الدنيا والمصراع الأول في ما بين هبوط آدم والهجرة والمصراع الثاني من الهجرة إلى آخر مدة يقدرها الله، والخاتمة مشتملة على ما يكون آخر الزمان، فانتهى المصراع الثاني سنة ٨٠٦ والظاهر أنه استعان بتاريخ أبي الفداء وزاد عليه، وفي المكتبة الخديوية نسخة في ٤٠٠ صفحة تنتهي سنة ٨٠٦ فهو مختصر، وقد طبع على هامش الكامل لابن الأثير سنة ١٢٩٠ في بولاق، ومنه نسخ خطية في معظم مكاتب أوربا.

(ب) الأرجوزة البيانية: في علم البيان منها نسخ خطية في أكثر مكاتب أوربا وعليها شروح أحدها لمحب الدين الحموي، في برلين وغوطا.

(جـ) أرجوزة في سيرة الرسول ٩٩ بيتًا، في برلين.

(د) الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب: تقدم صفحة ١٨٤ أنه لابنه محب الدين.

(١١) **ابن قاضي شهبة (توفي سنة ٨٥١هـ):** هو أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر تقي الدين بن قاضي شهبة الأسدي الدمشقي، ولد سنة ٧٧٩ وتولى التدريس في المدرسة الأمينية والإقبالية، ثم صار قاضيًا سنة ٨٢٠، وارتقى إلى رئاسة القضاء وتولى النظر في المارستان المنصوري وهو يلقي الدروس في أهم المدارس، وله عدة مؤلفات أهمها:

(أ) الإعلام بتاريخ الإسلام: هو ذيل لتاريخ الذهبي — المتقدم ذكره — في أخبار المشاهير رتبه على ترتيبه منه أجزاء متفرقة في أكسفورد وباريس.

(ب) مختصر عبر الذهبي: في المتحف البريطاني.

(جـ) مناقب الإمام الشافعي: في برلين.

(د) طبقات الشافعية: وفيه تراجم مشاهير الشافعية إلى سنة ٨٤٠ مرتب حسب الطبقات في ٢٩ بابًا، وكل باب مرتب على الحروف. منه نسخ في برلين وغوطا وبطرسبورج

والمتحف البريطاني وفي المكتبة الخديوية، وقد نشر وستنفيلد منه قطعة في غوتنجن سنة ١٨٣٧.

(هـ) مختصر درة الأسلاك: لابن حبيب الحلبي، في باريس.

(١٢) **بدر الدين العيني (توفي سنة ٨٥٥هـ):** هو قاضي القضاة بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى، ولد في عينتاب ونشأ فيها وسافر إلى حلب وتفقه بشيوخها وكان أبوه قاضيًا فيها ثم صار هو نائبًا عن أبيه، ورحل إلى دمشق وزار القدس وغيرها، وجاء القاهرة مع علاء الدين السيرافي فلازمه وأخذ عنه، ثم عاد إلى دمشق ورجع إلى القاهرة وأقام في البرقوقية وتقلب في المناصب وعاد إلى بلده، ثم عاد إلى القاهرة وهو رقيق الحال فألف كتابًا للأمير قلمطاي العثماني، فتوسط له حتى تقرب من الملك الظاهر، وتحسنت حاله وتولى الحسبة بدلًا من المقريزي فوقع بسبب ذلك نفور بينهما وتناوباها غير مرة، وتولى قضاء الحنفية ثم اعتزل الأعمال وعمد إلى التأليف، وكان عالمًا بعلوم شتى ولا سيما التاريخ، وكان جميل الخط سريع الكتابة، وله مؤلفات عديدة وصلنا منها:

(أ) عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان: تاريخ عام من الخليقة إلى سنة ٨٥٠ حسب الأعصر والأمم في بضعة وعشرين مجلدًا منه الجزء الأول في كمبريدج ينتهي إلى سيرة النبي والأجزاء ٢–٤ في بطرسبورج، وفي المكتبة الخديوية ستة مجلدات، هي الأول ينتهي إلى أول قصة إبراهيم، والثاني يشتمل على سائر قصص الأنبياء، والثالث فيه تاريخ ملوك الفرس والكلدان والفراعنة واليونان، والأجزاء الباقية فيها متفرقات غير متناسقة، ومنه أجزاء في باريس، ونسخة في ٢٤ جزءًا في مكتبة بيازيد.

(ب) تاريخ البدر في أوصاف أهل العصر: هو تاريخ كبير ترتبت فيه الحوادث على السنين من أول الخلق إلى أيامه، في أوله فذلكة جغرافية نقلًا عن تقويم البلدان ثم التاريخ، وقد عول فيه على «البداية والنهاية» لابن كثير أو كأنه لخصه وزاد عليه أشياء. وألحَق ذلك ببيان الغرائب، وأخذ أيضًا عن ابن دقماق أخذًا حرفيًّا أشار إليه ابن حجر العسقلاني في كتابه أنباء الغمر وضحك منه؛ لأنه ذكر نقله أقوالًا قالها ابن دقماق قول مشاهد بمصر فقالها العيني وهو في عينتاب، منه جزء في المتحف البريطاني.

(جـ) سيرة السلطان الملك المؤيد: نظمًا، في منشن وتعرف بالجوهرة.

(د) السيف المهند في سيرة المؤيد: وكله مدح وإطراء، في باريس.

(هـ) عمدة القاري في شرح البخاري: طبع بالأستانة سنة ١٣٠٨ في ١١ مجلدًا كبيرًا. وله مؤلفات أخرى في الحديث والفقه واللغة متفرقة في مكاتب أوربا (ترجمته في الخطط التوفيقية ١٠ ج٦، وحسن المحاضرة ٢٧٠ ج١).

(١٣) **بهاء الدين الباعوني (توفي سنة ٩١٠هـ):** هو محمد بن يوسف بن أحمد الباعوني الدمشقي، ولد في الصالحية بدمشق هو ابن أخي شمس الدين الباعوني المتقدم ذكره (صفحة ١٧٩)، ومؤلفاته مثل مؤلفات عمه، أراجيز تاريخية:

(أ) تحفة الظرفاء في تواريخ الملوك والخلفاء: هي نفس أرجوزة عمه أتمها إلى زمن قايتباي، منها نسخة في باريس.

(ب) القول السديد الأظرف في سيرة السعيد الملك الأشرف: أرجوزة في ٥٥٧ بيتًا تشتمل على سيرة برسباي إلى قايتباي، في برلين.

(ج) اللمحة الأشرفية والبهجة السنية: إشعار في مدح قايتباي، في باريس.

(د) بهجة الخلد في نصح الولد: أرجوزة في التربية، في برلين.

ومن التواريخ العامة التي يحسن ذكرها

(١) مختصر سير الأوائل والملوك ووسيلة العبد المملوك: لابن بركات الحموي في أواخر القرن السابع، هو تاريخ الجاهلية والإسلام إلى الخليفة المهتدي (٢٥٥هـ) منه نسخة في باريس، وله «التاريخ المنصوري» في بطرسبورج.

(٢) مداولة الأيام: للبارزي المتوفى سنة ٦٨٣ وهي أرجوزة تاريخية في سيرة النبي والدول الإسلامية في آسيا وإفريقية والأندلس وجغرافية المملكة الإسلامية وغير الإسلامية، منها نسخة في فينا.

(٣) روضة الأعيان في أخبار مشاهير الزمان: لمحمد بن أبي بكر الموصلي نزيل البصرة ودفينها، ويعرف بابن حماد، توفي سنة ٧٥٠ بدأ فيه بسيرة النبي فالراشدين فالأمويين فالعباسيين فالفاطميين، وفيه أبواب لآل النبي والشعراء والأدباء والقواد وغيرهم، منه نسخة في الخزانة التيمورية في ٥٣٤ صفحة كبيرة.

(٤) ذيل العبر للذهبي: تأليف شمس الدين محمد بن علي الحسيني إلى آخر سنة ٧٦٤ منه نسخة في أكسفورد.

(٥) تاريخ الدول والملوك: من أول الهجرة إلى سنة ٧٩٩ لناصر الدين بن الفرات المتوفى سنة ٨٠٧ ويعرف بتاريخ ابن الفرات في مئة كراس، منه تسعة أجزاء في فينا وأجزاء متفرقة في مكاتب أخرى.

(٦) النجوم الزواهر في معرفة الأواخر: للبودي الدمشقي من أهل القرن التاسع، يقابل كتاب الأوائل للسيوطي، منه نسخة في مكتبة عارف حكمت بك في المدينة.

(٧) بهجة السالك: في تاريخ الخلفاء والسلاطين والملوك من ظهور الإسلام إلى سنة ٨٨٦ لنصر الدين الجعفري من أهل القرن التاسع، وله تاريخ آخر باسم «نهج الطرائق والمناهج والسلوك إلى تواريخ الأنبياء والخلفاء والملوك» كلاهما في باريس.

(٨) مخدرات القصور في تاريخ أهل العصور: لابن قطري المتوفى سنة ٨٩٨، وهو مختصر في التاريخ، منه نسخة في مكتبة عارف بك في المدينة.

(٩) درر الأبكار في وصف الصفوة الأخيار: لأبي الفتح بن صدقة السرميني من أهل القرن التاسع، جمع فيه طرفًا من أخبار السلف والصحابة والأئمة، منه نسخة في المكتبة الخديوية في ٣٠٦ صفحات بخط المؤلف سنة ٨٢١.

(١٠) تاج المعارف وتاج الخلائف: لأبي السعادات ابن أبي الجود السلموني، من آدم إلى سلطة قايتباي. وترجم فيه قضاة وأعيانها منه نسخة في الخزانة التيمورية وفي باريس.

(١١) بحر الأنساب: في المكتبة الخديوية نسخة من كتاب اسمه بحر الأنساب ينسب إلى الباز الأشهب البطائحي، في مجلدين صفحاتهما ١٤٥٠ صفحة، الأول منهما في النسب القديم من آدم فالآباء كالعادة، والثاني في نسب السيد البدوي وكراماته، وهو غير بحر الأنساب لابن عنبة وبحر الأنساب للنجفي النسابة، المتقدم ذكرهما.

(١٢) الجمان في أخبار الزمان: لمحمد الشطيبي المغربي من أهل القرن التاسع قسمه إلى فصول من أول بدء الدنيا، فمولد النبي إلى آخر أيام المؤلف. ويدخل في ذلك تاريخ الدولة الأموية والشام والعباسية في بغداد ثم بمصر إلى خلافة المستكفي سنة ٨٤٦ وملوك مصر العبيديين ومن جاء بعدهم من الأكراد والمماليك إلى الملك الظاهر خوشقدم، المتوفى سنة ٨٧٢ في أيام المؤلف. منه نسخة في المكتبة الخديوية في ٤٣٤ صفحة.

(١٣) نيل الأمل: لعبد الباسط بن خليل بن شاهين الملطي المتوفى سنة ٩٢٠ هو ذيل على الذهبي من سنة ٧٤٤–٨٩٦ منه نسخة في أكسفورد.

(٢-٢) المؤرخون خارج مصر والشام

أولًا: المؤرخون في العراق

(١) **ابن الساعي (توفي سنة ٦٧٤هـ):** هو تاج الدين أبو طالب علي بن أنجب بن عثمان بن عبد الله البغدادي خازن الكتب للمستنصر العباسي، صحب ابن النجار وأخذ عنه وعن غيره، وكان من المحدثين الثقات وألف في التفسير والتاريخ كتبًا كثيرة وصلنا منها:

(أ) مختصر أخبار الخلفاء: لابن الساعي، تاريخ كبير في نحو ٣٠ مجلدًا لم نقف عليه، وله «أخبار الخلفاء» وقفنا على مختصره هذا، وهو كتاب نفيس يبدأ بظهور الدولة العباسية وينتهي بانقضائها في بغداد، وفيه خلاصة مختصرة في بيوت الملك والإمارات في الإسلام، ويدخل فيها ذكر الدول الصغرى الإسلامية وملوكها المعاصرين له في جزيرة العرب والسودان وآسيا الصغرى والشام والمغرب وأمراء البدو في مصر والشام، طبع بمصر سنة ١٣٠٩، ويعرف بتاريخ ابن الساعي، في ذيل هذه الطبعة كتاب: «غاية الاختصار في أخبار البيوت العلوية المحفوظة من الغبار» لتاج الدين بن محمد بن حمزة بن زهرة الحسيني نقيب حلب، فيه بحث في النسب بالمشجر وأنواعه، ألفه بإشارة الوزير أبي محمد الحسن بن أبي جعفر بن أبي الفضل الطوسي، فبدأ بذيول بني الحسن ففروع بني الحسين وما يلحق ذلك من الأنساب وفروعها في نيف ومئة صفحة.

(ب) الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير: وهو تاريخ كبير في ٢٥ مجلدًا مرتب على السنين، بلغ فيه إلى آخر سنة ٦٥٦ يبدأ بالسنة فيذكر حوادثها ثم يأتي بتراجم من مات فيها، وذيل عليه تلميذه كمال الدين عبد الرازق بن أحمد المؤرخ المحدث المتوفى سنة ٧٢٣ في نحو ثمانين مجلدًا لم نقف عليه، أما الجامع المختصر فوقفنا على الجزء التاسع منه في الخزانة التيمورية، وفيه حوادث ١٢ سنة (من ٥٩٥–٦٠٥) في نحو ٤٠٠ صفحة. (طبقات الحفاظ ٦٣ ج٢).

(٢) **أبو الفرج الملطي (توفي سنة ٦٨٥هـ/١٢٨٦م):** هو غريغوريوس أبو الفرج بن أهرون الملطي ويعرف بابن العبري، ولد في ملطية قاعدة أرمينية الصغرى سنة ١٢٢٦م وتربى أحسن تربية؛ لأن أباه كان غنيًّا فتعلم اليونانية والسريانية والعربية، واشتغل بالفلسفة واللاهوت والطب، وكان من طائفة السريان اليعاقبة، ووافق شبابه

تزاحم الفتن في المملكة الإسلامية على أيدي المغول والإفرنج بين قتل وسبي وإحراق، ففر به أبوه إلى أنطاكية سنة ١٢٣٤م فمال الغلام إلى الزهد وانفرد في مغارة، ثم شخص إلى طرابلس وقد نال ثقة البطريرك أغناطيوس سابا فجعله أسقفًا على جوباس من أعمال ملطية سنة ١٢٤٦م، ثم نقله إلى أسقفية لاقبين، وتوفي البطريرك في أثناء ذلك فوقع الشقاق بين الأساقفة على من يتولى البطريركية وتقلبت عليه أحوال شتى انتهت بتقربه من الملك الناصر فجعله البطريرك مفريانًا على المشرق، واعترض سيادته هناك أحن هولاكو لكنه أحسن السياسة مع هذا الفاتح واستعطفه فأنعم عليه وثبته، فأخذ يتجول في أسقفيته ويتفقد أحوال رعيته، وعمد إلى التأليف والتصنيف حتى توفي سنة (١٢٨٦ / ٦٨٥هـ) في مراغة من أعمال أذربايجان، وقد خلف ما يزيد على ثلاثين كتابًا في العربية والسريانية أكثرها أدبية ولاهوتية أو شروح دينية وشرائع كنائسية أو في الفلسفة والطب والتاريخ واللغة والشعر والأدب، وإنما يهمنا منها في هذا المقام تاريخه العربي المسمى: تاريخ مختصر الدول: ألفه أولًا في السريانية فطلب إليه بعض الوجهاء أن ينقله إلى العربية ففعل، لكنه اختصر في الفتوح وأطال في دولة الإسلام والمغول، وأدخل فيه تراجم العلماء وأسماء مؤلفاتهم في أثناء كلامه عن التاريخ السياسي، فهو يتضمن كثيرًا من آداب العرب من حيث العلوم القديمة ونقلها، اقتبس ذلك عن ثقات المؤرخين كصاعد الأندلسي وابن القفطي، وكان لكتابه هذا وقع عند الإفرنج من أول نهضتهم، فطبعه بوكوك في أوكسونيا (أكسفورد) سنة ١٦٦٣ مع ترجمة لاتينية، ثم أعيد طبعه في بيروت سنة ١٨٩٠ لكنهم حذفوا من هذه الطبعة الفقرة المتعلقة بإحراق مكتبة الإسكندرية مع وجودها في طبعة بوكوك، وترجمه بور إلى الألمانية سنة ١٧٨٣ (وترجمه أبي الفرج في صدر طبعة مختصر الدول البيروتية، وفي كتاب على حدة مطبوع في بيروت).

(٣) **ابن الطقطقي (توفي سنة ٧٠١هـ):** هو محمد بن علي بن طباطبا بن الطقطقي ولد نحو سنة ٦٦٠، ونشأ في الموصل، وألف لفخر الدين عيسى بن إبراهيم صاحبها كتابه: الآداب السلطانية والدول الإسلامية: وسماه «الفخري» نسبة إليه واشتهر به، وهو تاريخ عام يبدأ بالخلفاء الراشدين فالأمويين فالعباسيين وينتهي بانقضاء الدولة العباسية وسقوط بغداد، رتبه على السنين دولة دولة وخليفة خليفة، واختص كل خليفة من العباسيين ببسط حال الوزارة في أيامه ومن تولاها كأنه يريد تدوين أعمال الوزراء فهو يمتاز بذلك عما تقدمه، ويرى المطالع في أثناء كلامه روحًا انتقادية، وفي صدر الكتاب مقدمة طويلة في الأمور السلطانية والسياسات الملكية، وهي من قبيل فلسفة

التاريخ أو البحث في أسباب الحضارة نحو ما فعل ابن خلدون في مقدمته مطولًا، والفرق بينهما أن ابن خلدون كان شديد المدافعة عن العباسيين والفخري ينتقدهم، وقد أشرنا إلى ذلك في كلامنا عن الانتقاد التاريخي، طبع الفخري في غوطا سنة ١٨٦٠، وفي باريس سنة ١٨٩٥ وفي مصر سنة ١٣١٧ وترجمت قطعة منه إلى الفرنساوية وطبعت سنة ١٨٤٧ ترجمها شربونو، وترجمه كله إلى الفرنساوية إميل إمار وطبع سنة ١٩١٠ في ٦٢٨ صفحة مع درس عن المؤلف مفيد.

ثانيًا: مؤرخو الحجاز ونجد

نبغ في شمالي بلاد العرب في هذا العصر غير واحد من المؤرخين، لكنهم بطبيعة محيطهم صرفوا اهتمامهم إلى أخبار الحرمين وسيرة النبي وآله كما انصرف مؤرخو الشام ومصر إلى تدوين تواريخ الدول لقيامهم بجوار السلاطين والملوك وعاصمة الدولة، هاك أشهرهم:

(١) **تقي الدين الفاسي (توفي سنة ٨٣٢هـ):** هو أبو الطيب تقي الدين محمد بن على الفاسي المكي المالكي، ولد سنة ٧٧٥ وكان من الحفاظ وولي قضاء المالكية بمكة ومات فيها وآثاره:

(أ) العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين: في تاريخ أعيان مكة وصفتها، وهو كتاب ضخم في عدة مجلدات رتبت فيه الأعيان على الأبجدية، منه الجزء الرابع في المكتبة الخديوية أوله حرف الغين وينتهي بالياء في ١٨٠ صفحة ثم ٧٢ صفحة للألقاب ومنه أجزاء خطية في باريس وتونس، وقد اختصر منه كتابًا سماه «عجالة القرى للراغب في تاريخ أم القرى»، وآخر سماه «تحفة الكرام في أخبار البلد الحرام» منه نسخة في باريس.

(ب) شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام: ألفه نقلًا عن الأزرقي، في برلين وغوطا والمكتبة الخديوية.

(ج) تحصيل المرام في تاريخ البلد الحرام: في برلين، وهذه الكتب مأخوذ بعضها عن بعض.

(د) المقنع من أخبار الملوك والخلفاء: طبع في أوربا (طبقات الحفاظ ٧٥ج).

(٢) **نور الدين السمهودي (في سنة ٩١١هـ):** هو أبو الحسن علي بن عبد الله بن أحمد الحسيني نور الدين السمهودي الشافعي، أصله من سمهود في الصعيد وتعلم في القاهرة ثم حج وأقام في المدينة، واشتغل بالتعليم وتقدم وارتقى وخلف كتبًا أهمها:

(أ) وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى: هو مختصر كتاب مطول اسمه «الوفاء»، كان قد جمع فيه ما أمكنه الوقوف عليه من تواريخ المدينة، وما عاينه من أمور لم يظفر بها غيره، ثم اختصره قبل إتمامه في كتاب سماه «وفاء الوفاء» ثم احترق الأصل وبقي هذا، وقد طبع بمصر سنة ١٣٢٦ في مجلدين صفحاتهما نيف وألف صفحة كبيرة، وجاء في صدر هذه الطبعة أن السمهودي مؤلفه توفي سنة ١٠١١ نقل ذلك عن خلاصة الأثر (صفحة ٤٠ ج١)، وهو خطأ، والصواب أنه توفي سنة ٩١١هـ (راجع كشف الظنون مادة الوفاء).

(ب) خلاصة الوفاء، هي خلاصة الكتاب المتقدم ذكره، يقسم إلى ثمانية أبواب في المدينة وأسمائها وتفضيلها، وبحث في الإقامة فيها والدعاء لها وفضل زيارتها وأخبار سكانها وعمارة مسجدها وغير ذلك، فهي جغرافية مطولة للمدينة وضواحيها مع شيء من تاريخها منها نسخة خطية في المكتبة الخديوية في ٥٠٨ صفحات، وفي منشن وليدن والأسكوريال والمتحف البريطاني، ونشر منها وستنفيلد قطعة في تاريخ المدينة في غوتنجن سنة ١٨٦٤ وطبعت بمصر سنة ١٢٨٥، ولها ترجمة فارسية في برلين وأكسفورد.

(ج) جواهر العقدين في فضل الشرفين: شرف العلم الجلي والنسب العلي، جعله قسمين، الأول: في فضل العلم والعلماء، والثاني: في شرف أهل البيت، منه نسخ في ليدن والأسكوريال وباريس.

وله مؤلفات أخرى في الفقه واللغة والنحو لا حاجة بنا إلى ذكرها.

تواريخ أخرى عن الحجاز ونجد

(١) التعريف بما أنست الهجرة من معالم دار الهجرة: لابن خلف المطري المتوفى سنة ٧٤١، وصف به المدينة ومسجدها مفصلًا وضواحيها، منه نسخة في المكتبة الخديوية منقولة عن مكتبة المدينة في ١١٤ صفحة.

(٢) لقطة العجلان في مختصر وفيات الأعيان: مع زيادة ٣٢ ترجمة عليه لتاج الدين المخزومي المتوفى سنة ٧٤٣ منه نسخة في أكسفورد.

(٣) زبدة الأعمال وخلاصة الأفعال: لسعد الدين الإسفرائيني المكي المتوفى سنة ٧٦٢ الجزء الأول منه مختصر الأزرقي في تاريخ مكة، والثاني سيرة النبي ووصف قبره ومميزات المدينة، منها نسخة في باريس والمتحف البريطاني.

(٤) تحقيق النصرة بتخليص معالم الهجرة: لزين الدين العثماني المراغي المتوفى سنة ٨١٦، وهو تاريخ المدينة عن ابن النجار وغيره، منه نسخة في مكتبة لي (Lee) بخط المؤلف، وفي المتحف البريطاني.

(٥) الشرف الأعلى في ذكر قبور مقبرة باب المعلى: للعبدري الشيبي سنة (٨٣٧) في برلين.

(٦) دستور الإعلام بمعارف الأعلام: لابن عزم التونسي الوزيري (٨٩١) هو معجم تراجم المشاهير من المسلمين من صدر الإسلام إلى زمن المؤلف، مرتب على خمسة أقسام في من اشتهر باسمه أو كنيته أو نسبه أو غير ذلك، في برلين.

(٧) قرة العين في أوصاف الحرمين: للمحجوب أبي عبد الله من أهل القرن التاسع، في باريس.

(٨) غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام: لعبد العزيز بن فهد المكي الهاشمي عز الدين (٩٢١) يشتمل على تراجم أمراء مكة من أقدم الأزمان إلى زمن المؤلف، في برلين.

ثالثًا: مؤرخو اليمن

(١) **عماد الدين إدريس (توفي سنة ٧١٤هـ):** هو الأمير الكبير الشريف أبو محمد إدريس بن علي بن عبد الله بن سليمان عماد الدين، كان أميرًا على القحمة ولحج في زمن الدولة الرسولية بأيام الملك المؤيد، وكان محبًّا للعلم فلخص الكامل لابن الأثير في كتاب سماه «كنز الأخيار في معرفة السير والأخبار»، أضاف إليه أخبار العراق ومصر والشام إلى سنة ٧١٣ وأخبار اليمن إلى سنة ٧١٤ منه نسخة في المتحف البريطاني.

(٢) **بهاء الدين الجندي (توفي سنة ٧٣٢هـ):** هو القاضي أبو عبد الله يوسف بن يعقوب (وقيل: محمد بن يعقوب بن يوسف بهاء الدين الجندي) اشتهر بكتاب في تاريخ اليمن اسمه: السلوك في طبقات العلماء والملوك: جمع فيه غالب علماء اليمن وأضاف إليه

طرفًا من أخبار الملوك إلى سنة ٥٧٧، واستقى أكثر أخبارهم من كتاب أبي حفص عمر بن علي بن سمرة وكتاب أحمد بن عبد الله الرازي وتاريخ صنعاء لابن جرير الصنعاني وغيره، منه نسخة في باريس. وكتب إلينا السيد محمد الكلالي في سنغافورة أنه اطلع على نسخة عند الأمير غالب القعيطي في حيدر أباد، وأن عند هذا أيضًا تاريخ بامخرمة الكبير وتاريخ باكثير وغيرهما من الكتب التاريخية المختصة باليمن وما يليها، وقد نشر من تاريخ الجندي فصل في أخبار القرامطة مع ترجمة إنكليزية في كتاب تاريخ اليمن لعمارة اليمني المطبوع في لندن سنة ١٨٩٢.

(٣) **الملك الأفضل عباس (توفي سنة ٧٧٨هـ):** هو الملك الأفضل عباس بن الملك المجاهد علي صاحب اليمن، تولى زبيد سنة ٧٦٤، وتوفي سنة ٧٧٨ وله من الكتب:

(أ) بغية ذوي الهمم في معرفة أنساب العرب والعجم: مختصر مفيد، منه نسخة في برلين.

(ب) العطايا السنية والمواهب الهنية في المناقب اليمنية: يشتمل على تراجم مشاهير اليمن من العلماء والرؤساء والفقهاء مرتب على الهجاء، منه نسخة في المكتبة الخديوية في ١١٤ صفحة.

(ج) نزهة العيون في تاريخ طوائف القرون: قال في مقدمته: إنه بعد أن ألف «العطايا السنية» أراد أن يستوفي الموضوع؛ فألف نزهة العيون في ٣٢ كتابًا، ذكر فيه مشاهير الناس على اختلاف الأعصر والأمم، ورتبه على حروف المعجم، ولا نظنه استوفى ذلك؛ لأن النسخة الموجودة في المكتبة الخديوية منه لا تزيد على ٤٥٠ صفحة.

(٤) **أبو حسن الخزرجي (توفي سنة ٨١٢هـ):** هو أبو الحسن علي بن الحسن بن وهاس الخزرجي النسابة، نبغ في أواخر القرن الثامن للهجرة في خدمة السلطان الملك الأشرف إسماعيل (تولى سنة ٧٧٨–٨٠٣هـ) من الدولة الرسولية التي خلفت الدولة الأيوبية في اليمن (من سنة ٦٢٦–٨٤٥)، وكانت مملكتهم تمتد من حضرموت إلى مكة، وينتسبون إلى رسول من الخليفة العباسي أنفذه إلى مكة وهي في حوزة الأيوبيين، فلما ملكها السلطان مسعود عين علي بن رسول أميرًا على مكة سنة ٦١٩، ثم توفي مسعود سنة ٦٢٥ فاستقل عمر بن علي بالمملكة وتوالى عليها أعقابه، وفي أيام أحدهم الأشرف إسماعيل نبغ علي بن الحسن الخزرجي، وألف كتابًا في تاريخ هذه الدولة سماه:

(أ) العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية: وهو يشتمل على تاريخهم من أول أمرهم إلى وفاة الأشرف المذكور سنة ٨٠٣ مرتب على السنين سنة سنة وشهرًا شهرًا، يذكر الحوادث العامة ثم التراجم لمن مات في تلك السنة، وقد عول كثيرًا على تاريخ الجندي المتقدم ذكره، وفي صدره مقدمة تمهيدية في تاريخ اليمن، ولم يكن من هذا الكتاب إلا نسخة في المكتب الهندي في لندن نقلت إلى مكتبة كمبريدج فعنيت لجنة تذكار جيب الإنكليزية في نشرها، وصدر الجزء الأول منها سنة ١٩١٢ بمصر وينتهي إلى سنة ٧٢١ والجزء الثاني تحت الطبع، وقد نقله الأستاذ براون المستشرق الإنكليزي إلى اللغة الإنكليزية وصدر الترجمة في ثلاثة مجلدات سنة ١٩٠٨.

(ب) طراز أعلام الزمن في طبقات أعيان اليمن: تراجم مرتبة على الهجاء اقتبس أكثرها من الجندي مع مقدمة في سيرة النبي، منه نسخة في ليدن والمتحف البريطاني.

(جـ) الكفاية والأعلام في دول اليمن: مرتب حسب الدول، منه نسخة في ليدن.

(٥) **بدر الدين الصعدي (في أوائل القرن العاشر):** هو بدر الدين محمد بن علي بن يونس الصعدي له كتاب: مآثر الأبرار في شرح البسامة: فرغ من تأليفها سنة ٩٠٦، وهي شرح قصيدة اسمها «جوهر الأخبار» نظمها صارم الدين إبراهيم بن محمد للإمام المؤيد محمد بن الناصر في اليمن، ضاهى بها قصيدة ابن عبدون المعروفة بالبسامة، واقترح الإمام المذكور علي بدر الدين هذا أن يشرحها ففعل، والقصيدة في أصلها ٣٦ بيتًا مطلعها:

الدهر ذو عبر عظمى وذو غير   وصرفه شامل للبدو والحضر

فشرحها وسمي شرحه لها: «مآثر الأبرار في تفصيل مجملات جواهر الأخبار»، وهو يشتمل على تاريخ أئمة اليمن، منه نسخة في الخزانة التيمورية في ٤٠٠ صفحة كبيرة.

تواريخ أخرى عن اليمن

(١) طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب: لعمر بن يوسف بن عمر بن علي بن رسول الغساني (٧٢٠) فيه أنساب البشر من آدم، في برلين.

(٢) غربال الزمان مختصر مرآة الجنان وعبرة اليقظان لليافعي الآتي ذكره: لبدر الدين الحسين بن عبد الرحمن الحسيني الأهدل (٨٨٥) منه نسخة في فينا وباريس، وفي مكتبة عارف بك بالمدينة.

(٣) طبقات الخواص: في ملجأ أهل اليمن، لزين الدين الزبيدي (٨٩٣)، منه نسخة في الخزانة التيمورية.

(٤) الدر النفيس في مناقب الإمام إدريس: للحضرمي (٩٠٠) في برلين.

رابعًا: مؤرخو المغرب

نبغ في المغرب في هذا العصر جماعة من المؤرخين المحققين: أولهم بحسب الوفاة ابن سعيد المغربي، وأهمهم ابن خلدون وإليك تراجمهم:

(١) **ابن سعيد المغربي (توفي سنة ٦٧٣هـ وقيل ٦٧٥):** هو ابن الحسن نور الدين علي موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد الغرناطي المغربي، وينتهي نسبه إلى عمار بن ياسر. ولد في غرناطة سنة ٦١٠ وتلقى العلم في إشبيلية ورحل إلى مصر والعراق والشام، ولقي من أمرائها كل رعاية، ودون ما شاهده في كتب عديدة، وكان شاعرًا مطبوعًا، وله عناية بالأدب والتاريخ فألف بضعة عشر كتابًا، ضاع معظمها، وإليك ما وصل إلينا خبره منها:

(أ) المغرب في حلى المغرب: هو كتاب عظيم القدر في نحو ١٥ مجلدًا ألفه لمحيي الدين محمد بن محمد الصاحب بن ندى الجزري، توارث تأليفه ستة من آباء المؤلف وأعمامه في نحو ١١٥ سنة، آخرهم نور الدين علي صاحب الترجمة، وكان هذا الكتاب ضائعًا لم يعلم أحد بمكانه؛ حتى وفق السيد محمد الببلاوي — وكيل المكتبة الخديوية — إلى العثور على نسخة ناقصة منه في جامع المؤيد بالقاهرة سنة ١٨٨٨، حدثنا أنه عثر وهو في ذلك الجامع لغرض آخر على أوراق مبعثرة (دشت) في بعض الجوانب. وكانت كتب الجامع قد نقلت إلى المكتبة الخديوية، فتوسم في تلك الأوراق شيئًا فأنبأ الدكتور فولرس، ناظر المكتبة الخديوية يومئذ، فسعى في نقل تلك الأوراق إلى المكتبة، وقابلوا خطها على خط عندهم يعرفونه لابن سعيد فوجدوا الخطين متشابهين وأخذوا يشتغلون في فرز تلك الأوراق، فإذا هي كتاب المغرب ففرقوا أوراقه إلى مجاميع حسب المواضيع، وهذه المجاميع التي وفقوا إلى فرزها بعضها من عشرين ورقة وبعضها من أربعين أو أكثر أو أقل وفيها الكامل والناقص، وإنما نذكر رؤوس المواضيع ليتبين للقارئ أهمية هذا الكتاب وهي: (١) النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة. (٢) الاغتباط في حلى مدينة الفسطاط. (٣) دولة بني أيوب. (٤) الخلب في حلى مدينة شلب بالأندلس. (٥) أردية الشباب في حلى

الكتاب. (٦) الياقوت في حلى ذوي البيوت. (٧) السلوك في حلى الملوك. (٨) رغد العيش في قريش. (٩) ذهبية الماء في حلى النساء. (١٠) بلوغ الآمال في حلى العمال. (١١) تلقيح الآراء في حلى الحجاب والوزراء. (١٢) تاريخ سلاطين الأندلس. (١٣) تاريخ عمال مصر قبل ابن طولون. (١٤) الدولة الإخشيدية. (١٥) الدولة الفاطمية. (١٦) نجوم السماء في حلى العلماء، وقس على ذلك.

ولما انتشر خبر هذه النسخة بين المستشرقين اهتموا بنشرها ودرسها، فنشروا منها تاريخ الإخشيديين وأهل الفسطاط في ليدن سنة ١٨٩٩ وقطعة عن صقلية نشرها الدكتور مورتس في جملة كتاب إيطالي صدر في بالرم سنة ١٩١٠ تذكارًا لميلاد آماري المستشرق، وقطعة نشرها فولرس عن ابن طولون سنة ١٨٩٤، ولا تزال الأصول الخطية باقية في المكتبة الخديوية.

(ب) بسط الأرض في طولها والعرض: في الجغرافية. منها نسخة في أكسفورد وبطرسبورج.

(ج) عنوان المرقِّصات والمطربات: جعله مقدمة لكتاب جامع المرقصات والمطربات تأليف محمد بن معلي الأزدي، رتبها على الأعصار والطبقات التي يبنى الجامع المذكور على الكلام فيها وهي خمسة، المرقص والمطرب والمقبول والمسموع والمتروك، طبع بمصر سنة ١٢٨٦، ويسمى أيضًا «المرقص والمطرب في أخبار أهل المغرب».

(د) نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب: منه نسخة في مكتبة توبنجن.

(هـ) وصف الكون: في أكسفورد والمتحف البريطاني.

(و) القدح المعلي في التاريخ المحلي: تراجم شعراء الأندلس في النصف الأول من القرن السابع على طريقة قلائد العقيان لابن خاقان، لخصه محمد بن عبد الله بن جليل وقدمه للأمير أبي زكريا بن الخليفة المستنصر بالله الحفصي، منه نسخة في باريس.

وله كتب أخرى هامة منها «المشرق في حلى المشرق» ذكر صاحب كشف الظنون أنه يدخل في ٦٠ سفرًا لم نقف على خبره، وله رحلات وكتب أدبية ذكرها صاحب كشف الظنون. (ترجمته في فوات الوفيات ٨٩ ج٢ وحسن المحاضرة ٣٢٠ ج١).

(٢) **أحمد الغبريني (توفي سنة ٧١٤هـ):** هو أحمد بن أحمد بن عبد الله الغبريني نسبه إلى غبرا من قبائل البربر في المغرب، ولد في بجاية سنة ٦٤٤ وتولى قضاءها ومات بها سنة ٧١٤ له: عنوان الدراية في مَن عرف من علماء المئة السابعة في بجاية: هو معجم تاريخي لأهل القرن السابع في بجاية، طبع في الجزائر سنة ١٣٢٨، ومنه نسخة في باريس.

(٣) **ابن أبي زرع الفاسي (توفي سنة ٧٢٦هـ):** هو أبو الحسن علي بن عبد الله بن أبي زرع الفاسي، له مؤلف اهتم به الإفرنج اسمه: الأنيس المطرب وروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ألفه لأبي سعيد عثمان بن المظفر ويدخل فيه تاريخ الإدريسية وزناتة والمرابطين والموحدين والمرينيين، منه نسخة في غوطا وباريس ومرسيليا والمتحف البريطاني وتونس، وطبع على الحجر في فاس سنة ١٣٠٥ وطبع في ابسالا في جزءين سنة ١٨٤٣، وترجم إلى الألمانية وطبع في أغرام سنة ١٧٩٦ وترجم إلى الإسبانية وطبع في لشبونة سنة ١٨٢٨ وإلى الفرنساوية وطبع في باريس سنة ١٧٦٠.

(٤) **ابن الناجي (توفي نحو سنة ٨٠٠هـ):** هو محمد بن الناجي التنوخي من قبيلة تنوخ بالمغرب، قضى ٢١ سنة خطيبًا في جامع الزيتونة في القيروان، وتقلب في مناصب علمية مختلفة من جملتها قضاء جزيرة جربة، ثم انتقل إلى بيجة فقابس وتوفي في تبسة نحو سنة ٨٠٠ وخلف كتابًا اسمه: معالم الإيمان في وصف المساجد القديمة وتاريخ بناء القيروان وتراجم مشاهيرها له خلاصة اسمها «التحصيل وترك التعليل والتطويل» للبراذعي، في تونس.

(٥) **ابن قنفود القسنطيني (في أوائل القرن التاسع):** هو أبو العباس أحمد بن الحسين بن علي بن الخطيب بن قنفود القسنطيني قاضي قسنطينة، كتب في أوائل القرن التاسع:

(أ) كتاب الفارسية في مبادي الدولة الحفصية: تاريخ بني حفص من سنة ٤٦١–٨٠٤ ألفه للأمير الحاكم يومئذ أبي فارس عبد العزيز المريني، وإليه ينسب الكاتب، منه نسخة في الأسكوريال.

(ب) شرح الطالب في أسنى المطالب: تراجم مشاهير العلماء إلى سنة ٨٠٧ منه نسخة في باريس.

(٦) **ابن خلدون (توفي سنة ٨٠٨هـ):** هو أشهر من أن يعرف، لكننا لا بد لنا من بيان مزيته على سواه في التاريخ؛ لأنه سلك فيه مسلكًا جديدًا، وله شأن خاص بمقدمته:

(أ) ترجمة حاله: هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون ولي الدين التونسي الحضرمي الإشبيلي المالكي، أصله من أسرة إشبيلية بالأندلس، انتقل أجداده من إشبيلية إلى تونس في أواسط القرن السابع للهجرة عند غلبة الجلالقة، ويرجعون

بأنسابهم إلى وائل من عرب اليمن، نزح جدهم الأعلى خلدون إلى الأندلس في القرن الثالث للهجرة.

ولد المؤرخ في تونس سنة ٧٣٢ وتفقه بالعلوم المعروفة في عصره، ثم غادر تونس فرارًا من الطاعون إلى هوارة ونزل على صاحبها ابن عبدون فأعانه على السفر إلى المغرب، وتنقل في بلاد كثيرة وهو لا يزال في مقتبل الشباب، ثم استقدمه السلطان أبو عنان المريني صاحب تلمسان إلى فاس سنة ٧٥٥ وقربه واستكتبه ورقاه، فحسده أقرانه وسعوا فيه بتهمة المؤامرة فاعتقله، وما زال معتقلًا حتى مات السلطان سنة ٧٥٩، فأطلقه الوزير ابن عمر وخلع عليه واحتفظ به. واتفق أن السلطان أبا سالم المريني أقبل من الأندلس يطلب مكة فاستعان بابن خلدون لما بينه وبين شيوخ بني مرين من المحبة، ففاز ودخل فاس وابن خلدون في ركابه سنة ٧٦٠ فجعله كاتب سره فأجاد وبرع، ولكن الخطيب ابن مرزوق غلب على هوى السلطان وسعى فيه، فانقبض ابن خلدون وغيره من رجال الدولة فتغيروا على السلطان وانتقضوا عليه فمات.

وعاد النفوذ إلى ابن خلدون بواسطة الوزير عمر بن عبد الله وأراد السفر إلى الأندلس فمنعه، ثم قبل التوسط فسافر إلى الأندلس سنة ٧٦٤ والسلطان يومئذ أبو عبد الله من بني الأحمر في غرناطة، فقصده فاهتز السلطان لقدومه وهيأ له منزلًا في أعلى قصوره وبالغ في إكرامه، ثم رحل سنة ٧٦٥ إلى قشتالة ولقي صاحبها وتوسط في عقد الصلح بينه وبين ملوك العدوة بهدية فاخرة، فرغبه صاحب قشتالة في المقام عنده فأبى فأركبه بغلة فارهة بلجام ذهب، فلما رجع إلى غرناطة أهداهما إلى صاحبها فأقطعه بلدًا وأنزله على الرحب والسعة.

ثم اشتاق إلى أهله فرحل إلى بجاية فلقيه سلطانها أبو عبد الله، وتهافت عليه أهل البلد يقبلون يديه وقلده السلطان أعمال دولته فخدمه بقلمه وعلمه ونفوذه، لكن أبا العباس صاحب قسنطينة تغلب على أبي عبد الله صاحب بجاية وملك بلده، واستبقى ابن خلدون وأكرمه، ثم كثرت السعايات فيه فاستأذن في الانصراف وذهب إلى العرب، ثم كتب إليه أبو حمو صاحب تلمسان يستقدمه ليتولى الحجابة والعلامة، فاعتذر، لأنه رغب في العلم عن السياسة. وأراد الخروج إلى الأندلس فاستأذن أبا حمو بذلك فأذن له وحمله رسالة إلى ابن الأحمر، لكنه عجز عن ركوب البحر، وبلغ السلطان عبد العزيز المريني صاحب المغرب الأقصى خبره وأن معه وديعة إلى سلطان الأندلس فاستقدمه ولم يجد الخبر صحيحًا فأكرمه واستبقاه عنده واستعانه على بجاية في حديث طويل لا محل له هنا.

وبالجملة فإن الحال استقر أخيرًا بابن خلدون في تلمسان مع أهله وولده، ونزل بهم في قلعة بني سلامة من بلاد بني توجين، فأقام بها أربع سنين وهناك شرع بتأليف تاريخه فأكمل المقدمة وكتب بعض التاريخ، ثم رأى العودة إلى تونس مسقط رأسه فاستأذن فأذن له فوصلها سنة ٧٨٠ وأكرمه سلطانها واختصه بأسراره وأخذ بناصره وحرضه على إتمام تأليفه، فكتب ما تيسر له وأحس بالسعايات عليه فاستأذن بالسفر إلى الإسكندرية، فجاءها سنة ٧٨٤ وانتقل منها إلى القاهرة وجلس للتدريس في الأزهر، واتصل ببرقوق صاحب مصر وأكرمه وولاه قضاء المالكية سنة ٧٨٦ فقام بالمنصب حق القيام، واشتهر أمره وكثر المعجبون به وتكاثر حساده فوشوا به وأشاعوا عنه الأراجيف، وكان قد بعث يستقدم أهله وولده من تونس ليقيموا معه في القاهرة فغرقوا جميعًا في أثناء الطريق، فعظم الأمر عليه فاستقال من منصبه وانقطع للتدريس والتأليف، وفي سنة ٧٨٩ خرج من القاهرة للحج ورجع في السنة التالية إلى مصر وعاد إلى العمل فأتم كتابه فيها سنة ٧٩٧، ومصر ملجأ أهل العلم والأدب من قديم الزمان، وما زال مقيمًا فيها حتى وافاه الأجل سنة ٨٠٨هـ.

(ب) مؤلفاته تاريخ ابن خلدون: اشتهر ابن خلدون بكتاب واحد بل بجزء واحد من ذلك الكتاب، نعني مقدمة تاريخه، أما التاريخ فاسمه «العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاشرهم من ذوي السلطان الأكبر»، وهو اسم طويل لكنه يعرف بتاريخ ابن خلدون، وهو ثلاثة كتب في سبعة مجلدات: الكتاب الأول في العمران وما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك والسلطان والكسب والمعاش والصنائع والعلوم، وما لذلك من العلل والأسباب، وهو المشهور بمقدمة ابن خلدون، وبها وحدها نال ابن خلدون القدح المعلى؛ لأنه أتى فيها بأبحاث جديدة من قبيل ما يسميه أهل هذا الزمان بعلوم الاجتماع والاقتصاد السياسي وفلسفة التاريخ، وقد تصدى لذلك وأجاد فيه وأهل أوربا في غفلتهم ولم يكتب غيره من العرب في هذا الباب إلا نتفًا متفرقة تقدم بيانها، فتوسع هو في ذلك بما استخرجه من الأسباب والعلل بمقابلة الحوادث ودرس المسائل، والبحث عن عللها مما طالعه أو كابده بنفسه، ولا شك إن توالى اغترابه واحتكاكه بالأمم المختلفة والدول المتباينة أعانه على ذلك، فضلًا عما اطلع عليه من التواريخ الإسلامية وغيرها. ويشبه ذلك من بعض الوجوه ما فعله مكيافيلي بعده فوضع كتاب الأمير وضمنه قواعد الدهاء في السياسة بناء على ما خبره بنفسه من التقلبات وما عرفه من تواريخ اليونان والرومان وغيرهم، لكن مقدمة ابن خلدون أوسع

كثيرًا[٣] وتشتمل على عدة علوم عمرانية اجتماعية فهي تدخل في نحو ٦٠٠ صفحة قسمها إلى ستة فصول كل فصل علم من العلوم الهامة، كما يظهر مما يلي:

مقدمة ابن خلدون: الفصل الأول منها في قسط العمران من الأرض وما فيها من الأقاليم، وتأثير الهواء في ألوان البشر وأخلاقهم، واختلاف أحوال العمران من الخصب والجوع وما ينشأ عن ذلك من الآثار في أبدان البشر وأخلاقهم، نحو ما يفعل علماء النشوء والارتقاء اليوم.

الفصل الثاني في العمران البدوي والأمم الوحشية والقبائل، وما يعرض في ذلك من الأبحاث في طبيعة البداوة والحضارة والفرق بينهما من حيث الأنساب والعصبية والرئاسة والحسب والملك والسياسة وغير ذلك، وهو من قبيل القواعد العامة لنظام الاجتماع كما يفعل علماء الاجتماع المعاصرون (السوسيولوجيا).

والثالث في الدول العامة والملك والخلافة والمراتب السلطانية، علل فيه أسباب السيادة وتشييد الدول وكيف تحفظ الإمارة وشروط السلطة والخلافة وطبائع الملك ومعنى البيعة وولاية العهد ومراتب السلطان ودواوين الدولة وجندها وأساطيلها وشاراتها وقواعد الجند والحرب وأسباب ثبوت الدولة وسقوطها، وهو من قبيل علم السياسة العملية.

والرابع في البلدان والأمصار وسائر العمران في المدن، والهياكل ونسبتها إلى الدول وما تجب مراعاته في وضعها من حيث البر والبحر وفي بناء المساجد والبيوت ونسبتها إلى الملة الإسلامية، وهو من قبيل الهندسة الحربية.

والخامس في المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع، وفيه مسائل في الرزق والكسب وإنه قيمة الأعمال البشرية، وفي المعاش وأصنافه ومذاهبه ونسبة ذلك إلى طبيعة العمران، وفيه أبحاث مستفيضة في أبواب الرزق من التجارة والصناعة على اختلاف ضروبها وأنواعها والخدمة، ووصف أمهات الصنائع في أيامه كالفلاحة والبناء والحياكة والخياطة والتوليد والطب والوراقة والغناء وغيرها، وهو من الأبحاث المعاشية التي يسميها أهل هذا الزمان «الاقتصاد السياسي».

السادس في العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهه، وفيه أبحاث في التعليم ونسبته إلى الحضارة والكلام في كل علم على حدة وتاريخه وشروطه من علوم القرآن والحديث والفقه، فالعلوم اللسانية والطبيعية والطبية فالأدب والشعر والتاريخ، وفي الإلهيات وعلومها، وهو من قبيل تاريخ آداب اللغة العربية.

فمقدمة ابن خلدون خزانة علوم اجتماعية وسياسية واقتصادية وأدبية، فضلًا عن أسلوبها اللغوي فإنه خاص بها، وعبارتها متناسقة مترابطة كأنها سلاسل الذهب؛

ولذلك كان لهذه المقدمة وقع عظيم عند أهل التفكير من الإفرنج أيضًا فنقلها كاترمير إلى الفرنساوية عن نسخة في مكتبة باريس وطبعت هناك سنة ١٨٥٨، وترجمت منها قطع إلى الإنكليزية والألمانية والتركية، وقد طبعت في العربية مرارًا في مصر والشام وأوربا، ومنها نسخ خطية في أهم مكاتب أوربا.

وفي الطبعات الشائعة خطأ مطبعي تطرق إليها كلها ذكرنا بعضه في الجزء الثاني من تاريخ التمدن الإسلامي.

تاريخ ابن خلدون: أما التاريخ نفسه فإنه يشتمل على الكتابين الثاني والثالث في ستة مجلدات، يشتمل الكتاب الثاني على أخبار العرب وأجيالهم ودولهم منذ الخليقة إلى عهده مع الإلماع إلى من عاصرهم من الأمم ودولهم كالنبط والسريان والفرس والقبط واليونان وغيرهم، والكتاب الثالث يشتمل على أخبار البربر والأمة الثانية من أهل المغرب، وذكر أوليتهم وأخبارهم وما كان لهم بديار المغرب من الدول. ويمتاز تاريخ ابن خلدون عما تقدمه من كتب التاريخ بما تضمنه من المقدمات الفلسفية في صدور أكثر الفصول عند الانتقال من دولة إلى دولة، فإنه يصدر ذلك غالبًا بالأسباب والعلل على قدر الإمكان، وهو أوسع تاريخ للبربر ودولهم وللعرب الجاهلية. وقد ظلمه بعض الناقدين في الحط من قدره ونسبوا إليه التعقيد والغموض، والسبب في ذلك أن الطبعة التي بين أيدينا سقيمة وفيها خطأ مطبعي كثير، فضلًا عن النقص في أوراقها. وقد عثرنا على نقص في ضبط الأعلام يبعث على الدهشة، فهي في حاجة إلى إعادة الطبع والتصحيح.

والطبعة المشار إليها صدرت في مصر سنة ١٢٨٤ في سبعة مجلدات فيها المقدمة لكن المستشرقين اهتموا بهذا التاريخ قبل ذلك كما اهتموا بمقدمته ونشروا ما يهمهم منه، فاشتغل دي سلان بنشر القسم المختص ببلاد المغرب والبربر فنشره في الجزائر سنة ١٨٤٧ في مجلدين كبيرين نحو ألف صفحة كبيرة، وسماه كتاب الدول الإسلامية في المغرب، ثم نقل هذا القسم إلى الفرنساوية ونشره في الجزائر سنة ١٨٥٢ في أربعة مجلدات، وألحقه بالملاحظات والتعاليق المفيدة والتفاسير الضرورية للأعلام البربرية التي يشكل فهمها أو قراءتها على أهل العربية. وذيله بأخبار عن البربر ترجمها عن غير ابن خلدون منها فتح المغرب لابن عبد الحكم وفصول للنويري، وأخيرًا مقالة في لغة البرابرة. واقتطفوا من التاريخ أيضًا الجزء المختص بأخبار بني الأغلب في إفريقية وصقلية إلى حين استيلاء الإفرنج عليها. طبعت في باريس مع ترجمة فرنساوية سنة

١٨٤١ لديفرجه وعليها تعاليق وتفاسير، وترجمت قطعة تختص ببني الأحمر نشرت في المجلة الآسيوية. ومن تاريخ ابن خلدون نسخ خطية في باريس والمتحف البريطاني وتوبنجن ونور عثمانية ويني جامع والمكتبة الخديوية ومكتبة زكي باشا بمصر.

(ج) التعريف بابن خلدون: هو ترجمة ابن خلدون ونسبه وتاريخ أسلافه في نسق المذكرات الخصوصية (Mémoire) شرح فيها ما عاناه في حياته ويتخلل ذلك مراسلات وقصائد نظمها في بعض الأحوال وكثير مما أصابه من النوائب، ومنها رحلته إلى الأندلس وما كان له فيها من الشئون ثم عودته إلى المغرب وما جرى له فيه، ويجد المطالع فيها كثيرًا من الفوائد الاجتماعية والسياسية، ثم مجيئه إلى القاهرة وما تولاه فيها من الدروس والخوانق أو المناصب، تنتهي حوادثها سنة ٨٠٧ أي: قبل وفاته بسنة، منها نسخة في المكتبة الخديوية في ١٥٠ صفحة بخط جميل مذهب.

وفي ذيل تاريخه المطبوع فصل طويل عنوانه «التعريف بابن خلدون» هو هذا الكتاب ببعض الاختصار وينتهي سنة ٧٩٧ من ترجمة حاله. وفي النسخة المخطوطة المتقدم ذكرها ٤٢ صفحة بعد هذا التاريخ تشتمل على فصول من ترجمته، أهمها ولاية الدروس والخوانق بمصر وولاية خانقاه بيبرس وفتنة الناصري، والسعي في المهاداة بين ملوك المغرب والملك الظاهر وولايته القضاء بمصر وغير ذلك (ترجمته في كتاب التعريف بابن خلدون).

(٧) **أبو عبد الله المكناسي (توفي سنة ٩١٩هـ):** هو محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن علي بن غازي العثماني المكناسي، ولد سنة ٨٤١ في مكناسة ورحل إلى فاس وأقام عشرين سنة في كتامة، وتوفي في فاس سنة ٩١٩ وله من المؤلفات:

(أ) كتاب الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، إلى سنة ٩١٩ منه نسخة في المتحف البريطاني.

(ب) الفهرست المباركة: يشتمل على أسماء محدثي فاس وكتابها، في أبسالا.

(ج) إنشاد الشريد من ضوال القصيد: في رسم القرآن، بالجزائر.

(د) تفصيل الدرر: في قراءة القرآن وغيره، في الأسكوريال والجزائر.

تواريخ أخرى عن المغرب

(١) **معالم الإيمان بمن حل بالقيروان:** للدبا غ المتوفى سنة ٦٩٦ جمعه وهذبه وعلق عليه أبو القاسم بن عيسى بن ناجي التنوخي القيرواني المتوفى سنة ٨٣٧، بدأ بالكلام عن إفريقيا والقيروان ثم من نزل فيهما من الصحابة ومن بعدهم من العلماء طبع في تونس سنة ١٣٢٥ في أربعة مجلدات.

(٢) **بغية الرواد في ذكر الملوك من عبد الواد:** لأبي زكريا يحيى بن خلدون المتوفى سنة ٧٨٨ (غير المؤرخ المشهور)، ويشتمل على تاريخ الدولة الزيانية إلى سنة ٧٧٧ منه نسخة في مكتبة الجزائر.

(٣) **النفحة النسرينية في تاريخ الدولة المرينية:** لإسماعيل بن يوسف أمير مالقة (٧٨٩) منها نسخة في الأسكوريال.

(٤) **عمدة الطالب في نسب آل أبي طالب:** لعبد الله الأصيلي (٨٩٢) في برلين وباريس.

(٥) **روضة النسرين في دولة بني مرين:** لعبد الله بن الأحمر (٨٠٤) قدمه لسلطان مراكش أبي سعيد عثمان، منه نسخة في الجزائر.

(٦) **نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان:** لمحمد بن عبد الله التنسي (٨٩٩) يبحث في أنسابهم، نقل إلى الفرنساوية وطبع في باريس سنة ١٨٥٢.

(٧) **كتاب السير:** تكملة سير أبي زكريا وطبقات الدرجيني وجواهر الدمري، لأحمد بن عثمان بن عبد الواحد الشماخي (٩٢٨) طبع سنة ١٣٠١.

خامسًا: مؤرخو الأندلس

(١) **لسان الدين بن الخطيب (توفي سنة ٧٧٦هـ):** هو أشهر مؤرخي الأندلس في هذا العصر، واسمه أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن الخطيب، ويلقب لسان الدين السلماني اللوشي، أصله من أسرة شامية نزحت إلى الأندلس فأقامت في لوشة على مرحلة من غرناطة، ثم في قرطبة وطليطلة واستقرت أخيرًا في غرناطة، وفيها ولد لسان الدين سنة ٧١٣ وكان أبوه وزيرًا في غرناطة، ومات في النكبة العامة سنة ٧٤١ وأخذت أمواله، لكن لسان الدين ارتقى بعلمه وذكائه حتى صار وزيرًا لأبي الحجاج يوسف سلطان غرناطة (٧٣٣–٧٥٥) وصار إليه النفوذ الأعظم، وظل في هذا

المنصب في سلطنة ابنه محمد الخامس وتبعه إلى إفريقية، ثم عاد محمد إلى غرناطة واسترجع ملكه سنة ٧٦٣ وظل لسان الدين في إفريقية مع أهل السلطان وأولاده، ثم رجع إلى غرناطة وعاد إلى منصبة في الوزارة وقد استفحل نفوذه فكثر حساده وتآمروا عليه في حديث طويل لكنهم فازوا أخيرًا، فألقي في السجن وتوفي سنة ٧٧٦ بفاس وكان عالمًا في التاريخ والفلسفة والرياضيات والطب والفقه وألف فيها كلها وهاك ما وصلنا خبره من آثاره:

(أ) الإحاطة في تاريخ غرناطة: هو معجم تاريخي لمشاهير غرناطة في ثلاثة مجلدات مرتبة على الهجاء، في صدره فذلكة جغرافية خطط فيها ولاية غرناطة وما يتبعها وذكر عادات أهلها ومعائشهم وأزياءهم وجندهم وسلاحهم، وكثيرًا من أحوالهم الاجتماعية لعهده. ثم أتى على التراجم وقسم ترجمة كل رجل إلى أبواب في تاريخ حياته ومناقبه وسائر أحواله على ما تقتضيه ترجمته، وختم الكتاب بترجمة نفسه. ومنه نسخة خطية في المتحف البريطاني والأسكوريال، واهتمت شركة طبع الكتب المصرية بنشره فوجدت الجزء الأول منه في المكتبة الخديوية وأخذت تبحث عن الجزءين الآخرين، فصدر الجزء الأول منه مطبوعًا في نحو ٤٠٠ صفحة والثاني في ٣٠٨ صفحات سنة ١٣١٩، وقد لخص هذا الكتاب كازيري، وله مختصر اسمه «مركز الإحاطة بأخبار غرناطة» في برلين وباريس ومدريد.

(ب) الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام: يدخل فيه تاريخ النبي وأكثر تاريخ الأمويين والعباسيين ودول المشرق والمماليك البحرية والدولة العلوية بمكة والمدينة، وتاريخ الأندلس إلى محمد بن يوسف والملوك النصاري فيها وتاريخ المغرب، منه نسخة في الجزائر، وطبع في بالرم سنة ١٩١٠.

(ج) الحلل المرقومة: هو تاريخ الخلفاء في المشرق والأندلس وإفريقية، منه نسخة في الأسكوريال وقد ترجم كازيري بعضه إلى اللاتينية، ونشرت الترجمة مع سواها في بانورمي سنة ١٧٩٠.

(د) الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، طبع في تونس سنة ١٩١١ في ١٤٤ صفحة.

(هـ) اللمحة البدرية في الدولة النصرية: تاريخ أمراء غرناطة إلى سنة ٧٦٥، منه نسخة في الأسكوريال.

(و) رقم الحلل في نظم الدول: في المتحف البريطاني وطبع في تونس سنة ١٣١٦.

(ز) الطاق المحلى في مساجلة القدح المعلى: هو تاريخ الأندلس من ظهور دولة بني الأحمر في غرناطة (سنة ٦٢٩) إلى أيامه، له مختصر في الأسكوريال.

(ح) نفاضة الجراب: في وصف مدن الأندلس وعلمائها ومكاتبها في الأسكوريال.

(ط) خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف، وصف رحلته إلى إفريقيا، ألفها سنة ٧٤٨ في الأسكوريال.

(ي) منفعة السائل في المرض الهائل: وصف طاعون غرناطة، في الأسكوريال.

(ك) معيار الاختيار: فيه مناقب نحو مائة من مشاهير الناس وأشهر مدن الأندلس في الأسكوريال، وقد ترجم بعضها إلى الإسبانية وطبع في مدريد سنة ١٨٦١ وفي غرناطة سنة ١٨٧٢.

(ل) ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب: مجموع رسائل في ليدن والمتحف البريطاني وأوبسالا والأسكوريال.

(م) ديوان شعر: في الأسكوريال.

(ن) أشعار وموشحات: في برلين وغوطا.

(س) عمل من طب لمن حب: في الطب، قدمه لأبي سالم إبراهيم المريني، منه نسخة في ليدن وباريس.

(ع) السحر والشعر في الأدب، في الأسكوريال. (له ترجمة مطولة استغرقت الجزءين الثالث والرابع من نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وفي الإحاطة).

(٢) **ابن فرحون (توفي سنة ٧٩٩هـ):** هو أبو الوفاء إبراهيم بن علي بن محمد بن فرحون برهان الدين اليعمري الأندلسي له:

(أ) الديباج المذهب في معرفة علماء المذهب (مذهب مالك): أو طبقات المالكية. ويدخل في ذلك مشاهير الرواة والعلماء من المالكية مرتبة على الأبجدية، طبع في فاس سنة ١٣١٦ وفي مصر، ومنه نسخة في المكتبة الخديوية في ٥٠٤ صفحات منقولة عن نسخة من مكتبة عارف حكمت بك في المدينة، وفي آخرها أسماء الكتب التي استعان بها المؤلف، وكان الفراغ من تأليفه سنه ٧٦١ عليه ذيل اسمه «نيل الابتهاج بتطريز الديباج»، طبع بفاس سنة ١٣١٧، له: خلاصة لأحمد بابا التمبكتي المتوفى سنة ١٠٣٢ اسمها «كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج»، ولبدر الدين بن يحيى القرافي ذيل اسمه «توشيح الديباج وحيلة الابتهاج» في باريس.

(ب) تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام: في المتحف البريطاني والجزائر وطبع بمصر سنة ١٣٠١ وغيرها.

(جـ) طبقات علماء العرب: ألفه سنة ٧٦١، منه نسخة في الأسكوريال.

(د) نبذة الغواص في محاضرة الخواص، في المكتبة الخديوية (الدرر الكامنة ج١).

سادسًا: مؤرخو فارس وما وراءها

(١) **معين الدين محمود بن محمد جنيد العمري الشيرازي (٧٩١):** له كتاب شد الإزار في حط الأوزار، يشتمل على تراجم المدفونين في شيراز من الأولياء والعلماء، في المتحف البريطاني.

(٢) **يعقوب بن إدريس القرماني:** ويعرف بالقرماني قره يعقوب ولد في قرمان وتعلم في دمشق ومصر، وتوفي في لارنده سنة ٨٣٣ له إشراق التواريخ، بدأ فيه بذكر الأنبياء ثم كبار الصحابة والتابعين والأئمة وختم بأبي حامد الغزالي، منه نسخة في غوطا، وهو غير القرماني صاحب أخبار الدول الآتي ذكره.

(٣) **محمد بن عبد العزيز الكليكوتي:** له الفتح المبين للسامري الذي يحب المسلمين، أرجوزة في نحو ٥٠٠ بيت عن واقعة زاموري بين البورتغاليين والهنود سنة ٩٠٣هـ منه نسخة في المكتب الهندي بلندن.

هوامش

(١) الجزء الثاني من هذا الكتاب صفحة ١٢.

(٢) راجع الجزء الثاني من هذا الكتاب.

(٣) نجد مقالة في المقابلة بين مكيافيلي وابن خلدون في الهلال سنة ٢١ صفحة ٣١٠.

الجغرافية والرحلات

أولًا: في مصر والشام

(١) **شمس الدين الدمشقي (توفي سنة ٧٢٧هـ):** هو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي طالب الأنصاري الصوفي شيخ الربوة الدمشقي له:

(أ) نخبة الدهر في عجائب البر والبحر: وهو يشتمل على العلم بهيئة الأرض وأقاليمها واختلاف القدماء في ذلك، وما فيها من البحار والجزائر والجبال والطرق والرساتيق والآثار والعمائر والعيون والآبار والحيوان النادر والنبات الغريب والمعادن الذائبة والأحجار الكريمة وطبائعها ومساحات الأرضين ومسافاتها، وأنساب الأمم واختلاف طبائعهم وخواص الإنسان بالنسبة إلى الحيوان وغير ذلك، طبعت في بطرسبورج سنة ١٨٦٥ وبعضها في باريس سنة ١٨٩٨، وقد ترجمت إلى الفرنساوية وطبعت في كوبنهاغن سنة ١٨٧٤ زينه مؤلفه بالخرائط والصور المختلفة كالرحلة المزينة بالرسوم.
(ب) كتاب السياسة في علم الفراسة: في المكتبة الخديوية.

(٢) **برهان الدين الفزاري (توفي سنة ٧٢٩هـ):** هو برهان الدين إبراهيم بن إسحق بن عبد الرحمن بن فركاح الفزاري له:

(أ) باعث النفوس إلى زيارة القدس المحروس: مختصر من كتاب الجامع المستقصى لابن عساكر وغيره، منه نسخ في ليدن وبرلين وباريس.
(ب) الإعلام بفضائل الشام: مختصر من كتاب فضائل الشام ودمشق للربعي المتوفى سنة ٤٣٥ في غوطا.

(ج) المنائح لطالب الصيد والذبائح: في غوطا.

(٣) **نجم الدين الحراني الحنبلي (٧٣٢):** له جامع الفنون وسلوة المحزون في غوطا.
(٤) **شهاب الدين أبو محمود أحمد بن محمد بن هلال المقدسي (٧٦٥):** من شيوخ العلم في القدس، توفي بمصر، له:

(أ) مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام، جعله قسمين: الأول في فضائل الشام، والثاني في فضائل المسجد الأقصى، يوجد في برلين والمكتبة الخديوية، اختصره ابن عمار في كتاب سماه «منتهى المرام في تحصيل مثير الغرام» في برلين.
(ب) المصباح في الجمع بين الأذكار والسلاح، في برلين.

(٥) **شرف الدين يحيى بن الجيعان كتب سنة ٧٧٧:** التحفة السنية في أسماء البلدان المصرية، ويشتمل على إحصاءات إدارية وخراجية عن الأرضين وعبرتها وخراجها في أيام الملك الأشرف شعبان، بدأ بالوجه البحري، طبع بمصر سنة ١٨٩٨.
(٦) **ناصر الدين محمد بن جمال الدين السعودي بن الزيات العباسي (٨٠٤):** له الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة بالقرافتين الكبرى والصغرى، وهو كالدليل لزيارة تلك الآثار، منها نسخة في المكتبة الخديوية في ٣٠٠ صفحة.
(٧) **إسحق بن إبراهيم بن أحمد بن كمال التدمري الخطيب الخليلي (٨٣٣):** له كتاب مثير الغرام في زيارة الخليل عليه السلام، لزيارة قبل الخليل، في باريس.
(٨) **سراج الدين بن الوردي (٨٥٠):** له خريدة العجائب وفريدة الغرائب في الجغرافية، ألفه بأمر نائب السلطنة في القلعة شاهين المؤيدي، وقد طلب إليه وضع رسم يشتمل على دائرة الأرض توضح ما اشتملت عليه من الطول والعرض والرفع والخفض فطالع ما ألفه القوم في الهيئة وتقويم البلدان إلى أيامه، ورسم الأرض بشكل دائرة ووصف أقاليمها وسائر أحوالها، وذكر ما فيها من العجائب برًّا وبحرًا، ووصف المدن وأطوارها وطبائعها وعماراتها، ويتخلل ذلك كثير مما ينكره أهل هذا الزمان من خوارق الطبيعة، منه نسخة خطية في المكتبة الخديوية في ٩٥٠ صفحة بينها صورة يثرب المدينة في وسط دائرة حولها مثلثات متشعبة من مركزها فيها أسماء المدن، يراد بها نسبتها إلى المدينة شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا، وطبعت بمصر مرارًا، وقد نقلت إلى اللاتينية وطبعت، وإلى التركية، ومن ترجمتها نسخة في نور عثمانية وباريس، وفي كشف

الظنون أن هذا الكتاب لزين الدين بن الوردي المتقدم ذكره، وسنة وفاة سراج الدين تحتاج إلى تحقيق.

(٩) **عبد اللطيف المقدسي (٨٥٦):** له تحفة واهب المواهب في بيان المقامات والمراتب في الأسكوريال، وفي كشف الظنون كتاب بهذا الاسم للشيخ أبي الحسن البكري ألفه سنة ٩٢٢.

(١٠) **تاج الدين عبد الوهاب الحسيني (٨٧٥):** له الروض المغرس في فضائل البيت المقدس، في برلين.

(١١) **رحلة الأمير يشبك الظاهري في آسيا الصغرى وما وراءها من سنة ٨٧٥–٨٧٧هـ:** ليس عليها اسم مؤلفها، لكن يؤخذ من مطالعتها أن المؤلف كان قاضيًا للعسكر، وانتدبه الأمير يشبك في مهمات سياسية وإنه كان رفيقًا للأمير في رحلته، تبدأ الرحلة من القاهرة إلى العريش فالحرمين فالشام فحلب وقنسرين إلى آسيا الصغرى فتبريز وغيرها، ثم عاد إلى مصر وقد دون ما لاقاه هذا الأمير من الحفاوة أو المقاومة والمحاربة هو وحاشيته الكبيرة، ويتخلل ذلك فوائد تاريخية وسياسية وذكر بعض الأدوات الحربية كالمكحلة لرمي الحجارة وكيفية استخدامها، ومخابرات سياسية مع سلاطين آل عثمان، منها نسخة في المكتبة الخديوية من جملة كتب زكي باشا في ١٣٩ صفحة.

(١٢) **رحلة قايتباي السلطان المصري المشهور في مصر والشام (٨٨٢هـ):** طبعت سنة ١٨٧٨ مع خرائط.

(١٣) **أبو البقاء تقي الدين البدري الدمشقي المصري الوفائي (٨٨٧) له:**

(أ) نزهة الأنام في محاسن الشام، في باريس والمكتبة الخديوية.
(ب) راحة الأرواح في الحشيش والراح، مجموع شعر ونوادر، في باريس.
(ج) غرة الصباح في وصف الوجوه الصباح، شعر على ١٧ بابًا، في المتحف البريطاني.
(د) المطالع البدرية في المنازل القمرية، في أكسفورد بخط المؤلف.

(١٤) **أبو حامد القدسي المصري (٨٨٨):** له الفضائل في محاسن مصر والقاهرة، في وصفها وتاريخها. مختصرًا في غوطا والمتحف البريطاني.

(١٥) **شمس الدين السيوطي (٨٨٠):** له إتحاف الأخصاء بفضائل المسجد الأقصى، في برلين وسائر المكاتب الكبرى، طبع بعضه باللاتينية في هفنيا سنة ١٨١٧ وفي الإنكليزية في لندن سنة ١٨٣٦، وهو غير جلال الدين السيوطي الآتي ذكره، وفي كشف الظنون كتاب بهذا الاسم لكمال الدين بن أبي شريف المتوفى سنة ٩٠٦.

(١٦) **أقبغا الخاصكي وزير السلطان قنصو الغوري (٩١٥):** له التحفة الفاخرة في ذكر رسوم خطط القاهرة في باريس بخط المؤلف.

(١٧) **عماد الدين الحنفي (٩٢٠):** له فضائل الشام في برلين بخط المؤلف.

(١٨) **محيي الدين النعيمي أبو المفاخر (٩٢٧) له:**

(أ) تنبيه الطالب وإرشاد الدارس إلى ما في دمشق من الجوامع والمدارس، اختصره عبد الباسط العلموي، منه نسخة في برلين ومنشن.

(ب) العنوان في ضبط المواليد والوفيات لأهل الزمان، في مكتبة فلايشر.

ثانيًا: الجغرافية خارج مصر والشام

(١) **القزويني (توفي سنة ٦٨٢هـ):** هو زكريا بن محمد بن محمود القزويني، يرجع بنسبه إلى أنس بن مالك الإمام المشهور، ولد في قزوين في أوائل القرن السابع، ورحل إلى دمشق وهو شاب وتعرف إلى ابن العربي، وتولى قضاء واسط والحلة في زمن المستعصم العباسي، فسقطت بغداد في حوزة المغول وهو في ذلك المنصب، وتوفي سنة ٦٨٢ وقد خلف مؤلفات أهمها:

(أ) عجائب المخلوقات: في الفلك والجغرافية الطبيعية عند العرب، وهو من أوفى الكتب العربية في هذا الموضوع، قسم فيه المخلوقات إلى العلويات والسفليات، يعني بالعلويات السماء وما فيها وهو علم الفلك فوصف الكواكب والأبراج وحركاتها وما ترتب على ذلك من فصول السنة والشهور والأيام على ما هو معروف في عصره، والسفليات الأرض وما عليها وهو من قبيل التاريخ الطبيعي أو الجغرافية الطبيعية، فذكر أصل الأرض وطبيعتها وكرة الهواء وأصول الرياح وأنواعها، وكرة الماء وما فيها من البحور والجزر والحيوانات العجيبة، ثم كرة الأرض يعني اليبس وما عليها من جماد ونبات وحيوان، ورتب كلًّا من الحيوانات والنباتات على حروف المعجم كما فعل الدميري الآتي ذكره في علم الحيوان، طبع عجائب المخلوقات في غوتنجن سنة ١٨٤٩، وعلى هامش الدميري بمصر سنة ١٣٠٩ وغيرها، وترجم إلى الفارسية وأضيفت إليه صور الحيوانات ملونة، وطبعت هذه الترجمة في لكناو سنة ١٢٨٣ وترجم إلى الألمانية وطبع في ليبسك سنة ١٨٦٨ وترجم بعضه إلى الفرنساوية وطبع في باريس سنة ١٨٠٥، وترجم أيضًا إلى

التركية ونشر فيها، وقد اختصره الباكوي المتوفى سنة ٨٠٦ في كتاب سماه «الآثار عن عجائب المخلوقات» منه نسخة خطية في باريس، وفي المكتبة الخديوية كتاب «عجائب المخلوقات» خط مزين بالرسوم المذهبة لمحمد بن محمود الطوسي المتوفى سنة ٥٥٥، وكتاب آخر مصور بهذا الاسم لعبد الرحمن الشهير بأبي حسين الصوفي بخط عبد الله بن محمد سنة ١٠٤٣ فيه صور فلكية ملونة.

(ب) آثار البلاد وأخبار العباد: في التاريخ طبع في غوتنجن سنة ١٨٥٠ وعلى هامش تاريخ الخلفاء بمصر سنة ١٣٠٥، ومنه نسخة خطية في المكتبة الخديوية ٣٤٤ صفحة.

(جـ) ذكر الأب شيخو اليسوعي أنه وقف في حلب على كتاب في تاريخ مصر وخططها نحو خطط المقريزي ينسب للقزويني، وفيه تاريخ القاهرة منذ بناها جوهر مطولًا، ونقل منها فصلًا في خزانة الكتب جزيل الفائدة، نشر في المشرق سنة ٨ ص٩٢٦.

(٢) **أبو محمد العبدري (توفي بعد سنة ٦٨٨هـ):** هو أبو محمد العبدري البلنسي أصله من بلنسية، رحل سنة ٦٨٨ من إفريقية إلى الإسكندرية ومنها برًّا إلى مكة فبيت المقدس وعاد إلى الإسكندرية ومنها إلى بلده، وألف رحلة ذكر فيها ابن جبير، منها نسخة في ليدن وباريس والأسكوريال.

(٣) **أبو البقاء البلوي (توفي سنة ٧٤٠هـ):** هو أبو البقاء البلوي قاضي قنطورية له رحله اسمها: تاج المفرق بتحلية علماء المشرق، وصف فيها إفريقية والقدس ومكة وأخذ شيئًا عن ابن جبير، منها نسخ في برلين وغوطا وفاس وتونس، وفي الخزانة التيمورية بمصر.

(٤) **ابن بطوطة (نحو سنة ٧٧٩):** أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة، وهو أشهر رحالات ذلك العصر، ولد في طنجة سنة ٧٠٣ وخرج من بلده سنة ٧٢٥ للحج ثم أخذ في الرحلة فبدأ بالحرمين فالشام فالعراق ففارس فما بين النهرين فآسيا الصغرى إلى قبجاق، فجنوب روسيا والأستانة فآسيا الصغرى فبخارا فأفغانستان إلى دهلي فأقام هناك سنتين قاضيًا. وأنفذه السلطان تغلق في بعثة إلى الصين فوصل إلى ملدافيا أقام فيها سنة ونصف سنة، ثم رحل إلى سيلان والصين وعاد إلى بلده سنة ٧٥٠، ورحل في السنة التالية إلى غرناطة ثم إلى السودان سنة ٧٥٢ فدخل ملي وتبمكتو، وتوفي سنة ٧٧٩ في مراكش، وقد دون أسفاره هذه في رحلة سماها: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، وتعرف برحلة ابن بطوطة، طبعت في باريس سنة ١٨٥٣ في أربعة مجلدات ثم سنة ١٨٦٩ و١٨٩٣ وطبعت بمصر سنة ١٢٨٧ في مجلدين وغيرها.

وقد اهتم الإفرنج بهذه الرحلة كثيرًا من قبيل اهتمامهم بالشرق والسفر إليه عند أول نهضتهم، فعولوا عليها وانتقدوها وعلقوا عليها ونقلوا بعضها إلى اللغة اللاتينية ونشروه، ونقلها لي Lee إلى الإنكليزية، وطبعت في لندن سنة ١٨٢٩، ونقلها ديفريمري وسنكوينيتي إلى الفرنساوية، وطبعت في باريس من سنة ١٨٥٣–١٨٥٩ في خمسة مجلدات فيها فهرس أبجدي، وترجم دي سلان بعضها إلى الفرنساوية عن السودان، وآخر ترجم ما يختص بأواسط آسيا وآخر لما يختص بآسيا الصغرى، وقد ترجمها مزيك إلى الألمانية وطبعت سنة ١٩١٢ ولها ترجمة تركية اسمها «تقويم وقائع» ولها مختصر للبيلوني في غوطا وكمبريدج، ومختصر آخر لكاتب مجهول طبع على الحجر سنة ١٢٧٨.

(٥) **بدر الدين الزركشي (توفي سنة ٧٩٤):** هو بدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي الشافعي له: كتاب الغرر السوافر فيما يحتاج إليه المسافر، جعله ثلاث أبواب في مدلول السفر وما يتعلق به وما قد يحتاج المسافر إليه، منه نسخة في مكتبة توبتجن.

(٦) **ابن أبي الركائب (نحو سنة ٨٩٥هـ):** هو شهاب الدين أحمد بن ماجد بن محمد بن معلق السعدي بن أبي الركائب النجدي ألف سنة ٨٩٥:

(أ) الفوائد في أصول علم البحر والقواعد في علم الملاحة يشتمل على تاريخ الملاحة، وعلاقتها بالنجوم في خليج العجم والبحر الهندي وشواطئ جزيرة العرب وسومطرة وسيلان وزنجبار وغيرها، منها نسخة في باريس.

(ب) حاوية الاختصار في أصول علم البحار، أرجوزة في باريس، وله قصائد أخرى في وصف شواطئ جزيرة العرب، في باريس.

الموسوعات والمجاميع

تكاثرت الموسوعات والكتب الجامعة للمواضيع المتعددة في هذا العصر حتى يصح أن يسمى عصر الموسوعات والمجاميع، وأصحابها أكثرهم في مصر والشام مثل سائر العلماء والأدباء لأسباب تقدم بيانها، ويدخل فيهم الأدباء الذين اشتغلوا في علوم كثيرة ولم يختصوا بفن واحد، هاك أشهرهم حسب سني الوفاة:

(١) أصحاب الموسوعات في مصر والشام

(١) **النويري (توفي سنة ٧٣٢هـ):** هو أبو العباس شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن أحمد البكري التيمي الكندي الشافعي أحد رجال الملك الناصر محمد بن قلاوون، تولى نظارة الجيش في طرابلس، واشتهر بموسوعة طار ذكرها في الآفاق نعني:

نهاية الأرب في فنون الأدب: في نيف وثلاثين مجلدًا قسمها إلى خمسة فنون وكل فن إلى خمسة أبواب:

فالفن الأول: في السماء والآثار العلوية والعوالم الفلسفية، ويدخل في ذلك السماء وأجرامها والملائكة والسحاب وأسباب المطر والثلج والصواعق والنيازك والليالي والأيام والفصول والمواسم والأعياد، وفي الأرض والجبال والبحار وآلاتها والأقاليم وطبائعها وخصائصها واختلاف سكانها والمباني والمعاقل ونحوها، وهو يقابل ما يعرف اليوم بعلم الفلك والظواهر الجوية والجغرافية الطبيعية والتاريخ الطبيعي.

والفن الثاني: في الإنسان وطبائعه وأعضائه وعواطفه وما نقل عنه من الأمثال والعشق والأنساب وأحوال العرب وعاداتهم الجاهلية والمدح والذم والمجون والفكاهات ونحوها،

والملك وما يشترط فيه أو يحتاج إليه وسياسة الرعية وذكر الوزراء والقواد والولاة وسائر المناصب، وهو يشبه ما يعرف الآن بعلم الإنسان والطب وآداب السياسة والاجتماع.

والفن الثالث: في الحيوانات الأخرى وطبائعها من الأسود والوحوش والظباء والخيل والبغال والحمر والإبل والغنم والبقر وذوات السموم والطير والأسماك والصيد وآلاته، وهم علم الحيوان بفروعه.

والفن الرابع: في النبات على اختلاف أشكاله وأقداره وأنواع الطيب وغيرها وهو علم النبات بفروعه.

والفن الخامس: في التاريخ، وهو أكبرها كلها يبدأ بالخلق فقصة إبراهيم ونمرود ولوط وإسحق ويعقوب، فموسى وفرعون ويوسف وسائر الأنبياء إلى عرب الجاهلية، فالملة الإسلامية من ظهور الإسلام إلى الخلفاء الراشدين فالأمويين فالعباسيين والعلويين ودول ملوك الإسلام، وهذا باب كبير يقسم إلى ١٢ قسمًا مرتبة على الدول والأمم وكل دولة مرتبة حوادثها على السنين كما في ابن الأثير إلى سنة ٧٣١.

وكان المظنون أن هذا الكتاب لا يوجد كاملًا في مكان، فعثر أحمد زكي باشا على نسخة كاملة نقلها من مكاتب الأستانة بالتصوير الشمسي في نحو ٤٤٠٠ صفحة، وهي الآن في المكتبة الخديوية في جملة ما قررت نظارة المعارف طبعه لإحياء آداب اللغة العربية (حسن المحاضرة ٣٢٠ ج١).

(٢) **ابن فضل الله العمري (توفي سنة ٧٤٨هـ):** هو أبو العباس شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله بن يحيى بن دعجان بن خليفة، ويتصل نسبه بعمر بن الخطاب ولذلك عرف بالعمري، ولد في دمشق سنة ٧٠٠، وتعلم فيها وفي القاهرة والإسكندرية والحجاز، وتولى القضاء وغيره في القاهرة ثم رحل إلى بلده وتوفي بدمشق سنة ٧٤٨ وكان إمامًا في الأدب والتاريخ والإنشاء، وله مشاركة بسائر العلوم على اختلاف مواضيعها، واشتهر بقوة الحافظة وذكاء القريحة وسلامة الذوق وبلاغة الأسلوب، وكانت له معرفة خصوصية بتواريخ المغول وملوك الهند والأتراك والممالك والمسالك وخطوط الأقاليم وطبائعها وعلم الهيئة، ومع إنه لم يعمر طويلًا فقد ألف كتبًا هامة في مواضيع شتى هاك ما وصلنا خبره منها:

(أ) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار: هو موسوعة في بضعة وعشرين مجلدًا من الكتب الهامة في الأدب والتاريخ والجغرافية والتاريخ الطبيعي وغيرها، منه أجزاء متفرقة في مكاتب أوربا، لكن زكي باشا استحضر منه نسخة كاملة نقلها بالفوتوغراف من مكتبتي أيا صوفيا وطوبقبو بالأستانة في ١٦ جزءًا كبيرًا صفحاتها ٩٣٨١ صفحة، على الصفحة الأولى منه أنه «برسم خزانة السلطان الملك المؤيد الشيخ عز نصره بالجامع الذي أنشأه بباب زويله عمره الله، وقف هذا الجزء وما قبله وبعده الملك المؤيد أبو النصر الشيخ بالجامع المؤيدي والشرط أن لا يخرج منه.» ا.هـ.

وهو من حيث مواضيعه يشبه نهاية الأرب مع بعض التعديل. يقسم إلى قسمين، الأول في الأرض أي: الجغرافية وما يلحقها، والثاني في سكان الأرض ويقسم هذا إلى ما يتعلق بالحيوان الناطق وغير الناطق، فبحث في الأجزاء الأولى منه في التاريخ الطبيعي والجغرافية وما يتبع ذلك من مسالك الممالك والرياح وعجائب البر والبحر ومواقع مشاهير البلاد، وخصوصًا مملكة مصر والشام والحجاز وترتيبها ونظامها، واختص منازل العرب بالكلام كما كانت في زمانه، وأفاض في وصف سكان الأرض وقسمهم إلى سكان الغرب وسكان الشرق، وترجم رجالهم في شكل التفاضل بين البلدين، فأتى على تراجم الأطباء والعلماء والفقهاء وسائر رجال العلم والسياسة والإدارة فيهما وهو باب كبير، ثم نظر في غير الناطق والجماد ويحث في العلوم الطبيعية كالمعادن والحيوان والنبات، وتوسع في وصف الطيور وسائر الحيوان، وقسم التاريخ حسب الأمم والبلدان على اختلاف الأزمان والأصقاع إلى سنة ٧٤٤ ودقق في تواريخ المغول الهنود والأتراك والأكراد، فضلًا عن الأمم الأخرى، ومن هذا الكتاب أجزاء متفرقة في مكاتب أوربا وفي المكتبة الخديوية غير نسخة زكي باشا. وقد قررت نظارة المعارف طبع هذه النسخة وشرعت فيه ولا يزال العمل جاريًا.

وفي المكتبة الخديوية جزء من كتاب آخر اسمه «مسالك الأبصار من ممالك الأمصار وعجائب الأخبار ومحاسن الأشعار وعيون الآثار»، جاء في أوله أنه «تأليف محمد بن صالح بن حسن العصامي بأمر أمير المؤمنين وخليفة جده النبي الأمين المهدي لدين الله رب العالمين أبي عبد الله بن أمير المؤمنين»، وقال في المقدمة: إنه جمع فيه خلاصة ما جاء به غيره من الكتب في الأدب ومحصول جوامع البيان، وهو من قبيل كتب الأدب والأخبار فيه قطع تاريخية عن المتقدمين من الصحابة والآباء والشعراء، ويتخلل ذلك حكم وآداب منه الجزء الأول فقط في المكتبة المذكورة صفحاته ٥٧٦ صفحة كبيرة، وأكثره في أخبار عبد الملك بن مروان والحجاج مما يندر اجتماعه في كتاب.

(ب) التعريف بالمصطلح الشريف: مجموع رسائل في مراسم الملك وما يتعلق به قسمه إلى سبعة أقسام: رتب الكائنات. (١) عادات العهود والتقاليد والتفاويض والمناشير. (٢) نسخ الإيمان. (٣) الأمانات والهدن والمواضعات. (٤) نطاق كل مملكة وما يضاف إليها من المدن (٥) والرساتيق. مراكز البريد والحمام وهجن الثلج والمراكب (٦) المسافرة بالبحر والمناور والمحرقات. أوصاف ما تدعو الحالة إلى وصفه، ومعنى ذلك ما (٧) اصطلح عليه القوم من التعابير والمصطلحات في كل من هذه الأبواب من وصف أو مخاطبة، وهو مفيد في بابه يشبه صبح الأعشى للقلقشندي لكن هذا أوسع كثيرًا وقد تقدم بيان ذلك منه نسخة في المكتبة الخديوية في ٤٧٤ صفحة، وقد طبع بمصر سنة ١٣١٢.

(جـ) ممالك عباد الصليب: وصف فيه ملوك الإفرنج في عصره، روى ذلك عن بلبان الجنوي أحد مماليك بهادر المعزي، فوصف ملك فرنسا وملك ألمانيا وأحوالهما السياسية والاجتماعية، وفعل نحو ذلك في البنادقة والإيطاليان وأهل جنوه وبين علائقهم بالمسلمين، والكتاب طبع في رومية سنة ١٨٨٣ مع ترجمة إيطالية لاماري.

(د) الدرر الفرائد: في مختصر قلائد العقيان، منه نسخة في الخزانة التيمورية كتبت سنة ٧٢٠.

(هـ) الشتويات: مجموع رسائل كتبها في الشتاء في ليدن.

(و) النبذة الكافية في معرفة الكتابة والقافية: في مكتبة فلايشر (فوات الوفيات ٧ ج١).

(٣) **جلال الدين السيوطي (توفي سنة ٩١١هـ):** هو آخر من ظهر في هذا العصر بمصر من كبار العلماء، لكنه أعظمهم همة وأوسعهم علمًا وأكثرهم آثارًا، وهو جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال بن أبي بكر بن محمد، ويتصل نسبه بالشيخ همام الدين الخضيري السيوطي، وفي سلسلة نسبه طائفة من الوجهاء الرؤساء وأهل الثروة والفقهاء ويقول: أن جده الأعلى كان أعجميًّا لعله ينسب إلى الخضيرية محله في بغداد، ولد جلال الدين المذكور سنة ٨٤٩ وقد نشأ يتيمًا، وكان ذكيًّا قوي الحافظة فحفظ القرآن وهو في الثامنة من عمره ثم تفقه بعلوم عصره وتوسع فيها، وقد ترجم نفسه في كتابه «حسن المحاضرة»، وذكر أسماء شيوخه في كل فن أو علم فبلغ عددهم ١٥٠ شيخًا، شرع في التأليف سنة ٨٦٦ وهو في السابعة عشرة من عمره، وما زال مثابرًا على ذلك إلى وفاته سنة ٩١١هـ وقد رحل في طلب العلم وغيره إلى الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب والتكرور وتولى الإفتاء سنة ٨٧١ وأملى الحديث سنة ٨٧٢، وقد تبحر بالدرجة الأولى في سبعة علوم: التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبديع

على طريقة العرب، ويأتي بعد هذه في الدرجة الثانية: أصول الفقه والجدل والتصريف والإنشاء والترسل والفرائض والقراءات والطب والحساب، وكان الحساب أعسر العلوم عليه وأبعده عن ذهنه. وطلب المنطق ثم تركه لما سمع الإفتاء بتحريمه، فضلًا عن توسعه بالتاريخ والأدب واللغة.

بلغ عدد مؤلفاته أكثر من ٣٠٠ كتاب ورسالة ذكرها في ترجمته فاستغرق ذكرها سبع صفحات منها ٢٣ مؤلفًا في التفسير ومتعلقاته و٩٥ في الحديث و٢١ في اللغة و٤٣ في الأجزاء المفردة و٣٥ في العلوم العربية و٢١ في الأصول والبيان والتصوف و٥٠ كتابًا في التاريخ والأدب وغير ذلك، ولا يزال أكثر مؤلفاته باقيًا. وقد أفاض بروكلمن في ذكر ما بقي منها ومحل وجوده أو سنة طبعه مرتبة حسب الفنون، فبلغ ذلك ٣١٦ كتابًا ورسالة بينها ما لا يهمنا ذكره، فنكتفي بالمهم ونضيف إليه ما عرفناه بنفسنا منها.

مؤلفاته في التاريخ والأدب

(١) طبقات الحفاظ: لخصه من طبقات الحفاظ للذهبي، وزاد عليه، وقد رتب الحفاظ فيه حسب طبقاتهم، طبعه وستنفيلد في غوتنجن سنة ١٨٣٣–١٨٣٤.

(٢) طبقات المفسرين: هو معجم أبجدي للمفسرين على اختلاف طبقاتهم، طبع في ليدن سنة ١٨٣٩ ما وجد منه في ٤٣ صفحة فيها شروح وفهارس وترجمة لاتينية.

(٣) طبقات النحويين واللغويين: هو ثلاث نسخ، الكبرى ضاعت، والوسطى منها نسخة في باريس وقد طبعت سنة ١٣٢٢ والصغرى واسمها «بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة»، بدأ بتأليفها سنة ٨٦٨ أخذها عن طبقات السيرافي والزبيدي والفيروزآبادي وعن أمهات كتب التاريخ، كتاريخ بغداد لأبي بكر الخطيب وذيوله وتاريخ دمشق لابن عساكر وغيرها من تواريخ البلاد ورجالها، وصدر الكتاب بمقدمة ذكر فيها مآخذه وهي تعد بالعشرات، وقد رتب كتابه هذا على حروف المعجم لكنه بدأ بالمحمدين فالأحمدين ثم رتب ما بعدهم على الهجاء. وأفرد بابًا للمؤتلف والمختلف وآخر للآباء والأبناء وغيرهما، منه نسخة في المكتبة الخديوية في نحو ألف صفحة فيها نحو ٢٣٠٠ ترجمة، وقد طبع بمصر سنة ١٣٢٦ في ٤٦٣ صفحة، ومنه نسخ خطية في برلين وفينا وكوبرلي وغيرها.

(٤) تاريخ الخلفاء: ترجم فيه الخلفاء والسلاطين من عهد أبي بكر إلى الأشرف قايتباي المتوفى سنة ٩٠١ على ترتيب أزمانهم، وذكر في ترجمة كل منهم ما وقع في أيامه من الحوادث المستغربة ومن عاصره من أئمة الدين وأعلام الأمة، ورتبه على السنوات. طبع في كلكتة سنة ١٨٩٧، وفي لاهور سنة ١٨٨٦، وفي القاهرة سنة ١٣٠٥، وفي دهلي سنة ١٣٠٦، وغيرها، وترجم إلى الإنكليزية، وطبع في كلكتة سنة ١٨٨١. ومنه نسخ خطية في برلين وباريس ويني جامع وله مختصرات وذيول يأتي ذكرها في أماكنها.

(٥) حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة: في مجلدين يشتمل الأول منهما على أخبار مصر من قديم عهدها إلى زمن الفراعنة، وما قيل في الأهرام والإسكندرية وفتح مصر على أيدي العرب، وكلام في الفسطاط وفتوح أخرى في الفيوم وبرقة والنوبة وأبحاث في الجزية والجند ومن دخل مصر من الصحابة والتابعين وأتباعهم وطبقات أخرى وترجمة المؤلف، وأبواب في من كان بمصر من الحفاظ والمحدثين والفقهاء والشعراء والنحويين وغيرهم، والجزء الثاني في أمراء مصر منذ فتحت إلى أيامه. وأبحاث في الفرق بين الخلافة والملك والسلطة وأبواب في قضاة مصر ووزرائها وكتابها وأهم جوامعها ومدارسها والنيل وأحكامه، وقد عولنا عليه في كثير من التراجم، منه نسخ خطية في برلين وغوطا وطبع بمصر سنة ١٢٩٩ وغيرها.

(٦) الدراري في أبناء السراري: فيه أسماء أبناء الخلفاء المولودين من الجواري، في برلين والمكتبة الخديوية في بضع ورقات.

(٧) النفحة المسكية والتحفة المكية: موسوعة على شكل «عنوان الشرف» الآتي ذكره وهي جداول في النحو والبديع والمعاني في ١٦٦ سطرًا، في فينا والجزائر.

(٨) رصف اللآل في وصف الهلال: مجموع أشعار في هذا المعنى، طبع في الأستانة في جملة التحفة البهية سنة ١٣٠٢.

(٩) التعظيم والمنة في أن أبوي رسول الله في الجنة: طبع في حيدرآباد سنة ١٣١٧.

(١٠) مسالك الحنفا في والدي المصطفى: طبع في حيدرآباد سنة ١٣١٨.

(١١) مشتهى العقول في منتهى النقول: رسالة فيه أحسن ما قيل من كل شيء، في المكتبة الخديوية وفينا، وطبع بمصر سنة ١٢٧٦.

(١٢) مقامات: ١٢ مقامة طبعت في الأستانة سنة ١٢٩٨.

(١٣) الوسائل إلى معرفة الأوائل: أخذ عن كتاب العسكري وزاد فيه وأحسن ترتيبه، وموضوعه الأوائل من كل حادث كقولهم: أول من خطب فلان وأول من لبس كذا فلان، رتبه على المواضيع. منه نسخة في المكتبة الخديوية في ١١٦ صفحة.

(١٤) الشماريخ في علم التاريخ: طبع في ليدن سنة ١٨٩٦.

(١٥) لب اللباب في تحرير الأنساب: هو مختصر في الأنساب، هذب فيه اللباب لابن الأثير واستوفى ضبط ألفاظه وزاد عليه زيادات كثيرة وتتبع أشياء أهملها، أتمه سنة ٨٧٣ والمراد به الانتساب إلى البلاد لا أنساب الآباء والأجداد كقولهم: البوصيري نسبة إلى بوصير والبغدادي إلى بغداد. كما ذكرنا عن كتاب الأنساب للسمعاني. وهو يشتمل على نحو ٩٠٠٠ اسم منسوبة مع تفسيرها، منه نسخة في المكتبة الخديوية في نحو ٣٠٠ صفحة وقد طبع في أوربا.

(١٦) المنجم في المعجم: ذكر فيه أعيان شيوخه الذين سمع منهم ورتبهم في ثلاث طبقات على أحرف الهجاء، وذكر بجانب الاسم حرفًا يدل على طبقته، منه نسخة في المكتبة الخديوية في نحو ٥٥٠ صفحة يظهر أنها مسودة لم تبيض بعد؛ نظرًا لما فيها من الشطب والتصحيح.

(١٧) بلبل الروضة: مقامة وصف بها جزيرة الروضة، منه نسخة في المكتبة الخديوية في بضع ورقات.

(١٨) رفع شأن الحبش: هو شرح تنوير الغبش، في فضل السودان والحبش لابن الجوزي في باريس.

(١٩) أزهار العروس في أخبار الحبوش (الأحباش): في غوطا والأسكوريال.

(٢٠) ديوان الحيوان: خلاصة حياة الحيوان للدميري، في باريس والمكتب الهندي.

(٢١) تبييض الصحيفة في مناقب أبي حنيفة: طبع في حيدرآباد سنة ١٣١٧.

(٢٢) نشر العلمين المنيفين: رسالة طبعت في حيدرآباد سنة ١٣١٦.

(٢٣) إسعاف المبطأ في رجال الموطأ: طبع في حيدرآباد سنة ١٣٢٠.

(٢٤) السبل الجلية في الآباء العلية (آباء النبي): طبع في حيدرآباد سنة ١٣١٦.

(٢٥) تزيين الممالك في مناقب مالك: في الخزانة التيمورية.

(٢٦) المقامة السندسية في النسبة المصطفوية: طبع في حيد أباد سنة ١٣١٦.

(٢٧) المنهاج السوي في ترجمة النووي: في الخزانة التيمورية.

(٢٨) تحفة الظرفاء في أخبار الخلفاء: قصيدة رائية نظم فيها أسماء الخلفاء وسني وفاتهم، في المكتبة الخديوية.

(٢٩) در السحابة في من دخل مصر من الصحابة: في المكتبة الخديوية وباريس.

مؤلفاته في العلوم اللغوية

(٣٠) المزهر في علوم اللغة: هو أهم كتبه اللغوية وهو فريد في بابه يدخل في جزءين، الجزء الأول يبحث في ألفاظ اللغة وأصلها وصحيحها ومتواترها والمرسل والمنقطع وطرق الأخذ، ومعرفة المصنوع والفصيح والضعيف والمنكر والرديء والمذموم والمطرد والشاذ والغريب والنادر والمستعمل والمهمل والمعرب والمولد، والألفاظ الإسلامية وخصائص اللغة واشتقاقها والحقيقة والمجاز والمشترك والأضداد والمترادفات والأتباع والمطلق والمقيد والمشجر، وأحكام القلب والإبدال والنحت ونحو ذلك. والثاني في أوزان الكلام وأبنية الأفعال وضوابط واستثناءات في الأبنية مما يندر وروده، وفيها فائدة عظمى للباحث في أصول الألفاظ وعلاقة العربية بأخواتها السامية وفصول في معرفة آداب اللغوي وأحكام الرواية، وباب خاص في معرفة الطبقات والحفاظ والثقات والضعفاء وباب للأسماء والكنى والألقاب والأنساب والمواليد والوفيات وأغلاط العرب وغير ذلك. وهو كتاب عظيم الأهمية للباحث اللغوي أو الناظر في فلسفة اللغة، وإن اقتصر غالبًا على إيراد الأقوال نقلًا عن أصحابها، لكنه يتضمن حقائق هامة نقلها عن ثقات ضاعت مؤلفاتهم، طبع بمصر سنة ١٢٨٢ وغيرها.

(٣١) الأشباه والنظائر النحوية: رتبه على سبعة فنون كل فن له مقدمة مستقلة كأنه سبعة كتب، طبع في حيدرآباد سنة ١٣١٧ في أربعة مجلدات.

(٣٢) جمع الجوامع: في النحو، جعله مقدمة وسبعة كتب في أبواب النحو وغيره، طبع بمصر في مجلدين سنة ١٣٢٧.

(٣٣) الاقتراح في أصول النحو: طبع في حيدرآباد سنة ١٣١٥.

(٣٤) جناس الجناس: في المكتبة الخديوية.

مؤلفاته في العلوم الدينية أو الشرعية

(٣٥) الإتقان في علوم القرآن: يبحث في العلوم المتعلقة بالقرآن من حيث مواطن نزوله والسند والأداء والألفاظ والمعاني المتعلقة بالأحكام أو بالألفاظ ونحو ذلك، قسمه إلى أنواع وفروع عديدة، وطبع بمصر سنة ١٣٠٦ في مجلدين، وطبع في كلكتة سنة ١٨٥٤ مع تعاليق وغيرها.

(٣٦) ترجمان القرآن في تفسير المسند: طبع بمصر سنة ١٣١٤.
(٣٧) لباب العقول في أسباب النزول: طبع بمصر على هامش الجلالين سنة ١٣١٣.
(٣٨) المذهب في ما وقع في القرآن من المعرب: منه نسخة في المكتبة الخديوية.
(٣٩) تفسير الجلالين: هو من أهم التفاسير المعول عليها، طبع في كلكتة سنة ١٢٥٧، وفي لكناو سنة ١٨٦٩، وفي دهلي سنة ١٨٨٤، وفي القاهرة سنة ١٣٠٥، وغيرها في مجلدين، وله معاجم وشروح عديدة أكثرها مطبوع.
(٤٠) جمع الجوامع: أو الجامع الكبير في الحديث، أراد به استيفاء جمع الأحاديث فقسمه إلى قسمين: الأول، ذكر فيه الأحاديث التي فيها لفظ النبي بنصه، وألحق كل حديث بذكر من خرَّجه من الأئمة وأصحاب الكتب الستة ومن رواه من الصحابة من واحد إلى عشرة أو أكثر مع ترتيبها على الأبجدية مراعيًا الكلمة الأولى، ويرمز بجانب كل حديث عمن رواه أو خرجه بحرف من اسمه. وذكر في القسم الثاني الأحاديث الفعلية المحضة أو المشتملة على قول أو فعل أو سبب، ورتبها على مسانيد الصحابة، فهو معجم للأحاديث وافٍ في عدة مجلدات منه أجزاء في المكتبة الخديوية.
(٤١) الدر المنثور في التفسير بالمأثور: تفسير القرآن في سبعة مجلدات كبيرة، منه نسخة في المكتبة الخديوية.
(٤٢) المقدمة: في الألفاظ المعربة في القرآن، في برلين.
(٤٣) معربات القرآن: في المكتبة الخديوية.
(٤٤) الخصائص النبوية: في معجزات النبي، في المكتبة الخديوية وباريس وبرلين، له مختصرات في برلين وغيرها وله شرح للمناوي في المكتبة الخديوية.
(٤٥) شرح الصدور في شرح حال الموتى في القبور: ذكر فيه أمور البرزخ إلى أن ينفخ في الصور، طبع في لاهور سنة ١٨٧١ وله مختصر طبع في مصر.
(٤٦) المنهج السوي والمنهل الروي في الطب النبوي: في برلين وأكسفورد.
(٤٧) الازدهار فيما عقده الشعراء من الآثار، هي منظومات فيها أحاديث في برلين.
(٤٨) الدر المنظم في الاسم المعظم: في المكتبة الخديوية.
(٤٩) الأشباه والنظائر في الفقه: في المكتبة الخديوية وبرلين.
(٥٠) النقاية: هي موسوعة في ١٤ علمًا يسمى مجموعها «الأصول المهمة في علوم جمة» منها جزء يبحث في التفسير وأصول الدين والتشريح والبديع والبيان والمعاني والخط، طبع في الأستانة سنة ١٣٠٢ في كتاب التحفة البهية، وجزء آخر في التصريف والنحو

والفرائض وأصول الفقه والحديث والتصوف والطب، منه نسخة في برلين، ولها شرح اسمه «إتمام الدراية» طبع في بمباي سنة ١٣٠٩.

وللسيوطي مجموعات من رسائل طبعت في مجلد واحد، منها مجموعة فيها ست رسائل طبعت في الهند، وأخرى فيها ثلاثون رسالة طبعت في الهند أيضًا.

وفي المكتبة الخديوية والخزانة التيمورية مجاميع في كل منها عدة مؤلفات للسيوطي في مواضيع مختلفة تقدم ذكر بعضها (ترجمته في حسن المحاضرة ١٨٨ ج١).

(٢) أصحاب الموسوعات خارج مصر والشام

(١) **نصير الدين الطوسي (توفي سنة ٦٧٢هـ):** هو أبو جعفر محمد بن محمد بن الحسن نصير الدين الطوسي الفيلسوف الرياضي الفلكي، كان مقربًا من هولاكو فاتح بغداد وله عنده نفوذ يطيعه فيما يشير به عليه والأموال في تصريفه، وكان يحب العلم الطبيعي، ولا سيما الفلك، فابتنى في مراغة مرصدًا عظيمًا، واتخذ خزانة ملأها من الكتب التي نهبت من بغداد والشام والجزيرة، وقد زاد عددها على ٤٠٠٠٠٠ مجلد، وأقام المنجمين والفلاسفة ووقف عليها الأوقاف، فزها العلم في بلاد المغول على يد هذا الفارسي كأنه قبس منير في ظلمة مدلهمة. ولد في طوس سنة ٦٠٧ ومات في بغداد سنة ٦٧٢ وكان له إلمام بعلوم شتى، وله مؤلفات في الفقه والمنطق والفلسفة والرياضيات والطبيعيات والنجوم والطب والسحر وغيرها هاك أهمها:

(أ) جواهر الفرائض: في الفقه، في برلين.

(ب) كتاب تجريد العقائد: في علم الكلام، بطريق السؤال والجواب. ويسمى أيضًا «تجريد الكلام»، في برلين وليبسك، له شروح ومختصرات بعضها مطبوع.

(ج) قواعد العقائد: في برلين، له شرح للرازي فيها.

(د) أقسام الحكمة: في برلين.

(هـ) إثبات الجوهر المفارق: في برلين.

(و) كتاب أوقليدس: في برلين ومنشن وغيرهما.

(ز) المقالات الست: طبع سنة ١٨٢٤.

(ح) مختصر كرات أرخميدس: لثابت بن قرة، في ليدن.

(ط) المتوسطات بين الهندسة والهيئة: من أحسن الكتب في هذا الموضوع.

(ي) كتاب انعكاس الشعاعات: في برلين.

(ك) تحرير المجسطي: في برلين والمتحف البريطاني.

(ل) التذكرة النصيرية: في علم النجوم لها شروح في أكثر مكاتب، أوربا والأستانة.

(م) التحصيل: في النجوم، بأكسفورد.

(ن) البارع: في علوم التقويم وحركات الأفلاك وأحكام النجوم والبلدان في برلين وغيرها.

وله مؤلفات في الفارسية نقلت إلى العربية أو التركية ونقل من مؤلفاته إلى اللغة اللاتينية أجزاء تتعلق بالتقويم والجغرافية، طبع بعضها في ليدن سنة ١٦٤٨، وبعضها في لندن سنة ١٦٥٢. وقد فصل بروكلمن ذلك في الجزء الثاني من كتابه صفحة ٥٠٨–٥١٢ (ترجمته في فوات الوفيات ١٤٩ ج٢).

(٢) **سعد الدين التفتازاني (توفي سنة ٧٩١هـ):** هو سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني، ولد في تفتازان قرب نسا سنة ٧٢٢، وتولى التدريس في سرخس، وأبعده تيمورلنك إلى سمرقند، وتوفي سنة ٧٩١ وكان بارعًا في علوم كثيرة، ومن مؤلفاته التي يهمنا ذكرها:

(أ) تهذيب المنطق والكلام: متن متين في علم المنطق وعلم الكلام، منه نسخة في المكتبة الخديوية بخط جميل في ١٦٦ صفحة، وفي باريس ونور عثمانية، وقد طبع مع شروح فارسية في لكناو الهند سنة ١٨٦٩، وله شروح عديدة أكثرها مطبوع في الهند وله ترجمات كثيرة ذكرها صاحب كشف الظنون.

(ب) إرشاد الهادي: في النحو، له عدة شروح في مكاتب أوربا.

(جـ) مقاصد الطالبين في أصول الدين: في علم الكلام، رتبه على ستة مقاصد، فرغ من تأليفه سنة ٧٨٤ في سمرقند، وهو من خيرة الكتب في علم الكلام، وله عليه شرح اسمه «شرح المقاصد»، من يطالعه يتبين له مقدار ما أجهد القدماء عقولهم في استنباط الأدلة واستخراج البراهين، طبع في الأستانة سنة ١٢٧٧ في مجلدين كبيرين.

(د) له شروح كثيرة في النحو والصرف والتفسير وغيرها منها شرح الكشاف، وشرح عقائد النسفي، وغيرها لا حاجة إلى ذكرها.

ولحفيده أحمد التفتازاني المتوفى نحو سنة ٩٠٦ كتاب «الفوائد والفرائد» مجموعة في عدة علوم منها نسخة في المكتبة الخديوية وغيرها، وله أيضًا «مجموعة نفيسة» في نحو ذلك في المتحف البريطاني.

(٣) **السيد الشريف الجرجاني (توفي سنة ٨١٦هـ):** هو علي بن محمد الجرجاني السيد الشريف، ولد في تاكو قرب استراباد سنة ٧٤٠، وتفقه على التفتازاني، وتولى التعليم في شيراز، فلما فتح تيمور هذه المدينة سنة ٧٨٩ هرب إلى سمرقند، ولما مات تيمور سنة ٨٠٧ عاد إلى شيراز ومات فيها سنة ٨١٦، وكان واسع الاطلاع متبحرًا، وأهم مؤلفاته:

(أ) كتاب التعريفات: فيه تحديد المعاني الاصطلاحية للألفاظ العربية على مصطلح العلوم في أيامه، فهو من قبيل ما يسميه الإفرنج Technical Terms وهو من الكتب النادرة المثال في العربية، مرتب على حروف المعجم لتسهيل الاستعمال. طبع في ليبسك سنة ١٨٤٣، وفي الأستانة سنة ١٨٣٧، وفي مصر سنة ١٢٨٣ وسنة ١٣٠٦، وفي ذيل هذه الطبعة كتاب «الاصطلاحات الصوفية» لابن العربي، وللتعريفات ذيل اسمه «التوقيف على مهمات التعريف» للمناوي الآتي ذكره، في باريس.

(ب) مقاليد العلوم في الحدود والرسوم: ويشتمل على تعريف ٢١ علمًا، منه نسخة في المتحف البريطاني.

(جـ) تحقيق الكليات: من قبيل التعريفات في برلين.

(د) مراتب الموجودات: في ترتيب الخلق، في برلين.

(هـ) رسالة في قواعد البحث: أي علم المناظرة، عليها شرح لغوث الإسلام الصديقي، في برلين.

(و) تقسيم العلوم: في المكتب الهندي بلندن.

(ز) له عدة شروح فقهية ولغوية للكشاف والفرائض النصيرية والمفتاح وآداب البحث وغيرها، متفرقة في مكاتب أوربا أهمها «شرح المواقف» في علم الكلام للإيجي، الآتي ذكره، طبع في الأستانة سنة ١٢٣٩ وسنة ١٢٨٦، وفي ليبسك سنة ١٨٤٨، وفي مصر سنة ١٢٦٦.

(٤) **الفناري (توفي سنة ٨٣٤هـ):** هو شمس الدين محمد بن حمزة الفناري الحنفي، ولد سنة ٧٥١ وتفقه في آسيا الصغرى ومصر، وتولى قضاء بروسة وحج سنة ٨٣٣،

ومات حال عودته في السنة التالية، له مؤلفات عديدة في الفقه والدين والمنطق والعقليات وشروح لغوية ومن أهم كتبه:

(أ) كتاب المنطق: طبع في الأستانة سنة ١٣٠٤.

(ب) عويصات الأفكار في أخبار أولى الأبصار: رسالة صغيرة في العلوم العقلية بطريق السؤال، منها نسخة في المكتبة الخديوية. ولابنه محمد شاه جلبي شيخ المدرسة السلطانية في بروسة المتوفى ٨٣٩ كتاب «أنموذج العلوم» ألفه سنة ٨٣٨ في مائة مسألة من مائة فن، بناها على حدائق الأنوار لفخر الدين الرازي، وكان الرازي قد ضمن حدائقه ستين علمًا، ومن الأنموذج نسخة في برلين وفينا (ترجمتهما في الشقائق النعمانية ٢٣ و٣٦ وكشف الظنون ١٦١ ج١).

(٥) **شرف الدين المقري (توفي سنة ٨٣٧هـ):** هو شرف الدين إسماعيل أبي بكر بن المقري الشاوري اليمني، ولد سنة ٧٥٥ في أبيات حسين في سردد باليمن، وتولى التدريس أولًا في المدرسة المجاهدية في تعز، ثم في النظامية بزبيد وتوفي سنة ٨٣٧، ومؤلفاته:

(أ) عنوان الشرف الوافي في الفقه والنحو والتاريخ والعروض والقوافي: مرتب في جداول على شكل غريب، كل صفحة ثلاثة حقول (أنهار) تقرأ أفقيًّا باعتبار أنها حقل واحد وهي إذ ذاك تبحث في الفقه وأحكامه، ويؤخذ من أوائل السطور من كل حقل ومن أواخرها أحرف يتركب منها بحث في العروض والنحو والقوافي والتاريخ، وقد ذكر في أوله أن الملك الأشرف إسماعيل أمره بوضعه. وذكر السخاوي في سبب تأليفه أنه كان يطمع في منصب القضاء بعد الفيروزآبادي صاحب القاموس، وكان هذا قد وضع للأشرف صاحب اليمن كتابًا أول كل سطر منه ألف، فاستعظمه الأشرف فعمد شرف الدين إلى وضع هذا الكتاب، والتزم أن يخرج من أوله ووسطه وآخره عدة علوم غير الفقه الذي وضع الكتاب له. منه نسخ في المكتبة الخديوية وغوطا وباريس وبرلين، وطبع على الحجر في كلكتة وبالحروف في حلب سنة ١٢٩٤.

(ب) ديوان شعر طبع في الهند سنة ١٣٠٥، وله أشعار أخرى في مواضيع مختلفة.

(٦) **مصنفك (توفي سنة ٨٧٥هـ):** هو علاء الدين والملة علي بن مجد الدين محمد بن مسعود الهروي مصنفك الشاهرودي البسطامي، يتصل نسبه بفخر الدين الرازي، سمي «مصنفك» لاشتغاله بالتأليف من حداثة سنه، والكاف في الفارسية للتصغير. ولد

سنة ٨٠٣ وانتقل مع أخيه إلى هرات، ثم انتقل إلى آسيا الصغرى، وتعين أستاذًا في قونية، وانتقل إلى الأستانة، وتوفي هناك سنة ٨٧٥. وله عدة مؤلفات يهمنا منها:

حل الرموز ومفاتيح الكنوز: ألفه سنة ٨٦٦ بأمر السلطان محمد بن مراد فاتح القسطنطينية وكان قد وقع نظره على مختصر السهروردي فأمر المؤلف بشرحه وتفصيله وهو في علم الباطن أو التصوف ومراتب الأولياء، وفيه أشياء من قبيل السحر وأفعال القلوب، منه نسخة خطية في المكتبة الخديوية في ٣٢٤ صفحة، وفي كشف الظنون أنه لعلي دده الآتي ذكره، ولمصنفك شروح عديدة في مواضيع مختلفة باللغة والأدب وغيرها (الشقائق النعمانية ١٨١).

(٧) **ملا لطفي (توفي نحو سنة ٩٠٠هـ):** هو لطف الله التوقاتي تلميذ سنان باشا والقوشجي، تولى خزانة الكتب في زمن السلطان محمد، ولما تولى السلطان بيازيد جعله أستاذًا في بروسة، ثم انتقل إلى أدرنة فالأستانة ثم عاد إلى بروسة وله كتاب: المطالب الإلهية: في موضوعات العلوم، قدمه للسلطان بيازيد منه نسخة في فينا والمتحف البريطاني، وله رسائل في عدة مواضيع مختلفة منها رسالة «تضعيف المذبح» في تاريخ أفلاطون طبع في ليدن سنة ١٨٢٧، وله شرح المواقف في علم الكلام للإيجي، طبع في الأستانة سنة ١٢٣٩ (الشقائق النعمانية ٣١٣).

(٨) **الدواني (توفي سنة ٩٠٧هـ):** هو جلال الدين محمد بن أسعد الدواني، وينتسب إلى أبي بكر، ولد سنة ٨٣٠ في دوان من كازرون، وكان أبوه قاضيًا هناك، وأقام في شيراز، وتولى قضاء فارس والتدريس في مدرسة الأيتام، ومؤلفاته:

(أ) أنموذج العلوم: فيه مختصرات من علوم تلك الأيام قدمه للسلطان محمد العثماني، ومنه نسخة في برلين والمكتبة الخديوية.

(ب) تعريف العلم: في المكتبة الخديوية، وله عدة رسائل في مسائل مختلفة فقهية وكلامية وفلسفية وفي التفسير والأصول وغيرها متفرقة في مكاتب أوربا ولا سيما برلين وفينا والأسكوريال، منها رسالة في «إثبات الواجب القديم» (وجود الله) منها نسخة في المكتبة الخديوية عليها شروح مختلفة، وله رسالة اسمها «الزوراء» تبحث في بعض أحوال الصوفية اهتم العلماء بشرحها، منها نسخ متفرقة في المكاتب الكبرى.

موسوعات أخرى

ومن الموسوعات في هذا العصر ما جاء ذكره في أثناء التراجم بين المواضيع الأخرى، ومنها أيضًا:

(١) **كتاب جامع العلوم وسلوة المحزون:** لنجم الدين الحراني المتوفى سنة ٦٩٥ في الحديث والسماء والأرض والكواكب والخسوف والتوقيت والسعد والنحس وفي البحور والجزر والآبار والجبال والأحجار والمدن والأهرام وأمم الأرض وغير ذلك، منه نسخة في باريس.

(٢) **كتاب تعديل العلوم:** في الفلسفة والطبيعيات لعبيد الله بن مسعود صدر الشريعة المحبوبي البخاري، المتوفى سنة ٧٤٧ جعله قسمين: الأول في المنطق، والثاني في الكلام ومباحثه غريبة، منه نسخة في برلين وفينا.

(٣) **إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد:** لشمس الدين محمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصاري، توفي نحو سنة ٧٩٤، في العلوم وأصنافها وعنه أخذ طاشكبري زاده صاحب مفتاح السعادة جمع فيه ستين علمًا، طبع بمصر سنة ١٣١٨.

(٤) **مدينة العلوم:** في تعريفات العلوم وتراجم المؤلفين، لمصطفى بن خليل من أهل القرن العاشر، منها نسخة خطية في المكتبة الخديوية في ٣٤٦ صفحة. وفي نسبة هذا الكتاب إلى مؤلفه اختلاف، فإن النسخة الموجودة في المكتبة الخديوية ذكر في عنوانها «أنها للشيخ الأجل الإمام، مولانا وسيدنا مفتي المسلمين»، وفي صدر المقدمة أن مؤلفه «شمس الدين بن القاضي برهان الدين إبراهيم بن ساعد الأنصاري كان في القاهرة سنة ٧٣٠»، وفي أبجد العلوم أن صاحب مدينة العلوم «الأرتقي»، ولكنك تجد في الكتاب ذكرًا لأناس توفوا بعد القرن التاسع، وقد استشهد بالسيوطي المتوفى سنة ٩١١ وتمت كتابة نسخة المكتبة الخديوية سنة ١١١٤. فالمؤلف من أهل القرن العاشر أو الحادي عشر، وموضوع الكتاب من قبيل مفتاح السعادة لطاشكبري زاده أو كشف الظنون، بحث أولًا في العلوم وأقسامها وأشهر من ألف فيها بدأ بالخط فالكتابة وفروعها، فاللغة وعلومها وتاريخ نشوئها والشعر والأدب والعلوم الطبيعية والميكانيكية والسياسة والدين، لم يرتب ذلك على الهجاء كما فعل صاحب كشف الظنون لكنه يفضله بترجمة أصحاب المؤلفات.

العلوم الإسلامية

قلنا في غير هذا المكان: إن الغرض من هذا الكتاب يقتضي الاختصار في العلوم الإسلامية لما يبعث إليه ذلك من التوسع والتطويل، وخصوصًا في العصور الأخيرة إذ تفرعت هذه العلوم وتعددت وتكاثر علماؤها، فتقتصر من هؤلاء على أشهرهم ولا سيما الذين كان لهم تأثير أو اشتغال في الأدب على الإجمال أو خلفوا آثارًا يمكن للأديب الناشئ الانتفاع بها، وهو الغرض المراد بهذا الكتاب فهناك ما يهمنا ذكره من ذلك:

في الحديث

(١) **محب الدين الطبري المكي (٦٩٤) له:**

(أ) كتاب الرياض النضرة في فضائل العشرة، وهم الصحابة العشرة الذين وعدوا بالجنة، طبع بمصر سنة ١٣٢٧ في مجلدين.

(ب) ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى، أي: أقارب النبي، في غوطا.

(٢) **ابن عيسى الهكاري:** بأواسط القرن الثامن له: كتاب رجال البخاري ومسلم مرتبة أسماؤهم على الأبجدية منه الجزء الأول في الخزانة التيمورية بخط المؤلف ينتهي بمادة «عبد الصمد» وعليه في آخره خط السيد مرتضى الزبيدي.

(٣) **عز الدين بن جماعة الكناني (٧٦٧) له:**

(أ) مختصر السيرة النبوية في المكتبة الخديوية في جزء صغير.

(ب) منتخب نزهة الألباب بخطه في الخزانة التيمورية.

(٤) **يحيى بن أبي بكر العامري اليمني المتوفى سنة ٨٩٣:** له كتاب الرياض المستطابة في جملة ما روي في الصحيحين عن الصحابة، وهو مختصر في التعريف لمن صح له في الصحيحين رواية أو رؤية مرتب على الهجاء، وطبع في بهوبال سنة ١٣٠٣.

الفقه الحنفي

(١) **مظفر الدين بن الساعاتي البغدادي (٦٩٦):** له كتاب مجمع البحرين وملتقى النهرين، وهو من الكتب الشائعة في الفقه وله شروح عديدة مطبوعة، وهو غير ابن الساعاتي الشاعر المتقدم ذكره.

(٢) **حافظ الدين النسفي (٧١٠) له:**

(أ) منار الأنوار في أصول الفقه، عليه شروح كثيرة أكثرها مطبوع.

(ب) الوافي في الفروع، عليها شروح عديدة في مكاتب أوربا والمكتبة الخديوية.

(ج) كنز الدقائق في الفروع، طبع في دهلي سنة ١٨٧٠ وسنة ١٨٨٣، وفي لكناو سنة ١٨٧٤ وسنة ١٨٧٧، وفي بمباي سنة ١٨٨٣، وفي مصر سنة ١٣٠٩، وغيرها. وله ترجمة فارسية في برلين، وله كتب أخرى.

(٣) **فخر الدين الزيلعي المتوفى سنة ٧٤٣:** له كتاب تبيين الحقائق على كنز الدقائق، طبع بمصر سنة ١٣٠٣ في ٦ أجزاء.

(٤) **ابن همام المتوفى سنة ٨٦١:** له فتح القدير للعاجز الفقير، شرح على الهداية طبع بمصر سنة ١٣١١ في ٨ أجزاء.

(٥) **ملا خسرو (٨٨٥):** أصله تركماني، وتولى التدريس في أدرنة والقضاء في الأستانة وصار أستاذًا في أيا صوفيا، ورحل إلى بروسة ثم تولى الإفتاء في الأستانة وتوفي ودفن في بروسة، أهم مؤلفاته: درر الحكام في شرح غرر الأحكام، طبعت في القاهرة سنة ١٢٩٤ و١٣٠٥ في مجلدين وعليها شروح وحواش.

الفقه المالكي

(١) **شهاب الدين القرافي المتوفى سنة ٦٨٤:** له كتاب الفروق في الفقه المالكي، طبع في تونس سنة ١٣٠٤.

(٢) **خليل بن إسحق بن موسى الجندي المالكي المصري (٧٦٧):** تعلم في القاهرة وتولى التدريس في الشيخونية والإفتاء أيضًا، له:

(أ) كتاب المختصر في الفقه المالكي، اهتمت الحكومة الفرنساوية بنقله إلى لسانها من أواسط القرن الماضي بعد استيلائها على الجزائر، فعهدت بذلك إلى المستشرق بيرون وطبعت الترجمة وما معها من الشروح والتعاليق في باريس سنة ١٨٥١–١٨٥٢ في ستة مجلدات، وطبع أيضًا في باريس سنة ١٨٧٧، وأخذت الحكومة الإيطالية بعد تملكها طرابلس الغرب في ترجمته إلى العربية، وهو مشهور، ويعرف عندهم باسم «مختصر سيدي خليل»، وقد استخرج الإفرنج منه فوائد اجتماعية وأدبية، فضلًا عن الأحكام الفقهية. وقد طبع الأصل العربي بفاس سنة ١٣٠٠، وفي بهتان سنة ١٨٧٨، وبمصر سنة ١٣٠٩، وغيرها. وله شروح عديدة أكثرها مطبوع يستغرق ذكرها صفحة كبيرة.

(ب) كتاب المناسك في المكتبة الخديوية.

(ج) كتاب محضرات الفهوم فيما يتعلق بالتراجم والعلوم في المكتبة الخديوية.

(د) مناقب الشيخ عبد الله المنوفي في المكتبة الخديوية. (حسن المحاضرة ٢٦٢ ج١).

(٣) **الونسريسي المتوفى سنة ٩١٤:** له نوازل المعيار، طبع بفاس في ١٢ جزءًا سنة ١٣١٥.

الفقه الشافعي

(١) **أبو زكريا محيي الدين النووي:** هو يحيى بن شرف بن مرا بن حسن الخزامي الحوراني محيي الدين، ولد سنة ٦٣١ في نوا قرب دمشق وتعلم في دمشق وحج وسافر ومات في بلده نوا سنة ٦٧٦، أشهر مؤلفاته:

(أ) تهذيب الأسماء واللغات: جمع فيه الألفاظ الموجودة في مختصر المزني والمهذب والوسيط والوجيز والتنبيه والروضة، وضم إليها جملًا مما ليس فيها من أسماء الرجال

والنساء والملائكة والجن وغيرهم، وجعله قسمين، الأول في الأسماء والثاني في اللغات، طبع في غوتنجن سنة ١٨٤٢–١٨٤٧ في مجلد كبير نحو ٨٨٠ صفحة وهو كالمعجم التاريخي للأعلام التي جاء ذكرها في تلك الكتب.

(ب) منهاج الطالبين، هو مختصر محرر ابن رافع، منه نسخ في غوطا وبرلين، وقد اهتمت الحكومة الفرنساوية بنقله إلى لسانها وطبعته مع الأصل العربي في بتافيا سنة ١٨٨٢ في ثلاثة مجلدات، وطبع بمصر سنة ١٣٠٥، وعليه شروح كثيرة ومختصرات لأشهر الفقهاء تعد بالعشرات لا محل لذكرها.

(ج) الدقائق هو معجم للمنهاج والمحرر وقد شرحه كثيرون أيضًا.

(د) تصحيح التنبيه في الفقه، جمع فيه تهذيب كتاب التنبيه مع زيادات لتسهيل الوصول إلى المسائل المراد الإفتاء بها في ٦٤ صفحة. وللنووي مؤلفات أخرى فقهية وشروح عديدة على الفقه والحديث منها شرح صحيح مسلم، طبع في القسطنطينية سنة ١٢٨٣ في خمسة مجلدات.

(٢) **تقي الدين السبكي (٧٥٦):** ولد في سبك بمصر سنة ٦٨٣، وتعلم في القاهرة ورحل إلى الإسكندرية ودمشق وزار القدس والخليل وحج إلى مكة، ثم صار قاضي القضاة في الشام وتقلب في مناصب عديدة، وانقطع في آخر حياته بعزبة على شاطئ النيل بسبب حزن أصابه على موت ابنه حتى توفي سنة ٧٥٦، وكان من كبار العلماء. وله مؤلفات في الفقه تزيد على عشرين كتابًا أغضينا عنها.

(٣) **تاج الدين السبكي:** هو عبد الوهاب بن تقي الدين المتقدم ذكره، ولد في القاهرة (٧٢٧) وتعلم فيها ورحل إلى دمشق مع أبيه، وتولى مناصب مهمة مع صغره وخطب في الجامع الأموي وخلف أباه على القضاء، ثم اتهم بالتبذير، وسُجن وتوفي سنة ٧٧١. له:

(أ) جمع الجوامع في الأصول، هو من أمهات كتب الفقه الشافعي منه نسخ في برلين وليدن والأسكوريال وفي المكتبة الخديوية، وله شروح عديدة ومختصرات بعضها مطبوع.

(ب) توشيح التصحيح، في أصول الفقه في المكتبة الخديوية وعليه شروح.

(ج) كتاب الأشباه والنظائر في ليدن.

(د) معيد النعم ومبيد النقم، موضوعه «هل من طريقة لمن سُلب نعمة دينية أو دنيوية إذا سلكها عادت إليه؟» في برلين والمكتبة الخديوية، طبع في لندن سنة ١٩١٠ مع مقدمة وتعاليق.

(هـ) طبقات الشافعية الكبرى هي تراجم الفقهاء الشافعية ممن جالسوا الشافعي فمن جاء بعدهم، وكل طبقة مرتبة على الهجاء طبعت في مصر سنة ١٣٢٤ في ستة مجلدات، وفيها فوائد هامة في التاريخ والحديث.

(و) الطبقات الوسطى، منها نسخة في المكتبة الخديوية في ٢٨٠ صفحة.

(ز) الطبقات الصغرى، اختصر فيها الكبرى والوسطى ورتبها على الأبجدية بدون تقييد بالطبقات، فهي أقرب تناولًا من غيرها، منها نسخة في المكتبة الخديوية في ٢٢٠ صفحة، ومما تحسن الإشارة إليه أن الطبقات على الإجمال تشتمل على تراجم أهم المشاهير من كل طبقة وإن كان المراد بها في الظاهر طبقات خاصة، فإن في طبقات الشافعية مثلًا ترجمة نظام الملك وزير ملك شاه وغيره. ولتاج الدين السبكي مؤلفات أخرى لا يهمنا ذكرها.

(٤) **زين الدين أبو يحيى زكريا الأنصاري (٩٢٦):** ولد في سنيكة، قرب القاهرة، وترقى في العلم حتى صار أستاذًا في القاهرة، ورأس القضاء الشافعي، ثم مرض ومات في المارستان سنة ٩٢٦، له كتب عديدة في الفقه وغيره منها: اللؤلؤ النظيم في روم التعلم والتعليم، ذكر فيه أصناف العلوم وحدودها في برلين، وله شروح عديدة.

الفقه الحنبلي

(١) **ابن تيمية (توفي سنة ٧٢٨):** يمتاز الفقه الحنبلي عن سواه — في هذا العصر — بظهور ابن تيمية، وهو تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني الإمام الشهير، كان أعظم علماء عصره في العلوم الإسلامية، ولد في حران سنة ٦٦١، وقد أصيب الشرق بهجوم المغول وسقطت بغداد في أيديهم وأخذ الناس يفرون من وجوههم، فانتقل به أبوه وهو طفل حتى أتى دمشق سنة ٦٦٧ وهي حافلة بالعلماء والمدارس، فأخذ في تلقي العلم على شيوخها وغيرهم، فبلغ عددهم ٢٠٠ شيخ، فاستوعب الحديث والفقه والخط والحساب والتفسير وهو ابن بضع عشرة سنة؛ لأنه كان ذكي الفؤاد قوي الحافظة، نشأ من صغره ميالًا إلى الزهد والتقشف. وكان قوي العارضة حاضر الحجة، تكلم وناظر وأفتى وهو في السابعة عشرة من عمره، وشرع في التأليف من ذلك الحين وتولى بعض المناصب وله ٢١ سنة، فبعد صيته في تفسير القرآن، وحج

سنة ٦٩١ ورجع وقد انتهت إليه الإمامة في العلم والعمل والزهد والورع وسائر المناقب الفاضلة مع ذوق في التصنيف وحسن الترتيب وجرأة أدبية في إبداء رأيه، فكان لا يهاب الموت في سبيل الحق حتى سموه محيي السنة وآخر المجتهدين وهو لم يتجاوز الثلاثين من عمره، وكان من مذهبه الموافقة بين المعقول والمنقول، وألف في ذلك كتابًا ضخمًا وأصبح لقوله تأثير في نفوس الناس وكثر أشياعه، وكان إذا مست الحاجة إلى تحريض الناس على الجهاد تصدر لاستحثاثهم، وقد فعل ذلك في جهاد المغول.

فلما اتسعت شهرته وفاق أقرانه مع ما هو عليه من استقلال الفكر والجرأة في القول، كثر مناظروه ومنافسوه فانتقدوا عليه أمورًا خالفهم فيها، فنازعهم ونازعوه وأبلغوا أمره إلى مقام السلطنة بمصر، وفازوا بما أرادوا، فنقل إلى مصر وعقد مجلس لمحاكمته ساعة وصوله حضره القضاة وأكابر الدولة فحكموا عليه وحبسوه في قلعة الجبل سنة ونصف سنة مع أخويه، ثم أخرجوه وعقدوا مجلسًا على خصومه ففاز عليهم، فتولى الإقراء فاتهمه بعضهم بالطعن على الاتحادية، فعادوا إلى مطالبته سنة ٧٠٧ ونفوه إلى الشام، ثم استرجعوه وحبسوه ثم أرسلوه إلى الإسكندرية حبسوه فيها ثمانية أشهر، وأخيرًا عاد إلى مصر واجتمع بالسلطان في مجلس حافل بالقضاة والأعيان والأمراء وقد رأوا براءته، فسألوه ماذا يفعلون بخصومه؟ فعفى عنهم. وأقام في القاهرة وعاد إلى نشر العلم، فعادت الفتنة، وتوجه إلى دمشق بعد أن غاب عنها سبع سنين وأكب فيها على التعليم والتأليف والإفتاء.

وعرضت في أثناء ذلك مسألة الإفتاء في الحلف بالطلاق بالثلاثة وهو يعتبرها كالحلف بالواحد. وأشار عليه أصحابه بترك الإفتاء بها على هذه الصورة فأبى، وجاء أمر السلطان بذلك أيضًا فلم يأبه وقال: «لا يسعني كتمان العلم»، فقبضوا عليه وحبسوه بالقلعة ستة أشهر، ثم أخرج فرجع إلى عادته وخصومه يناوئونه حتى ظفروا له بجواب يتعلق بمسألة شد الرحال إلى قبور الأنبياء والصالحين، فشنعوا عليه بسبب ذلك، وهو لا يرى تلك الزيارة واجبة بحسب الدين، وكبرت القضية فحجروا عليه في القلعة في قاعة خاصة ومعه أخوه يخدمه وهو عامل على التأليف والعبادة، فمنعوه من الكتابة وأخرجوا ما عنده من الكتب والحبر والورق، فكان ذلك عظيمًا عليه فمات سنة ٧٢٨. وكان لنعيه وقع عظيم، وتسابق الناس إلى اقتناء آثاره وبقايا ثيابه، وبلغت مصنفاته ٣٠٠ مجلد، أكثرها في التفسير والفقه وأصوله، بينها كثير من الردود والأجوبة والفتاوى والقواعد الدينية والجدلية، مثل تعارض العقل والنقل في ٤ مجلدات، والرد على الفلاسفة ٤ مجلدات،

وإثبات المعاد والرد على ابن سينا، والرد على الاتحادية والحلولية وعلى القدرية والجبرية والرافضة والإمامية وعلى ابن مطهر، وفي فضائل أبي بكر وعمر، وفي الاجتهاد والتقليد وتفضيل الإمام أحمد ونحوها، وهاك ما عرفناه منها:

(أ) فتاوى ابن تيمية: وفيها ما أفتى به، وعليه بُنيت شهرته، طبع بمصر سنة ١٣٢٦ في خمسة مجلدات.

(ب) منتقى الأخبار: شرحه الشوكاني المتوفى سنة ١٢٥٠ شرحًا سماه نيل الأوطار، طبع بمصر في سنة ١٢٩٧.

(ج) الإيمان: طبع في الهند سنة ١٣١٠.

(د) الجمع بين العقل والنقل: منه الجزء الرابع في الخزانة التيمورية.

(هـ) منهاج السنة النبوية في نقض الشيعة والقدرية، طبع بمصر سنة ١٣٢١.

(و) الفرقان بين أولياء الله وأولياء الشيطان: طبع بمصر سنة ١٣١٠.

(ز) الواسطة بين الحق والخلق: طبع بمصر سنة ١٣١٨.

(ح) الصارم المسلول على شاتم الرسول: طبع في حيدر آباد سنة ١٣٢٢ في ٦٠٠ صفحة.

(ط) مجموع الرسائل الكبرى: هي ٢٩ رسالة طبعت معًا بمصر سنة ١٣٢٣ (ترجمته في فوات الوفيات ٣٥ ج١، وطبقات الحفاظ ٦٨ ج٣).

(٢) **ابن قيم الجوزية (توفي سنة ٧٥١هـ):** هو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن قيم الجوزية الزرعي الدمشقي الحنبلي، ولد في دمشق سنة ٦٩١ وتفقه على ابن تيمية ورافقه إلى مصر. وله كتب كثيرة أكثرها في الجدل والردود ونحوها منها:

(أ) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية: ألفه باقتراح بعض الحكام في «هل يصح الحكم بالفراسة والقرائن إذا لم تتوفر الأدلة الشرعية؟»، ويتخلل ذلك فوائد تاريخية واجتماعية. منه نسخة في المكتبة الخديوية في ٤٢٨ صفحة وقد طبع بمصر سنة ١٣١٧.

(ب) شفاء الغليل في مسائل القضاء والقدر والحكم والتعليل: طبع بمصر سنة ١٣٢٣.

(ج) مفتاح دار السعادة: في التصوف، طبع بمصر سنة ١٣٢٣ في مجلدين.

(د) زاد المعاد في حج خير العباد: طبع بمصر سنة ١٣٢٣.

(هـ) اجتماع الجيوش الإسلامية لغزو المرجئة والجهمية: طبع في الهند.

(و) أخبار النساء: طبع بمصر سنة ١٣٠٧ ويشتمل على أخبار النساء وأوصافهن، وما يقال في التحذير منهم وغدرهن ونحو ذلك (الدرر الكامنة ج٣).

في القرآن وعلومه

(١) **البيضاوي:** نبغ في أواخر القرن السابع. هو عبد الله بن عمر البيضاوي تولى قضاء شيراز، ثم تبريز، وتوفي فيها نحو سنة ٦٨٥، له عدة مؤلفات أشهرها:

(أ) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، في التفسير، بناه على الكشاف للزمخشري وغيره، وهو رفيع المنزلة عند أهل السنة، طبع مرارًا، وشرحه كثيرون، يبلغ ما بقي من الشروح أو الحواشي نحو أربعين كتابًا لأحسن الأئمة والعلماء، وانتقده جماعة.

(ب) كتاب منهاج الوصول إلى علم الأصول، في برلين وباريس شرحه غير واحد.

(جـ) لب اللباب في علم الأعراب، في باريس.

(د) رسالة في موضوعات العلوم وتعريفها، في المكتبة الخديوية.

(هـ) نظام التواريخ، وفيه تاريخ الفرس والإسلام بالفارسية، من آدم إلى سنة ٦٧٤، في المتحف البريطاني.

(٢) **أبو حيان الغرناطي (٧٤٥):** هو محمد بن يوسف بن علي الغرناطي الجياني أثير الدين أصله بربري من قبيلة نفزة. ولد في غرناطة سنة ٦٥٤ ودرس في مالقة حتى برع في القرآن وعلومه، ورحل إلى مصر والحجاز والشام، وأقام في القاهرة ودرس على بهاء الدين النحاس وخلفه في تدريس النحو ثم علم الحديث في المنصورية والقراءة في الجامع الأقمر، وكان في بادئ الأمر ظاهريًّا، ولما جاء ابن اليتيمة لمصر مدحه ثم تغير. له من المؤلفات:

(أ) البحر المحيط في تفسير القرآن في أيا صوفيا ويني جامع وراغب باشا في عدة مجلدات.

(ب) تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب: في اللغة، في باريس.

(جـ) ارتشاف الضرب من لسان العرب، مطول في النحو، في المكتبة الخديوية في ١٢٧٠ صفحة كبيرة منقولة عن مكتبة عارف بك بالمدينة.

(د) اللمحة البدرية في علم العربية، لها شروح في المتحف البريطاني (فوات الوفيات ٢٨٢ ج٢).

(٣) **شمس الدين أبو الخير محمد بن الجزري القرشي الدمشقي:** كان من كبار الحفاظ وأصحاب القراءات، توفي سنة ٨٣٣، وكان معاصرًا لبيازيد السلطان العثماني ووقع سنة ٨٠٥ في قبضة تيمورلنك، فلما مات تيمور عاد إلى فارس وله مؤلفات عديدة يهمنا منها:

(أ) غاية النهاية في رجال القراءات أولي الرواية والدراية، رتبه على حروف المعجم، ابتدأ تأليفه سنة ٧٧٢ وانتهى سنة ٧٧٤ في دمشق، وكان مطولًا فاختصره بهذا الكتاب سنة ٧٨٣، وفرغ من تأليفه في القاهرة سنة ٧٩٥. منه نسخة خطية في المكتبة الخديوية في ٦٠٠ صفحة كبيرة.

(ب) النشر في القراءات العشر، مطول في علم القراءة والتجويد، منه نسخة في المكتبة الخديوية في نحو ألف صفحة.

(ج) المقدمة الجزرية، منظومة في التجويد مشهورة، طبعت بمصر مرارًا، وله مؤلفات أخرى ومنظومات أغضينا عن ذكرها. (طبقات الحفاظ ٨٥ ج٣).

الشيعة والزيدية

تكاثر المشتغلون في علوم القرآن من الشيعة في هذا العصر نذكر منهم:

(١) **حسن بن علي بن داود:** في أواخر القرن السابع، له: كتاب رجال الحديث من الشيعة منه نسخة خطية في الخزانة التيمورية مرتب على الأبجدية، وفيه أن المؤلف ولد سنة ٦٤٧، وعليه خط عبد القادر بن عمر البغدادي المتوفى سنة ١٠٨١ فهو معجم المحدثين من الشيعة.

(٢) **ابن المطهر الحلي (٧٢٦):** هو جمال الدين حسن بن يوسف تلميذ نصير الدين الطوسي ورئيس الإمامية في زمن السلطان خدابنده في العراق، وهو من كبار أئمة الشيعة. خلف مؤلفات عديدة في أصول مذهبه وأحكامه منها:

(أ) نظم البراهين في أصول الدين، مع شرح له اسمه معارج الفهم في شرح النظم، في برلين.

(ب) إرشاد الأذهان إلى أحكام الإمام في برلين. وغيرهما كثير في مكاتب أوربا وخصوصًا برلين، واشتهر من الزيدية في هذا العصر غير واحد من الأئمة الأعلام أشهرهم:

(٣) **أحمد بن يحيى بن المرتضى المهدي لدين الله:** في اليمن، توفي سنة ٨٤٠ في السجن بصنعاء، وله:

(أ) كتاب الأزهار في فقه الأئمة الأخيار، ألفه في السجن وشرحه شرحًا سماه «الغيث المدرار» منه نسخة في برلين وشرحه كثيرون.
(ب) البحر الزخار الجامع لمذاهب علماء الأمصار، في برلين وعليه شروح عديدة.

التصوف

(١) **تاج الدين بن عطاء الله الإسكندري الشاذلي:** كان من أكبر مقاومي ابن تيمية، توفي سنة ٧٠٩، وكان جامعًا لأنواع العلوم الإسلامية، وألف نحو عشرين كتابًا في مواضيع شتى منها:

(أ) الحكم العطائية نسبة إليه في أبحاث الصوفية، في برلين وباريس وفي المكتبة الخديوية في ٢٠ صفحة، عليها شروح أحدها للنفزي. طبع بمصر سنة ١٢٨٤ وسنة ١٣٠٦ وشروح أخرى.
(ب) تاج العروس وقمع النفوس في الوصايا، طبع مرارًا.
(جـ) لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس المرسي وشيخه أبي الحسن الشاذلي، في ترجمتهما وأبحاث صوفية، في برلين وغوطا وفي المكتبة الخديوية في ٦٠٨ صفحات.

(٢) **جمال الدين عبد الرازق الكلساني توفي سنة ٧٣٠:** له كتب عديدة يهمنا منها:

(أ) اصطلاحات الصوفية، وهو كتاب علمي لغوي رتبه على قسمين، الأول في المصطلحات على الأبجدية، والثاني في التفاريع منه نسخ في برلين وغوطا، ويعرف بمعجم عبد الرزاق للاصطلاحات الصوفية، طبع في كلكتة سنة ١٨٤٥ بعناية سبرنحر، ويعول عليه علماء أوربا في أبحاثهم الصوفية.
(ب) رسالة في القضاء والقدر، في برلين، وترجمت إلى الفرنساوية وطبعت سنة ١٨٧٥.

(٣) **عفيف الدين عبد الله بن أسعد اليافعي (٧٦٨):** نزيل الحرمين، له كتب كثيرة في التصوف لا محل لها هنا، يهمنا منها:

(أ) روض الرياحين، ويسمى أيضًا «نزهة العيون» فيه نحو ٥٠٠ حكاية تاريخية عن الصالحين من الصوفية وغيرهم، طبع بمصر سنة ١٣٠١ وغيرها.

(ب) أسنى المفاخر في مناقب الشيخ عبد القادر، في برلين.

(ج) مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان وتقلب أحوال الإنسان وتاريخ موت بعض مشاهير الأعيان، إلى سنة ٧٥٠ في فينا وباريس والمتحف البريطاني، وله مختصر اسمه «غربال الزمان» لأبي عبد الله الأهدل المتوفى سنة ٨٨٥ تقدم ذكره.

(٤) **قطب الدين عبد الكريم بن إبراهيم بن سبط عبد القادر الجيلي (الكيلاني) الصوفي، توفي سنة ٨٢٦:** له مؤلفات عديدة لا يزال باقيًا منها نحو ٢٠ كتابًا يهمنا منها:

(أ) الناموس الأعظم والناموس الأقدم، في ٤٠ مجلدًا منها أجزاء متفرقة في مكاتب أوربا وبضعة أجزاء في المكتبة الخديوية.

(ب) الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل، طبع بمصر سنة ١٣٠١ وسنة ١٣٠٤ وغيرها وله شروح.

(٥) **عبد الرحمن البسطامي الحنفي الحروفي:** ولد في أنطاكية وتعلم في القاهرة وقطن في بروسة، وتوفي فيها سنة ٨٥٨، له كتب عديدة يهمنا منها:

(أ) الفواتح المسكية في الفوائح المكية، هو موسوعة في نحو مائة علم لم يكملها، قدمها للسلطان مراد الثاني منها نسخ في فينا وليدن وليبسك والأسكوريال والمكتبة الخديوية.

(ب) الدرر في الحوادث والسير، تاريخ مختصر مرتب على السنين من وفاة النبي إلى سنة ٧٠٠، منه نسخة في ليدن اسمها «وفيات على ترتيب الأعوام» قدمه أيضًا للسلطان مراد في بروسة.

(ج) تراجم العلماء من صاحب كليلة ودمنة إلى الطبري والجوهري، في غوطا.

(د) مناهج التوسل في مباهج الترسل، مجموع لطائف أدبية، منه نسخة في المكتبة الخديوية في ٧٢ صفحة، وله كتب كثيرة في علم الحروف والجفر والأوفاق لا فائدة من ذكرها.

(٦) **ابن أبي بكر الجزولي السملالي:** من أهل المغرب، توفي في أواخر القرن التاسع، له: دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في ذكر الصلاة على المختار، وهو مشهور وله شروح مطبوعة مرارًا.

(٧) **محمد بن سليمان الكافيه جي توفي سنة ٨٧٩:** ولد في بلاد الروم وتعلم في تبريز والقاهرة، وله عشرات من كتب التفسير منها:

(أ) التيسير في علم التفسير: في المكتبة الخديوية.

(ب) تفسير آيات متشابهات في أيا صوفيا.

(٨) **أبو عبد الله محمد بن يوسف الحسني السنوسي الصوفي:** أقام في تلمسان متصوفًا وتوفي سنة ٨٩٢ وهو صاحب طريقة تعرف باسمه وله فيها:

(أ) كتاب عقيدة أهل التوحيد المخرجة من ظلمات الجهل وريقة التقليد، ويسمى أيضًا كتاب العقيدة الكبرى، في برلين وفي المكتبة الخديوية، ولها شروح ومختصرات في أهم مكاتب أوربا.

(ب) عقيدة أهل التوحيد الصغرى وتسمى أم البراهين، في برلين وغوطا وباريس والمتحف البريطاني وقد طبعت في العربية مع ترجمتها الألمانية، وتعليقات في ليبسك سنة ١٨٤٨ وترجمت إلى الفرنساوية بأمر حاكم الجزائر وطبعت مع الأصل العربي في الجزائر سنة ١٨٩٦ ولها شروح عديدة متفرقة في المكاتب الكبرى، وله كتب أخرى في المنطق والفلسفة والفرائض والعقائد والأصول وغيرها.

(٩) **شهاب الدين أحمد بن زروق البرنوسي البرلسي الفاسي، توفي سنة ٨٩٩:** له كتب عديدة في التصوف وبعضها في الطب.

العلوم الدخيلة

ظهر في هذا العصر طائفة من علماء الرياضيات والفلسفة والطب والنجوم وغيرها من العلوم الدخيلة، لكن أكثرهم بنوا على تأليف من تقدمهم، وإليك من يهمنا ذكرهم منهم باختصار:

في الطب

(١) **أبو الفرج بن القف المسيحي:** تلميذ ابن أبي أصيبعة، توفي في دمشق سنة ٦٨٥، وله:

(أ) كتاب العمدة في صناعة الجراح، في برلين وباريس وفي المكتبة الخديوية.
(ب) جامع الغرض في حفظ الصحة ودفع المرض، في المتحف البريطاني (طبقات الأطباء ٢٧٣ ج٢).

(٢) **عز الدين السويدي (٦٩٠):** له التذكرة الهادية، في باريس.
(٣) **علاء الدين بن النفيس توفي سنة ٦٩٦ له:**

(أ) المختار من الأغذية، في برلين.
(ب) موجز القانون، في برلين وغوطا.

(٤) **الجويني (أو الخويي) بن الكتبي:** ويعرف بابن الكبير (٧١١)، له: ما لا يسع الطبيب جهله، في مفردات الأدوية ومركبها، في المكتبة الخديوية.

(٥) **محمد القوصوي الطبيب:** ألف لأبي النصر قنصوه الغوري كتاب: كمال الفرحة في دفع السموم وحفظ الصحة، بإشارة منه، وفيه تفاصيل مفيدة عن معالجة السموم بعضها لم يأتِ العلم الحديث بأحسن منها، منه نسخة في المكتبة الخديوية في جملة كتب زكي باشا في ٢٤٦ صفحة.

في الفلسفة

(١) **نجم الدين الكاتبي القزويني:** ويعرف بدبيران توفي سنة ٦٧٥، له:

(أ) الرسالة الشمسية في القواعد المنطقية، في برلين، لها عدة شروح أحدها لقطب الدين الرازي التحتاني، طبع في كلكتة سنة ١٨١٥ وفي القاهرة وغيرها، وعلى هذا الشرح تعاليق وحواشٍ عديدة.

(ب) حكمة العين في الطبيعة وما فوقها، في المكتبة الخديوية، لها شرح طبع في كلكتة سنة ١٨٤٥ وله كتب أخرى في المنطق والطبيعيات.

(٢) **سراج الدين أبو الثناء الأرموي (٦٨٢):** له مطالع الأنوار في الحكمة والمنطق، بباريس والأسكوريال عليها شروح عدة منها لوامع المطامع في المكتبة الخديوية.

(٣) **برهان الدين النسفي (٦٨٧)، له:**

(أ) الفصول في علم الجدل، عليه شرح للخوارزمي في برلين.

(ب) المقدمة البرهانية في الخلاف، في بطرسبورج.

(٤) **شمس الدين بن شرف السمرقندي (٦٩٠)، له:**

(أ) آداب البحث في أكثر مكاتب أوربا، عليه شرح لقطب الدين الكيلاني، طبع في تشقند سنة ١٧٩٤.

(ب) قسطاس الميزان في المنطق، في برلين.

(٥) **عضد الدين الإيجي (٧٥٦) له:**

(أ) آداب البحث في المنطق، في برلين، عليه شروح عديدة.

(ب) المواقف في علم الكلام، عليها شروح للتفتازاني والجرجاني وغيرهما، تقدم ذكرها.

(ج) الشاهية في علم الأخلاق، في برلين والمكتبة الخديوية.

(د) العقائد العضدية، في المكتبة الخديوية، لها شرح للدواني، طبع في الأستانة سنة ١٨١٧ وغيرها.

(هـ) إشراق التواريخ، هو تاريخ الآباء الأولين والنبي والصحابة، نقله إلى التركية علي مصطفى جلبي المتوفى سنة ١٠٠٨ سماه «زبدة التواريخ»، في فينا.

في الرياضيات والنجوم

(١) **قطب الدين محمود الشيرازي:** تلميذ نصير الدين الطوسي، توفي في تبريز سنة ٧١٠ له: نهاية الإدراك في دراية الأفلاك، في برلين وغوطا وليدن وباريس وغيرها، وله في هذه المكاتب كتب أخرى في النجوم وما يتبعها.

(٢) **ابن البناء المراكشي (٧٢١)، له:**

(أ) تلخيص أعمال الحساب، اشتهر في عصره، منه نسخة في المكتبة الخديوية.

(ب) المناخ في معرفة أوائل الشهور، في المتحف البريطاني، وفي هذا المتحف كتب أخرى لابن البناء في الحساب والتوقيت وغيرهما.

(٣) **ابن الشاطر الموقت في الجامع الأموي (٧٧٧):** له الزيج المعروف باسمه، منه نسخة في برلين وباريس وأكسفورد، وله كتب عديدة في النجوم والجغرافية والرياضيات والجيوب في المكتبة الخديوية وغيرها.

(٤) **ابن الهائم الفرضي شهاب الدين (٨١٥)، له:**

(أ) مرشد الطالب إلى أسنى المطالب، في الحساب، في برلين وله شروح بعضها في المكتبة الخديوية.

(ب) المقنع في الجبر، منظوم في ٦٠ بيتًا في برلين وغوطا، وله كتب أخرى منها نسخ في المكتبة الخديوية.

(٥) **شهاب الدين بن طيبوغا القاهري (٨٥٠):** له خلاصة الأقوال في معرفة الوقت ورؤية الهلال، في ليدن وأكسفورد والمكتبة الخديوية، وله عدة مؤلفات في الهندسة والنجوم والتقويم والأزياج معظمها موجود في المكتبة الخديوية.

(٦) **بدر الدين محمد سبط المارديني الرياضي الشهير نحو سنة ٨٩١:** له تحفة الألباب في علم الحساب في برلين والمكتبة الخديوية، وله عدة مؤلفات هامة في الفرائض والهندسة والتوقيت والجيوب والمقطوعات والمقنطرات وغيرها من أبواب الهندسة العالية منها نسخ خطية في مكاتب أوربا والمكتبة الخديوية.

في الطبيعيات والصناعة

(١) **عبد الرحمن بن داود الأندلسي:** له نزهة النفوس والأفكار في معرفة النبات والأحجار، هو معجم للنبات والأحجار والمواد الطبية فيه وصف علمي وباب للحشرات، منه نسخة خطية في الخزانة التيمورية، كتبت سنة ٨٤٨ في ٤٤٧ صفحة.

(٢) وفي الخزانة المذكورة كتاب اسمه «سر الأسرار في معرفة الجواهر والأحجار»: لم يذكر عليه اسم المؤلف، في نحو ٨٠ صفحة، يصف بها الحجارة الكريمة من حيث تأثيرها في الأمزجة وخصائصها الطبيعية.

(٣) **طيبوغا الجركسي من أهل القرن الثامن:** له كتاب الفلاحة، وهو نفيس في فن الزراعة وشروطها على رأي القدماء، ويشتمل على فوائد عملية تنفع أهل هذا الزمان، منه نسخة في المكتبة الخديوية في ٢٢٨ صفحة.

(٤) **كتاب أزهار الأفكار في جواهر الأحجار:** في وصف الأحجار الكريمة كالياقوت واللؤلؤ والزمرد وغيرها، وخصائص كل منها، ومحل وجوده، وأصل اسمه العربي، وما هو معدنه، وكيف يتكون وما هو جيده ورديئه علميًّا وأدبيًّا، يوجد في المكتبة الخديوية في جملة كتب زكي باشا في ٧٤ صفحة منقولة عن مكتبة طوبقبو بالأستانة، ليس عليه اسم المؤلف.

(٥) **رضوان بن محمد الخراساني:** له كتاب علم الساعات والعمل بها، صدره بمقدمة ذكر فيها ما بعثه على تأليف هذا الكتاب قال: إن والده كان يتولى إصلاح ساعات دمشق، فلما توفي انتدبوا رجلًا اسمه ابن النقاش لإصلاحها فأفسدها، ثم عهد أمرها إلى المؤلف فأصلحها. وفيها ساعة شمسية كبيرة تمثلت فيها الشمس والسيارات، فألف

هذا الكتاب في علم الساعات بالتفصيل والدقة وصوَّر كل قطعة منها وسماها باسمها ووصف مكانها وعملها، وهي كثيرة جدًّا يمكن الاستعانة بها في استخراج مسميات اصطلاحية صناعية لتعريف الآلات الحديثة، ويدلنا هذا الكتاب على تركيب ساعات تلك الأيام مما نقرأ عنه في كتب الرحلة أو التاريخ، منه نسخة في المكتبة الخديوية في جملة كتب زكي باشا منقولة من مكتبة كوبرلي في ١١٥ صفحة.

(٦) **أبو العز بن إسماعيل بن الرزاز الجزري:** له كتاب الحيل أو الجامع بين العلم والعمل، ألفه للملك الصالح أبي الفتح محمد بن قرا أرسلان من آل ارتق بديار بكر في النصف الثاني من القرن الثامن، بعد أن خدم أباه وأخاه ٢٥ سنة، وكان المؤلف مغرمًا بالميكانيكيات (الحيل) والرياضيات فألف هذا الكتاب فيهما أكثر فيه من الرسوم لشرح الآلات وأجزائها، وفيها البنكام يعرف به ما مضى من ساعات النهار وآلات الرفع للماء وآلات سرية تظهر حركات مدهشة كأن يريك رجلًا يمشي أو يتحرك أو يدق الساعة وهو من خشب أو حديد تحركه آلات مخفية، منه نسخة في المكتبة الخديوية في جملة كتب زكي باشا في ٣٢٦ صفحة كبيرة منقولة من مكاتب الأستانة فيها أكثر من مائة رسم هندسي وميكانيكي، ويتخلل ذلك مصطلحات صناعية يحتاج إليها الراغبون في الأوضاع العلمية الجديدة للتعبير عن أجزاء الآلات الحديثة.

(٧) **الباهر في عجائب الحيل:** ويقال له: كتاب الباهر في النارنجات للكشف عن حيل بعض المشعوذين كإدخال البيضة في الزجاجة أو إلقائها في النار ولا تحترق وإخفاء الخواتم وألعاب الأقداح ونحو ذلك، منها نسخة في المكتبة الخديوية في جملة كتب زكي باشا في ٨٩ صفحة ليس عليها اسم المؤلف.

في علم الحيوان

أشهر كُتاب هذا الموضوع في هذا العصر:

كمال الدين محمد بن عيسى الدميري: المتوفى بالقاهرة سنة ٨٠٨ له: كتاب حياة الحيوان الكبرى: هو معجم في علم الحيوان مرتب على أسماء الحيوانات، وقد توسع في وصف كل حيوان وأصل اسمه وما جاء من الحديث أو الأشعار أو الأمثال بشأنه وخصائصه الطبية وتفسيره في الأحلام، وإذا عرض في أثناء الكلام أسماء بعض المشاهير أتى بأخبارهم أو تراجمهم. وبين الحقائق التاريخية التي حواها هذا الكتاب ما يعسر

الوقوف عليه في سواه. وفيه تراجم نخبة من الشعراء والأدباء والعلماء والفلاسفة، وأخبار عدة من خلفاء بني أمية والراشدين وغيرهم. طبع بمصر مرارًا في مجلدين كبيرين، وقد ترجم إلى الإنكليزية، وظهر من الترجمة مجلدان كبيران يقابلان الجزء الأول من المطبعة العربية، ولا يزال العمل جاريًا، وترجم أيضًا إلى التركية وطبع في الأستانة سنة ١٢٧٢، وله مختصر اسمه «حياة الحيوان الوسطى» منه نسخة في برلين وغوطا وباريس.

وقد اختصره كثيرون منهم الدماميني وسمى مختصره «عين الحياة» في برلين، ومختصر لابن قاضي شهبة في أكسفورد، ومختصر للسيوطي اسمه ديوان الحيوان تقدم ذكره، ومختصر لمحمد بن عبد القادر الدميري اسمه «حاوي الحسان» في باريس، وقد لخصه في الفارسية ابن تقي الدين التبريزي للشاه عباس، وللدميري أيضًا شرح منهاج النووي وملخص شرح الصفدي للامية العجم في المكتبة الخديوية.

العلوم الحربية والصيد والألعاب ونحوها

ومن العلوم التي نضجت في هذا العصر فنون الحركات العسكرية أو علم الحرب والصيد والفروسية وغيرها، ونبغ فيها غير واحد خلفوا آثارًا حسنة منهم:

(١) **الأمير لاجين بن عبد الله الذهبي الحسامي الطرابلسي (٧٣٨):** له تحفة المجاهدين في العمل بالميادين، في الحركات العسكرية، وينسب أيضًا لابنه محمد الآتي ذكره، منه نسخة في برلين.

(٢) **عماد الدين موسى بن محمد اليوسفي المصري (٧٥٩):** أحد مقدمي الحلقة المنصورة، له: كتاب كشف الكروب في معرفة الحروب، ألفه للسلطان الملك الظاهر جقمق في فن الحرب ونظام الجند، رتبه على عشرة أبواب:

(أ) وقوف السلطان.
(ب) الدخول في الحرب والخروج منها.
(جـ) ما يستعان به عليها.
(د) ما يحتاج إليه السلطان من الفراسة لانتقاء الرجال.
(هـ) من نفع أستاذه في الحرب وفداه بنفسه.
(و) تجنب العجب والبغي، والعمل بالوفاء.
(ز) من أصلى الحرب بنفسه.

(ح) فضل الحيل وافتخار الخلفاء والملوك بها.

(ط) ما قاله الشعراء في الشجاعة.

(ي) فضل الحصار والدخول والغارة.

فالكتاب يبين طرقهم العسكرية وأسلحتهم، منه نسخة في المكتبة الخديوية، كتبت لخزانة جقمق في خمسين صفحة مزدوجة الحجم.

(٣) **بدر الدين بكتوت الرماح الخازنداري:** نائب الإسكندرية سنة ٧٧١، له: كتاب الفروسية في المتحف البريطاني.

(٤) **محمد بن منكلي:** نقيب الجيش في زمن الأشرف شعبان سلطان مصر سنة ٧٦٤–٧٧٨ له:

(أ) كتاب الأحكام الملوكية والضوابط الناموسية، في فن القتال، قسمه إلى ١٢٢ بابًا في السفن الحربية وآلاتها وحركاتها والرمي بالمدافع والزراقات ويتخلل ذلك خرافات كثيرة، منه نسخة في الخزانة التيمورية ناقصة من آخرها بحيث ينتهي الكلام فيها إلى الباب ١١٠، ولهذا المؤلف كتاب آخر في هذا الفن ذكره في أثناء هذا الكتاب اسمه «التدبيرات السلطانية في سياسة الصنائع الحربية» ألفه للأشرف شعبان لم نقف عليه.

(ب) أنس الملا بوحش الفلا، في الصيد في باريس.

(٥) **تعبئة الجيوش:** وقف المستشرق وستنفيلد على مجموعة خطية في مكتبة غوطا فيها قطعة عربية كبيرة تبحث في تعبئة الجيوش والحركات العسكرية في الحروب هي عبارة عن ثلاثة فصول من كتاب الحركات العسكرية لإليانوس ليس عليه اسم واضعه في العربية، ولكن يظهر أنه من أهل النصف الأول من القرن الثامن للهجرة، وعني وستنفيلد بنشر هذه القطعة مع ترجمتها الألمانية في غوتنجن سنة ١٨٨٠ ويشتمل الأصل العربي على التعليم الثامن في عقد الجيوش، وجمعها وولائها وأمرائها وتنظيم المعسكر وترتيبه ومنزلة كل قسم في مكانه منه، والتعليم التاسع في تعبئة الأمير للصفوف في القتال، وفصول في الصفوف وأسمائها وأعدادها والعمل بالسيوف وأنواعها على اختلاف أصولها وغير ذلك في ٣٢ صفحة كبيرة موضحة بالأشكال الحربية من تنظيم الجند في مربعات أو أهلة أو مثلثات أو دوائر، ومن جملة ذلك صورة المعسكر الكامل في تعبئته (انظر صورته شكل ١).

(٦) طيبوغا الأشرفي البكلميشي اليوناني (٧٧٠)، له:

(أ) الجهاد والفروسية وفنون الآداب الحربية، وهو مطول في علم ركوب الخيل ولا سيما في الحرب منذ يعتلي الفارس صهوة الجواد حتى يتحول عنه، وفيه فوائد جزيلة عن الأسلحة بالنسبة إلى الفارس، وقد أفرد فصلًا خاصًّا لكل جزء من أجزاء السرج كالعنان والركاب والمقرعة وكيف يعتلي الفارس متن الفرس، وكيف ينقل الرمح بيديه، وفي الميادين والجري فيها والحيل الحربية ونصب الميادين على أشكالها، وقد وضع للميادين رسومًا هندسية ودل بالخطوط على طرق الأفراس باختلاف ضروب السباق أو طرق الهجوم، فمنها الميدان المستدير والمربع والمستطيل ولها أسماء تعرف بها كقولهم: «ميدان الكلابين المشقوقة المقلوبة» و«ميدان المقابلة»، وجملتها ١١ ميدانًا وهناك تفاصيل لضروب الحرب من الكر والفر، ورسم له شكلًا خاصًّا كبيرًا أوضح فيه طريقته وكيفية جولان الفرسان في ساحة الحرب، وقس على ذلك سائر ضروب الفروسية ورمي النشاب ولعب السيف والرمح وغيرها، منه نسخة في المكتبة الخديوية في ٢١٤ صفحة كبيرة.

(ب) كتاب بغية المرام وغاية الغرام، قصيدة في رمي السهام، قدمها للسلطان الملك الأشرف، في ليدن.

(جـ) غنية الطلاب في معرفة الرمح والنشاب، في غوطا وباريس والمكتبة الخديوية.

(٧) **الملك المجاهد علي بن داود الرسولي في أواسط القرن الثامن:** له الأقوال الكافية في الفصول الشافية في المتحف البريطاني.

(٨) محمد بن لاجين الحسامي الطرابلسي الرماح (٧٨٠)، له:

(أ) بغية القاصدين في العمل بالميادين في الفروسية ألفه للأمير سيف الدين الماريديني صاحب حلب، في ليدن.

(ب) غاية المقصود من العلم والعمل بالبنود، بباريس.

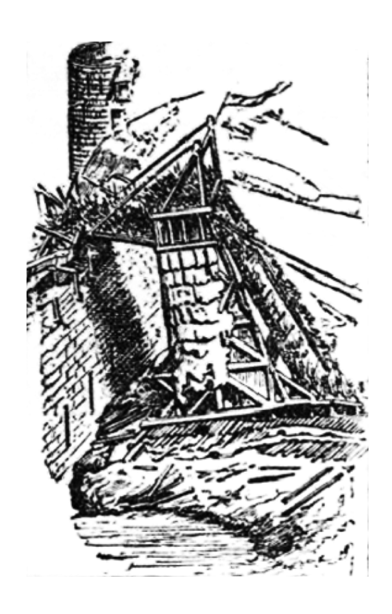
(جـ) كتاب في الرماح وغيرها، في ليدن.

(٩) **رمي القوس:** كتاب في تعليم رمي القوس والنشاب وسبب رميه وتعليمه بشواهد من الكتاب والسنة، لم يذكر عليه اسم المؤلف.

منه نسخة في المكتبة الخديوية تاريخ كتابتها سنة ٨٠٠ في ١٣٦ صفحة بخط جميل لمحمد بن محمود الكماخي، بدأه المؤلف بإثبات وجوب الرمي بالنشاب وأنه فرض

شكل ١: معسكر المسلمين في أكمل نظامه في القرن الثامن للهجرة.

على المسلمين، ثم وصف السهام وأطوالها وشروطها في قصيدة شرح فيها ما ينبغي شرحه بطريقة علمية فنية من الرمي وما يتفرع إليه وأنواع القسي على اختلاف المواقف.



شكل ٢: آله الهجوم على القلاع المحاصرة.

(١٠) **خزانة السلاح:** كتاب في وصف السلاح لم يذكر عليه اسم مؤلفه، لكنه ألفه بإشارة السلطان محمد شاه بن السلطان مظفر شاه، فرغ من تأليفه سنة ٨٤٠ وصف به السلاح وصفًا شعريًّا منه نسخة في المكتبة الخديوية في ٤٢ صفحة.

(١١) **الأنيق في المجانيق:** تأليف ابن ارنبغا الزردكاش سنة ٨٦٧ وصف به أنواع المجانيق، وكيف يرمى بها على اختلاف أنواعها وأوضح ذلك بالأشكال التفصيلية، أعني أنه وصف كل نوع من المجانيق وصوَّره وصور كل جزء منه، ولكل قطعة اسم عربي نرى كتابنا اليوم في حيرة عند نقل وصف الآلات الحديثة فلا يعثرون على مسميات لها، وفي هذا الكتاب كثير من هذه المصطلحات، منها نسخة في المكتبة الخديوية في جملة كتب زكي باشا في ١٠٩ صفحات أكثرها رسوم ميكانيكية للمجانيق وأجزائها وصور القلاع وأماكن وضع المجانيق فيها، ووصف سقي السيوف وسائر الآلات القاطعة، ألفه لشمس العلاء منكلي بغا الشمسي، وبينها رسوم مجانيق نشرت في الهلال، وربما بلغت الرسوم التي فيه نحو خمسمائة رسم.

(١٢) **السؤال والمنية في تعليم الفروسية:** فيه صور ملونة، منه نسخة في المكتبة الخديوية كتبت سنة ٨٠١هـ ناقصة من أولها.

(١٣) **الفتوة:** ومن الكتب التي قد تدخل تحت هذا الباب رسالة في الفتوة لصفي الدين إدريس بن بيدكين بن عبد الله التركماني من تلاميذ ابن تيمية اسمها «الحجة والبرهان على فتيان هذا الزمان» ينتقدهم فيها، منها نسخة في الخزانة التيمورية في ١٦ صفحة، وفي مجموعة هناك صورة عهد الفتوة الذي كانوا يعطونه للمريدين.

(١٤) **عبد اللطيف بن الملك الكرماني (٨٥٠):** له منية الصيادين في أيا صوفيا.

(١٥) **الدر المطابق في علم السوابق:** يشتمل على أوصاف الخيل وتضميرها ومعالجتها وكل ما يتعلق بها كل عضو على حدة وخصائصه وأمراضه وعلاجه، أصله مؤلف في الأرمنية نقلًا عن مؤلفات العرب ونقل إلى العربية، منه نسخة في المكتبة الخديوية من جملة كتب زكي باشا غير كاملة.

(١٦) **الشطرنج:** ومن هذا القبيل أو نحوه كتاب الشطرنج في الخزانة التيمورية ليس عليه اسم المؤلف ولا تاريخ عصره، ويبحث في أصل لعبة الشطرنج وتاريخها وسبب وضعها، وكيفية اللعب بها، وفيه صور عديدة لرقعة الشطرنج على اختلاف مواقع أحجارها.

(١٧) **أبو بكر الحلبي المنقار (٩٢٠):** له أرجوزة في رمي السهام عن القسي العربية اسمها «الأرجوزة الحلبية» في ٤٠٠ بيت، في برلين.

(١٨) **ابن عبد الجبار الفجيجي (٩٢٠):** له الفريد في تقييد الشريد وترصيد الوليد قصيدة في ٢١٣ بيتًا في الصيد مع شرحها، في برلين وباريس ومنشن.

السياسة والإدارة

ظهرت في هذا العصر كتب كثيرة تدخل في باب السياسة والإدارة، نعني التي تبحث في واجبات الخلفاء والسلاطين والأمراء من حيث تدبير المملكة أو معاملة الرعية أو نحو ذلك، وقد جاء ذكر بعضها في أماكنها في جملة مؤلفات أخرى، وهاك سائرها:

(١) **نجم الدين أحمد بن محمد بن علي بن الرفعة المصري الشافعي:** محتسب القاهرة ولد سنة ٦٤٥ وتوفي سنة ٧١٠، له:

(أ) كتاب بذل النصائح الشرعية فيما على السلطان وولاة الأمور وسائر الرعية، في غوطا، وله ذيل بهذا الاسم لمحب الدين المقدسي في أواسط القرن التاسع، منه نسخة في برلين.

(ب) الإيضاح والتبيان في معرفة المكيال والميزان، في المكتبة الخديوية.

(٢) **حسن بن عبد الله العباسي نسبة إلى بني العباس:** ألف للملك المظفر السلطان بيبرس المنصوري صاحب مصر سنة ٧٠٨ كتاب: آثار الأول في تدبير الدول، رتبه على أربعة أقسام:

(أ) في الضوابط والأصول وقواعد المملكة.

(ب) في أحوال الملك في ذاته مع خواصه وخدمه.

(ج) الأمور المختصة بالملك وخواصه وحاشيته.

(د) في الحروب وشروطها وما يتعلق بها برًّا وبحرًا.

وفي الكتاب فوائد سياسية واجتماعية وإدارية هامة، طبع بمصر سنة ١٢٩٥.

(٣) **إبراهيم بن عبد الواحد بن أبي النور:** في النصف الأول من القرن الثامن له: كتاب سياسة الأمراء وولاة الجند، ويتضمن ثلاثة عهود، ألفه للمتوكل على الله الحفصي، منه نسخة في الأسكوريال.

(٤) **أحمد بن محمود الجبلي الأصفهبذي:** كتب سنة ٧٢٩ كتاب منهاج الوزراء في النصيحة، منه نسخة في أيا صوفيا.

(٥) **أبو حمو موسى بن يوسف بن زيان العبد وادي:** أمير الجزائر في أوائل النصف الثاني من القرن الثامن، له: كتاب واسطة السلوك في سياسة الملوك، طبع في تونس سنة ١٢٧٩ وفي الأستانة سنة ١٢٩٥.

(٦) **محاسن الملوك:** كتبه أحد أدباء القرن الثامن للهجرة للسلطان برقوق أحد سلاطين المماليك، ضمنه أبحاثًا في السلطان والآداب المستعملة في خدمته كالوقوف ببابه والدخول عليه وما يقتضيه ذلك من الآداب المصطلح عليها، وكيف يجب على السلطان أن يتعهد رعيته ويراعي مجالسيه وكيف يخاطبونه ويواكلونه ويحادثونه وغير ذلك، وأتى بالأمثلة والشواهد من أول الإسلام إلى زمنه سنة ٧٩٥ منه نسخة في جملة كتب زكي باشا منقولة عن مكتبة طوبقبو مع كتاب آخر اسمه «رسل الملوك» لأبي علي الحسين بن محمد المعروف بابن الفراء في ٥٥ صفحة تبحث في إرسال رسل الملك وشروطه.

(٧) **محمود بن إسماعيل الجيزي نحو سنة ٨٤٥:** له الدرة الغراء في نصائح الملوك والولاة والوزراء، ألفه لأبي سعيد جقمق في عشرة أبواب، منه نسخة في مكتبة فلايشر.

(٨) **غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري:** ولد سنة ٨١٣ وتولى حكومة الإسكندرية ثم صار أميرًا للحاج سنة ٨٤٠، وتولى أيضًا إمارة الكرك وصفد وغيرها، وتوفي سنة ٨٧٢، له: كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، جعله في أبواب:

(أ) ما في مصر من العمارات والمزارات والمدن.

(ب) وصف السلطان وما يتحلى به من المناقب وما له من المواكب والملابس.

(ج) وصف الخليفة وأحواله وقضاة القضاة.

(د) الصاحب الوزير والسادة والمباشرين وما يتعلق بكل ديوان وكتابه مثل الإنشاء والجيش وسائر الدواوين.

(ﻫ) أولاد الملوك ونظام الملك ونائب السلطنة والأمراء والمقدمين على اختلاف طبقاتهم.

(و) أرباب الوظائف الملكية والأجناد وطبقاتهم.

(ز) الدور الشريفة وما يتعلق بها من الخدم والخزائن والأسلحة.

(ح) المطابخ والإسطبلات وما يتبعها.

(ط) الممالك الشريفة وهي ثمان.

(ي) وصف أمراء العرب ومشايخهم وأمراء التركمان والأكراد.

(ك) بعض الحوادث، فهو كتاب سياسي اجتماعي إداري، منه نسخة في المكتبة الخديوية، وطبع في باريس سنة ١٨٩٤.

(٩) **توغان المحمدي الأشرفي (٨٨٠) له:**

(أ) البرهان في فضل السلطان، في برلين.

(ب) منهج السلوك في سيرة الملوك، في أيا صوفيا.

(ج) المقدمة السلطانية في السياسة الشرعية، في المكتبة الخديوية.

(١٠) **عبد الصمد بن يحيى بن أحمد بن يحيى الصالحي:** له هدية العبد القاصر إلى السلطان الملك الناصر محمد بن الملك الأشرف قايتباي، ذكر فيه مآثر هذا السلطان في عمارة المساجد وغيرها، وقسمه إلى فصول تشتمل على النظر في أحوال الرعية والجواب على القصص (العرائض) التي تقدم إلى السلطان وواجبات الولاة والعمال والنظر في أمر

المساجد والقلاع والحصون والجسور وصرف أموال بيت المال، وفيه قواعد للعمل بها، منه نسخة في مائة صفحة في جملة كتب زكي باشا في المكتبة الخديوية.

(١١) **كوكب الملك وموكب الترك:** في غوطا، ليس عليه اسم المؤلف.

(١٢) **الإبريز المسبوك في كيفية أدب الملوك:** لمحمد بن علي الأصبحي، ألفه سنة ٨٨٣ منه نسخة في الجزائر.

في الأطعمة

ومن الكتب النادرة المثال في ذلك العهد «كتاب الأطعمة» أي: صناعة الأطعمة على اختلاف أجناسها وآداب الطباخ، وفيه تفصيل في اصطناع أطعمتهم التي نقرأ أسماءها في كتبهم ولا نفهم ماهيتها، وفي هذا الكتاب وصف كاف لها وكيف تُصنع ومنافعها، منه نسخة في جملة كتب زكي باشا في ٣٥٤ صفحة منقولة عن مكتبة طوبقبو بالأستانة وليس عليها اسم المؤلف.

الفنون الجميلة

(١) الموسيقى

أهم الفنون الجميلة الشعر والموسيقى والتصوير، وقد أفضنا في وصف الشعر في أبوابه، وتكلمنا عن الموسيقى في الجزء الثاني من هذا الكتاب [انظر العصر العباسي الأول – الموسيقى أو الغناء، العصر العباسي الثالث – الفنون الجميلة] ولم يحدث فيها بعد ذلك ما يستحق الذكر؛ لأن الذين ألفوا في الموسيقى العربية بعد ذلك نسجوا على منوال المتقدمين وقل من تخصص لهذا النوع من الفنون الجميلة من وجهته العلمية، وألف فيه كما فعل صاحب الأغاني وغيره، وإنما أصبح التأليف فيه ينطوي تحت المواضيع الأخرى ولا سيما في الموسوعات الشاملة لعلوم مختلفة كما تراه في مكانه.

وقد وقفنا في المكتبة الخديوية على كتاب اسمه «حاوي الفنون وسلوة المحزون» لأبي الحسن محمد بن الحسن المعروف بابن الطحان في ٢٢٢ صفحة، خط قديم يشتمل على ثمانين بابًا في الموسيقى، وما قيل فيها قديمًا من وضع الألحان وضروب الغناء وتاريخ المغنين في الجاهلية والإسلام، ومن أول من غنى في الإسلام من الرجال والنساء وأول من دون الغناء وضروب التلحين، وأنواع الحلوق ومعالجتها حتى تصح أصواتها طبيًّا وجراحيًّا، وفي تقدير الألحان وترتيبها حسب درجاتها وأشكالها من التغريد فالترخيم فالترجيع ونحو ذلك، وذكر المغنين والمغنيات في الدولة الأموية والعباسية والإخشيدية والعلوية، والمغنين من أولاد الخلفاء والطنبوريين والطنبوريات والرخصة في الغناء وغير ذلك، وهو عظيم الأهمية لولا سقم هذه النسخة ونقصها.

وكتاب اسمه «كشف الهموم والكرب في شرح آلة الطرب» ألفها صاحبها لسيف الدين أبي بكر بن المقر منكلي بغا الفخري. شرح فيها آلات الطرب وكيفية صنعها وما

أباح الشرع منها، في المكتبة الخديوية نسخة منها في جملة كتب زكي باشا في ٣٧٢ صفحة.

ومن هذا القبيل كتاب مجموع الأغاني والألحان من كلام أهل الأندلس الذي وصفناه في هذا الكتاب [انظر العصر المغولي: الشعر – سائر الأدباء في هذا العصر].

(٢) التصوير

والتصوير قديم في آداب الأمم سابق للكتابة، وكانت الكتابة في أصل نشأتها صورًا ثم تدرجت في الارتقاء حتى صارت حروفًا هجائية، وظل الناس بعد تكونها يستخدمون الصور لتمثيل عاداتهم ومعتقداتهم ينقشون ذلك على أبنيتهم أو يصورونه بالألوان، وفي وادي النيل ألوف من هذه الأمثلة؛ لأن المصريين القدماء من أكثر الناس تصويرًا لعاداتهم وحوادثهم وكذلك اليونان والرومان والفرس وغيرهم، وما من أمة عظيمة لم تخلف آثارًا مصورة تعبر بها عن أحوالها الاجتماعية أو الدينية أو السياسية، حتى العرب الجاهلية فإن في آثارهم باليمن نقوشًا تدل على بعض عاداتهم ومعتقداتهم، وفي الشكل ٨ صورة يمني ذاهب ليضحي للأوثان.

أما بعد الإسلام فأصبح العرب من أبعد الأمم عن التصوير؛ لأنه كان مكروهًا عند المسلمين، ويعده بضعهم محرمًا أو هو على الأقل غير مستحب، وقد اختلف الأئمة في درجة تحريمه فقالت طائفة: بتحريم النحت وصنع التماثيل فقط وتحليل الصور أو الرسوم، وذهب آخرون إلى تحريمه على الإطلاق، وفي كل حال كان التصوير من الفنون المهملة في الإسلام رغم ما كان يحيط بالمسلمين من أسباب الترغيب فيه عند الفرس والروم والهند وغيرهم.

على أنهم لم يكونوا يستنكفون من اقتناء الأثاث المزركش وعليه الرسوم من صنع تلك الأمم، وقد اقتنوا الرياش وعليه صور الناس والبهائم، ومن جملة ذلك أبسطة عليها صور وقائع إسلامية. ذكر المسعودي أنه كان في دار الخلافة العباسية في أيام المنتصر المتوفى سنة ٢٤٨هـ بساط عليه صور ملوك في جملتهم يزيد بن الوليد بن عبد الملك وشيرويه بن أبرويز، وناهيك ببساط أم المستعين وما عليه من الصور المرصعة، غير ما كانوا يستخدمونه من الآنية المصورة كالأقداح عليها الصور الملونة تمثل الوقائع أو العادات، فكان المسلمون يقتنون الأثاث والرياش عليها صور الآدميين إذا صورها سواهم.



شكل ١: يمني ذاهب للتضحية.

أما اشتغال المسلمين أنفسهم بالتصوير فكان المظنون أنهم لم يحفلوا به مطلقًا، ثم تبين بتفقد الآثار ومراجعة المخطوطات القديمة أنهم اشتغلوا فيه بعض الشيء؛ ولذلك تاريخ لا بأس من إيراده بالاختصار.

يقسم التصوير من حيث ما نحن فيه إلى عدة أقسام أهمها اثنان:

(١) التصوير على الأحجار وغيرها من الآثار البنائية.

(٢) التصوير في الكتب ونحوها، فلنتكلم عن كل منها على حدة:

أولًا: التصوير على الآثار

فالتصوير على الآثار البنائية إما أن يكون نحتًا ويدخل فيه التماثيل وسائر المنحوتات والنقوش على الجدران، أو أن يكون رسمًا بالألوان، فالمسلمون لم يظهر حتى الآن أنهم نحتوا تمثالًا ولا نقشوا صورًا آدمية مجسمة على جدران قصورهم أو مساجدهم تمثل أناسًا، إلا ما رواه الدكتور هرسفيلد الآتي ذكره عن الصور البارزة في آثار سامرَّا ونحن في ريب من أمرها، لكنهم اصطنعوا تماثيل بعض الحيوانات أو الفرسان في إبان حضارتهم في بغداد وقرطبة وطليطلة وغرناطة وإشبيلية قلدوا بها الفرس والروم على سبيل الزينة، كذلك فعل المقتدر بالله العباسي في أول القرن الرابع للهجرة بداره التي عرفت بدار الشجرة لشجرة كان على أغصانها الذهبية تماثيل الطيور وبجانبها الفرسان على أفراسهم،[١] وكان الأمين قبله قد اصطنع السفن على أشكال الحيوانات ولم ير في ذلك بأسًا، وهكذا فعل الخليفة الناصر في الزهراء بما أقامه في قصورها من تماثيل الذهب الأحمر يمثل بها بعض أنواع الحيوان، ولا سيما الأسود والغزلان والثعابين والطيور على اختلاف أشكالها، وقس على ذلك قصر إشبيلية وقصور الحمراء في غرناطة وقصور بني طولون في القطائع وأبنية الفاطميين بالقاهرة، وقد جاء في أخبار الفاطميين ما يؤخذ منه أنهم كانوا يتخذون تماثيل الأفيال ونحوها من العنبر أو الذهب على سبيل التبسط بالرخاء والتفاخر بالثروة.

أما التصوير على الأبنية بالألوان فقد كان المظنون أن المسلمين لم يتعاطوه في إبان تمدنهم حتى اطلعنا على تنقيب الدكتور هرسفيلد في سامرَّا ولا سيما الجامع الأعظم الذي بناه المتوكل على الله، فقد ذكر هذا الدكتور أنه وجد على جدرانه نقوشًا مطبوعة وتصاوير ملونة وفسيفساء، وأنه وجد في جملة تنقيبه غرفًا وردهات زينت على جدرانها بتصاوير شرقية محفوظة أحسن حفظ، وفيها صور بارزة بالجص بينها صور أناس على أبدع مثال[٢] والراجح أن هذه الرسوم من صنع القرن الثالث للهجرة عند بناء سامرَّا؛ لأن هذه المدينة أهملت في زمن المعتضد بالله المتوفى سنة ٢٨٩هـ، وخربت من ذلك الحين وغشيها التراب حتى أخذ أهل هذا العصر بالتنقيب عن أطلالها.

وفي أخبار الفاطميين كثير من الأبسطة والستائر المطرزة بينها ستور من الحرير منسوجة بالذهب فيها صور الدول وملوكها والمشاهير فيها، وعلى صورة كل واحد اسمه ومدة أيامه وشرح حاله، فإن قيل: إنها ستائر مجلوبة من الخارج لم يأمر الفاطميون برسمها أو أنها لم ترسم في خلافتهم ففي أخبارهم أن الآمر بأحكام الله لما بنى المنظرة

على بركة الحبش جعل فيها دكة من خشب مدهونة فيها طاقات تشرف على خضرة البركة صور فيها كل شاعر وبلده، واستدعى من كل واحد منهم قطعة من الشعر في المدح كتبها عند رأس ذلك الشاعر، وبجانب صورة كل شاعر رف لطيف مذهب، فلما دخل الآمر وقرأ الأشعار أمر أن يحط على كل رف صرة مختومة فيها خمسون دينارًا وأن يدخل كل شاعر ويأخذ صرته.



شكل ٢: مجلس القضاة في غرناطة، نقلًا عن أطلال الحمراء.

فالصور التي رآها هرسفيلد على أنقاض سامرًّا هي أقدم ما وقفوا عليه من آثار المسلمين في هذا الفن، يليها ما ذكرناه عن الفاطميين، غير ما ذكروه عن بساط المنتصر، وبساط أم المستعين ونحوهما، مما لا سبيل لنا إلى نشره، وأقدم ما وقفنا عليه من الصور الآدمية على الأبنية صورة مجلس قضاة وجدوه مصورًا على جدران قصر الحمراء في غرناطة، ويظن أنه من صنع القرن الثامن للهجرة (انظر شكل ٢).

ثانيًا: التصوير في الكتب

وهذا النوع من التصوير قليل أيضًا في مؤلفات المسلمين أو العرب للسبب الذي قدمناه، وهو يقسم إلى أنواع باختلاف مواضيع الكتب:

(١) الرسوم الجغرافية كالخرائط ونحوها.
(٢) الرسوم الطبية وفيها صور الأعضاء وتركيبها.
(٣) الرسوم الصناعية ويدخل فيها صور الآلات والأدوات.

(٤) الصور الأدبية والتاريخية التي تلحق بكتب الأدب والتاريخ.
(٥) الصور الدينية.

فلننظر في كل منها على حدة.

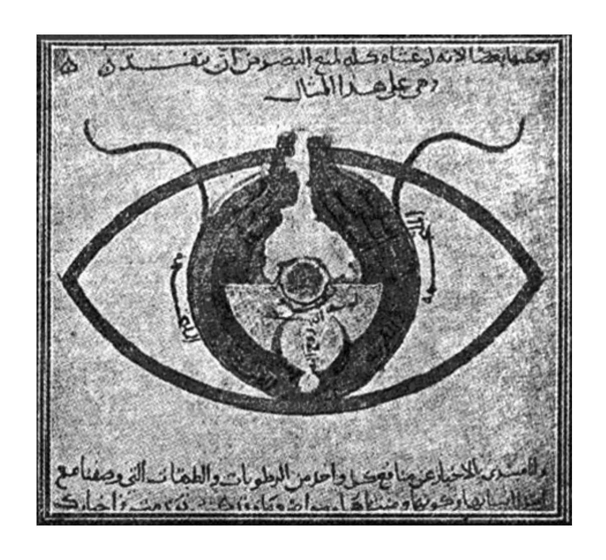
(١) **الصور الجغرافية:** ونعني بها الخرائط وتخطيط البلاد وهي قديمة في الكتب العربية، منذ أول تأليف الجغرافية في القرن الرابع للهجرة، وقد نشرنا مثالين من الخرائط العربية نقلًا عن كتاب الأقاليم للإصطخري في الجزء الثاني من هذا الكتاب [انظر العصر العباسي الثالث: الجغرافية والجغرافيون – أصحاب الجغرافية العامة] رسمًا في أواسط القرن الرابع، ومثل هذه الخرائط كثير في كتب الجغرافية والأقاليم بعد هذا التاريخ.

ويدخل في هذا النوع من الصور تصوير الحركات الحربية في ميادين القتال أو ساحات السباق كما تقدم في كلامنا عن الكتب الحربية من هذا الكتاب، مثل كتاب تعبئة الجيوش والأنيق في المجانيق وغيرهما [انظر العصر المغولي: العلوم الدخيلة – العلوم الحربية والصيد والألعاب ونحوها].

(٢) **الصور الطبية:** وهي قديمة أيضًا وإن لم يصلنا منها شيء قديم؛ لأن العرب لما نقلوا الطب عن اليونان والفرس في العصر العباسي الأول يغلب أنهم نقلوا معه صور بعض الأعضاء التشريحية أو الحشائش والنباتات الدوائية لتمييزها بعضها عن بعض، كما فعل بعد ذلك رشيد الدين الصوري المتوفى سنة ٦٣٩هـ بتصوير الحشائش في كتاب الأدوية المفردة،[٣] ولكننا لم نقف على شيء من هذه الصور بين الكتب المخطوطة التي وصلت إلينا، وإنما يمثل ذلك لذهننا مخطوط تركي اطلعنا عليه في الخزانة التيمورية اسمه «كتاب الأقراباذين والمفردات الطبية» كتب في أوائل القرن الثاني عشر للهجرة فيه رسوم للعقاقير النباتية والأعشاب الدوائية في غاية الإتقان تمثل بها الطبيعة تمثيلًا مدهشًا بالأصباغ على اختلاف ألوانها، ورسوم الآلات الكيماوية ومواعين صنع الأدوية والاستقطار كالأنابيق والأنابيب والأباريق والحمامات والكوانين والأجران، والآلات الجراحية كالنيشترات والمباضع والسكاكين والمقصات والكلاليب وغيرها، وقد لونت نصالها بما يشبه الفولاذ اللامع في أتقن ما يكون.

أما الصور التشريحية فأقدم ما وصل إلينا منها تشريح العين لحنين بن إسحق مرسومة في كتابه المسمى «تركيب العين وعللها وعلاجها على رأي أبقراط وجالينوس»،

وقفنا عليه في مجموعة خطية نفيسة في الخزانة التيمورية كتبت سنة ٥٩٢هـ تشتمل على تسعة كتب في أمراض العين من جملتها كتاب «تركيب العين» لحنين بن إسحق فيه بضع صور ملونة تمثل أشكال العين ورطوباتها وعضلاتها وحركاتها، وفي الشكل العاشر صورة منها تبين طبقات العين حسب تشريحها، فهي من مصنوعات القرن السادس للهجرة.



شكل ٣: تشريح العين، من كتاب تركيب العين لحنين بن إسحق.

(٣) **الصور الميكانيكية:** والصور الميكانيكية أحدث عهدًا مما تقدم؛ لأن العرب لم يهتموا بالميكانيكيات اهتمامًا خاصًّا إلا بعد عصر النقل، لكن الكتب الميكانيكية المصورة كثيرة وتعرف بكتب الحيل، وفيها صور الآلات الرافعة أو المحركة على اختلاف أنواعها، وقد تقدم ذكر بضعة كتب من هذا القبيل بين الكتب الصناعية في العصر المغولي أهمها كتاب الساعات والعمل بها، وكتاب الحيل [انظر العصر المغولي: العلوم الدخيلة – في الطبيعيات والصناعة]، وفيهما عشرات من صور الآلات بين ملونة وغير ملونة، وبينها آلات كثيرة التركيب تمثل مصنوعات مدهشة، وعلى كل حال فإن هذه الكتب لم تُكتب إلا بعد انقضاء القرن السادس للهجرة، وقد نشر المستشرق الفرنساوي كارا دي فو كتابًا

عربيًّا في الميكانيكيات اسمه «الحيل الروحانية وميخانيقا الماء» عن نسخة مخطوطة في مكتبة باريس فيها كثير من الرسوم تمثل آلات مدهشة كالتنين الصناعي والطيور الصافرة، والكتاب منقول في الأصل عن فيلون البيزانطي، وفي مجلة المشرق (صفحة ٢٦٥ سنة ٧) مقالة في وصف هذا الكتاب جزيلة الفائدة.

(٤) **الصور الأدبية والتاريخية:** وهذه لا يظهر أن العرب التفتوا إليها قبل انقضاء القرن السادس المذكور، وأقدم الكتب الأدبية العربية المصورة على ما نعلم مقامات الحريري، نعني النسخة الموجودة في المتحف البريطاني وقد ذكرناها في كلامنا عن الحريري من هذا الكتاب [انظر العصر العباسي الرابع: علوم اللغة – علماء اللغة] كتبت سنة ٦٥٤هـ، وفيها ٨١ صورة ملونة نشرنا منها واحدة، وهي غير نسخة شيفر التي نقلنا عنها صورة سفينة عربية في الجزء الثاني [انظر العصر العباسي الثاني: الجغرافية والجغرافيون – مؤلفو الجغرافية الخاصة].

ويضاهي هذه المقامات في القدم مخطوط عربي في مكتبة شلومبرجر من القرن السابع للهجرة (١٣ للميلاد) فيه عدة صور تاريخية بينها صورة جند عربي خارج إلى الحرب بجماله وأفراسه وأبواقه (انظر شكل٤).

ولعل هذه الصور منقولة عن صور أقدم منها، لكننا نذكر أقدم ما بلغنا خبره، ويلي ذلك صور كثيرة في كتب مخطوطة بعد هذا التاريخ بينها صورة حصار بني النضير مرسومة في القرن الثامن للهجرة في كتاب مخطوط في المتحف البريطاني.

ويدخل في هذا الباب كتب الرحلة أو الأقاليم، فإن من يطالعها يتبادر إلى ذهنه أن الرحالة لا بدَّ له من تصوير بعض ما يصفه فيها، ولم نقف من ذلك في كتبهم إلا على النادر، كما ذكرنا عن كتاب نخبة الدهر لشمس الدين الدمشقي [انظر العصر المغولي: الجغرافية والرحلات – في مصر والشام]، فإن فيه رسومًا تمثل الأسماك الغريبة وآلة استقطار العطريات وكروية الأرض وأقسامها وغرائب الأبنية في الصين وطواحين الهواء في سجستان ونحو ذلك لكنها غير متقنة، ويدخل فيه أيضًا كتب الفروسية؛ لأنها تحتاج إلى تمثيل الفرسان على خيولهم كما في كتاب الجهاد والفروسية وكتاب السؤل والمنية المتقدم ذكرهما.

على أن هذا الفن انتقل نحو ذلك الزمن إلى غير العرب من المسلمين ولا سيما الفرس والمغول، وكان الفرس أهل تصوير قبل الإسلام ثم شغلهم التنازع تحت سيادة العرب، فلما اجتمعت كلمتهم وصاروا دولة واحدة بعد فتوح المغول وجهوا عنايتهم إلى هذا



شكل ٤: جند عربي، رسم في القرن السابع للهجرة (١٣ للميلاد).

الفن فجمعوا بين ما كان عندهم وما شاهدوه من آثار الروم وما حمله المغول معهم من الشرق الأقصى، أخذوا في ذلك أولًا تحت سيطرة المغول، ولما استقل الفرس بدولتهم الصفوية ازدادوا رغبة فيه وأتقنوه، وكثرت الكتب المصورة عند المسلمين غير العرب، ولا سيما في زمن أكبر خان الشهير في القرن العاشر للهجرة، فأكثروا من تصوير المشاهد والأشخاص في الشاهنامة وتيمورنامة وكليات السعدى وظفرنامة اليزدي وتاريخ رشيد الدين وغيرها من كتب التاريخ والأدب، ومن أقدم صورهم التاريخية صورة مجلس ملك المغول في أوائل القرن الثامن للهجرة (١٤ للميلاد) نقلًا عن نسخة مخطوطة من تاريخ رشيد الدين (انظر شكل ٥).

وفي المكتبة الخديوية كتب فارسية كثيرة مصورة بالألوان بينها عجائب المخلوقات للطوسي والشاهنامة للفردوسي وغيرهما من كتب الأدب والعلم والشعر، وليس فيها صورة أقدم من القرن الثامن للهجرة، والكتب المشار إليها معروضة للجمهور في المكتبة الخديوية، وهي متقنة من حيث وضوح الألوان ودقة الرسم دون الملامح.



شكل ٥: مجلس ملك المغول في أوائل القرن الثامن للهجرة.

(٥) **الصور الدينية:** والصور الدينية أبعد ما تكون عن أذهان المسلمين؛ ولذلك لا تجد شيئًا منها في كتبهم الدينية على اختلاف مواضيعها. ومن غريب ما رأيناه من هذا القبيل ثماني صور خيالية منشورة في كتاب الميزان الكبرى بالفقه الشافعي لعبد الوهاب الشعراني، وهو مطبوع في بولاق سنة ١٢٧٥، وقد مثل فيه صورًا في ذهنه لعين الشريعة وفروعها والصراط لمن استقام في دار الدنيا ومن اعوج وقباب الأئمة ونحو ذلك، مما لا نعرف له مثيلًا في غير هذا الكتاب.



شكل ٦: ثوب أبي عبد الله صاحب غرناطة كما صوره الإسبان بعد استيلائهم على بلده.

هوامش

(١) راجع تاريخ التمدن الإسلامي ٩٤ ج٥.
(٢) الهلال ١١٧ سنة ٢٠.
(٣) راجع الجزء الثاني من تاريخ آداب اللغة العربية صفحة ٣٤١.

العصر العثماني

من فتح العثمانيين مصر سنة ٩٢٣
إلى مجيء نابوليون إليها سنة ١٢١٣هـ

فذلكة تاريخية

نشأت الدولة العثمانية بآسيا الصغرى في أثناء العصر المغولي، وبعد أن رسخت قدم العثمانيين فيها قطعوا البحر إلى أوربا ففتحوا القسطنطينية سنة ٨٥٧هـ، وأوغلوا في ممالكها وإماراتها حتى حاصروا فينا، ونشروا لواء الإسلام على شبه جزيرة البلقان في شرقي أوربا، لكنه تقلص نحو ذلك الزمن عن غربيها (الأندلس)؛ لأن الإسبانيين ما زالوا يطاردون المسلمين العرب فيها ويفتحون البلد بعد البلد حتى أخرجوهم منها كلها سنة ٨٩٧هـ، فكأن شبه جزيرة البلقان قامت تحت رايتهم مقام شبه جزيرة الإسبان.

وبعد أن فتح العثمانيون القسطنطينية حولوا أعنة خيولهم نحو المشرق في المملكة الإسلامية على أثر ظهور الدولة الصفوية الشيعية التي أسسها إسماعيل شاه سنة ٩٠٧هـ في بلاد فارس، وجعل تبريز عاصمة ملكه، ثم استولى على العراق وخراسان من أيدي التيموريين، فامتدت سلطته من نهر جيحون (اكسوس) شرقًا إلى خليج فارس ونهر الفرات غربًا، فخافه العثمانيون وهم سنيون وزعيمهم يومئذ السلطان سليم الثاني الفاتح العظيم، فتنبهت الضغائن بينهما والعثمانيون حماة السنة والصفويون حماة الشيعة، أو هي حجة ينتحلها الفاتحون، وسبب الحرب إنما هو الطمع بالاستيلاء، والدين براء من ذلك.

كان إسماعيل شاه قد أغضب السلطان سليمًا في أثناء عصيان أخيه أحمد؛ لأنه حماه منه فخاف إسماعيل عاقبة ذلك فبعث إلى مصر يطلب محالفتها على العثمانيين وهي في سيطرة المماليك الأتراك، فغضب السلطان سليم وعزم على فتح البلدين جميعًا، فحمل على إيران حتى فتح تبريز واستولى على عرش صاحبها وهرب إسماعيل شاه، ثم اضطر السلطان سليم إلى إخلاء تبريز لقلة المؤن اللازمة لجنده، وطارد عدوه حينًا فتعب جنده من الأسفار فتوقف ريثما استراح، وعمد إلى فتح مصر والشام انتقامًا من سلطانها الغوري؛ لأنه حالف عدوه عليه، وكانت مصر في غاية الاضطراب والفساد وقد شاخت دولتها وآذنت شمسها بالزوال لتقوم تلك الدولة الشابة مقامها، ففتح السلطان سليم الشام ومصر فأصبحتا ولاية عثمانية سنة ٩٢٣ وبها يبدأ العصر العثماني الذي نحن في صدده.

لما فتح العثمانيون مصر أصبح الشرق الإسلامي يتنازعه ثلاث أمم: الفرس والمغول والأتراك.

فالفرس استولوا على أواسط العالم الإسلامي، نعني إيران وخراسان بين نهري جيحون ودجلة تحت راية الدولة الصفوية وهم فرس، وإن ادعوا النسب القرشي، وامتد سلطان المغول شرقًا من أفغانستان إلى أقصى الهند، أما الأتراك وهم العثمانيون فنشروا أعلامهم وراء آسيا الصغرى على مصر والشام والعراق وتونس والجزائر، وكانت هذه البلاد قبل ذلك يحكمها المماليك بمصر والشام والفرس في العراق والحفصية في تونس وطرابلس الغرب والمرينية والوطاسية في الجزائر، فإذا أضفت إليها مراكش في أقصى الغرب وجزيرة العرب وسائر العراق وما يلي مصر جنوبًا في أواسط إفريقيا وغربها تألف من ذلك كله بقعة أهلها يتكلمون العربية، يحدها دجلة وخليج العجم من الشرق والمحيط الأتلانتيكي من الغرب وآسيا الصغرى والبحر المتوسط من الشمال وخط الاستواء والبحر العربي من الجنوب، وهو العالم العربي ومعظمه في سيادة الدولة العثمانية.

فالعثمانيون أتراك خلفوا السلاطين المماليك في مصر والشام، وهم أتراك أو شراكسة وكلاهما سنيون، لكن العالم العربي كان أعز جانبًا والآداب العربية أرسخ قدمًا في عهد المماليك لأسباب كثيرة أهمها:

(١) أن السلاطين المماليك كانت عاصمتهم مصر وهي قلب العالم العربي.

(٢) أن المماليك جعلوا اللغة العربية لغة الحكومة وبها كانوا يتكاتبون ويتخاطبون ويصدرون المناشير والأوامر، كما فعل سائر من تولى هذه البلاد من الدول الإسلامية

غير العربية، وكان المماليك يأخذون بناصر العلماء والأدباء يستقدمون القراء والمحدثين من الأطراف، ويقترحون تأليف الكتب التاريخية والاجتماعية والحربية والسياسية كما رأيت، أما العثمانيون فكانوا يقربون العلماء وينشطونهم أحيانًا لكنهم احتفظوا بلسانهم التركي للمخاطبات والمخابرات وسائر المعاملات.

(٣) أن بُعد العاصمة (الأستانة) عن هذه البلاد وضعف وسائل النقل في تلك الأيام أخاف السلاطين على ولاياتهم العربية، فجعلوا أساس الإدارة فيها التفريق بين رجال الحكومة، بحيث لا يخشى اجتماعهم على خلع الطاعة أو الاستقلال، فآل ذلك طبعًا إلى فساد الأحكام وزيادة المظالم، وأصبح هم الحكام سلب الأموال والتنازع على الاستبداد في الرعية المسكينة، وبات الرجل من هؤلاء إذا نهض من فراشه وخرج من بيته لا يدري ما يلقاه من أنواع المظالم أو ضروب الإهانة، إذا كان في يده مال لا يأمن بقاءه إلى المساء وإذا كانت له دابة فهي عرضة للسخرة، فضلًا عن تحول التجارة من مصر إلى سواها في ذلك العهد، وناهيك بالضرائب المتوالية التي لا يسأل ضاربها ولا ينجو أحد من دفعها راضيًا أو غاضبًا، وما زال ذلك حالها حتى طمع بها الفرنساويون وفتحوها سنة ١٢١٣هـ/١٧٩٨م، وبها ينقضي العصر العثماني من تاريخ آداب اللغة الذي نحن في صدده، ثم صارت مصر إلى محمد علي مؤسس العائلة المحمدية العلوية، فدخلت في عصر جديد هو «النهضة الأخيرة» وسنتكلم عنها في الجزء الرابع من هذا الكتاب.

حال آداب اللغة

فالأمة التي هذا حالها من الضنك والشدة كيف يرجى رواج العلم والأدب فيها؟ إن التغيير السياسي والاجتماعي في العصر المغولي لم يظهر تأثيره في الآداب العربية إلا في أواخره، أما في أوائله فظهرت ثمار نضج العلم في الأعصر السابقة، وقد رأيت أن الآداب العربية انحصر معظمها في مصر والشام وما يليهما من العالم العربي مع ظهور بعض الشعراء والأدباء في بلاد فارس وما وراءها وفي الأندلس، أما في العصر العثماني فتمكن فيه الذل من النفوس، وفسدت ملكة اللسان وجمدت القرائح فلم ينبغ شاعر يستحق الذكر خارج البقعة العربية.

ومع ذلك فاللغة العربية ما زالت هي لغة الدين في العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه لا يستغني عالم مسلم عن معرفتها والمطالعة فيها، حتى الإفرنج في أوائل

نهضتهم فإن علماءهم الطبيعيين من الأطباء والفلاسفة وسائر من أراد التوسع في العلم لم يكن يستغني عن اللغة العربية أو ما نقل من آدابها إلى اللاتينية وغيرها. وسنفرد فصلًا خاصًّا لاشتغال الإفرنج بآداب اللغة العربية وما نقلوه منها إلى لسانهم عند كلامنا عن النهضة الأخيرة.

أما الآداب العربية على الإجمال فأصبحت في أحط أدوارها وندر نبوغ العلماء المفكرين أو المستنبطين فيها، وأكثر ما كتب في هذا العصر إنما هو من قبيل الشروح والحواشي والتعاليق وشروح الشروح ونحوها، ويصح أن يسمى هذا العصر «عصر الشروح والحواشي» كما سمينا العصر المغولي عصر الموسوعات والمجاميع، وشاع في هذا العصر التصوف وتعددت الطرق الصوفية، وكثر التأليف بلا نظام مثل الكشكول، وانحط أسلوب الإنشاء حتى أوشك أن يكون عاميًّا كما في قصص بني هلال ونحوها مما وصل إلينا من القصص الموضوعة في عصور الانحطاط، بعضها وضع في أواخر العصر المغولي والبعض الآخر في العصر العثماني.

الآداب الاجتماعية

وسوء الإدارة أفسد على الناس نياتهم فتشوشت أفكارهم، وانصرفوا إلى ما يشغلهم عن تلك المظالم من المخدرات والمسكرات وشاع استخدام الأفيون والحشيش، واستعان الظالمون في حفظ سيادتهم بالتفريق بين الطوائف فتمكنت البغضاء بينها، واشتدت وطأة الظالمين على اليهود والنصارى خصوصًا، وكلفوهم عذابًا ومشقة في بناء معابدهم ابتزازًا للأموال، وصاروا إذا ورد ذكر أحدهم في بعض الكتب شفعوا اسمه بما يستغربه أدباء هذا العصر إذا وقفوا عليه. وقد نشرنا مثالًا منه في تاريخ التمدن الإسلامي (صفحة ١٢٧ ج٤).

وتوالت الأوبئة الوافدة لا سيما الطاعون وكان يحرف الأحياء جرفًا، فاستولى على الناس الخوف من الحياة وتمكنت الأوهام من عقولهم وزاد اعتقادهم في الخرافات وتمسكوا بالأحلام فكثر المفسرون لها وشاع الاعتقاد بأن الرؤية ١/٤٦ من النبوة، وكثر اعتقاد الناس بالسحر على أنواعه فكثر مدعوه وتعدد المؤلفون فيه.

ومن عواقب المظالم انحطاط الآداب العامة بفساد الأخلاق، فشاعت قلة الحياء وظهرت آثار ذلك في آداب اللغة فزاد الكُتاب جرأة على التعابير البذيئة حتى في كتب التاريخ، كما فعل الإسحاقي في كتابه أخبار الأول، وظهرت كتب خاصة بالخلاعة

والفحشاء كرجوع الشيخ إلى صباه وعشرة النساء وغيرهما، وكثر السفه في المجون في الكتب الأخرى وفي الشعر وصار للأحماض باب خاص، ظهر ذلك في العصر الماضي واتسع في هذا العصر، وكسدت بضاعة الأدب على الإجمال، فوصف ذلك صاحب العقد المنظوم في أفاضل الروم المتوفى سنة ٩٩٢ بقوله: «فأنا قد انتهيت إلى زمان يرون (أهله) الأدب عيبًا ويعدون التضلع من الفنون ذنبًا وإلى الله الحنان المشتكى من هذا الزمان»، وآل هذا الفساد إلى ظهور دعاة الإصلاح برد الفعل فظهرت طائفة الوهابية في جزيرة العرب وسيأتي ذكرها.

وكان أكثر ظهور الأدباء في العصر الماضي بمصر والشام وظهر بعضهم في المملكة العثمانية، وقد تكاثر ظهورهم هناك في هذا العصر.

الشعر

أصاب الشعر ما أصاب سائر الآداب العربية في هذا العصر، فاستولى الجمود على القرائح لما توالى على الأمة من الذل في تلك الفترة المظلمة، على أن المجيدين منهم إنما كانت إجادتهم تقليدية ساروا فيها على خطة المتقدمين يقلدونهم في المعاني والأساليب والألفاظ، وزاد تعويلهم على اللفظ وأصبح الكاتب أو الشاعر إنما يهمه تنميق العبارة بالجناس والتورية والسجع حتى خرجوا بذلك عن الذوق المألوف، فأضاعوا أوقاتهم فيما لا فائدة فيه من الصنائع اللفظية فذهبت المعاني ضحية تلك الأساليب الباردة. ويشبه ذلك مبالغة أهل زماننا هذا بتزيين ظواهر المرأة بالأزياء الجديدة حتى خرجوا بها عن الغرض الأصلي من خلقتها، فأصبحت مثل سائر أدوات الزينة إنما يلتفت فيها إلى شكلها الخارجي. وكثيرًا ما جر اجتهادها في ذلك إلى الوقوف في سبيل وظيفتها الطبيعية في جسم العمران، وهكذا اللغة في العصر العثماني بعد أن كان المراد بالألفاظ التعبير عن المعاني وتصوير الأفكار اشتغل الكُتاب بتنميق الألفاظ وأضاعوا المعاني.

وازداد اختلاط الشعراء بالأدباء في هذا العصر وأكثروا من الشعر الديني، وسنجعل الكلام يشتمل على الشعراء والأدباء معًا.

(١) الشعراء والأدباء

(١-١) الشعراء والأدباء في مصر والشام

(١) **عائشة الباعونية الصالحية:** نبغت بمصر نحو سنة ٩٣٠ لها:

(أ) الفتح المبين في مدح الأمين، في برلين.
(ب) فيض الفضل، ديوان شعر في الخزانة التيمورية.
(جـ) المورد الأهنأ في المولد الأسنى، منه نسخة في الخزانة التيمورية بخط المؤلفة.

(٢) **محمد بن قصنوه بن صادق:** من تلاميذ السيوطي، له:

(أ) السحر الحلال من إبداع الجلال، خمس مقامات في الأدب والحديث والشعر، في المكتب الهندي في لندن.
(ب) مراتع الألباب من مرابع الآداب، قصائد في المتحف البريطاني.

(٣) **ماماية الرومي الإنجشاري:** هو محمد بن أحمد المتوفى سنة ٩٨٧ ولد في الأستانة، وجاء دمشق صغيرًا وانتظم في سلك الإنكشارية وحج معهم، ثم عدل عن الجندية وتولى الترجمة في محكمة الصالحية وتعلق بالشعر ونظم المدائح الكثيرة وأكثرها في المعميات، ونظم الحوادث التاريخية كما كان يفعل الفرس والترك إلى ذلك العهد، وله:

(أ) ديوان روضة المشتاق وبهجة العشاق، جمع فيه غزلياته ومدائحه وأكثرها في السلاطين: سليمان وسليم الثاني ومراد الثاني، وتاريخ الحوادث من سنة ٩٣٠–٩٨٣ وأخيرًا المعميات، منه نسخة في المكتبة الخديوية في ٥٤٦ صفحة، ويوجد أيضًا في برلين وغوطا وباريس ومنشن.
(ب) ديوان آخر اسمه «برهان البرهان» في برلين.

(٤) **زين الدين الحميدي توفي سنة ٩٩٥ له:**

(أ) ديوان الدر المنظم في مدح الحبيب الأعظم، رتب على الأبجدية حسب القافية وطبع بمصر سنة ١٣١٣.

(ب) تمليح البديع بمديح الشفيع، في برلين وباريس، وله منظومات أخرى في برلين.

(٥) **شمس الدين محمد بن نجم الدين الصالحي الهلالي المتوفى سنة ١٠١٢:** ولد في دمشق وتعلم فيها وفي مكة ثم أقام في دمشق ورغب في العزلة، واشتهر بجودة الخط فجمع منه مالًا كثيرًا ولم يتزوج، وله أخت تزوجت في طرابلس الشام فسافر إليها وأقام عندها وتعرف إلى الأمير علي بن سيفا وعلم أبناءه وتوفي بدمشق، له: ديوان سجع الحمام في مدح خير الأنام، طبع في الأستانة سنة ١٢٩٨ فيه ٢٩ قصيدة على حروف المعجم، وصدره بمقدمة فيها شيء من أحواله (خلاصة الأثر ٢٣٩ ج٤).

(٦) **شهاب الدين العناياتي النابلسي:** توفي سنة ١٠١٤ أصله من نابلس ورحل إلى الحجاز والقدس وحلب وغيرها من مدن الشام، واستقر في دمشق يعلم في المدرسة الباذرائية حتى مات، ونظم في جميع طرق الشعر من بديع وهجو وغزل ونسيب وغيرها وله:

(أ) ديوان أو مجموعة شعرية في المتحف البريطاني.

(ب) الدرر المضية في الأخلاق المرضية في الأدب، في غوطا (ترجمته في خلاصة الأثر ١٦٦ ج١).

(٧) **درويش الطالوي الأرتقي الدمشقي، توفي سنة ١٠١٤:** كان أبوه جنديًّا جاء مع السلطان سليم إلى دمشق، وأقام فيها وتزوج؛ فنشأ ابنه درويش فيها ومال إلى العلم فارتقى في مناصبه، وخدم قاضي القضاة بدمشق وناب عنه وارتحل معه إلى آسيا الصغرى وعاد إلى دمشق بعد أن زار مصر والحرمين وغيرها، وتولى مناصب علمية حتى مات في دمشق وله كتاب سانحات دمى القصر في مطارحات بني العصر، ويسمى أيضًا «السانحات الطالوية» جمع فيه أشعاره وما دار بينه وبين معاصريه منه نسخة في المكتبة الخديوية في ٤٠٠ صفحة، وفي برلين وباريس (خلاصة الأثر ١٤٩ ج٢).

(٨) **ابن الملا الحلبي الحصكفي، توفي سنة ١٠٣٠ له:**

(أ) حلبة المفاضلة وحلية المناضلة في المطارحة والمراسلة، جمع فيها مطارحاته ومراسلاته مع أصحابه في الشام والأستانة في غوطا وبرلين.

(ب) أبكار المعاني المخدرة وأسرار المباني المذخرة في باريس (ترجمته في خلاصة الأثر ١١ ج١).

(٩) **حسين بن الجزري الحلبي، توفي سنة ١٠٣٤، وله:** ديوان مرتب على المواضيع في برلين (ترجمته في خلاصة الأثر ٨١ ج٢).

(١٠) **فتح الله بن محمود البيلوني الحلبي توفي سنة ١٠٤٢ له:**

(أ) ديوان مرتب على الأبجدية في باريس.

(ب) خلاصة ما تحصل عليه الساعون في أدوية الطاعون، في المكتبة الخديوية (ترجمته في خلاصة الأثر ٢٥٤ ج٣).

(١١) **أبو حفص القبرسي الدمشقي (١٠٥٣):** له ديوان في مدح معاصريه في برلين.

(١٢) **محمد بن جلال الدين القدسي بن العجمي توفي سنة ١٠٥٥:** كان قاضيًا في القاهرة، ثم تولى الإفتاء والتعليم في القدس ورحل إلى دمشق ومنها إلى الأستانة فتعين قاضيًا في البوسنة وصوفيا، وله: كتاب المنن الظاهرة على السادة الطاهرة، في مدح أعيان الأستانة في عصره، في برلين (ترجمته في خلاصة الأثر ٤١٢ ج٣).

(١٣) **منجك باشا الدمشقي المتوفى سنة ١٠٨٠:** ولد في دمشق وسافر إلى الأستانة، وأقام فيها حتى توفي، له ديوان جمعه والد المحبي المؤرخ الآتي ذكره في نسختين إحداهما مرتبة على التواريخ، تبدأ بمدح السلطان إبراهيم سنة ١٠٥٥، منها نسخة في برلين، والثانية مرتبة على الأبجدية، طبعت بدمشق سنة ١٣٠١ (خلاصة الأثر ٤٠٩ ج٤).

(١٤) **مصطفى أفندي بن عثمان الباي المتوفى سنة ١٠٩١:** ولد في حلب وتعلم في دمشق، ورحل إلى الأناطول، ودخل طريقة المولوية، وتعين قاضيًا في طرابلس الشام، وتوفي في مكة، له: ديوان في غوطا وبطرسبورج وفي المتحف البريطاني.

(١٥) **ابن عبد الجواد الشربيني، توفي سنة ١٠٩٨:** له كتاب غريب في بابه سماه «هز القحوف في الشكوى والمجون»، وهو في أصل وضعه شرح قصيدة أبي شادوف والقصيدة المذكورة مجونية في انتقاد عادات بعض الفلاحين بمصر مطلعها «يقول أبو شادوف من عظم ما شكى» فشرحها الشربيني شرحًا مجونيًّا بلغة تقرب من العامية، وتشتمل على كثير من الفوائد الاجتماعية من حيث عادات الفلاحين وأمثالهم وحكمهم وحكاياتهم وخرافاتهم ونكاتهم، لكن فيها ألفاظًا يأبى أدباء هذا الزمان سماعها، صدرها بمقدمة في مائة صفحة، ثم شرع في شرح القصيدة، والكتاب مطبوع بمصر سنة ١٢٧٤ في ٢٣٠ صفحة ثم طبع مرارًا فيها وفي الإسكندرية.

(١٦) **عبد الله بن شرف الدين الشبراوي القاهري الأزهري:** من أساتذة الأزهر توفي سنة ١١٧٢ وله:

(أ) ديوان منائح الألطاف في مدائح الأشراف، طبع بمصر مرارًا.
(ب) الإتحاف بحب الأشراف، طبع بمصر سنة ١٣١٦.
(جـ) الاستغاثة الشبراوية، في غوطا.
(د) عروس الآداب وفرجة الألباب، في تقويم الأخلاق ونصائح للحكام وتراجم الشعراء وأمثلة من أشعارهم وفي الكرم والصداقة وغير ذلك، في ليدن.
(هـ) عنوان البيان وبستان الأذهان في الأدب والأخلاق والتهذيب يشتمل على وصايا ونصائح، طبع بمصر مرارًا في نحو مائة صفحة.
(و) نزهة الأبصار في رقائق الأشعار، شعر ونثر، في باريس.
(ز) شرح الصدر بغزوة بدر، طبع بمصر سنة ١٣٠٣.
(ح) نظم أسماء بحور الشعر وأجزائها، في المكتبة الخديوية وله قصائد أخرى، (ترجمته في سلك الدرر ١٠٧ ج٣).

(١٧) **محمد سعيد السمان الدمشقي، المتوفى سنة ١١٧٢:** كان من البارعين في النظم والنثر وعلم الموسيقى متهتكًا في الغواني، وله:

(أ) ديوان الروض النافح فيما ورد على الفتح الفلاقنسي من المدائح، في برلين.
(ب) كتاب في تراجم معاصريه، أراد أن يتحدى به المحبي والخفاجي فلم يتم له ذلك، وفي مكتبة برلين قطعة فيها تراجم ٦٩ شاعرًا من معاصريه لعلها هي: (سلك الدرر ١٤١ ج٢).

(١٨) **أحمد المنيني الطرابلسي، المتوفى سنة ١١٧٢:** ولد في منين ثم قدم دمشق وصار أستاذًا في الجامع الأموي، له مؤلفات كثيرة وصلنا منها:

(أ) ديوانه، منه نسخة في الخزانة التيمورية.
(ب) كتاب الفتح الوهبي على تاريخ العتبي، طبع في القاهرة سنة ١٢٨٦ في مجلدين، وتاريخ العتبي هو كتاب اليميني تاريخ يمين الدولة السلطان محمود الغزنوي، ألفه أبو نصر العتبي المتوفى سنة ٤٢٧ وقد تقدم تفصيل خبره في الجزء الثاني من هذا الكتاب [انظر العصر العباسي الثالث: التاريخ والمؤرخون – أصحاب التواريخ الخاصة].

(جـ) الإعلام بفضائل الشام، في المكتبة الخديوية (سلك الدرر ١٣٣ ج١).

(١٩) يوسف الحفني أبو المحاسن المصري، توفي سنة ١١٧٨ وله:

(أ) ديوان في بطرسبورج بخط المؤلف.
(ب) مقامة المحاكمة بين المدام والزهور، في برلين.
(جـ) مقامة أخرى في مدح أبي العباس الباهي في المتحف البريطاني.
(د) رسالة في الكلام على لفظي الواحد والأحد، في المكتبة الخديوية (الخطط التوفيقية ٧٥ ج١٠).

(٢٠) ابن سلامة الإدكاوي المصري المتوفى سنة ١١٨٤: ولد في إدكو وتعلم في القاهرة وله:

(أ) بضاعة الأريب في شعر الغريب، مجموعة من أشعاره، في باريس.
(ب) الدر المنتظم في الشعر الملتزم، في باريس.
(جـ) الفوائح الجنانية في المدائح الرضوانية، مدائح عدة شعراء للأمير كتخدا الجلفي، بباريس.
(د) الدر الثمين في محاسن التضمين، هو مجموع نبذ من كلام أساطين البلاغة في التضمين الشعري، منه نسخة في المكتبة الخديوية في ٢٤٤ صفحة.
(هـ) المقامة الإسكندرية التصحيفية، ضمنها الألفاظ التي تتغير معانيها بالتصحيف، في برلين.
(و) هداية المتوهمين في كذب المنجمين، كذب فيها دعوى المنجمين، في غوطا (الجبرتي في وفيات هذه السنة).

دواوين شعرية أخرى في مصر والشام

(١) بديعية علي بن دقماق الحسيني: المتوفى سنة ٩٤٠ في برلين.
(٢) ديوان أبي بكر البكري: توفي سنة ١٠٠٠، في المتحف البريطاني.
(٣) رياض الأزهار ونسيم الأسحار: تسع مقامات لشمس الدين الحلبي القواس (نحو ١٠٠٠) في برلين.

(٤) ديوان المعروفي الحموي (١٠١٦) في برلين: وفيه فوائد فلكية وتاريخية.
(٥) الطراز البديع: ذيل للبردة مع شرح لأبي الوفاء (نحو ١٠٣٤) في منشن.
(٦) ديوان ابن الأكرم الصالحي الدمشقي: في برلين.
(٧) ديوان أحمد بن البكري الوارثي (١٠٤٧) في النسيب والخمر والزهور، في برلين.
(٨) بديعية عبد الله الزفتاوي (١٠٥٩) في برلين: ولها شرح اسمه «حسن الصنيع بشرح نور الربيع» لعبد اللطيف العشماوي، في باريس.
(٩) ديوان سلافة الإنشاء: لعبد الباقي الإسحاقي المتوفى سنة ١٠٦٠ في فينا.
(١٠) ديوان الحسن الأسطواني الدمشقي (١٠٦٢): في برلين.
(١١) ديوان ابن الدراع الدمشقي (١٠٦٥): في برلين.
(١٢) ديوان أبي بكر السلاطي الدمشقي (نحو ١٠٦٥): وله أيضًا كتاب «صبابة المعاني وصبابة المعاني» كلاهما في برلين.
(١٣) ديوان محمد بن يوسف الكريمي الدمشقي (١٠٦٨): في برلين.
(١٤) ديوان الرحيق المختوم: لصدر الدين بن أحمد الحسيني (١٠٧٨) في باريس.
(١٥) قصائد في مدح النبي للرامحمدائي (١٠٨٩): في برلين.
(١٦) قصائد لابن قضيب البان (١٠٩٦): في برلين.
(١٧) ديوان ابن حيدر الحسيني: في باريس.
(١٨) ديوان أبي موسى الحبوري (نحو ١١٠٤): في برلين.
(١٩) ديوان السفرجلاني (١١١٢) مرتب على الأبجدية: في برلين.
(٢٠) ديوان ابن الطويل الخال (١١١٧): في برلين.
(٢١) موشح في مدح دمشق لكمال الدين الحسيني (١١١٨): في برلين.
(٢٢) ديوان ابن الموصلي الشيباني الميداني (١١١٨): في برلين.
(٢٣) ديوان أبي بكر العرودكي (١١٢٠): في برلين.
(٢٤) ديوان أحمد الدلنجاوي (١١٢٣): طبع بمصر سنة ١٣٠٣.
(٢٥) موشح في مدح دمشق: للسعودي (١١٢٧) في برلين.
(٢٦) نظم الفتوح في طرب النفس والروح: لابن السكري (١١٢٩) في برلين.
(٢٧) ديوان محمد العمادي الدمشقي (١١٣٥): في برلين.
(٢٨) ديوان مصطفى الصمادي (١١٣٧): في برلين.
(٢٩) موشح بمدح دمشق للخراط: صهر عبد الغني النابلسي (١١٤٣) في برلين.

(٣٠) موشح محمد سعدي (١١٤٧) في مدح دمشق: في برلين.

(٣١) ديوان أحمد الطبيب الخلاصي (نحو ١١٤٧): في مدح الأمير إسماعيل بن حرفوش، وابنه في المتحف البريطاني.

(٣٢) موشح ابن شمعة في مدح الشام (نحو ١١٥٠): في برلين.

(٣٣) موشح التركماني البهلول النخلاوي: في برلين.

(٣٤) جوارش الأفراح وقوت الأرواح: لعبد الله الوزير سنة ١١٥٠ في غوطا.

(٣٥) ديوان الترزي الدمشقي: في برلين.

(٣٦) الكشف والبيان للحافظ النجار: في برلين.

(٣٧) البرق المتألق: في محاسن جلق في وصف الشام وجوارها لابن الراعي (١١٧٠)، وهو محمد بن مصطفى بن خداوردي الدمشقي. وصف بها دمشق وضواحيها وصفًا شعريًّا منظومًا ومنثورًا، ويتخلل ذلك وصف الغوطة وأنهارها، منها نسخة في المكتبة الخديوية في ٢٠٠ صفحة، وفي برلين وفينا وفي مكتبة عارف حكمت بك بالمدينة.

(٣٨) ديوان أحمد بك الكيواني (١١٧٣): طبع في دمشق سنة ١٣٠١.

(٣٩) قصيدة في مدح النبي لأحمد الحكواتي ١١٩٣: في برلين.

(٤٠) ديوان أشعار: جمعها عبد الله اليوسفي ١١٩٤ في برلين.

(٢-١) الشعراء والأدباء خارج مصر والشام

في العراق

(١) **ناصر الدين بن سويدان الحاصوري أرغون، توفي نحو سنة ١٠١٥:** له الدرة النقية لأهل العلم والتقية، مجموع أشعار لعلي وأهله، في المتحف البريطاني.

(٢) **ابن معتوق توفي سنة ١٠٨٧:** هو شهاب الدين الموسوي الحويزي من أهل البصره، كان فقيرًا، وله ديوان مشهور، طبع مرارًا في الإسكندرية والقاهرة وبيروت، أكثره في مدح السيد خان بن كمال الدين الموسوي، وهو مشهور برقته.

(٣) **عبد الرحمن الموصلي الشيباني (١١١٨):** له ديوان في غوطا وبرلين.

(٤) **عثمان بن مراد العمري الموصلي، المتوفى سنة ١١٨٤:** ولد في الموصل ورحل إلى اليمن ورجع في خدمة حسين باشا ومحمد أمين باشا، ورحل إلى الأستانة فعينوه

محاسبًا في بغداد، ولما تولى عالي باشا الوزارة قبض عليه وأرسله إلى الموصل ثم عاد إلى الأستانة، وبعد وفاة عالي باشا عاد إلى بغداد وتقلب في مناصب مختلفة وله:

(أ) الروض النضر في تراجم أدباء العصر وأمثلة من أشعارهم، في برلين والمتحف البريطاني.
(ب) راحة الروح وسلوة القلب الكئيب المجروح، في برلين (سلك الدرر ١٦٤ ج٣).

(٥) **غرس الدين الخليلي:** من أهل القرن الحادي عشر، له: ديوان مرتب على حروف المعجم أكثر قوافيه من الألفاظ الكثيرة المعاني كالخال والعين ونحوهما، منه نسخة في الخزانة التيمورية.
(٦) **محمد أمين بن ياسين الحسيني الموصلي (١٠٢٢):** له أوراق الذهب في علم المحاضرات والأدب، في برلين.

الشعراء والأدباء في الحجاز ونجد

(١) عبد العزيز الزمزمي الخطيب (٩٦٣) له:

(أ) ديوان في مدح النبي والصحابة في باريس.
(ب) فيض الوجود على حديث «شيبتني هود» في المكتبة الخديوية.
(ج) تنبيه ذوي الهمم إلى مآخذ أبي الطيب من الشعر والحكم، بين فيه سرقات المتنبي اللفظية والمعنوية من أشعار العرب، منه نسخة في المكتبة الخديوية في ٣٣٠ صفحة.

(٢) **عبد القادر الطبري المكي المتوفى سنة ١٠٣٣:** له بديعية مشروحة وقصائد أخرى، في برلين.
(٣) **عبد الباقي الخطيب (١٠٠٥):** له عقد الفرائد فيما نظم من الفوائد، في برلين.
(٤) **المختار الهجاء المكي (١٠٤٠):** له أرجوزة، في برلين.
(٥) **ابن أبي نمي الشريف الحسني (١٠٤٢):** له قصائد مختلفة في برلين، وعليها شرح للشبراوي في المكتبة الخديوية.
(٦) **فتح الله النحاس الحلبي المدني (١٠٥٢):** له ديوان في باريس والمكتبة الخديوية، وطبع بمصر سنة ١٢٩٠ في ٦٨ صفحة.

(٧) **قصائد لابن يعقوب المكي (١٠٦٦):** في برلين.

(٨) **درويش مصطفى الطرابلسي (١٠٨٠):** له قصيدة في مدح النبي عليها شرح اسمه «نصر من الله وفتح قريب» في باريس.

(٩) **ابن شاشو الذهبي الدمشقي المتوفى سنة ١١٢٠ له:**

(أ) نفحات الأسرار الملكية ورشحات الأفكار الذهبية، في برلين.

(ب) تراجم بعض أعيان دمشق من علمائها وأدبائها، ضاهى بها نفحة الريحانة للمحبي الآتي ذكره، طبع في بيروت سنة ١٨٨٦.

(١٠) **السيد جعفر البيتي العلوي السقاب المدني (١١٨٢) له:**

(أ) ديوان في المكتبة الخديوية.

(ب) مواسم الأدب وآثار العجم والعرب، طبع بمصر سنة ١٣٢٦ في مجلدين، وهو كتاب مفيد.

الشعراء والأدباء في اليمن

(١) **سراج الدين القصيعي (نحو ٩٥٠):** له السائق الشائق إلى الشراب الفائق الرائق، في مدح النبي في ليدن.

(٢) **شمس الدين اليمني الشرجي (نحو ٩٩٩):** له تحفة الأصحاب ونزهة الألباب في الأدب، في برلين وليدن وباريس.

(٣) **شرف الدين محمد بن عبد الله المتوكل على الله الزيدي (١٠١١):** له الروض المرحوم والدر المنظوم، في ليدن.

(٤) **شرف الدين يحيى بن شمس الدين المتوكل على الله الزيدي (١٠٥٠):** له قصص الحق في مدح خير الخلق، مشروح في ليدن.

(٥) **ديوان ابن الهادي الآنسي (١٠٥٠):** في برلين.

(٦) **عبد الله بن عبد العال الوزير في أوائل القرن الثاني عشر له:**

(أ) أقراط الذهب في المفاخرة بين الروضة وبئر العرب، قرب صنعاء، في ليدن.

(ب) ديوان جوارش الأفراح وقوت الأرواح فيها.

(جـ) طبق الحلوى وصحاف المن والسلوى، تاريخ اليمن سنة ١٠٤٦–١٠٩٠ في المتحف البريطاني.

(٧) **إبراهيم بن صالح الهندي (١١٠٢) له:**

(أ) ديوان العرف الندي من شعر الصارم الهندي، جمعه ابنه في غوطا.

(ب) براهين الاحتجاج والمناظرة فيما وقع بين القوس والبندق من المفاخرة، هي محاورة بين القوس والبندق الذي كانوا يرمونه عنها، في ليدن.

(٨) **ديوان ابن صلاح في القرن ١٢** في ليدن.

(٩) **ديوان العدوي (١١١٠)** في باريس.

(١٠) **الحيمي الكوكباني (١١٤٣):** له طيب السمر في أوقات السحر مجموع أشعار المعاصرين في برلين والمتحف البريطاني.

(١١) **السيد عبد الله بن علوي بن محمد الحدادي الحسيني التريمي المتوفى سنة ١١٣٢:** له الدر المنظوم لذوي الفهوم، طبع بمصر سنة ١٣٠٢.

(١٢) **صفي الدين القاطن المتوفى ١١٩٩:** له ديوان في المتحف البريطاني.

كتب الأدب خاصة

وهناك طائفة من الأدباء خلفوا مجاميع أدبية من غير نظمهم وفيها فوائد تاريخية نذكر منها: أولًا مجاميع أدباء مصر والشام.

كتب الأدب بمصر والشام

(١) مسلاة الحزن والتذكرة عند مصائب الزمن، فيه فوائد تاريخية وأحاديث نبوية وصوفية، لمحمد بن رمضان الغزي المصري من تلاميذ السيوطي، كتب نحو سنة ٩٣٠ في برلين وكوبرلي.

(٢) نزهة الناظر وبهجة الخاطر، لزين الدين بن خالد البلاطنسي الشامي المتوفى سنة ٩٣٦ في الأسكوريال.

(٣) جواهر الذخائر في الكبائر والصغائر: لبدر الدين الغزي العاملي الدمشقي بن رياض الدين (٩٤٩) في المكتبة الخديوية، وعليها شرح لرضي الدين المقدسي فيها.

(٤) تحصين المنازل من هول الزلازل: لنور الدين علي بن الجزار، ألفها ٩٨٤ في المكتبة الخديوية.

(٥) الخبر عن معرفة عجائب البشر: لأبي عبد الله التواتي الباجي (١٠٢٤) مجموع حكايات، في المتحف البريطاني.

(٦) روضة المشتاق وبهجة العشاق، نظمًا ونثرًا لشيخ الإسلام العارف بالله أحمد أفندي (نحو ١٠٣٠) في المتحف البريطاني.

(٧) نزهة الأخيار ومجموع النوادر والأخبار: لابن أبي الوفاء بن معروف الخلوتي الحموي (نحو ١٠٣١) في برلين.

(٨) مفاخرة بين أولاد الخلفاء الراشدين: فيها فوائد أدبية اجتماعية، لمحمد الهريري الحلبي الدمشقي (١٠٣٧) في برلين.

(٩) مطالع البدور العلية في منازل السرور الأدبية، لعلي الشربيني (نحو ١٠٤٤) في برلين.

(١٠) أبكار الأفكار وفاكهة الأخيار، على مثال سلوان المطالع لصالح التمرتاشي (١٠٥٥)، في برلين.

(١١) الجواهر الفريدة في النوادر المفيدة، وكتاب النوادر المضحكة والهزليات المطربة، والدر المكنون في السبع فنون أي فنون الشعر: هذه الكتب الثلاثة لمحمد بن أحمد بن إياس الحنفي المتوفى نحو سنة ١٠٦٥، الأولان في برلين والثالث في باريس، وهو غير أبي البركات بن إياس المؤرخ الآتي ذكره.

(١٢) نزهة الألباب وبغية الأحباب: لابن عمر الأحدب (١٠٦٦) في غوطا.

(١٣) ديوان خطب: لابن المحاسني محمد تاج الدين الأستاذ في الجامع الأموي (١٠٧٢) في برلين.

(١٤) إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس، لمحمد دياب الأتليدي (١١٠٠) هو من كتب الأدب والتاريخ فيه تفصيل لنكبة البرامكة لا يوجد في سواه، لكنه لا يخلو من المبالغات والتزويق القصصي، طبع بمصر مرارًا.

(١٥) التمييز في النصائح: لحسين بن فخر الدين بن قرقماس بن معن الشامي، توفي بالأستانة سنة ١١٠٩ منه نسخة في المكتبة الخديوية.

(١٦) روض الأدب: لحسن الأنطاكي (١١٣٠) طبع بالأستانة سنة ١٢٨٦.

(١٧) تنبيه الأفكار للنافع والضار: ويسمى أيضًا «إجماع الإياس من الوثوق بالناس»، هي قصائد مرتبة على الأبجدية للشيخ حسن البدري الأزهري الحجازي، المتوفى سنة ١١٣١، منها نسخة في المكتبة الخديوية في ٢٤٠ صفحة في الحث على النافع والنهي عن الضار.

(١٨) النوادر والروض الأنيق الزاهر: لمصطفى بن عبد اللطيف العوني ١١٥٠، في برلين.

(١٩) ديوان خطب جامعة، وفتح السلام مع شرح مصباح الظلام، ونظم المختلطات مع شرح أسرار المعقولات، كلها لأحمد المجيري الملوي (١١٨١) وكلها موجودة في المكتبة الخديوية.

(٢٠) الدرر اليتيمة الكاملة المتعلقة بالشهور الثلاثة الفاضلة، لخليل بن شمس الدين الخضري الرشيدي (١١٨٦) في برلين.

(٢١) الشرح والفرح: للشيخ إبراهيم، قصص أدبية كتبها (١١٩٧) في غوطا.

(٢٢) بغية الجليس المسامر ونزهة الأرواح والخواطر في الأشعار والنوادر، مرتبة حسب طبقات أصحابها القضاة والنحويين والعلماء والأعراب والجواري والغلمان في ٢١ بابًا لشهاب الدين البشاري في القرن الثاني عشر في غوطا وباريس.

كتب الأدب خارج مصر والشام

(١) سفينة نوح: لعمر بن أحمد بن علي الحلبي الشماع، جمعها بمكة سنة ٩٢٧ وفيها أخبار وتراجم وآداب وأشعار وحكم وفقه وأحكام وغير ذلك في عدة مجلدات، منها المجلد ٢٢ في المكتبة الخديوية بخط قديم.

(٢) عيون الأخبار: أحاديث وأمثال وقصص لعيسى بن أحمد اللخمي الإشبيلي (٩٣٠) في باريس وبرلين.

(٣) روض الأخيار: لمحيي الدين بن الخطيب قاسم بن يعقوب من اماسيا، توفي سنة ٩٤٠ أكثره مأخوذ من ربيع الأبرار للزمخشري، طبع بمصر مرارًا.

(٤) جالب السرور وسالب الغرور: في فينا، والمقالات في علم المحاضرات في مواضيع أخلاقية إدارية أدبية كمكارم الأخلاق والسلطة والوزارة والنساء والإماء، في المكتبة الخديوية في ٢٠٠ صفحة، كلاهما لمحمد القرياغي (٩٤٢).

(٥) نور الحقيقة ونور الحديقة: لحسين بن عبد الصمد الحارثي نحو (٩٤٥) في ليدن.

(٦) رسائل مختلفة لأم الولد زاده بن قاضي حلب (٩٨١) في فينا.

(٧) التمثال والمحاضرة لقطب الدين بن علاء الدين بن شمس الدين مفتي الحرمين، المتوفى سنة ٩٨٨ في الأبيات المفردة النادرة، رتبها على الأبجدية حسب الحروف الأولى من أبياتها بحيث يستفيد منها الراغبون في المذاكرة الشعرية، وقد أهدى الكتاب «لأمير المؤمنين الغالب بأمر الله الشريف عبد الله صاحب المغرب» منه نسخة في المكتبة الخديوية في ١٠٠ صفحة.

(٨) بغية الأريب وغنية الأديب: في ٥٥ بابًا ليوسف المغربي (١٠٠٢) في غوطا.

(٩) صدر الدين بن معصوم الحسيني المدني علي خان المتوفى سنة ١١٠٤ أقام في حيدر أباد الهند وله آثار فيها وخلف مؤلفات أدبية هامة:

(أ) سلافة العصر في محاسن أعيان العصر، يشتمل على تراجم شعراء القرن الحادي عشر، وهو ذيل لريحانة الألباء تنتهي سنة ١٠٨٢ جمع فيها أخبار الشعراء المعاصرين ونخبًا من أقوالهم أو ممن تقدمهم نحو ما فعل الثعالبي وغيره، اطلع على ريحانة الألباء للخفاجي فنحا نحوه ولكنه أغفل كثيرين وزاد غيرهم وقسمه إلى خمسة أبواب: (١) محاسن أهل الحرمين. (٢) محاسن أهل الشام ومصر. (٣) محاسن أهل اليمن. (٤) محاسن العجم والبحرين والعراق. (٥) محاسن أهل المغرب. منه نسخة في المكتبة الخديوية في ٦٨٠ صفحة، وقد طبع بمصر سنة ١٣٢٨.

(ب) سلوة الغريب وأسوة الأريب، هي رحلته إلى حيدر أباد سنة ١٠٦٦ منه نسخة في برلين.

(جـ) الدرجات الرفيعة في طبقات الإمامية من الشيعة، في برلين.

(د) بديعية عليها شرح في آخره تراجم مشاهير علماء البديع، في المكتبة الخديوية وبرلين وباريس.

(١٠) الحسن بن مسعود اليوسي المراكشي أصله بربري من قبيلة بني يوسي تفقه في سجلماسة ودرعة والسوس ومراكش، وتولى التدريس في فاس وتوفي سنة ١١١١ وله من المؤلفات:

(أ) الدالية طبعت في الإسكندرية سنة ١٢٩١.

(ب) زهر الأكم في الأمثال والحكم، في بطرسبورج.

(جـ) حاشية على كبرى السنوسي في باريس.

(د) كتاب المحاضرات طبع بفاس ١٣١٧.

(هـ) قانون على أحكام العلم وأحكام العالم وأحكام المتعلمين موسوعة في مواضيع شتى طبعت بفاس سنة ١٣١٠.

(١١) مبهج النفوس ومبلج العبوس: في نوادر الحكايات وغرائب المسامرات، لعبد الله بن حجلة اللاهوري (١١٢٢) في بطرسبورج.

(١٢) المقامة الزلالية البشارية بدون نقط، لأحمد بن إبراهيم الرسمي من كريت (١١٩٧) في برلين.

علوم اللغة

نريد بعلوم اللغة كل ما ينطوي تحتها من النحو والصرف واللغة بمعني المعاجم ونحوها، والمشتغلون في هذه العلوم كثيرون من غير علماء اللغة، وإنما نختص بالذكر هنا الذين غلب عليهم الاشتغال بها، كما أننا ندخل اللغوي في باب آخر إذا كان ما أخرجه من ذلك الباب أكثر فائدة، كما فعلنا برياض الدين الغزي العامري، فإنه لغوي لكنه ألف آثارًا في الفلاحة فوضعناه في ذلك الباب، وهاك أشهر علماء اللغة:

(١) علماء اللغة

(١) **شهاب الدين الخفاجي (توفي سنه ١٠٦٩هـ):** هو أحمد بن محمد بن عمر شهاب الدين الخفاجي المصري، ولد في سرياقوس قرب القاهرة، وتعلم أولًا على يدي الشنواني المتوفى سنة ١٠١٩، ثم رحل مع أبيه إلى الحرمين ثم إلى الأستانة، وتعين قاضيًا على الروملي ثم في سلانيك، وعينه السلطان مراد قاضيًا للعسكر بمصر، ثم استقال وسافر إلى دمشق فحلب فالأستانة، وعاد قاضيًا على القاهرة، وتوفي سنة ١٠٦٩، وكان أديبًا لغويًّا، ومن آثاره الباقية:

(أ) شفاء العليل بما في كلام العرب من الدخيل، جمع فيه ما ذكره العلماء قبله وزاد عليه، وصدر الكتاب بمقدمة في التعريب وشروطه، ثم أتى بالألفاظ المعربة، رتبها على الأبجدية وربما زاد عددها على ١٢٠٠ كلمة، طبع بمصر سنة ١٢٨٢ في ٢٤٥ صفحة، وطبع في غيرها.

(ب) شرح درة الغواص في أوهام الخواص للحريري، طبع بمصر سنة ١٢٧٣ وغيرها، وهو كتاب لغوي انتقادي.

(ج) طراز المجالس، هو من كتب الأدب واللغة، قسمه إلى خمسين مجلسًا وضمنه أبحاثًا ومقالات نقلها عن قهارمة الأدب كالجاحظ والصاحب وغيرهما، وفيها مقالات في الحجابة عند السلطان وأسبابها وشروطها توسع فيها، ويتخلل ذلك منتخبات من الشعر والحكم والقواعد الثابتة في الشعر واللغة والبيان، طبع بمصر سنة ١٢٨٤ وغيرها.

(د) حاشية على البيضاوي: طبعت بمصر سنة ١٢٨٣ في ثمانية مجلدات.

(ﻫ) شرح كتاب الشفاء في تاريخ حقوق المصطفى: طبع في الأستانة سنة ١٢٦٧ في ٤ مجلدات.

(و) ديوان شعر: منه نسخة في الخزانة التيمورية في نحو ٢٠٠ صفحة، بخط المؤلف على الأرجح.

(ز) قصائد مختلفة في برلين والمكتبة الخديوية وغوطا.

(ح) ريحانة النار: أو ذوات الأمثال يتضمن كل بيت مثلًا، في باريس.

(ط) خبايا الزوايا بما في الرجال من البقايا: هو من كتب الأدب لكنه يتضمن ترجمة نخبة من علماء عصره وفيهم شيوخه وشيوخ ابنه، يزيد عددهم على بضعة وسبعين بينهم طائفة يعز الوقوف على تراجمهم في سواه، وقد قسم الكلام فيه إلى خمسة أبواب حسب البلاد، فبدأ بمحاسن أهل الشام فالحجاز ومصر والمغرب وبلاد الروم، منه نسخ في المكتبة الخديوية في ٢٣٦ صفحة وفي برلين وغوطا وفينا وكوبرلي.

(ي) ريحانة الألبا ونزهة الحياة الدنيا: وهو كالسابق في أصل موضوعه لكنه توسع في الشعراء وأكثر من الأمثلة مع انتقادها وإيضاحها، قسمه إلى ثلاثة أقسام: الأول: في محاسن أهل الشام ونواحيها. والثاني: في محاسن العصرين من أهل المغرب وما والاها ومكة ومن بحماها والدولة الحسينية ومن بها من بقية العلماء والشعراء والأعيان، ونفحة من نفحات اليمن في ذلك الزمن. والقسم الثالث: في مصر وأحوالها ووصفها. طبع مرارًا بمصر وهو من خيرة كتب الأدب والتاريخ، وله ذيل اسمه «نفحة الريحانة» للمحبي المؤرخ الآتي ذكره (خلاصة الأثر ٢٣١ ج١).

(٢) **البديعي (توفي سنة ١٠٧٣هـ):** هو يوسف البديعي الدمشقي، تولى قضاء الموصل، وتوفي سنة ١٠٧٣ وله:

(أ) كتاب الحدائق البديعية في الأنواع الأدبية: مطول في البيان والشعر، منه الجزء الأول في غوطا.

(ب) هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام: هو درس هذا الشاعر ولمع من أخباره نحو ما يسميه الإفرنج Etude، منه نسخة في المكتبة الخديوية بخط المؤلف في ١٦٠ صفحة.

(جـ) الصبح المنبي، عن حيثية المتنبي: هو ترجمة مطولة انتقادية على المتنبي كما فعل بأبي تمام، منه نسخة في المكتبة الخديوية في ٢٦٤ صفحة ونسخ في غوطا وبرلين وباريس (خلاصة الأثر ٥١٠ ج٤).

(٣) **عبد القادر البغدادي (توفي سنة ١٠٩٣هـ):** هو عبد القادر بن عمر البغدادي، أصله من بغداد، ودرس في دمشق وتردد على القاهرة، ثم رحل إلى أدرنة، وتعرف إلى الصدر الأعظم أحمد باشا، والتقى بالمحبي هناك ثم مرض وعاد إلى القاهرة. وأخيرًا مات فيها، وله:

(أ) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب: هي شرح شواهد شرح الكافية ويتخلل الشرح تراجم معظم الشعراء والأدباء في الجاهلية وصدر الإسلام ممن يستشهد بأقوالهم مع سني الوفاة وهو كثير الفائدة، طبع بمصر سنة ١٢٩٩ في ٤ مجلدات كبيرة.

(ب) تعريب تحفة الشاهدي: في المكتبة الخديوية «خلاصة الأثر ٤٥١ ج٢».

(٤) **السيد مرتضى الزبيدي (توفي سنة ١٢٠٥هـ):** هو أبو الفيض محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرزاق الشهير بمرتضى الحسيني الزبيدي، ولد سنة ١١٤٥، ونشأ باليمن وارتحل في طلب العلم ثم جاء مصر سنة ١١٦٧، وحضر دروس أشياخ الوقت وتقرب من إسماعيل كتخذا عزبان وأولاده، فراج أمره واشتهر ذكره ولبس الملابس الفاخرة وركب الخيول المسومة، واجتمع بالأكابر والأعيان في أنحاء القطر المصري، ووضع في أسفاره إليها رحلات كثيرة، ثم عكف على شرح القاموس وأتمه في عدة سنين في ١٤ مجلدًا، وسماه «تاج العروس» ولما أكمله أولم وليمة جمع فيها طلاب العلم وأشياخه سنة ١١٨١ وأطلعهم عليه فشهدوا بفضله وقرظوه، ولما أنشأ محمد بك أبو الذهب مكتبته في جامعة قرب الأزهر أوعزوا إليه أن يقتني تاج العروس، فاشتراه منه

بمائة ألف درهم، وكانت له مشاركات بعلوم كثيرة، وألف كتبًا جمة، وكان على غير زي العلماء المصريين وشكلهم بلباسه وزيه، وقد اجتذب القلوب بمعارفه فالتف حوله الناس كما التفوا حول جمال الدين الأفغاني بعده، وكان السيد مرتضى يعرف التركية والفارسية والكرجية وسعى بعض مشائخ الأزهر للأخذ عنه، وخالف علماءه في طرق الإلقاء فزاد الناس إقبالًا عليه وتسابقوا في دعوته إلي بيوتهم وأهدوه الهدايا وما زال كذلك حتى مات، وأشهر آثاره:

(أ) تاج العروس في شرح جواهر القاموس: تقدم ذكره وهو شرح قاموس الفيروزآبادي، عول في شرحه على لسان العرب وغيره من كتب اللغة، وأبقى ترتيب الكلام كما كان في القاموس أي: على أواخر الألفاظ. وصدره بمقدمة في عشرة مقاصد، وقد عني إدوارد لين المستشرق الإنكليزي بوضع معجم عربي إنجليزي في أواسط القرن الماضي هو أطول معجم في هذا الموضوع، فكان تعويله على تاج العروس ولسان العرب لكنه لم يستطع إتمامه في حياته، فأتمته لجنة بعد مماته، فبلغت صفحاته أكثر من ٣٠٠٠ صفحة كبيرة مزدوجة، واستغرق طبعه بضع عشرة سنة في إيدنبرج، صدر الجزء الأول منه سنة ١٨٦٣، ثم صدرت سائر الأجزاء، وفي أوله مقدمة ضافية في اللغة واللغويين وأبحاث مفيدة ثم شرح القاموس على ترتيبه.

أما تاج العروس فطبع بعضه بمصر من سنة ١٢٨٦–١٢٨٧ في خمسة مجلدات، وطبع كله فيها من ١٣٠٦–١٣٠٧ في عشرة مجلدات، ومنه نسخة خطية في المكتبة الخديوية.

(ب) إتحاف السادة المتقين: شرح إحياء العلوم للغزالي، طبع بفاس سنة ١٣٠٤ في ١٣ جزءًا، وفي مصر سنة ١٣١١ في عشرة أجزاء.

(ج) الأمالي الشيخونة: في الحديث أملاها في جامع شيخون، في برلين.

(د) نشوة الارتياح في بيان حقيقة الميسر والقداح، في برلين.

(هـ) القول المبتوت في تحقيق لفظ تابوت، في بضع ورقات، بالمكتبة الخديوية.

(و) تحفة القماعيل في مدح شيخ العرب إسماعيل، في المكتبة الخديوية ١٤٥ صفحة.

(ز) رسالة في أحاديث يوم عاشوراء، فيها وله مؤلفات أخرى لم نقف على خبرها (ترجمته في الخطط التوفيقية ٩٤ ج٣).

(٥) **الصبان (توفي سنة ١٢٠٦هـ):** هو أبو العرفان محمد بن علي الصبان، تلقى طريق السادة الوفائية عن أبي الأنوار السادات، وهو الذي كناه بأبي العرفان، واشتغل باللغة واشتهر بالتحقيق، وخلف مؤلفات حسنة منها:

(أ) حاشية على شرح الأشموني على الألفية، طبعت بمصر مرارًا وهي مشهورة.

(ب) إتحاف أهل الإسلام بما يتعلق بالمصطفى وأهل بيته الكرام، في المكتبة الخديوية في ٣٥٢ صفحة.

(ج) إسعاف الراغبين في سيرة المصطفى وفضائل أهل بيته الطاهرين، ألفه بعد إتحاف أهل الإسلام المتقدم ذكره، طبع بمصر سنة ١٢٩٠.

(د) الرسالة الكبرى في البسملة: طبعت بمصر سنة ١٣٠٨.

(هـ) حاشية على شرح السلم.

(و) حاشية على شرح السمرقندية.

(ز) حاشية على آداب البحث، كلها مشهورة.

(ح) رسالة في علم البيان في المكتبة الخديوية.

(ط) منظومة في علم العروض: طبع بمصر سنة ١٣٠٧.

(ي) رسالة في الاستعارات: في الجزائر بخط المؤلف (الخطط التوفيقية ٨٤ ج٣).

كتب أخرى في علوم اللغة

(١) دفع الالتباس عن منكر القياس: لابن أبي اللطف (نحو ٩٩٢) بالمكتبة الخديوية.

(٢) الطراز الأسمى عن كنز المعمى: للبكاء (نحو ٩٩٣) في الأسكوريال.

(٣) الجواهر المفتخرة من الكنايات المعتبرة، لابن العراق (نحو ٩٩٥) في ليدن، وله أيضًا الزناد الواري في ذكر أبناء السراري، في ليدن، بخط المؤلف.

(٤) تنبيه الأنام في توجيه الكلام بما يخطئ به العوام، لخسرو زاده البروسوي (٩٩٨)، في برلين.

(٥) حلية أهل الكمال بأجوبة أسئلة الجلال، للشنواني (١٠١٩) أجاب فيه على أسئلة جلال الدين السيوطي عن حروف المعجم واشتقاق أسمائها، منها نسخة في المكتبة الخديوية.

(٦) زبدة الأمثال: لمصطفى الغاليبولي (١٠٢٤) في منشن.

(٧) موارد البصائر لفرائد الضرائر: في الجوازات الشعرية من حيث الأوزان لمحمد سليم أفندي (١١٣٨) في فينا.

(٨) الحلة الضافية في علمي العروض والقافية! للمداري (١١٩٠) في المكتبة الخديوية.

التاريخ والمؤرخون

أصاب التاريخ في هذا العصر ما أصاب سائر الآداب من الضعف والركاكة، ويمتاز فيه عما في العصور المتقدمة بنبوغ أحسن كتابه في الروملي والأناضول، ولكننا سنتبع في تقسيمه نحو ما فعلنا في العصر الماضي:

(١) المؤرخون بمصر والشام

(١-١) التراجم والسير

(١) **شمس الدين الشامي (توفي سنة ٩٤٢هـ):** هو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن يوسف بن علي بن يوسف الدمشقي الصالحي الشامي، رحل من الشام إلى مصر وأقام في البرقوقية بصحراء مصر وتوفي سنة ٩٤٢، وهو معدود من المحدثين لكننا وضعناه بين المؤرخين لأهمية كتبه التاريخية وهي:

(أ) السيرة الشامية: وتسمى «سبل الهدى والإرشاد في سيرة خير العباد»، هي مطول في السيرة النبوية جمعها من أكثر من ٣٠٠ كتاب وتحرى فيها الصواب فجاءت في نحو ٧٠٠ باب، ختم كل باب بإيضاح ما أشكل فيه وبيان غريب الألفاظ وضبط المشكلات، رتبها محمد الفيشي أحد تلاميذه من مسودات المؤلف وغيرها، منها نسخة في أربعة مجلدات كبيرة في المكتبة الخديوية في نحو ٢٠٠٠ صفحة وأجزاء متفرقة في غيرها.

(ب) عقود الجمان في مناقب أبي حنيفة النعمان: دافع فيه عن أبي حنيفة ردًّا على كتاب ظهر في أثناء ذلك طعنًا في الإمام المذكور: وعقود الجمان مطول في ترجمة أبي حنيفة، منه نسخة في المكتبة الخديوية في ٤٦٠ صفحة وفي أيا صوفيا ويني جامع وفينا.

(ج) مطلع النور في فضل الطور: ألفه بمناسبة ما بلغه عن وجود جامع في جبل الطور استولى عليه الرهبان، وسدوا بابه الأصلي وفتحوا إليه بابًا من ديرهم، منه نسخة في المكتبة الخديوية في ٢٢ صفحة.

(٢) **ابن طولون الصالحي (توفي سنة ٩٥٥هـ):** هو محمد بن علي بن محمد بن طولون، ولد في الصالحية قرب دمشق وتعلم في القاهرة، ثم علم النحو والحديث في المدرسة الصالحية بالشام، لكنه ألف في علوم كثيرة بضعة وعشرين كتابًا يطول بنا ذكرها فنكتفي بما يهم القراء منها:

(أ) الغرف العلية في تراجم متأخري الحنفية: هو ذيل لكتاب الجواهر المضيئة لابن أبي الوفاء، في المتحف البريطاني، ومنه الجزء الأول بخط المؤلف في الخزانة التيمورية.

(ب) التمتع بالإقران بين تراجم الشيوخ والأقران: فيه تراجم علماء القرن التاسع والعاشر، له مختصر لابن المنلا في برلين.

(ج) ذخائر القصر في تراجم نبلاء العصر: هو تكملة للكتاب المتقدم ذكره، فيه ١٣٦ ترجمة من أعيان دمشق مرتبة على الأبجدية، في غوطا.

(د) إنباء الأمراء بأنباء الوزراء: فيه تراجم ٣١ وزيرًا، في برلين.

(هـ) النطق المنبي عن ترجمة الشيخ المحيوي ابن العربي: في برلين.

(و) غاية البيان في ترجمة الشيخ أرسلان: في برلين.

(ز) النفحة الزنبقية في الأسئلة الدمشقية: ٨٢ سؤالًا في مواضيع مختلفة أجاب عليها في برلين.

(ح) اللؤلؤ المنظوم في الوقوف على ما اشتغلت به من العلوم: في المتحف البريطاني.

(ط) الكناش لفوائد الناس، في الأسكوريال.

(ي) مجموعة من ١٤ رسالة بخط المؤلف في الخزانة التيمورية.

(٣) **قينالي زاده (توفي سنة ٩٧٩هـ):** هو علي جلبي بن أمر الله قيتالي زاده الحميدي، كان من كبار أساتذة الفقه في أدرنة وبروسة وكوتاهية والأستانة، وله مشاركة في علوم كثيرة، يهمنا من مؤلفاته: طبقات العلماء الحنفية: فيها تراجم ٢٣١ عالمًا في ٢١ طبقة مرتبة حسب السنين إلى سنة ٩٤٠ منها نسخ في فينا والمتحف البريطاني وأوكسفورد.

(٤) **ابن أيوب النعماني (توفي سنة ٩٩٩هـ):** هو موسى بن يوسف بن أحمد بك يوسف شرف الدين بن أيوب الأنصاري النعماني الدمشقي، تولى القضاء في دمشق، وله:

(أ) الروض العاطر فيما تيسر من أخبار القرن السابع إلى ختام القرن العاشر: منه نسخة في برلين.

(ب) خلاصة نزهة الخاطر وبهجة الناظر في قضاة دمشق، في بطرسبورج.

(ج) التذكرة الأيوبية: في تراجم المشاهير من كل عصر في عدة أجزاء، منه الجزء الأول في برلين.

(٥) **الحسن البوريني (توفي سنة ١٠٢٤هـ):** هو الحسن بن محمد بن محمد بن الحسن البوريني الدمشقي الصفوري بدر الدين، ولد في بورين وجاء مع أبيه إلى دمشق وهو غلام، ثم عاد إلى القدس ودمشق وتولى التدريس في عدة مدارس وتولى قضاء الحج الشامي سنة ١٠٢٠، وله:

(أ) تراجم الأعيان من أبناء الزمان: يشتمل على تراجم ٢٠٥ من الأعيان الذين عرفهم من عالم أو سلطان أو أمير أو صانع سواء رآه أو سمع عنه، بدأ بتأليفه سنة ١٠٠٩، ورتبه على حروف المعجم، وأتمه سنة ١٠٢٣ وقد استقى منه المحبي صاحب خلاصة الأثر، الآتي ذكره، منه نسخة في المكتبة الخديوية في ٨٠٠ صفحة، وفي برلين وفينا.

(ب) ديوان شعر في كوبرلي.

(ج) شرح ديوان ابن الفارض: مطبوع بمصر سنة ١٣٠٦ مع شرح عبد الغني النابلسي.

(د) شرح التائية الصغرى: في الأسكوريال(خلاصة الأثر ٥١ ج٢).

(٦) **مرعي الكرمي (توفي سنة ١٠٣٣هـ):** هو زين الدين مرعي بن يوسف بن أبي بكر الكرمي المقدسي الحنبلي، ولد في طول كرم قرب نابلس، ودرس في القدس والقاهرة وعلم في الأزهر والجامع الطولوني على مذهب الحنابلة وألف في المواضيع الدينية والتاريخية والأدبية، نذكر منها ما يهم القراء:

(أ) نزهة الناظرين في تاريخ من ولي مصر من الخلفاء والسلاطين: منه نسخ خطية في معظم مكاتب أوربا وفي المكتبة الخديوية.

(ب) قلائد العقيان في فضائل آل عثمان: في فينا وباريس، وله ترجمة تركية في فينا.

(ج) الكواكب الدرية في مناقب المجتهد ابن تيمية: في برلين.
(د) تحقيق البرهان في شأن الدخان: في غوطا.
(هـ) بديع الإنشاء والصفات في المكاتبات والمراسلات: طبع بمصر مرارًا وطبع في الأستانة سنة ١٢٩١ (خلاصة الأثر ٣٥٨ ج٤).

(٧) **نور الدين الحلبي (توفي سنة ١٠٤٤هـ):** هو نور الدين بن برهان الدين علي بن إبراهيم بن أحمد بن علي بن عمر الحلبي، ولد في القاهرة سنة ٩٧٥ وتولى التدريس في المدرسة الصلاحية، له مؤلفات عديدة أهمها:

(أ) إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون: ويعرف بالسيرة الحلبية، لخصها عن السيرة التي تقدمته ولا سيما السيرة الشامية لشمس الدين الصالحي الدمشقي المتقدم ذكره، والسير الحلبية موجودة كاملة في مكاتب أوربا والأستانة، وقد طبعت بمصر سنة ١٢٨٠ وسنة ١٣٠٨ في ثلاثة مجلدات كبيرة، وفيها تفصيل سيرة النبي ويتخلل ذلك كثير من الفوائد التاريخية والاجتماعية عن العرب الجاهلية، وله:
(ب) النصيحة العلوية في بيان حسن طريقة السادة الأحمدية (أحمد البدوي) في برلين (خلاصة الأثر ١٢٢ ج٣).

(٨) **عبد الرحمن العمادي (توفي سنة ١٠٥١هـ):** هو عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن عماد الدين العمادي الحنفي الدمشقي، تلميذ البوريني، وتولى التدريس في الشبلية والسليمية والسليمانية وتولى إفتاء الشام، وله:

(أ) الروضة الريا فيمن دفن بداريا: تراجم قوم دفنوا هناك، في برلين وغوطا.
(ب) تحرير التأويل على ما في معاني بعض آي التنزيل: منها نسخة في برلين.
(ج) له كتب أخرى في الصلاة بالمكتبة الخديوية (خلاصة الأثر ٣٧٨ ج٢).

(٩) **نجم الدين الغزي العامري (توفي سنة ١٠٦١هـ):** هو أبو المكارم محمد بن محمد نجم الدين الغزي العامري الدمشقي، ولد بدمشق سنة ٩٧٧ وأبوه شيخ الإسلام هناك، وتولى التدريس في المدرسة الشامية البرانية والعمرية، وإمامة الجامع الأموي، وسافر إلى الأستانة وعاد إلى دمشق وتوفي فيها وله:

(أ) الكواكب السائرة بمناقب علماء المائة العاشرة: منها نسخة في مكتبة الملك الظاهر في دمشق وفي المتحف البريطاني، وعنه أخذ المحبي، وله مختصر في برلين.

(ب) الفوائد المجتمعة: أرجوزة في خصائص يوم الجمعة، لها شروح في برلين (خلاصة الأثر ١٨٩ ج٤).

(١٠) **عبد البر الفيومي (توفي سنة ١٠٧١هـ):** هو عبد البر بن عبد القادر بن محمد الفيومي العوفي الحنفي، ولد في القاهرة وأبوه أستاذ، وتعلم فيها وفي دمشق وحلب والأستانة وأخذ عن الخفاجي، فلما صار هذا قاضيًا في القاهرة تعين له معيدًا، ثم عاد إلى الأستانة وتولى قضاء الشافعية والتدريس في مدرسة الصالحية بالقدس، ثم ذهب إلى دمشق فالأستانة وانتظم في سلك الموالي حتى مات، وله:

(أ) التذكرة: جمع فيها بين تراجم الشعراء للخفاجي والفارسكوري وغيرهما ممن عاصره منه نسخة في برلين، وهي من جملة مآخذ المحبي.

(ب) بلوغ الإرب والسول بالتشوق لذكر نسب الرسول، منه نسخة في المكتبة الخديوية في نحو ٢٠٠ صفحة، وله شروح ومنظومات (خلاصة الأثر ٢٩١ ج٢).

(١١) **المحبي (توفي سنة ١١١١هـ):** هو محمد أمين بن فضل الله بن محب الله بن محمد بن محب الدين المحبي الشامي، ولد في دمشق سنة ١٠٦١ ونشأ بها في كنف والده، ولما أتم دروسه سافر إلى الأستانة ثم عاد إلى دمشق وسافر إلى بروسة ومنها إلى أدرنة مع محمد بن لطف الله بن بيرام قاضي العسكر، وعاد معه إلى الأستانة وخدمه في مرضه حتى توفي سنة ١٠٩٢ ثم سافر إلى دمشق وأخذ يشتغل بالأدب والتاريخ، ثم انتقل إلى القاهرة وتولى القضاء فيها وعاد إلى دمشق وصار أستاذًا في المدرسة الأمينية، وتوفي هناك سنة ١١١١ وله آثار تاريخية هامة:

(أ) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر: هو معجم تاريخي يشتمل على نحو ١٣٠٠ ترجمة ممن توفوا في أثناء القرن المذكور أو حوله، وقد عولنا عليه في كثير من تراجم أهل هذا القرن، طبع في القاهرة في ٤ مجلدات سنة ١٢٨٤.

(ب) نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة: ذيل لريحانة الألباء للخفاجي قسمه إلى ثمانية أبواب في محاسن الشعراء ونوادر البلغاء في دمشق وحلب والعراق واليمن والحجاز ومصر والمغرب وبلاد الروم فهو خزانة أدب وتراجم لمعاصريه ممن عرفهم أو سمع عنهم، منه نسخة في المكتبة الخديوية في ٣٠٦ صفحات كبيرة، عليها ذيل لمحمود السؤالاتي العثماني، في برلين.

(ج) ديوان شعر: أكثره لأصدقائه ومحبيه، منه نسخة في الخزانة التيمورية في ٢٠٠ صفحة، مكتوب في أولها أنها بخط المؤلف.

(د) براحة الأرواح وجالبة السرور والأفراح: رجز، في برلين.

(هـ) المعول عليه في المضاف والمضاف إليه، في المكتبة الخديوية.

(و) قصد السبيل بما في اللغة العربية من الدخيل، رتبه على الأبجدية وصل فيه إلى حرف الميم، منه نسخة في الخزانة التيمورية.

(ز) كتاب الأمثال: في المدرسة الأحمدية بحلب (سلك الدرر ٨٦ ج٤).

(١٢) **المرادي (توفي سنة ١٢٠٦هـ):** هو أبو الفضل محمد خليل المرادي النقشبندي مفتي الحنفية في دمشق ونقيب العلويين في حلب، وله من المؤلفات:

(أ) كتاب سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر: معجم تاريخي مرتب على الأبجدية أخذه من رحلات للمعاصرين ذكرها في مقدمته، وأضاف إليها ما عرفه وسمعه. قلد به خلاصة الأثر للمحبي، طبع بمصر في أربعة مجلدات من سنة ١٢٩١–١٣٠١، وقد عولنا عليه في بعض التراجم.

(ب) مطمح الواجد في ترجمة الوالد الماجد: ترجمة أبيه السيد علي المتوفى سنة ١١٨٤ منه نسخة في المتحف البريطاني.

تراجم أخرى في هذا العصر بمصر والشام

(١) **الجواهر السنية في النسبة والكرامات الأحمدية:** تحتوي على ترجمة السيد البدوي وكراماته، طبع بمصر سنة ١٢٧٧.

(٢) **تاريخ السلطان الملك الأشرف قايتباي المتوفى سنة ٩٠١:** ألفه أحد معاصريه، ذكر فيه مناقب هذا السلطان وأعماله وأخبار من سبقه من الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي إلى أيامه، منه نسخة في المكتبة الخديوية في ١١٦ صفحة.

(٣) **الداودي المالكي (٩٤١):** من تلاميذ السيوطي له: طبقات المفسرين معجم تاريخي لإعلام المفسرين، منه نسخة في المكتبة الخديوية في ٧٠٠ صفحة.

(٤) **قطب الدين بن سلطان الدمشقي (٩٥٠):** له الجواهر المضية في أيام الدولة العثمانية، ويشتمل على ترجمة السلطان سليم الفاتح، في برلين.

(٥) **أحمد بن محمد الوتري نحو سنة ٩٧٠:** له روضة الناظرين وخلاصة مناقب الصالحين، في تراجم السادة الرفاعية، طبع بمصر سنة ١٣٠٦.

(٦) **رمضان بن عامر (نحو ٩٨٠):** له فتح الوجود وشرح الجود في مدح الباشا محمود، أحد ولاة مصر في زمن السلطان سليم الثاني، في باريس.

(٧) **أبو اللطائف بن فارس:** من أهل القرن العاشر (ويقال: إنه من أهل القرن التاسع)، له: المنح الإلهية في مناقب السادة الوفائية، منه نسخة في الخزانة التيمورية في ٨٠ صفحة.

(٨) **محمد بن يحيى التاذفي الحنبلي (٩٦٣):** له قلائد الجواهر في مناقب الشيخ عبد القادر (الجيلاني)، أطال في ترجمته ولم يعجبه اختصار سواه، وذكر ذريته في حماة وحلب والقاهرة وبغداد ومريديه وأتباعه في كتاب ضخم، طبع بمصر سنة ١٣٠٣.

(٩) **تقي الدين بن عبد القادر المصري المتوفى سنة ١٠٠٥:** له الطبقات السنية في تراجم الحنفية، هو أجلُّ كتاب في موضوعه منه نسخة في الخزانة التيمورية في ٤ مجلدات.

(١٠) **ابن المؤيد (نحو ١٠٣٠):** له روضة الألباب وتحفة الأحباب، في تراجم الصحابة وغيرهم في برلين.

(١١) **نور الدين الزوكاري (١٠٣٢):** له الإشارات إلى أماكن الزيارات في ذكر الصحابة والعلماء والصالحين المدفونين في دمشق وشيء من تراجمهم في برلين.

(١٢) **الخالدي الصفدي المتوفى سنة ١٠٣٤:** له تاريخ فخر الدين المعني الدرزي وابنه علي، منه نسخة في منشن وقد نشرته مجلة الآثار التي تصدر بزحلة في سنتها الثانية.

(١٣) **عبد الكريم أفندي بن سنان (نحو ١٠٤٥):** له تراجم كبار العلماء والوزراء في فينا، اقتبس المحبي منه.

(١٤) **أبو الوفاء بن عبد الوهاب العرضي الحلبي (١٠٧١):** له معادن الذهب في الأعيان المشرفة بهم حلب، في برلين، استعان به المحبي.

(١٥) **عبد الرحمن بن حمزة الحسيني (نحو ١١٠٠):** له الجواهر والدرر في تراجم أعيان القرن الحادي عشر، بعضه في برلين.

(١٦) **تراجم ثلاثين عالمًا في القرن ١٢ بالقدس:** للقدسي، في المتحف البريطاني.

(١٧) **أبو اللطائف الأجهوري المالكي المغربي:** أحد أساتذة الأزهر (١١٩٨)، له: مشارق الأنوار في آل البيت المختار ممن دفن بالقاهرة، في المكتبة الخديوية.

(١٨) **أبو الفضائل العوضي البدري (١٢١٤):** له مناهل الصفاء في مناقب آل الوفا في تراجم العلوية من أسرة الوفا، منه نسخة في غوطا.

(١-٢) تواريخ البلاد والدول في مصر والشام

(١) **ابن إياس (توفي نحو سنة ٩٣٠هـ):** هو أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس زين الدين الناصري الجركسي الحنبلي من تلاميذ السيوطي، له:

(أ) بدائع الزهور في وقائع الدهور: تاريخ مصر إلى سنة ٩٢٨ مرتب على السنين والأشهر، طبع بمصر سنة ١٣١١ في ثلاثة أجزاء كبيرة، ويعرف أيضًا بتاريخ مصر لابن إياس، بدأ بفذلكة في وصف مصر وخلاصة أخبار الفتح الإسلامي وما توالى عليها من الدول إجمالًا إلى سلطنة الملك الظاهر بيبرس، ثم أطال في ذكر الحوادث من سنة ٦٦٩ إلى سنة ٩٢٨، وفيه تفصيل حسن عن فتح العثمانيين سنة ٩٢٣؛ لأن المؤلف كان فيه شاهد عين رأى ووصف، ويتخلل ذلك فوائد هامة عن سكان مصر وحكامهم من حيث السياسة والاجتماع، وعبارة الكتاب ركيكة مثل أكثر كتب التاريخ في ذلك العصر، والنسخة المطبوعة المشار إليها تنقص أخبار بضع عشرة سنة من سنة ٩٠٦–٩٢٢ وهي مدة سلطنة قنصوه الغوري، ذلك ما حمل على الظن أن الكتاب للسيوطي (المتوفى سنة ٩١١)، ولكن السيد محمد الببلاوي وكيل المكتبة الخديوية أكد لنا أن نسخة بطرسبورج الخطية لهذا الكتاب فيها أخبار تلك المدة، وبين أيدي الناس كتاب بهذا الاسم طبع بمصر مرارًا هو وجزء صغير فيه أخبار وقصص قديمة بعيدة عن التحقيق، وفي نسبته إلى ابن إياس اختلاف.

(ب) نشق الأزهار في عجائب الأقطار، ويسمى أيضًا «خريدة العجائب وبغية الطالب» قال في مقدمته: إنه طالع كتب تواريخ الأمم فأحب أن يجمع كتابًا يذكر فيه أغرب ما سمع وأعجب ما رأى بالاختصار، فذكر فيه كثيرًا من الطلسمات التي يعتقدها أهل زمانه في البرابي، وما يتناقلونه من سير ملوكها وأبنيتهم وأخبار النيل والأهرام وعجائب مصر وأقاليمها وغير ذلك، ويعد أكثره الآن من قبيل الخرافات، منه نسخة في المكتبة الخديوية في نحو ٥٠٠ صفحة، ويوجد أيضًا في مكاتب أوربا وتونس، ونشرت خلاصة منه في العربية والفرنساوية سنة ١٨٠٧.

(جـ) مرج الزهور في وقائع الدهور: تاريخ عام، في غوطا وفينا وباريس.

(د) نزهة الأمم في العجائب والحكم، في أيا صوفيا.

(٢) **شهاب الدين المنوفي (توفي سنة ٩٣١هـ):** هو أبو العباس أحمد بن محمد بن محمد بن عبد السلام شهاب الدين المنوفي الشافعي، ولد في منوف سنة ٨٤٧ وتعلم وترقى حتى صار قاضيًا فيها، له:

(أ) الفيض المديد في أخبار النيل السديد، في مرسيليا.

(ب) البدر الطالع من الضوء اللامع: مختصر الضوء اللامع للسخاوي، في فينا وباريس.

(٣) **ابن زنبل الرمال (بُعيْد سنة ٩٦٠هـ):** هو أحمد بن أبي الحسن علي بن أحمد نور الدين المحلي الشافعي بن زنبل الرمال كان من موظفي نظارة الجيش إلى سنة ٩٦٠، وكان يتعاطى ضرب الرمل والنجامة، وله:

(أ) فتح مصر، أو أخذها من الجراكسة على يد السلطان سليم من غلبة قنصوه الغوري سنة ٩٢١ إلى فتح مصر سنة ٩٢٢ وهو تاريخ الفتح العثماني بمصر والوقائع والحروب مع الغوري وطومان باي، منه نسخة خطية في المكتبة الخديوية في ٢١٨ صفحة، وطبع بمصر على الحجر سنة ١٢٨٧ وعبارته ركيكة، ومنه نسخ في فينا وليدن وباريس، وله نسخة مختصرة اسمها «واقعات السلطان سليم خان» في فينا، وعليه ذيل إلى وفاة السلطان سليم سنة ٩٢٦ وذيل آخر إلى فتح رودس ومالطة، كلاهما في غوطا.

(ب) سيرة السلطان سليم خان والجراكسة: وما جرى بينه وبين قنصوه الغوري يشبه في موضوعه وأسلوبه الكتاب المتقدم ذكره، منه نسخة في المكتبة الخديوية في ٢٥٦ صفحة.

(جـ) تحفة الملوك والرغائب لما في البر والبحر من العجائب والغرائب: هي جغرافية عامة، في أكسفورد.

(د) المقالات في حل المشكلات: في السحر والرمل، في المكتبة الخديوية.

(هـ) القانون في الدنيا: بالنجامة، منه قطعة في برلين.

(٤) **نور الدين المنهاجي (نحو سنة ٩٦٦هـ):** هو نور الدين (أو بدر الدين) محمد بن يوسف المنهاجي (أو الصنهاجي) خطيب السيد نفيسة نحو سنة ٩٦٦ له:

(أ) البدور السافرة فيمن ولي القاهرة، أرجوزة فيها أخبار من ولي القاهرة من الفتح إلى سنة ٩٥٦ في فينا.

(ب) النجوم الزاهرة في ولاة القاهرة، أرجوزة أخرى في ٢٠٠ بيت منها نسخة في المكتبة الخديوية وفيها أسماء ولاة القاهرة من الفتح إلى سنة ٩٦١هـ.

(٥) **رياض الدين بن الحنبلي (توفي سنة ٩٧١هـ):** هو رياض الدين محمد بن إبراهيم بن يوسف بن عبد الرحمن بن الحسن الحلبي الربعي التاذفي (نسبة إلى تاذف من أعمال حلب) الحنبلي القادري من أحفاد ابن الشحنة، توفي في حلب وقد ألف في العلوم المختلفة وفي جملتها الطب والرياضيات، فضلًا عن اللغة والشعر والتاريخ، وهاك ما يهمنا من مؤلفاته:

(أ) الزبد والضرب في تاريخ حلب، مختصر تاريخ ابن العديم مع ذيل إلى سنة ٩٥١، في بطرسبورج والمتحف البريطاني وأكسفورد.

(ب) در الحبب في تاريخ أعيان حلب، تراجم مشاهير حلب في عصره، في غوطا وفينا وباريس والمتحف البريطاني وأكسفورد ويني جامع ونور عثمانية.

(جـ) مصابيح أرباب الرياسة ومفاتيح أبواب الكياسة، في الحساب، في برلين.

(د) الدرر الساطعة في الأدوية القاطعة، في برلين والمتحف البريطاني.

(هـ) ديوان شعر، جمعه تلميذه ابن المنلا، منه نسخة في المكتبة الخديوية.

(٦) **الإسحاقي (بُعيْد سنة ١٠٣٢هـ):** هو محمد بن عبد المعطي بن أبي الفتح بن أحمد بن عبد المغني بن علي الإسحاقي المنوفي من مؤلفاته:

(أ) لطائف أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول، هو تاريخ مصر من فتحها إلى سلطنة مصطفى الأول سنة ١٠٣٢ وجعله تقدمة إليه، وقد يسمى «دوحة الأزهار» طبع بمصر مرارًا، وفي أثنائه حكايات يخجل الأديب من تلاوتها، لا مسوغ لإدخالها سوى انحطاط الآداب في ذلك العصر.

(ب) الروض الباسم في أخبار من مضى من العوالم، هو تاريخ النبي والخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين والفاطمين والسلاطين الأيوبيين وتاريخ مصر إلى سنة ١٠٣٢، منه نسخة في المتحف البريطاني وباريس.

(٧) **المقري (توفي سنة ١٠٤١هـ):**هو أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد المقري التلمساني المالكي الأشعري، ولد في تلمسان في أواخر القرن العاشر، وسمي المقري بتشديد القاف نسبة إلي قرية بهذا الاسم نسب إليها آباؤه، وتعلم في فاس ومراكش ثم

نزل القاهرة سنة ١٠٨٢ وتزوج فيها من السادة الوفائية ورحل إلى القدس وحج خمس مرات، وأقام في المدينة وأملى الحديث وعاد إلى القاهرة سنة ١٠٣٩، وأقام في المدرسة الجقمقية وتوفي بمصر فجأة، ودفن في مقبرة المجاورين، وهاك أشهر مؤلفاته:

(أ) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب جعله قسمين كبيرين في ٤ مجلدات كبيرة، القسم الأول: مؤلف من الجزءين الأول والثاني ويشتمل على رحلة المؤلف ووصف جزيرة الأندلس وما تحتويه من المحاسن وفتح المسلمين لها ومن توالى عليها من الأمراء أو الخلفاء إلى ملوك الطوائف، ووصف قرطبة ومحاسنها وتراجم من رحل من الأندلسيين إلى بلاد المشرق وأمثلة من أشعارهم وأقوالهم، ويزيد عددهم على ٣٤٠ شاعرًا وأديبًا، ثم تراجم الوافدين على الأندلس من أهل المشرق وفيهم جماعة من النساء، وأورد ما اتصف به أهل الأندلس من توقد الأذهان وطلب العلم وتفضيل الأندلس على سواها، ومذاهب الأندلسيين وسائر أحوالهم إلى خروجها من أيدي المسلمين.

والقسم الثاني: مؤلف من الجزءين الثالث والرابع فيهما ترجمة مطولة للسان الدين بن الخطيب المتقدم ذكره (فصل التاريخ) وأقواله وأشعاره ومشائخه وغير ذلك، وعلى الجملة فإن نفح الطيب أصدق صورة لحال الأندلس الاجتماعية والأدبية على اختلاف أعصرها. طبع بمصر سنة ١٢٧٩ في ٤ مجلدات فيها ٢٢٠٠ صفحة كبيرة، وطبع الجزءان الأول والثاني في ليدن سنة ١٨٥٥–١٨٦١، وقد نقله إلى الإنكليزية ملخصًا باسكوال دي كاينكوس، ونشر في لندن سنة ١٨٤٠–١٨٤٣ في مجلدين كبيرين، وقد اختصره الجزائرلي، ومن المختصر نسخة في المتحف البريطاني.

(ب) فتح المتعال في وصف النعال: نعال النبي، منه نسخة في المكتبة الخديوية في ٢٣٨ صفحة.

(ج) حسن الثنا في العفو عمن جنى: في الأدب، طبع بمصر على الحجر.

(د) إيضاء الدجنة في عقائد أهل السنة: في التوحيد، في المكتبة الخديوية.

(هـ) أزهار الرياض في أخبار عياض: في باريس، وله كتب أخرى أغضينا عنها (خلاصة الأثر ٣٠٢ ج١).

(٨) **ابن أبي السرور البكري شمس الدين (نحو سنة ١٠٦٠هـ):** هو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن أبي السرور البكري الصديقي، توفي بالقاهرة، له:

(أ) التحفة البهية في تملك آل عثمان الديار المصرية: ويتضمن فتح مصر على يد السلطان سليم وأخبار أمرائه إلى سنة ١٠٣٨ في فينا.

(ب) الروضة الزهية في ولاة مصر والقاهرة المعزية: وهو تاريخ مصر من أقدم أزمانها إلى أيامه منها نسخة في غوطا إلى ١٠٣٥ وفي أوكسفورد إلى سنة ١٠٤١ وفي الفاتيكان إلى سنة ١٠٦٨.

(جـ) الكواكب السائرة في أخبار مصر والقاهرة، لعله مختصر المتقدم ذكره، في باريس والمتحف البريطاني.

(د) قطف الأزهار! مختصر خطط المقريزي جاء في مقدمته أنه اطلع على خطط المقريزي فرآه أسهب فيها على غير ترتيب، بحيث يصعب الكشف فيها عن المراد فاقتطف محاسنها وزاد عليها بعض الزيادات ورتبه على ٣٤ بابًا نحو أبواب المقريزي منه نسخة في المكتبة الخديوية في ٤٠٠ صفحة، ويوجد أيضًا في ليدن وباريس.

(هـ) درر المعالي العالية، في نور عثمانية.

(٩) **ابن كنان الدمشقي (توفي سنة ١١٥٣هـ):** هو محمد بن عيسى بن محمود بن كنان الدمشقي أحد العلماء الأئمة في دمشق، له:

(أ) الحوادث اليومية في تاريخ أحد عشر وألف ومية، هي يومية من محرم سنة ١١١١ إلى آخر سنة ١١٣٤ جاء فيها وصف حوادث السلاطين والقضاة والباشوات في الشام، وما رافق ذلك من الحوادث المهمة للمشاهير من العلماء والشعراء، في برلين.

(ب) حدائق الياسمين في ذكر قوانين الخلفاء والسلاطين: من حيث أساليب معاشرتهم ومعاملتهم.

(جـ) الاكتفاء في ذكر مصطلح الملوك والخلفاء، كلاهما في برلين، وهما من قبيل كتب السياسة والإدارة.

(د) المواكب الإسلامية في الممالك والمحاسن الشامية: في وصف الشام، في برلين.

(هـ) تاريخ معاهد العلم في دمشق (المدارس)، في برلين.

(و) مختصر حياة الحيوان للدميري، في برلين.

(ز) الإلمام فيما يتعلق بالحيوان من الأحكام: معجم مختصر في علم الحيوان، رتب فيه أسماء الحيوانات على الحروف، في برلين.

(ح) كتاب البيان والصراحة في تلخيص كتاب الملاحة: لرياض الدين الغزي العامري، في برلين «سلك الدرر ٨٥ ج٤».

(١٠) **عبد الواحد البرجي (نحو ١٠١٧):** له الرياض الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة، في الجزائر.

(١١) **الغمري العثماني كتب سنة ١٠٥٠:** ذخيرة الأعلام بتاريخ أمراء مصر في الإسلام أرجوزة في ٩٠٠٠ بيت، عن تاريخ مصر منذ الفتح إلى سنة ١٠٤٠، في برلين وغوطا وباريس.

(١٢) **الذخائر والتحف في بير الصنائع والحرف:** لمؤلف مجهول في غوطا.

(١٣) **عبد القادر (١٠٥٣):** له تاريخ السلطان أحمد (١٠١٢) إلى السلطان إبراهيم، في برلين.

(١٤) **إبراهيم العوفي الصالحي (نحو ١٠٧١):** له تراجم الصواعق في واقعة السناجق، وهو تاريخ أغوات مصر وسناجقها إلى سنة ١٠٧١، في منشن وباريس.

(١٥) **ابن يوسف الحلاق (نحو ١١٢٨):** له تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب، في بطرسبورج.

(١٦) **شيخ زاده الخطاط (نحو ١١٣٣):** له مبدأ العجائب بما جاء في مصر من المصائب، في المكتبة الخديوية.

(١٧) **الأمير أحمد كتخذا الدمرداشي عزبان نحو سنة ١١٦٩:** له درة المحاسن في أخبار الكنانة، كاليومية باللغة العامية عن حوادث مصر من سنة ١٠٩٩–١١٦٩، في غوطا ومنشن.

(١٨) **حسن بن الصديق (نحو ١١٨٦):** له غرائب البدائع وعجائب الوقائع، فيما وقع بين الثائرين وعثمان باشا والي الشام سنة ١١٨٤، في برلين.

(١-٣) التواريخ العامة في مصر والشام

(١) **الجنابي (توفي سنة ٩٩٩هـ):** هو أبو محمد مصطفى بن حسن بن سنان بن أحمد الحسيني الهاشمي الجنابي نسبة إلى جنابة في فارس، وكان قاضيًا في حلب، له: كتاب العيلم الزاخر في أحوال الأوائل والأواخر، ويعرف بتاريخ الجنابي، يشتمل على تاريخ ٢٣ دولة إسلامية في مجلدين إلى سنة ٩٩٧، منه نسخة في أكسفورد وبطرسبورج وكوبرلي ويني جامع ونور عثمانية، وله مختصر لابن المنلا «١٠٠٣» في برلين، وترجمه المؤلف إلى التركية، منه نسخة في فينا، وقد طبع منه قطعة في فينا سنة ١٦٨٠ تتعلق بتيمورلنك مع ترجمتها التركية والفارسية واللاتينية.

(٢) **القرماني (توفي سنة ١٠١٩هـ):** هو أبو العباس أحمد بن سنان بن يوسف بن أحمد الدمشقي القرماني، ولد في دمشق سنة ٩٣٩، وكان أبوه ناظرًا على المارستان النوري والجامع الأموي، ثم قُتل وتولى القرماني ابنه كتابة وقف الحرمين ثم صار ناظرًا عليه في دمشق وتوفي سنة ١٠١٩، وله:

(أ) أخبار الدول وآثار الأول: هو تاريخ عام للدول الإسلامية مع مقدمة في التاريخ القديم من أنبياء التوراة إلى ظهور الإسلام وتاريخ الخلفاء الراشدين، فأبناء الحسن والحسين وفضائل الصحابة العظمى، وتاريخ بني أمية خليفة خليفة بالشام، فبني أمية في الأندلس، فالخلفاء العباسيين إلى آخرهم في بغداد ثم في مصر، فدولة العبيديين أو الفاطميين، فدولة بني أيوب، فالمماليك التركية فالجركسية، فدولة طباطبا وغيرها من الدول الصغرى في اليمن والحجاز، وفصول في تاريخ اليمن والشام قبل الإسلام فملوك العرب من الطوائف، فالملثمين، فآل حفص في تونس وفروع الدولة العباسية في المشرق كالسامانية والإخشيدية والطولونية وغيرها، فالدولة السلجوقية، فالعثمانية إلى السلطان أحمد بن محمد، وغيرهما من الدول التركية ودول الفرس القديمة وملوك الهند والصين والسريان والفراعنة وغير ذلك، طبع على الحجر في بغداد سنة ١٢٨٢ في ٥٠٠ صفحة كبيرة.

(ب) الروض النسيم والدر اليتيم في مناقب السلطان إبراهيم: مختصر عن التركية في برلين «خلاصة الأثر ٢٠٩ ج١».

(٣) **ابن أبي السرور البكري زين الدين (توفي سنة ١٠٢٨هـ):** محمد بن أبي السرور زين الدين البكري الصديقي، توفي في القاهرة، وله:

(أ) كتاب عيون الأخبار ونزهة الأبصار، هو تاريخ عام من الخليقة إلى أيامه، فيه مقدمة في فضل علم التاريخ وفصول في التاريخ القديم للدول القديمة الفرس والروم والعرب، ثم مولد النبي وتاريخه وتاريخ الخلفاء الراشدين فالأمويين فالعباسيين إلى انقراضهم بمصر إذ صارت إلى العثمانيين، ثم دولة بني أمية في الأندلس والدول البويهية والفاطمية والسلاجقة والأيوبية والجراكسة، ورتب أخبار كل دولة حسب السنين، ولم تذكر دولة بني عثمان في هذا الكتاب؛ لأنه أفرد لها كتابًا آخر سيأتي ذكره. ومن عيون الأخبار نسخة في المكتبة الخديوية في ٤٠٤ صفحات وفي برلين وباريس.

(ب) نزهة الأبصار وجهينة الأخبار: بباريس.

(جـ) المنح الرحمانية في الدولة العثمانية: مأخوذ من عيون الأخبار مع إضافة تاريخ ولاة مصر العثمانيين، منه نسخة في باريس وله ذيل إلى سنة ١٠٢٧ اسمه «اللطائف الربانية على المنح الرحمانية» في فينا.

(د) فيض المنان في ذكر دولة آل عثمان: قال في مقدمته: إنه لما ألف كتابه المنح الرحمانية وذكر فيه ولاة العثمانيين بمصر أحب أن يزيد فيه أخبارًا عن مصر فأضاف إليه قضاتها وزيادات أخرى، ظفر بها بعد تأليف ذلك الكتاب، فجعله له ذيلًا هو هذا؛ فابتدأ بذكر السلطان عثمان بن أحمد، منه نسخة في المكتبة الخديوية في ٩٦ صفحة.

(هـ) درة الأثمان في أصل منبع آل عثمان، في غوطا.

(٤) **السمعاني اللبناني (توفي سنة ١٧٦٨م/١١٨٢هـ):** هو من المشارقة الذين نالوا قصب السبق في أعظم عواصم أوربا، وترجمت مؤلفاته إلى اللاتينية أو كتبت فيها. ولد في حصرون بلبنان من أسرة مارونية قديمة تعرف بالسماعنة اشتهر منهم جماعة من العلماء هذا أشهرهم، تثقف في طرابلس الشام وانتقل إلى رومية وتولى العمل في مكتبة الفاتيكان يستخرج خلاصة ما فيها ويهذب الكتب الدينية الشرقية، فأظهر اقتدارًا في الآداب الشرقية، فكلفه البابا أن يذهب إلى الشرق ينقب فيه عن الكتب والمخطوطات ويحملها إلى رومية، ففعل وتفقد ديور الشرق في مصر وسوريا والعراق، وحمل ما وصلت إليه يده من الكتب الفلسفية واللاهوتية والتاريخية وغيرها ما لا تعرف قيمته. يقال: إنه حملها في ثلاث سفن ومن جملتها كتب قبطية وعربية من ديور القطر المصري،

فغرق منها اثنتان، وكانت السفينة الباقية وحدها كافية لإعجاب أهل الفاتيكان، ولما وصل إلى هناك أخذ في تأليف كتابه المشهور بالمكتبة الشرقية الآتي ذكره، وما زال عاملًا في التأليف حتى توفي، وكان متمكنًا من عدة لغات شرقية وعربية، وقد خلف نيفًا وثلاثين مؤلفًا في لغات مختلفة بعضها في العربية، والبعض الآخر في اللاتينية أو السريانية أو غيرها وأكثرها دينية، يهمنا ذكره منها في هذا المقام:

(أ) المكتبة الشرقية: هي أعظم مؤلفاته كتبها في اللاتينية دوَّن فيها المخطوطات القديمة باللغتين العربية والسريانية وغيرهما وترجمة حياة مؤلف كل كتاب منها مع الحواشي والتعاليق، وفيها كثير من النصوص العربية والسريانية، وهي تقسم إلى ١٢ مجلدًا لم يطبع منها إلا أربعة.

الأول: في مؤلفي السريان الأرثوذكسيين.

والثاني: في المؤلفين السريان المنوفيزيتيين.

والثالث: في المؤلفين السريان النساطرة.

والرابع: في السريان النساطرة والسريان المنوفيزيتيين، طبعت برومية سنة ١٧١٩–١٧٣٠.

(ب) أصل الرهبان في لبنان، طبع في رومية سنة ١٨٤١.

وأكثر ما بقي من مؤلفاته في اللاهوت أو اللغة اللاتينية «ترجمته في الهلال ١٦١ سنة ٣».

تواريخ أخرى عامة بمصر والشام

(٥) **درويش علي أفندي مفتي حلب (نحو ٩٨٨):** له خلاصة التواريخ، في برلين.

(٦) **شمس الدين الأندلسي المالكي (نحو ١٠٠٤):** له ذخائر الآثار في أخبار الأخيار في تاريخ النبي والخلفاء إلى المأمون مع تراجم أكثرها عن ابن خلكان، في ليدن.

(٧) **عطية القهوتي المالكي، في أواخر القرن الحادي عشر:** له الجوهرة السنية المرضية في بعض خلق البرية، في تاريخ الخلق وبعض الأنبياء، منه نسخة في المكتبة الخديوية ٨٥٨ صفحة.

(٨) **ابن جمعة الدمشقي (نحو ١١٥٦):** له تاريخ كبير، منه قطعة في برلين يبحث في باشوات دمشق وقضاتها إلى زمن المؤلف.

(٩) **الصمادي الجراحي الدمشقي كمال الدين (نحو ١٢٠٩):** له البرق اللامع في التاريخ الجامع والكوكب الساطع، في برلين.

(٢) المؤرخون خارج مصر والشام

(٢-١) في العراق

(١) **أحمد بن عبد الله البغدادي (١١٠٢):** له عيون أخبار الأعيان بمن مضى في سالف العصور والأزمان، هو من قبيل التاريخ العام، في برلين والمتحف البريطاني.

(٢) **محمود بن عثمان الرحبي مفتي الحلة (نحو ١١٥٠):** له بهجة الإخوان في ذكر الوزير سليمان، فيه مقدمة جغرافية عن الأرض وتاريخ ملوك الفرس باختلاف الطبقات والأنبياء والوزير سليمان أمير البصرة بولاية أحمد باشا في بغداد (١١٣٦–١١٦٠) في المتحف البريطاني.

(٣) **يحيى بن عبد الجليل بن الحاج يونس الجليلي الموصلي (١١٩٨):** له سراج الملوك ومنهاج السلوك، تاريخ عام إلى سنة ٤٦٠ في المتحف البريطاني.

(٤) **أبو الخير السويدي:** توفي سنة ١٢٠٠ هو عبد الرحمن بن عبد الله بن الحسين السويدي، ولد في بغداد وتوفي فيها، له:

(أ) حديقة الزوراء في سير الوزراء هو تاريخ حسن باشا وأولاده في بغداد، في المتحف البريطاني.

(ب) المقامة جامعة الأمثال عزيزة الأمثال، في برلين.

(٥) **محمد أمين بن خير الله الخطيب العمري:** أصله من الموصل، توفي سنة ١٢٠٣، له:

(أ) منهل الأولياء ومشرب الأصفياء في سادات الموصل الحدباء، تاريخ الموصل وتراجم علمائها المدفونين فيها وفي جوارها، في برلين.

(ب) قلائد النحور وبهجة الناقد والبصير، أرجوزة في عدة مواضيع في المتحف البريطاني.
(جـ) مطالع العلوم ومواقع النجوم، موسوعة في المتحف البريطاني.

(٢-٢) المؤرخون في الحجاز ونجد

(١) **الديار بكري (توفي بُعيد سنة ٩٨٢هـ):** هو حسين بن محمد بن الحسن الديار البكري تولى قضاء مكة، وتوفي فيها بعيد سنة ٩٨٢. وفي كشف الظنون أنه توفي سنة ٩٦٦، والأول أصح، وله:

(أ) الخميس في أحوال أنفس نفيس: طبع بمصر غير مرة في مجلدين كبيرين في السيرة النبوية مطولة مع استطرادات إلى سير أنبياء التوراة والدول القديمة وتفصيل أحوال الكعبة وتاريخها مطولًا، وسيرة النبي من ولادته وأعمامه وكل ما يتعلق به، استغرق ذلك نحو ٨٠٠ صفحة أي: الجزء الأول كله ونصف الثاني، وما بقي وهو نحو ٢٠٠ صفحة في تاريخ الخلفاء الراشدين فالأمويين فالعباسيين وزبدة تاريخ الفاطميين وملوك الأكراد والجراكسة إلى فتوح مصر وغير ذلك، ومنه نسخ خطية في مكاتب أوربا.
(ب) رسالة في مساحة الكعبة والمسجد الحرام: في برلين والمكتبة الخديوية.

(٢) **قطب الدين النهروالي (توفي سنة ٩٩٠هـ):** هو محمد بن علاء الدين أحمد بن محمد بن قاضي خان محمود قطب الدين النهروالي المكي، أصل أبيه من نهروالة ورحل إلى مكة، أتم دروسه في القاهرة والأستانة وعاد إلى مكة وتولى التدريس في الأشرفية ثم الكنباياتية بمكة وتوفي وهو مفتي مكة، وله:

(أ) الإعلام بأعلام بلد الله الحرام: قدمه للسلطان مراد، ذكر فيه موقع مكة وتاريخها وعجائبها وما قيل من الأخبار المتعلقة بها، ومن دخلت في سلطانه من الدول إلى العثمانيين في أيام المؤلف، وفيه فوائد جغرافية وتاريخية، منه نسخ في برلين وغوطا وليدن وباريس وغيرها، وقد طبع بمصر سنة ١٢٨٢ وسنة ١٣٠٣.
(ب) البرق اليماني في الفتح العثماني: هو تاريخ اليمن من سنة ٩٠٠ عند أول الفتح العثماني على يد الوزير سليمان باشا إلى أيام المؤلف، منه نسخ في برلين وغوطا وفينا

وباريس وتونس والجزائر وغيرها، ألفه للوزير سنان باشا، ويسمى أيضًا «الفتوحات العثمانية للأقطار اليمنية»، طبعت خلاصتها مع ترجمة إسبانية في لشبونة سنة ١٨٩٢.

(ج) منتخب التاريخ في التراجم: هو من الكتب الهامة، منه نسخة في ليدن.

(د) تمثال الأمثال النادرة أو التمثيل والمحاضرة بالأبيات المفردة النادرة، في المكتبة الخديوية.

(هـ) الكنز الأسمى في فن المعمى: في برلين.

(٣) **علاء الدين البخاري (في أواخر القرن العاشر):** هو علاء الدين محمد بن عبد الباقي البخاري المكي، كان خطيبًا في المدينة المنورة في أواخر القرن العاشر للهجرة، له: كتاب الطراز المنقوش في فضائل الحبوش، ويلقب أيضًا بنزهة الناظر وسلوة الخاطر، ذكر فيه من اشتهر من الأحباش في الفضل والتقوى أو الحرب نقلًا عن الأحاديث والأخبار، ألفه لأمير حبشي ذي فضل على الحرمين، ذكره في المقدمة بألقاب ونعوت استغرقت صحيفتين، منه نسخة في المكتبة الخديوية (كشف الظنون ٩٨ ج٢).

(٤) **عبد الحي بن العماد (توفي سنة ١٠٨٩هـ):** هو عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الصالحي أبو الفلاح بن العماد الحنبلي، ولد سنة ١٠٣٢ وتوفي بمكة سنة ١٠٨٩ له من المؤلفات:

(أ) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، هو خزانة تراجم، وتختلف عن أكثر كتب التراجم أنها مرتبة على السنين حسب وفيات المشاهير وليس على أسمائهم، تبدأ من أول الإسلام إلى سنة ١٠٠٠ للهجرة، فمن أراد البحث عن ترجمة رجل يجب أن يعرف سنة وفاته، فيبحث عن ترجمته في تلك السنة، وإن لم يكن عارفًا سنة الوفاة تعذر عليه الوقوف على الترجمة. وقد قال مؤلفه في المقدمة نحو ما قال تغري بردي صاحب المنهل الصافي، أي: إنه جمعه لنفسه ولمن يريد الذكرى ليس بإشارة أمير أو غني فانتقاه من أعيان الكتب وكتب الأعيان، منه نسخة في المكتبة الخديوية في أربعة مجلدات نحو ٤٠٠٠ صفحة كبيرة، وهو من أهم كتب التراجم وأفيدها.

(ب) معطيات الأمان من حنث الإيمان في المكتبة الخديوية.

(٥) **جمال الدين الشلي (توفي سنة ١٠٩٣هـ):** هو أبو علوي محمد بن أبي بكر بن أحمد جمال الدين الشلي الحضرمي ولد في تريم سنة ١٠٢٠ وتعلم فيها وفي ظفار والهند

ومكة والمدينة، وتمكن من العلوم الإسلامية وغيرها ولا سيما الصوفية، وتولى التدريس والتأليف بمكة، وتوفي فيها، وله:

(أ) السناء الباهر بتكميل النور السافر: تأليف عبد القادر العيدروس الآتي ذكره في وفيات القرن العاشر، منه نسخة بالمتحف البريطاني.

(ب) عقد الجواهر والدرر في أخبار القرن الحادي عشر: في المتحف البريطاني (ترجمته في خلاصة الأثر ٣٣٦ ج٣).

(٦) **ابن خضر المدني (في أوائل القرن الثاني عشر):** هو محمد أمين بن حبيب بن أبي بكر بن خضر المدني المولد والمنشأ، أهم مؤلفاته: طبقات الحنفية: رتبه على سبع طبقات:

أولًا: تراجم المجتهدين في الشرع وهم الأربعة.

ثانيًا: تراجم المجتهدين في المذهب كأبي يوسف وسائر أصحاب أبي حنيفة.

ثالثًا: المجتهدون في المسائل التي لا رواية لها.

رابعًا: أصحاب التخريج والمقلدون.

خامسًا: أصحاب الترجيح من المقلدين.

سادسًا: المقلدون القادرون على التمييز بين الأقوى والقوي.

سابعًا: المقلدون الذين لا يقدرون على ذلك.

وقد رتب أصحاب كل طبقة على حروف المعجم واختص أصحاب الكنى بباب خاص، وكل باب أو فصل منقول عن كتاب من كتب التراجم، كطبقات قطلوبغا وقنالي زاده وفوات الوفيات وغيرها. فهو خزانة تراجم مجموعة من كل نوع، ربما زاد عدد المترجمين فيها على بضعة آلاف من النحاة الأدباء والشعراء واللغويين والمؤرخين والمجتهدين والفقهاء وغيرهم إلى آخر القرن الحادي عشر، منها نسخة في المكتبة الخديوية في ٧٢٢ صفحة.

(٧) **جعفر البرزنجي (توفي سنة ١١٧٩هـ):** هو جعفر بن حسن بن عبد الكريم البرزنجي المدني، له:

(أ) قصة المولد النبوي، طبع بمصر سنة ١٣٠٧ وله شروح أحدها لحفيده جعفر بن إسماعيل، طبع مرارًا بمصر، والآخر لمحمد عليش في المكتبة الخديوية.

(ب) قصة المعراج: في المكتبة الخديوية.

(ج) مناقب السيد حمزة، ومناقب عبد القادر الجيلاني، ومناقب أحمد بن علوان، كلها في برلين.

جالية الكدر، قصيدة رائية بأسماء أهل بدر، في المكتبة الخديوية.

تواريخ أخرى في الحجاز ونجد

(٨) **جمال الدنيا والدين بن زهير القرشي المكي نحو سنة ٩٦٠:** له الجامع اللطيف في فضائل مكة البيت الشريف، في الجزائر وغوطا.

(٩) **ابن عبد الله السمرقندي ٩٩٤:** له تحفة الطالب لمعرفة من ينسب إلى عبد الله وأبي طالب في نسب النبي وأهله، وفيه فوائد أخرى، في المتحف البريطاني.

(١٠) **أبو الحسن البكري الصديقي الأشعري:** في القرن العاشر، له: الدرة المكللة في فتح مكة المبجلة بأيام النبي، طبع مرارًا.

(١١) **محمد بن قطب الدين النهروالي القادري (نحو ١٠٠٥):** له ابتهاج الإنسان والزمن في الإحسان الواصل إلى الحرمين من اليمن لمولانا العادل الباشا حسن، في تاريخ مكة والمدينة وحسن باشا المذكور، منه نسخة في المكتبة الخديوية.

(١٢) **شهاب الدين أحمد بن عامر بن حسين السعدي الحضرمي:** في أواخر القرن الحادي عشر، له: شرح الصدر في أسماء أهل بدر، نبهه إلى تأليفه اطلاعه على كتاب المدهش لابن الجوزي، وأسد الغابة لابن الأثير، والإصابة للعسقلاني وغيرها. بدأ تأليفه سنة ١٠٨٧ صدره بمقدمة في ذكر بدر وقسم أهلها إلى المهاجرين والأنصار، فهو يشتمل على تراجم طائفة حسنة من الصحابة، ورتب التراجم على الهجاء، منه نسخة في المكتبة الخديوية في ٧٠٠ صفحة.

(١٣) **عبد الملك العصامي:** قضى عمره مدرسًا في المسجد الحرام، وتوفي بمكة سنة ١١١١ له: سمط النجوم العوالي في أبناء الأوائل والتوالي، وهو تاريخ ضخم بدأ بتأليفه سنة

١٠٩٤ بمكة، وذكر في المقدمة الكتب التي اطلع عليها قبل الإقدام على التأليف، جعله أربعة مقاصد في نسب النبي وولادته وهجرته وأعمامه وأعماله، ثم الخلفاء الأربعة، فالدولة الأموية فالعباسية فالعبيدية فالأيوبية فالتركمانية فالجراكسة فالعثمانية إلى السلطان مراد، وختم الكلام بنسب الطالبيين، وذكر مشاهير أعقابهم ومن دعا إلى المبايعة أو ولي مكة منهم، وقدمه إلى الشريف أحمد بن الشريف زيد بن محسن صاحب الحجاز، منه نسخة في المكتبة الخديوية في ١٧٧٢ صفحة.

(١٤) **الخليفتي العباسي (١١٧١):** له نتيجة الفكر في أخبار مدينة سيد البشر: في المكتبة الخديوية.

(٢-٣) المؤرخون في اليمن والحبشة

(١) **الديبع الزبيدي (توفي سنة ٩٤٤هـ):** هو أبو عبد الله عبد الرحمن بن علي بن محمد بن عمر بن علي بن يوسف وجيه الدين الشيباني الديبع الزبيدي، ولد في زبيد سنة ٨٦٦ وتعلم في بيت الفقيه واشتغل بتاريخ زبيد، وتولى تدريس الحديث في الجامع الأعظم في زبيد، وتوفي هناك سنة ٩٤٤، وله:

(أ) بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد، هو مطول في تاريخ مدينة زبيد ومن أسسها ووليها من الملوك من أول عهدها إلى آخر المائة التاسعة للهجرة، نقلًا عن مؤرخي اليمن كعمارة اليمني والجندي والخزرجي وابن عبد المجيد القرشي النسابة وشرف الدين المقري وغيرهم، قال: إنه لم يجد بينهم من أفرد تاريخًا لأئمة اليمن وملوكها بني طاهر فألف هذا الكتاب وقسمه إلى أبواب في مدينة زبيد وفضلها، ووصفها وجغرافيتها ومن تملكها وذراريهم وملوك الحبشة باليمن من آل نجاح والصليحيين، ومن قام بعدهم من الدول دولة دولة إلى الدولة المعاصرة له، ولا سيما سلطانها الإمام الظافر أبو النصر عامر بن عبد الوهاب بن داود بن طاهر، والكتاب مرتب على السنين، منه نسخة في المكتبة الخديوية في ٣٢٠ صفحة، ويوجد أيضًا في برلين وبطرسبورج، وله ذيل اسمه «الفضل المزيد» إلى سنة ٩٢٣ طبعت خلاصته في يونيو سنة ١٨٢٨.

(ب) قرة العيون في أخبار اليمن الميمون: إلى سنة ٩٢٣، قال: إنه اطلع على ما ألفه القوم في اليمن فوجد كتاب أبي الحسن الخزرجي المسمى بالعسجد أحسنها فجعله

قاعدة مؤلفه هذا، وأضاف إليه من غيره إلى آخر دولة بني طاهر، وهو أول من أرخهم، جعله ثلاثة أبواب:

- اليمن ومن ملك صنعاء.
- زبيد وأمراؤها.
- الدولة الطاهرية. منه نسخة في المكتبة الخديوية ٣١٨ صفحة.

(ج) أحسن السلوك فيمن ولي مدينة زبيد من الملوك: أرجوزة رتب فيها الأسماء على السنين إلى سنة ٩٢٣، منه نسخة في المتحف البريطاني، وله كتب في الحديث لم نذكرها.
وفي كشف الظنون أن اسمه «ابن الربيع»، وفي مكان آخر أنه توفي سنة ٦٢٥ وكلاهما خطأ.

(٢) **الجرموزي (توفي سنة ١٠٧٧هـ):** هو السيد مطهر بن محمد الجرموزي الحسني توفي سنة ١٠٧٧، له:

(أ) الجوهرة المضية في تاريخ الخلافة المؤيدية: في مجلدين يشتملان على تاريخ الإمام المؤيد بالله بن القاسم الزيدي، الجزء الثاني منه في برلين.
(ب) النبذة المشيرة إلى جمل من عيون السيرة، في أخبار المنصور بالله القاسم بن محمد المتوفى سنة ١٠٢٩، في المتحف البريطاني (خلاصة الأثر ٤٠٦ ج٤).

تواريخ أخرى في اليمن والحبشة

(٣) **ابن أبي بكر باشيبان:** توفي سنة ٩٤٤ له، ترياق أسقام القلوب في ذكر حكايات السادة الأشراف، في المتحف البريطاني.
(٤) **ابن يحيى المطيب من أهل زبيد، نحو سنة ٩٩٠:** له بلوغ المرام في تاريخ مولانا بهرام، وهو تاريخ اليمن في زمن بهرام باشا، في باريس.
(٥) **عامر الرعامي:** كاتب الأميرين شمس الدين وعز الدين في عهد الفتح العثماني في كوكبان، بأواخر القرن العاشر، له: الروض الحسن في أخبار مولانا صاحب السعادة الباشا حسن بأيام ولايته بإقليم اليمن، طبع في ليدن سنة ١٨٣٨.
(٦) **أحمد فيروز من أهل القرن العاشر:** له مطالع النيرين في تاريخ اليمن، في باريس.

(٧) **عيسى بن لطف الله بن المطهر بن شرف الدين بن رسول الله:** له روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح، ألفه بأمر الوزير محمد، ذكر فيه خروج الجراكسة إلى اليمن وظهور تلك الأحداث والفتن وزوال دولة آل عامر وانقراض ملك آل طاهر وابتداء دولة الإمام شرف الدين من سنة ٩٠١–١٠٢٩، منها نسخة في المكتبة الخديوية ١٦٠ صفحة في ذيلها تتمة الأخبار إلى سنة ١٠٤٥.

(٨) **محمد بن الحسن بن القاسم سنة ١٠٧٩:** له سمط اللآل في شعر الآل، شرح على قصيدة في تاريخ الزيدية، في المتحف البريطاني.

(٩) **جمال الدين محمد بن إبراهيم بن المفضل:** تفقه في صنعاء وكوكبان، وتوفي سنة ١٠٨٥، له: السلوك الذهبية في خلاصة السيرة المتوكلية، سيرة الإمام المتوكل على الله شرف الدين، منه نسخة في المتحف البريطاني.

(١٠) **يحيى بن الحسين بن المؤيد بالله اليمني (نحو ١١٠٠):** له أنباء الزمن في أخبار اليمن، إلى سنة ١٠٤٥ في برلين.

(١١) **يوسف الصنعاني ضياء الدين (نحو ١١١١):** له نسمة السحر بذكر من تشيع وشعر، يشتمل على ١٩٧ ترجمة من تراجم شعراء الشيعة من أول الإسلام إلى زمان المؤلف، في برلين.

(٤-٢) المؤرخون في الهند

(١) **الشيخ زين الدين المعبري:** خدم السلطان علي عادل شاه صاحب بجابور المتوفى سنة ٩٨٧، له: تحفة المجاهدين، وتشتمل على انتشار الإسلام في مالابار ومجيء البورتغاليين ومن جاء بعدهم وحروبهم مع المسلمين، منه نسخة في المتحف البريطاني، وقد ترجم إلى الإنكليزية وطبع في ليدن سنة ١٨٢٩.

(٢) **الحسن بن علي بن شدقم الحسيني المدني:** أصله من المدينة، وقطن أحمد نجر وخيبر في مالابار، توفي سنة ١٠٤٦، له: كتاب زهر الرياض وزلال الحياض، في التراجم، منه الجزء الثالث في المتحف البريطاني.

(٣) **عبد القادر بن شيخ بن عبد الله بن شيخ بن عبد الله العيدروس محيي الدين اليمني الحضرمي الهندي:** توفي سنة ١٠٣٨ في أحمد آباد، وله:

(أ) النور السافر في أخبار القرن العاشر، يشتمل على تراجم ذلك القرن، ولا سيما مشاهير اليمن وكجرات «الهند» من الصوفية، منه نسخة في مكتبة السجادة الوفائية بالقاهرة وفي المتحف البريطاني.

(ب) الروض الناضر فيمن اسمه عبد القادر من أهل القرنين التاسع والعاشر، في برلين.

(ج) صدق الوفاء بحق الإخاء، في سيرة أحمد بن محمد الحضرمي باجابر، في برلين.

وله كتب أخرى في التصوف

«خلاصة الأثر ٤٤٠ ج٢».

المؤرخون في الروملي والأناطول

يمتاز تاريخ آداب اللغة في هذا العصر بنبوغ طائفة من المؤرخين في الأناطول والروملي في ظل السلاطين العثمانيين، هاك أشهرهم:

(١) **طاش كبرى زاده (توفي سنة ٩٦٨هـ):** هو أبو الخير أحمد بن مصلح الدين مصطفى طاش كبرى زاده عصام الدين، ولد في بروسة، وتفقه على أبيه وغيره في أنقرة وبروسة ثم في الأستانة وأماسيا، ولما بلغ الثلاثين من عمره تعين أستاذًا في مدرسة أورج باشا في ديموتوقة، وانتقل بعد ذلك إلى مدرسة المولى محيي الدين في الأستانة ثم في الإسحاقية باسكوب ثم في أدرنة، وتنقل في مدارس مختلفة من بلاد الروملي وتعين قاضيًا في الأستانة وفي حلب، وأصيب بالتهاب في عينيه أعدمه البصر، وتوفي سنة ٩٦٨، وقد ألف في أكثر المواضيع حتى يصح أن يعد من أصحاب الموسوعات وإنما وضعناه بين المؤرخين لأهمية كتبه في التاريخ وهي:

(أ) الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية: هو خزانة تراجم عددها نحو ٥٢٢ ترجمة رتبها حسب السلاطين الذين نبغ العلماء في أيامهم من السلطان عثمان فما بعده إلى السلطان سليمان القانوني، وفي ذيله ترجمة حياة المؤلف. منه نسخ خطية في مكاتب أوربا والمغرب والأستانة، وطبع بمصر على هامش ابن خلكان سنة ١٣١٠. وترجمه إلى

التركية محمد المجدي وذيله، وطبعت الترجمة في الأستانة سنة ١٢٦٩ وترجمه أيضًا إبراهيم الأماسي. ومن ترجمته نسخة في المتحف البريطاني، وذيله في العربية علي بن بالي أستاذ الإنكشارية المتوفى سنة ٩٩٢ ذيلًا سماه «العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم»، وصل فيه إلى أوائل سلطنة مراد الثالث، طبع على هامش طبعة ابن خلكان المذكورة، وذيله أيضًا عبد القادر يلانجق المتوفى (سنة ١٠٠٠)، منه نسخة في باريس، وذيله نوعي زاده بن نصوح القاضي في الروملي توفي سنة ١٠٤٥ وسماه «ذيل الشقائق النعمانية»، طبع بالتركية في الأستانة سنة ١٢٦٨ وذيله عاشق زاده في باريس.

(ب) مفتاح السعادة ومصباح السيادة: أو موضوعات العلوم، تكلم فيه عن العلوم وأقسامها وتفرعها في شكل المشجر، فذكر كيف تفرعت العلوم وعلاقة كل علم بسواه، واصطلح في تقسيمه إلى شعب وأدواح ومطالب وأصول وفروع ما يدل على وضوح الموضوع في ذهنه، فبلغ عدد العلوم عنده نحو ٣٠٠ علم قسمها إلى ستة أبواب،[١] وإذا ذكر العلم عرفه وبين حدوده وبحث في تاريخه بحثًا انتقاديًّا، ثم يشير إلى أشهر المؤلفات فيه بدون وصفها، منه نسخة في المكتبة الاسم وسماه مدينة الخديوية في ٨١٦ صفحة كبيرة بخط دقيق، ويوجد أيضًا في فينا ليدن وقد اختصره المؤلف في كتاب منه نسخة في فينا، واختصره آخر مجهول الاسم وسماه مدينة العلوم تقدم ذكرها.

(ج) نوادر الأخبار في مناقب الأخيار: معجم للتراجم عول فيه على ثلاثة مصادر سير الصحابة وابن خلكان والشهرستاني، منه نسخة في فينا.

(د) الرسالة الجامعة لوصف العلوم النافعة: رتبها على ثلاثة مطالب وخاتمة، في برلين.

(هـ) وله عدة كتب ورسائل في الحديث والفرائض والفقه والمنطق والفلسفة والكلام وآداب البحث والطب واللغة والشعر، منها نسخ خطية في مكاتب أوربا أغضينا عن ذكرها، منها رسالة الشفاء في دواء الوباء، طبعت في القاهرة سنة ١٢٩٢ «الشقائق النعمانية على هامش ابن خلكان ٩٥ ج٢».

(٢) **علي دده (توفي سنة ١٠٠٧هـ):** هو علي دده بن مصطفى علاء الدين البوسنوي شيخ قبيلة التربة، ولد في موستار بالبوسنة، ودخل في طريقة الخلوتية على الشيخ مصلح الدين، وصار من جملة خلفائه وعاصر السلطانين سليمان ومراد وتوفي بقلعة صولنق، وخلف كتبًا أهمها:

(أ) محاضرات الأوائل ومسامرات الأواخر: مبني على كتاب السيوطي في الأوائل، طبع بمصر سنة ١٣٠٠ وغيرها، ومنها نسخ في مكاتب أوربا.

(ب) الرسالة المقامية المكية: في برلين.

(ج) خواتيم الحكم في حل الرموز وكشف الكنوز: ٣٦٠ سؤالًا من لطائف الأسئلة الحكمية والأجوبة العلمية، منه نسخة في المكتبة الخديوية في ٤٤٠ صفحة مذهبة (خلاصة الأثر ٢٠٠ ج٣).

(٣) **ابن الداعي (في أوائل القرن الحادي عشر):** هو عبد الله بن صالح بن داود بن علي بن الداعي، له:

(أ) فتوح السلطان مراد في بلاد اليمن، تأنق في إنشائه، يبدأ بالخليفة وينتهي سنة ١٠٠٤، منه نسخة في مكتبة راغب باشا بالأستانة.

(ب) أسنى المطالب في الجغرافية: في نور عثمانية.

(٤) **حاجي خليفة (توفي سنة ١٠٦٨هـ):** هو مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي صاحب كشف الظنون، ولد في الأستانة وأبوه من رجال الجند، ولما ترعرع استخدم كاتبًا في نظارة الجيش بالأناطول، وانتقل إلى بغداد وارتقى في المناصب حتى صار من رؤساء الكُتاب، وعاد سنة ١٠٣٨ إلى الأستانة واشتغل بالعلم ثم أعيد إلى بغداد وهمدان، وصحب الصدر الأعظم محمد باشا إلى حلب وحج من هناك وسمي من ذلك الحين «حاجي»، ثم شهد حرب أروان وتفرغ بعد ذلك للعلم ولُقب خليفة منذ كان معاونًا أو وكيلًا في مصلحة المؤونة في الأستانة — والمعاون عندهم يسمى خليفة — وكان عالمًا وأديبًا، وله همة عالية ونفس طويل في التأليف، وهاك أشهر مؤلفاته:

(أ) كشف الظنون في أسامي الكتب والفنون: هو معجم لأسماء المؤلفات العربية فيه نحو ١٤٥٠٠ اسم كتاب، مرتبة على الأبجدية، ويلحق اسم الكتاب باسم مؤلفه وسنة وفاته وموضوع كتابه، وإذا كان له شروح أو ترجمات ذكرها وذكر أصحابها وسني وفاتهم، وقد صدر الكتاب بمقدمات تاريخية انتقادية في أحوال العلوم وماهيتها وغايتها وأقسامها، وفي العلوم الإسلامية والمؤلفين والمؤلفات، وفي الخط وتاريخه وغير ذلك، وينطوي في أثناء أسماء الكتب أسماء العلوم، فإذا ورد اسم العلم تكلم في تاريخه وأصله. وقد أرخ أهم العلوم وذكر أحوالها، فهو خزانة علم وأدب وتاريخ ثمينة. وقد

نشره فلوغل المستشرق في ليبسك وليدن من سنة ١٨٣٥–١٨٥٨ مع ترجمة لاتينية في سبعة مجلدات كبيرة، ووضع بجانب أسماء الكتب نمرًا متسلسلة من ١–١٤٥٠١، وذيله بمجلد كبير فيه فهرس أبجدي بالإفرنجية لأسماء المؤلفين، وضمنه قوائم المكاتب الموجودة في عصر الناشر بدمشق والقاهرة وحلب والأستانة ورودس، وهي نحو ٢٥ مكتبة، بلغ عدد كتبها نحو ٣٠٠٠٠ كتاب، ورتب كتب كل مكتبة حسب المواضيع. وقد طبع كشف الظنون أيضًا في مصر سنة ١٢٤٧، وفي الأستانة في مجلدين سنة ١٣١١، وله ذيل اسمه «أثارنو» لأحمد حافظ زاده المتوفى سنة ١١٨٠ ذكر فيه أهم الكتب التركية الفارسية التي ظهرت بعد كشف الظنون، نشر في ذيل طبعة فلوغل المتقدم ذكرها.

(ب) تقويم التواريخ: في التركية فيه جداول تاريخية متسلسلة للتاريخ العام، طبع في الأستانة سنة ١١٤٦، وله ترجمة عربية في المتحف البريطاني، وترجمة إيطالية طبعت في البندقية سنة ١٦٩٧.

(ج) الفذلكة: هو مختصر تاريخ الدولة العثمانية بالتركية، طبع بالأستانة سنة ١٢٦٨.

(د) تحفة الكبار في أسفار البحار: كتبها عن الأسطول العثماني، طبعت في الأستانة سنة ١١٤١ بالتركية.

(هـ) جهان نما: جغرافية عامة بالتركية مأخوذة عن المصادر الشرقية والغربية، طبعت بالأستانة سنة ١١٤٥، وترجمت إلى اللاتينية، وطبعت في فينا سنة ١٨١٢، ولها خلاصة في الفرنساوية.

(و) تحفة الأخيار في الحِكم والأمثال والأشعار: هي مجموعة أدب وتاريخ وشعر، ولا يخفى أن حاجي خليفة من أكثر الناس اطلاعًا على الكتب، فمجموعته هذه من أحسن المجاميع، تتضمن نخبة الحكم والأمثال والنصائح من منظوم ومنثور، رتبها على حروف المعجم حسب المواد ليسهل البحث فيها، وقد جمعها تذكرة لنفسه، قال: إنه جعلها في اللغات الثلاث وإن كان أساسها العربية، فإذا خطرت له حكمة بالفارسية أو التركية دونها، والكتاب كالمعجم للأفكار والأمثال، في المكتبة الخديوية نسخة منه، يظهر أنها المسودة الأصلية بخط المؤلف لم تبيض؛ لما فيها من الشطب والزيادات في نحو ٧٠٠ صفحة مستطيلة الشكل، فهي من التحف الأثرية، فضلًا عن فوائدها الأدبية.

(ز) سلم الوصول إلى طبقات الفحول: جمع فيه تراجم أساطين الأوائل والأواخر مع بيان مبهمات الأسماء والأنساب، رتبه على حروف المعجم حسب أسماء الأشخاص،

فيه مقدمة وقسمان وخاتمة، المقدمة في علم التاريخ وفوائده وفيها جداول التواريخ المشهورة (التقاويم)، كما فعل أبو الفداء في مقدمة تاريخه، والقسم الأول يشتمل على تراجم الرجال، والثاني في تراجم النساء، منه قطعة في المكتبة الخديوية في ٢٢٢ صفحة، تنتهي بمادة بختنصر، ولا نعرف لها كمالة في مكان.

(حـ) ميزان الحق في اختيار الأحق: في التصوف، في فينا.

تواريخ أخرى في الروملي والأناطول

(١) الرسالة الفتحية الرادوسية لرمضان الطبيب (نحو ٩٢٨) في فتح رودس على يد السلطان سليمان وهو طبيبه، شاهد الفتح وأرخه، منها نسخة في باريس.

(٢) جواهر البيان في دولة آل عثمان: لأحمد بن قرة كمال (نحو سنة ٩٣٠)، في الفاتيكان.

(٣) الإشارة إلى غزوة روافض الأعجام واستيلاء ملك الروم على مملكة الشام: هي رسالة لسنان الدين يوسف اليكاني قاضي أماسيا (٩٤٥)، في بطرسبورج.

(٤) فرحة الفؤاد (خلاصة تاريخ الدولة العثمانية إلى سنة ٩٧٤ وعلمائها) لعمر الإسبيري (١١٥٠)، في منشن.

(٥) متن التواريخ: لسعيد شهري زاده (نحو ١١٧٣)، هو كالفهرس لكتاب قرة الأبصار في نتائج التواريخ والأخبار، وفي آخره سيرة المؤلف بخطه.

(٢-٥) المؤرخون في المغرب

(١) **أبو عبد الله اللؤلؤي الزركشي نحو سنة ٩٣٢:** له تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية إلى سنة ٩٣٢، منه نسخة في باريس والجزائر عليها ذيل بفهرس إلى سنة ٨٣٩ وملاحظات، طبع في تونس سنة ١٢٨٩، وقد ترجمت هذه الطبعة إلى الفرنساوية بقلم فانيان، وطبعت في الأستانة سنة ١٨٩٥.

(٢) **الغزوات:** لمؤلف تركي مجهول نقل إلى العربية، وهو كالرواية في وصف قرصان عروج وخير الدين إلى حملة كارل الخامس سنة ٩٤٨، طبع في باريس سنة ١٨٣٧، وترجم إلى الفرنساوية ونشر في المجلة الجغرافية.

(٣) **ابن أبي دينار الرعيني (نحو ١١١٠):** له المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس، طبع في تونس سنة ١٢٨٥، وترجم إلى الفرنساوية، وطبع سنة ١٨٤٥.

(٤) **محمد الصغير الوفراني (نحو سنة ١١١٢):** له نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، وفيه تاريخ ابن سعد صاحب مراكش، وهو تاريخ الدولة السعدية بمراكش إلى سنة ١٠٨١. طبع بفاس مع ترجمة فرنساوية في مجلدين، وفي باريس سنة ١٨٩٩.

(٥) **الحلفاوي التلمساني نحو سنة ١١٢٤:** له أرجوزة في أخذ وهران على يد السلطان أبي عبد الله الدولتلي داي بكداش، لها شرح في برلين والمتحف البريطاني.

(٦) **التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية:** بغير اسم المؤلف في شكل المقامات، في الجزائر.

(٧) **علي بن موسى مصباح الذريولي (نحو ١١٢٥):** له سناء المهتدي إلى مفاخر الوزير أبي العباس اليحمدي، في المكتبة الخديوية.

(٨) **أبو عبد الله سيد محمد بن الطيب بن أحمد بن يوسف بن أحمد الشريف العلمي المتوفى سنة ١١٣٤:** له الأنيس المطرب فيمن لقيه مؤلفه من أدباء المغرب في تراجم معاصريه وأخبارهم، طبع بفاس سنة ١٣١٥.

(٩) **ابن مشيش (نحو سنة ١١٣٧):** له لامية في ١٨٠ بيتًا فيها أسماء المشاهير من العلماء والشعراء وغيرهم من أول الإسلام إلى أيامه، في برلين.

(١٠) **السيد محمد الصغير بن محمد بن عبد الله الإفرائيني المراكشي:** له صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، جمع فيه تراجم مشاهير الغرب في ذلك القرن وغيره، طبع في فاس على الحجر في ٢٣٦ صفحة.

(١١) **أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد الملقب ابن مريم:** له البستان في تراجم علماء المسلمين في تلمسان، مرتب على الأبجدية، ألفه سنة ١٠١٩ وطبع في تلمسان سنة ١٩٠٨، وقد ترجم إلى الفرنساوية وطبع سنة ١٩١٠.

(١٢) **حسين خوجة (١١٦٩):** له ذيل بشائر، فيه نخبة من تراجم التونسيين، طبع في تونس سنة ١٣١٦.

(١٣) **السراج الوزير الأندلسي (بعد سنة ١١٣٨):** له الحلل السندسية في الأخبار التونسية، وهو تاريخ إفريقيا في أيامه، رتبه على حوادث الأيام والسنين، يشتمل على تاريخ تونس ومن كانت له فيها دولة من الملوك والسادات قبل الدولة العثمانية مع

ذكر علومهم وكتبهم، ثم تفصيل أخبار العثمانيين هناك من سنة ١٩٠٢ إلى زمن الأمير حسين باي تونس. وهو السبب في تأليف هذا الكتاب، وينتهي سنة ١١٣٧، رتبه على ثمانية أبواب:

الأول: في التاريخ العام.

والثاني: في أخبار المغرب.

والثالث: في إفريقية.

والرابع: في قرطاجنة

والخامس: في تونس.

والسادس: في ملوكهم.

والسابع: في الأمراء الذين تولوها تحت رعاية آل عثمان.

والثامن: استطرادات وأخبار مفصلة.

طبع بعضه في تونس سنة ١٢٨٧، ومنه الجزء الأول في المكتبة الخديوية في ٤٠٠ صفحة.

(١٤) **محمد بن خليل غلبون (نحو ١١٥٠):** له التذكرة فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار، شرح قصيدة في مدح طرابلس الغرب لأحمد بن عبد الدائم الأنصاري ويتضمن تاريخ هذه المدينة من الفتح الإسلامي إلى القرن ١٢ في باريس.

(١٥) **الحاج ابن أبي عبد الله بن عبد العزيز (نحو ١١٨٨):** له الكتاب الباشي فيه تاريخ باشا تونس علي بك حسين بن علي التركي (من سنة ١١٧٢–١١٧٤) مع فذلكة في تاريخ الحفصية إلى سنة ٩٥٠، في المتحف البريطاني.

(١٦) **ابن عبد الرحمن التلمساني (نحو ١١٩٣):** له الزهرة الناثرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها الجنود الكافرة، وصف فيها حمل الإفرنج على الجزائر من زمن خير الدين إلى سنة ١١٨٩، منها نسخ في منشن والجزائر، وترجمت إلى الفرنساوية، وطبعت في الجزائر سنة ١٨٤١.

(٢-٦) المؤرخون في السودان

(١) **أحمد بابا الصنهاجي (توفي سنة ١٠٣٦هـ):** هو أحمد بن أحمد بن أحمد بن عمر أحمد بابا الصنهاجي السوداني، ولد في تمبكتو سنة ٩٦٣ ولما فتحها محمود رزقون قائد الجند المراكشي سنة ١٠٠٢، أخذ المترجم وبعض أهله إلى مراكش، وظل في السجن هناك إلى سنة ١٠٠٦، ولما أطلق سراحه عاد إلى بلده وتوفي سنة ١٠٣٦، وله:

(أ) تكملة الديباج لابن فرحون: فيه تراجم المالكية إلى سنة ١٠٠٥، وقد ترجم إلى الإسبانية، وطبعت الترجمة في إسبانيا سنة ١٨٦٥ مع الأصل العربي.

(ب) كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، مختصر مرتب على الأبجدية في باريس وبرلين (ترجمته في خلاصة الأثر ١٧٠ ج١).

(٢) **عبد الرحمن السعدي (توفي سنة ١٠٦٦هـ):** هو عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر السعدي ولد في تمبكتو من أسرة هاجرت إليها قديمًا، وتعلم فيها على أحمد بابا المتقدم ذكره، وسافر إلى جني على نهر النيجر وتولى إمامة جامع سانكور، ورحل سنة ١٠٣٦ إلى مملكة سونرهاي ومر بماسنة وغيرها وسافر كثيرًا، وتقلب في مناصب مختلفة وقضى ردحًا من عمره معتزلًا الأعمال يشتغل في أثنائها بالتأليف، وأهم مؤلفاته:

(أ) تاريخ السودان، قسمه إلى ٣٨ بابًا فيه تفصيل مملكة سونرهاي وما تقلب عليها إلى موت المؤلف، صدره بخلاصة تاريخية لأهم حوادث السودان، وخصوصًا تنكبت (تمبكتو) وماسنة وسعى وملي وجني وعلائقها مع مراكش وملوك المغرب، وفيه أبواب لتراجم الملوك والباشوات ويتخلله كثير من الفوائد الاجتماعية والأدبية، طبع في باريس سنة ١٨٩٨ في مجلدين مع ترجمة فرنساوية وعليه ذيَّل اسمه.

(ب) تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان، ألفه أحد أنسباء الأمير محمد بن سوو من قبيلة سونرهاي في تنبكت سنة ١١٦٤، ويتضمن تاريخ ثلاثة أمراء من مراكش تولوا سونرهاي، طبع في باريس سنة ١٨٩٩، لكن الأسماء الواردة في النسخة المطبوعة مرتبة فيها على الأبجدية خلاف المألوف، فهي هناك هكذا: ج م ع س ح ي ب ا ن ذ ز هذه هي كلها، وفي آخره مقالة في تاريخ سكت.

هوامش

(١) راجع الجزء الثاني من هذا الكتاب.

الجغرافية والرحلات

(١) **نصير الدين الرومي الحلبي نحو سنة ٩٤٨، له:**

(أ) التحفة اللطيفة في وصف مسجد المدينة.
(ب) المستقصى في فضائل المسجد الأقصى، كلاهما في الأسكوريال.

(٢) **محمد بن عبد العزيز بن فهد القرشي (٩٥٤):** له السلاح والعدة في فضائل بندر جدة، في برلين وفينا.

(٣) **زين الدين عبد القادر بن البدري محمد الأنصاري الجزري:** ألف سنة ٩٦١ درر الفوائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، وصف فيه طرق الحاج والمنازل وكيفية الرحيل والنزول والإقامات والمناهل ومن حج بالناس من الخلفاء والأمراء والأعيان، منه الجزء الأول في المكتبة الخديوية في ٤٣٤ صفحة لم يذكر عليها اسم المؤلف. والجزء الثاني في الخزانة التيمورية في نحو هذا الحجم.

(٤) **عبد الباسط بن موسى العلموي المتوفى سنة ٩٨١:** له مختصر تنبيه الطالب وإرشاد الدارس للنعيمي، في منشن والمتحف البريطاني.

(٥) **بدر الدين أبو الجود الغزي العامري الدمشقي المتوفى سنة ٩٨٤، له:**

(أ) المطالع البدرية في المنازل الرومية، في وصف بلاد الروم، منها نسخة في المتحف البريطاني بخط المؤلف.
(ب) مختصر السير في نور عثمانية.

(٦) **محب الدين بن داود الحموي:** قاضي معرة النعمان في أواخر القرن العاشر، له: حادي الأظعان النجدية إلى الديار المصرية، وصف فيه رحلته من نجد إلى مصر، منه نسخة في المكتبة الخديوية وفي باريس.

(٧) **ابن سكيكر الدمشقي المتوفى سنة ٩٨٧:** له زبدة الآثار فيما وقع لجامعه في الإقامة والأسفار، وصف به رحلته من حمة إلى حلب، منه نسخة في بطرسبورج.

(٨) **حجيج بن قاسم الواحدي نحو سنة ٩٩٢:** له رحلة من حلب إلى مكة في بطرسبورج.

(٩) **شمس الدين أحمد بن محمد البصراوي ويعرف بابن الإمام (نحو ١٠٠٣):** له تحفة الإمام في فضائل الشام، منها نسخة في المكتبة الخديوية في ١٢٢ صفحة فيها تراجم من جاء الشام أو مات فيها من المحمدين والأئمة، ومنها نسخ في أكثر مكاتب أوربا.

(١٠) **أبو عبد الله القسطميني أبو قنفد، كتب سنة ١٠٠١:** إدريسية النسب في القرى والأمصار وبلاد العرب، منها نسخة في المكتبة الخديوية.

(١١) **أحمد السجلماسي المتوفى سنة ١٠٢١:** له عذراء الوسائل وهودج الرسائل في مرج الأرج ونفحة الفرج إلى سادة مصر وقادة العصر، وتسمى «أصليت الخريت في قطع بلعوم العفريت النفريت»، ضمنها أحوال رحلته الثانية إلى الأقطار الحجازية لأداء الحج، منه نسخة في المكتبة الخديوية.

(١٢) **محمد حافظ الدين القدسي، كتب سنة ١٠١٣:** أسفار الأسفار وأبكار الأفكار، وصف بها رحلته إلى القاهرة والقدس ودمشق، وأطال في وصف سفره إلى الأستانة وما قاساه فيها من الأنواء والعواصف، في برلين.

(١٣) **الشفوني نحو (١٠٥٤):** له الجوهر المكنون في زيارة جبل قيسون في برلين.

(١٤) **بهجة الأحباب في فضائل وكرامات الشيخ أبي بكر قوون:** في برلين.

(١٥) **زين العابدين الصديقي:** له رحلة إلى بلاد الحجاز طبعت بمصر.

(١٦) **محمد كبريت الموسوي المدني (١٠٧٠)، له:**

(أ) الجواهر الثمينة في محاسن المدينة، في باريس.

(ب) رحلة الشتاء والصيف، وصف بها رحلته بين المدينة والأستانة في زمن مراد الرابع، طبعت بمصر سنة ١٢٩٣.

(جـ) نصر من الله وفتح قريب، فيها تراجم فضلاء المدينة، في مكتبة عارف حكمت بك في المدينة.

(١٧) **حسن بن أحمد الخيمي المتوفى سنة ١٠٧١:** له رحلة إلى الحبشة ونحوها، طبعت في برلين سنة ١٨٩٤.

(١٨) **الشيخ إبراهيم بن عبد الرحمن الخياري المصري المدني (١٠٨٢):** له تحفة الأدباء وسلوة الغرباء، وصف بها رحلته إلى الأستانة ودمشق فالقاهرة فالمدينة، منها نسخة في برلين وغوطا، وطبعت في ليبسك سنة ١٨٥٠.

(١٩) **الفرضي نجم الدين:** له رحلة إلى دمشق وضواحيها سنة ١٠٩٠ سماها «الإشارات إلى أماكن الزيارات»، منها نسخة في برلين.

(٢٠) **أبو سالم العياشي المالكي عفيف الدين المغربي المتوفى سنة ١٠٩٠:** له الرحلة العياشية، وصف بها رحلته إلى مكة والمدينة ومن لاقاه فيهما من العلماء وغيرهم، طبعت في فاس سنة ١٣١٦ في مجلدين، وترجمت إلى الفرنساوية، وطبعت في باريس سنة ١٨٤٦.

(٢١) **أبو العباس بن ناصر الدرعي:** له الرحلة الناصرية، من سجلماسة إلى طرابلس فمصر فمكة ورجوعه إلى بلده سنة ١١٢٢، منه نسخة في غوطا والجزائر، وقد طبعت في فاس سنة ١٣٢٠ في مجلدين صفحاتهما ٤٥٠ صفحة.

(٢٢) **عبد الغني النابلسي (المتوفى سنة ١١٤٣هـ):** هو عبد الغني بن إسماعيل الرحالة المتصوف الشهير، تيتم صغيرًا ودخل في الطريقة القادرية والنقشبندية وأخذ في درس كتب القوم وخصوصًا ابن العربي وعفيف الدين التلمساني، ورحل إلى بغداد وأقام بها مدة، ثم سافر في لبنان والقدس والخليل ومصر والحجاز وطرابلس، وعاد إلى دمشق وأقام في الصالحية ومات فيها سنة ١١٤٣، وكان له اطلاع واسع على علوم تلك الأيام ويلقبونه بأستاذ الأساتذة وأكثر من التأليف حتى ناهزت كتبه تسعين كتابًا في التصوف والرحلة والأدب واللغة والشعر والمنطق يهمنا منها:

(أ) الحقيقة والمجاز في رحلة الشام ومصر والحجاز: في المكتبة الخديوية وغيرها.

(ب) الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية: وصف بها رحلته من دمشق إلى القدس سنة ١١٠١، منها نسخ في برلين وغوطا.

(ج) حلة الذهب الإبريز في رحلة بعلبك وبقاع العزيز: في المتحف البريطاني.

(د) التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية: في المتحف البريطاني وعندنا.

(هـ) الرسوخ في مقام الشيوخ: أبان فيه منزلة الشيوخ لدى التلاميذ، في برلين.

(و) تعطير الأنام في تعبير المنام: طبع بمصر مرارًا.

(ز) الصلح بين الإخوان في حكم إباحة الدخان (التبغ) في برلين.

(ح) إيضاح الدلالات في سماع الآلات (الموسيقى)، في برلين.

(ط) مفتاح المعية في الطريقة النقشبندية في التصوف، في المكتبة الخديوية.

(ي) علم الملاحة في علم الفلاحة: مختصر كتاب الغزي، طبع في دمشق وفي بيروت سنة ١٢٩٩.

(ك) نفحات الأزهار على نسمات الأسحار في مدح النبي المختار، هي بديعية مشروحة في ٣٥٠ صفحة، طبعت بمصر سنة ١٢٩٩ وفي غيرها، وقد دون فيها التاريخ الشعري من جملة فنون الشعر وذكر أنه فن استخدمه المتأخرون، ووضع له شروط ضبطها وهو أول من فعل ذلك على ما نعلم.

(ل) ذيل نفحة الريحانة للمحبي، في نور عثمانية.

وله أشعار عديدة وموشحات وأراجيز، وله شروح ومختصرات لبعض من تقدمه من الأئمة يطول بنا ذكرها (سلك الدرر ٣٠ ج٣).

(٢٣) **مرتضى بن علي بن علوان:** له رحلة إلى مكة سنة ١١٢٠، في برلين.

(٢٤) **درويش مصطفى اللطيف سنة ١١٢٦:** له رحلة اسمها سياحة البلدان، منها نسخة في توبنجن.

(٢٥) **مرتضى بك الكردي (١١٢٧):** له تهذيب الأطوار في عجائب الأمصار، رحلة من دمشق إلى القاهرة، في برلين.

(٢٦) **الشيخ الزيني المتوفى سنة ١١٢٨:** له رحلة إلى الحجاز طبعت بمصر سنة ١٣١١.

(٢٧) **رحلة أبي عبد الله الطيب نور الله سنة ١١٣٩:** من فاس إلى مكة، عند فلايشر.

(٢٨) **مصطفى أسعد اللقيمي الدمياطي توفي سنة ١١٧٨، له:**

(أ) لطائف أنس الخليل في تحائف القدس والخليل، وصف بها القدس والخليل، في برلين.

(ب) موانح الأنس برحلتي لوادي القدس، هي رحلته من دمياط إلى القدس في ستة أشهر، في برلين.

(ج) الحلة المعلمة البهيجة في الرحلة القدسية المهيجة، في برلين.

(٢٩) **جمال الدين البغدادي السويدي الدوري من أهل بغداد (١١٧٤):** له النفحة المسكية في الرحلة المكية، وصف بها رحلته سنة ١١٤٨ إلى مكة، منها نسخة في المتحف البريطاني.

(٣٠) **ابن ضروب المجاجي:** له رحلة من مجاجة إلى مكة سنة ١١٦٣، في الجزائر.

(٣١) **ابن المهدي غزال الفاسي نحو سنة ١١٧٩:** له نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد، هي رحلة أبي عبد الله بن سلطان مراكش، منها نسخة في باريس.

(٣٢) **الخوري إلياس الكلداني الموصلي:** له رحلة إلى أميركا من سنة ١٦٦٨–١٦٨٣ (١٠٧٩–١٠٩٥)، طبعت في بيروت سنة ١٩٠٦.

الموسوعات والمجاميع

(١) في مصر والشام

(١) **ساجقلي زاده (توفي سنة ١١٥٠هـ):** هو ساجقلي زاده المرعشي، كان متبحرًا في علوم مختلفة وألف في أكثرها ولا سيما في المناظرة، وهذه آثاره التي يهمنا ذكرها:

(أ) ترتيب العلوم، قال في مقدمته: إنه نظرًا لتكاثر الشروح وشروح الشروح، والحواشي وحواشي الحواشي، وتفرع العلوم وكثرتها، أصبح أمرها عقبة في طريق طلاب العلم، يلتبس عليهم فهم القضايا وتدبرها؛ لأنهم يقرأون الحاشية أو الشرح قبل المتن. فألف هذا الكتاب لترتيب العلوم بحيث يعرف الأصل من الفرع؛ جعله مقدمة ومقصدين وتذييلًا وخاتمة، عدَّد فيها العلوم وأقسامها وأحكام الاشتغال بها وتعريف الفنون النافعة ومراتبها، منه قطعة في المكتبة الخديوية في ٨٤ صفحة ويوجد في برلين وفينا، وعليه بنى معاصره الأعلمي كتاب الأفهام في الإلهام، في برلين.

(ب) رسالة في فن المناظرة: كتبها لابنه وتسمى أيضًا «الرسالة الولدية» في برلين وبطرسبورج والجزائر والمكتبة الخديوية، عليها شروح لغير واحد، منها نسخ في أهم مكاتب أوربا.

(جـ) تقرير القوانين المتداولة في علم المناظرة، في برلين والمكتبة الخديوية ونور عثمانية وأيا صوفيا، وعليها شرح في المكتبة الخديوية.

(د) رسالة في ذم الدخان: في المكتبة الخديوية وله كتب في الفقه وغيره.

(٢) **راغب باشا (توفي سنة ١١٧٦هـ):** هو محمد راغب باشا والي مصر، وصار صدرًا أعظم، وهو صاحب المكتبة المعروفة باسمه في الأستانة ولها أوقاف، وكان يحب

الأدب ويأنس بأهله، خلف أثرًا نفيسًا هو: سفينة الراغب ودفينة الطالب: مجموع حافل يشتمل على رسائل ومسائل وأبحاث في كل موضوع بالأدب واللغة والشعر والعلم والطبيعة والحديث والطب والرياضيات والمنطق والأدعية والأصول وغير ذلك. سميت بهذا الاسم لأنها جُمعت من كتب شتى، وهي كثيرة الشبه بالكشكول الآتي ذكره من حيث تعدد مواضيعه وقلة ترتيبه وصعوبة الوقوف على أبوابه، طبعت بمصر سنة ١٢٥٥ وغيرها.

موسوعات أخرى في مصر والشام

(٣) **عشرة أبحاث عن عشرة علوم:** لعماد الدين الدمشقي (٩٨٦)، قدمه لقاضي قضاة دمشق، منه نسخة في برلين.

(٤) **روضة الفهوم في نظم نقابة العلوم للسيوطي:** لأحمد السنباطي (نحو ٩٩٠)، لها شرح اسمه فتح الحي القيوم، في ليدن.

(٥) **تيجان العنوان:** أرجوزة في ٢٣٧ بيتًا في التصوف والمنطق والنحو والأصول، لأحمد الرشيدي المغربي (١٠٩٦)، في برلين.

(٢) الموسوعات خارج مصر والشام

(١) **ابن كمال باشا (توفي سنة ٩٤٠هـ):** هو شمس الدين محمد بن أحمد بن سليمان بن كمال باشا، خدم وهو شاب في الجيش العثماني في سلطنة بيازيد، ثم تعلم الحديث في أدرنة على يد لطفي، وصار أستاذًا في مدرسة علي بك في أسكوب، وفي الحلبية بأدرنة وفي الأستانة وغيرها، وتولى قضاء أدرنة ثم قضاء العسكر في الأناطول ثم علم في دار الحديث بأدرنة، وأخيرًا تولى الإفتاء بالأستانة حتى مات سنة ٩٤٠، وله مؤلفات عديدة تزيد على ١٢٥ مؤلفًا في الحديث والأصول والفقه والتفسير والفرائض وسائر العلوم الإسلامية والفلسفة الدينية بعضها في الفارسية، أكثرها موجود خطًّا في المكتبة الخديوية لا يهمنا إيرادها وإنما نذكر له:

(أ) رسالة في الخضاب.

(ب) كتاب في طبيعة الأفيون. كلاهما في المكتبة الخديوية.

(ج) طبقات الفقهاء.

(د) طبقات المجتهدين الحنفية، كلاهما في برلين.

(ه) كتاب في الكلمات العربية: نشر في المقتبس المجلد السابع.

(و) رجوع الشيخ إلى صباه: طبع بمصر مرارًا. وهو من الكتب التي نجِل الأدباء عن مطالعتها، وإنما ذكرناه لبيان انحطاط الآداب في ذلك العصر؛ ونأسف لأنه تُرجم إلى اللغة الإنكليزية وطُبع مع الأصل والملاحظات في لندن سنة ١٨٩٨.

(ز) التنبيه على غلط الجاهل النبيه: في الخزانة التيمورية.

ولابن كمال باشا هذا مؤلفات أخرى صغيرة، جمع بعضها في مجاميع منها ٣٦ رسالة طبعت في مجلد واحد بالأستانة سنة ١٣١٦ ومجموعة أخرى فيها ٢٨ رسالة في الخزانة التيمورية، ومجموعة خطية أخرى هناك في ٢٤ رسالة.

(٢) **بهاء الدين العاملي (توفي سنة ١٠٠٣هـ):** هو محمد بن حسين بن عبد الصمد الحارثي العاملي الملقب بهاء الدين، ولد في بعلبك وسافر إلى فارس وتعلم هناك، وقضى نحو ٣٠ سنة في الأسفار، وأخيرًا استقر في أصفهان في حاشية الشاه عباس وتوفي سنة ١٠٠٣، وقد ألف في التفسير والحديث والفقه وأصول الدين والفلك والحساب واللغة وغيرها، وهاك أشهر كتبه:

(أ) الكشكول: هو مشهور ومطبوع في مصر وطهران مرارًا، ويعد بحسب الظاهر من كتب الأدب لكنه يحتوي على شذرات من كل علم وفن حتى الهندسة والجبر والنجوم والطب والإحصاء، فضلًا عن الأدب والتاريخ والشعر والأمثال والعلوم الإسلامية والأبحاث الفلسفية واللاهوتية والتصوف وعلم الكلام وغير ذلك، لكنه غير مرتب في أبواب؛ فيعجز المطالع عن معرفة مكان كل علم أو مسألة، ولو طبع طبعة لها فهارس أبجدية لجاء بالفائدة المطلوبة؛ لأنه مثال لآداب العرب في القرن العاشر.

(ب) المخلاة: هي من قبيل الكشكول لكنها قاصرة على الأدب والشعر والأمثال والحكم والمواعظ، طبعت بمصر سنة ١٣١٧.

(ج) أسرار البلاغة: في الأدب، طبع بمصر سنة ١٣١٧ مع المخلاة.

(د) الحبل المتين: في حديث الأحكام من الشيعة، منه نسخة في الخزانة التيمورية.

(ه) خلاصة الحساب: هو من أحسن كتب تلك الأيام في هذا الموضوع، وقد طبع مرارًا في الأستانة وكشمير ومصر، وترجم إلى الفارسية وطبع في كلكتة، وللألمانية وطبع

سنة ١٨٤٣ في برلين، وللفرنساوية طبع في رومية سنة ١٨٦٤ وعليه شروح عديدة غير مطبوعة، وله كتب أخرى في العلوم الإسلامية والأسطرلاب والأفلاك وغيرهما لا فائدة من ذكرها (خلاصة الأثر ٤٤٠ ج٣).

(٣) **التهانوي (ألف سنة ١١٥٨هـ):** هو محمد صابر الفاروقي السني الحنفي التهانوي له كتاب جليل القدر نعني: كشاف اصطلاحات الفنون، وهو معجم لغوي فني اصطلاحي، جمع فيه مصطلحات العلوم أو تعريفها وشرح الموضوعات الاصطلاحية حسب العلم، رتبه على الأبجدية باعتبار أصل المادة، فلفظ «المؤنث» مثلًا يضعه بباب «أنث» وبعد أن يشرح اشتقاق اللفظ يذكر تعريفه عند أهل كل فن، وقد يأتي بفذلكة تاريخية عن أسباب تلك التسميات، فمادة تاريخ مثلًا استغرق الكلام فيها ست صفحات كبيرة؛ لأنه ذكر اشتقاقها واصطلاح الأمم في تواريخهم أو تقاويمهم عند العرب واليهود والروم والفرس والقبط وغيرهم، وأصل تاريخ الهجرة، وقس على ذلك مصطلحات سائر الفنون العقلية والنقلية والطبيعية والرياضية وغيرها، فهو من خيرة الكتب التي تقتنى للمراجعة، ويستعان به في وضع المصطلحات العلمية الحديثة، طبع في كلكتة سنة ١٨٦١ في مجلدين كبيرين صفحاتهما ١٥٦٤ صفحة كبيرة وفي آخره رسالتان في علم المنطق لنجم الدين الكاتبي القزويني، وطبع أيضًا في الأستانة سنة ١٣١٧.

موسوعات أخرى

(١) **الشريف بن السيد الموقع ياعو القادري الحسني:** له مجمع ملتقط الزهور بروضة من المنظوم والمنثور، في وصف العلوم المختلفة، ألفه سنة ٩٣٠ في برلين.

(٢) **غياث الدين بن منصور الشيرازي (٩٤٩):** له الرد على أنموذج العلوم الجلالية في ليدن.

(٣) **عيسى الصفوي (٩٥٣):** له أنموذج العلوم الإسلامية واللغوية، في فينا.

(٤) **محمد بن أحمد باشا العجمي حافظ الدين:** تعلم في تبريز وعلم في أنقرة والأستانة وتوفي بأيا صوفيا سنة ٩٥٧، له: مدينة العلم، منها نسخة في مكتبة كوبرلي، وقد تقدم ذكر كتاب باسم «مدينة العلوم» (صفحة ٢٣٩)، لم نتحقق مؤلفه فلعله هذا.

(٥) **عبد العزيز المكناسبي المدني (٩٦٤):** له أرجوزة في العلوم الإسلامية، منها نسخة في المتحف البريطاني.

(٦) محمد بن علي سباهي زاده البروسوي (٩٩٧)، له:

(أ) أنموذج الفنون في التفسير والحديث والكلام وأصول الفقه والبيان والطب والنجوم، منه نسخة في فينا.

(ب) أوضح المسالك إلى معرفة البلدان والممالك، تقدم ذكره في ترجمة أبي الفداء.

(٧) **محمد أمين الشرواني ملا زاده:** الأستاذ في مدرسة السلطان أحمد توفي سنة ١٠٣٦، له: الفوائد الخاقانية الأحمدخانية، ألفه باسم السلطان أحمد خان العثماني وجعل عدد العلوم فيه بعدد جمل اسم «أحمد» (٥٣) منها عشرة علوم شرعية و١٢ علمًا لغويًّا، و٣٠ علمًا فلسفيًّا وغيرها، منها نسخة في فينا وفي المكتبة الخديوية.

(٨) **أبو البقاء الحسيني الكفوي السيد أيوب:** ولد في كفا بالقرم ثم دعي إلى الأستانة وعين قاضيًا ثم رجع إلى كفا وتوفي سنة ١٠٩٤، له: كتاب كليات العلوم وهو من المعاجم الاصطلاحية للموضوعات العلمية نحو معجم التهانوي المتقدم ذكره في المصطلحات، طبع بمصر سنة ١٢٥٣ وسنة ١٢٥٥ وغيرهما ويعرف بكليات أبي البقاء.

(٩) **حسين بن الشامي الهتاري المدني (نحو ١١٠٠):** له كتاب أبدع ما كان وأفيد ما يستفيده الطلاب، في برلين.

(١٠) محمد بن مصطفى الأوداني الينيشهري، توفي نحو سنة ١١٦٨، له:

(أ) الرسالة الستية في العلوم الستة الصرف والنحو والمعاني والبيان والمنطق والأدب.

(ب) رسالة في حد العلم وتقسيمه، كلاهما في برلين.

العلوم الإسلامية

نقتصر من أصحاب هذه العلوم على الأشهر، ولا سيما الذين اشتغلوا بالعلوم الأخرى، وفي هذا العصر ظهر الإمام محمد بن عبد الوهاب صاحب الطائفة الوهابية، فنبدأ بسيرته وما خلفه من الآثار ثم نأتي على سواه.

محمد بن عبد الوهاب (توفي سنة ١٢٠٦هـ): هو رأس الوهابية وإمامهم، ولد في العيينة من إقليم العارض من نجد نحو سنة ١١١٦هـ، وكان أبوه شيخًا فقيهًا فربي في حجره على المذهب الحنبلي، ثم انتقل لإتمام دروسه في البصرة وهم بزيارة مكة والمدينة وعاد إلى بلده، ثم تزوج في الحريملة بالعارض وأقام فيها واشتهر بين قومه بالتقوى وصدق التدين، وأنحى عليهم باللائمة لتقاعدهم عن الفروض الدينية وإهمالهم قواعد الدين الأساسية، وبالغ في تعنيفهم حتى تآمر بعضهم على قتله وتربصوا له في مكمن، فأدرك غرضهم ففر إلى بلده العيينة وأخذ يجتذب الأحزاب إليه من أهله وأبناء قبيلته بالوعظ والمراسلة والإقناع، فالتف حوله جماعة من الأنصار في بلدته وما يحيط بها، وقوي نفوذه وصار يحكم بين أتباعه بما يراه، فسعى أمير الحسا في قتله ففر وزاد أتباعه تمسكًا بدعواه، فوسطوا أمير العارض محمد بن سعود في استقدامه وحمايته فاستقدمه، فأقام في الدرعية وأحسن ابن سعود وفادته وتكاثر أنصاره، وانتشرت تعاليمه في نجد وغيرها وقد نشرنا خلاصتها في تاريخ مصر الحديث ١٥٦ ج٢ من الطبعة الثانية.

وما زال عاملًا على نشر هذه التعاليم وابن سعود ينشر نفوذه معه حتى توفي محمد وخلفه ابنه عبد العزيز، وخافت الدولة العلية على سلطانها في جزيرة العرب، فكلفت محمد علي باشا بمحاربتهم كما فصلنا ذلك في «تاريخ مصر الحديث» وغلبهم،

لكن الوهابية لا تزال باقية ولها أتباع منتشرون في جزيرة العرب وغيرها، وهاك أهم ما وصلنا من تعاليمها وسائر أحوالها:

(أ) لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب ومذهبه: في الخزانة التيمورية.
(ب) التوحيد: في المتحف البريطاني.
(ج) تفسير الفاتحة.
(د) تفسير الشهادة ومعرفة الله تعالى، كلاهما في المتحف المذكور.
(هـ) التوضيح عن توحيد الأخلاق في الرد على أهل العراق، ويشتمل على بيان الطريقة الوهابية لسليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، طبع بمصر سنة ١٣١٩.
(و) الأقوال المرضية في الرد على الوهابية لمحمد بن عطا، طبع بمصر سنة ١٩٠١.
(ز) الدرر السنية في الرد على الوهابية، طبع بمصر سنة ١٢٩٩.

ونشرع بعد ذلك بإيراد أشهر أئمة العلوم الإسلامية حسب المواضيع:

(١) في الحديث

(١) **عبد الرءوف المناوي (توفي سنة ١٠٣١هـ):** هو عبد الرءوف زين الدين الحدادي المناوي بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين، ولد في القاهرة سنة ٩٥٢ واشتغل من صباه بالعلوم العويصة كالتصوف ونحوه، فضلًا عن الحديث وغيره، وانقطع عن الناس للعلم، ثم دعي للتعليم في المدرسة الصالحية فعلم بها ثم اعتزل التدريس حتى توفي، وأهم مؤلفاته لما نحن فيه:

(أ) كنوز الحقائق في حديث خير الخلائق: معجم يشتمل على ١٠٠٠٠ حديث استخرجها من ٤٤ كتابًا، طبع بمصر سنة ١٣٨٦ وسنة ١٢٠٥، له: مختصر لعبد الغني النابلسي (١١٤٣) اسمه كنز الحق المبين، منه نسخة في المكتبة الخديوية.
(ب) الدر المنضود في ذم البخل ومدح الجود: مجموع أمثال وحكم بهذا المعنى، منه نسخة في المكتبة الخديوية في ١١٢ صفحة.
(ج) الجواهر المضية في الأحكام السلطانية: في أحوال السلطان والوزراء والوكلاء، في ليدن.

(د) الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية: هي طبقات الصوفية تشتمل على تراجم رجال هذه الطائفة في طبقات:

الأولى: من توفي في القرن الأول للهجرة من نساك الصحابة وزهادهم وهم ٣٦ رجلًا منهم الخلفاء الراشدون.

والثانية: الذين توفوا في القرن الثاني أو قبيله ومنهم التابعون ١٣٠ إنسانًا.

والثالثة: وفيات القرن الثالث وهم ٧٧ وهكذا إلى الخامسة فالسادسة إلى الحادية عشرة، ورجال كل طبقة مرتبون على الهجاء، منه نسخة في المكتبة الخديوية في ٨٨٠ صفحة، ويوجد أيضًا في المتحف البريطاني وتونس.

(هـ) الطبقات الصغرى: في التراجم أيضًا ويسمى «إرغام أولياء الشيطان» ألفه بعد شيوع كتابه الكواكب الدرية في مناقب الصوفية، ثم اختصره واقتصر على مناقب أولئك السادة، منه نسخة في المكتبة الخديوية في ٢٧٦ صفحة.

(و) غاية الإرشاد في معرفة أحكام الحيوان والنبات والجماد: في غوطا وباريس.

(ز) آداب الأكل والشرب: من قبيل آداب السلوك، منه نسخة في المكتبة الخديوية في ٨٠ صفحة.

(ح) شرح خطبة القاموس: في المكتبة الخديوية في بضع عشرة صفحة.

(ط) إتحاف السائل بفضائل فاطمة: في الخزانة التيمورية

(خلاصة الأثر ٤١٢ ج٢).

وقد تقدم ذكر بعض المحدثين في أثناء كلامنا في المواضيع الأخرى.

(٢) الفقه الحنفي

(١) **برهان الدين الحلبي (٩٥٦):** تعلم في حلب والقاهرة واشتهر بكتاب: ملتقى الأبحر في فروع الفقه الحنفي، طبع بالأستانة على الحجر سنة ١٢٧١ وترجم إلى الفرنساوية وطبع بمرسيليا سنة ١٨٨٢، وإلى التركية مع شرح الموقوفاتي، طبع بمصر سنة ١٢٥٤، وفي الأستانة سنة ١٢٦٩ وعليه شروح عديدة أحدها للحصكفي، طبع في الأستانة غير مرة.

(٢) **ابن نجيم المصري زين العابدين، توفي سنة ٩٧٠، له:**

(أ) كتاب الأشباه والنظائر في الفقه الحنفي، طبع في كلكلة سنة ١٨٣٦، وفي مصر سنة ١٢٩٨، وله شروح عديدة لابن حبيب الغزي ومصطفى خير الدين وعبد الغني بن إسماعيل وغيرهم، مفرقة في المكاتب.

(ب) البحر الرائق على كنز الدقائق، طبع بمصر سنة ١٣١١ في ثمانية أجزاء.

(٣) **شمس الدين التمرتاشي الغزي:** المتوفى سنة ١٠٠٤ تعلم بالقاهرة، وله: تنوير الأبصار وجامع البحار في الفقه الحنفي، منه نسخة خطية في مكاتب أوربا والأستانة والهند والمكتبة الخديوية، وعليه شروح منها الدر المختار للصحكفي المتوفى سنة ١٠٨٨، وشروح أخرى منها نسخ في المكتبة الخديوية، وله كتب أخرى.

(٤) **أبو الإخلاص الشرقبلاوي المتوفى سنة ١٠٦٩:** هو الحسن بن عمار الوفائي الحنفي من أساتذة الأزهر، له: نور الإيضاح ونجاة الأرواح في الصلوات، عليها شروح عديدة وله بضعة عشر مؤلفًا أخرى في الفقه أكثرها موجود في المكتبة الخديوية.

(٥) **خير الدين الفاروقي الأيوبي العليمي المتوفى سنة ١٠٨١:** ولد في الرملة وتعلم في الأزهر، له: الفتاوى الخيرية لنفع البرية، جمعه ابنه، طبع بمصر سنة ١٣٠٠ في مجلدين.

(٦) **محمد بن حمزة الأيديني الكوز لحصاري (١١١٦):** له رسائل كثيرة وكتب في الفقه الحنفي موجودة في المكتبة الخديوية.

(٣) الفقه المالكي

(١) **أبو الإمداد برهان الدين اللقاني:** من أساتذة الأزهر توفي سنة ١٠٤١، وله:

(أ) جوهرة التوحيد.

(ب) أرجوزة في علم الكلام، في المكتبة الخديوية لها شروح عديدة منها: هداية المريد في برلين وغوطا، وإتحاف المريد في أكثر مكاتب أوربا، عليه شروح لعلي العدوي طبع بمصر سنة ١٢٨١، وشرح لمحمد الأمير طبع بمصر مرارًا، وشرح للباجوري طبع بمصر مرارًا وله شروح أخرى منها: إرشاد المريد وفتح القريب للأجهوري ١٠٨٠ طبع بمصر وعليه شروح وحواشٍ أخرى.

(٢) **نور الدين الأجهوري ١٠٦٦:** من شيوخ الأزهر المالكية له مؤلفات عديدة في المكتبة الخديوية.

(٤) الفقه الشافعي

(١) **ابن حجر الهيثمي (توفي سنة ٩٧٣هـ):** هو أحمد بن محمد بن علي أبو العباس شهاب الدين بن حجر الهيثمي المكي الأزهري الجنيدي، عِلِم الفقه بمكة وتوفي سنة ٩٧٣، وله:

(أ) مبلغ الأرب في فخر العرب، في المكتبة الخديوية.

(ب) الجوهر المنظم في زيارة القبر المكرم، رحلة مطبوعة بمصر سنة ١٣٠٩.

(ج) تحرير المقال في تأديب الأطفال، فيه فوائد يحتاج إليها مؤدِّب الأطفال نقلًا عن القرآن والحديث وأقوال السلف، في المكتبة الخديوية في ٤٠ صفحة.

(د) الصواعق المحرقة على أهل الرفض والزندقة: قال في سبب تأليفه: إنه أراد بيان حقيقة خلافة الصديق وإمارة ابن الخطاب فألفه وأخذ في قراءته سنة ٩٥٠ في المسجد الحرام لكثرة الشيعة والرافضة بمكة، ثم رأى أن يوسعه ويطوله ففعل وسماه الصواعق المحرقة؛ لأنه يدحض أقوال الرافضة بالأدلة، فيه أبحاث في تاريخ الأئمة الأربعة الراشدين وبعض بني أمية، منه نسخة في المكتبة الخديوية في ٤٨٢ صفحة، وطبع بمصر سنة ١٣٠٧ وغيرها.

(هـ) القول المختصر في علامات المهدي المنتظر: في المكتبة الخديوية.

(و) كف الرعاع عن محرمات اللهو والسماع، رد على كتاب فرح الأسماع برخص السماع للتونسي (٨٨٢)، في المتحف البريطاني.

(ز) تحفة المحتاج لشرح المنهاج: طبع بمصر مرارًا، وللشرواني عليه حاشية، طبعت بمصر في عشرة أجزاء سنة ١٣١٥.

(ح) الخيرات الحسان في مناقب أبي حنيفة النعمان، طبع بمصر مرارًا.

(ط) النعمة الكبرى في المولد النبوي: في الخزانة التيمورية.

(ي) الفتاوي الهيثمية: طبعت بمصر في ٤ مجلدات.

(ك) شرح مشكاة المصابيح للتبريزي: وهو من الكتب الهامة طبع في الهند ومنه نسخة في المكتبة الخديوية.

(ل) معجم أشياخه: في المكتبة الخديوية.

(٢) **وجيه الدين بن زياد المتوفى سنة ٩٧٥:** هو عبد الرحمن بن عبد الكريم بن إبراهيم بن علي بن زياد الغيثي المقصري الزبيدي الشافعي، له بضعة وثلاثون مؤلفًا في الفقه وفروعه، موجودة في المكتبة الخديوية.

(٣) **شمس الدين الشربيني الخطيب (٩٧٧)، له:**

(أ) شرح منهاج الطالبين للنووي، طبع بمصر سنة ١٣٠٨ في ٤ مجلدات.

(ب) السراج المنير في التفسير، طبع بمصر سنة ١٣١١.

(٥) الفقه الحنبلي

لم يظهر في الفقه الحنبلي من يستحق الذكر، لكننا نذكر لأحدهم كتابًا هامًّا في موضوعه نعني: كتاب عمدة الصفوة في حل القهوة لعبد القادر الأنصاري الجزري، ألفه سنة ٩٦٦، بيَّن فيه أصل القهوة وتاريخها، طبع في باريس سنة ١٨٣٦.

(٦) التصوف

أما الصوفية فظهر منهم عشرات من العلماء، فهم جماعة اشتغلوا في العلوم الأخرى، وخلفوا آثارًا يستفيد منها الأديب والمؤرخ والشاعر، أشهرهم:

(١) **عبد الوهاب الشعراني (توفي سنة ٩٧٣هـ):** هو عبد الوهاب بن أحمد بن علي الشعراني ولد في ساقية أبي شعرة في المنوفية، وعاش متصوفًا في الفسطاط، واشتغل في علم الحديث وغيره، وكان له شأن عظيم حسده عليه معاصروه فناهضوه وناهضهم، فانتصر له جماعة من أهل الوجاهة والنفوذ، وفي أيامه انتقلت الديار المصرية من السلاطين المماليك إلى الدولة العثمانية وآلت مقاومة حساده إلى زيادة شهرته، فأنشأ مدرسة تبث تعاليمه وعلومه فتقاطر إليه الطلاب المريدون لحضور الذكر، وأخذ في

تأليف الكتب وانتهى أمره بشيعة أو طريقة تنسب إليه، وخلف آثارًا تزيد على خمسين كتابًا في مواضيع شتى، نذكر ما يهم القراء منها وهي:

(أ) الدرر المنثورة في بيان زبد العلوم المشهورة: هي موسوعة في علوم القرآن والفقه وأصوله والدين والنحو والبلاغة والتصوف، منها نسخة في المكتبة الخديوية في ٣٢ صفحة، وفي برلين وغوطا.

(ب) اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر: في عقائد الصوفية منه نسخ في مكاتب أوربا، وقد طبع بمصر مرارًا.

(ج) الميزان الخضرية: في الجمع بين الأئمة الأربعة، طبع بمصر سنة ١٢٨٦، وقد ترجمه الدكتور بيرون إلى الفرنساوية، وطبع في الجزائر سنة ١٨٧٠ و١٨٩٨.

(د) الميزان الكبرى الشعرانية: مدخلة لجميع أقوال الأئمة المجتهدين ومقلديهم في الشرعية المحمدية، طبعت بمصر سنة ١٢٧٥ و١٣٠٢ في جزءين، وقد ذكرناها عند كلامنا عن التصوير صفحة ٢٦٩.

(هـ) مشارق الأنوار في بيان العهود المحمدية: طبع في القاهرة سنة ١٢٨٧ وفي الأستانة.

(و) مختصر تذكرة القرطبي: طبع بمصر مرارًا.

(ز) لواقح الأنوار في طبقات الأخيار: وتعرف بطبقات الشعراني الكبرى، طبعت بمصر مرارًا في مجلدين كبيرين، وهي من كتب التراجم المفيدة لمشاهير الأولياء من أبي بكر إلى أيامه وبينهم من يعسر الوقوف على تراجمهم في سواها.

(ح) الطبقات الوسطى: منها نسخة في الخزانة التيمورية.

(ط) أدب القضاة: في المكتبة المارونية بحلب.

(ي) لطائف المنن والأخلاق: في ترجمة حاله، طبع بمصر غير مرة.

(ك) البدر المنير: في غريب الحديث، طبع بمصر.

وله كتب أخرى في التصوف عمومًا وطريقته خصوصًا (ترجمته في الخطط التوفيقية ١٠٩ ج١٤ ولطائف المنن).

(٢) **أيوب القرشي الخلوتي الصالحي المتوفى سنة ١٠٧١:** خلف نحو ٥٠ كتابًا في التصوف وما يلحقه، موجودة خطًّا في مكتبة برلين.

(٣) **محيي الدين أبو محمد البكري الصديقي الخلوتي الحنفي:** المتوفى سنة ١١٦٢ ولد في دمشق ودخل الطريقة الخلوتية من صغره وحج إلى القدس، ورحل بعد ذلك إلى سائر بلاد الشام وحلب والقاهرة، وتوفي فيها، وله ٤٥ مؤلفًا في التصوف وفروعه ولا سيما في الطريقة الخلوتية، أكثرها موجود في المكتبة الخديوية وفي برلين.

وهناك جماعة من علماء الصوفية نبغوا في هذا العصر يعدون بالعشرات أشهرهم عبد الغني النابلسي تقدم ذكره بين أصحاب الرحلات [انظر العصر العثماني: الجغرافية والرحلات].

العلوم الدخيلة

بلغت هذه العلوم في هذا العصر غاية الاضطراب وتحولت الطبيعيات والرياضيات منها إلى خرافات وأوهام، وقل المشتغلون بها أو الانقطاع لها ولم يزيدوا على ما وصلت إليه في إبان التمدن الإسلامي شيئًا سوى ما اقتضاه انحطاط الأخلاق والذل من الأوهام ونحوها، فمن العبث أن نطيل في ذكرها، وإنما نأتي على أمثلة منها، ونختص بالذكر الذين اشتغلوا بالعلوم الأخرى.

في الفلسفة والمنطق

(١) الصدر بن عبد الرحمن الأخضري نحو سنة ٩٤١، له:

(أ) كتاب السلم المرونق في المنطق، أرجوزة في ٩٤ بيتًا اشتغل الناس بشرحها وتلخيصها.

(ب) الجوهر المكنون في صدف الثلاثة الفنون، في البلاغة، لها شروح، طبعت بمصر.

(٢) **محب الله بن عبد الشكور البهاري (١١١٩):** له سلم العلوم عليه شرح مطبوع في لكناو الهند سنة ١٢٦٥.

وهناك طائفة من علماء المنطق أكثر ما ألفوه شروح وفروع أكثرها موجود في المكتبة الخديوية خطًّا، فمن أحب الاطلاع عليها فليراجعها هناك.

في الفلك وفرعه

وظهرت طائفة من علماء الفلك وأكثر اشتغالهم فيه لتعيين أوقات الصلاة أو الأذان أو معرفة الطوالع والسعود والنحوس، واشتهر منهم في هذا العصر بدر الدين سبط المارديني الموقت بالأزهر (٩٣٤) وعبد القادر المنوفي الموقت في مدرسة الغورية (٩٨٠) وابن حشيش الفلكي (٩٩٠) وتقي الدين بن معروف بن ملا الشامي الأسدي أمير المجاهدين الرصاد (٩٩٣) ومصطفى بن شمس الدين الشركسي الطاهري الدمياطي (١٠٣٨) وعبد الله المقدسي الأزهري (١٠٧٠) ورضوان الرزاز الفلكي بمصر (١١٢٢) وحسن بن إبراهيم الزيلعي الجبرتي بمصر (١١٨٨) وغيرهم.

الطب والطبيعيات

وأصيب الطب بما أصيب به سواه من العلوم الطبيعية وتحول كثير منها إلى الخرافات والتعازيم ونحوها، ولكن بعض الأطباء اشتغلوا أيضًا بغير الطب وألفوا كتبًا مفيدة، هاك أشهرهم:

(١) **داود الأنطاكي (توفي سنة ١٠٠٨هـ):** هو داود بن عمر الأنطاكي الضرير، أصله من أنطاكية ورحل إلى الأناطول ثم إلى دمشق فالقاهرة وتوفي بمكة سنة ١٠٠٨، له:

(أ) تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب: وتعرف بتذكرة الأنطاكي مقسومة إلى مقدمة وأربعة أبواب، المقدمة في تعداد علوم الطب، والباب الأول في كليات هذا العلم والمدخل إليه، والثاني قوانين الأدوية واصطناعها من قبيل الأقرباذين، والثالث في خواص العقاقير مرتبة على حروف المعجم، والرابع في الأمراض، وما يخصها مرتبة على المعجم.

فهي موسوعة طبية تمثل الطب القديم أحسن تمثيل، طبعت بمصر مرارًا في ثلاثة مجلدات، لها ذيل لأحد تلاميذ المؤلف، وقد اختصرها الجبرتي المؤرخ وخليل الجزائري وغيرهما.

(ب) النزهة المبهجة في تشحيذ الأذهان وتعديل الأمزجة، طبعت على هامش التذكرة سنة ١٣٢١.

(جـ) تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق: فصل فيه أحوال العاشقين وذكر من استشهد منهم وما أصابهم من العجائب والغرائب، ويدخل في ذلك أخبار عشاق العرب العذريين الذين ظهروا في أوائل الإسلام وغيرهم رتبهم طبقات تبعًا لأحوالهم وغير ذلك، طبع بمصر سنة ١٢٨١ وسنة ١٣٠٨ وغيرهما، وهو مبني على كتاب السراج البغدادي «مصارع العشاق» الذي تقدم ذكره صفحة ٨٣ (خلاصة الأثر ٦٤٠ ج٢).

(٢) **شهاب الدين بن سلامة القليوبي (١٠٦٩):** له عدة كتب طبية راجت في عصره وبعده إلى أوائل هذه النهضة لا فائدة من ذكرها، وإنما نذكر له ما خلفه من كتب الأدب والتاريخ، وهي:

(أ) تحفة الراغب في سيرة جماعة من أهل البيت الأطايب، طبع سنة ١٣٠٧.

(ب) حكايات غريبة وعجيبة، تعرف بنوادر القليوبي، طبع بمصر مرارًا، وقد لخص إلى الإنكليزية وطبع في كلكتة سنة ١٨٥٦ وسنة ١٨٦٤.

(٣) **رياض الدين محمد بن محمد الغزي العامري الدمشقي (٩٣٥):** له جامع فوائد الملاحة في الفلاحة، اختصره عبد الغني النابلسي كما تقدم واختصره عبد القادر الخلاصي سنة ١٢٠٠ وسماه عمدة الصناعة في علم الزراعة، في برلين، واختصره ابن كنان سنة ١١٥٣ كما تقدم.

في الحرب والصيد

(١) مفتاح كنز النظام في أصل الرماية وتعليم الغلام: في علم الصيد للدرويش علي الشاذلي الدمشقي (نحو ١١٣٠)، في برلين.

(٢) فضل القوس العربية لمصطفى الشورنجي الفرحاتي (١١٤٠)، في غوطا.

(٣) العز والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بآلات الحروب والمدافع، لإبراهيم بن أحمد بن غانم الأندلسي المعجام الرياش، في وصف آلات الحرب على اختلاف أشكالها مع إيضاح ذلك بالرسوم، منه نسخة في المكتبة الخديوية من جملة كتب زكي باشا، وفي فينا والجزائر.

(٤) رشحات المداد فيما يتعلق بالصافنات الجياد: للشيخ محمد البخشي الخلوتي من أهل القرن الثاني عشر، تتضمن مطارحات أدبية في الخيل وما ورد فيها من الأحكام المخاطب بها أهلها، ووصف العتاق وما يتعلق بها من الآيات والآثار والأخبار والنوادر، وفي آخرها ذكر خيل النبي، استخرج ذلك كله من كتب الحديث والسنة ومن كتاب شرف الدين عبد المؤمن بن خلف. منه نسخة في المكتبة الخديوية في ١٤٢ صفحة.

في السياسة والإدارة

(١) لطائف الأفكار وكاشف الأسرار: في علم السياسة ألفه القاضي حسين بن حسن السمرقندي للوزير إبراهيم باشا سنة ٩٣٦ في خمسة أبواب:

الأول: في أحكام السياسات.

والثاني: في تاريخ أكابر البريات إلى تلك السنة.

والثالث: في الأدبيات.

والرابع: في الأخلاق المحمودة.

والخامس: في عجائب المخلوقات.

فهو من قبيل الموسوعات الأدبية لكنه يشتمل على ضروب من السياسة، منه نسخة في فينا.

(٢) فتح الملك العليم المنان على الملك المظفر سليمان: لابن سلطان الدمشقي (نحو ٩٦٠) وجهه إلى السلطان سليمان وأبيه السلطان سليم الفاتح بالنصائح ونحوها، منه نسخة في برلين.

(٣) رسالة في السياسة الشرعية لإبراهيم بخشي دده (٩٧٣)، في برلين.

(٤) كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية: لمنصور الذهبي الكاملي سنة ١١٣٦ في علم ضرب النقود، منه نسخة في المكتبة الخديوية.

في الموسيقى

(١) القاري الهروي (١٠١٤)، له:

(أ) الاعتناء بالغناء، في برلين.
(ب) رسالة في السماع والغناء، في المكتبة الخديوية.

(٢) عبد القادر القادري (نحو ١٠٥٠)، له:

(أ) رسالة في التوقيعات، في المكتبة الخديوية.
(ب) رسالة في الأنغام وأصواتها، في برلين.
(جـ) بلوغ المنى في تراجم أهل الغنا لمحمد أفندي بن أبي عشرون (١١٥٠) فيه تراجم معاصريه من المغنين وفي الموسيقى على الإجمال، منه نسخة في برلين.
(د) الدر النقي في فن الموسيقى لأحمد بن عبد الرحمن (١١٥٠)، في برلين.

الجزء الرابع

المقدمة

يتناول الجزء الرابع والأخير من كتابنا هذا — تاريخ آداب اللغة العربية — في عهد النهضة الأدبية الأخيرة، ويبتدئ من تاريخ دخول الفرنسويين القطر المصري تحت إمرة بونابرت في أواخر القرن الثامن عشر إلى هذه الأيام. وغني عن البيان أن هذا العصر يختلف عما تقدمه من عصور آداب اللغة، مثل اختلاف أحواله السياسية والاجتماعية عن أحوالها؛ فلقد كانت الدولة العربية في أول ظهور الإسلام، والأعصر التالية في بدء تكونها وعنفوان نشاطها، فتهيأ لها أن تتناول علوم الأمم المعاصرة وآدابها وتكيفها مع أطوار آدابها الخاصة، وتصبغها بصبغة مدنيتها العربية الإسلامية، بل إن تلك الأعصر نفسها كان يختلف بعضها عن بعض اختلافًا بيِّنًا، فكانت الدولة الأموية عربية بدوية، ثم تلتها الدولة العباسية، فإذا هي مصطبغة بصبغة فارسية إلا من حيث آداب اللغة فإنها ظلت عربية، ونضجت الآداب العربية في أيامها على ما سبق لنا بيانه في مستهل الجزء الثاني في الكلام على العصر العباسي الأول. أما في عهد النهضة الأخيرة فإن الدولة العربية كانت قد أدركها الهِرَم فلم تقوَ على مقاومة تيار المدنية الأوربية، وهي تختلف عن مدنيتها الإسلامية شكلًا وأسلوبًا، فجارتها وإن لم تخرج عن دائرتها الخاصة على ما سنبينه في تضاعيف هذا الجزء، وبه تمام هذا الكتاب الذي أردنا أن نخدم به الناشئة العربية، والمتأدبين الراغبين في درس تاريخ آداب اللغة في كل عصر ومصر، وفي كل موضوع من المواضيع الاجتماعية أو الأخلاقية أو اللغوية، فكان لنا من إقبالهم على اقتناء الأجزاء الأُوَل ما كان خير منشِّط لنا على متابعة الجهد في إيفاء هذه الخدمة الأدبية حقها من صدق اللهجة، والصراحة في القول، والخلو من الغرض، والحرص على إثبات الحقائق بلا تكلُّف، والمحافظة على سلامة المعنى قبل كل شيء، وهذا شأننا في كل ما نكتبه.

ولقد عنينا بوضع فهارس أبجدية بأسماء الكتب والمؤلفين، والمواضيع المشتملة عليها الأجزاء الأربعة سنصدرها في أوائل السنة القادمة من الهلال — بحيث يصبح كتابنا هذا موسوعة كبرى لآداب اللغة العربية، يجد فيها كل طالب بغيته، والله الموفق.

النهضة الأخيرة

من سنة ١٧٩٨م/١٢١٢هـ إلى الآن

مقدمات تمهيدية

تبدأ هذه النهضة بدخول الفرنساويين مصر سنة ١٧٩٨ ولا تزال، لكنها تقلبت على أطوار تختلف باختلاف الأحوال السياسية والاجتماعية، وانتقل العالم العربي فيها انتقالًا لم يعهد له مثيل، ولو أردنا الإفاضة في ذكر تلك التقلبات، والتوسع في تراجم العاملين في هذه النهضة لاستغرق بحثنا عدة مجلدات، لكننا مراعاة للأسلوب الذي تحديناه في هذا الكتاب سنأتي على زبدة ذلك بما يقتضيه المقام.

ولما كان البحث في هذه النهضة إلى اليوم يتناول جماعة كبيرة من الأدباء والشعراء والعلماء المعاصرين، وهم على قيد الحياة — ونحن على عادتنا لا نترجم الأحياء — فنقتصر من العاملين في هذه النهضة على الذين تُوفُّوا قبل صدور هذا الكتاب، وإنما نذكر للأحياء ما لا بد من الإشارة إليه في سياق الكلام استيفاءً للموضوع الذي نكتب فيه، ونترك تراجم المعاصرين لمن يأتي بعدهم؛ إذ تكون قد تمَّتْ أعمالهم، وآن الحكم لهم أو عليهم.

فذلكة تاريخية

كيف كان العالم العربي قبيل هذه النهضة

انحصر العالم العربي في القرن الثامن عشر في مصر والشام وجزيرة العرب والعراق والمغرب العربي والسودان، وفيها نشأ أكثر رجال هذه النهضة، لكن تلك الشعلة المباركة بدأت بمصر والشام، وامتدت منهما إلى سائر الأطراف، فيحسن بنا أن نبيِّن كيف كانت حالهما قبيل ذلك.

(١) مصر

كانت مصر (والشام أيضًا) في حوزة الدولة العثمانية، وقد استبد الأمراء المماليك بمصر، وتنازعوا على الاستئثار بأمورها، ولم يتركوا لولاة الدولة نفوذًا فيها، وأصبح همهم استدرار أموالها لا يبالون بما يقاسيه الشعب من العذاب أو الضنك أو الفقر، ولا بما للدولة من حق السيادة عليها، فأخذوا يتنازعون على الاستقلال بها، وانتشبت الحروب بينهم، وكان أشدها بين علي بك الكبير ومحمد بك أبي الذهب، ودخل في ذلك الشيخ ظاهر العمر صاحب عكا، وأحمد باشا الجزار، وكانت روسيا في حرب مع العثمانيين، فجاءت أساطيلها إلى البحر المتوسط تستحث أمراءه على الخروج من طاعة الدولة، وتساعدهم عليها.

وانتهت السيادة بمصر في أواخر القرن الثامن عشر إلى مراد بك وإبراهيم بك، وأصبحت مسرحًا للحروب والقلاقل والفتن.



مراد بك.

فلا غرو إذا اشتدَّ الضنك، وخلت البلاد من الناس، فانقضى ذلك القرن وسكان مصر أقل من ثلاثة ملايين أكثرهم من العرب المسلمين، يليهم الأقباط، ثم الأتراك وشرذمات من طوائف أخرى، والحاكم الرسمي الباشا يأتي من الأستانة فيقيم في القلعة؛ لتأييد سيادة الدولة العثمانية، فيخطب للسلطان ويضرب النقود باسمه، لكن السيادة الفعلية للمماليك، وهم أخلاط من الأتراك والشراكسة والكرج، وجميع ثروة البلاد وإداراتها في أيديهم، ولم يكن لهم عصبية؛ لأنهم لم يتوارثوا الملك إلا نادرًا، وإنما يغلب القوي. والعرب هم المسلمون المتوطنون، ومنهم جماعة العلماء والفقهاء، وفي أيديهم إدارة المعابد والتكايا، ومنهم طائفة كبيرة من أصحاب الأنساب الشريفة، وكثيرون من أرباب الثروة وذوي النفوذ أو المناصب. والأقباط يتولون الأعمال الحسابية أو الكتابية وجباية الخراج،

وطوائف من الأرمن والسوريين يتعاطون التجارة، والأجانب أكثرهم من الفرنساويين والإيطاليين.

أما الحالة الاجتماعية والأدبية فإنها تابعة للأحوال السياسية، وهل يُرجَى من أمة هذا حالها غير الجهل وضعف النفوس؟ وقد زار مصر في أواخر القرن الثامن عشر فولني الفيلسوف الفرنساوي؛ فأدهشه ما رآه فيها من الجهل والفساد، وهذا قوله عنها: «الجهل عام في هذه البلاد مثل سائر تركيا، وهو يتناول كل الطبقات، ويتجلى في كل العوامل الأدبية والطبيعية وفي الفنون الجميلة، حتى الصنائع اليدوية فإنها في أبسط أحوالها، ويندر أن تجد في القاهرة من يصلح الساعة، وإذا وُجِد فهو إفرنجي. أما الصياغة فأصحابها فيها أكثر مما في أزمير وحلب، لكنهم جهلاء، وإنما يتقنون المنسوجات الحريرية، وإن كانت أقل إتقانًا من صنع أوربا وأغلى ثمنًا. أما العلم فوجود مدرسة الأزهر فيها جعلها مرجع الطلاب في الشرق الإسلامي». وسنعود إلى ذكر هذه المدرسة.

(٢) سوريا

وما قيل عن مصر يقال عن سوريا؛ لاشتراكهما في الأحوال السياسية، لكن نورًا ضئيلًا في سوريا في أواخر القرن السابع عشر على أثر قدوم الإرساليات الدينية، وإنشاء الرهبنات الكاثوليكية كالرهبنة المخلصية، والرهبنة الحناوية البلدية والحلبية، والرهبنات المارونية، ولكل من هذه الرهبنات أديار وكنائس ومدارس. وقد نبغ في القرنين الأخيرين قبل هذه النهضة طبقة من العلماء أكثرهم من رجال الإكليروس، وأكثر مؤلفاتهم في سبيل الدين مما لا يدخل في بحثنا هنا، وإنما نكتفي بالإشارة إلى الذين اشتغلوا منهم بالأدب، أو اللغة، أو التاريخ، أو نحو ذلك من أبواب هذا الكتاب.

(٣) مدينة حلب في القرنين السابع عشر والثامن عشر

ومن أكثر المدائن السورية نورًا في أثناء تلك الظلمة مدينة حلب؛ فإنها زهت بنبوغ طبقة من رجال العلم والأدب رغم ما أُقفِل من مدارسها، أو نالها من الخراب باستيلاء المغول أو التتر عليها. وقد ذكرنا فيما مرَّ من هذا الكتاب طبقة من الحلبيين، وغيرهم من السوريين الذين نبغوا في العصر العثماني وأكثرهم من المسلمين، ونريد الآن الإشارة

إلى من نبغ هناك من المسيحيين في القرنين الأخيرين قبل هذه النهضة، ونكتفي بالذين لهم آثار أدبية أو تاريخية أو لغوية يُرجَع إليها، وأكثرهم من رجال الدين، هاك أشهرهم حسب سني الوفاة:

(١) **البطريرك مكاريوس الحلبي الأرثوذكسي:** نبغ في أواسط القرن السابع عشر.

هو البطريرك الإنطاكي لطائفة الروم الأرثوذكس، وقد اشتهر برحلة إلى القسطنطينية، وبلغاريا، وروسيا سنة ١٦٥٢ كُتِبت بالعربية، ثم تُرجِمت إلى الإنكليزية والروسية، ورافقه في هذه الرحلة الأرشيدياكون بولس الحلبي ابنه الطبيعي قبل الكهنوت، ودونها في العربية، وهي رحلة نادرة المثال في ذلك العهد، يقول الأرشيدياكون في مقدمتها: «إن البطريرك لم يسافر للنزهة أو الزيارة، ولكنه اضطر للسعي في جمع ما يفي الدين الذي أثقل أبرشيته، فشخص إلى الأناطول، والروملي، ومقدونيا، وموسكو، وغيرها» — بدأ من حلب فإنطاكية، فقونية، فبروسة، فالأستانة، ووصف هذه العاصمة كما كانت في أواسط القرن السابع عشر وصفًا دقيقًا، ورحل منها إلى البحر الأسود وبلغاريا وملدافيا، ووصف هذه المقاطعة وصفًا مطولًا بما فيها من المدن سياسيًّا ودينيًّا، ومنها إلى موسكو، وذكر أصل القياصرة، وأحوال سيبيريا، وعلاقة التتر بالروس سياسيًّا وتاريخيًّا؛ ولذلك فالرحلة جزيلة الأهمية فريدة في بابها.

ولم يُطبَع هذا الكتاب في أصله العربي، لكنه طُبِع باللغة الإنكليزية، وقد نقله إليها بلفور المستشرق الإنكليزي، وطُبِع في لندن سنة ١٨٣٤ في مجلدين كبيرين، وقد ذكر المترجم ما قاساه من سقم الأصل العربي. وتُرجِمت هذه الرحلة إلى الروسية أيضًا، ولا ندري هل من هذا الكتاب نسخة عربية في إحدى المكاتب؛ فإنها جديرة بالنشر. وللبطريرك مكاريوس المذكور مؤلفات أخرى كنائسية لا يهمنا ذكرها — وإنما نذكر له من المؤلفات التاريخية:

(أ) أخبار المجامع السبعة الكبرى، وهو يشتمل على تاريخ تلك المجامع وأعمالها.

(ب) أخبار بطاركة الدنيا على الكراسي الأربعة: القسطنطيني، والإسكندري، والإنطاكي، والأورشليمي، من زمن الرسل إلى أيامه.

(ج) التاريخ الرومي العجيب من عهد آدم إلى أيام قسطنطين السعيد.

(د) كتاب النحلة معرَّب عن اليونانية.

وهذه الكتب وسائر مؤلفاته مشتتة في الأديار.

(٢) **المطران جرمانوس فرحات الماروني:** وُلِد سنة ١٦٧٠ / ١٠٨١هـ، وتُوفِّي ١٧٣٢ / ١١٤٥هـ.

وُلِد في حلب، وتلقَّى العلم على أدباء عصره المسيحيين والمسلمين، وأتقن اللغات العربية والسريانية واللاتينية والإيطالية، ودرس العلوم التي كانت رائجة في أيامه هناك، كالمنطق والفلسفة والخطابة والتاريخ واللاهوت الأدبي وغيرها، وترهَّب سنة ١٦٩٣ ومعه خمسة عشر شابًّا على يد البطريرك الدويهي، وأذن لهم بالإقامة في دير القديسة مورا في أهدن، وتقلبت عليه أحوال شتى ليس من شأننا الإفاضة فيها.



المطران جرمانوس فرحات.

وسافر إلى أوربا فزار إيطاليا وإسبانيا وصقلية وغيرها، وبحث عن بعض الكتب النادرة، ورحل إلى بلاد أخرى وهو يزداد بالرحلة اختبارًا ومعرفة وشهرة، فانتُخِب سنة ١٧٢٥ أسقفًا على حلب، وخدم الآداب بجمع مكتبة نفيسة سيأتي ذكرها بين المكاتب، واشتغل بالتأليف حتى وافاه الأجل سنة ١٧٣٢، وقد أربت مؤلفاته وترجماته

وتصحيحاته على مائة كتاب أكثرها دينية، بينها عدة كتب لغوية وأدبية وتاريخية، أهمها:

(أ) أحكام باب الإعراب عن لغة الإعراب: هو معجم لغوي طُبِع في مرسيليا سنة ١٨٤٩ بعناية الكونت رشيد الدحداح الآتي ذكره، وقد صدره الكونت رشيد بمقدمة استدرك فيها أشياء فاتت المؤلف، وانتقد قاموس الفيروزابادي، وأتى على نحو ٢٠٠ كلمة عربية تداولها أهل اللغة، وفات صاحب القاموس ذكرها. وقد بذل الدحداح قصارى جهده في إتقان طبع معجم فرحات، وضبط أكثر ألفاظه بالشكل الكامل، وهو مرتَّب ترتيب قاموس الفيروزابادي حسب أواخر الكلم، وبلغت صفحاته ٧٥٠ صفحة كبيرة.

(ب) ديوان شعر: طُبِع في بيروت مرارًا.

(ج) بحث المطالب: في الصرف والنحو طُبِع مرارًا.

(د) بلوغ الأرب: مطول في الأدب، منه نسخة في مكتبة الآباء اليسوعيين في بيروت، وفي المكتبة البلدية بالإسكندرية، وله كتب أخرى في القوافي واللغة.

(هـ) تاريخ الرهبنة المارونية، وسلسلة البابوات لم نقف عليها.

(و) ترجم الإنجيل من السريانية إلى العربية، وله تصحيحات وترجمات عديدة.[١]

(٣) **الشماس عبد الله زاخر الكاثوليكي:** وُلِد في آخر القرن ١٧ وتوفي سنة ١٧٤٨ / ١١٦٢هـ.

وُلِد في حلب في أواخر القرن السابع عشر، وانتقل إلى لبنان سنة ١٧٢٢، وله فضل خاص على آداب اللغة العربية؛ لأنه من مؤسسي المطابع العربية في سوريا، وهو مؤسس مطبعة الشوير بلبنان، وخلف عدة مؤلفات دينية جدلية لا فائدة من ذكرها.

(٤) **الخوري نقولا الصائغ:** توفي سنة ١٧٥٦ / ١١٧٠هـ، وهو من الرهبنة المخلصية، كان شاعرًا وله ديوان طُبِع مرارًا في بيروت.

(٥) **الخوري سابا الكاتب:** المتوفى سنة ١٨٢٧، أصله من حمص من طائفة الروم الأرثوذكس، وانحاز إلى الكثلكة، وتفقه في علوم عصره العقلية والرياضية والطبيعية، وله مؤلفات كثيرة دينية، وبعضها رياضية.

(٦) **المطران غريغوريوس عطا:** صاحب مكتبة تُعرَف باسمه في بيروت.

(٧) **الخوري أنطون الصباغ.**

(٨) **الخوري روفائيل راهبة.**

(٩) **الخوري عمانويل الشماع.**
(١٠) **الخوري يواكيم المطران.**
(١١) **الأسقف جرمانوس آدم.**

وغيرهم من رجال الإكليروس، وأكثر ما أَلَّفوه دينيٌّ.

عود إلى سوريا قبيل هذه النهضة

على أن هذا وغيره من نوعه لم يكن كافيًا لإضاءة ذلك الجو المظلم؛ ولذلك لما زار فولني سوريا في أواخر القرن الثامن عشر، قال في وصفها: «إن الجهل سائد في سوريا كما في مصر وسائر تركيا، وقد انتقد بعضهم هذه الحالة عبثًا، ولم يأتِ الكلام عن إنشاء الكليات ونشر التعليم والتهذيب بثمر؛ لأن هذه الألفاظ لها عندهم معانٍ غير ما نفهمه نحن منها. انقضى عصر الخلفاء، وليس من العرب أو الترك الآن علماء في الرياضيات أو الفلك أو الموسيقى أو الطب، ويندر فيهم من يحسن الفصادة، وإذا احتاجوا إلى الكي استخدموا له النار، وإذا عثروا بمتطبب إفرنجي عدُّوه من آلهة الطب، وأما علم النجوم فقد صار عندهم للنجامة واستطلاع الطوالع. وفي دير مار يوحنا (بالشوير) طائفة من الرهبان لهم اتصال برومية، ولا يقلون جهلًا عن سواهم، وإذا قيل لهم إن الأرض تدور عدُّوا قوله كفرًا؛ لأنه يخالف الكتاب المقدس ...»

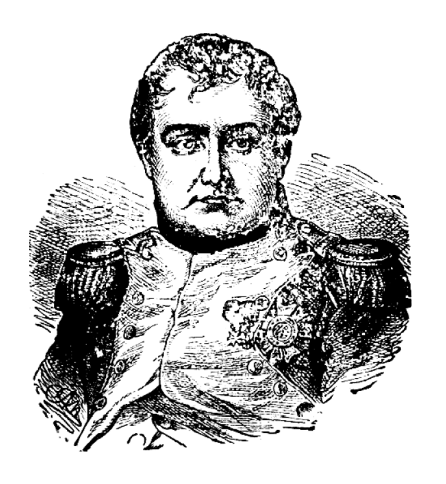
تلك كانت حال الشرق لما أقبل القرن التاسع عشر، وقبل دخوله بسنتين طرأ على الشرق طارئ تاريخي هام اهتزت له أعصابه، وكان له تأثير شديد في نهضته — نعني دخول الفرنساويين مصر.

(٤) الفرنساويون في مصر من سنة ١٧٩٨ / ١٢١٣هـ – ١٨٠١ / ١٢١٦هـ

حمل بونابرت على مصر في أواخر القرن الثامن عشر وهذه حالها، فأقام جنده فيها ثلاث سنوات لم يهدأ في أثنائها بالُهم، ولم تستقر أقدامهم، والحرب قائمة بينهم وبين المصريين أو العثمانيين، لكن ذلك النابغة العظيم أتى مع حملته بحملة علمية فيها طائفة من العلماء والصناع، اغتنموا الفراغ من القلاقل، وأخذوا في تأسيس المعاهد العلمية، ونشر أسباب المدنية الإفرنجية، فأنشئوا في القاهرة مدرستين لتعليم أبناء الفرنساويين

المولودين بمصر، وجريدتين فرنساويتين هما: «دكاد إجبسيان»، و«كوريه ديجيبت»، ومرسحًا للتمثيل، ومجتمعًا علميًّا مصريًّا — وسنعود إلى ذلك في أماكن أخرى.

غير ما أقاموه من المصانع والمعامل للورق والأقمشة وسائر حاجات البلاد، وبنوا أماكن للأرصاد الفلكية والرياضيات والنقش والرسم والتصوير في حارة الناصرية، حيث الدرب الجديد، ورمَّموا ما فيه من بيوت الأمراء، واستخدموها لتلك الغاية، وجعلوا بيت حسن كاشف جركس في تلك الخطة مكتبة للمطالعة، يحضرها من يريد المطالعة منهم في أوقات معينة من النهار، وإذا دخلها أحد الوطنيين رحَّبوا به، وأطلعوه على ما أراد من الكتب، ولا سيما التي تدهش البسطاء بما فيها من الرسوم البديعة، وفي جملتها رسم للنبي، ورسوم أخرى للخلفاء الراشدين، وغيرهم من الأئمة والأماكن المهمة.



بونابرت.

وكان في مكتبتهم هذه كتب كثيرة عربية، وأفردوا للاشتغال بكل علم دارًا، ولا سيما الكيمياء، فإنهم خصصوا معملًا كبيرًا للتقطير والتصعيد، واصطناع الخلاصات، وسائر الأعمال العقارية، وكانوا يجرون أمام الأهالي بعض التجارب الكيماوية التي تدهش غير العارفين بنواميس الكيمياء. هذا مثال مما أراد بونابرت إدخاله من أسباب المدنية، لكنه ذهب بذهاب الفرنساويين من مصر سنة ١٨٠١.

وكانت آداب اللغة في أثناء ذلك قاصرة على العلوم الإسلامية التي تُلقَّن في الأزهر، واشتهر من علمائها في ذلك الحين جماعةٌ اختار بونابرت منهم بضعة عشر عالمًا، ألَّف منهم الديوان الخصوصي.[٢] الشيخ خليل البكري، والشيخ عبد الله الشرقاوي، والشيخ محمد المهدي، والشيخ سليمان الفيومي، وقد صوروهم، وحملوا صورهم إلى فرنسا.



الشيخ خليل البكري.



الشيخ سليمان الفيومي.

كلاهما من أعضاء الديوان الخصوصي الذي أنشأه بونابرت سنة ١٧٩٨.

وبذل الفرنساويون جهدهم في تقريب المصريين، وترغيبهم في أسباب مدنيتهم، فكانوا يدعونهم إلى غرفة المطالعة، ويطلعونهم على ما فيها من الكتب النادرة، والتصاوير المختلفة، وقد ذكر الجبرتي ما شاهده بنفسه من الصور الفلكية وغيرها، وفصَّل ما أدخله الفرنساويون من الأدوات العلمية، ولا سيما المواد الكيماوية، وما أدهشه من ظواهرها.

وأتى الفرنساويون معهم بمطبعة عربية كانوا يطبعون فيها منشوراتهم وأوامرهم، وهي أول مطبعة عربية دخلت هذا القطر، وتولى إدارتها المستشرق مارسل.

وجاء في ترجمة السيد إسماعيل الخشاب المتوفى سنة ١٢٣٠هـ أن الفرنساويين أنشئوا ديوانًا للقضاء بين المسلمين، وأنهم كانوا يدوِّنون ما يقع فيه كل يوم بيومه، ويطبعون من ملخصه نسخًا يفرقونها في الجيش بالقاهرة وخارجها، وفيها الحوادث الرسمية، وقد عيَّنوا السيد إسماعيل المذكور لتدوين تلك الحوادث،[٣] فالنشرة المذكورة

كالجريدة العسكرية لنشر الأوامر الرسمية سمَّوها «التنبيه»، فهي بهذا المعنى أول جريدة عربية رسمية لكنها عسكرية، وأما أول جريدة رسمية عربية عامة فهي الوقائع المصرية الآتي ذكرها.

(٥) الدولة المحمدية العلوية من سنة ١٨٠٥ / ١٢١٦هـ ولا تزال

انتاب مصر بعد خروج الفرنساويين منها سنة ١٨٠١ طوارئ مختلفة انتهت بجلوس محمد علي على عرش حكومتها سنة ١٨٠٥، وكان همه منصرفًا في أوائل ولايته إلى المطامع السياسية بالحروب والفتوح، فأباد المماليك، ثم دوخ بلاد العرب وتغلَّب على الوهابيين باسم الدولة العثمانية، وفتح السودان، وحارب المورة، ثم فتح الشام، وأوشكت خيول ابنه إبراهيم أن تطأ الأستانة، فتصدت الدول لإيقاف ذلك التيار العظيم؛ خوفًا منه على راحة أوربا، فحصروه في سوريا على أن تكون تابعة لمصر، وأصبحت ولاية محمد علي تشتمل على مصر والشام والسودان، وبعض بلاد العرب، ولصاحبها مطمع بما وراء ذلك، وحدثت أسباب مختلفة أوجبت رجوع الجنود المصرية من سوريا سنة ١٨٤٠، وحصر ولاية محمد علي بمصر والسودان، على أن تكون الحكومة وراثية في أبنائه.

وقد أخذ من أوائل ولايته باقتباس أسباب المدنية الحديثة لتنظيم الجند، وتخريج الأطباء، ورجال الإدارة والصناعة والكتابة، ونشر العلم والأدب بإنشاء المدارس المختلفة، وإحياء الآداب العربية بنشر الكتب أو ترجمتها أو تأليفها، وإرسال الإرساليات إلى أوربا، وقد استعان في ذلك برجال من الفرنساويين، وبعض الأتراك. ولما صارت الولاية إلى حفيده عباس الأول، ثم ابنه سعيد، توقفت أكثر تلك الأعمال، ثم جاء إسماعيل فعمل على إتمام ما كان جده محمد علي قد شرع فيه من أسباب هذه المدنية؛ فكثرت في أيامه المدارس والمطابع والجرائد وغيرها، وتكاثر تقاطر الأجانب في عهده حتى قال عن مملكته: «إنها قطعة من أوربا رغم كونها في إفريقيا». وكان له مثل مطمع جده من حيث الاستقلال فلم يُوفَّق إليه، وإنما نال حقوق الخديوية بأن ينحصر المُلْك في أبنائه، ولما استقر على هذه الحال بذل الجهد في نشر العلم، ولذلك تاريخ سنأتي عليه مفصَّلًا في أماكنه.



محمد علي باشا.

(٦) سوريا

أما سوريا، فقد تقلب عليها في أثناء ذلك من حيث السياسة أحوال شتى، كانت في أوائل القرن التاسع عشر فريسة للولاة المستبدين كالجزار وعبد الله باشا، أو الأمراء الطامعين في لبنان وغيرها، حتى حمل عليها إبراهيم باشا سنة ١٨٣٢، وأعانه الأمير بشير الشهابي على ذلك ففتحها، وطلب ما بعدها فأوقفته الدول هناك كما تقدم، فظلت سوريا تابعة لمصر تسع سنين، ثم رجعت إلى سيادة الدولة، وانسحبت الجنود المصرية، وتوالت القلاقل عليها لفساد الأحكام واضطراب الأحوال؛ فآل ذلك إلى مذابح عديدة آخرها مذبحة سنة ١٨٦٠ في سوريا ولبنان، فهجر اللبنانيون أوطانهم، ونزل جماعة منهم إلى بيروت وغيرها، وتوسطت الدول فوضعت نظام لبنان، ولم يكن ذلك كافيًا لاستتباب الأمن، فعمد أهله إلى المهاجَرة، وكانوا قد أخذوا بها من زمن الفرنساويين؛ لأن مجيئهم إلى الشرق حرَّك الهمم، ودل القوم على ما هم فيه من الذل والضيق، فأخذوا بالنزوح إلى أوربا ومصر والأستانة وغيرها، وزادت المهاجَرة بتوالي الإحَن، وأصبحت وجهتها في الثلث الأخير من القرن الماضي العالمَ الجديد في أميركا، ثم مصر، ولا سيما بعد الاحتلال

الإنكليزي، وتمكُّن الفساد من الحكومة العثمانية، وكان أكثر المهاجرين من المسيحيين لسهولة اختلاطهم بالأجانب.

ونزوح اللبنانيين وغيرهم من أنحاء سوريا إلى بيروت على أثر حوادث سنة ١٨٦٠ أحدث حركة اجتماعية فيها، وزاد قدوم الأجانب إليها للتجارة والتبشير في ظل الامتيازات الأجنبية، فتكاثروا بعد ذلك، وأنشئوا المدارس على اختلاف أغراضها كما سيجيء.

على أن نهضة أدبية اجتماعية قد بدأت في سوريا في النصف الأول من القرن التاسع عشر وأسبابها:

(١) افتتاح أبواب التجارة، وتقاطر الأجانب إلى بيروت.

(٢) انتشار مطبوعات بولاق والأستانة، ومطابع الآداب الشرقية بأوربا.

(٣) نبوغ طائفة من رجال الدولة العثمانية بالعلم والأدب، وأكثرهم تثقَّفوا في أوربا وأحرزوا المناصب الرفيعة، فكانوا يشدون أزر المشروعات الأدبية، وسيأتي ذكر بعضهم بين أعضاء الجمعية السورية.

(٤) إنشاء المدارس على الطراز الحديث.

أما سائر العالم العربي، فالمغرب كانت الحروب فيه متواصلة بين الفرنساويين والعرب، ولا سيما الأمير عبد القادر الجزائري، وآلت الحروب إلى دخول الجزائر وتونس في حوزة الفرنساويين، وضعف العنصر العربي هناك، ولم يكن حظ سائر العالم العربي أحسن من ذلك، إلا مصر والشام فإنهما كانتا مبعث نور العرفان والمدنية إلى سائر تلك البلاد. هذه لمحة من تاريخ القرن الماضي من الوجهة السياسية، وعلاقاتها بالأحوال الأدبية والعلمية تمهيدًا لما يأتي.

هوامش

(١) له ترجمة مطولة في مجلة المشرق السنة السابعة.

(٢) تجد تفصيل ذلك في تاريخ مصر الحديث (طبعة ثانية) صفحة ٩٧ ج٢.

(٣) الجبرتي ٣٨ ج١٢.

مميزات هذه النهضة

كلام إجمالي

يختلف هذا العصر عن سائر عصور آداب اللغة، كما تختلف أحواله الاجتماعية والسياسية عن أحوالها، وأهمها تأثير مدنية أوربا عليه؛ لأن الآداب العربية ما زالت من ظهور الإسلام ضمن دائرة المدنية الإسلامية، وإن تكيَّفت مع أطوار تلك المدنية، لكنها لم تخرج عن دائرتها، وكانت تنمو نموًّا داخليًّا بما يدخل فيها من ثمار قرائح أبنائها، مع ما يقتضيه ناموس النشوء من التوسع والتفرع. أما في هذه النهضة فقد أتاها النمو من الخارج — نُقِل إليها كما نُقِلت سائر أسباب المدنية الحديثة — وهي تختلف في شكلها وأسلوبها عن مدنية المسلمين، فانتقل أصحابها من طور إلى طور، كما انتقلوا في صدر الدولة العباسية عند ترجمة علوم القدماء إلى العربية، لكن الدولة العربية كانت يومئذٍ في إبان تكونها ونشاطها فهضمت ما دخل عليها من علوم الأمم الأخرى، وصبغته بصبغتها العربية الإسلامية، أما في هذه النهضة فالدولة العربية في شيخوختها، لم تقوَ حتى الآن على مقاومة تلك العوامل، فغلب تيار المدنية الحديثة على أبنائها، فاضطروا إلى السير معه رغم ما أدهشهم منه لأول عهدهم به، واستغربوه واستهجنوه لمخالفته ما تعوَّدوه.

وقد أفاض الجبرتي في ذكر ما أدهشه من أحوال الفرنساويين، فوصف موائدهم، وكيف يأكلون ويشربون ويلبسون، وما شاهده من سائر أعمالهم العلمية والكيماوية، وكتبهم المصورة وأدواتهم، وهو يمثل بدهشته هذه حال كل شرقي في أيامه؛ ولذلك كان الإقدام على تقليد الإفرنج في مدنيتهم شاقًّا على الشرقيين؛ لما تعلمه من خطر الانتقال الاجتماعي فجأة من حال إلى حال — مثل خطر الانتقال من الحرارة الشديدة إلى البرودة

دفعة واحدة، لكن الطبيعة تتدارك ذلك بما فطرت عليه الأمم من التمسك بعاداتها وتقاليدها وآدابها المتوارثة، ولا سيما ما كان متعلقًا منها بالدين أو الشرع — حتى بناء المنازل وتوسيع الشوارع مما لا علاقة له بشيء من ذلك، لا يسهل الانتقال فيه من طراز إلى طراز، فكانوا إذا لم يروا بدًّا منه استعانوا عليه بفتوى شرعية.

ذكر المرحوم علي باشا مبارك في خططه، عند الكلام عن إنشاء السكة الجديدة في القاهرة أن محمد علي باشا لما اتسع نطاق التجارة، وكثر الإفرنج في الموسكي والأزبكية، وتكاثرت المَرْكَبات، وتعسَّر السير داخل الأزقة القديمة، أراد إنشاء السكة الجديدة، فأصدر أمره بابتياع الأملاك التي تعترض هذا الشارع في مروره، لكنه لم يشرع في فتحه حتى استفتى العلماء في ذلك، فأفتوه بأن يجعله بحيث يمر فيه جملان حاملان من غير مشقة، فقُدِّر ذلك بثمانية أمتار.[1] فاعتبر كم تكون المشقة في قبول سائر أسباب المدنية التي لها علاقة بالاعتقادات والعادات، فإن منشئ الطباعة العربية في الأستانة لم يُقْدِم على ذلك إلا بعد استصدار الفتوى الشرعية، ولما أراد المصلحون بالأمس إدخال العلوم الطبيعية على الأزهر لم يستطيعوا ذلك إلا بفتوى كما سترى.

فلهذه الأسباب كان الاختلاف بين هذه النهضة وما قبلها أكثر كثيرًا مما بين العصر الماضي وما قبله — وهو ما عبَّرنا عنه بمميزات هذه النهضة، وهاك أهمها:

(١) إنشاء المدارس الحديثة.
(٢) الطباعة.
(٣) الصحافة.
(٤) روح الحرية الشخصية.
(٥) الجمعيات الأدبية والعلمية.
(٦) المكاتب العمومية.
(٧) المتاحف.
(٨) التمثيل.
(٩) اشتغال الإفرنج بآداب اللغة العربية.

فنتكلم عن كل منها على حدة، ثم نعود إلى وصف آداب اللغة العربية وترجمة أدبائها.

هوامش

(١) الخطط التوفيقية ٨٣ ج٣.

المدارس الحديثة

نعني المدارس التي أنشئت على نظام مدارس أوربا لتعليم العلوم الحديثة، وكانت مصر والشام أسبق سائر العالم العربي لاقتباسها، فنقصر كلامنا على تاريخ المدارس في هذين البلدين بالأكثر، ولكل منهما عامل ساعد على ذلك يختلف عن العامل الذي ساعد الآخر، ونقدم الكلام في تاريخ المدارس المصرية؛ لأنها أسبق إلى الظهور، وأسرع في النمو.

(١) المدارس الحديثة في مصر

(١-١) تمهيد في التعليم بمصر قبل هذه النهضة

وقبل التقدم إلى هذه المدارس نقول كلمة في حال المدارس قبلها، وقد جاء شيء من ذلك في أماكن مختلفة من هذا الكتاب، وكتبنا فصولًا عنها في تاريخ التمدُّن الإسلامي (ج٢)، وفي الهلال سنة ١٥ و١٩ وغيرها، وإنما يهمنا هنا حال التعليم في مصر في أول القرن التاسع عشر قبل دخول التعليم الحديث، وكان مركز التعليم الإسلامي يومئذٍ في مدرسة الأزهر، وكانت هذه المدرسة مبعث نور العرفان لمصر وغيرها من العالم الإسلامي.

الأزهر

هو أقدم المدارس المصرية، ومن أقدم المدارس الكبرى في العالم على الإجمال؛ لأنه أنشئ منذ نحو ألف سنة، ويندر في مدارس العالم الكبرى اليوم مدرسة مرَّ عليها عشرة قرون ولا تزال باقية، وقد توالت على الأزهر أحوال شتى بين عسر ويسر، وله فضل خاص على آداب اللغة العربية؛ لأنه احتفظ بها في أثناء الأجيال المظلمة.

ولما أراد محمد علي النهوض بالأمة المصرية لتخريج المعلمين، أو الصناع الماهرين، أو غيرهم ممن يستعين بهم في عمله، استعان بطلبة الأزهر، فاختار منهم طائفة أرسلهم إلى أوربا لتلقي العلم أو الطب، أو تعلم الطباعة والفنون الأخرى، ولا يزال حتى الآن مجتمع الشبيبة الإسلامية المصرية وغير المصرية تأتيه من أقطار العالم الإسلامي على اختلاف الأجناس واللغات، وبين طلاب الأزهر العربيُّ والتركي والسوداني والفارسي والهندي والجاوي والشركسي والأفغاني والصيني وغيرهم، وكلهم يتلقَّون العلم فيه باللغة العربية، فهو أكبر وسيلة لنشر هذا اللسان وتأييده.

تاريخه القديم

بنى جامع الأزهر القائدُ جوهر فاتح مصر للخلفاء الفاطميين في أواسط القرن الرابع للهجرة، وكان الغرض من بنائه إقامة الشعائر الدينية، وتأييد مذهب الشيعة العلوية؛ لاختلاط السياسة بالدين في ذلك العهد، وبذلوا جهدهم في تقريب العلماء، فاستقدموهم من سائر أقطار العالم الإسلامي، وأجروا عليهم الأرزاق، وفرقوا فيهم الأموال، وكانت أكثر مجالسهم في الأزهر على عادة الفقهاء يومئذٍ، فتزاحمت فيه الأقدام، وكانوا كلما ضاق بهم وسَّعوه بأبنية ينشئونها بجانبه، ويوسعون دوره حتى أصبحت سعته الآن نحو ١٢٠٠٠ متر، وكانت أقل من نصف ذلك.

وكانت أعطية الفقهاء في أول الأمر على غير قياس أو ميقات، فلما أفضت الخلافة إلى العزيز بالله ثاني الخلفاء الفاطميين سنة ٣٦٥هـ، أمر وزيره يعقوب بن كلس أن يرتب للفقهاء أرزاقًا معينة، وأن يبني لهم منازل يقيمون فيها بجانب الجامع، وكانوا يأتون المسجد في بادئ الرأي لصلاة الجمعة، وقراءة الفقه على رأي الشيعة، والوعظ والمباحثة، فتدرَّجوا من القراءة إلى التعليم حتى أصبح الجامع مدرسة كبرى أكثر دخلها مما وقفه لها الخلفاء والأمراء، ويُقدَّر دخله السنوي اليوم بعشرين ألف جنيه.

تاريخه الحديث

ظل الأزهر مدرسة شيعية طول مدة الفاطميين (نحو مائتي سنة) حتى غلبهم صلاح الدين على مصر، وبايع للخليفة العباسي فصارت خطته سُنِّية، ولا تزال كذلك إلى الآن، وكانت علومه في أول أمره قاصرة على الفقه وعلوم الدين، ثم دخلت فيه الرياضيات

والنجوم وبعض العلوم الطبيعية، على أنها لم تكن بالشيء الهام، وإنما كانت أهمية الأزهر قائمة بالعلوم الإسلامية واللغوية، وأُغفِل ما سواها بتوالي الأجيال، ولا سيما في القرون المظلمة على عهد المماليك، ولما انتبه المسلمون إلى شئونهم العلمية في أواخر القرن الماضي، اهتم العقلاء بإصلاح الأزهر، وأرادوا إدخال العلوم الطبيعية والرياضية فيه، لكنهم خافوا أن يفاجئوا الناس بهذا الإصلاح؛ لأنه يخالف ما رسخ في أذهانهم من تقبيح العلوم الطبيعية، وما يُبنَى عليها، واتهام أصحابها بالكفر، فرأت الحكومة أن تمهد ذلك بفتوى من كبار الفقهاء، فاستفتت المرحومَيْن الشيخ محمد الأنبابي شيخ جامع الأزهر، والشيخ محمد البنا مفتي الديار المصرية في «هل يجوز تعليم المسلمين العلوم الرياضية كالهندسة والحساب والهيئة والطبيعيات، وتركيب الأجزاء المعبَّر عنها بالكيمياء، وغيرها من سائر المعارف؟» فأجاب الشيخ الأنبابي جوابًا مؤرَّخًا في أول ذي الحجة سنة ١٣٠٥هـ، خلاصته جواز تعليم تلك العلوم مع بيان النفع من تعلمها، وصادق الشيخ البنا على هذه الفتوى بتاريخ ٧ منه.

ثم تصدى المرحوم الشيخ محمد عبده لإصلاح الأزهر، وتطبيق علومه على حاجة الأمة في هذا العصر، فلقي مقاومة شديدة من المحافظين على القديم، وانتهت المساعي بإضافة مبادئ الهندسة والجغرافية والعلوم العقلية والإنشاء والأدب، لكن روح المرحوم محمد عبده انتشرت في الأزهر، فنشأ من تلاميذه طائفة حسنة من مستقلي الفكر، ومحبي الاطلاع على العلوم الحديثة، وتفهم الأمور، والتمييز بين النافع والضار من العلوم.

وطلبة الأزهر الآن يزيد عددهم عن عشرة آلاف طالب على اختلاف الأجناس واللغات، تسعة أعشارهم من المصريين، تقيم كل طائفة منهم في رواق خاص بها يُنسَب إليها، فللمصريين ١١ رواقًا، لكل جهة من جهات القطر رواق خاص بها، كرواق الصعايدة والبحيرة والفيومية وغيرها، ولغير المصريين ١٦ رواقًا: لأهل الحجاز، ودارفور، والشام، والعراق، والمغرب، وجاوي، وأفغانستان، والأتراك، وسنار، وأهل بورنو، والحبشة، واليمن، والأكراد، والهنود، والنوبة، والدكارنة، وتختلف هذه الأروقة سعة باختلاف عدد سكانها، وله قوانين وشروط ودرجات،[1] وفي الأزهر مكتبة سيأتي ذكرها.

(١-٢) المدارس المصرية في أيام محمد علي

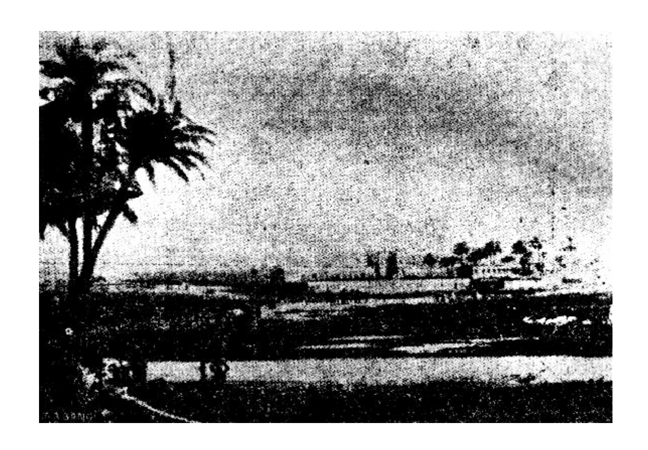
إن الفضل الأكبر في إنشاء هذه المدارس للمغفور له محمد علي باشا جد العائلة الخديوية، وهو صاحب النهضة العلمية كلها، أما المدارس فإنه سبق إلى إنشائها لأسباب طبيعية اقتضتها أحواله السياسية، فضلًا عن رغبته في نشر العلم، بدأ بالمدرسة الحربية سدًّا لحاجته إلى جند منظم، ثم تدرَّج إلى سائر المدارس.

المدارس الحربية

(١) **المدرسة التجهيزية الحربية في قصر العيني:** تولى محمد علي ولاية مصر سنة ١٨٠٥م، وصادق الباب العالي على ولايته، لكنه ظل خائفًا من المماليك؛ لئلا تسنح لهم فرصة يثبون بها عليه كما كانوا يفعلون مع سواه من الولاة، فسبقهم وفتك بهم بقلعة القاهرة سنة ١٨١١، وقبض أموالهم وأملاكهم، وأباح نساءهم وبيوتهم كما هو مشهور، وكان في جملة ما قبضه من أموالهم عدد كبير من صغار المماليك الشراكسة، فانتقى أكبرهم سنًّا جعلهم في جملة الجند المولج بحراسته في قصره، واستبقى صغارهم في القلعة يتربَّون فيها على جاري العادة في تربية الغلمان المماليك عند الأمراء في ذلك العهد؛ استعدادًا للخدمة العسكرية أو غيرها، فكانوا يحفِّظونهم القرآن، ويعلِّمونهم الخط واللغة التركية، والرياضة البدنية، والحركات العسكرية، وركوب الخيل.

وكان محمد علي كبير المطامع لا يقنع بالولاية، فحدَّثته نفسه بتوسيع دائرة سلطانه، وعلم أن ذلك لا يتأتَّى له إلا بجند منظَّم، فعزم سنة ١٨١٦ أن يؤلف جندًا على النظام المتَّبَع في أوربا، فلاقى من جنده الألباني مقاومة شديدة؛ لأن ذلك النظام يذهب بأهميتهم، ويُضعِف نفوذهم، فرأى أن ينفِّذ مشروعه بعيدًا عنهم، فانتخب أكبر أولئك المماليك، وأرسلهم إلى الصعيد يتعلمون النظام العسكري الحديث على أساتذة من الإفرنج، وعلم أن هؤلاء التلاميذ لا يلبثون أن يصيروا جندًا فتفرغ أماكنهم في تلك المدرسة، فأنشأ في قصر العيني سنة ١٨٢٥ مدرسة إعدادية سمَّاها المدرسة التجهيزية الحربية، أدخل فيها نحو ٥٠٠ غلام، بعضهم من صغار المماليك، والبعض الآخر من أبناء الأتراك والأكراد والألبانيين والأرمن واليونان، وغيرهم ممن كانوا في خدمته، وليس فيهم وطني واحد، فكانوا يعلِّمونهم القرآن والنحو وآداب اللغة التركية والفارسية والعربية، وأما لغة التعليم فهي التركية، ونظرًا لأنهم ينوون إدخالهم المدرسة الحربية، فكانوا

يعلِّمونهم مبادئ الحساب والهندسة والجبر والرسم واللغة الإيطالية؛ لأن أكثر أساتذة المدرسة الحربية كانوا يومئذٍ من الإيطاليين.



المستشفى العسكري في أبي زعبل سنة ١٨٢٥.

وكان محمد علي راغبًا في سرعة تنظيم الجند، فأوفد جماعة من أولئك المماليك إلى ليفورن وميلان وفلورنسا ورومية سنة ١٨١٦ لدرس الحركات العسكرية وبناء السفن والطباعة والهندسة وغيرها من الفنون الحربية — أشار عليه بذلك الأساتذة الإيطاليون، وكان قد بدأ بإرسال الطلبة لهذه الأغراض منذ سنة ١٨١٣ — ثم أرسل غلمانًا آخرين سنة ١٨١٨ إلى إنكلترا لدرس الميكانيكيات، وسلك الأبحر، ونواميس السائلات.[٢]

وأما المدرسة التجهيزية المشار إليها فاستمرت في التقدم، وصاروا يعدون فيها الطلبة للطب أيضًا بعد إنشاء مدرسة الطب كما سيجيء، وكان فيها مكتبة عدد كتبها ١٥٠٠٠ مجلد في اللغات الفرنساوية والإيطالية والعربية، وبلغ عدد تلاميذها نحو ٨٠٠ طالب أكثرهم من أبناء المماليك.

(٢) **مدرسة أركان حرب في أبي زعبل:** ثم عمد محمد علي إلى إنشاء المدرسة الحربية على أساس فرنساوي، وقد أشار عليه بذلك الحاج عثمان نور الدين بك من أعوانه العقلاء، وكان قد سافر إلى باريس، وأقام فيها سنتين (١٨١٩–١٨٢٠)، فأوعز إليه أن يكون أساتذة هذه المدرسة من الفرنساويين، فأنشأها سنة ١٨٢٥ قرب أبي زعبل بجوار القاهرة

على ٤٠٠ متر من المعسكر العام، وسماها «مدرسة أركان حرب»، وجعلها على نظام مدارس فرنسا الحربية لتخريج الضباط، وبلغ عدد تلاميذها في السنة التالية ٨٨ تلميذًا، كانوا يتعلمون فيها الرياضيات والرسم والجغرافية الحربية والطبجية وهندسة الحصون وسائر العلوم الحربية، واللغات الفرنساوية والتركية والفارسية، وأكثر أساتذتها من الفرنساويين، ورئيسها فرنساوي اسمه بلانا (Planat) يقدم تلاميذها الامتحان بعد ثلاث سنوات، وينال الفائز الشهادة الدالة على كفاءته العسكرية.

مشروعاته الأخرى، والإرسالية العلمية الأولى



جومار — مدير الإرسالية المصرية الأولى إلى فرنسا سنة ١٨٢٦.

ثم رأى الحاجة ماسة إلى أطباء لتطبيب الجند، فأنشأ المدرسة الطبية في أبي زعبل سنة ١٨٢٦، وكان هناك مستشفى كبير يسع ١٦٠٠ مريض، وعهد بإدارتها إلى الدكتور كلوت بك كما سيجيء، ثم أخذ في سائر مشروعاته الإصلاحية للصناعة والتجارة والعلم، وآماله في الإصلاح متجهة نحو فرنسا.

وتعجيلًا لثمار سعيه في إعداد الجند المنظم وتطبيبه، والعمل على استخراج المعادن واستثمار الأرض وإنشاء المعامل وغيرها، رأى أن يرسل من يتعلم ذلك في فرنسا، فاختار بضعة وأربعين شابًّا من أمم مختلفة، عهد بإدارة شئونهم إلى المستشرق الفرنساوي جومار، وعيَّن لكل جماعة منهم العلوم التي يتعلمونها، وهي الإرسالية العلمية الأولى، وهذه أسماؤهم ومواالدهم، وما ذهبوا لطلبه من العلوم والفنون:

تلاميذ الإرسالية المصرية العلمية الأولى إلى باريس سنة ١٨٢٦ (مرتبة أسماؤهم حسب العلوم التي ذهبوا لتعلمها)

اسم الطالب	مكان ولادته	سنُّه
لتعليم الإدارة الملكية		
عيدي أفندي المهردار	الأستانة	٢٩
أرتين أفندي أرمني	الأستانة	٢٢
سليم أفندي	جورجيا	١٩
محمد خسرو	جورجيا	٢١
للإدارة العسكرية		
مصطفى أفندي مختار	قولة	٢٤
راشد أفندي	قولة	٢٤
أحمد أفندي	قولة	٢٥
سليمان أفندي	شركسي	١٨
للإدارة البحرية		
حسن الإسكندراني		٣٧
محمود أفندي	شركسي	٢١

اسم الطالب	مكان ولادته	سنُّه
محمد شنان أفندي	شركسي	٢٠
للسياسة		
إسطفان أفندي أرمني	سباسطية	٢٢
خسرو أفندي أرمني	الأستانة	١٨
لنواميس السائلات		
مصطفى محرمجي	القاهرة	١٧
أحمد شعبان	القاهرة	١٧
يوسف العياضي	القاهرة	١٨
للطب والجراحة والتشريح ... إلخ		
علي هيبة	القاهرة	١٨
محمد الدشطوطي	القاهرة	٢٣
للزراعة		
يوسف أفندي	أرمني	٢٣
خليل محمود	القاهرة	٢٠
للتاريخ الطبيعي والمعادن		
علي حسين	القاهرة	١٨
أحمد النجدلي	القاهرة	١٦
أحمد أفندي	يوناني	١٨

اسم الطالب	مكان ولادته	سنُّه
محمد بيومي	القاهرة	١٧
للميكانيكيات		
الشيخ أحمد العطار	القاهرة	٢٧
للهندسة العسكرية		
مظهر أفندي	القاهرة	١٧
سليمان أفندي البحيري	القاهرة	١٨
علي أفندي	جورجيا	١٨
للطبجية		
عمر أفندي	شركسي	٢٠
سليمان لاز أفندي	طرابزون	٢٥
لاصطناع الأسلحة ومسابك الحديد		
أمين أفندي	الأستانة	
احمد حسن حنفي	القاهرة	١٨
للطبع والحفر		
حسن الورداني	القاهرة	١٧
محمد أسعد	القاهرة	١٥
للكيمياء		
عمر الكومي	القاهرة	١٨

اسم الطالب	مكان ولادته	سنُّه
أحمد يوسف	القاهرة	٢٠
للترجمة		
الشيخ رفاعة	طهطا	٢٤
تلامذة عادوا إلى مصر		
الشيخ محمد الرقيقة		
إبراهيم وهبة		
الشيخ العلوي		
لأغراض غير معينة		
أمين أفندي		
أحمد أفندي		
تلامذة سافروا إلى طولون ومرسيليا		
حسين أفندي		
قاسم الجندي*		

* Journal Asiatique, 1828.

يظهر من هذا الجدول أن الإرسالية العلمية الأولى إلى فرنسا كان عددها ٤٤ طالبًا، عاد منهم ٣ والباقون ٤١ بينهم ثلاثة رؤساء هم: عبدي أفندي المهردار في الإدارة الملكية، ومصطفى أفندي مختار الدويدار في الإدارة العسكرية، والحاج حسن الإسكندراني في البحرية،[٣] يبقى ٣٨ طالبًا، منهم ٤ أرمن مسيحيون، و٣٤ مسلمون بينهم ثلاثة مشائخ.

وقد كان لهذه الإرسالية دوي في عالم الأدب بأوربا، ولا سيما في باريس؛ لأنها دلت على علو همة محمد علي، وشدة رغبته في إصلاح وادي النيل، فعني بعض المصورين في

تصوير أفراد تلك الإرسالية كما رأوهم بأزيائهم الشرقية وعمائهم العربية؛ لتحفظ في المتاحف، وطبع آخرون من تلك الصور نسخًا قليلة يعز وجودها، وفي الشكل الآتي أمثلة من تلك الصور بشكلها الشرقي تمثل أزياء موظفي رجال الحكومة في أوائل أيام محمد علي، وتحت كل صورة اسم المنصب الذي بلغ إليه صاحبها في الحكومة المصرية.

فحسن بك ناظر البحرية هو الحاج حسن الإسكندراني الوارد ذكره في الجدول، وسنه ٣٧، ذهب ليتعلم الإدارة البحرية فصار ناظرها.

وأمين بك ناظر الكهرجلات صورته بجانب صورة حسن بك، وهو أمين أفندي من الأستانة، ذهب في تلك الإرسالية لدرس اصطناع الأسلحة ومسابك الحديد، فارتقى في هذه الفنون وصار ناظر الكهرجلات، ومعناه في اصطلاحهم ناظر معمل البارود.



خمسة من تلاميذ الإرسالية المصرية الأولى إلى باريس، وهم في الأعلى من اليمين: حسن بك ناظر البحرية، يليه أمين بك ناظر الكهرجلات، وفي الأسفل من اليمين: محمد بيومي مدرس مدرسة الطب، ومصطفى محرمجي مهندس قناطر وجسور، ومظهر بك مهندس قناطر وجسور.

ومحمد بيومي في أول الصف الثاني من طلاب نواميس السائلات، لكنه صار مدرسًا في مدرسة الطب، يليه مصطفى محرمجي رفيقه صار مهندس قناطر وجسور، ثم مظهر

أفندي أصله من طلاب الهندسة العسكرية صار مهندس قناطر وجسور، وقِسْ على ذلك أغلب أولئك الطلاب، وسنأتي على تراجم الذين نبغوا منهم، وخلفوا آثارًا تستحق الذكر، وننشر رسومهم، كما نأتي على تراجم النابغين من الإرساليات الأخرى وغيرها.

ديوان المدارس

هذه هي الخطوة الأولى التي خطاها محمد علي نحو إنشاء المدارس العلمية، ثم أرسل إرساليات أخرى في أوقات مختلفة، فبلغ عدد الذين أُرسلوا إلى أوربا في أيامه أفرادًا وجماعات (بين سنة ١٨١٣ و١٨٤٩) ٣١٩ شخصًا، أنفق عليهم ٢٢٣٢٣٣ جنيهًا، واتخذ من نوابغ أولئك الطلبة معلمين ومترجمين لمدارسه، وأطباء لجنده، وموظفين لحكومته، وعمالًا في إدارته، وتعددت المدارس وكانت تابعة في أول أمرها للعسكرية، فأنشأ لها إدارة ملكية خاصة سنة ١٨٣٦ سماها ديوان المدارس، وهي التي سُميت بعد ذلك نظارة المعارف، وإليك أعضاء ديوان المدارس عند أول تكونه:

- كلوت بك
- كياني بك
- أرتين بك (والد يعقوب باشا أرتين)
- هكيكيان بك
- وارين بك
- رفاعة بك
- محمد بيومي أفندي
- لامبر
- هامون
- دوزول (سكرتير)

وبين أعضاء هذا الديوان جماعة من تلاميذ الإرساليات الذين تخرَّجوا في باريس، وعُيِّن رئيسًا لهذا الديوان مصطفى مختار الدويدار المتقدم ذكره، وعُرِف بمختار بك، فهو أول ناظر للمعارف بمصر.

وكان تلامذة المدارس الوطنيون إلى ذلك العهد لا يزالون قليلين، ولم يكونوا ينضمون إلى تلك المدارس إلا كرهًا، فلما رأوا ما ناله المتعلمون من المناصب والرواتب



مصطفى مختار بك أول ناظر للمعارف بمصر.

جعلوا يتكاثرون، فأخذ محمد علي بإنشاء مدارس ابتدائية وثانوية في أنحاء القطر، وجعل التعليم كله في اللغة العربية، واستعان بالمتقاعدين من ضباط الجيش المتخرجين في أوربا، وفي سنة ١٨٣٩ أصبحت المدارس الكبرى في القاهرة ١٦ مدرسة، هذه أسماؤها مع سني تأسيسها:

مدرسة الموسيقى العسكرية	تأسست سنة ١٨٢٤
المدرسة التجهيزية الحربية في قصر العيني	تأسست سنة ١٨٢٥
مدرسة الطب والصيدلة	تأسست سنة ١٨٢٦
مدرسة الكيمياء العملية	تأسست سنة ١٨٢٩
مدرسة المشاة	تأسست سنة ١٨٣١
مدرسة الفرسان	تأسست سنة ١٨٣١
مدرسة الطبجية	تأسست سنة ١٨٣١

مدرسة البحرية	تأسست سنة ١٨٣١
مدرسة طب الحيوان	تأسست سنة ١٨٣١
مدرسة التعدين	تأسست سنة ١٨٣٤
مدرسة الهندسة	تأسست سنة ١٨٣٤
مدرسة الزراعة	تأسست سنة ١٨٣٧
مدرسة الولادة	تأسست سنة ١٨٣٧
مدرسة الإدارة الملكية والحسابات	تأسست سنة ١٨٣٧
مدرسة الألسن والترجمة	تأسست سنة ١٨٣٧
مدرسة الصنائع والفنون	تأسست سنة ١٨٣٩

وبلغ عدد التلاميذ في المدارس كلها نحو ٩٠٠٠ تلميذ، تنفق الحكومة على تعليمهم ولبسهم وطعامهم وسكنهم، والسبب في مكابدتهم الإنفاق عليهم أن معظمهم في الأصل من غلمان المماليك، فهم ملك الحكومة، وهي بالطبع مكلَّفة بإعالتهم، فلما استكثرت من التلاميذ الوطنيين عاملتهم تلك المعاملة، فجعلت تعليمهم مجانًا، ولم يكن لها بد من ذلك؛ لأنهم كانوا يدخلون تلك المدارس رغم إرادتهم، وهم يكرهون التعليم فيها كما كانوا يكرهون الجندية، وظل ذلك شأن التعليم بمصر إلى آخر أيام محمد علي سنة ١٨٤٨.

المدرسة المصرية في باريس

ولما أفضت ولاية مصر إلى ابنه إبراهيم توقع الناس تغييرًا في التعليم؛ لأنه كان قد أعد إصلاحًا مهمًّا على أثر رحلته في أوربا، ولكن الأجل عاجله قبل مباشرة العمل، وكان ديوان المدارس قد نظر منذ تأسيسه سنة ١٨٣٦ في التعليم العالي، وقرر عجز مصر عن القيام به لسببين: الأول خلوها من أساتذة قادرين على تدريس العلوم العالية، والثاني خلو اللغة العربية من الكتب اللازمة لهذه العلوم؛ ولهذين السببين قررت الحكومة الاستمرار على إرسال التلاميذ على أوربا للتفقه بالعلوم العالية، لكنها أصبحت لا ترسل غير النجباء المتخرجين في المدارس الكبرى، ولم يكن بد للتلاميذ المشار إليهم من معرفة لغة البلاد التي سيُتِمُّون علمهم في مدرستها، فأنشئوا لهذه الغاية مدرسة مصرية في باريس يديرها

إسطفان بك من تلاميذ الإرسالية الأولى، معه وكيل أرمني اسمه خليل أفندي جراكيان، وأما الأساتذة فعيَّنتهم نظارة الحربية الفرنساوية من ضباط جندها.

فأرسلت الحكومة المصرية إلى هذه المدرسة نحو أربعين طالبًا، فيهم جماعة من أمراء العائلة الخديوية، وفي جملتهم البرنسان حليم وحسين ابنا محمد علي، والبرنسان أحمد وإسماعيل (الخديوي) ابنا إبراهيم، واتفق أن إبراهيم باشا مرَّ بتلك المدرسة في أثناء سياحته بأوربا، ومعه سكرتيره نوبار باشا، فأعجب بنجاحها من حيث التعليم، لكنه انتقد تقصيرها في التربية؛ لأن التلاميذ كانوا يُرسَلون إليها وهم في حدود الشباب، فارتأى أن يأتوها وهم بين الثامنة والتاسعة من العمر ليتعلموا ويتربوا معًا، وعزم أنه حالما يرجع إلى مصر يأمر رجاله جميعًا بإرسال أولادهم إلى هذه المدرسة وهم أحداث، لكن المنية عاجلته، والثورة الفرنساوية آلت إلى إقفال المدرسة سنة ١٨٤٨.

وبالجملة فإن محمد علي خدم آداب اللغة العربية بإحياء الجامعة العربية واللغة العربية، حتى الأزياء العربية فإنه كان يكره مَن يدخل في خدمته من الإفرنج أن يتزيَّوا بالزي العربي، ويتكلموا اللغة العربية، ويؤلِّفوا فيها أو ينقلوا كتبهم إليها، كما ستراه في الكلام على العلوم الدخيلة.

(١-٣) المدارس المصرية في عهد إسماعيل

توقفت هذه الحركة الفكرية المباركة في زمن عباس الأول وسعيد (١٨٤٩–١٨٦٣)؛ لأنهما كانا راغبين في الحربية عن سواها، فأقفلت أكثر المدارس المصرية وغيرها من عوامل هذه النهضة، ومن أسباب إقفالها أن المتخرجين في تلك المدارس زادوا عن حاجة الحكومة إلى موظفين؛ لأن الغرض الأصلي من التعليم كان يومئذٍ تخريج عمال للحكومة أو ضباط للجند، فلما فرغت الدولة المصرية من حروبها، وأُلغيت احتكارات الحكومة، وأُقفلت المعامل التي كان قد أنشأها محمد علي لتلبية مطالبه، زاد عدد الشبان المتعلمين تعليمًا عاليًا على المناصب الخالية، وأصبح جماعة منهم عالة على الحكومة، فلما تولى عباس باشا ألغى المدارس العالية إلا المدرسة الحربية.

فلما أفضت الخديوية إلى إسماعيل باشا سنة ١٨٦٣ أخذ في إحياء هذه المدارس، ولم يكن في مصر عند أول حكمه إلا مدرسة واحدة ابتدائية، ومدرسة حربية، ومدرسة طبية وصيدلية، فأخذ في إنشاء المدرس للعلم والهندسة والطب والحربية نحو ما فعل جده قبله، وعاد إلى إرسال الإرساليات، وأصبح غرض التعليم غير محصور في تخريج

الموظفين، بل يراد به أيضًا ترقية نفوس الأمة، وإحياء آداب العرب، وحدثت في أيامه نهضة أدبية بمن وفد على مصر من رجال الأدب من كل الطوائف، فكان من جملة سعيه في سبيل هذه النهضة تنشيط التعليم وتنظيمه، فأنشأ نظارة المعارف، وعهد إليها بتنظيم المدارس على نمط جديد، فألحقوا المدرسة الحربية بنظارة الحربية، وسموا ما بقي من المدارس «المدارس الملكية» تحت نظارة المعارف العمومية، وقسموها إلى ثلاث طبقات باعتبار درجة التعليم: ابتدائية، وثانوية، وعليا، وأنشئوا مدارس لم تكن من قبلُ كمدرسة الإدارة (ثم صارت مدرسة الحقوق)، ومدرسة دار العلوم، ومدرسة الصنائع والفنون في بولاق، ومدرسة المعلمين، وأعادوا مدرسة الألسن لتخريج شبان يتولون الترجمة والتحرير في الدواوين.

ولم تمضِ عشر سنوات من حكم إسماعيل حتى كمل نظام هذه المدارس، وعنيت الحكومة بإنشاء الكتاتيب في سائر أنحاء القطر، فبلغ عددها بضعة آلاف، وزاد عدد التلامذة على مئة ألف، وفي جملتها مدارس للبنات، غير ما أنشأه الأجانب من المدارس الخصوصية، وأكثرها لجماعة المرسلين من الطوائف النصرانية.

(١-٤) المدارس المصرية في عهد الاحتلال

ولما احتل الإنكليز مصر سنة ١٨٨٢ كانت المدارس قسمين: أميرية وغير أميرية، فضلًا عن الأزهر، والأميرية طبقتان: ابتدائية وعددها ٥٣٧٠ مدرسة، تشتمل على ١٣٧٥٥٣ طالبًا، وثانوية وعددها ٢٧ مدرسة فيها ٤٦٦٤ طالبًا، غير المدرسة التجهيزية، ومدارس الفنون والمهن العلمية كالطب والهندسة والمساحة والعمليات والإدارة والصناعة وغيرها، وكانت قاعدة التعليم في هذه المدارس اللغة العربية، والعلوم تُعلَّم بكتب عربية، وفي جملتها الرياضيات والطبيعيات والكيمياء والتاريخ العام والجغرافية، غير المهن العلمية التي ذكرناها. وأما اللغات الأجنبية، فكان التلميذ يُخيَّر بين الفرنساوية والإنكليزية والألمانية فيتعلم التي يريدها، ومن أراد إتقان هذه اللغات دخل مدرسة الألسن، ومن هذه المدرسة يخرج المترجمون، ناهيك بالبعثات التي كانت ترسلها الحكومة إلى أوربا لإتقان بعض العلوم، وكان التعليم في المدارس الأميرية مجانًا.

ثم أخذت الحكومة بعد الاحتلال في تنظيم المدارس على نسق جديد، فتقلبت على أحوال شتى، وأهم ما حدث فيها إقفال مدرسة الألسن، وإغفال البعثات إلى أوربا، وإبطال التعليم المجاني، وجعل قاعدة التعليم بإحدى اللغتين الإنكليزية والفرنساوية،

وقَلَّت العناية باللغة العربية رويدًا رويدًا، فبعد أن كانت معظم ساعات التدريس عائدة إلى إتقانها، أخذت تتحول إلى اللغات الأخرى تدريجًا، حتى صارت ساعات التدريس للعربية أقل من ساعات التدريس لسواها.

فضعف شأن اللغة العربية، وقامت قيامة الصحف في أوائل هذا القرن تطلب الرجوع إلى التعليم في اللغة العربية، فلم يُسمع نداؤها إلا منذ بضع سنوات، لكن فكرة نشر التعليم راجت في القطر المصري، واهتمت الحكومة في إنشاء الكتاتيب، فبلغ عدد ما أنشأته ٣٧٩٤ كتابًا، ثم تألفت مجالس المديريات لإنشاء المدارس، كل مديرية تنشئ المدارس لنفسها، وتتولى التعليم على حدة، وتنفق على ذلك من ضريبة إضافية أذنت الحكومة للمديريات بضربها على العقار سنة ١٩١١ قيمتها خمسة في المئة، فبلغ عدد مدارس هذه المجالس إلى الآن ٩٣ مدرسة، غير ٣٩ مدرسة أخرى تنفق عليها.

وزادت رغبة المصريين في تعليم أولادهم بأوربا، واتفق بعضهم مع نظارة المعارف في العام الماضي أن تتولى هي أمر أولئك الطلبة وإرشادهم، وتعينت لذلك لجنة سموها «لجنة إرشاد الطلبة المصريين»، وبلغ عدد الطلبة الذين يطلبون العلم على نفقتهم لهذا العام ٦١٤ طالبًا، منهم ٣٧٣ في بلاد الإنكليز، و١٣٩ في فرنسا، و٦٤ في سويسرا، وقد دخل من هذا المجموع نحو النصف تحت رعاية اللجنة المشار إليها، أكثرهم في بلاد الإنكليز.

ويضيق المقام عن إيراد عدد ما في مصر من المدارس الأميرية وغير الأميرية، وتاريخ إنشائها، لكننا ننقل خلاصة ذلك للسنة الماضية عن الإحصاء السنوي الرسمي الذي تصدره الحكومة المصرية، وفيه عدد المدارس الوطنية، وعدد الكتاتيب وتلاميذها لسنة ١٩١٣.

عدد المدارس بمصر	عدد التلاميذ فيها
٨٠٧ المدارس المصرية	١١٤٠٥٢
٢٧٩٤ الكتاتيب المصرية	٢٣١٣٧٦
عدد المدارس الأجنبية	**عدد تلاميذها**
٦ ألمانية	١١٢٨
١٢ نمساوية	١٨٤٤
٣٢ أميركية	٥٢٠٢

عدد المدارس بمصر	عدد التلاميذ فيها
٣٧ إنكليزية	٢٦٣٦
٤٢ يونانية	٧١٤٢
٤٧ إيطالية	٦٨٨٨
١٤٥ فرنساوية	٢٢١٧٥
٢٣٨=٧ جنسيات أخرى	١١٨٧=٤٨٢٠٣
٤٩٢٩ (جملة المدارس)	٢٩٣٧٣٢ (جملة التلاميذ)

وإليك إحصاء المدارس المصرية حسب تبعيتها أو إدارتها:

عدد التلاميذ	المدارس	الجهة التابعة لها
١٤٧٧٤	٦٨	مدارس أميرية
١٩٩٤٢	١٥	مدارس تابعة لمجلس الأزهر
٤٠٣٢	٢١	مدارس تنفق عليها الأوقاف
٩٦٦٨	٩٣	مدارس تابعة لمجالس المديريات
٥٩٥١	٣٩	مدارس لها إعانة من مجالس المديريات
١٠٠٣٢	٥٠	مدارس تابعة للجمعيات الخيرية الإسلامية
١٦٥١٩	١٦٣	مدارس إسلامية أهلية
١٢٨٠٦	٩٧	مدارس تابعة للجمعيات الخيرية القبطية
٧٨٦٩	١٥٠	مدارس قبطية إنجيلية
٩٠٧٠	٩١	مدارس قبطية أهلية
١٧٩٦	١٢	مدارس إسرائيلية
١٥٩٤	٨	مدارس من جنسيات أخرى غير إسلامية
١١٤٠٥٣	٨٠٧	(الجملة)

فعدد المدارس المصرية وغير المصرية في القطر المصري نحو ٥٠٠٠ مدرسة، عدد تلاميذها كلها نحو ٤٠٠٠٠٠ تلميذ، وهو قليل بالنظر إلى البلاد الراقية؛ لأن سكان هذا القطر نحو ١٢٠٠٠٠٠٠ فتكون نسبة التلاميذ إلى مجموع السكان ٣,٥ في المئة، ونسبة ذلك في الممالك الراقية أكثر كثيرًا، فهي في الولايات المتحدة ٢٤ في المئة، وفي إنكلترا نحو ١٧، وفي اليابان ١٦، وكذلك في ألمانيا والنمسا، و١٥ في فرنسا وإيطاليا، وأخيرًا تأتي روسيا ونسبة عدد التلاميذ فيها إلى عدد السكان نحو ٥ في المئة، وقد رأيت أنها في مصر ٣,٥ فقط.

وزد على ذلك أن العلوم التي تلقى في المدارس المصرية أقل مما تقتضيه روح العصر، فالتعليم الثانوي الذي يمنح البكالوريا علومه أقل من علوم أمثاله في الممالك المتمدنة، وكذلك أكثر المدارس الفنية في الطب والحقوق والهندسة وغيرها، والحكومة تعول في استيفاء تعليم بعض التلاميذ بإرسالهم إلى مدارس أوربا.

ولكل من المدارس المصرية العالية تاريخ ليس هنا محل الإفاضة فيه، وإنما نكتفي بتلخيص تاريخ مدرسة الطب؛ لعلاقتها بالعلوم الدخيلة التي سيأتي الكلام عليها.

(١-٥) المدرسة الطبية المصرية تأسست في أبي زعبل سنة ١٨٢٦

لهذه المدرسة أهمية كبرى في هذه النهضة؛ لأن عليها المعول في تخريج الأطباء، وأكثر نقلة العلوم الدخيلة والطبيعية من تلاميذها، وهي أقدم المدارس العالية بمصر؛ لأن الغرض الأصلي منها عسكري كما تقدم، والفضل الأكبر في إنشائها للدكتور كلوت بك، استقدمه محمد علي سنة ١٨٢٥ طبيبًا لجيشه، وقد وثق به فأشار الدكتور بإنشاء المستشفى العسكري بأبي زعبل، ثم مدرسة الطب، وأن لا ينحصر تعليم الطب بالجند بل يكون عامًّا، ففوض إليه محمد علي القيام بهذا العمل، فأنشأ المدرسة الطبية في أبي زعبل سنة ١٨٢٦، واستقدم لها الأساتذة من فرنسا غير من استقدمهم محمد علي من الأطباء والصيادلة للخدمة في الجيش المصري، وبلغ عددهم ١٥٤ طبيبًا أكثرهم من الفرنساويين والإيطاليين، ولما صدر الأمر لكلوت بك بإنشاء مدرسة الطب تولى هو إدارتها وتعليم الجراحة فيها، وأخذ في العمل، فلم تمضِ عشر سنوات حتى تخرَّج فيها ٤٢٠ طبيبًا وصيدليًّا للجيش، كانوا يتعلمون في تلك المدرسة، ويمارسون في مستشفاها.

مستشفى أبي زعبل

وكان مستشفى أبي زعبل مربع الشكل، في وسطه حديقة طولها ٢٠٠ متر، فيها المغارس اللازمة للدروس النباتية، غير ما فيها من المعدات التشريحية والكيماوية التي لا بد منها للدروس الطبية، وكان ذلك المستشفى يُقسَّم إلى ستة أقسام حسب الأمراض وأنواعها، لكنه لم يكن في أول أمره حائزًا على النظافة لقرب المدافن منه، وكان المرضى فيه يسمعون أحيانًا عويل الضباع ليلًا لوحشة المكان، فيستيقظون من رقادهم مذعورين، فعزم كلوت بك أن ينقل المدرسة إلى الإسكندرية، أو إلى جزيرة الروضة، فلم يُوَفَّقْ إلى ذلك إلا سنة ١٨٣٧، فنقلها مع المستشفى إلى قصر العيني، وكان المعسكر قد فرغ من الجند لذهاب معظمه إلى سوريا.

العقبات التي اعترضت كلوت بك في مشروعه

واعترضت كلوت بك عقبات كبيرة في سبيل عمله هذا، وكان الناس يستبعدون تخريج الأطباء من الوطنيين، وبعضهم يعد ذلك مستحيلًا، لكنه اكتفى بأن يكون محمد علي نصيره في عمله فأفلح، وظلت مدرسة الطب المصرية وحيدة في العالم العربي نحو أربعين سنة، ريثما أنشئت المدرسة الكلية الأميركية في بيروت.

ومن أهم تلك العقبات تشريح الجثث، فكانوا في أول الأمر يُشرِّحون الكلاب، ثم أذن لهم بتشريح جثث النصارى والعبيد، وأن ينقلوا الجماجم والعظام من المدافن المهجورة، وأخيرًا أذن لهم بتشريح سائر الموتى، ولا سيما الذين يُتَوَفَّون في مستشفى قصر العيني.

غير ما لاقاه كلوت بك في أثناء العمل من توالي الأوبئة على مصر، ولا سيما الطاعون والكوليرا، فقد ذكروا أن الكوليرا التي انتابت مصر سنة ١٨٣١ بلغ عدد موتاها في القاهرة وحدها ٣٦٠٠٠ نفس، وبلغ عدد وَفَيَات الطاعون سنة ١٨٢٤ نحو ٤٠٠٠٠٠ نفس في القطر المصري كله، منهم ٣٠٠٠٠ في القاهرة. وتوالى الطاعون على مصر أيضًا سنة ١٨٣٦ و١٨٤٠ فضج الناس، ووقع الرعب في قلوبهم، ومحمد علي يستحث الدكتور كلوت بك على استنباط الحيل لتقليل الوفيات، فكان من جملة مساعيه في ذلك تلقيح الناس به على مبدأ التلقيح بالجدري، فأمر أن يُلقَّح الجند بالطاعون وهم في حال الصحة فخافوا، فلم يقدر على إقناعهم حتى لقَّح نفسه أمام جمهور من الأطباء والأعيان في مستشفى كان للملكية بالأزبكية، فعل ذلك في ١٥ مارس سنة ١٨٣٥ بين يدي طائفة من

الأطباء والصيادلة وكبار موظفي الحكومة، دعاهم إلى قاعة المطعونين في ذلك المستشفى، وكشف عن ذراعه، وتناول المادة الطاعونية من بثرة أحد المطعونين، ولقَّح بها نفسه على مشهد من الناس.

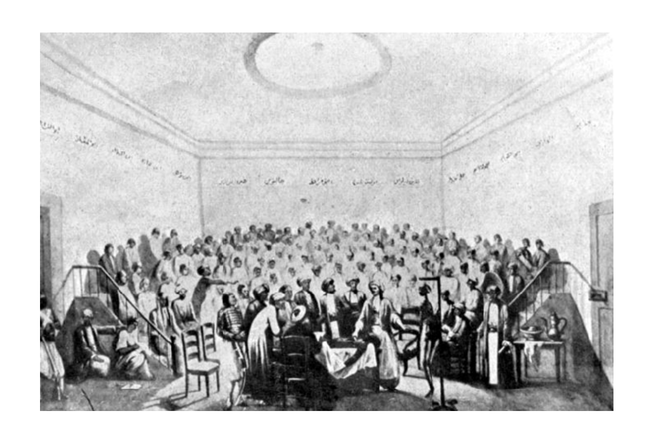


كلوت بك يلقِّح نفسه بالطاعون على مشهد من الأطباء والصيادلة وكبار موظفي الحكومة سنة ١٨٣٥.

وناهيك بالمشقة العظمى التي لقيها في لغة التدريس؛ لأن الأساتذة لم يكونوا يعرفون اللغة العربية، والتلامذة لا يعرفون اللغة الفرنساوية، ومحمد علي يريد استثمار عمله سريعًا، فلم يصبر حتى يتعلم التلاميذ اللغة الفرنساوية، أو يتعلم الأساتذة اللغة العربية ويضعوا فيها المؤلفات اللازمة للتدريس، أو على الأقل ريثما ينقل التراجمة تلك الكتب إلى العربية ويطبعونها ليسهل تناولها، لكنه أمر بإلقاء الدروس قبل أن يتم شيء من ذلك، وأقام المترجمين بين المعلمين والتلاميذ، ولا يخفى ما في ذلك من المشقة، لكن الهمة العالية تذلل كل صعب.

كيفية إلقاء الدروس الطبية في أول أمرها

كان المعلم يأتي إلى الصف ومعه المترجم، فيشرح المعلم درس ذلك اليوم والمترجم يتلو هذا الدرس بالعربية على التلاميذ، وهم يكتبونه في دفاترهم، وإذا أشكل عليهم فهم شيء، استوضحوه فيوضحه لهم المعلم بواسطة المترجم، وعلى كل فرقة عريف يراجع الدروس للتلاميذ، وهؤلاء يقدمون كل شهر امتحانًا عن دروسهم، ويقام البارعون منهم عرفاء عليهم.



صف التشريح في قاعة التشريح بأبي زعبل سنة ١٨٢٧، وهو أول درس تشريحي سمعه الطلبة والجثة بين أيديهم. وكلوت بك يشرح لهم الدرس في حضور العلماء والأساتذة في ٢٠ أكتوبر سنة ١٨٢٧، والمترجم يُعَرِّب كلام كلوت بك للتلاميذ. وهذا الشكل منقول في الأصل عن صورة رُسِمت في ذلك العهد، وقد كتبوا بالعربية في أعلى جدران القاعة أسماء مشاهير الأطباء أو العلماء قديمًا وحديثًا، وهذه أسماؤهم من اليمين إلى اليسار: جابر، القارئ؟ ابن العيني، أبو القاسم، هيروفيلوس، أرستوتليس، أبقراط، جالينوس (...؟) ابن زهر، ابن الفارس، ابن البيطار، أبو الفرج.

ولتعجيل الاستفادة من فن الطب أنشأ كلوت بك مدرسة للغة الفرنساوية يتعلم فيها تلاميذ الطب هذه اللغة في ساعات الفراغ؛ ليستعينوا بها في مطالعة العلم في الكتب الفرنساوية، وفي آخر كل سنة يقام امتحان عام يحضره الوجهاء والأعيان والقناصل



الدكتور كلوت بك مؤسس مدرسة الطب المصرية.

وغيرهم، تُلقَى فيه الخطب ونحوها، وبعد خمس سنوات يُتِمُّ الطالب دروسه، ويُعيَّن في الآلايات أو المارستانات أو غيرها.

الإرسالية الطبية الأولى

وارتأى كلوت بك أن يستعين في تثقيف تلاميذه بإرسالهم إلى فرنسا ليتقنوا فن الطب، فانتخب سنة ١٨٣٢ اثنى عشر تلميذًا من النبهاء، أخذهم بنفسه إلى باريس، وامتُحِنوا بحضور الجمعية العلمية الطبية فشهدت لهم بالبراعة، وكانت الأسئلة تُطرَح عليهم بالفرنساوية، ويجيبون بها؛ لأنهم أتقونها في المدرسة التي تقدَّم ذكرها، فنالوا الشهادات، وهذه أسماؤهم:

- أحمد الرشيدي.
- حسن الرشيدي.
- محمد منصور.
- إبراهيم النبراوي.
- حسين الههياوي.
- عيسوي النحراوي.
- مصطفى السبكي.
- محمد الشباسي.
- محمد السكري.
- محمد الشافعي.
- أحمد بخيت.
- محمد علي البقلي.

وقد عني المصورون بتصوير هذه الإرسالية الطبية كما صوروا الإرسالية العلمية الأولى، وترى في الصورة أربعة منهم، وتحت كل صورة اسم صاحبها، وكلهم تولَّوا التدريس في مدرسة الطب، وهم: محمد السكري، ومحمد الشباسي، ومحمد الشافعي، ومحمد علي.

كل ذلك ومدرسة الطب لا تزال في أبي زعبل، وفي سنة ١٨٣٧ نقلوها إلى القاهرة، ووضعوها في قصر العيني كما تقدم ومعها المستشفى، وعُرِفت من ذلك الحين بمدرسة قصر العيني، ولا تزال تعرف به إلى الآن، وفي تلك السنة أمر محمد علي بإنشاء فرع طبي في الإسكندرية كالمستشفى، وآخر في حلب لأجل تمرين المتخرجين بمدرسة الطب المصرية، وبلغ عدد من دخل مستشفى الإسكندرية للسنة التالية ٩٥٠٠ مريض، ولم يطل بقاء مستشفى حلب لخروج سوريا من حوزة الدولة المصرية.



أربعة من تلاميذ الإرسالية الطبية الأولى.

مدرسة القوابل

وأنشأ محمد علي سنة ١٨٤٢ فرعًا لدرس فن القبالة، يتعلمه النساء لمعالجة النساء أو توليدهن؛ مراعاة للعادات الشرقية، وأنشأ لهن مستشفى خاصًّا، لكنه لاقى في ذلك مشقة؛ لأن النساء الوطنيات نفرن من هذه المدرسة لبعدها عن مألوفهن، فأدخل فيها بعض الجواري الحبشيات، وأمر أن تُمنَح الحكيمة التي تُتِمُّ دروسها منهن رتبة بكباشي، مع التصريح لها بدخول قصور الكبراء، ومن أشهر أولئك القوابل تمرهان الحبشية والدة جليلة تمرهان، وهذه أيضًا تعلَّمت القبالة وعلَّمتها في تلك المدرسة في زمن إسماعيل، وقد ألغيت هذه المدرسة بعد إدخال النظام الجديد على مدرسة الطب، وعوضوا عنها بمدرسة التمريض لإخراج الممرضات.

طبع الكتب الطبية

وكانت الهمة مبذولة من الجهة الأخرى في طبع الكتب الطبية العربية في مطبعة أنشأها محمد علي في أبي زعبل، ولم يمضِ بضع سنوات حتى ظهرت عدة كتب طبية تعليمية عليها نُمَرٌ متسلسلة حسب ظهورها، وفي آخر كل كتاب تاريخ طبعه، وبلغ عدد الكتب الطبية التي طُبِعت في تلك المطبعة عشرة، أولها كتاب القول الصريح في علم التشريح تأليف الدكتور كلوت بك، طُبِع سنة ١٨٣٢، وآخرها كتاب الأربطة الجراحية تأليف إبراهيم بك النبراوي، طُبِع سنة ١٨٣٨، وطُبِعت فيها كتب أخرى غير هذه سيأتي ذكرها.

النظام الجديد في مدرسة الطب

وما زال التعليم في المدرسة الطبية باللغة العربية، يتخرج فيها الأطباء والعلماء يعلمون بالعربية، ويؤلفون في العربية، وهم نخبة رجال هذه النهضة، وعليهم كان المعول في نقل العلوم الحديثة بالترجمة أو التأليف أو التلخيص — ظلوا على ذلك نحو سبعين سنة، ثم رأت الحكومة سنة ١٨٩٨ أن تغيِّر بروغرام هذه المدرسة، فأدخلت فيها إصلاحات كثيرة من حيث إتقان المعدات والأدوات، وإدخال العلوم الحديثة، وإنشاء المعامل الكيماوية والمكرسكوبية، لكنها جعلت صبغتها إنكليزية — وذلك أنها كانت في إبان زهوها تعطي دبلوما عالية، فجعلوا شهادتها سنة ١٨٩٠ بسيطة، وأبطلت الدبلوما، ثم استقدمت الحكومة مديرًا من كبار مديري المدارس الطبية في لندن، وطلبت إليه أن يرفع تقريرًا في الإصلاح اللازم لهذه المدرسة، فأشار بضم المستشفى والمدرسة إلى إدارة واحدة، وذكر إصلاحات تتعلق بالدروس والأساتذة ولغة التدريس وغير ذلك، وكان التعليم مجانًا، والمدرسة تساعد التلاميذ برواتب شهرية، فأبطل هذا كله، وصار الطالب يدفع راتبًا سنويًّا، وفي سنة ١٨٩٨ جعلوا التعليم فيها باللغة الإنكليزية، وضُمَّت المدرسة إلى المستشفى، وجعل نظامها يشبه نظام مدرسة الطب في جامعة لندن، وأصبح الطالب بعد أن يُتِمَّ دروسه في قصر العيني يسوغ له أن يمكث سنة في تلك الجامعة، ثم ينال شهادتها، وتأييدًا لعلاقة هذه المدرسة بتلك الجامعة يأتي منها مندوب كل سنة لحضور الامتحان النهائي في هذه المدرسة، وهذا جدول رؤساء هذه المدرسة أو نظارها من أول إنشائها إلى الآن.

رؤساء أو نظار مدرسة الطب

الأسم	السنة
الدكتور كلوت بك	١٨٢٧
الدكتور دقنو بك	١٨٣٧
الدكتور برون	١٨٣٩
الدكتور محمد شافعي أفندي	١٨٤٧
الدكتور راير	١٨٥٦
الدكتور حسن أفندي عارف	١٨٥٩
الدكتور أرنو بك	١٨٦٢
الدكتور بورجير بك	١٨٦٣
الدكتور حافظ أفندي محمد	١٨٦٣
الدكتور محمد علي بك	١٨٦٧
الدكتور محمد شافعي بك	١٨٧٠
الدكتور محمد علي بك	١٨٧٣
الدكتور جلياردو بك	١٨٨٣
الدكتور محمد بك القطاوي	
الدكتور عيسى باشا حمدي	١٨٨٣
الدكتور حسن باشا محمود	١٨٨٩
الدكتور إبراهيم باشا حسن	١٨٩١
الدكتور كيتنج	١٨٩٨

وسنأتي على تراجم الذين اشتهروا من متخرجي مدرسة الطب في باب العلوم الدخيلة.



جلياردو بك أحد رؤساء مدرسة الطب سنة ١٨٨٣.

(١-٦) الجامعة المصرية

ويجدر بنا قبل ختم الكلام في المدارس المصرية أن نقول كلمة في «الجامعة المصرية»؛ لأن لها مهمة تمتاز عما سواها من المدارس الأميرية وغير الأميرية.

لما صار التعليم في المدارس الأميرية باللغات الأجنبية، وانحطت طبقات التعليم في تلك المدارس وغيرها شعر عقلاء الأمة بهذا النقص، فأخذوا يتحدثون بالتعويض عن ذلك بإنشاء المدارس الأهلية التي ينفق عليها الأهلون، ولم يكونوا قد تعودوا ذلك من قبلُ، فأنشئوا عدة مدارس لم تغنِ فتيلًا، أو أنها لم يطل بقاؤها لكثرة النفقات، فاتجهت الأنظار إلى إنشاء كلية مصرية كبرى تُجمَع لها الأموال، وتُوقَف لها الأوقاف ليُضمَن بقاؤها، وكنا قد اقترحنا إنشاء هذه الكلية منذ بضع عشرة سنة بمقالات متوالية في السنة الثامنة من الهلال فما بعدها، وبيَّنَّا شدة الحاجة إلى هذه المدرسة للتعليم والتربية، ولكن لسبب لا نعلمه لما قام رجال الإصلاح لترقية التعليم الأهلي على قواعد ثابتة سنة ١٩٠٦، اقترحوا إنشاء «جامعة مصرية» ترجمة (University) الإنجليزية، فتوجهت الأنظار إلى أن تكون المدرسة المذكورة على نسق جامعات أوربا.

اقترح هذا المشروع رسميًّا مصطفى بك كامل الغمراوي من أعيان بني سويف في أكتوبر سنة ١٩٠٦، وافتتح الاكتتاب بخمسمائة جنيه تبرع بها، واستحث الأمة على إنشاء جامعة مصرية، فكان لهذا الاقتراح وقع حسن عند كرام الوطنيين؛ فاجتمع جمهور منهم في منزل سعد باشا زغلول، وشكلوا لجنة تحضيرية رئيسها سعد باشا، وسكرتيرها قاسم بك أمين، وأمين صندوقها حسن بك سعيد، فاكتتب الحاضرون بمبلغ ٤٥٨٥ جنيهًا، وقرروا ما رأوه من حيث غرض الجامعة، وكيفية تأسيسها.[٤]

وانتخبوا البرنس فؤاد باشا رئيسًا لهذا العمل، وأخذ مجلس الإدارة الجامعة يجمع المال، فاعترض سعيهم الأزمة المالية سنة ١٩٠٧، لكنهم ثابروا على العمل بهمة ونشاط، فلم تمضِ سنة حتى ظهرت تباشير النجاح، فاكتتبت نظارة الأوقاف بأمر الجناب الخديوي بخمسة آلاف جنيه تدفعها كل سنة، ووهب حسن باشا زايد خمسين فدانًا من أطيانه وقفًا على المشروع، وتوالت الاكتتابات والوقفيات بعد ذلك، فاكتتبت نظارة المعارف بألفي جنيه كل سنة، ووقف بعض أهل البر أطيانًا وأبنية فتوطدت الآمال، وتقرر افتتاح الجامعة، فاحتفلوا بافتتاحها في ٢١ ديسمبر سنة ١٩٠٨ احتفالًا رسميًّا حضره الجناب الخديوي، وألقى فيه خطبة نفيسة.[٥]

وفتحت الجامعة أبوابها، وأخذت في العمل بإرسال الإرساليات إلى أوربا لتخريج أساتذة وطنيين يعلِّمون العلوم في اللغة العربية، واستقدموا أساتذة موقَّتين من الإفرنج وغيرهم لإلقاء المحاضرات في العلوم الفلسفية والاجتماعية والتاريخية وآداب اللغة، كما تفعل أرقى جامعات أوربا، لكن ذلك وراء ما نحتاج إليه من العلوم، ونحن نعتقد أننا في حاجة إلى العلوم الطبيعية والرياضية وغيرها من الفنون التعليمية التي تنقص المدارس الثانوية المصرية، فضلًا عن تربية الأخلاق الراقية، وهي لازمة لزوم العلوم أو أكثر، فكتبنا في الهلال ٢٧٢ سنة ١٧ مقالةً ضافية بيَّنَّا فيها حاجة البلاد إلى هذه العلوم، واقترحنا تعديل طرق إلقاء الدروس في الجامعة، وفعل ذلك سوانا من محبي مصر، فأخذت الجامعة في تعديل خطتها، وقررت سنة ١٩٠٩ إرسال شبان مصريين لتلقي العلوم الطبيعية، وغيرها مما كنا التمسناه، وأدخلت في السنة التالية تحسينات أخرى، وفتحت فرعًا لتعليم المرأة، وقررت في السنة التالية إنشاء قسمين عاليين لتدريس الفنون الأدبية والعلوم الاقتصادية وغير ذلك، ولا تزال عاملة على التحسين في كل يوم، حسب حاجة البلاد وما تسمح به ماليتها.

ولا نزال نرجو أن تعدل خطتها، وتطبق علومها على حاجة البلاد مما ينجلي لمجلس إدارتها بالاختبار والبحث؛ فإنهم من خيرة رجال الفضل المخلصين في سعيهم، ولا سيما

بعد أن أقدمت البرنسس فاطمة هانم عمة الجناب الخديوي على الأخذ بناصر الجامعة، فوقفت لها ٦٧٤ فدانًا في الدقهلية، ووهبتها قطعة أرض مساحتها ستة فدادين قرب قصرها في بولاق الدكرور بضواحي القاهرة لتبني للجامعة فيها بناء فخمًا، وأعطتها مجوهرات قدَّرتها بثمانية عشر ألف جنيه يقام بها ذلك البناء، فإذا لم تكفِ أتمت ما يبقى، وقد وضعوا الرسم اللازم للبناء، واحتفلوا بوضع الحجر الأول في ٣٠ مارس سنة ١٩١٤ بحضور الجناب الخديوي، وقد وضعه بيده الكريمة، وشهد ذلك الأمراء والوزراء والأعيان، ومجلس إدارة الجامعة في احتفال شائق.

فأصبحت مالية الجامعة المصرية الآن عبارة عن ٢٠٠٠٠ جنيه مودعة في البنك الألماني، و١٠٢٨ فدانًا من أجود الأطيان، غير الإعانات المفروضة، وهي عشرة آلاف جنيه كل سنة، منها ٥٠٠٠ جنيه من الأوقاف، و٢٠٠٠ جنيه من المعارف، والباقي من ريع النقود والأطيان وغيرها.[٦]

(٢) المدارس الحديثة في سوريا

للمدارس الحديثة في سوريا تاريخ يختلف عن تاريخ المدارس في شقيقتها مصر، فقد علمت أن الباعث على إنشاء المدارس المصرية رغبة محمد علي في النهوض بالأمة المصرية، وإحياء آداب اللغة العربية، أما سوريا فكان الباعث على إنشاء المدارس فيها على الأكثر منافسة الإرساليات الدينية أو البعثات التبشيرية.

(٢-١) التعليم في سوريا قبل هذه النهضة

وقبل النظر في إنشاء المدارس في القرن التاسع عشر، ننظر في حال التعليم على الإجمال قبل دخول ذلك القرن، كانت المدارس الإسلامية في سوريا في الجوامع والزوايا، أكبرها مدرسة الجامع الأموي في دمشق، ولا يزال مدرسة إسلامية إلى الآن.

وكان في دمشق وحلب وحمص وغيرها مدارس أخرى إسلامية في غير المساجد نحو ما كان بمصر، لكن من أراد التبحر في العلم لا يستغني عن مدرسة الأزهر، ولا يزال ذلك دأبهم في العلوم الإسلامية إلى اليوم، وكان في دمشق مدارس للشيعة أنشأها مشايخُ بيت علي الصغير المتاولةُ.

أما المدارس النصرانية قبل هذه النهضة، فأقدمها في لبنان للطائفة المارونية، غير ما كان منها في حلب للرهبنات المختلفة كما تقدم، وللموارنة فضل السبق بإنشاء المدارس

في لبنان من عهد بعيد في إهدن وصوفر وبقرقاشة في شمالي لبنان، ومنها مدرسة أسسها البابا غريغوريوس سنة ١٥٨٤، وكان أساتذة هذه المدارس بوجه الإجمال من الكهنة إلا نادرًا، ناهيك بالمدارس الصغرى التي كانوا ينشئونها في الأديرة، ويسمونها «أنطوش»، مثل: أنطوش جبيل أنشئ سنة ١٧٦٢، وأنطوش زحلة عام ١٧٦٩، وأنطوش دير القمر ١٧٨٢ وغيرها.



الجامع الأموي في دمشق.

ومن المدارس القديمة مدرسة عجلتون أنشئت عام ١٧٥١، ومدرسة وادي شحرور عام ١٧٥١.

وأشهر المدارس المارونية التي أنشئت في القرن الثامن عشر «مدرسة عين ورقة»، وكانت ديرًا على اسم مار أنطونيوس، فجعلها البطريرك يوسف إسطفان عام ١٧٨٩ مدرسة على مثال مدرسة رومية، وكانت تعلم فيها اللغة السريانية والعربية والفصاحة والمنطق وعلم اللاهوت.

ثم أنشئت مدارس كثيرة كمدرسة مار عبدا هرهريا عام ١٨٣٠، ومدرسة ريفون عام ١٨٣٢، ومدرسة مار يوحنا مارون، وغيرها مما لا محل لإيراده هنا، والساعي في إنشاء هذه وأمثالها الرهبنات الدينية.

وكان للروم الكاثوليك مدارس في عين القش، وعين تراز، وللروم الأرثوذكس مدارس صغيرة في الكنائس والديور.

(٢-٢) المدارس السورية في هذه النهضة

الطور الأول قبل سنة ١٨٦٠

تقسم هذه المدارس على طورين: الأول قبل سنة ١٨٦٠، والثاني بعده، وأكثر الإرساليات الدينية سعيًا في إنشاء المدارس في الطور الأول الآباء العازاريون واليسوعيون والمرسلون الأميركان، وأقدمهم العازاريون أنشئوا مدرسة عينطورا بلبنان سنة ١٨٣٤، ولا تزال عامرة إلى الآن، ثم أنشأ القس وليم طمسن الأميركاني مدرسة في بيروت عام ١٨٣٥ تعطلت عام ١٨٤٠، وفي تلك السنة قَدِم الدكتور فانديك الشهير إلى سوريا فجال فيها، واختبر أحوالها، فرأى البلاد تحتاج إلى المدارس العليا، فأنشأ مدرسة عبية (لبنان) عام ١٨٤٧، وهي مدرسة عالية، وفي هذه السنة أنشأ الآباء اليسوعيون مدرستهم في غزير (لبنان)، والمنافسة بين الأميركان واليسوعيين في إنشاء المدارس في سوريا من الأمور المألوفة.

على أن الأجانب لم ينشئوا المدارس الكبرى في بيروت إلا في الطور الثاني على أثر حوادث سنة ١٨٦٠ المشئومة، ومهاجرة اللبنانيين وغيرهم إلى بيروت، وبها تبدأ النهضة الحقيقية.

الطور الثاني بعد سنة ١٨٦٠

مدارس البنات

أقدم مدارس هذا الطور في بيروت أنشئت للبنات؛ لأن المهاجرين المنكوبين كان أكثرهم من الأرامل والأيتام ممن فقدن أزواجهن وآباءهم في أثناء تلك الحادثة، وأسبق تلك المدارس إلى هذه الخدمة «المدرسة الإنكليزية»، أنشأتها مسز بوين طمسن سنة ١٨٦٠، وتُعرَف الآن بمدرسة مسز موط، ثم المدرسة الكلية الإنجيلية الأميركانية للبنات أنشئت سنة ١٨٦١، ولا حاجة بنا إلى بيان ما كان لهاتين المدرستين من العمل العظيم في نهضة السوريين؛ اكتفاء بما لتعليم البنات من التأثير المشهور في ترقية الأمم، وتفرَّع من هاتين المدرستين بعد ذلك مدارس كثيرة في بيروت ولبنان، نبغ منها نخبة من ربات المنازل، فعمرن البيوت، وأصلحن شئون الهيئة الاجتماعية، ثم أنشئت مدارس أخرى للبنات، منها مدرسة الراهبات العازريات، ومدرسة راهبات المحبة والناصرة، ومدرسة بروسيا، ومدرسة مس تيلر، ومدرسة زهرة الإحسان للروم الأرثوذكس وغيرها.

وحدث بسبب ذلك نهضة تعليمية، وأقدم أهل البر على إنشاء الكليات للذكور، ومنها الكليات الوطنية، والكليات الأجنبية، ونقتصر من ذلك على مدارس بيروت، وهي من أرقى مدارس العالم من حيث التعليم لكثرة ما فيها من الكليات، وبينها مدرستان طبيتان، ومدرسة حقوق، ومدرستان تجاريتان، فنتكلم أولًا عن الكليات الوطنية، ثم الكليات الأجنبية.

(٢-٣) المدارس الكلية الوطنية في بيروت

تنبه السوريون على أثر تلك النهضة إلى حاجة البلاد، فأخذوا في إنشاء المدارس من عند أنفسهم، وهي التي سميناها المدارس الوطنية، أقدمها «المدرسة الوطنية» للمعلم بطرس البستاني، وهو السابق إلى هذه المنقبة مثل سبقه في أشياء كثيرة من أسباب هذه النهضة، ومثل سبق طائفته الأصلية (الموارنة) إلى التعليم قبلًا، أنشأ مدرسته هذه سنة ١٨٦٣، وكانت زاهرة ونبغ منها طائفة من الأدباء وأرباب الأقلام هم زهرة سوريا في ذلك العهد، وبينهم جماعة من أرباب المناصب العالية الآن، وكانت ممتازة بصبغتها الوطنية، وحرية الدين والتعليم، لكنها تعطلت سنة ١٨٧٦، وكانت الطوائف الأخرى قد أخذت تعمل مثل عمله.

فأنشئت المدارس الكلية الوطنية للطوائف الأخرى، أهمها المدرسة البطريركية للروم الكاثوليك أنشئت سنة ١٨٦٥، وهذه ظهر من تلامذتها جماعة من الأدباء، ثم مدرسة الثلاثة الأقمار للروم الأرثوذكس كانت في سوق الغرب، ونُقِلت إلى بيروت سنة ١٨٦٦، وكان لها شأن بين المدارس الوطنية.

ومدرسة الحكمة للمطران يوسف الدبس أُنشِئت سنة ١٨٦٥، وهي للطائفة المارونية، والمدرسة الوطنية الإسرائيلية للحاخام زاكي كوهين أُنشِئت سنة ١٨٧٤، وهي أكبر مدرسة إسرائيلية، وقد أُقفِلت منذ بضع وعشرين سنة، وتوفي صاحبها في مارس من هذا العام عند أبنائه بمصر عن نيف وثمانين سنة، وهو أول مَن أنشأ الكليات العربية الإسرائيلية.

والمدرسة الرشدية أقدم مدارس المسلمين الحديثة، ومدرسة دار المعلمين، وكلتاهما للحكومة، والكلية العثمانية الإسلامية أحدث كليات بيروت الوطنية، أُنشِئت بعد الدستور، وكانت قبله صغيرة نهارية، فأنشئوا فيها سنة ١٣١٨هـ (١٩٠٠) قسمًا داخليًّا، ولما أُعلِن الدستور جعلوها كلية وسموها «الكلية العثمانية الإسلامية»، تعلم علوم الكليات الكبرى،

وتديرها عمدة من نخبة أدباء بيروت ووجهائها المسلمين برئاسة الشيخ أحمد عباس الأزهري، ويؤخذ من بيانها السنوي أنها عازمة على إنشاء فرع لتعليم الحقوق وآخر للتجارة، وهي من أقوى عوامل النهضة الإسلامية في بيروت، ومن المدارس الإسلامية في بيروت المدرسة العثمانية، فيها قسم داخلي، وهي من أقدم مدارسهم الأهلية.

وفي الدولة العثمانية الآن نهضة حديثة لإنشاء المدارس العالية في العالم العربي، منها مدرسة كلية عالية في المدينة، ومدرسة للحقوق في بيروت.

(٢-٤) المدارس الكلية الأجنبية في بيروت

قد رأيت أن البيروتيين سبقوا الأجانب إلى إنشاء الكليات الكبرى فيها، ثم أقدم الأميركان على إنشاء كليتهم الشهيرة، واقتدى بهم سواهم.

الكلية الأميركية

أنشأها المرسلون الأميركان في بيروت سنة ١٨٦٦، وكانت مدرستهم في عبيه تعلم علوم الكليات الكبرى من الرياضيات والطبيعيات وغيرها، وقد تقدَّم أنها أنشئت سنة ١٨٤٧، فهي أقدم الكليات العربية في سوريا على النمط الحديث، وقد تخرَّج فيها طائفة من العلماء كانوا من جملة أركان هذه النهضة في سوريا، ومن معلمي مدارسها الكبرى، وكان البستاني منشئ المدرسة الوطنية من جملة أساتذتها، ولما عمرت بيروت بعد حوادث ١٨٦٠ أنشأ الأميركان المدرسة الكلية التي نحن في صددها، والفضل الأكبر في إنشائها إلى الدكتور دانيال بلس، كان مرسلًا للتبشير في سوريا سنة ١٨٥٦، فرأى البلاد في حاجة إلى كلية علمية تمهد للطلبة تلقِّي العلوم الفنية كالطب وغيره، فاقترح على زملائه إنشاء هذه الكلية، فأكبروا اقتراحه، لكنه ثبت وسافر إلى أميركا لجمع المال اللازم فنجح، وتألفت لجنة للعمل تحت رئاسة عضوَيْها الدكتورين فانديك وورتبات، وما زال هو رئيسًا للمدرسة حتى أقعدته الشيخوخة، فتولاها ابنه الدكتور هورد بلس منذ بضع عشرة سنة، فتحت الكلية أبوابها وعدد تلاميذها ٤٦، وهم الآن نحو ألف طالب، وكان أساتذتها ثلاثة، فأصبحوا الآن بضعة وثمانين أستاذًا ومعلمًا، وكانت علومها محصورة في

الطب وبعض فروع العلم، فتعددت فروعها وأقيمت لها الأبنية، حتى صارت كالجامعة الكبرى مؤلَّفة من عدة كليات:

(١) الاستعدادية.
(٢) الكلية العلمية.
(٣) الطبية.
(٤) الصيدلية.
(٥) طب الأسنان.
(٦) التجارية.
(٧) الآثار القديمة.
(٨) المرصد الفلكي.

وفي عزمها إنشاء فرع للحقوق، وآخر للهندسة، وآخر للزراعة، ويسمونها عند ذلك «جامعة»، وقد تخرَّج في الكلية الأميركية جيش الكتاب والأطباء والعلماء والصيادلة والمعلمين، وفي جملتهم طائفة من أرباب الصحف والمجلات، وأرباب المناصب العالية في دوائر الحكومة بمصر وسوريا، غير التجار والصناع، ويُقدَّر المتخرجون من أبناء هذه المدرسة ببضعة آلاف منتشرين في أنحاء العالم.[٧]

وتمتاز الكلية الأميركية بالتدريب على استقلال الفكر وترقية النفس، وبإحياء الآداب العربية، وخدمة الجامعة العربية؛ لأنها كانت منذ نشأتها تعلِّم العلوم باللغة العربية، فهان على تلاميذها التأليف في هذا اللسان، فكثر المؤلفون ونبغ الخطباء فيها، وأساتذتها الأولون هم الذين قاموا بنقل العلوم الطبية والطبيعية والرياضية إلى اللغة العربية كما سترى، لكنها عدلت عن التدريس في العربية منذ ثلاثين سنة، وجعلته في اللغة الإنكليزية.

الكلية اليسوعية

هي للآباء اليسوعيين أنشئوها أولًا في غزير، ثم نقلوها إلى بيروت سنة ١٨٧٤، وهي تعلِّم اللغات والآداب والطبيعيات والرياضيات والتجارة والفلسفة والفلك والتاريخ الطبيعي وسائر العلوم الطبيعية، وقد تخرج فيها مئات من الطلبة، بينهم طائفة من الكتَّاب والمؤلفين والشعراء وغيرهم، وكانت تعلِّم في اللغة العربية فعدلت عنها إلى الفرنساوية، ولها فرع طبي أُنشِئ سنة ١٨٨٣ للتعليم باللغة الفرنساوية تنفق عليها الحكومة

الفرنساوية، وقد تخرَّج فيها طبقة من خيرة الأطباء المشاهير، وأنشئوا فيها فرعًا للحقوق، وسينشئون فروعًا أخرى بحيث يصدق عليها اسم الجامعة.

(٢-٥) المدارس السورية خارج بيروت

اكتفينا ببيروت مثالًا لحركة التعليم في سوريا، لكننا نقول كلمة في كيفية انتشار التعليم الحديث في سائر مدائن سوريا، في دمشق وحلب وحمص وحماة وطرابلس وفي لبنان وغيرها، والغالب أنها فعلت ذلك اقتداءً ببيروت، ولكل منها تاريخ خاص بها من حيث التعليم والمدارس، ويقال بالإجمال: إن المحرك الرئيسي لإنشاء المدارس فيها إنما هو المنافسة الطائفية بعد انتشار مدارس التبشير الأجنبي، فنهضت الطوائف النصرانية الوطنية لإنشاء المدارس، ثم أخذت الحكومة في إنشاء المدارس الأميرية غير ما كان للمسلمين من المدارس القديمة، ونكتفي بذكر مدارس حمص مثالًا لسائر المدائن السورية.

مدارس حمص

تنقسم المدارس في حمص حسب الطوائف إلى خمس طبقات:

(١) المدارس الإسلامية.
(٢) الأرثوذكسية.
(٣) الإنجيلية.
(٤) اليسوعية.
(٥) السريان.

فالمدارس الإسلامية بضع عشرة مدرسة، أكبرها «الكلية العلمية» تأسست سنة ١٣٢٢ مالية (١٩٠٦)، وهي مدرسة عالية، مدة التدريس فيها عشر سنوات: ٣ ابتدائية، و٣ استعدادية، و٤ علمية، عدد طلبتها ٣٢٠، وتدرِّس اللغات العربية والتركية والفرنسية والإنكليزية، تليها مدرسة الاتحاد الوطني، وهي إعدادية، عدد طلبتها ٢٠٠، تليها مدارس تديرها الحكومة العثمانية، غير المدارس الأهلية القديمة، وعدد التلاميذ المسلمين في كل المدارس الإسلامية ٢٥٣٠ تلميذًا، و٩٤ معلمًا. والأرثوذكسيون بدأت نهضة التعليم عندهم

في النصف الثاني من القرن الماضي، ولا سيما بعد تولية مطرانهم الحالي السيد إثناسيوس عطا الله، فأصبح عندهم خمس دوائر تعليمية، منها «المدرسة العلمية» تقابل المدرسة الاستعدادية في الكلية الأميركية، لها لجنة تدير شئونها، وهناك عدة مدارس ابتدائية تنفق عليها جمعية فلسطين الروسية، والإنجيليون الأميركان لهم أربع مدارس بعضها أقدم مدارس حمص الحديثة، منها واحدة داخلية، ويقال نحو ذلك في اليسوعيين والسريان وغيرهم.

إحصاء المدارس في المملكة العثمانية

ويحسن بنا أن نختم الكلام في المدارس السورية بخلاصة إحصاء نظارة المعارف العثمانية الرسمية لهذا العام عن مدارسها في المملكة العثمانية، ويؤخذ منه أن في المملكة العثمانية نحو ٤٠٠٠ مدرسة ما بين ابتدائية ورشدية، أكثرها للذكور، وعدد المعلمين نحو ٦٠٠٠ معلم، والتلاميذ ٢٠٣٠٠٠ من الذكور، و٤٠٤٥٥ من الإناث، وأنه في كل ولاية دار معلمين ابتدائية، وفي العاصمة دار معلمين عالية، ودار معلمات للإناث، وأكثرها داخلية.

أما المدارس الإعدادية وغيرها فهي ٩٤ مدرسة، ٢٣ منها داخلية، وعدد المدارس العالية ١٧ مدرسة، فيها كليات الطب والحقوق والصنائع والتجارة، غير المدارس العسكرية الابتدائية والعالية.[٨]

(٢-٦) لغة التعليم في المدارس بمصر والشام

مر على المدارس الكبرى في سوريا ومصر عشرات من السنين، والتعليم فيها باللغة العربية، فزهت هذه اللغة وأزهرت، وهو عصرها الذهبي في هذه النهضة، ولذلك فنحن نشكو من الكلية الأميركية والكلية اليسوعية في بيروت، ومن المدارس الأميرية المصرية؛ لأنها جعلت التعليم فيها باللغات الأجنبية، وحجة أصحاب هذا التغيير قلة الكتب التعليمية في اللغة العربية، وكثرتها وإتقانها في اللغات الإفرنجية، وهو اعتراض وجيه بالنظر على التعليم بحد ذاته، لكن التعليم يراد به أيضًا شيء آخر لا يقل أهمية عن ذلك، نعني ترقية شئون الأمة، وجمع كلمتها، وإحياء آمالها، وهذا لا يكون إلا بترقية لسانها، وإحياء آدابه بتأليف الكتب العلمية والأدبية، وإنشاء الصحف والمجلات فيه، ولا يتيسر ذلك إلا إذا كان

هو قاعدة التدريس في المدارس العالية، فلو ظلت هذه المدارس كما كانت عليه في أول نهضتها لكانت اللغة العربية كما يتمناها كل محب للعرب، ولم يبقَ ما يحتجُّ به بعض الراغبين في اللغات الأجنبية من قصور التعبير عن المصطلحات العلمية.

على أن ذلك ميسور الآن بالرجوع إلى ما فعله أصحاب هذه النهضة في أوائلها، كما تراه مفصلًا في تاريخ مدرسة الطب، وما سيأتي في باب العلوم الدخيلة. ولما كانت مصر هي قلب العالم العربي، ولا حياة له إلا بها، فعليها القيام بهذه المهمة، وقد أخذت بذلك نظارة المعارف المصرية في وزارة حشمت باشا (من سنة ١٩١٠–١٩١٣)، فأرجع أكثر التعليم إلى اللغة العربية، وأخذ في إحياء آدابها بنشر الكتب العربية الهامة، ونصرة أهل الأدب، ووضع جرثومة الأكاديمية العربية بلجنة سماها لجنة الاصطلاحات العربية لوضع المصطلحات العلمية، وأنشأ لجنة لترجمة العلوم، وغير ذلك، وكان سعد باشا زغلول وزير المعارف قبله قد هَمَّ بشيء من هذا القبيل.

لكن هذه المشروعات مرتبطة بإرادة الحكومة، وهي على ما يظهر لا ترى الإصلاح يأتي من هذا الطريق.

على أن الآمال معقودة في هذا السبيل بالجامعة المصرية إذا أُحسِن استخدامها، وتعدلت طرق التعليم فيها إلى ما يلائم حاجة البلاد؛ لأنها أنشئت من أموال المحسنين من الأهلين.

هوامش

(١) تفصيل ذلك في الهلال سنة ١٥.

(٢) Artine Pacha, I’Instruction Publique en Egypte 29 وغيره.

(٣) الذهب الإبريز لرفاعة بك.

(٤) تفصيل ذلك في الهلال ٧٤ سنة ١٥.

(٥) نَصُّها في الهلال ٢٤٢ سنة ١٧.

(٦) تفصيل ذلك في الهلال ٥٦٥ سنة ٢٢.

(٧) تجد تفصيل ذلك في الهلال صفحة ٤٤٣ سنة ٢٢.

(٨) من شاء التوسع في تاريخ المدارس الحديثة في الشرق، فليطالع الهلال سنة ٩ و١٣ و١٤ و١٥ و١٩ و٢١، والمقتطف سنة ٧، وتاريخ مصر الحديث ج٢، وآداب اللغة العربية للأب شيخو، وتراجم مشاهير الشرق ج٢.

الطباعة العربية

الطباعة على الإجمال قديمة جدًّا، والمشهور أن الصينيين أقدم من طبع على الحجر أو الخشب المحفور، وهي أقدم طرق الطباعة، وعثروا في آثار بابل على قوالب بارزة الحروف، كان الكلدانيون يطبعونها على الآجر وهو لين، ويغلب أن يفعلوا ذلك فيما يريدون نشره من أوامر الحكومة، فيطبعون منه نسخًا عديدة، فالشرقيون أسبق الأمم إلى هذا الفن، وجاء في بعض الآثار ما يُستدَل منه على أن عرب الأندلس كانوا يعرفون الطباعة، لكنها طباعة على الحجر أو الخشب. وأما الطباعة بالحروف المتفرقة التي تجمع منها الكلمات على نحو ما هو شائع اليوم، فلم تكن معروفة قبل القرن الخامس عشر للميلاد، والمشهور أن صاحب هذا الاختراع غوتنبرج الألماني، وأول كتاب طُبِع فيه التوراة سنة ١٤٥٠ للميلاد، ثم شاع اختراعه هذا في أوربا، وحسنوا فيه حتى بلغ ما هو عليه الآن.

(١) الطباعة العربية في أوربا

أما الطباعة العربية بالحروف فظهرت في أوائل القرن السادس عشر بإيطاليا، وأول مطبعة عربية وأحرفها عربية ظهرت في فانو بإيطاليا بأمر البابا يوليوس الثاني، ودشنها البابا ليون العاشر سنة ١٥١٤، وأول كتاب عربي طُبِع فيها في تلك السنة كتاب ديني، ثم سفر الزبور سنة ١٥١٦، وبعد قليل طُبِع القرآن في البندقية، ثم أُعدِمت طبعته خوفًا من تأثيره على معتقدات النصارى، لكنهم طبعوا الترجمة الإيطالية الأولى للقرآن سنة ١٥٤٧،[1] وفي مكتبتنا نسخة من قانون ابن سينا مطبوعة في رومية سنة ١٥٩٣ في مجلد ضخم. وتعددت المطابع العربية في أوربا، وطُبِعت فيها مئات من الكتب العربية وغيرها،

أكثرها في لندن وباريس وليبسك وليدن وغوتنجن ورومية وفينا وبرلين وبطرسبرج وغيرها، وقد جاء ذكرها مرارًا فيما مر من هذا الكتاب، وإليك تاريخ الطباعة العربية في الشرق.

(٢) الطباعة في الأستانة

أما في الشرق فأسبق الأمم إلى الطباعة العربية السوريون؛ لأنهم أقدم من طبع الكتب العربية بالأحرف العربية في أوائل القرن الثامن عشر كما سيجيء، أما الطباعة من حيث الفن، فأسبق مدائن الشرق إلى إحرازها الأستانة؛ لأن الطباعة وُجِدت فيها في أوائل القرن السادس عشر، وقد طُبِعت فيها التوراة العربية ترجمة سعيد الفيومي سنة ١٥٥١ بالأحرف العبرانية. أما الطباعة بالأحرف العربية، فلم تدخل الأستانة إلا في الثلث الأول من القرن الثامن عشر، وأول من فكَّر في ذلك محمد چلبي، وابنه سعيد.

وكان محمد چلبي هذا سفيرًا للدولة العثمانية في باريس، ومعه ابنه سعيد (صار بعد ذلك صدرًا أعظم)، فشاهد فوائد الطباعة، ولما عاد إلى الأستانة أراد أن ينقل هذا الفن إليها، فخابر إبراهيم آغا المجري أحد علماء الرياضيات، وكانت له منزلة عند أولي الحل والعقد، فوافقه عليه، لكنه اشترط وجود المال والحصول على الفتوى بجواز الطبع، وكان قد فكر في ذلك بعض الأدباء قبله ولم يجرءوا عليه، فرفع سعيد أمره إلى إبراهيم باشا صهر السلطان، والتمس الرخصة بطبع كتب الحكمة واللغة والتاريخ والطب والفلك وسائر الفنون ما عدا كتب الدين الإسلامي، فتردد وكلاء الدولة في إجابة طلبه، فأصر على الالتماس، وساعده الصدر الأعظم إبراهيم باشا، وفي سنة ١٧١٦ / ١١٢٩هـ أفتى شيخ الإسلام عبد الله أفندي بجواز ذلك، فصدر الفرمان موقَّعًا بالخط الشريف موجَّهًا إلى سعيد أفندي وإبراهيم أفندي بالإذن لهما في طبع الكتب غير الدينية، فأخذ الرجلان في سبك الحروف وتعيين المصححين، وشرعوا في الطبع سنة ١٧٢٨ / ١١٤١هـ، فطبعوا كتبًا هامة في اللغة والأدب والتاريخ بالعربية والتركية والفارسية، ثم استصدروا فتوى بطبع كتب الدين استنادًا على أن «الأمور بمقاصدها»، وبناء على هذه القضية أيضًا أذنوا بتجليد القرآن.[٢]

ثم أنشئت مطابع أخرى في الأستانة طبعت كتبًا عربية، ومن أشهر مطابع الأستانة مطبعة الجوائب لأحمد فارس الشدياق، تأسست في أواسط القرن الماضي، ونشرت عشرات من الكتب العربية الهامة، فضلًا عن جريدة الجوائب.

(٣) الطباعة في سوريا

قد تقدَّم أن السوريين أسبق المشارقة إلى الطبع بالأحرف العربية، وأسبق مدائنها إلى هذا الفضل حلب؛ فقد ظهرت الطباعة فيها في أوائل القرن الثامن عشر، وطُبِع أول كتاب في العقد الأول من القرن المذكور، وقد كتب إلينا جورج بك خياط المحامي في حلب أن عنده نسخة من كتاب طقسي كنسي مطبوع في حلب باليونانية والعربية سنة ١٧٠٢، ثم طبع الإنجيل فيها سنة ١٧٠٦، قال: «وقد صنع أمهات هذه الطبعة العربية واليونانية الشماس عبد الله زاخر الحلبي، وكان صائغًا ماهرًا يحب الأدب والعلم»، وجاء في المشرق (ص٦٩١ سنة ٧) «أن الفضل الأول في إنشاء هذه المطبعة للبطريرك إثناسيوس الرابع، فإنه استجلب أدواتها من بلاد الفلاخ التي دخلها سنة ١٦٩٨، فلما عاد إلى حلب سعى في سكب حروف جديدة»، فلعله استخدم عبد الله زاخر لهذه الغاية.

ثم ظهرت المطابع في لبنان، ومن أقدم مطابعه مطبعة قزحيا، وكانت أحرفها سريانية ثم صارت عربية، وأكثر مطبوعاتها دينية، ومطبعة الشوير أسسها عبد الله زاخر المتقدم ذكره، طبع فيها المزامير سنة ١٧٣٣، وأكثر مطبوعاتها من كتب الدين.

ثم ظهرت الطباعة في بيروت بأواسط القرن الثامن عشر، وأقدم مطابعها مطبعة القديس جاورجيوس للروم الأرثوذكس، أنشئت سنة ١٧٥٣ بسعي الشيخ نقولا يونس الجبيلي المعروف بأبي عسكر، وقد طبعت كثيرًا من كتب الأدب والتاريخ، وقد أبطلت الآن.

تليها المطبعة الأميركية للمرسلين الأميركان، أُنشِئت في مالطة سنة ١٨٢٢، ثم نُقِلت إلى بيروت سنة ١٨٣٤، ولا تزال عامرة، وفيها طُبِعت الكتب العلمية والطبية والرياضية، وغيرها مما أَلَّفه أو ترجمه أساتذة المدرسة الكلية لتعليم طلبتها، وطبعت بعض كتب الأدب والشعر والتاريخ، فضلًا عن التوراة وكتب الدين، ولها قاعدة للحروف العربية خاصة بها تُعرَف بالقاعدة الأميركية اصطنعها المرسلون الأميركان.

ثم المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، تأسست سنة ١٨٤٨، وكانت تطبع على الحجر، ثم صارت تطبع على الحروف سنة ١٨٥٤، ولا تزال عامرة، ولها فضل كبير في نشر كتب الأدب والتاريخ واللغة العربية، فضلًا عن الكتب المدرسية والدينية، ولا سيما التوراة ترجمة الآباء اليسوعيين، وهي أكبر المطابع العربية في سوريا وأتقنها، وفيها حروف عربية وإفرنجية ويونانية وسريانية وعبرانية وأرمنية، وقد صنعت قواعد للحروف العربية خاصة بها.

وبعدها المطبعة السورية للمرحوم خليل الخوري صاحب حديقة الأخبار، أنشئت سنة ١٨٥٧، وقد نشرت كتبًا قانونية وأدبية وتاريخية، تليها مطبعة المعارف للبستاني سنة ١٨٦٧ نشرت محيط المحيط، ودائرة المعارف والجنان والجنة، ومطبعة ثمرات الفنون، وقد أُقفِلتا الآن. والمطبعة الأدبية لخليل سركيس أنشئت سنة ١٨٧٤، نعني مطبعة لسان الحال، ولا تزال عامرة تطبع الصحف والكتب، وفيها مسبك حروف تعرف حروفه باسم سركيس، صنع قاعدتها الشيخ إبراهيم اليازجي، وهي القاعدة الشائعة اليوم في سوريا ومصر تُطبَع بها أكثر الصحف والكتب.

ويضيق المقام عن تعداد المطابع التي ظهرت في بيروت، وغيرها من المدائن السورية في أواخر القرن الماضي، وأوائل هذا القرن على أثر إعلان الدستور، فإنها تعد بالعشرات، وبينها مطابع كبرى عامرة، وإنما غرضنا بيان كيفية نشوء الطباعة العربية في سوريا.

(٤) الطباعة في مصر

(٤-١) مطبعة بونابرت

أقدم مطبعة ظهرت بمصر مطبعة الحملة الفرنساوية، جاء بها بونابرت معه سنة ١٧٩٨ لطبع المنشورات والأوامر بالعربية، وقد بدءوا بذلك وهم على سفنهم في عرض البحر، وحالما وطئت أقدامهم الإسكندرية وزَّعوا تلك المنشورات على المصريين، وقد سموها «المطبعة الأهلية»، ومديرها مارسل المستشرق الفرنساوي، ومعه بودوان وثلاثة مصححين، و٢٨ عاملًا في جملتهم عدة مترجمين منهم اثنان أتى بهما من رومية، هما: إلياس فتح الله، ويوسف مسابكي، وفيها ثلاثة مكابس وأحرف عربية وإفرنجية ويونانية، فحملت تلك المطبعة حالًا على القاهرة، وما زالت عاملة إلى يونيو سنة ١٨٠١ حين انسحاب الفرنساويين من مصر، وأكثر ما طبعوه في هذه المطبعة منشورات كانت توزَّع على الأهلين، نشرنا أمثلة منها في تاريخ مصر الحديث بعبارتها الركيكة، وطبعوه أيضًا كتاب هجاء عربي وتركي وفارسي، وجريدتين فرنساويتين «كوريه ديجيبت»، و«دكاد إجبسيان»، والأوراق المتعلقة بقضية سليمان الحلبي، ونشرة «التنبيه» التي تقدم ذكرها، وغير ذلك.



مارسل مدير مطبعة بونابرت.

(٤-٢) الطباعة في عهد الدولة المحمدية العلوية

المطابع الأميرية (مطبعة بولاق)

ظلت مصر بعد خروج الفرنساويين عشرين سنة بلا مطبعة، حتى استقر الأمر لمحمد علي فأنشأ «المطبعة الأهلية» سنة ١٨٢١، وتُعرَف بمطبعة بولاق؛ لأنها وُضِعت أخيرًا في بولاق، أنشأها محمد علي على أنقاض مطبعة بونابرت، وعهد بإدارتها إلى نقولا مسابكي السوري، وكان قد أتقن الطباعة في رومية؛ لأنه سافر إليها سنة ١٨١٥، قال الموسيو بيانكي البحاثة في هذا الموضوع:

> أقام (مسابكي) في ميلانو أربع سنوات، ليس للوقوف على فروع فن الطباعة، ولكن لصنع أمهات الحروف وسبكها. ولما رجع لمصر اشتغل أولًا في جمع طاقم من الحروف العربية والتركية، وفي تدريب العمال، وكان الباشا قد أمر

بتعليم بعض شبان المسلمين بالأزهر إتقان قراءة اللغتين العربية والتركية بسرعة وضبط، فقضوا بذلك ست سنوات، وكانوا من المتفقهين، فعُيِّنوا بعدئذٍ من المحرِّرين بالمطبعة.

وجاءوا من ميلانو بثلاثة مكابس مثل مكابس المطبعة الملوكية، وكانوا يستحضرون الورق والحبر من إيطاليا عن طريق ليفورن، ثم أخذوا يصنعون الحبر في القاهرة، وكان بالمطبعة حروف إيطالية ويونانية مصنوعة في ميلانو فضلًا عن العربية والتركية، وكانت أشكال الحروف العربية ثلاثة، والإيطالية اثنين، وعدد الصفيفة الأتراك ١٢ ليس بينهم إلا واحد للشكل الإيطالي، وآخر لليوناني، ورئيس العمال ألماني، أما مدير المطبعة فهو نقولا مسابكي، وكانوا يطبعون الأشغال الخاصة بمصالح الحكومة، وطبعوا أيضًا رسالة التعليم الحربي للجنود المقيمين بالوجه القبلي المراد تدريبهم على النظام الحديث باللغة التركية؛ لأن الضباط كانوا من العثمانيين.

ثم طبعوا أجرومية باللغة العربية الفصحى لأحد العلماء بالقاهرة، ورسالة الفنون الحربية مترجمة عن الفرنسية إلى التركية بقلم شاني زاده، وكتاب في الصباغة تُرجِم من الإيطالية، وقاموس إيطالي عربي، وهو أول ما طُبِع ببولاق سنة ١٨٢٢، وسيرة الإسكندر الأكبر مترجمة من اليونانية إلى التركية ا.هـ.

واطَّلعنا في مكتبة محمد بك آصف بمصر على كتاب في صباغة الحرير تأليف ماكيرو، طُبِع بالفرنساوية في باريس سنة ١٨٠٨، وقد عرَّبه القس روفائيل راهب، وطُبِع في بولاق سنة ١٨٢٢ / ١٢٣٨هـ، وفي آخره تاريخ الطبع بحساب الجمل في شطر هذا نصه: «بمطبعة يكتب للوزير» (١٢٣٨هـ)

وظل مسابكي هذا مديرًا للمطبعة الأهلية حتى تُوفِّي سنة ١٨٣٠، وقد أعانه في العمل أربعة من خريجي الأزهر رؤساء للعمال، وهم المشايخ: عبد الباقي رئيس المسبك، ومحمد أبو عبد الله رئيس الطباعين، ويوسف الصنفي، ومحمد شحاتة رئيسَا الصفيفة، وبعد وفاة المسابكي تولى إدارة المطبعة غيره وغيره[٣] أقدمهم سقا زاده عثمان نور الدين بك أول مفتشيها، وآخرهم الموسيو تريلوني ناظرها الحالي، أما أشهرهم وأكثرهم عملًا فحسين حسني باشا، وكان من نوابغ الرجال، له اطِّلاع على الرياضيات والميكانيكيات، وكان مصححًا وكاتبًا بالتركية في الوقائع المصرية سنة ١٨٥١ / ١٢٦٨هـ، ثم نُقِل إلى

مطبعة بولاق، وترقى فيها حتى صار ناظرًا لها سنة ١٨٨٠، وله فضل في استجلاب معمل الورق لمصر، وهو آخر من تولى إدارة المطبعة من الوطنيين، ثم انتقلت الإدارة إلى الموسيو بانجه سنة ١٨٨٥، وهو أول من تولاها من الإفرنج.

قضت هذه المطبعة نيفًا وتسعين سنة وهي عاملة على الطبع والنشر، لم تتعطل إلا بضع سنين في الفترة بين محمد علي وإسماعيل، وقد طبعت مئات من أهم الكتب العربية في الطب والرياضيات والطبيعيات والحربية والتاريخ والأدب والشعر والتفسير والحديث وسائر العلوم، بينها كتب تركية وفارسية وإفرنجية، ولا تزال عاملة، وفيها تطبع الحكومة أوامرها ومنشوراتها وسائر مطبوعاتها، وهي أكبر مطبعة عربية في العالم؛ لأنها عبارة عن إدارة كبيرة تقسم إلى عدة ورش أو معامل للطبع والسبك والحفر والتجليد وغير ذلك.

ففي المطبعة الآن ٣٩ آلة للطباعة، تختلف حجمًا وقوة بين ما يدور ٧٠٠ دورة في الساعة إلى ٤٠٠٠ دورة، ومنها آلة لطبع الظروف تدور ٦٠٠٠ دورة، وفي المسبك ٣٣ آلة بين مكابس وقوالب وأفران لسبك الحروف، ونقش الصور أو الرسوم، وصنع الأمهات، غير ورشة خاصة لصب الملازم (الفرم)، أي جعل الصحائف قطعة واحدة لما يراد أن يطبع منه مقادير كبيرة. وفي معمل التجليد ٦٨ آلة بين مكابس، وعُدَد للقص والتخريم والتوضيب والحبك والحزم والخياطة والتذهيب والتصميغ والدهان والكبس وغيرها، ومعمل جمع الحروف قسمان: أحدهما للحروف العربية، والآخر للإفرنجية، وفيه أتقنُ العُدَد على آخِر طرز، منها ما يشتغل باليد، ومنها بالآلات، وجميع هذه العُدَد تدور بالكهربائية بواسطة أربعة وابورات، قوتها جميعًا ١٤٠ حصانًا، ولإدارة هذه الوابورات معمل قائم بنفسه يتبعه أماكن للبرادة والحدادة والنجارة، وهذه كلها في القسم الفني من المطبعة.

أما قسم الإدارة فإنه مؤلَّف من عدة مكاتب للإدارة والنشر والحسابات وغيرها، وفي مطبعة بولاق ٦٠٠ عامل، منهم مئة موظف داخل الهيئة، و٥٠٠ عامل بالأجرة اليومية، وتقسم مطبوعاتها إلى أميرية وغير أميرية، وقد صدر منها ما لا يُحصَى من الكتب الهامة.

وكان في طُرَا بجوار القاهرة مطبعة اسمها مطبعة الطوبجية، رأينا كتابًا مطبوعًا فيها سنة ١٨٣٤ / ١٢٥٠هـ، وهي مطبعة أميرية أيضًا، غير مطبعة أبي زعبل المتقدم ذكرها، وسائر ما أنشأه محمد علي من مطابع الحجر وغيرها؛ تلبية للحاجة في الجيش وغيره.



حسين حسني باشا.



بانجه بك.

المطابع غير الأميرية

ظلت مصر وليس فيها غير مطبعة بولاق وغيرها من المطابع الأميرية نحو أربعين سنة، لم يقدم في أثنائها أحد على إنشاء مطبعة غير أميرية، وأول مَن تصدَّى لذلك الأنبا كيرلس الرابع بطريرك الأقباط ورافع لواء الإصلاح القبطي المتوفى سنة ١٨٦١، فقد كان من الراغبين في المدنية الحديثة، وكان من جملة مساعيه في هذا السبيل إنشاء المطبعة، فكلَّف روفائيل عبيد السوري (صاحب المدرسة العبيدية) أن يستحضرها له من أوربا، واختار أربعة من شبان الأقباط استأذن سعيد باشا والي مصر يومئذٍ أن يسمح بقبولهم في مطبعة بولاق ليتعلموا فن الطباعة، فوصلت المطبعة سنة ١٨٦٠ واحتفل هذا البطريرك باستقبالها عند وصولها استقبالاً مشى فيه المشامسة بالشموع وتحدَّث الناس به مدة،

وسماها المطبعة الأهلية القبطية، وتولى إدارتها بعده رزق بك جرجس، وطبع فيها كتبًا دينية وأدبية، ثم انتقلت إلى أخيه إبراهيم جرجس، وعُرِفت بمطبعة الوطن، ولا تزال باقية.

ثم أنشئت مطابع أهلية لم نقف على تاريخها، أقدمُها مطبعة وادي النيل سنة ١٨٦٦ / ١٢٨٣هـ، كانت تطبع فيها صحيفة وادي النيل لصاحبها أبي السعود أفندي، وطُبِعت فيها أيضًا نشرة أركان حرب الجيش المصري، ومجلة روضة المدارس، وتكاثرت المطابع في زمن إسماعيل، ومن أقدمها مطبعة جمعية المعارف الآتي ذكرها بين الجمعيات.

وتعددت المطابع على الخصوص في عهد الخديوي الحالي، ولا سيما في أوائل هذا القرن على أثر إطلاق حرية المطبوعات، حتى أصبحت المطابع لا تُعَدُّ ولا تحصى، وأكثرها أنشئت لطبع الصحف السياسية أو العلمية، وقليل بينها لطبع الكتب على نفقتها، على أن جانبًا منها أنشئ للاتجار بطبع الكتب القديمة في العلوم الرائجة، وأكثر طبعاتها رخيصة.

وانتشرت الطباعة في سائر أنحاء القطر بانتشار الصحافة، فمنها مطابع الآن في الإسكندرية وبورسعيد وطنطا وأسيوط والمنصورة وغيرها يضيق المقام عن ذكرها؛ لأننا إنما أردنا أن نبيِّن كيف نشأت الطباعة بمصر.

الطباعة العربية في سائر العالم الإسلامي

وأنشئت مطابع عربية كثيرة لخدمة آداب اللغة العربية في الهند، طبعت كثيرًا من الكتب العربية الهامة، أشهرها مطابع كلكتة وبمباي ودهلي ولاهور وكمبور ولكناو وحيدر آباد الدكن وغيرها، ترجع في تاريخ إنشائها إلى أواخر القرن الثامن عشر، ثم المطابع في بلاد فارس وسائر العالم الإسلامي.[٤]

هوامش

(١) Matériaux pour l’histoire des études orientales.

(٢) تاريخ جودت ٨٢ ج١.

(٣) تجد تفصيل تاريخ هذه المطبعة لتوفيق إسكاروس، نشر في الهلال سنة ٢٢، وفيه قائمة بأسماء نظار هذه المطبعة.

(٤) ومن أراد التوسع في تاريخ الطباعة العربية فليراجع الهلال سنة ٩ و٢٢، والمشرق سنة ٣ و٤، والمقتطف سنة ٧، وتاريخ جودت ج١.

الصحافة العربية

أسبق الأمم إلى الصحافة الصينيون، ذكروا أنهم نشروا جريدة سنة ٩١١ قبل الميلاد، لعلها من قبيل منشورات الحكومة، وكان للرومان صحيفة يومية تصدر على عهد يوليوس قيصر في القرن الأول قبل الميلاد سموها «الأعمال اليومية» Acta Duria، كانوا ينشرون فيها أعمال الحكومة والأخبار الهامة، ويقال إنها أنشئت سنة ٦٩١ قبل الميلاد، ولعل بعض الدول الأخرى كانت تفعل مثل ذلك، أما الصحافة الحديثة فنشأت في ألمانيا بأواسط القرن الخامس عشر على أثر اختراع الطباعة، ولم تتكيف بشكلها المعروف إلا في البندقية، فصدرت أول صحيفة منها سنة ١٥٣٦ دعوها غازتة Gazetta باسم النقد الذي كانت تباع به، ثم صدرت الصحف الإنكليزية سنة ١٦٢٢، والفرنساوية سنة ١٦٣١، وهكذا في سائر مدائن أوربا.

الصحافة في مصر

أما الشرق العربي فالصحافة لم تظهر فيه إلا بعد دخول القرن التاسع عشر، ومصر سبقت سواها فيها، ولسهولة فهم الموضوع نقسم الصحافة العربية إلى أربعة أطوار:

(١) تأسيسها في زمن محمد علي.
(٢) تاريخها بين محمد علي وإسماعيل.
(٣) تاريخها في زمن إسماعيل إلى الاحتلال الإنكليزي.
(٤) تاريخها في عهد الاحتلال.

(١) تأسيس الصحافة العربية في زمن محمد علي

(١-١) الوقائع المصرية أنشئت سنة ١٨٢٨

الصحافة من جملة جراثيم المدنية الحديثة التي ألقاها الفرنساويون بمصر في آخر القرن الثامن عشر، فأنشئوا في أثناء إقامتهم بمصر (١٧٩٨–١٨٠١) جريدتين فرنساويتين هما Décade Egyptienne (دكاد أجبسيان) وCourrier D'Egypte (كوريه ديجيبت) ذهبتا بذهاب تلك الحملة، وفي المكتبة الخديوية أمثلة منهما.

وقد قلنا في كلامنا عن مجيء الفرنساويين إلى مصر أنهم أنشئوا فيها ديوانًا للقضايا كان يصدر صحيفة اسمها «التنبيه» ينشرون فيها ما يجرى فيه، ويفرقونها على العمال، وكان يحررها السيد إسماعيل الخشاب، فهي كالصحيفة العسكرية أو القضائية، لكن المقرر أن «الوقائع المصرية» أول صحيفة عربية عامة صدرت في هذه النهضة، أنشأها محمد علي باشا سنة ١٨٢٨، وكانت تصدر أولًا بالتركية، ثم بالعربية والتركية، وأخيرًا صارت تصدر بالعربية فقط ولا تزال، وكان صدورها غير منتظم فنظمه إسماعيل باشا، وقد تولى تحريرها جماعة من نخبة الأدباء والكتاب الذين نبغوا في أثناء هذه النهضة، منهم الشيخ حسن العطار صديق السيد إسماعيل الخشاب محرر «التنبيه»، ولعله كان يساعده في تحريره، فتمرن على هذه الصناعة، ومنهم الشيخ أحمد فارس الشدياق، والسيد شهاب الدين صاحب السفينة، والشيخ أحمد عبد الرحيم، والشيخ محمد عبده، والشيخ عبد الكريم سلمان، وغيرهم، وهي تصدر الآن ثلاث مرات في الأسبوع، وتكاد تكون قاصرة على الأخبار الرسمية.

(١-٢) المبشر

ويلي الوقائع المصرية في القدم جريدة «المبشر» التي أصدرتها الحكومة الفرنساوية في الجزائر سنة ١٨٤٧ في العربية والفرنساوية، وهي أيضًا رسمية كانت تصدر مرتين في الشهر بحجم صغير وعبارة ركيكة، ثم تحسنت وتولى تحريرها نخبة من كتاب البلاد، ولا تزال تصدر إلى الآن.

(٢) الصحافة العربية بين محمد علي وإسماعيل من سنة ١٨٤٩–١٨٦٣

يظهر أن مصر بعد أن وضعت أساس الصحافة العربية استراحت فترة من الزمن لم تحرك فيها ساكنًا، لانتقال أَزِمَّة الأمور بعد محمد علي إلى واليين (عباس وسعيد) لم يكن لهما رغبة في الأدب، فلم تصدر في أثناء حكمهما (١٨٤٩–١٨٦٣) جريدة ولا مجلة في وادي النيل، على أن روح الصحافة لم تكن تمكنت من نفوس الأمة العربية، والجريدة التي صدرت في عهد محمد علي إنما اهتمت بها الحكومة للأمور الرسمية.

(٢-١) الصحافة العربية في سوريا

وتحولت مهمة الصحافة في أثناء تلك الفترة إلى سوريا، فأخذت على عاتقها إتمام هذا العمل عن شقيقتها مصر، وقد رأيت أن نهضة سوريا العلمية كان العامل الأكبر فيها جماعة المبشرين الأجانب، ولذلك كانت أقدم الصحف عندهم دينية، كما كانت أقدم الصحف المصرية رسمية أميرية؛ لأن الحكومة هي التي قامت بنهضة هذا القطر.

على أن الصحف الدينية السورية المشار إليها كانت تصدر أولًا في مواقيت غير معينة، أو في فترات متباعدة، وأسبق الجماعات الدينية إلى ذلك المرسلون الأميركان، مثل سبقهم في تأسيس الجمعيات وإنشاء الكليات، فأصدروا سنة ١٨٥١ نشرة أو مجلة دينية بقلم القس عالي سميث هي أشبه بالتقاويم أو المناشير منها بالصحف، تشتمل على أبحاث دينية وعلمية وجغرافية، كانت تصدر مرة في السنة، ثم مرة كل أربعة أشهر، واحتجبت سنة ١٨٥٥، وفعل المرسلون الآخرون مثل ذلك، ثم أصدر المرسلون الأميركان بعد عشر سنين نشرة سموها النشرة الشهرية سنة ١٨٦٦، ثم حولوها إلى أسبوعية سنة ١٨٧١، ولا تزال تصدر حتى الآن.

(٢-٢) تأسيس الصحافة العربية السياسية

مرآة الأحوال سنة ١٨٥٥

أما الصحف السياسية العمومية غير الرسمية فالسوريون سبقوا إليها لاضطراب جو السياسة في بلادهم يومئذٍ، يكفيك من ذلك حرب القرم سنة ١٨٥٤، وما جرت وراءها من الذيول، غير حوادث الشام سنة ١٨٦٠، وما تقدمها من الفتن اللبنانية بعد خروج

الجنود المصرية من سوريا، والسوريون عقولهم متحركة، وفيهم نشاط وهمة وميل فطري إلى الأدب، فالفتن والحروب حركت الضغائن المؤسسة على المسألة الشرقية، وتداخلت الدول الإفرنجية في شئون الدولة العثمانية، فتحركت أقلامهم فصدرت أول جريدة عربية سياسية غير رسمية في أثناء حرب القرم بالأستانة سنة ١٨٥٥، أصدرها رزق الله حسون الحلبي، وسماها «مرآة الأحوال» لم يزد عمرها على سنة إلا قليلًا، وكانت خطتها ضد الأتراك، ولهجتها في الطعن شديدة، فقررت الحكومة القبض على صاحبها ففر إلى روسيا، فالحلبيون أسبق الشرقيين إلى إنشاء الصحف السياسية العربية.

حديقة الأخبار سنة ١٨٥٨

ثم صدرت حديقة الأخبار في بيروت سنة ١٨٥٨ لصاحبها خليل الخوري، وهي أول جريدة عربية صدرت في المملكة العثمانية خارج الأستانة، وكان في عزمه أن يجعلها عمومية وسماها «الفجر المنير»، ثم عدل عنه إلى حديقة الأخبار، وبعد سنتين من صدورها جرت حوادث سوريا سنة ١٨٦٠، وجاء فؤاد باشا مندوبًا لتسوية مسائلها، فاقترح على خليل الخوري أن يجعل جريدته شبه رسمية، وعينت له الحكومة راتبًا شهريًّا ريثما ظهرت جريدة «سوريا» الرسمية، وجعل فرنكو باشا حاكم لبنان يومئذٍ جريدة حديقة الأخبار رسمية للبنان مدة، ولم يطل دفع الرواتب له، لكنه ما زال يصدرها إلى وفاته سنة ١٩٠٧، وصدرت بعده إلى سنة ١٩٠٩.

عطارد وبرجيس سنة ١٨٥٨

والظاهر أن صدور حديقة الأخبار أثار الغيرة في رجال الأدب السوريين للاقتداء به، فظهرت في سنة ١٨٥٨ نفسها جريدتان عربيتان خارج المملكة العثمانية، إحداهما اسمها «عطارد» ظهرت في مرسيليا لم يطل بقاؤها، والثانية «برجيس باريس»، أصدرها الكونت رشيد الدحداح اللبناني في باريس، وعني بإتقان طبعها ونشرها، وبعد أربع سنوات عهد بأمرها إلى سليمان الحرائري التونسي، وتوقفت في سنتها الخامسة.

الجوائب ونفير سوريا سنة ١٨٦٠

وخطت الصحافة العربية خطوة مهمة سنة ١٨٦٠ بظهور «الجوائب» في الأستانة لصاحبها أحمد فارس الشدياق أحد أركان النهضة العربية الأخيرة، وكان للجوائب شأن عظيم عند أدباء العرب، ونفوذ لدى ولاة الأمر بالأستانة وغيرها، وكانت ميدانًا لأقلام أدباء ذلك العصر للمناظرة والمناضلة، وما زالت تصدر إلى سنة ١٨٨٤، وفي سنة ١٨٦٠ صدر «نفير سوريا» للبستاني للتقريب بين العناصر على أثر حروب تلك السنة، ولم يطل ظهوره.

جرائد أخرى

وبعد صدور الجوائب بسنة صدر «الرائد التونسي»، وهو جريدة رسمية لتونس صدرت سنة ١٨٦١ ولا تزال. وتوالى ظهور الجرائد بعد ذلك في سوريا والمغرب، وأكثرها رسمي مثل «سوريا» صدرت سنة ١٨٦٥ في دمشق، و«الفرات» في حلب سنة ١٨٦٧ بإشارة جودة باشا، وجريدة «لبنان» أصدرها داود باشا حاكم لبنان سنة ١٨٦٧، و«الزوراء» أصدرها مدحت باشا في بغداد سنة ١٨٦٨، وفي تلك الأثناء وُضِعت كلمة «الجريدة» للدلالة على الصحف المنشورة، وكانت تُطلَق على الجرائد والمجلات، وكانوا يسمونها قبل ذلك الصحيفة، أو النشرة، أو الورقة الخبرية، أو الوقائع، أو غير ذلك، ثم وُضِع لفظ المجلة للصحف العلمية والأدبية.

(٣) الصحافة العربية من عهد إسماعيل إلى الاحتلال من سنة ١٨٦٣–١٨٨٢

قد ذكرنا ما كان من رغبة إسماعيل في المدنية الإفرنجية، ومطامعه في الاستقلال، فرأى نحو ما رآه جده محمد علي من إحياء آداب اللغة العربية والجامعة العربية، فنشَّط الصحافة، وقرَّب الأدباء والعلماء في سائر الأمصار العربية، فتقاطر السوريون في أيامه إلى مصر، وأخذوا بإنشاء الصحف في سوريا وخارجها، فسهَّل عليهم إسماعيل الاشتغال بها في مصر.

ورغب المصريون أنفسهم بالصحافة في زمن إسماعيل بعد أن أغفلوها في الفترة بينه وبين محمد علي، وأقدم صحيفة مصرية صدرت بعد الوقائع المصرية «اليعسوب»، وهي مجلة شهرية صدرت سنة ١٨٦٥ لمنشئيها محمد علي باشا الحكيم، وإبراهيم الدسوقي،

وهي أول مجلة طبية صدرت في اللغة العربية، ولم تعِشْ طويلًا، ومنها أمثلة في المكتبة الخديوية.

أما الصحف السياسية غير الرسمية فأولها بمصر «وادي النيل»، أنشأها أبو السعود أفندي سنة ١٨٦٦، كانت تصدر بالقاهرة مرتين في الأسبوع في حجم الهلال تقريبًا، وهي سياسية أدبية علمية، وتعطلت بعد وفاة صاحبها سنة ١٨٧٨، تليها جريدة «نزهة الأفكار» وهي أسبوعية ظهرت في القاهرة سنة ١٨٦٩ لإبراهيم المويلحي ومحمد عثمان جلال، لم يصدر منها إلا عددان، فألغاها إسماعيل؛ خوفًا من لهجتها.

وفي السنة التالية (١٨٧٠) صدرت مجلة «روضة المدارس» كانت تُطبَع في مطبعة وادي النيل، فقرَّظها وادي النيل تقريظًا طويلًا، ولم يكن يصدر في مصر سواهما والوقائع المصرية، وكانت روضة المدارس مجلة علمية أدبية، يحررها نخبة من العلماء والأدباء اشتهروا بعد ذلك في عالم الأدب، منهم عبد الله باشا فكري، وإسماعيل باشا الفلكي، وبدر بك الحكيم، وعلي باشا مبارك، ورفاعة بك، وقدري بك، كان كل منهم ينشر فيها مقالات متسلسلة في موضوع كالكتاب المستقل، وظلت روضة المدارس تصدر بضع سنوات.

(٣-١) الصحافة القبطية

كل ما تقدم ذكره من الصحف المصرية أصحابها من المسلمين كما رأيت، ثم تصدى الأقباط لمجاراتهم في الصحافة، فصدرت جريدة «الوطن» أصدرها بمصر مخائيل أفندي عبد السيد سنة ١٨٧٧، وهي أقدم الجرائد القبطية، توقفت حينًا بعد الاحتلال، ثم عادت إلى الظهور سنة ١٩٠٠، وصاحبها الآن جندي بك إبراهيم، وقد توفي مؤسسها مخائيل عبد السيد سنة ١٩١٤، ثم صدرت صحف قبطية لم يبقَ منها حيًّا في الصحافة اليومية إلا الوطن ومصر، وقد صدرت هذه سنة ١٨٩٥ لتادرس بك شنودة المنقبادي.

(٣-٢) الصحافة السورية في زمن إسماعيل

أولًا: في سوريا

وكانت سنة ١٨٧٠ مخصبة بالصحف السياسية والعلمية في سوريا، فصدرت فيها «الزهرة» ليوسف الشلفون وقد تعطلت، وجريدة «البشير» للآباء اليسوعيين ولا تزال،

و«الجنة» لبطرس البستاني، و«الجنان» له، وهي مجلة علمية سياسية عاشت طويلًا، وكان لها تأثير في هذه النهضة مثل أكثر آثار البستاني، وفي تلك السنة صدرت مجلة «النحلة» للقس لويس الصابونجي، وكانت شديدة اللهجة في الجدال، وكل هذه الجرائد تعطلت الآن.

وفي السنة التالية (١٨٧١) صدرت جريدة «كوكب الصبح المنير» للأميركان، و«الجنينة» للبستاني، و«النجاح» للصابونجي والشلفون، وفي سنة ١٨٧٤ صدرت جريدة «التقدم» بعد إلغاء النجاح ليوسف الشلفون، وكان لها تاريخ طويل تقلبت فيه على أطوار شتى ثم توقفت.[١]

ثمرات الفنون — أول جريدة أهلية إسلامية في سوريا

كل ما تقدم ذكره من الجرائد والمجلات السورية لكتاب من المسيحيين، ولم تصدر جريدة إسلامية في سوريا قبل سنة ١٨٨٥، نعني «ثمرات الفنون»، أنشأتها جمعية الفنون برئاسة الحاج سعد الدين حمادة، وفوضت إدارتها إلى صاحب امتيازها السيد عبد القادر القباني، وهي أول جريدة إسلامية غير رسمية صدرت في سوريا، وذكر صاحب الصحافة العربية أنها كانت في أول عهدها شركة مساهمة، فهي لذلك أول جريدة عربية قامت بها شركة، على أن تلك الشركة لم يطل بقاؤها، فظلت الجريدة تصدر بإدارة صاحب امتيازها إلى سنة ١٩٠٨ فتوقفت. ثم توالى ظهور الجرائد الإسلامية بعدها، ولا سيما في أوائل هذا القرن.

وصدرت جرائد عديدة في سوريا في أواخر زمن إسماعيل، أشهرها وأبقاها «لسان الحال» صدرت سنة ١٨٧٧ لصاحبه خليل سركيس، ولا يزال يصدر، وفي سنة ١٨٨٠ صدر «المصباح» لنقولا نقاش، ومر على المصباح أحوال مختلفة حتى تعطل سنة ١٩٠٨.

ثانيًا: الصحافة السورية بمصر في زمن إسماعيل

قلنا إن إسماعيل كان يقرب الأدباء من كل الطوائف، وفيه ميل إلى الشهرة السياسية، وكان السوريون قد عانوا الصحافة السياسية، وسمعوا برغبة إسماعيل في الأدب وأهله، وهم يعرفون مصر وخصبها وتوفر أسباب الرزق فيها، فجاء إليها طائفة من الأدباء والشعراء والكتاب أشهرهم آل تقلا، وأديب إسحق، وسليم نقاش، وغيرهم، وكان أكثر

مقامهم في الإسكندرية، وما برحت تعد عاصمة ثانية للقطر المصري إلى ذلك العهد، فاشتغل بعضهم بالصحافة هناك.

وأقدم الصحف السورية المصرية جريدة «الكوكب الشرقي» للمرحوم سليم باشا حموي، صدرت في الإسكندرية سنة ١٨٧٣، ولم يطل بقاؤها.

ثم صدرت «الأهرام» لسليم وبشارة تقلا سنة ١٨٧٦، ونالت حظًّا وافرًا من الرواج والنفوذ، ثم نُقِلت إلى القاهرة وهي تصدر الآن بإدارة جبرائيل بك بن بشارة تقلا باشا، وقد أدركت السنة الثامنة والثلاثين من عمرها.

ثم صدرت جريدة «المحروسة» لصاحبيها أديب إسحق، وسليم نقاش سنة ١٨٨٠ بالإسكندرية، وتقلبت عليها أحوال شتى وانتقلت من يد إلى يد، وهي الآن لصاحبها إلياس زيادة، وتصدر يومية في القاهرة. وصدر من الجرائد السورية في ذلك العهد عدة جرائد لم يبقَ منها غير المحروسة والأهرام.

ويقال على الإجمال أن أكثر أرباب الصحف العربية في مصر والإسكندرية في ذلك العصر كانوا من السوريين، ومنهم كثيرون قطنوا مصر واتخذوها وطنًا لهم، وكانت الحكومة تساعد الصحف من كل وجه، ولولا مساعدتها المالية أو تنشيطها الأدبي لما قامت لها قائمة، وكان للأهرام شأن كبير في هذا الدور، وقد ساعد هذه النهضة الوزير رياض باشا أدبيًّا وماديًّا.

الإنشاء الصحافي والحرية الصحافية

وحدث في لغة هذا الدور من تاريخ الصحافة تحسين كثير، فانتقل الإنشاء الصحافي من العبارة الضعيفة الركيكة على الرشاقة والطلاوة العصرية، ومقدام هذه النهضة المرحوم أديب إسحق؛ فإنه كان نابغة في الإنشاء مع المتانة وصحة العبارة، فقلَّده الكتَّاب في عبارته، وتحدَّوه في أسلوبه.

وكانت الصحافة في ذلك العصر مطلقة الحرية، ولا سيما في أواخر أيام إسماعيل، والسوريون قد تشربوا يومئذٍ روح الحرية من نهضة الأحرار العثمانيين في الأستانة بخلع عبد العزيز، وتنصيب عبد الحميد سنة ١٨٧٦، ثم جاء مدحت إلى سوريا ونشَّط هذا الشعور، فانتشرت الحرية الصحافية انتشارًا عظيمًا في سوريا.

أما في مصر فإن إسماعيل لم يكن يقاوم حرية الصحافة، لكنه لم يصبر على من ينتقده، فكان الكُتَّاب يراعون جانبه، ومن تجاسر على انتقاده أصبح في خطر، كما

أصاب مدير الأهرام لما أشار إلى مالٍ صُرِف من الخزينة ولم يُعلَم مصيره، ولو لم تنصره فرنسا لذهب ضحية تلك الملاحظة.

(٤) الصحافة العربية في عهد الاحتلال من سنة ١٨٨٢ إلى الآن

تقدم هذا العصر انتقال الخديوية إلى المرحوم الخديوي السابق، وفي أيامه صدر قانون المطبوعات سنة ١٨٨١؛ لأن الصحافة تطرقت في أوائل الحركة العرابية على أثر ذهاب إسماعيل، ثم حدثت الثورة العرابية، واحتل الإنكليز مصر سنة ١٨٨٢، وتحولت الصحافة اليومية في هذا العصر إلى القاهرة، وتكاثرت الصحف فيها، وأول جريدة يومية صدرت فيها جريدة «الزمان» لصاحبها علكسان صرافيان الأرمني، وقد تولى التحرير فيها صاحب الهلال سنة ١٨٨٣–١٨٨٤، ثم أقفلتها الحكومة فسافر صاحبها إلى قبرص، وأنشأ هناك جريدة سماها «ديك الشرق» سنة ١٨٨٩، ولم يطل ظهورها، وما زالت القاهرة خالية من جريدة يومية حتى ظهر «المقطم» سنة ١٨٨٨، ثم «المؤيد» وغيرهما. أما الجرائد الأسبوعية فكانت كثيرة في القاهرة «كالبرهان»، و«البيان»، و«مرآة الشرق»، وغيرها.

والاحتلال الإنكليزي خطوة سياسية مهمة انتقلت بها مصر من دور إلى دور، ولم يكن للجرائد العربية قبله إلا خطة واحدة غايتها النظر في مصلحة مصر ومسايرة حاكمها، ولم يكن يهمها الدول الأخرى في شيء، إلا جريدة الأهرام فإنها أخذت جانب فرنسا؛ لأنها أنقذت مديرها من غضب إسماعيل.

فلما احتل الإنكليز مصر ولم تكن فرنسا معهم، تولدت مسألة الاحتلال والجلاء، ومسألة المصري والعثماني، فانقسمت الصحف إلى أقسام تحزَّب بعضها للدولة العثمانية على الإنكليز، والبعض لفرنسا على الإنكليز، والبعض الآخر أخذ جانب الإنكليز، وأول الصحف التي أخذت جانبهم بمصر جريدة الزمان المتقدم ذكرها، ثم المقطم لأصحاب المقتطف؛ فامتعض الوطنيون منها، فأنشئوا جريدة المؤيد في السنة التالية لمحررها الشيخ علي يوسف، ومديرها الشيخ أحمد ماضي، ثم استقل بها الشيخ علي يوسف. وظهور المؤيد خطوة كبيرة في الصحافة الوطنية؛ لأنها أول الجرائد الوطنية الكبرى في هذا الدور من أدوار الصحافة، وهي التي مهدت السبيل لغيرها من الجرائد الوطنية الإسلامية، وقد أخذ كبار الوطنيين بناصرها في أول نشأتها، أما بقاؤها إلى الآن، وما نالته من الشهرة ونفوذ الكلمة، فإنه راجع إلى اقتدار صاحبها وثباته، أما المقطم فلاقى في سبيل البقاء على خطته مشقات جسيمة، قلَّ مَن يصبر عليها.

وتساهلت الحكومة في أمر قانون المطبوعات؛ لأن عميد الاحتلال اللورد كرومر لم يكن يرى تقييد الصحافة، فأصبح نشر الصحف مباحًا، فتسابق الأدباء إلى إنشائها.

وبلغت الصحافة العربية أرقى أدوارها في العصر العباسي من سنة ١٨٩٢، وسبقت مصر بها سائر الأمصار، وانحطت الصحافة في سوريا لما تولاها من ضغط الحكومة، وتقييد الأفكار قبل إعلان الدستور، فأصبحت مصر محط رحال أرباب الأقلام، وعشاق الحرية، وطلاب الرزق من سائر الأقطار. أما بالنظر إلى الصحافة فيُقسَّم هذا العصر إلى ثلاثة أدوار: الدور الأول من تولي الجناب العالي سنة ١٨٩٢ إلى ظهور اللواء سنة ١٩٠٠، والثاني من ظهور اللواء إلى سنة ١٩١٠، والثالث رد الفعل من سنة ١٩١٠ إلى الآن.

(٤-١) الدور الأول من سنة ١٨٩٢–١٩٠٠

فالدور الأول نضج فيه المقطم والمؤيد، واشتد ساعدهما، وحمي وطيس الجدال بينهما، وأُهمِل قانون المطبوعات فأُطلِقت حرية الصحافة، فتكاثر ظهور الجرائد الأسبوعية، ولا بد لكل منها أن تتحدى إحداهما، فصارت أكثر الصحف إما مقطمية أو مؤيدية — إما مع الاحتلال أو عليه — إلا الأهرام فإنها ثبتت في خطتها، أما الجرائد القبطية فهي على الإجمال احتلالية.

وبلغ عدد الصحف التي صدرت في هذا الدور — أي من سنة ١٨٩٢–١٩٠٠ — نحو مئة وخمسين صحيفة، أي صدر منها في ثماني سنين نحو ما صدر قبلًا في ٦٣ سنة، ومن أسباب كثرتها إطلاق سراح المطبوعات، وكان الصحافيون قبلًا لا يقدرون على إصدار الجريدة إلا بعد دفع التأمين، أو تقديم الضمانة، والقبول بكل القيود والشروط، ولكن أكثر الصحف التي صدرت في هذا الدور علمية أو أدبية؛ لأنها أقل نفقة وتعبًا.

(٤-٢) الدور الثاني من سنة ١٩٠٠–١٩١٠

ويمتاز هذا العصر باشتداد الحركة الوطنية ضد الاحتلال، وكثرة تحدث الناس بالعرش العثماني والخلافة الإسلامية، وكان قد بدأ ذلك بعد انتصار الدولة العلية على اليونان سنة ١٨٩٧، ويمتاز أيضًا بنمو الشعور الوطني على يد مصطفى كامل صاحب اللواء، وكانت الصحف قبله تذكِّر المحتلين بوعودهم، وتستطيل بقاءهم.

أما مصطفى فإنه صرح بانتقاد الحكومة، ودعا المصريين إلى المطالبة بجلاء الإنكليز عن بلادهم قيامًا بوعدهم، وسافر إلى أوربا للسعي في هذا السبيل بالخطابة والكتابة

والتحريض، مما تراه مفصلًا في ترجمة حياته بالهلال ٦ سنة ١٦، وأخيرًا أنشأ الألوية الثلاثة بالعربية والفرنساوية والإنكليزية، وألَّف شركة مالية لإنشائها، وهي أول شركة صحافية بمصر، وجعل خطة اللواء التشديد في طلب الجلاء، والاحتجاج على إنكلترا، وأبدى في جهاده من الجرأة والحزم ما لم يُسمَع بمثله في مصر، وأصبح للصحافة في ذلك الدور مميزات أهمها:

(١) إنشاء الجرائد بشركات مالية تجمع بالأسهم من المتمولين الوطنيين، وأول من فعل ذلك بمصر مصطفى كامل صاحب اللواء، فاقتدى به سواه، فظهرت «الجريدة» بشركة مؤلفة من أعيان المصريين، وتحول المؤيد إلى شركة مالية.

(٢) كبر حجم الجرائد الوطنية، وصارت ثماني صفحات.

(٣) صار للصحافة تأثير في نفوس الوطنيين، وكثر قرَّاؤها، واهتمت الناشئة بها، وظهرت فيها روح الحماسة.

(٤) تشكلت الأحزاب لنصرة الصحف، وأعلاها صوتًا «الحزب الوطني»، ورئيسه مصطفى كامل.

(٥) تكاثرت الصحف الوطنية، وكانت الصحافة العربية المصرية قبل ذلك أكثرها في أيدي السوريين، فأصبح أكثرها في أيدي المصريين.

(٦) تنوعت مواضيع الصحف، واتسعت دائرة مكاتباتها، وتفننت في عناوينها.

(٧) صار لها نفوذ لدى الحكومة.

(٨) كانت محصورة في مصر والإسكندرية تقريبًا، فظهرت في كثير من مدن الأرياف.

(٩) تألفت لها نقابة اشترك فيها أرباب الصحف على اختلاف لغاتها.

(٤-٣) الدور الثالث — رد الفعل

على أن الحرية التي نالتها الصحافة المصرية في عهد العميد الأول (كرومر) لم يُحسِن الكتَّاب استخدامها، فتطرفت صحف الحزب الوطني في النقد والتحريض، ولا سيما بعد إبدال كرومر بغورست، وكان غورست متساهلًا فاشتدت فوضى الأقلام، ورافق ذلك مقتل بطرس باشا غالي رئيس الوزراء سنة ١٩٠٩، فنسب بعضهم قتله إلى الروح الوطنية المشار إليها، واتجهت الأفكار إلى وضع حد لهذه الفوضى، وتوفي العميد غورست، وخلفه اللورد كتشنر، وهو يعرف مصر ويفهم لسان أهلها، فاقتضت سياسته التضييق على

الصحافة لاعتقاده أن إطلاقها يضر بمصالح الفلاح، ويشغل الشبان عن طرق معاشهم، وفي أيامه أقفل اللواء والعلم ومصر الفتاة، وغيرها من الجرائد الوطنية، وتناول الإقفال غيرها أيضا، وأصبحت الحكومة تتصعب في الترخيص لإنشاء الصحف الجديدة، ولم يبقَ من الجرائد الكبرى بمصر إلا عدد قليل يعد على الأصابع، وصرف العميد همَّه إلى إنجاد الفلاح، وتخفيف ويلاته، وتسهيل سبل معاشه، وهو يرى ما في مصر من الصحف يكفيها.

الصحافة في سوريا على عهد الاحتلال

كانت مصر في عهد الاحتلال الأول رافلة في بحبوحة الحرية، وأختها سوريا تئن تحت الحكم الحميدي الذي تقيدت فيه الأفكار والأقلام، وانتشرت الجاسوسية، وصودرت الحرية، فأخذ أرباب الأقلام الحرة في المهاجرة إلى مصر ينشئون الجرائد أو المقالات أو الكتب، وأخذت صحافة سوريا في التقهقر وأهلها صابرون، حتى أُعلِن الدستور سنة ١٩٠٨، فقابلته الصحف بالدهشة وهي بين مصدِّقة ومكذِّبة، فما لبثت أن تحققت هبوط تلك النعمة عليها حتى انتعشت وتكاثرت، وكانت إلى ذلك التاريخ محصورة من المملكة العثمانية في بيروت ولبنان والأستانة ودمشق وطرابلس الشام وحلب والقدس، فظهرت بعد الدستور في حيفا وحمص واللاذقية وصيدا وجديدة مرجعيون ومكة وجدة وبغداد والموصل والبصرة، وفي كثير من قرى لبنان وغيرها.

ولما انقسمت الأمة العثمانية إلى حزبَيْ الاتحاد والائتلاف في العام الماضي، انقسمت الصحف العثمانية معها إلى قسمين، وجعلت صحف كل حزب تحسِّن آراءه، ولا يزال ذلك شأنها إلى الآن.

(٥) المجلات العربية

جاء ذكر أقدم المجلات في أثناء كلامنا عن الجرائد، وكان لفظ الجريدة يُطلَق على كليهما، ثم اختصت المجلات بهذا اللفظ كما تقدم، وأول من استخدمه لذلك الشيخ إبراهيم اليازجي، وقد رأيت أن أقدم المجلات العربية صدرت بمصر، نعني «اليعسوب» سنة ١٨٦٥، كما صدرت فيها أول الجرائد الرسمية «الوقائع المصرية»، واليعسوب مجلة طبية، ثم ظهر «الجنان» في بيروت سنة ١٨٧٠ للبستاني، وهو مجلة عمومية

جمعت بين العلم والأدب والسياسة، تصدر مرتين في الشهر، ظلت تظهر بضع عشرة سنة، وكانت ميدانًا لأقلام كتاب العربية في ذلك العصر في السياسة والأدب والتاريخ والشعر والعلم والطب والحقوق والزراعة والرياضيات والطبيعيات والفكاهة وغيرها، وكان ينشئ مقالاتها السياسية سليم بن بطرس البستاني، ومجموعة الجنان تشتمل على تاريخ الحركة العلمية والأدبية والسياسية في العالم العربي يومئذٍ، وأخذت المجلات بعده تتخصص مواضيعها بالتدريج عملًا بسنة النشوء والارتقاء.

فصدرت «النحلة» للصابونجي في بيروت سنة ١٨٧٠، وهي أدبية علمية انتقادية، ثم صدرت «الجعبة» للشيخ نوفل الخازن في درعون لبنان، وهي فكاهية هزلية لم تظهر إلا قليلًا، وصدرت «روضة المدارس» بمصر سنة ١٨٧٠، وهي علمية تاريخية طبية، ثم صدر «المقتطف» سنة ١٨٧٦ في بيروت لمنشئَيْه الدكتورين صروف ونمر، ومديره شاهين مكاريوس، وهو علمي صناعي رياضي زراعي، انتقل سنة ١٨٨٦ إلى مصر ولا يزال يصدر فيها، وهو الآن شيخ المجلات العربية، ومجلداته خزانة علم وصناعة وزراعة وأدب وشعر، وفيها نخبة ما حدث في هذه النهضة من الآراء والاختراعات والاكتشافات.

ثم صدر «الطبيب» في بيروت سنة ١٨٧٧ للدكتور بوسط، وهو مجلة طبية جراحية صارت الآن إلى الدكتور إسكندر بك البارودي، ولا تزال تصدر في بيروت.

وصدر «الشفاء» بمصر سنة ١٨٨٦ للدكتور شبلي شميل، وهو مجلة طبية جراحية علمية، صدرت خمس سنوات وتوقفت.

وصدرت «الحقوق» لشقيقه أمين الشميل بمصر في تلك السنة وهي حقوقية، وانتقلت بعد وفاة صاحبها سنة ١٨٩٧ إلى إبراهيم الجمال المحامي، ولا تزال تصدر بمصر.

ثم صدر «الهلال» في القاهرة سنة ١٨٩٢ لمنشئه مؤلف هذا الكتاب، ولا يزال يصدر فيها، وهو يبحث في الأدب والتاريخ والاجتماع والعلم، وما يحدث من الاكتشافات والاختراعات، لكنه يتبسط على الخصوص في التاريخ وفلسفته، وفي الأبحاث الاجتماعية، وله ملحقات في مواضيع مختلفة، أهمها «تاريخ التمدن الإسلامي» في خمسة أجزاء، و«تاريخ العرب قبل الإسلام»، و«علم الفراسة الحديث»، و«طبقات الأمم»، و«تاريخ آداب اللغة العربية» هذا جزؤه الرابع، ومن ملحقاته أيضًا سلسلة روايات تاريخ الإسلام في قالب روائي تبدأ بظهور الإسلام، وتصدر الحلقة السابعة عشرة منها في هذا العام، وموضوعها ظهور دولة المماليك وسقوط بغداد.

وفي السنة التي صدر فيها الهلال صدرت مجلة «الأستاذ» للمرحوم عبد الله نديم، وهي أدبية انتقاديه لم تتم السنة على ظهورها؛ لأن الحكومة أقفلتها، وفي تلك السنة صدرت مجلة «الفتى» لإسكندر شلهوب، و«الفتاة» للسيدة هند نوفل (مدام دبانة)، وهي أول الجرائد النسائية. وتكاثر صدور المجلات من ذلك الحين، وصارت أكثر ميلًا إلى التخصيص، فقد رأيت صدور المجلات الحقوقية والطبية والتاريخية، وهذه «الفتاة» نسائية، وتوالى صدور المجلات للنساء بعدها حتى زاد عددها على عشرين مجلة أكثرها في القطر المصري، وصدرت جريدة «المهندس» رياضية، و«المنظوم» شعرية، و«الشرائع»، و«القضاء»، و«الأحكام المصرية» كلها قضائية، و«الابتسام» فكاهية، و«الروضة» زراعية، و«اليانصيب» مالية، و«مجلة الغرفة التجارية» تجارية، و«الأجيال» صورية، و«المنار» إسلامية عمرانية، و«مجلة العلوم الاجتماعية» تبحث في الحقوق والاقتصاد والاجتماع، و«مجلة التعاون» اقتصادية.

واختلفت المجلات أيضًا حسب المذاهب والعناصر، فكل طائفة من النصارى لها مجلة أو غير مجلة تهتم على الخصوص بشئونها، وكذلك سائر الجماعات، وصدرت مجلة العرفان في صيدا شيعية، وقِسْ على ذلك عشرات من المجلات التي صدرت بمصر وسوريا لا يسع المقام ذكرها، ومع ذلك فهي لا تزال بعيدة في التخصيص عن المجلات الإفرنجية، فإن بين هذه مجلات خاصة بكل فن من الفنون، وحرفة من الحرف، وعلم من العلوم، مما لا نزال بعيدين عن مثله.

وليس غرضنا تدوين تاريخ ما ظهر من الجرائد والمجلات العربية، وإنما أردنا أن نبيِّن كيف نشأت الصحافة العربية، وقد أحصينا الجرائد والمجلات التي صدرت في العربية من أول عهد الصحافة إلى الآن، فبلغت نحو ٦٥٠ صحيفة بين جرائد ومجلات على اختلاف المواضيع، لم يبقَ منها حيًّا إلا خُمْسها في أنحاء العالم المختلفة.

(٦) الصحافة العربية في أميركا

لا يحسن بنا إقفال باب الكلام في الصحافة قبل أن نختص الصحافة العربية في أميركا بكلمة، نعني السوريين الذين هاجموا من سوريا ولبنان في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن، فإن منهم في العالم الجديد نحو ٣٠٠٠٠٠ نفس يشتغلون بالتجارة والصناعة والأدب، وقد حافظوا على لسانهم العربي وآدابهم العربية، وظهر منهم الكُتَّاب والأدباء والشعراء والأطباء والمؤلفون والخطباء، وأنشئوا لأنفسهم صحافة عربية خاصة بهم،

وأول جريدة ظهرت لهم في المهجر «كوكب أميركا» صدرت في نيويورك سنة ١٨٩١ لنجيب عربيلي، وتعطلت بعد وفاة منشئها، وانتشرت الصحافة العربية من ذلك الحين في أميركا الشمالية والجنوبية، فظهرت الجرائد والمجلات العربية في نيويورك وغيرها من الولايات المتحدة، وفي المكسيك والبرازيل وكولمبيا وأرجنتين وغيرها، وقد تعطل بعضها، ولا يزال البعض الآخر يظهر إلى الآن، وربما زاد عدد ما لا يزال يظهر منها في المهجر على خمسين جريدة، بينها جرائد يومية كبرى تصدر في ثماني صفحات كبيرة، وقد اكتسبت مميزات الصحافة الأميركية من حيث طرق الإعلان، وأساليب التركيب والتعبير، وترتيب الأبواب والعناوين، وقلَّدتها في ذلك بعض صحف مصر وسوريا لهذا العهد، كذكرهم خلاصة المقالة في صدرها بصيغة المضارع، فيقولون في عنوان مقالة عن واقعة حربية بين العثمانيين والبلغاريين مثلًا: «الجند العثماني، يهجم، يصده البلغاريون بعنف، يقتل الجنرال فلان، يفشل الجند … إلخ».

أما مواضيع تلك الصحف فأكثرها شرقي عربي، وتبحث على الخصوص في أحوال سوريا ولبنان ومصر، وتتناقش وتتناظر، وتدافع عن اللغة العربية والعنصر العربي.

وظهرت فيها مجلات اختصاصية في الطب والاجتماع والتاريخ، كما في مصر وسوريا، وبينها مجلات مخصصة في مواضيع لم تتخصص لها مجلة عربية، نعني مجلة «الفنون» التي تصدر في نيويورك، فإنها خاصة بالفنون الجميلة، يمكن مقابلتها بأرقى المجلات الإفرنجية من نوعها، وصدر معها في وقت واحد مجلة بهذا الاسم بمصر لم يطل ظهورها.[٢]

هوامش

(١) راجع تفصيل ذلك في كتاب الصحافة العربية.

(٢) ومن شاء زيادة التفصيل في تاريخ الصحافة وإحصاء الصحف، فليطالع الهلال سنة ١ و٤ و١٢ و١٣ و١٨، وكتاب الصحافة العربية للكونت فيليب دي طرازي.

الحرية الشخصية

الحرية الشخصية من مميزات هذه المدنية، وقد كان لها تأثير كبير على آداب اللغة؛ لأنها صورة من صور النفس. كان العرب من أكثر الأمم حرية واستقلالًا في أفكارهم وأقوالهم وأفعالهم، يشهد بذلك تاريخهم في صدر دولتهم، ثم ذهبت تلك الأنفة، وماتت الحرية بتوالي الظلم والعسف في الأجيال الإسلامية الوسطى، فأقبل القرن التاسع عشر والعامة يُساقون كالأنعام لا إرادة لهم ولا حرية ولا رأى، فلما أخذنا بأطراف هذه المدنية، وأساسُها رفعُ شأن العامة ومساواةُ الناس في الحقوق والواجبات على اختلاف طبقاتهم، كانت الحرية الشخصية في جملة ما اقتبسناه.

وقد ساعد على انتشار هذه الروح في مصر الإرساليات العلمية التي كانت الحكومة المصرية ترسلها إلى أوربا لتلقي العلم، وأكثرها إلى فرنسا — والفرنساويون أكثر الأمم انتصارًا للحرية، وإقدامًا على نشرها — فكان ما اقتبسناه من روح الحرية العصرية أكثره فرنساوي، وفيه روح حماسية لمصلحة العرب، والتلاميذ الذين أرسلهم محمد علي إلى أوربا أول من قال بإنشاء دولة عربية، وبثوا هذه الروح في العنصر العربي، ووافق ذلك غرض محمد علي السياسي فأخذ به.

وزاد انتشار هذه الروح في سوريا بعد حوادث سنة ١٨٦٠ لزيادة الاختلاط بالأجانب، ولا سيما الفرنساويين، ومطالعة كتبهم، وخصوصًا ما يتعلق باستقلالهم وثورتهم، وأحوال الدولة العثمانية في أثناء ذلك تزداد اضطرابًا وفسادًا، فأبى الأحرار الصبر على الضيم فعمدوا إلى المهاجرة، وأكثر المهاجرين من المسيحيين؛ لأنهم أكثر احتكاكًا بالأجانب، وأقدر على الاختلاط بهم، وأوسع اطلاعًا على آدابهم، ومَكَّن هذه الروح في نفوس العرب انتشارُ العلوم الطبيعية بعد نقل العلم؛ لأنها مبنية على الحقائق المحسوسة.



داود باشا حاكم جبل لبنان ومؤسس جريدة لبنان سنة ١٨٦٧.

على أن هذه الروح الحرة اتخذت سبيلًا آخر في بعض الأحوال، فحلت قيود العقل، وصارت إلى الرغبة في التخلص من التقاليد والعادات الضارة، وظهر غير واحد من طلاب الإصلاح السياسي أو الديني أو الاجتماعي في العالم العربي العثماني، فآل الإصلاح السياسي إلى قلب الحكومة العثمانية من الاستبداد إلى الدستور، ونصراء هذا الإصلاح منا كثيرون، أشهرهم البرنس مصطفى فاضل باشا المصري، وجمال الدين الأفغاني، وعبد الرحمن الكواكبي، وخليل غانم، وأمثالهم، وأشهر نصراء الإصلاح الاجتماعي الشيخ محمد عبده المصري وقاسم أمين، وسنعود إليهم في مكان آخر.

واتخذت هذه الروح نهجًا آخر من حيث العلم، ولا سيما بعد شيوع مذهب النشوء والارتقاء في النصف الثاني من القرن الماضي، فتنبهت الأذهان إلى حرية البحث، وتعليل

الحوادث كما تنجلي للعقل، فأخذت آثار ذلك تظهر على أقلام الكتَّاب في أي موضوع كتبوا فيه — إلا المحافظين على القديم، المتشبثين بآراء أهل القبور.

ومن أكبر العوامل في نشر روح الحرية والاستقلال المدارسُ الأميركية في سوريا، وخصوصًا الكلية الأميركية في بيروت؛ فإنها بثَّت هذه الروح في الناشئة السورية، وعلمتهم الاعتماد على أنفسهم، والمطالبة بحقوقهم، والتفكير بلا قيد، وظهرت ثمار هذه التربية في أبناء الكلية سنة ١٨٨١؛ إذ نهض تلاميذ القسم الطبي لمطالبة الأساتذة بحقوق مدرسية، فلم تنصفهم لأسباب عارضة، وكان لهذه الحادثة دوي في سوريا وغيرها، فأدى ذلك إلى مهاجرة بعض أولئك المطالبين إلى مصر وغيرها.

ويتبع الحرية الشخصية رفع شأن المرأة، فإنها لم تنَلْ من الحرية والاستقلال والحقوق الاجتماعية ما نالته في هذا العصر، فتحرَّرت كما تحرَّر العامة، وصار لها شأن ورأي نحو ما كانت عليه في الجاهلية وصدر الإسلام، وكانت قد انحط شأنها في القرون المظلمة حتى صارت كالمتاع لا صوت لها ولا رأي، وأحاطت بها الشكوك، وأصبح دأب الرجل سوء الظن بها، حتى وضعوا الكتب ونظموا القصائد في تحقيرها وتقبيح آرائها، وأمروا بحبسها والتضييق عليها، فأُطلِق سراحها في هذا العصر، وأخذت في طلب العلم، ونبغت غير واحدة منهن في العلم والأدب، فأنشأن المجلات العلمية والجرائد السياسية والجمعيات الأدبية، وألَّفن الكتب، ووقفن للخطابة، ونبغت منهن الطبيبات، وأخذن في طلب علم الحقوق، والمسيحيات أسبق إلى ذلك؛ لأنهن أكثر اختلاطًا بأسباب هذه المدنية، على أن هذه الروح دبَّت في المسلمين أيضًا، ونبغ من بناتهم خطيبات وعالمات وكاتبات، وأنشأن الجمعيات.

وترتب على هذه الروح أيضًا تحوُّل طريقة الارتزاق بالأدب عما كانت عليه من قبلُ، كان الأديب أو الشاعر أو المؤلف قبل هذه النهضة ينظم أو يؤلف ليرضي نفسه وميله، أو ليهدي مؤلَّفه إلى أمير أو صديق، فأصبح الأدب الآن صناعة أو تجارة يرتزق أصحابها بإقبال الجمهور مثل سائر الصناعات المعاشية بسبب انتشار الطباعة، وتعدُّد النسخ وبيعها.

الجمعيات العلمية والأدبية

نريد بها الجمعيات التي تشد أزر العلم والأدب، وتأخذ بناصر أهلهما، وهي من ثمار التمدن الحديث في أوربا على أثر انتشار الحرية الشخصية، وتأييد حقوق الأفراد، وقد اقتبسناها من الإفرنج في جملة أسباب هذه المدنية، ولم يكن منها في الأعصر الإسلامية الماضية غير ما تقدم ذكره من الأسواق في الجاهلية وصدر الإسلام، كعكاظ والمربد ونحوهما، وما كانوا يعقدونه من مجالس الأدب في منازل الكبراء للمساجلة أو المناشدة، وقد يكون ذلك في مجلس امرأة عاقلة أديبة، كما كانت تفعل سكينة بنت الحسين، وعائشة بنت طلحة، وكان في صدر الدولة العباسية جارية شاعرة مغنية اسمها دنانير، كان أهل الأدب وذوو المروءة يقصدونها للمساجلة أو المذاكرة في الشعر، ويدخل في ذلك ما كان يقع في مجالس الخلفاء أو الأمراء من المناظرة، فهذه كلها ترفع شأن الأدب، لكنها ليست من قبيل الجمعيات التي نحن في صددها.

على أن المسلمين كانوا يؤلفون الجمعيات السرية للأبحاث العلمية الممنوعة في نظر أهل الدولة، مثل جمعية إخوان الصفا في الدولة العباسية، وما نُسِج على منوالها في المملكة الإسلامية، ومنها جمعيات سياسية تشبه الاشتراكية أو الفوضوية، كالخوارج وطائفة الحشاشين أو الإسماعيلية ونحوها ممن كانوا ينقمون على أهل السيادة، ويسعون في خلعهم أو قتلهم بالمكايد والدسائس أو الفتك، وكان عندهم جمعيات إنسانية أو أخوية، مثل الجمعية الماسونية، ولا يبعد أنه كان لها فروع في الشرق الإسلامي، وذكر ابن بطوطة في رحلته جمعية سماها الأخية الفتيان، لها فروع في جميع البلاد التركمانية والرومية في كل بلد ومدينة، ناهيك بالجمعيات التي هي من قبيل الطرق الصوفية ونحوها.

وهذا كله يختلف عن الجمعيات التي نشأت في هذا العصر واقتبسناها من الإفرنج، كما اقتبسنا منهم الشركات الاقتصادية، وغيرها من الأعمال التي يتعاون

فيها الجماعات للمصلحة المشتركة، وقد أصبحت هذه الجماعات تُعامَل معاملة الشخص الواحد، وتُخاطَب كما يُخاطَب الفرد، وحدث نحو ذلك في تجريد سائر الإدارات أو المعاهد التي تسمى باسم خاص، كالجريدة والبنك ونظارات الحكومة ونحوها، فإنهم يخاطبونها كما يُخاطَب الفرد، ويقولون مثلًا: قالت الجمعية الفلانية، وفعلت النظارة الفلانية، بحيث إن شخصية الأفراد ضاعت في المصلحة المشتركة.

(١) الجمعيات العلمية والأدبية في سوريا

والجمعيات العلمية المشار إليها نشأت أولًا في سوريا؛ لأن الإفرنج تقاطروا إليها للتبشير أو التعليم قبل تقاطرهم لذلك إلى مصر، فنبدأ بذكر تاريخ الجمعيات في سوريا، وهي أربعة أقسام:

(١) جمعيات علمية خطابية.
(٢) جمعيات خيرية تعليمية.
(٣) جمعيات علمية فنية.
(٤) أندية أدبية.

فنتكلم عن كل من هذه الأقسام على حدة.

(١-١) أولًا: الجمعيات العلمية الخطابية في سوريا

(أ) **الجمعية السورية:** تأسست في بيروت سنة ١٨٤٧، أول الجمعيات العلمية في سوريا «الجمعية السورية»، أُنشئت في بيروت سنة ١٨٤٧ بمساعي المرسلين الأميركان قبل إنشاء المدارس الكبرى، وقبل ظهور الصحف أو المجلات، وقبل اقتباس التمثيل وغيره من وسائل المدنية الحديثة، والغرض منها نشر العلوم وترقية الفنون بين الناطقين بالعربية، ولم تمضِ عليها بضع سنوات حتى انتظم في سلكها نخبة الأدباء والفضلاء والوجهاء في ذلك العصر، وزاد عدد أعضائه على خمسين عضوًا، منهم نيف وأربعون في بيروت، ونحو عشرة أعضاء مراسلين في دمشق وطرابلس وصيدا وغيرها، ومن أعضائها الذين يعرف القرَّاء أسماءهم: الدكتور فانديك، بطرس البستاني، نوفل نوفل، عالي سميث، نصيف اليازجي، هنري دي فرست، نعمة ثابت، سليم نوفل، الدكتور ورتبات، تشرشل

بك، مخائيل شحادة، الدكتور مخائيل مشاقة، سمعان كلهون، مخائيل عرمان، إبراهيم طراد، جبور الخوري، جرجس هوايتن، وغيرهم، وكلهم توفوا الآن، وكان أكثرهم يومئذٍ في مقتبل العمر.

ظلت هذه الجمعية عاملة إلى سنة ١٨٥٣ تجتمع مرة في الشهر على الأقل، فبلغ عدد جلساتها ٥٣ جلسة كانت تقضى بالخطب والمباحثات، ويسعى أعضاؤها في جمع الكتب والصحف، واستنهاض الهمم لاكتساب العلم مع الابتعاد عن المسائل الدينية، وفيها مكتبة للمطالعة، لكل عضو الحق في استعارة الكتب لمطالعتها، ولها رئيس وثلاثة نواب وكاتب وأمين صندوق يعاد انتخابهم بالاقتراع كل سنة، وقد تولى رئاستها الدكتور طمسن وغيره، وكان رئيسها في السنة الأخيرة عالي سميث، وكاتب الوقائع بطرس البستاني، وأمين المكتبة أنطونيوس الأميوني، وأمين الصندوق مخائيل شحادة.

وبين يدينا أعمال هذه الجمعية إلى آخر سنة ١٨٥١، طُبِعت في بيروت سنة ١٨٥٢، وفيها مجموع الخطب والمقالات التي تُلِيت في الجمعية بأثناء المدة الماضية، منها خطاب في لذة العلم وفوائده للدكتور فانديك، وفضل المتقدمين على المتأخرين له، ومقدار زيادة العلم في سوريا في هذا الجيل للدكتور ورتبات، والشرائع الطبيعية لسليم نوفل، وتعليم النساء لبطرس البستاني، ومدنية بيروت له، وعلوم العرب لليازجي، والسعد والنحس للدكتور مشاقة، والنبات لنوفل نوفل، وغير ذلك.

(ب) **الجمعية العلمية السورية:** أنشئت هذه الجمعية بعد تلك وقلَّدتها بقانونها وشروطها حتى اسمها، ودخل في عضويتها طائفة من أعضاء الجمعية السابقة، وظلت عاملة إلى سنة ١٨٦٨؛ إذ دخلت في طور جديد، واعترفت بها الدولة العثمانية رسميًّا في ٢٠ رمضان سنة ١٨٦٨ / ١٢٨٤هـ، ثم عقدت اجتماعًا بعد أسبوع حضره كامل باشا (الصدر الأعظم) متصرف بيروت يومئذٍ، وأذن لها بنشر أعمالها، وبلغ عدد أعضائها لتلك السنة نحو ١٥٠ عضوًا أكثرهم في بيروت، وبعضهم في دمشق وحمص وغيرهما من مدائن سوريا وفي الأستانة، وبينهم نخبة الأدباء والعلماء والوجهاء، وهذه أسماء عمدتها لتلك السنة:

(١) الأمير محمد الأمين أرسلان	رئيس
(٢) حسين بيهم، وحنين خوري، وسليم بستاني	مميزون

(٣) عبد الرحيم بدران، وسليم شحادة	كاتبان
(٤) سليم رمضان، وموسى فريج	مصححان
(٥) حبيب الجلخ	مدير أشغال
(٦) رزق الله خضرا	أمين صندوق

ومن الأدباء أو الوجهاء أو رجال الإدارة بين أعضائها ممن يعرف القرَّاء أسماءهم: كامل باشا، إسبر شقير، الشيخ إبراهيم اليازجي، بشارة زينيه، جرجس تويني، جرجس فياض، حبيب بسترس، حبيب اليازجي، خليل الخوري، رسلان دمشقية، سليم قشوع، عبد البديع اليافي، محيي الدين بيهم، لسيم شحادة، محمد بيهم، مخائيل صبري، نقولا مدور، يوسف الشلفون، حنا إبكاريوس، عبد القادر الدنا، يوسف سرسق، وكلهم في بيروت. وجبران أسبر، روفائيل شامية، عبد اللطيف مارديني، يوسف وردة، عبده القدسي، مخائيل مشاقة في دمشق، وقد نبغ من هؤلاء طائفة من العلماء سنترجمهم في ما يلي.

وكان بينهم جماعة من كبار رجال السياسة بالأستانة، منهم فؤاد باشا الشهير، ورشدي باشا، ومصطفى فاضل باشا، وصفوت باشا، ورءوف باشا، وغيرهم. وفي مصر سليمان أباظة، وأحمد أباظة وغيرهما، وبين يدينا مجموعة أعمال هذه الجمعية للسنتين الأخيرتين، وعليها كان معولنا في أكثر ما ذكرناه عنها.

(جـ) **جمعية شمس البر:** أنشئت هذه الجمعية في بيروت سنة ١٨٦٩ فرعًا لجمعية اتحاد الشبان المسيحيين في إنكلترا، وهي أدبية خطابية، وإن اشترط فيها بعض الشروط الدينية، وقد انتظم في سلكها طائفة كبيرة من أدباء بيروت وسوريا، أكثرهم من المتخرجين في المدرسة الكلية وغيرها من مدارس الأميركان، وفيهم طبقة من الكُتَّاب وأرباب الصحف والأساتذة والأطباء والوجهاء وغيرهم، ومنهم أصحاب المقتطف، وصاحب الطبيب، وصاحب الهلال، وأكثر الأطباء المتخرجين في كلية الأميركان الطبية، والأساتذة المتخرجين من كليتها العلمية، ولا تزال عاملة إلى الآن.

وقد انتشرت روح هذه الجمعية بانتشار أعضائها في أنحاء سوريا ومصر، فنبتت لها فروع في كثير من المدن، لكل منها اسم خاص، منها جمعية رباط المحبة في دمشق أنشئت سنة ١٨٧٤.



طائفة من أدباء بيروت ١٨٧١ [مجلة سركيس] (الصف الأول على الكراسي من الشمال: المعلم بطرس البستاني، الشيخ يوسف الأسير، فضل الله غرزوزي، عبد الله شبلي، خليل ربيز. الصف الثاني من الشمال: سليم البستاني، الشيخ خطار الدحداح، شاهين سركيس، (الرابع غير معلوم)، سعد الله البستاني، إبراهيم باحوط، سعيد شقير).

(د) **جمعية زهرة الآداب:** تأسست في بيروت سنة ١٨٧٣ برخصة من الحكومة العثمانية على يد أسعد باشا متصرف بيروت في ذلك العهد، انخرط في عضويتها طبقة أخرى من الأدباء، فيهم جماعة من متخرجي المدرسة الوطنية للبستاني، وغيرها من المدارس الكبرى، عرفنا منهم سليمان البستاني (ناظم الإلياذة العربية ووزير التجارة)، وروفائيل خوري مدير بنك مورتكج بالإسكندرية، وأديب إسحق، وإسكندر العازار، ونعمان الخوري (قنصل فرنسا)، وإسكندر شكري، وصاحبي المقتطف، والشيخ إبراهيم اليازجي، وحسن بيهم، وميشال تويني، وداود نحول، وكلهم في بيروت. وكان لها أعضاء مراسلون، منهم جورج يني صاحب المباحث في طرابلس، وبعض آل مراش في حلب.

والغرض منها التمرن على الخطابة، وقوة الحجة والدرس والبحث، وكان كل عضو مكلَّفًا بدرس يلقيه على سائر الأعضاء مرة في الأسبوع، وكانت تؤلف الروايات، وأعضاؤها يمثلونها، ويُنفَق دخلها في سبيل الخير، وقد توقفت هذه الجمعية لما أحدقت الظنون بالمشروعات العلمية في أيام عبد الحميد.

(هـ) **الجمعية العلمية في المدرسة الكلية:** أنشأها تلاميذ المدرسة الكلية الأميركية في أوائل هذه المدرسة، وقد أخذ الأساتذة بناصرها، وترأَّسها غير واحد منهم، وكان رئيسها لما كنا في الكلية سنة ١٨٨١ الدكتور بوسط، غرضها تمرين الشبان على الاجتماع وإلقاء الخطب والمباحثات في المواضيع الاجتماعية والتاريخية المفيدة، ولا تزال عاملة إلى الآن.

ومن قوانينها أن تعقد اجتماعًا عموميًّا كل سنة تدعو إليه أعيان بيروت وكبار رجال الحكومة وغيرهم، تُلقَى فيه الخطب والمباحثات، وكان لهذه الجمعية تأثير كبير في ترقية مواهب الشبان، وتعويدهم على البحث والدرس، وأما أعضاؤها فهم تلاميذ الكلية في الصفوف العلمية العالية، والصفوف الطبية من أبناء العرب، فيكون كل حاملي الشهادة العلمية الأميركية أو الطبية أو الصيدلية من أعضائها، وروح هذه الجمعية انتشرت في سوريا وغيرها بانتشار تلاميذ الكلية، فكانوا حيثما حلوا تاقت أنفسهم إلى مثل اجتماعاتهم الأدبية في مدرستهم، فيشكِّلون الجمعيات على مثالها من الأدباء الذين يقيمون بينهم.

وفي المدارس الكبرى الوطنية في بيروت جمعيات من هذا القبيل، منها جمعية مدرسة الحكمة، أنشئت لمثل هذه الغاية سنة ١٨٨١.

(و) **جمعية باكورة سوريا:** وحدثت في بيروت نهضة نسائية في أثناء ذلك، فاقتدت الفتيات المتعلمات بالفتيان المتعلمين، فأنشأن جمعيات علمية خطابية لمثل غرض جمعيات الشبان المتقدم ذكرها، أقدمها «جمعية باكورة سوريا» صدرت أعمالها ودستورها في كتاب طُبِع سنة ١٨٨١، وفيه عدة خطب في مواضيع اجتماعية.

(١-٢) ثانيًا: الجمعيات الخيرية التعليمية

في سوريا كثير من الجمعيات التعليمية أكثرها دينية، وأهمها جمعيات المرسلين الأجانب من الأميركان واليسوعيين وغيرهم، وقد جاء ذكرهم في باب المدارس، ونكتفي هنا بذكر الجمعيات الوطنية التي أنشئت في سبيل التعليم أو التربية أو نحوهما، هاك أهمها:

(أ) **جمعية المقاصد الخيرية:** هي من خيرة الجمعيات العلمية في بيروت، أنشأها نخبة من أدباء المسلمين سنة ١٨٨٠، غرضها ترقية الناشئة المسلمة، فأنشأت مدرستين للبنات، ومدرستين للذكور، وسعت في إرسال بضعة شبان إلى المدرسة الطبية المصرية لتعلم فن الطب، لكن الحكومة العثمانية ظنت السوء بها، واتهمت أعضاءها، وصادرت

بعضهم، ثم أبدلتها بمجلس المعارف. عرفنا من أعضائها المرحوم الشيخ فضل القصار الأديب الشاعر، وفي بيروت الآن جمعية بهذا الاسم لخدمة المدارس، لها عدة مدارس تنفق عليها من صندوقها.

(ب) **جمعية زهرة الإحسان:** جمعية زهرة الإحسان لطائفة الروم الأرثوذكس، أنشأتها جماعة من عقائل وجهاء هذه الطائفة في بيروت وأوانسهم سنة ١٨٨٠، الغرض منها تعليم الفتيات، وترقية نفوسهن، فأنشأت لذلك مدرسة بهذا الاسم، وقد سعت في إنشائها وتدبيرها السيدة لبيبة جهشان، ولا تزال تديرها إلى الآن، وتُعرَف بالحاجة مريم جهشان.

(ج) **جمعية تهذيب الشبيبة السورية:** لهذه الجمعية منهج آخر في خدمة الناشئة السورية، نعني مساعدة الراغبين في التعلم ولا تساعدهم ماليتهم على الدفع، وهي من ثمار المدرسة الكلية الأميركية، وأعضاؤها أكثرهم من أساتذة هذه المدرسة ومعلميها، أنشئت سنة ١٩٠٣ وهي تجمع الأموال بالاشتراكات من أعضائها، وتساعد طلاب العلم بدفع راتب المدرسة عنهم، على أن يكون ذلك دينًا عليهم إذا استطاعوا وفاءه فعلوا، ولها فرع نسائي يُعرَف بجمعية النساء لتهذيب الشبيبة السورية تعمل نفس عملها للبنات، أعضاؤها من خيرة العقائل والأوانس السوريات في سوريا ولبنان ومصر وأميركا وغيرها.

وقد أنشئت جمعية نسائية في برمانا (لبنان)، اسمها «جمعية الإبرة الذهبية» لمساعدة جمعية بيروت، غير ما يأتيها من إحسانات أهل البر، وبلغ عدد الذين أعانتهم جمعية تهذيب الشبيبة للتعليم إلى آخر السنة الماضية ٧٧ شابًّا، و١٤ فتاة بلا تمييز بين المذاهب، أنفقت عليهم جميعًا ٨٦٩٠٠ قرش، ولا يزال في صندوقها ٧٠٣٠٨ قروش تحت الاستثمار.

(د) **جمعية المعارف الدرزية:** وانتشرت روح جمعية التهذيب في سوريا، فتألفت الجمعيات لمثل غرضها في الطوائف الأخرى، عرفنا منها «جمعية المعارف الدرزية»، تشكلت في لبنان سنة ١٩١١، وغايتها تعميم الإصلاح في الطائفة الدرزية بنشر المعارف بين أبنائها استكمالًا لرُقيِّهم، وتمكينًا للجامعة العثمانية، تجمع أموالها بالاشتراك، وتنفق على الذين لا يستطيعون الإنفاق.

(ﻫ) **جمعية يقظة الفتاة العربية:** أنشأتها نخبة من عقائل المسلمين وأوانسهم من أوجَه عائلات بيروت في هذا العام؛ للتعاون على تعليم المسلمات العربيات اللواتي لا يستطعن إلى ذلك سبيلًا.

(١-٣) ثالثًا: الجمعيات العلمية الفتية

نريد بها الجمعيات الخصوصية لخدمة علم أو فن أو صناعة، وهذه قليلة في سوريا؛ لأنها تستلزم الإنفاق والدرس والتجارب العلمية وغيرها مما لا يتيسر لنا، ومع ذلك لم تعدم سوريا بعض الجمعيات الفنية هاك أشهرها:

(أ) **المجمع العلمي الشرقي:** أنشئ في بيروت سنة ١٨٨٢ للبحث في العلم والصناعة لما يعود على البلاد بالخير، أول مَن فكَّر فيه الدكاترة صروف ونمر وموصلي باشا ووليم فانديك، فشكَّلوه ووضعوا قوانينه، وانضم إليهم طائفة من علماء سوريا وخَدَمة العلم في ذلك العهد، منهم: الدكتور ورتبات، والدكتور فانديك، والدكتور إسكندر بارودي، ومرادي البارودي، وسليم بطرس البستاني، والدكتور مخائيل مشاقة، والشيخ إبراهيم اليازجي، والمعلم إبراهيم الحوراني، وإسبر شقير، ومؤلف هذا الكتاب، وتولى رئاسته الدكتور فانديك الكبير، والدكتور ورتبات، ومن أعضائه المراسلين شفيق بك منصور، وإدريس بك راغب، ولم يطل بقاء هذا المجمع بعد انتقال أصحاب المقتطف إلى مصر، وقد جُمِعت أعمال سنته الأولى في مجلد على حدة تحتوي على مقالات علمية ألقاها بعض الأعضاء فيه.

(ب) **جمعية الصناعة:** أنشئت في بيروت نحو سنة ١٨٨٢ لتنشيط الصناعة، ومن أكثر الناس سعيًا فيها شاهين بك مكاريوس، وقد توقفت بعد انتقال المقتطف إلى مصر.

(جـ) **جمعية إحياء التمثيل العربي:** تألفت هذه الجمعية في بيروت بعد إعلان الدستور، وهي تضم نخبة من هواة التمثيل، ويتولى إدارتها باترو باولي صاحب جريدة المراقب، واسمها يدل على غرضها.

(١-٤) رابعًا: الأندية

كثر ظهور الأندية في بيروت وغيرها من مدن سوريا على أثر إعلان الدستور، لكن أكثرها سياسي تابع لحزب الاتحاد والترقي، أو حزب الائتلاف، أو سواهما من الأحزاب السياسية مما ليس من شأننا الخوض فيه.

على أن إطلاق حرية الأقلام والاجتماعات ساعد على إنشاء الأندية الأدبية التي يجتمع فيها الأعضاء للمطالعة أو المذاكرة، وكان البيروتيون قد أنشئوا غرفًا للمطالعة

قبل الدستور لها فروع في جهات سوريا — كما سيجيء في باب المكاتب — فعمدوا إلى إنشاء الأندية الأدبية، وآخِر نادٍ من هذا القبيل أنشئ في بيروت هذا العام، أعضاؤه نخبة أدباء بيروت المسلمين، وسموه «النادي الأهلي»، ويقال بالإجمال: إن الأندية الأدبية في سوريا لا تزال في أول نشأتها.

ومن الأندية العربية الهامة «المنتدى الأدبي»، تأسس في الأستانة بعد الدستور، وله مجلة علمية تصدر باسمه، غرضها تأييد العنصر العربي، وإحياء آداب العرب.

(١-٥) الجمعيات السورية خارج بيروت

كل ما تقدم ذكره من الجمعيات نشأ في بيروت أم مدائن سوريا من حيث العلم والأدب وسائر أسباب المدنية، وقد اقتدت بها سائر المدن السورية في هذا السبيل، فأنشأت الجمعيات الأدبية والعلمية والخطابية والتعليمية وغيرها، وناهيك بالجمعيات الخيرية فإنها كثيرة جدًّا في بيروت وغيرها، ولم نتعرض لذكرها؛ لأنها خارجة عن موضوع بحثنا، حتى الجمعيات الأدبية والعلمية فإن ما ذكرناه من جمعيات بيروت ليس كل ما نشأ فيها من هذه الجمعيات، فقد ظهر فيها بعد الدستور جمعيات عديدة، وإنما أردنا هنا بيان كيفية نشوء الجمعيات العلمية والأدبية في سوريا، كما بيَّنَّا كيفية نشوء المدارس والطباعة والصحافة وغيرها، على أننا لا نرى بأسًا من الإتيان بأمثلة من الجمعيات التي نشأت في بعض المدائن السورية الكبرى ليقاس عليها.

(أ) **الجمعيات في حلب:** لم ينشأ بحلب جمعيات علمية أدبية قبل الدستور، أو لعلها لم تظهر بسبب الاستبداد والضغط على الأفكار، وسوء ظن الحكومة بكل اجتماع، ومن الجمعيات التي ظهرت قبل الدستور في حلب «جمعية النشأة التهذيبية»، تأسست سنة ١٩٠٧، وظلت مستترة حتى أُعلِن الدستور في السنة التالية، فظهرت وعقدت الاجتماعات في التحريض على إنشاء الجمعيات لبث روح الرُّقِيِّ العلمي والأدبي في الناشئة الحلبية، فكان لكلامها وقع، لكنها أُقفِلت بعد عام آخر، فاجتمع جماعة من الأدباء في السنة التالية سنة ١٩١٠ لإنشاء نادٍ يمثِّل هذا الغرض جعلوه تحت رئاسة فخري باشا والي حلب إذ ذاك، وجعلوا غرضه التعاون على بث المعارف والرياضة البدنية والفنون المطربة، فلاقى إقبالًا لكنه لم يطل عمره.

وقِسْ على ذلك تاريخ أندية وجمعيات أخرى أنشئت لمثل هذه الأغراض ولم يَطُلْ بقاؤها، «منها نادي الأدب» أنشأه القس توما أيوب سنة ١٩٠٩، يتخرج عليه الشبان في

الأدب والمطالعة والاستفادة بدلًا من اللهو في القهوات، و«نادي الجهاد الأدبي»، و«جمعية تثقيف الفقير» أنشئت سنة ١٩١٣ ولا تزال، غير الجمعيات الأخرى لإعانة الفقراء في غير التعليم.

وآخر جمعية تشكَّلت للتعليم بحلب جمعية المقاصد الخيرية، وهي من نوع جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية التي نشأت في بيروت، وقد تقدم ذكرها، أنشأها بعض أدباء حلب المسلمين في هذا العام، وشعارها «لا حياة إلا بالعلم». و«الجمعية الإسلامية الشرقية» قام بها بعض الناهضين من شبان حلب المسلمين للسعي في ترقية العلم ونشره بمال يُجمَع بالاشتراك من أفراد الأمة، وجعلوا الاشتراك عامًّا وقيمته زهيدة، فأصبح المشتركون فيها نحو ألف شخص، وبالجملة فإن في حلب نهضة أدبية في سبيل إنشاء الجمعيات، فعسى أن يُوفَّقوا إلى ما يريدون.

(ب) **الجمعيات في حمص:** أكثر ما أنشئ في حمص من الجمعيات يرمي إلى غرض خيري طائفي، وبعضها خيري فقط للقيام بالإحسان إلى الفقراء ودفن الموتى، والبعض الآخر للقيام بإدارة بعض المدارس الخيرية أو غير الخيرية، وبعضها من قبيل الجمعيات السياسية للجمع بين العناصر العثمانية، أو دينية لسماع الوعظ والإرشاد، وهذا كله يخالف ما أردنا بيانه في ما تقدم من الجمعيات العلمية والأدبية الخطابية أو التعليمية، على أن بعض هذه الجمعيات كثيرًا ما تتخذ هذه الخطة.

ومن الجمعيات التي تدخل في هذا الباب جمعية دفن الموتى للروم الأرثوذكس، تأسست سنة ١٨٩٢، كان غرضها دفن الموتى، ثم نابت مناب جمعية المدارس الأرثوذكسية سنة ١٩٠٢ للاهتمام بما بقي من تلك المدارس بعد تسليم شطرها الآخَر إلى جمعية فلسطين. والجمعية الخيرية الإسلامية تأسست سنة ١٩١٣ لاستدرار حسنات المسلمين لأجل تربية أيتامهم، وجمعية نور العفاف الأرثوذكسية النسائية تأسست سنة ١٨٩٨، كانت مقتصرة أولًا على سماع الخطب الأدبية، ثم تطرقت إلى إنشاء مستشفى لمعالجة المرضى مجانًا، و«النهضة الحمصية» تأسست سنة ١٩١٣ للجمع بين العناصر العثمانية بالخطب والإرشاد.

(ج) **الجمعيات في دمشق:** قد تقدم ذكر جمعية رابطة المحبة التي أنشئت في دمشق سنة ١٨٧٤ فرعًا لجمعية شمس البر، وأنشئ غيرها من الجمعيات لم نقف على خبرها.

واهتم الدمشقيون في زمن مدحت باشا بأمر التعليم، فأنشئوا بإيعاز هذا الرجل المصلح الجمعية الخيرية سنة ١٨٧٨، انضم إليها علماء دمشق وأدباؤها في ذلك العهد،

وعهد إليها في إنشاء المدارس وترقية المعارف، واشتغلت بإنشاء المكتبة الظاهرية الآتي ذكرها، ولم يطل بقاؤها إلا ريثما نقل مدحت من سوريا.

والجمعية التاريخية: أنشئت سنة ١٨٧٥ للبحث في العلم والتاريخ.

وجمعية الفنون الطبية: خاصة بالأبحاث، أنشئت سنة ١٨٨٧، انضم إليها الأطباء الوطنيون للبحث في المعارف الطبية ونحوها.

(د) **الجمعيات في طرابلس الشام:** نشأت الجمعيات في طرابلس اقتداء ببيروت أيضًا، وقد علمنا من رصيفنا جرجي يني صاحب المباحث في طرابلس الشام — وهو من أعضاء الجمعية العلمية في المدرسة الكلية — أنه اتفق في أواسط العقد الثامن من القرن الماضي مع بعض الأدباء، وأنشئوا جمعية أدبية رئيسها إسكندر كاتسفليس، وكاتبها جرجي يني، وانضم إليها كثيرون، وكانت تلقي الخطب في مواضيع مختلفة، فلما انتشبت الحرب الروسية العثمانية سنة ١٨٧٦ أُقفِلت.

ثم أنشأ الطرابلسيون جمعية تعليمية سموها «جمعية كفتين»، أنشأت مدرسة كفتين على مبادئ حرة، وظلت المدرسة عاملة سبع سنين ثم أُقفِلت، وفي العزم إعادتها الآن.

وفي سنة ١٨٩٠ أنشئت في طرابلس جمعية النادي الأدبي برئاسة جرجي يني، وكان من أعضائها شقيقه صموئيل وفرح أنطون صاحب الجامعة، وأسعد باسيلي وغيرهم، وأُقفِلت لسبب حوادث الأرمن سنة ١٨٩٤، وكان غرضها إلقاء الخطب على الجمهور.

وقِسْ على ذلك نحو هذا التأثير في المدائن السورية الأخرى، وتكاد لا تخلو مدينة من مدن سوريا من مثل هذه النهضة، حتى القرى في لبنان، فإن في كثير منها جمعيات أدبية، والغالب أن يكون مؤسسوها من تلاميذ الأميركان.

وتشكلت في سوريا في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن، ولا سيما بعد إعلان الدستور جمعيات عديدة في سبيل الخطابة أو التعليم لا حاجة إلى ذكرها.

(٢) الجمعيات العلمية والأدبية في مصر

إن نشوء الجمعيات بمصر يرجع الفضل فيه إلى واضع بذور المدنية الحديثة فيها بونابرت؛ فإنه أنشأ فيها معهدًا علميًّا لغته الرسمية الفرنساوية، وأُعِيد إنشاؤه في عهد الدولة الخديوية، وأنشئت جمعيات أجنبية أخرى، فرأينا أن نقول كلمة في هذه الجمعيات قبل التقدم إلى الجمعيات العربية.

(٢-١) الجمعيات العلمية الأجنبية بمصر

(أ) **المعهد العلمي المصري تأسس سنة ١٧٩٨:** أنشأه نابليون بونابرت، وسماه بالفرنساوية Institut d'Egypte، وهو فرنساوي اللغة لكنه مصري الغرض؛ لأنه أنشئ لخدمة مصر والمصريين، عُقِدت جلسته الأولى في ٢٢ أوغسطس سنة ١٧٩٨ في منزل حسن شركس بالناصرية، وقد دهش أدباء مصر في ذلك العصر مما شاهدوه في من مستحدثات الاختراعات، فوصفه مؤرخ تلك الحقبة (الجبرتي) بقوله:

> فيه جملة كبيرة من كتبهم، وعليها خُزَّان ومباشرون يحفظونها، ويحضرونها للطلبة ومن يريد المراجعة، فيراجعون فيها مرادهم، فتجتمع الطلبة منهم كل يوم قبل الظهر بساعتين، ويجلسون في فسحة المكان المقابلة لمخازن الكتب على كراسي منصوبة موازية لتختات عريضة مستطيلة، فيطلب من يريد المراجعة ما يشاء منها فيحضرها له الخازن، فيتصفحون ويراجعون ويكتبون، حتى أسافلهم من العساكر.

والدليل على أنه أنشئ لخدمة مصر أنهم كانوا يحببون إلى أدباء المصريين المجيء إليه، وإذا جاء أحدهم بذلوا مودتهم، وأطلعوه على ما فيه من المدهشات العلمية، وقد جاء في قانونه أنه أنشئ لنشر المدنية والعلم بمصر، والتنقيب عن الآثار، ودرس الأخلاق وغيرها، وكان أعضاؤه ٤٨ عضوًا على أربعة أقسام حسب العلوم: الرياضيات والطبيعيات والاقتصاد السياسي والآداب، لكل منها ١٢ عضوًا، وبين أعضاء هذا المعهد نخبة من علماء فرنسا في ذلك العهد، وقد تعين الموسيو مونج رئيسًا، وبونابرت نائبًا، وفورنيه كاتبًا، وله نشرة كانت تصدر كل ثلاثة أشهر، ثم نشروا خلاصة أبحاثهم في أربعة مجلدات، ومن ثمار درسهم نشر الكتاب النفيس في وصف مصر Description d'Egypte في مجلدات كثيرة، وذهب ذلك المعهد بذهاب الفرنساويين من مصر سنة ١٨٠١.

(ب) **مجلس المعارف المصري تأسس سنة ١٨٥٩:** فلما صارت مصر إلى محمد علي، انقضت معظم ولايته وليس في مصر جمعية علمية، ولكن بعض الجاليات أنشئوا فيها جمعية إنكليزية سموها الجمعية المصرية The Egyptain Society غرضها درس اللغات والآثار، سموها بالفرنساوية Société d'Egypte ولا نعرف مصيرها.

على أن جماعة من رجال العلم بالإسكندرية أجمعوا على إحياء المعهد العلمي المصري، فأحيوه سنة ١٨٥٩، وسموه Institut Egyptien وعرَّبوه «مجلس المعارف المصري»،

ثم نُقِل إلى القاهرة سنة ١٨٨٠، ولا يزال يعقد فيها، ولغته الرسمية الفرنساوية لكن أبحاثه شرقية، وأعضاؤه من نخبة علماء الإفرنج والوطنيين، وتوالى على رئاسته بضعة عشر رئيسًا معظمهم من الإفرنج، في جملتهم مريت باشا ودشامبور وكولوتشي وماسبرو وأرتين باشا وغيرهم.[١]

(ج) **الجمعية الجغرافية الخديوية تأسست سنة ١٨٧٥:** غرضها الأبحاث الجغرافية العلمية، ولغتها فرنساوية، وكان رئيسها عند تأسيسها شواينفرت الألماني، ووكيلاه محمود باشا الفلكي والجنرال ستون باشا، وسكرتيرها المركيز كومبيان، ورئيسها الآن أباتا باشا، وسكرتيرها جلياردو بك صاحب مجلة مصر الفرنساوية، وهي تنشر أعمالها بالفرنساوية في كتب تظهر حسب اللزوم منها مجموعات في المكتبة الخديوية.

(د) **جمعيات أجنبية أخرى:** ومن الجمعيات العلمية الإفرنجية بمصر الجمعية الإنكليزية في القاهرة سنة ١٨٩٨، رئيسها الدكتور فرغوسن، والجمعية الجغرافية الزراعية أنشئت سنة ١٨٩٨، رئيسها البرنس حسين كامل باشا، والجمعية الرمدية سنة ١٩٠٢، وجمعية علم الحشرات Entomologte تأسست سنة ١٩٠٧. والجمعية الدولية الطبية تأسست سنة ١٩٠٨، تجتمع في قاعة مجلس المعارف المصري، رئيسها كومانوس باشا. والجمعية الألمانية الطبية سنة ١٩٠٩، رئيسها الدكتور مايرهوف. والجمعية الخديوية للاقتصاد السياسي سنة ١٩٠٩، لها مجلة تنشر أبحاثها، وتجتمع في قاعة الجامعة المصرية.

(٢-٢) الجمعيات العربية في مصر

تأخر ظهور الجمعيات العربية بمصر إلى النصف الثاني من القرن الماضي على أثر تنبه الأذهان إلى الأمور السياسية في زمن الخديو إسماعيل، بما قام من المنافسة بينه وبين حليم باشا، وقد تكاثر الأجانب، وتزايد الاحتكاك بالمدنية الأوربية، ولا سيما بعد قدوم جمال الدين الأفغاني إلى وادي النيل، وانتشار روح السياسة الحرة في نفوس الأدباء، فمالوا إلى الاجتماعات السرية لتلك الأغراض، فاتخذوا الماسونية وسيلة للاجتماع، ثم أنشئوا الجمعيات السياسية، فنقول كلمة فيها قبل التقدم على الجمعيات العلمية والأدبية.

الجمعيات السياسية بمصر

كان أكثر هذه الجمعيات سرية تستتر باسم علمي؛ ولذلك كان تحقيق شئونها صعبًا، لكنا نذكر ما بلغنا من أخبارها نقلًا عن الثقات الذين عاصروها أو اشتركوا فيها، منها:

(١) (جمعية الآداب) أنشئت بمصر سنة ١٨٧١، وتولى رئاستها الشيخ محمد الخشاب الفلكي، وحالما علمت الحكومة بها أقفلتها.

(٢) (الجمعية الشرقية) أنشئت بمصر ١٨٧٧، ومن أعضائها أرتين باشا، وفخري باشا، وسليمان أباظة، وإلياس حبالين، والدكتور مهدي خان التبريزي، وعنه أخذنا خبرها، قال: «وكانت تجتمع في بيت أحمد فهمي بالسكرية»، وقد تعطلت في أيام عرابي.

(٣) (جمعية مصر الفتاة) ذكروا من أعضائها جمال الدين الأفغاني، وأديب إسحق، وسليم نقاش، وعبد الله نديم، ونقولا توما من أرباب الأقلام في ذلك العهد، وأصدروا جريدة «مصر الفتاة» باسم هذه الجمعية في أواخر أيام إسماعيل، وأكد لنا بعض الثقات العارفين أن هذه الجمعية كانت اسمًا بلا مسمى، وإنما أراد أصحاب جريدة مصر الفتاة إيهام أولي الأمر بوجود جمعية سرية يُخشَى بأسها، وليست الجمعية بالحقيقة إلا محرري تلك الجريدة أديب إسحق، وسليم نقاش، كانا يكتبان بإيعاز جمال الدين الأفغاني يريدون مقاومة شدة إسماعيل، ولذلك كانوا يصدرونها بالعربية والفرنساوية؛ ليوهموا الخديوي أنها لسان حال جمعية كبرى من الإفرنج والوطنيين تسعى في خلع إسماعيل أو قتله، وكان إسماعيل يخشاها، ويبحث عن أعضائها فلم يهتدِ إليهم.

(٤) (جمعية الشبان) أنشئت في الإسكندرية قبيل الثورة العرابية للاحتجاج على لائحة فرنسا وإنكلترا التي ترتب عليها شبوب نار الثورة، وطالبت أيضًا بإنشاء بنك وطني فرارًا من استثمار الأجانب بمرافق البلاد، وكثيرًا ما كان يحضر اجتماعاتها محافظ الإسكندرية (عمر باشا لطفي)، وضمن لها السعي لدى الحكومة في مطالبها، ومن أعضائها: السيد إبراهيم أبو هيف، وإبراهيم بك سعود، ومحمد بك شوباشي، وعبد القادر الغرياني، وكان هذا تابعًا لدولة فرنسا، فتنازل عن تبعيتها لهذا الغرض.[٢]

وهناك جمعيات سياسية أو أحزاب نشأت بعد الاحتلال لا فائدة من ذكرها في هذا المقام، أشهرها الحزب الوطني، وحزب الإصلاح، وحزب الأمة، والحزب الدستوري.

(٣-٢) الجمعيات العلمية والأدبية بمصر

أما الجمعيات التي أنشئت بمصر في سبيل العلم فهي عديدة، وقد توخت في خدمته طرقًا تختلف في بعض أحوالها عن الجمعيات السورية، فنقسِّمها إلى مجاميع باختلاف أغراضها أو أساليبها وهي:

(١) جمعيات نشر الكتب.
(٢) جمعيات الترجمة والتأليف.
(٣) الجمعيات العلمية الخطابية.
(٤) الجمعيات العلمية الفنية.
(٥) الأندية الأدبية.
(٦) الجمعيات الخيرية التعليمية.
(٧) جمعيات التمثيل.

أولًا: جمعيات نشر الكتب

هي أقدم الجمعيات العربية العلمية بمصر، ولعل المصريين عمدوا إليها اقتداءً بأعمال الحكومة في زمن محمد علي؛ إذ أخذ في نشر الكتب وترجمة العلوم، وإليك أهمها مرتبة حسب سِنِي إنشائها:

١- جمعية المعارف تأسست سنة ١٨٦٨

أسسها محمد عارف باشا أحد أعضاء مجلس الأحكام سنة ١٨٦٨ بمصر لنشر الكتب النافعة، وأنشأ إبراهيم بك المويلحي إذ ذاك مطبعة سماها باسم الجمعية لطبع تلك الكتب، وكانت تطبع في سواها أيضًا، وكانت جمعية المعارف شركة مساهمة، ثمن سهمها خمسة جنيهات، فلقيت إقبالًا كثيرًا حتى بلغ عدد المساهمين أو الأعضاء بضع مئات، وللأعضاء في مقابل ذلك أن يقتنوا مطبوعات الجمعية بثمن أقل مما يُعطى لسواهم، وكانت تعلن عن عزمها على نشر الكتاب، وتعين ثمنه فئات متفاوتة حسب التعجيل في الدفع. وقد طبعت طائفة من الكتب الهامة في التاريخ والفقه، منها: أُسد الغابة لابن الأثير خمسة مجلدات، وكتاب ألف باء مجلدان، والفتح الوهبي مجلدان، وتاج العروسة عدة مجلدات وغيرها. وفي ذيل الفتح الوهبي قائمة بأسماء الأعضاء في ذلك الحين.

وما زالت هذه الجمعية عاملة حتى حدث التنازع السياسي بين إسماعيل باشا وحليم باشا على منصب الخديوية، وكان محمد عارف باشا يروج آراء حليم، فبلغه أن إسماعيل عالم بأمره، ففر إلى الأستانة وتوفي هناك، وانحلت الجمعية، وكان عارف باشا من أهل الأدب وله مؤلفات في التركية منها: «آثار قلم» نُشِر في الديوان المعروف بمنشآت قلم، وكان يُحسِن اللغة العربية، ويروون من نظمه فيها بيتين يفتخر بهما قال:

ألم تعلم بأن سماء فكري	تلوح بأفقها شمس المعارف
تفرس والدي في المزايا	فيوم ولدت لقبني بعارف

٢- شركة طبع الكتب العربية تأسست سنة ١٨٩٨

تألفت سنة ١٨٩٨ لنشر الكتب الهامة في العربية، ومن أعضائها حسن باشا عاصم وأحمد بك تيمور وعلي بك بهجت وغيرهم، وقد طبعت طائفة من الكتب المفيدة، منها كتاب الموجز في فقه الإمام الشافعي، وسيرة السلطان صلاح الدين، وفتوح البلدان للبلاذري، والإحاطة في أخبار غرناطة، وتاريخ دولة آل سلجوق وغيرها.

ومن هذا القبيل لجنة تألَّفت لنشر كتاب «المخصص» لابن سيده سنة ١٩٠٢، أهم أعضائها الشيخ محمد عبده، وحسن باشا عاصم، وعبد الخالق باشا ثروت، ومحمد بك النجاري وغيرهم، فظهر الكتاب في ١٧ مجلدًا، وقد طبعت كتبًا أخرى.

ثانيًا: جمعيات التعريب والتأليف

وهناك جمعيات تشكلت لتعريب الكتب أو تأليفها، عرفنا منها:

(١) (جمعية التعريب) لترجمة الكتب الحديثة في الاجتماع والاقتصاد، أنشئت سنة ١٨٩٣، وهي أشبه بلجنة، أعضاؤها: علي (باشا) أبو الفتوح، ومحمود (بك) كامل رئيس نيابة قنا، وصالح (بك) نور الدين، ومحمد مسعود، فترجموا كتاب الاقتصاد السياسي لجيفونس وطُبِع، ثم انحلت الجمعية بعد سنة لتفرُّق أعضائها.

(٢) (جمعية تأليف الكتب) تشكلت سنة ١٩١١ برئاسة عبد الرحيم بك أحمد، وأعضاؤها نحو ثلاثين عضوًا من أدباء المصريين، غرضها تأليف الكتب المدرسية، وطبعها بمال يجمعونه منهم، وقد طبعت إلى الآن نحو عشرة كتب مدرسية، ولا تزال عاملة.

وآخر جمعية للتعريب اللجنة التي شكلتها نظارة المعارف لتعريب الكتب المدرسية.

ثالثًا: الجمعيات العلمية الخطابية

نريد بها الجمعيات العلمية والأدبية لترقية إحساس الأمة الاجتماعي، والتمرين على الخطابة والدرس والبحث، وهي بمصر أحدث منها في سوريا، وإليك ما عرفناه من أخبارها.

١- جمعية رواق الشوام بالأزهر تأسست سنة ١٨٧٣

هي أول جمعية خطابية أدبية ظهرت بمصر، وقد أنشأها طلبة الأزهر السوريون سنة ١٨٧٣ / ١٢٩٠هـ، أنبأنا بخبرها حفني بك ناصف مفتش أول اللغة العربية في نظارة المعارف، قال: «وكانت كلما عزم طالب سوري على الرجوع إلى الشام نهائيًّا، تحدِّد ليلةً للاجتماع تعلنها إلى أهل الرواق، فيعد الشعراء قصائد الوداع، ويتلونها ليلة السفر بمصر بين علماء الأزهر وأدبائه، وكانوا يبتدئون القصيدة بالغزل، ثم يتخلصون إلى المديح والوداع، وكان الشعراء يتبارون ويتنافسون فيها أيما تنافس، ولم يكن الشعراء من السوريين فقط، بل كل من أراد أن ينظم قصيدة، مصريًّا كان أو سوريًّا، تُقْبَل منه، ويُؤذَن له بتلاوتها، وبقيت هذه الجمعية إلى سنة ١٣٠٠هـ، ولا أدري باقية هي أم انتهى أمرها».

٢- الجمعية الخيرية الإسلامية (الأولى) تأسست سنة ١٨٧٨

أنشئت في الإسكندرية سنة ١٨٧٨ / ١٢٩٦هـ، وهي غير الجمعية الباقية بهذا الاسم إلى اليوم وسيأتي ذكرها، أما الجمعية الخيرية الإسلامية الأولى فكانت علمية أدبية، وإن كان الباعث على إنشائها روحًا سياسية اجتماعية دبَّت في نفوس المصريين في ذلك العهد على أثر ما شاهدوه من استئثار الأجانب بمرافق البلاد الاقتصادية، فتشكلت هذه الجمعية لفتح المدارس لتعليم البنين والبنات وتهذيب أخلاقهم، على أن تكون تلك المدارس حرة مطلقة، كما يستفاد من قانونها المطبوع، ومنه نسخة في المكتبة الخديوية.

وكانت هذه الجمعية تتبادل الخطب ليلًا في المواضيع العلمية والتاريخية، وقبيل افتتاحها انضم إليها عبد الله نديم فكلَّفته بافتتاح مدرسة تحت نظارته، وأعانته الحكومة

بمساعدة مالية وبمكان للتعليم، بشرط أن لا تكون الجمعية خاصة بالمسلمين، فسموها «الجمعية الخيرية المصرية»، واعتبرتها الحكومة مدرسة رسمية، وصادقت على قانونها، وما زالت الجمعية والمدرسة تتقدمان حتى بدأت الثورة العرابية، فانفصل نديم عنها وانضم إلى العرابيين، وانفرط عقد الجمعية من ذلك الحين.

وقد أخبرنا محمد أفندي أمين باشكاتب محكمة الإسكندرية الأهلية أن من مؤسسي هذه الجمعية: حسن منصور، والدكتور حسن سري، ومحمد شكري معاون ضبطية إسكندرية، والحاج أمين الكيال، والشيخ محيي الدين النبهاني، ومحمود واصف، والشيخ علي ضيف، وحسن المصري، وعبد المجيد عمر شويطر. وذكر لنا غيره من مؤسسي هذه الجمعية: رستم بك العلايلي، وأحمد نبيه، ومحمد باشا الناضوري، ومحمد بك العدل، وعبد القادر بك الغرياني، وغيرهم.

أما المدرسة فأخبرنا حفني بك ناصف أنها كانت تديرها لجنة من أعيان الإسكندرية رئيسها محافظ الإسكندرية، ووُضِعت تحت رعاية الخديوي توفيق باشا، وفيها تخرَّج مصطفى باشا ماهر العضو الوطني بمصلحة الدومين، وإنه حصل شقاق بين أعضاء اللجنة فاستقال المحافظ من إدارتها فتولاها آخر، وتولى نظارة المدرسة عبد الله نديم، وأنشأت في أثناء ذلك رواية تمثيلية اسمها «مصر وطالع التوفيق»، كانت لهجتها تشف عن أسف عظيم على تقهقر مصر، ولذلك وقعت الشبهة بأنها تقاوم التيار الأجنبي، ثم أنشأ عبد الله نديم جريدة «التنكيت والتبكيت» وشُغِل عن المدرسة، وابتدأت الثورة العرابية فأُقفِلت. وكان خطباء هذه الجمعية: عبد الله نديم، وأحمد سمير، وأديب إسحق، وإبراهيم اللقاني، وأحمد العوام وغيرهم، ويجوز أن تُعَدَّ من الجمعيات التعليمية.

٣- جمعية الاعتدال تأسست سنة ١٨٨٦

أنشئت في القاهرة سنة ١٨٨٦، وغرضها بث روح الفضيلة، وترقية الأخلاق، والتمرن على الخطابة في المواضيع الاجتماعية ولا سيما الاعتدال، على مثال جمعية شمس البر في بيروت، أو الجمعية العلمية في الكلية، وأكثر مؤسسيها من متخرجي الكلية الأميركية، وانضم إليها طائفة حسنة من الأدباء والكتَّاب في ذلك العهد، وفيهم طبقة أصبحوا الآن من خيرة أرباب الأقلام وأصحاب المناصب، يحضرنا من أسمائهم الدكتوران صروف ونمر صاحبا المقتطف، الدكتور شبلي شميل، الدكتور أخنوخ فانوس، أحمد زكي باشا سكرتير مجلس النظار، حفني بك ناصف مفتش اللغة العربية بنظارة المعارف، جبرائيل

بك كحيل المحامي، جندي بك إبراهيم صاحب الوطن، الشيخ علي يوسف صاحب المؤيد، إبراهيم الجمال المحامي، يوسف بك دبانة، نجيب غناجة، أثناسيوس صيقلي، الدكتور طحان بك صاحب الهلال، وقد تولى رئاستها الدكتور فارس نمر، وحفني بك ناصف، وتعطلت سنة ١٨٨٩.

٤- جمعية التقدم المصري تأسست سنة ١٨٩١

أسسها تلاميذ الحقوق المصريون في مونبلييه في فرنسا سنة ١٨٩١، ومنهم علي أبو الفتوح باشا، وشوقي بك شاعر الأمير، وغرضها التأليف وإلقاء الخطب في العربية، وقد نبتت لها فروع في بلاد فرنسا بين المصريين، وانتقلت سنة ١٨٩٣ إلى مصر، وظلت فروعها هناك، وكانت تجتمع بمصر مرة في الأسبوع، وأصدرت مجلة باسمها «التقدم المصري»، وانحلت الجمعية سنة ١٨٩٥ بسبب تفرُّق الأعضاء إلى مناصبهم.

٥ و٦- جمعية العلم المصري، وجمعية العلم الشرقي وغيرهما

تأسست الأولى بمصر سنة ١٨٩٣ برئاسة السيد بك رفعت، ومن أعضائها الشيخ المهدي أستاذ تاريخ آداب اللغة العربية في الجامعة المصرية الآن، وإسماعيل بك عاصم، والدكتور عبد الرحمن إسماعيل، وغرضها إلقاء الخطب والمباحثات الاجتماعية، ولم يطل عمرها، وتأسست الثانية في تلك السنة لمثل ذلك الغرض، وكان بقاؤها قصيرًا.

ومن هذا القبيل الجمعية الأدبية السورية سنة ١٨٩٥ بمصر، والجمعية الأدبية الشرقية في دمياط سنة ١٨٩٦، وجمعية الاقتصاد الأهلي في الإسكندرية سنة ١٨٩٦، وغيرها من الجمعيات التي أنشئت في مصر، أو غيرها من مدائن القطر المصري، وكلها توقفت.

رابعًا: الجمعيات العلمية الفنية

نعني الجمعيات الخاصة بفرع من فروع العلم، أقدمها:

(١) (الجمعية الجغرافية الخديوية) المتقدم ذكرها بالفرنساوية.

(٢) (الجمعية الزراعية) تشكلت سنة ١٨٨٠، وغرضها إيجاد العلائق المستمرة بين المشتغلين بالأمور الزراعية علمًا وعملًا، وإجراء التمرينات الزراعية الجديدة، ونشر نتائج أبحاثها في مجلة باسمها تصدر مرة في الشهر بالعربية والفرنساوية، ولا تصدر الآن.

(٣) (الجمعية الطبية المصرية) أنشئت سنة ١٨٨٨ بمصر برئاسة سالم باشا سالم، ومن أعضائها أرتين باشا، وحسن باشا محمود، وغيرهما من نخبة الأطباء المصريين، ثم توقفت فأعاد إنشاءها الدكتور عيسى باشا حمدي، وتولى رئاستها سنة ١٨٩٨ ووضع لها قانونًا.

(٤) (المجمع اللغوي) وهو يختص بالأبحاث اللغوية، وغرضه على الخصوص وضع المصطلحات العلمية لما حدث من المسميات الجديدة في أثناء هذه المدنية، أنشئ في القاهرة سنة ١٨٩٢ برئاسة السيد توفيق البكري شيخ مشايخ الطرق الصوفية، ولم يطل بقاؤه.

خامسًا: الأندية الأدبية

الأندية من قبيل الجمعيات مع بعض الاختلاف، وهي أنواع منها: الأندية السياسية، أو العلمية، أو الأدبية، أو أندية الألعاب، أو غيرها … ويهمنا هنا ما يتعلق منها بالعلم والأدب في اللغة العربية، وهاك أشهرها:

(١) (النادي الشرقي) هو خاص بالسوريين، أنشئ بمصر ١٨٩٨، وكان الغرض منه عند الشروع في إنشائه أن يكون جمعية أدبية على مثال جمعيات بيروت المتقدم ذكرها، ثم عدلوا عن ذلك فجعلوه ناديًا يجتمع فيه أعضاؤه للمطالعة أو المسامرة، وقد سموه النادي الشرقي، وهو يضم طائفة من خيرة السوريين في الوجاهة والعلم والثروة، تُعقَد فيه حفلات علمية أحيانًا للمحاضرة، ولا يزال.

(٢) (نادي رعمسيس) وهو خاص بالأقباط، أُسِّس في القاهرة سنة ١٩٠٥، غرضه ترقية الآداب، وتوثيق عرى المحبة، وفيه نخبة من أدباء الأقباط ووجهائهم، وقد تُلقَى فيه المحاضرات في سبيل المصلحة العامة، وفي الإسكندرية نادٍ بهذا الاسم لمثل هذا الغرض ولا يزال.

(٣) (نادي المدارس العليا) هو أقرب هذه الأندية إلى الجمعيات العلمية، وهو خاص بمتخرجي المدارس العليا، تُلقى فيه الخطب والمحاضرات في كل فن ومطلب، ولا سيما التاريخ والأدب، اقترح إنشاءه الدكتور عبد العزيز نظمي على متخرجي المدارس العليا،

فتألفت لجنة للنظر في ذلك، فقررت إنشاءه، واختارت عمر بك لطفي رئيسًا له، وافتُتِح رسميًّا سنة ١٩٠٦، ولا يزال عاملًا، وفيه نخبة الشبيبة الراقية بمصر.

(٤) (نادي دار العلوم) أنشئ سنة ١٩٠٧ على أثر تأسيس نادي المدارس العليا؛ لأن هذا خاص بمتخرجي المدارس الحديثة (الأفندية)، فرأى أدباء دار العلوم وغيرهم من المشايخ أن ينشئوا ناديًا خاصًّا بهم، فأنشئوه برئاسة حفني بك ناصف، كانت تلقى فيه الخطب، وأكثر أبحاثه في اللغة ومصطلحاتها، وقد وضع أعضاؤه بضعة آلاف لفظة اصطلاحية جديدة، نُشِر بعضها في مجلة كانت تصدر باسم النادي، وقد توقفت الآن.

(٥) (نادي موظفي الحكومة بالإسكندرية) وهو من أقرب الأندية إلى الجمعيات الأدبية العلمية، تُلقَى فيه الخطب والمحاضرات في العلم والأدب والتاريخ، وتُمثَّل فيه الروايات الأدبية لترقية الأخلاق والحث على الفضائل، أنشئ سنة ١٩٠٩، وله لجنة مؤلفة من ١٢ عضوًا، رئيسها الآن عثمان باشا مرتضى رئيس الديوان الخديوي، ووكيلاها محمد بك مالك الإسكندري، ومحمد بك الجمال، وسكرتيرها محمد غالب الغرياني — وعليه عولنا في تحقيق أحوال هذا النادي — وأمين صندوقها محمد بك أمين مدور. وقد بلغ عدد المشتركين فيه نحو ٢٥٠ عضوًا، وتُلقَى في النادي دروس البكالوريا والليسانس في الحقوق، وقد تخرَّج فيه كثيرون، ومنه تنشأ المشروعات الأدبية النافعة، فقد تأسست فيه جمعية المواساة الإسلامية، ونقابة مستخدمي الحكومة، وشركة المشروعات الأهلية، وشركة التعاون المنزلي لموظفي الحكومة، ونادي الرياضة البدنية، ولجنة تمثيل، وكل من هذه المشروعات تديرها لجنة تتألف من مجلس إدارة النادي.

(٦) (جمعية الاتحاد السوري) هي من قبيل الأندية، أنشئت سنة ١٩١٤، غرضها جمع كلمة السوريين، والنظر في مصالحهم، وحفظ علائقهم مع سائر العناصر المكوِّنة للأمة المصرية، وهي تعقد الاجتماعات الأدبية لأغراض أدبية.

وتكاثرت الأندية في أنحاء القطر المصري في أوائل هذا القرن، ولا تكاد تخلو مدينة من نادٍ أدبي فيه غرفة للقراء، يجتمع إليه أدباء تلك المدينة مما يطول بيانه.

سادسًا: الجمعيات الخيرية التعليمية

الجمعيات الخيرية كثيرة في مصر، وما من طائفة أو أمة أو جماعة إلا ولها جمعية خيرية تنظر في شئون فقرائها لسد عوزهم، أو معالجة مرضاهم، وإنما يدخل في بحثنا منها

الجمعيات التي غرضها الرئيسي إنشاء المدارس للتعليم، ولا يدخل في ذلك المشروعات الخيرية التعليمية للأوقاف الإسلامية أو الطوائف الأخرى، وإنما نريد الجمعيات التي تشكَّلت من أفراد الأمة المصرية لنشر التعليم في الناشئة المصرية، وهاك أشهرها حسب سِنِي تأسيسها:

١- جمعية المقاصد الخيرية تأسست سنة ١٨٧٨

هي أقدم الجمعيات الخيرية التعليمية المصرية، أُنشِئت في مصر أواخر أيام إسماعيل سنة ١٨٧٨ / ١٢٩٦هـ، وكان رئيسها سلطان باشا، وباشَر إدارتها مقبل باشا، وانضم إليها كثيرون من أعيان مصر، وأنشأت مدارس كثيرة، وأمدت عدة أسر فقيرة، وكانت تُلقَى فيها الخطب، وأشهر خطبائها عبد الله نديم، وحسن الشمسي، ونوابغ التلامذة، ولم تُعرَف الخطابة في مصر جهرًا قبل هذه الجمعية، فهي من قبيل الجمعيات الخطابية، لكننا وضعناها بين الجمعيات التعليمية؛ لأنها أقدم الجمعيات المصرية من هذا النوع، وقد أبطلت في الثورة العرابية، أنبأنا بخبرها حفني بك ناصف.

٢- جمعية العروة الوثقى الإسلامية تأسست سنة ١٨٩١

أنشئت في الإسكندرية سنة ١٨٩١ / ١٣٠٩هـ للقيام بالأعمال الخيرية، ونشر العلوم والمعارف والآداب والصنائع، وتعليم الفقراء مجانًا، والإعانة على تربيتهم، تجمع إيرادها من اشتراكات أعضائهم وتبرعات المحسنين، وقد مضى عليها بضع وعشرون سنة عملت في أثنائها أعمالًا جليلة في التربية والتعليم، ومواساة الفقراء وإعالة العاجزين، كما يظهر من تقاريرها السنوية، وتنقسم أعمالها إلى أقسام أهمها التعليم، وقد أنشأت له المدارس الابتدائية والثانوية والتحضيرية والصناعية للذكور والإناث، وعدد تلاميذها سنة ١٩١٠ نحو ٣١٠٠ تلميذ، بينهم ٨٥٠ تلميذة، نحو ألف منهم يتعلمون مجانًا، ولها مدرسة صناعية اسمها مدرسة محمد علي الصناعية، يتعلم فيها الطلاب أهم الصنائع، كالنجارة والحدادة والسروجية والنقش وصنع الأحذية والطباعة والتجليد، مع مبادئ الحساب والهندسة والكيمياء والطبيعة، عدد تلاميذها ٢٧٢ تلميذًا.

ولها ملجأ للأيتام اللقطاء اسمه الملجأ العباسي، يجتمع إليه كل سنة نحو ٢٠٠ طفل، يعتنى في تربيتهم غاية الاعتناء، ولها مجلة تظهر كل شهر تبحث في الدين والاجتماع

والأدب والتاريخ والزراعة والتدبير المنزلي، يُفرَّق قسم كبير منها مجانًا، وقد انضمت إلى الجمعية جمعية أخرى اسمها «جمعية حماية الأطفال» أنشئت في الإسكندرية، ثم صارت في جملة جمعية العروة الوثقى.

٣- جمعية التوفيق القبطية أنشئت سنة ١٨٩١

تمهيد

للأقباط مجد قديم من زمن الفراعنة، وكل ما يروى من أحوال مصر العلمية والأدبية في ذلك العهد فالأقباط شركاء فيه، وكان لهم شأن أيضًا في الدول الإسلامية، ونبغ منهم علماء وأدباء، ثم دخلوا في الأجيال المظلمة في جملة الأمم الشرقية، ولا سيما في زمن أمراء المماليك، وقد وصف أحوالهم رجل منهم في القرن السابع عشر اسمه «أبو دقن المنوفي» في كتاب باللغة العربية تُرجِم إلى اللاتينية سنة ١٦٧٥، ثم نُقِل إلى الإنكليزية سنة ١٦٩٣ بقلم السير سدلر، ويقال إن الأصل العربي موجود في مكتبة أكسفورد، جاء في هذا الكتاب ذكر مدارس كانت بمصر يعلِّمون فيها القبطية والعربية والحساب والجغرافية والدين، لكنهم كانوا على الإجمال في ظلمة مثل سائر المشارقة، وما زالوا كذلك حتى نهضوا في هذا العصر في جملة الناهضين.

الأنبا كيرلس الرابع

وإمام هذه النهضة عندهم المرحوم البطريرك كيرلس الرابع المتوفى سنة ١٨٦١، وقد تقدم ذكره في كلامنا عن الطبعة بمصر، وهو أول مَن سعى في نشر العلم الحديث لترقية الناشئة ولا سيما الرهبان، فأنشأ لهم مدرسة في عزبة بوش، وجمع لهم مكتبة فيها كثير من الكتب المخطوطة، وأنشأ مدرسة كبرى بجانب كنيسة القبط في القاهرة لا تزال باقية إلى الآن، وهي أول مدرسة أهلية بمصر، ثم أنشأ المدرسة الكبرى في حارة السقايين، لا تزال باقية إلى الآن، وقد تخرَّج فيها طائفة من خيرة رجال الأعمال، منهم المرحوم بطرس باشا غالي، والمشهور أن البطريرك كيرلس المذكور أول مَن نبَّه إلى تعليم الفتاة القبطية، وسار الأقباط على خطواته، وأخذوا بأسباب الرقي.

الإصلاح القبطي

وتنبهوا إلى إحياء جامعتهم بإحياء لغة أجدادهم، فأخذوا في درسها ووضع القواعد التي تسهِّل فهمها بعد أن أوشكت تضيع — أو هي ضاعت إلا في بعض الطقوس الكنائسية مثل اللغة السريانية في سوريا — فأخذوا يؤلفون الكتب لتعليمها لأبناء العربية، وأشهر المشتغلين في ذلك برسومُ الراهب مدرِّسُها في المدارس القبطية، ألَّف عدة كتب مدرسية في هذا السبيل، وأقلاديوس لبيب أنشأ مجلة عين شمس لإحياء اللغة القبطية وآدابها، ووضع فيها معجمًا قبطيًّا عربيًّا في عدة مجلدات.

واهتمت الأمة القبطية في إصلاح إدارة أوقافها ومدارسها الطائفية، وكانت قد أُهمِلت بعد موت كيرلس المذكور، فسعوا في إنشاء مجلس مِلِّيٍّ يتولى هذه الأمور، فلاقوا في ذلك تعبًا ومشقة. وإنما يهمنا في هذا المقام سعيهم في سبيل التعليم، فإنه كان من أهم مطالب العقلاء منهم، ولا سيما تعليم البنات؛ لعلمهم أنه الوسيلة الفضلى لتغلب الحديث على القديم، فعمدوا إلى تشكيل الجمعيات لهذه الغاية.

جمعية الاقتصاد القبطية

وأقدم جمعياتهم في سبيل التعليم على ما نعلم «جمعية الاقتصاد»، عرفنا من أعضائها يعقوبَ بك نخلة، وفرج بك إبراهيم. أنشأت مدرسة لتعليم البنات في الفجالة سنة ١٨٨٧، تخرَّجت فيها كثيرات من فضليات الأمهات، ثم أُنشِئت جمعية التوفيق.

جمعية التوفيق القبطية

تأسست في ٢٤ أغسطس سنة ١٨٩١، وانضم إليها نخبة الشبان المتعلمين الغيورين، وغرضها الإصلاح على الإجمال، فأخذت تنظر في حال المدارس القبطية، والتربية الصحيحة، ووضعت تقريرًا في أحوال تلك المدارس وما تحتاج إليه من الإصلاح، كان له وقع شديد، ثم عمدت إلى العمل ونشر آرائها في اجتماعاتها بالمناقشة والمناظرة مرة في الأسبوع، وأنشأت مجلة سمَّتها «مجلة القبطية» تنشر فيها أبحاثها وقراراتها، فحدث في الطائفة القبطية نهضة وطنية، وانحاز المتعلمون إلى جانبها، وقوي صوت الشعب في طلب الإصلاح.

وعملت على نشر العلم، فأنشأت مدارس للبنين والبنات، ومدرسة للصنائع وغير ذلك، ونبتت للجمعية فروع في أنحاء القطر المصري تعمل مثل عملها، ولا تزال عاملة في ذلك إلى الآن، ويؤخذ من تقريرها لسنة ١٩١٣ أن عدد التلاميذ الذكور في مدارسها ٥١٣ تلميذًا منهم ١٦٧ يتعلمون مجانًا، وعدد الإناث ٢٥١ تلميذة منهن ١٠١ مجانًا، وتلاميذ الصنائع ٦٨ منهم ٥٨ مجانًا، غير أعمالها الخيرية المختلفة، واشتراكها في المشاريع الملية.

جمعيات قبطية أخرى

وكانت هذه الجمعية قدوة لسواها، فأنشئت بعدها جمعيات قبطية كثيرة للتعليم والتربية، منها «جمعية جامعة المحبة» بالفجالة لها مدرسة لتعليم البنات، و«جمعية التهذيب» في القللي لتعليم البنات، و«جمعية زهرة الآداب» لها مدرسة في القللي أيضًا وغيرها، غير المدارس في الأرياف مما لا محل لذكره.[٣]

ويدخل في بحثنا مشروعات «الجمعية الخيرية القبطية» التي أسسها المرحوم بطرس باشا غالي سنة ١٨٨١ لمساعدة الفقراء أدبيًّا وماديًّا، وهي عاملة على ذلك إلى الآن، ومن مساعيها الجليلة إنشاء «المشغل البطرسي» لتعليم البنات الفقيرات ما يرتزقن به من المهن اليدوية كالتفصيل والخياطة ونحوها، فأنشئوا المحل اللازم لذلك في الفجالة، وأتوا بالمعلمات من فرنسا وغيرها، وأعدوا العُدَد اللازمة، وافتتحوه رسميًّا في أول نوفمبر سنة ١٩١١، وللجمعية مشروعات خيرية أخرى لتعليم البنات، ومستشفى خيري، ومدرسة للبنات تعدهن للدخول في المشغل البطرسي.

٤- الجمعية الخيرية الإسلامية (الثانية) تأسست سنة ١٣١٠/ ١٨٩٢

هي غير الجمعية الخيرية الإسلامية التي تقدم ذكرها، غرضها مساعدة فقراء المسلمين المقيمين في القطر المصري، والإعانة على تربيتهم، وكان الإقبال على هذا المشروع عظيمًا، واهتم به نخبة رجال الأمة الغيورين، فاجتمع في صندوقها في السنة الأولى نيف وألف جنيه، فقررت أن تأخذ بالتعليم الابتدائي، وترشيح الفقراء لاكتساب الصنائع والحرف، وما زالت تتقدم وتتسع أعمالها، والأمة تأخذ بيدها بدفع المال أو وقف العقار أو البناء، حتى صارت ممتلكاتها سنة ١٩١٢ عظيمة، منها ٧٥٠ فدانًا من أجود الأطيان، أجرتها في السنة ٧٣٠٠ جنيه، ولها من الأبنية خمس مدارس في أسيوط ودسوق والمحلة الكبرى

وبورسعيد وبني مزار، وأربعة مكاتب وملحقاتها، وأرض للبناء في المحلة مساحتها ٨٣٣٧ مترًا، غير ما يرد للجمعية من الأوقاف الأخرى، وغير الاشتراكات، وقيمتها سنويًّا ١٩٠٠ جنيه.

أما سعيها في سبيل العلم فأكثره في التعليم، وعدد مدارسها ٩ مدارس في مصر والإسكندرية والأرياف، عدد تلاميذها ٣٥٢٣ تلميذًا، منهم ١١٣٧ مجانًا، والمتخرجون من المدارس الابتدائية ينقلون إلى تعلم الحِرَف أو التجارة أو الزراعة، أو المدارس الثانوية.

جمعيات أخرى تعليمية

وتألفت بعد هذه الجمعيات الكبرى جمعيات أخرى عديدة لمثل هذا الغرض يضيق المقام عن ذكرها منها:

- جمعية الإخلاص: تأسست في الإسكندرية سنة ١٨٩٥ برئاسة محمد طاهر، اشتغلت مدة ثم انضمت إلى جمعية العروة الوثقى المتقدم ذكرها.
- جمعية المساعي المشكورة: في شبين الكوم تأسست سنة ١٨٩٧.
- جمعية عاملة توراة: الإسرائيلية في الإسكندرية سنة ١٨٩٧، وجمعية مدارس الفنون والصنائع الإسرائيلية سنة ١٨٩٨، وجمعية صدق الوفاء بمصر، وغيرها كثير من الجمعيات واللجان.
- جمعية الاتحاد لتعليم البنات: تألفت في القاهرة في أول هذا العام من أرقى طبقات السيدات بمصر، تحت رعاية والدة الجناب الخديوي.

سابعًا: جمعيات التمثيل

هي من قبيل الجمعيات في سبيل النهضة الأدبية، وقد نشأت مع التمثيل العربي في سوريا؛ لأن السوريين كانوا منذ ظهور هذا الفن عندهم يتألفون للتمثيل جماعات، ويعقدون الاجتماعات لدرس الرواية، وتدبير ما تحتاج إليه من النقود ونحوها، وكذلك فعل هواة هذا الفن بمصر، فإن جمعيات عديدة تألَّفت لإحيائه وتنشيطه، أو للاشتغال به عن الملاهي الضارة، وأكثرها في الإسكندرية، أقدمها جمعية ألَّفها عبد الله نديم من تلاميذ المدرسة الخيرية الإسلامية التي تألَّفت بالإسكندرية، ومن أعضاء جمعية الشبان المتقدم ذكرها، وقد مثلت روايتين وطنيتين في ملعب زيزينيا بحضور الخديوي السابق،

الأولى رواية الوطن، والثانية رواية العرب، كلاهما تأليف عبد الله نديم، وهو يرمى بهما إلى غرض سياسي.

أما الجمعيات التي تألفت لترويج فن التمثيل فأقدمها نشأ في الإسكندرية:

- جمعية الابتهاج الأدبي: أنشئت في الإسكندرية سنة ١٨٩٤، ألَّفها مستخدمو البوسطة المصرية برئاسة سليم عطا الله، وموضوعها مَنْعُ أعضائها من تمضية ساعات الفراغ في أماكن اللهو، وأن يجمعوا نقودًا يؤلفون بها جوقًا يمثل روايات أدبية يحضرها عائلات الأعضاء فقط، فلا يمضي شهر إلا مثلوا رواية، وقد ظلت عاملة أعوامًا عديدة، ورئيسها الآن صاحب جوق للتمثيل في الإسكندرية.
- جمعية الترقي الأدبي: أنشئت بالإسكندرية نحو ذلك الزمن.
- شركة التمثيل الأدبي: أنشئت بالإسكندرية.
- جمعية المعارف الأدبية: أنشئت سنة ١٩٠٠.
- جمعية أنصار التمثيل: هي آخر جمعية في سبيل التمثيل، أنشئت في القاهرة في أول هذا العام، غرضها إحياء هذا الفن بإلقاء الخطب والمحاضرات، وتأليف الروايات في مواضيع مستنبطة تلائم حالتنا الاجتماعية، وترجمة ما يفيد الناشئة من الروايات الأجنبية، وتدريب الراغبين في هذا الفن وغير ذلك.

(٢-٤) إحصاء الجمعيات بمصر

وهناك جمعيات أخرى لمواضيع مختلفة يضيق المقام عن ذكرها، أو الإتيان على تاريخها؛ لأننا نريد ذكر نشوء الجمعيات الأدبية والعلمية، وما هو من هذا القبيل في هذه النهضة، وإلا فإن الجمعيات كثيرة، ويؤخذ من إحصاء الحكومة الرسمي أن عدد الجمعيات الخيرية على اختلاف أغراضها يناهز ١٦٠ جمعية، تقسم حسب مواضيعها إلى ما يأتي — مع الإشارة إلى ما هو وطني أو أجنبي أو مشترك.

عدد	الجمعيات والملاجئ	مصرية	أجنبية	مشتركة
٦٢	جمعيات خيرية منها	٣٤	٢٧	١
١٤	جمعيات الإسعافات منها	١٠	٢	٢
١٧	جمعيات المستشفيات منها	٥	١٠	٢
١٥	ملاجئ للرجال والنساء منها	٥	٩	١
٤	جمعيات رعاية الأطفال والفتيات منها	٢	١	١
٩	ملاجئ الأيتام واللقطاء منها	٣	٥	١
١٦	جمعيات التعليم والإحسان منها	١٢	٤	
٨	جمعيات التعليم منها	٥	٣	
١٠	جمعيات التعاون منها	١	٤	٥
٣	جمعيات أخرى منها	٢	١	
١٥٨		٧٩	٦٦	١٣

وأكثر هذه الجمعيات تشكلت بعد الاحتلال الإنكليزي، وأما التي كانت قبله فقد نشأت في الإسكندرية، وأقدمها هناك جمعية مار منصور تأسست سنة ١٨٣٣، تليها جمعية التعاون السويسري سنة ١٨٦٣، فالجمعية السورية الأرثوذكسية سنة ١٨٧٥.

إيرادات هذه الجمعيات ونفقاتها

يؤخذ من الإحصاء الرسمي لهذا العام أن جملة إيرادات هذه الجمعيات ٢٨٩٤٧٣ جنيهًا، ونفقاتها ٢٦٤٠٧٤، منها نحو ٤٠٠٠٠ جنيه تُنفَق على التعليم وحده، ونحو هذه القيمة على الإحسان والتعليم، غير ما تنفقه الحكومة في سبيل التعليم.

(٣) الجمعية العربية في أميركا للجالية السورية

السوريون حيثما حلوا اشتغلوا باللغة العربية ونشر آدابها بالصحافة والجمعيات والتمثيل وغيرها، وقد ذكرنا صحافتهم بأميركا في ما تقدم، أما الجمعيات العربية فلهم فيها شأن يذكر أيضًا، وأكثرها أنشئ في البرازيل والولايات المتحدة، وبلغ عدد الجمعيات التي أنشئوها هناك أكثر من ثلاثين جمعية أدبية أو خيرية أو دينية أو تهذيبية، والغرض من إنشائها المحافظة على الجامعة العربية، والاحتفاظ بالآداب العربية وترقيتها، وبعض هذه الجمعيات أشد غيرة في هذا السبيل من أهل هذا اللسان بمصر والشام، فقد أنشأ أدباء الجالية السورية في سانباولو بالبرازيل جمعية أدبية سموها «رواق المعري»، غرضها رفع شأن اللغة العربية وإحياء ذكر رجالها، فإذا ظهر كتاب أو أثر علمي قدَّرته قدره وقررت منزلته، وإذا مات رجل عالم اعترفت بفضله، واحتفلت بتأبينه وذكر آثاره ورفع الستار عن رسمه — كما فعلت عند وفاة الشيخ محمد عبده، والشيخ إبراهيم اليازجي.

وفي نيويورك جمعية عربية عظيمة الأهمية اسمها جمعية الاتحاد السوري، غرضها الدفاع عن حقوق السوريين، وكثيرًا ما تعقد الاجتماعات الأدبية، أو تتولى الأعمال الأدبية العايدة بالنفع على السوريين، ولها مواقف هامة في الدفاع عنهم، ولا سيما في مسألة الجنسية السورية، وهناك جمعيات أخرى لم نذكرها؛ لأن موضوع الكتاب يقتضي حصر الموضوع في الجمعيات العلمية الأدبية، على أننا نقول كلمة عن جمعياتهم التمثيلية، منها المنتدى الأدبي في سانباولو، وجمعية نهضة التمثيل العربي فيها، وقد مثلت كل منهما عدة روايات عربية، مؤلفوها عرب وممثلوها عرب وحضورها عرب في تلك القارة البعيدة.

والمنتدى السوري الأميركي في نيويورك في نحو ما تقدم، وقِسْ على ذلك جمعيات وأندية أخرى ألَّفتها الجالية السورية في المهجر بأميركا والبرازيل وأرجنتين، وغيرها من العالم الجديد يصعب علينا إحصاؤها.

غير الجمعيات العلمية في سائر العالم العربي كالجزائر وتونس، وهي هناك صبغتها فرنساوية؛ لتغلُّب العنصر الفرنساوي في الحكومة والطبقات العالية.

هوامش

(١) ترى تفصيل ذلك لتوفيق أسكاروس في الهلال صفحة ٥٧٩ سنة ٢١.

(٢) أخبرنا بذلك الشيخ أحمد أبو علي الأزهري وكيل المكتبة البلدية بالإسكندرية.

(٣) من أراد الاطلاع على تفصيل ذلك، فليطالعه في كتاب «الإنسانية والتمدن» لجرجس بك أنطون بمصر.

المكاتب أو خزائن الكتب

(١) تمهيد

ليست خزائن الكتب العربية من محدثات هذه المدنية، فقد كانت كثيرة في إبان التمدن الإسلامي، وهو عصرها الذهبي، وأكثر ما بين أيدينا من الكتب الهامة في الآداب العربية شذرات من بقايا تلك المكاتب، وقد بيَّنَّا في الجزء الثالث من تاريخ التمدن الإسلامي (صفحة ٢٠٥–٢١٤) ما بلغت إليه خزائن الكتب العربية في العراق والأندلس ومصر والشام، وأكثرها تعد مجلداتها بمئات الألوف، وتجاوز بعضها مليون مجلد، أعظمها كان للخلفاء العباسيين في بغداد، والأمويين في الأندلس، والفاطميين بمصر، والخلفاء هم السابقون إلى تلك المنقبة، واقتدى بهم وزراؤهم وعمالهم ورجال العلم في أيامهم، فلما صارت السيادة إلى الأمراء والسلاطين من الفرس والترك والعرب والبربر قلَّدوهم في ذلك، وتكاثرت المكاتب الخصوصية لرجال العلم والأدب، وأهل الوجاهة في أنحاء العالم الإسلامي، وأصبحت الخزائن التي تحتوي الواحدة منها على عشرات الألوف من الكتب كثيرة، تعد بالعشرات للأمراء والوزراء والعلماء من المسلمين وغير المسلمين، العرب وغير العرب، وأصبح اقتناء الكتب من علامات الحضارة يتسابق إليه أصحاب الأموال وطلاب الشهرة، وإن كانوا من غير أهل العلم، وإنما يتفاخرون باقتنائها، ويبالغون في إتقان خطها وتزيين جلودها وزخرفتها، ويتنافسون في استخدام النساخ الماهرين في ذلك.

على أن هذه الخزائن كان بعضها خاصًّا بأصحابه، أو من يأذنون لهم من أصدقائهم في الاطِّلاع عليها، وبعضها كان عامًّا أنشئ لخدمة طلاب الاستفادة من الأدباء وغيرهم، وأكثر المكاتب العمومية أنشأها الخلفاء أو غيرهم من الملوك، مثل: بيت الحكمة في بغداد،

ودار الحكمة في القاهرة، وأمثالها في الأندلس والمغرب، ومنها ما هو لغير الملوك من الأمراء والعلماء، وسواهم من نصراء العلم.

لكن المصائب كانت تتوالى على الكتب العربية من جهة أخرى، بما كان يقوم بين الفِرَق الإسلامية من المنازعات، أو بمناوأة رجال الفلسفة واتهامهم بالزندقة وإحراق كتبهم في أنحاء المملكة الإسلامية، وناهيك بما فعله غير المسلمين من الفاتحين منذ تغلبهم على المسلمين، أو النقمة عليهم كما فعل الصليبيون في الشام، والإسبان في الأندلس، وغير ما بلي من الكتب بطول مكثه، وفناء جلده أو ورقه، أو بفعل النار أو الفار، أو نحو ذلك.

فهذه الإحن بدأت من صدر الدولة العباسية، لكن أصحاب الهمم من الخلفاء والسلاطين أو غيرهم من نصراء الأدب كانوا يعوضون عن تلك الخسائر بما ينشئونه من المكاتب الجديدة، والأمة لا تزال في شبابها تعوض عمَّا يندثر من أنسجتها، فلما شاخت الدولة، وضعفت الجامعة العربية وانحطت قواها الحيوية، قل التجديد وزاد الدثور، وتمكن ذلك على الخصوص في أثناء الأجيال الوسطى، وتضعضعت الكتب وتبعثرت بقاياها، فأصبح ما بقي منها في المكاتب العامة لا يزيد على عشرات الألوف، مشتتة في مكاتب الأستانة والقاهرة ودمشق وحلب وغيرها من العالم العربي.[١]

(٢) المكاتب العربية في أوربا

خرجنا من ظلمات تلك الأجيال، ونحن في هذه الحال من التضعضع، وقد أوشكت آداب اللغة العربية أن تذهب برمتها لو لم يأخذ بيدها محبُّو هذه اللغة من المستشرقين في أوربا، وكانت الدول الأوربية قد أخذت في إنشاء المكاتب الكبرى الأهلية لإحراز كتب العلم على اختلاف اللغات، وبينها أقسام خاصة باللغات الشرقية، ومنها اللغة العربية، ووكلت أمر هذه الأقسام إلى علماء بارعين في اللغات الشرقية وآدابها، فاحتفظوا بما عندهم من الكتب العربية، ووضعوا لها الفهارس والتقارير، وأخذوا في نشرها وترجمتها، فطبعوا كثيرًا منها مضبوطًا واضحًا، ووضعوا له الفهارس الأبجدية، ونشروه بين طلاب العلم، ونحن لا نزال غارقين في جهالتنا. وسنزيد هذا الباب بيانًا في كلامنا عن المستشرقين، ونكتفي هنا بما تعلق بالمكاتب من هذا الموضوع.

فالمكاتب الأوربية التي احتفظت بالآداب العربية عديدة، إليك أهمها وما تحويه كل منها من المجلدات على اختلاف اللغات، وفي جملتها الكتب العربية، مع عنوانات تلك

المكاتب بالإفرنجية لتسهل مخابرتها من شاء الاستفهام عن شيء يتعلق بالكتب التي ذكرنا في هذا الكتاب أنها موجودة هناك:

(١) **مكتبة برلين الملوكية:** مكتبة برلين الملوكية: عدد مجلداتها ١٤٥٠٠٠٠ مجلد، فيها ٣٠٠٠٠ من المخطوطات، بينها مخطوطات عربية كثيرة جاء ذكر كثير منها في هذا الكتاب، وهذا عنوانها الإفرنجي: Der Konigl. Bibliothek, Berlin.

(٢) **مكتبة جامعة بون:** عدد مجلداتها ٣٦١٦٢٣ مطبوعًا، و١٩٥١ مخطوطًا.

(٣) **مكتبة جامعة كمبريدج:** وهي أقسام، منها مكتبة القديس يوحنا فيها ٤٠٠٠٠ مجلد مطبوع، و١٠٥٠ مخطوطًا، ومكتبة الثالوث فيها ٨٠٠٠٠ مجلد، ونحو ٢٠٠٠ مخطوط، وهذا عنوانها: The Library of Trinity College, Cambridge.

(٤) **مكتبة الإسكوريال:** في إسبانيا ٣٥٠٠٠ مجلد، منها ٤٦٢٧ مخطوطًا، بينها ١٨٨٦ في اللغة العربية، و٥٨٢ في اليونانية، و٢٠٨٦ في اللاتينية، وهذا عنوانها: Biblioteca Arabico-Hispana Escurialensis, Madrid.

(٥) **مكتبة غوطا:** تأسست سنة ١٦٤٦، فيها ١٩٦٠٠٠ مجلد، و٢٥٠٠ مخطوط في المواضيع الشرقية ومنها العربي، وعنوانها: Der Herzogl. Bibl, Gotha.

(٦) **مكتبة جامعة غوتنجن:** فيها ٥٨٢٢٠٠ مجلد و٧٣٧١ مخطوطًا، بينها كثير من الكتب العربية النادرة، وعنوانها: The Library of the University of Gottingen.

(٧) **مكتبة جامعة ليدن:** عدد مجلداتها ٢٠٠٠٠٠ مجلد، منها ٢٦٠٠ في اللغات الشرقية، بينها كثير في اللغة العربية، وعنوانها: Library of the University of Leyden.

(٨) **مكتبة لندن:** نريد خصوصًا مكتبة المتحف البريطاني، فيها ٨٠٠٠٠ مجلد، بينها كثير من المخطوطات العربية، وعنوانها: British Museum, London.

(٩) **مكتبة جامعة منشن:** فيها ٦٥٠٠٠٠ مجلد، منها ٢٥٠٠ مخطوط، بينها كثير من الكتب العربية، وعنوانها: Hof-und Statsbibliothek, Munchen.

(١٠) **مكتبة أوكسفورد:** وتسمى مكتبة بودليان، تأسست سنة ١٥٩٨، فيها ٧٠٠٠٠٠ مجلد مطبوع، و٣٣٠٠٠ مخطوط، وهي غنية بالمخطوطات العربية، وعنوانها: Bodleian Library, Oxford.

(١١) **المكتبة الأهلية في باريس:** فيها ٣٥٠٠٠٠٠ مطبوع، و١٠٠٠٠٠ مخطوط في لغات شتى، منها ١٣١٣ في العبرانية، وأضعاف ذلك في العربية وعنوانها: Bibliothéque Nationale, Paris.

(١٢) **مكتبة بطرسبورج الملوكية:** فيها ١٩٦٢٠٠٠ مجلد، و١٢٣٠٠٠ مخطوط، فيها كثير من الكتب الشرقية ولا سيما العربية، وعنوانها: Bibliothéque Impériale, St. Pétersbourg.

(١٣) **مكتبة الفاتيكان في رومية:** فيها ٤٠٠٠٠٠ مجلد مطبوع، و٤٥٠٠٠ مخطوط، فيها جانب كبير من الكتب الشرقية حملوها من الشرق، وعنوانها: Bibliothecae Apostolicae Vaticanae, Rome.

(١٤) **المكتبة الأهلية:** في رومية أيضًا، فيها ٤٥٠٠٠٠ مجلد مطبوع، و٦٢٠٠ مخطوط، وعنوانها: Bibliothéque Nationale, Rome وفي رومية مكاتب أخرى عديدة تعد بالعشرات لا يهمنا ذكرها.

(١٥) **مكتبة فينا الملوكية:** فيها نحو ١٠٠٠٠٠٠ مجلد مطبوع، و٢٧٠٠٠ مخطوط، غير الخرائط والرسوم، بينها كثير من المخطوطات العربية الهامة، وعنوانها: Konigl. & Hofbibl. Wien.

وقِسْ على ذلك مكاتب أخرى في مدائن أخرى، مثل: مكتبة لايبسك، ودرسدن، ومدريد، وغيرها.

(٣) المكاتب العربية في الشرق

أما العالم العربي فلم يفقْ من غفلته، ويتنبه للاحتفاظ بآداب اللغة العربية إلا في أواسط القرن التاسع عشر على أثر نهوض اللغة العربية في عهد الأسرة المحمدية العلوية، وما أنشئ من معاهد التعليم في سوريا وغيرها، فأخذت الحكومات أو الجمعيات في جمع الكتب وتقييدها وحفظها، واستنساخ ما تعلم بوجوده منها في البلاد الأخرى، واقتدى الأفراد بها فأخذوا باقتناء الكتب على اختلاف مواضيعها بين قديم وحديث في اللغة العربية واللغات الإفرنجية، وهاك أهم ما نعرفه من المكاتب العربية في الشرق، ونبدأ بالأستانة؛ لأن مكاتبها قديمة، ولأنها عاصمة العالم الإسلامي، ثم نتكلم عن مكاتب مصر فالشام فالعراق فالحجاز فالمغرب وغيرها.

(٣-١) مكاتب الأستانة

مكاتب الأستانة قديمة أنشئت في أوقات مختلفة، أكثرها يُنسَب إلى رجال من الخاصة وقفوا مكاتبهم لمنفعة العامة، وبعضها وقفها السلاطين وأبناؤهم ونساؤهم.

ويؤخذ مما نشره فلوغل في ذيل طبعة كشف الظنون الأوربية أنه كان في الأستانة ٢٢ مكتبة، مجموع كتبها نحو ثلاثة آلاف مجلد.

وفي الأستانة الآن ٦٥ مكتبة يختلف عدد كتبها من بضع عشرات إلى بضعة آلاف، نذكر منها ما يزيد عدد كتبها على خمسمائة كتاب، نقلًا عن إحصاء نظارة المعارف العثمانية الرسمي الأخير، مع اسم مؤسس المكتبة وتاريخ تأسيسها وعدد كتبها:

اسم المكتبة	اسم مؤسسها	سنة تأسيسها	عدد كتبها
مكتبة سليم أغا	الحاج سليم أمين المطبخ العامر	٩٥٥	١٣٨٢
مكتبة رستم باشا	شيخ باشا الصدر الأسبق	٩٥٨	٥٦٠
مكتبة أمير خواجة	نور بانو سلطان	٩٩١	٨٢٦
مكتبة كوبرلي	محمد باشا كوبرلي الصدر الأسبق	١٠٧٢	٣١١٨
مكتبة عاطف أفندي	مصطفى عاطف الدفتر دار	١١٠٤	٢٨٥٧
المكتبة الفيضية	السيد فيض الله شيخ الإسلام	١١١٢	٢١٩٠
مكتبة شاه زاده	ابن السلطان محمد	١١٢٧	١٠٧٧
مكتبة أندردن همايون	السلطان أحمد الثالث	١١٣١	٣٥١٥
مكتبة إبراهيم باشا	داماد إبراهيم باشا	١١٣٢	١١٧٥
مكتبة يكي جامع	السلطان أحمد الثالث	١١٣٧	١٥٤٤
مكتبة حكيم أوغلي	حكيم أوغلو علي باشا الصدر	١١٤٥	٩٤٦
مكتبة جار الله	ولي الدين أفندي	١١٤٧	٢١٣٤
مكتبة أيا صوفية	السلطان محمود الأول	١١٥٢	٥٣٠٠
مكتبة عاشر أفندي	مصطفى عاشر أفندي رئيس الكتاب	١١٥٤	٢٢٦٤
مكتبة الفاتح	السلطان محمد الأول	١١٥٥	٦٦١٤
مكتبة بشير أغا	الحاج بشير أغا	١١٥٨	٦٩٠
المكتبة السليمانية	مصطفى باشا الصدر	١١٦٥	١١٦٠

اسم المكتبة	اسم مؤسسها	سنة تأسيسها	عدد كتبها
مكتبة عموجه زاده	حسين باشا صدر أسبق	١١٦٨	٥٣٥
مكتبة نور عثمانية	السلطان عثمان الثالث	١١٦٩	٥٠٥٣
مكتبة راغب باشا	محمد راغب باشا الصدر الأسبق	١١٧٦	١٦٤١
مكتبة ولي الدين	شيخ الإسلام ولي الدين أفندي	١١٨٢	٣٤٨٤
مكتبة مراد منلا	داما زاده محمد مراد	١١٨٩	٢٢٧٦
المكتبة الحميدية	السلطان عبد الحميد الأول	١١٩٤	٣٢٥٢
مكتبة علي باشا	الشهيد علي باشا الصدر الأسبق		٣٨٢٠
مكتبة مهرشاه	مهرشاه والدة السلطان	١٢١٥	٧٢٧
مكتبة لاله لي	السلطان سليم الثالث	١٢١٧	٣٨٦٤
مكتبة قلنج علي باشا	دباغ زاده الحاج إبراهيم	١٢١٩	١٦٠٧
المكتبة السليمية	برتو باشا	١٢٢١	٦٥٥
مكتبة حالت أفندي	محمد سعيد حالت أفندي	١٢٤٤	١٠٩٠
مكتبة دار المثنوي	الشيخ محمد مراد	١٢٦٠	٥٩٥
مكتبة أسعد أفندي	أسعد أفندي نقيب الأشراف	١٢٦٢	٣٩٤٣
مكتبة يكي قبو	عبد الرحمن نافذ باشا ناظر المالية	١٢٦٧	٨٨٩٤
مكتبة فوزية	محمد راشد أفندي	١٢٦٨	٩٦٩
مكتبة خسرو باشا	خسرو باشا الصدر	١٢٧٠	٩٣٤
مكتبة مدرسة السلطان	أحمد بعض المحسنين	١٢٨٥	٥٩٠
مكتبة أقسراي	برتونيال والدة السلطان	١٢٨٨	٨٢٩
المكتبة العمومية	الحكومة العثمانية	١٢٩٩	٣٤٥٠٠
مكتبة يلدز	السلطان عبد الحميد الثاني	١٢٩٩	٢٦٧٦٦
مكتبة دو كوملي بابا	كمال باشا بن وجيهي باشا	١٣٠٣	٦١٩
مكتبة المتحف	الحكومة العثمانية	١٣٠٦	١٥٢٦٠
مكتبة حسن باشا	حسن حسني باشا ناظر البحرية	١٣١٢	١١٦٩
مكتبة تربة يحيي أفندي	حاج محمود افندي	١٣١٩	٦٩٤٩

اسم المكتبة	اسم مؤسسها	سنة تأسيسها	عدد كتبها
مكتبة دار الفنون	الحكومة العثمانية	١٣٢٥	٣٦٠٠
	الجملة		١٦٢٨٨١

غير مكتبة طوبقبو سراي، وهي من أفخر المكاتب ولا نعرف عدد كتبها، وقد جاء ذكر شيء منها في أثناء هذا الكتاب، وغير المكاتب التي يقل ما في الواحدة منها عن ٥٠٠ مجلد.

فمجموع ما في خزائن الأستانة من الكتب نحو ٢٠٠٠٠٠ مجلد في اللغات العربية والفارسية والتركية، أكثره في العلوم الشرعية الإسلامية والتاريخ والأدب واللغة وعلومها، وإليك نسبة ما هو منها في العربية إلى ما هو في اللغات الأخرى بوجه التقريب:

(أ) **المصاحف:** كلها عربية.
(ب) **كتب الشرع الإسلامي:** كلها عربية، إلا نحو ١٠ في المئة في التركية أو الفارسية.
(جـ) **التاريخ والتصوف:** تُقسَّم كتب كل منهما مثالثة بين العربي والفارسي والتركي.
(د) **الجغرافية الطبيعية:** أكثرها في التركية، وبعضها عربي وفارسي.
(هـ) **كتب الأدب:** أكثرها عربي، وقليل منها في الفارسية أو التركية.
(و) **علوم اللغة العربية:** كلها عربي إلا نادرًا.
(ز) **القواميس:** في اللغات الثلاث.

وفي مكاتب الأستانة كثير من المخطوطات النادرة، ولا سيما في طوبقبو وكوبرلي وأيا صوفيا ونور عثمانية، وقد ذكرنا ذلك في مكانه.

(٣-٢) المكاتب في القطر المصري

المكاتب في مصر كثيرة أهمها في القاهرة وبعضها في سائر القطر، منها ما هو عمومي أنشئ لخدمة الجمهور، وأكثره تابع لمصالح الحكومة أو لبعض الجماعات، ومنها ما هو خاص بأصحابه، اشتغل بجمعه هواة الكتب لأنفسهم، وفيهم من وقفها على منفعة

العموم. فلنتكلم أولًا عن المكاتب العمومية في القاهرة، ثم في الإسكندرية وسائر القطر المصري، ثم نعود إلى المكاتب الخصوصية في مصر وغيرها.

المكاتب العمومية في القاهرة

(١) **المكتبة الخديوية تأسست سنة ١٨٧٠، وفيها ٧٠٠٠٠ مجلد:** هي أكبر مكتبة في الشرق الأدنى، أنشأتها الحكومة الخديوية في أثناء هذه النهضة في تاريخ طويل يبدأ بزمن محمد علي، وقد أتمها إسماعيل سنة ١٨٧٠، وبيان ذلك: لما أخذ محمد علي في إحياء الآداب العربية، وعمل على نشر الكتب في المطبعة الأهلية، تكاثرت الكتب المطبوعة، فأنشأ لها مستودعًا في بيت المال القديم بجوار المحكمة الشرعية خلف المسجد الحسيني، تباع فيه مطبوعات الحكومة من كتب وغيرها، ظل هذا المستودع إلى أيام إسماعيل، وأُضيف إليه نحو ٢٠٠٠ مجلد من الكتب المخطوطة بالعربية والتركية والفارسية، كانت الحكومة قد ابتاعتها من تركة حسن باشا المناسترلي، عليها ختم «كتبخانة مصرية» تاريخه ١٨٦٥ / ١٢٨٢هـ.

وكان في مصر خزائن للكتب في المساجد، وبينها موقوفات كثيرة من المخطوطات الجميلة ولا سيما القرآن، غير الكتب الفقهية والحديث والتاريخ والأدب من بقايا الأعصر الماضية، فهذه الخزائن كانت تتولى شئونها المساجد، وهي تابعة لديوان الأوقاف، وظلت تلك الخزائن على هذه الحال إلى زمن إسماعيل، فحدث في الآداب العربية نهضة جديدة أصاب دار الكتب حظ منها، ويقال إن السلطان عبد العزيز لما زار مصر سنة ١٨٦٥ / ١٢٨٢هـ، وشاهد مساجدها وآثارها، أشار على إسماعيل باشا بإنشاء مكتبة عامة تجمع شتات الكتب المتفرقة في المساجد والتكايا ليستفيد الناس بمطالعتها.

فوقعت هذه الإشارة موقعًا جميلًا لدى إسماعيل، فأوعز سنة ١٨٦٩ إلى مدير ديوان المدارس (ناظر المعارف) يومئذٍ علي باشا مبارك أن ينشئ مكتبة خديوية ففعل، وخصص لها محلًّا في درب الجماميز بجانب ديوان المدارس، ونقل إليها ما كان في مستودع الكتب المتقدم ذكره وكُتُبَ المناسترلي، وأهمَّ كتب المساجد مما وقفه السلاطين، وغيرهم من الكتب النفيسة، وكان الإفرنج والأتراك قد نقلوا كثيرًا منها إلى أوربا أو مكاتب الأستانة، مع أن الواقفين لما وقفوها اشترطوا في صدرها أن لا تخرج من المسجد الموقوفة فيه.



السلطان عبد العزيز.

على أن الوطنيين كانوا أشد بلاء على الكتب؛ لأن الإفرنج أو غيرهم إذا أخذوا كتابًا إلى بلادهم حفظوه في مكاتبهم، أو نشروه في مطابعهم، أما في مصر فإن الجهلة من خدمة المساجد كانوا يحملون سلالًا مملوءة من الكتب المفكوكة (دشت)، يبيعونها للبقالين وباعة الفاكهة يلفون بها ما يبيعونه، فاشتغال علي باشا مبارك في نقل ما بقي من هذه الكتب إلى المكتبة الخديوية، صانها من الضياع، وأضاف إليها ما كان في خزانة الأوقاف الخيرية، وكثيرًا من الآلات الهندسية والرسوم ونحوها.

صدر الأمر بإنشاء المكتبة الخديوية رسميًّا سنة ١٨٧٠، وأخذ علي باشا في تنظيمها، ووضع لها قانونًا ألَّفته لجنة تحت رئاسته، وكان في المكتبة المذكورة عند إنشائها مكان للتدريس أو تلقين العلوم النافعة أو المراجعة في أوقات معينة، وكانت المكتبة أولًا تابعة لنظارة الأوقاف، ثم أُلحِقت بنظارة المعارف ولا تزال.

وبعد إنشاء المكتبة ببضع سنين (١٨٧٦) توفي البرنس مصطفى فاضل باشا شقيق الخديو إسماعيل، ونصير الأحرار العثمانيين، وكان كلفًا بالكتب حريصًا على اقتنائها، وعنده منها خزانة نفيسة من الكتب العربية وغيرها، فابتاع الخديو نخبة منها بنحو



البرنس مصطفى فاضل باشا.

١٣٠٠٠ جنيه، وأهداها للمكتبة الخديوية، وفيها طائفة من أفخر الكتب من كل فن، عددها ٣٣٠٥ مجلدات، منها ٢٣٣٢ في العربية، و٦٤٧ في التركية، و٣٢٦ في الفارسية.

ولا تزال المكتبة تجد في اقتناء الكتب العربية وغيرها، إما بالابتياع أو الاستنساخ أو الهدايا، وهي تتكاثر وتتزايد، ومن أهم ما أضيف إليها مجموعة من الكتب العربية كانت للشيخ الشنقيطي، عددها ٧٤١ كتابًا، منها ٣٠٦ مخطوطات، بينها نخبة من أجود الكتب، فأصبح عدد ما في المكتبة الخديوية الآن نحو ٧٠٠٠٠ مجلد، نحو نصفها من الكتب العربية، وأكثر الباقي في اللغات الأوربية، ونحو ٢٥٠٠ في التركية، و٦٥٠ في الفارسية، ومن الكتب العربية نحو ٣٢٠٠ كتاب في التاريخ.

ونحو هذا العدد في التاريخ أيضًا في اللغات الإفرنجية، ونحو ٢٧٠٠ كتاب في الأدب العربي، ونحو ١٢٠٠٠ كتاب في المواضيع الشرعية الإسلامية، وفي الخديوية كثير من الكتب النفيسة جاء ذكرها في تضاعيف هذا الكتاب.

والمكتبة المذكورة مفتوحة الأبواب للجمهور لأجل المطالعة أو المراجعة أو النسخ، ولها قانون تَعَدَّلَ مرارًا جاء في صدره أن الغرض الأساسي منها «حفظ وصيانة الكتب العربية، وتسهيل الاستفادة منها»، وهي تشتمل فضلًا عن كتب المطالعة على معرض للذخائر الثمينة، والآثار النفيسة، والخطوط العربية المختلفة على البردي والجلد وغيرهما، وفيها مجموعة نقود عربية، وقد أخذت في طبع بعض مخطوطاتها الهامة في سبيل إحياء آداب اللغة العربية.

(٢) **المكتبة الأزهرية تأسست سنة ١٨٧٩ وفيها ٣٦٦٤٢ مجلدًا:** كان في الزهر خزانة كتب كما كان في غيره من المساجد، وقد جاء في ذيل طبعة كشف الظنون لفلوغل أن مكتبة الأزهر في أول القرن الماضي كان فيها ١٠٩٩ كتابًا متفرقة في الأروقة، ثم زادت في أواسط القرن المذكور على غير نظام إلى سنة ١٨٧٩ / ١٢٩٧هـ، فأمر الجناب الخديو بجمع ما كان من الكتب في أروقة الأزهر المختلفة مما يستغني عنه الطلبة، وأن يجري عليها مال يُنفَق في شراء الكتب اللازمة للعلماء والطلبة، وأجور العمال اللازمين للقيام بهذا العمل، فجمعوا بعض تلك الكتب، ووضعوها في رواق الأتبغاوية — وهو مقرها إلى الآن — ورتبوها في الخزائن حسب مواضيعها، ووُضِعت لها قوائم الجرد، فانقسمت إلى ٣٠ فنًّا.

وكان عدد المجلدات عند إنشائها ٧٧٠٠ مجلد، وأخذت في الزيادة حتى بلغ عدد مجلداتها لآخر السنة الماضية ٣٦٦٤٢ مجلدًا، منها ١٠٩٣٢ من المخطوطات، وبلغ عدد الفنون فيها ٤٨ فنًّا، ومن كتب هذه المكتبة نحو ٢٠٠٠٠ مجلد في العلوم الإسلامية، والباقي في سائر الفنون، منها نحو ٣٠٠٠ أدب ومديح وفضائل، ونحو ٤٠٠٠ علوم لغوية، و٩٨٠ تاريخ وسِيَر، و١٣٠ جغرافية، والباقي من العلوم الأخرى، وزيد عدد العمال حتى أصبحوا عشرة، وأمينها الشيخ محمد طه سليم، وعليه كان معولنا في تحقيق أحوال هذه المكتبة، وهي تفتح أبوابها لمن أراد المطالعة، وفيها طائفة من الكتب النادرة جاء ذكر بعضها في ما مرَّ من هذا الكتاب، ومنها في التاريخ والأدب والموسيقى:

(أ) اقتطاف شقائق النعمان من رياض الوافي لوافيات الأعيان: لإبراهيم بن أحمد بن محمد الشافعي العباسي القادري، من علماء القرن العاشر، كَتَبَه بخطه سنة ٩٩٠هـ.

(ب) أنباء نجباء الأبناء: لشمس الدين محمد بن محمد بن ظفر الصقلي المتوفى سنة ٥٦٥هـ.

(جـ) أنباء الغمر بأبناء العمر: لابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢هـ.

(د) كتاب البوارح والسوانح: لشهاب الدين الخفاجي، وهو معدوم النظير.

(هـ) تحفة العجائب وطرفة الغرائب: لابن الأثير الجزري.

(و) تقويم النديم وعقبى النعيم المقيم: لابن حمويه، وهو بخط قديم.

(ز) الجموع في علم الموسيقى: لعبد الرحمن بو ذنب الفاسي.

(ح) كشف الهموم والكرب وشرح آلات الطرب: للمشهدي.

(٣) **مكاتب الأروقة في الأزهر فيها نحو ٣٠٠٠٠ مجلد:** وفي الأزهر مكاتب أخرى غير المكتبة الأزهرية المتقدم ذكرها يقال لها «مكاتب الأروقة»، لكل رواق مكتبة يطالع فيها تلاميذ ذلك الرواق، يبلغ مجموعها كلها نحو ٢٠٠٠٠ مجلد، منها نحو ٤٠٠٠ مجلد في رواق الشوام، ونحو ٩٠٠٠ مجلد في رواق الأتراك، بينها مخطوطات نادرة، و٨٠٠٠ في رواق المغاربة، والباقي في الأروقة الأخرى، والمكاتب المذكورة تحت مراقبة المكتبة الأزهرية، لكنها غير منظمة، ومشيخة الأزهر تريد ضمها إلى المكتبة المذكورة في ترتيبها والاستفادة منها، لكن المعلمين والطلبة يأبون ذلك، ولو أذعنوا لتضاعفت الفائدة المرجوة منها.

(٤) **مكاتب المساجد ودار الآثار فيها كلها ٣٠٥٦٧ مجلدًا:** قد تقدم أن المكتبة الخديوية استنفدت أهم ما كان في المساجد ونحوها من الكتب، لكن تلك المساجد لا يزال فيها كتب كثيرة، وقد رأيت ما ذكرناه عن المكتبة الأزهرية وهي أهمها، أما ما بقي من الكتب العربية في المساجد وغيرها، التابعة لنظارة الأوقاف، فعددها ٢٩٢٢٥ كتابًا في مواضيع مختلفة، أهمها في الفقه وغيره من العلوم الإسلامية، وفي العلوم اللغوية.

ومن توابع الأوقاف أيضًا «دار الآثار العربية» أو المتحف العربي، وسيأتي ذكره عند الكلام على المتاحف، وإنما نقتصر هنا على ذكر مكتبته، فقد علمنا من علي بك بهجت وكيل المتحف المذكور أن في مكتبته ١٣٤٢ مجلدًا، و١٢٠٥ لوحات فوتوغرافية عن الآثار، ولوحات لمشاهير قدماء الرسامين، غير منشورات لجنة حفظ الآثار في مصر وغيرها، مما يرد عليها في سبيل الهدايا من المعاهد العلمية الأثرية في فرنسا والجزائر وألمانيا وأميركا والبرازيل وغيرها.

(٥) ومن المكاتب في المساجد مكتبة الشعراني لم نقف عليها.

(٦) **المكتبة البكرية فيها ١٨٦٠:** نريد مكتبة السادة البكرية، وكبيرهم الآن السيد عبد الحميد البكري شيخ مشايخ الطرق الصوفية، وشيخ السجادة الوفائية، ومقر هذه المكتبة في سراي الخرنفش بمصر، وتشتمل على ١٨٦٠ مجلدًا (أو ١٤٤٧) أكثرها مطبوع، منها نحو ٦٥٠ مجلدًا في العلوم الإسلامية، و٣٧٤ في الأدب، و٢٤٠ في التاريخ، والباقي في فنون مختلفة.

وفي سراي الخرنفش مكتبة أخرى خاصة بالسيد عبد الحميد المشار إليه، تشتمل على نحو ١٠٠٠ مجلد، فيها طائفة حسنة من أهم كتب المراجعة في الفنون العصرية باللغة الفرنساوية، ونخبة كتب الآداب الفرنساوية، غير الكتب في المواضيع الأخرى في العربية وغيرها، وفي جملة ذلك نسخة من كتاب وصف مصر Description d'Egypte الذي ألَّفته البعثة العلمية من الحملة الفرنساوية في مجلدات كثيرة مع الخرائط والأطالس والصور، وهي نسخة ثمينة؛ لأنها من الطبعة الأولى لهذا الكتاب.

(٧) **مكتبة السادات الوفائية فيها نحو ١٠٠٠ مجلد:** هي تابعة للسجادة الوفائية بمصر، لم يتيسر لنا درسها لعدم انتظامها، لكنا تصفحنا فهرسها الموضوع سنة ١٢٦٨هـ، فوجدنا فيها نحو ألف مجلد أكثرها مخطوط، بينها نحو ٤٠٠ مجلد في التاريخ واللغة والأصول، ومن الكتب النادرة فيها: النور السافر في أخبار القرن العاشر للعيدروس، والضوء اللامع في أعيان القرن التاسع للسخاوي، وفوائد الارتحال وغرائب السفر في أعيان القرن الحادي عشر، والثناء الباهر لتكميل النور السافر، وتاريخ الذهبي، والإعلام بوفيات الأعلام، وشرح طبقات الأدباء.

(٨) **مكتبة الدردير فيها ١٠٧٨ كتابًا:** سميت بذلك نسبة إلى الشيخ الدردير العدوي المالكي المتوفى سنة ١٢٠١، وضريحه بالكحكيين بالدرب الأحمر، فوضع فيها ما كان عنده، ثم انضم إليها ما أهداه محبُّوه بعده، ومقرها في مسجد صاحب الضريح، وهي مباحة لطلاب الإفادة من تلامذة الأزهر يستعيرون الكتب بشروط مبينة، وقد بلغ عدد ما فيها من الكتب ١٠٧٨ كتابًا، أكثرها في العلوم الإسلامية.

مكاتب المدارس الكبرى

(١) **مكتبة مدرسة الحقوق فيها ١٩٩٥٠ مجلدًا:** هي من المكاتب العمومية المُعدَّة لفائدة الجمهور من تلامذة المدرسة وغيرهم بتصريح من إدارتها، وفيها قاعات للمطالعة

والمراجعة، وقد تأسست هذه المكتبة بالتدريج بطريق المشترى أو الهدايا، ومما يؤلفه التلاميذ من أبحاث لأجل نيل الشهادة، وبلغ عدد المجلدات في هذه المكتبة إلى هذا العام ١٩٩٥٠ مجلدًا تقسم على هذه الصورة:

عدد	
٢٦١٣	في القسم العربي
٩٨٧٥	في القسم الإفرنجي
٧٤٦٢	رسائل التلامذة
١٩٩٥٠	

أي نحو ٢٠٠٠٠ مجلد بينها أهم كتب الحقوق في العربية والفرنساوية والإنكليزية، كالمعاجم القضائية والإدارية والاقتصادية، وغيرها من العلوم المتعلقة بالحقوق، وقد أنبأَنَا أمينُها محمد عفيفي أن عدد الكتب التي أعيرت خارج المكتبة للعام الماضي بلغ ٣٠٦٣ مجلدًا، وعدد ما أعير للمطالعة في المكتبة ١٣٠٠٠ مجلد، غير ما فيها من المجلات والجرائد الهامة في العربية والإفرنجية، وللمكتبة فهرس مطبوع يشتمل على أسماء الكتب، والعناية مبذولة في تحسينها.

(٢) **مكتبة مدرسة الطب:** فيها نحو عشرة آلاف مجلد، أكثرها في الطب والطبيعيات باللغات الفرنساوية والإنكليزية والعربية، وليس فيها مخطوطات هامة، وهي خاصة بطلبة الطب للمطالعة.

(٣) **مكتبة الجامعة المصرية فيها ١١٩٣٠ مجلدًا:** هي حديثة العهد لا يتجاوز تاريخ إنشائها بضع سنين، أكثرها جُمِع من هدايا أهل الأدب والمؤلِّفين في أوربا ومصر وغيرهما، وفي جملة ذلك مكتبتان أهداهما أصحابها إلى الجامعة في سبيل الخدمة العامة، الأولى مكتبة شفيق بك منصور، والثانية مكتبة يحيى باشا منصور يكن، فبلغ عدد ما فيها من الكتب نحو اثني عشر ألف مجلد، فعهدت بترتيبها إلى سكرتيرها العام عبد العزيز فهمي، فرتبها على أحدث طرق المكاتب الكبرى في أوربا، وهي مباحة لمن أراد الاستفادة منها، وإليك إحصاءها الأخير:

عدد المجلدات	
٨٦٦٠	جملة ما جُمِع من الكتب الإفرنجية على سبيل الهدايا
١٢٧٠	جملة ما جُمِع من الكتب العربية على سبيل الهدايا
١٥٠٠	كتب شفيق بك منصور الإفرنجية
٢٥٠	كتب شفيق بك منصور العربية
٢٥٠	مكتبة يحيي باشا منصور
١١٩٣٠	الجملة

مكاتب الجمعيات العلمية

وللجمعيات العلمية الكبرى بمصر مكاتب أهمها:

(١) **مكتبة المجمع العلمي المصري** (Institut)**:** فيها نحو ٢٣٠٠٠ مجلد في الفرنساوية فالإنكليزية فالإيطالية، وقليل في الألمانية والعربية واليونانية، وأكثرها في التاريخ والجغرافيا والرياضيات وعلم الآثار والزراعة والصناعة والفنون وغيرها، ومجلات في هذه المواضيع، وفيها طائفة حسنة من الكتب النادرة عن مصر وعلاقتها بفرنسا.

(٢) **مكتبة الجمعية الجغرافية الخديوية:** فيها نحو ٥٠٠٠ مجلد أكثرها في الفرنساوية في الجغرافيا وما يتبعها، ولا سيما جغرافية إفريقيا، وبينها مجموعات من أعمال الجمعيات الجغرافية في العالم شرقًا وغربًا، وهي مجموعة ثمينة.

مكاتب نظارات الحكومة

لا تخلو نظارة من نظارات الحكومة من مكتبة، لكن أكثر محتوياتها من الكتب الرسمية والمنشورات ونحوها، على أن بعض النظارات تشتمل على كتب فنية وعلمية ونحوها، أهمها:

(١) **مكتبة الأشغال العمومية:** مقرها في ديوان الأشغال، فيها نحو ٣٠٠٠ مجلد في اللغات الفرنساوية والإنكليزية والعربية، أكثرها في الفنون المتعلقة بهذه النظارة، منها نحو ٨٥٠ مجلدًا في المعاجم والمجموعات الرسمية والآثار العربية والهندية ونحوها،

و٣٢٠ في المواضيع الجيولوجية والميكانيكية والجوية، و١٥٠ عن الري، و٣١٠ سياحات في إفريقيا والأسفار ونحوها، و٣٦٠ تقارير وإحصاءات رسمية، والباقي في البناء والهندسة وسائر المهن.

(٢) **مكتبة المخابرات في نظارة الحربية:** فيها نحو خمسة آلاف مجلد تبحث في التاريخ والجغرافيا والاقتصاد السياسي والإداري عن مصر والسودان والبلاد المحيطة بها والمجاورة لها، باللغات الإنكليزية والفرنساوية والعربية والإيطالية والألمانية والإنكليزية.

مكاتب الإسكندرية

الإسكندرية مشهورة منذ القدم بمكتبتها أيام البطالسة، لكنها احترقت غير مرة ولم يبقَ لها أثر، ولم نعد نسمع بمكتبة هامة أنشئت فيها أثناء التمدن الإسلامي؛ لأن الخلفاء والسلاطين كانوا ينشئون خزائن الكتب غالبًا في القاهرة قصبة دولتهم.

ولما حدثت النهضة الأخيرة لإنشاء المكاتب العمومية بدأت في القاهرة كالعادة، وظلت الإسكندرية خلوًّا منها إلى سنة ١٨٩٢؛ إذ أُسِّست المكتبة البلدية، ولم يكن قبلها إلا مكاتب أفرادية لبعض الأدباء، مثل مكتبة المرحوم جبرائيل بك مخلع، كان فيها طائفة حسنة من الكتب العربية والإفرنجية، ومكتبة راتب باشا، ومكتبة حسن حمزة من علماء الإسكندرية، ثم انتقلت إلى ملك الشيخ أحمد حمزة، فأضاف إليها كثيرًا من نوادر المخطوطات، وأشهر مكاتب الإسكندرية الآن المكتبة البلدية والمكتبة العباسية.

(١) **المكتبة البلدية تأسست سنة ١٨٩٢ وفيها ١٦١٩٣ مجلدًا:** أنشأها المجلس البلدي في ١٤ يوليو سنة ١٨٩٢، وعيَّن لها أمينًا من سويسرا اسمه فكتور نوريس — لا يزال مديرًا للقسم الإفرنجي فيها — وتعين لها في تلك السنة الشيخ أحمد أبو علي الأزهري أمينًا للقسم العربي ولا يزال، وعليه عولنا في تحقيق تاريخ هذه المكتبة ومحتوياتها.

كانت في أول نشأتها مع المتحف الإسكندري في بناء واحد، ثم نُقِلت إلى دائرة البلدية، ولم يكن فيها إلا بضع عشرات من الكتب الإفرنجية، فسعى أمينها العربي في الاستكثار من الكتب العربية، ووافقه رئيس المجلس البلدي يومئذٍ يوسف شكور باشا، وخابر الحكومة فأهدتها ٤١٣ كتابًا عربيًّا من مطبوعات بولاق — تلك فاتحة القسم العربي فيها — وما زالت العناية مبذولة في الاستكثار من الكتب العربية والإفرنجية حتى

بلغ عدد كتبها ١٦١٩٣ كتابًا، منها ٧٧٥٣ كتابًا عربيًّا، و٨٤٤٠ كتابًا إفرنجيًّا، وهي مفتوحة الأبواب لمن شاء المطالعة أو المراجعة كالمكتبة الخديوية، ومن الكتب النادرة في هذه المكتبة:

(١) نسخة من المدونة مكتوبة بقلم أندلسي على ورق غزال في أوائل القرن السادس للهجرة، وعليها خط الإمام عبد الوهاب الشعراني أنه قابلها وصحَّح عليها.

(٢) ديوان عمر بن مسعود سراج الدين المجان الكناني المتوفى سنة ٧٠٠هـ بخط نسخي جميل سنة ٧٤٧هـ، وفيه باب للموشحات والأزجال وغيرها من الأشعار العامية، وهو جزيل الفائدة لقلة الكتب القديمة في هذه الفنون.

(٣) جزء من صحيح مسلم بخط جميل، وفي آخره أنه كُتِب سنة ٣٦٨هـ.

(٤) الكاشف في أسماء الرجال لشمس الدين الذهبي بخط جميل.

(٥) التدوين في أخبار قزوين لعبد الكريم الرافعي المتوفى سنة ٦٢٣هـ.

(٦) طبقات الحفاظ للسيوطي، وعليه خط المؤلف.

(٧) مجمل اللغة لابن فارس بخط جميل مضبوط بالحركات، كُتِب سنة ٦٠١هـ.

(٨) لب اللباب في تحرير الأنساب للسيوطي، ومعه ذيل للعجمي نادر الوجود.

(٩) المغرب في اللغة للمطرزي.

(١٠) نظام الغريب في اللغة لعيسى الربعي، مصحَّح بقلم أبي نصر الهوريني، ويُظن أن هذه النسخة وحيدة من هذا الكتاب في مصر.

(١١) الطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد للأدفوي المتوفى سنة ٧٤٨هـ.

(١٢) تهذيب الأسماء واللغات للنووي، مكتوبة بخط أبي بكر السلمي سنة ٧٤٥هـ.

(١٣) الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل للعليمي، وعلى هامشها مطالعات وتعليقات.

(١٤) المجلد ١٢ من مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري، ويشتمل على الحيوانات والنباتات، وجميع ما فيه من النبات مصور بصوره الطبيعية بإتقان، ومكتوب بخط جميل، فهو من التحف النادرة في العربية.

(١٥) الجزء الثاني من مختارات الأغاني لابن منظور صاحب لسان العرب، وبخطه وهو جميل جدًّا.

(١٦) كتاب الفروق للترمذي في مجلد مكتوب بخط ابن أبي جرادة سنة ٥٩١هـ.

(١٧) تاريخ المظفري لشهاب الدين إبراهيم بن عبد الله الحموي المتوفى سنة ٦٤٢هـ، وصل فيه إلى سنة ٦٢٨هـ.

(١٨) تاريخ عدن لأبي حمد بن عبد الله مخرمة من علماء أواخر القرن العاشر للهجرة.

(١٩) روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح، تأليف نور الدين عيسى لطف الله أحد مؤرخي القرن الحادي عشر الهجري.

(٢٠) طبقات فقهاء اليمن، وعيون من أخبار سادات رؤساء الزمن، لأبي حفص عمر اليمني المتوفى سنة ٥٨٦هـ.

(٢١) در الحبب في تاريخ أعيان حلب لرياض الدين بن الحنبلي المتوفى سنة ٩٧١هـ.

(٢٢) السيرة العمرية (سيرة عمر بن الخطاب) تأليف أبي الفرج بن الجوزي.

(٢٣) كتاب الفروق في اللغة لأبي هلال العسكري.

(٢٤) تاريخ صنعاء لإسحق بن جرير الصنعاني مكتوب سنة ٩٩٢هـ.

(٢٥) الجواهر المضية في طبقات الحنفية لأبي محمد القرشي المتوفى سنة ٧٧٥هـ.

(٢٦) الدر الثمين في سيرة نور الدين (زنكي) لبدر الدين محمد بن أبي بكر بن شهبة

(٢٧) إصلاح المنطق في اللغة ليعقوب بن السكيت.

(٢٨) خلاصة السير الجامعة لعجائب أخبار الملوك التبابعة لنشوان بن سعيد الحميري المتوفى سنة ٥٧٣هـ.

(٢٩) البديع في نقد الشعر لأسامة بن منقذ الكناني المتوفى سنة ٥٨٤هـ.

(٣٠) التقريب في أسماء الرجال لشهاب الدين بن حجر العسقلاني.

(٢) **المكتبة العباسية تأسست سنة ١٩٠٣، وفيها ٦٥٥٠ مجلدًا:** أسسها الشيخ عبد الفتاح البنا بالإسكندرية سنة ١٩٠٣ / ١٣٢١هـ، وبيان ذلك أن الحاج علي شتا من أعيان الإسكندرية كان عنده كتب عرضها للبيع، فأشار عليه الشيخ عبد الفتاح أن يقفها على مكتبة تكون برسم سيدي أبي العباس المرسي فوافقه، فأضاف إليها كتبًا عنده، وكتبًا أهداها محمد أفندي توفيق — من أبناء الأسر القديمة — ووُضِعت في مسجد أبي العباس المرسي، ولما تنظمت مشيخة علماء الإسكندرية وضعت يدها عليها، ووسَّعت نطاقها، وعيَّنت الشيخ عبد الفتاح أمينًا لها، وهي الآن بمركز إدارة المشيخة بسراي حافظ باشا بالإسكندرية، وعدد مجلداتها ٦٥٥٠ مجلدًا في علوم اللغة والطبيعة والتاريخ والأدب، وقد أعانتها تبرعات المتبرعين، أهمهم ورثة محسن باشا، ومصطفى بك النزلاوي، ومصطفى باشا خليل، وفيها من الكتب النادرة خمسة مجلدات من كتاب نهاية الأرب للنويري من ٦–١٠، يمكن الاستفادة منها عند الشروع في طبع هذا الكتاب لإحياء آداب اللغة.

المكاتب في الأرياف

لا تخلو المساجد في مدن الأرياف من مكاتب خاصة، ولا نظن فيها ما يستحق الدرس والنشر إلا مكتبة الجامع الأحمدي في طنطا.

(١) **المكتبة الأحمدية في طنطا فيها ٦٠٠٠ مجلد:** أنشأها الشيخ إبراهيم الظواهري شيخ الجامع الأحمدي الأسبق سنة ١٨٩٨، وعيَّن لها أمينًا ومغيرًا، وهي تحتوي على ستة آلاف مجلد، منها ١٣٠٠ بخط اليد، وتشتمل على أهم المواضيع العربية في العلوم الإسلامية واللغوية والتاريخ والأدب وغيرها من الفنون.

ومن نوادر الكتب فيها كتاب كشف الأسرار للخوخي في علم المنطق، وكتاب منتهى السول في علم الأصول للآمدي، وجزء من كتاب شمس العلوم في اللغة العربية لأبي سعيد نشوان الخميري، وقد استنسخت المكتبة الخديوية هذه الكتب منها، وفيها من خطوط المشاهير: خط ابن قاسم العبادي، والشرنبلاوي، والعطار، والدردير.

(٢) **مكتبة خليل آغا اللاله فيها ٣٠٠ مجلد:** هي تابعة للمكتبة الأحمدية، وقفها خليل آغا المذكور، وفيها ٣٠٠ مجلد، أكثرها مخطوط، وبينها قاموس عربي كان ملكًا للمرحوم سعيد باشا، ولها مغير خاص.

المكاتب الخصوصية بمصر

المكاتب الخصوصية كثيرة في التمدن الإسلامي؛ إذ لم يكن يخلو مؤلف أو كاتب من خزانة كتب يستعين بها في الموضوع الذي يكتب فيه، ويغلب أن يكتب على تلك الكتب بخطه أنها دخلت في ملكه مع تاريخ ذلك، أو أن يعلق عليها تعليقات أو ملاحظات، والغالب متى مات صاحب الخزانة أن تتشتت كتبه بالانتقال أو البيع أو غير ذلك، فبعد أن تكون ملك رجل واحد تتفرق على عشرة أو عشرين، وأمثال هذه الكتب إذا كان عليها خطوط أصحابها من المشاهير تكون ثمينة بنسبة شهرة صاحبها وقدم عهده، وسترى أمثلة من هذه التحف في بعض المكاتب الخصوصية الآتي ذكرها.

لم يبقَ لدينا من المكاتب الخصوصية القديمة مكتبة لا تزال باسم صاحبها إلا ما وُقِف منها في الأستانة بأسماء أصحابه، وأكثر المكاتب الخصوصية الآن حديثة العهد، وإن كان بعض كتبها قديمًا، وقد رافقت النهضة العلمية بمصر رغبة في اقتناء الكتب، ولا سيما في النصف الثاني من القرن الماضي بعد إنشاء المكتبة الخديوية وانتشار الطباعة،

فكثر الراغبون في إنشاء المكاتب على اختلاف اللغات، ويهمنا منها المكاتب العربية، أو التي ترمي إلى غرض عربي، ولا نذكر إلا ما يهم القراء معرفته منها؛ لوجود الكتب النادرة فيها، أو لكثرة ما فيها من الكتب النافعة، مما يتيسر لنا الوقوف عليه منها، إذ لا يبعد أن يكون هناك مكاتب خصوصية لم يصل إلينا خبرها.

وهاك أشهر تلك الخزائن أو المكاتب:

١- الخزانة التيمورية فيها ٨٠٠٠ مجلد

سميت بذلك نسبة إلى صاحبها أحمد بك تيمور الأديب المعروف، أصله كردي، جاء جده محمد بن إسماعيل بن علي كرد مع الجند العثماني بعد خروج الفرنساويين من مصر، ثم أصبح من خاصة محمد علي باشا، وأعانه في الفتك بالمماليك، وترقى في المناصب من كاشف إلى محافظ، وتوفي سنة ١٢٦٤هـ/١٨٤٧، ونبغ ابنه إسماعيل بن محمد، وتولى إدارة عدة مديريات ومناصب أخرى في زمن عباس وسعيد وإسماعيل، وصار رئيسًا لديوان الخديوي، وتوفي سنة ١٢٨٩هـ/ ١٨٧٢.

وصاحب الخزانة التيمورية هو أحمد بن إسماعيل بن محمد، وكان أبوه قد جمع مكتبة نفيسة تشتتت، فشب صاحب هذه الخزانة على حب الكتب، واشتغل بجمعها لا يدخر في ذلك وسعًا، بين ابتياع واستنساخ ورحلة التنقيب عن نوادر الكتب، يبذل المال والوقت في هذا السبيل، فاجتمع عنده إلى أواخر السنة الماضية نحو ٨٠٠٠ مجلد أو ٧٠٦٨ كتابًا، أعدَّ لها قاعة كبيرة في أبعاديته في قويسنا، ووضع لها الفهارس مرتبة حسب المواضيع، ورتب كل موضوع حسب سني الوفاة، فيذكر الكتاب واسم مؤلفه، وإذا كان مطبوعًا ذكر سنة طبعه، بحيث يسهل تناول الكتب والاستفادة منها.

وتمتاز الخزانة التيمورية بطائفة حسنة من المخطوطات العربية النادرة، جاء ذكر كثير منها في الجزء الثالث من هذا الكتاب، وفيها ٥٢٧ كتابًا كُتِبت قبل ختام القرن العاشر للهجرة، أقدمها الجزء الأول من شرح أبي الحسن الفارسي كُتِب سنة ٤١٣هـ، وبينها طائفة من الكتب عليها خطوط المشاهير من أهل العلم هذه أمثلة منها:

خطوط المشاهير على بعض الكتب

(١) مجموعة طبية مصورة بخط عبد الرحمن الأنصاري كتبها سنة ٥٩٢هـ.

(٢) الجزء الأول من الغرر والدرر عليه خط ابن العفيف سنة ٦٢٤هـ، يفيد أنه سمعها مع جماعة ذكرهم.

(٣) مجموعة في الحديث في أولها خط عبد الرحمن الجبرتي المؤرخ أنه تملكها، وفيها أربعون حديثًا لابن جماعة عليها خط السيد مرتضى الزبيدي صاحب تاج العروس، وخط الجبرتي موجود على عدة مخطوطات في الخزانة المذكورة، وكذلك خط العطار والهوريني.

(٤) كتاب في رجال الحديث من الشيعة، للحسن بن علي المولود سنة ٦٤٧هـ على الورقة الأولى منها خط عبد القادر البغدادي مؤلف خزانة الأدب أنه تملكها.

(٥) أنوار الربيع في البلاغة لابن معصوم، وعليه خط الشيخ حسن الطويل.

(٦) دمية القصر عليها خط الشيخ الشنقيطي اللغوي.

(٧) بغية الطالبين في التاريخ، عليها خط السيد مرتضى الزبيدي صاحب تاج العروس، يجيز بها الشيخ علي بن سعد البيوسي.

(٨) رحلة الإمام الشافعي عليها خط ابن حمويه الجويني.

وقِسْ على ذلك كتبًا أخرى عليها خطوط بهذا المعنى لشهاب الدين الحجازي، وأبي المكارم المطرزي شارح الحريري، وبرهان الدين البقاعي المتوفى سنة ٨٨٥هـ، وابن فضل الله العمري صاحب مسالك الأبصار، والشيخ محمد الدسوقي (١٢٣٠هـ)، والخطيب ابن نباتة، وجلال الدين المحلي، والشيخ حسن قويدر، وغيرهم.

مؤلفات بخطوط مؤلفيها

وهناك طائفة من المخطوطات بخطوط مؤلفيها أنفسهم، وهذا من أندر النوادر، هاك أهمها:

(أ) مسند عمر بن الخطاب تأليف ابن كثير وبخطه.

(ب) المنتقى للزرعي الزبيدي وبخطه.

(جـ) تقريب التهذيب لابن حجر العسقلاني وبخطه سنة ٨١٧هـ.

(د) رجال البخاري ومسلم لابن عيسى الهكاري المتوفى سنة ٧٥٠هـ بخطه.
(هـ) رمز الحقائق للعيني سنة ٨٥٥هـ بخطه.
(و) نوادر الزمان في وقائع جبل لبنان لإسكندر أبكاريوس بخطه، وقد أهدى هذا الكتاب لمحمد صادق باشا التونسي، ويظهر أن هذه النسخة هي المهداة.
(ز) مختصر مفردات ابن البيطار لابن مكرم صاحب لسان العرب سنة ٧١١هـ بخطه.
(ح) ديوان شهاب الدين الخفاجي المتوفى سنة ١٠٦٩هـ وبخطه.
(ط) ذيل الدرر الكامنة للعسقلاني بخطه.

وهناك عشرات من أمثال هذه الكتب النفيسة أغضينا عنها حبًّا بالاختصار.

٢- الخزانة الزكية فيها نحو ٥٠٠٠ مجلد

هي مكتبة أحمد زكي باشا سكرتير مجلس النظار، وقد جاء ذكرها مرارًا في أثناء هذا الكتاب، جمعها صاحبها في أثناء ثلاثين سنة بذل في ذلك جهدًا كثيرًا، ومخابرات طويلة وأسفارًا بعيدة، بين ابتياع واستنساخ وتصوير، فأصبحت حافلة، وقد بلغ عدد ما فيها من المجلدات نحو خمسة آلاف مجلد، منها نحو ٣٠٠٠ مجلد أو ١٨٣٥ كتابًا في اللغة العربية، بينها ٤١٥ كتابًا في التاريخ، و٢٨٧ في الأدب، و٢٢٢ في اللغة، وتمتاز المكتبة الزكية عن سائر المكاتب الخصوصية بمجموعة حسنة من الكتب الإفرنجية التي ألَّفها المستشرقون في اللغات الفرنساوية والإنكليزية والألمانية والإيطالية والإسبانية والبورتغالية واللاتينية عن الشرق، وفي جملتها مجموعة من المجلة الأسيوية الفرنساوية منذ نشأتها سنة ١٨٢٢.

وفي المكتبة الزكية جانب كبير من الكتب العربية المطبوعة في أوربا والهند، فضلًا عن مطبوعات مصر والشام، بينها مجموعة من مطبوعات بولاق، ومطبعة أركان حرب الجهادية الطبية، والمطبعة الرياضية. وأما المخطوطات، فإليك أهمها مما يندر وجوده:

(أ) أربعة أجزاء من تاريخ ابن عساكر.
(ب) أربعة أجزاء من مرآة الزمان لابن الجوزي
(ج) نسخة من تاريخ ابن خلدون بخط الشيخ حسن العطار.
(د) الفتوة في الإسلام.

(هـ) صبح الأعشى نسخة كاملة في سبعة مجلدات كُتِبت سنة ٨١٧هـ، أيْ بعد أن فَرِغ المؤلف منها ببضع سنين، وهي من التحف النادرة.

٣- المكتبة الآصفية فيها نحو ٦٠٠٠ مجلد

هي لمحمد بك آصف بن علي باشا آصف، وابن أخت أحمد بك تيمور، تحتوي على ٦٠٠٠ مجلد، منها نحو ٤٠٠٠ باللغة العربية ما بين مخطوط ومطبوع، ونحو ٢٠٠٠ باللغتين الفرنسية والتركية. وتمتاز هذه المكتبة باشتمالها على أكثر ما طبعه المستشرقون الأوربيون من العربية من القرن السادس عشر إلى الآن، وفيها تاريخ الثورة العرابية تأليف أحمد عرابي باشا الموسوم بسر الأسرار في تاريخ الحركة العرابية في سنتي ١٨٨١ و١٨٨٢، وهو كتاب كبير في ثلاثة أجزاء حوى حوادث الثورة المذكورة من أولها إلى آخرها، وهذه النسخة هي الوحيدة من هذا التاريخ.

وأما الكتب التي باللغتين الفرنسية والتركية، فما كان منها بالفرنسية أكثره مما أُلِّف عن مصر والدولة العثمانية والشرق الأدنى قديمًا وحديثًا، في التاريخ والسياحات وحوادث الاحتلال الفرنساوي لمصر، وما أدخله محمد علي باشا من الإصلاحات والتنظيمات، وحروبه هو وابنه إبراهيم باشا في الحجاز ونجد مع الوهابية والشام والسودان والمورة، وكتب أثرية لمصر في عهد الفراعنة والمدنية الإسلامية وغير ذلك.

وقد أخبرنا صاحبها أنه عازم على وقفها على أحد المعاهد العلمية بمصر لجعلها عامة للانتفاع بها، حقَّق الله رغبته في ذلك.

٤- مكتبة جلياردو بك فيها نحو ٩٠٠٠ مجلد

هو ابن جلياردو بك رئيس مدرسة الطب، ومكتبته من خيرة المكاتب عن مصر وتاريخها. عدد مجلداتها نحو ٩٠٠٠ مجلد، أكثرها في اللغة الفرنساوية، وبعضها في العربية والإنكليزية والإيطالية وأكثر لغات أوربا، في المواضيع الشرقية ولا سيما تاريخ مصر وجغرافيتها والسياحات فيها من أقدم الأزمنة إلى الآن وإحصائها، ونحو ذلك عن سوريا وفلسطين، وفيها مجموعة كبيرة عن الحملة الفرنساوية وأعمالها ومطبوعاتها، ومجموعة عن الديانات الشرقية، ولصاحبها عناية في جمع أقوال الصحف وغيرها فيما يطرأ من الحوادث، فيجعل لكل حادث محفظة خاصة (دوسيه).

٥- مكتبة أحمد بك الحسيني فيها ٤٧٨٠ مجلدًا

هي من المكاتب الخصوصية النفيسة، موضعها في منزل صاحبها قرب المحكمة الشرعية، وهي مرتَّبة ومقسَّمة حسب مواضيعها، ولها فهارس وعليها مشرفون أو مغيرون، ويؤذن لمحبي المطالعة أن يطالعوا فيها، أو ينقلوا ما شاءوا في أوقات معينة من الأسبوع، وبلغ عدد ما فيها من المجلدات ٤٧٨٠ مجلدًا، أهمها في الفقه والقانون والأدب والتاريخ.

٦- مكتبة علي باشا رفاعة فيها نحو ١٠٠٠ مجلد

هو نجل رفاعة بك الطهطاوي الشهير، تشتمل على كتبه أبيه وكتبه، وكان رفاعة باشا شاعرًا أديبًا توفي منذ بضع سنين، ومكتبته تشتمل على نحو ألف مجلد أكثرها مخطوطات، أخبرنا السيد محمد الببلاوي وكيل المكتبة الخديوية أن في مكتبة رفاعة باشا من النوادر شَرْحَ ابن الجنابي علي فصيح ثعلب كُتِب نحو القرن الرابع للهجرة، والجزء الثاني من المثل السائر بخط المؤلف، والجزء الأول من هذه النسخة في المكتبة الخديوية.

وهناك مكاتب خصوصية أخرى لم يتيسر لنا الاطلاع عليها، أشهرها مكتبة عبد الله فكري باشا، ومكاتب إبراهيم حليم باشا، ولطيف باشا، وراتب باشا، والشيخ الإمبابي، ومكتبة خليل أغا بجوار الأزهر، ولعل هناك مكاتب خصوصية لم يصلنا خبرها.

المكاتب القبطية وغيرها

كان للأقباط مكاتب شهيرة في الأديار المنتشرة في أنحاء القطر، أكثر كتبها في الطقوس الدينية أو الصلوات أو تواريخ الكنيسة في اللغات القبطية والسريانية واليونانية، ثم أضيف إليها كتب عربية بعد أن تعرَّب القبط، وعقب ذلك استغرق الشرق في سبات الأجيال المظلمة فأُهمِلت الأديار، فلما نهض الإفرنج في فجر التمدن الحديث، كان من جملة مساعيهم البحث عن آثار الشرق وآدابه، فبعثوا البعوث إلى الأديار، وهي مستودع الحكمة والعلم إلى ذلك العهد، فأخذوا ما وصلت إليه أيديهم من التحف المخطوطة باللغات الشرقية كما فعل السمعاني في سوريا.

وكذلك فعل آخرون بمصر ممن جاءوا للبحث عن الكتب، ولا سيما البعثات الدينية الكاثوليكية التي جاءت مصر لتوحيد الكنيسة، فنقلوا منها كتبًا حُفِظت في متحف بورجيا بالفاتيكان، وهكذا فعل المبشرون الإنكليز في أوائل القرن الماضي، وأكثر ما أخذوه كتب قبطية وسريانية، وفعل غيرهم مثل فعلهم، على أنهم لم يبددوا ما أخذوه، بل حفظوه في متاحفهم ووضعوا له الفهارس، وقد أحسنوا بأخذه بدلًا من ضياعه، ولم ينتبه الأقباط لهذه الخسائر إلا بعد أن صارت أهم كتبهم في مكاتب أوربا، فأخذوا في جمع ما بقي، فاجتمع عندهم إلى الآن نحو ٢٠٠٠ مجلد محفوظة في دار البطريركية بالقاهرة، فيها مخطوطات كثيرة أكثرها ديني في اللغة القبطية والعربية، وفيها عدة كتب تاريخية في أخبار الكنيسة والآباء البطاركة وغيرهم، بينها الجزء الأول من خطط المقريزي، عليه ختم الجبرتي المؤرخ لأنه دخل في ملكه، وهناك معاجم في اللغات القبطية والحبشية واليونانية، ولا يزال في الأديار القبطية — ولا سيما دير المحرق — كتب ثمينة أغلبها ديني.

ويقال نحو ذلك في مثل هذه المكتبة للقبط الكاثوليك، فإن فيها كثيرًا من الكتب الدينية في اللاتينية واليونانية والقبطية بين مخطوط ومطبوع، وبينها نسخة من طبعة التوراة المعروفة بالبوليغلوط في عدة لغات أوشك ورقها أن يتهرأ لطول عهدها.

مكتبة دير طور سينا

ومن مكاتب الأديار في جوار مصر مكتبة دير طور سينا، وهي قديمة العهد، لكن كتبها دينية نصرانية في اللغات اليونانية والسريانية والحبشية والعربية والأرمنية والعبرانية، عدد مجلداتها نحو ٣٥٠٠ مجلد، بينها نحو ٧٠٠ في اللغة العربية، أكثرها مخطوطات قديمة على الرقوق ونحوها، فيها قطع من الإنجيل بالسريانية مكتوبة في أوائل النصرانية، وليس بين المخطوطات العربية فيها ما يستحق الذكر، لكن السيدة لويس الإنكليزية اكتشفت بالأمس نصوصًا قرآنية مكتوبة على رقوق قديمة، كُتِب فوقها بالسريانية بعد محو العربي من تحتها، على عادتهم في ذلك يومئذٍ، وهي تظن تلك النصوص كُتِبت قبل جمع الخليفة عثمان للقرآن، ولا نظنها تستطيع إثبات ذلك.

(٣-٣) المكاتب في سوريا

كانت سوريا حافلة بخزائن الكتب قبل الإسلام وبعده، وكانت مدائنها في زمن الروم لا تخلو من المدارس وفيها المكاتب، ولا سيما في أنطاكية ودمشق وحلب، وغيرها من مدن العلم أو مركز البطريركية، ولما أقبلت الأجيال الوسطى كانت الأديار مقر المكاتب والمدارس، وأكثر ما فيها من الكتب ديني في اللغات اليونانية والسريانية والعبرانية في اللاهوت والفلسفة والتاريخ والأدب.

ولما ظهر الإسلام وأثمر التمدن الإسلامي، تكاثرت المكاتب العربية في قصور الملوك والسلاطين والأمراء والوزراء ورجال الدولة، كما تقدم في الكلام عن مصر، ثم أصاب سوريا ما أصاب مصر من الجهل والإهمال، فلم يبقَ من تلك التحف ما يستحق الذكر إلا نُتَفًا مبعثرة في الأديار أو المساجد أو المدارس أو غيرها، واهتم رجال الفضل في أمرها بعض الاهتمام على أثر هذه النهضة، وهاك ما وصلنا من أخبارها حسب المدائن، فنتكلم عن مكاتب دمشق، فحلب، فبيروت، فالقدس، فحمص وغيرها.

مكاتب دمشق وضواحيها (مكاتب دمشق قبل هذه النهضة)

كانت دمشق في إبان التمدن الإسلامي كثيرة المدارس والمساجد، ولا تخلو مدرسة أو مسجد من خزانة كتب للدرس أو المطالعة، وقد اشتهرت دمشق بذلك، ثم سطت عليها الأجيال المظلمة، فلم تُبْقِ إلا على القليل منها، ولم يتصل بنا منها لهذا العهد إلا مكتبة الجامع الأموي، وكان بعضها مودعًا عند ضريح النبي يحيى، وفي قبة المال في صحن الجامع، فلما أصيب الجامع بالحريق سنة ١٨٩٣، تلفت تلك البقايا ولم يسلم منها إلا ما كان في قبة المال التي يشاهدها الزائر في صحن الجامع، وهي مقفلة موصدة، والناس يظنون فيها صكوكًا أو أوراقًا رسمية تتعلق بالجامع لا يؤذن بفتحها إلا لبعض الخاصة، ويقال إن روجرس الرحالة الإنكليزي أُذِن له في رؤيتها في أواسط القرن الماضي، ويُظن أنه نقل منها بعض الكتب، وآخِر مَن أُتِيح له الاطلاع عليها مليًّا البارون فون سودن أستاذ اللاهوت في كلية برلين، وكان مشتغلًا بالبحث عن نسخة قديمة من الأناجيل في اللغة اليونانية لم تصل إليها يد التلاعب، فمر بدمشق في أواخر القرن الماضي، وخُيِّل له أنه يظفر بضالته بين ما في تلك القبة من بقايا دولة الروم يوم كان ذلك الجامع كنيسة، فاستحث دولته على الاستئذان له في الاطلاع على تلك المخبآت، فلم يُوفَّق إلى ذلك إلا في

ختام ذلك القرن؛ إذ أذنت له الدولة العثمانية أن يفتح تلك القبة بحضور ناظم باشا والي سوريا يومئذٍ مع جماعة من الأعيان، فأوفد البارون فون سودن مستشرقًا ينوب عنه، فأسفر التنقيب عن رقوق كثيرة أكثرها ديني، بينها قطع من التوراة السريانية حرفها إسطرنجيلي، ورقوق في اللغات اليونانية واللاتينية والعبرانية والآرامية والسامرية، أقدمها كتب في القرن الخامس للميلاد، ورقوق عربية أكثرها بالحرف الكوفي، ويقدِّرون ما في تلك القبة ببضعة آلاف كتاب مبعثرة، ثم أُقفِلت القبة ولم يتم درسها، والناس مختلفون فيما وقفوا عليه فيها.

وقِسْ على ذلك ما كان في سائر المساجد أو المدارس أو الكنائس، أو لبعض الخاصة من رجال العلم أو الوجاهة أو السلطة، من خزائن الكتب ما عبثت به يد الحدثان في أثناء القرون الأخيرة قبل هذه النهضة، فدخل القرن الماضي وليس في دمشق إلا مكاتب قليلة سلمت من الضياع، فاهتم بعض العقلاء من رجال الحكومة في أواسط القرن المذكور بأمر هذه المكاتب، لجمع ما كان باقيًا منها في المساجد إلى مكتبة واحدة لتُحفَظ ويستفيد منها الناس، ولم يتيسر جمعها كلها إلا في ولاية مدحت باشا أبي الإصلاح سنة ١٨٧٨، ولم يكن باقيًا منها يومئذٍ إلا عشر مكاتب، هذه أسماؤها:

(١) المكتبة العمرية نسبة إلى الشيخ عمر المقدسي المتوفى سنة ٦٠٧هـ.

(٢) مكتبة عبد الله باشا العظم وُقِفت سنة ١٢١١هـ.

(٣) مكتبة سليمان باشا العظم وُقِفت سنة ١١٩٦هـ.

(٤) مكتبة ملا عثمان الكردي.

(٥) مكتبة الخياطين وقفها الحاج أسعد باشا بعد سنة ١١٦٥هـ.

(٦) مكتبة المرادية نسبة إلى الشيخ مراد النقشبندي المتوفى سنة ١١٣٢هـ، جد صاحب سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر.

(٧) مكتبة الشميساطية وهي حديثة العهد.

(٨) مكتبة الياغوشية.

(٩) مكتبة الأوقاف وقد جمعت من مكاتب متفرقة.

(١٠) مكتبة بيت الخطابة، كانت في هذا المكان من الجامع الأموي.

المكتبة الظاهرية فيها ٣٥٦٦ مجلدًا

قد تقدم أن مدحت باشا لما جاء إلى سوريا سنة ١٨٧٨ ألَّف جمعية من علماء دمشق سماها الجمعية الخيرية لإنشاء المدارس وترقية المعارف، وكلَّفها في جملة ذلك بالبحث عن المكاتب المهملة، وجمع ما تيسَّر جمعه منها في مكان واحد عيَّنه لها قرب التربة العادلية، في مكان يُعرَف بالظاهرية نسبة إلى ضريح الملك الظاهر، وخصصوا لها قاعة كبيرة شاهدناها في رحلتنا إلى دمشق في العام الماضي، وهي مبنية بالرخام والفسيفساء، بُنِيت سنة ٦٧٦هـ، فجمعوا هناك ما كان في المكاتب العشر المذكورة، فتألَّف من مجموعها المكتبة الظاهرية، ووضعوا لها فهرسًا مختصرًا لا يشفي غليل الباحث، فألَّف حبيب الزيات كتاب «خزائن الكتب في دمشق وضواحيها»، وفَّى فيه درسها، طُبِع بمصر منذ بضع عشرة سنة، وقد عولنا عليه في هذا البحث.

وفي المكتبة الظاهرية ٣٥٦٦ مجلدًا بين مطبوع ومخطوط، أكثرها في الفقه والحديث وسائر العلوم الإسلامية، وفيها ٣٦٠ كتابًا في العلوم اللغوية، و٣٢٠ في التاريخ والجغرافية، و٣٥٠ في الأدب، وأهم ما فيها من نوادر الكتب المخطوطة ما يأتي:

(أ) تاريخ دمشق لابن عساكر، منه نسختان إحداهما كاملة، والثانية ينقصها الجزء الأول.
(ب) الضوء اللامع في تراجم أهل القرن التاسع للسخاوي، عليه إجازة بخط المؤلف.
(جـ) الكواكب السائرة في مناقب أعيان المئة العاشرة لنجم الدين الغزي.
(د) الجزء العاشر من ذيل تاريخ بغداد.
(هـ) طبقات الفقهاء الحنابلة لابن الفراء.
(و) شرح مقامات الحريري للمطرزي.
(ز) سفر السعادة للسخاوي، وغير ذلك من كتب الأدب والشعر.

المكاتب المسيحية في دمشق

وفي دمشق أديار وكنائس ومدارس لغير المسلمين لا تخلو من خزائن كتب، لكنها ليست مما يهم الجمهور؛ لأن حوادث سنة ١٨٦٠ ذهبت بأكثرها، وفي كنيسة الكلدان مكتبة للمطران يوسف داود السرياني، قال صاحب «كتاب خزائن الكتب في دمشق وضواحيها»

إنه قلَّب أكثر أسفارها فوجد أكثر المحفوظ منها من المؤلفات المطبوعة في اللغات المختلفة، بعضها مهم في بابه، وإنها كانت في حياة صاحبها أوفر عددًا؛ لأنه أهدى منها في أواخر أيامه جانبًا هامًّا إلى مدرسة نشر الإيمان في رومية، ودير الشرفة في لبنان، ولبعض أصدقائه.

مكاتب ضواحي دمشق

أهم تلك الضواحي من حيث خزائن الكتب صيدنايا ومعلولا ويبرود، ففي صيدنايا دير قديم العهد توالت عليه نوائب كثيرة، وكان فيه خزانة كتب تُعرَف بخزانة دير الشاغورة نسبة إلى دير هناك بناه يوستنيان في القرن السادس للميلاد، هو الآن للروم الأرثوذكس، وقد وصف صاحب كتاب خزائن الكتب رحلته إلى ذلك الدير، وما لاقاه من موجبات الأسف لضياع الكتب بالحريق والانتهاب والإهمال، وذكر ما بقي منها، وكلها كتب دينية.

وهكذا يقال في معلولا؛ فقد كان في مكتبتها كثير من المخطوطات النفيسة في العربية والسريانية، لم يبقَ منها إلا القليل، أكثرها ديني وبعضها قديم جدًّا. وكذلك يبرود كان فيها مكتبة للمطران غريغوريوس عطا، لكن ما بقي فيها من الكتب لا يُعتدُّ به، وأكثره أو كله ديني، أهمها مجموعة مؤلفات المطران غريغوريوس المذكور، وفيها كثير من أخبار طائفة الروم الكاثوليك وتاريخها، وتراجم رجالها وسائر أحوالها.

مكاتب حلب

مكاتبها قبل هذه النهضة

حلب من أرسخ مدن سوريا في الحضارة والعمران، وقد رأيت أنها سبقتها كلها إلى الطباعة العربية، ونبغ منها العلماء والأدباء قبيل هذه النهضة، وناهيك بما كان من زهوها ورقيها في إبان التمدن الإسلامي في زمن سيف الدولة وغيره، ولا ريب أن خزائن الكتب كانت يومئذٍ كثيرة فيها مما أنشأه السلاطين، أو احتفظت به البيوتات العلمية وتوارثته أجيالًا وهي تجمع فيه التحف، فإن علماء حلب وأدباءها لم يكن يخلو أحدهم من مكتبة نفيسة تتوارثها أعقابه بضعة أجيال إلى أن تتصل بمن يعرف قيمة العلم، أو تحدث حرب فتضيع.

على أن أكثر خزائن الكتب ضاعت بتوالي الغزو في أيام التتر، أشهرها مكتبة الجامع الأموي بحلب، ذكروا أنه كان فيها نحو ٥٠٠٠ مجلد من المخطوطات، سلب منها أحد المتغلبين من الأتراك ملء جولق، وجاء تيمورلنك فأجهز عليها، ولم يبقَ لها أثر، ثم جدَّدها محمود السياف أحد بني السياف سنة ١٣٠٠هـ، فجمع فيها كتبًا نفيسة أكثرها مطبوع.

وقد نقل إلينا الشيخ كامل الغزي الحلبي، عن كتاب له مخطوط في تاريخ حلب سماه «نهر الذهب في تاريخ حلب» عولنا عليه في كثير مما ذكرناه عن المكاتب الإسلامية في حلب – قال: «إنه كان في شرقي هذا الجامع أداة ضخمة تسمى «شجرة الإفادة»، مصنوعة من حجر ونحاس وحديد، ذات خطوط وجداول في أصول العلوم الرياضية، تشبه شجرة ذات جذع وأغصان وأوراق، في كل ورقة منها أصل علم من تلك العلوم، صنعها خليل بن أحمد الشيخ غرس الدين الحلبي المتوفى سنة ٩٧١هـ، وكان الطلبة يقدمون إليها من البلاد القاصية للاشتغال بالعلوم الرياضية كالحساب والفلك وغيره».

ومن خزائن الكتب التي بادت مكتبة بني الشحنة، ومكتبة بني العديم، ومكتبة بني الخشاب من مكاتب بيوتات العلم، وناهيك بمكاتب المدارس الكبرى السلطانية، والعصرونية، والحلوية، والشرفية، والرواحية، وغيرها، ذهبت تلك المدارس ومكاتبها على يد تيمورلنك، وبيعت كتبها بأبخس الأثمان، غير ما التقطه طلاب الكتب المخطوطة من الإفرنج وغيرهم قبل أن ينتبه الحلبيون إلى قيمتها. أما المكاتب الباقية في حلب إلى الآن فتُقسَّم إلى قسمين:

(١) المكاتب الإسلامية.
(٢) المكاتب النصرانية.

المكاتب الإسلامية في حلب

(١) **مكتبة المدرسة الأحمدية فيها ٣٠٠٠ مجلد:** جاء ذكرها في هذا الكتاب غير مرة، وذكرها فلوغل في ذيل طبعة كشف الظنون الأوربية، وكان فيها ٢٦٩ كتابًا، أما الآن فقد أصبحت كتبها ٣٠٠٠ مجلد في اللغة والتاريخ والأدب والفقه والطب والرياضيات، ومن الكتب النادرة فيها:

(أ) التفسير المهمل للفيض الهندي.
(ب) بدائع الزهور في مجلد ضخم.
(جـ) در الحبب في تاريخ حلب.
(د) تاريخ ابن كثير في ثلاثة مجلدات.
(هـ) تاريخ الذهبي في ٧ مجلدات.
(و) مرآة الزمان منه مجلد واحد.
(ز) مختصر تاريخ الذهبي المسمى بالعيار.
(حـ) مثير الغرام لزيارة القدس والشام.

وهي عمومية تفتح أبوابها يومين في الأسبوع (الإثنين والخميس) لمن يريد المطالعة.

(٢) **مكتبة المدرسة الرضائية فيها ١٥٠٠ مجلد:** ومنها المكتبة الرضائية، وتعرف بالعثمانية، فيها ١٥٠٠ مجلد في فنون شتى، أندر ما فيها كتاب عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ للحلبي السمين، والمقدمة السنية للصفدي، والدر الثمين في أسماء البنات والبنين، والحدائق الإنسية في كشف الحقائق الأندلسية، والدخول فيها مباح يوم الخميس من كل أسبوع.

(٣) **مكاتب أخرى:** ومكتبة ابن الهبراوي، ومكتبة التكية المولوية، ومكتبة بني بيازيد، ومكتبة بني الجابري جمعها وحفظها الحاج عبد القادر الجابري مفتي حلب الأسبق، ومكتبة آل المدرس جمعها الحاج حسين بن المدرس وغيرها.

المكاتب المسيحية في حلب

(١) **المكتبة المارونية:** أنشأها المطران جرمانوس فرحات لما تولى تلك الأبرشية سنة ١٧٢٥، فجمع فيها ما كان مبعثرًا من الكتب التي كان سلفاؤه الأساقفة قد اقتنوها، وأكثرها ديني طقسي، وأضاف إليها مقدارًا من كتبه الخاصة، واهتم بزيادتها، وخلفه المطران جبرائيل حوشب، فاقتدى به وعمل مثل عمله، وأضاف إليها كثيرًا من المخطوطات ونفائس المطبوعات، واقتدى بهما من خلفهما على ذلك الكرسي حتى صارت إلى ما هي

عليه الآن، وعدد ما فيها من الكتب الخطية ٧٣٥ كتابًا غير المطبوعات، وأكثرها دينية طقسية في السريانية والعربية، لكن فيها طائفة من كتب التاريخ واللغة والأدب، أهمها:

(أ) دمية القصر للباخرزي.
(ب) مباهج الفكر لجمال الدين الوطواط.
(ج) دمن القصر لابن طالو.
(د) المفصل للزمخشري.
(هـ) ديوان بهاء الدين المهلبي، وغيرها.

(٢) **المكتبة الملكية للروم الكاثوليك:** هي قديمة لكنها أصيبت بحريق سنة ١٨٥٠ ذهب بها كلها تقريبًا، ثم أعيد إنشاؤها، وأضيفت إليها كتبٌ للمطران غريغوريوس شاهيات الحلبي كان قد وقفها للخير، وكتبُ القس بولس المنير، والخوري يوسف جبجي وغيرهم، وعني بتنظيمها على حالتها الحاضرة المطران بولس حاتم سنة ١٨٦٣، وأضاف إليها كثيرًا من الكتب المطبوعة باللغات المختلفة، فيها ٢١٢ كتابًا مخطوطًا، منها ٦٣ في التاريخ والسِّيَر.

(٣) **المكتبة السريانية:** هي لطائفة السريان الكاثوليك، كانت من أَجَلِّ المكاتب فأصابها الحريق سنة ١٨٥٠، فذهب بكثير من مخطوطاتها السريانية والعربية واللاتينية واليونانية، ثم أعيدت بعناية الخوري جبرائيل رباط وغيره، وأضاف إليها جرجس شلحت المتوفى سنة ١٨٩١ عددًا كبيرًا من الكتب المطبوعة باللغات المختلفة، وفيها الآن ٢٧٠ كتابًا مخطوطًا، منها ٣٤ في التاريخ والرحلة غير المطبوعات، وأكثرها ديني طائفي، ومن مخطوطاتها

(أ) كتاب خواص الحيوان لابن أبي حوافر الطبيب،
(ب) كتاب الدر المنتخب لابن الشحنة وغيرها.[٢]

(٤) **مكتبة بني الدلال:** نبغ من آل الدلال غير واحد من الأدباء، وهذه المكتبة لجبرائيل دلال، كان فيها ٥٠٠ مجلد بينها تحفة نادرة هي مصحف لا يزيد حجمه على نصف الكف، كُتِب بقلم دقيق، وخط جميل بالحركات والنقط، محاط بحاشية دقيقة من الذهب تدهش الناظر، وقد فُقِد هذا المصحف بعد وفاة صاحب المكتبة، ولا ندري أين هو الآن.

مكاتب بيروت

بيروت قليلة المكاتب العربية العمومية المشتملة على المخطوطات القديمة رغم سبقها في أكثر أسباب هذه المدنية من حيث المدارس والصحافة والطباعة والأدب والشعر وغيرها، وهي الآن ليس فيها مكتبة عمومية بالمعنى المراد هنا، لكن كلياتها لا تخلو من المكاتب النفيسة، أهمها المكتبة الشرقية للآباء اليسوعيين، ومكتبة المدرسة الكلية الأميركية.

(١) **المكتبة الشرقية للآباء اليسوعيين فيها نحو ٤٠٠٠٠ مجلد:** هي مكتبة نفيسة، وتعد من المكاتب الكبرى في الشرق العربي، تحتوي على نحو ٤٠٠٠٠ مجلد في الآداب الدينية والعلمية، ونخبة من الكتب الشرقية ولا سيما العربية، فيها ٣٠٠٠ مخطوط بينها كتب نادرة جاء ذكر بعضها في أثناء هذا الكتاب، غير المطبوعات الشرقية التي ظهرت في أوربا عن الشرق والإسلام والعرب، وقد أصدر الأب لويس شيخو منشئ مجلة المشرق كراسًا بالفرنسية في وصف مخطوطاتها التاريخية المسيحية والإسلامية في العربية والفارسية والتركية والسريانية، بينها من التواريخ النصرانية بضعة وستون كتابًا، ومن التواريخ الإسلامية نحو ثمانين مخطوطًا فيها طائفة من أحسن الكتب، هاك أهمها:

(أ) أخبار الدول للكرماني.
(ب) الاستيعاب للنمري.
(جـ) الأعلاق الخطيرة في تاريخ الجزيرة لابن شداد.
(د) الخلاصة الوافية في تاريخ بطاركة إنطاكية.
(هـ) تاريخ إبراهيم الصباغ.
(و) الدر الموصوف في تاريخ الشوف للأب منير.
(ز) تاريخ سليمان باشا لإبراهيم العورا.
(حـ) قصة أحمد باشا الجزار لنقولا الترك.
(ط) روضة الناظرين لابن الشحنة.
(ي) العيلم الزاخر في أحوال الأوائل والأواخر للجنابي.
(ك) تاريخ أئمة صنعاء.

(٢) **مكتبة الكلية الأميركية فيها نحو ١٧٠٠٠ مجلد:** نشأت هذه المكتبة منذ إنشاء المدرسة المذكورة بما اجتمع إليها من الكتب المبتاعة أو المهداة من أهل الفضل، أو ما

تخلف عن أصاحبه من المرسلين لسفر أو وفاة، وعدد مجلداتها الآن نحو ١٧٠٠٠ مجلد، أكثرها في اللغة الإنكليزية وغيرها من اللغات الأوربية في العلوم الحديثة، بينها ١٦٠٠ مجلد في العربية، وفيها نحو ٥٠٠ مجلد تبحث في سوريا وفلسطين فقط، وفي المكتبة غرفة خاصة للمطالعة فيها القواميس ودوائر المعارف وسائر كتب المراجعة بالإنكليزية والعربية، غير المجلات والجرائد الهامة في أهم اللغات الحية.

وقِسْ على ذلك مكاتب الكليات الأخرى في بيروت كالمدرسة البطريركية، ومدرسة الحكمة، ومدرسة الثلاثة الأقمار وغيرها، وقد تقدم ذكرها في باب المدارس.

مكاتب القدس

في القدس كثير من المكاتب الطائفية بالأديار وغيرها، لا يخلو دير من مكتبة خاصة به، فيها من الكتب الدينية ما يتعلق به أو بتعاليمه، وهناك مكاتب للأرثوذكس واللاتين والأرمن واليهود وغيرهم، منها:

(١) **مكتبة دير الروم:** فيها ٢٧٣٣ مجلدًا باليونانية وغيرها، بينها مخطوطات يونانية مؤرخة من القرن العاشر للميلاد.

(٢) **مكتبة اليهود المركزية:** فيها ٢٠٠٠٠ مجلد.

(٣) **مكتبة اللاتين.**

(٤) **مكتبة المدرسة الأميركية:** وهذه دخولها مباح لمن يشاء.

(٥) **المكتبة الخالدية فيها نحو ٤٠٠٠ مجلد:** أما المكاتب العربية العامة فليس منها في القدس الآن إلا المكتبة الخالدية، وقد شاهدناها في رحلتنا إلى هناك في العام الماضي، أسسها راغب الخالدي وهي لا تزال في أول نشأتها، وكانت في أصل وضعها كتبًا لبيت الخالدي، ثم أضيفت إليها كتب ضيا باشا الخالدي، وفي العام الماضي أضيفت إليها كتب روحي بك الخالدي، ومنها طائفة حسنة من الكتب العربية والإفرنجية، وفي المكتبة نحو ٤٠٠٠ مجلد في مواضيع مختلفة، وهي مفتوحة الأبواب لفائدة الجمهور، وبلغنا أن في القدس مكتبة أخرى اسمها الحنبلية.

مكاتب حمص

حمص عريقة بآداب العرب، وقد نبغ فيها غير واحد من الأدباء والشعراء، وأصابها ما أصاب غيرها من الإحن حتى تضعضعت كتبها وخربت مكاتبها، ثم نهض الحمصيون في هذا العصر إلى استرجاع ما فات، فأخذوا في الاحتفاظ بما بقي من الكتب القديمة، والإضافة إليه من المؤلفات العصرية، ويؤخذ من مقالة في هذا الموضوع نُشِرت في جريدة حمص (١١ أبريل سنة ١٩١٤) أن في حمص الآن ٩ مكاتب عمومية تحتوي على نحو ٥٠٠٠ مجلد، وبضع عشرة مكتبة خصوصية فيها نحو ٨٠٠٠ مجلد.

ويراد بالمكاتب العمومية ما أنشئ لخدمة الجمهور بالمطالعة أو النسخ، وهذه في حمص أكثرها للكنائس أو المدارس أو غيرها من الجماعات النصرانية، أقدمها مكتبة الأربعين شهيدًا، كان فيها طائفة حسنة من المخطوطات تضعضعت، واستؤنفت الهمة لإحيائها، وأكثرها ديني طائفي، وهكذا يقال في «مكتبة المطرانية الأرثوذكسية» فيها نحو ٦٠٠ مجلد في اللغات العربية واليونانية والروسية، وبعض المخطوطات، ومكتبة الآباء اليسوعيين فيها نحو ٢٠٠٠ مجلد من نفائس الأسفار الدينية والعلمية، وليس في مكتبة من المكاتب العمومية الباقية ما يتجاوز عدد كتبها ٥٠٠ مجلد.

أما المكاتب الخصوصية فأكثرها للبيوتات القديمة في حمص، كالمكتبة الأتاسية لآل الأتاسي، فيها نحو ألف مجلد في اللغة والدين والتاريخ والأدب، والمكتبة الجمالية للشيخ جمال الدين الجمالي الفقيه، فيها نحو ١٥٠٠ مجلد من الكتب النفيسة، والمكتبة الدمعوية فيها ٧٥٤ مجلدًا بينها بعض المخطوطات، والمكتبة السباعية فيها ٥٠٠ مجلد، وليس بين ما بقي من المكاتب ما يربو عدد كتبه على بضع مئات، لكن المكتبة العبودية منها فيها ٤٠٠ مجلد أكثرها في التاريخ، والمكتبة الجندية فيها مخطوطات قديمة.

مكاتب سائر سوريا

لا نعرف خزائن للكتب العمومية في ما بقي من مدائن سوريا تستحق الذكر، وربما كان في الخزائن الخصوصية كتب هامة لم يبلغ إلينا خبرها.

مكاتب لبنان

لكن في لبنان خزائن للكتب في المدارس الطائفية الكبرى، وفي الأديار الشهيرة لكل الطوائف، مثل: مكتبة دير البلمند للروم الأرثوذكس، ومكتبة دير المخلص للكاثوليك، ومثلها المكاتب المارونية، وغيرها في عين ورقة ومار عبدا وقزحيا وقرنة شهوان، والشوبر ومار شعيا وسوق الغرب، وعين تزار وعين طورا وغزير وغيرها، على أن هذه المكاتب ونحوها مما كان في الأديار قد حُمِل معظم كتبها وأهمها إلى رومية على يد السمعاني صاحب المكتبة الشرقية، وبينها كتب هامة في العربية والسريانية واليونانية وغيرها.

غرف القراءة في سوريا

على أن المتيقظين من أبناء سوريا نهضوا في العهد الأخير يطلبون إنشاء المكاتب العمومية في المدن بتحريض الحكومة على إحياء المكاتب القديمة التي كانت في المساجد أو غيرها، أو إنشاء أمثال هذه المكاتب بمساعدة أهل البر للخدمة العامة.

ومن هذا القبيل اهتمام الناشئة السورية في إنشاء غرف للقراءة تفتح أبوابها لمن يشاء المطالعة في الكتب والجرائد أو المجلات، أهمها «غرفة القراءة» في بيروت، قام بأمرها لجنة من أدباء بيروت أكثرهم من أساتذة الكلية ومتخرجيها، جمعوا إليها خيرة الكتب التي ترقي العقول وتنير الأذهان، ونخبة الجرائد والمجلات العربية وغيرها، فأصبحت مجتمعًا لطبقة من محبي المطالعة من كل الطوائف.

وقد انتشرت هذه الروح في لبنان، فأنشئت غرف للقراءة في كثير من قراه، وقد ترى القرية لا يتجاوز عدد سكانها بضعة آلاف، وقد أنشئوا غرفة للقراءة عيَّنوا لها لجنة تدير شئونها، تستجلب لها الكتب والمجلات، وتجعلها ناديًا للمطالعة أو إلقاء الخطب ونحو ذلك، والغالب أن يكون الساعون في هذا السبيل من متخرجي المدرسة الكلية الأميركية.

(٣-٤) مكاتب العراق

لا يخفى ما كان للعراق من القِدْح المُعَلَّى في العلم والأدب، وهي أسبق سائر البلاد الإسلامية إلى إنشاء المكاتب من صدر الدولة العباسية في بغداد والبصرة وغيرهما من مدائن العراق، مما جاء ذكره في تضاعيف هذا الكتاب، على أنها أصيبت بما أصيب به سواها من العالم العربي في أثناء الأجيال المظلمة على أثر فتوح التتر وتخريبهم، وما

يتبع ذلك من إحراق الكتب أو إغراقها، غير ما كان يذهب منها في المنازعات المذهبية بين الفرق الإسلامية، فأقبل القرن التاسع عشر والعراق في ظلمة، وقد ظنها الناس خالية من المكاتب.

على أننا كنا نتوسم فيها خلاف ما يظنون؛ لأن تلك المدنية الضخمة مهما بلغ من انحلالها لا بد من آثار تدل عليها، ولا سبيل لنا إلى تفقُّد تلك الآثار بنفسنا لبعد الشقة، فكتبنا إلى رصيفنا الأب إنستاس الكرملي صاحب مجلة لغة العرب أن يوازرنا بخلاصة أحوال مكاتب العراق، فأدهشنا ما ذكره في جوابه من التحف النادرة المخبوءة في مكاتب العراق، في جملتها كتب نفيسة يعتقد المستشرقون وغيرهم من أهل البحث عن الآداب العربية أنها ضاعت ولا وجود لها، وهي موجودة في بعض مكاتب العراق الخصوصية تحت الأقفال، لا يأذن أصحابها لأحد في الاطلاع عليها أو نسخها، وقد ينكرون وجودها.

من تلك التحف «كتاب العين» للخليل بن أحمد، فالمشهور أنه غير موجود كاملًا، لكن في العراق منه أربع نسخ كاملة: واحدة في الكاظمية، وواحدة في كربلاء، والثالثة في النجف، وواحدة في إدارة مجلة لغة العرب، أخذ الأب الكرملي بنشرها خدمة لآداب اللغة، وقد أخبرنا أنه احتاج إلى مقابلتها بنسخة من النسخ الأخرى عند أصحابها، فلم يؤذن له في ذلك.

وكذلك كتاب «الموعب» للتياني، وقد ذكرنا في غير هذا المكان أنه فُقِد، ولكن منه نسخة كاملة عند الأب المذكور، وقد عزم على نشرها، ويذكر القراء «معجم الأدباء» الذي أخذ الأستاذ مرجليوث في نشره، فقد قلنا عند تقريظه أنه لم يعثر إلا على أربعة مجلدات منه، وأنه قطع الأمل من وجود باقيه، لكن الأب الكرملي يقول إن منه نسخة كاملة عند رجل شيعي في بغداد، وأنه بذل ما في وسعه ليأذن له في استنساخ ما لم يُطبَع منها ليبعث به إلى الأستاذ المذكور فأبى، ولا سيما بعد أن علم بشدة الحاجة إليه.

فاعتبرنا البحث في مكاتب العراق على يد زميلنا المشار إليه فتحًا جليلًا في آداب اللغة العربية، ولذلك فنحن ننشر ما كتب به إلينا عن تلك المكاتب مرتبة حسب البلاد، قال:

في الكاظمية

مكتبة السيد حسن صدر الدين: وقد حوت من نفائس المخطوطات اللغوية والتاريخية والشعرية ما لا مثيل له، وربما وجد عنده أربعة أو خمسة كتب هي اليتيمة في البلاد

كلها، مثل: مجموعة في الحكم، وكتاب الدر المسلوك في أحوال الأنبياء والأوصياء والخلفاء والملوك لأحمد بن الحسن الحر العاملي، وغيرهما.

في كربلاء

(١) **مكتبة الشيخ عبد الحسين الطهراني:** فيها مؤلفات نادرة الوجود وكلها خَطِّيَّة، وأغلبها بخطوط مصنفيها، وفيها كتاب العين للخليل، والمحيط للصاحب ابن عباد، وتحرير المجسطي بخط خوجة نصير الدين الطوسي، والتحفة الشاهية، وقد قرئت على مصنفها، والتفهيم للبيروني مخطوط في القرن السادس للهجرة، وليس فيها من الكتب المطبوعة إلا النزر القليل.

(٢) **مكتبة السيد عبد الحسين الكليدار (قيم أو خازن الروضة الحسينية):** أغلبها مطبوعة، وفيها أيضًا كتب خط نفيسة، ولا سيما في التاريخ، ومنها ما لا يُرَى عند غيره.

(٣) عند الشيخ علي بن الشيخ زين العابدين مكتبة جليلة فيها مصنفات قديمة الخط، تمتاز بمصنفات للشيعة الإمامية، وهناك مكاتب خصوصية صغيرة لكنها جليلة المحتوى.

في النجف

(١) **مكتبة الشيخ علي بن الشيخ محمد رضا الجعفري كاشف الغطاء:** وهي مكتبة قديمة حوت أمهات الكتب ويتيمات المصنفات في نفائس العلوم والفنون، وأكثرها خط في العصور الخالية، ومن محتوياتها كتاب مقاييس اللغة الذي يُطبَع اليوم في مصر، والطراز للسيد علي خان في اللغة، والمجمل لابن فارس وغيرها، وهي أكبر مكتبة في النجف.

(٢) عند الشيخ هادي بن الشيخ عباس الجعفري من آل كاشف الغطاء خزانةٌ دون الأولى كبرًا وسعة وعددًا، لكن فيها من النفائس والأعلاق ما لا شبيه له في العراق.

(٣) **مكتبة السيد محمد بحر العلوم الطباطبائي:** فيها كتب نفيسة الخط بينها جملة من الكتب القديمة، منها ديوان الشريف الرضي، كُتِب في عهد مؤلفه، وفيه من الأشعار أكثر مما في النسخة المطبوعة.

(٤) كان في النجف خزانة تسمى مكتبة الشيخ ميرزا حسين النوري، وكان فيها من جلائل المصنفات في العلوم والفنون شيء كثير، وكلها خطية نادرة، إلا أنها كانت عزيزة المنال كأكثر كتب النجف، ثم تفرقت في النجف بعد موت صاحبها منذ نحو ١٠ سنين، وكان له ثلاث مكتبات: هذه التي كانت في النجف، والثانية كانت في طهران، والثالثة في هندستان، والميرزا النوري صاحب تآليف شتى أكثرها طُبِع في إيران.

(٥) **مكتبة آغا رضا الأصفهاني صاحب نقد فلسفة داروين:** فيها من كتب الخط شيء كثير، وفيها من النوادر الجليلة ما لا يحصى.

وفي النجف عادة قديمة لا توجد في سواها من بلاد العراق: وهي أنه في كل نهار خميس وجمعة تقوم سوق تُعرَض فيها الكتب وتباع في المزايدة، فمنها ما يباع بثمن بخس وهو ثمين، ومنها ما يباع بثمن غالٍ وهو لا يساوي فلسًا، وما ذلك إلا من جهل البعض، ودراية البعض الآخر وذكائهم في مشترى المصنفات.

في الحلة

مكتبة آل القزويني: فيها من المخطوطات شيء كثير مفرقة في بيتهم في النجف والحلة.

في السماوة

(١) **خزانة كتب الشيخ محمد السماوي:** فيها من المخطوطات طائفة حسنة أكثرها في علم الفلك والرياضيات، ومن كتبها: المجسطي وهي منقولة عن نسخة المصنف، وشرح التذكرة للسيد الشريف صاحب كتاب التعريفات، والتحفة الشاهية، والمدخل لكوشيار وقد كُتِب نحو سنة ٨٠٠هـ، وشرح الجغميني لجمال الدين التركماني، وقد خُطَّ في نحو سنة ٨٠٠هـ أيضًا، وكتاب التفهيم للبيروني، وديوان السيد علي خان صاحب السلافة، وديوان الواواء الدمشقي، وديوان ابن الخياط وغيرها.

(٢) **مكتبة الشيخ أحمد عبد الرسول:** أغلب كتبها في اللغة والأصول على مذهب الشيعة.

بغداد

وهي أم المكاتب إلا أن كتب النجف أقدم خطًّا، وأندر وجودًا، وأتقن كتابة، ومواضيعها مختلفة، ومن مكاتبها العمومية:

(١) **المرجانية:** وقد وقف كتبها السيد نعمان الآلوسي، وفيها كتب كثيرة مختلفة منها: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، وبعض مجلدات تاريخ الخطيب البغدادي، وتاريخ الذهبي، وكتاب جامع التعريب بالطريق القريب — وهو تلخيص الترتيب والتذييل مما استعمل من اللفظ الدخيل المعروف بالمعرب للجواليقي — لجمال الدين عبد الله بن أحمد بن محمد العذري الشهير بالسيسي أو البشيشي، وهو كتاب جليل واسع في الألفاظ المعربة.

(٢) **مكتبة الخالدية:** واسعة كثيرة التأليف، فيها كتب نادرة جليلة الخط.

(٣) **مكتبة الحيدرخانة:** هي كثيرة الكتب إلا أنه يغلب عليها كتب الدين والفقه والحديث والنحو، وفيها كتاب المقامات النصرانية لابن ماري، وهي نسخة قديمة عزيزة، أهداها إليها المرحوم فتح الله عبود من نصارى بغداد منذ نحو ٢٥ سنة.

(٤) **مكتبة الفضل:** أغلب كتبها في الدين والتصوف والحديث والفقه ونحوها.

(٥) **مكتبة الأعظمية:** وأغلب مصنفاتها دينية كالتفسير، ومدرسية كالصرف والنحو.

(٦) **الخاتولية:** وفيها نوادر قليلة نفيسة.

(٧) **الأزبكية:** والبعض يقول الأسبقية، وفيها كتب جليلة لكنها قليلة العدد.

(٨) **مكتبة الكهية:** وأغلب ما فيها كتب الدين والأصول والتوحيد، وما شاكل.

(٩) **مكتبة جامع حسين باشا:** لا أظن فيها ما يحرص على مطالعته.

(١٠) **المكتبة المرادية:** فيها مصنفات خطية ومطبوعة ومتنوعة.

(١١) **المكتبة الأحمدية:** أغلب ما فيها من كتب الدين والنحو.

(١٢) **مكتبة الشيخ صندل في الكرخ:** فيها قليل من كتب الدين والفقه ونحوها.

(١٣) **مكتبة جامع القمرية:** أغلب كتبها سُرِقت، وما بقي منها مبذول لا يُؤبَه له.

(١٤) **المكتبة القادرية:** لا يُرَى منها إلا الكتب البخسة الثمن والموضوع.

(١٥) **مكتبة الرواس:** أغلب ما فيها كتب الدين كالحديث والتفسير والتوحيد.

(١٦) **مكتبة الپاچه چية:** فيها كتب مختلفة في مواضيع شتى، وفيها نوادر ونفائس.

(١٧) **مكتبة السيد عيسى العطار أوسياه پوش:** هي من أَجَلِّ المكاتب، فيها من الكتب الخطية النادرة وأمهات المصنفات ما لا ترى مثيلًا له في خزائن بغداد، لكن الوصول إلى رؤية كتاب منها كالوصول إلى مناط الثريا.

(١٨) **مكتبة السيد الإمام الكبير محمود شكري الآلوسي:** هي من المكاتب الجليلة المشتملة على عيون الكتب، ومَن عَرَفَ صاحبها ومنزلته من الأدب عَلِمَ حقيقة قدرها.

(١٩) **خزانة ابن عمه الحاج علي الآلوسي:** فيها مخطوطات عزيزة، ومؤلفات جليلة.

(٢٠) **خزانة ابن عمه أحمد شاكر الآلوسي:** فيها كتب كثيرة، لكن أغلبها مطبوع.

(٢١) **خزانة شمس الدين الآلوسي:** أغلبها مصنفات دينية.

(٢٢) **مكتبة عبد الرحمن الكيلاني نقيب أشراف بغداد:** هي من أَجَلِّ المكاتب، لكن لا يدخل إليها إلا الجرذ والفأر.

(٢٣) **مكتبة السيد عبد الله النقيب:** أغلب ما فيها كتب التصوف والدين والرمل والتنجيم والزايرجة والجفر.

(٢٤) **مكتبة السيد أحمد النقيب:** أغلب ما فيها كتب التصوف والدين والرمل والتنجيم والزايرجة والجفر.

(٢٥) **مكتبة السيد مراد النقيب:** أغلب ما فيها كتب التصوف والدين والرمل والتنجيم والزايرجة والجفر.

(٢٦) **مكتبة السيد عيسى:** فيها كتب حديثة النسخ إلا أنها عزيزة الشبيه.

(٢٧) **مكتبة بيت الطبقچلي:** فيها كتب مختلفة المواضيع، قديمة الخط وحديثته.

(٢٨) **مكتبة الشيخ داود النقشبندي:**أغلب كتبها في الدين والتصوف.

(٢٩) **مكتبة عبد الوهاب النائب:** أغلب كتبها فقه وتفسير وأصول الدين.

(٣٠) **مكتبة الشيخ محمد سعيد النقشبندي:** أغلب كتبها تصوف ودينيات.

(٣١) **مكتبة بيت السويدي:** من البيوتات القديمة في بغداد، أغلب كتبها في الأدب والتاريخ واللغة، وفيها مؤلفات جليلة قديمة.

(٣٢) **بيت الشواف:** كتبهم حسنة قديمة، وأغلبها في الدين والأدب.

(٣٣) **بيت الشاوي:** بيت قديم، وتحتوي مكتبتهم على دواوين شعر، وكتب لغة، ومصنفات في الأدب مختلفة الموضوع.

(٣٤) **الحيدرية:** كتبهم مختلفة الموضوع، وفيها قديم وحديث، مخطوط ومطبوع.

(٣٥) **يوسف العطاء:** عنده مكتبة فاخرة نفيسة فيها كتب مطبوعة ومخطوطة.

(٣٦) **علي أفندي الخوجة أمين الفتوى:** أغلب ما عنده في الفقه والحديث والتفسير.
(٣٧) **عيسى البندنيجي:** وقد توفي والكتب في يد ابنه، وفيها تراجم رجال، ووصف بلدان وتاريخ، وكلها جليلة.
(٣٨) **مكتبة الآباء الكرمليين المرسلين:** فيها من الكتب الجليلة شيء كثير غير مطبوع، وفيها من الأمهات القديمة ما يعد من النسخ الوحيدة العزيزة الوجود. ا.هـ.

(٣-٥) مكاتب مكة والمدينة

مكاتب مكة

كان في مكة كتب كثيرة ذهبت ضحية النهب والسيول المتوالية، حتى إن بعض تلك السيول كان يدخل خزائن الكتب ويتلف ما فيها، ثم اهتم بعض الولاة في القرون الأخيرة بإنشاء المكاتب العمومية، وفيها الآن مكتبتان عموميتان صغيرتان:

(١) **مكتبة الشرواني:** عند باب أم هاني، أسسها شرواني زاده محمد رشدي باشا والي الحجاز سابقًا.
(٢) **المكتبة السليمانية:** أسسها السلطان عبد المجيد، فجمع إليها شتات كتب الحرم، وكتبًا من الأستانة. ولكل من هاتين المكتبتين أمين يقوم بشئونها، وأكثر كتبها في الفقه واللغة والأدب والتاريخ، وفيها كتب فارسية وأوردية وتركية وجاوية.

مكاتب المدينة

أما المدينة فإنها حافلة بخزائن الكتب النفيسة، وقد أشرنا إلى بعضها في أثناء كلامنا عن الكتب النادرة، وأهم تلك المكاتب:

(١) **مكتبة عارف حكمت بك فيها ٥٥٤٠ مجلدًا:** سميت بذلك نسبة إلى الحاج عارف حكمت بك شيخ الإسلام في زمن السلطان عبد المجيد، وهو عريق في الوجاهة، وُلِد في أول القرن الثالث عشر للهجرة، وتقلب في مناصب القضاء بين القدس ومصر والمدينة، فنقابة الأشراف، فعضوية مجلس الأحكام العدلية والشورى العسكرية، فمشيخة الإسلام، ثم اعتزل المناصب سنة ١٢٧٠هـ، وتوفي ١٢٧٥هـ بالأستانة، وقد أنشأ مكتبته هذه سنة

١٢٦٠هـ، ونقش ذلك في سقف قاعتها، ووضع فيها ما كان قد جمعه من الكتب، وعددها نيِّف وخمسة آلاف مجلد، ووقف الرواتب لمستخدميها، ويبلغ مجموع ذلك نحو ٧٢٠٠ قرش في السنة.

وهي واقعة قرب باب جبريل في بناء جميل نظيف، مرتبة ترتيبًا جميلًا، أرضها مفروشة بالسجاد الثمين، في فنائها بركة من الرخام يتدفق منها الماء، وبلغ عدد كتبها الآن نحو ٥٥٤٠ مجلدًا في العربية والفارسية والتركية والأوردية في مواضيع مختلفة، منها نحو ٥٥٠ كتابًا في علوم اللغة، ونحو ٩٠٠ في الشعر والأدب، و٧٠٠ في التاريخ، أكثرها مخطوط، بينها كتب نادرة استنسخت المكتبة الخديوية جانبًا كبيرًا منها، وقد أشرنا إلى ذلك في بعض الأماكن من هذا الكتاب، والمكتبة المذكورة عبارة عن بضع عشرة خزانة مشرعة الأبواب للطلبة والنساخ.

وذكر الأمير شكيب أرسلان في مقالةٍ نُشِرت في البرهان الطرابلسية أنه شاهد في هذه المكتبة نسخة من المصحف، مكتوبة على رَقٍّ نعام، بخط أندلسي مذهبة في آخرها، وقد جاء فيها أنها كُتِبت في المرية بالأندلس بقلم عبد الرحمن بن علي بن محمد بن مرزوق بن حمد بن مكانس البطليوسي سنة ٤٨٨هـ، فهي من التحف المخطوطة النادرة، وأنه شاهد نسخة غير تامة من تفسير القرآن لعبد الله بن عباس على رَقِّ غزال كُتِبت سنة ٣١٠هـ، وكتاب المحاضرات للسيوطي بخط المؤلف، وأفعال ابن القوطية كُتِبت بالإسكندرية سنة ٤٧٩هـ، وكتاب التشبيهات لأبي إسحق بن أبي عون البغدادي، مكتوبة بخط مشرقي سنة ٤٦٦هـ، وطبقات الشعراء لابن سلام — ومنها نقلت نسخة الشنقيطي في المكتبة الخديوية.

وذكر محمد بتانوني بك صاحب الرحلة الحجازية أنه شاهد في هذه المكتبة كتاب أشعار فارسية مكتوبًا بخط أبيض جميل قال: «وبينما نحن نعجب من جودة الخط، وإتقان الصناعة ونظافتها، وحسن تنسيق حروفها على صغرها ودقتها، لفت نظرنا حضرة مدير الكتبخانة إلى أن حروف الكتابة إنما هي ملصقة على الورق، فتأملناها فوجدنا شيئًا يبهت الطرف لرؤيته، ويعجز اللسان عن نعته، خصوصًا عندما أخبرنا أنهم كانوا يكتبون هذه الكتابة، ثم يفصلونها عن ورقتها بظفرهم، ثم يلصقونها على ورقة أخرى».

وذكر عبد الله مخلص في المقتبس (سنة ٨ ج٢) أن هذا الكتاب يسمى غزليات شاهي، كُتِب سنة ٦٥٥هـ بحروف من ورق، وأنه رأى في تلك المكتبة كتاب تقويم الأبدان في الطب لابن جزلة البغدادي، كُتِب سنة ٢٩٧هـ.

(٢) **مكتبة السلطان محمود أو المحمودية:** هي أصغر من مكتبة عارف بك، عدد مجلداتها ٤٥٦٩ كتابًا من نفائس الكتب، منها ٢٠٠ في التاريخ، وأكثر الباقي في علوم الدين.

(٣) **مكتبة أمين باشا:** هي قريبة النظام والترتيب من السابقتين.

(٤) **المكتبة الحميدية:** نسبة إلى السلطان عبد الحميد الأول، عدد كتبها ١٦٥٩ كتابًا، مقرها بجانب الحرم إلى الغرب.

(٥) **مكتبة بشير آغا:** في زقاق الخياطين، فيها ٢٠٦٣ كتابًا، لكنها غير منتظمة في فتح أبوابها للطلاب.

(٦) **مكتبة الصاقزلي.**

(٧) **مكتبة العرفانية.**

(٨) **مكتبة رباط سيدنا عثمان.**

(٩) **مكتبة مدرسة ثروت.**

(١٠) **مكتبة مدرسة قره باشي.**

(١١) **مكتبة حسين آغا، وغيرها:** ويقدر مجموع ما في مكاتب المدينة كلها بنحو ٣٠٠٠٠ مجلد، بينها كثير من الكتب النادرة.

(٣-٦) خزائن الكتب في المغرب

أكبر خزائن الكتب العمومية في المغرب موجودة في تونس والجزائر، أهمها:

(١) **مكتبة الجزائر الأهلية:** تأسست سنة ١٨٣٥، فيها نحو ٤٠٠٠٠ مجلد، بينها نحو ٢٠٠٠ مخطوط في مواضيع مختلفة، جاء ذكر بعضها في أثناء هذا الكتاب، غير المكاتب الأخرى للبلدية، والجمعية الجغرافية، وغيرها.

(٢) **المكتبة الصادقية في تونس:** أنشأها المشير محمد صادق باشا باي تونس، وفيها نحو ٣٠٠٠ كتاب، أكثرها في الفقه والحديث واللغة، أراد صادق باشا أن يجمع إليها ما في المساجد والمدارس من الكتب، وجعل مقرها في الجامع الأعظم، ولها فهرست طُبِع سنة ١٢٩٢هـ، وهي مكتبة عمومية لفائدة الجمهور، لها شروط للمطالعة والنسخ.

(٣-٧) مكاتب الهند ونحوها

وهناك مكاتب كبرى في الهند فيها كتب عربية هامة، أشهرها:

(١) **مكتبة كلكتة:** فيها ٤٠٠٠٠ مجلد، منها ١٤٠٠٠ في الآداب السنسكريتية، و٦٠٠٠ في الفارسي والعربي، والباقي في اللغات الأخرى.
(٢) **مكتبة حيدر آباد:** فيها ٦٠٠٠ مجلد بينها كثير من الكتب العربية.

وقِسْ على ذلك كثيرًا من مكاتب الهند وفارس مما يصعب حصره، غير المكاتب الخصوصية التي في حوزة بعض البيوتات القديمة، أو المساجد القديمة، أو المدارس الكبيرة، وغيرها.

هوامش

(١) تفصيل ذلك في تاريخ التمدن الإسلامي ٢١٣ ج٣.
(٢) لخصنا ذلك من كتاب بعث به إلينا القس جرجس منسي الماروني الحلبي.

المتاحف العربية

ومن قبيل إحياء الآداب العربية إنشاء المتاحف العربية، فرأينا أن نقول كلمة فيها.

المتاحف على الإجمال

المتاحف أو مستودعات التحف لفائدة الجمهور من ثمار هذه المدنية، اتخذتها الأمم الراقية وسيلة لتوسيع معارف الناس وترقية أذواقهم، على أن الملوك والأمراء كانوا قديمًا يخزنون التحف للتفاخر بها. ومن أقدم تلك الخزائن خزائن أحشويرش الآشوري، ومستودع التحف في هياكل أفسس ودلفي وأثينا، ومدارس البطالسة في الإسكندرية، وغيرها من أهل المدنيات القديمة.

العرب والمتاحف

وكان للعرب حظ وافر من هذه الخزائن، وأضافوا إليها آثارًا تاريخية، بدءوا بذلك من الدولة العباسية، فقد كان في خزائن العباسيين تحف تاريخية من مخلفات أسلافهم الأمويين يحفظونها في خزائن الأمتعة، وتجاوز الفاطميون ذلك إلى تخصيص القصور للتحف التاريخية منذ نحو ثمانمائة سنة، وكانوا يسمونها الخزائن، منها خزانة الجوهر، وخزانة الأسلحة، وخزانة الفرش، وليست هي من قبيل مخازن اللوازمات كما يتبادر إلى الذهن، لكنها تشتمل على تحف تاريخية تُنسَب إلى أصحابها من الخلفاء والأمراء، كالكئوس البادزهر التي عليها اسم هارون الرشيد، وبيت هارون الرشيد الخز الأسود الذي مات فيه بطوس، وحصير الذهب الذي يُظن أن بوران بنت الحسن بن سهل جليت عليه للمأمون، وزنه ١٨ رطلًا، ورقعة للشطرنج والنرد أحجارها من الجوهر والفضة،

وكان في خزائن الفرش مقطع من الحرير الأزرق التستري القرقوبي غريب الصنعة، منسوج بالذهب وسائر ألوان الحرير، كان المعز لدين الله أمر بعمله سنة ٣٥٣هـ، وفيه صور أقاليم الأرض وجبالها وبحارها ومدنها وأنهارها ومسالكها شبه الخريطة، وفيه صورة مكة والمدينة مبينة للناظر، وعلى كل مدينة وجبل وبلد ونهر وبحر وطريق اسمه بالذهب أو الفضة أو الحرير، وكُتِب في آخره: «مما أمر بعمله المعز لدين الله شوقًا إلى حرم الله، وإشهارًا لمعالم رسول الله، في سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة، والنفقة عليه اثنان وعشرون ألف دينار.» وبيت أرمني أحمر منسوج بالذهب عُمِل للمتوكل على الله، لا مثيل له ولا قيمة، صار إلى تاج الملوك، وصار إليه أيضًا بساط خسرواني دفع له فيه ألف دينار، فامتنع عن بيعه.

وكان في خزانة السلاح درع المعز لدين الله، وسيف الحسين بن علي، ودَرَقَة حمزة بن عبد المطلب، وسيف جعفر الصادق، وكان عندهم في خزائن أخرى منديل القائم بأمر الله العباسي، وغير ذلك، وناهيك بالجواهر والحلي الثمينة مما لم يعهد له مثيل عند غيرهم، هذه كلها ذهبت بالفتن في أثناء الدولة الفاطمية، وما بقي ذهب بذهاب الدولة.

على أن المتاحف كانت مقفلة لا يدخلها غير أصحابها، ولا نفع للناس بها، أما المتاحف لخدمة الناس، فمن مستنبطات أصحاب المدنية الحديثة، بدءوا بها من القرن الخامس عشر في إيطاليا أسبق أمم أوربا إلى الاقتباس من العرب، واقتدت بهم سائر تلك الممالك، ثم أخذنا ذلك عنهم بشكله الحاضر كما أخذنا سواه من أسباب هذه المدنية، وإنما يهمنا من هذه المتاحف ما كان خاصًّا بالآثار العربية، أو يتعلق بها.

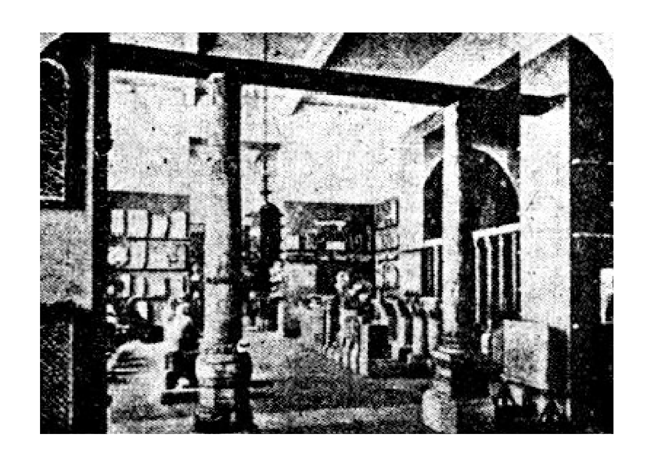
ومن الآثار العربية مجموعات عامة في متاحف أوربا، أشرنا إلى كثير منها في رحلتنا إلى هناك سنة ١٩١٢، المنشورة في السنة ٢٠ من الهلال، وإنما نحصر الكلام هنا بالمتاحف الخاصة بالتحف العربية أو الإسلامية، وأهمها جميعًا المتحف العربي، أو دار الآثار العربية بمصر.

دار الآثار العربية بمصر

أول مَن فكَّر في إنشاء هذا المتحف إسماعيل باشا الخديوي، فأصدر أمره لإنشائه سنة ١٨٦٩، وهي السنة التي أمر فيها بإنشاء المكتبة الخديوية، كلَّف بذلك فرنس باشا رئيس هندسة الأوقاف، وأمره أن يهيئ مكانًا لها، فلم يستطع لاشتغال المكان المطلوب، فظل المشروع مهمَلًا حتى تجددت الهمة في أوائل زمن توفيق باشا، فأصدر أمره بإنشائه

في أواخر سنة ١٨٨١، وعهد بذلك إلى فرنس باشا المذكور، فاستخرج الآثار العربية من الأطلال المتراكمة منذ قرون، وأودعها في الإيوان الشرقي من جامع الحاكم، وقد شاهدناها هناك عند مجيئنا إلى مصر سنة ١٨٨٣، ولما تكاثرت الآثار، وشيدت بناية المكتبة الخديوية بباب الخلق سنة ١٩٠٣، خُصِّصت لها الطبقة السفلى منها، وازدادت العناية في ضبط الآثار وتنميرها.

والعناية بدار الآثار منوطة بلجنة من نخبة الوجهاء والعلماء من العرب والإفرنج، ولها أعضاء شرف في الخارج، وتشمل مهمتها النظر في الآثار العربية التابعة لديوان الأوقاف أو للحكومة أو للأوقاف الأهلية، فضلًا عن المتحف العربي الذي نحن في صدده. ويحتوي هذا المتحف على ما كان مبعثرًا من الآثار العربية في المساجد، وغيرها من المعاهد الدينية، وما ابتاعته نظارة الأوقاف مما وقع لها، غير الهدايا التي أُهدِيت إليه، وآخرها هدية البرنس يوسف كمال باشا، وتشتمل على ١٧٩ قطعة تُقدَّر قيمتها بمبلغ ١٤٧٠٠ جنيه.



داخل دار الآثار العربية.

وقد أنبأنا علي بك بهجت وكيل دار الآثار العربية أن عدد ما فيها من التحف الأثرية نحو ٤٠٠٠ قطعة، بينها آثار عربية إسلامية من بقايا التمدن الإسلامي على اختلاف

عصوره، ومصنوعات حجرية وزجاجية وخشبية ونحاسية على الطراز العربي الجميل تستحق العناية والدرس، ولها دليل مطبوع، وأكثرها من عصر الفاطميين والأيوبيين والمماليك والعثمانيين، وفي مصر متاحف أخرى غير عربية لا يهمنا ذكرها هنا.

متحف جينلي بالأستانة

هو متحف إسلامي عثماني يشتمل على كثير من الآثار العربية، واقع تجاه المتحف العثماني بالأستانة، واجهته مغطاة بالفسيفاء الزرقاء، بناه محمد الفاتح سنة ٨٦٠هـ، ثم أصلحه السلطان مراد الثالث، وهو مؤلَّف من طبقتين، يحتوي على آثار إسلامية أكثرها عثماني، في جملتها صورة خير الدين باشا (بربروسا) على حجر، وكثير من أجنحة الأبواب الإسلامية والسجاد الثمين والأدوات التاريخية، بينها كرسي كان يجلس عليه السلطان سليم الثالث كثير الشبه بكراسي هذه الأيام الاعتيادية، ظهره مكسوٌّ بالمخمل الأحمر، وكرسي آخَر لمحمد الفاتح أكبر من ذاك مكسوٌّ بالمخمل، وحول قوائمه شراريب القصب، وله ذراعان يستند الجالس عليهما.

ورأينا كثيرًا من الأدوات الفلكية كالإسطرلاب والكرة، وفيها كرة من نحاس عليها رسم الأرض يقال إنها من عهد السلاجقة، وركاب للخيل من الذهب، وصورة للسلطان سليم الثالث بالزيت، وهي في اعتبارنا أول صورة حقيقية لسلاطين آل عثمان؛ لأنهم لم يكونوا يأذنون بتصويرهم من قبلُ، ومصباح من البلور عليه أشعار منقوشة من زمن السلطان محمود الثاني.

وبين الذخائر العثمانية في سراي طوبقبو[١] بعض الآثار العربية.

متاحف الجزائر وتونس

وقد أنشئت بعض المتاحف الحديثة في تونس والجزائر، أكثرها لآثار تلك البلاد قبل الإسلام، وبعضها إسلامي، منها:

(١) **المتحف الأهلي الجزائري:** فيه كثير من الآثار الإسلامية، أنشئ سنة ١٨٩٧.

(٢) **المتحف العلوي في تونس:** فيه كثير من الآثار الإسلامية وغيرها، ولعل عند بعض هواة الآثار بالشرق آثارًا عربية هامة.



داخل طوبقبو سراي.

هوامش

(١) ترى تفصيل ما فيها في الهلال ٧٠ سنة ١٨.

التمثيل العربي

فن التمثيل من الفنون القديمة في أوربا من عهد اليونان، وقد نقل العرب في صدر الدولة العباسية علوم اليونان الطبيعية والفلسفية والرياضية، وأغضوا عن أكثر آدابهم الأخلاقية، أو الشعرية والتاريخية، ومن جملتها التمثيل، ولعل السبب في ذلك تجافي المسلمين عن ظهور المرأة المسلمة على المرسح، فأزهر التمدن الإسلامي وأثمر وليس فيه ثمة تمثيل — إلا ما كان قبيل الشعائر الدينية، كتمثيل قتل الحسين عند الشيعة،[١] أو بعض ما يأتيه أصحاب الطرق الصوفية من الإشارات أو الحركات التمثيلية — ذكروا رجلًا صوفيًّا كان معاصرًا للمهدي أنه كان يخرج كل إثنين وخميس إلى مكان خارج بغداد، ويجتمع حوله الناس، فيصعد إلى مرتفع وينادي قائلًا: «ما فعل النبيون؟ أليسوا في أعلى عليين؟» فيقولون: «نعم» ثم يأتي برجل يُجلِسه بين يديه يمثل به أبا بكر، ويأخذ في إطراء أعماله، ويأمر به إلى أعلى عليين، ثم يأتونه بعثمان فيصف أعماله، ثم بعلي بن أبي طالب فيثني عليه، ويأمر به إلى أعلى عليين، ثم يؤتي بمعاوية فيندد بأعماله، ويوقفه في الظلمة، ويفعل هكذا في يزيد، وقد عَدَّ ذلك بعضهم من قبيل التمثيل، وهو بالحقيقة من قبيل الشعائر الدينية، نحو تمثيل قتل الحسين.

على إننا وقفنا بين آثار أدباء العصر المغولي على ما يشبه التمثيل، نعني كتاب طيف الخيال لابن دانيال الموصلي، لكنه رواية هزلية فيها كثير من المجون والخلاعة والألفاظ البذيئة،[٢] من قبيل التمثيل ما يسميه السوريون كراكوز، والمصريون خيالَ الظل، وعَدَّ بعضهم المقامات من قبيل التمثيل (الدرام)، وقد بينا في الجزء الثالث من هذا الكتاب أنها تخالفه.

(١) التمثيل الحديث

أما التمثيل كما هو عند الإفرنج لهذا العهد، فقد جاءنا في جملة أسباب المدنية الحديثة، حمله بونابرت معه عند قدومه إلى مصر في جملة ما حمله من بذور هذه المدنية كالطباعة والصحافة، كان بين رجال حملته العلمية رجلان من أصحاب الفنون الجميلة وكبار الموسيقيين، وقد مثَّلوا بعض روايات الفرنساوية بمصر لتسلية الضباط، واشتغل الجنرال منو بتشييد مرسح للتمثيل سماه «مرسح الجمهورية والفنون»، لكن ذلك كله ذهب بذهابهم، وليس هو في كل حال تمثيلًا عربيًّا، ولو رسخت أقدام الفرنساويين بمصر من ذلك اليوم لصار عربيًّا، وكانت مصر أسبق بلاد الشرق إلى هذا الفن، لكنها تخلَّت عن ذلك الفضل إلى أختها سوريا.

(٢) التمثيل العربي في سوريا

لم يدخل التمثيل الحديث إلى اللغة العربية إلا في أواسط القرن الماضي، والسوريون أسبق المشارقة إلى اقتباسه؛ لما توفَّرَ لديهم من أسباب الاختلاط بالإفرنج، وإتقان لغاتهم، والرحلة إلى بلادهم، ومشاهدة مراسحهم، ومطالعة مؤلفاتهم، وأول مَن فعل ذلك منهم مارون النقاش من أهل بيروت المتوفى سنة ١٨٥٥، قبل بداية النهضة البيروتية التعليمية، وقد مثَّل أول رواية عربية سنة ١٨٤٨، أيْ قبل إنشاء المدارس الكبرى فيها ببضعة عشر عامًا، وقبل صدور أقدم صحف الأخبار بعشرة أعوام، فلم يكن في بيروت يومئذٍ كلية الأميركان، ولا كلية اليسوعيين، ولا المدرسة الوطنية، وقبل أن ينبغ البستاني واليازجي والشدياق وغيرهم، ومع تقدُّم التمثيل في الظهور على الكليات والصحف فقد سبقتاه في الرقي، مع أنه جاءنا ناضجًا؛ لأن الروايات التي وضعها النقاش لا تزال إلى الآن من أحسن ما وُضِع من نوعها في اللغة العربية.

مارون النقاش وُلِد سنة ١٨١٧، وتوفي سنة ١٨٥٥

ولد هارون النقاش المذكور في صيدا سنة ١٨١٧، ونشأ في بيروت، وفيه ميل إلى العلم، وأتقن اللغات التركية والفرنساوية والإيطالية، وله ولع بالموسيقى، لكنه انقطع للتجارة ومال إلى الأسفار، فجاء مصر سنة ١٨٤٦، ورحل منها إلى إيطاليا، وهي يومئذٍ أكثر ممالك أوربا علاقة بالشرق، وشهد مراسحها، فأعجبه التمثيل وأحب نقله إلى العربية،

فلما رجع إلى بيروت أخذ في العمل، وجمع نخبة من أصدقائه علَّمهم التمثيل، وألَّف لهم رواية «البخيل»، وهي أول رواية تمثيلية أُلِّفت في اللغة العربية، مُثِّلت سنة ١٨٤٨ في منزله، وحضر تمثيلها قناصل الدول وأعيان بيروت، وشاع خبرها وتناقلته الصحف الإفرنجية في أوربا؛ لأن الصحافة لم يكن لها وجود في سوريا؛ فازداد النقاش نشاطًا، فألَّف رواية «أبي الحسن المغفل، أو هارون الرشيد» مثَّلها في منزله أيضًا سنة ١٨٥٠، ودعا إليها والي سوريا وبعض الوزراء ورجال الدولة الذين كانوا في بيروت يومئذٍ، فأعجبوا به وأثنوا عليه؛ فازداد همة، وأنشأ مرسحًا بجانب منزله خارج باب السراي (تحوَّل بعد موته إلى كنيسة عملًا بوصيته) شخَّص فيه رواية الحسود وغيرها. وقد حذا برواياته هذه حذو موليير الفرنساوي، وهو مع ذلك يتعاطى التجارة، وإنما اشتغل بالتمثيل حبًّا بالفن، وكذلك رفاقه، وكانوا في بادئ الرأي يتملقون الناس ليحضروا تمثيلهم لتجافي المرء عن كل جديد، فلما ذاقوا لذة التمثيل تقاطروا إلى مشاهدته، وكان الممثلون من نخبة الأذكياء، نبغ منهم بعد ذلك جماعة من كبار الوجهاء والأدباء، ولو مَدَّ الله في أجله لكان لهذا الفن شأن آخر، لكنه توفي في طرسوس سنة ١٨٥٥، وكان قد ذهب إليها لبعض المهام التجارية، فتولى نشر مؤلفاته بعده أخوه نقولا النقاش في كتاب سماه «أرزة لبنان» طُبِع في بيروت سنة ١٨٦٩ مصدَّرًا بترجمة المؤلف، ونبغ من آل النقاش غير واحد من الأدباء ورجال الصحافة سيأتي ذكرهم.

ونشأ في السوريين حب التمثيل بسبب ذلك، ورغب أدباؤهم في هذه الصناعة، فجعلوا يمثلون في المراسح الخصوصية أو المدارس الكبرى أو المراسح العمومية، وأشهرها مرسح سوريا، ولا يزال باقيًا إلى اليوم. ومن قدماء المشتغلين بالتمثيل في سوريا بعد النقاشِ سعدُ الله البستاني، مثَّل رواية انتظم في سلكها جماعةٌ من نوابغ الشبان يومئذٍ، ومنهم الآن غير واحد من العلماء وأهل الوجاهة.

ونبغ نخبة من الممثلين في بيروت، أكثرهم اشتغل في هذا الفن رغبة فيه لا في الكسب، ومن جملة النابغين سليم النقاش ابن أخي مارون مؤسس هذا الفن، ومعه جماعة أشهرهم أديب إسحق، فترجما روايات تمثيلية، وألَّفَا جوقًا شخص مرارًا في بيروت.

(٣) التمثيل العربي في مصر

وفي أثناء ذلك تولى عرش الأريكة الخديوية إسماعيل باشا (سنة ١٨٦٣)، ونشط أهل الأدب بما سهَّله لهم من أسباب الرزق في خدمة الحكومة وغيرها، فرغب شبان سوريا في الرحلة إلى هذا القطر السعيد، واتفق الفراغ من حفر قناة السويس في عهده (١٨٦٩)، فاحتفل بافتتاحها احتفاله المشهور، وبنى الأوبرا الخديوية لذلك الغرض، واستقدم لها ممثلين من الإفرنج مثَّلوا فيها رواية عائدة باللغة الفرنساوية.

فتحدث الناس يومئذٍ بعظمة إسماعيل وفخامة مرسحه، ورغبته في الأدب وأهله، فجاء مصر جماعة من أدباء السوريين وكتَّابهم وشعرائهم، ومن جملتهم المرحومان سليم النقاش وأديب إسحق، ومعهما جوق من جملة الممثلين فيه يوسف خياط، فنزلا في الإسكندرية سنة ١٨٧٦، فمثَّلا عدة روايات في مرسح زيزينيا، فلم يلقيا إقبالًا فتخلَّيا عن الجوق ليوسف المذكور، وانصرفا إلى الصحافة. وفي سنة ١٨٧٨ انتقل الخياط بجوقه إلى القاهرة مقر الخديوي ورجال الدولة، فنشطه إسماعيل، وأمر أن تُفتَح له أبواب الأوبرا ليمثِّل رواياته، ووعد أن يحضر التمثيل هو بنفسه، فمثَّل الخياط فيها رواية «الظلوم»، وكان إسماعيل حاضرًا، فغضب لِمَا تخلَّل التمثيل من ذكر الظلم والظالمين، وتوهم أنهم يعرضون به وبأحكامه، فأمر بإخراج الخياط وجوقه من مصر، فعادوا إلى سوريا، وظلت الأوبرا الخديوية مقفلة في وجه التمثيل العربي إلى سنة ١٨٨٢، وكان قد أُقِيل إسماعيل وخَلَفَه ابنه الخديوي السابق، وجاء في تلك السنة سليمان القرداحي بجوقه وفيه الشيخ سلامة حجازي، فأذنت له الحكومة بالتمثيل في الأوبرا، وجرت الحوادث العرابية في ذلك العام، فهاجر وكفَّ عن التمثيل، ولم يرجع إلا سنة ١٨٨٤ ومعه الشيخ سلامة وليلى، فكانت الأوبرا تغص بالمتفرجين لكثرة الزحام؛ رغبة في سماع الغناء، ثم أقفلت الحكومة الأوبرا في وجه الأجواق العربية.

ورغب المصريون في أثناء ذلك في التمثيل، لكنهم قلَّما استخدموه للارتزاق، وإنما كانوا يمثلون في المدارس أو المرسح بأجواق تتألف من التلاميذ، وأول مَن فعل ذلك عبد الله نديم، فقد مثَّل بالإسكندرية روايتي «الوطن» و«العرب» في مرسح زيزينيا بحضور الخديوي السابق، وكان لهما وقع حسن في نفسه، فتبرع بمائة جنيه لمساعدة الجمعية القائمة بأعباء تلك المدرسة.

التمثيل للجمهور

وقدم القاهرة منذ نحو عشرين سنة أبو خليل القباني من دمشق، ومعه إسكندر فرح، فاشتغل جوق القباني بضع سنوات، وكان يمثل في مرسح إفرنجي يسمى بوليتياما، ثم استقل فرح بجوقه، لكنه اضطر لإنشاء المرسح الخاص به في شارع عبد العزيز، ولم يكن في الإمكان إتقانه كما ينبغي دفعة واحدة؛ لما يقتضيه ذلك من النفقة الطائلة. والارتزاق من التمثيل يومئذٍ يختلف عما كان عليه في عهد الخياط والقرداحي؛ لأن هذه الأجواق كانت قائمة بالخديوي وبعض الأمراء والوجهاء، ولا يهمها إرضاء سواهم؛ لأن كسبها منهم، ولم يكن للعامة سبيل لحضور التمثيل في الأوبرا إلا قليلًا، أما أجواق القباني وفرح وغيرهما، فكان اعتمادها في الارتزاق على الجمهور، ولا بد لها من إرضائهم، فانتقلت صناعة التمثيل من الخاصة إلى خدمة العامة، والوجه الأخير أقرب إلى مقتضيات الارتقاء الطبيعي، فاضطر أصحاب هذه الأجواق إلى تمثيل الروايات التي تلفت انتباه العامة وتسترعي أسماعهم، فوجدوا الجمهور يميلون على الخصوص إلى الصوت المطرب والنكت المضحكة، فوجهوا عنايتهم إلى انتقاء أطرب المنشدين، وتمثيل الروايات المضحكة، أو تذييل الرواية بفصل مضحك، ثم أخذت هذه الأجواق ترتقي تدريجيًّا بارتقاء أذواق المشاهدين، ولم يبقَ رائجًا منها في القاهرة إلا جوق إسكندر فرح، وساعَدَه الأقوى على إرضاء الجمهور الشيخُ سلامة حجازي المطرب الشهير، فارتقى الجوق والمرسح والحضور معًا.

وما زال الشيخ سلامة عاملًا في جوق إسكندر فرح إلى سنة ١٩٠٤، فانفصل عنه ولحقه الجوق كله، فأنشأ فرح جوقًا جديدًا عدل فيه عن الطريقة القديمة في التمثيل العربي من حيث كثرة الغناء في أثناء التمثيل، وكان قد تقرَّرَ في أذهان الناس إلى ذلك الحين — ولا يزال ذلك شائعًا إلى الآن — أن التمثيل لا يعد تمثيلًا إلا إذا تخلله أدوار غناء، وأصل هذا الاعتقاد أن النقاش مؤسس التمثيل لما أراد نقل هذا الفن إلى العربية، فضَّل أن تكون رواياته غنائية، أي من النوع المعروف عند الإفرنج بالأوبرا؛ ترغيبًا للناس في حضور التمثيل، ولو لأجل سماع الغناء، فألَّف رواياته على هذا النسق، ووضع الألحان لشعرها، وكان هو بنفسه يلحنها، فكان أول ما عرفه أبناء اللغة العربية من الروايات التمثيلية ممزوجًا بالغناء، فساروا على نسقه في الروايات التي ليست من قبيل الأوبرا، فأراد أن يعدل بالتمثيل إلى أصل وضعه، فجعل روايات جوقه الجديد بلا غناء، فكان لها وقع حسن عند الأدباء، أما الجمهور فلم يجدوا فيها ما كانوا يجدونه في الروايات الأخرى، فنال جوق الشيخ سلامة الأسبقية، وراج رواجًا عظيمًا، وانحل جوق فرح.

تأليف الروايات التمثيلية

ولا بد لنا من كلمة بشأن تأليف الروايات التمثيلية عندنا، فنقول على العموم: إن أكثر الروايات المذكورة منقول عن الإفرنجية، وكان مؤلف الرواية في أول هذه النهضة هو ممثلها أو مدير تمثيلها، كما رأيت في ما فعله النقاش وغيره، ثم صار المؤلف غير الممثلين، وأشهر مَن عني في تعريب الروايات التمثيلية الشيخ نجيب الحداد، وأشهر ما يُمثَّل على المراسح المصرية من تأليفه أو تعريبه، حتى جرى كثير من أشعارها وأناشيدها على الألسنة مجرى الأمثال، واشتغل كثيرون غيره في تعريب الروايات، وعدد المعربين يزداد يومًا فيومًا، وتعريبهم يتفاوت دقة وإتقانًا بتفاوت أذواقهم ومواهبهم في الشعر والإنشاء، على أنهم صرفوا عنايتهم على العموم إلى الإنشاء المرسل السهل، وأهملوا ما كان الأولون يتوخونه من التسجيع، لكنهم قلَّما التفتوا إلى تأليف الروايات من عند أنفسهم يمثلون بها حوادث عربية شرقية مما لا يستطيع أدباء الإفرنج إدراك تفاصيله، أو لا يحسنون تمثيله لبعده عن مألوفهم. ومن أتقن الروايات التمثيلية المؤلفة في اللغة العربية رواية المروءة والوفاء للشيخ خليل اليازجي، وهي الرواية الشعرية الوحيدة في اللغة العربية، وقد شهدنا تمثيلها في بيروت سنة ١٨٧٨، وتأليفها خطوة مهمة في التمثيل العربي؛ لأنها نحو ما يفعله كبار الكتَّاب في أوربا من تأليف الروايات الشعرية التمثيلية.

ودخل التمثيل العربي منذ بضع سنوات في دور علمي جديد بالتفات الجناب الخديوي إليه، وإرسال جورج أبيض لإتقانه على أربابه في باريس، وقد عاد منذ بضع سنوات وألَّف جوقًا عربيًّا، وأخذ الأدباء في تأليف الروايات العربية، أو ترجمتها عن الإفرنجية، ومثلوا روايات بلغة العامة كان قد ألَّفها عثمان بك جلال، ولا تزال هذه النهضة التمثيلية في أولها، ولا يُرجَى النجاح فيها إن لم تمد الحكومة يدها لمساعدتها بالمال، والمنتظر أن تفعل ذلك.

هوامش

(١) تفصيل ذلك في الهلال ٤٦٥ سنة ١٨، والجزء الثاني من هذا الكتاب.

(٢) الجزء الثالث من هذا الكتاب.

المستشرقون واللغة العربية

من العوامل الرئيسية في إحياء آداب اللغة العربية في هذه النهضة اشتراك الإفرنج في درسها، ونشر كتبها، والتنقيب عن تلك الكتب في مظانها، وليس اهتمام الإفرنج بالآداب العربية حديثًا، فإنه يرجع إلى الأجيال الوسطى قبل نهضتهم الأخيرة لإنشاء تمدنهم الحديث. ويُقسَّم عملهم في هذا السبيل إلى دورين: الأول اشتغالهم بنقل العلوم الطبيعية والرياضية في أول نهضتهم، والثاني اشتغالهم باللغات الشرقية وآدابها.

(١) نقل الإفرنج للعلوم الطبيعية

بدأ الإفرنج يهتمون باللغة العربية من القرن العاشر للميلاد؛ ليطَّلعوا على ما فيها من العلم الطبيعي والطب والفلسفة، وقد نقلوا أهم تلك الكتب إلى اللاتينية، وهو لسان العلم عندهم يومئذٍ، وأول مَن بلغنا خبرُه من المترجمين أو الناقلين البابا سلفستر الثاني في أواخر القرن العاشر للميلاد، ثم هرمان المتوفى سنة ١٠٥٤م، يليه قسطنطين الأفريقي وغيرهم.

وفي القرن الثاني عشر للميلاد أصبحت طليطلة وغيرها من مدائن العرب بالأندلس آهلة بالنازحين إليها من الإفرنج للاستفادة أو الترجمة أو التأليف كما كانت بغداد في عصر الرشيد والمأمون، ومن جملة المشتغلين بالنقل ريمون أسقف طيطلة في أواسط ذلك القرن، نقل كتبًا عديدة، يليه أفلاطون الطيبوري، وأدلار الباجي، ويوحنا الإشبيلي، وكنديسالفي، وهرمان الدلماتي، ومرقس الطليطلي وغيرهم، وأكثرهم اشتغالًا في ذلك جيرار الكرماني، فإنه نقل نحو ثمانين كتابًا حوت علوم القدماء في المنطق والفلسفة والرياضيات والنجوم والطبيعيات والكيمياء وغيرها، لمؤلفي اليونان والعرب، كالفارابي



فريدريك الثاني وحوله الأطباء والعلماء من العرب.

وابن قرة وأولاد موسى والخوارزمي والكندي والفرغاني وغيرهم، نقلها كلها عن اللغة العربية.

وأهتم ملوك أوربا يومئذٍ بآداب العرب أيضًا للاستفادة منها في مدنيتهم، كما يفعل كل عاقل يريد النهوض بأمته في العلم والمدنية، فإنه يستعين بمن سبقه فيها، وأول مَن سعى في هذا السبيل في نهضة أوربا الحديثة فريدريك الثاني المتوفى سنة ١٢٥٠م،[1] وألفونس صاحب قشتالة، جمع إليه المترجمين كما فعل المأمون، وأمر بترجمة كتب العرب، وكانوا ينقلونها إلى الإسبانية، ومنها إلى اللاتينية، وشاع خبر تلك النقول في سائر أوربا، فاقتدى أمراؤها بذلك، فقضوا معظم القرون الوسطى في النقل، وبلغ عدد ما نقلوه من العربية في تلك المدة ٣٠٠ كتاب، نُقِل أكثرها من العربية إلى اللاتينية رأسًا،

منها ٩٠ كتابًا في الفلسفة والطبيعيات، و٧٠ في الرياضيات والنجوم، و٩٠ في الطب، و٤٠ في النجامة والكيمياء.[٢]

(٢) اشتغالهم باللغات الشرقية

فاهتمام الإفرنج في الدور الأول إنما كان الغرض منه نقل العلوم الطبيعية وغيرها، للاستفادة منها في أول نهضتهم كما فعلنا نحن في أوائل القرن الماضي، أما اشتغالهم بدرس آداب اللغة العربية نفسها فله أسباب دينية أو تجارية، وهو تابع لاهتمامهم بسائر اللغات الشرقية، وفي مقدمتها اللغة العبرانية؛ لأجل تحقيق بعض المسائل الدينية بالرجوع إلى نصوصها الأصلية في التوراة، ثم اهتموا باللغة التركية والعربية لأسباب تجارية؛ ولذلك كان اليهود من أقدم المستشرقين، ونبغ منهم في أثناء الأجيال الوسطى جماعة كبيرة من العلماء في فنون مختلفة، أخذوا في نشرها بعد نزوحهم من الأندلس، وأصبحت اللغة العبرانية في القرن الخامس عشر وسيلة بين مدنية العرب ولغات أوربا، ثم صارت تُعلَّم في الكليات الكبرى مع اللغة اليونانية؛ لأن العلماء عكفوا على درس هذه اللغة، لتفهم الكتب اليونانية التي حُمِلت إليهم من القسطنطينية بعد دخول العثمانيين إليها سنة ١٥٤٣م.

أما العبرانية فاستعانوا بها في تفهم علوم الدين، وهي مفتاح سائر اللغات السامية، فلم يكن ينبغ عالم إلا وله إلمام باللغة المذكورة، وكانت إيطاليا مرجع طلاب هذه اللغة في القرن الخامس عشر، يبعثون منها المعلمين إلى سائر الممالك الأوربية، وكانت رومية مشتغلة في ذلك الحين بإخراج المبشرين إلى المشرق، فاضطروا إلى اللغة العربية، فانصرفت الهمم إلى درس هاتين اللغتين، ومن هنا يبدأ الاستشراق، والفضل فيه لرومية أو الفاتيكان، وقد أيدت رومية فضلها في هذا السبيل بإنشاء المطابع العربية، وجمع كتب الشرق وحفظها في مكتبة الفاتيكان وغيرها.

واقتدى الفرنساويون بالإيطاليين، فاستقدم فرانسوا الأول الأسقف جوستنياني من جنوا لتعليم اللغتين العبرانية والعربية في ريمس سنة ١٥١٩، وعملوا مثل عملهم في إنشاء المطابع العربية، وتحداهما سائر أمم أوربا، وبعد أن كان الاستشراق خاصًّا برجال الدين يراد به التبشير، أصبح علمًا قائمًا بنفسه يراد به درس اللغات الشرقية وآدابها.

(٣) أقدم المستشرقين وأهم آثارهم إلى آخر القرن ١٨، وفجر القرن ١٩

بدءوا بذلك من القرن السابع عشر، فظهر أول كتاب في قواعد اللغة العربية لإربانيوس في ليدن سنة ١٦١٣، وطُبِع كتاب المجموع المبارك في التاريخ لابن العميد المعروف بالمكين سنة ١٦٢٥ مع ترجمة لاتينية، ونُقِل القرآن إلى اللغة اللاتينية وطُبِع، وفعلوا نحو ذلك في آداب اللغات الشرقية، وخصوصًا الأرمنية والفارسية والحبشية واليابانية والتيبتية والهندية، وإنما يهمنا في هذا الباب اللغة العربية، فلا نتعرض لسواها.

أقدم المستشرقين المستعربين بوكوك Pocock الإنكليزي المتوفى سنة ١٦٩١، تلقى العلم في أكسفورد، ورحل إلى المشرق، وأقام في سوريا مدة، ومن آثاره طبع كتاب تاريخ مختصر الدول لابن العبري سنة ١٦٦٣ مع ترجمة لاتينية، وترجم رسالة حي بن يقظان إلى اللاتينية، وكتاب نظم الجوهر لسعيد بن البطريق طُبِع في أكسفورد سنة ١٦٥٩، وفي المكتبة الخديوية نُسَخٌ منها، وتمتاز طبعة بوكرك لمختصر الدول باحتوائها على حكاية إحراق مكتبة الإسكندرية بأمر عمر بن الخطاب، وقد حُذِفت من الطبعات الأخرى.

وخلفه مستشرق عظيم في أواخر القرن السابع عشر، نعني دربلو d'Herbelot، ووضع في تاريخ الشرق وآدابه معجمًا سماه المكتبة الشرقية في عدة مجلدات، وهي عبارة عن دائرة معارف شرقية باللغة الفرنساوية مرتبة على حروف الهجاء، تبحث في علوم الشرقيين وتاريخهم وآدابهم وخرافاتهم، وأديانهم ونظاماتهم، وسائر أحوالهم الاجتماعية وعاداتهم وغيرها، وعندنا نسخة في ستة مجلدات من طبعتها الثانية سنة ١٧٨٣، وأصبح الإفرنج في القرن الثامن عشر أكثر رغبة في استطلاع أحوال الشرق على اختلاف أممه ولغاته، ولا سيما اللغة العربية.

فاشتغل ريسكي Reiske في طبع تاريخ أبي الفداء والحريري في العربية واللاتينية، ونشر كازيري الإيطالي كتابًا كالموسوعة في العربية والإسبانية، وعاصرهم كارليل Carlyle الإنكليزي أستاذ اللغة العربية في كمبريدج (توفي سنة ١٨٠٤)، وله كتاب آداب العرب وشعرهم في الإنكليزية، ويوسف هوايت White (سنة ١٨١٤) من أكسفورد، نشر كتاب عبد اللطيف البغدادي ونقله إلى اللاتينية، ودمباي Dombay النمساوي (سنة ١٨١٠) صاحب الرحلة إلى بلاد العرب، وسوزا Souza البرتغالي (١٨١٢) صاحب كتاب الألفاظ البرتغالية المشتقة من العربية، وروزاريو الإيطالي (١٨٠٩) تفرَّغ لدرس آثار صقلية، وله كتاب الآثار العربية في صقلية جزيل الأهمية.

ولم ينقضِ القرن الثامن عشر حتى اهتم الفرنساويون بالآداب الشرقية، بجمع الكتب الشرقية في المكتبة الأهلية في باريس، وأنشئوا مدرسة اللغات الشرقية الحية سنة

١٧٩٥، وأصبحت فرنسا في أوائل القرن التاسع عشر كعبةَ طلاب العلوم الشرقية، فتقاطروا إليها من ألمانيا وإيطاليا وأسوج وغيرها ليتلقوا العلم على سلفستر دساسي الآتي ذكره، وأكثر المستشرقين الذين نبغوا في النصف الأول من القرن المذكور من تلاميذ تلك المدرسة، واستقدم قيصر الروس معلمين منها ينشئون في بطرسبورج مدرسة على مثالها.

غير ما أنشئ من الجمعيات الأسيوية (أو الشرقية) في أوائل القرن التاسع عشر، فأنشأ الفرنساويون الجمعية الأسيوية في باريس سنة ١٨٢٢، فقلدهم الإنكليز سنة ١٨٢٣، ثم الألمان سنة ١٨٤٤، ولكل جمعية مجلة تنشر أعمالها، ومن كل مجلة الآن مجموعة فيها زبدة أعمال المستشرقين في سبيل اللغات الشرقية وآدابها منذ إنشائها إلى اليوم، ولا تزال تصدر.

وكان لبونابرت يد في تنشيط الآداب العربية في فرنسا، ولا سيما بعد أن جاء مصر، وخلف فيها آثاره، ومن رجاله شامبليون الذي حل رموز القلم المصري القديم (الهيروغليف)، وتنبهت الأذهان إلى الشرق، وتألفت الجمعيات للتنقيب عن آثاره ودوله وأممه في مصر وبابل وآشور وفينيقية وبلاد العرب، فاكتشفوا من آثار العرب أشياء مفيدة، جاءت خلاصتها في الجزء الأول من كتابنا «العرب قبل الإسلام».

دخل القرن التاسع عشر وانصرف همُّ المستشرقين إلى آداب الشرق وعلومه ولا سيما العرب، وأخذوا في نشر آدابهم وعلومهم، ونقلها ودرسها، فنبغ من المستشرقين طبقة من العلماء يختص كل منهم بلغة من اللغات الشرقية مع إلمامه بسواها، ويهمنا منهم الآن المستعربون أو المشتغلون باللغة العربية، ويُقسَّم اشتغالهم فيها إلى ثلاثة أبواب:

(١) نشر الكتب العربية.
(٢) ترجمتها إلى لغاتهم.
(٣) التأليف عن الآداب العربية في ألسنتهم.

فمن المستشرقين من اقتصر عمله على أحد هذه الأقسام، ومنهم مَن جمع بين اثنين منها أو بينها كلها، ونقسم الكلام في ذلك إلى قسمين: الأول في دساسي وكاترمير، ومن عاصرهما في النصف الأول من القرن التاسع عشر، والثاني في نوابغ المستشرقين في النصف الثاني من القرن المذكور إلى الآن.

(٤) المستشرقون في النصف الأول من القرن التاسع عشر

قد رأيت أن أكثر الأوربيين اشتغالًا في ذلك الفرنساويون، ثم اقتدى بهم سواهم، وعمدة هذه النهضة فيهم أستاذان كبيران لكل منهما تلاميذ ومريدون: أولهما دساسي، والثاني كاترمير، ويعدان كالمؤسسين في هذا الباب، فنفرد لكل منهما فصلًا خاصًّا، ثم نعود إلى تاريخ المستشرقين حسب الأمم، وسنتكلم عن ذلك بغاية الإيجاز لضيق المقام.

(٤-١) سلفستر دساسي Sylvestre de Sacy
(وُلِد سنة ١٧٥٠، وتوفي سنة ١٨٣٨)

كان دساسي عالمًا باللغات الشرقية فضلًا عن الغريبة، لكنه تخصَّص للعربية والفارسية، وكان أمهر أهل زمانه فيهما، قضى حياته في خدمة الآداب الشرقية، ولا سيما العربية بالتعليم والتأليف والنشر.



سلفستر دساسي.

ومن مؤلفاته الهامة كتاب النحو العربي في مجلدين كبيرين لتعليم هذا اللسان للإفرنج، وكتاب قراءة فيه منتخبات من كُتُب العرب، سماه الأنيس المفيد للطالب

المستفيد، طُبِع في باريس سنة ١٨٢٧، وله مؤلفات في تاريخ العرب الجاهلية، وتعريف ديانة الدروز منقولة عن كتبهم، ومصدَّرة بترجمة الحاكم بأمر الله، طُبِع في باريس سنة ١٨٣٨ في مجلدين، وله المكتبة الشرقية وهي في اصطلاحهم يومئذٍ كالموسوعة، تبحث في آداب المشارقة وعلومهم في ثلاثة مجلدات، واشترك مع دلابورت في ترجمة أبحاث جغرافية عربية بإفريقيا عن العربية، طُبِع في باريس سنة ١٨٢١، وترجم البردة إلى الفرنساوية، وكتاب النقود للمقريزي، وكَتَبَ في نقود الخلفاء مقالات نُشِرت في المجلة الأسيوية مع مقالات أخرى كثيرة في مواضيع مختلفة، غير ما كتبه عن الفرس وغيرهم، ونشر كتاب كليلة ودمنة، ومقامات الحريري، ورحلة عبد اللطيف البغدادي، وألفية ابن مالك، وهو الذي أنشأ الجمعية الأسيوية الفرنساوية سنة ١٨٢٢ بالاشتراك مع تلاميذه ومريديه، وسموها Société Asiatique، وأنشئوا المجلة الأسيوية Journal Asiatique لنشر نتائج أبحاثهم.

تلاميذ دساسي ومعاصروه

ونبغ من المستشرقين في النصف الأول من القرن التاسع عشر طائفة من المستشرقين، أكثرهم استفادوا من كتب دساسي أو قرءوا عليه، وهم طوائف من أمم أوربا أكثرهم من الفرنساويين، هاك أشهرهم:

(١) عمانويل سديليو Sédillot المتوفى سنة ١٨٣٢، وابنه لويس المتوفى سنة ١٨٧٥، وقد خدما اللغة العربية خدمة جزيلة، ولويس هذا ألَّف كتاب تاريخ العرب وآدابهم في مجلدين، طُبِع في باريس سنة ١٨٧٧، وقد نقله علي باشا مبارك إلى اللغة العربية، وطُبِع بمصر سنة ١٣٠٩هـ، وكتاب في المقابلة بين جغرافي اليونان والعرب، طُبِع في باريس سنة ١٨٤٢، وقد نشر كتاب جامع المبادئ والغايات لأبي الحسن المراكشي في الآلات الفلكية في مجلدين بباريس سنة ١٨٣٥ مع الرسوم، وله عدة مقالات في الفلك والأزياج العربية، بعضها منشور في المجلة الأسيوية الفرنساوية، وبعضها في كتب على حدة.

(٢) كوسين دي برسفال Perceval الأب توفي سنة ١٨٣٤، وابنه توفي سنة ١٨٧١، وكان الوالد أمين المخطوطات الشرقية في مكتبة باريس الأهلية، وعلَّم اللغة العربية في مدرستها، وله كتب عديدة في آداب العرب وتاريخهم، ونشر بعض كتبهم وترجم بعضها، واشتهر الابن خصوصًا بكتابه العرب قبل الإسلام في الفرنساوية في ثلاثة مجلدات، طُبِع في باريس سنة ١٨٤١.

(٣) جوبير Jaubert الفرنساوي نقل جغرافية الإدريسي إلى اللغة الفرنساوية في مجلدين، طُبِع في باريس سنة ١٨٤٠، وترجم تاريخ غانة، وله عدة مقالات منشورة في المجلة الأسيوية.

(٤) فريسنل المتوفى سنة ١٨٥٢، وقد وجه اهتمامه إلى العرب الجاهلية، وله فيها مقالات هامة في المجلة الأسيوية، وبعضها طُبِع غير مرة.

(٥) دي فيرجه Des Vergers المتوفى سنة ١٨٦٧، نشر مؤلفات عربية، وألَّف كتابًا في تاريخ العرب قبل الإسلام وبعده، طُبِع في باريس سنة ١٨٤٧.

(٦) رينو Reinaud المتوفى سنة ١٨٦٧ اقتفى آثار أستاذه دساسي في الشرقيات، ولا سيما العربية، وكان أمينًا على المخطوطات الشرقية في مكتبة باريس، فساعده ذلك على التوسع في الدرس، وتولى تدريس اللغة العربية في مدرسة اللغات الشرقية الحية بعد دساسي، ثم صار رئيسًا لها، ونقل كتبًا عربية إلى اللغة الفرنساوية، ونشر كتبًا أخرى، منها تقويم البلدان لأبي الفداء مع ترجمة فرنساوية، وألَّف في المخطوطات العربية، وفي العلائق التجارية بين الروم والشرق، وعن فن الفسيفساء عند العرب، وعن اللغة العربية في سوريا سنة ١٨٥٧، وعن النار اليونانية، وفن الحرب عند العرب، وغير ذلك من المقالات نشرت في المجلات الشرقية، وله كتاب في فتوح العرب بفرانسا طُبِع في باريس سنة ١٨٣٦، ونشر كتبًا عربية هامة، منها كتاب في الرحلات العربية والتجارية إلى الشرق الأقصى في القرن التاسع للميلاد، طُبِع في باريس سنة ١٨٤٥ بعناية لانجليس مع ترجمة فرنساوية لرينو، ويعرف بسلسلة تواريخ، ونشر منتخبات عربية عن تاريخ الصليبين، وغير ذلك.

ومن معاصري دساسي أو تلاميذه من غير الفرنساويين جماعة من خيرة المستعربين، فمن الألمانيين: روديغر ويوالد وكورسغارتن وكلنيتز، أصدروا المجلة الشرقية الألمانية، غير ما كتبوه من المقالات والكتب.

إتيان كاترمير Etienne Quatremere وُلِد سنة ١٧٨٢ وتوفي سنة ١٨٥٧

هو من تلاميذ دساسي، وقد خلفه في الشهرة وكثرة التلاميذ والمريدين، وكان إمام عصره في الآداب الشرقية كما كان دساسي، وهو من أسرة عريقة في الوجاهة والأدب والعلم والشجاعة والحرب، وُلِد في باريس سنة ١٧٨٢، وتخرَّج على دساسي وغيره، وتولى نظارة

المخطوطات الشرقية في باريس، والتدريس في المدارس الراقية، وهو في مقتبل العمر، وانتخبته الأكاديمية الفرنساوية عضوًا فيها سنة ١٨١٥، ثم تولى تدريس اللغات الشرقية في مدارسها الخاصة.



إتيان كاترمير.

ولما توفي دساسي أصبح كاترمير إمامًا في تلك العلوم، وقد أدهش الناس بأبحاثه وأعماله، وكثرة ترجماته ومؤلفاته، وما تولى نشره من الكتب الهامة، فقد ترجم تاريخ المماليك للمقريزي في أربعة مجلدات، علَّق عليها الحواشي، طُبِع في باريس سنة ١٨٤٥، ومن أهم مؤلفاته كتاب في ملاحظات تاريخية وجغرافية هامة طُبِع في باريس سنة ١٨٦١، ومقالات كثيرة في آداب العرب والإسلام نُشِرت في المجلة الأسيوية، أو في كتب على حدة، ونشر مقدمة ابن خلدون، ومنتخبات أمثال الميداني، وكتاب الروضتين، وألَّف في آثار القبط والبابليين والسامرة، وله ترجمات عن التركية، وغير ذلك، وله تلاميذ ومريدون كثيرون.

(٥) المستشرقون في النصف الثاني من القرن ١٩ إلى الآن

كان الاستشراق أو الاستعراب في النصف الأول من القرن التاسع عشر خاصًّا بالفرنساويين تقريبًا، ثم اشترك فيه غيرهم من أمم أوربا، وإليك خلاصة تاريخ ذلك عند كل أمة.

الفرنساويون

(١) **بيرون Perron:** بحث في آداب الجاهلية وأخلاقهم، وله كتاب في نساء العرب قبل الإسلام وبعده، طُبِع في باريس سنة ١٨٥٨، وترجم بعض أشعار الجاهلية، وكتب مقالات في آداب العرب في المجلة الأسيوية، وترجم كتاب الصناعتين للناصري في الفروسية إلى الفرنساوية، طُبِع في باريس سنة ١٨٦٠، ونقل كتاب خليل بن إسحق في الفقه المالكي، وغيره.

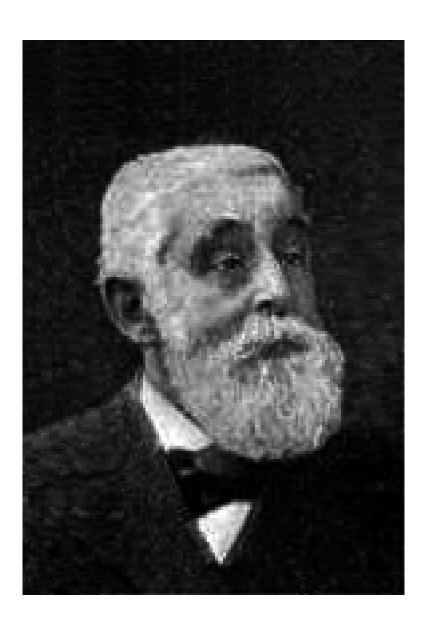
(٢) **دي سلان de Slane:** المتوفى سنة ١٨٧٩، كان همه متجهًا على الخصوص إلى تاريخ البربر في شمالي إفريقيا، وألَّف فيهم كتابًا في ستة مجلدات كثير الفائدة، ثم درس ابن خلدون، وترجم مقدمته إلى الفرنساوية، وكان كاترمير قد باشر ترجمتها قبله، فأتمها وطبعها مع الترجمة في ستة مجلدات، وترجم تاريخ البربر لابن خلدون في أربعة مجلدات طُبِع في باريس، ومن مؤلفاته فهرس مشروح لمخطوطات باريس الشرقية، أتمه ونشره ديرنبورج سنة ١٨٨٣، وترجم كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان إلى الفرنساوية، صدر الجزء الأول منه سنة ١٨٤٢ في باريس، وديوان امرئ القيس وترجمته نقلًا عن الأغاني مع ترجمتها الفرنساوية، طُبِع في باريس سنة ١٨٣٧، وله مقالات كثيرة في البربر وآدابهم، وغير ذلك في المجلة الأسيوية.

(٣) **شربونو Cherbonneau:** المتوفى سنة ١٨٨٢، اشتغل بتنظيم مدارس الجزائر، وعلَّم في بعضها، وحسَّن التعليم العربي، وعمل على إحياء الآداب العربية، وصنَّف كثيرًا من الكتب المدرسية، ومعجمًا في الفرنساوية والعربية على لغة أهل الجزائر، ونقل كتبًا عربية إلى الفرنساوية منها رحلة العبدري، وتاريخ ابن حماد، وله مؤلفات كثيرة في تواريخ العرب منشورة في المجلة الأسيوية الفرنساوية.

(٤) **باربيه دي مينار:** المتوفى سنة ١٩٠٨، ترجم مروج الذهب إلى الفرنساوية، وله معجم تركي فرنساوي صدر الجزء الأول منه سنة ١٨٨٥ بباريس، ومعجم تاريخي

جغرافي أدبي بالفرنساوية عن بلاد فارس وما يليها، نقلًا عن معجم البلدان وغيره، طُبِع في باريس سنة ١٨٦١، وكتاب في الشعر الفارسي، ومقالات في المجلة الأسيوية.

(٥) **ديرنبورج Derenbourg:** يوجد اثنان بهذا الاسم: يوسف ديرنبورج المتوفى سنة ١٨٩٥، وابنه هرتويك ديرنبورج المتوفى سنة ١٩٠٨، وتعاصرا زمنًا يعملان معًا في خدمة آداب الشرق، ولا سيما اللغات السامية، وخصوصًا العربية. أشهر آثار الوالد



هرتويك ديرنبورج.

أنه نشر ترجمة التوراة لابن سعيد الفيومي إلى العربية في باريس سنة ١٨٩٣، وُلِد ابنه هرتويك سنة ١٨٤٤في باريس، وتلقى العلم في غوتنجن، وعاد إلى باريس، واشتغل في قسم المخطوطات من مكتبتها، قضى في ذلك أعوامًا عديدة، وقد تمكن من اللغات السامية ولا سيما العربية والعبرانية، ونشر كتبًا عربية أهمها كتاب سيبويه في النحو في مجلدين، وأشعار النابغة الذبياني، وكتاب الفخري، وكتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ وغيرها، وانتدبته نظارة المعارف الفرنساوية لدرس خزائن الكتب في الأسكوريال ومدريد

وغرناطة، فوضع في كتب الأسكوريال مجلدين كبيرين، وعثر في أثناء درسه على بعض ما نشره من الكتب غير مقالاته في المجلة الأسيوية.

الألمانيون

اشتغل الألمان في الآداب العربية في النصف الثاني من القرن الماضي بهمة ونشاط بين ترجمة ونشر وبحث وتنقيب، ولعلهم أكثر المستشرقين عملًا في نشر الآداب العربية كما ستراه — هاك أشهرهم بوجه الاختصار:

(١) **فرايتاغ Freytag:** المتوفى سنة ١٨٦١، كان عالي الهمة، تلقى اللغات الشرقية على دساسي في باريس، وتولي تدريسها في كلية بون، وأخذ في التأليف عن العرب ولغتهم وآدابهم، فألَّف في الألمانية كتابًا عن اللغة العربية في الجاهلية والإسلام، طُبِع في بون سنة ١٨٦١، ومعجمًا في العربية واللاتينية في ٤ مجلدات، جمع فيه ما اختار من الصحاح والقاموس وغيرهما، ونشر حماسة أبي تمام مع ترجمة لاتينية، عليها شرح التبريزي في جزئين، طُبِع في بون سنة ١٨٥١، ونشر حِكَم لقمان مع ملاحظات لاتينية، وكتاب ابن عربشاه فاكهة الخلفاء، وكتاب المنتخب من تاريخ حلب، وأمثال الميداني مع ترجمتها اللاتينية في ٣ مجلدات، ورحلة عبد اللطيف البغدادي في مصر، وله كتب أخرى ومقالات في مواضيع مختلفة.

(٢) **كوسغارتن Kosegarten:** البروسياني، أتقن العربية على دساسي، وكان بارعًا فيها وفي الفارسية والتركية، ونشر كثيرًا من مخطوطات باريس الشرقية، منها مجلد من الأغاني مع ترجمة لاتينية، ومجلدان من الطبري مع ترجمة لاتينية، ونشر بعض أشعار الهذليين، ومنتخبات عربية، غير اشتغاله باللغات الفارسية والهندية.

(٣) **وبكي Woepcke:** من أهل ليبسك، توفي شابًّا سنة ١٨٦٤، كانت له عناية خاصة في الرياضيات العربية، ورحل إلى برلين لهذه الغاية، ونشر رسالة الخيامي في الجبر مع ترجمتها الفرنساوية، وكتب مقالات في الهندسة العربية وغيرها نُشِرت في المجلة الأسيوية الفرنساوية، ولخَّص كتاب الجبر والمقابلة المعروف بالفخري لأبي بكر الكرخي مع مقدمة في الجبر عند العرب، طُبِع في باريس سنة ١٨٥٣، وكتاب في الحساب الهندي بالغرب، طُبِع في باريس سنة ١٨٥٩، ونشر كثيرًا من الكتب الرياضية مع ترجمتها.

(٤) **سليمان منك** Munk: البروسياني المتوفى سنة ١٨٦٧، هو عالم في اللغات الهندية والعربية، وزار سوريا ومصر، وكفَّ بصره في أواخر أيامه، وألَّف كتابًا في جغرافية فلسطين وآثارها وتاريخها، طُبِع في باريس سنة ١٨٤٥، وله مؤلفات عديدة في الفاريسية والعربية والعبرانية، ومقالات عديدة في المجلات الأسيوية.

(٥) **غوستاف فلوغل** Flüegel: من سكسونيا توفي سنة ١٨٧٠، تلقى العلم في ليبسك، وأتقن اللغة العربية في باريس، ورحل إلى فينا، ودرس مخطوطاتها ومخطوطات باريس وغيرهما، وعاد إلى بلده في ساكس وتولى التدريس فيه، وله عناية كبيرة في نشر الكتب الهامة بالعربية بإشارة بعض أمراء بلده، أهمها كشف الظنون في سبعة مجلدات مع ترجمتها اللاتينية، وقد تقدم ذكرها، وكتاب الفهرست لابن النديم أتمه بعده روديغر وأوغست مولر، ووصف مخطوطات فينا العربية والفارسية والتركية في ثلاثة مجلدات، ونشر مؤنس الوحيد للثعالبي، وطبقات الحنفية لقطلوبغا، وتعريفات الجرجاني في ليبسك سنة ١٨٤٥، والقرآن ونجوم الفرقان وهو فهرس للقرآن طُبِع في ليبسك، غير ما ألَّفه في لغته عن العرب وآدابهم، وله مقالات كثيرة في المجلات الشرقية، وكتاب في نحويِّي البصرة والكوفة، طُبِع في ليبسك سنة ١٨٦٢، وكتاب في الكندي فيلسوف العرب طُبِع هناك سنة ١٨٥٧.

(٦) **فلايشر Fleischer:** المتوفى سنة ١٨٨٨، كان أستاذًا كبيرًا في ليبسك، وكان إمام عصره في العلوم الشرقية، كما كان دساسي وكاترمير في فرنسا، وكان يكاتب أدباء سوريا وينشر كتاباتهم في المجلة الشرقية الألمانية، وألَّف في الآداب الشرقية كتبًا كثيرة، حتى قالوا إنها تزيد على مائة كتاب، منها فهرست المخطوطات الشرقية في درسدن، ومقالات عديدة في اللغة العربية ولهجاتها في المجلات الألمانية، وقد نشر تفسير البيضاوي في ٣ مجلدات مع الفهارس الأبجدية، والمفصل للزمخشري، وبعض كتاب ألف ليلة وليلة، وبعض تاريخ أبي الفداء، وغير ذلك.

(٧) **ديتريتشي Dietrici:** المتوفى سنة ١٨٨٨، نشر رسائل إخوان الصفا، ونخبًا من يتيمة الدهر للثعالبي عن المتنبي وسيف الدولة، ونشر ديوان المتنبي سنة ١٨٦١، وإلهيات أرسطو، وفلسفة الفارابي، وغيرها.

(٨) **غستاف وايل** Weill: المتوفى سنة ١٨٨٩، اشتهر بتاريخ الخلفاء بالألمانية في خمسة مجلدات، وقد ترجم سيرة ابن هشام إلى الألمانية في مجلدين، طُبِع في ستتغارت سنة ١٨٦٤.

(٩) **البارون فون كريمر von Kremer:** المتوفى سنة ١٨٨٩، ويعرفه قراؤنا بما ذكرناه عنه في تاريخ التمدن الإسلامي، نزل سوريا ومصر، وعلَّم العربية في بلاده، ونشر نحو ٢٠ كتابًا عربيًّا، منها: كتاب الاستبصار، وكتاب المغازي، والأحكام السلطانية، وغزوات الواقدي وغيرها، وله مؤلفات في الألمانية عن العرب والمسلمين جزيلة الفائدة، أهمها تاريخ التمدن الشرقي في مجلدين طُبِع في فينا سنة ١٨٧٥، وتاريخ الفِرَق الإسلامية في مجلد طُبِع في ليبسك سنة ١٨٦٨، وكتاب في آثار اليمن ونحوها طُبِع في ليبسك سنة ١٨٦٥، وجباية الدولة العباسية لسنة ٣٠٦هـ طُبِع في فينا سنة ١٨٨٧، وكتاب في الأرض الإسلامية، وغير ذلك من المقالات في المجلات.

(١٠) **توربكي Thorbecke:** المتوفى سنة ١٨٩٠، نشر كتاب الملاحن لابن دريد، ودرة الغواص للحريري، وكتاب النحو للصباغ، والمفضليات، وترجمة عنترة، وغير ذلك.

(١١) **فردينان وستنفيلد** Wüestenfeld**:** المتوفى سنة ١٨٩٩، هو من أكثر المستشرقين عملًا في نشر الكتب العربية، كان من أساتذة غوطا، ويزيد عدد منشوراته ومؤلفاته على مئتي كتاب. وأهم ما نشره من الكتب العربية: طبقات الحفاظ للذهبي، سيرة ابن هشام، وفيات الأعيان لابن خلكان، كتاب الاشتقاق لابن دريد، معجم البلدان لياقوت، معجم ما استعجم للبكري، تهذيب الأسماء للنووي، تهذيب الأنساب للسمعاني، المشترك لياقوت، عجائب المخلوقات للقزويني، أخبار قبط مصر للمقريزي، كتاب المعارف لابن قتيبة، تواريخ مكة في ٤ أجزاء، سيرة فخر الدين المعني، مختلف القبائل لابن حبيب، تعبئة الجيوش لإليانوس وغيرها، غير ما أَلَّفه بالألمانية عن العرب وآدابهم وتاريخهم، منها: كتاب في الصوفية، آخَر في حروب اليمن والأتراك في القرن السابع عشر، تاريخ المدينة ومكة، النزاع بين هاشم وعبد المطلب، جداول أنساب العرب بشكل المشجر، تراجم أطباء العرب، الإمام الشافعي، ما نقله الإفرنج عن العرب من العلوم، مؤرخو العرب ومؤلفاتهم، وغير ذلك.



وستنفيلد.

(١٢) **إدوارد غلازر Glaser:** وُلِد في بوهيميا سنة ١٨٥٥، وتوفي سنة ١٩٠٨، واشتهر على الخصوص بارتياد بلاد العرب، والتنقيب عن آثار اليمن، وألَّف في ذلك عدة كتب استفدنا منها في تأليف كتابنا تاريخ العرب قبل الإسلام، بعضها في آثار العرب، والبعض الآخر في لغاتهم وتاريخهم وجغرافيتهم بالإسناد إلى الآثار المنقوشة، وغير ذلك.

النمساويون

أشهرهم همر بورجشتال Hammer-Purgstall: المتوفى سنة ١٨٥٦، تلقى العلم في كلية فينا، فأتقن العربية والفارسية والتركية وهو في العشرين من عمره، ثم نزل الأستانة مترجمًا في سفارة النمسا، وتجول في سوريا ومصر، وارتقى حتى صار من أعضاء شورى الدولة، فانقطع إلى التأليف، وأهم مؤلفاته في الشرق تاريخ الدولة العثمانية، كتبه في الألمانية في عشرة مجلدات، وقد تُرجِم إلى الفرنساوية، وتاريخ شعراء العثمانيين في ٤ مجلدات بالألمانية، وتاريخ آداب اللغة العربية في سبعة مجلدات لم يتمه. وله أبحاث في



إدوارد غلازر.

تاريخ الأتراك، وتاريخ الإسماعيلية، وتاريخ القسطنطينية، ومن أهم كتبه دائرة معارف شرقية تشتمل على آداب الشرق وتاريخه في الألمانية، أما ترجماته فإنه نقل أطواق الذهب للزمخرشي، وتائية ابن الفارض، وأيها الولد للغزالي، وترجم ديوان المتنبي نظمًا في الألمانية، وغير ذلك من الكتب بشأن الشرقيين غير العرب شيء كثير، غير ما كتبه من المقالات، أو دخل فيه من المناقشات في العرب وتاريخهم وآدابهم، وأكثره منشور في كتب أو في المجلات الأسيوية أو الشرقية.

الهولنديون

(١) **جونبول Juynboll:** المتوفى سنة ١٨٦١، كان من رجال الدين، وتمكن من اللغة العربية، وبرع فيها حتى تولى تدريسها في كلية ليدن، ونشر قصائد المتنبي ومعاصريه في مدح سيف الدولة مع ترجمة لاتينية، وكتاب الجبال والأمكنة للزمخشري، ومراصد الاطلاع مختصر معجم البلدان سنة ١٨٥٩ في ليدن، وكتاب النجوم الزاهرة لأبي المحاسن

تغري بردي، وكتاب الخراج لابن آدم. وكان له ولد عمل عمله في خدمة اللغة العربية، فنشر كتاب التنبيه في الفقه للشيرازي مع ترجمة لاتينية، وكتاب البلدان لليعقوبي، وغير ذلك.

(٢) **دوزي DOZY:** المتوفى سنة ١٨٨٣، كان اشتغاله بالأكثر عن الأندلس، فألَّف في تاريخها وأدبها كتبًا هامة، منها: كتاب الدول الإسلامية في الفرنساوية، وآخَر في آداب الأندلسيين، وألَّف معجمًا عربيًّا جعله ملحقًا للمعجمات العربية، ذكر فيه الألفاظ العربية التي لم ترد فيها، وهو كبير في مجلدين، ونشر تاريخ ابن زيان، وتاريخ المعجب للمراكشي، والبيان المغرب لابن عذاري، وجغرافية الإدريسي، وغير ذلك.



دوزي.

(٣) **دي يونغ de Jong:** المتوفى سنة ١٨٩٠، من أساتذة كلية أوترخت، وكان يشتغل مع دي غوية الآتي ذكره في وصف مخطوطات ليدن، وقد نشر كتاب المشتبه ولطائف المعارف، وغيرهما.

(٤) **دي غوية de Goeje:** المتوفى سنة ١٩٠٩، كان أستاذًا في جامعة ليدن، وُلِد في قرية من قرى هولندا سنة ١٨٣٦، وكان أبوه عالمًا في اللغات، فأعده للاشتغال

في العلوم اللغوية، فأتقن أهم اللغات الأوربية القديمة والحديثة، واللغات الشرقية ولا سيما السامية، أتم دروسه في جامعة ليدن، واشتغل بوضع الفهرس لمكتبتها، ثم تعين أستاذًا فيها، وتفرغ على الخصوص لنشر المؤلفات العربية الهامة، وهو يتولى تصحيحها وضبطها، فنشر منها جانبًا عظيمًا، أهمها: فتوح البلدان للبلاذري، وصف إفريقيا والأندلس للإدريسي بالاشتراك مع دوزي، ديوان مسلم بن الوليد، المكتبة الجغرافية العربية في ثمانية مجلدات، وتشتمل على مؤلفات أهم جغرافيِّي العرب حوالي القرن الرابع للهجرة، تاريخ الطبري الكبير في خمسة عشر مجلدًا، ألحقها بمجلد للفهارس، وألَّف مذكرات في التاريخ والجغرافية الشرقيَّيْن في عدة مجلدات في اللغة الهولندية، ونال شهرة واسعة في عالم المستشرقين، وشهد أهم مؤتمراتهم، وكان عضوًا في أهم المجامع العلمية الشرقية في ليدن وغيرها.



دي غوية.

(٥) **فان فلوتن:** المتوفى سنة ١٩٠٩ نشر كتاب مفاتيح العلوم للخوارزمي، ومعظم رسائل الجاحظ.

الإنكليز

(١) **كورتن Cureton:** المتوفى سنة ١٨٦٤، كان مبشرًا إنكليزيًّا، تخرَّج في كلية أكسفورد، وأكثر اشتغاله في السريانية، لكنه خدم اللغة العربية، ونشر كتاب الملل والنحل للشهرستاني في لندن سنة ١٨٤٢، وعقيدة أهل السنة للنسفي في لندن سنة ١٨٤٣، ومنتخبات من طبقات الأطباء وغيرها، نشرت في المجلة الأسيوية الإنكليزية.

(٢) **إدوارد لين Ed. lane:** المتوفى سنة ١٨٧٦، هو من أعظم مستشرقي الإنكليز وشغله خاص باللغة العربية، نبغ أولًا في الرياضيات، وكان في العزم إدخاله جامعة كمبريدج، لكنه أحس بضعف في بنيته فتحول إلى الأسفار، فنزل مصر أقام فيها ثلاث سنين، أَلَّف في أثنائها كتابًا في وصف مصر لم يُنشَر، وإنما نشر بعد ذلك كتاب أَلَّفه عن آداب المصريين وعاداتهم، بعد أن قضى أعوامًا عديدة في القاهرة، واختلط بأهلها وعاشرهم ودرس أحوالهم، وهو أحسن كتاب في موضوعه، مع دقة الوصف عن كل ما يتعلق بمصر وأحوالها وأهلها وعاداتهم وأخلاقهم في عصره، وأشهر مؤلفاته قاموسه العربي الإنكليزي، وقد تقدم ذكره في كلامنا عن تاج العروس من هذا الكتاب، وله ترجمة نفيسة لألف ليلة وليلة في ٣ مجلدات كبيرة، ومنتخبات من القرآن، ومقالات، وكتب بالإنجليزية عن الآداب الإسلامية.

(٣) **بالمر Palmer:** المتوفى سنة ١٨٨٣ كان من أساتذة كمبريدج، وله مؤلفات عديدة، ونشر ديوان البهاء زهير مع ترجمته إلى الإنكليزية، وقد ترجم القرآن إليها أيضًا.

(٤) **رايط Wright:** المتوفى سنة ١٨٨٨، وُلِد في الهند، ودرس في إسكتلاندا، وتعلَّم العربية في ليدن على دوزي وبرع فيها، وقد نشر الكامل للمبرد، ورحلة ابن جبير، ومنتخبات شعراء الجاهلية، واستخرج القسم التاريخي من نفح الطيب، وله كتاب تعليم اللغة العربية.

وهناك جماعة من الإنكليز نبغوا في الهند، واشتغلوا في نشر الكتب العربية الهامة، أهمهم: لومسدن Lumsden، وليس Lees، وقد نشروا عدة كتب عربية من مكتبة كلكتة، واشترك معهم أيضًا سبرنجر Sprenger الألماني، وأهم المطبوعات المشار إليها: مقامات الحريري، نفحة اليمن، قاموس المحيط للفيروزآبادي، تاريخ الخلفاء للسيوطي، نوادر القليوبي، الكشاف للزمخشري، فتوح الشام، كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي، نخبة الفكر لابن حجر العسقلاني، الإتقان للسيوطي، معجم الصوفية لعبد الرزاق، وكانوا يستعينون على ذلك ببعض علماء الهند.

الروسيون وغيرهم

كان الروسيون في أثناء ذلك أقل الأوربيين عناية بآداب الشرق، لكن بعض الكتب الهامة نُشِرت في بطرسبوزج، وفي قازان.

ومن الروسيين أو البولونيين كازيمرسكي البولوني المتوفى سنة ١٨٧٠ صاحب القاموس العربي والفرنساوي، وقد نقل القرآن إلى الفرنساوية، ونشر كتبًا عربية.

ومن أشهر المستشرقين الأسبان غانيكوس، نشر ملخص نفح الطيب في الإنكليزية، وطبعه في مجلدين، ونشر كليلة ودمنة وغيرها.

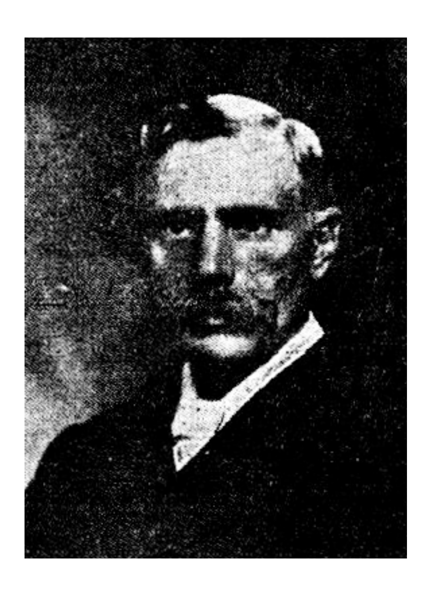
ومن المستشرقين الأسوجيين تورنبرج، طبع ابن الأثير طبعة كاملة بفهارس، وكتاب الأنيس المطرب في تاريخ فاس، وغيرهم كثيرون.

(٦) المستشرقون المعاصرون

وهناك طبقة من المستشرقين المعاصرين ترد أسماؤهم في الهلال وغيره من مؤلفاتنا، ولهم أفضال على الآداب العربية، فرأينا أن نعرفهم إلى القراء إيفاءً للبحث، وإليك أشهرهم:

الأستاذ مرجليوث الإنجليزي D.S. Margoliouth

ليس بين قراء العربية من لا يعرف الأستاذ مرجليوث لما نذكره من آثار قلمه في خدمة اللغة العربية بالتأليف أو النشر، وقد تلقى علومه في جامعة أكسفورد، وتولى تعليم اللغة العربية فيها من سنة ١٨٨٩، وهو يمتاز على الخصوص بسعة معرفته في اللغة العربية وآدابها، يكاتب أصدقاءه من العرب بأسلوب عربي خالص من شوائب العجمة، وله فضل في نشر كتب عربية هامة، آخرها كتاب معجم الأدباء لياقوت الحموي، وقد نشر رسائل أبي العلاء مع ترجمتها الإنكليزية، وهو عمل لا يستطيعه إلا القابض على ناصية اللغة العربية؛ لأن هذه الرسائل لا يفهمها العربي إلا بمراجعة المعاجم، ونشر آثارًا عربية تاريخية وشعرية، وقطعة بابيروس عربي كانت في مكتبة أكسفورد، وألَّف في مشاهد أورشليم ودمشق كتابًا حافلًا بالرسوم والشروح، وله كتاب في سيرة النبي بالإنكليزية، وترجم الجزء الرابع من تاريخ التمدن الإسلامي إلى الإنكليزية، وله مقالات عديدة في المجلة الأسيوية الإنكليزية، وغيرها.



الأستاذ مرجليوث الإنجليزي D.S. Margoliouth.

الأستاذ براون الإنجليزي Ed. G. Browne

الأستاذ براون من أساتذة جامعة كمبريدج، وقد جاء ذكره في الهلال مرارًا، وله اطِّلاع واسع في اللغات الشرقية، ولا سيما اللغات العربية والفارسية والتركية، لكنه منصرف على الخصوص إلى الفرس وآدابهم وتاريخهم وسائر أحوالهم، يتعصب لهم على قومه، وله في ذلك كتب عديدة بين نشر وترجمة وتأليف وتصحيح، نكتفي بالإشارة إلى أهمها:

تاريخ الفرس الأدبي بالإنكليزية، ظهر منه مجلدان وسيظهر مجلدان آخران، سنة في إيران، فهرس المخطوطات الفارسية في مكتبة كمبريدج، مختصر حوادث الفرس الأخيرة، الانقلاب الفارسي، الصحافة والشعر في إيران الحديثة، كل هذه الكتب بالإنكليزية، وله ترجمات من الفارسية إلى الإنكليزية، أهمها «تاريخ جديد» عن الباب، «مقالة شخصي سياح كه در قضيۀ باب نوشته است» في مجلدين.

ومما صححه ونشره: تذكرة الشعراء لدولتشاه السمرقندي، لباب الألباب للعوفي بالفارسية، تاريخ طبرستان، نقطة الكاف في تاريخ الباب وأصحابه، غير ما نشره من



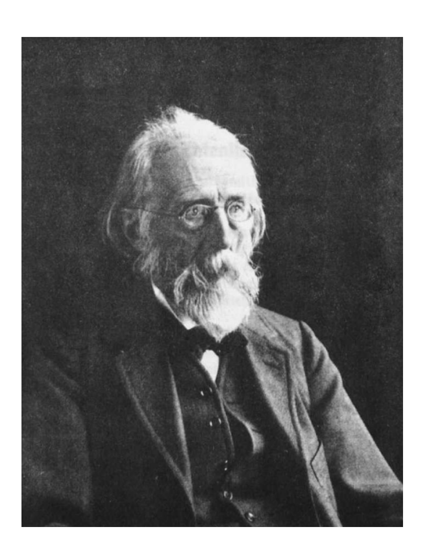
الأستاذ براون الإنجليزي Ed. G. Browne.

المقالات والرسائل في المجلة الأسيوية الإنكليزية، وهي نحو عشرين رسالة، وهناك رسائل عديدة في المطالب السياسية أكثرها في الدفاع عن الفرس، وطلب حقوقهم المغصوبة في جرائد مختلفة.

الأستاذ نولدكي الألماني Theodor Nöeldeke

الأستاذ نولدكي عمدة المستشرقين الأحياء في اللغات السامية، وهو في حدود الثمانين من عمره؛ لأنه وُلِد سنة ١٨٣٦ في همبورج، ودرس في غوتنجن وفينا وليون وبرلين، اشتغل خصوصًا في اللغات السريانية والعربية والفارسية، وأكثر اشتغاله في التأليف، وأهم مؤلفاته في الألمانية، منها: «تاريخ القرآن» نال عليه الجائزة في الأكاديمية الفرنساوية، تاريخ عروة بن الورد، بحث في الشعر العربي الجاهلي، تاريخ الفرس والعرب في أيام

الساسانيين، تاريخ الغسانيين، المعلقات الخمس، ومؤلفات أخرى في اللغات السامية، وغيرها في أمثال هذه المواضيع، وهو أكبر المستشرقين المعاصرين سنًّا.



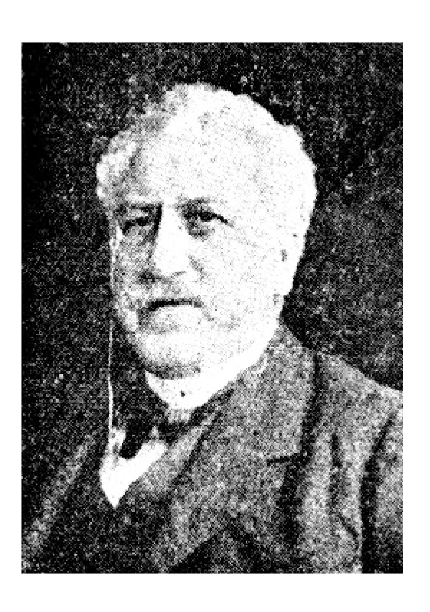
الأستاذ نولدكي الألماني Theodor Nöeldeke.

الأستاذ هارتمن الألماني

هو أستاذ اللغة السريانية والدروس الإسلامية في مدرسة اللغات الشرقية في برلين، له رحلات هامة في أواسط آسيا، وأبحاث في أحوال تلك البلاد ولغاتها، وفي الإسلام، وله كتاب في العرب، وآخَر في تركستان الصينية وأحوالها وتاريخها ونظامها، وفي نحو اللغة الشاغطائية، والنثر العبراني، وفي الإسلام وتاريخه، والشرق الإسلامي، وكلها في الألمانية، وله كتاب في الصحافة العربية في اللغة الإنكليزية، وغير ذلك.

الأستاذ غولتزير المجرى I. Goldziher

الأستاذ غولتزير ثقة المستشرقين المعاصرين في الإسلام والمسلمين والآداب الإسلامية، وهو إسرائيلي، وتفقه في بودابست وبرلين وليبسك، ورحل إلى سوريا ومصر، وتردد



الأستاذ غولتزير المجري.

إلى الأزهر وأخذ عن شيوخه، وهو عضو عامل أو مراسل في أهم المجامع العلمية في لندن وبطرسبورج وأمستردام وكوبنهاجن وغوتنجن وغيرها، وعضو شرف في المجمع العلمي المصري، وفي الجمعيات الأسيوية في باريس ولندن وكلكتة وليبسك وغيرها. وله مؤلفات عديدة، أكثرها مبني على الدرس الدقيق والبحث العميق، وأهمها عن اللغة العربية والإسلام، وخصوصًا الشرع الإسلامي والحديث، وله في ذلك مقالات كثيرة في المجلات الأسيوية، وأما الكتب المنشورة على حدة فإنها مكتوبة في الألمانية والإنكليزية أو الفرنساوية، هذا أهمها: المبثولوجية عند اليهود في اللغة الإنكليزية، بحث في آداب الجدل عند الشيعة في الألمانية، الظاهرية في الألمانية، درس في الإسلام في مجلدين بالألمانية،

بحث فلسفي في اللغة العربية بالألمانية في مجلدين، كتاب آخر في الإسلام ظهر أخيرًا في الألمانية وسيظهر قريبًا في الفرنساوية، ديوان الحطيئة، كتاب محمد بن تومرث، كتاب معاني النفس، وتولى مهمات علمية عديدة، ونال لقب دكتور شرف من جامعتي كمبردج وإبردين.

الأستاذ هيوار الفرنساوي Cl. Huart

تقلب الأستاذ هيوار في مناصب إدارية في الحكومة الفرنساوية من كاتب بسيط حتى صار قنصلًا جنرالًا سنة ١٩١٢، وتنقَّل في مناصب علمية عديدة للتعليم في مدرسة اللغات الحية في باريس، فعلَّم فيها الفارسية والتركية والعربية، وله مؤلفات عديدة في العرب واللغة العربية، أهمها في الفرنساوية: تاريخ بغداد الحديث، تاريخ آداب اللغة العربية، تاريخ العرب في مجلدين، كتب تعليمية للغة التركية والفارسية، مدينة قونية من رحلة له، برنامج معرض الفنون الإسلامية، مذهب الباب.

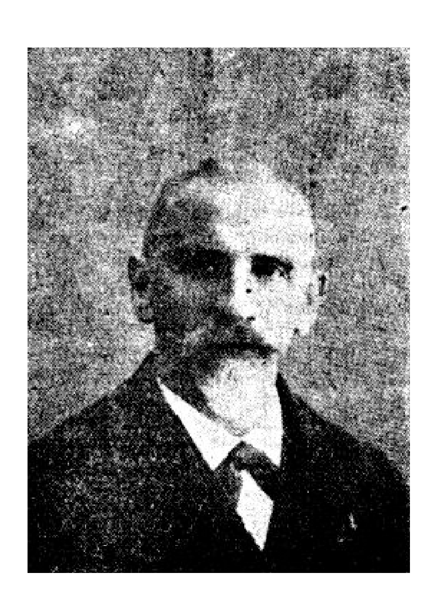


الأستاذ هيوار الفرنساوي.

ونشر كتبًا هامة من مؤلفات العرب مع ترجماتها أو بدونها، منها: كتاب الخليقة لأبي زيد البلخي مع ترجمته الفرنساوية في ٤ مجلدات، نقوش عربية وفارسية على مسجد كايفونغفو مع ترجمتها، خطوط الشرق الإسلامي، أنيس العشاق لشريف الدين الرومي، وغيرها.

وله مقالات كثيرة في المجلة الأسيوية الفرنساوية، وغيرها في آداب العرب والفرس والترك والإسلام، وانتقادات وأبحاث ومقالات عديدة يضيق المقام عنها، وهو الآن أستاذ اللغة العربية في مدرسة اللغات الحية في باريس.

الأستاذ هورغرونجي الهولندي Snouck-Hurgronje



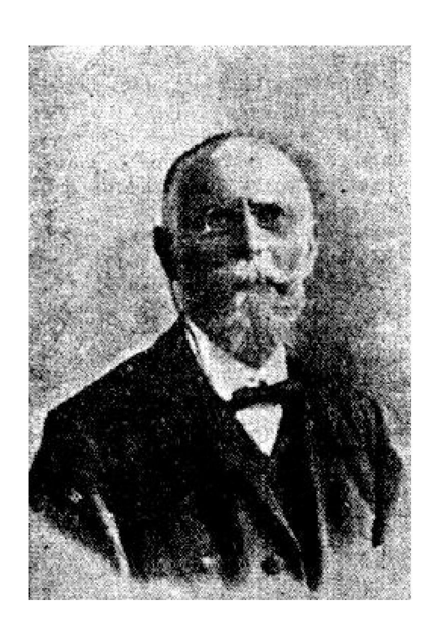
الأستاذ هورغرونجي الهولندي Snouck-Hurgronje.

هورغرونجي أستاذ اللغة العربية في جامعة ليدن، وقد رحل إلى بلاد العرب سنة ١٨٨٤–١٨٨٥، ووصل إلى مكة متنكرًا، قضى فيها مدة، وهو يميل في كتاباته إلى انتقاد

الإسلام، وأشهر مؤلفاته: الحاج إلى مكة مصوَّر بالهولندية طُبِع في ليدن، المهدي بالألمانية، أمثال المكيين بالألمانية، مكة وجغرافيتها مع الخرائط في الألمانية في مجلدين، السياسة الفرنساوية في هولندا.

الأستاذ جويدي الإيطالي Ig. Guidi

والأستاذ جويدي أشهر مستشرقي إيطاليا المستعربين، يعرفه المصريون لأنه تعين منذ بضع سنوات أستاذًا في الجامعة المصرية، وكان يلقي محاضراته فيها باللغة العربية، وهو عالم باللغة الحبشية، وله معجم كبير للغة الأمحرية، ورسائل عديدة في مواضيع شرقية مختلفة، وقد تولى نشر كتاب الأفعال لابن القوطية، والاستدراك على سيبويه، ووضع فهرسًا أبجديًّا لكتاب الأغاني في مجلد، وغير ذلك.



الأستاذ جويدي الإيطالي Ig. Guidi.

هذه أمثلة من أعمال المستشرقين في سبيل اللغة العربية وآدابها، ولو أردنا الإتيان على كل أعمالهم لضاق المقام عن ذلك، غير طائفة منهم لم نذكر أسماءهم، بينهم من نشر أو ترجم كتابًا أو بضعة كتب من الكتب العربية الهامة؛ اكتفاء بما تقدم على سبيل المثال.

وهناك طبقة من المستشرقين النقابين الذين تفقدوا الآثار، ونقبوا عنها في اليمن والحجاز ونجد وبصرى وغيرها، ودرسوها أو حلوا رموزها، وهم كثيرون، غير الذين رحلوا إلى بلاد العرب، ودرسوا أحوالها وعادات أهلها وأخلاقهم، وهم كثيرون، أشرنا فيما تقدم إلى نيبوهر وغلازر منهم، على أننا لخصنا أعمالهم في كتابنا تاريخ العرب قبل الإسلام صفحة ١٨–٢٨، وذكرنا أهم مؤلفاتهم في هذه المواضيع، وفي ذلك كفاية.

(٧) المعاجم العربية التي ألَّفها المستشرقون

وللمستشرقين عناية خاصة في درس معاجم اللغة العربية وترجمتها، بدءوا بذلك من القرن السابع عشر للميلاد، وهاك أشهر معاجمهم العربية واللاتينية، وغيرها:

(١) **معجم جيجاوس:** عربي لاتيني، طُبِع في ميلان سنة ١٦٣٢ في ٤ مجلدات.

(٢) **معجم جوليوس:** عربي لاتيني، طُبِع في ليدن سنة ١٦٥٣.

(٣) **معجم مانينسكي:** ويسمى كنز اللغات الشرقية، عربي وفارسي وتركي ولاتيني وألماني، طُبِع في فينا سنة ١٧٨٠ في ٤ مجلدات.

(٤) **معجم فرايتاغ:** عربي ولاتيني، طُبِع في هليس سنة ١٨٣٠–١٨٣٧ في ٤ مجلدات.

(٥) **معجم كازميرسكي:** عربي وفرنساوي، طُبِع في باريس سنة ١٨٦٠ في مجلدين.

(٦) **معجم شربونو:** عربي وفرنساوي، طُبِع في باريس سنة ١٨٧٦.

(٧) **معجم بادجر:** إنكليزي وعربي، طبُعِ سنة ١٨٨١.

(٨) **معجم لين:** عربي وإنكليزي، هو أكبر المعاجم العربية للمستشرقين، طُبِع في لندن سنة ١٨٦٣–١٨٩٣.

(٩) **معجم كوش:** عربي وفرنساوي، طُبِع في بيروت سنة ١٨٦٢.

(١٠) **معجم أرموند:** عربي وألماني، طُبِع سنة ١٨٧٩ في جيسن في مجلدين.

(١١) **معجم جاسلين:** فرنساوي وعربي، طُبِع سنة ١٨٨٠–١٨٨٦ في ٣ مجلدات.

(١٢) **معجم إستاينجاس:** إنكليزي وعربي، طُبِع في لندن سنة ١٨٨٤.

(١٣) **معجم دوزي:** ملحق للمعاجم العربية، طُبِع في لندن سنة ١٨٨١ في مجلدين.
(١٤) **معجم جرجاس:** عربي وروسي، طُبِع في قازان سنة ١٨٨١.
(١٥) **معجم بوسيه:** عربي وفرنساوي، طُبِع في الجزائر سنة ١٨٨٧.

غير المعاجم التي ألَّفها العرب أو الشرقيون، وقد ذُكِرت في أماكنها.

(٨) عناية المستشرقين بالآداب العربية

(٨-١) عنايتهم في ضبط ما ينشرونه أو ينقلونه

للمستشرقين عناية خاصة فيما ينشرونه من الكتب العربية، وتمتاز منشوراتهم بالضبط ومراجعة الأصول المتعددة من المخطوطات، ويبذلون الجهد في التحقيق، وتعليق الشروح، ويذيلون الكتاب بالفهارس الأبجدية بحيث تتضاعف الفائدة منه، وقد سبقوا المطابع الشرقية عندنا في نشر أكثر الكتب الهامة في التاريخ والأدب وغيرها — كما رأيت — بدءوا بذلك منذ ثلاثة قرون فطبعوا مئات من الكتب العربية، بينها أهم كتب التاريخ والأدب واللغة والشعر والدين وغيرها، وكان معول مطابعنا في نشر تلك الكتب بالأكثر على الطبعات الأوربية بحذف الفهارس والشروح، أو الاختصار فيها.

(٨-٢) فضلهم في تعريف آداب العرب إلى الإفرنج

وللمستشرقين فضل في تعريف الآداب العربية إلى العالم المتمدن بما نقلوه منها، وقد مرت الإشارة إلى ذلك في أثناء هذا الكتاب، ولا سيما في هذا الباب، وإليك إجماله:

ما نقلوه من الشعر

خلاصة ذلك أنهم نقلوا طائفة من نخبة الشعر العربي إلى اللاتينية والإنكليزية والفرنساوية والألمانية، فمما نُقِل إلى اللاتينية: ديوان الحماسة، وأشعار الهذليين، وبعض أشعار الأغاني، ومما نُقِل إلى الفرنساوية دواوين امرئ القيس والنابغة وطرفة بن العبد والخنساء، والبردة للبوصيري، وشعر الفرزدق، وبعض أشعار المتنبي وأبي العلاء. ومما نُقِل إلى الإنكليزية: المعلقات، ولامية العرب، وأشعار الجاهلية، وأشعار عنترة، وديوان البهاء زهير، وبعض أشعار أبي العلاء. ومما نُقِل إلى الألمانية: المعلقات، وديوان لبيد،

وتائية ابن الفارض، وشعر ابن قيس الرقيات، وبعض ديوان أبي فراس، غير ما نُقِل إلى اللغات الأخرى.

ما نقلوه من كتب الأدب واللغة

ومما نقلوه من كتب الأدب واللغة إلى الفرنساوية: أطواق الذهب للزمخشري، ملحة الأعراب، ألف ليلة وليلة، مقدمة ابن خلدون، مقامات الحريري، الآجرومية، كليلة ودمنة، كتاب المستطرف. ونقلوا إلى الإنكليزية: مقامات الحريري، أدب الكاتب، ألف ليلة وليلة، رسالة حي بن يقظان، تاج العروس، كليلة ودمنة. ومما نُقِل إلى الألمانية: أطواق الذهب، كتاب سيبويه، ألف ليلة وليلة، كليلة ودمنة، عجائب المخلوقات، وغيرها.

ما نقلوه من كتب التاريخ ونحوها

ونقلوا إلى لغاتهم أهم كتب التاريخ منها: أبو الفداء، مختصر الدول، الإفادة والاعتبار، كشف الظنون، تاريخ الطبري، المكين، نُقِلت إلى اللاتينية. وابن خلكان، تاريخ اليمن لعمارة، تاريخ الخلفاء للسيوطي، رحلة ابن بطوطة، ابن حوقل، نفح الطيب، نُقِلت إلى الإنكليزية. وأبو الفداء، مروج الذهب، طبقات الأطباء، تاريخ المماليك للمقريزي، الفخري، جغرافية الإدريسي، تاريخ البربر، ابن خلكان وغيرها، نُقِلت إلى الفرنساوية. وسيرة ابن هشام، كتاب المغازي، كتاب الإكليل، وغيرها إلى الألمانية.

غير ما نقلوه من كتب الشرع الإسلامي، فالقرآن نُقِل إلى أهم لغات أوربا مرارًا، وتفسير البيضاوي، ومشكاة المصابيح نُقِلا إلى الإنكليزية، وفتح القريب، والدرة الفاخرة، ومختصر خليل نُقِلت إلى الفرنساوية، ومقاصد الفلاسفة نُقِل إلى الألمانية.

فبهذه المنقولات وأمثالها تمكَّن المستشرقون من تعريف العرب وآدابهم إلى أمم أوربا؛ لأن هؤلاء كانوا على جهل تام في تاريخ الشرق وآدابه، ولا سيما الإسلام، فإنهم لم يكونوا يُحسِنون لفظ اسم النبي، فليلفظه بعضهم Mophomet (مفمت)، أو Bophomet (بفمت)، وكان بعضهم يظن محمدًا صنمًا يعبده المسلمون، وكانوا ينقلون عن المسلمين والعرب مزاعم لا أصل لها، فلما اطَّلعوا على آداب العرب وثمار مدنيتهم، ذهب من أذهانهم ما تأصل فيها في أثناء الأجيال المظلمة من سوء الظن بالإسلام، واحتقار العرب وسائر الشرقيين.

غير ما أَلَّفه المستشرقون في لغاتهم عن العرب وتاريخهم وآداب لغتهم، منها نخبة حسنة تدل على درس وتحقيق في تاريخ العرب والمسلمين وآداب اللغة، وقد ذكرنا طائفة من تلك الكتب في كتبنا تاريخ التمدن الإسلامي، وتاريخ آداب اللغة العربية، وتاريخ العرب قبل الإسلام، في اللغات الثلاث الفرنساوية والإنكليزية والألمانية، غير ما نشروه من ذلك في مجلاتهم الشرقية المتقدم ذكرها في أثناء عشرات من السنين.

وغير فضلهم في حفظ المخطوطات العربية في المكاتب الكبرى في عواصم بلادهم كما تقدم.

(٨-٣) المؤتمرات الشرقية

ومن مساعيهم في سبيل اللغة العربية عقد المؤتمرات الشرقية، يدعون إليها قهارمة الآداب الشرقية من أطراف العالم، وبلغ عدد هذه المؤتمرات إلى الآن ١٥ مؤتمرًا، أقدمها مؤتمر باريس سنة ١٨٧٢، وتوالى عقد المؤتمرات العربية في لندن وبطرسبنورج وفلورنس وبرلين وليدن، وفينا وستوكهلم وجنيف ورومية وهمبورج وجزائر الغرب وأثينا وغيرها، واشتركت الحكومة المصرية في كثير منها.

هوامش

(١) تفصيل ذلك في الهلال ٢٥٩ سنة ١٩.
(٢) تفصيل ذلك في الهلال ٤٠٥ سنة ١٦.

آداب اللغة العربية في النهضة الأخيرة

من سنة ١٨٠٥ إلى الآن

مقدمة

فرغنا من المقدمات التمهيدية فيما امتازت به هذه النهضة من العوامل الداخلة في ترقية العقول وتفتيق القرائح، فلنتقدم إلى وصف الآداب العربية، ومن نبغ من الأدباء والعلماء، وما خلفوه من الآثار المطبوعة أو المخطوطة، ولا نترجم منهم إلا الذين تُوُفُّوا قبل صدور هذا الكتاب، ونقسِّم هذه النهضة من حيث ما نحن فيه إلى ثلاثة أعصر:

(١) **العصر الأول:** من ولاية محمد علي سنة ١٨٠٥ إلى ولاية إسماعيل سنة ١٨٦٣.
(٢) **العصر الثاني:** من ولاية إسماعيل إلى الاحتلال الإنكليزي سنة ١٨٨٢.
(٣) **العصر الثالث:** من الاحتلال الإنكليزي ولا يزال.

ولكل من هذه الأعصر مميزات تظهر في آداب اللغة كما ستراه، وباكورة ما حدث في هذه النهضة نقلُ العلوم الحديثة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية، وهي ما نعبِّر عنه بالعلوم الدخيلة، فنقدم الكلام فيها، ونترجم مَن نبغ من النقلة أو المؤلفين أو المحررين في تلك العلوم، ثم نعود إلى العلوم الأخرى حسب التبويب الذي توخيناه في الأجزاء الماضية.

العلوم الدخيلة أو المنقولة

هي العلوم التي نقلناها عن اللغات الإفرنجية في هذه النهضة، من كُتُبِ الطب والطبيعيات والرياضيات والعلوم الاجتماعية والاقتصادية والحقوقية وآداب الإفرنج الشعرية والأدبية وغيرها، وأهمها كلها الطب والطبيعيات والرياضيات، وأكثرها نُقِل للتعليم في المدارس الكبرى بمصر والشام، ومصر أسبق إلى هذه المنقبة على يد محمد علي، وأكثر المشتغلين في ذلك من أبناء الإرسالية الأولى، وتلاميذ مدرسة الطب في النصف الأول من القرن التاسع عشر، واشترك معهم بعض المترجمين السوريين وغيرهم، وأكثر منقولاتهم عن الفرنساوية والإيطالية.

ثم تناولت هذه المهمة المدرسةُ الكلية الأميركية في بيروت، وهي أسبق سائر مدارس سوريا إلى ذلك، وأكثر منقولاتها أو كلها عن الإنكليزية، والغالب أن يتصرفوا في النقل بين توسيع وتلخيص واقتباس من كتب مختلفة وهو التأليف، ويندر فيهم من نقل نقلًا خالصًا.

وكان عند العرب قبل هذه النهضة كثير من العلوم الطبية والطبيعية والرياضية وغيرها، لكن ما نقلوه في هذه النهضة يختلف عما كان عندهم — وإن كثيرًا من هذا المنقول أخذه الإفرنج أصلًا عن العرب، لكنهم رقوه بالاكتشافات والاختراعات حتى صار يُعرَف بهم، كما فعل العرب قبلهم بما نقلوه عن اليونان والفرس والهند من كتب الطب والفلسفة، فإنهم رقوها وأضافوا إليها وصارت تُنسَب إليهم.

وتُقسَّم العلوم الدخيلة التي نُقِلت في هذه النهضة إلى سبعة أقسام:

(١) **العلوم الطبيعية:** ويدخل فيها الطب، والطبيعيات، والتاريخ الطبيعي، والكيمياء.

(٢) **العلوم الرياضية:** كالحساب والهندسة والجبر، ونضيف إليها الميكانيك والفلك.
(٣) **العلوم الحربية:** وهي عبارة عما نُقِل من الكتب لتنظيم الجند الجديد.
(٤) **كتب الدين:** نعني نقل التوراة في هذه النهضة.
(٥) **العلوم القضائية أو الحقوقية:** أيْ ما نُقِل منها عن مدنية أوربا.
(٦) **العلوم الاقتصادية والاجتماعية الحديثة.**
(٧) **الأدب والشعر:** ما نُقِل عن الإفرنج.

وتُقسَّم هذه الأبواب السبعة إلى قسمين، يشترك كل قسم منهما في أحوال متشابهة، فالأبواب الأربعة الأولى (الطبيعيات، والرياضيات، والحربيات، والتوراة) تشترك في أنها سبقت سواها، وأن أساسها وُضِع في النصف الأول من القرن الماضي على قواعد ثابتة، وأن المشتغلين بنقلها جماعات رسمية كالحكومة، أو الجمعيات، أو المدارس الكبرى.

والأبواب الثلاثة التالية (العلوم القضائية، والاقتصادية، والأدب، والشعر) تشترك في أنها من ثمار النصف الثاني من القرن المذكور، اقتضتها طبيعة الاجتماع، وقد اشتغل بنقلها غالبًا الأفراد، فنؤجل الكلام في هذه الأبواب الثلاثة إلى مكانها من هذا الكتاب، ونتقدم إلى الكلام في الأبواب الأربعة الأولى، أيْ العلوم الطبيعية والرياضية والحربية والدينية، ونقسم الكلام فيها إلى ما نُقِل منها في مصر، وما نُقِل في سوريا. وقد اشتركت مصر وسوريا في نقل الطبيعيات والرياضيات، وانفردت مصر بترجمة الحربيات، وانفردت سوريا بترجمة الدينيات، وإليك البيان:

(١) نقل العلوم الدخيلة في مصر

نعني الطبيعيات والرياضيات والحربيات.

الفضل الأكبر في نقل هذه العلوم لمحمد علي رأس الأسرة الخديوية، ومن تحداه من الخديويين، على أن هذه المنقولات لم تُنقَل في وقت واحد، بل تدرجوا في نقلها حسب الحاجة من عهد محمد علي إلى الأمس. احتاج محمد علي أولًا إلى تنظيم الجند، فأنشأ المدرسة الحربية، ورأى الحاجة إلى حفظ صحة الجنود وخيولهم، فأنشأ المستشفى، ثم المدرسة الطبية والبيطرية سنة ١٨٢٦ لتخريج الأطباء، واحتاج إلى من يبني الحصون، ويدير معامل الأسلحة، وغيرها من الفنون الحربية، فبعث شبانًا يتلقون هذه العلوم في أوربا، واقتضت خطته السياسية تعزيز شأن العرب، فأمر بنقل الطب والعلم الطبيعي

والعسكري، وسائر العلوم الحديثة إلى اللغة العربية بدلًا من تعليمها في لغاتها الأصلية كما تفعل المدارس الآن.

فشرع أولًا في نقل الطب، وما يتفرع عنه من العلوم الطبيعية ونحوها، فاستقدم الأطباء الإفرنج، وأراد التعجيل في تخريج الأطباء من أهل البلاد، وهم لا يعرفون اللغات الإفرنجية، فأتاهم بالمترجمين يتوسطون بين الأساتذة والتلاميذ في ترجمة العلوم تلقينًا، ثم تدوينًا، ثم طبعًا كما تقدم في الكلام عن تاريخ مدرسة الطب.

ولم يصبر محمد علي ريثما يتخرج التراجمة من الإرساليات الأوربية، أو في المدارس المصرية، فاستخدم بعض النزلاء من السوريين أو المغاربة أولًا، ثم تخرج المترجمون في المدارس، ولا سيما مدرسة الألسن الخاصة بهذا الغرض، على أن هذه العلوم كان يقوم بترجمتها أو تأليفها غالبًا أساتذة هذه العلوم أو معلِّموها، كل معلم يترجم أو يؤلف في العلم الذي يعلمه في المدرسة، وكان عملهم في زمن محمد علي أكثره ترجمة، ثم صار في زمن إسماعيل أكثره تأليفًا، وهو في الأغلب مأخوذ عن كتب إفرنجية تلخيصًا أو جمعًا.

وكان الغالب في الترجمة أو التأليف أن يكون اقتراحًا من رئيس المدرسة، أو رئيس ديوان المدارس (ناظر المعارف)، ثم تُعرَض الكتب على من ينظر فيها من أهل الاختصاص، فالكتب الطبية كانت تُعرَض على لجنة من أساتذة المدرسة الطبية تُعرَف بأرباب المشورة الطبية، وقد تكون الترجمة باقتراح رئيس مدرسة الألسن أو غيره.

وكان النقلة في أول الأمر من غير أرباب الفنون التي ينقلونها، أو أنهم غير متمكنين من اللغة العربية ومصطلحاتها العلمية، فكان نقلهم لا يُؤمَن الخطأ فيه، وإنما استخدمهم محمد علي للترجمة تعجيلًا لمشروعه، فاحتاجوا إلى من يقرأ الترجمات، والأصل بين يدي مؤلفيها، أو من يقوم مقامهم، ويقابلونها وينقحونها، وكان المؤلفون في أول الأمر من أساتذة المدرسة الطبية — نعني كلوت بك ورفاقه الفرنساويين — تُعرَض مؤلفاتهم أولًا على «أرباب المشورة الطبية» المتقدم ذكرها، فإذا أقرت على نفع كتاب أمرت بنقله إلى العربية، فيعهدون ذلك إلى من يتولاه من المترجمين، فإذا نُقِل عهدوا بتنقيح عباراته إلى مصحح عالِم باللغة العربية يقف على طبعه، وقد يعينون للتنقيح أو التصحيح اثنين: أحدهما يعرف اللغة المنقول الكتاب عنها، والآخر عالِم في اللغة العربية، فلا يخرج الكتاب إلى المطبعة إلا بعد أن يقتلوه تحقيقًا وتنقيحًا على ما

يبلغ إليه إمكانهم، فكان المشتغلون في إخراج الكتب العلمية لمدرسة الطب أو غيرها ست طبقات:

(١) **المؤلفون الإفرنج:** من أساتذة المدارس أو غيرهم.
(٢) **المترجمون من غير الأطباء.**
(٣) **المترجمون من تلاميذ مدرسة الطب أو غيرها:** وأكثرهم من المتخرجين في المدارس المصرية.
(٤) **المحررون:** أو الناظرون في صحة الترجمة، وتطبيقها على الأصل، مع ضبط المصطلحات العربية على المصطلحات الإفرنجية، وهم من علماء اللغة الملمين بالعلوم الحديثة.
(٥) **المصححون:** من علماء الأزهر.

فنتكلم عن كل من هذه الطبقات باعتبار صنوف العلوم التي ذكرناها، ونبدأ بالعلوم الطبيعية والطبية؛ لأنها أهم العلوم الدخيلة في هذه النهضة، وأكثرها فروعًا.

(١-١) نقل العلوم الطبيعية بمصر

يدخل في هذه العلوم: الطب، والطبيعيات، والنبات، والحيوان، والجيولوجيا، والكيمياء، وغيرها من الفنون الطبية والصيدلية والتاريخ الطبيعي، وأكثر المشتغلين بنقلها أو تأليفها من الأطباء، ومعظمهم من أساتذة قصر العيني أو تلاميذه، فنتدرج في ذكرهم حسب أزمنتهم، وباعتبار الطبقات المتقدم ذكرها.

أولًا: المؤلفون من الإفرنج

إن المؤلفين الإفرنج الذين نُقِلت كتبهم إلى العربية كثيرون، فنقتصر منهم على الأساتذة الذين استقدمهم محمد علي للشروع في هذه النهضة، وأكثرهم عملًا في ذلك كلوت بك مؤسس مدرسة الطب، يليه الدكتور برون بك أحد أساتذتها القدماء، ثم غيره كما ترى:

(١) **الدكتور كلوت بك توفي سنة ١٨٦٨ / ١٢٨٥هـ:** وُلِد في غرينوبل بفرنسا سنة ١٧٩٣ من أبوين فقيرين، ورُبِّي في شظف من العيش، ثم توفي أبوه وهو غلام فازداد ضيقًا، فالتفت إليه طبيب جعله مساعدًا له يرافقه، ويتمرن على يده، وهو في أثناء ذلك

يدرس بنفسه، ثم انتقل إلى مرسيليا وغيرها طلبًا للرزق، وأبوابه مقفلة في وجهه؛ لأنه لم يكن قد أتقن الصناعة، فعاد إلى بلده، ودخل المستشفى وأكبَّ على الدرس، فنال شهادة الطب وأخذ في العمل، فتعرَّف إلى تاجر فرنساوي كان محمد علي قد كلَّفه أن يختار له طبيبًا لجيشه، وحبَّب إليه المسير إلى مصر، فرضي وسافر سنة ١٨٢٥، وكان رجلًا عاملًا فأسس المدرسة الطبية[١] كما تقدم في باب تاريخ المدارس.

واضطره تعجل ثمر تلك المدرسة أن يؤلف الكتب اللازمة للتدريس على ما يلائم هذه البلاد أو تقتضيه الأحوال، على أن يتولى التراجمة نقلها إلى اللغة العربية، فألف نحو عشرة كتب في مواضيع مختلفة نُقِلت إلى العربية، وطُبِعت بين سنة ١٨٣٤ و١٨٤٤، ترجمها المترجمون غير الأطباء، وأنشأ ديوان الصحة وغيره، وهاك مؤلفاته، وأكثرها رسائل:

(أ) رسالة في الطاعون: طُبِعت في بولاق سنة ١٢٥٠هـ.

(ب) رسالة في علاج الطاعون: طُبِعت بمطبعة الجهادية سنة ١٢٥٠هـ.

(ج) رسالة في ما يجب اتخاذه لمنع الجرب والداء الإفرنجي: طُبِعت ١٢٥١هـ.

(د) مبلغ البراح في علم الجراح: طُبِع سنة ١٢٥١هـ، ترجمه العنحوري.

(هـ) نبذة في تطعيم الجدري: طُبِع سنة ١٢٥٢هـ، ترجمها أحمد الرشيدي.

(و) نبذة في أصول الفلسفة الطبيعية: طُبِع سنة ١٢٥٣هـ، ترجمها النبراوي.

(ز) العجالة الطبية في ما لا بد منه لحكماء الجهادية: سنة ١٢٥٦هـ، ترجمها السكاكيني.

(ح) رسالة في مرض الحمى:طُبِعت سنة ١٢٥٩هـ.

(ط) الدرر الغوال في معالجة أمراض الأطفال: سنة ١٢٦٠هـ، ترجمها محمد الشافعي.

(ي) كنوز الصحة ويواقيت المنحة: سنة ١٢٦٠هـ، ترجمها محمد الشافعي.

(ك) نبذة في التشريح المرضي: ترجمها النبرواي، وطُبِعت سنة ١٢٥٣هـ.

(ل) القول الصريح في علم التشريح: ترجمه العنحوري، وطُبِع سنة ١٤٢٨هـ، وهو أول كتاب طُبِع في أبي زعبل.

(٢) **الدكتور برون:** هو من أمهر أساتذة هذه المدرسة، جاء لتعليم الطبيعيات ونحوها فيها، وقد تولى رئاستها حينًا، ويمتاز عن سائر الأساتذة الأجانب بمعرفته اللغة العربية، فإنه كان يعرفها معرفة جيدة، ولذلك كثيرًا ما كانوا يستعينون به في تحرير الترجمات عن الفرنساوية لمعرفته اللغتين: المنقول إليها، والمنقول عنها، فضلًا عن لغات

أخرى، وقد أتقن اللغة العربية بمصر على يد محمد عمر التونسي الآتي ذكره، وعلى غيره من المصححين، وكثيرًا ما كان كلوت بك يدفع إليه الكتاب فيترجمه، ثم يدفعه إلى محمد عمر التونسي، وهو من المحررين فينقحه، وكان التونسي يثني على عربية برون، وقد خلف هذا الدكتور كتابين:

(أ) الأزهار البديعة في علم الطبيعة: طُبِعت سنة ١٢٥٤هـ.
(ب) الجواهر السنية في الأعمال الكيماوية: ١٢٦٠هـ في ثلاثة مجلدات.

(٣) **الدكتور برنار:** هو معلم فن الصحة في المدرسة الطبية، وقد ألف كتابًا في علم الصحة اسمه: المنحة في سياسة حفظ الصحة، طُبِع سنة ١٢٤٨هـ.

(٤) **فيجري بك:** كان من زملاء كلوت بك أيضًا، وأحد أعضاء المشورة الطبية، ألف كتابًا سماه: الدر اللامع في النبات وما فيه من المنافع، ترجمه ونقحه السيد حسن غانم، ومحمد عمر التونسي، طُبِع سنة ١٢٥٧هـ.

(٥) **الدكتور راير بك النمساوي:** كان من أساتذة مدرسة ديانا، واستقدمه عباس باشا الأول جعله طبيبًا خصوصيًّا له، ومديرًا لمدرسة الطب والمستشفى، وما زال كذلك في أيام سعيد باشا، ونال شهرة واسعة، وتوفي سنة ١٨٩٠.

وهناك أطباء آخرون من الإفرنج أساتذة مدرسة الطب المصرية وغيرها، نُقِلت مؤلفاتهم إلى العربية، سيأتي ذكر أهمهم في أثناء كلامنا عن الترجمات.

ثانيًا: المترجمون غير الأطباء

نعني طبقة من المترجمين هم أقدم من اشتغل بالنقل إلى العربية في زمن محمد علي، وأكثرهم من السوريين عينتهم الحكومة مترجمين للدروس الطبية عند أول فتح المدرسة للأسباب التي قدمناها، ويُلقَّب أكثرهم بمترجم مدرسة الطب، وهاك أشهرهم:

(١) **يوحنا عنحوري (توفي في أواسط القرن التاسع عشر):** ويقال له أيضًا حنين عنحوري، وبيت عنحوري معروفون بمصر والشام، لم نقف على ترجمته، لكننا عرفناه من آثاره، وما نقله من الكتب في هذه النهضة، وهو من أقدم المترجمين، وكان ضعيفًا في اللغة الفرنساوية، ومتمكنًا من اللغة الإيطالية، فكان ينقل من هذه إلى العربية، فإذا كان الكتاب مؤلَّفًا في اللغة الفرنساوية ترجموه له إلى الإيطالية أولًا، ثم ينقله هو إلى

العربية، وقد ينقلوه له بالإملاء وهو يدونه ثم يترجمه، وأول كتاب طبي طُبِع في العربية من ترجمات هذه النهضة كان تأليف كلوت بك، وترجمة يوحنا عنحوري، نعني كتاب «القول الصريح» المتقدم ذكره، طُبِع في أبي زعبل سنة ١٢٤٨هـ/١٨٣٢، وقد ترجم كتابًا آخر اسمه «منتهى الأغراض في علم شفاء الأمراض» تأليف بروسيه وسانسون، كان في الفرنساوية فنقلوه له إلى الإيطالية، ثم نقله العنحوري إلى العربية، وصححه الهراوي، وطُبِع سنة ١٢٥٠هـ في مجلدين.

(٢) **يوسف فرعون (توفي في أواسط القرن التاسع عشر):** آل فرعون أسرة سورية معروفة، هاجر بعضها إلى مصر منذ قرن ونصف القرن، ومنهم يوسف هذا، كان معاصرًا للعنحوري، ولم نعرف من أخباره غير ما وقفنا عليه من آثاره، فإنه من أقدم المشتغلين في نقل كتب الطب من الفرنساوية إلى العربية، وكان كثيرًا ما يشترك مع الدكتور برون في النقل أو الضبط، وله بضع عشرة ترجمة في الطب البيطري والعقاقير، ترجمها من الفرنساوية وهي:

(أ) رسالة في علم البيطارية: طُبِعت سنة ١٢٤٩هـ.

(ب) رسالة في الطب البيطري: طُبِعت سنة ١٢٦٠هـ.

(جـ) التحفة الفاخرة في هيئة الأعضاء الظاهرة: طب بيطري، طُبِعت سنة ١٢٥١هـ.

(د) التوضيح لألفاظ التشريح (البيطري): طُبِع سنة ١٢٤٩هـ، أصل هذا الكتاب تأليف أمون الفرنساوي، وقابل ترجمته رفاعة بك مع البكباشي هرقل.

(هـ) تحفة الرياض في كليات الأمراض (البيطرية): طُبِع سنة ١٢٥٥هـ.

(و) المادة الطبية البيطرية: طُبِع سنة ١٢٥٥هـ.

(ز) منتهى البراح في علم الجراح: طُبِع سنة ١٢٥٦هـ.

(ح) نزهة الأنام في التشريح العام: طُبِع سنة ١٢٥٥هـ.

(ط) روضة الأذكيا في علم الفسيولوجيا: طُبِع سنة ١٢٥٦هـ.

(ي) نزهة الرياض في علم الأمراض: طُبِع سنة ١٢٥٨هـ.

(ك) غاية المرام في الأدوية والأسقام: طُبِع سنة ١٢٦٣هـ.

(٣) **يعقوب:** هو من معاصري عنحوري وفرعون، وكان من مترجمي مدرسة الطب، وهذه ترجماته:

(أ) كتاب الأقرباذين: طُبِع سنة ١٢٥٣هـ.

(ب) دستور الأعمال الأقرباذينية لحكماء الديار المصرية: طُبِع سنة ١٢٥٢، وهو قانون أَلَّفَتْه المشورة الطبية، وعهدت إليه بترجمته.

(٤) **أوغسطين سكاكيني:** لعله من بيت السكاكيني المعروفين بمصر، ولا نعرف إلى من ينتسب منهم، لكننا نعلم أنه كان من جملة المترجمين في مدرسة الطب، ونقل كتابًا اسمه: العجالة الطبية في ما لا بد منه لحكماء الجهادية، تأليف كلوت بك، تقدم ذكره.

(٥) **جورجي فيدال:** وهذا لا نعرف عنه كثيرًا سوى أنه ترجم قانون الصحة، تأليف الدكتور برنار أستاذ علم الصحة في مدرسة الطب، وهو من أقدم كتبها، طُبِع سنة ١٢٤٨هـ.

(٦) **محمد لاز:** هو من المترجمين المتأخرين، أيْ ليس من زملاء فرعون وعنحوري، ويمتاز بمعرفته اللغة التركية والفارسية، وقد ترجم كتاب: مرشد البياطرة في هيئة الخيول الظاهرة، طُبِع بمصر سنة ١٢٨٢هـ.

غير المترجمين للعلوم الأخرى، ولا نعرف طبقة أو لجنة منهم عُيِّنت للترجمة في غير الطب، لكننا وقفنا على كتب ترجمها بعضهم لمحمد علي في سبيل ما أراده من الإصلاح، ككتاب الصباغة الذي ترجمه القس روفائيل الراهب، وقد تقدم ذكره.

ثالثًا: المترجمون والمؤلفون من الأطباء

نريد بهؤلاء جمهور المشتغلين بالنقل أو التأليف من الأطباء المتخرجين في مدرسة الطب، وهم طبقتان:

(١) المتقدمون أهل العصر الأول من هذه النهضة — وإنْ عاشوا إلى ما بعد ذلك العصر، وإنما المراد نبوغهم فيه.

(٢) المتأخرون الذين نبغوا في عصر إسماعيل، أو حواليه وبعده، ومنهم طائفة ظهرت في عصر الاحتلال، وكلامنا في هذا الباب يشمل الطبقتين المتقدم ذكرهما، نعني المترجمين والمؤلفين من الأطباء والصيادلة.

المترجمون والمؤلفون من الأطباء والصيادلة في العصر الأول من هذه النهضة

هؤلاء يغلب أن يكون عملهم نقلًا بسيطًا، وفيهم طائفة من أساتذة مدرسة قصر العيني ورؤسائها، وبعضهم من أعضاء الإرسالية الأولى التي تقدم ذكرها في كلامنا عن تاريخ مدرسة الطب، وإليك أشهر العلماء الذين خلفوا آثارًا مترجمة أو مؤلفة في الطب وفروعه، ونقدم الكلام في تلاميذ الإرسالية الأولى وهم:

(١) **إبراهيم النبراوي توفي سنة ١٨٦٢ / ١٢٧٩هـ:** هو رئيس مدرسة الطب، وينسب إلى بلده نبروه من ريف مصر، تفقَّه في صغره كما يتفقه أمثاله بالقراءة والخط، ثم تعلَّق بالبيع والشراء، فأرسله أهله إلى مصر — القاهرة — ليبيع بطيخًا فخسرت تجارته، فخاف الرجوع إلى أهله فدخل الأزهر، واتفق احتياج محمد علي إلى شبان يعلمهم الطب، وأكثر الناس يومئذٍ يرغبون عن هذا العلم، فتقدم النبراوي ودخل مدرسة أبي زعبل، أقام فيها مدة، وترقى إلى رتبة ملازم، ولما أراد محمد علي أن يرسل الإرسالية الأولى التي صحبها كلوت بك إلى باريس كان النبراوي فيها، فقدم الامتحان ونال الشهادة، وكان من الناجحين، وتولى تعليم الجراحة الكبرى في زمن كلوت بك، ثم ارتقى حتى صار رئيسًا لأطباء تلك المدرسة، وكان محمد علي نفسه يثق به فاختاره طبيبًا لنفسه، وقرَّبه ورقاه إلى رتبة أميرالاي فوثق الناس به، وتوافد المستشفون إلى بابه، وتوالت نِعَم العزيز عليه، وانتخبه عباس باشا الأول طبيبًا له عند جلوسه على التخت سنة ١٨٤٩، وانتدبته والدته للسفر معها إلى الحج، ولما عاد وجد امرأته الإفرنجية — التي كان قد أتى بها من أوربا — قد ماتت، فتزوج إشراقة من جواري والدة عباس باشا، وما زال في نعم حتى توفي سنة ١٢٧٩هـ/ ١٨٦٢، وقد اتسعت حاله، وكان له من امرأته الإفرنجية ثلاث بنات وصبي كان مقيمًا في أوربا،[٢] أما أعماله فقد كان مشهورًا بالجراحة، وهاك ما خلفه من الآثار المطبوعة:

(أ) كتاب الأربطة الجراحية: ترجمه من الفرنساوية، طُبِع سنة ١٢٥٤هـ.

(ب) نبذة في الفلسفة الطبيعية تأليف كلوت بك: ترجمها إلى العربية، تقدم ذكرها.

(جـ) نبذة في أصول الطبيعة والتشريح العام لكلوت بك: ترجمها إلى العربية، تقدم ذكرها.

(٢) **أحمد حسن الرشيدي توفي سنة ١٨٦٥ / ١٢٨٢هـ:** هو من كبار نوابغ مدرسة الطب المصرية، وقد جاهد في خدمة هذه النهضة مجاهدة الأبطال ترجمة وتأليفًا، فكان من أكبر أركانها، ومن أكثر الأطباء عملًا في سبيلها، وقد أدرك زمن إسماعيل، وهو من حيث خدمة العلم واجتهاده في التأليف يشبه أستاذنا الدكتور فانديك في بيروت.

نشأ كما نشأ غيره من شبان تلك الأيام حتى اتصل بالأزهر، فلما أراد محمد علي انتقاء شبان لدرس الطب كان هو في جملة الراغبين، فدخل مدرسة الطب وتعلم، وسافر في الإرسالية الأولى، ولما عاد تعين معلمًا للطبيعة فيها، وأخذ في الترجمة والتأليف، وتمتاز مؤلفاته بأنها قلما كانت تفتقر إلى تصحيح أو تحرير، وقد ألف في أكثر فنون الطب والطبيعيات والأقرباذين، وبلغ عدد مؤلفاته ٩ طُبِع آخرها سنة ١٢٦٣هـ، وبعد قليل انتقلت الإمارة المصرية إلى عباس الأول، ثم إلى سعيد، وسكنت الحركة العلمية في تلك الفترة، فلم يظهر فيها من قلم الرشيدي كتاب واحد، وكان قد وشى به بعض مبغضيه، واتهموه بأمور أوجبت ابتعاده عن الخدمة، فلما صارت الخديوية إلى إسماعيل سنة ١٨٦٣ / ١٢٨٠هـ اتجهت الأنظار إلى استخدامه، فتوسط محبوه لدى الخديوي، وأبانوا له اقتداره على خدمة الطب وعلومه، فقدَّمه وأوعز إليه أن يشتغل، فألَّف كتاب عمدة المحتاج لعلمي الأدوية والعلاج، وإليك مؤلفاته حسب سني ظهورها:

(أ) رسالة تطعيم الجدري: أصلها لكلوت بك، وقد تقدم ذكرها.

(ب) الدراسة الأولية في الجغرافية الطبيعية: (معرب) طُبِع سنة ١٢٥٤هـ.

(ج) ضياء النيرين في مداواة العينين: معرب عن كتاب للجراح لورنس مع زيادات، طُبِع سنة ١٢٥٦هـ.

(د) طالع السعادة والإقبال في علم الولادة وأمراض النساء والأطفال: ترجمه عن الفرنساوية علي هيبة، وصححه الرشيدي في جزئين، طُبِع سنة ١٢٥٨هـ مزيَّن بالرسوم.

(هـ) نبذة في تطعيم الجدري: طُبِعت سنة ١٢٥٩هـ.

(و) بهجة الرؤساء في أمراض النساء: طُبِع سنة ١٢٦٠هـ.

(ز) نزهة الإقبال في مداواة الأطفال: طُبِع سنة ١٢٦١هـ.

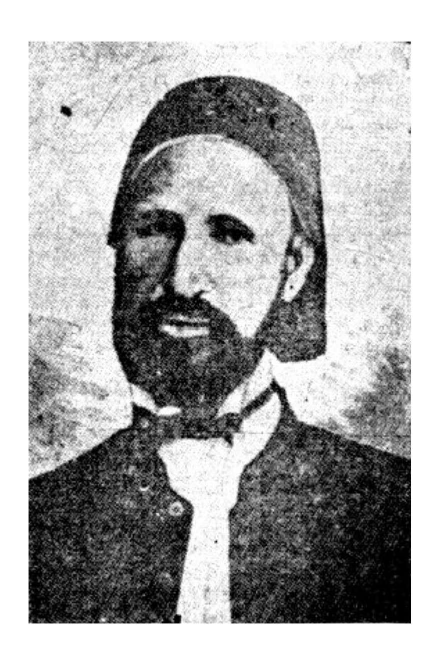
(ح) الروضة البهية في مداواة الأمراض الجلدية: طُبِع سنة ١٢٦٣هـ في مجلدين.

(ط) نخبة الأماثل في علاج تشوهات المفاصل: هذه تكملة للروضة البهية.

(ي) عمدة المحتاج في علمي الأدوية والعلاج: هو كالموسوعة الطبية في ٤ مجلدات كبيرة، طُبِع سنة ١٢٨٣هـ، أيْ بعد وفاة المؤلف بقليل، وقد علَّق عليه الدكتور حسين

عودة ذيلًا أبجديًّا كالفهرس يسهل الانتفاع به، وذكر في مقدمة هذا الذيل أسماء أساتذة مدرسة الطب وتلاميذها الذين كانوا في أيامه سنة ١٢٨٨هـ.

(٣) **محمد علي باشا البقلي توفي سنة ١٨٧٦ / ١٢٩٣هـ:** هو من زاوية البقلي في المنوفية، وُلِد سنة ١٢٢٨هـ، وتعلم كما تعلم أمثاله في تلك البلدة، ثم انتقل وهو في التاسعة من عمره إلى مصر، ودخل الأزهر، وأخذه محمد علي باشا في جملة الذين أخذهم لدراسة الطب في مدرسة أبي زعبل عند إنشائها، وسافر في جملة الإرسالية الطبية الأولى،



محمد علي باشا البقلي.

وقد نبغ بين رفاقه مع أنه أصغرهم سنًّا، فلما عاد تعين أستاذًا للجراحة في مدرسة الطب، وذاعت شهرته في الجراحة على الخصوص حتى صار اسمه علمًا على هذا الفن، فلما صارت ولاية مصر إلى عباس الأول، وحدثت تلك الفترة في العلم، انتقل للتطبيب في ثمن قيصون بالقاهرة، وكان لطلاب الشفاء ثقة عمياء في مهارته، وقربه سعيد باشا

وجعله في معيته، وتعين وكيلًا لمدرسة الطب، فلما تولى إسماعيل جعله رئيسًا على تلك المدرسة ومستشفاها، وأمره أن يؤلف الكتب لإحياء صناعة الطب، ووضع تحت أمره عشرة من خيرة المصححين الذين لهم اطلاع على الفنون الطبية ومصطلحاتها.

ولما انتشبت الحرب بين مصر والحبشة، سار في الحملة المصرية التي سافرت للحبشة بمعية البرنس حسن باشا عم الجناب الخديوي، فخدم الجنود المصرية خدمًا جزيلة يذكرها له العارفون، وتوفي هناك سنة ١٨٧٦، ولا يُعلَم مكان ضريحه، وكان من أهل الجد والعمل، وله فضل خاص بأنه أول من أصدر مجلة في اللغة العربية — نعني مجلة اليعسوب الطبية، أصدرها بمصر سنة ١٨٦٥، ومنها مجلد في المكتبة الخديوية — وهاك مؤلفاته الأخرى:[٣]

(أ) روضة النجاح الكبرى في العمليات الجراحية الصغرى: طُبِع سنة ١٢٥٩هـ.
(ب) غرر النجاح في أعمال الجراح: في جزئين، طُبِع سنة ١٢٦٢هـ.
(ج) غاية الفلاح في فن الجراح: في مجلدين، طُبِع سنة ١٢٨١هـ.
(د) نشر الكلام في جراحة الأقسام: لم يُطبَع.

(٤) **محمد بك شافعي:** هو من تلاميذ الإرسالية الطبية الأولى، وممن أعان كلوت بك في أوائل سني المدرسة في الترجمة والتأليف، لم نوفَّق إلى معرفة سنة وفاته، وقد اشتهر بكتبه وآثاره.

عاد من أوربا مع رفاقه، ثم تولى تدريس الأمراض الباطنية في مدرسة الطب برئاسة برون بك، وما زال يترقى حتى تولى رئاستها سنة ١٢٦٣هـ، وظل رئيسًا عليها حتى توقفت في زمن عباس الأول، وعكف على العمل والتطبيب والتأليف، وكان لا يزال حيًّا إلى سنة ١٢٨١هـ، وهذه آثار قلمه:

(أ) أحسن الأغراض في التشخيص ومعالجة الأمراض: طُبِع سنة ١٢٥٩هـ في أربع مجلدات، وهو من خيرة كتب الطب.
(ب) السراج الوهاج في التشخيص والعلاج: طُبِع سنة ١٢٨١هـ في أربعة مجلدات، وهو كالموسوعة في الطب.
(ج) كتاب أمراض الأطفال لكلوت بك: ترجمه هو، وصححه التونسي.

(٥) **محمد بك الشباسي:** معلم التشريح والتحضير في مدرسة الطب، وهو من تلاميذ الإرسالية الطبية الأولى، وقد ألَّف: التنوير في قواعد التحضير بإشارة كلوت بك، وطُبِع

سنة ١٢٦٤هـ، وترجم كتاب التنقيح الوحيد في التشريح الخاص الجديد، طُبِع بمصر سنة ١٢٦١هـ.

(٦) **عيسوي النحراوي:** معلم التشريح العام في مدرسة الطب، هو من تلاميذ الإرسالية الطبية الأولى، لم يترك أثرًا يستحق الذكر سوى كتاب التشريح العام تأليف كلار الفرنساوي، وقد ترجمه عيسوي المذكور، وطُبِع سنة ١٢٥١هـ.

(٧) **حسن غانم الرشيدي:** معلم الأقرباذين والمادة الطبية، كان في شبابه فقيهًا مثل أكثر رفاقه في ذلك العهد، وتعلم العقائد الدينية والعلوم اللغوية، ثم سافر إلى باريس وأتقن فن الأقرباذين، ولما عاد تعين أستاذًا لهذا الفن في مدرسة الطب، وأُمِر بتأليف كتاب في هذا الفن، فألَّف كتاب الدر الثمين في الأقرباذين، طُبِع سنة ١٢٦٥هـ، واشتغل في تصحيح كتاب النبات تأليف أنطون فيجري مع محمد التونسي.

هؤلاء تلاميذ الإرسالية الطبية الأولى الذين خلفوا آثارًا مكتوبة، ومنهم من لم يخلف أثرًا وهو من المشاهير، مثل مصطفى السبكي معلم أمراض العين توفي سنة ١٢٧٧هـ / ١٨٦٠.

طبقة أخرى من المترجمين في العصر الأول من غير الإرسالية الطبية الأولى:

ويلي هذه الطبقة طبقة أخرى عاصرتها لكنها من غير تلك الإرسالية، هاك أشهر من نبغ منهم في العصر الأول.

(٨) **محمد عبد الفتاح توفي في أواسط القرن التاسع عشر:** عرفنا هذا الرجل بما نقله من المؤلفات الهامة إلى اللغة العربية في أيام محمد علي، ولم نطلع على ترجمة حاله، لكننا رأيناه يقول في مقدمة أحد كتبه إنه من أبناء العرب الذين أرسلوا إلى أوربا لتعليم ما يبلغون به أعلى الرتب. وله من الترجمات:

(أ) نزهة المحافل في معرفة المفاصل: أصله للمعلم ريجو، ونقله محمد عبد الفتاح إلى العربية، وصححه مصطفى كساب، طُبِع سنة ١٢٥٧هـ.

(ب) البهجة السنية في أعمار الحيوانات الأهلية: طُبِع سنة ١٢٦٠هـ.

(جـ) مشكاة اللائذين في علم الأقرباذين: طُبِع سنة ١٢٦٠هـ.

(د) قانون الصحة البيطرية: طُبِع سنة ١٢٦٢هـ.

(٩) **علي هيبة توفي في أواسط القرن التاسع عشر:** هو من الأطباء الذين تلقوا الطب في باريس بعد الإرسالية الأولى، وقد اشتغل في النقل إلى العربية، والمدرسة في أبي زعبل، فنقل:

(أ) إسعاف المرضى في علم منافع الأعضا: في الفسيولوجيا، وبعد تمام ترجمته قابل معظمه عنحوري المترجم المتقدم ذكره مع الشيخ الدسوقي المصحح على أصل طلياني، وقد طُبِع هذا الكتاب سنة ١٢٥٢هـ.

(ب) كتاب طالع السعادة في فن الولادة: ترجمه علي هيبة، وصححه أحمد الرشيدي، أو اشتركا في ذلك، وقد تقدم ذكره بين مؤلفات الرشيدي.

المترجمون أو المؤلفون من الأطباء والصيادلة في العصر الثاني من هذه النهضة — في ظل إسماعيل وما بعده

أكثر النابغين في هذا العصر من الأطباء والصيادلة الذين خدموا اللغة العربية بنقل العلوم الطبية إليها، نبغوا في ظل إسماعيل، وأكثرهم تخرجوا في أوربا، وفي أيامه أصبحت كتب الطب أكثرها تأليفًا، وقلت الترجمات، ومنهم من نبغ بعد عصر إسماعيل، لكن أكثرهم تثقفوا في مدرسة الطب، وهي تعلم العلوم في اللغة العربية، هاك أشهرهم:

(١) **حسن بك عبد الرحمن توفي سنة ١٨٧٥ / ١٢٩٢هـ:** تلقى الطب في قصر العيني، وتولى تدريس التشريح فيه، وأهم آثاره أنه ترجم كتاب القول الصحيح في علم التشريح، طُبِع سنة ١٢٨٣هـ بأمر محمد علي الحكيم، وهو رئيس لمدرسة الطب لكي يُدرَّس في المدرسة المذكورة، وكان حسن بك رجلًا محترمًا.

(٢) **أحمد بك ندى توفي سنة ١٨٧٧ / ١٢٩٤هـ:** اشتهر بالصيدلة، وتلقى هذا الفن في قصر العيني، ثم سافر إلى باريس للتفقه فيه، ودرس صناعة الصابون واستخراج الشمع، ثم عاد إلى مصر فعينته الحكومة أستاذ التاريخ الطبيعي أو المواليد الثلاثة، ثم تعين مترجمًا للدكتور جاستنيل بك الكيماوي، وكان همامًا كثير العمل والبحث في المواضيع التي يعلمها، محبًّا للتأليف ونشر العلم، وما زال عاملًا على التعليم والتأليف حتى توفاه الله سنة ١٨٧٧، فخلفه في تعليم التاريخ الطبيعي علي بك رياض الآتي

ذكره، ريثما عاد الدكتور عثمان بك غالب من باريس فتولى تدريسه، وله مؤلفات جزيلة الفائدة هاك أهمها:

(أ) الآيات البينات في علم النباتات: طُبِع سنة ١٣٨٣هـ.
(ب) حسن البراعة في فن الزراعة: ترجمه عن الفرنساوية، وهو تأليف فيجري بك، طُبِع سنة ١٢٨٣هـ في مجلدين.
(جـ) حسن الصناعة في فن الزراعة: وكانت الحكومة في أيام إسماعيل قد أنشأت مدرسة للزراعة، وأحالت إليه التدريس فيها، فوضع هذا الكتاب للتعليم وهو مجلدان، طُبِع سنة ١٢٩١هـ.
(د) الحجج البينات في علم الحيوانات: نقله عن الفرنساوية، وطُبِع سنة ١٢٨٤هـ.
(هـ) نخبة الأذكياء في علم الكيمياء: هو تأليف جاستنيل بك رئيس الأعمال الكيماوية، ونقله ندى بك إلى العربية في جزئين صدرا سنة ١٢٨٦هـ، في الكيمياء المعدنية وغير المعدنية، وترجم الجزء الثالث في الكيمياء النباتية، والرابع في الكيمياء الحيوانية، ولا يزالان خطًّا عند الطلبة الذين درسوا عليه هذا العلم.
(و) الأقوال المرضية في علم الطبقات الأرضية (الجيولوجيا): طُبِع سنة ١٢٨٨هـ.
(ز) الأزهار البديعة في علم الطبيعة: تأليف جاستنيل بك، ترجمه ندى بك إلى العربية في جزئين، طُبِعا سنة ١٢٩١هـ، الأول في الطبيعة، والآخر في الظواهر الجوية.

وله مؤلفات أخرى ظهر بعضها في مجلة روضة المدارس.

(٣) **حسين بك عوف الكحال توفي سنة ١٨٨٣ / ١٣٠١هـ:** تعلم الطب في قصر العيني، ثم سافر إلى أوربا فأتقنه فيها، ولا سيما علم الرمد، فلما عاد تعين مدرسًا لهذا الفن في المدرسة المذكورة، واشتهر فيه شهرة واسعة، وكان في عصره أحد أربعة أركان العلم يومئذٍ: هو في الرمد، وأحمد بك ندى في التاريخ الطبيعي، ومحمد علي باشا البقلي في الجراحة، وحسن بك عبد الرحمن في التشريح. ظل عوف بك يتعاطى صناعة الرمد تعليمًا ومعالجة أكثر من عشرين سنة.

وقد ألف كتابًا في الرمد في سبعة أجزاء لم يطبع، وكان عاملًا نصوحًا تخرج عليه كثيرون.

(٤) **محمد بك حافظ:** أستاذ الرمد في مدرسة الطب، توفي سنة ١٨٨٧، تعلم الطب في قصر العيني، وأتقن فن الرمد في أوربا، وعاد فتولى تعليم هذا الفن، وألف كتاب مطمح الأنظار في تشخيص أمراض العين بالبحث بالمنظار، طُبِع سنة ١٢٩٩هـ.

(٥) **محمد بك عبد السميع:** معلم الولادة، توفي سنة ١٨٨٩ / ١٣٠٧هـ، ألف كتابًا في الولادة في ثلاثة أجزاء لم يطبع، وكتابًا في علم الأربطة لم يطبع.

(٦) **سالم باشا سالم توفي سنة ١٨٩٣ / ١٣١١هـ:** وُلِد في القاهرة، ودخل مدرسة قصر العيني سنة ١٨٤٤ أقام فيها ٤ سنوات، ثم أرسلته الحكومة إلى مدرسة مونيخ تلقى العلوم الطبية فيها، ونال شهادتها مع تفوق على الأقران، وأتم اختباراته الطبية في فينا، وعاد إلى مصر، وما زال يرتقي من جراح في فرقة المدفعية إلى رئيس مدرسة الطب، ورئيس مجلس الصحة، وطبيب الخديوي الخاص، ونال شهرة واسعة، وهاك أهم مؤلفاته، وأكثر مصادره ألمانية:

(أ) وسائل الابتهاج إلى الطب الباطني والعلاج: طُبِع سنة ١٢٩٨هـ في ٤ مجلدات.
(ب) دليل المحتاج في الطب والعلاج.
(جـ) الينابيع الشفائية والمياه المعدنية: طُبِع سنة ١٣٠٠هـ. غير مقالاته في المجلات الطبية.

(٧) **مصطفى أبو زيد:** معلم أمراض النساء والأطفال في مدرسة الطب، توفي سنة ١٨٩٨، له كتاب صياغة المنحة في قانون الصحة.

(٨) **جليلة تمرهان توفيت سنة ١٨٩٩ / ١٣١٧هـ:** هي حبشية الأصل، دخلت والدتها مدرسة القوابل لتلقي علم القبالة فيها؛ لأن الوطنيات نفرن من تعلُّمها، ولما ماتت خلفتها ابنتها جليلة، وقد تعلمت القبالة، وارتقت فيها حتى صارت تعلمها في المدرسة المذكورة، وألفت في هذا الفن كتاب محكم الدلالة في أعمال القبالة، طُبِع سنة ١٢٨٦هـ، وهو منقول عن كتاب إفرنجي، ونُشِر في مجلة اليعسوب.

(٩) **علي بك رياض الصيدلي توفي سنة ١٨٩٩ / ١٣١٧هـ:** تعلم الصيدلة في مصر، وأتقنها في أوربا، وتولى تعليم الأقرباذين والكيمياء الأقرباذينية وعلم السموم وغيرها، وتولى التدريس أيضًا في المهندسخانة، وكان حكيمباشي الإسبتالية في قصر العيني، وخلف الكتب الآتية:

(أ) النفحة الرياضية في الأعمال الأقرباذينية: طُبِع سنة ١٢٨٩هـ.
(ب) الأزهار الرياضية في المادة الطبية: طُبِع سنة ١٢٩٧هـ.
(جـ) التوفيقات الإلهية في التاريخ الطبيعي: طُبِع بعضه سنة ١٢٩٨هـ.

(١٠) **محمد بك قطاوي توفي سنة ١٩٠٠:** تولى تعليم الباثولوجيا في مدرسة الطب، وأدار المدرسة حينًا، وله من المؤلفات: الأقوال التامة في علم الباثولوجيا العامة في جزئين، الأول في الأمراض، والثاني في التشخيص، لم يُطبَعا، ويمكن الوقوف عليهما عند التلاميذ الذين تلقوا هذا العلم عليه.

وهناك جماعة من علماء الطب صنفوا فيه مؤلفات عربية لم نقف على وفياتهم منهم:

(١١) **عبد الهادي إسماعيل:** معلم البيطرة في المدرسة الحربية، ألف كتاب العجالة البيطرية لإرشاد الضباط السواري والطوبجية، طبع بمصر سنة ١٢٩٠هـ.

(١٢) **منصور أحمد:** خوجة الكيميا بمدرسة المهندسخانة المصرية، له كتاب عمدة المتطببين في فن الصيدلة والأقرباذين، طُبِع سنة ١٢٨٣هـ في مجلدين.

(١٣) **محمد باشا الدري توفي سنة ١٩٠٠/١٣١٨هـ:** وُلِد في القاهرة سنة ١٨٤١/١٢٥٧هـ، وكان أبوه عبد الرحمن أحمد ملحقًا بالدكتور كلوت بك، وأما ابنه محمد فأدخله مدرسة المبتديان المعروفة بمدرسة الناصرية حتى ألغاها عباس باشا الأول، ودخل مدرسة الهندسة، ووجد في نفسه ميلًا إلى الطب فاغتنم الفرصة ودخل مدرسته، وبعد عناء وشقاء أتم الطب، وتعين معيدًا للجراحة، وسار في إرسالية إلى باريس لإتقان الطب بأمر سعيد باشا، وفي السنة التالية توفي سعيد وخلفه إسماعيل، فاستقدم الإرسالية وفيها محمد الدري، وعادت النهضة إلى مدرسة الطب، فأكبَّ على العلم والعمل، وعُيِّن معلمًا للتشريح فيها، وما زال في هذا المنصب حتى تبدلت قوانين المدرسة، وصار التعليم بالإنكليزية، فاعتزل العمل حتى توفاه الله سنة ١٩٠٠، وهو من خيرة الأطباء علمًا وعملًا، وله شهرة طائرة في الجراحة بنوع خاص، وكان له كلف بالعلم، وقد أحرز في منزله معدات طبية تشريحية وغيرها، ومطبعة خاصة،[٤] وقد خلف مؤلفات هامة هي:

(أ) رسالة في الهيضة الوبائية: وفيها وصف الهيضة، وطرق معالجتها بالأدوية البسيطة.

(ب) بلوغ المرام في جراحة الأقسام: مطول في الجراحة، مزيَّن بالرسوم والأشكال، ظهر منه ثلاثة مجلدات ضخمة، طُبِعت كلها في مطبعته، والرابع كان عند وفاته تحت الطبع.

(جـ) التحفة الدرية في مآثر العائلة المحمدية العلوية: جاء فيه على خلاصة تراجم أعضاء الأسرة الخديوية مع رسومهم، ورسوم أنجالهم.



محمد باشا الدري.

(د) تذكار الطبيب: طُبِع مرتين أخيرتهما سنة ١٣١٣هـ، يشتمل على التذاكر الطبية التي كان يصفها مشاهير أطباء قصر العيني، صفحاته ٤٣٦ صفحة، ويسهل حمله في الجيب.

(هـ) ترجمة حياة علي باشا مبارك: استخرجه من الخطط التوفيقية، وطبعه في مطبعته سنة ١٣١١هـ.

(و) الإسعافات الصحية: في الأمراض الوبائية الطارئة على مصر، طُبِع سنة ١٣٠٠هـ.

(١٤) **الدكتور محمد بك بدر توفي سنة ١٩٠٢ / ١٣٢٠هـ:** عائلته من زاوية البقلي مثل عائلة الدكتور محمد علي المتقدم ذكره، تعلم مبادئ القراءة في بلده، ثم نقل إلى مصر، وتنقل في مدارسها المختلفة، وتلقى علومها على اختلاف المواضيع، ثم دخل مدرسة الطب وهو في شوق إلى هذا العلم، وألغيت تلك المدرسة في أيام عباس الأول، ثم أعيدت وأعيد إليها مع عشرين من الرفاق، واختير مع ٤ من التلاميذ لإتقان فن الطب في بلاد الإنكليز، فأعجب أساتذته بذكائه، وأرادوا استبقاءه هناك فلم يقبل، فعاد إلى مصر سنة ١٨٥٥ / ١٢٧٢هـ، فعيَّنه سعيد باشا حكيمًا للمعية، وجعل يترقى في الرتب والمناصب

حتى تعين معلمًا في قصر العيني في مواضيع مختلفة، واستقر أخيرًا على تعليم المادة الطبية، وكان ذا منزلة رفيعة لدى إسماعيل، واشتغل بالتأليف فألَّف:

(أ) الفرائد الدرية في علم الشفاء والمادة الطبية: طُبِع سنة ١٣٠٧هـ.
(ب) الدرر البدرية النضيدة في شرح الأدوية الجديدة: طُبِع سنة ١٣١٠هـ.
(ج) الصحة التامة والمنحة العامة: طُبِع بعضها سنة ١٢٩٦هـ.

(١٥) **أحمد بك حمدي الجراح توفي سنة ١٩٠٣ / ١٣٢١هـ:** هو نجل الدكتور محمد علي باشا البقلي، ونشأ على حب الجراحة مثل أبيه، تعلم في مدرسة قصر العيني، وأتقن الطب في باريس، وعاد إلى مصر سنة ١٨٦٩، وتعين معلمًا للعمليات الجراحية وأبوه لا يزال حيًّا، ثم تقلب في مناصب مختلفة في خدمة الحكومة، واقتدى بأبيه في التأليف، وهاك مؤلفاته حسب ظهورها:

(أ) تحفة الحبيب في العمليات الجراحية والأربطة والتعصيب: اسمه يدل على موضوعه، طبع سنة ١٢٩٦هـ.
(ب) الراحة في أعمال الجراحة: مزيَّن بالأشكال، طبع سنة ١٢٩٧هـ.
(ج) جريدة المنتخب: مجلة طبية ظهرت سنةً واحدةً ١٢٩٧هـ.
(د) التحفة العباسية في الأمراض التصنعية: طبع سنة ١٣١١هـ.

(١٦) **حسن باشا محمود توفي سنة ١٩٠٦ / ١٣٢٤هـ:** وُلِد في الطالبية بضواحي القاهرة، وتلقى مبادئ العلم في المدرسة الحربية، وفي سنة ١٨٦٢ أرسلت الحكومة إرسالية علمية إلى ألمانيا، وصاحب الترجمة في جملتها للتفقه في الطب.

ولما عاد سنة ١٨٧٠ تعين أستاذًا للتشريح في مدرسة قصر العيني، ثم تولى تدريس علوم أخرى، وأخيرًا صار رئيسًا لمدرسة الطب، وكان كثير التفكير في مصلحة بلاده، فأنشأ مجمعًا طبيًّا لم يطل بقاؤه، وخلف مؤلفات بينها رسائل عديدة هاك أهمها:

(أ) الاستكشاف العصري في الدمل المصري: طبع سنة ١٢٩٠هـ.
(ب) الفوائد الطبية في الأمراض الجلدية: طبع سنة ١٢٩١هـ.
(ج) ينبوع شفاء الأبدان في حمامات حلوان: طبع سنة ١٢٩٤هـ.
(د) الرمد الصديدي: للدكتور دوتريو الكحال، طبع سنة ١٢٩٥هـ.
(هـ) البواسير ومعالجتها: طبع سنة ١٢٩٥هـ.



حسن باشا محمود.

(و) رسالة في حمى الدنج: طبعت سنة ١٢٩٩هـ.
(ز) رسالة في الهيضة بالإفرنجية: طبعت سنة ١٨٨٣.
(ح) تحفة السامع والقاري في مرض الطاعون الساري: طبع سنة ١٨٨٣هـ.
(ط) الخلاصة الطبية في الأمراض الباطنية: طبع سنة ١٨٩٢.

(١٧) **عبد الرحمن بك الهراوي توفي سنة ١٩٠٦:** هو من أساتذة مدرسة الطب المصرية، تعلم فيها وتفقه في أوربا، وعاد سنة ١٨٥٣، وعُيِّن معلمًا للفسيولوجيا وأمراض الجلد، وصار وكيلًا لرئاسة المدرسة سنة ١٨٨٠، وخلف كتابًا في الفسيولوجيا لم يطبع.

(١٨) **الدكتور سليمان نجاتي:** وكيل المدرسة العسكرية بالعباسية، توفي سنة ١٩٠٧، ودرس الطب في قصر العيني وأتمه في أوربا، وعاد إلى مصر سنة ١٨٨٥، فتعين مفتش صحة للسجون، ثم تعين مدرسًا للأمراض العقلية، وألف فيها كتابًا سماه: أسلوب الطبيب في فن المجاذيب، طبع سنة ١٨٩٢.

(١٩) **الدكتور شاكر الخوري:** الطبيب الرمدي في بيروت، توفي سنة ١٩١٣، هو من تلاميذ المدرسة الطبية المصرية، وأقام في بيروت واشتهر فيها، وخلف آثارًا مفيدة منها:

(أ) تحفة الراغب في صحة المتزوج وزواج العازب: طبع في بيروت سنة ١٨٨٩، وهو من الكتب السرية المفيدة للشاب وللشابة.

(ب) كتاب صحة العين: طبع بمصر سنة ١٨٩٧.

(ج) مذكرات جمع فيها ما مر به من الأحوال، وما جرى له من النكات ونحو ذلك، طبع في بيروت سنة ١٩٠٥.

رابعًا: المحررون

الفرق بين التحرير والتصحيح

يستعمل أكثر الكتَّاب لفظ المحرر بمعنى الكاتب، فيقولون المحرر في جريدة كذا، ويريدون الكاتب، وهذا المعنى تولَّد بالاستعمال، وأما التحرير في الأصل فهو الإصلاح والتقويم، فيقولون حرر الكتاب أيْ قوَّمه وحسَّنه وخلصه بإقامة حروفه وإصلاح سقطه، والمحرر الذي يقوم بذلك.

ولما أراد محمد علي نقل العلوم الحديثة إلى العربية كان أكثر النقلة لا عناية لهم في اللغة العربية، وأكثر علماء اللغة لا معرفة لهم باللغات الأجنبية، فاحتاج إلى من يحرر الكتب المنقولة ويهيئها للطبع، وهو غير المصحح الذي يتولى تصحيح الكتاب في أثناء الطبع؛ لأن المحررين يشترط فيهم معرفة العلم الذي يعهد إليهم تحريره، وفهم مصطلحاته العلمية وغير ذلك، فضلًا عن معرفة اللغة، أما المصححون فيكفي فيهم معرفة قواعد اللغة وشواردها لضبط العبارات حسب القواعد، ولما كانت الكتب التي أريد نقلها يومئذٍ علمية فنية لها مصطلحات خصوصية، كانت الحاجة ماسة إلى محررين يفهمون مصطلحاتها، ويعرفون مظانها.

فكانوا إذا فرغ المترجم من نقل كتاب في الطب أو غيره دفعوه إلى المحرر فيقرأه — والغالب أن يُفعَل ذلك مع المترجم أو المؤلف إذا كان موجودًا، وإلا فينوب عنه عالم في ذلك الفن يعرف اللغة الأصلية المنقول عنها، وكثيرًا ما كان يتولى ذلك أحمد حسن الرشيدي لعلمه وعلو همته، أو الدكتور برون بك؛ لأنه يعرف العربية فضلًا عن اللغات الأخرى، وقد يفعل ذلك رفاعة بك، أو بعض تلاميذ مدرسة الألسن التي أنشأها محمد

علي لهذه الغاية، وإن كان أكثر اشتغال هؤلاء في الرياضيات والتاريخ والعلوم الأدبية — فيكون المحرر على بينة من معاني الألفاظ في اللغة الأصلية، ويضع الألفاظ الملائمة لها في العربية، فإذا فرغ من ذلك بيضوا الكتاب، ودفعوه إلى المطبعة، فيصير أمره موكولًا إلى المصححين لقراءة المسودات وتنقيحها قبل الطبع.

على أن المحررين كانت الحاجة ماسة إليهم بالأكثر في أوائل هذه النهضة على عهد محمد علي، ثم أخذوا يستغنون عنهم بالتدريج بعد أن استقرت المصطلحات العلمية كما وضعها المحررون الأولون، وهم أصحاب الفضل الأول على هذه النهضة من حيث وضع المصطلحات، وإمام هذه الطائفة السيد محمد عمر التونسي صاحب معجم المصطلحات العلمية الآتي ذكره. والمحررون بالمعنى المراد هنا قليلون، وقد تعاصروا في زمن محمد علي، وإليك أشهرهم على حسب الأقدمية:

(١) **محمد عمران الهراوي:** توفي في أواسط القرن التاسع عشر. هو أقدم محرري الكتب في هذه النهضة، لم نقف له على أخبار كثيرة من حيث أصله وترجمة حاله، لكنه طبعًا من تلاميذ الأزهر؛ لأنهم أوثق الثقات في علوم تلك الأيام وخصوصًا اللغة، وقد حرر أول كتاب من كتب الطب المترجمة في هذه النهضة، نعني كتاب القول الصريح في علم التشريح تأليف كلوت بك، وترجمة يوحنا عنحوري، طُبِع في أبي زعبل سنة ١٢٤٨هـ، وحرر أيضًا كتاب العجالة الطبية في ما لا بد منه لحكماء الجهادية تأليف كلوت بك، وترجمة أوغسطين سكاكيني، طُبِع في مطبعة أبي زعبل سنة ١٢٤٩هـ، وهو الكتاب الثاني من مطبوعاتها، وحرر كثيرًا من ترجمات عنحوري، والمدرسة لا تزال في أبي زعبل، وظل على عمله بعد انتقالها إلى قصر العيني.

(٢) **مصطفى حسن كساب:** كان معاصرًا للهواري، وقد نقح كثيرًا من الكتب التي طُبِعت في صدر هذه النهضة من ترجمات فرعون ومحمد عبد الفتاح، وكثيرًا ما كان يقابل الترجمات على الأصل بوجود أحد العلماء في الفن المنقول، وقد حرر كتب: غاية المرام، ونزهة المحافل، ونزهة الرياض، وقانون الصحة وغيرها، والغالب أنه توفي قبل التونسي الآتي ذكره.

(٣) **محمد عمر التونسي:** توفي سنة ١٨٥٧ / ١٢٧٤هـ، هو محمد بن عمر بن سليمان التونسي، كان من المبرزين في معرفة اللغات والمصطلحات العلمية، وُلِد في تونس سنة ١٢٠٤هـ، وأمه مصرية حملت به في مصر، وكان أبوه عمر التونسي مجاورًا في الأزهر، فتزوج من مصر، وكان جده سليمان من أشراف تونس، وقد فصَّل محمد عمر هذا

تاريخ أسرته في رحلته الآتي ذكرها، وذكر فيها سفره إلى السودان، فلما عاد منها وقد ضاقت أحواله عكف على تحصيل العلم، ومحمد علي فى إبان نهوضه، وقد أخذ في إحياء مصر، وأوجد مجالًا لأصحاب المواهب، فأخذ محمد التونسي في الدرس حتى تمكن من أن يكن واعظًا في خدمة إبراهيم باشا في حملته إلى المورة.

ولما عاد من تلك الحملة كانت قد أنشئت مدرسة أبي زعبل، وأخذوا في نقل كتب الطب وغيرها، فتعين مصححًا للكتب فيها، وارتاح الدكتور برون بك إلى أدبه، فقرأ عليه كتاب كليلة ودمنة في اللغة العربية، وأخذت مواهبه تظهر في التحرير والتصحيح، وامتاز عن سائر أقرانه المصححين بمعرفة المصطلحات العلمية باللغة العربية، فكانوا يرجعون إليه في تحقيقها، ويسمونه «مصحح كتب الطب ومحررها»، فكانوا إذا نقلوا كتابًا في أوائل إنشاء المدرسة الطبية يرون مشقة في إيجاد الألفاظ الوضعية العربية الملائمة للألفاظ الإفرنجية الموجودة في الكتاب المترجَم، فيرجعون إليه في تحرير الكتب الهامة، وكان ماهرًا في صياغة الألفاظ والمعاني في قالب عربي، فيعولون عليه في ذلك، كما فعلوا في تنقيح كتاب الدرر الغوال في علم أمراض الأطفال تأليف كلوت بك، فقد نقله الدكتور محمد الشافعي من الفرنساوية إلى العربية، ثم عرضوه قبل الطبع على محمد التونسي فنقحه وحرره، وكذلك فعل في كتاب كنوز الصحة تأليف كلوت بك، والجواهر السنية في الكيمياء لبرون بك، وقد تعب في تحرير مصطلحات هذا العلم على الخصوص، وحرر كتاب النبات لفيجري بك، وله مآثر كثيرة، وهاك أهم مؤلفاته:

(أ) الشذور الذهبية في الألفاظ الطبية: وهو معجم للمصطلحات العلمية على اختلاف مواضيعها، قال في مقدمته ما خلاصته: «لما كثرت ترجمات الكتب الطبية رأيت أن أؤلف قاموسًا جامعًا للمصطلحات، وكان كلوت بك قد أتى بكتاب فرنساوي في المصطلحات الطبية والعلمية، وأوعز إلى مهرة المعلمين بترجمته وهم: إبراهيم النبروي معلم الجراحة الكبرى، ومحمد علي البقلي معلم الجراحة الصغرى، ومحمد الشافعي معلم الأمراض الباطنية، ومحمد الشباسي معلم التشريح الخاص، وعيسوي النحراوي معلم التشريح العام، والسيد أحمد الرشيدي معلم الأقرباذين والمادة الطبية، ومصطفى السبكي معلم أمراض العين، وحسنين علي معلم النبات، فترجم كل منهم الجزء الذي أُعطِيه، فأوعز إليَّ الدكتور برون ناظر المدرسة أن آخذ من الكتاب كل لفظ يدل على مرض، أو عرض، أو نبات، أو معدن، أو حيوان، أو غير ذلك من الاصطلاحات، وأن أستخرج ما في القواميس من التعاريف، وما جاء في تذكرة داود، وما في فقه اللغة وغيره من المعاجم أو كتب

اللغة، ففعلت ذلك، وأضفت إليه أسماء العقاقير، وأسماء الأطباء المشهورين، ورتبته على حروف المعجم ... إلخ».

فهو معجم للمصطلحات الطبية والأطباء، وقد أسند لكل مؤلف ما التقطه منه، فجاء كتابًا في نحو ٦٠٠ صفحة متوسط الحجم، وهو من الذخائر النفيسة، وقد حُمِل إلى باريس، وفي المكتبة الخديوية نسخة منقولة بالفوتوغراف عن نسخة باريس، وقد أقرت نظارة المعارف على طبعها في جملة كتب إحياء الآداب العربية.

(ب) تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان: هي رحلة يصف بها سفره إلى السودان، وقد ذكر ما شاهده في طريقه من واحات مصر إلى دارفور ووادي، وهي عظيمة الفائدة، وفي الخطط التوفيقية (ص٣٣ ج١٧) قطعة منها في وصف الواحات، والرحلة المذكورة طُبِعت في باريس مع ترجمة فرنساوية سنة ١٨٥١، وعلق عليها سديليو مقالة في المجلة الأسيوية.

خامسًا: المصححون

المصححون في هذه النهضة كثيرون، وأكثرهم لم تُذكَر أسماؤهم على الكتب التي صححوها، لكن طائفة من كبارهم نبغوا حتى اقتربوا من المحررين، هاك أشهرهم:

(١) **إبراهيم الدسوقي:** رئيس مصححي المطبعة الأميرية — توفي سنة ١٨٨٣/ ١٣٠٠هـ، هو أشهر المصححين العاملين في تلك النهضة، وما زال عاملًا فيها من أوائل أيام محمد علي إلى أواخر أيام إسماعيل، وُلِد سنة ١٢٢٦هـ في دسوق، وانتقل إلى الأزهر، فتلقى العلم فيه حتى صار أهلًا للتدريس، وكان مطَّلِعًا على الأدب يقرض الشعر، ولم يطل تدريسه بالأزهر، فلما احتاج محمد علي إلى المصححين اختاروه لتصحيح الكتب الطبية في مدرسة أبي زعبل سنة ١٢٤٨هـ مع الشيخ محمد عمران الهراوي المتقدم ذكره، وقد تمرن هناك على معرفة المصطلحات العلمية، ثم نُقِل إلى مدرسة المهندسخانة، وقد أتقن التصحيح فجعلوه رئيس المصححين فيها، فصحح كثيرًا من الكتب الرياضية، ولما استحالت هذه المدرسة في أول ولاية عباس الأول إلى مدرسة أخرى قريبة منها تعين لتعليم العربية، وضبط النقل من الفرنساوية إلى العربية، وتصحيح الكتب الرياضية، ولما ألغيت هذه المدرسة في زمن سعيد باشا تعين للتصحيح في مطبعة بولاق، فصحح عدة كتب طبية وكيماوية، وكان يساعد في تحرير الوقائع المصرية، واشترك في تحرير

مجلة اليعسوب الطبية، وارتقى في عهد إسماعيل إلى رئاسة التصحيح لعموم الكتب في تلك المطبعة، ثم أحيل على المعاش حتى توفي سنة ١٣٠٠هـ، وكانت له معرفة جيدة في المصطلحات العلمية اكتسبها بالمزاولة، وكثيرًا ما كان يعمل عمل المحررين، وعليه درس المستشرق لين الإنكليزي اللغة العربية.

مصححون آخرون

وهناك طائفة من المصححين عاصروا الدسوقي أشهرهم:

(٢) **الشيخ محمد محرم:** كان مصححًا في أبي زعبل، وصحَّح بعض مؤلفات النبراوي.

(٣) **الشيخ حسين عبد اللطيف الأسنوي:** كان من جملة المصححين الذين عُيِّنوا لمدرسة الطب في رئاسة محمد علي البقلي على عهد إسماعيل، وكان يصحح التشريح.

(٤) **الشيخ خليل حنفي:** يُعرَف بمصحح العلوم الطبية، وله معرفة بالمصطلحات العلمية.

غير المصححين الذين يعينونهم إذا عقد العزم على تأليف كتاب أو ترجمة.

فالتحرير والتصحيح كانا بالغين أقصى العناية لشدة الحاجة إليهما في صدر هذه النهضة، ولم يكن ذلك قاصرًا على كتب الطب والصيدلة وغيرهما من العلوم الطبيعية، لكنه كان يتناول سائر العلوم المنقولة في الرياضيات، وغيرها مما سيأتي الكلام عليه.

(١-٢) نقل الرياضيات وما يتبعها في مصر

فرغنا من الكلام في نقل العلوم الطبيعية والطبية في هذه النهضة بمصر، فننتقدم إلى الكلام عن نقل العلوم الرياضية والميكانيكيات والفلك ونحوها، وهي من العلوم التي نقلناها عن أصحاب المدنية الحديثة بشكل حديث يختلف عما كان عند أسلافنا العرب، ولذلك عددناها من العلوم الدخيلة، وقد نبغ من علماء هذه الفنون طائفة حسنة من المعلمين والمهندسين والمترجمين والمؤلفين وغيرهم، وأكثرهم من تلاميذ مدرسة الهندسة أو مدرسة الألسن، وقد أتقنوها في الخارج، لو أردنا ذكرهم لطال المجال، فنكتفي بالذين خلفوا آثارًا يُستفاد منها — على عادتنا في هذا الكتاب — ونرتب التراجم حسب الوفاة من أول هذه النهضة إلى الآن:

(١) **محمد بيومي توفي سنة ١٨٥١ / ١٢٦٨هـ:** وهو من تلاميذ الإرسالية العلمية الأولى، وترى اسمه مذكورًا في القائمة بباب المدارس من هذا الجزء، ولما عاد إلى مصر تقلد مناصب مختلفة حتى صار معلمًا في المهندسخانة، واشتغل بترجمة الكتب في الفن الذي أتقنه هناك، وقد توفي في الخرطوم سنة ١٢٦٨هـ. وهاك ترجماته:

(أ) ثمرة الاكتساب في علم الحساب: عربه عن الفرنساوية، طبع سنة ١٢٥٦هـ.
(ب) كتاب الجبر والمقابلة: طبع سنة ١٢٥٦هـ.
(جـ) الهندسة الوصفية: في مجلدين طبع سنة ١٢٦٣هـ.
(د) جامع الثمرات في حساب المثلثات: ترجمه بأمر مدير المدارس، وطبع سنة ١٢٦٤هـ.

(٢) **إبراهيم رمضان:** كان مدرسًا في مدرسة المهندسخانة، وله من المؤلفات الرياضية:

(أ) القانون الرياضي في تخطيط الأراضي: طبع سنة ١٢٦٠هـ.
(ب) اللآلي البهية في الهندسة الوصفية: طبع سنة ١٢٦١هـ.
(جـ) المنحة اللدنية في الهندسة الوصفية: طبع سنة ١٢٦٩هـ.
(د) النقطة والمستقيم.
(هـ) كتاب قطع الأحجار.

(٣) **بهجت باشا توفي سنة ١٨٦٧ / ١٢٨٤هـ:** أصله ألباني، واسم والده علي أغا الأرنؤطي، تزوج بمصر، فولد له بهجت سنة ١٢١٨هـ، فتعلم مبادئ العلم في مصر وسافر سنة ١٢٤١هـ إلى باريس، وأقام فيها عشر سنين فأتقن العلوم الرياضية والفنون الهندسية، وعاد مع مختار بك ومظهر باشا ورفاعة بك وغيرهم من أبناء هذه الإرسالية، وتولى نظارة قصر العيني سنتين، وانتقل إلى المدرسة الطوبجية، وتولى سنة ١٢٥٦هـ نظارة ديوان المدارس، وانتُدِب لعمل خريطة جفالك نبروه، وهو يرتقي ويتقدم، ثم عُهِد إليه في الاشتراك مع موجيل بك في بناء القناطر الخيرية، وتولى أعمالًا هندسية هامة من الجسور والترع والقناطر وغيرها، لكنه لم يخلف أثرًا مكتوبًا غير الخرائط، وأكثرها موجود في نظارة الأشغال.

(٤) **علي عزت:** المدرس للعلوم الرياضية في المهندسخانة، توفي سنة ١٨٧٢ / ١٢٨٩هـ، له الخلاصة العزية في تهذيب الأصول الحسابية، طبع سنة ١٢٨٥هـ.

(٥) **محمد عصمت:** توفي في أواسط القرن التاسع عشر، هو من نَقَلَةِ العلم الرياضي إلى العربية، لكنه يمتاز بمعرفة اللغة التركية، وكان يترجم منها إلى العربية، وقد فعل ذلك بترجمة كتاب الأصول الهندسية، الذي طُبِع في بولاق سنة ١٢٥٥هـ بأمر أدهم باشا مدير عموم المهمات؛ وذلك أن الكتاب نُقِل أولًا من الفرنساوية إلى التركية، ثم أمر أدهم باشا أن ينتخب ١٢ نحريرًا من أوردي الرجال، فاختاروهم ومحمد عصمت منهم، فأمره بترجمة هذا الكتاب ففعل.

(٦) **أحمد فايد بك:** توفي سنة ١٨٨٢ / ١٣٠٠هـ، وهو من كبار أساتذة المهندسخانة الخديوية بأواسط القرن الماضي، كان يعلم فيها الطبيعة والكيمياء، وارتقى حتى صار وكيلها، وله مؤلفات في الهندسة والسوائل، وأهمها:

(أ) الأقوال المرضية في علم بنية الكرة الأرضية: ترجمها بأمر ناظر المهندسخانة أدهم بك، طبعت سنة ١٢٥٧هـ.

(ب) تحرك السوائل، سنة ١٢٦٤هـ.

(ج) الدرة السنية في الحسابات الهندسية، سنة ١٢٦٩هـ.

(٧) **عامر سعد:** مدرس الرياضيات بالمدارس الحربية، له:

(أ) المنحة الزهرية في الأعمال الجبرية، طبع سنة ١٢٦٩هـ.

(ب) أحسن الوسائل لتصريف السوائل، سنة ١٢٩١هـ.

(٨) **أحمد دقلة:** له رضاب الغانيات في حساب المثلثات، طبع سنة ١٢٥٩هـ.

(٩) **السيد عمارة:** كان في قلم ترجمة ديوان المدارس، له: تهذيب العبارات في فن المساحات، نقله عن الفرنساوية بأمر رفاعة بك.

(١٠) **محمد الشيمي، له:**

(أ) إفاضة الأذهان في رياضة الصبيان، طبع سنة ١٢٥٩هـ.

(ب) كشف النقاب عن علم الحساب، طبع سنة ١٢٦٦هـ.

(١١) **أحمد نجيب:** خوجة رياضة بمدرستَيْ أركان حرب والطوبجية، له: التحفة البهية في الهندسة الوصفية سنة ١٢٩٠هـ.

(١٢) **حسين علي الديك:** له كتاب عدة الحاسب وعمدة الكاتب، في الحساب ومسك الدفاتر الديوانية، طبع سنة ١٢٨٦هـ.

(١٣) **محمود باشا الفلكي توفي سنة ١٨٨٥ / ١٣٠٣هـ:** هو أكثر علماء الرياضيات آثارًا مكتوبة، نبغ في عصر إسماعيل، وقد ولد سنة ١٨٠٥هـ في بلدة اسمها الحصة في الغربية، وتعلم في مدرسة الإسكندرية، وانتقل منها إلى غيرها من المدرس الأميرية، وفيه ميل خاص إلى الرياضيات، فأرسلته الحكومة إلى أوربا سنة ١٨٥١ لإتقان هذه الفنون، ولما عاد أخذ في العمل فتولى التدريس في المهندسخانة، وكلفته الحكومة بوضع خريطة للقطر المصري، وهو أول من فعل ذلك من المصريين، ولا تزال خريطته من أحسن الخرائط وعليها العول، وقد ناب عن الحكومة المصرية في المجمع الجغرافي سنة ١٨٧٥ و١٨٨١، وتقلب في مناصب مختلفة إلى الوزارة، فتولى نظارة الأشغال سنة ١٨٨٢، ثم نظارة المعارف، وترأس الجمعية الجغرافية الخديوية، وهاك أهم مؤلفاته، بعضها في الفرنساوية، وبعضها في العربية:

(أ) الخريطة المتقدم ذكرها.

(ب) رسالة في التقاويم الإسرائيلية الإسلامية: طبعت سنة ١٨٥٥، أثبت فيها ابتداء تاريخ اليهود.

(جـ) رسالة في الحالة الحاضرة للمواد المغناطيسية الأرضية بباريس وضواحيها.

(د) التقاويم العربية قبل الإسلام: طبع سنة ١٨٥٨، بحث فيها عن ولادة صاحب الشريعة الإسلامية، فوجد أنها وقعت في ٩ ربيع أول الموافق ٢٠ أبريل سنة ٥٧١ للميلاد.

(هـ) رسائل مختلفة في الكسوف الكلي الذي ظهر في دنقلة سنة ١٨٦٠، وفي وصف الإسكندرية القديمة، والإيضاح عن أعمار الأهرام، والتنبؤ عن ارتفاع النيل، وضرورة إنشاء مرصد بمصر، ومقياس مصر ومكيالها، ومقابلة ذلك بالأقيسة الفرنساوية، ومشابهة كان الناقصة بفعل Avoir الفرنساوي، وغير ذلك.[٥]

(١٤) **شفيق بك منصور يكن توفي سنة ١٨٩٠ / ١٣٠٨هـ:** هو من نوابغ الناشئة المصرية، وُلِد في القاهرة سنة ١٨٥٦، وأبوه منصور باشا يكن، تفقه في المدارس المصرية، وأتقن اللغات العربية والفرنساوية والتركية على أساتذة مخصوصين، وسافر إلى أوربا غير مرة، وكان فيه ميل إلى الرياضيات، وله في مسائلها رسائل عديدة في المقتطف، ومال أيضًا إلى القضاء فتعلمه في أوربا، وعاد إلى مصر سنة ١٨٨٣، فتعين وكيلًا للنائب العمومي، ثم تنقل في مناصب القضاء إلى رئاسة الاستئناف.



شفيق بك منصور.

وهو في أثناء ذلك يشتغل بالرياضيات، فألَّف فيها كتبًا تعليمية في التفاضل والتكامل، ومبادئ الحساب والجبر والهندسة، والقوسموغرافيا باقتراح الحكومة لأجل تعليمها في مدارسها، ونقل بعض الكتب إلى التركية، وله رسائل في الفرنساوية.[٦]

(١٥) صادق شنوان توفي سنة ١٨٩٥ له:

(أ) النخبة السنية في الأصول الهندسية، طبع سنة ١٣٠٣هـ.
(ب) عمل الدواوين المتواتر في بيان رسوم الدفاتر، طبع سنة ١٢٩١هـ.

(١٦) مختار باشا المصري توفي سنة ١٨٩٧ / ١٣١٥هـ: وُلِد في بولاق سنة ١٨٣٥، وتفقه في المدارس العسكرية، وانتظم في خدمة الجيش حتى ارتقى إلى رتبة لواء سنة ١٨٦٦، وتولى عدة مناصب في السودان، وفي نظارة الحربية، والمعية السنية وغيرها، وكان كثير الاشتغال في الرياضيات والفلك، وهاك أهم مؤلفاته:

(أ) التوفيقات الإلهامية: هو تقويم كبير لمقارنة السنين الهجرية بالإفرنجية والقبطية، من السنة الأولى للهجرة إلى سنة ١٥٠٠هـ، وبجانب كل سنة أهم ما حدث فيها.



مختار باشا المصري.

(ب) المجموعة الشافية في علم الجغرافية.

(ج) جداول تحويل المسطحات المترية.

(د) ترجمة حال محمود باشا الفلكي.

(ﻫ) سيرة الجنرال ستون الأميركاني.

(و) مختصر في كيفية حساب التقويم وأوقات الصلاة.

(ز) رسائل عديدة بالفرنساوية في مواضيع مختلفة عن زيلع، والسودان الشرقي، وتحويل المقاييس. وله اختراع هام للمسلمين هو دليل القبلة الإسلامية العام.[٧]

(١٧) **إسماعيل باشا الفلكي توفي سنة ١٩٠١ / ١٣١٩هـ:** تفقه في باريس، وكلفته الحكومة درس الميكانيك العلمي لأجل آلات الرصد لما قد يلزم من الإصلاح، ودرس الرصد في مرصد باريس، وتولى المرصد الفلكي في مصر، وأهم مؤلفاته:

(أ) الآيات الباهرة في النجوم الزاهرة: في الفلك، طبع ذيلًا لمجلة روضة المدارس.
(ب) الدرر التوفيقية: طبعت نظارة المعارف الجزء الأول منه.
(ج) تقاويم فلكية كان ينشرها كل عام بالعربية والفرنساوية، عليها معول الحكومة المصرية في ضبط حساباتها.

وهناك طائفة من رجال الرياضيات لم تصلنا أخبارهم وافية، منهم: أحمد نظيم بك المتوفى نحو سنة ١٩١٠ صاحب كتاب التحفة البهية في الأصول الهندسية.

ومن كبار الرياضيين الذين لا يزالون على قيد الحياة: صابر باشا صبري مدرس الهندسة الوصفية بالمهندسخانة، وله:

(أ) البراعة المشرقية في علم الهندسة الوصفية، طبع سنة ١٣٠٠هـ.
(ب) بلوغ الآمال في المنحنيات كثيرة الاستعمال، طبع سنة ١٣٠٠هـ.

(١-٣) نقل العلوم الحربية بمصر

قد رأيت أن محمد علي كان همه الأول في هذه النهضة منصرفًا إلى تنظيم الجند على الطرز الحديثة، فأنشأ المدرسة الحربية قبل سواها من المدارس، وأنفذ جماعة لتعليم الفنون الحربية في أوربا ليكونوا ضبَّاطًا للفِرَق، وأشهر من أرسلهم لهذه الغاية بهجت باشا، ومظهر باشا، وعلي باشا إبراهيم، لكنهم لم يؤلفوا في هذه الفنون، فاحتاج إلى نقل العلوم اللازمة للجندية، فاستعان بالمترجمين لنقل تلك الكتب من الفرنساوية والإنكليزية والتركية وغيرها، مما يحتاج إليه الجند للنظام الداخلي، أو الحركات العسكرية، أو بناء الحصون، أو رمي القنابل ونحوها، وعهد بذلك إلى المترجمين، وكانوا في أول الأمر يلقنونها للجند، وقلما يطبعونها، وإذا طبعوها لا يذكرون عليها اسم مؤلفها أو مترجمها، كذلك فعلوا بقانون تعليم العساكر الجهادية المشاة المطبوع سنة ١٢٥٣هـ، وتعليم النفر

والبلك المطبوعة سنة ١٢٦٨هـ، وأكثر الكتب المطبوعة في الفنون العسكرية ظهرت في أيام إسماعيل، وأكثرهم اشتغالًا في ذلك الآتية أسماؤهم:

(١) **السيد صالح مجدي بك توفي سنة ١٨٨٠ / ١٢٩٨هـ:** وُلِد في أبي رجوان بمدرية الجيزة، وتلقى مبادئ العلم بمدرسة حلوان، ثم انتقل إلى مدرسة الألسن، وأُلحِق بقلم الترجمة، وصار مدرسًا في المهندسخانة، وأخذ في نقل الكتب الرياضية إلى العربية، ثم أُحِيل إلى آلاي المهندسين والكبورجية، وأحيل إليه ترجمة الكتب في الفنون العسكرية، وهاك آثاره الرياضية والحربية:



السيد صالح مجدي بك.

(أ) الدر المنثور في الظل والمنظور: مع الأشكال، طبع سنة ١٢٦٩هـ.
(ب) بغية الطلاب في قطع الأحجار والأخشاب: طبع سنة ١٢٧٠هـ.
(ج) الروضة السندسية في الحسابات المثلثة: طبع سنة ١٢٧٠هـ.

(د) تذكير المرسل بتحرير المفصل والمجمل: طبع سنة ١٢٧٦هـ.
(هـ) ميادين الحصون والقلاع ورمي القنابل باليد والمقلاع: طبع سنة ١٢٧٥هـ.
(و) كتاب الترع والأنهر.
(ز) استكشافات عمومية.
(ح) المطالب المنيفة في الاستحكامات الخفيفة.
(ط) الاستحكامات القوية.[٨]

(٢) **أحمد بك عبيد:** نبغ في أواسط القرن الماضي، وله من الترجمات الحربية:

(أ) تعليمات البيادة ومناورتها.
(ب) تعليم الخيالة ومناورتها: ساعده في ترجمتها رمضان شكري، طبعت سنة ١٢٨٤هـ.
(ج) تعليم السواري: ترجمه مع مصطفى صفوت، وعبد السلام سلمي، طبع سنة ١٢٨٤هـ.

(٣) **عبد الرحمن علي، توفي سنة ١٣٠٦هـ له:**

(أ) تذكار الشجعان في إصابة النيشان، طبع سنة ١٢٨٩هـ.
(ب) غنيمة العسكرية في بعض قواعد حربية، طبع سنة ١٣٩١هـ.

(٤) **محمد لاز:** قد تقدم ذكره بين مترجمي العلوم الطبيعية، وله في الفنون الحربية:

(أ) تذكار أركان حرب لكل ما يلزمهم من سهل وصعب، طبع سنة ١٢٨٨هـ.
(ب) المذاكرة اللطيفة في الاستحكامات الخفيفة، طبع سنة ١٢٨٩هـ.

(٥) **الأمير عبد القادر الجزائري المتوفى سنة ١٨٨٨ / ١٣٠٠هـ:** هو أشهر من أن يُعرف، وقد عرفه قرَّاؤنا أميرًا باسلًا أبلى في محاربة الفرنساويين بلاءً حسنًا،[٩] لكن صاحب كتاب أعيان البيان ذكر له كتابًا في فنون الحرب اسمه: «وشاح الكاتب وزينة العسكر المحمدي الغالب» في نظام سَنَّه لجيشه، وقد جمعه بعض كتَّاب جنده، وكتابًا آخر في الصافنات الجياد.



الأمير عبد القادر الجزائري.

كتب حربية مختلفة

ومن الكتب العسكرية التي صدرت في أثناء تلك النهضة:

(أ) تعليم السواري الإنكليزي: لسليمان سليمان، طبع سنة ١٢٧٥هـ.
(ب) القواعد العمومية التي على التعليمجي أجزاؤها: لحمدانسي، طبع سنة ١٢٨٣.
(جـ) تعليم مدفع عيار ٤ ششخانة: لحسن مظهر، طبع سنة ١٢٨٤هـ.
(د) النبذة السنية في تعبئة الجيش العصرية: ترجمها أحمد حمدي أحد خوجات المدارس الحربية، طبع سنة ١٢٨٨هـ.
(هـ) حكم ونصائح عمومية في فن العسكرية: لمحمد عثمان المترجم في ديوان الجهادية، طبع سنة ١٢٨٨هـ.
(و) تعبية الفرقة المفيدة على الأصول الجديدة: لحسن فهمي، طبع سنة ١٢٨٩هـ.
(ز) تذكرة حميدة في تعبية السواري الجديدة: بلا اسم، طبع سنة ١٢٨٩هـ.
(ح) اللآلي السنية في تعليم قراءة الخرط الطوبوغرافية: لأحمد زكي أحد معلمي الرياضة في المدارس الحربية، طبع سنة ١٢٩٠هـ.

(ط) اللآلي السنية في المناورات الحربية: لرجب صديق، طبع سنة ١٢٩١هـ.
(ي) النخبة الجلية في تعليم البلطجية: لأحمد العلمي طبع على الحجر.
(ك) تعليم مدافع الحصار: بلا اسم.

(٤-١) نقل العلوم الدخيلة في سوريا

أولًا: الطبيعيات والرياضيات والفلك

إذا قلنا مدارس سوريا هنا، إنما نريد المدرسة الكلية الأميركية في بيروت؛ لأنها اشتغلت وحدها في نقل العلوم العصرية الطبيعية والطبية والرياضية، ولم يكن لها عمل في النصف الأول من القرن التاسع عشر، أو العصر الأول من النهضة الحديثة، وإنما كان ذلك لمصر وحدها، ثم اشتركت بيروت في هذه الحركة في النصف الثاني من القرن المذكور، ولا سيما بعد أن تأسست المدرسة الكلية، وأخذ أساتذتها في التعليم باللغة العربية، فلم يروا بدًّا من نقل الكتب لتلاميذهم عن مؤلفي الأميركان والإنكليز، وكانوا قد بدءوا بذلك في مدرسة عبية، وأكثر الأساتذة عملًا في ذلك الدكتور كرنيليوس فانديك، ثم الدكتور يوحنا ورتبات، والدكتور بوسط، وقد اشتغل أولهم في نقل معظم فروع العلم الحديث في الطب والطبيعيات والرياضيات والفلك وغيرها؛ ولذلك سنجعل الكلام في منقولات المدارس السورية، يشتمل هذه العلوم كلها، إلا كتب الدين فننفرد لها فصلًا على حدة، وهاك تراجم أهم الذين اشتغلوا في ذلك من أساتذة الكلية، ثم مَن سواهم:

(١) **الدكتور كرنيليوس فانديك:** وُلِد سنة ١٨١٨ وتوفي سنة ١٨٩٥، هو هولاندي الأصل، لكنه أميركي المنشأ، تفقه بأميركا في علوم عصره، فتعلم الطب والصيدلة والرياضيات واللغات القديمة، فاختاره مجمع المرسلين الأميركان سنة ١٨٤٠ مرسلًا طبيًّا للديار السورية، فجاء بيروت وأخذ في درس اللغة العربية، واجتمع بالمعلم بطرس البستاني وهما شابان، فسكنا معًا وائتلفا، ولم يمضِ زمن طويل حتى أتقن اللغة العربية على اليازجي والأسير، وأصبح نطقه فيها كأنه من أبنائها، وحفظ كثيرًا من أمثالها وأشعارها، وأحب الوطن السوري فاستهلك في خدمته، فأنشأ مدرسة عبية بلبنان، وأخذ في تأليف الكتب اللازمة للتدريس في الفنون الحديثة، فألف في الجبر والمقابلة والهندسة والمثلثات وسلك البحار والطبيعيات والجغرافيا قبل إنشاء المدرسة

الكلية، ثم دُعِي إلى صيدا فعلَّمَ فيها مدة، وكان عالي سميث أحد كبار المستشرقين المبشرين الأميركان في سوريا قد باشر ترجمة التوراة، وتوفي فأتمها فانديك — وسنعود إلى ذلك.



الدكتور كرنيليوس فانديك.

ولما أنشئت المدرسة الكلية سنة ١٨٦٦، عيَّنوه أستاذًا فيها يعلم الكيمياء والفلك والظواهر الجوية والباثولوجيا، وهو يؤلف الكتب في هذه المواضيع للتلاميذ، وتُنشَر في مطبعة الأميركان ببيروت، ثم انفصل عن الكلية سنة ١٨٨٢ على أثر خلاف وقع بين تلاميذ الطب وعمدة المدرسة، ورأى الحق مع التلاميذ ولم تنصفهم العمدة، فاستقال احتجاجًا على ذلك الحكم، لكنه ما زال عاملًا على خدمة هذه النهضة بالتطبيب، وبث روح الغيرة والإقدام بالقدوة الشخصية؛ لأنه كان مثالًا للعمل بهما، وعرف السوريون فضله فاحتفلوا بيوبيله الخمسيني سنة ١٨٩٠ احتفالًا اشتركوا فيه على اختلاف الطوائف والملل والعناصر،[١٠] وما زال عاملًا حتى توفاه الله سنة ١٨٩٥، وخلف كتبًا في أهم العلوم العصرية. وكان يجدر بنا أن نترجمه بين أصحاب الموسوعات لو لم يقضِ سياق الكلام

إيراد ترجمته هنا، وهذه مؤلفاته وكلها مطبوعة في مطبعة الأميركان في بيروت، نذكرها حسب المواضيع:

(أ) **في الطب:**

- الباثولوجيا في مبادئ الطب البشري.
- التشخيص الطبيعي للفحص الطبي.
- رسالة في الجدري للرازي مع ملحق لها.

(ب) **في الرياضيات:**

- الأصول الجبرية.
- الأصول الهندسية.
- الأنساب والمثلثات وسلك الأبحر.

(جـ) **في الفلك:**

- أصول الهيئة في علم الفلك.
- محاسن القبة الزرقاء.

(د) **في الطبيعيات والكيمياء:**

- النقش في الحجر: في تسعة مجلدات صغيرة في العلوم الحديثة كالفلسفة الطبيعية، والكيمياء، والجغرافية الطبيعية، والنبات، والفلك، والجيولوجيا للتعليم في المدارس.
- علم الكيمياء.

(هـ) **في الجغرافية والتاريخ:**

- المرآة الوضية في الكرة الأرضية
- تاريخ الإصلاح.

(و) **في اللغة:**

- محيط الدائرة في العروض والقوافي

غير مقالات في مواضيع دينية تهذيبية وأدبية كانت تُنشَر على حدة، أو في النشرة الأسبوعية، وأكثر كتبه مزينة بالرسوم.

(٢) **الدكتور يوحنا ورتبات توفي سنة ١٩٠٨:** هو من أساتذة الكلية، أصله آرمني، وُلِد في سوريا، وتثقف على أيدي المرسلين الأميركيين، وأتقن الإنكليزية، وصار مبشرًا، ثم ترك التبشير وأتقن الطب، وتعين أستاذًا في المدرسة الكلية لتعليم التشريح والفسيولوجيا، فألف فيهما وفي غيرهما كتبًا مفيدة كلها مطبوعة في مطبعة الأميركان في بيروت، وهي:

(أ) أصول التشريح: فيه مئات من الرسوم.
(ب) الفسيولوجيا: فيه مئات من الرسوم.
(ج) حفظ الصحة: اسمه كفاية العوام.
(د) كتاب التشريح الصغير.
(ﻫ) رسائل طبية عديدة.
(و) أدان سوريا نشر في الإنكليزية.
(ز) قاموس إنكليزي وعربي ينسب إليه.
(ح) قاموس عربي وإنكليزي له وللدكتور بورتر.
(ط) كتاب حكمة العرب نُشِر في الإنكليزية.[١١]

(٣) **الدكتور جورج بوسط توفي سنة ١٩٠٩:** وهو من أساتذة الكلية، أميركي الأصل، جاء سوريا مبشرًا سنة ١٨٦٣، فأتقن العربية في طرابلس الشام، ولما أنشئت الكلية الطبية سنة ١٨٦٦ تعين أستاذًا فيها للنبات والجراحة والمواد الطبية، فألف فيها كلها، وما زال عاملًا إلى سنة ١٩٠٨ فاستقال، وتوفي في السنة التالية، وهذه مؤلفاته وكلها مطبوعة في مطبعة الأميركان في بيروت:

(أ) **في الطب:**

- المصباح الوضاح في صناعة الجراح.
- الأقرباذين والمواد الطبية.
- مبادئ التشريح والهيجين والفسيولوجيا.

(ب) **في التاريخ الطبيعي:**

- مبادئ النبات.

- نبات سوريا وفلسطين: درسه بنفسه هناك.
- علم الحيوان: في جزأين.

(ج) مواضيع أخرى:

- فهرس الكتاب المقدس.
- قاموس الكتاب المقدس: في مجلدين.
- مجلة الطبيب، تقدَّم ذكرها بين المجلات.[١٢]

ونبغ من تلاميذ الكلية الأميركية طبقة اشتغلوا في العلوم الطبيعية، كما نبغ في مدرسة قصر العيني، لكنهم لم تظهر لهم آثار مطبوعة؛ لأنهم لم يتولوا تدريس هذه العلوم في تلك المدرسة إلا نادرًا، ولأن هذه الكتب كانت تؤلَّف للتعليم بها في المدارس، ثم ما لبثت الكلية أن جعلت التعليم فيها باللغة الإنجليزية، فاستغنت عن التأليف في العربية، على أن الذين تخرجوا في دورها العربي أو علَّموا فيها قد خلفوا آثارًا مكتوبة، أشهرهم:

(٤) **الدكتور بشارة زلزل توفي سنة ١٩٠٥:** آل زلزل بيت معروف في لبنان، نبغ من أفراده طائفة من أهل الوجاهة والعلم، منهم الدكتور بشارة، تفقه في المدرسة الكلية الأميركية، وكان من كبار الكتَّاب في الطب والطبيعيات، اشترك في إنشاء مجلة الطبيب في بيروت مع الشيخ إبراهيم اليازجي، والدكتور سعادة سنة ١٨٨٤، ثم جاء اليازجي وزلزل إلى مصر وأنشأا مجلة البيان سنة ١٨٩٧ بالقاهرة، وفي السنة التالية استقل اليازجي بها وسماها الضياء، وعاد الدكتور زلزل إلى الاشتغال في التاريخ الطبيعي، فأخذ في تأليف مطوَّل في علم الحيوان نشر منه بضعة أجزاء، وتوفي قبل إتمامه، وله مقالات علمية عديدة في المقتطف وغيره.

(٥) **أسعد الشدودي المتوفى سنة ١٩٠٦هـ:** كان أسعد الشدودي من نوابغ علماء الرياضيات، وما يُبنَى عليها من الميكانيكيات، وُلِد في عاليه (لبنان) سنة ١٨٢٦، وتلقى العلم في مدرسة عبية الأميركية، وتولى التدريس في مدارس مختلفة، فلما أنشئت المدرسة الكلية الأميركية في بيروت تولى تدريس الرياضيات فيها سنة ١٨٦٧، فتفقه عليه فيها أقدم تلاميذها، ثم تولى تدريس العلوم الطبيعية، فألَّف كتابه «العروس البديعة في علم الطبيعة»، أتقن فيه على الخصوص باب البصريات والميكانيكيات؛ لأنها تحتاج إلى معرفة رياضية، طبع في بيروت سنة ١٨٧٣، وهو من أفضل كتب الطبيعيات حتى الآن.

(٦) **مؤلفات في العلوم الدخيلة للأحياء من المعاصرين في مصر والشام:** وهناك بقية صالحة من نوابغ مدارس الطب على عهد التدريس في اللغة العربية وبعده بمصر والشام، لهم مؤلفات مفيدة في الطبيعة وغيرها، لا يزالون في قيد الحياة، ولا يجوز لنا أن نترجمهم عملًا بالقاعدة التي وضعناها لنفسنا في تأليف هذا الكتاب، فنكتفي بذكر مؤلفاتهم الهامة، لعل القارئ يحتاج إلى شيء منها، وكلها مطبوعة بمصر أو الشام وهي:

- هبة المحتاج في الطب والعلاج، لعيسى باشا حمدي.
- بلوغ الآمال في صحة الحوامل والأطفال، لعيسى باشا حمدي.
- لمحات السعادة في فن الولادة، لعيسى باشا حمدي.
- نتائج الأقوال في أمراض الأطفال، لعيسى باشا حمدي.
- واضح المنهاج في مختصر فن العلاج، لعيسى باشا حمدي.
- المعراج في الطب الباطني والعلاج، لعيسى باشا حمدي.
- نهاية الأصل والفرع في التسمع والقرع، لعيسى باشا حمدي.
- المنافع الكبرى في فن الجراحة الصغرى، لعيسى باشا حمدي.
- علم الحيوانات، لعثمان باشا غالب.
- مختصر تركيب أعضاء النبات، لعثمان باشا غالب.
- صدق البيان في طب الحيوان، لجرجس طنوس عون.
- الظواهر البديعة في علم الطبيعة، لمحمد فوزي الحكيم.
- نموذج الإتقان في نفس الإنسان، لمحمد فوزي الحكيم.
- الآيات البيِّنات في النباتات والحيوانات، لمحمد فوزي الحكيم.
- كشف المخبآت في منافع الحيوانات، لمحمد فوزي الحكيم.
- الطالع الشرقي في التشريح الدقي، لمحمد بك طلعت.
- أصول تشريح المنسوجات، لمحمد بك طلعت.
- مرشد العيال في تدبير الأطفال، للدكتور سليم جلخ.
- الجواهر البديعة في علم الطبيعة، للدكتور كامل الكفراوي.
- قلائد الحسنات في علم النباتات، للدكتور كامل الكفراوي.
- المطالب الطبية، ٣ أجزاء للدكتور إبراهيم منصور.
- صحة المرأة في أدوار حياتها، للدكتور أحمد عيسى.
- أمراض النساء، جزءان للدكتور أحمد عيسى.

- الإسعافات الطبية، مزين بالرسوم للدكتور رشدي.
- التدبير العام في الصحة والمرض، للدكتور رشدي.
- الإسعاف الأَوَّلِي، للدكتور محمد عبد الحميد.
- العلاج بعد العمليات، للدكتور محمد عبد الحميد.
- تعليل النوع، للدكتور محمد عبد الحميد.
- العلاج الجراحي، للدكتور محمد عبد الحميد.
- التشريح الجراحي، للدكتور محمد عبد الحميد.
- الحمل خارج الرحم، للدكتور محمد عبد الحميد.
- أمراض النساء، للدكتور محفوظ.
- فن الولادة، للدكتور محفوظ.
- الإسعافات الطبية، للدكتور عزت.
- تدبير الأطفال، للدكتور إسكندر جريديني.
- حياتنا التناسلية، للدكتور أبو جمرة.
- وقاية الشبان، للدكتور أبو جمرة.
- الشذور الذهبية في المادة الطبية، للدكتور صهيون.
- الطب البيطري، للدكتور عبد العزيز النعماني.
- نصائح للأمهات، للدكتور فريد عبد الله.
- الفرائد السنية في الفسيولوجيا، للدكتور فريد عبد الله.
- النشوء والارتقاء، للدكتور شميل.
- عجائب الخلق، لجرجي زيدان.
- علم الطبيعة، لإسماعيل باشا حسنين.
- طبقات الأمم، لجرجي زيدان.

(٢) ثانيًا: كتب الدين

نعني نقل التوراة إلى العربية في هذه النهضة، فيحسن بنا تمهيد الكلام بتاريخ ترجمة هذا الكتاب.

(٢-١) ترجمة التوراة

أقدم ترجمات التوراة الباقية إلى الآن ترجمة سعيد الفيومي المتقدم ذكرها في الجزء الثاني من هذا الكتاب، ومن الترجمات الضائعة — غير ترجمتها في الجاهلية، وترجمة عبد الله بن سلام في أيام المأمون — ترجمة حنا أسقف إشبيلية في أواسط القرن الثامن للميلاد، فإن هذا الأسقف اهتم بنقل التوراة من اللاتينية إلى العربية على أثر انتشار العرب في الأندلس، ويُظَن أنه نقلها كلها، وقد ذكر الدكتور فانديك قطعًا منها مخطوطة وُجِدت في سوريا لكنها لم تكن شائعة، ولا طُبِع منها شيء.

تليها ترجمة سعيد الفيومي المتقدم ذكرها، وقد ذكروا ترجمة للتوراة السامرية إلى العربية، نشرها جونبول المستشرق المتقدم ذكره، هي عبارة عن ترجمة الأسفار الخمسة، ولا يُعرَف تاريخ ترجمتها، لكنها تُنسَب إلى مترجم اسمه أبو سعيد السامري، يُظَن أنه عاش بين القرن العاشر والقرن الثالث عشر للميلاد، وقد استعان الدكتور فانديك بها في ترجمة التوراة الأميركية الآتي ذكرها، ومنها نسخة في المكتبة الخديوية مطبوعة في ليدن سنة ١٨٥١.

وهناك ترجمة الأسفار الخمسة لأحد يهود شمالي إفريقيا في القرن الثالث عشر للميلاد، طُبِعت في أوربا سنة ١٦٢٢، وترجم بعض علماء اليهود في الإسكندرية أسفار النبوات إلى العربية عن التوراة السبعينية اليونانية في القرن العاشر للميلاد، طُبِع بعضها في باريس سنة ١٦٤٥، وفي لندن سنة ١٥٦٧.

ومن أسفار التوراة قطع أو فصول منقولة عن التوراة السريانية إلى العربية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، طُبِع بعضها في أوربا، وربما وُجِدت نسخ منها في الأديار.

وترجم المزاميرَ إلى العربية عبدُ الله بن الفضل في القرن الثاني عشر للميلاد عن التوراة السبعينية، وطُبِعت الترجمة في حلب سنة ١٧٠٦، وفي لندن سنة ١٦٢٥، وهناك ترجمة أخرى للمزامير طُبِعت في الشوير (لبنان) وغيرها في أماكن مختلفة، وكذلك الأناجيل فإنها تُرجِمت غير مرة عن اليونانية أو عن السريانية أو القبطية، وقد طُبِعت البشائر الأربع للمرة الأولى في رومية سنة ١٥٩١، ثم طُبِعت مرارًا في أماكن مختلفة.

وصدر أمر بابا رومية إلى سركيس الرزي مطران دمشق على الموارنة في القرن السابع عشر أن يجمع ما في العربية من الترجمات، ويضع ترجمة جديدة، فأخذ في العمل سنة ١٦٢٠ وجمع الترجمات المعروفة، واستخرج منها نسخة جديدة، وجعل معوله على

الترجمة اللاتينية في الأكثر، وطُبِعت هذه الترجمة في رومية سنة ١٦٧١ في ثلاثة مجلدات كبيرة، واضطر المرسلون الإنكليز لما أرادوا التبشير في الشرق العربي أن يعولوا عليها، وما زالت هي عمدتهم حتى ظهرت ترجمة الأميركان.

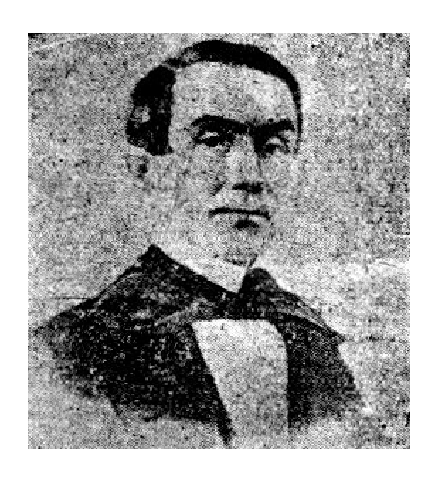
وفي أواسط القرن الماضي اشتغل أحمد فارس الشدياق قبل إسلامه مع الأستاذ لي المستشرق الإنكليزي في ترجمة عربية جديدة للتوراة، لتعول عليها جمعية نشر الكنيسة في التبشير، ولكنهما عولا على الترجمة الإنكليزية المعروفة بنسخة الملك جيمس، وفيها أغلاط تسرَّبت إلى الترجمة العربية، على أن هذه الترجمة لم تُنشَر مع أنها طُبِعت سنة ١٨٥٧ في لندن.

(٢-٢) الترجمة الأميركية للتوراة

وأخذ المرسلون الأميركان في سوريا يهتمون بنقل التوراة إلى العربية ترجمة دقيقة، شرعوا في ذك سنة ١٨٣٧، ولم تكن معدات الطبع متوفرة لهم في ذلك الحين، فأخذوا يهتمون بصنع الحروف لهذا الغرض، فعل ذلك الدكتور عالي سميث، وفرغ من إعداد الأمهات سنة ١٨٤٣، فانحرفت صحته ولم يستأنف العمل والترجمة إلا سنة ١٨٤٨ بمساعدة المعلم بطرس البستاني؛ لأنه كان ضليعًا في السريانية، وتعلم العبرانية مع سميث، وكان البستاني يكتب المسودات ويدفعها إلى سميث، وهذا يقابلها على الأصل ثم تُدفَع إلى المطبعة، وبعد جمعها يوزع من المجموع نسخ على بعض الثقات من علماء العربية لأجل تنقيح العبارة، ثم تعود كلها إلى الدكتور سميث فيقابلها، ويعتمد ما يراه ويأمر بالطبع.

وتوفي الدكتور سميث سنة ١٨٥٧، ولم يطبع من التوراة إلا سفر التكوين والخروج، وتحول هذا العمل بعد موته إلى الدكتور فانديك، وقد تولى إدارة المطبعة الأميركانية، فسار على خطوات سلفه من حيث التعويل على ثقات العرب في تنقيح العربية، وكثيرًا ما كان يراجع ثقات المستشرقين بأوربا، ولا سيما فلايشر وروديغر، وكانت المسودة تتوقف عن الطبع أحيانًا بضعة أشهر لاستيفاء البحث والمراجعة.

أما من ثقات العرب فكان معوله في التنقيح وقراءة المسودات على المعلم بطرس البستاني، والشيخ ناصيف اليازجي، والشيخ يوسف الأسير، وما زال مثابرًا على هذا العمل الشاق حتى أتمه، وصدرت التوراة كاملة، وهي المتداولة بين أيدي الناس، وتُعرَف



الدكتور عالي سميث.

بالتوراة الأميركية نسبة إلى المبشرين الأميركان، وكان معولهم في الترجمة على النسخة العبرانية في الأكثر.

(٢-٣) الترجمة اليسوعية

هي ترجمة الآباء اليسوعيين، وتُعرَف بالتوراة اليسوعية، عمدوا إلى ترجمتها لمنافسة الأميركان ومقاومة سعيهم في نشر مذهبهم، وكان معولهم في الترجمة على النسخ العبرانية واليونانية والسريانية، والنسخة اللاتينية التي عليها معول الكنيسة الكاثوليكية، وقد اعتمدوا في تصحيح لغتها وضبط عبارتها وأسلوبها على الشيخ إبراهيم اليازجي، وبالغوا في إتقان طبعها، وأضافوا إليها بعض الرسوم والأشكال، فجاءت في غاية الإتقان شكلًا وأسلوبًا، ولكل من الترجمتين الأميركية واليسوعية حسنات وسيئات، أتينا بأمثلة منها في السنة الثانية من الهلال.

هوامش

(١) وتفصيل ترجمته في تراجم مشاهير الشرق ٢ ج٢ (الطبعة الثانية).
(٢) الخطط التوفيقية ٤ ج١٧.
(٣) تجد ترجمته في تراجم مشاهير الشرق (طبعة ثانية) ١٥٠ ج٢
(٤) تجد تفصيل ذلك في مشاهير الشرق ٢١٦ ج٢ (ط٢).
(٥) تجد تفصيل ترجمته في تراجم مشاهير الشرق ١٦٩ ج٢ (ط٢).
(٦) ترجمته في تراجم مشاهير الشرق ١٨٣ ج٢(ط٢).
(٧) ترجمته في تراجم مشاهير الشرق ١٩٥ ج٣ (ط٢).
(٨) له أعمال أخرى نشرت في ترجمته بتراجم مشاهير الشرق ١٦٣ ج٢ (ط٢).
(٩) ترجمته في تراجم مشاهير الشرق ١٨٢ ج١ (ط٢).
(١٠) ترى تفصيل ترجمته في تراجم مشاهير الشرق ٤٠ ج٢ (ط٢).
(١١) ترجمته في مشاهير الشرق ٢٦٢ ج٢ (ط٢).
(١٢) تفصيل ترجمته في مشاهير الشرق ٢٦٩ ج٢ (ط٢).

عود إلى آداب اللغة العربية في النهضة الأخيرة

فرغنا من المقدمات التمهيدية في مميزات هذه النهضة، وبسطنا الكلام في العلوم الدخيلة التي نُقِلت إلى العربية في أثناء ذلك، إلا بعض المنقولات القانونية أو الحقوقية والاقتصادية والاجتماعية والأدبية، سنعود إليها في أماكنها، فعلينا أن نبحث في كل باب من أبواب الآداب العربية على نحو ما توخيناه في الأجزاء الماضية، وهاك الأبواب التي سننظر فيها، ونترجم أهم أصحابها:

(١) الشعر والأدب.
(٢) اللغة وعلومها.
(٣) الإنشاء.
(٤) التاريخ والجغرافية.
(٥) الموسوعات.
(٦) القضاء والإدارة.
(٧) العلوم الاقتصادية.
(٨) العلوم الاجتماعية.

وسنتكلم عن كل منها على حدة.

(١) الشعر والأدب في النهضة الأخيرة

أقبلت هذه النهضة والشعر كما كان في العصر الماضي، وانقضى العصر الأول منها ولم يتغير فيه شيء يُذكَر؛ لأن عوامل المدنية الحديثة لم تكن انتشرت بعدُ، فلم تخلف في الأحوال الاجتماعية ما يؤثِّر على القرائح والعقول، أو يتناول أقلام الكتاب، وهكذا يقال في الإنشاء، على أن الشعر سبق الإنشاء إلى النهوض.

ظل الشعر على ما كان عليه من حيث الخيال في العصر العثماني طول مدة العصر الأول من هذه النهضة (١٨٠٥–١٨٦٣)، فلما دخل العصر الثاني كانت سوريا قد أصابتها النكبات سنة ١٨٦٠ وقبلها، وهاجر الناس من لبنان ودمشق إلى بيروت وغيرها، وجاء الإفرنج وأخذوا في نشر مذاهبهم وتعاليمهم في مدارسهم، وسهَّل الخديوي إسماعيل على الإفرنج وغيرهم النزوح إلى وادي النيل والإقامة فيه، ونشَّط أهل الأدب وقرَّبهم وأنعم عليهم، فتكاثر الشعراء والأدباء، ودخل الأدبَ شيء من صبغة المدنية الحديثة، والخيالات الشعرية التي نُقِلت بالمخالطة أو الأسفار، أو مطالعة كتب الإفرنج الشعرية، أو بما حدث في مصر والشام من ظواهر المدنية وأسباب الحضارة الحديثة.

ورافق ذلك شيوع روح الحرية الشخصية بشيوع العلم الطبيعي وغيره، مما بيَّناه في باب الحرية الشخصية، فآل ذلك إلى حل القيود المتوارثة في الاجتماع والأفكار، وفي جملتها القيود الشعرية في أساليب النظم وطرق التصور الشعري، فأخذ بعض الشعراء يقلِّدون الأساليب الإفرنجية من حيث الوصف ونحوه، وقد دق شعورهم بسبب التربية العلمية الحديثة، وأدركوا من عواطف الإنسان وقواه، واكتشفوا من أسرار قلبه ما لم يعرفه القدماء، وانتشرت روح الاقتصاد، فأصبحوا لا يعملون عملًا إنْ لم يتبيَّن لهم وجه العوض فيه، وكثر الاختلاط فيه على أثر تسهيل أسباب النقل، فتحاكت الأفكار بين العرب وغيرهم من أمم العالم المتمدن، واضطروا بطبيعة العمران إلى تعلم لغاتهم، والاطلاع على آدابهم، والاقتداء بهم، وتمكن ذلك على الخصوص في العصر الثالث من هذه النهضة — نعني العصر العباسي الذي نحن فيه — وصار للشعر صبغة خاصة به.

وأصبح الشعراء على الإجمال يستنكفون من القيود التي كان سلفاؤهم مقيَّدين بها، من حيث الاستهلال والتخلص والجناس والأساليب، وصاروا إذا اهتموا بمديح أو رثاء أو غزل أو حكمة بدءوا بها رأسًا — وإن كان كثيرون منهم لا يزالون يتحدون أساليب القدماء.

(١-١) الشعر العصري

فالنزوع إلى روح العصر في النظم والنثر يراد به الخروج من القيود القديمة التي عبَّرنا عنها بالطريقة المدرسية، وقد نضجت في العصر العباسي الثالث، وأخذت تتأصل في أذهان الشعراء والأدباء، وتتسع بمرور الأعصر، حتى خرجت عن المعقول وخالفت الذوق، وروح هذا العصر تقتضي النظر في الأشياء من حيث حقائقها، والتعويل على الجوهر دون الأعراض، أو اللب دون القشر.

فالشعر والنثر الجوهر فيهما المعنى، والعرض اللفظ، فالأديب أو الشاعر العصري إذا نظم أو نثر جعل همه الالتفات إلى المعاني من حيث مطابقتها للواقع أو المعقول، ويستلزم ذلك طبعًا أن يكون لما ينظمه أو ينثره غرض معين أو حكمة، أو تعليم أو عظة، أو انتقادُ عادةٍ أو خُلُقٍ أو سياسةٍ أو غير ذلك، نحو ما يفعل أدباء الإفرنج، وتكون القصيدة أو المقالة ترمي إلى غرض مترابط الأجزاء من أولها إلى آخرها، خلافًا لما اشترطه بعض أدباء العرب من أن يكون كل بيت من القصيدة مستقلًّا بمعناه.

فإذا قلنا إن فلانًا ينزع في نظمه أو نثره إلى الأساليب العصرية، كان مرادنا أنه يلتفت إلى المعنى أكثر من التفاته إلى اللفظ، وأنه يرمي فيما يكتبه أو ينظمه إلى غرض معين يحوم حوله، ويظهر في كل جزء من أجزاء قصيدته أو مقالته، وأنه يطرق المواضيع التي اقتضتها هذه المدنية من الآداب الاجتماعية الجديدة بالوصف أو النقد أو نحو ذلك، ووصف العواطف وتشريحها، مع الجنوح إلى الحقيقة وتصويرها بلا تطرف في المبالغة، ووصف المباني أو العادات أو الأخلاق، وتحبيذها أو انتقادها،[١] ويدخل في ذلك ما أصاب مركز المرأة من الارتقاء الاجتماعي في هذا العصر عما كانت عليه قبله.

ويغلب النزوع إلى الأساليب العصرية في المطَّلِعين على الشعر الإفرنجي والآداب الإفرنجية، وربما اقتبسوا شيئًا من أساليبها أو معانيها، ولا يقلل ذلك شيئًا من شاعرية القوم، وفي مصر اليوم طبقة من الشعراء لا يشق لهم غبار، ولم يكن في مصر أشعر منهم في دور من أدوارها، لكن الطريقة العصرية التي نحن في صددها لم يتم نضجها بعدُ.

(١-٢) الشعر العامي

وتكاثر في النهضة الأخيرة بمصر والشام الشعر العامي على الأوزان العامية، وبعضها قديم كالزجل والمواليا وغيرهما مما تقدم ذكره في الأجزاء الماضية، وبعضها أحدث من ذلك، فنقتصر هنا على ما حدث منه في سوريا، ولا سيما لبنان.

فالشعر العامي في سوريا نريد به ما ينظم في لغة العامة بلا ملاحظة الإعراب أو اللغة، وأن يؤتى بالألفاظ كما ينطق بها أهل لبنان على الخصوص، وفي هذا الشعر بلاغة خاصة وخيال خاص.

وللشعر العامي أوزان بعضها يشبه أوزان الشعر الفصيح، وبعضها لا مثيل له في الأوزان المعروفة في هذا الشعر، فأوزان الشعر العامي الموجودة في الشعر الفصيح ثلاثة: الرجز، والوافر، والسريع، جاء ذكرها في مقالة ظهرت في النشرة الأسبوعية في أكتوبر سنة ١٩٠٦، لعلها للأستاذ إبراهيم الحوراني الشاعر اللغوي محرر تلك الجريدة، وهذا نصها:

> «وبحور الشعر الفصيح ستة عشر، ولكني لم أجد في الشعر العامي المعروف عند العامة بالمعنى سوى ثلاثة أبحر، وهي التي سمعتها في لبنان: الرجز، والوافر، والسريع.
>
> **مثال الرجز:**
>
> خبيت مالك في الخزاين شونفع إلا الشهادة بحق أرباب الطمع
> قالوا كتير الشد بيرخي الحبال وكتر شدك حبل تدبيرك قطع
>
> **ومثال الوافر:**
>
> صار القبر أقرب من خيالي وصار الصبر أبعد من منالك
>
> **ومثال السريع:**
>
> ريح الصبا بحياة غصن البان والورد والنسرين والريحان

من أين جبتي المسك بجيوبك   تخمين مريتي على الخلان

ويدخل على هذه الأبحر تغيرات لا تدخل في الفصيح لا يسع المقام بيانها.

وأما أغانيهم التي يسمونها بالقراديات — وهو اسم خشن، وقد رأى ذلك كثيرون من العامة، فسموها بالعديات وبالقويلات — فبعضها لا ينطبق على وزن من أوزان الشعر المعروف، ووزن بعضها المتدارك مع تغيرات أيضًا، ومثاله:

من كتر أشواقي ليكن   جيت راكب عاقطار النار

وبعضها على وزن مستفعلن مفعولن، كقول بعضهم:

راح الشباب الغالي   والشيب غير حالي

وحسب بعضهم هذا من المطالع، والأكثرون على إنه من «عديات الدبكة»، وجاءت أغانيهم المعروفة عندهم بالموالات البغدادية والموالات المصرية والزلاغيط على بحر البسيط، فمن الموالات البغدادية المشهورة ما أوله:

يا ساكن البان صبري من بعادك بان   ببكي دمًا كل ما غنى حمام البان

ومن الموالات المصرية ما نصه، وهو بديع:

الحب للنفس كان بكل عصر وجيل   مقياس حبك لغيرك كامل التعديل
ارجع إلى النص في التوراة والإنجيل   واقرأ وحافظ على قول الذي حبك
أحبب قريبك كنفسك وأترك التأويل

والزلاغيط كالموالات المصرية إلا أنها قلما جاءت غير مربعة، ومنها ما يأتي وهو ما ينطق به لسان حال العروسين:

النفس مالي وحبي اليوم لي مالك   ما عاد يا نفس شيء في الأرض من مالك

قولي لمن رام يسلك في سبيل الذات　　اعرف بلا شك أنك في طريق هالك

ومن الزلاغيط ما وزنه مستفعلن فعلان، ومثاله:

غنى حمام البان　　عامايل الأغصان
لما تمايل قد　　عروسنا الريان

وكثيرًا ما تأتي الشطور الأربعة على روي واحد، وأما بقية أغانيهم فتأتي على أوزان مختلفة من أوزان الشعر الفصيح وغيرها، وإيراد مثل لكل منها يشغل زمانًا طويلًا». ا.هـ.

نقول: والذي نراه أن الأوزان العامية السورية التي ليس لها مماثل في الأوزان العربية الفصحى مأخوذة في الغالب عن أوزان الشعر السرياني.

(١-٣) المنقولات الشعرية والأدبية إلى اللغة العربية

نقل العرب علوم اليونان في صدر الدولة العباسية، لكنهم لم يتصدوا إلى آدابهم الشعرية ونحوها، وقلما فعلوا ذلك في أثناء التمدن الإسلامي؛ فلم ينقلوا إلياذة هوميروس، ولا أنيدة فرجيل، ولا غيرهما من أشعار اليونان والرومان، أما الفرس فإن شهنامة الفردوسي نقلها الفتح البنداري سنة ٦٧٩هـ إلى العربية، وضاعت الترجمة، وكذلك كلستان السعدي شرحها بعضهم أو عرَّبها، وضاعت ترجماتهم، ورباعيات الخيام إذا كانت قد نُقِلت فلم يصلنا منها شيء، ويقال بالإجمال إن العرب لم يهتموا بنقل آداب القدماء الشعرية، ولعلهم فعلوا ذلك لاكتفائهم بشاعرية العرب.

وأما في النهضة الأخيرة، فقد نقلوا طائفة من أهم تلك الآثار، وأقدم من فعل ذلك منهم جبرائيل مخلع المتوفى سنة ١٨٥١، نقل كلستان السعدي إلى العربية في أواسط القرن الماضي، وسيأتي ذكره، ونقل سليمان البستاني (وزير التجارة العثمانية) إلياذة هوميروس إلى العربية نقلًا دقيقًا، وضعه في قالب شعري عربي، وعلَّق عليه شرحًا تاريخيًّا ولغويًّا، وصدَّره بمقدمة في الشعر تدخل في ٢٠٠ صفحة، طُبِعت الإلياذة بمصر سنة ١٩٠٤، وتصدى بستاني آخر — نعني وديع البستاني — فنقل رباعيات عمر الخيام إلى العربية، وزيَّنها بالرسوم، طُبِع بمصر سنة ١٩١٢.

القصص الحديثة أو الروايات

ومما نُقِل من الآداب الإفرنجية في هذا العصر القصص، وقد فعل نحو ذلك نَقَلة العصر العباسي، فنقلوا عن الفرس قصصًا وحكايات ذكرناها في ما تقدم من هذا الكتاب، وأما أهل هذه النهضة فقد أكثروا من نقل هذه الكتب عن الفرنساوية والإنكليزية والإيطالية، وهي تسمى في اصطلاح أهل هذا الزمان «روايات»، والروايات المنقولة إلى العربية في هذه النهضة لا تُعَدُّ ولا تُحصَى، وأكثرها يراد بها التسلية، ويندر أن يراد بها الفائدة الاجتماعية أو التاريخية أو غيرها، على أنهم نقلوا بعض روايات أو أشعار شكسبير، وهيكو، ودوماس، وموليير، وشاتوبريان، ولافونتين، وراسين، وكورنيل، وفيلون، وغيرهم.

وقد رحَّب قرَّاء العربية العقلاء بهذه الروايات لتقوم مقام القصص التي كانت شائعة بين العامة لذلك العهد، مما ألفه العرب في الأجيال الإسلامية الوسطى — نعني قصة علي الزيبق، وسيف ذي يزن، والملك الظاهر، وبني هلال، والزير ونحوها، فضلًا عن القصص القديمة كعنترة وألف ليلة وليلة — فوجدوا الروايات المنقولة عن الإفرنجية أقرب إلى المعقول مما يلائم روح هذا العصر، فأقبلوا عليها.

ثم عمد الكتَّاب إلى التأليف في هذا الفن من عند أنفسهم تقليدًا للإفرنج، ومن أقدم المشتغلين في ذلك فرنسيس مراش الآتي ذكره، ثم سليم بطرس البستاني، أَلَّف بضع روايات تاريخية نشرها في الجنان، ثم أَلَّف صاحب الهلال سلسلة روايات تاريخ الإسلام من أول ظهوره إلى الآن، صدر منها ١٧ رواية غير رواياته الأخرى، وأقدم آخرون على التأليف في هذا الفن، وهو على كونه مقتبسًا من الإفرنج فقد كان عند العرب من قبلُ، كما قدمنا في غير هذا المكان.

(١-٤) الشعراء والأدباء في هذه النهضة

ظهر في هذه النهضة مئات من الشعراء والأدباء في مصر وسوريا والعراق وسائر العالم العربي، والغالب أن يكون نبوغهم في ظل أمير يحب الأدب أو الشعر، أو يأتي بأعمال تستنطق القرائح وتشحذ الأذهان، شأن الشعراء في كل زمان، كما تكاثروا في زمن الرشيد، وسيف الدولة، وابن العميد، والصاحب ابن عباد، وغيرهم من الملوك وأهل الوجاهة، وكذلك في هذه النهضة فقد تكاثر الشعراء والأدباء على الخصوص في ظل الأمير بشير الشهابي، ومَن عاصره من الأمراء في سوريا، وفي زمن إسماعيل والعباس بمصر.

ويُقسَّم الكلام في شعراء هذه النهضة وأدبائها إلى ثلاثة أعصر، تدرجوا فيها من الطريقة القديمة إلى الطريقة العصرية التي تقدمت الإشارة إليها، ولا تزال الطريقة القديمة شائعة إلى الآن مع أخذهم بأسباب الطريقة الحديثة، فنترجم شعراء كل عصر أو طبقة، ونرتب تراجمهم على سني الوفاة في مصر والشام وسائر العالم العربي معًا، ونُدخِل فيهم الأدباء؛ إذ يندر بين هؤلاء من لم ينظم شعرًا.

أولًا: شعراء العصر الأول وأدباؤه من سنة ١٨٠٥–١٨٦٣

يغلب في شعراء هذه الطبقة وأدبائها المحافظة على الطريقة القديمة وأساليبها نظمًا ونثرًا؛ لأنهم لم يدركوا ما حدث من التغيير في الآداب والخلاق بالمدنية الحديثة، هاك أشهرهم:

(١) **السيد أحمد البربير البيروتي توفي سنة ١٨١١ / ١٢٢٦هـ:** هو السيد أحمد بن عبد اللطيف بن أحمد، وُلِد في دمياط سنة ١٧٤٧ / ١١٦٠هـ، ونشأ في بيروت، وتوفي في دمشق، وكان شاعرًا وأديبًا، وله تلاميذ ومريدون، وهاك آثاره التي بلغنا خبرها:

(أ) مقامات البربير: على نسق مقامات الحريري، منها نسخة في المكتبة الخديوية، وطُبِع بعضها في دمشق سنة ١٣٠٠هـ.

(ب) بديعية: شرحها مصطفى الصلاحي، منها نسخة في برلين.

(جـ) الشرح الجلي على بيتَيْ الموصلي: توسَّع في شرحهما حتى استغرق كتابًا كاملًا، طُبِع في بيروت سنة ١٣٠٢هـ، فيه كثير من فنون الأدب، والبيتان اللذان شرحهما في هذا الكتاب هما قول عبد الرحمن الموصلي من أهل القرن الثامن عشر.

إِنْ مَرَّ وَالْمِرْآةُ يَوْمًا فِي يَدِي ... مِنْ خَلْفِهِ ذُو اللُّطْفِ أَسْمَا مَنْ سَمَا
دَارَتْ تَمَاثِيلُ الزُّجَاجِ وَلَمْ تَزَلْ ... تَقْفُوهُ عَدْوًا حَيْثُ سَارَ وَيَمَّمَا

(د) منظومات متفرقة دارت بينه وبين معاصريه، نُشِر بعضها في المشرق ص١٤ سنة ٣، وفي تاريخ الآداب العربية للأب شيخو (ص٢١ ج١).

(٢) **السيد إسماعيل الخشاب المصري توفي سنة ١٨١٥ / ١٢٣٠هـ:** هو إسماعيل بن سعد الخشاب، تقدَّم ذكره في كلامنا عن الصحافة العربية في أيام بونابرت، وكان أبوه نجارًا، وتفقَّه إسماعيل من صغره بالقرآن وسائر العلوم على أئمة عصره، وكان يرتزق

من الشهادة بالمحكمة الشرعية، وفيه ميل إلى المطالعة في الكتب الأدبية والتاريخية، فحفظ منها شيئًا كثيرًا، وأصبح نادرة عصره في المحاضرات والمذكرات، ونظم الشعر الرائق، وتقرَّب بأدبه إلى طبقة الوجهاء والرؤساء، وتنافسوا في صحبته كالشيخ السادات وغيره، ولما جاء الفرنساويون مصر، ورتَّبوا ديوان قضايا المسلمين عيَّنوه كاتبًا لحوادث الديوان اليومية كما تقدم، وقرروا له في كل شهر سبعة آلاف نصف فضة، قضى في ذلك مدة ولاية جاك منو إلى خروجهم من مصر سنة ١٨٠١، وظل على الشهادة في المحكمة، فإذا صح أن نسمي تلك الصحيفة جريدة كان الخشاب أول من حرر جريدة عربية في العالم، وكان عشيرًا للشيخ حسن العطار يتذاكران ويتناشدان ويتحاضران في مجالس لطيفة، ولما توفي الخشاب سنة ١٢٣٠هـ جمع العطار ما كان لصديقه من المنظوم في كتاب هو ديوان الخشاب، منه نسخة في الخزانة التيمورية.

(٣) **الشيخ محمد المهدي المصري توفي سنة ١٨١٥ / ١٢٣٠هـ:** وُلِد قبطيًّا ثم اعتنق الإسلام، وترقى في المناصب حتى صار شيخًا للأزهر، وعرفه الفرنساويون لما جاءوا مصر وقرَّبوه، وجعلوه من أعضاء الديوان الخصوصي، وله مؤلَّف أدبي يشبه ألف ليلة وليلة، وسماه تحفة المستيقظ الآنس في نزهة المستنيم الناعس، تُرجِم إلى الفرنساوية، ونُشِر فيها.

(٤) **السيد عمر اليافي توفي سنة ١٨١٨ / ١٢٣٤هـ:** هو قطب الدين بن محمد البكري الدمياطي من أصحاب الطريقة الخلوتية، وُلِد في يافا، ورحل إلى مصر في أواخر القرن الثامن عشر يطلب التبحر في العلم على عادة طلاب العلم في ذلك العصر، ثم عاد إلى بلده، وتوفي في دمشق سنة ١٨١٨، وكان متصوفًا، وله ديوان من شعره ورسائله طُبِع في بيروت سنة ١٨٩٣، فيه طائفة حسنة من الموشحات والأدوار الغنائية، وله رسائل في التصوف وطرائفه.

(٥) **الشيخ أمين الجندي الحمصي توفي سنة ١٨٤١ / ١٢٥٧هـ:** هو أشهر من نظم الأدوار الغنائية في سوريا ووقعها على الألحان، وُلِد في حمص، وأبوه خالد آغا، ورحل إلى دمشق وقرأ على علمائها، ومنهم السيد عمر اليافي المتقدم ذكره، ثم استقر في حمص ومارس الشعر، ووشى به بعضهم للدولة فقبضوا عليه وسجنوه في الإسطبل سنة ١٨٣٠ / ١٢٤٦هـ، ثم نجا على يد الدنادشة لما دخلوا حمص عنوة وقتلوا عاملها، وله ديوان طُبِع في بيروت غير مرة جامع لما قاله أو نظمه من القصائد والمقطعات والموشحات والمواليات، وبعض أشعاره لا يزال يتغنى بها أهل سوريا إلى اليوم.[٢]



الشيخ محمد المهدي.

(٦) **المعلم بطرس كرامة الحمصي المتوفى سنة ١٨٥١ / ١٢٦٨هـ:** هو من شعراء الأمير بشير الشهابي، أصله من حمص، ونزح إلى لبنان، ويعرف التركية فاستقدمه الأمير بشير لتعليم ابنيه هذا اللسان واللغة العربية، ثم جعله موضع ثقته، فأعانه كرامة في تنظيم حكومته، ولما نُفِي الأمير سنة ١٨٤٠ رافقه في منفاه إلى الأستانة، فتعين هناك مترجمًا في المابين حتى توفي، وقد جُمِع شعره في ثلاثة دواوين طُبِع واحد منها في بيروت سنة ١٨٩٨، وأكثره في مدح الأمير بشير.[٣]

(٧) **جبرائيل مخلع الدمشقي توفي سنة ١٨٥١ / ١٢٦٨هـ:** أصله من دمشق، وله معرفة باللغات العربية والفارسية والتركية، وسافر إلى مصر، وتقلب في بعض مناصبها، ثم عاد إلى بلده ومات فيها، وكان أديبًا استخدم معرفته الفارسية في نقل كتاب كلستان السعدي الفارسي إلى العربية نثرًا ونظمًا، وطُبِع في مصر سنة ١٨٤٦، وتجد أمثلة منه في تاريخ الآداب العربية للأب شيخو صفحة ١٠٠ ج١.

(٨) **السيد علي الدرويش المصري المتوفى سنة ١٨٥٣ / ١٢٧٠هـ:** هو السيد علي بن حسن بن إبراهيم المصري الشهير بالدرويش، كان من خيرة شعراء مصر في أوائل القرن الماضي، نشأ في القاهرة، وكانت له منزلة رفيعة بين الأمراء والوجهاء، وقد مدحهم، وعُرِف على الخصوص بشاعر عباس باشا الأول، واهتم تلميذه الشيخ مصطفى سلامة النجاري بجمع ديوانه، ورتبه على ثلاثة أبواب: الأول في الصناعات مرتَّب على السنين، الثاني في غير المصنع رتَّبه على حروف المعجم، والثالث في النثر والأدوار، طُبِع على الحجر بمصر سنة ١٢٨٤هـ، ويسمى الأشعار بحميد الأشعار.

(٩) **ابن الصباغ العراقي المتوفى سنة ١٨٥٤ / ١٢٧١هـ:** هو عبد الحميد الموصلي أحد شعراء العراق، وله شهرة واسعة في تلك الأصقاع، لم تُجمَع أشعاره في ديوان على ما نعلم، لكن منها أمثلة في كتاب تاريخ الآداب العربية للأب شيخو.

(١٠) **الشيخ شهاب الدين المصري توفي سنة ١٨٥٧ / ١٢٧٤هـ:** هو الشيخ شهاب الدين محمد بن إسماعيل بن عمر المصري، وُلِد في مكة في أول القرن التاسع عشر، ورحل إلى مصر، تفقَّه في أزهرها على الشيخين العروسي والعطار، وبرع في الأدب والشعر وتعلم الحساب والهندسة والموسيقى، وساعد العطار في تحرير الوقائع المصرية، ثم خلفه في تحريرها، وجاء الشيخ أحمد فارس الشدياق في أثناء ذلك إلى مصر وأخذ عنه، ثم جُعِل مصححًا لمطبوعات بولاق، وانقطع أخيرًا للكتابة حتى مات، وأشهر آثاره:

(أ) مجموعة في الأدب تُنسَب إليه سماها «سفينة الملك ونفيسة الفلك»، وتُعرَف بسفينة شهاب الدين، فيها أمثلة كثيرة من الموالي والموشحات والأهازيج والأزجال التي يتغنى بها، رتبها على ثلاثة أبواب: الأول في الموسيقى، والثاني في ما نظمه فيه، والثالث في التلاحين والعمليات وغيرها، طُبِعت بمصر غير مرة.

(ب) ديوان الشعر: مرتَّب على حروف المعجم، طُبِع بمصر سنة ١٢٧٧هـ.

(١١) **عبد الباقي العمري الموصلي المتوفى سنة ١٨٦٢ / ١٢٧٨هـ:** هو عبد الباقي العمري الفاروقي الموصلي شاعر العراق في أواسط القرن الماضي، وُلِد في الموصل سنة ١٧٩٠ / ١٢٠٤هـ، وتوفي في بغداد، ويتصل نسبه بعمر الفاروق، وبيت الفاروقي في العراق بيت علم وفضل، وكان عبد الباقي على جانب عظيم من الذكاء وسعة الخيال، وله منزلة سامية بين قومه يوجهونه في الأمور العظام، وتولى مناصب رفيعة في ولاية بغداد،

ومدحه الأخرس وغيره من الشعراء، وله مع أدباء عصره وشعرائه مذكرات مشهورة، ولم ينفك عن الاشتغال بالأدب حتى أصبح إمام الأدباء في وقته، وهاك أهم آثاره:

(أ) الترياق الفاروقي: طُبِع بمصر سنة ١٣٨٧هـ.
(ب) نزهة الدهر في تراجم فضلاء العصر.
(جـ) أهلة الأفكار في مغاني الابتكار.[٤]

(١٢) **إبراهيم بك مرزوق المصري توفي سنة ١٨٦٦ / ١٢٨٣هـ:** نشأ في مصر، ورحل إلى السودان، وتوفي في الخرطوم، وكان أديبًا وشاعرًا، وقد جُمِع شعره في ديوان طُبِع بمصر سنة ١٢٨٧هـ، وهو مرتَّب حسب المواضيع.

ثانيًا: شعراء العصر الثاني وأدباؤه من سنة ١٨٦٣ إلى أوائل الاحتلال

يبدأ هذا العصر بالنهضة الأدبية التي حدثت في زمن إسماعيل، وينتهي بأوائل الاحتلال، وقد أخذ بعض شعراء هذا القرن بأطراف الشعر العصري، ولا سيما الذين اطَّلَعوا منهم على الآداب الإفرنجية، لكن أكثرهم ما زالوا على الأسلوب القديم، وبينهم طائفة من الأدباء، وهم:

(١) **محمود قبادو التونسي المتوفى سنة ١٨٦٨ / ١٢٥٨هـ:** هو من أدباء تونس، واشتهر على الخصوص بقوة الحافظة إلى ما يفوق التصديق، ويسميه بعض التونسيين النابغة الإفريقي، وكان واسع المعرفة في اللغة والأدب، واشتهر بالشعر، وله ديوان طُبِع في تونس سنة ١٢٩٦هـ في جزأين.

(٢) **سليمان الحرايري التونسي توفي نحو سنة ١٨٧٠ / ١٢٨٧هـ:** أصله من عائلة فارسية نزحت إلى شمالي إفريقيا وتوطنت هناك، وُلِد سليمان سنة ١٨٢٤ في تونس، وتلقى العلوم العربية، ثم أكبَّ على مطالعة العلوم الحديثة: الطبيعيات، والرياضيات، واللغة الفرنساوية، وولاه باي تونس رئاسة كتاب ديوانه سنة ١٨٤٠، ثم رحل إلى باريس، وتعين أستاذًا للغة العربية في مدرسة اللغات الشرقية هناك في أواسط القرن التاسع عشر، وتولى التحرير في جريدة برجيس باريس التي أنشأها الشيخ رشيد الدحداح الآتي ذكره، وعرَّب بعض الكتب العصرية، وخلف آثارًا حسنة أهمها:

(أ) ما نشره في جريدة برجيس باريس من المقالات والكتب، منها كتاب قلائد العقيان.

(ب) رسالة في الظواهر الجوية: طُبِعت في باريس سنة ١٨٦٢، فيها خلاصة هذا الفن.

(ج) عرض البضائع العام: وصف به معرض باريس سنة ١٨٦٧.

(د) القول المحقق في تحريم البن المحرق.

(هـ) ترجم كتاب لومون في الأصول النحوية.[٥]

(٣) **فرنسيس مراش الحلبي المتوفى نحو سنة ١٨٧٣ / ١٢٩٠هـ:** آل مراش في حلب بيت عريق في الأدب والشعر، اشتهر منه غير واحد من الشعراء والكُتَّاب والأدباء، وأشهرهم الإخوة فرنسيس وعبد الله ابنا فتح الله مراش، وأختهما مريانا، وكانت مريانا هذه كاتبة أديبة، وأخوها عبد الله من أبلغ كتاب العرب، له أسلوب إنشائي يشبه أسلوب الشيخ إبراهيم اليازجي، ظهرت منه أمثلة في مجلة الضياء.

وفرنسيس أكثرهم آثارًا باقية، وُلِد في حلب سنة ١٨٣٦، وسافر مع أبيه إلى أوربا سنة ١٨٥٠ وهو غلام، وزار بيروت وغيرها، وفيه ميل إلى الأدب والشعر وسائر العلوم، ففتقت الأسفار قريحته، ومال إلى الطب فتعلم بعضه في حلب، ثم طلبه في باريس سنة ١٨٦٦، لكنه لم يوفَّق إلى إتمام درسه لانحراف صحته، فرجع إلى حلب وهو مكفوف البصر، وظل فيها إلى وفاته وهو في إبان الشباب، وكان متوقد الفكر لا يفتر عن التفكير أو النظم أو التأليف، وفي شعره نزوع إلى روح العصر، وهو من أقدم النازعين إلى هذه الروح في هذه النهضة، نبهه إلى ذلك اختلاطه بالإفرنج، واطلاعه على آدابهم، وله مؤلفات اجتماعية فلسفية أو سياسية هذه أسماؤها:

(أ) ديوان مرآة الحسناء:طبع في بيروت سنة ١٨٨٣.

(ب) غابة الحق: صنَّف معظمه في باريس، وقد ضمنه آراء فلسفية اجتماعية، طُبِعت في حلب وبيروت ومصر.

(ج) مشهد الأحوال: أَلَّفه في حلب لمثل ذلك الغرض، طُبِع في بيروت سنة ١٨٨٣.

(د) رحلة إلى باريس: طُبِعت في بيروت سنة ١٨٦٧.

(هـ) شهادة الطبيعة في وجود الله والشريعة: طُبِعت في بيروت.

(و) المرآة الصفية في المبادئ الطبيعية: طُبِعت في حلب سنة ١٨٦١.

(ز) در الصدف في غرائب الصدف: رواية اجتماعية طُبِعت في بيروت.

(ح) تعزية المكروب: خطبة طُبِعت سنة ١٨٦٤.

(ط) الكنوز الغنية في الرموز الميمونية: قصيدة رائية في ٥٠٠ بيت، ضمنها خيالات شعرية رمزية كما يفعل أدباء الإفرنج، وقد جاراهم في شعره ونثره بالالتفات إلى المعنى دون اللفظ، فجاء أسلوبه ضعيفًا.[٦]

(٤) **عبد الغفار الأخرس العراقي توفي سنة ١٨٧٣ / ١٢٩٠هـ:** هو من نوابغ الشعراء، وله شهرة طائرة في العراق وبلاد العرب والعجم، يتناشد أقواله الأدباء في مجالسهم، وُلِد في الموصل، ونزح إلى بغداد، وأكثر إقامته فيها وفي البصرة، وسُمِّي الأخرس للكنة في لسانه، فأحب والي بغداد أن ينفق على معالجته، فقال له أحد الأطباء: «نعالج لسانك بدواء، فإما ينطلق وإما تموت.» فقال: «لا أبيع بعضي بكلي.» وكف عن العلاج، وكان قوي الشاعرية واسع الخيال، جُمِع شعره في ديوان طُبِع في الأستانة سنة ١٣٠٤هـ، اسمه «الطراز الأنفس في شعر الأخرس».[٧]

(٥) **الحاج عمر الأنسي البيروتي توفي سنة ١٨٧٦ / ١٢٩٣هـ:** أصله من أسرة تُعرَف بآل الصقعان، وُلِد في بيروت، وتثقف فيها على الشيخ محمد الحوت والشيخ عبد الله خالد، وعكف على نظم الشعر، وتنقل في مناصب إدارية مختلفة حتى توفي، وله ديوان طُبِع في بيروت تزيد أبياته عن ٦٥٠٠ بيت، فيه فنون غريبة من صناعة النظم، تجد أمثلة منها في ترجمته في كتاب تراجم مشاهير الشرق ٢٩٣ ج٢.

(٦) **علي أبو النصر المنفلوطي توفي سنة ١٨٨٠ / ١٢٩٨هـ:** هو من نوابغ شعراء مصر في أواسط القرن الماضي، وُلِد في منفلوط وفيه قريحة وقادة، فنظم الشعر وهو غلام، ونبغ في عصر إسماعيل، وكان من المقربين إليه وقد نال جوائزه، ومدحه ومدح غيره من أمراء الأسرة الخديوية، ورافق الخديوي إسماعيل لما سافر إلى الأستانة في زمن السلطان عبد العزيز، وسافر إلى الأستانة قبل ذلك موفدًا من محمد علي على عهد عبد المجيد، وذاعت شهرته، وله ديوان مرتَّب على حروف المعجم طُبِع بمصر سنة ١٣٠٠هـ، فيه منتخبات من أكثر أبواب الشعر.

(٧) **الساعاتي المصري توفي سنة ١٨٨٠ / ١٢٩٨هـ:** هو محمود صفوت الزيلع، نشأ في القاهرة، وعاصر أبا النصر وتراسلا، وكان أديبًا وشاعرًا، وحج فأكرمه أمير مكة واستبقاه عنده مدة ثم عاد إلى مصر وتوفي فيها، وله ديوان طُبِع سنة ١٩١٢ كاملًا وهو مرتَّب على المواضيع.

(٨) **الحاج حسين بيهم البيروتي توفي سنة ١٨٨١ / ١٢٩٨هـ:** هو من أسرة عريقة في الحسب والنسب في بيروت، نشأ في بيروت وفيه ميل إلى العلم والأدب وقريحة شعرية،

وقد تفقه على الشيخ محمد الحوت، والشيخ عبد الله خالد، وتعاطى التجارة، ثم انقطع للعلم وتنشيط أهله، وقد رأيت أنه كان في جملة أعضاء الجمعية العلمية السورية سنة ١٨٦٨، ولما توفي رئيسها الأمير محمد أرسلان انتُخِب هو رئيسًا لها، وكان حاضر البديهة سريع الخاطر، تولى عدة مناصب إدارية عالية في الحكومة العثمانية، وانتُخِب سنة ١٨٧٦ نائبًا عن بيروت في مجلس المبعوثان الأول، ثم انحل المجلس فعاد إلى بلده، وقضى فيه سائر حياته، وله ديوان شعر رقيق، ورواية أدبية وطنية مُثِّلت في بيروت.

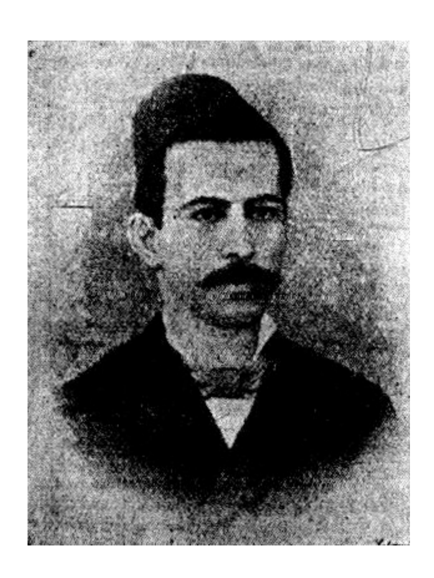
(٩) **الميقاتي الطرابلسي توفي سنة ١٨٨٤ / ١٣٠٢هـ:** كان شاعرًا رقيقًا، جُمِع شعره في ديوان طُبِع في بيروت سنة ١٨٨٦، اسمه حسن الصياغة لجوهر البلاغة.

ثالثًا: شعراء العصر الثالث وأدباؤه من أوائل الاحتلال إلى الآن

تمكن أسلوب الشعر العصري في شعراء هذه الطبقة، ولا سيما في الذين لا يزالون أحياء منهم، لكننا لا نترجم غير المتوفين وهم:

(١) **الشيخ خليل اليازجي اللبناني توفي سنة ١٨٨٩ / ١٣٠٧هـ:** هو ابن الشيخ ناصيف اليازجي، وشقيق الشيخ إبراهيم الآتي ذكرهما. وكان الشيخ خليل شاعرًا مطبوعًا سريع الخاطر، رضع آداب اللغة العربية مع اللبن، وتفقه بالرياضيات والطبيعيات عند الأميركان في بيروت ونظمهما شعرًا، وجاء مصر سنة ١٨٨١، أنشأ فيها مجلة مرآة الشرق، لم يصدر منها إلا بضعة أعداد وأقفلت عند ظهور الثورة العرابية، فعاد إلى بيروت وتولى تدريس اللغة العربية في المدرسة البطريركية والكلية الأميركية، وأصيب سنة ١٨٨٦ بعلة الصدر، فلما فرغت حيل الأطباء في علاجها جاء للاستشفاء بهواء القاهرة، وطبع فيها ديوانه «نسمات الأوراق»، وهو من خيرة الدواوين الشعرية، ثم عاد إلى لبنان وتوفي في الحدث.

ويمتاز الشيخ خليل عن سائر شعراء هذه النهضة بعمل لم يُقدِم عليه سواه، نعني تأليف «رواية المروءة والوفاء»، وهي شعرية تمثيلية مبنية على حكاية حنظلة والنعمان، تحدى فيها كبار كتَّاب الإفرنج في وضع الروايات التمثيلية في الشعر، بلغت أبياتها نحو ألف بيت، وقد مُثِّلت في بيروت سنة ١٨٧٨، وطُبِعت فيها سنة ١٨٨٤، وفي مصر سنة ١٩٠٢، ومن آثار قلمه أنه نقَّح كليلة ودمنة وضبطه بالشكل الكامل، وفسَّر العويص من ألفاظه، ووقف على طبعه، وأخذ في تأليف معجم لو مُدَّ في أجله لإتمامه لكان فريدًا

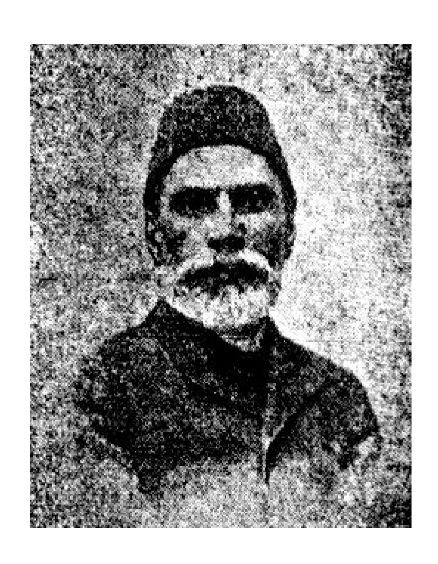


الشيخ خليل اليازجي.

في بابه، نعني «الصحيح بين العامي والفصيح»، رأيناه يشتغل بجمعه في القاهرة سنة ١٨٨٨، يفسر الألفاظ العامية أو التعبيرات العامية بألفاظ وتعابير فصيحة، ولا نعلم مصير هذا الكتاب الآن.[٨]

(٢) **عبد الله باشا فكري المصري توفي سنة ١٨٨٩/١٣٠٧هـ:** هو من نوابغ المصريين في الأدب والشعر، تقلب في مناصب الحكومة وهو عامل على الدرس والمطالعة، وأتقن اللغة والفقه والحديث والمنطق، وتعلم التركية، وسافر بمعية الخديوي إسماعيل إلى الأستانة لأداء فريضة الشكر على ولايته، ورافقه إليها غير مرة، ثم كلَّفه مراقبة تعليم أنجاله وتدريبهم، وأدى مهمات أخرى ذات بال في المالية والمكاتب الأهلية، وتعيَّن أخيرًا وكيلًا لنظارة المعارف سنة ١٨٧٨ / ١٢٩٦هـ، ونال رتبة أمير الأمراء، ثم صار ناظرًا للمعارف، ولما انقضت الثورة العرابية كان ممن اتُّهِم بالاشتراك فيها، فأثبت براءته فخُلِّي سبيله، ثم حج ورحل إلى سوريا وزار مدنها وآثارها، وانتدبته الحكومة سنة ١٨٨٨ / ١٣٠٦هـ لرئاسة الوفد لحضور المؤتمر الشرقي الذي عُقِد في استوكهلم. ولما عاد أخذ في تدوين رحلته فاعترضه المرض، وأدركته الوفاة ولم يتمها، فأتمها ابنه أمين

باشا فكري الآتي ذكره، ونشرها سنة ١٨٩٢هـ، وفيها كثير من نظم المؤلف غير المقالات والخطب، وله فضلًا عن ذلك كتاب تعليمي اسمه الفصول الفكرية للمكاتب المصرية طُبِع مرارًا، وتعريب المملكة الباطنية عرَّبها عن التركية طُبِعت سنة ١٢٩٠.[٩]



عبد الله باشا فكري.

(٣) **أسعد طراد البيروتي توفي سنة ١٣٠٨/١٨٩١هـ:** هو من أسرة شهيرة في بيروت، نبغ منها غير واحد من الشعراء والأدباء والكتَّاب، وهو من خيرة الشعراء، كان يتردد على الشيخ ناصيف اليازجي، وقد تحداه في أساليبه الشعرية، وله ديوان طُبِع في بيروت، وفيه قصائد في وصف بعض المخترعات العصرية.

(٤) **الشيخ إبراهيم الأحدب الطرابلسي توفي سنة ١٣٠٨/١٨٩١هـ:** وُلِد في طرابلس الشام، وأقام في بيروت، وتفقه بالعلوم اللسانية والأدبية، وعلَّم في البلدين وتقلد مناصب عالية، قضى في رئاسة كتَّاب بيروت بضعًا وثلاثين سنة، وحرَّر في ثمرات الفنون مدة، وخلف آثارًا جمة ظهر منها:

(أ) فرائد اللآل في مجمع الأمثال: وهو نظم أمثال الميداني وشرحها، طُبِع في بيروت سنة ١٣١٢هـ.

(ب) منظومات تبلغ نحو ٨٠٠٠٠ بيت في ثلاثة دواوين.
(ج) وله مقامات وروايات جاء ذكرها في مقدمة طبعة فرائد اللآل.

(٥) **الشيخ علي الليثي المصري توفي سنة ١٨٩٦ / ١٣١٣هـ:** هو من أشعر شعراء القرن الماضي، وكان متمكنًا من اللغة والأدب، قرَّبه الخديوي إسماعيل، وجعله شاعر المعية، وكان يرافقه في حله وترحاله، وكان معاصروه من الأدباء والشعراء يطارحونه ويكاتبونه، وكان لطيف العشرة، خفيف الروح، حسن الأسلوب، له منظومات كثيرة لم تُنشَر في كتاب.



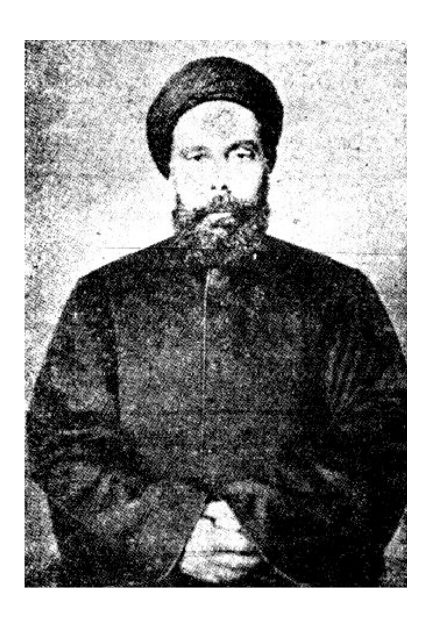
الشيخ علي الليثي.

(٦) **عبد الله نديم المصري توفي سنة ١٨٩٦ / ١٣١٤هـ:** هو أديب خطيب اشتهر في أثناء الحوادث العرابية؛ لأنه كان خطيبها، وُلِد في الإسكندرية ونشأ فيها، ولما تحركت الخواطر في أوائل ولاية الخديوي السابق كان عبد الله نديم في جملة المحرضين بالكتابة والخطابة في الجمعيات السياسية وغيرها، كما ذكرنا في باب الجمعيات، وأنشأ في أثناء ذلك مدرسةً شخَّص فيها روايتين: «الوطن»، و«العرب»، حضرهما الخديوي المذكور ونشطه بمئة جنيه، ومرمى الروايتين الانتقاد على حالة مصر من حيث استئثار الأجانب فيها، وأنشأ جريدة التنكيت والتبكيت الهزلية الجدية، ثم أبدلها بالطائف، وكانت تظهر في أثناء الثورة، ولما انقضت الثورة وحوكم العرابيون كان نديم مختفيًا، قضى في اختفائه عشر سنين، ثم ظهر وعُفِي عنه، وأنشأ مجلة الأستاذ ظهرت والهلال في عام واحد (سنة ١٨٩٢)، لكنها لم تتم العام على ظهورها لما فيها من النقد الشديد والتحريض، فقررت الحكومة إبعاده عن مصر، فذهب إلى الأستانة وأقام فيها إلى وفاته. وله آثار شعرية كثيرة غير ما تقدم ذكره، لم يُنشَر منها إلا كتاب سلافة النديم في منتخبات السيد عبد الله نديم، طُبِع بالقاهرة غير مرة.[١٠]

(٧) **شاكر شقير اللبناني توفي سنة ١٨٩٦ / ١٣١٤هـ:** هو من أسرة عريقة في النسب مشهورة في سوريا ومصر، وُلِد في الشويفات سنة ١٨٥٠، وكان شاعرًا مطبوعًا سريع الخاطر، وكاتبًا مُجِيدًا، وقد ساعد في إنشاء دائرة المعارف للبستاني، وعلَّم في كثير من المدارس السورية، وحرَّر في كثير من جرائد سوريا ومجلاتها، وكان عضوًا في المجمع العلمي الشرقي، وجاء مصر سنة ١٨٩٥، فأنشأ فيها مجلة «الكنانة» لم يطل بقاؤها، وقد عرَّب كثيرًا من الروايات عن الفرنساوية، وله قصائد كثيرة متفرقة، وأهم مؤلفاته:

(أ) مصباح الأفكار في نظم الأشعار: طبع في بيروت سنة ١٨٧٣.
(ب) منتخبات الأشعار: طبع سنة ١٨٧٦.
(جـ) لسان غصن لبنان في انتقاد اللغة العصرية:طبع في بيروت.
(د) أساليب العرب في الإنشاء: طبع في بيروت.
(هـ) ترجمة آثار الأمم لفولني.

(و) عرَّب عشرات من الروايات الأدبية عن الفرنساوية، وألَّف بعضها من عند نفسه، ووقف على طبع كتب هامة، وله تفنُّن في النظم، وأشعاره كثيرة لو جُمِعت لزادت على مجلدين كبيرين. وكان له أخ اسمه فارس له قريحة شعرية سيالة، وخلف منظومات متفرقة.



عبد الله نديم.

(٨) **عثمان بك جلال المصري توفي سنة ١٨٩٨/ ١٣١٦هـ:** كان أديبًا مطَّلِعًا على آداب الإفرنج، وارتقى في مناصب الحكومة الكتابية، واستصحبه الخديوي السابق في رحلته في القطر المصري، وتولى القضاء في محكمة الاستئناف، وله مؤلفات هامة بالنظر إلى هذه النهضة، نعني أنه وضع الروايات التمثيلية في لغة العامة، أهمها:

(أ) رواية ترتوف لموليير الفرنساوي: وضعها في قالب عربي بلغة عامة مصر، وسماها الشيخ متلوف، شُخِّصت على المراسح سنة ١٩١٢، وطُبِعت ونُشِرت.

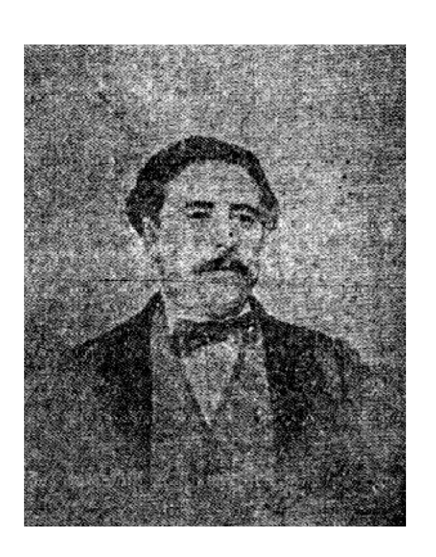
(ب) أمثال لافونتين: نقلها إلى العربية، ووضعها في شعر عربي، وسماها العيون اليواقظ في الأمثال والمواعظ، طُبِعت بمصر.

(ج) السياحة الخديوية في الأقاليم المصرية: أرجوزة طُبِعت بمصر سنة ١٢٩٧هـ.

(د) رواية بول وفرجيني: منقولة عن الفرنساوية — وغيرها.

(٩) **سليمان الصولة الدمشقي توفي سنة ١٨٩٩ / ١٣١٧هـ:** هو شاعر مطبوع نشأ في دمشق، ورحل إلى مصر في أيام محمد علي، وأخذ عن أئمتها اللغة، وتقلَّد بعض المناصب المصرية، وعاد إلى وطنه مع إبراهيم باشا لما سار لفتح سوريا، واستقر في دمشق، وتقلَّب في مناصب الدولة العثمانية، ثم عاد إلى مصر وتوفي فيها عن ٨٥ سنة، وقد جُمِعت أشعاره في ديوان طُبِع بمصر سنة ١٨٩٤.

(١٠) **جبرائيل دلال الحلبي توفي سنة ١٨٩٩ / ١٣١٧هـ:** هو سليل بيت من أقدم بيوتات حلب في الجاه والعلم، وُلِد فيها سنة ١٨٣٦، وبيت أبيه عبد الله مجتمع الأدباء والنبلاء، توفي أبوه وهو غلام، فاهتمت شقيقته بتعليمه في عنطورة، لم يمكث فيها طويلًا، لكنه كان قوي الحافظة كثير الاجتهاد، فلم يمضِ زمن حتى تعلم الفرنساوية والإيطالية والتركية، وأخذ في مطالعة كتب الأدب، وحفظ أحاسن أشعار العرب.



جبرائيل دلال الحلبي.

ومال إلى الموسيقى فأتقنها، وطالع العلوم العصرية وألَمَّ بأكثرها، وسافر إلى الأستانة وهو في العشرين من سنه ليرث عمًّا له توفي هناك، وعاد إلى حلب فتزوج وساح في أوربا وتفقد آثار الأندلس، وعاد إلى مرسيليا، فماتت قرينته هناك فأسف عليها كثيرًا،

وعمد إلى الأسفار، واستقر أخيرًا في باريس، وأخذ في تحرير جريدة الصدى التي كانت تصدر بباريس في العربية سنة ١٨٧٧، وتعرَّف هناك بخير الدين باشا التونسي، فاتخذه نديمًا له أو كاتبًا ليده، ولما انتُدِب خير الدين للصدارة في الأستانة كلَّف جبرائيل لإنشاء جريدة ينشر فيها آراءه السياسية، فصدرت جريدة السلام ولم يطل عمرها، وفي سنة ١٨٨٢ انتُدِب للتعليم في مدرسة فينا الملكية، وعاد بعد سنتين إلى حلب ثم بيروت، ومنها إلى الأستانة، فتعين أمين مجلس المعارف، ثم اتُّهِم بنظم قصيدة اسمها العرش والهيكل تنتقد سياسة عبد الحميد، فقُبِض عليه وزُجَّ في السجن، فبقي فيه حتى توفي سنة ١٨٩٩، وكان شاعرًا بليغًا لم يخلف من الآثار غير ما نشر في الجريدتين المذكورتين، وغيرهما من الجرائد المعاصرة، وقد ألَّف قسطاكي بك حمصي كتابًا فيه سماه السحر الحلال في شعر الدلال طُبِع سنة ١٩٠٣.

(١١) **الشيخ نجيب الحداد اللبناني توفي سنة ١٨٩٩ / ١٣١٧هـ:** وُلِد سنة ١٨٦٧، ووالده سليمان الحداد ووالدته بنت الشيخ ناصيف اليازجي، فرُبِّي في مهد الأدب، وورث مَلَكة الشعر من جديه، ورضع لبان النظم والنثر من خاليه.

وقد نظم الشعر قبل أن يدرك الحلم، وكان مع ذلك منشئًا بليغًا مع ميل إلى الصحافة، فحرر في جريدة الأهرام إلى سنة ١٨٩٤، ثم اعتزلها وأنشأ جريدة لسان العرب بالإسكندرية، وتولى رئاسة تحريرها، وحرر جرائد أخرى، ويجوز عده من الصحافيين، لكن الشاعرية غالبة عليه، وتوفي في عنفوان الشباب، وامتاز عن أكثر معاصريه من الأدباء بتعريب أو تأليف الروايات التمثيلية، وأكثرها يُمثَّل على المراسح العربية حتى الآن، وهاك أشهر آثاره:

(أ) رواية صلاح الدين: أصلها تأليف ولتر سكوت، فسبكها الحداد في قالب تمثيلي.

(ب) رواية السيد: هي من مؤلفات كورنيل الكاتب الفرنساوي، فنقلها إلى اللسان العربي، وسماها «غرام وانتقام»، وقد مُثِّلت مرارًا.

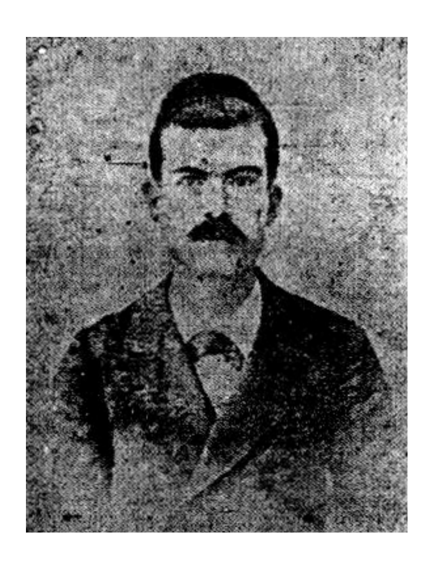
(ج) رواية المهدي: وهي تشخيصية تاريخية، مثَّل فيها بعض حوادث المهدي السوداني.

(د) رواية حمدان: عرَّبها عن رواية أرناني لفكتور هوكو.

(هـ) رواية شهداء الغرام: عرَّبها عن روميو وجوليت لشكسبير.

(و) رواية الرجاء بعد اليأس.

(ز) رواية البخيل: معرَّبة.



الشيخ نجيب الحداد.

(ح) رواية غصن البان.
(ط) رواية ثارات العرب.
(ي) رواية الفرسان الثلاثة لإسكندر دوماس: نقلها إلى العربية.

وكل هذه الروايات مطبوعة، فضلًا عن مقالاته في الصحف التي حررها، وقد جُمِعت نخبة منها في كتاب اسمه منتخبات الحداد مع كثير من شعره، طُبِع بمصر.[١١]

(١٢) **عائشة التيمورية توفيت سنة ١٩٠٢ / ١٣٢٠هـ:** هي شقيقة أحمد بك تيمور صاحب الخزانة التيمورية المتقدم ذكرها، وُلِدت في مصر سنة ١٨٤٠ / ١٢٥٦هـ، ونشأت من صغرها مائلة إلى الأدب والشعر، فعني والدها بتعليمها، فتعلمت العربية والفارسية فنالت منهما حظًّا وافرًا، وظهرت قريحتها الشعرية، فأخذت في مطالعة الأدب ولا سيما الدواوين، وتزوجت بمحمد توفيق بك بن محمود بك الإسلامبولي سنة ١٨٥٤ / ١٢٧١هـ، فشغلتها مهام الزواج عن المطالعة، فلما شبَّت ابنتها توحيدة عهدت إليها بمهام المنزل، وقد توفي والدها وزوجها، فتفرغت للمطالعة، وأتقنت النحو والعروض على فاطمة الأزهرية، وستيتة الطبلاوية، وأخذت في نظم الأزجال والموشحات والقصائد في اللغات

العربية والفارسية والتركية، وهي تهتم بنشر هذه المنظومات، توفيت ابنتها توحيدة فعظم ذلك عليها، وشُغِلت بالحزن والبكاء سبع سنين، ثم عادت إلى نشر آثارها التعليمية، وهاك ما عثرنا عليه منها:

(أ) شكوفة: هو ديوانها في التركية، طُبِع في الأستانة.
(ب) حلية الطراز: هو ديوانها العربي، طُبِع في مصر مرارًا.
(جـ) نتائج الأحوال: في الأدب، طُبِع بمصر.

(١٣) محمود باشا سامي البارودي توفي سنة ١٩٠٤ / ١٣٢٢هـ:



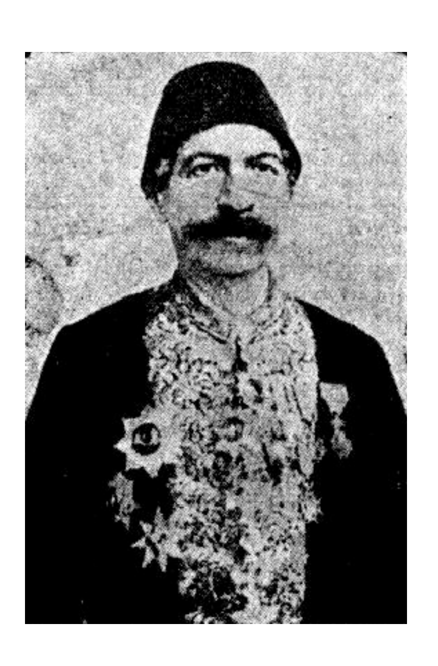
محمود سامي باشا البارودي.

هو شركسي الأصل مصري المولد، تلقى العلم في المدارس الحربية، وكان من صباه ميالًا إلى الشعر، وله مطمع في الرئاسة كما كان المتنبي، وكان يعرف التركية فنظم فيها،

وتقرب من أرباب الحل والعقد وهو يرتقي في الجندية، وتولى مهامَّ خطيرة في الأستانة، وشهد حرب الروس سنة ١٨٧٧، وترقى في مناصب الحكومة من مدير فما بعده، وبلغ في أثناء الثورة العرابية إلى رئاسة مجلس النظار.

ولعله كان طامعًا فيما وراءها، والمظنون أنه كان من أكبر المساعدين على اشتداد تلك الثورة، فلما احتل الإنكليز مصر كان في جملة الذين حوكموا، وحُكِم عليه بالنفي إلى سيلان سنة ١٨٨٢، ثم عُفِي عنه ورجع إلى مصر في أواخر القرن الماضي، وقد كف بصره، فتوفي سنة ١٩٠٤، وكان شاعرًا بليغًا يعترف له الشعراء بالرئاسة، ويعدونه في مقدمة الطبقة الأولى، وقد جُمِعت منتخباته في ديوان طُبِع بمصر.[١٢]

(١٤) **خليل الخوري اللبناني توفي سنة ١٩٠٧ / ١٣٢٥هـ:**



خليل الخوري.

وُلِد في الشويفات (لبنان)، وانتقل إلى بيروت وليس فيها مدارس عليا، فتعلَّم في بعض المدارس الصغرى، وساعده ذكاؤه ونشاطه على إتقان الفرنساوية والتركية، فأهَّله

ذلك لارتقاء المناصب السياسية حتى صار مديرًا للأمور الأجنبية في سوريا، وكانت له منزلة رفيعة لدى رجال الدولة، وليس ذلك سر تقدُّمه عندنا، وإنما هو مقدَّم بفضل يذكره له التاريخ؛ لأنه مؤسس الصحافة العربية في سوريا، فقد أنشأ فيها أول صحيفة عربية سنة ١٨٥٨، نعني «حديقة الأخبار»، وظلت تصدر إلى قبيل وفاته سنة ١٩٠٦.

وهو مع ذلك شاعر مطبوع ينزع في نظمه إلى الطريقة العصرية، واستحسن الإفرنج أسلوبه، فنقلوا منه شيئًا إلى الفرنساوية نُشِر في المجلة الأسيوية، وقد جُمِعت أشعاره في دواوين منها: «زهر الربى»، و«العصر الجديد»، و«الشاديات»، و«النفحات»، وكلها مطبوعة في بيروت، وتشتمل على ما نظمه إلى سنة ١٨٨٤، أما ما جادت به قريحته بعد ذلك فلم يُطبَع بعدُ، وله روايات أدبية.

ونقل عن التركية كتاب تكملة العبر لصبحي باشا، وهو تتمة تاريخ ابن خلدون، طُبِع في بيروت.

(١٥) **الشيخ حسين الجسر الطرابلسي توفي سنة ١٩٠٩ / ١٣٢٧هـ:** هو من خيرة أدباء طرابلس الشام في أواخر القرن الماضي، اشتهر على الخصوص بجريدة طرابلس، وكان له مريدون يحبونه ويقولون بقوله، وُلِد في طرابلس سنة ١٢٦١هـ، وتلقى مبادئ العلم على صهره الشيخ عبد القادر الرافعي، وأتم علمه في الأزهر، وعاد إلى بلده يشتغل بالمطالعة والتبحر والكتابة والتأليف، وفيه ميل على الخصوص إلى العلوم الفلسفية العقلية، وجعل وجهة عمله تطبيق العلوم الطبيعية والفلسفية على القواعد الدينية الإسلامية.

وما زال عاملًا حتى توفي سنة ١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩، وقد خلف آثارًا بعضها طُبِع، وبعضها لم يُطبَع، أما آثاره المطبوعة فهي:

(أ) رياض طرابلس: هي مجموعة في عشرة أجزاء كبيرة، جمع فيها نخبة ما كتبه في جريدته من المقالات العلمية والأدبية والاجتماعية.

(ب) سيرة مهذب الدين: في قالب رواية اجتماعية فيها نقد الأخلاق والعادات، نُشِرت في جريدة طرابلس.

(ج) رسائل مختلفة في مواضيع أدبية أو سياسية، ومنظومات في التربية ونحوها، وأما آثاره التي لم تطبع فهي:

- الكواكب الدرية في الفنون الأدبية: (البيان والبديع والإنشاء).

- كتاب الدفاع عن الدين الإسلامي.
- منظومات عديدة.

(١٦) **أبو حسن الكستي البيروتي توفي سنة ١٩١٠ / ١٣٢٨هـ:** كان من أصدقاء الشيخ إبراهيم الأحدب المتقدم ذكره في بيروت، وله ديوانان أحدهما طبع سنة ١٢٧٩هـ، والثاني طبع سنة ١٢٩٩هـ، وكان ظريف العشرة.

(١٧) **نجيب إبراهيم طراد توفي سنة ١٩١١ / ١٣٢٩هـ:** هو من أسرة طراد الشهيرة في بيروت، وكان من نوابغ الأدباء، تثقَّف في بيروت، وأتقن لغات عديدة في جملتها الألمانية، وتفقه في أهم علوم العصر، وحرر عدة جرائد في بيروت والإسكندرية ومصر، وترجم كثيرًا من الروايات الإفرنجية، وعلَّم في مدارس كثيرة، وتوظف في الحكومة المصرية، وتوفي في بيروت سنة ١٩١١، ومن آثاره غير الترجمات المتقدم ذكرها تاريخ مكدونيا، طُبِع في بيروت سنة ١٨٨٦، وتاريخ الرومانيين لم يُطبَع.[١٣]

(١٨) **الشيخ أمين الحداد اللبناني توفي سنة ١٩١٢ / ١٣٣٠هـ:** هو شقيق نجيب الحداد المتقدم ذكره، وكان يدانيه في قريحته الشعرية وأسلوبه الإنشائي، حرر في كثير من الجرائد والمجلات في الإسكندرية، ولا سيما البصير، وكان شاعرًا مطبوعًا جُمِعت أشعاره في ديوان طُبِع في الإسكندرية، وفي مصر، والشام، والعراق، وغيرها اليوم طبقة من الشعراء لا يشق لهم غبار، ويستحق كل قطر أن يفرد للكلام في شعرائه كتاب خاص.

كتب أدبية عصرية

ومن كتب الأدب التي ظهرت في هذا العصر ترجمة أو تأليفًا، وأصحابها لا يزالون في قيد الحياة طائفة حسنة نأتي على ذكرها استيفاءً للكلام في هذا الباب، وهي:

- حديث عيسى بن هشام لمحمد المويلحي.
- الريحانيات لأمين ريحاني
- في سبيل الحياة لصالح حمدي حماد.
- ليالي سطيح لحافظ إبراهيم.
- ليالي الروح الحائر لمحمد لطفي جمعة.
- النظرات لمصطفى لطفي المنفلوطي.
- علم الانتقاد لقسطاكي حمصي.
- مقالات علم الأدب للأب شيخو.

(٢) الموسيقى العصرية

حدث في هذه النهضة حركة فكرية موسيقية، وأصاب الموسيقى تغيير اقتضته الأحوال الاجتماعية، ونبغت طائفة من الموسيقيين أو المغنين إمامهم عبده الحامولي صاحب طريقة الغناء الحديثة بمصر، ولهذه الطريقة تاريخ خلاصته: أن رجلًا من أهالي حلب اسمه شاكر أفندي وفد إلى القطر المصري في المائة الأولى بعد الألف للهجرة، وكان فن الألحان فيه مجهولًا، فنقل إليه جملة تواشيح وقدود، وكانت هي البقية الباقية من التلاحين التي ورثها الحلبيون عن أهل الدولة العربية، فتلقاها عنه بعضهم وحفظوها، واشتد حرصهم عليها، وصار الواقفون عليها يحرمون الناس من تلقينها، لكنها بقيت بينهم على بساطتها الأصلية، فكانت قاصرة على أمهات المقامات، وبعض الفروع المقاربة لها، وكانت بالنسبة للغناء مثل حروف الهجاء بالنسبة للكلام.

وأقام المغنون في مصر على هذه الطريقة البسيطة لا يتصرفون فيها إلى عصر عبده الحمولي، فتلقاها منهم على أصلها وغنَّى بها مدة، ثم دفعته سجيته في الطرب وحسن ذوقه في الغناء إلى أن يتصرف فيها مع المحافظة على الأصل، وعدم الخروج عن دائرته، فأزال عنها بعض الجفوة، وما زال يرتقي في شهرته بحسن الغناء حتى ألحقه الخديو إسماعيل باشا بمعيته، فسافر معه إلى الأستانة مرارًا، وسمع هناك آلات الموسيقى التركية، وجلب إسماعيل باشا في عودته إلى مصر جماعة من أكابر المغنين فيها، فكان عبده يحضر معهم دائمًا في اشتغالهم بالغناء، فاستمالته ألحانهم، وأخذ ينتقي منها ما يلائم المزاج المصري ويناسب الطريقة العربية، ورأى المجال واسعًا له في الموسيقى التركية؛ إذ وجد فيها كثيرًا من النغمات التي لم يكن للمصريين علم بها، ولم تطرق آذانهم من قبلُ، مثل: النهاوند والحجاز كار والعجم وغيرها، فنقلها إلى الغناء المصري، ثم التفت إلى بقية مصطلحات الغناء في الطبقات المختلفة من ذلك العصر، مثل: المنشدين المشهورين بأولاد الليالي (الفقهاء)، والعوالم (القيان)، والمداحين (الضاربين بالدفوف)، والتقط منهم ما استنسبه فأضافه مع المختار من الغناء التركي، وخلطه بالطريقة القديمة فجعلها طريقة جديدة خاصة به، وظهر في مصر وفيها شيوخ المغنين فصار شيخًا عليهم، وقد دعاهم جهلهم بما صنع إلى استنكار طريقته في أول الأمر، ولكن ما لبث الناس أن ذاقوا حلاوتها وطلاوتها، فعمَّ استحسانها، وذهب استنكارها، وانتصر بحسنها عليهم، وله فيها من التلاحين أشياء كثيرة.

عبده الحمولي المصري توفي سنة ١٩٠١ / ١٣١٩هـ

وُلِد في طنطا سنة ١٨٤٥ وأبوه يتاجر في البن، وكان لعبده شقيق اختصم مع أبيه، ففر بأخيه هائمًا في الأرياف، فآواهما رجل كان يشتغل بالغناء ويضرب على القانون، وسمع صوت عبده فأطربه وعاد به إلى طنطا، وكان يغني معه، ثم جاء به إلى مصر، واشتهر عبده واتسع رزقه، وكان في مصر رجل اسمه المقدم مشهور بالغناء اجتذبه إليه، فاشتغل في تخته على طريقة الغناء المعروفة يومئذٍ، ثم أخذ يتفنن في الغناء على أساليب خاصة به وتُنسَب إليه، وتمكَّن من التوفيق بين المزاجين التركي والمصري.



عبده الحمولي.

وكان أهل الطبقة الحاكمة في المصريين من الأصل التركي لا يطربون للغناء المصري، ولا يلتفتون إليه، لكن عبده وفق الألحان على طريقة حبَّبت إلى الأتراك سماعها، وكان المصريون لا يطربون إلى الغناء التركي، ولا يروقهم غير التوجع والأنين، فأصبحوا يطربون لما يلائمهم من الأنغام التركية، فهو معدل المزاجين بين الأمتين، وبلغ من الشهرة والوجاهة في عصره ما لم ينله سواه، وكان مقدَّمًا عند إسماعيل يتسابق العظماء والأمراء إلى استرضائه.[١٤]

ونبغ بعد الحمولي أو عاصرته طبقة من المغنين لكل منهم طريقة تُعرَف به، منها طريقة الشيخ يوسف المنيلاوي المتوفى منذ عامين، وطريقة الشيخ سلامة حجازي في الإنشاد، وهو مشهور في ذلك حتى أصبح اسمه علمًا لطريقته، وقِسْ على ذلك الطرق الأخرى لكثيرين من المغنين الأحياء بمصر.

أما من حيث فن الموسيقى نفسه، فالأفكار متجهة اليوم إلى إحيائه على الطريقة العصرية بأسلوب علمي تُربَط به الألحان بالعلامات والأنغام كما فعل الإفرنج في ألحانهم، وقد حاول ذلك غير واحد ولا يزالون عاملين في هذا السبيل، ولم ينضج هذا العمل بعدُ، وقد ظهرت عدة كتب في هذا الموضوع بالعربية، وتناقش أرباب هذه الصنعة في الجرائد والمجلات، ولا تزال الهمة مبذولة في هذا السبيل، وأنشأ بعضهم في مصر معهدًا للموسيقى العربية لترقية هذا الفن بالتعليم والمذاكرة، والتنقيب عن المؤلَّفات العربية الخاصة به وبالموسيقى الإفرنجية، وإلقاء المحاضرات والدروس وغير ذلك، لكنه لا يزال في أوله ولم تظهر أعماله، وأُنشِئ معهد لمثل هذا الغرض في الإسكندرية.

هوامش

(١) تجد أمثلة من الشعر العصري في الهلال، صفحة ٤٩٨ سنة ١٣.

(٢) ترجمة حياته وأمثلة من نظمه في مشاهير الشرق ٢٧٥ ج٢ (ط٢).

(٣) ترى ترجمته وأمثلة من شعره في مشاهير الشرق ٢٧٨ ج٢ (ط٢).

(٤) تجد ترجمته وأمثلة من أشعاره في تراجم مشاهير الشرق ٢٨٢ ج٢ (ط٢).

(٥) تفصيل ترجمته في كتاب الصحافة العربية ١١٩ ج٢، وتاريخ الآداب العربية للأب شيخو صفحة ٩٨ ج١.

(٦) تجد ترجمته وأمثلة من أقواله في مشاهير الشرق ٢٨٥ ج٢ (ط٢).

(٧) تجد ترجمته وأمثلة من أشعاره في مشاهير الشرق ٢٨٩ ج٢ (ط٢).

(٨) تفصيل ترجمته وأمثلة من أشعاره في تراجم مشاهير الشرق ٢٩٨ ج٢ (ط٢).

(٩) ترجمته الوافية في تراجم مشاهير الشرق ٣٠٥ ج٢ (ط٢).

(١٠) تفصيل ترجمته في مشاهير الشرق ١٠٥ ج٢ (ط٢).

(١١) ترجمته وأمثلة من نظمه في مشاهير الشرق ٣٢٥ ج٢ (ط٢).

(١٢) تفصيل ترجمته في تراجم مشاهير الشرق ٣٣٣ ج٢ (ط٢).

(١٣) تجد تفصيل ترجمته في الصحافة العربية ١٨٤ ج٢.

(١٤) تجد تفصيل ترجمته في تراجم مشاهير الشرق ٣٤١ ج٢ (ط٢).

علوم اللغة في النهضة الأخيرة

أكثر ما ظهر من علوم اللغة في العصر الأول من هذه النهضة لا يخرج عما كُتِب قبله، وأكثره تلخيص أو شرح أو تعليق على كتب القدماء، وظلت الحال على ذلك في مصر إلى عهد غير بعيد، أما في سوريا فحدثت في اللغة وعلومها حركة بين المسيحيين، وكانوا إلى ذلك العهد قلما يشتغلون في اللغة، وقَلَّ مَن أَلَّف منهم فيها، وإذا أَلَّفوا فلا يُلتفَت إلى تأليفهم، ولا يُوثَق بأقوالهم، وكانت المدارس على اختلاف أديانها تعلِّم اللغة في الكتب القديمة كالآجرمية، وابن عقيل، والأشموني، والصبان، والحريري، ونحوها.

فلما ظهر اليازجي الكبير في أواسط القرن الماضي، وقد تكاثرت المدارس النصرانية في بيروت، ولا سيما الأميركان — قربوا اليازجي، وعولوا عليه في تصحيح مسودات ترجمة التوراة وغيرها، فألَّف أرجوزته ومقاماته، وأخذوا في تعليمها في مدارسهم، وقد لاقى اليازجي مشقة قبل رسوخ قَدَمه بين اللغويين، وهان على غير المسلمين بعده الاشتغال بعلوم اللغة، وقد أعانهم على ذلك تعويل المدارس النصرانية على كتبهم.

ثم ظهر أحمد فارس الشدياق الآتي ذكره، فنظر في اللغة نظرًا تحليليًّا، ووضع كتابه «سر الليال في القلب والإبدال» على نسق جديد سرد فيه الأفعال والأسماء الأكثر تداولًا، ورتَّبها بالنظر إلى التلفُّظ بها لإيضاح تناسبها وتجانسها لفظًا ومعنى، وألَّف كتاب «الفارياق أو الساق على الساق» على أسلوب جديد في اللغة العربية.

وبعد انتشار مذهب النشوء والارتقاء في سوريا أصاب علوم اللغة شيء منه، فتولَّد علم الفلسفة اللغوية، وظهر أول كتاب فيه سنة ١٨٨٦ في بيروت لمؤلف هذا الكتاب، وهو بحث تحليلي في أصل اللغة وكيف تكونت بالتدريج، وظهر له بعد ذلك كتاب تاريخ اللغة العربية سنة ١٩٠٤، ومداره النظر في اللغة العربية باعتبار أنها كائن حي قابل للارتقاء بالنمو والدثور، وألَّف في الفلسفة اللغوية أيضًا جبر ضومط أستاذ اللغة العربية في المدرسة الكلية الأميركية، فظهر له كتاب «الخواطر» في اشتقاق اللغة وصِيَغها، بحث فيه بحثًا فلسفيًّا، وكذلك كتابه الخواطر الحسان في المعاني والبيان، وفلسفة البلاغة، والخواطر العراب في النحو والإعراب، وفك التقليد في الصرف. ثم تولَّد علم تاريخ آداب اللغة، وقد تكلمنا عنه في مقدمة الجزء الأول من هذا الكتاب.

أما فيما خلا ذلك، فالعلوم اللغوية قلما أصابها تغيير إلا في بعض الكتب المدرسية من حيث ترتيب أبوابها لتسهيل تناولها على الطلاب.

(١) علماء اللغة في النهضة الأخيرة

علماء اللغة في أوائل هذه النهضة أكثر مؤلفاتهم شروح وحواشٍ — كما كان أهل العصر العثماني — وآخر هؤلاء الشيخ أحمد السجاعي المتوفى سنة ١٧٨٢ / ١١٩٧هـ، فإن له عدة مؤلفات من هذا القبيل، وهاك أشهر علماء اللغة بعد دخول القرن التاسع عشر في القطرين المصري والسوري حسب سني الوفاة، وقد أدخلنا فيهم بضعة من العلماء لا يدخلون في الأبواب الأخرى:

(١) **الشيخ محمد الدسوقي توفي سنة ١٨١٥ / ١٢٣٠هـ:** هو محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي المالكي، وُلِد في دسوق من أرياف مصر، وجاء القاهرة فتثقف على علمائها، ومن جملتهم حسن الجبرتي والد الشيخ عبد الرحمن الجبرتي المؤرخ، فتمكَّن من العلوم الإسلامية، وبعض العلوم الرياضية كالهيئة والهندسة والتوقيت، وتصدَّر للإقراء في الأزهر، وكان قادرًا في إظهار المعاني، وخلف مؤلفات حسنة بعضها حجة في هذه العلوم، هاك أهمها:

(أ) حاشية الدسوقي على مغني اللبيب في النحو، طبعت بمصر سنة ١٢٨٦هـ في مجلدين.

(ب) حاشيته على سعد الدين التفتازاني في البلاغة، طبعت بمصر سنة ١٢٧١هـ في مجلدين.

(٢) **إلياس بقطر القبطي المتوفى سنة ١٨٢١/١٢٨٦هـ:** هو صاحب المعجم الفرنساوي العربي المعروف باسمه، أصله قبطي مصري، ولما جاءت الحملة الفرنساوية إلى مصر كان في مقتبل العمر، فاستُخْدِم مترجمًا في جندها، ورحل معها إلى باريس، واشتغل بترجمة الأوراق العربية التي أرجعتها الحملة معها، وتعيَّن أستاذًا للغة العربية في مدرسة اللغات الشرقية في باريس، فكلَّفوه وهو هناك بتأليف معجم فرنساوي عربي، فوضع ذلك المعجم وأتمه سنة ١٨١٤، وما زال ينقحه ويهذبه حتى توفي، فاهتم القوم بطبعه، فظهر سنة ١٨٢٨، ثم طُبِع ثانية وثالثة وهو مشهور.

(٣) **الشيخ حسن العطار المصري توفي سنة ١٨٣٤ / ١٢٥٠هـ:** أصل عائلته من المغرب، لكنه وُلِد في القاهرة، وكان أبوه عطارًا، ورآه راغبًا في حبه العلم فأعانه على تحصيله، فبرع فيه وتعلم مبادئ الهيئة والعمل بالإسطرلاب وغيرهما، وجاء الفرنساويون مصر وهو في الثانية والثلاثين من عمره، فاتصل بأناس منهم فتعلم بعض العلوم العصرية، وعلَّمهم اللغة العربية، ثم رحل إلى الشام وغيرها، وعاد إلى مصر وتولى التدريس في الأزهر، وتولى مشيخته، وتقرب إلى محمد علي، وقد تقدَّم في ترجمة السيد إسماعيل الخشاب ما كان بينهما من الصداقة، ثم توفي سنة ١٢٥٠هـ، وقد خلف آثارًا حسنة في أهم علوم اللغة وهي:

(أ) إنشاء العطار: في الإنشاء، طُبِع بمصر مرارًا.

(ب) منظومة في النحو شرحها تلميذه الشيخ حسن قويدر الآتي ذكره.

(جـ) ديوان ابن سهل الإسرائيلي: جمعه وبوَّبه، طُبِع بمصر سنة ١٢٧٩هـ وغيرها.

(د) حاشية على شرح الأزهرية: في النحو، طُبِعت بمصر مرارًا.

(هـ) حاشية على السمرقندية:في البلاغة، طُبِع بمصر سنة ١٢٨٨هـ.

(و) مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس:هو للجبرتي على ما يظهر، وفيه جانب من منظوم العطار ومنثوره مما يناسب هذا الموضوع، منه نسخة في المكتبة الخديوية.

(٤) **الشيخ حسن قويدر الخليلي المتوفى سنة ١٨٤٥ / ١٢٦٢هـ:** هو حسن بن علي قويدر، أصل أجداده من المغرب، نزحت عائلته إلى فلسطين وأقامت فيها، وجاء علي إلى مصر فوُلِد له حسن سنة ١٧٨٩ / ١٢٠٤هـ، وتفقه في الأزهر على الشيخ العطار المتقدم ذكره والباجوري، واشتهر في اللغة والأدب وهو لا يزال يتعاطى تجارة أبيه بين مصر والشام، ويشتغل في ساعات الفراغ بالتأليف والشروح، وذكروا أنه أرَّخ وفاته وهو مريض سنة ١٢٦٢هـ بقوله: «رحمة الله على حسن قويدر»، وكان عالمًا بأسرار اللغة وآدابها، وهاك أهم مؤلفاته:

(أ) نيل الأرب في نظم مثلثات العرب: يشتمل على ما يثلث من الألفاظ، منظومة في أرجوزة مطلعها: «يقول من أساء واسمه حسن»، طُبِعت بمصر سنة ١٣٠٢هـ في صدرها ترجمة المؤلف بقلم محمد فني، وقد ترجمت هذه المثلثات إلى اللغة الإيطالية بقلم ڤيتو المستشرق، وطُبِعت الترجمة في بيروت.

(ب) شرح منظومة العطار: في النحو مشهورة.

(جـ) زهر النبات في الإنشاء والمراسلات: لم يُطبَع.

(د) رسالة الأغلال والسلاسل في مجنون اسمه عاقل: انتقد فيها رجلًا اسمه عاقل انتحل قصيدة لسواه، منه نسخة في المكتبة الخديوية.

وتجد أمثلة من منظوم قويدر ومنثوره في كتاب أعيان البيان للسندوبي.

(٥) **ناصيف المعلوف اللبناني توفي سنة ١٨٦٥ / ١٢٨٢هـ:** هو من أسرة معلوف الشهيرة في سوريا ومصر، تفقه في سوريا حتى أتقن اللغات العربية والفرنساوية واليونانية والإيطالية.

وسافر إلى أزمير يعلِّم أبناء أحد وجهائها، ثم سافر إلى إيطاليا، وانتظم في سلك أساتذة اللغات الشرقية في البروبوغاندة، وهو شديد الكلف بدرس اللغات، فأتقن الإنكليزية والتركية واليونانية الحديثة، قضى في تلك المهمة نحو عشر سنوات، زار في أثنائها أهم عواصم أوربا، وألَّف كتبًا تعليمية يحتاج إليها الطلاب في تلك المدرسة وفي غيرها، وتولى مهام أخرى في لندن وغيرها، وتردَّد إلى أزمير غير مرة، وتوفي بجوارها فريدًا وحيدًا، وقد نال وسامات الدولة العلية، وعضوية جمعيات كثيرة، وأتقن ست لغات غير العربية، ألَّف فيها كلها ٢٧ كتابًا أكثرها كتب تعليمية لغوية، وكثير منها طُبِع غير مرة.[١]

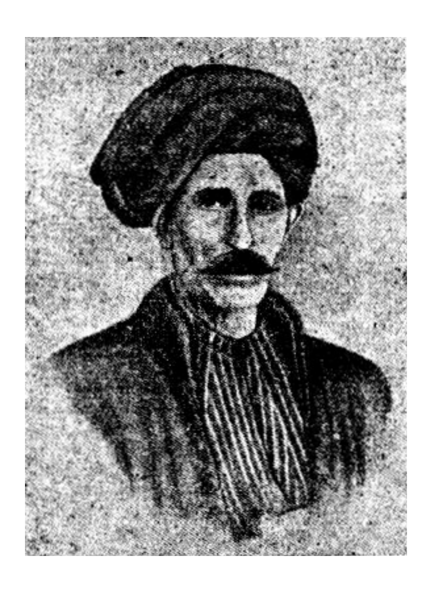


ناصيف المعلوف.

(٦) **الأمير محمد أرسلان اللبناني توفي سنة ١٨٦٨ / ١٢٨٥هـ:** هو الأمير محمد بن الأمير أمين من أسرة أرسلان الشهيرة في لبنان، وُلِد في الشويفات سنة ١٨٣٤، وأتقن اللغة العربية واللغات الأجنبية، وفوضت إليه الحكومة إدارة الغرب الأسفل وهو في الخامسة عشرة بمناظرة والده، ولما مات والده سنة ١٨٥٨ انتقل إلى بيروت وتوطنها، وتفرغ للتأليف وتنشيط الأدب، وكان منزله كعبة الأدباء والعلماء يعضد طلاب العلم، وقد مدحه معاصروه الشعراء، وفاجأته المنية وهو في إبان شبابه، وقد خلف آثارًا مخطوطة في علوم اللغة على اختلاف مواضيعها وفي الأدب لم تُطبَع، وكان من كبار مؤسسي الجمعية العلمية السورية، وتولى رئاستها سنة ١٨٦٨، وفي تلك السنة طُلِب إلى الأستانة وتوفي على عجل.

(٧) **الشيخ ناصيف اليازجي اللبناني توفي سنة ١٨٧١ / ١٢٨٨هـ:** هو عميد بيت اليازجي، وركن من أركان النهضة العلمية في سوريا، وهو أشهر من أن يُعرف لما كان

له من القِدْح المُعَلَّى في اللغة والشعر والأدب، وقد تقدَّم أنه أول من راجت كتبه اللغوية في المدارس العربية من النصارى، وُلِد في كفر شيما (لبنان) سنة ١٨٠٠، واتصل بالأمير بشير الشهابي سنة ١٨٢٨ فاستكتبه وقربه، فخدمه نحو ١٢ سنة، فلما نُفِي الأمير سنة ١٨٤٠ انتقل ناصيف إلى بيروت مع عائلته، وتفرغ للمطالعة والتأليف والتعليم ومراسلة معاصريه من الشعراء والأدباء، وتخرَّج عليه طبقة من الأدباء نبغ كثيرون منهم في العلم أو التجارة أو السياسة أو غيرها.



الشيخ ناصيف اليازجي.

وكان حجة في اللغة والأدب وهو مطبوع على الشاعرية، وله في شعره أسلوب سهل، وكثير من أشعاره جرت مجرى الأمثال لشيوع مؤلفاته بين أيدي الطلاب، ولا سيما في سوريا، وقد مضى دهر ليس بين أدباء سوريا مَن لا يحفظ لليازجي قصيدة أو مقامة، وهاك مؤلفاته:

(أ) دواوينه: فيها مجموع أشعاره، وهي مطبوعة ومشهورة.

(ب) مجمع البحرين: هو مقامات على نسق مقامات الحريري، طُبِعت مرارًا.
(ج) فصل الخطاب: في الصرف والنحو.
(د) الجمانة: في علم الصرف.
(هـ) جوف الفرا: في النحو.
(و) الجمان في علم البيان.
(ز) نقطة الدائرة: في العروض.
(ح) قطب الصناعة: في المنطق.

وكل هذه الكتب مشروحة بقلم المؤلف ومطبوعة مرارًا، وأكثرها يُعلَّم في المدارس، وهي عبارة عن أهم علوم اللغة العربية، وله أراجيز في مواضيع مختلفة، ومؤلفات أخرى لم تُطبَع.[٢]

(٨) **أبو الوفاء نصر الهوريني المصري المتوفى سنة ١٨٧٤ / ١٢٩١هـ:** هو من تلاميذ الإرساليات المصرية في زمن محمد علي، تفقه في فرنسا وأقام فيها مدة، ثم عاد إلى مصر، وله من المؤلفات:

(أ) كتاب المطالع النصرية للمطابع المصرية في الأصول الخطية، طُبِعت بمصر مرارًا.
(ب) وكتاب تسلية المصاب على فراق الأحباب، منه نسخة خطية في المكتبة الخديوية.

(٩) **أحمد فارس الشدياق اللبناني توفي سنة ١٨٨٧ / ١٣٠٥هـ:** هو من أركان النهضة العلمية الأخيرة، أصله ماروني من عائلة عريقة في النسب في لبنان، وُلِد في عشقوت سنة ١٨٠٤، ثم انتقل والده إلى الحدث بجوار بيروت فشب فيها، وتعلم في عين ورقة بلبنان، وتلقى اللغة العربية على أخيه أسعد، ودخل أخوه في المذهب الإنجيلي على أيدي المبشرين الأميركان، فاضطهده أهله وكهنتهم حتى مات قهرًا في محبسه، فغضب فارس وفر إلى مصر، أتم فيها علمه، وحرر في الوقائع المصرية حينًا كما تقدم، ثم رحل إلى مالطة سنة ١٨٣٤ في خدمة المرسلين الأميركان لتصحيح مطبوعاتهم هناك، ثم سافر إلى لندن للمساعدة في ترجمة التوراة كما ذكرنا، ثم تعرَّف إلى باي تونس، وسافر إليه فأكرمه وقدَّمه فأسلم، وسُمِّي أحمد، وانتقل إلى الأستانة، وأصدر الجوائب سنة ١٨٦٠ / ١٢٧٧هـ، وقد تقدم ذكرها بين الصحف، واتسعت شهرته من ذلك الحين.

وكان متبحرًا في علوم اللغة، وله قريحة شعرية، لكنه امتاز بمعرفته الواسعة في مواد اللغة، وسهولة أسلوبه في الإنشاء، وإرسال عبارته بالنسبة إلى لغة ذلك العصر، وله مؤلفات هامة تحتاج إلى بحث وأعمال فكرة وهي:

(أ) سر الليال في القلب والإبدال: تقدَّم ذكره.

(ب) الفارياق أو الساق على الساق: وهو لغوي فكاهي، صورته في الظاهر وصف أسفاره، وانتقاد جماعة الأكليروس انتقامًا لما فعلوه بأخيه أسعد بأسلوب جديد لم يسبقه إليه أحد في اللغة العربية، ويورد في أثناء الكلام مجموعات من الألفاظ المترادفة في كل موضوع، لكنه تجاوز فيه حد المجون إلى ما ينفر منه أدباء هذا العصر.

(ج) الجاسوس على القاموس: انتقد فيه قاموس الفيروزابادي.

(د) كشف المخبأ عن فنون أوربا: يصف فيه رحلته إليها بأسلوب لطيف.

(هـ) الواسطة في أحوال مالطة: يصف بها هذه الجزيرة وأهلها.

(و) اللفيف في كل معنى ظريف: في الأدب.

(ز) غنية الطالب: في الصرف والنحو للتعليم.

(ح) الباكورة الشهية في نحو اللغة الإنكليزية للتعليم.

(ط) السند الراوي في الصرف الفرنساوي للتعليم.

(ي) شرح طبائع الحيوان: نقله عن الإنكليزية.

وكل هذه الكتب مطبوعة في الأستانة، وناهيك بجريدة الجوائب فإنها خدمت اللغة العربية مدة طويلة، وخلف آثارًا لم تُطبَع، منها ديوان شعر، وتراجم المعاصرين، وألَّف كتابًا في اللغة سماه «منتهى العجب في خصائص لغة العرب» يدخل في عدة مجلدات عن خصائص حروف الهجاء، ذهب فريسة النار.[٣]

(١٠) **عبد الهادي نجا الإبياري المصري توفي سنة ١٨٨٨ / ١٣٠٦هـ:** هو من أكبر علماء مصر في القرن التاسع عشر، ومن أعظم الكتَّاب والمؤلفين، وُلِد في أبيار الغربية سنة ١٨٢١، ومال إلى الدرس فجاور في الأزهر، وجد في طلب العلوم الإسلامية واللغوية، فأدرك منها شأوًا بعيدًا، وذاعت شهرته فاستدعاه الخديوي إسماعيل لتثقيف أبنائه، وجعله الخديوي السابق إمامًا للمعية ومفتيها، وما زال في هذا المنصب حتى توفي، وكان

شاعرًا وأديبًا ولغويًّا ثقة، يُرجَع إليه في حل المشكلات، وله مخابرات ومراسلات مع معاصريه من الشعراء والأدباء في سائر العالم العربي، وهاك مؤلفاته:

(أ) سعود المطالع: جمع فيه ٤١ فنًّا في شرح لغز باسم إسماعيل على نسق غريب، وجعله تحفة للخديوي إسماعيل، طُبِع بمصر سنة ١٢٨٣ في مجلدين.

(ب) نفح الأكمام في مثلثات الكلام: طبعت بمصر سنة ١٢٧٦هـ.

(ج) الوسائل الأدبية في الرسائل الأحدبية: مكاتبات في مواضيع شتى بينه وبين الشيخ إبراهيم الأحدب.

(د) الكواكب الدرية في نظم الضوابط العلمية.

(هـ) نيل الأماني في توضيح مقدمة القسطلاني.

(و) الباب المفتوح لمعرفة أحوال الروح: تصوف.

ومن مؤلفاته المهمة التي لم تُطبَع:

(أ) كتاب ترويح النفوس على حواشي القاموس.

(ب) القصر المبني على حواشي المغني.

(ج) حيح المعاني في شرح منظومة البلياني.

(د) الفواكه في الأدب.

(هـ) الدورق في اللغة.

(و) النجم الثاقب في المحاكمة بين البرجيس والجوائب.

(١١) **الكونت رشيد الدحداح اللبناني توفي سنة ١٨٨٩/١٣٠٧هـ:** هو من أسرة وجيهة في لبنان نبغ فيها غير واحد من الأدباء والشعراء، وتولى كثيرون منهم المناصب السياسية والكتابية في حكومة لبنان، لكن رشيد امتاز بتعشق العلم. وُلِد سنة ١٨١٣ / ١٢٢٩هـ، وخدم حكومة لبنان في شبابه، ثم نفر من فساد الأحوال فنزح إلى مرسيليا سنة ١٨٤٥، واشترك في التجارة هناك مع حميه الشيخ مرعي الدحداح إلى سنة ١٨٥٢، فاشتغل بالتجارة مع أخيه سلوم، وأخيرًا انقطع للأدب، وسكن باريس وأنشأ فيها جريدة البرجيس (أو برجيس باريس)، وتقدم لدى الحكومة الفرنساوية، واتصل بباي تونس لما جاء باريس، ومدحه بلامية عارض فيها لامية كعب، فأجازه واصطحبه وجعله ترجمانًا له وكلَّفه أمورًا هامة.

ثم عاد إلى باريس واستقر فيها واتسعت حاله، فابتنى قصرًا واتخذ أبعادية، وقضى سائر حياته في المطالعة واقتناء الكتب والبحث فيها، ونشر المؤلفات النافعة، فنشر معجم جرمانوس فرحات، وقد ذكرنا في ترجمة هذا المطران مقدار ما عاناه الدحداح من التعب في تنقيح تلك الطبعة والتعليق عليها، ونشر شرح ابن الفارض للبوريني والنابلسي، ونشر فقه اللغة وغيره — كأنه يقلد المستشرقين في نشر الكتب النافعة — وله مؤلَّفات أهمها «قمطرة طوامير» طُبِع في فينا سنة ١٨٨٠، وفيه مقالات أدبية وفوائد لغوية، وله تاريخ كبير سماه «سيار المشرق في بوار المشرق» لم يُطبَع، وله منظومات حسنة، وجمع مكتبة نفيسة فيها خيرة الكتب العربية لم يرغب أبناؤه في استبقائها، فعُرِضت للبيع ونحن في باريس صيف ١٩١٢، فتفرَّقت كتبها.[٤]

(١٢) **صديق حسن القنوجي الهندي توفي سنة ١٨٨٩ / ١٣٠٧هـ:** اشتهر في الهند واتصل بخدمة ملوكها، وتزوج ملكة بهوبال وناب عنها، واشتغل بالعلم وجمع مكتبة نفيسة، وله مؤلفات كثيرة باسمه، يقال إنه كلَّف بعض العلماء بتأليفها، ووضع اسمه عليها كلها أو بعضها، وهي:

(أ) فتح البيان في مقاصد القرآن: طُبِع بمصر سنة ١٣٠٢هـ في عشرة أجزاء.
(ب) الإذاعة لما كان ويكون بين يدي الساعة: طُبِع في بهوبال سنة ١٢٩٣هـ.
(ج) نيل المرام في تفصيل آيات الأحكام: طُبِع في لكناو الهند سنة ١٢٩٢.
(د) البلغة في أصول اللغة: طُبِع في بهوبال سنة ١٢٩٤هـ.
(هـ) نشوة السكران: طُبِع في بهوبال سنة ١٢٩٤هـ.
(و) غصن البان المورق بمحسنات البيان: طُبِع في بهوبال سنة ١٢٩٤هـ.
(ز) لف القماط على تصحيح ما استعملته العامة من العرب والدخيل والأغلاط.
(ح) لقطة العجلان: في اللغة، طُبِع في الأستانة.
(ط) أبجد العلوم: وهو كتاب نفيس يشبه كشف الظنون في موضوعه لكنه على ترتيب آخر، طُبِع في الهند سنة ١٢٩٦هـ في ٣ مجلدات كبيرة.
(ي) خبيئة الأكوان في افتراق الأمم على المذاهب والأديان: طُبِع في الأستانة.
(ك) حسن الأسوة بما ثبت عن الله ورسوله في النسوة.

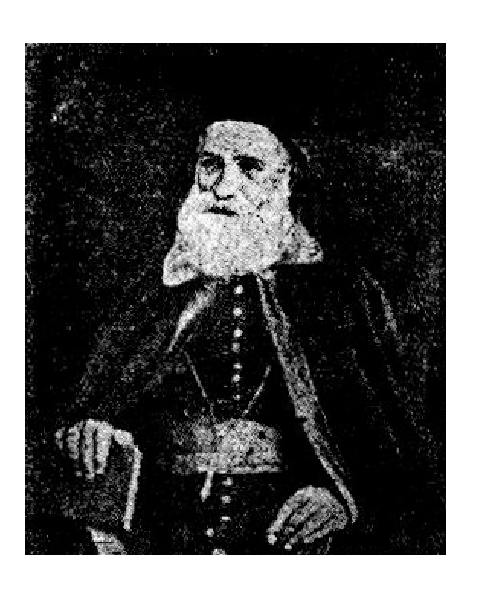
وتُنسَب إليه كتب أخرى.

(١٣) **الشيخ حسين المرصفي المصري توفي سنة ١٨٨٩ / ١٣٠٧هـ:** هو الشيخ حسين بن أحمد المرصفي، تلقى العلم في الأزهر، وكان كفيف البصر، وبلغ من ذكائه واجتهاده أنه تولى التدريس فيه، وله مؤلفات هامة هي:

(أ) الكلم الثمان: في الأمة والوطن والحكومة، والعدل والظلم، والسياسة والحرية والتربية، وهو يمثل حال الأمة المصرية في أيامه، طُبِع سنة ١٢٩٨هـ.

(ب) الوسيلة الأدبية في العلوم العربية: طُبِع بمصر سنة ١٢٩٦هـ.

(١٤) **المطران يوسف داود السرياني توفي سنة ١٨٩٠ / ١٣٠٨هـ:**



المطران يوسف داود.

هو من كبار علماء القرن الماضي في اللغات والأدب والتاريخ، أصل عائلته من الموصل، ونشأ فيها وتعلم في مدارسها، وأُرسِل بعد ذلك إلى رومية سنة ١٨٤٥ للتبحر في العلوم اللاهوتية وغيرها، فأكبَّ على درس العلوم الدينية والرياضية والطبيعية والعقلية والتاريخية وغيرها، وتعلم اللغات اللاتينية والإيطالية والعبرانية واليونانية والفرنسية

والإنكليزية والألمانية، وأتم اللغة السريانية والكلدانية، ثم سيم قسيسًا سريانيًّا سنة ١٨٥٥، وما زال يرتقي حتى صار مطرانًا، وأقام في دمشق وهو يشتغل في خدمة العلم بحثًا وتأليفًا، فضلًا عن خدمة طائفته، حتى زادت مؤلفاته على خمسين مؤلَّفًا في اللغات المتقدم ذكرها، في مواضيع مختلفة أهمها لقراء هذا الكتاب:

(أ) اللمعة الشهية في نحو اللغة السريانية: لتعليم هذه اللغة لأبناء العرب، طُبِع غير مرة.

(ب) كتاب التمرنة في الأصول النحوية: بالعربية، في مجلدين.

(ج) تروض الطلاب في علم الحساب: مطول.

(د) علم الجغرافية في العربية.

(هـ) علم التاريخ الكنائسي في العربية.

(و) القصارى في حل ثلاث مسائل تاريخية لغوية في جملتها لغة المسيح، وهو جزيل الفائدة. وهناك طائفة من الكتب الجدلية والمذهبية في العربية وغيرها.[٥]

(١٥) **الشيخ إبراهيم اليازجي اللبناني توفي سنة ١٩٠٦ / ١٣٢٤هـ:** هو ابن الشيخ ناصيف المتقدم ذكره، وُلِد في بيروت سنة ١٨٤٧، ونشأ فيها بين المكاتب والمحابر، وتلقى العلم على أبيه، وأكبَّ على المطالعة بنفسه، فأتقن اللغة العربية وأوضاعها وسائر علومها، وامتاز عن معاصريه بأسلوبه الإنشائي لجمعه بين المتانة والسهولة، فضلًا عن صحة العبارة، وكان في عصره حجة اللغة وإمام الإنشاء، قضى شبابه في بيروت يعلِّم الناشئة علوم اللغة في المدرسة البطريركية، وتخرَّج عليه طائفة من الأدباء، وقد تقدَّم أن أباه أعان عالي سميث والدكتور فانديك في تنقيح ترجمة التوراة الأميركية مع الأسير والبستاني، فاستعان اليسوعيون على تنقيح ترجمتهم بالشيخ إبراهيم، وهي الترجمة الكاثوليكية المتقدم ذكرها، طُبِعت في مطبعتهم، وهي أصح سائر ترجمات التوراة عبارة وأضبط تركيبًا.

واشتغل بالصحافة مرارًا فحرر المصباح في بيروت سنة ١٨٧٣، والطبيب سنة ١٨٨٤ مع الدكتور بشارة زلزل والدكتور سعادة، وانتقل سنة ١٨٩٤ إلى مصر، وأنشأ مجلة البيان مع الدكتور زلزل سنة ١٨٩٧، ثم استقل بإصدار مجلة الضياء، وظلت تصدر إلى عام وفاته سنة ١٩٠٦، وفيها أبحاث جليلة في اللغة والتعريب، وأغلاط العرب القدماء، وأصول اللغات السامية، وأغلاط المولدين، ومقالات فلكية ورياضية هامة، ومن مؤلفاته الهامة:



الشيخ إبراهيم اليازجي.

نجعة الرائد في المترادف والمتوارد: في مجلدين طُبِع بمصر سنة ١٩٠٦، وله منظومات في غاية البلاغة منشورة في الضياء وغيرها، منها مجموعة لم تُطبَع بعدُ، ويُنسَب إليه كثير من الأوضاع العربية للمصطلحات الحديثة ذكرناها في ترجمته المطولة في تراجم مشاهير الشرق صفحة ١١٩ ج٢ (طبعة ثانية)، وله فضل على الطباعة لا يمحوه كرور الأيام؛ لأنه كان جميل الخط، دقيق صناعة الحفر، فاصطنع أمهات الحروف العربية في بيروت، وأكثر مطبوعاتها ومطبوعات مصر الآن مسبوكة على المثال الذي رسمه.

(١٦) **سعيد الشرتوني اللباني توفي سنة ١٩١٢ / ١٣٣٠هـ:** هو من أساتذة اللغة العربية، وُلِد في شرتون لبنان سنة ١٨٤٨، وتعلم أولًا في مدرسة عبية الأميركية، ووجَّه عنايته إلى اللغة العربية حتى تمكَّن منها، وقضى معظم حياته وهو يعلمها في مدرسة اليسوعيين في بيروت، وألَّف كتبًا مدرسية كثيرة لتعليم هذه اللغة، لكنه اشتهر بمعجمه العربي «أقرب الموارد»، صدر في مجلدين كبيرين سنة ١٨٨٩، ثم ألحقه بثالث كالذيل استدرك فيه أمورًا، وهو على نسق محيط المحيط للبستاني.

(١٧) **محمد النجاري المصري توفي سنة ١٩١٤ / ١٣٣٢هـ:** وُلِد بمصر ونشأ فيها، وارتقى في مناصب حكومتها إلى القضاء في المحكمة المختلطة، وكان فيه ميل إلى الأدب واللغة، فألَّف في ساعات الفراغ معجمًا مطولًا في الفرنساوية والعربية في خمسة مجلدات طُبِع بمصر، واشتغل في وضع معجم لسان العرب والفيروزآبادي على ترتيب جديد في معجم واحد على نسق لم يسبقه إليه أحد في العربية؛ لأنه رتَّب موادهما على الأبجدية مثل محيط المحيط بدون أن يلتفت إلى الاشتقاق، فيذكر المادة كما هي بدون تجريدها، فلفظ «كتب» يضعه في حرف الكاف، أما «مكتب» ففي حرف الميم، واجتمع له في أثناء عمله نحو ٣٠٠٠ لفظة مشتركة بين العربية والفرنساوية، ولم يُطبَع بعدُ.

كتب لغوية للمعاصرين

ومن كتب اللغة للأحياء المعاصرين:

- الاشتقاق والتعريب: لعبد القادر المغربي.
- تاريخ أدب العرب: لمصطفى الرافعي.
- تاريخ الآداب العربية في القرن ١٩: للأب شيخو.
- تاريخ آداب اللغة العربية في العصر العباسي: للشيخ أحمد عمر الإسكندري
- تاريخ علم الأدب: لحفني بك ناصف.
- أدبيات اللغة العربية: لمحمد نصار.

هوامش

(١) تفصيل ترجمته في كتاب دواني القطوف في تاريخ بني المعلوف، أو مشاهير الشرق ٢٣٢ ج٢.

(٢) تفصيل ترجمة حاله وأمثلة من أشعاره في تراجم مشاهير الشرق ٩ ج٢ (ط٢).

(٣) تفصيل ترجمته في مشاهير الشرق ٨١ ج٢ (ط٢).

(٤) تفصيل ترجمته في كتاب الصحافة العربية ١٠٠ ج١.

(٥) تفصيل ترجمته في مشاهير الشرق ٢٢٣ ج٢ (ط٢).

الإنشاء في النهضة الأخيرة

الأسلوب الإنشائي العصري

إن كلامنا عن الشعر فيما تقدم ينطبق على الإنشاء؛ لأنهما من باب واحد، فكان تأثير هذه النهضة عليهما على شكل واحد، ولعل هذا التأثير ظهر في الإنشاء أكثر من ظهوره في الشعر، نعني أن الكتَّاب أخذوا يعولون فيما يكتبونه على المعاني أكثر مما فعل الشعراء، وكان الإنشاء في أواخر العصر العثماني قد أصبح المعول فيه على الألفاظ بين سجع واستعارة وتورية وجناس، بحيث يتعذر عليك الوصول إلى المعنى؛ لما يتلبد حوله من الصور المبهمة. فلما أتتنا هذه المدنية بعلومها الطبيعية والرياضية المبنية على المشاهدة والاختبار، وتعوَّد الناس تقدير الوقت بتقريب المسافات، وأخذت الحرية في الشيوع — أصبح الأدباء ينفرون من استعمال ما لا حقيقة له، ويستنكفون من إضاعة الوقت في السجع البارد، أو تكرار الألقاب والنعوت لمجرد التفخيم، وهان عليهم العدول إلى الحقيقة بحيث يكون همُّ الكاتب موجَّهًا بالأكثر إلى المعنى المراد إيضاحه؛ فأخذت هذه الروح تسري بين الكتَّاب من أواسط هذا العصر، لكنهم لم يتفقوا على أسلوب واحد يتحدونه، فهم مجمعون على أن الطريقة المدرسية المشوشة — كما وصلت إلينا — لا تنفع لغموضها وطولها، فتركوها واختلفوا في الأسلوب الذي يعولون عليه فيما يلائم روح هذا العصر، فرجعوا إلى تحدي أساليب القدماء، فبعضهم تحدى أسلوب صدر الإسلام، وآخرون قلَّدوا أساليب صدر الدولة العباسية، ولا سيما أسلوب ابن المقفع — وهو الغالب على أقلامهم لسهولته ومتانته — على أن بعضهم يتوخى أسلوب ابن خلدون في مقدمته، وآخرون يقلدون الجاحظ أو غيره.

ذلك شأن الكُتَّاب المنشئين الذين يهمهم تنميق العبارة، ولا سيما في المواضيع الخطابية التي تحتاج إلى تقريع أو تهديد، أو إرهاب أو ترغيب، أما في المواضيع العمومية فقد نشأ في الإنشاء أسلوب عصري بسيط لا يرى أصحابه حاجة إلى تنميق العبارة، والتأنق في التركيب، وإنما يجعلون همهم إيضاح المعنى وإيصاله إلى ذهن القارئ بسهولة، وفيهم من يبالغ في إهمال الصناعة اللفظية، ولو أخلَّ بالإعراب واستعمل العامي من الألفاظ، وهذا غلو يُفسِد اللغة ويضيعها، فيجب مع توخي السهولة في الإنشاء المحافظة على قواعد اللغة وروابطها.

أساليب التأليف

وتطرق تغيير هام إلى أسلوب التأليف في هذه النهضة يلائم روح هذا العصر اقتداء بأصحاب هذه المدنية، وإليك مميزات التأليف أو الإنشاء في هذا العصر:

(١) سلاسة العبارة وسهولتها بحيث لا يتكلف القارئ إعمال الفكرة في تفهُّمها.

(٢) تجنُّب الألفاظ المهجورة والعبارات المسجعة، إلا ما يجيء عفوًا ولا يثقل على السمع.

(٣) تقصير العبارة وتجريدها من التنميق والحشو؛ حتى يكون اللفظ على قدر المعنى.

(٤) ترتيب الموضوع ترتيبًا منطقيًّا في حلقات متناسقة يأخذ بعضها برقاب بعض، وتنطبق أوائلها على أواخرها.

(٥) تقسيم المواضيع إلى أبواب وفصول، وتصدير كل باب أو فصل بلفظ أو عبارة تدل على موضوعه.

(٦) تذييل الكتب بفهارس أبجدية تسهِّل البحث عن فروع الموضوع الأصلي، وقد يجعلون للكتاب الواحد عدة فهارس، واحد للمواضيع، وآخر للأعلام، وآخر لغير ذلك.

(٧) تنويع أشكال الحروف على مقتضى أهمية الكلام، فيجعلون للمتن حرفًا، وللشرح حرفًا، وللرءوس حرفًا.

(٨) تسمية الكتب باسم يدل على موضوعها، كتسمية كتاب تاريخ مصر بتاريخ مصر، وكتاب الكيمياء بالكيمياء، وكتاب النحو بالنحو، وأبطلوا التسجيع في أسمائها.

(٩) يزينون المؤلفات بالرسوم، ويضبطون الألفاظ بالحركات عند الاقتضاء.
(١٠) إذا أرادوا إسناد الكلام إلى كتاب أو كاتب أشاروا إلى ذلك في ذيل الصحيفة.
(١١) يفصلون الجمل بنقط أو علامات يدلون بها على أغراض الكاتب، كالوقف والتعجب والاستفهام أو نحو ذلك، وعلامات لحصر الجمل المعترضة، أو تمييز بعض الأحوال.

هذه أهم مميزات التأليف في هذه النهضة، وكان بعضها معروفًا من قبلُ، على أن كثيرين من كتَّابنا لا يزالون يقلِّدون القدماء في طُرُقهم.

التراكيب الأعجمية

وأسلوب الإنشاء العصري المشار إليه تطرَّق إليه تراكيب أعجمية اقتبسها الكُتَّاب من اللغات التي ينقلون عنها أو يطالعونها وهم لا يشعرون، لكن أساتذة اللغة ينكرونها، وبلغاء الكتَّاب يتجنبون الوقوع فيها، هاك أمثلة منها:

(١) فلان كلاهوتي يقدر أن يؤثر كثيرًا.
(٢) رأيت صديقي فلانًا الذي أعطاني الكتاب (أيْ فأعطاني).
(٣) رغمًا عن مساعيه الحميدة لم ينجح في عمله.
(٤) مستمدًّا العناية من الله أقف بينكم خطيبًا.
(٥) لعب فلان دورًا مهمًّا في هذه المسألة.
(٦) المعاهدة المصادق عليها من الدولة الفلانية.
(٧) إن الأمر الفلاني مضر بقدر وشرف ومالية فلان.
(٨) يوجد في بلاد الحجاز عدة جبال.
(٩) هذه المصيبة أعطته درسًا نافعًا.

غير ما دخل اللغة من الألفاظ الأعجمية أو العامية، وقد فصَّلنا ذلك في كتابنا تاريخ اللغة العربية.

لغة الدواوين

وهناك أسلوب من الإنشاء تطرَّق إلى اللغة في هذه النهضة، نعني أسلوب دواوين الحكومة المصرية المشهور بركاكته، ويرجع هذا الأسلوب في أصله إلى العصر العثماني؛ إذ بلغت مصر غاية الانحطاط في أحوالها الاجتماعية والسياسية والعلمية، فلم ينقضِ القرن الثامن عشر حتى أصبحت لغة الكتابة أشبه بلغة العامة مع ما يتخللها من الألفاظ الأعجمية، كما يظهر ذلك في إنشاء المؤلفين من أهل تلك الفترة كالجبرتي ومعاصريه، ولما جاء الفرنساويون مصر كان في حملتهم جماعة من التراجمة يتوسطون بينهم وبين الأهلين، ويترجمون لهم المنشورات والمراسلات، والظاهر أن هؤلاء التراجمة كان بعضهم من غير أبناء هذه اللغة، فإذا ترجموا عبارة صاغوها في قالب أعجمي، وما لم يجدوا له لفظًا عربيًّا تركوه على لفظه الإفرنجي، أو وضعوا له لفظًا عاميًّا.

فلما أفضت الولاية إلى محمد علي رأس الأسرة الخديوية، وأخذ في إنشاء الدواوين لم يكن له غنى عمن يترجم بين حكومته وحكومات أوربا، فاستخدم التراجمة، واللغة لا تزال في انحطاطها وركاكتها، والذين يعرفون أساليبها ويحفظون أوضاعها قليلون، ولا سيما في الذين استخدمهم لأعمال الحكومة، أو ترجمة أوامرها، فدخل لغة الحكومة ألفاظ وتراكيب خاصة بها، ولما استنار الناس على أثر نشر الصحافة، ونبغ الكتَّاب والمنشئون في أواخر القرن الماضي انتظم جماعة منهم في مصالح الحكومة، وأخذوا في تنقيح لغة الدواوين من تلك الشوائب، ولا يزالون يفعلون ذلك.[١]

الإنشاء الصحافي

وهناك ضرب من الإنشاء اقتضته الحاجة إلى تفهيم العامة — نعني إنشاء الصحف — وقد تقلب على أطوار شتى، ومَن يطالع الصحف العربية ويقابل قديمها بحديثها، ينبسط لديه تاريخ الإنشاء الصحافي وتدرُّجه في الارتقاء، كان في أول أمره كما تقدم من ركاكة الإنشاء، ثم أخذ يتدرج في أسلوبه وألفاظه حتى صار إلى ما هو عليه الآن.

وللإنشاء الصحافي تاريخ طويل يقال في إجماله: إن أول مَن حسنه من رجال الصحافة الشيخ أحمد فارس الشدياق في الجوائب، والبستاني في الجنان، ولما زهت الصحافة في زمن إسماعيل خَطَا الإنشاء خطوة هامة على يد أديب إسحق، فإنه اتخذ أسلوبًا تحداه فيه الكتَّاب، ودخل الإنشاء روح سياسية حماسية بسبب الحركة السياسية

الوطنية في أواخر أيام إسماعيل، وأوائل أيام توفيق، ولا سيما بعد نزول جمال الدين الأفغاني وادي النيل والتفاف الكتَّاب حوله، وارتقى الإنشاء خطوة أخرى في العصر الأخير باتجاه الخواطر إلى اللغة العربية والجامعة العربية، ونبغت طبقة بليغة من الكتَّاب الصحافيين المعاصرين، وصار الإنشاء الصحافي على إجماله واضحًا مقسَّمًا مبوَّبًا، خاليًا من المقدمات والخاتمات، بلا تسجيع ولا تورية أو تفخيم، وإليك أشهر الصحافيين في هذه النهضة.

الصحافيون بمصر والشام

المشتغلون في الصحافة العربية في هذه النهضة كثيرون؛ إذ لم ينبغ أديب أو شاعر أو عالم أو مؤرخ أو قانوني إلا كتب في جريدة أو مجلة، لكن تراجمهم تدخل في أبواب آداب اللغة الأخرى، وإنما نذكر في هذا الباب الذين تغلبت الصحافة فيهم على سواها، أو كان لهم فيها شأن خاص، وهذه تراجمهم مرتبة على سني الوفاة، ولم ينبغ أحد منهم قبل عصر إسماعيل:

(١) **أبو السعود توفي سنة ١٨٧٨ / ١٢٩٥هـ:** هو عبد الله أبو السعود بن الشيخ عبد الله، وُلِد في دهشور سنة ١٨٢٠ / ١٢٣٦هـ، وأصله من جبال برقة، تفقه في المدارس التي أنشأها محمد علي، ثم أُلحِق بمدرسة الألسن سنة ١٢٣٩هـ على يد رفاعة بك الطهطاوي، وتقدَّم في سار العلوم اللغوية والرياضية والفقه؛ لأنه كان يحضر في الأزهر، وأتقن اللغة الفرنساوية والإيطالية، وأخذ في التعليم وتصحيح تراجم الكتب الرياضية وغيرها، وهو يرتقي في الرتب حتى تعيَّن في ترجمة ديوان المدارس، وفي أول ولاية سعيد باشا سنة ١٢٧٠هـ جُعِل رئيس قلم عرضحالات بالمالية، وصار في زمن إسماعيل ناظر قلم ترجمة ديوان المدارس، وعلَّم التاريخ بدار العلوم الخديوية، ثم تعيَّن من أعضاء مجلس الاستئناف إلى أن توفي سنة ١٢٩٥هـ، وهو أول من أنشأ صحيفة سياسية عربية غير رسمية بمصر — نعني جريدة «وادي النيل» كما تقدَّم — واشتغل بنقل الكتب عن الإفرنجية، وألَّف كتبًا مفيدة، وهاك أهم آثاره:

(أ) نظم اللآلي في السلوك في مَن حكم فرنسا من الملوك: طُبِع بمصر سنة ١٢٥٧هـ، وفي ذيله جدول لمقابلة تاريخ الهجرة مع تاريخ الميلاد من أول الهجرة إلى سنة ١٣٠٠هـ.

(ب) الدرس التام في التاريخ العام: طُبِع بمصر سنة ١٢٨٩هـ.

(ج) قناصة أهل العصر في خلاصة تاريخ مصر (القديم): أصله تأليف ماريت باشا بالفرنساوية، ونقله أبو السعود إلى العربية بأمر نظارة المعارف، طُبِع سنة ١٢٨١هـ.

(د) ديوان شعر طُبِع بمصر، وفيه كثير من المنظومات المولَّدة كالموالي والموشحات.

(هـ) أرجوزة في سيرة محمد علي في نحو ألف بيت.

(و) منحة أهل العصر بمنتقى تاريخ مصر: لخصه عن الجبرتي.

(ز) قانون المحاكمات: ترجمة عن الفرنساوية والإيطالية، طُبِع بمصر سنة ١٢٨٣هـ في مجلدين، وله ترجمات أخرى جاء ذكرها في مكان آخر.

(٢) **رزق الله حسون الحلبي توفي سنة ١٨٨٠ / ١٢٩٨هـ:** أصله أرمني فارسي، وُلِد في حلب سنة ١٨٢٥، وتفقه في دير بزمار (لبنان) في العلوم الدينية، ثم أتقن اللغات الفرنساوية والتركية والأرمنية والعربية والرياضيات، وكان قوي الحافظة، ثم عاد إلى حلب، وتعاطى التجارة حينًا ونفسه تتطلب العلى، فرحل إلى أوربا وطاف عواصمها، واستنسخ بعض الكتب من مكاتبها الشرقية، وجاء الأستانة، واتصل بخدمة الحكومة، وكان بينه وبين معاصريه من الأدباء مساجلات، ثم نشبت حرب القرم بين روسيا والدولة فأنشأ سنة ١٨٥٥ «مرآة الأحوال» في الأستانة، وهي أول جريدة عربية غير رسمية في العالم كله، وصف فيها حرب القرم فذاعت شهرته، فلما جاء فؤاد باشا سوريا على أثر حوادث سنة ١٨٦٠ جاء معه رزق الله لترجمة المناشير والأوامر، وعاد معه إلى الأستانة، ثم رافقه إلى لندن ورجع معه، وتولى نظارة الجمرك في الأستانة، فاتُّهِم بالاستيلاء على أموال الجمارك وسُجِن مع آخرين، ثم فر إلى روسيا، وحمل على الحكومة العثمانية في الجرائد، ونزل لندن فأعاد مرآة الأحوال للشكوى من عمال الحكومة، وكان يكتبها بخطه، ويطبعها على الحجر سنة ١٨٧٧، وأصدر أيضًا مجلة عربية سمَّاها «رجوم وغساق إلى فارس الشدياق»، وأصدر مجلة أخرى شعرية في لندن سنة ١٨٧٩، وكانت نزعته السياسية انتقاد عمال الدولة وطلب إصلاحها، ثم انقطع إلى نسخ الكتب، وتصحيح حروف الطباعة العربية في أوربا، وهذه آثاره:

(أ) النفثات: تعريب قصص حكيمة لكريلوف الروسي وغيره، طُبِعت في لندن سنة ١٨٦٧.

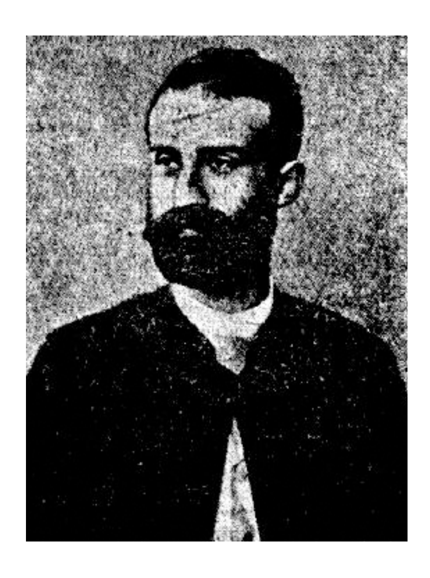
(ب) أشعر شعر: نظم سفر أيوب، ونشيد الأناشيد، وسفر الجامعة، ومراثي أرميا، وغيرها، طُبِع في بيروت سنة ١٨٧٠.

(ج) السيرة السيدية: شرح الأناجيل الأربعة، طُبِع في بيروت.
(د) رسائل في الطباعة العربية، وكتاب المشمرات وحسر اللثام، وغيرها.[٢]

(٣) **سليم البستاني اللبناني توفي سنة ١٨٨٤ / ١٣٠٢هـ:** نعني سليم بن بطرس البستاني الآتي ذكره بين أصحاب الموسوعات، وكان سليم عونًا كبيرًا لأبيه في مشروعاته العلمية في إدارة المدرسة، وتحرير الجنان، وإدارة المطبعة، وكان قلمه سيالًا ولا سيما في المواضيع الصحافية، ويكتب في الجنان على الخصوص المقالات الضافية في السياسة والاقتصاد والأدب، ولا يخلو عدد منه من مقالة افتتاحية سياسية بقلمه، وقد ألَّف عدة روايات تمثيلية وقصصية أكثرها نُشِر في الجنان، كرواية الإسكندر، وقيس وليلى، والهيام في جنان الشام، وزينوبيا وغيرها، وترجم تاريخ فرنسا الحديث، وجاء مصر مرتين في سبيل مشاريع أبيه، وعاد مزوَّدًا بمكارم الخديوي إسماعيل ماديًّا وأدبيًّا في تعضيد الأدب، وتوفي بعد وفاة أبيه بقليل.

(٤) **أديب إسحق الدمشقي توفي سنة ١٨٨٥ / ١٣٠٣هـ:** وُلِد في دمشق سنة ١٨٥٦، وتعلم في مدرسة العازاريين، وظهرت قريحته وهو غلام فعكف على النظم، واضطر للخدمة في سبيل الرزق، فاستُخْدِم في الجمرك مدة تعلَّم في أثنائها اللغة التركية؛ فبعثت إلى ارتقائه، وهو لا ينفك عن المطالعة والتوسع في الأدب ولم يتجاوز الخامسة عشرة، واستقدمه والده إلى بيروت ليساعده في خدمة البريد، فعرف فيها جماعة من الأدباء، وأخذ يكتب في الجرائد، فظهرت قريحته الإنشائية التي اشتهر بها بعد ذلك، وبدأ بتأليف الروايات التمثيلية أو تعريبها مع صديقه سليم نقاش.

وانتقل إلى مصر في زمن الخديوي إسماعيل نصير الأدب وأهله، واجتمع فيها بجمال الدين الأفغاني، فاستفاد من نزعته السياسية، ودخل في جملة الداخلين في الحركة الوطنية، وأصدر جريدة مصر، فأعجب الناس بإنشائها، وأصبحوا يتحدثون بأسلوب أديب من ذلك الحين، وأحست الحكومة بما كان من تأثير جريدة مصر في النفوس فأقفلتها، فذهب إلى باريس وأصدرها هناك، وسمَّاها مصر القاهرة، فأثَّر برد باريس في صحته فعاد إلى بيروت مصدورًا، ثم جاء مصر سنة ١٨٨١ قبل الثورة العرابية، فتعيَّن رئيسًا لقلم الإنشاء في نظارة المعارف، وأعاد جريدة مصر، ولما أنشئ مجلس النواب تعيَّن كاتبًا فيه، ثم انفجرت الثورة فعاد إلى بيروت، وما زال يعالج الداء حتى مات سنة ١٨٨٥ وعمره ٢٩ سنة، وقد جُمِعت نخبة أقواله وأشعاره ومؤلفاته في كتاب سموه «الدرر» طُبِع غير مرة.[٣]



أديب أسحق.

(٥) **سليم وبشارة تقلا اللبنانيان توفي سليم سنة ١٨٩٢ / ١٣١٠هـ:** هما من مؤسسي الصحافة المصرية، وُلِد سليم في كفر شيما (لبنان) سنة ١٨٤٩، وتعلم مبادئ العلم في مدرسة القرية، ثم في عبية، فلما حدثت مذابح سنة ١٨٦٠ في لبنان انتقل مع أهله إلى بيروت، ودخل المدرسة الوطنية للبستاني وهو لا يستطيع دفع راتبها، فكان يشتغل فيها بما يقوم مقام ذلك الراتب، ونبغ حتى تعيَّن معلمًا في المدرسة البطريركية، ولم تقنع نفسه بذلك، وسمع بتقريب إسماعيل لرجال الأقلام، فرحل مع أخيه بشارة إلى مصر، وأنشأ جريدة الأهرام سنة ١٨٧٥ أسبوعية[٤] بالإسكندرية، ثم جعلاها يومية، وقد قاسَيَا في سبيل نشرها مشقات هائلة؛ لأن الناس لم يألفوا مطالعة الجرائد، لكنهما ثبتا في العمل وهي تزداد انتشارًا ونفوذًا وتقدُّمًا، والرتب تتوالى على صاحبيها.



سليم تقلا.

ولما توفي سليم سنة ١٨٩٢ استقل بشارة بها، ونقلها إلى القاهرة، وتوفي بشارة سنة ١٩٠١ فصارت إلى نجله جبرائيل، ولا تزال تصدر إلى الآن.[٥]

(٦) **يوسف الشلفون اللباني توفي سنة ١٨٩٦ / ١٣١٤هـ:** وُلِد سنة ١٨٣٩ وعائلته من أقدم عائلات لبنان المارونية، وكان جده حاكمًا على ساحل لبنان في زمن الأمير بشير الثالث، وكان أول عهده بالصحافة أنه اشتغل بترتيب الحروف في مطبعة خليل الخوري صاحب حديقة الأخبار، وتعلَّم فن الطباعة واشتغل بها حينًا، ثم أنشأ مطبعة لنفسه، وعني في أثناء ذلك بإنشاء الصحف، فأنشأ الشركة الشهيرة سنة ١٨٦٦، والزهرة سنة ١٨٧٠، والنجاح سنة ١٨٧١، والتقدم، وهذه الأخيرة حرَّر فيها نخبة من الكتَّاب منهم أديب إسحق، وكلها تعطلت.



يوسف الشلفون.

(٧) **حسن حسني الطويراني توفي سنة ١٨٩٧ / ١٣١٥هـ:** يتصل نسبه بأمير من أمراء الأتراك في مكدونية، وُلِد في القاهرة سنة ١٨٥٠، وأقام في الأستانة مدة أنشأ فيها عدة جرائد ومجلات، ثم جاء القاهرة وأنشأ جرائد أخرى تعطلت كلها الآن، وألَّف كتبًا كثيرة بالعربية والتركية تُعَدُّ بالعشرات، نشر كثيرًا منها في مجلاته وجرائده، وكان كثير النظم سريع الخاطر، وله عدة دواوين لكل منها اسم، منها: ثمرات الحياة في مجلدين، وشطحات قلم، وطوالع الآمال، وغير ذلك، ونال رتبة أمير الأمراء (باشا)، وتوفي بالأستانة سنة ١٨٩٧ / ١٣١٥هـ، وكان واسع الاطلاع في تاريخ الدولة العثمانية وأحوالها.[٦]

(٨) **إبراهيم المويلحي المصري توفي سنة ١٩٠٦ / ١٣٢٣هـ:** هو من أكابر أئمة الإنشاء الصحافي، يرجع بنسبه إلى عائلة وجيهة خدمت الأسرة الخديوية في زمن محمد علي. نشأ إبراهيم في أول أمره تاجرًا مثل أبيه، فخسر ثروته بالمضاربة، فوهبه إسماعيل باشا مالًا استرجع به تجارته، وعيَّنه عضوًا في مجلس الاستئناف، ثم استقال وتقلَّب في مناصب أخرى ونفسه جانحة إلى الأدب والشعر، واشترك مع آخرين في تأسيس جمعية

المعارف لنشر الكتب النافعة كما تقدَّم، وأنشأ مطبعة لطبع تلك الكتب سنة ١٢٨٥هـ، ثم أنشأ جريدة نزهة الأفكار لم يصدر منها إلا عددان، وتردد إلى الأستانة مرارًا، وله شئون مع رجال حكومتها ورجال ما بينها يطول ذكرها، لكنه كان ميَّالًا بالأكثر إلى تحرير الجرائد بأسلوب من الإنشاء العصري عُرِف به، ولا سيما بعد أن طال اختباره رجال الدولة، وآخر جرائده «مصباح الشرق» كانت أسبوعية، لكن الأدباء كانوا يشتاقون لمطالعتها لحسن أسلوبها الإنشائي السياسي العمراني، وقلَّده فيه كثيرون كما قلَّد آخرون أسلوب أديب، وما زالت المصباح تصدر إلى وفاته، وله مقالات سياسية اجتماعية اسمها «ما هنالك» طُبِعت في كتاب ليس عليه اسمه، وصف بها حال الأستانة والمابين ورجاله قبل الدستور.[٧]



إبراهيم المويلحي.

(٩) **سليم عباس الشلفون البيروتي توفي سنة ١٩١٢ / ١٣٣٠هـ:** هو من أشهر صحافيي سوريا، وأكثرها اشتغالًا في الصحافة، فقد حرر في بضع عشرة صحيفة في سوريا ومصر، ولقي بلاء من تقلبات السياسة بمصر في أثناء الحوادث العرابية، فارتحل إلى أوربا والأستانة ثم عاد إلى بيروت، واشتغل ١٨ سنة في تحرير جريدة بيروت، ثم غيرها، وتوفي وهو من محرري لسان الحال.

(١٠) **الشيخ علي يوسف المصري توفي سنة ١٩١٣ / ١٣٣١هـ:** هو مؤسس الصحافة الإسلامية العصرية بمصر، نعني تأسيس جريدة المؤيد أشهر الجرائد الإسلامية، وأوسعها انتشارًا في أنحاء العالم الإسلامي، وقد تقدَّم في كلامنا عن الصحافة العربية ما نشأ من الشعور الوطني في عهد الاحتلال، وانقسام الكتَّاب إلى أحزاب وطنية واحتلالية وغيرها، وكان الشيخ علي ميَّالًا إلى الصحافة، وقد أنشأ مجلة الآداب سنة ١٨٨٥ بالاشتراك مع الشيخ أحمد ماضي، واتفق ظهور جريدة المقطم سنة ١٨٨٩ — وخطتها احتلالية — فأحس أدباء المصريين بحاجتهم إلى جريدة تمهِّد السبيل إلى إنقاذ مصر من الاحتلال، فوقع اختيارهم على محرري الآداب، فأصدروا المؤيد فنصرهما الوطنيون ماديًّا وأدبيًّا، لكن نصرتهم لم تمنع من قيام العقبات، وبعد قليل توفي الشيخ أحمد ماضي، واستقل الشيخ علي بالمؤيد، وثبت في تأييده، بذل في ذلك ما لا يقدر عليه رجل واحد، حتى بلغ ما بلغ إليه من الشهرة والنفوذ وسعة الانتشار في العالم الإسلامي، وخطته الدفاع عن الإسلام وحقوق المسلمين حيثما كانوا. ونال الشيخ علي من المنزلة الرفيعة ما ليس بعده غاية لمثله، فصار من خاصة القوم المقرَّبين من العرش الخديوي، وولاه سُمُوُّه مشيخةَ السجادة الوفائية.[٨]

ويضيق المقام عن ذكر كل من اشتغل بالصحافة، فإنهم يُعدون بالمئات، وبعضهم يجيء ذكرهم في الأبواب الأخرى، وأكثرهم لم يكن لاشتغالهم تأثير في الصحافة يستحق الذكر، ومن أراد التفصيل فَلْيطالع كتاب الصحافة العربية للكونت دي طرازي في بيروت، فإنه لم يغادر صحيفة من الصحف العربية إلا وفَّاها حقها من الشرح، وترجم صاحبها.

ونشأ في مصر وغيرها طبقة من الصحافة في اللغة العامية، أقدمها جريدة أبو نضارة التي كانت تصدر بمصر في زمن إسماعيل لصاحبها يعقوب صنوع المتوفى في باريس سنة ١٩١٢، فإنه انتقل بها إلى باريس، وأنشأ هناك سلسة جرائد هزلية بلغة عامية ذكرها صاحب الصحافة العربية (صفحة ٢٨١ ج٢)، ولا فائدة من ذكرها هنا.



الشيخ علي يوسف.

وتوالى إنشاء الصحف العامية في مصر، أو الفصول الهزلية في قالب الجد، وكان عبد الله نديم أكثر الكُتَّاب عملًا في ذلك في التنكيت والتبكيت وفي الأستاذ وغيرهما، وصدرت جرائد هزلية أخرى في بيروت وغيرها.

هوامش

(١) تجد تفصيل لغة الدواوين وأمثلة منها في كتابنا تاريخ اللغة العربية صفحة ٦٠–٦٢.

(٢) تفصيل ترجمته في مشاهير الشرق ١٤٣ ج٢ (ط٢).

(٣) تفصيل ترجمته في مشاهير الشرق ٧٥ ج٢ (ط٢).

(٤) وليس سنة ١٨٧٦ كما ذكرنا، فهي الآن في السنة التاسعة والثلاثين من عمرها.

(٥) تفصيل ترجمتهما في مشاهير الشرق ٩٩ ج٢ (ط٢).

(٦) ترجمته في الصحافة العربية ٢٢٤ ج٢.

(٧) تفصيل ترجمته في مشاهير الشرق ١١٣ ج٢ (ط٢).
(٨) تفصيل ترجمته في الهلال ١٤٨ سنة ٢٢.

التاريخ والجغرافيا في النهضة الأخيرة

ظل علم التاريخ في معظم القرن الماضي نحو ما كان عليه قبله، من حيث أسلوبه وكيفية التأليف فيه، إلا ما نُقِل عن اللغات الإفرنجية في أول هذه النهضة؛ لأن اشتغال محمد علي في نقل العلوم كان يتناول أيضًا العلوم التاريخية والأدبية على يد رفاعة بك وتلاميذه من متخرجي مدرسة الألسن، وأهم ما نقلوه من هذه الكتب: جغرافية ملطبرن في عدة مجلدات، وقلائد المفاخر في غريب عوائد الأوائل والأواخر، وتاريخ الشام، وكتاب أسباب قيام دولة الرومان وانحطاطها، نقله حسن الجبيلي، وهو في فلسفة التاريخ، وروح الشرائع لمونتسكيو، وتاريخ شارلمان، وتاريخ فرنسا العام، وتاريخ شارلكان وشارل دوز وغيرها.

ثم أخذ أصحاب هذه النهضة يؤلِّفون من عند أنفسهم، لكن أكثرهم كانوا ينقلون أو يجمعون أو يلخِّصون بلا نقد أو استنتاج إلا نادرًا، ودخل التاريخ في الربع الأخير من القرن الماضي في عصر جديد، ولا سيما لدى المطَّلِعين على أساليب الإفرنج في تدوين تواريخهم، فمالوا إلى التنسيق والترتيب والتبويب، وأخذوا ينشرون المقالات التاريخية الانتقادية في المجلات، ثم عمدوا إلى تأليف الكتب بعد البحث والتحقيق والانتقاد بما يقتضيه ذلك من فلسفة التاريخ، كما فعلنا في كتابنا تاريخ التمدن الإسلامي، وتاريخ العرب قبل الإسلام، وغيرهما من كتبنا. وإليك تراجم أشهر المؤرخين والجغرافيين في هذه النهضة مرتَّبة على حسب سني الوفاة:

(١) **الشيخ عبد الله الشرقاوي توفي سنة ١٨١٢ / ١٢٢٧هـ:** هو الشيخ عبد الله بن حجازي بن إبراهيم الشافعي الأزهري، شيخ الجامع الأزهر، وُلِد سنة ١١٥٠هـ في الطويلة (الشرقية)، ورُبِّي في القرين، ثم جاء مصر وتفقه بالأزهر، وقرأ على كثيرين من الأساتذة،

وارتقى حتى صار أستاذًا في الأزهر، ولما جاء الفرنساويون مصر كان له مقام رفيع، فانتخبوه لرئاسة الديوان الذي شكَّلوه بمصر لإدارة شئون البلاد، وله مؤلفات كثيرة في الفقه الشافعي واللغة من شروح وحواشٍ ومختصرات، وإنما نذكر ما خلفه من كتب التاريخ وهو:



الشيخ عبد الله الشرقاوي.

(أ) التحفة البهية في طبقات الشافعية: جمع فيه تراجم بعض الشافعية في القرن التاسع للهجرة فما بعده إلى سنة ١٢٢١هـ نقلًا عن الشعراني، والسيوطي، والجبرتي باختصار، وأضاف إلى ذلك بعض تراجم المتقدمين، منه نسخة خطية في المكتبة الخديوية.

(ب) تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من السلاطين: طُبِع بمصر سنة ١٢٨١هـ.

(٢) **أبو القاسم الزياني توفي في أوائل القرن التاسع عشر:** نبغ في مراكش، وتقلَّد مناصب الدولة، وله كتاب: الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب إلى سنة ١٨١٣، طُبِع بعضه في باريس مع ترجمة فرنساوية سنة ١٨٨٦، وكتاب البستان الظريف في دولة مولاي علي الشريف.

(٣) **مخائيل الصباغ توفي سنة ١٨١٦ / ١٢٣٢هـ:** هو حفيد إبراهيم الصباغ، طبيب ظاهر العمر أمير عكا في أواخر القرن الثامن عشر، ابن ابنه نقولا، وكان لمخائيل أخ اسمه عبود انتقل أهلهما بهما إلى مصر، فرُبِّيَا فيها وتثقَّفا على مشائخها، ولما جاء بونابرت إلى مصر اتصلا بمن كان معه من العلماء، وانتقلا معهم إلى فرنسا، وتوفي مخائيل سنة ١٨١٦، وخلف آثارًا تاريخية هي:

(أ) تاريخ بيت الصباغ وحال الطائفة الكاثوليكية.
(ب) متفرقات في تاريخ البادية والشام ومصر في أيامه، وكلا الكتابين في باريس.
(ج) الرسالة التامة في كلام العامة والمناهج في أحوال الكلام الدارج: طُبِعت في استراسبورج سنة ١٨٨٦.
(د) سعاة الحمام: طُبِعت مع ترجمة فرنساوية لدساسي.

ثم توفي أخوه، وله كتاب الروض الزاهر في تاريخ الضاهر، يعني ظاهر العمر صاحب عكا، منه نسخة في باريس.[١]

(٤) **عبد الرحمن الجبرتي المصري المتوفى نحو سنة ١٨٢٥ / ١٢٤٠هـ:** هو عبد الرحمن بن حسن الجبرتي صاحب التاريخ المشهور باسمه، أصله من جبرت وهي الزيلع في الحبشة، وكان والده حسن بن برهان الدين من كبار العلماء الفلكيين، ترجمه عبد الرحمن في كتابه بين وفيات سنة ١١٨٨هـ، وله مؤلفات في الفلك والرياضيات، وشروح عدة مؤلفات في المكتبة الخديوية.

أما المؤرخ عبد الرحمن فهو ابن حسن هذا، وقد درس في الأزهر، وتمكَّن من علوم عصره، ولما جاء الفرنساويون مصر تعيَّن كاتبًا في الديوان، وانقطع بعدئذٍ للتأليف، وقد بلغ السبعين من العمر، وعاصر أهم الحوادث التي جرت في أواخر القرن ١٨ وأوائل القرن ١٩، وفي سنة وفاته اختلاف؛ كان المظنون أنه توفي سنة ١٢٣٧هـ، ولكنَّا وقفنا على نسخة من تاريخه في مكتبة محمد بك آصف بمصر، جاء في آخرها أنه تم تبيضها سنة ١٢٣٧هـ، وعلى هامشها ما نصه بخط واضح:

> بلغ مقابلةً وقراءةً على مؤلفه من أوله إلى آخره في يوم السبت المبارك ١٤ ربيع أول سنة ١٢٤٠هـ بمرأى ومسمع من مؤلفه، متع الله الوجود بطول حياته، ولا أحرمنا والمسلمين من صالح دعواته وعدد بركاته، إنه سميع قريب مجيب، رقمه بيده الفانية أحمد بن حسن الرشيدي الشافعي الشهير بصوبع.ا.هـ.

فيؤخذ من ذلك أن الجبرتي توفي سنة ١٢٤٠هـ أو بعدها خلافًا للمشهور، وله مؤلفات أهمها:

(أ) عجائب الآثار في التراجم والأخبار: ويُعرَف بتاريخ الجبرتي، أرَّخ فيه القرنين ١٢ و١٣ للهجرة إلى السنة ١٢٣٦هـ، وذكر أهم حوادثهما يوميًّا حسب وقوعها، وأهمية هذا الكتاب أن صاحبه عاصر تلك الحوادث، وشاهد أكثرها شهادة عين، ودوَّنها يومًا فيومًا، ولا سيما أخبار الحملة الفرنساوية، وأوائل ولاية محمد علي باشا. بدأ بفذلكة تاريخية إلى سنة ١١٤٢هـ، ثم ذكر وفيات الأعيان من سنة ١١٠٠–١١٤٢هـ، ثم أخذ يسرد الحوادث حسب وقوعها يوميًّا، وكلما فرغ من حوادث سنة ذكر الذين توفوا فيها وترجمهم، ويُعَدُّ من حيث الحوادث التاريخية المصرية كالتكملة لتاريخ ابن إياس. طُبِع تاريخ الجبرتي سنة ١٢٩٧هـ وبعدها في أربعة مجلدات، ويقال إنه طُبِع طبعة قبل هذه صادرتها الحكومة؛ لأن فيها طعنًا في أعمال محمد علي باشا رأس الأسرة الخديوية، ثم أصدرت الحكومة هذه الطبعة بعد حذف الطعن، وكل ما ظهر من الطبعات منقول عنها، وقد نُقِل هذا التاريخ إلى الفرنساوية بقلم شفيق بك منصور، وعبد العزيز بك كحيل، ونقولا بك كحيل، وإسكندر بك عمون، وطُبِع في القاهرة سنة ١٨٨٨.

(ب) مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس: تقدَّم ذكره بين مؤلفات العطار، طُبِع بمصر، ونُقِل إلى التركية في الأستانة سنة ١٢١٧هـ، وتُرجِم إلى الفرنساوية، وطُبِع في باريس.

(٥) **نقولا الترك المتوفى سنة ١٨٢٨ / ١٢٤٤هـ:** أصل والده من الأستانة، ونزل لبنان فوُلِد ابنه نقولا في دير القمر سنة ١٧٦٣، وكان شاعرًا أديبًا، نبغ في خدمة الأمير بشير، لكننا وضعناه بين المؤرخين لأهمية ما ألَّفه في التاريخ في تلك الحقبة المظلمة، وهذه آثاره:

(أ) تاريخ نابليون: في زمن لويس السادس عشر إلى وفاته في ٤٥٠ صفحة، طبع جزء منه ينتهي بخروج الفرنساويين من مصر مع ترجمة فرنساوية في باريس سنة ١٨٣٩.

(ب) تاريخ أحمد باشا الجزار: منه نسخة خطية في مكتبة الآباء اليسوعيين في بيروت، ويظن الأب شيخو أن لنقولا المذكور كتابين آخرين، أحدهما في حوادث حرب فرنسا والنمسا سنة ١٨٠٥، طبع في باريس سنة ١٨٠٧، والآخر نزهة الزمان في حوادث لبنان في تاريخ الأمراء الشهابيين إلى سنة ١٢٠٥هـ، منه نسخة خطية في باريس.

(٦) **الأمير حيدر الشهابي اللبناني توفي سنة ١٨٣٥ / ١٢٥١هـ:** هو الأمير حيدر أحمد من الأسرة الشهابية في لبنان، له تاريخ يُعرَف باسمه (تاريخ الأمير حيدر) يُقسَّم إلى ثلاثة أقسام: الأول سماه «الغرر الحسان في تواريخ حوادث الزمان»، ويتضمن تاريخ الإسلام من الهجرة إلى وفاة الأمير أحمد المعني سنة ١١٦٢هـ، والثاني «نزهة الزمان في تاريخ جبل لبنان» يبدأ بولاية الأمراء الشهابيين إلى ولاية الأمير بشير عمر الكبير ١٢١٦، ولعله الكتاب الذي يظنه الأب شيخو لنقولا الترك، والثالث «الروض النضير في ولاية الأمير بشير قاسم الكبير» إلى وفاته سنة ١٢٦٧هـ، وقد طُبِع تاريخ الأمير حيدر بمصر سنة ١٩٠١ في نحو ألف ومئة صفحة.

(٧) **شهاب الدين الآلوسي البغدادي المتوفى سنة ١٨٥٤ / ١٢٧٠هـ:** هو السيد محمود المعروف بالشهاب الآلوسي من أسرة شهيرة في العراق، وُلِد في بغداد ونشأ فيها وتفقه بالعلم، ورحل إلى الموصل وماردين وديار بكر وأرضروم والأستانة، ثم عاد إلى وطنه وانقطع للتأليف، وأهم مؤلفاته:

(أ) رحلة الشمول في الذهاب إلى إستانبول: طبع في بغداد سنة ١٢٩١هـ.
(ب) نشوة المدام في العود إلى بلاد الإسلام: منه نسخة في المكتبة الخديوية.
(جـ) غرائب الاغتراب: ضمنه تراجم الرجال، وأبحاثًا علمية.
(د) كشف الطرة عن الغرة: شرح درة الغواص للحريري، طبع في دمشق.

غير كتبه في الفقه والمنطق واللغة والتفسير ذُكِرت في مقدمة كتاب كشف الطرة. ونبغ من بيت الآلوسي جماعة من الأدباء المؤرخين، منهم السيد محمود شكري الآلوسي صاحب كتاب «بلوغ الأرب في أحوال العرب الجاهلية، وعاداتهم وأخلاقهم وآدابهم».

(٨) **طنوس الشدياق اللبناني توفي سنة ١٨٥٩ / ١٢٧٦هـ:** هو من أسرة الشدياق التي منها أحمد فارس الشدياق المتقدم ذكره، وُلِد طنوس في الحدث، وتفقه في مدرسة عين ورقة، وانقطع لخدمة الأمراء الشهابيين في مهام الإمارة، فسافر في ذلك إلى عكا ودمشق، ثم صار قاضيًا على نصارى لبنان، وأكبَّ على التاريخ وخصوصًا لبنان، فألَّف فيه كتابه «أخبار الأعيان في تاريخ لبنان» بسط فيه جغرافية لبنان، وأنساب أعيانه، وأخبار ولاته، اقتبس ذلك من مخطوطات ذكرها في المقدمة؛ فهو فريد في بابه، طُبِع في بيروت سنة ١٨٥٩، ووقف على طبعه المعلم بطرس البستاني.

(٩) **القس حنانيا المنير اللبناني توفي في أواسط القرن التاسع عشر:** هو راهب من الرهبنة الحناوية الشويرية في لبنان، وكان شاعرًا أديبًا واسع الاطلاع، وله في التاريخ:

(أ) الدر المرصوف في حوادث الشوف: يتناول حوادث لبنان عند ظهور الأمراء الشهابيين إلى سنة ١٨٠٧، وقد أخذ عنه الأمير حيدر الشهابي وطنوس الشدياق.

(ب) تاريخ الرهبانية الحناوية. والكتابان موجودان في مكتبة الآباء اليسوعيين في بيروت.

(ج) كتاب عقائد الدروز: نُقِل إلى الفرنساوية، وطُبِع في باريس.

(د) مجموع أمثال لبنان وسوريا.

(هـ) شعر كثير في اللغتين الفصحى والعامية السورية: نشر الأب شيخو أمثلة منها في كتابه تاريخ الآداب العربية في القرن التاسع عشر صفحة ٣١ ج١ فما بعدها.

(١٠) **إبراهيم النجار الطبيب اللبناني توفي سنة ١٨٦٣ / ١٢٨٠هـ:** أصله من دير القمر، وتلقى دروسه في مدرسة الطب بمصر، ونال شهادتها سنة ١٨٤٢، ثم سافر إلى الأستانة قضى فيها مدة يتعاطى الطبابة، وعيَّنته الدولة طبيبًا للجند الشاهاني في المستشفى العسكري في بيروت، وساح سنة ١٨٤٩ في أوربا، وألَّف كتابًا في التاريخ الطبيعي سماه «هدية الأحباب»، طُبِع في مرسيليا سنة ١٨٥٠، وعاد إلى بيروت ومعه أدوات طباعة، فأنشأ بها المطبعة الشرقية، طُبِع فيها تاريخ رحلته مع تاريخ سلاطين آل عثمان في كتاب سمَّاه «مصباح الساري»، طُبِع سنة ١٢٧٢.

(١١) **سليم وحبيب بسترس البيروتيان توفي سليم سنة ١٨٨٣ / ١٣٠٠هـ:** جمعا بين الوجاهة والأدب، وُلِد سليم في بيروت، وتوطن الإسكندرية للتجارة، ورحل مرارًا إلى أوربا، وكتب رحلة سمَّاها «الرحلة السليمية» طُبِعت في بيروت، وهي من أقدم الرحلات العصرية، حرَّض فيها أبناء وطنه على السفر إلى أوربا، وكان شاعرًا أديبًا.

وابن عمه حبيب نقل تاريخ هيرودوتس إلى العربية، وطُبِع في بيروت سنة ١٨٨٧ في مجلدين.

(١٢) **سليم النقاش البيروتي توفي سنة ١٨٨٤ / ١٣٠١هـ:** هو صديق أديب أسحق ورفيقه، وابن أخي مارون النقاش ناقل فن التمثيل العربي، وآل النقاش بيت علم وأدب وصحافة.

كان سليم كاتبًا أديبًا، اشترك مع أديب في تحرير الجرائد التي أنشأها بمصر أو الإسكندرية، ولا سيما العصر الجديد والمحروسة والتجارة، وكان يصح وضعه مع



سليم النقاش.

رجال الصحافة، لكننا وضعناه بين المؤرخين لكتابه النفيس «مصر للمصريين»، أرَّخ فيه الحوادث العرابية في تسعة مجلدات مقسومة إلى ثلاث أثلاث: الثلاثة الأولى في تاريخ الأسرة الخديوية إلى خروج إسماعيل من مصر، والثلاثة الثانية في ولاية توفيق باشا إلى انقضاء الحوادث العرابية وما يلحقها، والثلاثة الثالثة في محاكمة العرابيين وصور محاضرهم الرسمية، والكتاب كله يدخل في نحو ٣٠٠٠ صفحة، لم يصدر منها إلا الأجزاء الستة الأخيرة من الرابع إلى التاسع سنة ١٨٨٤، أما الثلاثة الأولى فبعد أن شرع في طبعها أوقفته الحكومة؛ لأنها وجدت في ترجمة محمد علي وإسماعيل ما يجب حذفه، ولا نعلم أين هي الأجزاء المذكورة، وللنقاش روايات تمثيلية أيضًا.

(١٣) **إسكندر ويوحنا أبكاريوس توفي إسكندر سنة ١٨٨٥ / ١٣٠٣هـ:** هما ابنا يعقوب آغا أبكاريوس الأرمني، سكن بيروت، ونشأ ابناه على حب العلم، فرحل إسكندر

إلى أوربا، وجاء مصر في عهد محمد علي وخلفائه، وكان شاعرًا وأديبًا ومؤرخًا، وهاك مؤلفاته:

(أ) نهاية الأرب في أخبار العرب: طُبِع أولًا في مرسيليا سنة ١٨٥٢، وطُبِع في بيروت سنة ١٨٦٧ مع زيادات، وهو يبحث في تاريخ العرب الجاهلية.

(ب) روضة الأدب في طبقات شعراء العرب: فيه تراجم الشعراء الجاهليين والمخضرمين مرتَّبة على الهجاء، طُبِع في بيروت سنة ١٨٥٨، وقد ذكرنا خلاصته في الجزء الأول من هذا الكتاب.

(ج) المناقب الإبراهيمية والمآثر الخديوية في سيرة إبراهيم باشا: أعانه في تأليفها محمد مكاوي، طُبِعت بمصر سنة ١٢٩٩هـ.

(د) نزهة النفوس وزينة الطروس: في الأدب، طُبِع بمصر.

(هـ) نوادر الزمان في وقائع جبل لبنان: في تسعة فصول، قدَّمه للبرنس مصطفى فاضل باشا، منه نسخة في المكتبة الخديوية، وقد تقدَّم أنه قدَّمه لباي تونس.

(و) ديوان مطبوع.

أما يوحنا أخوه فاشتغل بالتجارة في بيروت، حتى أثرى وصار من أهل الوجاهة والرأي، توفي سنة ١٨٨٩ وله قاموس مطول في اللغتين الإنكليزية والعربية، طُبِع في بيروت مرارًا، وكتاب قطف الزهور في تاريخ الدهور في التاريخ العام، طُبِع في بيروت مرارًا، ونزهة الخواطر في الأدب، طُبِع سنة ١٨٧٧.

(١٤) **أحمد بن زيني دحلان المكي توفي سنة ١٨٨٦ / ١٣٠٤هـ:** نشأ في مكة، وكان من خيرة علمائها وتولى الإفتاء فيها، وفي أيامه أنشئت أول مطبعة في مكة نشر فيها مؤلفاته، وأهمها:

(أ) الفتوحات الإسلامية بعد الفتوحات النبوية: طُبِع بمكة سنة ١٣٠٣هـ في مجلدين.

(ب) تاريخ الدول الإسلامية في الجداول المرضية: طُبِع على الحجر في جداول سنة ١٣٠٦هـ.

(ج) خلاصة الكلام في أمراء البلد الحرام: طُبِعت في مصر سنة ١٣٠٥هـ، انتهى فيه إلى خلع إسماعيل، ويشتمل على تاريخ مكة في أثناء القرنين الماضيين.

(د) الفتح المبين في فضائل الخلفاء الراشدين وأهل البيت الطاهرين: طُبِع بمصر سنة ١٣٠٢هـ.

(١٥) **نوفل نوفل الطرابلسي توفي سنة ١٨٨٧ / ١٣٠٥هـ:** هو من خيرة المؤرخين المفكرين الذين يعالجون المواضيع ويقابلونها وينظرون فيها، كان يعرف التركية والعربية، وتولى مناصب عثمانية في طرابلس الشام، فكان رئيس خزينتها، ثم كاتب مجلس إدارة صيدا، وتنقل في مناصب مختلفة، وكان كثير الاشتغال في التأليف، طويل الصبر على التنقيب، وأكثر مؤلفاته فريدة في بابها، وهي:

(أ) زبدة الصحائف في أصول المعارف: تبحث في تاريخ العلوم قديمًا وحديثًا، طُبِع في بيروت سنة ١٨٧٣.

(ب) زبدة الصحائف في سياحة المعارف: في تاريخ تنقل العلم والفلسفة من أقدم الأزمان إلى الآن، مملكةً مملكةً.

(جـ) صناجة الطرب في تقدمات العرب: في العرب الجاهلية وآدابهم، وأخلاقهم وعاداتهم، وسائر أحوالهم مع فذلكة تاريخية من أول الإسلام إلى آخر زمن بني العباس، طُبِع في بيروت.

(د) سوسنة سليمان في العقائد والأديان: وتاريخها المختصر من الوثنية والمجوسية إلى الأديان الإلهية وفروعها، طُبِع في بيروت.

(هـ) ترجمة حقوق الأمم من التركية إلى العربية، طُبِع في بيروت.

(و) ترجمة أصل معتقدات الأمة الشركسية، طُبِع في بيروت.

(ز) ترجمة دستور الدولة العثمانية في مجلدين، طُبِع في بيروت.

(حـ) ترجمة قوانين المجالس البلدية، والرد على الغضنفري، وغير ذلك.[٢]

(١٦) **محمد بيرم التونسي توفي سنة ١٨٨٩ / ١٣٠٧هـ:** أصله من أسرة ترجع بنسبها إلى بيرم أحد قواد الجند العثماني الذي جاء تونس بقيادة سنان باشا سنة ٩٨١هـ، تفقَّه محمد في تونس، وتولى بعض المناصب فيها على زمن خير الدين باشا الآتي ذكره، وكان من أكبر أنصاره فقدَّمه ورقاه، وسافر مرارًا إلى أوربا، ثم الأستانة وأقام فيها مدة، ولما تحقق رسوخ قدم فرنسا في تونس باع أملاكه وانتقل إلى مصر، وأنشأ فيها جريدة الأعلام، وخطتها محاسنة الإنكليز، كأنه استفاد مما لقي من مقاومة الفرنساويين أن القوة لا تقاوم، وأكبر آثاره الكتابية كتاب «صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار» طُبِع بمصر في خمسة أجزاء، وهو رحلة عامة في أوربا ومصر والشام والحجاز وغيرها، فيها كثير من الحقائق التاريخية والاجتماعية التي يعز العثور عليها في سواه، وله رسائل

في مواضيع أخرى في صيد بندق الرصاص وفي الرقيق، ورد على رينان في جواز ابتياع أوراق الديون التي تصدرها الممالك الإسلامية، وغير ذلك.

(١٧) **خير الدين باشا التونسي توفي سنة ١٨٩٠ / ١٣٠٨هـ:** أصله شركسي، وُلِد سنة ١٨١٠، وجاء تونس صغيرًا، وتقرب من بايها أحمد باي، فقدَّمه واستخلصه لخدمته وأعانه على إتمام دروسه، فأتقن العلوم الدينية، واللغات التركية والفارسية والعربية، وتقلَّب في مناصب الدولة العسكرية والسياسية في زمن الباي أحمد وخلفائه، وانتُدِب لمهمات سياسية في فرنسا، وتقلَّد وزارة البحرية سنة ١٨٥٥ فأحسن تنظيمها، ثم حدث ما بعثه على اعتزال الأعمال السياسية والعكوف على التأليف، ولم تكن الحكومة التونسية تستغني عن رأيه وفعله في المهام الكبرى، وأخيرًا تقلَّد الوزارة في تونس، وبلغ أهل الأستانة شهرته، فاستقدمه السلطان عبد الحميد سنة ١٨٧٨ وولَّاه الصدارة العظمى، والدولة في غاية الاضطراب، فوضع التقارير الإصلاحية فلم يتفق عمله مع رجال المابين فاستقال سنة ١٨٧٩، وسُمِّي عضوًا في مجلس الأعيان، وظل في الأستانة حتى توفي سنة ١٨٩٠، وله في تونس مآثر باقية من المدارس والمكاتب والتنظيمات الإدارية، أما مؤلفاته فأهمها: أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، وصف فيه ممالك أوربا وجغرافيتها وسائر أحوالها، وهو من خيرة ما كتب في هذا الموضوع، طُبِع في تونس سنة ١٢٨٥هـ وفي أوربا.

(١٨) **علي باشا مبارك المصري توفي سنة ١٨٩٣ / ١٣١١هـ:** هو من أكبر أركان هذه النهضة في مصر، بما تم على يده من تنظيم المدارس والمكتبة الخديوية في زمن إسماعيل وما بعده كما مر ذلك في أماكنه،[٣] ونكتفي هنا بذكر مؤلفاته:

(أ) الخطط التوفيقية: هي من أهم الكتب التاريخية والجغرافية، وصف بها مصر وبلادها وخططها ومدارسها وجوامعها، تحدى فيها أسلوب المقريزي في خططه، وجعلها تكملة لها، ورتَّب البلاد والشوارع وغيرها فيها على الأبجدية، وإذا ذكر بلدًا أو شارعًا أو مدرسة أو جامعًا ذكر مَن بناه أو نُسِب إليه من المشاهير وترجمه، فهو يشتمل على تراجم طائفة من العلماء والأعيان من أهل القرنين الأخيرين لا تجد تراجمهم في سواه، طُبِع بمصر سنة ١٣٠٦هـ في عشرين جزءًا، خصَّص الثامن عشر منها للنيل ومقاييسه وارتفاعاته من قديم الزمان إلى أيامه، وخصَّص التاسع عشر للترع والخلجان، والجزء العشرون خصَّصه للنقود الإسلامية وتاريخها، ولو أنه أوضح ما حواه هذا الكتاب من



علي باشا مبارك.

الفوائد الجغرافية والتاريخية بالخرائط والرسوم، وشفعه بفهرس أبجدي عام لمواده لتضاعفت فوائده.

(ب) علم الدين: هو رواية دينية عمرانية في عدة مجلدات، طُبِعت بمصر.

(ج) خلاصة تاريخ العرب: هو ترجمة كتاب سدييو في تاريخ العرب وآدابهم، طُبِع بمصر سنة ١٣٠٩هـ.

(١٩) **السلاوي المراكشي المتوفى سنة ١٨٩٧ / ١٣١٥هـ:** هو أحمد بن خالد الناصري السلاوي نسبة إلى سلا في مراكش، اشتهر بكتاب نفيس ألَّفه في تاريخ المغرب، نعني «الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى»، عوَّل فيه على ما كتبه العرب الأندلسيون وغيرهم في تاريخ المغرب قبله، وجمع كل ما يعرف من هذا التاريخ إلى أيامه، وهو أوفى كتاب في هذا الموضوع، طُبِع بمصر سنة ١٣١٢هـ في ٤ مجلدات ضخمة تزيد صفحاتها على ألف صفحة كبيرة، وقد تُرجِمت قطعة منه تتعلق بالدولة العلوية بمراكش إلى الفرنساوية، وطُبِعت سنة ١٩٠٨.

(٢٠) **أمين باشا فكري المصري توفي سنة ١٨٩٩ / ١٣١٧هـ:** هو نجل عبد الله باشا فكري المتقدم ذكره، تقلَّب في مناصب الحكومة المصرية بين القضاء والإدارة وغيرهما، وهاك مؤلفاته:



أمين باشا فكري.

(أ) جغرافية مصر والسودان: ألَّفها في عصر إسماعيل، وهي أطول جغرافية في بابها، طُبِعت سنة ١٢٩٦هـ.

(ب) إرشاد الألبا إلى محاسن أوربا: هي رحلته إلى أوربا سنة ١٨٩٢.

(جـ) الآثار الفكرية: جمع فيه مآثر أبيه ومنظوماته، طُبِع بمصر.

(٢١) **نخلة قلفاط البيروتي توفي سنة ١٩٠٥ / ١٣٢٣هـ:** وُلِد في بيروت سنة ١٨٥١، وتعلم وتفقه، وكان يتجر بالكتب في بيروت، ويشتغل بالتعريب والتأليف، وأهم ما نشره من قلمه: كتاب حقوق الدول، وتاريخ روسيا، وتاريخ ملوك المسلمين. ونشر روايات منقولة عن الفارسية أو التركية، منها: حمزة البهلوان، وبهرام شاه، وفيروز شاه، وألف نهار ونهار، ومائة حكاية وحكاية، وكثيرًا من الروايات المعرَّبة عن الإفرنجية.

(٢٢) **جميل المدور البيروتي توفي سنة ١٩٠٧ / ١٣٢٥هـ:** هو ابن مخائيل المدور، واشتهر مخائيل هذا في زمانه بحب العلم والأخذ بناصر العلماء، وكان عونًا في إصدار أول جريدة عربية في بيروت (حديقة الأخبار) سنة ١٨٥٨، وأخذ بناصر اليازجي الكبير في طبع مقامات مجمع البحرين، وقد مدحه الشيخ لذلك بقصيدة قال منها:

إذا عدت رجال العصر يومًا فإنك واحد بمقام ألف

ونشأ أبناؤه على حب الأدب، ومنهم جميل هذا وكان من أدباء الكتَّاب، توفي في عنفوان الشباب، ويذكره التاريخ خصوصًا بكتابه «حضارة الإسلام في دار السلام»، فقد وصف فيه الدولة العباسية في إبان حضارتها برسائل على لسان رحَّالة فارسي قدم بغداد، فلقي المهدي والرشيد، ووصف حال تلك الدولة سياسيًّا واجتماعيًّا وأدبيًّا وماليًّا على أسلوب بليغ اقتبس عباراته من كتب العرب، وأشار في الحاشية إلى المآخذ وهي عديدة، طُبِع في مصر غير مرة، وله تاريخ بابل وآشور، صححه الشيخ إبراهيم اليازجي ونُشِر في المقتطف.

(٢٣) **المطران يوسف الدبس اللبناني توفي سنة ١٩٠٧ / ١٣٢٥هـ:** هو من كبار علماء اللاهوت وغيره من علوم الدين، وله فضل كبير على التعليم والوعظ، وإليه تُنسَب مدرسة الحكمة في بيروت، وهي من المدارس الكبرى، وله مؤلفات وترجمات عديدة، يهمنا منها على الخصوص كتابه:

(أ) تاريخ سوريا: وهو مطول في تسعة مجلدات كبيرة، ويشتمل على تاريخها القديم والحديث، طُبِع في بيروت.

(ب) تاريخ الموارنة: طُبِع في بيروت.

(٢٤) **سليم شحادة البيروتي توفي سنة ١٩٠٧ / ١٣٢٥هـ:** هو من أسرة شحادة المعروفة في بيروت، تفقَّه باللغات العربية والفرنساوية والإنكليزية، وسائر آداب عصره وخصوصًا التاريخ والجغرافية، وكان من العاملين في النهضة السورية في أواسط القرن الماضي، فدخل في جمعياتها العلمية، وخطب وكتب وحرَّر الجرائد، وإنما يهمنا في هذا المقام أنه أنشأ بمساعدة سليم الخوري صاحب حديقة الأخبار معجمًا للأعلام التاريخية والجغرافية مطولًا، سمَّيَاه «آثار الأدهار»، ظهر الجزء الأول من القسم الجغرافي منه سنة ١٨٧٥، ثم توفي زميله فأصدر الجزء الثاني والثالث والرابع والخامس من القسم المذكور

وحده، ولم يتجاوز حرف الباء مع أن صفحاتها نحو ألف صفحة كبيرة في حقلين؛ لأنه أراد أن يكون معجمًا مطولًا، أما القسم التاريخي فصدر منه الجزء الأول سنة ١٨٧٤ في ٣٨٧ صفحة.

كتب تاريخية متفرقة أصحابها توفوا

(١) المواهب الإحسانية في ترجمة الفاروق وذريته بني عبد الهادي: تأليف حسين بن عبد اللطيف العمري الدمشقي المتوفى سنة ١٨٠١ / ١٢١٦هـ.

(٢) مختصر تاريخ الأرمن الكاثوليك: طبع بأورشليم سنة ١٨٦٨ للقس أنطون خانجي.

(٣) تاريخ سوريا على عهد سليمان باشا الوالي: يتضمن أخبار القرن الثامن عشر في سوريا وأخبار الجزار، وهو سِفْر جليل تأليف إبراهيم العورا المتوفى سنة ١٨٦٣، منه نسخة في مكتبة الآباء اليسوعيين في بيروت.

(٤) سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب: للسويدي أبي الفوز البغدادي، طُبِع في بغداد سنة ١٢٨٠هـ.

(٥) نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي المختار: تأليف الشيخ سيد مؤمن الشبلنجي، طُبِع بمصر مرارًا.

(٦) الخلاصة النقية في أمراء إفريقية لمحمد الباجي، طُبِع في تونس سنة ١٢٨٣هـ.

(٧) الفوائد البهية في تراجم الحنفية لعبد الحي اللكنوي، طُبِع في الهند سنة ١٢٩٣هـ.

(٨) تاريخ الأمة القبطية ليعقوب بك نخلة، طُبِع بمصر سنة ١٨٩٨.

(٩) تنوير الأبصار في طبقات السادة الرفاعية الأخيار لأبي الهدي الصيادي المتوفى سنة ١٩٠٩.

(١٠) تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب لروحي بك الخالدي المتوفى سنة ١٩١٣، طُبِع بمصر مرتين.

(١١) الدر المنثور في تراجم ربات الخدور: معجم في تراجم النساء لزينب فواز المتوفاة سنة ١٩١٤.

كتب تاريخية للأحياء من المعاصرين

(١) تاريخ الأمم الإسلامية للشيخ محمد الخضري.
(٢) تاريخ الأمم القبطية ٤ أجزاء معرَّب عن الإنكليزية.
(٣) تاريخ البابية لمهدي خان التبريزي.
(٤) تاريخ التمدن المصري القديم لشكري صادق.
(٥) تاريخ الفنون الجميلة لشكري صادق.
(٦) تاريخ التمدن الحديث تعريب جرجي يني.
(٧) تاريخ حرب فرنسا وألمانيا تعريب جرجي يني.
(٨) تاريخ التمدن الإسلامي خمسة أجزاء لجرجي زيدان.
(٩) تاريخ العرب قبل الإسلام لجرجي زيدان.
(١٠) تراجم مشاهير الشرق جزءان لجرجي زيدان.
(١١) تاريخ مصر الحديث جزءان لجرجي زيدان.
(١٢) تاريخ الماسونية العام لجرجي زيدان.
(١٣) تاريخ الحرب البلقانية ليوسف البستاني.
(١٤) تاريخ الحرب البلقانية ثلاث أجزاء لسليم عقاد.
(١٥) تاريخ الحرب البلقانية لتوفيق طنوس.
(١٦) تاريخ دول الإسلام لرزق الله منقريوس.
(١٧) تاريخ دول البحار لسرهنك باشا.
(١٨) البحر الزاخر لمحمود فهمي.
(١٩) تاريخ الدولة العثمانية لمحمد بك فريد.
(٢٠) تاريخ روسيا للخوري باسيليوس خرباوي.
(٢١) أشهر مشاهير الإسلام لرفيق بك العظم.
(٢٢) الحروب الصليبية للسيد الحريري.
(٢٣) تاريخ الأقباط في القرن العشرين لرمزي تادرس.
(٢٤) دواني القطوف لعيسى المعلوف.
(٢٥) الرحلة الحجازية لمحمد بك البتانوني.
(٢٦) الكافي في تاريخ مصر لمخائيل بك شاروبيم.
(٢٧) مرآة الأيام في التاريخ العام لخليل المطران.

(٢٨) مرآة العصر في تراجم مشاهير مصر لإلياس زخورة.
(٢٩) مشاهد الممالك لإدوار باشا إلياس.
(٣٠) نوابغ الأقباط لتوفيق إسكاروس.
(٣١) تلفيق الأخبار للرمزي.
(٣٢) المحررات السياسية لفيليب وفريد الخازن.
(٣٣) بغية الطالبين لأحمد بك كمال.
(٣٤) الكنز الثمين لأحمد بك كمال.
(٣٥) تاريخ السودان لنعوم بك شقير.
(٣٦) تاريخ الانشقاق للمطران جراسموس مسرة.
(٣٧) تاريخ الموارنة للمطران يوسف دريان.
(٣٨) الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده لسليمان البستاني.

هوامش

(١) تجد تفصيل ترجمة الصباغ في المشرق ٢٩ سنة ٨.
(٢) تجد تفصيل ترجمته في مشاهير الشرق ١٧٣ ج٢ (ط٢).
(٣) تفصيل ترجمته في مشاهير الشرق ٣٣ ج٢ (ط٢).

الموسوعات وأصحابها أو المؤلفون في مواضيع مختلفة

(١) **رفاعة بك الطهطاوي المصري توفي سنة ١٨٧٣ / ١٢٩٠هـ:** هو من أكبر أركان النهضة الأخيرة بمصر، وُلِد في طهطا ١٨٠١، وتلقى العلم في الأزهر حتى تعيَّن إمامًا لبعض آلايات الجند، ولما هَمَّ محمد علي بإرسال البعثة الأولى من نجباء المصريين للتوسع في العلوم في أوربا، أرسل الشيخ رفاعة إمامًا لهم، فسافروا سنة ١٨٢٦ كما تقدم في الكلام على المدارس، فتاقت نفسه إلى تلقي العلوم الحديثة، فعكف على تعلم الفرنساوية بنفسه، وطالع بها التاريخ والجغرافية وغيرهما، وأخذ في الترجمة وهو في باريس، ولما عاد سنة ١٨٣١ وقد نال الشهادات الناطقة ببراعته قلَّده محمد علي الترجمة في مدرسة الطب بدلًا من يوحنا عنحوري، ثم تولى ترجمة كتب الهندسة والفنون العسكرية سنة ١٨٣٣، وبعد سنتين أنشأ محمد علي مدرسة الألسن لتخريج المترجمين، وعهد بإدارتها إلى رفاعة مع إدارة المدرسة التجهيزية، وفي سنة ١٨٤٢ / ١٢٥٨هـ تشكل قلم الترجمة من أول فرقة تخرجت في مدرسته، وأنعم عليه بالرتب حتى صار رفاعة بك.

ولما توفي محمد علي وأصاب الآداب ما أصابها توقف العمل حينًا، ثم أُعِيد إلى نظارة قلم الترجمة، وتولى إدارة جريدة الروضة وهو في كل ذلك لا ينفك عن التأليف والترجمة إلى وفاته سنة ١٢٩٠هـ، وقد ملأ مصر بالمترجمين والأساتذة والمهندسين من تلاميذه أو المستفيدين من مؤلفاته، وهاك أهمها:

(أ) خلاصة الإبريز والديوان النفيس: هي رحلته إلى فرنسا، أمر محمد علي بطبعها وتفريقها على الدواوين.



رفاعة بك الطهطاوي.

(ب) التعريبات الشافية لمريد الجغرافيا، طُبِع مرارًا.

(جـ) جغرافية ملطبرن: مؤلَّف من عدة مجلدات، تبحث في الجغرافية تاريخيًّا، تُرجِم منه أربعة أجزاء طُبِعت في بولاق.

(د) قلائد المفاخر في غريب عوائد الأوائل والأواخر: ترجمه في باريس.

(هـ) المرشد الأمين في تربية البنات والبنين: للتعليم في مدارس البنات.

(و) التحفة المكتبية في النحو.

(ز) مواقع الأفلاك في أخبار تليماك، طُبِع في بيروت.

(ح) مباهج الألباب المصرية في مناهج الألباب العصرية: يبحث في آداب العصر والسياسة ومنافعه وعلومه، طُبِع بمصر.

(ط) مختصر معاهد التنصيص.

(ي) المذاهب الأربعة في الفقه.

(ك) شرح لامية العرب.

(ل) القانون المدني: عرَّبه مع آخرين.

(م) قانون التجارة: طُبِع سنة ١٢٨٥.

(ن) كتاب توفيق الجليل وتوثيق بني إسماعيل في تاريخ مصر.
(س) هندسة ساسير منقول عن الفرنساوية.
(ع) رسالة في الطب لم تُطبَع.
(ف) نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز.
(ص) له منظومات شعرية كثيرة.

ونبغ بعده ابنه علي باشا رفاعة، وكان أديبًا ارتقى إلى وكالة نظارة المعارف، وتوفي منذ بضع سنين، وله كتاب «رقم العلم في رسم القلم» في الخط، طُبِع سنة ١٢٨٦هـ.

(٢) بطرس البستاني اللبناني توفي سنة ١٨٨٣ / ١٣٠١هـ:



بطرس البستاني.

هو من أسرة البستاني الشهيرة في لبنان، نبغ منها طائفة من الأدباء والعلماء والأساقفة، وكان بطرس من أعظم أركان النهضة العلمية في سوريا، وُلِد سنة ١٨١٩ في الدبية بجوار دير القمر، وظهرت نجابته وهو يتلقى مبادئ العلم، فأنفذه المطران

عبد الله البستاني إلى مدرسة عين ورقة، قضى فيها عشر سنوات أتقن فيها اللغة والمنطق والتاريخ والحساب والجغرافية، واللغات السريانية واللاتينية والإيطالية، ومبادئ الفلسفة واللاهوت والقانون، وخرج من المدرسة وهو في العشرين من عمره، وأراد المطران إرساله إلى رومية للدخول في سلك الأكليروس، فلم تقبل والدته، فتعين معلمًا في عين ورقة، واضطربت أحوال سوريا في أثناء ذلك بسبب رغبة الدول في إخراج إبراهيم باشا من سوريا ونفي الأمير بشير، فنزل بطرس إلى بيروت، وكان قد تعلَّم الإنكليزية في ساعات الفراغ، والأميركان يومئذٍ قد أتوا بيروت للتبشير، فاستعانوا به في تعليم العربية وترجمة بعض الكتب، ومنهم الدكتور فانديك، فلما أراد هذا إنشاء مدرسة عبية استعان بالبستاني في إنشائها، وعلَّم فيها سنتين، ثم نزل بيروت وتعيَّن مترجمًا في قنصلية أميركا، وأعان عالي سميث ثم الدكتور فانديك في ترجمة التوراة، وعمد إلى إحياء آداب اللغة العربية، فأخذ في تأليف قاموسه محيط المحيط، وأنشأ مدرسة عالية سمَّاها المدرسة الوطنية أسسها على الحرية الدينية، فتخرج فيها طائفة من الأدباء، وفرغ سنة ١٨٦٩ من تأليف قاموسه في مجلدين كبيرين، وأنشأ مجلة الجنان ١٨٧٠، وجريدة الجنة والجنينة، ودائرة المعارف، وعونه في كل ذلك ابنه سليم المتقدم ذكره، وقد توقفت كلها الآن، وهاك أهمها:

(أ) دائرة المعارف: هو موسوعة في العلم والأدب والتاريخ، وسائر العلوم الطبيعية والرياضية والأدبية وغيرها، مرتَّبة على حروف المعجم — تعريب ما يسميه الإفرنج Encyclopaedia وهو عمل شاق لا تقوم بمثله إلا الجمعيات، لكن البستاني كان هُمَامًا، ونشطه إسماعيل باشا ماديًّا وأدبيًّا، فأصدر منها في حياته ستة مجلدات، وبدأ بالسابع، فأتم السابع والثامن بعده ابنه سليم، وتوفي قبل الشروع في التاسع، فأصدره أبناؤه الباقون وما بعده إلى الحادي عشر بمساعدة ابن عمهم سليمان البستاني ناظم الإلياذة، وهو ينتهي بمادة «عثمانية»، ثم توقف العمل.

(ب) محيط المحيط: المتقدم ذكره، وهو يمتاز عن سائر المعاجم بما أدخله فيه من المصطلحات العلمية، والألفاظ المولدة، وتفسير كثير من الألفاظ العامية السورية بما يقابلها في اللغة الفصحى، وقد رتَّبه حسب أوائل الكلم، وطبع له مختصرًا سمَّاه قطر المحيط.

(ج) كشف الحجاب في علم الحساب.

(د) مسك الدفاتر التجارية.

(هـ) مفتاح المصباح في الصرف والنحو.

(و) وترجم كثيرًا من الكتب الدينية، وله خطب عديدة كان يلقيها في الجمعيات والأندية، وكان في عصره زعيم الحركة الأدبية في سوريا من حيث المدارس والجمعيات والجرائد والمجلات واللغة والعلم والأدب.[١]

(٣) مخائيل مشاقة الدمشقي توفي سنة ١٨٨٨ / ١٣٠٦:



مخائيل مشاقة الدمشقي.

هو من أفراد القرن التاسع عشر، نبغ في معظم علوم عصره من تلقاء نفسه بالدرس والتنقيب، وكان قوي الحجة، دقيق البحث، وعاصر أهم حوادث سوريا ونكباتها وأصيب بكثير منها؛ لأنه تولى مناصب سياسية تقضي بذلك، فقد كان سنة ١٨٦٠ التي حدثت فيها الثورة ومذبحة الشام قنصل أميركا فيها، فشاهد ما تشيب لهوله الأطفال. ودرس الطب بنفسه واشتهر بهذه الصناعة، وكان مع ذلك بارعًا في الرياضيات والموسيقى والفقه والسياسة والأدب والدين، فقضى أيامه بين تحبير وتحرير، ومجادلة ومباحثة

وتأليف، لكن أكثر ما نشر من مؤلفاته جدلي، وفي جملتها البرهان على ضعف الإنسان تفنيدًا لتعليم فولتير، وطبعت له مجلة المشرق رسالةً في الصناعة الموسيقية فريدة في بابها، وكان قد دوَّن الحوادث التي شاهدها بنفسه من حوادث سنة ١٨٦٠، فنُشِرت بمصر باسم: مشهد العيان في أخبار جبل لبنان.

هوامش

(١) تفصيل ترجمته في مشاهير الشرق ٢٥ ج٢ (ط٢).

القضاء والإدارة في النهضة الأخيرة

ويدخل في ذلك الفقه والتفسير وسائر العلوم الشرعية، وينضم إليها ما يتعلق بالحكومة من الأعمال الإدارية، فالفقه ما زال في أوائل هذه النهضة كما كان قبلها، وإنما دخل فيه ما نُقِل إلى العربية من القوانين العثمانية والفرنساوية المدنية مما لم يكن قبلًا، على أثر إدخال نظام المحاكم الجديد، وما أَلَّفه أهل القضاء والمحامون في ذلك، وما صدر من المجلات القضائية وغير ذلك.

تاريخ القضاء العثماني أو المصري

للقضاء الإسلامي تاريخ طويل يقال بالإجمال إنه ظل قاصرًا على المحاكم الشرعية إلى أواسط القرن الماضي؛ إذ أصدر السلطان عبد المجيد فرمان الإصلاح بعد حرب القرم سنة ١٨٥٦، وفي جملة ذلك عَزْم الحكومة العثمانية على إنشاء محاكم نظامية مستقلة عن المحاكم الشرعية — وهو القضاء القانوني الحديث — وأخذت الدولة من ذلك الحين في وضع النظامات على النسق الأوربي، وإصدار اللوائح والنظامات المتعلقة بالحقوق المدنية والسياسية، ويجمع ذلك كله كتاب «الدستور»، وقد ترجمه إلى العربية نوفل نوفل المتقدم ذكره وهو مطبوع، وفي جملته النظام القضائي وقوانينه، وهو أقرب إلى القوانين الفرنساوية منه إلى غيرها، ومصر في ذلك تابعة للقضاء العثماني.

ثم صدرت القوانين النظامية العثمانية تباعًا من سنة ١٢٧٤هـ، ونُقِلت إلى العربية، أولها قانون الجزاء، فقانون التجارة البري والبحري، فنظام ترتيب المحاكم، وقانون المحاكمات الحقوقية، والمحاكمات الجزائية، وغير ذلك. أما القانون المدني المشابه للقانون الفرنساوي فلم تقدم الحكومة العثمانية عليه؛ لاعتقادها أن في الشرع الإسلامي ما يغني

عن ذلك، ثم رأت أن تستخرج من القضاء الشرعي أصولًا توافِق المواد المدنية من قوانين أوربا، فألَّفت لجنة علمية من أكابر رجال الدولة فوَّضت إليها استخراج أهم الأحكام الشرعية الموافقة للعصر الحاضر، فتألَّفت من ذلك «المجلة» صدرت سنة ١٢٩٣هـ، وعليها المعول في المعاملات المدنية الحديثة، وهي مؤلفة من ١٦ بابًا.

أما مصر فكانت تابعة للدولة العثمانية في كل ذلك، لكن محمد علي تعجل مجاراة المدنية الحديثة في بعض الأحوال.

وذكروا أنه أنشأ مجلسًا نظاميًّا سنة ١٢٣٧هـ للفصل في الدعاوى التجارية بين الوطنيين والأجانب، أحكامها الفرنساوية لا تخالف الشرع الإسلامي، وكان ذلك أساسًا للمحاكم المختلطة التي أنشأها إسماعيل بعد ذلك، على أنها تناولت فرمان الإصلاحات مثل سائر الولايات العثمانية في زمن سعيد باشا (سنة ١٢٧٢هـ)، وأنشأت مجالس نظامية عُرِفت بالمجالس المحلية أُلغِيت بعد ذلك.

وفي زمن إسماعيل صدر الفرمان المؤذن باستقلال مصر القضائي؛ لأنه فُوِّض إليه وضع القوانين والنظامات الداخلية سنة ١٢٩٠هـ، فأخذ إسماعيل في تنظيم دوائر الحكومة والمحاكم، ومجلس النظار ومجلس الشورى ومجلس النواب وغيرها، وتوالى التنظيم في زمن خلفائه ولا يزال، وعملت الحكومة على سَن القوانين النظامية في زمن إسماعيل، وكان أكثر تعويلها على القانون الفرنساوي، ووالت التعديل والتنقيح حتى بلغت ما هي عليه الآن.

المنقولات القضائية من اللغات الأجنبية

لما تكلمنا عن العلوم الدخيلة فيما تقدم من هذا الكتاب عددنا منها العلوم القضائية الجديدة، وأجَّلنا الكلام فيها إلى هنا — بدأ نقل هذه العلوم بواسطة مدرسة الألسن في أوائل زمن إسماعيل على يد رفاعة بك ورفاقه أو تلاميذه، وهم أول من نقل القوانين الحديثة عن الفرنساوية، وهي المعروفة بالكود الفرنساوي، طُبِعت بمصر سنة ١٨٦٦ / ١٢٨٣هـ في ثلاثة مجلدات، منها: القانون المدني نقله رفاعة بك، وعبد الله بك رئيس قلم الترجمة، وأحمد حلمي، وعبد الله أفندي، وقانون المحاكمات والمخاصمات نقله أبو السعود، وحسن فهمي من مترجمي نظارة الخارجية، وقانون الحدود والجنايات نقله محمد قدري باشا، وعرب رفاعة بك أيضًا قانون التجارة الفرنساوي، وطُبِع بمصر سنة ١٢٨٥هـ. هذا هو أساس المنقولات القضائية الجديدة، ثم نُقِلت بعض الكتب القانونية

العمومية، أهمها: أصول النواميس والشرائع لبنتام، نقله فتحي باشا زغلول، وحقوق الأمم للبارون طوقار، وحقوق الملل ومعاهدات الدول للأمير أمين أرسلان، صدر منه الجزء الرابع، وغير ذلك.

ولما أنشأت الحكومة المصرية المحاكم المختلطة سنة ١٨٧٥ ترجمت قوانينها إلى العربية، وطُبِعت بمصر سنة ١٨٧٦ / ١٢٩٣هـ، ولما أنشئت المحاكم الأهلية سنة ١٨٨٣ وضعت لها القوانين، واشتغل علماء القضاء والمحاماة في وضع الشروح القانونية، وهذه أهمها حسب سني صدورها، ثم نذكر القواميس القضائية:

(١) توضيح المشكلات في شرح قانون المرافعات، لأحمد باشا عفيفي.

(٢) شرح قانون التجارة، لعبد العزيز باشا كحيل ويوسف باشا وهبة، طبع سنة ١٨٨٥.

(٣) رسالة في قوة الأحكام المدنية، لعبد العزيز باشا كحيل سنة ١٨٨٩.

(٤) إثبات الحقوق المدنية وإثبات التخلص منها، لكحيل باشا.

(٥) شرح القانون المدني، ليوسف بك آصاف (١٨٩١).

(٦) طلبة الراغبين في بيان حقوق الدائنين، لعبد العزيز محمد ومحمد توفيق نسيم سنة ١٨٩٣.

(٧) شرح الأموال على القانون المدني، لمراد بك فرج سنة ١٨٩٣.

(٨) شرح باب إثبات الديون وإثبات التخلص منها، لعلي باشا ذو الفقار سنة ١٨٩٣.

(٩) الأقوال الجلية في اختصاص المحاكم الأهلية، وفيه تاريخ القضاء لإبراهيم الجمال سنة ١٨٩٤.

(١٠) رسالة في تزوير الأوراق، لفتحي باشا زغلول سنة ١٨٩٥.

(١١) الطعن في الأحكام بطريق النقض والإبرام، ترجمة عزيز بك خانكي سنة ١٩٠٠.

(١٢) دعاوى وضع اليد، لمراد بك فرج.

(١٣) المسئولية المدنية، لنجيب بك شقرا سنة ١٩٠٤.

(١٤) شرح قانون العقوبات الجديد، لفوزي بك المطيعي سنة ١٩٠٤.

(١٥) التعليقات القضائية على قوانين المحاكم الأهلية، لفيليب بك جلاد سنة ١٩٠٧.

(١٦) قضاء المحاكم في مسائل الأوقاف، لعزيز بك خانكي سنة ١٩٠٨.

(١٧) عقد البيع والإيجار، لمحمود رياض دياب سنة ١٩١٢.

(١٨) شرح القانون المدني، لفتحي باشا زغلول سنة ١٩١٣.

(١٩) إجراء التحقيق الجنائي، لعزيز حبشي سنة ١٩١٣.
(٢٠) تطبيق الإجراءات القانونية، لأحمد حسن.

وقِسْ على ذلك ما صدر من الشروح ونحوها في سوريا وسائر العالم العربي، غير الكتب التي سيأتي ذكرها في تراجم أصحابها، وغير الكتب الشرعية التي صدرت في هذه النهضة، أهمها كتاب الأحكام الشرعية في الأحوال الشخصية لقدري باشا، وشرحها للشيخ محمد زيد الأبياني، ومرشد الحيران لمعرفة أحوال الإنسان في أحكام المعاملات الشرعية لقدري باشا وغيرها.

ثم اشتغل بعض رجال القضاء بوضع المعجمات القضائية؛ لتسهيل الوصول إلى المواد اللازمة أو الأوامر العالية أو غيرها، أشهرها:

(١) **قاموس الإدارة والقضاء:** لفيليب بك جلاد، وهو يشتمل على كل قوانين الحكومة المصرية وغيرها، صدر في ٦ مجلدات كبيرة سنة ١٨٩٩.
(٢) **القضاء المصري الأهلي:** معجم للقواعد القانونية المأخوذة من أحكام المحاكم الأهلية لإبراهيم الجمال، صدر منه جزءان.
(٣) **قاموس القضاء العثماني:** لسليمان مصوبع، صدر منه حتى الآن خمسة أجزاء في بيروت.

مجلات قضائية

وصدرت بمصر وغيرها عدة مجلات قضائية، هاك أهمها حسب صدورها:

(١) الحقوق، لأمين شميل، صدرت بمصر سنة ١٨٨٦، وانتقلت سنة ١٨٩٧ إلى إبراهيم الجمال المحامي، ولا تزال تصدر.
(٢) مجلة الحقوق، لإلياس بك مطر في الأستانة، تعطلت.
(٣) مجلة الأحكام، لنقولا توما صدرت سنة ١٨٨٨، وتعطلت.
(٤) مجلة القضاء، للشراباتي سنة ١٨٩٤، تعطلت.
(٥) مجلة المحاكم، ليوسف بك آصاف، لا تزال تظهر.
(٦) مجلة الأحكام الشرعية، لحسن بك حمادة، لا تزال تصدر.
(٧) المجموعة الرسمية للمحاكم الأهلية، لا تزال تظهر.

(٨) الاستقلال، لنجيب بك شقرا، لا تزال تصدر.
(٩) مجلة الشرائع ومجلة المحاكم الأهلية في طنطا، صدرتا في هذا العام.

الإدارة ونظام الحكومة

ولما كانت الحكومة المصرية قد أنشئت في زمن العائلة الخديوية على نظام جديد، فيحسن بنا الإشارة إلى الكتب التي صدرت في هذا الموضوع، أهمها لوائح الحكومة وأوامرها، وألَّف بعضهم كتبًا لم تظهر إلا في العهد الأخير:

(١) قاموس الإدارة والقضاء، تقدم ذكره.
(٢) كتاب المحاماة، لفتحي باشا زغلول صدر سنة ١٩٠٠، وفيه كثير من نظامات الحكومة.
(٣) الأطيان والضرائب، لجرجس بك حنين، فيه كثير من تاريخ نظام الحكومة المصرية.
(٤) نظام الإدارة والقضاء، لأحمد بك قمحة سنة ١٩١٠.

رجال القضاء وغيره في النهضة الأخيرة

وهاك أشهر من نبغ من علماء القضاء والفقه والإدارة في أثناء هذه النهضة حسب سني الوفاة، ونلتفت خصوصًا إلى رجال القضاء على العموم.

(١) **إبراهيم الباجوري المصري توفي سنة ١٨٥٩ / ١٢٧٦هـ:** هو من طلبة العلم في الأزهر، ومال إلى اللغة والعلوم الشرعية، وانتهت إليه رئاسة الأزهر، وله كثير من المؤلفات والشروح والحواشي في الفقه والتوحيد واللغة، أكثرها مطبوع، أشهرها الحاشية المعروفة باسمه: فتح رب البرية.
(٢) **الشيخ محمد البيروتي توفي سنة ١٨٥٩ / ١٢٧٦هـ:** وُلِد في بيروت سنة ١٢٠٩هـ، وتفقه فيها وفي دمشق حتى نبغ في المعقول والمنقول، ولا سيما الكتاب والسنة، وابتعد عن المناصب، لكنه كان ثقة محترمًا، وخلف كتاب أسنى المطالب في الحديث، طُبِع في بيروت سنة ١٣١٩هـ، وفي صدره ترجمة الشيخ المذكور.

(٣) **محمد عليش المغربي المتوفى سنة ١٨٨١ / ١٢٩٩هـ:** أصله من المغرب، ووُلِد بمصر سنة ١٢١٧هـ، وتفقه في الأزهر على أئمته في كل علوم عصره، وتولى مشيخة المالكية، واشتغل بالتأليف في الفقه وفروعه وأحكامه، ذكر له صاحب الخطط التوفيقية عشرات من كتب بينها كثير من الحواشي اللغوية والأدبية، منها:

(أ) فتح العلما في الفتوى على مذهب مالك، طبع سنة ١٣٠٠ في مجلدين.
(ب) حل المعقود من نظم المقصود في الصرف، طُبِع بمصر سنة ١٢٨٢هـ.
(جـ) حاشية الشيخ عليش على الصبان في البيان، طُبِعت بمصر سنة ١٢٩٩.[١]

(٤) **قدري باشا المصري توفي سنة ١٨٨٥ / ١٣٠٣هـ:** هو من كبار رجال الحكومة المصرية، وتقلب في كثير من مناصبها، وكان واسع الاطلاع على المواد القانونية والشرعية، فعهدت إليه الحكومة كثيرًا من المهام المتعلقة بنقل القوانين أو وضعها أو شرحها، وهاك أهم آثاره:

(أ) قانون الجنايات والحدود: ترجمه عن الفرنساوية، تقدَّم ذكره.
(ب) الأحكام الشرعية في الأحوال الشخصية: تقدم ذكره.
(جـ) مرشد الحيران إلى معرفة أحوال الإنسان في الأحكام الشرعية على مذهب أبي حنيفة، طبع سنة ١٣٠٨هـ.
(د) قانون العدل والإنصاف للقضاء على مشكلات الأوقاف: طُبِع مرارًا.
(هـ) رسالة في الصرف منها نسخة في المكتبة الخديوية.

(٥) **الشيخ محي الدين اليافي الدمشقي توفي سنة ١٨٨٦ / ١٣٠٤هـ:** وُلِد في دمشق سنة ١٨٠٣ / ١٢١٨هـ، وتلقى العلم على مشايخها وعلمائها، وتوسع في الفقه الحنفي، ونزل بيروت سنة ١٨٤٣هـ، وتوطنها وتولى التعليم فيها ثم تولى منصب الإفتاء، وكان ثقة، وله مؤلفات لم تظهر.

(٦) **محمود حمزة الحسيني الدمشقي توفي سنة ١٨٨٧ / ١٣٠٥هـ:** هو من أعلام دمشق العظماء، تفقه على علماء دمشق، واشتهر بالعلوم الشرعية، فوجهت إليه النيابات الشرعية، وسافر إلى الأستانة والأناضول، وتولى إفتاء سوريا إلى آخر أيامه، واشتهر في

بلده بالاعتدال، ولما جرت حادثة دمشق سنة ١٨٦٠ حمى كثيرين من المسيحيين من الذبح، فعرفت الدول له ذلك، فأهداه نابليون الثالث هدية نفيسة، وهاك أهم مؤلفاته:

(أ) تفسير القرآن بالحرف المهمل في مجلدين كبيرين، سمَّاه درر الأسرار.
(ب) الفتاوى نظمًا في مجلد.
(ج) الفتاوى المحمودية أو الحمزاوية في مجلدين.

وله نحو ثلاثين مؤلفًا في الفقه والحديث والفتوى والأدب، أكثرها لم يُطبَع.

(٧) **الشيخ يوسف الأسير البيروتي توفي سنة ١٨٨٩/١٣٠٧هـ:** هو من أعلام القرن الماضي في سوريا، تعلم في الأزهر بمصر، وتقلَّب في مناصب الإفتاء والشرع في سوريا، وعلَّم في أشهر مدارسها اللغة والفقه، وله كتاب الفرائض طُبِع في بيروت، وشرح أطواق الذهب للزمخشري.

(٨) **الشيخ عبد الغني الرافعي الطرابلسي توفي سنة ١٨٩١/ ١٣٠٩هـ:** هو فقيه طرابلس الشام، وُلِد فيها سنة ١٨٢٠/ ١٢٣٦هـ، وتفقه على علمائها في ذلك العصر، وكان نابغة في الذكاء، ثم رحل إلى مصر وأخذ عن الشيخ الباجوري، ورحل إلى مكة تلقى الأصول على مفتيها، وذهب إلى الأستانة ثم عاد إلى وطنه، وأخذ في نشر العلم، وتقلب في المناصب إلى منصب الإفتاء، فرئاسة محكمة الجزاء في عكا، وتعين بعد ذلك رئيسًا لمحكمة الحقوق في صنعاء اليمن، ثم عاد إلى وطنه، وكان عالمًا في الفقه والأصول، وفي الأدب والتصوف، وله مؤلفات في البديع، وفي الأخلاق والتصوف، وتعاليق وحواشٍ بعضها مطبوع بمصر.

(٩) **محمد العباسي المهدي المصري توفي سنة ١٨٩٧ / ١٣١٥هـ:** له الفتاوى المهدية، طُبِعت بمصر في ٧ أجزاء سنة ١٣٠١هـ، وغيرها.

(١٠) **أمين الشميل اللبناني توفي سنة ١٨٩٧ / ١٣١٥هـ:** هو من آل شميل المشهورين بالذكاء والعلم، شقيق الدكتور شبلي شميل، وُلِد في كفر شيما بلبنان، وتفقَّه على المرسلين الأميركان، وتعلَّم الفقه على اليافي في بيروت، وسافر إلى إنكلترا تعاطى فيها التجارة في ليفربول مع أخيه ملحم واتسعت معاملاته، ثم قضت عليه أسعار الأقطان، فجاء أمين على مصر سنة ١٨٧٥، وتعاطى التجارة فلم يجد نجاحًا، فعمد إلى المحاماة واشتهر

بها، وأصدر مجلة الحقوق سنة ١٨٨٦، وهي أول جريدة حقوقية في اللغة العربية تقدم ذكرها، وكان أديبًا كاتبًا شاعرًا، فألَّف عدة مؤلفات في القضاء والتاريخ والأدب، أشهرها:

(أ) الوافي في المسألة الشرقية في التاريخ: صدر منه جزء كبير ولم يتم.
(ب) المبتكر في الأدب: يشتمل على خمس مقامات، دعاها مقامات الأوهام في الآمال، و٢٥ قصيدة شرح فيها درجات حياة الإنسان السبع من حين تصوره في الرحم إلى موته.
(ج) نظام الحكومة الإنكليزية.
(د) الدرة الجلية في المباحث القضائية. غير مجلة الحقوق.

(١١) **نقولا توما توفي سنة ١٩٠٥:** نشأ في سوريا، وجاء القطر المصري سنة ١٨٧٤ فتوظف حينًا، ثم مال إلى الكتابة فحرر في جريدة مرآة الشرق، ورحل إلى أوربا، وعاد إلى مصر، وتعاطى المحاماة، واشتهر بالفصاحة وصحة العبارة، وأنشأ مجلة الأحكام، وحالت أشغاله دون استمرار إصدارها.
(١٢) **عمر بك لطفي توفي سنة ١٩١٣:** أصله من أسرة مغربية، ووُلِد في الإسكندرية سنة ١٨٦٧ وتعلم هناك، ثم جاء القاهرة وتعلم الحقوق، وتقلب في مناصب الحكومة حتى صار وكيلًا لمدرسة الحقوق الخديوية، وهو يفكر ويعمل ويؤلف في مواضيع مختلفة، منها أنه أنشأ نادي المدارس العليا، وكثيرًا من النقابات الزراعية وغيرها، أما مؤلفاته فهي:

(أ) الدعوى الجنائية في الشريعة الإسلامية: في اللغة الفرنساوية؛ لأنه أراد أن يفهم الإفرنج فحواه، وكان له وقع حسن عندهم.
(ب) حرمة المساكن: في الفرنساوية أيضًا، أراد أن يفهم الإفرنج أن حرمة انتهاك المساكن ليست من مخترعات الشرائع الحديثة.
(ج) حق المرأة: في الفرنساوية.
(د) حق الدفاع: في الفرنساوية.
(هـ) الامتيازات الأجنبية: في اللغة العربية، وهو أول كتاب في هذا الموضوع.
(و) الوجيز في شرح القانون الجنائي.
(ز) إنشاء شركات التعاون: آخِر ما كتبه في هذا الموضوع.[٢]

(١٣) **فتحي باشا زغلول المصري توفي سنة ١٩١٤/١٣٣٢هـ:** وُلِد بمصر سنة ١٨٦٣، وتفقه في مدارسها، وتخصص لدرس الحقوق، وانتظم في سلك القضاء، وارتقى فيه من مساعد بقلم قضايا الداخلية إلى وكيل نظارة الحقانية، وكان عاملًا نشيطًا في التأليف، فخلف آثارًا هامة في القضاء وغيره، وأهم مؤلفاته القضائية:

(أ) شرح القانون المدني: وكان له وقع عظيم عند زملائه، حتى قرروا الاحتفال بتكريمه لأجله ولأجل مؤلفاته الأخرى، طُبِع بمصر سنة ١٩١٤.

(ب) كتاب المحاماة: وصف فيه هذا الفن من أول ظهوره إلى الآن، وخصوصًا في مصر.

(جـ) أصول الشرائع لبنتام: تقدم ذكره.

وله مؤلفات وترجمات اجتماعية وتهذيبية، سيأتي ذكرها في بابها.

هوامش

(١) ترجمته في الخطط التوفيقية ٤١ ج١.

(٢) ترجمته في الهلال ٣٢٣ سنة ٢٠.

العلوم الاقتصادية في النهضة الأخيرة

عددنا هذه العلوم من الفنون الدخيلة على اللغة العربية في هذا العصر؛ لأننا نقلناها عنهم من جملة ما نقلناه من أسباب هذه المدنية، ليس لأن اللغة العربية كانت خلوًّا منها، فقد رأيتَ في تضاعيف الجزء الثالث من هذا الكتاب أن العرب كان عندهم منها شيء كثير، لكن على أسلوب آخر — وفي مقدمة ابن خلدون أمثلة من أكثر هذه العلوم.

لكن ما نقلناه من هذه العلوم أخذناه كما وضعه الإفرنج، وهم قد بوَّبوه ورتَّبوه، وتوسعوا فيه ومحصوه، ولم نقدم على نقل هذه العلوم إلا بعد أن نضج ما نقلناه من العلوم الطبيعية والرياضية والقضائية؛ لأن هذه العلوم كانت تمس حاجاتنا المادية، وكنا ننظر إلى العلوم الاجتماعية والاقتصادية نظرنا إلى العلوم الكمالية، ثم رأيناها ضرورية لرقي هيئتنا الاجتماعية ومصالحنا الاقتصادية، فعمدنا إلى نقلها أو تلخيصها.

بدأ أدباء هذه النهضة ينقلون هذه العلوم تلخيصًا في الجرائد والمجلات، ثم أخذوا في نقلها أو تأليفها في كتب مستقلة، ولا نزال في أول هذه الحركة، وأكثر ما نُقِل يختص بالاقتصاد السياسي، وهو ما كان يسميه العرب «علم المعاش»، لكن النقلة جاروا الإفرنج في التسمية، فعرَّبوها عن اسمه عندهم Economie Politique فقالوا الاقتصاد السياسي، ولكن التسمية العربية أقرب إلى الحقيقة.

ثم أخذوا ينقلون العلوم الاجتماعية الأخرى، وبدءوا بنشر ذلك في المجلات والجرائد، ثم أخذوا ينقلونها في الكتب ترجمة أو تلخيصًا، ويندر من وضع في ذلك تأليفًا من عند نفسه بناه على درسه وملاحظاته، فنتقدم للكلام في تاريخ نقل هذه العلوم، وأهم ما نُقِل منها.

الاقتصاد السياسي

أقدم ما بلغنا خبره من الكتب التي صدرت في هذا الموضوع بالعربية كتاب الاقتصاد السياسي، أو فن تدبير المنزل لخليل غانم، طُبِع في الإسكندرية سنة ١٨٧٩، وهو مقالات كانت قد نُشِرت في جريدة مصر، وطُبِعت على حدة، ثم ظهر كتاب «أصول الاقتصاد السياسي» لرفلة جرجس، طُبِع بمصر سنة ١٨٨٩، اقتطفه من كتب إفرنجية، وبسط عبارته وسهل مأخذه، ثم ظهر كتاب «الاقتصاد السياسي» لجيفونس معرَّبًا على يد جمعية التعريب المتقدم ذكرها سنة ١٨٩٥، وتكاثر اشتغال الكُتَّاب في نقل هذا الموضوع في أوائل هذا القرن، فظهرت عدة كتب هامة أشهرها:

مبادئ الاقتصاد السياسي، تأليف محمد حسين فهمي وكيل النيابة العمومية، صدر منه جزآن.

الموجز في علم الاقتصاد، لبول لروا بوليه، نقلها إلى العربية حافظ إبراهيم، وخليل مطران في خمسة أجزاء بأمر حشمت باشا ناظر المعارف السابق سنة ١٩١٣.

حياة البلاد في علم الاقتصاد، لرفيق رزق سلوم، طُبِع في حمص سنة ١٩١٢.

علم الاجتماع وما يتعلق به

علم الاجتماع واسع وله فروع كثيرة، ونريد به هنا ما يتعلق بنظام الهيئة الاجتماعية من الأبحاث الأدبية والإدارية ونحوها، ولا تزال المنقولات في هذا الفن إلى العربية قليلة، أهمها: كتاب روح الاجتماع، وكتاب تطور الأمم لغستاف لابون، وسر تقدم الإنكليز لدمولان، نقلها فتحي باشا زغلول، وكتاب نشوء الاجتماع لبنيامين كد، نقله محمد زكي صالح، طُبِع سنة ١٩١٣، وكتاب الواجب نقله الدكتور طه حسين، ومحمد رمضان.

لكن هذا العلم وملحقاته ظهرت ثمارها في أذهان أدباء العرب قبل نقلها إلى العربية، نعني أن المتخرجين منهم في العلوم العامية بأوربا، والذين رحلوا إلى أوربا وشاهدوا ثمار مدنيتها، وأرادوا تطبيقها على أحوال بلادهم، فقامت في نفوسهم ثورة إصلاحية في الاجتماع والسياسة وغيرهما، فنبغ من هؤلاء جماعة نهضوا يلتمسون إصلاح نظامنا الاجتماعي أو السياسي بالوعظ أو الكتابة أو التحريض أو غير ذلك، هاك أشهرها حسب سني الوفاة:

(١) **جمال الدين الأفغاني توفي سنة ١٨٩٧:** هو إمام هذه الحركة الاجتماعية في الشرق، بدأ عمله في أفغانستان وبلاد فارس، ثم نزل وادي النيل في زمن إسماعيل، فالتف حوله الأدباء والكتَّاب يأخذون عنه ويقتدون به؛ فذاعت شهرته، ونبغ من تلاميذه طبقة من الأحرار أهل الجرأة في السياسة والأدب والإصلاح، فثارت الأفكار، وكان ذلك مما ساعد على إضرام الثورة العرابية، فأُبْعِد إلى كلكتة، وبقي فيها حتى انقضت الثورة، فأُطلِق سراحه، فسافر إلى أوربا، ونزل باريس وأنشأ فيها «العروة الوثقى» يحررها مع صديقه الشيخ محمد عبده — لم يطل ظهورها — وتقلبت عليه أحوال شتى انتهى أخيرًا إلى الأستانة بجوار عبد الحميد، وكان يجله ويهابه، وبقي فيها حتى مات سنة ١٨٩٧.

لم يخلف كتبًا تستحق الذكر، لكنه خلف روحًا جديدة في نفوس الشرقيين، وكان غرضه السياسي توحيد كلمة المسلمين، وجمع شتاتهم في حوزة دولة واحدة، فلم يُوفَّق إلى ذلك، لكنه وُفِّق إلى تحريك الهمم واستحثاث الخواطر إلى السعي في هذا السبيل.[١] وخلف كتاب تاريخ الأفغان، وكتاب انتقاد الفلاسفة الطبيعيين، طُبِعَا بمصر غير مرة.

(٢) **عبد الرحمن الكواكبي الحلبي توفي سنة ١٩٠٢ / ١٣٢٠هـ:** آل الكواكبي أسرة قديمة في حلب، ولهم آثار مشهورة، نشأ عبد الرحمن على حبه العلم، وفيه ميل إلى السياسة، فحرَّر مدة في جريدة الفرات الرسمية، وأنشأ جريدة سمَّاها الشهباء، وتقلَّب في مناصب الحكومة، فرأى ما فيها من الاعوجاج، فانتقدها فاضطهدته، ففر إلى مصر وساح في زنجبار والحبشة، وفي أواسط جزيرة العرب، فالهند وغيرها، ثم عاد إلى مصر واستقر فيها، وأخذ في نشر مؤلفاته، وكلها ترمي إلى الإصلاح الاجتماعي السياسي، ظهر منها:

(أ) كتاب طبائع الاستبداد: وهو فريد في بابه، طُبِع بمصر.

(ب) كتاب أم القرى: بسط فيه رأيه في إصلاح الإسلام، وجمع كلمة المسلمين، طُبِع بمصر.[٢]

(٣) **خليل غانم البيروتي توفي سنة ١٩٠٣ / ١٣٢١هـ:** هو من الأدباء، وقد تمكَّن على الخصوص من اللغة الفرنساوية، وكان يكتب أو ينظم كأنه من أبنائها، وكان حر الشيم جريئًا، وفيه ميل إلى السياسة، فتقلَّب في مناصب السياسة في بيروت والأستانة، ولما أعلن عبد الحميد الدستور سنة ١٨٧٧ انتُخِب خليل غانم من نوَّاب سوريا في مجلس «المبعوثان»، ولم يطل عمر هذا المجلس، فغضب خليل من أحوال الدولة، فسافر إلى باريس وطفق يكتب في طلب الإصلاح السياسي، وثبت في خطته وهو يكتب ويخطب في طلب الدستور، فمات قبل إعلانه، وقد تقدَّم أنه أول من ألَّف في الاقتصاد السياسي.[٣]

(٤) **محمد عبده توفي سنة ١٩٠٥ / ١٣٢٣هـ:** هو صاحب طريقة في الإصلاح الديني تُعرَف به وتُنسَب إليه، وله أتباع ومريدون من خيرة الأدباء المفكرين، وُلِد سنة ١٢٥٨هـ في قرية بمصر، وتعلَّم بمدارس القرى، ثم انتقل إلى الأزهر وتفقه بعلومه، وكان من فطرته ميَّالًا إلى التفكير وإعمال الفكرة، فلما جاء جمال الدين الأفغاني إلى مصر لازمه، وأخذ عنه الفلسفة والمنطق، فتنبهت فيه حرية الفكر والقول، وكان في جملة الناهضين في الحركة الوطنية على عهد عرابي، ولما انفَضَّتِ الحركة واحتل الإنكليز مصر، حُكِم عليه

بالنفي، فأقام في سوريا مدة، ثم سافر إلى باريس حيث التقى بالأفغاني، وعاد أخيرًا إلى مصر بعد صدور العفو عنه، ورجع إلى المناصب فتولى الإفتاء، وما زال فيه حتى مات.

وله خطة في الإصلاح دينية اجتماعية مشهورة ليس هنا محل الإفاضة فيها، وإنما يقال على الإجمال إنه كان غرضه التوفيق بين الإسلام والعلوم الحديثة في التفسير والفتاوى وغيرها.[٤] وقد لاقى عذابًا في نشر أفكاره، لكنه خلف طائفة من المريدين أخذوا بأقواله، وعملوا على إشاعتها في مصر والشام وسائر العالم الإسلامي.

(٥) **قاسم أمين توفي سنة ١٩٠٨/١٣٢٦هـ:** هو زعيم القائلين بإصلاح المرأة المسلمة، وإن لم يكن أول من قال ذلك، كان أبوه كرديًّا نزل مصر على عهد إسماعيل، وانتظم في الجيش المصري، وارتقى إلى رتبة ميرالاي، وُلِد له قاسم بمصر، وتفقَّه في مدارسها كجاري العادة، وتعلَّم الحقوق، وتولى من مناصب القضاء إلى استشارة الاستئناف، وكان كثير التفكير في أمر المرأة المسلمة وإصلاحها، ورأى حوله كثيرين يقولون قوله، لكنهم لا يجرءون على مصادرة الرأي العام، فتقدَّم هو ونشر كتابًا سمَّاه «تحرير المرأة»، كان لظهوره تأثير شديد، وانقسمت الأمة قسمين معه وعليه، وأفاضت الصحافة في ذلك مدة، ثم أصدر كتابًا آخر في الدفاع عن رأيه اسمه «المرأة الجديدة»، وإذا تحررت المرأة المسلمة فلقاسم أمين الفضل الأكبر في ذلك.

(٦) **مصطفى كامل المصري توفي سنة ١٩٠٨:** هو من رجال الإصلاح الاجتماعي من الوجهة السياسية، ومن أكثر المصريين عملًا في إحياء الروح الوطنية المصرية، وكانت هذه الروح شائعة قبله، لكنه أيَّدها بإنشاء حزب رسمي يتكاتف ويتعاضد في مصلحة مصر، وقلَّده القوم فأنشئوا أحزابًا سياسية أخرى، وكان أعلى الوطنيين صوتًا في طلب الجلاء عن مصر، وقد أشرنا إلى ذلك في كلامنا عن تاريخ الصحافة في عهد الاحتلال.

وُلِد بمصر سنة ١٨٧٤، وتفقَّه مثل سائر الشبان المصريين، لكنه جاهد جهادًا شديدًا أنهك قواه حتى توفي سنة ١٩٠٨ وهو في مقتبل العمر.[٥] وخلف من المؤلفات مقالاته في اللواء وغيره، جُمِع أهمها في كتاب اسمه تاريخ مصطفى كامل، وله كتاب المسألة الشرقية، وكتاب الشمس المشرقة عن اليابان وأحوالهم.

ومن الكتب الاجتماعية ونحوها مما أَلَّفه أو عرَّبه المعاصرون:

- كتاب الأمير لمكيفالي: تعريب محمد لطفي جمعة.
- الأخلاق لسميلز: تعريب محمد الصادق حسين.
- حاضر المصريين أو سر تأخرهم، لمحمد عمر.
- سر النجاح: تعريب الدكتور صروف.

هوامش

(١) تجد تفصيل ترجمته في مشاهير الشرق ٥٥ ج١ (ط٢).
(٢) تفصيل ترجمته في تراجم مشاهير الشرق ٣٥٠ ج١ (طبعة ٢).
(٣) ترجمته في الهلال ٦٥ سنة ١٢.
(٤) تفصيل ترجمته في تراجم مشاهير الشرق صفحة ٣٠٠ ج١ (طبعة ثانية).
(٥) ترجمته في مشاهير الشرق ٣١٠ ج١ (طبعة ثانية).


هنداوي